لعبة الغالب والمغلوب
بين العرب.. وإيران.. والغرب

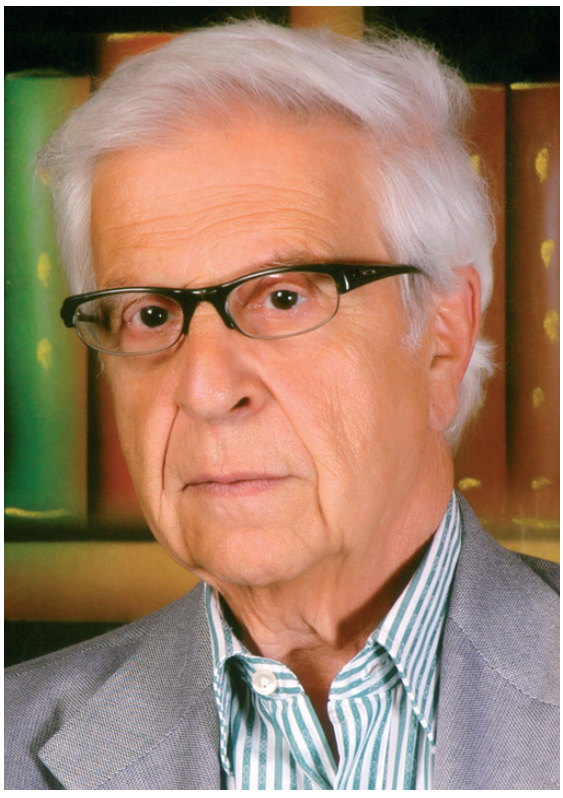
لعبة الغالب والمغلوب
بين العرب.. وإيران.. والغرب

مقالات فؤاد مطر

في الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

صحيفة العرب الدولية – الأُولى

المجلد الأول: (1994-2000)



رصيد القلم في نصف قرن

كانت فكرة جمع مقالاتي في صحيفة "الشرق الأوسط" بدأت قبل تسع عشرة سنة. وللفكرة دواعيها. فقد إتصل بي بعض الأصدقاء الدبلوماسيين ومنهم سفير لبنان لدى مصر حليم أبو عزالدين والسفير العريق لدى إيطاليا بعد مصر محمد صبرا وسفير لبنان الياس ربابي لدى هولندا وسفير العراق لدى الولايات المتحدة نزار حمدون وسفير لبنان لدى بريطانيا جهاد مرتضى وسفير لبنان لدى السودان منير تقي الدين. ومما قاله الدبلوماسيون الأصدقاء إنهم يرون جمْع مقالاتي في كتاب وهذا ييسر لهم أمر الإطلاع عليها وذلك على أساس أنهم أحياناً يحصلون على نُسخ من الصحيفة وفي غالب الأحيان يفوتهم ذلك.

وفي معرض الحديث ذكّرني الأصدقاء بتغطياتي في صحيفة "النهار" للأحداث الجسام التي طالما حدثت في الستينات والسبعينات في عدد من الدول العربية، وكيف أن هذه التغطيات زادتهم إطاحة بكثير من الألغاز والقضايا السياسية في هذه الدول وبالذات مصر والسودان والعراق وليبيا، وأنهم يرون لو أن هذه التغطيات تُجمع في كتب وبذلك تستفيد منها أجيال جديدة من الذين إختاروا العمل الدبلوماسي، مع لفت إنتباهي إلى أن مثل هذا الأسلوب في إستعادة بعض ما سبق نشره مألوف في دول الغرب عموماً.

في معرض الحديث أيضاً كان إقتراح الأصدقاء أن يعاد نشْر ما هم يشيرون من حيث التذكير به.

من الطبيعي أن يلقى هذا الإنطباع حول ما كتبتُ من مقالات وكذلك حول التغطيات الصحافية الميدانية الرضى في النفس.

ومن هنا جاءت فكرة جمع مقالات "الشرق الأوسط" في كتيِّب، ثم يتبين أن هذه المقالات متناثرة بمعنى أن بعضُها قيد الحفظ من جانبي وبعضها لم تُحفظ.

ثم إستقر الرأي على إعتبار المحاولة غير المكتملة مقدمة للعمل الشامل، أي الأمر الذي تطلَّب جهداً إلكترونياً من جانب مساعدتي الآنسة منى مطر التي دورها ملحوظ في التحضير ثم في التبويب والتنسيق والتأكد من أن المقالات من العام 1994 وحتى العام 2024 في الطريق لإصدارها في خمسة مجلدات تُراوح صفحات المجلد الواحد من 500 إلى 650.

لكن المحاولة غير المكتملة وهي عبارة عن جمع المقالات المتناثرة في كتيِّبات ثلاث وتحت تسمية "**موطىء قلم في الشرق الأوسط**" كانت المحفز للعمل الأكمل، ذلك أن "الدار العربية للعلوم" ناشرة الكتيِّبات ومعظم مؤلفاتي لاحظت في معارض الكتاب المشاركة فيها في الدول العربية وبريطانيا إهتماماً لم تتوقعه من زوار إلى المعرض بالكتيِّبات.

تبقى الإشارة إلى أن الكتاب الأول الحامل عنوان "**موطىء قلم في الشرق الأوسط**" وتعالج

مقالات هذا الكتيّب "**سنوات التنافر والتباغض من المحيط إلى الخليج**" له مكانة وجدانية في نفسي، حيث أن صدوره جاء خير مناسبة لكي يكون هذا العمل كإهداء هو للصديق الغائب الحاضر الأمير أحمد بن سلمان بن عبدالعزيز الذي جاء إنتسابي إلى "الشرق الأوسط" خلال لقاء معه في مكتبه بدأ بإستيضاح حول ظروف الإنهاء القسري لتجربة مجلة "التضامن" التي أصدرتُها السبت 23 أبريل/ نيسان عام 1983 في لندن وأخذت مكاناً لها في مشهد الإعلام "البان اراب" وجاءت محنة الغزوة الصدّامية للكويت وتأثيرها إلى جانب إرتباك ظروف النشر تجعلني أختار إسدال الستارة على تجربة أعتز بها ويشاركني التقدير لها الكثير من متابعي الدور الذي حققتْه "التضامن" التي رسالتها من إسمها ومن شعارها "**مجلة العرب من المحيط إلى الخليج**". وقبْل أن أودِّع الأمير أحمد شاكراً حُسن إستقباله قال لي: موعدنا معك بعد الآن في "الشرق الأوسط" فيها مكانك وعلى صفحاتها مقالاتك.

وأما الإهداء فكان على النحو الآتي كما الصفحة الأولى من الكتيِّب:



إلى روح

الأمير أحمد بن سلمان بن عبد العزيز

الذي رحل يوم الإثنين 22 يوليو (تموز) 2002

في مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث في الرياض

عن 43 سنة وهو في قمة العطاء والتألق وذروة الحيوية

والتجديد.. وبعدما كان أرسى في مجال الإهتمام الإعلامي

العربي – الدولي تقاليد في منتهى الرقي وغير مسبوقة.

فؤاد مطر

كما أن الزميل بكر عويضة الذي كانت مقالاتي ومقالات سائر كتاب صفحات "الرأي" في "الشرق الأوسط" موضع عراقة مهنية ودقة إشرافه كمدير للتحرير في الصحيفة، كتب للكتيِّب الأول وبما يضفي المزيد من الإضاءة على الفكرة التقديم الآتي:

"موطئ قلم في الشرق الأوسط". إختيار لافت ومتميز، من الصحافي والكاتب المتميز فؤاد مطر، لعنوان ثلاثية ليست هي الأُولى للكاتب، ولكنها بالتأكيد ستحظى بمكانتها الخاصة بين ما صدر له من كتب عدة وكثيرة التميز. تضم الثلاثية مقالات نشرتْها له الصحيفة العربية الدولية، التي يشير إليها العنوان. وفيما يتضمن الجزء الأول، الذي بين أيدينا، مقالات نُشرت في "الشرق الأوسط" في الفترة ما بين أيار (مايو) 1994 وأيار 1999 فإن الجزء الثاني سيضم بين دفتيه مقالات نُشرت بين العام 2000 والعام 2002 ، أما الجزء الثالث فسيُخصص لمقالات

ما بين العام 2002 والتوقيت الذي يقرره كاتبنا المتميز وإن كان لخيار لا ندري مقتضياته أشار إلى أن هذا التوقيت ينتهي بنهاية العام 2005.

يجدر بي أن أسارع هنا إلى البوح بالتهيُّب شعرتُ به لحظة وافقتُ على إقتراح الأستاذ مطر أن أكتب هذه المقدمة، ثم ما لبث التهيُّب أن ضمّ إليه التخوف من ثقل المهمة. حقاً، أن تُقدِّم كتاباً لكاتب من طراز فؤاد مطر، وفي عمق تجربته وتَعدد آفاقها، ليس بالأمر الهيّن. وافقتُ بعد تردد طويل. وكدت، بعدما وافقتُ، أن أعتذر غير مرة لولا هيبة الإحساس الثقيل بمسؤولية "من وعد أوفى". لا أدري، أصبتُ في القبول أم أخفقْت. لنقل إنني إجتهدتُ ومن نصيب المجتهد يكفيني الصفح عن أي وجه من أوجه التقصير في ما سيلي هذه الأسطر.

* * *

لهذه المقدمة محوران:

الأول: المؤلف والكتاب

الثاني: فؤاد مطر عن قُرب

في المحور الأول، بداية، لا بد من القول إن الإختيار اللافت لعنوان الثلاثية لا يمنع من المسارعة إلى التذكير بحقيقة لا تغيب عن ذاكرة المهتم والمتابع ليس فقط لقلم فؤاد مطر وإهتماماته، وإنما المتابع بإهتمام لمسيرة الصحافة العربية منذ أوائل ستينات القرن الماضي وإلى يومنا هذا. خلاصة تلك الحقيقة هي أن فؤاد مطر حرص دائماً على موطئ قلم في ساحات القضايا والهموم العربية باختلاف مواقعها. وليس مبالغة القول إن فؤاد مطر لم يدعْ قضية عربية شغلت العرب، فإهتموا بها، حكاماً ومحكومين، تعتب على قلمه أنه غاب عنها أو لم يهتم بها الإهتمام الكافي.

ليس هذا فقط، فثمة قضايا عربية، وشخصيات ذات وزن وتأثير، ومِن ضِمنها بعض الحكام، لا يكفي القول إن قلم فؤاد مطر إهتم بها في عمله الصحافي، خبراً وحواراً وتحقيقاً ومقالة، بل لا بد من القول إن إهتمامه بها ودقة متابعته لها جعلا منه مرجعاً موثوقاً في شؤونها، فهي إذا ذُكرت ذُكر إسم فؤاد مطر، وإذا عُرضت مواقف فكرية وتحليلية تجاهها، تَردد سؤال: وماذا كان آخر ما كتب فؤاد مطر عنها؟

أكثر من ذلك، ثمة قضايا عربية ليس فقط يُحسب لـ قلم فؤاد مطر أنه أعطاها من الإهتمام والمتابعة ما تستحق، أو أكثر، بل يُسجَّل له أنه كان أول، أو – للدقة التي يحرص عليها الأستاذ مطر نفسه ويوصي بها – من أوائل مَنْ إقتحموا ميدانها وقدَّموها للعرب البعيدين عنها موقعاً وإهتماماً.

مثال معاصر على ذلك؟

نعم. ها نحن نشهد، منذ بضعة أسابيع، محاولة أُخرى (ونرجو أن تكون الأخيرة التي يُكتب لها النجاح والإستقرار والإثمار) لتحقيق سلام السودان مع نفسه. هذا بلد عربي ليس فقط شغلت قضاياه فؤاد مطر، بل كان لقلمه سبق الإهتمام به وتقديمه صحافياً للعرب منذ أوائل الستينات. وإذا كان سلام السودان هو في تَصالح شماله مع جنوبه، فإن تحقيقات فؤاد مطر عن جنوب السودان كان لها السباق في الصحافة العربية.

أكثر من ذلك، لقد تجاوز الإهتمام ببعض قضايا العرب وهمومهم موطئ القلم ليدخل فؤاد مطر – من موقعه الصحافي – دائرة الفعل والمبادرة تجاه المؤثِّرين في القضية والمتأثرين بها، سلباً وإيجاباً، فهو حاور المتخاصمين المتباعدين، في غير قضية، ثم كتب عنهم، نقل وجهات نظرهم، ثم جمع أحياناً بينهم. ومرة أخرى، تصلُح القضية السودانية هنا مثالاً حيوياً، إذ بدا أحياناً أن الأستاذ مطر بات طرفاً في المسألة السودانية، حتى إن البعض راح يُدرِج إسمه في قائمة المنتصرين أو الخاسرين في جولاتها ومعاركها. لكن الواقع لم يكن كذلك. إنما يُحسب لـ فؤاد مطر أن رُقي علاقاته الإنسانية مع مختلف الفرقاء مضافاً إليه حساسيته المفرطة تجاه دقة وموضوعية ومصداقية ما يكتب أو ينقل، أكسبتْه درجة راقية من الثقة قلَّما توافرت لكتَّاب وصحافيين إستولى عليهم الإنشغال بقضية ما إلى درجة التفاعل مع أطرافها وإتخاذ المبادرات تجاههم وتجاهها.

بالطبع، لم تسلَم الجرة في كل مرة، بمعنى أن فؤاد مطر لم يخرج من كل مبادرة أقدم عليها بلا خدوش. مستحيل أن يحدُث هذا، خصوصاً في العالم العربي، حيث ما أكثر الغضب وأسرعه بين معظم ساسته، لأتفه الأسباب أحياناً، وما أقلَّ الحلم وأبطأه بينهم، ولو لأجل أخطر الدواعي، في معظم الحالات. وهو ما جرَّبه فؤاد مطر خارج الحالة السودانية أيضاً، خصوصاً في حالة الخلافات الفلسطينية – الفلسطينية، واللبنانية – الفلسطينية، والسورية – اللبنانية، ثم السورية – الفلسطينية، ناهيك عن أم المعضلات، الحالة العراقية – السورية، ومن دون نسيان، الحالة اليمنية – اليمنية، والحالة المصرية – السودانية والليبية – المصرية.

وفي تعاطيه مع كل هذه الحالات، ومع كل قضية عربية أعطاها قلم فؤاد مطر الكاتب ما أعطاها من متابعة تستحقها، كان هناك دوماً منهج متميز يستند إلى التدوين والتدقيق، البحث والإستفسار، الإستفادة من المعلومة حين توافرها والإحتفاظ بها مدونة وموثقة، للرجوع إليها عند الحاجة إلى الإستدلال بها. هذا المنهج ميّز كاتبنا ووضَعَه في مصاف كبار الكتاب الذين يعتنون جل العناية بإلتزام الدقة، والإستناد إلى البحث في ما يكتبون وينشرون. ولا عجب إذاً، أن تكون الملاحظات والمعلومات والأقوال التي سجَّلها وإحتفظ بها طوال فترة خمسة عشر عاماً أمضاها فؤاد مطر مراسلاً لصحيفة "النهار" في مصر، مدماكاً أساسياً في بنيان ثلاثيته **"أين أصبح عبد الناصر في جمهورية السادات"** أو عندما كتب **"زلازل مصر السياسية"**.

والمنهج ذاته ينطبق على ما كتبه في المسألة السودانية، مثل: "**الحزب الشيوعي السوداني... نحروه أم إنتحر؟**"، أو "**المصالحة الوطنية الأولى في السودان... إنتكسوها أم إنتكست؟**".

هو أيضاً المنهج نفسه الذي حَكَم قلم فؤاد مطر في ما وضع من كتب في قضايا عربية أُخرى، مثل: "**التضامن العربي.. ذلك المستحيل**"، و"**تحت ظلال الذكريات.. تأملات في تجارب الحُكم والسياسة والدبلوماسية وتوريث الزعامة**". ولم يبتعد فؤاد مطر عن منهج التقصي والتدقيق حتى عندما إستحدث أسلوباً جديداً في إثراء مكتبة العرب وذاكرتهم من خلال السؤال والجواب، فقرأْنا إستنطاق الأستاذ محمد حسنين هيكل في "**بصراحة عن عبد الناصر**"، وقرأْنا إستجواب الدكتور جورج حبش في "**حكيم الثورة**" وكان أول من إستنطق ظاهرتيْن في مجتمع الحكم العربي وجعل من الإستنطاق المستند إلى وثائق مادة لكتابيْن: الأول عن "**الثورة الثانية في ليبيا**" والآخر عن السيرة الذاتية والحزبية للرئيس صدّام حسين في بدايات إنتقاله من الرجل الثاني إلى الرجل الممسك بكل السُلطة وذلك قبْل أن يجد نفسه يخوض حرباً عبثية مع الثورة الخمينية. كما أننا نجد المنهج نفسه في الجهد التوثيقي الكبير الذي أشرف عليه في إصدار "**موسوعة حرب الخليج. اليوميات – الوثائق – الحقائق**". وهو بالتأكيد المنهج.. الذي يستند إليه في "**سقوط الأمبراطورية اللبنانية**". وهنا ثمة ما يلفت النظر في مسيرة فؤاد مطر. فهو اللبناني الذي وإن إنشغل بما يجري في وطنه الصغير إلاَّ أنه منذ بدايات مسيرته مد بصره وإنطلق في إهتمامات قلمه إلى الوطن الأكبر، إلى العالم العربي كله، ثم "وجدتُ نفسي أتخذ قراراً بإضافة هموم الوطن إلى قائمة إهتماماتي ككاتب، ووضعتُ أمامي منهجاً لتحويل الإهتمام إلى كتاب من شأن صفحاته وما بين سطورها أن تشكِّل إجابة عن أسئلة كثيرة وجَّهها بعض الإخوة العرب إليَّ خلال لقاءات ومناقشات معهم، وكلها تتعلق بالحرب وبالوضع اللبناني"، هذا ما يقوله الأستاذ مطر في التمهيد لكتابه "**لبنان.. اللعبة واللاعبون والمتلاعبون**".

يصح في ما تقدَّم القول إنه مجرد إشارات إلى غيض من فيض. قليل من عناوين كثيرة أثرى بها فؤاد مطر الذاكرة العربية بما كتب ونشر. ولا يخرج عن هذا السياق ما بين أيدينا. فبين دفتيْ الجزء الأول من الثلاثية الجديدة لكاتبنا المتجدد "**موطئ قلم في الشرق الأوسط**" ست وستون مقالة تتعاطى في مجملها مع مجمل قضايا العرب خلال خمس سنوات هي بالطبع القضايا الأكثر أهمية التي شغلت العرب خلال تلك الفترة. وفي هذه المقالات نلحظ الحضور العربي الشامل في إهتمامات فؤاد مطر المعتادة. من اليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية، إلى الصحراء الغربية في أقصى المغرب العربي. من هموم الخليج الذاتية إلى هواجسه الإقليمية. من العلاقات العربية – العربية إلى العلاقات العربية – الدولية. ومن مواقف الحكام والحكومات إلى علاقاتهم بعضهم ببعض إلى علاقاتهم بمواطنيهم. وليس في الأمر ما هو جديد على

الكاتب. بل هو الثبات على المنهج، مع الحرص على التجدد في التناول وعلى المراجعة في الموقف على ضوء ما إستجد من تطورات في الأحداث.

الجديد هو إعادة النشر. بالطبع، ليست هذه أول مرة يعيد فيها كاتب نشْر مقالاته في كتاب. مع ذلك، وربما لأنني كنت قرأت هذه المقالات من قبْل، بحُكم عملي كمسؤول ومشرف على صفحات الرأي في "الشرق الأوسط"، خطر لي السؤال: هل ثمة ضرورة تستوجب التجميع وإعادة النشر؟ بعدما أعدتُ القراءة، جاءت الإجابة: نعم، إنها ضرورة أن تكون هذه الرؤى متاحة لمن أراد الرجوع إليها اليوم، غداً، بعد أشهر أو بعد سنين. ذلك أن ما في هذه المقالات يرسم، إذا جاز التعبير، مشاهد متتابعة لمرحلة عربية سيحتاج مَنْ يقيِّمها ويؤرخ لها إلى أن يتأمل هذه المشاهد لأنه سيجد فيها مزيجاً من التقييم والتأريخ، إذ أن الكاتب بقدْر ما يجتهد في الإبتعاد عن الذاتية، فإنه يتوخى الإلتصاق بالموضوعية والدقة البحثية. وكفى بهذا مؤهلاً لهذا الجهد كي يرقى إلى مصاف المرجعية المطلوبة في التقييم والتأريخ.

وإستناداً إلى عناوين ما سيتضمنه الجزء الثاني، كما أطلعني عليها كاتبنا، وما قرأتُه من مقالات فؤاد مطر، المنشورة في "الشرق الأوسط" حتى كتابة هذه المقدمة، يمكن القول إن التقييم نفسه ينطبق على ما سيتضمنه الجزءان الثاني والثالث من هذه الثلاثية. لقد جمعتْني إلى جانب فؤاد مطر تجربة عمل عن قرب تتيح لي هذا الهامش من التوقع، وهو ما يقود إلى المحور الثاني لهذه المقدمة.

* * *

عندما تعرفتُ إلى الأستاذ مطر كنت صحافياً شاباً، وكان هو نجماً ساطعاً في بلاط صاحبة الجلالة. حصل التعارف في طرابلس حيث كنت مع عدد من الصحافيين العرب العاملين في مؤسسات صحافية ليبية، وبعض الصحافيين الليبيين، نفرح بزيارات نجوم الصحافة العربية، إذ تتاح لنا فرصة الجلوس إليهم وتبادُل الحديث معهم حول ما يجري في ليبيا والعالم العربي بالإضافة إلى الإستزادة من خبرتهم المهنية. لم يخطر بالبال أنني سألتقي فؤاد مطر في لندن، وأنني سأعمل إلى جانبه، ومساعداً له، في مطبوعة يُصدرها من العاصمة البريطانية، ثم أتعامل معه من موقعي في مطبوعة أُخرى يكتب لها وتصدر في لندن أيضاً. هذا ما حصل. وهو ما شكَّل تجربة ثرية لا يمكن لهذه العجالة أن تكفي لإعطائها حقها. يكفي الآن القول إن الأستاذ مطر، مهنياً وسلوكاً وأسلوباً وإنساناً، كان مدرسة من بضع مدارس أسعدتْني أقداري خلال مسيرتي الصحافية بالتعلم فيها، فتخرجتُ منها أكثر خبرة وعِلْماً، أصلب عوداً وعزيمة، وأشد عطشاً ونهماً لمزيد من التعلم.

وكما سبق القول في الحديث عن فؤاد مطر، الصحافي والكاتب الذي يوثّق ويبحث ويدقق، هذا هو نفسه فؤاد مطر الناشر في لندن. تجمعنا أثناء التحضير لإصدار "التضامن" لقاءات فنجان "الإسبريسو" أو "الكابتشينو" في "الريشو" أو غيره من مقاهي قلب لندن. ولا يكاد يخلو

لقاء مما إعتاد عليه من يعرف فؤاد مطر، إذ يفاجئك بإخراج ورقة وقلم من جيب سترته، يسجل ملاحظة خطرت له أو سَمِعها منك، أو يسألك عن أمر ما، شخص ما. مناسبة ما. ثم يدوّن الإجابة. هذا هو فؤاد مطر الذي أسعدني بالعمل إلى جانبه مديراً للتحرير في "التضامن". رأيتُ عن قرب كيف يعمل ويتصرف كرئيس للتحرير وناشر للمطبوعة، فتعلمتُ وإستفدتُ. عايشتُ كتابته للخبر، للمقالة، وللحوار، فإزددتُ عِلْماً وإستفادة... ويقيناً إن فؤاد مطر الذي عرفْته قارئاً له، هو نفسه الذي سُعدتُ بمعرفته رئيساً وزميلاً كبيراً، وصديقاً عزيزاً.

إلى ذلك، لم تكن ثمرة هذا كله مجاملة تتهيب الخلاف في الرأي أو تخشى الإختلاف في الإجتهاد. كانت هناك قناعات مشتركة وفرت أرضية صلبة للعلاقة المهنية والإنسانية. وكانت هناك أيضاً مساحة لخلافات الرأي وتبايُن التصورات المهنية لم تتأذَّ منها المودة الذاتية. وشاركت في التجربة، تفاعلت معها، وإستفادت منها وأفادتها كوكبة كفوءة من الزميلات والزملاء كانوا أسرة "التضامن" في لندن، بالإضافة إلى مراسليها في مختلف العواصم العربية والدولية، وكُتّابها الذين كانوا بين أبرز كُتَّاب النخبة في العالم العربي. كان فؤاد مطر، وإلى جانبه زوجته ورفيقة دربه، الكاتبة إمتثال جويدي، في تأسيسه لمجلة "التضامن" يمارس الحلم ذاته الذي لا يزال يمارسه حتى اليوم في أغلب مقالاته، ومنها هذه التي بين دفتيْ هذا الكتاب، والتي سيضمها الجزءان الثاني والثالث. إنه حلم "التضامن العربي.. ذلك المستحيل"، ولا أرى الأستاذ مطر إلاَّ وفياً لهذا الحلم، أينما كان موطئ قلمه وموطنه.

أخفقتُ، أم أصبتُ؟ لا أدري. لكنني أدري أنني لم أفِ المقدمة ولا الكاتب حقهما.

بكر عويضة

لندن: مارس (آذار) 2005

بعد المجلد الأول تأتي المجلدات الخمسة من "الشرق الأوسط" فسائر المجلدات التي تضم مقالات "النهار" و"اللواء" والمستقبل" و "التضامن".

وبذلك يكون رصيد القلم في نصف قرن بات بين دفاف مجلدات لا يصيب أوراقها ما يصيب أوراق الصحف والمجلات عندما يمر عليها الزمن ولا تُحفظ فيصيبها الإصفرار ثم ما يصيب أوراق الأشجار في الخريف.

لعلني سأفيد بما إرتأيت إصداره من رصيد القلم في مجلدات. والله المعين.

بيروت – 2024

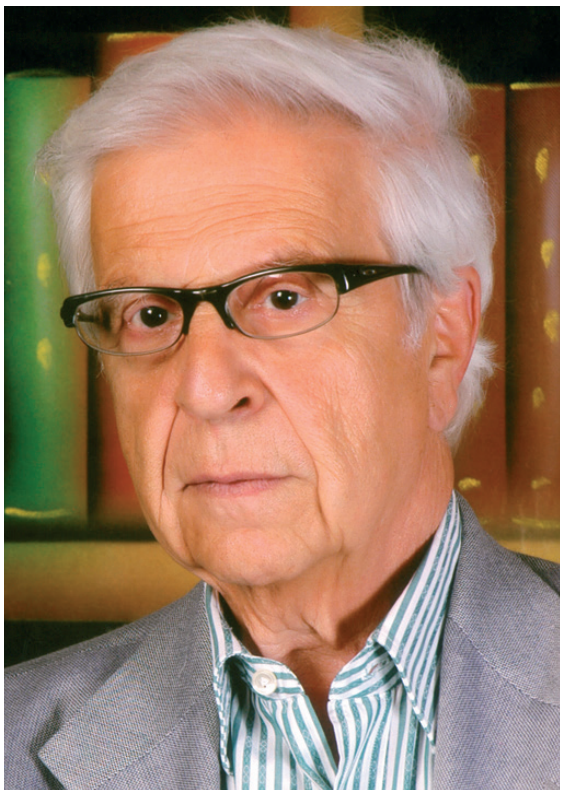
لعبة الغالب والمغلوب
بين العرب.. وإيران.. والغرب

مقالات فؤاد مطر

في الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

صحيفة العرب الدولية – الأُولى

المجلد الأول: (1994-2000)



London
Wednesday - 29 May 2024
Front Page No. 1
Vol 46 No. 16619

طبعة بيروت. 24 صفحة

الشرق الأوسط

The Leading Arabic Newspaper

صحيفة العرب الأولى

الأربعاء 21 ذو القعدة 1445
29 مايو (أيار) 2024
السنة السادسة والأربعون
العدد 16619

صقور سودانية... لم تعد جارحة



فؤاد مطر

هي الصقور السودانية بعد طيف، يوم الأحد 2 مايو (أيار) بين النسيبين اللدودين، الصادق المهدي والدكتور الترابي، تبدأ الاستعداد للعودة الى الديار. وهي لا جارحة لأن العودة ستحدث أضعتها الغربة وتأكدت بانه ساء نسابيها للتحليق مثل السودان، ولا أعالي ترتاح بعد التحليق مثل الأعالي نديل بفرعيه الأبيض والأزرق. ستعود الصقور السودانية الاستقرار النفسي والدور سي في انتظارها ما دامت لم

مجاورة إليدكتور حسن الترابي

الانصار، وقيام الدكتور الترابي بالذات بمهمة التحاور مع الصادق المهدي آتي من اعتبارات عدة من بينها ان الترابي يمكن ان يقول لنسيبه الصادق ما لا يمكن أن يقوله وسيط آخر وان الصادق يمكن ان يقول لصهره الترابي ما لا يقال لوسيط غريب عن العائلة او انه اذا قيل، يستقطع الحوار على الفور. وفي ذلك ان الاثنين يعرفان تمام المعرفة نقاط القوة والضعف في كل من الآخر، ولهما تجربة سابقة في مسألة المعارضة والمعارضة. ومن المهم الا نسقط من الاعتبار ما يحتدس في صدور ذوي القربى (أي الأسرة المهدية بفروعها الكثيرة

ومع ان الزميل عثمان العمير، اعتمد النهج البرغماتي، حتى ان رأى نادراً، وربما لا يدري أحياناً الصحف التحرير متمحضاً من الكتابة. ومع ان الصحافة الخيرية إلا ان زميلنا الذي اسراً مهماً، وهو ان رئيس التحرير استطاعته لإصدار صحيفة ناجحة لتعزيز خبرته بعلمها، أو لاستثمار الصحيفة وسلطانه فيها كرئيس للتحرير ولو ان الزميل عثمان العمير لا ينقصها، لجاز الافتراض انه كان يبتد مختلفاً عن الركب، لكنه عندما يا المتمكن. هذا فضلاً عن ان الامكانات اهل القرار السعودي والخليجي على ان يعرف ما لا يعرفه آخرون، كثير التمرس.

لكن عثمان العمير لم يفعل ذلك في سنوات رئاسته لتحرير «الشرق متصلة بمناسبات وطنية سعودية يتناولها بشفافية مطلقة بالإضافة الى والزعماء وكبار السياسيين بأسلوبه المتميز في اجراء الحديث وفي تقله لقا ويبقى ثلاثة امور بفرضها الحدث عن الزميل عثمان العمير. اولها التحرير يعجن ان يتقاعد (يفتح الباء) وليس يتقاعد (بضمها) وفي العمر الزمد من العطاء، وبعضٍ ان يعفي نفسه بدل ان يُعفى او فلنقل ان زميلنا رئيس التحرير قبل ان يضطر الى التقاعد، وبعفي نفسه من المسؤولية عندما يفعل ذلك ويكون قد بلغ في دائرة النجاح والتألق الصحيفة التي يترأ فانه بذلك يكون جمع بين التضحية وبين التبكير في الانسحاب المقعم بالط والدلالات.

... واما الأمر الثالث، فهو ان زميلنا عثمان العمير يترك رئاسة تحرير «الشرق الأوسط» الى الأمير الذي هو ان زميلنا عثمان العمير يترك رئاسة تحرير «الشرق الأوسط» الى الأمير الذي ملايح شخصيتها كصحيفة دولية للعرب، للسعودية فيها بقدر ما لأي دولة عربية أخر

عربية على صعيد السادة، او فلنقل حقق وفاقاً عربياً على صعيد الكتابة على رغم تعذر فباخريم من جانب الوفاق على صعيد الساسة، ولولا ان عقلية مستشيرة تلك المبادرة تلم احاطتها بالكثير من الدسيسين والتي والذهول، والصد بذلك عقلية اهل القرار الإداري بصفته رئيس المؤسسة، الامير احمد بن سلطان بجوز القول عبد العزيز، والناشرين الزميلين هشام ومحمد على حافظ، انه لولا هذه العقلية المستنيرة لمثل أبعد من الذي اعتبرناه وفاقاً عربياً على صعيد الكتابة وتحدد الرأي ان يحدث.

طابعاً بريطانياً

وأنهي وجهة نظري هذه بالقول انني في ما اوردته زميلاً كلمة حق في زميل يغادر الساحة ولايته وتاريخ التي تواصل الإبحار وهي اكثر انطلاقاً في خضم عربي سياسي حافل بالأهوال

وأسجل كلمة الحق هذه من منطلق ان من مواجهة زميلنا عثمان العمير تظهره احياناً وكأنه أسرائيل بعد فنان كثير التزوات. لقد انه انجز في سنوات ترؤسه تحرير «الشرق الأوسط» الى رسماً له كما

في الوقت الذي جرى الاعلان عن اصدار الطابع بدي اصدرت اسرائيل طابعاً بريداً محمل صورة جو سلسبيسها ايلي كوهين الذي اتخذ الحكم وري في السنينات به وتعامل معه على اساس جل اعمال بحمل اسم امين ثابت وانه الى من كما الجنوبية لتنفيذ مشاريع في سوريه. وبلغ ار الحكم السوري زمدائه به وثلثة بعض اركان الحكم وصديق مشاعره حد فتح الابواب امامه بما لك باب الجولان. فضلاً عن باب الاسرار التي تتدفق على مسامع هذا الصديق، خلال ات الكيف التي كان يدعو اليها وتلك التي يدعى ا. وكان على الفور يوصلها بواسطة جهاز ي الى «الموساد» في تل ابيب. وعندما اتكشف ات اسرار كثيرة كسرت. ولم يهدئ شنق هذا سوس في ساحة المرجة، فن روع السوريين تتوانى عن مطالبته باصدار طوابع بريدية مماثلة وفي اعتقادها ان طابعاً بريدياً ارتدياً يحمل على سبيل المثال صورة اسحق رابين من شأنه أن يساهم في تحقيق التطبيع الذي

ونبهي الامير سلطان بن عبد العزيز بالمحطة الثالثة له (لندن) التي سيزورها يوم الاربعاء المقبل جولة كانت مثيرة في كل شيء. ولقد اوحت وسائل اعلام اجنبية كثيرة بان الزيارة ذات طابع تسليحي.

عملية السلام وبحيث بقاء الاكثر العربية الاكثر

قراءة في جولة الأمير سلطان

فؤاد مطر

عثمان العمير... من المكان إلى المكانة

فؤاد مطر

الدبلوماسية الحاشدية.. والدبلوماسية الثورية

ماذا لو أن عزت ابراهيم تصرف مثل عبد الله بن حسين الأحمر؟

فؤاد مطر

من الموقف) فاننا نستند في ذلك الى قول الشيخ عبد الله لزميلنا حاسن البنيان («الشرق الأوسط» عدد الاحد 29 يناير 1995) ردا على سؤال حول تصريحات الرئيس التي تتناقض مع تصريحات الشيخ عبد الله المفعمة بالتفاؤل وهل انه اتصل

للشيخ عبد الله بن حسين الأحمر رئيس مجلس

تساؤلات برسم إميل لحود



فؤاد مطر

يتابع اللبنانيون، الذين يعيشون أزمة اقتصادية شديدة الوطأة، باهتمام كبير الأسلوب المتميز الذي يعتمده رئيس الجمهورية العماد اميل لحود في إدارة شؤون الدولة المثقلة بالمشاكل والديون والملفات غير النظيفة. والكيف أن الانسجام مثالي في هذا الثنائي بينه وبين الطاقم التنفيذي الذي يقوده رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص.

ومن مظاهر هذا الاسلوب كثرة الاستقبالات الرئيس لحود التي قيل عنها انها تصل في بعض الأحيان الى ثماني موعداً في اليوم الواحد. وكيف لا تصل ما دام نهار الرئيس يبدأ مع شروق الشمس. ويجب بحكم عراقة التربية السائدة في المؤسسة كما ارساها قائد الجيش السابق الذي بات

الشخصية للحريري، وأهمها وفاة والده منذ بضعة أيام ووفاة والدة زوجته قبل ذلك، هو تعامل مع رئيس الوزراء اللاحق وليس مع رئيس وزراء سابق. وما يقال عن العرب والأجانب يقال أيضاً على الصعيد المحلي. وبصرف النظر عما اذا كان الرئيس الحريري على طريق العودة أو أن بقاءه على هذه الحال سيطول فإن الواضح كل الوضوح ان الرئيس لحود يواصل تشجيع ظاهرة حكومة الظل التي تقطع مع الرئيس الحريري وبه الطريق على المعارضة الصارخة. وعندما ستتلاشى التصريحات عن التركة الثقيلة والإشارة اليها يومياً وتتبدل اللهجة المعتمدة في محطة «تلفزيون المستقبل» خط

دفعهم خارج الجولان بالتي هي أحسن...

فؤاد مطر

تكريم إسرائيلي يثير التساؤلات



فؤاد مطر

تأملات عن بداية عودة إلى الوطن الأول (3،1)

فورة الحرب بعد فورة النفط والثلاثي الأكثر استقرارا من الو

فؤاد مطر

الطنطاويان قالا.. ونتنياهو سمع

لقاء التشاكي المرتقب بين مبارك وكلينتون

فؤاد مطر

نظرة من لندن على قمة العتب والغضب (3،2)

هل يصبح الإلحاح اليمني على الخليجيين مثل الحاح السوريين والقوتلي على عبد الناصر؟

فؤاد مطر

نظرة من لندن على قمة العتب والغضب (3،2)

مؤتمر حمد الأمير وبينهما وحمد الوزير وبينهما ... حمد ولي العهد

فؤاد مطر

روسيا التي دائما بالضد ماضيا وحاضرا...

المحنة البوسنية للإسلام الأشقر والتجربة النووية للديغول الثاني

فؤاد مطر

ضجة الناصرة... بعد اللاذقية



فؤاد مطر

مساعدات لوجه الله... والصمود ومساعدات مغلفة بالشروط

فؤاد مطر

قبل القمة العربية في الخرطوم (من 29 اغسطس الى اول سبتمبر 1967) لم يكن هنالك برمجة في شأن مساعدة الدول العربية المقتدرة للدول العربية المحتاجة. وكثيرا ما كانت المساعدات بشكل نجدة من طرف انعم الله عليه بالثروة لطرف ضُبطت خزائن محطات البنزين في بلده او وصل مخزون الحبوب الى ما قبل النهاية وما عاد في الامكان تأمين الخبز للمليين التي يمكنها ان تستغني عن اي كماليات، اما الخبز فإنه اول الضروريات التي يعني عدم توافرها بداية المجاعة.

وقبل تلك القمة ايضا كانت المساعدات احيانا عبارة عن تغطية لاعتماد من جانب طرف عربي مقتدر

لها كان لا يتم انفاقه بالكامل على صمود الجبهات فإن المساعدات استمرت انما من دون ضغوط الالتزام الذي تفرضه الضرورات لو كانت هذه المساعدات تتم لتدعيم الصمود، اي بمعنى آخر لم تعد هنالك ضرورة للتسديد بالحرص السابق. ثم جاءت الحرب العراقية - الايرانية فبدأت هذه عملية النهام الأخضر واليابس مرورا بالمساعدات التي تم الالتزام بها في قمة الخرطوم عام 1967.

وجاء الاجتياح العراقي للكويت في اغسطس 1990 ليتسبب في وضع نهاية للحقبة المزدهرة في تاريخ مساعدات العرب المقتدرين للعرب المحتاجين ولتحل

محمود كحيل

محتويات المجلد الأول

الشمال شمال، والجنوب جنوب، وكأنهما لن يلتقيا 47
صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1994

قراءة في الصراع الشرس بين شرعيتيْ اليمن: شرعية الشمال بشخص الرئيس علي عبدالله صالح وشرعية الجنوب بشخص نائب الرئيس علي سالم البيض

الآن زمن الصحوة المسيحية والعودة إلى خيمة الطائف... ولبنان 49
صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 5 مايو (أيار) 1994

قراءة للكاتب فؤاد مطر طلبتْها منه "الشرق الأوسط" وتتصل بصحوة مسيحية آن أوانها للعودة إلى خيمة مؤتمر الطائف

فلسطين التي لن يعمّرها.. مقاولوها..... 52
صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1994

عندما إختار ياسر عرفات شركة "المقاولون العرب" المصرية للقيام بأعمال إنشاء وتعمير فلسطين ولم يكلِّف أي مقاول فلسطيني بهذا العمل

صقور وحمائم في "الفِغل" العراقي الثاني... والأخير 54
صحيفة "الشرق الأوسط" – أكتوبر (تشرين الأول) 1994

قراءة في موقف مفاجئ إتخذه جناح الصقور في الحُكْم العراقي وتمثَّل بتحريك بضعة آلاف من الجنود في إتجاه الكويت الأمر الذي جعل مشاعر الحذر تنشط من هذا الحُكْم

يا للهول.. حول الذي جرى للمصريين.. ولنجيب محفوظ..... 56
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 أكتوبر (تشرين الأول) 1994

تفسير موضوعي لواقعة مستَهجنة حدثت في القاهرة وإستهدفت شراً وأذى بالكاتب نجيب محفوظ

قمم الحسن الثاني الصعبة لا خوف عليها.. ولا منها 57
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 نوفمبر (تشرين الثاني) 1994

تحليل بصيغة الإجابة عن ظاهرة متصلة بالقمم العربية وبالذات تلك التي يستضيفها الملك الحسن الثاني ويكون لا خوف من إنعقادها ولا خوف على مصير قراراتها

دفْعهم خارج الجولان بالتي هي أحسن 60
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 14 نوفمبر (تشرين الثاني) 1994

في مسألة المواجهة مع إسرائيل وبالذات في ظروف بالغة التعقيد يصبح الأخذ بالمحاولات هو الأفضل لإبعاد القوات الإسرائيلية من الجولان

البناء واجب والمحافظة عليه قضية..... 62
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 5 ديسمبر (كانون الأول) 1994

حول رؤية الملك فهد بن عبد العزيز للبناء والتنمية بأنهما واجب وبأن المحافظة على ما تم إنجازه قضية

مصالحتان بدل المصالحة الواحدة: عراقية – عربية وإيرانية – عربية 63
صحيفة "الشرق الأوسط" – ديسمبر (كانون الأول) 1994
نظرة على القمة الإسلامية التي إستضافها الملك الحسن الثاني في الدار البيضاء وكان مفاجَئاً خروجها بتوصيات ذات بُعد إجتماعي بينما الوضع السياسي في منتهى الخطورة

التحدي المزدوج أمام القمة الإسلامية الرابعة..... 65
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 12 ديسمبر (كانون الأول) 1994
كيف أن آمالاً كثيرة عقدتْها شعوب الأمتين العربية والإسلامية على القمة الإسلامية في الدار البيضاء

مَن يحمي لبنان واللبنانيين في الولاية المقبلة؟..... 67
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 26 ديسمبر (كانون الأول) 1994
ثمة قضايا كثيرة عالقة ويحتاج اللبنانيون إلى حلول عاجلة لها ولكن ليس كل ما يتمناه اللبناني يناله

ما أضيق العيش العربي لولا قمة الإسكندرية..... 73
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 2 يناير (كانون الثاني) 1995
بعدما لم ينته العام 1994 على سـلام عربي إسـرائيلي يضـن الحقوق العربية إتجهت الأنظار إلى قمة عقَدها في الإسكندرية الملك فهد بن عبدالعزيز والرئيسان حسني مبارك وحافظ الأسد

سقف عربي... للخلافات والصراعات 74
صحيفة "الشرق الأوسط" – يناير (كانون الثاني) 1995
كيف أن السقف الإيطالي يتوافر لحوار يتعلق بدولة عربية وإسلامية هي الجزائر ولا يتوافر السقف العربي لهذا الحوار

المرونة... سلاح الأقوياء 76
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 يناير (كانون الثاني) 1995
تأملات في شأن المرونة عندما يمارسها بعض القادة العرب وكيف أنها تثمر نتائج طيبة وتقلل من نسبة الإنفجار

موقف شجاع لمبارك... كأنه وقفة قومية..... 78
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 30 يناير (كانون الثاني) 1995
حول خطوة بالغة الأهمية في شأن معاهدة حظْر إنتشار الأسلحة النووية إتخذها الرئيس حسني مبارك وبدت قياساً على ظروف إتخاذها وكما لو أنها وقفة قومية

الغزو بالمعروف... على طريقة كارتر 80
صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1995
كيف أن الغزو ليس بالضرورة أن يكون بالصواريخ وفي عتمة الليالي وإنما من خلال المهارة والتجربة والحنكة السياسية على نحو ما فعله الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر وبموافقة الرئيس بيل كلينتون

ماذا لو أن عزت إبراهيم تصرَّف مثل عبدالله بن حسين الأحمر 82
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 فبراير (شباط) 1995
تساؤل حول خطوة دبلوماسية خطاها عبدالله بن حسين الأحمر رئيس البرلمان اليمني، ويا ليت حذا حذوه عزت الدوري

عندما يعلو صوت الوزير على صوت رئيس الدولة..... 84
صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1995
تأملات في إقتراح للرئيس الفرنسي (الراحل) فرنسوا ميتران متعاطف مع المسألة الجزائرية لكن وزير الخارجية آلان جوبيه سارع إلى التبرؤ منه

رمضان المصري... رمضان التحديات..... 86
صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1995

عندما حرَّك تحذير أطلقه الرئيس حسني مبارك في وجه إسرائيل وتوضيح من جانب شيخ الأزهر بعض الشجون في نفوس المصريين وأعاد ذاكرتهم إلى زمن مضى

مذكرة عربية إلى الإدارة الأميركية في شأن المعاهدة النووية..... 89
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 20 فبراير(شباط) 1995

كيف أن الأمين العام للجامعة العربية (الدكتور عصمت عبدالمجيد) يتعامل مع مذكرة أميركية كما الذي قبْله (الشاذلي القليبي)

الصراط السوري المستقيم 91
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 5 مارس (آذار) 1995

تساؤل حول ما إذا كان الرئيس الأسد يمكن أن يفعل في موضوع الصراع مع إسرائيل ما سبق أن قام به مخاطراً الرئيس السادات

السلام.. وسوريا: مَن ينتظر مَن؟ 93
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 13 مارس (آذار) 1995

كلام لافت للرئيس حافظ الأسد في إفطار رمضاني ركز فيه على أن سوريا أمام عدة خيارات من بينها السلام

عندما يزور فرنسا رئيس دولة تحت الحصار الأميركي (موضوع في مقالتيْن)..... 96
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 27 مارس (آذار) 1995

قراءة في أجواء زيارة لافتة كونها تتم تحت الحصار الأميركي لبلده (كوبا) قام بها الرئيس فيديل كاسترو إلى فرنسا في عهد فرنسوا ميتران

مساعدات لوجه الله... والصمود ومساعدات مغلَّفة بالشروط..... 101
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 أبريل (نيسان) 1995

مقارنة مستندة إلى مواقف وقرارات حول مساعدات يكون بعضها لوجه الله ولتثبيت دعائم الصمود وبعضها الآخر تكتنفه الشروط الصعبة نسبياً

النظام العالمي... "الأصولي" الجديد..... 103
صحيفة "الشرق الأوسط" – نيسان (أبريل) 1995

حول دعوة أطلقها السياسي الروسي المثير للجدل جيرونوفسكي لإقامة حلف سياسي – ديني طرفاه الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية يقف في مواجهة الولايات المتحدة

النضال الفلسطيني الوسيم..... 105
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 17 أبريل (نيسان) 1995

حول الفدائي الشاب الفلسطيني الوسيم خالد الخطيب الذي نفَّذ عملية فدائية شجاعة وكان بذلك رمز قطاعات عريضة من الشبان الفلسطينيين غير مؤمنة بأن ما يحدُث من مفاوضات في أكثر من عاصمة عربية وأجنبية سيحقق السلام وسيعيد الحقوق

طموحات رئاسية للقرن الـ 21 107
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 1 مايو (أيار) 1995

إنطباعات مقرونة بقراءة موضوعية حول مشاهدات في أبو ظبي وبالذات ما يتعلق بظاهرة تشجير عاصمة الإمارة

العرب... وسيد "الإليزيه" الجديد 109
صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1995

قراءة في بعض التمنيات التي يريدها العرب من الرئيس الفرنسي الذي سيخلف الرئيس فرنسوا ميتران

القدس بين "الكاوبوي" الأميركي.. والقرصان الإسرائيلي..... 111
صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1995

حول تنافُس الحزبيْن في الولايات المتحدة (الجمهوري والديمقراطي) على مبايعة رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين والتي تثير الإستغراب وتشكِّل إنتهاكاً للأعراف وتجاوزاً للخطوط الحُمر وتعكيراً لصفو السلام المنشود

مبارك أعطى... وبرلمانه إسترجع..... 114
صحيفة "الشرق الأوسط" – يونيو (حزيران) 1995

نظرة من خلال مقالتيْن على معنى تشريعات جديدة تتعلق بالصحافة والنشر أصدرها البرلمان المصري وتتضمن عقوبات يتم فرْضها على مَن يخالف مضمونها الأمر الذي ليس لمصلحة الرئيس حسني مبارك

من المعارضة الرومانسية إلى المعارضة الواقعية 118
صحيفة "الشرق الأوسط" – يونيو (حزيران) 1995

تساؤلات حول عودة المعارضين في الجناح المغاربي من الأمة في ضوء عودة المعارض المغربي الأكثر شهرة الفقيه البصري إلى البلاد بمبادرة من الملك الحسن الثاني

شوكة" الجولان الفلسطيني" بعد شوكة حلايب 120
صحيفة "الشرق الأوسط" – يوليو (تموز) 1995

حول دوافع الرئيس حسني مبارك للقول في صحيفة "الأهرام" يوم 22 يوليو (تموز) 1995 إن منظمة التحرير الفلسطينية تريد جزءاً من مرتفعات الجولان التي تحاول سوريا إستعادتها من إسرائيل وإن الجانبين السوري والفلسطيني مختلفان على ذلك

المحنة البوسنية للإسلام الأشقر والتجربة النووية لـ ديغول الثاني..... 122
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 يوليو (تموز) 1995

معاني مصادفة إعلان الرئيس جاك شيراك أن فرنسا ستستأنف التجارب النووية مع المحنة التي يواجهها المسلمون البوسنيون الذين تتعاطف معهم فرنسا

مبادرة غير مستَحبة..... 124
صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1995

تساؤلات حافلة بالإستغراب كونها تتعلق بمبادرة من إسحق رابين للمساهمة في إغاثة مسلمي البوسنة بينما هو مع الفلسطينيين مثل رادوفان كاراجيتش وأكثر

القذَّافي ثالث المشاكسين.. و"دولة العرب المتحدة"..... 126
صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1995

تأملات في ظاهرة ترحيل العرب من ليبيا التي طالما فتحت أبوابها أمام العرب من المحيط إلى الخليج يعملون فيها وكما لو أنهم في بلادهم

"أبو علي" العراقي وأخوه...على إبن عمه الرئيس (موضوع واحد في 3 مقالات) 128
صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1995

تأملات في الأحوال التي يعيشها نظام الرئيس صدَّام حسين في ضوء واقعة لجوء صهره حسين كامل إلى الأردن وما إستتبع اللجوء من مفاجآت وصراعات وفواجع في إطار النظام وفي محيط العائلة

باب إعادة النظر لم يَعد موصداً..... 135
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 11 سبتمبر (أيلول) 1995

ماذا بعد إبتعاد الأردن قليلاً عن الموقف العراقي وتعاطُف مصر وسوريا مع العراق

حول الحل الإحتكاري الأميركي للمصالحة الفلسطينية – الإسرائيلية (مقالتيْن)..... 137
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 أكتوبر (تشرين الأول) 1995

في حلقتيْن معالجة موضوعية تتصل بإحتكار أميركي متعمَّد للمصالحة الفلسطينية – الإسرائيلية

قراءة في الإستفتاء على تمديد الرئاسة لـ صدَّام (موضوع واحد في مقالتيْن) 140
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 أكتوبر (تشرين الأول) 1995

نظرة على ظروف إستفتاء على تمديد الرئاسة لصدَّام حسين جرى في العراق يوم الأحد 15 أكتوبر (تشرين الأول) 1995 وقراءة في خطاب للرئيس العراقي حافل بعبارات الشكر والإمتنان للشعب العراقي

قمة.. قاطعها أهل القمة..... 144
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 نوفمبر (تشرين الثاني) 1995

لماذا لم تكن المشاركة في قمة عَمان الإقتصادية (من 4 إلى 31 أكتوبر 1995) على المستوى المأمول والمطلوب

الرياض.. ذلك الرمز 146
صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر(تشرين الثاني) 1995

تأملات في ما تمثِّله العاصمة السعودية الرياض بالنسبة إلى قضايا كثيرة وكيف أنها ليست مجرد مدينة كبرى وإنما رمز للصمود ومساندة الصامدين

مفاجأة الجزائر... السارة 149
صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1995

قراءة في إنتخابات رئاسية تعددية شهدتها الجزائر وكانت الأُولى منذ إستقلال البلاد عام 1962 ومن شأنها أن تؤسِّس مع الوقت لمرحلة السلامة العامة للدولة المثخنة بالجراح

1995... عام المساواة بين المعتدي والضحية..... 151
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 18 ديسمبر (كانون الأول) 1995

قراءة في إتفاق تم التوصل إليه في موضوع المسألة البوسنية تساوى فيه المعتدي مع الضحية

برلمان لمصر مبارك مستقر وله هيبته... ولكن (موضوع واحد في مقالتيْن) 153
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 11 ديسمبر (كانون الأول) 1995

حول إنتخابات أفرزت برلماناً مستقراً من حق الرئيس مبارك أن يتباهى به وبالذات عند المقارنة مع مجالس نيابية سابقة

موقف كبير ... لإشكال صغير..... 157
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 25 ديسمبر (كانون الأول) 1995

تأملات في ربع قرن من الخبرة والتجارب والصراعات المريرة بين دبلوماسية دولة قطر "الثورية" وعمداء الدبلوماسيات الخليجية وكيف أن الوزير حمد بن جاسم آل ثاني إنسحب من الجلسة الختامية للقمة الخليجية في مسقط (الأربعاء 7 ديسمبر 1995)

بابا نويل الفلسطيني... وبابا نويل الإنكليزي 163
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 1 يناير (كانون الثاني) 1996

مقارنة بين البهجة بعيد ميلاد السيد المسيح في بيت لحم المحتلة من الإسرائيليين وبهجة البريطانيين بالمناسبة نفسها

هل نحن على أبواب إستحداث جامعة عربية مقرها دمشق؟..... 165
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 يناير(كانون الثاني) 1996

عندما وصل التنافر العربي إلى درجة تقترب من العداوة حدثت لقاءات وإتصالات توحي بأن هنالك سعاة لإستحداث جامعة عربية في دمشق

إحالة رئيس حكومة على المعاش..... 167
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 15 يناير (كانون الثاني) 1996
لماذا بدا تكليف كمال الجنزوري بتشكيل حكومة جديدة في مصر مبارك تحل محل حكومة عاطف صدقي بمثابة حدث ذي أهمية

مَن يزور مَن ومَن يسامح مَن؟..... 169
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 22 يناير (كانون الثاني) 1996
كيف أن الرئيس صدَّام حسين بحديثه أكثر من مرة حول التسامح ظهر كما لو أنه يُحدِّث نفسه.. وذلك لأن بعض القادة العرب لا يتجاوبون

مبايعة دولية للديمقراطية الفلسطينية..... 171
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 29 يناير (ك2) 1996
عندما جرت إنتخابات فلسطينية كان رد الفعل من جانب قادة عرب مرحبين بالخطوة أمراً لافتاً

المواجهة في الجولان..... 174
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 5 فبراير (شباط) 1996
ما الذي يجعل الرئيس كلينتون يمعن في إضعاف المفاوض السوري لمصلحة الطرف الإسرائيلي حول الجولان

ما حققه عبد الكريم الكباريتي وحاول أن يحققه طاهر المصري..... 176
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 12 فبراير (شباط) 1996
تأملات في ظروف حكومة أردنية إنصرفت وظروف الإتيان بحكومة جديدة وكيف أن "الكباريتية" باتت وكما لو أنها فرع من فروع ظاهرة "الكيسينجرية" في العالم العربي

"اللوبي" سراب... والخشية مشروعة 178
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 19 فبراير (شباط) 1996
نظرة على ظاهرتين تثيران الكثير من علامات الإستفهام والتعجب وهما ظاهرة "المناضل الأممي" كارلوس وظاهرة مسيرة لويس فارخان في قلب العاصمة الأميركية واشنطن

أمثولة عن السعودية إلى الأجيال المقبلة 180
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 26 فبراير (شباط) 1996
بسبب وضعه الصحي كلَّف الملك فهد بن عبدالعزيز ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز إدارة شؤون الحُكْم. مفردات أمر التكليف والرد من جانب وليّ العهد كان بمثابة أمثولة للإقتداء بها

"ضمير كل اللبنانيين" الغائب.. في باريس 183
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 4 مارس (آذار) 1996
... وأما هذا "الضمير" فإنه القطب السياسي الوطني بإمتياز العميد ريمون إده الذي إختار الإقامة في باريس حفاظاً على مبدئيته

الممنوع في "قمة الإرهاب" على الحاضرين والمقاطعين.. وغير المدعوين 185
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 مارس (آذار) 1996
نظرة على الممنوعات الأميركية في " قمة الإرهاب " الدولية التي بدت كما لو أنها عجيبة الدنيا الثامنة وذلك لأن الرئيس الفلسطيني هو الذي إقترحها وأن الرئيس بيل كلينتون على الفور نفَّذها

تايوان كلينتون بعد كويت بوش..... 187
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 25 مارس (آذار) 1996
تساؤل في ضوء تطورات أزمة إستجدت بين المارد الأميركي والمارد الصيني حول تايوان

قمة تقوية العزيمة السورية..... 190
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 أبريل (نيسان) 1996
ما هي هذه المقومات التي من شأن قمة بين الرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد تقوية العزيمة السورية

تحالُف المضطرين... والمتضررين..... 192
صحيفة "الشرق الأوسط" – أبريل (نيسان) 1996
قراءة لظاهرة لافتة للإنتباه حول لهجة مصـــرية جديدة ومتمردة على الولايات المتحدة جاءت بعد قمة في دمشـــق بين الرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد وقمة في القاهرة بين الرئيسيْن مبارك وجاك شيراك

تمنيات على هامش العدوان الثنائي على لبنان..... 194
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 22 أبريل (نيسان) 1996
بعد زيارة تاريخية قام بها إلى لبنان الرئيس الفرنســي شــيراك كانت هنالك تمنيات عليه لإبرام معاهدة تنص على حماية محطات الكهرباء في لبنان وبعض مراكز الخدمات

محنة جامعة الخرطوم... ودور رجال الأعمال السودانيين 196
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 مايو (أيار) 1996
تأملات في أحوال صــعبة تعيشــها جامعة الخرطوم التي هي معقل مِن معاقل العمل الوطني والنهوض الســياســي في السودان وكيف أن من حق هذا الصرح على رجال الأعمال المقتدرين في السودان إستنباط الحل الذي يخفف المعاناة

لبناني أكثر من اللبنانيين.. أو مثلهم..... 198
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 13 مايو (أيار) 1996
حول ســعي بذله الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصــمت عبد المجيد رداً على عدوان إســرائيلي تعرَّض له لبنان، وبدا الدكتور عصمت بذلك وكما لو أنه صقر بين حمائم وأنه لبناني أكثر من بعض اللبنانيين

تراث كينيدي... وموروثات كلينتون..... 200
صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1996
مداخلة حول مقال للرئيس الأميركي بيل كلينتون يتحدث فيه عن حبه لوالدته وأنه يفتقدها...

القمة التي يتبناها العرب.. لماذا تخشاها الإدارة الأميركية؟..... 202
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 20 مايو (أيار) 1996
مواصفات للقمة العربية المأمول عقْدها ولماذا هذه الخشية الأميركية من عقْدها

مصر تزْد بعد 40 سنة 204
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 27 مايو (أيار) 1996
مقارنة بين ما فعله لبنان مع المصريين المبعدين من سوريا وما فعلتْه مصر حسني مبارك رداً على التصرف اللبناني الأخوي

عرفات... وعاصمته الرابعة لندن 206
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 10 يونيو (حزيران) 1996
حول زيارة متميزة وناجحة قام بها الرئيس ياســر عرفات يومَيْ 3 و4 يونيو (حزيران) 1996 إلى لندن وبدا فيها وكما لو أنه يزور عاصمته الرابعة بعد الأولى القدس والثانية القاهرة والثالثة بيروت

التحسب العربي واجب لمرحلة "بوب" و "بيبي"..... 209
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 17 يونيو (حزيران) 1996
كيف أن التحسب فِعْل واجب من جانب العرب دون إستثناء إزاء مفاجأة إنتخابية أميركية شبيهة بمفاجأة إسرائيلية

اليوبيل الذهبي للقمة العربية..... 211

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 يونيو (حزيران) 1996

كيف كان للقمة العربية في القاهرة يوم 22 يونيو 1996 أن تسمى عملياً قمة اليوبيل الذهبي لمؤسسة القمة العربية

السنوات الضائعة على العمل العربي المشترَك..... 214

صحيفة "الشرق الأوسط" – يوليو (تموز) 1996

تأملات في سنوات ضاعت على العمل العربي المشترَك بين العام 1956 لأنه كانت هنالك قدرة على إنذار بريطانيا وفرنسا وإسرائيل والعام 1996 حيث إن كل المستطاع هو الحرص على إبداء التمنيات والمرونة

مطيع لإسرائيل متجبر مع الآخرين..... 216

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 يوليو (تموز) 1996

تساؤلات حول الإدارة الأميركية التي لا تجرِّب مع دول العالم الثالث وبالذات الدول العربية والإسلامية العلاقة معها من منطلق الإقتناع وليس الإضطرار

"حرب" من الأسد مستحبة عربياً ودولياً 218

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 15 يوليو (تموز) 1996

نظرة على جولة حرب غير تقليدية وتكون من النوع الذي يلقى الترحيب العربي والدولي يقوم بها الرئيس حافظ الأسد.. فقط بغرض دفْع القوات الإسرائيلية خارج الأرض المحتلة السورية

زائر يُسدي النصيحة وآخر يسبب الإحراج..... 220

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 22 يوليو (تموز) 1996

مقارنة بين زيارتيْن إلى واشنطن. زيارة غير رسمية قام بها أمير الرياض سلمان بن عبد العزيز تحولت إلى رسمية، أسدى خلال المحادثات مع وزير الخارجية وارن كريستوفر الكثير من النصائح. وزيارة مثقلة بالإحراج قام بها رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو وتصرَّف خلالها وكما لو أن إسرائيل دولة كبرى والولايات المتحدة دولة صغرى

الورقتان السورية والفلسطينية... تتبادلان الأهمية..... 222

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 29 يوليو (تموز) 1996

نظرة على لقاء بين الصديقيْن اللدوديْن الرئيس حافظ الأسد والرئيس ياسر عرفات جرى في"القرداحة" مسقط رأس الأسد وفي طرطوس العاصمة الصيفية للرئاسة السورية وكان عرفات يتمنى لو أن اللقاء كان في دمشق وفي قصر الرئاسة

لقاء التشاكي المرتقَب بين مبارك وكلينتون 224

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 25 يوليو (تموز) 1996

كيف ستكون طبيعة التشاكي بين الرئيس حسني مبارك والرئيس بيل كلينتون عند زيارة الرئيس المصري إلى واشنطن

صديق... ليس لوقت الضيق..... 226

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1996

... وأما الصديق فإنها الولايات المتحدة في ظل رئاسة بيل كلينتون فيما الصديق الذي يعاني ضائقات كثيرة فإنه الأردن

أمثولة من الكويت للبنان الحكام والمحكومين 228

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1996

حول زيارة قام بها وليّ عهد الكويت الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح في أغسطس (آب) 1996 إلى لبنان وشكَّلت أمثولة يمكن للبنان الحكام والمحكومين الإستفادة منها كثيراً

قراءة في "إنتفاضة الخبز" **230**
صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1996

حول "إنتفاضـــة" شـــعبية حدثت في الأردن بســـبب قرار رفْع الدعم عن الخبز وغيره من القرارات التنظيمية للعملية الإقتصـادية إتخذتْها حكومة عبد الكريم الكباريتي، وإضـطر الملك حسين للتصـدي شـخصـياً للحالة الناشـئة عن الخطوة الكباريتية لتفادي المزيد من الغضب الشعبي

مدرسة المتفوقين في المواجهة وإقلاق العالم: من كلينتون إلى بيريز إلى نتنياهو إلى صدَّام... ..... **232**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 سبتمبر (أيلول) 1996

تأملات في خمس نقاط أساسية تتصل بالمواجهة الأميركية – العراقية ودور كل من رموزها: كلينتون. بيريز. صدَّام

مبادىء مطلوبة للواجب الإنتخابي..... **235**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 16 سبتمبر (أيلول) 1996

أفكار وإقتراحات لها صـــفة الإجتهادات تتعلق بالعملية الإنتخابية وكيف يمكن أن تكون نزيهة وتعكس حقيقة إتجاه المواطن... وبالذات في العالم العربي

يوم المسؤولية العربية..... **237**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 سبتمبر (أيلول) 1996

كيف أن من معاني اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية هو يوم المسؤولية العربية على مدى سنوات مضت تؤسس لسنوات آتية

أميركا لا تقف محايدة... وعرفات الذي لا يشترط **239**
صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 1996

كيف أن الرئيس ياســـر عرفات لا يشـــترط وبذلك يبدو عاجزاً مع أنه لا يريد أن يكون تعجيزياً. وكيف أن إدارة الرئيس كلينتون مصـممة على أن تكون غير محايدة وتقول في الوقت نفسـه إنها تريد حلاً مثالياً للنزاع الفلسـطيني – الإسـرائيلي والصراع العربي – الإسرائيلي عموماً

مكاسب كانت ستتحقق **241**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 أكتوبر(تشرين الأول) 1996

قراءة في قمة "أزمة نفق الأقصى" التي لو شارك فيها الرئيس حسني مبارك لكانت مكاسب مصر منها وفيرة

قليل من الشجن.. كثير من اليقظة **242**
صحيفة "الشرق الأوسط" – أكتوبر (تشرين الأول) 1996

تأملات في مواقف كلامية صـدرت عن بعض رموز أهل القرار الديني والعسكري العربي وبعضـها له صـفة شـحن الهمم والتحذير من الإحتمالات الخطيرة. وهؤلاء هم: شـــيخ الأزهر الدكتور محمد ســـيد طنطاوي والبابا شـــنوده ووزير الدفاع المصري المشير محمد حسين طنطاوي ووزير الدفاع السوري العماد مصطفى طلاس

شرارة القذَّافي التي أيقظت الأشرار المتربصين بـ "الخميني الأتاتوركي"..... **245**
صحيفة "الشرق الأوسط" – أكتوبر (تشرين الأول) 1996

حول ملاحظات سجَّلها العقيد معمَّر القذَّافي من شأنها إحراج الزعيم الإسلامي التركي نجم الدين أربكان الذي كان يتطلع إلى أن يكون هو "الخميني الأتاتوركي"

مستشرق وفدائي بمرتبة رئيس دولة كبرى (موضوع واحد في مقالتيْن) **247**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 4 نوفمبر(تشرين الثاني) 1996

تأملات في جولة قام بها الرئيس جاك شـيراك وشـملت سـوريا وإسـرائيل والأردن والسُـلطة الوطنية الفلسـطينية ولبنان ومصر. وفي هذه الجولة بدا فيها الرئيس الفرنسي وكما لو أنه مستشرق وفدائي بمرتبة رئيس دولة كبرى

الحيوية غلبت الحكمة 252
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 1996
نظرة على فواتير مواقف الرؤساء حسني مبارك وحافظ الأسد وصدَّام حسين وياسر عرفات المطلوب من الرئيس الأميركي بيل كلينتون تسديدها

أمثولة من الملك حسين برسم نتنياهو.. وبعض الأشقاء 254
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 18 نوفمبر (تشرين الثاني) 1996
لفتة غير مسبوقة من جانب الملك حسين نحو سجين سياسي مرموق أخذت مكانتها على أنها أمثولة يؤخذ بها برسم حكام عرب كثيرين

السناتور «البعثي»... من العراق إلى سوريا 257
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 24 نوفمبر (تشرين الثاني) 1996
... والسناتور هو أرلين سبيكتر الذي رأى في زيارة يقوم بها إلى دمشق أن الحُكم البعثي سيرى فيه المسؤول المتفهم جوهر نظام هذا الحُكم

قراءة في نجدة قبل فوات الآوان (موضوع واحد في مقالتيْن)..... 259
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 2 ديسمبر (كانون الأول) 1996
قراءة في نجدة حدثت في ساعة الشدة لفْك الحصار عن العراق تمثّلت بمبادرة أخوية طرحها رئيس دولة الامارات العربية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

فرار الصادق ومحاولة قتل عدي: محنة عائلتيْن 263
صحيفة "الشرق الأوسط" – 16 ديسمبر(كانون الأول) 1996
حول محنة واجهتْها عائلة المهدي في السودان نتيجة فرار كبير العائلة الصادق المهدي، ومحنة أُخرى واجهتْها العائلة التكريتية في العراق نتيجة محاولة قتْل عدي صدَّام حسين

نظرة من لندن على قمة العتب والغضب (موضوع واحد في ثلاث مقالات)..... 266
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 30 ديسمبر (كانون الأول) 1996
قراءة في أجواء وقرارات القمة الخليجية السابعة عشرة في الدوحة التي إتسمت بالعتب والغضب

وثيقة غير معروفة من أيام الملك خالد في شأن «يمن خليجية» 277
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 يناير (كانون الثاني) 1997
نص رسالة بعث بها عام 1974 السياسي اليمني المعروف أحمد محمد نعمان الذي كان يقيم في السعودية إلى الملك خالد بن عبد العزيز وفيها يقترح تسهيل إنضمام اليمن إلى "مجلس التعاون لدول الخليج العربية"

في إنتظار عودة الوعي والدور إلى الجزائر..... 279
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 13 يناير (كانون الثاني) 1997
إنطباعات عن أحوال ورموز وطنية من الجزائر تعكس في كثير من المواقف مدى الحاجة إلى عودة الوعي الذي يعيد بدوره إلى الجزائر رونق حضورها العربي والدولي

أمثولة من النمسا للمواجهة الأوكسفوردية – السوربونية في السودان 281
صحيفة "الشرق الأوسط" – يناير (كانون الثاني) 1997
حول قرار مستشار النمسا الإستقالة بينما النسيبان الصادق المهدي وحسن الترابي يتصارعان على الحُكْم مع أنهما ذاقا طعمه لسنوات وبات عليهما وعلى كثيرين في دول العالم الثالث أن يتركوا الحُكْم لغيرهم ويخلدوا إلى الترشيد وكتابة المذكرات حول تجاربهم في عالم السياسة

الرشاش بعد الثوب والبخور 284
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 فبراير(شباط) 1997
عندما إقتحمت المرأة السودانية المرموز إليها بالثوب والبخور والحنة أسوار الأزمة السياسية في السودان وحقق الإقتحام نتائج طيبة

رمضان المحزون 286
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 10 فبراير (شباط) 1997
عندما حل شهر الصوم رمضان المبارك فيما أقطار عربية وإسلامية تعيش ظروفاً تتسم بالحزن

قال العرب كلمتهم 287
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 17 فبراير (شباط) 1997
بعدما قال القادة العرب بدرجات متفاوتة رأيهم في المحنة السودانية وباتت الكُرة بذلك في ملعب رموز تلك المحنة

أوراق ثلاثة كبار... وغيرهم 289
صحيفة "الشرق الأوسط" – 14 فبراير (شباط) 1997
الثلاثة الكبار هم جميل مردم وفارس الخوري ورياض الصلح ومن شأن توثيق مواقفهم ومذكراتهم تنوير حقائق كثيرة

الحكمة حلاَّلة الأزمات..... 292
صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1997
كيف أن إعتماد الحكمة في التعامل من جانب أهل الحُكْم مع الأزمات يساعد في حلها مهما كانت مستعصية

إقتباس سوداني لوصفة ساداتية ضررها أكثر من نفعها... 293
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 مارس (آذار) 1997
تساؤل حول ما إذا كان سيأتي يوم يندم فيه السودانيون الحاكمون والمعارضون على حد سواء من تعاملهم مع الأزمات تعصف بالوطن الذي يحتاج إلى الإستقرار لتحقيق التنمية

عمل كثير الرقي ودور كثير الأهمية 295
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 مارس (آذار) 1997
نظرة على دور يمكن أن يقوم به برزان التكريتي في ضوء لقاء جمعه بأخيه الرئيس صدَّام حسين، وعلى مسلسل تلفزيوني كثير الرقي حول حرب الخليج أنتجه الصحافي والكاتب عبد الرحمن الراشد

قراءة في جولة الأمير سلطان 297
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 10 مارس (آذار) 1997
تحليل لجولة قام بها الأمير سلطان بن عبد العزيز شملت الولايات المتحدة وبريطانيا واجه خلالها بالصراحة وبإبتسامة عربية عفوية نتياهو بخبثه وإبتسامته الماكرة، وكان ذلك لافتاً لإنتباه المراقبين ومشاهدي القنوات التلفزيونية والمحطات الفضائية

الأسد المهموم والمهتم بالأرض المحتلة والديار المقيبة 300
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 مارس (آذار) 1997
خلاصة إنطباعات حول بضعة أيام أمضاها الكاتب (فؤاد مطر) أجرى خلالها جولات أفق حول الأوضاع السورية والعربية عموماً مع بعض المسؤولين والمثقفين

قراءة في قمتين لمناسبة المطالبة بالقمة(موضوع واحد في مقالتين)..... 301
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 أبريل (نيسان) 1997
بقية قراءة في القمة الثلاثية في الإسكندرية عام 1994 والقمة العربية الإستثنائية في القاهرة عام 1996 لمناسبة الدعوة إلى عقْد قمة عربية جديدة

تساقُط أولي للتطبيع بعد الإسقاط النهائي لإتفاق 17 أيار 305
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 14 أبريل (نيسان) 1997

نظرة على الأسلوب الذي تعتمده الديبلوماسية السورية في معالجة عملية السلام، وهو أسلوب ينطبق عليه المثل الشعبي الذائع "تقر الكوسى بالإبرة"

تأملات عن بداية عودة إلى الوطن الأول (1–3) 308
صحيفة "الشرق الأوسط" – 12 أبريل (نيسان) 1997

في كلام تغلُب الوجدانية على مفرداته يحبِّر الكاتب (فؤاد مطر) مشـــاعره حول الغربة الإضـــطرارية عن الوطن (لبنان) وحالة الفرح التي أحدثها العوْد الأحمد من بريطانيا

مهزلة أواخر القرن 313
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 21 أبريل (نيسان) 1997

عندما صـدرت عن المانيا مفاجأة شـكَّلت عنصـراً مهماً في مهزلة أواخر القرن العشـرين التي تسـتهدف تصـدُّع الأمتيْن العربية والإسلامية على نحو نصدُّع عاشته المانيا نفْسها

معادلة صامدة تنتظر السلام الشامل 315
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 19 مايو (أيار) 1997

تأملات في زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى لبنان مقرونة بإفتراضات حول الإستقبال الذي يمكن أن يلقاه كل من الملك فهد بن عبد العزيز وحافظ الأسد إن هما قاما بزيارة مماثلة لزيارة رئيس الكنيسة الكاثوليكية

مفاجآت الغضب 317
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 26 مايو (أيار) 1997

عندما يحدُث أحياناً أن تعديلات من جانب حكومة على قانون، تتســبب في حالة الغضــب الشــعبي الذي لا مصــلحة للوطن في حدوث مضاعفاته

الديمقراطية على طريقة أهل الصف الواحد (موضع واحد في مقالتيْن) 319
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 يونيو (حزيران) 1997

حول بعض أوجُه الشــبه بين مفردات في أســلوب التخاطب الذي يعتمده الرئيس الإيراني محمد خاتمي وبرزان التكريتي أخو الرئيس صدَّام حسين. ونظرة على أسلوب كل من الزعيميْن الإسلامييْن نجم الدين أربكان (في تركيا) ومحمد خاتمي (في إيران) في التخاطب والتعامل بما يبشِّر بالخير

زمن فتْح البوابات أمام العراق المحاصَر 323
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 16 يونيو (حزيران) 1997

قراءة في خطوة التطبيع العراقية – السـورية المتمثلة بزيارة وفد تجاري عراقي إلى سـوريا يوم الجمعة 13 يونيو (حزيران) 1997 رداً على زيارة سبق أن قام بها وفد سوري مماثل إلى العراق قبْل شهر

هل كثير على قَطَر مسايرة بني قومها؟ 325
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 يونيو (حزيران) 1997

تسـاؤلات في شـأن إصـرار قَطَر على عقْد القمة الإقتصـادية وبمشـاركة إسـرائيل على رغم تمنيات دول الخليج إرجاء هذه القمة أو إلغاءها أو عدم توجيه الدعوة إلى إسرائيل للمشاركة فيها

دور الخواطر الصريحة في زيارة الأمير عبدالله إلى سوريا ولبنان 327
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 29 يونيو (حزيران) 1997

قراءة في زيارة تفقدية قام بها وليّ عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبد العزيز إلى كل من سوريا ولبنان

لا ضجة في اللاذقية 330
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 30 يونيو (حزيران) 1997

قراءة في فقرتيْن من بيان صـــدر يوم الخميس 1997/3/26 عن إجتماع عقده في اللاذقية وزراء خارجية دول "إعلان دمشق" وأهمية الفقرتيْن إتخاذهما بالإجماع

المستعمرات في النهاية من نصيب الفلسطينيين..... 331
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 يوليو (تموز) 1997

تأملات إفتراضية محتملة الحدوث ذات حقبة زمنية ليست بعيدة وهي أن تصبح المستعمرات الإسرائيلية مسكونة من الفلسطينيين القابعين سنوات طويلة في مخيمات

بريطانيا وسوريا: حسنات الاستقرار في العلاقات 334
صحيفة "الشرق الأوسط" – يوليو (تموز) 1997

نظرة على العلاقات بين بريطانيا وسوريا وكيف أن حسناتها كثيرة عندما تستقر هذه العلاقات وبشكل دائم

هل كان رياض الصلح أميركي الهوى؟..... 336
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 21 يوليو (تموز) 1997

في الذكرى السادسة والأربعين لرحيل رياض الصلح إغتيالاً برصاص أحد أعضاء الحزب القومي السوري، تساؤل عما إذا كان الزعيم السياسي اللبناني مبهوراً مبكِّراً بالصيغة الأميركية

زوار مثقلون بالهموم وتقليد يفتقده الإعلام العربي الدولي..... 337
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 28 يوليو (تموز) 1997

حول ظاهرة غير مسبوقة تعيشها بريطانيا التسعينات وتتمثل في إصدار مطبوعات عربية من جانب إعلاميين وسياسيين عرب

صغرى مع إسرائيل.. وكبرى مع آخرين.. وعظمى مع العرب والمسلمين..... 339
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 4 أغسطس (آب) 1997

عندما أثبتت إدارة الدولة العظمى برئاسة كلينتون أنها عظمى بالفعل مع العرب والمسلمين لكنها صغرى مع إسرائيل

لقاء مصري – سوداني غير مسبوق 341
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 18 أغسطس (آب) 1997

قراءة في لقاء مفاجئ ولم يسبق أن حدث بهذه النوعية من قبْل. وقد حدث اللقاء في إستراحة الرئاسة المصرية في برج العرب على شاطئ المتوسط بين الرئيس حسني مبارك وكل مِن السيديْن الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني

يساعد القذَّافي محمد والساعدي أو يبادر الإبنان إلى مساعدة والدهما..... 344
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 25 أغسطس (آب) 1997

معادلة قيد التأمل في حُكْم العقيد معمَّر القذَّافي وتتعلق بشخصه كان قائد للثورة والدولة وبشخص كل من ولديه محمد والساعدي بوجه خاص

من الشيخ بشارة إلى الجنرال سوهارتو 349
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 مايو (أيار) 1998

حول تجديد الرئاسة بأسلوبيْن: أسلوب الرئيس اللبناني الشيخ بشارة الخوري وأسلوب الرئيس الأندونيسي الجنرال سوهارتو

الصهيونية تبيع أميركا... وتشتري أوروبا الشرقية (موضوع واحد في مقالتيْن)..... 350
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 يونيو (حزيران) 1998

كيف أن تلك معادلة لا يتقن التفنن في تحقيق فصولها سوى لفض رموز الكيان الصهيوني في الداخل وفي دول العالم

فقراء العالم الثالث الذين سبقوا المقتدرين..... 354
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 يونيو (حزيران) 1998
تأملات في أحوال دولة الشـعب الفقير مثل الهند عندما تقوم مضـطرة بتفجير نووي وما قد تتسـبب آثاره بمتاعب لدول الخليج العربي ولبعض الدول المجاورة لها

أغرب مشهد إنتخابي من المحيط إلى الخليج 355
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 يونيو (حزيران) 1998
وحده لبنان دون سائر دول كثيرة يشغل مناصب رئيس البلدية والمختار مَن هم جامعيون، لكن العائد ليس مشجعاً

وقفة من شيراك بعد الموقف..... 357
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 يونيو (حزيران) 1998
عندما أحدث فوز جاك شيراك برئاسة فرنسا إرتياحاً غير مسبوق من جانب قادة عرب إزاء الدور الفرنسي المأمول

الوقفة الشيراكية التي ينتظرها العرب..... 358
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 يوليو (تموز) 1998
حول وقفة شبيهة بتلك التي إتخذها الجنرال ديغول عام 1967 ومن مصلحة الرئيس شيراك إتخاذ وقفة مماثلة لها

عندما تغيب الفطنة وتتراجع الحكمة أمام الغضب..... 360
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 8 يوليو (تموز) 1998
نظرة على واقعة نادرة في دنيا الرئاسات وتمثَّلت بصفعة وجهَّها الرئيس اللبناني الياس الهراوي إلى الصحافي حسن صبرا

وجهة نظر حول "قمة المتعاقدين مع إسرائيل"..... 361
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 يوليو (تموز) 1998
قراءة في محصـلة قمة أطرافها كل من رئيس مصـر وملك الأردن والرئيس الفلسـطيني ياسـر عرفات والثلاثة هم رموز التطبيع مع إسرائيل

موقف فرنسا بجناحيْها من الأسد وقضيته... 363
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 يوليو (تموز) 1998
معالجة موضوعية لموقف فرنسا جاك شيراك دون غيره من الرؤساء الفرنسيين من نظام الرئيس حافظ الأسد الذي يعاني من وطأة الاحتلال الإسرائيلي للجولان

حول عودة المهجَّر رياض الصلح.. الملك فهد رمّم والرئيس الأسد إستضاف... 365
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 24 يوليو (تموز) 1998
تأملات حول إعادة تمثال الزعيم السُني اللبناني رياض الصلح إلى ساحته في قلْب العاصمة اللبنانية بيروت بعدما جرى ترميمه بتوجيه من الملك فهد بن عبدالعزيز

رئيسان أعظمان على شفير الهاوية 367
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 2 أغسطس (آب) 1998
... والرئيسان الأعظمان هما رئيس أميركا بيل كلينتون ورئيس روسيا يلتسين وكلاهما عرضة للتغييب بمكيدة لـ كلينتون أو ما يشبه الإنقلاب حبياً لـ يلتسين

لبنان السوري – الفرنسي ومفاجآته السارة..... 369
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 5 أغسطس (آب) 1998
قراءة في دواعي مفاجأة في شكل مقابلة تلفزيونية للسياسي اللبناني ريمون اده أعلن فيها أنه ليس مرشحاً لرئاسة الجمهورية

الحريري... الباقي له 11 سنة في ذمة اللبنانيين 371
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 أغسطس (آب) 1998

عن الرئيس رفيق الحريري الذي تحمَّل ما لم يتحمله آخرون وبالتالي لم يتحقق مبتغاه في أن يكون رئيس كل اللبنانيين

القدس في عهدتها والعملية السلمية في حمايتها 373
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 أغسطس (آب) 1998

عن القدس والرئيس كلينتون بعدما حسمت إسرائيل نتنياهو الأمر في أن يحقق لها مبتغاها في تثبيت المدينة المقدسة عاصمة أبدية لها

"إيليزيه"... البيارتة "إيليزيه"... كل اللبنانيين..... 375
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 أغسطس (آب) 1998

تأملات في السراي الحكومي الذي أعاد رفيق الحريري ترميمه فبدا كما لو أنه "إيليزيه" يحمل هوية أهل بيروت

عدم الإنحياز إلى من؟ 377
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 سبتمبر (أيلول) 1998

حول حركة عدم الإنحياز التي كانت بدولها المنتسبة إليها وعددها 114 دولة منارة في عالم السياسة الدولية ثم إنتهت لا فاعلية لها على الإطلاق عدا التمنيات والمناشدة

عثمان العمير... من المكان إلى المكانة..... 379
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 سبتمبر (أيلول) 1998

كلمة حق في عثمان العمير الصحافي رئيس تحرير "الشرق الأوسط" لمناسبة إنتقاله من تجربة عريقة إلى تجربة رائدة

تركيا التي كأنها.. ليست مسلمة..... 381
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 سبتمبر (أيلول) 1998

عندما بدت تركيا الدولة المسلمة والجارة للعرب في نظر العرب والمسلمين أنها بإندفاعها نحو إسرائيل ضد العرب تتصرف وكأنها ليست دولة مسلمة وللأشقاء عليها حقوق

ما يتمناه الأكراد من أميركا.. وما أرادته أولبرايت لهم..... 383
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 30 سبتمبر (أيلول) 1998

قراءة في بعض محطات المحنة الكردية التي تتوزع الإهتمامات والتعاطي معها بين دول إقليمية أهمها تركيا ودول كبرى من بينها الولايات المتحدة وفرنسا

الإختبار الأول لتركيا المستقوية بإسرائيل..... 384
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 أكتوبر (تشرين الأول) 1998

وقفة أمام ظاهرة إستقواء دولة إسلامية ذات شأن في الإقليم، بإسرائيل والتعاقد معها سياسياً وعسكرياً وإقتصادياً

أمجاد الوحدة... وجراح الهزيمة 386
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 أكتوبر (تشرين الأول) 1998

نظرة إلى مأساة شهدتْها المانيا وتمثلت في أن مستشارها هيلموت كول الذي حقق مجد وحدة البلد المقسوم إلى بلديْن غربي وشرقي مُنِي في الإنتخابات بهزيمة مثْل التي أصابت جورج بوش الأب

حاكم عربي جديد من أصل عسكري وحركة تصحيح مثل حركة الأسد 388
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 أكتوبر(تشرين الأول) 1998

عن الجنرال إميل لحود الذي بات بحكم التأثير الذي للحُكم السوري على لبنان رئيساً للجمهورية متأثراً بأسلوب الرئيس الأسد

ما إعتمده الأسد ولم يفعله صدَّام 390
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 28 أكتوبر (تشرين الأول) 1998
حول الأسلوب الذي إعتمده الرئيس حافظ الأسد في معالجة الأزمة مع تركيا والذي كان الأخذ به سيُبعد شر الحرب الدولية على العراق

ياسر عرفات وأفعاله بين المفهوم والمستغرَب 392
صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1998
تأملات في مفاجآت تصدر عن الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ويحتار المرء في أمرها ويُكثر من التساؤلات في شأنها وهل كانت ضرورية ولمصلحة القضية

كي لا يصيب لحود ما أصاب خاتمي..... 394
صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1998
مقارنة بين حالتيْن رئاسيتيْن محفوفتيْن بالمخاطر وبالإلتفاف الشعبي وهما حالة الرئيس إميل لحود في لبنان وحالة الرئيس محمد خاتمي في إيران

حقائق حول حرب لم تقع والحمدلله 397
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 18 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998
كيف أن الرئيس بيل كلينتون لم يعطِ الضوء الأخضر لحرب أميركية – بريطانية على العراق لكنه بعد ذلك لم يسجل تحفظاً عليها

الذئب الإسرائيلي المغفور من هولندا... وغيرها 399
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 20 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998
كيف يغفر العالم ذنوب إسرائيل ومن بينها فضيحة حادثة سقوط طائرة "العال" المحمَّلة براميل من الغازات السامة فوق ضاحية سكنية في أمستردام

وجهة نظر في الكازينو الفلسطيني..... 401
صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1998
عندما أوحى مشروع إنشاء كازينو القمار في أريحا والذي جرى إفتتاحه يوم الثلاثاء 15 سبتمبر(أيلول) 1998 بأن الدولة التي وعد بها أبو عمار الشعب الفلسطيني، أو "شعب الله المحتار" بالحاء (لأن الخاء تخص ما هو شائع في شأن الشعب اليهودي) ويؤكد أن عاصمتها القدس قد لا تقوم لها قائمة

نازية القرن الواحد والعشرين بين "سي. إن. إن" وعلماء إسرائيل..... 403
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 25 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998
تساؤل يتعلق بمحطة "سي.إن. إن" وكيف عالجت سقوط الطائرة الإسرائيلية فوق ضاحية من العاصمة الهولندية محمَّلة ببراميل وتحوي مواد تُستخدم في إبادة الجنس العربي

عماد واحد لا عمادان.. فمتى الهجرة المعاكسة 404
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 2 ديسمبر (كانون الأول) 1998
قراءة في أفكار وتطلعات جنراليْن لبنانييْن أحدهما (العماد إميل لحود) مترئس الجمهورية والآخر (العماد ميشال عون) يصارع لنيل الرئاسة غلاباً بعد التمني

الحريري المعترِض وليس المُعارِض 406
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 ديسمبر (كانون الأول) 1998
مقارنة في صيغة تحليل بين رفيق الحريري المغادر رئاسة الحكومة معترضاً ورفيق الحريري المعارض

خواطر عن الحص الجار.. الرئيس 408
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 ديسمبر(كانون الأول)1998
تأملات الكاتب (فؤاد مطر) عن الرئيس سليم الحص بحُكْم مصادفة أنهما جاران في مبنى واحد

العراق والكويت على خطى اليابان والصين؟ 410
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 30 ديسمبر (كانون الأول) 1998
التمني بحدوث خطوة تصـــالحية بين العراق والكويت من نوع الخطوة التي تمثلت بزيارة رئيس الصـــين المعتدى عليها ماضياً من الأمبرطورية اليابانية

خيارات أمام رفيق الحريري..... 415
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 يناير (كانون الثاني) 1999
تساؤلات حول رفيق الحريري هل يعود رئيساً للحكومة أم يفضل البقاء معترضاً إلى حين

خيمة الحص والحريري الرمضانية 416
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 13 يناير (كانون الثاني) 1999
في رمضـان الأول لرفيق الحريري بعدما لم يعد رئيساً للحكومة ورمضـان الأول لسليم الحص بعدما عاد رئيساً للحكومة حدثت ظاهرة جديدة على الحياة السياسية اللبنانية وهي أن يقيم كل منهما خيمة رمضانية

المبادرة التي... ضيَّعها العراق..... 418
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 يناير (كانون الثاني) 1999
مبادرة طيِّبة صـــدرت عن الملك فهد بن عبد العزيز وكان يمكن أن تؤسِّـــس لإنفراجات في أحوال المنطقة عموماً لو أن الرئيس صدَّام حسين وافق عليها

أمثولتان من إيران إلى بعض الثوريين العرب..... 420
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 27 يناير (كانون الثاني) 1999
إشارتان من إيران برسم الثوريين العرب تؤكد كل منهما أن الأخذ بالديموقراطية أسلوباً للتعامل ممكن، وبالتالي فلا موجب للقمع ولابأس بتعدد الأفكار والإتجاهات

محنة الحسين والحسن... وأسبوع الآلام الأردني الهاشمي (مقالتان)..... 421
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 1 فبراير (شباط) 1999
تأملات في مفاجآت هاشمية تمثلت بقرارَيْن تاريخيَيْن أصدرهما الملك حسين الذي كان يعيش ساعاته الأخيرة

عندما يتوتر البعث تتأثر اللهفة العربية 426
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 فبراير (شباط) 1999
واقعتان تعكسان حالة اللهفة العربية عندما يتوتر نظام "البعث" الحاكم في سوريا و"نظام البعث" في العراق

ثورة شاخت في عز شبابها..... 428
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 فبراير(شباط) 1999
قراءة في حالة الثورة الإيرانية التي شاخت في عز شبابها كما حال ثورات عربية أُخرى

فقيدان للإجتهاد والإستدارة 429
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 فبراير (شباط) 1999
.. والفقيدان اللذان إختارا مسلك الإجتهاد في شأن الصراع العربي – الإسرائيلي هما العاهل الأردني الملك حسين والكاتب المصري اليساري لطفي الخولي

أتاتورك... كردي 431
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 فبراير (شباط) 1999
عندما بات الزعيم الكردي عبدالله أوجالان في نظر بني قومه مثل الزعيم التركي كمال أتاتورك

الأحوال اللبنانية... والحريري المتجدد 433
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 مارس (آذار) 1999
قراءة في الأحوال اللبنانية وإحتمالات عودة رفيق الحريري رئيساً للحكومة على أن يكون جدَّد نفسه. كيف؟

بحرين الشيخ عيسى... والأبناء البررة..... 434
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 مارس (آذار) 1999
عن البحرين وقائدها الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة إنطباعات للكاتب (فؤاد مطر) عن زيارة للدولة والتحادث مع الشيخ عيسى وبعض رموز الحُكم في الدولة

شهر عربي إستثنائي..... 436
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 مارس (آذار) 1999
لماذا إن شهر فبراير(شباط) من العام 1991 كان إستثنائياً وما هي المفاجاءات التي حدثت خلال بعض أيامه

عيدية بو فيصل للأمتين 438
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 29 مارس (آذار) 1999
مبادرة من جانب الملك فهد بن عبدالعزيز إكتسبت صفة عيدية للأمتين العربية والإسلامية كونها حدثت في عيد الأضحى المبارك

خيمة القذَّافي... وصومعة كمال جنبلاط 440
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 مارس (آذار) 1999
مقارنة بين خيمة معمَّر القذَّافي التي يطيب له الإقامة فيها حتى وهو في زيارات رسمية خارج البلاد، وصومعة الزعيم السياسي اللبناني الراحل كمال جنبلاط التي كان يقصدها للتأمل وبالذات عند إشتداد الأزمات... وما أكثرها

تساؤلات برسْم إميل لحود..... 442
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 31 مارس (آذار) 1999
أمور يتوقع اللبنانيون والخليجيون، والعرب والأجانب عموماً، من الرئيس اللبناني إميل لحود حسْمها ولكن لا يحدُث ذلك

أي صحافة... أي عرب..أي مصير؟ 444
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 2 أبريل (نيسان) 1999
تساؤل في ذكرى اليوبيل الفضي لصحيفة "السفير" حول ما إذا كانت الصحف اللبنانية ستصمد في القرن الواحد والعشرين، أو تتوارى الواحدة بعد الأُخرى إن هي لم تندمج في تكتلات

في إنتظار إستعادة الجزائر 446
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 أبريل (نيسان) 1999
تساؤل حول ما إذا كانت إنتخابات الرئاسة الجزائرية يوم 15 أبريل(نيسان) 1999 ستعيد الجزائر إلى دورها ورونقها

بالمرونة... وليس بالتماثيل 448
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 أبريل (نيسان) 1999
حول تمثال قرر مجلس الوزراء العراقي إقامته في بغداد ويمثِّل الولايات المتحدة كشيطان غاضب يمص دماء الناس

ضجة الناصرة... بعد اللاذقية 450

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 16 أبريل (نيسان) 1999

قراءة في مواجهات شـهدتْها مدينة الناصـرة في فلسـطين المحتلة وتحت سـمْع الإسـرائيليين وبصـرهم، بين مسـلمين ومسيحيين لخلاف حول بناء مسجد بالقرب من كنيسة البشارة

عرفات الدائن.. و.. كلينتون المدين 451

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 أبريل (نيسان) 1999

حول تمثال قرر مجلس الوزراء العراقي إقامته في بغداد ويمثِّل الولايات المتحدة كشيطان غاضب يمص دماء الناس

حروب.. وحكام.. وتمنيات..... 453

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 23 أبريل (نيسان) 1999

ما يتمناه المواطن العربي وهو يرى في المشـهد الدولي حروباً يحتار المرء في موجباتها وما أحدثته من ويلات لشـعوب كثيرة ويأمل خيراً لنهاية لها

الأسد الدائم... والأردن الجديد 455

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 28 أبريل (نيسان) 1999

نظرة على مسـتقبل العلاقة السـورية – الأردنية في ضـوء الزيارة الأُولى التي قام بها الملك الأردني الشـاب عبد الله بن الحسين إلى سوريا وعاد منها بإنطباعات جيدة عن الرئيس حافظ الأسد ونجله الدكتور بشار التي تشير التطورات إلى أنه سيواصل مِن بعده

الدولة: اللعبة.. والمتلاعبون 457

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 5 مايو (أيار) 1999

قراءة في إعلان إرجاء إعلان الدولة الفلسطينية في اليوم المقرر لإعلان قيامها وبذلك إنتهت المسألة إلى أن الدولة عبارة عن لعبة وعن متلاعبين بها

جولة خاتمي... و"فوكلاند الشيخ زايد" 459

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 مايو (أيار) 1999

تأملات في الجولة العربية الأُولى للرئيس الإيراني محمد خاتمي التي شملت سوريا والسعودية وقَطَر بينما لا تزال بلاده تحتل الجزر الإماراتية الثلاث، وهو إحتلال يُقلق كثيراً رئيس الدولة الشـيخ زايد بن سـلطان الذي يتطلع إلى حل هذه المشكلة في حياته فلا يورّثها لمَن بعده

الحمائم العربية على طريق العودة 460

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 21 مايو (أيار) 1999

قراءة مبكرة لعودة محتملة لقطبيْن سياسييْن تونسييْن يعيشان في المنفى وباتت الظروف تشجع على العودة

صقور سودانية... لم تعد جارحة 462

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 مايو (أيار) 1999

حول عودة محتملة للرئيس الأسبق جعفر نميري والزعيم السياسي الصادق المهدي إلى السودان بعد غياب دام سنوات. وكلاهما لم يعد من الصقور الجارحة

زيارة لحود... ومطالعة الحريري..... 464

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 مايو (أيار) 1999

قراءة في معنى الزيارة الأُولى التي يقوم بها الرئيس إميل لحود إلى بلد عربي (الأردن) ومطالعة بالأرقام يرُد فيها الرئيس الحريري على حملة التجريح التي إستهدفت سنوات ترؤسه الحكومة

من أجْل أن يستقر السودان في المحور الأميركي للقرن الحادي والعشرين..... 466
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 30 مايو (أيار) 1999

رؤية في الأحوال السـودانية بعد مفاجأة عودة الرئيس الأسـبق جعفر نميري من إغترابه الإضـطراري – الإختياري في مصر ومحاولة إستعادة سيد الختمية محمد عثمان الميرغني وسيد الأنصار الصادق المهدي من إغترابهما المشابه

رئيس.. لا خلاف عليه..... 471
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 يونيو (حزيران) 1999

تقييم للرئيس حسـني مبارك لمناسـبة مبايعته لفترة رئاسـية رابعة وبذلك يكون أول رئيس جمهورية في تاريخ مصـر يحكم أربع فترات رئاسية

العِبَر كثيرة ... والإعتبار القليل..... 473
صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 10 يونيو (حزيران) 1999

حول ورقة سياسية فاعلة لَعبتْها بعض الأنظمة العربية بمهارة وساهمت في إسقاط نتنياهو وفوز إيهودا باراك الذي يطالبه وليّ العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز بأن لا يكون نتنياهو آخر

صراع مع... الإحباط..... 475
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 يونيو (حزيران) 1999

نظرة على أسـلوب الرئيس اللبناني إميل لحود في معالجة الإحباط في أوسـاط الطائفة المارونية ومعنى حضـوره نصـف الساعة الأخير من مباراة في كرة السلة

مَن يتلاعب.. بلبنان 477
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 يونيو (حزيران) 1999

ظاهرة لافتة تتمثل بتعريض الرئيس إميل لحود برئيس الوزراء السابق رفيق الحريري من خلال الوكالة الرسمية للأنباء

وفاق عربي غير مرحَّب به؟..... 479
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 30 يونيو (حزيران) 1999

نظرة على تبدُّل في المشاعر لمصلحة تحقيق وفاق بين الأنظمة العربية لا يبدو أن الإدارة الأميركية تريد حدوثه

فائدة مزدوجة للبنانيين... وإيران..... 481
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 يوليو (تموز) 1999

حول قضية الثلاثة عشر يهودياً وما إذا كانت ستؤثر على العلاقات الإيرانية – العربية وكيفية إستفادة لبنان من هذه القضية

قمة خريف العرب 483
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 يوليو (تموز) 1999

نظرة على قمة عربية حدث نوع من التفاهم على أن تكون شاملة بحيث يشارك فيها العراق، أملاً بأن تكون قمة السلام

أمثولة للبنان من مصر السياحية..... 484
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 يوليو (تموز) 1999

أمثولة مصدرها مصر السياحية يمكن أن يتأمل فيها لبنان وبذلك يحقق إستفادة مجزية منها

سيناريو السلام بروحية الحسن الثاني..... 486
صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 27 يوليو (تموز) 1999

قراءة في سيناريو لتحقيق السلام في الشرق الأوسط وفْق روحية الملك الحسن الثاني لهذا السلام الذي فقده يوم الجمعة 23 يوليو (تموز) 1999، وهو ذكرى الثورة المصرية التي قام بها " الضباط الأحرار" بقيادة جمال عبد الناصر

مصافحات... لا تشغل البال 488

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 1 أغسطس (آب) 1999

حول جنازة الملك الحسن الثاني الشريك الفاعل والقادر في تهدئة الصراع العربي – الإسرائيلي والمصافحات التي جرت بين بوتفليقة وباراك

أحزان وأفراح كُروية..... 490

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 4 أغسطس (آب) 1999

نظرة على أسلوب تعامُل وسائل الإعلام والمراجع الرسمية مع مباراة في كل من مصر والمملكة العربية السعودية مع مباراة في كرة القدم خاضها منتخباهما في المكسيك وإنتهت بفوز متميز للمنتخب السعودي

تعاطُف عربي في غير محله..... 491

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 11 أغسطس (آب) 1999

عن حالة من التعاطف العربي مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون وزوجته هيلاري سرعان ما تلاشت بالتدرج ملامح هذا التعاطف

مسألة الإسم بين الترابي وكدُّودة..... 493

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 18 أغسطس (آب) 1999

حول مبادرة الدكتور حسن الترابي لتوحيد أطياف المعارضة السودانية والحُكْم في حزب واحد وتغيير إسم "المؤتمر الوطني" وهي مبادرة أخذت حقها من المناقشات والمشاورات

أمثولة الكسوف... للحكام والمحكومين..... 495

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 25 أغسطس (آب) 1999

قراءة في ظاهرة كسوف الشمس وكيف أنها أمثولة للحكام والمحكومين على حد سواء وأن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان نعمة العِلْم بالكسوف

عبدالعزيز بوتفليقة... ذلك الوسيط العربي 496

صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 31 أغسطس (آب) 1999

تأملات في تجربة الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة الديبلوماسية وفي أسلوبه عند التعاطي مع المواقف والوقفات بعدما بات رئيساً للجزائر

الرياض – بيروت... والرونق الثقافي..... 500

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 سبتمبر (أيلول) 1999

نظرة على العاصمة اللبنانية بيروت التي لم يكتمل رونقها في العام 1999 كعاصمة للثقافة العربية، وكيف أن الرياض ستعوضها في العام 2000 هذا الرونق

مجرد شهود أم هيئة محلَّفين؟..... 501

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 8 سبتمبر (أيلول) 1999

حول الزيارة التي قام بها وفد الكونغرس الأميركي إلى العراق وهل سيكون الوفد شاهد عيان أم أنه هيئة محلَّفين تعرض الوقائع بأمانة وبما يلقى التقدير وإنحسار التحفظات

الحريري المرجعية وإجازته القسرية 504

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 12 سبتمبر (أيلول) 1999

قراءة في ظاهرة غير مطروقة في الحياة السياسية في لبنان وهي أن يتعامل أهل القرار الدولي مع رئيس وزراء سابق (رفيق الحريري) دون غيره من الرؤساء السابقين وكأنه مرجعية لابد من سماع رأيها

العراق بعد ليبيا... أهمية إعادة النظر 505
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 سبتمبر (أيلول) 1999
قراءة في تحوُّل العقيد معمَّر القذَّافي من العروبة والوحدة العربية إلى الأفريقية في ضـــوء إنعقاد قمة إســـتثنائية لمنظمة الوحدة الأفريقية في مسقط رأسه "سرت"

الطبيعي وغير الطبيعي بين إيران والعرب..... 507
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 سبتمبر (أيلول) 1999
حول العلاقة بين إيران والدول العربية وبين ماهو طبيعي أو غير طبيعي في المطالب وكيف أن من حق الإمارات المطالَبة بالجزر الثلاث والرد الغير الطبيعي من إيران

ملكات... ورئيسات... وأقدار 509
صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 1999
إضاءة على ظاهرة نسائية حيث باتت هنالك الملكة مثل رانيا والرئيسة مثل أنديرا غاندي وكيف أن الظروف لم تساعد زوجة إبنها على الترؤس

رشوة الغاز الفلسطيني بدلاً من القدس..... 511
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 سبتمبر (أيلول) 1999
كيف أن إكتشاف حقل غاز في البحر مقابل غزة هو مشروع رشوة إسرائيلية للسُلطة الفلسطينية بأخذ الحقل مقابل التخلي عن القدس المأمول أن تكون عاصمة الدولة الفلسطينية

رئاسات متجددة... من قرن إلى قرن..... 512
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 أكتوبر (تشرين الأول) 1999
حول ظاهرة تمديد ولايات الرئاسة في عدد من البلدان العربية وكيف أن ثلاثة رؤساء سيوصِلون القرن العشرين بالواحد والعشرين وما يعنيه ذلك للوطن والمواطن

الجزائر التي تتأمرك.. خطوة خطوة..... 514
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 13 أكتوبر (تشرين الأول) 1999
حول لقاء الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة مع قائد الأســـطول الأميركي والقرار الذي إتخذه الرئيس الجزائري في شـــأن تأمرُك بلاد خطوة خطوة

لبنان في الذكرى العاشرة لمؤتمر الطائف..... 516
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 أكتوبر (تشرين الأول) 1999
نظرة على أحوال لبنان في الذكرى العاشرة لإتفاق الطائف الذي وضع نهاية لأبشع حرب عاشها لبنان، ويعود الفضل في إنجازه إلى الملك فهد بن عبدالعزيز

كلمة حق برسم إبن عشيرة أردنية 517
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 27 أكتوبر (تشرين الأول) 1999
حول الحادث الذي تعرَّض له رئيس مجلس النواب الأردني عبد الهادي المجالي وعدد من النواب الأردنيين خلال وجودهم في الحرم الإبراهيمي

جوارح أميركا... وقمة العرب..... 519
صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 30 أكتوبر (تشرين الأول) 1999
كيف أن أربعة من طاقم إدارة الرئيس الأميركي بيل كلينتون يقومون بجولة الغرض منها إفتراس فرصـــة لجمْع الشمل العربي

بيريز الذي يسحر الآخرين 520
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 نوفمبر (تشرين الثاني) 1999
حول شخصية شيمون بيريز وقدرته في إقناع شخصيات إسلامية مرموقة عربية وإسلامية بأن إسرائيل ليست دولة عنصرية

المظلوم يُنصَف... ولو بعد حين..... 522
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 نوفمبر (تشرين الثاني) 1999
حول إنصاف بعض رؤساء الجمهورية في دول عربية وأسيوية مثل إنصاف الرئيس أحمد سوكارنو في أندونيسيا

مظاهر ثأرية لا جدوى منها 524
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 نوفمبر (تشرين الثاني) 1999
تأملات في المظاهر الثأرية التي يلجأ إليها العراق من خلال وضْع صورة الرئيس جورج بوش (الأب) على أرضية مدخل "فندق الرشيد" في العاصمة العراقية بغداد

ما بعد إنتفاضة الصحن المكسور في الكويت 525
صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1999
حول ظاهرة الإنفتاح الذي بدأه السادات وأكمله مبارك وعن الهجرة الكثيفة إلى البلاد العربية وعن حادثة كسْر الصحن الذي تحوَّل إلى معارك في الكويت

بعض معاني إستضافة قَطَر لقادة حركة "حماس"..... 527
صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 23 نوفمبر (تشرين الثاني) 1999
حول إستضافة دولة قَطَر لقادة حركة "حماس" على نحو تصرُّف الرئيس عبد الناصر والسادات ونميري مع خصومهم السياسيين وإرتضاء الأردن بذاك التصرف

ألغام في زمن البحث عن السلام..... 529
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 ديسمبر (كانون الأول) 1999
نظرة على واحد من ألغام سياسية – دينية زرعتْها إسرائيل ومنها السماح لمسلمي الناصرة بناء مسجد قُرب كنيسة البشارة

الجنرال الراقص... والوزير المتسول 531
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 8 ديسمبر (كانون الأول) 1999
حول عبارات أطلقها إيهود باراك بأن السلام كرقصة "التانغو" وعبارة يرددها ديفيد ليفي بأن إسرائيل لن تتسول السلام من سوريا

تأملات في نهاية أمبراطورَيْن يهوديَيْن 532
صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 11 ديسمبر (كانون الأول) 1999
قراءة في نهاية مفجعة لإثنيْن من الأباطرة اليهود: أمبراطور في مجال الإعلام هو روبرت ماكسويل، وأمبراطور في مجال المال والمصارف هو إدمون صفرا

مكان مجلس التعاون الخليجي في زمن " العروبة الإقتصادية"..... 534
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 ديسمبر (كانون الأول) 1999
نظرة على "مجلس التعاون الخليجي" في ضوء القمة العشرين له التي عُقدت في العاصمة السعودية الرياض وكانت الأخيرة في القرن العشرين

السحر الذي إنقلب على الساحر في السودان 536
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 17 ديسمبر (كانون الأول) 1999
حول إنقلاب الفريق عمر حسن البشير على الدكتور حسن الترابي في السودان والتغييرات الحاصلة

هموم أقل... إهتمامات أكثر 538
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 ديسمبر (كانون الأول) 1999
قراءة في صـورة الموقف العربي في ضـوء السـلام الذي يمكن أن يسـفر عنه التفاوض السـوري – الإسـرائيلي وكذلك التفاوض اللبناني – الإسرائيلي

لا شعور بالحزن... ولا إحساس بالسعادة..... 540
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 ديسمبر (كانون الأول) 1999
حول الإنتقال من قرن إلى قرن والإحساس المسيطِر هو أنه لا شعور بالحزن ولا إحساس بالسعادة

السودان .. وإنقاذ ما أمكن إنقاذه..... 545
صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 يناير (كانون الثاني) 2000
قراءة في التطورات السودانية الناشئة عن قرار الفريق عمر البشير تحجيم الشريك المدني الدكتور حسن الترابي

السلام السلعة... والسلام القضية..... 546
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 يناير (كانون الثاني) 2000
نظرة على تحويل السلام في الخطاب الإسرائيلي السياسي من السلام الخلاص والسلام القضية إلى السلام السلعة

الحريري الذي صار معارضاً على الطريقة الإنكليزية..... 548
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 16 يناير (كانون الثاني) 2000
كيف أن معارضة الرئيس رفيق الحريري أصبحت أقرب إلى المعارضة على الطريقة المأخوذ بها في بريطانيا

خيبات أمل ... ثورية 550
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 يناير (كانون الثاني) 2000
قراءة في خيبة أمل الرئيس الإيراني السـيد محمد خاتمي من الولايات المتحدة التي حاول الإنفتاح عليها، وفي خيبة أمل العقيد معمَّر القذَّافي المماثلة بعد تسليمه الشابيْن المتهميْن بحادثة لوكوربي

القاتل يُقتل... ولو بعد حين 552
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 يناير (كانون الثاني) 2000
حول عملية قتْل السفاح الصربي أركان مرتكب أبشع الجرائم في البوسنة وكيف أن من يقتل سوف يُقتل ولو بعد حين

كلينتون المتقاعد.. وهيلاري "الشيخة" 554
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 30 يناير (كانون الثاني) 2000
نظرة على ترشيح السيدة هيلاري لمجلس الشيوخ الأميركي ونهاية ولاية زوجها بيل كلينتون وما يترتب عن ذلك

تكريم إسرائيلي يثير التساؤلات..... 555
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 2 فبراير (شباط) 2000
ظاهرة تثير الإستغراب لم تلق سوى الدهشة الشديدة وتتعلق بإصدار طابع بريدي في إسرائيل يحمل صورة الملك الأردني حسين

نكهة عربية في معاقبة النمسا..... 557
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 فبراير (شباط) 2000
حول معاقبة النمسـا من قِبَل الدول الغربية والولايات المتحدة ولكن بطريقة مماثلة لتلك التي إعتمدتْها الدول العربية تجاه مصر السادات رداً على إبرامه السلام مع إسرائيل

معادلة غير مطروقة: من معرض الرياض إلى الجنادرية 559
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 فبراير (شباط) 2000
إنطباعات حول مهرجان الجنادرية ربطاً بـ "معرض الرياض بين الأمس واليوم"

إنجازات... إنقلابية..... 561
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 فبراير (شباط) 2000
حول الإنقلاب الذي قاده الرئيس عمر حسن البشير على شريكه الدكتور حسن الترابي وكيف صححت العملية الإنقلابية علاقات السودان مع عدد من الدول الجارة والشقيقة والدول البعيدة

قراءة هادئة في تحرُّك عاصف..... 563
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 27 فبراير (شباط) 2000
تأملات في زيارة الرئيس حسني مبارك المفاجئة والقصيرة للبنان وما الذي أراده الرئيس المصري من ورائها

قراءة في جولة الأمير عبدالله..... 565
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 3 مارس (آذار) 2000
تحليل لجولة قام بها وليّ العهد السعودي الأمير عبدالله شملت كلاً من القاهرة ودمشق وبيروت وسجَّل خلالها موقفاً أساسياً حول المقاومة في لبنان مؤكداً أنها ليست "إرهاباً" على نحو ما صنَّفها ظالماً ومتجنياً ليونيل جوسبان

جوسبان أكل الحصرم فمَن سيضرس؟ 567
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 10 مارس (آذار) 2000
... وتحليل يكمل التحليل السابق ويحاول الإجابة عن الدواعي التي جعلت جوسبان يدلي وهو في إسرائيل بالتصريحات التي يعتبر فيها "المقاومة الإسلامية" "إرهاباً"

ربيع حسنين... الإعلامي – السياسي..... 569
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 12 مارس (آذار) 2000
كلمة حق في الإعلامي والسياسي السوداني ربيع حسنين الذي عاش في الشتات إلى أن أسلم الروح

إبتكار خليجي برسم الحكام والحكومات..... 569
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 مارس (آذار) 2000
نظرة على "الهيئة الإستشارية لمجلس التعاون الخليجي " في ضوء لقاء مع الأمين العام للمجلس الشيخ جميل الحجيلان وعدد من أعضاء هذه الهيئة

دبلوماسية التفهم المتبادَل في مؤتمر بيروت..... 572
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 19 مارس (آذار) 2000
حول أسرع مؤتمر في تاريخ المؤتمرات التي عقَدَها وزراء الخارجية العرب. وهذا المؤتمر السريع جرى عقْده في السراي الحكومي في بيروت

BILL OF ARABIA 574
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 مارس (آذار) 2000
قراءة في لقاء الرئيسيْن بيل كلينتون وحافظ الأسد في جنيف كان الثالث بينهما بعد اللقاء الأول الذي تم في جنيف أيضاً يوم 16-1-1994 والثاني في دمشق يوم 27-10-1994 من العام نفسه

لبنان... اللجوء العشوائي ولبنان... اللجوء بالبطاقة 576
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 مارس (آذار) 2000
حول مؤتمر صحافي عقده المدير العام للأمن العام اللواء جميل السيد ويتعلق بتنظيم اللجوء السياسي إلى لبنان

مبارك ... والمسألة الضميرية 578
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 5 أبريل (نيسان) 2000

حول حضور المسألة الضميرية في وجدان الرئيس حسني مبارك أثناء معاهدة السلام التي أبرمها سلفه الرئيس أنور السادات، وكيف أن هذه المسألة تكون حاضرة في وجدان الرئيس مبارك في كل مرة يزور واشنطن وفي كل مرة يستقبل في مصر مسؤولين إسرائيليين

ملك... الجمهورية التونسية..... 580
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 9 أبريل (نيسان) 2000

قراءة في ظاهرة الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة لمناسبة رحيله صباح يوم الخميس 6-4-2000 عن 96 عاماً

الضجر العربي... والجهاد المسالم..... 581
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 أبريل (نيسان) 2000

نظرة على حالات ضجر من السياسة الأميركية وضغوط إدارة الرئيس بيل كلينتون على دول كثيرة لكي تبادر إلى تطبيع علاقاتها مع إسرائيل

سلام رفيق الحريري... وسلام كوفي أنان 583
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 أبريل (نيسان) 2000

نظرة على السلام الذي يتطلع إليه الرئيس رفيق الحريري .. والسلام الذي يريده كوفي أنان للمنطقة

الفورة السياحية بعد الفورة النفطية 585
كُتبت لـ "الشرق الأوسط" بتاريخ الخميس 20 أبريل (نيسان) 2000

حول توجُّه مفاجئ من الحكومة السعودية قضى بإنشاء "الهيئة العليا للسياحة" التي هدفها الإهتمام بالسياحة في المملكة وتنميتها وتطويرها والعمل على تعزيز دور قطاع السياحة وتذليل معوقات نموه بإعتباره رافداً مهماً من روافد الإقتصاد الوطني فضلاً عن البُعد الإجتماعي للسياحة

الإستطلاع الأميركي... المتجرد والنزيه 587
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 أبريل (نيسان) 2000

تساؤل في شأن حقيقة مشاعر الرأي العام العربي من خلال إستطلاع يمكن أن يجريه مركز أبحاث نزيه ومتجرد

أبو عمار... ودبلوماسية إرتكاب "اللياقة" 589
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 مايو (أيار) 2000

حول مفاجأة تتعلق بالرئيس ياسر عرفات وتتمثل بـ "إقترافه" يوم الخميس 20 أبريل (نيسان) من العام 2000 طبْع قبلة على اليد اليسرى لوزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت عند إستقبالها له في منزلها في جورج تاون في واشنطن

لا صوت يعلو... على صوت الإنسحاب..... 590
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 5 مايو (أيار) 2000

حول الإنسحاب الإسرائيلي المتوقع من جنوب لبنان تطبيقاً للقرارَيْن 425 و426 في ضوء الرسالة الخطية ذات السطور الخمسة التي تتعهد بها إسرائيل بالإنسحاب والتي تم الإعلان عن أن الأمم المتحدة تسلمتْها

جورج حبش... وحكمة الإستقالة 592
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 مايو (أيار) 2000

قراءة في الإستقالة من منصب الأمين العام لـ "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين " التي إتخذ الدكتور جورج حبش القرار في شأنها في يوبيله الماسي، والتي جاءت نتيجة الشعور بالإحباط من جهة وتلاشي ظاهرة الدولة الرافضة التي يمكن أن تستضيف الرافضين من جهة أُخرى

صراع الرأسيْن في السودان... وعليه 594
صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 13 مايو (أيار) 2000

قراءة في طبيعة الصراع الذي نشب فجأة بين قطبيْ الحُكْم في السودان وهما الرئيس عمر حسن البشير والدكتور حسن الترابي وأهمية هذا الصراع بالنسبة إلى أقطاب المعارضة الذين ينشطون ضد النظام من الخارج

عروبة الماروني... المستقيم الرأي 596
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 مايو (أيار) 2000

وجهة نظر في حالة ســياســية لبنانية متميزة وتكاد تكون نادرة وتتمثل في الزعيم المســيحي الماروني ريمون إده وكيف ينظر إلى مسألة العروبة

مصر وسوريا: وليمتان... وإنتحاران 598
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 مايو (أيار) 2000

قراءة في حادثة إنتحار رئيس الحكومة السورية محمود الزعبي يوم 21 أيار(مايو) 2000 داخل "الفيللا" التي يسكنها في إحدى الضواحي الراقية من دمشق، وفي رواية من تأليف السوري حيدر حيدر أثار نشْرها في مصر أزمة كادت تتسبب في محنة

التحدي العربي لإسرائيل... والإبتهاج مع بعض التحفظ..... 600
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 31 مايو (أيار) 2000

نظرة على إبتهاج اللبنانيين بالإنتصار على إسرائيل الذي تَحقَّق في جنوب لبنان وعلى التحفظ المحلي والعربي في التعامل مع هذا الإنتصار

نهاية زمن المعارضة السودانية المهاجرة والمهجَّرة 602
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 يونيو (حزيران) 2000

حول خطوات التفاهم الذي بات ممكناً بين نظام الرئيس عمر حسن البشير في السودان وأقطاب المعارضة

الألماني الأخضر يجرب حظه..... 603
صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 13 يونيو (حزيران) 2000

ما الذي جعل الوزير الألماني جوشكا فيشر يقرر الدخول إلى حلبة الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني ولم يحرق المسعى مكانته في دائرة الحُكم في ألمانيا

تأملات في رحيل حافظ الأسد 605
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 يونيو (حزيران) 2000

حول الرحيل المباغت للرئيس حافظ الأســد يوم الســبت 10 حزيران(يونيو) 2000 مقارنة بالرحيل المبكر للرئيس جمال عبد الناصر يوم 28 أيلول (سبتمبر) 1970

زائر الضاحية الجنوبية في وضْح النهار... 607
صحيفة "الشرق الأوسط" – يونيو (حزيران) 2000

قراءة في زيارة مفاجئة وغير متوقعة قام بها الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان صباح يوم الثلاثاء 20 حزيران(يونيو) 2000 إلى زميله في منصب الأمانة العامة السيد حسن نصرالله في الضاحية الجنوبية من بيروت

دبلوماسية فاروق الشرع وعدم دبلوماسية ياسر عرفات 609
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 يونيو (حزيران) 2000

تأملات في دبلوماسية وزير الخارجية السورية فاروق الشرع إزاء قضايا عالقة وتحتاج إلى حسْم ودبلوماسية رمز الثورة الفلسطينية ورئيس السُلطة الوطنية ياسر عرفات

فرحة أردنية لم تكتمل 611
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 4 يوليو (تموز) 2000
حول فرحة الأردنيين بإختيار الملك عبدالله شخصية إقتصادية لترؤس الحكومة هو المهندس علي أبو الراغب وكيف أن هذه الفرحة لم تكتمل بسبب تحديات أمنية ووطنية

رهان أبو عمار.. و «الروبوت» الفلسطيني 613
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 9 يوليو (تموز) 2000
حول مسعى قام به الرئيس الأميركي بيل كلينتون مع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات ورئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود باراك

دولة محايدة للشعبيْن وأديان ثلاثة لله... 614
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 يوليو (تموز) 2000
وجهة نظر في شأن حل للنزاع الفلسطيني – الإسرائيلي يقوم على أن تكون هنالك دولة محايدة تجمع الشعبين تحمل تسمية "الدولة اليهودية – الفلسطينية المتحدة" أو "دولة السلام" بدلاً من دولة إسرائيل القائمة والدولة الفلسطينية المؤمل قيامها وعاصمتها القدس

لكي يعود عرفات مكسور الخاطر 616
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 يوليو (تموز) 2000
تأملات في عوائد قمة يعقدها الرئيس ياسر عرفات مع الرئيس بيل كلينتون وهل يعود منها القائد الفلسطيني بخاطر مجبور وليس مكسوراً

الضغط... وما أدراكم ما الضغط 618
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 يوليو (تموز) 2000
قراءة في أزمة صحية عابرة أصابت الكاتب (فؤاد مطر) في زمن كانت حالات الضغط الناشئ عن ممارسات أهل السياسة في أوجها

لبنان القوي سياسياً على خط العجز مالياً..... 620
صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 3 أغسطس (آب) 2000
حول مأزق لبنان وكيف أن هذا البلد قوي كورقة سياسية وضعيف إلى درجة العجز كأحوال مالية وإقتصادية

أطلبوا المصالحة... ولو في كاراكاس 622
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 أغسطس (آب) 2000
تساؤل في شأن معجزة يمكن أن تجترحها منظمة "أوبيك" بعدما لم تستطع لا الجامعة العربية ولا "منظمة المؤتمر الإسلامي" تحقيقها

مِن وراء الستار إلى خشبة المسرح..... 625
صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 10 أغسطس (آب) 2000
حول إحتمال أن يأتي يوم يكون فيه رئيس الولايات المتحدة يهودياً، وذلك بعدما تم إختيار جوزف ليبرمان وهو يهودي ليكون نائباً للرئيس عن الحزب الديموقراطي في الإنتخابات الرئاسية يوم 7 نوفمبر (تشرين الثاني) 2000

الأمركة... وقضية «إبن خلدون المصري» 626
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 أغسطس (آب) 2000
نظرة على أزمة شهدتها مصر عُرفت بـ "قضية الدكتور سعد الدين إبراهيم" وكيف كان أسلوب الرئيس حسني مبارك في تَعامله مع هذه الأزمة

عندما يكون الأبعدون... أولى بالزيارة 628
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 27 أغسطس (آب) 2000

حول جولة قام بها الرئيس ياسر عرفات ووصلت إلى طوكيو وبكين. وعلى الرغم من أنها جولة مهمة وخطوة جاءت في الوقت المناسب لدعم الموقف الفلسطيني، لكنها كانت ستبدو أكثر أهمية لو أنها شملت دمشق

من هيكل.. إلى عميمور: وزراؤنا... الذين لا يصمُدون 630
صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 2 سبتمبر (أيلول) 2000

ملاحظات في شأن بعض الإعلاميين والصحافيين والكُتاب الذين باتوا وزراء إعلام في دولهم إلاَّ أنهم لم يصمدوا

الحريري المنتصر... على طريقة خاتمي 631
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 سبتمبر (أيلول) 2000

مقارنة بين فوزيْن مُبهريْن في الإنتخابات: فوز خاتمي في الإنتخابات الرئاسية في إيران والفوز المبهر الذي حققه الرئيس رفيق الحريري في الإنتخابات البرلمانية في لبنان في سبتمبر (أيلول) 2000

ألفية المصافحة... واللقاء 634
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 10 سبتمبر(أيلول) 2000

حول مصافحتيْن مثيرتيْن للدهشة شهدتهما قمة الألفية في نيويورك يوم الأربعاء 6 سبتمبر(أيلول) 2000: الأُولى بين الرئيس كلينتون والرئيس كاسترو مع أن الأول عاد وتبرأ منها، والثانية بين أمير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ورئيس وزراء إسرائيل ايهودا باراك

أين عرفات ودولته بين اللاعبين والمتلاعبين؟ 636
صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 2000

بعد ما كثُر اللاعبون والمتلاعبون بالقضية الفلسطينية برز تساؤل حول أين هو الرئيس ياسر عرفات إزاء هذه التلاعبات

مساجد... ومتعصِّبون... وعُقلاء 637
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 سبتمبر (أيلول) 2000

حول واقعة أثارت الإستهجان من جانب مسلمي العالم شهدتْها مدينة "نيس" الفرنسية وبطلها رئيس البلدية وعكست مدى بشاعة التعصب عند بعض الفرنسيين، وكيف أنه بسبب هذا التعصب لا يراعي ذلك المسؤول مصلحة بلده ولا يحافظ على القيم التي يجب عدم التفريط بها

برلمان الجنراليْن: إميل لحود وحسني مبارك..... 639
صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 2000

مقارنة بين إنتخابات برلمانية جرت في لبنان وأُخرى ستشهدها مصر وماهي أوجه الشبه بين البرلمان الأول للجنرال إميل لحود في ولايته الأُولى والبرلمان الأول للجنرال حسني مبارك في ولايته الرئاسية الرابعة

العراق السلِس... والإنفتاح الجوي المدروس..... 641
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 4 أكتوبر (تشرين الأول) 2000

نظرة على الخطوات المتعلقة بالإنفتاح الجوي المدروس على العراق في ضوء هبوط طائرة أردنية في مطار صدَّام تقل وفداً رسمياً وشعبياً وكيف يمكن تطوير هذا الإنفتاح في حال بات العراق سَلِس التعامل

إنتفاضة بالنيابة عن الأمتيْن 643
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 8 أكتوبر (تشرين الأول) 2000

قراءة في "إنتفاضة الأقصى" التي هي عملياً إنتفاضة بالنيابة عن الأمتين العربية والإسلامية وماهو مطلوب من أميركا إزاء هذه الإنتفاضة

الطريق إلى مقعد العرب في مجلس الأمن..... 645
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 11 أكتوبر (تشرين الأول) 2000

تساؤل حول أحقية العرب في أن يكون المقعد السادس في الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي من حقهم وهو ما أثاره الرئيس حسني مبارك وولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز

خواطر على هامش إنتفاضة الألفية..... 647
صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 14 أكتوبر (تشرين الأول) 2000

بضع خواطر في شأن "إنتفاضة الأقصى" التي يجوز أن نطلق عليها تسمية "إنتفاضة العصر" أو "إنتفاضة الألفية"

قمة الرأي الخاص في مواجهة الرأي العام..... 649
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 18 أكتوبر (تشرين الأول) 2000

حول قمة إستضافها الرئيس حسني مبارك في شرم الشيخ يوم الإثنين 16 أكتوبر (تشرين الأول) 2000 وضمت الملك عبدالله الثاني والرئيس ياسر عرفات والرئيس بيل كلينتون ورئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك

قمة... بقوة الحجارة..... 651
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 25 أكتوبر(تشرين الأول) 2000

قراءة في البيان الختامي للقمة العربية الإستثنائية التي عُقدت في القاهرة يوميْ 21 و 22 أكتوبر (تشرين الأول) 2000 وجاءت نتائجها بقوة فِعل الحجارة التي يرمي بها الفتية الفلسطينيون جنود الإحتلال الإسرائيلي

رئيس لا غنى عنه... وحكومة كثيرة الدسامة..... 654
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 نوفمبر (تشرين الثاني) 2000

كيف أثبتت المشاورات البرلمانية في شأن من يشكِّل الحكومة الثانية في عهد رفيق الحريري أنه هو الشخص الذي لاغنى عنه في هذه المرحلة

اللوبي العربي» في أميركا... بعد فوز أهون الضرَرين..... 656
صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 9 نوفمبر(تشرين الثاني) 2000

حول أهمية الصوت العربي في ضوء الإنتخابات الرئاسية الأميركية والتي إنتهت إلى فوز أهون الضرَرين وهما الثنائي الجمهوري جورج بوش الإبن للرئاسة وديك تشيني لمنصب نائب الرئيس

حرب أهلية أميركية؟ إنها «لعنة الإنتفاضة»!..... 658
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 نوفمبر (تشرين الثاني) 2000

حول الإشكال الرئاسي الذي حدثَ في الولايات المتحدة بين الحزبيْن الجمهوري والديموقراطي والذي بدا كما لو أن "لعنة الإنتفاضة" أصابت الدولة الأعظم

إسرائيل المستشار شرودر... وفلسطين الطبيب هاري فيشر..... 661
صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 21 نوفمبر (تشرين الثاني) 2000

مقارنة بين نموذجيْن ألمانييْن الأول هو المستشار جيرهارد شرودر الذي إستعجل مد إسرائيل بغواصات والثاني هو الطبيب الألماني هاري فيشر المقيم في بلدة "جالا" والمتزوج من فلسطينية مسيحية الذي رماه الصهاينة بصاروخ أحرق بيته وقضى عليه

عودة الإبن البار... الحفيد المدلل: نهاية المطاف أم إستراحة معارض؟..... 663
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 نوفمبر (تشرين الثاني) 2000

قراءة لعودة كبير المعارضين الأنصاري السيد الصادق المهدي إلى السودان بعد أربع سنوات أمضاها في المنفى بدأت فجْر الإثنين 9 كانون الأول (ديسمبر) 1996 عندما غادر منزله تحت جنْح الظلام في إتجاه إريتريا

فتاوى إستنسابية... للإنتفاضة المتواصلة 665
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 ديسمبر (كانون الأول) 2000
حول فتاوى في شأن مقاطعة كل ما هو أميركي بدءاً من "الجينز " مروراً بالمنتجات الإستهلاكية على أنواعها وصولاً إلى " الهمبرغر " والوجبات السريعة، صدرت عن بعض رجال الدين أمثال فريد واصل ومحمد حسين فضل الله ويوسف القرضاوي لدعم "إنتفاضة الأقصى"

تأملات في محاولة ترميم السودان..... 668
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 13 ديسمبر (كانون الأول) 2000
كيف نجح الرئيس السوداني عمر البشير في أن يضع نفسه ضِمن قائمة الجنرالات الذين يمارسون العمل السياسي ويبرعون فيه أمثال الرئيس المصري حسني مبارك والرئيس السوري (الراحل) حافظ الأسد والرئيس التونسي زين العابدين بن علي...

مقاومة... على الصراط المستقيم..... 669
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 ديسمبر (كانون الأول) 2000
نظرة على نوعية المقاومة التي يخوضها "حزب الله" في جنوب لبنان بقيادة الأمين العام للحزب السيد حسن نصرالله وماهي المناقب التي تميزت بها هذه المقاومة التي تسلك الصراط المستقيم...

من هيلاري إلى بربارة... إلى أم محمد سيدات العام 2000..... 672
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 31 ديسمبر (كانون الأول) 2000
وجهة نظر في ثلاث نساء كن "سيدات العام 2000" وهن الأم الفلسطينية متمثلة بـ "أم محمد" والدة الشهيد محمد الدرة وهيلاري كلينتون زوجة الرئيس الأميركي السابق كلينتون وبرباره زوجة الرئيس الأميركي الأسبق جورج بوش...

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

المقالات من مايو 1994 إلى ديسمبر 1994





من يحمي لبنان واللبنانيين في الولاية المقبلة؟

التحدي المزدوج أمام القمة الإسلامية السابعة

الظاهرة الإسلامية بين الحوار والمحاكمة

يا للهول، حول الذي جرى للمصريين... ولنجيب محفوظ

المؤتمر الاقتصادي الدولي... من بعدين مختلفين

قمم الحسن الثاني الصعبة لا خوف عليها ولا منها

مؤتمر الدار البيضاء

الأن زمن الصحوة المسيحية والعودة إلى خيمة الطائف... ولبنان

دفعهم خارج الجولان بالتي هي أحسن...

الشمال شمال، والجنوب جنوب، وكأنهما لن يلتقيا

الشـــمال شـــمال، والجنوب جنوب، وكأنهما لن يلتقيا.. بهذه القناعة يخرج المرء وهو يتابع هذا الشريط المأســـاوي من الحوار الحربي بين شـــرعيتيْ الوحدة: شرعية الشمال بشخص الرئيس علي عبدالله صالح، وشـرعية الجنوب بشـخص نائب الرئيس علي سـالم البيض.

ويخرج المرء أيضـاً وهو يتابع الشـريط المأوسـاي بإسـتنتاج خلاصـته أن طبيعة الحوار الحربي ليسـت نتيجة خلافات في الرأي أو تباين في وجهات النظر كما حاول طرفا الوحدة أن يقنعا مواطنيهما والشـــعب العربي عامة، وإنما هي وليدة عداوة ضـــاربة جذورها في النفوس. ولو أن الأمر كان مجرد خلاف في الرأي ومجرد تباين في وجهات النظر لما كان لأولي الأمر الإحتكام للسلاح ولكانوا أمضوا الساعات الطويلة من المناقشات، وهم، شمالاً وجنوباً، ماهرون فيها، ولكانوا لجأوا إلى الشعر إذا إستعصـي عليهم التفاهم بالنثر، وكل يمني شـاعر أو مشـروع شـاعر. لكن ما حدث، وهو بســيط أمام ما هو مقدر حدوثه، يعكس إنطباعاً خلاصته أن ما بين الطرفيْن مشاعر عدائية، وكما لو أن اليمني الشـــمالي ليس شـــقيق اليمني الجنوبي، أو كأنما لأحدهما أو كلاهما ثأر على الآخر وأنه فقط ينتظر الفرصة المناسبة لترجمة ذلك الشعور.

ومع أن الحوار الحربي ليس جديداً على اليمنيين شمالاً وجنوباً وأنه من تراث الأجداد، إلاَّ أنه لم يحدث في العقود الماضية أن وصلت الرغبة في التدمير إلى الحد الذي وصلت إليه مع طرفيْ الحرب الرئيس علي عبد الله صالح وما يمثله ونائبه علي سالم البيض وما يمثله حيث أن كلاً منهما سـمح لنفســه بإبتكار تقليد جديد في الحروب الناشئة عن حالة غضب إستبدت بشخصيْن يحتكران القرار، وهو إدخال الطيران كسلاح في المعركة، ومن هنا يجد المرء نفســه يتســاءل: أي وحدة هذه التي تحققت فوق هذا الركام الهائل من العداوة وأي وحدة هذه سـينتهي إليها الطرفان، هذا إذا تسنّى لأحدهما أن يحسم الأمر لصالحه؟

ولقد كان واضـــحاً ما فيه الكفاية أن قطبيْ الوحدة اليمنية ســـائران إلى المواجهة منذ أن بدأ التحاور بينهما. وبعدما توصـــل القطبان إلى وثيقة "العهد والإتفاق" التي تم التوقيع عليها في الأردن يوم 20 فبراير/شـــباط 1994 زادت مخاوفنا نحن الذين نراقب التطورات والمناقشات من أن يندلع الحريق اليمني في أي لحظة. ولا بد أن الذين تابعوا الجلســـة التاريخية لحفلة التوقيع برعاية الملك حسين الذي إستضاف ذلك اللقاء لاحظوا كيف أن السيد علي سالم البيض توجه إلى منصـــة التوقيع ووضـــع توقيعه على الوثيقة بينما ملامح وجهه تشـــير إلى أنه كمَن فعل ذلك من دون إقتناع أو فعله مضـــطراً. وما حدث بعد ذلك من تطورات يؤكد هذا الإستنتاج. ولربما كان أفضل لعلي الشـــمالي ولعلي الجنوبي أن يلتقيا في رحاب الجامعة العربية وأن يتم التوقيع وقد أحاط بهما ممثلو كل الدول الأعضـــاء لا أن يتم التوقيع في العاصـــمة الأردنية، ومن دون تفســـير لهذا الإختيار، ولكن الذي حدث حدث وقضي الأمر.

ولكم تمنى الذين يريدون لليمن الخير لو أن الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض بعدما تمّ التوقيع على الوثيقة قاما معاً بجولة عربية، لكن الذي حدث هو أن كلاً منهما قام منفرداً ببعض الزيارات وحدثت مطاردة من نوع المطاردات الدبلوماســـية، بمعنى أنه ما أن يقوم أحدهما بزيارة لبلد عربي حتى يلحق به الثاني، وكأنما الغرض من زيارة الأول هو أن يشكو للذين يزورهم ممارسات الآخر وأن الآخر يقوم بالزيارة ليصـــحح إنطباعاً تركه رفيق الوحدة في نفوس الذين زارهم. ولو أن الإثنين زارا معاً وفي طائرة واحدة الدول التي زاراها منفردين وقالا للذين زاراهم إنهما عقدا العزْم على بناء اليمن الموَّحد وتدعيم أُســـســـه وجعله نموذجاً في الوفاق والتعايش مثل النموذج الألماني لكانا أنقذا البلد والشـــعب من محنة الحوار الحربي العشوائي أو المنظم ولكانا موضـــع إحترام الرأي العام العربي الذي يتوق إلى حالة توحُّد مبنية على التعقل والمنطق والتضحية بالذات في سبيل الوطن.

ونحن عندما نشـير إلى النموذج الألماني لا نكون بعيدين عن الحقيقة ولا يكون التشـبيه على شـيء من المبالغة. فالجانب الشـرقي من ألمانيا هو مثل الجانب الجنوبي من اليمن من حيث العقدة الماركسية.

والجـانـب الغربي من ألمـانيـا هو مثـل الجـانـب الشـــمالي من اليمن من حيث التطلعات إلى نظام رإســـمالي وإنفتاح إقتصـــاد هي غير محدود على الآخرين. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن ثراء الغرب

الألماني قد يكون هو الذي شجع الشرق الألماني على أن تعود ألمانيا متوحدة، في حين أن التساوي في الفقر بين جنوب اليمن وشماله قد يكون إلى جانب آمال جنوبية بثروة نفطية مرتقبة، قد جعل الحذر ثم الشك فالكراهية إلى درجة الإستعداد للمواجهة تحل محل الفرح بالتوحد والتفاؤل بالمستقبل والتآزر لولادة دولة يمنية لها شأنها ولها دورها ولها مستقبلها.

ويخشى المرء بل ويستقر الظن في ذهنه أحياناً، أن يكون قطبا الوحدة اليمنية خططا بالطريقة التي خطط بها الرئيس صدَّام حسين، بمعنى أنه مثلما أن الرئيس العراقي بتخطيطه الذي تمثل في إجتياح الكويت ثم إحتلالها افترض أنه سيحل المشاكل المالية التي بدأت ترهق النظام والشعب وأنه سيصبح سيد الخليج وصاحب اليد الطولى فيه، فإن قطبيْ الوحدة اليمنية إفترضا، وكل من وجهة نظره أنهما يستطيعان تحقيق الشيء نفسه وأن كلاً منهما عندما يقول إنه يريد الوحدة ويتمسك بها فإنه صادق في ذلك لأنه بهذه الوحدة يصبح سيداً مهاباً بين سادة البحر الأحمر وركناً أساسياً من أركان الذين يتحكمون بما يمثله باب المندب ومضيق هرمز من مصالح لدول لها شأنها، ويصبح أيضاً صاحب يد أكثر طولاً في المنطقة فضلاً عن أنه يحل المشكلة الأزلية التي هي المال.

وهنا لا بد من التذكير بأن الولايات المتحدة موجودة في الحالة اليمنية مثلما كانت موجودة في الحالة العراقية. فالحوار العراقي – الأميركي الذي سبق الإجتياح العراقي للكويت ببضعة أشهر وبلغ الذروة في لقاء الرئيس صدَّام حسين بالسفيرة الأميركية يوم 25 تموز/ يوليو 1990 والذي كان بمثابة كلمة السر التي شجعت على الإجتياح، هو مثل الحوار اليمني – الأميركي الذي كان لافتاً للنظر أنه تمّ مع قطبيْ الوحدة. ويستطيع المرء أن يفترض ما الذي دار بين الإدارة الأميركية والرئيس علي عبدالله صالح وبعد ذلك بينها وبين نائبه علي سالم البيض، عندما يقرأ بين سطور تصريحات المسؤولين الأميركيين عن اليمن والوحدة وهي تصريحات أوحت بأن توحد شمال اليمن مع جنوبه مرحَّب به، وأنه غير الضم العراقي للكويت المرفوض. وعندما يتوجه مساعد وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأوسط روبرت بيلليترو إلى صنعاء قبل الإنفجار وبدء الحوار الحربي بساعات في محاولة لتهدئة الأوضاع فهذا مؤشر إلى مدى الإهتمام الأميركي، وعندما تتطور الأمور حرباً كتلك التي حدثت بعد ذلك وما زالت تحدث وتضطر المسؤول الأميركي إلى مغادرة اليمن مثل بقية الأجانب المغادرين خشية وتحسباً، فهذا يجعلنا بالحد الأدنى من سوء الظن نفترض أن لقاء بيلليترو بالرئيس علي عبد الله صالح هو إذا جاز الوصف مثل لقاء السفيرة غلاسبي بالرئيس صدَّام حسين ثم مغادرتها العراق بعد ذلك وإلى الأبد.

وتبدو الحرب اليمنية التي تتزايد بشاعتها، والتي تحدث بعد إنجاز خطوات طيبة على صعيد التقدم والتنمية، كما لو أنها تأكيد لأهمية الشعور القطري بمعنى أننا في زمن لا يريد أحد أن يذوب في الآخر وأنه على رغم أن اليمن شعب واحد إلا أن بضع سنوات من الإستقلالية جعلت اليمنيين في الجنوب يفضلون بقاء كل شيء على حاله، هذا فضلاً عن أن غسل الدماغ في إتجاه الماركسية بين أبناء الجنوب جعل هؤلاء يرون أن أبناء الشمال هم جيران وليسوا أشقاء.

أما بالنسبة إلى الجيشيْن فكل جيش كانت له عقيدته ومفاهيمه. وعلينا أن نتصور مشاعر جيش الجنوب الذي تمّ بناؤه على مدى عقديْن وفق مدرسة ثورية وماركسية، ومشاعر جيش الشمال الذي تمّ بناؤه على مدى ثلاثة عقود وفق مدرسة ترى في الماركسية خطراً وعدواً وعندما يتبادل الطيارون من الجانبيْن ورجال المدرعات والمدفعية من الجانبيْن أيضاً الضرب بالشراسة التي يتم بها الضرب فإن ذلك مؤشر على عمق المفاهيم التي ذكرناها وعلى أن ثلاث سنوات من الوحدة لا تكفي لتغيير ما جرى زرعه في النفوس طوال عقدين خصوصاً أنه لم يجر بعد التوحد التأهيل المناسب ومن أجل ذلك بات كل عسكري في هذا الطرف على أتم الاستعداد لكي يطلق النار على العسكري في الطرف الآخر، ويبتهج بوقوع زملاء له في الأسر، أو في الإذلال.

وعلى رغم الحزن الذي ينتاب المرء وهو يتابع ما يفعله النظامان في اليمن ببعضهما وكيف أنه يتم تدمير ما تم بناؤه في عشرين سنة، فإن ما يجعل وطأة الحزن أقل هو أن المدنيين بعيدون، أو أنهم ما زالوا بعيدين، عما يجري وهذا يعني أن إستمرار الإبتعاد أو التباعد سيجعل شبح الحرب الأهلية ينأى عن اليمن من أقصى نقطة في الشمال إلى أقصى نقطة في الجنوب. لكنها حرب طاحنة ولا يمكن استبعاد المفاجآت وعدم التمكن من السيطرة تماماً على

الموقف بحيث يبقى العسكريون هم الذين يتطاحنون.

وتبقى ثلاث ملاحظات:

– **الأولى:** هي أن الإنفجـار اليمني تزامن مع الإعلان الرسمي والدولي عن قيام أول حكم فلسطيني وبذلك طغت الهموم والإهتمامات بما يحدث في اليمن على الابتهاج بالإنجاز الفلسـطيني الذي حدث، مع الأخذ في الإعتبار أنه يجوز القول من منظار آخر إن الذي جرى في اليمن يغطي بعض الشـيء مشـاعر خيبة الأمل بالذي جرى للقضية الفلسطينية. ومثل هذا التزامن قد يكون عفوياً لكنه في الوقت نفسـه قد يكون حدث نتيجة تخطيط. والمسألة متروكة لمن يفكر وفق قاعدة من حسن الظن أو وفق قاعدة من سوئه.

– **والملاحظـة الثـانيـة:** هي أن الحوار الحربي المفجع في اليمن يحدث بعدما تزايد الصوت الإسلامي ارتفاعاً إزاء الذي جرى للبوسـنة وفيها من دون أن يتزامن التلويح بالقدرات الإسـلامية مع تزايد أصـوات الإحتجاج، وكأنما هنالك بين الدول غير الإسـلامية من التي أشـعلت البيت ناراً من يريد أن يقول: فليكف المسلمون عن الحديث عن البوسنة ولينشغل المسلمون والعرب باليمن الآن. وهذا ما حدث تماماً عندما انفجر الموقف في لبنان واندلعت الحرب وبات لا أحد يتحدث عن كامب ديفيد وما فعله الخروج المبرمج والمباغت لمصـر من سـاحة العمل القومي وإنما صـار الجميع مهمومين بلبنان من دون أن يكونوا مهتمين به إلى أن جاءت صيغة الطائف لتنقذ ما يمكن إنقاذه.

– **والملاحظـة الثـالثـة:** هي أن الحوار الحربي المفجع في اليمن يحدث بعدما انتقل الغرب في نظرته إلى الإسـلام من مرحلة الخشـية والحذر والتنظير إلى مرحلة التخوف الحقيقي. وهنا أيضاً ينتاب المرء شعور بأن الغرب قرر فتح جبهة إشـغال المسـلمين ببعضـهم البعض لكي لا يكون لهم شـأن ودور في قضـايا كثيرة وبحيث لا يفكر أي عربي أو مسـلم بغير السـلامة ولقمة العيش.

يبقى أيضـاً أن الحرب اليمنية قد لا تنتهي بسـرعة كما تتوقع الإدارة الأميركية التي كانت المبادر الأول إلى أن تعلن ذلك على لسـان مسـاعد وزير الخارجية بيلليترو. وهذه الحرب قد تقصـر إذا لم تدخل قبائل الشـمال وميليشـيات الجنوب طرفاً فيها ويأخذ الصـراع منحى طائفياً وبحيث يصـبح حرباً بين زيود وشـوافع، وقد تطول إذا حدث الدخول المشـار إليه وبدأ الكر والفر بين حاشـد التي تنعم ببعض خيرات الحُكْم منذ ثلاث عشـرة سـنة ومن معها وبكيل التي تشـعر طوال هذه السـنوات بشـيء من الحرمان وهو حرمان يبني عليه علي سـالم البيض الكثير وإلى درجة أنه يعتبره ورقة من ضـمن أوراق كثيرة رتبها بعناية قبل أن تبدأ المواجهة، ويأمل بموجبها أن تقف بكيل المحرومة إلى جانبه، وهذا ممكن ليس حباً بعلي سـالم البيض وإنما ضـيقاً بحاشـد المتخمة، علماً بأن للرئيس علي عبدالله صـالح بعض الخطوط السـالكة على مراكز قوى كثيرة في بكيل.

وشـيئاً فشـيئاً تصـبح الحرب في اليمن مثل الحرب التي عاشها لبنان وقد تطول أكثر بكثير.

لكن في النهاية لن يكون هنالك مجال أمام حسـم عسـكري سـريع لحرب تدور في بلد مسـاحته نصـف مليون كيلومتر مربع، ولن يكون هنـاك منتصـرون ومهزومون بـدليـل مـا حـدث في لبنـان ولـه وفي أفغانسـتان ولها وفي الصـومال وله، وسـيبقى الشـمال شمالاً والجنوب جنوباً ولن يلتقيا... بل ربما سيصـعب حتى تحقيق المصالحة بينهما، فكيف بالوحدة؟

ولقد كـان من الأفضـل لو أن اليمن بقي يمنيْن اثنيْن بـدل أن تنتهي الأمور إلى الـذي إنتهت إليـه... إلا إذا كانت لعبة الأمم تقتضـي أن يواجه اليمن الذي يرزح تحت وطأة ديون خارجية تتجاوز العشرة مليارات دولار هذه المحنة وأن يدفع غالياً ثمن وحدة تمّ إبرامها من دون مراعـاة بعض الثوابـت، فـإنتهى تحقيق الحلم وقيام دولة الوحدة في اليمن للمرة الأولى منذ خمسـة قرون، ربما لأن إبرام هذه الوحدة لم يأخذ في الإعتبار الحساسيات اليمنية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو(أيار) 1994

* * *

الآن زمن الصحوة المسيحية والعودة إلى خيمة الطائف... ولبنان

طلبت «الشـرق الأوسـط» من الزميل فؤاد مطر مؤلف كتاب «لبنان، اللعبة واللاعبون والمتلاعبون» أن يكتب رأيه في هذا الذي حدث في لبنان في أعقاب إحتجاز الدكتور سـمير جعجع وتكاثر الحديث حول إتهامات «جنائية» تم توجيهها اليه. وقد كتب الزميل التحليل الآتي:

كان اللبنانيون يتوقعون بعدما تم إنجاز إتفاق الطائف أن يكون الذين تزعموا تنظيمات وميليشيات عسكرية بين 1975 – 1989 أول المرحبين بهذا الإتفاق ليس فقط لأنه ينهى الإقتتال غير المفهوم الذي دام خمس عشرة سنة وإنما لأنه ولادة جديدة لصيغة العيش المشترك القائمة على أُسس منصفة وعادلة وتعطي كل ذي حق حقه.

وكان اللبنانيون أيضاً يتوقعون بعدما تم إنجاز إتفاق الطائف أن يكون الأكثر قسوة وتطرفاً في زمن الإقتتال هم الأكثر إندفاعاً نحو تأييد ذلك الإتفاق والإحتماء ببنوده لإن فى ذلك ما يشبه الخلاص لهم بل الحماية لهم من الأوزار والأخطاء والممارسات التي لا يخلو بعضها من البشاعة والتي هي في نظرهم إنجازات بينما هي فى واقع الحال خطايا.

وفى الأصل إن المملكة العربية السعودية لو كانت ترى أن إتفاق الطائف هو فقط لوقف إطلاق النار لما كانت أخذت هذا الأمر على عاتقها ولكان تعاطيها مع المسألة مختلفاً.

ولكن المملكة أرادت أن يكون الطائف صيغة مستقبلية للبنان قد يتزايد فى شأنها الجدل وتكثر أنواع المناقشة من دون أن يعني ذلك أنها صيغة قابلة للإلغاء ولا حتى لإعادة النظر. وأرادت المملكة أيضاً ألا تستأثر في مسألة إبتكار الصيغة ووضعها موضع التنفيذ ومن هنا حرصها على إشتراك المغرب والجزائر في اللجنة التي أنجزت الإتفاق.

ذلك ما كان يتوقعه اللبنانيون، ولكن الذي حدث مع الأسف هو أن العماد ميشال عون تعامل بإستهانة مع إتفاق الطائف وأن الدكتور سمير جعجع تعامل بإستعلاء مع هذا الإنجاز التاريخي من دون أن يطرح أي منهما صيغة بديلة لهذا الإنجاز تتسم بالواقعية والتوازن وإعتباره وكما لو أنه مثل إتفاق القاهرة بين الحكومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية يمكن ببعض التصلب والعناد إلغاؤه. ولو أن الإثنين بدل هذا الذي فعله كل منهما دخلا خيمة الطائف ومارس كل منهما فيها حقه في أن يتحفظ ويعارض ويناقش لما كان للصف المسيحي أن يكون على الحالة التي هو عليها حيت حل الإحباط محل الهيمنة وحلت الهواجس محل الطمأنينة وبدأنا نسمع عن لبنانيين مسيحيين يهاجرون في زمن الحل بعدما كانوا عاشوا كل سنوات الحرب في لبنان. ويحدُث ذلك على طريقة بعض أقباط مصر وبعض مسيحيي العراق الذين فقدوا الأمل أن يكون لبنان هو وطن المسيحيين العرب فهاجروا على دفعات إلى الولايات المتحدة وكندا وأوستراليا وبريطانيا وبعض الدول الأجنبية.

وفي المجالس الخاصة بدأت تتكاثر التحليلات المبنية على قليل من المنطق وكثير من الباطل لإتفاق الطائف وكأنما هذا الإتفاق كان طعنة نجلاء في الصدر المسيحي وليس حلاً قد يفتقد فى بعض مواد بنوده الى ما يشبع شهية ونهم بعض الأطراف، لكنه في روحيته العامة يحل عقدة الإمتيازات التي تحولت في نظر بعض المسيحيين إلى حقوق لا يجوز المس بها، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن المسلمين لم يشعروا بمتعة هذه الإمتيازات لأنهم حصلوا عليها صورياً (بعدما أبقاها الحُكْم السوري أمانة عنده يحتفظ بها حتى إشعار آخر) ولأن ذلك حدث في وقت طغت فيه الحاجة إلى تأمين لقمة العيش والدواء على الحاجة بالشعور إلى أن تعديلاً جذرياً طرأ على القاعدة التقليدية لمسألة المناصب والصلاحيات والوظائف.

وجاءت حادثة الكنيسة وما توصلت إليه التحقيقات الأولية لتعكس إنطباعاً بأن الدكتور جعجع الذي كان متفوقاً كزعيم ميليشيا ليس مؤهلاً ليكون رجل دولة. وهو لو كان كذلك فإن المطلوب منه كرجل دولة يطمح إلى المنصب الأعلى في الدولة أن يوظف إمكاناته وخبراته الأمنية في صد الأذى عن الكنيسة ومَن يوجد فيها. ومن حُسْن حظ لبنان وحظ المسيحيين في الدرجة الأُولى أن الحادثة لم تكن من فعل عناصر إسلامية وإلاّ لكان لبنان الذي ما زال في بداية النهوض من أجواء الحرب التي مزقت أوصاله عاد من جديد إلى النفق الذي عاش فيه طوال خمس عشرة سنة.

ومع أن حادثة الكنيسة بشعة إلا أنها من النوع الذي ينطبق عليه القول الشائع «رب ضارة نافعة»، وهي نافعة بمعنى أنها وحدت الصف المسيحي على أمر، ذلك أننا لم نسمع أن هذا الطرف المسيحي أو ذاك تعاطف مع الذي حدث، مع الأخذ في الإعتبار أن مناصري الدكتور جعجع المذهولين مما أُذيع في شأن الإتهام لم يجدوا ما يقولونه سوى بعض الكلام الذي لا تأثير له. بل إن هناك بعض الرموز المسيحية التي أرادت الإلتفاف حول الذي حدث بإطلاق تصريحات تطالب بفتح كل الملفات، وهو أمر لا يمكن حدوثه إلا إذا إرتأت إرادات دولية أن يتم ذلك. ولا نظن أن هنالك في الوقت الحاضر وحتى إشعار

آخر رغبة لدى هذه الإرادات لأن تفعل ذلك.

وثمة مسألة جديرة بالإهتمام وهي أن غياب الدكتور جعجع أو تغييبه عن الساحة السياسة مؤقتاً أو إلى الأبد لا يعني غياب زعيم المسحيين فى لبنان ذلك أن الزعامة يتقاسمها كثيرون بعضهم في الحُكم لكن أكثرهم أهمية وشعبية أولئك الذين في الخارج أمثال العميد ريمون إده والعماد ميشال عون واللوبي الإقتصادي البالغ الاهمية الذي يضم عشرات رجال الأعمال والكفاءات المسيحيين. وما دام هؤلاء لن يعودوا فإنهم سيستمرون مجرد رموز لا تبدو فاعليتها قوية في الداخل لأنهم بعيدون عن الوطن وعن الناس. وإذا إستمر الحال على ما هو عليه فإن ظاهرة «الحل الشهابي» ستتكرر وستتم هذه المرة من خلال قائد الجيش الحالي العماد إميل لحود. ومن المؤشرات إلى إمكانية حدوث ذلك أن مجلس الوزراء اللبناني أقر التمديد سنتين للعماد لحود كقائد للجيش. والتفسير البديهي لهذه الخطوة هو أن يخلف قائد الجيش الرئيس الياس الهراوي الذي تنتهي ولايته في العام 1995 بينما العماد لحود بعد التمديد له سيكون ما زال قائداً للجيش حتى العام 1996، ويمكن الإستعانة به بالطريقة التي حدثت مع الرئيس كميل شمعون الذي لم يصمد أمام عاصفة 1958 التي إنحصرت في إطار نزاع طائفي لكنها لم تتحول إلى حرب أهلية كتلك التي حدثت في السبعينات وإستمرت مستعرة.. حتى جاء إتفاق الطائف بعد خمس عشرة سنة من الإقتتال ووضع الحل والصيغة.

ولكن صيغة «الحل الشهابي» لا تعني أن العماد لحود يمكن أن يمارس الدور السياسي والصلاحيات بالطريقة التي مارسها اللواء فؤاد شهاب عندما طبع الحكم بطابعه وإبتكر ما يجوز إعتباره «المارونية الشهابية» وحكم ست سنوات من دون أن يكون لمعظم زعماء الموارنة دور أو شأن معه.

والإفتراض بأن العماد لحود لا يمكن أن يمارس الدور والصلاحيات على طريقة فؤاد شهاب سببه أن الظروف والمعادلات اللبنانية والدولية تغيرت كثيراً. إذا كانت هذه هي الحال مع العماد لحود فإنها تختلف بالنسبة إلى العماد عون. وفي حال أن العماد عون عاد إلى لبنان وشاءت بعض المناورات السياسية أن يكون هو الرئيس الذي يخلف الرئيس إلياس الهراوي، فإنه سيمارس بالطريقة نفسها التي مارس فيها الدور والصلاحيات فؤاد شهاب. وهنا ثمة ملاحظة وهى أن ما حدث للدكتور جعجع جعل مسألة عودة العماد عون أو إستعادته أقل تعقيداً من ذي قبل، فضلاً عن أن العماد عون كان في إستمرار ضمن إطار الشرعية وأن الجدل في شأن شرعيته، لم ينته ضده. كما أن فرنسا عندما إستضافته وتولت حمايته في سفارتها قبل أن تتولى تسفيره إلى أراضيها للإقامة فيها إنما فعلت ذلك على أساس أنه رمز بالغ الأهمية من رموز الأزمة الشرعيين، أي بمعنى آخر إنها فعلت ذلك مع شخص له شرعيته. وما كانت لتفعل ذلك لو أنه زعيم ميليشيا من تلك الميليشيات الكثيرة في لبنان.

ومن باب الإفتراض يجوز القول إن هذا التمديد والذي تزامن مع إحتجاز الدكتور جعجع الذي لا تكن له مؤسسة الجيش المشاعر الودية، كان بمثابة رسالة من السُلطة التنفيذية إلى المسيحيين ومَن يهمه الأمر بأن الزعامة المسيحية المطلوبة والتي لا يتكاثر الأخذ والرد فى شأنها هي الزعامة التي يتقاسمها بعد أقل من سنتين العماد إميل لحود قائد الجيش والصرح البطريركي وبعض وجوه النخبة المسيحية من قضاة ومثقفين وصناعيين وتجار تضرروا من هيمنة ميليشيا «القوات اللبنانية» وكتموا الغيظ وصبروا. ومثل هذه الزعامة تجعل الساحة المسيحية أقل توتراً وأقل مخاوف وتقطع الطريق على الإحباط الذي يزداد إنتشاراً وعلى موجة الهجرة التي لا تتوقف.

وفى حال حدث ذلك فإن اتفاق الطائف يكون إكتسب الشرعية المسيحية، المارونية بشكل خاص، في حين أن الشرعية توافرت للإتفاق بشكل كامل من بقية الطوائف اللبنانة. ومثل هذا الأمر سيكون بالغ الأهمية لأنه يتزامن مع دخول منطقة الشرق الأوسط مرحلة السلام.

وما لم يتحقق للبنان قبل هذه المرحلة سيتحقق على الارجح مع عصر النظام الدولي الجديد الذي يصمد من يستوعبه ويتقهقر مَن يعجز عن الإستيعاب ويسقط مَن يرفض الإستيعاب.

وكانت مخاوف بعض المسيحيين، وبعض رموز الطائفة المارونية بشكل خاص من صيغة الطائف في غير محلها.

فالصيغة تم التوصل إليها في السعودية وبضماناتها قبل رعايتها وفي عهد قيادة الملك فهد بن عبد العزيز الذي عاصر على مدى أربعين سنة الحياة السياسية اللبنانية منذ أول رئيس بعد الإستقلال المغفور إليه الشيخ بشارة الخوري مروراً بالرئيس

الراحل كميل شـــمعون والرئيس الراحل فؤاد شـــهاب والرئيس شـارل حلو والرئيس سـليمان فرنجية والرئيس إلياس ســـركيس والرئيس أمين الجميل. ومثل هذه المعاصـــرة إرتبطت بإهتمام ملحوظ ومتابعة دقيقة لظروف لبنان ومشاكله وتطلعاته.

وصـــيغة الطائف موضـــع إهتمام الولايات المتحدة ورعايتها، وبالتالي موضـــع إهتمام الدول الاوروبية ورعايتها.

وصيغة الطائف موضع قبول الحكم السوري الذي لم يكن هنالك قبل إتفاق الطائف تحديد ووضـــوح لطبيعة علاقة هذا الحكم مع لبنان، وكانت هنالك في الوقت نفسـه شـكوك في أن هذا الحكم يعترف بسـيادة لبنان أو أنه يرى إبقاء المســـألة عالقة. وهذه الأمور وغيرهـا كثير تـدعو إلى الطمـأنينـة ولا تثير الخوف والهواجس. وصيغة الطائف يقودها عملياً الرئيس رفيق الحريري الـذي يفترض أن يشـــيع وجوده في الحكم الطمأنينة في الصـــف المســـيحي قبل المســـلم. وإلى جانب هذه الأمور هنالك الضـــمانة الأكثر أهمية وهي أن المسلمين الذين كانت لهم في إستمرار إعتراضات على الإسـتئثار الماروني بالسـلطة والمكاسـب، كانت لدى هولاء قناعة بأن الإزدهار حالة إســـلامية – مسيحية وانه خارج المشاركة الإسلامية – المسيحية العادلة لن يكون هنالك إزدهار.

ونصـــل من هذا كله إلى أن الذي حدث للدكتور جعجع الذي خسر الطائف وخسر نفسه، وما يقال بأنه حدث على يديه أو بعلمه أو بأوامره، تسبب أو أنه في طريقه إلى أن يتســبب فى حدوث صـــحوة مســـيحية تجعل المســـيحيين الذين يترددون في العودة إلى لبنان يعودون وبـذلـك ينتهي الخوف المـاروني، ثم يتبـدد الإحبـاط بعـد ذلـك بعمليـة تجميـل لإتفـاق الطـائف وبتعديل في الحكومة التي يترأســـها رفيق الحريري. وكلما جاء هذا التعديل جذرياً وبحيث يضـم مَن توحي مشـــاركتهم بـالإرتيـاح أمثال العميد ريمون إده الذي إفتقده الطائف لكنه إســـتمر ضـــمير لبنان، والعماد ميشال عون الذي خسره الطائف لكنه لم يخسر نفسه، كنـائبين لرئيس الوزراء.. كلمـا تبين أن هـذا التعـديـل يغني عن إنتخابات جديدة. وبذلك تنطلق الجمهورية الثانية، ويبدأ الإستقرار الذي لا إزدهار من دونه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 5 مايو (أيار) 1994

* * *

فلسطين التي لن يعمِّرها.. مقاولوها

من المؤكد أن الذين يرصـــدون الأســـلوب الذي تعتمده وسائل الإعلام المصرية من صحف ومجلات وإذاعات وتلفزيون وقناة فضـائية إزاء العمل السـياسـي والعسـكري الفلسـطيني تسـتوقفهم أحياناً بعض الأنباء والتعليقات والرســـوم الكاريكاتورية التي تعكس عادة مشاعر رئيس الدولة.

وأنا من الذين يرصـــدون هذا الأســـلوب منذ اللقاء التـاريخي لبعض قـادة حركـة فتح بـالرئيس جمـال عبد الناصـــر، مروراً بإنقضـــاض بعض هؤلاء القادة على حُكم الرئيس المصـــري الراحل لأنه وافق على مبادرة روجرز ثم تراجع هؤلاء عن الإتهامات التي وجَّهوها إلى عبـد النـاصـــر بعـد نجـاحـه في إخراج القـادة المحاصـــرين في الأردن، ثم إنقضـــاض القيادة كاملة على حُكم الرئيس (الراحل) أنور الســـادات لأنه إختار صـيغة كامب ديفيد، ثم تناغم بعض القادة مع الرئيس السادات في مرحلة الصراع السوري – الفلسطيني في لبنان وعليه، لأن الرئيس الســـادات صـــار يخاطب الحُكْم السوري بالطريقة التي ترتاح إليها قيادة المقاومة الفلسطينية، ثم تبادل الحملات بين حُكْم الرئيس حسني مبارك والقيادة الفلسـطينية نتيجة إنحيازها إلى الموقف العراقي عقب إجتيـاح الكويـت، ثم وقْف الحملات مع إنعقاد مؤتمر مدريد وبدء مسيرة الحل الشامل للصراع العربي – الإسـرائيلي إنطلاقاً من صـيغة جديدة كثيرة التواضـع للقضـية الفلسـطينية تمثلت بـ "غزة – أريحا أولاً".

وفي هذه الســـنوات الثلاثين تبادل الطرفان بحق بعضـــهما البعض كلاماً وإتهامات بالغة القســـاوة لكن مشـاعر الرئيس الفلسـطيني ياسـر عرفات نحو مصـر كانت تحتوي الموقف بحيث يكون الإنفجار مدوياً إنما من دون شظايا. وطوال هذه السنوات لم تحدُث مراجعة من جانب أبو عمار للهجته المصـــرية وكان لافتاً للنظر كيف أنه يرد بهذه اللهجة على بعض الإتهامات المصـــرية ويبدو بذلك كما لو أنه واحد من أقطاب المعارضة المصرية وليس رئيس منظمة التحرير أو – بعد ذلك – رئيس دولة فلسطين.

ومن يتـأمـل في طبيعـة العلاقـات المصـــريـة – الفلسطينية الآن ويتذكر بعض ما كان يقوله رموز هذه العلاقات في مرحلة التوتر وما يسـجلونه من إتهامات، تســـتبد بـه الحيرة في هذه القدرة من الجانبيْن على

تجاوز ما قيل، ربما لأن التأزم لم يصل بين الطرفيْن إلى حد الأخذ بالعنف. ومن هنا فإن سجل العلاقات المصرية خلا من صفحات دموية وخلت السجون المصرية من معتقلين فلسطينيين. ونقول ذلك من دون أن نغفل عمليات فلسطينية إستهدفت مصريين وقام بها من يعتبرهم أبو عمار أعداء له قبل أن يكونوا أعداء لمصر، ومن هؤلاء أبو نضال.

وحتى في ذروة إضطراب العلاقات المصرية – الفلسطينية كانت هنالك قنوات تنشط سراً وتبدد ما يطفو على السطح.

والغرض من هذا الكلام عن طبيعة العلاقات المصرية – الفلسطينية وهو كلام لا يفي هذه العلاقات حقها من التقييم هو الحديث عن خطوة لافتة للنظر يلخصها نبأ قرأناه في الصفحة الأُولى من عدد "الأهرام" الصادر يوم الخميس 12 مايو/أيار 1994 وورد فيه الآتي:

"تمّ الإتفاق مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات على قيام شركة "المقاولون العرب" بأعمال إنشاء وتعمير فلسطين في المناطق التي تمّت إقامة الدولة الفلسطينية عليها. وصرح المهندس إسماعيل عثمان رئيس شركة "المقاولون العرب" بأن توافر الإمكانات والخبرات دعا الجانب الفلسطيني إلى إسناد هذه الأعمال للخبرات المصرية."

وللوهلة الأُولى يبدو هذا النبأ كما لو أنه تعبير عن الجمائل المصرية لكن هنالك التفسير الآخر له وهو أن الرئيس ياسر عرفات لا يريد أن يعطي المقاولين الفلسطينيين فرصة المشاركة في بناء فلسطين بدءاً من رقعة غزة – أريحا وإنتهاء بالصيغة الأشمل والأكثر إتساعاً والتي ستكون مع إقتراب القرن العشرين من نهايته قد إكتملت وضوحاً. والذين يعرفون – ولو بالحد الأدنى – دقائق الصراع الدائر منذ الإجتياح العراقي للكويت وبعد إحتلالها لبضعة أشهر بين الرئيس عرفات وطبقة المقاولين الفلسطينيين وبعض رجال الأعمال الفلسطينيين أصحاب الشأن المالي الكبير، يمكنهم أن يقرأوا ما بين سطور النبأ الذي نشير إليه. فالذي حدث بعد الإجتياح العراقي للكويت أن هؤلاء المقتدرين ومعظمهم يقيمون في أوروبا وجدوا أنفسهم في وضع لا يُحسدون عليه. فهم قلباً وقالباً مع دول الخليج بدءاً من الكويت وإنتهاء بالإمارات ليس فقط لأن مصالحهم التي تأثرت كثيراً توجب ذلك بل لأنهم في الأصل لا يحبذون الصيغ الثورية للحل المرتجى للقضية الفلسطينية. وهم في الوقت نفسه يشعرون بأن عرفات الذي يريدونه وعلى إستعداد لدعمه هو عرفات الذي كان يجب ألاّ ينحاز إلى الموقف العراقي، خصوصاً أنه يعرف ويعرفون منه شخصياً أن العمل السياسي الفلسطيني يجتاز متاعب مالية وأن الوقفة المطلوبة لمن هذه حاله يجب أن تكون مع الكويت خصوصاً أنها معتدى عليها وليس مع العراق الذي إجتاح الكويت.

ولكن هذا الموقف من جانب المقتدرين الفلسطينيين وجُلهم من المقاولين ورجال الأعمال كان لا يجد لدى الرئيس عرفات إستعداداً للتفهم. وكان كلما بلغه ما يقوله هؤلاء في مجالسهم يزداد إنزعاجاً وإلى درجة أنه بدأ يعتبر هؤلاء وكأنهم خصوم وليسوا مجرد معترضين.

وعند إشتداد وطأة الأزمة المالية على القيادة الفلسطينية إفترض الرئيس عرفات أن المجموعة الفلسطينية المقتدرة ستبادر وتحل من هذه الأزمة ما يمكن حله وبذلك تستقيم العلاقة بين قيادة العمل الفلسطيني وأكثرية رجال الأعمال الفلسطينيين. لكن هذه المجموعة لم تبادر وشعر أبو عمار وكأنما بعض أهل المال الفلسطيني يمارسون عليه ما يشبه الحصار الدولي على العراق بهدف إسقاط نظام الرئيس صدَّام حسين والحصار الدولي الآخر على ليبيا بهدف إسقاط نظام العقيد معمَّر القذّافي. ومنذ أن إستبدّ به هذا الشعور بدأ الرئيس عرفات يتصرف على أساس أنه ليس له مقاولوه وليس له أثرياؤه، وأنه إذا كانت لهؤلاء خطوط سالكة مع الإدارة الأميركية فإنه قادر على أن يشق "موتور واي" أو "أوتوستراد" بدل الطريق. وهو فعل ذلك بالفعل بفضل ديناميكية أبو مازن وأبو العلاء والدكتور نبيل شعث.

وبعدما تمّ إنجاز إتفاق القاهرة وتمّ الإعلان عن أول حُكْم فلسطيني، تذكر أبو عمار كيف أن طبقة المقتدرين الفلسطينيين (بعض كبار المقاولين وبعض كبار رجال الأعمال) خذلتْه في بعض المواقف، وكيف أن هؤلاء في مجالسهم كانوا يتحدثون بشيء من التهكم عن تنازلات أبو عمار ويقولون إنه من الأفضل أن يبتعد على أن يرتضي ما إرتضاه. وبدأ يفكر في توجيه الرسائل الموجعة إلى هؤلاء وغيرهم.

وما قرأناه في "الأهرام" وأشرنا إليه هو رسالة من هذه الرسائل يبعث بها أبو عمار إلى بعض من كانوا معه وكان معهم فجاء الإجتياح العراقي للكويت

وموقف القيادة الفلسطينية المؤازر قليلاً للموقف العراقي وغير المؤازر إطلاقاً للموقف الكويتي ليجعلهم متباعدين كثيراً. وخلاصة الرسالة هي أنه لا يريد إشراكهم في مجد بناء فلسطين.

ومع أن إختيار أبو عمار لـ "المقاولون العرب" من أجل أن تتولى إعمار المرحلة الأُولى من "فلسطين الجديدة" هو إختيار لشركة لها سمعتها وقدراتها وتاريخها وإنجازاتها الضخمة وأهمها بناء السدّ العالي، إلاَّ أن عدم إشراك المقاولين الفلسطينيين في هذا الواجب الوطني سيترك بعض الندوب على الوجه الفلسطيني في المرحلة المقبلة، ذلك أن الفلسطيني العادي المبتهج بقيام المرحلة الأولى من دولته لن يكون سعيداً إذا كان هنالك مقاولون فلسطينيون كبار لا يشاركون في تعمير "الوطن الجديد" وأن الأمر مقتصر على "المقاولون العرب" أهم شركة مقاولات في مصر.

هذا إلاَّ إذا كان الرئيس أبو عمار أراد من وراء خطوته التي يعبّر عنها النبأ الذي أشرنا إليه أن يستحث همة المقاولين الفلسطينيين لكي يشمروا عن السواعد ويفتح كبار رجال الأعمال خزائنهم لتعمير وطنهم لأن الواجب الوطني الحقيقي هو الذي يمارسه الفلسطيني الآن وذلك على أساس أنه إذا كانت ثورة 1965 التي إنطلق بها العمل الفلسطيني المسلح هي الثورة الأُولى وأن الإنتفاضة بفتيتها وحجارتهم هي الثورة الثانية فإن بناء "فلسطين الجديدة" على رغم تواضع المكتسبات هو الثورة الثالثة، وهو التحدي الكبير لقيادة أبو عمار وخياره السلمي الذي إرتضاه وجاء أقل بكثير من الحلم الذي يعيش في وجدان الأكثرية العربية والفلسطينية وأكثر بكثير مما تفرضه ضرورات الواقع الناشئ عن إنهيار معظم الثوابت أمام إعصار "النظام العالمي الجديد"، والذي إستوعبه الرئيس عرفات ووضع إصبعه على نقاط القوة والضعف في هذا الإعصار.

ولا نريد الخوض في قانونية الخطوة التي يلخصها النبأ المشار إليه أو عدم قانونيتها، إلاَّ أن ما يمكن قوله إن أي مقاولة لا تكون تكليفاً وإنما بعد إستدراج عروض وإختيار أفضل العروض، أي أن عشرات الشركات تتقدم بعروض ليتم من بينها إختيار الأفضل... إلاَّ إذا كان إختيار أبو عمار لشركة عثمان أحمد عثمان هو مثل إختيار الكويت للشركات الأميركية لكي تعيد البناء على أساس أن الولايات المتحدة قادت التحالف الدولي لتحرير الكويت وأن الحُكْم الكويتي العائد وجد من الواجب رد بعض الجمائل الأميركية.

وتكراراً، إنه سيكون أمراً يدعو إلى الحزن والأسى أن "فلسطين الجديدة" هي فلسطين التي لن يعمرها مقاولوها، مع الأخذ في الإعتبار كل مستلزمات الجمائل التي يرى أبو عمار أنه يجب أن يردها لمصر التي ولِدت فيها المرحلة الأُولى من "فلسطين الجديدة" إضافة إلى أن الرد هو على قدْر المحبة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1994

* * *

صقور وحمائم في "الفِعْل" العراقي الثاني... والأخير

في الوقت الذي كانت الذاكرة العربية بدأت تتخلص بعض الشيء من الشريط المأساوي الناشئ عن الإجتياح العراقي للكويت يوم 2 أغسطس/آب 1990 وما نتج عن هذا الإجتياح من تطورات مفجعة، جاء الموقف العراقي الجديد بمثابة تنشيط لهذه الذاكرة وإحياء لمشاعر الحذر وتعزيز للمخاوف وتأكيد بأن منطق القوة ما زال هو السائد لدى القيادة العراقية، أو فلنقل إن الصقور في الحُكْم العراقي تغلبوا للمرة الثانية على الحمائم بدليل أن الصيغة التي تمّ إعتمادها كانت تحريك بضعة آلاف من الجنود في إتجاه الكويت.

ومع الأخذ في الإعتبار أن الحصار المفروض على العراق ومنْعه من بيع نفطه بلغ عشية الموقف الجديد نقطة حرجة، إلاَّ أن الذي يجب أخذه في الإعتبار أيضاً هو أن السعي السلمي الدبلوماسي وصل في الوقت نفسه إلى مرحلة جيدة حيث أن ثلاث دول من الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، وهي فرنسا وروسيا والصين بدأت تتحدث بلهجة جديدة عن الحصار وعن ضرورة فتْح منافذ في هذا الحصار تتيح للعراق أن يقترب من الموقف الذي يعزز إتجاه تخفيف الحصار عنه. وهكذا، فإن ما إستطاع السعي الدبلوماسي العراقي إلى تحقيقه بعد جهود مضنية إستغرقت سنتيْن إنتهى في يوم صدرت فيه الأوامر للجيش من أجْل أن يتقدم في إتجاه الكويت.

ويحتار المرء في تفسير هذا "الفِعْل"، ويكاد يذهب

بـه الظن إلى أن الصـــقور في الحُكْم العراقي، أو بعضـهم، لا يريدون للسـعي الدبلوماسـي أن يأخذ مداه خشـــية حدوث تقدم وتحقيق نتائج طيبة وهذا معناه إنحسار لشأنهم.

وإذا كان هنالك بعض البطء في جدوى الســـعي الدبلوماســي فهذا لا يعني أن الحل هو في اللجوء إلى منطق القوة وعرْض ما يؤكد وجود هذه القوة، وإنما هو في تطوير السـعي خصـوصـاً أن الدبلوماسـية هي في حد ذاتها عمل بطيء.

واللافت للنظر أن الحُكْم العراقي مهد للفعل الجديد بالتشـديد على أن الإدارة الأميركية هي التي تضـغط على الآخرين من أجْل أن يسـتمر الحصـار، وأنها تصـادر إرادات دولية كثيرة في شـكل أو آخر. وبدلاً من أن يأتي "الفِعْل" مؤذياً لهذه الإدارة فإنه جاء يعزز مشـاعر الحذر من العراق بعدما كانت هذه المشـاعر قد باتت أقل حذراً، وجاء يتســبب في المزيد من الإستنزاف للثروة العربية، بل كما لو أن هناك ما يشبه التخطيط بأن يتم إفقار المنطقة لكي يصـــبح الجميع متساوين ولكي يتم تعطيل القرار العربي بشكل نهائي.

وإذا كانت المسألة مسألة ضائقة إقتصادية ومالية وصـــلت إلى نقطة الصـــفر هي التي حدت بالحُكْم العراقي إلى أن يعتمد منطق الصـقور في داخله، فإن هنالك أســـاليب كثيرة كان يمكن إعتمادها في هذا السـبيل من بينها توجيه نداء إلى الدول العربية يشـرح واقع الحـال ويطلـب من بعض قـادة هـذه الـدول أن يمارسوا الضغط في شكل أو آخر، أو يمارسوا السعي في صـيغة أو أُخرى، على الإدارة الأميركية ولديها من أجْل أن ترفع الحصار المفروض بإرادتها على العراق. وأغلب الظن أن مثل هذا النداء كان ســيعطي مردوداً طيباً، بل إن هذا المردود في الحد الأدنى يبقى أكثر جدوى بكثير من هذا التحريك لبضعة آلاف من الجنود والدبابات في إتجاه الكويت. ونقول ذلك على أســـاس أنـه إذا كـان "الفِعْـل المؤثر" يوم 2 أغســـطس / آب 1990 لم يحقق مـا إفترض الحُكْم العراقي بـأنـه ســـيتحقق، فمن الطبيعي أن "الفِعْل" الجديد لن يحقق شيئاً، وذلك لأن الفعليْن إنطلقا من حالة حُكْم غاضـب وليس من منطق حُكْم أرهقتْـه حرب وعليـه أن يطلـب مؤازرة الذين ســـاندوه في ســـنوات تلك الحرب لكي يحاول أن يبني من جديد.

وفي هذا الإطـار يمكن القول إن "الفِعْـل" الجـديـد أبعد بضـعـة أميال شـعوراً بالتعاطف كان بدأ ينمو في نفوس جيران العراق. وعنـدمـا كـان هؤلاء يرددون بين الحين والآخر بـأنهم في غـايـة التـأثر للمعـانـاة التي يعيشها الشعب العراقي فإنهم بذلك كانوا يقولون للإدارة الأميركية وبشـكل غير مباشـر ما معناه أنه إذا تمّ رفع الحصار عن العراق فإن ذلك سيكون موضع سرورنا.

وثمـة نقطـة في غـايـة الأهميـة وهي أن الحُكْم العراقي في "الفِعْـل" الثـاني الـذي أقدم عليـه لم يطرح أهدافاً ســـيـاســـيـة من نوع هدف إعتبار دولة الكويت "المحافظة التاسعة عشرة" للعراق، وإنما طرح وبصيغة غير مألوفة هدفاً إقتصـــادياً، وهذا معناه أنه تجاوز وبشـكل نهائي نظرته السـابقة للكويت وبات في حكم المقتنع بها كدولة لها سـيادتها وحدودها، وهو ما كان في الأصـــل معمولاً بمعظمه قبْل 2 أغســـطس/آب 1990 يوم الإجتياح الشهير.

ولكن في النهاية لا بد من حسم أمور لا تزال غير محسومة، وأهمها ما يتعلق بالكويت وبأن تستعيد دول الخليج إطمئنانها إلى العراق وعدم الحذر منه. وهذا الإطمئنان، والحســـم، هما نصـــف الطريق إلى رفْع الحصـــار. أما نصـــف الطريق الآخر فإن الســـعي الســـيـاســـي والدبلوماســـي كفيل بتحقيق تقدم فيه، خصـوصـاً بعدما تحولت الدول الثلاث، فرنسا وروسيا والصـين، إلى أطراف مسـتعدة مقابل التقاطع الطفيف في الموقف من العراق بينهـا وبين الولايـات المتحـدة، لممارسـة الضـغط السـياسـي والدبلوماسـي على الحُكْم العراقي من أجْل أن ينهي الأمور غير المحســـومة. ولن تخدم هذا الســـعي القوة، منظورة كانت أم غير منظورة، وإنما يخدمه إعتماد الحُكْم العراقي أســـلوب تَخاطب مع الآخرين، وبالذات مع دول الخليج، يعتمد على مفردات لا علاقـة لهـا بمعظم المفردات التي سـادت في السـنوات الثلاث الماضـية ولا يزال معمولاً ببعضها حتى الآن.

ويبقى أن "الفِعْـل" العراقي الثـاني الـذي حـدث يوم الجمعة 7 أكتوبر/ تشرين الأول 1994 وتمثل بتحريك العراق بضـــعـة آلاف من قواتـه ودبابـاتـه في إتجـاه الكويـت، كـان بمثـابـة تنبيـه إلى أن العراق مـا زال صـاحب شأن عسكري، أكثر منه رسالة إحتجاج على الوضـــع الإقتصـــادي البالغ الصـــعوبة الناشـــئ عن إســتمرار الحصـــار. ولأنه كذلك فإن الولايات المتحدة ردت على التحريك بالمثل.

وفي الحـــالتيْن كـــانـــت الإدارة الأميركيـــة هي الرابحة... وكان غيرها هم الخاســـرين، إلاّ إذا أثمرت

المســـاعي التي قامت بها روســـيا بشـــخص وزير خارجيتها كوزيريف الذي زار بغداد وحصل من الرئيس العراقي على ما يمكن أن يرضـي كل الأطراف، شـرط أن يحظى بموافقة الإدارة الأميركية. وفي هذه الحال فإن "الفِعْل" العراقي الثاني سيكون الثاني.. والأخير.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أكتوبر (تشرين الأول) 1994

* * *

يا للهول.. حول الذي جرى للمصريين.. ولنجيب محفوظ

الذي جرى للروائي الكبير نجيب محفوظ يدعو إلى الأسف الشديد، لكنه في الوقت نفسه يدعو الى التأمل. فالحادثة ليست عادية، ورد الفعل ليس عادياً.

ولقد توقَّع المرء بعدما أُذيع نبأ الحادث أن يهرع المصريون إلى المستشفى الذي تم نقل الروائي الكبير إليه وأن يصلّوا من أجْل أن يحيطه الله سبحانه وتعالى بعنايته ويعجل في شفائه، لكن ذلك لم يحدُث وإقتصر الأمر على زيارات رســـمية أو شـــبه محدودة قام بها مسؤولون وكتَّاب.

والتوقع الذي أوردناه يقوم على أســـاس أن نجيب محفوظ محفور في أذهان أكثرية المصـريين. وقبْل أن تتحول رواياته إلى مسلسلات تلفزيونية وأفلام سينمائية كـان جمهور نجيـب محفوظ يقتصـــر على النخبـة المصرية وبالذات على الذين يقرأون النتاج الأدبي وفي إستطاعتهم شراء الكتاب. لكن نجيب محفوظ دخل كل بيوت المصـريين بعدما تحولت رواياته إلى مسلسـلات يعرضـها التلفزيون المصري أو إلى أفلام تعرضـها دور الســـينما. وفي هذه النقلة بات المصـــريون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة جمهوراً عريضـاً لنجيب محفوظ بل يجوز القول إن هؤلاء تثقفوا وباتوا ملمين بمســـائل من الصعب على غير المتعلم الإلمام بها مثل الصراع الإجتماعي والصراع مع الإنكليز من أجْل ترسيخ أُسس الوطنية المصرية والصراع من أجْل الديمقراطية وحرية الرأي، والصراع من أجْل محاربة الإدمان، والصراع من أجْل التمرد على الجانب السلبي من التقاليد. بل وأكثر من ذلك إن المرأة المصـــرية الأمية تحولت بســـبب شـغفها بما شـاهدتْه من مسـلسـلات تلفزيونية وأفلام سينمائية لنجيب محفوظ إلى إمرأة مستنيرة وقادرة على أن تناقش إلى حد ما. كذلك بات الرجل المصـــري الأمي، وللمسـببات نفسـها، ملماً بعض الشـيء بتاريخ بلده من خلال الســـمع والمشـــاهدة وليس من خلال القراءة وبات أكثر قدرة على فهم قضـــايا كـان من الصـعب عليه فهمها – ما دام أمياً – لو أنه لم يشاهد فكر نجيب محفوظ ورواياته على شـاشـة التلفزيون أو السينما. وليس مبالغة القول إن جمهور نجيب محفوظ في أوساط الأميين المصـريين رجالاً ونساءً، أكبر من جمهوره بين المثقفين والمتعلمين وذلك لمعطيات الواقع الذي أوردناه ولأن الأكثرية المصـــرية أمية. وهو في ذلك يتقاســـم هذه الأكثرية مع الكاتب والروائي الراحل إحسان عبد القدوس، الذي بفضل رواياته التي تحولت إلى مســـلســـلات تلفزيونية وأفلام ســـينمائية، باتت الأكثرية المصرية الأمية ملمة بعض الشـيء بالمجتمع الذي يصـــارع من أجْل التحرر متجاوزاً التقاليد قافزاً فوقها بصـــرف النظر عما يمكن أن تُحْدثه القفزة من خلل في التوازن عند الإرتطام بالأرض.

لقد حدَث أن الجمهور المصري العريض لم يتفاعل مع الحادثة البشـعة والمؤسـفة التي تعرَّض لها نجيب محفوظ. ويحتار المرء في تفسير عدم التفاعل هذا.

هل لأن هذا الجمهور متعاطف مع الذين نفَّذوا عملية الإعتداء؟

أم هل لأن المشـــاكل اليومية التي يعاني منها المصـــري تفاقمت إلى درجة أنـه لم يعد في قلبه ومشـــاعره مكان لأي حالة تفاعُل حتى وإن كان الذي تعرَّض لحـادثـة الإعتـداء هو الروائي الكبير نجيـب محفوظ الذي طالما ساهم من خلال عشرات الروايات والكتابات في تثقيف وتنوير وتعليم قطاعات عريضـــة من الرأي العام المصري؟

إن كل هذه الإفتراضات يمكن أن تشكِّل بعضاً من أسـباب الحالة التي نشـير إليها، لكن ثمة نقطة جديرة بالإهتمام ومن الضـــروري عدم إغفالها في معرض تشـــخيص حالة عدم تفاعل المواطن المصـــري مع حـادثـة الإعتـداء على نجيـب محفوظ وهـذه النقطـة تتعلق بطلاق غير معلَن جرى بين الأكثرية المصرية ونجيب محفوظ، أو فلنقل من أجْل الدقة أن الذي حدث كان حالة هجر غير معلَنة أيضاً بين الأكثرية المصـــرية ونجيب محفوظ ســـببها أن رواييهم الذي منحوه حباً لا حدود لـه أقحم نفســـه في الصـــلح المصـــري – الإســـرائيلي الذي أبرمه الرئيس أنور الســـادات ثم توغل داخل نفق التطبيع إلى أن نال

جائزة نوبل، بينما هم، أي الذين يشـــكِّلون جمهوره العريض، ســايروا حاكمهم في إجتهاد الســلام الذي أراده من دون أن يســيروا في ســكة التطبيع ما دام هذا الســـلام هو صـــلح يفرضـــه الظالمون على المظلومين.

ومثل هذا الشعور عفوي لا يعبّر عنه المصريون من فئة الأكثرية التي نتحدث عنها بالكتابة لأنهم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة وينحصـــر عِلْمهم ومعرفتهم بما إكتســـبوه من فكْر نجيب محفوظ عن طريق المسلسـلات التلفزيونية والأفلام السـينمائية، وإنما التعبير عن ذلك بحالة تفاعل ســـلبية كتلك الحالة التي كانت لافتة للنظر وتمثلت بأن الجمهور العريض لنجيب محفوظ لم يعبّر عن حزنه وأســـفه لما حدَث للروائي الكبير.

وهذه الحالة تعيد الى الذاكرة الطريقة التي تعامل بها المصـــريون عندما بلغهم نبأ إغتيال الرئيس أنور السادات، وكيف أن الأكثرية المصرية إعتبرت نفسها غير معنية بالذي جرى، فلا هي نزلت بعفوية إلى الشارع نائحة على الرئيس الذي إغتيل على المنصة في مناســبة إفترض أنها علامة من علامات مجده الكبير، ولا هي أطلقت صيحات التفجع على الرئيس الذي عقد ســلاماً بعد حرب حقق فيها إنتصــاراً أزال بعض الشــيء مرارة الهزيمة التي حدثت عام 1967 وشـــكَّلت نقطة تحوُّل في الوجدان المصـــري. إن الاكثرية المصـــرية لم تفعل ذلك في حين أنها فعلت العكس عنـدمـا بلغهـا نبـأ وفـاة الرئيس جمـال عبدالناصر.

ومنذ ذلك التعامل الســـلبي من جانب الاكثرية المصرية مع حادثة الرئيس أنور السادات وكيف أنه جرى تشـــييع الرجل من قِبَل عدد من الرســـميين وبعض الوفود، بات رصْـد أسـلوب تفاعل الأكثرية المصرية مع مسألة الصلح المصري – الإسرائيلي وبالذات مع رموز هذا الصـلح، ورموز التطبيع الذي لا على تبادُل التمثيل الدبلوماسـي، مسـألة في غاية الأهمية.

ولولا هذا الفتور الذي إتسمت به مشاعر الأكثرية المصـــرية إزاء حادثة الإعتداء على الروائي الكبير نجيب محفوظ لما كان للمرء أن يقف وقفة التأمل هذه. ولكن الحادثة عكسـت بعض المعاني والتي لا بد يأخذها نجيب محفوظ في الإعتبار لأنه الأكثر دراية بالحارة المصـــرية وأهلها. ومن المؤكد أنه لو تعرَّض نجيب محفوظ لمثل ما تعرَّض له، من قبْل أن يعتبر نفســه من أنصــار الصــلح المصــري – الإسرائيلي ومحرضاً على أن يتحقق التطبيع، لكانت الألوف زحفت لتحيط بالمسـتشـفى الذي تم نقْله إليه للعلاج من طعنات سـكين عاقة كانت في يد شـاب مصري مقهور وتائه ومصدوم.

يبقى أن أدعو للصـــديق الروائي الكبير نجيب محفوظ بالشفاء العاجل لكي يساهم في عودة الوعي المفقود والمنشـود في مصـر ومن قبْلها الجزائر ومن بعدهما العالم العربي، من المحيط حيث ســـكاكين التطرف تجز رقاب الذين يدعون إلى كلمة ســـواء، إلى الخليج الذي إكتوى بما فيه الكفاية وحان الوقت لكي يخْلد إلى سنوات من الطمأنينة.

ومع الدعاء للصـديق الكبير صـرخة صـامتة من قلب حزين على مصر:

يا لهول الذي جرى للمصريين في ضوء ما جرى لنجيب محفوظ ويا لخوفنا من العظيم... والأعظم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 أكتوبر (ت1) 1994

* * *

قمم الحسن الثاني الصعبة
لا خوف عليها.. ولا منها

ليس هنـالـك مَن لـه القـدرة على خوض عبـاب اللقاءات والمؤتمرات الشائكة والعاصفة والكثيرة التعقيد مثل الملك الحســن الثاني. وهو عندما يخوضــها فإنه يبدو مثل الربان البارع الذي يعرف أن البحر في أشـد حالات غضـــبه لكنه لا يتراجع، ويمســـك بدفة قيادة ســفينته ويتعامل مع الرياح، التي تعصـــف وتزيد من غضب البحر، التعامل الذي يتسم بالحذاقة وبما يجعل السفينة تتجاوز المخاطر وتنتصر على غضب البحر وتصل إلى بر الأمان.

وليس هناك مَن يشـكك بوطنية الحســن الثاني أو يشـكك في نواياه عندما يأخذ على عاتقه أمْر مواجهة قضـية دخلت في مأزق ويكاد أطرافها لا يجدون طريقاً للخروج من هذا المأزق، فيتعامل مع الحالة بطريقة تجعل الأطراف المشـــار إليها تتحاور خارج المأزق وبصـرف النظر عما إذا كانت سـتصـل إلى نتيجة أم أن أسباب الخلاف تبقى على حالها.

وكم من خلافات عصفت بالعالم العربي وكادت تتحول إلى صراعات فحروب لولا أن القدرة الهائلة للحسن الثاني جعلت فجوات هذه الخلافات تضيق شيئاً فشيئاً داخل أروقة قاعات المؤتمرات التي تم عقْدها في رحاب الحسن الثاني. ويسجل تاريخ المؤتمرات العربية والإسلامية، وبالذات مؤتمرات القمة العربية، للحسن الثاني فضل تحقيق الحد الأدنى من النجاحات لمؤتمرات كان الفشل هو المتوقع لها بسبب عُمق الخلافات وحساسية الموضوعات المثارة. ومن الدار البيضاء إلى الرباط إلى فاس ثم العودة إلى هذه المدن لم يترك الحسن الثاني مؤتمراً يستسلم للأطراف التي تتطلع إلى تفجير المواقف داخل الأروقة.

ومع أنه لا يميل للمشاركة شخصياً في المؤتمرات واللقاءات التي تنعقد في عواصم عربية أو إسلامية إلاَّ أن مَن يُمثله في تلك المؤتمرات يتخذ من المواقف ما من شأنه أن يبقي هذه المؤتمرات في منأى عن الضجيج والإثارة. أما المؤتمرات التي تنعقد في رحابه فإن رعايته لها تفوق الوصف ويبذل من الجهود ما يكفي لرأب صدْع هنا وتطويق أزمة هناك وتقويض خلاف على شفير الإنفجار هنالك.

وطوال ربع قرن إستطاع الحسن الثاني بالحكمة والصبر والحزم واللباقة أن يكون إستمرار الحاكم العربي والمسلم الوحيد الذي يتسع صدره، وكذلك أسوار قصوره وقاعات بعض الفنادق في أهم مدن المملكة للتناقضات العربية وللمتناقضين الذين كانوا يأتون وقد ملأ الغيظ نفوسهم ويغادرون وهم على درجة من الإمتنان للحسن الثاني. إمتنان للتفهم. وإمتنان لقدرته على تبريد حرارة الغضب الذي لو كان إنتهى إنفجاراً لكانت الخسارة جراء ذلك كبيرة.

وبسبب هذم المواصفات في الحسن الثاني فإن المؤتمرات كانت هي التي تسعى إلى الإنعقاد فى رحاب مملكته وليس هو الذي يسعى. وكم من مؤتمر شهدته المملكة المغربية كان يمكن ألاَّ ينعقد لو أن المكان هو في عاصمة أُخرى. وهذا سببه أن الحكام العرب أو بعضهم يختلفون على أمور كثيرة لكنهم يلتقون على أمر أساسي وهو أن الحسن الثاني هو أنسب مَن يستضيف اللقاءات وبالذات الصعب منها. ولا بد أن كثيرين من أهل الحُكم في العالم العربي والعالم الإسلامي يتذكرون الصعوبات التي ألقت بثقلها على القمة الإسلامية فى الدار البيضاء (16 – 19 يناير/ كانون الثاني 1984) التي كان موضوعها الأساسي عودة مصر إلى مكانها ومكانتها في منظمة المؤتمر الإسلامي كمقدمة لإستعادة عضويتها في الجامعة العربية، التي كانت قمة بغداد الأولى الإستثنائية عام 1978 أسقطتها، رداً على إبرام الرئيس الراحل أنور السادات معاهدة كامب ديفيد.

ولعل أبرز تلك الصعوبات التي وجد الملك الحسن الثاني نفسه مطالَباً بتذليلها هي التصلب السوري – الليبي ورفْض الدولتيْن أي محاولة لإستعادة مصر عضويتها في منظمة المؤتمر الإسلامي وفي تلك القمة ترأس الوفد السوري عبد الحليم خدام وترأس الوفد الليبي عبد السلام جلود. وتشاء الظروف والتطورات التي تحدُث وتؤكد المبدأ السياسي القائل أنه ليس هنالك عداوات دائمة ولا صداقات دائمة وإنما هنالك مصالح في الدرجة الأُولى... تشاء هذه الظروف أن سوريا وليبيا اللتيْن كانتا الأكثر تصلباً في مواجهة الحالة المصرية باتتا بعد ذلك، وفي الوقت الحاضر بالذات، الدولتيْن المتعاطفتين مع مصر، بل ويمكن القول بأن هنالك ما يشبه الحلف المتماسك بين قادة الدول الثلاث. كذلك تشاء الظروف السياسية الدولية أن تسير سوريا على الطريق نفسه الذي سارت عليه مصر بالنسبة إلى الإسرائيلي وأن تتفهم ليبيا الظروف التي جعلت مصر تختار هذا النهج. ولو أن ليبيا كانت دولة مواجهة بالمعنى الجغرافي لكانت سارت هي الأُخرى على الطريق نفسه.

ولولا اللباقة التي مارسها الحسن الثاني في القمة الإسلامية فى الدار البيضاء لكان إنتهى أمر القمة إلى خلاف إسلامي – عربي عميق الجذور وذلك لأن الأكثرية الإسلامية الأفريقية والآسيوية كانت تريد عودة مصر وأن يتم إتخاذ قرار بذلك بينما الأكثرية العربية تميل إلى تأييد الخطوة لكنها تفضل أن يكون الموقف السوري والموقف الليبي أقل حدة مما هو عليه من إصرار في عدم إدراج موضوع عودة مصر فى جدول الأعمال. ولكن القمة الإسلامية حافظت على هيبتها وفتحت الأبواب الموصدة أمام عودة مصر إلى منظمة المؤتمر الإسلامي.

وكانت لباقة الحسن الثاني أفادت قبْل ذلك في القمة العربية في فاس عام 1982 في فتْح الأبواب برفق لعودة مصر بمؤازرة من الملك فهد بن عبد العزيز والرئيس التونسى الحبيب بورقيبة.

وتلك هي حال الملك الحسن الثاني مع القمم والمؤتمرات التى تنعقد في رحابه. إما نجاح مطلق وإما

قفزة نوعية في إتجاه النجاح. لكن لا فشل.

ولو أن القرار العربي بنقل مقر الجامعة من القاهرة بعد إسقاط عضوية مصر إختار الرباط أو الدار البيضاء لما كان لمؤسسة القمة العربية أن تتعثر مهما بلغت حدة الخلافات والصراعات بين الدول العربية، وذلك لقدرة الحسن الثاني على التعامل مع هذه الخلافات وتلك الصراعات بطريقة تطفىء بعض الشيء نار تلك الخلافات. كما أنه لو تم نقْل الجامعة إلى الرباط أو الدار البيضاء لكانت القمم العربية ستصبح دورية بالفعل وكانت لن تتأجل أي قمة. ولكن الحسن الثاني كان لن يوافق على أن تكون بلاده المقر البديل لسبب أساسي وهو أن قرار النقل كان مؤقتاً وهو لا يرتضي ذلك بمعنى إما مقر دائم وإما مقر في بلد آخر. ومن هنا وقع الإختيار على تونس التي هي بدورها إستقبلت قرار النقل بشيء من الإمتعاض ليس لأنه نقل مؤقت وإنما لأنها تفضل أن تبقى بلداً سياحياً لا تقض الصراعات العربية مضاجعه ولا ينأى السياح الأجانب عنه. ثم شاءت الظروف المشرقية أن تكون تونس مقراً مؤقتاً أيضاً لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد ترحيلها من لبنان. ولعل الملك الحسن الثاني هو الوحيد بين القادة العرب والمسلمين الذي ليس بينه وبين الآخرين شرقاً وغرباً مسلمين وعرباً خطوط إتصال مقطوعة. كما أن أسلوب تعامله مع الصراع العربي – الإسرائيلي كان من النوع الذي لا يستفز أحداً. فهو في الخط الأمامي مشارك عندما كان لا بد من مواجهة إسرائيل حرباً، وهو في الخط الأمامي عندما بات الأمر يتطلب مواجهة سياسية مع إسرائيل.

وكان «المؤتمر الإقتصادي لدول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» الذي جرى عقْده في الدار البيضاء (30 أكتوبر/ تشرين الأول) – 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 1994) الخطوة الأكثر تقدماً على صعيد المواجهة السياسية.

وللوهلة الأولى بدا هذا المؤتمر بالقرارات التي تم التوصل إليها أنه يخدم في النهاية إسرائيل والتي من أجْل أن تحقق الحد الأقصى من المكاسب شاركت في المؤتمر بوفد كبير ضم نصف أعضاء الحكومة. ولكن أهمية المؤتمر هي في إنعقاده وليس في القرارات التي إتخذها. وأهميته أيضاً في الهدف الذي من أجْله جاء الإنعقاد. وأهميته، أيضاً، وأيضاً أنه فاتحة مؤتمرات كثيرة ستنعقد مستقبلاً وليس في جدول أعمالها ما تبحثه غير التنمية. بل قد يجوز القول إنه «بروفة» مصالحة على مستوى ما قبْل القمة بين مَن كانوا في الأمس أعداء ويجري السعي الدولي لتحويلهم إلى أصدقاء، مع الأخذ في الإعتبار التمهيد الذي تمثَّل في مؤتمر مدريد.

ومثل هذا المؤتمر الإقتصادي الذي شهده القصر الملكي فى الدار البيضاء ما كان لينعقد خارج المغرب، ذلك أن من يدعو إلى مثل مؤتمر كهذا يجب أن تتوافر فيه صفات ومواصفات معيَّنة لكي تحظى الدعوة بالقبول الدولي وبمؤازرة الدولة الكبرى الولايات المتحدة والدولة التي كانت كبرى وتراجعت بعض الشيء من دون أن تصبح صغرى ونعني بها روسيا.

وفي الأسطر التي بدأنا فيها هذا المقال الكثير من التحديد للصفات والمواصفات التي تتوافر في الملك الحسن الثاني. ولكن ثمة إضافة لا بد منها وهي أنه من أجْل قشْع غيوم الحرب التي تُلبد سماء منطقة الشرق الأوسط لا بد من مؤتمرات كثيرة من هذا النوع بصرف النظر عن حجم جدواها. وهذه المؤتمرات ستجعل الإنفاق العسكري في دول المنطقة يتحول شيئاً فشيئاً إلى التنمية. وإذا كان هنالك ما يمكن قوله للكثيرين الذين يشعرون أن ابواب البيت العربي باتت مفتوحة بالكامل بعد مؤتمر الدار البيضاء من دون أن تقدِّم إسرائيل أي تنازلات حتى الآن، فهو أن الملك الحسن الثاني صاحب رؤية واقعية ومستنيرة لكنها ليست إطلاقاً على حساب المبدئية، فضلاً عن أن الجانب العربي يحتاج في مرحلة الصراع السياسي مع إسرائيل الى الحاكم الذي يستمع الجانب الإسرائيلي بمهابة إلى ملاحظاته، أو أحياناً إلى تحذيراته. وأغلب الظن أن في إستطاعة الملك الحسن الثاني أن يفعل ذلك مع الإسرائيليين.

وعلى هذا الأساس وإستناداً الى تاريخ حافل للحسن الثاني وخبرته العميقة بالقمم الصعبة والمؤتمرات المثيرة والمدهشة فإنه لا خوف من مؤتمره الأخير مثلما أنه كان لا خوف على قممه ومؤتمراته السابقة. فالعاهل المغربي صاحب دور ولا يمكن أن يترك للظلال فرصة حجْب هذا الدور، فضلاً عن أنه حريص على تاريخه وتجربته.

ولكن الخوف لا يلغي، في اي حال، مشروعية الخشية القائمة في النفوس حتى إشعار آخر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 نوفمبر (ت2) 1994

* * *

دفْعهم خارج الجولان بالتي هي أحسن

يتعامل الرأي العام العربي والرأي العام الإسرائيلي وبعض قطاعات عريضة من الرأي العام العالمي مع الخطط والمساعي من أجْل إنجاز السلام العربي – الإسرائيلي، على أساس أن كل شيء بات جاهزاً لتحقيق هدا السلام وأن الجميع في إنتظار إنضمام سوريا إلى مخطط التسوية الذي وجدت الدول العربية- وبالذات دول المواجهة - نفسها تنضم إليه عن إضطرار وليس عن إختيار.

ويحدُث نوع من الترقب لكل تصريح يدلي به مسؤول سوري ولكل مؤتمر صحافي يعقده الرئيس حافظ الأسد بعد أن يزور أو يُزار. ويتم التمعن في قراءة هذا التصريح أو ذاك والبحث بين السطور عما يمكن أن يفيد في تكوين فكرة واضحة عن الموقف السوري. كذلك تحدُث قراءة متأنية لإفتتاحية تنشرها صحيفة «تشرين» أو رأي تنشره صحيفة «البعث» أو تعليق تبثه إذاعة دمشق. وإلى جانب التمعن والقراءة لما يصرح به المسؤولون في سوريا تحدُث بعض الإشارات من نوع بث حفلة التوقيع الأردنية – الإسرائيلية في حديقة البيت الأبيض في واشنطن على شاشه التلفزيون السوري. كذلك يتم بين الحين والآخر بث بعض اللقطات التي تنسجم مع حالة الإنتظار السائدة لإنضمام سوريا إلى مخطط التسوية. ويحدُث ذلك من دون أن يسجل المسؤولون السوريون ملاحظات أو تحفظات أو إعتراضات على الأسلوب الأردني والمسلك الفلسطيني وبالتحديد على خروج هذيْن الطرفيْن على التنسيق المتفاهَم عليه والذي كان معناه في الدرجة الأُولى عدم إنفراد طرف بالتسوية أكثر من معناه أسلوب تشاور وتبادُل معلومات.

ومن جانبه فإن الرئيس الأسد يحمل في نفسه الكثير من المرارة لأن كل الذين نسق معهم في موضوع المواجهة السياسية والعسكرية مع إسرائيل لم يواصلوا الطريق إلى النهاية. وقبْل الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية هنالك مصر وكيف أن الرئيس (الراحل) أنور السادات خرج على التفاهم المتفَق عليه مع الرئيس الاسد في شأن التنسيق وأنهى وحيداً نزاع مصر مع إسرائيل.

وكثيراً ما يستنتج الذين يلتقون بالرئيس الأسد أن مسألة التنسيق لم يتم إستعمالها كسلاح سياسي فعال في المواجهة مع إسرائيل.

ولا يترك الرئيس الأسد مناسبة إلا ويعبّر فيها عن الرغبة الحقيقية في إنضمام سوريا إلى عالم السلام العربي – الإسرائيلي الذي أخذتْه الدول الكبرى على عاتقها. وإنطلاقاً من هذه الرغبة شاركت سوريا في مؤتمر مدريد وفي لقاءات ومحادثات مباشرة تحت الرعاية الأميركية. وتطور الأمر بعض الشيء إلى حد أن المقابلة الصحافية والتلفزيونية مع إسرائيل لم يعد من المحرمات، كما أن لغة وسائل الإعلام الرسمية السورية من إذاعة وتلفزيون وصحف باتت تختلف عما كانت عليه في الماضي... بل إن هنالك مفردات إقتضت الظروف المستجدة إستبدالها بمفردات أكثر واقعية.

وبعدما زار الرئيس كلينتون دمشق قبْل ثلاثة أسابيع ضِمن جولة له أرادها لتعزيز الدور التاريخي الذي يتطلع إليه إنتعش الحديث حول فرصة الإتفاق السوري – الإسرائيلي وكان مبهوراً بعض الشيء بلقائه مع الرئيس الأسد وما سمعه منه في شأن السلام والوضع في المنطقة. وغادر كلينتون إلى بلاده ليصاب بعد ذلك بنكسة داخلية حيث ألحقت سياسته وعدم تنفيذه لوعود أخذها على نفسه هزيمة تاريخية بالحزب الديمقراطي. وهذا الوضع الجديد مقلق لأن معناه أن الرئيس كلينتون سيتباطأ بعد الآن في مواصلة الإهتمام بعملية السلام بدءاً من النقطة التي إنتهت إليها نتائج لقائه بالرئيس الأسد. ومقلق لأن معناه أن الرئيس كلينتون قد يخفف من وطأة الهزيمة التي مُني بها حزبه، بإجراء تغيير في مناصب الإدارة قد تشمل وزير الخارجية كريستوفر، خصوصاً أنه رمز الإهتمامات الخارجية التي كانت في الدرجة الأُولى سبباً من أسباب الهزيمة في الإنتخابات. وإذا حدث ذلك فهذا معناه أن الخلَف سيبدأ من جديد وسيضع إسطوانة الإنسحاب وشروط إسرائيل والضمانات تدور من جديد وتتأجل أمور كثيرة تحتاج إلى حسم. وفي أي تأجيل تكون إسرائيل هي المستفيدة، خصوصاً أنه إذا كان تحمُّل حالة اللاحرب واللاسلم في الماضي مرهقاً ومكلفاً فإن الحالة الجديدة أكثر إرهاقاً وأكثر كلفة.

ذلك هو الجو الذي سيسود بعد الآن: تباطؤ في العملية السلمية. عدم إهتمام الإدارة الأميركية بالتطورات التي قد تنشأ عن تأخير حسْم المسائل العالقة.

ومن جانبها فإن إسرائيل ستلتقط أنفاسها ولن تغيّر

شـيئاً من عنادها وقد تسـتغل حلقة الضـعف التي إستجدت على إدارة الرئيس كلينتون بحيث تتراجع عن خطوات في إتجاه السـلام تم التفاهم أصـلاً عليها. وتنتظر إلى ما لا نهاية، خصوصاً انها غير قلقة في شأن مساعدات الولايات المتحدة لها وغير قلقة من أن دول الغرب عموماً يمكن أن تعيد النظر في تعاطفها معها، بينما في المقابل تحتاج سوريا إلى المساعدات والدعم المالي ولا تجده بسبب الظروف التي نشأت عن حرب الخليج والأعباء التي تتحملها دول كانت في الأصل تدعم سوريا.

إزاء هذه الصورة المقلقة ما الذي يمكن أن تفعله سوريا؟

إن كل المؤشرات تؤكد أن سوريا تريد السلام مع إسرائيل وهو ليس موقفاً جديداً في أي حال. فمن قبل مؤتمر مدريد وبالذات في المرحلة التي كان فيها الدكتور هنري كيسينجر هو وزير خارجية الولايات المتحدة وهو الذي يقوم بجولات مكوكية في المنطقة هدفها الظاهري السلام وهدفها الحقيقي فك عرى العلاقة الإستراتيجية بين مصر وسوريا في الدرجة الأُولى، كانت سوريا مع التسوية الموضوعية للصراع العربي – الإسرائيلي. وللرئيس الأسد في تلك المرحلة عبارة شهيرة وردت في مقابلة أجرتها معه مجلة «نيويورك» الأميركية. وفي تلك المقابلة أثار المراسل مسألة السلام وإمكانية إبرام سوريا معاهدة مع إسرائيل وكان جواب الرئيس الأسد: «إذا رجع الإسرائيليون إلى حدود 1967 وأصبحت الضفة الغربية وقطاع غزة دولة فلسطينية فستزول آخر عقبة في طريق التسوية النهائية. وعندما تتم تسوية كل شيء يجب أن يصاغ ذلك رسمياً في معاهدة سلام رسمية. وهذه ليست دعاية، كما أن ذلك ليس منطقاً جديداً في السياسة السورية. أنه موقفنا الأساسي الذي أقره قادة الحزب».

وتكاد لا تمر مناسبة إلا وتتحدث سوريا عن السلام ضمن صيغة السلام مقابل الأرض. وهي تواصل الحديث حول هذه الصيغة حتى بعدما باتت وحيدة وإلى جانبها لبنان. ومع ذلك فإن إسرائيل لا تتجاوب.

وإزاء ذلك ما الذي يمكن أن تفعله سوريا؟

هل يبقى الرئيس الأسد على الحالة تراوح مكانها وفي ذلك إستنزاف معنوي ونفسي يومي، فضلاً عن الإستمرار في تجميد الحالة في نقطة بين الرغبة في السلام وعدم تحقيق هذا السلام؟

إن هناك أكثر من سبب موضوعي لكي ينهي الرئيس الأسد الأمر ضمن مواجهة عسكرية ينحصر هدفها في دفع القوات الإسرائيلية خارج الأراضي السورية بالقوة ما دام لا يحدث ذلك بالحسنى. مواجهة تندرج ضمن روحية «سلام الشجعان» الذي طرحه الرئيس الأسد كشعار للتسوية. ومواجهة لا تتطور إلى حرب لا بالنسبة إلى الجانب السوري ولا بالنسبة إلى القوات الإسرائيلية. بل إنها مواجهة ستجد على الفور دول العالم وفي مقدمتها الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن تهب على الفور لتطويقها وإبتكار أسرع السبل لتوظيفها في خدمة العملية السلمية.

وإلى ذلك أنها مواجهة مطلوبة لتخفيف هذا الجو الثقيل الذي يضغط على النفس العربية.

وإذا كان بشَّار الأسد في الصف الأمامي للقوات السورية التي ستقوم بعملية دفع القوات الإسرائيلية خارج الأراضي السورية، فإن ذلك سيعطي الإبن مشروعية أن يخلف والده وهي مسألة تعني الكثير بالنسبة إلى الرئيس حافظ الأسد.

وقبْل أسابيع قاد الضابط بشَّار الأسد مناورة بالذخيرة الحية وتم ذلك في مرحلة بدا فيها السلام بين سوريا وإسرائيل حالة عالقة تحتاج إلى الرئيس الأميركي الذي يدفع إسرائيل في إتجاه السلام المعقول، أو تحتاج إلى تحويل الرئيس الأسد مفهوم «سلام الشجعان» إلى عمل عسكري يدفع الذين يحتلون الجولان وأولئك الذين يستوطنون فيه إلى الإنسحاب إلى داخل حدود أرض أقرها العالم لهم غصباً عن العرب وعن الفلسطينيين أصحاب هذه الأرض.

وهذا العمل العسكري يخدم في النهاية القرار الدولي والسعي الأميركي ولا يستفزهما لأن رموز ذلك القرار وذلك السعي يعرفون أن الرئيس الأسد يرجح الحكمة على المغامرة وأن أي عمل عسكري يقوم به هو مجرد دفع بالتي هي أحسن لقوات إسرائيلية تحتل أرضاً سورية، هذا إلا إذا كانت المؤسسة العسكرية في إسرائيل والتي لها تاريخياً الدور الأكثر أهمية في صناعة القرار السياسي ضغطت على إسحق رابين وحكومته من أجْل أن يتخذ قرار الإنسحاب وطي آخر الصفحات في ملف الجانب العسكري من الصراع العربي – الإسرائيلي.

ونجد أنفسنا ونحن نفترض إحتمال حدوث العمل العسكري السوري بغرض دفْع القوات الإسرائيلية خارج الأرض السورية نتذكر عبارة قيل أن الرئيس حافظ

الأسد رددها أكثر من مرة أمام رفيق حربه (حرب عام 1973) الرئيس الراحل أنور السادات الذي زاره في دمشق قبل أن يتوجه بعد ذلك إلى إسرائيل. وخلاصة هذه العبارة: «إذا كنت تظن أنني خائف من القتال وحدي فأنت على خطأ».

يحدُث العمل العسكري أم لا يحدُث؟ إن التفسير المنطقي لـ «سلام الشجعان» هو أن قائله الرئيس حافظ الأسد يقصد به أنه يتوجه إلى السلام ولكنه مستعد للمواجهة إذا تطلب الأمر ذلك.

وفي الجو مؤشرات إلى أن الأمر ربما تطلَّب العمل العسكري الذي يدفع الإسرائيليين خارج أرض ليست لهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 14 نوفمبر (ت2) 1994

* * *

البناء واجب والمحافظة عليه قضية

ليس هنالك بالنسبة إلى مَن يترأس حُكْماً ما هو أهم مِن خوض غمار التنمية وبناء البلد الذي يقود الحُكْم فيه.

وإذا كانت ثروة البلد متواضعة فإن الحاكم المخلص يبذل كل ما في وسعه لدى الدول المقتدرة ويحرص في هذا السبيل على أن ينهج السياسة التي تُطمئن الآخرين، ويحرص أيضاً على أن يكون أميناً في إنفاق ما يحصل عليه من مساعدات، بمعنى أنه لا يبني القاعدة الجوية إذا كان يفتقد إلى المطار المدني المناسب، ولا يكثر من المشاريع المظهرية إذا كان لا يملك المستشفيات التي تلبي إحتياجات الناس، ولا من الفنادق إذا كانت أزمة السكن خانقة ولا يجد المواطن شقة تأويه.

وعندما سيتم إنفاق المساعدات ضمن الأصول والضوابط يكون النهج السياسي إزاء الذين ساعدوا عاقلاً وبعيداً عن الإستفزاز فإن المساعدات لن تتوقف وسيأخذ الذين يساعدون هذه الدولة في الإعتبار أن المساعدات لا تذهب هدراً ولا يتم إنفاق المال في الإتجاهات التي لا تراعي مشاعر الذين ساعدوا.

أما إذا كانت ثروة البلد وفيرة فإن الحاكم يبذل كل ما في وسعه من أجْل أن يُكثر من البناء ولا يميز بين منطقة أو أُخرى. وكلما زادت الثروة زاد البناء وبحيث يشعر المواطن أن سريره في المستشفى مضمون ومقاعد أولاده في المدارس والجامعات جاهزة وفرص العمل متاحة.

وحتى الشيخوخة محسوب حساب متطلباتها بحيث تكون أيامها كريمة.

تلك هي بديهيات لا بد من توافرها وخصال لا بد لمَن يحكم من أن يتحلى بها. بل إنها في الحد الأدنى للحاكم الذي يهمه أن يذكره شعبه بالخير مع شروق شمس كل يوم. وما يضيفه الحاكم إلى ذلك خير وبركة.

والحديث في هذه المناسبة عن البناء والإنجازات ليس بالأمر الذي يحتاج إلى تذكير وتوضيح. فالذين يزورون المملكة يلاحظون ذلك والذين زاروها في الماضي بعد سنوات لمسوا كم أن بناء الوطن في تَزايد وتعميم التنمية لا يتوقف. والذين لم يزوروا سمعوا ومِن رواة غير مطعون بمصداقيتهم.

والذي يلفت الإنتباه هو أن هذه التنمية والإنجازات تمت في الزمن الذي بلغت فيه التحديات والصراعات والحروب في المنطقة العربية حداً لم تشهده من حيث الشراسة والتدمير الصراعات في مناطق أُخرى كثيرة في العالم. وهذه الصراعات والتحديات كان يمكن أن تأخذ من طريق التنمية لو أن القيادة في المملكة كانت من النوعية غير الواقعية أو النوعية التي تنقصها التجربة. ولكن القيادة كانت على درجة عالية من الوعي والتبصر والواقعية، فضلاً عن أن قيادة فهد بن عبدالعزيز، التي إرتبطت التنمية والبناء بإسمها، وجدت نفسها أمام تحديات غير مألوفة ولا بد من مواجهتها. وساعد على ذلك أن فهد بن عبدالعزيز كان شريكاً في صناعة القرار في الفترة التي شغل فيها ولاية العهد. وعندما تسلّم الحُكْم كملك كانت التحديات قد إصطدمت بجدار من التماسك وبذلك أمكنه أن يواصل وعلى مدى عقد كامل خُططاً طموحة وضعت المملكة في سنوات على أبواب حلقة الدول الأكثر نمواً والأكثر إستقراراً في العالم. وكل ذلك من دون أن تتوقف مؤازرة المملكة ومساندتها لأطراف عربية وإسلامية لها على المملكة حق طلب المؤازرة، وللمملكة على هذه الأطراف واجب تفهُّم الرؤية السعودية لما يُفترض أن تكون عليه حال العلاقات وطبيعة التعامل وأصول التعايش. بل يكاد المرء يجزم بأن المملكة العربية السعودية وبالذات في حقبة فهد بن عبد العزيز، أصابت حتى بعض الأطراف العربية

والإسلامية الثورية بصرف النظر عما حوته أدبيات هذه الأطراف في الماضي الغابر أو في الزمن الحاضر من حملات شخصية على فهد بن عبدالعزيز، الأمر الذي يعني– من باب الإفتراض – إن الحاملين والمتحاملين يحسدون فهد بن عبد العزيز على هذه القدرة في أن يكون له على الآخرين، بمَن في ذلك الذين حملوا أو تحاملوا، من دون أن يكون لهؤلاء عليه شيء. ويحسدونه على أنه بنى قوة عسكرية لبلده من دون أن يأخذ بناء هذه القوة من طريق التنمية الشاملة بمعنى أن الطائرة العربية لم يتم شراؤها على حساب المستشفى أو الجامعة أو المصنع وأن القاعدة التي تم بناؤها لم تأخذ من الطريق الذي يجب شقّه أو المعاهد العلمية التي يجب إنشاؤها في كل المناطق.

بل إن الكثيرين يحسدون فهد بن عبد العزيز على أمر بالغ الأهمية وهو أنه لم يحقق كل هذا الذي تحقق من خلال الضغط على كواهل الناس وإنما ترك للمواطنين توظيف جهودهم في شؤون تخصهم وإعتبر عملية البناء والتمنية واجباً ملقى على الحاكم وقام فهد بن عبد العزيز بالواجب.. وأكثر.

إن كلاماً يمكن أن يقال في أمر التنمية ومدارسها وأساليبها. ويمكن أن يقال الكثير أيضاً في شأن نماذج من الحكام حققوا لبلادهم وفيها تجارب مضيئة من التنمية، لكننا ما دمنا نعيش أجواء اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية فإن الذي يمكن قوله هو أن أسلوب فهد بن عبد العزيز الذي إرتبطت بإسمه الخُطط الأكثر تقدماً في مراحل هذه التنمية هو أشبه بالنظرية.. نظرية عفوية وواقعية ومخلصة تقوم على مبدأ أنه إذا كان البناء والتنمية أمراً مهماً فإن المحافظة على هذا البناء وتلك التنمية هي الأهم.

لقد إعتبر فهد بن بن عبد العزيز أن البناء والتنمية واجب فأنجز في تسع عشرة سنة بمؤازرة أشقائه وأبناء المملكة ما هو موضع إعجاب الآخرين من الذين رأوا أو سمعوا.

وإعتبر أن المحافظة على ما تم إنجازه، أكثر من واجب. إنه قضية.

وبعد الآن سيصبح فهد بن عبد العزيز رمزاً للحاكم الذي يبني ويحافظ على الذي بناه. وبعد الآن وفي مرحلة إنحسار الحروب وأسلحتها ستصبح قاعدة «البناء واجب والمحافظة على البناء قضية» شرطاً لا بد من توافره أمام مَن يحكم ويريد أن يتباهى أمام مواطنيه وأمام الآخرين بأنه يبني مسترشداً بأسلوب فهد بن عبد العزيز في البناء والمحافظة عليه في ساعات الغضب والشدة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 5 ديسمبر (ك1) 1994

* * *

مصالحتان بدل المصالحة الواحدة:
عراقية – عربية وإيرانية – عربية

يكاد من يقرأ المداولات المعلنة من القمة الإسلامية السابعة التي إستضافها الملك الحسن الثاني في الدار البيضاء (من الثلاثاء 13 إلى الخميس 15 ديسمبر/ كانون الأول 1994) ويقرأ التوصيات التي تضمَّنها البيان الختامي عن المؤتمر يخرج بإنطباع أن هذه القمة لم تنعقد في المغرب ولم يترأسها الحسن الثاني وأن الإنعقاد كان في أي بلد آخر من الدول الإسلامية الذي لا يشعر أنه معني بالهموم التي يواجهها العالم الإسلامي، أو أن حاكمه لا يتطلع إلى دور يتجاوز حدود بلاده كما هي حال المغرب المهتم بأحوال أمته والحسن الثاني المهموم بقضايا هذه الأمة.

ونقول ذلك على أساس أن التوصيات التي أصدرتْها القمة كانت في معظمها إجتماعية وكأنما المؤتمر هو مؤتمر وزراء الداخلية والتربية والأوقاف في الدول الإسلامية وليس مؤتمر قادة العالم الإسلامي. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن القضايا ذات البُعد الإجتماعي التي تواجهها الدول الإسلامية باتت على درجة كبيرة من الخطورة.

وخيراً صدرت هذه التوصيات عن القمة الإسلامية السابعة لأنها على الأقل تركت إنطباعاً بأن هذه القمة تعثرت في ما يتعلق بالشؤون السياسية إلاَّ أنها أفلحت في إستنباط رؤية للمشاكل الإجتماعية التي يواجهها جيل الشباب الإسلامي الحالي وستواجهها الأجيال المقبلة إذا لم يحدُث تدارُك لها وعلى وجه السرعة من الذين في قمة السُلطة.

ومشكلة القمة الإسلامية السابعة أنها بدأت سلفاً باهتة، ويحتار المرء في الأسباب التي جعلت القمة الإسلامية السابعة لا تنجز أكثر مما أنجزتْه مع أنها في ضيافة الملك الحسن الثاني الذي بات أهل القرار العربي والإسلامي على حد سواء يعرفون عنه تصميمه

على أن تنجح القمة، عربية كانت أو إسلامية، ما دامت إنعقدت بصرف النظر عما إذا كان النجاح متواضعاً أو أنه بحجم الطموح والتطلعات والأماني.

ونجد أنفسنا إزاء هذه المعادلة بالذات نقول إن النجاح هذه المرة كان ذا نكهة تختلف عما هي الحال من قبْل، بمعنى أنه لم يتحقق لأي طرف صاحب مشكلة أو قضية أن ينال ما يريده إلاّ أن هذا الطرَف لم يغادر المؤتمر مهزوماً أو مكسور الخاطر. وحتى بالنسبة إلى الموضوعيْن الأكثر حساسية وهما موضوع القدس وموضوع المصالحة العربية فإن الملك الحسن الثاني إستنبط صيغة في منتهى الأهمية عندما أضيفت، بمبادرة وسعي من جانبه، مصر إلى "لجنة القدس" التي سبق أن تألفت عام 1979 في زمن القطيعة العربية والإسلامية لمصر نتيجة إبرام الرئيس أنور السادات معاهدة سلام مع إسرائيل، ولم يحدُث بعد ذلك أن أضيفت مصر إلى عضوية هذه اللجنة، وهو أمر لافت للنظر إذ كيف تكون مصر هي "ضابط الإرتباط" العربي – الإسرائيلي ولا تكون عضواً في آخر حصن للمطالبة بالقدس والدفاع عن الحق الإسلامي فيها؟ ونعني بهذا الحصن "لجنة القدس" التي تبدو الحاجة إليها في المرحلة الراهنة ماسة أكثر من أي زمن مضى. ومن خلال تفعيل هذه اللجنة وقيامها بمهمات لدى الدول المسيحية وتحريك أهمية العلاقة الإسلامية – المسيحية في حال فكْ أسْر هذه المدينة المقدسة يمكن لظاهرة الإرهاب التي أخذت من مناقشات القمة الإسلامية السابعة وتوصياتها الحيز المهم أن تنحسر فلا تعود تشكِّل المخاوف والهواجس للأنظمة كما هي الحال الآن. ونجد أنفسنا ونحن نشير إلى مسألة الإرهاب نتوقف أمام عبارة "إعادة التأكيد على إدانة الإرهاب بجميع أشكاله وإرهاب الدولة.." الواردة في "إعلان الدار البيضاء" الصادر عن القمة، إذ أننا لا ندري ما هو المقصود بـ "إرهاب الدولة". هل هو بمعنى الإرهاب الذي تمارسه – إفتراضاً – على الناس خصوصاً أن في الإعلان بنداً ينص على "تجديد التأكيد على حقوق الإنسان في الإسلام" أم أنه الإرهاب الذي تتعرض له الدولة من بعض أبنائها على نحو ما يحدُث في كل من الجزائر ومصر؟

ومسألة إضافة مصر إلى عضوية "لجنة القدس" وتدشين مهمة هذه اللجنة بإجتماع غير مثمر ثم الإعلان عن أن هذه اللجنة ستعقد في الرباط في منتصف يناير (كانون الثاني) المقبل إجتماعاً على مستوى وزراء الخارجية يترأسه الملك الحسن الثاني، هي بمثابة مؤشر إلى الجدية في تحقيق المصالحة. وهي لن تكون مصالحة عربية – عربية فقط وإنما مصالحة عربية – إيرانية أيضاً.

ونحن عندما نلاحظ أن الدول العربية الأعضاء في "لجنة القدس" هي المملكة العربية السعودية والمغرب والعراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان وموريتانيا ثم مصر، التي أضيفت إلى اللجنة، يتبين لنا أن هذه اللجنة، تضم بعض الدول التي هنالك ضرورة لمصالحة بعضها البعض تمهيداً للمصالحة التي ما زالت مستعصية إلى حد ما، ونعني بها مصالحة العراق والكويت. وقبْل إضافة مصر كانت المصالحة المؤمل حدوثها ستتعثر لأن ما بين مصر والعراق خصومة عميقة وما بين العراق وسوريا خصومة قديمة إتخذت منحى أكثر تعقيداً بعد مشاركة سوريا إلى جانب دول التحالف في تحرير الكويت، ومن المؤكد أن براعة الحسن الثاني فضلاً عن بعض الظروف الدولية والظروف الخليجية التي ستتبلور خلال القمة الخليجية التي تبدأ أعمالها اليوم في البحرين ستجعل الطريق أكثر يسراً لتحقيق المصالحة، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن المسألة متشابكة بمعنى أن المصالحة لا تقتصر على العراق والكويت وإنما هناك العراق والولايات المتحدة وهناك العراق وآخرون وهم كثيرون. ولعله من المستبعَد أن تحدُث المصالحة العراقية – الكويتية والخليجية قبْل أن تحدُث المصالحة الأميركية – العراقية والمصالحة المصرية – العراقية والمصالحة البريطانية – العراقية والمصالحة الفرنسية – العراقية. ومن الآن وحتى إنعقاد إجتماع اللجنة منتصف يناير /كانون الثاني المقبل سيكون الحسن الثاني بذل دولياً وخليجياً جهوداً خارقة لكي يكون الإجتماع المشار إليه نقطة إنطلاق نحو إجتماعات مثمرة وليس إجتماع لياقات وإلاَّ فإن تأجيله يبقى أفضل.

كذلك إننا عندما نلاحظ أن إيران عضو في "لجنة القدس" فإن إختيار طهران مكاناً لإنعقاد القمة الإسلامية الثامنة بعد سنتين يجعلنا نفترض أن مسيرة المصالحة الإيرانية – الخليجية والإيرانية – المصرية والإيرانية – العراقية والإيرانية – اللبنانية والإيرانية – الفلسطينية ستبدأ خطوتها الأُولى في الإجتماع المرتقب في الرباط وإلاَّ فأي قمة إسلامية هذه التي ستنعقد بعد سنتيْن في طهران إذا إستمرت العلاقات

الإيرانية – العربية على نحو ما هو عليه؟ ولا بد أن وزير الخارجية الإيرانية الدكتور علي ولايتي لاحظ أي مواصفات يجب أن تكون عليها الدولة التي تستضيف القمة الإسلامية، عندما شارك في القمة السابعة ووجد كيف أن العلاقات بين المغرب وبقية الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي على أحسن ما تكون عليه العلاقات من ودّ أو وفاق أو من الأمريْن معاً، في حين أن علاقات إيران الجيدة غير قائمة أو أنها متوترة مع أكثر الدول العربية والإسلامية. ولكم نتمنى أن تحمل الأنباء إلينا بعد حوالى شهر من الرباط ما يثلج الصدريْن العربي والإسلامي في شأن المصالحتين المرجوتين وبذلك تكون القدس بروحانيتها موحِّدة الصفوف وإن اختلفت الأهداف، وتكون "لجنة القدس" وكأنما هي "مجلس الأمن العربي والإسلامي".

صحيفة "الشرق الأوسط" – ديسمبر (كانون الأول) 1994

* * *

التحدي المزدوج
أمام القمة الإسلامية الرابعة

تبدأ غداً (الثلاثاء 13 ديسمبر/ كانون الأول) في الدار البيضاء القمة الإسلامية السابعة. ومع أن الشعوب العربية والإسلامية تعاني من خيبات الأمل الكثيرة بالمؤتمرات وقراراتها إلاّ أن هنالك حالة ترقُّب لهذه القمة على أساس أنها المرة الأُولى التي تنعقد وقد طرأ تعديل جذري على المسائل الشائكة التي كانت تواجه معظم القمم الإسلامية في الماضي، فبات إتخاذ القرار أقل مشقة.

ونحن نقول ذلك على أساس أن الدول العربية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي أزاحت عن كاهل الدول الإسلامية أو فلنقل بعضها، عبء واجب الوقوف إلى جانبها في الصراع الدائر مع إسرائيل ومؤازرتها في حالات المواجهة الصعبة التي يفرزها هذا الصراع. وفي معظم المؤتمرات السابقة كانت هذه النقطة أساسية وتأخذ من وقت القمة التي تنعقد الكثير.

أما كيف أزيح العبء عن الكاهل، فإنه في هذا الإنهاء المفاجئ من جانب معظم الدول العربية للصراع مع إسرائيل. وكاد هذا الإنهاء يكون بالإجماع لولا أن الحُكْم السوري ما زال في مرحلة التردد لأنه وجد حتى الآن أن ما هو مطلوب منه من تنازلات يفوق بكثير ما يمكن أن تقدمه إسرائيل.

وإلى ذلك إن إعتراف الحُكم العراقي بالكويت دولة مستقلة وذات سيادة وايداعه الوثائق الرسمية في هذا الشأن الأمم المتحدة، أزاح بدوره عن بعض الدول الإسلامية هماً كبيراً كان يتعلق بعدم إبداء الحُكْم العراقي المرونة المطلوبة وإتخاذ المواقف التي لا بد من إتخاذها وأولها الإعتراف بالكويت دولة ذات سيادة قبْل أن يطالب هذه الدولة الإسلامية أو العربية بمساعدته في رفْع الحصار المفروض عليه. ومن المؤكد أن الحُكم العراقي لو لم يتخذ القرار الذي قضى بإعترافه بالكويت فإن القادة المسلمين والعرب الذين سيشاركون في القمة الإسلامية السابعة كانوا سيجدون أنفسهم يشددون المطالبة بأن يُنهي الحُكم العراقي هذا الإشكال الذي لا يمكن للعمل الإسلامي والعربي أن يستقيم بإستمرار الإشكال وما ينتج عنه من مضاعفات.

وكم كان المرء يتمنى لو أن الخطوة العراقية التي لقيت الترحيب تم إتخاذها لمناسبة إنعقاد القمة الإسلامية السابعة وفي نهاية أعمال هذه القمة، وليس تتويجاً لدور ديبلوماسي قامت به روسيا. ولو أن مثل هذا الأمر حدَث وإنتهت أعمال القمة الإسلامية السابعة بصدور بيان تضمَّن قرارات من نوع القرار المشار إليه، فإن ثقة المسلمين بمنظمتهم ستزداد وستتبدل نظرتهم السائدة إلى المؤتمرات والتي تتسم باللامبالاة.

ولكن مسألة الإعتراف العراقي بالكويت ليست كل شيء. فهناك الكثير مما نشأ في النفس العربية والإسلامية نتيجة للغزو العراقي للكويت، وما إستتبع الغزو من فواجع. وليس هنالك جهة مهيأة أكثر من القمة الإسلامية للمعالجة المطلوبة. واذا جاز للمرء أن يفترض فإن هذه النقطة بالذات هي التي تأخذ منذ بعض الوقت الحيز الكبير من تفكير الملك الحسن الثاني الذي لا يريد لهذه القمة بالذات إلاَّ أن تكون تاريخية بكل ما تحمله التسمية والصفة من معنى.

ومع أن قضية البوسنة من القضايا العزيزة على قلوب العرب والمسلمين، فإن القمة الإسلامية السابعة لا يمكن أن تتناولها بغير التأني في السعي والمناشدة لنصرة شعبها. ونقول ذلك على أساس أن أصواتاً إنطلقت في الأيام القليلة الماضية تتحدث عن إستعداد

للمؤازرة من خلال إرسال قوات عربية وإسلامية تساند الأشقاء البوسنيين في صد العدوان الصربي عليهم. ولكن هذه التوجهات ليست أكثر من وقفة معنوية. فأي قوات هذه التي ستُنقل من قارات إلى القارة الأوروبية لتحارب مع البوسنيين، ومَن هي الدولة القادرة على أن تمول مثل هكذا مساندة. وحتى السماح بإرسال متطوعين لا تبدو فكرة قابلة للتبني بعد التجربة المريرة في أفغانستان التي ذهب الشبان العرب والمسلمون إليها لمساندة معركة مجاهديها ضد السوفيات فكانت النتيجة أن هؤلاء تحولوا بفعل فاعل أو فاعلين إلى «ثوريين»، من نوع جديد مارسوا بعد عودتهم في أكثر من دولة عربية «حرباً» ضد الأنظمة وقواتها النظامية. وفي كل يوم تقول هذه الأنظمة أو بعضها إن أمر «الأفغان» إنتهى ثم يتبين أنه لم ينتهِ وكأنما هنالك عملية تفريخ يومية لمواصلة العمليات الإرهابية من دون أن ندري مَن في حقيقة الأمر يقف وراء هذا المخطط وهل هو النظام العالمي الجديد أم أنه يحدُث نتيجة صراعات لم يتم حسمها بعد بين بقايا دول كبرى تشكل في مجموعها «نادي الدول المنتمية إلى النظام العالمي الجديد».

والأهم من ذلك هو أن الدول العربية والإسلامية تعرف أن إقحام نفسها وبشكل عملي في المسألة البوسنية وإرسال قوات نظامية إلى هناك معناه الدخول في متاهات مواجهة دينية داخل أوروبا سيدفع ثمنها بضعة ملايين مغترب عربي ومسلم يعتاشون في الدول الاوروبية ولا قدرة لدولهم على تأمين المورد والعمل لهم. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن هؤلاء يتعرضون يومياً منذ سنتين إلى مضايقات مفتعلة.

واذا كانت حكومات الدول الأوروبية لا تقول بصراحة إن المضايقات ناشئة عن أحاسيس بنشوء صراع مسيحي – مسلم فى أوروبا إذا لم يتم خروج البوسنة مهزومة في أي حال، فإن حقيقة الممارسات والمضايقات تعني ذلك. ومن الجائز التوقع في حال إرسال قوات عربية وإسلامية تساند البوسنيين في معركتهم أن تتطور المضايقات الأوروبية وتنتهي إلى مواجهة لا يبدو أن هنالك من هو مقتنع بجدواها. ومن هنا فإن وقفة معنوية متطورة مع البوسنيين من القمة الإسلامية السابعة قد لا تشفي الغليل البوسني لكنها قد تشجع النظام العالمي الجديد على تفهُّم أفضل لمشاعر المسلمين نحو أن تكون القدس خارج لعبة الإبتزازات الدولية والإسرائيلية. وبعد تضاؤل المشاكل والإشكالات الفرعية، ومن بينها موضوع إعتراف الحُكم العراقي بالكويت، بات أهل القرار الإسلامي أكثر قدرة على إعطاء قضية القدس الكثير من وقتهم وبما يتساوى مع مشاعرهم الروحية وهي كثيرة.

وثمة مسألة لافتة للنظر وهي أن القمة الإسلامية تنعقد في غياب كامل وكأنه غيبوبة، للجامعة العربية، وفي تعثر محاولات كثيرة قام الملك الحسن الثاني وبصمت ببعضها من أجل التمهيد لعقْد قمة عربية. وهذا يلقي على هذا التجمع الإسلامي الضخم مسؤولية كبرى. وقد تعوِّض هذه القمة الغياب الذي طال ويتحقق على هامش التجمع الكبير، وبفضل مؤزارة ومساندة بعض القادة المسلمين غير العرب ما من شأنه ان يجعل الصف العربي أكثر تماسكاً بحيث ينصرف القادة إلى معالجة الأوضاع الإقتصادية والهموم المالية.

وكان المرء يتمنى لو أن القمة الإسلامية السابعة تنعقد في فاس وليس في الدار البيضاء خصوصاً أن الثغر المغربي شهد قبْل بضعة أسابيع المؤتمر الإقتصادي الدولي الذي كانت إسرائيل فيه كحضور وكطروحات موضع الإستهجان. وكان الإسرائيليون الذين شاركوا على أهبة تَجاوُز الحدود لولا بعض الملاحظات من هنا وبعض التحذيرات من هناك. لكن في الوقت نفسه إن إنعقاد القمة الإسلامية وفي المكان نفسه يمكن أن يشحذ همم المشاركين بحيث يكون هنالك رد على محاولات الإجتياح الإسرائيلي الفكري والإقتصادي المتواصلة للصف العربي، فضلاً عن أن إنعقادها في الدار البيضاء له ما يبرره حيث أنها المرة الأُولى التي سيشاهد فيها القادة العرب والمسلمون المسجد الذي يعتز الملك الحسن الثاني بأنه بناه وأشرف على تفاصيل البناء لكي يأتي كما أراد وتمنى، تحفة معمارية إسلامية رائعة. واذا جرى عقد القمة خارج الدار البيضاء فإن الظروف الأمنية وظروف الإنتقال تشكِّل سبباً يحول دون رؤية قادة العالم الإسلامي للصرح الذي سمعوا عنه الكثير، ولكن مَن رأى وصلّى ليس كمَن سمع.

ومن المؤكد أن صلاة الجمعة التي سيؤديها المشاركون في القمة الإسلامية السابعة في مسجد الحسن الثاني ستكون صلاة تاريخية وربما تتوج أعمال قمة لم يحدث أن واجهت التحدي المزدوج الذي تواجهه. تحدي الإصرار على مداواة الجراح العربية وتحدي الإصرار على ألاّ يتواصل التراجع الإسلامي

في موضوع القدس.

ومن دون القدس لا قضـــية للمســـلمين... بل لا أهمية لهم في صـــناعة القرار الدولي ولا حتى في صياغة هذا القرار، عِلْماً بأنهم بعد ضمور حركة عدم الإنحياز وإلى درجة الإضمحلال باتت منظمة المؤتمر الإسلامي هي أكبر تجمُّع دولي يضم إحدى وخمسين دولة وبات من حقه أن ينال العضـــوية الدائمة في مجلس الأمن.

ويبقى أن الشعوب العربية والإسلامية إعتادت بعد خيبات أمل متواصلة بعدد من المؤتمرات أن تستقبل بالكثير من اللامبالاة أو بالقليل منها أي مؤتمر ينعقد. لعل القادة العرب والمسلمين الذين سيشاركون في القمة الإسلامية السابعة يؤكدون هذه المرة بأنهم لن يجترحوا المعجزات إنما لن يخيبوا آمال شـــعوبهم في أي حال. وهذه المعادلة ليست مستحيلة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 12 ديسمبر (ك1) 1994

* * *

مَن يحمي لبنان واللبنانيين في الولاية المقبلة؟

لو أن أسلوب التخاطب الذي شهدته الحياة السياسية اللبنانية منذ بضعة أسابيع وكانت الإستقالة الشفهية لرئيس الحكومة رفيق الحريري أحد إفرازاته، حدث في زمن غير الزمن الحالي وظروف غير الظروف الراهنة التي يعيشها لبنان، لكان حدث إنقلاب عسكري أطاح السياسيين وبالذات الذين أغرقوا البلاد في هذا البحر الصاخب من المشاحنات.

ولا بد أن معظم هؤلاء السياسيين ومعظم الذين يتابعون تطورات السياسة والعمل السياسي في العالم العربي يتذكرون كيف أن المشـــاحنات وأســـلوب التخاطب والفساد الذي إستشرى في صفوف بعض الوجوه السياسية السورية خلال السنة الأخيرة من الفترة الأُولى من حُكْم الرئيس شـــكري القوتلي جعلت مغامراً مثل الزعيم حسني الزعيم يقلب طاولة الحُكْم على مَن حولها وينفِّذ إنقلاباً لم تُرْق فيه نقطة دم واحدة وجعلت قطاعات عريضة من السوريين – على الأقل في الأسابيع الأُولى للإنقلاب، تقوم بتظاهرات التأييد من دون أن يأخذ المتظاهرون في الإعتبار أن الذي إنقلب هو الرئيس الذي إرتبط إسمه بالإستقلال.

كذلك لا بد أن معظم هؤلاء السياسيين ومعظم الذين يتابعون تطورات العمل السياسي في العالم العربي يتذكرون كيف أن معركة الصراع التي دارت رحاها بين مراكز القوى داخل سوريا أيام حُكْم الوحدة مع مصر جعلت مجموعة صغيرة من الضباط تقلب أهم حُكْم في العالم العربي زمنذاك وتكسر قلب الحاكم الأهم والأقوى ونعني به جمال عبد الناصر، وجعلت نسبة كبيرة من السوريين – على الأقل في الأسابيع الأولى للإنقلاب – تقوم بتظاهرات التأييد للإنفصاليين.

ونحن عندما نورِّد هذيْن المثليْن لا نُسقط من الأسباب السبب الأهم وهو تمكُّن هذه الدولة الكبرى أو تلك (محور الصراع على سوريا يتألف من فرنسا وبريطانيا في الخمسينات والستينات ثم الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي بعد ذلك) من توظيف بعض الضباط إضافة إلى بعض السياسيين لتحقيق الإنقلاب على حُكْم الإستقلال ثم على حُكْم الوحدة.

وما حدَث في لبنان بعد مرور الشهر الأول على بدء الصيغة الثلاثية للحُكم تنفيذاً لإتفاقية الطائف وإسترشاداً بما لم يتم توثيقه منها، كان مزيجاً من الصراع بين مراكز القوى ومن الفساد والإتهامات. وفي البدايه بدأ هذا الصراع وكأنما هو من نفحات التراث الديمقراطي الذي إلتصق بلبنان ثم تبين أن الأمر ليس هكذا تماماً، وجاءت المشاحنات ثم أسلوب التخاطب لتؤكد ذلك ولتعزز قناعة بدأت تتولد في نفوس الناس وهي أن رموز إتفاقية الطائف يرقصون رقصة الحرب بتوزيع جديد يميزها عن رقصة ما قبْل الطائف، لكن هذا التوزيع لا يلغي الإنطباع السائد عن الرقصة الجديدة والراقصين وخلاصته أنه ليس هناك بينهم من هو مشفق على هذا البلد.

ولكن أسلوب التخاطب الذي أصاب المواطنين اللبنانيين بالدهشة أفاد بعض الشيء بمعنى أنه كشف حقائق كانت غائبة عن الأذهان. ولولا هذه البلاغة التي إتسم بها الأسلوب لكان اللبنانيون ما زالوا غارقين في أوهام ومغرقين في التأمل وما زالوا على شيء من التفاؤل. ثم جاء اسلوب التخاطب ليوقظ هؤلاء الناس من الحلم الذي إستسلموا إليه.

ولقد أفادت المهاترات والإتهامات التي شهدتها ساحة العمل السياسي في لبنان بعض الشيء وإن كانت الإفادة هنا بمعناها السلبي. ذلك أنها خففت بعض

الشـــيء من حدة الإحتقان الذي إســـتقر في نفوس الأكثرية اللبنانية، ولولا ذلك لربما كانت حدثت إنتفاضـــة من شـــأنها أن تعود بالخير على الوطن إذا جاءت سلمية لكنها قد تقوض ما هو قائم وتنقل الوطن من جديد إلى المجهول لو حدَث أن إســـتغلتها أطراف محلية أو أجنية، ورمت عود ثقاب على أرض الأزمة القابلة للتفجر. ومن المؤكد أن الأكثرية اللبنانية كانت تنظر بعين الرضـــى إلى بعض المعارضـــين الذين يطلقون التنبيهات بين الحين والآخر وذلك على أساس أن هذه التنبيهات من شـــأنها أن تجعل الحكومة التي بُنيت عليها الآمال الكبيرة تعيد النظر في رؤيتها لمســألة الإعمار في إتجاه أن الترميم يبقى أفضـل من إعادة البناء لوضـع مثل الوضـع اللبناني وأن نصـف علاج داخل سيارة الإسعاف لمريض في حالة الخطر أفضل من وعد لهذا المريض بأنه سيتم وضْعه قريباً في مستشفى من الدرجة الأُولى، إنما عليه أن يتحمل المرض مهما إشتدت وطأته وأن يلوذ بالصمت ويعتمد الصـبر حتى إشـعار آخر. لكن أكثرية اللبنانيين باتت بعد تصاعد وتيرة التنبيهات قلقة على حاضرها وليس على مستقبلها. وجاءت عاصفة تبادُل الإتهامات التي كانت مثل القصـف العشـوائي الذي إشـتهر به لبنان خلال المراحل الساخنة من حرب الستة عشر عاماً، لتعزز هذا القلق. وعندما تصـــل الحال برؤســـاء الطوائف الإســـلامية إلى عقْد قمة في دار الفتوى يوم الثلاثاء 20 ديســـمبر 1994 ويناقش الحاضـــرون أسلوب المخاطبة الذي إستهجنه الناس، فهذا معناه أن مشاعر المواطنين باتت على أهبة الإنفجار ومن شأن هذه القمة أن تهدئ المشاعر خصوصاً أن صيحات الغضـــب الصـــادرة عن بعض رجال الدين الذين هم ليسوا في موقع المسؤولية الدينية الرسمية بدأت تُحدِث شرخاً في جدار التماسك الوطني الذي هو أصلاً قابل للتساقط.

ومع أن المواطن اللبناني يتطلع إلى ما هو أكثر من الأســف الذي ســجلته تلك القمة الروحية، لكن عندما يدعو قائمقام مفتي الجمهورية الشيخ محمد رشيد قباني ورئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الشيخ محمد مهدي شـــمس الدين والقائم مقام شـــيخ عقل الطائفة الدرزية الشـــيخ بهجت غيث القيادات الســـياســـية إلى «التمسك بالقيم الأخلاقية النبيلة والفضائل السامية في العمل السياسي العام»، فكأنما هم بهذه الكلمات يقولون ضمناً أن ما صدر عن تلك القيادات وما قاله بعضهم وســـمحوا بنشـــره وتباهوا بهذا النشـــر كان يفتقد إلى الأخلاقيات النبيلة والفضائل السامية.

ومن الواضح أن هذه القمة جرى عقْدها على وجه السرعة ومن أجْل ذلك إقتصرت على القادة الروحيين الثلاثة في حين أن التمهل في عقْدها وإجراء المزيد من التشاور لكي تشمل بقية القادة الروحيين من الطائفة المسيحية كان مطلوباً. وكان سيبدو إنعقاد قمة موسعة يصـدر عنها بيان يتضـمن ما تضـمنته القمة الروحية الإسلامية على أساس أن ذلك هو الحد الأدنى، خطوة بالغة الأهمية. وثمة مسألة أُخرى لافتة للنظر وهي أنه في ضـوء ما سـمعه المرء وقرأه من إتهامات وجهَّتها شخصيات معارضة وما سمعه المرء وقرأه من ردود على هذه الإتهامات تولاها مســؤولون في الحُكم، يخلص بإســتنتاج مفاده أن الذين إتهموا بالغوا في الإتهام وأن الذين ردوا بالغوا في النفي وفي تبرئة أنفســهم ومقاصــدهم. ومن أجْل ذلك فإن هذه المبالغة لدى الجانبيْن ســتجعل المواطن بعد الآن لا يأخذ على محمل الجد كلام الطرف الذي يتهم ولا يقتنع تماماً بكلام الطرف الذي يرد على الإتهام وهذا ســيخلق «فراغ ثقة» والذي هو بخطورة «الفراغ الدستوري» عندما ينشأ أو «الفراغ الأمني» عندما يواجه نظاماً من الأنظمة. وهو خطير لأنه عندما لا يعود للثقة من جانب المواطن بحكومته وجود فهذا يكون «ســحْب الثقة» غير التقليدي والذي هو أكثر خطورة من «سحْب الثقة» التقليدي الذي يتم ممارسته في الإطار البرلماني والذي يخضع في أغلب الأحيان للمساومات والصفقات أو للحد الأدنى من الترغيب. أما لماذا يبدو «ســحْب الثقة» غير التقليدي خطيراً فلأن الحكومة تصبح في نظر المواطن خصماً في حين أنها يجب أن تكون حليفاً له.

ولم يحدُث إن كان المواطن اللبناني يعلِّق على القضاء في بلده الآمال الذي نلاحظ أنه بعلْقِها عليه منذ بضعة أسابيع، وهو يريد لهذا القضاء أن يستمر محايداً في الصراع الدائر وأن يقول ما يتوصل إليه من نتائج. بل إن هذا المواطن يرى في قرارة نفســه أن القضــاء النزيه وبعد أن يستخلص الحقيقة من خلال المساءلات والإستفسارات والتحقيقات مع الأطراف التي تتهم والأطراف التي يتم توجيه الإتهامات إليها، هو المؤهل بواحد من رموزه لكي يترأس لبنان في الولاية الجديدة التي تبدأ أواخر الصيف المقبل.

والقضاء المستقل من خلال واحد من الذين يمثلونه

هو الذي يختصـــر إمكانية حريق يمكن أن يحدُث وهو الذي يبدأ عهداً تجري مع أســابيعه الأُولى إنتخابات لا يقاطعها أحد، وهو الذي يجعل الجيش لا ينشغل بمتابعة هذا التناحر والتلاســن بين قيادات مسـؤولة خشـية أن يحدُث في لبنان ما سبق أن حدَث في سوريا.

وهو الذي سيصون إتفاقية الطائف التي بات المرء لكثرة التشـكيك فيها ولكثرة صـراع رموزها الذين في الحُكم والذين في المعارضـــة يخشـــى أن يصـــيبها ما اصاب ميثاق 1943 من قبل.

والكل يتذكر أن كثرة التشـــكيك بالميثـاق وكثرة الصراعات بين الزعامات السياسية حوله وعليه جعلتْه يتسـاقط. ويا ويل اللبنانيين إذا أصـاب إتفاقية الطائف، التي هي «الميثـاق الثـاني»، مـا أصـــــاب «الميثـاق الأول».

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 26 ديسمبر (ك1) 1994

* * *

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

المقالات من يناير 1995 إلى ديسمبر 1995




1995... عام المساواة بين المعتدي والضحية
ملامح رئاسية للقرن الـ 21
«إسرائيليات» جديدة تسرب إلى ثقافتنا السياسة
الجزائر
النضال الفلسطيني الوسيم
ميتران لم يخسر وكاسترو لم يربح
مذكرة عربية إلى الإدارة الأميركية في شأن المعاهدة النووية
باب إعادة النظر الذي لم يعد موصدا
مساعدات لوجه الله... والصمو
ومساعدات مغلفة بالشروط
مصارحة واجبة في قضية شائكة
المحنة البوسنية للإسلام الأشقر
والتجربة النووية للديغول الثاني
حوار حول طوائف المسلمين في زمن الضيق بالكلام المباح؟
المرونة سلاح الأقوياء

ما أضيق العيش العربي لولا قمة الإسكندرية

كنا نمنّي النفس بأن ينتهي العام 1994 على سلام بعد المفاجآت التي تلاحقت من أوسلو إلى واشنطن إلى القاهرة إلى عمان إلى المغرب وأخيراً وليس آخراً الى مسقط، ولكن الورقة الأخيرة من العام سقطت وبقي السلام على قاب قوسين أو أدنى – على حد التشبيه المألوف – من المواجهة. وكلما شاهدُنا على شاشات التلفزيون ما الذي فعله الإسرائيليون بعد كل مكسب سياسي تحصل عليه حكومتهم من أطراف عربية أو دولية يستبد بنا الفزع. فالذي يحدُث هو أن الإسرائيليين يزدادون نزوعاً نحو الشر إذا عاد رئيس حكومتهم من جولة من جولاته التي يعود فيها محملاً بما هو أشبه بالغنائم. أليس إسقاط العداوة من جانب هذا الطرف العربي أو ذاك نحو إسرائيل ومن دون أن تتنازل حتى الآن عن أي شيء بما فى ذلك التنازل المعنوي، هو مغنم لا يقدَّر بثمن؟

وكنا نمنّي النفس بأن ينتهي العام 1994 على حل سياسي عادل للبوسنيين الذين ذاقوا على أيدي الصرب الأهوال، ولكن هذا الحل لم يحدُث وإذا حدث لن يكون عادلاً فى أي حال. ونحن عندما نشاهد على شاشات التلفزيون أي أوضاع يعيشها أهالي البوسنة وأي مراوغة تعتمدها الدول الكبرى يستبد بنا الفزع. فالذي يحدُث هو أن الدول الكبرى لا تريد حلاً لقضية البوسنة. وهي لو كانت تريد الحل بالفعل لما كان فى إستطاعة الصرب منعها. بل إن هذه الدول لا تساعد حتى فى تثبيت الحل الإنساني لهذا الشعب الذي أحسن الظن بالأشقاء وبالدولة الأعظم الولايات المتحدة فإذا بالتطورات تدحض إعتقاده بأن الاشقاء المسلمين في إستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً له، وبأن رئيس الولايات المتحدة عندما أعطى الأوامر لعمليات القصف الإستعراضية كان جاداً بالفعل في وضْع حد للمأساة البوسنية. ولم يخطر في بال البوسنيين أن هذه المروءة التي إستيقظت فجاة عند الإدارة الأميركية كانت مجرد تعبير عن حالة نرفزة مؤقتة أصابت هذه الادارة من التصرف الروسي الذي حقق بعد جولات مكوكية قليلة قام بها وزير الخارجية أندريه (الثاني) كوزيريف المسكون بشخصية الوزير الراحل أندريه (الأول) غروميكو والذي هو بذلك مثل الرئيس الراحل جون كنيدي. وقد حققت هذه الجولات إنجازاً دبلوماسياً بالغ الأهمية تَمثَّل بصدور القرار الذي تضمن إعتراف الحُكم العراقي بدولة الكويت وحدودها الدولية وهو إعتراف كانت إدارة الرئيس كلينتون تمنّي النفْس به لكي يكون أحد أوراق التجديد الأول للولاية بعد بضعة أشهر فإذا بالدبلوماسية الروسية تخطف وبلمح البصر هذه الورقة فيجد الرئيس كلينتون نفسه يرد بعمليات القصف الإستعراضية للصرب على أساس أن ذلك سيحرج حليفهم الروسي وربما يخيفه. ولكن الذي حدث هو أن الرئيس يلتسين تصرَّف كما لو أن الأمر لا يعنيه وأن بضع قذائف صاروخية من الطائرات الأميركية على المواقع الصربية تشكِّل خسارة معنوية يمكن لما حدث على جبهة العراق – الكويت والإنجاز المتمثل بإعتراف العراق بالكويت، كدولة مستقلة ذات سيادة وبحدودها الدولية، أن يعوِّض وبالذات على المدى البعيد هذه الخسارة نفطاً ومشاريع ومشتروات وإزدهاراً ووجوداً فاعلاً في منطقة الخليج.

وكنا نمنّي النفس بأن تكون القمة الإسلامية السابعة فى الدار البيضاء (13 – 15 ديسمبر 1994) محطة لإثبات الوجود الإسلامي الفعال في القرار الدولي، وبأن تشكِّل هذه القمة ومن خلال منظمة المؤتمر الإسلامي ودعم الدول الإسلامية الفعال لهذه المنظمة خط الدفاع الأول عن قضايا المسلمين في العالم وبالذات أولئك الذين يمنون النفس بالإستقلال وتأكيد الهوية الإسلامية التي تعرضت طوال بضعة عقود للطمس، فإذا بروسيا تبعث إلى هذه القمة برسالة غير ودية على الإطلاق وتمثلت بإعلان مشروع حرب على الشيشان بهدف إخضاعها وإفهامها أنه لا مجال لأي إستقلال ولأي تأكيد للهوية الإسلامية ثم بدأت روسيا العمليات الحربية ضد الشيشان ومن دون أن يرف لها جفن تهيباً مما تفعله في حق الشيشانيين. وبدت في تصرُّفها هذا تفعل الشيء نفسه الذي يفعله الصرب مع البوسنيين. بل إنها كانت أكثر إطمئناناً لأن أوروبا معها ضمناً في ذلك والإدارة الأميركية مساندة لها ضمناً، بل وحتى على صعيد الإعلام حيث هنالك ما يشبه الصمت على ما تفعله روسيا في الشيشان وبالشيشانيين.

وكنا نمني النفس بأن حوار الدم الذي يحدُث على أرض الجزائر سيجد له نهاية إستناداً الى أمر بدهي وهو أنه ما دامت لغة العنف لم تثمر فإن لغة الحوار

تبقى الأسلم. وذهبت بنا التمنيات إلى حد أن مصالحة وطنية لا بد أن تحدُث خشـــية أن تكون هنالك طبعة جديدة لكتاب الإســتشــهاد الجزائري يضــم بين دفتيه مليوناً جديداً من الشهداء وهو ليس بالأمر المستبعَد ما دامت لا تغيب شمس كل يوم إلاَّ ويكون هنالك ضحايا من الطرفيْن المتصــارعيْن. بل إننا ونحن نمنِّي النفس بذلك كنا نفترض أن لحظة صحوة ستحدث في العقل الجزائري هي التي ستَحول دون أن تصبح الجزائر في المســتقبل غير البعيد «أرض المليونيْ شــهيد» وليس المليون الواحد الذين قضـــوا في ســـبيل التحرر. ثم جاءت حادثة الطائرة الفرنســـية على أرض مطار هواري بومدْين والظهور من خلال أســـلوب الإحتجاز والقتل الذي رافق الإحتجاز لتبدد ما كنا نمني النفس به وتحوَّل العمل الذي ظنه بعض الجزائريين شـــجاعاً إلى فِعْل بطولة فرنسـية ويتبارى الإعلام الفرنســي فى تسليط الضوء بالمقابل على «الهمجية والتخلف» عند الإسلاميين بشكل عام.

وكنا نمنِّي النفس بأن بعض الوفاق العربي يختم به القادة العرب عام 1994 من شأنه أن يشكِّل حاجزاً أمام هذا الإنحدار المريع الذي وصـــل إلى حد فاق التصـــور، ولكن الوفاق لم يحدُث ولا ندري لماذا لا يحدث مع أن المعوقات إنحســـرت بنســـبة كبيرة والموجبات تزايدت بنسبة أكبر.

والذي يلفت النظر هو أن العام 1994 كان عام المســـلمين في معظم أرجاء الأرض وكانت الإدارات لدى أهل القرار الدولي مشـــغولة هذا العام بقضـــايا محورها الإسـلام والمسـلمون، وكأنما الإسـلام سـيكون هو قضية العالم للعام الذي إستقبلناه قبْل ساعات ولِما تبقى من سـنوات القرن العشـرين وربما لبضـعة عقود من القرن الواحد والعشرين.

وما يحتار المرء في شـــأنه هو أنه ما دام الأمر كذلك فلماذا هذا التبعثر العربي والإســلامي الذي كان سـمة العام 1994 ونمنِّي النفس بأن لا يورث السـمة نفسها إلى العام 1995، وكيف يمكن لقضايا مصيرية لا تحتمل التأجيل يوماً يستسهل أصحابها تأجيلها سنة وربما دهراً؟

والمحزن أنه على أرضـــية هذا التبعثر يســـرح – حتى الآن – الصـــرب والروس والإســـرائيليون... ويمرحون. لكننا نمني النفس بقمة الإسكندرية المفاجئة التي، في إنتظـار تلمُّس نتـائج مـا دار فيهـا من محـادثـات، بين الملـك فهـد بن عبـدالعزيز والرئيس حسـني مبارك والرئيس حافظ الأسـد، تبدو مثل شـمعة تضـيء في ظلمة ليل حالك السـواد. وقد جاء إنعقادها يوميْ 28 و29 ديسـمبر وفي الأسـبوع الذي ينتهي به العام 1994، ليؤكد أنه ما من شـــدة إلَّا ويتبعها... إنفراج، وأنه مثلما أن العام 1994 كان حافلاً بمفاجآت غير ســـارة فإن ختامه كان مفاجأة تبعث بعض الأمل في النفوس. وما أضـــيق العيش العربي والمســـلم لولا فسحة الأمل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 2 يناير (ك2) 1995

* * *

سقف عربي... للخلافات والصراعات

ما دامت الخلافات والصـراعات داخل البلد العربي الواحد باتت أمراً لا بد منه، أو أنها باتت أمراً مألوفاً عاشـــته وتعيشـــه بعض الدول العربية، فإنه بات من الضروري إستحداث سقف عربي تتم تحته مناقشة هذه الخلافات والتشاور في شأنها.

ومناســـبة هذا الكلام أن إخواننا الجزائريين، الذين ضاقت بهم ساحة المناقشة في بلادهم، وجدوا أنفسهم يلتقون في روما على الشـــاطئ المقابل للشـــاطئ الجزائري، ويمضـــون الســـاعات الطويلة في مناقشـــة الحاضـــر المأســـاوي لبلدهم وكيف يمكن الخروج من هذا النفق المظلم والعبور نحو مستقبل مشرق.

وعلى رغم أن الحكومة الجزائرية لم تشـــارك في الإجتماع، مع أنها الطرف الأســاســي في الأزمة التي تعـاني منهـا البلاد، إلاَّ أن الـذين شـــاركوا لم يكونوا الطرف المضـــاد للحكومة، وأن وجود بعض الجوامع المشـتَرَكة بينهم لا يعني أنهم جبهة ليسـت في الحُكْم ضـد الذين يحكمون، وإنما هم تجمُّع حريص على أن تنتهي المبـارزة الـدمويـة التي طـال أمـدهـا وكثرت ضحاياها وتزايدت بشاعتها.

وقد يقال إن الطرَف الذي يقتل رجال الشـــرطة، ويتربص بـالرموز الـداعيـة إلى التنوير من جـامعيين وإعلاميين وفنـانين ويقتلهم عندمـا يتســـنى لـه ذلـك، مشـــارك في ندوة روما.. فكيف ســـيبتكر المجتمعون حلولاً ما دام الأمر كذلك؟ والرد على هذا القول هو أن الطرَف الثاني الذي يقتل الطرف المشـــار إليه ليس مشـاركاً في الندوة، وأنه لو شـارك لكان التقى الطرفان

اللذان يقتتلان وتوصَّلا إلى حلول من نوع الحل الذي إنتهت إليه الندوة.

وإذاً، فإن الثغرة ليست في مَنْ شارك وإنما في مَنْ لم يشارك. ويا ليت هذا الطرَف، ونعني به الحُكْم الجزائري، شارك. أو ما دام الأمر كذلك يا ليت الطرَف الآخر لم يشارك، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن مشاركة الإنقاذيين في الندوة هي عملياً لمصلحة الحُكْم الجزائري لأنها جعلت "الإنقاذ" جزءاً من تجمُّع وليست طرَفاً معارضاً في مواجهة طرف حاكم.

وعندما يقترب الموقف الأكثر تطرفاً (ونعني به موقف الإنقاذ) من الموقف الأكثر إعتدالاً (عبد الحميد مهري وآخرون) فهذا معناه أن الإعتدال والتطرف يمكن أن يلتقيا عند نقطة في منتصف الطريق، وهذا ما تحتاج إليه الجزائر.

بل إن هذا هو الحل للأزمة الجزائرية التي تتواصل داخل نفق بسبب إستحالة إنتصار طرَف على طرَف، وبسبب غياب صيغة توافقية عاقلة وعادلة من نوع الصيغة التي أمكن التوصل إليها في ندوة روما، والتي هي صيغة قابلة للتطوير شرط أن يقابلها الحُكْم الجزائري بالتفهم وليس بتظاهرة من نوع التظاهرة التي لا تخلو من الإفتعال، والتي شاهدها كثيرون عبْر شاشات التلفزيون يوم إختتام ندوة روما مداولاتها.

وعلى رغم أن الندوة التي جرى عقْدها في روما وضعت أساساً جديداً للموقف، إلاَّ أنها لا تشكل نهاية المطاف، وإنما هي بداية تحتاج إلى الرعاية لكي تتطور. وإذا كانت الظروف أوجبت عقْد الندوة خارج البلاد، فإن المرء ليتمنى ألاَّ يتجدد إنعقادها في روما وأن ينشأ المناخ السياسي الذي يتيح لها الإنعقاد في الجزائر، أو إذا استحال ذلك يتم إنعقادها تحت سقف عربي، وهو ما أشرنا إليه في الأسطر الأُولى من هذا المقال.

وعندما نتحدث عن السقف العربي فلا نعني بذلك التعريب. فالتعريب في مثل الحالة الجزائرية هو مثل التدويل. لكن الذي نعنيه هو أن الإنعقاد تحت سقف عربي يترك إنطباعاً طيباً في نفسية المواطن صاحب القضية. ومن المؤكد أن الجزائري بشكل عام مرتاح ضمناً لما حققتْه ندوة روما، لكنه ضمناً أيضاً يتساءل: هل من المعقول أن تتفق الأطراف السياسية الجزائرية تحت سقف إيطالي ولا يكون هنالك سقف عربي لمناقشة الأزمات والصراعات؟

والحديث عن السقف العربي والسقف الإيطالي يقودنا إلى الإشارة إلى السقف السويسري، الذي إعتبرت أطراف النزاع اللبناني أن التشاور في ما بينها تحته (أي السقف السويسري) من شأنه أن يوجد حلاً لذلك النزاع. وعندما فكرت تلك الأطراف بالسقف السويسري كان الوضع في لبنان يشبه إلى حد ما الوضع في الجزائر، مع بعض الفوارق التي تتعلق بالخصوصية اللبنانية في ممارسة العنف، والخصوصية الجزائرية التي تتشابه من حيث الأسلوب مع زميلتها اللبنانية.

فالحُكْم غير مستقر، وقوى المعارضة تواصل الضغط عليه وتستعمل لهذا الغرض كل الوسائل.

والضحايا من كل الأطراف كثيرون، ولا يمر يوم من دون وقوع حوادث بشعة في معظمها. ولغة الحوار شبه عقيمة. ونشأت نتيجة لذلك فكرة الإجتماع في جنيف حيث أن ما إستحال تحقيقه في لبنان يمكن تحقيقه على ضفاف بحيرة المدينة السويسرية العريقة. وبعد جنيف تواصل الحوار في مدينة لوزان، وعلى ضفاف البحيرة نفسها. وإنتهى الحوار إلى لا شيء، بل إن حوار ندوة روما بين قوى المعارضة الجزائرية بدا أكثر جدوى وأقل ضجيجاً.

ولم يبدأ الحل للأزمة اللبنانية إلاَّ عندما تمّ الحوار تحت السقف العربي في مدينة الطائف، وبرعاية مباشرة وضغوط ودودة من المملكة العربية السعودية. وبفضل إجتماعات الطائف توصَّل اللبنانيون إلى صيغة إتفاق أنهت الإقتتال ووضعت لبنان على طريق ميثاق مكتوب للحُكم. وإذا حدث بالفعل إلتزام دقيق ببنود هذا الميثاق فإن لبنان سيستعيد عافيته بعدما استعاد الهدوء، ويستعيد الدور بعد أن يستعاد الإستقرار بالتدرج.

وإذا كانت الأزمة اللبنانية وجدت لها، نتيجة ظروف وتشابكات عربية ودولية، سقف الطائف، وهو سقف عربي مثالي، وبذلك أمكن إيجاد الحل، فهذا لا يعني أن السقف نفسه جاهز دائماً لكل الخلافات والصراعات العربية. ومِن هنا، فإن إستحداث إدارة في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، لتلك الخلافات والصراعات، يبدو مطلباً منطقياً. إدارة تطفئ الخلافات وتحاصر الصراعات وتقوم بتقديم النصح عند الحاجة إليه، والتنبيه عندما يكون التنبيه مطلوباً. إدارة لها مكتبها، ولها قاعتها الخاصة، ولها أمين عام مساعد يتحرك عند الضرورة ومن دون أن يشكِّل تَحركه تقاطعاً مع الأمين العام للجامعة. إدارة تتعاطى مع

حالات مستعصية ولا دخل لها في أمور داخلية هامشية.

وقد يكون من المناسب إعطاء مثل عن الحالات المستعصية التي تحتاج إلى السقف العربي. وفي هذا الصدد لا نشير إلى الحالة الجزائرية وحدها، وإنما هنالك الحالة السودانية، والحالة الفلسطينية. وكانت الحالة اليمنية في أشد الحاجة إلى هذا السقف عندما نشب الصراع وتحول إلى حرب طاحنة أمكن بفضلها حسْم الأمر عسكرياً، لكن الذي لن يتحقق بسهولة هو توافر القناعات والرضى وإحلال النيات الحسنة محل تبييت الشر من هذا الطرف لذاك.

والسقف العربي، بالمواصفات التي نشير إليها، هو سقف محايد وآمن وأفضل وأكرم من السقف الإيطالي في روما وبقية السقوف الأجنبية. وإذا كانت هنالك ضرورة للضغوط فلن تكون سوى الضغوط التي تجعل القلوب تتآلف، والضغائن تتلاشى، ويحل الجانب الحسن محل الجانب السيئ في النيات.

وإلى ذلك، إن السقف العربي لا يشكِّل إحراجاً لأحد، ولا ينتقص من هيبة أحد، خصوصاً عندما تتطور الخلافات والصراع، إلى حالة يستحيل فيها الحسم، كما هو حاصل في الجزائر. ولو أن الحسم ممكن لكان ذلك حدث، ولكن لا يبدو أنه سهل مهما كثر عدد البيانات التي تتحدث عن مطاردات وسقوط ضحايا. وإذا كانت مرّت سنة، وتلتها سنة ثم سنة ثالثة، ولم يحدُث الحسم، فكيف ومتى سيتم ذلك؟

وثمة أمر في منتهى الأهمية، وهو أن الذي يحدث في مصر ربما يحتاج أيضاً إلى السقف العربي. ولا نعتقد أن من الأمور السارة أن يسمع المرء (يومياً تقريباً) تارة أن شرطياً أو أكثر قُتل، وأن قوات الأمن طاردت جماعات إسلامية وقتلت بعضهم، أو أن أحكاماً بالإعدام صدرت على البعض فرفع هؤلاء المصاحف إبتهاجاً أو رسموا بإصبعيْن علامة النصر، أو تنفيذ حُكْم بالإعدام للبعض. ومن شأن حوار يتم تحت السقف العربي أن يضع حداً لهذا الاستنزاف الذي يشبه في بعض جوانبه من حيث الخسارة المعنوية والمادية، التي تمنى بها الشرطة في مصر، الخسارة المعنوية والمادية التي كان يُمنى بها الجيش قبْل أن يضع الرئيس (الراحل) أنور السادات حداً لهذا الإستنزاف ويتخذ قرار الحرب في 6 أكتوبر (تشرين الأول) 1973، والذي بموجبه أنهى الجيش المصري بعبوره قناة السويس حالة نفسية مرهقة، ووضع نهاية للإستنزاف المادي والمعنوي.

ونعود إلى ما بدأناه فنقول: هل من المعقول أن يتوافر السقف الإيطالي لحوار يتعلق بدولة عربية وإسلامية ولا يتوافر السقف العربي لهذا الحوار؟

ومن هذا التساؤل تأتي فكرة أن تكون الجامعة العربية، من خلال إدارة يتم إستحداثها ولا علاقة لها بالجانب الرسمي من عمل الجامعة، هي السقف المطلوب.

ولا يبدو أن الأمر يحتمل التأجيل، ذلك أن مع كل خطوة يخطوها العالم العربي في إتجاه الوضع الجديد الناشئ عن السلام مع إسرائيل، سيكون هنالك المزيد من الأزمات والصراعات العربية الداخلية التي تحتاج إلى سقف عربي يدور الحوار تحته.

وكما أوردْنا، فإن هنالك ثلاث حالات عاجلة تحتاج إلى مثل هذا السقف هي، إضافة إلى الجزائر، الحالة الفلسطينية، والحالة السودانية، تليهما الحالة المصرية والحالة العراقية لمجرد أن يتم رفْع الحصار.

وتلك ليست كل الحالات. وقد يكون طابور الحالات طويلاً بعض الشيء.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يناير (كانون الثاني) 1995

* * *

المرونة... سلاح الأقوياء

رب ضارة نافعة.

والنفع هنا هو من التوتر الذي نشأ فجأة بين المملكة العربية السعودية والجمهورية اليمنية بسبب مشكلة حدودية.

ولقد شعر المواطن العربي بشيء من الخشية عندما بدأت تتواتر الأنباء عن إجراءات ترافق تلك المشكلة. وسبب هذه الخشية هو الخوف من أن تغيب المرونة عن أهل القرار ويحل محلها التصلب وعند ذلك تصبح الكلمة للذراع وليست للعقل.

وشعر المواطن العربي بشيء من الخشية أيضاً وأيضاً لأن الذاكرة التي أرهقتْها الأيام الصعبة الناشئة عن الغزو العراقي للكويت وما إستتبع وأوجب من إجراءات وقرارات نشطت فجأة بعدما تواترت الأنباء عن التحشيد على الحدود. وشعر المواطن العربي بشيء من الخشية أيضاً، وأيضاً لأن إخواننا في اليمن

قد يحبذون الأسلوب الذي إعتمده الحُكْم العراقي. بمعنى أن الحُكْم العراقي إعتبر أنه ما دام إنتصر على إيران في حرب امتدت ثماني سنوات فإنه يستطيع أن ينهي مشكلة قائمة مع جارته الكويت بمواجهة لا تستغرق بضع ساعات. وإعتماد الأسلوب نفسه من جانب اليمن على أساس أن الحُكْم اليمني إنتصر في مواجهة الشمال ضد الجنوب وأن هذا الإنتصار أو حالة الزهو التي شعر بها تمكّنه من أن يعالج بذراعه مشكلة هنا أو مشكلة هناك.

ولكن الله سلَّم. وعندما تنتصر المرونة وتتمكن من تبريد مشاعر كانت على أهبة الإشتعال فهذا معناه أن المرونة هي بأهمية القوة، بل إنها تصبح أهم من القوة عندما يتسبب إعتمادها في نزْع فتيل المواجهة لأنها بذلك تُبقي على القوة إلى مناسبة أُخرى مشروعة. وهذه المناسبة ليست على الإطلاق أزمة سياسية أو خلافاً على حدود. ولقد أثبتت المشكلة الحدودية بين السعودية واليمن أهمية المسعى الحميد عندما يكون مخلصاً وبعيداً عن المناورات. ومن المؤكد أن الرئيسيْن حافظ الأسد وحسني مبارك تحركا على أساس أنهما معنيان مباشرة بالمشكلة، إذ ليس معقولاً أن يكون الرئيسان خارجيْن قبْل أيام من قمة إستراتيجية جمعتْهما بالملك فهد بن عبد العزيز، ونعني بها قمة الإسكندرية، ولا يشعر الواحد منهما أن المشكلة الحدودية بين السعودية واليمن هي مشكلته أيضاً. هذا إذا كان الإثنان لم يهبّا لبذل المسعى الحميد نتيجة شعورهما بأن هذا التحريك للمشكلة بالتفاصيل التي تمت هي رد على تلك القمة.

وإلى ذلك، فإن الذي جعل المسعى الحميد يحقق نتيجة طيبة، ليس فقط العلاقة المتميزة بين الرئيس علي عبد الله صالح وكل من الرئيسيْن حافظ الأسد وحسني مبارك والعلاقة الأكثر تميزاً بين الرئيسيْن المصري والسوري وخادم الحرميْن الشريفيْن، وإنما خبرة الرئيسيْن المكتسبة من مشاكل كثيرة التعقيد واجهاها وما زالا يواجهانها.

فالرئيس الأسد لديه الجيش القوي الذي أعطاه الكثير من الإهتمام. وهو لو كان في كل مرة تحاول إسرائيل إستفزازه لم يمارس المرونة التي يمارسها لكان ربما لم يتوصل إلى الوضع الذي هو عليه، حيث أنه على رغم الإندفاع من جانب كثيرين في إتجاه الصلح مع إسرائيل ما زال هو الأقوى برفضه الإنضمام إلى المندفعين، بل إنه في الوضع الذي يمكّنه من تقويض خطة السلام المعروضة من خلال عمل عسكري يقوم به. ولا بد أن أهل القرار الدولي يدركون تماماً أن مثل هذه الخطوة ليست بالأمر المستعصي وأن مواجهة عسكرية من جانب سوريا مع إسرائيل ليست بالضرورة لمصلحة إسرائيل، فضلاً عن أنها ستبعثر كل ما تمّ تحقيقه حتى الآن، بل ربما تُحرك الرأي العام العربي في إتجاه رفْض الواقع الذي تريد إسرائيل فرْضه بدعم الولايات المتحدة التي هي في جميع مؤسسات القرار السياسي والعسكري فيها صقور إلى جانب إسرائيل وصقور على مَن هم ضدها، عرباً كانوا أم مسلمين.

والرئيس الأسد، إلى ذلك، يمارس المرونة إلى أبعد الحدود مع الإدارة الأميركية نفسها حتى وهي منحازة بالكامل إلى إسرائيل، وهو في مرونته هذه يضع تلك الإدارة في موضع المخطئ وليس هو. وعندما يمارس القائد (وهو هنا الرئيس الأسد) المرونة فإنه يصون بذلك حقه حتى وإن كان لا يجني على الفور مكاسب من هذه المرونة، فضلاً عن أنه بهذه المرونة وجد طريقاً لإيصال صوت القرار السوري إلى الآلة الإعلامية الدولية التي من الصعب إختراقها بصرف النظر عما إذا كانت هذه الآلة من صحف ومحطات وتلفزيون وإذاعات تتعاطف مع الموقف السوري أو أنها تنظر إليه بحذر.

وبالنسبة إلى الرئيس حسني مبارك نلاحظ كيف أنه آثر إعتماد المرونة عندما وضعه أحد أجنحة الحُكْم السوداني في موضع صعب بتحويل مشكلة حدودية هي مشكلة حلايب إلى ما هو أخطر من ذلك بكثير. وفي كل مرة كانت بعض وسائل الإعلام السودانية، بالتعليقات التي تنشرها أو التصريحات التي تنسبها إلى مسؤولين سودانيين، تحرِّض – إذا جاز التعبير – الرئيس مبارك على أن يتصرف كقائد أكبر دولة عربية وأكبر جيش عربي مجهز بأحدث الأسلحة الأميركية والفرنسية وبقايا أسلحة وطائرات ومقاتلات سوفياتية، أي يرُد على الإستفزاز بعمل عسكري، مثل ذلك العمل الذي أقدم عليه الحُكْم العراقي إزاء الكويت. لكن الرئيس مبارك كان يتجاوز الإستفزاز ويدلي بتصريحات داخل مصر وخارجها يؤكد فيها على أنه لا يمكن أن يحارب السودان، وأن الشعبيْن في مصر والسودان هما شعب واحد ولا يجوز أن يقاتل الشعب الواحد نفسه. وعندما كانت حدة الإستفزاز السوداني تتصاعد كانت مرونة الرئيس مبارك تتصاعد بدورها وإلى درجة أن الرئيس المصري هو الذي إنتصر في

النهاية وبمرونته على الدعوات السودانية المستمرة لكي يخرج عن هذه المرونة ويأمر بعض القوات بالتوغل داخل السودان وحسْم أمر حلايب عسكرياً، ويأمر أيضاً الطائرات الحربية بحماية هذه القوات والتجول في السماء السودانية. وهو لو فعل ذلك لكانت المواجهة العسكرية ستحدُث لأنه من الصعب السيطرة على الموقف عندما تكون هنالك قوات تواجه قوات. ولو أنه فعل ما نشير إليه (كما فعل الرئيس أنور السادات في الماضي مع ليبيا) لكانت مصر ستخسر كثيراً، وقد تجد نفسها تسير نحو حالة إستنزاف ربما تطول وتأخذ من هالة مصر ودورها السياسي. ولعل الرئيس مبارك أدرك أبعاد هذا الأمر فآثر الإبتعاد عن هذه المصيدة بنفسه وكان حكيماً بقراره هذا.

ومرونة الرئيس مبارك لم تقتصر على المشكلة الحدودية مع السودان (أي مشكلة حلايب) وإنما شملت خلافاً بالخطورة نفسها مع الإدارة الأميركية بسبب رفض الرئيس مبارك رغبات من بعض مراكز القوى في هذه الإدارة بإعادة النظر في أسلوب تعامله مع الحُكْم الليبي. ومثلما أنه تجاوز "الدعوات" السودانية المتواصلة لكي يقوم بعمل عسكري، وأبقى على مشكلة حلايب على ما هي عليه، فإنه تجاوز "الدعوات" الأميركية المتواصلة لكي يفك الإرتباط مع العقيد معمَّر القذَّافي وأبقى على المشكلة على ما هي عليه مع الإدارة الأميركية. وفي الحالتيْن واجه المشكلتيْن بالمرونة التي إعتمدها بما يشبه تهدئة مشاعر ثائرة. وبعد أن تهدأ المشاعر يصبح الحديث ممكناً بل ربما يصبح إيجاد الحل ليس بذلك الأمر المستعصي. ولعله من حُسْن حظ المشكلة الحدودية السعودية – اليمنية أن من سعى لدى الرئيس علي عبدالله صالح من أجْل وقْف هذا التكدير للأجواء وللعلاقات هما رئيسان عربيان لديهما الكثير مما يمكن قوله في جدوى المرونة وأنه سمع من الرئيس فرنسوا ميتران الكثير مما يمكن أن يقال في شأن المرونة وكيف أنها في معظم الأحيان مجدية.

ومن حُسْن حظ المشكلة عموماً أن الملك فهد بن عبد العزيز يعتبر المرونة كلمة لها مكانها ومكانتها في قاموس السياسة السعودية، ومن أجْل ذلك فإن مواجهة خشيْنا حدوثها لم تقع وإقتصر الأمر على بعض التكدير الذي لكثرة ما أعتادت عليه النفس العربية في الماضي بات يمكن تحمُّله.

وعلى قاعدة المرونة يأخذ كل صاحب حق حقه.. وإن طال زمن الأخذ أو رافق ذلك بعض "التنازلات الأخوية" التي أدخلها كمصطلح على قاموس المصطلحات بين الدول الأمير سلطان بن عبد العزيز. ولا يزال في ذاكرة كل عربي مخلص حزن عميق لأن المرونة غابت يوم الثاني من أغسطس/آب 1900، ثم تلاشت لبضعة أشهر فكانت حرب التدمير التي أكلت الأخضر واليابس. ولو وُجدت بالشكل الذي وُجدت فيه قبْل أيام بعد تأزم المشكلة الحدودية بين السعودية واليمن لكانت الأمة بخير. بل لكانت بالفعل خير أمة أُخرجت للناس.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 يناير (ك2) 1995

* * *

موقف شجاع لمبارك... كأنه وقفة قومية

لا ندري ما الذي عرفه الرئيس حسني مبارك عن مشاعر الناس من المحيط إلى الخليج بعدما أعلن أن مصر لن تجدد التوقيع على معاهدة حظْر إنتشار الأسلحة النووية خلال المؤتمر الذي سيتم عقْده في جنيف يوم 24 أبريل/نيسان المقبل، إلاَّ إذا وقَّعت إسرائيل عليها.

ولكن ما يجب أن يعرفه هو أن هذا الإحباط الذي يلقي بثقله على النفس العربية والذي تتحمل مصر جزءاً أساسياً منه إنحسر إلى حد كبير، بل إنه يجوز القول إن حركة المد والجزْر التي تحدُث للبحر حدثت للنفس العربية، حيث شعرت أن الإنحسار الذي هو ما نقصده بـ "الجزْر" حدث لحالة الإندفاع نحو إسرائيل وشروطها وتعنتها وأسلوب تعاملها مع التوجه العربي نحو السلام.

وعندما نقول إن مصر تتحمل جزءاً أساسياً من حالة الإحباط التي نشير إليها فلأن مصر هي التي بدأت مهرجان الصلح مع إسرائيل ولأنها واصلت وتواصل السعي لتثبيت هذا الصلح وتوسيع نطاقه، بحيث يشمل العالم العربي بدءاً بـ "دول الحوار" التي كانت في الماضي "دول المواجهة" وإنتهاء ببقية الدول وبالذات تلك التي إستندت إلى التحول الذي طرأ على موقف مصر لتذهب أبعد منها في التوجه نحو الصلح مع إسرائيل. ولكننا هنا لسنا في صدد مناقشة ما الذي

فعلتْه "مصر السادات" بالعالم العربي، وكيف بات هذا العالم من دون ضوابط ومن دون قضية فكثرت نتيجة ذلك الحروب الهامشية والأهلية وكثرت الصراعات على الحدود. فالذي حدث بات صفحات من تاريخ يصعب إنتزاعها وأمراً واقعاً ليس من السهل تغييره. وإنما نحن هنا لمناقشة بعض الخطوات المتميزة في مسيرة النضال الدبلوماسي والسياسي التي لا يجوز التساهل في شأنها، ومنها الخطوة التي تمثلت بإعلان الرئيس حسني مبارك أنه لن يكون هنالك توقيع من جانب مصر على معاهدة حظْر إنتشار الأسلحة النووية في أبريل/نيسان من 1995 إذا كانت إسرائيل لن توقّع بدورها على تلك المعاهدة.

ولعله من المناسب التوضيح بأن مصر من الدول الموقّعة على المعاهدة. وهي عندما وقَّعت عليها في الماضي فعلى أساس أنها لا تسعى لإمتلاك السلاح النووي وأن إنتسابها إلى كتلة عدم الإنحياز يوجب عليها انتهاج المسلك المسالم، عِلْماً بأن إثنتيْن وربما أكثر من دول هذه الكتلة إحداهما الهند تملك السلاح النووي وفرضت على باكستان جارتها اللدودة (مثل حال مصر وإسرائيل في مرحلة السلام المنقوص) أن تبذل جهداً خارقاً لامتلاك السلاح النووي وإلاَّ فلا أمن ولا سلام ولا إستقرار لباكستان. وإلى ذلك، إن توقيع مصر على المعاهدة تَكرّس مع ولاية الرئيس السادات الذي تبين فيما بعد أنه ليس فقط لا يعنيه أمر السلاح النووي وإنما يريد إنهاء العداوة التاريخية بين مصر وإسرائيل، وأن حدوث ذلك يجعل الولايات المتحدة تعتبر أن أمن مصر مسألة لا جدال فيها وأنه مسؤوليتها التي لا يمكن أن تتباطأ في تحمُّلها. لكن تطورات ربع القرن الذي إنقضى على تسلُّم الرئيس السادات مقاليد الحُكْم في مصر أثبتت أن رؤيته ليست دقيقة لأن مسيرة الصلح مع إسرائيل التي بدأتْها مصر لكي تشمل بقية دول العالم العربي بعد ذلك – وهو ما يحدُث بشيء من السهولة أحياناً والتعقيد أحياناً أُخرى – إنتهت إلى أن السلام الذي تريده الولايات المتحدة إنما هو السلام الذي ينتزع عنصر الإرادة من أهل القرار السياسي العربي وينتزع عنصر الحيوية من المؤسسة العسكرية العربية.

ونحن يجب ألاَّ نذهب بعيداً عندما نقول ذلك ويكفي فقط أن نتساءل: ما هي أهمية الجيش المصري إذا كانت قيادته أبرمت صلحاً مع إسرائيل ثم ها هي إسرائيل جاهزة بما تملكه من أسلحة نووية لترهيب المنطقة وإملاء الشروط على السياسات العربية؟ بل ما هي أهمية كل الجيوش العربية مجتمعة إذا إستمر جيش الدولة الصغيرة (إسرائيل) متفوقاً بسبب إمتلاك السلاح النووي على هذه الجيوش التي ليست فقط لا تملك هذا السلاح، وإنما لأن حكوماتها أيضاً موقِّعة على معاهدة حظْر إنتشار الأسلحة النووية؟

كذلك، إننا يجب ألاَّ نذهب بعيداً عندما نقول إن السلام الذي تريده الولايات المتحدة إنما هو السلام الذي ينتزع عنصر الإرادة من أهل القرار السياسي العربي، وإلاَّ فما هو تفسير هذا الضغط الأميركي المتزايد على مصر من أجْل توقيع المعاهدة، وكيف أنه يتم إيفاد مبعوثين إلى القاهرة لهذا الغرض؟ وما هو أيضاً تفسير هذا الإلحاح على الرئيس مبارك لكي ينهي علاقة متوازنة تقوم بين مصر وليبيا ومن شأن إنهائها – والإنهاء لن يكون في أي حال ودياً – أن يتسبب في متاعب وقلاقل إجتماعية لمصر في الدرجة الأُولى؟ وكل هذا الضغط والإلحاح، إضافة إلى التلويح الذي لا يتوقف في شأن قطْع المساعدات عن مصر يتزامن مع الخطط الأميركية لتحقيق السلام الذي تَطمئن إليه إسرائيل والذي يشكِّل توقيع مصر على المعاهدة النووية وعدم توقيع إسرائيل في الوقت نفسه إحدى الحلقات البالغة الأهمية في هذه الخطط والتي نجد أنفسنا أحياناً نقول إنها مخطط وليست خططاً. والتفسير البديهي لكلمة مخطط هو أنه عمل لا يتسم غالباً بحُسن النية تجاه طرف وبممالأة طرف آخر في الوقت نفسه. والطرف الأول هو العرب بينما يبدو واضحاً كل الوضوح أن الطرف الثاني هو إسرائيل التي لا تجد من الإدارة الأميركية سوى الممالأة والدعم غير المحدود.

ومع أن الرئيس مبارك ليس هو الذي وقَّع في الماضي على المعاهدة بمعنى أنه يستطيع الإحتماء بخطأ أو إجتهاد غيره، لكن نقطة الضعف في هذا الإفتراض هي أن الرئيس مبارك ليس هو الذي وقَّع "إتفاقية كامب ديفيد" ومع ذلك فإنه تمسَّك بها وبذل جهوداً تفوق جهود سلفه الرئيس الراحل في شأن الصلح العربي – الإسرائيلي. ولكن رغم نقطة الضعف هذه نجد الرئيس مبارك في لحظة تأمُّل في الحال التي يسير السلام نحوها وفي الأثر النفسي السيئ الذي سيتسبب به التوقيع على المعاهدة يتخذ موقفاً لا يمكن لغير الإدارة الأميركية أن تجادل فيه وذلك بسبب إنحيازها لإسرائيل. وهو إلى ذلك يتخذ الموقف وفي

يده ورقة تفوق في أهميتها الورقة التي في يد إسـرائيل والتي تروّج لها الإدارة الأميركية. وورقة القوة التي في يد الرئيس مبارك هي أنه في رفْضـه التوقيع على المعاهدة النووية لا يفعل ذلك لأنه على أهبة إنجاز إمتلاك السلاح النووي ولا يريد أن يربط نفسه بمعاهدة تحول دون ذلك، فضلاً عن أنه ساند وبشكل عملي القرارات السياسية والإجراءات التي تم بموجبها تدمير الخطط العراقية المتقدمة في شـأن إنجاز السـلاح النووي. وهذه الورقة بقوة الورقة الإسـرائيلية المدعومة من الإدارة الأميركية ومن القوى العلنية والمسـتترة الفاعلة في التأثير على الرأي العام الأميركي والعالمي عموماً، والتي تنطلق من أن إسرائيل دولة صغيرة وأن السلاح النووي يقيها مخاطر أطراف مغامِرة قد تصل إلى الحُكْم في العالم العربي وتتعامل مع السلام الذي أبرمه الأسلاف مع إسرائيل على أنه سلام منقوص تمّ التوصل إليه في ظروف غير عادلة وغير موضوعية وفيها الكثير من الإجحاف للحق العربي.

ومن الجائز الإفتراض أن الموقف الذي إتخذه الرئيس مبارك جاء نتيجة إعتبارات شخصية وعامة من بينها أنه لا يريد أن يسجل على نفسه بأنه في ولايته الأخيرة وقَّع على معاهدة لن تفيد مصر في شيء في حين أن عدم التوقيع من شأنه أن يحقق لها مكاسب وسمعة وطنية يستطيع الرئيس مبارك توظيفها في تعزيز القرار العربي وبالذات في ترتيب أوضاع مرحلة السلام. وإلى ذلك قد تكون المؤسسة العسكرية المصرية ترى أن القرار السياسي المصري يجب ألاَّ يذهب بعيداً في ضوء ما يحدُث أو أن التوقيع على المعاهدة النووية هو في رأي هذه المؤسسة إقترب من الخط المكهرب وأن الحد الأدنى الذي لا يجوز القفز فوقه هو أن يكون التوقيع المصري متزامناً مع التوقيع الإسـرائيلي، وأنه بذلك تحدُث الطمأنينة، أما عدا ذلك فلا طمأنينة وربما لا سلام خصوصاً أن التطبيع الذي لم يحدُث على المستوى الشعبي في السنوات الثلاث عشرة الصعبة التي تلت "معاهدة كامب ديفيد" قد لا يحدُث على الإطلاق إذا كانت إسـرائيل لن تبادر إلى خطوات تُقنع العرب والمسلمين بصدق الرغبة في المجاورة، ومن بين هذه الخطوات التوقيع على المعاهدة النووية قبْل أن تطالب الآخرين وبالذات مصر بالتوقيع، لأن عدم التوقيع معناه أن إسـرائيل تخطط لكي تشعل البيت ناراً وأنها غير صادقة في موضوع السلام، وخصوصاً لأنها تملك السلاح النووي الذي يصل خطره، في الحد الأدنى، إلى صخور جبال الأطلس ورمال ضفاف مضيق هرمز وإلى كل صحارى وأودية وواحات وقباب ومآذن وآبار الثروة في العالم العربي من المحيط إلى الخليج.

وثمة مسألة جديرة بالملاحظة، وهي أن شعوب العالم العربي، ومن دون إستثناء، ترى أن الرئيس مبارك في رفْضه التوقيع على معاهدة حظْر إنتشار الأسلحة النووية وإستعداده للتوقيع في حال فعلت الشيء نفسه إسرائيل، يعبّر عن حقيقة مشاعرها. ولعلها من المرات القليلة التي تحدُث فيها هذه الحالة التي ينوب فيها حاكم عربي عن كل شعوب الأمة. وهذه الشعوب تنظر إلى الموقف الشجاع للرئيس مبارك، كما لو أنه وقفة وطنية وقومية وترى فيه أيضاً وقفة دفاعية عن أمن المواطن العربي.

وما نتمناه هو أن يصمد حتى اللحظة الأخيرة. ففي صموده، إلى أن توقّع إسرائيل أيضاً على المعاهدة وليس مصر فقط، تعويض عما أصاب الأمة من "معاهدة كامب ديفيد".

وإذا جاز للمرء أن يتمنى أيضاً لكي يتدعم الصمود فهو أن تصدر عن الجهات التي لها حق الإفتاء فتوى بتحريم التوقيع على المعاهدة النووية من جانب أي دولة عربية، إلاَّ إذا وقَّعت إسرائيل بدورها.

... وفي هذه الفتوى ما من شأنه أن يحقق بعض التوازن مع الفتاوى في شأن الصراع العربي – الإسرائيلي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 30 يناير (ك2) 1995

* * *

الغزو بالمعروف... على طريقة كارتر

كان الجمهوريون في الولايات المتحدة يتباهون بما يفعله الرئيس السابق نيكسون بعدما غادر الحُكْم وكيف أنه يقوم بمهمات دولية متميزة وفعّالة.. إلى أن خاض الرئيس كارتر تجربة مماثلة فتساوى بذلك الديمقراطيون مع الجمهوريين بمعنى أنه صار لكل من الحزبين رئيس سابق يقوم بمهمات شائكة وتحتاج إلى الحنكة والمهارة.

وبإستثناء نيكسون وكارتر فإن الرؤساء السابقين إنسحبوا من الحياة العامة وإلى حد بعيد من ذاكرة

الناس. ولولا بعض المناسبات وأهمها على الإطلاق توقيع الصلح الإسرائيلي – الفلسطيني في البيت الأبيض لما كان تذكَّر الناس رؤساء حكموا الولايات المتحدة وما زالوا على قيد الحياة. وهؤلاء دعاهم الرئيس الحالي لمشاركته فرحته في تحقيق هذا الإنجاز التاريخي فلبوا الدعوة وظهروا على الناس بعد طول إحتجاب.

وقد يكون الدافع إلى أن يمارس كل من الرئيسيْن السابقين نيكسون وكارتر المهمات السياسية التي لا تخلو من الصعوبة أنهما غادرا الحُكْم وسط ظروف قاهرة وغير طبيعية تسببت في نشوء عقدة – إذا جاز القول – في نفس كل منهما، وأنهما بهذه المهمات يريدان إزالة رواسب تلك العقدة. وللتذكير فإن الرئيس نيكسون غادر الحُكْم تحت وطأة الفضيحة التي نالت الكثير من هالته أمام الناس ونعني بها "فضيحة ووتر غيت" وأن الرئيس كارتر غادر الحُكْم نتيجة إنتكاسات داخلية وخارجية لعل أبرزها هزيمة التدخل العسكري في إيران وهي محاولة منيت بالفشل الذريع ولم يغفر له الأميركان هذا الذي فعله وفتحوا بذلك الطريق أمام فوز رونالد ريغان الذي أدخل على السياسة الأميركية إمكانية أن يكون رئيس الولايات المتحدة ممثلاً سابقاً.

وبالنسبة إلى الدور الذي قام به الرئيس الأسبق كارتر في أزمة هايتي يبدو وكما لو أن العملية الإنقلابية ستكون بعد الآن أمراً محظوراً في النظام العالمي الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة منفردة. ومع أن هذا النظام لم يطرح برنامجاً لكي يقال إن هذه الخطوة أو تلك مدرجة في برنامج النظام، إلاَّ أنه في كل خطوة تخطوها سياسة التعامل الأميركية مع العالم يضيف بنداً جديداً إلى جدول أعمال لن تكتمل ملامحه إلاَّ مع نهاية هذا القرن.

وأهم ما في الدور الذي قام به الرئيس الأسبق كارتر هو أن الرئيس كلينتون موافق عليه ومقتنع به ربما لأنه مطْمئن إلى أنه لم يعد لدى الرئيس كارتر من حيث السن والظروف طموحات وأنه يكفيه وهو يخطو نحو الثمانين من العمر أن يقال إنه قدّم وهو في هذا العمر خدمة لبلده تساوي الكثير وأنه يُكفِّر بها عن خطأ أو لعلها خطيئة إرتكبها عندما أقدم على ذلك القرار المتعلق بإيران والذي أراده حلماً يتوج به حياته السياسية والرئاسية ويحوِّله من رئيس للإدارة الأميركية إلى زعيم للأمة، فإذا به ينتهي كابوساً بعدما تحطم الغزو الجوي لإيران على رمال صحرائها.

ومِن الجائز الإفتراض أن الرئيس كلينتون ما كان ليوكل المهمة إلى وجوه طموحة في الإدارة أو في الحزب الديمقراطي وذلك خشية أن يتسبب نجاح من يتم تكليفه في أن يصبح نجماً مؤهلاً لكي يخطو بثقة إلى أن يرث كلينتون وربما يحول دون ولاية ثانية له.

وإذا كان الرئيس كلينتون كلّف الرئيس الأسبق كارتر بالمهمة من أجْل رئاسته التي تحتاج إلى بعض التدعيم فإن هذا لا يعني أنه ليست هنالك نقاط إيجابية في المسألة من بينها أو لعل أهمها على الإطلاق أن رئيس أكبر دولة في العالم يحتاج إلى نصيحة المجربين من أمثال الرئيس الأسبق كارتر الذي تبين أنه ما زال مكتوياً بنار إنتكاسة قرار تدخُّله في إيران ومن أجْل ذلك بذل كل ما في وسعه لكي ينزع فتيل الأزمة وكما لو أنه يقول للرئيس كلينتون ما معناه إنك بتنفيذ قرار الغزو تنفِّذ خطوة كنت أتمنى ألاَّ أنفِّذها عندما كنت مكانك على رأس السُلطة في الولايات المتحدة. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن قرار غزو هايتي هو أكثر القرارات غرابة في تاريخ العمل السياسي. وهذا القرار لم يبق سراً وإنما تمّ الإعلان عنه قبْل أسبوعين من بدء العد العكسي للتنفيذ. وخلال هذه المدة كثرت المناقشات والإستفتاءات في أوساط الرأي العام وهذا سببه الإفراط في الثقة بأن الغزو سينجح وهو طبيعي لأن قوة هايتي في النهاية لا تساوي قوة جزء بسيط من حاملة طائرات واحدة كانت الولايات المتحدة ستستعملها في حال تنفيذ عملية الغزو. ومن المؤكد أن مثل هذا الأمر ما كان ليحدُث لو أن الغزو يستهدف دولة أكبر، وكان الكتمان سيحيط بكل الخطوات.

وهذا الإعلان المسبق عن إحتمال الغزو لم يكن هدفه إعطاء الحُكْم المغضوب عليه في هايتي فرصة الإستعداد لأنه كيف سيستعد وما هي الأسلحة الخفية التي سيُخرجها من المخازن، وإنما لكي تنضج فكرة مسعى اللحظة الأخيرة الذي قامت به بعثة المساعي الحميدة التي قادها الرئيس الأسبق كارتر والتي تمت من دون أن يكون هنالك دولة واحدة في العالم – بإستثناء بعض الأصوات – تستنكر ما ستنوي إدارة الرئيس كلينتون أن تفعله.

وإذا كان رئيس أكبر دولة في العالم، أو أنها الدولة الكبرى الوحيدة بموجب نظرية النظام العالمي الجديد، وجد نفسه يحتاج إلى مسعى يبذله رئيس سابق صاحب خبرة في شؤون الحُكْم والتعامل مع الآخرين

لكي يطوق أزمة قبْل أن تتطور إلى حريق تصـــعب محاصرته، فكيف لا يجد عدد كبير جداً من بين حكام العالم الثالث من يكلفونهم بمثل هذه المهام خصـوصـاً أن الأزمات التي في دول العالم الثالث أكثر من أن تحصى بينما المساعي الحميدة قليلة.

وإلى ذلك إنه من المؤكد لو أن هذا الحاكم أو ذاك أسند إلى كثيرين سبقوه في تحمُّل المسؤوليات وإدارة شـــؤون الدولة أمر حل أزمة تنشـــأ لكان مثل هذا التكليف إنتهى في الحد الأدنى بتجميد الأزمة بحيث لا تنفجر، أو بوضـع حل لها في الحد الأقصـى. وفي الحالتيْن تبدو النتيجة معقولة.

وبعد هذا التقليد الذي إبتكره الرئيس كلينتون بات أمر إعتماده كأسـلوب لا بد منه مسـألة طبيعية، بل ومطلوبة.

ويبقى أن الذي فعله الرئيس الأسبق كارتر سيبقى إلى زمن طويل مثل الذي فعله من قبْل الدبلوماســـي والسـياسـي البريطاني الراحل اللورد كارادون. وللتذكير فإن كارادون أدخل بحذاقة غير مألوفة على القرار 242 الذي إرتبطت صياغته بإسمه كلمة واحدة انقسم أطراف النزاع العربي – الإسـرائيلي في شـأنها. وهذه الكلمة هي الإنســـحابات من "أراض" (وهذا ما أراده الغرب وإسـرائيل) بدل الإنســحابات من "الأراضـــي" (وهذا ما تريده الدول العربية ومن يســـاندها من دول العالم). أما الرئيس الأسبق كارتر فإنه إبتكر صـياغة إتفاق لا يرضـي الجنرال سيدراس الذي يقود المجموعة العسـكرية التي تحكم هايتي ولا يرضـــي السـياســـي أريســـتســـد الذي تريد إدارة الرئيس كلينتون أن يعود ويتسلم دفة الحُكْم على أساس أنه هو الرئيس الشرعي. لكن الإتفاق ينقذ إدارة الرئيس كلينتون من ورطة قد تحدُث على نحو ما جرى في الصومال وتلك انتكاسة أمكن الرئيس كلينتون بجدار الأمم المتحدة إتقاء شـظاياها ولذا لم يشـعر بوطأتها الثقيلة كما شـعر الرئيس كارتر عندما حدثت إنتكاسة التدخل العسكري في إيران حيث كانت الظروف مختلفة ولا دور للأمم المتحدة.

يبقى أيضـاً أن الرئيس كلينتون إبن الجيل الشـاب في الحزب الديمقراطي أراد غزواً عسـكرياً بكل معنى الكلمة بصرف النظر عما يترتب على ذلك من ضحايا ودماء في صفوف شعب هايتي الدولة الأكثر فقراً في العالم وذلك لأنه يتطلع إلى تســويق نتائج هذا الغزو في ســوق الســياســة الأميركية. في حين أن الرئيس كارتر إبن الجيل القديم في الحزب الديمقراطي أرادها تســوية على الطريقة الكارادونية. وفي الحالتيْن، إن الذي حدث كان غزواً. إنما هو غزو بالمعروف إذا جاز التعبير. ولو أنه كان لـــ "الغزو بالمعروف" جائزة لدى مؤسسـة جوائز نوبل لكان الرئيس كارتر حصـل عليها بجدارة.

وبعد الآن ســـيفرز النظام العالمي الجديد في إستمرار ظواهر جديدة. وأغلب الظن أن ظاهرة "الغزو بالمعروف" ســـتتحول إلى أســـلوب تعامل من جانب الولايات المتحدة مع دول كثيرة لأنه الأقل تكلفة ولأنه مثل وجبة "الهمبرغر" التي تلبي حاجة المعدة وبســعر زهيد نسبياً لكنها على المدى البعيد تؤذي الصحة.

وبطل "الغزو بالمعروف" هو الرئيس الأسبق كارتر وليس الرئيس كارتر. وهذا معناه أن حكمة الســـابقين مطلوبة في كل حين سـواء بالنسـبة إلى الدولة الأكبر الولايات المتحدة أو الدول الكبرى والدول الصـــغرى والأصغر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1995

* * *

ماذا لو أن عزت إبراهيم تصرَّف مثل عبدالله بن حسين الأحمر

للشـــيخ عبدالله بن حســـين الأحمر رئيس مجلس النواب اليمني عليَّ ككاتب وصـــحافي رافق عشـــرات الأزمات العربية، واجب الإشـــادة به كمفاوض من نوعيـة متميزة.. فعلى مـدى ربع قرن من المتـابعـة الدؤوبة لأزمات وخلافات عربية في مشـــرق الأمة ومغربها لم نلمس مثل هذا الأســـلوب الذي إعتمده الشـــيخ عبدالله وهو يطرق باب إخوانه في المملكة العربية الســـعودية، لكي ينهي أمراً تحوَّل خلال يوميْن إثنيْن من أزمـة قـابلـة للإنفجـار إلى مجرد خلاف حدودي في إسـتطاعة النية الطيِّبة والصـدر الواسـع والأسـلوب المتوازن في التخاطب أن تسـاعد مجتمعة في إيجاد الحل له.

وقد نجد البعض الذي يرى أن التفاوض لم ينته وأنه من الســـابق لأوانه الإشـــادة بالشـــيخ عبدالله كمفاوض، لكنني عملاً بالقاعدة التي يعكســـها القول الشـائع بأن الرسـالة تُقرأ من عنوانها، أجد نفسـي أقول

إن مهمة الشيخ عبدالله لن تفشل وأنه سيعود إلى بلاده ومعه هدية المملكة إلى الشـــعب اليمني والتي هي عبارة عن إتفاق لا تقتصـر أهميته على أنه سيسـوي الخلافات الحدودية وإنما سـيفتح الباب مع الوقت إلى إستعادة مكاسب حققها عشرات الألوف من اليمنيين خلال إقامتهم لبضعة عقود في المملكة، وهي مكاسب تعرضت لإنتكاسة مريعة جرَّاء الغزو العراقي للكويت وما تلا الغزو من مواقف وإجراءات أوجبتْها المواقف.

ومع أن إهتماماتي اليمنية كثيرة وقديمة إلاّ أنها المرة الأُولى التي تستوقفني دبلوماسية شيخ القبيلة وقدرته على التفاوض. وإذا جاز التوصـــيف فإن دبلوماسية الشيخ عبدالله تقوم على أُسس أهمها أن الشـــخص الذي يفاوض يجب أن يكون مؤمناً بأهمية العلاقة مع الطرف الذي جاء للتفاوض معه وأمام هذه المســـألة تهون التنازلات، وأن تكون لديه المقدرة على إنتزاع العبارات التي تذلل بســـلاســـتها العقبات خلال أحاديث التفاوض، وأن يكون في إســـتطاعته الإجابة عن أي إقتراح أو التجاوب معه، وأن يكون غير قلق من أن كلمة قالها أو عبارة وردت في حديثه ستسبب له إقلاقاً كبيراً أو ربما ينتهي الإقلاق بفقدانه المنصب، وأن يكون منشـــرح الصـــدر لا ينفعل حتى في أشـــد اللحظات التي توجب الإنفعال، وأن يكون صريحاً وهو يتحدث لا يخشـــى مما يمكن أن ينقله عنه موظف ملحق بالوفد ومهمته رصْـــد الكلمات وربما المشـــاعر أيضـــاً، وأن يكون قادراً على أن يقدِّم المشورة لمَن هم أعلى شـــأناً وأعلى منصـــباً في بلده، وأن يكون مقداماً فيقترح عندما يكون هنالك موجب للإقتراح وينصـــح عندما تكون النصيحة مفيدة ما دامت مخلصة ويتقبلها رئيســـه بالإمتنان، وأن يكون موضـــع إرتياح الطرف الذي سيفاوض معه ومستعداً لأن يستمع إلى ما ليس عليه وليس فقط إلى إســـماع ما له. وإلى ذلك، وتلك نقطـة في منتهى الأهميـة، أن يكون عنيـداً لتحقيق النجاح وليس لكسب الجولات لمصلحته.

ومنذ اللحظة الأُولى لوصـــول الشـــيخ عبدالله بن حسين الأحمر إلى الرياض واللهفة العفوية التي بانت على ملامحه وهو في طريقة لمصافحة الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزارء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام للقوات المســـلحة الذي يترأس الجانب السعودي في المفاوضات، شعرتُ وأنا أتابع تلك اللحظة على شاشة تلفزيون الشرق الأوسط أن المفاوضـــات، ســـتنجح لأن الإســـتقبال تحوَّل من بروتوكولي إلى لقاء أخ مع أخيه وكلاهما منزعج من التوترات التي تحدُث على الحدود.

ثم تزايد الشـــعور الواثق بنجاح المفاوضـــات بعدما أشاع الأمير سلطان والشيخ عبدالله أجواء من التفاؤل لا مثيل لها في تجارب التفاوض، بمعنى أن الإشـــارة إلى التفاؤل تكون بعد جلســـة أو أكثر من المحادثات ولكن الشـــيخ عبدالله بالذات أشـــاع أجواء التفاؤل من قبْل أن تبدأ المحادثات، فكان بذلك صـــادقاً مع نفســـه مع إنه يأتي إلى الرياض ليحاول إســـتعادة علاقة تاريخية وأن التوتر على الحدود كان للتذكير بتلك العلاقة وضرورة إستعادتها وليس على الإطلاق لتكدير النفوس أو ما هو أكثر من التكدير بقليل.

وحتى عندما رمى الرئيس علي عبدالله صـــالح أجواء مفاوضـــات الرياض بتصـــريحات للإذاعة البريطانية يتحدث فيها عن حشـــود ســـعودية على الحدود، فإن مبادرة الشـــيخ عبدالله المســـتندة إلى أحد أُسس دبلوماسيته (والتي – أي المبادرة – تمثلت بوقفة من هذه التصـريحات تجاوزت بحزمها النفي السـعودي لمضـمون هذه التصـريحات)، عززت أجواء التفاوض بدلاً من أن تتداعى هذه الأجواء التي كانت قطعت شـوطاً كبيراً على طريق النجاح. وقد يكون كل ما في الأمر أن لعبة صـــراع مراكز القوى هي التي أوجبت بث تلك التصـــريحات في وقت كان الوفد يبذل جهداً خارقاً للنجاح ويقابله الجانب السعودي بجهود مخلصة لسد كل الثغرات. وعندما نقول بأن الشيخ عبدالله إتخذ من تصـريحات الرئيس علي عبدالله صـالح وقفة(أي ما هو أكثر من الموقف) فإننا نستند في ذلك إلى قول الشيخ عبدالله لزميلنا حاسن البنيان ("الشرق الأوسط" عدد 29 يناير 1995) رداً على سؤال حول تصريحات الرئيس التي تتناقض مع تصـــريحات الشـــيخ عبدالله المفعمة بالتفاؤل وهل أنه إتصـــل بالرئيس صـــالح وتحدَّث معه في شـأنها. ومما قاله الشـيخ عبدالله رداً على ســـؤال الزميل:"هذه التناقضـــات إســـتأتُ منها وغضـبتُ لأنني أراها غير ملائمة، ولا ضـرورة لها ولا تخدم المصلحة. ثم ماذا يمكن أن يفيد الإتصال بعدما قيلت التصريحات وجرى الكلام. لكنني بالفعل إتصلتُ بـالرئيس البـارحـة وأبلغتـه بعتـابي وبـأن مثـل هـذه التصـريحات والتناقضـات لا تخدم المصـلحة مهما كانت الأحوال. ومثل هذه التناقضـات وهذا التصـعيد الإعلامي لن يحدث بعد اليوم لأننا نســـتاء من هذه التناقضات التي تثير الإزعاج والغضب عندنا...".

ومن الطبيعي أن التركيبة السياسية في اليمن قائمة على تناقضات وأن القوى التي تلتف حول الرئيس علي عبدالله صالح والتي يمكنها بالتقارير التي ترفعها إليه أن تدفعه إلى الإدلاء بتصريحات – وهذا ما حدث – تدرك أي أثر طيّب على المستوى الشعبي يمكن أن يتحقق للشيخ عبدالله لمجرد أن يتم الإعلان عن الإتفاق في الرياض. ولكن صراع القوى عندما يتسبب في حدوث تشويش على مهمة وطنية من نوع المهمة التي يقوم بها الشيخ عبدالله فهذا معناه أن القوى التي تلتف حول الرئيس علي عبدالله صالح تلتف من دون أن تدري أن على اليمن كبلد يحتاج إلى أن يعيد ترتيب أوراقه التي إختلطت أولاً نتيجة الغزو العراقي للكويت ثم ما تلا ذلك من تطورات وإجراءات وتداعيات، ثم إختلطت ثانياً نتيجة تمرد نصف اليمن (الجنوب) على نصفه الثاني (الشمال) ثم تطورات التمرد وكانت الحرب أحدها. ومن شأن ترميم التصدع الذي أصاب العلاقات السعودية – اليمنية أن يجعل الأوراق تستقر ضمن ترتيب عاقل. وتلك هي مهمة الشيخ عبدالله في جانبها غير المعلَن. وفي هذا الإطار نشير إلى قول الشيخ عبدالله بأنه "سيجرب صوم رمضان في الرياض" وهو تعبير في غاية الشياكة الدبلوماسية الحاشدة (الشيخ عبدالله هو شيخ مشايخ قبائل حاشد اليمنية) له وقعة في نفس المفاوض السعودي الذي يشعر أن الذين أتوا للتفاوض معه ليسوا مضغوطين ولا يريدون أن يكونوا ضاغطين.

ومهمة الشيخ عبدالله تجعلنا نتذكر ما الذي جرى ولماذا جرى، عندما نشبت الأزمة بين العراق والكويت في يوليو 1990 وأوفد الحُكْم العراقي أحد أركانه (عزت إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة) إلى جدة بعدما تم الإتفاق على أن يلتقي الوفد العراقي برئاسة عزت إبراهيم والوفد الكويتي برئاسة وليّ العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبدالله في جدة ويحاولان برعاية ودعم من المملكة العربية السعودية التوصل إلى إتفاق يحاصر أجواء التوتر التي سادت بين الدولتيْن الجارتيْن.

كذلك من الجائز للمرء الإعتقاد، أو الإفتراض، بأنه لو جاء عزت إبراهيم مفوضاً بإبلاغ الملك فهد بن عبدالعزيز بأن قرار "الفعل المؤثر" الذي أعلنه الرئيس صدَّام حسين هو بين يديه وبأن عزت إبراهيم مكلَّف بالبقاء إلى جانب الملك إلى حين التوصل مع الجانب الكويتي إلى صيغة تزيل خلاف الشقيقيْن وتنهي أي حيف يشعر به كل منهما لكان أمكن تحقيق الإنجاز الكبير الذي يتمناه المخلصون.

ولكن المسؤول العراقي أتى بإنذار غير قابل للتعديل ولهجة لا تحتمل المرونة وجاء بعقلية الداعي إلى مواجهة وليس بخشية مَن لا يريد للأمر أن يتطور إلى مواجهة.

وجاء عزت إبراهيم لا يشيع أجواء التفاؤل بتصريح هنا وتعليق ودود هناك.

وجاء عزت إبراهيم غير مخوَّل بأن يضيف حرفاً على ما هو مكلَّف بالبحث عنه، وغير قادر على أن يطلب ما دام في مهمته من وسائل الإعلام العراقية أن تساعد في هذه المهمة. وجاء مضغوطاً بعامل الوقت أي بمعنى آخر عليه أن ينجز في ساعة ما يمكن أن تتطلب معالجته أسابيع.

ومن أجْل ذلك نلاحظ كيف أن الدبلوماسية الحاشدية ستثمر أكثر بكثير من الدبلوماسية الثورية بدليل أنه لو تمت مهمة عزت إبراهيم في يوليو 1990 بالروحية التي تتم فيها مهمة الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر في يناير – فبراير 1995 لكان الوئام العراقي – الكويتي مضموناً بعهد من الملك فهد بن عبدالعزيز، أو في الحد الأدنى كانت الأجواء المتوترة ستبرد قليلاً وكان قرار "الفعل المؤثر" الذي أعلنه صدَّام حسين يوم 17 يوليو/ تموز 1990 سيلغى أو على الأقل سيتم إرجاؤه حتى إشعار آخر، ومع الوقت لا يعود هنالك مبرر له.

ولكن الأمور سارت على النحو المفجع الذي ما زالت الأمة حتى اليوم تكتوي بناره.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 فبراير (شباط) 1995

* * *

عندما يعلو صوت الوزير على صوت رئيس الدولة

على الطريقة نفسها التي ترد بها إسرائيل على "حزب الله" في كل مرة ينفِّذ فيها رجال المقاومة في الحزب عملية ضد قوات إسرائيلية أو قوات لبنانية متحالفة مع إسرائيل في ما يسمى "الشريط الحدودي"، رد الرئيس فرنسوا ميتران على الجزائر، فبدا أنه لا ينسى الإرباك الذي أحدثتْه عملية إحتجاز الطائرة

الفرنسية في مطار هواري بومدْين بينما الإبتهاج بمناسبة عيد الميلاد في ذروة تألقه. وبسبب تلك الحادثة البشعة إهتزت الهيبة الفرنسية على رغم تركيز الإعلام الفرنسي على التعامل الأمني مع الخاطفين في مطار مرسيليا وتصويره على أنه تعامُل يمكن تسجيله في ملف البطولات. وجاء الرئيس ميتران يوم الجمعة 3 فبراير (شباط) 1995 يطلق خلال إستقباله في قصر الإليزيه ممثلين عن الإتحاد الأوروبي (15 دولة) قذيفة من النوع المدوي تمثلت بقوله "لو كان في إمكان الإتحاد الأوروبي عقْد مؤتمر في أوروبا يستوحي من الأفكار التي وضعت في الفترة الأخيرة، بما فيها مؤتمر المعارضة الجزائرية في روما، ربما كان له حظ أكبر في النجاح إذا لم تعطله الخلافات...".

ومع أن الرئيس ميتران قال إن ما يقترحه هو "آمال وليس قراراً سياسياً" فإنه عندما يكون المتكلم هو رئيس دولة فرنسا ويكون الحديث أمام ممثلي الإتحاد الأوروبي الذي تترأسه للدورة الحالية فرنسا فإن الكلام لا يعود فقط مجرد آمال وإنما هو دعوة لا تنقصها الصراحة. وربما إن الذي جعل الرئيس ميتران لا يغفل إستطراده وإشارته إلى أنه يتحدث عن آمال ولا يطرح إقتراحاً، هو الخشية من أن لا يصيب السهم الهدف ويصيب الإقتراح ما يصيب صاروخ "باتريوت" عندما يُخفق في إعتراض صاروخ مهاجم ويدمره وهو ما زال في الجو.

وأغلب الظن أن الرئيس ميتران أطلق إقتراحه لأن ولايته الأخيرة قاربت على الإنتهاء حيث أن العد العكسي قد بدأ وبدأت أيضاً معركة إنتخاب الرئيس الذي سيخْلف ميتران، وهو لو كانت أمامه فرصة لولاية أُخرى لما كان أطلق مثل ذاك الاقتراح. ونقول ذلك على أساس أن الإقتراح ظاهره سلامة النية وباطنه السوء أو بعضه. بل إنه يشبه إلى حد ما الأزمات الكثيرة التي تركها الرئيس جورج بوش أمام من سيخْلفه مع فارق أساسي وهو أن تلك الأزمات ومنها الأزمة الناشئة عن حرب الخليج كانت في يديْ بوش أوراقاً إعتبرها رابحة وتحقق له أن يجدد ولايته، ومع ذلك مُني بهزيمة ساحقة. في حين أن إقتراح الرئيس ميتران هو بمثابة فخ يضعه أمامه من سيخلفه، ويعاني الخلَف الكثير من تعقيدات هذا الفخ.

وإقتراح الرئيس ميتران هو ببساطة دعوة إلى وضْع اليد مرة أُخرى على الإرادة الجزائرية وعلى القرار السياسي الجزائري وربما وضْع القوات في مرحلة لاحقة على أرض الجزائر وإرسال القِطع البحرية إلى مياه بحرها. ولكي يتم إبعاد الشبهة عن الإقتراح فإن الرئيس ميتران وضع الفكرة أمام إطار أوروبي على أساس أن الدول الأوروبية ستعتذر سلفاً عن أي مشاركة عملية في أي خطوات تنفيذية وتترك لفرنسا أمر التصرف لوحدها، خصوصاً أن هنالك تجربة لفرنسا في الجزائر إستمرت بضعة عقود.

ومن المؤكد أن الرئيس ميتران فاجأ حكومته بالإقتراح بمثل مفاجأة الحُكْم الجزائري به.

وهو فعل ذلك جرياً على عادته في التعامل مع السُلطة التنفيذية سنوات كان الحُكْم إشتراكياً برئيسه وبحكومته وإلى حد ما ببرلمانه، وفي تلك السنوات كان الرئيس ميتران لا يحسب حساباً للحكومة لأنها حكومته، وكان هو يوجه أو هو يقترح والحكومة تنفِّذ. وبعدما حدثت الإنتكاسة الكبرى عام 1993 ومُني الحزب الإشتراكي بهزيمة مريعة في الإنتخابات النيابية سبقتْها هزيمة في الإنتخابات البلدية وتلتْها هزيمة في الإنتخابات الأوروبية وجد الرئيس ميتران نفسه بجناحيْن سقط منهما الكثير من الريش فبدا النسر الذي كان يتصرف كزعيم تاريخي غير قادر على التحليق. ولو أن الظروف الجزائرية كانت سبقت تلك الإنتكاسات المشار إليها لما كان للرئيس ميتران أن يطلِق اقتراحه خشية أن يؤثر ذلك على التجديد له، ولما كان للحكومة أن تتردد في التنفيذ وفي الترويج للفكرة ما دام الرئيس إقترح بصرف النظر عما إذا كان هنالك وزراء مقتنعون بالفكرة أو غير مقتنعين. ونقول ذلك في ضوء ما فعلتْه الحكومة بعدما أطلق الرئيس ميتران تصريحه حيث أن رئيسها إدوار بالادور (ديغولي غير حزبي وصاحب إتجاه يميني معتدل) إعتبر أن الأمر لا يعنيه، في حين أن وزير الخارجية آلان جوبيه ووزير الداخلية شارل باسكوا، تنصلا جملة وتفصيلاً من إقتراح ميتران وإعتبرا أنه أمر يخص الرئيس وحده ولا علاقة للحكومة به. وهما لم يفعلا ذلك تقيداً بأصول التعامل الديمقراطي وإنما لأنهما أمام رئيس باق على ولايته بضعة أسابيع وأنه في مثل هذه الحال عليه أن يركن إلى الهدوء في مرحلة العد العكسي، لا أن ينشغل بأمر، أو فلنقل لا ينشغل بوضع لغم في طريق العلاقات الفرنسية – الجزائرية، التي لم تشهد الإستقرار المنشود منذ إستقلال الجزائر ثم جاءت "المفاجأة الإسلامية" والفوز الكاسح لـ "جبهة

الإنقاذ" في الإنتخابات لتجعل هذه العلاقات تضطرب بعض الشيء ثم يتزايد الإضطراب يوماً بعد يوم وحادثة بعد حادثة من نوع التصفيات البشعة لفرنسيين وأجانب وجزائريين نفَّذها جماعة "الإنقاذ".

وبقدْر ما أن الرئيس ميتران أراد إقحام من سيخلفه في أزمة مستعصية، بالقدْر نفسه نلاحظ أن آلان جوبيه وزير الخارجية الفرنسية والذي ليس هو تماماً وزير خارجيته يسارع إلى التبرؤ من الإقتراح الذي أطلقه الرئيس وكأنما هذا الإقتراح هو إثم يرتكبه رئيس الدولة في حق البلاد، ومن هنا شجاعته في التصريح مرة ثانية وقوله: "إن ماضي العلاقات بين الجزائر وفرنسا يجعلنا في أسوأ موقع للإشتراك في تنظيم الأمور، وهذا هو السبب الذي يبقي فكرة الرئيس حتى الآن مجرد فكرة. وسنرى إذا كان هناك إحتمال أن تتطور في نهاية الأمر. ونحن يجب أن نلتزم بالخط الذي إنتهجناه حتى الآن وهو إدانة العنف والدعوة إلى الحوار وعدم التدخل في شؤون الجزائر".

ومن المهم الأخذ في الإعتبار أن الرئيس ميتران ما كان ليعرِض إقتراحه لولا الأرضية المناسبة التي أحدثها لقاء روما والذي ضم كل أحزاب الجزائر بما في ذلك الجناح الذي يرحب بالحوار (في حزب جبهة التحرير) والذي يمثله عبد الحميد مهري. أما لماذا كان لن يعرض الإقتراح فلأن دعوته عندئذ ستبدو أنها بمثابة شهية فرنسية مستجدة للعودة إلى الجزائر في زمن عودة القوى الكبرى أو بعضها إلى مناطق نفوذ كانت لها، ولمَّا لم تجد فرنسا سبيلها إلى العودة إلى لبنان مثلاً فإنها من خلال إقتراح الرئيس ميتران تمهد أمام العودة إلى الجزائر أو إستعادة الجزائر من خلال مظلة أوروبية تأخذ على عاتقها رفْعها.

ومع أن إقتراح الرئيس ميتران مُني بالضربة القاضية على حلبة صراع مراكز القوى الفرنسية ومعركة الإنتخابات التي تدور رحاها بضراوة منذ بضعة أسابيع فإنه من الجائز إجتهاداً وإفتراضاً القول إن الجزائريين، وبالذات أهل الحُكْم الجزائري، قد يجدون أنفسهم وقد أضاعوا فرصة طيّبة كان يمكن توظيفها في سبيل تهدئة نفوسهم الثائرة على الذين يعارضونهم. أما الذين يعارضون فإنهم بعدما إرتضوا صيغة الحوار التي تمت في روما لن يضيرهم في شيء إذا هم تجاوبوا بعض الشيء مع إقتراح الرئيس ميتران الذي كان يأمل أن يتحول إلى مبادرة، ولكن حكومته – بشخصيْ وزيري الخارجية والداخلية وبرضى بقية الوزراء، وإن كانوا لم يصرحوا بذلك – إلتقت مع الحُكْم الجزائري في إعتبار الإقتراح غير مناسب وأنه تدخُّل في الشؤون الداخلية للجزائر، وإلتقت أيضاً مع المعارضة الجزائرية التي إعتبرت أن الأمر كان يحتاج إلى المزيد من التشاور قبل طرْحه، وبذلك تَبدد حلم الرئيس ميتران في أن يختم عهده بمبادرة تتوج أربع عشرة سنة من التألق وإنتهى الحلم إلى مجرد حالة إهتمام من جانبه بالمسألة الجزائرية تشبه في الكثير من روحيتها حالة إهتمام زوجته السيدة دانييل بالمسألة الكردية.

أما في تاريخ الحُكْم الفرنسي فستكون هنالك صفحة، أو صفحات، في هذا الشأن يقرأها الفرنسيون جيلاً بعد جيل وسيستوقفه كيف أنه في فبراير (شباط) 1995 علا صوت وزيريْن بكامل صحتهما في الحكومة الفرنسية على صوت رئيس الدولة الذي يكاد صوته لا يسمع بسبب الوهن الذي أصاب جسده والمرض الذي يعاني منه.

وقد تكون المسألة خطأ في الحسابات والتقدير من جانب الرئيس ميتران، أو تكون من جانب الوزيريْن إنعكاساً لمخاوف الفرنسيين من تَجدد شبح "العقدة الجزائرية" التي أفرزت كوابيس من النوع الذي أفرزتْه "العقدة الفيتنامية" على المواطن الأميركي. وقد استوعب الوزيران، اللذان علا صوتهما، المسألة وخذلا رئيس الدولة الذي يصارع المرض ويصارع من أجل أن يقتصر غيابه، بعد أسابيع، عن الحُكْم ولكن ليس عن ذاكرة الفرنسيين.

وهكذا فإنه ليس كل ما يتمناه الحكام يحدُث، بل إن القاعدة هي أن التمنيات غالباً لا تحدُث وإذا تحققت واحدة فلأن لكل قاعدة أحياناً ما يشبه الإستثناء أو الإستثناء بعينه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1995

* * *

رمضان المصري... رمضان التحديات

يوم الجمعة 17 فبراير (شباط) 1995 صدرت صحيفة "الأهرام" بعنوان رئيسي لصفحتها الأولى حرَّك في نفوس أكثرية المصريين بعض الشجون وأعاد ذاكرتهم إلى زمن مضى.

كان العنوان المشار إليه هو "مبارك يحذِّر إسرائيل من إفتعال أزمة مع مصر". ومن المؤكد أن المصريين إبتهجوا وهم يقرأون العنوان ومضمونه لكثرة ما قرأوا طوال عشر سنين وبالذات خلال الأشهر العشرة الماضية من كلام لا يتناسب مع الصلَف الذي تمارسه إسرائيل ولكثرة ما شاهدوا على صفحات الصحف وعبْر شاشات التلفزيون المصري مشاهد لزيارات قام بها مسؤولون إسرائيليون إلى مصر وتصرفوا خلال هذه الزيارات وكأن الدولة الكبرى لم تعد كبرى وأن التسوية السياسية أفقدتها القدرة على وضْع تجاوزات الآخرين عند حد.

والتجاوزات الإسرائيلية لم تتوقف منذ أن إتسعت حلقة المسالمين لإسرائيل، بمعنى أن إسرائيل قبْل إنضمام الرئيس ياسر عرفات إلى هذه الحلقة كانت تساير مصر إلى أبعد الحدود وذلك على أساس أنها الدولة العربية الوحيدة التي أبرمت صلحاً معها. وفي مثل هذه الحال فإن من الضروري مداراة هذه الدولة خشية أن ينهار الصلح خصوصاً أنه هش نتيجة فشل النقطة الأساسية فيه والمتعلقة بالتطبيع الذي إقتصر على جزئيات بسيطة وعلى بعض الفعاليات التجارية التي تجاوزت في نظرتها إلى التطبيع حقائق الأمور، وبعض المثقفين الذين إعتبروا أن الإندفاع نحو التطبيع يضعهم في دائرة الضوء من دون أن يخشى الواحد منهم لومة لائم لأن الدولة برئيسها وبقية السُلطات المدنية والعسكرية فيها ملتزمة بالسلام المصري – الإسرائيلي.

لكن المداراة إنحسرت بعض الشيء بعد مؤتمر مدريد، ثم إنحسرت كثيراً بعدما إنضم رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى حلقة المسالمين بموجب صفقة أوسلو. وبعدما أبرم الملك حسين صلحاً فضفاضاً مع إسرائيل تبدلت لغة التخاطب الإسرائيلية التي تم إعتمادها مع مصر لبضع سنوات. وبمجرد أن أعلن الحُكْم السوري بأن السلام خياره الإستراتيجي وأنه مستعد لإبرام صفقة السلام مقابل الأرض بدأت إسرائيل تتصرف مع مصر وكأنها تقول للحُكم فيها ما معناه: لم تعودوا وحدكم. بات الراغبون بالسلام كثيرين ونتيجة لذلك لن تكون هنالك مسايرة بعد الآن.

ووصلت الحال بإسرائيل إلى أنها بدأت تضيق ذرعاً بوزير الخارجية المصري وتُصوره كما لو أنه يمثل تيار الصقور داخل الحُكْم، وكل ذلك لأنه إستوعب اللعبة الإسرائيلية تماماً وبات متنبهاً ويقظاً طول الوقت للمناورات الإسرائيلية ولا يترك مجالاً لأي مكسب يمكن أن تحققه الدبلوماسية الإسرائيلية حتى إذا كان المكسب هامشياً. وعندما لاحظت إسرائيل حذاقة لافتة للنظر في أسلوب تعامُل عمرو موسى مع الإجتياحات الإسرائيلية فإنها بدأت تطعن في مواقفه خشية أن تصل الحال به إلى تعطيل تلك الإجتياحات، وكان الذي حدث في الدار البيضاء على الصعيد الإقتصادي وفي إجتماعات واشنطن الأخيرة بالذات على صعيد المعاهدة النووية نموذجاً لقدرة الدبلوماسية المصرية على دعْم موقف الحُكْم.

وعندما كادت إسرائيل تقول إن الدبلوماسية المصرية تتقاطع مع سُلطة القرار السياسي في مصر فإن الرئيس مبارك إرتأى أن يسجل ذلك التحذير، وهو الأول من نوعه، ويقول في التصريحات التي أدلى بها من دون مناسبة رسمية "إن مصر لا تنتهج خطاً معادياً لإسرائيل ويجب ألاَّ تتهمها إسرائيل بإنتهاج مثل هذا الخط ضدها كلما ثار خلاف بين البلدين، ولا تنتهج سياسة خاصة بها ضد إسرائيل".

وما كادت تمر أربعة أيام على تحذير الرئيس مبارك إلاَّ وتبين أن تيار الحنين نحو الكبرياء المصرية والمعاناة الثقيلة من أسلوب تعامُل إسرائيل مع الحُكْم المصري، هو تيار له جذوره الضاربة في الأرض. وعندما يقف النائب المستقل أحمد طه خلال جلسة خصصها مجلس الشعب (البرلمان) لمناقشة تقرير لجنة الرد على بيان الحكومة ويتحدث بحماسة اللغة التي سادت في الخمسينات والستينات ويستقبل زملاؤه النواب كلمته بالتصفيق الحار، فهذا مؤشر إلى التيار الذي تستبد به الشجون ويستبد به الحنين إلى أيام التحديات.

وإستناداً إلى ما نشرتْه الصحف عن تلك الجلسة التي عقدها مجلس الشعب المصري يوم الثلاثاء 21 فبراير (شباط) 1995 فإن عضو المجلس أحمد طه وقف وقال: "إننا نتعرض لضغوط وهجمات من إسرائيل والولايات المتحدة ودول حلف الأطلسي لكننا لا نقْبل أي تهديد من أي جهة في العالم، لا نريد قمحهم ولا أسلحتهم وآن الأوان لأن نقول للرئيس حسني مبارك سر في طريقك وليفهم حلفاء الفاشية وأتباعهم في الداخل والخارج أن هذا الوطن لن يباع أبداً". ثم ردد النائب والدموع تتساقط من عينيه أحد أناشيد الخمسينات التي ألهبت مشاعر الناس في معركة مواجهة العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا و

إسرائيل) عام 1956 على مصر. ويقول النشيد الذي غنته المطربة فايدة كامل: "هذه أرضـــي أنا. وأبي ضحّى هنا. وأبي قال لنا. مزقوا أعداءنا".

ومن المؤكد أن وقفة شـــيخ الجامع الأزهر الإمام الأكبر جـاد الحق علي جـاد الحق يوم الإثنين 20 فبراير (شباط) أي قبْل يوم من جلسة مجلس الشعب التي أشرنا إليها فجرت شجوناً كثيرة من بينها الشجون التي عبَّر عنها النائب أحمد طه كلاماً وإنشاداً. وعندما يقرأ المصريون ومن بينهم أحمد طه كلام الإمام الأكبر والذي قاله في إجتماع ديني رمضاني منشوراً بشكل شبه بارز مع أنه يستحق لدوافع صحافية أن يكون على عرْض الصـــفحة مثل عنوان تحذير مبارك لإسرائيل، لكن ضرورات إستقرار الجبهة الداخلية وفي شهر رمضان بالذات أوجبت أن يتم نشْره بشكل شبه بارز... إنه عندما يقرأ المصريون كلام شيخ الأزهر لا بد أن تحدُث في نفوسهم بداية صحوة وهي مشروعة في أي حال. ومما قاله شيخ الأزهر: "إن القدس قضية المسلمين أرضاً وعرْضاً، فهي ثالث الحرميْن ومسرى رسول الله والقِبلة الأولى التي صلَّى إليها رسول الله والمسلمون معه، وعلى كل مسلم أن يدافع عنها ويعمل على تحريرها. كما أن القدس عهدة المســلمين جميعاً عليهم أن يستردوها" وقال أيضاً، وهنا بيت القصيد: "إن إسـرائيل تطالبنا بحسـن الجوار. والبعض يطالبنا بزيارتها، والواقع أن إســرائيل لم ترتدع بهزيمتها في حرب أكتوبر (تشرين الأول) ولذلك فإن أي مسلم لا يرغب إطلاقاً، فضلاً عن شيخ الأزهر، في أن يزور إسرائيل أو يلبي لها طلباً ما دامت على هذا المنوال لا تعرف عهداً ولا وعداً ولا حُسن جوار".

ولقد فعل الإمام الأكبر خيراً بكلامه هذا، ذلك أنه أزال وحتى إشـعار آخر الإنطباع السـائد بأن الأزهر يتخذ الموقف الذي لا يتوقعه المسـلمون منه. وهو لو إتخذ منذ البداية الموقف الذي لخصـــه شـــيخ الأزهر لكان ســاعد الحُكْم على أن يكون أقوى في تَفاوضــه وأقوى في صموده. أما ما الذي يتوقعه المسلمون من الأزهر فهو ما قاله الإمام الأكبر إضافة إلى توجيهات بين الحين والآخر لا تتعارض مع المنطلَق المســالم لرئيس الدولة ولكنها لا تؤيده من دون تحفظات.

وعندما نقول ذلك فإننا نأخذ في الإعتبار أن الأزهر لم يتخذ في أي عهد موقف المعارِض لرئيس الدولة، أو بالأحرى إنه كان دائماً مع القرار السياسي، ففي عهد عبد الناصـر آزره في موضـوع التأميم وفي موضـوع القوانين الإشـتراكية مع أنه لو أبدى بعض التحفظات لما كان لتجاوزات كثيرة أن تحدُث ولما كان لبعض المظالم أن تلحق بمواطنين. وفي عهد السادات آزر الرئيس في إنقلابه الذي إســتهدف رجال العهد الناصـري مع أنه سبق أن آزر ذلك العهد ورجاله. ثم آزر الســادات عندما أبرم معاهدة مع الإتحاد السوفياتي، ثم آزره بعدما ألغى المعاهدة. وآزره أيضاً عندما قرر التوجه إلى القدس وتَواصِل التآزر بعد ذلك لكل الخطوات وأهمها إتفاقية كامب ديفيد. وهو لو تأنى بعض الشيء في موضوع الزيارة وفي موضوع الخطوات التي تبعتها لكان جعل الموقف الســياســي أكثر صــلابة. ولكن ذلك لم يحدُث مع الأسـف ربما لأنه في قرارة نفســه كان يدرك أن رئيس الدولة لن يتقبل موقفاً متحفظاً من جانب الأزهر، بل إنه حتى لن يقْبل موقفاً صــامتاً لأن الصــمت في مثل هذه الحالات ليس علامة الرضــا، وإنما هو على العكس تماماً علامة الرفض والغضب.

ومن جانبه، فإن رئيس الدولة بدل أن يشــجع الأزهر على التحفظ لكي يضــغط عندما يفاوض فإنه تَسلح بمؤازرة الأزهر له على أساس تقدير للموقف من جانبه خلاصته أنه يستطيع أن يقول للطرف الآخر إن كل المؤسـســات في مصــر معه في موقفه وأولها المؤسسة الدينية، فضلاً عن أنه يستطيع بهذه المؤازرة من جانب الأزهر أن يرد على الجماعات الدينية. وعندما يؤازر الأزهر رئيس الدولة في موقفه فإن شأن تلك الجماعات ومعارضــتها أو تحفظاتها لا تعود أساسية في حين أن صمْت الأزهر وعدم إعلان تأييده رسمياً وعلناً لرئيس الدولة لن يقوي الخط المعارض ما دام للأزهر أصــلاً موقف واضــح من تلك الجماعات وخطها المعارض للدولة.

ويبدو كلام شــيخ الأزهر الذي أوردْنا خلاصــته وكأنما هو موجه إلى الحُكْم الإسـرائيلي وبعض أركانه الذين يلحون في طلب لقاء شــيخ الأزهر بهم عندما يزورون القاهرة وأبرزهم رئيس إســرائيل عازرا وايزمان الذي تضــايق لأن زيارته قبْل أســابيع إلى مصــر لم تشــمل اللقاء بالقيادات الدينية وبالذات شــيخ الأزهر والبابا شــنوده. لكن ذلك لا يعني أنه ليس موجَّهاً إلى إســرائيل لكي تســمعه في الدرجة الأولى الولايات المتحدة فتخفف كل هذه الضغوط على الحُكْم المصري وتضــع نهاية لهذه الإحراجات التي تسـببها له. بل قد يجوز الإفتراض بأن شــيخ الأزهر لم يقل هذا الكلام،

فقط، لكي يتوقف المسؤولون الإسرائيليون عن طلب الإجتماع به وعن الرغبة في أن يزورهم في إسرائيل ويرُد كبير الحاخامين الزيارة له في مصر، بل ليقول للإدارة الأميركية ما معناه إن موقفه هذا هو قياساً على المشاعر الدينية في نفوس الناس هو موقف معتدل وأن المصريين يقفون مع الرئيس مبارك في موضوع المعاهدة النووية كما لم يقفوا مع رئيس الدولة في خياراته السياسية من قبْل. أما في موضوع القدس فإنهم لا يتنازلون، شأنهم في ذلك شأن كل المسلمين في العالم، عما حدده شيخ الأزهر كإطار وتُمثَّل بقوله الذي نورده مرة أُخرى للتذكير "إن القدس قضية المسلمين أرضاً وعرْضاً. فهي ثالث الحرميْن ومسرى رسول الله والقِبلة الأولى التي صلَّى إليها رسول الله والمسلمون معه وعلى كل مسلم أن يدافع عنها ويعمل على تحريرها. كما أن القدس عهدة المسلمين جميعاً عليهم أن يستردوها". ومثل هذه النظرة لا تقتصر على شيخ الأزهر نفسه. وعندما يضع الأمير سلمان بن عبد العزيز – بمباركة من خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد ورضاه ودعمه – القدس ضمْن أولوياته ويدعو إلى التبرع لها فهو إستناداً إلى حجم سعيه لا يحث المقتدرين من أجْل التبرع لصيانة المسجد الأقصى وتأمين مرتبات الموظفين العاملين فيه وإنما ليُبقي قضية القدس راسخة في أذهانهم، أو عهدة كما قال شيخ الأزهر، وأن السعي للتبرع لها هو شكل من أشكال التحرير المرجو لثالث الحرميْن.

ويبقى أن كلام شيخ الأزهر الذي جاء في الزمن الصعب الذي تواجهه قضية السلام في الشرق الأوسط والإسلام في العالم، يبدو كما لو أنه فتوى يتمنى المرء لو أن المراجع الدينية في العالم الإسلامي تتبناها وبحيث تكون الحد الأدنى الذي يقْبل به المسلم. أما تحذير الرئيس مبارك فيبدو كما لو أنه إنذار.

وكلاهما، الكلام الأزهري والتحذير المباركي تصحيح لشعور ساد بسبب الإندفاعات الإعلامية المصرية – المستمرة حتى الآن وبالذات الصحف القومية، مع الأسف في تأييد جامح لكامب ديفيد – وهو أن الدولة والأزهر في مصر يتعاملان مع المسائل الأساسية ومنها المعاهدة والقدس وكأنها مثل تهجير "الفالاشا" تحت جنْح الظلام إلى إسرائيل ونقْل اليهود السوفيات تحت سمْع العالم وبصره وفي وضْح النهار إلى تل أبيب. وجاء تحذير الرئيس مبارك ثم كلام شيخ الأزهر لوضع الأمور في نصابها بعض الشيء.

ومن محاسن الصدف أن يحدُث ذلك في شهر الصيام. وهكذا يكون رمضان المصري لهذا العام هو رمضان التحديات العاقلة. ويكون أيضاً رمضاناً "مباركاً" و"حقاً".

والبركة في الرئيس مبارك الذي حذَّر وهو على أهبة أن ينذر...

... وفي الشيخ جاد الحق الذي أراد أن يوضح فإذا به كأنه يفتي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1995

* * *

مذكرة عربية إلى الإدارة الأميركية في شأن المعاهدة النووية

إختار الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد شهر رمضان للقيام ببعض الزيارات في المنطقة تندرج طبيعتها في بند تعزيز الجامعة الدي أقرته قمة الإسكندرية بين الملك فهد بن عبد العزيز والرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد (28 – 29 ديسمبر 1994). وهو فعل ذلك على أساس أن المسؤولين العرب قد يرون في تزامُن الزيارات مع الشهر الفضيل ما هو سبب منطقي لإنجاح مهمة الأمين العام وجامعته. ونقول «جامعته» على أساس أن الضمور الذي أصاب هذه المؤسسة يتزايد يوماً بعد يوم وإلى درجة أنها لم تعد المؤسسة الأولى التي يلجأ العرب إليها عند الشدائد، بل باتت «حامعة» الدكتور عصمت عبد المجيد، الذي يحاول جاهداً الحفاظ عليها وعدم تركْها تذروها رياح الخلافات العربية إلى أن تأتي لحظة يرتأي فيها الأعضاء التمسك بها وتعزيزها.

ولكن ليس في الأفق ما يشير إلى أن بركات الشهر الفضيل جرى منْحها للجامعة بدليل إننا لم نسمع من الأمين العام كلاماً في هذا الشأن. وهو لو حصل على ما يتمناه في شأن التعزيز المرجو لكان أعلن ذلك بالصوت العالي وهو الذي يؤثر أن يتحدث بصوت يكاد لا يسمعه الآخرون.

ومع أن الدكتور عصمت عبد المجيد لا يستطيع تحقيق المستحيلات بسبب تشابكات الوضع العربي، إلاَّ أن في إستطاعته، وضِمْن صلاحياته التي لا

يمكن أن يجادله في شـــأنها أحد، أن ينجز أعمالاً من شـــأنها أن تســـاهم في وقْف الإنهيارات المتلاحقة في العمل العربي، ومن شأنها بالتالي أن تساهم في تحقيق بعض النهوض. ونحن، على سبيل المثال لا الحصر، كنا نتمنى أن يقوم الأمين العام بجولة تشمل كل الدول العربية بما في ذلك السُلطة الوطنية الفلسطينية ومعه مذكرة من صـــياغته الراقية التي يشـــهد لتعابيرها الأجانب قبْل العرب والتي طالما لمســـوها في أحاديثه وتعقيباته وملاحظاته خلال سنوات عمله كسفير لبلاده لـدى الأمم المتحـدة ثم كوزير للخـارجيـة. وفي هـذه المذكرة كلام كثير الوضـــوح في شـــأن الخطر النووي الإسرائيلي على منطقة الشرق الأوسط، وكيف أن عدم توقيع إسرائيل على معاهدة عدم الإنتشار النووي معناه بالنســبة إلى كل عربي أن إســرائيل ســتســتعمل هذا السـلاح مستقبَلاً، وأنه نتيجة هذا الشـعور، فإن الرغبة الشعبية بالسلام، على أساس أنه الحل لمشاكل التنمية المتفاقمة، تتراجع وتتقدم عليها مشـاعر الإصـرار على التنبه وضـرورة عدم التجاوب مع خُطط السـلام. ونحن هنا لا نقترح ما الذي يمكن أن تتضـــمنه المذكرة وإنما نفترض ونجتهد تاركين لأستاذنا الدكتور عصمت عبد المجيد هذه المهمـة القوميـة والوطنيـة والتي هو أهل لها.

وأغلب الظن أن مثل هذه المذكرة لن تكون موضـع مناقشـــة، فكل الدول العربية الأعضـــاء متضـــررة من عدم توقيع إسرائيل على المعاهدة وبالتالي فإن التوقيع سيتم وعلى وجْه السرعة. وإذا إنتهت الجولة بالتوفيق، فهذا معناه أن الأمين العام حصـــل على مذكرة موقَّعة من جميع القـادة العرب. أو مَن ينوب عنهم – ولن يكون في إستطاعة الإدارة الأميركية تجاهلها أما لماذا الإدارة الأميركية بالتحديد، فلأن المذكرة ستكون موجَّهة إليها، ذلك أنها هي التي تضـــغط على الدول العربية وبالذات على مصـــر لكي توقّع رافضـــة حجتها، ولا تضـــغط فى المقابل على إســـرائيل متفهمة ومتقبلة ذريعتها في عدم التوقيع.

ولا بد أن الكثيرين، وأولهم الدكتور عصـــمت عبد المجيد، يلاحظون أي ضـــغوط تمارســـها إدارة الرئيس كلينتون على حُكم الرئيس حســـني مبارك، وكيف أن تلك الإدارة إســـتعملت ســـلاح الإعلام، ثم عندما لم يتجاوب الحُكم المصـــري إســـتعملت ســـلاح التهويل بوقف المســـاعدات، ثم أتبعت ذلك بســـلاح حقوق الإنسـان وتضـمين التقرير السـنوي الذي تُصـدره وزارة الخـارجيـة الاميركيـة فقرة تنص على أن قوات الأمن المصرية «ترتكب إنتهاكات لحقوق الإنسان في حملتها ضـــد الجماعات الإســـلامية المتشـــددة وغالباً ما توقِع ضحايا بين غير المتقاتلين... ».

وهذه الفقرة أزعجت إلى حد كبير الحُكْم المصـــري لأن وزارة الخـارجيـة الأميركيـة – على حـد قول وزير الداخلية المصري حسين الألفي – بدأت تعتمد على ما تقوله صحف المعارضة في هذا الشأن.

ومن المؤكد أن هذه المذكرة ستكون موضـع إهتمام الرأي العام الأميركي، والدولي بشكل عام، ذلك أن أي مواطن في الولايآت المتحـدة وبقيـة دول العـالم بـات كثير الخشـية من إحتمالات إسـتعمال السـلاح النووي. ثم إن هذا المواطن ربما يتســاءل بينه وبين نفســه ما الذي يحول دون أن يكون هو شخصياً من ضحايا هذا السـلاح في حال إسـتعملتْه إسرائيل وكان هو في زيارة لدولة من دول الشرق الأوسط.

وحتى إذا تجاهلت وســـائل الإعلام الأميركية – نتيجة تعاطفها مع إســـرائيل – هذه المذكرة، فإن من الواجب نشْرها كإعلان في الصحف ذات التأثير داخل الولايات المتحدة وكذلك في معظم الصحف الأوروبية.

وقد نجد مَن يتعاطف مع هذه المذكرة لأنها دعوة إلى السـلام، فضـلاً عن أنها سـتؤكد إمكانية حدوث إتفاق عربي شامل ومن دون أي تحفظات،على قضية ما، وهذا أمر مطلوب.

وإلى ذلك، إن هذه المذكرة ســـتكون بمثابة حدَث تاريخي لأنها ستبدو كما لو أنها «مذكرة ثأرية» أو رد على المذكرة التي ســـبق أن وَجهتْها الإدارة الأميركية (أيام حُكْم الرئيس جورج بوش) إلى الأمـانـة العـامـة للجامعة العربية. وفي تلك المذكرة التي جاءت مفاجئة ولا تراعي الأصـول والتي وجهَّتْها الإدارة الأميركية إلى الجامعة عشـــية إنعقاد قمة بغداد الإســـتثنائية (أواخر مايو 1990) وردت الفقرة الآتية التي نســـجلها على ســـبيل التذكير: «... ونأمل أن يتفادى الزعماء خلال القمة الحماسـة اللفظية المفرطة ونحثهم بدل ذلك على الإهتمـام بمنهج بنَّـاء يعزز آفـاق تحرُّك حقيقي نحو مسيرة السلام، ونأمل ألاَّ تُصدر القمة العربية أي بيان قد يعتبر محاولة للوقوف ضـد حق اليهود السـوفيات في الهجرة أو ضـد مصـلحة إسـرائيل الأسـاسـية في قبولهم داخل إسرائيل ذاتها..».

وقد يقال إن هذا الزمن هو ليس زمن الأخذ بالثأر وأن مثل هذه المذكرة قد تجعل العلاقة مع الولايات

المتحدة تتأثر. والرد على ذلك هو أن هذه العلاقة لا بد أن تتعرض لصدمة لا يتجاوز ضررها الضرر الذي تُحدثه بعض الكدمات. وإذا كانت هذه الصـــدمة لن تحدُث، فإن الإدارة الأميركية قد تتمادى أكثر وأكثر وسيزداد الضغط على الحُكم المصري بحيث تتحول التمنيات إلى إملاء رغبات. ومما يؤكد ذلك، قول وزير الخارجية الاميركي وارن كريســتوفر لوزير خارجية مصـــر عمرو موســـى خلال إجتماعات المؤتمر الخماسي في واشنطن الأسبوع الماضي «إن معارضة مصـــر تمديد معاهدة منْع الإنتشـــار النووي يعكر علاقات واشـــنطن الطيبة مع القاهرة...». وتنتســب كلمات كريستوفر هذه إلى الروحية نفسها التي تنتسب إليها عبارات المذكرة الشـــهيرة التي وجهَّتْها الإدارة الأميركية عام 1990 إلى الأمانة العامة للجامعة العربية.

ومن شأن المذكرة التي نتمنى على الأمين العام أن ينشـط في سـبيلها، ما دام ليس هنالك ما يحول دون ذلك وما دامت صـــلاحياته لا تتقاطع مع خطوة من هذا النوع، أن تخفف الوطأة الأميركية قليلاً عن الحُكم المصري خصوصاً بعدما بدأت تصدر عن هذا الحُكم إيماءات تفيد بأنه على أهبة التراجع عن موقفه. فبعدما سـمعْنا من الرئيس مبارك إصـراره على عدم التوقيع، نسمع معلومات مصدرها الخارجية المصرية ومفادها أن مصر يمكنها القبول بوعد من إسرائيل أنها ستوقّع بدورها على المعاهدة بعد ثلاث سنوات، وأن مثل هذا الأمر يجعل مصـــر توقّع الآن. ومثل هذا التراجع المحتمل ســتكون له إنعكاســاته المعنوية على الهيبة المصـرية، وبالتالي على الهيبة الحربية، لأن المسـألة لا تخص مصر وحدها.

كذلك إن من شـــأن المذكرة التي نشـــير إليها أن تستقطب دولاً وشعوباً كثيرة ستشعر فى حال حدوثها كما لو أنها نصـــرة عربية للحق الإنســـاني في زمن تحجَّر فيه الوجدان الأميركي. ومن الواضـــح أن هذه الدول والشـــعوب علَّقت الآمال الكثيرة على الولايات المتحدة وإفترضت أن الدولة الكبرى ستضعها في جو البحبوحة والطمأنينة لمجرد أن تســير في الركب الأميركي. لكن هذه الآمال إنتهت هباءاً منثوراً. ويكفي أن ننظر إلى أحوال العديد من الدول في آسيا وأوروبا الشـرقية التي سـاءت حالها أكثر بعدما إسـتسـلمت للوعود والأحلام الأميركية.

ونعود إلى القول إن في إستطاعة الدكتور عصمت عبد المجيد الأمين العام للجامعة أن يفعل ما من شأنه أن يفيد الأمة ويعزز الجامعة، وكل ذلك ضـــمن صلاحياته المعطاة له والتي لا تُغضب أحداً. ونضيف بأنه لو أخرج من حقيبته في جولاته الرمضـــانية وتلك التي تمت قبْل رمضـان والتي يمكن أن تتم بعد إنتهاء هذا الشهر الفضيل، تلك المذكرة ويجمع التواقيع عليها لكان ســـينجز عملاً بالغ الأهمية يذْكُره له الناس بالخير. وما زال بيننا وبين المؤتمر الذي ســـينعقد في نيويورك لإقرار التجديد للمعاهدة النووية بضعة أسابيع كافية لصـــياغة أفضـــل مذكرة تفوق في دقتها تلك المذكرة الأميركية الشـهيرة وكافية أيضـاً لجمع التواقيع عليها.

وقد يقال إن الجامعة التي تلقت تلك المذكرة الشـــهيرة من الإدارة الأميركية هي غير الجامعة التي يتولى أمانتها العامة الدكتور عصـــمت عبد المجيد، وهذا قول مردود بعض الشيء، ذلك أن المذكرة الشهيرة لم توجَّه إلى الشاذلي القليبي وإنما إلى الأمة بشخصه وهو لو إســـتمر في موقعه لما كان تَردد في أن يختم عمله في الجامعة بإنجاز مذكرة يثأر بها من تلك المذكرة. وعندما نتمنى على الدكتور عصـــمت عبد المجيد إنجاز المذكرة المرجوة فعلى أســـاس أنه يرُد بذلك ضـيماً أميركياً لحق بالأمة، وأنه بذلك ينجز أمراً ممكناً وسهل التحقيق.

... هذا إلاَّ إذا كان ما نعتبره ممكناً وسهلاً هو في نظر الأمين العام صـعباً إلى درجة الإسـتحالة. وإزاء ذلك يكون عذرُنا إننا عن حُسْـــن النية طالبْنا الأمين العام بأمر إفترضْنا أنه في الحقل العربى الأخضر وإذا به وبين الخط الأحمر وحقل الألغام مســـافة قليلة لا تسـمح لأحد أن يمشـي فيه... وخصـوصـاً للدكتور عصمت عبد المجيد.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 20 فبراير(شباط)1995

* * *

الصراط السوري المستقيم

منذ مؤتمر مدريد، الذي ما كان لينعقد لولا إتفاقية "كـامـب ديفيـد" التي أبرمهـا الرئيس الراحـل أنور السادات، والأنظار تتجه نحو سوريا.

ومع توجُّه الأنظار تكثر التساؤلات.

هل يمكن أن يفعل الرئيس حافظ الأسد ما سبق أن فعله الرئيس السادات؟

وهل يمكن أن يضع الرئيس الأسد نهاية لبرنامجه القومي ويختصر من هذا البرنامج الكثير بحيث يتحول إلى مجرد حالة ثنائية بين سوريا وإسرائيل تتم معالجتها بمعزل عن كل الروافد التراثية والوحدوية والقومية، أي بمعنى آخر تكون الحالة السورية – الإسرائيلية مثل الحالة المصرية – الإسرائيلية؟

وهل بعدما إنهار الإتحاد السوفياتي، ذلك الحليف الأساسي والمعوَّل عليه عسكرياً وسياسياً، يمكن أن يعيد الرئيس الأسد النظر في أسلوب التعامل مع العالم الخارجي من منطلق أن سوريا تبقى قوية بدورها وبموقعها، وأن إنهيار الحليف الدولي لا يعني أن يرتبك القرار السوري؟

وتلك في أي حال ليست كل التساؤلات وإنما هي التساؤلات الأساسية. وكان الذين يطرحونها يستندون إلى أن مقومات الشأن السوري لم تقتصر على الحليف الدولي الذي إنهار وإنما أيضاً على الدعم الخليجي الذي لم يتوقف وإن كان تأثر وعلى أهبة أن ينحسر شيئاً فشيئاً – بعدما باتت إلتزامات الدولية نتيجة الحرب التي إستتبعت الغزو العراقي للكويت، مرهِقة لدول الخليج، وظهر ذلك واضحاً في الميزانيات التي تصدُر والكتابات التي تعالِج والإجراءات الإضطرارية التي يتم إتخاذها لمواجهة العجز... وهكذا.

وفي وقت من الأوقات ساد الشعور بأن القرار العربي التفاوضي مع إسرائيل يحتاج إلى الدولة القوية التي يمكن الإتكال عليها، وإلى الدولة التي ما زال في إستطاعتها أن ترفض بقدْر ما في إستطاعتها القبول بعروض السلام. وهنا نلاحظ مدى إهتمام سوريا بإجتماعات دول الطوق، والتي لم يُكتب لها أن تحقق أي نتيجة لأن محادثات التنسيق التي كانت تتم بين وزراء خارجية هذه الدول (مصر وسوريا والأردن ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية) كانت تفتقد إلى تطبيع في العلاقة على مستوى أهل القمة. ولو أن هذا التطبيع كان قائماً وكان الذين في القمة يدعمون وزراء خارجيتهم، لكانت الإجتماعات التي نشير إليها أثمرت. ولكن وزراء الخارجية الخمسة وجدوا أنفسهم يعقدون جلسات لا طائل تحتها ولا طائل فوقها ومن أجْل ذلك فإنه لمجرد أن هبت رياح أوسلو إنفرط العقد وتحول الطوق إلى حلقات صغيرة متناثرة. ولو أن العلاقة الوحيدة المتماسكة والتي تجمع بين الرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد لم تستمر على وتيرة الود نفسها لكان الوضع أسوأ بكثير، ولكانت تهاوت على الفور محاولة الصمود السورية التي ما زالت قائمة إلى الآن. وقد يتبين ذات يوم أن الذي أراده الرئيس الأسد من إستمرارية العلاقة بينه وبين الرئيس مبارك هو تطويل فترة الصمود وليس التطلع إلى تطوير الموقف المصري في إتجاه العودة عن إتفاقية "كامب ديفيد" التي هي ليست مثل إتفاق 17 مايو/ أيار اللبناني – الإسرائيلي الذي أمكن سوريا إسقاطه.

وإذا كانت الأنظار إستمرت متجهة وإذا كانت الأنظار إستمرت متجهة نحو سوريا بعد تآكل محاولة دول الطوق وإجتماعات وزراء خارجيتها فعلى أساس أن الرئيس الأسد سيجرب صيغة بديلة ولن يترك العبور الإسرائيلي للمنطقة يمر مطْمئناً إلى أن نواطير البوابات العربية نامت عن الثعالب الإسرائيلية وقدرتها على الإحتيال في التسلل والتغلغل. ومن هنا حرصه على تعزيز المعادلة شبه المستقرة التي حدد سلفاً أُسسها والتي تقوم على علاقة مع الولايات المتحدة تتسم بالإنفتاح وسعة الصدر وعدم الإنفعال من الضغوطات العابرة التي تتمثل في كتابات موحى بها أو كتابات يهودية القلم والهوى لا تندرج تحت بند الإيحاء ويكون هدفها، البعيد المدى، هو فقط عدم تمكين سوريا من الإستحواذ على التفهم الأميركي. هذا من جهة ومن جهة أُخرى عدم الإستكانة ومواصلة توجيه النقد أحياناً والهجوم أحياناً، أو توجيه ما هو أكثر من النقد وأقل من الهجوم في معظم الأحيان للأطراف العربية التي تذهب بعيداً في التوجه نحو السلام. وفي هذا الإطار تم إستنباط عبارات ومفردات وكلمات جديدة لم نألفها من قبْل في «أدبيات» الصراع العربي – الإسرائيلي، وفي حين كان هنالك بعض الرفق في حق معظم هذه الأطراف فإن الرئيس الفلسطيني تعرَّض إلى ما يشبه الرجم. ولكن هذا التعرض على صفحات الصحف السورية وبعض الصحف اللبنانية، وكذلك بعض التصريحات الهادئة نسبياً على ألْسنة المسؤولين السوريين والحادة جداً على ألْسنة بعض المسؤولين اللبنانيين كانت لا تفي نفسياً بالغرض المطلوب وبالذات عندما يلاحظ المواطن العربي أن هذه الكتابات أو التصريحات تنهال على الأردن أو منظمة التحرير أو سلطنة عُمان، لكنها تبتعد قدْر الإمكان عن الآخرين، وبالذات عن مصر والمغرب، فإن ذلك يُفقد المواجهة الكلامية

تأثيرها.

ولقد نجحت المعادلة المشار إليها أيضاً في تأجيل تهاوي القدرة السورية على الصمود. وفي إطار هذه المعادلة كانت اللقاءات الأميركية –السورية على مستوى القمة، وآخرها وليس أخيرها اللقاء الذي تم بين الرئيس بيل كلينتون والرئيس الأسد. ولو أن إسرائيل كانت تعرف أن الرئيس الأسد لن يعيد النظر في موقفه بعد هذا اللقاء لكانت حاولت تعطيله في شكل أو آخر. وتم اللقاء لكن الرئيس الأسد ما زال لا يقرر الإنضمام إلى الآخرين ويحقق بإنضمامه للرئيس كلينتون فرصة العمر في أن يتم مهرجان مصافحة في حديقة البيت الأبيض بين الرئيس الأسد وإسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل، وهي فرصة يلح الرئيس كلينتون عليها الآن لأنها من جهة تُحقق له الولاية الثانية ولأنها من جهة أُخرى تحسم وبشكل نهائي زعامة أميركا على منطقة الشرق الأوسط، وذلك لأنه بهذه الخطوة يكون أنهى الشأن الإيراني من دون إطلاق رصاصة واحدة. ولكثرة ما تغسل به ماكينة البروباغندا الأميركية عقول مواطنيها عن "الوحش الإيراني الكاسر" فإن "إصطياد" هذا "الوحش" من خلال إنضمام سوريا إلى خيمة السلام المنصوبة سيُعتبر عملاً أسطورياً حققه الرئيس كلينتون. ولنا في الهجوم الجوي على ليبيا الذي أمر به الرئيس الأسبق رونالد ريغان بمؤازرة من حكومة السيدة مارغريت تاتشر، المثال الذي يؤكد لنا نوع نظرة المواطن الأميركي نحو رئيسه وكيف أنه يعتبر "عملاً عدوانياً وأخرق" قام به، نوعاً من أنواع البطولات التي إستحق عليها التأييد الكاسح.

ولم يقتصر الأمر على أن الرئيس الأسد لم ينضم إلى الآخرين، وإنما هو واصل لعبة المطاردة بينه وبين الإدارة الأميركية. وعندما حانت الفرصة المناسبة وأمكن عقْد قمة الإسكندرية، التي كانت دعماً كبيراً للموقف السوري، فإن الإدارة الأميركية ردت على الفور بالقمة التي جعلت الرئيس الأسد يشعر أنه بات لا بد من وقفة بين القرار الصعب والقرار الأصعب.

ولولا هذه القمة، التي لم يتوقع الرئيس الأسد – على الأرجح – أن تنعقد، لكان ربما ترك الوقفة المشار إليها برسم الإرجاء يتم إتخاذها تبعاً للتطورات. ولكن إنعقاد هذه القمة وبسرعة وفي القاهرة، هو الذي جعله أمام الوقفة التي لا بد منها بين القرار الصعب، الذي هو الإنضمام إلى الآخرين والقبول بالحل الذي تريده الإدارة الاميركية وإعتبار ذلك كانه أمر واقع مشابه في بعض جوانبه لذلك الأمر الواقع الذي إنتهى إلى سلْخ لواء الإسكندرون عن سوريا، وبين القرار الأصعب الذي هو العزلة بالإختيار أي نقيض العزلة المفروضة بالحصار الدولي على العراق، والإنتظار إلى حين توافر ظروف أفضل تُحقق للرئيس الأسد الحل الذي هو بمستوى تطلعات الرئيس أو طموحاته أو بمستوى الأمريْن معاً. ولكن هل إنه إذا إختار الرئيس الأسد القرار الأصعب سيتركون سوريا وشأنها ولن يتعرضوا لها بالكتابات وبالقرارات الدولية السهلة الإستصدار في أي وقت ومناسبة وتحت أي ظرف. وهم سيفعلون ذلك لأن العزلة السورية بالإختيار معناها السلام المنقوص. وإذا سالم الآخرون ولم تسالم سوريا فكأنما السلام العربي – الإسرائيلي يفتقد إلى النقطة التي تحقق الإرتكاز.

وإلى هنا فإن الصراط السوري المستقيم يكون قطَع نصف الشوط، وهو النصف المهم، ويبقى النصف الثاني والذي هو النصف الأكثر أهمية... بل لعله الأهم، في ضوء القراءة المتأنية للكلمة التي ألقاها الرئيس الأسد يوم 27 فبراير/ شباط 1995 أمام بعض علماء الدين في سوريا خلال إفطار تقليدي يقيمه سنوياً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 5 مارس (آذار) 1995

* * *

السلام.. وسوريا: مَن ينتظر مَن؟

في مأدبة الإفطار التقليدية التي يقيمها الرئيس حافظ الأسد للعلماء وأرباب الشعائر الدينية من مختلف محافظات سوريا ألقى الرئيس الأسد، وكان قد أدى صلاة المغرب مع ضيوفه، كلمة مطولة عرض فيها الوضع الراهن في العالم وتطورات عملية السلام والإتصالات السورية – الأميركية والسورية – الإسرائيلية.

كان ذلك مساء يوم الإثنين 27 فبراير/ شباط 1995 وكان متبقياً على الشهر الفضيل رمضان يومان، وكانت أجواء روحانية تسود العالم العربي والإسلامي وتتجاور مع مشاعر الخشية من هذا السلام الذي تبرمه بعض الأطراف العربية مع إسرائيل والخشية على سوريا التي تحاول جاهدة أن تصمد في

وجه الضـــغوط الهائلة التي تتعرض لها من أجْل أن تُبرم قيادتها ســـلاماً مع إســـرائيل يعيد بعض الأرض على حساب كل الكرامة، أو فلنقل على حساب الكرامة والكبرياء، فضـــلاً عن إهالة التراب على تراث وبرنامج قومي جاء به حافظ الأســـد عندما تســـلَّم دفة القيادة وبنى الجيش وجيليْن من الشـــباب على أســـاس هذا البرنامج.

وبدا الرئيس الأســـد في حديثه هذا كما لو أنه يتحدث أمام إجتماع للقيادة القُطْرية لحزب البعث الذي يحكم أو أمام مجلس الشعب في جلسة إستثنائية أو أمام إجتماع موسَّع للقيادات العسكرية. ذلك أنه تحدَّث حول خط سياسي إستراتيجي. وكان لا بد قبْل الحديث حول هذا الخط أن يتم التمهيد له من خلال فقرة قال فيها الرئيس الأســـد: «إن كثيرين وقعوا في خطأ الإنقســـامات وكان عليهم أن يعرفوا أن الإجتهاد الذي يؤدي إلى تفرقة المسلمين هو ضد الدين ولا يُرضي الله. وكل إجتهاد يدفع إلى وحدة المسلمين يُرضي الله تعالى والمسلمين».

أما الخط السياسي الإستراتيجي فإن الرئيس الأسد لخصه في أربع فقرات من كلمته.

في الفقرة الأولى قال الآتي: «إن الشـــعوب عندما تشـــعر بالخطر تتماســـك مهما كانت الصـــعوبات. والشعوب لا تستسلم حتى إذا إستعمرها العدو بصورة مباشرة وهي في دفاعها عن نفسها تقاتل بكل ما يتوفر لها من الوسائل. تقاتل باللحم والعظم والحجر والسكين ولا تســـتكين لعدوها، ولا أحد يتنازل عن تراثه وتاريخه وقيَمه...».

وفي الفقرة الثانية قال الرئيس الأســـد: «أنتم تسمعون ويسمع المواطنون أيضاً أقوالي وتصريحاتي، ولم يســـمع أحد ولن يســـمع أبداً إنني فرطتُ بمبدأ أو تخليتُ عن حق أو تركتُ موقفاً من مواقفنا الوطنية والقومية. أنا قوي بالشـــعب وبالحق. هذا ما أقوله لكل مَن يسألني في هذا الزمن الذي يشهد إنهيارات عربية وعالمية لم يســـمع المرء أو يقرأ بمْثلها من قبْل. ونحن فى سوريا لسنا بلداً كبيراً بالمساحة وبعدد السكان وقد لا نملك الثروة التي يملكها الآخرون من الأجانب والعرب، ولكننا نملك الإيمان بالله والوطن. ومَن يؤمن مثلي بالله والوطن والشعب لا بد أنه منتصر لأنه على حق...».

وفي الفقرة الثالثة قال الرئيس الاسد: «إننا نضـــع في حسابنا كل الإحتمالات، ولا يستطيع أحد في الدنيا جر سوريا إلى ما لا تريد. والعمل السياسي يجب ألاَّ يؤدي إلى أي تفريط بالحقوق والكرامة. والأعمال المنفردة لبعض الأخوة العرب لا تؤثر في موقف سوريا، ولا نوافق على أي حل لا يكون ملبياً لحاجاتنا ومحافظاً على كرامتنا. وفي الماضـــي كان الحديث يجري حول دول تتصـــارع على إكتســـاب النفوذ في سوريا وعليها. كان الآخرون يتصارعون على سوريا، أما اليوم فإن الوضـــع قد إختلف تماماً. وسـوريا اليوم غير سوريا الأمس، فلقد تقدمْنا كثيراً إلى الأمام...».

وفي الفقرة الرابعة قال الرئيس الاسد: «إن كل مَن إنفرد من إخواننا العرب بالحل كنا مدافعين عنه قبْل إنفراده وسندافع عنه عندما يدافع عن نفسه. ولا نريد أن ندخل في صـــراعات مع الذين إنفردوا لأن العدو يريد لنا أن نتحارب، وعندما نتحارب تكون الكارثة ونقع في وضْع أسوأ مما نحن فيه...».

والفقرة الأخيرة بالذات هي من النوع الذي توضـــع خطوط تحت أسطرها لأن فيها ما يشبه التوجيه إلى المســـؤولين الذين تجيز لهم مواقعهم التحدث أو التصريح في الأمور السياسية ألاَّ يتجاوزوا في كلامهم ما حدده الرئيس الأسد في كلمته، وإلى وسائل الإعلام بأن لا تســـتعمل مفردات ألحقت الأذى المعنوي بالأطراف العربية التي أبرمت الصلح مبكراً مع إسرائيل أو تلك التي بكَّرت أيضـــاً في تطبيع العلاقات الإقتصـــادية والثقافية معها. وعندما يتذكر المرء أي مفردات وردت في تصـــريحات لمســـؤولن ســـوريين وإستُعمِلت فى كتابات نشرتْها أو بثتها وسائل الإعلام الســـورية يكتشـف حجم التعايش الجيد الذي ســـتكون عليه العلاقة بين سوريا وتلك الأطراف في ضوء كلمة الرئيس الأســـد. وكانت كلمتا«الهرولة» و«الإنحراف» أبرز تلك المفردات.

ويبدو الرئيس الأسد فى كلمته وبالذات في العبارة التي يحدد فيها بأنه «لن يكون هنالك صراع مع الذين إنفردوا لأن العالم يريد لنا أن نتحارب» كما لو أنه إنتهى بعد التحليل في ما حدَث داخل الصـــف العربى إزاء مســـألة الصـــراع مع إســـرائيل إلى أن القضـــية الأســـاســـية بالنســـبة إلى قيادته باتت مقتصِـــرة على الإهتمام بســـوريا وما الذي ســـتفعله، ومن هنا نلاحظ كيف أن فلسطين كقضـية بالمفهوم البعثي أو كمجرد إشـارة لم تَرِد في كلمته. وهو لا يفعل ذلك على طريقة الرئيس أنور الســـادات الذي إختار الحل المصـــري – الإســـرائيلي بينما القضـــية الفلســـطينية لم تُحســـم بعد،

وإنما لأن الحديث من جانبه وبعدما أبرمت القيادة الفلسطينية الصلح مع إسرائيل، سيبدو كما لو أن سوريا فلسطينية أكثر من الفلسطينيين وكان سيجد من يقول له داخل سوريا همساً أو بالصوت الأعلى قليلاً: أي قضية هذه وقد إختار أصحابها، بصرْف النظر عن الدوافع، الحل الذي يناسبهم؟

ومن الجائز الإفتراض إن عدة عوامل ساهمت فى تكوين هذه الرؤية التي أوضحها الرئيس الأسد في كلمته الرمضانية وأنه لولا تلك العوامل لكان أمكن الإستمرار في خط التشدد إزاء إسرائيل. وأبرز هذه العوامل أن الرئيس الأسد لم يتوقع أن يحدُث وبهذه السرعة التي تفوق بكثير سرعة الطرفيْن الأردني والفلسطيني، عقْد قمة رباعية وفي القاهرة كانت، مهما كثرت التوضيحات في شأنها، رداً على قمة الإسكندرية التى حققت سوريا منها مكاسب في منتهى الأهمية تستطيع من خلالها تأمين صمود لا يثقل الكاهل. ونحن عندما نقول ذلك نتذكر أي معنويات عالية أفرزتْها قمة الإسكندرية وأي حالة إحباط تسببت بها للوضع العربي بشكل عام وللحكم السوري بشكل خاص قمه القاهرة الرباعية. وأغلب الظن أن خشية إدارة الرئيس كلينتون ومِن ورائها أو معها الحكومة الإسرائيلية من أن تتطور قمة الإسكندرية وتصبح العنصر الأكثر أهمية للصمود السوري، هي التي إبتكرت قمة القاهرة بين الرئيس حسني مبارك والملك حسين والرئيس عرفات ورئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين. وأهمية هذه القمة ليست فقط بمَن شارك فيها وإنما أين جرى عقْدها ومتى. ولو أن هذه القمة عُقدت في العقبة على سبيل المثال لما كان للرئيس الأسد أن يشعر بخيبة الأمل التي أصابته والتي لم يخفف وطأتها أن الرئيس مبارك إتصل به في اليوم الثاني لإنعقاد تلك القمة ليهدئ من عتبه، ثم قال في تصريحات إنه يتفهم غضب سوريا على هذه القمة. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الرئيس مبارك لا يمكن أن يحبذ خروج سوريا من العملية السلمية على صعيد السمعة الوطنية والقومية بأكثر مما خرجت به مصر من "كامب ديفيد". وفي أي حال إن الرئيس مبارك فعل خيراً بعقد القمة في القاهرة وليس فى الإسكندرية بحيث لن تختلط أجواء القمة العربية بأجواء القمة التي دشنت ظاهرة جديدة هي ظاهرة القمة العربية – الاسرائيلية.

ثم جاءت مأدبة الملك حسين الرمضانية يوم الأحد 5 فبراير لوفد برلماني إسرائيلي من 35 نائباً بينهم رئيس الكنيست وصلوا على متن طائرة خاصة أرسلها لهم الملك، ولقاء وزير خارجية سلطنة عُمان يوسف بن علوي في اليوم نفسه في العقبة مع وزير خارجية إسرائيل شيمون بيريز ودعوته – أي بن علوي – إلى إقامة سلام مع إسرائيل «في أقرب وقت». وهذه المأدبة وذلك اللقاء زادا من خيبة أمل الرئيس الأسد من دون أن يشكِّل إجتماع وزراء خارجية دول إعلان دمشق يوم 6 فبراير في العاصمة السورية وبيانهم المؤيد للمطالب السلمية السورية الرد المناسب على قمة القاهرة.

ولو أن وفد التروبكا الأوروبية (برئاسة وزير خارجية فرنسا آلان جوبيه) الذي قابل الرئيس الأسد يوم 8 فبراير، أي بعد خمسة أيام من إنعقاد قمة القاهرة الأولى من نوعها وثلاثة أيام من الإفطار الذي أقامه الملك حسين للوفد البرلماني الإسرائيلي وهو أيضاً الأول من نوعه، كان عنده ما يُطمئن لكان الرئيس الأسد ربما أثر رفع نسبة التشدد، لكنه قال لزواره «إن تصرفات إسرائيل لا تدعو إلى التفاؤل» بعدما قرأ في وجوه أعضاء الوفد الأوروبي حالة عجز لا يجوز الركون إليها لأنها لن تعرقل على الإطلاق الإجتياح الأميركي – الإسرائيلي – الفلسطيني – الأردني – المغربي – العُماني – القَطَري – التونسي، ناهيك بالإندفاع الأريتري، لقضية السلام في الشرق الأوسط، وكيف أن إستراتيجية هذا الإجتياح تقوم على القبول بما رسمه النظام العالمي الجديد الذي تختلف رؤية الرئيس الأسد له عن رؤى الآخرين، ذلك أن الرئيس السوري وفي إفطاره الرمضاني الذي أشرنا إليه قال لضيوفه العلماء وأرباب الشعائر الدينية «إن النظام العالمي الجديد الذي يتحدثون عنه لم يتبلور بعد ولم يصل إلى الصورة النهائية وهذا ما يدعو إلى أن نكون يقظين مثل شعوب كثيرة في العالم متيقظة ولا نشعر بطمأنينة كاملة لهذا الوضع...»، وقال أيضاً إن النظام العالمي الجديد «سيعيش إذا كان عادلاً تتعامل فيه الدول بِحُرية ومساواة وديمقراطية لأن فقدان المساواة والديمقراطية يخلق أجواء الحروب والتطاحن والكوارث...».

كذلك إن الرئيس الأسد لو وجد في حديثه مع وزير خارجية رومانيا الذي إستقبله يوم 13 فبراير ما من شأنه أن يُقوي العزيمة على أساس أن رومانيا – أيام حكم تشاوشيسكو كان لها دور فعَّال في صفقة كامب

ديفيد – وربما لها الآن بتكليف أو بمبادرة، دور ما قد تستطيع القيام به... إن الرئيس الأسد لو وجد في حديثه مع الضيف ما يقوي العزيمة لكان أيضاً ربما أبقى على التشدد، لكن الوزير الروماني تصرَّف بما يعكسه قول الشاعر العربي (لا خيل عندي أهديها ولا مال فليُحسن النطق إن لم تُحسن الحال) وأبلغ الرئيس الأسد وبكثير من الإعتزاز أن بلاده مستعدة للمشاركة في قوات حفْظ السلام التي ستفصل بين القوات السورية والإسرائيلية في حال التوصل إلى إتفاق سلام بين البلديْن.

وإلى ذلك فإن إقتراب موعد الإنتخابات النيابية في إسرائيل وإقتراب الإنتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة وإنهماك العقل السياسي الإسرائيلي في تبهيت الصراع والتنظير له على طريقة شيمون بيريز وقوله «إن الرئيس الأسد طلَّق الحرب لكنه لم يتزوج السلام».. إن هذه الأمور وغيرها فضلاً عن «الشوشرة» التي تمارسها إذاعة الجيش الإسرائيلي بأخبار تلفيقية في معظمها ووسائل الإعلام الأميركية والأوروبية التي لـ «اللوبيات»، اليهودية فيها التأثير المباشر وغير المباشر، جعلت الرئيس الأسد يقرر عدم الإنبهار بتسليط الأضواء الإعلامية عليه كما حدث مع الرئيس السادات الذي سقط منتشياً بهذه الأضواء قبْل أن يسقط العالم العربي صريع صفقة "كامب ديفيد"، ويقرر أيضاً مهادنة حالات الإنفراد العربية بالصلح مع إسرائيل بدل أن تستمر المواجهة الكلامية لها، وأن ينتظر من إدارة الرئيس كلينتون صيغة تتجاوز بكثير إقتراح رابين قبْل يومين من الجولة الجديدة وربما الأخيرة في المنطقة لوزير الخارجية الأميركي وارن كريستوفر والذي أبدى فيه إستعداداً لإنسحاب صغير من الجولان في فترة تُراوح بين سنتين وثلاث سنوات لإختبار رغبة سوريا في التوصل إلى تطبيع كامل للعلاقات، مشيراً إلى أن فترة الإختبار هذه تم تطبيعها عندما أعادت إسرائيل سيناء إلى مصر بموجب معاهدة "كامب ديفيد".

ولمادا يرتضي الرئيس الأسد مثْل هكذا إقتراحات ما دامت جبهته الداخلية قوية، وتسانده في معركة هدفها الحقوق السورية وليس حقوق الآخرين، وما دامت لعبة تغيير الموقف السوري من خلال تغيير النظام التي سادت في الخمسينات والستينات ليست سهلة على اللاعبين بالأمم، وما دام الرأي العام العالمي لم يعد ضد سوريا، لأنها إختارت السلام، وما دام الرأي العام العربي بأكثريته يؤيد ويُقدِّر الرئيس الأسد في موقفه الذي ما زالت فيه مسحة عنفوان عروبي، وما دامت الإدارة الديمقراطية في الولايات المتحدة والعهود والحكومات الأوروبية ليست مستقرة أكثر من حُكْمه، وما دامت روسيا يكفيها همها الشيشاني وهموم المافيات التى يتعاظم شأنها وتتزايد مخاطرها، وما دام لديه الجيش الذي يستطيع أن يرُد به الطيش الاسرائيلي إذا نجحت إسرائيل في إستدراجه إلى مواجهة مع أنه قرر في الإفطار الرمضاني الذي هو منطلَق هذا المقال أنه «لن يستطيع أحد في الدنيا جر سوريا إلى ما لا تريد...».

... وتلك هي معالم الصراط السوري المستقيم من خلال القراءة المتأنية لسطور الكلمة الرمضانية للرئيس الأسد، ولما بين السطور. ومن المؤكد أنه عندما ستتأكد للرئيس الأسد أن مصلحة سوريا من السلام مضمونة ولو في الحد الأدنى فإن السلام العربي – الإسرائيلي لن يعود منقوصاً بإنفتاح أبواب القلعة الأخيرة والأهم أمام هذا السلام.

وحتى الآن إن كل ما هو معروض على سوريا – إلاَّ إذا إجترح كريستوفر في النهاية حلا يشبه المعجزة – هو دون الحد الأدنى بينما إستعدادها للرفض هو في الحد الأقصى. وتلك معادلة يستطيع أن يواجهها، فقط، من ليس على عجلة من الأمر وعلى ثقة كبيرة بالنفس... مثل الرئيس حافظ الأسد.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 13 مارس (آذار) 1995

* * *

عندما يزور فرنسا رئيس دولة تحت الحصار الأميركي(موضوع في مقالتيْن)

□ المقالة الأولى: ميتران لم يخسر وكاسترو لم يربح

لمجرد أن قرأت أن الرئيس الكوبي فيديل كاسترو سيزور فرنسا بعد مشاركته في أعمال قمة الأمم المتحدة للتنمية الإجتماعية التي جرى عقْدها في كوبنهاجن وجدتُ نفسي أغادر لندن إلى باريس بالقطار الأوروبي الذي أنهى عزلة بريطانيا عن قارتها، لأتابع ميدانياً هذه الزيارة وما سيرافقها من إهتمام وكتابات وتعليقات، ليس لأن كاسترو زعيم

تاريخي له دوره الفاعل في الحياة السياسية الدولية، وإنما لأنه رئيس محاصر ومن المهم أن نعرف ككُتاب وصحافيين كيف يتم التعامل معه من جانب دولة لها حضورها الدولي الكثير الفعالية كونها من الدول الدائمة العضوية التي تملك سلاح "الفيتو" والذي هو أهم الأسلحة في الحرب الباردة وفي المرحلة الجديدة التي يعيشها العالم وهي مرحلة النظام العالمي الجديد.

ثم نعرف ونقرأ ونشاهد أن طبخة سياسية على الطريقة الفرنسية تم إعدادها وإنتهت إلى أن الرئيس الكوبي وصل إلى باريس. وقد ساهمت السيدة دانييل زوجة الرئيس ميتران في هذه الطبخة من خلال زيارات سابقة قامت بها إلى هافانا، وشارك المدير العام لمنظمة اليونيسكو فيديريكو مايور الذي تسمح له صلاحيته كمدير للمنظمة التي تتخذ من باريس مقراً لها في هذه الطبخة بأن وجَّه الدعوة إلى الزعيم الكوبي وهي دعوة لا يجب، من منظوره، أن تستفز أحداً، ذلك أن الضيف لم يأت من هافانا إلى باريس وإنما كان في كوبنهاجن وأنه جاء إلى العاصمة الفرنسية من العاصمة الدنماركية، أي بمعنى آخر إن التأشيرة الممنوحة له لدخول أوروبا كرئيس دولة بدأت على الباب الدنماركي. أما دور الرئيس ميتران في الطبخة فتمثَّل في فتْح أبواب قصر "الإليزيه" لكي تطأ أقدام الرئيس المحاصَر الآتي من الجزيرة الحمراء أرض المقر الرسمي لرئيس فرنسا.

تخريجة في منتهى الشطارة ما كانت لتحدُث لولا الثلاثي الذي طبخ بحيث تمت الزيارة ضمن الأصول فلا لوم ولا عتب ولا هجوم، بإستثناء أفراد قلائل غاضبين من الكوبين الذين يعيشون في فرنسا والذين لجأوا إليها بعدما ضاقت بهم سُبل العيش في بلادهم، أو أن قبضات أياديهم لم تعد تتحمل مناجل قطْع عيدان القصب أو أن البضاعة الرائجة وهي السيجار الكوبي لم تعد رائجة، وبالتالي فلا مكان سوى للكبار في السن ممن لديهم الخبرة العريقة في لف السيجار وفْق أفضل المواصفات التي تُرضي الذواقة الأجانب.. وأكثرهم في العالم العربي ودول العالم الثالث. وإلى هؤلاء الأفراد القلائل الذين أطلقوا صيحات إحتجاج على الزيارة فيما كان الرئيس الكوبي الذي فَرِشَ له موظفون في القصر السجادة الحمراء عملاً بقواعد البروتوكول، كانت هناك صيحة إحتجاج من أهل البيت الكاستروي نفسه وتمثلت بمقابلة أجرتها القناة الثانية في التلفزيون الفرنسي مع إيلينا فرناندير ريفويلتا إبنة كاسترو التي تقترب من عقدها الرابع والتي تعيش منذ العام 1993 في "وطنها" الثاني الولايات المتحدة الأميركية كلاجئة سياسية مشبعة بالكراهية لوالدها الذي حرمها عطف الأب وحنانه منصرفاً إلى الثورة والرفاق والتطبيق الحرْفي للماركسية. ومن أجْل ذلك وجدت فيها المخابرات المركزية الأميركية تربة خصبة زرعت فيها المفاهيم التي تعني الكثير بالنسبة إلى العالم الثالث الشغوف بالثورة والثورية والإشتراكية وهي عقوق الولد، إبنة أو إبناً، لأن الوالد لم يكن صالحاً وليس فيه الحد الأدنى من مواصفات الأبوة ولذا فإن إيلينا قالت وستستمر تقول لوالدها الزعيم الثوري أُفّاً مرة ومرتيْن وألوف المرات ولن تطلب له من الله الرحمة لأنه لم يربّها صغيرة ولن تُخفض له جناح الذل..

وفي المقابلة التلفزيونية التي تابعها الفرنسيون من باب الفضول وليس الإهتمام قالت الإبنة الغاضبة عن الوالد الذي دخل قصر الاليزيه يوم الإثنين 13 مارس/ آذار 1995 على سجادة حمراء "أنه أكثر من ديكتاتور وتستطيع دانييل ميتران التي قالت عنه أنه ليس ديكتاتوراً أن تستخدم مؤسسة فرانس – ليبرتيه الإنسانية في أمور أفضل في كوبا حيث السجناء السياسيون بالمئات...".

واللافت للنظر أن إهتمام الفرنسيين بالزيارة باهت مع أن كوبا كبلد وقضية وكثورة مزروعة في أذهان الفرنسيين وبالذات أولئك الذين قرأوا وتأثروا بما كتبه الفيلسوف جان بول سارتر"كونوا كوبيين" بما معناه أنه يعتبر ثوريي كاسترو قدوة تُحتذى. وعدم الإهتمام هذا سببه الضائقة المالية والإقتصادية التي تعيشها فرنسا وأكثرية الفرنسيين وبسببها إنحسرت إلى حد كبير النظافة وظاهرة البهجة ومظاهر البحبوحة وحب العيش والسهر وسببه أيضاً أن الإنتخابات الرئاسية تعيش ليلاً ونهاراً مع الفرنسي وتأكل من صحنه وتشاركه فنجان قهوته في مقاهي فرنسا التي تفقد شيئاً فشيئاً حيويتها وزبائنها من باب التقشف وليس حباً بالتغيير. ولو أن وجود الرئيس الكوبي كان من المجدي توظيفه في المعركة الإنتخابية الحامية الوطيس لما كان فرسان سباق الرئاسة من جاك شيراك إلى أدوار بالادور (الفارسان اليمينيان) إلى لونيل جوسبان (الفارس الإشتراكي) ترددوا في الإحتفاء بالزعيم الكوبي وأقاموا المآدب له وإلتقطوا الصور معه، أي بمعنى آخر إن الزيارة لو كانت تمت في

الستينات بينما وَهج الثورة الكوبية يشبه وهج باريس كعاصمة مضيئة ثقافياً وكهربائياً، لكانت الحال مختلفة ولكانت زيارة من هذا النوع لزعيم من هذا الطراز باتت جزءاً من حملة إنتخابية لهذا المرشح أو ذاك.

ولكن الزيارة تتم في زمن مختلف ومن أجْل ذلك إقتصر الإهتمام بالزعيم الكوبي على حفاوة عابرة وخجولة من الرئيس ميتران الذي إرتضى في الأصل أن تتم الزيارة لأن الرجل (أي ميتران) يعيش أواخر أيامه الرئاسية وهو لو كان (عمراً وإمكانات وقدرة) سيجدد الرئاسة لما إرتضى أن تتم زيارة الرئيس كاسترو. فضلاً عن أنه لو كان بالفعل يريد للحصار أن يتم رفْعه عن كوبا لكان عمل من أجْل ذلك يوم كان في عز الزعامة الدولية ولكان أيضاً وجَّه الدعوة إلى كاسترو لكي يزور فرنسا رسمياً ويأتي إليها من هافانا وليس من كوبنهاجن وفي إطار التخريجة التي إتسمت بالحذاقة. أما لماذا كان لا يرتضي أن تتم الزيارة فلأنه يعرف أن مردودها ليس وفيراً وليس مكسباً وأن الجني الكوبي من سكَّر وسيجار لا يعود بالخير المرجو، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الرئيس ميتران زعيم إشتراكي وأنه بهذه الصفة مطالَب بمساندة مَن هو إشتراكي وإلاَّ فما هي هذه الإشتراكية التي لا يتكاتف فيها الرفاق ويؤازر قويّهم ضعيفهم وبالذات في ساعات الشدة، أو بالنسبة إلى فيديل كاسترو في سنوات الشدة. أما اليسار الفرنسي فإن إهتمامه بزيارة فيديل كاسترو ليست أفضل بكثير. وبإستثناء حفاوة الزعيم الشيوعي المتقاعد جورج مارشيه ومأدبته التي أقامها تكريماً للرفيق الكوبي الذي ما زال متمسكاً بالعقيدة الماركسية التي تخلى عنها الآخرون، فإن الإهتمام كان باهتاً. ولا بد أن كاسترو إفترض بما يعرفه عن أهمية اليسار في ايطاليا، أنه سيعود من فرنسا بوقفة تساعد في إنهاء الحصار المفروض عليه. لكن الزيارة التي مدَّدها كاسترو يوماً إضافياً بناء لنصيحة رفيقه جورج مارشيه إنتهت وقد تحققت منها مسائل ليست جوهرية من بينها أن دخول "الإليزيه" وفرْش سجادة حمراء وتحية رسمية من الحرس أمر ممكن وأنه رسالة معنونة بعناية من الإدارة الأميركية لعلها تخفف الوطأة المفروضة على كوبا.

وإذا كان الفرنسيون لم يُظهروا الترحيب الكافي بفيديل كاسترو فإنهم ضمناً مبتهجون بقدومه وبالذات أولئك الذين ضاقوا ذرعاً بالإجتياح الأميركي لفرنسا بدءاً بتزايُد رقعة وجود الهمبرجر وتزايُد إقبال الجيل الجديد على هذه الأكلة الأميركية على حساب الكرواسان والرغيف الفرنسي الذائع الشهرة، مروراً بإنحسار رقعة الفيلم الفرنسي والأغنية الفرنسية على حساب التراث الفني الفرنسي ، وإنتهت بـ "مدينة ديزني" التي أقيمت على بوابة ليست بعيدة عن العاصمة الفرنسية وتغسل يومياً بما تحويه من مفاهيم وألعاب التقاليد الفرنسية العريقة والثقافة الفرنسية الأكثر عراقة.

أما الرئيس كاسترو الذي أطل على الفرنسيون بصيغتيْن الجامع المشترَك فيهما هو اللحية الكثة وكذلك البدلة الثورية عند الوصول والبدلة العادية للمرة الأُولى عند دخول "الإليزيه"، فإنه سيوظف هذه الزيارة داخلياً بحيث سيصور إعلامه الموجَّه الأمر وكأنما نجح الرئيس في كسْب فرنسا إحدى الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن إلى جانبه من دون توضيح الحقيقة وهي أن الزيارة تمت في إطار تخريجة وطبخة سياسية مدروسة، ولن يستفيد منها سوى بعض رجال الأعمال الفرنسيين.

والأهم من هذا كله هو أن رئيساً تحت الحصار الأميركي زار دولة أوروبية كبرى... ومع ذلك لن يتم رفْع الحصار، ربما لأن الزيارة جاءت بالشكل الذي جاءت فيه أي أنها زيارة إلى الرئيس ميتران في منزله الذي هو قصر الرئاسة وليس إلى فرنسا الدولة التي يمكنها التأثير ولو في الحد الأدنى على حليفتها الكبرى... أميركا.

أما كيف كان للزيارة أن تنجح؟ فللحديث بقية.

* * *

□ المقالة الثانية: التغيير المطلوب والدروس المستفادة

كان فيديل كاسترو يردد أمام بعض الفرنسيين المبهورين بتجربة الثورية الماركسية عندما يقابلونه في هافانا أنه يتمنى أن يزور في حياته باريس. ومرت ثلاثون سنة على تمنياته هذه قبْل أن تتم التخريجة المثلثة التي حققت له الزيارة. وبفضل هذه التخريجة التي ساهمت فيها السيدة دانييل زوجة الرئيس ميتران، والرئيس نفسه، ومدير اليونيسكو، تكون قد تحققت للزعيم الكوبي أمنية عزيزة ويكون قد زار باريس متأخراً ثلاثين سنة عن زيارتها ورؤيتها.

لكن كاسترو جاء إلى باريس، إحدى قلاع القرار الدولي في مجلس الأمن، وكأنما لم يتبدل شيء في العالم. وهو لو أتى وقد أحدث بعض التغييرات الطفيفة

على حُكْمه لكان ربما إستفاد من هذه الزيارة في إتجاه رفع الحصـــار الأميركي عنه أو على الأقل وضـــعَ مســـألة التخفيف، تمهيداً للإلغاء، في جدول أعمال سُلطة القرار في الولايات المتحدة.

وقبْل سـقوط الإتحاد السـوفياتي كان من الطبيعي ألاَّ يتجه كاســـترو نحو التغيير في النظام بصـــرف النظر عما إذا كان غير مقتنع بالتغيير أو أنه مستفيد من عدم التغيير أو أنه يخشـــى في حال التغيير أن ينهيه الإتحاد الســـوفياتي ويُحل محله أحد الرفاق وهم كثيرون، ومن الطبيعي أن الإتحاد الســـوفياتي جهزهم كبدائل لمواجهة مفاجآت قد تحدُث من وفاة كاسترو أو تَمرد كاسترو على العقيدة الشيوعية أو سقوط كاسترو في خضم صراع لمراكز القوى داخل حُكْمه.

لكن التوجـه نحو التغيير بعـدمـا ســـقط الإتحـاد السـوفياتي وتهاوت الماركسـية كنظام بات مقبولاً وكان يمكن الإســـتفادة منه لو أن قرار التغيير، بإعادة نظر طفيفة، جرى إتخاذه على الفور. وكان لافتاً للنظر أن الذي حدث هو أن كاسترو أسقط نهائياً هذا الإحتمال بإعلانه التمســك بالماركســية كعقيدة وكنهج لنظامه. وليس واضـحاً ما الذي جعله لا يجنح نحو التغيير مع أن ذلك يشـكِّل ما يشـبه خشـبة الخلاص لنظام يعاني منذ ثلاثين ســنة من متاعب الحصـــار الإقتصـــادي والسياسي.

ومن الجائز الإفتراض أنـه لا يريـد التغيير لإدراك منه بأن التغيير معناه أن توجهاته طوال ثلاثين ســـنة كانت خطأ وأن الولايات المتحدة لن تكتفي بالحلقة الأُولى من التغيير ولن تشـجعه بالتالي على مواصـلة بقية الحلقات. وإزاء هذا الإعتقاد فما هي فائدة التغيير.

وهذا إحتمال. لكن ثمة إحتمالات أُخرى لعدم جنوح كاسترو نحو التغيير، ومنها أنه ربما كان ضمناً معتزاً بأنه يتحدى أكبر دولة في العالم وأن مثْل هذا الأمر هو إنجاز بصـــرف النظر عما تعانيه أكثرية الشـــعب الكوبي من هذا التحدي. ومن الإحتمالات أيضـــاً أن الزعيم الكوبي يراهن على عـامـل الزمن، بمعنى أن الصـــيغة التي إنتهى إليها العالم وإســتئثار دولة واحدة في تقرير مصير الآخرين لن تستمر وأنه لمجرد إنهيار هذه الصـيغة سيكون هو من كبار المستفيدين لأنه لم يهادن ولم يتراجع أمام ما تريده الولايات المتحدة. ومثل هذا الأمر ســيكون له عمقه الشـــعبي في قارة أميركا اللاتينية بشـكل خاص وفي دول العالم الثالث بشـكل عام. ومن الإحتمالات أيضـاً وأيضـاً أن كاسترو حاكِم والحاكِم يهمه الإســـتمرار في الحُكْم بل إنه من نوعية الحكام الذين يعتبرون أنفسـهم أصـحاب رسـالة، وهؤلاء لا يعود لديهم الإسـتعداد لسـماع النصـيحة أو الرأي. وعندما يكون الحاكم من هذه النوعية فإن نسبة إقتناعه بـالتغيير تكون محـدودة وإلى درجـة يُنظر فيهـا إلى التغيير بأنه عملية إلغاء بالتدرج له ولتاريخه ورصـيده، وبالتالي لا يقْدِم عليه.

وإلى ذلك فإن كوبا محكومة من حزب ولا بد أن كثيرين داخل الحزب يطمحون إلى خلافة كاسترو ذات يوم. وهم من أجْل ذلك يفضـــلون أن يتم التغيير على أيـامهم وليس على أيـام زعيمهم التـاريخي. ومن أجْـل ذلـك يجوز الإفتراض بـأن هؤلاء يعيقون أي توجـه للتغيير يلمســونه لدى كاســترو. وليس مســتبعَداً أن حلقات كثيرة داخل الحزب تنشـط في الإتجاه المضـاد وتقفل النوافذ بإحكام لمجرد أن تشعر بأن رياح التغيير يمكن أن تهُب. ورموز هذه الحلقات ليســـوا من الذين يطمحون في خلافـة زعيمهم وإنمـا هم في الصـــف الثالث وما يليه. وهؤلاء عادة تكون أمورهم إســـتقرت وإسـتقرت بالتالي مصـلحتهم من النظام ويخشـون من أن يصـيبهم أي تغيير بمكروه أو بزعزعة مصـــالحهم التي تُحققها لهم إسـتمرارية زعامة كاسـترو بإيجابياتها وسلبياتها.

ونلاحظ هنا أن التغيير الذي إسـتُحدث كان طفيفاً وجاء من النوع الذي يعزز أوضـاع طبقة جديدة داخل الحُكْم الثوري في كوبا وتعمل أكثرية مراكز القوى فيها في التجارة والســـوق الســـوداء. ومن قبْل ذلك هنالك عيون مغمضـــة في إســـتمرار عن نشـــاط رموز هذه الطبقة الذين باتوا عملياً شـــبه مافيا مســـتترة، ومن الجـائز الإفتراض أن المُنَظِّرين في هذه الطبقـة أقنعوا الزعيم كاسـترو بأن التغاضـــي عن السـوق السـوداء وتَرْك الناس يتعاملون بالدولار بدل مطاردتهم من شأنه أن يحقق إنفراجات، ثم نرى هؤلاء ينشـطون في الوقت نفســـه في المجالات التي إســـتحدثتْها الدولة ومنها السـماح بإنشـاء شـركات لا تديرها الدولة، والإسـتيراد والتصـدير دون إذْن مسـبق، والتسـاهل في نقْل مُلكية بعض شـــركات القطاع العام وبيْعها من أشـــخاص وتعديل النظام الضرائبي.

ويشـعر الزعيم كاسـترو بالأسـف وهو يرى كثيرين من قِبَل مراكز قوى علنية أو مســـتترة داخل النظام شـرهين للممتلكات والشـركات ويرى أن عليه أن يكبح جماح هذه الشـــهية المفتوحة بلا حدود، وبالذات من

الأشخاص الذين يمارسون أدواراً توحي بأنهم السياج الواقي للنظام ورئيسه وبالتالي من حقهم الإستئثار بكل شيء والحصول على ما تطلبه نفوسهم وتشتهيه. ولعله من أجْل ذلك ينبه بين الحين والآخر من نوع قوله قبل حوالي شهريْن" ان الشعب الكوبي لا يريد العودة إلى الرأسمالية وإننا لا نريد العودة إلى الوراء ونقوم بإصلاحات إقتصادية لا ترتكز على فكرة الإبتعاد عن الإشتراكية بل على فكرة إنقاذ الإشتراكية...". لكن الذي يحدُث هو أن شهية مراكز القوى تبقى مفتوحة أكثر وأكثر. وعندما يحاول مخلصون القول له إن تدهوراً مريعاً في مستوى المعيشة يحدُث وأن الإرتفاع الجنوني في الأسعار ينعكس على طباع الناس وعلى أخلاقياتهم، ينبري المستفيدون من مراكز القوى للرد في لحظات حذرة يعيشها كاسترو قائلين ما معناه: هذا كلام من أشخاص يكرهون الثورة ومشكوك في ولائهم لقيادتها التاريخية ويخدمون بكلامهم هذا السياسة الأميركية التي يُقلقها ويزعجها إستمرار القيادة التاريخية، لأن صمود هذه القيادة يُحرج الجالسين في البيت الأبيض. ثم أي تدهور معيشي ونفسي يعاني منه المواطنون. ألا يرى هؤلاء أن المواطنين ما زالوا يرقصون ويغنون؟

وفي ضوء ذلك نجد أن كاسترو يقتنع وينتشي ويقف خطيباً ويقول: "إنهم لا يريدون أن يتغاضوا عن خمسة وثلاثين عاماً من المقاومة، إنهم لا يريدون حتى إسقاط ذلك من ذاكرتهم. إنهم يريدون أن يمحوا صورة كوبا من أمام أعين شعوب أميركا اللاتينية...".

كذلك إنه حتى عندما يحاول مخلصون له تنبيهه إلى خطورة هذا التفسخ الأخلاقي داخل العائلات وإلى الأثر البالغ السوء للمواطنين الهائمين على وجوههم والذين لا يمر يوم إلاَّ وتكون هناك أعداد منهم فوق قوارب خشبية في عرض البحر هاربين إلى الشاطىء الأميركي، فإنه كان يتصرف بما يوحي بأنه سيجد حلولاً لكنه لا يفعل شيئاً. كما أنه عندما يحاول مخلصون إبداء الرأي الذي يدعو إلى ضرورة التغيير الجذري يردد القول، إنه "بإسم الشعب أتى وبإسمه يذهب وأن الذين قاموا بالثورة هم الذين يحق لهم القيام بالتغيير ...". كلام يصعب الأخذ والرد فيه. ومفاهيم صالحة لمرحلة الخمسينات والستينات. أما أن تقال في التسعينات فهذا معناه أن التطور في التفكير توقَّف عند إنتقال الرجل من ساحات النضال إلى ديوان الحُكْم.

وفي السنوات الثلاث الماضية لاحظ كثيرون أن إلينا فرناندیز ریغویلتا إبنة كاسترو من علاقة قبْل الثورة في منتصف الخمسينات بممثلة إسمها ناني ریغویلتا (تحمل الإبنة إسم عائلة أمها) تتحدث في المناسبات الإجتماعية والتي يحضرها السفراء وشخصيات أجنبية زائرة بطريقة توحي بأن والدها في صدد الإنتقال بالبلد إلى مرحلة جديدة. وإستنتج كثيرون أنه ما دام في إستطاعة الإبنة أن تنتقد دون غيرها هذا المسؤول أو ذاك وهذا الوزير أو ذاك، وتطرح أفكاراً ذات نكهة ليبرالية، فهذا معناه أن رقعة حرية التعبير ربما ستتسع. وقد تكون قناعات كاسترو نفسه أو خشية المتزمتين داخل النظام أو لوبي الصف الثالث المستفيد من النظام كما هو من دون أي تعديل أو تغيير أو تطوير.. قد يكون أحد هذه الأمور أو كلها مجتمعة دفعت كاسترو للقول في مناسبة خطابية "إن شعب كوبا يرفض الليبرالية الجديدة التي تقضي على إستقلال الشعوب وتقود العالم أجمع إلى المجازر...". وهو عندما يقول "شعب كوبا" فإنه يعني نفسه لأن كاسترو مثل حكام كثيرين يصلون إلى مرحلة عند تحديد مواقف يعتبرون فيها أنهم الشعب أو أن الشعب معناه هم. وبعد هذا التوضيح من جانب كاسترو بدأت الإبنة تخطط للرحيل من كوبا وربما بتسهيل مستتر من مراكز القوى ومن الوالد نفسه، ثم نسمع أنها تنكرت مستفيدة من كونها أبنة ممثلة وتصرفت كما لو أنها سائحة إسبانية وإستحصلت على جواز سفر وتوجهت إلى مدريد وطلبت من السفارة الأميركية هناك تأمين حق اللجوء على طريقة إبنة ستالين من قبْل التي لجأت إلى أميركا عبْر السفارة الأميركية في نيودلهي.

ومن الواضح أن كاسترو لو كان راغباً في التغيير الذي سيفيده ويظهره في العالم بوجه مقبول لكان أقدم على إجراءات من المؤكد أنها ستغني الكثير بالنسبة إلى مَن يريد مساعدتهم في فك الحصار مثل الرئيس فرنسوا ميتران. ويمكن تلخيص هذه الإجراءات على النحو الآتي: حكومة مخلصة من الأكفاء أهل الخبرة. قضاء مُنَزَّه ومحترَم ولا قيود عليه. إتاحة المجال أمام حرية بضوابط للديمقراطية والتعبير. دعوة المواطنين الذين في الخارج للعودة بصرف النظر عن إنتماءات هؤلاء ونشاطاتهم السياسية. ترْك الناس يعملون بحماية الحكومة المخلصة والقضاء المنزَّه.. ثم جمعية تأسيسية تضع دستوراً للبلاد. ولو أن ذلك حدث فإن

المحاصَر سيصبح محاصِراً.

والمهم أن يكون كاسترو إستفاد من لقائه بالرئيس ميتران، ذلك الإشتراكي العاقل الذي يعيش أيامه الأخيرة كرئيس لأن ولايته إنتهت، وكإنسان لأن وطأة المرض إشتدت عليه. والإستفادة هنا بمعنى أن أي حاكم مهما بلغ شأنه سيلقى وجه ربه، ومن الأفضل أن يغادر الدنيا، وقد خفف المعاناة عن شعبه، وفي هذا مرضاة ربه. وليس هناك أكثر قساوة من حالة شعب يعيش تحت الحصار منذ ثلاثين سنة، ومع ذلك فإن حاكمه يتباهى بأنه صامد في وجه أكبر دولة في العالم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 27 مارس (آذار) 1995

* * *

مساعدات لوجه الله... والصمود ومساعدات مغلَّفة بالشروط

قبْل القمة العربية في الخرطوم (من 29 أغسطس/ آب إلى أول سبتمبر/ أيلول 1967) لم يكن هنالك برمجة فى شأن مساعدة الدول العربية المقتدرة للدول العربية المحتاجة. وكثيراً ما كانت المساعدات بشكل نجدة من طرف أنعم الله عليه بالثروة لطرف نضبت خزانات محطات البنزين في بلده أو وصل مخزون الحبوب إلى ما قبْل النهاية وما عاد في الإمكان تأمين الخبز للملايين التي يمكنها أن تستغني عن أي كماليات، أما الخبز فإنه أول الضروريات التي يعني عدم توافرها بداية المجاعة.

وقبْل تلك القمة أيضاً كانت المساعدات أحياناً عبارة عن تغطية لإعتماد من جانب طرف عربي مقتدِر لإستيراد بضعة أطنان من الزيت أو السمن أو الحليب الناشف أو السكر ولم يتمكن الطرف العربي غير المقتدِر من تغطية هذا الإعتماد.

وقبْل تلك القمة أيضاً كانت الأطراف العربية المقتدِرة تساعد في شق طرقات أو في بناء مدارس ومستوصفات ومستشفيات في دول لا قدرة لها إنجاز مثل هذه المشاريع.

وقبْل تلك القمة بسنوات كانت المساعدة تتم بأكثر من وسيلة. ولا يزال في أذهان كثيرين كيف أن الآليات التي إستخدمتْها حكومة الملك عبد العزيز في إنشاء ميناء جدة هي نفسها التي تم إرسالها إلى سوريا لكي تنشئ حكومتها مرفأ اللاذقية.

ولم نسمع أو نقرأ أن الطرَف الذي ساعد إشترط على الطرَف الذي حصل على المساعدة أن يتخذ موقفاً معيَّناً. كذلك لم يحدُث أن الطرَف المحتاج مهَّد المساعدة بإتخاذ مواقف من النوع الذي نشهده في هذه الأيام. وكثيراً ما حصل بعض الحكام العرب على مساعدات يحتاجون إليها خلال زيارات سريعة قاموا بها أو أنهم أوفدوا مَن ينوبون عنهم، وفي معظم الزيارات لا يعود المبعوثون إلاَّ وقد حصلوا على ما يحتاجه المحتاجون.

بعد تلك القمة التي جاء عقْدها بعد هزيمة 1967 على الجبهات المصرية والسورية والأردنية، بدأت المساعدات العربية تتم ضمْن برمجة، وتم أيضاً تحديد أرقام وإتخاذ قرارات على مستوى القمة في شأنها. وفي ذاكرة كثيرين ما حدثَ في تلك القمة وكيف أن وقفة من الملك فيصل بن عبد العزيز جعلت المساعدات تتحول من فكرة وتمنيات إلى أوراق مهمة في الملفات، وإلى أرقام على هذه الأوراق. وللتذكير فإن ثلاث دول إلتزمت أن تدفع سنوياً وإلى حين إزالة آثار العدوان الإسرائيلي ومقدَّماً عن كل ثلاثة أشهر 135 مليون جنيه إسترليني (حتى الآن ما زال غير واضح ما الذي جعل الدول الثلاث تعتمد الجنيه الإسترليني وليس الدولار). وتم توزيع المبلغ على النحو الآتي: المملكة العربية السعودية 50 مليوناً والكويت 55 مليوناً والمملكة الليبية 30 مليوناً. وللتذكير أيضاً فإن سوريا التي قاطعت تلك القمة أصابها فِعْل الندم بسبب هذا القرار التي إتخذتْه وكان في نيتها عامذاك أن تتراجع لولا أن وزير الخارجية الدكتور ابراهيم ماخوس إتخذ، وعلى رغم نصائح وزير خارجية السودان محمد أحمد محجوب، من المواقف أشدها تصلباً ومن الكلام أشده إساءة للآخرين، ولكن الأمر السوري إصطلح بعد ذلك وحصلت سوريا من مساعدات الدعم العربي لتحقيق الصمود على حصتها وأكثر.

ولم يحدُث بعد تلك القمة أن تباطأ طرف أو تلكأ في تقديم ما إلتزم به. وكانت المبالغ تصل في وقتها. بل إن هنالك مبالغ إستثنائية كان يتم دفْعها أيضاً ومن دون الإعلان عنها، وإلاَّ فكيف كانت مصر ستعيد بناء قوتها العسكرية في غضون أربع سنوات ثم تنجح في العبور في أكتوبر 1973، وكيف كانت سوريا ستنجح هي الأُخرى في إعادة البناء العسكري وفي

خوض معارك أعادت بعض الإعتبار المفقود عام 1967 إلى الجيش السوري وإلى درجة أن الرئيس حافظ الأسد بدأ يتحدث عن التوازن الإستراتيجي بلهجة المطْمئن إلى أن التوازن هذا ليس تماماً لمصلحة إسرائيل أو أنه يجب أن يكون كذلك.

ونلاحظ أنه بفضل هذه المساعدات وإنتظامها فضلاً عن توقُّف الإنفاق بزخم الماضي على الجيوش وإحتياجاتها بدأت تشهد دول المواجهة، مصر وسوريا والأردن وكذلك منظمة التحرير الفلسطينية، إزدهاراً وعمراناً وتنمية ملحوظة في مجالات عدة. ففي كل المدن الكبرى تقوم أحياء جديدة وعمارات وأسواق. وساعد على ذلك أن الطفرة النفطية تزامنت مع هذه المرحلة وهذا جعل عشرات الألوف من المصريين والسوريين والأردنيين والفلسطينيين العاملين فى السعودية ودول الخليج يقومون بتحويل بضعة ملايين من العملة الصعبة إلى دولهم. وهذه التحويلات إضافة إلى مساعدات الدعم التي إستمرت او أخذت أشكالاً جديدة حققت ما يجوز إعتباره العصر الذهبي العربي. وفي ظلال هذا العصر بدأْنا نسمع عن إستثمارات لمنظمة التحرير في دول عربية وأفريقية. وبدأْنا نسمع عن إزدهار لا مثيل له تشهده مصر والأردن وسوريا. وعندما صدرت بعض الإيماءات من جانب بعض الأطراف التي تساعد وتشير إلى أن هذه الأطراف ترى أن تكون هنالك رقابة على سُبل إنفاق المساعدات وهل أنها لتحقيق الصمود على الجبهات أو لأغراض أُخرى، بدأت بعض وسائل الإعلام لدى الأطراف التي تحظى بالمساعدات تنشر كلاماً من النوع غير المألوف، كما أن مسؤولين لدى بعض دول المواجهة بدأوا يثيرون في مجالسهم كلاماً يستهدف قائلوه وقْف الإيماءات عند حدها. وإلى ذلك تَجدد الحديث من طرف خفي عن الثروة النفطية وعن الذين يساعدون بأقل مما يُفترض فيهم أن يساعدوا. وتَجدد الحديث أيضاً عن الفرْق بين مَن يشارك بالمال وبين مَن يشارك بالنفس. وكلها أحاديث موسمية ذات أهداف مالية وتعكس حجم الضيق من الإيماءات التي أشرنا إليها وتتعلق بضرورة أن تعرف الأطراف التي تساعد أين يتم إنفاق هذه المساعدات وهذا لا يكون إلاَّ بإشراف على الإنفاق.

وعلى رغم أن القِسْم الأكبر من المساعدات التي جرى في قمة الخرطوم عام 1967 وضع حجر الأساس لها كان لا يتم إنفاقه بالكامل على صمود الجبهات، فإن المساعدات إستمرت دائماً من دون ضغوط الإلتزام الذي تفرضه الضرورات لو كانت هذه المساعدات تتم لتدعيم الصمود، أي بمعنى آخر لم تعد هنالك ضرورة للتسديد بالحرص السابق، ثم جاءت الحرب العراقية – الإيرانية فبدأت هذه عملية إلتهام الأخضر واليابس بالمساعدات التي تم الإلتزام بها في قمة الخرطوم عام 1967.

وجاء الإجتياح العراقي للكويت في أغسطس 1990 ليتسبب في وضْع نهاية للحقبة المزدهرة في تاريخ مساعدات العرب المقتدرين للعرب المحتاجين ولتحل محلها مرحلة جديدة أمْلتها الضرورات وإعادة النظر في مفاهيم وفي مشاعر.

ويبقى أن مناسبة هذا الكلام ثلاثة أحداث نعيش فصلها الأول منذ بضعة أيام وستشهد فصولاً أُخرى كثيرة بعد الآن.

ويتمثل الحدث الأول بالقمة العربية – الإسرائيلية التي جمعت الرئيس حسني مبارك والملك حسين والرئيس ياسر عرفات مع رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين في القاهرة يوم الثاني من شهر رمضان الماضي والتي ربما ما كان للرئيس مبارك أن يوافق على عقْدها لولا أنه واقع تحت ضغوط هائلة من الإدارة الأميركية وصلت الى حد نشْر كتابات في الصحافة الأميركية تحرض هذه الإدارة على وقْف المساعدات إلى مصر. ولكن الرئيس مبارك وفي الوقت الذي كان يفكر في ما يمكن أن يضع حداً لهذه الضغوط وبحيث تنجو المساعدات من الإيقاف، طلعت إسرائيل – وضِمن سيناريو مرسوم سلفاً – بإقتراح القمة الرباعية، وهو الإقتراح الذي حظي بتزكية بعض المحيطين بالرئيس المصري الذين أفتوا بأن لا شيء سيرضي الإدارة الأميركية وإلى درجة الإنبهار أكثر من هذه القمة. وكانت الموافقة وتم إنعقاد القمة وحدث الإنبهار في نفس الرئيس كلينتون، خصوصاً بعدما لاحظ حجم إرتياح الحُكْم الإسرائيلي لهذا العمل. وتبعاً لذلك باتت المخاطر على المساعدات الأميركية إلى مصر أقل وهو ما لن نعرفه بشكل نهائي قبْل زيارة الرئيس مبارك وبعد إنتهاء الأيام إلى الولايات المتحدة.

ويتمثل الحدث الثاني بخطوة أقدم عليها الملك حسين الذي يقوم منذ عشرة أيام بزيارة خاصة للعلاج إلى الولايات المتحدة تحولت إلى زيارة عمل مثيرة. ويوم السبت 25 مارس الماضي نقلت وكالات الأنباء من لوس أنجلوس أن الملك وبصحبته زوجته الملكة

نور زارا مع أبنائهما الثلاثة مركز «سيمون فيسنتال» في المدينة وشملت الزيارة متحف المحرقة النازية في المركز وحصل الملك على جائزة السلام من المركز وهي عبارة عن قرن كبش فضي «تقديراً للموقف التاريخي والبطولي الذي يتخذه جلالة الملك حسين». ومن المؤكد أن الملك حسين الذي يتطلع إلى أن تلغي الإدارة الأميركية كل الديون المستحقة على الأردن والبالغة 275 مليون دولار، كان يفكر بما من شأنه أن يجعل اللوبي اليهودي في الكونغرس يؤيد الأردن في مسالة الديون فكان الإقتراح المثير الذي يقضي بزيارة متحف المحرقة النازية بصرف النظر عما إذا كان العاهل الأردني هو صاحب الإقتراح أو أن هنالك مَن رماه في مجلس من مجالس الملك. وليس هنالك ما يحرك مشاعر اليهود أكثر من موضوع المحرقة النازية الذي بنوا دولتهم أصلاً عليه وعلى أشلاء الفلسطينيين وأرضهم. وفي اليوم التالي إجتمع الملك حسين بالرئيس كلينتون ووجده مبهوراً بما فعله – أي الملك – شاكراً له هذه الخطوة التي يستطيع أن يتباهى – أي الرئيس كلينتون – بها في معركته الإنتخابية أمام الإجتياح الجمهوري المرتقب. وتبعاً لذلك فإن إحتمال حل موضوع الديون بات وارداً وإن كان من الصعب الجزم بذلك.

ويتمثل الحدث الثالث بكلام يطيب للمسؤولين الأميركان سماعه من القيادة الفلسطينية لأنه يرضي الإسرائيليين. ومن الجائز الإفتراض أنه في الوقت الذي كان الرئيس عرفات يفكر في ما يمكن أن يجعل زيارة آل غور نائب الرئيس الأميركي إلى أريحا مركز السُلطة الوطنية الفلسطينية من نوع الزيارات التاريخية، إلتقى المحيطون بالرئيس الفلسطيني على إقتراح واحد عبَّر عنه عرفات عندما إلتقى غور يوم الجمعة 24 مارس الماضي من خلال التعهد بأنه – أي عرفات – سيضرب أعداء السلام. ولو أن الإعلان عن ذلك كان أكثر صراحة وأكثر وضوحاً وبالإسم لربما كان غور أعلن عن تقديم مبلغ أكبر من المبلغ الذي أعلن عنه وهو مساعدات بقيمة ثمانية ملايين دولار كجزء من مبلغ 25 مليون دولار وعدت الإدارة الاميركية بمنحه للسُلطة الفلسطينية خلال ثلاثة أعوام. وحتى هذه المساعدات سيصيبها ما يصيب مساعدات أميركا إلى مصر وديون أميركا على الأردن إذا كان الرئيس عرفات لن يترجم النوايا إلى أقوال والأقوال إلى أفعال ويواجه المعارضة الفلسطينية بمثل مواجهة الحكم الجزائري للأصوليين.

وتشاء الصدف أن ذلك يتزامن مع الإعلان في الرياض عن تحويل دفعة جديدة من إيرادات اللجنة الشعبية لمساعدة مجاهدي فلسطين التي يترأسها الأمير سلمان بن عبد العزيز، وهي إيرادات يصل مجموعها السنوي إلى حوالى 11 مليون دولار ويتم تحويلها وبإنتظام كل شهرين. وهذه المساعدات وهي أكثر قليلاً من مساعدات أميركا للسُلطة الفلسطينية، فضلاً عن أنها غير محددة بزمن، ليست شيئاً أمام الذي إستمرت القضية الفلسطينية تحصل عليه من المملكة ومن دون الإشتراط على قيادة منظمة التحرير إعلان مواقف مسبقة، إلى أن تحولت القضية إلى مسألة مراهنات عند بعض رموزها.

ويبقى أن ما يريده المرء وهو يكتب ما كتبه مبتعداً عن الوقائع والخفايا والأرقام التي تذهل، هو إعطاء فكرة عن الفرق بين مساعدات لوجه الله والصمود ومساعدات مغلفة بالشروط والإحراجات. وعلى هذا الأساس يستحضر المرء قول الإمام علي رضي الله عنه: مَن كان في نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 أبريل (نيسان) 1995

* * *

النظام العالمي... "الأصولي" الجديد

قبْل بضعة أسابيع دعا السياسي الروسي المثير للجدل جيرونوفسكي إلى حلف سياسي ديني طرفاه الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية يقف في مواجهة الولايات المتحدة. وهو كان ينطلق في دعوته هذه من قناعات زرعها في رأسه العاصف بالأفكار المثيرة رجال الدين في روسيا الذين باتوا يشكلون تياراً له أهميته في القرار السياسي.

وإنتهز جيرونوفسكي مناسبة زيارته إلى كل من العراق وليبيا لكي يطْلق مثل هذه الدعوة التي لم تلقَ الصدى المطلوب لأن التوقيت غير مناسَب والظروف غير ملائمة والمزاج العام لا يتحمل أي أفكار غير قابلة للتطبيق الفوري.

وأعاد جيرونوفسكي فكرته إلى ملف المؤجَّلات ريثما تأتي فرصة أفضل ينتشل فيها من هذا الملف

الفكرة التي إرتسمت علامات إستفهام وتعجب كثيرة عندما أطلقها، وكان مهَّد لها قبْل ذلك بكلام أطرى فيه الإسلام وتراجع عن كلام سلبي في حق الدين الحنيف قاله قبْل ذلك.

وبعد جيرونوفسكي بأسابيع قليلة قام وزير الخارجية الروسية أندريه كوزيريف بجولة شرق أوسطية شملت مصر وسوريا ولبنان ودولة غزة – أريحا وإسرائيل. وكان لافتاً للنظر أن الطائرة الخاصة التي تنقَّل فيها الوزير الروسي كانت تضم إضافة إلى مسؤولين في الخارجية الروسية عدداً من رجال الأعمال والمصارف، وأيضاً – وهذا هو الأهم – بعض رجال الدينيْن المسيحي والإسلامي.

ولم يحدُث من قبْل أن ترأست الدبلوماسية الروسية مثل هكذا وفد. كما أنه لم يحدُث منذ سقوط الإتحاد السوفياتي كمرحلة أُولى على يديْ غورباتشوف ثم كمرحلة حاسمة على يديْ يلتسين أن بات رجال الدين جزءاً من عملية تسويق روسيا في العالم الخارجي. لقد أُعطي إهتمام من جانب الدولة الروسية للكنيسة ولرجال الدين المسيحي وإستطاع رجال الدين الإسلامي أيضاً الحصول على إعتراف وتسهيلات كانوا يفتقدونها في الماضي لكن لم يخطر في بال الدولة الروسية المستحدَثة أن يكون رجال الدين جزءاً من الصورة الجديدة لروسيا.

وأغلب الظن أن الفكرة التي أطلقها جيرونوفسكي أثارت إنتباه أهل الحُكْم الروسي فسارعوا إلى توظيف الفكرة على الفور وقطْع الطريق على جيرونوفسكي الذي قد يلعب هذه الورقة مستقبلاً وتكون بمثابة إحدى النقاط الأكثر أهمية في برنامجه الإنتخابي للفوز برئاسة روسيا وهو ما يطمح إليه.

وعندما تصدُر عن الدولة الروسية بشقيْها الرسمي والمُعارض مثل هذه الإهتمامات بالدين وتصل الحال برئيس الدبلوماسية أندريه كوزيريف إلى تطعيم الوفد الذي ترأَّسه بعدد من رجال الدين فهذا معناه أن هذه الدولة التي لم تتحقق بعد – وكما يجب – نتائج عملية غسْل وجْهها الشيوعي السابق تريد أن تُطمئن الجميع، مسلمين ومسيحيين، بأن صورة الماضي إنتهت وأن رجال الدين الذين كانوا يؤدون الصلاة خلسة ولا قدرة لهم على النشاط الديني، إلاَّ في أضيق الحدود، باتوا جزءاً أساسياً من عصب الدولة وسيكون لهم بعد الآن شأن يتعاظم يوماً بعد يوم.

كذلك إنها تريد – وبالذات نحو المسلمين – إزالة الإنطباع السائد وهو موضوع الإلحاد.

وعندما يكون ربْط كلمة الإلحاد بروسيا أو موسكو كلما جاء ذِكْرهما، من الأمور السهلة والعفوية طوال خمسين سنة، فمن الطبيعي أن تفكر الدولة الروسية بالطريقة التي تؤكد فيها للعالم الخارجي أن روسيا الجديدة باتت متدينة بل وهنالك تَوجُّه نحو المزيد من التدين.

ومن الجائز الإفتراض أيضاً أن روسيا الجديدة تتطلع إلى أن تكون قاعدة العمق الخارجي لها في العالميْن العربي والإسلامي دينية مستندة في ذلك إلى أن نسبة المسيحيين الأرثوذكس في مشرق العالم العربي، وبالذات لبنان وسوريا والأردن والعراق وفلسطين ومصر، لا بأس بها.

وهؤلاء يمكن أن يكونوا بالنسبة إلى روسيا مثل الأحزاب الشيوعية بالنسبة إلى الإتحاد السوفياتي وبالذات في الستينات والسبعينات عندما كانت الأحزاب الشيوعية في عدد من الدول التي أشرنا إليها تشكِّل قوة لها تأثيرها القوي أحياناً والمتواضع أحياناً أُخرى، على القرار السياسي.

وصحيح أن ظروف روسيا المادية صعبة ولا قدرة لها على أن تساعد الأرثوذكس العرب بما يجعلهم أقوى شأناً، بل ولا قدرة لها على أن تساعد على الإطلاق، إلاَّ أن للكنيسة الروسية مكانة في نفس الأرثوذكسي العربي سببها شعوره بأن غياب شأن الطائفة على صعيد الدين والسياسة طوال بضعة عقود، هي سنوات الحُكْم الشيوعي في الإتحاد السوفياتي، أفقد الأرثوذكسية عنصر القوة الأكثر أهمية خصوصاً أن الأرثوذكسية في اليونان باتت أسيرة أهل القرار السياسي بدل أن يحدُث العكس كما كانت الحال قبْل أن يهتز النظام ويتساقط تحت حكم اليمين العسكري ثم تحت حكم اليسار المدني وكلاهما إرتأى أن يكون شأن الكنيسة ورجال الدين محكوماً بضوابط كثيرة لا تتيح لها ولهم تَجاوز الحدود.

وليس بالمستغرَب أن نسمع بعد الآن عن تزايُد اللقاءات الدينية في موسكو وبعض المدن الروسية بين كبار رجال الكنيسة الروسية وبين عدد من رجال الدين الأرثوذكس العرب الذين سيتوجهون إلى العاصمة الروسية بالطريقة التي كان الرفاق في الزمن الشيوعي يقومون بها.

هذه الزيارات إضافة إلى إهتمام محتمَل من جانب الدولة الروسية بالقدس التي تعني الكثير بالنسبة إلى

الكنيسة الأرثوذكسية، من شأنها أن تُقوي الروابط بين الدولة ومسلمي العالم الذين يشعرون بالكثير من الإرتياح لأن الحُكْم الشيوعي إنتهى إلاَّ أنهم في ضوء تَعامل روسيا مع الشيشان يشعرون بالكثير من الحذر ولن يزول مثل هذا الحذر إلاَّ عندما تصبح النوايا الحسنة أمراً واقعاً وهو ليس كذلك تماماً في الدولة الروسية.

ونلاحظ هنا أن رجال الدين المسلمين في سوريا كانوا حريصين على أن يعرفوا أحوال المسلمين في روسيا وكيف إنتهت أمورهم وسنوات الإضطهاد لهم وأن رجال الدين المسيحي في الوفد كانوا حريصين على معرفة التفاصيل الصغيرة التي تخص الطائفة الأرثوذكسية عندما زاروا بيروت. وهم فعلوا الشيء نفسه عند توقُّفهم في كل محطة شملتُها جولة الوزير كوزيريف.

وإلى هنا تبدو جولة كوزيريف جولة متقنة وخلقت أجواء طيِّبة على رغم أن لها صفة الترويج. ولكن خطوة غير موفقة خطاها الوزير جعلت المردود المؤمَّل به من جولته عرضة للضياع، ذلك أنه عند زيارته إلى القدس يوم الأحد 2 أبريل/نيسان 1995 إقترحوا عليه زيارة مركز إحياء ذكرى ضحايا النازية ربما كرد على زيارته الخاصة التي قام بها إلى بيت لحم المعقل المسيحي الفلسطيني وهو أمر كانوا يفضلون ألاَّ يحدث. وتجاوب كوزيريف مع الإقتراح وزار المركز ووجد هناك من يضع له الطاقية اليهودية الشهيرة على رأسه ويتم إلتقاط الصور له وبحيث يؤدي تعميمها على وسائل الإعلام العالمية إلى ما من شأنه نسْف الغاية التي مِن أجْلها كانت جولة كوزيريف على رأس الوفد الذي يضم بعض رجال الدينيْن المسيحي والإسلامي.

ويعرف الذين وضعوا الطاقية على رأس كوزيريف ماذا يعني هذا المنظر للمسلمين وللأرثوذكس الذين ما زالوا صامدين في عدم التجاوب مع التطبيع وعدم زيارة المسجد الأقصى وكنيسة القيامة قبْل أن ينتهي التفاوض على خير ويتحقق السلام للجميع بالحد الأدنى من الرضى. ولأنهم يعرفون ذلك فإنهم وضعوا الطاقية وإلتقطوا الصور ووزعوها على كل وسيلة إعلامية عالمية، ذلك أن منظر مسؤول روسي كبير يضع على رأسه الطاقية اليهودية ليس بالأمر البسيط بالنسبة إليهم.

ويبقى أن دعوة جيرونوفسكي – الذي يمكن أن يصبح رئيساً لروسيا – إلى حلف ديني إسلامي – أرثوذكسي ضد الولايات المتحدة وكل من الكاثوليكية والبروتستانتية على حد سواء، وإشراك رجال الدين الروس المسيحيين والمسلمين في جولة قام بها وزير خارجية روسيا أندريه كوزيريف تعكس إنطباعاً بأن "أصولية" جديدة يجري طبْخها على نار هادئة وقد تنطلق بها روسيا إلى العالم الخارجي وفي هذا الزمن الذي تزدهر فيه الحركات الأصولية من "الأصولية" الكاثوليكية التي قادها البابا يوحنا بولس الثاني وإستطاع من خلالها تقويض بعض الحكومات الشيوعية، إلى "الأصولية" الإيرانية التي ما زالت ترفع شعار التصدير، إلى "الأصولية" على الطريقة الجزائرية، إلى "الأصولية" على الطريقة الفلسطينية، إلى "الأصولية" على الطريقة المصرية، إلى "الأصولية" على الطريقة السودانية واللبنانية والبحرينية وصولاً إلى "الأصولية" اليهودية على أيدي الليكود إذا هم فازوا وتسلَّموا الحُكْم بعد بضعة أشهر، كما ترجح ذلك الإستطلاعات.

وهذه ليست كل "الأصوليات". فبين فترة وفترة نسمع عن ولادة "أصولية" جديدة، وكما لو أن النظام العالمي الجديد سيصبح "النظام الأصولي الجديد" مع نهاية القرن العشرين، أو بالأحرى إن النظام العالمي الجديد يقوم على توزيع العالم على أصوليات وبذلك يستقر أمر القيادة للولايات المتحدة... وطبعاً معها إسرائيل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – نيسان (أبريل) 1995

* * *

النضال الفلسطيني الوسيم

من المؤكد أن الإسرائيليين باتوا في ضوء العمليات والهجمات التي يتعرضون لها في غزة بالقرب من بعض المستوطنات لهم في القطاع، يترحمون على أيام الإنتفاضة حيث أن حجارة فتية فلسطين الشجعان أتعبت أعصاب جنود الإحتلال إلاَّ أنها لم تقتل أحداً منهم.

وقياساً على المطاردات التي سلاحها الحجارة على أنواعها والعمليات والهجمات وأحدثها تلك العملية الإنتحارية يوم الأحد 9 أبريل/ نيسان 1995 فإن أيام

الإنتفاضة تبدو نزهة غير سارة أمام هذا الجحيم الذي رافق تلك العملية التي نشـــير إليها وعمليات أُخرى سبقتْها.

ولا يُخفي المرء مشاعر حزنه وهو يتأمل في الشاب الفلسطيني خالد محمد الخطيب البالغ من العمر أربعة وعشـرين عاماً والذي نفَّذ إحدى العمليتيْن الإنتحاريتيْن الجديدتيْن. فهو يبدو وكأنه ببراءته ووسامته مثل هؤلاء الذين يتم الإسـتعانة بهم في عرْض الأزياء أو الترويج لمبتكرات مثل الكريمات أو الشـــامبوهات. وهو من الجيل الذي يُفترض فيه أن يكون جاهزاً للتمتع بالسلام الذي تتكاثر الوعود والمناورات في شـأنه. وعندما يقدِّم هذا الشاب حياته فداء لقضيته التي يؤمن بها وتصل به الحال إلى تفجير نفسه، فهذا معناه أن هذا الشاب، وهو رمز قطاعات عريضـة من الشـبان الفلسـطينيين، غير مؤمن بأن ما يحدُث من مفاوضـات في أكثر من عاصـــمة عربية وأجنبية ســيحقق الســلام وســيعيد الحقوق.

ويجد المرء نفسه غير متفق تماماً مع رأي السُلطة الفلسطينية في تقييمها لمثل هذه العمليات، وهو أنها – العمليات – ضد السلام أو "سلام الشجعان" على حد قول الرئيس عرفات بعد العمليتيْن الإنتحاريتيْن اللتيْن أشرنا إليهما. ومن المؤكد أنه لو كان الشاب الشجاع خالد محمد الخطيب مقتنعاً – ولو بنسـبة قليلة – بهذا السـلام الذي نلاحظ أنه يراوح مكانه لما كان ضـحى بحياته. ولكنه مثل ألوف من جيله مصـدوم بما يحدُث ولا يرضـى بالإسـتهانة التي تُعامِل بها إسرائيل القيادة الفلسـطينية فقرر أن يكتب بالدم صـيغة تنبيه وتحذير في الوقت نفســه. تنبيه بأن ما يفعلونه مع الشـــعب الفلسطيني هو مجرد إستهانات متلاحقة، وتحذير بأن عاقبة الإســـتهانة هي المزيد من العمليات الإنتحارية التي تصل فيها الرسالة بشكل مختلف ومن خلال دوي لا مثيل له.

ويعرف الرئيس عرفات، من خلال ثلاثة عقود من العمل القيادي على رأس تنظيم فدائي، أن ما كان ينقصه هو وجود شبان بروحية خالد محمد الخطيب. ومن الجائز الإفتراض بأنه لو كان في حركة "فتْح" وفي مطلع السبعينات مائتا خالد محمد الخطيب لكان أمكن للحق الفلسـطيني أن يؤخذ وللكرامة الفلسـطينية أن تبقى على شـــيء من المهابة فلا يتعامل الجانب الإسرائيلي معها وكأنها غير ذات قيمة.

ولقد كان مؤسـفاً كل الأسـف أن تتم، وعلى الهواء مباشـرة، إدانة الرئيس عرفات وفي الوقت نفسـه إدانة الرئيس حسني مبارك للعمليتيْن اللتيْن أشرنا إليهما قبْل أن يتم الترحم على من قام بهما ودفع حياته ثمناً. ومثل هذه الإدانة التي حدثت قد تكون مبررة لو أن العمليتيْن كانتا من النوع الإستعراضي بمعنى أن هناك مَن نفَّذ وتمكَّن من الهرب والنجاة، لكن هنالك تضحية بالنفس توجِب الترحم خصـوصـاً أن الرئيس عرفات لا يمكن أن يكون مقتنعاً بأن مبادرته إلى الإدانة ستُرضي إسرائيل التي لن ترضـى بأقل من حرب أهلية يصـفي فيها الفلسـطينيون أنفسـهم على الطريقة الجزائرية، أو أن هذه الإدانة ستجعل الولايات المتحدة ترضى وتقتنع وتتخذ الموقف الذي يحقق للرئيس عرفات قوة منطق تتغلب على المنطق الفلسطيني الآخر.

وللتـدليـل على الموقف الأميركي الجـائر، وغير المنطقي في أي حال، نشـــير إلى أن الرئيس كلينتون ســـارع إلى توظيف الحادث لتحقيق مكســب إنتخابي وذلك من خلال قوله أمام مجلس الإتحاد اليهودي في لوس أنجلوس، بعد ساعات قليلة من حدوث العمليتيْن، "مرة أُخرى يسعى أعداء السلام لإستغلال الفرصة التي يقدِّمها الســـلام لقْتله، وقتْل الأمل وقتْل كل إحتمالات حياة طبيعية لشـعب إسـرائيل والفلسـطينيين ولشـعوب منطقة الشرق الأوسط بأكملها". كذلك فإن الدليل على الموقف الأميركي الجائر هو أن السفير لدى إسرائيل، مارتين آنديك، الذي صادف أن العمليتيْن حدثتا عشية تقديم أوراق إعتماده إلى الرئيس الإســـرائيلي عـازار وايزمان قال بعد تقديم الأوراق وكان في حالة إنفعال تعكســـها كلماته: "لقد أعلن الرئيس عرفات في عدة مناسـبات وبوضـوح أنه سـيكافح الإرهاب لكننا لسـنا راضـــين عن الجهود التي بذلها حتى الآن وعليه أن يبذل جهوداً بمعدل مائة بالمائة".

ويشـبه كلام الرئيس كلينتون، ثم كلام سـفيره لدى إســـرائيل، الزيت الذي يتم صـــبه على النار، بل إنه يجوز القول إن الكلاميْن هما بمثابة وقود لعملية إنتحارية جديدة أكثر من أن يكونا ســـبيلاً لجعل العمليتيْن اللتيْن حدثتا هما آخر العمليات، الأمر الذي يحمل على الإعتقاد بأن الولايات المتحدة تريد للبيت الفلسـطيني أن يشـتعل ناراً. فالرئيس كلينتون إسـتكثر كلمة "شـعب" على الفلسـطينيين وإكتفى متعمداً بالقول "شـعب إسـرائيل... والفلسـطينيين". والسـفير الأميركي لدى إسرائيل بدأ يومه الأول رسمياً بلهجة الإملاء على الرئيس عرفات "لسـنا راضـين عن الجهود التي يبذلها

عرفات وعليه أن يبذل جهوداً بمعدل مائة بالمائة". بل إن السفير إستكثر على عرفات لقب "رئيس".

ويصعب على المرء أن يقتنع بالمطالب الأميركية والإسرائيلية من عرفات، وهي مطالب قد يجوز إعتبارها مشروعة إذا كان عرفات رئيس دولة قامت بالفعل. لكن الدولة غير موجودة وأحياناً تبدو وكأنما هي بعيدة المنال. كذلك قد يجوز إعتبار المطالب مشروعة لو أن الصيغة الراهنة لـ "الحُكْم الفلسطيني" تحظى بالدعم المالي. لكن هذا الدعْم غير متوافر وأحياناً تبدو أساليب التعامل مع عرفات غير مشجعة ولا تدعوه إلى التفاؤل. وعلى هذا الأساس فإنه إذا كانت الدولة مجرد وعد يصل أحياناً إلى مرتبة الوهم، وكانت المساعدات غير متوافرة، فكيف سيتمكن عرفات من تلبية المطالب الأميركية والإسرائيلية، وأي فلسطيني سيحترم سُلطته الحالية عندما تقول إنها ستجمع السلاح من حامليه، وعندما تدين عملية انتحارية وتقوم بواجب العزاء من الحُكْم الإسرائيلي من دون أن تترحم على الشاب الذي ضحى بنفسه والذي هو في نظر الرأي العام الفلسطيني، بما في ذلك رأي الفلسطينيين المؤيدين للرئيس عرفات وراضين بسُلطته، بطل وشجاع ما دام ضحى بنفسه وما دام أدخل الخوف في نفوس الذين يحتلون الأرض الفلسطينية.

وإلى ذلك إن الولايات المتحدة و إسرائيل لا تلبيان ما من شأنه أن يدعم صيغة التسوية التي إرتضاها عرفات، ليس بسبب عمليات تقوم بها جماعات من نوع العمليتيْن اللتيْن هما موضوع هذا المقال، وإنما لأنهما لا تريدان التنازل ولو عن الحد الأدنى، بل إن الرئيس كلينتون نفسه كما ورد في أسطر سابقة يستكثر على الفلسطينيين كلمة "شعب" فيقول "شعب إسرائيل... والفلسطينيين". وإذا توقفت هذه العمليات فلا يعني ذلك أن مطالب الشعب الفلسطيني ستتحقق وإنما قد يعتبر الحُكْم الإسرائيلي، ومعه الإدارة الأميركية، أنه ما دام الفلسطينيون راضين وقانعين وهادئين فلماذا الإنشغال بأمورهم ومطالبهم؟

ويبقى أنه في إنتظار أن تتبدل القناعات والأساليب فإن عمليات إنتحارية تحدُث بين الحين والآخر من شأنها أن تكون تحذيراً لإسرائيل ورسالة كثيرة الوضوح إلى الإدارة الأميركية تتضمن ما هو أكثر من التنبيه من مخاطر إتخذتْها إلى إسرائيل، وكأنما ما زال الوضع كما هو في زمن الحرب، أو كما لو أنه لم ينعقد مؤتمر مدريد ولم ينعقد مؤتمر أوسلو ولم تحدُث تلك المصافحة الإسرائيلية – الفلسطينية على حشائش حديقة البيت الأبيض.

وهذه العمليات من شأنها أن تفيد الحُكْم الفلسطيني. ويخالج المرء الشعور بأن الرئيس عرفات ينظر إلى الأمر من هذه الزاوية، وإلاَّ فكيف هو رجل دولة متمرس وصاحب تجربة عريقة في العمل السياسي تلاطمت فيها المواقف في بحر عاصف، ومع ذلك وجد الرجل خشبة أوصلته إلى شاطئ غزة. ولأنه رجل دولة ومتمرس فإن قضيته الأساسية الآن هي – أو فلنقل يجب أن تكون – الحؤول دون حدوث حرب أهلية فلسطينية تجعل مطالب القضية بحدها الأدنى والمتواضع بعيدة المنال، فضلاً عن أنه إذا كان جمع السلاح ومقاومة التطرف ليس سهلاً على حكم مثل الحُكْم المصري، أو حُكْم مثل الحُكْم الجزائري، فكيف سيكون سهلاً على السُلطة التي يقف عرفات على رأسها؟

أما الرأي العام العربي والإسلامي، فإن ما يقنعه هو أنه لولا الإنتفاضة لما كانت إسرائيل قبِلت بنطق كلمة السلام، وأنه من دون العمليات الجريئة، من نوع العمليتيْن المشار إليهما في هذا المقال، لن تقوم الدولة الفلسطينية... الموعودة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 17 أبريل (نيسان) 1995

* * *

طموحات رئاسية للقرن الـ 21

مرة أُخرى يتولد لديَّ إنطباع وأنا أتجول في شوارع أبوظبي قبْل أسبوعين أن هذه المدينة تنتسب إلى المدن التي تبدو في إستمرار لمن يشاهدها أنها مدينة قيْد الإنشاء.

وقبْل خمس سنوات إعتقدتُ بعد جولة في المدينة ومقارنة بين جولة تتم في مطلع التسعينات وجولة سبقتها في مطلع السبعينات، أن هذه المدينة إكتملت لكن بضع ناطحات سحاب قامت وأخذت مِن وهج العمارة العربية والإسلامية وتواضعها. وها هي الناطحات تزداد علواً، وشيئاً فشيئاً تتذكر نيويورك عندما تزور بعض الأصدقاء ويبلغونك بعناوين مكاتبهم أو بيوتهم التي هي في طبقات تتجاوز أحياناً العشرين أو الثلاثين.

ويستوقف زائر أبوظبي هذه الأيام هجمة على هدم عمارات الستينات حيث كانت العمارة لا تتجاوز الخمس طبقات، لإنشاء عمارات جديدة وأكثر إرتفاعاً، أو تشييد أبراج في أعماق المدينة تزهو مع تلك الابراج التي امتلات بها مساحات الأرض على طول الكورنيش.

وقد لا تنقضي السنوات المتبقية من القرن العشرين إلاَّ وتصبح مدينة أبوظبي عبارة عن غابة من البنايات العالية وحقول من الخضرة ذلك أنه إذا كانت ابوظبي تبدو دائماً كمدينة قيد الإنشاء فإن التخضير الذي بدأه الشيخ زايد بن سلطان منذ ولايته الأُولى رئيساً لدولة الإمارات في ديسمبر/ كانون الأول 1971 لم يتوقف لحظة واحدة. وخلال ربع قرن من التخضير باتت الأرقام مذهلة وباتت وحدة المقارنة بين سنة وسنة بألوف الهكتارات بعدما كانت بالعشرات ثم بالمئات.

وعلى سبيل المثال لا الحصر هنالك حوالى تسعين مليون شجرة تم غرْسها حتى الآن وهنالك حوالى عشرين مليون نخلة تم أيضاً غرْسها حتى الآن.

وفي التقاليد المتبعة في معظم دول العالم فإن الرعية عندما تريد مسايرة الحاكم، اذا كان له في نفسها محية وولاء، تحاول تقليده وترجمة ما يريده ويتمناه. ونلاحظ هنا أن شغف رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان بموضوع التخضير والغرس إنعكس لدى أعداد كبيرة من سكان أبوظبي – بإعتبار أنها الإمارة التي كانت الأقل إخضراراً في دولة الإمارات – إهتماماً بالغرس والزراعة وإلى درجة أن إنشاء المزارع لم يعد مسألة هواية يمارسها مَن هو مقتدر مالياً وإنما هنالك بضعة ألوف من أبناء الإمارات أنشأوا مزارع تمد السوق بما يكفي لإستهلاك المواطنين والوافدين وبما يزيد أحياناً، وهذا يتم تصديره. ولقد أدهشَنا أن بعض دول أوروبا تستورد كميات من الفريز الإماراتي ويجد متذوقوه فيه طعماً متميزاً ربما بسبب شمس الخليج والتربة الرملية والصحراوية الأصل.

ومع كميات الفريز يتم تصدير بضعة ألوف من صناديق الورد. وتبدو الإمارات بذلك ترُد إلى أوروبا ما كانت قبْل ثلاثة عقود تستورده منها وبأسعار خيالية، وذلك يوم كانت الأرض صحراء لا زرْع فيها إلاّ ما ندر ولا ضرْع سوى قطعان قليلة من الجمال والقليل القليل من الخراف.

ومع أن عملية التخضير ما زالت تكلِّف كثيراً، بسبب الرعاية المعطاة لها والتي لا تختلف كثيراً عن الرعاية التي تعطيها وزارات الخدمات للمواطنين، إلاَّ أنها مستمرة، وما زال راعي هذه العملية رئيس الدولة يتفقد بين الحين والآخر الحدائق والمساحات التي تم تخضيرها والتي يتم إرواؤها ضمن أحدث عملية إرواء في العالم.

ولكن ثورة التخضير هذه تبقى مهددة إذا كان من هم بعد الشيخ زايد ليسوا مثله في حبه للزرع والتخضير وليسوا مثله في حرصه على التراث.

وقد يتبين ذات يوم أن هذا الحرص الكبير من جانب الشيخ زايد على الهِجن، وإلى درجة أن سباقها السنوي بات مثل أي مناسبة قومية، هو إنزعاجه من هذه الهجمة على الرالیات وإلى درجة أن شغف الإماراتيين وأبناء دول الخليج عموماً برالیات السيارات بات عملية تغريب حقيقية على حساب تقاليد تراثية. ومِن هنا جاء تشجيعه للهِجن وتقديمه عشرات الجوائز للمتسابقين. وشيئاً فشيئاً تغيب عن بال الأجنبي فكرة أن الجمل مرادف للتخلف ذلك أنه إذا كان حاكم مثل الشيخ زايد قام بهذه الثورة المهمة في مجال التخضير وفي الوقت نفسه تكتسب مدن بلاده حقبة بعد حقبة شكل المدن الكبرى والمتطورة في بعض دول العالم، فهذا يعني أنه صاحب أفق تطويري وأن حرصه على الجمل وإحياء حضوره هو مسألة تمسُّك بالجذور وليس دلالة على التخلف.

ومثلما أن الجارة المشاكسة إيران جعلت الجفن البحريني لا يغمض بما فيه الكفاية منذ بضعة أشهر، فإنها تفعل الشيء نفسه إنما بأسلوب مختلف للجفن الإماراتي. واكثر ما يقلق الشيخ زايد أنه لا يريد لموضوع الجزر أن يستمر ما دام يقود الدولة. أما أن يستمر الموضوع عالقاً مِن بعده فإن ذلك ما يؤرقه. وهو الموضوع الذي يتصدر أي محادثات يجريها الشيخ زايد مع زوار الدولة وأهمهم منذ بضعة اشهر الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام السعودي الذي أجرى محادثات بالغة الأهمية في زيارته الكثيرة التميز لدولة الإمارات قبْل أسبوعيْن.

وشاءت الصدف أن أكون في أبوظبي في الوقت الذي كان الشيخ عبد الله بن زايد بدأ يداوم على الحضور إلى مكتبه في وزارة الإعلام بعدما تم تعيينه وكيلاً للوزارة وهو المنصب الذي ظل شاغراً سنتين في إنتظار أن ينهي الشيخ عبدالله وبناء لرغبة والده رئيس

الدولة تدريبه في المؤسسات الإعلامية ويتخرج من جامعة الإمارات حاملاً إجازة في العلوم السياسية وفي الإعلام، إضافة إلى دورات مكثفة في اللغة الإنجليزية التي بات يتقنها بشكل ممتاز، وفي العمل الإعلامي التلفزيوني والإذاعي والصحافي داخل الإمارات وخارجها.

وكان اللقاء مع الشيخ عبد الله الذي بدأ من جانبي بالتهنئة والتمنيات بالنجاح إنتهى من جانبه بالحديث عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات، وهو حديث أراده لتوضيح أفكاره وتطلعاته. ومما قاله الإعلامي الأول في عائلة الشيخ زايد عن تلك العلاقات: «الوالد كما نعرف ليس بينه وبين دول الخليج تمسُّك بحرفية البروتوكول في الإستقبال وفي التوديع، إلاّ أنه يخص المملكة العربية السعودية لما لها في نفسه من مكانة. فهو قبْل سنتين حرص على أن يتوجه إلى المطار ويودِّع الأمير عبدالله بن عبد العزيز ولي العهد النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الذي كان في زيارة رسمية للإمارات. وهو عندما زارنا الأمير سلطان بن عبدالعزيز قبْل أيام حرص على أن يقوم بزيارته في مقر إقامته. نحن تربطنا بكل دول الخليج ومن دون إستثناء علاقة أكثر من ممتازة لكن بيننا وبين المملكة العربية السعودية علاقة خاصة يمكن أن نصِفها بأنها علاقة مثالية. وهي مثالية بين خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز وبين الشيخ زايد، كما انها مثالية بين الحكومتين. ومن المؤكد أنها كذلك بين الشعبيْن. وقبْل المصالح الكثيرة التي جعلت العلاقة خاصة ومثالية هنالك الروابط الأخوية».

وجُهد الشيخ زايد في سبيل توسيع رقعة التخضير هو في بعض جوانبه مثل جهود بذلها اصحاب تجارب في مجال محو الأمية، وهو علامة مميزة في تاريخ هذا القائد الذي يشبه إصراره على هذا الإنجاز مثل إصرار الرئيس فرنسوا ميتران على أن يُنهي ولايته الثالثة بإنشاء أهم مكتبة في تاريخ فرنسا وفي العالم. مع الفارق أن مسألة التخضير كانت إستباقاً من زعيم أنبتتْه الصحراء لإنشغال العالم بالبيئة وثقب الأوزون ومخاطر هجمة العالم الصناعي على إعدام ملايين كل سنة. ولعله أحد قلائل بين حكام العالم الذي يستطيع أن يتباهى بأنه طوال ربع قرن لم يسمح ولن يسمح بأي بناء على حساب أرض مزروعة، وبأنه يزرع ولا يقطع، ويحرص على أن يطَّلع على أرقام المردود الزراعي وعلى أعداد الأشجار التي صمدت أمام قساوة الطبيعة رملاً وصحراء وشمساً وقلة مياه، بقدْر حرصه على أن يطلع على أرقام مردود ثروة النفط التي لولاها لما كانت هنالك هذه الملايين من الأشجار ولما كان – في حال دخول القمح في خطة الزرع هدياً بتجربة الملك فهد بن عبد العزيز في هذا المجال – للمجتمع الإماراتي أن يصبح مجتمع زراعة ونفط مع حلول القرن الواحد والعشرين، وهو القرن الذي سيجوع فيه الذين لا أرض لهم يزرعونها أو الذين عندهم الأرض لكنهم هجروها أو الذين إعتمدوا فقط على الثروات الطارئة مثل النفط فإذا هي قابلة للذوبان السريع مثل حبات السكر في الماء.

ومثلما أن الرئيس ميتران أراد بمكتبته البالغة الضخامة والتى بدا التفكير بإنشائها منذ السنة الأُولى لبداية سنوات حُكْمه الخمس عشرة والتي كلفت عشرات الملايين من الفرنكات أن يعبِّر عن طموحه في أن يترك لأجيال القرن الـ 21 من الفرنسيين وغيرهم إرثاً يذكِّرهم به فيذكرونه بالخير، فإن الشيخ زايد أراد هو الآخر بخطة التخضير التي كلَّفت بضعة مليارات أن يترك لأجيال القرن الذي يحل بعد خمس سنوات من أبناء الإمارات وساكنيها وقاصديها إرثاً يذكِّرهم به فيذكرونه بالخير.

ويبقى أن هذه الإنطباعات عن زيارة خاطفة إلى أبوظبي وردت في الخاطر وأنا أرى من نافذة مقعدي في الطائرة كم ان الرقعة الخضراء إتسعت كثيراً في الإمارات. وفي الأرض أسمع من أحدث الذين تسلَّموا المسؤولية، من جيل الأبناء، الشيخ عبد الله بن زايد، أن والدهم الذي يواصل بهمة عالية هذا الهجوم المضاد على التصحر، معاهد ربه بأن يبقى على إخلاصه لعملية التخضير حتى اللحظة الأخيرة من حياته (أمد الله في عمره). بوركت همة عميد الخضر في العالم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين1 مايو (أيار) 1995

* * *

العرب... وسيد "الإليزيه" الجديد

يطوي الفرنسيون اليوم ونطوي معهم كعرب الورقة الأخيرة من حُكْم دام أربع عشرة سنة وكان إلى حد ما في مستوى ما أراده العرب من فرنسا.

وسواء كانت حال الفرنسيين مثْل حال الأميركيين

أم العكس فإن العالم العربي ليس مشـــغول البال من الرئيس الفرنسـي ومفاجآته. والإشـارة إلى الحال بمعنى أن المواطن الفرنسي سيفعل ما فعله المواطن الأميركي عندما إختار الوجه الجديد الواعد بيل كلينتون على صـــاحب الرصـــيد الهائل من التجربة الســـياســـية والمخابراتية والحربية جورج بوش. وبالنسبة إلى فرنسا فإن الوجه الجديد الواعد الذي نعنيه هو الإشـــتراكي ليونيل جوســـبان، أما الوجه القديم وصـــاحب التجربة الســـياســـية والخدماتية الهائلة فهو جاك شـــيراك الذي هزمه في الدورة الأُولى يوم 23 أبريل/نيســـان 1995 أن أصـــوات التيار الديغولي توزعت على إثنيْن – هو وإدوار بالادور – مقابل أن الساحة الإشتراكية إقتصرت على ليونيل جوسبان وحده فلم يشاركه الكعكة أحد من الإشتراكيين. ولقد أفادت تلك الهزيمة المفاجئة المواطن الفرنسـي بشكل عام لأن الطرفيْن زادا من الوعود التي يمكن أن تغري الناخب الفرنسي إلاّ أنها أوجدت فرنسا جديدة يحتاج التعامل العربي معها إلى بصـــيرة واعية تأخذ في الإعتبار أن إنقسـاماً خطيراً حدَث في فرنسـا بين يمين ويسار، ونقول ذلك على أساس أن الديغولية كانت تشكِّل صيغة ثالثة بين اليمين الفرنسي واليسار، بنوعيه المتطور والماركسي، وأن هذا الإنقسام سيتحول مع الوقت إلى مواجهات وتحالفات قد يلهيها عن الدور المؤمل من جانبنا كعرب أن تلعبه مســـتقبلاً وهو دور الدولة الكبرى التي تقف في وجه هذا الإجتياح للنظام العالمي الجديد الذي تفرضـــه الولايات المتحدة بالإكراه على دول العالم.

وإستناداً إلى تجربتيْن من التعامل العربي مع فرنسا فإن تعليق الأمل على دورها المرغوب والمطلوب يبدو طبيعياً. ففي الستينات لم تخذلنا الحقبة الديغولية وكان يمكن في غياب الموقف الفرنسـي، الذي إتخذه الجنرال ديغول والذي قضى بأن فرنسا تقف مع المعتدى عليه، أن تصـــل إســـرائيل إلى قلب المدن العربية ما دامت وصلت إلى المشارف من سيناء وضفاف قناة السويس إلى مرتفعات الجولان إلى القدس وضفاف نهر الأردن. وفي الثمانينات والتســعينات لم تخذلنا الحقبة الميترانية ذلك أن الولايات المتحدة في كل خطوة تخطوها في شـأن العالم العربي ومنطقة الشـرق الأوسـط عموماً، وفي كـل قرار تتخـذه أو تفرض على الأمم المتحـدة إتخاذه، كانت تحسـب حسـاباً للرأي الفرنسـي وتحديداً لتقييم الرئيس ميتران للأمر. والفرق بين الـديغوليـة والميترانية في التعامل مع الولايات المتحدة إزاء قضـايا العـالم العربي أن الـديغوليـة أكثر مبـدئيـة وحزمـاً ربمـا بسـبب التربية العسـكرية للجنرال ديغول وأن الميترانية كثيرة المرونة وحاذقة في المســـايرة، وهي لو لم تكن كذلك لما كان للرئيس ميتران أن يجدد الولاية ثلاث مرات ولكان أصـــابه ما أصـــاب الجنرال ديغول التي تآمرت الإدارة الأميركية على عهده فأسقطتْه من خلال التظاهرات التي عُرفت بـ "ثورة الطلاب".

وقد يقال إن الرئيس ميتران كان طوال الأربع عشرة سـنة جرماً يدور في الفلك الأميركي وأن علاقة فرنسـا بالعالم العربي وقضـاياه الرئيسـية والفرعية كانت على هـامش الـدور الأميركي. ومثْل هذا القول ليس دقيقاً تماماً بمعنى أنه لو كانت فرنسا بالفعل جرماً يدور في فلك السـياسـة الأميركية لكانت تصـرفت في إسـتمرار مثل بريطـانيا التي لا تســـجل أي تقاطُع مع القرار الأميركي، في حين أن فرنســـا إســـتمرت قادرة على الوقوف بضـــع خطوات بعيدة عن الموقف الأميركي. وها هو على سبيل المثال لا الحصر موقفها الذي يرى ضـرورة إستحداث إنفراجات في الوضـع الذي نشأ عن الإجتيـاح العراقي للكويـت والحرب على العراق التي إســـتتبعـت ذلـك الإجتيـاح ورفْض الحُكْم العراقي الإنسحابات بالحُسْنى.

ولقد كان مِن حُسْـن حظنا كعرب أن إدوار بالادور ســـقط في الجولة الأُولى من الإنتخابات لأنه لو نجح كما كانت حُمى الإســـتطلاعات تعطيه بعض الحظ وإلتزم بتطبيق ما وعد به، وبالذات ما يعنينا كعرب من هذه الوعود، لكـان معنى ذلـك أن العلاقـة العربيـة – الفرنسية كانت ستشـهد في عهده بداية تدهور لا مثيل له يصـــل مع الوقت إلى القاع. وللتذكير فإن بالادور قال في الأســبوع الأول من أبريل/نيســان الماضـــي وكـانـت حُمى المعركـة الإنتخـابيـة تزداد إرتفـاعـاً "إن القدس ينبغي أن تكون مفتوحـة لجميع الأديـان ولكن إعتقادي الشـخصـــي هو أنها تخص اليهود أكثر قليلاً ممـا تخص الآخرين، وبعد تســـويـة المشـــكلـة بين الإسـرائيليين والفلسـطينيين لن تكون هنالك أي مشـكلة في أن تقوم فرنســـا بنقل ســـفارتها من تل أبيب إلى القدس...".

وعند التأمل في هذا الكلام يصـــدر عن بالادور نجد أنفسـنا نتسـاءل: أي ديغولية هذه التي ينتمي إليها بالادور الذي يبدو في كلامه هذا كما لو أنه يقول بأن طبعة التسـعينات للديغولية هي عكس، بل إنها ضـد، طبعة الســـتينات عندما كانت الديغولية زمنذاك تقف

إلى جانب المعتدى عليه من دون أن تواجه المعتدي؟

ويصعب على المرء تفسير هذا الجنوح من جانب بالادور مع أنه زار بعض الدول العربية كرئيس للوزراء وسمع من حكام ومسؤولين كثيرين هناك ما الذي تعنيه القدس التي باتت تشكِّل خط الدفاع الأخير للعربي والمسلم بحيث إذا أُسقط هذا الخط يصبح العرب والمسلمون من دون أي قضية.

وهذا الموضوع بالذات هو ما نتطلع كعرب إلى رئيس فرنسا الجديد من أجْل أن يضعه في أولوياته، ذلك أنه لا مطالب عربية وإسلامية تتجاوز هذا الطلب، إضافة إلى طلب آخر مهم وهو أن يزداد الموقف الفرنسي صلابة في وجه تطلعات النظام العالمي الجديد الذي لا تزال الولايات المتحدة مقتنعة بأن في إستطاعتها أن تفرضه بصرف النظر عن ضحايا يتساقطون خلال عملية فرْض هذا النظام. وبقدْر ما يتسم الموقف بالصلابة فإن دولاً أُخرى يمكن أن تجاري موقف فرنسا وبذلك يتحقق الردع ولو بنسبة بسيطة تكون قابلة للتطوير.

ومع أن الرئيس الفرنسي الجديد مثخن بجراح المعركة الشرسة التي حدثت ومثقل بالوعود والتحالفات التي لا قدرة للكاهل على حمْلها إلاّ أن قضية الإسلام والمسلمين تحتاج منه إلى التبصر خشية أن يُفقَد الزمام من يديه ولا تعود سيطرته بالمنطق ممكنة على هذا الجنوح المتوحش ضد العرب والمسلمين والذي كانت حادثة رمي شاب مغربي في نهر السين وفي باريس نفْسها، بعد ضرْبه لكي يفارق الحياة غرقاً، أخطر حلقاته. وهذه الجريمة التي نفَّذها ثلاثة شبان فرنسيين ينتمون إلى التيار اليميني المتطرف يمكنها أن تشعل حرباً صليبية جديدة تعيد أوروبا إلى أيام جاهليتها. ومن المؤكد أن الرئيس ميتران عندما توجَّه يوم الأربعاء الماضي بنفسه وعلى رغم وضْعه الصحي إلى شاطئ النهر حيث وقعت الجريمة ورمى باقة ورد تحية منه للشاب الضحية، لم يفعل ذلك إلاّ لأنه بحدسه وبُعد نظره يعرف إلى أين يمكن أن تصل الحال بفرنسا جراء هذه الحوادث ويعرف أن بضعة ألوف من الشبان الفرنسيين داخل فرنسا وفي دول المغرب العربي يمكن أن يكونوا مهدَّدين بالنهاية نفسها التي واجهها الشاب المغربي الذي رماه الشبان الفرنسيون المتطرفون في بحر السين بعدما كانوا قتلوه ليبدو أنه مات غرقاً.

وصحيح أن الرئيس ميتران سارع إلى القيام بتلك اللفتة لأنه لا يريد أن يوصم عهده الطويل – الذي إنتهى اليوم – بهذا العار، إلاّ أنه في الوقت نفسه أبعد شراً مستطيراً عن فرنسا بإعتذاره اللبق هذا وهو إعتذار لم يفعله على سبيل المثال الرئيس بيل كلينتون مع بعض العرب والمسلمين الذين تعرضوا لإعتداءات من أميركيين غاضبين على الذي حدث في أوكلاهوما، ولولا الصدفة التي أمكن بسببها إعتقال مرتكبي تلك الجريمة لكان ربما رمى أميركيون بضع عشرات من العرب والمسلمين في أنهار وبحيرات الولايات المتحدة. ومن المؤكد أن إفتقاد الرئيس كلينتون الحكمة النادرة في قاموس تَعامله هو الذي جعله لا يستقبل في البيت الأبيض بعض العرب والمسلمين الذين تعرضوا ظلماً للأذى، وأن الحكمة التي يملك الرئيس ميتران منها الكثير هي التي جعلْت يسارع إلى شاطئ السين ويرمي بباقة ورد على المكان الذي أُلقي فيه الشاب المغربي. وهو فعل ذلك في الوقت الذي كانت المعركة الإنتخابية بدأت تغلي كالمرجل بين شيراك وجوسبان للفوز برئاسة فرنسا.

ومثلما أن الرئيس ميتران ودَّع عهده الطويل بحكمة فإن رئيس فرنسا الجديد يتألق بقدر ما يعتمد الحكمة.

وهذا ما نتطلع إليه كعرب ومسلمين من سيد "الإليزيه" الجديد.

صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1995

* * *

القدس بين "الكاوبوي" الأميركي.. والقرصان الإسرائيلي

في الوقت الذي يفوز برئاسة فرنسا جاك شيراك الذي يحظى لدى العرب عموماً بالتأييد، ومن أجْل ذلك جاء إستقبال فوزه حاراً على جميع المستويات.. في هذا الوقت يصل التنافس الأميركي بين الحزبيْن الديمقراطي والجمهوري على مبايعة رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين حد الجنون، وتتزايد التنازلات الأميركية لإسرائيل وتبلغ حداً تبدو فيه الدولة الأعظم في العالم مستسلمة وعلى مستويات أهل القرار للدولة التي تنتهك الأعراف وتتجاوز بكثير الخطوط الحمر وتعكر صفو السلام العالمي المنشود.

وبدلاً من أن يخطر في بال إدارة الرئيس كلينتون

أن هذا الترحيب العربي العاقل بفوز شيراك فضلاً عن هذا الإرتياح الشعبي والرسمي لوصوله إلى سدة الرئاسة، من شأنهما أن يخطفا من الدور الأميركي بعض الهالة وشيئاً من "الإمتيازات" الممنوحة لهما، فإن هذه الإدارة تصرفت كما لو أن فرنسا بطبعتها الميترانية وبطبعتها الديغولية المستَجَدة هي في إحدى جيوب سترة النظام الدولي الجديد الفضفاضة.

والإرتياح الشعبي والرسمي العربي بفوز شيراك رئيساً لفرنسا مرده بقايا ذكرى طيّبة عن الوقفة الديغولية الشهيرة إلى جانب العرب عام 1967 والتي تشبه وقفة أميركية مماثلة عام 1956 من جانب أيزنهاور إعتراضاً منه على العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا و إسرائيل) على مصر رداً على تأميم الرئيس عبد الناصر قناة السويس (تشاء الصدف أن الوقفتيْن صادرتان عن جنراليْن: الجنرال ديغول والجنرال أيزنهاور). كما أن الإرتياح وبالذات على الصعيد الرسمي سببُه أن الحكومات العربية ضاقت ذرعاً بالإحراجات الأميركية التي تجاوزت المنطق وبدأت تلمس المحظورات والمحرمات ومنها ما يتعلق بالقدس على وجه التحديد.

وفي البداية تعاملت الحكومات العربية مع موضوع السلام في الشرق الأوسط على أساس أنه بقدْر ما تكون هنالك مسايرة للرغبة الأميركية يكون هنالك إصرار من جانب الولايات المتحدة على فرْض السلام المتكافئ، ومن أجْل ذلك حدث هذا التساهل من قِبَل عدد من الحكومات العربية الذي وصل إلى حد الإقرار بحق إسرائيل في الوجود وتطبيع العلاقات معها على يقين أو على أمل أن تكون القدس هي عاصمة الدولة الفلسطينية، ليس من أجْل هيبة القيادة الفلسطينية التي لن يعلو شأنها من دون رفْع العَلَم الفلسطيني في القدس وإنما من أجْل الهيبة الإسلامية، ذلك أنه لن تكون هنالك هيبة كاملة إذا كانت القدس ستبقى محتلة من إسرائيل.

ويخالج المرء شعور بأن الولايات المتحدة تتصرف وكأنها تنتقم من المشاعر العربية والإسلامية بدل أن تتفهمها وتبادلها التقدير. وإلاَّ فما معنى أن تصادر السُلطات الإسرائيلية بضعة هكتارات من الأراضي في القدس في الوقت الذي تحاول فيه الحكومات العربية بجهد شاق مساعدة الشعوب على هضْم هذا السلام غير العادل وغير المتكافئ، وتَعتبر الإدارة الأميركية أن المسألة بسيطة جداً ولا تستدعي كل هذا الغضب!

وما معنى أن يتصادف الغضب العربي والإسلامي الخافت لإعتبارات كثيرة على حادثة القرصنة الإسرائيلية في وقت تقوم فيه مندوبة أميركا لدى الأمم المتحدة مادلين أولبرايت بجولة في المنطقة بدأتْها بزيارة إسرائيل، ومع ذلك فإن هذه السيدة التي يجيز لها موقعها كدبلوماسية تهدئة المشاعر العربية من خلال تصريح عادل ولو بنسبة بسيطة، تصرفت بطريقة إستفزازية وقالت لرجال الصحافة خلال زيارتها إلى العاصمة الأردنية وقبْل تَوجهها إلى القاهرة (يوم الأربعاء 3 مايو/أيار الجاري) كلاماً يتسم بالإستهانة ببعض الأصوات العربية التي دعت إلى عرْض القضية على مجلس الأمن. ومما قالته السيدة أولبرايت: "إن موضوع المصادرة صعب وإن إسرائيل أقدمت عليه دون مشاورة مسبقة مع الولايات المتحدة. واعتقادي أن مجلس الأمن ليس الجهة المناسبة لمناقشة هذا الموضوع. وأي مناقشة في هذا الإتجاه يجب أن تمر عبْر قنوات ومسارات أُخرى..."؟ وما معنى أن الخارجية الأميركية قبل أن تقول أولبرايت ما قالته، إختارت من الكلام أخفه إزعاجاً لإسرائيل ويتمثل ذلك بتعليق بالغ الرقة للمتحدث بإسم الوزارة أدلى به يوم الثلاثاء 2 مايو/أيار وجاء فيه: "لا نفهم ما جدوى هذا النوع من القرارات (يقصد قرار المصادرة) في الوقت الراهن بينما عملية السلام جارية في الشرق الأوسط"؟ وما معنى أن الرئيس كلينتون بدل أن ينتهز فرصة زيارة رئيس وزراء إسرائيل (صاحب قرار المصادرة) إسحق رابين إلى واشنطن ويقول أمامه وعلى الملأ إن قرار المصادرة هذا خطوة تسيء إلى مساعي تحقيق التسوية السلمية الشاملة ويطلب منه التراجع عنه، وقف مساء يوم الأحد 7 مايو/أيار وهو في أزهى حالاته يخطب في المؤتمر السنوي لمنظمة "إيباك" (اللوبي الإسرائيلي) ويقول أمام حشد هائل من رجال الإدارة الأميركية وبعض زعامات الحزب الجمهوري ورموز الزعامة اليهودية السياسية والمالية والإقتصادية في الولايات المتحدة، كلاماً جعل رابين أكثر تمسكاً بقرار المصادرة. ومن جملة ما قاله كلينتون بعدما إلتفت نحو الكرسي الذي يجلس رابين عليه في المؤتمر المشار إليه: "إنني أول رئيس أميركي يتحدث إلى "إيباك" وإن العلاقات الأميركية – الإسرائيلية وصلت في عهدي إلى مستوى عال لا سابق له وهي الآن أعمق من أي وقت سابق...".

وبعدما كشف أن وزارة الدفاع الأميركية وقّعت

إتفاقات مع الشركات الإسرائيلية تتجاوز قيمتها ثلاثة بلايين دولار لشراء منتجات عسكرية ذات تقنية عالية، قال مخاطباً رابين أيضاً: "السيد رئيس الوزراء. طالما أننا هنا فلن يتمكن أحد من أن يفصل بيننا". ويحتار المرء هنا في مَن يقصد الرئيس كلينتون بكلامه هذا. هل هم العرب أم الجمهوريون أم حزب الليكود، الذين سيفصلون بينه وبين رابين. وقد نجد من بين الذين يبحثون بين السطور عما من شأنه أن يظهر موقف إدارة الرئيس كلينتون بموقف من هو حريص على المشاعر العربية والإسلامية، مَن يقول إنه صحيح أن الرئيس كلينتون قال هذا الكلام إلا أنه في كلمته التي جاءت رداً على رابين تفادى الإشارة إلى موضوع القدس. وهذا صحيح لكنه ليس الموقف المؤمل منه وخصوصاً أن رابين جدد في التصريح الذي أدلى به بعد المحادثات التي أجراها مع الرئيس كلينتون في اليوم التالي في البيت الأبيض القول، في شأن الموقف من القدس عموماً، أن حكومته متمسكة ببقاء القدس عاصمة موحدة لدولة إسرائيل وخاضعة للسيادة الإسرائيلية. وكان في مؤتمر "إيباك" في اليوم السابق قد قال إن سياسة حكومته تجاه موضوع القدس "بسيطة"، وأضاف في معرض توضيح التبسيط الرابيني للمسألة قوله: "إن القدس موحدة تحت السيادة الإسرائيلية وهي عاصمة إسرائيل وقلب الشعب اليهودي إلى الأبد. وإسرائيل دولة سيدة وهذه هي سياستنا في تحرير القدس وبموجبها ندير أعمالنا...".

كذلك قد نجد مِن بين الذين يقارنون بين المواقف مَنْ يرى أن موقف إدارة الرئيس كلينتون تبقى أخف وطأة في تعاملها الدؤوب لفكفكة الصراع العربي – الإسرائيلي، من الجنوح الجمهوري المقلق والذي يعكسه النجم الجمهوري الصاعد نحو الرئاسة السناتور بوب دول ورئيس مجلس النواب الأميركي نيوت غينغريتش اللذان يعزفان منذ فترة على الوتر الذي يطرب الإسرائيليين ويعكر مزاج الإدارة الديمقراطية وهو وتر السفارة ونقلها من تل أبيب إلى القدس. ووصل العزف إلى درجة أن غينغريتش قال في ما بدا أنه رئيس الكنيست وليس رئيس مجلس النواب الأميركي: "من المفيد أن نبعث بإشارة تؤيد حق إسرائيل في إختيار عاصمتها. فلو قالت الولايات المتحدة لتركيا أنها ستبقي سفارتها في القسطنطينية ولن تنقلها إلى أنقرة لكان الأتراك اعتقدوا أننا فقدنا عقلنا...". كذلك وصل العزف إلى أن الإثنين دول وغينغريتش وفي خطوة مزايدة بالغة البشاعة والتملق قدَّما يوم الثلاثاء 9 مايو أيار مشروعيْ قانونيْن يقضيان بنقل السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس في موعد أقصاه 1999 على أن يبدأ بناؤها قبل نهاية 1996، كما أن الأول الذي يتطلع إلى أن يكون الرئيس الجمهوري خلفاً لرئاسة كلينتون الديمقراطي لم يجد ما يفرض عليه التحفظ قليلاً في موضوع القدس فأدلى في الوقت نفسه وفي مهرجان التلاعب الأميركي – الإسرائيلي بالقدس بتصريح جاء فيه: "إن القدس كانت على مدى ثلاثة آلاف سنة قلب الشعب اليهودي وروحه ويجب أن تبقى إلى الأبد العاصمة الأبدية غير المجزأة لدولة إسرائيل". وقد يكون من المناسب لقارئ هذا المقال العودة إلى أسطر قليلة سبقت أوردنا فيها كلام رابين ليكتشف المرء هذا التوارد الشرير في الخواطر بين السناتور الجمهوري دول ورئيس وزراء إسرائيل رابين الذي جاء إلى واشنطن زائراً بعدما صادرت حكومته بضعة هكتارات من أراضي القدس، وأعطى كلمة السر لجماعاته في إسرائيل لكي تبدأ الإستعداد للمزيد من القضم ما دام الموقف الأميركي في موضوع القدس – كما توضح المؤشرات التي أوردناها – يبدو أحياناً متكاملاً مع الموقف الإسرائيلي وأحياناً على أهبة التكامل. وفي الوقت الذي كان رابين ما زال يواصل زيارته إلى واشنطن كانت الأنباء المبثوثة من تل أبيب تتحدث عن مصادرة جديدة لمائة وعشرين هكتاراً، وكان هنالك بعض السعي في الكواليس بعدما تقدم المغرب ودولة الإمارات بطلب عقد جلسة لمجلس الأمن تناقش مسألة المصادرة، وذلك كي لا تستعمل السيدة أولبرايت عند التصويت على أي قرار لا ترضى عنه إسرائيل، حق الفيتو وهو أصلاً ما كانت تقصده عندما قالت وهي في عمان في طريقها إلى القاهرة "إن مجلس الأمن ليس الجهة المناسبة لمناقشة هذا الموضوع". وهذا القول يعني أمريْن: الأول هو إفهام الأصدقاء العرب والمسلمين أنهم إذا عرضوا الموضوع على مجلس الأمن فعليهم ألا يتوقعوا موقفاً أميركياً لمصلحتهم. والثاني هو إفهام الأصدقاء أنفسهم بأن الحل هو في رفع الأيادي العربية والإسلامية والجلوس مع الإسرائيليين والتحادث والتفاوض معهم من دون أي شروط.

وقد تكون المشكلة العربية والإسلامية أن موضوع السلام في المنطقة كان يجب أن ينطلق من التفاهم على مصير القدس ثم تتفرع منه بقية الأمور. أما وأن

ذلك لم يحدث وهنالك في الأفق خطة جهنمية ترعاها الولايات المتحدة وتشكل المصادرة ومسألة نقل السفارة إحدى الحلقات الأولية فيها، فإن الإبتهاج بفوز جاك شـــيراك لـه مـا يبرره، ذلـك أن الكـاوبوي الأميركي والقرصـــان الإســـرائيلي يلعبان اللعبة الأكثر خطورة. وكلاهما يحاولان إجبارنا على الإقتناع بأن الخطر الأكبر الآن هو إيران والخمينية وكما لو أن إيران ليست دولة جارة وشقيقة، وأنها إذا كانت تصدر عنها بعض المشـــاكســـات فهذا لا يعني الإنضـــمام إلى التحالف الذي جرى طبخه في واشـنطن والذي أشـار إليه رابين بالقول في مهرجان التلاعب الأميركي – الإسرائيلي "إن الموجة الخمينية البشعة بكل مظاهرها تحتاج مواجهتها إلى إنشـــاء تحالف جديد من العالم الحر...".

ومن دون صـــديق قوي مثل فرنســـا الجديدة يمكن الإتكال عليه ســـتكســـب إســـرائيل جولة جديدة. فهل سيكون شيراك عند حسن الظن العربي والإسلامي به؟ لعل وعسى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1995

* * *

مبارك أعطى... وبرلمانه إسترجع

□ المقالة الأولى: كيف تهدأ مصـــر... ويطمئن قلب أميركا

في غمرة التحول الموعودة بـه منطقـة الشـــرق الأوسط، نحو السلام الشامل، تأتي الأنباء من القاهرة تفيد بأن مجلس الشـعب المصـري أقر يوم الأحد 28 مايو/أيار 1995، تشـريعات جديدة تتعلق بالصـحافة والنشـــر تتضـــمن تعديلات في بعض أحكام قانون العقوبات والإجراءات القضـائية، وبحيث تقضـي بأن يشـمل مجال التجريم أفعالاً لم تكن تندرج في السـابق تحت قائمة التجريم وهي "نشـر البيانات والإشـاعات الكاذبة أو المغرضـــة أو الدعايات المثيرة التي من شأنها تكدير السلم العام وإثارة الفزع بين الناس وإزدراء مؤســـســـات الدولة أو القائمين عليها...". وتنص التعديلات على فرض غرامة تراوح بين ما يســـاوي 1500 إلى 3 آلاف دولار على كل صـحافي "ينشـر معلومات خاطئة أو وثائق مزورة كفيلة بالإضـــرار بالمصـــلحة العامة". وتنص التعديلات أيضـــاً على فرض عقوبة السجن لخمس سنوات وغرامة تراوح بين مـا يســـاوي 3 آلاف إلى 6 آلاف دولار على كـل صـحافي "ينشـر معلومات خاطئة بهدف الإسـاءة إلى إقتصـاده البلاد". كما تنص على عقوبة السـجن لعام واحد على الأكثر وغرامة تراوح ما يسـاوي بين 1500 و4500 دولار في حال إســتهدف القذف موظفاً عاماً أو شخصاً ذا صفة نيابية عامة.

ولمجرد إقرار التشريعات سادت حالة من الإحباط في الوسط السياسي المصري المعارض من صحف وأحزاب، واســتقبلت بعض الأقلام المصـــرية التي لا تنتسـب إلى المعارضـة الخطوة بكلمات تتسـم بالحدة، ومنها على ســـبيل المثال لا الحصـــر قول الكاتب والصـحافي المخضـرم مصـطفى أمين في صـحيفة "الأخبار" المحسوبة على جانب الدولة "إن هذا القانون هو ضد الحرية وضد الدستور وضد الشعب المصري كله ولا يقيد الصـــحافة فقط بل يقطع لســـانها ويكمم أفواهها ويشـــل حركتها..". ويتطـابق رأي الزميـل مصطفى أمين مع الرأي الذي سجله زعيم حزب الوفد فؤاد سراج الدين بشكل تصريح نشرته صحيفة الحزب وجاء فيه: "إن التعديلات إغتيال للهامش المحدود من حرية الصحافة في مصر، وإن هذا التشريع هو أسوأ وأخطر تشريع صدر ضد الصحافة في مصر خلال القرن العشـــرين، ولم تشـــهد مصـــر أيام الإحتلال البريطاني مثل هذا التشـــريع الذي يهدف إلى تكميم الصحف وكسر الأقلام..".

أما أبناء المهنة في أكثريتهم فإنهم إســـتغربوا مثل هذه "الهدية" تأتيهم من رئيس الدولة عشـــية عيدهم الثاني عشـــر (29 مايو/أيار من كل عام). وهم لو كانوا مقتنعين بأن التشريعات الجديدة لا علاقة للرئيس حســـني مبارك بها وأنها مجرد حق من حقوق مجلس الشـعب المصـري (البرلمان) مارسـه ضـمن السـلطات الممنوحـة لـه، لما كـانوا رفعوا الشـــكوى إلى الرئيس عندما إلتقى بهم في اليوم نفســه (أي الإثنين 29 مايو/ أيار 1995) لكي يمارس حقه في رفض التشـــريعات أو طلـب إجراء تعـديـل على التعـديـل. لكن الرئيس مبارك، الذي صـــدق يوم الأحد 28 مايو/أيار على التشريعات الجديدة، وجرى نشرها في الجريدة الرسمية وباتت بذلك ســـارية المفعول، أوضـــح في لقائه مع الإعلاميين أنـه مع التشـــريعـات التي أقرهـا مجلس الشـــعب. ويؤكد الكلام الذي قاله الرئيس في اللقاء

وأوجزه وزير الإعلام صفوت الشريف لمندوبي الصحف والتلفزيون والإذاعة، مدى ضيق الرئيس شخصياً من الوضع الذي كان سائداً حتى إقرار التشريعات الجديدة. بل إن ما قاله الرئيس مبارك يشكل الحيثيات التي أوجبت إصدار تلك التشريعات. وفي صحيفة "الأهرام" (العدد الصادر يوم الثلاثاء 30 مايو/ أيار 1995) نقرأ تلخيص وزير الإعلام صفوت الشريف لأقوال الرئيس مبارك على النحو الآتي: "أشار الرئيس إلى أنه منذ ثماني سنوات تلقى العديد من الشكاوى وكان دائماً في كلماته يوجه النظر لتلافي تلك السلبيات آملاً أن تختفي بعض الظواهر السلبية من توجيه الإتهامات غير الحقيقية أو المدققة أو إستناداً إلى مستندات غير دقيقة مما يمثل مساساً بسمعة المواطنين أو خدشاً لحياتهم الخاصة نتيجة إتهامات كاذبة، مشيراً إلى أن أسراً قد أصيب أبناؤها نتيجة ما نشر عن الآباء مما حطم حياة الإبناء ومسّ كرامتهم سواء في حياتهم الخاصة أو في أماكن عملهم. وأشار الرئيس إلى أنه ليس هنالك تعديل في قانون سلطة الصحافة، ولكن هناك تشديداً فقط في العقوبات، مشيرً إلى أن العقوبات التي كانت واردة ومقررة في القانون كانت باقية كما هي منذ العام 1937 وبالتالي أصبحت لا تمثل قيمة أو ردعاً، مطالباً رجال الصحافة والإعلام بالحفاظ على القيم والتقاليد. وقال الرئيس أنا مع حرية الصحافة ولكنني لست مع حرية التجريح أو الإهانة، مؤكداً أن تلك التعديلات لا تمس أي كاتب يكتب بشرف وأمانة. وتساءل الرئيس لماذا التسابق في نشر الفضائح التي تضر المجتمع وتشوه صورته، مطالباً بأن يتقوا الله في شعبهم وفي مواطنيهم. وحول المادة 67 التي كانت تمنع الحبس الاحتياطي للصحافي أشار الرئيس مبارك إلى أن المواطنين سواء أمام القانون، سواء كان المواطن صحافياً أو ضابطاً أو قاضياً أو طبيباً، فكل الشعب سواسية أمام القانون وأن هذه المادة وهذا النص وهو "حماية الصحافيين من الحبس الإحتياطي" هو نص مخالف للدستور...".

وهذا التطور الجديد مناسبة للحديث حول تجربة حرية التعبير في مصر، وهي تجربة لا مثيل لها في العالم الثالث، ثم أنها ترتبط بإسم الرئيس مبارك الذي ابتكرها ورعاها وحماها طوال عقد كامل من الزمن كان حافلاً بكل الأسباب الموجبة لتضييق الخناق حول حرية التعبير وليس العكس.

فبعدما تسلم مبارك الحُكْم عقب إغتيال الرئيس أنور السادات وجد أن الحلقة المفقودة التي يمكنه من خلالها ترميم الوضع المصري بإرثه الثقيل الوطأة هي الديمقراطية التي من شأنها تنفيس إحتقانات كثيرة في الصدور. وكان تشخيصه في محله، ذلك أن الهامش الذي أعطاه الرئيس مبارك لحرية التعبير وبالتدرج بدأ يلقى قبولاً في نفوس الناس وارتياحاً لدى الدول الأجنبية. وسنة بعد سنة كان الهامش يتسع وتنشأ أحزاب كثيرة وصحف وإتجاهات. وكان ذلك متزامناً مع تقدم مذهل على صعيد الإنفتاح في شتى ميادينه.

وبدأ المصريون يقرأون في صحف ومجلات تنشرها أحزاب مصرية أموراً لم يخطر في بالهم يوماً أنهم سيقرأونها وعلى صفحات صحف ومجلات يتم طبعها في مصر ومن دون تدخل من الرقيب. ودارت على صفحات هذه الصحف معارك كلامية في منتهى الخطورة وتبودلت إتهامات من النوع البالغ القسوة. ولم يقتصر الأمر على أمور الداخل وإنما بدأ المصريون يقرأون عن شؤون بعض الدول العربية الجارة والبعيدة ما لم يسبق لهم أن قرأوا مثله في صحفهم من قبل.

وعملاً بسنة التطور وتزايد إتساع هامش حرية التعبير بدأت هذه الصحف تكتب عن كبار المسؤولين في الدولة. وبات بين الوزراء من يقلق ويوجس، وهو في مكتبه، خيفة مما يمكن أن تنشره تلك الصحف عنه. وكانت تلك الصحف تنشر ولا تتهيب، وتلمس أحياناً المسائل الخصوصية. وبتنا نقرأ كلاماً يتسم بالسخرية عن رئيس وزراء مصر وعن مقامات عليا كثيرة دينية وعلمانية. وبدأت الصحف أيضاً تقتحم محرمات السياسات العليا وتقول ما تشاء في حق هذه الدولة أو تلك.

وكلما كان هامش حرية التعبير يزيد إتساعاً كان الرئيس مبارك يدافع عن هذا المكسب الذي له فضل تحقيقه للرأي العام المصري، ويقول لسائليه من المصريين والعرب والأجانب إنه متمسك بالديمقراطية وبحرية الصحافة لأنهما الضمانتان لمصر.

ولكن الثغرة في هذا الإنجاز، الذي ابتكره الرئيس مبارك، هي أنه بات في مصر، نتيجة ذلك، إعلامان: إعلام قومي لا ينشر كل هذا الذي نشير إليه إلا في بعض الحالات، وإعلام حزبي يقول ما يريد أن يقوله وأحياناً كثيرة ما لا يجوز قوله ونشره.

وهذا التمييز أوجد حالة من العداء من جانب الإعلام الحزبي للإعلام القومي وبدأت تتكون في

الأفق ملامح صـــراعات بالغة الخطورة ظهرت بوادرها في معركة إنتخابات نقابة الصحافيين قبْل شهرين وهي المعركة التي إنتهت بفوز الوجه الأبرز في الصـــحافة القوميـة رئيس تحرير "الأهرام" الزميـل إبراهيم نـافع بفارق لا يجوز إعتباره كبيراً.

وإلى ذلك بدأت الصـحافة الحزبية تقتحم أسـواراً لا يجوز إقتحامها وتدخل أبواباً من غير إسـتئذان وبدأت بعض الصحف والمجلات تسمي الأشخاص الذين هم موضع شبهة أخلاقية أو مالية بأسمائهم، وبدأ الحديث يتضـخم حول الفساد المستشري وتورُّط المسؤولين في هذا الفساد أو في فضائح كثيرة.

وحدَث مـا لم يكن في الحســبان. ذلك أن هذه الصـحف التي لم تسـتقطب الرأي العام المصـري في السـنوات الثلاث الماضـية بدأت تشـدّ إنتباه المواطن الذي بات يتأثر بما تكتبه. وفي الوقت نفسه بدأت هذه الصحف تتعرض لعلاقات وسياسات عليا تندرج تحت بند السيادة والترابط الإستراتيجي. وبات في إستطاعة حملة في هذه الصـحيفة أو تلك على دولة ما أن تؤثر على علاقة تمّ بناؤها بشـــق النفس، وتحولت حرية التعبير التي أرادها الرئيس مبارك إلى شـــيء آخر لا يريده ولا يتمنى حدوثه أبداً. وإذا جاز التعبير فإن حال الأحزاب والصـحف المصـرية المعارِضـة تحت مظلة الديمقراطية وحرية التعبير اللتين أرادهما الرئيس مبارك عنواناً بـارزاً من عنـاوين عهده، إنتهت مثلما إنتهت حال المقاومة الفلســطينية تحت مظلة إتفاقية القاهرة التي أبرمهـا لبنـان مع المقـاومـة وقضـــت بـإعطـاء المقاومين الفلسـطينيين مسـاحة من حرية الحركة في جنوب لبنان لمواجهة إســرائيل. فالمقاومة إعتبرت أن ما حصـلت عليه من الإتفاقية هو حق مكتسـب ويتيح لها أن تتحرك بموجبها كما تشـاء. والمعارَضـــة في مصـر إعتبرت أن ما حصـلت عليه من هامش متسـع من حرية التعبير والديمقراطية بات حقاً لها وتســتطيع أن تمارس على هذا الهامش ما كانت تمارسه وأكثر.

وخشية أن ينتهي الأمر بين النظام والمعارَضة إلى بعض مـا إنتهى إليـه الأمر بين النظـام في لبنـان والمقاومة، فإن الرئيس مبارك إرتأى أن يتدارك الأمر مبكراً وطلب من مجلس الشـــعب أن يســـترجع من المعارضـة المصـرية ما كان هو – أي الرئيس مبارك – أعطـاها إياه، فكـانـت التشـــريعـات الجديـدة التي تضمنت تعديلات تخص الصحافة والصحافيين. وهي تعديلات لن يلغيها سـوى إنتشـار السـلام في منطقة الشـرق الأوسـط في المدى غير البعيد. وللحديث حول ما أعطاه مبارك للصـحافة وإسترجعه برلمانه منها بقية في مقالة ثانية.

* * *

المقـالـة الثـانيـة: الـذين ســـقطوا واحـد.. والذين فازوا واحد

بعد التأمل في ردود الفعل التي أعقبت تصـــديق البرلمان المصـري على تعديلات في قضـايا النشر من بينها إلغاء مادة كانت تمنع حبْس الصـحافي إحتياطياً، وقراءة ما نشـرتْه معظم الصـحف الحزبية المعارِضـة وبعض الأقلام في الصـــحف القوميـة، يخرج المرء بإنطباع خلاصـــته أن الذي حدث كردّ فعْل لم يكن إحتجاجاً على تلك التعديلات وإنما هو مشروع محاولة للإنقضاض على هيبة الحُكْم المصري.

كذلك يخرج المرء بإنطباع خلاصـته أن التعديلات ســـببها أن ما حدث تحت مظلة الديمقراطية وحرية التعبير خلال العقـد الأول من عهـد الرئيس مبـارك وبالذات خلال السـنوات الأربع الماضـية عاد بمردود تفوق نسـبة السـلبية فيه بكثير نسـبة الإيجابية. بل وقد يجوز القول إفتراضـــاً إن التجربة بشـــكل عام باتت تحتاج إلى تعديل جذري خشـــية أن تتكرر حادثة المنصـــة الشـــهيرة إنما بصـــيغة غير دموية. في تلك الحادثة سـقط رئيس النظام مضـرجاً بدمائه على أيدي عنـاصـــر تنتمي إلى الجمـاعـات الدينيـة التي رعـاها الرئيس السـادات وأمدها بكل مقومات النمو والتضـخم وغرضه من ذلك مواجهة التوجه الناصري والإشتراكي. وبدلاً من أن يحقق ذلك التيار للرئيس الســـادات ما يتطلع إليه فإن عنـاصـــر من تلك الجمـاعـات فعلت بالرئيس ما ينطبق عليه قول الشـــاعر "أُعلمه الرماية كل يوم فلما إشـتد سـاعده رماني". أما بالنسـبة إلى المســـألة الديمقراطية وحرية التعبير وحِرْص الرئيس مبـارك على أن يكون هـذا المنـاخ الليبرالي المحتوى والمنطلقات هو إحدى ســـمات عهده وبحيث يذكر المصـريون دائماً بالخير وهم يسـتعرضـون محطات تاريخهم السـياسـي، فإن الذين أعطاهم الرئيس مبارك هذه الأجواء الديمقراطية الرحبة نســـبياً بدأوا يقتربون شـيئاً فشـيئاً من الخط الأحمر ثم ذهب بعضـهم في السـنتيْن الماضـيتيْن أبعد من هذا الخط بقليل وإلى درجة أن الذين كانوا يتابعون ما تنشـره الصـــحف الحزبيـة ويحرصـــون – مثل حـالنـا – على القراءة المتأنية لسطور هذه الكتابات وكذلك ما بين السطور،

بدأوا يلاحظون أن التجربة الديمقراطية على تواضعها معرضة لإنتكاسة في العمق نتيجة أن الصحافة الحزبية باتت "دولة" ضمن الدولة تقول ما تريد في حق من تشاء حتى إذا كان الطرَف الذي تتناوله بالحديث هو رئيس الدولة نفسه. أما رئيس الحكومة والوزراء وكبار المسؤولين فإن ما كتبتْه بعض تلك الصحف عنهم وما رمتهم به من نعوت وألصقتْه بهم من تُهم، كان لا يصدَّق. ووصلت الحال إلى أنه لم يبق سوى القليل ويحدث الإنقضاض على هيبة الحُكْم والدولة عموماً وبالأقلام بدلاً من الرشاشات التي جرى إستعمالها في حادثة المنصة. وعندما تسقط الهيبة تسود الفوضى، أو يقرر رئيس الدولة إعادة النظر في كل شيء والعودة إلى ما كانت عليه الحال من قبْل بالنسبة إلى المسألة الديمقراطية وحرية التعبير.

ونلاحظ أن الرئيس مبارك إختار حلاً وسطاً فكانت التعديلات التي أرادها مجرد ردع والتي هي أكثر من لفت نظر لكنها أقل من إنذار أخير، بعدما كان في مناسبات كثيرة إعتمد التلميح لعدم رضاه على الكثير مما يُنشر.

ومع أن الرئيس مبارك لم يترك الباب مفتوحاً أمام التراجع وأوحى أمام الحشد الإعلامي يوم الإثنين 29 مايو (أيار) 1995 الماضي أنه شخصياً موافق على هذه التعديلات، إلاَّ أنه أيضاً رئيس جمهورية وفي يده، ما دامت الحكومة حكومته والبرلمان برلمانه والحزب الوطني الحاكم حزبه، أن ينتهز فرصة مناسِبة يعدِّل فيها ما تمّ تعديله، لو أن رد الفعل الذي نشأ في الجانب المتضرر من التعديلات كان هادئاً وعاقلاً. لكن رد الفعل جاء عكس ما يجب أن يكون عليه وعكس ما كان على الأرجح يتمنى الرئيس مبارك حدوثه. ومن الجائز الإفتراض أنه لو إقتصر رد الفعل، ما دامت المسألة تخص رجال الصحافة والصحافيين وليس الإعلاميين بشكل عام، على إنعقاد إجتماع لمجلس نقابة الصحافيين يناقش فيه الأعضاء التعديلات ويتخذون القرار المنطقي والواعي والذي يحفظ لهم حقهم، وفي الوقت نفسه يحفظ للدولة هيبتها.. من الجائز الإفتراض أنه لو حدثَ ذلك لكان ربما للعاصفة أن تهدأ وتبقى تحت مظلة المناخ الديمقراطي الذي يريده الرئيس مبارك ويحرص على إستمراره، لأنه أكثر العلامات إضاءة طوال سنوات حكمه الأربع عشرة. لكننا نلاحظ أن مجلس نقابة الصحافيين لم يجتمع إلا يوم الثلاثاء 6 يونيو (حزيران) 1995 وبعدما كانت حملة التصعيد بلغت ذروتها (بإجتماع قادة الأحزاب المعارِضة مع أنهم ليسوا رسمياً صحافيين) وبدأت أعداد كبيرة من الصحافيين تشارك في حركة إعتصام إجتماعية داخل مبنى النقابة سبقتْها مواقف نقابات كثيرة أعلنت تضامنها مع الصحافيين ومطالبهم الداعية إلى إلغاء التعديلات التي جرى تصويت مجلس الشعب عليها. وإذا كان هذا التأخير في عقْد إجتماع مجلس نقابة الصحافيين أفاد في أنه أوضح مشاعر المعارضين من جهة وأخرج من الصدور كل الغضب المختزن في داخلها، وهذا أمر طيب لاستنباط صيغة توفيقية في مرحلة لاحقة للمسألة، إلاَّ أنه في الوقت نفسه أوجد ما يشبه حالة عداوة بين الحُكْم والمعارضة، وتحديداً مع الذين نشروا تعليقات في صحفهم تؤكد لهجتها كم أن التعديلات التي تمّ إقرارها كانت ضرورية. ومن هذه التعليقات على سبيل المثال لا الحصر ما نشرتْه صحيفة "الشعب" الناطقة بإسم "حزب العمل" في عددها الصادر يوم الثلاثاء 30 مايو (أيار) 1995 بدءاً من العنوان الرئيسي لصفحتها الأولى، وكان "الحُكْم الفاسد يذبح حرية الصحافة" ثم قول الصحيفة "إن هذا التعديل هو تعديل صهيوني وخدمة لإسرائيل ولا بد أن في دوائر الحُكْم "لوبياً" صهيونياً أعتى وأشد تأثيراً من اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة..."، وقولها أيضاً عن النواب الذين صوتوا إلى جانب إقرار التعديلات "أنهم مثل النشالين في الأتوبيسات أو لصوص آخر الليل الذين يتسلقون المواسير، بل إن لصوص الليل والنشالين أشرف منهم ألف مرة...".

ولولا بعض المعالجات ذات الطابع القانوني من بعض أساتذة الحق الدستوري الذين يمارسون نشاطاتهم السياسية في أحزاب معارِضة لبدت حملة الصحف المعارِضة كما لو أنها حالة تشنُّج لا أكثر الهدف منها هو الظهور أمام الرأي العام المصري بمظهر المدافع الوحيد عن الديمقراطية والسمعة المصرية في وجه "الحُكْم الفاسد" في نظرهم. وبدت المعالجات ذات الطابع القانوني مقْنعة وأفادت أكثر بكثير من كل تلك السهام التي إنطلقت في إتجاه الحكومة، لعل سهماً منها يصيب الحكومة، وبذلك لا تتكسر النصال على النصال فتهتز الحكومة وتسجل المعارضة أنها إستطاعت أن تهز الحكومة التي لم تهتز أمام الحملات الكثيرة الماضية، ويصيبها إذا جازت المقارنة ما أصاب حكومة إسحق رابين التي أفزعها تَحرك غير

متوقع لنواب عرب في الكنيست الإسرائيلي قرروا طرْح الثقة بالحكومة ولقي التحرك حماسة منقطعة النظير من حزب الليكود المعارض أراد من ورائها توظيف التحرك العربي المشار إليه لتحقيق مآربه في إسقاط الحكومة لتأتي محلها حكومة ليكودية أسوأ بكثير من الحكومة الحالية (حكومة إسحق رابين) في ما يتعلق بالفلسطينيين ومطالبهم وأمانيهم.

والمسألة القانونية إضافة إلى المعترضين في أكثريتهم يخصون الحكومة وبعض النواب بغضبهم، وكذلك تزايد التمنيات بين الصحافيين العاملين في الصحف القومية.. كل هذه العوامل وغيرها تشكِّل حيثيات لـ "فتوى رئاسية" يمكن أن يصدرها الرئيس مبارك وتخفف الوطأة التي شعر بها الصحافيون في مصر من دون أن تأخذ هذه "الفتوى" من هيبة الحكومة، فضلاً عن أن هذه "الفتوى" يمكن أن تخفف حالة الإحراج التي وجد الصحافيون العاملون في الصحف القومية أنفسهم يواجهونها، فلجأوا إلى التمنيات على الرئيس بأن يستعمل سُلطته ويلغي القرار، وبذلك لم تجرفهم موجة الإعتراض والإحتجاج العاتية وفي الوقت نفسه لم يظهروا أمام زملائهم المعارضين والمحتجين بمظهر غير تضامني، إضافة إلى أن "الحصانة الصحافية" التي ألغتها التعديلات هي في النهاية مكسب يجب المحافظة عليه.

ويبقى في نهاية الأمر أن الرئيس مبارك هو صاحب هذه التجربة في مجال الديمقراطية وحرية التعبير والتي لم تشهدها مصر منذ قرن ونصف القرن، أي منذ أن بدأت تصدر في مصر صحافة بشكل بدائي ثم بعدما أنشأ اللبنانيون للمصريين الصحافة إلى أن بدأت تصدر في الثمانينات والتسعينات صحف حزبية معارِضة يعتبر بعضها أحياناً كل مسؤول لا ترضى عنه متهماً حتى يثبُت العكس، وكل موظف لا ينتسب إلى هذه الحزبية أو تلك سارقاً حتى يثبت العكس، وكل رجل أعمال ناجح لا علاقة لها به فاسداً حتى يثبُت العكس، وكل إشكال طارئ من نوع الإشكال المتعلق بالطبيب المصري، مناسبة لإفتعال مشاكل وأزمات مع الآخرين وبالذات الدول التي تساهم بفعالية في حل مشاكل مصر وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية. وأغلب الظن أن هذه الصورة المفزعة لواقع الحال وخشية الرئيس مبارك من إتساع رقعة المشاكسات بحيث تتطور إلى ما من شأنه أن يدمر علاقات مصر مع الآخرين، هي التي جعلتْه يرى في التعديل الذي تمّ إقراره بعض النواحي الإيجابية ويرى أنه ضروري... ولو من باب الردع لفترة لا تطول. والجميع في إنتظار "الفتوى الرئاسية" التي يعرف بموجبها كل طرف حدوده فلا يتجاوزها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يونيو (حزيران) 1995

* * *

من المعارضة الرومانسية إلى المعارضة الواقعية

أفرحَنا كل الفرح أن يعود المعارض المغربي الأكثر شهرة بين معارضي الشطر المغاربي من العالم العربي الفقيه البصري إلى بلاده. أما المبادرة الطيبة من الملك الحسن الثاني في شأن العودة وفتْح الباب أمام الذين يعارضون من الخارج لكي يعودوا إلى بلدهم فإنها تدعو إلى الكثير من التقدير.

واللافت للنظر، أيضاً، هذا الرقي من جانب الدولة في التعامل مع ذلك الركن الأساسي من أركان المعارضة، بحيث يصل على الرحب والسعة، ويجري إستقباله من الأهل والأصدقاء والرفاق القدامى والحاليين على أحسن ما يكون عليه الإستقبال من دفء وتكريم. كذلك إن اللافت للنظر هو هذا العرفان بالجميل من جانب الفقيه البصري للذين آزروه في مرحلة الإغتراب الإختياري والإضطراري، حيث إنه فعل ما سبق أن فعله الزعيم السوداني المعارض الصادق المهدي عندما توجه من لندن (المقر الدائم للمعارضة السودانية ضد حكْم الرئيس جعفر نميري) إلى طرابلس والتقى بالعقيد معمَّر القذَّافي يوم 25 سبتمبر (أيلول) 1977 وكان معه المرحوم الشريف حسين الهندي. كلاهما (أي الصادق ومن بعده بثماني عشرة سنة الفقيه البصري) توجَّها لكي يشكرا العقيد القذَّافي على مساندته ودعمه لهما وإعادة جواز السفر الليبي الذي كان كل منهما، وكثيرون غيرهم من قادة المعارضة السودانية والمغربية، حصلوا عليه. وفي حين أنه بعد إعادة الجواز وتقديم الشكر طلب الصادق والشريف حسين الهندي من الداعم الأساسي للمعارضة السودانية، العقيد القذَّافي، تأييد مصالحة المعارضة مع الرئيس نميري، لكنه لم يتجاوب معهما، فإن العقيد القذَّافي هو الذي طلب من الفقيه البصري أن يتعاون

مع الحُكْم المغربي مشـــيداً بصـــديقه الملك الحســـن الثاني، على رغم أن صداقته للملك من النوع المزاجي، بمعنى أنها في ذروة الود أحياناً وفاترة في أحيان قليلة.

ومع أن الفقيه البصـــري غادر المغرب وهو في ذروة الحيوية، وفي السن التي يتسم مَن هو فيها – إذا كان من العاملين في الحقل السياسي – بالإندفاع وإلى حد التطرف أحياناً، ويعود إلى البلاد وهو على أبواب السنين الأولى للشيخوخة، إلاَّ أن الرجل ما زال حاضراً في ذاكرة محـازبيـه وعـارفيـه، وذلـك لأنـه لم يوظف رصـــيده الســـياســـي في خدمة أجهزة الإســـتخبارات الأجنبيـة التي تلتقط المعـارضـــين وتضـــعهم في معسكرات وفي مناطق ذات أسوار، وتوكِل إليهم أمر تجنيد ناقمين ومعارضين آخرين.

وتأتي عودة الفقيه البصري في وقت بات المواطن المغربي أكثر ميْلاً إلى المعارضـة الواقعية، إذا كان لا بد من المعارضة، أو هنالك أسباب موجبة للمعارضة، ولم يعد شـغوفاً مثل الماضـي بالمعارضـة الرومانسية. ومـا نعنيـه بـالمعـارضـــــة الواقعيـة تلـك التي يمكن ممارسـتها في الداخل حتى إذا كانت في الحد الأدنى. أما الذي نعنيه بالمعارضـة الرومانسـية فإنها تلك التي يدور رحاها في الخارج، وتعلو أصـوات أصـحابها في غير المكان الذي يجب أن تعلو فيه، ويطرح أصحابها بدائل مستحيلة من نوع: تغيير النظام، وإحلال سياسة محل أُخرى. كذلك تأتي عودة الفقيه البصري في وقت باتت المعارضـة في الداخل تنشـط في كل الإتجاهات، وكادت تصـل الحال إلى أن الملك الحسـن الثاني كاد يوكل إليها أمر تشـــكيل حكومة للبلاد، لولا أنه إرتأى بعد التأمل إنضـــاج الفكرة قليلاً خشـية أن تنتكس، أو خشية أن تكون نظرة المعارضين للأمر نظرة منتصر ومهزوم، بالمفهوم السـائد في دول العالم الثالث، بينما الملك الحسن يريد للمسألة مفهوماً آخر وهو أن تكون المعارضـــة مثل الحكومة، على الطريقة البريطانية، كلاهما يعمل مخلصاً لخير البلاد والعباد.

ولا نعتقد أن الفقيه البصري، العائد من إغتراب دام ثلاثين سـنة، سـيجلس في ديوانه حزيناً لأن مشـروعه السـياسـي قد تعثَّر وسـيتباسـط مع زواره في المراحل التي أوجبت المطاردات والمؤامرات والأحكام بالســجن والإعدام. وإنما – إفتراضـاً نقول ذلك – سـيطرح أمام مريـديـه وأمـام الأجيـال المغربيـة الجـديـدة من الـذين يقصـدون ديوانه، النواحي السلبية والإيجابية من تجربة النضـال السياسـي، ويمارس نقداً ذاتياً لما حدَث، حتى إذا كان هذا النقد يلمس شـخصـه. ولا بد أنه يأخذ في الإعتبار كيف أن الذي جعل الدولة الجارة، إســـبانيا، تقف على قدميها، ثم تسـتقر، وتُحقق خطوات واسـعة على طريق التقـدم، هو الحُكْم المَلكي، وأن الجنرال فرانكو لو لم يحســم الأمر وهو حي ويعيد المَلكية إلى البلاد، لكانت إسـبانيا الآن في وضـع يشـبه الوضـع السـائد في بعض جمهوريات أميركا اللاتينية، في حين أنها باتت في ظل عقديْن من المَلكية المســتعادة على أهبة أن تكون مثل بقية الدول الأوروبية المتقدمة في كل المجالات.

وعودة الفقيه البصري، التي ما كانت لتتم لولا رغبة الملك الحسن الثاني في لَمّ الشمل السياسي للمملكة، إذا جاز التعبير، تشـــكِّل نموذجاً لما يمكن أن ينتهي إليه أمر التعامل بين بعض الأنظمة العربية الراهنة والمعارضـــين. ونقول ذلك على أســـاس أن أي عمل سـياسـي معارض ويسـتحق التضـحيات والتشـريد هو العمل الذي يسـتهدف تحقيق الإسـتقلال أو إنقاذ البلد من حُكْم أجنبي، كما كـانـت عليـه الحـال في معظم الـدول العربيـة في الأربعينـات وبعض ســـنوات الخمسـينات والسـتينات. أما عدا ذلك فإن المعارضـة ممكنـة أو يجب أن تكون ممكنـة داخل الوطن وليس خـارجـه. ومـا دامـت المقـارنـة بين الفقيـه البصـــري والصـادق المهدي طرحت نفسـها فإن عودة الصـادق إلى السودان وممارسته العمل السياسي كمعارض، ثم كحاكم، ثم كمعارض مرة أُخرى بعد سـقوط الصـيغة التي حكم بها، تؤكد صـوابية فكرة أن تكون المعارضـة فقط في الداخل، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن ضـيق صـــدر النظـام بين الحين والآخر – وهو مـا واجهـه الصادق المهدي ودفع من حريته بعض الثمن له – قد يكون من بين أسـبابه أن المعارضـــة التي يمارسـها الصـــادق عبارة عن معارضـــتين في الوقت الواحد، معارضـــة يتولاها هو، ومعارضـــة يتولاها من يمثِّلونه ويقيمون في الخـارج ويتخـذون مواقف لا نعتقـد أن الصـادق المهدي نفسـه يحبذها، أو أنه على الأقل لا يرى أن تكون على الحـدة التي تكون عليهـا أحيـانـاً. ومن المحزن جـداً أنـه في الوقـت الـذي يعود الفقيـه البصـــري إلى المغرب منهياً مرحلة بالغة الصـــعوبة والتعقيد من العمل السـياسـي المعارض، وتكون العودة قريبة الشـبه بعودة الصـادق المهدي قبْل ثماني عشـرة سـنة، فإن الزعيم السوداني الذي له الفضـل الكبير في تسطير صفحات من كتاب إمكانية عقْد المصالحة بين

النظام والمعارضة، يعيش منذ بضعة أسابيع ظروفاً صعبة، حيث أن الحُكْم السوداني الذي يترأسه الفريق عمر البشير يتعامل مع الصادق بالطريقة التي إنقرضت، والتي كانت سمة الستينات والسبعينات.

ولا ندري ما إذا كانت الأمثولة المغربية ستكون موضع إهتمام جيران المملكة من الأشقاء، وبالذات تونس وليبيا والجزائر وموريتانيا، حيث ما زال عدد من رموز المعارضة في هذه الدول يتنقل في الشتات لعدم توافر لغة تخاطُب مشترَكة بينهم وبين الأنظمة. ولكن المرء يتمنى أن يتأمل قادة الدول الأربع في الفعل الذي تَمثَّل بالعفو الشامل الذي أصدره الملك الحسن الثاني، وفي رد الفعل الذي صدر عن كبير معارضي المغرب الفقيه البصري الذي شاءت الصدف أن تتزامن عودته مع ظروف إقتصادية صعبة سيواجهها المغرب هذا العام نتيجة تراجُع مريع في المحصول الزراعي إعتبره الحسن الثاني كارثة إقتصادية وطنية. وبدا الفقيه في عودته هذه وكأنما هو عائد ليشارك الشعب والملك في إحتواء هذه الكارثة.

وما نتمناه للدول المغاربية الأربع نتمناه لدول مشارقية كثيرة وبالذات للبنان وسوريا والعراق. وبذلك تبدأ قوافل المعارضة العربية بالعودة إلى الوطن الذي في إستطاعته أن يستوعب الجميع ما داموا طلاب خير له.

وتكراراً، لقد إنتهى زمن المعارضة الرومانسية. وليس أمام المعارضين سوى أن يكونوا واقعيين، وبذلك لا يعود للتآمر سبب ولا لإصدار الأحكام القاسية مبرر... ولا لهجرة الوطن ضرورة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يونيو (حزيران) 1995

* * *

شوكة" الجولان الفلسطيني"
بعد شوكة حلايب

في الوقت الذي يحدُث نوع من التوعك للحوار الأميركي – السوري – الإسرائيلي فتتراجع تبعاً لذلك توقعات تشير إلى تَقدم ملموس يقود إلى حفلة توقيع ليست بالبعيدة وفي حديقة البيت الأبيض... في هذا الوقت بالذات يفاجئ الرئيس حسني مبارك متابعي تَحركه السياسي النشيط في سبيل التسوية السلمية بين العرب وإسرائيل بالقول في مقابلة صحافية مع صحيفة "الأهرام" يوم السبت 22 يوليو (تموز) 1995 إن منظمة التحرير الفلسطينية تريد جزءاً من مرتفعات الجولان التي تحاول سوريا إستعادتها من إسرائيل وأن الجانبيْن السوري والفلسطيني مختلفان على ذلك.

وليس واضحاً ما الذي جعل الرئيس مبارك يأخذ على عاتقه كشْف هذا الأمر. هل إنه فعل ذلك لأنه يرعى المحادثات الإسرائيلية – الفلسطينية على الطريقة التي يرعى فيها وزير الخارجية الأميركية وارن كريستوفر المحادثات والإتصالات السورية – الإسرائيلية، وفي عالم الرعاية يكون الراعي مطالَباً عند حدوث بداية إختناقات في المحادثات بأن يتولى الإشارة تلميحاً أو صراحة حسب إستنسابه للأمر إلى الحجر الذي يحول دون إنسياب المياه والموضوع في مكان يتطلب بذل الجهد لتحريكه؟ أم إن الرئيس مبارك المهموم منذ أسابيع بأمر مماثل وهو أمر حلايب أراد أن يقول ما معناه إننا لسنا الوحيدين في إشكالات الأرض المتنازع عليها وإن هنالك على سبيل المثال لا الحصر خلافاً سورياً – فلسطينياً في شأن مساحة كبيرة من الأرض في الجولان يطالب الفلسطينيون بإستعادتها؟ أم إن هنالك ما لا نعرفه نحن معشر الكتّاب، وإزاء ذلك لا يعود من الضروري الإنشغال بالبحث عنه ما دام هنالك إستعداد وعلى مستوى رئيس دولة، ونعني هنا الرئيس مبارك، للحديث عنه؟

ولقد كان لكلام الرئيس مبارك وقع مفاجئ لدى قطاعات عريضة من الرأي العام العربي التي لا تعرف سوى أن الجولان هو لسوريا وذلك لكثرة ما حاربت سوريا من أجْل الجولان وتحدثت عنه، ولقلة حديث الفلسطينيين في الماضي عن أن لهم أرضاً تخصهم في الجولان. وبسبب إنعدام الحديث الفلسطيني، وعدم إعتبار السوريين، كمواقف معلنة وصريحة، أن هناك جولانيْن إثنيْن وإنما هناك جولان واحد، فإن إثارة الموضوع وبالشكل المفاجئ الذي أثير فيه ترك إنطباعاً بإحتماليْن، الأول له صفة التذكير لسوريا والثاني له صفة الضغط على سوريا.

والتذكير بمعنى إقتناع الجانب الفلسطيني بأن المحادثات السورية – الإسرائيلية تسير بخطى جدية في إتجاه تحقيق التسوية وخلال أشهر، وأنه ما دام الأمر كذلك وما دامت التسوية تعني إعادة الأرض المحتلة فإنه من الأفضل تذكير الحُكْم السوري بأن للفلسطينيين أرضاً في عهدتهم وأنهم يريدون إستعادتها

ما دام بات لهم كيان وسيصبح لهم دولة مستقلة.

أما الضغط فلأن عدم تسريع الحُكْم السوري لمسيرة التسوية يستوجب من تيار التسوية الأميركي – المصري – الفلسطيني – الأردني – الإسرائيلي ممارسة بعض الضغوط على ذلك الحُكْم بهدف إبداء المزيد من المرونة. ومن هذه الضغوط إثارة موضوع "الجولان الفلسطيني" وكأنما بين ثنايا هذه الإثارة إيماءات إلى أن إسرائيل يمكن بتشجيع من الولايات المتحدة وعدم إعتراض من مصر أن تجزئ موضوع الجولان فتتفاهم مع الجانب الفلسطيني على الجزء الخاص به وتترك الجزء السوري عالقاً، وفي قدرة الجانب الأميركي من خلال الصحافة ووسائل الإعلام التي تسيطر عليها الصهيونية إظهار سوريا وكأنها هي "تحتل" أرضاً في الجولان ليست لها وإنما هي للفلسطينيين، وتلك مكيدة كيسنجرية، أو أن الرجل الذي إبتكر خطة تفجير القضية العربية وتحويلها إلى شظايا (بدءاً من كامب ديفيد مروراً بحرب لبنان إنتقالاً إلى صيغة مؤتمر مدريد وصيغة أوسلو...) له في شكل أو آخر حضور فيها إذا كانت ليست بالكامل مكيدته.

وكدنا نفترض أنه ما دام إنحصر أمر الإشارة إلى "الجولان الفلسطيني" بالرئيس مبارك أن يكون هنالك ترطيب للأجواء من الجانب الفلسطيني، لولا أنه لمجرد أن أُذيع كلام الرئيس المصري فإن المندوب الفلسطيني لدى الجامعة العربية محمد صبيح قال موضحاً كلام الرئيس مبارك "إن المقصود هو شريط تبلغ مساحته قرابة 360 كيلومتراً مربعاً جنوب الجولان السوري كان يشكل جزءاً من أرض فلسطين في عهد الإنتداب البريطاني، وأنه يجب إستعادة الجولان الفلسطيني لأنه أُلحق بسوريا مثلما أُلحق قطاع غزة بمصر والضفة الغربية بالأردن...".

ومع ذلك فإن المسألة ما زالت بسيطة، لأن المسؤول الفلسطيني الذي أوضح قد يكون تصرَّف بطريقة الإجتهاد، لا أكثر، ثم جاء فيصل الحسيني المسؤول عن ملف القدس في السُلطة الفلسطينية ليعلن في اليوم التالي (الإثنين 24 يوليو (تموز) 1995) وخلال مؤتمر صحافي عقده في عمان "أن هناك تحركات فلسطينية للمطالبة بجزء من مرتفعات الجولان التي يطالب السوريون بإنسحاب إسرائيلي كامل منها وهو الجولان الفلسطيني أو ما يسمى (الحمة) وهي منطقة إحتفظت بها سوريا بعد حرب 1948 كما إحتفظ الأردن بالضفة الغربية وهي التي نطالب بعودتها..."، مضيفاً إلى ذلك قوله "إن المطروح هو عودة إسرائيل إلى حدود ما قبْل الرابع من يونيو (حزيران) 1967، وأن العَلَم الفلسطيني رُفع فوق الجولان الفلسطيني بضع ساعات عام 1968 ضِمْن عمليات الحزام الأخضر التي كانت تتم على الجبهة الأردنية والجبهة السورية..." وكرر الحسيني القول "إن المفاوضين الفلسطينيين يطالبون بشريط مساحته 360 كيلومتراً مربعاً جنوب مرتفعات الجولان السورية المحتلة وهو يشكِّل جزءاً من أرض فلسطين في عهد الإنتداب البريطاني وعُهد إلى سوريا الإشراف عليه بموجب قرار من الجامعة العربية عام 1948"، موضحاً "أن هناك مواقع عدة يجب أن تعود للفلسطينيين وهي ما زالت تحت السيطرة الإسرائيلية، وأن أهمية ذلك تنبع من ضرورة أن تكون فلسطين مع إحدى الدول الموجودة على نهر الأردن على المنبع والمجرى والمصب...".

والآن، وبعدما أعلن فيصل الحسيني ذلك، مع ملاحظة أن الإعلان تم خلال مؤتمر صحافي عقده في عمان وأشار فيه إلى "أن التطورات الإيجابية بين الأردن وفلسطين تُحتم عقْد قمة قريباً بين الملك حسين والرئيس ياسر عرفات"، فإن الحديث حول "الجولان الفلسطيني" لن يبقى أسير الأبواب المغلقة، وأنه سيكون من ضِمْن جدول أعمال القمة الأردنية – الفلسطينية والقمة المصرية – الفلسطينية (قمتان قريبتان)، وجزءاً من أي محادثات تجريها القيادة الفلسطينية مع الآخرين.

وثمة نقطة جديرة بالإهتمام وتتعلق بسر التوقيت من جانب الفلسطينيين للإكثار من الحديث حول "جولانهم"، والتي تشبه أو تستكمل سر توقيت الرئيس مبارك للإعلان عن هذه الحالة العالقة. وأغلب الظن أن التوقيت الفلسطيني يعود إلى أن إثارة الموضوع مع سوريا في حال إستعادت الجولان بالكامل ستكون غير ذات جدوى وقد يصيب "الجولان الفلسطيني" ما أصاب بقية مشاكل الحدود العربية – وما أكثرها – والتي نعيش هذه الأيام موسم حلها مشكلة بعد مشكلة بحيث لا تبقى دولتان من دون ترسيم حدود لكي يهدأ البال ويتحقق الإستقرار في زمن نشْر السلام على ربوع منطقة الشرق الأوسط.

وفي تقديرنا أنه لو كانت العلاقات السورية – الفلسطينية بمثل الدفء الذي تتسم به العلاقات

المصرية – الفلسطينية، والأردنية – الفلسطينية، لما كان للجانب الفلسطيني أن يثير مسألة "جولانه" الآن تاركاً الأمر إلى ما بعد أن تستعيد سوريا الجولان كاملاً، لكن العلاقات، ومنذ سبع عشرة سنة من الحُكْم السوري وقيادة الرئيس عرفات تنتقل من توتر إلى توتر. وإذا كان من الجائز القول بأن سوريا كانت لن تتمسك بـ "الجولان الفلسطيني" بعد إستعادة الجولان كاملاً، فإنها بعدما أثار الفلسطينيون الموضوع بالأسلوب المباغت الذي جرى إعتماده قد تجعل الموضوع مثل "حلايب" ومثلما أن في الجانب المصري سودانيين أمثال الرئيس الأسبق جعفر نميري يعتبرون أن "حلايب" مصرية مائة بالمائة فإن هنالك قيادات فلسطينية، مثل أحمد جبريل وآخرين، قد ترى في حال تحولت المسألة إلى حالة عالقة أن "الجولان الفلسطيني" سوري مائة بالمائة وذلك على أساس أن الأرض لمن يدافع عنها ويحميها ويسقيها بدماء المقاتلين جنوداً وضباطاً، وليست لمن يتذكرها.

وما كان المرء يأمله هو لو أن عُقداً كثيرة تتحلحل بدل أن تضاف إلى الجسم العربي عقدة من نوع العُقد التي تصبح مع الوقت مستعصية. وقانا الله شر عقدة حلايب، تلك الشوكة على خاصرة مصر، وعقدة "الجولان الفلسطيني" التي يمكن أن تصبح شوكة على خاصرة سوريا.

... وأمر هذه الأمة إلى الله.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يوليو(تموز) 1995

* * *

المحنة البوسنية للإسلام الأشقر والتجربة النووية لـ ديغول الثاني

لمجرد أن اعلن الرئيس الفرنسى جاك شيراك في يونيو/حزيران 1995 أن فرنسا ستستأنف التجارب النووية، التي سبق لسلفه الرئيس فرنسوا ميتران أن أوقفها عام 1992، إستبدت بالفرنسيين وبقية شعوب الأرض الدهشة والخوف.

الدهشة لان رئيس بلدية باريس الذي تمكَّن من أن يصبح رئيس جمهورية فرنسا لم يطرح مثل هذا الأمر فى برنامجه الإنتخابي ولم يقل للفرنسيين أنه فى حال فوزه سيعمل على إستعادة الشأن النووي للبلاد، وإنما رسم لهم صورة زاهية عما ستكون عليه فرنسا الجديدة التي ستنفض عنها غبار المرحلة الإشتراكية، ومعالم الذبول الذي أصاب الإزدهار وترك الأثر الملحوظ على مسلكية الناس والبحبوحة التي إفتقدوها، فضلاً عن البهجة التي كانت تغمرهم. ومن جملة الآمال التي وضعهم فيها ما يتعلق بالبطالة المستفحلة التي وعد، على طريقة بيل كلينتون أيام كان يخوض معركة رئاسة الولايات المتحدة، بأنه سيعطيها كل الإهتمام وبحيث لا تعود النسبة على الإرتفاع المذهل الذي وصلت إليه في أواخر عهد الرئيس بوش.

والخوف لأن معنى إستئناف فرنسا للتجارب النووية هو أن الحرب الباردة عائدة، وأن أحلام الفرنسيين، ومحبي فرنسا، ذات الصورة الزاهية ستبقى مجرد أحلام، وأن البطالة التي جاء شيراك على أمل تقليص نسبتها ستزداد وسيكون هنالك المزيد من التقشف لمواجهة تكاليف إستعادة الشأن النووي، بمعنى أن كل فرنك يتم إنفاقه ضمن خطة العودة النووية سيكون على حساب الإحتياجات المعيشية للمواطن الفرنسي. ومثل هذا القول طبيعي إذ أن التفجير النووي ليس له مردود مالي وهو أيضاً ليس عملية تنقيب عن النفط أو المعادن الثمينة لكي يكون الإنفاق عليها نوعاً من الإستثمار المجزي وإنما هو رمي المال فى مياه المحيط.

ومن المؤكد أنه لو أوضح شيراك للفرنسيين ولبقية شعوب العالم أن برنامجه ومن المؤكد أنه لو أوضح شيراك للفرنسيين ولبقية شعوب العالم أن برنامجه فى حال فوزه بالرئاسة سيكون تحريك الشأن النووي لفرنسا، لربما كان الفرنسيون سيتصرفون عكْس ما فعلوه، ولربما كانوا يفضلون أن يأتي الإشتراكي ليونيل جوسبان، على تواضُع وعوده وعقلانيتها، بدل البورجوازي شيراك الذي يريد أن تستعيد فرنسا الشأن النووي على أساس أنه بمثابة إعادة إعتبار لها. أما بقية شعوب الأرض فكانت ستخاف لأن هذه الإطلالة النووية من جديد لفرنسا معناها أن الحرب الباردة في طريقها إلى أن تعود. ونقول ذلك مع إستثناء بسيط، وهو أن قطاعات عريضة من الرأي العام العالمي وجدت في القرار الفرنسي بعض الإيجابيات على أساس أنه إذا كان معناه عودة العالم إلى حقبة الحرب الباردة فليكن ذلك لأن تلك الحقبة كانت، على مخاطرها، أفضل من الأحوال الحاضرة عندما إنتهت تلك الحقبة إلى أن دولة كبرى واحدة تتحكم بإرادة

العالم، ونكاد نقول بمصـــيره، على أســـاس أنه عندما تفقد دولة ما إرادتها بالكامل فإن مصـــيرها يصـــبح عرضـــة للإهتزاز وللإنكســـار. وبالنســـبة لنا كعرب ومســـلمين نشـــعر، على رغم القلق من تجديد فرنســـا لشـــأنها النووي، بأن في القرار الذي إتخذه الرئيس شـيراك بعض الإيجابيات التي يمكن أن ينالنا منها في النهاية مكاســـب ملموســـة ومعنوية كثيرة. ذلك أننا ما زلنا نعاني من الإنتكاســـة التي أصـــابت حملة التعبئة التي قادتها مصـــر قبل بضـــعة أســـابيع وكان عنوانها بأن التوقيع العربي على تجديد معاهدة حظْر الإنتشـار النووي لن يتم إلاَّ إذا إنضـــمت إســـرائيل إلى لائحة الموقّعين. ثم إننا في الصـــراع المســـتمر مع العنجهية الإســـرائيلية ما زلنا في الموقف الأضـــعف، وما زالت إســـرائيل، على رغم كل التنازلات العربية ومبادرات حُسْـن النية من أنظمة عربية وإسـلامية كثيرة نحوها، تتصـــرف بمنطق الدولة الأكثر تفوقاً، وكل ذلك لأنها تملك الســـلاح النووي وتحظى بقبول الإدارة الأميركية لهذا التميز، وفي الوقت نفسه مصادرة تلك الإدارة لأي سعي عربي أو إسلامي للحصول على السلاح النووي كورقة ردْع يمكن التلويح بها في وجه الورقة الإسرائيلية النووية.

وإلى ذلك إن المحنة التي يواجهها الإسلام الأشقر في البوســـنة لا تجد طرَفاً دولياً متعاطفاً معها ســـوى فرنســـا، التي يعلن رئيســـها جاك شـيراك، وبالصـــوت العالي، أن الذي يحدُث للبوسنيين أمر مخجل أصـاب ديمقراطية الغرب الأوروبي في الصـــميم. وعندما عقد رؤساء أركان جيوش أميركا وبريطانيا وفرنسا إجتماعاً للبحث في خطوة جادة وتدخُّل عسكري يوقف الإجتياح الصـــربي المجنون، ويضـــع حداً للممارســـات المعيبة وغير الأخلاقية التي تحدُث في قلب القارة الأوروبية، فإن الجانب الفرنســـي في هذا الإجتماع وجد نفســـه وحيداً أمام موقف أميركي – بريطاني مخجل يشبه فى بعض جوانبه الموقف الأميركي عند إســـتعمال الفيتو لإجهاض قرار فيه بعض الإعتبار للعرب والمســـلمين ويقضـــي بإدانة عمليات المصـــادرة التي تقوم بها إســـرائيل لأراضٍ في القدس الشـــرقية ويدعو إلى وقْف تلك العمليات. ولكن ثبات الموقف الفرنســـي أفاد في أن إجتمـاع وزراء خـارجيـة ودفـاع الولايـات المتحـدة وبريطانيا وفرنسا وروسيا ودول أوروبية أُخرى في لندن يوم الجمعة 21 يوليو الجاري إتخذ في حق الصـــرب موقفا شـــبه متشـــدد لكنه لا يصـــل إلى ما يتمناه البوسنيون أو تحبذه فرنسا ودول أُخرى كثيرة أو تتطلع إليه الدول الإســـلامية التي لا تســـتطيع أن تفعل للبوسنيين أكثر من مؤازرتهم مادياً ومعنوياً.

وهذا ليس كل شـــيء. فمثلما أن العرب وصـــلوا عملياً، وفي ضـوء المسـار الأميركي في شـأن عملية السلام في الشرق الأوسط إلى ما يشبه الإقتناع بأنهم باتوا مجردين من الســـند الدولي لموقفهم، لأن الإدارة الأميركية لا تكتفي فقط بدعم الجانب الإسـرائيلي وإنما تعرقل أي تفهم دولي للجانب العربي، فإن المســـلمين، العرب وغير العرب، وجدوا في ضـــوء محنة الإســـلام الأشـقر في البوسـنة أن روسـيا هي في موقف الضـد لهم ماضـياً وحاضـراً. ففي الخمسـين سـنة التي سـبقت سـقوط الإتحاد السـوفياتي (اي مرحلة الحُكم الشـيوعي وقبضته الحديدية) كان الإتحاد السوفياتي ضد الإسلام كدين تبنياً من جانبه لزعم «الدين أفيون الشـــعوب». وبعد سـقوط الإتحاد السـوفياتي، وسـقوط الماركسـية كعقيدة، وقيام روســـيا التي تناهض الخط الشـــيوعي نفاجأ بأن روسـيا الجديدة، غير الشـيوعية، هي ضـد المســلمين، وإلاَّ فما معنى أن تتصــرف في موضــوع الصـــرب بالطريقة نفســها التي تتصـــرف بها الولايات المتحدة عندما يكون هنالك موقف لمصـــلحة إســـرائيل حيث أنها تتبنى هذا الموقف وتتحمس لـه أكثر من إسرائيل نفسها.

وقد يجوز القول إن روســـيا عندما تقف إلى جانب الصـرب ضـد المسـلمين ويشـكِّل وقوفها من خلال حق الفيتو الذي تملكه أكثر الأوراق قوة، فإنها لا تفعل ذلك إلاَّ لإطمئنانها سلفاً أن الموقف الأميركي – البريطاني ليس ضـــمناً ضـــد موقفها، بل إننا من باب الإفتراض نقول إن الولايات المتحدة وبريطانيا وجدتا في الموقف الروسـي ما من شـأنه أن يخفف الإحراج عنهما لأنهما لأسـباب أوروبية وإسـلامية لا تريدان الظهور بمظهر المؤيد العلني لأفعال الحرب، ثم يأتي الموقف الروسـي وكأنما هو ينوب عنهما في التعبير.

وهكذا نجد، كعرب ومسـلمين، أنفسـنا عندما يعلن الرئيس شـيراك أن فرنسـا سـتسـتأنف التجارب النووية نرحب ترحيب المضـــطر والمغلوب على أمره، وننظر إلى الأمر بعين الرضـى أو القبول الضـمني، بل وإلى حد الإبتهـاج على رغم مـا في الخطوة الفرنســـية من سـلبيات. ذلك أنه اذا كان محظوراً علينا إمتلاك السـلاح النووي فعلى الأقل تطمئن بعض الشـــيء إلى أن هنالك الدولة التي نلتقي معها على بعض النقاط، وما دام هنالك

نقاط إلتقاء فإن من مصلحتنا أن يتزايد شأن تلك الدولة فلا يتم التعامل معها من جانب الدولة الأعظم (الولايات المتحدة) كدولة تابعة وإنما كدولة لها موقفها المستقل ولها إرادتها التي لا تتساهل في شأنها.

وتلك هي في أي حال الروح التي تركها كتراث فى نفوس مريديه ومقدِّري عدالة مواقفه، الجنرال ديغول.

ولكننا في الوقت نفسه نخشى أن يصيب الرئيس شيراك ما أصاب الجنرال ديغول من قبْل حيث تم توجيه ضربات غير متوقعة له. ومثلما أن الولايات المتحدة ومعها بريطانيا إلتقت (في الستينات) مع الإتحاد السوفياتي من دون إتفاق مكتوب على كسْر الهيبة الفرنسية بشخص الجنرال ديغول وكان لها ما أرادت تساندها الصهيونية العالمية، فإن الولايات المتحدة قد تكرر (في التسعينات) الأمر نفسه ومع الحلفاء أنفسهم بصرف النظر عن إختلاف التطلعات أو العقيدة. ولكن ثقتنا كبيرة بصلابة الموقف الفرنسي وبأن الرئيس شيراك مستوعِب تماماً لظروف المرحلة الديغولية الماضية وفي الوقت نفسه يملك القدرة على التمييز بين السلبيات والإيجابيات فيتجاوز مستفيداً من دروس الماضي حقل الألغام فلا يقع فيه كما حدث للجنرال ديغول. وبين ديغول الأول وديغول الثاني كم هائل من الدروس التي يمكن أن تفيد مَن يريد الإستفادة.

وأغلب الظن أن ديغول الثاني جاك شيراك غير المسكون بهاجس العظمة التي كان مسكوناً بها سَلفه ديغول الأول (شارل ديغول) سيكون أكثر إستعداداً لممارسة المرونة بحيث تستعيد فرنسا شأنها النووي من دون أن يصل التحدي إلى درجة التقاطع مع الدولة الأعظم. ونحن كعرب وكمسلمين لا نتطلع إلى أكثر من توافر الدولة الكبرى التي تتفهم ظروفنا وبالذات عندما تكون هنالك محنة كتلك التي يواجهها الإسلام الأشقر في البوسنة والتي تشبه إلى حد ما في بعض جوانبها تلك المحنة التي عاشها الشعب الفلسطيني.

... وبين الحين الآخر، يصح القول بأنه ما أشبه الليلة بالبارحة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 يوليو (تموز) 1995

* * *

مبادرة غير مستَحبة

حتى الآن لا ندري ما هي الحكمة من تلك العملية الأردنية – الإسرائيلية المشترَكة التي تمت يوم الثلاثاء 25 يوليو (تموز) الماضي. ففي ذلك اليوم وبناء على إقتراح سبق أن عرضه الملك حسين على رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين ويقضي بتنظيم حملة دعم إنساني مشتركة لإغاثة شعب البوسنة، إنطلقت طائرة أردنية من عمان في طريقها إلى سبليت في كرواتيا محمّلة أربعين طناً من الأغطية والأدوية والمعدات الطبية والأغذية وعلى متنها وليّ عهد الأردن الأمير الحسن بن طلال إضافة إلى فريق طبي. وقد تفقَّد الملك حسين الطائرة وسأل عن طبيعة المساعدات المرسَلة وقال إن الطائرة ستنقل في رحلة العودة عدداً من الجرحى البوسنيين لإستضافتهم في عمان والإشراف على علاجهم. وفي الوقت نفسه إنطلقت من مطار بن غوريون في تل أبيب طائرة إسرائيلية محملة 12 طناً من الأغطية والخيام وستة أطنان من المعدات الطبية والألبسة والحلوى.

وكانت المساعدات حصيلة "حملة تعبئة وطنية" شاملة جرت قبْل ذلك (الجمعة 21 يوليو/ تموز) وتضمنت برنامجاً تلفزيونياً على الهواء لجمع التبرعات شارك فيه هاتفياً كل من الملك حسين ورابين وجمعت الحملة سبعة ملايين دولار وعشرات الأطنان من المساعدات العينية.

ولقد شاهد الأردنيون والعرب والمسلمون على شاشات التلفزيون وعلى صفحات الصحف الملك حسين وهو في غاية الإبتهاج وإلى جانبه زوجته الملكة نور ينزلان سلم الطائرة الأردنية التي كُتب على جسمها باللغة الإنكليزية وبأحرف مجسمة عبارة JORDANIAN ISRAELI MISSION TO BOSNIA (الحملة الإنسانية الأردنية – الإسرائيلية للبوسنة).

ومع أن الملك حسين يعرف مدى الحساسية التي تثيرها مثل هذه المبادرة في نفوس العرب والمسلمين في الأردن والعالم، إلاَّ أنه لم يوضح الحيثيات التي توجب مثل هذه المبادرة مكتفياً بتوضيحات قد تلفت نظر الأجانب جاءت في سياق مقابلة صحافية معه وقال فيها: "إن إرسال المساعدات يتزامن مع الذكرى السنوية الأولى لإعلان واشنطن الذي مهَّد الطريق لإبرام معاهدة السلام الأردنية – الإسرائيلية المشتركة في 26 أكتوبر (تشرين الأول) 1994 وأن العرب

واليهود والأردنيين والإسـرائيليين الذين يرتكزون إلى خلفية مشـتركة من المعاناة يعملون الآن معاً من أجْل القضـايا الإنسـانية في العالم...". وزاد إلى ذلك القول إن الأردن سـبق أن أرسـل (قبْل أسـبوع من العملية المشـتَرَكة) طائرتيْن عسـكريتيْن إلى البوسـنة على متنهما 25 طناً من المسـاعدات الإنسـانية و"إن الأردنيين ساهموا في توفير الدعم الإنساني لمساعدة شعب البوسنة ورفع المعاناة عنه...".

ونجدة البوسنيين في محنتهم بدأتْها المملكة العربية السـعودية منذ أن بدأ الظلم الصـربي يحيق بشـعب البوسـنة وأخَذها على عاتقه أمير الرياض سـلمان بن عبد العزيز فحوَّلها من عمل خير إلى ما يشبه الواجب على المسلم ومن أجْل ذلك نجحت بدليل أن البوسنيين لو لم تتحقق لهم المقومات الإنسـانية والمعيشـية للصمود لما كان العالم وعلى مستوى الدول الكبرى أن ينشغل ولو متأخراً بقضيتهم. ولا تزال النجدة السعودية تتواصـل وتتصـاعد وتيرتها ويزداد مردودها. وكيف لا تكون النتيجة طيّبة ما دام خادم الحرميْن الشـريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز يوصـي خيراً بها ويدرجها بين الحين والآخر ضـمن مداولات مجلس الوزراء وبذلك باتت محنة البوسنيين من الإهتمامات والمشاغل السعودية على مستوى الدولة والمواطن.

ومن هنا فإنه عندما ينبري الملك حسـين ويقوم بواجب نجدة البوسـنيين، ويقوم بالواجب أيضـاً قادة مسـلمون آخرون فإن ذلك يعكس حقيقة ما يجب أن تكون عليه مشـاعر المسـلمين نحو بعضـهم البعض وبالذات عندما تلم بأحدهم شـدة أو تفاجئه محنة أو يحيق به ظلم بصـرف النظر عما إذا كان هذا الظلم أتى من ذوي القربى كما حدث للكويت يوم 2 أغسطس (آب) 1990 عندما تعرضـت للغزو العراقي، أو أتى من أبنـاء الأرض الواحـدة كمـا يحـدث للبوسـنيين المسلمين من البوسنيين الصرب المسيحيين.

ولكن نجدة الملك حسـين فاجأت المسـلمين في الأردن والمسلمين في العالم وفاجأت أيضـاً المسلمين في البوسـنة نفسـها. وأغلب الظن أن المسـلمين في الأردن، رَبْع الملك وأولئك الذين يحاولون مشـاكسـة حكومته وسلامه الذي أبرمه مع إسرائيل، يشعرون أن هذه النجدة بالشكل الذي تمت فيه كانت غير مستحبة وأنها بدل أن تكون مبادرة يذْكرها الناس بالخير فإنها أتت مبادرة لا يريد أحد الخوض فيها إما لأنه ضـدها وإما لأنه لا يريد خدْش مشـاعر الملك حسـين بإبداء ملاحظات تعترض على الأسلوب.

ونحن لا ندري ما الذي أراده الملك حسين من هذه المبادرة ولماذا هذا الإشهار الحاد والإستفزازي لها. وإذا كان الملك يريد من وراء النجدة المشـتَرَكة لفت أنظار العالم إلى محنة البوسنيين فإن وسائل الإعلام العالمية تقوم بهذه المهمة على أكمل وجه. وإذا كان يريد تحريك همة يهود العالم لكي يكونوا مساندين للبوسنيين في محنتهم فإن ذلك لن يحدُث وهو في أي حال لم يحـدُث، ولن يوظِّف يهود العـالم قـدراتهم المـاليـة والمعنوية لنجدة البوسـنيين تجاوباً منهم مع المبادرة الأولى في تاريخ العلاقات الإسـلامية – الإسـرائيلية والتي إبتكرها الملك حسـين الذي سـجل على مدى السنتيْن الماضيتيْن لفتات ومبادرات ذات طابع إنساني يعتقد أنه من خلالها يحرك المحاولات المتعثرة لتحقيق التطبيع مع إسرائيل.

وإلى ذلك أنه لو كانت هنالك مشاعر إنسانية لدى الحُكْم الإسرائيلي لأمكن إعتبار المبادرة أنها مجرد لقاء حول مفهوم إنساني، لكن حكومة إسرائيل التي أشرك الملك حسين رئيسها إسحق رابين في مبادرته تمارس في حق المسـلمين داخل الأراضـي المحتلة وعلى الجبهة مع لبنان ما يمارسـه صـرْب البوسـنة مع المسـلمين. وفي ضـوء ذلك يجوز التسـاؤل: كيف يشارك رابين في حملة إغاثة طرح فكْرتها الملك حسين لمساعدة مسلمي البوسنة، بينما هو لا يختلف كثيراً في منهجيتـه وفي الأوامر التي يوجههـا إلى الجيش الإسـرائيلي عن رادوفان كاراجيتش الذي يتزعم صـرب البوسنة أو رانكو ملاديتش قائد الميليشيات التي تفتك بالمسـلمين في البوسـنة وتدمر معالم الحياة في البلد الذي يدفع الثمن الباهظ؟

لكن الملك حسين من جهة أُخرى قد يكون بمبادرته تلك وباللفتات ذات الطابع الإنسـاني من نوع التحليق بطائرته فوق القدس وتوجيه التحية منها أو إستضـافة وفد برلماني إسـرائيلي موسـع إلى مأدبة عشـاء في القصـر الملكي في عمان وإرسـال طائرة خاصـة لنقل النواب إلى العاصـمة الأردنية، أو حث رجال الأعمال الأردنيين على خوض غمار العمليات المشـتَرَكة مع رجال الأعمال الإسرائيليين، أو الاطمئنان اليومي على مسيرة التطبيع وهل أن عدد الإسرائيليين الذين يزورون الأردن في تَزايد، أو الإبتهاج بإفتتاح مطعم يهودي في عمان، أو الإستنكار بكل الشدة العملية التي إستهدفت الأوتوبيس الإسـرائيلي قبْل أيام، وصـولاً إلى المبادرة

المشترَكة في شأن البوسنة، أو إستضافة هاوٍ لاسلكي إسرائيلي إلى فنجان قهوة في قصر الملك في العقبة... إن الملك حسين بهذه المبادرات واللفتات يبدو مثل مروّض الأسود يحاول قِدْر الإمكان ومن خلال مبادراته ولفتاته تلك تقريب إسحق رابين وأهل الحُكْم الإسرائيلي على التعايش مع العرب والمسلمين والتعود على المبادرات التي تنسي الناس في العالمين العربي والإسلامي شر أعمال الإسرائيليين حتى بعدما إنطلقت مسيرة السلام. لكننا بالنسبة إلى مبادرة من نوع المبادرة البوسنية لا ننظر إليها على أنها محاولة من محاولات الترويض، وإنما هي إجتهاد غير موفق وعمل لا تمليه الضرورات. وكم كنا نتمنى لو أن حملة الإنقاذ كانت أردنية – فلسطينية فقط وكانت تضم مسلمي ومسيحيي الأردن وفلسطين. وهي لو كانت كذلك لبدت في نظر العالم والبوسنيين أن الذين يقومون بها ذاقوا وما زالوا يذوقون ويلات الأشرار في العالم من نوع الشرير الصربي رادوفان كاراجيتش الذي يتحدى القوانين والشرعية الدولية تماماً على الطريقة التي يتحدى بها حكام إسرائيل هذه القوانين وتلك الشرعية.

وتشاء المفارقات أن الإثنين يفعلان ذلك وأن ظهريْهما يستندان إلى إرادات دولية تعترض علناً وتدعم سراً، وإلاَّ فما معنى أن المحنة البوسنية مستمرة وأن الخارجين على الشرعية الدولية يواصلون التحديات لكل مَن يعترض على ما يحدث في البوسنة ولمسلميها؟

وما دام الأمر كذلك أليس من الأفضل لو أن الملك حسين لم يُشرك رابين والإسرائيليين في نجدة المسلمين في البوسنة وإكتفى بتقديم واجب المساعدة على طريقة اليمن الذي تبرع أهله بأجر يوم واحد أو على طريقة دولة الإمارات التي نظَّمت حملة تبرعات تُذِّكر من حيث الحماسة التي إتسمت بها بالحملة الدائمة التي تتصاعد في المملكة العربية السعودية؟ وأهمية هذه الحملات والتبرعات أنها لنجدة البوسنيين وتخفيف معاناتهم من المحنة القاسية التي يعيشونها بينما المبادرة الأردنية جاءت في بعض جوانبها لنجدة البوسنيين... ورابين في وقت واحد بصرف النظر عما إذا كان ذلك هو الغرض أم أن الأمور إنتهت على النحو الذي إنتهت إليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1995

* * *

القذَّافي ثالث المشاكسين.. و"دولة العرب المتحدة"

تربطني بالعقيد معمَّر القذَّافي صداقة بدأت بعد بضعة أشهر من قيام ثورة الفاتح من سبتمبر (أيلول) 1969 وهي مستمرة يتخللها، بين الحين والآخر، بعض الغضب على تحليل كتبْتُه، أو بعض العتب على وجهة نظر أبديتها كتابة، أو خلال جلسة تنظيرية مع الأخ معمَّر، أو على هامش مناقشة عامة في خيمته، يشارك فيها بعض الزملاء وأهل السياسة من زوار ليبيا أو أصدقائها أو حلفائها. ويشاركني زملاء كثيرون إلتقوا العقيد القذَّافي داخل خيمته الشهيرة قرب طرابلس، أو في سرت بين أهله ورَبعه، الإعتقاد أن مجلسه من أكثر المجالس السياسية حيوية لكثرة ما تتخلل الجلسة من مناقشات وإستطرادات ومداخلات.

ولأن لقائي الأول بالعقيد القذَّافي أوجبتْه رغبة الزعيم الليبي في مناقشة تحليل كتبتُه ويتعلق بشخصه وبالجامع الأزهر، فإن كل اللقاءات التي جرت بعد ذلك كانت تسودها الرغبة في المناقشة، الأمر الذي جعل الأحاديث التي أجريتُها معه تتجاوز التقليد المتبع وهو طرْح الأسئلة وتسجيل الأجوبة. وهو في إستمرار كان رحْب الصدر حتى عندما يغضب أو يعتب.

ولقد أردتُ من هذه الأسطر التمهيد لواقعة حدثت قبْل أن يوعز العقيد القذَّافي بتنظيم المسيرة الوحدوية الشهيرة التي وصلت إلى مشارف الحدود المصرية وقرار الرئيس (الراحل) أنور السادات منْعها من مواصلة التقدم نحو الإسكندرية ثم القاهرة ولو تطلَّب الأمر إستعمال القوة.

كانت الأجواء زمنذاك في غاية التوتر. فالقيادة الليبية تريد الوحدة مع مصر وترفض أي ترِيُّث أو تأجيل. والرئيس السادات وحدوي لفظاً لكنه في الحقيقة ليس ميالاً إلى أي صيغة وحدوية مع ليبيا. ومِن هنا جاءت فكرة المسيرة الوحدوية التي قطع فيها المشاركون ألفيْ كيلومتر. ومع أنها لم تُحقق الغرض المنشود إلاَّ أنها دخلت تاريخ الوحدة المتعثرة كمسيرة لا مثيل لها.

والذي جعل موقف السادات في عدم التجاوب مع الرغبة الليبية هو أن الوحدة العربية ليست قضية في مصر، وأن الوحدويين أفراد قلائل وفي أوساط المثقفين. والدليل على ذلك هو أن البذرة التي زرعتْها

"حركة القوميين العرب" لم تنبت في مصر وكذلك بذرة حزب البعث. وقد يتبين أن ذلك كان من حُسْـــن حظ مصـر. ولو أن الوحدة كانت قضـية في مصـر، مثلما هي الحال في ليبيا التي ضـــربت ثورتها منذ البداية الرموز الوحدوية الحزبية من البعثيين وحركة القوميين العرب، لكـان السـادات ربمـا تعرَّض للضـغط الجمـاهيري. لكن الضـغط لم يحـدُث من جـانـب الجمـاهير وهو من جـانبـه لم يفرض الوحـدة على الطريقة التي فرضـــها الرئيس (الراحل) جمال عبد الناصـــر على المصـــريين فإرتضـــوها مســايرة منهم لرئيسهم وإستمروا وحدويين إلى أن ذاقوا الويلات على أيدي الإنفصاليين من السوريين.

وسْـــط هذه الأجواء كان لي لقاء مع العقيد معمَّر القذَّافي ووجدْته مهموماً بأمر الوحدة، ويفترض أنها آتية لا ريب فيها لأكثر من ســـبب من بينها أن ليبيا تشكِّل نقطة جذب للسادات بسبب تفاقم مشاكل مصر الإقتصـــادية، وأن الوحدة هي لمصـــلحته ومصـــلحة المصـــريين قبْل أن تكون لمصـــلحة القذَّافي الذي كان هاجسـه بعد أربع سـنوات على قيام ثورة الفاتح هو أن يقال بأنه صانع الوحدة.

ومثلما هي الحال في كل لقاء، فإنني بدأتُ الكلام بناء على طلب الزعيم الليبـــــي وكان حول الوحدة والعمل الوحدوي وما أتمناه كمواطن في هذه الأمة. وهو كان حريصاً على أن يسمع كمغاربي مني مشاعر المشـارقة تجاه سـعيه الوحدوي خصـوصـاً أن أبناء مشـرق الأمة، وبالذات سـوريا والعراق ولبنان والأردن وفلســـطين كـانوا الجمهور الأكثر حمـاســـة طوال الخمســـينات والســـتينات للوحدة العربية والمشـــاريع الوحدوية ومن بينهم برزت قيادات فكرية صـــاغت عقائد للعمل الوحدوي. ولقد لاحظتُ وأنا أُذكر أمام العقيد القذَّافي إسم ميشـال عفلق وإسم الدكتور جورج حبش، كـأهم إثنيْن من قـادة الفكر القومي نجحـا في إنشـاء أهم حزبيْن وحدوييْن، أنه ممتعض على أسـاس أنهما من المسيحيين العرب، ثم صدرت عنه ملاحظة قاسـية بعض الشـيء لأنني قلت إن كون عفلق وحبش من المســـيحيين هو دافع للمســـيحيين العرب لكي لا يخشـــوا الوحدة العربية وبذلك يتحمســـون لها. أما الملاحظة القاســـية فتمثلت في قول العقيد القذَّافي: لا أعتقد أن ذلك صحيح لأن المسيحيين العرب في حزب البعث أو في حركـة القوميين العرب أفراد قلائل وأن كون عفلق وحبش مؤســـســـيْن لحزبين وحدوييْن أبعد المســـيحيين العرب عن العمل الوحدوي وبذلك صـــار عفلق وحبش زعيميْن مســـيحييْن لجماهير مســـلمة عريضـة وهذا خلل جوهري وستتبين نتائجه السلبية في زمن ليس بالبعيد حيث أن المسـلمين العرب لن يعودوا متحمسين للوحدة العربية.

على رغم ما تثيره وجهة النظر هذه من شـــغف المناقشة فإنني وجدتُ نفسي أطرح بعض الأفكار على العقيد القذَّافي كـانت تكونت في ضـــوء واقع الحال المرير للعمل الوحدوي وفي ضـوء مناقشـات رحبة مع عـدد من الإخوة في مصـــر التي كنـت أزورهـا في مهمات صـــحافية مرة على الأقل كل شـــهر، وعندما كنت أعود من القاهرة إلى بيروت كنت أضـــع على الورق الكثير من الملاحظات التي ســـمعتها من إخوة مصـــريين وهي ملاحظات ســـاهمت إلى جانب غيرها من الأفكـار التي طرحتُهـا أمـام العقيـد القذَّافي أكثر المهمومين العرب بأمر الوحدة.

بدأتُ الكلام بعد الإســـتئذان قائلاً إن ليبيا هي الدولة العربية الوحيدة المحكومة من قيادة تضـم شـباناً في ســـن متقاربة (معدل أعمار أعضـــاء مجلس قيادة الثورة الليبـــــي كان 30 ســنة) تؤازرهم مجموعة من المدنيين في معدل الســـن نفســـه. وليبيا بلد مترامي الأطراف كأنه شبه قارة فيه الصحراء والساحل والوادي والجبل. فيه الأرض الزراعية وفيه مســـاحات هائلة قابلة للإستصلاح. وما تحت الأرض الليبية من ثروات معدنية كثيرة جداً، والنفط هو ثروة من هذه الثروات. وليبيـا بلـد المنـاخـات المتعـددة والموقع الجغرافي والإستراتيجي البالغ الأهمية حيث إنها الضـفة الأُخرى المقابلة لأوروبا. وعدد ســـكان ليبيا لا يتجاوز (في حينه) ثلاثة ملايين نســـمة وهذا غير متناســـب مع مســاحة البلاد. وحيث إن النفط ثروة هائلة ومســتمرة، وإن ليبيـا تحتـاج إلى ربع قرن من البنـاء وإقـامـة المشـاريع والتطوير، وقيادتها الجديدة الثورية والشـابة والمشـــتعلة حماســـة تعتبر أن واجبها تحقيق الوحدة العربيـة، وبمـا أن تحقيق وحـدة الأقطـار العربيـة أمر شـبه مسـتحيل، وأولها مصـر التي تعتبر القيادة الليبية أن الوحدة معها أمر يسير وهو لا ينقصـه سوى إعلان ذلك من الإذاعة.. لهذه الأســـباب، ولأســـباب أخرى كثيرة، فإن الحل الأكثر معقولية، والذي لن يقف أحد ضـده، والذي من السـهل البدء به على الفور هو إقامة وحدة عربية داخل ليبيا بحيث تصـــبح مثل الولايات المتحدة.

كيف ذلك؟

يتم فتْح أبواب ليبيا أمام العرب من المحيط إلى الخليج، وتتاح أمامهم فرص العمل، وتُعطى الأفضلية لذوي الكفاءات وتُسن لهذا الغرض القوانين التي تجعل العربي القادم إلى ليبيا متمسكاً بها أكثر مِن تمسُّكه ببلده، لأنها وطنه الجديد، أو يكون ولاؤه لها تماماً مثل ولاء الإنكليزي الذي هاجر إلى الولايات المتحدة، قبْل أكثر من مئتي سنة، وحذا حذوه الفرنسي والإيطالي والإيرلندي والإسباني واليوناني والبلغاري والروماني والبرتغالي وكثيرون من دول العالم الأُخرى بينهم بعض العرب.

وتكون ليبيا بذلك هي الولايات العربية المتحدة وهي بالفعل دولة الوحدة التي ستصبح خلال نصف قرن قائدة وقدوة.

ولكن ذلك يتطلب أن تكون الدولة غير ثورية، وتكون الديمقراطية مصونة يحميها دستور وقانون يراعي تنوع الألوف الذين سيفدون إلى الوطن الجديد، وتكون الحياة سهلة وطموح العاملين في الدنيا العربية الجديدة لا حدود له.

وتصبح ليبيا مع الوقت البلد الذي يحلم العربي في أن ينتسب إليه أو يستثمر فيه ويحلم الأجنبي في أن يعمل فيه. كذلك تصبح ليبيا مع الوقت البلد الذي تصدر فيه أفضل الصحف وتنشأ فيه أفضل محطات التلفزيون وأفضل المسارح ودور السينما.

لم يستغرق الكلام مني أكثر من ثلاث دقائق لكنني لاحظتُ أن العقيد القذَّافي إنهمك لمجرد أن أنهيتُ الدقيقة الأولى من الكلام بأوراق كانت أمامه وأمسك بقلمه وكتب على الورقة. ماذا كتب؟ لا أدري. وإن كنت إفترضتُ أنه ربما سجل خلاصة للأفكار التي قد تكون إستهوته. وفي الوقت نفسه شعرت عندما قال العقيد، بعدما أنهيتُ الكلام، "عن أي أمر كنا نتحدث؟"، إن كلامي ربما أشعره بالملل فأمسك بالأوراق الرسمية التي أمامه والتي تحتاج إلى قراءة وتدوين ملاحظات لعلني أستنتج أن ما أقوله لا يلقى القبول لديه ومن أجْل ذلك فمن الأفضل الإنتقال إلى موضوع آخر أستفيد منه كصحافي يُجري حديثاً مع رئيس دولة.

بعدما انتهت المقابلة إرتأيتُ إغفال ذكْر الأفكار التي أوردتُها في الدقائق الثلاث إفتراضاً مني بأن العقيد القذَّافي قد يكون كتب خلاصتها على الورق أمامه بهدف أن يدرجها ضمن الأفكار والمشاريع القابلة للتنفيذ. وفي مثل هذه الحال لا يجوز لصحافي أن ينسب لنفسه هذه الأفكار، أو أي أفكار يرتاح لها رئيس دولة، فيعمل على تطبيقها. وها أنذا بعد إثنين وعشرين عاماً على ذلك اللقاء أتابع مثل كثيرين أخبار ترحيل ألوف العمال العرب، بما في ذلك حوالى خمسين ألف فلسطيني، من ليبيا المحاصرة. أي بمعنى آخر يحدُث عكس ما تمنيناه وما إفترضْنا أن العقيد القذَّافي إرتاح لسماعه وسجَّله على الورق في ذلك اللقاء معه في باب العزيزية.

والمعذرة من هذا الكلام الشخصي، لكن الحديث هو عن واقعة باتت جزءاً من الماضي وأوجبت الإشارة إليها هذه الظروف التي إنتهت إليها ثورة الفاتح من سبتمبر (أيلول) التي ضاق صدرها بكل ما هو عربي، لإعتقاد من قيادتها أن ما أصاب ليبيا سببه العرب في الدرجة الأولى لأنهم لم يتجاوبوا مع إندفاع قيادتها الثورية نحو الوحدة. وهي مشاعر سببها أن الحصار طال وإشتدت وطأته على الذين في موقع القيادة بعدما أغلقت الأمم المتحدة كل منافذ الإنفراجات.

وفي تقديري إن العودة إلى فكرة ليبيا "دولة العرب المتحدة" ما زالت مناسِبة للعقيد القذَّافي في عمره الثاني، إلاَّ إذا كانت الأمم المتحدة بالأصابع الخفية التي تُحركها قررت أن الحُكْم الذي يقوده الأخ معمَّر يجب أن ينتهي ما دام يواصل تمرده على زعيمة النظام العالمي الجديد التي لا تتحمل المشاكسين سواء أكانوا مثل المشاكس المخضرَم العقيد معمَّر القذَّافي، أو المشاكس المستجد الرئيس الفرنسي جاك شيراك، ناهيك عن كبير المشاكسين الرئيس صدَّام حسين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1995

* * *

"أبو علي" العراقي وأخوه...على إبن عمه الرئيس (موضوع واحد في 3 مقالات)

□ المقالة الأولى: الصعود الصاروخي... وتقاليد المؤسسة العسكرية

كأنما كُتب على الأردن أن يكون شهره الثامن عراقياً. ففي الوقت الذي كانت المملكة منتشية بنجاح مهرجان جرش وتتويج المطرب العراقي كاظم الساهر نجماً ساطعاً لدورة 1995، إذا بالفريق أول حسين

كامل، أحد النجميْن الساطعيْن في سماء السياسة العراقية منذ أحد عشر عاماً يدخل الأردن على رأس رتل رسمي ثم يتمّ الإعلان رسمياً عنه كأهم لاجئ سياسي، مكانه أحد القصور المَلَكية وليس أحد بيوت الضيافة، أو بعض أجنحة الفنادق الممتازة. ومنذ اللحظة الأُولى لدخول "أبو علي" ديار "أبو عبدالله" مغادراً إلى غير رجعة ديار "أبو عدي" زلزلت العلاقة العراقية – الأردنية زلزالها فلم يعد هنالك من يتحدث عن السلام الأردني – الإسرائيلي ولا عن التطبيع المتعثر وإنحصر الحديث في الضيف العراقي الرفيع الشأن الذي ليس واضحاً ما إذا كان حضوره المتوقَّع، على حد ما أوضحت ذلك التطورات وبعض أطراف التصريحات، سيعود بالخير الوفير على الأردن بحيث تعيد المملكة ترتيب وصياغة وتطبيع علاقاتها التي اضطربت بسبب مؤازرتها للحُكْم العراقي بعد غزو الكويت يوم 2 أغسطس (آب) 1990، أم أن الإنفتاح الموعود الناشئ عن السلام مع إسرائيل وما يحمله هذا الإنفتاح مِن مكاسب مالية وتجارية وإقتصادية، سيتأثر نتيجة أن الإستقرار سيبقى عرضة للإهتزاز بين الحين والآخر، إذا حدث أن إستقر الرأي الدولي والإقليمي على أن يكون الأردن هو الساحة التي تنطلق منها عملية التغيير في العراق التي تحدَّث عنها الملك حسين في مقابلة أجرتها معه صحيفة "يديعوت أحرونوت" يوم الإثنين 14 أغسطس (آب) وقال فيها: "إن ما جرى ذو مغزى كبير للعراق وللمنطقة بأسْرها وإن الوقت قد حان للتغيير في العراق وإن التغيير سيكون للأفضل..".

وواقعة لجوء حسين كامل إلى الأردن حالة جديدة من حالات الصراع بين الرجل الأول في النظام والرجل الثاني، وبالذات في النظام الثوري حيث يكون الرجل الثاني عادة من صُنْع الرجل الأول، وليس تطبيقاً لشرعية دستورية أو نتيجة الإنتخاب، أو وفْق عُرْف هنالك تفاهم في شأنه، بحيث يبدو وكأنه مادة في دستور.

ومن خلال متابعة أحوال بعض النُظُم الثورية يكتشف المرء مدى قلق الرجل الأول من الرجل الثاني ومدى معاناة الرجل الثاني عندما يستبد به الشعور بأن بينه وبين أن يصبح الرجل الأول قفزة، أو عندما يفقد الرجل الثاني السُلطة التي كان يتمتع بها، فيفقد تبعاً لذلك توازنه. وعلى سبيل المثال فإن الرجل الثاني في الحقبة الناصرية، المشير عبد الحكيم عامر، لم يتحمل بعد حدوث الهزيمة عام 1967 أن يقال عنه إنه المسؤول عن ذلك فإستنفر مجموعة من الضباط المستفيدين من كرَم مساعداته والمحظيين بحصص من الإمتيازات التي كان يخصهم بها، وقرر أن يستبق أي إجراء يمكن أن ينال منه ويُنفذ محاولة إنقلابية ضد الرجل الأول جمال عبد الناصر. وعندما إنكشف الأمر فإنه إنتحر أو إنتحروه.

ومثلما أن جمال عبد الناصر هو الذي جعل من عبد الحكيم عامر الرجل الثاني، من دون أن يأخذ في الإعتبار أن تقاليد المؤسسة العسكرية المصرية لا تتحمل أن يقودها مَن ليس محترفاً ومتدرجاً في المناصب العسكرية، فإن الرئيس صدَّام حسين هو الذي جعل من حسين كامل الرجل الثاني في النظام، وتصل به الحال إلى حد وضْعه على رأس المؤسسة العسكرية من دون أن يأخذ في الإعتبار أن للمؤسسة العسكرية العراقية تقاليد لا يتحمل بموجبها مَن هو في الموقع الأعلى أن يقوده مَن هو في الموقع الأدنى. بل إن مكانة حسين كامل كرجل ثان في النظام فاقت بكثير مكانة عبد الحكيم عامر، ذلك أن الرئيس صدَّام حسين وضع حسين كامل على رأس أكثر الوزارات والهيئات حساسية في الدولة. وعندما يجد ضابط شاب، لم يتجاوز السابعة والعشرين (في منتصف الثمانينات) ولم تَعركه تجارب الأيام، نفسه وهو على رأس أهم مؤسسات الدولة وأكثر الناس إقتراباً من رأس صدَّام حسين فهذا يعني أحد إحتماليْن. إما أن هذا الشاب سيقفز نحو الموقع الأول من خلال لعبة دولية، أو من خلال قفزة مَن يهوى المغامرة وتكون هذه القفزة في الهواء ومخاطرها كثيرة. ومِن هنا فإن حسين كامل، خلافاً لنظرة كثيرين له، تصرَّف ضِمن عقل منظم وغادر العراق، ليس تحت وطأة الإحتجاج وإنما كخطوة أولى نحو الوصول إلى الموقع الأعلى. وهو إختار اللجوء إلى الأردن لأنه لا يستطيع أن يُحدث التغيير من خلال العائلة ما دام ليس كبيرها، أو من خلال الحزب لأنه أصلاً ليس بعثياً بمعنى الإيمان بالعقيدة والعمل على رفْع رايتها، أو من خلال إنقلاب عسكري لأن المؤسسة العسكرية لا تتحمل مَن أصبحوا قادة فيها نتيجة الصدفة أو الظروف المتشابكة من نوع الظروف التي أوجبت هذا الصعود الصاروخي لحسين كامل، لأنه فقط صِهْر الرئيس، ولأنه ابن عم له. وعندما نقول ذلك فإننا نأخذ في الإعتبار أن مؤسسة الجيش في العراق متمسكة بتقاليدها على رغم الهزات

التي تعرضـــت لها وعلى رغم الحروب التي واجهتْها والمرارات التي صـــادفتْها. ومِن هذه التقاليد أنها تمنح عن طِيب خاطر رضـــاها لمن يمنحه الرئيس رتبة عسـكرية فخرية وتكون هذه الرتبة (فريق أو فريق أول على سـبيل المثال) مثل الدكتوراه الفخرية التي تمنحها جامعات لبعض مَن لهم أيادٍ بيضاء في الحياة العامة، لكن المؤسسة تكتم غيظاً عميقاً إذا تمّ منح الرتبة لمن في نظرها لا يستحق. أما إذا كان المنْح بهدف تمكين الشخص من تسلُّم مركز القيادة فإن بعض القادة الذين تدرَّجوا في المؤسسة ضِمْن الأصول ولهم تاريخ يشهد بذلك، يتحملون لبعض الوقت لكنهم في لحظة ضِـيق يعبِّرون عما في أنفســهم من عدم قبول لذلك. ولقد لمس حسين كامل بنفسه ذلك عندما تسلَّم وزارة الدفاع وفاجأه أحد الجنرالات المتمرســين والمحترِفين والذين لهم مواقف بطولية في الحرب مع إيران بأنه لم يتحمل أن يؤدي التحية العسـكرية له. وعندما سـأله لماذا لم يحترم الأصـول أجابه بأننا لا نريد لجنرالات العراق أن يقودهم الجنود. وعلى الفور أُحيل الجنرال إلى المعاش.

ويبقى أن ما فعله الفريق أول حسين كامل وشقيقه العقيد صـــدَّام كامل هو تطبيق حرفي لجزء من المَثَل العربي الذي يتوارثه الأحفاد عن الأجداد والقائل: أنا وأخي على إبن عمي...

أما لماذا هو تطبيق لجزء من المَثَل المشـــار إليه فلأن حســين كامل المعروف في العراق بـ "أبو علي" وشـقيقه صـدَّام تعاونا على إبن عمهما الرئيس صـدَّام حســين، ولا مجال بعد اليوم، وإلى يوم القيامة، لأن تتآلف القلوب ويتحالف الثلاثة ضـــد الغريب، كما يرِد في الجزء الثاني من المَثَل.

... وكلما توغلْنا في الواقعة التي حدثت سـيتأكد لنا ذلك.

* * *

□ المقالة الثانية: العائلة تتراجع إلى المركز الثالث تتقدمها المؤسسة العسكرية فالحزب

لو أن الفريق أول حسين كامل يفترض، ولو بنسبة واحد في المائة، أن رد الفِعْل على هربه من العراق سـيقتصـــر على ما جرى منذ لحظة الإعلان عن وصـوله إلى عمان، لكان آثر البقاء في العراق وإنتظر اللحظة المناسِـبة التي تجعله يسـتعيد شـأنه، أو يخلُد إلى السُكينة، خصوصاً أن وضْعه الصحي ليس على ما يرام، وأن وضْـعه المالي هو أفضـل من الوضـع المالي للدولة العراقية في وضْعها الراهن. ولكن حسين كامل إعتبر أن هروبه سـيقلُب كل المعادلات، وسـتسـارع الولايات المتحدة إلى تتويجه على رأس المعارضـــة العراقية التي لم تُثبت جدارة لتكون بديلاً للنظام المشكو منه. وقد يكون الذي شجعه على سرعة إتخاذ الخطوة قول الرئيس كلينتون في رســالته إلى الكونغرس يوم الثلاثاء الأول من أغســطس (آب) 1995 (أي قبْل ستة أيام من الهروب) حول الحيثيات التي توجب الإبقاء على العقوبات الإقتصـــادية على العراق "إن سياسات وأفعال نظام صدَّام حسين ما زالت تشكِّل خطراً غير عادي على الأمن القومي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة وكذلك على السـلام والأمن الإقليميْن...".

ومن بـاب التخمين، تبـدو عبـارة الرئيس كلينتون هذه وكأنها كلمة السر التي إنتظر الفريق أول حسين كامل سـماعها فتَحرك من دون أن يخطر في باله أن الرئيس صدَّام حسين سيدعو أركان العائلة دون غيرهم إلى عشـاء في داره في تكريت ثم يتحول العشـاء إلى مناقشة صريحة للأوضاع تفوَّق فيها الإتجاه الذي يؤيد الشـروع في سـياسـة تهدئ من روع الإدارة الأميركية وتبعث الطمأنينة في نفوس الخليجيين، لعل الثقة تجد طريقها مع الوقت إلى العلاقة، وتساعد المسعى الذي يتحرك بين الحين والآخر من أجْل تحقيق المصـالحة العربية، ثم يجفل السـاعون من كتابات وتصـريحات عراقية تنادي بالتشـدد، وتتوعد، وتنشـر المخاوف، فضـلاً عن الإحراجات للذين يبذلون السـعي. وشملت المناقشـة (في ذلك العشـاء العائلي المشـار إليه) أموراً كـان محرَّمـاً من قبْـل الخوض فيهـا، مثـل المؤامرة الداخلية، والأخطاء الكثيرة التي لا يعترف بها أحد، وضـرورة المصـارحة في أمر المفقودين الكويتيين، خصـوصـاً أن بلدهم ما زال ينظر إليهم على أنهم أسـرى، وبعض الممارسـات التي يشـكو الناس منها ضـمناً، وبالذات ممارسات الفريق حسين كامل، الذي يتصـرف كأنه رئيس وزراء مع أن منصـبه الرسـمي وزير ومشـرف على أربع وزارات، وعدي، نجل الرئيس صدَّام، الذي ليس له منصب رسمي لكنه يتصرف كما لو أنـه حـاكم مطْلق لـه صـــحيفته وتلفزيونـه ودولتـه الأولمبية، وجيشـه (فدائيو صـدَّام) ومؤسـساته وقانونه الخاص في التعامل مع الآخرين، رسـميين أو غير رسـميين، فضـلاً عن مواكبه الرئاسـية والإصـرار على الوصول إلى المناسبات الإحتفالية بعد أن يكون إكتمل وصـول كبار المسـؤولين، وكذلك على أن يتم عزْف

النشـــيد الوطني في المناســـبات هذه. كما شـــملت المناقشـــة، وبالوقائع والتواريخ والإســـماء، أموراً أُخرى كان لا يجرؤ أحد على لمْســـها، ولمجرد أن أعطى الرئيس صدَّام في ذلك العشاء العائلي الأمان لمَن يريد أن يناقش وبصـراحة ومن دون التجني، فإن المناقشـة تناولتْها وبرفق حرصاً على مشاعر الرئيس صدَّام.

ولقد فاجأ حســـين كامل أركان العشـــيرة، في ذلك العشـاء، بتشـدده، وكيف أنه يرى أن الإدارة الأميركية تريد إركاع العراق وأنه في ضـوء تجربته كمسؤول عن التصنيع العسكري يرى أنه "بالمزيد من التحمل والكثير من الصبر يمكن إفشال المؤامرة الأميركية...".

وبعدما حدثت عملية الهروب يوم 8 أغســـطس (آب) إلى الأردن وسمع مَن شارك في العشاء العائلي ما قاله إبن العشـيرة في المؤتمر الصـحافي في قصـر رغدان، عادت بهم الذاكرة إلى ما سـمعوه منه في ذلك العشـاء، وفي مناسـبات أُخرى سـابقة، وتسـاءلوا: كيف يمكن أن يحدُث ذلك؟

وهذا التمويه من جانب حســـين كامل هو الذي جعل العشـــيرة لا تتعاطف معه، ثم لا تتأخر في الإعلان رســـمياً ومن خلال برقية وجَّهها عمه علي حســـن المجيد إلى الرئيس صـــدَّام أنها "تتبرأ مما فعل وتهدر دمه"... إلخ.

ومنذ خمس ســـنوات تدور في كواليس الرئاســـة العراقية معركة الرجل الثاني في النظام، وكأنما عزت إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ليس هو الرجل الثاني، أو لأن المعركة هي مَن هو الرجل الثاني في العائلة وليس في الحزب.

وعندما حدث قبْل ثمانية أعوام ما يشـــبه التتويج للصـهر حسين كامل بأنه الرجل الثاني كان السبب في ذلك أن الإبن عدي ما زال في الســـن التي لا تجيز تتويجه. وفي هذه الفترة كبُر شأن الصـهر كما لم يكبُر شـــأن مســـؤول من قبْل، لأن عمه الرئيس أوكل إليه مهمات بالغة الحســاســية واســتند في إختياره هذا إلى قـاعـدة أهل الثقـة أولاً قبْـل أهـل الخبرة. وإلى جـانـب المهمات وجد الصـهر تحت تصرُّفه ميزانيات ضـخمة، الأمر الذي سـاعده على أن ينجز أعمالاً إنشـائية في فترات زمنية قياسية، ويبرم صفقات في مجال التصنيع العسـكري ليس من السـهل الحصـول عليها في غياب المال. ولقد بدا حســـين كامل، نتيجة ذلك، في نظر عمه الرئيس أنه كفاءة عالية وبالذات في الفترة التي تلت وقْف الحرب بعد تحرير الكويت، لأن إعادة بناء جسر تهدَّم أو منشأة تعرضت لصاروخ أميركي كانت ورقة من أوراق رفْض الإقرار بالهزيمة.

وعندما كان حســـين كامل يرى حجم الثقة التي وضَـــعها عمه الرئيس في شـــخصـــه فإنه كان يزداد طموحاً، يساعده على ذلك أن الطبيعة الأمنية للوضع حتمت تعزيز الرئيس لمكانة صـهره من دون أن يفطن إلى أن التمييز الذي يحظى به حســـين كامل بدأ ينعكس على الأداء الحكومي، ذلك أنه كان داخل مجلس الوزراء يتصـــرف وكأنه فوق رئيس الوزراء، وبذلك أصـــيب الأداء الحكومي بالوهن الشـــديد، إلى درجة أن رئيس الوزراء – من الدكتور سعدون حمادي إلى محمد حمزة إلى أحمد السامرائي – بات يفضل لو يعفيه الرئيس صـدَّام من هذا المنصـب الذي هو قبلة أي شخص يتعاطى السياسة، ثم يقرر الرئيس صدَّام إســتعادة منصــب رئيس الوزراء لينهي هذا الإشــكال المســـتعصـــي حله بغير هذا الإجراء. وإلى ذلك، إن الدبلوماسية العراقية بدأت تتعثر نتيجة حواجز وضعها حسين كامل بسبب تَميزه الرسمي وقدرته على تعطيل حركتها من خلال حجْب أهل العمل الدبلوماســـي عن الرئيس بشتى الحجج. ومثْل هذا الأمر يحدُث في وقت تبدو معركة العراق دبلوماســـية في الدرجة الأولى ويمكن أن تثمر في حال كانت رموز العمل الدبلوماسي على مقربة من الرئيس ودائمة الإجتماع به، أو أن القنوات سالكة مع الرئاسة. ولكن ذلك لم يحدُث، وهكذا بقي الحمائم أهل الخط الدبلوماســـي مغلولي اليد أمام الصـــقور، وأشـــدهم شـــأناً الصـــهر والإبن. وتشـــاء التصـنيفات أن الصـقور من القيادات البعثية التاريخية حاولوا دعْم رموز العمل الدبلوماســـي على رغم أن بعضهم ما زال أسير أدبيات مرحلة "مواجهة الإمبريالية والتصـدي للهيمنة التي تريد الولايات المتحدة فرْضـها على المنطقة". والذي جعل المحاربين القدامى من القيادات البعثية ينحازون للخط الدبلوماســـي، هو ضـيقهم من صـراع الصـهر والإبن على مركز الرجل الثاني، وتجاوُز الصـــراع في مناســـبات كثيرة لتقاليد ومقامات، وفي الوقت نفسـه عدم الإقتناع بأن إصـرار الإثنين على التشـــدد وعدم إتاحة الفرصـــة أمام فتْح بعض النوافذ هو لمصـــلحة العراق، أو أنه لمصـــلحة الصراع على المركز الذي نشير إليه. ومن هنا نلاحظ أن شيوخ البعث في العراق (ونعني بهؤلاء الجيل الأول الذي يقود) إبتهجوا ضمناً بما إنتهى إليه حسين كامل، وأنهم لولا خصوصية العلاقة التي تربط الرئيس صدَّام

بحسين كامل لكانوا عبّروا علناً عن إبتهاجهم وأقاموا "هوسة" بعثية وأطلقوا النار في الهواء. وهم في الماضي تحملوا الكثير من تجاوز الصهر لهم مراعاة لتلك الخصوصية، ثم تحمَّلوا الكثير من صحيفة الإبن "بابل" مراعاة للرئيس صدَّام. وكثيراً ما صبّت تلك الصحيفة، التي أُجيز لها ما لا يُجاز لغيرها، جام الغضب على الدبلوماسية العراقية وتحميلها فشل رفْع العقوبات الإقتصادية عن العراق، مع أن الذي كانت تحتاج إليه تلك الدبلوماسية هو الكثير من إبداء المرونة، والتشاور المباشر والمستمر مع الرئيس صدَّام المحاط بصقريْن متمكنيْن هما الصهر (حسين كامل) والإبن (عدي) وصقور في طور التكوين.

كذلك فإننا نلاحظ كيف أن حمائم البعث تنفسوا الصعداء لمجرد أن زال من كان يضغط بثقله على صدورهم، وباتوا الآن أكثر قدرة على التحليق المصحوب بالسلامة، وهو تحليق لن يكون في قدرة بقايا الصقور إعتراضه أو التعرض له، وهذا يُلقي على الحمائم مسؤولية كبرى، خصوصاً أن المأزق الذي يواجهه العراق يحتاج إلى تعامُل واقعي وإلى أسلوب جديد في التخاطب مع الجيران أولاً، ثم مع البعيدين، فالأبعد. وفي قاموس التخاطب مفردات لا حصر لها وتنتظر مَن يستعملها، وهي مفردات قادرة ما دام إستعمالها سينطلق من حُسْن النية وصِدْق المشاعر، ووضع تلك المفردات التي سادت في السنوات الخمس الماضية، وكانت مفردات بالغة المرارة، طي النسيان.

كذلك إننا عند الإشارة إلى شيوخ البعث يستوقفنا أن نائب رئيس الوزراء طارق عزيز هو الذي ناب عنهم في إعلان الموقف من لجوء الفريق أول حسين كامل، إلى عمان، فحرص على التقليل من شأنه البعثي وذلك في إشارة واضحة منه إلى أن الحزبي مخلص للرئيس صدَّام أكثر من الصهر. والموقف الذي أعلنه طارق عزيز أتى مكمِّلاً للموقف الذي أعلنه الرئيس صدَّام كرئيس للدولة، وأب للإبنتيْن (زوجة حسين كامل وزوجة شقيقه صدَّام) والموقف الذي أعلنه، بإسم العائلة، علي حسن المجيد.

ومع أنه من السابق لآوانه التكهن بما سيكون عليه ميزان القوى داخل النظام في العراق، إلا أن طبيعة الأمور توحي بأن العائلة التي كانت الركن الأول في ذلك الميزان باتت الثالثة بعد المؤسسة العسكرية التي أصبحت منذ يوم الثلاثاء 18 يوليو (تموز) 1995 أكثر إستقراراً وأصبح الجنرالات أقل ضيقاً بعدما كانوا يشعرون أن الجيشيْن الآخريْن، جيش الحرس الجمهوري وجيش فدائيي صدَّام، فضلاً عن تجاوزات للتقاليد، بدأت تأخذ من دور المؤسسة العسكرية التي كانت دائماً تتباهى بتراثها. أما الركن الثاني فهو مؤسسة الحزب.

وفي أي حال إنه ميزان يمكن الإنطلاق منه لصيغة أكثر واقعية، وبالتالي أكثر قبولاً من العراقيين والعرب والعالم.

... وتشاء الصدف أن إبن العائلة هو الذي فرض بهروبه إلى الأردن المعادلة التي لها بعض الحسنات.

* * *

□ المقالة الثالثة: "نفق المانش" البغدادي... وصراع الورشة مع الهيئة

إذا كان الفريق أول حسين كامل لا يشارك في إجتماعات القيادة العراقية وليس عضواً متقدماً في القيادة الحزبية فهذا معناه أنه ليس شريكاً في صناعة القرار العراقي وإنما هو مطلع عليه بصفته الأمنية الخاصة، التي كان عليها لبضع سنوات، وبصفتيْه العائليتين: عائلة الرئيس صدَّام، كونه الصهر الأول في العائلة، والعائلة الأكبر في تكريت، كونه الثالث فيها من حيث الأهمية الرسمية كمسؤول في الدولة بعد الرئيس صدَّام ثم علي حسن المجيد الذي يشارك في صُنْع القرار كونه عضواً في مجلس القيادة.

وفي مناسبات كثيرة يحدُث أن مجلس القيادة المشترك (مجلس قيادة الثورة والقيادة القُطْرية لحزب البعث الحاكم) يُشرِك في إجتماع له وزيراً، أو أكثر، من غير أعضاء مجلس القيادة لسماع الرأي وطلب المعلومات، وفي هذا الإطار شارك حسين كامل في إجتماعات قيادية.

لكن ما هو أهم من المشاركة في صُنْع القرار هو أن حسين كامل كان لبضع سنوات المركز الذي تصب فيه التقارير والمعلومات، وبالذات تقارير سفراء العراق فضلاً عن محاضر الإجتماعات الرسمية، وهذا يعني أن الرجل كان مؤتَمناً على أسرار سياسية كثيرة، ثم أضيفت إليها الأسرار العسكرية التي تجمعت بعدما إختاره عمه الرئيس مسؤولاً عن التصنيع العسكري ثم وزيراً للدفاع.

وإلى جانب الأسرار العامة فإنه أكثر العارفين بالأمور الخاصة والشخصية، أي بإختصار، إن معلوماته عن نقاط القوة والضعف في أسلوب إدارة الحُكْم العراقي تتساوى في أهميتها بمعلوماته عن

التصنيع العسكري وما يملكه العراق في هذا الميدان.

ومن أجل ذلك فإن التقليل من شـــأن اســـتفادة الولايات المتحدة وأطراف أُخرى كثيرة مما في جعبة الصـهر الهارب، لا يبدو منطقياً. وهذا سيتضـح يوماً بعد يوم، وسـيتبين ما إذا كان حسـين كامل أفرغ كل ما في الجعبة، هذا إذا كان لم يصـطحب معه تقارير ومسـتندات ووثائق، وهو على الأرجح فعل ذلك، وإلاَّ فمـا معنى أن يتســـم بعض كلامـــه في المؤتمر الصـــحافي الذي عقده بعد وصـــوله إلى عمان بنبرة تحذيرية، بل إن الإنذار غلب على التحذير في تلك النبرة.

والمؤتمر الصحافي المشار إليه يستحق وقفة، من حيث إنه ظاهرة غير مطروقة في أســـلوب التعامل السياسي الأردني، بمعنى أن عقْده في القصر الملكي كان تبنياً واضـــحاً من جانب الملك حسـين لضـيفه العراقي، وهو قريب الشـبه بعض الشـيء بالمؤتمرات الصحافية التي شهدتْها القصور والإستراحات المَلَكية الأردنية وردّ فيها الملك وضـيوفه من الحكام أو كبار المسـؤولين الأجانب زوار المملكة على أسـئلة رجال الصحافة.

في ذلك المؤتمر بدا حســين كامل متماســكاً إذ ليس هنالك ما هو أكثر مُدعاة للإرتباك من وقوف شخصية ذات أهمية كبرى أمام حشد من الصحافيين ومنـدوبي الإذاعـات ومحطـات التلفزيون وفي ظَرف بالغ التعقيد والتشـــابك. ومع أن حســـين كامل كان طوال السـنوات العشـر الماضـية أحد الرموز المهمة في النظام العراقي ويتمنى أي صـــحافي – وبالذات الأجانب – اللقاء به وإجراء مقابلات معه إلاَّ أنه آثر ألاَّ يفعل ذلك، ومن هنا فليس في تاريخه الوظيفي الرسمي أنه أجرى مقابلة مع غير الصحافة المحلية، أو أنه عقد مؤتمراً صـــحافياً، ســـواء في أيام حرب الخليج الأُولى أو حرب الخليج الثانية. وكل ما في ذاك التاريخ هو أنه في المناســبات الوطنية يبعث – شأنه شأن بقية مسؤولي الدولة – برقيات إلى الرئيس صـدَّام، إضـافة إلى البرقيات الإسـتثنائية التي إعتاد العراقيون ســماعها من الإذاعة والتلفزيون أو قراءتها في الصـــحف في الفترة التي تلت الحرب الدولية – العربية – الإســـلامية على العراق لتحرير الكويت، وفي هذه البرقيات كان الفريق أول حســـين كامل يختار من بين النماذج التي يُعدّها موظفون خاصـون في ديوانه للبرقيات التي سيبعث بها إلى عمه الرئيس صدَّام لإبلاغه إنجاز مشروع ما، النموذج الذي يحفل بكلمات الإطراء التي تميل إلى المبالغة، وقصْـده من ذلك تأكيد الولاء بهدف الإبقاء عليه متميزاً إسـتثنائياً، أو كبيراً للمتميزين، أو بهـدف إســـتعـادة موقع من المواقع كانت أوجبت الظروف أو قاعدة التوازنات في مسألة مراكز القوة إبعاده عنه. وعلى سبيل المثال لا الحصـــر فإن الفريق أول حســـين كامل وبصـــفته الوظيفية بعث يوم الأحد 11 يونيو (حزيران) 1995 ببرقية إلى الرئيس صدَّام يبلغه فيها نبأ إنشاء المرحلة الأُولى من مشـروع ري صـــدَّام الذي يروي 70 ألف دونم من الأراضـــي الزراعية الجديدة في محافظتيْ صلاح الدين والتأميم، وبعد البسملة والآية القرآنية بدأ البرقية بعبارة "إلى ينبوع الخير ودرة العراق الســـيد الرئيس القائد صـــدَّام حســـين المحترَم حفظكم الله ورعاكم، سـيدي القائد المنصـور يا من فجّرت ينابيع الخير لشـــعب الأمجاد وفاضـــت عطاياك الكريمة لتسـيير طمأنينته ورخائه..." ثم أنهاها بأنه ومجاهدي "جهد الدولة الهندســـي" – الهيئة التي كان حســـين كامل يترأســـها – "تعلَّموا مبادئ الخير في مدرســـة القـائـد الكبير...". ثم يلي هـذه البرقيـة بفترة زمنيـة قصـيرة صـدور مرسـوم جمهوري (الجمعة 30 يونيو (حزيران) 1995) بتعيين حســـين كامل مديراً لهيئة التصنيع العسكري إضافة إلى منصبه الوزاري، ويعبِّر الصـهر عن إمتنانه لإسـتعادته لهذا المنصـب الذي كان حدَث أن تمّ إنتزاعه منه، من خلال البرقية التي بعث بها إلى عمه الرئيس لإبلاغه إنجاز عدد من مشـاريع الصـناعات الإلكترونية، ويتحدث في برقيته عن "حـب المجـاهـدين للقـائـد العظيم وقيـادتـه الحكيمة...".

وأغلب الظن أن عودة الفريق أول حســـين كامل إلى تسـلُّم مسـؤولية "هيئة التصـنيع العسـكري" كانت خطوة لا يريدها عديْ صـدَّام حسـين بدليل أنه تزامن مع هذه العودة الحديث وبصـــوت إعلامي عال عن ورشـة تعمير الأسـلحة والآليات العراقية التي يشـرف عليها نجل الرئيس، وهي ورشـــة الهدف منها السـير في موازاة هيئة التصـــنيع أو – كما إسـتنتج حسـين كامل – خطوة أُولى على طريق تَراجُع الهيئة أمام الورشـة. وهذا السبب إضـافة إلى أسباب أُخرى كثيرة جعلت الصـــهر يفكر جدياً ببدائل لوضـــعه. وكان الهروب إلى الأردن هو أحـد هـذه البـدائـل، أو هو "بديل البدائل"، على وزن "أم المعارك"، خصـــوصـــاً

أنهما متشابهان في المردود، وكان يمكن لهذا البديل أن يُرجأ لولا ذلك العشاء المفاجئ في دار الرئيس صدَّام في تكريت يوم 7 أغسطس (آب) 1995 والذي أشعل فيه الفريق الثالث في الصراع، وهو فريق الأشقاء الثلاثة (برزان ووطبان وسبعاوي)، البيت ناراً وذلك عندما أتاح المضيف فرصة المناقشة الصريحة أمام الضيوف (الكل من عائلة واحدة). وكان يمكن للعاصفة ألاَّ تعصُف داخل العائلة لو أن وطبان إبراهيم الحسن لم يكن أول المتكلمين ومن دون أن يتحاشى الوقائع الكثيرة المرارة مطْمئناً إلى أن كبير العائلة يرغب في الإستماع.

وقبْل هذه الجلسة كان حسين كامل يبشر العراقيين من خلال تصريح خاص بصحيفة "الجمهورية" نشرتْه يوم السبت 29 يوليو (تموز) 1995 (أي قبْل تسعة أيام من العشاء العاصف) بأن "هيئة التصنيع العسكري" ستبدأ قريباً تنفيذ "نفق دجلة" الذي يشبه بعض الشيء "نفق المانش" الذي ربط بريطانيا بفرنسا، وإستناداً إلى تفاصيل أولية أوردتْها الصحيفة مع التصريح فإن النفق سيكون لعبور السيارات تحت نهر دجلة جنوب بغداد في المنطقة الممتدة بين منطقة معسكر الرشيد والزعفرانية وبثلاثة مسارات للذهاب وثلاثة للإياب. وكان حسين كامل يقول أيضاً في التصريح المشار إليه "إن العراق يُعَد الآن من الدول القليلة السباقة لتنفيذ مثل هذه المشاريع في المجاليْن الصناعي والإروائي وإن الدراسات قد استُكملت لإنشاء سد غاطس في نهر دجلة من أجْل إرتفاع المياه بالنهر في منطقة بغداد وسيكون لأغراض العبور النهري وأنه سيُشيّد على هذا السد جسر كبير لعبور السيارات".

وفي التصريح أيضاً أشار إلى مشاريع عملاقة سينفِّذها مجاهدو وزارة الصناعة وهيئة التصنيع العسكري ومن بينها "سد بادوش" في محافظة نينوى و"السد العظيم" في محافظة ديالى، فضلاً عن شق الأنهار وإقامة الجسور الإستراتيجية وتجفيف المناطق المغمورة بالمياه وتحويلها إلى أراض زراعية تُعد مصدراً رئيسياً لإنتاج المحاصيل وتوفير الغذاء.

وإستناداً إلى برقيات حسين كامل، وهي في صياغتها مثل برقيات بقية المسؤولين المتضمنة في إستمرار عبارات الولاء، ثم تصريحه قبْل اللجوء إلى الأردن حول السدود والنفق تحت نهر دجلة، وهو تصريح مَن يبدو باقياً في موقعه الرسمي داخل النظام بضع سنوات، فإن حسين كامل كان بذلك إما يغطي الخطوة التي أقدم عليها بعد ذلك، وإما أن المسألة ليست مسألة تمويه وأن واقعة العشاء هي التي عجَّلت بضرورة الرحيل.

ونعود إلى المؤتمر الصحافي الذي عقَده حسين كامل لنقول إن التماسك الذي ظهر في مواجهة الصهر الهارب لأسئلة رجال الصحافة وعدسات مصوري التلفزيون يعود في الدرجة الأُولى إلى المكان وإلى الضوء الأخضر الكاشف الذي أعطاه الملك حسين لضيفه العراقي لكي يقول ما يريد. وقد يجوز الإفتراض أنه لو كان المكان ليس القصر الملكي لما حدثَ المؤتمر، أو لكان جرى الإنعقاد إنما ساد الإرتباك. واللافت للنظر أن حسين كامل أجاب بطلاقة وإستعمل مفردات إكتسبها من مجاورته الطويلة للرئيس صدَّام. وهو لو كان أُعطي الأسئلة مكتوبة وقبْل ساعة من إنعقاد المؤتمر الصحافي لكان أجاب بدقة أكثر وتجاوز كلمات وعبارات أوحت بأنه نازل من مظلة، وأنه يتطلع إلى أن يكون حاكم العراق الذي تقْبل به الولايات المتحدة والنظام العالمي الجديد.

ومع أن الصورة الأُولى التي نشرتْها صحف العالم وبثتها محطات التلفزيون عند إعلان نبأ اللجوء كانت صورة بالزي العسكري لـ حسين كامل، إلاَّ أن الرجل ودّع هذا الزي وإلى الأبد إلاَّ إذا إنتهت العملية التي يتولى إدارتها الملك حسين بأن يتم "تتويج" الصهر رئيساً على العراق، إذ في هذه الحال سيجد حسين كامل نفسه يرتدي الزي العسكري ولا يخلعه، بل ويتشدد في ذلك. وسيكون تشدّده مبرَّراً دولياً، وبالذات من جانب الإدارة الأميركية، وسيتم غض النظر عن ممارسات كثيرة، أليست هذه أصول لعبة الأمم؟

ويبقى أنه من باب المصادفة أن لجوء الفريق أول حسين كامل وإستقباله من قِبَل العاهل الأردني (الثلاثاء 7 أغسطس (آب) 1995) جرى في اليوم نفسه الذي إستقبل الرئيس صدَّام حسين في بغداد، وبحضور حسين كامل، قبْل خمسة أعوام (الثلاثاء 7 أغسطس (آب) 1990) العقيد علاء حسين رئيس ما سُمي "حكومة الكويت الحرة المؤقتة" وبقية وزراء تلك "الحكومة" التي أعلنت بعد الإجتماع إلغاء إمارة الكويت وإعلان الجمهورية!

وحسين، كما نلاحظ، هو الإسم المشترَك لهذه التطورات المثيرة: الملك حسين، صدَّام حسين، الفريق

أول حسين كامل، العقيد علاء حسين، كما نلاحظ أيضاً أن إثنين يبدأ إسمهما بـ "حسين" هما الملك وصهر الرئيس، وإثنيْن إسمهما الثاني حسين.

وفي أحيان كثيرة، تحمل المصادفة إجابات مهمة... حتى إذا كانت قليلة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1995

* * *

باب إعادة النظر لم يَعد موصداً

كأنما الذي حدث في الأسابيع الثلاثة الماضية هو نوع من الرفق الإلهي بالعرب، أو هو تنبيه لهم وبالذات لبعض قادتهم، بأن يأخذوا في الإعتبار أن الوضع بالشكل الذي هو عليه سيقود في النهاية إلى أن حرية القرار العربي ستتعرض للمصادرة وهذا معناه الإستسلام لأمر واقع مفروض ومرفوض.

وما حدثَ هو أن الأردن إبتعد قليلاً عن الموقف العراقي وأن كلاً من مصر وسوريا أبديَتا وبصيغة مستجدة تعاطفاً مع الأمر الواقع العراقي، وأن الكويت باتت على أهبة أن تتجاوز رفْضها تطبيع العلاقة مع الأردن. كما أن المملكة العربية السعودية مهَّدت الطريق بتفهمها للرغبة الأردنية في عودة العلاقات إلى زمن كانت تتسم فيه بالطيبة. ومن جانبه فإن الحُكْم العراقي بات أكثر إستعداداً للتكيف مع الواقع العربي والدولي. وهو سيتكيف أكثر وأكثر عندما تكف وسائل إعلامه عن إستعمال بعض المفردات، التي قد تزعج آخرين، إلاَّ أنها في الدرجة الأُولى، وعندما يبدأ بعض مسؤوليه بإلتقاط الإشارات الإيجابية والرد عليها ومن دون إخضاع الرد للإجتماعات القيادية بما يمهد الطريق أمام المزيد من الإستعداد لإستعادة العراق.

ولكم كان المرء يتمنى لو أن النظام في العراق إنتهز مناسبات كثيرة لكي يشجع الرغبة العربية وسعيْ بعض الأطراف من أجْل تخفيف المعاناة عن العراق. ونحن على سبيل المثال لا الحصر نفترض أن إنفراجاً ملموساً كان سيشهده السعي العربي لإستعادة العراق وتخفيف ضائقة الحصار عليه إذا كان إستعصى أمر رفْع هذا الحصار لظروف وتعقيدات دولية، لو أن أخباراً سارة أفادت أن الرئيس صدَّام حسين شخصياً إنتهز مناسبة يوم 2 أغسطس فطلب إحضار المحتجَزين الكويتيين – إذا كانوا بالفعل أحياء – وأكرم، وبحضور السفراء العرب والمسلمين والأجانب المعتمَدين في بغداد، وفادتهم وأعادهم إلى دولتهم محاطين بكل مظاهر التكريم ومحمَّلين برسالة إلى دولتهم تشيع كلماتها الطمأنينة وتبعث من جديد مراحل الثقة وتشكل ما يشبه تطييب الخاطر. ونقول ذلك على أساس أن المواطن العربي لا يتحمل أن يرى النظام في العراق يُفرج عن إثنيْن من الأميركان دخلا عن سابق عمْد وتصميم أراضي العراق عبْر الحدود مع الكويت وتظهر عليهما، بعد الإفراج عنهما، علامة الصحة والنشاط والحيوية وكأنهما لم يكونا في السجن، ولا يحسم أمر عدد من الإخوة الكويتيين جيء بهم من الكويت بعد غزوها وما زال أمرهم كأنه لغز. فهم منذ خمس سنوات أسرى وليسوا أسرى، ومحتَجزون وليسوا محتَجزين، وأحياء وليسوا أحياء.

كذلك إن المواطن العربي لا يتحمل هذه المسايرة لعضو في مجلس النواب الأميركي جاء إلى بغداد بتشجيع من الرئيس كلينتون ولم يخذله الرئيس صدَّام في طلب الإفراج عن المواطنيْن الأميركييْن اللذيْن أمضيا بضعة أسابيع في الحجز بينما هو خذل التمنيات العربية الكثيرة في أن يُنهي مسألة المواطنيْن الكويتييْن المحتجزيْن في العراق منذ خمس سنوات، لعل في الإفراج عنهم ما يجعل المسؤولين الكويتيين يفكرون بصيغة ما مِن الصيغ المطروحة من أجْل المصالحة العربية.

والإبتعاد الأردني القليل عن الموقف العراقي، الذي إستتبعه تعاطُف من جانب الرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد مع الأمر الواقع العراقي، هما من نوع الخطوات التي كان غيابها يشكِّل عثرة في وجه تخفيف حدة هذا الإحتقان السائد في الصف العربي. فالأردن كان من الضروري أن يبتعد قليلاً لكي يضغط من دون أن يؤذي، ثم جاءت واقعة لجوء الفريق أول حسين كامل لتوجِب مثل هذا الإبتعاد المطلوب. ومصر وسوريا كان من الضروري أن تبدي كل منهما تعاطفاً من دون أن يعني هذا التعاطف تسليماً بالمفهوم الذي يطرحه النظام في العراق للعلاقة العربية. ثم جاء تسارُع التطورات الناشئة عن لجوء حسين كامل، وتفرُّد الأردن بالتعامل معها، وكأنما قضية العراق قضية أردنية ولا علاقة للآخرين بها.

ومع أن رد الفعل العراقي على ما صرَّح به الرئيس حافظ الأسد يوم الأحد 3 سبتمبر/ أيلول 1995 في

القاهرة، بعد محادثاته مع الرئيس حسني مبارك، جاء على الفور، إلاَّ أن ما يتطلع المواطن المصري إلى سماعه كاد أن يأتي رد الفعل من الرئيس صدَّام ما دام الذي صرح هو الرئيس الأسد، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الذي عبَّر عن رد الفِعْل كان وزير الخارجية العراقية. ولعل هذا الأمر هو ما جعل الجانب السوري يرُد على رد الفِعْل العراقي (الذي لم يأتِ على مستوى الرئيس) عبْر مدير وكالة الأنباء السورية الذي كتب تعليقاً بثته الوكالة وجاء فيه: "إن سياسة سوريا القومية في الوقوف إلى جانب أي شعب عربي يختلف عن مواقفها تجاه الحكام...".

ولكن تبقى كل هذه الأمور من الشكليات، أما الجوهر فهو أن باب إعادة النظر في تعامُل الأشقاء مع بعضهم بات مفتوحاً على مصراعيه، وتلك إحدى إيجابيات لجوء حسين كامل إلى الأردن. فالباب كان موصَداً بكل قوة، وليس هنالك مَن يبادر إلى بذْل جهد لفتْحه. وجاء التعامل الأردني مع اللجوء لتبدأ حالة تنبُّه في المنطقة تقوم على أن قليلاً من السعي لتحقيق وفاق عربي في ضوء ما هو قائم، وعلى أُسس جديدة ومفاهيم جديدة، يبقى أفضل بكثير من أي وضْع ينشأ وفْق ما أوحت به تصريحات الملك حسين التي عكست حنينه إلى عراق ملكي محكوم هامشياً. ولولا العلاقة الأردنية – الإسرائيلية التي بدأت تأخذ بُعداً إستراتيجياً بالنسبة إلى المرحلة المقبلة، وإلى خريطة جديدة للمنطقة، لما كان لأحد أن يخشى، أو يتأمل في عبارات الملك حسين في ذلك البيان الشامل يوم 23 أغسطس الماضي، وبالذات تلك العبارة التي قال فيها: "أما نحن آل بيت فتلك مقامات شهدائنا تُرضِع أرض العراق وتعلو مثل رايات بني هاشم الحاضرة في كل نضال من أجْل الحرية والعدل وكرامة الإنسان وذلك هو تاريخها الخالد منذ علي بن أبي طالب كرَّم الله وجْهه والحسن والحسين رضوان الله عليهما، وصولاً إلى زمن الفيصل الثاني وأُسرته الذين سالت دماؤهم الذكية تروي من النبع نفسه نبع كربلاء أرض العراق دفاعاً عن المبدأ والحق والكرامة والحياة...". هذا إلى جانب التذكير – في معرض التأكيد على أنه لا مطمع له في العراق– بأنه كان نائب الملك الراحل فيصل الثاني ووريثه في رئاسة الإتحاد العربي الذي ضم الدولتيْن.

لكن العلاقة الأردنية – الإسرائيلية، التي لم تتوثق علاقة بين إسرائيل ودولة عربية بمثل تَوثّقها، والتي تجاوزت من حيث الترابط العلاقة المصرية – الإسرائيلية، تجعل خشية الآخرين مشروعة. ومِن هنا جاء الموقف المصري الذي كان سبَّاقاً في إبداء التحفظ على ما قاله الملك حسين، ثم جاء الموقف السوري، ليشكِّلا معاً نواة موقف موحَّد يقف بالمرصاد للتطلعات الأردنية ويحاول إشعارها، عند الضرورة، بالتريث. ومِن هذه الزاوية يمكن النظر إلى الحملة الإعلامية المصرية على الأردن من دون أن يشترك الرئيس مبارك في هذه الحملة. ومن الزاوية نفسها يمكن النظر إلى التصريحات التي أدلى بها الرئيس حافظ الأسد في القاهرة وقوبلت بإمتنان رسمي عراقي، وإرتياح نسبي على الصعيد العربي عموماً لأنه قد يساعد في الإبقاء على باب إعادة النظر– الذي كان موصداً– مفتوحاً على مصراعيه. ولعل من المهم التذكير بأن أي إنفراج في العلاقات العراقية– السورية ينعكس بشكل إيجابي على الموقف العربي. كذلك لعله من المناسب التذكير بأن تلك العلاقات، التي هي الأقدم توتراً في تاريخ العلاقات العربية، كانت في إستمرار تشكِّل مشكلة لمؤتمرات القمة العربية. فلم تنعقد القمة العربية الثالثة عشرة، لتبدأ مرحلة القمم العربية الإستثنائية المستمرة حتى الآن، وحتى إشعار آخر.

ويبقى أن كل هذه التطورات تحدُث ونحن على أبواب العيد الوطني للمملكة العربية السعودية، لعل قيادة الملك فهد التي تتعاطى مع هذه التطورات بكل الحكمة والشعور بالمسؤولية تُبادر، هدْياً منها بما يحمله العيد من معنى توحيدي، إلى جمْع القادة العرب إلى القمة العربية الدورية الثانية عشرة التي تلم الشمل قبْل أن ينفرط العقد. ولم تتدهور الأحوال العربية إلاَّ مع القمم الإستثنائية.

وليس مَن هو قادر على أن يقدم على هذه الخطوة مثل المملكة.

وبهذه القمة التي يتمنى المرء إنعقادها، وبالذات قبْل أن تدخل إيران على الخط بثقلها السياسي والنووي المستجد، لن تعود هنالك القدرة لدى أحد في مصادرة حرية القرار العربي.

وفي إنتظار هذه الخطوة يتمنى المرء على الملك حسين أن يتراجع قليلاً عما طرحه وعما هو مُقدِم عليه. ويأمل المرء في الوقت نفسه من الرئيس صدَّام حسين بأن يتقدم كثيراً، وحتى إذا تطلَّب الأمر إعتذاراً عما حدَث، مثل إعتذار اليابان لكل من بريطانيا

والولايات المتحدة لفيتنام – من خلال ما كتبه وزير دفاع حقبة فيتنام روبرت مكنمارا – وإعتذار إسرائيل الذي لا بد منه لمصر على قتْلها للأسرى.

... والإعتذار العراقي لا بد منه حتى بعد نصف قرن كما حدَث مع اليابان التي لم يُفقدها الإعتذار هيبتها أمام العالم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 11 سبتمبر (أيلول) 1995

* * *

حول الحل الإحتكاري الأميركي للمصالحة الفلسطينية – الإسرائيلية (مقالتيْن)

المقالة الأولى: فرصة ضاعت إلى الأبد على بريطانيا رغم إشارتيْن من الأمير عبدالله والشيخ زايد

ضاعت على بريطانيا وإلى الأبد فرصة أن يكون لها نقطة بيضاء في تاريخ القضية الفلسطينية من شأنها أن تلغي بها النقاط السوداء الكثيرة وأهمها على الإطلاق وعد بلفور.

وقبْل أن تقضي الولايات المتحدة بالضربة القاضية على الآخرين وتتزعم العالم وتقود ما إصطُلح على تسميته «النظام العالمي الجديد» كانت الفرصة متاحة أمام بريطانيا. وهي لو فعلتْها في الثمانينات لكانت إستقطبت العرب إلى جانبها ولكانت باتت كلمتها ذات شأن في القرار الدولي. لكن بعدما بات هذا للقرار يصدر من واشنطن، وبشكل تعميم على الآخرين وليس التشاور معهم فإن بريطانيا لن تكون أكثر من محطة سياحية وتجارية لبعض العرب ومحطة مشتريات لبعض أنواع السلاح والتكنولوجيا بين الحين والآخر.

ولا تستطيع بريطانيا التاتشرية –أو حتى بريطانيا جون ميجور – قبْل أن تقوى الهيمنة الأميركية على القرار الدولي، أن تقول بأن العرب لم يوحوا بذلك إليها في أكثر من مناسبة، لكن الذي حصل هو أنها لم تلتقط الإشارة بالشكل الجيد، أو أن الإلتقاط حدثَ لكن التجاوب كان فاتراً، ربما لأن ظروف إعادة النظر في الموقف البريطاني من القضية الفلسطينية لم تنضج بما فيه الكفاية وربما لأن الصهيونية العالمية التي تراعي بريطانيا رأيها وخاطرها، كانت تصر على ألاَّ تبدأ مرحلة السلام العربي – الإسرائيلي ما دام هنالك شريان حيوي في الجسم العربي يضخ الدم إلى قلب الأمة.

ونحن على سبيل المثال لا الحصر نتذكر إشارتيْن مهمتيْن من شخصيتيْن عربيتيْن خليجيتيْن لهما سمعتهما الطيبة وتحظى كلمتهما بالإحترام والتقدير على كل المستويات الرسمية والشعبية في العالم العربي والإسلامي. الإشارة الأولى سجَّلها الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي عهد المملكة العربية السعودية والنائب الاول لرئيس الوزراء رئيس الحرس الوطني، خلال زيارته الرسمية الثانية لبريطانيا منتصف حزيران (يونيو) 1988 والتي حظيت بإهتمام بريطاني إستثنائي من جانب الحكومة والقصر الملكي على حد سواء. والذي حدَث أنه خلال جولة المحادثات التي جرت بين الأمير عبدالله ورئيسة الوزراء. أنذاك – مارغريت ثاتشر كرر ولي العهد السعودي عبارة سبق أن قالها قي زيارته الرسمية الأُولى لبريطانيا عام 1984 وهي «إن وعد بلفور نقطة سوداء في تاريخ بريطانيا وعليكم أن تمحوه..». ولقد وجدت تاتشر نفسها أمام ملاحظة الأمير عبدالله، الكثيرة الحزم، في موقف دفاعي وتبريري وليست قي موقف المتمسكة بما فعله أجدادها في حق القضية الفلسطينية. ونلاحظ ذلك من خلال قولها لولي العهد السعودي: «إن وعد بلفور حدَث قبْل أن أولد، وهنالك قرارات صدرت من الأمم المتحدة بعد وعد بلفور، إلاَّ أنه مع الأسف لم يتم تطبيقها. ولو حدثَ التطبيق لما كان الفلسطينيون على هذه الحال التي هم عليها».

وقد يكون الأمير عبد الله، بالعبارة المقتضبة التي قالها لرئيسة الوزراء تاتشر والتي. أي العبارة هي من نوع ما قل ودل، أراد أيضاً أن يشجع تياراً بريطانياً رسمياً بدأ يتنامى في إتجاه موقف إيجابي لمصلحة القضية الفلسطينية لكنه كان ما زال خجولاً بعض الشيء، ولفد تولى التعبير عن هذا التيار وزير الدولة للشؤون الخارجية ديفيد ميللور الذي كان قد قام بزيارة إلى غزة شملت أكبر المخيمات هناك ووجَّه من هذا المخيم كلاماً إتسم بالنقد للسياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين سكان المخيمات، ثم تطور هذا التيار بعد بضعة أشهر وتمثَّل بملاحظة أبداها وزير الدولة في وزارة الخارجية وليم وولدغريف خلال زيارة قام بها إلى تونس إجتمع خلالها إلى الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات. وفي تلك الملاحظة قال وولدغريف ما معناه إن قادة إسرائيل الذين يصفون عرفات بالإرهابية كانوا

انفسهم إرهابيين. وهو بملاحظته هذه كان يقصد رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير الذي كان الإرهابي الذي أطلق النار بأوامر تلقَّاها من الإرهابي الأكبر مناحيم بيغن، على ممثل وزير خارجية بريطانيا اللورد موين.

وتشاء الصدف. أو لعلها سطوة اللوبي الصهيوني في بريطانيا على أهل القرار – أن يتم إبعاد الإثنين، ميللور ثم وولدغريف من بعده، عن الساحة السياسية، وهو المصير نفسه الذي أصاب من قبْل اللورد كارينغتون الذي كان وزيراً للخارجية البريطانية وكان وراء إصدار إعلان البندقية بعد إجتماع القمة الاوروبية 12. 13 يونيو/ حزيران 1980، والذي يدعو إلى إنسحاب إسرائيل من الأراضي التي إحتلتها عام 1967، والى حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإشراك منظمة التحرير كممثل للشعب الفلسطيني في مفاوضات بين جميع الأطراف، والتوصل إلى وضْع خاص للقدس مع ضمان حرية الوصول إلى أماكن العبادة لأبناء الديانات الثلاث، المسيحية والإسلام واليهودية، وإعتبار إقامة المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة غير شرعي، وحق دول المنطقة في الوجود ضِمْن حدود آمنة ومعترَف بها دولياً.

ونحن لو أمعْنا النظر في مضمون إعلان البندقية هذا لوجدْنا أنه يتضمن الأُسس نفسها التي إرتكزت عليها صيغة أوسلو من بعد. ولكن إعلان البندقية لم يأخذ طريقه إلى التنفيذ لأن الولايات المتحدة وجدت فيه ما من شأنه أن يأخذ من طريقها ويشكِّل، إذا جاز التعبير، حلاً أوروبياً سحرياً للقضية الفلسطينية، فعارضته وأهال وزير خارجيتها زمنذاك، جورج شولتز، التراب عليه، وكان ذلك موضع إمتنان إسرائيل واللوبي الصهيوني. وشولتز الذي فعل ذلك هو نفسه الذي إستبسل لعدم منْح ياسر عرفات تأشيرة دخول ليلقي كلمة في الأمم المتحدة، وهو أيضاً نفْسه صديق مجموعة من الأثرياء الفلسطينيين الذين أخفقوا في جعْله يتفهم ظروف القضية الفلسطينية والذي نجح في أن يُبقي عليهم أصدقاء له على رغم ذلك.

وإلى جانب الإشارة – النصيحة من الأمير عبدالله بن عبد العزيز كانت هنالك إشارة أُخرى مشابهة لها من حيث المنطلقات جاءت من رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان خلال زيارة رسمية قام بها إلى بريطانيا (18 – 21 يوليو/ تموز 1989). فقد إستَقبل الشيخ زايد في مقر إقامته في قصر باكنغهام بسام ابو شريف الذي كان يشغل زمنذاك منصب مستشار الرئيس ياسر عرفات.

وبصرف النظر عما إذا كان أبو شريف جاء لتحية الشيخ زايد بتكليف من الرئيس عرفات أو لينقل رسالة إلى الشيخ من الرئيس الفلسطيني، إلاَّ أن دخول مستشار الرئيس الفلسطيني قصر باكنغهام وهو أمر لم يحدُث قي تاريخ القصر الملكي البريطاني، كان في حد ذاته إشارة صاعقة بدت أهميتها من خلال القلق الذي إستحوذ باللوبي اليهودي قي بريطانيا، وبالحكومة الإسرائيلية نفسها، خصوصاً أن هذا الحدث كان مسبوقاً بلقاء تم بين المستشار الفلسطيني ووزير الخارجية البريطانية.

وما أراده الشيخ زايد من هذه الإشارة هو كسْر حاجز تخوُّف الدولة البريطانية من إقتحام أسوار القضية الفلسطينية والمشاركة في إزالة حيف لحق بهذه القضية منذ أن صدر وعد بلفور عام 1917 بتقديم فلسطين وطناً قومياً لليهود على أنقاض شعبها الذي عاش حوالى نصف قرن من التشرد والتشتت، وهو الوعد الذي وصفه الأمير عبدالله بن عبد العزيز بأنه «نقطة سوداء في تاريخ بريطانيا» ولقد فعل الشيخ زايد ما فعله على أساس أن ذلك من حقه كضيف يستقبل في مقر إقامته مَن يريد، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الشيخ زايد لم يفعل ما فعله تحت وطأة اللياقات وإنما على أساس أنها فرصة مناسبة لإبلاغ الدولة البريطانية ما معناه إن عليها أن تتحرك وتأخذ على عاتقها أمر إيجاد الحل العادل للقضية الفلسطينية وأن ذلك سيكون موقع إرتياح العرب والمسلمين.

ومع الأسف فإن بريطانيا لم تفعل شيئاً وتركت الأمور تسير في الإتجاه الأميركي وإلى حد أن مهرجان الإحتكار الأميركي للمصالحة الفلسطينية – الاسرائيلية الكبرى في البيت الأبيض يوم الخميس 28 أيلول/ سبتمبر 1995 بدا وكما لو أنه يقول للعرب عموماً إن بريطانيا اساءت والولايات المتحدة أزالت الحيف، مع الحلم أن كليهما واحد. فبريطانيا كانت البادئة وإدارة الرئيس كلينتون أطلقت رصاصة الرحمة على القضية من أجْل أن تستقر دولة إسرائيل الكبرى بجوار دولة فلسطين الصغرى المجردة من كل شيء إلاَّ ما هو الأهم، أي الرضى الأميركي.. هذا إذا إرتضت إسرائيل أن يشاركها الفلسطينيون ذلك الرضى وما ينتج عنه من مساعدات، وقبْل هذا كله إذا هي

إرتضـــت أن تقوم هذه الدولة، وكيف؟ ما دام رئيس الوزراء إســـحق رابين يقول ويوم التوقيع في البيت الأبيض أنها لن تقوم قبْل نصف قرن.

.. وللحديث حول الإحتكار الأميركي للمصـــالحة الفلسطينية – الإسرائيلية، بقية.

* * *

□ المقالة الثانية: بعد التوقيع في واشـنطن باتت "فلسطين الصغرى" بأهمية الكويت

في الإحتفال التاريخي الذي جرى في البيت الأبيض يوم الخميس 28 ســبتمبر/ أيلول 1995 وتم خلالـه التوقيع على إتفـاق المرحلـة الإنتقـاليـة للحكم الـذاتي الفلســطيني أبدى الرئيس بيل كلينتون إرتياحه للحضــور الـدولي والعربي الكبيرين في إحتفـال التوقيع. وبـدا في ملاحظته تلك كمَن يرد على تســاؤلات كثيرة من بينها: أين بقيـة دول للعـالم ولمـاذا لم يتم إشـــراكهـا في هـذه المناسبة التاريخية؟

وغيابه، أو تغييب، هذه الدول هو تأكيد لإصـــرار الرئيس كلينتون على الإحتكـار الأميركي لمهرجـان المصــالحة الفلســطينية – الإســرائيلية. وهو عندما وجه الدعوة إلى البعض وتجاهل الآخرين الكثيرين فإنه فعل ذلك إستناداً إلى ظاهرة الإحتكار في الدرجة الأُولى وليس لأن القاعـة الشـــرقيـة في البيت الأبيض حيث جرى الإحتفال لا تتسع لمزيد من الضيوف.

والملاحظ أن النين حضـــروا كانوا، إذا جاز التعبير، جبهة الحل الأميركي للقضـية للفلسطينية وإنهاء الصـراع العربي – الإســـرائيلي، والتي تضـــم الأطراف المعنية مباشـرة بفكفكة الصـراع بدءاً من الرئيس حسـني مبارك وانتهاء بوزير خارجية النروج مروراً بالملك حسين ورئيس وزراء إسبانيا فيليبي جونزاليس. أما مشاركة وزير خارجية اليابان فإنها لرغبة من الإدارة الأميركية في إقحام الدولة المقتدرة مـاليـاً في المرحلـة الأهم وهي مرحلـة مـا بعـد التوقيع حيث يصـــيح من الضـــروري تأمين الإحتياجات المالية للدولة الجديدة التي هي «فلسطين الصـغرى» من دون إســـقاط إحتياجات «إســـرائيل الكبرى» ومطالبها خصـــوصـــاً أن المطالب لن تتوقف وســتكون هذه المرة مدعومة بمسـألة السـلام الذي تحقق والذي قد تتصـرف إســـرائيل على أســـاس أنها هي التي خدمت العالم الصناعي (واليابان إحدى قلاعه الرئيسية) بموافقتها على حل للفلســـطينيين يحقق لهم الحكم الذاتي ويحقق للدول الصناعية المزيد من الإزدهار.

ولو ان القرار الدولي الكبير لإنهاء الصـراع العربي – الإســـرائيلي لم يتخذ في مؤتمر جرى عقده في مدريد لما كانت تمت دعوة رئيس وزراء إسـبانيا. كما أنه لو لم تتم في أوســـلو الخطوة الأولى على طريق المصـــالحـة الفلســـطينية – الاســـرائيلية لما كانت تمت دعوة وزير خارجية النروج. أما مشـاركة وزير خارجية روسـيا فلأن دولته هي الشـــريكة في الحل علما بأن حصـــتها في المشـــاركة لا تتجاوز الواحد في المائة وهذا يؤكد مقولة الرئيس (الراحل) أنور الســـادات وفي مرحلـة مبكرة أن تســـعين في المائة من أوراق الحل هي في يد الولايات المتحدة.

وعلى رغم الإحتكار الأميركي للمصـالحة الفلسـطينية – الإسرائيلية فإن الإتفاق الذي توصل إليه أعداء الامس الـذين صـــاروا أبنـاء عمومـة. على حد تعبير الرئيس عرفـات – يبـدو هشـــاً، لأنـه دون الحـد الأدنى من الطموحات الفلســطينية ودون الحد المعقول من التمنيات العربية، ولأنه في الوقت تفســه فوق الحد الأقصـــى من الآمال والمكاسـب الإسـرائيلية. ولكن قوة الإتفاق هي أنه بات أيضـاً مكسباً إستراتيجياً أميركياً، أي بمعنى آخر أن الولايات المتحدة يمكن أن تتعامل مع من يجرب تقويضه في شـــكل أو آخر بالطريقة التي تعاملت بها مع العراق الذي جرب أن يضـــع يده على الكويت. ومن هنا فإن ما يقوله للمعارضـون للإتفاق من سوريا إلى ليبيا لا يشـكل مخاوف على الإتفاق فشـلاً عن أن إسـرائيل التي كانت تحارب في الماضـي من أجل أن تصـل إلى ما وصـلت إليه يوم 28 سبتمبر/ أيلول 1995 قد تحارب إلى جانب السـلطة الفلسـطينية أي اطراف عربية يمكن أن تقوض الوضـع المسـتجد وسـيكون مثل هذا الأمر قمة الإنحدار فى الصـف العربي. وهو إذا كان أمراً يدعو إلى الدهشـة الان فإنه في أي لحظة قد يبدو أنه من الأمور الممكنة الحدوث.

وحى إشـعار آخر لا يبدو أن الإتفاق الفلسـطيني – الإسـرائيلي الذي تعتبره الإدارة الأميركية من إحدى أبرز قضـاياها الإسـتراتيجية، معرض إلى أي إنتكاسـة. لكن الخطر الكبير الذي يواجهه في المستقبل القريب هو عدم توافر المال. وفي ضـــوء الدعم الخليجي الكبير والمبرمج للدولة الفلسطينية للمستجدة وإقحام اليابان طرفاً في جبهة حماية الإتفاق يتجاوز، أو يتســـاوى من حيث الأهمية والتأثير، مع الطرف الروسي، فإن المخاطر ستتبدد. ولقد انقضـى على الوعد الذي حصل عليه الجانب الفلسطيني بعد مؤتمر دولي شـهدته واشـنطن مطلع أكتوبر/ تشـرين الأول 1993 عامان. وفي ذلك المؤتمر تلقت الســـلطة

الفلسطينية وعداً بمساعدات تبلغ ملياريْ دولار على خمس سنوات ولكن التسديد لم يتم وفق الوعود فضلاً عن أن إتفاق توسيع الحكم الذاتي تأجل سنة لأسباب إسرائيلية وبذلك ضاعت سنة على السلطة الفلسطينية. وإذا تعاملت الدول المانحة مع الأمر بحماسة فإن المخاطر ستزول بالتدرج عن طريق الاتفاق. أما إذا لم يحدث ذلك فإن السلطة الفلسطينية ستبقى هدفاً للذين يعارضون وأبرزهم الحكم السوري الذي يملك تجربة ناجحة في مجال إسقاط الإتفاقات مع إسرائيل عندما نجح في إسقاط إتفاق 17 مايو 1983 بين لبنان وإسرائيل هذا مع الأخذ في الإعتبار أن إسقاط ذلك الحكم للإتفاق المشار إليه تم بسبب توافر ثلاثة عوامل أساسية غير متوافرة تماماً. الأول إن سوريا لم تكن يدأت محادثات مع إسرائيل. والثاني أنها متواجدة سياسياً وعسكرياً في لبنان. والثالث أن حضورها داخل الصف الفلسطيني كان قوياً وكانت في نظر العرب رمزاً للدولة الصامدة أمام إسرائيل.

وفي ضوء ذلك فإن المجال بعد إتفاق توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني هو لمعارضة هذا الإتفاق وليس لإسقاطه، إلا إذا نجحت سوريا في تكون جبهة تضم لبنان والعراق وإيرن ومعها حماس وأحزاب الله والسودان وليبيا والشتات الفلسطيني المعارض تعيد إلى الأذهان زمن جبهة الصمود والتصدي وتحاول إستقطاب مواقف دولية إلى جانبها بصورة علنية أو بشكل غير مباشر ونعني بهذه المواقف تلك الدول التي لا تريد أن يصل الدور الأميركي إلى حد الإحتكار كما حدث. وفي إستطاعة مثل هذه الجبهة أن تكون أداة ضغط فاعلة إلا أنها أيضاً لن تتمكن من إسقاط ذلك الإتفاق لسبب أساسي هو أن الإدارة الأميركية تعتبر إسقاط ذلك الإتفاق بمثابة إسقاط للنظام العالمي الجديد الذي ستتولى قيادته. ومن أجل ذلك فإن الدول التي لا تريد للدور الأميركي أن يصل إلى حد الإحتكار لن تجاري الموقف العربي الإسلامي الذي يمكن أن ينشأ، لأنها عمليا لا تتقاطع مع النظام العالمى الجديد وتشكل جزءاً من بعض مفاصله الأساسية. وأهم هذه الدول بريطانيا وفرنسا اللتان سيذكر رئيس كل منهما للرئيس عرفات أنه زاره وهو في طريقه إلى واشنطن. ومن تابع عبر شاشة التلفزيون الإبتهاج الذي ظهر على قسمات وجه كل منهما والإنهماك بالضيف الزائر عند إستقباله وعند إلتقاط الصور معه وعند توديعه أدرك لا بد عمق ضيق الإثنيْن من الإحتكار الأميركي للحل الفلسطيني – الاسرائيلي، وأدرك ولا بد بعد نظر الرئيس عرفات وحذاقته قى تسليف بريطانيا وفرنسا موقفيْن مهميْن. ولنتصور أي شعوريالضيق كان يمكن أن يحدث لو أن التوقيع على الإتفاق تم في البيت الابيض من دون لفتة أبو عمار نحو الرئيس جاك شيراك ثم نحو رئيس وزراء بريطانيا جون ميجور. أليس أمر الدولتيْن الكبريين كان سيبدو مثل أمر أي دولة عادية؟ ولا ندري لماذا لم تشمل اللفتة العرفاتية المستشار كول خصوصاً وأن الرئيس الألماني سبق أن زار أبو عمار في دولته المغلوبة على أمرها ووعد خيراً. وبدت عدم لفتته هذه مثل عدم لفتته في أن يشمل ليبيا في جولته المغاربية التي بدأت بالمغرب وإنتهت بموريتانيا مروراً بالجزائر وتونس. وأغلب الظن أنه يسبب الأزمة الناشئة عن ترحيل الفلسطينيين من ليبيا لم يعرج الرئيس عرفات على طرابلس، علماً بأن مثل هذه اللفتة كانت ستضع حدا لهده المحنة التى يواجهها بضعة ألوف من الفلسطينيين نتيجة للمزاج الليبي الذي ليس هنالك من يفهم فيه مثل أبو عمار، لكنها في الوقت نفسه كانت الكثير من الإنزعاج للمحتكر الأميركي. وهذا المحتكر مزاجه كثير الحدة وشبيه بالمزاج الليبي.

وبعد يوم 28 سبتمبر/ أيلول 1995 بات أبو عمار بشكل عملي جزءاً من النظام العالمي الجديد، ومثل هذا الإنتساب إلى هذا النظام يجعله يحسب حساباً دقيقاً خصوصاً وأن الحل لم يخرج من فوهة البندقية الفلسطينية وإنما من القاعة الشرقية في البيت الأبيض بعد نجاح مدهش للرئيس حسني مبارك في القدرة على جمع الرأسيْن الفلسطيني والإسرائيلي... بالإتفاق والتفاهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 أكتوبر (ت1) 1995

* * *

قراءة في الإستفتاء على تمديد الرئاسة لـ صدَّام (موضوع واحد في مقالتيْن)

□ المقالة الأولى: بداية عودة متدرجة للعراق المرْضي عنه

إذا كنا سننظر إلى الإستفتاء الذي جرى في العراق – بإستثناء شماله المحمي من الولايات المتحدة – يوم الأحد 15 أكتوبر (تشرين الأول) 1995 بمنظار أن

العراق ليس دولة من دول العالم الثالث فإننا بذلك نظلم العراقيين الذين أدلوا بأصـــواتهم. لكن العراق هو من منظومـة هـذه الـدول التي تزدهر فيهـا ظـاهرة المبايعات والإســـتفتاءات كبديل عن المطلب الذي لا تستسيغه أكثرية حكام هذه الدول وهو التعبير بحرية، والإختيار ضمن الأصول الديمقراطية بصرف النظر عما إذا كانت هذه الأصـــول في الحد الأدنى أو في الحد الأقصى.

ولقد إبتدعت مصـر فكرة الإسـتفتاءات فاسـتهوت الفكرة أنظمة كثيرة. ومن سوء حظ الوحدة بين مصـر وسوريا عام 1958 أن التطبيق الأول لفكرة الإستفتاء جرى حولها وكانت النســبة التي تمّ تركيب أرقامها مذهلة. ومنذ ذلك الإســتفتاء، والإســتفتاءات التي يتم إجراؤها تخرج بنتيجة واحدة في إتجاه الرقم المذهل على رغم أن الإنفصـال الذي جرى على أيدي ضـباط وسـياسـيين سـوريين أثبت عدم مصـداقية الإسـتفتاء وأرقامه، ذلك أنه من غير المعقول أن تقال كلمة "نعم" للوحدة بالقوة التي قيلت فيها ثم يحدُث الإنفصـــال بالسهولة التي حصل فيها.

وفي بعض دول العالم الثالث الإســلامية تتشــابه فكرة المبايعة مع فكرة الإستفتاء. وكثيراً ما سمعْنا عن تغييرات حدثت على رغم البيعة وكيف أن الذي بايع الخلَف بالأمس بايع الســلَف بعد ذلك مع أن البيعة بمـدلولهـا العميق تعني الولاء حتى الموت. ونحن لن ننظر إلى الإســتفتاء العراقي بمنظار أن العراق ليس من دول العـالم الثـالـث ولن نتوقف عند الأرقـام التي أذيعت، وإنما تستوقفنا بعض المعاني وبعض المفردات التي قرأنـاهـا بين ســطور خطـابيْن وجهَّهمـا الرئيس صـدَّام حسـين إلى الشـعب بعد إعلان النتائج، وبين سطور تصريحات أدلى بها عزت إبراهيم، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، الذي ترأس اللجنة العليا للإشـراف على الإســتفتاء، وأُخرى وردت في إجابة نائب رئيس الوزراء طارق عزيز عن أسـئلة وجَّهها إليه المراسـلون والصـــحافيون العرب والأجانب الذين وفدوا بكثرة إلى بغداد، ليس فقط من أجْل متابعة تفاصـــيل العملية المبرمجة بدقة للإستفتاء وإنما لما بعد الإستفتاء، وهذا هو بيت القصيد.

ونبدأ بالكلام الأهم، الذي هو كلام الرئيس صــدَّام من خلال قراءة متأنية للخطابيْن اللذيْن وجهَّهما خلال تأدية اليمين الدستورية يوم الثلاثاء 17 أكتوبر (تشرين الأول) 1995 وبحضــور رفاقه أعضــاء مجلس قيادة الثورة وهو مـا لم يكن مـألوفـاً من قبْـل. ففي هـذيْن الخطابيْن لم يأتِ على ذِكْر "أم المعارك" مسـتعيضـاً عن ذلـك بعبـارة يمكن أن تلقى صـــدى في نفوس سامعيها أو قارئيها وهي "... بل وقد لا أتعدى حدودي إذا قلت إن للعراقيين دالة على الإنسـانية جميعاً لأنهم دلوا الإنسـانية على مسـاوئ طواغيت هذا العصـر مما لم ينكشـــف منها بوقت مبكر.. دلوهم على قرية ما ســمي بالعالم الجديد (يقصــد النظام العالمي الجديد) وما يخفي من رغبة في التســلط والظلم والتضـــليل والإزدواجية في المقاييس...".

وهو بعدم الإشـارة إلى "أم المعارك" خيراً فعل، ذلك أنها ورقة من أوراق الماضـي التي لا بد من تناسـيها في شكل أو آخر، ولا بد من الإستعاضـة عن التذكير بها بمباشـــرة الحديث عما يريد المواطن والشـــقيق والصـــديق ســماعه، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن تجاوز "أم المعارك" لفظاً ومشـــاعر يتيح المجال أمام رؤيـة واقعيـة لمـا يجـب أن يكون عليـه حـال التعـامل والتخاطب.

واللافت للنظر في الخطـاب الثـاني، الـذي وجَّهـه الرئيس صـدَّام إلى الشـعب العراقي، أنه لا ينظر إلى العراقيين كبعثيين وإنما كشـعب يضـم كل المشـارب والتوجهات. وهو أيضـــاً يســتذكر من تاريخ العراق "الملك الجليل جلجامش الذي عندما قرر أن يبحث عن ســـر الخلود نراه يعيد سُـــلطة الملك إلى مجلس شـيوخ المدينة الذي كان قد تشـكَّل في الألف الثالث قبْل الميلاد...". وهو في خطابه أيضاً وأيضاً يستذكر مرحلة السـبعينات التي كانت مرحلة قابلة للتطوير في إتجاه التعددية، وهو أمر لم يحدُث أن أشـــار إليه في خُطَب سابقة.

واللافت للنظر في الخطـاب أيضـــاً أن الرئيس صدَّام يُكثر من تسجيل الشكر للشعب العراقي بحيث أنه يكرر كلمة الشـكر سـت مرات في أقل من دقيقة، وهو أيضـــاً أمر لم يحدُث أن ورد في خُطَب ســابقة، مما يعني أن تبدلاً طفيفاً حدَث في النظرة بحيث أن الرئيس صـــدَّام بـات يرى أن الشـــكر بين الحـاكم والمحكوم يجـب أن يكون متبـادَلاً، وليس كمـا كـانـت الحال في الماضي عندما كان الشكر حقاً للحاكم على المحكوم. ونلاحظ أن الرئيس صـدَّام أورد في معرض تسجيل الشكر عبارة لم نسمعها منه في خُطَب سابقة ومناسـبات ذات أهمية قومية ووطنية. وهذه العبارة هي "شـكراً لشـعبنا الكبير. شـكراً للرجال وشـكراً للنسـاء..

وأُقبل رؤوس المســـنين فيكم وأحيي الجميع وقبلاتي لعيون أطفال العراق وصبيانه وشبابه...".

والإكثار من الشـــكر معناه الإمتنان، كما أن الإمتنان معناه أن الإنسان – وهو هنا الرئيس صدَّام – بات مديناً للناس الذين أدلوا بأصواتهم ليكون رئيساً للجمهورية لسبع سنوات. وهم – بإستثناء البعثيين الملتزمين – إختاروا الموافقة تهيباً من جهة ولإحساس داخلي وعفوي لديهم بأن الرئيس صـــدَّام، لأكثر من ظَرف موضوعي، لا بد سيعيد النظر ولن يؤجل إتخاذ خطوات في إتجاه التعددية كان يجب إتخاذها وكان من شـــأنها لو إتُّخذت في حينه بعد إنتهاء الحرب مع إيران، وتمّ الأخذ أيضـاً بالدستور الذي نوقش بما فيه الكفاية، لما كان لغزو الكويت أن يحدُث، ذلك أن تَعدد الرأي السياسي – خصوصاً في إطار مؤسسات – من شـــأنه أن يكبح جماح أي قرار. وتلك إحدى المحاسن الكثيرة للتعددية وللدستور الدائم المصـــان والمحترم، والذي لا صوت يعلو عليه، ولا شأن يتجاوز شأنه. وعند النظر في الحال التي أصابت العراق مِن جرَّاء الغزو وما إستتبعه يتبين كيف أن التعددية نعمة لمن يأخذ بها، وهدف يجب الســـعي لتحقيقه لمن لا يملكه، وكيف أنها تصون الوطن وليس فقط ترضـــي المواطن. ولو أن العراقيين غير البعثيين شـــعروا بأن الرئيس صـــدَّام لن يعيد النظر هذه المرة، وأن التغيير في بعض الأمور قد يصل إلى حد الإستدارة، لما كان هؤلاء أقبلوا على الإستفتاء بحماسة ولكانوا تركوا الأمر للبعثيين يعطون الرئيس صدَّام من الأصوات ثلث ما أُذيع أنه حصل عليها. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الإســـتفتاء لم يكن على برنامج وإنما على شـــخص الرئيس فقط.

وإلى جانب الشـكر نلاحظ كم أن الرئيس صـدَّام يكرر في خطابه أكثر من مرة طلب العون من العراقيين. وتتردد في الخطاب عبارات لم يألفها العراقيون من قبْل من نوع "أعينونا أيها العراقيون النجباء بالصبر وأنتم عنوانه العظيم ونُعينكم إن شاء الله بكل ما يَهدي إلى ما هو سديد وإلى ما يعدل السبل بما يلزم وحيثما إســـتوجب الأمر ذلك. أعينونا في كل الظروف والأحوال. أعينونا على رد المنكَر ومحاســـبة مقترفيه. أعينونا بما يشجع على المضـي في الطريق وعلى تحقيق الأهداف التي تعرفون، وأصـــدقونا القول دائماً بكل ما تجدون أنه عارض على هذا الطريق وبما يمكننا من رؤية أشواكه وكل مهبط سوء ومنكَر فيه. أعانكم الله ورحَمَكم في الدنيا والآخرة وفرَّج عنكم وعنا كُربتنا في يومنا وغدِنا. آمين...".

وعموماً فإن الصـــيغة التي جاء عليها الخطابان تختلف عن صـــيغة كل الخُطب الماضـــية. ويبدو الرئيس صـــدَّام في الخطابيْن يتحدث بنفســـية الحاكم الذي غلبه الحصـار الدولي، وبمشـاعر مَنْ بات على أهبة إنجاز العقد الأول من العمر الثاني حيث إنه على أبواب الستين. ومَن كان هذا عمره، وتلك ظروفه، يكون أكثر ميْلاً إلى الأخذ بواقع الحال ومحاولة تفهُّم الظروف الإقليمية والدولية على عكس ما كانت عليه حاله في السنوات الأخيرة من العمر الأول، التي بدأت حرباً مع إيران وإنتهت غزواً للكويت ثم حرباً عليه. وفي الأمريْن كانت الحســـابات قائمة على الجمع والضـرب فقط. إلى أن جاء الإستفتاء الذي يبدو كما لو أنه الباب الذي سيدخل منه إلى وضْـع يكون فيه صدَّام حسين هو الحاكم المرْضي عنه.

ويبقى أن الخطابيْن اللذين قد يُرضـــيان مشـــاعر العراقيين لا يمكن أن يكتملا إلاَّ بالخطاب الذي يوجهه الرئيس صـدَّام إلى العرب ويكون بمثابة خطاب النوايا الحسـنة والصـادقة التي على أسـاسـها يتخذون قراراً مؤجلاً ويفتحون صـفحة جديدة تتمثل في بداية العودة بالتدرج إلى صدَّام المرْضي عنه.

وإســـتناداً إلى صـــيغة الخطابيْن الموجَّهيْن إلى الشعب العراقي وما حفلا به من عبارات الشكر وطلب العون، يجوز الإفتراض أن الخطاب الذي سيتم توجيهه إلى العرب لن يكون غير ذلك في بعض المنطلقات... هذا ما دام الرئيس صـــدَّام يريد للعراق أن يتعافى. وسـيكون العراقيون معه بنسـبة مائة في المائة وليس فقط بالنسـبة التي جاءت عليها نتيجة الإسـتفتاء وهي 99.96 في المائة. وللحديث بقية.

* * *

□ المقالـة الثانيـة: العراق على طريق "النموذج التونسي" شرط عدم الإنبهار بـ "القنبلة البعثية"

مـا أحوج الحُكْم البعثي في العراق، والـذي تتوارد الأخبار عن إنبهار قواعده بالإســـتفتاء الذي جرى يوم الأحد 15 تشـــرين الأول (أكتوبر) وجاءت النتائج أن 99.96 في المائة مِن الذين إقترعوا قالوا نعم لـ صـدَّام حسين رئيساً للجمهورية حتى العام 2002.. ما أحوج هذا الحُكْم إلى إغتنام أي فرصـــة يؤكد فيها بالفعل أنه جاد من أجْل أن يبدأ مع العالم، ومع الأشـــقاء في الـدرجـة الأُولى، عهـداً جـديـداً تلتئم فيـه جراح كثيرة

وتختفي فيه آثار ندوب أحدثها الغزو الذي قام به يوم الثاني من أغسطس (آب) 1990 وما زالت تداعياته تتوالى حتى الآن، وليس في الأفق ما يشير إلى أن للتداعي نهاية قبل أن يتخذ الحُكْم العراقي الخطوة التي لا بد من إتخاذها.

وكانت مشاركة العراق في إحتفال الأمم المتحدة بشخص نائب رئيس الجمهورية طه محيي الدين معروف (تولى هذا المنصب تنفيذاً لقانون الحُكْم الذاتي للمنطقة الشمالية الذي وُضع قيد التنفيذ عام 1974) مناسبة لكي يقال ومِن على منبر هذه المنظمة الكلام الذي يساعد على إيجاد صيغة ما للمعضلة العراقية العالقة. وكان العالم سيستمع بإهتمام إلى ما يقوله المسؤول العراقي لعدة أسباب، أهمها أنه في "معمعة" غزو الكويت وما تلاها بقي (أي معروف) بعيداً عن تسجيل المواقف المتجبرة التي لم يترك قائلوها للصلح مكاناً، ولا لتفادي الوقيعة فرصة. وإلى ذلك أن العالم بشخص هذا التجمع الكبير كان سيستمع للتأكد من أسلوب التخاطب الجديد الذي اعتمده أو سيعتمده النظام في العراق في ضوء الإستفتاء الذي جرى، وهل أن هذا النظام راغب بالفعل في الإنتساب إلى خيمة النظام العالمي الجديد بشروط زعامة هذا النظام على رغم أنها كانت مجحفة أم أنه سيبقى على الحال التي هو عليها. ولكن طه محيي الدين معروف قال الشيء القليل من الكلام الكثير الذي يتوق العالم إلى سماعه. وهو بالقليل الذي أورده في كلمته يعتمد المناشدة وليس الاعتراض ويتمسك بالمنظمة الدولية التي هي منظمة الجميع، مشيراً إلى أنه من الضروري مراعاة الناحية الإنسانية في تطبيق قرارات الأمم المتحدة. ومثل هذا الكلام مؤشر إلى أن لغة العراق الجديد مع العالم ستكون لغة جديدة. والذي سيساعد على ذلك ما يقال بأن "الشرعية الثورية" ستتوارى لتحل محلها "الشرعية الدستورية" وهذا ما أمكن استخلاصه من اجتهادات في شأن المرحلة المقبلة صدرت عن نائب رئيس الوزراء طارق عزيز.

وأهمية "الشرعية الدستورية" أن الحُكْم تحت مظلتها هو حكم مؤسسات. بمعنى أن مجلس النواب مؤسسة تشريعية يتساوى، إلى حد ما، شأن من يترأسه مع شأن رئيس أي برلمان من بعض برلمانات دول العالم الثالث، وأن مجلس الوزراء مؤسسة تنفيذية يترأسها مقتدر وليس مجرد موظف مرموق.

وإذا كان الرئيس صدَّام يتطلع إلى أن يكون هنالك مجلس شيوخ فإن هذا المجلس في ظل "الشرعية الدستورية" يفترض أن يكون مؤسسة إبداء الرأي قبل أن يُتخذ القرار، في الحد الأدنى، أو مؤسسة تتمتع بصلاحية حق النقض لمشاريع تصدر عن السلطة التنفيذية وتحتاج إلى إقرارها من السلطة التشريعية قبل أن تأخذ طريقها إلى التنفيذ. وعندما تستقر هذه المؤسسات فإن مؤسسة رئاسة الجمهورية تستقر بدورها ولا تعود كما هي الحال الآن مثقلة بكل المسؤوليات أي بالمسؤولية المناطة بها وبمسؤوليات المؤسسات الأُخرى.

وقد يصعب الإفتراض كيف أن "الشرعية الثورية" يمكن أن تتحول نحو "الشرعية الدستورية" بالأشخاص أنفسهم ومن دون أن يرافق ذلك عملية انقلابية ينفض فيها طاقم جديد يديه من إرث طاقم قديم؟ والرد على ذلك هو أن التحول السريع الإيقاع الذي يعيشه العالم عموماً يوجب على من لا زالوا يحكمون بإسم "الشرعية الثورية" وتحت مظلتها أن يبدأوا التغيير وبأنفسهم وذلك على أساس أن لا خيار أمامهم سوى هذا الخيار.

وبالنسبة إلى حاكم مثل الرئيس صدَّام حسين كان في ظل "الشرعية الثورية" ممسكاً بيديه كل السلطات الحزبية والسياسية والعسكرية يبدو من الصعب لولا وطأة الحصار المفروض عليه أن يتخلى بسهولة عن هذا الوضع. ولكن الوطأة إشتدت وبات لا بد من "الشرعية الدستورية". ولقد كان من الأجدى لو أن الإنتقال من شرعية إلى شرعية تمّ مع السنة الثانية للحصار. وهو لو فعل ذلك لكان كل ما تطالب به الأمم المتحدة أمكن تنفيذه مهما بدت الإستجابة شاقة على النفس. ونقول ذلك على أساس أن ما يصعب القيام به في ظل "الشرعية الثورية" يسهل القيام به في ظل "الشرعية الدستورية" حيث هنالك مشاركة جماعية في إتخاذ القرار وحيث هنالك مؤسسات يمكنها ما دامت تمارس حقها وسلطاتها أن تتحمل عبء أي قرار ثقيل الوطأة بدل أن يتحمله شخص واحد. وعلى سبيل المثال لا الحصر أن برلماناً يعمل في ظل "الشرعية الدستورية" يمكنه أن ينهي في جلستيْن أو أكثر مناقشة كل ما هو مطلوب دولياً من العراق تنفيذه، وبذلك لا يعود الأشقاء العرب حتى الذين لم تبرأ جراحهم مما فعله "العراق الثوري" عندما قام بعملية غزو الكويت، مضطرين للقول إن رفع المعاناة عن الشعب العراقي مسألة يتحملها النظام الحاكم في

العراق.

والإنتقال من شرعية إلى شرعية ليس بهذا الأمر الصعب، فضلاً عن أنه مطلب شعبي. ونحن هنا نعني بذلك المعسكر الثوري حيث لا تخلو عملية الانتقال من التعقيدات. وحتى بالنسبة إلى تجربة الحُكْم البعثي يحدث مثل هذا الإنتقال وبموجبه يتحقق إستقرار ويتم بناء الدولة وفق قاعدة سليمة، ولنا في الإنتقال الذي نفذه الرئيس حافظ الأسد في سوريا خير مثال على ذلك، ولولا حركة التصحيح التي قام بها الرئيس الأسد لكان وضع سوريا، ربما، مثل وضع العراق الآن. ولكن تلك الحركة أرست إمكانية تطوير العمل السياسي في معزل عن المغامرين الذين قد يخطر في بالهم تجديد العمل بـ "الشرعية الثورية". وبفضل تلك الحركة أمكن سوريا أن تخوض حرباً ضد إسرائيل وأمكنها أن تصمد وتبني قوة ذاتية مهمة وأمكنها أيضاً أن تواجه لعبة السلام غير المتوازن الذي تضغط إسرائيل على الإدارة الأميركية من أجْل الأخذ به وليس بأي صيغة سلام أُخرى.

ولو أن الرئيس (الراحل) السادات لم ينفذ عملية الإنتقال من "الشرعية الثورية" إلى "الشرعية الدستورية" مستنداً في ذلك إلى أن سلفه الرئيس (الراحل) جمال عبد الناصر كان يخطط للإنتقال هذا لولا أنه توفي فجأة، لما كانت أحوال مصر الآن أفضل كثيراً من أحوال السودان والذي – أي السودان – إذا كان لن يشهد وفي أقرب وقت عملية إنتقال في إتجاه "الشرعية الدستورية" فإن مأساة كبرى ستحيق به. وبفضل الخطوة الأُولى التي قام بها الرئيس السادات على طريق الإنتقال أمكن الرئيس حسني مبارك أن يطور عهد "الشرعية الدستورية" بحيث أن مناخ حرية التعبير السائد في مصر يتحول يوماً بعد يوم لكي يصبح نموذجاً تتزايد المطالبة بمثله في دول العالم الثالث على نحو ما كان النموذج اللبناني قبل بدء الحرب عام 1975 والتي دامت ست عشرة سنة، هو النموذج المرجو.

ولا نعتقد أن الأزمة التي تعيشها ليبيا بسبب مسألة لوكربي ستجد لها حلاً ويتم فك الحصار المضروب عليها في ظل صيغة غير صيغة الإنتقال من "الشرعية الثورية" إلى "الشرعية الدستورية".

ونعود إلى الحالة العراقية لنضيف بأن "الشرعية الدستورية" هي المدخل السليم لإيجاد حل للمعضلة التي يعيشها العراق منذ العام 1990 ومن دون هذا الإنتقال نحو تلك الشرعية لن تكون هنالك بوادر حل على الإطلاق. وإذا جاز التشبيه فإن النموذج التونسي هو الأقرب إلى ما يمكن أن ينتهي إليه الحال في العراق في ظل "الشرعية الدستورية". لكن المهم ألا يعتبر أهل النظام في العراق في لحظة إنبهار جارفة من اللحظات التي يعيشها أن الإستفتاء أثبت وجود "القنبلة البعثية" التي تعوِّض "القنبلة النووية" والتي قيل إن النظام كان على أهبة أن يصنعها أو يملكها، وأنه ما دام من الصعب على أي نظام بديل فك صاعق "القنبلة البعثية" فإن لا موجب لأي تغيير ولا لإنتقال سريع من "الشرعية الثورية" إلى "الشرعية الدستورية" وأنه تكفي العراقيين عبارات الشكر وطلب العون التي وردت في خطابيْ الرئيس صدَّام اللذيْن وجَّههما يوم الثلاثاء 17 أكتوبر/ تشرين الأول 1995.

وفي هذه الحال يكون النظام أضاع آخر الفرص، ويكون كمَن يسير وهو نائم في إتجاه إعتبار الإستفتاء، بالشكل الذي جرى فيه وبالنتائج التي أسفر عنها، أنه هو الديمقراطية، بل وأفضل أنواع الديمقراطية، مثلما إعتبر أنه خرج منتصراً من الحرب الدولية عليه.

... ويكون أيضاً بالفعل هو الذي يتحمل معاناة الشعب العراقي من الحصار المفروض عليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 أكتوبر (ت1) 1995

* * *

قمة.. قاطعها أهل القمة

مع ان اسمها الشائع كان «قمة عَمَّان الإقتصادية» فإن المشاركة فيها لم تكن على الإطلاق على مستوى القمة ولا حتى على مستوى مَن يمثل عادة أهل القمة. ولا بد ان الملك حسين لمس نوعية التمثيل العربي والدولي من خلال لقاءاته وإتصالاته في نيويورك، حيث شارك في إحتفال الذكرى الخمسين لتأسيس منظمة الأمم المتحدة، ولذلك لم يفاجأ ولا شملت المفاجأة وليْ عهده الأمير الحسن. وفي الأشهر الثلاثة الماضية بنى الحُكْم الأردني حساباته في ضوء الإتصالات والتطورات والوعود على أن القمة الإقتصادية الثانية (جرى عقْدها في عمان من الأحد 29 إلى الثلاثاء 31 أكتوبر/ تشرين الأول 1995) ستكون أكثر حيوية من القمة الأُولى التي عُقدت في

الدار البيضـــاء (من الأحد 30 أكتوبر/ تشـرين الأول إلى الأول من نوفمبر/ تشـــرين الثاني 1994)، وذلك لأن الحمـاســـــة الأميركيـة نحو الفكرة لم تبرُد ولإن خطوات في إتجاه توســـيع رقعة الســـلام في المنطقة حدثت، فضـــلاً عن أن العلاقات المتأزمة بين الأردن وبعض الدول العربية شهدت بعض الإنفراج وإن كانت الإشارات الهاشمية إزاء مستقبل العراق والتي تضمَّنها خطاب تاريخي للملك حسين (بعد إستضـافته حسين كامل وشـــقيقه صـــدَّام الهاربيْن مع زوجتيهما – إبنتا الرئيس صـدَّام حسـين – من العراق) تسـببت في نوع من الحذر لدى بعض الدول العربيـة وإلى درجـة أن الرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد لم يُخفيا حذَرَهما هذا. وكان لافتاً للنظر أن الملك حســـين أرســـل تلك الإشـــارات مع أنه على موعد مع قمة يمكن أن تنجح إذا حدثت مشـــاركة عربية متميزة فيها، ومَن كان على مثل هكذا موعد فإنـه لا يتســـبب في الحذر لأحد ويحاول تجاوُز كل ما من شـــأنه أن يجعل هذا الحاكم أو ذاك لا يلبي الدعوة إلى تلك القمـة أو على الأقل يكون التمثيل على مستوى الصف الثاني. أما إذا كان هنالك مَن سـيقاطع فعلى الأقل لا يشـن هجوماً على القمة.

لكن يبدو أن إرســـال تلك الإشـــارات كان موقفاً إسـتراتيجياً من جانب الملك وإذا كان لن يرسـل وسـط الضـجيج الناشـئ عن لجوء المسؤول العراقي المرموق وظيفياً وعائلياً إلى الأردن، فإنـه ربما لن يجد ظرفاً آخر مناسباً لذلك. ولقد أرسل الملك حسين الإشارات وكـان الـذي كـان، من دون أن تُلغي المواقف العربيـة المتحفظة أو المكتفية بالحذر، إمكانية تجديد إرســـال الإشارات في مناسبة أُخرى.

ولقد بدا الحكام العرب ومن دون إســـتثناء وكأنهم على إتفاق مسبق لعدم مشاركتهم شـخصـياً في القمة، مع أن هذا الإتفاق لم يتم التخطيط له بالمنظور الذي نشـــير إليه. وكان هنالك على الأقل ثلاثة من الحكام العرب تفرض عليهم فكرة القمة وملابســـات إبتكارها المشـــاركة شـــخصـــياً لكن هؤلاء غابوا وبما يشـــبه المقاطعة. والثلاثة الذين نعنيهم هم الملك الحســـن الثاني والرئيس حسني مبارك والرئيس زين العابدين بن علي. بل إن الملك حسـين كان يأمل أن يشـارك أمير دولة قطر الشـيخ حمد بن خليفة والسـلطان قابوس في القمـة. ولكن ذلـك لم يحـدُث. وقـد يتبين ذات يوم أن القرار العـدائي الـذي إتخـذه الكونغرس الأميركي والقاضـي بنقل مقر السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس، وبما يدعم مخطط إســـرائيل لتهويد المدينـة المقدسـة كان السبب وراء هذا الغياب الذي يكاد يكون مقاطعـة. وفي أي حـال خيراً حـدَث هذا الغيـاب لأن مثل هذه المشـاركة كانت سـتضـيف المزيد من السـوء إلى حالة الإحباط التي يعيشـــها المواطن العربي مِن جرَّاء السلام المنقوص وغير العادل الذي تريده إسرائيل وتدعمه الولايات المتحدة.

وإلى ذلك إن الأمر كان ســـيبدو غير مســـتحب إطلاقاً إذا كان الحكام العرب يمكن أن يشـاركوا وبهذا اليســـر في مثل هكذا قمة، بينما هم مترددون إزاء أي فكرة لعقد قمة عربية تُخرج هذا الوضـــع العربي البالغ السوء من النفق الموضوع فيه.

ومن خلال مشـاهدة لجلسـات القمة الإقتصـادية الثانية، التي لم تكن قمة على مسـتوى التمثيل، وكذلك من خلال قراءة لبعض ما تم عرْضـه فيها وما صـدر عنهـا من قرارات وكـذلـك من خلال قراءة لبعض الكلمات التي أُلقيت والملاســـنات التي حدثت يخرج المرء بإنطباع يتلخص في الملاحظات الآتية:

– بالمقارنة مع القمة الأُولى التي عُقدت في الدار البيضاء فإن الإستعداد الأمني كان متساوياً تقريباً، مع إضـافة لافتة للنظر في الإسـتعداد الأردني حيث كانت الإسـتعدادات مبنية على أسـاس أن حكاماً كباراً عرباً ودوليين يمكن أن يشاركوا.

– إن حال الشـــعب المغربي حيال القمة الأُولى كانت مثل حال الشـــعب الأردني حيال القمة الثانية. كلاهما إعتبر القمة تجمعاً دولياً إرتآه الملك (الحســـن في المغرب والحســـين في الأردن) وتقضـــي أصـــول اللياقة والظروف العامة في المنطقة عدم التشـــويش على هذا التجمع مادام ضـــيوف الملك في البلد. وأما إذا كان لا بد من إبداء الرأي فليكن بعد المؤتمر.

– في قمة الدار البيضاء كان الحضور الإسرائيلي مسـتفِزاً سـواء على صـعيد التمثيل، حيث أن تسـعة وزراء من أصـل 17 تتألف منهم الحكومة الإسـرائيلية رافقوا رئيس الوزراء إســـحق رابين، أو على صـــعيد الكلمات التي أُلقيت والتي إتسمت بأسلوب مخاطبة في غايـة العنجهيـة. أمـا في قمـة عمـان فـإن التمثيـل لم يســـتفز أحداً وإنما الذي إســـتفز الجميع هو أن ورقة المشـاريع التي عرضـتْها إسـرائيل كانت على رغم دقة صـياغتها تعكس نوايا غير طيّبة تسـتهدف وضْـع اليد على مفاصل الوضع المالي والإقتصادي في المنطقة،

أو إذ جاز التعبير إن الورقة جاءت تبيع أهل المال العربي مشاريع براقة وتريد أن تقاسُمهم خيراتهم.

– لم تترك الولايات المتحدة وسيلة ضغط إلاّ ومارستْها من أجْل أن تثبّت فكرة القمة أقدامها. وفي النهاية كان لها ما أرادت حيث أن القمة أقرت مشروع «بنك التعاون والتنمية الإقتصادي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا»، وهدفه على نحو ما جاء في «بيان عمَّان» الصادر عن القمة «دعْم تطوير القطاع الخاص ودعم المشاريع الإقليمية للبنية التحتية، وإيجاد آلية لدعم التعاون الإقتصادي الإقليمي وتطويره» وحَسَم البيان مسألة مقر هذا البنك حيث ستكون القاهرة هي المقر. أما العاصمة الأردنية التي كانت تطمح أن تكون هي المقر فإن الذي حصلت عليه تعويضاً هو أن تكون مقر لجنة متابعة للقمة ك «مؤسسة إقتصادية إقليمية دائمة». وإلى ذلك تضمَّن «بيان عَمَّان» الإعلان عن تأسيس «مجلس السياحة الإقليمي» يضم ممثلين حكوميين وآخرين من القطاع الخاص، وتأسيس «المجلس الإقليمي لرجال الأعمال» لدعم التعاون والتجارة بين القطاعات الخاصة في المنطقة.

– كان إعلان وزير التجارة السعودي الدكتور أسامة جعفر الفقيه الذي مثَّل بلاده في مؤتمر عَمَّان، ومنذ اليوم الأول أن المملكة العربية السعودية لن تشارك في بنك التنمية، هو الحدث الأكثر أهمية. ولقد أورد الوزير السعودي السبب على النحو الآتي: «إن المملكة العربية السعودية وفَّرت أقصى ما يمكنها توفيره من موارد مالية للتنمية في المنطقة العربية ولم يعد من المعقول أن يُطلب منها أي أعباء مالية إضافية، وبالتالي فإذا كانت هناك متطلبات مالية تقتضيها مشاريع التعاون الإقليمي التي ستنشأ عن مسيرة السلام في الشرق الأوسط، فعلى الدول المانحة من خارج المنطقة أن تقوم بزيادة حجم مساعداتها المالية والإنمائية لتلبية هذه المتطلبات. وعلى هذا الاساس يتعذر على المملكة المشاركة في إنشاء البنك المقترَح»..

ويتساءل المرء: أي بنك هذا الذي سيقوم إذا كانت المملكة العربية السعودية لن تشارك فيه. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن مساعدة وزير التجارة الأميركي خففت من وقْع شعور الإحباط الذي ساد بعدما أعلن وزير التجارة السعودي الإعتذار عن المشاركة، بقولها إن المواد التأسيسية للبنك إتُّفق عليها كما حددت الحصص في البنك موضحة أن مجمل هذه الحصص يبلغ خمسة بلايين دولار وأن 70 في المائة من هذه الحصص ستُموَّل، فيما تُركت الحصص الأُخرى مفتوحة لمن يرغب في الإنضمام إلى البنك لاحقاً. وأضافت إلى ذلك قولها: «إننا سنبذل اقصى جهد لكي يبصر هذا البنك النور في غضون سنة...». وهي ثلث المدة التي توقعها وزير خارجية مصر عمرو موسى.

– كان التلاسن العابر المصري – الاردني في مسألة «الهرولة» بمثابة ملح قليل على الطبق الرئيسي لمائدة القمة وليس أكثر من ذلك خصوصاً أن الطرفيْن جزء أساسي من عملية الصلح التي تمت بينهما وبين اسرائيل.

تلك كانت أبرز الملاحظات ذات الطابع الإقتصادي التي يخرج منها المرء وهو يتابع عبر شاشة التلفزيون ثم وهو يقرأ. ولكن هذه ليست كل الملاحظات فهناك الملاحظات ذات الطابع السياسي التي لا تكتمل صورة القمة من دونها، أو بالأحرى صورة هذا المهرجان السياسي – الإقتصادي الذي جاء نجاحه أكثر بقليل من نجاح المهرجان الأول في الدار البيضاء وأكثر بكثير من مهرجان جرش قبل بضعة أشهر عندما كانت تصدح الحناجر العربية بعيداً عن إجراءات الأمن التي لا مثيل لها، وعن التطبيع بالإكراه ومحاولات إعتبار السلام الظالم مسألة يجب أن تكون مقبولة.

وللحديث بقية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 نوفمبر (ت2) 1995

* * *

الرياض.. ذلك الرمز

يوم كان العالم العربي في حال من الإنهيار المعنوي لا مثيل لها نتيجة هزيمة 1967، فإن الأنظار شخُصت نحو الرياض لتعرف ما الذي ستفعله في مواجهة هذا الإنهيار المعنوي. ولم يَطُل الإنتظار وصاغ الملك (الراحل) فيصل بن عبد العزيز وقفة تتجاوز في أهميتها أي مواقف لفظية. ولولا تلك الوقفة في القمة العربية في الخرطوم من (29/8 إلى 7/9 عام 1967) لما كان للصمود أن يحدُث ثم يتطور إلى

أن بات في إستطاعة مصر أن تعيد بناء قوتها ثم تخوض مع سوريا في أكتوبر (تشرين الأول) 1973 الحرب التي حل مفهوم التوازن الإستراتيجي فيها محل التفوق الذي إحتكرتْه إسرائيل دائماً.

ويوم بدأت المقاومة الفلسطينية تحاول إحياء النضال الفلسطيني وتعمل على إسترجاع الحق الفلسطيني فإنها كانت مستندة إلى الرياض التي قدَّمت الدعميْن المالي والسياسي بشجاعة ومن دون تذكير. ونقول بشجاعة لأن تبعات هذيْن الدعميْن كانت ثقيلة الوطأة وتمثلت بحملات في بعض وسائل الإعلام الأميركية من صحف ومجلات ومحطات إذاعة وتلفزيون. وكانت الرسالة، التي أراد مَن يقف وراء هذه الحملات إبلاغها للرياض، هي أنه ما دام هذا الدعم للقضية الفلسطينية مستمراً فإن تلك الحملات ستستمر. ومع ذلك إستمر الدعم وكان دائماً من دون حاجة إلى تذكير.

ويوم إجتهد الرئيس (الراحل) أنور السادات إجتهاده في شأن العملية السلمية وزار القدس ثم أبرم صفقة "كامب ديفيد" فإن الأنظار العربية بأكثريتها الساحقة والمنزعجة أشد الإنزعاج من التفرد المصري غير المبرَّر لأن المساندة لمصر لم تتوقف، إتجهت نحو الرياض لتعرف ما هو الموقف الذي ستتخذه، وهل ستتغلب خصوصية العلاقة بينها وبين الولايات المتحدة التي ترعى المصالحة المصرية – الإسرائيلية، على تمنيات الأكثرية العربية في أن تتصدى مع بقية الأنظمة العربية لهذه المصالحة، التي ستتسبب في تعقيد الأمور أكثر مما ستسهِّل إنتشار رقعة السلام العادل.

وعندما إلتقى الملوك والرؤساء العرب في قمة بغداد (من 2 إلى 5 نوفمبر (تشرين الثاني) 1978) فإن الرياض ترجمت مشاعر الأكثرية العربية وصاغت في الوقت نفسه من خلال الإتصالات الجانبية موقفاً أشبه بموقفها في قمة الخرطوم، حيث إنها تركت باب العودة أمام السادات مفتوحاً، أما إذا كان لن يعود فإنها حرصت ومن خلال تلك الإتصالات أيضاً على ألاَّ يتم إغلاق الباب العربي أمام المصريين، وهو ما تبيَّن بعد ذلك أنه ساعد على أن يُبقي الشعب المصري في أكثريته الساحقة ضد التطبيع مع إسرائيل على رغم مرور ست عشرة سنة على الصلح المصري – الإسرائيلي. ولو أن تلك القمة لم تستجب لتوجهات الرياض في هذا الشأن وقاطعت مصر نظاماً وشعباً وأغلقت الباب أمام حوالى ثلاثة ملايين مصري يعملون ويترددون على الدول العربية، لكان التطبيع ربما حدث، ذلك أنه إذا وجد المصري أن الأبواب العربية مغلقة في وجهه، مع أنه لا ذنب في ذلك الإجتهاد الذي إجتهده رئيسه، فإنه كان سيُقبل على التطبيع من باب الكيد للأشقاء العرب من جهة، وقلة الخيارات أمامه من جهة أُخرى. أما الباب الذي تركتْه القمة، وبفضل جهد بذلته الرياض، فتمثَّل بتعهدها بتقديم مليار دولار إلى جانب مليارَيْن ونصف المليار يتم جمعها من كل من العراق والكويت والجزائر ودولة الإمارات وليبيا وقطر ولمدة عشر سنين، ويتم توزيع هذا المبلغ على مصر وكل من سوريا والأردن ومنظمة التحرير من أجْل الصمود والتأهب للمواجهة إذا تطلَّب الأمر ذلك.

وقبْل هذه القمة نلاحظ كيف تصرفت الرياض إزاء الإقتتال في لبنان الذي كان ما زال في بداياته. وهي خشية أن يتطور الإقتتال بين السُلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية إلى ما إنتهت إليه الحال في الأردن عام 1970 فإنها على رغم تفضيلها عدم الدعوة إلى عقْد مؤتمرات القمة فيها، بادرت ودعت متعاونة مع الكويت إلى قمة مصغرة على نحو تلك القمة التي دعا إليها الرئيس (الراحل) جمال عبد الناصر وعُقدت في القاهرة من 21 إلى 27 سبتمبر (أيلول) 1970 وعُرفت بإسم "قمة الهيلتون". وأهمية هذه القمة (من 16 إلى 18 أكتوبر (تشرين الأول) 1976) أنها تحولت إلى إلتزام بالكامل من جانب المملكة العربية السعودية بالمسألة اللبنانية وضرورة إيجاد حل لها، وهو ما حدث بعد خمس عشرة سنة في الطائف حيث إلتقى النواب اللبنانيون في مؤتمر إنتهى إلى وضْع حل للأزمة اللبنانية، وهو الحل المعمول به الآن.

ويوم كان لا بد من صيغة توفيقية بالنسبة إلى القضية الفلسطينية تحافظ على جوهرها كقضية وتترك المجال أمام العالم لكي يتعامل بمنظور جديد مع هذه القضية، حملت الرياض راية هذه الصيغة، وكان مشروع الملك فهد الذي ناقشتْه قمة فاس (من 6 إلى 9 سبتمبر (أيلول) 1982) بعناية، وإنتهى القادة العرب إلى أن هذا المشروع يمثِّل قناعاتهم أفضل تمثيل، فضلاً عن أهميته في أن صاحبه هو الملك فهد الذي إرتبط المشروع بإسمه والذي لا يمكن أن يتنازل عن بنود هذا المشروع الذي حوَّلتْه قمة فاس،

هو ومشـروع آخر بالروحية نفسـها للرئيس التونسـي (المعزول أو المتقاعد) الحبيب بورقيبة، إلى المبادئ التي يدور الحل الدولي للسـلام العربي – الإسـرائيلي حولها. وهذه المبادئ (المسـتندة إلى مشـروع الملك فهد) تنص على الآتي:

1 – إنسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي إحتلتْها عام 1967 بما فيها القدس العربية. 2 – إزالـة المسـتعمرات التي أقامتْها إسـرائيل في الأراضـي العربية بعد 1967. 3 – ضـمان حرية العبادة وممارسـة الشـعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة. 4 – تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصـيره وممارسـة حقوقه الوطنية الثابتة غير القـابلـة للتصـرف بقيـادة منظمـة التحرير الفلسـطينية ممثِّله الشـرعي والوحيد وتعويض من لا يرغب في العودة. 5 – تخضع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة إنتقالية لإشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضـعة أشـهر. 6 – قيام الدولة الفلسـطينية المستقلة بعاصمتها القدس. 7 – يضع مجلس الأمن الدولي ضـمانات السـلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسـطينية المسـتقلة. 8 – يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادئ.

ولولا هذه المبادئ المستندة إلى رؤية الرياض من خلال مشروع إبنها البار فهد بن عبد العزيز لمستقبل المنطقة لمَا كان للرئيس ياسـر عرفات أن يعلِن بعد ذلك، وهو في غاية الإطمئنان ومن الجزائر يوم 15 نوفمبر (تشرين الثاني) 1988 قيام الدولة الفلسطينية، (وهو مـا إتخـذ قراراً في شـأنهـا المجلس الوطني الفلسـطيني الذي عقد دورة هناك لهذا الغرض). ولمَا كان لمؤتمر مدريد أن يُعقد بهذه السهولة، ثم لمَا كان للتحرك الفلسـطيني أن يتم بالإيقاع الذي هو عليه حتى الآن. وعنـدمـا لا تنـدفع الريـاض في إتجـاه خطوات التسوية التي تتم فكأنما تقول إن الحد الأدنى هو ما تضـمَّنه مشـروع الملك فهد. ومَنْ يلقي نظرة على بنود ذلك المشـروع التي صـاغتها قمة فاس بشـكل مبادئ، يدرك معنى تشـديد المملكة العربية السعودية على مؤازرة سوريا في موقفها، ويدرك أيضاً معنى تَمسُّكها بموضوع القدس.

ويوم تعرَّض الإسلام في البوسنة إلى محنة تشبه في بعض جوانبها محنة الفلسـطينيين في فلسـطين على أيدي الإحتلال الإسـرائيلي، تعاملت الرياض مع تلك المحنة بمثل تعامُلها مع محنة الفلسـطينيين، وبذلك أبقت على المسـألتيْن حيتيْن في أذهان العالم وفي جدول أعمال الحكومات إلى أن تحققت الصـيغة المعقولة، عِلْماً بأن الصـيغة المعقولة تكون أحياناً بمثابة الصيغة الطموحة خصوصاً عندما يحدُث نوع من الإجماع الدولي أو شـبه الدولي على مناصـرة الحق ضـد الباطل كما حدَث للفلسـطينيين ثم للبوسنيين.

ويوم يحدُث زلزال في هذا البلد العربي أو ذاك البلد المسـلم، فمِن الرياض تبدأ النجدة ولا تتوقف. وإذا حَلت بهذا الشعب العربي أو ذاك الشعب المسلم مجاعة أو كارثة جفاف، فمِن الرياض تبدأ النجدة. وإذا قرر فتية الأرض المحتلة التذكير بقضـيتهم وإسـتعملوا الحجارة سـلاحاً، فمِن الرياض، وبقيادة أميرها، تأتي المساندة وتتواصل. وإذا علِمت الرياض بأن هنالك مسلمين في مكان ما لا مسجد لديهم ولا مدرسـة لأبنائهم فإنها لا تحتاج إلى من يقْنعها بضـرورة القيام بالواجب. وإذا طولبت بصـوت عال بواجب ما فإنها تقدَّمه همساً. وفي المواقف الصعبة تكون الرياض ذات حضـور متميز. وهي في كل ما تفعله تبدو متمسكة بتقليد وضَعه الأب الطيب الذكر ليسير عليه مَن بعده.

من أجْل ذلك فإنه عندما تتوعك الرياض فمن الطبيعي أن يكون هنالك أكثر من سبب مشروع لكي يقلق عليها الذين يدركون أي حال يمكن أن تصـيب الأمة، إذا لا سـمح الله تمكن الشـر من أن يسـجِّل بعض الجراح فيها.

ونحن هنا لا نتحدث عن الرياض كمدينة مزدهرة وإنما كرمز لمملكة وظفت ثروتها في سـبيل أمتها العربية والإسـلامية بعدما إطمأنت إلى إزدهار أبناء شعبها، وكرمز لأكثر حالات التوحد ثباتاً في العصر العربي الحديث، وكرمز للصمود ومساندة الصامدين. وما أوردناه كأمثلة هو القليل من المعلَن عنه، أما غير المعلَن عنه فما أكثره.

... وللعرب والمسـلمين أن يتصـوروا أي حال ستكون حالهم إذا إنشغلت الرياض عن إهتماماتهم... بهمومها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر(تشرين الثاني) 1995

* * *

مفاجأة الجزائر... السارة

الجديد الذي أفرزتْه إنتخابات الرئاسة الجزائرية – وهي أول إنتخابات تعددية منذ إستقلال البلاد عام 1962 – هو أنها دفعت إلى الواجهتيْن المغاربية والمشارقية مشروع زعامة جديدة قادرة، إذا هي تحلت بالصبر وطول البال والتواضع، على أن تضع الجزائر من جديد على سكة السلامة، وشيئاً فشيئاً تستعيد البلاد سمعتها فلا تعود نموذجاً يُضرب به المثل عند الحديث عن بشاعة الإقتتال بين أبناء البلد الواحد، وتستعيد دورها بعدما جرى عن سابق قصد وتصميم تغييبها عنه، وهي التي كانت ذات حضور إيجابي ومخْلِص في كل أزمات العالم العربي من المحيط إلى الخليج طوال ربع قرن.

وقبْل هذه الإنتخابات والمفاجأة السارة التي أسفرت عنها، كانت الجزائر عبارة عن أزمة تدار من قِبَل رجل أول في سُلطة تُمسك المؤسسة العسكرية من وراء الستار (وهو ستار شفاف في أي حال) بزمامها. وقد أثبتت هذه التجربة فشلاً ذريعاً وأبقت على الجزائريين وقوداً في أتون الإقتتال الأهلي. ثم جاءت الإنتخابات بنتائج تشبه التفويض للرئيس الأمين زروال لكي تبدأ البلاد تحت رئاسته عهداً جديداً تداوي فيه الجسم الجزائري المثخَن بالجراح، وتزيل عن وجه الجزائر الندوب التي كانت تُنسي كثيرين الجزائر ذات الماضي النضالي، التي حصلت على الإستقلال بعد مائة وثلاثين عاماً من المقاومة كانت حرب التحرير الحلقة الأخيرة في هذه المسيرة المضنية من المقاومة.

ولقد كان مثيراً للدهشة وللإعجاب أن تجري الإنتخابات الجزائرية في هذا الهدوء الذي جرت فيه، وأن يأتي الإقبال على الإقتراع بهذه الروح العالية من المسؤولية في نفس الجزائري. وأما الهدوء فيعود إلى أن نزول الجيش إلى الشوارع لتأمين عملية الإنتخاب كان رسالة إلى "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" – كبيرة المقاطعين للإنتخابات – مفادها أن عليها الإلتزام، إذا جاز القول، بهدنة تنتهي مع وضوح الرؤية لدى الرئيس زروال وما الذي سيقرره في المرحلة المقبلة. وعندما نقول الرئيس زروال، فعلى أساس أنه هو الذي سيفوز وليس غيره. ولقد تبلغت الجبهة الرسالة بروح طيّبة من المسؤولية فلم تُعكِّر الصفو الجزائري العام، فضلاً عن أنها بتصرفها هذا عبَّرت عن القليل من الكثير من حسن النية المطلوب منها، وآثرت أن تبقى في منأى عن التصادم مع المؤسسة العسكرية مكتفية بمواجهاتها المستمرة مع عناصر أمنية من خارج تلك المؤسسة.

وأما الإقبال فإنه أيضاً كان رسالة ثانية بأن الجزائريين يريدون لحوار الدم أن ينتهي. وهكذا أكملت الرسالة الثانية الرسالة الأُولى، ثم جاء المراقبون العرب والأفارقة والدوليون ليشيعَ حضورهم، الأول من نوعه في أي إنتخابات عربية، مخاوف لدى المقاطعين من أن يقترفوا أخطاء ما، كان من شأنها أن تنهي، وإلى الأبد، بقية تعاطف دولي معهم، وبقية شيء من التفهم لقضيتهم. وإلى ذلك فإن مشاركة المراقبين وهم 6 يمثلون الأمم المتحدة و44 يمثلون الجامعة العربية و53 يمثلون منظمة الوحدة الأفريقية أعطت سلفاً مصداقية للنتائج التي ستذاع، ثم جاءت هذه النتائج، بالعقلانية التي أتت عليها والخالية من المبالغات، لتؤكد أن المعركة تمت في أجواء بينها وبين الديمقراطية بضعة أميال. وإذا إستطاع الرئيس زروال أن يُدخل الجميع في الخيمة الجدية، أو على الأقل يرمي الجميع، بمَن فيهم السُلطة، السلاح ليتم التفاهم بالحُسنى فهذا معناه ولادة جزائر جديدة مستقرة تعيد إلى الأذهان ذلك الإستقرار النسبي الذي كانت عليه في عهد الرئيس (الراحل) هواري بومدْين، ثم في عهد الرئيس الشاذلي بن جديد، وكلاهما إستمر ثلاثة عشر عاماً، مع ملاحظة أن هذيْن العهديْن إستقرا فبقي الأول إلى أن توفي صاحبه (بومدْين) بعد فترة مرض مأساوية، وبقي الثاني (بن جديد) إلى أن إستقال تحت ظروف صراع مأساوي، لأنهما عهدا جناح الجيش في الثورة الجزائرية.

أما عهود المنتمين إلى المقاومة في تلك الثورة فكانت خاطفة في إستمرار من عهد الرئيس أحمد بن بيللا، الذي لم يُكمل السنتيْن، إلى كل من الرئيس (الراحل) محمد بوضياف، الذي بقي في الحُكْم حوالى نصف سنة، والرئيس علي كافي الذي آثر الإبتعاد بعد حوالى سبعة أشهر من ترؤسه، وكيف سيبقى الإثنان إذا كان الجيش هو الذي يحكم وبصيغة المجلس الأعلى للدولة؟

ومع أن الرئيس زروال خاض معركة الإنتخابات على أساس أنه "مستقل" إلاَّ أن ذلك لا يعني أنه لم يكن مرشح المؤسسة العسكرية. وسواء كان إختيار صفة "المستقل" جاء من إجتهاده أو نتيجة تشاوُر مع المؤسسة، وهو أحد جنرالاتها المتقاعدين، فإن الخطوة

كانت عملية ومطلوبة. وهو لو لم يعلن صفة "المستقل" لكان الإنطباع الفوري عنه أنه يمثِّل الجيش وأن حُكْمه سيكون عسكرياً وحديدياً، أو على الأقل إن الجزائريين سينظرون إليه على هذا الأساس حتى إذا مارس الديمقراطية في حدها المعقول في حال فوزه. ولكن ترشيح نفسه على أنه "مستقل" لم يمنعه من القول في خطاب خلال مهرجان إنتخابي حاشد في قسنطينة سبق يوم الإنتخابات بأسبوع: "يجب أن نحارب كرجل واحد هذا الإرهاب المجرم والدموي الذي يقتل ويدمر. وليعلموا أن المعركة التي يخوضونها خاسرة من الآن، وأن الشعب الجزائري مسلم وما من أحد يمكنه أن يلقِّنه تعاليم دينه".. وهو قبْل ذلك كان أعلن في مهرجان آخر في تلمسان "إنني مصمم على محاربة آفة الإرهاب حتى إستئصالها لأنها تشكِّل خطراً على البلاد. وأنا على إستعداد لسحْب ترشيحي إذا كان هناك شخص آخر على إستعداد لإخراج البلاد من الأزمة..". ومثْل هذه المخاطبة أوجدت حالة إلتفاف شعبي ملحوظ حول الرئيس زروال الذي لم يشغل نفسه في طرْح برنامج شامل، وإنما لخص في بضع كلمات ما يتمناه الجزائريون، وفي الوقت نفسه أشار إلى أنه من الزاهدين. وعندما جمع الجزائري الأمريْن معاً وجد نفسه يوم الإقتراع يختار الأمين زروال رئيساً للبلاد وبالحد الأدنى من التردد وهو ما كان يتطلع أن يحصل عليه الشيخ محفوظ نحناح رئيس "حركة المجتمع الإسلامي" (أي "حماس" الجزائرية) الذي هو من جيل الرئيس زروال والذي هو صاحب تجربة نضالية في المعارضة الجزائرية لتجربة بومدْين الإشتراكية، وفي تنشيط الإتجاه الإسلامي وبالذات في الأوساط الجامعية وبين المثقفين عموماً. أما لماذا كان الشيخ محفوظ يتطلع ويتوقع ويتمنى، فعلى أساس أنه كان في إستمرار ضد العنف وتلك نقطة تستهوي الجزائري الذي أتعبه الصراع الدموي، وأنه لقِطْع الطريق نهائياً على ذلك الصراع فإن الصيغة الأمثل هي أن يترأس البلاد للمرحلة المقبلة الشخص الإسلامي المعتدل الذي هو نحناح نفسه، أي بمعنى آخر الرئيس الذي يقف في منتصف الطريق بين المؤسسة العسكرية وبين "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" التي تخوض الصراع المسلح مع النظام. ولكن الجزائريين إعتبروا على ما يبدو أن إقتراعهم للشيخ محفوظ معناه أن تتسع دائرة الصراع الدموي وتتشعب، أي بما معناه تصبح المعادلة على النحو التالي: المؤسسة العسكرية ضد "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" وبالعكس، والإثنتان ضد العهد الجديد، هذا في حال فاز التيار الإسلامي الذي يقوده الشيخ محفوظ. وفي ضوء هذا الإعتبار لم تتحقق للإسلامي المعتدل تمنياته، ولم تصْدُق توقعاته عِلْماً بأنه نال من أصوات المقترعين (وعددهم 7.280.118 من أصل 11.458.572) نسبة 25.38 في المائة (أي 2.907.587 صوتاً) وهي نسبة تُعتبر جيدة، وإن كان الشيخ محفوظ لم يعتبرها كذلك، وأطلق بعد إعلان النتائج تصريحاً شهيراً قال فيه "إن السُلطات خطفت الإنتخابات وصناديق الإقتراع لمصلحة زروال...".

وتبقى نسبة ما حصل عليه كل من المرشحين الأربعة (نال المرشح الثالث سعيد سعدي 1.064.532 صوتاً أي ما نِسْبته 9.29 في المائة ونال المرشح الرابع نور الدين بوكروح 493257 صوتاً أي ما نِسْبته 3.78 في المائة) نِسْبة منطقية ومعقولة مع الأخذ في الإعتبار أن الرئيس زروال ربح في الدرجة الأُولى ورقة الإقبال الكبير من الجزائريين على الإقتراع، وهي ورقة جاءت لمصلحته وليست للثلاثة الآخرين، على أساس أن هؤلاء نالوا ما يمكن أن ينالوه من الأصوات.

وأهمية تكاثر المرشحين الذين كانوا في الأصل 15 مرشحاً ثم بدأت الإنسحابات تتوالى (ومعظمها نتيجة عدم حصول معظمهم على العريضة الموقَّعة من 75 ألف مواطن في 25 من أصل 48 ولاية في البلاد كشرط للترشيح) أنها أظهرت المعركة بمظهر تنافسي ديمقراطي، مع الأخذ في الإعتبار أن مجرد الإقدام على الترشيح في ظروف الصراع الدموي والإغتيالات والتفجيرات التي تحدُث يومياً، أو بمعدل حالة إغتيال أو تفجير كل أسبوع، هو في حد ذاته مخاطرة. وأياً كانت دوافع الذين رشَّحوا أنفسهم فإنهم أعطوا صورة طيِّبة عن معركة يمكن أن تجري بروح رياضية، وهذا هو نصف الطريق إلى الحوار الوطني المفقود، والذي بات – بعدما إنتهت النتائج إلى ما إنتهت إليه – سهل المنال، وإلاَّ فلن يكتمل مشروع الزعامة الجزائرية الجديدة، وهي زعامة ستكون أقرب في ملامحها وفي أسلوبها إلى زعامة الرئيس حسني مبارك في مصر، وزعامة الرئيس زين العابدين بن علي في تونس. والثلاثة أتوا إلى الرئاسة الأولى من المؤسسة العسكرية ونتيجة ظروف ضاغطة، أو مأساوية، ولم يكتسبوا الشرعية الشعبية إلاَّ بعد حين.

ويبقى أنه على رغم حِرْص بعض إخواننا من

المسؤولين الجزائريين في سنتيْ المرحلة الإنتقالية على لفْت نظرنا إلى أن إسم الرئيس هو "اليمين" وليس "الأمين"... زروال، فإننا نجد أنفسنا نتمنى عليهم القبول بإصرارنا على "الأمين".

... وهل مَن كان هذا إسمه يعتب مفضِّلاً – أو يفضِّلون له – التسمية الأُخرى؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1995

* * *

1995... عام المساواة بين المعتدي والضحية

عندما نتأمل في الإتفاق الذي تم التوصل إليه للمسألة البوسنية، نجد أنفسنا نتساءل: هل بعد محنة الأربع سنوات التي عاشها الشعب البوسني ينتهي الأمر إلى إتفاق يساوي بين المعتدي والضحية؟

وهل أن كل هذا الدم الذي سال في شوارع أحياء سراييفو، والتدمير الذي حدَث، والفواجع الإنسانية والأخلاقية التي عاشتها عائلات بوسنية، لا يستحق أكثر من صيغة التسوية التي تم التوصل إليها؟

ولكن هذه التساؤلات لا تلبث أن تتبدد أمام فرحة الناس بأنه لن يكون بعد الآن قصْف وقنْص وفواجع أخلاقية وإنسانية، ولن تسيل دماء الأطفال والنساء والطاعنين في السن في شوارع أحياء المدن البوسنية، التي تتحمل بشاعة الحصار المفروض عليها وبالذات سراييفو.

وعند مشاهدة البوسنيين على شاشات محطات التلفزيونات العربية والدولية يستقبلون الإتفاق الذي تم التوصل إليه، وجرى في باريس التوقيع عليه يوم الخميس 14 ديسمبر/ كانون الأول 1995، يخرج المرء بإنطباع هو أن قسوة الظلم تُفقد الإنسان تَمسُّكه بقضيته، وأنه كلما إشتد الظلم وقويت شوكة الظالم وإلتف العالم حوله بدل إلتفافهم عليه، تراجع الإيمان بالقضية. ثم يتواصل التراجع إلى الحد الذي يصبح فيه الإتفاق الذي تم التوصل إليه وشهدت العاصمة الفرنسية تواقيع زعماء الدول الكبرى عليه، مكسباً في نظر الضحية، مع أنه ليس كذلك ما دام المعتدي والضحية يتساويان في نظر الموقّعين، ومن دون أن تعني شيئاً، أو تشكِّل ترضية معنوية للضحية، العبارة التي أوردها الرئيس الأميركي بيل كلينتون وتضمنت دعوته مجرمي الحرب إلى الإبتعاد عن دائرة الحُكْم، وقد لا نفاجأ إذا سمعْنا أن مجرمي الحرب هؤلاء يقومون بزيارات رسمية لبعض الدول أو أنهم أسياد القرار في حكوماتهم، وأن الرئيس كلينتون لم يقل عبارته تلك إلاّ لتبرير موقف تأخر كثيراً، ودفع شعب البوسنة الثمن الباهظ نتيجة هذا التأخير، وليس مبالغة الإفتراض بأن إطالة الحرب كانت مبرمجة، ومن أجْل التوصل في النهاية إلى الإتفاق الذي يقْبله الطرف المعتدى عليه، ما دامت السبل سُدَّت في وجهه، ولم يبقَ من سبيل أمامه سوى المزيد من التحمل.

ونقول ذلك على أساس أن هذا الإجتماع التاريخي الذي شهدته العاصمة الفرنسية يوم الخميس 14 ديسمبر 1995 كان من السهل عقْده يوم 14 ديسمبر 1993، أو يوم 14 ديسمبر 1992، وتوفير هذا العذاب الذي لا يُحتمل، على شعب البوسنة، خصوصاً أن الذين شاركوا في إجتماع باريس ووضعوا تواقيعهم على الإتفاق هم أنفسهم الذين يحكمون منذ إندلاع حرب البوسنة، وهم أنفسهم شهود عليها ويُقرون بالظلم الفادح الذي وقع على البوسنيين. وإلى ذلك إنه من المؤكد أن الحل والتوقيع عليه لم يكن ينتظر مجيء جاك شيراك إلى الحُكْم رئيساً لفرنسا، لكي يتم التوقيع في عهده، وليس في عهد سلفه الرئيس فرنسوا ميتران. وما دام إجتماع الأمس القريب لم ينعقد في الأمس البعيد وإستمرت نار الظلم تكوي نفوس البوسنيين وأجسادهم، وتدمر النار الصربية مدنهم ومصانعهم، فإذاً هذا هو المعنى الذي قصدناه، وهو أن إطالة الحرب كانت بمثابة برنامج دولي، وليست حالة عجز من جانب الدول الكبرى، أو حالة إنتظار للحظة ما، خصوصاً أن هذه الدول تصنع اللحظة ولا تنتظرها.

كذلك، إننا عندما نتأمل في الجلاءات المتتالية للقوات الإسرائيلية عن بعض مدن وقرى فلسطين، وتسليمها للسُلطة الفلسطينية، نجد أنفسنا أيضاً نتساءل: هل بعد محنة الأربعة عقود التي عاشها الشعب الفلسطيني، ينتهي الأمر إلى الإتفاق الذي تم التوصل إليه وبدأ تنفيذه هذا العام، والذي يساوي بين المعتدي والضحية؟

وهل أن فواجع الأربعة عقود التي أصابت الشعب الفلسطيني، والتي تبدو الفواجع البوسنية بسيطة أمامها، لا تستحق أكثر من صيغة التسوية، التي تم التوصل إليها في أوسلو ليلاً ليتم الإحتفال بها في

حديقة البيت الأبيض نهاراً؟

ولكن هذيْن التساؤليْن، وغيرهما من التساؤلات كثير، لا يلبثان أن يتراجعا أمام فرحة النابلسييْن، ومن قَبلْهم الغزاويين وأبناء رام الله وجنين، ومِن بَعدهم أبناء مدن وقرى أُخرى في الضفة الغربية، بحلول رجال الشرطة الفلسطينية محل رجال الجيش الإسرائيلي ورفرفة العَلَم الفلسطيني فوق مراكز ومنشآت كان العلم الإسرائيلي مرفوعاً عليها في الماضي. وفي العادة إن المهرجانات العربية تكون في معظمها خاضعة للتنظيم الرسمي، ومِن أجْل ذلك يكون التعبير فيها مصطنعاً. أما مهرجان الترحيب الفلسطيني، كما شاهدناه على شاشات محطات التلفزيون العربية والدولية، فإنه يتسم بالعفوية وبالحماسة المنقطعة النظير، وذلك على أساس أن الخطوة هي البداية لمرحلة تتحقق فيها السيادة... ولو بشكل جزئي.

والذي أصاب البوسنيين على صعيد الحل المتأخر، هو إلى حد ما الذي أصاب الفلسطينيين مِن قبْل، بمعنى أن تطويل أمد المعاناة ودعْم إسرائيل بشكل هائل وإعتبار عدوانها على العرب والفلسطينيين حالة دفاع عن النفس، وفي الوقت نفسه إعتبار أي خطوة نضال عربي أو فلسطيني بمثابة عدوان على الشرعية الدولية... إن التطويل والدعم المشار إليهما كانا أيضاً بمثابة برنامج مدروس وأن ما جرى في ليل أوسلو خلسة، ما كان ليجري لو أنه ينتقص مِن إسرائيل المعتدية، وأن الإدارة الأميركية كانت ستُجهض أي صيغة تسوية لا تساوي بين المعتدي والضحية. والمساواة هنا بمعنى أن يقر الطرف الضحية بسيادة وتميز الطرف المعتدي، ويتنازل له عن معظم الحقوق، محتفظاً فقط بحق البقاء على قيد الحياة وإدارة نفسه بنفسه. كذلك إن الذي جرى في أوسلو ليلاً، ثم في حديقة البيت الأبيض نهاراً، كان يمكن أن يحدُث من قبْل لو كانت جذوة النضال الفلسطيني إنطفأت تماماً، لكن الإدارة الأميركية، ومعها دول الغرب عموماً ، كانت في إنتظار لحظة الإنطفاء ولمجرد أن حدثت إنتعش السعي إلى أن تمت صيغة التسوية التي كان العام الذي نودِّعه بعد أيام هو العام الذي يتم فيه تنفيذ مضمونها، وبما يساوي بين الضحية والمعتدي.

ومثلما أن التضحيات الكبرى وقافلة الشهداء هي التي تجعل القبول الفلسطيني بصيغة السلام الدولية، التي تساوي بين الضحية والمعتدي، القبول الذي لا يشكو هو الآخر من عقدة التضحية والنضال. وبمعنى آخر إن الأجيال الفلسطينية المقبلة في سنوات القرن الواحد والعشرين لن تعيش في عقدة أن الأجداد والآباء إرتضوا حلولاً تفتقد إلى التضحيات والنضال، لأنهم إذا عادوا إلى سنوات الخمسينات والستينات والسبعينات والثمانينات والتسعينات، من تاريخ شعبهم وقضيتهم، سيجدون أن معظم هذه الصفحات ملأى بما يعكس القدرة الأسطورية للفلسطيني والفلسطينية على تحمُّل المعاناة، والإصرار على المطالبة بالحق، والإستعداد النفسي لإستشهاد الأبناء، والرضى بذل العيش في المخيمات، والتعايش مع الحصارات والمطاردات العربية. وكلما أمعنت هذه الأجيال في قراءة الصفحات، وما بين السطور، فإنها ستفهم خيار التسوية الذي ارتضته القيادة الفلسطينية، وتحديداً قيادة ياسر عرفات رجل الدولة، وستأخذ في الإعتبار أن قيادة ياسر عرفات المناضل عملت ما في وسعها، لكن "الله ... غالب".

وما يقال في شأن عقدة التضحية والنضال عند الفلسطينيين، يقال في شكل أو آخر عن البوسنيين الذين قدَّموا هم أيضاً التضحيات التي تفوق التحمل، لكن الله ... غالب، أيضاً.

وإذا كان الطرفان، البوسني بعد الفلسطيني، إرتضيا القبول بصيغة التسوية الدولية، التي تساوي بين المعتدي والضحية، بل وتعطي المعتدي بعض التميز، فعلى أساس أن النظام العالمي الجديد وضع كلاً منهما أمام خياريْن لا ثالث لهما، وهما: إما هذه الصيغة، وإما لا شيء.

ولقد إختار الطرفان، ما شعرا أن الشعب يريده، وهذا ما لمسناه ونحن نتابع على شاشات محطات التلفزيون العربية والدولية إبتهاج البوسنيين بإحتفال توقيع زعماء العالم الغربي، ومعهم مَن ينوب عن الرئيس المريض في موسكو يلتسين، يوم الخميس 14 ديسمبر 1995 في العاصمة الفرنسية على إتفاق الحل الدولي للمسألة البوسنية، ثم إبتهاج فلسطيني نابلس في اليوم نفسه بجلاء القوات الإسرائيلية عنها ضِمْن إتفاق التسوية الدولية للمسألة الفلسطينية. وكلا الإتفاقيْن هما أبرز معالم العام 1995.. العام الذي سيوصف، أو يوصم، بأنه عام إصرار الكبار على أن يتساوى المعتدي مع الضحية في معسكر الصغار، وإعتبار ذلك إنجازاً وعدلاً، والعالم الذي سيورث هذه الصفة إلى الأعوام المتبقية من القرن العشرين، على

ما يبدو وما توضحه التطورات على الجبهتيْن السورية واللبنانية.

نستغفر الله، ونُفوِّض إليه أمر أولئك الكبار وتكبرُّهم، أو على حد تعبير إخواننا الإيرانيين... إستكبارهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 18 ديسمبر (ك1) 1995

* * *

برلمان لمصر مبارك مستقر وله هيبته... ولكن (موضوع واحد في مقالتيْن)

المقالة الأولى: كيف تهدأ مصر... ويَطْمئِن قلب أميركا

من حق الرئيس حسني مبارك أن يتباهى بأنه عزز الحياة البرلمانية في مصر. وقياساً على المجالس البرلمانية قبْل ثورة 1952 وبعدها فإن المجلس الذي ينتهي بولادة المجلس الجديد، والذي جرت الإنتخابات له يوم الأربعاء الماضي (29 نوفمبر (تشرين الثاني) 1995)، هو أكثر المجالس إستقراراً حيث إنه الأول في ظل التعددية الحزبية التي إستُحدِثت بموجب التعديل الدستوري عام 1980، وهو الثالث بعد مجلسيْ 1971 و1979 الذي يكمل مدته الدستورية. وتاريخ الحياة البرلمانية في مصر تاريخ عريق. وخلال مائة وثلاثين سنة تبدأ العام 1866 حين كان المجلس يحمل تسمية "مجلس شورى النواب" وتنتهي عام 1984 بالمجلس الذي أنهى مدته ويحمل تسمية "مجلس الشعب" عاشت الحياة البرلمانية أزهى أيامها ودارت تحت قباب المجالس بتنوع تسمياتها معارك تألَّقَ فيها سياسيون من الديانتين الإسلامية والمسيحية. وبما أنه في المجالس التي سبقت ثورة 23 يوليو (تموز) 1952 لم يكن التيار الديني بأهمية التيار الوطني فإن أحزاب تلك المرحلة إستوعبت المواطنين من الديانتيْن. وفي إلتفاف قطاعات عريضة من المسلمين حول مكرم عبيد (القبطي) في صراعه مع مصطفى النحاس (المسلم) نموذج لما كانت عليه الحال زمنذاك.

ومع أن القضية الوطنية إزدهرت في سنوات ما بعد الثورة، وبالذات بعدما أمّم الرئيس جمال عبد الناصر قناة السويس، وأحدث ذلك الزلزال في سوق السلاح عندما أدخل السلاح الشيوعي إلى الجيش المصري وتبعتْه بعد ذلك جيوش عربية كثيرة، إلاَّ أن الحياة البرلمانية المصرية التي تلت قيام الثورة لم تتميز بتألق برلمانيين. وهذا سببه أن رئيس الدولة، ونعني هنا عبد الناصر، رسم للمجلس إطاراً لا يتحقق بموجبه أي تألُّق للأعضاء. وحدَث الشيء نفسه في عهد الرئيس أنور السادات، ثم في العهد الحالي. وبسبب هذا الإطار إستقرت المجالس البرلمانية في عهود عبد الناصر والسادات ومبارك، فأكمل كل مجلس مدته الدستورية وهو ما لم يحدُث على مدى سبعين سنة من قبْل. ولكن عدم إكمال تلك المجالس مدتها الدستورية لا يعني أنها كانت مجالس غير فاعلة وغير حيوية.

واللافت للنظر حِرْص مصر الجمهورية سواء في ظل الشرعية الثورية ثم بعد ذلك في ظل الشرعية الشعبية على تفادي تسمية البرلمان "مجلس النواب" وذلك ناشئ عن أن مفهوم الحياة النيابية بالنسبة إلى ضباط ثورة 23 يوليو (تموز) كان أنها حياة سياسية ليست لمصلحة الشعب. ومن هنا نلاحظ التسميات التي بدأت بـ "مجلس الأمة" وإنتهت بـ "مجلس الشعب".

ومسألة التسميات أيضاً كانت قائمة قبْل الثورة وراوحت بين "مجلس شورى النواب" و"الجمعية التشريعية" و"مجلس شورى القوانين والمجموعة العمومية". ومرت فترة كانت التسمية "مجلس النواب المصري" وذلك قبْل أن يتم إلى جانب إستحداث "مجلس الشيوخ". وعندما يكون الأمر كذلك فهذا لا يعني أن نظرة الأجداد للحياة البرلمانية كانت مثل نظرة الأحفاد وإنما هي مجرد إجتهادات وإبتكارات للتسمية تتحكم في ذلك الأوضاع العامة التي تعيشها البلاد وتحت أي تأثير أجنبي هي.

وإلى ذلك إن الرئيس مبارك يستطيع التباهي بأنه أعطى للحياة البرلمانية في عهده هيبة على الصعيديْن الداخلي والخارجي، وتحاشى – خلافاً لما سبق أن فعله الرئيس السلَف أنور السادات – اللجوء إلى إجراءات إستثنائية. وبذلك بقيت للبرلمان هيبة، وإن كانت التركيبة الحزبية ألقت عليها ظلالاً كثيرة. ومِن هذه الظلال أن البرلمان كان في الفترة من العام 1979 إلى العام 1984 هو برلمان الحزب الواحد الذي هو حزب الحكومة. وبهذا بدت مصر وكأنما هي

دولة من دول المنظومة الإشتراكية تحاول أن تبدو وقد تجددت، إلاّ أن الثوب ما زال كما كان ولا فرق في ذلك بينها وبين أي دولة ثورية.

ولا يبدو أن المسألة الحزبية ستجد حلاً جذرياً لها إلاَّ إذا قرر الرئيس مبارك الإقدام على خطوة جريئة بمعنى أن يعلن في مرحلة لاحقة – لأن الوقت لا يسمح الآن بالخطوات الجريئة – أن رئيس الدولة لا ينتمي إلى أي حزب ويترك بذلك للأحزاب أن تمارس اللعبة السياسية الحزبية على الأصول. عندئذ تكون الديمقراطية قائمة بالفعل في مصر. وعندئذ أيضاً يمكن أن يستقر الأمر على وجود حزبيْن أساسييْن على نحو ما هو سائد في بريطانيا أو فرنسا وكذلك في الولايات المتحدة وبعض الدول الأُخرى. وفي كل مرة تجرى الإنتخابات يفوز حزب على آخر فيتسلم الحُكْم مَنْ يفوز ويمارس الحزب الآخر دور المعارضة التي لا قيود عليها. ولا يبدو أن الأمر سيكون سهلاً في مصر لأن بعض أحزابها نشأ على هديْ أيديولوجية وهو عكس ما هو حاصل في الدول التي أشرنا إليها حيث إن الأحزاب هي تجمعات سياسية محكومة بمصالح فقط وليس بعقائد. وعند التأمل في الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري في الولايات المتحدة أو حزب المحافظين وحزب العمال في بريطانيا يتأكد لنا ذلك. ولعل أكثر حزبيْن في مصر ينتسبان إلى هذا النوع من العمل الحزبي هما الحزب الوطني الحاكم وحزب الوفد. فكلاهما لا عقيدة له وإنما تربط المنتمي إليه المصالح الشخصية في الدرجة الأُولى مع بعض الأسباب المتوارَثة بمعنى أن هذه العائلة كانت وفدية ونلمس ذلك فقط بالنسبة إلى حزب الوفد. ولأن الإنتماء هو إنتماء لا تتحكم به عقيدة فإننا نجد كثيرين في الحزب الحاكم تخلوا عن الحزب الذي رفضت قيادته ترشيحهم وخاضوا المعركة كمستقلين أو بالتعاون مع أحزاب أُخرى.

وإلى جانب مسألة العقيدة هنالك أيضاً مسألة العراقة، وبإستثناء حزب الوفد المسموح له بالعمل و"الإخوان المسلمين" غير المجاز رسمياً لهم إنشاء حزب فإن بقية الأحزاب وأولها الحزب الوطني الحاكم هي أحزاب مستحدَثة وُلدت بقرار من رئيس الجمهورية على هامش العمل السياسي وحصلت على ترخيص بالسهولة نفسها التي يحصل بها مواطن على ترخيص للبناء. ولقد شجع الرئيس (الراحل) أنور السادات ولادة هذه الأحزاب بعدما قرر إبرام صفقة "كامب ديفيد" عام 1978 لأنه في ضوء المحاصرة العربية له من جهة ولإعطاء خطوته الصاعقة تلك مظهراً تعددياً وديمقراطياً وجد أن أفضل وسيلة هي إشغال الشعب المصري بالمسألة الحزبية فأعلن – وهو المتأثر بالزعيم التركي كمال أتاتورك – أنه قرر أن يؤسس حزباً إختار له تسمية "الحزب الوطني الديمقراطي" ثم ما لبث أن أباح حرية إنشاء الأحزاب مع وضْع شروط لا يخلو بعضها من الصعوبة، وكل ذلك من أجْل أن تبقى القبضة قوية وبحيث لا تكون الأحزاب الجديدة أكثر من ديكور في صالون العمل السياسي المصري.

ومع أن الحالة الحزبية في مصر باتت بعد قيام حوالى أربعة عشر حزباً أكثر حيوية مما كانت عليه أيام التعددية السياسية (من خلال فكرة إستحدثها السادات أيضاً وهي فكرة توزيع مجلس الشعب على ثلاثة منابر هي منبر اليمين الذي تولاه مصطفى كامل مراد ومنبر اليسار الذي تولاه خالد محيي الدين ومنبر الوسط الذي تولاه رئيس الوزراء (الراحل) ممدوح سالم) فإن التجربة الحزبية في مصر في واقعها الراهن لا يبدو أنها ستتطور بمعنى أن يبقى حزب الحكومة هو الأقوى، فقط لأنه حزب الحكومة، والأحزاب الأُخرى مجرد ديكور لا أكثر تتحرك في مساحة الحرية المعطاة لها إنما من دون أن يكون في وسْعِها أن تتقدم بمعنى أن يصبح لها شأن سياسي وهذا لا يتم إلاَّ إذا صار لهذا الحزب أو ذاك نسبة من المقاعد في مجلس الشعب ويتيح له ذلك أن يصبح رقماً صعباً عند تشكيل حكومة.

وإلى ذلك، فإن حماسة السادات لإستحداث الأحزاب تعود أيضاً إلى أنه يريد للإنفتاح الإقتصادي أن يأخذ مداه، وكيف يمكن أن يحدُث ذلك من دون ترْك الأبواب مفتوحة أمام الخيار السياسي. ولكن عندما وجد أن التجربة الحزبية قد تنقلب عليه فإن حماسته لها بدأت تتقلص. وقد يصعب التكهن بما كان يمكن أن يفعله السادات لو أنه ما زال على قيد الحياة مع هذه الأحزاب التي تقض مضاجع رئيس الدولة بما تنشره من كلام يصل إلى حد الإتهامات أحياناً. إلاَّ أننا قياساً على ما فعله السادات مع بضع مئات من الشخصيات الفكرية والسياسية والإعلامية وبينها بعض رجال الدين عندما رماهم في السجون وأذلَّهم، نفترض أن صدره لن يكون بالرحابة التي هو عليها صدر خلفه الرئيس حسني مبارك الذي تقول بعض الأحزاب على صفحات صحفها كلاماً عنه لم يُقل في حق حاكم في العالم الثالث، ومع ذلك فإنه يترك للعبة الحزبية أن تأخذ

مداها. وهو لولا موقفه من "الإخوان المسلمين" وإصراره على أن يعاقبهم ويطاردهم قبْل أن تبدأ المعركة الإنتخابية، ثم خلال المعركة، لكانت الإنتخابات التي جرت يوم الأربعاء 29 نوفمبر (تشرين الثاني) 1995 ستبدو علامة فارقة في تاريخ الرئيس الذي لديه من الأسباب الموجبة لكي يقود شخصياً حملة المطاردة والعقاب في حق "الإخوان المسلمين". ولولا ذلك لما كان إرتضى لهذه الحملة أن تحدُث وتُلقي ظلالاً على المرحلة الأخيرة من فترة حُكْمه التي تكاد تقترب من حيث الإستمرار من فترة حُكْم عبد الناصر.

وعندما تصل الحال بالرئيس مبارك إلى حد القول في المقابلة التي أجرتْها معه صحيفة " لوموند" الفرنسية ونشرتْها يوم الجمعة 17 نوفمبر (تشرين الثاني) 1995 أي قبْل 12 يوماً من يوم الإنتخاب "إن الإخوان والجهاد والجماعة وما إلى ذلك كلهم سيان وتصرفاتهم تتعارض مع التقاليد الإسلامية"، فهذا معناه أنه إذا كان لن يقطع الطريق على وصولهم إلى البرلمان فقد يحدث أن يجعلوا، بمَن يفوز منهم وببراعتهم في تحقيق التحالفات، أمر إستئثار حزب الحكومة بالأغلبية مُعرَّضاً للإنتكاس. وإذا حدَث ذلك فهذا معناه أن "الحزب الوطني" لن يكون في وسعه تشكيل حكومة الحزب الواحد، وإنما سيحدث وللمرة الأُولى أن تكون الحكومة حكومة إئتلافية وتضم حتى من يمثِّل الإخوان المسلمين.

... وأغلب الظن أن هنالك ما يشبه التقاطع في المواقف حول هذه المسألة بين الرئيس مبارك الذي هو أدرى بشعاب مصر، والإدارة الأميركية التي هي الأدرى بشعاب المنطقة. بل ليس مبالغة الإفتراض أن الإدارة الأميركية تتمنى – هذا إذا كنا نتحاشى كلمة تعمل – أن يحدُث إختراق للصيغة التقليدية القائمة بمعنى أن يغرد الإخوان المسلمون وآخرون داخل السرب الحكومي، وبذلك قد تهدأ مصر التي ليس منطقياً أن يكون برلمانها أكثر إستقراراً منها. ويَطْمئن قلب الإدارة الأميركية التي تلازمها الخشية دائماً على مصر... وللحديث بقية.

* * *

□ المقالة الثانية: الذين سقطوا واحد... والذين فازوا واحد

إنتهت يوم الأربعاء 6 ديسمبر (كانون الأول) 1995 الجولة الثانية للإنتخابات البرلمانية المصرية. والمألوف هو أن إنتخابات الإعادة تكون ثانوية وتدور حول عدد محدود من المقاعد في حين تكون الجولة الأُولى هي الأساسية، إلاَّ أنه بالنسبة إلى الإنتخابات المصرية فإن الذي حدَث هو العكس، وإنتهت الجولة بفوز مبين للحزب الحاكم بفرعيْه المعلَن والظل. ونقول ذلك على أساس أن الذين رشحوا أنفسهم كمستقلين كانوا، إذا جاز التعبير، أقرب إلى "الحزب الوطني" بدليل أن 99 منهم إنضموا إلى الحزب بعد ساعات قليلة من إعلان فوزهم. ومثل هذا الإنضمام المفاجئ يجعل المرء يفترض بأن "الحزب الوطني" مارس اللعبة الإنتخابية بطريقة ذكية، بمعنى أنه من باب التمويه رمى في الساحة الإنتخابية ببضع عشرات من المرشحين على أساس أنهم من المستقلين وبذلك يستقطب الناخبين الذين قد تكون في نفوسهم مرارة إزاء الحزب الحاكم، بدل أن يتجه هؤلاء نحو الأحزاب الأُخرى ويحققون لها بهذا التوجه الفوز بعدد كبير من المقاعد.

ومن المؤكد أن الذين إقترعوا لمصلحة مرشحين على أساس أنهم مستقلون أصيبوا بما يشبه الصدمة عندما وجدوا أن 99 من هؤلاء إنضموا على الفور إلى الحزب الوطني وأنهم " ليسوا مستقلين ولا حاجة..." على حد التعبير الشائع.

وإلى ذلك، فإن الإستبشار خيراً بظاهرة المرشحين المستقلين وفوز عدد منهم في الدورة الأولى، ثم فوز أعداد أُخرى في إنتخابات الإعادة، سبُبه أن هؤلاء يمكن أن يكونوا، من خلال نواة تكتل داخل مجلس الشعب، الحزب الثاني الذي تحتاج إليه مصر لتكون تجربتها التعددية من النوع الذي يصون التوجه الديمقراطي، أي بمعنى آخر تصبح مصر مثل بريطانيا أو مثل الولايات المتحدة وغيرهما حيث يحكم حزب ويكون الحزب الثاني هو المؤهل لكي يحكم في مرحلة لاحقة، إذا هو فاز. وعندما يعارض هذا الحزب أو ذاك فإنه يعارض من أجْل تطوير النظام ومن أجْل إعلاء شأن البلد.

ولا يدري المرء كيف ستتطور الأمور وكيف ستكون حال ظاهرة المستقلين، وهل أن الحزب الوطني الحاكم سيعتبرهم سمكة صغيرة فيبتلعها أو أنه سيعتبرهم البديل الأفضل له من الأصولية، التي لا يعني عدم تمكين رموزها من الفوز أنها قابلة للإندثار. والأهم من هذا كله هو ألاَّ ينظر "الحزب الوطني" إلى المستقلين على أنهم حلفاء له لأنه بذلك يُسقط هالتهم من عيون الذين إقترعوا لهم.

وهذا الفوز الكاسح لـ "الحزب الوطني" ومَن معه

من المستقلين، لم يحدُث نتيجة تزوير كما أوحت بذلك، وإلى درجة الإتهام، المعارضة، وإنما هو نتيجة عوامل نفسية وموضوعية. فبالنسبة إلى "الحزب الوطني" هنالك الورقة الرابحة والمضمونة في يده، وهي أنه حزب الحكومة. وفي مصر فإن حزب الحكومة دائماً هو الغالب، وإذا لم يكن هنالك حزب فإن الحاكم هو الغالب، وذلك جزء من العلاقة الأزلية بين الحاكم والمحكوم أو الراعي والرعية منذ مصر الفرعونية. ولو أن المسألة كانت مسألة فشل أو نجاح للعمل الحكومي لكان عدد كبير من مرشحي حزب الحكومة عُرضة للسقوط في الإنتخابات. لكن المسألة تِبعاً للتقاليد المتوارَثة هي أن حزب الحكومة هو الذي يجب أن يكون غالباً، لأنه في نظر المصري يمكن أن يعطي ما لا تستطيع المعارضة أن تعطيه.. أما بالنسبة إلى المستقلين فإن فوزهم بهذا العدد الكبير من المقاعد سبَبُه أن معظمهم من رجال الأعمال وأصحاب الشركات ومن المقتدرين مالياً. وفي نظر المواطن المصري الذي يعيش ظروفاً معيشية صعبة فإن مثل هؤلاء يمكن أن يحققوا ما ليس في قدرة الآخرين تحقيقه، ومِن هنا كان الإندفاع في إتجاه الإقتراع لهم، مع إضافة أن هؤلاء أو بعضهم ملأ فراغاً بدا في نظر قطاعات عريضة من الشعب المصري جيداً. والذين إقترعوا للمستقلين وينتسبون إلى هذه القطاعات إعتبروا أرض المستقلين أرضاً صالحة يقفون عليها بعد خيبة أملهم من تجربة الحزب الحاكم وإستمرار نفورهم من الأحزاب الأُخرى التي ليس في طروحاتها وبرامجها ما يُقوي العزيمة أو يُطمئن إلى المستقبل.

واللافت للنظر في الإنتخابات المصرية هذا الإقبال الهائل على الترشيح، الذي لا يتناسب لا مع الكثافة السكانية لمصر ولا حتى مع نسبة الذين إقترعوا، وهي نسبة لم تتجاوز الخمسين في المائة من الذين يحق لهم الإقتراع. ومثْل هذا الإقبال معناه إستمرار توق الناس إلى الإنفتاح السياسي، ومعناه أيضاً أن الذين أفرزتْهم ظاهرة الإنفتاح الإقتصادي وباتوا من المقتدرين في مجال المال والأعمال باتوا مقتنعين بأن حماية الإنفتاح الإقتصادي، الذي حققوا بفضله مكاسب كبرى، هي في المشاركة السياسية ومن خلال العمل البرلماني، فضلاً عن أن هنالك مَن وجد أن النجاح في ميدان المال والأعمال يمكن أن يكون أقل مشقة من خلال بوابة مجلس الشعب.

ومع أن إنتخابات الإعادة حققت للمعارضة المسالِمة، التي إذا جاز التعبير تقف على يسار النظام، بعض الفوز، إلاَّ أنه الفوز الذي يخدم الحزب الحاكم وليس جوهر الإنتخابات. فقد فاز حزب "الوفد" بستة مقاعد وفاز حزب "التجمع" بخمسة مقاعد وفاز كل من حزب "الأحرار" والحزب "الناصري" بمقعد. وعندما نقول إن هذا الفوز يخدم الحزب الحاكم فعلى أساس أن فوز 13 معارضاً يشكل حجة، ولو كانت غير قوية، بأن الإنتخابات كانت نزيهة. كما أن عدم فوز هؤلاء كان سيُذكِّر المصريين على الفور بزمن الإتحاد الإشتراكي، وكان سيُظهر مسألة التعددية على أنها مسألة شكلية. وأهمية فوز هؤلاء أنهم، مثل حزب الحكومة ومثل المستقلين، يقفون في مواجهة الإخوان المسلمين وفي وجه الجماعات الإسلامية، ولا يبدو أنهم سيعارضون أي إجراءات يمكن إتخاذها مستقبَلاً في حق الإسلاميين وإستصدار قرارات ذات طابع تشريعي من مجلس الشعب في شأنها.

وما يعنيه هذا هو أن مصر في ضوء نتائج الإنتخابات الأخيرة إنقسمت نهائياً إلى إثنتيْن: مصر الحزب الحاكم، ومعه ومِن حوله المستقلون ورموز المعارضة التقليدية من جهة. والإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية وحزب العمل الذي لم يستطع الفوز بأي مقعد، حتى لرئيسه إبراهيم شكري، من جهة ثانية.

وعند التأمل في الأمر نستنتج أن الذين لم يتمكنوا من الفوز هم الذين تصدوا للحُكْم، والذين لم يساندوا الحُكْم في مواقفه حتى في المرحلة التي جرت فيها محاولة إغتيال الرئيس حسني مبارك، وكذلك الإخوان المسلمون الذين تصدى لهم الرئيس مبارك شخصياً. ومن سوء حظ هؤلاء أن محاولة الإغتيال تمت قبْل أشهر قليلة من الإنتخابات وأن عملية تفجير السفارة المصرية في إسلام أباد تمت في ذروة النشاط الإنتخابي. وعندما لم تَصْدر من هؤلاء مواقف حاسمة لجهة إدانة محاولة الإغتيال وعملية التفجير... إدانة صادقة وليست شكلية أو من باب المجاملة، فإن معنى ذلك أنهم كانوا يخوضون معركة خاسرة، وهي إنتهت خاسرة بالفعل.

وحتى الآن يبدو هؤلاء من خلال صحيفة "الشعب" التي يملكها حزب "العمل" والتي تتعاطف مع الإخوان والجماعات الإسلامية، قادرين على الإكثار، من الإتهامات، وقوْل أغلظ الكلام في حق الحُكْم والحكومة وحزبها، لكن أغلب الظن أن ذلك لن يستمر طويلاً.

فبعدما إنتهى الأمر، سواء ضِمْن خطة أو نتيجة المصادفة، إلى عملية فرْز، تستطيع الحكومة مِن خلال برلمان متعاون إلى أقصى الحدود أن تحاصر هؤلاء وتشل حركتهم، خصوصاً أن حالة الطوارئ مستمرة وتمت الإنتخابات من دون رفْعها. ومثْل هذا الأمر يبدو أنه سيحدُث بعد مصر في الأردن وفي دولة فلسطين عند إجراء الإنتخابات بعد بضعة أسابيع، وكأنما القاعدة هي أن الإستقرار والإسلاميين هما مثل النار إلى جانب النفط.

وبالنسبة إلى مصر يصعب التكهن بما ستؤول إليه عملية عزْل الإخوان المسلمين وحليفهم حزب "العمل"، عِلْماً بأن الحكومة عبرت صراحة عن نيتها في عدم السماح لهم بالنزول إلى تحت الأرض على أمل زلزلة من هم فوق الأرض. لكن المؤكد أن قطاعات كثيرة أبدت إرتياحها إلى الأسلوب الذي اعتمده الرئيس حسني مبارك، حيث أنه لم يفعل ما فعله من قبل الرئيس الشاذلي بن جديد، ولم ينتظر أن تصل الحال بالإسلاميين إلى ما وصلت إليه الحال في الجزائر، أي أن يفوزوا في الإنتخابات ويصبح بالتالي إما أن يتسلموا الحُكْم وإما أن تدور معهم مواجهة دموية كالتي لا تزال رحاها تدور في الجزائر. وما فعله الرئيس مبارك أنه قاد بنفسه المواجهة ضدهم، وفي البداية كان تركيزه على الجماعات الإسلامية، أما عندما حانت اللحظة الحاسمة فإنه أطلق تصريحه الشهير بأن الجماعات والجهاد والإخوان كلهم واحد. وجاءت الإنتخابات تؤكد أن الناخب المصري إستوعب تماماً قول الرئيس فإندفع نحو "الحزب الوطني"، أما مَن كانت في نفسه مرارة من أداء الحكومة أو خيبة أمل من بعض وزرائها ووعودهم فإنه إتجه نحو المستقلين، من دون أن يدري أن "الحزب الوطني" والمستقلين، وكذلك من فاز من المعارضين في الإنتخابات، كلهم واحد أو شبه واحد، تماماً مثل حال الجماعات الإسلامية والإخوان وحزب "العمل" الذين قال عنهم الرئيس مبارك إنهم في النهاية واحد.

وتبقى الولايات المتحدة التي عيْنها على مصر بصيرة ويدها فيها ليست قصيرة. وفي الماضي كانت الإدارة الأميركية مهتمة بالأقباط. وقد نجدها بعد الآن مهمومة ومهتمة بهم وبالإخوان المسلمين من منطلق حرصها على أن تهدأ مصر وعلى أن يطمئن قلبها.. أي قلب الإدارة الأميركية.

... وكلاهما، الإخوان والأقباط، لا مكان لهم في البرلمان الذي سيختار مَن يخلُف الرئيس مبارك، وهو برلمان مثل سَلَفه مستقر أكثر من إستقرار البلد. وتلك مفارقة عجيبة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 11 ديسمبر (ك1) 1995

* * *

موقف كبير ... لإشكال صغير

مقاطعة المؤتمرات، أو الإنسحابات من إحدى الجلسات أو من الجلسة الختامية، ليست بالأمر الجديد على الإجتماعات العربية. وهي في أية حال ظاهرة تختص بها الدول العربية من دون غيرها.

وعلى مدار السَنة تنعقد مئات المؤتمرات في العالم وعلى كل المستويات من إجتماعات اللجان إلى الإجتماعات الوزارية إلى إجتماعات الذين في القمة، لكن وكالات الأنباء لا تنقل عن هذه الإجتماعات ما تنقله عن الإجتماعات التي تنعقد في العالم العربي، أي أن مراسل هذه الوكالة أو تلك لا يرابط أمام مقر هذا المؤتمر أو ذاك في إنتظار مسؤول ينسحب فجأة من القاعة، أو في إنتظار مسؤول لم يصل بعد مع أن الجلسة الإفتتاحية تأخرت عن موعدها المقرر بضع ساعات، وإنما ينتظر مئات المراسلين، المسؤولين المشاركين في الإجتماعات أو المؤتمرات ليسمعوا من المتحدثين بإسمهم ومنهم أحياناً خلاصة مسؤولة عما جرى البحث حوله.

وهنالك عشرات المؤتمرات والإجتماعات التي تنعقد في عواصم ومدن العالم تبدأ بخلافات وتنتهي بخلافات. والذي يحدُث هو أن الخلاف الذي لم يتم تذليله يجري تحويله إلى مؤتمر أو إجتماع لاحق، وفي النهاية يثمر السعي وتَسهُل عملية تذليل الخلافات. وإذا كانت المؤتمرات والإجتماعات ليست لتسوية خلافات وإتخاذ قرارات فلماذا إذاً إنعقادها؟ ولو أن المشاركين في هذه المؤتمرات والإجتماعات تصرفوا على أساس أنه ما دام المؤتمر الذي إنعقد لم ينجح في تذليل خلاف وعلى هذا الأساس فإنه فاشل، فإن ظاهرة المؤتمرات والإجتماعات الدولية كانت ستندثر.

وأيام كانت مؤتمرات القمة العربية مؤتمرات من النوع التاريخي حدثت إنسحاباتات وحدثت مقاطعة لكن تبين أن الذين يقاطعون أو الذين ينسحبون لا

يســـتفيدون من الخطوة التي أقدموا عليها، وأن هذه الخطوة لا تغيّر من توجه الأكثرية وإن كانت ألقت بعض الظلال على تماســك الصـــف. ولنا في القمة العربيـة التي عُقدت في الخرطوم عـام 1967 خير مثال على ذلك. وفي تلك القمة حدثَت إنســـحابات وحدَثت مقاطعة. المنسحب كان رئيس الوفد الفلسطيني المرحوم أحمد الشقيري الذي عقد بعد إنسحابه في ركن جانبي في "فندق الســـودان" مقر إنعقاد القمة مؤتمراً صـحافياً كان ناجحاً من حيث الإثارة لكثرة ما تضـمّنه من كلام غلبت الحماســـة فيه على الواقعية وحفلت بعض عباراته بمفردات بهرت عشـــرات المراســـلين ومندوبي الصحف والوكالات العربية والأجنبية، إلاَّ أن الأمر إنتهى إلى لا شـيء ولم يبقَ راسـخاً غير قرارات الأكثرية من أهل القمة وأبرزها قرار الدعم العربي مِن جانب أصـــحاب الثروة النفطية لدول المواجهة وبما يحقق الصـــمود، وهذا ما حدَث بالفعل. أما المُقاطِع فكان الوفد السوري الذي إبتكر رئيسه (وزير الخارجية زمنذاك الدكتور إبراهيم ماخوس) أسـلوباً جديداً للتعبير عن الإحتجاج وهو مقاطعة المؤتمر وعدم مقاطعته، أي الحضـــور إلى الخرطوم حيث ينعقد المؤتمر إنما عدم المشاركة في الإجتماعات ثم الإدلاء بالتصريحات التي تبهر المراسـلين والإعلاميين الذين يغطون أعمال المؤتمر إلاَّ أنها لا تؤثّر في شـــيء على ما إرتأته الأكثرية وهو قرارات من شـأنها مواجهة حالة الإحباط المريعة الناشـئة عن هزيمة 1967 والتي يتحمل الحُكْم السـوري زمنذاك مسـؤولية كبرى عنها لأنه السـبب في تأزيم الموقف الذي أدى إلى دفْع الرئيس عبد الناصـر نحو خيار الحرب ولأنه بعدما بدأت الحرب لم يتصرف بما يكفي من البســالة والتضــحية وطَرَح مقولة رددها مسؤولون سوريون كثيرون، من بينهم الدكتور ماخوس في الخرطوم، وهي أن تعامُل ســـوريا مع تلك الحرب أجهض مخطط إســرائيل الذي كان يرمي إلى إحتلال دمشق وإسقاط الحُكْم الثوري فيها، وهي مقولة إضـطر الإعلام العربي في حينه إلى تقبُّلها وعدم مناقشـــتها على رغم أنها مقولة ذرائعية لا أكثر. وبعد إرفضـاض أعمـال القمـة بـالنتـائج الطيبـة التي حققتْهـا تزايـدت المواقف السورية والفلسطينية إثارة ثم تراجعت ثم هدأت ثم إنتهى أمر الطرَف الذي إنســـحب والطرف الذي قاطع.

وتشـــبه تلك التصـــريحات والظروف التي أوجبت الإدلاء بها تصـــريحات مماثلة من حيث الإندفاع ونتيجة ظروف ودوافع مختلفة عن تلك التي كانت عام 1967، قرأناها وسمعناها قبْل أيام من الدوحة، وجاءت مكملة لإنسـحابات وفد دولة قطر من الجلسـة الختامية لقمة مســقط يوم الأربعاء 7 ديســمبر (كانون الأول) 1995 في خطوة مـألوفـة في دنيـا المؤتمرات والإجتمـاعـات العربيـة إلاَّ أنهـا جـديـدة على مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

وأكثر مـا يلفت النظر في الخطوة التي إتخـذتْهـا دولـة قطر هو "طـابعهـا الثوري" بمعنى أنهـا من النوع الذي لا يحمل الحل الوســـط وإلى درجة تبدو وكأنها متقاطعة تماماً مع نهج التفكير الخليجي في التعامل مع الأزمات. ونقول ذلك على أســـاس أن التصـــعيد عندمـا يبدأ من النقطـة الأدنى صـــعوداً إلى النقطـة الأعلى يسْـهُل إحتواؤه، أما عندما يبدأ بطريقة عكسـية أي من الأعلى فإنـه يبقى يراوح مكانـه ويجعل القدرة على التراجع صـــعبة وإلى درجة الإســـتحالة. وعندما تعلن دولة قطر بشـخص وزير خارجيتها الشـيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني وهو ما زال في مسـقط أن بلاده "إنســحبت من الجلســة الختامية لوجود مخالفة صـــريحة لميثاق مجلس التعاون في الفقرة الثانية من المادة التاسعة ولعدم قانونية القرارات التي صدرت" في إشارة – فِهمها الجميع – إلى القرار الذي إتخذتْه القمة بتعيين الشـــيخ جميل الحجيلان أميناً عاماً للمجلس خلفاً للشيخ فاهم القاسمي... إن قطر عندما تعلن ذلك فإنها تترك الباب مفتوحاً أمام إمكانية تســـوية، لكنها عندما تعلن وبشـخص وزير خارجيتها أيضـاً بعد ثلاثة أيـام ومن الـدوحـة أن على دول مجلس التعـاون أن تختار بين مشـــاركة قَطر في الإجتماعات الخليجية المقبلة وأيضـاً في إجتماعات دول إعلان دمشـق وبين الشـيخ جميل الحجيلان الذي تمت تسـميته أميناً عاماً للمجلس، فإنها بذلك تريد إقفال الباب أمام تســـوية الإشـــكـال وتُحولـه إلى أزمـة حقيقيـة. ولا يخفف من التعقيد الذي أحدثه توضـيح الإنسـحابات، أن المسؤول القَطَري قال إن إحتجاج قَطر ليس على شخص الشيخ جميل الحجيلان وإنما بســبب الأســلوب الذي تم من خلاله تعيينه أميناً عاماً، وقال أيضـــاً إن بلاده أيدت وتؤيد ما تمّ إتخاذه من قرارات في شـأن العراق. كذلك لا يخفف من التعقيد قولـه إن بلاده لا تصـــر على ترشـيح مرشـحها (السـفير عبد الرحمن العطية) أميناً عاماً "... ولكن لا نقبل أن يُصـر الطرَف الآخر على مرشحه". وخلاصـة ما يريده رجل الدبلوماسية القَطَرية

هو أن تتراجع خمس دول عن قرار إتخـذتْـه وعلى مســتوى أهل القمة وهو مطلب ليس دبلوماســياً على الإطلاق، يضــاف إلى ذلك أن الدول الخمس إختارت لمنصب الأمين العام الشخص الذي يتمتع بمواصفات يحتـاج إليهـا مجلس التعـاون الخليجي أكثر من أي وقت مضـــى. فالشـــيخ جميل يمثِّل الدولة الأهم في عمليـة إنتقـال المنطقـة من مرحلـة إلى مرحلـة. وهو صـــاحب خبرة عريقـة في التعـامـل مع الأحـداث والتطورات ومع أوروبا الموحَّدة. وإلى ذلك فإن إختياره وليس إختيار المرشـــح القطري جاء يســتند إلى رؤية أهل القرار الخليجي لأكثر المراحل دقـة. ولا بـد أن هؤلاء في قرارة نفوسـهم يخشـون أن يتصـرف السـفير عبد الرحمن العطية (مرشـح قَطَر وزميل الشـيخ جميل لبضـع سـنوات في باريس سـفيراً لبلاده هناك) بالنهج نفســه للدبلوماسـية القَطَرية وتحت تأثير الوزير نفســه على نحو تأثُّر الأمين العام الأول عبدالله بشـارة بعميد الدبلوماسـية الكويتية الشـيخ صـباح الأحمد، فآثروا أن يكون الشـــيخ جميل هو الأمين العام، وحتى إذا كان في هذا الإختيار ما يمكن لدولة قَطَر أن تعتبره تحت وطأة مشـاعر الغضـب بأنه تغليب للناحية الإجرائية على الناحية الموضـــوعية عند إتخاذ القرار. وفي هذا السـياق يجد المرء نفسـه يتسـاءل: هل لو أنه ليس لـ قَطَر مرشـح وكان المرشـح من دولة أُخرى، كان الوفد القَطَري سـيتخذ الموقف الذي إتخذه وكان سـيتمسـك بـالتفســير القـانوني لـ "القرار الإجرائي" الـذي يُتخـذ بـالأغلبيـة و"القرار الموضـــوعي" الـذي يحتـاج إلى الإجماع؟

وعند الإشـارة إلى نهج الدبلوماسـية القَطَرية وكيف يمكن أن يتأثر أحد أبنائها الذي تم ترشـيحه بأسـلوب الوزير الشـــيخ حمـد بن جـاسـم بن جبر نجـد أن التقاطعات واضـــحة بين هذه الدبلوماســـية ومفاهيم الممسِك بزمامها وبين الدبلوماسيات الخليجية الأُخرى. وحتى إذا إختار السـفير العطية أن يكون الأمين العام لكل دول الخليج من دون إنحياز على صعيد المشاعر نحو بلده فإنه سـيجد نفسـه مصـطدماً أو على الأقل محرجاً مع التحرك الدبلوماسـي لبلاده السـريع الإيقاع والذي بينه وبين الدبلوماسيات الخليجية الأُخرى سواء على صعيد الموقف من العراق أو على صعيد التعامل مع إســـرائيل، مســـافة بعيدة. وإذا كانت دولة قطر إنسحبت من الجلسة الختامية لقمة مسقط ثم وضـعت شـــرطاً حاداً بعض الشـــيء لعودتها عن موقفها فإنها تفعل الشـيء نفسـه حتى إذا كان الأمين العام للمجلس هو الشخص الذي رشَّحتْه في حال أراد هذا الشخص أن يكون أمين عام دول المجلس بصـــرف النظر عن إنتسـابه إلى إحدى دوله. ونقول ذلك على أسـاس أن الدبلوماسـية القَطَرية على كثير من الإندفاع في إتجاه حسْـــم القضـــايا العالقة في المنطقة في حين أن الدبلوماسيات الأُخرى على كثير من التأني. وإذا كانت دولة قطر إتخذت من أجل إشـكال صـغير موقفاً كبيراً تّمثَّل بالإنسحابات وما تلاه من إشتراطات، فأي موقف يمكن أن تتخذه بسبب أمر أهم؟

ويبقى ألاَّ نُسـقط من التناول مسـألة السـن التي تلعـب دوراً بـالغ الأهميـة في لحظـات الانفعـال ورد الفعل. وما بين رجل الدبلوماســـية القَطَرية وعمداء الدبلوماسـيات الخليجية الأُخرى ربع قرن من السـنوات الحافلة بالخبرة والتجارب والصـــراعات المريرة. ومن أجْل ذلـك بـدت الخطوة القَطَريـة "ثوريـة" تغْلـب فيهـا حماسة الشباب على حكمة أهل الخبرة.

... والخطوة أولاً وآخراً هي إجتهـاد من إجتهـادات الدبلوماســـية القَطَرية. ولأنها كذلك فإن إيجاد الحل والمَخرَج لها ليسـت بالأمر المسـتعصـي ما دام أهل الحكمـة الخليجيـة بخير، ومـا دامـت وحدة الصـــف الخليجي هي القضـــية، وإن تعددت الأهداف وتنوعت وُجهات النظر. وكل ما يحتاج الأمر إليه هو أن تأخذ حماسة الشباب في الإعتبار أن حكمة أهل الخبرة هي الأوْلى بـالتقدير، وأن تغيير نهج وتقاليد أكثريـة دول مجلس التعاون أصـعب بكثير من تغيير تركيبة الحُكْم في دولة قطر التي تزهو بحيوية مسؤوليها الجدد وهي حيوية أرادت أن تجرِّب في قمة مســقط قوة ذراعها... فكان الذي كان.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 25 ديسمبر (ك1) 1995

* * *

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

المقالات من يناير 1996 إلى ديسمبر 1996





لقاء المتشاكي المرتقب
بين مبارك وكلينتون

في انتظار مضيف بمواصفات الحمل الثاني...
القمة التي يتمناها العرب..
لماذا تخشاها الإدارة الأميركية؟

عجيبة الدنيا الثامنة عندما يقترح عرفات فينفذ كلينتون على الفور
الممنوع في «قمة الإرهاب»
على الحاضرين والمقاطعين
وغير المدعوين

نظرة من تلتل على قمة العتب والغضب (3،3)
ظاهرة زيارة المحتلين للمحتلة جزرهم...

الحد الأقصى والحد الأدنى لاستقامة الأمور في أسرة
التحسب العربي واجب
«بوب» و«بيبي»

نظرة من تلتل على قمة العتب والغضب (3،2)
هل يصبح الإلحاح اليمني على
الخليجيين مثل إلحاح السوريين
والقوتلي على عبد الناصر؟

أمثولة من الملك حسين
برسم نتنياهو... وبعض الأشقاء

مؤتمر حمد الأمير
وحمد الوزير وسنهما
... حمد ولي العهد

بابا نويل الفلسطيني...
وبابا نويل الإنكليزي

في كل مرة كانت تحل ذكرى ميلاد السيد المسيح كنا نجد أنفسنا نتساءل: كيف يرتضي العالم المسيحي أن تكون بيت لحم محتلة؟ أليس إحتلالها من جانب الإسرائيليين معناه أن السيد المسيح نفسه، بما ترمز إليه المدينة وبالذات مغارتها التي وُلد فيها الطفل الذي إختاره الله نبياً من أنبيائه، هو أيضاً تحت الإحتلال؟

وكنا نجد أنفسنا نضيف: هل من الإيمان في شيء أن يسكت عشرات زعماء الطوائف المسيحية، الذين في أياديهم القرار، عن بقاء مهد السيد المسيح، مدينة بيت لحم، تحت وطأة جنود الإحتلال الإسرائيلي، في حين أنهم، من أجْل ما ترمز إليه هذه المدينة، مطالَبون بالعمل على فك أسْرها؟

والمحزن أن الأمر لم يقتصر عند هذا الحد، وإنما تعداه إلى أن زعماء هذه الدول، من الولايات المتحدة إلى فرنسا إلى بريطانيا إلى ألمانيا إلى إسبانيا إلى دول أُخرى كثيرة، كانوا يتسابقون إلى كسب الود الإسرائيلي وكأنما وقوع بيت لحم في قبضة الإحتلال ليس بالأمر الخطير. وكل ذلك لأن زعيم هذه الدولة يريد أن يجدد رئاسته، أو أن زعيم دولة أُخرى يسدد ديوناً لإسرائيل عليه، أو لأن الجيوب اليهودية في أهم دول العالم المسيحي تمارِس على الزعماء السياسيين في الدول ضغوطاً وابتزازات لكي لا يتجاوز أي زعيم، أو طالب زعامة، الحدود التي ترسمها تلك الجيوب. ولكم كان المرء يتمنى لو يسمع ذات يوم في مناسبة عيد الميلاد كلاماً للرئيس الأميركي، أو الرئيس الفرنسي، أو الرئيس الإيطالي، أو ملك إسبانيا، أو ملك بلجيكا، أو ملكة بريطانيا، أو رئيس حكومتها، أو رئيس وزراء إيرلندا، أو رئيس وزراء كندا، أو رئيس وزراء اليونان... إلى آخر الرؤساء الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، يقول فيه هذا الرئيس أو ذاك كلمة حق خلاصتها أنه يتمنى، أو تتمنى، أن تُحرَّر المدينة (بيت لحم) ولا تعود تحت الإحتلال. ولكن ذلك لم يحدُث. وكيف سيحدُث إذا كان هؤلاء لا يرون أن إسرائيل محتلة، وإنما هي دولة تحافظ على "حقوقها" وأن للمحافظة على الحقوق أكثر من وسيلة من بينها وضْع اليد على مدينة بيت لحم.

ولو أن تلك الزعامات، التي أشرنا إليها، إضافة إلى بقية الزعماء المسيحيين في العالم، عمدوا – ولو من باب التذكير – إلى الإشارة بأن بيت لحم تحت الأسر الإسرائيلي، لكنا إعتبرْنا أن هؤلاء لم ينسوا مدينة نبيهم، وأنهم في قرارة نفوسهم حزينون حتى الموت، على حد ما يقوله السيد المسيح، على حال بيت لحم. ولكن أولئك جميعاً لم يفعلوا ذلك مكتفين بالتركيز على الناحية التزيينية والتي تتمثل بوضع أشجار الميلاد في البيوت أو في المكاتب، بما في ذلك البيت الأبيض، من دون أن يقول هذا الزعيم أو ذاك للأطفال المبتهجين بأشجار الميلاد ذات الزينة الجميلة إن مدينة السيد المسيح تحت الإحتلال الإسرائيلي وإن على كل منكم أن يقف دقيقة صمت أمام الشجرة ويصلّي من أجْل إنقاذ المدينة من قبضة الإحتلال. وأغلب الظن أن مثل هذا القول لم يرِد في خُطَب أولئك الزعماء لأنهم غارقون إلى ما فوق الأذنين في دعم المحتل الإسرائيلي سياسياً ومادياً وعسكرياً. وما دامت تلك حالهم فإنهم يخشون أن يقول لهم أطفالهم لماذا لا تخلّصون المدينة بدل أن تطلبوا منا الصلاة، أو على الأقل لماذا لا تفعلون الشيء نفسه وتبث محطات التلفزيون مشاهد عن لحظة الصمت والصلاة أمام الشجرة تؤدونها أنتم، أي يؤديها الزعماء أنفسهم؟

وما لم يفعله الحكام لم تفعله وسائل الإعلام، بمعنى أننا لم نقرأ في هذه الصحيفة أو تلك التعليق الذي يشجب بمرارة إستمرار بقاء بيت لحم تحت الإحتلال، ولم تبث هذه المحطة التلفزيونية أو تلك البرنامج الذي يحرك مشاعر المشاهدين المسيحيين إزاء المدينة التي وُلد فيها السيد المسيح وبقيت آمنة ومطْمئنة وحرة إلى أن إجتاحتها القوات الإسرائيلية عام 1967 ووضعتْها تحت الإحتلال.

وعندما يحل أول عيد ميلاد (الإثنين 25 ديسمبر (كانون الأول) 1995) وقد تحررت المدينة من المحتلين فإن الفضل في ذلك هو للقيادة الفلسطينية التي يتصدرها الرئيس ياسر عرفات. ومع أنه لم يحررها بالقوة إلاَّ أنه لولا المرونة التي مارسها، ولولا أنه إرتضى القليل من الحق الفلسطيني، لما كان للإحتلال الإسرائيلي أن يزول عن بيت لحم. لكن المرونة التي مارسها الرئيس عرفات أفادت في أنه إسترجع ما يمكن إسترجاعه، بل وما هو المهم في قائمة المدن التي سيسترجعها. أما الأهم فهو القدس التي يتميز العالم الإسلامي زعماء وشعوباً عن العالم المسيحي، في غالبية زعمائه وشعوبه، في أنه منذ سقوط القدس في قبضة الإحتلال الإسرائيلي لم يتوقف التذكير بالمدينة

المقدسة، وإن كان تذكير البعض سواء في الخطب أو التصريحات أو في البيانات التي تصدر عن الإجتماعات والمؤتمرات يتسم بالمجاملة أو تجاوباً مع مطلب كل مواطن مسلم في أن تكون قضية القدس محور أي لقاء ويتضمنها أي بيان بصرف النظر عن فاعلية ما يقال، ولكن التذكير ربما ينفع الذكرى. ولو أن بعض الحكومات الإسلامية ترجمت بصدق مشاعرها التي ترد في البيانات والتصريحات لما كان لهذا التعنت الإسرائيلي المدعوم إلى أبعد الحدود من الولايات المتحدة أن يستمر.

ولقد توقَّعنا أن يبادر العالم المسيحي حكاماً ومنظمات إلى تهنئة الرئيس عرفات بتحرير بيت لحم، لا أن يلتزم ما يشبه الصمت إزاء هذا الحدث التاريخي، مكتفياً بتركيز إعلامي صحافي وتلفزيوني على حضوره قداس الميلاد وعلى حضور زوجته سهى إلى بيت لحم مصطحبة إبنتْهما زهوة التي جاءت ثمرة مصاهرة إسلامية – مسيحية تُمثل الوحدة الوطنية الفلسطينية. أما لماذا كنا نتوقع تهنئة العالم المسيحي فلأن الرئيس عرفات حرر لهم بيت لحم قبْل أن يحررها لدولته المرتقبة، وبدا بذلك وكأنه "بابا نويل الفلسطيني" الذي يهدي العالم المسيحي الهدية الأكثر قيمة بالنسبة إلى كل حاكم دولة مسيحية. وإذا جاز الأمر الإفتراضي فإن صلاة الميلاد للعام 1996، ستكون الصلاة التي سيشارك فيها الحكام الذين لم يُبرقوا مهنئين، خصوصاً إذا تجاوزت عملية السلام الصعوبات وتوصلت سوريا وإسرائيل إلى إتفاق من نوع الإتفاق المصري – الإسرائيلي، وإكتمل قيام الدولة الفلسطينية التي سيكون جواز كل مسيحي – بمَن في ذلك بعض المسيحيين اللبنانيين الذين أذاقوا الفلسطينيين الأمَرّيْن – يسعى إلى زيارة مهد السيد المسيح ممهوراً بختمها وتوقيع أحد قناصلها، والتي لا بد لكل مسلم – بمَن في ذلك الأطراف التي أذاقت الفلسطينيين الويلات – يريد أن يكمل دِينه أن يصلي في المسجد الأقصى من أن يستحصل على الشيء نفسه. ومثْل هذا الشأن، على الصعيد الروحي للدولة، الفلسطينية، يخفف بعض الشيء من مرارة الواقع الذي إنتهت إليه القضية، وكيف أن التضحية كانت كبيرة والتنازلات جسيمة.

ويبقى أنه مثلما أن إحتفال عيد الميلاد للمرة الأُولى في بيت لحم التي تخلصت من الإحتلال الإسرائيلي كان أمراً يدعو إلى البهجة، فإن حلول العيد في بريطانيا، التي تفاهمت حكومتها مع الثوار الإيرلنديين، من دون أن يعكر صفو الناس أي تفجير، كان أيضاً أمراً يدعو إلى البهجة. ومثلما أن البهجة في بيت لحم كانت محتلة من الإسرائيليين، فإن بهجة البريطانيين، وبالذات سكان العاصمة (لندن) وزوارها، كانت مصادرة من الثوار الإيرلنديين، إلى أن جاء جون ميجور ليتصرف مدفوعاً من الرئيس بيل كلينتون بإنهاء الصراع مع الثوار الإيرلنديين وتحويله إلى حوار سياسي، كمِثل ما حدَث مع أبو عمار الذي إعتمد غصن الزيتون من دون أن يُلقي الإسرائيليون سلاحهم، أي عكس ما حدَث بين الإنكليز والإيرلنديين حيث أن كلاً من الطرفيْن وضع منطق القوة جانباً وإعتمد الحوار بكل مفرداته وأساليبه. وحدَثَ هذا من دون أن ينتقص التصرف من شأن بريطانيا كدولة عظمى تتعامل مع حركة ثورية هي الجيش الجمهوري الإيرلندي.

ولا يمكن وصْف البهجة في نفوس سكان لندن وزوارها هذا الميلاد حيث إن هؤلاء مشوا في الشوارع آمنين مطمئنين، وحيث إنهم إستقلوا الباصات وقطارات الأنفاق من دون الخوف بأن قنبلة قد تنفجر في هذه المحطة أو تلك، ودخلوا إلى المحلات الكبرى للتسوق وهم واثقون بأنه ليس هنالك إنذار بوجود قنبلة وعليهم مغادرة المحل الذي هم فيه على الفور، ويتوجهون من منطقة إلى أُخرى من دون أن يفاجأوا برجال الشرطة يقطعون الطريق ويخلون الشوارع بعدما تلقوا إنذاراً بأن قنبلة ستنفجر في أحد الأمكنة أو في محطة لقطار الأنفاق.

ومثلما أن منظر الناس الهاربين في الشوارع خوفاً من شظايا تفجير ينفِّذه الثوريون الإيرلنديون كان السمة البارزة لمواسم أعياد الميلاد ورأس السنة طوال النصف الأول من التسعينات، فإن منظر الناس في بعض الشوارع التجارية يسيرون وكأنهم في تظاهرة وبهجة التسوق تغمر وجوه الجميع كان السمة البارزة لميلاد هذا العام، ولبقية الأعوام، ما دام تَحقق "سلام الشجعان" الإنكليزي – الإيرلندي، الذي فيه بعض أوجه الشبه من "سلام الشجعان" الفلسطيني – الإسرائيلي.

وفي الحالتيْن كان أبو عمار هو "بابا نويل الفلسطيني" وكان جون ميجور "بابا نويل الإنكليزي"... وكانت الهدية التي قدَّمها كل منهما لشعبه وللآخرين ذات قيمة لا تقدَّر بثمن.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 1 يناير (ك2) 1996

* * *

هل نحن على أبواب إستحداث جامعة عربية مقرها دمشق؟

جاء آخر مظهر من مظاحر العمل العربي المشترك ليخفف من وطأة الإنطباع السائد عن العام 1995 وهو أنه العام الذي بلغ فيه التنافر العربي أشده، حتى أنه بات من الصعب الإتفاق ولو على الحد الأدنى، وبات من المستحيل التفاهم والإلتقاء على بعض النقاط المشتركة.

وما نعنيه بالمظهر هذا هو اللقاء الذي شهدتْه العاصمة السورية يوم الخميس 28 ديسمبر 1995 وكان ما زال متبقياً على العام الذي ساد التنافر معظم أيامه ثلاثة أيام. ولقد خرج وزراء خارجية اعلان دمشق (المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا والكويت ودولة الإمارات وقطر والبحرين وعُمان) من إجتماع لهم دام خمسة أيام ببيان حافل النقاط المشتركة التي يمكن الإلتقاء حولها، والتي لو كان الإجتماع يشمل وزراء خارجية بقية الدول العربية، بل ولو كان على مستوى القمة، لما كان لأحد أن يعترض على البيان وما تضمَّنه أو على وجه الدقة لن يكون هناك إعتراض على معظم ما جاء في البيان. وهذا يحمل على القول إن الذين إلتقوا فى العاصمة السورية كانوا يعبّرون بالبيان الذي أصدروه عن مواقف حكوماتهم، وإلى حد كبير عن مواقف غير المشاركين بمعنى أنه بيان يمثِّل الحاضرين والغائبين.

فالبيان يؤكد حِرْص الدول المشاركة على إنجاح عملية السلام وليس هنالك بين الدول الأُخرى غير المشاركة من يرى عكس نلك. وحتى ليبيا ليست ضمناً ضد عملية السلام وإن كانت تنعت الذاهبين إلى السلام تارة بـ «الخيانة» وتارة بـ «التفريط» وتارات بـ «الإستسلام» ونقول ذلك على أساس أن ليبيا لو كانت ضد عملية السلام لما كانت على هذا الوفاق التي هي عليه مع مصر (رائدة الإنتقال العربي من المواجهة إلى السلام)، وهو وفاق يصل إلى درجة التحالف. ولكن ليبيا، بسبب ما تتعرض له نتيجة مأزق لوكوربي، تتعامل بالضد مع تيار السلام الجارف للتذكير بأن لها أزمة عالقة تتحول تمديداً بعد تمديد للعقوبات إلى أزمة خانقة.

والبيان يلاحظ بإرتياح توجُّه سوريا نحو التفاوض مع إسرائيل ويشيد بموقفها ويؤكد الدعم الكامل لها. وليس هنالك بين الدول الأُخرى غير المشارِكة مَن هو صاحب موقف مغاير لذلك وحتى العراق بات ضمناً يؤيد مثل هذا الموقف ليس فقط لأنه لا جدوى، بل ولا مجال فى ظل تعقيدات الظروف الراهنة للمزايدة العقائدية على الحُكْم السوري، وإنما لإن نجاح سوريا في التفاوض وإنضمامها إلى العملية السلمية يمكن أن يساعد، من خلال سوريا أو من خلال المعادلة التي ستنشأ نتيجة إنتشار السلام العربي – الإسرائيلي، في رفْع الحصار عنه وبالتالي إنضمامه هو الآخر إلى العملية السلمية.

والبيان يؤكد تمسُّك دول إعلان دمشق بضرورة تنفيذ إسرائيل لقرارات مجلس الأمن المتعلقة بالقدس العربية وبالمستوطنات في الأراضي العربية المحتلة التي تستمر إسرائيل في بنائها. ومن المؤكد أن الدول الأُخرى غير المشترِكة تتمسك هي الأُخرى بما تتمسك به الدول المشاركة.

ويجدد البيان إلتزام دول الإعلان بجعل منطقة الشرق الأوسط بما في ذلك منطقة الخليج منطقة خالية من كل أسلحة الدمار الشامل بحيث تشمل كل دول المنطقة من دون إستثناء. كنلك يدعو البيان إلى ضرورة إنضمام إسرائيل إلى معاهدة عدم إنتشار الأسلحة النووية. وثمة ما يشْبه الإجماع العربي على هذه المسألة. كذلك هنالك ما يشْبه الإجماع العربي (بمعنى أن المشاركين وغير المشاركين يلتقون على موقف واحد) في شأن الحرص على وحدة العراق ومعارضتهم لأي سياسات أو إجراءات تستهدف تهديد وسلامة وحدة الأراضي العراقية. وفي شأن التعاطف مع الشعب العراقي في محنته وتحميل حكومته المسؤولية الكاملة عنها نتيجة رفْضها تنفيذ قرارات مجلس الأمن تتضمن تدابير مؤقتة لتخفيف هذه المعاناة. " كذلك بات هنالك إجماع عربي بإنضمام سوريا إلى الموقف الخليجي إزاء إيران في شأن الإحتلال الإيراني للجزر الإماراتية (طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى) وتضمين البيان الصادر عن إجتماع دمشق فقرة تؤيد موقف دولة الإمارات من هذا الموضوع.

وما يقال في شأن الجزر الإماراتية يقال أيضاً في شأن الموقف من تركيا بالنسبة إلى قسمة مياه الفرات، وفي شأن النزاع اليمني – الإريتري، وفي شأن الإرهاب، وفي شأن الوضع المأساوي في الصومال، والوضع الماساوي الآخر في أفغانستان، وفي شأن

الجامعة العربية وضرورة تعزيز دورها ودعْم مسؤولياتها القومية، وإيجاد حل للأزمة المالية التي تعيشـها، وفي شأن إستمرار إراقة الدماء في الشيشان.. الخ.

ولقد جاء لقاء دمشـق وما صـدر عنه من إشـارات في إتجاه إمكانية العمل العربي المشترك الذي يتصوره المشـــاركون في اللقاء والـذي يؤيـده الآخرون غير المشـــاركين، بمثـابـة دفعـة معنويـة بـالغـة الأهميـة للمفاوض السـوري الذي يخوض بالقرب من واشـنطن مفاوضـات بالغة الصـعوبة مع المفاوض الإسـرائيلي. ونلاحظ أنه في اليوم الذي بدأت فيه المفاوضـات كان وزراء خارجية دول إعلان دمشق وصلوا إلى العاصمة السورية وتصرَّفوا سواء في مشاوراتهم الثنائية أو خلال إجتماعهم المغلق بما تمليه عليهم هيبة الظروف فكان البيان، الذي على رغم أنه لم يُبقِ أمراً لم يتطرق إليه، كثير الوضـوح في دعْم الموقف السـوري، وهذا في حد ذاته يجعل الحكم الســـوري أكثر إطمئناناً إلى معركة الســـلام التي يخوضـــها والتي هي أهم آخر المعارك العربية في إتجاه السلام الذي فرضتْه الولايات المتحدة كخيار واحد لا مجال لغيره. وتتبين لنا أهمية ما صـدر عن لقاء دمشـــق إذا نحن تأمّلْنا فى ما كانت ســـتبدو عليه الحال لو أن المفاوضـات السورية – الإسرائيلية إســـتؤنفت وليس هنالك ســـند عربي حازم للمفاوض السوري. ولكن المفاوض بدا أكثر إطمئناناً عندما وجد أن الدول الفاعلة فى القرار العربي تعْقد قي عاصـــمة بلده مؤتمراً، تم وجد نفســـه أكثر ثقة بالنفس عندما صـدر عن المجتمعين البيان الذي له صـفة القبول من كل الدول العربية. ومثْل هذا الأمر إسـتوعبتْه إسـرائيل على الفور فبدأت تطرح قيد التداول في سـاحة التناظر الســـياســـي بعض الأفكار والتخريجات التي توحي بالتنازلات، من نوع «إننا لم نحتل الجولان لأســـباب تتعلق بـالحقوق التـاريخيـة وإنمـا لمـوقعهـا الإســـتراتيجي...». وســـنســـمع بعد الآن الكثير من التخريجات والتبريرات الإسرائيلية فى حال تطور العمل العربي المشترك وتعمقت جذوره.

ومن خلال وثيقة إطار العمل العربي المشـــترك التي حسم لقاء دمشـق أمرها بعدما كانت نوقشـت بما فيه الكفاية في لقائيْن سابقيْن وأُذيع نصها – وقد خلت من التحفظات – مع نص البيان الذي أشـــرنا إليه والـذي هو محور هـذا المقـال، يتبين للمرء أن دول إعلان دمشـق سـتكون في ما تبقى من سـنوات القرن العشـــرين هي الكتلة الأكثر تجانســـاً داخل الجامعة العربية أو أن وثيقتها التي أذاعتها ســـتكون العناوين العريضـة لميثاق جديد للجامعة وذلك في حال إنضـمام دول عربية أُخرى إلى دول إعلان دمشق. ويبدو أن ما سـيحدُث هو أن بعض الدول سـترى أنه ما دام الباب مفتوحاً أمام الإنضـمام فمن المناسـب لها أن تنضـم. وفي ضـــوء ما تواجهـه بعض التكتلات العربية من إشـــكالات ومن بينها ما حدَث قبْل فترة عندما طالب المغرب بتجميد أعمال الإتحاد المغاربي فإن مســـألة إنضمام بعض الدول لا تعود مستبعدة.

ونحن عنـد قراءة نص وثيقـة «إطـار العمـل المشـــترك» نلاحظ أنهـا على رغم التـذكير بمجلس للدفاع العربي الذي هو أحد أبرز مؤسـسـات الجامعة العربيـة، وعلى رغم التذكير بـالمجلس الإقتصـــادي والإجتماعي للجامعة وبمجلس الوحدة الإقتصـادية، إلاَّ أنها تبدو كما لو أنها الطبعة الجديدة المرتقَبة لميثاق الجامعة. وهذا ما قد يجد فيه المِلك الحســـن الثاني، الذي كان أول المنادين بجامعة عربية جديدة، مبتغاه فينضـــم المغرب ثم يلحق بـه الآخرون أو آخرون ويصـــبح «إطـار العمـل المشـــترك، هو المرجعيـة السـياسـية والإقتصـادية للدول العربية. كذلك إننا عند قراءة النص نلاحظ أن الوثيقة لم تُغفل شـــيئاً، من المســـألة الأمنية إلى تخليص الإقتصـــاد والتجارة والإســـتثمارات من أي قيود إلى تعزيز دور القطـاع الخاص. بل إن الوثيقة لم تنس حتى مســـألة توحيد المواصـــفات والمقاييس فى الدول العربية، ولا مســـألة المعارض التجارية التي دعت إلى تشجيعها، ولا مسألة الإزدواج الضريبي. بل إنها أعطت أفضلية لليد العاملة العربية ونصـــت على تشـــجيع إســـتخدامها، وهو أمر سيكون ممكناً في ضوء إتساع رقعة مرحلة السلام في المنطقة وإنحســـار الهواجس الأمنية، فضـــلاً عن أن تشـــجيع إســـتخدام اليد العاملة العربية ســـيكون معناه إيجاد الفرص لبضـعة ملايين عربي سـيجدون أنفسـهم بعد تسـريحهم من الجيوش بسـبب إنتهاء الصـراع مع إســـرائيل يبحثون عن عمل وليس هنالك مَن هو قادر على إستيعابهم سوى دول الخليج التي ستستبدل نسبة كبيرة منهم بالأجانب والأسيويين العاملين لديها الآن.

ومع أن الوثيقة تبدو مؤهَّلة أكثر لتحل محل ميثاق الجامعة، إلاَّ أن ســـيـاســـة التروي هي التي أوجبت إيداعها لدى الأمانة العامة للجامعة لتمكين مَن يريد من الدول الأعضاء الإنتساب.

ولا ندري كيف ســـتكون حال الأمين العام الدكتور

عصـــمت عبد المجيد إذا تكاثرت على مكتبه طلبات الإنتســـاب بينما هو في إنتظار تســـديد بعض الدول الإلتزامات المالية المترتبة عليها.

... وما ســـيحدُث عند ذلك هو أن شـــبه جامعة فاعلة ستحل محل جامعة مشلولة أو مغلولة اليدين، وبالحد الأدنى من عنصـــر المباغتة. وتلك نتيجة طبيعية لمؤسسة جاء إستحداثها لمواجهة الصراع مع إســـرائيل، وبزوال هذا الصـــراع تحل تلقائياً محلها مؤسسة جديدة مركزها الدائم دمشق وتكون قادرة على مواجهة الصـــراع الذي لا بد منه مع إيران. ولقد أثبت اللقاء الذي شهدتْه للعاصمة السورية أن هذه المؤسسة قابلة للإستحداث وسجلت بذكاء المحاولة الأولى لها على طريق العمل العربي المشـــترك بصـــيغة جديدة. وأكدت إيران من خلال رد فِعْلها على ما أنيع على أن الصـــراع لا بد منه مع العرب وربما كان مريراً... وطويلاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 يناير(ك2) 1996

* * *

إحالة رئيس حكومة على المعاش

لكثرة ما كان الرئيس حســـني مبارك في كل مرة تكون هنالك توقعات لتغيير وزاري شـــامل يســـتجد حدوث مثل هذا التغيير، فإن تغيير حكومة الدكتور عاطف صدقي والإتيان بحكومة جديدة برئاسة الدكتور كمال الجنزوري إكتسب صفة الحدَث الذي تكاثرت في شـــأنه الإجتهادلت والتوقعات. وبعد الآن فإن الكلام حول التغيير الوزاري سيتلاشى لبضع سنوات وذلك على أساس أن رئيس الوزراء الجديد باقٍ إلى أن تنتهي ولاية الرئيس مبارك الثالثة شأنه في ذلك شأن رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري الذي سيبقى في موقعه طوال ولاية الرئيس الياس الهراوي التي جرى تمديدها.

والذي يلفت النظر في الحكومة المصـــرية الجديدة هو أنها عبارة عن حكومتيْن: حكومة وزارات الســـيادة التي لم يتغير وزراؤها وحكومة الخدمات التي تغيَّر فيها الوزراء حيث إختار الدكتور الجنزوري فريق العمل الذي يقود به برنامج التنمية للســـنوات المتبقية من القرن للحالي. وقياساً بسنوات الحكومة السابقة فإن رئيس حكومة وزارات الســـيادة كان الرئيس مبارك شخصياً. وطوال تسع سنوات لم ينهمك رئيس الوزراء (عاطف صـــدقي) في أي أمر ســـياســـي ولم يســـجل مواقف في قضية سياسية محلية أو عربية أو دولية إلاَّ في حدود الضرورة القصوى، وهذه كانت نادرة في أي حال بالنســـبة إليه. وفي عهد الحكومة الجديدة فإن الوضع الذي كان قائماً في الحكومة السابقة سيستمر حيث أنه إكتسب صفة التقليد خصوصاً أن وزراء السيادة هم فريق العمل الذي ينفِّذ بدقة السياسة العليا التي يرتأيها الرئيس مبارك وبالذات في المجالات السياسية والعسكرية والإعلامية والسياحية والثقافية.

وفي العادة إنه عندما تستقيل حكومة – أو تُقال – فإن حكومة جديدة تخلُفها بوجوه جديدة من رئيسها (إذا كان رئيس الدولة أقال سَـــلَفه)، إلى بقية الوزراء أو يقتصر التغيير على الوزراء إذا كان رئيس الدولة أبقى على مَن كان يشغل منصب رئيس الوزراء (كما حدَث مع الدكتور عاطف صدقي مثلاً). ومن هنا فإن الذي حدَث بالنســـبة إلى حكومة الجنزوري هو أن تعديلاً وزارياً حدَث شـــمل رئيس الوزراء ونصـــف أعضـــاء الحكومة. وهو أيضـــاً تقليد جديد ليس معروفاً ما إذا كان سيتواصل الأخذ به مستقبلاً.

كذلك إن الذي يلفت النظر في التغيير الذي حدَث هو الطريقة التي إعتمدها الرئيس مبارك. وإستناداً إلى ما قرأناه في وســـائل الإعلام المصـــرية وما ســـمعناه أيضـــاً فإن الرئيس مبارك فاجأ رئيس وزرائه بضـــرورة التغيير وحدَث ذلك في وقت ليس هنالك حديث حول تغيير الحكومة أو توقعات له ولا نتوقف هنا عند الصحف المعارضة لأنها في كل عدد تُصدره صحيفة هذا الحزب أو ذاك، نقرأ عن مطالبة بإستقالة الحكومة ولكن الذي نعنيه هو أننا لم نلْحظ في الصحف القومية المملوكة للدولة (أي الصـــحف الرسمية) أي إشارات إلى وجوب التغيير. والذي حدَث هو أن الرئيس مبارك إســـتدعى رئيس الوزراء إلى الإجتماع به صـــباح يوم الثلاثاء 2 يناير 1996 وأن الدكتور عاطف صـــدقي عقد مساءاً في ضوء هذا الإجتماع مع الرئيس مبارك إجتماعاً طارئاً للحكومة إستغرق نصف ساعة أعلن خلاله الدكتور صـــدقي إســـتقالة حكومته شـــاكراً الذين عملوا معه على إمتداد ثلاث حكومات قي تســـع سنوات، ثم إتصل بالرئيس مبارك ليُبلغه نبأ الإستقالة. وفي الوقت نفســـه كان نائب رئيس الوزراء ووزير التخطيط الـدكتور الجنزوري يتوجه إلى رئـاســـة الجمهورية للإجتماع بالرئيس مبارك ويتبلغ منه تكليفه

بتشكيل حكومة جديدة وضرورة أن يقتصر التغيير على وزارات معيَّنة ولا يشمل وزارات محددة. وبذلك يكون الذي حدَث هو أن الرئيس مبارك عامل الدكتور صدقي بكل التكريم بمعنى أنه إستدعاه ليطلب منه الإستقالة ولم يبلغه إياها تبليغاً عبْر الهاتف أو من خلال أحد المستشارين، وأنه (أي الدكتور صدقي)، وهذا هو المهم أعلن إستقالة الحكومة في إجتماع لمجلس الوزراء وبعدما كان عقد إجتماعاً مطولاً مع الدكتور أسامة الباز مستشار الرئيس الذي ربما تم إيفاده لكي يزيل من نفس الدكتور صدقي أي شعور بالمرارة خصوصاً أن بقاء شخص تسع سنوات في منصب رئيس وزراء يولِّد في نفْسه عند ترْكه، المشاعر التي تصيب مَن كان يشغل منصباً مرموقاً فى الدولة (مدير عام على سبيل المثال)، على المعاش. وعملياً إن الدكتور عاطف صدقي أحيل على المعاش كرئيس حكومة ذلك أنه لم يحدُث في التاريخ المصري الحديث أن بقي رئيس حكومة في منصبه تسع سنوات متتالية. وقد يكون السبب في إستمراره طوال هذه المدة أنه كان يفتدي بصدره السهام التي توجَّه إلى رئاسة الجمهورية فضلاً عن أنه كان يعمل أكثر من عشر ساعات يومياً ويتواجد قي مكتبه فى ساعات يكون فيها وزراء كثيرون في منازلهم ويتابع بكل الدقة تنفيذ توجيهات رئيس الدولة، إضافة إلى الأمر المهم بل لعله الأكثر أهمية وهو انه لم يحول رئاسة الحكومة إلى مركز قوة وفي الوقت نفسه إعتبر أن الأمور السياسية لا تعنيه كرئيس للوزراء إلاَّ عندما تقتضي الضرورة أو التوجيهات الرئاسية ذلك. وبإختصار إنه من الطبيعي أن يعمِّر في رئاسة الحكومة للأسباب التي أوردناها ولكونه إرتضى المعادلة القائمة على أن الحكومة المصرية عبارة عن حكومتيْن، حكومة خدمات يديرها رئيس الوزراء وحكومة فريق العمل الذي يرتبط أعضاؤه برئيس الجمهورية. ونحن في معرض الحديث عن السهام التي إفتداها الدكتور عاطف صدقي بصدره نتذكر الحملة الشرسة التي تعرَّض لها بسبب التشريعات الإعلامية التي لم تكن في الأصل من إبتكاره ولا إنه كان وراء إصدارها. ومع ذلك فإن الحملة إنصبت عليه فلم يبقَ صاحب قلم بما في ذلك كُتَّاب الصحف الرسمية إلاَّ ورجموه بكلمات فيها من التجريح الكثير لكنه إرتضاها إلى أن جاءت محاولة إغتيال الرئيس مبارك في أديس أبابا لتوقِف الحديث حول تلك التشريعات.

ولكن بقاء الدكتور عاطف صدقي، أو الإبقاء عليه، رئيساً للوزراء طوال تسع سنوات (من 9 نوفمبر 1986 الى 4 يناير 1996) فيه نوع من التعويض المعنوي له. وهو يستطيع أن يتباهى، عندما يدور الحديث حول حكومات مصر منذ صدور دستور عام 1923، أو يؤتى على ذِكْر مَن تَولوا منصب رئيس الوزراء طوال 82 عاماً، لأنه كان من النجوم الساطعة والمعمرة في رئاسة الحكومة أمثال المصطفييْن (مصطفى باشا فهمي صاحب الرقم القياسي حيث إستمر رئيساً للوزراء طوال 13 عاماً متتالية ومصطفى النحاس باشا الذي شغل المنصب سبع مرات على مراحل مختلفة. كذلك يستطيع أن يتباهى بأنه في تاريخ مصر الجمهورية كان عميد رؤساء الحكومات إذ لم تصمد حكومة في عهد الرئيس جمال عبد الناصر أكثر من ثلاثة عشر شهراً وفي عهد الرئيس السادات أكثر من سبعة أشهر ونصف الشهر، ومن أجْل ذلك نلاحظ أنه في الفترة بين العام 1952 والعام 1981 تشكَّلت 31 حكومة وهو رقم يظهر مدى عدم إستقرار هذا المنصب الذي تولاه لبعض الوقت الرئيس عبدالناصر ثم الرئيس السادات.

ولم يحدُث الإستقرار لمنصب رئيس الوزراء إلاَّ بعدما تولى الرئيس مبارك الحُكْم في أعقاب إغتيال الرئيس السادات حيث أنه بعدما جرَّب بنفسه (وعلى نحو ما فعله من قبْل الرئيسان عدد الناصر والسادات)، طبيعة عمل رئاسة الحكومة قرر أن هذا الموقع ينجح بقدْر ما يستقر وبقدْر ما يتسلمه مَن يكون شاغله الإدارة وقضية التنمية والإستثمار، فكان في البداية الدكتور علي لطفي الذي لم يصمد ثم إختار الدكتور عاطف صدقي يوم 9 نوفمبر 1986، الذي حقق صموداً وإستقراراً لافتيْن للنظر لم يحدُثا في مسلسل الحكومات في مصر والتي بلغ عددها 108 حكومات بدءاً بحكومة نوبار باشا قبْل 118 سنة.

وإذا كانت حكومة الجنزوري أبقت على معظم القديم في الحكومة السلَف إلاَّ أنها بإسناد وزارة الإقتصاد والتعاون الدولي إلى إمرأة أوحت بأن عندها الجيد الذي ستقدِّمه وأنه سيكون لمصلحة البلد كون الدكتورة نوال التطاوي التي تم إسناد المنصب لها تأتي إلى الوزارة من وسط حافل بالخبرة الإقتصادية حيث أنها زوجة رجل أعمال مرموق إضافة إلى أنها شغلت منصب رئيس البنك العربي للإستثمار. وبإسناد المنصب إليها تكون المرأة المصرية متمثَّلة بثلاث

نساء وهو ما يعكس إنطباعاً بأن العام ألفين وفي ظل هذا التطور المستنير لمفهوم المسؤولية في مصر قد يشهد إسناد منصب رئاسة الحكومة إلى سيدة على نحو ما حدَث في تركيا وبعض دول العالم.

ويبقى أن الدكتور كمال الجنزوري الذي يتسلم رئاسة الحكومة وهو في الثالثة والستين أي أكبر من السن التي تسلَّم فيها سلفه الدكتور عاطف صدقي المنصب بسبع سنوات هو – مثل وزيرة الإقتصاد – من جيل خبراء الإقتصاد المصريين المتأثرين بالمدرسة الأميركية في هذا الشأن. ومهمة هؤلاء ليست سهلة لأنها تستهدف تصحيح الإنفتاح العشوائي الذي ظن الرئيس السادات أنه العلاج الشافي للمشكلة الإقتصادية المزمنة في مصر فإذا به نتيجة الأسلوب الذي تم إعتماده يزيد المشكلة تعقيداً، تماماً على نحو ما أصاب السودان من القوانين الإسلامية التي فرضها الرئيس نميري لتحميه وتحقق الإستقرار للسودان فإذا هي تذهب به وتبقى تحتاج إلى أن يضعها في مكانها المناسب.

لعل حكومة الدكتور الجنزوري تُحقق النصف المتبقي من خطة الأحلام الوردية التي لم تُحققها حكومة الدكتور عاطف صدقي... والا فإن الرئيس مبارك الذي يريد أسعد النهايات لولايته الثالثة والأخيرة سيكون على موعد مع مَن يكون في إستطاعته إجتراح المعجزة.

وفي العام 1999 تنتهي تلك للولاية ليبدأ القرن الجديد وتكون مصر قاربت عند ذاك على الثمانين مليون نسمة. وأي مليون فوق المليون الثلاثين هو كما أثبتت المحاولات مشكلة مؤجلة الحل... إلاَّ إذا نشر السلام في المنطقة أشرعة الرخاء.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 15 يناير (ك2) 1996

* * *

مَن يزور مَن ومَن يسامح مَن؟

فى الذكرى الخامسة للحرب الدولية على العراق يجد المرء نفسه يتأمل في اسلوب التخاطب العراقي مع الحرب أولاً ثم مع العالم ولا يتلمس التغيير الجذري المطلوب. وما سمعناه من الرئيس صدَّام حسين من كلام في التسعين دقيقة التي إستغرقها خطابه يوم الأربعاء 17 يناير الحالي (1996) لهذه المناسبة يتناسب مع جو التعبئة القائم داخل العراق إلاَّ أنه ما زال بعيداً جداً عما يتوقع الآخرون سماعه، أي بمعنى آخر إنه خطاب للإستهلاك المحلي بينما الأحوال التي إنتهى إليها العراق تحتاج إلى أسلوب مختلف جداً من التخاطب.

والملاحظ أن الرئيس صدَّام تحدَّث بما يمكن أن يقوله القادة العرب، أي أنه هو الذي يدعو إلى التسامح وإلى فتْح صفحة جديدة في حين أن مثل هذا الكلام يكتسب أهمية قصوى لو أن بعضاً من هؤلاء القادة هم الذين يدعون إلى التسامح وإلى فتح صفحة جديدة. ومِن هنا فإنه إذا كان هو الذي يقول هذا الكلام وهو الذي يدعو إلى ما دعا إليه فكأنما بذلك كمَن يخاطب نفسه.

والملاحظ أيضاً أن الرئيس صدَّام يقول إنه مستعد لإستقبال أي حاكم عربي في بغداد مهما كان موقف بلاده من العراق. وهو يبدو فى ذلك كمَن يفترض أن هنالك طابوراً من القادة العرب كان في إنتظار أن يسمع من الرئيس العراقي مثل هذا الكلام لكي يتوجه إلى العراق، مع أن واقع الحال يشير إلى أن القادة العرب يلتقون حول جامع مشترَك وهو أنه لا لقاء مع العراق قبْل أن يعيد الحُكْم النظر جذرياً في أمور كثيرة. ولولا هذه القناعات لدى الجميع لما كانت المساعي لتحقيق بعض الإنفراج تتعثر لمجرد أن تبدأ.

وإلى ذلك إن الرئيس صدَّام ما زال مبهوراً في الأمر الذي أوصل العراق إلى الحال الذي هو عليها الآن ويتمثل ذلك في الإصرار على أن العراق خرج من الحرب منتصراً وأن الولايات المتحدة ومَن معها مُنيت بالهزيمة.

وبشكل عام إن الخطاب الذي ألقاه الرئيس صدِّام ليس يحجم المأساة التي أصابت العراق وهو خطاب قد يحقق غرضاً في الداخل يريده الحُكْم إلاَّ أنه لا يساهم في إيجاد حل يتطلع إليه المواطن.

ومن المؤكد أن كل مواطن عراقي عندما يسمع رئيسه يقول إنه مستعد لكي يسامح ومستعد لإستقبال أي حاكم عربي في بغداد مهما كان موقف بلاده من العراق سيفترض للوهلة الأولى أن الحكام العرب على أُهبة أن يزوروا بلدهم وتنفتح تبعاً لذلك أبواب الإنقاذ. لكن مثل هده التهيؤات ستتسبب في حدوث المزيد من الإحباط عندما تنقضي الأيام ولا يحدُث شيء مما سمعوا رئيسهم يقوله فى خطابه.

ويخشـــى المرء أن يكون ما يصـــدُر عن بعض الشخصيات والدوائر الأجنبية من تحليلات وتصريحات يساعد عن قصْد أو عن غير قصد في جعْل الحُكْم العراقي يبتعد خطوات عما تفترض فيه الإقدام عليه بعد أن يكون إقترب خطوة. ومن هذه التحليلات والتصـريحات ما هو منسـوب إلى خبراء عسـكريين أعطوا تقييماً بعد مرور خمس سـنوات على الحرب وقصْدهم أن يخدموا الموضـوعية في التحليل إلاَّ أن الحُكْم العراقي يوظف هذا التقييم بما يجعله يقول إن الحرب إنتهت إنتصاراً للعراق وهزيمة للولايات المتحدة ومَن معها.

أما التصـريحات التي أمكن توظيفها بشـكل جيد فهي تلك التي صـدرت عن إثنين من زعماء التحالف هما الرئيس السابق جورج بوش ورئيسة وزراء بريطانيا السـابقة مارغريت ثاتشـر. وهما عندما قالا ما معناه إنهما إرتكبا الخطأ الجسـيم عندما توقَّعا أن الحُكْم العراقي لن يصمد، أو عندما قالت ثاتشر ما معناه إنه أي انتصـار هذا عندما لا يعود زعماء كثيرون من زعماء التحالف في الحُكْم بينما حُكْم صـدَّام حسـين مسـتمر. إنهما عندما قالا أو صـرَّحا بذلك لم يكن قصْدهما سوى إجراء بعض النقد الذاتي أو المراجعة لكنه كلام يوظفه الحُكْم العراقي لتعزيز ما يتصوره من أنه خرج من الحرب منتصراً وأن الحصار المفروض عليه هو عقاب أملاه الشعور من جانب أهل التحالف بالهزيمة. وفي سـياق الخشـية من دواعي مثل هذا الكلام والتصـريحات يجد المرء نفسـه يفترض أن هذا الذي يقال يستهدف في جملة ما يستهدفه تدعيم شعور الحُكْم العراقي بأنه إنتصر وذلك على أساس أنه كلما شعر بذلك إزداد تشدداً وبالتالي إبتعاداً عن أسلوب التعامل الذي يحقق رفْع الحصـار عنه. ونحن عندما نقول ذلك نتذكر كيف أن الحرب على العراق أخذت في الإعتبار الجانب النفسي من الرئيس صدَّام بمعنى أنها تعاملت معه تفاوضـاً وحرباً بعدما درسـت قيادة التحالف (ونعني هنا الولايات المتحدة بأجهزتها المختلفة) نفسـيته ووضـعت خطوطاً تحت مَواطن الضـعف ونقاط الإسـتفزاز. ومن خلال النتائج التي إستخلصتْها رسمت خطة الحرب عليه. وهكذا تكون تصـريحات وتحليلات مناسبة الذكرى الخامسة هي الحرب النفسية الثانية والتي يبدو أن الرئيس صدَّام من خلال ما سمعناه يقوله في خطاب الذكرى هذه وقع في شِباكها بدليل أنه إرتأى أن يتحدث على نحو ما تحدَّث مستنداً في ذلك إلى ما ردده بعض قادة التحالف كنقد ذاتي وخلاصته أنه عندما يبقى هو في الحُكْم ويذهب الآخرون فأي إنتصار هذا الذي يكون تَحقق.

وعندما نقول إن المسـافة ما زالت بعيدة بين الذي قاله الرئيس صـدَّام في خطاب الذكرى الخامسة وبين ما توجُب الحال التي إنتهى إليها العراق كوطن وكشعب أن يقوله ويفعله، فعلى أساس أنه إذا كانت مضت خمس سنوات من دون أن يتغير شيء من القرارات التي تم إتخاذها في الأمم المتحدة فهذا معناه أنه لن يتم التغيير إلاَّ ضِمْن الرؤية الدولية للمسألة، وأنه إذا كان الحُكْم صمد خمس سنوات فإن صموداً أقوى حدَث في الجهة المقابلة من دون أن تتأثر سيآسة بعض دول التحالف بالأشـخاص بدليل أن ثاتشـر أُقصـيت عن الحُكْم في بريطانيا، فجاء جون ميجور أكثر تشدداً وأكثر تمسكاً بالسياسة التي وضعت أسسها في اليوم الأول للغزو العراقي للكويت، وأن جورج بوش سـقط في الإنتخابات وجاء بيل كلينتون أكثر حرصاً من بوش على تلك السياسة، وأن فرنسوا ميتران إبتعد وسقط المرشح الإشتراكي وجاء جاك شيراك وقد بدا إلتزامه تلك السياسة يتجاوز بكثير علاقة قديمة له بالرئيس صدَّام. وتلك أمثلة وليست كل الحالات.

ولن يشـعر الكثيرون داخل العراق وخارجه بأن المسـافة بدأت تضـيق بالفعل وأن وطأة الحصـار ستتراجع قليلاً إلاَّ عندما يعيد الرئيس صدَّام النظر في أسلوب التخاطب فلا يقول إنه مستعد لإستقبال أي حاكم عربي بصرف النظر عن موقفه من العراق، وهو يعرف أنه حتى الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصـمت عبد المجيد لا يزور العراق فكيف بالحكام العرب بمَن فيهم من يحافظ على علاقة باردة مع العراق. ولا يقول أيضـاً إنه يدعو إلى التسـامح وإلى فتْح صـفحة جديدة أي بما معناه إن الآخرين أخطأوا معه وانه يسامحهم مع أن الجميع ينتظرون منه إعترافاً بالخطأ الذي حدَث يوم الخميس 2 أغسـطس 1990 وما زالت تداعياته مستمرة حتى الآن.

ومع ان الرئيس صـدَّام لا ينظر بإستحسان إلى الأسلوب الذي إعتمده ثلاثة من اصدقائه وحلفائه في تلك المغامرة المريرة عندما قرروا تصـحيح سـاسـة إعتمدوها وعادت على بلادهم بالخسـائر المعنوية والمادية والسياسية، إلاَّ أن هذا الأسلوب هو الوحيد الذي يمكن أن يصحح ويرمم وينقل الوضع في العراق

من الحال الذي هو عليه إلى حال أفضل قليلاً.. وبدلاً مِن هذا الغمز من قناة الملك حمسين وذاك اللمز في المجالس السياسية الخاصة من الرئيس ياسر عرفات والرئيس علي عبدالله صالح، فإن التأمل في الأسلوب الذي إعتمده الثلاثة يبقى الأفضل. وهم فعلوا ذلك من أجْل بلادهم وشعوبهم وليس شغفاً بلعبة التناور والتشفي.

ولعل الرئيس صدَّام يستدرك قبْل فوات الأوان الأمر فيمارس مع الأشقاء قبْل الآخرين أسلوب التخاطب الذي يجعلهم يقررون إستعادة العراق ورفْع الضيم عنه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 22 يناير (ك2) 1996

* * *

مبايعة دولية للديمقراطية الفلسطينية

لكثرة ما إعتدنا طوال ثلاثين سنة على الأسماء الحركية للشخصيات الفلسطينية المنتمية تحت راية الثورة الفلسطينية، فإننا بعدما بدأت الحملة الإنتخابية وبدأ المرشحون للمجلس التشريعي يتلقون صورهم، تعرفْنا على أسماء العائلات الفلسطينية التي غابت عن الترداد طوال سنوات الثورة وحل محلها الإسم الحركي «أبو فلان» و«أبو فلان»... الخ. وبعد الآن ستندثر الأسماء الحركية وتصبح جزءاً من إرث وبعضها من تراث.

وأهمية الإنتخابات الفلسطينية التي جرت أنها إكتسبت منذ البداية إحتراماً كبيراً، وبالذات من الأطراف الدولية التي يفعل رأيها فِعْله عند إتخاذ القرارات وبالذات المتعلقة بالمساعدات أو التعاون الإقتصادي. وعندما نسمع أو نقرأ ما قاله الأعداء قبْل الأصدقاء عن تلك الإنتخابات والأجواء التي سادتْها نكتشف أي إنجاز مهم تم تحقيقه. وإذا نحن إستثنينا ما قالته صحيفة «البعث» السورية عن الإنتخابات الفلسطينية وهو «إنها كانت أبعد ما تكون عن الديمقراطية والحرية وعن التعبير عن إرادة ورغبة الشعب الفلسطيني بكل فئاته وقواه ونتيجتها معروفة سلفاً وهي فوز الأوسلويين وحدهم من دون أي قوى أُخرى يمكن أن تقف في مواجهة إتفاق الحُكْم الذاتي، لوجدْنا أن معظم أهل القرار الحربي والدولي الذين لهم تأثيرهم في الحياة السياسية قالوا، شخصياً أو من خلال مسؤولين في الحكومات أو من خلال كتابات في الصحف، كلاماً طيباً عن تلك الإنتخابات.

فها هو خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبدالعزيز وعلى رغم خلوده إلى الراحة والإستجمام يجد نفسه يبعث ببرقية تهنئة إلى الرئيس ياسر عرفات لا تقتصر على المجاملة وإنما تتضمن إضافة بالغة الأهمية تتمثل في القول «... ونؤكد في هذه للمناسبة المواقف الثابتة للمملكة العربية السعودية تجاه الشعب الفلسطيني الشقيق وأمانيه وأهدافه المشروعة... ». وإلى جانب برقية الملك التي تتميز بمضمونها عن سائر البرقيات التي تلقَّاها الرئيس عرفات، هنالك برقية ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد اللعزيز وبرقية النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران الأمير سلطان بن عبد العزيز ومن قبْل ذلك هنالك الأمر الذي صدر عن الأمير سلمان بن عبد العزير أمير الرياض ورئيس اللجنة الشعبية لمساعدة مجاهدي فلسطين، في اليوم التالي للإنتخابات (الأحد 21 يناير 1996) بتحويل الدفعة الرابعة من تحويلات اللجنة خلال العام الهجري الحالي والبالغة مليونيْن و934 ألف ريال، وهنالك أيضاً ما هو أهم من التحويل المنتظِم ونعني بذلك وصْف للرئيس عرفات للقاء الذي تم بينه وبين الأمير سلمان في الرياض يوم الإثنين 15 يناير 1996 بأنه «لقاء حميم ومبارَك» وقوله إن المملكة أعلنت إلتزامها بتقديم مبلغ مائة مليون دولار كمساعدات جديدة لمناطق الحُكْم الذاتي إضافة إلى مساعدات سبق إلتزامها بها وتُقدَّر بمائتيْ مليون لولار.

وها هو الملك حسين من جانبه يشيد في برقية التهنئة التي بعث بها بـ الإنتخابات المشرِّفة التي شهد بنزاهتها وموضوعيتها القاصي والداني...».

وها هو وزير خارجية بريطانيا يقول رأي حكومة المحاقظين في برقية التهنئة التي جاء فيها «إن يوم يناير كان يوماً تاريخياً ونقطة تحوُّل في الديمقراطية الفلسطينية. إن تلك تُمثِّل فخراً لكل المعنيين إذ أن الإنتخابات جرت في جو من السلاسة الشديدة».

وها هي الخارجية الأميركية تسجل إنبهارها بـ «التجاوب الشعبي مع العملية الإنتخابية، وتقول «إن الولايات المتحدة تشارك المراقبين الدوليين الرأي بأن الإنتخابات كانت ناجحة وشكَّلت فرصة تاريخية للشعب الفلسطيني لإختيار قياداته بطريقة ديمقراطية، وأن الإدارة الأميركية ستدعم الجهود الفلسطينية

لتطوير مؤسسات ديمقراطية...».

وها هي فرنسا والصين وروسيا تسجل وعلى معظم المستويات كلاماً يعكس عمق العلاقة التاريخية والمتطورة مع الشعب الفلسطيني وبالذات مع الرئيس عرفات.

وحتى إسرائيل التي كانت تتمنى ضمناً ألاَّ تجري الإنتخابات في الجو الذي جرت فيه وتسفر عن النتائج التي أسفرت عنها، وجدت نفسها تعبِّر كحكومة وكصحافة عن إعجاب بالعملية الإنتخابية الفلسطينية. وإذا كان رئيس الحكومة شيمون بيريز إرتأى سلفاً تذكير الرئيس عرفات وهو يتصل به هاتفياً لتهنئته، بمسألة الميثاق الوطني وضرورة تعديله وبالذات تلك المواد التي تدعو إلى تدمير إسرائيل، فإن الصحافة الإسرائيلية التي تملك هامشاً رحباً من حرية التعبير تجاوزت أمر الليباقات المغلَّفة بالهواجس التي تمثلت بتهنئة بيريز، وكتبت بصيغة مَن فاجأتْه الدهشة كلاماً من نوع ما قل ودل. فها هي «الجيروزاليم بوست، تقول إن الإنتخابات الفلسطينية كممارسة ونتائج «كانت ميلاد الدولة العربية الثالثة والعشرين» وها هي صحيفة «هارتس» تقول في اليوم التالي للإنتخابات: «بالأمس فقدت إسرائيل اللقب الذي لازمها 48 عاماً فهي لم تعد الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ذلك أن الحُكْم الذاتي الفلسطيني الذي هو مخلوق بلا حدود ومن دون جيش ومحاط بالشكوك سياسياً وعِرقياً والذي يملك هيكلاً عظمياً من سُلطة القانون فقط، قد قام بإجتذاب هذا اللقب وسحبه من تحت أقدام إسرائيل... ». ويعكس كلام الصحيفتيْن ملامح صورة جديدة تبعث الضيق في نفس الإسرائيلي الذي لا يريد أن يصبح الحُكم الذاتي دولة هي الدولة العربية الثالثة والعشرون، ويخشى أن يقاسمه الفلسطينيون، بإعتمادهم الواقعية في أوسلو ثم إعتماد الديدقراطية في أول إنتخابات تشريعية، إهتمام الدول الكبرى والدول الغنية ومساعداتها. ولطالما حصلت إسرائيل من دول العالم الغنية على مساعدات بحجة أنها واحة ديمقراطية فى شرق أوسط متزمت مع أن تلك ليست الحقيقة تماماً. والآن ما الذي ستطرحه عن نفسها بعدما نشأت إلى جانبها واحة مماثلة يشهد عليها بضع مئات من المراقبين الدولين والعرب تابعوا العملية الإنتخابية بإهتمام وحِرص وتدقيق وتصرَّفوا وكأنهم هيئة محلّفين أعطت رأيها، يتقدمهم الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر مروراً برئيس البرتغال ماريو سواريش وصولاً إلى عشرات الشخصيات المكلَّفة من الإتحاد الأوروبي. وكانت العلامة التي إستحقتها الإنتخابات هي إذا جاز التحديد (سبعة على عشرة) لو بلغة الكلام «إن الإنتخابات يمكن أن تُعتبر بشكل معقول التعبير الصحيح عن إرادة الناخبين في يوم الإقتراع، على حد ما جاء في تقرير اللجنة التي أصدرت الحُكْم بعد «مداولات مترويـة» و«إن الإنتخابات منعطف للفلسطينيين وللشرق الأوسط على حد سواء» كما قال الرئيس الأسبق كارتر الذي بدا متباهياً بأنه يقف إلى جانب الرئيس عرفات الذي يتناسى ما قاساه من كارتر أيام كان رئيساً وكان هو مناضلاً وفْق متطلبات الثورة وليس مقتضيات الدولة كما بات بعد ذلك.

ويحتار المرء، وهو يتأمل في الإنتخابات وكيف جرت وفي ردود الفعل وكيف تتالت وكلها حافلة بالإشادة، في تكوين فكرة نهائية حول مَن له الفضل في ذلك، بمعنى هل أن هذا العدد الهائل من المراقبين الدوليين هم النين ضغطوا من خلال وجودهم على سُلطة الحُكم الذاتي لكي تجري أفضل إنتخابات جرت فى منطقة الشرق الأوسط أم أن الوعي الفلسطيني وإحساس المواطن الفلسطيني بأهمية هذه الإنتخابات فضلاً عن عطشه التاريخي لها هما اللذان خدما اللجنة فلم تُصب مهمتها بالخذلان، وهي التي لمجرد أن بدأت المهمة تتمنى ضمناً أن لا يفوِّت الفلسطينيون سُلطة وشعباً عليهم فرصة تاريخية لمصلحتهم من الصعب توافرها دائماً. وما يمكن قوله إن الفهم المشترك لعب دوره وجاءت النتائج على النحو الذي جاءت عليه حيث ربحت السُلطة الفلسطينية ورقة الديمقراطية والحياد في العملية الإنتخابية وأثبت المواطن الفلسطيني بالإقبال على صناديق الإقتراع وبالهدوء الذي تم فيه الإقتراع وعدم توتر رجال الشرطة الفلسطينية والتزامهم الإنضباط (وهذا ما عناه وزير الخارجية البريطانية مالكولم ريفكند، وهو يهودي، بتعبير «السلاسة الشديدة») أنه أهل للديمقرطية، فلا تفكر السُلطة الفلسطينية بعد أن تقوم الدولة بسلوك المسلك غير الديمقراطي وتغليب نزعة صاحب القرار الأوحد على نزعة الشورى، وإحتكار المسؤولية والمناصب الفاعلة من قِبَل الحاكم ومَن يختارهم وفْق قاعدة أهل الثقة يتقدمون على أهل الخبرة. ومثل هذا الأسلوب هو الأكثر إعتماداً في معظم دول العالم الثالث على رغم أنه أثبت عدم صوابيته.

ولكن هذه الأجواء العربية والدولية الإبتهاجية بالإنتخابات الفلسطينية لا تلغي بعض الحقائق ومنها أن الإنتخابات إنتهت إلى إستبعاد التعددية التي هي المقياس الحقيقي للديمقراطية. ومع أن السُلطة الفلسطينية ليست المسؤولة عن مقاطعة الذين قاطعوا الإنتخابات إلاَّ أن إعتماد الاسلوب المصري في الترشيح هو الذي أوصل إلى النتيجة التي إنتهت إليها الإنتخابات وهي السيطرة الملحوظة لحركة «فتْح» على الأكثرية الساحقة للمقاعد. وما نعنيه بالأسلوب المصري هو أن حركة «فتْح» التي تتقن لعبة التكتيك السياسي في ضوء خبرة إكتسبتْها في لبنان لم تُرشّح بعض المنتسبين إليها وهم من الصف القيادي الثاني أو الثالث فرشَّح هؤلاء أنفسهم كمستقلين وفازوا تماماً على نحو ما جرى في مصر عندما رشَّح بعض أعضاء «الحزب الوطني» أنفسهم في الإنتخابات الأخيرة قبْل شهرين كمستقلين لأن الحزب لم يرشّحهم وبعدما فازوا ونجحت مكيدتهم على المواطنين عادوا على وجه السرعة إلى صفوف حزبهم.

ومن الحقائق أيضاً أن غياب المقاطعين للإنتخابات إنتهى لمصلحة مرشحي حركة «فتْح» على أساس أن قطاعات كثيرة من المتعاطفين مع الإسلاميين و«الجبهة الشعبية» وجدوا أنفسهم تحت وطأة الرغبة الدفينة للإقتراع يتوجهون إلى الصناديق ويضعون الأوراق لمصلحة مرشحي «فتْح». ونحن نقصد بـ «المتعاطفين» أولئك الذين تربطهم علاقة وجدانية بحركة «حماس» أو بـ «الجبهة الشعبية» إنما من دون أن يكونوا ملتزمين. وفي هذه الحال فإن الفلسطيني المتعاطف يمارس واجبه الإنتخابي ويختار مَن هم في الساحة ما دام الطرف المتعاطف معه قاطَع. وهذا ما يفسر نسبة الإقبال على الإقتراع. ومن المؤكد أنه لو لم تحدُث المقاطعة غير المبرَّرة وغير المقْنعة للإنتخابات وخاضت مرشحو «حماس» و«الجهة الشعبية» وبقية الفصائل الأُخرى المعركة الإنتخابية لكان الوضع تبدَّل تماماً وإنتهى إلى ما يشبه تقاسُم «فتْح» والآخرين المقاعد. وعندما يقول الرئيس عرفات في اليوم التالي للإنتخابات وبعد إعلان النتائج وخلال إستقباله لعميد المراقبين الأجانب للعملية الإنتخابية الرئيس الأميركي الأسبق جيمى كارتر «إنني كنتُ أفضل الفوز بنسبة 51 في المائة». فكانما كان يقصد ما نعنيه في مسألة التقاسم، فضلاً عن أنه بقوله هذا حفظ للمقاطعين شأنهم أمام الرئيس كارتر وقطعَ الطريق على كارتر وغيره من أن يقولوا بأنه لو شارك المقاطعون لما كانت النتيجة هي تلك التي تم الإعلان رسمياً عنها وإنما كانت ستأتي على نحو ما أوضحه الرئيس عرفات أي 51 في المائة له ولحركة «فتْح» و9 في المائة لحركة «حماس» والآخرين وهي نسبة تُبقيه وفْق قاعدة الشركات التجارية المساهمة رئيساً لمجلس الإدارة أو تُبقيه الرئيس لصيغة الإئتلاف وفْق قاعدة تشكيل الحكومات. ونحن عندما نقول إن مقاطعة المقاطعين كانت غير مبرَّرة وغير مقْنِعة نستند إلى تجربة المقاطعة التي شهدها لبنان عندما إختار المقاطعون وهم في أكثريتهم من الموارنة ذلك الموقف السلبي فخاب صوتهم من دون أن تُغيّر مقاطعتهم شيئاً من واقع الأمر. وثمة أوْجه شَبه بين الحالة اللبنانية والحالة الفلسطينية بمعنى أن القوة الأكثر شأناً في الحالة اللبنانية وهم الموارنة يقابلها في الحالة الفلسطينية حركة «حماس»، ومثلما أنه لولا إشراك الرئيس صائب سلام في المقاطعة فإن هذه المقاطعة كانت ستبدو مسيحية مارونية مائة فى المائة فإنه لولا إنضمام «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» و«الجبهة الشعبية الديمقراطية» وكلتاهما ذات توجهات ماركسية فإن المقاطعة في الحالة الفلسطينية كانت ستبدو إسلامية مائة في المائة. وفي الحالتيْن يبدو المقاطعون وكأنهم في إنتظار صيغة توفيقية. وإذا كانت الصيغة في لبنان مستعصية الولادة لأن القرار في شأنها ليس لبنانياً، وإنما هو سوري – أميركي– إيراني – إسرائيلي وإلى حد ما فرنسي ، فإن الصيغة التوفيقية بالنسبة إلى الحالة الفلسطينية تبدو أكثر يسراً وبالذات بعدما حقق الرئيس عرفات المشهود له بالصيغ التوفيقية التألق الذي حققه والذي يبدو وكأنه بمثابة مبايعة حصل عليها، فبات الآن أقوى بكثير من ذي قبْل وباتت الدولة وعاصمتها القدس ليست بعيدة المنال.

.. وتلك ميزة الثوري العربي عندما يقرر إستيعاب حقيقة النظام العالمي الجديد ومقتضيات التعامل معه حتى إذا تطلَّب الأمر بين الحين والآخر بعض الإنحناءات التكتيكية، وهو ما يفعله الرئيس عرفات منذ إتفاق أوسلو وحتى الآن، مسلَّحاً بالشعب الفلسطيني الذي قال عنه في اليوم التالي للإنتخابات «إن هذا الشعب نعتبره دائماً أقوى من قياداته السابقة والحالية والمستقبلية» وليس كالرئيس عرفات مَن يستطيع إنتزاع التأييد له من شعب وإلى درجة المبايعة

ما دام هو يقول بالصوت العالي إن الشعب أهم من قياداته.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 29 يناير (ك2) 1996

* * *

المواجهة في الجولان

إذا كانت الإنتخابات الأميركية على الأبواب وكان الرئيس الحالي بيل كلينتون في وضْع دقيق وصل إلى حد يتم التحقيق مع زوجته في مخالفات سبق حدوثها، فكيف سيكون عادلاً وعلى شيء من الموضوعية إزاء المحادثات التي تجري في إحدى ضواحي العاصمة الأميركية بين وفد سوري وآخر إسرائيلي؟

واذا كانت صحيفة «هارتس» الإسرائيلية تكشف، بينما المحادثات تتواصل على الطاولة المستديرة بين الوفديْن يتوسطهما الوفد الأميركي، عن خيرات ستنهمر على إسرائيل كالمطر هذه السنة، فكيف نتوقع من الإدارة الأميركية أن تكون شريكاً ثالثاً يتصرف بأمانة عندما تدخُل محادثات الطرفيْن المتحادثيْن في مأزق؟

وإستناداً إلى ما ذكرتْه الصحيفة الإسرائيلية المشار إليها والتي لم تنفِ الدوائر الأميركية الرسمية ما نشرتْه يوم الأحد 28 يناير الماضي فإن وزارة الدفاع الأميركية أبلغت الكونغرس قبْل فترة أنها ستقدِّم إلى إسرائيل وبشكل هبة صفقة معونات عسكرية تشمل 15 طائرة عمودية هجومية مقاتلة من طراز كوبرا ونحو 30 ألف بندقية رشاشة من نوع «ام 16» وأن الوزارة ستنقل هذه المعونة إلى إسرائيل في نطاق خطة ترمي إلى تحويل فائض الأسلحة المستخدَمة في الجيش الأميركي إلى إسرائيل التي تتمتع بإمتيازات خاصة من خلال قانون أميركي خاص بشأن فائض السلاح في الجيش الأميركي كان تم إقراره إبان حرب الخليج، ويُستخدم لتعزيز القدرات العسكرية المتحالفة مع الولايات المتحدة في جنوب أوروبا والشرق الأوسط. ومنذ ذلك الوقت قدَّمت الولايات المتحدة على حد رواية الصحيفة – لإسرائيل كميات كبيرة من المعدات العسكرية ومن دون مقابل تضمنت بطاريات صواريخ مضادة للصواريخ (باتريوت) وطائرات مقاتلة من طراز «اف 15» و«اف 16» ومئات العربات المصفحة والشاحنات وطائرات النقل العسكرية والقذائف الصاروخية وغيرها.

ولا تقتصر رواية الصحيفة الإسرائيلية على المساعدات العسكرية حيث أنها تشير إلى أن إسرائيل ستحصل قريباً على المساعدات الأميركية للعام 1996 بعدما صادق الكونغرس يوم الجمعة (26 يناير الماضي) على مشروع قانون المساعدات الخارجية (يبلغ إجمالي المساعدات 12.1 مليار دولار حصة إسرائيل منها الربع أي حوالي ثلاثة مليارات). وتشير أيضاً إلى أن إسرائيل حصلت على المساعدات لهذا العام على رغم الأزمة السياسية فى واشنطن بشأن الميزانية العامة للدولة وأن ذلك كان بفضل رئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب اللذيْن إستجابا لرغبات اللوبي المؤيد لإسرائيل في الكونغرس ولسفارة إسرائيل في واشنطن.

ذلك ما نشرتْه الصحيفة الإسرائيلية بينما الوفود مجتمعة في «واي بلانتيشن» المكان المعزول الذي إختارته الخارجية الأميركية لتجري فيه المحادثات.

وهي ربما في مسألة المكان المعزول تأثرت بالأسلوب النرويجي الذي أفضت محادثات لياليه الغامضة التي لم تخترقها عيون الإستخبارات الأجنبية على أنواعها إلى ما عُرِف بعد ذلك بإتفاقية أوسلو. لكن الفرْق بين الإستضافة النروجية للمحادثات الفلسطينية – الإسرائيلية والإستضافة الأميركية للمحادثات السورية – الإسرائيلية هو أن النروج مارست بالفعل دورها كطرف ثالث ومحايد وتصرفت الدبلوماسية النروجية على أساس أن مهمتها الأساسية هي أن يتوصل الجانبان إلى التفاهم من دون أن تميل بمشاعرها أو بمنطقها نحو أحدهما، فضلاً عن أنها عندما كانت تضغط إنما كانت تستهدف من الضغط تذليل عقبة أو تليين بعض الكلمات التفاوضية. أما الإدارة الأميركية فإنها تستضيف إنما من دون أن تمارس الدور النروجي بكل مفرداته. وعندما تجري المحادثات بين الوفديْن السوري والإسرائيلي وتكون مشاعر تلك الإدارة متوجهة فقط نحو وجهة النظر الإسرائيلية وتريد لوجهة النظر هذه أن تتغلب على وجهة النظر السورية فكيف ستتقدم المحادثات وتُحرز النتائج الموضوعية. وكيف سيُنجز الجانبان بعض المسائل الكثيرة التعقيد إذا كانت الإدارة الأميركية في كل مرة تلاحظ أن المفاوض الإسرائيلي في موقف صعب أو على شيء من الإحراج تقتحم ساحة

التحادث بشكل مباشر كأن يلتقي الوزير كريستوفر أو مَن ينوب عنه بهذا الوفد أو ذاك وبعد اللقاء يتبين أن الهوة إتسعت بدل أن تضيق، ذلك لأنه كما يجوز الإفتراض يكون أبلغ الجانب الإسرائيلي أن عليه أن يصمد وأبلغ الجانب السوري بأن عليه إبداء المزيد من المرونة خشية إنتكاس المحادثات مستغلاً في ذلك رغبة سورية حقيقية في ألاَّ تنتكس المحادثات ما دامت وصلت السباحة في بحر السلام إلى منتصف الطريق بين شاطىء وآخر. هذا على صعيد الشكل المباشِر أما على الصعيد غير المباشِر فإنه يكون من خلال ما تنشره الصحف الأميركية أو الإسرائيلية من نوع ما أوردتْه صحيفة «هآرتس» ولخصْنا مضمونه في بداية هذا المقال.

ويستطيع المرء أن يأخذ فكرة عن الأثر الذي يُحدِثه الإقتحام الأميركي لساحة التحادث عندما يتأمل في بعض التصريحات الإسرائيلية، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر تصريحات الصقر الآتي إلى الدبلوماسية من المؤسسة العسكرية ونعني به إيهود باراك الذي يُكثر من كلمة «لا» وكلمة «أستيعد» وكلمتيْ «لن أسمح». وقد تكون مشكلة باراك أنه جاء ليترأس الدبلوماسية الإسرائيلية من دون تأهيل له بحيث يرمي جانباً العيارات المعمول بها في المؤسسة العسكرية التي كان أحد جنرالاتها المرموقين ويستبدلها بعبارات دبلوماسية. لكن باراك الذي يذكّرنا أسلوبه بأسلوب الجنرال الكسندر هيغ الذي إختاره الرئيس الأميركي الأسبق ريغان ليكون وزيراً للخارجية فأخفق كما لم يخفق وزير خارجية من قبْل، لا يتصرف حتى الآن كدبلوماسي. وهو لو تصرَّف كذلك لكان عليه أن يشجع الإدارة الأميركية على ممارسة دورها كطرف ثالث وتبذل كل جهدها للتوفيق، ولكان سعى للتخفيف من غلواء اللوبي اليهودي والصحافة الأميركية التي لليهود فيها حضور بارز ولهم عليها تأثير كبير كي لا تنشر ما من شأنه أن يحرض المسؤولين الأميركيين وأعضاء في الكونغرس من نواب وشيوخ على المزايدة في إتخاذ القرارات التي لا تخدم عملية السلام، أي بما معناه ألاَّ تصل الحال إلى درجة التنادي بأن المساعدات المالية والعسكرية تتدفق من الولايات المتحدة على إسرائيل بينما المطلوب لكي تنجح محادثات التفاوض السورية – الإسرائيلية تجميد أي مساعدات إلى ما بعد إنجاز إتفاق السلام، وإبلاغ الطرفيْن المتحادثيْن أنهما ما داما ضيفيْن على الإدارة الأميركية فإن كلمة هذه الإدارة هي التي يجب أن تكون مسموعة عملاً بقاعدة العلاقة مع الأصدقاء والحلفاء صغاراً كانوا أو كباراً. وقد يجوز الإفتراض أنه لو كانت الحال كما كانت عليه في الماضي، أي أن الدبلوماسية الإسرائيلية هي بقيادة شيمون بيريز لربما كان حدَث نوع من التقدم أفضل من الذي يحدُث في المكان المعزول في ولاية ميريلاند. لكن هذا التقدم لا يحدُث لأن بيريز هو عملياً، في الوضع الذي إنتهت إليه المعادلة بعد إغتيال رابين رئيس حكومة وزارة خارجية باراك. وعندما تكون المؤسسة العسكرية ووزارة الخارجية على هذا الحلْف الذي كان عليه يصبح من الطبيعي أن تكون كلمة باراك هي الحاسمة ويصبح من غير المستغرَب أن يكون دور رئيس الحكومة هو تلطيف النهج المتشدد الذي يسلكه باراك الصقر الآتي من مؤسسة الجيش والذي يطمح بطبيعة الحال إلى أن يشق طريقه إلى رئاسة الحكومة ذات يوم.

ويخشى المرء فى ضوء هذا المخاض العسير الذي تشهده ولادة السلام السوري – الإسرائيلي أن تسير التطورات في إتجاه مواجهة سورية – إسرائيلية لا بد منها.

فالسلام المصري – الإسرائيلي ما كان ليتحقق أنه لم يأت على الفور لو أن مفاجأة 6 أكتوبر لم توجع الإسرائيليين.

وعندما نورد المواجهة كإحتمال فعلى أساس أن أوجاع إسرائيل من عمليات حزب الله في جنوب لبنان ليست كافية، وأن سوريا في المحادثات لا تزال تجد نفسها أمام طرفيْن خلافاً لما كانت تفترضه عن حُسن نية بأنها ستكون أمام طرف واحد هو إسرائيل وأن الولايات المتحدة ستكون ما دامت حزمت أمرها على خيار السلام – للطرفيْن في وقت واحد.

ولكن إدارة الرئيس كلينتون نتيجة كوابيس الإنتخابات من جهة ونتيجة تَنافس أعضاء كثيرين في الكونغرس على تقديم الدعم القوي والتنوع هدية من الولايات المتحدة إلى إسرائيل، وربما نتيجة قناعة راسخة في نفسه بضرورة تفوق إسرائيل... إن إدارة الرئيس كلينتون نتيجة ذلك كله تمعن في إضعاف المفاوض السوري ويتخذ الإضعاف أشكالاً كثيرة وأحياناً على حساب الكرامة الأميركية.

وعلى هذا الأساس يصبح أمر تعثُّر المحادثات السورية – الإسرائيلية مفهوماً، ويصبح دفْع القوات

الإسرائيلية من الجولان بعملية عسكرية شجاعة ومحسوبة هو الحل الذي لا حل غيره، على رغم أن المواجهة في زمن السلم هي... أبغض الحلال.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 5 فبراير (شباط) 1996

* * *

ما حققه عبد الكريم الكباريتي وحاول أن يحققه طاهر المصري

إذا كنا سنقارن الحكومة الأردنية الجديدة بالحكومة السابقة فإن الذي حدث هو تبديل وزاري ضِمْن رؤية الملك حسين للمرحلة وإستباقاً منه لما يحمله الغد من تطورات ومفاجآت. وإذا كنا سنقارنها بالحكومة ما قبْل السابقة فإن ما يمكن قوله إن الذي حدَث هو تغيير في النهج وفي الرؤية. أما إذا كنا سنقارنها بالحكومة الأسبق فإن الذي حدَث يندرج تحت بند الإنقلاب أو كما قال الملك "ثورة بيضاء".

والحكومة الجديدة تم التخطيط لها من قبْل أن يتم التكليف وتتم المشاورات ثم يتم التشكيل ومن دون أي معوقات كتلك التي تعاني منها بعض الأنظمة التي تعتمد الديمقراطية والتعددية وتعطي الحياة الحزبية مجالاً رحباً للحركة كما هو حاصل على سبيل المثال لا الحصر في تركيا. وعندما نقول ذلك فعلى أساس أن مؤشرات إلى عدم التجانس بدأت تظهر واضحة على الموقف السياسي، وبدأت تطفو على السطح تناقضات داخل مؤسسات كثيرة في شأن توجُّه الأردن نحو العملية السلمية، وفي خط موازٍ نحو الحُكْم القائم في العراق.

وإلى ذلك بدأ صوت المعارضة يعلو أكثر مما تجيزه المعادلة المتوافَق عليها وبدأت بعض الصحف تنشر ما يجوز وما لا يجوز. أما البرلمان الأردني فتحول إلى ساحة مجادلات ومناقشات أعطت حيوية للحياة السياسية بالمفهوم الديمقراطي، إلاَّ أنها تسببت في خدوش خصوصاً بعدما تم تقديم أحد أبرز المعارضين، نقيب المهندسين ليث شبيلات، إلى المحاكمة، وهو الذي ينتمي في الأصل إلى عائلة تربطها بالقصر الملكي أواصر من العلاقة المتميزة. وكانت التهمة التي تم توجيهها إلى الشبيلات المشاكس هي "إطالة اللسان" على العائلة المالكة. ثم جاءت مشاكسات النائبة المعارضة السيدة توجان الفيصل لتعجِّل في حسْم أمر الحكومة بحيث يتم التبديل وتحدُث "الثورة البيضاء" التي يريدها الملك حسين قبْل أن تصبح حمراء، لا سمح الله، وخصوصاً بعدما تعمَّد رئيس الوزراء الشريف زيد بن شاكر تذكير رجال الصحافة الأردنية والشعب الأردني من خلال هذه الصحافة بالحال التي إنتهى إليها لبنان الذي كان "أخضر" فبات "أحمر" على مدى ستة عشر عاماً.

ومن الطبيعي أن يستعجل الملك حسين حسْم الأمر بعدما وصلت الحال إلى حد أن السيدة توجان التي يستقبل مراسلو الصحافة والوكالات الأجنبية تصريحاتها وأحاديثها بإهتمام بالغ بدأت تطلْق سهاماً حادة ضد الحكومة وتتناقلها الوكالات من خلال مراسليها، وما أكثر هؤلاء في عمان منذ أن أصبحت العاصمة الأردنية بعد غزو القوات العراقية للكويت ثم حرب التحالف على العراق لتحرير الكويت، المركز الذي يلتقي فيه مراسلو صحافة العالم وتلفزيوناته. ومن بين السهام التوجانية إتهام رئيس الحكومة والوزراء "بأنهم مهرِّبون".. هكذا من دون مراعاة حقوق المكانة والزمالة، وكل ذلك بسبب إشكال حدَث في دائرة الجمارك الأردنية مع النائبة العائدة من زيارة إلى الولايات المتحدة مع الأخذ في الإعتبار أن ما حدَث كان يدور حول كاميرا لم تصرح عنها النائبة، وقالت السيدة توجان بعد ذلك إنها أخذتْها معها من عمان قبْل سفرها وأن زميلها وزير المالية هو الذي " لفَّق لها تهمة التهريب".

والحادثة في أي حال لا تستوجب كل هذا الغضب إلاَّ أنها فصل من فصول المواجهة التي تجاوزت كل الخطوط بين الحكومة الأردنية والمعارضة وتحت سقف البرلمان، وكانت النجم الساطع فيها السيدة توجان على نحو ما آل إليه نجم النائب اللبناني نجاح واكيم الذي تحوَّل إلى مبارز يومي، بالحصانة التي يكتسبها كنائب واللسان الطلق الذي يتميز به والخلفية القانونية التي يملكها كمحام، للحكومة التي يترأسها رفيق الحريري ولعدد من وزرائه. وتصل المبارزة في بعض الأحيان إلى أن النائب نجاح واكيم يتناول بالكلام السلبي الأمور التي يراها اللبنانيون في رئيس حكومتهم إيجابية، ومن أجْل ذلك تنتهي المبارزة من دون أن تراق على جوانبها الحقائق. ويكتفي اللبنانيون من الأمر بالتسلية السياسية التي تؤنس لياليهم الموحشة من كثرة معاناتهم من الوضع المعيشي

والإجتماعي الصعب.

ومن الواضح أن الشريف زيد بن شاكر إستمر حتى اللحظة الأخيرة لا يريد لحكومته أن تخوض مواجهة حاسمة مع المعارضة ومع الصحافة ومع القضاء، مكتفياً بإعتماده أسلوب التمنيات الطيبة مع هذه القلاع التقليدية التي لها تأثيرها وحضورها في مسيرة المملكة. ومن أجْل ذلك نسمعه يخاطب رموز هذه القوى بالدعوة إلى المحافظة على "المعجزة الأردنية" وقصْده من ذلك أن الذي حققه الأردن في نصف قرن بالمقارنة مع إمكاناته وموارده يعتبر إلى حد ما معجزة. كذلك من الواضح أنه في موضوع التطبيع مع إسرائيل يرى في النموذج المصري أنه الصيغة الأفضل حيث أن التحفظ في العلاقة مع إسرائيل واجب، على الأقل، إلى أن تنتهي الأمور السورية – الإسرائيلية على خير، فضلاً عن أنه عندما يكون الرأي العام الأردني ليس بحماسة حكومته لمسألة التطبيع فإن من شأن ذلك أن يُحدِث شرخاً في المعادلة الأردنية. وبسبب هذه الرؤية من جانب الشريف زيد فإن بعض الوجوه السياسية الأردنية إعتبرت وجوده على رأس الحكومة بمثابة صمام أمان لكي يبقى أمر التطبيع تحت السيطرة فلا يفلت الزمام.

لكن مثل هذا الموقف، أو فلنقل هذه النظرة، تعني أن يتخذ الأردن الخط التقليدي في حين أن الملك حسين يخطط من أجْل أن يكون للمملكة دور إقليمي، بحيث لا تنتظر الأحداث لتتفاعل معها ولا رسْم الخرائط لكي تلقي نظرة عليها، وإنما تكون ذات حضور بالغ الأهمية والفعالية في هذه الأحداث. وهذا ما إستوعبه تماماً وزير الخارجية عبد الكريم الكباريتي، فبدأ يترجم بحذاقة وحيوية ما يدور في خاطر الملك. وبالنسبة إلى الحكام فإن المسؤول الذي يستوعب بسرعة وينفّذ بدقة ويحقق المردود، بنسبة أو أُخرى، يصبح هو الأقرب إلى عقل الحاكم. وشيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم ومسألة بعد مسألة باتت ظاهرة "الكباريتية"، وهي فرع من فروع "الكيسنجرية" تأخذ مكانتها في الأردن وتتحول إلى أسلوب جديد في العمل السياسي، وتعيد إلى الأذهان أسلوب الدكتور هنري كيسنجر مع (الراحل) الرئيس نيكسون، وعبد العزيز بوتفليقة في الجزائر مع الرئيس (الراحل) هواري بومدين، وأسلوب الدكتور منصور خالد مع الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري. لكن المكافأة التي حصل عليها الكباريتي من الملك حسين لم يحصل عليها "الكيسنجريان" بوتفليقة ومنصور خالد، ومن أجْل ذلك يخوض الإثنان منذ إبعادهما عن السُلطة حرب العودة وبشتى الوسائل. ويخوض الحرب مثلهما الدكتور هنري كيسنجر لكن من دون فائدة. ذلك أن الفرصة – المكافأة إما أن تكون على طريقة الملك حسين الذي إعتمدها مع وزير خارجيته أو لا تكون.

وللوهلة الأُولى تبدو مكافأة الكباريتي لأنه أنجز الأمر الأكثر صعوبة بالنسبة إلى الأردن، وهو المصالحة مع المملكة العربية السعودية، وقد قطعت شوطاً بعيداً، والمصالحة مع الكويت التي باتت محتملة الحدوث قريباً، وهذا إلى حد ما صحيح. إلاَّ أن ذلك لا يعني أنه لم يكن بين السياسيين التقليديين في الأردن من هم في غاية المعاناة لأن العلاقات متأزمة مع السعودية والكويت ويسعون صادقين لبذل جهد ومسعى في هذا السبيل، لكن تعثرهم، ومِن اللحظة الأُولى للمفاتحة بما يتمنونه لتحسين العلاقات والسعي لتحقيق مصالحة أردنية – سعودية، هو في أنهم كانوا يريدون للعلاقات أن تتحسن من دون أن تتأثر علاقات الأردن مع العراق، وتلك معادلة مرفوضة، أو على الأقل غير مستَحبة، سورياً وكويتياً. ومن هؤلاء الساعين رئيس الحكومة الأردنية الأسبق طاهر المصري الذي أبدى الرغبة مرات كثيرة فجاء الترحيب بشخصه وليس بالمهمة التي يرجوها. والآن وقد حدَث الإنفراج فإن المهمة باتت أقل مشقة أمام الكباريتي الذي قاد مواجهة حادة ضد العراق طوال بضعة أشهر. فهو الآن رئيس حكومة وليس فقط وزير خارجية كما كانت الحال من قبْل عندما سعى جاهداً ومخلصاً لتحقيق المصالحة وكان منحازاً بالكامل لها. ولأنه رئيس حكومة فإن ترميم العلاقات بحيث يتمكن من إزالة آثار الموقف الأردني السابق من موضوع العراق والكويت، بات أمراً على شيء من اليسر. ويكاد المرء إفتراضاً يرى أن التطبيع المثالي مع السعودية والكويت هو الحيثية التي من أجْلها إختار الملك حسين وزير خارجيته ليترأس حكومة تجدد حيوية الأردن وتبعث الطمأنينة في نفس الملك الذي سيعيد ويتأمل في الكثير من الخيارات بعد أن يزور السعودية وبعد أن تكتمل مرحلة تطبيع العلاقة مع الكويت التي يشارك في صياغة ملامحها شقيقه وليّ العهد الأمير حسن. وليس بالبعيد أن يجد الملك بعد تلك الزيارة أن مكان الأردن هو ضِمْن دول إعلان دمشق.

ويبقى أن المعادلة المعروفة في الأردن كانت حتى

الأمس القريب هي أنه عندما يريد الملك تدعيم علاقة مع إحدى دول الجوار يكلف شخصية معيَّنة لتشكيل حكومة لهذا الغرض. وهذه المعادلة ما زالت قائمة إلى اليوم وفي ضوئها جيء بعبد الكريم الكباريتي الذي يبدو أنه لن يكون من رؤساء الحكومات العابرين، وإنما سيبقى إلى نهاية هذا القرن. وتلك هي مقتضيات "الثورة البيضاء" التي يريدها الملك الذي يتأكد، أزمة بعد أزمة، أنه لاعب ماهر في اللعبة السياسية بدليل خروجه دائماً من الشدائد ببعض الخدوش.. ومن دون ندوب.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 12 فبراير (شباط) 1996

* * *

"اللوبي" سراب... والخشية مشروعة

في كل مرة كانت الشكوى العربية من إتخذتها المطلق من جانب الإدارة الأميركية لإسرائيل تزداد مرارة، كان الحديث يكثر حول نقطة الضعف العربية والإسلامية في هذا الشأن وهي عدم وجود " لوبي" داخل الولايات المتحدة يدافع عن قضايا العرب والمسلمين. ومنذ الخمسينات والمسألة مطروحة إلاَّ أن هذا "اللوبي" لا يتشكل، وفي الوقت نفسه لا ينحسر إتخذتها من جانب الإدارة الأميركية لإسرائيل.

وقبْل إنهيار الإتحاد السوفياتي كانت الأنظمة الثورية العربية تشعر بأن مسألة "اللوبي" لا أمل منها ولا جدوى وأن من شأن علاقة وثيقة مع الصديق السوفياتي أن تعوض الكثير مما يمكن أن يحققه "اللوبي" المتعاطف داخل الولايات المتحدة، أما الأنظمة المحافظة فإستمرت تسعى في حدود القدرات والإمكانات إلى أن تبقى العلاقة مع الولايات المتحدة على شيء من التحفظ والحذر، ثم جاء إنهيار الإتحاد السوفياتي ووجدت الأنظمة الثورية نفسها أنها من دون حليف دولي ذي شأن فضلاً عن أن علاقتها في الأصل مع الإدارة الأميركية على شيء من التوتر. وبدلاً من أن تحدُث في ضوء إنهيار تجربة الإتحاد السوفياتي حالة تَنبه لدى تلك الأنظمة فتقوم بإستدارة لن يلومها أحد عليها وتصحح على الفور طبيعة العلاقة المتوترة بينها وبين الولايات المتحدة، فإن نوعاً من المكابرة حدث وبتنا نرى بعض الأنظمة الثورية العربية والإسلامية لا تبدو مقتنعة بالتطور الدولي الذي حدَث وكيف أن العالم بات محكوماً بنظام جديد تقوده الولايات المتحدة عن حق وعن باطل ومن دون أن ينازعها في ذلك أحد، وبدأت هذه الأنظمة تتحين الفرص للعثور على قلاع داخل الولايات المتحدة تخوض منها مواجهة مع الإدارة الأميركية أو تصد بواسطتها إصرار بعض المسؤولين في تلك الإدارة على إخضاع الجميع في العالم للقبول بالنظام العالمي الجديد أو في الحد الأدنى عدم التعرض لهذا النظام، والإكتفاء بتسجيل الشكوى أو المظالم لا أكثر إلى أن يأتي ظرف مناسب تنظر فيه تلك الإدارة التي لا ينازعها الهيمنة أحد في الشكاوى والمظالم فتهملها أو تؤجل البحث فيها أو تعالجها بالتي هي أحسن أو أسوأ.

وجاءت الفرصة المواتية لهذه الأنظمة وتمثلت في النبأ الصاعق الذي تناقلتْه الوكالات من واشنطن يوم الإثنين 16 أكتوبر (تشرين الأول) 1995 ويتحدث عن مفاجأة سوداء أذهلت الإدارة الأميركية وزرعت الرعب في بعض المفاصل. وخلاصة تلك المفاجأة أن مئات الآلاف من الأميركيين السود لبوا وبحماسة منقطعة النظير الدعوة التي وجهَّها إليهم لويس فارخان من أجْل أن يتدفقوا إلى واشنطن ويتجمعوا في المكان الذي تجمَّع فيه يوم 28 أغسطس (آب) من العام 1963 وبدعوة من مارتن لوثر كينغ أحد أبرز الزعماء السود في الولايات المتحدة وداعية الحقوق المدنية حوالى ربع مليون أسود. وبعدما تجمَّع هذا العدد الهائل من السود وجد لويس فارخان أن فكرته حول "مسيرة المليون رجل" قد باتت حقيقة بعدما كانت حلماً. ثم تحقق للمسيرة النجاح غير المتوقع حيث أن المشاركين كانوا في غاية التنظيم ولم يحدُث من جانبهم ما يوجب تدخُّل رجال الأمن، فضلاً عن أن الرئيس كلينتون الذي يعتبر السود عمقاً شعبياً وإنتخابياً تقليدياً له وللحزب الديمقراطي عموماً آثر أن يكون خارج واشنطن تفادياً للحساسيات وخشية حدوث أعمال عنف. وبذلك بدت العاصمة الأميركية محكومة ذلك اليوم بالإرادة السوداء، على رغم أن كبار المسؤولين والزعماء السود لم يشاركوا في تلك المسيرة. وفي الوقت نفسه فإن الرئيس كلينتون حرص على عدم تفويت الفرصة والإستفادة إنتخابياً من هذا التجمع فألقى من ولاية تكساس التي إنتقل إليها خطاباً ساير فيه السود داعياً إلى "تطهير البيت الأميركي من

البغضاء والكراهية اللتين تمزقان قلب أميركا...".

بعد هذه المسيرة التي توجت لويس فارخان البالغ من العمر 62 عاماً والذي يجمع بين رقة الفنان كونه عازف كمان سابقاً وبلاغة الخطابة، بدأت أنظار الأنظمة الثورية العربية والإسلامية تتوجه نحوه في محاولة للإستفادة من هذا الغاضب على المجتمع الأميركي الذي يعتبره ظالماً والذي يتخذ من اليهود كشعب واليهودية كدين موقفاً معادياً. وقد يكون بعض تلك الأنظمة افترض أن حركة لويس فارخان قد تكون هي الحزب الثالث الذي لا وجود له في الولايات المتحدة وأن من شأن تعزيز هذه الحركة وإقامة أفضل العلاقات معها أن يتحقق الحلم المنشود وهو أن يكون للعرب والمسلمين "لوبي" في الولايات المتحدة يدافع عن قضاياهم مثل "اللوبي اليهودي – الصهيوني" الذي يدافع عن مصالح إسرائيل ويخوض معارك شرسة من أجْل تحقيق مطالبها وطلباتها التي لا تنتهي. بل إن بعض هذه الأنظمة رأى أن الفرصة المواتية قد حدثت بالفعل حيث إن حركة فارخان تزامنت مع أزمة بالغة الحدة واجهتْها إدارة الرئيس كلينتون في شأن الميزانية وإضطرتها – أي الإدارة – إلى أن تفعل ما تفعله بعض الدول العربية مثل العجز عن دفع المرتبات أو إغلاق إدارات، وإجراءات أُخرى كثيرة من هذا القبيل هدفها تضييق رقعة العجز وإعتماد التقشف سبيلاً إلى ذلك.

ولم يخطر في بال بعض الأنظمة الثورية العربية والإسلامية أن "أمة الإسلام" التي يطْلق صيحتها لويس فارخان كتسمية لحركته هي غير الأمة الإسلامية التي هي خير أمة أُخرجت للناس، وأن هذه المواقف التي تصدر عن لويس فارخان وإعتبار نفسه أنه والعياذ بالله "رسول من الله"... إنه لم يخطر في بال تلك الأنظمة أن مثل هذا الضجيج الأسود قد لا يفيدنا في شيء وأن قضية السود مع الإدارة الأميركية هي مثل قضايا شرائح كثيرة في المجتمعات العربية والإسلامية مع حكوماتها.

ومع ذلك فإننا فوجئنا بأن زعيم "أمة الإسلام" حل ضيفاً على بعض "ثوراتنا العربية والإسلامية" ضمن جولة له على عدد من الدول المظلومة من الولايات المتحدة، فها هو يلتقي في ليبيا بالعقيد معمَّر القذَّافي يوم الثلاثاء 23 يناير (كانون الثاني) 1996 ويبحث معه في إمكانية تشكيل "لوبي" من المسلمين السود داخل الولايات المتحدة. وها هي وكالة الأنباء الليبية تنقل عن فارخان قوله حول محادثاته مع العقيد القذَّافي "أنا سعيد بنتائج هذا اللقاء من أجْل تقوية وتوحيد العرب والمسلمين والسود والمجموعات المضطهدة في أميركا لتلعب دوراً مهماً وقوياً ليس فقط في الإنتخابات الأميركية بل في السياسة الخارجية للولايات المتحدة بما يخدم تطلعات الشعوب المضطهدة...". وها هي الوكالة تضيف أن إجتماع القذَّافي مع فارخان هو تجسيد لما جاء في دعوة القذَّافي في سبتمبر (أيلول) 1995 إلى تنظيم عشرة ملايين مسلم وعربي في الولايات المتحدة يكون لهم نفوذ داخل البلاد، وتعهده خلال دعوته تلك بدفع مليار دولار للمساهمة في إقامة "لوبي" من المسلمين السود.

وها هو فارخان بعدما أسمع خلال زيارته إلى ليبيا العقيد القذَّافي الكلام الذي يطيب له سماعه وينسجم مع حلمه في تقويض الأمبراطورية الأميركية، ينتقل إلى إيران ليشارك في إحتفالات الذكرى السابعة عشرة للثورة الإيرانية ويجلس على المنصة الرئيسية ويستمع إلى الرئيس هاشمي رافسنجاني يخطب قائلاً "إن العداء الأميركي لإيران من أهم العناصر التي ساهمت ولا تزال تساهم في توحيد صفوفنا"، ثم يعانق لويس فارخان ويطلب منه إلقاء كلمة للمناسبة فيقف زعيم "أمة الإسلام" خطيباً بينما الهتافات تدوي "الموت لأميركا. الموت لأميركا" (أي عكس ما حدث في مسيرة واشنطن). ويردد فارخان في كلمته الكلام الذي يطيب لأهل الثورة الإيرانية سماعه وهو "أننا نحن المسلمين نفتخر بهذه الثورة الإسلامية وأن إيران تحتل مركز الصدارة في ثورة إسلامية تجتاح الأرض...".

وها هو لويس فارخان بعدما أنهى زيارته إلى إيران وحصل على مبايعة منها تمثلت بقول الرئيس رافسنجاني "إن فارخان هو الناطق بإسم 30 مليوناً من المضطهدين الأميركيين السود"، ينتقل إلى الخرطوم في زيارة استغرقت ست ساعات يقول للرئيس عمر حسن البشير عند إجتماعه به يوم الخميس 15 فبراير (شباط) 1996 الكلام الذي يطيب له سماعه ويقول الشيء نفسه للدكتور حسن الترابي ثم يدلي بتصريحات للصحافيين بعد ذلك قال فيها "إن أربعين مليون مسلم في الولايات المتحدة يقفون إلى جانب السودان...". (يقصد 40 مليون أسود لأن عدد المسلمين في الولايات المتحدة لا يتجاوز الستة ملايين).

ونحن عندما نكتب هذا المقال يكون لويس فارخان يواصل جولته "الإسلامية" وربما قال في دول أخرى سيزورها ما هو أكثر قوة من الكلام الذي قاله، وسمع من حكام آخرين إلتقى بهم كلاماً عن الولايات المتحدة أكثر

حدة من الكلام الذي سـمعه من العقيد القذَّافي والرئيس رافسنجاني والفريق عمر البشير والدكتور الترابي.

وإزاء ذلك يجد المرء نفسه أمام واقع جديد في حال أن لويس فارخان سيترجم عندما يعود إلى الولايات المتحدة أقواله في ليبيا وإيران والسودان إلى أفعال وبذلك يزلزل الأرض تحت أقدام الإدارة الأميركية، أما إذا لم يحدث ذلك فإن أقواله التي صدرت عنه ستكون من نوع الكلام الذي توجبه أصول الإستضافة الثورية، والذي طالما سمع مثله بعض الزعماء الثوريين من "المناضل الأممي" كارلوس الذي أقنعهم بأنه سيختصر لهم ببعض العمليات الإرهابية الطريق إلى إنتزاع الحق من أميركا وإسرائيل فألحقت عملياته الأذى بالحق أكثر مما ألحقت بمصالح أميركا وبالكيان الإسرائيلي وبالإمبريالية عموماً. وستبقى القرارات الدولية المفروضة على الأنظمة الثورية العربية والإسلامية وبأمر من الإدارة الأميركية وضغوط منها تتجدد مرة بعد مرة وإلى ما لا نهاية.

وأما "اللوبي" المنشود فسيظل مجرد سراب، إذ كيف سينشأ هذا "اللوبي" بينما لم تأخذ الولايات المتحدة حتى الآن ثاراتها بالكامل من بعض الأنظمة الثورية العربية والإسلامية التي لا توقف هجومها على السياسة الأميركية ولا تحسم أمرها من موضوع السلام مع إسرائيل، هذا فضلاً عن أن طيف أشلاء الجثث الأميركية في السفارة الأميركية في بيروت وفوق سماء لوكربي وفي بعض المواقع والمناطق غير المعلَن عنها لا يزال يقض مضاجع مؤسسات الحُكْم في الولايات المتحدة. ووحده الحُكْم السوري استوعب أصول اللعبة السياسية ومن أجل ذلك نراه ومن دون الحاجة إلى "لوبي" له داخل الإدارة الأميركية يحاول بكل السبل وبالكثير من المرونة وببعض المبادرات، من نوع مبادرته المبكرة المتمثلة بالمشاركة في جبهة التحالف لتحرير الكويت، إبقاء سوريا في منأى عن سيف العقوبات الدولية التي تصدر عن الإدارة الأميركية إنما تحت مظلة الأمم المتحدة وهو أمر لا تخفى مراميه على أحد.

والخشية مشروعة من "الرسول" فارخان في ضوء الأذى الكبير الذي لحق بنا من "المناضل الأممي" كارلوس، ومن الطبيعي أن تظل قائمة... إلى أن يثبت العكس.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 19 فبراير (شباط) 1996

* * *

أمثولة عن السعودية إلى الأجيال المقبلة

عندما تناقلت وكالات الأنباء من الرياض في نوفمبر 1995 أن خادم الحرميْن الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز متوعك صحياً فإن العالم الإسلامي، بإستثناء قلة، تعامل مع الحدث بإهتمام لا مثيل له. فالذي أصابته الوعكة ليس مسؤولاً عادياً وإنما هو زعامة لها حضورها في القرار السياسي الدولي ولها كلمتها الحاسمة فى الموقف العربى ولها الفضل الكبير في حالات التنمية والنهوض في معظم الدول الإسلامية.

أما القلة التي لا تتمنى الخير للمملكة، والتي تختلط في نفسها مشاعر الحسد مع الأمنيات الشريرة، فإنها شغلت نفسها بالحيث عن الصراعات وبدأت ترسم على الورق أشكالاً شتى لطبيعة ما سيحدُث.

ثم جاء تعافي الملك فهد إلى الحد الذي بات في إستطاعته إستئناف مزاولة مهامه الرسمية ليخفف من قلق الأكثرية ويُظهر مشاعر أهل الاقلية على حقيقتها.

وإذا كان ذلك هو المهم الذي حدَث فإن الأهم – من وجهة كاتب مثلي ينتمي إلى الأكثرية المشار إليها ويراقب متابعاً ومحللاً التجربة السعودية – هو الأمثولة التي عشناها خلال الأشهر الثلاثة الماضية والتي إكتمل تكوينها وباتت واضحة المعالم، وهذه الأمثولة، التي هي برسم الجميع، تتعلق بأسلوب التخاط الذي جرى الأخذ به عندما أوجبت الطروف الصحية أن يخلُد الملك فهد إلى الراحة والإستجمام لفترة من الوقت وأن يعهد بمسؤولية إدارة شؤون الحكم طوال هذه الفترة إلى ولي عهده الأمير عبدالله بن عبد الحزيز. كذلك تتعلق الأمثولة بأسلوب التخاطب الذي جرى الأخذ به عندما عاد الملك فهد إلى إستئناف مزاولة مهامه الرسمية.

ففي أمر التكليف، الذي وجَّهه الملك فهد يوم الإثنين الأول من يناير 1996 إلى وليْ العهد، نلاحظ حِرص الملك فهد على تحديد ما يتمتع به الأمير عبدالله من صفات حميدة وحِرص على ما يحقق المصلحة العامة، وهذا معناه أن إسناد المسؤولية الكبرى إليه لم يكن فقط بسبب أنه الثاني في مؤسسة الحكم وإنما لانه يتمتع بتلك الصفات ويتميز بذلك الحِرص. كذلك نلاحظ أن الملك فهد أوضح وهو في

صـدد الخلود إلى الراحة أنه سـيكون كثير الإطمئنان نتيجة ثقته التامة «بتقدير سـموكم لأخيكم وحِرصـكم على مصالح الدولة ورعاية مصالح الشعب». ونلاحظ أيضـاً وأيضـاً أنه تمنى لأخيه وليْ العهد «العون من الله والتوفيق وأن يعيننا وإياكم ويوفق الجميع لما يحبه ويرضاه».

وهكذا فإن الأمَر الملكي بالصـياغة التي صـدرت به لم يكن مجرد صـيغة رسـمية فقط وإنما إمتزجت المشاعر الإنسانية وإختلط الوجدان بالضرورة الوطنية. ومِن هنا القول إنه أصـر وأمثولة في الوقت نفسـه، وأمر كلماته كانت من النوع التي جاء الرد عليها فى اليوم نفسه، وهو رد يفيض بالحب والولاء والدعاء بأن تكون الأسباب التي أوجبت إصدار الأمر المَلكي قابلة للزوال في أقرب وقت. وعند قراءة بعض عبارات رد وليْ العهد يشـعر المرء أنه أمام مسـؤول يؤمن بالقيم ويستحضر للمناسبة خلاصة ما في تجربة الحُكم في التاريخ الإسـلامي من لحظات تتسـم بالقيم وبتغليب الشعور الإنساني على كل شيء. ومِن هذه العبارات أن وليْ العهد يبدأ رده بما يفترض أن يكون نهاية الرد وليس بدايته. وفي هذا الصـدد يقول: «قد لا أسـتطيع مهما حاولتُ في هذه الظروف أن أُعبِّر عما في نفسي من حـب مكين وولاء مطلق لكم يـا مولاي ومـا لا أستطيع التعبير عنه أحتضنه بين جوانحي أملاً ورجاء في أن يمن الله عليكم بالصـحة والعافية ويمد في عمركم لتواصلوا قيادة مسيرتنا التي أدين بها ويدين بها لأخي كل مواطن». ويضـيف إلى ذلك القول: «ولقد أظهر الأثر البسيط الذي مر بكم فيضـاً من مشـاعر الناس وحبهم وولائهم وكثرة تسـاؤلاتهم ليلاً ونهاراً عن صـحتكم – يحفظكم الله – والشـاهد الماثل كثرة إتصـالاتهم بي رجالاً ونسـاء وبالإعلام وجميع الأخوة في الداخل والخارج».

وحتى مسـألة رد الفعل تجاه أمر التكليف فإنها لم تتجاوز الإطار الوجداني. وعند قراءة العبارات الآتية يتبين لنا ذلك: الله يعلْم كيف كانت ردود الفعل في نفسـي حين أُبلغتَ بما تفضـلتم به من ثقة أخوية وتفويضـي بإدارة أمور الدولة نيابة عنكم إلى أن نستقبلكم إن شاء الله مكانكم الطبيعي الذي به تكتمل سعادتنا. ولا شيء يفرحني شخصياً ويملأ قلبي سعادة مثل أن أراكم عائدين إلى دوركم الكبير في قيادة الدولة فإني كما يعلم الله. اليوم واليوم بالذات أحمل هموماً لا يطيقها ويفرجها غير الأمل والرجاء بالله في أن يحفظكم لنا ويمد في عمركم.. ثم ينتهي الرد بما يُفترض أن تكون هي البداية بالقول: طاعة لله ثم لأمركم الكريم سألتزم إن شاه الله بكل ما يرضي الله ثم يرضيكم في ما كلفتموني به وسأعود إليكم كلما وجدتُ نفسـي محتاجاً إلى ذلك لأسـترشـد بتوجيهاتكم وتوصياتكم».

ولم يفُت ولي العهد أن يكرر كلمة «مولاي» ست مرات.

وفي كل مرة كانت تبدو بعيدة عن أصـول البروتوكول قريبة من العفوية ومشـاعر الأخ المتوعك النفس والروح والوجدان بسبب أخيه المتوعك الصحة.

ومن المؤكد أن مثل هذه العبارات ربما قد تكون على الأجنبي بالذات سهلة الترجمة ككلمات إتفقت في شـأنها القواميس، إلاَّ أنه تصـعب على أي مترجم أن ينقل روحيتها. وذلك لأنها لسـت مكتوبة بالقلم والحبر فقط ثم مطبوعة على الآلة بعد ذلك، وإنما هي مكتوبة بشفافية الأخ الذي يعرف أن ملايين المسلمين ومعظم حكام العالم متأهبون لقراءة ردود فعله على تكليف الأخ الملك له بهذه المهمة فإذا هو يبدو متلهفاً للحظة تعافي الأخ وليس للحظة ممارسـة مهمة أناطها الأخ به، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الأمر لا يحدُث للمرة الأولى، إنما هي المرة الأُولى التي يتم التكليف تحت وطأة ظرف صحي أفاض وليْ العهد في التعبير عن أمنيته من أن يزول هذا الظرف ويسـتأنف الأخ الملك الدور الكبير في قيادة الدولة».

ثم ها نحن في فترة قيامه بأعمال الدولة نلاحظ أن وليْ العهد الأمير عبدالله يقول في جلسـة مجلس الوزراء الأولى في الفترة المشـار إليها وفي معرض تقديمه لميزانية العام 1996 «إن المملكة العربية السعودية بقيادة خادم الحرميْن كانت ولا تزال... ». ثم نلاحظ أنه في الخطاب الملكي السنوي الذي ألقاه أثناء إفتتاحه يوم السبت 13 يناير 1996 الجلسة السنوية لمجلس الشورى بمناسبة بدء أعمال سنته الثالثة من دورته الأولى يقول إن خطابه، مسـتمد من روح الخطابات التي سبق أن ألقاها خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز في المجلس، وإنني قبل أن آتي إلى هنا إستحضرتُ خطابات أخي التي ألقاها في مجلسكم الموقر» ثم يضيف: «ويسرني أن أحمل إليكم في هذه المناسـمة الجليلة سـلام أخي خادم الحرميْن الشـريفيْن وتمنياته الطيبة لمجلسكم هذا، وأُبشـركم أن صـحته ولله الحمد في تقدم مسـتمر ثم ينهى خطابه

بعبارة: «نقول لكم ولكل مواطن لا مجال للتردد فى النصيحة والمشورة. نقول ذلك ونلتزم به خدمة لله ولدينه. وكما قال أخي خادم الحرميْن الشريفيْن: الأبواب مفتوحة والقلوب والعقول واعية إن شاء الله للمواطنين ونوي الحاجات... ».

وها هو وليْ العهد الأمير عبدالله أثناء ترؤس جلسة لمجلس الوزراء يوم الخميس 25 يناير 1996 يُعقب على بدء السنة الثالثة من الدورة الأولى لإنعقاد مجلس الشورى فيتحدث عن خصائص الشورى في الإسلام ويستعرض في هذا السياق التطبيقات العملية لها في المملكة العربية السعودية «منذ تأسيسها على يديْ المغفور له الملك عبدالعزيز وحتى عهد خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبدالعزيز».

ومن جانبه نلاحظ أن الملك فهد وقد قطعت رحلة التعافي شوطاً متقدماً ينتقل إلى مكة المكرمة لكي يمضي على عادته كل سنة العشر الأواخر من رمضان بجوار بيت الله الحرام. ولقد تزامن مع إنتقاله وصول الرئيس حسني مبارك لتأدية العمرة قبْل ساعات من وصول الملك حسين. وبما أن الحديث مع الزعيميْن العربييْن لا يمكن إلاَّ أن يتناول أمور السياسة العامة في المنطقة والعلاقات الثنائية فإن خادم الحرميْن الشريفيْن آثر، ما دامت فترة الراحة والإستجمام لم تنتهِ رسمياً وإن كانت قد إنتهت صحياً، أن يتباحث الزعيمان مع وليْ العهد الأمير عبدالله الذي يدير شؤون الدولة بالأمر الملكي الذي صدر عن أخيه الملك. وهذا ما حدَث. وفي الوقت نفسه يصعب على من شاهد اللقطات التلفزيونية لإستقبال الملك فهد للطفليْن السودانييْن (التوأم) حسن وحسين في مكتبه في قصر الصفا في مكة المكرمة مساء يوم الجمعة 16 فبراير 1996، أن يخفي تأثره من منظر الطفليْن يستعينان بعكازات طبية وهما يتقدمان نحو الملك برفقة والدهما المواطن السوداني محمد صالح عبد الرحمن ثم يتم إلتقاط الصورة التذكارية لهذه اللحظات الإنسانية الرائعة ويفضل الملك أن يتم إلتقاط الصورة وهو واقف واضعاً كف يده اليمنى على رأس أحد الطفليْن، فيما الأمير واضعاً كف يده اليمنى على رأس أحد الطفليْن، بينما الأمير سلمان بن عد العزيز الذي كان حاضراً يشيع التفاؤل بالإبتسامة المعروفة عنه عندما يكون مسروراً. ومثل هذا اللقاء يبعث على السرور ليس فقط لأنه يعكس مشاعر الملك فهد نحو الأجيال المسلمة وليس لأن حالة الطفليْن رمز لحالة عامة يتعامل الملك معها لينقذ ما يمكن إنقاذه وعلاج مَن يحتاج إلى علاج، وإنما لأن خادم الحرميْن الشريفيْن إختار هذا اللقاء ليعلن فيه وللمرة الأُولى الحدث البالغ الأهمية وهو زوال الظرف الصحي قائلاً «إن الوعكة التى مرت بي كانت وعكة عادية والحمدلله إننى أتمتع بصحة جيدة» وليشكر زعماء العالم والمواطنين الذين سألوا عنه، وليضيف تعليقاً على حالة الطفليْن اللذين كانا وُلدا ملتصقيْن وأُجريت لهما عملية فصْل أحدهما عن الآخر عام 1987 فى لندن وعلى نفقته: «الحمدلله أنني رأيتهما بهذه الصحة والعافية أرجو الله أن يتم نعمته عليهما وهذه نعمة من نِعَم الله التي لا تُعد ولا تُحصى». وهنا يجد المرء نفسه يتذكر كيف أن الظرف الصحي الطارئ لم يُنسِ الملك فهد البوسنيين خصوصاً أن أجواء رمضان تخيم على وضعهم الذي يزداد بؤساً فتبرع لهم بعشرة ملايين ريال من ماله الخاص تساعد في إدخال البهجة الرمضانية على نفوسهم، وهذا في أي حال ليس التبرع الوحيد من جانب خادم الحرميْن الشريفيْن وبالذات في مناسبات من نوع مناسبة الشهر الكريم رمضان.

ومثلما أن أمْر تكليف الملك فهد لأخيه وليْ العهد الذي أصدره في الأول من يناير 1996 وردَّ الأمير عبد الله في اليوم نفسه على الأمر يشكِّلان أمثولة في أصول الحُكم ومراعاة الأمانة والإلتزام بالعهد وبالكلمة، فإن رسالة الملك إلى وليّ العهد يوم الاربعاء 21 فبراير 1996 ورد الأمير عبدالله في اليوم نفسد عليها تشكِّلان إضافة إلى تلك الأمثولة.

فالملك يسجل في رسالته التي ينهي فيها مفعول الأمر المَلكي «شكري وتقديري الأخوي وإمتناني لما بذلتموه من تفان وجهود مخلصة أثناء قيامكم بأعمال الدولة، ولا شك أن هذا يا أخي هو ما عهدناه في سموكم فأنتم دائماً عضدنا الأيمن فى الحرص على كل ما يحقق المصلحة العامة لبلدنا وشعبنا العزيز...». وولي العهد يقول فى رده: «الله وحده يا مولاي يعلم ما كنت أشعر به من فيض عاطفي وحرقة تجاه ما ألمَّ بأخي من أثر أوجب تكليفي بالقيام بأعباء الدولة. وأصْدُقكم القول إن الفترة القصيرة التي عشتها مع ماكلفتموني به لم تيسر لي الظروف فيها أن أحقق شيئاً يذكر، ولكن ما أحسستُ به ولامسْته عن قرب أثناء الفترة الزمنية القصيرة مع المسؤولية الكبرى هو ما أرجو من الله جل وعلا أن يوفقكم ويعينكم عليه. وإني إذ أؤكد لكم إني بكل ما أملكه من ولاء وإخلاص

وتفهُّم لما يجب عليَّ من طاعة لله ولدينه الحنيف وللوطن ثم لكم فى كل ما يخدم المصلحة العامة ويحقق لهذا الشعب أمانيه وآماله لأسأل الله جل وعلا أن يمنحكم العمر المديد لمواصلة دوركم التاريخي تجاه ما صدَّعته الأحداث وخلَّفته من وحشة بين الأخ وأخيه في الوطن العربي والإسلامي. هذا يا مولاى ما أؤكده لكم وألتزم به ما بقى لي من هذه الحياة الفانية من عمر والأمر في ذلك لله سبحانه سن قبْل ومن بعد...».

ويبقى أن أسلوب التخاطب الذي حاولت في هذا المقال سبر غوره سيكون موضع ثقة من جانب أجيال العقود المقبلة عندما يستحضرون تاريخ هذه المرحلة، تماماً مثلما هي حالنا اليوم عندما نستحضر في الأيام الصعبة والشدائد والأزمات أساليب سَجلها أقدمون في التاريخ العربي والإسلامي، وبالذات الأساليب التي لها صفة الأمتولة من نوع أمثولة تعامُل الملك فهد بن عبدالعزيز ووليْ عهده الأمير عبدالله بن عبد العزيز مع ظرف صحي طارئ تعرَّض له الملك فإنتصرت الحكمة، التي هي بعض إرث والدهما الطيب الذكر الملك الراحل عبد العزيز، وإزداد الإستقرار رسوخاً في المملكة العربية السعودية وحظيت القيادة فيها بالمزيد من الإحترام العربي والإسلامي والعالمي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 26 فبراير (شباط) 1996

* * *

"ضمير كل اللبنانيين" الغائب.. في باريس

يحتفل العميد ريمون إده يوم الجمعة 15 مارس/ آذار 1996 بعيد ميلاده الثالث والثمانين، أو السابع عشر قبل المئة، وهو على ما يعهده عارفوه به من ثبات على المبدأ وتمسُّك بالمثالية السياسية وخشية من رب العالمين.

ولأن كثيرين يستغربون هذا المنصب الذي إرتضاه ريمون إده لنفسه وهو «العميد» وبعض الكثيرين من غير اللبنانيين، يفترضون أنه منصب عسكري، فإنه من المناسب التوضيح بأن كلمة «العميد» كمنصب عسكري كلمة مستحدَثة وأن كلمة «العميد» بالمعنى المدني (وتعني «سيد القوم» أو بالتعبير المصري «عمدة» وبالتعبير الساداتي «كبير العائلة») تسبقها بكثير ومن أجْل ذلك يتمسك ريمون إده بها خصوصاً أنه – أغلب الظن – الوحيد بين السياسيين في لبنان والعالم العربي الذي يحتكر مثل هذه التسمية.

وبالنسبة إلى كاتب وصحافي مثلي عرف ريمون إده وتابع ثلاثين سنة من مسيرته السياسية التي تبلغ مع ميلاده الثالث والثمانين نصف قرن فإنني أشعر بأن هذا السياسي يدعو إلى التقدير والدهشة في الوقت نفسه. التقدير لأنه يتمسك بالمبدئية مع أن السياسة في جزء من مفرداتها هي مراوغة وقليل جداً من المبدئية. والدهشة لأن ريمون إده إرتضى أن يبقى طوال هذا النصف قرن من العمل السياسي أسير الإطار اللبناني فلا يغادره إلى محيطه العربي الأشمل وبدا بذلك وكأنه من قماشة الرئيس الأسبق الراحل اللواء فؤاد شهاب مع أن الإثنين لم يتطابقا. وقد تكون للرئيس الراحل أسبابه الموجبة كونه عسكرياً في الدرجة الأولى والضباط في زمانه لا يغادرون إلاَّ في بعثات تدريب وإلى فرنسا فقط أو إلى حمص في زمن الإنتداب الفرنسي. كذلك قد تكون له أسبابه الموجبة لأنه لم يتدرج نحو الرئاسة بحيث يمر في معمعة العمل السياسي أو محرقته، لا فرق أحياناً. وبعدما بات رئيساً، نتيجة حدوث «ثورة» ومأزق، أعطى فؤاد شهاب إنطباعاً بأنه ماروني يتبرم من شيء إسمه عرب وعروبة، ومن هنا نجد أنه لم «يسجل على نفسه» أنه شارك في مؤتمر عربي. وحتى عندما كانت هنالك قمة عربية، هي الأولى بعدما إستأنفت مؤسسة القمة نشاطها، توجب مشاركته، نجده، ضيقا منه بالعرب والعروبة وتبرماً، وربما ما هو أكثر من التبرم، يقاطع هذه القمة التي جرى عقدها في القاهرة يوم 13 يناير/ كانون الثاني 1964 ويوفد رئيس الحكومة رشيد كرامي لينوب عنه، ثم نجده بعدما كانت ولايته انتهت وتم إنتخاب شارل حلو خلفاً له يكلف الرئيس المنتخب لينوب عنه في حضور القمة العربية الثانية التي جرى عقدها بعد ذلك في الإسكندرية بين الخامس والحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 1964. وقد يكون مفهوماً ومقنعاً بعض الشيء أن فؤاد شهاب لا يزور دولاً عربية ولم يشارك حتى في القمتيْن حيث المشاركة بمثابة واجب لأنه رئيس وفي إستطاعته أن ينيب عنه مَن يمثله، إلاَّ أن ما إستعصى على واحد مثلي فهمه هو أن ريمون اده غير المقيد بتعقيدات الرئاسة لم يتعرف على العالم العربي وبالذات طوال سنوات

الستينات حيث يبدو التعرف بمثابة معرفة مطلوبة لمَن يتطلع إلى أن يكون رئيس لبنان. كذلك لم يشجع الحزب الذي هو عميده (أي حزب «الكتلة الوطنية») على أن يغادر الشرنقة اللبنانية خشية الإختناق في داخلها، أو يدفع بالمستنيرين من الوجوه الجديدة في الحزب نحو إستحداث مركز في الحزب يعنى بالشؤون العربية وتصدر عنه دراسات بين الحين والأخر. كذلك لم يشجع على أن تزور وفود كتلوية الدول العربية وبالذات تلك الدول الفاعلة في القرار العربي. وهو لو شجع مثل هذا التوجه فلن يكون موضع ملامة وإنما كان سيحقق أمراً في منتهى الأهمية وهو أن حزبه لن يبقى حكراً على شريحة من الموارنة وربما بعض المسيحيين من غير الموارنة الذين تربطهم بالكتلة اباً عن جد بعض الإعتبارات غير العميقة الجذور، وكان الحزب، بالنظر إلى السمعة الطيبة التي للعميد ريمون إده وللمبدئية التي هي إحدى مقومات شخصيته التي تحظى بالتقدير، سيستقطب مسلمين يشعرون أن ساحة العمل السياسي تفتقد إلى قياديين من نوع ريمون إده، لكن هؤلاء لم يجدوا في العميد إلاّ أنه زعيم حزب سعيد بالتقوقع الذي هو عليه ولا يريد أن يكون أكثر من حزب خدمات يقتصر دوره على الناخبين. وثمة معادلة يدرك ريمون إده كنهها، وهي أن أي حزب لبناني ليس مهتماً عربياً، أو على الأقل مهموماً بأمور الأمة من المحيط إلى الخليج، لا يجد فيه المسلمون ضالتهم وأحياناً يناصبون العداء ويبادلهم المناصبة بالمثل كما هي الحال مع «حزب الكتائب»، وفي تقديري أأنه لو أعى ريمون إده «حزب الكتلة» بعض الإهتمام والتعاطي بالشأن العربي لكان الآن حزباً يمثل الوحدة الوطنية اللبنانية وهو ما تفتقده بقية الأحزاب في لبنان، ولكان من الطبيعي أن يتباهى مسلمون كثيرون بأنهم ينتسبون إلى هذا الحزب وكان الذي سيعزز تباهيهم أن العميد ريمون إده لم ينشيء ميليشيا بل ولا حتى كشافة، ولم يتاجر بأجساد اللبنانيين ودمائهم، وإرتأى بالنسبة إلى إسرائيل أن تكون حاله مثل حال البابا شنوده في مصر الذي قرر أن يكون في نهاي طابور المصالحة العربية – الإسرائيلية وليس في الصف الأمامي. لكن في الوقت نفسه أن من حسنات عدم التعاطي في الشأن العربي هو أن ريمون اده أبقى على حزبه بعيداً عن التوغل في صراعات العرب على الأرض اللبنانية والتي بلغت ذروة تأججها بين العام 1975 والعام 1990، إلا أن ذلك لا يعوض التقاعس الذي حدث في شأن عدم الإقتراب من هموم العرب من شؤونهم ومن شجونهم وهو منوال إستمر عليه ريمون إده حتى الآن. ويصعب على المرء مثل حالنا أن يجد جواباً شافياً عن السؤال المحير وهو كيف أن العميد – على حد علم كثيرين – لا يعرف بلداً عربياً بإستثناء زيارة عابرة إلى مصر تلقى فيها النصيحة من الرئيس (الراحل) بأن يبتعد عن لبنان وهي نصيحة يصعب التكهن بما إذا كان الرئيس السادات أسداها حباً بريمون اده أو إمعاناً في تشويه السمعة السورية، لأن العلاقات بين مصر وسوريا في زمن إسداء النصيحة (عام 1977) كانت في غاية التوتر والسوء وتبودلت خلالها الحملات التي كانت في غاية القساوة. وكيف لم يزر ريمون إده دول الخليج ويرى أي نهضة تحققت فيها، وكيف لم يزر دول المغرب العربي، بل كيف لم يزر سوريا ويتناقش مع المسؤولين فيها حول أمور العلاقات الثنائية ومفهوم كل طرف لها. وهو إذا كان في الماضي لم يفعل ذلك فإنه في سنوات الإغتراب القسري يمكن أن يقضى بضعة أيام من الصيف على الشاطئ التونسي أو الشاطئ المغربي أو شواطئ الاسكندرية بدل أن يكون مقصده الوحيد بعض الشواطئ الفرنسية. أنه بذلك يمكن أن يتعرف إلى عالم عربي يسمع عنه من خلال المحطات الفضائية الأجنبية ومن خلال الصحافة الفرنسية، وهو يمكنه أن يقضي بضعة أيام من فصل الشتاء في جولة خليجية يتعرف فيها إلى عالم مجهول من جانبه، بمعنى أنه لم يره على الطبيعة، ويرى في الوقت نفسه لبنان الآخر أي اللبنانيين الذين ينتمون، وجدانياً، إلى ريمون إده وغادروا البلد لأنهم ضد الصولات والجولات السياسية والميليشياوية التي جرت طوال ست عشرة سنة. ونحن نعرف من خلال تجوالنا على بعض العواصم العربية من المحيط إلى الخليج أن للرجل تقديراً كبيراً. وفي كل مرة كانت تأتي سيرة الحرب وأيامها ولياليها الظالمة والمقيتة كان يحدُث ما يشبه الإجماع على أن ريمون إده هو رجل دولة نظيف اليد بالمعنييْن المالي والدموي. ومن يتأمل في غربته القسرية في العاصمة الفرنسية يتأكد له ذلك، فهو عندما لجأ إلى فرنسا أقام في فندق 5 نجوم إلاّ أنه بعدما بات واضحاً أن الغربة ستطول إنتقل إلى فندق مجاور 3 نجوم. وهو منذ السابع من ديسمبر/ كانون الأول 1977 يعيش أجواء هذه الغربة القسرية والتي يبدد وحشة أيامها ولياليها

إلتفاف اللبنانيين المقيمين أو الزوار حوله وحرصهم أن يمروا عليه في مقر إقامته في الفندق الذي إشترط للإقامة الطويلة فيه أن يتم تعليق العَلَم الأميركي والعَلَم البريطاني وأن لا يتم تعليق العَلَم الإسرائيلي على الإطلاق، وحدثت إستجابة ودودة لشروطه. وهكذا فإن العَلَم اللبناني مرتفع في شكل دائم فى مكانيْن في باريس: فوق مبنى السفارة وفوق فندق الملكة اليزابيث في جادة جورج الخامس في باريس حيث مقر إقامة العميد ريمون إده.

لكنني شخصياً، أشعر ببعض الأسى على عيشة العميد هذه وأتساءل: ما هذا الحزب الذي لا يخصص لعميده شخصيْن على الأقل يقومان بأعمال السكرتارية بحيث يصنفان أوراق العميد فلا يفتش بنفسه بين عشرات الأوراق عن ورقة يحتاج إليها أحياناً، ويُردان على عشرات المكالمات الهاتفية بدل أن يرُد هو. وما هذا الحزب الذي لم ينجز بعض اعضائه، وبالذات مَن هم في موقع النخبة، تسجيل السيرة الذاتية والسياسية لعميدهم. وما هذا الحزب الذي لا يخصص لعميده داراً يسكنها وطاقم موظفين يساعدونه في شيخوخته على رغم أن العميد ما زال وهو في هذه السن المتقدمة يتمتع بحيوية ملحوظة، فيسير على قدميه ليلاً ونهاراً ولا يضع على رأسه قبعة حتى في الطقس البارد. ومع أنه لا يبدو أمامنا أنه نادم لأنه لم يتزوج ولم ينجب مَن يحمل إسمه من بعده إلاَّ أنه في قرارة نفسه يشعر أنه كان عليه ان يكمل نصف دِينه وأن يتزوج إمرأة، خصوصاً بعدما فشل «زواجه» مرتين من رئاسة الجمهورية وكا هو فشل «زواجه» مرتيْن من رئاسة الجمهورية وكان هو الذي يتحمل القسط الأكبر من المسؤولية في المرتيْن، وبالذات عندما لم يطور علاقته بالولايات المتحدة من علاقة إجتماعية إستظرافية وبالذات مع السفير ماكلنتوك إلى علاقة تجعل الإدارة الأميركية لا تتحفظ على العميد عندما يكون الأوفر شروطاً والأقل حظاً للرئاسة. وهذا النفور الأميركي منه هو السبب أو لعله أحد الأسباب في الهجوم الذي يتكرر بين الحين والآخر على سياسة الولايات المتحدة من جانب ريمون إده، وهو في هجومه يستعمل بعض العبارات من ذلك النوع الذي تتميز به مفردات الثورة الإيرانية. ويبقى أن الأشد إيلاماً في النفس هو أن فرنسا التي إختارها العميد ريمون إده ملاذاً لم تعطِ الرجل حقه ولم تكرمه إلاَّ لاحقاً عندما دعاه الرئيس جاك شيراك إلى عشاء متميز أقامه فى قصر الإليزيه تكريماً لصديقه.. صديق الإثنين رفيق آلحريري، عِلْماً بأن المبادرة الشيراكية ربما كانت بإيحاء من رئيس الوزراء اللبناني الذي يسعى لكي يعيد ريمون إده إلى لبنان ويحقق بذلك السند المعنوي والسياسي الماروني له بعدما حقق السند السُني بإستعادة الرئيس صائب سلام. ولكن العميد الذي يعرف ضمناً أن الحريري لا يتمناه في أي حال رئيساً للجمهورية لأنه – أي ريمون اده – لا يتحمل أن تكون الرئاسة الثالثة والرئاسة الثانية أقوى سياسياً ومعنوياً من الرئاسة الأولى كما هي الحال منذ سبع سنوات، يفضل أن يبقى على ما يبدو، وتبدو الظروف في غربته القسرية «ضمير كل اللبنانيين» الغائب في باريس، تماماً مثل الأميرة دايانا التي إنتهت مأساتها إلى أنها إختارت أن تكون «أميرة قلوب البريطانيين» بعدما تعثرت مسيرتها في الوصول إلى عرش بريطانيا كمثل تعثُّر العميد ريمون إده في أن يكون رئيساً للجمهورية فى لبنان.. مع أنه يحظى بما يشبه إجماع اللبنانيين قبْل 1975 ثم بعد ذلك.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 4 مارس (آذار) 1996

* * *

الممنوع في "قمة الإرهاب" على الحاضرين والمقاطعين.. وغير المدعوين

لا يختلف إثنان، شرط إبتعادهما عن التحزب والتعصب، على أن العمليات الأخيرة لحركة "حماس" هي نتاج طبيعي لتراكُم القهر في النفوس وتَوارثه جيلاً بعد جيل. وبسبب وطأة القهر المشار إليه لا يعود بالأمر المستغرَب إستعداد عشرات الشبان للقيام بعمليات إنتحارية كتلك التي حدثت في الأسابيع القليلة الماضية وكانت عملية تل أبيب هي أكثرها إيلاماً للإسرائيليين، لكن مِن سوء حظ هؤلاء الذين ينفِّذون هذه العمليات أنهم يستشهدون في غير الوقت المناسَب وفي غير الزمن الصحيح.

ومِن المؤسف أن العمليات ذات الطابع الكاميكازي هذه تُلحق الأذى بالفلسطينيين بقدْر ما تُلحق الأذى بالإسرائيليين، وهي لو كانت من العمليات التي تتم وفْق الأسلوب الإيرلندي لكان المردود أفضل. ولا بد أن كثيرين يدركون كيف أن التفجير الذي ينفِّذه أعضاء في الجيش الجمهوري الإيرلندي وتؤذي شظاياه بعض

المارة أو بعض الذين ينتظرون على أرصفة المحطات في لندن القطار للعودة إلى منازلهم، يُحدِث حتى في نفوس المتعاطفين مع الإيرلنديين مشاعر سلبية، في حين أن التفجيرات التي تسفر عن أضرار مادية جسيمة تقلِّل من سلبية تلك المشاعر. وهذا ما نقصده بالأسلوب الإيرلندي أي الضغط على العدو من خلال إقلاقه وإلحاق الأذى المالي والإقتصادي به وإبقائه في حال إنشغال بال دائمة وتحييد الناس الذين لا علاقة لهم بالصراع.

ولو أن شبان حركة "حماس" إكتفوا بالتعبير عما يجيش في نفوسهم من غضب وقهر بعمليات من نوع العمليات الإيرلندية الأسلوب لكانوا أبقوا بذلك على صوت الرفض والإحتجاج عالياً ولكانوا تركوا لنا مجالاً أمام أن يأخذ الحل السلمي فرصته وفْق تصورات القيادة الفلسطينية التي تحاول بشق النفس إنجاز الحد الأدنى بعدما تَبين أن الطموحات على شيء من الإستحالة.

ولكن المشكلة ليست مع هؤلاء الشبان وإنما هي مع قيادتهم التي قررت أن تخوض المعركة بأسهل السبُل في زمن السِلْم حيث يضيع وهج الإستشهاد وحيث ينقسم أهل القضية الواحدة على أنفسهم بدليل أن رجال الشرطة الفرنسيين تحولوا إلى مقتحمين لجمعيات ومراكز تابعة لحركة "حماس" في قطاع غزة وبعض مدن الضفة الغربية وصادروا في عمليات الإقتحام التي قاموا بها مسدسات ومنشورات وآلات نسخ وكأنما عمليات "حماس" الأخيرة إستهدفت السلطة الفلسطينية أو كأنما "الباص" الذي تم التفجير فيه كان تابعاً لهذه السُلطة وأن المركز التجاري الذي جرت فيه العملية الإنتحارية كان أيضاً لتلك السُلطة.

ومن الطبيعي ألاَّ يبتهج أحد بتلك العمليات الإقتحامية وأن يمقت ذلك المنظر الذي بثته المحطات الفضائية لرجال الشرطة الفلسطينية المنقضين على أهداف تابعة لحركة "حماس"، إلاّ أن هذه العمليات أفادت في تبريد الهلع الذي أصاب الإسرائيليين من جرَّاء العمليات الإنتحارية، ثم جاءت الفكرة التي أطلقها الرئيس عرفات في خطابه الذي إفتتح به المجلس التشريعي الفلسطيني ودعا فيه إلى قمة دولية لمكافحة الإرهاب لتحصر رد فعْل السُلطة الفلسطينية عند حد المداهمات والمصادرات فلا تتطور إلى حرب أهلية من المؤكد أنها إذا بدأت فإن إسرائيل ستبتهج بها وأن الإدارة الأميركية لن تتفعل وتغضب كمِثْل إنفعالها وغضبها بعد عمليات "حماس" التي سالت نتيجة لها دماء إسرائيلية غزيرة. وكانت أيضاً لن تسارع إلى نجدة السُلطة الفلسطينية وإمدادها بما تحتاج إليه. وكانت أيضاً وأيضاً لن تُجري الإتصالات وتبذل المساعي على نحو ما فعلت عندما رحبت بالقمة الدولية ضد الإرهاب لمجرد أن تلفّظ الرئيس عرفات بالإقتراح بعدما تشاور مع حليفه الرئيس حسني مبارك في الأمر وقام الإثنان بما يشبه التنسيق مع الركن الثالث للعملية السلمية شيمون بيريز فكانت إذاعة نبأ القمة الدولية من راديو إسرائيل وموافقة الولايات المتحدة عليها قبْل أن تعلن الإدارة الأميركية ذلك لاحقاً وبشكل رسمي وتُحدد شرم الشيخ مكاناً للإنعقاد. وبدت إسرائيل بإستباق إذاعة النبأ وكأنما تطلب من الرئيس كلينتون، أو تأمره برفق، أن يوافق على الفكرة.

ومع أنه من التسرع بمكان القول إن الوضع العربي بعد القمة الدولية المرتقبة سيكون أكثر سوءاً وأكثر تعقيداً وأكثر مردوداً لإسرائيل، إلاّ أن المرء يجد نفسه يفترض أن العمليات الإنتحارية الأخيرة. التي تشبه في بعض جوانبها الغزو العراقي للكويت يوم 2 أغسطس 1990، ومثلما أن التضامن العربي كان قبْل ذلك الغزو في أفضل حالاته وكان هنالك ود قائم بين الأنظمة والشعوب وكان هنالك إستقرار وكانت هناك طمأنينة وكانت الإرادة العربية مستقلة في الحد الأقصى ولا ضغوط من الولايات المتحدة على هذه الإرادة، فإن التقبل العربي لصيغة السلام في المنطقة كان قبْل العمليات الإنتحارية بدأ يسود، وهو أمر في منتهى الأهمية قياساً بما كانت عليه النظرة العربية عموماً أنظمة وشعوباً للقضية الفلسطينية وللصراع العربي – الإسرائيلي. ومثلما أن الغزو دمَّر حالة التعايش والتآلف التي كانت قائمة وفي أفضل حالاتها وأطلق للولايات المتحدة يدها في المنطقة العربية، فإن العمليات الإنتحارية التي نفذتها حركة "حماس" تنهي في حال إستمرارها وعدم التصدي لها، التقبل النسبي لحالة السلام على رغم تشوهات هذه الحالة. وأغلب الظن أنه بعد القمة المرتقبة ربما لن يكون في إستطاعة أي طرف عربي أن يبدي حتى التحفظ في مسألة الحل الذي تريده الولايات المتحدة للصراع العربي– الإسرائيلي وسيحدُث – إذا جاز التعبير – أن الإدارة الأميركية ستضع يدها على التفكير العربي وتكتم على طريقتها الأنفاس الرافضة أو المحتجة. وقد لا نسمع بعد تلك القمة إن هذه الإرادة توفد مبعوثين إلى هنا وهناك وإنما تملي من الطلبات ما تريد وتفرض من القرارات ما يحلو لها ولإسرائيل.

وخطورة تلك القمة أنها إقتراح عربي لخدمة إسـرائيل في الـدرجـة الأُولى ونكـاد نقول لخـدمتهـا أولاً وأخيراً. وخطورتها أنها ليست من نوع القمم التي يحق لمَن يُدعى إلى المشـاركة فيها أن يرفض أو يحق لمَن يشـارك أن يتحفظ على قرار الدولة المهيمنة أو يحق لمن يشـارك ويتحفظ ضـمناً أن يتباطأ في الإلتزام بما تتخذه القمة من قرارات وتوصـيات. أما الذين لن تتم دعوتهم إلى حضـور القمة المقرر عقْدها بعد غد فإن هؤلاء لن يفعلوا عكس ما سيتقرر. وعندما نقول ذلك فإننا نقصد الأطراف العربية على وجه التحديد. ونخطىء إذا نحن إفترضـنا بأن هذه القمة كانت ستنعقد لو أنها ليست من أجْل نجدة إسـرائيل. كذلك تخطىء القيادة الفلسـطينية إذا هي إفترضت بأن الإدارة الأميركية تتجاوب على الفور مع ما تقترحه هذه القيادة. ولو أنه لا فائدة لإسـرائيل في مثل هذا الإقتراح لكانت تلك الإدارة الأميركية تركت العنف الدائر بين العرب ينهش في أجسـاد أبنائهم حتى آخر واحد منهم. ولا نعتقد أن الإدارة الأميركية منزعجة من هذا العنف الدائر منذ بضـع سـنوات في مصـر وأيضـاً ذلك العنف الدائر في الجزائر.

وتستبد بالمرء الدهشة كيف أن الرئيس كلينتون متفهم لـ "الإرهـاب الإيرلنـدي" لكنـه تَفجَّر غضـبـاً "الإرهـاب الفلسـطيني" عندما أصـاب الكاميكازيون الفلسـطينيون الإسرائيليين في الصميم. كذلك تستبد بالمرء الدهشة من هذه النجدة الأميركية التي وصـلت إلى إسـرائيل في لمح البصـر والتي هي عبارة عن معدات تسـاعد في مواجهة الإرهـاب وتـذكِّرنـا بتلـك النجـدة التي جـاءت على وجـه السرعة، وبشكل جسر جوي، من الولايات المتحدة لمجرد أن إسـرائيل شـعرت بالخطر في حرب أكتوبر 1973 على الجبهة المصرية. أما لماذا الدهشة فلأن الزمن زمن سِلْم. وفي زمن السِلْم تكون هنالك حاجة إلى مواقف تنشد العدالة وليس إلى نجدات تزيد من عناد إسرائيل وتَمسكها بحق التفوق على العرب أجمعين وإلاّ فلن يكون هنـالـك سـلام. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن النجدة السـريعة بالمعدات والموافقة الأسـرع لفكرة القمة الدولية وإسـتعداد الرئيس كلينتون لزيارة إسـرائيل بعد إنتهاء تلك القمة هي خطوات تقرضها مزايدات المعركة الإنتخابية التي لا تبدو أنها سـهلة عليه خصـوصـاً أنه يزايد في وجه المرشـح الجمهوري المحتمَل السـناتور روبرت دول الذي سـاهم إلى حد كبير في تعزيز ظـاهرة العنـاد الإسـرائيلي من خلال ما طرحه من أفكار وتعهَّد به من مواقف أهمها ما يتعلق بالقدس كحق لإسـرائيل مخالفاً بذلك الصـيغة الإسلامية – الدولية – الفاتيكانية المتفَق ضمناً عليها.

وما يتمناه المرء من القمة الدولية المرتقبة والتي تبدو بمثابة تظاهرة تأييد أميركية – مصـرية – أردنية – فلسطينية لحكومة بيريز كي لا تسقط فتتساقط تبعاً لذلك كل المراهنات، ألاّ تنتهي إسـتفزازية لأن معنى ذلك أن عجلة العنف لن تتوقف. أما كيف لا تكون إسـتفزازية وكيف تحقق أهدافاً كبرى في خدمة السـلام ولا تحرج بالذات الأطراف العربية، فبإصدارها وثيقة تتضمن تحريم العنف على ألاّ يقتصر ذلك على الفلسطينيين وإنما على الإسـرائيليين في الوقت نفسـه، وأن يتم تدشـين مرحلة جديدة تقضـي بإطلاق كل السـجناء العرب والفلسـطينيين في السـجون ومعسـكرات الإعتقال الإسـرائيلية وبتقديم المسـاعدات التي تُنسـي الجيل الفتي من الفلسـطينيين المرارة والقهر والإسـتبداد التي هي رموز أربعة عقود من الإحتلال عاشـها الأجداد والآباء بمذلة، ولا يريدونها أن تسـتمر ومن أجْل ذلك ينفِّذون عمليات إنتحارية يأملون منها أن تتعظ إسـرائيل وتتنبه السُـلطة الفلسـطينية... وتتعقل الإدارة الأميركية.

ويبقى أن عجائب الدنيا إستمرت سبعاً إلى أن جاءت العجيبة الثامنة المتمثلة بأن "الإرهابي" السـابق – في نظر أميركا وبقية حلفاء إسـرائيل – ياسـر عرفات إقترح قمة دولية ضـد "الإرهاب" الفلسـطيني الذي يقوم به فتية وشبان حركة "حماس" ضد إسرائيل "المسالمة" والتي لا "أطمـاع" لهـا إلاَّ في كـل العـالم العربي، فوافقت الإدارة الأميركية على الفور شـاكرة لعرفات سـعيه ولجماهيره الغزاوية مسيرتها الرافضة للعنف والتي تشبه تلك المسيرة التي قام بها بضـعة ألوف من الجزائريين العام الماضـي ضـد العنف، لكن النزيف إستمر وما زال. أما إذا تعقلت الإدارة الأميركية كما يتمنى كل محب للسـلام وإتخذت قمة شـرم الشـيخ من القرارات ما يضـع حداً لكل أنواع الإرهاب، والإرهاب الإسرائيلي قبْل إرهابات الآخرين، فإن تلك ستكون العجيبة التاسعة. وما علينا سوى أن ننتظر ونتأمل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 مارس (آذار) 1996

* * *

تايوان كلينتون بعد كويت بوش

هل أن العالم على أبواب المواجهة المؤجلة، وهل

أنها بالفعل تؤلف ولا تؤلفان؟

بهذا التساؤل يخرج المرء وهو يتابع تطورات الأزمة المستجدة بين الماردين: المارد الأميركي والمارد الصيني.

وللوهلة الأولى تبدو الأزمة كما لو أنها تدور حول تايوان التي يشكِّل بقاؤها على النحو الذي هي عليه إهانة للصين التي تقترب من المليار نسمة، إلاَّ أنها في واقع الأمر تبدو جزءاً من لعبة الصراع الأزلية. فالصين لا تتحمل أن تبقى على الهامش كما تقضي معادلة النظام العالمي الجديد. والولايات المتحدة لا ترضى بموجب تلك المعادلة أن يشاركها أحد زعامة العالم. وإزاء ذلك لا بد من معركة بين الديناصور الأميركي والديناصور الصيني يقوم خلالها الديناصور الأميركي بإخضاع الآخر وبذلك يخلو لها الجو ويواصل وضْع اليد على العالم. ولكن هل قي قدرة الرئيس كلينتون أن يفعل ذلك؟

عند التأمل في أحوال العالم منذ أن رفعت الإدارة الأميركية على ساريتها علَم النظام العالمي الجديد نجد أن معظم دول العالم ومن دون إستثناء منزعجة ضمناً من هذه الهيمنة الأميركية على القرار الدولي. وكثيراً ما تحاول بعض الدول لفت نظر الإدارة الأميركية إلى مثل هذه الهيمنة، وربما ترافق لفت النظر نصيحة من هنا ونصيحة من هناك بعدم المبالغة في ذلك ومراعاة مشاعر الآخرين، إلاَّ أن الإدارة الأميركية ترفض جملة وتفصيلاً كل الإعتراضات وكل التحفظات وكل النصائح، وتعتبر أن النظام العالمي الجديد هو قدرَها وأنه الحل لمشاكل العالم.

كذلك إننا عند التأمل أيضاً في أحوال العالم نجد أن الذي يمكن أن يقف في وجه هذه المعاندة الأميركية والإصرار على الهيمنة هو الدولة القادرة على المواجهة، أو على الأقل خوض مواجهة باردة مع الولايات المتحدة. وليس هنالك مَن هو، بعد إنهيار الإتحاد السوفياتي وتغييب الإدارة الأميركية للدور الأوروبي، سوى الصين التي إستمر موقفها غامضاً، بمعنى هل هي راغبة في الصراع مع الولايات المتحدة أو مستسلمة لزعامة النظام العالمي الجديد، إلى أن بدأت قبْل أسابيع أزمة تايوان. ويوماً بعد يوم تصْدر عن الأزمة إشارات توحي بأن الصين تناور وأنها لن توصل الأمر إلى مواجهة، ثم تصدر تصريحات توحي بأن الأمر يتجاوز التكتيك إلى الإستراتيجية، وهذا معناه أن العالم قد يفاجأ بمواجهة في أي لحظة.

ولقد بدأت الأزمة عندما قرر الجيش الصيني إجراء مناورات عسكرية قرب شواطىء تايوان يتزامن إجراؤها مع الإنتخابات الرئاسية في تايوان (السبت 23 مارس 1996) فتضايقت الولايات المتحدة وتضايق معها صينيو تايوان وبدأت حشداً بحرياً في المنطقة.

ومع أن الصين لا تعلن بوضوح أنها عندما تجري المناورات فكأنما تريد أن تقول ما معناه أن تايوان لها وشعبها شعب صيني، أي أنها (الصين) هي الأصل وتايوان هي الفرع، وأن الفرع يجب أن يعود إلى الأصل.. مع أن الصين لا تعلن ذلك بوضوح، إلاَّ أن معظم الإشارات تعكس النوايا.

وإذا كانت إدارة الرئيس كلينتون ستتعامل مع مسألة تايوان بمثل تَعامل الرئيس جورج بوش مع مسألة الكويت، فهذا معناه أن حاملتيْ الطائرات الأميركيتيْن اللتين تحركتا إلى مضيق تايوان والوقوف وجهاً لوجه أمام القوات الصينية، ربما لن تعودا بعد الآن، هذا إذا نحن إفترضْنا بأن الصينيين لن يذهبوا بعيداً إلى حد خوض غمار مواجهة مع الولايات المتحدة. أما إذا كانت الإدارة الأميركية ستنظر في النهاية إلى مسألة تايوان بتعقل وبالنظرة التي إتسمت بها الحكومة البريطانية في تعاملها مع مستقبل جزيرة هونج كونج، فهذا معناه أنه لن تكون هنالك مواجهة، وأن الثمن الذي سيدفعه النظام العالمي الجديد للصين من أجْل أن تبايعه ولا تُقلق خططه هو أن ينتهي أمر تايوان بحيث تعود إلى أصلها، (تُعتبر بكين تايوان إقليماً منشقاً منذ أن فر الوطنيون الذين هُزموا في الحرب الأهلية إلى جزيرة تايوان عام 1949)، ذلك أن بقاء الأمر على ما هو عليه معناه أن المواجهة إذا كانت لم تحدُث هذه المرة فانها أُرجئت لا أكثر.

وثمة نقطة لافتة للنظر وهي أن الصين عندما تلجأ إلى تأزيم الموقف من خلال إجراء مناورات كتلك المناورات التي أجرتها إيران قبْل بضعة شهور، بينما الوجود العسكري الأميركي في مياه الخليج في ذروة إستعداده، فإنها تعرف سلفاً أن القوات الأميركية ستخف للرد على عرض القوة بالمثل، أي أنها في ذلك لم تكن مثل الرئيس صدَّام حسين الذي إعتبر أن أميركا لن تتمكن من تعبئة العالم ليفعل ما فعله

بالتدرج من أجْل الكويت. والرئيس الصـــيني ما دام يدرك أن القوات الأميركية هي التي تدافع عن تايوان فما الذي يجعله يترك الأزمة تتفاقم والتصـعيد يصـل إلى مرتبة الخطر؟

والجواب عن ذلك هو أن القيادة الصـينية تعمدت التصـــعيد لأن في يدها الأوراق التي تعرف كيف تلعبها لكي لا تخســـر المواجهة. فهي دولة نووية وليس واضـحاً ما إذا كانت على الصـعيد النووي بقوة الولايات المتحدة أو أكثر. وهي دولة المليار نســـمة المســـتعدة لأن يفنى مليون منهم. وهي من الدول الدائمة العضـوية في مجلس الأمن والتي تتمتع بحق إســتعمال الفيتو، أي بما معناه أنه ليس من الســهل على الولايات المتحدة مهما كانت ســيطرتها قوية في الأمم المتحدة أن تستحصل من المنظمة الدولية على قرارات تفرض بموجبها العقوبات على الصـــين. ففي إســتطاعة الصــين أن تســتعمل الفيتو على أي قرار وتُسقطه.

ولكن الأهم من كل هذا هو أن في قدرة الصـــين أن تُلحق الأذى بالشـــعب الأميركي نفســـه. وعندما تقول الخارجية الأميركية "إن بعض صغار المسؤولين الصـينيين قالوا لمسـؤولين أميركيين زاروا الصـين إن الولايات المتحدة لن تجرؤ على الدفاع عن تايوان لأنهم(الصـينيون) سـيمطرون لوس انجليس بالقنابل النوويـة"، فـإنـه لا يخفف من أهميـة هـذا الكلام أن قائليه هم من صـــغار المســـؤولين، ذلك أنه تبعاً لأسلوب الحُكْم في الصين حيث الحزب هو الأساس، فإننا قد نجد موظفين في مواقع دنيا في الوزارات لهم في القرار الصـيني بسـبب مكانتهم الحزبية وتاريخهم الحزبي أهمية تفوق بكثير أهمية مسؤولين أعلى منهم مركزاً في هذه الوزارة أو تلك. وعندما يقول مَن تملُك دولته مئات القنابل النووية أنه ســـيتم إمطار لوس انجليس على الضـــفة الأُخرى البعيدة من المحيط الهادي بالقنابل النووية فإنه يختلف عمَن يهدد من دون أن تكون بحوزة بلاده مثل هذه القوة.

واللافت للنظر أن رد فعل الإدارة الأميركية على هذه التصريحات يتسم بشيء من التبسيط حيث أنها تراها مجرد "حرب نفسية" لا أكثر. وهي من الطبيعي أن يقتصـر ردها على هذا التبسيط لأن التصـعيد من جانبها سيعني إنتشار موجة من الإرتباك في عدد من المدن الأميركية. لكن إقتصـار رد الفعل على ذلك لا يعني أن غرفـة العمليـات وبـالـذات عمليـات الحرب النووية لم تجتمع لتناقش وتحلل وتضـــع على الورق التصورات والإحتمالات الممكنة.

وإذا كان صـــغار المســـؤولين تحدَّثوا عن القنابل النووية التي يمكن أن تتســـاقط كالمطر على لوس انجليس، وهي في أي حال كلام تغلُب عليه صـــفة الحماســة ولهجتها، فإن رئيس وزراء الصـين تحدَّث بدوره عن "المتـاعـب" التي يمكن أن يســـفر عنها إســـتخدام القوة من جانب الولايات المتحدة ضـــد الصـين، والكلامان، كلام القنابل النووية التي تسـقط كالمطر، والمتاعب التي يمكن أن تصـــيب القوات الأميركية، يعكســـان نوعاً من التفكير الصـــيني المتضـــايق من تهميش الصـــين وإلى درجة أنه لا يُحسـب لها حسـاب في الصـياغة الجديدة للعالم مع أنها الدولة القادرة على أن تهز المعادلة القائمة من دون أن تصيبها أضرار فادحة على نحو ما جرى مع الرئيس جاك شـيراك عندما قرر أن يقوم بحركة تمرد خفيفة على الإسـتئثار الأميركي بكل شـيء، فأجرى بعض التجارب النووية ليقول من خلالها إن فرنســـا صـاحبة شـأن وشـريكة لا بد منها عند صـنع القرار الدولي، لكنه سرعان ما تراجع بعدما شعر بأن الأذى الذي يمكن أن يحيق بجمهوريته سيأتي عنيفاً، مكتفياً بـالتجـارب التي أجراها والتي أســـتنكرها العـالم ولم يقابلها الفرنسيون أنفسهم بالإرتياح.

وتكراراً إن الأزمة الراهنة بين الصـــين والولايات المتحدة ما تزال في بداياتها، لكن المقلق فيها أنها بدأت مباشـرة بعرض القوة، ويخشـى المرء أن تتطور بحيث تتكرر في مياه المحيط الهادي العاصـفة التي جرت في صحراء ومياه الخليج العربي، عام 1990-1991 مع الأخذ في الإعتبار أن الكويت بالنسبة إلى الولايات ليست مثل تايوان، أي من الممكن التضـحية بها من أجل صـــون لوس انجليس ومدن كثيرة في كاليفورنيا من القنابل النووية الصـينية، ومن أجْل ألاّ تكبر كرة الثلج وتنتهي إلى أن الرئيس كلينتون، شـغفاً منه بتجربة سلفه الرئيس بوش في عاصفة الصحراء، مارس لعبة الصراع مع الصين وتم إستدراج قواته في فيتنام الجديدة التي سـتكون الحرب العالمية الثالثة... وربما نهاية العالم.

لكن في الوقت نفســـه رب ضـــارة نافعة إذ أن التعقل قد يتم إعتماده كمعالجة بديلاً للتحدي. وترى الإدارة الأميركية أن من الأفضـل أن تنحسـر هيمنتها على العالم بالشـكل الذي هي عليه. وفي هذه الحال

تكون الأزمة، التي نخاف تطاير شـررها، لمصـلحة الجميع.

... وهكذا يكون العلاج لواقع الحال مثل العِلم، كلاهما نطلبه حتى من الصين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 25 مارس (آذار) 1996

* * *

قمة تقوية العزيمة السورية

كان سـيبدو الأمر محزناً جداً لو ان رئيس وزراء إسـرائيل شـيمعون ببريز يقوم بزيارة لسـلطنة عُمان ويُتبعها بزيارة لدولة قطر ويقطف من هاتيْن الزيارتيْن مكاسـب هائلة، بينما ليس هناك تحرك عربي يخفف بعض الشـيء من وطأة هذا الإجتياح الإسـرائيلى السياسي للمنطقة، وبالذات للمفصل الخليجي. وأهمية هذا المفصـل كبيرة بعدما لم يعد لدول المواجهة دور سـوى إنتظار السـلام الذي يتباطأ قدومه في كل مرة تتزايد المرونة العربية إزاء الأمر الواقع المفروض من الولايات المتحدة على العرب، وإصـرارها على القبول بكل ما يُرضـي إسـرائيل ويُغضـب الرأي العام العربي والإسلامي.

ومن أجْل ذلك، فإن القمة المصـرية – السـورية التي عُقدت في دمشق يوم الثلاثاء الماضـي (2 أبريل 1996) – أي في اليوم الذي كان بيريز يقوم بزيارته إلى دولة قطر (ويتم الإتفاق خلالها مع أمير الدولة الشـيخ حمد بن خليفة آل ثاني على تَبادل مكاتب للتمثيل التجاري بين البلديْن) – تثلج بعض الشـيء الصدر العربي الذي أرهقتْه التنازلات العربية.

ومع أن لقاءات القمة المصـرية – السـورية تبدو أمراً مألوفاً، إلاّ أن القمة الأخيرة، التي هي موضـوع كلامنا، تبدو أكثر القمم أهمية لعدة إعتبارات. فهي الأولى بعد قمة شرم الشيخ التي قاطعتْها سوريا.

وعندما يأتي الرئيس مبارك إلى دمشـق فإن ذلك ليس فقط إنسـجاماً مع قاعدة التزاور المعمول بها، أي ليسـت رداً لزيارة الرئيس حافظ الأسـد الأخيرة للقاهرة، وإنمـا هو يـأتي لمؤازرة موقف. إذ ليس معقولاً أن تتحرك العملية السـلمية حيث ليس هنالك حاجة ملحة لها (أي سـلطنة عمان ودولة قطر) وتتعثر حيث الحاجة إليها كبيرة (أي سوريا).

وثمة فرق كبير بين أن تتم هذه القمة في القاهرة وليس في دمشـق. ففي القاهرة كانت سـتبدو على أنها توضـيح متأخر اربعة أسـابيع لمقاطعة القمة الدولية، التي إستضافها الرئيس مبارك في شرم الشيخ، وإظهار كل مشاعر الود نحو مصر.

أما فى دمشـق فإنها تبدو، وبالذات يوم الإختراق الثاني لإسرائيل وعلى مستوى القمة لدولة خليجية (أي قطر)، بـأنهـا مؤازرة ولو ضـمْن الليـاقـات للموقف السوري الذي بدأت الضـغوط الأميركية – الإسرائيلية عليه تأخذ طابع التأديب بعدما قاطعت سـوريا «قمة الإرهاب».

وإلى ذلك فإن لقاء الرئيسـيْن مبارك والأسـد، وبعد قمة شرم الشيخ، معناه أن هنالك وجهات نظر أميركية في شـأن العملية السـلمية نقلها الرئيس مبارك إلى الرئيس الأسـد، ووجهات نظر مماثلة سـورية سـينقلها الرئيس المصري إلى الرئيس كلينتون.

ومن المحتمل أنه في ضـوء هذا التبادل بواسـطة المنسق العربي، الذي هو الرئيس مبارك، سنسمع قريباً عن حدوث تبدل في الموقف ولمصـلحة إسـتئناف المحادثات السورية – الإسرائيلية التي جمدتها إسرائيل ربما بهدف إختبار مدى قدرة الجانب السـوري على التحمل ومدى مؤازرة العرب عموماً للموقف السـوري. ونحن عنـدمـا نقول إن الرئيس مبـارك هو المنسـق العربي لمحادثات السـلام الإسـرائيلية – الأميركية – السورية نأخذ في الإعتبار دوره التنسـيقي الآخر الذي قام به على مدى ثلاث سـنوات بين إسـرائيل والسُـلطة الوطنية الفلسـطينية وأثمر بعض النتائج التي كانت موضـع إرتياح الجانب الأميركي، وإن كانت النتائج التي نشـير إليها هي في بعض جوانبها تتهاوى أحياناً أمام الجنوح الإسـرائيلي نحو الهيمنة والسـيطرة. وقد يكون الرئيس مبارك يتطلع إلى أن يقوم بين سـوريا وإسـرائيل بالمهمة نفسـها التى قام بها بين إسـرائيل والفلسطينيين. وبصرف النظر عما إذا كان يتطلع إلى القيام بذلك متبرعاً أو بتكليف دولي غير مرئي فإن المبادرة تبدو موضـع الترحيب، بل قد يجوز الإفتراض أنها من جانب سـوريا، وبالنظر إلى الظروف البالغة التعقيد التي إنتهت إليها العملية السـلمية، موضـع الإمتنان الكبير.

واللافت للنظر أن الرئيس الأسـد أشـار من خلال عبـارة وردت في رده على سـؤال خلال المؤتمر الصـحافي الذي تلا المحادثات، إلى أنه أوكل إلى

الرئيس مبارك أمراً ما وأنه سيسمع منه شخصياً الرد عليه قريباً، الأمر الذي يعني أن القمة المصرية – السورية التي ستنعقد قريباً في القاهرة ستعقبها إما نقلة نوعية للعملية السلمية وبالتالي سيتم إستئناف المحادثات السورية – الإسرائيلية وعلى إيقاع يعوض فترة التوقف التي فرضتها إسرائيل، وإما انهيار ما تم إنجازه، وعند ذلك قد نسمع من دمشق عن المواقف التي تربك الجانب الإسرائيلي وتجعله غير مرتاح، ونكاد نقول ستجعل تفكيره مشوشاً بعض الشيء.

ومن هنا حرص الرئيس الأسد، وفي حضور الرئيس مبارك، على أن يقول «إن بوابة السلام ضاقت بشكل كبير لكنها لم تُغلق تماماً» وعلى أن يترك لمواجهة المفاجآت السلبية فرصة فيقول «إن سوريا ليست طرفاً في إتفاق الكاتيوشا بين اللبنانيين والإسرائيليين وأن المقاومين إلتزموا لكن إسرائيل لا تلتزم تفاهم العام 1993 ومن الصعب القول للمقاومين انكم ارهابيون ويجب أن تتوقفوا»، وما قاله الرئيس الأسد معناه أن المقاومة في الجنوب اللبناني ستنفِّذ من العمليات المدوية ما من شأنه أن يجعل بوابة السلام تستعيد إتساعها الذي كانت عليه قبْل أن تتوقف المحادثات من جانب الطرف الإسرائيلي.

وتجدر الإشارة إلى تزامن كلام الرئيس الأسد عن المقاومة اللبنانية مع صدور بيان عن الجناح العسكري لحركة «حماس» الفلسطينية دعت فيه رجالها إلى إستئناف العمليات الإنتحارية ضد إسرائيل رداً على حملات إعتقال أعضائها التي تنفذها إسرائيل والسُلطة الفلسطينية.

وثمة مسألة لافتة للنظر، وهي أن القمة المصرية – السورية التي شهدتها دمشق يوم الثلاثاء الماضي تتشابه، من حيث ظروف الإنعقاد، مع تلك القمة الشهيرة التي عُقدت في الإسكندرية بين الملك فهد بن عبد العزيز والرئيسيْن مبارك والأسد في أعقاب الإختراق الإسرائيلي الأول لدول الخليج، والذي تمثَّل بزيارة قام بها رئيس الوزراء (الراحل) إسحق رابين لسلطنة عُمان في ديسمبر 1994. وفي تلك القمة حدث نوع من التفاهم بعدم إقامة العلاقات من جانب الدول العربية مع إسرائيل قبْل تحقيق السلام الشامل.

أما القمة المصرية – السورية فتأتي هي الأُخرى متزامنة مع الإختراق الاسرائيلي الثاني لدول الخليج والمتمثل بزيارة رئيس وزراء إسرائيل شيمون بيريز إلى قطر.

وعندما يتطور التطبيع العُماني – الإسرائيلي، ويتم تدشين التطبيع القطَري – الإسرائيلي، فهذا معناه أن ما تم في قمة الإسكندرية المشار إليها لا يُلزم أحداً، وأنه مجرد تمنيات يتم الأخذ بها حسب ضمير كل طرف ووجدانه. وعندما لا يتم الإلتزام بقرار يتم إتخاذه فلأن المؤسسة العربية غائبة أو في حالة تغييب، ونعني بالمؤسسة جامعة الدول العربية التي تتزايد الإستهانة بها بحيث لا تكون مؤسسة فاعلة، سواء عند إتخاذ قرار قومي أو في مرحلة السهر على وضْعه موضع التنفيذ. وفي أي حال إن عدم الإلتزام بما تَقرر بصيغة التمني في قمة الاسكندرية سبقه عدم إلتزام آخر من جانب ما إصطُلح على تسميته «دول الطوق» التي ساد الإعتقاد بأن صلابة موقفها ستجعل الجانب الإسرائيلي يمارس من المرونة أقصاها، ثم ما لبث أن تبين بأن فتح الثغرات في الطوق توالى ثغرة بعد ثغرة.

ويبقى أن لقاء القمة الجديد بين الرئيسيْن مبارك والأسد، إضافة إلى أنه بدد الإنطباعات السائدة عن خلاف بين الجانبيْن، كان مناسبة للتشاور في أمور كثيرة، من وضْع مصر مع السودان فى ضوء ما سمعه الرئيس الأسد قبْل بضعة أسابيع من الرئيس السوداني عمر البشير خلال زيارته إلى دمشق، إلى المأزق المستمر لصديق الطرفيْن العقيد معمَّر القذَّافي، إلى الحالة العراقية المستعصية فى ضوء كلاميْن متقاطعيْن: الأول يشير إلى إمكانية تفاهم سورية – عراقية تبدأ بفتح الحدود، خصوصاً إذا قرر الأردن إغلاق الحدود وذهب بعيداً في تطوير العلاقة مع إسرائيل إلى حد أن تصبح حلفاً، خصوصاً بعد ما زار رئيس أركان الجيش الأردني إسرائيل وهي الأولى من نوعها في تاريخ المؤسسة العسكرية الأردنية.

والكلام الثاني حول تفعيل دور المعارضين للنظام في العراق وإستضافة مؤتمر لهم في دمشق. كذلك ان اللقاء مناسبة لإتخاذ موقف عربي موحد على الحد الأدنى في حال إستعصى أمر إتخاذ موقف على الحد الأقصى.

وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك حاجة إلى هكذا موقف في شأن مسألة التسرب الإشعاعي من مفاعل ديمونة الإسرائيلي، وهو التسرب الذي فى حال ثبوته سيجعل العالم العربي عرضة للتشوه النووي، أما الإسرائيليون فربما كانوا في مأمن وذلك على أساس أن الإحتياطات لمواجهة أخطار التسرب الإشعاعي

والتفجير المحتمل تم إنجازها سلفاً. وإتخاد الموقف الموحد ضروري حتى إذا تبين أن إسرائيل تعمدت تسريب الأخبار حول التسرب بقصد حمْل العرب على التخلى تماماً عن حديث القضية والقدس والأرض والحل العادل، وربما بقصد أن تقتصر همومهم فقط على تسرب الإشعاع النووي المزعوم، وهذا جزء من حرب نفسية طويلة.

وتكراراً، إن لقاء القمة المصرية – السورية في دمشق، ويوم الإجتياح السياسي الإسرائيلي الثاني لمنطقة الخليج، يشكِّل نوعاً من التقوية للعزيمة السورية التي تبدو شيئاً فشيئاً أنها باقية وحدها في مواجهة هذه الريح العاتية. وكان المرء يتمنى لو أن الرئيس مبارك يشمل العزيمة اللبنانية بإهتمامه فيزور لبنان زيارة منسق للسلام العربى – الإسرائيلي، أي على نحو زياراته الكثيرة لدمشق ومن قبْل للعقبة، أو على الأقل يعقد فى شتورة قمة مع الرؤساء اللبنانيين الياس الهراوي ونبيه بري ورفيق الحريري، شبيهة بعض الشيء بالقمة الشهيرة التي ضمت الرئيسيْن (الراحليْن) جمال عبد الناصر وفؤاد شهاب.

.. إلاَّ إذا كان الرئيس مبارك يرى أن العزيمة اللبنانية هي – مؤقتاً – من العزيمة السورية، وأنه ضِمْن هذه الرؤية فإن زيارات الحكام الأجانب وأولهم الرئيس الفرنسي جاك شيراك للبنان ستسبق زيارات الحكام العرب. وهذا ما يحدُث بالفعل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 أبريل (نيسان) 1996

* * *

تحالُف المضطرين... والمتضررين

من الواضح أن القيادة السياسية في مصر تعيش منذ بعض الوقت جواً من الحيرة لم يسبق لها أن عاشته بهذه الحدة منذ أن بدأت مسيرة السلام العربي – الإسرائيلي. ويبدو أن هذه القيادة على أهبة أن تحسم أمر هذا المخاض الذي يتأرجح بين الإستمرار في مسايرة القرار الأميركي، في ما يخص ما تبقَّى من عملية السلام وما يتعلق بالخريطة الجاري رسْمها للمنطقة، وبين التمرد على هذا التعطيل لأهمية مصر الذي يشهد يوماً بعد يوم المزيد من التمادي.

وعند القراءة المتأنية للقليل الذي جرى نشْره، من الكثير الذي قاله وزير الخارجية المصرية عمرو موسى يوم الثلاثاء الماضي (9 أبريل (نيسان) 1996) في مجلس الشعب أمام لجنتيْ العلاقات الخارجية والعربية والأمن القومي، تتبين بعض معالم هذه الحيرة. وتزداد المعالم وضوحاً عند قراءة ما بين السطور الحافلة بالضيق والغضب، والتي تتسم بعض كلماتها بالحزْم وإلى درجة أن ما يقوله رئيس الدبلوماسية المصرية يبدو على مشارف مَن هو في صدد تعديل أسلوب التعامل مع الولايات المتحدة وإسرائيل، ونكاد نقول مَن هو على أهبة الوقوف مع الأكثرية العربية غير الراضية عن معظم ما تم فرْضه حتى الآن وتصويره بأنه إنجاز. بل إن عمرو موسى يبدو في بعض ما يقوله قريباً إلى حد كبير من مفهوم المعارضة العربية لعملية السلام وليس متقاطعاً تماماً مع ما يردده بعض المعارضين.

ومما قرأناه لرئيس الدبلوماسية المصرية، وهو القليل الذي نُشر من الكثير الذي قيل أمام أعضاء اللجنتيْن "إن هناك إتجاهاً في العالم يصف الإدارة الفلسطينية بعدم قدرتها على وقْف العنف ونحن لا نقْبل هذا لأن الطَرَف الإسرائيلي يتحمل نصيباً من تفشي أعمال العنف..."، و"على إسرائيل أن تغيّر سياستها الحالية في الإبعاد والمصادرة والطرد وإلاَّ فإن الفلسطينيين سيقاومون هذا بالعنف..."، و"غير مقبول أن تدفع القضية الفلسطينية ثمن الإنتخابات المقبلة في إسرائيل..."، و"السلام لا يعني تحقيق كل ما تريده إسرائيل لأن السلام عربي وإسرائيلي ولن يقوم سلام معوج لمصلحة طرف واحد لأنه في هذه الحالة سيكون سلاماً ضعيفاً لا يصمد أمام أي عاصفة..."، و"على إسرائيل أن تسعى للسلام الحقيقي المتوازن مع جميع الأطراف، حتى يكون هناك تعايش حقيقي بين دول المنطقة، ولذلك أُحذر من هذه السياسات التي فيها جنوح لأننا لن نقبل أن نتعايش مع هذه السياسات..."، و"سوف تستمر مصر في معارضة التحالف الإستراتيجي بين إسرائيل والولايات المتحدة كما عارضتْه من قبْل، فإما سلام مساوٍ له في القوة أو مضاد له في الإتجاه..."، و"إن مصر لا يمكن أن تخضع لهذه التحالفات ومخطئ مَن يظن أن مصر يمكن أن تخضع، وتاريخ مصر معروف..."، و"نحن نحذر من خطر مثل هذه التوجهات في المنطقة، وأي لخبطة من شأنها أن تؤدي إلى عدم الإستقرار وأن تؤثر على حركة التطبيع مع إسرائيل..."، و"نتمنى أن

تظل تركيا بعيدة عن كل ما يسبب إنزعاجاً لنا ونحن على إتصال مع تركيا وإسرائيل لإستيضاح مسألة الإتفاق العسكري بينهما..."، و"لن يستقر الوضع في المنطقة إلاَّ بوضع النشاط النووي تحت الإشراف الدولي، ونحن لا نقْبل أن تكون هناك دولة نووية وحيدة في المنطقة، وقد يؤدي تمسُّك إسرائيل بالأسلحة النووية إلى وجود أنشطة نووية أُخرى في المنطقة، وإذا كانوا يتحدثون عن رغبة إيران في امتلاك معرفة نووية فلماذا يعترضون على ذلك بينما إسرائيل تملك بالفعل سلاحاً نووياً..."، و"إن مصر تقف ضد تصعيد العقوبات على ليبيا في القضايا المتهمة فيها ولا بد أن تتراجع هذه الخطوات بعد إبداء ليبيا رغبة في محاكمة المتهمين..."، و"مصر والسودان شعبان متكاملان وحدود مصر هي في جوبا وحدود السودان في الإسكندرية ومن مصلحة الشعبيْن وجود تفاعل بينهما..."، و"إن الإتجاه في المجتمع الدولي هو توقيع عقوبات على السودان ولكننا حريصون على ألاَّ تؤثر هذه العقوبات على الشعب السوداني..."، و"أي عمل يؤدي إلى تقسيم العراق سنقاومه ونتخذ من الإجراءات ما يحول دون ذلك، وعلينا أن نعمل على رفع المعاناة عن الشعب العراقي ومده بالمساعدات الإنسانية...".

تلك هي بعض العبارات التي وردت في حديث وزير الخارجية المصرية أمام اللجنتيْن البرلمانيتيْن اللتيْن لرؤيتهما أهمية عند صياغة القرار المصري. واللافت للنظر هي النبرة التي تحدَّث فيها عمرو موسى، والتي تتسم بالتشدد، على عكس مفردات لغة الدبلوماسية.

وهو كما نلاحظ يكثر من كلمات وعبارات من نوع "لا نقبل" و"على إسرائيل" و"غير مقبول" و"أُحذر من هذه السياسات" و"سوف تستمر مصر" و"إن مصر لا يمكن" و"نحن نحذِّر"... إلخ.

وهو لا يلقي خطاباً في الهواء الطلق أو في لقاء جماهيري أو شبابي أو طلابي لكي نقول إن هذه الحماسة في التعبير فرضتْها المناسبة والتجارب مع تصفيق الحاضرين، وإنما هو يتحدث أمام مجموعتيْن برلمانيتيْن وتحت سقف مجلس الشعب وليس مطلوباً منه التفاعل أو الإنفعال وإنما تصوير حالة الأمر الواقع، وهذا ما فعله وظهر كم أن هذا الأمر الواقع في غاية السوء.

ومن المؤكد أن كلام عمرو موسى بالجرعة المختارة من هذا الكلام والتي بفضل نشرها قرأ المصريون ومعهم أشقاؤهم العرب كلاماً يخفف من الاحتقان المتزايد في الصدور، من شأنه أن يبعث على الطمأنينة، ذلك أن هذا الكلام يوحي بأن ما هو ظاهر للعيان لا يعكس حقيقة ما هو حاصل، وأن ما يدور في كواليس المسرح السياسي هو عبارة عن صراع مرير مع النفس وهو من نوع الصراعات التي تسبق حالة الإضطرار إلى إتخاذ قرار كبير أو تعديل أسلوب إدارة الأزمة والصراع. وفي تاريخ مصر الحديث وقفة واحدة مع الصديق تمثلت بتلك الوقفة التي إتخذها الرئيس (الراحل) أنور السادات في يوليو (تموز) 1972 مع الصديق السوفياتي والتي بموجبها أنهى مهمة الخبراء السوفيات العاملين في مصر وأخرجهم من البلاد بمهانة لا مثيل لها في تاريخ الإتحاد السوفياتي. وإذا جازت المقارنة فإن معاناة القيادة السياسية المصرية، زمنذاك، من الأسلوب السوفياتي في التعامل مع القرار المصري، لا تختلف كثيراً عن معاناة القيادة السياسية الحالية، بل يمكن القول إن الوطأة الأميركية على القرار المصري أشد في بعض الحالات ووصلت إلى حد أن وزير الدفاع الأميركي "يبشِّر" وهو في زيارة إلى القاهرة بأن الولايات المتحدة في صدد التحضير لهجوم على ليبيا، فيضطر الرئيس مبارك شخصياً، وعلى حد ما ذكره عمرو موسى، إلى القول إن المسؤول الأميركي أطلعه على صور تتعلق بمصنع في ليبيا لإنتاج الأسلحة الكيماوية وأنه – أي الرئيس – طلب مزيداً من الصور عن هذا المصنع لأنه لم يرَ في الصور التي عُرضت عليه ما يؤيد الإتهام لليبيا. ثم إقترح قيام لجنة دولية لمتابعة الأمر على الطبيعة في ليبيا.

وإلى جانب "التبشير" الأميركي من القاهرة بهجوم على ليبيا (وهو ما دعت إليه رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر في كلمة ألقتها خلال ندوة حول الأسرى الكويتيين وتزامن عقْدها في لندن مع إنعقاد قمة شرم الشيخ، أي الأربعاء 13 مارس (آذار) 1996) هنالك الإتفاق التركي – الإسرائيلي العسكري المدعوم من الولايات المتحدة والذي بدا، من حيث التوقيت، وكأنما هو لردع مصر عن تطوير علاقتها مع سوريا، فضلاً عن سلسلة من الإحراجات الأميركية والمنغصات الإسرائيلية وكلها تصب في إتجاه محاصرة مصر، فلا تتطلع إلى خارج الحدود ولا تفكر تخطيطاً أو إجتهاداً في أدوار مستقلة، بل قد يجوز الإفتراض أن الخطوة التركية – الإسرائيلية جاءت

لتشكّل ما يشبه الصحوة للقيادة السياسية المصرية بأنها في الطريق إلى أن تكون حالها للعقود الثلاثة المقبلة مثل حال تركيا في العقود الثلاثة الماضية. دولة مهتمة بالسياحة والوفود السياحية إلى أن حان وقت توظيفها كدولة إسلامية في خدمة المخطط الجهنمي الذي حقق لإسرائيل وجوداً عسكرياً وراء ظهور الدول العربية والإسلامية.

وإزاء هذا كله ما الذي يمكن أن تفعله القيادة السياسية في مصر؟

هل تستسلم لإرادة النظام العالمي الجديد في أن ينحصر دورها في تثبيت إسرائيل؟

أم هل ترفض مثل هذا الدور، وكذلك ترفض أن يصير حالها مثل حال تركيا السابقة، وتقرر القيام بدورها القومي؟

إن هذا ما عنيناه بالحيرة والتي عبَّر عنها بكثير من المعاناة وزير الخارجية عمرو موسى.

وعندما نشير إلى ذلك فإننا نربط بين هذه الإشارات التي صدرت عن رئيس الدبلوماسية المصرية وبين اللقاءيْن الأخيريْن بين الرئيس مبارك والرئيس حافظ الأسد في دمشق، ثم بين الرئيس مبارك والرئيس جاك شيراك في القاهرة. وقد يتبين أن اللقاءيْن المشار إليهما أقنعا القيادة السياسية المصرية بأنها تملك إلى جانب ورقة الضيق من الإدارة الأميركية وما تخططه مع إسرائيل، ورقة القدرة على رمي حجر كبير في بركة مياه السلام التي تريدها الولايات المتحدة هادئة كل الهدوء، وأنها كخطوة أولى عليها أن تتململ بحيث إما تتنبه الإدارة الأميركية وترتدع إسرائيل وتبتعد تركيا ويعدِّل الأردن من تطلعاته الطموحة في أن يرث الدور المصري، وإما تسعى مصر مع سوريا ولبنان وليبيا والسودان، وبدعم من فرنسا، إلى قيام تحالف المضطرين والمتضررين من الولايات المتحدة وإسرائيل. تحالُف يعمل من أجْل السلام العادل ويضغط على الإدارة الأميركية وعلى إسرائيل من دون أن تكون الحرب خياراً على الإطلاق. تحالُف يتعاون في مجال الإقتصاد والتنمية ويمهد الطريق أمام منتسبين جدد إلى عضويته، وبالذات العراق وإيران وبعض الدول الأُخرى.

وقد يبدو هذا الكلام مجرد تهيؤات، وأبعد ما يكون عن التحقيق، لكن ثمة حقيقة أساسية وهي أن تعاون مصر وسوريا من أجْل السلام فقط في معزل عن صراع الزعامة من شأنه أن يتسبب في حدوث صحوة عربية.

... وفي ضوء معاناة الطرفيْن المنظورة، وغير المنظورة، ثم في ضوء العدوان الإسرائيلي قبْل أيام على العرب والمسلمين بشخص الشقيق الأضعف لبنان، لا يعود سماع نبأ سار في هذا الإتجاه يصدر من القاهرة ودمشق في وقت واحد، بالأمر المستبعَد.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أبريل (نيسان) 1996

* * *

تمنيات على هامش العدوان الثنائي على لبنان

كنا نتمى بعدما قام الرئيس الفرنسي جاك شيراك بزيارته التاريخية إلى لبنان أن تُبرم الحكومة اللبنانية مع الحكومة الفرنسية معاهدة تنص على حماية محطات الكهرباء وبعض المواقع الإستراتيجية على صعيد الخدمات مثل المستشفيات والمدارس وسيارات الإسعاف. وبموجب هذه المعاهدة ترابط في هذه المرافق قوات فرنسية وترتفع فوقها الأعلام اللبنانية والفرنسية. ولو أن ذلك حدث وإلتزمت فرنسا كدولة كبرى من الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن بتنفيذ هذه المعاهدة، بحيث تعتبر أي أذى يمكن أن يلحق بمرفق مِن هذه المرافق بخطورة أذى يمكن أن يلحق بمحطات الكهرباء الفرنسية، من باريس إلى نيس ومن شرق فرنسا إلى غربها.. إنه لو حدث ذلك بموجب هذه المعاهدة لكانت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية آثرت أن تبقى في منأى عن توتر حاد في العلاقة بين إسرائيل وفرنسا ولكانت "عناقيد الغضب" إبتعدت عن هذه الأهداف، ولمصلحة إسرائيل أن تبتعد عِلْماً بأنه في ضوء مجزرة اليوم الثامن في موقع الأمم المتحدة في بلدة قانا نرى أنه لا شيء يردع إسرائيل عن الضرب حيث يحلو لها ما دامت الولايات المتحدة "تتفهم" دواعي هذا الضرب.

ومن السذاجة بمكان الإفتراض بأن الإدارة الفرنسية ومخابرات العهد الشيراكي لم تتوقع أن تقوم إسرائيل بالعدوان الذي قامت به، ولا بد أن الرئيس شيراك وهو يقوم بزيارته التاريخية للبنان لفت نظر مضيفيه أركان الدولة اللبنانية إلى أن العدوان آتٍ لا محالة من إسرائيل. ولو أنه من باب النصيحة والحرص أرفق

لفتْ النظر بإقتراح خلاصـــته أن تأخذ فرنســـا على عاتقها حماية هذه المرافق لكان بقي أهم إنجاز للدولة اللبنانية، وهو تشـغيل محطات الكهرباء في فترة زمنية قياسية وتخصيص ملايين الدولارات لهذا الغرض، في مأمن.

والآن ما دام لم يحدُث ما كان يتمنى المرء حدوثه، وإلى أن يأتي الوقت الذي تزول فيه أسباب الإعتداءات الإســـرائيلية إلى الأبد، فإن هذه المعاهدة تبدو مطلباً وطنياً لا يعترض، أو فلنقل يجب ألاَّ يعترض، عليه أي لبناني، خصـــوصـــاً أنه تم إقناع الرئيس حســـني مبارك بإنضمام مصر إلى المعاهدة.

وتأتي مبادرة الرئيس شـــيراك بعدما دخل العدوان الإســـرائيلي يومه الســـابع، والقاضـــية بإرســـال فنيين فرنســـيين إلى لبنان لتصـــليح ما دمرتْه إســـرائيل في محطات كهرباء لتؤكد ضرورة هذه المعاهدة، خصوصاً أن إســـرائيل تعرف حجم الأذى الشـــامل النفســـي والصـــحي الذي تُحدِثه عندما تدمر محطات الكهرباء في لبنان.

وكنا نتمنى، بعدما بدأ العدوان الإســـرائيلي على لبنان وإتضحت بعض الشيء معالم أهدافه، أن يحدُث أمران.

الأول، هو أن توجه الحكومة اللبنانية نداء إلى جميع الأطراف اللبنانية، ومن دون إستثناء وتحت أي مبررات، سواء تلك المقيمة في لبنان والمعارضة للنهج الحكومي العام أو تلك الموجودة خارج لبنان بدوافع التهجير السياسي أو الإبتعاد الإضطراري، يتضمن دعوة الجميع إلى التآزر وإلحاق هذا النداء بنداء الوحدة الوطنية اللبنانية يتم توجيهه إلى العالم ويتضمن الرغبة في الســـلام ومســـاعدة لبنان على تحقيق هذه الرغبة.

أما الأمر الثاني، فهو أن يضـــم الرئيس رفيق الحريري إلى طائرته الخاصـــة التي تنقَّل فيها عبْر بعض الدول العربية والأجنبية مَن يمثل ســـوريا الدولة ومَن يمثـل "حزب الله" في مجلس النواب ويتم طرح واقع الحال أمام الجميع. ومثل هكذا وفد يتناســـب مع مثل هكذا عدوان تعرض لـه الوطن، لكن الرئيس الحريري ذهب لوحده فلم يضـــفْ شـيئاً إلى ما يعرفه الذين زارهم، ولا سمع من الذين إلتقى بهم ما من شأنه أن يخفف النكبة التي لحقت بلبنان. وفي الوقت نفســـه توجَّـه وفـد من "حزب الله" في زيـارة إلى إيران إلتقى خلالها رموز القرار فيها، وأولهم مرشـــد الثورة آية الله خامنئي الذي نصـــح بإعتماد الحكمة كي لا يثيروا إســـتياء الشـــعب وذلك "لأن أحد أهداف الإعتداءات الإسرائيلية هو الوقيعة بين الشعب والمقاومة". وعندما حدث ذلك وتمت الزيارات والإتصالات العربية والدولية على النحو الذي جاءت فيه فإنه أعطى إنطباعاً بأن كل طرف ذهب إلى رَبعه أو إلى مرجعيته. وأعطى أيضاً إنطباعاً آخر بأن القضية التي من أجلها يتحرك الحريري هي وقْف تدمير إســـرائيل لما بناه عهده في أربع ســـنوات، وأن القضـــية التي من أجْلها ذهب وفد من "حزب الله" إلى إيران هي لتوظيف جهود الحكومة اللبنانية وســـعيها مع دول العالم في دعم صـــمود المقاومة.

وإلى ذلك إن الوفد المشترَك الذي نشير إليه لو قام بالجولة التي قام بها الحريري لكان أعطى إنطباعاً بأن صـيغة جديدة للتذكير بأحوال الجنوب اللبناني سـتحل محل صـيغة إسـتعمال الكاتيوشـا التي لا مردود لها سـوى الأذى البسـيط لإسـرائيل مقابل الأذى الكبير للبنان. ومثل هكذا وفد مشـــترك يبدو الرئيس رفيق الحريري مؤهلاً له أكثر من أي شخص آخر. كما أنه وفد قابل للتطوير وزيادة العضـوية، كأن يضـم أيضـاً الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصـــمت عبدالمجيد، والأمين العام لمجلس التعاون الخليجي الشـيخ جميل الحجيلان، والدكتور أسـامة الباز ممثلاً للرئيس مبارك، وعبدالهادي بوطالب ممثلاً للملك الحسن الثاني.

ومع أنه قد يقال: ما الذي في إسـتطاعة هذا الوفد أن يفعل أكثر مما فعلتْه من قبْل لجنة القدس التي أخفقت مهمتها أيما إخفاق. والجواب عن ذلك هو أن الوفد الذي نشـــير إليه يعطي إنطباعاً بأن الأمة كلها تؤازر الحالة اللبنانية، بمعنى أنها تريد حلاً سلمياً لها، وتلك مســـألة بالغة الأهمية بالنظر إلى أن العدوان الإســـرائيلي، الذي يحظى بكل الدعْم والمباركة من جـانـب الإدارة الأميركيـة يلعـب على ورقـة التنـافر والتناقض المتعددة الجوانب، بمعنى أن موقف لبنان الدولـة هو غير موقف لبنـان "حزب الله" وإن كـانـت بعض التصـريحات توحي بالموقف الموحَّد، وأن الدول العربية لا تؤازر الحالة اللبنانية، لأن بين معظم هذه الدول وبين "حزب الله" بما يمثله وبما تقوم به الفروع غير اللبنانية لهذا الحزب ثارات كثيرة. والوفد المشـترَك المشـــار إليه يبدد هذا الإنطباع ويجعل بالتالي دول العـالم تتهيـب الموقف وتنظر إلى الأمر بغير النظرة

التي جاءت عليها.

وكنا نتمنى بعدما حدثت معجزة الإجتماع الإستثنائي لوزراء الخارجية العرب أن يتم بث الجلسة على الهواء مباشرة، وكذلك عبْر شاشات الفضائيات العربية من دون إستثناء، تماماً مثلما يجري بث مباريات دوري كرة القدم. ومثل هذا الأمر كان سيرفع معنويات المواطن العربي من المحيط إلى الخليج، فضلاً عن أن الكلمات والخطب التي أُلقيت في الإجتماع الإستثنائي إتسمت بأنها كانت مسالمة بشكل عام ولم تصدر عن المجتمعين أي صيغة توحي بفض اليدين من عملية السلام العربي – الإسرائيلي التي تتم وفق مخطط إخضاع من جانب الإدارة الأميركية للإرادة العربية. كذلك كنا نتمنى لو أن الأمين العام للجامعة العربية ليس هو الذي يدعو إلى عقد قمة عربية، وإنما وزراء الخارجية من خلال بيانهم. وما دام هذا البيان صدر وقد خلا من الدعوة فهذا معناه أن الأمين العام بدا في دعوته إلى عقد قمة إستثنائية من أجْل لبنان كمَن يغرد خارج السرب، فضلاً عن أن عدم التجاوب مع دعوتك تلك يزيد الإحباط إحباطات.

وكنا نتمنى لو أن الدول العربية، وبالذات تلك التي أبرمت الصلح وقطعت أشواطاً على طريق التطبيع أو تلك التي تخطو في إتجاه التصالح والتطبيع وفتْح المكاتب التمثيلية – طلبت لمجرد أن بدأ العدوان – من إسرائيل وقْف العدوان، وأصدرت بيانات توضح خطورة هذا العدوان على العملية السلمية. بل كنا نتمنى لو أن الرئيس مبارك استدعى السفير المصري لدى إسرائيل إحتجاجاً وأبقاه في القاهرة ما دام العدوان مستمراً طالباً في الوقت نفسه من السفير الإسرائيلي مغادرة البلاد. كذلك كنا نتمنى لو يفعل الملك حسين ذلك ويحذو حذوهما وعبْر إجراءات مختلفة كل من دولة قطر وسلطنة عمان وتونس والمغرب. لكن ذلك لم يحدُث مع الأسف الشديد عِلْماً بأن هذه الخطوات هدفها الضغط وليس المزيد من الإشتعال.

أما ما هو الأهم من هذه التمنيات كلها التي أوردناها وتمنيات أُخرى كثيرة غيرها، فهو التمني لو أن الإدارة الأميركية إلتزمت موقفاً يتناسب مع دورها كراعية للسلام. لكان بدلاً مِن ذلك صدر عنها من البيانات والتصريحات ما ترك إنطباعاً في أذهان كل عربي من المحيط إلى الخليج، وربما في أذهان الحكام قبْل المحكومين، أنها ليست راعية للسلام ولا شيء من هذا القبيل على الإطلاق وإنما هي حليفة أزلية لإسرائيل وأن العدوان على لبنان هو عدوان ثنائي كاد يصبح ثلاثياً نتيجة موقف متسرع من وزير الدفاع البريطاني، وكأنما لا بد من عدوان ثلاثي على العرب كل أربعين سنة، وأن العد العكسي لهذا العدوان بدأ بعدما حصل على "مشروعية" في قمة شرم الشيخ. وكل التطورات والتداعيات تؤكد ذلك.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 22 أبريل (نيسان) 1996

* * *

محنة جامعة الخرطوم... ودور رجال الأعمال السودانيين

إعتدنا طوال أكثر من ربع قرن أن تكون جامعة الخرطوم هي المرصد لأحوال الجو السياسي في السودان. وكانت هذه الجامعة دائماً بالنسبة إلى المهتمين بأحوال السودان والمتابعين الدؤوبين للتطورات فيه، وأنا أحدهم، هي الدليل الذي يرشدنا إلى ما ستنتهي إليه الأزمة إذا نشأت، والصراع إذا نشب بين أهل السياسة، و"الإقتتال" الفكري إذا إندلعت شراراته.

جامعة في غاية التواضع من مكاتب الأساتذة إلى قاعات التدريس إلى المختبرات إلى غرف الطلبة، إلاَّ أنها دائماً كانت منارة مستقرة في بلد الصراعات الأزلية.

وقبْل أن يجرب الضباط فرصتهم في الحُكْم ويستعذبوا طيب الإقامة فيه كانت جامعة الخرطوم العقل الفكري للبلاد تمد الحُكْم بخيرة أبنائها الذين تخرجوا منها. وبعدما بات الحُكْم شراكة عسكرية – مدنية أفاد الذين أمضوا بضع سنوات في جامعة الخرطوم في تنوير أولئك الضباط الذين أتوا إلى الحُكْم من الكليات العسكرية، وليس مبالغة القول إن الضباط السودانيين الذين تسلَّموا الحُكْم إستفادوا من إعطائهم الآذان الصاغية للذين شاركوهم الحُكْم الآتين إلى السُلطة من تجربة دراسية عميقة في جامعة الخرطوم.

وفي إستمرار كانت الندوات التي تعقدها جامعة الخرطوم نموذجاً للندوات الجادة، أما إنتخابات مجالس الطلبة فكانت بأهمية إنتخابات المجالس النيابية، ومرت فترات كان فيها مقياس القوة السياسية

في البلاد هو لمَن يفوز في إنتخابات الجامعة.

ولقد تمكنت حكومات العهود المتعاقبة من تحقيق إختراقات كثيرة في بعض النقابات والإتحادات، إلاَّ أن جامعة الخرطوم كانت تصمد في إستمرار أمام هذه الإختراقات وحافظت بذلك على تقاليد ديمقراطية رفيعة المستوى.

وفي إستمرار كانت جامعة الخرطوم تعاني من المتاعب المالية، وهي من أجْل ذلك قلصت من إهتماماتها الفكرية على صعيد النشر عِلْماً بأن إصدارات الجامعة في معظمها من النوع الجيد. ولو أن وطأة المتاعب كانت أخف قليلاً لكانت المكتبة العربية تتباهى بإصدارات كثيرة في شتى المجالات نشرتْها جامعة الخرطوم.

ومع أن الأزمة المالية لجامعة الخرطوم كانت دائماً قائمة إلاَّ أن المعلومات المتوافرة حديثاً حول أوضاع الجامعة تثير في النفس الشجون. وما يتناقله البعض من معلومات هو أن الجامعة تعاني منذ أربع سنوات وضعاً بالغ الدقة حيث إن إستقالات الأساتذة في الجامعة تكاثرت وإن معظم الأساتذة يسافرون إلى الخارج للعمل أو يتحولون إلى أعمال تجارية لا تليق بمكانتهم العلمية. وتتحدث المعلومات أيضاً عن أن الراتب الذي يتقاضاه المدرس في الجامعة لا يتجاوز المائة دولار شهرياً، وأن الدكتور إسماعيل الحاج موسى وزير الإعلام الأسبق (في عهد الرئيس جعفر نميري) رئيس لجنة إستقطاب الدعم الخارجي لجامعة الخرطوم أخفق في الحصول على إعتمادات مالية ضخمة تنقذ الجامعة من المصير الذي آلت إليه، وأنه تبعاً لذلك فإن هجرة العقول والكفاءات الجامعية والأكاديمية تتواصل.

وقبْل جامعة الخرطوم واجهت جامعة عريقة ولها تاريخها المرموق هي الجامعة الأميركية في بيروت وضعاً مشابهاً، ذلك أنه بسبب سنوات الحرب والإقتتال ونضوب المال بدأت تلك الجامعة تتعرض إلى خطر الإنتقال من بيروت إلى دولة عربية أو غير عربية. كذلك بدأ أساتذتها يعانون ظروفاً معيشية صعبة نتيجة أن الليرة اللبنانية تعرضت لإنهيار مأساوي في سوق العملات وبعدما كان الدولار يساوي ثلاث ليرات صار الدولار يساوي خمسمائة ليرة ثم صارت الليرة تزداد هبوطاً إلى أن إستقر الحال على أن الدولار يساوي 1500 ليرة، أي إلى حد ما حصل في لبنان ما حصل في السودان الذي وصل سعر الجنيه فيه إلى سعر الليرة اللبنانية مقابل الدولار، ونتيجة لذلك بدأ أساتذة الجامعة الأميركية يبحثون عن فرص عمل في الخارج أو يقومون بأعمال لا تليق بمكانتهم العلمية ما دام إستقر الأمر على بقائهم في بيروت.

ثم نسمع أن جهوداً حثيثة بذلها لبنان مع الحكومة الأميركية لعدم نقل الجامعة من بيروت، وفي الوقت نفسه نسمع أن ترتيبات إتخذها رجل الأعمال رفيق الحريري (رئيس الوزراء بعد ذلك وما زال) وقضت بتخفيف الضائقة المالية التي تواجهها إدارة الجامعة وتنعكس بقساوة على معظم الأساتذة.

في ضوء ذلك هل كثير على بعض رجال الأعمال السودانيين الذين أنعم الله عليهم بالخير الوفير أن ينقذوا أهم معالم بلدهم من التآكل؟ وهل كثير عليهم ضخ بعض المال لكي تبقى جامعة الخرطوم منارة مستقرة ويبقى أساتذتها في منأى عن العوز؟

وبين السودانيين داخل السودان وفي بلاد الإغتراب الخليجي بشكل خاص عشرات المقتدرين الذين في إستطاعة الواحد منهم أن يحل المشكلة المالية لجامعة الخرطوم، وإذا أراد المرء أن يكتب على الورق إسماء هؤلاء ويشير إلى حجم اقتدارهم المالي لإحتاج إلى بضع صفحات، لكنني على سبيل المثال لا الحصر أوردُ هنا إسماء عدد من هؤلاء المقتدرين وهم الأمين الذي يواصل بعد وفاة والده الطيب الذكر الشيخ مصطفى الأمين إدارة أعمال كثيرة، وسمير قاسم الذي يواصل بعد وفاة شقيقه الطيب الذكر محمد أحمد قاسم إدارة أعمال كثيرة، وإبراهيم طلب، وكمال إبراهيم أحمد، والطيب النص، وعثمان خالد، والصادق حسن الترابي، وبابكر حامد، والشيخ عبد الباسط، وحسن قنجاري، وسعد أبو العلا، وفتْح الرحمن البشير، وعلي عبد الله يعقوب، وعلي أبرسي، وهاشم هجو، فضلاً عن عائلات قرنفلي وحجار وبيطار وكافوري.

وعندما يبادر أحد هؤلاء فإن الآخرين لا بد سيواكبون المبادرة. وهكذا ففي فترة قصيرة تنتقل جامعة الخرطوم من حال عدم القدرة على التنفس إلى حال طيبة من الانتعاش.

وإذا نحن أخذْنا ما فعله الرئيس رفيق الحريري في لبنان، كنموذج للتعامل مع الوضع الصعب الذي تواجهه الجامعات أو أساتذتها نتيجة أزمة مالية ثقيلة

الوطأة، نكتشف أن المزيد من أبواب الرزق فتحها الله أمام الرجل الأمر الذي يعني أن مساعدة دور العلم هي مثل مساعدة دور العبادة يعوض الله الذين يساعدون. كذلك إذا نحن أخذْنا بالنموذج المشار إليه أيضاً نكتشف أن بعض رجال الأعمال المقتدرين وأبرزهم عصام فارس حذوا حذو الحريري فبدأوا يساعدون الصروح العلمية للمحافظة على إستمراريتها وتطويرها. وهم فعلوا ذلك بعدما لمسوا مدى أهمية الخطوة التي أقدم عليها الحريري والأثر البالغ الذي تركتْه في نفوس المواطنين، ذلك أن كل مواطن يفترض أن أولاده وأحفاده سيدخلون الجامعة. ومن هنا فإن رجل الأعمال عندما يساعد الجامعة فإنه بذلك كمن يساعد كل مواطن. هذا فضلاً عن أن إسم من يساعد يبقى محفوراً في أذهان الناس جيلاً بعد جيل. وهذا على سبيل المثال إسم البغدادي ذلك المقتدر الذي يذكر إسمه كل سوداني تخرَّج من جامعة الخرطوم، لأن الجامعة أطلقت إسمه على إحدى قاعاتها رداً على أريحية صدرت عنه وتمثلت بتخصيص وقف من أملاكه الكثيرة في السوق العربي الشهير في الخرطوم يتم الإنفاق من دكاكين هذا الوقف على الجامعة. والبغدادي البعيد النظر كأنه ما زال حياً على رغم أنه في ذمة الله منذ سنوات. وكم سيكون مثلجاً للصدور لو بدأنا نذكر مستقبلاً أن إسماء رجال الأعمال الذين أوردْنا أسماءهم وأسماء آخرين كثيرين – لم تسعفنا الذاكرة في ذكْر أسمائهم أو ربما لأنهم من رجال الأعمال الذين يؤثرون عدم التظاهر بالقدرة المالية – تم إطلاقها على قاعات وأقسام وملاعب ومكتبات جامعة الخرطوم كرد لجمائل هؤلاء على مساهمتهم الفعالة في تعزيز جامعة الخرطوم وعدم هجرة أساتذتها إلى الخارج.

ويبقى أمران. الأول هو أن المقتدرين من رجال الأعمال السودانيين عندما يساندون جامعة الخرطوم لكي تبقى المنارة المستقرة لا يخدمون بذلك عهداً أو نظاماً معيَّناً، ذلك أن العهود والأنظمة إلى زوال بينما جامعة الخرطوم باقية شأنها شأن مؤسسة الجيش خير نموذج للوحدة الوطنية في البلاد. والأمر الثاني هو أنه لو أن السودان ليس عامراً برجال الأعمال المقتدرين مالياً لكنا تمنينا على بعض المقتدرين العرب أمثال الأمير الوليد بن طلال والحريري وصالح كامل أن يشملوا بإهتمامهم ومساندتهم جامعة الخرطوم التي ترفد السودان منذ تطويرها عام 1956 بعشرات الخريجين الذين يتباهون بأنهم يحملون شهاداتها، والتي تئن منذ سنوات من شدة الوطأة المالية عليها ويهجرها أساتذتها... على مرأى ومسمع الذين أعطاهم الله الرزق بوفرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 مايو (أيار) 1996

* * *

لبناني أكثر من اللبنانيين.. أو مثلهم

خلال أيام المحنة التي عاشها لبنان بسبب العدوان الإسرائيلي عليه، نشط الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد كما لم ينشط إزاء أي محنة عربية أُخرى عاشتها بعض دول المنطقة.

والذي ساعد الأمين العام على أن ينشط ليس فقط ضيقه الشخصي من العدوان الذي واجهه لبنان وإنما لأن الأجواء العامة في مصر كانت ضد هذا العدوان وإلى حد الإنفجار ولأن هذه الأجواء ضغطت بالتالي على الموقف الرسمي الذي ظهر واضحاً في معظم وسائل الإعلام المصرية وفي صحف الدولة وصحف المعارضة على حد سواء.

ولقد أدلى الأمين العام بتصريحات إلى وسائل الإعلام المصرية والعربية والدولية من صحافة وإذاعات ومحطات تلفزيونية وبدا في لهجته واحداً من الصقور، بل قد يجوز القول إن صوته كان أعلى الأصوات العربية الرسمية وخلت العبارات التي وردت في تصريحاته من التحفظات التي أوجبتها حالات السلام بين بعض الدول العربية وإسرائيل.

وعندما عقد وزراء الخارجية العرب إجتماعهم الإستثنائي في مقر الأمانة العامة في القاهرة بدا الدكتور عصمت عبد المجيد كما لو أنه هو رئيس الوفد اللبناني وليس الأمين العام للجامعة، وذلك لكثرة الإتصالات التي أجراها والتعليقات الكثيرة الحدة في حق إسرائيل التي أوردها على هامش هذه الإتصالات.

ولم يكتفِ الأمين العام بذلك وإنما دعا إلى عقْد قمة عربية تناقش الوضع في لبنان والعدوان الإسرائيلي عليه وبدأ على الفور إجراء الإتصالات بهدف تنشيط ما دعا إليه.

وعلى مدى أسبوع بدا الأمين العام أمام العالم كما لو أنه الناطق الرسمي بإسم الدول الأعضاء إنما فقط

بالنسبة إلى موضوع العدوان على لبنان. وقد أفاد في مبادرته هذه الجميع وبالذات الأنظمة المعترِضة على ما تقوم به إسرائيل من إعتداءات وتؤازرها سياسياً في ذلك الولايات المتحدة، وهذه الأنظمة أوضحت أنها معترضة ومتضايقة إلاَّ أنها في الوقت نفسه لا تريد إتخاذ الموقف المتشدد خشية إنعكاس ذلك على عملية السلام من جهة – وهي مرتبطة رسمياً بهذه العملية – وعلى العلاقة مع الولايات المتحدة من جهة أُخرى، خصوصاً أنها لا يمكن أن تهاجم العدوان العسكري الإسرائيلي وتغفل الجانب السياسي من هذا العدوان والمتمثل بتأييد إدارة الرئيس كلينتون للعدوان وعدم الإكتفاء بالتأييد صمتاً حيث كانت هنالك تصريحات لأكثر من طرف في تلك الإدارة تبدي التفهم للعدوان مقابل عدم إبداء أي تفهُّم لدواعي عمليات المقاومة التي ينفذها عناصر "حزب الله" في الجنوب اللبناني. ومِن هنا فإن مبادرة الدكتور عصمت عبد المجيد أزاحت عن صدور بعض الدول الأعضاء حِمْلاً ثقيلاً وخففت من حجم علامات الإستفهام والتعجب التي رسمها المواطن العربي حول هذه الدول وموقفها، خصوصاً أن قطاعات عريضة من الرأي العام العربي إفترضت أن الدكتور عصمت عبد المجيد إنما يدلي بما يدلي به من تصريحات وينشط في أكثر من إتجاه، بتكليف من الملوك والرؤساء العرب، ومن الطبيعي أن تفترض تلك القطاعات ما إفترضته وذلك لأن الدكتور عصمت عبد المجيد هو الأمين العام للجامعة العربية ولأن مكانته الوظيفية تتيح له أن يوجه الدعوة إلى إنعقاد قمة للملوك والرؤساء. ومَنْ في قدرته أن يفعل ذلك يترك إنطباعاً لدى البعض بأنه مكلَّف رسمياً بهذا التصرف وليس فقط يجتهد ويقترح. هذا مع الأخذ في الإعتبار أنه فعل من دون تكليف وأن دعوته قوبلت بالحد الأدنى من التجاوب الذي تفرضه لياقات لا أكثر. ولو كان الأمر عكس ذلك وكان الملوك والرؤساء العرب راغبين بالفعل في عقد قمة لكانت دعوة الأمين العام إلى عقد القمة إجراءاً شكلياً بمعنى أنه أحسن التصرف بمبادرته شخصياً إلى الدعوة للقمة وأنه لمجرد أن أطلق الدعوة في تصريح يبدأ العمل على الإنعقاد وبحيث يتم ذلك في فترة لا تتجاوز الأسبوع أي تماماً كما حدث بالنسبة إلى القمة العربية الإستثنائية في القاهرة عقب الغزو العراقي للكويت يوم 2 أغسطس (آب) 1990. أما لماذا الإنطباع بأن الدكتور عصمت عبد المجيد أحسن التصرف – في نظر معظم الملوك والرؤساء – بمبادرته شخصياً إلى الدعوة للقمة، فعلى أساس أن هؤلاء يريدون إنعقاد القمة لكنهم يفضلون ألاَّ يكون أحد منهم هو الداعي إليها للإعتبارات الموضوعية التي أشرنا إليها وفي هذه الحال فإن إطلاق الدعوة من جانب الأمين العام هو الحل الأمثل.

ويصعب تحديد السبب الذي يجعل الأمين العام للجامعة يتصرف إزاء المحنة اللبنانية على النحو الذي تصرَّفه، إلاَّ أن جملة دوافع قد تشكِّل هذا السبب. من بين هذه الدوافع أن الأمين العام كان ينتظر مناسبة يرُد فيها على الذين إفترضوا أن الجامعة إنتهت ولا أمل يرجى منها وجاء العدوان الإسرائيلي والموقف الأميركي الداعم له يشكِّلان المناسبة الأفضل لتأكيد أهمية الجامعة في الظروف الصعبة التي تواجهها الأمة. ومن الدوافع أيضاً أن الدكتور عصمت عبد المجيد الذي تم التجديد له قبْل بضعة أسابيع أراد من هذا التعاطي اللافت للنظر أن يوضّح أن تعزيز الجامعة ضروري وأنها إزاء محنة مثل التي واجهها لبنان وقوبلت بغضب عربي شعبي عارم من المحيط إلى الخليج تشكِّل المَخرج المناسب – كما أوضحْنا في أسطر سابقة – للجميع، كذلك يمكن الإفتراض بأن الجو الشعبي المصري الغاضب على ما تفعله إسرائيل وإطلاق صيحات تطالب باتخاذ خطوات حازمة مع إسرائيل، أقلَّها سحْب السفير، لعب دوراً أساسياً في موقف الدكتور عصمت عبد المجيد ونشاطه ومبادرته في شأن القمة الإستثنائية. فهو واحد من أبناء الشعب المصري ولا يلغي هذا كونه أكبر موظف عربي (على أساس أن منصب الأمين العام للجامعة العربية هو أعلى الوظائف في إطار المنظمة التي تجمع كل الدول العربية)، كما أن موقفه الذي إتخذه لا يتعلق بخلاف بين أطراف عربية – مثل الموقف المتعلق بالعراق أو الموقف المتعلق بالأزمة بين مصر والسودان – لكي يلتزم الهدوء والحياد، وإنما هو خلاف عربي – إسرائيلي. وفي مثل هذه الحال فإن القيود المفروضة على الأمين العام، ما زالت حتى إشعار آخر، أقل من تلك القيود المفروضة عليه بالنسبة إلى موضوع العراق. ونلاحظ هنا أيضاً أن أسلوب تعاطي الأمين العام مع موضوع العدوان الإسرائيلي على لبنان يشبه في بعض جوانبه أسلوب تعاطيه مع أزمة لوكربي، وفي موضوع العدوان وتشابك أزمة لوكربي يتحرك الدكتور عصمت عبد المجيد بطمأنينة نتيجة

أن الحُكْم المصـــري متعاطف مع الحالتين، أي مع لبنان وليبيا، ومن المؤكد أنه لو كان هنالك تقاطع مصري مع الحالتين لكان الأمر بالغ الصعوبة بالنسبة إليه ولكان تعاملُه كأمين عام مثل تعاملِه مع موضوع العراق وأزمة مصر مع السودان.

واللافت للنظر أن الأمين العام واصـــل حتى بعد وقْف إطلاق النار بين إســـرائيل ومقاتلي "حزب الله" سعيه ومبادرته، ونراه لمجرد أن تم التوصل إلى إتفاق في هذا الشأن يتوجه إلى العاصمة اللبنانية في الطائرة الخاصة لرئيس وزراء لبنان رفيق الحريري التي أرسلها إلى القاهرة لهذا الغرض. وهو في خطوته هذه بدا أيضاً كمن ينوب عن الدول الأعضاء في القيام بعمل لم يقوموا به على رغم وجاهة الأسباب وموضوعيتها بالنســـبة إلى بعضـــهم. فالذي حدث أنه طوال أيام العدوان الإســـرائيلي لم يقم وزير خارجية عربي أو مبعوث شخصي يمثل حاكم هذه الدولة العربية أو تلك بزيارة إلى لبنان، في حين زارها وزراء خارجية أجانب أحدهم (وزير خارجية فرنســا) بقي مرابطاً في لبنان – مع الإنتقال أحياناً إلى دمشق وإسرائيل – إلى أن تم التوصـــل إلى إتفاق وقْف إطلاق النار. ومن الطبيعي أن الرأي العام العربي من المحيط إلى الخليج كان في غاية الضيق وهو لا يشاهد أو يسمع أن مسؤولين من الدول العربية زاروا لبنان بينما زاره مســـؤولون أجانب. ولو أن الأمين العام زار لبنان أيام العدوان وليس بعد وقْف إطلاق النار لكان بدا أمام الرأي العام العربي أنه – خصوصاً بعد مبادرة الدعوة إلى القمة – مكلَّف من الـ 22 دولة بهذه الزيارة. لكن يبقى في أي حال قيامه بالزيارة بعد ما تم التوصـــل إلى إتفاق وقف إطلاق النار خطوة طيبة بما تتضـــمنه من إيحاءات، وكفيلة إلى حد ما بتعويض زيارات كان يجب أن يقوم بها مســـؤولون عرب خلال العدوان للمؤازرة أو بعد وقف إطلاق النار من أجْل شـد العزيمة اللبنانية التي ذاقت أهوال عدوان يبدو في بعض مراحله وكأنما كان الحرب العربية – الإســـرائيلية الثالثة. وكان ســـيبدو الأمر ثقيلاً جداً على النفس لو أن الإجتماع الإستثنائي لوزراء الخارجية العرب لم ينعقد. إلاَّ أن إنعقاد ذلك الإجتماع أوحى بأن وزراء الخارجية العرب الذين لم يكلِّف أحد منهم نفسه زيارة لبنان أيام العدوان كانوا في مقر الأمانة العامة للجامعة وكأنما هم يســـتقبلون مجتمعين المحنة اللبنانية ويحاولون بإجتماعهم التقليل من وطأتها على اللبنانيين.

ونخلص من ذلك إلى القول إن الجامعة العربية إســتعادت بعض الإحســاس بالحاجة إليها وأن الأمين العام الدكتور عصـــمت عبد المجيد بالأســـلوب الذي اعتمده في موضـــوع العدوان الإســـرائيلي على لبنان تصـــرَّف نيابة عن 22 دولة ومن دون أن يكلفه أحد، أو بتعبير آخر إن الذي حدَث هو أن الأمين العام تصـــرَّف كما لو أنه مكلَّف بالدور الذي قام به وأن الدول الأعضاء تصرفت كما لو أنها كلَّفت.

وللمرء أن يتصور لو أن أيام العدوان إنقضت من دون أن يكون هنالك موقف عربي كذلك الموقف الذي صـــاغه الدكتور عصـــمت عبد المجيد من دون أن تسبب الصياغة إحراجاً لأحد، كذلك للمرء أن يتصور لو أن العدوان توقف من دون أن تتم الزيارة العربية اليتيمة للبنان ونقصد بذلك – حتى كتابة هذا المقال – زيارة الأمين العام الذي وطأت قدماه أرض مطار بيروت في الوقت الذي كان بدأ نصـــف مليون لبناني شردتهم الصواريخ الإسرائيلية تأتيهم براً وبحراً وجواً رحلة العودة الجديدة من ذل التهجير إلى قســـاوة الصمود.

ويبقى أن العدوان الإســـرائيلي مرة أُخرى وربما ليســـت أخيرة على لبنان أفرز مواقف محلية وعربية ودولية تدعو إلى التساؤل والدهشة والحيرة، من بينها موقف الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصـــمت عبد المجيد الذي تصـــرف كما لو أنه لبناني أكثر من اللبنانيين أو مثلهم، وأيضـــاً كما لو أنه صـــقر... وأن الآخرين حمائم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 13 مايو (أيار) 1996

* * *

تراث كينيدي... وموروثات كلينتون

لم يحظَ حاكم في تاريخ العالم وتحديداً في التاريخ الحديث الذي عمره نصـــف قرن بهالة كتلك التي حظي بها الرئيس الأســـبق للولايات المتحدة جون كينيدي. وقد تكون ملامح الوجه والقســـمات المميزة وعلائم الرضـــا المرتســـمة دائماً على هذا الوجه هي وراء تلك الهالة، حيث إن أي شـــخص رجلاً كان أم إمرأة ينظر إلى وجه كينيدي يشـــعر بالإرتياح ويشـــعر أيضـــاً بأن جون كينيدي وهو في

الصورة يرد التحية على مَن ينظر إليه، أي إلى حد ما مثل الشعور عند النظر بعد عشرات السنين إلى لوحة الموناليزا.

ولكم حاولنا كصحافيين في الستينات أن نوضح لسائلينا من القراء سر هذا التميز لشخصية جون كينيدي ولم نجد ما نقوله سوى أن ذلك نعمة من الله سبحانه وتعالى يسبغها على عباده الذين يحظون بمرضاته. ويبدو أن جون كينيدي هو أحد هؤلاء.

بعد الرحيل الدرامي الصاعق لجون كينيدي تَعاقَب على الحُكْم في الولايات المتحدة عدة رؤساء لكنهم كانوا جميعهم – إلى ما قبْل مجيء بيل كلينتون – غليظي القلوب متجهمي الوجوه لا تبعث قسماتهم على الإرتياح. وكان الجامع المشترَك لهؤلاء أن ليس في قلب أي منهم رحمة على الأطفال والنساء ولا يمانعون في إصدار الأوامر للقيادات العسكرية لكي تقصف من دون أي تردد المواقع التي ترى قصْفها بصرف النظر عما في داخل هذه المواقع من أطفال أو نساء. كما أنهم لا يمانعون في دعْم إسرائيل وتأييدها في المحافل الدولية إذا تطلَّب الأمر، في حال تعرضت للشكوى نتيجة إعتداءات متوحشة قامت بها قواتها.

إلى أن جاء الرئيس الحالي بيل كلينتون الذي إستبشرْنا خيراً به لأنه أعاد ذاكرتنا إلى الستينات ووجدنا فيه بعض ما كان يتميز به جون كينيدي. بل إنه شخصياً دغدغ مشاعر الآخرين بتركيزه على أن جون كينيدي هو مثله الأعلى. وأرفق الحديث حول هذه المسألة بصور له وهو شاب في مقتبل العمر يصافح الرئيس جون كينيدي. ولأنه مثل كينيدي ينتميان إلى الحزب الديمقراطي فإننا وجدْنا أنفسنا نستقبل بتفاؤل كبير وصوله إلى سدة الرئاسة وإعتبرْنا أن سنواته في الحُكْم ستعوضنا ما عانيناه على أيدي الذين سبقوه وأتوا تباعاً بعد إغتيال جون كينيدي. وأمضينا سنتين بين الشك واليقين ثم بدأنا نلاحظ أن كلينتون جاء إلى الحُكْم بوجه جون كينيدي وأنه سيحكم بوجه رونالد ريغان وجورج بوش. ثم حسم إقتراب معركة تجديد الرئاسة الشك من اليقين وبات واضحاً لنا كل الوضوح أن كلينتون الذي إعتقدْنا أنه سيكون جون كينيدي آخر هو ليس كذلك على الإطلاق وإنما هو نسخة من الآخرين الذين تركت سنوات حُكْمهم في نفوسنا مرارات كثيرة.

ونستغرب كيف أن الرئيس كلينتون يتحدث بفيض من المشاعر الإنسانية عن والدته (نشرت المقال الذي كتبه لمناسبة عيد الأم صحيفة "الشرق الأوسط" في العدد الصادر يوم السبت 11 مايو (أيار) 1996) وعن أهمية الأم في حياته شخصياً وفي حياة أي إنسان، وكذلك عن الدروس التي تعلَّمها من أمه ومن بينها الإهتمام بالأطفال قبل كل شيء. فالذي يذوب حناناً وهو يتحدث عن الأم وعن الأطفال يجب أن يدين الذين يتسببون في قتْل الأمهات والأطفال. أما إذا كانوا يفعلون ذلك عمداً (على نحو ما فعله الإسرائيليون في بلدة قانا الجنوبية اللبنانية خلال العدوان على لبنان والذي أكده تقرير موثق ومحايد من الأمم المتحدة) فإن الرئيس كلينتون كان يجب أن ينتفض وأن يُصر كرئيس للدولة العظمى في العالم – وفي إجراء إستثنائي – على إحضار الأفراد الذين قصفوا الملجأ التابع للأمم المتحدة إلى مبنى المنظمة الدولية ومحاكمة هؤلاء أمام هيئة تضم ممثلين عن القارات الخمس في العالم. ولو أن الرئيس كلينتون فعل ذلك لكان أكمل إعطاء المنظمة الدولية الهيبة التي أعطاها إياها الأمين العام بطرس غالي بنشره التقرير وهو أمر مطلوب لأنه كان سيعني أن الأمم المتحدة هي خير مساند للدولة العظمى ونظامها العالمي الجديد الذي تريد فرْضه على العالم. ونحن نرى أي تعثُّر تُمنى به الإدارة الأميركية في تنظيم شؤون العالم نتيجة أنها تستهين بالأمم المتحدة أحياناً وتهتم بها عندما تحتاج إليها أحياناً أُخرى. ومثل هذا الأمر لن يجعل الوضع يستقيم لكنه كان سيبدو كثير الإستقامة لو أن هذه المنظمة الدولية تمارس ما يمارسه القاضي، فهو إذا كان نزيهاً إصطلحت الأمور مهما جاءت الأحكام مفاجئة. أما إذا كان صاحب ضمير مرتهَن فإن الشر ستتبْعه شرور. وبالنسبة إلى الأمم المتحدة فإن الأحكام التي جاءت مفاجئة هي إدانة إسرائيل، وبدلاً من أن ترتاح إدارة الرئيس كلينتون إلى ذلك وتعتبر أن مثْل هذا الحُكْم يحل إشكالات كثيرة ويرضي المتضرر المعتدى عليه من دون أن ينهار المعتدي فإنها إرتبكت أيما إرتباك وصدرت عنها تصرفات بدت فيها وكأنها هي المعتدية وأن التقرير يقصدها إنما تحت إسم إسرائيل. وهذا إلى حد ما قريب من واقع الحال.

لقد حدثَ في ملجأ الأمم المتحدة في بلدة قانا "هولوكســـت" حقيقي وفاضـــت أرواح أطفال على صدور أمهاتهم وتناثرت بعض أشلاء أجساد الأبرياء اللاجئين إلى حمى الأمم المتحدة في كل الأرجاء بحيث لم يعد من الســهل معرفة أصـــحاب الجثث. ورغم كل ذلك فإن الرئيس كلينتون شـــغل نفســـه بالصـــغائر فلم يرف له جفن لما فعله العدوان الإســرائيلي على الملجأ ولم يخجل لأن هذا العدوان حدث في ظل زعامته للعالم وتحت مظلة تأييد غير محدود لإسـرائيل. ثم نجده يمسـك بالقلم ليكتب عن أمه والدروس التي تعلَّمها منها. وما إستخلصناه من كلامه هنا هو أنه إنسان متعدد الوجوه غليظ القلب. ولا نعتقد أنه يحب أمه كما أوحى في الأسطر القليلة التي كتبها. فالذي يحب أمه لا يمكن أن يتحمل تناثر أجســـاد أمهات الآخرين، والذي يكتب بحنان عن درس حب الطفولة والأطفال الذي تعلمه من أمـه لا يمكن أن يتحمـل أن تفيض أرواح أطفـال مثخنين بشـظايا العدوان، على صـدور أمهاتهم أو بين أيدي آبائهم.. إلاَّ إذا كان الرئيس كلينتون يكتب ما كتبه للإيحاء بمدى ألمه لأن أمه علَّمته دروســاً إستمر متمسكاً بها إلى حين بات رئيساً ففقد التوازن ونسي الدروس من أجْل البقاء ثلاث سنوات إضافية في البيت الأبيض.

ومن باب المصـادفة يجري هذا الإختبار لنفسـية الرئيس كلينتون وشخصيته وكيف أنه بوجهيْن وربما أكثر في وقـت يتم في نيويورك مزاد على بعض مقتنيـات الرئيس الراحـل جون كينيـدي ويتســـابق كثيرون ويدفعون مبالغ خيالية على كرســـي كان كينيـدي يجلس عليـه ويســـاعده في تخفيف آلام الظهر وعلى علبة لوضع السيجار فيها وعلى أشياء أُخرى كثيرة حميمية لا يحتاج مَن يشـــتريها إليها ولكنـه نوع من العرفـان بـالجميـل لتراث رئيس مر كالبرق في حياة أميركا والعالم.

ولا يبدو أن الرئيس كلينتون إســـتفاد من هذا التراث تماماً كما لم يســـتفد من دروس تعلَّمها من أمه. وفي المستقبل سينشغل كثيرون بمواقف مخجلة إتخذها الرئيس كلينتون من بينها مســـاندة المعتدي ولو كان ذلك على حســـاب كرامة الدولة العظمى، وتقبُّل مبررات قتْل الأمهات والأطفال المحتمين في ملجـأ للأمم المتحـدة. وهـذه الأمور وغيرهـا هي موروثات بيل كلينتون لأجيال القرن الواحد والعشرين وهي تمـاماً نقيض تراث جون كينيدي الذي أعطى العمل السـياسـي في حقبة السـتينات نكهة أفضـل بكثير من أميركا في ما بعد وبالذات أميركا النظام الـدولي الجـديـد الـذي ورثـه كلينتون عن الرئيس الأسبق جورج بوش... فكان ذلك الإرث المكروه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – مايو (أيار) 1996

* * *

القمة التي يتبناها العرب.. لماذا تخشاها الإدارة الأميركية؟

نتمنى لو أن الحديث حول القمـة العربيـة يتوقف لفترة من الزمن فلا يطالب أحد من القادة بعقدها فقط لمجرد التسـجيل بأنه طلب، أو لأن هذا الحُكْم العربي أو ذاك يشـعر أن لا سـبيل سـوى القمة لإنهاء مأزق سـياسـي أو معنوي وجد نفسـه فيه ويريد الخروج منه. وعندما نتمنى ذلك فعلى أســاس أن الدعوات المتكررة وغير المســتجابة للقمة العربية تتســبب لدى المواطن العربي في زيادة نســبة الإحباط الزائدة أصـــلاً عن المعدل المحتمل. وما يحدُث منذ ست سنوات هو أنه تشـــتد الأزمة العربية تعقيداً فيفترض المواطن العربي أن القادة العرب ســـيتنادون إلى الإجتماع ويواجهون الأزمـة بمـا يحقق الحلول المعقولـة، ثم لا يلبـث أن يتفاءل عند صـــدور أول دعوة الى القمة من قبل هذا الحاكم أو ذاك. وخلال ثلاثة أسابيع يستغرقها الحديث عن القمة المقترحة والردود في شـــأنها يكون المواطن في حالة من الطمأنينة لا مثيل لها إلى أن تصـــدُر إشـارات توحي بأنه لا مجال أمام القمة للإنعقاد تحت حجة الظروف غير المواتية. وهكذا من ذروة الطمأنينة إلى الإحباط بنســـبة أكبر مما كان عليها. ثم تمر بضـعة أشـهر ويتجدد الحديث حول القمة والسـعي لها ولا تنعقـد ويصـــاب المواطن العربي بـالمزيـد من الإحباط.

على هذا المنوال تسـير الأمور منذ سـت سـنوات، ووصـــلت إلى حد أن كل دول العالم الموزعة على تكتلات أو محاور أو منظمات تَعقد إجتماعات قمة بشـكل دوري ومبرمج ومن دون مخاضـات، إلاَّ الدول العربية فإنها لا تســتطيع عقْد قمة يتباســط فيها أهل القرار العربي في واقع الحـال. ولقـد أوحى الرئيس

حسني مبارك قبْل بضعة أيام مدى صعوبة عقْد قمة عربية عندما قال رداً على سؤال عما إذا كان يمكن عقْد قمة عربية شاملة: «إننا نعقد لقاءات قمة عربية محدودة ويمكن أن يزيد العدد حتى نستطيع الدعوة لقمة عربية شاملة...». وقد أدلى الرئيس مبارك بوجهة نظره هذه في مسألة القمة خلال مؤتمر صحافي عقده في القاهرة مع ضيفيه الملك حسين والرئيس ياسر عرفات يوم الاحد 12 مايو/ أيار 1996 بعدما أنجز القادة الثلاثة قمة «إتفقوا فيها على إحترام الحقوق والواجبات المتبادلة وتطبيق مبدأ الأرض مقابل السلام والإنسحاب من جميع الاراضي الحربية المحتلة، وعلى أن السلام المأمول هو السلام الحقيقي الذي ينبذ مفاهيم التوسع والتفوق والسيطرة ويقوم على الإلتزام بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وإحترام وتأكيد الحقوق الفلسطينية والعربية والاسلامية والمسيحية القانونية والتاريخية في مدينة القدس. وبغير هذا يكون الحديث عن السلام مجرد قول خال من أي مضمون يقطع الطريق على أي شريك عربي مستعد حقاً لتحمُّل مسؤولية السلام والإسهام في بنائه»، وكذلك إتفقوا على مواصلة التنسيق، وعلى أن يلتقوا في الأردن في الأسبوع الأول من يونيو (حزيران) المقبل.

والذي يمكن إستخلاصه من سعي الرئيس مبارك وكلامه في شأن القمة الشاملة هو أنه يريد أن يمارس بعض الضغوط على الإدارة الأميركية وليس في يده أكثر من القمة العربية لهذا الغرض، فضلاً عن أن الرئيس المصري يميل بين الحين والآخر إلى إختبار إمكانية الدولة العربية الأكبر التي يترأسها في جمْع الاشقاء على نحو ما فعله الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر عام 1964 عندما كان العالم العربي منشغلاً بالخلافات الصغيرة في حين كانت إسرائيل تعمل على بناء قوتها النووية وتخطط للحرب بعد ثلاث سنوات وكيف تحتل أكبر مساحات ممكنة من الأرض المصرية والسورية والأردنية. وقد يجوز الإفتراض بأن الرئيس مبارك رأى من وجهة نظره – ثم في ضوء العدوان الإسرائيلي على لبنان ومجزرة قانا التي ألهبت مشاعر المصريين – أن الشبه كبير بين اليوم والبارحة، وأن صراع مرحلة السلام الراهنة هو بخطورة صراع مرحلة الستينات عندما كان حديث المواجهة المسلحة هو الأول والأخير بين الأحاديث. وهو في سبيل تهيئة الأجواء أمام القبول العربي بفكرة القمة شجع الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد على أن يسعى في الإتجاه نفسه فبذل الرجل كل الجهد الممكن، وشجع أيضاً كتاب وصحافيي مصر على تناول السياسة الأميركية بما هو أكثر من النقد وإلى درجة أنه لم يبق أحد لم يكتب ضد أميركا – وفي الصحف القومية بالذات – أو رسم الصور الكاريكاتورية التي تظهر بشاعة موقفها. ولقد أظهر هذا التساهل في شأن حرية الكتابة – وبالذات في الصحف القومية – عن السياسة الأميركية كم أن نفوس الكُتَّاب المصريين معبأة تماماً ضد أميركا وكم أن هؤلاء تواقون إلى أن يضعوا على الورق ما يجول في خاطرهم. كما أن هذه الكتابات التي أخذت مداها الكبير ساعدت في تنفيس إحتقانات في أوساط المصريين عموماً وقطعت الطريق على تظاهرات ضد أميركا كان يمكن حدوثها وكان التصدي لها سيبدو غير مقنع. ومثل هذه التعبئة ضد أميركا والحديث في الوقت نفسه عن القمة يوحيان بما لا يدع مجالاً للشك أن القمة لا تنعقد لأن الولايات المتحدة لا تريد ذلك، وهي إدراكاً منها لحقيقة مشاعر العرب نحوها من جهة ونحو بعضهم البعض من جهة أُخرى تخشى أن تتحول القمة في حال إنعقادها إلى موقف عربي موحَّد يربك لها كل خططها بما في ذلك الذي لم يتم تنفيذه من هذه الخطط. وفي حال حدوث الموقف الموحَّد الذي نشير إليه فإن المحنة العراقية لن تبقى على ما هي عليه وعلى نحو ما تريده لها الإدارة الاميركية من إستمرارية. كذلك إنه في حال حدوث الموقف الموحَّد فإن هذا التجاوز من جانب إسرائيل للسمعة العربية وهذا التعمد من جانبها للإستهانة بالقيم العربية وبإرادة القرار العربي سينتهي وإلى الأبد. وأخطر ما في هذا التجاوز ليس من يقوم به وإنما مَن يرعاه. وحتى الآن لا ندري ما هو الهدف من هذه الرعاية من جانب إدارة الرئيس كلينتون للتجاوزات الإسرائيلية. فإذا كان ذلك من أجْل دعْم عملية السلام فإن بعض التجاوز الإضافي كان من شأنه أن يجعل عملية السلام تتشقق. أما إذا كان ذلك من أجْل تأكيد قوة ذراع أميركا فإن بعض التأمل الموضوعي من جانب الإدارة الأميركية في تقارير سفاراتها لدى الدول العربية عن موقف الرأي العام من مساندة أميركا لإسرائيل وبالذات بعد مجزرة قانا من شأنه أن يعطي فكرة خلاصتها أن إنتفاضة غضب على الإدارة الاميركية لا مثيل له كانت على أهبة الحدوث وأن التقرير الذي أذاعه الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور بطرس غالي أفاد في أنه إحتوى ذلك الغضب فلم يحدُث الإنفجار.

وإلى ذلك فإن الولايات المتحدة عندما تخشى من أن تتحول القمة العربية في حال إنعقادها إلى موقف عربي موحد فإنها تأخذ في الإعتبار أن في نفسية العربي من الشفافية القومية ما تجعله يلبي نداء الموقف الموحد في لحظة رهبة مما يمكن أن ينتهي إليه المصير. وهذا لبنان نموذج فمن كان يتوقع أن بلداً إكتوى ست عشرة سنة بنار الحرب التي شتتت أبناءه ودمرت أوصاله يختار الموقف الموحد عندما شنت إسرائيل عدوانها الذي كانت مجزرة قانا إحدى حلقاته. ومن المؤكد أن ما فعله اللبنانيون يمكن أن يفعله بقية الأشقاء العرب، وهم فعلوه عندما عقد الإتحاد البرلماني العربي جلسته الختامية في بلدة قانا بجوار شهداء المجزرة الراقدين تحت التراب. كذلك تأخذ الولايات المتحدة في الإعتبار كيف أن القمة العربية في الخرطوم عام 1967 حققت وبشكل فاق التصور موقفاً عربياً موحداً. ولعلها من أجْل ذلك بدأت السعي لتعطيل القمة عام 1990 (عندما حذَّرت في مذكرة شهيرة إلى الأمانة العامة للجامعة عشية إنعقاد القمة الإستثنائية في بغداد) وتواصل السعي في شكل أو آخر لكي تقوض أي محاولة لعقد هذه القمة. ومن هنا فبكثرة الحديث تتسع رقعة الإحباط في النفس العربية. وعندما يحين الظرف المناسب فإن تلك القمة ستنعقد لمجرد أن تتم الدعوة إليها على نحو ما جرى لقمة 1964 التي كانت بمثابة إحياء لمؤسسة القمة بعد قمة التأسيس في أنشاص وقمة مؤازرة مصر بعد العدوان الثلاثي عام 1956 عليها والتي عُقدت في بيروت. وإذا حدث ذلك فإن القمة المرجوة ستكون بمثابة الإحياء الثاني لمؤسسة القمة التي كانت طوال إثنتي عشرة قمة عادية جرى عقْدها بين يناير (كانون الثاني) 1964 (القمة الأُولى في القاهرة) وسبتمبر (أيلول) 1982 (القمة الثانية عشرة في فاس) تشحن النفس العربية بالأمال حتى بعدما يتبين أن بعض هذه الآمال نوع من الأحلام. ومن سوء طالع الأمة أن القمم الإستثنائية حلت محل القمم العادية التي توالت بعد العام 1982، وأن المضيف الوحيد القادر على إستضافة أصعب القمم ونعني به الملك الحسن الثاني سئم القمم لسبب نجهله ولم يعد متحمساً لإستضافة القمة العربية مفضلاً عليها القمم الإقتصادية التي تُقلل من عُمق التباعد العربي – الإسرائيلي. وإلى أن تستجد ظروف مواتية ويتوافر مضيف بمواصفات الحسن الثاني فإن الميني قمة على نحو ما يراه الرئيس مبارك تبقى مجرد رسالة إلى من يهمه الأمر بأن القمة لا بد منها. وكلما تأخر الإنعقاد تزايدت نسبة الإستهانة بالقرار العربي وبالإرادة العربية. ولعل هذا ما فعلتْه إدارة الرئيس بوش عندما «أنذرت» العرب بشخص جامعتهم عشية إنعقاد قمة إستثنائية لهم في بغداد يوم 27 مايو 1990، وما تفعله حالياً إدارة الرئيس كلينتون التي لن تدع مجالاً للقمة العربية الشاملة.. هذا إذا كانت لن تضرب القمم الثنائية والثلاثية المتواضعة من نوع القمة التي جمعت في القاهرة الملك حسين والرئيس حسني مبارك والرئيس ياسر عرفات إذا شعرت أنها قِمم – على تواضعها – تقود نحو تحقيق موقف إستقلالي عربي موحَّد.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 20 مايو (أيار) 1996

* * *

مصر ترُد بعد 40 سنة

ليس هنالك من فَعَل لمصر ما فعله لبنان. وليس هنالك شعب فزع لأمر سوء أصاب مصر مثل ما فزع الشعب اللبناني. وليست هنالك مدينة تعاطفت مع القاهرة بمثل ما تعاطفت بيروت.

وقبْل العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 لم تكن مثل هذه العاطفة اللبنانية نحو مصر بالوضوح الذي بانت عليه بعد ذلك العدوان. لكن لمجرد أن حدث العدوان فإن تلك العاطفة تفجرت كالبركان غضباً من جهة وتعبيراً عن المؤازرة من جهة أُخرى. وفي غضون أيام على ما نتذكر بات لبنان عُمْق المعركة التى تخوضها مصر ضد العدوان الثلاثي ولم يبقَ أحد من رموز العمل السياسي والإعلامي – بإستثناء حالات شاذة – مسلمين ومسيحيين إلاَّ وأبدى الإستعداد للمؤازرة. ولم تقتصر المؤازرة على التظاهرات والتبرعات والكتابات النارية وإنما وصلت إلى حد أن القمة العربية الوحيدة التي جرى عقْدها في بيروت إنما كانت من أجْل مصر.

وقد يكون من الضروري التذكير بتلك القمة وظروف إنعقادها لأنها تشكِّل منعطَفاً بالغ الأهمية في مسيرة العمل العربي المشترك من جهة، ولأنها في الوقت تفسه تفسر بعض الشيء التعاطف الذي أظهرتْه مصر حكومة وشعباً نحو لبنان خلال العدوان الإسرائيلي عليه وبالذات بعد مجزرة قانا التي قوبلت

من الإدارة الأميركية بحسن التفهم، ومن بقية العالم بالإستياء والغضب الشديدين.

بدأت تلك القمة أعمالها يوم 13 نوفمبر/ تشرين الثاني) 1956 في بيروت بدعوة من الرئيس اللبناني زمنذاك كميل شمعون وإنتهت في اليوم التالي. وشارك فيها الملك سعود بن عبد العزيز والملك حسين ملك الأردن والرئيس عبد الفتاح محمد المغربي (رئيس مجلس السيادة في السودان آنذاك) والرئيس شكري القوتلي، والملك فيصل الثاني ملك العراق، ومصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا (نيابة عن الملك إدريس السنوسي) والأمير سيف الإسلام البدر ولي عهد المملكة المتوكلية اليمنية (نيابة عن والده الإمام احمد). وحرصت مصر، من أجل لبقاء المؤتمر في معزل عن أي تأثيرات، على عدم إيفاد أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة لترؤس وفد مصر والإكتفاء بتمثيل السفير (في بيروت) عبد الحميد غالب للرئيس عبدالناصر في المؤتمر.

وإستطاع المؤتمر الذي كان محاطاً بتعاطف شعبي لبناني لا مثيل له مع مصر لن ينجز أول وقفة رسمية عربية شاملة مع دولة شقيقة معتدى عليها ومن دون أي مناقشات أو مناورات أو مشاورات وراء الكواليس. وتمثلت الوقفة في بيان من نوع ما قل ودل "يعتبر بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مسؤولة التضامن عن إستمرار العدوان، ويطالب بتنفيد القرارات التي إتخذتْها الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية ساحقة أيام 2 و4 و7 نوفمبر (تشرين الثاني) 1956 (قبْل المؤتمر) والقاضية بوقفف القتال وسحْب القوات المعتدية فوراً من الأراضي المصرية. كنلك قرر الملوك والرؤساء، في حال إستمر العدوان على مصر «أن تباشر الدول المتمثلة في المؤتمر فوراً كل في ما خصها حق الدفاع المشروع عن النفس..» وطالبوا بفصل قضية قناة السويس (التي حدث العدوان نتيجة تأميمها) عن الظروف التي رافقت العدوان على مصر وإنتهى البيان إلى القول: «... وإن المجتمعين يوجهون تحية الأخوة الصادقة والتقدير والإعجاب إلى سيادة رئيس الجمهورية المصرية جمال عبد الناصر وإلى القوات المصرية المسلحة وإلى شعب مصر مكبرين وطنيتهم وتفانيهم في الدفاع عن سلامة مصر وسيادتها وعن القومية العربية وكرامة شعوبها وعزتها..».

لم تحقق هذه القمة على الصعيد العملي نتائج سريعة لمصر، إلاّ أنها أكدت أمراً أساسياً وهو أن مصر ليست وحدها، وأن العدوان الثلاثي الذي إستهدفها إنما إستهدف بقية الأشقاء. وأكدت أيضاً أن في إستطاعة العرب أن يجتمعوا على رغم عدم رغبة بعض الدول الكبرى في إجتماعهم وإتخاذهم من القرارات ما من شأنه مؤازرة شقيق ورفع روحه المعنوية. وإلى ذلك إن تلك القمة أشاعت في نفوس الشعب المصري وكتائب المقاومة، التي كانت تنفِّذ عمليات جريئة، طمأنينة إلى أن هذا الشعب ليس وحده وأن هنالك بضعة ملايين من الأشقاء يؤازرونه ويساندون قضيته الوطنية كما أن عقْد القمة وفي لبنان بالذات المحسوب على فرنسا وبريطانيا ومشاركة دول تدور سياساتها (زمنذك أيضاً) فى الفلك البريطاني مثل الأردن والعراق وليبيا، والسودان إلى حد ما... إن عقْد القمة في لبنان وصدور بيان يعتمد على المبدئية وصِدْق المشاعر وليس على مجرد اللياقات، كان بمثابة توضيح بأن أي علاقة مهما بلغ ترابطها بين دولة عربية ودولة أجنبية من الدول الكبرى لا تعني مسايرة الدولة الأجنبية أو تفهُّم دوافعها إذا هي شنت عدواناً على دولة شقيقة. وحتى إذا كانت بين الدولة المعتدى عليها والدول الشقيقة أو بعضها خلافات عميقة سألت بسببها الدماء أحياناً وتعالت الملاسنات والمشاحنات في معظم الأحيان، فإن عدوان الأجنبي يفرض إتخاذ وقفة حاسمة وبعدما يزول العدوان تعود الخلافات إلى ما كانت عليه. ونلاحظ أن هذا هو ما فعله المشاركون قي قمة بيروت نحو مصر، من دون أن تحول وقفتهم هذه دون أن يتعامل النظام المصري لاحقاً مع بعضهم تعاملاً غير ودي على الإطلاق. فقد ساند النظام ثورة ضد حُكْم الرئيس كميل شمعون عام 1958، وساند ثورة الحُكم الملكي في العراق في العام نفسه. وهي ثورة كان الملك فيصل الثاني الذي شارك في قمة بيروت أحد ضحاياها في المجزرة التي عرفت بمجزرة «قصر الرحاب».

والقمة التي نتحدث عنها ليست المؤازرة الوحيدة من جانب لبنان لمصر. وعندما نتذكر الأيام الصعبة التي واجهتها مصر والمصريون بعد حدوث الإنفصال وبأية خشونة وإذلال تعامل الإنفصاليون في سوريا مع المصريين نتذكر على الفور كيف أن لبنان واللبنانيين عموماً خففوا بوقفتهم الأخوية المرارة في نفوس المصريين الذين كانت ترمي بهم الشاحنات القادمة من دمشق على الحدود السورية – اللبنانية وفي المنطقة وعلى الأرض نفسها التي سبق أن إلتقى فوقها

الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس اللبناني فؤاد شهاب. أما الذين رمتهم الشاحنات فإنهم لم يتركوا مناسبة إلاَّ وتحدثوا أمام أبنائهم وأحفادهم عن كرم الخُلُق اللبناني الذي خفف عنهم إذلال الإنفصاليين من السوريين لهم وكيف أن اللبنانيين إستضافوهم في البيوت والفنادق وأكرموا وفادتهم على نحو ما فعل الخليجيون مع الكويتيين في محنة الغزو العراقي لبلدهم يوم الثاني من أغسطس (آب) 1990.

وهذا التذكير بما فعله لبنان نحو مصر هو تمهيد لا بد منه للقول إن الموقف المصري نحو لبنان خلال العدوان الإسرائيلي عليه هو موقف يندرج في بند الرد على الموقف يمثله أو بأحسن منه. ونحن نلاحظ أنه منذ لليوم الأول للعدوان حرصت الصحافة المصرية (الصحف القومية وصحف الأحزاب) على إبراز تطورات العدوان وأرفقت التغطية بالتعليقات المتعاطفة مع لبنان.

وإستمرت الصحافة المصرية على هذه الوتيرة طوال أيام العدوان وكانت لهجتها تتفاوت تبعاً للعمليات العدوانية. وعندما حدثت مجزرة قانا ظهرت في الأفق المصري بوادر الإنتفاضة على إسرائيل، وبدأ بعض رموز العمل السياسي والثقافي والفني وأساتذة الجامعات والفعاليات الإقتصادية يطالبون الحكومة بموقف أكثر حزماً بل إن البعض ذهب إلى حد المطالبة بقطع العلاقات مع إسرائيل، أو سحْب السفير المصري من تل أبيب وطرْد السفير الإسرائيلي من القاهرة وتجميد العمل بمعاهدة السلام مع إسرائيل ووقْف عمليات التطبيع المتعثرة أصلاً. وذهبت شخصيات حزبية مصرية إلى حد المطالبة مقاطعة كل ما هو إسرائيلي وأميركي. ولم يحدُث أن أظهر الشعب المصري غضباً مثل الغضب الذي أظهره إزاء العدوان على لبنان. ومع أن ما يشبه الصحوة هو الذي حدث في مصر إلاَّ أن بعض السياسيين والكتَّاب المصريين الذين روجوا الكثير في الماضي للسلام المصري – الإسرائيلي لاذوا بالصمت، وكان موقفهم هذا مدعاة إنزعاج الرأي العام منهم.

والجواب هل إن رد مصر جاء حقاً بمثل مؤازرة لبنان لمصر قبل أربعين سنة، وفي أكثر من مناسبة، بدءاً من القمة التي جرى عقْدها في بيروت وكانت في حينه علامة مضيئة على طريق العمل العربي المشترَك؟

والجواب عن ذلك هو ان مصر في التسعينات ردت القليل من الكثير الذي كان في إستطاعتها لن تفعله، في حين أن لبنان كان رائعاً ومنذ الخمسينات يقدِّم كل ما كان يملكه من حيوية التعاطف إلى مصر في ساعات الشدة التي تواجهها. وعلى الأقل كان في إستطاعة الرئيس مبارك أن يصر على قمة في القاهرة من نوع القمة التي عقَدها من أجْل الكويت، أو القمة التي إستضافها لبنان عام 1956 من أجْل مصر، لا أن يكتفي بمسعى بذله في هذا الإتجاه الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد، ومن الطبيعي ألاَّ يستمر، عِلْماً بأن الأمين العام بادر وبذل المسعى من أجْل تطويق التساؤلات الكثيرة حول الموقف المصري العالي الصوت إعلامياً والخجول بعض الشيء سياسيا.

وقد يكون الذي جعل الرئيس مبارك لا يسعى من أجل القمة التي نشير إليها هو خشيته من أن يتسبب هذا السعي في توتر العلاقات مع الإدارة الأميركية وإسرائيل، وهو ما لم يستوقف لبنان عام1956 ولا الذين شاركوا في القمة التي إستضافها الرئيس كميل شمعون فإجتمعوا على رغم إحتجاجات بريطانيا وفرنسا وإنذاراتهما المعلنة والخفية، وإتخذوا، قبْل أربعين سنة، التوصيات والقرارات التي ترضي الكرامة وتشد من عضد مصر.

... وما أبعد ما يحدُث اليوم عما كان حدَث في البارحة. والبارحة هنا عمرها أربعة عقود حافلة بكل ما هو مثير.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 27 مايو (أيار) 1996

* * *

عرفات... وعاصمته الرابعة لندن

في ضوء الزيارة المتميزة والناجحة إلى حد كبير التي قام بها الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات إلى بريطانيا يوميْ الإثنين والثلاثاء 3 و4 يونيو (حزيران) 1996 نتذكر كيف أن الرئيس الفلسطيني يخطط منذ الثمانينات لمثل هذا التميز. بل لعله عندما إختار عفيف صافية ليمثِّل فلسطين لدى بريطانيا فعلى أساس أن لغة التخاطب التي يريدها مع الإنكليزي تحتاج إلى براعة متناهية في إعتماد الدبلوماسية المرنة والصبورة وإلى قدرة هائلة على تحمُّل الإستفزازات

والتجاوزات والإستهانة المتعمدة أحياناً والمواقف العاصفة من نوع الموقف الذي إتخذه وزير الدفاع البريطاني إزاء العدوان الإسرائيلي على لبنان. ولقد أثبت عفيف صافية قدرة ملحوظة على ترجمة ليس فقط أقوال رئيسه وإنما على لمْس مشاعره التي قد لا يفصح عنها بصراحة إنما يمكن لمْسها من خلال قراءة ما بين سطور وكلمات الرئيس عرفات وتصريحاته وأحاديثه أمام القيادات الفلسطينية أحياناً وأمام المستشارين في معظم الأحيان.

لم يكن جون ميجور رئيساً للوزراء عندما إلتقى في بيروت عام 1981 برئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ولكن الطموح الفلسطيني من أجْل علاقة جيدة مع بريطانيا جعل أبو عمار، وهو على الشأن البالغ الأهمية الذي كان عليه في الثمانينات، يتعامل مع ميجور وزملائه أعضاء الوفد البرلماني، الذي يمثِّل أحزاب بريطانيا وقام عامذاك بجولة إستطلاعية، بالكثير من الإهتمام وإلى درجة أن إنطباعاً جيداً تولَّد في نفس أعضاء الوفد على رغم أن الموقف الرسمي من عرفات زمنذاك أنه إرهابي يقابل ذلك إندفاع محموم نحو إسرائيل. وتشاء الصدف أن يصعد نجم ميجور النائب ثم بات، عقب إنقلاب حزب المحافظين عام 1991 على السيدة مارغريت تاتشر (التي لا ترتاح على الإطلاق إلى عرفات) وإسقاطها، رئيساً للوزراء. وعندما قام الرئيس عرفات بالزيارة الأُولى إلى بريطانيا في ديسمبر (كانون الأول) 1993 قوبل بدفء في التعامل لسببيْن: الأول أنه حلَّ للغرب عموماً ولبريطانيا بشكل خاص عقدة الخوف على إسرائيل بعدما تم إنجاز صفقة أوسلو والتي بموجبها إنتقل العمل الفلسطيني من "النضال الثوري" من أجْل إسترجاع الحق الفلسطيني إلى "النضال السياسي" للحصول على كيان يتطور بحيث يصبح دولة عاصمتها القدس. أما السبب الثاني فلأن رئيس الوزراء ميجور إستقبل هذه المرة زعيماً يعرفه وترك في نفسه الأثر الطيّب نسبياً عندما إلتقيا في بيروت العاصمة التجريبية للدولة الفلسطينية في بعض سنوات السبعينات.

وفي إطار طموح الرئيس عرفات من أجْل علاقة جيدة مع بريطانيا تندرج زيارته المفاجئة إلى لندن لبضع ساعات يوم الأربعاء 27 سبتمبر (أيلول) 1995 وهو في طريقه إلى واشنطن للتوقيع على إتفاق أوسلو. ونتذكر أن الرئيس عرفات كان وصل في اليوم السابق إلى باريس في الزيارة الرسمية العربية الأولى إلى الرئيس الجديد جاك شيراك على أن يتوجه منها إلى واشنطن. وكان المسؤولون الفرنسيون يتمنون لو أن هذا التوقف إقتصر عليهم لكن إدراك الرئيس الفلسطيني لما يمكن أن يسببه ذلك من ضيق للحكومة البريطانية وإدراكه في الوقت نفسه لما يمكن أن يضيف من إيجابيات مروره على بريطانيا أيضاً قبْل التوجه إلى واشنطن جعله يتوجه إلى لندن ويسلِّم صديقه جون ميجور شخصياً هذه الهدية وعلى أساس أنه لا بد سيأتي اليوم الذي تزُد الحكومة البريطانية ورئيسها ميجور على الهدية بالمثل أو بأحسن منها بكثير. ولم يمر وقت طويل على الرد الذي يتوقعه الرئيس عرفات من ميجور. فقد حرص رئيس الوزراء البريطاني على أن يزور صديقه الرئيس الفلسطيني في غزة العام الماضي(1995) وعلى أن يكون رئيس الوزراء الأوروبي الأول الذي يزور السُلطة الوطنية الفلسطينية.

وعندما يفعل رئيس وزراء بريطانيا ذلك فإن الآخرين لا يتهيبون الأمر بل ويقومون بالزيارة عن طيب خاطر. ثم حرص ميجور على أن يضيف المزيد من الإهتمام فأحاط زيارة الرئيس عرفات الثالثة (3 و4 يونيو (حزيران) 1996) إلى بريطانيا بلفتات كثيرة ومن هنا جاءت الزيارة كثيرة التميز. ومن بين هذه اللفتات رفْع العَلَم الفلسطيني فوق مقر إقامة الرئيس عرفات (فندق هايد بارك الذي شهدت إحدى قاعاته حفلة توقيع إتفاق سايكس- بيكو الشهير) وفي المطار فضلاً عن تضمين الإستقبال حرس شرف وهو ما لم يحدُث من قبْل. ثم جاء قول ميجور "إن الفلسطينيين لن يكونوا وحيدين في مسيرة السلام" ليعطي إنطباعاً بأن المسألة ليست مسألة مجاملة فقط وإنما هي إقرار بالحاجة إلى قيادة عرفات لأن عملية السلام، في نظر بريطانيا ودول الغرب عموماً، باتت في منتصف الطريق وأن بقاءها على النحو الذي هي عليه معناه أن نسبة المخاطر على إسرائيل أكثر بكثير منها على العرب. وفي التحرك الذي يستهدف تحقيق وحدة الصف من خلال القمم الثنائية والثلاثية ما يؤكد أن إستعادة هذه الوحدة ليست بالأمر الصعب. وتدرك دول الغرب تماماً أن ما حققتْه إسرائيل من مكاسب في العملية السلمية ما كان ليتحقق لو كانت وحدة الصف العربي ليست على ما هي عليه من التبعثر.

وتجدر الإشارة ونحن نتحدث عن التميز الذي

أضـــفاه ميجور على زيارة عرفات إلى نظرة الرئيس الفلسطيني لأهمية العلاقة البريطانية – الفلسطينية كما يوضـحها لمسـتشـاريه. فبريطانيا دولة الإنتداب التي كانت موجودة عندما إسـتولت إسـرائيل على فلسـطين وهذا يلقي عليها مسؤولية تاريخية. وبريطانيا من الدول الدائمة العضـوية في مجلس الأمن، وفي زمن إطلاق يد المجلس في إسـتصـدار القرارات التي يتم بموجبها تأديب الخارجين على طاعة الولايات المتحدة فإن المتبصـر هو الذي يُبقي إلى جانبه دولة أو أكثر من الدول الأعضاء يفيده عند الضرورة إنحياز هذه الدولة إليه أو على الأقل إستعمال حق الفيتو على قرار جائر في حقه. وإذا كانت هذه الدولة هي بريطانيا أو فرنسـا وليس فقط الصين وروسيا فإن السلامة مضمونة إلى حد كبير ولن يكون سهلاً إستصدار قرارات عقابية من نوع القرارات في حق العراق والأُخرى في حق ليبيا ثم السودان. وبريطانيا عضـو فاعل ولاعب أسـاسـي في السـوق الأوروبية المشـتركة، ومعروف عنها أنها إذا إهتمت بأمر دولة صـديقة فإنها تحيطها بكل الإهتمام داخل دول السـوق، وإذا هي أرادت الإنتقام من إحدى الدول التي تشـاكسـها أو تعرقل مصـالحها فإنها تنتقم شـر إنتقام، وهذه حالة العراق وليبيا خير دليل على ذلك. وبريطانيا تربطها علاقة خاصـة مع الولايات المتحدة، ويرى الرئيس عرفات أنه عند الضـرورة وفي حال سـوء التفاهم الأميركي – الفلسـطيني حول أمر من الأمور، يمكن أن تقوم بريطـانيـا، ووحـدهـا دون غيرها من سائر الدول الأوروبية بسبب الخصـوصـية التي أشـرنا إليها، بتقريب وجهات النظر الأميركية – الفلسـطينية. وفي الوقت نفسـه إن الولايات المتحدة ستكون منهمكة ولبضعة أشهر في معركة الرئاسة التي سـيدور رحاها وبشـراسـة بين الرئيس كلينتون الذي يتطلع إلى أن يمدد الديمقراطيون ولاية ثانية له وبين السـناتور روبرت دول الذي يخوض به الجمهوريون المعركة للثأر لرئيسـهم السـابق جورج بوش وإنتزاع الرئاسة التي أخذها كلينتون بغتة منهم.

وعندما تنشـغل الولايات المتحدة بأمرها الداخلي فمن الطبيعي أن يكون الدور الأوروبي وبالذات الدور البريطاني – الفرنسـي هو الأكثر إهتماماً بالقضـايا العالمية وبالذات تلك العالقة مثل عملية السـلام في الشـرق الأوسـط والتي أصـيبت ببعض التعثر بعدما سقط شيمون بيريز وفاز بنيامين نتنياهو الذي يريد في الحد الأقصـى السلام إنما بطبعة ليكودية أو أنه تواق في الحد الأدنى إلى مواجهة مع العرب مسـتغلاً في ذلك أنهم في وضـع غير مسـتعد للمواجهة وذلك لكثرة ما إنصـرفوا إلى العملية السلمية من دون تزْك هامش للمفاجآت.

وإلى ذلك هنالك أمران لافتان في زيارة عرفات المتميزة لبريطانيا هما: الأسـلوب الذي إعتمده الرئيس الفلسـطيني في مخاطبة النخبة البريطانية متمثلة بأحد الرموز المهمـة لهـذه النخبـة ونعني بـذلـك جـامعـة أوكسـفورد. ولقد إعتاد أبو عمار وإعتدنا عليه في الماضـي ينتزع التصـفيق والهتافات من التجمعات الشعبية والثورية المندفعة حماسة خصوصاً عندما كان يرفع شـارة النصـر أو أحياناً عندما يضـع يده في يد الثوري الآخر المتمسـك بثوريته الدكتور جورج حبش، أو في معظم الأحيان عندما يطرح المطالب التي على رغم إسـتحالة الأخذ بها يُدخل الحديث حولها من قائد الثورة البهجـة في نفوس الجمـاهير فتصـفق وتهـدر بالهتافات.

لكننا للمرة الأولى أمام ياسـر عرفات آخر يخاطب أهل العِلْم والمعرفة والإختصـاص بأسـلوب ممزوج بالأفكار المستنيرة والمطالب الواقعية وينتزع من هؤلاء التصـفيق طويلاً، وهم (أي هؤلاء) إذا صـفقوا فكمَن يقترع بـ نعم لقضـية مطروحة، وعن رضـى وإقتناع من دون مجاملة أو لياقات.

أما الأمر الثاني اللافت للنظر فهو حفلة الإستقبال الكبرى التي أقامها وجيد شمس الحسن المفوض العام الباكستاني في لندن والتي كانت من حفلات الإستقبال القليلة التي تضم مثل هذا الحشد من المدعوين.

ومع أنه لم يكن هنالك توضـيح لماذا يقيم الحفلة سـفير باكسـتان وليس مجلس السـفراء العرب، فإن الحفلة كانت أيضـاً ضـمْن هدف الرئيس عرفات في توجيه رسـالة إلى أكثر من طرف خلاصـتها أن الرأي العام الإسـلامي معه في موضـوع إسـتكمال الدولة الفلسطينية وبالذات الدولة التي عاصمتها القدس، وأنه قوي بمائة وثلاثة وثلاثين مليون باكستاني (عدد سكان باكسـتان) مسـلم ومطْمئن إلى أن باكسـتان الدولة النووية المسـلمة الوحيدة هي الدرع الواقي للقدس التي يعلن بمعدل مرة كل أسبوع أنها ستكون عاصمة الدولة الفلسـطينية فيرُد الإسـرائيليون على الفور بأن المدينة "مـدينتهم" وسـتبقى موحـدة ولهم فقط. وقـد يجوز الإفتراض أيضـاً أن حفلة السفير الباكستاني في لندن هي رد مدروس تأخر حوالى 22 شـهراً على تصـرُّف

أخرق صدر عن إسحق رابين الذي عارض بشدة قيام رئيسة وزراء باكستان بنظير بوتو في أغسطس (آب) 1994 بزيارة للرئيس عرفات في غزة. وفي حينه أدلت بنظير بتصريح قالت فيه "لست في حاجة إلى دروس من رابين بل إنه هو الذي يجب أن يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين..."، وبذل وزير خارجية مصر عمرو موسى مسعى بتكليف من الرئيس حسني مبارك وافق بعده على أن تتم الزيارة إلاّ أن رئيسة الوزراء الباكستانية آثرت عدم القيام بها. وبقي التصرف الإسرائيلي الأخرق يتفاعل في نفسها وجاءت زيارة الرئيس عرفات الأخيرة إلى لندن لترُد بطريقة مباشرة وغير مباشرة في الوقت نفسه الصاع صاعيْن، ولتقول للجالية اليهودية في بريطانيا إن باكستان لديها جالية مهمة ومرشحة لأن تصبح أهم.

ومعروف أن هنالك حوالى مليون باكستاني في بريطانيا من شأن خياراتهم الإنتخابية أن تحدُث مفاجآت في أي إنتخابات برلمانية يتم إجراؤها. وبعدما إنتهت الحال إلى أن حكومة ميجور تحكُم بأكثرية الصوت الواحد على نحو فوز نتنياهو في إسرائيل ونتيجة أن ثمانين ألف ناخب عربي فلسطيني وضعوا أوراقاً بيضاء في صناديق الإقتراع مع أن بيريز كان يعتبر – موعوداً – أن هذه الأصوات في جيبه ولمصلحته.. إنه بعدما إنتهت الحال إلى ذلك فإن رأي الناخب الباكستاني في بريطانيا والتعاطف مع عرفات وموضوع القدس ربما سيصبح ورقة ضغط لمصلحة المسألة الفلسطينية في ما تبقَّى من سنوات القرن العشرين.

يبقى أيضاً أننا ونحن نتحدث عن هذا التطور الإيجابي في العلاقة البريطانية – الفلسطينية وبالذات لدى حزب المحافظين نتذكر الجهود التي بذلتْها حكومة المملكة العربية السعودية وسفارة خادم الحرميْن الشريفيْن في لندن بصمت لدى بريطانيا ونتذكر بوجه خاص قول وليّ العهد النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبد الله بن عبد العزيز للسيدة مارغريت تاتشر خلال زيارته الرسمية الأولى لبريطانيا منتصف يونيو (حزيران) 1988 "إن وعد بلفور نقطة سوداء في تاريخ بريطانيا وعليكم أن تصححوه".

كذلك نتذكر ما فعله رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان خلال زيارته الرسمية (18 – 21 يوليو/ تموز 1989) عندما إستقبل في قصر باكنغهام بسام أبو شريف الذي كان يشغل زمنذاك منصب مستشار الرئيس عرفات.

أما الأجواء التي يعيشها مفوض فلسطين والسفير المقبل للدولة بعد قيامها رسمياً عفيف صافية والتي يغبطه عليها كثيرون من زملائه السفراء العرب والأجانب، فإنها بدأت تتكون بعدما نجح السفير السعودي السابق وعميد السلك الدبلوماسي العربي بين 1990 و1992 الشيخ ناصر المنقور في إشراك ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في إجتماعات المجموعة العربية في وزارة الخارجية البريطانية.

ويبدو أننا ككُتاب ومحللين على موعد مع كتابة الكثير عن الرئيس عرفات وعاصمته الرابعة لندن التي هي ليست بنكهة عاصمته الثانية القاهرة وعاصمته الثالثة بيروت إلاّ أن أهميتها أنها ستكون أحد الجسور المتينة نحو العاصمة الأولى القدس... بعدما قرر الإنكليز على ما هو واضح تصحيح وعد بلفور وتبييض النقطة السوداء بدعم قيام الدولة الفلسطينية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 10 يونيو (حزيران) 1996

* * *

التحسب العربي واجب لمرحلة "بوب" و "بيبي"

قد يكون من المصلحة العربية العامة الإلتفات كثيرا نحو روبرت دول الذي يطرق بقوة أبواب البيت الأبيض والذي قد تجري الرياح عما تشتهي أشرعة سفينته الجمهورية ويأتي رئيساً للولايات المتحدة. فمعركة الرئاسة الأميركية على أشدها وليس مستبعَداً أن تتكرر المفاجأة الإسرائيلية فيفوز روبرت دول (أو بوب دول كما هو إسمه الشائع أو الإسم الحركي وفْق الأسلوب الأميركي) بينما نحن كعرب ننتظر فوز الرئيس الحالي بيل كلينتون، تماماً على نحو ما حدَث معنا عندما كنا على شيء من الإسترخاء والطمأنينة بأن «الصديق» المنتمي إلى مدرسة «سلام الشجعان» العربية – الإسرائيلية شيمون بيريز هو الفائز، فإذا بالمفاجأة تلفح الوجوه وتخلط السُكَّر العربي مع الملح الإسرائيلي ويأتي بنيامين نتنياهو رئيساً جديداً للحكومة الإسرائيلية بمرتبة زعيم طويل الأظافر طويل الأنياب طويل اللسان.

وإذا حدثت «المفاجأة الأميركية» بمثل حدوث

«المفاجأة الإسـرائيلية» فهذا معناه أننا سـنكون، لِما تبقَّى من القرن العشرين وربما لبضع سنوات من القرن الذي هو على الأبواب، محاصَـرين بالوعيد والتهديد والإبتزاز من «بوب» الأميركي و«بيبي» الإسـرائيلي، وهو حصار يسْهل أمامه الحصار الدولي المستمر منذ خمس سـنوات على العراق والذي حظي في الأيام القليلة الماضـية بتدعيم تمثَّل بإعلان الرئيس حسـني مبارك أنه إستثنى العراق من الدعوة إلى القمة بسبب «حساسيات» يمكن أن تثيرها مشاركته.

والقول بأنه قد يكون من المصلحة العربية الإلتفات كثيراً نحو المرشح بوب دول فعلى أساس إشعار الرجل بأننا لسنا كعرب ضده على نحو ما حدث مع كلينتون الذي إسـتمر حتى يوم الإنتخاب يخوض المعركة في منأى عن الإلتفاف العربي المباشـر أو غير المباشـر حوله، بل قد يجوز القول إنه كان هنالك ما يشـبه الإلتفاف العربي عليه مقابل إلتفاف حول خصـمه الرئيس (السـابق) جورج بوش. وبسـبب هذا الإلتفاف عليه والإلتفاف في الوقت نفسـه حول بوش إنتهى كلينتون شـخصـاً يُبطن نحونا غير ما يُظهر ويحاول إيذاءنا كلما سنحت له الفرصة ذلك.

وبيننا وبين الإنتخابات الأميركية بضـعة أشـهر كافية للكثير من المبادرات والكثير من الإتصـالات، ومن المؤكد أنه إذا شـعر الرئيس كلينتون بما نفعله فإنه سـيخفف من هذا الإندفاع نحو إسـرائيل التي تعتدي وإسـرائيل التي تتراجع عن تعهدات ما كان بعض القادة العرب ليتصـدروا مسـيرة سـلام لولا إطمئنانهم إلى أن الإدارة الأميركية تستوعب تماماً ماذا يعنيه القبول العربي شبه الشامل بمصالحة إسرائيل وماذا يعني بالتحديد قبول الرئيس حافظ الأسـد بعملية السلام والمشاركة فيها.

وكنا نتمنى لو حدَث أيضـاً نوع من الإلتفات نحو الذي يجري فى روسيا، ذلك أن هذا الإلتفات قد يكون هو الآخر للمصلحة العربية العامة. ولكن الذي حدَث اننا لم نقترب من إنتخابات الرئاسة الروسية ولم نتقرب في شكل أو آخر من المنافس الصعب للرئيس يلتسين وهو الشـيوعي غينادي زيوغانوف على رغم أن أي تحليل موضوعي سوف ينتهي إلى نتيجة بأن وصول شـيوعي إلى رئاسـة روسـيا معناه أن أبواب الحرب الباردة قد يتم فتْحها قليلاً وأن عدم وصـوله معناه أن الشيوعية تعود إلى روسيا بقوة وأنها مع الوقت ستتمدد في إتجاه قلاعها القديمة في العالم الثالث وربما تجد هذه العودة هوى في نفوس رفاق الأمس بسبب خيبات الأمل الكبيرة لدى هؤلاء الرفاق وحتى لدى أصـدقاء الولايات المتحدة من ظاهرة التفرد الأميركي في تقرير مصـائر الدول والشـعوب وبأسـلوب وضْـع اليد على الإرادة والسـيادة والإسـتقلال وتطلعات الشـعوب وطموحاتها.

كذلك قد يكون من المصـلحة العربية العامة ونحن على أبواب القمة العربية التي سـتنعقد يوم 21 يونيو/ حزيران الجاري في القاهرة والتي هي من القمم الفريدة في نوعها منذ القمة الأُولى في إنشـاص (28 – 9 مايو/ أيار 1946) أن يحدُث نوع من التشاور الصريح في طبيعة العلاقة العربية – الأميركية. فهي علاقة قائمة على الحذر وحافلة بالشـوائب، وهنالك شـعور لدى الرأي العام العربي بأن الصـداقة القائمة بين الإدارة الأميركية ومعظم الحكومات العربية إنما هي صـداقة من طرف واحد وأنه نتيجة لذلك يسود التوتر العلاقات العربية – الأميركية وإن كان هذا التوتر لا يطفو على السطح إلاَّ في بعض الأحيان.

ومع الأخذ في الإعتبار أن التشـاور كان سـيبدو مجدياً أكثر لو أن الحضور هو على المستوى الأعلى، إلاَّ أن التشاور في أي حال ضروري بين المشاركين، وأهميته أن يكون واضـحاً وأن تعرف الإدارة الاميركية بأن اصـدقاءها العرب يتشـاورون على هامش قمة القاهرة في أمر العلاقة التي لا تصـفو كما يجب بينهم وبين الولايات المتحده.

ولكم كان المرء يتمنى لو أن قمة خماسـية جرى عقْدها منذ سنتين على الأقل وأجرت التشاور المطلوب ووضـعت تصـوراً لما يمكن أن يحقق الإسـتقرار في العلاقة العربية – الأميركية. وما نقصـده بهذه القمة هو إجتماع قادة كل من المملكة العربية السـعودية ومصـر والمغرب والأردن وتونس. فهذه الدول الخمس علاقاتها إسـتراتيجية وثابتة مع الولايات المتحدة. وهذه الدول تستطيع وكل دولة أو أكثر على حدة تمثيل دولة من الدول غير المشـارِكة وتسـتطيع أن تتفهم ظروف الدولة غير المشـارِكة وعلى أفضـل ما يكون عليه التفهم.

وهذه الدول مقتنعة ومنذ ثماني عشـرة سـنة على الأقل بالحل الأميركي المتوازن للصـراع العربي – الإسـرائيلى يؤكد ذلك موقفها غير المعلَن خلال قمة بغداد (2 نوفمبر/ تشـرين الثاني 1978) التي جرى عقْدها لمواجهة تفرُّد الرئيس (الراحل) أنور السـادات

بالصـــلح مع إســـرائيل. وهذه الدول التي لا يمكن أن تشـــكك الادارة الأميركية في صِـــدق إقتناعها بعمق العلاقات وترابطها مع الولايات المتحدة قادرة على أن تخاطب الإدارة الأميركية مخاطبة الصديق الذي يُسدي النصيحة.

وأهمية مثْل هذه القمة لو حدثت وتم من خلالها التشاور ثم توجيه ما يشبه النداء أو الرسالة إلى الإدارة الأميركية أنها كانت ستصحح بعض الشيء مسار العلاقات العربية – الأميركية وتزيل هذه المخاوف من النفس العربية وهذا الحذر المتأصل في نفوس الإدارة الأميركية إزاء أي إعتراض عربي أو أي قمة يتداعى القادة العرب إلى عقْدها.

وخلاصة القول إن الذي ينقصنا هو بعض الضغط على الإدارة الأميركية، والذي ينقص هذه الإدارة هو حُسْـــن التفهم للمشـــاعر العربية. ومن قبل أن تبدأ العملية السلمية للصراع العربي – الإسرائيلي كان من الطبيعي أن ينشغل بال هذه الإدارة بسبب عمق العداء العربي – الإسرائيلي وخوف هذه الإدارة على إسرائيل من الثأر العربي، أما بعدما بدأت العملية الســـلمية وباتت الحكومات العربية في معظمها شـريكة في هذه العملية أو متفهمة لها عن إقتناع أو عن تهيؤات او نتيجة تورط فإن ما تحتاجه الإدارة الأميركية موجود لدى إسرائيل وليس لدى العرب لكي تضغط عليهم بدل ان يضـــغطوا هم عليها، ولكي تُحذرهم بدل أن تلوي الذراع الإسرائيلية قليلاً، ولكي تطلب منهم أن يصبروا على الصقر الإسرائيلي بنيامين نتنياهو وأن لا يحكموا عليه وكأنما لا نعرف هذه الإدارة أفكار الرجل وتاريخه ومفاهيمه ووعيده ووعوده التي لا يخفيها ولم يترك مناسبة إلاّ وأعلن تمسُّكه بكل كلمة قالها. وقد يجوز الصبر وعدم إطلاق الأحكام لو أن نتنياهو أطلق تلك الأفكار والمفاهيم قبْل أن تجري الإنتخابات وأن اللعبة الإنتخابية والمنافسة تقتضي ذلك وأنه لمجرد أن فاز إعتبر ما قاله جزءاً من الماضـــي. لكن الرجل كرر وبصوت أعلى متسلحاً بالفوز وبورقة إنتخابات الرئاسة الأميركية التي هي دائماً ورقة رابحة فى يديْ من يحكم إســـرائيل، تلك الأفكار وإلى درجة أنه أطلق اللاءات الثلاث (لا لدولة فلســـطين ولا للتنازل عن القدس عاصـــمة موحَّدة لإســـرائيل ولا لمغادرة الجولان) التي تؤكد أن العملية السلمية التي بدأها سلفه شيمون بيريز مرشحة لأن تكون عرضة للتهاوي.

ومن هنا إن تلويح القمة العربية بتجميد العملية السـلمية بدءاً من إتفاقية كامب ديفيد وليس فقط بدءاً من مؤتمر مدريد وصفقة أوسلو هو الحد الأقصى الذي قد تســـتقيم الأمور إذا تم الأخذ قولاً وفعلاً بهذا التجميد.

أما الحد الأدنى فهو الضـــغط برفق على إدارة الرئيس كلينتون ومحاولة تصـــحيح مســـار العلاقات العربية. – الأميركية من خلال نداء الأصدقاء الخمسة للولايات المتحدة في العالم العربي أي الســـعودية ومصـــر والمغرب والأردن وتونس وهي دول متفهمة ومتفاهمة.

وبين الحد الأقصى الذي تأْمل الأمة من حكومات العملية الســـلمية إتخاذه والحد الأدنى الذي تفرض ضرورات الأمن القومي إعتماده، تأتي مسألة الإلتفات كثيراً نحو روبرت دول منـافس بيـل كلينتون على الرئاسة الأميركية تفادياً لمفاجأة قد تحدُث بعد بضعة أشهر بحيث يفوز الجمهوري وينهزم الديمقراطي. وفي تاريخ القضية أن الديمقراطيين بشخص الرئيس الأسبق جيمي كارتر هم الذين ورطونا في عملية الســـلام مع إسرائيل وجاء الرئيس الحالي ليكمل في التسعينات ما بدأه ديمقراطيو السبعينات. وقد يكون روبرت دول في حال فوزه جسوراً لكي يضع الأمور أو بعضها في مكانها المتوازن عِلْماً بأنه من أجْل المســـاومات التي تفرضـــها «تقاليد» العملية الإنتخابية في الولايات المتحدة يبدو أحياناً وكأنما هو (أي بوب) ليكودي... مثل (بيبي) أي نتنياهو.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 17 يونيو (حزيران) 1996

* * *

اليوبيل الذهبي للقمة العربية

كان يمكن للقمة العربية – التي هي بين القمة العادية والقمة الإستثنائية التي جرى عقْدها يوم السبت (22 يونيو/ حزيران 1996) في القاهرة أن تكون عملياً قمة اليوبيل الذهبي لمؤســـســـة القمة العربية لولا أن التنازع في نفس الرئيس حســـني مبارك بين أن تنعقد القمة ويُستثنى العراق من الدعوة إلى المشاركة فيها أو لا تنعقد على الإطلاق، إنتهى لمصـــلحة الرغبة في الإنعقاد وبالتالي لم يشارك العراق ولن تكون القمة قمة اليوبيل الذهبي.

ومن باب المصـــادفة لا أكثر تم عقْد القمة العربية التي قررتْها إرادة ثلاثية عربية وأوجبتْها حاجة عربية شـــاملة بفارق ثلاثة أســـابيع عن القمة العربية الأُولى التي تم عقْدها قبْل نصف قرن في مصر ودشنت بها الدولة المصـــرية ظاهرة الإجتماعات العربية على مستوى القمة. ومثل هذه المصادفة توجبُ على الحُكم المصـــري إحياء إحتفال على المســـتوى القومي وعقْد قمة تكون في الحد الأدنى مثل قمة عام 1964 التي كانت بمثابة إحياء فكرة الإجتماع السنوي للقادة للعرب وتكون في الحد الأقصـــى مثل قمة عام 1967 التي ســـتســـتمر إلى عقود طويلة في ذاكرة التاريخ العربي الحديث رمزاً لإمكانية الصـــمود العربي في أشـــد اللحظات قتامة وإحراجاً. كذلك إن هذه المصـــادفة توجب على الحُكم المصري إقامة الندوات والمهرجانات من دون أن يتهيب الجيل الجمهوري بأن فكرة القمة كانت تراثاً ملَكياً بادر إليه الملك فاروق الذي مهد من خلال حكومته لفكرة القمة بضعة أشهر قبْل أن يوجِّه الدعوة إلى عقْدها بعدما حصـــل على مباركة العاهل الســـعودي الملك عبدالعزيز للفكرة خلال زيارة قام بها عام 1946 إلى القاهرة، تماماً مثل حصـــول الرئيس حسني مبارك من ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز على مباركة خادم الحرميْن الشـــريفيْن الملك فهد بن عبدالعزيز للفكرة خلال القمة الســـعودية – المصرية – السورية في دمشق يوم الجمعة 7 يونيو (حزيران) الجاري.

ولكن العين المصرية بصيرة واليد ليست طويلة إلى الدرجة التي تُمكِّن الرئيس حسـني مبارك من عقْد تلك القمة الإحتفالية والتي إسـتعاض عنها بقمة يحاول من خلالها تخفيف التســـاؤلات المرتســـمة على شـــفاه المصريين والعرب عموماً وتدور كلها حول أمر واحد: ما الذي جرى لهذه الأمة لكي يســـتهان بها إلى هذه الدرجة وما الذي يفعله قادة الأمة وبالذات كبارهم إذا كانوا لن يواجهوا بحزم هذه الإستهانة.

ومن خلال وثائق وأدبيات مرحلة القمة العربية الأولى التي بدأت أعمالها في مزرعة الملك فاروق في انشـــاص بالقرب من الإســـكندرية يوم 28 مايو/ أيار 1946 يتبين لنا كم أن الإلفة كانت الجامع المشـــترك بين المشاركين. فالملك فاروق لا ينتظر نزول ضيوفه من الطائرة لكي يسـتعرض معهم حرس الشـرف وإنما يتقدم نحو الطائرة المتواضعة قياساً بتكنولوحيا صناعة الطيران الحديث ويســـاعد ضـــيوفه على النزول. وفي قاعة القصـر الملكي في انشـاص يتباسـط المشـاركون في الحديث من دون الحاجة إلى إجتماعات ومناورات وراء الكواليس. وهم غير مضـــغوطين بعامل الوقت ووطأة المشـاغل، ومن أجْل ذلك نقرأ أنهم حلوا ضـيوفاً على الملك في قصـــره وأنهم إرتاحوا بعد الوصـــول وإجتمعوا ثم إرتاحوا ثم تناولوا عشاءهم. كذلك نقرأ أنهم تجولوا في حدائق القصـر وإسـتنشـقوا هواء الصـحراء الممتزج بهواء البحر الممتزج هو الآخر بـأريج ورود الأراضي الزراعية الممتدة على مساحات كبيرة.

كنلك نعرف من خلال وثائق وأدبيات تلك القمة وأبرزها ما رواه الرئيس اللبناني (الراحل) الشـيخ بشـارة الخوري في مذكراته وفي بعض مجالسـه الخاصـة، أن الملك فاروق بعدما إطمأن إلى ما يريده من القمة دعا المشـــاركين في المؤتمر إلى عشـــاه خاص دام حتى الفجر وكل نلك من أجْل أن يَفرغ الخطـاط الذي تم إســـتدعاؤه لكي يكتب مقررات المؤتمر بماء الذهب على رق خاص. وكان ضـــيوف الملك فاروق الذين غلبهم النعاس يكثرون من الإســـتفســـار عما إذا كان الخطـاط قد أنجز المهمـة الموكولـة إليـه وإلى أي فقرة من المقررات وصـل. ولأن النكتة هي سـيدة أي سـهرة مصـرية حتى إذا كانت سـهرة الملك فاروق فإن الملك راح يروي لضـيوفه النكات وكان هؤلاء كلما ضـحكوا إبتعد النعـاس عن عيونهم، وهذا هو المطلوب. وكـان يطلب أيضـــاً للتقليل من ضـــجر الإنتظار أن يروي الضـــيوف مـا عندهم من نكـات ليحـالف الحظ هذا الرئيس أو ذاك بنكتة تبعث على الضـحك وبتعثر حظ هذا الملك أو ذاك الأمير فـــلا يروي النكتة المناسبة التي تثير البهجة في النفوس.

ويبدو أن الملك فاروق كان في قرارة نفسـه يخشـى أن يضـــطر بعض المشـــاركين إلى المغادرة من دون التوقيع على المقررات أو إنابة أحد أعضـاء الوفد لكي يقوم بـالمهمـة وهو يتطلع إلى أن يكون التوقيع من رؤســـاء الوقود خصـــوصـــاً أن الإنجاز الذي حققه والمكسب الذي حصل عليه من القمة يستحق في نظره مثل هذا الحرص.

ثم نعرف من خلال وثائق وأدبيات تلك القمة أن ضـيوف الملك فاروق توجهوا مع طلوع الفجر كل إلى غرفته لينام وأنه بقي ســـاهراً ينتظر أن يفرغ الخطاط من كتابة المقررات. ونعرف أيضـــاً أن الملك حمل الورقة التي كان حبرها الذهبي لم يجف ما فيه الكفاية وطاف على غرف الضـيوف من دون أن يسـتوقفه أن

هذا الضـــيف أو ذاك خلد للنوم بعد تلك الســـهرة الطويلة. وكان يطرق على باب الغرفة ويطلب من الملك أو الرئيس أو الأمير الذي في داخلها أن يضـــع توقيعه. وقبْل طلوع الشـــمس كانت التوقيعات تمت. وتشـــير وثائق وأدبيات تلك القمة إلى أن الملك فاروق وقَّع عن مصـــر وعن المملكة العربية الســـعودية حيث أن الأمير ســـعود شـــارك في القمة مســـتمعاً وأن الملك عبد العزيز (الذي كان زار مصـــر قبْل بضـــعة أســـابيع وإتفق مع الملك فاروق على الدعوة إلى القمة) أناب الملك فـاروق في التوقيع نيـابة عنـه على المقررات. وتولَّى التوقيع عن الأردن الملك عبدالله، وعن العراق الأمير عبد الإلـه الوصـــي على العرش وعن اليمن ســـيف الإســـلام عبدالله الذي مثّل الإمام، وعن ســـوريا الرئيس شـــكري القوتلي وعن لبنـان الرئيس بشـــارة الخوري.

ولا تتحدث الوثائق والأدبيات الخاصـــة بالقمة العربية الأولى التي جرى عقْدها في إنشـــاص عن خلافات وتوترات داخل الإجتماع الذي جرى عقْده على طاولة مســـتطيلة ترأســـها الملك فاروق مرتدياً طربوشـــه (الطربوش الآخر كـان طربوش الرئيس شـــكري القوتلي. وكان هنالك عقالان، عقال الملك عبدالله وعقال الأمير سعود، أما الرئيس بشارة الخوري والأمير عبد الإله فكانا مكشـوفيْ الرأس) وإسـتعاض الحاضـــرون عن الخلافات الســـياســـية ببعض المشاكسات ذات الطابع اللغوي والنحوي على حد ما رواه الرئيس اللبناني زمنذاك (الراحل) الشـيخ بشـارة الخوري. ولماذا الخلافات والمشـــاحنات طالما أن اللقاء هو الأول من نوعه وما دام الحاضـــرون هم سبعة فقط جمَعهم مضيفهم (الملك فاروق) بعيداً عن العاصمة القاهرة وفي فيللا تشرح الصدور بالقرب من قصـــر «زهراء انشـــاص» وتطل على بركة ســـباحة ويبدو أن الملك كان يحب تمضـية سـاعات فيها وأنه إسـتناداً إلى مشـاعره إرتاى أن ما يؤنسـه "يمكن أن يؤنس ضـــيوفه فتمت الإجتماعات داخل الفيللا حيث لا ميكروفونات ولا منغصـات. ونعرف أن للمضـيف الملك فاروق بعدما سمع أن ضـيفه ملك الأردن بارع في لعبة الشـــطرنج إســـتدعى لحد ضـــباط البحرية المصـــرية لكي يبارز الملك عبدالله. وفي مثل هكذا مبارزة فإن الملك هو الذي يكســـب أو بالأحرى يجب أن يكســـب وليس مَن يلاعبه (أي ضـــابط البحرية) مهما بلغت براعته إلاَّ إذا كانت ممازحات الملوك مع بعضـهم وتحياتهم في المجالات غير السـياسـية، أي مجال الهوايات على ســـبيل المثال، هي التي جعلت الملك فاروق ليس فقط يختار أمهر لاعبي الشـطرنح المصـــريين وإنما أيضـــاً لا يوصـــيه بأن ينهزم أمام اللاعب الآخر ضـــيفه ملك الأردن وكأنما الملك المضيف يريد للملك الضيف أن يخسر في الشطرنح تلك اللعبة التي سِرها في صمود ملكها.

ونأتي إلى المكســـب الذي حققه الملك فاروق من تلك القمة وهو عبارة عن مكسبيْن كبيريْن في مكسب أكبر. المكسب الأول شـخصـي وهو أن الملك فاروق أبلغ ضـيوفه همسـاً مقروناً بالتمني بمسـايرته في أن يكون اللقب الذي يضـعه مع توقيعه هو «ملك مصـر والسودان وصاحب النوبة ودارفور وكردفان، وكان له ما أراد. وهذه الموافقة التي حصـل عليها هي الجواب عن ســـر حرصـــه على أن يتم توقيع ضـــيوفه على المقررات وهو حرْص – كما أوردنا وصل إلى حد أن الملك شـخصـياً دار على غرف ضـيوفه وقرع الباب ونـال التوقيع في أغرب عمليـة توقيع – ربمـا – في التاريخ العربي. أما المكسـب الثاني وهو عام فهو أن الملك فاروق إعتبر إنعقاد أول قمة عربية في مصـــر بمثابة مبايعة لزعامة مصـــر للعرب وتدعيم لتطلعاته في أن يكون «أمير المؤمنين» فضـلاً عما رواه رئيس مجلس الشـــيوخ ورئيس حزب الأحرار الدســـتوريين زمنذاك هيكل باشـــا وهو أن الملك فاروق عقد العزم على أن يكون عام 1946 هو العام الذي يبســـط فيه سيطرته على الوضع الداخلي «بحيث يكفي أن يشير إلى أي رجل من رجال الدولة بأصـبعه ليلبي الإشـارة طائعاً» وعندما يبســـط ســـيطرته على الوضـــع في الداخل يســـتطيع أن ينصـــرف إلى تحقيق طموحاته العربية والإسلامية.

ولكن ما تمناه الملك فاروق وسعى إليه كان مجرد حلم من أحلام اليقظة. فهو أخفق في توظيف التجمع العربي الأول وإكتفى مزهواً بحصـــوله على «مبايعة» عربية في شـــأن الصـــفة التي يرفقها بتوقيعه وهي «ملك مصـــر والســـودان وصـــاحب النوبة ودارفور وكردفان».

وبـدلاً من أن تكون التطورات الخطيرة ســـبباً لتواصـــُل إنعقاد القمة فإننا نلاحظ أنه بعد القمة الأُولى في إنشـــاص حدث نوع من التجميد للفكرة بدليل أن المحاولة الثانية لإحيائها حدثت بعد عشـــر ســـنين عندما جرى عقْد قمة عربية في بيروت لنجدة

مصـــر التي كانت تغيرت كثيراً وتغير العالم العربي أكثر.. وتغيرت المفاهيم المتلونة للعمل الســياســي أكثر وأكثر وأكثر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 يونيو (حزيران) 1996

* * *

السنوات الضائعة

على العمل العربي المشترَك

خرجت القمة العربية الأُولى في إنشاص (28 و29 مايو (أيار) 1946) ببيان جرى تحبيره بماء الذهب وتَميز بهدوء لا مثيل له. وقد أعطى المشاركون الدول العربية التي لم تستقل الحيز الأكبر من الإهتمام وأكثروا في بيانهم المذهَّب ذاك من الكلمات التي توحي بأنه ليس هناك من يطمع بالآخر أو يتشاوف عليه. ومِن هذه الكلمات "التشاور" التي إفتتحوا بها البيان.

وفي البيان القممي العربي الأول تستوقفنا نحن الذين نقرأ فيه بعد نصف قرن ولمناسبة إنعقاد القمة العربية الجديدة (القمة الـ 21) التي كان يمكن أن تبدو وكأنها هي قمة اليوبيل الذهبي للقمة العربية، ثلاث فقرات يمكن لو وضعناها في بيان قمة التسعينات أن تفي بالغرض الأمر الذي يعني أن القمة الأولى أو القمة التأسيسية في الأربعينات والقمة الواحدة والعشرين في التسعينات محكومتان بهموم واحدة، فالفقرة الأولى لقمة إنشاص تقول إن المجتمعين "تشاوروا وتداولوا في المسائل العامة والخاصة بالشؤون العربية ووجدوا أنفسهم متفقين تمام الإتفاق على أن البلاد العربية المشترِكة في جامعة دولهم ترغب رغبة أكيدة في السِلْم الدائم بينها وبين جميع دول العالم...". والفقرة الثانية تقول إن المجتمعين "تداولوا في قضية فلسطين فرأوا أن قضيتها ليست قضية خاصة بعرب فلسطين وحدهم بل هي قضية العرب جميعاً...". والفقرة الثالثة تقول إن المجتمعين "يغتنمون فرصة إجتماعهم هذا ليبعثوا كإخوة متضامنين متحدين إلى شعوبهم بأطيب التمنيات لرفاهيتهم وسعادتهم ومجدهم ويعلنون ثقتهم التامة بمستقبل زاهر كريم لائق بماضي العرب المجيد...".

وهذه الفقرة بالذات تبدو مكملة لما قاله الملك فاروق عندما إفتتح الجلسة بكلمة جاء فيها: "إن إجتماعنا هو قبْل كل شيء للتعارف ولكي نُظهر للعالم جلياً أنه ليس بيننا أو بين دولنا أي إنقسام، لا في الأشخاص ولا في الآراء، وعلينا بعد ذلك أن نبحث الشؤون التي تهم بلداننا ونتشاور فيها، فيعرف كل واحد منا رأي أخيه فيشير على حكومته بما هو أفضل...".

ومن الطبيعي في ضوء هذه النوايا والمشاعر الطيبة السائدة أن تبدأ القمة العربية الأولى وتنتهي من دون أي توترات وأن تشجع على أن تتكرر القمم بمعنى أن تكون القمة سنوية. لكن مثل هذا الأمر لم يحدُث كما أن البيان الختامي المذهَّب تفادياً منه للإحراج وعملاً بقاعدة التشاور لم يتضمن تحديد موعد للقمة المقبلة. وقد تكون الحرب العربية – الإسرائيلية وما إنتهى إليه حال فلسطين التي ضاعت، ثم الإنقلابات العسكرية في سوريا، هي التي حالت دون أن تتكرر تجربة القمة. ثم دخلت المنطقة العربية مع قيام ثورة 23 يوليو (تموز) 1952 في مصر في وضْع غير تقليدي. ولولا العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 لربما كانت تجربة القمة إستمرت نائمة. لكن ذلك العدوان الذي شاركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وجاء رداً على إعلان الرئيس جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس، أيقظ التجربة من سباتها العميق فكانت القمة الثانية التي جرى عقْدها في بيروت (13 و14 نوفمبر (تشرين الثاني) 1956) وشاركت فيها دولتان عربيتان أُخريان إلى جانب الدول التي شاركت في القمة الأولى هما السودان وليبيا. وكان الشاهدان الوحيدان في قمة بيروت على قمة إنشاص هما سعود بن عبد العزيز الذي صار ملكاً للسعودية بعد وفاة والده الملك عبد العزيز والرئيس السوري شكري القوتلي الذي كانت العملية الإنقلابية السورية أسقطته وأبعدته عن البلاد ثم سرعان ما إستُعيد إلى دمشق وإلى قمة السُلطة رئيساً للجمهورية. وشارك في قمة بيروت أيضاً حسين بن طلال الذي بات ملكاً للأردن عقب وفاة جده الملك عبد الله الذي شارك في قمة إنشاص والذي جرى إغتياله بعد ذلك (إقتضت الظروف الصحية للأمير طلال والد الحسين الإبتعاد خارج البلاد وتتويج الإبن ملكاً على الأردن) وفيصل الثاني الذي بات ملكاً على العراق (وكان تمثَّل العراق في قمة إنشاص بالوصي على العرش الأمير عبد الإله) والرئيس المضيف كميل شمعون

الذي بات رئيساً للبنان خلفاً للشيخ بشارة الخوري الذي شـــارك في قمة إنشـــاص. وترأس وفد ليبيا في قمة بيروت رئيس وزرائها مصـــطفى بن حليم نيابة عن الملك إدريس السـنوسـي. وترأس وفد السـودان رئيس مجلس السـيادة عبد الفتاح محمد المغربي. وتمثلت مصر بسفيرها في بيروت عبد الحميد غالب.

ونلاحظ ونحن في النصـف الثاني من التسـعينات نتأمل في أحداث القمم العربية كيف أن القادة العرب الذين شاركوا في قمة بيروت كانوا حازمين وعلى درجة عالية من الإعتداد بالنفس والشجاعة بدليل أنهم سجلوا خلال قمتهم تلـك الإنـذار العربي إلى دول كبرى. ويتمثـل الإنـذار في النص في البيـان الختـامي على الآتي: "إســتعرض المجتمعون بإرتياح التدابير التي إتخـذتْها الجمعيـة العـامـة للأمم المتحـدة في القرارات الصـادرة بأغلبية ساحقة في 2 و4 و7 نوفمبر (تشرين الثاني) 1956 وقدَّروا مجهود الدول المحبة للســـلام التي سـاهمت في إصـدار القرارات المذكورة القاضـية بوقف القتال وسحْب القوات المعتدية فوراً من الأراضي المصـــرية والعودة إلى ما وراء خطوط الهدنة. وقرر المجتمعون ضـــرورة تنفيـذ القرارات المـذكورة. وإذا رفضت بريطانيا وفرنسا الإمتثال لقرارات الأمم المتحدة وإمتنعتا عن سحْب قواتهما من الأراضي المصرية فوراً ودون قيد أو شـرط، وكذلك إذا خالفت إسـرائيل قرارات الأمم المتحدة وإمتنعت عن ســحْب قواتها إلى ما وراء خطوط الهدنة دون قيد ولا شرط وإذا تَسبب عن موقف أي من بريطانيا وفرنسـا وإسـرائيل تأزم شـديد من شـأنه أن يؤدي إلى إســتئناف الأعمال العســكرية، إعتُبرت بريطانيا وفرنســا وإســرائيل مســؤولة بالتضــامن عن إستمرار الإعتداء، وحينئذ تباشر كل من الدول الممثَّلة في هذا المؤتمر فوراً كل فيما خصـــها وعملاً بحق الدفاع المشروع عن النفس تطبيق أحكام المادة الحادية والأربعين من ميثـاق الأمم المتحـدة وإتخـاذ التـدابير الفعالة التي تسمح بها أقصى إمكانياتها وفقاً لإلتزاماتها بمقتضـــى المادة الثانية من معاهدة الدفاع المشـــترَك العربي...".

أمـا في قمـة القـاهرة التي هي أحـدث القمم فـإن المشاركين في القمة كانوا على درجة عالية من المرونة بمعنى أنهم عبَّروا عن تمنيات ولم يوجهوا إنذارات، مع الأخذ في الإعتبار أن التمنيات كانت ذات صـــبغة تحذيريـة إلى حد مـا. وهذا الســـبب في المرونـة هو الولايات المتحدة في الدرجة الأولى. ففي الخمســـينات عندما حدَث العدوان الثلاثي وتنادى القادة العرب إلى تلك القمة لمؤازرة مصـــر كانت الولايات المتحدة غير الولايات المتحدة بعد ذلك. كانت إلى حد ما تقف موقف المحايد الأكثر قرباً إلى العرب ليس حرصـاً عليهم وإنما إســتعداداً منذ ذلك الزمن لتوجيه المزيد من الضــربات إلى القوتيْن الأكثر شـــأناً ونفوذاً في منطقة الشـــرق الأوســـط وهما بريطانيا وفرنســـا اللتان كانتا زمنذاك العضـد الرئيسـي لإسـرائيل. والإسـتعداد المبكر لتوجيه الضــربات هو بهدف أن ترث الولايات المتحدة الشــأن الذي لبريطانيا وفرنسا، وهو ما حدَثِ سنة بعد سنة إلى أن تَحقق بالكامل في التسـعينات وعلى حسـاب العرب ولمصـــلحة إســـرائيل، أي أن الآية إنقلبت تماماً. ومن الطبيعي في ضـــوء ذلك أن يوجه القادة العرب الذين جمعتْهم قمة بيروت في نوفمبر (تشـرين الثاني) 1956 إنـذاراً إلى كـل من بريطـانيـا وفرنســـا، وأن يكتفي المشـــاركون في قمة القاهرة في يونيو (حزيران) 1996 بتضـــمين بيانهم الختامي التمنيات، هذا مع الأخذ في الإعتبـار أن العلاقـات بين دول قمـة بيروت وكـل من بريطانيا وفرنسـا كانت طيبة عموماً بل إن بعضـها كان محسـوباً في شـكل أو آخر على هاتين الدولتين. ولكن الكبريـاء العربيـة في الخمســـينـات أوجبت المخـاطبـة بصـــيغة الإنذار وأن المبالغة في الحرص على عدم إزعاج الصـــديق الأميركي هي التي أوجبت أن يكون الإنـذار عبارة عن تمنيات لا أكثر مع بعض التحذير (من دون إستعمال الكلمة) الصـادر عن أصـدقاء وليس عن مشاكسين. ونلمس هذه التمنيات وذاك التحذير في الفقرة التي تضـــمنتْها قمة القاهرة 1996، وهي الآتية: "يؤكد القادة العرب أن أي إخلال من جانب إســـرائيل بالمبادئ التي إتُّفق عليها في مؤتمر مدريد وبخاصـــة مبدأ الأرض مقابل الســـلام والتأكيدات المقدمـة إلى الأطراف، وبالأسُس التي قامت عليها عملية السلام أو التراجع عن الإلتزامـات والتعهدات والإتفاقـات التي تم التوصـــل إليها في إطار هذه المسـيرة أو المماطلة في تنفيذها من شـأنه أن يؤدي إلى إنتكاسـة عملية السـلام بكل ما يحمله ذلك من مخاطر وتداعيات تعود بالمنطقة إلى دوامة التوتر، تضـطر الدول العربية كافة إلى إعادة النظر في الخطوات المتخَذة تجاه إســـرائيل في إطار عملية السـلام الأمر الذي تتحمل الحكومة الإسـرائيلية وحدها المسؤولية الكاملة عنه...".

ومع أن قمـة بيروت وإنذارها وقبْل ذلك لهفتها في مسـألة مؤازرة دولة شـقيقة هي أمور سـاهمت مجتمعة

في رفْع المعنويات الشـــعبية في العالم العربي وأمدت مواجهة مصـر للعدوان الثلاثي بطمأنينة كانت في أشد الحاجة إليها، إلاَّ أن تلك القمة حققت في الوقت نفســه أمراً في غاية الأهمية وهو أن في إســتطاعة الدول العربية أن تترجم ضــيقها إلى إنذار على نحو ما فعلتْه القمـة. وقد يجوز الإفتراض أن إســرائيل ومن معها إعتبرت أن تلك القمة بالمخاطبة التي إتســمت بها هي نواة نهوض عربي فبدأت تخطط على الفور إلى إحباط هذا النهوض في شكل أو آخر.

ومع الأسـف فإن الدول العربية سـاعدت ومن دون قصْد في إعطاء إسرائيل المزيد من الوقت لضرْب ذاك النهوض. وجاءت المســاعدة من خلال الخلافات التي إندلعت بين مصر ودول عربية أُخرى وعدم إنعقاد القمة بشكل دوري وهذا تَسبب في إتسـاع الفرقة وزاد بالتالي من حدة الخلافات. ثم إنفرط عقْد التآلف العربي بالوحدة الإندماجية بين مصـر وسـوريا والتي جعلت بقية الدول العربية في حال من الخشــية إزاء هذا الإنجاز القومي على أســاس أن الدولة الجديدة (الجمهورية العربية المتحدة) ستجتاح العالم العربي من المحيط إلى الخليج. ومنذ ذلك الحين تعرضــت فكرة القمة لبعض الأذى والكثير من الشـك في جدواها إلى أن إسـتطاع الرئيس جمال عبد الناصــر الذي حدَث نوع من الطمأنينة العربية له بعد إنفصـال سـوريا عن مصـر أن يعقْد بين 13 و17 يناير (كانون الثاني) 1964 في القاهرة قمة تشـبه من حيث الظروف والموجبات والوضـع النفسـي العربي العام القمة التي جرى عقدها في القاهرة بعد 32 سنة وحقق فيها الرئيس حسني مبارك نقلة أساسية في العمل العربي المشــترك وبالنســبة إلى حالته عموماً. وهكذا فإنه، بين قمة إنشـاص عام 1946 وقمة بيروت عام 1956 عشــرة أعوام ضــاعت عملياً على العمل العربي المشــترك، وبين قمة بيروت وقمة القاهرة عام 1964 ثمانية أعوام ضــاعت هي الأُخرى على العمل العربي المشـترك، وبين قمة القاهرة قبْل أيام والقمة التي سـبقتْها وكانت في القاهرة أيضــاً في أغسـطس (آب) 1990 ستة أعوام ضاعت هي الأُخرى.

... وما أكثر السـنوات التي ضــاعت على العمل العربي المشـترك خلال نصـف قرن مع أن الأسـباب ليست موجبة والحيثيات ليست مقنعة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يوليو (تموز) 1996

* * *

مطيع لإسرائيل متجبر مع الآخرين

آن الأوان لكي تجرّب الولايات المتحدة صيغة بناء علاقة مع عدد كبير من دول العالم الثالث، ومعظم الدول العربية والإسـلامية، وتطوير هذه العلاقة، وذلك من منطلق الإقتناع وليس الإضـطرار، وعلى أرضـية من الثقة والإحترام المتبادل وليس وفْق مفاهيم الهيمنة وعدم الأخذ في الإعتبار خصـوصـية هذا الشـعب أو ذاك وتراث هذه الدولة أو تلك ومبدئية هذا الحاكم أو ذاك.

وفي التاريخ الحديث للعلاقة الأميركية – العربية ليس هنالك مرحلة تشير إلى أن هذه العلاقة إستقامت من جـانـب الولايـات المتحـدة وأن الطرف العربي هو الـذي كـان دائمـاً ينهج الصــــراط المســــتقيم. ومن الطبيعي، نتيجـة ذلـك، أن تتولـد في النفس العربيـة مشـاعر الضـيق التي تتسبب، مع تزايد التجاوزات من جانب الإدارة الأميركية لأصـول التعامل، في إحتقانات يضــطر الحكام إلى معالجتها بضــبط النفس أحياناً، وبالتلميحات في معظم الأحيان، لعل هذه الإدارة تلتقط الإشارة فتتفهم وتعيد بالتالي النظر. ولكن هذا التفهم لا يحدُث وتصــدر عن مسـؤولين في هذه الإدارة مواقف وتصــــريحات فيها من المفردات الكثير مما يســــتفز المشــاعر ويولّد الكراهية وإلى درجة يجد المرء نفســه يتساءل: إذا كان هذا هو الصديق، فمَن هو إذاً العدو؟ وإذا كانت هذه هي الصداقة، فما هي إذاً العداوة؟

ولقد إفترضْــــنا كعرب أن الإدارة الأميركية بعدما أمســــكت بزمام الموقف الدولي، لا ينازعها في ذلك أحد، أصبحت أمام فرصة تاريخية لكي تنتهج السياسة التي تجعل الرأي العـام العربي والإســــلامي مقتنعـاً بأهمية الصـداقة معها. ولكن الذي حدث هو أن الظن العربي بهـا خـاب أيمـا خيبـة. فهي لا تصــــغي إلى مطالبه ولا تعير إهتماماً لمشــاعره ولا تحترم أمانيه ولا تأخذ في الإعتبار المسألة الأكثر حساسية في حياته وهي الشـق الديني من المسـألة الفلسـطينية. ونراها في هذا الصدد تفعل كل ما من شأنه إيذاء مشاعر العربي والمســــلم. وبدلاً من أن يحدُث نوع من التنبه إلى ما تفعله فإننا نفاجأ بين الحين والآخر بتصـريح يتضـمن إشادة بالإسلام وكأنما هذا الدين تنقصه إشادة الإدارة الأميركية لكي يكون آخر رســـالات الله على الأرض ويكون نبيه الكريم صـــلوات الله عليه آخر الأنبياء. ويحدُث أيضـاً أنه بين الإشادة والأُخرى وهي إشـادات

تفرضـها التكتيكات الإنتخابية وليس القناعات المبدئية تقترف هذه الإدارة من الأخطاء ما يجعلنا نتنبه إلى أن الإشـادات هي مجرد كلمات لإلهاء العرب والمسـلمين عن التمعن في حقيقـة مواقف الإدارة الأميركيـة وسياساتها نحوهم.

ومن المؤكد أنه لو خطر في بال العرب أن الإدارة الأميركية بعدما باتت ممسـكة بزمام الموقف الدولي ستبتعد عنهم كثيراً وتقترب من إسرائيل أكثر، وستعمل على أن تنتزع منهم عناصـر القوة وأهمها الإرادة بعد الثروة لتمنح إسـرائيل في المقابل المزيد من مقومات الغلو في المعاندة بغرض الهيمنة، والحصـول منهم على الكثير من التنـازلات لتقـديمهـا كمكـاسـب لإسـرائيل... من المؤكد أنه لو خطر في بال العرب ذلك لكانوا آثروا المزيد من التحمل في إنتظار الفرصـة المناسبة التي تحول دون الظهور أمام العالم بأنهم من فرط ثقتهم بالولايات المتحدة وإلتصاقهم بها منحوها كل التأييد فأدارت لأمانيهم ظهرها وأبقت على وجْهها مُداراً نحو إسرائيل، ولكان العرب والمسلمون أيضاً ضـغطوا من أجْل تحقيق بعض التوازنات خصـوصـاً أن دولاً كثيرة في العـالم تملك مقومـات الإقتدار التقني تتطلع إلى أطيب العلاقة معهم.

وحتى العـام 1977 ربمـا كـانـت حجـة الإدارة الأميركية في معرض تبرير المبالغة في مسـاعدة إسـرائيل هي خوفها من العداء العربي والإسـلامي المتأصـل في النفوس نحو إسـرائيل، لكن بعدما اختار الرئيس أنور السادات السلام مع إسرائيل وفْق صـيغة إتفاقية كامب ديفيد فإن الحجة باتت حُكْماً ضـعيفة أو أنها يجب أن تصـبح كذلك. لكننا نلاحظ أن المبالغة زادت وإلى درجـة أن كـل خطوة إتخـذتْهـا الإدارة الأميركية في عهود الرؤسـاء السـابقين كارتر وريغان وبوش وفي عهد الرئيس الحالي كلينتون كانت وكأنما لم تتحقق الخطوة الأهم في السـلام العربي – الإسرائيلي.

وإذا أراد المرء أن يذكر بعض الأمثلة عن المواقف الأميركية المؤيدة لإسـرائيل على حسـاب العرب والمسلمين لوجد أن هنالك عشرات الأمثلة في حين أنه إذا هو حاول أن يتذكر مواقف متوازنة وعادلة للإدارة الأميركية إزاء الصـراع العربي – الإسـرائيلي لوجد صـعوبة في ذلك. وبسـبب هذه الحقيقة يصـبح من الطبيعي تَزايد رقعة الضـيق العربية والإسـلامية من الأسـلوب الذي تعتمده الإدارة الأميركية وترفض أن تعيد النظر فيه. وهي بدل أن تنتهز فرصـة إنهيار الإتحاد السوفياتي... في نظر أكثرية العرب والمسلمين وتتخذ من المواقف ما يجعل تلك الأكثرية تأسف لأنها إعتبرت في فترات مضـت أن الوقوف مع الولايات المتحدة يجدي أكثر وبالذات بالنسـبة إلى القضـايا العالقة، فإنها فعلت العكس أي إنتهزت فرصـة زوال ذلك الحليف والصديق (أي الإتحاد السوفياتي) وبدأت تملي على العرب والمسـلمين مواقف وسـياسـات وتستدرجهم إلى السلام الذي يلغي فيهم قوتهم وشأنهم ويعزز قوة إسرائيل وشأنها وكل ذلك ضِمن إستراتيجية ثابتة لهدف متغيرة أسـاليبه بين إدارة وأُخرى، وهي أن تكون إسـرائيل هي الأكثر تفوقاً على صـعيد القوة في الشـرق الأوسـط. وقياسـاً على الإدارات التي سـبقت الإدارة الحالية فإن الرئيس كلينتون هو الأكثر تصـميماً على تنفيذ هذه الإستراتيجية. وفي إستمرار كان ينتابنا شـعور بأن هذا التأييد المبالَغ فيه من جانب إدارة الرئيس كلينتون لإسـرائيل ليس فقط لأسـباب إنتخابية ومن أجْل أن يكسـب الرئيس أصـوات يهود الولايات المتحدة ويجدد الرئاسـة فترة ثانية، ثم جاءت قمة شـرم الشـيخ ومواقف الرئيس كلينتون شـخصـياً داخل القمة وخارج جلسـتها، ثم بعد العدوان الإسـرائيلي على لبنان وبالذات إقراره بالرد الإضطراري لإسرائيل على بضعة صواريخ كاتيوشا وعدم إعتراضه على المجزرة المخجلة في مركز القوات الدولية في بلدة قانا (جنوب لبنان)... لتؤكد أن في نفس الرئيس كلينتون مشـاعر غير ودية على الإطلاق إزاء كل ما هو عربي أو إسـلامي، وهو موقف ربما كان من الطبيعي التسـليم به قبْل أن يأخذ على عاتقه العملية السلمية التي هي المجد السياسي الوحيد لرئاسته الأولى، أما بعد ذلك فإن الأمر يصبح موضع الإستغراب وإلى درجة الظن بأن طبيعة العلاقة بين كلينتون واللوبي الذي يرسـم في الولايات المتحدة مستقبل إسرائيل ومصيرها تختلف عن طبيعة العلاقة المفترَض أن تكون عليه بين الإدارة الأميركية والدولة العبرية. ونجد أنفسـنا في معرض الحديث عن طبيعة هذه العلاقة نتذكر عبارة وردت في مقال إفتتاحي في صـحيفة إسـرائيلية (يديعوت أحرونوت) نشـرتْه في عددها الصـادر الثلاثاء 30 أبريل (نيسـان) 1996 وفي ذروة حمى الإنتخابات الإسرائيلية. والعبارة المشار إليها هي: "إن كلينتون تبنَّى كلياً قضـية إسـرائيل وحكومتها. ومن المرجح أن تاريخ إسرائيل سيسجل أنه أول رئيس أميركي يتصـرف كالولد المطيع الذي لا

يرفض أمراً. والذي تابع سير العلاقات الإسرائيلية – الأميركية خلال العقود الماضية يقف اليوم مشدوهاً أمام المسافة التي قطعها كلينتون...".

وتخطئ الإدارة الأميركية الحالية إذا كانت تعتقد أن العرب والمسلمين ممتنون لها ما فعلتْه أو أنهم ممتنون لما فعلتْه من قِبَل الإدارة الديمقراطية الأُخرى. فالسلام الذي يجري العمل من أجْله ليس سلاماً وأسلوب التعامل الذي تعتمده الإدارة الأميركية مع العرب والمسلمين ليس بذلك التعامل اللائق. ومثل هذه النظرة يلتقي حولها الجميع حكاماً ومحكومين. بل إن بعض الإشارات أو المفردات التي تصدر عن أهل القرار في عدد من الدول العربية والإسلامية عند تعليقهم على مواقف الإدارة الأميركية تعكس حجم الضيق من هذه المواقف وبالذات هذا الإصرار من جانب الإدارة وبالذات إدارة الرئيس كلينتون على أن يكون العرب والمسلمون معها في سعيها لتثبيت الكيان الإسرائيلي وتأمين كل أجواء الطمأنينة له.

وعندما تستمر الحال على ما هي عليه ويتصرف الرئيس كلينتون، على نحو ما نلاحظ، معنا كعرب وكمسلمين، ويتصرف مع إسرائيل، على نحو ما نسمعه ونراه، فهذا يعني أن الخلل الذي هي عليه العلاقات خطير جداً. وما دام يتصرف مع إسرائيل على أنه "الولد المطيع" لها على نحو ما قالته الصحيفة الإسرائيلية ويتصرف مع العرب بتجبر على أساس أنه "الرجل القوي الآمر الناهي" على نحو ما تؤكده التصرفات والتصريحات والمواقف وعمليات الإبتزاز المستمرة فهذا معناه أن الإدارة الأميركية تزرع بنفسها في العالم الثالث بذرة الكراهية لها والتحسس من أفعالها. وكلما كانت التربة خصبة كلما تحولت الكراهية إلى مواجهة. وحتى إشعار آخر تبدو التربة في بعض الدول العربية والإسلامية هي الأكثر خصوبة.

وما دام لن يحدُث تكيُّف عربي وإسلامي مع ما تفعله الولايات المتحدة بنا وما تفعله في الوقت نفسه لإسرائيل فإن الطريق الأسلم هي أن تجرِّب الإدارة الأميركية كيف تبني علاقتها مع العرب والمسلمين من منطلق الإقتناع بها كدولة عظمى تريد أن تحكم العالم، وليس كدولة تنحصر هموم إدارتها في كيفية الإبقاء على إسرائيل تنعم بتسليم العرب والمسلمين بها كمغتصبة للحقوق والمقدسات على نحو ما تريد الإدارة الأميركية الحالية بالذات وهو ما لا يمكن أن يحدُث.

ويستغرب المرء كل الإستغراب كيف لا تجرِّب الإدارة الأميركية... إذا كانت بالفعل ليست سيئة النية تجاه العرب والمسلمين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 يوليو (تموز) 1996

* * *

"حرب" من الأسد مستحبة عربياً ودولياً

مرة أُخرى يلتقي الرئيس حافظ الأسد بصديق سوريا اللدود الرئيس ياسر عرفات في بلدة القرداحة، مسقط رأس الرئيس الأسد، ثم في طرطوس العاصمة الصيفية للدولة السورية.

ومع أن الرئيس عرفات كان يتمنى لو أن اللقاء الثاني تم في دمشق وفي قصر الرئاسة وكان الإستقبال له في المطار إستقبال رئيس دولة، إلاَّ أنه لمصلحة الوفاق المنشود بين الرئيسيْن فإن اللقاءيْن حدثا خارج دمشق، وإمتصت الأجواء الوجدانية التي رافقت اللقاءيْن الكثير مما في الصدور. ونقصد بهذه الأجواء أن الرئيس الأسد كان في اللقاء الأول يعيش ذروة أحزانه بسبب الغياب المفاجئ والصاعق والمأساوي لنجله الرائد باسل، الذي كان يتم إعداده لدور يرسم معالمه والده الرئيس منذ بضع سنوات. ومن الطبيعي أنه عندما جاء الرئيس عرفات في المرة الأولى إلى القرداحة عام 1994 لتقديم العزاء إلى الرئيس الأسد، فإن مشاعر الوالد المحزون تقدمت على مشاعر الرئيس المنزعج من مفاجأة أوسلو، التي شعر أنها إستهدفت إرباك سوريا وإنتزاع الورقة الفلسطينية تماماً من يديها. ومع أن الحملة على الرئيس عرفات وما فعله تصاعدت كثيراً بعد ذلك من جانب أجهزة الإعلام السورية، فضلاً عن بعض التصريحات، ووصلت في معرض الرد الفلسطيني على الحملات بالمثل، إلى حد طرح موضوع "الجولان الفلسطيني" برسم التراشق الإعلامي، إلاَّ أنه إستقر في نفس الرئيس الأسد ووجدانه أن الرئيس عرفات لم تَغِب عن باله المشاركة في الأحزان، والحضور لتقديم العزاء.

ونلاحظ بالنسبة إلى اللقاء الثاني أن الرئيس عرفات لم يَغِب عن باله أيضاً الأمر الوجداني ذاته،

وتوجه في لفتة من لفتاته، التي يؤديها على الوجه الأكمل، إلى ضريح الرائد باسل قبْل أن يبدأ التحادث في قصر الرئاسة في اللاذقية مع الرئيس الأسد. وللمرء أن يتصور أي جو سيكون عليه اللقاء والتحادث عندما يصل الرئيس عرفات إلى القصر آتياً من زيارة ضريح الإبن الذي قرأ الفاتحة أمامه ترحماً على مَنْ في داخله، ويكمل ذلك بتقديم العزاء إلى الرئيس الأسد بوفاة شقيقه الأكبر، الذي توفي قبل أيام وهو في الثانية والتسعين من العمر. ومن المؤكد أن الجو سيكون خالياً من الضيق ومن التوتر وستجد الشؤون المشتركة نفسها جنباً إلى جنب مع الشجون الشخصية. وفي المرحلة الراهنة ليس مطلوباً أكثر من ذلك، أي التحادث في العمق وبعيداً عن الضيق والتوتر، خصوصاً أن لقاءاً سابقاً بين الرئيسيْن رتَّبه الصديق المشترك الرئيس حسني مبارك على هامش إجتماعات القمة العربية التي جرى عقْدها في القاهرة يوم 22 يونيو (حزيران) الماضي، أزال الكثير من الإحتقان الذي في الصدور.

ومع أن المسألة البروتوكولية ليست أساسية في المرحلة الراهنة، ويتقدم عليها إنشغال البال بما ستؤدي إليه العملية السِلمية المتعثرة، إلاَّ أن إستقبال الرئيس عرفات في المطار من جانب وزير الخارجية فاروق الشرع وليس من جانب عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية أعطى إنطباعاً بأن الدفء في العلاقة السورية – الفلسطينية بدأ رحلة العودة المتدرجة، إلاَّ أنه ستكون هنالك حاجة إلى الكثير من الوقت في عملية التدرج إلى أن تصل درجة الحرارة إلى ما يجعل التحجر الذي في المشاعر يتضاءل، وإلى ما يجعل الدفء يستمر لفترة طويلة يذوب خلالها الصقيع الذي أحاط بالمشاعر منذ المواجهة السورية – الفلسطينية الشهيرة في لبنان التي تحولت إلى جراح غائرة بدا أن لأمها ليس بالأمر السهل على الإطلاق. وقد يقال إن الحُكْم السوري أراد من تكليف فاروق الشرع بالإستقبال تكريس تقليد يقضي بأن يكون إستقبال الرئيس عرفات بعد الآن، في حال إستقرت العلاقة وإستتبعها تكاثُر الزيارات، من نوع المستوى نفسه المعمول به في مصر، حيث أن وزير الخارجية عمرو موسى هو الذي يستقبل الرئيس عرفات في كل مرة يزور القاهرة. لكن في الوقت نفسه يمكن القول إن الرئيس عرفات يزور مصر بمعدل مرة وأحياناً مرتين في الشهر، بينما هذه هي زيارته الثانية إلى سوريا، فضلاً عن أنه إستُقبل في عواصم عربية كثيرة زارها منذ أن أعلن أنه بات رئيس دولة فلسطين، على مستويات تراوح بين مستوى الرجل الأول أو الرجل الثاني. وربما يكون المستوى السوري الأعلى للإستقبال متروكاً إلى ما بعد أن تصبح الدولة دولة ولا تعود المصادر الرسمية السورية محتارة في أمر التسمية التي تقرنها بإسم الزعيم الفلسطيني، هل هو رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، أم هو الرئيس الفلسطيني، مع الأخذ في الإعتبار أن التسمية التي كانت سائدة إلى ما قبْل الزيارة التي تمت يوم الخميس 25 يوليو (تموز) 1996 هي "رئيس سُلطة الحُكْم الذاتي المحدود"، وهي تسمية من الطبيعي أن تحدُث في سياق الحملة السورية الشهيرة على "الهرولة" و"المهرولين"، ومن الطبيعي أن تنتهي مع تبدُّل طبيعة العلاقة والمشاعر، وعلى أساس أنها ليست من الثوابت وإنما هي مفردات الحالات الطارئة، من نوع مباغتة الرئيس عرفات لسوريا وغيرها بإتفاقية أوسلو.

ولا ندري إذا كانت العلاقة السورية – الفلسطينية المستجدة ستتطور بسرعة نحو الأحسن، لكن من المؤكد أنها بعد اليوم لن تنتكس، وذلك إستناداً لعدة إعتبارات لعل أهمها أن الخلاف لم يعد على الأهداف، فكلاهما متمسك بالعملية السلمية ويسعى إلى إنجازها وعلى وجه السرعة، وإنما هو على أسلوب إدارة التخاطب والتفاوض والتشاور، وهذه مسائل، في إستطاعة زيارة أُخرى يقوم بها الرئيس عرفات، زيارة تكون إلى دمشق شأنه في ذلك شأن بقية الزوار العرب والأجانب، أن تستنبط لها الجامع المشترك، وهذا سيساعد على تطوير العلاقة بحيث تصبح من نوع العلاقة المصرية – الفلسطينية، وإن كانت مشاعر الرئيس عرفات نحو مصر، أو إذا جاز القول إن هواه المصري إلى حد تكوين لهجة مصرية – فلسطينية عند الحديث باللغة العامية أو عند التخاطب باللغة الفصحى، ليست مثل مشاعره نحو سوريا، وليس هواه السوري واحداً في أي حال. ومن الإعتبارات التي تجعل العلاقة السورية – الفلسطينية ليست مرشحة ولا عرضة للإنتكاس، أن راعيها والذي يسهر عليها – إذا جاز القول أيضاً – هو الرئيس حسني مبارك الذي لولاه لما كان للمصالحة السورية – الفلسطينية أن تبدأ في القاهرة ولما كان لزيارة الرئيس عرفات يوم الخميس الماضي إلى القرداحة وطرطوس أن تتم. وللرئيس مبارك، في أي حال، الفضل في إبتكاره لصيغة

إمكانية التعايش بين طرف عربي حسم أمره وصالح إسرائيل وبين طرف لم يحسم ولم يصالح، وبين طرف حسم أمْر الإنضمام إلى العملية السلمية وأمْر الإقرار بوجود إسرائيل دولة يتم التعامل معها مستقبلاً إنما لم تحدُث المصالحة بعد. وعندما نتأمل في العلاقة التي تربط بين الرؤساء حسني مبارك، وحافظ الأسد، ومعمَّر القذَّافي، وياسر عرفات، ونتأمل في الإتصالات الحثيثة والدائمة بين مصر وسوريا، وبين مصر وليبيا، وبين مصر والسُلطة الوطنية الفلسطينية، وكذلك في الزيارات المتبادلة وما تتضمنه من تصريحات وبيانات، فإننا نرى أن إمكانية التعايش والتعامل المشار إليها ممكنة وطبيعية. ثم إننا عندما نتأمل في الدور التوفيقي الذي يقوم به الرئيسان مبارك وعرفات، وكل وفْق أسلوب وطريقة، بين سوريا وإسرائيل يتأكد لنا أمر أساسي وهو أن الخلافات العربية التقليدية إلى زوال، ومن بينها الخلاف السوري – الفلسطيني، الذي جاءت زيارة الرئيس عرفات الأخيرة إلى سوريا ولقاؤه بالرئيس الأسد لتشكِّل نقطة حاسمة في شأن تقويضه وإحلال صيغة جديدة من الوفاق والتعايش محله.

ويبقى أنه كان يكثُر الحديث في إستمرار عن الورقة الفلسطينية كإحدى الأوراق المهمة في يد الحُكْم السوري، وكيف أن الموقف السوري أصابه بعض الوهن عندما لم تعد تلك الورقة في يديه. ثم سارت التطورات التي ترافق العملية السلمية في إتجاه أن الورقة السورية في يديْ الموقف الفلسطيني، لو كانت السُلطة الوطنية، وبالذات بعد مجيء نتنياهو، تملكها، هي بأهمية الورقة الفلسطينية في يديْ الموقف السوري. وفي ضوء هذه المعطيات جاءت زيارة الرئيس عرفات إلى سوريا والإستقبال المدروس من جانب الحُكْم السوري للرئيس الفلسطيني ومأدبة العشاء الرئاسية تكريماً له وللوفد المرافق، زيارة تؤسس لما هو أكثر من التنسيق بين الجانبيْن لمواجهة العاصفة الليكودية العاتية، ولكن مثل هذا الأمر يحتاج على الأرجح إلى أن يعمل الرئيس عرفات على إستراتيجية جديدة تقوم على أساس تخفيف كفة مجموعة أوسلو في الميزان الفلسطيني، وهي كفة راجحة زيادة عما تفرضه الضرورات والحكمة.

وإذا كانت مرحلة بيريز أوجبت ذلك، وأوجبها الإندفاع الفلسطيني في العملية السلمية، فإن تلك المرحلة تراجعت أمام المرحلة الليكودية الراهنة التي يقودها بنيامين نتنياهو، والتي توجب صياغة موقف عربي جديد أطرافه مصر وسوريا والسُلطة الفلسطينية، وهذا ما يتم السعي له منذ القمة العربية، وسيستمر السعي إلى حين أن يغرد نتنياهو مع بقية المغردين للعملية السلمية وفْق قاعدة لكل طرف حصته التي قررتْها الإرادة الدولية من دون زيادة لإسرائيل ومن دون نقصان لسوريا والسُلطة الوطنية الفلسطينية.. ومن دون مساس بالرؤية الدولية لوضع القدس ومستقبلها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 15 يوليو (تموز) 1996

* * *

زائر يُسدي النصيحة وآخر يسبب الإحراج

من حُسْن حظ العملية السلمية، التي تواجه بعض التعثر، أن يكون الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض في واشنطن في زيارة غير رسمية وأن ينتهز وزير الخارجية الأميركية وارين كريستوفر الفرصة فيطلب من السفير الأمير بندر بن سلطان، العائد حديثاً من المملكة مثقلاً بمتابعة تطورات حادثة الخبر، أن يلتقي بالأمير سلمان، ويتم اللقاء فيستغرق من الوقت ما تستغرقه عادة لقاءات الزائريْن الرسمييْن.

ونقول إنه من حسن حظ العملية السلمية أن يحدُث اللقاء بين أمير الرياض ورئيس الدبلوماسية الأميركية، لأن الأجواء التي تظلل العملية السلمية باتت ثقيلة جداً بعد اللقاءيْن اللذيْن أفرزا حالة مقلقة من الإحباط.

الأول لقاء رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو بالرئيس بيل كلينتون يوم 9 يوليو (تموز) الجاري، ثم مهرجان التعظيم المخجل من جانب الكونغرس للصقر الإسرائيلي الذي جاء يشترط ويحرج، ويضع الدولة الكبرى في وضع تبدو فيه وكأنها دولة صغرى.

أما اللقاء الثاني فكان لقاء نتنياهو مع الرئيس حسني مبارك في القاهرة خلال زيارة الصقر الإسرائيلي الأولى لمصر يوم 18 من الشهر نفسه.

كذلك إنه من حُسْن حظ العملية السلمية أن يتم اللقاء بين كريستوفر والأمير سلمان لأن الإدارة الأميركية تحتاج، وأكثر من أي وقت مضى، إلى وجهة نظر عربية وإسلامية تأتيها من الفريق الثالث في العملية السلمية والذي تتصدره المملكة العربية

السعودية. وما نقصده بالفريق الثالث هو الدول العربية والإسلامية التي ليست طرفاً في التحادث والتفاوض، إلاَّ أنها تبذل كل ما في وسعها من أجْل أن تصل العملية السلمية، وبأقل قدْر من الخدوش والكدمات (من نوع خدوش وكدمات نتنياهو) إلى نقطة النهاية، وبحيث تستقر الحال وفق الصيغة التي إنتهت إليها الإرادة الدولية للعملية السلمية، ويحاول رئيس وزراء إسرائيل الجديد بعثرتْها كما فعل قبْل زيارته الأولى إلى واشنطن، ثم خلال تلك الزيارة وخلال زيارته الأولى لاحقاً إلى القاهرة.

وإلى ذلك فإن الإنطباع السائد عن الزائر السعودي المتميز للخارجية الأميركية، أنه نادراً ما يتحدث لوسائل الإعلام عن المآزق التي تواجهها بعض القضايا التي تكون الدول العربية والإسلامية طرفاً فيها، من نوع المأزق الذي تواجهه العملية السلمية، لكنه في الوقت نفسه يكون كثير المتابعة لهذه المآزق وكثير الإهتمام بنقاط التعثر، وبحيث عندما يكون القرار يتطلب منه إبداء وجهة النظر فإنه يقولها بدقة، وعندما يتطلب الأمر تقديم النصيحة فإنه يفعل ذلك بالحد الأقصى من الحكمة، على أساس أن النصيحة تكتسب فعالية إذا هي أسديت بإخلاص في معزل عن التحذير والتهويل والتخويف.

وليست هنالك ظروف تواجهها الإدارة الأميركية، إزاء العرب والمسلمين، أكثر دقة من الظروف الراهنة. ذلك أن زيارة نتنياهو إلى واشنطن، وما رافقها من تحديات من جانب الصقر الذي يطمح إلى أن يكون "رجل إسرائيل القوي" في زمن سقطت فيه، أو يجب أن تتساقط، هذه النظرية، أحدثت بعض الإساءة للمشاعر العربية والإسلامية، وذلك لأن إدارة الرئيس كلينتون مارست مع نتنياهو، الذي جاء مجتاحاً، دور المستمع، مع أن الأمر كان يتطلب بعض المواجهة ووضْع النقاط على الحروف. ولأن ذلك لم يحدُث فقد تولَّد إنطباع بأن الإدارة الأميركية تقر بصمتها ما يطرحه نتنياهو، مع أن ذلك ليس دقيقاً، وليس ممكناً، لأن إحتمال تراجُع هذه الإدارة عن العملية السلمية وفْقِ ما تم الإتفاق الدولي في شأنه، والعمل في هديه، بدءاً من مؤتمر مدريد وحتى ما قبْل فوز الليكوديين في الإنتخابات الإسرائيلية، معناه سقوط الهيبة الأميركية أمام كل دول العالم، فضلاً عن أن هنالك بعض الدول التي لا تقر مبدأ التراجع في حال أن الإدارة الأميركية إضطرت إليه لأسباب إنتخابية، أو نتيجة تَجدد نزعة مسايرة إسرائيل واللوبي الصهيوني داخل الولايات المتحدة على حساب العرب والمسلمين ودول العالم، على نحو ما كان سائداً قبْل مؤتمر مدريد.

وقد يصعب التكهن بما دار في لقاء الثلاثة أرباع الساعة بين كريستوفر والأمير سلمان، وذلك لأن الزائر ليس من النوع الذي ينتهز مثل هذه اللقاءات لكي يفيض في التحدث عما جرى خلال اللقاء. ولكن من المعروف عن رئيس الدبلوماسية الأميركية شغفه بالإستماع إلى الذين إذا هم أوضحوا أقنعوا، وإذا هم نصحوا أخلصوا، وإذا هم نهوا تمنوا. وما هو معروف عن الأمير سلمان أنه من المتفوقين في هذه المدرسة السياسية، خصوصاً عندما يكون الحديث في لقاء يضم طرفيْن تجمع بلديهما علاقة تتسم بخصوصية لا مثيل لها بين الولايات المتحدة وأي دولة من دول العالم.

وإذا جاز للمرء أن يفترض، فإن اللقاء الذي تم بين كريستوفر والأمير سلمان من شأنه أن يساعد في بلورة رؤية الإدارة الأميركية لإستئناف مهمتها بالنسبة إلى العملية السلمية المتعثرة، وذلك لأن الأمير سلمان هو أحد قلائل بين أهل القرار العربي الذين لديهم ما يقولونه في شأن أي موضوع. والفرق كبير جداً بين مسؤول يعرف لكنه لا يملك حق الإجابة والرد على الإستفسار، وبين مسؤول يعرف ومخوَّل بأن يوضح أي أمر، ويرُد على أي استفسار في ضوء المصلحة العامة، وما يمكن أن يحققه التوضيح في هذا السبيل.

ومن المؤكد أنه عندما سيستأنف الوزير كريستوفر قريباً إتصالاته وجولاته، من أجْل تنشيط العملية السلمية، ستظهر مدى أهمية أن يستمع من الأمير سلمان بن عبد العزيز إلى ما لا يسمعه رئيس الدبلوماسية الأميركية من آخرين.

وفي إنتظار أن يحدُث ذلك، لا بد أن مسؤولين كثيرين غير كريستوفر رأوا في نتنياهو ذلك الزائر الرسمي الذي سعى إلى الإدارة الأميركية لكي تستقبله إستقبال الفاتحين ففعلت مضطرة وأحرجها متعمداً، وفي الأمير سلمان بن عبد العزيز الذي سعت الدبلوماسية الأميركية إلى أن يزورها فإستقبله رئيسها بكل الإهتمام وعامله بكل التميز، فكان هو شاكراً وكانت الدبلوماسية الأميركية ممتنة.

... وتلك هي الأصول والأصالة في التعامل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 22 يوليو (تموز) 1996

* * *

الورقتان السورية والفلسطينية... تتبادلان الأهمية

مرة أُخرى يجد المرء نفسه يخاطب الرئيس السوري حافظ الأسد بالقول إن الذي يفعله الحُكْم الإسرائيلي الجديد لن يتوقف عند حد إلاَّ بعد دفْع القوات الإسرائيلية التي تحتل الجولان خارج الأرض المحتلة، ودفْعها بالتي هي أحسن وليس خوض حرب تنتهي بمنتصر ومهزوم.

ومثل هذا الأمر سيحمل الحُكْم الليكودي على أن يوقف أسلوبه في التخاطب فلا يعود لمجرد أن إنتصر نتنياهو على بيريز يتحدث وكأنه خارج للتو من حرب يونيو (حزيران) 1967، فضلاً عن أن دفْع الإسرائيليين بالتي هي أحسن خارج الجولان سيجعلهم بالتالي يبتعدون عن الخليل ويجعلهم أيضاً ينفِّذون إلتزامات فرضها المجتمع الدولي ويجعلهم أيضاً وأيضاً يوقفون هذه اللهجة الإستفزازية عند الحديث عن موضوع القدس.

وقبْل القمة العربية الأعجوبة التي جرى عقْدها في القاهرة يومي 22 و23 يونيو (حزيران) الماضي كان ربما سيشعر الحُكْم السوري بأنه وحده في الخيار العسكري المحدود الذي قد يضطر إليه. لكن تلك القمة بالأجواء التي سادتها ثم بالمشاورات التي تخللتها ثم بالقرارات الكثيرة الإعتدال التي إتخذتْها أشعرت الرئيس الأسد بأنه ليس وحده أو أنه لن يكون وحده ما دامت باتت مقتنعة بأن سعيه للسلام ليس تكتيكاً وإنما هو جزء من الرؤية المستجدة عنده للوضع في المنطقة.

ونحن عندما نقول إن الرئيس الأسد ليس وحده فعلى أساس أن الأشقاء العرب، وأولهم الأردن، سيساندونه سياسياً وإلى الحد الأقصى. ونقصد بهذا الحد إقرار الحُكْم الإسرائيلي بأن العملية السلمية يجب أن تستقر وأنه في ضوء ذلك لن يواصل التغريد خارج سرب الأكثرية الذي انضم إلى العملية تلك وينشط مخلصاً في سبيل إنجاحها. ثم إنها لن تكون الحرب التي تحتاج إلى المساندة والنجدات العسكرية وإلى الأسلحة والإمدادات يبعث بها هذا الشقيق أو ذاك على نحو ما كان يحدُث في الماضي، أو يتعهد بدفع ثمنها في هذا المصرف أو ذاك وبذلك تصل إلى سوريا بالحد الأدنى من المشقة. لكن لماذا لن تكون الحرب وبالمفهوم المتعارف عليه، فلأن مبدأ الحرب متفق على تجميده وغير مرحب به وليست هنالك جهة محلية أو دولية مستعدة له.

أما ما نشير إليه وهو دفْع الإسرائيليين من الجولان بالتي هي أحسن فإنها من العمليات العسكرية التي تبدو مستحبة الحدوث وسط الظروف الراهنة التي تعيشها عملية السلام، بل قد يجوز القول إنها وسيلة ضغط لا أكثر تتطلب بعض الطلقات لا أكثر. ومن المؤكد أنها ستكون موضع ترحيب الرأي العام العربي الذي يضيق ذرعاً يوماً بعد يوم بالإستهانات الإسرائيلية لأهل القرار العربي بل وبالإهانات التي يوجهها الحُكْم الليكودي لهم، وموضع مباركة الأنظمة العربية من دون إستثناء – بما في ذلك، تكراراً، الأردن – ما دامت تتم تحت سقف العملية السلمية ولا تتضمن إحراجاً لأي منهم، وموضع رضى عدد كبير من دول العالم التي بات التعنت الإسرائيلي يزعجها ويربك لها سياساتها وإتصالاتها ومصالحها مع العالم العربي، وموضع امتنان الدول الإسلامية من دون إستثناء بما في ذلك تركيا. والأهم من هذا كله أن عملية دفْع الإسرائيليين من الجولان بالتي هي أحسن ستكون موضع قبول ضمني من الإدارة الأميركية التي تحتاج أكثر من أي زمن مضى إلى من يساندها في مواجهة إسرائيل وما تطرحه حكومتها الجديدة من تعقيدات أمام العملية السلمية. ومن المؤكد أن عملية محدودة ومصممة على النحو الذي تكون فيه تدافعية أكثر منها هجومية، وهذا ليس بالأمر الصعب على القيادة السورية، ستشكِّل المساندة التي تحتاج إليها الإدارة الأميركية، ذلك أن هذه الإدارة تجد نفسها محرجة أمام الحُكْم الليكودي عندما يطرح أفكاره ومطالبه بكل تشدد متجاوزاً إستراتيجية أميركية يجري العمل في ضوئها، ولا يصدر من الجانب السوري ما هو أكثر من تلميحات وتلويحات وتحذيرات في صحيفة "تشرين" أو في صحيفة "الثورة" أو في وكالة "سانا" أو ضمن تعليقات يبثها التلفزيون أو الإذاعة أو تصريحات يدلي بها وزير الخارجية فاروق الشرع معظم الأحيان ووزير الإعلام محمد سلمان في بعض الأحيان.

ويجد المرء نفسه يتساءل هنا: وكيف يمكن أن ترضى الإدارة الأميركية بأمر ضد إسرائيل مصدره الجانب العربي، وتحديداً سوريا؟ والجواب عن ذلك هو أن الذي يمكن أن يُقلق هذه الإدارة هو صيغة علاقة جديدة تجمع سوريا والعراق وإيران تتصدى لتفرد

الولايات المتحدة ولنظامها العالمي الجديد الذي تريد من خلاله أن تحكم العالم، وتتصدى تبعاً لذلك لإسرائيل، أو صيغة علاقة متقدمة بين مصر وسوريا وإيران تصمد أمام التفرد الأميركي من دون أن تلجأ إلى التصدي. أما عدا ذلك ومن ضِمْنه دفْع الإسرائيليين بالتي هي أحسن خارج الجولان فإنها عملية كما أوضحنا مستحبة وإلى حد ما مطلوبة وخصوصاً أنها تدافعية بمعنى أن رصاصها يدوي أكثر منه يصيب وبمعنى أنها من نوع حروب السلاح الأبيض لا أكثر. ولقد إعتدنا في مواجهات عربية – إسرائيلية سابقة أن نجد الإدارة الأميركية تسارع على الفور إلى المطالبة بـ "ضبط النفس" لكنها إزاء عملية دفْع الإسرائيليين بالتي هي أحسن خارج الجولان لن تسارع على الفور وستتباطأ قدر الإمكان ما دامت المواجهة المستحبة تحت السيطرة وتستمر على التباطؤ إلى أن تحقق العملية التدافعية النجاح المرجو الذي يجعل نتنياهو لا يتجاوز حدوده ولا يعتمد مع العرب والمسلمين أسلوباً لم تستعمله بعض الدول الكبرى معهم. وهذا جاك شيراك رئيس فرنسا الدولة التي يمكن وحدها أن تفي بإحتياجات أي دولة عربية ومتطلباتها يعامله العرب عندما يزورهم بكل الإحترام وكل التقدير ويعاملهم عندما يزورونه بكل الأصول. ومن المؤكد أن أي عربي شاهد عبْر الشاشات الفضائية كيف كان إستقبال الرئيس الفرنسي عندما زار المملكة العربية السعودية قبْل بضعة أيام وأي أصول رافقت الزيارة، ثم شاهد بعد ذلك المهرجان الفظ الذي رافق إلقاء نتنياهو خطاباً في الكونغرس يوم الأربعاء الماضي (10 يوليو/ تموز 1996) يقول في قرارة نفسه إن ما نريده من الولايات المتحدة لن نحصل عليه ما دام رئيسها لا يضع حداً لتجاوزات رئيس وزراء إسرائيل وما دامت مؤسسة القرار السياسي (أي الكونغرس) تستقبل نتنياهو وكأنما هو بطل، ويقف الأعضاء ومعهم نائب الرئيس الأميركي يصفقون حوالى دقيقة وبحماسة منقطعة النظير له وهو يقول ما معناه إنه لن ينفِّذ العملية السلمية التي تريدها الإدارة الأميركية للصراع العربي – الإسرائيلي ثم يضع شروطاً لم تتجرأ الإدارة الأميركية على وضْعها أمام بعض القادة العرب ولم ترِد على الإطلاق خلال الزيارات التي قام بها عميد الدبلوماسية الأميركية وارن كريستوفر إلى دمشق ولا هو أشار إليها في تصريحات أدلى بها بعد حالة الجفاء الناشئة عن آخر زيارة قام بها إلى دمشق وقطعها عائداً إلى إسرائيل لأن الرئيس حافظ الأسد لم يستقبله. ومن هذه الشروط التي حملت أعضاء الكونغرس على التصفيق وبحرارة وحملت أيضاً جنرالات تمت دعوتهم إلى سماع خطاب نتنياهو على التصفيق وتحويل الجلسة إلى مهرجان، الأمن والمبادلة بالمثل والديمقراطية، وهي شروط تلقى آذاناً صاغية في المجتمع الأميركي ولدى أهل القرار ومؤسسات صناعة القرار مثل الكونغرس. لكن ما يدعو إلى الإستغراب هو كلامه الاستخفافي بالعرب والمسلمين والمسيحيين على حد سواء والمتعلق بالقدس التي تلتقي الإرادة الدولية على أنها يجب أن تكون قدسين ثم يأتي نتنياهو ليعلن ومن واشنطن ومن دون أن يعترض منطقه هذا أحد بأنها لن تكون سوى واحدة ولإسرائيل فقط. وإلى ذلك فإن ما يلفت النظر هو أن بعض الصور التي إلتُقطت داخل جلسة الكونغرس وكذلك خلال محادثات البيت الأبيض أظهرت نتنياهو وكأنه هو المضيف وليس الضيف وأظهرت المضيف الحقيقي الذي هو الرئيس كلينتون بأنه عاجز عن مجابهة هذا الضيف الإستفزازي الثقيل الوطأة على الإدارة الأميركية. ففي إحدى الصور نلاحظ أنه يناقش الرئيس كلينتون بحدة وبشيء من التحذير، وفي صورة أُخرى نلاحظ تملُّق رئيس مجلس النواب الأميركي ونائب الرئيس الأميركي، وفي صور أُخرى كثيرة نلاحظ أي نظرة يلقيها نتنياهو على مستقبليه أو على بعض المحيطين به. ولعله في ذلك يريد أن يحلب البقرة الإنتخابية الأميركية حتى آخر نقطة ويملي من الشروط ما يعزز زعامته. ومن المؤكد أننا سنسمع بعد الآن الكثير من التصريحات عن الكثير من الوعود التي حصل عليها من إدارة الرئيس كلينتون التي وضع نتنياهو في فمها الماء بحيث لا يستطيع رئيس هذه الإدارة أن يبلع الماء لشدة مرارته وملوحة كلماته ولا يستطيع قذْف الماء خشية أن يؤثر الرذاذ الذي يصيب الزعامة الليكودية على معركته الإنتخابية.

وإزاء ذلك فإن عملية مدروسة وضمن إطار ترسمه غرفة عمليات سياسية وليست عسكرية ويتم بموجبها دفْع الإسرائيليين بالتي هي أحسن، من الجولان، يمكن أن تشكِّل حلاً لمآزق أطراف كثيرة من بينها الطرف الأميركي الذي من دونها يمكن أن يظل حبيس الإبتزاز الليكودي إلى نهاية السنة. أما العملية السلمية فإنها بدورها في أشد الحاجة إليها. وعند التأمل في أحوال العملية السلمية في وضْعها الراهن وأي هشاشة

هي عليها يتأكد لنا ذلك.

والأفضل أن يكون زمام المبادرة في اليد العربية، وهي هنا سوريا، لأن الأجواء الراهنة تشير إلى أن إسرائيل ربما تكون ضمناً تخطط لـ 5 يونيو/ حزيران آخر مستغلة أن الإدارة الأميركية لا تستطيع أن تردعها وإذا هي تضررت فإن إدارة الرئيس كلينتون ستنجدها بكل ما لديها من إمكانات... هذا مع الأخذ في الإعتبار أنه لا أحد يريد للحرب أن تحدُث، لكن كيف لن تحدُث إذا كانت لن تدفع سوريا بالتي هي أحسن الإسرائيليين خارج الجولان وتنقذ خاصرة العملية السلمية من الشوكة الليكودية التي تزعج... وقد تدمي؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 29 يوليو (تموز) 1996

* * *

لقاء التشاكي المرتقب بين مبارك وكلينتون

الإحتمال الأرجح أن الرئيسيْن حسني مبارك وبيل كلينتون سيجدان نفسيهما، عندما يلتقيان في واشنطن مطلع الأسبوع المقبل، يتشاكيان ويتحدثان، ربما للمرة الأولى، بلهجة مشتركة عن عملية السلام. وهذا سببه أن زيارة رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو الاولى إلى القاهرة يوم الخميس 18 يوليو/ تموز 1996 كانت مقلقة لعملية السلام شأنها شأن زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي الأولى إلى واشنطن يوم الثلاثاء 9 يوليو. فقد ذهب نتنياهو إلى واشنطن متشدداً وقام بزيارته الأولى إلى مصر وهو أكثر تشدداً. ولولا أن الرئيسيْن مبارك وكلينتون صبوران، وكل لأسباب تخصه وظروف يعيشها، لكان صدر عنهما كلام فى غاية التوبيخ للصقر الإسرائيلي الذي لا يراعي ظروف الولايات المتحدة، الدولة الأولى في العالم العربي التي قوة إسرائيل من قوتها وبقاء إسرائيل من إرادتها، ولا يأخذ في الإعتبار أي حِمْل ثقيل ملقى على كاهل مصر، الدولة الأُولى في العالم العربي، بسبب خيار السلام الذي وضعها فيه رئيسها السابق الراحل أنور السادات، ولم تصح رؤيته أو توقعاته في شأن هذا الخيار. وقبْل زيارة نتنياهو الأولى إلى كل من واشنطن والقاهرة كان الضيق بلغ أشده في مصر من الإدارة الأميركية ومن مواقف بعض المسؤولين في هذه الإدارة وحملات بعض الصحف على الأداء المصري. أما بعدما تمت الزيارة وإتضح أي مأزق وضع فيه نتنياهو الولايات المتحدة ومصر، فإن الرئيسيْن مبارك وكلينتون سيجدا نفسيهما خلال زيارة الرئيس المصري المقبلة لا يتناقشان كثيراً في أمور العلاقة الثنائية وإنما يحاولان جاهديْن إنقاذ عملية السلام، وهذه فرصة لمصلحة الجانب العربي لعله يظهر بسببها امام الرأي العام الأميركي كم أنه تواق للسلام، وكم أن الحُكْم الليكودي في إسرائيل ليس تواقاً على الإطلاق. كذلك إنها فرصة أُخرى لإقناع إدارة الرئيس كلينتون نفسها بأن نظرية تفريغ العالم العربي من قوته وبحيث تكون إسرائيل وحدها صاحبة الذراع الأقوى في المنطقة، هي السبب في هذا الأسلوب الفظ الذي يعتمد نتنياهو.

وإذا هي إقتنعت فان تلك النظرية ستتراجع بعض الشيء، ويجب أن تتراجع لأن منطق الأمور يؤكد إستحالة تَعايش سرب الحمائم العربية كما تريد الإدارة الأميركية مع الصقر الوحيد الذي هو إسرائيل. وإذا كانت هذه النظرية مرفوضة من العرب حتى في عهد الحكومة الإسرائيلية السابقة ورئيسها، الذي حاول الجمع بين رأس الحمامة ومخالب الصقر، فكيف سيقبلون بها وقد تغيرت الحال في إسرائيل وباتت محكومة من صقر رأساً ومخالب وأفكاراً في غاية التشدد والتطرف. وأكثر ما يخشاه المرء هو أن تتغلب شهوة تجديد الرئاسة لدى كلينتون على كل الحقائق الموضوعية فينتهي التحادث بينه وبين الرئيس مبارك إلى مجرد لقاء التشاكي، والتمني في الوقت نفسه على الرئيس المصري بمساعدته في ضبْط النفس العربية وتهدئة الخواطر إلى ما بعد الإنتخابات الأميركية. وإذا حدث ذلك فهذا معناه إستسلام الإرادة العربية والإدارة الأميركية إستسلاماً كلياً لما يخطط له العقل الليكودي، وهو ما لخصه نتنياهو من قبْل أن يزور واشنطن بالقول إن العرب سيتكيفون مع ما يطرحه من أفكار وحلول.

ولقد إفترض كثيرون ومن منطلق حُسْن النية أن نتنياهو سيجعل من الزيارة الأولى التي يقوم بها الى بلد عربي، وإلى مصر بالذات، مناسبة لكى يُطمئن الرئيس مبارك في الدرجة الأولى وبقية القادة العرب، الذين إستضافهم الرئيس المصري في قمة المسالمين التي أصدرت وللمرة الأولى في تاريخ القمم العربية إقراراً شاملاً بالسلام مع إسرائيل وقبولها كدولة يتم التعامل معها في منأى عن العداوة والصراع. وكانت

تلك فرصة تاريخية بالفعل لو أن الرجل حَسَن النية.

لكن ذلك لم يحدُث، ومن الطبيعى ألاَّ يحدُث ما دام لقي في واشنطن من الكونغرس التزلف، ولم يسمع فيها من الإدارة الأميركية ملاحظة أو تنديداً أو تحذيراً، بل ربما ولم يوجِّه إليه أحد من المسؤولين في تلك الإدارة نصيحة توفر على إسرائيل المأزق الذي يمكن أن تجد نفسها، في لحظة ليست فى حسبانها، وقعت فيه، كأن ينشا وضع جديد في إحدى الدول العربية يقرر رموزه إعادة النظر في ما سبق الأخذ به، أو تقرر دولة عربية أو أكثر تغليب المسألة الوطنية على المسألة الشخصية وتُقدِم على مواجهة تجعل الأوراق تختلط والصراع يتجدد. ولا يبدو أن نتنياهو قرأ بعض الإشارات الحربية كما ينبغي، ربما لأنه ما زال في سن المراهقة السياسية، إذ بينه وبين الملوك والرؤساء الحرب الذين يتعامل أو سيتعامل معهم، خمس عشرة سنة فارق السن، وربما لأن المشاعر التي تتملكه نحو العرب قائمة على الإستهانة بهم، وربما لأنه يرى أنه إنتصر بفوزه في الإنتخابات على العالم كله بدءاً من الولايات المتحدة وصولاً إلى دولة قطر مروراً بعشرات الدول الكبرى والصغرى في القارات الخمس التي كانت تفضل أن يفوز شيمعون بيريس وكانت حكوماتها في إنتظار إعلان نتيجة فوزه. ومن الإشارات العربية التي كان من المفترض في نتنياهو أن يقرأها جيداً، ويستوعب مراميها، الإشارة المغربية بألاَّ يتوقف في المغرب في طريق عودته من واشنطن، والإشارة الأردنية بألاَّ يزور الأردن أولاً وإنما يزور مصر قبْل ذلك، والاشارة، بل والإشارات المصرية المتتابعة، والمتمثلة بتصريحات للمسؤولين أحياناً ومنها تصريح وزير الخارجية عمرو موسى بأن مصر لا توافق – وقصده لا تتحمل – أن تكون إسرائيل «دولة سوبر» في المنطقة، وكتابات فى الصحف تحمل بشدة على نتنياهو وأفكاره، ومفردات حفلت بها بعض الصحف المعارضة ودأبت على إستعمالها طوال أسبوعين، وربما ستواصل حتى إشعار آخر، وأكثرها لفتاً للنظر تجزئة اسم رئيس وزراء اسرائيل الذي صار «نتن ياهو». وشخصياً لا أعتقد أن مبتكري هذه التسمية كانوا موفَّقين في إستعمالها لعدة اسباب، من بينها أن الموقف يحتاج إلى وقفة جادة وليس إلى نكتة، فضلاً عن أن الترجمة العربية للإسم – أي (نتنياهو) – هي «نعمة الله»، وتكفي المقارنة بين الكلمة التي إستعملها بعض إخواننا المصريين، وبين ترجمة الإسم بالعربية لكي لا يحدث مثل هذا الأمر.

وإلى ذلك أن هذا «الإبتكار» يذكِّرنا بتعابير إزدهرت في السبعينات وما كان أحوجنا لعدم إستعمالها لكثرة ما جعلت القضية نكتة أكثر منها محنة. ومن تلك التعابير «إسطبل داود» بدل «كامب ديفيد» و«المقهورة» بدل «القاهرة». هذا مع الأخذ في الإعتبار أن المصري عموماً ضعيف أمام الكلمة التي يحول إلى نكتة وهذا ما زال معمولاً به. ويتذكر كثيرون كيف أن بعض الصحف والمجلات المصرية دأبت في ذروة الأزمة المصرية – السودانية على تسمية الدكتور حسن الترابى بـ «التربي» أي الذي يدفن الموتى.

وعندما يقوم نتنياهو بالزيارة الأولى له الى مصر، وتنتهي الزيارة بالنتائج الباهتة التي إنتهت إليها، فهذا يعني انه لا يريد توظيف هذه الزيارة وعلى الوجه الأكمل لما من شأنه تعزيز العملية السلمية التي تتراجع يوماً بعد يوم والتي قد نفاجأ بها وقد توارت، إلاَّ أننا في الوقت نفسه نأخذ في الإعتبار أن التصريحات التي يدلي بها المسؤولون بعد إجتماعاتهم لا تكشف ما فيه الكفاية عما جرى البحث فيه خلال هذه الإجتماعات، وعما تقرر، وإنما تعطي هذه التصريحات بعض التلميحات التي يمكن أن يبني المرء عليها الإستنتاجات والإجتهادات. ونحن في ضوء هذه التصريحات التي أعقبت محادثات مبارك ونتنياهو نجد أنفسنا نستنتج بأن اللقاء جاف إلى حد ما. ومن الصعب التكهن ما إذا كان لمصلحة العملية السلمية أن اللقاء إقتصر على الإثنين فلم يحضره أحد من المسؤولين لأن نتنياهو تعمَّد ذلك عندما لم يشرك في الوفد المرافق له أحداً من المسؤولين، وبالتالي لم يشترك وزير الخارجية المصرية عمرو موسى أو أسامة الباز مدير مكتب الرئيس للشؤون السياسية في اللقاء. كذلك من الصعب الإفتراض بأن الرئيس مبارك الذي إنتظر العرب من المحيط إلى الخليج لقاءه مع نتنياهو لن يوضح للأمة الكثير من الحقائق حول اللقاء. وعندما نقول ذلك فعلى أساس أن مبارك هو رئيس القمة العربية التي ينتظر الذين شاركوا فيها قراءة رسالة منه حول سر الكلام الذي أسمعه لرئيس وزراء إسرائيل، والكلام الذي سمعه من زائره الذي سيواصل التشدد على ما يبدو إذا كان الجانب العربي سيواصل التساهل والتنازل. وإستناداً إلى طقوس مؤسسة القمة فإن مثل هذه اللقاءات (أي لقاء مبارك ونتنياهو) يتم رفْع تقرير عنها إلى الملوك والرؤساء

خصوصاً أن القمة ما كانت لتنعقد لولا فوز نتنياهو وتساقط مواقفه المتشددة كالقذائف على الجانب العربي من المحيط الى الخليج.

ويبقى لافتاً للنظر هذا الحرص من نتنياهو على أن يبدأ زيارته الأولى الى مصر بوضع إكليل من الورد على ضريح الرئيس الراحل أنور السادات، سامحه الله على ما فعله بنا. فلو أن خطوته كانت متأنية ومدروسة بما فيه الكفاية لما وصلْنا إلى ما وصلْنا إليه. أما الحرص الآخر منه على أن يقوم بجولة جوية للتعرف على المعالم الأثرية والتاريخية والسياحية قبْل العودة إلى إسرائيل، فهذا مؤشر إلى أن مثل هذه الجولة وفي مثل هذه الظروف، إضافة إلى مشاعر المصريين وما في صدورهم من إحتقانات، ما كانت لتتم أرضاً، وهذا في حد ذاته مؤشر إلى جانب المؤشر الآخر الذي لخصه الطنطاويان وتزامن مع الزيارة. فالطنطاوي الأول (الدكتور محمد سيد طنطاوي) شيخ الأزهر قال في لقاء جماهيري في الإسكندرية قبْل ثلاثة أيام من زيارة نتنياهو إلى القاهرة «إن القدس ستبقى عربية إسلامية وإذا فرطْنا فى ذلك فسنكون مقصرين في حق ديننا». والطنطاوي الثاني (المشير سيد طنطاوي) وزير الدفاع كان في الوقت الذي يتحادث الرئيس مبارك مع نتنياهو، يقول في تخريج دفعة من الكلية الفنية العسكرية «إن شعب مصر لا ترهبه أي قوة مهما بلغت...».

وفي الظروف الراهنة فإن كلام الإثنيْن الذي سمعه نتنياهو والإسرائيليون في شكل أو آخر، هو الموقف الذي كانت الأمة تتمنى لو أن القمة العربية في القاهرة صاغته بشكل عهد من شأنه أن يجعل نتنياهو لا يواصل هذه اللهجة في التخاطب، وهذا الأسلوب في التعامل مع العرب وغيرهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 25 يوليو (تموز) 1996

* * *

صديق... ليس لوقت الضيق

ما هو معروف في مجال النقل والمواصلات الجوية أن شركات الطيران المدني تؤجر، عند الضرورة، طائرات تابعة لها إلى شركات تعاني نقصاً في الطائرات لديها، نتيجة إيداع طائرة في الصيانة أو نتيجة فقدان طائرة في حادث تخريبي أو بسبب خلل فني أصاب فجأة الطائرة وتَسبب في سقوطها. كذلك يمكن حدوث عملية التأجير هذه في مواسم ساخنة، مثل موسم الحج إلى الديار المقدسة أو موسم الإجازات، أو عند حصول إحدى الشركات على إمتياز خط جديد وليس عندها الطائرة التي يمكن تخصيصها لهذا الخط أو تشغيلها عليه.

هذا هو المعروف والسائد والطبيعي. أما ما ليس معروفاً وطبيعياً فهو أن تؤجر دولة مثل الولايات المتحدة طائرات حربية إلى دولة من المفترَض أنها صديقة وأن العلاقة التي تربطها بها تستحق ما هو أكثر من الدعم والرعاية. والدولة الصديقة التي نعنيها هي المملكة الأردنية الهاشمية. لكن الولايات المتحدة، بتعاملها المشار إليه وهديتها التي تثير السخرية، تصرفت على أنها صديق... إنما ليس لوقت الضيق. وخلاصة ثلاثة إتفاقات تم توقيعها بين الدولتين يوم الإثنين 29 يوليو (تموز) 1996 في مبنى وزارة الدفاع الأميركية في واشنطن بين وزيرة سلاح الجو الأميركي تشيلا ويدنال، ورئيس أركان حرب القوات المسلحة الأردنية المشير عبد الحافظ مرعي الكعابنة، تعكس أي فرق بين أسلوب تعامل الولايات المتحدة مع إسرائيل وأسلوب تعاملها مع دول باتت صديقة لها عن قناعة أو عن إضطرار مثل الأردن. وبموجب هذه الإتفاقات فإن الولايات المتحدة ستزود الأردن بـ 12 طائرة F16A وطائرة F16B واحدة، وأن ذلك سيكون بالمجان لأن هذه الطائرات تخطت 75 في المائة من عمرها في الخدمة بالتحليق أكثر من ثلاثة آلاف ساعة. كذلك فإنه بموجب هذه الإتفاقات فإن الولايات المتحدة ستزود الأردن بثلاث طائرات من طراز F16B المزودة بمقعدين وتُستخدم للتدريب. وهذه سيدفع الأردن ثمن إستخدامها وذلك لأنها لم تبلغ بعد ثلاثة أرباع عمرها، أي أن تحليقها ما زال دون الثلاثة آلاف ساعة. أما كيف سيتم الدفع، فمن قرض إجمالي قررت الولايات المتحدة منْحه للأردن وقيمته 215 مليون دولار. وقد وضعت وزارة الدفاع الأميركية سلفاً قائمة بكلفة ترتيبات التدريب والدعم اللوجستي وقِطَع الغيار والأسلحة وكلفة الأعمال الإنشائية، وبحيث إن المبلغ الذي سيخرج من ميزانية وزارة الدفاع الأميركية سيعود بالكامل إلى هذه الميزانية. ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، وإنما لن تكون هذه الطائرات مُلكاً للأردن بل هي مؤجرة له لمدة خمس سنوات على

أساس أنها بعد السنوات الخمس هذه ستكون أكملت بقية عمرها في الخدمة وباتت خردة مثل الطائرات الـ 12 الأُخرى التي تم تزويد الأردن بها فقط لأنها تجاوزت ثلاثة أرباع عمرها.

وما يحدُث في المقابل هو أن ما تحصل عليه إسرائيل هو السلاح الجديد، والطائرات التي في بداية العمر، والقِطَع الحربية التي لم يجْرِ إستخدامها من قبْل. وإلى ذلك إنه يتم تقديمها إلى إسرائيل من دون مقابل ومن دون شروط، بما في ذلك الشرط البديهي وهو أنه في حال إرتأت الإدارة الأميركية موقفاً ما فإن الحكومة الإسرائيلية لا تتخذ من الإجراءات ما يتعارض مع هذا الموقف أو يسبب الإحراج للإدارة الأميركية على نحو ما هو حاصل منذ أن بات بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء في إسرائيل. وما نلاحظه منذ أن بدأ الحُكْم الليكودي هو تزايد الإحراجات لتلك الإدارة وإلى درجة أنه عندما قام الرئيس حسني مبارك بزيارة الولايات المتحدة وإلتقى الرئيس كلينتون يوم الثلاثاء 30 يوليو (تموز) 1996 في محادثات إستغرقت حوالى ساعتين ونصف الساعة، لمس لدى الرئيس الأميركي تحفظات في توضيح المواقف لم يعهدها فيه من قبْل ولم يحصل منه على أكثر من القول إن موقف الولايات المتحدة على حاله في شأن الأرض مقابل السلام، وهو كلام جيد إذا هو تلازم ببعض الخطوات أقلها ما يتعلق بالقدس. ولكن الرئيس كلينتون مهموم بعد زيارة نتنياهو له بكارثة طائرة الجمبو التي إنفجرت بعد دقائق من إقلاعها من مطار نيويورك وليس هنالك حسم لسبب الانفجار وهل هو تخريب أم نتيجة خلل فني، وبكارثة قنبلة الحديقة الأولمبية التي إنفجرت في إتلانتا، وكلتاهما إنعكستا جواً كئيباً على نفسية الإدارة الأميركية، وأهالتا المزيد من الإنتكاس على هيبتها. ولأن الرئيس كلينتون مهموم فإنه لم يجد ما يقوله لمناسبة زيارة الرئيس مبارك، مع أن هذه الزيارة كانت فرصة لتوضيح أمور كثيرة يتطلع العرب بلهفة إلى توضيحها، ولطمأنة نفوس كثيرين وبينها النفس السورية.

واللافت للنظر ليس فقط إيثار الرئيس كلينتون عدم التحدث – كما تفرض المناسبة – في المؤتمر الصحافي حول بعض القضايا بما يجعل القلقين يطمئنون، وإنما قيام الرئيس مبارك بما يشبه المتحدث بإسم الرئيسين. وبإستثناء إشادة الرئيس كلينتون بالرئيس مبارك وإعجابه بزعامته، فإن ما قاله إنحصر في أن نتنياهو أكد له إلتزامه بإتفاقيات أوسلو وأنه يلتقي مع الرئيس مبارك على منْح رئيس الوزراء الإسرائيلي فرصة وأنه يعتقد بأن الحكومة الإسرائيلية ستفي بالإلتزامات التي تعهدت بها.

ولقد إفترضْنا بعدما غادر الرئيس مبارك القاهرة في طريقه إلى واشنطن أن الإدارة الأميركية ستجد في زيارته مناسبة لكي تلوي من خلالها قليلاً الذراع الإسرائيلية، وذلك على أساس أن الرئيس مبارك هو رئيس القمة العربية التي شعرت إدارة الرئيس كلينتون بإرتياح لا مثيل له لروحيتها وليس لكل ما صدر عنها من مواقف. وإفترضْنا أيضاً أن الصفة التي يذهب بها الرئيس مبارك هذه المرة بالذات إلى الولايات المتحدة، ونعني بها صفة رئاسة القمة العربية، هي مناسبة لكي يُدعى الرئيس إلى التحدث أمام الكونغرس ويطرح أمام الشيوخ والنواب رؤية عربية أكثر شمولاً تفيد قضية السلام في منطقة الشرق الأوسط وتساعد في الدرجة الأولى على محاصرة الثغرات التي تتعرض لها العملية السلمية بسبب التشدد الإسرائيلي المستجد، فضلاً عن أن ذلك يزيل من النفوس مرارة مهرجان المبايعة الذي أقامه الكونغرس لرئيس وزراء إسرائيل عندما زار الولايات المتحدة، وكيف أن الأعضاء صفقوا وقوفاً لضيفهم نتنياهو مع أن الرجل يقول ما لا تريده الإدارة الأميركية، وما أثبتت التطورات أنه أحرجها، وما زال الإحراج متواصلاً. لكن مثل هذه اللفتة لم تحدُث، بمعنى أن الكونغرس لم يوجه الدعوة إلى الرئيس مبارك لكي يتحدث في جلسة تاريخية، ومن المؤكد أنه في حديثه كان لن يستفز الحاضرين ولن يربك الإدارة الأميركية وإنما كان سيضع على الحروف نقاطاً متناثرة ويتسبب تناثرها بتشوهات للعملية السلمية وللهيبة الأميركية عموماً.

وإذا كانت الإدارة الأميركية إستقبلت الرئيس مبارك كصديق، وليس كرئيس للقمة العربية كما كنا نأمل ونتمنى، فلربما على أساس أن مثل هذا التمثيل (أي رئاسة القمة) تفرض عليه التزامات قد يكون فيها بعض الإحراج له ما دام لا يحمل تفويضاً عربياً في شأنها مثل بعض الإقتراحات المستجدة في إطار المحادثات المكوكية ومنها إقتراح الإنسحابات من لبنان أولاً، ومنها أيضاً ما يتعلق بإيران وتركيا ودول الخليج والعراق. وحتى في موضوع الإرهاب فإن الرئيس مبارك قد يجد بعض الحرج عند التحادث معه في بعض التفاصيل. ولو أن بيان القمة العربية الصادر في القاهرة الأحد 23 يونيو (حزيران) 1996 تضمَّن فقرة تنص على تكليف الرئيس مبارك، بصفة كونه رئيس القمة، بالسفر إلى واشنطن لنقل موقف المجتمعين ما لم يرد ذِكْره في البيان الختامي،

أو أن يتولى ذلك عند القيام بزيارة إلى الولايات المتحدة... إنه لو حدث ذلك لكانت إدارة الرئيس كلينتون تعاملت مع زيارة الرئيس مبارك على غير ما تعاملت به، حيث إن البحث في العلاقة الثنائية، والجانب الإقتصادي والتجاري منها بشكل خاص، طغى على الجانب المتعلق بالعملية السلمية ومصير هذه العملية في حال إستمر هذا التأزم الذي نلاحظه.

ويبقى أنه بسبب تضييع الإدارة الأميركية لبعض فرص الضغط على إسرائيل، من نوع فرصة توظيف زيارة الرئيس مبارك بأفضل مما جرى والتعامل معه كرئيس للقمة العربية وليس كصديق ورئيس لمصر، وفرصة تقديم هدية لائقة لسلاح الجو الأردني وليس تأجيره بضع طائرات مستهلكة ولم يبقَ لها إلاَّ التساقط، وهو ما لم يفعله الإتحاد السوفياتي مع أصدقائه العرب وغير العرب حتى في ذروة إختناقاته الإقتصادية وإحتياجاته إلى العملة الصعبة... إنه بسبب تضييع هذه الفرصة فإن الدول العربية قادرة من جانبها على ممارسة المزيد من الضغوط التي تُحقق درجة عالية من التماسك في إنتظار عودة الوعي الإسرائيلي، ونكاد نقول الأميركي – الإسرائيلي، من نوع الإستقبال المتميز الذي لقيه الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات لدى زيارته إلى المملكة العربية السعودية يوم الأحد 28 يوليو (تموز) 1996 وما سمعه من خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز من كلام يبعث في النفس الفلسطينية طمأنينة هي في أشد الحاجة إليها. ومن الطبيعي أن تزداد ثقة الرئيس الفلسطيني بموقفه عندما يستقبله الملك مساء يوم وصوله ويجد نفسه محاطاً في وقت واحد بولي العهد النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبدالله بن عبد العزيز والنائب الثاني وزير الدفاع والطيران والمفتش العام الأمير سلطان بن عبد العزيز ووزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز والمستشار في الديوان الملكي الأمير عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز. وإذا كان المتعاطفون مع الحالة الفلسطينية مثلنا إطمأنوا بعد هذا الإستقبال المتميز، وبالذات لأن الرئيس الفلسطيني هو أول رئيس عربي غير خليجي يستقبله الملك فهد منذ أن تعافى وإستأنف نشاطه الرسمي، فكيف بأبناء الشعب الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة وخارجها الذين شاهدوا اللقاء والإستقبال المتميز على شاشة التلفزيون وشعروا أنه ما دام ليس هنالك تفريط سعودي بالقدس فإن قيام دولة فلسطين أمر مضمون... وشعروا أيضاً أن حل الإشكال الفلسطيني – الكويتي بات في ضوء الأمثولة السعودية ممكناً وارداً أكثر من أي وقت مضى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1996

* * *

أمثولة من الكويت للبنان

الحكام والمحكومين

يسجل المرء لوليّ عهد الكويت ورئيس مجلس وزرائها، الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح، بالتقدير زيارته للبنان لأكثر من سبب، لعل أهمها أنها جاءت ضمن جولة شملت مصر وسوريا. وفي هذا الحرص من جانب الشيخ سعد ما يؤكد أهمية لبنان ودوره وسيادته، على رغم أن الجراح التي أصابته من جرَّاء الإقتتال المفروض عليه من آخرين لم يبرأ منها بعد، وهو بذلك، حاله مثل حال دولة الكويت التي لم تبرأ جراحها الناشئة عن إجتياح القوات العراقية لها يوم الخميس 2 أغسطس/ آب 1990 ثم إحتلالها لبضعة أشهر قبْل أن يتم تحريرها.

وزيارة الشيخ سعد للبنان، الذي هو التوأم الجمهوري للإمارة الكويتية، تجمع بين إبداء التعاطف مع اللبنانيين كشعب له تراثه وخصوصيته المتميزة، وبين تسجيل رسالة ميدانية، ومن جانب مسؤول كبير بوزن الشيخ سعد وحضوره الخليجي والعربي والدولي، مفادها أن المحنة التي تصيب الأوطان والكيانات الصغيرة، هي إمتحان لإكتشاف معدن شعوب هذه الأوطان وإختبار قدرتها على مواجهة المحنة. ولعل في مجرد زيارته للبنان ما من شأنه أن يجعل ذاكرة اللبنانيين تنشط بعض الشيء فيستعيدون شريط ما جرى للكويت، وكيف أن الخطوة الأولى والحاسمة لمواجهة المغامرة العراقية الممقوتة والمكروهة كانت عندما أوقف أبناء الشعب الكويتي خصوماتهم وتحفظاتهم على الأداء الحكومي، وعندما جمَّدوا مطالب تاريخية لهم في شأن التحديث والتغيير، وبذلك لم يجد الحُكْم العراقي بينهم من يمكن أن يكون الواجهة، ومن يمكن أن يبرر المغامرة العراقية، بحيث يعتبر الإجتياح أمراً مبرّراً ما دام يأتي من شقيق ودولة جارة وليس عدواناً ثم إحتلالاً كما إنتهى إليه واقع الحال.

وإلى ذلك فإن قيام ولي عهد الكويت بالزيارة يبدو

في الوقت نفسه كما لو أنه يقول لحكام ومسؤولين عرب كثيرين إن عليهم أن يحذوا حذوه وتكثُر زياراتهم للبنان، وإنه من موقع من إبتلي بما أصاب الكويت يوم 2 أغسطس 1990 يستطيع أن يُظهر مدى أهمية تفقُّد الأشقاء وزيارتهم له. وإذا جاز للمرء أن يفترض فإن زيارة الشيخ سعد للبنان ستدفع مسؤولين عرباً كثيرين ما زالوا حتى الآن مترددين، إلى القيام بالزيارة، مع أنهم ضمناً تواقون للقيام بها ومقتنعون بأن التعبير عن الإهتمام بلبنان يكون أولاً بزيارته ثم تلي الزيارة بقية الإهتمامات. كذلك إن الزيارة ستضع حداً لمشاعر من الإستغراب لا تفارق المواطن اللبناني وخلاصتها أنه عندما يزور لبنان رئيس فرنسا جاك شيراك ولا يزورها أحد من القادة العرب، على رغم مرور أكثر من ست سنوات على إتفاق الطائف الذي إلتقى كل الحكام العرب على ضرورة تطبيقه، فإن هذا الغياب يشكِّل علامة إستفهام كبرى. وبعد زيارة الشيخ سعد ستبدأ مشاعر الإستغراب بالإنحسار تدريجياً.

ومع أن ما للبنان واللبنانيين على الكويت يبدو قليلاً جداً بالمقارنة مع الكثير الذي له ولهم على مصر، إلاَّ أننا نلاحظ أن الرئيس حسني مبارك لا يتذكر هذا البلد مع أنه يزور سوريا بمعدل ثلاث مرات في السنة. وفي ضوء مبادرة الشيخ سعد وتدشينه ظاهرة زيارات الحكام وكبار المسؤولين العرب للبنان، فإن ما يتطلع إليه اللبنانيون هو أن يفاجئهم الرئيس المصري بزيارة خاصة بلبنان، أو بعد زيارة من زياراته التي يقوم بها إلى سوريا، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن معظم زيارات الرئيس مبارك إلى سوريا هي زيارات عمل قصيرة وللتشاور ولا تستغرق الزيارة أكثر من خمس ساعات، شأنها في ذلك شأن زيارات الرئيس الأسد إلى مصر ضمن تقليد الرد على الزيارة بالمثل.

كذلك، فإن العلاقة اللبنانية – الأردنية تاريخية والروابط كثيرة بين الملك حسين ولبنان عموماً. ولكم كان اللبنانيون يتمنون لو أن العاهل الأردني زار لبنان بعدما زار سوريا قبْل بضعة أيام. ولكن الملك حسين لم يفعل ذلك على رغم ما هو معروف عن مبادراته الطيبة عموماً بالنسبة إلى الأشقاء وبالذات إلى من كان منهم في محنة.

ولو أنه كان للحكام العرب مآخذ على لبنان لكان من المفهوم أمر عدم زيارته. لكن هذه المآخذ غير موجودة. بل ويجوز القول إنه منذ تم وضع إتفاق الطائف موضع التنفيذ فإن الحكومات العربية إطمأنت إلى لبنان. لكن مسألة زيارته مرتبطة بإعتبارات كثيرة لا يتم الإفصاح عنها، من بينها أنه عندما لا يزور الرئيس حافظ الأسد لبنان على رغم ما للعلاقة السورية – اللبنانية من خصوصية وتقتصر على رئيس الحكومة، فإن قيام أي حاكم عربي بزيارة لا يخلو من الإحراج. وليس من المستبعد أن يردد بعض هؤلاء بينهم وبين أنفسهم ما معناه أنه إذا كان الرئيس حافظ الأسد لا يزور لبنان فلماذا يجب أن نزوره، أو أن الرئيس الأسد عندما لا يزور لبنان فكأنما هذه إشارة منه إلى الآخرين من القادة العرب كي لا يزوروه. ولن يتم تذليل هذا الأمر إلاَّ في حال توجَّه الرئيس الأسد ذات مرة إلى لبنان زائراً رسمياً أو للمشاركة في قمة عربية، وبالذات قمة المصالحة الشاملة التي تم وضْع حجر الأساس لها في قمة القاهرة التي جرى عقْدها يوم السبت 22 يونيو (حزيران) 1996 والتي يسير التحرك العربي منذ ذلك الحين في هديها بدءاً بزيارة الرئيس مبارك إلى واشنطن ثم زيارة الملك حسين إلى دمشق وبعد ذلك إلى المملكة العربية السعودية، مروراً بزيارة الرئيس ياسر عرفات إلى سوريا ولقاء الرئيس مبارك والأسد ثم اللقاءات المصرية – الفلسطينية المتكررة. وليس مَن يستحق أن تنعقد المصالحة الشاملة على أرضه مثل لبنان. ونقول ذلك على أساس أن هذه القمة، التي قد تجعل القلوب العربية تتآلف، من شأنها أن تجعل الجراح اللبنانية تندمل إلى الأبد، وهي جراح كانت أظافر وأنياب أطراف عربية كثيرة مسؤولة عنها بشكل مباشر أو غير مباشر، بمعنى أن من لم يُنشب، عن سابق تصميم شرير أو نتيجة تآمره، أظافره أو أنيابه في الجسد السياسي اللبناني الهش، ويُحدث في هذا الجسد جراحاً عميقة، فإنه بتباعده عن التعاطي في الشأن اللبناني وعدم المساهمة في إطفاء حرائق إقتتال الستة عشر عاماً يتحمل مسؤولية معنوية كبيرة. ولعل في زيارة الشيخ سعد للبنان ما يجعل اللبنانيين يتذكرون أن أكثر المحاولات العربية الجادة والمخلصة لإنهاء الإقتتال في لبنان، كانت محاولة قامت بها حكومة الشيخ سعد، وأن هذه المحاولة التي سبقت إتفاق الطائف ببضع سنوات تعرضت للأذى، فتوقَّف السعي بموجبها من دون أن يؤثِّر ذلك على إستمرار التعاطف الكويتي الأخوي مع اللبنانيين الذين يتقاتلون على أرض وطنهم بإرادة آخرين.

وقد يكون من محاسن الصدف أن زيارة الشيخ سعد إلى لبنان جاءت في ظروف يعيش اللبنانيون فيها معركة إنتخابات نيابية لم تشهد معركة من قبْل مثل ما تشهده المعركة الحالية من تنافس وصراعات ومناورات. ومع أن مثل هذه الظروف لا تكون عادة مناسبة للزيارات الرسمية، وبالذات خشية الإكثار من التفسيرات في شأن مقاصدها ومراميها، إلاّ أنها بالنسبة إلى الضيف الكويتي المتميز، الشيخ سعد العبدالله، تبدو وكأنها زيارة تفقدية لديوانية كبرى يسمع الواحد فيها كل ما يمكن أن يقال، وأحياناً ما يجب ألاّ يقال. ولن يكون في شأن هذه الزيارة أي تفسيرات ما دامت مصلحة الكويت ليست في تغلُّب فريق على فريق وإنما هي تنحصر في أن تأخذ اللعبة الإنتخابية مجراها الطبيعي وتنتهي إلى ما يمكن أن يصون الصيغة اللبنانية على نحو ما أن اللعبة المماثلة هي التي تصون الصيغة القائمة في الكويت. والصيغة التي نعنيها هي الديمقراطية العاقلة التي تصون الدول وبالذات مَن كانت ذات كيانات صغيرة من نوع الكيان الكويتي والكيان اللبناني. وكلاهما كيانان محسودان وقد دفع كل منهما الثمن غالياً لأنه محسود على هذه القدرة في أن يبدو الكيان الصغير وكأنه دولة كبرى. ومثل هذا الأمر لم تتأكد حقيقته إلاّ بعد المحنة التي أصابت الكويت على يدي الشقيق العراقي والمحنة السياسية التي يواجهها لبنان بعد محنة الإقتتال الأهلي على مدى ستة عشر عاماً.

وإلى هذا كله فإن في زيارة الشيخ سعد العبد الله إلى لبنان أمثولة يمكن للبنان الحكام والمحكومين أن يستفيد منها كثيراً. وخلاصة هذه الأمثولة أنه بقدْر ما يكون أهل الحُكْم يحترمون أنفسهم ويتعصبون لصيغتهم ولخصوصيتهم، بالقدْر نفسه يفرضون هيبتهم على الآخرين. وهذا ما تفعله الكويت حكومة وشعباً وما لا يفعله لبنان حكومة وبعض الشعب كما يجب.

وتكراراً يسجل المرء لولي عهد الكويت ورئيس وزرائها الشيخ سعد العبد الله مبادرته المخلصة في زيارة لبنان، وهي الزيارة الأولى لمسؤول عربي على مستوى مَنْ هم على يمين الذين في القمة. وما يتمناه المرء هو أن تكون هذه الزيارة فاتحة زيارات عربية تعوِّض لبنان عدم التعاطي المباشر معه. وإذا كانت الظروف التي أوردناها تشكِّل ما يشبه الإحراج للحكام العرب، ومن أجْل ذلك يؤثرون عدم الزيارة، فإن إيفاد الرجل الثاني يعوِّض موقتاً.

وليس كثيراً على لبنان التعامل معه من جانب الأشقاء بمثل اللهفة الكويتية التي تُجسدها زيارة الشيخ سعد. أليس هو الوطن الثاني لكل عربي؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1996

* * *

قراءة في "إنتفاضة الخبز"

في إستمرار يشكِّل الخبز في بعض الدول العربية هاجساً للحاكم، ولأن الخبز ورقة شعبية لأي حاكم فإنه يأتي في مقدمة السلع المدعومة من الدولة. وتنفِّذ الحكومة ذلك من دون إقتناع إذا هي كانت حكومة جيء بها لتصحيح الوضع الإقتصادي. أما إذا كانت حكومة ظرْف سياسي فإنها تنفِّذ من دون أن تأخذ في الإعتبار مسألة الإقتناع وعدمه، وذلك وفق القاعدة المتعارف عليها وهي أن رضا المواطن عن الحاكم معناه رضا الحاكم عن الحكومة، وهذا ما تتطلع إليه هذه الحكومة وما تراه سبباً أساسياً لعدم تغييرها. أما سياسة دعْم بعض السلع وما ينتج عن ذلك من إهتزازات للوضع الإقتصادي، فهذا أمر من جملة الأمور المؤجلة التي لا تجد من يحسمها.

ولم يسْلم حُكْم عربي، تعتمد حكومته سياسة دعم الدولة لبعض السلع، من إهتزازات مع فارق أن الإهتزاز يبقى حبيس الصدور إذا كان الحُكْم على شيء من القساوة إزاء حرية التعبير، أو يتحول إلى تظاهرة يطلق فيها المتظاهرون الهتافات التي تعكس واقع حالهم، والمصاعب التي يواجهونها في حياتهم المعيشية، إذا كان الحُكْم على كثير من المرونة إزاء حرية التعبير.

وليس هنالك حاكم تعيش بلاده الظروف التي نشير إليها، لا يؤلمه أن يتظاهر الناس في الشوارع من أجْل رغيف الخبز ويطلق بعضهم الهتافات التي توحي بأن في البلد من يشكو من الجوع. ونقول ذلك على أساس أنه إذا كان الحاكم لم يؤمِّن لشعبه الحد الأدنى، فكيف سيكون قادراً على تحقيق الإنجازات الطموحة. كما أن هذه التظاهرات وما يرافقها من كتابات وتعليقات تتناقلها وكالات الأنباء وتبثها في معظم دول العالم الإذاعات ومحطات التلفزيون

وتنشرها الصحف تُسبب للحاكم حالة نفسية سيئة حيث إنه يتصور أن كل من يسمع أو يقرأ سيقول ما هذا الحُكْم الذي لم يستطع تأمين رغيف الخبز لشعبه إلى درجة أن المواطنين يتظاهرون في الشوارع ومطلبهم الأساسي الرغيف وليس الكماليات. وبما أن الإنطباع عن هذه التظاهرات يضايق الحاكم ويزعجه فإننا، كما حدَث في أنظمة كثيرة، نسمع عن خطوات عاجلة يتخذها وتُراوح بين تغيير الحكومة أو تعديلها أو في الحد الأدنى إعادة النظر في قرارات تم إتخاذها، أو نسمع الحاكم يتهم أطرافاً خارجية بأنها المسؤولة عن التظاهرات التي حدثت وما رافقها من فوضى وحرائق وتكسير. وهنالك أسلوب ثالث في معالجة أمر مثل هذه التظاهرات وهو أسلوب الرئيس (الراحل) أنور السادات الذي إعتبر تظاهرات واجهتْه سببُها معيشي أيضاً وتتعلق بأسعار بعض السلع بأنها "إنتفاضة حرامية"، وذلك رداً على ما قيل بأن التظاهرات هي "إنتفاضة شعبية"، وفي الوقت نفسه أعاد النظر جذرياً في قرارات إتخذتْها الحكومة في هذا الشأن. ولو أنه كانت هنالك أطراف خارجية يمكن للرئيس السادات أن يُلصق بها مسؤولية التظاهرات التي حدثت لما كان تردد، أو أنه آثر إظهار المتظاهرين بأنهم مجرد "حرامية"، مع أن حقيقة الأمر ليست كذلك على الإطلاق. ومن الواضح أن الرئيس السادات أراد القول ما معناه أنه بسبب "الحرامية" أعاد النظر وذلك خشية أن يحقق لهم مآربهم.

وها نحن منذ بضعة أيام نعيش أجواء حالة إحتجاج مماثلة شهدتها مناطق في جنوب الأردن، وكان لافتاً للنظر الأسلوب الذي تم إعتماده في مواجهتها. فالحكومة التي يترأسها عبد الكريم الكباريتي تمسكت بمسألة رفع الدعم عن الخبز، ولها وجهة نظرها المقْنعة بالمفهوم الإقتصادي. ولكن الأثر البالغ القساوة الذي نشأ نتيجة إرتفاع سعر الخبز جعل أعداداً من المواطنين يعبّرون عن إحتجاجهم بأعمال شغب ألحقت خسائر مادية جسيمة في الممتلكات والمؤسسات التجارية والمصرفية. ولأن الملك حسين قرأ بعناية ما يمكن أن تنتهي إليه أعمال الشغب هذه، فإنه تصرَّف على الفور وكأنما النظام هو المستهدَف وليس قرارات إقتصادية ومالية تنظيمية إتخذتْها الحكومة لتصحيح تعاملها مع صندوق النقد الدولي. ونلاحظ كيف أنه توجَّه إلى "ساحة المواجهة" فبدا بذلك كمن يقف بين الحكومة والمحتجين. وهو لو لم يفعل ذلك لكانت الأمور تطورت نحو الأسوأ. وإنسجاماً مع النظرة المألوفة من جانب الحكام للأمور فإن الملك أنحى باللوم على جهات خارجية على أساس أنه لا يتحمل أن يقال إن بين أبناء الشعب من يحتج خوفاً من شبح المجاعة، بينما هو على رأس الحُكْم وأنه إزاء ذلك من الأنسب القول إن جهات خارجية تتحمل مسؤولية أعمال الشغب التي حدثت.

وثمة تساؤل: ما الذي يجعل الملك حسين يتصرف على نحو التصرف اللافت للنظر الذي بدر منه وإلى درجة أوحى بأنه هو وراء قرار رفْع الدعم عن الخبز وغيره من القرارات التنظيمية للعملية الإقتصادية؟

وقد يجوز الإفتراض بأن الملك حسين، لو أن المسألة ذات طابع إقتصادي فقط، كان تركَ رئيس حكومته يعالج الأمر بنفسه وكان أبقى الجيش في منأى عن هذا الصراع. وحتى إذا وصلت التطورات إلى حد تبديل الحكومة، وبسقوطها تسقط خطتها التي تتضمن رفْع الدعم عن بعض السلع، والإتيان بحكومة جديدة أو حكومة معدلة تحاول أن تنجح حيث أخفقت الحكومة السابقة، فإن الملك حسين كان لن يتردد في ذلك على الإطلاق. لكن الملك، كما نلاحظ، تصرَّف كما لم يتصرف من قبْل مع أي رئيس وزراء سابق، أي أنه بوقفته وتصريحاته وإنتقاله إلى "ساحة المواجهة" في بعض مناطق الجنوب وإستعانته بثلاثة صنوف من قوات الجيش، بدا كمن يقول إنه إذا كان الهدف إسقاط الحكومة فإن هذه الحكومة صاحبة مشروع سياسي كبير تم تنفيذ جزء بسيط منه ولا تزال هنالك أجزاء كثيرة تحتاج إلى تنفيذ، أما إذا كان الغضب الذي صدر عن البعض مجرد إحتجاج على قرارات هدفها تنظيم العلاقة بين الأردن وصندوق النقد الدولي فإن هذا الأمر قابل للنقاش.

وإلى ذلك، فإن تصدي الملك حسين شخصياً لما حدث، وظهوره على الناس أحياناً بالزي العسكري وأحياناً بالعباءة العشائرية، يعكس شعوره أيضاً بأن ترك التطورات تتفاعل معناه أن عملية إعادة ترتيب الموقف السياسي العربي والإقليمي والدولي ستنتكس. وليس مثل الملك حسين من يتصور حجم الصعاب المعنوية والنفسية التي واجهها من أجْل إنجاز عملية إعادة الترتيب المشار إليها وكانت أحدثها زيارتان مهمتان قام بهما الملك، الأولى زيارة المملكة العربية السعودية وإجتماعه بخادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز، وهو إجتماع سيؤسس لعلاقة متطورة

كما أوحى بعد عودته، أما الثانية فكانت زيارته إلى دمشق وإجتماعه بالرئيس حافظ الأسد وهو إجتماع يأمل الملك في أن يبلور دوراً يتطلع إليه على صعيد العملية السلمية العربية – الإسرائيلية. ومن المؤكد أنه عندما تباغت هذه الإنجازات، التي تحققت بعد مشقة، التظاهرات وأعمال التخريب التي إستهدفت منشآت حكومية ومنشآت عامة، فمن الطبيعي أن يسارع الملك إلى إرتداء ثياب الميدان والنزول إلى مواجهة ودودة مع المواطنين الغاضبين خشية أن يجد نفسه، لو لم يفعل ذلك، منشغلاً في مواجهة تتحول إلى مواجهات وتشمل معظم مناطق المملكة بين أكثرية ساحقة خاب أملها بالسلام مع إسرائيل وأقلية تدعو إلى المزيد من التحمل. وإذا حدثت هذه المواجهات فأي ثمار سيقطفها الأردن من الإنجازات التي تحقق نصفها وباقٍ عليه للقطاف إنجاز النصف الثاني، أو على الأقل المحافظة على النصف الذي تَحقق وترْك الإستقرار الثابت يتكفل بمزيد من الإنجازات.

ويبقى أن تجربة الملك حسين العريقة، في مضمار المواجهات والأعاصير التي هبت على المملكة طوال أكثر من ثلاثة عقود، تجعله بعض الشيء محصَّناً في وجْه شر المفاجآت غير السارة. وما حدثَ قبْل أيام في بعض مناطق جنوب الأردن كان بسيطاً أمام أعاصير سابقة هبت على حُكْم الملك، لكنه في ضوء الوضع الراهن في المنطقة لا يبدو بسيطاً، أي بما معناه إن المسألة تبدأ بتظاهرة إحتجاجاً على رفْع أسعار الخبز لكنها تتحول إلى شرارة تشعل النار في المملكة التي يتكاثر الإجتهاد والتكهن أحياناً في مصيرها بعد الملك حسين، وتتزايد التوقعات في شأن دورها وتَبدُّل ملامحها وإتساع رقعتها في ما تبقَّى للملك من العمر. وكلما أصيبت الحال الفلسطينية بالضمور، على نحو ما يحدُث منذ أن تسلم نتنياهو الحُكْم في إسرائيل، اقتربت التوقعات من مشارف أن تصبح حقيقة ملموسة.

وقد يكون اللقاء الشهير في الأردن قبل إنتخابات إسرائيل، بين الملك حسين ونتنياهو زعيم المعارضة آنذاك، هو إتفاقاً على ذلك الدور وتفاهماً على مسألة إتساع الرقعة وأن "إنتفاضة الخبز" كانت محاولة إجهاض مبكرة للطموح المتفاهم عليه، والذي استقر أن يتم أمر تنفيذه بمساعدة حكومة يترأسها عبد الكريم الكباريتي وليس غيره... أو على الأقل أن الملك حسين رأى الأمر على هذا النحو فكانت مواجهته شخصياً للأحداث، كما سمع العالم وكما رأى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أغسطس (آب) 1996

* * *

مدرسة المتفوقين في المواجهة وإقلاق العالم: من كلينتون إلى بيريز إلى نتنياهو إلى صدَّام...

في المواجهة الأميركية – العراقية الجديدة خمس نقاط أساسية تشكل في مجموعها التفسير لما حدَث. فالذي حدَث لم يأتِ عشوائياً وإنما نتيجة أسباب موجبة وقاهرة.

وعلى النحو الآتي يمكن عرض هذه النقاط:

النقطة الأولى، هي أن القيادة الحالية في العراق ونعني بها القيادة التاريخية التي لا تتعرض لأي تغيير، هي قيادة مواجهة ليس من طبْع أعضائها الإفاضة في المناقشة وفي طرْح عدة بدائل للموضوع الواحد، وإنما يميل هؤلاء الأعضاء إلى إطلاق الأحكام. وعند التأمل في الصور التي تبثها الفضائيات في بعض المناسبات لإجتماعات القيادة العراقية أو عند تصفُّح ما تنقله وسائل الإعلام المحلية والدولية عن تلك الإجتماعات، لا يشعر المتأمل بأن مناقشة جرت أو أن أكثر من بديل كان مطروحاً برسم المناقشة. ومن المؤكد أنه لو كانت هنالك مناقشة تسبق إتخاذ القرارات أو تدور حول تقييم قرارات ستُتخذ لما كانت المفاوضات حول القرار 986 (النفط مقابل الغذاء) تحولت إلى مخاض عسير مع أن المفاوض العراقي (الدكتور عبد الأمير الأنباري) كان على درجة عالية من الكفاءة والتحسس بمعاناة أبناء الشعب العراقي على رغم أنه يعيش خارج العراق مندوباً لبلاده لدى منظمة اليونيسكو في باريس. ومن الجائز الإفتراض أنه لو كان ملف هذا الموضوع بين يديْ عضو قيادة يعتبر المواجهة أمراً لم يعد وارداً وينظر بواقعية إلى ظروف التفاوض مع الأمم المتحدة وإلى الضغوط الهائلة التي تتعرض لها المنظمة الدولية وأمينها العام، لكان القرار صدر قبْل أربعة أشهر على

الأقل من صـــدوره. والنظرة الواقعية لعضـــو القيادة مســـألة بدهية حيث إنه يعيش داخل العراق ومن الطبيعي أن يكون أدرى أكثر من الدكتور الأنباري بالحجم الهائل للمعاناة اليومية التي تُلازم المواطن على مدى الأربع والعشرين ساعة.

وبســـبب تغلُّب الرغبة بالمواجهة على النظرة الواقعية للأمور، فإن رد فعْل القيادة بعد صدور القرار الدولي المشار إليه تمثَّل بحملة على الإدارة الأميركية وتصوير ما حدَث وكأنما هو إنتصار للعراق على تلك الإدارة من دون التنبه إلى أن القرار يمكن على رغم صـــدوره أن يخضـــع لألف تأجيل وتأجيل بتأثير من الإدارة الأميركية إذا كنا لن نقول بطلب منها.

وعلى هذا الأســـاس فإنه ما دامت عقلية المواجهة هي السائدة فلن تكون هنالك حلول. ولا ندري ما الذي كان يمنع لو أن القيادة في العراق إنتهزت فرصـــة الموافقة على قرار النفط مقابل الغذاء فأشـــادت بالأمم المتحدة ودعت الإدارة الأميركية إلى المزيد من التفهم للظروف التي يعيشـــها الشـــعب العراقي متمنية عليها رفع الحصـــار المفروض على العراق. ونقول ذلك بصـــرف النظر عما يمكن أن يكون عليه رد فعل تلك الإدارة من هذه الإشـــادة والتمنيات. فالغرض هو أن تنتقل تلك القيادة من عقلية المواجهة إلى عقلية النظرة الواقعية التي هي مفتاح الحل لأمور كثيرة.

النقطة الثانية، هي أن النجدة الحكومية للطرف البارزاني من الأكراد ليســـت حباً بمســـعود وكرهاً للطالباني وإنما لأن الثاني يلعب بالورقة الأكثر حســـاســـية وفي هذه الظروف بالذات للقيادة العراقية ونعني بها الورقة الإيرانية. فمســـاندة إيران لجلال الطالباني معناها إفساح المجال أمامها لكي يكون لها موطئ قدم في الشمال ومعناها أيضاً أن يتعزز شأنها هناك وتتوسع يوماً بعد يوم. وإذا تَحقق لها ذلك إضافة إلى الشأن الشعبي الذي لها في الجنوب والذي يمكن تحويله إلى مقاومة عسكرية فاعلة ضد النظام حين تســـنح الظروف، فهذا معناه أن النظام البعثي الذي يتباهى بإنتصاره على إيران ويواصل الإحتفالات سنوياً بذلك سيصبح مهدَّداً من بوابتيْن ليس بالأمر السهل إغلاقهما، ومعناه أيضاً أن هذا النظام سيكون معرَّضاً لعملية ثأر كبيرة من جانب إيران التي ترى أن حل عقدة إنتصـــار العراق عليها في حرب الخليج الأولى أمر في غاية الأهمية.

ونحن عندما نشـــير إلى ذلك نأخذ في الإعتبار الصـــراع الدائر في إيران منذ بعض الوقت وكيف أن ورقة الثأر من العراق تلعب ضـــمناً دوراً في حسْـــم الصـــراع. كذلك نأخذ في الإعتبار القلق الذي يســـاور النظام الإيراني من جرَّاء صـــمود النظام في العراق على رغم الحصار الدولي الشرس عليه وإعتقاد القيادة الإيرانية بأن تجاوز العراق للحالة الصعبة التي عاشها سيقلل من شأن إيران خصوصاً أن هذا الشأن تَعزز وتَمدد في غياب وتغييب للعراق.

واللافت للنظر أن التخطيط الإيراني لثأر محتمل من العراق ومحاولة إيجاد موطئ قدم في الشمال ومن خلال جلال الطالباني يتم بمثل التخطيط الذي إبتكره النظام في العراق عندما انقض على إيران وإتســـعت دائرة الحرب ثم طالت سبع سنوات في غاية الصعوبة. ولقد حدَث ذلك الإنقضـــاض إستناداً إلى نظرة عراقية للوضـــع الإيراني تقوم على أن هذا الوضـــع ليس متماسكاً وأن الجيش مفكك. وكانت النظرة تلك في أي حال نظرة عقلية تجنح نحو المواجهة ولا تؤمن بحسن الجوار القائم على رؤية واقعية.

النقطة الثالثة، هي أن القيادة العراقية تضـــع حيثيات للخطوات تبدو غير واقعية وغير مقْنعة. فهي في الإعلان عن أنها أرســـلت قوات إلى أربيل بناء لطلب من مسعود البارزاني أحد زعيميْ الأكراد أوحت كما لو أن الذي طلب النجدة هو رئيس دولة صـــديقة وليس مواطناً عراقياً وأنها أرســـلت النجدة إلى دولة صديقة جارة وليس إلى منطقة تابعة عملياً لسيادتها، وإن كانت هذه السيادة منقوصة وإلى درجة أن الشمال هو عملياً "ولاية أميركية" من دون أن تكون نجمة من نجوم العَلم الأميركي. كذلك إنها في الإعلان عن إنسحابات القوات من أربيل أوحت بأنها إنسحبت من أرض ليست للعراق. وفي الحالتين، حالة الإعلان عن إرسال القوات بناء لطلب من مسعود البارزاني وحالة الإعلان عن سحْب هذه القوات تعاملت القيادة العراقية مع المســـألة بمنطق المواجهة. فهي تعرف أن منطقة الشمال ليست تحت سيطرتها وإنما تحت السيطرة الأميركية واســـتعادة المنطقة لا تكون في نجدة فريق من الأكراد ضـــد فريق آخر – كلاهما عراقي – ولا تكون في الإنسحابات بعد تأدية واجب النجدة وإنما في وضع حد للإشكال القائم مع الإدارة الأميركية. وبعقلية المواجهة لن يكون هنالك مجال للتفاهم في حين أن المجال متوافر إلى حد ما بمعزل عن المواجهة، خصوصاً أن الإدارة الأميركية لا تنظر إلى الأمر إلاّ

من زاوية المصالح، والتفاهم سهل مع دولة من هذا النوع من خلال التسليم بالتميز الذي تتمتع به عن حق أو عن باطل لا يهم، وهو أنها زعيمة العالم لأجَلٍ غير مسمى.

النقطة الرابعة، هي أنه في غياب أي دولة كبرى يمكن الركون إليها لردع الولايات المتحدة عما تقوم به من أفعال عدوانية ومن غطرسة وهيمنة على الإرادة الدولية، فإن إعتماد منطق المواجهة وأساليبها هو بالنسبة إلى دولة صغرى مضيعة للوقت، فكيف إذا كانت هذه الدولة محاصرة ويتجدد الحصار بشكل روتيني عليها مثل العراق؟ وعند ترجيح النظرة الواقعية على منطق المواجهة فإن القيادة في العراق يمكن بدل أن تعتمد أسلوب المخاطبة الذي تعتمده، أن تسعى وبأسلوب تغلُب فيه التمنيات على التحذيرات وعبارات التنديد، لدى الدول الصديقة للولايات المتحدة لكي يتم تخفيف الحصار. لكن ما نلاحظه يحدُث هو أن التنديد مستمر، وكذلك الإصرار على أن الولايات المتحدة خرجت مهزومة من الحرب على العراق وأنها تعاني عقدة نقص وأنها جبانة... وعشرات العبارات والإتهامات. ولا نظن أن أي دولة يمكن في ظل مثل هذه المخاطبة أن تسعى لدى الإدارة الأميركية في حين أن السعي يصبح أكثر يسراً عند توافر أسلوب التخاطب الذي نشير إليه والذي يخلو من العبارات والمفردات والإتهامات التي أثبتت أنها لم تُحقق سوى تدعيم الحصار وليس تقليصه.

وما هو منطقي ومألوف بالنسبة إلى دولة صغرى ليس التصرف كما لو أنها دولة كبرى وإنما إقتناص الفرصة المناسبة لتوافر الظروف أمام دولة كبرى تتطلع إلى أن تقوم بدور عالمي وتحتاج إلى دول صغرى تركن إليها. وحتى الآن لا مجال على ما يبدو للدولة الكبرى الموعودة. وحتى فرنسا لا تلبث أن تتراجع بعد أن تهم بممارسة ذلك الدور خشية أن يصيب رئيسها جاك شيراك ما أصاب مثَله الأعلى الجنرال ديغول في أواخر الستينات. أما الدول الأُخرى وبالذات روسيا فما الذي في استطاعتها أصلاً أن تفعله؟

وإذا كانت تلك هي الحقيقة وكانت الولايات المتحدة تفعل الذي تريده من دون أن تشاور حلفاءها ثم تتصرف بعد التشاور وكأن المشاورة شكلية ولا يهم رأي هؤلاء ولا أهمية لإعتراضاتهم.. إذا كانت تلك هي الحقيقة فهل ستبقى القيادة في العراق أسيرة منطق المواجهة أم تغادر هذا الأسر وتضع، ومهما كان حجم التنازل كبيراً، حداً للمعاناة التي يعيشها الشعب العراقي والمهانة التي تلحق بوطن أعادته الحرب ثم الحصار المتواصل ربع قرن إلى الوراء؟

النقطة الخامسة، هي إن ترْك القيادة في العراق القوات التركية تقوم قبْل خمسة أشهر داخل الأراضي العراقية بعمليات عسكرية ضد عناصر كردية هو الذي أسال اللعاب الإيراني من أجْل أن تلعب إيران على نحو ما لعبت تركيا. كذلك على نحو ما فعلتْه إريتريا باليمن. ولو أن رد الفعل العراقي آنذاك تجاوز بعض العبارات الدبلوماسية وكان من السهل اللجوء إلى أكثر من طريقة، لما كانت إيران زرعت نفسها عسكرياً في شمال العراق بشكل يفوق بكثير حضورها الديني في الماضي. وبقدْر ما أن هذا التصرف المتساهل من جانب القيادة العراقية نحو تركيا يثير الدهشة، إلاّ أنه في الوقت نفسه يترك إنطباعاً بأن هذه القيادة قادرة على التخلي أحياناً عن منطق المواجهة. وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يحدُث مع الإدارة الأميركية ما حدَث مع تركيا. ونتذكر كيف أن وزراء أتراكاً زاروا العراق وعقدوا محادثات سياسية وإقتصادية بالغة الأهمية مع مسؤولين عراقيين وقابلوا أيضاً الرئيس صدَّام حسين، وكل ذلك بعد التوغل العسكري التركي في أراضي العراق.

* * *

من هنا نصل إلى أن منطق المواجهة هو حجر العثرة في تعديل ما هو قائم في العراق. وفي ظل سيادة هذا المنطق، وإلى درجة أنه بات إستراتيجية عمل يتمسك المسؤولون بحرفية نصوصها، تحدُث الأمور التي تحدُث وأخيرها وليس آخرها إرسال صواريخ إلى العراق الذي يحتاج إلى من يرسل إليه وإلى أطفاله معونات إنسانية... ويحدُث أيضاً ما يصعب على المرء فهْمه وهو أن الرئيس كلينتون يرسل صواريخ "كروز" التدميرية (المألوف في زمن الإنتخابات إرسال مساعدات مالية أو غذائية إلى المحتاجين) إلى العراق حماية لمصالح أميركا في المنطقة (عبارة لا بد منها لإقناع المواطن الأميركي) وإنتصاراً منه لجلال الطالباني الذي أدخل إيران في اللعبة العراقية من البوابة الشمالية، وفي إعتقاده وهو يأمر بتنفيذ هذه الضربة الصاروخية للعراق أن تجديد الولاية بات أكثر يسراً من قبْل، عِلْماً بأن رد الفعل العربي والدولي على ما فعله كان غضباً عميقاً جداً

ونفوراً من هذا الأسلوب الفظ، ويشبه إلى حد كبير ذلك الغضب الذي أشعله في النفوس أمر بالروحية نفسها أصدره شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل (السابق) فأنهاه كرئيس لوزراء بلاده وكرسه كقاتل للأطفال والنساء والأبرياء الذين كانوا طلبوا السلامة في حمى الأمم المتحدة في قرية "قانا" جنوب لبنان. وكلاهما كلينتون وبيريز ومعهما نتنياهو تلامذة في فصل واحد يضم الزعماء المتفوقين في مجال إعتماد المواجهة أسلوب تعامل لإقلاق العالم. والأكثر تفوقاً في هذا الفصل هو الرئيس صدَّام حسين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 سبتمبر (أيلول) 1996

* * *

مبادىء مطلوبة للواجب الإنتخابي

معظم الإنتخابات شرقاً وغرباً وفي كل القارات سواء تلك التي جرت أو التي ستجري قريباً هي إنتخابات الوداع لقرن كان حافلاً بالحروب الأهلية والنظامية وبالإضطرابات على أنواعها وبالظلم الفادح، ظُلْم الكبار للصغار وظُلْم مغتصبي الحق لأصحاب الحق وظُلم ذوي القربى لبعضهم البعض.

وبالنسبة إلى دول العالم الثالث، حيث للعرب فيه أحد مراكز الصدارة، فإن القرن العشرين على أهبة الإنتهاء والأنظمة في معظم هذه الدول تتحاشى الإنتخابات النزيهة ولا تعمل على تطوير العملية الإنتخابية بحيث يعكس الإنتخاب حقيقة إتجاه المواطن.

وإلى ذلك فإن ظاهرة الإستفتاء المزدهرة أيضاً في معظم دول العالم الثالث لا تعكس هي الأُخرى حقيقة إتجاه المواطن، وهي من أجْل ذلك تكون تبريراً لقرار إتخذه الحاكم بالإتفاق مع حاكم آخر أو عدة حكام وقضى بقيام وحدة أو إتحاد بين الأطراف المتفقة، مع أن أهمية الإستفتاء هي أنه تأكيد للتوجه ودعْم عفوي للقرار الذي يُتخذ. وعندما يستعرض المرء الإستفتاءات التي أُجريت في بعض الدول العربية يتأكد له أن هذه الإستفتاءات في أكثريتها كانت مظاهر شكلية لا أكثر. ولو أن هذه الإستفتاءات كانت بالفعل في العمق المطلوب وهدفها بالفعل أن تستكشف حقيقة مواقف المواطنين لما كانت بعض الخطوات التي جرت حولها ومن أجْلها إستفتاءات إنتهت في لمح البصر من دون أن يهب الرأي العام للدفاع عنها. وليس غائباً عن البال تلك الإستفتاءات التي جرت حول مشاريع وحدوية وجاءت نتائجها تشير إلى موافقة هي في إستمرار فوق الـ 95 في المائة ثم يحدُث وفي لمْح البصر أن المشروع يتهاوى أمام إنزعاج حاكم من حاكم شريك له في تلك الخطوة الوحدوية أو ذلك المشروع الإتحادي، ولا نسمع صوتاً لواحد من الـ 95 في المائة وما فوق من الذين قالوا نعم.

ونجد أنفسنا إزاء ذلك نتساءل: هل سينقل العالم الثالث، وتحديداً معظم دوله، إلى القرن المقبل ظاهرة الإنتخابات غير النزيهة أو تلك المقيدة بطقوس ومفاهيم غير موضوعية، وبذلك تجد هذه الدول نفسها في آخر الصفوف، أم أنها ستبدأ عملية تطوير جذرية للعملية الإنتخابية وللإستفتاءات لا يشكك فيها أحد وتعكس بالفعل حقيقة إتجاهات الرأي العام؟

إن منطق الأمور يفرض على هذه الدول أن تسارع إلى عملية التطوير المرجوة وإلاَّ فقد نصل إلى يوم لا تعود فيه أي إنتخابات أو إستفتاءات، تُعتبر شرعية، إلاَّ إذا حظيت بموافقة من هيئة خاصة في الأمم المتحدة. بمعنى أن هذه الهيئة تقول إنها في ضوء تقارير أعدها مندوبوها الذين عايشوا ميدانياً هذا الإنتخاب أو ذاك الإستفتاء في دولة من الدول فإنها تعتبر هذه الإنتخابات جيدة أو تعتبر أن ذاك الإستفتاء لا غبار عليه، أو أنها تعتبر العكس.

وعندما نتحدث حول التطوير فإننا نقصد وفي الدرجة الأولى أن يكون الإقتراع واجباً يفرضه القانون وليس إختيارياً، بمعنى أنه يوم الإنتخاب يتوجه إلى مراكز الإقتراع ثلث أو نصف عدد الذين يحق لهم الإقتراع بينما النصف أو الثلثان الباقيان يلازمون منازلهم أو مكاتبهم لا يشاركون لسبب أو آخر في العملية الإنتخابية أو في الإستفتاء الذي يدعى المواطنون إليه. وفي بعض الدول المتقدمة يعتبر المواطن أن عملية الإقتراع واجب عليه يقوم به من دون أن تفرض السُلطات المسؤولة عليه ذلك. ومن أجْل ذلك نرى أن المواطنين في تلك الدول لا ينتظرون سيارات هذا المرشح أو ذاك لكي تنقلهم إلى مراكز الإقتراع وإنما يتوجهون بكامل إرادتهم وحماستهم ويدلون بأصواتهم لهذا المرشح أو ذاك – وهم في العادة ثلاثة أو أربعة مرشحين لا أكثر – ويعودون إلى بيوتهم أو مكاتبهم أو مزارعهم وهم سعداء ضمناً

بأنهم قاموا بالواجب الذي يفرضه عليهم ضمير المواطَنة.

كذلك نرى في هذه الدول أن هنالك بين الحين والآخر وفي الأشهر القليلة التي تسبق العملية الإنتخابية نوعاً من التذكير الرقيق (من خلال رسائل تصله بالبريد) في لهجته للمواطن بيوم الإنتخاب وهو تذكير يحمل في طيات كلماته إشارات إلى ما معناه أن الإقتراع هو الذي يحدد مصير التوجه السياسي والإقتصادي والعسكري للدولة.

وإذا كان مثل هذا التفاعل بين المواطن والعملية الإنتخابية يحدث فقط في الدول المتقدمة ويصعب حدوثه في معظم دول العالم الثالث فإن ما يتطلع إليه المرء ويتمناه هو أن يتم الشروع في وضع مبادئ للواجب الإنتخابي، لها إذا جاز التعبير صفة المواد في قانون من القوانين. ومن هذه المبادئ على سبيل المثال لا الحصر أن كل مواطن – رجالاً ونساء – تتوافر فيه شروط الإقتراع من واجب الدولة عليه أن يتوجه يوم الإنتخاب إلى أحد صناديق الإقتراع ويدلي بصوته. وحتى إذا كان لا يميل إلى أي من المرشحين ولذا يفضل وضع ورقة بيضاء فإن من واجب الدولة عليه أيضاً بدل الإبقاء على الورقة بيضاء أن يكتب عليها – أو يكتبوا له عليها إذا كان أمياً – وبإيجاز لماذا لا يريد تسمية مرشح من المرشحين وما هي مواصفات المرشح الذي يعتقد أنه يستحق الإقتراع له. من المبادئ المشار إليها أيضاً وضع إشارة على البطاقة الشخصية أو جواز السفر بأن حامل البطاقة أو الجواز مارس واجبه الإنتخابي، وبحيث إذا لم تكن هذه الإشارة موجودة تتم المحاسبة القانونية بمعنى أن يدفع مبلغاً كبيراً نظير مخالفته – أو مخالفتها – القيام بالواجب الإنتخابي إلاّ في حال كانت هنالك أسباب وظروف قاهرة أو صحية تحول دون القيام بالواجب المطلوب.

ومن المبادئ أيضاً أن يكون القيام بواجب الإقتراع إجبارياً على كل مواطن بصرف النظر عما إذا كان مقيماً، أو يعيش خارج البلاد لكنه ما زال يحتفظ بحق المواطنة وبالبطاقة الشخصية وجواز سفر دولته. وبالنسبة إلى الذين يعيشون في أوطان ثانية فإن الإدلاء بأصواتهم في سفارات بلادهم على نحو ما يفعله بعض رعايا الدولة المتقدمة أمر على درجة من اليسر.

وعندما يتم وضع التطوير للعملية الإنتخابية وفق مبادئ لها صفة القوانين وتكون هناك عقوبات على مَنْ لا يؤدي واجبه الإنتخابي فإن الكل سيشارك في الإقتراع تماماً كما يحدث في دول متقدمة كثيرة، ولن ينتظر المواطن من ينقله إلى مركز الإقتراع وإنما سيتوجه بنفسه ويختار أو لا يختار. كذلك لن تكون هنالك عمليات بيع وشراء على نحو ما يحدث في بعض الدول وذلك لأن هذه العملية تتم فقط لأن الذين يقترعون هم عادة قلة ويفضل قسم منهم الإنتظار إلى أن يأتيهم من يشتري أصواتهم.

وعندما يتم وضع التطوير للعملية الإنتخابية لا تعود الإنتخابات في معظم دول العالم الثالث على التشوه الذي هي عليه حيث إنه من غير المنطقي أن يشارك في عملية الإقتراع نصف من تتوافر فيهم شروط الإقتراع أو أقل، ونعتبر ما جرى بأنه إنتخابات. فالنصف أو الأكثر الذي لم يقترع أوجد بتصرفه هذا حالتيْن من الإنتخابات أو بمعنى آخر أن الذي جرى كان نصف إنتخابات وليس إنتخابات كاملة أو نصف إستفتاء وليس الإستفتاء الكامل المطلوب.

والذي يثير الإستغراب والدهشة هو أن المسؤولين في هذه الدولة أو تلك لا يأخذون الأمر في الإعتبار ولا يستوقفهم أن نصف المواطنين لم يشاركوا في العملية الإنتخابية، وأحياناً أكثر من النصف، ونراهم يتباهون بإذاعة النتائج وكأنما هي إنتخابات كاملة، ويشددون في تباهيهم على النسبة المرتفعة من الأصوات التي نالوها ولا تصدر عنهم وقفة تهيب وهم يعترفون بأن الذين إقترعوا لم يتجاوزوا نصف مَنْ يحق لهم الإقتراع، أو وهم يسجلون إرتياحهم إلى أن نسبة استفتاء من الإستفتاءات وصلت إلى أكثر من 90 في المائة علماً بأن النسبة لا تشمل الذين قاطعوا وهم عموماً وكما عودتنا الإستفتاءات في السنوات الثلاثين الماضية يشكلون عادة نصف عدد من لهم حق الإقتراع.

ونكرر القول بأن العملية الإنتخابية بما في ذلك ظاهرة الإستفتاء تحتاج إلى تطوير لكي يصبح التمثيل البرلماني أو الأخذ برأي المواطن من خلال الإستفتاء موضع إحترام ومصداقية. وقد تكون ظروف وتطورات السنوات الثلاثين من القرن العشرين وشراسة حالات الصراع التي عاشتها معظم دول العالم الثالث هي السبب في أن عملية التطوير لم تحدث ولكن أنظمتنا مطالبة ومنذ الآن وبالذات تلك التي تعتمد الإنتخابات منهج عمل، بتطوير العملية الإنتخابية – وفق ما

أوردناه مقارنة مع تجارب دول كثيرة متقدمة واستئناساً بتقاليد مواطني هذه الدول – بحيث تكون الإنتخابات شـــأناً يهم كل مواطن وواجباً ملقى عليه يصـــل إلى مرتبة واجب الخدمة العســـكرية. وما نتمناه مع إنتهاء إنتخابات آخر القرن العشـرين المشـوهة وفي أكثر من بلد أن تبدأ أجيالنا القرن الواحد والعشـــرين بإنتخابات يقول فيها المواطن (غير الأمي كما نأمل) رأيه وليس يقال لـه رأيـه ويحـدد فيهـا موقفـه وليس يفرض عليـه موقف مغلف بأجواء عملية إنتخابية منقوصـــة وتفتقد المصداقية ما دام المواطنون في غياب إعتبار الإقتراع واجباً وحقاً للدولة على المواطن، منقسمين نصـفيْن... نصف أو أقل يقترع ونصف أو أكثر لا يقترع.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 16 سبتمبر (أيلول) 1996

* * *

يوم المسؤولية العربية

يحل اليوم الوطني للمملكة العربية الســـعودية هذا العام والمنطقة العربية تواجه فصلاً آخر، وليس أخيراً، من التحديات. فالســـلام الموعود مهدد من جانب إسرائيل بأن ينتهي إلى مواجهة سورية – إسرائيلية. وفي ســـماء منطقة الخليج تتجمع غيوم وقانا الله من شرها وأعان الحُكم العراقي على أن يواصل عقلانيته، ويستوعب إبعاد المرونة العربية الشاملة، فلا يتسبب لشـعب العراق بمزيد من المعاناة، ويتسـبب لشـعوب المنطقة بالمزيد من الأســـى على أحوال الشـــعب الشقيق.

وعند التأمل في تعامُل أهل القرار الســـعودي مع الفصل الجديد من التحديات التي نشير إليها، وكيف أن المملكة إعتمدت الأسلوب الذي حال دون أن تهب العاصفة مرة أُخرى على منطقة الخليج، وعلى المنطقة العربية عموماً، نجد أن روحية اليوم الوطني موجودة في هذا الأســـلوب، ويمكن ملاحظتها في ســـطور التصـــريحات التي أدلى بها في الرياض النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام الأمير ســـلطان بن عبد العزيز، وكذلك في التصـــريحات التي أدلى بها في باريس وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل بعد إجتماع إستثنائي مع الرئيس جاك شيراك. وما نقصده بالروحية هو أن اليوم الوطني للمملكة هو يوم المســـؤولية العربية، بمعنى أنه ليس فقط يوم توحَّد يحتفل بـه الســـعوديون على نحو ما تحتفل سـائر شـعوب العالم باليوم الذي نالت فيه هذه الدولة أو تلك إســـتقلالها، وإنما هو اليوم الذي يرمز إلى أن المملكة معنية بالإستقرار العربي وبنسبة الوزن السياسي والمالي للمملكة وقد جاءت التطورات الأخيرة في المنطقة لتؤكد ذلك، ولتؤكد أمراً آخر وهو أنه مثلما أن للدول النووية مفتاحاً يحمله رئيس الدولة ويرافقه أينما نهب، وحيثما كان في زيارة أو مؤتمر، ويا ويل العالم إذا إضـطر هذا الرئيس أو ذاك (وبالذات رئيس الولايات للمتحدة ورئيس روسيا) لإستعمال هذا المفتاح في التوقيت غير المناسب، فإن للإستقرار العربي عدة مفاتيح، ومن حُسْـــن حظ هذا الإســـتقرار أن يكون المفتاح السعودي أول المبادرين، وبذلك يسْلم الإستقرار من الأذى أو على الاقل يخرج هذا الإستقرار بما يمكن تحمُّله من جراح. وللمرء أن يتصـــور ما الذي كان سـيحدُث لو أن السـعودية كمسـؤولية عربية لم تعالج التطورات الأخيرة وهبت العاصـــفة من جديد على المنطقة.

وإســـتناداً إلى روحية اليوم الوطني، فإن القراءة المتـانيـة للتطورات تشـــير إلى أن المملكـة العربيـة السـعودية، بالمعادلة التي إنتهت إليها التطورات حققت لكل طرف من الأطراف ما يحفظ لـه مـاء وجهـه أو كبرياءه، وحملت دولاً لها أهميتها الكبرى على صـــعيد القرار الدولي، على أن تبني موقفها على هُدي الرؤية الســـعودية للتطورات. ومن هنا فإن المملكة عبأت للإســتقرار العربي دولاً لها شـأنها في العالم يمكن أن تحميه، فضـــلاً عن أنها بالموقف الذي إتخذتْه أبقت على النار غير قابلة للإشتعال، ويكاد المرء يجزم بأنها بالموقف المشـــار إليه عطلت اللغم المزروع وأبقت المنطقة في منأى عن الفخ المنصوب، وإستحقت بذلك إمتنان شعوب المنطقة ودول العالم وبالذات تلك الدول التي بنت خُططها الإقتصـــادية والتجارية لما تبقَّى من سنوات القرن العشرين على أساس أن الإعصار الذي هب عام 1990 – 1991 كان الأول ويجب أن يكون الأخير، خصـــوصـــاً أن المنطقة التي عصـــف بها الإعصـــار كانت منطقة النفط، وليس هنالك منطقة نفطية في العالم يمكن أن تكون سـاحة إقتتال وسـاحة إختبار لما يمكن أن تحققه تكنولوجيا الســـلاح المتقدم من كوارث.

كذلك يحل اليوم الوطني للمملكة العربية السـعودية

في زمن يلاحظ المرء الفرق الشاسع بين التماسك الذي هي عليه المملكة وتمسُّك الشعب بصيغة التوحيد التي حققها الطيب الذكر الملك عبد العزيز، وبين المخاضات التي تعيشها دول مضى على تَوحدها عشرات السنين. وأمامنا، على سبيل المثال لا الحصر، الإحتمال الممكن الحدوث بالنسبة إلى المملكة المتحدة التي قد تتناثر مع نهاية القرن في حال إستقر أمر كل من إسكوتلندا وايرلندا على الإستقلال، وبذلك لا تعود بريطانيا العظمى عظمى، وتصاب شمسها بالكسوف بعدما كانت هذه الشمس لا تغيب عن أراضيها. كذلك أمامنا على سبيل المثال لا الحصر الدعوة المستجدة فى إيطاليا والتي يرفع أصحابها شعار إستقلال الشمال الإيطالي، وهي دعوة جادة لعدة إعتبارات من بينها أن «رابطة الشمال» التي تقود هذا الإتجاه الإنفصالي، تتمثل داخل البرلمان الإيطالي بـ 59 نائباً، وداخل مجلس الشيوخ بـ 27 عضواً. وهي جادة أيضاً لأن الإتجاه المعارض لهذه العودة بدأ يستعد للمواجهة بالتظاهرات وبالكتابات التي تشيد بالوحدة، وتحذِّر من مخاطر الإنفصال على الدولة التي يتباهى شعبها بأنها «الجمهورية الأعظم» بين جمهوريات القارة الأوروبية. وهي جادة أيضاً وأيضاً لأن المخاوف من الإنفصال وصلت إلى حد أن البابا يوحنا بولس الثاني تحدَّث قبْل أيام في الأمر، على رغم ظروفه الصحية الدقيقة، أمام مؤتمر للأساقفة قائلاً «إن على الإيطاليين أن يدافعوا عن إرثهم الكبير من الإيمان والثقافة والوحدة الذي يشكِّل أكبر ثروات هذا الشعب» وكذلك إلى حد أن رئيس وزراء إيطاليا نفسه أثار حفيظة الإيطاليين الوحدويين بتحذيره من مغبة أن يصيب إيطاليا ما أصاب يوغوسلافيا أو تشيكوسلوفاكيا. ومن الطبيعي عندما يفترض الإيطالى أن حال بلاد «الدولشي فيتا» ستصبح مثل حال يوغوسلافيا الغارقة منذ بضع سنوات، نتيجة لتفككها، في صراعات وحروب أهلية أكثرها إثارة ما جرى في البوسنة، فإنه سيتنبه للأمر وربما شمَّر عن ساعده لمقاومة التيار الإنفصالي المستجد، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن مثل هذه المقاومة قد تنتهي حرباً أهلية تجعل من «الجمهورية الأعظم» في أوروبا بلداً يتقاتل فيه الشمال مع الجنوب، والشرق مع الغرب، وتذوب البلاد الجميلة كما تذوب الشموع، أو في أسوأ الحالات يصيبها الإقتتال بمثل ما أصاب دولاً أُخرى. وما قد يجري ليريطانيا، تلك التي تستند قي بقايا عظَمَتها وقوتها على أنها مملكة متحدة، في حال حدوث الإنفصال والتبعثر، وكذلك ما قد يجري لإيطاليا – وكلاهما ليس بالأمر المستبعَد – يمكن أن تواجهه دول أوروبية أُخرى كثيرة. وهدا إن دل على شيء فعلى أن إيمان أبناء هذه الدول بوحدتهم الوطنية أو بتوحد مناطقهم أو الأقاليم التي تتألف منها دولهم، ليس كبيراً وليس عميقاً، وهذا سببه أنه ليس هنالك دائماً من جانب الدولة تذكير بالمعاني السامية للتوحيد، على عكس ما نلاحظه بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية، حيث إيمان الناس بالتوحيد، الذي يرمز إليه اليوم الوطني، ظاهرة تتبلور عيداً بعد عيد، فضلاً عن ان الدولة تزرعه كقيمة في حفل القيم المزدهر. هذا إضافة إلى أن مفهوم الوحدة لدى السعودي، حاكماً ومواطناً، مستقر ولا تهزه بعض التحريضات الخارجية، نتيجة أن البداية كانت صحيحة، وأن الغرسة التي زرعها الملك عبدالعزيز، طيَّب الله ثراه، كانت في إستمرار موضع الرعاية من جانب الأبناء الذين تعاقبوا من بعده، ويواصلون واجب الحُكْم بروح عالية من المسؤولية. ومنذ رحيل الملك عبد العزيز (عام 1953) وحِرْص الأبناء الذين يتوارثون الحُكْم مِن بعده على الوحدة بمثل حِرْص الملك الوالد، الذي سيبقى في إستمرار رائد الوحدة في العالم العربي التي تزداد رسوخاً وتصمد في وجه العواصف والعاصفين.

ومن المفارقات إننا نكتب ذلك وبيننا وبين ذكرى تعثُّر المحاولة العربية الوحدوية الثانية (الجمهورية العربية المتحدة من مصر وسوريا) خمسة أيام حيث أن بضعة ضباط سوريين إستولوا يوم 28 سبتمبر/ أيلول 1961 على الإذاعة فى دمشق وحاصروا بعض الثكنات ونفَّذوا عملية إنفصالية كان أخطر ما فيها أنها جعلت العرب من المحيط إلى الخليج، ومنذ ذلك اليوم، ينظرون إلى العمل الوحدوي المتسرع وغير المدروس بحذر، ويستوقفهم في إستمرار، وبكثير من اليقظة والإهتمام والتأمل، العمل الوحدوي الرائد المتأني والمدروس والمحروس بتضحيات كبرى، ونعني به العمل الوحدوي وفْق مفهوم الملك عبد العزيز والذي يرمز اليوم الوطني إليه. وهو إذا كان حقق التوحيد بساعده وبتضحيات رفاق له، فإنه بلور البعد القومي للعمل الوحدوي الرائد من خلال الإستعانة بعد ذلك بالمستشارين، والذين ليس مصادفة أنهم يُمثِّلون معظم الدول العربية وهذا ما لم يفعله حاكم عربى آخر،

الأمر الذي يعني أن الملك عبدالعزيز عرف العالم العربى وأحواله من خلال هؤلاء، وأن وجود هؤلاء في مجلسه يومياً كان بمثابة جامعة عربية تعمل على مدى أربع وعشرين ساعة، لأن مشاغل ذلك الزمان كانت تسمح بكثرة الإجتماعات وكثرة التشاور.

وهكذا فإننا عندما نقول إن اليوم الوطني للمملكة هو يوم المسؤولية العربية، فإننا نقول ما هو حاصل منذ أكثر من نصف قرن... ومستمر بإذن الله.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 سبتمبر (أيلول) 1996

* * *

أميركا لا تقف محايدة...
وعرفات الذي لا يشترط

لو كان الرئيس ياسر عرفات مطْمِئناً إلى موقف عربي موحد، أو حتى إلى مساندة كتلة من الكتل العربية والإسلامية، لربما كان إشترط للتجاوب مع دعوة رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو للإجتماع به، أن يتم اللقاء في القدس وفي بيت الشرق، وليس في أي مكان آخر، وأن يشترط أيضاً حضور نواب ورؤساء الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، أو من يمثِّل الرؤساء مصحوبين بوزراء الخارجية وكذلك حضور الأمين العام للأمم المتحدة والأمين العام للجامعة العربية والأمين العام لدول مجلس التعاون الخليجي والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي ومَن يمثل لجنة القدس.

وهو لو إشترط ذلك فإنه كان لن يبدو بمظهر من يلجأ إلى التعجيز في الوقت غير المناسب. بل قد يجوز القول إنه ليس هناك وقت مناسب لمثل اللقاء الذي نشير إليه، تمثيلاً ومكاناً، أفضل من هذا الوقت.

ومثل هذا اللقاء بالصيغة التي يتم بها والمكان الذي سينعقد فيه من شأنه أن يقلل من هذه المكابرة التي يتسم بها نتنياهو، وبحيث يصبح في موضوع تَعامله مع عملية السلام أكثر واقعية وأقل تشاوفاً على الحكام العرب الذين باتوا جزءاً من العملية السلمية، وهم كما توضح التطورات أصبحوا يعانون من ضغوط الرأي العام في دولهم. وما حدَث في مصر قبْل بضعة أسابيع يؤكد ذلك. وبدلاً من أن يعترض نتنياهو على مناورات أجراها الجيش المصري في سيناء كان من الأفضل له أن يتأمل في الوضع السياسي الراهن في المنطقة. وهو لو تأمَّل ما فيه الكفاية لخرج بنتيجة أن المناورة بدر 96 التي دامت عشرة أيام أزالت إحتقاناً في نفوس الرأي العام المصري من أسلوب تعامُل نتنياهو مع مصر، حيث إنه لا يترك مناسبة إلاَّ ويغمز من قناتها أو يقلل من شأنها. وعلى رغم أنه لا يقول صراحة ما الذي يجعله يعتمد هذا الأسلوب، إلاَّ أنه من الواضح أن صيغة العلاقة المصرية – السورية والعلاقة المصرية – الفلسطينية هي السبب الرئيسي. وهذه الخشية تقودنا إلى الإعتقاد السائد لدى أهل الحُكْم الإسرائيلي، وهو أن مصر ما دامت أبرمت إتفاقية كامب ديفيد فإنها يجب أن تخرج نهائياً من عملية الصراع العربي – الإسرائيلي، أو تساعد في إنجاز صفقة مماثلة على الجانب السوري – الإسرائيلي. كذلك، فإن الإعتقاد السائد في إسرائيل هو أنه ما دامت مصر إختارت السلام فإنها يجب أن تنشغل بالمشاريع الإقتصادية والسياحية، وألاَّ تحشر نفسها في بقية فصول الصراع. والإعتقادان خاطئان جملة وتفصيلاً. ذلك أن المؤسسة العسكرية المصرية تركت منذ ثماني عشرة سنة للقيادة السياسية أن تتعامل مع عملية السلام مع إسرائيل إنما لم يكن معنى ذلك أنها باتت مؤسسة دبلوماسية وليس هنالك واجب قومي ملقى على عاتقها، وجاءت المناورة بدر 96 ومن قبْلها مناورات كثيرة أقل إتساعاً قامت بها بعض أسلحة الجيش المصري لتؤكد أن المؤسسة التي لم تتأثر بـ "فيروس" العملية السلمية ليست غائبة ولا هي مغيَّبة، وكذلك فمن الصعب تغييبها. ومن الجائز تصوَّر حجم الطمأنينة التي غمرت نفوس الرأي العام المصري، ومعه الرأي العام العربي عموماً، عندما جرت تلك المناورة في أيام كان الجيش المصري منذ ثلاثة وعشرين عاماً في ذروة التأهب للإنقضاض على الذين يحتلون الأرض في سيناء ثم يقوم بعد ذلك ويوم السادس من أكتوبر (تشرين الأول) 1973 بعبور قناة السويس وتحطيم أسطورة التفوق الإسرائيلي. وعندما يحتج نتنياهو على المناورة فلأن قادة الجيش الإسرائيلي وضعوا أمامه تقييمهم لها، وتنبههم للجدية التي رافقت أيام المناورة العشرة. ومن الطبيعي، بسبب ما تملكه إسرائيل ومعها الولايات المتحدة من تكنولوجيا تصويرية متقدمة ورادارات تلتقط الجزئيات البسيطة، وأجهزة قادرة على تسجيل الشيفرة وترجمتها على الفور، أن تكون القيادة الإسرائيلية إستنتجت أن

المناورة، التي أيقظت في الإسرائيليين ذكرى ما أصابهم في حرب 1973 تمت بتخطيط دقيق وروح معنوية عالية وإلى درجة أن المناورة يمكن أن تتحول في ساعات قليلة إلى حالة هجومية.

ونحن عندما نقول إن المناورة بدر 96 أزالت من نفوس الرأي العام المصري إحتقانات كان من شأن إستمرار تراكمها أن يتسبب في حدوث مفاجآت غير سارة للعملية السلمية برمتها، لا نكون بعيدين عن جوهر الحقيقة. كذلك، فإننا عندما نتأمل في ما حدَث من تحريك لافت للنظر للقوات على الجانب السوري، وكيف تزامن هذا التحريك مع مناورة بدر 96، نفترض أن الأمر ليس مصادفة. وكلاهما، المناورة والتحريك، هما بمثابة رسالة إلى إدارة الرئيس كلينتون مفادها أن صدر الصديق العربي ضاق إلى درجة لم يعد يحتمل معها الممارسات الإسرائيلية، وأن نتيجة طلب هذه الإدارة قبْل ثلاثة أشهر من أصدقائها العرب أن يصبروا على نتنياهو إلى حين ترتيب أموره الداخلية لم يكن في محله، لأن نتنياهو إعتبر أن ما قالته إدارة كلينتون هو ضوء أخضر له لكي ينفّذ ما يريد تنفيذه وليس استراحة لإلتقاط الأنفاس من معركة الإنتخابات الشاقة، وكان أحدث ما قام به هو إفتعال إفتتاح النفق (الذي سبق شقه منذ سنوات إنما بقي مغلقاً لحسابات وتحسبات عاقلة) تحت المسجد الأقصى، وكأنما هذا المسجد هو محطة لقطارات الأنفاق يمكن أن ينام فيها السكارى وينشط فيها مروجو المخدرات ويعبث فيها الشاذون والمستهترات.

ومع الأخذ في الإعتبار أن المسؤولية الصغرى تقع على من يوافق على ما طلبتْه إدارة الرئيس كلينتون، إلاَّ أن المسؤولية الكبرى تقع على تلك الإدارة التي أوصلَنا الإنصياع لإجتهاداتها وتخويفاتها إلى ما وصلْنا إليه. وبات المرء يخشى أن نصحو ذات يوم على حقيقة مرة وهي أن الإدارة الأميركية، خوفاً على إسرائيل كأقلية في المحيط العربي، أعطت أوامر لقواتها العاملة في المنطقة بأن تحارب جنباً إلى جنب مع القوات والعصابات الإسرائيلية.

ونصل من هنا إلى أن مشكلتنا الأساسية هي مع الإدارة الأميركية وليست مع إسرائيل وحدها، وهي أيضاً مع ما فعله الرئيس (الراحل) أنور السادات عندما أبرم تلك الصفقة الخاسرة مع إسرائيل تحت الرعاية الأميركية. وإذا كان الجيش المصري واعياً تماماً للأمر، ويعتبر ضمناً أنه يتحمل المسؤولية الكاملة إزاء ما فعله الرئيس السادات ويتعهد ضمناً أيضاً بعدم تزْك القضية تتوه في دهاليز الدبلوماسية والإجتهادات السياسية، فهذا معناه أن الإدارة الأميركية مطالَبة بأن تتنبه خشية أن تقع الواقعة ويصبح من الصعب تطويق المضاعفات. والتنبه المطلوب، والذي من شأنه أن يفيد إسرائيل قبْل الفلسطينيين وقبْل أشقائهم العرب، هو أن تترك الإدارة الأميركية أمر إسرائيل إلى مجلس الأمن وأن تقف على الحياد كي لا تصبح الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن الصادرة عنه على نحو ما هي عليه منذ أن بدأ سريان العمل بما سمي النظام العالمي الجديد، ضد المسلمين والعرب فقط.

ونجد أنفسنا نتذكر هذه الأيام قولاً غير مأثور لنتنياهو تزامن مع زيارته الأولى كفاتح إلى واشنطن، خلاصته أن العرب يقبلون في النهاية ما يرفضونه في البداية. وأخشى ما نخشاه هو أن يكون رئيس وزراء إسرائيل أقنع الرئيس كلينتون بهذه "النظرية" لأن الإثنين متشابهان سناً وعنجهية ومسلكية، وأنه من أجْل ذلك يفعل نتنياهو ما يشاء ويبرر له الرئيس كلينتون كل أفعاله، بما في ذلك فتْح النفق تحت المسجد الأقصى، مع أن بعض التبصر والقليل من الحكمة كانا يفرضان على الإدارة الأميركية، بدل أن تبرر من خلال دعوة الجانبيْن إلى التعاون (تعاون على ماذا!)، أن تقطع الطريق فوراً وتطلب من الحكومة الإسرائيلية إغلاق النفق على وجه السرعة... إلاّ إذا إنحصر فهْم تلك الإدارة لموضوع النفق على أنه "SUBWAY" أي ممر تحت الأرض يجد منه المواطن الأميركي العشرات في أي شارع من شوارع مدن الولايات المتحدة، ويستغرب تبعاً لذلك أن تحدُث مواجهة في شأنه.

وإغلاق النفق هو بداية إغلاق مائة يوم من العجرفة الإسرائيلية وفق أسلوب يريد نتنياهو أن يذكره تاريخ إسرائيل له. وما يأمله المرء لقطع الطريق على مواجهة عربية – إسرائيلية جديدة (وهذه المرة من خلال جولة حاسمة في الجولان وإنتفاضة تتواصل في الأرض المحتلة) هو أن ينتقل نتنياهو من الحالة التي هو عليها ويصبح رجل دولة. ونقول ذلك مع الإعتقاد شبه الراسخ بأن الأمر وصل، بعد نصف قرن تخللتْه حروب ومواجهات وإنتفاضة وصفقات سلام منقوص وغير عادل، إلى أنه لا أمل في العملية السلمية إلاَّ إذا قرر نتنياهو أن يسالم، ولا أمل لإسرائيل بالبقاء إلاَّ

إذا قرر العرب أن يستسلموا، ولا أمل بالحل المتوازن إلاَّ إذا قررت الولايات المتحدة أن تتخذ موقف الحياد ما دام الجميع عرباً ومسلمين ويهوداً باتوا أصدقاء لها طالبين ودها.

... وحتى إشعار آخر فإن الحالات الثلاث التي نشير إليها تبدو مستعصية إلى حد كبير، أو شبه مستحيلة. ولذا فنحن على أبواب المزيد من المفاجآت المثيرة لنا، كعرب ومسلمين، ولهم كيهود وأميركان.

صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 1996

* * *

مكاسب كانت ستتحقق

كيف يمكن أن تنجح قمة أزمة نفق الأقصى مادامت تنعقد في الظروف التي إنعقدت فيها، وفي واشنطن، ومن دون تمثيل عربي ومشاركة دولية؟ فالظروف التي نشير إليها هي ظروف إنتخابات الرئاسة الأميركية ولا يمكن للرئيس بيل كلينتون أن يتخذ الموقف الذي قد يزعج رئيس وزراء إسرائيل. والإنعقاد في واشنطن معناه أن القمة التي تحتاج أكثر من أي ظرف مضى إلى مكان محايد مثل جنيف تنعقد في عاصمة غير محايدة على الإطلاق ومنحازة بالكامل إلى ما تقرره إسرائيل من سياسات وما تتخذه من إجراءات، وعدم التمثيل العربي معناه أن الرئيس ياسر عرفات يشارك وحيداً ومجرداً من مؤازرة عربية قوية. ونقول ذلك على أساس أن الملك حسين كان في تلك القمة شبه محايد، ليس بين عرفات ونتنياهو وإنما بين ما تطمح السُلطة الفلسطينية إلى الحصول عليه من الإدارة الأميركية وبين الرئيس كلينتون. ولولا إقتحام ملحوظ لأجواء القمة تفرَّد به السفير السعودي فى واشنطن الأمير بندر بن سلطان بن عبدالعزيز، دون غيره من السفراء العرب، وإدلائه بتصريحات توضح مؤازرة الملك فهد بن عبد العزيز للرئيس عرفات لكان بدا الرئيس الفلسطيني مثل جندي أخذوا منه سلاحه أو كاتب جف الحبر من قلمه.

واللافت للنظر أن قمة أزمة نفق الأقصى كانت منعقدة في وقت هنالك في نيويورك أكثر من عشرين وزير خارجية عربياً، ومِثلهم وزراء خارجية الدول الإسلامية. وكان هناك الأمين العام للجامعة العربية والأمين العام لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي. ولا ندري ما الذي كان يحول دون الإستفادة من هذا الوجود الذي كان يحدُث فقط مرة فى السنة خلال الدورة السنوية للجمعية العمومية للأمم المتحدة، وبالتالي حال دون صدور بيان عن الوزراء المشاركين والأمناء العامين الثلاثة يتضمن التأكيد على الثوابت، ويطالب الحكومة الإسرائيلية بالإمتناع عن إتخاذ الإجراءات التي تعرقل العملية السلمية التي باتت مطلباً وحقاً دوليِيْن ولا تستطيع أي دولة أو أي طرف التلاعب بها على نحو ما تفعله حكومة نتنياهو. وإذا كان هذا البيان لن يصدر على أساس نجدة دبلوماسية عربية وإسلامية للموقف الذي يمثله الرئيس عرفات، فعلى الأقل يكون صدوره كتذكير بأن دول وزراء الخارجية المشار إليهم أكثر تمسكاً بالعملية السلمية وتتمنى على الرئيس كلينتون بذْل أقصى الجهود في سبيل تحقيق ذلك، خموصاً أنه الراعي الأكثر تميزاً للعملية السلمية والتي كانت المصافحات التاريخية في حديقة البيت الأبيض إحدى أبرز علاماتها الفارقة.

ومع أن عدم مشاركة الرئيس حسني مبارك في تلك القمة أحدثت في النفس العربية نوعاً من الإرتياح، إلاَّ أننا كنا نتمنى لو أن الرئيس مبارك لبى الدعوة على رغم الأجواء التي رافقت القمة، من أسلوب الدعوة الذي تنقصه اللياقات، إلى عدم التشاور الذي يحتاجه الإنعقاد من دون تحديد نقاط البحث خلافاً لأي مؤتمر ثنائي أو خماسي أو موسع ينعقد. ونقول ذلك على أساس أن مشاركة الرئيس مبارك كانت ستؤكد وبشكل عملي أن الرئيس عرفات ليس وحده، وكانت ستحمل الملك حسين على أن يخرج قليلاً عن الموقف المحايد الذي إتخذه، فضلاً عن أن الرئيس مبارك عندما يشارك فإنه يشارك بصفتيْن: صفة رئيس مصر التي مادامت كانت المبادِرة إلى إبرام الصلح مع إسرائيل فإن مسؤوليتها تقتضي السهر على هذا الصلح إلى أن يكتمل مع بقية الأطراف الحربية واللجوء عند الضرورة إلى التلويح بإلغاء المعاهدة التي أبرمها الرئيس (الراحل) أنور السادات، أو تجميدها عندما تقتضي الظروف اللجوء إلى التجميد. أما الصيغة الثانية، والتي تكمل الأولى في مضامينها، فهي أن الرئيس مبارك هو رئيس القمة العربية التي جرى عقْدها قي القاهرة (22 و23 يونيو/ حزيران 1996) والتي كان إنعقادها بمثابة تأكيد بأن إلتزام مصر، بالسلام مع

إسرائيل لا يلغي مسؤوليتها العربية. ونلاحظ هنا أن لهجة التخاطب المصري المعتمدة مع إسرائيل تبدلت بعد تلك القمة إلى درجة أن مصر، ونتيجة للتيار العاصف الذي أثاره نتنياهو منذ فوزه في الإنتخابات، بدأت تتصرف وكأنما هي دولة في طريقها إلى أن تعود واحدة من دول المواجهة. وخلال ثلاثة أشهر وجهَّت مصر، جيشاً ودبلوماسية وصحافة، إشارات كثيرة توحي بذلك لعل أهمها المناورة الشاملة (بدر 96) التي أعادت إلى الذاكرة (بدر 73) أي بدر الحرب التي حقق فيها الجيش المصري إنتصارات ملحوظة، وإحياء الذكرى الثالثة والعشرين لتلك الحرب على ضفاف قناة السويس بعدما درجت العادة على أن يقام لهذا الغرض إحتفال في القاهرة. ومن الإشارات المهمة أيضاً هو هذا الإلتفاف النوعي من جانب قطاعات عريضة من المصريين حول وزير الخارجية عمرو موسى وهو إلتفاف لم يحظَ به وزير خارجية من قبْل في التاريخ المصري الحديث. وسبب هذا الإلتفاف هو اللهجة الجسورة التي إعتمدها رئيس الدبلوماسية المصرية في مواجهة السياسة الإسرائيلية العامة ثم تناغُم هذه اللهجة مع لهجة مستجدة بدأت تظهر في نبرة الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد الذي سبق أن كان وزيراً للخارجية المصرية قبْل أن يتم إختياره أميناً عاماً. وتشاء الصدف أن الإثنين وكذلك نتنياهو، عملوا من قبْل كممثلين لبلادهم لدى الأمم المتحدة، الأمر الذي يعني أنهم الأدرى بمعرفة بعضهم وببعض مفردات المخاطبة والأكثر معرفة ببعض حقائق دهاليز السياسة.

ومن الجائز الإفتراض أن مشاركة الرئيس مبارك في القمة كانت ستحقق بعض النجاح، بمعنى أن رئيس وزراء إسرائيل كان لن يستأثر بالرئيس كلينتون وبنائبه آل جور الذي تابعْنا عبْر الشاشات الفضائية ملامح وجهه، حيث بدا غاضباً لأن نتنياهو غاضب ومقطِّب الحاجبيْن لأن نتنياهو يفعل ذلك، ولمجرد أن إنفرجت أسارير وجه نتنياهو بعدما تَحقق له من الرئيس كلينتون ما يريد فإن أسارير وجْه نائب الرئيس الأميركي إنفرجت تلقائياً. يا لهذه المهابة الأميركية!

وحتى إذا كان النجاح لن يتحقق فإن المناسبة كانت فرصة طيِّبة لوقوف الرئيس مبارك متحدثاً في المؤتمر الصحافي التقليدي مجيباً بكل الصراحة عن الأسئلة. ولعلها المرة الوحيدة، بسبب قمة القاهرة التي إستضافها والممارسات التي يسجلها في إستمرار نتنياهو، التي سيبدو فيها الرئيس مبارك عندما يتحدث أنه يفعل ذلك بإسم كل الدول العربية ومن دون إستثناء إحدى الدول أو تحفُّظ أحد عليه. أي بما معناه إنه إذا أراد أن يقول إننا كعرب نريد السلام فالكل معه، وإننا كعرب نطالب نتنياهو بإقفال النفق تحت المسجد الأقصى ونحمِّله مسؤولية تدمير العملية السلمية وإننا كعرب نرى أن الإدارة الأميركية هي السبب في هذا التمادي من جانب نتنياهو فالكل إلى حد ما معه.

وإذا هو قال أيضاً وأمام وسائل الإعلام العالمية، إنه بصفته رئيساً للقمة العربية التي لم يقاطعها احد، وكانت القمة العربية الأُولى التى تعلن فيها الدول العربية مجتمعة التمسك بخيار السلام مع إسرائيل، فإنه مخوَّل بإعتبار قرارات تلك القمة لاغية ويدعو لمجرد عودته من واشنطن إلى قمة جديدة تتخذ من القرارات ما يتناسب مع طبيعة المرحلة الراهنة. إذا قال الرئيس مبارك هذا الكلام فإن الملوك والرؤساء العرب، على الأرجح، لن يتحفظوا على كلمته ولن يعترضوا على دعوته. ومن الطبيعي أن أي قمة عربية تنعقد في ضوء النتائج الباهتة لقمة واشنطن ستلقي الكثير من اللوم على إدارة الرئيس كلينتون.

ويبقى أنه من الطبيعي عندما تنعقد قمة، أي قمة في واشنطن أن تنجح. تلك هي القاعدة، إنما شرط ألاَّ يكون الإنعقاد في فترة إنتخابات رئاسية ويكون أحد أطراف أو طرفيْ القمة إسرائيل. وبالنسبة إلى قمة واشنطن فإنها جاءت باهتة فى نتائجها لأن الرئيس كلينتون – أو النين حوله – إعتبر أن القمة ستعود عليه بالخير اليهودي في حال الفشل في حين أن النجاح سيعود على الولايات المتحدة بالسمعة الطيبة. ولأن الذي يهمه هو تجديد رئاسته وليس سمعة بلاده وما يعنيه البيت الأبيض، فقد تصرَّف على أنه رئيس قاعة مؤتمر تنعقد فيه محادثات مصيرية وليس رئيس الدولة الأعظم التي أخذت على عاتقها حل الإشكالات العالقة في العالم.

ولذا يخالجنا إعتقاد بأن الرئيس كلينتون دعا إلى القمة لكي تفشل، وكأنما الداعي، ضمناً، نتنياهو.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 أكتوبر(ت1) 1996

* * *

قليل من الشجن.. كثير من اليقظة

ربّ ضارة نافعة. ونقول ذلك على أساس أنه لولا

ضيق الأفق لدى رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو، والمساحة الرحبة للتهيؤات في تفكيره، لما كنا سنعرف حقيقة مشاعر الإسرائيليين. هل يريدون السلام، وهل هم فعلاً تواقون إلى أن يكونوا جزءاً من هذه المنطقة، يلتزمون حدودهم ويطوون صفحات جائرة ومعيبة من تاريخ كيانهم الذي فرضتْه الإرادة الدولية وأخذتْه الولايات المتحدة على عاتقها، بمعنى أنها تعهدته بالمال والقوة العسكرية؟

ومن قبْل أن يمنى "حزب العمل" بالهزيمة في الإنتخابات قبْل أربعة أشهر بعدما مُني بخسارة رمز العملية السلمية في الجانب الإسرائيلي إسحق رابين في عملية إغتيال مثيرة للدهشة كنا كعرب في حيرة من الأمر لا نجد إجابة واضحة عن السؤالين اللذين أوردناهما في الأسطر السابقة، إلاَّ أننا بعدما تسلَّم الليكوديون الحُكْم برئاسة نتنياهو وراح الرجل يكشِّر عن أنيابه بدل أن يشمِّر عن ساعديْه ويرعى العملية السلمية التي بدأها أسلافه من مناحيم بيغن إلى شيمون بيريز مروراً بإسحق رابين، بدأنا نلمس إشارات طيبة تصدر عن الجانب الإسرائيلي غير الحكومي. ففي الصحافة الإسرائيلية كتابات في غاية القساوة تنتقد مسلكية نتنياهو وأسلوب تعاطيه مع العملية السلمية. وفي الشوارع تظاهرات بين الحين والآخر يهتف خلالها يهود ويهوديات من الجيليْن من أجْل السلام.

وفي الكنيست أصوات عاقلة تعلو في إستمرار على صوت الحكومة المتشددة. وعندما تصل الحال إلى حد أن رئيس دولة إسرائيل عيزرا فايتسمان يتصل بالرئيس ياسر عرفات ويوجه إليه، بلباقة مَنْ تتغلب لديه الحكمة على التعنت، الدعوة للقائه في منزله في قيساريا إلى الشمال من إسرائيل، فهذا دليل على عمق المخاض الذي يجري داخل إسرائيل. ومن المؤكد أن خشية الرئيس الإسرائيلي على العملية السلمية وإدراكه العميق لما يمكن أن تنتهي إليه الحال لو أن تلك العملية إنهارت تماماً، هي التي دفعتْه إلى توجيه الدعوة إلى زميله الفلسطيني وكان في غاية الحرص على أن تكون أكثر لباقة من تلك الدعوة التي وجَّهها الرئيس كلينتون إلى الملك حسين والرئيسيْن حسني مبارك وعرفات، فآثر الرئيس المصري عدم التلبية على رغم ما في ذلك من مضاعفات قد تتعرض لها العلاقة المصرية – الأميركية في حال حالف الفوز الرئيس كلينتون الذي لا ينسى بعض المواقف التي يشعر أنها سببت له إحراجات عامة وشخصية من نوع رفْض الرئيس مبارك تلبية الدعوة والمشاركة في قمة البيت الأبيض ومن نوع تأييد رئيس وزراء بريطانيا جون ميجر بقوة وإندفاع لافتيْن للنظر للرئيس جورج بوش في إنتخابات الرئاسة الأميركية التي إنتهت بفوز كلينتون وهزيمة بوش. وقد وصل عدم النسيان عند الرئيس كلينتون إلى حد مساندة الثوار الإيرلنديين وفي العلن.

ومبادرة الرئيس الإسرائيلي لم نكن لنتوقعها لولا التعامل الخشن من جانب نتنياهو مع العملية السلمية والتلاعب المعيب من جانبه ببعض الثوابت التي إستقر الأمر الدولي والعربي والإسرائيلي عليها. وأهمية هذه المبادرة أنها تحفظ لأطراف كثيرة ماء الوجه بحيث لا يبدو أن سعي الرئيس كلينتون تعثَّر، ولا أن رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو إرتكب الخطأ الذي من الصعب إيجاد العلاج له، ولا أن الرئيس الفلسطيني إنتهى مهزوماً في قمة واشنطن بعدما كان توجَّه إليها من موقع المنتصر نسبياً، ولا أن الرئيس مبارك بعدم مشاركته في تلك القمة أحدث حالة عدم تكافؤ ومِن أجْل ذلك إنتهت أعمالها متعثرة. ومن الجائز الإفتراض أن الرئيس مبارك إستقبل المبادرة بالكثير من الإرتياح لعدة إعتبارات من بينها أن الرئيس الإسرائيلي فايتسمان سيقوم يوم الإثنين المقبل بزيارة إلى مصر وهو بسبب علاقته الوطيدة بالرئيس (الراحل) أنور السادات بات أكثر إستيعاباً لمشاعر الرأي العام المصري ومدى تأثيرها على قرار الحاكم. ونكاد نقول إنه في ظل الأجواء الناشئة عن أسلوب نتنياهو ومسألة النفق تحت المسجد الأقصى كان سيصعب على الرئيس مبارك إستقباله وهو بدوره ربما كان سيعِزُّ عليه أن يزور مصر خلسة وهو الذي اعتاد على زيارتها والإجتماع بقيادتها بعقل مفتوح. ويتذكر المصريون أن فايتسمان لعب في الماضي دوراً إيجابياً في ترطيب الأجواء بين الرئيس السادات ورئيسة الوزراء زمنذاك غولدا مئير. وفي الزمن الحالي تبدو ممارسات نتنياهو قريبة الشبه إلى حد ما ببعض ممارسات غولدا مئير، الأمر الذي يعني أن وجود فايتسمان، وهذه المرة في الموقع الأعلى في بلده أي رئيس الدولة يمكِّنه من أن يقوم وضِمن سُلطاته المحدودة بدور بين نتنياهو والسلطة الوطنية الفلسطينية، وبين نتنياهو وأطراف عربية أُخرى أحرجها الصقر الإسرائيلي المستجد (أي نتنياهو) بمواقفه وأسلوب تعامله. وسبب الإحراج في

الدرجة الأولى أن هذه الأطراف أعلنت تبنيّها للسلام وأبرم بعضها إتفاقات ومعاهدات وعقد بعضها الآخر جولات من المحادثات. ومثل هذا الإحراج ما كان ليحدُث بالطبع لو أن الحال كانت على ما كانت عليه قبْل صفقة أوسلو وما تلاها من مشاريع صفقات.. أي أن تشدد نتنياهو في وقت لم يسقط الخيار العسكري يمكن الرد عليه بتشدد مماثل بينما نلاحظ أن الرد الحالي والدائم على تشدد نتنياهو منذ أن تسلَّم الحُكْم هو التمسك بخيار السلام وهو ما يوظفه نتنياهو وفْق تفسيراته. وبمقتضى هذه التفسيرات فإن معنى التمسك بخيار السلام، هو أن الحل العسكري لم يعد قائماً بالنسبة إلى الجانب العربي، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يكون هنالك المزيد من الضغط والكثير من التشدد للحصول على أفضل وضع تريده إسرائيل، أي الدولة القوية وسط دول ضعيفة؟

من الطبيعي الإفتراض بأن لقاء الرئيسيْن فايتسمان وعرفات وإنشراح صدر الرئيس الفلسطيني الذي لاحظه الكثيرون على الشاشات التلفزيونية والذي كان عكْس ما رأوه خلال قمة واشنطن، والكلام الذي سمعوه يقوله بعد اللقاء سيخفف بعض الشيء من الضيق المتراكم في نفوس المصريين. وإذا حدَث ذلك فإن عملية الشحن اليومية المستمرة لهذه النفوس قد تنحسر قليلاً ويحدُث نوع من الإسترخاء. ولقد بلغ الشحن ذروته عندما دعا شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي إلى إنشاء "جيش إسلامي" للدفاع عن المسجد الأقصى وكان سبقه بطريرك الكرازة المرقسية البابا شنودة الذي يكتسب مناسبة بعد أُخرى لقب "بابا العروبة" والذي ألقى كلمة في ندوة نظمتها نقابة الأطباء المصريين (الثلاثاء أول أكتوبر (تشرين الأول) 1996) قال فيها عند الحديث حول النفق تحت المسجد الأقصى "لا يليق إطلاقاً أن نسكت على إهدار قدسية هذه الأماكن المقدسة، فالقضية الفلسطينية والمسجد الأقصى ومدينة القدس أمانة في أعناقنا ويجب أن نقوم بعمل قوي من أجْلها لأن الإدانة والشجب لن يحلا مشكلة القدس..." ثم تجددت عملية الشحن في يوم واحد (الإثنين 7 أكتوبر/ تشرين الأول 1996) حيث أن شيخ الأزهر والبابا شنودة تحدَّثا في ندوة جرى عقدها في مقر نقابة الصحافيين المصريين لمناسبة "أسبوع القدس" الذي تنظمه النقابة. وفي كلمته قال شيخ الأزهر "يجب على الدول العربية كلها الوقوف صفاً واحداً مسلمين ومسيحيين ضد من يسفكون الدماء ومد يد العون إلى إخوانهم الفلسطينيين بكل الوسائل بما فيها المال والسلاح لإسترداد حقوقهم المشروعة. إن القدس عربية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ويعيش فيها المسلمون والمسيحيون إخوة متحابين، وإن رصاصة واحدة تقلق العدو واستخدام الحجارة يثير ذعره، والمهم ألا نتوقف لحظة حتى لا يرتاح العدو ويجب إشعاره دائماً بحيويتنا وإصرارنا على الدفاع عن الوطن وكرامتنا. ولا سبيل سوى الأخذ بالقوة في عصر لا تنفع فيه غير القوة...". أما البابا شنودة فجدد في كلمته رفض زيارة المسيحيين للأماكن المقدسة في القدس وهو موقفه منذ أن أبرم الرئيس السادات الصلح مع إسرائيل، مشدداً على "أن زيارة مسلمين ومسيحيين من الدول العربية إسرائيل في الوقت الحالي تُعتبر تطبيعاً وهو أمر مرفوض...". وأضاف إلى ذلك قوله "إن إسرائيل شيدت هيكل سليمان ولم يبقَ إلاَّ ساعة الصفر وستركّبه في المسجد الأقصى. إن نتنياهو مثل بيريز وأي إسرائيلي لا يهمه الشجب والإستنكار والخطب الرنانة ولكن الذي يخيفه هو وحدة الدول العربية التي عليها إستخدام القوة لإسترداد الحقوق العربية على نحو ما فعله صلاح الدين الأيوبي الذي إستطاع أن يعيد بالقوة القدس من أيدي الفرنجة...".

وهذه الرؤية للموقف من الرمزين الدينيين في مصر وبالذات رؤية الشيخ الطنطاوي ساعد على تَفجُّرها كلام الطنطاوي الآخر وزير الدفاع المشير محمد حسين طنطاوي الذي قال في مقابلة مع صحيفة "الأهرام" لمناسبة ذكرى حرب أكتوبر (تشرين الأول) (نشرتْها في عددها الصادر الجمعة 4 أكتوبر/ تشرين الأول 1996) كلاماً يثلج الصدر العربي، وبالذات قوله "إن قواتنا المسلحة مدربة جيداً على العمل تحت ظروف إستخدام العدو أسلحة التدمير الشامل ولديها من الوسائل والإجراءات ما يمكّنها من مواجهة كافة التهديدات، وأن إمتلاك أي دولة مثل هذه الأسلحة سوف يكون بمثابة دعوة للدول المجاورة لها إلى محاولة إمتلاك أسلحة غير تقليدية أو فوق التقليدية..."، وقوله أيضاً "إن هدف المناورة بدر 96 هو ردْع العدوان المحتمَل في أي إتجاه إستراتيجي، وإن إعلان دمشق لا يزال قائماً وهو أساس صالح وفعال عندما تكتمل جميع مراحله وبرامجه المرجوة، ولقد أثبتت التجارب التاريخية دائماً أن دوائر الأمن القومي المصري تنطبق على دوائر أمن الأمة العربية وأن التهديدات لهما مشترَكة...".

ونلاحظ هنا أنه لمجرد أن أذيع كلام المشير طنطاوي صدر رد الفعل عليه من دمشق في سياق مقابلة صحافية أيضاً (نشرتها صحيفة "البعث" يوم الأحد 6

أكتوبر (تشرين الأول) 1996) مع وزير الدفاع السوري العماد مصطفى طلاس قال فيها "إن نتنياهو يقرع مع أركان حربه طبول الحرب من خلال تهديداته المستمرة لسوريا ويصعِّد العدوان على جنوب لبنان ويشدد الحصار على الضفة وغزة. وإذا نفَّذ نتنياهو تهديداته وقام بمغامرة عسكرية فسيندم حتماً، وستتكبد إسرائيل خسائر فادحة لا قبل لها بتحملها، وهذا سيولِّد لدى الإسرائيليين رد فعل عنيفاً تجاه مَنْ ورَّطهم في مثل هذه المغامرة...".

في ضوء الذي أوردناه نخلص بإستنتاجيْن: الأول هو أن الإنفراج أمر على شيء من اليسر في حال تغلبت الحكمة على العناد بدليل أن لقاء ختيارنا الرئيس عرفات بختيارهم الرئيس عيزرا فايتسمان أحدث في النفوس حالة من الطمأنينة، وكان بمثابة درس يحتاج إليه نتنياهو. أما الإستنتاج الثاني فهو أن في الأفق ملامح وقفة عسكرية مشتركة بين مصر وسوريا تشبه في روحيتها ومنهج تنفيذها الوقفة التي حدثت في أكتوبر/ تشرين الأول 1973 وأثبتت فعاليتها، أو أن الوقفة ستكون سوريا والإسناد من مصر. وعندما نقرأ بين سطور كلام وزير الدفاع المصري وبين سطور كلام وزير الدفاع السوري يتبين لنا ذلك. وفي إنتظار أن يستوعب نتنياهو درس لقاء الختياريْن ويستوعب أيضاً تحذير رمزَي الدفاع المصري والسوري فإن ما نتمناه هو أن يبقى شحن النفس العربية تحت السيطرة ويرافق ذلك الكثير من اليقظة. ونقول ذلك على أساس أن الرأي العام العربي خارج حديثاً من صدمة القبول بصيغة السلام غير المتكافئ مع إسرائيل ولا يتحمل صدمة أُخرى إذا تبين له أن التعبئة وشحن نفسيته وهمَّته في إتجاه العمل العسكري هي مجرد مناورة أو... إن نتيجة المواجهة لم تكن في مستوى التحذير.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أكتوبر (تشرين الأول) 1996

* * *

شرارة القذَّافي التي أيقظت الأشرار المتربصين بـ "الخميني الأتاتوركي"

على رغم أن إيران الثورية الإسلامية هي الهدف، وهي مصدر الخطر، طِبْقاً لما يصدر عن الإدارة الأميركية ورجال السياسة في الولايات المتحدة من تصريحات وإتهامات ومواقف... على رغم ذلك فإن إدارة الرئيس كلينتون تفهمت، في شكل أو آخر، الزيارة التي قام بها رئيس وزراء تركيا، نجم الدين أربكان، إلى إيران بمثل تفهُّمها، في شكل أو آخر أيضاً، الزيارة التي قام بها الرئيس الإيراني هاشمي رافسنجاني إلى السودان قبْل بضعة أسابيع، إلاَّ أنها لم تتفهم ولا تريد أن تتفهم الزيارة التي قام بها الرئيس أربكان إلى ليبيا، ومثْل هذا التفهم ثم عدم التفهم، يدعو إلى الظن بأن إدارة الرئيس كلينتون إما خائفة من التيار المندفع بالكثير من التروي، والذي يمثله ويقوده أربكان، ولا تستطيع أن تفعل سوى تحريك جيوبها من مراكز القوى السياسية والعسكرية في جمهورية أتاتورك ضد الرجل، وتريد له مواصلة التحرك حيثما يريد عربياً وإسلامياً، شرقاً وغرباً، في إنتظار أن يقترف الخطأ الكبير، وعندها يسهُل الإنقضاض عليه، وإما أنها ضمناً راضية، وإلى درجة التواطؤ معه، وتتطلع إلى "خميني أتاتوركي"، بمعنى أن يكون الخميني المدني السُنِّي في العالم الثالث، وبحيث تستفيد من الدرس الإيراني ومفاجآت ما حدَث في إيران عندما نفضت يدها من الشاه وفي ظنها أن الجيش بديل ممكن ومتمكن، فإذا بهذا الجيش وتحت تأثير قوة جذْب الدين يتحول إلى جيش المؤسسة الدينية التي تسلمت الحُكْم، بإستثناء بعض الجنرالات الذين غادروا خلسة، أو بعِلْم من الحُكْم الثوري الجديد، البلاد إلى الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية. وفي حال إفتراض الرضى، فإن الحملة الأميركية على أربكان هي فقط لتجميل وجهه السياسي ومساعدته على أن تكون له مهابة في الأوساط الإسلامية وفي أوساط الدول التي هي على خلاف، أو على نوع من العداء، مع الولايات المتحدة، مثل إيران وليبيا. وعندما يزور أربكان هاتين الدولتين ضِمن جولة واسعة النطاق، بينما الحملات الأميركية عليه لا تتوقف، فإن حال الزيارة يختلف عما إذا هو قام بها وليس هنالك تنديد وإستنكار من الجانب الأميركي، ومطالبة له بعدم القيام بهذه الزيارة.

المهم أن الجولة تمت، وكانت أكثر الجولات إثارة في تاريخ الحكام، إذ ليس من المألوف أن يقوم رئيس دولة أو رئيس وزراء، بحجم أربكان ومكانته، بجولة بدأت بعاصفة وإنتهت بإعصار. فزيارته إلى إيران، وهي المحطة الأولى في الجولة، كانت عاصفة، لكن الرجل أحرج خصومه في تركيا وأحرج بالتالي الإدارة الأميركية بإتفاق الغاز الذي أبرمه والذي يقضي بتزويد إيران لتركيا بالغاز على مدى 22 عاماً ضِمن صفقة

قيمتها 20 مليار دولار. والإحراج هنا بمعنى أن الخصوم لن يوجهوا له اللوم لأن التسهيلات الإيرانية أفضل بكثير من الشروط الروسية، فضلاً عن أن هنالك دراسة فنية تؤكد بأنه إذا كانت تركيا لن تحصل على الغاز الإيراني، وبسرعة، فإنها خلال أربع سنوات، أي مع نهاية القرن، ستغرق في الظلام. أما الإدارة الأميركية فلا يجب أن تعترض ما دامت لن تسدد هذه المليارات، وما دامت في الوقت نفسه لا تملك القدرة على أن تُقنع روسيا بتأمين الغاز لتركيا بشروط وتسهيلات أفضل من التي حصل عليها أربكان من إيران، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن روسيا لا تستطيع تلبية كل احتياجات تركيا من الغاز.

وأهمية الإتفاق مع إيران أنه لن يصمد إلاَّ إذا أتبعتْه تركيا بتحسين العلاقة بشكل جيد مع كل من العراق وليبيا. ذلك أن إتفاق الغاز يحتاج إلى المال، وليس في قدرة الخزينة التركية تحمُّل هذا العبء، إلاَّ إذا بدأ النفط العراقي يتدفق في الأنبوب التركي، وبحيث تحصل تركيا من هذا التدفق على ما يكفي لتغطية جزء كبير من مبلغ العشرين ملياراً، وإلاَّ إذا تطور ميزان التبادل التجاري مع ليبيا وسددت حكومتها مبالغ مترتبة عليها كديون لمقاولين أتراك. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بموجب الإتفاق الليبي – التركي، فإن حجم التبادل التجاري بين البلدين قد يصل إلى 700 مليون دولار. وإذا جاز القول، فإن تركيا ستسدد مبلغ العشرين مليار دولار على مدى 22 عاماً إلى إيران بأموال عراقية وليبية، فلماذا يجب أن تغضب الإدارة الأميركية ما دامت لن تدفع من خزينتها دولاراً واحداً؟ ومن أجْل هذه المكاسب فإن أربكان وجد نفسه مطالَباً بتسجيل حُسن النية والدعم المعنوي، وهذا تمثَّل في تصريحاته التي أدلى بها خلال زيارته إلى كل من إيران وليبيا، والتي لن تشكِّل مخاطر على موقف الإدارة الأميركية من النظاميْن الثوريْن في البلديْن. وعندما يدلي أربكان، وهو يزور البلديْن، بالتصريحات الودودة التي أدلى بها، فإنه يكون فعل الحد الأدنى الذي تمليه عليه إسلاميته، ولأن أي مواطن في البلدين كان سيقول ما هذا الرئيس الذي يترأس حزباً إسلامي التوجه في بلد مسلم، يجاري الولايات المتحدة التي تريد فرْض الحصار على هذا البلد المسلم أو عزْل ذلك البلد المسلم، الآخر. مع الأخذ في الإعتبار أن أربكان أدلى بالتصريحات الودودة – وأبرزها أن "ليبيا ضحية الإرهاب" – لأنه يريد مسْح الغبار الأميركي الذي تراكم على الوجه التركي، ثم أضيف إليه قبْل بضعة أشهر غبار إتفاق التعاون العسكري التركي – الإسرائيلي، والذي جاء في وقت تتعثر فيه العملية السلمية بين إسرائيل وبعض الدول العربية المعنية، ويحاول رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو تهويد القدس وإحلال هيكل سليمان محل المسجد الأقصى. ومن المعيب، في مثل هذه الأجواء، أن تتعاون تركيا عسكرياً مع إسرائيل، ومن الطبيعي ألاَّ يتقبل أحد الحجة التركية بأن طبيعة التعاون فنية، أي أنه تعاون بهدف تصليح وتعمير طائرات تركية على أيدي خبرات إسرائيلية. ومع أن التصريحات التي أدلى بها العقيد معمَّر القذَّافي، خلال مؤتمر صحافي جرى عقده في اليوم الأخير من زيارة أربكان إلى ليبيا، تبدو منسجمة مع تفكير الزعيم الليبي، ومع أسلوب تَعامله وإحتفائه بزواره، بمعنى أنه كان سيبدو مستغرَباً إلى حد كبير لو أنه لم يُدلِ بها، إلاَّ أن هذه التصريحات جاءت تشكِّل إحراجاً في غير وقته لرئيس وزراء تركيا، الذي يكفي أنه بزيارته إلى ليبيا إخترق الحصار الدولي، ومارس التحدي إلى النهاية، وزار ليبيا على رغم التحذيرات التي وصلت إلى حد أنها – أي التحذيرات – كانت بمثابة تهديدات، بدليل أنه ما أن عاد من جولته الإسلامية حتى بدأت المناداة بطرح الثقة بحكومته، وسبق ذلك استدعاء السفير التركي من طرابلس إلى أنقرة للتشاور.

واللافت للنظر هو أن أربكان أبدى، على رغم رد الفعل العاصف، لباقة تُحسب له، من أجْل ألاَّ يجعل النتائج التي تحققت من جولته تذروها رياح المعارضة التركية الضيقة الأفق، فقال عن تصريحات القذَّافي إنها بمثابة "رؤية فلسفية" أكثر منها موقفاً سياسياً، وهو قول يجعل القذَّافي يرتاح إليه، فيتولى بدوره التوضيح والتلطيف، على نحو ما فعله مع صديقه وحليفه الرئيس حسني مبارك، عندما قال أمام أساتذة الجامعات المصرية، خلال لقاء بهم على هامش زيارة إلى القاهرة سبقت القمة العربية الأخيرة ببضعة أيام، كلاماً عن الكويت، وساعدت خصوصية العلاقة المصرية – الكويتية، وبعض التفهم الكويتي، على تطويق أزمة كانت ستنفجر. وهذا ما حدث بالفعل، حيث إنه في الوقت الذي كان معارضو أربكان في تركيا ينشطون بدعم وإيحاءات مستترة من الإدارة الأميركية، كانت الخارجية الليبية تُصدر بياناً تقول فيه إن كلام القذَّافي بحضور أربكان عن الأكراد "أسيء

فهمه" وهو تعبير يتضمنه قاموس مفردات التعامل بين أهل القرار، ويتم استخدامه كصيغة هي أكثر من توضيح وأقل من نفي، وتكون عادة الصيغة التي تطفئ نيران أزمة إشتعلت أو أنها على أهبة الإشتعال.

ونأتي إلى ما قاله العقيد القذَّافي لنرى أن ما أشارت إليه وكالات الأنباء هو أن الرئيس الليبي قال بعدما جلس وإلى جانبه رئيس وزراء تركيا "إن إتفاق التعاون العسكري بين تركيا وإسرائيل يشكِّل خطراً على الأمة العربية وأمنها، ونحن نتحسر عندما نرى دولة مثل تركيا تؤيد الإحتلال الإسرائيلي، وهذه من الأشياء التي تجعلنا غير راضين عن سياسة تركيا الخارجية ومن ضمنها عضوية تركيا في منظمة حلف شمال الأطلسي الإستعمارية...". وقال أيضاً "إن من مصلحة تركيا العودة إلى حلفائها الطبيعيين العرب...". وقال أيضاً وأيضاً "أنا ضد التنكيل بالأكراد سواء كانوا في تركيا أو إيران أو العراق، وأن الأكراد يستحقون الإستقلال والأمة الكردية يجب أن تأخذ مكانها تحت الشمس في الشرق الأدنى...". وهذا الكلام للعقيد القذَّافي لا يشكِّل مفاجأة، لأن الزعيم الليبي يردده بإستمرار، وهو من نمط الحكام الذين لا يخفون قناعاتهم، حتى إذا تسبب التصريح عنها أو التلميح إليها في إحراج أقرب الأصدقاء إليهم. لكن المفاجأة هي أنه بدل أن يكتفي العقيد القذَّافي بإبلاغ ضيفه هذه المشاعر والتمنيات، وذلك خلال لقاء ثنائي لا يشترك فيه أعضاء من الجانبيْن (على نحو ما فعله الرئيس مبارك مثلاً وإلى حد ما الرئيس الإيراني هاشمي رافسنجاني مع أربكان)، وكان الضيف سيتحمله بالرضى أو بالمسايرة من أجْل المصلحة الإقتصادية والمالية. إنه بدل ذلك، قال العقيد القذَّافي ما قاله في مؤتمر صحافي وبحضور عشرات المراسلين وعلى مسمع كل أعضاء الوفد المرافق للضيف، بمن في ذلك صغار الموظفين والمرافقين والحراس الشخصيين، وبذلك تسبب للضيف التركي بإحراج كان لا يتوقعه (ولم يسببه لرئيسة الوزراء التركية السابقة تانسو تشيلر عندما زارت ليبيا عام 1994)، وإمتزجت حلاوة الإنجازات المالية والإتفاقات التجارية مع مرارة الملاحظات القذَّافية الخشنة. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن موقف أربكان من إسرائيل والولايات المتحدة ليس متقاطعاً تماماً مع نظرة العقيد القذَّافي، والأخذ في الإعتبار أيضاً أن الملاحظات القذَّافية في معظمها هي موضع رضى معظم القادة العرب، وبذلك يكون العقيد القذَّافي أثارها وسجلها على الملأ، ربما بإسمهم جميعاً.

ويبقى أن الملاحظات القذَّافية قد تُخرج زعيم حزب الرفاه، الذي قال عنه العقيد القذَّافي، المعروف بعدائه للأحزاب والحزبيين: "إن الرفاه هو الحزب التركي الوحيد الذي يريد ضم ماضي تركيا إلى حاضرها، وإني أشجع جميع المواطنين الأتراك على الإنضمام إلى الرفاه". وقد تحرجه إلى درجة أنها قد تخرجه من صيغة شراكة الحُكْم مع الطرف التركي الآخر الذي يتعاون مع إسرائيل على العرب. وفي هذه الحال سنجد أربكان العائد إلى مكانه القديم، كأقوى زعيم معارض، يردد في تصريحاته كلاماً ينسجم مع الكثير من رؤية العقيد القذَّافي لتركيا وما يجب أن تكون عليه طبيعة دورها الإيجابي في المنطقة، وأسلوب تَعاملها مع الجيران العرب المذهولين من تعاونها مع إسرائيل، وخصوصاً أنه تعاون عسكري يحدُث في وقت هنالك في الأفق بوادر مواجهة عربية – إسرائيلية جديدة، من أجْل تثبيت العملية السلمية المتعثرة لأسباب كثيرة من بينها، أن تركيا تتباعد كثيراً عن الجيران العرب وتواصل الإقتراب أكثر من إسرائيل، على رغم المخطط الليكودي الشرير بالنسبة إلى القدس والمسجد الأقصى. وجاءت الحقبة الأربكانية لتجعل المعادلة تستقيم بعض الشيء. لكن المهم أن تصمد قليلاً هذه الحقبة بعد شرارة العقيد القذَّافي التي أيقظت نوايا الأشرار داخل تركيا والمتربصين بأربكان. وفي حال تهاوي الحقبة فإن التعاون العسكري التركي – الإسرائيلي الذي كان فنياً سيصبح إستراتيجياً... وضد العرب والمسلمين على حد سواء.

صحيفة "الشرق الأوسط" – أكتوبر (تشرين الأول) 1996

* * *

مستشرق وفدائي بمرتبة رئيس دولة كبرى(موضوع واحد في مقالتيْن)

المقالة الأولى: الفرق بين زيارة نيكسون لمصر السادات وزيارة جاك شيراك لسوريا الأسد

يعيد الإستقبال الرسمي والشعبي المتميز الذي لقيه الرئيس الفرنسي جاك شيراك في دمشق (المحطة الأولى في جولة شملت سوريا وإسرائيل والأردن

والسُلطة الوطنية الفلسطينية ولبنان ومصر) يوم السبت 19 أكتوبر (تشرين الأول) 1996 إلى الأذهان الإستقبال المماثل الذي لقيه الرئيس الأميركي الأسبق نيكسون عندما زار القاهرة صيف 1974، أي في الفترة بين دخول الإنتصار المصري – السوري المشترك الذي تَحقق على إسرائيل في عنق زجاجة السلام إذا جاز التعبير وبين الخطوة اللاحقة الأكثر أهمية وخطورة في تاريخ المنطقة والمتمثلة بزيارة الرئيس السادات إلى القدس وفتْح باب عملية السلام على كل المفاجآت. وزيادة في التوضيح يمكن القول إن الرئيس السادات وجد أن وهج الإنتصار الذي تَحقق بفضل قرار الحرب التاريخي الذي إتخذه (حرب 6 أكتوبر/ تشرين الأول 1973) بات على أهبة أن يتبخر وهذا معناه أنه إذا كانت لن تحدُث نقلة أساسية ونوعية في إتجاه الحل السلمي فإن الوضع سيبقى يراوح مكانه سنوات طويلة، وذلك لإستحالة العودة إلى تجربة الحرب مرة أُخرى. ومثْل هذا الأمر لا يمكن أن تتحمله مصر التي كان وضعها الإقتصادي في غاية السوء. ولقد أراد الرئيس السادات من إحاطة زيارة الرئيس نيكسون بحفاوة لم تحدُث في تاريخ الزيارات الرسمية إلى مصر أن يرفع من معنويات الرئيس الزائر الذي كان يعيش زمنذاك تحت وطأة فضيحة "ووترغيت" حيث تجسس الحزب الجمهوري (الذي يمثله نيكسون) على الحزب الديمقراطي فإهتزت سمعة نيكسون أيما إهتزاز. وكان تقدير السادات أنه إذا إرتفعت معنويات الرئيس نيكسون فإنه قد يصبح أكثر قدرة على رعاية حل سلمي يُخرج مصر من المأزق الإقتصادي الذي تعيشه والذي لا حل له ما دام لم يحدُث توظيف مادي وسياسي للإنتصار الذي تَحقق وإقتصر أمر التوظيف على الناحية المعنوية. ولقد أصيب الرئيس نيكسون بما يشبه الذهول وهو يرى هذه الحفاوة الرسمية والشعبية بزيارته وكيف أن المصريين إنقلبوا من شعب ربَّته حكوماته منذ الستينات على كراهية أميركا إلى شعب يرقص في الشوارع ترحيباً بمقْدم نيكسون (أول رئيس أميركي يزور مصر) ويهتف بحياة أميركا أمام موكب الرئيسيْن السادات ونيكسون عند إختراقه شوارع القاهرة أو على جانبيْ خط السكة الحديدية بين القاهرة والإسكندرية حيث أن الرئيس السادات خصص قطاراً رئاسياً لضيفه وأراد من خلال رحلة القطار هذه أن يريه مدى تعلُّق الفلاحين المصريين به ومدى توقهم – وهم ورقة عبد الناصر التاريخية – إلى أن تنشأ بين رئيس بلدهم ورئيس أميركا علاقة وثيقة.

وإلى ذلك إن الرئيس السادات قد يكون أراد من الإستقبال التاريخي أن يسجل في تاريخ التعامل المصري – الأميركي المستجَد أن مفتاح دخول أميركا إلى العالم العربي الجديد (وما نقصده بالجديد هو ما بعد الإنتصار على إسرائيل في حرب أكتوبر (تشرين الأول) 1973) هو بيد مصر وأنه بقدْر ما تتفهم الإدارة الأميركية ظروف مصر وأمانيها ومكانتها وإحتياجاتها بالقدْر نفسه ستجد أميركا في البلد العربي الأول مجداً لا تجاريه أمجاد، وستجد أيضاً مواقع إستراتيجية لا توازيها من حيث الأهمية مواقع أُخرى.

ولأن الرئيس السادات زمنذاك كان ما زال في ذروة شأنه السياسي داخلياً وعربياً بسبب الإنتصار الذي تَحقق في الحرب فإن الرئيس نيكسون إستوعب تماماً الرسالة التي وجَّهها الرئيس المصري من خلال الحفاوة والإستقبال التاريخي الشعبي والرسمي، وتم وضْع مصر كدولة ثانية على يمين الإدارة الأميركية بصرف النظر عمن يترأس هذه الإدارة. أما الدولة الأولى فكانت إسرائيل وهو ما إرتضاه الرئيس السادات على رغم أنه كان يتطلع إلى أن يكون وتكون مصر التي يقودها وحدها على يمين الإدارة أو تكون (أي إسرائيل) بعد مصر، أو في صيغة أُخرى تكون إحدى الدولتين مصر وإسرائيل إلى اليمين والأُخرى إلى اليسار.

وغرض السادات من ذلك هو أن تتكرس معادلة جديدة في المنطقة تقوم على أنه إذا كانت إسرائيل هي الذراع اليمنى للولايات المتحدة في الشرق الأوسط فإن مصر هي الذراع اليسرى. ولقد إستعجل السادات الخطى لتحقيق هذه المعادلة فكانت خطوته الصاعقة والمتمثلة بزيارة القدس ثم الصلح مع إسرائيل تحت رعاية الإدارة الأميركية الجديدة برئاسة جيمي كارتر الذي كان عرَّاب إتفاقية كامب ديفيد بين السادات ومناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل. ومن المؤكد أن السادات كان سيواصل السعي لتحقيق تطلعاته التي أشرنا إليها بحيث تأخذ مصر مكان إسرائيل على يمين الإدارة الأميركية أو تكون وحدها على يسار تلك الإدارة لولا أن الأمور تسارعت فكانت حادثة المنصة في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم 6 أكتوبر/ تشرين الأول 1981 حيث جرى إغتياله وهو يحتفل بالذكرى الثامنة للإنتصار الذي تحقق تحت قيادته. وفي السنوات الخمس عشرة التي تلت الإغتيال

تعيش مصـــر ظروفاً كثيرة التعقيد. فهي ليســت إلى يمين الإدارة الأميركية ولا حتى إلى يسارها وذلك نتيجة أن الرئيس حســني مبارك صــاحب رؤية للمصــير وللمستقبل لا تتطابق تماماً مع الرؤية التي كانت لدى سلفه الرئيس السادات.

وبمقتضـــى هذه الرؤية فإن الرئيس مبارك يحاول الإبقاء على العلاقة متوازنة مع الولايات المتحدة وفي الوقت نفســه لا يتحمل أن تكون مصــر مجرد دولة محسوبة على أميركا أو مجرد جرم يدور في الفضاء الأميركي، ومن أجْل ذلك تحدُث بين الحين والآخر تصـــادمات وتقاطعات وتحدُث أيضـــاً في بعض المناسبات تناقضات على جانب من الحدة. ويصعب التكهن في المصير الذي سترسو عليه هذه العلاقة التي وضع الرئيس السادات الحجر الأساس لها خلال الزيارة التاريخية للرئيس نيكســون والتي كانت فاتحة زيارات أخرى قام بها رؤســاء أميركا اللاحقون، كارتر وجورج بوش وبيل كلينتون (الرئيس رونالد ريغان لم يقم بزيارة)، من دون أن يحظى أي منهم بإســتقبال تاريخي على المســتويْن الرســمي والشــعبي كمِثْل الإســتقبال الذي نظمه الرئيس الســادات للرئيس نيكســون. لكن ما يمكن قوله في إنتظار تبلور ملامح الوضــع الذي سترسو عليه العلاقة هو أن البداية لم تكن متأنية ذلك أن الســادات قرر فتْح أبواب مصــر أمام رئيس بدأت الأبواب داخل بلده تقفَل في وجهه وتتكاثر الدعوات إليه لمغادرة البيت الأبيض. وعندما تبدأ العلاقة غير متكافئة فإنها مع الأسف تستمر غير متوازنة. أما مســألة إلغاء ديون فإنه مكســب ما زال حتى الآن لمصلحة الولايات المتحدة ذلك أنها استمرت حتى الأمس القريب تستعمل سلاح الديون والمساعدات للضــغط على القرار الســياســي المصــري. وفي الوقت نفســه إســتمرت إســرائيل على مكانها ومكانتها على يمين الإدارة الأميركية.

وما فات أن يتنبه له الرئيس الســادات صــيف عام 1974 عندما أجرى للرئيس نيكســون ذلك الإســتقبال التاريخي بترتيب مع وزير الخارجية الأميركية زمنذاك هنري كيســـينجر كان واعياً له تماماً الرئيس حافظ الأســد وهو يوجه بإجراء هذا الإســتقبال الشــعبي والرسمي الكثير التميز للرئيس الفرنسي جاك شيراك. فالتمهيد للزيارة إســتغرق بضــعة أشــهر وتولاه لاعب ســياســي ماهر هو عبد الحليم خدَّام نائب الرئيس السوري ومنسق مخلص للرئيسيْن ويتساوى إخلاصه للإثنين هو رفيق الحريري رئيس الحكومة اللبنانية، ولم تتم على نحو ما حدَث بالنسبة إلى زيارة نيكسون إلى مصـــر حيث كانت عبارة عن عملية علاقات عامة زرع فكرتها وتولى تصـــميمها كيســـينجر مع الرئيس الســـادات، ولم تطبخ على نار هادئة، كما أنه فات الســـادات قراءة الموقف بتأن أي بما معناه أنه إلتقط إقتراح الزيارة من كيســـينجر وبات همه الإســـراع في التنفيذ، وذلك خشية أن تتسارع التطورات الداخلية في الولايات المتحدة الناشــئة عن فضــيحة ووترغيت ولا يســتطيع الرئيس نيكســون القيام بالزيارة. أما بالنسبة إلى الرئيس الأســد فإنه أمضــى الوقت الطويل يتأمل في أمر زيارة الرئيس شــيراك وما يمكن أن يكون مردودها وكيف يمكن تحويل نتائجها إلى أداة ضــغط على الإدارة الأميركية من دون أن يكون هنالك إغلاق الباب أمام المســعى الأميركي على رغم إنحياز هذا المســعى. ولا بد أنه تأمل طويلاً في تطلعات الرئيس شيراك وكان تأمُّله من موقع أنه رئيس الدولة التي من دونها لا يستطيع رئيس فرنسا أن يحقق شيئاً من تلك التطلعات. وما نقصده بالتطلعات هو أن يكون لفرنسا دور في تنشيط عملية السلام ثم في ترتيب أوضاع منطقة الشرق الأوسط في مرحلة ما بعد إنجاز عملية السلام. كذلك لا بد أن الرئيس الأسد تأمَّل طويلاً في أمر على جانب كبير من الأهمية وهو أن يتغلب المردود الســياســي على المردود المالي والتجاري والإقتصـــادي للزيارة، أي بما معناه لا تنتهي الزيارة بالإعلان عن تقديم مســاعدات أو إعفاء ديون على نحو ما درجت عليه نتائج الزيارات الأميركية – المصرية المتبادلة، وإنما تكون هنالك خطوات سياسية تصل إلى مرتبة الإنجاز الاستراتيجي. وهذا ما حققته الزيارة.

وللحديث بقية عن جولة المستشرق الجديد جاك شيراك والذي هو في الوقت نفســه فدائي عندما يقوم بالجولة التي قام بها ويدلي بالتصـــريحات التي أدلى بها في كل محطات الجولة. ولم يحدُث من قبْل أن كان المستشرق والفدائي... بمرتبة رئيس دولة كبرى.

* * *

□ المقالة الثانية: أخيراً... سند كاثوليكي للقدس وسند نووي للمسالمة العربية

يتميز تعبير الفرنســي عندما يغضــب من أحد أو يســتفزه أحد عن غيره من ســائر البشــر. ولا بد أن كثيرين لاحظوا ملامح وجه الرئيس جاك شــيراك

وتعابيره عندما وجد نفسه محاصَراً من رجال الأمن الإسرائيليين الذين أزعجوه بحجة تأمين الحماية له عندما قام بجولة في القدس الشرقية يوم الثلاثاء 22 أكتوبر (تشرين الأول) 1996. وقد إنفجر فيهم وهو أمام كنيسة فرنسية ثم أمام الحرم الشريف غاضباً قائلاً بالإنكليزية "لا أريدكم. أُغربوا عني. لا شأن لكم هنا. هل تريدون أن أرجع إلى طائرتي وأعود إلى بلادي...". وخيراً فعل الرئيس الفرنسي بتعبيره بالإنكليزية عن غضبه حيث أن الوقفة الإحتجاجية وصلت إلى كل دول العالم بالصوت والصورة واللغة المشترَكة.

وإذا جاز للمرء أن يفترض فإن زيارة الرئيس شيراك إلى إسرائيل هي أنجح المحطات في جولته لأنها حسمت أمراً بالغ الأهمية وهو أن إسرائيل – الليكودية بالذات التي يقودها نتنياهو – لا تريد لفرصة السلام أن تصل إلى بر الأمان ولا تريد لصيغة الحل التي إتفقت عليها الإرادة الدولية أن تنفَّذ. ومثْل هذه الحقيقة كانت تحتاج إلى شاهد إثبات يراها على الطبيعة وكان هذا الشاهد هو رئيس دولة كبرى لا يستطيع الإسرائيليون أن يقولوا إنها لم تقف معهم في مرحلة إغتصاب الحق الفلسطيني في الخمسينات ثم في مرحلة بناء القوة العسكرية المتمكنة في الستينات، ووصل الوقوف إلى حد المشاركة في عدوان على الدولة العربية الكبرى (مصر) عام 1956. والفرق كبير جداً لو أن هذا الشاهد كان على سبيل المثال رئيس الصين أو رئيس روسيا فكلاهما تاريخياً ليسا من الأهل مثل رئيس فرنسا الذي هو شاهد من أهله مع الأخذ في الإعتبار أننا نتحدث هنا عن الدولة وليس عن الأشخاص، خصوصاً أن التباين كبير جداً بين مواقف الذين تعاقبوا على الحُكْم في فرنسا إزاء إسرائيل.

وهذه المحاصرة الأمنية من قِبَل الإسرائيليين للرئيس شيراك كانت مدعاة للاستغراب. فإذا كان الأمن الإسرائيلي لم يؤمِّن الحماية لرئيس الوزراء (الأسبق) إسحق رابين الذي جرى إغتياله على النحو الذي سبق أن جرى فيه إغتيال الرئيس المصري الأسبق أنور السادات، فكيف سيؤمِّن هذه الحماية لرئيس فرنسا الذي جاء إلى إسرائيل من دمشق يطالب بتسهيل قيام الدولة الفلسطينية والإنسحابات من الجولان وجنوب لبنان؟ أما إذا كانت هذه المحاصرة من رجال الأمن الإسرائيليين للرئيس شيراك هدفها الإيحاء بأن إسرائيل تخاف عليه من "الإرهاب" الفلسطيني فإن الرد على ذلك جاء من الإستقبال العفوي الآخر الذي جرى له من الفلسطينيين في أراضي سلطتهم الوطنية حيث إن زيارته وحَّدت الفلسطينيين في موضوع الإستقبال فلم يعد من الممكن التفريق بين جماهير صيغة أوسلو والجماهير المعترضة عليها سواء كانوا من "حماس" أو "الجهاد الإسلامي" أو بقية الفصائل الفلسطينية المعارضة. وكيف لن يحدث مثل هذا التوحد بعدما جرى للرئيس شيراك في سوريا القلعة السياسية والإعلامية للقيادات الفلسطينية المعترضة، ذلك الإستقبال التاريخي؟ ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن ما هو معروف عن الإستقبالات التي تتم في دول العالم الثالث للزوار الأجانب – وأحياناً الزوار الأصدقاء أو الأشقاء – أنها إستقبالات منظمة تنظيماً دقيقاً إلاَّ أن الإستقبال الذي جرى في دمشق للرئيس شيراك كان من العفوية بمكان وإلى حد أن هذه العفوية كانت ظاهرة وبوضوح على وجوه المستقبلين من الرسميين والناس العاديين. وقد تكون هذه العفوية هي التي جعلت الرئيس شيراك يقول بالصوت العالي ما كان يتوقع الإسرائيليون أن يقوله لهم في جلسة محادثات مغلقة مع نتنياهو وبقية المسؤولين الإسرائيليين. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الإستقبال المتميز للرئيس شيراك في دمشق كان دعوة إليه لكي يقوم بدور وإن دعوته وبالصوت العالي أمام عدسات الإعلاميين وميكروفوناتهم قبْل وصوله إلى إسرائيل وخلال زيارته العاصفة لها إلى ضرورة قيام الدولة الفلسطينية "لأنها ضمان وحيد للأمن" وإلى الإنسحابات من الجولان وجنوب لبنان، هي بمثابة الإعلان بقبوله القيام بذلك الدور، أما التصرفات والتصريحات الإسرائيلية من رئيس الدولة وايزمان وإصراره على الترحيب بالرئيس شيراك "في القدس عاصمة بلادنا" إلى رئيس الوزراء نتنياهو ورفْضه لفكرة دور لفرنسا إلى جانب الدور الأميركي من خلال قوله "سأكون شديد الحرص قبْل أن أُشرك المزيد من الطهاة في صُنْع الحساء..." إلى قول "الجيروزاليم بوست" الصحيفة التي تعبِّر عن أفكار الحكومة "إذا كانت هناك دولة نزعت عن نفسها الأهلية للقيام بدور الوسيط النزيه فهذه الدولة هي فرنسا وأن الرئيس شيراك الذي يريد أن يكون وسيطاً هو متحيز أظهر تأييداً كبيراً للدول الإرهابية في المنطقة"... أما التصرفات والتصريحات الإسرائيلية التي نشير هنا إلى بعضها والتي تكاثرت سواء في تل

أبيب أو في بعض الصحف الأميركية الواقعة تحت تأثير النفوذ الصهيوني، فإنها كانت إعلاناً أولياً وبالصوت العالي أيضاً بأن إسرائيل ترفض الدور الفرنسي. وهي ترفضه على رغم قول شيراك وبالصوت العالي أيضاً للإسرائيليين "إنني صديق لكم جاءكم في وقت تمر فيه منطقتكم بفترة صعبة...". كذلك إنها ترفض هذا الدور من قبْل أن يستمع نتنياهو إلى الرئيس الزائر يشرح له ما استنتجه من لقائه مع الرئيس حافظ الأسد أو ربما ينقل إليه رؤية سورية مرنة للحل قد تشجعه على تغيير أسلوبه وتعديل مفاهيمه للعملية السلمية. والذي يثير التعجب أن المسعى الفرنسي هو من النوع الذي يستطيع إخراج نتنياهو من دائرة الرفض التي وضع نفسه فيها وبات يحتاج إلى جهة حريصة على أمن إسرائيل لإخراجه من هذه الدائرة. وهو لو كان من العاقلين لإعتبر مسعى الرئيس شيراك بأنه فرصة العمر التي لا تعوَّض والتي هي خشبة الإنقاذ لهيبته التي عمل بنفسه على تشويهها. لكنه لأمر يصعب تشخيصه يواصل السير في إتجاه رفْض المساعي العاقلة. والمسعى الذي يبذله الرئيس شيراك يذكّرنا بالمسعى المماثل الذي سبق أن بذله الرئيس السابق (الراحل) فرنسوا ميتران للحيلولة دون بدء دول التحالف بقيادة الولايات المتحدة الحرب على العراق لتحرير الكويت وتَمثَّل بمبادرة من النوع الذي يحفظ إلى حد كبير أو معقول ماء الوجه قدمتْها فرنسا إلى مجلس الأمن يوم الثلاثاء 15 يناير (كانون الثاني) 1991 فلم يتجاوب معها الحُكْم العراقي وبعد يومين بدأت "عاصفة الصحراء" وكان الذي كان للعراق ولا يزال.

ويصعب التكهن في ما إذا كان نتنياهو يرفض المسعى الفرنسي لأن الولايات المتحدة لا تحبذه أو أنه يرفضه كي لا تجد الإدارة الأميركية الحالية أو الإدارة الجمهورية المقبلة – في حال فوز بوب دول – أن من الأنسب التعامل مع هذا المسعى بروح إيجابية. ويستغرب المرء أن تكون الإدارة الأميركية لا تساند هذا المسعى ذلك أنه يفيدها مثلما يفيد نتنياهو لو أنه رحب به ومثلما أن مسعى ميتران من خلال المبادرة التي أشرنا إليها كان يمكن أن يبعد شر الحرب عن العراق لو أن الرئيس صدَّام حسين إلتقط الفكرة ورحب بصدورها وتمسَّك بها. وما نقصده بإفادة مسعى الرئيس شيراك ومسعى سلفه الرئيس ميتران من قبْل هو ما يتعلق بحفظ ماء الوجه. وبالنسبة إلى الإدارة الأميركية الحالية فإنها في أشد الحاجة إلى اللحظة التي تنقذ فيها سمعتها التي وصلت إلى ما قبْل الحضيض بقليل في أوساط العرب والمسلمين نتيجة مساندتها للحُكْم الليكودي الذي يقوده نتنياهو في إتجاه تدمير كل ما حققتْه أميركا للتسوية السلمية للصراع العربي – الإسرائيلي. وعندما ترفض الإدارة الأميركية المسعى الفرنسي على رغم كل التطمينات الفرنسية والعربية وفي مقدمتها التطمينات التي صدرت شخصياً عن الرؤساء شيراك ومبارك والأسد وعرفات فهذا معناه أنها لا تريد ما يحفظ لها ماء الوجه وتمارس المعاندة بالأسلوب الليكودي وبالأسلوب العراقي من قبْل.

ومن المؤكد أن الدول العربية كانت ستشعر بالكثير من الإرتياح لو أن الإدارة الأميركية تعاملت بروح إيجابية مع المسعى الفرنسي لأن ذلك يقلل من إحراجات لبعضها محتملة الحدوث. أما وإن هذا التعامل لم يحدُث فإن الخشية من مواجهة أميركية – فرنسية تبقى مشروعة، وفي مثل هذه الحال فإن مزيداً من التأخير لعملية السلام سيحدُث وكثيراً من التشابكات والتعقيدات ستقتحم الإنجازات التي تحققت حتى الآن. وقد يكون هذا الأمر هو الذي ينشده نتنياهو. وفي مخططه الكيسينجري الإيحاء والروحية أنه كلما تأخر حسْم عملية السلام إرتبك الصف العربي ونضُب زيت المقاومة لإسرائيل. ولكن إلتفافاً عربياً حول المسعى الفرنسي وتطوير المسعى لكي يصبح دوراً أوروبياً من شأنه أن يشكِّل الرد المطلوب. ونقول ذلك على أساس أن ما حققه الرئيس شيراك بفضل مسعاه هو أنه بات أخيراً للمسالمة العربية وللمسالمين من أهل القرار العربي سند دولي نووي. وأهمية هذا السند أنه طموح من أجْل أن يكون له حضوره في المنطقة، وقد أثبتت الجولة ترحيب الدول التي زارها – عدا إسرائيل – بهذا الطموح لأن فرنسا هي الركن الأساسي في القارة الأوروبية ولأن لديها كل ما يطلبه العرب من الكولونيا إلى القنبلة الذرية، ولأن حال فرنسا مثل حال العرب منزعجة من الهيمنة الأميركية. وبالنسبة إلى القدس التي باتت قضية القضايا بعد أن إختار القادة العرب في القمة الأخيرة في القاهرة وبما يشبه الإجماع السلام مع إسرائيل وإرتضت القيادة الفلسطينية أن تكون لها سُلطة ثم دولة كبديل عن الوطن، فإن قوة السند هي في كونه الدولة الكاثوليكية الأولى والأقوى وهو أمر مهم ما دام البحث حول القدس كان دائماً يفتقد المؤازرة الكاثوليكية

الفعالة. ومن الطبيعي أن النظرة الكاثوليكية والأرثوذكسية إلى موضوع القدس أكثر حرارة من النظرة البروتستانتية أي نظرة الإدارة الأميركية وإلى حد كبير نظرة بريطانيا. أي بكلام آخر إن النظرتيْن الكاثوليكية والأرثوذكسية إلى موضوع القدس قريبتا الشبه بالنظرة العربية والإسلامية.

ويبقى أنه على رغم أن الرئيس شيراك في موقفه الذي إتخذه يجدد ثوابت وَضَعَ أساسها الجنرال ديغول وبنى الرئيس السابق فرانسوا ميتران موقفاً على ذاك الأساس، إلاَّ أن أهمية المسعى الذي يقوم به أنه يتم بعدما طرحت الولايات المتحدة نفسها كزعيمة وحيدة لما يسمى النظام العالمي الجديد وتجد في أي مسعى من نوع المسعى الفرنسي الجديد إقلاقاً للزعامة المشار إليها وتحريضاً مستتراً للأوروبيين للتمرد على تلك الزعامة. ومن أجْل ذلك فإنه عندما يحاول الرئيس شيراك أن يوضح بعقلية المستشرق الباحث عن الحقيقة والساعي إلى الحق معاناة المنطقة العربية فإننا نخشى عليه من الولايات المتحدة ومن إسرائيل. ولكن هذا السعي هو ضرورة لدور شاء القدَر لفرنسا أن تلعبه. وكان هذا الدور ينتظر الظروف فتوافرت منذ ثلاثة أشهر وكانت الظروف تحتاج إلى اللاعب فكان الرئيس جاك شيراك الذي ونحن نتمنى له إجتياز الكمائن والألغام وصولاً إلى النجاح الكامل ألاَّ يصبح أسطورة إسمها.. جاك دارك.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 4 نوفمبر(ت2) 1996

* * *

الحيوية غلبت الحكمة

لأن الولايات المتحدة كدولة عظمى موجودة في شكل أو آخر في القرار السياسي لمعظم دول العالم، أو أنها أحد أسباب الأزمات التي تعانيها دول كثيرة في العالم، فإنه من الطبيعي عندما تُجرى إنتخابات رئاسية في الولايات المتحدة ألاَّ يقتصر الإهتمام بها على المواطن الأميركي وعلى الناخب الأميركي، وإنما هنالك دول كثيرة على إمتداد القارات الخمس تجد نفسها تتابع بإهتمام العملية الإنتخابية وترصد من خلال المؤسسات وأهل القرار في هذه الدول تطورات المعركة وطبيعة التنافس بين الطامحين في الفوز بمنصب رئيس الولايات المتحدة، الذي هو كذلك يجد سياسيون وإقتصادهيون ومثقفون ومواطنون عاديون في بعض هذه الدول، أنفسهم يتحزبون، بحيث يكون هنالك الديمقراطي وهنالك الجمهوري وهنالك الحائر بين الحماسة للديمقراطي وتمنياته في أن يفوز الجمهوري أو العكس.

ومثْل هذه الحالة تقتصر على الولايات المتحدة دون غيرها. وبالنسبة إلينا كعرب فإن الولايات المتحدة هي السبب في تعطيل قرارات يمكن أن تنقذ شعوباً من معاناة الحصار، على نحو ما هو حاصل منذ ست سنوات مع الشعب في العراق والشعب في ليبيا، وهي السبب في تعطيل الإرادة العربية عندما يقرر أهل القرار في العالم العربي إعادة ترتيب شؤون بيتهم الذي داهمته العاصفة الدولية، وهي وراء هذا الذي تقوم به إسرائيل من عربدة، أحياناً ساخنة وأحياناً باردة، في المنطقة، وهي بأكثر من وسيلة تمكنت من وضْع اليد بالكامل على الأمم المتحدة التي كانت المنظمة الدولية، التي يشكو إليها العرب حالهم ويجدون، قبْل أن يتم وضْع اليد، مَن يستمع إلى شكواهم ومَن يناصرهم ولو معنوياً.

وفي ضوء الحالة العربية المشار إليها فإن أهل القرار العربي كانوا مهتمين ومهمومين بإنتخابات الرئاسة الأميركية. وكانوا إذا جاز القول ديمقراطيي الميول في شكل عام، يريدون للرئيس بيل كلينتون أن يجدد الولاية أربع سنوات أُخرى، إلاَّ أنهم في الوقت نفسه كانوا يتمنون له فوزاً متواضعاً، خشية أن يستبد به التشاوف عليهم ويزداد إمعاناً في تجاوز خطوط يحرصون على ألاَّ يتجاوزها الصديق الأميركي. ولقد جاء الفوز على نحو ما يريدون ويريد كثيرون من أهل القرار في دول العالم، حيث أنه لم يتخط حاجز الخمسين في المائة، فضلاً عن أن السُلطة التشريعية جاءت للجمهوريين. أي بكلام آخر إن فوز كلينتون جاء على نحو فوز السُلطة التشريعية جاءت للجمهوريين. أي بكلام آخر إن فوز كلينتون جاء على نحو فوز بنيامين نتنياهو في الإنتخابات الإسرائيلية قبْل حوالى أربعة أشهر وفوز جاك شيراك ثم بوريس يلتسين من قبْل. وكأنما هذا الزمن ليس زمن الإنتصارات البراقة، ربما خشية أن تدير مثل هذه الإنتصارات رؤوس الفائزين فتزداد أحوال العالم إضطراباً عما هي عليه.

ومع أن فوز كلينتون لم يأتِ براقاً وأظهرت النتائج

أن رئيس الولايات المتحدة لا يحوز ثقة أكثر من نصف الذين إقترعوا، إلاَّ أنه في أي حال إنتصار مهم إقتضته أصول اللعبة الديمقراطية التي ألحقت الأذى لمرتيْن متتاليتيْن بالجمهوريين الذين إفترضوا أن مواجهة المراهقة الديمقراطية، أي حُكْم كلينتون إبن الخمسين، بالنضوج الجمهوري، أي بوب دول إبن الثالثة والسبعين، هي الأسلوب الذي يحقق نتيجة طيبة من دون أن يأخذ هؤلاء في الإعتبار الذي جرى للسبعيني الآخر جورج بوش الذي هزمه كلينتون في إنتخابات 1992 مع أنه كان خارجاً من الحرب على العراق بمكاسب لم تحصل على مثْلها الولايات المتحدة من قبْل، وكان في سدة الرئاسة عندما جرت الإنتخابات، على نحو ما هي حال كلينتون. ويصعب على المرء تفسير الإختيار الجمهوري لمَن يخوض المعركة وكيف أنه إستعصى على الحزب إختيار مَن هو أكثر شباباً من روبرت دول الذي حاول أن يتدارك الأمر في وقت متأخر عندما إختار نجماً كان ذائع الصيت في عالم الرياضة ليساند له شيخوخته، لكن جاك كمب أخذ من رئيسه بوب دول أكثر مما أعطاه. ومن الجائز الإفتراض أن مرشحاً جمهورياً في عمر كلينتون وحكمة بوب دول كان من شأنه أن يحقق ما كان يتطلع إليه الجمهوريون، وهو الفوز بالرئاسة. ولكن يبدو أن أن جمْع الحكمة والسن الشبابية في شخص واحد ليس بالأمر السهل. ومع أننا كعرب، عانينا الكثير من المراهقة السياسية من حكام يمارسون الحُكْم بأسلوب تطغى فيه شهوة الحُكْم والسُلطة وحُب الذات على مصلحة حُب الوطن والشعب، نحتاج إلى أهل الحكمة لكي يكونوا في موقع القيادة، إلاّ أنه بالنسبة إلى الإنتخابات الأميركية وجد بعض أهل القرار العربي أنفسهم يفضلون مراهقة كلينتون على حكمة روبرت دول، بعد الذي صدر عن الثاني من تصريحات وموقف ازاء القدس والدولة الفلسطينية أصابتنا بصدمة تختلف في قساوتها عن سائر الصدمات – وما أكثرها وأشدها إيلاماً – التي جاءتنا من الإدارة الأميركية وبالذات بعدما بدأت تلك الإدارة وعلى لسان الرئيس السابق جورج بوش تنادي بفكرة النظام العالمي الجديد وتقوم بالتبشير له وإخضاع دول العالم للإنتساب طوعاً أو بالإكراه إليه، وكأنما هو من وجهة نظر الذين صاغوا حيثياته وأهدافه رسالة دنيوية، أو أنه – تبعاً لتعامل الإدارة الأميركية – ديانة رابعة، (نستغفر الله من قول ذلك) يجب أن تسود على الأرض. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن الرئيس بيل كلينتون (الأول) تعامل مع الفكرة وكأنما هي فكرته ومضى فيها بعيداً وبذلك كان مزايداً على الجمهوريين أصحاب براءة ذلك "الإختراع" وأن الرئيس بيل كلينتون (الثاني) الذي فاز يوم الأربعاء الماضي (6 نوفمبر/ تشرين الثاني 1996) بالرئاسة لأربع سنوات أُخرى سيتمسك في ولايته الثانية بالفكرة أكثر وأكثر. وعند التأمل في ما فعله الرئيس كلينتون أزاء موضوع العملية السلمية في الشرق الأوسط وكيف أنه هو وراء الموقف الإسرائيلي المتعنت والمسيء إلى الكرامة العربية، وما كان يمكن أن يفعله بوب دول بالقدس وفكرة الدولة الفلسطينية إستناداً إلى التصريحات والوعود وآخرها عندما زاره نتنياهو قبل بضعة أسابيع بعدما كان إجتمع بالرئيس كلينتون... إننا عند التأمل والمفاضلة نجد أن الرئيس كلينتون، (هدياً بالسابقة التي بدأها سلفه الديمقراطي جيمي كارتر صاحب الصفقة الشهيرة – المعروفة بـ "إتفاقية كامب ديفيد" – بين الرئيس الراحل أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل الراحل مناحيم بيغن)، كان وما زال، وحتى إشعار آخر، مع فكرة إسرائيل الأكثر كثيراً من المتوسطة، بمعنى أن الدولة الفلسطينية يجب أن تقام وأن القدس عاصمة الديانات الثلاث وربما في جزئها الشرقي عاصمة الدولة الفلسطينية، في حين أن باب دول، إستناداً إلى ما أدلى به من تصريحات وما سجله من مواقف، هو مع إسرائيل الأقل قليلاً من الكبرى، بمعنى أن للفلسطينيين حكماً ذاتياً وليس دولة وأن القدس عاصمة موحدة لإسرائيل وأن التفوق العسكري والإقتصادي هو لإسرائيل وليس للجيران العرب. ومن الطبيعي في ضوء ذلك أن يكون العرب مع المراهقة السياسية بشخص كلينتون وليسوا مع الحكمة بشخص بوب دول، وإن كان ثمة من يعتقد أن بوب دول كان سيعود لو فاز عما تعهَّد أو صرح به لأن "النظرية الجمهورية" أدرى بمصالح الولايات المتحدة مع العالم العربي من "النظرية الديمقراطية".

ويبقى أن أموراً كثيرة في المنطقة العربية خضعت للتجميد في إنتظار أن تنتهي إنتخابات الرئاسة الأميركية. وحتى الحديث حول المواجهة السورية – الإسرائيلية وإحتمال حصولها، والحديث حول تجدد الإنتفاضة إحتجاجاً على نفق الأقصى

الـذي لم يغلقـه نتنيـاهو والحـديـث حول القمـة الإقتصـادية في القاهرة وغضـب مصـر وإحتمال عدم عقْدها... حتى الحديث حول هذه الأمور، وغيرها كثير، تجمَّد في إنتظـار أن تنتهي المعركـة وينجلي غبارها. ومن حق الرئيس حافظ الأســـد، والرئيس حســـني مبارك المؤازر له، وأيضـــاً من حق الرئيس صـــدَّام حســـين وكذلك ياســـر عرفات والمعارضـــة الفلســـطينية الجهادية، من حق هؤلاء مطالبة بيل كلينتون الثاني بتســديد فواتير هذه المواقف التي كان في إستطاعة موقف واحد يتم تفجيره أن يربك العملية الإنتخـابيـة ولمصـــلحـة بوب دول. وليس الرئيس كلينتون جـديـداً على البيـت الأبيض لكي يقول في معرض التملص أو التبرير إن على الأطراف العربية أن تعطيه فرصـــة ووقتاً كافياً لترتيب أمور ولايته الثانية. فهو رئيس مســـتمر والملفات مـا زالـت في مكانها تنتظر من الرئيس الجديد – القديم أن يحســم الأمر ويســارع في الحســم خشــية أن يقتحم نتنياهو البيت الأبيض ويهدد مع المهددين من الجمهوريين الرئيس المنتشي بالنصر بفتح كل الملفات الشخصية والجنســـية والمالية، التي تزعجه، وإلى درجة تجعله يتعرض لما ســـبق أن تعرَّض لـه الرئيس (الراحل) نيكسون عندما لم يهنأ له الحُكْم واضطروه للإستقالة على نحو ما حدث في بريطانيا للســـيدة مارغريت تاتشر التي إستقالوها وهي، مثل الرئيس نيكسون، في النصـف الأول من السـبعينات ومثل الرئيس كلينتون، بعد فوزه الثاني، وفي ذروة نشوة الإنتصار والتألق.

وخلاصـــــة القول إن الحيويـة التي يتمتع بهـا كلينتون تغلبت على الحكمة التي يتسم بها بوب دول وأن الســـلام العربي – الإســـرائيلي بهدف قيام كيان فلسطيني إلى جانب إسرائيل، أكثر من صـغرى وأقل من كبرى، هو المؤمَّل أن يتم إنجـازه بعـد مفـاجـأة خســارة بوب دول وقبْل مفاجأة قد تحدُث خلال العام 1997–1998 ومؤداهـا أن الأميركـان الـذين حققوا للرئيس كلينتون حلم تجديد الولاية هم أنفســـهم الذين قد يقيلونه بعد بضـعة أشـهر من الفوز وتحويل الحلم الجميل إلى كابوس ثقيل.

... وليس مثل الأميركان مَن يصـــنع التماثيل ثم يحطمها – مع إســـتثناءات قليلة– بدءاً من الرئيس الأول جورج واشـــنطن " أبو الولايات المتحدة" عام 1789 مروراً بواحد وأربعين رئيســـاً آخرهم، وليس أخيرهم، بيل كلينتون إبنهـا المـدلـل المغفورة لـه كـل الأخطـاء، وإلاَّ فكيف يفوز على رغم هذه الأخطـاء التي هي خطـايـا متعـددة الأنواع والروائح أكثر منهـا مجرد أخطـاء. ونقول ذلـك على أســـاس أن خطـأ الرئيس هو في واقع الأمر خطيئة كبرى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 11 نوفمبر(ت2)1996

* * *

أمثولة من الملك حسين
برسم نتنياهو.. وبعض الأشقاء

على هامش هذا الجو الســـياســـى الخانق الذي يعصف بالعالم العربى وتتراجع فيه المشاعر الإنسانية والوجدانية، يســـجل بعض أهل القرار العربي لفتات تبعث فى النفس الطمـأنينـة وتجعلنـا نعتبر أن الـدنيـا العربية يمكن أن تصـبح بخير، وأن التقاليد الطيبة لن تندثر ولن يستمر تراجُع المشاعر الإنسانية والوجدانية أمام هذا الإجتياح العشـوائي للقيم التي كانت سـائدة حتى الأمس غير البعيد.

وأحدث هذه اللفتات جاءت من الأردن يوم الجمعة 8 نوفمبر/ تشـرين الثاني 1996 عندما أفادت الأنباء أن الملك حسين توجَّه بنفسه إلى سجن «سواقه» الذي يبعد حوالى ثمـانين كيلومتراً إلى الجنوب من عمـان، وأخرج المهندس ليث شـبيلات المسـجون منذ شـهر مارس (آذار) الماضـي وأجلسه إلى جانبه في السيارة المَلكية، التي يقودها الملك بنفســه، ثم توقفت الســيارة أمام منزل والدة ليث شـــبيلات، ودخلا المنزل معاً، وقال الملك لوالدة ليث: «ها نحن أفرجنا عن إبنك وهو الآن في منزلك وبين أحضانك».

وطِبْقاً للرواية الرســـمية عن عملية الإفراج، فان والدة ليث، وشـقيقه الدكتور غيث، كانا تبلَّغا أن الملك ســـيزور منزل العائلة لكنهما كانا لا يتوقعان الهدية الملَكية والمتمثلة بـأن ســـجين العائلة قد عاد إليها وضِـــمْن بادرة وأصـــول ملَكية فى غاية الرقي. كذلك، وطِبقاً للرواية الرســـمية، فإن الملك حســـين كان وجّه رســـالة إلى رئيس الوزراء عبد الكريم الكباريتى يطلب فيها الإفراج عن ليث شـبيلات وتضـمنت رسـالته هذه قوله: «إنني أقرر ذلك إكراماً للســـيدة العمة الجليلة والدته وللدكتور غيث شـقيقه ولزوجته واطفاله ولذكرى المرحوم والده الذي كان بمثابة العم والصـــديق. ويعلم

الله أن فترة سـجْن ليث كانت ثقيلة على نفسـي كما كانت ثقيلة عليه وعلى أُسرته. فأنا لستُ ممَن يحملون الحقد لكنه تمادى هذه المرة بإسـاءته إلى الأُسـرة الهاشمية...».

وقد تبدو هذه الواقعة كما لو أنها فيلم سينمائي بذل كاتب قصته جهداً كبيراً لكي تأتي وقائع القصة مفعمة بالإنسـانية وقريبة من الجو الواقعي، أو أنها تبدو إسـتحضـاراً لوقائع مماثلة ربما كآنت تحدث في الماضـي العربي والاسـلامي الغابر الحافل بحكام ترك بعضـهم سـمعة غير عطرة، وترك البعض الآخر إرثاً طيباً وأمثولات من نوع أمثولة الملك حسين فى التعامل مع السـجناء السـياسـيين الذين يكيدون للحاكم، أو ينالون بكلامهم من هيبته أو يخدشون مقامه وسمعته. وللتذكير فإن المهندس ليث شبيلات كان جرى إعتقاله صباح يوم السبت 9 ديسمبر/ كانون الأول 1995 في مكتبه في العاصـمة الأردنية بعدما ألقى محاضـرة في إربد قبْل ذلك بحوالى شـهر (يوم 7 نوفمبر/ تشـرين الثاني 1995) قال فيها «إن الشـعب الأردني ذهل وصُـفع على وجهه مرات. ومرات هذه السـنة كشـف مدى الود والقربى والعواطف الجياشة التي تجمع الحُكم عندنا مع بناة الهيكل الثالث..». وقال أيضـاً «إن الحكام الهاشميين خانوا ثوابت الأمة..»، وأرفق كلامه هذا بعرض «حقائق ووقائع الإتصـالات التي جرت طوال القرن الماضـي بين الحكام الهاشـميين وقيادات اليهود..». وجاءت المحاضـرة المشـار إليها، وما إحتوته من كلام تجاوز خط النقد والإعتراض ووصـل إلى حد تخوين الملك والأُسـرة الهاشـمية، في وقت كانت عملية التطبيع الأردنية – الإسـرائيلية قطعت شـوطاً بعيداً، وكان الأردنيون منقسـمين بين تواقين للسـلام، وفْق ما تتصـوره قيادة الملك حسـين، وبين مصـدومين بالسـلام الذي حل عليهم كضـيف ثقيل ولا يريدون إقفال الباب فى وجهه. وبسـبب هذا الإنقسـام فإن الملك حسـين الواثق مما فعله والمصـمم على مواصـلة العمل لإنجاز ما تبقَّى من خطوات، وجد أنه ما دام قرر التطبيع فلا شيء يجب ان يثنيه عن قراره، من دون أن يعني ذلك أنه لا صـوت يجب أن يعلو على صوت التطبيع.

وقد يجوز الإفتراض أن خصـوصـية العلاقة بين الملك حسـين وعائلة شـيلات هي التي جعلت الملك يغضـب من كلام الشـبيلاتى المشـاكس (ليث)، والى درجة ترجمة الغضـب إلى إيداعه السـجن. وهي أيضـاً الخصـوصـية التي جعلت الملك يشير في رسالته، إلى رئيس وزرائه عبد الكريم الكباريتى، إلى أن فترة سـجْن ليث كانت «ثقيلة» على نفسه (أي نفس الملك).

وهي أيضاً التي جعلت الملك يختار أسلوباً تكريمياً للسـجين بحيث يتوجه شـخصـياً وبسـيارته الملكية ويُخرجه من السجن، وبحيث يوصـله بنفسـه إلى بيت والدته ويقبّل (أي الملك) يدها وهو ما ليس مألوفاً من جانب الحكام، وبالذات العرب، نحو الرعايا.

وإذا جاز إفتراض خصـوصـية العلاقة، فإن ذلك لا يعنى أن المشـاعر الإنسـانية لا تتجاور في نفوس الملوك مع ضـرورات الحزم والشـدة. وقد يكون من المناسـب ما دمنا نشـير إلى خصـوصـية العلاقة الهاشـمية – الشـبيلاتية والتي جعلت الملك حسـين يقول في رسـالته إلى رئيس وزرائه ان والد ليث «كان بمثابـة العم والصـديق» وأن والدتـه هى «العمـة الجليلة».. قد يكون من المناسب التذكير بأن والد ليث (المفرَج عنه) المرحوم فرحان عبد ربه الشبيلات، كان من الذين ساهموا إلى جانب المرحوم الملك عبدالله في تأسيس القوانين والتشريعات للمملكة، حيث كان رئيساً لديوان الملك، ثم وزيراً للدفاع، ومن الذين أخلصـوا في المهمات السـياسـية عدما بات حسـين بن طلال هو الملك وما زال – خلفاً لجده. وهو بالذات كان له حضور أساسي فى صياغة مشروع المملكة الهاشمية بين العراق والأردن عندما عمل سـفيراً للأردن في بغداد، وهو المشـروع الذي تناثر بين أنقاض مصـر الرحاب بعدما قامت ثورة 1958 في العراق بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم. وهو من قلائل إكتسـبوا خبرة دبلوماسـية مخضـرمة بدأت مع الملك الجد (عبدالله) وتواصـلت مع الملك (الحفيد) الحسـين. ولقد شـملت سـنوات عمله كوزير مفوض ثم كسـفير، لبنان والهند والعراق والمغرب وتونس وليبيـا والجزائر والولايـات المتحدة وألمانيا (في الأخيرة كان أول سـفير عربي وكان الأول أيضاً الذي أعاد بعد 1967 علاقات بلاده المقطوعة معها).

ونلاحظ أنه على رغم علاقات طيبة أنشـأها في المانيا إلاَّ أنه عندما سـاءت العلاقة بينه وبين الملك حسـين، الذي تقاعده (بمعنى أحاله إلى التقاعد من دون رغبتـه) عـام 1970 فإنـه إختـار تونس للإقـامـة وبقي فيها بضـع سـنوات حزيناً على ما آلت إليه العلاقة مع الملك الحفيد. ثم يحدُث بعد ذلك ما يعيد بعض الإعتبار إلى الشـبيلاتي الأب (فرحان) الرفيق

التاريخي للأُسرة الهاشمية، حيث أن الملك حسين، في واحدة من لفتاته الطيبة، أرسل أواخر سبتمبر/ أيلول 1979 إلى تونس، بعدما بلغه تدهور الوضع الصحي للرجل، طائرة خاصة أعادته إلى عمان ليُتوفى فيها بعد خمسة أيام عن 69 سنة ويترك ثلاثة أبناء أحدهم (ليث) الذي إختار الخط الإسلامي، ومشاكسة الأسرة الهاشمية، ومقاومة التطبيع مع إسرائيل، وكان لسانه، في بعض المناسبات داخل مجلس النواب الذي كان أحد اعضائه البارزين، أو داخل نقابة المهندسين (تضم بضعة آلاف مهندس بايعوه بمنصب النقيب حتى وهو في السجن) التي تستوجب تسجيل رأي أو موقف، شبيهاً بعض الشيء بلسان المرحوم والده الذي ينقل عنه معايشوه كيف أنهم عندما كانوا يستفسرون منه عن سبب التوتر بينه وبين القصر وسيد القصر، كان يختصر الإجابة بالقول «الله يلعن هاللسان». وعلى هذا الأساس فإن عبارته هذه قد تكون هي التي أوحت بالقانون الذي على أساسه تم توجيه التهمة إلى إبنه، بعد أكثر من ثلاثين سنة، وهي تهمة إطالة اللسان. ومن المفارقات اللافتة للنظر أن الإبن الآخر (غيث) هاشمي قلباً وقالباً ولساناً، وأن الإبن الثالث (طلال) الذي يعمل في الجامعة العربية (مكتب جنيف) ليس في الموقع السياسي الذي يجيز له تسجيل المواقف مثل شقيقيه، وإن كان من الجائز إعتباره من المنتمين إلى تيار الأكثرية الأردنية والعربية عموماً، وهو التيار الذي ينضوي تحت لوائه المصدومون بالسلام مع إسرائيل الذي إستضافه على غير رغبة منهم الرئيس (الراحل) أنور السادات عام 1979 وسعى إليه الملك حسين بإندفاع عام 1995، والذي هو في نظر المصدومين هؤلاء – ونحن منهم – ضيف ثقيل، وأن المضافة (بفتح الميم) مبالَغ فيها بعض الشيء،ولكن ما دام الضيف (أي السلام) بات داخل رؤوس أهل القرار فلا داعي، وحتى إشعار آخر ليس بالبعيد، لغير التأني والتروي والحذر. وهذا ما يحدُث ويأمل المرء إستمرار حدوثه. وبالنسبة إلى الإبن الهاشمي قلباً وقالباً ولساناً. ونعني به غيث، فإن المؤسسة العسكرية التي إنتسب إليها قد تكون هي التي جعلت رؤيته للهاشمية أكثر وضوحاً من رؤية الشقيق المشاكس (ليث). ولقد إستمر غيث، وهو طبيب، يعمل في الجيش إلى أن غادره وهو برتبة عميد إلى العمل الحر شريكاً ومديراً لمستشفى متطور (مايو كلينيك) وإلى العمل السياسي عضواً في مجلس الأعيان وصديقاً للملك حسين. وهذه الصداقة، إضافة إلى خصوصية العلاقة ساعدت على إزالة الهم الدفين من صدر الملك. ويتعلق هذا الهم بأن إبن الحليف التاريخي للأُسرة الحاكمة فرحان الشبيلات (ليث) يتطاول على الملك وعلى الملكة نور وعلى الأُسرة الهاشمية، وأن الملك الذي سبق أن أفرج عن ليث قبل ثلاث سنوات بعد الحُكم عليه بالسجن عشرين عاماً بتهمة التآمر (قضية "النفير الإسلامي" التي كان ليث شبيلات أحد رموزها) مضطر نتيجة مشاعر وجدانية ناشئة عن خصوصية العلاقة التي أوردْنا بعض جوانبها للإفراج مرة أُخرى عن ليث الذي قال عنه قبْل الإعتقال الثاني أنه "ناكر للجميل" أي جميل الإفراج عنه من حُكْم العشرين سنة.

وقد تكون تقاليد سنوات دراسة الملك حسين في كلية «ساند هيرست» هي التي تولّد مثل هذه المبادرات، لكن تجربة الحُكم تلعب دوراً أساسياً في بلورة حنكة أهل القرار. وما فعله الملك حسين، ونقصد هنا المبادرة التي إستهدفت المعارض المشاكس ليث شبيلات، يحدُث بعد ثلاث وأربعين سنة للملك في الحُكم. وللمرء أن يتصور، وبالذات بالنسبة إلى الملك حسين، أي دروس إستفادها من هذه السنوات الطويلة وما حفلت به من صراعات وتحديات ومؤامرات ومحاولات إغتيال. ولعل أهم الدروس المستفادة هو درس: "العفو عند المقدرة". ومبادرة الملك حسين، التي تأتي في وقت بدأ فيه الطرق بقوة على الباب الأردني فى موضوع حقوق الإنسان، ليست فقط تثير الإعجاب وتحرض القلم على تسجيل رأي في شأنها، وإنما هي رسالة إلى رئيس وزراء اسرائيل بنيامين نتنياهو الذي أحرج عملية السلام والمسالمين العرب بتشدده وتلاعبه، مفادها أن الملك حسين الذي إندفع في إتجاه عملية السلام يمكن أن يتفهم الذين يقفون ضد التطبيع وإلى درجة الإفراج عنهم، وبتكريم لم يحدُث من قبْل في العالم، على نحو ما حدث مع ليث شبيلات. ولعل هذه الرسالة تكون موضع قراءة متأنية من نتنياهو.

كذلك إن المبادرة هي أمثولة لكثيرين آخرين من الأشقاء خلاصتها أن الحاكم القوي ليس فقط من يمارس سُلطته إلى حد إيداع مَن يخالفونه الرأي في السجن، ثم ينساهم وربما لسنين طويلة، وإنما هو أيضاً الذي يتذكر هؤلاء فيعيد إلى إنسانيتهم الإعتبار، وفْق القول المأثور: العفو عند المقدرة. ومن محاسن الصدف أن القول عربي وإسلامي.

ويبقى ونحن نسجل بإعجاب وتقدير هذه المبادرة للملك حسين، فإننا نتمنى لليث شبيلات أن يرُد على التحية بمثلها، لعل الفعل ورد الفعل يسود في العالم العربي ويتحول إلى تقليد طيّب يستفيد منسيون، أو متناسون، كثيرون.. أحدهم وليس أوحدهم المنسي في تونس.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 18 نوفمبر (ت2) 1996

* * *

السناتور «البعثي»... من العراق إلى سوريا

إستبشرنا خيراً في البداية عندما وصل السناتور أرلين سبيكتر إلى دمشق في مهمة هدفها المعلن المساعدة على تحريك عملية السلام المتعثرة منذ أربعة أشهر بعدما تسلَّم الليكوديون الحُكم في إسرائيل وأظهر رئيس الوزراء الجديد بنيامين نتنياهو نوايا لا تدعو إلى الإطمئنان. وللإستبشار ما يبرره، ذلك أن السناتور سبيكتر الذي يمثِّل ولاية بنسلفانيا في مجلس الشيوخ ليس من الديمقراطيين وإنما هو جمهوري أي الحزب الذي له الأكثرية في السُلطة التشريعية (الكونغرس) والتي في إستطاعتها، إذا كان الرئيس كلينتون يريد تنشيط العملية السلمية، أن تساعده. وفي إستطاعتها أيضاً أن تزيل عقبات تعترض في إستمرار رفْع درجة الثقة في التعامل بين الرئاستيْن الأميركية والسورية، وأهم هذه العقبات على الإطلاق ما يتعلق بالإبقاء على سوريا على لائحة الدول التي تدعم الإرهاب من دون الإقتناع بالتفسير السوري الدائم الذي يميز بين الإرهاب وبين حق الشعوب في النضال لتحرير الأرض من الإحتلال.

وإلى ذلك إن السناتور سبيكتر هو أول شخصية سياسية أميركية تقوم بالمهمة بعد التجديد للرئيس كلينتون. ولأنه ليس وزيراً أو مسؤولاً في الإدارة الأميركية، فإن هامش التعبير لديه متسع، بمعنى أنه يستطيع أن يقول ما ليس في إستطاعة وزير في تلك الإدارة أن يقوله، وفي إستطاعته أن يقترح أفكاراً من الصعب على وزير الخارجية وارن كريستوفر أن يقترحها، لأنها إذا حدَث وتم إقتراحها تصبح مُلزمة ويصعب التراجع عنها، في حين أنها بالنسبة إلى سبيكتر ليست كذلك.

وثمة نقطة بالغة الأهمية أيضاً في موجبات الإستبشار خيراً وهي أن السناتور سبيكتر جمهوري من جهة، والجمهوريون يعتبرون أن للرئيس الأسد في ذمتهم ديْناً نشأ عن إنضمامه إلى دول التحالف التي قادتها الإدارة الأميركية الجمهورية (عهد الرئيس جورج بوش) لتحرير الكويت، ويرون أنه لولا موقف الرئيس الأسد الذي نشير إليه وموقف الرئيس حسني مبارك الذي إستضاف في القاهرة القمة الإستثنائية التي أعطت شرعية للتدخل الدولي، لكان من الصعب على خُطط الرئيس بوش أن تتم على النحو الذي تمت فيه.

وإلى ذلك هناك أمر لافت للنظر ويدعو إلى التأمل العميق وهو أن السناتور سبيكتر يبدو كما لو أنه إختصاصي في النظام البعثي العربي. فلمجرد أن وصل إلى دمشق وجدْنا أنفسنا نتذكر مهمة مماثلة قام بها قبل بضع سنوات إلى بغداد وكانت ظروف العراق زمنذاك قريبة الشبه إلى حد كبير بالظروف التي تعيشها سوريا منذ بضعة أسابيع حيث تتعالى صيحات التهديد والوعيد الإسرائيلية ويأتي الرد عليها تصريحات وكتابات من الحُكم السوري تتضمن الإستعداد للمواجهة إذا كان لا بد منها. ولقد وصلت الصيحات والردود عليها إلى ما قبْل سقف الإنفجار بقليل، وبحيث أن قذيفة مدفع، تنطلق عمداً أو حتى بطريق الخطأ، تكفي لإندلاع المواجهة التي قد تكون محدودة وسريعة وتقتصر على سوريا ومعها لبنان، وإسرائيل ومعها الولايات المتحدة، أو يفلت الزمام تماماً وتجد المنطقة الحالمة بالسلام نفسها أمام الحرب العربية–الإسرائيلية الرابعة... والأخيرة على أساس أن هذه الحرب في حال وقوعها ستحسم وإلى الأبد مصائر كثيرة من بينها مصير إسرائيل كدولة في المنطقة، ومصير الإرادة العربية التي تخضع منذ بضع سنوات لإختبار بالغ القساوة، ومصير السلام الذي توقَّعه الكثيرون أن يكون خياراً إستراتيجياً فإذا هو رهان لا أكثر.

ومن بين صيحات الوعيد الإسرائيلية والردود السورية عليها نسجل إثنتين لأنهما تشكِّلان ملامح المواجهة في حال حدوثها:

الأولى لوزير الدفاع السوري اللواء مصطفى طلاس وردت في حديث أجرته معه صحيفة «البعث» لمناسبة الذكرى الثالثة والعشرين لحرب 1973 ونشرتْها يوم الأحد 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1996

وقال فيها رداً على تهديدات صدرت عن رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو «إذا أقدم نتنياهو على تنفيذ تهديداته وقام بمغامرة عسكرية فسيندم حتماً على ما أقدم عليه إذ ستتكبد إسرائيل خسائر فادحة لا قبل لها بتحملها. وهذا سيولد بالطبع لدى الإسرائيليين رد فعل عنيف تجاه من ورَّطهم بمثل هذه المغامرة..».

والثانية لوزير الدفاع الإسرائيلي إسحق مردخاي وردت في مقابلة أجرتها معه صحيفة «صنداي تايمس» اللندنية، ونشرتْها فى عددها الصادر الأحد 17 نوفمبر/ تشرين الثاني 1996 وفي مقابلة لاحقة توضيحية أجرتها معه الإذاعة الإسرائيلية. ومما قاله مردخاي: «إننا لا نريد الحرب ونريد السلام ونعرف أنه يتم في سوريا إنتاج منتجات كيماوية لأغراض عسكرية وأن بعض هذه المواد يتم إنتاجه بمساعدة خبراء روس وإننا نأمل ألاَّ يستخدموها على الإطلاق وخاصة ضدنا. وإذا تجرأ أحد على إستخدام هذا النوع من السلاح ضدنا فمن الواضح أننا سنرد بكل الوسائل المتاحة لنا. سنضرب سوريا بقوة ومن الواضح أن النظام هناك سيتعرض للخطر، ولهذا فمن الأفضل لهم ألاَّ يفعلوا ذلك ويجدوا السُبل الأُخرى الكفيلة بتسوية النزاعات...».

وواضح من الفقرات التي أوردناها أن اللواء طلاس يريد أن يقول بأن لدى سوريا من السلاح كماً ونوعاً ما من شأنه أن يجعل حكومة نتنياهو تسقط نتيجة الهزيمة التي ستُمنى بها، وأن وزير الدفاع الإسرائيلي يريد القول إن في إستطاعة إسرائيل أن تُلحق هزيمة بالنظام في سوريا، ومن أجْل ذلك قال في الحديث التوضيحي مع الإذاعة «إنني أتحدث بعبرية واضحة. والدول العربية تعرف جيداً قوة دولة إسرائيل. صدِّقوني».

وفي ظل هذه الأجواء وما رافق صيحات الوعيد والإنذارات وردود الفعل السورية على الإسرائيليين المتوعدين جاءت زيارة السناتور سبيكتر إلى دمشق. وعندما لاحظ كثيرون أن الأسد لم يلتقِ الزائر الأميركي المتميز في جلسة إقتصرت عليهما فقط وإنما أشرك وزير خارجيته فاروق الشرع وأشرك الزائر السفير الأميركي في دمشق، بدا واضحاً أن الرئيس الأسد قطع الطريق على تفسيرات إسرائيلية لهذا اللقاء وربما على تقويله كلاماً لم يرِد في ذلك اللقاء أو الإدعاء بأن الزائر الأميركي ينقل رسالة من الرئيس الأسد إلى نتنياهو. ولو أن اللقاء كان ثنائياً لكانت إسرائيل تعمدت التقويل المشار إليه لكنه لقاء شارك فيه آخرون ولذلك فإن السناتور سبيكتر لا يستطيع أن يقول سوى أنه إجتمع بالرئيس السوري وإستمع إلى تَصوره وتقييمه وتقديره للموقف، وأي كلام آخر يضيفه، على نحو ما فعل في تل أبيب كان مجرد إجتهاد شخصي لا أكثر، ونعني بذلك قوله في مؤتمر صحافي عقده بعد لقائه برئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو «إحساسي بالموقف هو أن الخطوة الأتية ترجع إلى الولايات المتحدة وأن الرئيس كلينتون يجب أن يدعو رئيس الوزراء نتنياهو والرئيس الأسد إلى المكتب البيضاوي لمواصلة عملية السلام...». ولقد كان لافتاً للنظر أن يعلن سبيكتر ذلك وفي تل أبيب لأنه أوحى بأن الرغبة هي سورية – إسرائيلية مشتركة ولا يبقي على الفكرة طي الكتمان لكي يتشاور في شأنها أولاً مع الرئيس كلينتون ومع رموز القرار في الكونغرس.

وقد يكون الرجل مخلصاً في ما سعى عليه ويريد بالفعل تطبيع علاقة الحُكم البعثي في العراق مع الولايات المتحدة ثم مع إسرائيل على نحو ما فعله عندما زار بغداد وإلتقى الرئيس صدَّام حسين يوم 13 يناير/ كانون الثاني 1990، ويريد أيضاً تطوير علاقة الحُكْم البعثي في سوريا مع الولايات المتحدة (على أساس أن التطبيع قائم) وإزالة الشوائب من طريق هذه العلاقة وفي الدرجة الأُولى الإبقاء على إسم سوريا على لائحة الدول التي تدعم الإرهاب، ويريد أيضاً دفْع عملية التحادث السورية – الإسرائيلية إلى أن تصل إلى مرتبة التفاوض فالإتفاق على نحو ما جرى بين مصر وإسرائيل.. لكننا في ضوء ما حدَث في العراق وله نجد أنفسنا لا نستبشر خيراً. فالرئيس صدَّام حسين الذي قال للسناتور روبرت دول – بعد ثلاثة أشهر من زيارة سبيكتر لبغداد – عندما إلتقاه ووفد من أعضاء الكونغرس يوم 12 أبريل/ نيسان 1990 «إنطباعي عن السناتور سبيكتر جيد وقد كان منصفاً»، واصل الحديث عن تحدي إسرائيل وقال يوم 2 أبريل (قبْل أسبوع من وصول السناتور دول ورفاقه إلى بغداد ولقائهم الرئيس صدَّام في الموصل) إنه سيحرق بالكيماوي المزدوج نصفها إذا هي إعتدت على العرب وإستخدمت القنابل الذرية، والرئيس صدَّام قرر بعدما ملأ غبار التهديدات والتحديات سماء المنطقة تحويل الأنظار فكان إجتياح القوات العراقية للكويت وكأنما هي إيحاءات وبشكل غير مباشر من «السناتور

البعثي» أرلين ســـبيكتر (قبْل أن يكون من الســـفيرة غلاســبي) الذي قد يكون يكرر مع الحُكْم الســوري ما ســبق أن فعله مع الحُكْم العراقي قبل ســت ســنوات، والذي قد يكون تصـــريحه في تل أبيب عن قمة في البيت الأبيض يرعاها الرئيس كلينتون وتضـــم الرئيس الأسد ورئيس وزراء إسرائيل نتنياهو خدمة للإسرائيليين بمعنى أنه عرض الفكرة وهو في تل أبيب وبعد عودته من دمشق ثم إجتماعه بنتنياهو فأوحى بذلك أن طرفيْ المواجهة المحتمَلة يريدان هذا المخرج وعلى أساس أن الرفض الســوري للفكرة (وهذا ما حدَث بالفعل) هو نوع من الإحراج للرئيس الأســـد أي بما معناه أنه لا يريد الســلام حتى إذا كان في إطار قمة في البيت الأبيض على نحو ما يتمنى نتنياهو، وكأنما قمم البيت الأبيض أعطت ســلاماً عادلاً، أو كأنما كانت أكثر من الســلام الذي يناسب إسرائيل ويريحها، ولو هلك الآخرون.

والذي يطمئن هو الإعتقاد الراســـخ بأن الرئيس الأســـد متنبه لكل هذه اللعبة... الطبخة. وفي الكثير مما أوردناه ما يؤكد هذا التنبه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 24 نوفمبر (ت2) 1996

* * *

قراءة في نجدة قبْل فوات الآوان (موضوع واحد في مقالتيْن)

المقالة الأولى: الشيخ ومبادرته

تأتي المبادرة الإماراتية الجديدة لرفع الحصـــار عن العراق وتطبيع العلاقة معه بمثابة إحياء للمبادرة الأولى التي أطلقها الشـيخ زايد بن ســلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات يوم الأحد 15 أكتوبر/ تشـــرين الأول 1995. وللتذكير فإنه في المرة الأولى إنتهز مناسبة إستقباله سفراء الأردن والبرازيل وسيريلانكا وبولندا وهولندا لتقديم أوراق إعتمادهم إليه، فإنطلق على سجيته المعهودة يتحدث أمامهم عن الواقع المرير الذي يعيشه العالم العربي ودول الخليج بالذات بسبب تداعيات الإجتياح العراقي لدولة الكويت ثم إحتلالها ثم الحرب الدولية – العربية بمشاركة عدة دول إسلامية غير عربية لتحرير الكويت وإعادة أركان الأُســـرة الحاكمة وأركان الدولة إلى الحُكْم بعدما كانوا أمضـــوا أشهر الإحتلال في المملكة العربية السعودية ومعظم دول الخليج. ومما قاله الشيخ زايد: "لقد أخطأ صـدَّام كثيراً بلا شك ولكنه بشر والبشر يغلطون دائماً. لقد أخطأ عندما قام بالحرب على إيران وغلَّط عندما أرسل طائراته وسفنه وسلاحه إليها وغلط عندما قام بحرب الخليج وغلَّط أيضـاً في بعض من إعتقدهم أصـدقاءه وسمع منهم ثم شاهد عكس ما يقولون. صدَّام حسين رجل واحد أخطأ ولكن مَن يدفع الثمن الآن؟ أن أكثر من 18 مليون عراقي يتعرضـــون للمجاعة والحاجة. كيف نرضـى أن يستمر الوضع على حاله. بسبب خطيئة إنسان واحد يتعرض 18 مليون بشر للهلاك. إن العربي الذي يقْبل بهذا تكون العروبة بريئة منه وكذلك الإنسانية. نحن نعتقد أن وقت المصـالحة قد حان، ورفْع الحصـار عن العراق أصبح واجباً. كيف نسمح لأمة بأكملها أن تتعرض للحصار والمجاعة ولا نحرك ســـاكناً. إنه أمر لا يجوز الســـكوت عنه منا كعرب رضي الغرب عن ذلك أو لم يرض. أما إخواننا في الكويت فإنهم غلَّطوا أيضـاً برفضـهم التقارب مع الدول العربية التي تسعى إلى المصالحة معهم. وأقول لإخواننا في الكويت هذه دول لم تحارب مع العراق ضدكم ولكن أخذت مواقف وهي الآن تريد المصالحة. الدول تدخل في حروب ومواجهة ثم تتجه إلى الصلح. فلماذا لا نحاول أن نطوي صفحة الماضي وأن نتعاون مع بعضنا البعض من جديد. ولقد أبلغتُ وزير خارجية إيران علي أكبر ولايتي عندما زارني أن إيران خسـرت الكثير في الحرب مع صدَّام حسين لكنها كسبت منه بالحيلة عندما قالت له لا عليك أرســـل الينا طائراتك وســـلاحك ولا تخشـــى الأميركان لأنهم يقولون ما لا يعملون. وقد اسـتدرجتم صـدَّام كالجمل حتى وقع في الوحل...".

ومع أن السفراء العاملين في دولة الإمارات إعتادوا على مواقف وتصريحات تتسم بالعفوية ويطلقها الشيخ زايد على ســـجيته إلاَّ أن الذين ذهبوا لتقديم أوراق الإعتماد لم يتوقعوا أن يطلق الشـــيخ في حضـــورهم الكلام الذي كان بمثابة نقطة التحول الأُولى في موضوع الحصار المفروض على العراق والمصالحة المرفوضـــة من الكويت مع بعض الدول العربية. ومع أن هذا الكلام كان من شأنه أن يحدُث أزمة دبلوماسية بالغة الخطورة لو أنه قيل أمام سفراء غير هؤلاء (سفير الولايات المتحدة أو سفير بريطانيا على سبيل المثال) إلاَّ أن دوي الكلام كان قوياً ووصل إلى كل دول العالم بصـــيغة غير مطروقة وكان الدوي ســـيبدو هائلاً لو

صادف أن سفير فرنسا كان يقدم أوراق إعتماده للشيخ زايد. واللافت للنظر أن بين السفراء مَن يمثِّل أوروبا بجناحيْها الغربي والشرقي (هولندا وبولندا) ومَن يمثِّل آسيا(سيريلانكا) ومَن يمثِّل الدول العربية التي ترفض الكويت مصالحتها (الأردن) ومَن يمثل قارة أميركا الجنوبية (البرازيل).

كانت تصريحات الشيخ زايد المشار إليها بمثابة صخرة رماها في بحيرة ساكنة فتحولت مياهها الهادئة إلى أمواج. وكانت أيضاً، إذا جاز القول، بمثابة طرقة قوية على باب موصد يرفض مَن هم وراء الباب فتْحه. وبإستثناء الكويت وبعض أراء إستمرت أقلام كاتبيها تقطر غضباً ساطعاً مِن الذي جرى في الكويت ولها من الحُكْم العراقي(الدكتور غازي القصيبي على سبيل المثال الذي إعتبر، في مقالة له في هذه الصحيفة، أن الحديث عن المصالحة دون التصدي لأسباب التوتر سوف يبقى ضرباً من المغالطة).. فإن مبادرة الشيخ زايد قوبلت على المستوى الرسمي بتفهم الدواعي مع الرغبة في وضْع المبادرة في خزانة والإقفال عليها من دون إجهاضها، إلى أن تأتي الظروف المناسبة ويَسهُل التعامل مع المبادرة دولياً وعربياً، وذلك بسبب تشابه الأزمة وتعقيداتها. ومن هنا نلاحظ أن الأطراف العربية الرئيسية أبدت التفهم على النحو الآتي: الرئيس حسني مبارك، الذي تتسم علاقته بالشيخ زايد بخصوصية لا مثيل لها في العلاقات العربية، تصرَّف كما لو أنه جزء من المبادرة، على الأقل في التفكير وليس في التعبير وأدلى يوم الأربعاء 25 أكتوبر 1995 أي بعد عشرة أيام من إطلاق الشيخ زايد مبادرته بتصريح بالغ الأهمية قال فيه "إن مصر مع المصالحة العربية ولا تتدخل في شؤون العراق وتهدف إلى رفْع الحصار عن شعبه...".

والحُكْم السوري كرر عبْر قنوات الإتصال والتشاور في المواقف الإستراتيجية الموقف الذي سبق لعبد الحليم خدَّام نائب رئيس الجمهورية أن أعلنه في مقابلة إذاعية خلال زيارة إلى باريس يوم الجمعة 15 ديسمبر/ كانون الأول 1994 وخلاصته " أن المصالحة العربية أمر لا بد منه وأنه سيجيء عاجلاً أم آجلاً...". وعندما يكون هذا هو موقف كل من مصر وسوريا ويكون الجامع المشترَك للرؤساء الشيخ زايد ومبارك والأسد هو ألا تتجاوز نظرتهم رؤية المملكة العربية السعودية، فهذا معناه أن المبادرة التي أطلقها الشيخ زايد تصلح كمنطلق، إنما في الوقت المناسب، وبعد أن تكون الولايات المتحدة إستوعبت العمق الوجداني للمبادرة، وتكون الكويت من جانبها أدخلت بعض التعديلات على موقفها بحيث يصبح مجرد وقفة وبذلك لا تكون المبادرة عرضة لمفاجآت غير سارة.

وإلى ذلك فإن الشيخ زايد قرأ بتمعن موقفيْن وإستند بعض الشيء إلى ما بين سطورهما وهو يخاطب العرب والمسلمين ودول العالم من خلال حديثه مع السفراء الذين أتوا لتقديم أوراق إعتمادهم. الموقف الأول تمثل في كلمة وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل في الجمعية العامة للأمم المتحدة (الأربعاء 11 أكتوبر 1995 أي قبْل أربعة أيام من لقاء السفراء بالشيخ زايد) والتي جاء فيها:" إننا نتطلع إلى عودة العراق إلى كنف الأُسرة الدولية كعضو مسؤول يمارس دوراً بناءاً على الساحة الدولية بما هو معروف عن شعبه الأصيل من طاقات وقدرات، وستظل معاناة الشعب العراقي مصدراً لقلقنا وإنشغالنا، كما أننا سنواصل حرْصنا على الحفاظ على وحدة العراق وسيادته وسلامة أراضيه...". والموقف الثاني تَمثَّل بالإستفتاء الذي جرى في العراق على رئاسة صدَّام حسين. وقد يكون الشيخ زايد قرأ الإستفتاء من زاوية التخمين بالذي يريد صدَّام حسين من خلاله قوله، وليس من زاوية النسبة التي حصل عليها، والتي هي النسبة نفسها المعتمَدة في أي إستفتاءات تجري في دول العالم الثالث، والتي تراوح بين 90 في المائة تواضعاً و99.99 في المائة إستفزازاً ومبالغة. وفي هذا الإستفتاء الذي حصل فيه الرئيس صدَّام على 99.96 في المائة من نسبة المشاركين (سامحهم الله على هذا التقرير) أراد الرئيس صدَّام أن يقول لأشقائه العرب ولبقية دول العالم، ما معناه إنه لم يعد صدَّام الثوري وإنما بات صدَّام الذي يحكم بشرعية شعبية، وهذه شرعية قابلة للتغيير الهادىء مع الوقت إذا كان الإعتراض هو على كونه رئيساً لدولة البعث في العراق. وقد يجوز الإفتراض أن الشيخ زايد قرأ المعنى الذي أراده الرئيس صدَّام بذلوا جهداً خرافياً من أجل شرح وتوضيح حقيقة المعاناة التي يعيشها العراق في ظل الحصار أضافوا المزيد إلى قراءة الشيخ زايد لمغزى الإستفتاء ومعناه، وأن ذلك شجعه على ألاَّ ينتظر إنعقاد القمة الخليجية في مسقط ليُطلق مبادرته، إذ أن منظوره كيف يتحمل العراق وبالذات أطفاله والمسنون والمرضى والنساء هذا الضيم، وهؤلاء حالتهم

مثل حالة مَن سقط مضرجاً بدمه ويستمر نزفه بينما عربة الإسعاف والمزودة بأحدث المعدات وأنجع الأدوية على بعد خطوات منه. ومن الجائز الإفتراض أن الشيخ زايد إرتاح من جهة لأن الله سبحانه وتعالى شرح له صدره بإطلاق مبادرته، وشعر بالضيق من جهة أُخرى لأن الظروف خليجياً وعربياً ودولياً كانت غير مواتية فتواصل الحصار على العراق في إنتظار أن يخطو الحُكْم العراقي خطوتيْن تشجعان على أن يعاد النظر في أمره خصوصاً بعدما جرت إنتخابات الرئاسة الأميركية وفاز كلينتون بولاية ثانية.

ولم ينتظر الرئيس صدَّام كثيراً وأبلغ سفيره لدى الأمم المتحدة بأن يعلن قبول العراق بشروط الأمم المتحدة في شأن العراق المتعلق ببيع كميات من النفط لسد إحتياجات الغذاء والدواء. ولقد تزامن القبول الذي نشير إليه بإطلاق دولة الإمارات المبادرة الثانية التي تستهدف إحياء المبادرة الأُولى.

ومع أن الظروف عربياً ودولياً وخليجياً باتت أفضل من أجْل إستعادة العراق ورفْع العقوبات الدولية بالتدرج عنه، إلاّ أن الخطوة الثانية المطلوبة من الرئيس صدَّام تبدو ضرورية. وهنالك أكثر من مؤشر إلى أننا على موعد معها بعد إرفضاض القمة الخليجية الثالثة عشرة، وقانا الله عثراتها وألهم قادتها الحكمة كي لا يصيبها ما أصاب القمة العربية العادية التي توقفت عن الإنعقاد بشكل عادي عند القمة 13 وباتت لا تنعقد سوى بشكل إستثنائي ومن أجْل ذلك لحقت بالأمة مشاكل لا حصر لها. ومن منطلق التفاؤل وحُسن الظن نفترض أن قادة مجلس التعاون الخليجي واعون لذلك.

... ولهذه القراءة في النجدة الإماراتية قبْل فوات الآوان للعراق، الذي وصلت حاله إلى ما قبْل الرمق الأخير، بقية.

* * *

□ المقالة الثانية: مبادرة الشيخ زايد بعد مبادرة الأسد

وجد الرئيس اللبناني (الأسبق، الراحل) سليمان فرنجية بعدما تزايدت أعمال العنف والتقى أقطاب المعارضة بشقيْها، المتشدد (أمثال المرحوم كمال جنبلاط والفلسطينيين واليساريين عموماً) والمعتدل (أمثال صائب سلام وريمون إده) على ضرورة أن يقدِّم الرئيس إستقالته، أن أفضل ما يفعله هو أن يطرق باب صديقه الرئيس حافظ الأسد، خصوصاً أن الصديق السوري كان أوفد كبار المسؤولين مِن المدنيين والعسكريين إلى بيروت لمحاصرة الحريق السياسي. وقد تجاوب الرئيس الأسد وبدأ يتأمل مع كبار مساعديه في شأن الصيغة المناسبة التي تحولُ دون إستقالة الرئيس فرنجية. وأرسل لهذا الغرض رئيس الأركان اللواء حكمت الشهابي إلى بيروت ومعه أسئلة طرحها على رموز الأزمة وبعض رموز الطوائف في الوقت نفسه.

وتدور الاسئلة حول تعديل قانون الإنتخاب وصلاحيات رئيس الجمهورية في أي تعديل، أو تغيير سياسي وإمكانية، أو عدم إمكانية، إنتخاب رئيس الجمهورية من الشعب، وحول المصالحة بين جميع الأطراف المتصارعة والمتقاتلة، وهل تتم قبْل البحث في المطالب والإصلاح أم يرافق المصالحة البدء في بحث المطالب. وعاد اللواء الشهابي إلى دمشق لإطلاع الرئيس الأسد، وتَقرر في ضوء الإجابة عن الأسئلة المشار إليها، المضي قَدماً في فكرة المبادرة ودعوة بعض أقطاب الأزمة إلى دمشق. وهذا ما حدَث بالفعل، ويبدو أنه كان لا بد من بعض الضغط على السياسيين اللبنانيين الذين لم يتوقفوا عن التلاسن، بينما العنف يتواصل في كل المناطق وإحتمالات التقسيم تقترب من الحدوث، فجاء هذا الضغط بشكل تصريح لوزير الخارجية السوري (آنذاك) عبدالحليم خدام قال فيه: "نأمل في أن يتعب الأخوة اللبنانيون من الإقتتال ويعودوا إلى رشدهم ودولتهم. لقد أوضحْنا في صورة قاطعة أننا لن نسمح بتقسيم لبنان وأي مباشرة للتقسيم ستعني تدخُّلنا الفوري، فلبنان كان جزءاً من سوريا ولسوف نعيده لدى أي محاولة فعلية للتقسيم. إننا حريصون جداً على لبنان الموحد والمستقل، إلاَّ أنه ينبغي أن يكون واضحاً بأن لبنان إما أن يكون موحَّداً وإما أن يعود إلى سوريا. وهذا القول لا يعني الأقضية الأربعة ولا الساحل فقط بل يعني جبل لبنان أيضاً...".

ومثْل هذا التصريح لعبدالحليم خدام كان كافياً لكي يتنبه رموز السياسة وأولئك الذين يزيدون نار العنف إشتعالاً فيتفاهموا على الحد الأدنى، ولكن ذلك لم يحدُث أبداً وبدأنا نسمع ونقرأ عن مبارزات كلامية كثيرة الحدة ترافقها جولات من أعمال العنف. هذا يرفض صيغة الحوار ويشترط. وذاك لا يقْبل بأقل من إستقالة رئيس الجمهورية. وأولئك يريدون لدول العالم أن تتوسط لديهم لكي يوقفوا أعمالهم غير المشروعة

أصـلاً، والتي هي ذات طابع إسـتفزازي. ووسْـط هذه الأجواء والتناقضـات كانت المبادرة السـورية في عهدة الرئيس حافظ الأسد، يُكثر من التأمل فيها كي لا تأتي ولادتها عسيرة، ولكي يُكتب لها البقاء بعد الولادة.

ثم توجه الرئيس سـليمان فرنجية إلى دمشـق يوم السـبت 7 فبراير/ شـباط 1976 بطريق الجو، لأن طريق البر – التي من الطبيعي أن يسـلكها – كانت غير آمنة. وكانت تلك الزيارة الرسـمية الثالثة له إلى سـوريا بعد الأولى التي تمت في مارس/ آذار 1971 والثانية في يناير/ كانون الثاني 1975. وبعد لقاءات ثنائية وموسـعة، مدنية وعسـكرية، تمت في قصـر الرئاسة في دمشق وإستغرقت بضع ساعات، صدر بيان صحافي عن الزيارة هو الأول من نوعه، وبالذات كمضـمون وكمفردات، في تاريخ العلاقات اللبنانية – السـورية. وبدأ البيان المشـار إليه وكأنما هو بيان مشـترَك بين دولتيْن تتبادلان التمثيل الدبلوماسـي، وتضمَّن فقرة متميزة مفادها أن الرئيس الأسد أخذ عِلْماً "بالإنجازات التي سـتتم في لبنان بغية وضْـع أسـاس متين يكفل ترسـيخ الوحدة الوطنية"، وفقرة أكثر تميزاً جاء فيها إن الرئيس فرنجية وجَّه الدعوة إلى الرئيس الأسد لزيارة لبنان وأنه قبلِها وسيحدد موعدها في وقت لاحق.

بعـد عودة الرئيس فرنجيـة إلى بيروت تزايـدت التكهنـات في أمر مـا تم الإتفـاق عليـه مع الرئيس الأسـد، والذي تبيَّن في ما بعد أنه صـيغة حل مثالي للأزمة يسـتند إلى مبادرة الرئيس الأسـد الذي نشـط بعض مسـاعديه في شـأنها وزاروا بيروت مرات عدة لهذا الغرض.

وفي العاشـرة من ليلة السـبت 14 فبراير/ شـباط 1976 تلا الرئيس فرنجية بنفسـه ما سُـمي" الوثيقة الدسـتورية" وبثتها الإذاعة ومحطة التلفزيون. وكان من المفترَض لو تخلى السـياسـيون اللبنانيون – وبعض أقطاب المقاومة الفلسـطينية – رموز الأزمة اللبنانية عن أطماعهم وأحلامهم وإرتباطات بعضـهم المثيرة للشبهة والشك والإستهجان، ووضعوا مصلحة الوطن والشـعب قبْل مصـلحتهم، أن تهدأ الأوضـاع وينشـر السلام والإستقرار ظلالهما على لبنان، وينجو البلد من الكمائن والمكائد التي نصـبتْها بعض الأطراف له. فـ "الوثيقة الدسـتورية" التي أذاعها الرئيس فرنجية تلبي كل متطلبات الإصـلاح السـياسـي، إذما بالتعقل والتروي. فهي مكتوبة وليست مثل ميثاق 1943 الذي لا ندري لماذا لم يكن هنالك إصـرار منذ البداية على توثيقه. و"الوثيقة الدسـتورية" تشـير إلى أن لبنان "بلد عربي سـيد حر مسـتقل"، ومثل هذا التحديد يحدُث للمرة الأُولى، ويمكن أن يُرضـي عواطف العروبيين داخل لبنان، فضلاً عن أنها تؤكد أن البلد حر ومستقل. وهي أيضـاً تحل إشـكالات كثيرة في شـأن الرئاسـات الثلاث (رئيس الجمهوريـة مـاروني، ورئيس مجلس النواب شيعي، ورئيس الحكومة سُني). وهي تشير إلى أن توزيع المقاعد النيابية سـيكون بالتسـاوي بين المسـلمين والمسـيحيين، وأن رئيس مجلس الوزراء يُنتخب من قبل المجلس النيابي بالأكثرية النسبية، وأنه سـيتم وضْـع نص يجعل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء مسـؤوليْن، وسـيتم في هذا المعنى إنشـاء المجلس الأعلى لمحاكمة الرؤسـاء والوزراء، وإن جميع المراسيم ومشاريع القوانين تصدر بالإتفاق بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وتحمل توقيعهما، ما عدا مرسـوميْ تعيين رئيس الوزراء والوزراء أو إقالتهم. كذلك تشـير الوثيقة إلى أنه سـيكون هنالك تعزيز لإستقلال القضاء وإنشاء محكمة دستورية عليا للنظر في دسـتورية القوانين والمراسـيم، وإلى تعزيز اللامركزيـة في العمل الإداري، وإزالـة الطـائفيـة في الوظـائف وإعتمـاد مبـدأ الكفـايـة مع المحـافظـة على المساواة في وظائف الفئة الأولى، وإنشاء مجلس أعلى للتخطيط والإنماء، والعمل على تحقيق عدالة إجتماعية شاملة، وتعديل قانون الجنسية، ووضْع سياسة دفاعية وتعزيز الجيش، وتكريس حرية مسـؤولة للصـحافة تضمن إنسجامها مع سياسة المجتمع في تحقيق الوحدة الوطنية وتوطيد علاقة لبنان العربية والدولية، وتعزيز التعليم العـام بمـا يؤدي إلى تعميم التعليم المجـاني وإلزاميته وتطوير البرامج التربوية بما يرسِّـخ الوحدة الوطنية.

وبالنسـبة إلى الوجود الفلسـطيني في لبنان، والذي كان زمنذاك العنصـر الأهم في الأزمة اللبنانية، فإن "الوثيقة الدستورية" تضمنت الفقرة التي من شأنها أن تغري قيادة المقاومة بالتخلي عن التورط بالسـياسـة اللبنانية والتوغل في أصـغر التفاصـيل. وهذه الفقرة هي: " لو كان الفلسـطينيون في حاجة إلى التذكير بأن مؤتمر القمـة العربيـة في الربـاط عهدَ إلى لبنـان في الدفاع عن قضـيتهم في الأمم المتحدة، والتذكير بأن تواجُد منطق الثورة الفلسـطينية ومنطق الشـرعية اللبنانية على أرض متماسكة ضيقة كأرض لبنان، التي

ليست في الأصل أرض الثورة بالذات، كان يفرض مزيداً من إمعان النظر والتحسب والإحتراز لئلا يصطدم المنطقان فيحصل التفجر، وبأن الوضع اليوم يفرض مزيداً من الحرص على الإلتزام بالإتفاقات والتقييد بتنفيذها، ولا سيما إتفاق القاهرة...".

ومن المؤكد أن هذا ليس كل شيء تم الإتفاق في شأن إعتماده كسياسة مستقبلية، إلاّ أن "الوثيقة الدستورية" كانت بمثابة إشارة إلى نية الإصلاح والتغيير. لكن مع ذلك نلاحظ أن الموقف إنفجر بعد الوثيقة لأن رموز الأزمة ومشعلي نار العنف، من لبنانيين وغير لبنانيين، وجدوا أن ما تتضمنه الوثيقة هو إنهاء لزعامتهم ولطموحاتهم، ونكاد نقول أطماعهم المستحيلة التحقيق في إطار الحل المتأني والعاقل والواقعي على نحو ما يبدو واضحاً في "الوثيقة الدستورية".

وكان الإنفجار مريراً. فقد عملت بعض الأطراف على تصدُّع مؤسسة الجيش التي إنقسمت جيوشاً، من بينها "جيش لبنان العربي" الذي وصلت الحال ببعض ضباطه إلى مكافأة الرئيس فرنجية على سعيه وإنجازه بالتعاون والتجاوب مع صديقه الرئيس حافظ الأسد، وذلك بقصف القصر الجمهوري بالمدافع وإجبار الرئيس على مغادرة القصر في أكثر المآسي المخجلة في تاريخ السياسة اللبنانية. ثم تلت ذلك محاولة إنقلابية غير مفهومة، إلى أن ضاع كل شيء. وإستمر البلد في مهب الرياح والتدخلات إلى أن إجتاحته إسرائيل. ولولا الصحوة المتأخرة، التي تكرست في الطائف بإتفاق يقوم أصلاً على روحية "الوثيقة الدستورية" لكان لبنان ما زال حتى الآن يعيش في أتون الحرب الأهلية، على نحو ما هو حاصل في الصومال وما يمكن أن يحدُث في السودان إذا كان زعماؤه، ومعظمهم تجمعهم بزعماء الأزمة اللبنانية جوامع مشتَرَكة، لن يتعظوا فلا يدَعون مبادرة الشيخ زايد تضيع منهم على نحو ما فعل أقرانهم اللبنانيون، ومِن ورائهم وحولهم المقاومة الفلسطينية، بمبادرة الرئيس الأسد التي أثمرت "الوثيقة الدستورية" والتي كان يمكن لو تم الأخذ بها وتثبيتها أن يزور الرئيس الأسد لبنان زيارة تأكيد لسيادته وإستقلالية قراره.

وليس من المبالغة في شيء إعتبار التلاعب بالمبادرتيْن (الكفيلتيْن بحفظ ماء الوجه وحِفْظ الوطن والوحدة الوطنية) مبادرة الرئيس الأسد التي ضاعت على لبنان قبْل عشرين سنة، ومبادرة الشيخ زايد التي يمكن أن تضيع في الزمن الحالي على السودان، مثل تضييع قرارات التقسيم التي أمضى العرب أربعة عقود يرفضونها... إلى أن جاء وقت باتوا يعضون الأصابع ندماً على الرفض.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 2 ديسمبر (ك1) 1996

* * *

فرار الصادق ومحاولة قتل عدي: محنة عائلتيْن

في الوقت الذي كنا مأخوذين بالخطوة التي أقدم عليها الزعيم السوداني الأوكسفوردي، الصادق المهدي، بعد الإعلان يوم الخميس 12 ديسمبر/ كانون الأول عن وصوله إلى إسمرة فاراً من وجه "الجبهة الإسلامية"، بشقيْها المدني والعسكري، جاءت الأنباء من بغداد في الوقت نفسه تفيد، وفقاً لنبأ تم بثه رسمياً – وهو تقليد غير مطروق – بأن عدي، الإبن البكر للرئيس صدَّام حسين، أصيب خلال إطلاق الرصاص عليه وهو يقود سيارته في محلة المنصور، التي تبعد حوالى كيلومتريْن عن قصر الرئاسة ومباني الدولة والقيادة القومية للحزب الحاكم.

وإذا كان من المبكر تناول ما حدَث لـ عدي صدَّام حسين بسبب الطوق المفروض على الحادثة غير المفاجئة، للذين يعرفون عدي عن قرب، أو يسمعون عن بُعْد بأفعاله وإهتماماته، إلاّ أن ذلك لا يعني أنه لا يجوز الإفتراض بأن الذي حدَث هو محاولة قتل تشبه طريقتها طريقة محاولة الإغتيال الفاشلة للرئيس العراقي الأسبق (الراحل) عبدالكريم قاسم عام 1958 على أيدي خمسة أشخاص كان أحدهم الشاب المفعم حماسة بعثية، زمنذاك، صدَّام حسين. ومن باب الإفتراض أيضاً يمكن القول أن إطلاق الرصاص على عدي تم لخلاف شخصي، أو نتيجة خراب بيت، أو علاقة، أو أُسرة. والذي يجعل مثل هذا الإفتراض وارداً هو أن لعدي إهتمامات في عالم التجارة تشعبت إلى درجة أنها أفرزت مافيات في البلد. وفي قاموس التعامل التجاري، وبالذات في زمن الحروب وحالات الحصار، فإن التصفيات تسود وتتحول إلى لغة تعامُل كيف أن قصصاً أقرب إلى الخيال تُروى عن سمعة عدي كإنسان شغوف بالسهر والسمر. ومَن كانت هذه

حاله، وفي بلد يتمسك بالتقاليد، فإن خصومه عادة كثيرون.

كذلك يجوز الإفتراض بأن إطلاق الرصاص قد تكون له دوافع سياسية غير مرئية، بمعنى أن الرئيس صدَّام ربما يكون قرر، بعدما بدأ العراق عملية تصدير كميات من النفط، أن يورث نجله البكر، وذلك على أساس أن الحل ليس في مستوى طموح الرئيس وتطلعاته، وبحيث أن ما يصعب على الرئيس صدَّام الإقدام عليه في إتجاه العلاقة مع الولايات المتحدة والإنفتاح المطلوب منه على العملية السلمية، وإلى حد المشاركة فيها، يمكن أن يقوم به إبنه، ومن دون أي إحراجات، على أن ينصرف الرئيس إلى شؤون الحزب، يطوره في إتجاه جديد. وفي سياق الإفتراض المشار إليه، قد تكون بعض الحلقات الحزبية عرفت بما ينوي الرئيس صدَّام أن يُقدِم عليه، فحاولت إغتيال الإبن الوريث بحيث إذا هي أنهت حياته ينتهي الأمر، وإذا هي أصابته وبقي على قيد الحياة فإنه يكون عرضة لمزيد من المحاولات. وإستناداً إلى هذا الإفتراض فإن الحلقات المشار إليها تعتبر أن ما يمكن أن ترتضيه من الرئيس صدَّام لا يمكن قبوله من نجله، وذلك لإعتبارات موضوعية. وهذا في أي حال إفتراض.

وبصرف النظر عما يمكن أن يفعله الرئيس صدَّام، وهل سيتم تحويل واقعة نجاة عدي من الإغتيال إلى حدث وطني، كمثل ما تحولت واقعة مشاركة صدَّام الشاب إلى عمل وطني وبطولي يتم الإحتفال به حزبياً، فإن الذي حدَث كان محنة بكل معنى الكلمة والمأساوية أصابت العائلة التكريتية في الصميم، مثل ما تسبب فرار الصادق من السودان إلى إريتريا لعائلة المهدي بمحنة.

وبالنسبة إلى الصادق المهدي، فإنني كنت – ويشاركني الرأي كثيرون عرفوه – أتمنى ألاَّ يسجل على نفسه أنه فر من السودان. وعلى رغم أنه يختار لهذه الحالة تعبير "المهاجَرة" وليس "الهرب" على نحو ما يستعذب خصومه القول، فإن الذي فعله كان فراراً من وجه الحُكْم القائم في السودان، مثلما أنه فرار من حالة سيئة إلى حالة أسوأ. فالصادق، الذي تجيز معرفتي به وصداقتي له لمدة أكثر من ربع قرن الحديث عنه على هذا النحو، كان في الخرطوم يعيش وضعاً لائقاً نسبياً. فهو يتحدث إلى الصحافة العربية والأجنبية عندما يريد، وهو يقوم بواجباته الإجتماعية كزعيم سياسي على نحو ما يريد. وصحيح أن وجوده داخل السودان وفي قلب العاصمة المثلثة، مع مزاولة النشاط السياسي في الحد الأدنى، أفاد النظام الذي ظهر من جراء ذلك بأنه نظام مرن ومستنير ويتحمل رأي الآخرين، ولو على مضض، إلاَّ أن المعارضين للنظام لسبب أو آخر، داخل السودان، وجدوا في بقائه سنداً معنوياً، أو أنهم كانوا مثل جنود لهم قائد شكلاً وموضوعاً وأنهم بفراره باتوا جنوداً بلا قائد. ومعروفة حالة الجنود عندما تكون على نحو ما نشير. كما أن وجود الصادق المهدي داخل السودان كان يشكِّل عنصر إطمئنان للناس المتذمرين معيشياً وإجتماعياً على أساس أن هنالك مَن يرفع، وبالصوت العالي في مقابلة صحافية أو إذاعية في خطبة منبرية خلال صلاة الجمعة أو صلوات المناسبات الدينية، شكوى هؤلاء المتذمرين على نحو ما يفعله في لبنان منذ ست سنوات وبلا كلل أو ملل بطريرك الطائفة المارونية نصرالله صفير. وحالة طائفة الأنصار في السودان هي في بعض جوانبها مثل الحالة الراهنة للطائفة المارونية في لبنان عدا بعض الإستثناءات وهي أيضاً إستثناءات موجودة في السودان حيث أن هناك أنصاريين تُرابيون أكثر من الشيخ حسن التُرابي وبشيريون أكثر من الفريق عمر البشير. وإلى ذلك إن وجود الصادق في الخرطوم كان معناه أنه العين الشاهدة على ما يمارسه النظام، وكلما كانت الممارسة خاطئة كلما كانت حجة الصادق وهو يتحدث، أو يقف على المنبر، أقوى، وكانت معلوماته عندما يتحدث أدق وأصدق من معلومات رموز المعارضة المتواجدين بين إريتريا ولندن، والذين يُكثرون من التخمينات عند الحديث عما يجري داخل السودان.

ومن المؤكد أنه لو ارتأى الصادق حسم الأمر، وقرر أن يكون معارضاً داخل السودان وليس رجل المعارضة السودانية المقيمة في الخارج، لما كان تعرض له أحد أو أن مَن يحاول التعرض له كان سيخضع للمساءلة، وربما لما هو أكثر من المساءلة. أما ما يتعلق بالسجن والملاحقة فإن شهور السجن هذه أفادت الصادق سياسياً ومعنوياً بقدر ما أزعجتْه صحياً.

وفي تقديرنا إن قامة الصادق بعد السجن، وبسبب، باتت مديدة أكثر على الصعيد المعنوي، وبات من المنتسبين إلى مدرسة الزعيم الأفريقي نلسون مانديلا، في حين أن فراره إلى إريتريا ليس إنجازاً يجب أن

يتباهى به، بل هو، أي الفرار، خطوة قد تكون مناسِبة لأحد مريديه، كالدكتور عمر نور الدائم ومبارك المهدي، وآخرين، إذا كانوا داخل البلاد ويريدهم أن ينتقلوا إلى الخارج لتوصيل معاناته في سبيل الحرية والديمقراطية إلى العالم. لكن هذا القرار لا يليق به شخصياً، خصوصاً أنه يعلن بنفسه ومن الخرطوم، بمعدل مرة كل أسبوع، وأحياناً أكثر، عن هذه المعاناة. وفي تقديرنا أيضاً إنه من داخل السودان، كان الصادق المهدي سيفيد في ترويض النظام، وليس بالأمر المستحيل حدوث هذا الترويض إذا حدث نوع من التبادل المتكافىء في المرونة والتبصر.

وفي ضوء ما أعرفه شخصياً عن رؤية الصادق للمسألة الوطنية، ولمفهوم السيادة والإستقلال، فإنني أستغرب – ويشاركني الإستغراب كثيرون – أن تكون الملاذ له عاصمة ملأى بعناصر الموساد، وبلداً يقدم لإسرائيل ما هو أكثر بكثير من شحن بضعة ألوف من الفالاشا إليها، وهو أمر إستهجنه الصادق في حينه كل الإستهجان لأن فاعله كان نظام الرئيس نميري. ومع الأخذ في الإعتبار أن إريتريا كانت الوحيدة التي يمكن أن تساعد وتستقبل، وتضع بتصرف الصادق طائرة هليكوبتر تنقله من الحدود مع السودان إلى أسمرة، عاصمة تطبيع افريقيا المسلمة مع إسرائيل، فإن بُعد النظر لم يحالف الصادق في هذا الإختيار. ولكَم كنا نتمنى لو أنه تريث قليلاً أو كثيراً، أو لو أنه أعلن في إحدى مقابلاته الصحافية والإذاعية والتلفزيونية، أو في إحدى الخطب مِن على منبر المسجد أنه – إذا كان يفضل عدم تكرار التجربة مع ليبيا أو عدم إحراج صديقه السابق العقيد معمَّر القذَّافي وكذلك عدم تحبيذ التوجه نحو مصر – ينوي أداء العمرة ويريد التوجه لتأديتها والمكوث بضعة أيام في المدينة المنورة بجوار المسجد النبوي الشريف، وفي مكة المكرمة بجوار الكعبة المشرفة، وبعد تأدية العمرة يتوجه إلى المكان العاقل، وهو في حال أعلن ذلك ولم يتجاوب النظام مع الرغبة ويجيز له السفر فإن النظام سيكون هو الخاسر، وربما أكبر الخاسرين.

وإلى ذلك إنني شخصياً لست مع هذه الأضواء الكاشفة، التي يلقيها بعض أفراد الأُسرة على طريقة الفرار والإيحاء بأنها "جايمس بوندية". وأنا، مثل كثيرين، يخشون على الصادق من هذا الإختيار الذي بدأ بتهريبه من السودان إلى خارج السودان، مع أنه في حالات المقاومة يكون المطلوب حدوثه التهريب بالصيغة المعاكسة، أي تهريبه من الخارج إلى الداخل، ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن مغادرة الصادق في موكب من بضع سيارات في رحلة إستغرقت حوالى عشر ساعات، هي المسافة بين الخرطوم وحدود إريتريا، ومن دون أن "يتنبه" أحد لذلك، تشبه في بعض جوانبها رحلة موكب حسين كامل من بغداد إلى عمان من دون أن "يتنبه" أحد لذلك أيضاً. وعندما نشير إلى أوجه التشابه فإننا لا نتمنى على الإطلاق للصادق ما حدث لـ حسين كامل، مع أن المرء يوجس قلقاً من فرار السودانيين في إتجاه الشرق، إمام طائفة الأنصار وعم الصادق على أيدي نظام الرئيس نميري، أطال الله عمر الصادق وجنَّبه مكيدة أو شِرْكا يمكن نصْبه له في طريق العودة، التي لا بد منها ما دامت حدثت المغادرة، إلاّ إذا كانت هذه العودة على نحو ما يتطلع الصادق ويتمنى ويتشوق، أي بالعودة بطلاً على طريقة عودة الإمام الخميني من باريس إلى مطار طهران.

وهذه الفرضية تجعلني شخصياً أتساءل: هل إن المعارضة السودانية التي إستقر بها المقام في إريتريا ستتفق هذه المرة أن تجمِّد كل النوازع، وتصْرف النظر عن فكرة صيغة رأسيْ الدولة التي لم تكن مستقرة وتركت إنطباعاً بأنها صيغة الحُكْم إقطاع الطائفتيْن، الأنصار والختمية؟ وهل أنها كبديل مستقر لهذه الصيغة وما دام إكتمل العقد المعارض بوصول الصادق رئيساً لجمهورية السودان، وجون قرنق نائباً للرئيس (أي على نحو صيغة السبعينات بين نميري وجوزف لاقو) ويتوزع الآخرون مغانم التغيير بالحسنى، أو بما هو عكس ذلك؟

ومع أنه من المبكر الإفتراض بما ستكون عليه عملية الإختيار، إلاَّ أن الذي يمكن قوله هو أن فرار الصادق قد يكون حلاً لبعض رموز المعارضة، إلا أنه محنة جديدة لأُسرة المهدي التي إضطر كبيرها الصادق أن يتخلى عن أعظم لحظة في حياة الأب، وهي لحظة زواج أولاده وبالذات البنات، فيغادر الدار بينما إحدى البنات تُزف إلى عريسها. وفي تقديري أن هذه اللحظة أهم بكثير من لحظة تسلُّم الحُكْم... إلاَّ أنها بالنسبة إلى مَن ذاقوا طعم الحُكْم وفقدوه، مثل صديقنا وعزيزنا الصادق ربما تكون لحظة أهم من كل اللحظات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – 16 ديسمبر(كانون الأول) 1996

* * *

نظرة من لندن على قمة العتب والغضب (موضوع واحد في ثلاث مقالات)

المقالة الأولى: مؤتمر حمد الأمير وحمد الوزير وبينهما... حمد وليّ العهد

على مدى أربعة عقود من المؤتمرات العربية والإسلامية تأكد أن المقاطعة والإنسحاب والإستبعاد، لا تُحقق شيئاً ولا تَخرج عن كونها حالة عتب أو غضب، أو حالة غضب بعد عتب تفيض في النفس وتضغط في إتجاه التعبير بما لا يفيد. وحتى القمة الخليجية السابعة عشرة في الدوحة (من 7 إلى 9 ديسمبر/كانون الأول 1996) ليس هنالك قمة تعثرت لأن دولة قاطعت أو رئيس دولة إنسحب من الجلسة الختامية، كما أنه ليس هنالك قمة حققت النجاح لأنها إستبعدت دولة عضواً من المشاركة فيها.

وعلى مدى العقود الأربعة من المؤتمرات، لم تتمكن دولة قاطعت، أو رئيس دولة إنسحب، أو دولة مضيفة إستبعدت من المشاركة إحدى الدول، من إقناع الرأي العام العربي بالخطوة التي تم إتخاذها. وفي إستمرار كان منطق من يتخذ الخطوة التي نشير إليها ضعيفاً أمام المنطق الآخر. ونقول ذلك على أساس أنه إذا لم تكن المؤتمرات مناسَبة للجميع كي يشاركوا، وإذا شاركوا لا ينسحبوا، ويسجل كل وجهة نظره وموقفه، وبصرف النظر عن أي إعتبارات، فما جدوى تلك المؤتمرات، وأي مناسبات يمكن أن تكون أفضل منها؟

ولقد إفترضْنا على مدى خمس عشرة سنة أن "ڤيروس" المقاطعة والإنسحاب لن يصيب مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وذلك لأن التجانس الذي هو السمة التي تُميز أنظمة دول هذا المجلس، والهموم المشتركة، والخشية من صراعات بقية الأشقاء، أي كل الدول العربية غير المنضوية تحت راية مجلس التعاون الخليجي، تفرض على قادة هذا التجمع الظهور دائماً بالمظهر المتماسك، إلى أن سجلت قطر الإنسحاب الأول من مؤتمر (حدث ذلك في قمة مسقط وهي السادسة عشرة لمجلس التعاون الخليجي) إضافة إلى أنها قاطعت بعض الإجتماعات الوزارية، وجاءت البحرين لتسجل في القمة السابعة عشرة التي أنهت أعمالها يوم الإثنين الماضي في الدوحة المقاطعة الأُولى. وكلاهما، الإنسحاب قبْل سنة، والمقاطعة قبْل عشرة أيام، أحدث دوياً خليجياً، وأحدث أيضاً تشققاً في جدار هذه المنظومة التي كانت تتباهى في إستمرار بأنها نموذجية، فإذا بها مثلها مثل مؤسسة القمة العربية التي تكاثرت فيها المقاطعة والإنسحابات والتقاذف أحياناً بكبير الكلام وصغير الصحائف.

ومع أن الظروف ليست متشابهة، إلاّ أننا لا ندري ما الذي جعل قمة الدوحة لا تحذو حذو قمة بغداد عام 1978 ويتم إيفاد وفد إلى المنامة ليطلب من أميرها المشاركة في قمة الدوحة، على نحو ما فعلت القمة العربية الإستثنائية في بغداد قبْل ثماني عشرة سنة عندما أرسلت وفداً إلى القاهرة ليطلب من الرئيس أنور السادات العودة عن قرار الصلح مع إسرائيل والمشاركة في القمة المستعدة لتأمين إحتياجات مصر ومساعدتها مالياً، وذلك على أساس أن الرئيس السادات إختار مصالحة إسرائيل لأن مصر باتت غير قادرة على تحمُّل أعباء المواجهة والحرب وتبعاتهما. وقد يكون أهل قمة الدوحة تفادوا الخطوة التي نشير إليها لعدة إعتبارات، من بينها أن الخطوة لم تكن مجدية بدليل أن الرئيس السادات رفض حتى إستقبال الوفد، الأمر الذي يعني أنه إتخذ قرار مصالحة إسرائيل ولن يعود عنه. وقد يكون التفادي سببه أن مؤسسة القمة الخليجية لم تر في مستجدات الأزمة القطرية – البحرينية ما يوجب المقاطعة من جهة، وأنها في الوقت نفسه لا تحبذ تسجيل مثل هذه السابقة، لأن معناها مستقبلاً أن كل مَن يقاطع سيكون في إنتظار وفد من القمة يطرق بابه ويصطحبه إلى العاصمة التي تنعقد فيها القمة. بل قد يجوز القول إن أهل القمة الخليجية السابعة عشرة كانوا، إستناداً إلى ملامح وجوههم، في غاية الإنزعاج لأن البحرين قاطعت، وأنهم نتيجة لهذا الإنزعاج ارتأوا أن يخلو البيان الختامي لهم حتى من الإشارة إلى غياب البحرين، ولا إبداء الأسف لهذا الغياب، مع أنهم خصصوا في البيان بضعة أسطر وجَّهوا من خلالها التحية إلى رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الذي لم يتمكن من المشاركة بداعي الظروف الصحية. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن هذه اللفتة كانت في بعض جوانبها نوعاً من التعويض عن عدم أخذهم بالمذكرة الإماراتية في شأن البدء بإستعادة العراق وتطبيع العلاقات معه، والإستعاضة عن ذلك بإستمرار التشدد معه. ومَن يقرأ البيان الختامي يفترض أن مجلس التعاون الخليجي يتألف من خمس دول وليس

من ســـت كما هو واقع الحال. ويبدو إغفال مســـألة المقـاطعـة والغيـاب مثـل التقليـد المعمول بـه داخـل الجلســـات البرلمانية، أو حتى الإجتماعات التي يكثر فيها النقاش، وأحياناً التلاسن، وترتأي الرئاسة، أو بناء على طلب أعضـاء، عدم تضـمين محضـر الجلسـة الإشـارة إلى فقرات معينة وردت في سـياق المناقشـة على لسان هذا الطرف أو ذاك.

وقد يجوز القول إن البحرين قاطعت لكي لا تجد نفســـها في مواجهة كلامية داخل المؤتمر. ولكن ما تفاداه الشـيخ عيســى حدث بصـيغة أُخرى، حيث إن وزير خارجية قطر، الشيخ حمد بن جإسم بن جبر آل ثاني، أورد في المؤتمر الصـــحافي الذي عقده وكانت وفود المؤتمر ما زالت في الدوحة (بمعنى أن المؤتمر هو عملياً من حقوق أهل القمة وليس من حق الوزير وحده) كلاماً عن البحرين يجمع بين النقد والإتهام. وكان أكثر ما يلفت النظر في هذا الكلام، هو إقحام وليّ عهد البحرين، الشيخ حمد بن عيسى، في مسلسل التلاســـن وإتهامه بـ "تدبير المحاولة الإنقلابية" التي إستهدفت حُكْم الأمير الإبن في الدوحة، والحديث عنه بلهجة وبمفردات لم يحدث أن خاطب بها وزير ولياً للعهد في دول مجلس التعاون، فضـــلاً عن كلام فيه تشـــاوف مَن يملك ثروة النفط على مَن يملك نعمة القناعة بمجاورة مالكي هذه الثروة وبما قســـمه الله ســـبحانه وتعالى، مثل قوله إن قطر أبدت إســـتعداداً لتوظيف عشـــرة آلاف بحريني لحـل الضـــائقـة الإقتصـــادية. وهذا الكلام كصـــياغة ومفردات ما كان ليقال قبْل إنعقاد القمة، أو في اليوم الأول للإنعقاد، لأن المشـاركين كانوا سـيلومون الدولة المضـيفة أشـد اللوم، وهو أمر يـدركـه تمـامـاً رئيس الـدبلومـاســـيـة والمواجهة القطرية الشـيخ حمد بن جاسـم، ومن أجْل ذلك إختار التوقيت الذي يكون فيه إحراج الضـــيوف أقل، والضـرر الذي يلحق بالبحرين أكثر. وثمة مفارقة لافتة للنظر، وهي أن الذي يخوض المواجهة الكلامية من قطر هو إبن الأســرة الحاكمة، بينما الذي يرد من البحرين هو وزير شؤون مجلس الوزراء والإعلام محمد إبراهيم المطوع، الذي هو إبن الأسرة البحرينية.

وعلى هـامش مســـألـة مقـاطعـة البحرين للقمـة الخليجية، التي هي تقليد جديد يدخل على مؤســســـة القمة، والمؤتمر الصـــحافي المباغت الذي عقده وزير خارجية قطر توقيتاً ومضـموناً، وهو أيضـاً مثل التقليد الأول من التقاليـد اللافتـة للنظر وغير المســـتحبـة، تســـتوقف المراقب لأعمال القمة من بعيد – من لندن مثل حالنا – أمور وظواهر أُخرى، من بينها أن القمة كانت الأولى التي يتمثل فيها جيل الإبناء، ونقصـــد بذلك الأمير الإبن في قطر، الشـــيخ حمد بن خليفة، الذي حققت لـه القمـة الإعتراف على مســـتوى قـادة الخليج بحضـورهم – أو حضـور مَن يمثل بعضـهم – إلى الدوحة، وهو أمر غير متيســـر حدوثه لولا القمة. وعلى هذا الأساس يجوز القول إن الأمر إستقر للأمير الإبن الذي هيأت له القمة الظرف النفسـي والسـياسـي المناســـب لكي ينهي الأمر الأُســري العالق والخاص بوالـده الأمير الســـابق. ونلاحظ هنـا أنـه لمجرد أن غـادرت الوفود الـدوحـة توجـه الأمير الإبن إلى رومـا ليبدأ مع والده الشيخ خليفة المحادثات التي في ضوئها ينتهي الإشـــكال ويصـــفو الخاطر وتحدُث العودة والإقامة في الدولة بصـفة "الأمير الوالد" وليس "الأمير السـابق" على نحو حالة "الملكة الأم" في بريطانيا التي لا يشـار رسـمياً لها بكلمة الملكة السـابقة، وعلى نحو حالة الرئيس العراقي الراحل أحمد حســن البكر، الذي كان يشـاركه صـدَّام حسـين الرئاسـة ثم بعدما تسـلَّم صـــدَّام المســـؤولية كاملة في الدولة والحزب يوم 16 يوليو/ تموز 1979 صـــار يطلق على البكر "الأب القـائـد" وأحيـانـاً "الأب والرفيق القـائـد" وليس "الرئيس السـابق". وبعد مشـاركة دول مجلس التعاون في القمة الخليجية السـابعة عشـرة في الدوحة يبقى من رؤسـاء الدول الذين إســـتقبلوا والده الشـــيخ خليفة وكأنما هو الأمير المســـتمر لدولة قطر، الرئيس حســـني مبارك الذي إسـتقبل الشـيخ خليفة في مطار القاهرة، والرئيس حافظ الأسد الذي إستقبله في مطار دمشق، مع الأخذ في الإعتبار أنهما فعلا ذلك إنسـجاماً مع ما فعله قادة الخليج ومسـايرة منهما لرأي قادة الخليج غير المحبذين للتغييرات الصـــاعقة على نحو مـا حدث في قطر. وأغلب الظن أن الأمير الإبن الشـيخ حمد، وفي ضـوء قمة الدوحة التي استضـافها، إضـافة إلى تَبدل أسلوب التخاطب ومنطلقات النظرة إلى مســـألة التطبيع مع إسرائيل التي بات يتسم بها موقف قطر، سيسعى من جانبه لإزالة بقايا التحفظ في العلاقة القَطَرية مع كل من مصـر وسـوريا. وإذا كتب للقمة العربية الإسـتثنائية أن تنعقد في دمشـــق في يونيو (حزيران) المقبل على نحو مـا يؤكـد ذلـك العقيـد معمَّر القـذَّافي فـإن بقـايـا التحفظ المشار إليها ستزال ما دام الأمير الإبن الشيخ حمد سيشارك في هذه القمة.

ومن الظواهر أيضـــاً أن القمة الخليجية العادية السابقة عشرة في الدوحة تسجل مبادرة مؤازرة للقمة العربية الإستثنائية التي عقدت في القاهرة من 21 إلى 23 يونيو 1996 (لعلها من المرات النادرة مصـــادفة إنعقاد القمتيْن في سنة واحدة وبفارق أقل من نصف سنة) وتتمثل المؤازرة في أن بيان قمة الدوحة تضمَّن الفقرة الآتية: "إســـتعرض المجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية تطورات عملية السلام في الشـرق الأوسـط وما يعتريها من تداعيات ناتجة عن إستمرار الحكومة الإسرائيلية في سياسات المماطلة في تنفيذ الإتفاقات المبرَمة مع الجانب الفلســطيني ومحاولات إعادة التفاوض في شأنها إلى جانب تكريس الإحتلال الإســرائيلي للأراضـــي العربية وإعاقة جهود الســلام الصـــادقة المبذولة من قِبَل المجتمع الدولي، الأمر الذي يمثِّل إنتهاكاً للإلتزامات والأُســس التي ترتكز عليها عملية الســلام وقرارات الشـرعية الدولية ذات الصـــلة وإجراءات بناء الثقة. وإذ يعبِّر المجلس الأعلى عن رفْضه التام لسياسات الحكومة الإسرائيلية هذه، لما تشكِّله من مخاطر حقيقية تهدد فرص السلام وتنذر بالعودة إلى التوتر وأعمال العنف وتضطر دول المجلس معها إلى إعادة النظر في الخطوات المتخذة تجاه إســرائيل في إطار العملية الســلمية، فإنه يدعو مجدداً كافة الأطراف المعنية بعملية الســـلام وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأميركية وروســيا الإتحادية إلى مواصلة جهودهما في سبيل تحقيق السلام العادل والشـــامل الذي يعيد الحقوق المشـــروعة لأصـــحابها ويرسي الثوابت الدائمة للأمن والإستقرار والرخاء لسائر شعوب المنطقة...". أما بيان القمة العربية الإستثنائية في القاهرة فكان تضمن فقرة جاء فيها: "إن أي إخلال من إسرائيل بالمبادئ التي أُفق عليها في مؤتمر مدريد وبخاصـة مبدأ الأرض مقابل السـلام، وبالأسـس التي قامت عليها عملية الســـلام، أو تراجع عن الإلتزامات والتعهدات والإتفاقات التي تم التوصـل إليها من شـأنه أن يؤدي إلى إنتكاســة عملية الســلام بكل ما يحمله ذلك من مخاطر وتداعيات تعود بالمنطقة إلى دوامة التوتر ويضـــطر الدول العربية كافة إلى إعادة النظر في الخطوات المتخذة تجاه إســـرائيل في إطار عملية السلام، الأمر الذي تتحمل الحكومة الإسرائيلية وحدها المسؤولية الكاملة عنه...".

وعند المقارنة بين مضـــمون الفقرتيْن يتبين لنا أمر المؤازرة التي نشـير إليها والتي تكتســب أهميتيْن بدل الأهمية الواحدة. الأُولى لأنها صـــادرة عن القمة الخليجية وفي ظل ظروف بالغة الصـــعوبة تواجهها العملية الســـلمية من دون أن تتدخل الإدارة الأميركية لتخفيف وطأة هذه الظروف. وليس واضـــحاً ما الذي جعل أهل القمة لا ينتهزون مناســـبة تزامُن إنعقاد مؤتمرهم مع تجديد الولاية للرئيس كلينتون فيســـجلون رأياً أو موقفاً في هذه الولاية وما هو المطلوب وبشـيء من الحزْم من الرئيس الأميركي الجـديـد – القـديم، خصوصاً أن التعيينات الصاعقة في الخارجية والدفاع ووكـالـة المخـابرات المركزيـة ومجلس الأمن القومي (وكلها مراكز تعني منطقة الشـــرق الأوســـط والعملية السلمية بشكل أساسي) صدرت في الساعات القليلة التي ســـبقت إنعقاد القمة. أما الأهمية الثانية لمؤازرة القمة الخليجية للقمة العربية الإســـتثنائية، التي عُقدت في القاهرة، فلأن الموقف المتأهب للتشدد إزاء إسرائيل صـــدر في الدوحة التي راهنت حكومة نتنياهو على إمكانية الإســـتفراد بها، فإذا بالأمير الشـــيخ حمد بن خليفة يفاجئ إســـرائيل بإيفاد وزير خارجيته إلى غزة مزيلاً بزيـارتـه عتباً عربياً واحتقـانـات في النفوس من هـذا التغريـد غير المبرر خـارج الســـرب العربي والخليجي. ثم تلي المفاجأة الأُولى مفاجأة لاحقة وهي تضمين البيان الصادر في الدوحة الكلام المؤازر لقمة القاهرة. ولقد كان من المستغرَب إنعقاد القمة من دون الزيارة التي قام بها رئيس الدبلوماســـية القطرية، أحد الرائديْن الخليجييْن للتطبيع مع إسرائيل الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني، (الرائد الآخر هو وزير الدولة للشؤون الخارجية العماني يوسف بن علوي) ومن دون صدور توضـــيحات كثيرة بعد الزيارة من بينها التلويح بوقف قطر التطبيع مع إســرائيل. بل إنه قد يجوز الإفتراض أن حمد (الأمير) أوفد حمد (الوزير) إلى غزة وأوعز إليه بالتصريح بعد ذلك بأن قطر ستوقف التطبيع، من أجْل أن تنعقد القمة... لأنها الأبقى والأهم.

وتلك ليســـت كل الظواهر. فلهذه النظرة من لندن على قمة الدوحة، التي هي قمة العتب والغضـــب... بالأسلوب الخليجي، بقية.

* * *

□ المقالة الثانية: هل يصـــبح الإلحاح اليمني على الخليجيين مثل إلحاح الســوريين والقوتلي على عبد الناصر؟

كان الإلحاح اليمني من أجْل الإنتساب إلى مجلس التعـاون لـدول الخليج العربيـة هو إحـدى العلامـات

الفارقة لقمة الدوحة وهي السابعة عشرة في سلسلة القمم الخليجية.

بداية الإلحاح تزامنت مع إصـــطلاح الحال بين المملكة العربية الســـعودية واليمن. ومنذ ذلك الوقت والرئيس علي عبد الله صالح يلمح في لقاءات التشاور مع بعض رموز العمل الســـياســـي اليمني إلى أن إنضـــمام اليمن إلى تجمُّع الأشـــقاء الخليجي أمر لمصلحة البلاد ولمستقبل الأجيال فضلاً عن أن مثل هذا الانضـمام يفرض على اليمن ثوابت في موضـوع التعامل الخليجي لا تضـــطر للخروج عنها في بعض الحالات الإستثنائية.

وإستناداً إلى كلام منسوب إلى وزير العدل اليمني الدكتور عبد الوهاب الديلمي فإن القيادة اليمنية طرحت رغبتها في الإنضـــمام إلى مجلس التعاون الخليجي منذ فترة طويلة، وأن دول المجلس التي بلِّغت الرغبة لم ترُد على الطلب. وقد يجوز الإفتراض أن القيادة اليمنية إعتبرت أن نوعاً من التجاوز ســـيحدث على أساس أن في الإنتساب جوانب مغرية من بينها أن وجود اليمن في مجلس التعاون معناه أنها لن تكون على الإطلاق شوكة في خاصرة دول المجلس وبالذات بعدما سويت الإشكالات الحدودية بين اليمن وسلطنة عمان وبعدما قطعت خطوات التفاهم الســـعودية – اليمنية الأشواط الصعبة.

وإلى جانب ذلك هنالك المواصـفات المسـتجدة في اليمن والتي تجعل دول مجلس التعاون مطمئنة. فقد باتت اليمن دولة نفطية وقد لا يحل العام ألفين إلاَّ وتصـبح مرشـحة لعضـوية منظمة الأوبيك. وعندما تكون هذه حال اليمن فهذا معناه أنها لن تشـكِّل على المدى البعيد العبء المالي الذي يمكن أن تشكِّله على المدى القصـــير لدول الثروة النفطية. كما أن الكثافة السكانية اليمنية تحل للمجلس المعادلة التي لا حل لها وهي الهوة الساحقة بين عدد سكان دول المجلس وبين مســـاحات وثروات هذه الدول، وتحل بالتالي مســـألة الأمن الدفاعي للمجلس حيث في إســـتطاعة دول المجلس في حال باتت ســـبع دول بدلاً من ســـت أن تنشـئ قوة دفاعية من ربع مليون مقاتل يملكون أحدث أنواع الأسلحة ويتمركزون في أهم النقاط الإستراتيجية من باب المندب إلى ضـفاف البحر الأحمر وشـواطئ الخليج.

وبالنظر إلى العلاقة الأميركية – اليمنية التي تتسم ببعض الخصـــوصـــية القابلة للتطور فإنه من الجائز الإفتراض أن رغبة الإنتســـاب اليمني إلى مجلس التعاون الخليجي ليســـت في منأى عن التفكير الأميركي الذي يرى المنظِّرون لهذا التفكير أن اليمن هي البوابة الغربية – الجنوبية لدول المجلس تكتمل بها إطلالة المجلس على البحر الأحمر وباب المندب. وعندما يكون ذلك حاصلاً فإن نسبة التأمل من جانب دول المجلس في الرغبة اليمنية تتزايد مع نضـــوج النظرة وإستكمال القناعات.

وإلى ذلك إن حجة اليمن في الإنتساب إلى مجلس التعاون الخليجي باتت أقوى قليلاً بعدما إســـتقر أمر الدولة الموحدة ولم يعد الجنوب تلك القنبلة الموقوتة أو تلك البقعة اليسارية والإشتراكية في منطقة الخليج على نحو ما هي عليه كوبا بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

ولكن الإلحاح اليمني لا يعني أنه ليس وليد الحاجة والضـــرورة القصـــوى. فالإنتســـاب إلى مجلس التعاون معناه أن بضـــعة ألوف من العمال والموظفين اليمنيين سيحلون من منطلق الأفضلية محل بضعة ألوف من الأجانب الأســـيويين بشـــكل خاص ومن رعايا دول عربية. والإنتســـاب سـيُنهي مشـاعر الحذر من اليمن والنظرة من جانب بعض الخليجيين إليها على أنها حاقدة عليهم ولا تريد لهم الخير. والإنتســـاب ســـيجعل اليمن محط أنظار الإســـتثمارات الخليجية وقد يحدِّث في ضوء ذلك أن كثيرين من أبناء دول الخليج سيبنون بيوتاً لهم هناك وينشـئون عشـرات الشـركات والمراكز التجارية. والإنتساب سيحل لليمن مشكلة انتمائها حيث إنـه لا بـد لهـا من تجمُّع تنتمي إليـه. وهي عنـدمـا إنتســبت إلى مجلس التعاون العربي فعلى أســاس أن الإنتســاب يحل مشـكلة الإنتماء. وهي في ذلك الوقت كانت حائرة وكانت علاقتها بالولايات المتحدة غير واضـــحة وكانت مشـــكلة التوحد ماثلة لكل من يتابع أحوال اليمن وإلى درجة أن الشـــعور الســـائد هو أن الشـــمال شـــمال والجنوب جنوب ولن تســـتقر حالة توحدهما. ومَن تكون هذه حاله فإن النظرة من الآخرين إليه تكون حذرة.

وقـد تكون طبيعـة النظـام في اليمن هي أحـد الأســـبـاب التي تجعـل التحفظ تجـاه قبول الرغبـة بـالإنتســـاب يغلب على الترحيب. وهذا إلى حد ما صـــحيح في ظل ظروف بدايات إنشـاء المجلس، أما بعد الذي جرى في المنطقة ولها نتيجة الغزو العراقي للكويت ثم الحرب على العراق وتحرير الكويت فإن النظرة إلى النظام ليســـت على أســـاس طبيعته وإنما

على أســـاس التعامل والتعاون معه، أي بما معناه إن كون النظام في اليمن وليد ثورة وكونه جمهورياً ويطبّق الإشــتراكية في بعض مفاصــل إقتصــاده وتجارته لا يعني أنه من المستحيل قبول إنتسابه. ونقول ذلك على أساس أن مجلس التعاون الخليجي صيغة قابلة للتطور وأن النظام في اليمن صـيغة قابلة للتطور هي الأُخرى في ضــوء المســتجدات. ثم إن العلاقة التي بين دول مجلس التعاون وكل من ســوريا ومصــر معناها أن التنوع ممكن. وإذا حدثت تطورات مباغتة وأوجبت ضخ المزيد من الحيوية إلى دول إعلان دمشق بحيث يصــبح دورها أكثر فعالية في مواجهة تلك التطورات من دور مجلس التعاون الخليجي فإن تنوع الأنظمة لن يقف حائلاً دون ذلك. وفي الأصــل فإن موقف اليمن الطبيعي هو مؤازرة الجيران الخليجيين. ولو حدَث بعد الغزو العراقي للكويت أن اتخذت اليمن موقفاً غير الذي إتخذتْه لكانت بطبيعة الحال هي الدولة التاسـعة في منظومة إعلان دول دمشق ولكان طلب إنتسابها إلى مجلس التعاون لدول الخليج العربية موضــع ترحيب خال من تحفظات كثيرة. بل ربما لو حدَث ذلك ولم تتخذ اليمن الموقف المؤازر للعراق، لكانت دول مجلس التعاون الخليجي ربما آثرت تحويل إعلان دول دمشق إلى صيغة أكثر تطويراً وبحيث تستوعب تماماً الدول الجمهورية والثورية الثلاث مصر وسوريا واليمن وبذلك لا تعود مصـر تائهة تبحث عن تجمُّع تنتسـب إليه وتطْرق الباب المغاربي لعل دول الإتحاد المغاربي المتعثر أصــلاً توافق على إنتســابها إلى الإتحاد، وتنتظر سوريا ما الذي ستؤول إليه عملية السلام لتقرر هي الأخرى إبتكار فكرة إســتحداث تجمُّع جديد تكون أحد أركانـه، وتلح اليمن على مجلس التعاون لدول الخليج العربية على أســاس أنها لا تتحمل الإنتظار وتفضـل الإسـراع في الإنتسـاب مسـتندة في ذلك إلى مواصـفات تؤهلها للإنتسـاب. وهي في إلحاحها تشـبه روســيا التي على رغم أنها لم تســتقر حالها على أن تكون دولـة راســمالية أو تعود دولـة ذات نظـام أو إقتصاده شيوعي وجدت مكاناً لها في حلف الأطلسي. وعلى الرحـب إن لم يكن على الســعـة كـان تقبُّـل الأطالسة لروسيا المتأرجحة بين هويتيْن.

وإذا كـان مجلس التعـاون لـدول الخليج العربيـة سيفضـل الإبقاء على طبيعته وصيغته الراهنتين معتبراً أن قوة المجلس هي في تجانس أنظمته، فإن الإلحاح اليمني لن يجدي على الأرجح، وســنجد بعض دول المجلس تعتبر إنتســاب اليمن بمفـاهيمهـا الثوريـة والحزبية والطائفية والقبلية والسـطوة التي للعسـكريين فيها على ما عداهم وكأنما هو "ڤيروس" أي بما معناه أن الإبتعاد عنه أفضــل. لكن مقولة "قوة المجلس في تجـانس أنظمتـه" هي مثل تلـك المقولـة التي طـالمـا رددتها الحكومات اللبنانية المتعاقبة وخلاصتها "إن قوة لبنـان في ضــعفه" وليس خـافياً على أحد مـا الـذي تسبَّبت به تلك المقولة للبنان.

وإلى ذلك إن الصـد الخليجي لليمن وعدم الترحيب بإنتسـابها إلى مجلس التعاون، والتردد الذي إستقبل به البعض رغبة مصــر في الإنضــمام إلى الإتحاد المغاربي من شأنه أن يولِّد فجأة مجلس تعاون بصيغة جديدة يضــم كلاً من مصــر واليمن وســوريا والعراق (الجديد أو المتغير أو المتطور) والأردن والســودان، أي العودة من جديد إلى مجلس التعاون العربي إنما بتســمية وتوجـه مختلفيْن، وهو المجلس الـذي ألغـاه الرئيس حسـني مبارك بعد واقعة الغزو العراقي للكويت ومـا تلاه من تطورات. ولو أن فكرة المجلس كـانـت فكرتـه لكـان الرئيس مبـارك تمسَّــك بهـا لكن كيف سـيتمسـك بها وهي من إبتكار الرئيس صـدَّام حسـين. ونتذكر كيف أنه مهَّد للإلغاء بالتصــريح بأن المجلس المشــار إليه هو "مجلس التآمر العربي" وليس مجلس التعاون.

وقـد يكون التبـاطؤ الخليجي في التجـاوب مع الإلحاح اليمني وعدم الترحيب بفكرة الإنتساب سببه أن القبول بالفكرة معناه تسـجيل سـابقة ينتسـب بموجبها أيضــاً إلى المجلس مســتقبلاً العراق الذي يناســب الخليجيين. وإنتســاب كل من الدولتين ذات الأصــول الثورية سيمهِّد الطريق أمام مجلس تعاون لدول الخليج العربية والإسلامية على أساس أن إيران ستطالب هي الأُخرى بالإنتســاب. ومجرد تَصــور قيام مثل هذا المجلس الفضــفاض ســيقود إلى أحد أمريْن: إما أن الخليجيين سـيتمسـكون أكثر بخصـوصـية مجلسـهم الحالي ويحافظون على الصــيغة الراهنة من دون أي تعديل وإعتبار المجلس مكتمل العضــوية ولا مجال على الإطلاق لأعضــاء جدد، مطمئنة على الصــعيد الـدفـاعي إلى الإتفـاقـات والمعـاهـدات المعقودة مع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. وإما إنهم سيعتبرون تجربة سـبع عشـرة سـنة كانت كافية وأن الأفضـل لهم وللأشـقاء العرب الإنتسـاب جميعاً إلى المنظمة القائمة التي ورثوها عن الأجداد ونقصـد بذلك الجامعة العربية

على أن يتم إدخال الكثير من التعديلات عليها وإجراء الكثير من التطوير لعملها، أي بما معناه تكون جامعة جديدة على نحو ما سبق أن طرحه كبالون إختبار الملك الحسن الثاني (مقابلة مع "الشرق الأوسط" أجراها الزميلان عثمان العمير وعبد الرحمن الراشد)، أو "جامعة متجددة" خشية أن تكون "الجديدة" تعني إهانة يوجهها الحكام الأبناء إلى تراث الحكام الآباء.

وفي إنتظار أن تنتهي الحيرة ويلهم الله سبحانه وتعالى أهل القرار العربي الصيغة المثلى لتجمعُهم السياسي والإقتصادي والعِلْمي التي تغنيهم عن الصيغ الكثيرة التي أفرزتها الثمانينات بدافع المخاوف والحذر أكثر من أن تكون بدافع التخطيط الإستراتيجي المستقبلي، فإن الإلحاح اليمني بهدف الإنتساب إلى مجلس التعاون الخليجي سيتواصل. ونلاحظ أن خطوة الرئيس علي عبدالله صالح المتمثلة بإيفاد وزير الشؤون القانونية وشؤون مجلس النواب عبد الله أحمد غانم إلى الدوحة لتسليم أمير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة رسالة تتضمن رسمياً طلب إنضمام اليمن إلى مجلس التعاون الخليجي، تبدو من الخطوات المتقدمة التي تعكس الرغبة الأكيدة في الإنتساب، وليست كما توحي للوهلة الأُولى بأنها إحراج لدول المجلس، بمعنى أن هذه الدول أو بعضها يتحمل برفضه المسؤولية المعنوية. ونقول ذلك على أساس أن الرئيس علي عبد الله صالح يعرف أن مثل هذا الطلب، وفق الشروط الخليجية وأهمها عدم توافر التجانس كنظام وعدم الإطلالة على مياه الخليج، لن يكون موضع قبول ومع ذلك يتقدم به.

ومع أن حضور الوزير اليمني لم يحقق ما كان يتمناه الرئيس اليمني وهو أن يشار في البيان الختامي لقمة الدوحة إلى فقرة تفيد بأن اليمن تقدمت بطلب الإنضمام إلى المجلس وأن قادة دول الخليج الست سيبحثون في الأمر، إلاَّ أن ذلك الحضور أفاد في أن طلب الإنضمام إنتقل من حديث الدواوين إلى أحد الإجتماعات المغلقة في قمة الدوحة على نحو ما أشار إلى ذلك وزير خارجية قطر الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني في مؤتمره الصحافي المباغت حيث قال إن الطلب اليمني بالإنضمام إلى مجلس التعاون نوقش في الجلسات المغلقة وتم إتخاذ قرار طيِّب في شأنه وعُهد إلى أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني بإعتباره رئيس القمة بإبلاغه إلى المسؤولين اليمنيين، مشيراً إلى أن على اليمن إتخاذ بعض الخطوات حتى تتأهل لعضوية المجلس وستتم الإشارة إليها في رسالة أمير قطر إلى الرئيس اليمني.

وإذا كانت بعض دول الإتحاد المغاربي مترددة في قبول إنتساب مصر إلى الإتحاد المتعثر أصلاً فمن الطبيعي أن يكون لدى بعض دول مجلس التعاون الخليجي المتماسك على رغم حالات المقاطعة والإنسحاب والأسلوب غير المألوف في التخاطب من قِبَل بعض رجال الصف الثالث ضرورة للتحفظ وكذلك للكثير من التأمل في أمر الجار الراغب في الإنضمام إلى الخيمة الخليجية تؤازره ويناصرها وتساعده ويرُد عنها الأذية عند الضرورة.

وقبْل القمة الثامنة عشرة في الكويت في ديسمبر (كانون الأول) 1997 فإنه لن يكون هنالك على الأرجح جواب إلاَّ إذا كان نصف قادة دول مجلس التعاون المؤيدين لفكرة إنضمام اليمن وهم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان والسلطان قابوس والشيخ حمد بن خليفة، بذلوا الكثير من السعي لإستكمال الإقتناع الخليجي بجدوى إنضمام اليمن، أو أن القيادة اليمنية واصلت الإلحاح وبلغ مستوى إلحاح القيادة السورية والرئيس شكري القوتلي على الرئيس جمال عبدالناصر عام 1958 لقيام وحدة تضم البلديْن. يا ليت الإلحاح السوري لم يكن على نحو ما حدَث. كذلك يا ليت التجاوب المصري لم يكن بالسرعة التي حدَث فيها.

* * *

□ المقالة الثالثة: ظاهرة زيارة المحتلين للمحتلة جُزرهم...

تبقى من الظواهر التي إتسمت بها القمة الخليجية السابعة عشرة في الدوحة ظاهرة التودد الإيراني الذي كان يفتقد إلى الصدق، والرد على هذا التودد بتأكيد الموقف التقليدي الثابت وهو التشدد مع إيران إلى أن تقرر أنها دولة جارة ومسلمة. وعندما يحتل الجار الذي نشير إليه أرضاً لغيره ولجاره المسالم والمسلم والذي تبذل قيادته الجهود في إستمرار لإحلال الصفاء في المنطقة محل التوتر والجفاء، فإن اللغة المطلوبة في التعامل معه هي لغة التشدد مهما بلغ التودد من جانبه. وهذا تماماً ما فعلتْه القمة على رغم أنها تنعقد في الدوحة المتعاطفة معها في الكثير من المواقف.

قبْل إنعقاد القمة تكاثرت التصريحات الإيرانية الودودة حول أهمية العلاقة بين إيران ودول مجلس التعاون وتَبَلّغ سفراء إيران في هذه الدول تعليمات بأن يكونوا في غاية الرقة وهم يدلون بالتصريحات أو

عندما يتحدثون مع موظفين مختصين في إدارات وزارات خارجية دول المجلس. ولم تقتصر التصريحات على السفراء الذين أفردت لهم الصحف الخليجية مساحات في صفحاتها أوردوا فيها أفكاراً طيّبة ونوايا حسنة، وإنما كان لكبار القوم في الحُكْم الإيراني لفتات يحتار المرء في القصد منها، هل أنها لتطييب الخاطر الخليجي بعد تزايد التصريحات النارية على مدى الأشهر الخمسة التي سبقت إنعقاد القمة، وهل أنها لتبريد المشاعر الخليجية من نيران المناورات الضخمة التي أجراها الجيش الإيراني على ضفاف الخليج وفي بعض مياهه، وهل أنها بادرة تهدئة للكلام الذي صدر عن مسؤولين إيرانيين في شأن الجزر الثلاث الإماراتية المحتلة وأوحى بأنه لا أمل على الإطلاق في أي مرونة من جانب إيران مهما فعل الخليجيون ومهما ساندوا هم وغيرهم الإمارات ومهما أبرمت دولة الإمارات صفقات من السلاح والدبابات والطائرات. ولقد تزامنت المناورات والتصريحات مع خطط لتطوير الوجود العسكري في الجزر الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى. كذلك تزامنت مع غياب رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان عن البلاد في رحلة للعلاج دامت بضعة أشهر.

بعدما إمتلأت سماء الخليج بالدخان الإيراني وإختلط حديث التهديدات بحديث الإنذارات وبكتابات في الصحف الإيرانية بالغة الحدة إرتأت القيادة الإيرانية إعتماد التكتيك فقال وزير الخارجية علي أكبر ولايتي إن العلاقات مع الإمارات لا تحتاج إلى وساطة لتسوية ما بينهما في شأن الجزر، وهو كلام لا يشفي الغليل الإماراتي ولا يُطمئن الخليجيين عموماً. ثم تزايدت رقعة التكتيك عندما أوفدت القيادة الإيرانية مبعوثاً إلى أبو ظبي لتقديم التهنئة إلى الشيخ زايد بسلامة العودة والتعافي من العملية الجراحية التي أجريت له في الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه لتهنئته بذكرى إنشاء الإتحاد وذكرى تسلُّمه الحُكْم. ولو لم يتصرف الشيخ زايد بالحكمة المعهودة فيه لكان أوكل إلى وزير الخارجية أو إلى رئيس الديوان تقبُّل التهنئة الإيرانية وذلك على أساس أنه ليس منطقياً على الإطلاق أن يستقبل رئيس الدولة المحتلة بعض أراضيها مبعوث الدولة التي تحتل هذه الأراضي. ولكن الشيخ زايد إستقبل المبعوث ووضع يده بيده ومن المؤكد أنه إسمعه كلاماً لم تكشف وسائل الإعلام عن طبيعته. وفي الوقت نفسه إحتفظ الشيخ بالكلام الذي سيقوله ولي عهده نيابة عنه أمام قادة مجلس التعاون أو من ينوب عن بعضهم في قمة الدوحة السابعة عشرة.

وفي الوقت الذي كانت القمة تتأهب للإنعقاد كانت التصريحات الإيرانية الودودة تتزايد وكان مبعوثون إيرانيون بعضهم معلوم وبعضهم مجهول وصلوا إلى الدوحة يساعدهم على ذلك أن لهم في قطر تسهيلات تجعل حركتهم أقل مشقة. ولقد أشاع هؤلاء في أجواء المؤتمر الكلام الذي يُطمئن ويُظهر إيران بأنها ليست إيران صاحبة خطة تصدير الثورة الطامعة في أرض خليجية. وكان الغرض من كل ذلك هو ممارسة ضغط نفسي على أهل القمة بحيث لا تصدر عنهم توصيات متشددة. فإذا حدثَ ذلك ولم يصدر التشدد تكون إيران كسبت جولة في ترويض الخليجيين على القبول بالأمر الواقع في شأن الجزر فلا يعود الإماراتيون يطالبون بها. أما إذا تشدد أهل القمة وصدرت عنهم توصيات تتسم بالحدة فإن القيادة الإيرانية ستتذرع حينئذ بأنها أبدت كل حُسن النية وكل المرونة إلاَّ أن أهل القمة لم يردوا على التحية بمثلها. وتحت هذه الذريعة تُواصل تفريس الجزر وتُحولها إلى ترسانة عسكرية هائلة محروسة بالغواصات التي إشترتها والصواريخ تنصبها فيها فتجعل دول مجلس التعاون تحت الرحمة الصاروخية دائماً إلى أن تتم الصفقة – كما ينشد قادة الثورة الإيرانية – مع الولايات المتحدة والتي بموجبها لا تعود هذه الثورة عدوة لـ "الإستكبار العالمي" وهو إحدى مفردات الثورة الإيرانية، مقابل أن تعتبرها القوة الأكثر شأناً في المنطقة وتُعاملها على هذا الأساس، أي بإختصار تصبح إيران صديقة للولايات المتحدة وتنطبق عليها كل الحقوق والواجبات بين الطرفين الصديقين. وللوهلة الأولى قد يبدو ذلك مستبعَداً لكنه ليس مستحيلاً حيث إن العقدة الإيرانية بالنسبة إلى الولايات المتحدة هي تماماً مثل العقدة المصرية للاتحاد السوفياتي (قبْل سقوطه). ومثلما أن الإتحاد السوفياتي لم يستطع تحمل ما فعله الرئيس أنور السادات به وكيف أخرجه من مصر فأخرجه بالتالي من المنطقة وأذله وبدأ مع إخراجه العد العكسي للسقوط بعد عشر سنين، فإن الولايات المتحدة ما زالت لا تتحمل أن آيات الله في إيران خطفوا السُلطة وأنهوا الوجود الأميركي في إيران. ورافق الإنهاء هذا إذلال لا مثيل له حيث تم تحويل مبنى السفارة إلى شبه معسكر يضم الأسرى الأميركان العاملين في السفارة فضلاً

عن الإخفاق الذي واجهته عملية إنقاذ الأسرى التي أمر بها الرئيس الأسبق جيمي كارتر وكيف تحطمت الخطة وطائرات الهليكوبتر التي إستُخدمت فيها في الصحراء.

داخل قاعة إجتماعات قمة الدوحة كان يحدُث عكس ما يتمناه الإيرانيون وتعامل أهل القمة مع مسألة التهديد الإيراني للمنطقة وإحتلال الجزُر الإماراتية الثلاث بمعزل عن التصريحات والمواقف الودودة المستجدة التي صدرت عن مسؤولين ومبعوثين إيرانيين جالوا المنطقة ونشطوا في عواصمها سياسياً وإعلامياً. ونلاحظ هنا أن البيان الختامي كان أكثر تشدداً من ذي قبْل. وهو إذا كان خَصص لتسجيل التشدد مع العراق خمسة وسبعين سطراً بمعدل خمس كلمات للسطر الواحد فإنه خَصص لمسألة إحتلال إيران للجزر الإماراتية الثلاث خمسة وخمسين سطراً وثلاثين سطراً للعلاقة مع إيران. والغرض من هذه الإشارة هو أن البال الخليجي مشغول كل الإنشغال بمسألة الجُزر وأن المجتمعين لم تستوقفهم على ما يبدو التصريحات والزيارات الإيرانية الودودة وذلك لشعورهم بأنها مفتعلة أو أنها ليست تعبيراً عن رغبة في تحقيق أحسن صيغة تعايش مع دول الخليج العربية التي يتألف منها مجلس التعاون، وإنما هي شطارة دبلوماسية لا أكثر. وعندما تَرد في البيان الختامي عبارات مثل "وإذ لاحظ المجلس إستمرار الحكومة الإيرانية في تنفيذ إجراءات ترمي إلى تكريس إحتلالها للجزر الثلاث إمعاناً في إتباع سياسة فرض الأمر الواقع بالقوة..." و"إن المجلس الأعلى يعبِّر عن قلقه الشديد من قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية بنشر صواريخ أرض – أرض في الخليج العربي، بما في ذلك نشرها لصواريخ على جزر دولة الإمارات العربية المتحدة الثلاث المحتلة مما يعرض دول المجلس ومنشآتها الحيوية للتهديد المباشر..." و"يعبِّر المجلس أيضاً عن قلقه من سعي إيران المتواصل لإقتناء وبناء ترسانات من أسلحة الدمار الشامل وقدرات تسليحية تقليدية وغير تقليدية تفوق الإحتياجات الدفاعية المشروعة"... إنه عندما تَرد في البيان الختامي هذه العبارات وغيرها من الروحية نفسها فهذا معناه أن التصريحات والزيارات الإيرانية الودودة ومنها زيارة المبعوث الذي هنأ الشيخ زايد بالسلامة من العملية الجراحية لم تلقَ إقتناعاً في النفس الخليجية. كذلك إنه عندما تَرِد في البيان العبارة المتضمنة شرط دول المجلس لتصحيح العلاقة الخليجية – الإيرانية فهذا معناه أن دول المجلس جاهزة لأفضل العلاقة مع إيران في ضوء الشرط الذي ورد في العبارة على النحو الآتي: "يكرر المجلس دعوته للحكومة الإيرانية إلى إنهاء إحتلالها للجزر الثلاث والكف عن ممارسة سياسة فرْض الأمر الواقع بالقوة والتوقف عن تنفيذ أية إجراءات من طرف واحد وإلغاء أية إجراءات وإزالة أية منشآت سبق تنفيذها من طرف واحد في الجزر الثلاث وإتباع الوسائل السلمية لحل النزاع القائم عليها وفقاً لمبادئ وقواعد القانون الدولي بما في ذلك القبول بإحالة القضية إلى محكمة العدل الدولية...".

وعندما يتبنى المجلس صيغة الحل من خلال محكمة العدل الدولية ولا تتجاوب مع هذه الصيغة إيران فهذا معناه أنها غير واثقة من أن المحكمة ستحكم لصالحها، في حين أن دولة الإمارات ومعها دول المجلس تسجل بهذه الصيغة مرونة إلى أبعد الحدود، وإلى حد أنه إذا جاء قرار محكمة العدل الدولية يقول إن الجزر الثلاث هي لإيران فإن الخليجيين سيوافقون على القرار ما داموا هم المنادين بصيغة التحكيم الدولية. ويصعب عليهم أن يمارسوا أكثر من هذه المرونة لأن ما هو أكثر معناه التنازل عن الجزر والإستسلام للإرادة الإيرانية.

ومن المؤكد أن لو كان الإحتلال الإيراني يشمل أرضاً ممتدة على نحو ما فعله العراق مع الكويت لبضعة أشهر، وليس مجرد جزر بعيدة عن الأرض الممتدة وتفصلها مياه الخليج عن تلك الأرض، لما كان لهذا المشهد الذي نرى فصوله منذ أيام الشاه وحتى الآن يتواصل، أي أن تكون هنالك علاقات دبلوماسية وفي الوقت نفسه يكون هنالك إحتلال. لكن كون الجزر أرضاً في الماء وكونها موضع نزاع فإن مثل هذه العلاقات تصبح عادية ولا يعود هنالك إستهجان لظاهرة أن من يحتل الأرض يأتي إلى عاصمة البلد المحتلة أجزاء من أرضه ويهنئ رئيس البلد بالسلامة وتكون في الوقت نفسه هنالك علاقات دبلوماسية متبادلة وعلى أرفع المستويات. وفي تقديرنا إن مثل هذا الأمر لن يستمر طويلاً أي بما معناه إنه بعد إعلان دولة الإمارات صيغة القبول بالتحكيم الدولي وتبنّي مجلس التعاون في قمة الدوحة لهذه الصيغة فإن إيران مُطالبَة بالقبول بصيغة التحكيم. وعلى هذا الأساس فإن القمة الثامنة عشرة في الكويت في ديسمبر 1997 ستخاطب إيران بصوت أعلى وربما

بقرارات على صـــعيد التعامل الدبلوماســـي، ذلك أن الأمر ليس خلافات حدودية لكي تترك للزمن يحلها على نحو الخلافات بين معظم دول الخليج، وإنما الخلاف على جزر إعتبرتْها إيران في زمن إزدهار العلاقة الإيرانية – الأميركية أنها تخصـــها فوضـــعت اليد عليها وجاءت إيران الثورية لتُحوِّل الجزُر التي يأوي إليها الصيادون إلى قواعد أمامية تصلح للهجوم عند الضـــرورة وللدفاع عند الإضـــطرار وتزرع فيها الصـــواريخ على نحو ما زرع الشـــيخ زايد غرســـات الأشجار في أبو ظبي. وهي لو كانت صافية النية لما كانت تقرر إقامة المســـتشـــفى والمدرســـة والمطار والنوادي في هذه الجزُر وتقوم في الوقت نفسه بإسكان عائلات إيرانية وتعطي من باب التغطية بعداً إنســـانياً رياضـياً للإحتلال من خلال تنظيم بطولة مباريات في كرة القدم في جزيرة أبو موســـى إختارت لها تســـمية "كأس جزر الخليج الفارســـي" فضـــلاً عن أمور أُخرى من هذا القبيل الذي يعطي إنطباعاً بالإصـــرار على تكريس الإحتلال كما ورد في بيان قمة الدوحة.

وإن جاز الإفتراض فإن هذا الإحتلال والإســتيطان وعسكرة الجزُر هي مؤشرات إلى أن إيران ستستعمل الجزر الثلاث كرهينة إلى أن تنضـــم عنوة إلى مجلس التعاون الخليجي. وليس خافياً على قادة دول المجلس ما الذي تهدف إليه من وراء هذا الإنضـــمام... ومِن أجل ذلك يواصلون التشدد والتأمل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 30 ديسمبر (ك1) 1996

* * *

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

المقالات من يناير 1997 إلى ديسمبر 1997





وثيقة غير معروفة من أيام الملك خالد

النعمان اقترح قبل 20 سنة أن تكون اليمن خليجية

قراءة في جولة الأمير سلطان

كثير من القول قليل من الفعل

فورة الحرب بعد فورة النفط والثلاثي الأكثر استقرارا من الوطن

مهزلة أواخر القرن

عمل كثير الرقي ودور كثير الأهمية

زمن فتح البوابات أمام العراق المحاصر

الأسد المهموم والمهتم بالأرض المحتلة والديار المغيبة

قال العرب كلمتهم والباقي على السودانيين..

مسلمو سينكيانج يستحقون تضامن الأمة لرفع مظلوميتهم

دعوة لإعلان غضب العالم الإسلامي إزاء جريمة تهويد القدس

تساقط أولي للتطبيع بعد الإسقاط النهائي لاتفاق 17 أيار

من المواجهات والاقتتال في الجزائر والسودان الى تقديم التعازي بالمعتدين على لبنان

رمضان المجزون

وثيقة غير معروفة من أيام الملك خالد في شأن «يمن خليجية»

أجد من المناسب إستكمالاً للمقالات الثلاث التي حملت عنوان «نظرة من لندن على قمة العتب والغضب»، ولأن الحديث حول القمة الخليجية السابعة عشرة في الدوحة وطلب اليمن رسمياً منها قبوله كعضو في مجلس التعاون لدول الخليج العربية ما زال يبعث على التشويق... أجد من المناسب أن أُخرج من الأرشيف الشخصي إحدى الأوراق التي أحتفظ بها منذ سبع عشرة سنة والتي تندرج تحت بند «أوراق للظرْف المناسب» إذا جازت التسمية.

وأهمية هذه الورقة أنها تأكيد بأنها فكرة أن تكون اليمن جزءاً من أي تجمُّع خليجي ليست حديثة. وهي عبارة عن رسالة إرتأى أستاذنا أحمد نعمان، السياسي والحكيم اليمني، توجيهها إلى الملك خالد بن عبد العزيز. وكلاهما الآن يرحمهما الله في دنيا الآخرة ويذكرهما بالخير كل مَن عرفهما.

كان النعمان الوالد قد وصل إلى المملكة عام 1974 مفجوعاً بولده محمد الذي جرى إغتياله في بيروت، ونتيجة هذا الإغتيال لم يعد النعمان يتحمل البقاء في العاصمة التي لم يحب عاصمة كما أحبها. وإستقر به المقام في مدينة جدة محاطاً بإهتمام الحكومة السعودية التي قدَّرت فيه دائماً حِكْمته وبصيرته. وبعد سنتين من إقامته في جدة تأمَّل خلالهما في أحوال المنطقة وما تعانيه قرر أن يكتب رسالة إلى المغفور له الملك خالد بن عبدالعزيز يسلِّمها له شخصياً.

وقد توجه لهذا الغرض إلى الطائف وسلَّم الملك رسالة بخط اليد تضمنت رؤية مبكرة لما آلت إليه الأمور في ما بعد، ونعني بذلك قيام مجلس التعاون الخليجي، ولما بات مطلباً، وأعني بذلك رغبة اليمن في الإنضمام إلى المجلس.

وكانت الرسالة على النحو الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية العظيم

سلام الله عليكم صاحب الجلالة ورحمته وبعد:

فإن ما وصل إليه العالم العربي من المحيط إلى الخليج من التمزق والصراعات والخلافات بين الدول والجماعات وبين النَظُم السياسية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية.

إن ذلك يدعو المملكة العربية السعودية كقاعدة روحية للأمة العربية الإسلامية التي تنضوي الأمة العربية تحت لوائها إلى إعادة الدرس والتمحيص والنظر في فكرة الوحدة العربية التي ظهرت منذ الإنفصال عن دولة الخلافة العثمانية قبْل ستين عاماً، ولم تكن النتيجة سوى تمزيق البلاد العربية وإقامة الحدود والحواجز بين أبنائها، والإتفاق بين الدول الإستعمارية على إقتسامها.

يا صاحب الجلالة

لقد كَثُر الدعاة للوحدة العربية فإختلفوا إختلافاً كبيراً في الوسائل والأهداف، وتنازعوا وفشلوا فشلاً ذريعاً وذهبت ريحهم. فإن لكل داع وجهة هو مولّيها لا تتفق مع وجهة الداعي لا في الفكر ولا في المذهب ولا في الهدف.

إن الوحدة العربية ظلت الألسن أكثر من نصف قرن تلوكها، والأفواه تتلذذ بذِكْرها وتريدها، دون أن تكون لهذه الوحدة صورة واضحة، أو هدف محدد، أو خط مستقيم، ودون أن تستخدم للدعوة إليها، الوسائل المعقولة والخطط الحكيمة المدروسة.

لقد تصدَّر للدعوة إليها من لا يفقهونها ولا يؤمنون بها، ليفرضوا سلطانهم على الأمة العربية ويستأثروا بمقدراتها وطاقاتها وخيراتها، فشوهوا فكرة الوحدة وطمسوا معالم الطريق إليها، وحولوها إلى فرقة وشتات، وإتخذوا منها سلعة رخيصة يتسابقون على المتاجرة بها في أسواق المزايدات والطموحات والشعارات والهتافات.

كما تصدروا الدعوة لإنقاذ فلسطين بأفواههم لا بقلوبهم، فدبروا الإنقلابات والمؤامرات، وأشعلوا نار الفتن والفوضى، وأعلنوا المنظمات الثورية والجبهات التقدمية بإسم فلسطين ولتحرير فلسطين، فضيعوا أجزاء غالية من أوطانهم وزادوا فلسطين ضياعاً.

يا صاحب الجلالة

إن الذي نتطلع إليه ونعلِّق آمالنا على المملكة لتحقيقه، هو تصحيح الخطأ التاريخي الذي سار فيه الداعون للوحدة العربية الشاملة إرتجالاً وبغير عِلْم ولا هدى ولا كتاب منير. وتصحيح هذا الخطأ يبدأ بالدعوة لجمع كلمة القلة من العرب المسلمين في قلب جزيرة العرب، والبداية الصحيحة لتجربة رائدة إذا نجحت في

جمع القلة فإنها ستنجح في جمع كلمة الكثرة، لأن وحدة المسلمين في الصدر الأول إنما بدأت بالقلة المؤمنة. (وأذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره). (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) قلة قليلة. (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت).

يا صاحب الجلالة

إن المملكة العربية السعودية في قلب جزيرة العرب تتمتع بمزايا لا تتمتع بها دولة من دول الأرض، فلم تجتمع لدولة من دول العالم قوتيْن عظيمتيْن روحية ومادية، كما إجتمع لهذه المملكة، ولذلك فهي تملك من وسائل التأثير وكسْب المشاعر وجذْب القلوب ما لا يملكه غيرها.

إن على المملكة أن تبدأ بجمْع كلمة أشقائها وأبنائها في قلب جزيرة العرب، في اليمن بشطريْها، وعُمان، والإمارات العربية المتحدة، وقطر، والبحرين، والكويت وأن توجه الدعوة فوراً إلى رؤساء دول هذه الأقطار الشقيقة لعقد مؤتمر قمة تطرح عليهم فيه فكرة التضامن والتعاون في كل المجالات، وتنسيق الخطط لهذا التضامن والتعاون، حتى يشعر الجميع أنهم مشتركون مع المملكة في أمن وإستقرار الجزيرة وحماية مقدسات الإسلام والدفاع عنها ضد من يتربصون بالجميع الدوائر.

يا صاحب الجلالة

إن الفرصة سانحة لحماية قلب الجزيرة وجنوبها وخليجها من أخطار الإنقسامات والصراعات والعقائد المستوردة، والمنظمات الثورية، والجبهات التقدمية التي غرقت فيها بعض الأقطار الشقيقة، وتفجرت أخيراً في لبنان حرباً أهلية ضارية، ودماء مسفوحة، ومذابح وحشية، وخراباً ودماراً لم يسبق لها مثيل.

إن الفرصة ما زالت سانحة فلنغتنمها (إغتنموا الفرص فإنها تمر مر السحاب).

والحماية الحقيقية لا يكفلها سوى التضامن الحقيقي بين المملكة وجيرانها والوقوف صفاً واحداً لمواجهة هذه الأخطار تضامناً يبدأ خطوة خطوة حتى يصبح في المستقبل أساساً لوحدة صحيحة مبنية على قواعد راسخة من الشريعة والأخلاق والتقاليد الكريمة.

يا صاحب الجلالة

إن المتربصين بالعرب والمسلمين لن يتوقفوا عن العمل على تشتيت الشمل وتمزيق الأوطان وإثارة الحروب والصراعات ونشر الفوضى بواسطة العصابات التي يمولونها ويسلحونها ويدربونها ويلقنونها مختلف الشعارات.

إن الأعداء جادون في رسم خطط تمزيقنا ليشغلون بمحاربة بعضاً بعضاً، وبالمعارك الجانبية، والمشاكل الصغيرة التي لا تشكِّل خطراً، حتى يتمكنوا من سحب الطاقة التي تختزنها أرضنا، والتي تلعب الدور الأول في عصرنا الحاضر في خدمة العالم ومجالات الصناعة والزراعة والإبداع والإختراع.

إن الأعداء لن يهدأوا حتى يستنزفوا طاقاتنا التي لا حياة لهم بدونها، ويسحبوا أموالنا لإستثمارها، ولن يتركوا لنا سوى التناحر والجهل المطبق والفقر المدقع والحزازات والأحقاد. مصلحتهم أولاً ولا يهمهم مصيرنا ولا إستقرارنا ولا رخاءنا، إنهم سيقدموننا قرباناً لمصالحهم وأطماعهم ولن يبالوا بنا في أي واد هلكنا.. تلك طبيعة أعدائنا قديماً وحديثاً.

يا صاحب الجلالة

إن آمالنا الكبيرة بالمملكة تدفعنا لطرح هذه الفكرة. فكرة الدعوة الفورية لعقد مؤتمر قمة لدول الجزيرة في هذه الفترة العصيبة، وثقتنا عظيمة أن الدعوة ستلقى الإستجابة السريعة من الجميع لما للمملكة في نفوسهم من تقدير وتأثير، ولأنهم أصبحوا يشعرون بالخطر أكثر من أي وقت مضى بعد أن شهدوا ما جرى ويجري في لبنان، وأن جميع الناصحين والمخلصين والمفكرين ما زالوا يحذرون وينذرون بأن لبنان ليست سوى البداية. ومن أمثال العرب (ما حل بجارك أصبح بدارك).

يا صاحب الجلالة

إن هذه تذكرة من ناصح مخلص، وليست إلاّ من جنود الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين، وجلالتكم حفظكم الله في طليعة هؤلاء المؤمنين.

الطائف في 19 رمضان 1396

الموافق 13 سبتمبر 1976

المخلص أحمد محمد نعمان

بعد حوالى سنة على تسليم الرسالة قام النعمان عام 1977 بمحاولة ثانية وكتب رسالة موجهة إلى كل من الملك خالد والأمراء فهد وعبدالله وسلطان بعدما كانت الرسالة الأُولى موجهة فقط إلى الملك خالد.

وجاءه رد من الأمير عبدالله يثني فيها على عُمق تفكيره ورجاحة عقله وبُعد نظره.

وفي هذه الأثناء كان الوضع في المنطقة بسبب الهجمة الإيرانية بدأ يزداد توتراً وتزداد تبعاً لذلك المخاوف... ثم كان القرار بإنشاء المجلس الذي بكَّر النعمان في تصوره لما سيكون عليه. وقام مجلس التعاون لدول الخليج العربية إنما من دون اليمن التي جاءت تطالب بعد ثمانية عشر عاماً بإنضمامها إلى المجلس الذي كان أحد أبنائها، ونعني به أحمد محمد نعمان، المبادر إلى طرح فكرة أن يقوم المجلس ويشمل اليمن في عضويته. ولكن شاء الله أن يقوم المجلس وشاء قادة دول الخليج الست أن يكونوا وحدهم. إلى متى؟ الجواب في علم الغيب والتطورات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 6 يناير (ك2) 1997

* * *

في إنتظار عودة الوعي والدور إلى الجزائر

على هامش الأنباء المفجعة التي تنقلها وكالات الأنباء من الجزائر بشكل رتيب، وبمعدل نبأ كل أسبوع، وتتحدث عن إنفجار سيارات مفخخة أو إغتيالات، أو تصفيات بشعة، وتضيف هذه الحوادث المزيدالشهداء إلى لائحة شرف الإستشهاد التي إلتصقت منذ نصف قرن بالجزائر..

على هامش هذه الأنباء ينقل إلينا دبلوماسي عربي جمعنا به لقاء قبْل أيام واقعة تجمع بين الوفاء والجحود عاشتها عاصمة الغرب الجزائري (وهران) لمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لرحيل الرئيس هواري بومدْين، الذي فارق الحياة يوم 27 ديسمبر/ كانون الأول 1978 عن ستة وأربعين عاماً وبعد مرض مفاجئ إنتهى بغيبوبة متقطعة، وكان بذلك الحاكم العربي الثاني الذي يتوفى وهو في سن فتية، أما الأول فكان الرئيس جمال عبدالناصر. والجامع المشترَك بين الإثنيْن هو أن رحيلهما حدث في وقت كانت المشاكل العالقة في نظام كل منهما كثيرة وأوجبت سياسة التأجيل وعدم الحسم بقاء هذه المشاكل عالقة تنخر في جسم النظام.

وإذا كانت طبيعة النظام في مصر والعلاقة الأزلية بين الحاكم والمحكوم وكيف أن مزاج الرعية عموماً في مصر يميل إلى طاعة أولي الأمر الذين يتولون مقاليد السلطة، هي التي جعلت إنتقال المسؤولية بعد رحيل عبدالناصر يتم بالكثير من الهدوء والقليل من المفاجآت، فإن طبيعة الشخصية الجزائرية، وهي عكس طبيعة الشخصية المصرية، هي السبب في أنه منذ رحيل بومدين ونتيجة لتكاثر المشاكل العالقة فإن الجزائر لم تستقر. ثم تزايدت الإحتقانات إلى أن إنفجر هذا العنف الذي يبعث الرعب والرهبة والخجل في النفوس.

ومثلما أنه يمكن القول إفتراضاً أن الرئيس عبدالناصر كان سيرسي بنفسه أساس دولة تكون الثورة فيها مجرد تراث لا أكثر، وتأخذ الديمقراطية المتأنية فرصتها، لو أن الله سبحانه وتعالى أعطى عشر سنين أُخرى من العمر، فإنه يمكن القول إفتراضاً أيضاً أن الرئيس بومدين كان سيفعل الشيء نفسه لو أمد الله بضع سنوات من عمره. ونقول ذلك على أساس أن عبدالناصر كان قدوة الثوريين العرب الآخرين، وأن وُلاء، بمَن فيهم من يحبه ومَن يبغضه ومَن يغار منه، كان سيفعل ما يفعله عبدالناصر وبصرف النظر عما إذا كانت الأسباب الموجبة واحدة. والدليل على ما نقوله هو أن التأميم، الذي هو أحد أبرز معالمم مرحلة الستينات والسبعينات في الأنظمة الثورية العربية، إنما إعتمدته تلك الأنظمة لأن عبدالناصر بدأه، وأن هذه الأنظمة بعدما إكتشفت أن التأميم كان غير ضروري، خصوصاً في بعض القطاعات، لم تستطع الإلغاء.. فقط لأن عبدالناصر ما زال مبقياً على التأميم، عِلْماً بأن إحدى المشاكل التي أرهقت النظام في مصر، وكان عبدالناصر يتمنى هو الآخر لو يتخلص منها، كانت تلك الناشئة عن التأميمات.

وما يقال عن التأميم كتقليد يقال أيضاً عن التوجه نحو الدول الشيوعية للحصول على السلاح، ويقال أيضا عن الإكثار من الإعتماد على الأجهزة في التعامل مع المواطنين، ويقال أيضا وأيضاً عن الأخذ بقاعدة أهل الثقة أهم من أهل الخبرة والأخذ بصيغة التنظيم الواحد أو الحزب الوحيد كبديل عن التعددية التي كان نظام عبد الناصر ومن بعده الأنظمة الثورية التي تقلده وتفعل معظم ما يفعله ومنها النظام الثوري في الجزائر، تحاول جاهدة إقناع المواطنين بأن التعددية هذه إنما هي بدعة مستوردة من أنظمة أجنبية وأنها لا تناسب مجتمعاتنا (أي المجتمعات الثورية) على الإطلاق. المهم أن إعادة النظر لم يحدث لا مع

عبد الناصـــر في مصـــر ولا مع بومدْين في الجزائر ورحل كل منهما وهو في عز شـبابه وفي السـن التي عادة الدول المتقدمة سن دخول معترك الحُكْم. فالرئيس عبد الناصـر توفي عن إثنين وخمسـين عاماً وبومدْين توفى عن سـتة وأربعين عاماً. وإسـتناداً إلى ما يفعله بعض الحكام الثوريين الحاليين يمكن الإفتراض بأن عبد الناصـــر كان لن يعيد النظر لو بقي على قيد الحياة، والشـيء نفسـه يقال عن بومدين. ونقول ذلك على اسـأس أن الحكام الحاليين المنتمين إلى النظرية الثورية أو النين لهم أصـــول ثوربة لم يســجلوا خطوة واحدة في إتجاه التعددية والديمقراطية وســيادة القانون وتعزيز البرلمانية على رغم الأســباب الموجبة لذلك والناشـئة عن عواصـف عاتية تهب عنى هذه الأنظمة من كل الإتجاهات، ومن شـأن الخطوات التي تشـير إليها أن تصد هذه العواصف.

ونعود بعد هذا التمهيد والتذكير إلى اللقاء الذي شـــهدتْه وهران والذي هو موضـــوع حديثنا لنقول إن الإتحاد العام للشـــبيبة الجزائرية هو الذي تولى تنظيم الإحتفال بالذكرى الثامنة عشـــرة لرحيل بومدْين. وهذا الإحتفال هو السابع الذي يقيمه حيث أن عشر سنين، هي مرحلة التعتيم على الحقبة البومدْينية، خلت من أي إحتفال. وينقل إلينا الدبلوماســـي العربي الراوي بعض الإنطباعات التي تكونت لديه ومنها أن إحتفال الذكرى الثامنة عشـــرة إتســـم بطابع رفع لواء التوجه الوطني العربي الإسـلامي (الذي كان بومدْين يجسده) في مواجهة الإتجاهات التغربيبة والنزعات البربرية. ومن الإنطباعات أيضـــاً أن إحتفال هذه الســـنة في وهران بعث في النفوس مشاعر وجدانية لدى الوهرانيين والعرب الجزائري عموماً كون بومدْين كان قائداً للولاية الخامسة (وهران) خلال حرب التحرير قبْل أن يصبح وزيراً للدفاع تم ينقض على رفيق النضـــال أحمد بن بيللا ويخطف منه رئاســـة الدولة ويرميه في tالإقامة الجبرية على نحو بعض ما فعل الإخوة بيوسـف الذي رموه في غياهب الجب وحملوا القميص إلى والدهم. وعلى رغم الحيثيات التي أوردهـا البومـدْينيون والتنظيرات التي ساقوها في معرض تبرير فعلة بومدْين مع بن بيللا إلاّ أن تلك الفعلة إســـتمرت نقطة رمادية في تاريخ بومدْين المليء بالنقاط البيضـــاء وبالذات ما يتعلق بالمواقف الوطنية على نحو موقفه في الحرب العربية – الإســـرائيلية عام 1973 وتَعامله مع هذه الحرب وكأن التي تخوضها هي الجزائر وليست مصر وسوريا فقط، أو كأن الجزائر هي إحدى دول المواجهة وهي في بعض المواقف ونتيجة رؤيته للعمل العربي المشترك كانت كذلك.

والذي جعل فعلة بومدْين مع بن بيللا تستمر نقطة رمادية قابلة للإســـوداد هو أنه فارق الحياة بينما رفيق النضـال في الإقامة الجبرية وجاء الرئيس الشـاذلي بن جديد ليفرج عن بن بيللا ويكسب من وراء ذلك الكثير. وهذا ما حدَث بصـيغة مختلفة للرئيس حسـني مبارك الذي شملت تركة سلَفِه الرئيس أنور السادات عشرات من أهل السـياسـة والفكر ورجال الدين أودعهم الرئيس السـادات السـجن في لحظة ضـيق مِن أي معترض على سـياسـته كتابة أو حديثاً أو خطبة مِن على منبر مسـجد. وكان أول ما فعله الرئيس مبارك هو أنه أفرج عن المعتقَلين وعنى نحو مـا فعلـه الرئيس بن جـديـد عندما بادر إلى الإفراج عن بن بيللا.

ومن الإنطباعات التي نقلها الديبلوماســـي العربي هو أنـه قـد يكون مفهومـاً أن يقـاطع بن بيللا إحتفال إحياء الذكرى الثامنة عشـــرة لرحيل بومدْين مع انه لو شـارك لكان أحدث في نفوس الشـعب الجزائري صـدمة وجدانية ترمز إلى قدرة الإنسان على التسامح. لكن ما ليس مفهوماً هو أن بقية رفاق مرحلة النضـال الذين ما زالوا أحياء أطال الله أعمارهم أمثال رابح بيطاط وحسين آيت أحمد، فضـــلاً عن رفاق الحقبة البومدْينية أمثال الشـاذلي بن جديد وعبد العزيز بوتفليقة والدكتور أحمد طالب الإبراهيمى ومولود حمروش، لم يشاركوا في هذه الـذكرى ويقرأ كـل منهم الفـاتحـة على روح رفيق لهم كانوا لبضـع سـنوات نجوماً سـاطعة في سـماء الحُكْم الذي تربع على كرسـيه ثلاث عشـرة سـنة. ولولا أن بعض حـافظى الود والجميـل لبومـدْين، أمثـال أرملتـه السـيدة أنيسـة، ومسـتشـاره الإعلامي الدكتور محيى الدين عميمور، الذي لا يتوقف عن تذكير الجزائريين والعرب به من خلال المقالات والتي كما يفعل الاستأذ محمد حسنين هيكل بالنسبة إلى عبد الناصر، والعقيد أحمد بن شـريف المرشـح السـابق لرئاسـة الجمهورية والـدكتور بوعلام بن حمودة الأمين العـام لجبهـة التحرير، شـــاركوا في الإحتفال الذي أقيم للمناســـبة وبعضـهم ألقى كلمات فيها مسحة وفاء نحو رجل كان على مدى عشـــر ســـنين أحد الذين لهم حضـــورهم المتميز فى جنـاحيْ العـالم العربي، المشـــارقي والمغاربي.. لولا ذلك لكانت المناسـبة إنقضـت بهدوء مريب، خصـــوصـــاً أن التغطية الرســـمية من خلال

الإذاعة والتلفزيون كانت على درجة من التواضع وإعتمدت ما يشبه أسلوب التناسي.

وعند التأمل في طبيعة هذا الدور وما يجري في الجزائر منذ بضع سنوات يتبين لنا واقع مؤلم وهو أن الجزائر التى كانت طوال سنوات حكم بومدْين دائماً في مقدمة المتبارين في ماراتون الدور العربي القومي على الصعيديْن السياسي والإقتصادي الإقليمي والدولي، وكذلك على صعيد الشأن العسكري تراجعت إلى الوراء وبحيث أن حالها في الجناح المغاربي من الأمة يشبه حال موريتانيا، وأن تونس وبالذات بعدما إستقرت أحوالها وسياساتها وتطلعاتها مع حكم الرئيس زين العابدين بن علي أخذت من الجزائر المكان والمكانة في الماراتون المشار إليه. وكلما إتسعت رقعة الإستنزاف في الجزائر نتيجة عمليات التفخيخ وتساقط أجساد الأبرياء ومن دون أن يتساهل طرفا الصراع... تضاءت أهمية الجزائر معنوياً وعملياً. وما يُخشى هو أن تتغلب مع الوقت تسمية (الجرائر بلد السيارات المفخخة) على تسمية (بلد المليون شهيد). ومثْل هذا الأمر ونتيجة لعدم الحسم وعقْم المعالجات يقترب من الحدوث. ونحن عندما نقول ذلك لا نستبعد الإفتراض القائم على أن ما تفعله الجزائر منذ خمس سنوات هو ضريبة الدور القومي المتألق لها طوال عشر سنين بومدْينية من أصل ثلاث عشرة سنة لبومدْين في الحُكم، وتعطيل هذا الدور من خلال إغراق الجزائر بدم أهلها يقتلون بعضهم بعضاً هو مثْل تعطيل دور لبنان القومي من خلال إشغاله بالإقتتال الأهلي، ومثْل تعطيل دور العراق من خلال إنهاء شأنه العسكري والمالي بإستدراجه إلى ما فعله بالكويت، لكي يتم ضربه بعد نلك على نحو ما جرى ولا يزال. ومثل السعي الحثيث لتعطيل مبادرة مجلس التعاون الخليجي وتجفيف بحيرة الثروة الخليجية، ومثْل المحاولات المتواصلة لتعطيل الدور السوري وتعطيل الدور الليبي. وكل ذلك من أجْل فرْض سلام غير عادل وغير متكافئ.

ويبقى أن إحياء الذكرى الثامنة عشرة لرحيل بومدْين قبْل ثلاثة أيام من إنتهاء عام 1996 الحافل بمهانات لحقت بالسمعة العربية وبالشأن القومي، كان في بعض جوانبه تذكيراً للذين إنشغلوا في الإقتتال الداخلي حكاماً ومعارضين بأن للأمة العربية على الجزائر حق التنبه والصحوة من أجْل العودة إلى سابق شأنها والمشاركة في مواجهة إستهانة إسرائيل بالعرب.

وإذا إستعادت الجزائر شأنها مع تصحيح جذري لأخطاء الحقبة البومدْينية لا يعود هناك إقتتال ولا سيارات مفخخة ولا مطاردات من النوع الذي لا يجوز التباهي به. لعل وعسى قبْل الذكرى التاسعة عشرة لرحيل بومدين، التي سيقام لمناسبة حلولها إحتفال في تلمسان، تكون الجرائر إستعادت الوعي... والدور.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 13 يناير (ك2) 1997

* * *

أمثولة من النمسا للمواجهة الأوكسفوردية – السوربونية في السودان

تناقلت وكالات الأنباء يوم السبت 18 يناير (كانون الثاني) 1997 نبأ مصدره فيينا وخلاصته أن مستشار الدولة، أي رئيس الحكومة الإتحادي فرانز فرانيتسكي، أبلغ رجال الصحافة بعد إجتماع عقده مع قيادة "الحزب الإجتماعي الديمقراطي" الذي يتزعمه أنه قرر الإستقالة من منصبه، الذي هو عملياً المنصب الأول من حيث الفعالية بينما المنصب الأول حسب العرف الرسمي، أي رئاسة الجمهورية، ليس في القوة نفسها.

وقد يبدو مثل هذا الأمر في غاية الغرابة لشعوب العالم الثالث الذي ننتمي إليه، حيث إستقالة الحكام في بعض دول هذا العالم غير واردة، لكنه بالنسبة إلى دولة مثل النمسا يبدو أمراً وارداً، بدليل أنه حدَث. بل إن الحاكم – مثل مستشار النمسا – عندما يبادر ومِن تلقاء نفسه إلى تقديم إستقالته فإنه يفعل ذلك بدافع خدمة الوطن، مثلما أنه عندما شغل المنصب إنما شغله لخدمة الوطن ورفاهية الشعب والمحافظة على الدستور، وليس لأي منفعة أُخرى على الإطلاق.

ولأن المستشار المستقيل لا يريد الظهور أمام شعبه وحزبه الذي أوصله إلى المنصب الكبير بأنه تخلى عن الواجب وإستقال، مع أنه في وضع صحي جيد، فإنه أوكل إلى أحد المقرَّبين منه أمْر توضيح الإستقالة فجاء التوضيح يشير إلى أن المستشار "ضاق ذرعاً بالعمل السياسي بعد عشر سنين أمضاها في الحُكْم". وترك المستشار لنفسه حق إضافة بعض الحيثيات لقرار الإستقالة لخصها بالقول: "إن الإبتعاد عن العمل أمر صعب لكن ضميري مرتاح وأنا

أنصرف. وفي الحزب عناصر قوية من الشباب".

وإستناداً إلى إنجازات المستشار فرانيتسكي في السنوات العشر التي أمضاها مستشاراً (أي رئيساً للحكومة الإتحادية) فإن الرجل ليس مضطراً لتقديم الإستقالة وفي إستطاعته أن يبقى بضع سنوات أخرى. فهو في السنوات الأربع الأولى من الحُكْم حقق تقدماً في الأداء الإقتصادي للدولة ومارس واجب الرعاية والحماية للدستور ولتجربة الحُكْم ولسلاسة العلاقة بين المؤسسات، وحافظ أيضاً على علاقات حسن الجوار وصان أيضاً حقوق الحياة الحزبية في البلاد حيث تتنافس من دون مخاوف ولا سلاح أربعة أحزاب. كما أن له رصيده الرياضي حيث كان أحد لاعبي كرة السلة المحترفين، وله كذلك رصيده في أوساط رجال المال والأعمال والصناعات حيث كان قبْل تولّي منصب المستشار يعمل في الحقل المصرفي. لكن الرجل شاء أن يستقيل كي لا يترك إنطباعاً في أذهان الشعب، وجماهير حزبه، بأنه متمسك بالحُكْم ولا يعطي الفرصة لغيره. وهو أيضاً استقال على طريقة كبار الفنانين الذين يتقاعدون وهم في ذروة مجدهم ويفعلون ذلك خشية أن تتعثر بهم الخطى فجأة وتدفع بهم المقادير والمفاجآت غير السارة إلى السفح.

ونلاحظ أن المستشار فرانيتسكي يقول في معرض الإستقالة إنه مرتاح الضمير، وهو في ذلك يفترض أن الإستقالة تهمة لا يجوز للمسؤول وبالذات في المناصب القيادية، أن يقترفها من دون إبداء المسببات المقْنعة ثم يتبين أن المسببات في غاية الإقناع، سواء ما أفصح عنه أو ما أبقاه في وجدانه. أما الذي أفصح عنه فهو أنه يريد "إعطاء فرصة للعناصر الشابة (على الأقل، الأكثر شباباً منه ومن العاملين معه في إدارة شؤون الدولة) لكي تخطو نحو المناصب القيادية، وأنه يريد إنتقال السُلطة من جيل إلى جيل في وقت تكون البلاد مستقرة ولا تعاني من أزمات. وأما الذي أبقاه طي الوجدان، ويمكن الإفتراض بأنه جال في خاطره، فهو أن عشر سنين تكفي (تسلَّم المستشار المستقيل طوعاً منصبه عام 1986) وأن مشكلة الدول ذات النظام الحزبي هي في إصرار البعض على البقاء في الحُكْم من دون أن يخطر في بالهم أن الناس تضيق ذرعاً بطول بقائهم وبتفردهم، مع أن الفرصة يجب أن تتاح لأحزاب أُخرى ولوجوه لم تجرّب واجب الحُكْم بعد.

وقياساً على معظم الدول الأوروبية ذات الشأن فإن النمسا دولة قوية بتآلف قلوب مواطنيها التسعة ملايين الموزَّعين على تسع مقاطعات. وقوية بتجربتها الحزبية، حيث هناك أربعة أحزاب فقط تتصارع بأخلاقية عالية وتتبارى في إستنباط ما تقدمه للمواطن، فضلاً عن أن الجامع المشترك لهذه الأحزاب هو مصلحة البلاد ورفعة شأنها. وقوية في أن شعبها يستذكر في إستمرار سنوات المعاناة المريرة وبالذات بعدما ضمها أدولف هتلر إلى أمبراطوريته قبْل أن تثمر الجهود الدولية في إستعادة البلاد سيادتها وإستقلالها ثم إعلانها بعد ذلك دولة محايدة، وهي ما زالت إلى الآن تعيش نعمة الحياد. وقوية أيضاً في تمسُّكها بتراثها القانوني الذي ينظم لها كل مؤسسات الحُكْم، وفي إحترام حقوق المواطن وتقديس مفهوم الحرية المسؤولة. ومع أن إعادة تكوين النمسا ليست قديمة، حيث جرت عام 1945، إلاَّ أن تجاوب المواطن مع كل ما ينص عليه الدستور وعدم خروج المسؤولين عن مواد الدستور ومفاهيم إدارة الدولة المتفَق عليها، جعلت النمسا تبدو كما لو أنها صاحبة تجربة عريقة في الحُكْم تشبه التجربة البريطانية أو التجربة الفرنسية.

والأهم من هذا كله إن كل مواطن يخدم في الجيش وأن الجيش النظامي المحترِف هو جيش كل الشعب النمساوي وليس جيش الحزب الذي يحكم أو الحكومة التي تكون أحياناً إئتلافية. وعلى هذا الأساس فإن الإنقلابات العسكرية ليست واردة من دون أن يعني ذلك أن الجيش ليس صاحب رأي حازم في السياسة العامة للدولة. ولكن هذا الحق له يجعل مؤسسة الجيش لكل المواطنين ولكل الأحزاب وبذلك لا يمكن أن يستقطب حزب من الأحزاب الأربعة بعض الجنرالات لكي يقوموا بإنقلاب ضد الآخرين ويتفرد الإنقلابيون بالسُلطة.

ولقد ذاقت النمسا ويلات الحرب، وفوضى الثورة، ومسلسل الإغتيالات السياسية، قبْل أن تبدأ رحلة الإستقرار في حياتها. ولكن نعمة الإستقرار لم تحدُث إلاَّ بعدما باتت خدمة الوطن هي القضية الأساسية وتراجُع حب الذات أمام حب الوطن، ومكاسب الجاه والسُلطة أمام ما يحققه الوطن من مكاسب معنوية وسمعة دولية مرموقة. وعندما تصل الحال إلى حد أن مستشار الدولة يقول أمام قيادات حزبه إنه يريد التخلي عن المسؤولية لإفساح المجال أمام وجوه جديدة وشابة فإنه يعكس بذلك المدى الذي وصل إليه الفكر

السياسي النمساوي من حيث إعتبار الحُكْم والسُلطة ليسا الهدف إلاَّ في حدود ما يمكن تحقيقه خلال تسلم المسؤولية من خدمة للوطن، وأن التنحي عن المنصب وحتى إذا كان منصب رئيس الدولة أو رئيس الحكومة لا يتطلب صراعاً سياسياً تتخلله بعض الوقفات العسكرية أو بعض المواجهات الدامية وإنما يمكن حدوث التنحي بكل الرضا والاقتناع بأن المسؤولية ليست حقاً أبدياً، وأنها ليست حكراً على شخص دون آخر، أو على حزب دون بقية الأحزاب، أو على عائلة دون بقية العائلات، أو طائفة على حساب بقية الطوائف، أو هي من حق مجموعة طوائف على حساب طائفة واحدة. ومثْل هذه الحالات موجودة بكثرة في عدد من دول العالم الثالث. وكتأكيد لإمكانية أو لوجوب التنحي بكل الرضا والإقتناع جاءت إستقالة المستشار فرانيتسكي الذي يحكم البلاد منذ عشر سنين من دون أن يكون هنالك تذمر شعبي منه أو تظاهرات تجوب البلاد إحتجاجاً عليه أو صراعات تتسم بالعنف تجري بهدف الإنقضاض على الحُكْم والحلول محله أو تغييره بقوة السلاح إذا إقتضى الأمر.

ونجد أنفسنا بعد هذا التمهيد الموجز لما حدَث في النمسا نتمنى لو أن أطراف الصراع الدائر في السودان يتأملون في الأمثولة النمساوية ويطبِّقون الجزء اليسير من المعاني السامية الكثيرة التي تحفل بها تلك الأمثولة. وأهم هذه المعاني على الإطلاق خمسة. أولها، أن السودان مطوَّق بالجيران (9 دول) مثلما هي النمسا (7 دول) لكن الفرق بينهما أن النمسا نجحت منذ أن باتت دولة مستقلة في تحقيق أفضل حالات حُسن الجوار حتى في أيام الحرب الباردة عندما كانت مطوقة بمن ينتسب إلى الحلف الأطلسي ومَن ينتسب إلى حلف وارسو، في حين أن أنظمة الحُكْم المتعاقبة على السودان تعثرت – بإستثناء فترات عابرة – في تحقيق حسن جوار هادئ وسجَّل النظام الحالي رقماً قياسياً في موضوع التوتر مع جيرانه إلى درجة أنه لم يجد عندما تفجَّر الصراع بينه وبين المعارضة مَن يسانده من الجيران في حين تكاثر فتْح المنافذ الحدودية والمساندات الإعلامية والعسكرية على أطراف المعارضة.

وثاني المعاني أن فلسفة الحُكْم الحالي في السودان تقوم على أنه لا مجال للأحزاب الأُخرى، وهي فلسفة جاءت بمثابة حجة لتلك الأحزاب لكي تعلن أنه لا حل إلاَّ بسقوط النظام الحالي. والفلسفتان عقيمتان في أي حال، في حين نرى أن النمسا نجحت في تكريس صيغة أن البلاد لكل الأحزاب وأن الحُكْم من حق أي حزب إذا هو عمل تحت مظلة الديمقراطية. وثالث المعاني هو أن أحزاب السودان يجب أن تُبقي الجيش بعيداً عن صراعاتها فيصون بذلك التجربة الحزبية وهو بالتأكيد لا يصونها ولن يصونها عندما يزجه الحزب الوحيد الحاكم في مواجهة لا علاقة له بها ويتحدث رموز المعارضة عنه على أنه عدو كما سمِعْنا من العسكري المعارض العميد عبد العزيز خالد في بداية المواجهة العسكرية للمعارضة مع النظام. وها هي التجربة الحزبية في النمسا محروسة بالجيش الذي لا يتدخل في شؤون الأحزاب. ورابع المعاني هو أن المعارضة لا تعود سيدة نفسها إذا هي عملت من خلال قوى خارجية، وأن العمل المجدي هو العمل داخل البلاد. وها هي أحزاب النمسا مثال على ذلك، حيث إن أحداً من قادة هذه الأحزاب لم يلجأ إلى دولة جارة ليعمل منها أو يغادر خلسة إلى دولة أو دول أُخرى بحجة أنه لا يريد أن يبقى رهينة على نحو ما حدَث مع الصادق المهدي. ويدرك قادة الأحزاب النمساوية أنهم لو غادروا إلى إحدى الدول السبع المجاورة أو على سبيل المثال يغادر بعضهم إلى ألمانيا أو إيطاليا ويغادر البعض الآخر إلى تشيكوسلوفاكيا أو المجر، فإنهم سيجدون أن المغادرة ستتحول إلى حالة ارتهان أشد وطأة من حالة الرهينة.

أما خامس المعاني، فهو إنه في أي بلد يعتمد الحزبية فإن بقاء أي حُكْم حزبي أكثر من ست سنوات كحد أدنى وعشر سنين كحد أقصى معناه تعريض البلاد إما إلى التبلد، وإما إلى الدكتاتورية المقنَّعة بقناع الحرية والديمقراطية، وأن الإستقالة بالرضا تُعمِّق الإستقرار، وهذا ما يمكن لمسه من معنى إستقالة المستشار فرانيتسكي.

وقد نجد من يقول: "أين السودان وأين النمسا؟ وجوابنا عن ذلك هو أنه في اللحظات الصعبة والأيام العصيبة يجري البحث عن أمثولات من نوع الأمثولة النمساوية، أياً كان مصدرها، تماماً مثلما يجري الإستعانة بالدواء عند إشتداد الألم. والسودان يعيش أياماً عصيبة وصعبة ويقاسي مر الألم من المتمسكين بالسُلطة ولو تحوَّل السودان إلى ركام ومن الطامعين إلى السلطة ولو صار النيل ثلاثة أبيض وأزرق... وأحمر، لكثرة الدم الذي يمكن أن يسيح من الجسد السوداني. أعان الله السودانيين من صراع الأكسفوردي

والسوربوني. ويا ليت السيد الصادق المهدي (خريج جامعة أوكسفورد البريطانية) والشيخ حسن الترابي (خريج جامعة السوربون الفرنسية) ما داما تخرجا من جامعتين أوروبيتين عريقتين يستحضران تقاليد هاتين الجامعتين ويطبّقانها على أرض الواقع في السودان، على نحو ما يفعل العاقلون في النمسا وقبْل أن يصبح الحل للأزمة السودانية على حساب شخصيهما بالذات. أطلبوا العِلْم ولو من الصين، والحل ولو من النمسا. ورفقاً بالسودان يا حكامه السابقين والحاليين واللاحقين... القادمين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يناير (كانون الثاني) 1997

* * *

الرشاش بعد الثوب والبخور

يستوقق المتابع للتطورات السودانية منذ أكثر من ثلاثين سنة – مثل حالنا – هذا الحضور المتميز للمرأة السودانية في المواجهة غير المكتملة التي يشهدها السودان. وفي حدود ما شاهدناه عبْر شاشات المحطات الفضائية وفي الصور التي نقلتْها وكالات الأنباء المصورة من السودان فإن المرأة السودانية – وهي هنا المنتمية إلى التيار الإسلامي الجارف والحاكم في البلاد عن عقيدة أو عن روابط أسرية – تبدو شريكة فاعلة قي المواجهة.

وفي الماضي كان للمرأة السودانية دور في المواجهات التي تستهدف التغيير وكانت السيدة فاطمة إبراهيم هي الرائدة في هذا الميدان. وقد تمكنت من تحقيق تعبئة نسوية في السودان وإستطاعت بفضل الجهود الذي بذلتْها لتحقيق هذه التعبئة أن تجد لها مكاناً في تلك الصورة التاريخية التي تبقى على رغم كل شيء رمزاً مضيئاً لعملية التغيير من خلال الثورة المسالمة التي حدثت في أكتوبر 1964 وأنهت الحُكْم العسكري الذي كان يقوده مجموعة من الجنرالات يترأسهم الفريق إبراهيم عبود. وفي تلك الصورة وقفت السيدة فاطمة بكل ثقة السودانية بنفسها بثوبها الأبيض المرسومة عليه نقوش بسيطة بين رفيقها في العقيدة (الشيوعية) عبد الخالق محجوب (إلى يمينها) والدكتور حسن الترابي (زعيم رابطة الميثاق الإسلامي زمنداك) إلى يسارها. أما بقية الذين في الصورة فهم: الرئيس إسماعيل الأزهري (الحزب الوطني الإتحادي) والرئيس محمد أحمد محجوب (حزب الأمة) والشيخ علي عبدالرحمن (حزب الشعب الديمقراطي) والصادق المهدي (حزب الأمة). وكان منظر السيدة فاطمة بين هذه المجموعة من رجال العمل السياسي في السودان (لم يبقَ من هؤلاء على قيد الحياة – أطال الله أعمارهم – سوى الصادق المهدي والدكتور حسن الترابي وفاطمة إبراهيم موضع تباهي المرأة السودانية من جهة وموضع إعتراضها وتحفظها من جهة أُخرى. أما التباين فلأن المرأة السودانية جزء من عملية التغيير، وهي مارست حقها في العمل السياسي عن جدارة. وأما الإعتراض والتحفظ فلأن السيدة فاطمة تُمثل فئة من نساء السودأن، كونها من قادة الحزب الشيوعي في البلاد، أي أنها تُمثِّل المرأة السودانية الشيوعية ولا تُمثِّل بقية النساء.

بعد سقوط حُكْم الأحزاب وتناثر ثورة أكتوبر 1964 التي كانت أهم تجربة للتعددية في العالم العربي وربما العالم الثالث عموماً، وعودة الضباط إلى الحُكْم بصيغة تحالُف غير مرئي في البداية بينهم وبين قيادات في الحزب الشيوعي، غاب دور المرأة السودانية لفترة طويلة قبْل أن تقرر ثورة 25 مايو 1969 ورئيسها اللواء جعفر نميري إبراز الدور النسائي في الحياة السباسية. وكان نميري ورفاقه في قرارهم متأثرين بالدور الذي أعطته ثورة 23 يوليو 1952 في مصر للمرأة والصيغة المتواضعة لهذا الدور والتي بموجبها تم إسناد منصب وزير إلى سيدة هي الدكتورة حكمت أبو زيد، التي تولت وزارة الشؤون الإجتماعية. ومن أجل ذلك نلاحظ إسناد منصب وزاري في حكومة الرئيس نميري إلى الدكتورة فاطمة عبد المحمود التي تسلمت هي الأُخرى ومثْل زميلتها في مصر وزارة الشؤون الإجتماعية. وقد تألقت الدكتورة فاطمة في منصبها الوزاري وأخذ حضورها في الإجتماعات والمناسبات واللقاءات الرسمية من الحضور الذي كان لفاطمة الأولى (فاطمة إبراهيم) التي كسرت لها ثورة مايو قلبها وعنفوانها بإعدام زوجها الزعيم النقابي المعروف ورفيق دربها السياسي في القيادة الأمامية للحركة الشيوعية السودانية.

بعد عودة الصادق المهدي رئيساً للوزراء مرة ثانية، نتيجة أن الفريق عبد الرحمن سوار الذهب أوفى بوعده فسلَّم الأمانة، أي مقاليد الحُكم بعد إنتهاء الفترة الإنتقالية التي كانت فترة إستقرار مثالي للسودان على

عكس ما يحدُث في الفترات الإنتقالية، لم يجد ما يوجب إستنهاض دور المرأة وذلك على أساس أنه يترأس حكومة ترفع راية العمل الديمقراطي وهذا معناه أن في إستطاعة كل سوداني أو سودانية ممارسة حق التعبير وإثبات الكفاءة. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن الصادق المهدي يرى أن التجربة الديمقراطية هي التي تحمي الحُكْم وبالتالي فلا حاجة لإستنهاض المرأة لكي تؤازر الرجل وبالعكس. ولو أن الصادق المهدي أوكل إلى زوجته، السيدة سارة، دوراً تعبوياً (وهي التي تنفرد بين نساء الأنصار بعقل سياسي نيّر وتملك نعمة الصبر والتحمل لكثرة ما واجهت الأُسرة من متاعب الهجرة والتهجير) لكان أوجد بذلك تياراً في طول السودان وعرْضه وفي أعماقه هو في أشد الحاجة إليه في معركة العودة إلى الحُكْم.

وما نقصده بهذا التيار هو وجود المرأة السودانية التي تُقنع الأجيال بصحة المنطق الذي يتبناه الصادق المهدي ومَن معه من قيادات المعارضة السودانية. وكل ما قامت به السيدة سارة المهدي هو زيارة إلى طهران في المرحلة التي كانت فيها علاقات زوجها طيّبة مع الثورة الإيرانية.

وما لم يفعله الصادق المهدي فعله الدكتور حسن الترابي، الذي نشط في فترة إبتعاد الصادق عنه والتعامل معه وفْق قاعدة «عندما يكون صديقي هو حليف خصمي (أي نميري) فإنه يكون بذلك عدوي» والترابي ليس مجرد صديق وإنما هو نسيب وقريب، حيث أن الصادق هو خال أولاد الترابي. وخلال ثلاث سنوات نشط الترابي في أوساط الجامعات بمثل نشاطه في أوساط الجيش. ومثلما أنه إستطاع أن يحقق ما عجزَ الصادق المهدي عن تحقيقه، وهو تعبئة وجدان وعقل عدد من الضباط وتحويلهم إلى ما يشبه الدعاة الذين يلقون الخطب من على منابر المساجد، فإنه إستطاع أيضاً تحقيق تعبئة دينية في أوساط الجامعيات والمثقفات السودانيات، وإقترنت التعبئة بالتنظيم بحيث بات لدى الجبهة الإسلامية التي يقودها الترابي حزب نسائي تنشط قياداته من أجْل تحقيق مجتمع إسلامي. وبدأت المنتسبات إلى التنظيم النسائي تتخلين عن المظاهر وإستبدلت كثيرات منهن الزي الإسلامي بالثوب السوداني، عِلماً بأن هذا الثوب هو الوحيد بين الأزياء النسائية في العالم الذي يجمع بين الحشمة والشياكة الأنثوية الراقية الخالية من التصنع والذي يعوِّض المرأة السودانية حاجة غيرها إلى مستحضرات التجميل.

ثم بدأت، وبعيداً عن الضجيج، تتصدر ساحة العمل الوطني في السودان نساء سودانيات كثيرات صقلتهنَّ تجربة الإنضواء تحت مظلة الإتحاد النسائي أو الإنتساب إلى "رائدات النهضة" أمثال الدكتورة سعاد الفاتح التي شغلت منصب عميدة كلية البنات في جامعة أم درمان ثم صارت رئيسة الإتحاد النسائي الإسلامي العالمي، والدكتورة زكية عوض ساتي عميدة كلية الآداب في جامعة الخرطوم، والسيدة إحسان القبشاوي وزيرة الصحة المركزية للحكومة الفيدرالية، إضافة إلى السيدة وصال المهدي (زوجة الترابي) التي لها رصيد ديني كونها إبنة إمام لطائفة الأنصار (هو الصديق والد الصادق) وحفيدة إمام للطائفة وزعيم لكل السودان (الإمام عبد الرحمن وهو رصيد بأهمية رصيد نساء الجبهة المتميزات اللواتي يتصدرن القيادة النسائية نتيجة نضال الرحاب الجامعي.

وجاءت الأزمة المستمرة بين أحزاب المعارضة السودانية والنظام والمواجهات المتقطعة في مناطق الحدود مع أثيوبيا وإريتريا لتكشف أن الجبهة الإسلامية قوية أيضاً بنسائها وأنها إستطاعت خلال مثابرة إستغرقت حوالى ست سوات إنشاء تنظيم نسائي بالغ الأهمية لا يستند إلى إعتبارات عائلية وإنما إلى قناعات وكفاءات. تنظيم تتحمل فيه المرأة السودانية مسؤولية دفاعية وقتالية ويستلهم من السيرة التقاليد الإسلامية وبالذات ما يتعلق بالمواجهة والقتال ودورها في المعارك إذا حدثت مثل الذود عن الجرحى وإسقاء العطشى والمرابطة أيضاً في الخطوط الخلفية لجبهة القتال بحيث إذا فر مقاتلون، لأسباب أو أُخرى، فإنها تحث المقاتل على الصمود وتهدئ من روعه فيعود مقاتلاً جسوراً.

ولا يخفي المرء إنبهاره بالمشاهد التي تناقلتْها بعض المحطات الفضائية والصور التي بثتها بعض وكالات الأنباء المصورة وتُمثل جموعاً نسائية سودانية إستبدلت فيها المرأة الثوب الذي يعيق الحركة باللباس العسكري وحملت الرشاش ورفعتْه عالياً. وما شاهدناه قد يكون النزر القليل من الكثير الذي تم إنجازه على طريق تعبئة المرأة السودانية التي صاغ لها الدكتور حسن الترابي نظرية عمل في كتيب حولتها – وأتحدث هنا عن نساء للجبهة الإسلامية – إلى متورطة في نزاعات رجال السودان حول الحُكم والسُلطة وصاحبة كلمة حين تدق ساعة حسْم هذه النزاعات، بعدما كان

المطلوب منها أن تحصـــر الإهتمام بالثوب والحنة والبخور والإنهماك في إعداد الأطايب. وخلاصة القول إن المواجهة المتباطئة بين قوى المعارضـــة والنظام أظهرت لنا أمراً كان غائباً عن البال، وهو أن إمرأة جديدة أتت موجودة في الســـودان ولها حصـــتها في المعادلة الكثيرة التعقيد للصراع القائم.. الدائم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 فبراير(شباط) 1997

* * *

رمضان المحزون

بعد الذي جرى في لبنان وله على مدى ستة عشر عاماً ساد الإعتقاد بأن شبح الحرب اللبنانية سيخيف أي نظام وأي شعب، فتعمل الأطراف المعنية ما في وسْعها لكي لا تتكرر المأســـاة. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن ظاهرة الفضـــائيات لم تكن قد إنتشـــرت في أواخر السبعينات وطوال الثمانينات على نحو ما هي عليه منذ مطلع التسعينات، وخفف عدم إنتشارها من وطأة مشاهدة أهوال الحرب اللبنانية.

وكان المواطن العربي من المحيط إلى الخليج يتابع أهوال تلك الحرب من خلال ما تعرضـــه بين الحين والآخر محطات التلفزيونات العربية من مشاهد خاضعة للرقابة الرسمية. وعلى رغم قلة عرْض تلك المشاهد فإن الدهشة كانت ترتسم على وجه من يشاهد، وكان الخوف يسري في قلبه وكأنما هو شريان من الشرايين التي تنظِّم الدورة الدموية. أما لو كان المواطن يتابع التطورات أولاً بأول على نحو ما باتت تحققه الفضـــائيات منذ خمس سنوات والتي بات متيسراً له في شكل أو آخر متابعتها فإنه كان سيصاب بما يشبه الذهول على نحو ما بات يصـــيبه وهو يتابع ما يحدُث في الجزائر حيث يحصـــد العنف أرواح الناس بالعشـرات وما هو متوقع حدوثه في الســـودان إذا لم يســـتعد النظام والمعارضـــة الوعي ولم يحتكما إلى المصـــاحف بدل الســـيوف التي يجري منذ بعض الوقت تحضـــيرها للمبارزة. وأكثر ما يلفت النظر في مســـلســـل العنف الدائر في الجزائر أن الأطراف المشـــاركة فيه لا تراعي حتى قدســـية بعض الأيام والمناسبات، وإلاَّ فما تفسير أن هذا المسلسل تَواصل في شهر رمضان الفضيل الذي ودعناه قُبل أمس كصوم من دون أن نشـعر بفرحته كعيد. ويبدو أن مَن تصـيبه لوثة العنف أنظمـة كـانـت أم تنظيمـات لا يعود يميز بين الفضـيل والعادي من الأيام والمناسبات بدليل أن الحرب بين العراق وإيران إســـتمرت حتى في الأيام الرمضـــانية والعاشورائية. وهي لأنها إستمرت على النحو الذي نشير إليه فإن الطرفيْن إنتهيا خاســـريْن يداويان حتى الآن الجراح المعنوية لحربهما ويتبادلان الأسرى والجثث. وأما الخسارة المالية فتلك تعجز الآلات الحاسبة عن تحديدها.

ونحن نفهم أن يخلُد المســـلم إلى العزلة الروحية في شـهر رمضـان فلا يؤذي أحداً وتتحاشـى قدْر الإمكان التسبب في إيذاء نفسه. أما الذي يصعب فهْمه فهو أن يحل شـهر الصـوم من دون أن تصـدر عن الأنظمة والتنظيمات بيانات تحدد وبكل الوضـوح أنها لمناسـبة الشـهر الفضـيل وبالذات ليلة القدْر فيه، والتي هي خير من ألف شهر، لن يكون هنالك كر وفر ولن تكون هنالك عمليات ومطاردات ولن تصدر فيه أحكام. ومع الأسف إن مثل هذا الأمر لم يحدُث عِلْماً بأن صـدور مثل هذه البيانات كان سيؤكد أن هنالك إمكانية للحوار ما دام في الإمكان الإلتزام بهدنة، وكانت البيانات سـتوكد أمراً آخر في منتهى الأهمية وهو كشْف الفريق الثالث الذي يمارس العنف ويزيد بأعمال التفخيخ والإغتيالات النار إشـتعالاً. أما وأن ذلك لم يحدُث فإن العنف الذي يحدُث يكون مصـدره إما النظام أو التنظيم، ويساعد على الأخذ بهذا الإعتقاد أن الطرفيْن لا يقولان رأياً في الأمر. والذي يجعل الطرفين لا يصدران مثل هذه البيانات هو إدراكهما أن العنف إذا توقَّف شـــهراً فإنه يتوقف دهراً، بمعنى أن الخلود إلى السكينة والتامل والتعبد من شأنها أن تولّد في النفس شعورا بالنفور من العنف إلى الأبد.

وإذا كان الكلام في شأن الجزائر بات غير ذي جدوى بعدما تجاوز العنف كل الأصـــول وكل القيم وإختلطت الأمور بحيث لم يعد من السهل الفصل بين مَن هم دعاة الحق ومَن هم أنصار الباطل، فإن الكلام في شأن ما قد يحدُث في الســـودان ربما يفيد في تدارُك ســـريع للأمر خصوصاً أن الأزمة التي حدثت فيه أظهرت شبه إنقسام في الموقف العربي إلاَّ أنها في الوقت نفسه عكست رغبة عربية شـــاملة في أن تبقى الأزمة دون الإنفجار الكبير. وما نعنيه هنا هو أن تتحول الأزمة إلى حرب أهلية من الطبيعي إن هي بدأت ألاَّ تنتهي.

ونحن حتى الأن لا نعرف ما هو السر في أن توقيت الأزمة حدث في الشـهر الفضـيل رمضـان. وإذا كانت المواجهة المتواصـــلة في الجزائر هي بين إتجاه ديني وإتجاه علماني عســـكري –مدني، ومن أجْل ذلك يمكن

القول إنه كان صعباً تداركها، فإن الأزمة في السودان وبدايات المواجهة هي بين رمزيْن دينييْن، ونقصد بهما الصادق المهدي والدكتور حسن الترابي، ومن المفترَض فيهما من أجْلهما أولا ثم من أجْل الشعب في السودان، ألا يعكر صفو الشهر الفضيل.

ومن المؤكد أن المواطن العادي لن يغفر للإثنين إختيارهما الشهر الفضيل لتفجير ما في نفسيهما من مشاعر غير طيبة لبعضهما البعض. وكان هذا المواطن سيشعر بالتقدير للإثنين لو أنه قرأ أو سمع في التصريحات الكثيرة التي أدلى كل منهما بها أنهما لا يريدان للشهر الفضيل أن يكون دموياً في السودان وأنهما بسبب مصادفة تفجُّر الأزمة في شهر رمضان سيتهيبان الموقف ويعود كل منهما إلى وقاره.. إلاَّ إذا كان توقيت إنفجار الأزمة وخلال شهر رمضان أمراً تعمَّده كل منهما لأسباب أو إستخارات معيَّنة، خصوصاً أن كلا منهما يعتمد على الإستخارة في إتخاذ المواقف وتنفيذ القرارات. وما يمكن أن يكون إفترضه كل منهما هو أن شهر الصوم يشحذ الهمم ويقوي العزيمة من حيث البعد الروحي للمسألة وأنه عندما يتوافر ذلك فإن النصر يكون هو الحليف بدليل أن التوقيت الذي إختاره الرئيس الراحل أنور السادات لحرب 1973 ساعد في تحقيق إنتصارات وأمكن القوات المصرية ان تعبر قناة السويس. ونقول ذلك من دون أن نسقط من حساب الإفتراضات أن توقيت السادات راعى أموراً أُخرى من بينها حركة المد والجزر في مياه القناة إضافة إلى بعض الظروف المحلية والإقليمية والدولية.

ويبقى أن الشهر الفضيل إنقضى والنزيف يتواصل في الجزائر ويسجل العنف فى شهر الصوم حوادث يندى لها الجبين الإسلامي. كذلك إنقضى الشهر الفضيل من دون أن تحدُث المواجهة الكبرى في السودان، ويقتصر الأمر حتى الآن على مواقف وتصريحات لا تراعي الخُلق الإسلامي وبالذات في شهر فضيل. وإذ نتمنى أن يحل عيد الفطر المبارك المقبل بعد عام وقد أُستعيد الوعي وتم إعتماد المواجهات السِلمية بين بعض الأنظمة العربية ومعارضيها عوضاً عن العنف، فإننا نتمنى في الوقت نفسه أن نتوقف عند حد ظاهرة قيام بعض القادة العرب بالواجب في غير محله نحو إسرائيل. ونقول ذلك بعدما بتنا نتمنى ألاَّ تتعرض إسرائيل لحوادث من نوع حادثة إصطدام طائرتيْ الهليكوبتر، فقط كي لا نقرأ ونسمع ونشاهد بعض القادة يقدِّمون التعزية بالحادثة إلى رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو، وكأنما الضباط والجنود الإسرائيليون الذين قُتلوا جرَّاء الحادثة لم يكونوا في طريقهم لتنفيذ عدوان في جنوب لبنان يذهب ضحيته أطفال ونساء وشيوخ، كان لن يعزي فيهم القادة الذين عزوا بحادثة الهليكوبتر – على أساس أن العدوان الإسرائيلي مسألة روتينية – مسجلين بذلك تقليداً غير مرضي عنه وغير مستحب، وبالذات ونحن نودِّع الشهر الفضيل، وهو التعزية بالقتلة الذين شيعتهم حكومتهم وعلى رأسها نتنياهو كشهداء. وهذا التقليد قد يأتي على القادة العرب، الذين قاموا بالواجب في غير محله، ببعض المشاريع والمساعدات وإسقاط جزء من ديون ورضى إدارة الرئيس كلينتون والطاقم الذي إختاره لهذه الإدارة بهدف مؤازرة إسرائيل، لكنه لن يحقق السلام المحترم. كما أن هذا التقليد يؤكد حقيقة أساسية وهي أن واجب التعزية الذي حدَث معناه إما أن هذه المبادرة جاءت نتيجة نصيحة المستشارين وهؤلاء غير مخلصين في ما نصحوا به أو غير بعيدي النظر بما فيه الكفاية، وإما أنها جاءت بمبادرة عفوية وشخصية من القادة وهذا يوجب عليهم طلب المشورة لتفادي إحداث جرح في الوجدان العربي الذي تكفيه جراح وندوب السلام الأميركي الجائر، والذي سيكون أكثر جوراً بعدما كشفت صحيفة «واشنطن بوست» لوزيرة الخارجية الأميركية أولبرايت أنها ذات اصل يهودي فإنبهرت الوزيرة وأدخلت السرور في نفس الرئيس كلينتون.

وفي ضوء ما اوردناه في الأسطر السابقة فإن شهر رمضان المبارك كان رمضاناً محزوناً آخر في سلسلة الرمضانات الحزينة. ومن باب التمني لا نجد سوى الدعاء بأن يعوضنا الله سبحانه وتعالى الحزن بالفرح في رمضان المقبل. وهذا في إستمرار كان دعاؤنا منذ أول رمضان صفقة كامب ديفيد الشهيرة.. والتي إنتهت تشهيراً بكبرياء الأمة وتقاليدها الطيبة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 10 فبراير (شباط) 1997

* * *

قال العرب كلمتهم

من حُسن حظ السودان، الشعب والوطن، أن الدول العربية تعاملت بإيجابية مع الأزمة التي تعصف بالبوابة الأفريقية للعالم العربي. ومن أجْل ذلك فإنه بصعب القول بأن هذه الدولة، أو الدول، إنتصرت

للنظام في السودان، أو أن هذه الدولة، او الدول، إرتأت الوقوف الى جانب المعارضة السودانية. وهذه الدول لم تفعل ذلك حباً بالنظام وكراهية بالمعارضة، وبالعكس، وإنما لأنها في ضوء الذي جرى في لبنان وله، وكيف إنتهت أحواله بعد ست عشرة سنة من الإقتتال، وفي ضوء الذي تسبب به النظام في العراق للبلد والشعب والجيران، إرتأت أن الإنزعاج الذي يسببه النظام في السودان للبعض، يبقى أخف وطأة وأقل ضرراً من الفوضى التي ستنشأ عن الإقتتال الأهلي في بلد المليون ميل مربع.

ومن أجْل ذلك نلاحظ أنه على رغم ما في الصدر المصري من غضب على النظام في السودان، فإن الحكمة، التي إعتمدها النظام في مصر منذ أن تفجرت أزمة حلايب بين البلديْن، وتواصلت على مدى بضعة أشهر، كانت القاعدة التي إرتكز عليها الرئيس حسني مبارك بعدما تطورت الأزمة بين النظام الذي يقوده الفريق عمر البشير وفصائل المعارضة السودانية، وبعدما قام الصادق المهدي بزيارة إلى مصر إعتبرها النظام في مصر خطوة تكتيكية أكثر منها خطوة إستراتيجية، ولا تختلف كثيراً عن الخطوة الرسمية التي تمثلت بوصول المبعوث السوداني الفريق الزبير محمد صالح (النائب الأول للرئيس السوداني) إلى القاهرة ضِمن جولة توضيح عربية شملت عدداً من الدول العربية.. بمعنى أن الخطوتيْن نشأتا عن الإضطرار وليس الإقتناع. وعندما لمس الصادق المهدي أنه لن يحصل من مصر على أكثر من حُسن الوفادة وحُسن الإستقبال، فإنه طرق باب الأزهر يريد من شيخه فتوى تقلل من شرعية الحُكم القائم في السودان على أساس أنه جاء وليد إنقلاب عسكري على الشرعية التي يمثلها هو (أي الصادى المهدي) حيث أنه كان رئيساً للوزراء.

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الفتوى لن تصدر، لا عن الجامع الأزهر، ولا من خلال كلام سيد طنطاوي، يكون أكثر لشيخه الدكتور محمد من وجهة نظر وأقل من فتوى، ولن تصدر أيضاً عن مفتي الجمهورية الدكتور نصر فريد واصل، وذلك لعدة إعتبارات من بينها أن مثل هذه الفتوى ستعني أن عدداً كبيراً من الحكام العرب الحاليين ليسوا شرعيين، لأنهم إنقلبوا على الشرعية ووصلوا إلى الحكم عن طريق إنقلاب عسكري.

بل إن النظام في مصر الذي ينتسب إلى الشرعية الثورية متمثلة بثورة 23 يوليو/ تموز 1952 سيكون بموجب هذه الفتوى غير شرعي، وسيكون أيضاً الرئيسان اللذان سبقا الرئيس مبارك (أي الراحلان جمال عبد الناصر وأنور السادات) غير شرعييْن. وهذا على سبيل المثال لا الحصر، يضاف إلى ذلك أن الصادق المهدي إعتبر أن الحُكْم الذي قام بعد 25 مايو (أيار) 1969 شرعي وأبرم إتفاقاً للمصالحة مع رئيسه جعفر نميري، مع أن ذلك الحُكْم من وجهة النظر المستجدة للصادق المهدي هو مثل الحُكْم الذي يقوده الفريق البشير، بمعنى أن كليها سالب للشرعية.

ويتذكر كثيرون أن الأزمة بين النظاميْن المصري والسوداني وصلت، في بعض المراحل المتقدمة من توترات جبهة حلايب، ثم بعد محاولة الإغتيال التي تعرَّض لها الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا وعدم الإقتناع بالمنطق السوداني إلى حد أن حرباً كان يمكن أن تحدث. لكن خشية الرئيس مبارك من أن تدمر هذه الحرب كل عمليات الترميم للإقتصاد المصري وكل الخطط الموضوعة لتنشيط السياحة، جعلتْه يعتمد الحكمة، مكتفياً بالتحذير تلو الآخر إنما من دون إضاءة النور الأخضر إيذاناً ببدء المواجهة. كما أن الخشية نفسها جعلت الرئيس مبارك يتصرف بحكمة فيوافق على إستقبال المبعوث السوداني من دون أن يلغي مشاعر الغضب نحو النظام في السودان، ثم يستقبل الصادق المهدي من دون أن يوظف هذه المشاعر لمصلحة المعارضة السودانية. وفي الحالتيْن كان الرئيس المصري هو الرابح. ربح إعتذاراً تمثَّل في زيارة الفريق الزبير، لأنه عندما يأتي هذا المبعوث ويختار القاهرة كمحطة أُولى لجولته العربية ويطلب المساعدة، أو حتى التفهم، فهذا يعني أنه بصيغة أو أُخرى يقدِّم إعتذار الحُكْم السوداني عما حدَث، وعما قيل على ألسنة مسؤولين من مختلف المستويات. كذلك إنه عندما يأتي الصادق المهدي إلى القاهرة وتكون هي أيضاً محطته العربية الأُولى، فإن حُكْم الرئيس مبارك يكون ربح إعادة نظر الخصم التاريخي في السودان لمصر.

ومن الجائز الإفتراض، وبالنظر إلى خصوصية العلاقة المصرية – الإماراتية، أن المبادرة التي أطلقها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان جاءت منسجمة مع الموقف المصري، أو إن هدوء تعامُل الحُكم المصري مع الأزمة السودانية شجع الشيخ زايد على أن يطْلِق المبادرة التي تصب روحيتها في السعي المتواصل

للشيخ زايد لتحقيق مصالحة عربية على رغم تعثُّر هذا السعي في كل مرة يتجدد الحديث حوله. كذلك ربما إن الذي شجع الشيخ زايد على إطلاق المبادرة هو أنه لمس رغبة دفينة لدى كل الأنظمة العربية ومن دون إستثناء – مع تفاوت في لهجة التعبير – بإيجاد حل للأزمة في السودان قبْل أن يتفجر الوضع وتتكرر الحالة اللبنانية. ونلاحظ في مسألة التعبير أن معظم الأنظمة أوضحت أنها مع وحدة أراضي السودان، وتعارض أي محاولة لفصم عرى هذه الوحدة، وهو تعبير بات مألوفاً وتَكرر بالنسبة إلى الوضع في العراق. وواضح من هذا التعبير أن الأنظمة لا تميل إلى أي تغيير درامي وصاعق، وفي الوقت نفسه لن تكون آسفة إذا حدَث التغيير، إنما بالحد الأدنى من المضاعفات والتعقيدات.

وعندما يكون الموقف العربي الرسمي على ما أشرنا إليه بدءاً من الدولة الأولى المعنية مباشرة بالوضع السوداني (أي مصر) ولا يصدر عن أي دولة موقف توحي من خلاله بأنها تفضل النظام في السودان على مجيء المعارضة، ويحدُث أيضاً مسعى مخلص من جانب رئيس دولة الإمارات، فهذا معناه أنه لن يتدفق السلاح على السودان على نحو ما حدَث في لبنان، والذي بسبب كثرة تدفق السلاح والمال على أطرافه المتحاربة، حصل الذي حصل، وإستمرت الحرب الأهلية ست عشرة سنة. ومعناه أيضاً أن الدول العربية تقطع الطريق على إختراق إيراني أوسع للسودان. ومثْل هذا الإختراق سيحدُث بطبيعة الحال لو أن الدول العربية تصرفت على عكس ما تصرفت، وعلى نحو ما تأمل فصائل المعارضة السودانية. وفي حال حدوثه فإن حجة الحُكْم السوداني ستكون قوية وخلاصتها أنه عندما وجد أن الاشقاء في العروبة غير مهتمين بما يجري في السودان، وأنهم يستقبلون بعض قادة المعارضة السودانية بكل الترحيب والتكريم والرعاية، فإنه من الطبيعي أن يستنجد (أي الحُكْم السوداني) بالشقيق المسلم (إيران) ويحصل منه على كل ما من شأنه أن يصون النظام.

ولقد كان الموقف السعودي في هذا الشأن لافتاً للنظر، وجاء تتويجاً للنظرة العربية الشاملة نحو الوضع في السودان. كذلك جاء هذا الموقف يشكِّل دفعة قوية للمسعى الذي يقوم به الشيخ زايد، ورسالة بشكل نصيحة وفي مناسبة كريمة، لكل من النظام والمعارضة في السودان. ولقد تمثَّل هذا الموقف بعبارة وردت في الكلمة التي وجَّهها مساء يوم الجمعة 7 فبراير/ شباط 1997 خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز، وولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبدالله بن عبد العزيز، إلى الأمة الإسلامية لمناسبة حلول عيد الفطر المبارك. فبعدما أبدى الملك فهد ألمه لما يحدُث في بعض الدول الإسلامية من إراقة للدماء وإزهاق للأرواح، دعا مع ولي العهد إلى «مراجعة النفس والتأمل وتحكيم العقل والحكمة، وأن يؤدي ذلك إلى تغليب لغة الحوار والتفاهم الأخوي البنَّاء وضرورة كبْح جماح المصالح الذاتية ليتسنى إنجاح المساعي الخيرة لكل توجُّه طيب بهدف تحقيق الصالح العام...». وهذه الكلمات تنطبق على الإخوة السودانيين الذين إختاروا الإقتتال حلاً لخلافاتهم.

وخلاصة القول إن القادة العرب قالوا. كل على طريقته وبأسلوبه – ما عندهم في شأن المحنة التي يعيشها النظام والمعارضة في السودان، وإتخذوا الموقف الذي إرتاحت له شعوبهم والذي لن يلومهم أحد عليه، لأنه موقف عاقل ويتسم بالحكمة.

والمهم هو أن يستوعب الطرفان السودانيان (النظام والمعارضة) هذا الموقف ويبذل كل منهما بلغ حجم التنازلات. فالمبادرة تعبير عما يريده كل الأشقاء العرب، شعوباً وقادة، وهي طوق نجاة من شأنه أن ينجي الشقيقيْن اللذيْن تخليا عن الحوار (والحوار هو الصفة التاريخية التي تلازم شخصية السوداني) من الغرق في مياه النيل... حيث التماسيح كثيرة، وجائعة ولا تُميز بين أهل النظام وناس المعارضة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 17 فبراير (شباط) 1997

* * *

أوراق ثلاثة كبار... وغيرهم

في الأسبوع الأخير من العام المنقضي (1996) إنتقلت إلى رحمة الله سيدة عربية، ذات ثقافة عالية وتربية سياسية قومية إنعكست على فكرها النير هي سلمى مردم، وحيدة المرحوم جميل مردم بك أحد رؤساء الحكومات الأسبقين في سوريا.

وحتى اللحظات الأخيرة لمغادرة الحياة الدنيا سلمى مردم، وعلى رغم قساوة الألم الناشيء عن المرض

الذي لا يرحم ولا شفاء منه والذي قاست منه ست سنوات برضى المؤمنة قبْل أن تلقى وجه ربها، مهمومة بكمية هائلة من الأوراق والصور الخاصة بوالدها. وهي إستطاعت أن تحافظ على هذه الأوراق وتبقيها في مأمن وتقيها مخاطر الضياع. ولقد إنتقلت هذه الأوراق مع الإبنة البارة بتراث والدها من لبنان إلى القاهرة إلى لندن التي كانت عاصمة نهاية المطاف والمدينة التي أمضت فيها سلمى سنوات العلاج وفيها أيضاً رقدت في قبر بعيدة عن مجاورة والدها المدفون في دمشق ووالدتها المدفونة في جنيف. وفي كل عاصمة سكنتْها كانت سلمى مردم تخلو في بعض الأيام إلى مئات الأوراق والصور، تتذكر من خلال الإطلاع عليها محيا الوالد الذي كانت له وقفات طيبة في التاريخ السياسي الحديث للمنطقة العربية عموماً ولتاريخ بلده سوريا في شكل خاص، ثم تحاول ترتيب هذه الأوراق وتصنيفها وكتابة أسماء الشخصيات الظاهرة في الصور على ظهر هذه الصور.

ومن المؤكد إستناداً إلى ما كنا نسمعه من سلمى مردم في الساعات الأخيرة من حياتها أنه لو كتب الله سبحانه وتعالى لها المزيد من العمر لكانت ستتفرغ لكي تكتب السيرة الذاتية لوالدها، وتنوب عنه في كتابة مذكراته في ضوء مئات الأوراق والملاحظات المدونة التي تركها، ولكانت أيضاً ستعمل على تبويب وفهرسة هذه الأوراق ونشرها، أي أنها كانت ستكمل ما بدأته عندما كتبت أطروحتها للجامعة عن مرحلة إستقلال سوريا من خلال بعض أوراق والدها، ثم أصدرت الأطروحة بعد ذلك في كتاب بالعربية والفرنسية، وكان لافتاً للنظر إهتمام السفير السوري في لندن محمد خضر بصدوره إلى درجة الإحتفاء، وحرص سفير مصر محمد شاكر على إقامة حفلة في السفارة لهذا الغرض. وكأنما هدف السفيريْن من ذلك هو تكريم جيل من رجال الدولة العرب الأقدمين بشخص جميل مردم تراكم الغبار الثوري على تراثهم فحجب ما قدموه للأمة. وما فعلتْه الإبنة كان مؤملاً أن يفعله والدها ولكنه مثل أكثرية الزعامات التاريخية العربية آثر تأجيل الكتابة وتوفي وكأنما هو بالتأجيل كان مطمئناً إلى أن وحيدته سلمى يمكن أن تنجز ما لم ينجزه مضطراً، لأسباب قد تكون مرتبطة بأشخاص سبقوه إلى دنيا الآخرة ولا يريد أن يلمس مواقفهم أو بأشخاص كانوا ما زالوا أحياء، وليس من المألوف كتابة المذكرات التي لهم دور في بعض أبواب صفحاتها ما داموا لم يفعلوا الشيء نفسه، أي لم يكتبوا مذكراتهم، ومعنى ذلك أن الأمر قد ينتهي سجالاً آثر الرئيس جميل مردم رحمه الله النأي عنه.

وعندما إشتدت وطأة المرض على سلمى مردم في الأشهر الخمسة التي سبقت وفاتها كانت مهمومة بأمر الأوراق التي تشكِّل التراث السياسي لوالدها والتي تشكِّل أيضاً جزءاً من التاريخ السياسي الحديث لسوريا. وكانت في إستمرار تنسى آلام المرض وتبدي قلقها على هذه الأوراق وما الذي يمكن أن يصيبها، وعزمت على أن تتصل بجامعة السوربون في فرنسا لتطلب من المسؤولين فيها إيداع الأوراق لدى الجامعة بحيث تكون جزءاً من مقتنيات السوربون يستفيد منها الباحثون والمؤرخون. والأهم من هذا كله هو أن إيداع الأوراق لدى جامعة السوربون معناه أنها ستستقر في المكان الآمن والأمين.

وأوراق جميل مردم ليست كل الأوراق العربية التاريخية التي تبحث عن المكان الآمن والأمين. فهنالك أوراق رياض الصلح التي لا ترى النور ما دام القيمون عليها وهم بنات الزعيم السياسي الراحل الذي فتح الباب اللبناني أمام تيار العروبة وناضل لدى العروبيين من أجْل الصيغة اللبنانية المتيمزة، متكتمين عليها، ويصعب على المرء إيجاد تفسير لهذا التكتم وهذا الحرص على إبقاء هذه الأوراق طيْ الملفات والأدراج مع أن أكثر من مناسبة حدثت وكان من شأن إطلاع اللبنانيين والعرب عموماً أو بعضهم المعني أو المتداخل في الشأن اللبناني أن تنير وتعصم وتستنبط حلولاً وتقي الصيغة اللبنانية المتمثلة بالميثاق ويلات التلاعب به. ولعل أهم هذه المناسبات على الإطلاق هو ما حدَث عام 1958 وإصطُلح على تسميته " ثورة شعبية" ثم ما حدَث عامَيْ 1975–1976 وبالذات بعدما ورطوا الجيش اللبناني في لعبة شريرة وقسموه فقصموا بذلك ظهر البلد وصيغة الميثاق، ثم ما حدَث بعد إتفاق الطائف وكيف أن التفسيرات تكاثرت في شأنه على نحو ما حدَث للقرار الدولي غير الطيب الذِكْر والذي يحمل الرقم 242، ثم كيف أن الإتفاق غير المكتوب ونعني بذلك ميثاق 1943 كان أكثر وضوحاً من الإتفاق المكتوب وأكثر صوناً لإستقرار لبنان ووحدته الوطنية.

وأكثر ما يحيِّر في التكتم الصلحي على أوراق المغفور له رياض الصلح هو أن مقومات نشْر الأوراق متوافرة حيث أنه بالإضافة إلى الإمكانات المالية

الضـرورية لأي عملية تدقيق وتنسـيق وتبويب ونشْـر متميز وهي إمكـانـات متوافرة، هنـالـك تعلُّق البنـات الخمس (علياء ومنى ولمياء وبهيجة وليلى) بتراث والدهن وحرص كل منهن على أن تكون بارة بالوالد الذي قد يكون الهدف من إغتياله هو التمهيد المبكر لمخطط ضرْب الصيغة اللبنانية التي كانت محروسة بوفاق مثالي بين زعامات لبنانية لا تعاني من عقدة الدور الوطني. والأهم من هذا كله بل لعلها النقطة الأساسية في المقومات هو أن كبرى البنات ونقصد هنا علياء كاتبة متميزة وتملك قدرة على قراءة ما فكر به والدها وهي تقرأ سطور ما كتبه من أوراق أو دوَّنه من ملاحظات. كذلك في إستطاعتها معرفة السبل إلى أوراق تائهة موجودة في إضبارات الآخرين وتحصل عليها عِلماً بأنها إذا هي قررت أن تأخذ على عاتقها الإشراف على إصدار أوراق والدها وكتابة تجربته وبعض مذكراته فإن أوراقاً كثيرة ستصلها من مصادر لبنانية وعربية إنطلاقاً من حرص مالكيها على قراءة تجربة زعيم سياسي لبناني رائد تكتبها إبنته فتزيل بذلك أي تحفظات على المضمون وهي تحفظات يمكن أن ترِد لو كتب التجربة المشار إليها آخرون.

ولقد لفت نظري قبْل أيام أن السيدة منى الإبنة الثانية لرياض الصلح حرصت على توضيح معلومات وردت في سياق موضوع كتبه زميلنا جان دايه في مجلة "الشرق الأوسط". ومن المؤكد أن مثل هذه التوضيحات ما كانت لتصدر لو أن أوراق والدها وتجربته وبعض مذكراته مكتوبة ومنشورة وبالوثائق والصور. وهذا الحرص من جانب منى رياض الصلح على التوضيح يؤكد النقطة التي أشرتُ إليها عند الحديث عن المقومات لعملية النشر وهي إستمرار تعلُّق البنات الخمس بتراث والدهن.

وفي تقديري أن رياض الصلح (لو لم تتم عملية إغتياله) كان سيسجل تجربته وينشر مذكراته وأوراقه على نحو ما فعل رفيقه في النضال من أجْل الإستقلال وفي تثبيت صيغة الميثاق الوطني الشيخ بشارة الخوري الذي أمضى بضعة أشهر في منزله في الكسليك ومعه المؤرخ اللبناني النزيه يوسف إبراهيم يزبك يروي له تاركاً للمؤرخ الكتابة والتدقيق ثم صدرت مذكرات الشيخ بعنوان "أيام لبنانية" وباتت أحد مراجع تاريخ لبنان الحديث. وقد يكون رياض الصلح إفترض وهو على قيد الحياة أنه لا يحتاج إلى أن يشغل نفسه بأمر تسجيل المذكرات وكتابة التجربة على أساس أنه محاط بأكبر عدد من أصحاب الصحف والصحافيين وأنه منفتح على هؤلاء ويضعهم في إستمرار في أجواء حركته السياسية وإتصالاته وأحياناً في دهاليز العمل السياسي والطبخات السياسية اللبنانية والعربية، وإزاء ذلك فإن هؤلاء جميعاً سيسجلون تجربة رياض الصلح، أو أنه يكفي تسجيل إنطباعاتهم وكل في إتجاه عن إيقاعات حركته السياسية لكي تسجل هذه الإنطباعات في مجملها ما يجوز إعتباره مذكرات أو ذكريات. ولكن لسبب أو أسباب لم يتمكن واحد من هؤلاء (رحم الله الذين رحلوا وأطال عمر الباقين على قيد الحياة) أن يكون مثل زميلنا الكبير محمد حسنين هيكل بالنسبة إلى جمال عبدالناصر، علماً بأن رياض الصلح طيب الله ثراه سبق عبدالناصر في مسألة تقريب أهل القلم منه مع الفارق أن عبدالناصر حصر الأمر بواحد هو محمد حسنين هيكل وحالفه التوفيق في حين أن رياض الصلح لم يعتمد قاعدة الحصر وكان له بدل الواحد كثيرون حالفهم التوفيق.

وفي معرض الحديث عن أوراق ومذكرات الأقدمين تستوقفنا أيضاً مفارقة أن سيدة أُخرى أخذت على عاتقها أمر الإهتمام بتراث جدها فجعلت من بعض أوراقه كتاباً. وهذه السيدة هي الكاتبة الروائية اللماحة كوليت خوري التي كانت بارة بذكرى جدها رئيس وزراء سوريا الأسبق فارس الخوري فكان كتابها "من أوراق فارس الخوري" يذكره الناس من أجيال الحاضر بالخير عند قراءته ويسجلون لها برها بجدها الذي كان إحدى المنارات المضيئة في دنيا السياسة العربية في الأربعينات وهي حقبة النضال من أجْل الإستقلال. ولقد كانت كوليت رائدة في ما فعلتْه وحذت سلمى مردم حذوها إلى حد ما. وتشاء الصدف أن الجامع المشترك لكوليت خوري ولسلمى مردم ولعلياء الصلح (التي لا بد ستنشر أوراق والدها) أن السيدات الثلاث يملكن قدرة على الكتابة وعُمق الوعي السياسي والحس الوطني ونعمة البر بالأهل.

ويبقى على هامش هذا الكلام تساؤل أفرزه الهلع الذي كثيراً ما لاحظْته على المرحومة سلمى مردم من أن تضيع أوراق والدها بعد رحيلها. والتساؤل هو: هل هنالك أفضل من الجامعة العربية لكي تستحدث دائرة خاصة في مقرها الرئيسي يتم فيها إيداع أوراق رجال الدولة العرب الذين كانت لهم مساهمات في بناء النظام العربي بدل التفكير بإيداع هذه الأوراق في جامعات أجنبية مثل جامعة السوربون وغيرها؟ دائرة

تُعامل هذه الأوراق بكل الرفق والرعاية وتصـــونها من الضـياع أو الإصـفرار. دائرة تقصـدها الأجيال العربية الباحثة عن تاريخ غير مزور وغير خاضـــع لإرادات الذين يبدأ التأريخ السياسي للأمة بهم فقط؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – 14 فبراير (شباط) 1997

* * *

الحكمة حلاَّلة الأزمات

في كل مرة يصـــدر عن حاكم عربي موقف يتسـم بالحكمة يســـود شـــعور بأن أي أزمة مهما بلغ عُمق التأثر منها يمكن إيجاد حل لها على قاعدة الحكمة. وفي كل مرة يتصرف مسؤول عربي بطريقة لا يستوقفه من أجْلها أنـه مطـالـب ببعض التنـازلات، أو فلنقـل تجاوز ما هو مســـيء، يتأكد لنا أن أي خلاف مهما كانت الجراح الشخصية غائرة في النفس يمكن إستنباط مَخرج له يستند إلى قاعدة التسامح.

وما حدثَ بين البحريْن وقَطَر في نوفمبر (تشـــرين الثاني) وديســـمبر (كانون الأول) من العام الماضـــي (1996) حمَّلنا على الإعتقاد، واســـتناداً إلى طبيعة الخلافات بين بعض دول المشـرق والمغرب، بأن بذرة خلاف زُرعت على ضـــفاف الخليج وأنها ســـتنمو وتتحول إلى صـــراع لا نهاية له. ومثْل هذا الإعتقاد طبيعي بعدما تغلبت لهجة التحديات لدى الدولتين على لهجة التعايش الأخوي وتبادلت وسـائل إعلام في كل من الدوحة والمنامة كلاماً على صفحات الصحف ما لبث أن أوقفته عند حد مبادرة تتســـم بالحكمة من جانب أمير دولة البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الذي عَـزَّ عليه أن يقال إن مواطناً ومواطنة من دولـة قَطَر مســـجونـان في البحريْن بينمـا كـل بيوت المسـلمين في العالم تسـتعد لإسـتقبال شـهر الصـوم المبارك والذي هو عادة شهر لـمّ شمل الأسرة. وعندما أذيع أن الأمير أصـدر عفواً عن الإثنين بعد سـاعات من صدور حكم مخفف عليهما وأجيز لهما العودة إلى بلدهمـا فإن النفوس إرتـاحت. ومِثْل هذه المبـادرة مـا كانت لتصـدر لو أن منطق التحدي يغلب على منطق المرونة، أي بما معناه أنه لا مجال لأي تســـاهل ولو حل الخراب. ومثل هذا المنطق عانت الأمة بســـببه الكثير بعـد الـذي جرى للكويـت وفيهـا، وكيف أن الخراب النفســـي والمادي حلَّ بالفعل في العراق لأن النداءات والتمنيات، إلى حد الرجاء، إلى الحُكْم العراقي وعليه من أجل أن ينســـحب من الكويت ويوفر على المنطقة محنة ما بعدها محنة، ذهبت ســـدى ولم تلق الأذن الصاغية من الرئيس صدَّام حسين.

وفي تقديرنا إن شأن أمير البحرين علا أكثر فأكثر في نظر عارفيه ولم يفسِّـر أحد خطوته تلك على أنها ناشئة عن ضـعف، وإنما كان هنالك ما يشبه الإجماع بأن عفوه هو من نوع العفو عند المقدرة وأن من تكون هذه حاله فإن هامش الحكمة في أسـلوب إدارته يكون متســـعاً. وبطبيعة الحال فإن من يعير الحكمة في أسلوب إدارته لشؤون بلده إهتماماً يكون أكثر إطمئناناً على أحوال البلاد ويكون العباد لـه شـــاكرين وعنـه راضين.

وإلى ذلك فإن مَن تكون الحكمة تشـــكِّل جزءاً من تفكيره يعرف أنـه كلمـا إبتعد خيـار الحســـم تفاقمت المشكلة. ونجد أنفسنا أيضاً نقارن بما حدَث في العراق عندما جرى إحتجاز مئات الأجانب وكان تأجيل حسْم أمرهم وإنهاء احتجازهم يفرز المزيد من التعقيدات إلى أن تم الإفراج عنهم ومِن دون أي ثمن يفيد العراق في رد الأذية عنه. ونقول ذلك على أساس أنه لو أن أمير البحريْن لم يعتمد الحكمة التي نشـير إليها لكان معنى ذلك أن الكلام المسـيء المتبادَل سيسود ولكانت رقعة الخلاف ستتسـع ولكان الهمُّ الخليجي سيستحوذ على الجميع ويقض مضـاجع البعض على أسـاس أنه من خلال هذا الخلاف ستتسلل محاولات لا يريد أصحابها الخير للبلديْن ويهمهم إشـعال البيت ناراً تحت سـتار طلب النار على نحو الحوار الشعري الشهير بين ليلى وابن عمها قيس.

وأهمية ما فعله أمير البحريْن بالعفو الذي أصـــدره أن حرارة التعـايش القَطَري – البحريني المتوعـك تراجعت – بلغة الطبابة – إلى 38 بعدما تجاوزت الـ 41 ونتيجـة لهـذا التراجع بـات ممكنـاً للأمين العـام لمجلس التعاون الخليجي الشـــيخ جميل الحجيلان أن يختصـــر المخاوف والتحفظات لدى كل من الجانبيْن وتحل محلها تلقائياً مشـاعر الإطمئنان، وهو ما حدَث بالفعل. كذلك فإن أهمية ما فعله الأمير بالعفو الذي أصـدره هو تنشـيط قنوات الإتصـال من جهة والحرص من جهـة أخرى على حصْـــر المقاطعـة بالقمـة التي عُقدت في الدوحة وزوال أسباب المقاطعة بالعفو الذي صـدر على المواطن والمواطنة القطريْن وعودتهما إلى

بلدهما الأول من بلدهما الثاني. وزيادة في التوضـــيح يمكن القول إنه لا يمكن، ما دامت قَطَر هي رئيســـة الدورة الســـابعة عشـــرة لمجلس التعاون الخليجي، أن تقاطع البحريْن كل الإجتماعات التي ستنعقد طوال سنة في الدوحة وأن معاودة الحضـــور والمشـــاركة هما في إزالـة الســـبب الـذي يتمثل في أن البحريْن قررت – بصرف النظر عن الدوافع – أن تقاطع بعدما أعلنت أن قَطَر تتجسس عليها من خلال الشاب والشابة القطريين رداً على اتهام للبحريْن بأنها تتآمر على قَطَر. ومن هنا جاء قرار العفو بمثابة رسالة إلى أن البحريْن التي سبق أن أعلنت إلتزامها بقرارات قمة قاطعتْها – وهو التزام يمكن تفهُّم دوافعه أكثر من تفهُّم إصـــرار البحريْن على المقاطعة، وهو ما كنا لا نتمنى حدوثه – ستشارك في كل الإجتماعات التي ستنعقد في الدوحة وتحت الرئاسة القَطَرية وكأنما ليس هنالك مقاطعة وغير المقاطعة. ومرة أُخرى أنه بفضـــل الحكمة يحدُث ذلك. ويحدُث أيضاً ما هو أهم.

وهذا الأهم الذي نشـــير إليه هو اللقاء الذي تم في لندن يوم الثلاثاء 11 فبراير (شباط) 1997 بين الحمَدين اللذيْن هما رمزا الأزمة بين الدولتيْن، ولي عهد البحريْن الشـيخ حمد بن عيســى آل خليفة ووزير خارجية قَطَر الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني. وبدا هذا اللقاء في روحيته وليس في تفاصـــيله مثْل تلك المبادرة التي قام بها الملك حسـين (وكلاهما الملك والشـيخ حمد بن عيسـى تجمعهما صـفات مشـتركة كثيرة) يوم 8 نوفمبر (تشـرين الثاني) من العام الماضـي عندما توجه بنفسـه إلى الســـجن المودَع فيه الســـياســـي البارز والمتألق والمشاكس، المهندس ليث شبيلات، وأخرجه من السجن وإصـــطحبه إلى منزل والدته على رغم كل ما قاله الشـبيلاتي المشـاكس عن الملك والملكة نور مما أوجب – من وجهة نظر السُـلطة – إيداعه الســـجن. وعندما نشـير إلى بعض التشـابه فعلى أســاس أن وليَّ عهد البحريْن إجتمع بالشـــيخ حمد على رغم ما قاله الوزير البحريني عنـه من كلام في اليوم الأخير لقمـة مجلس التعاون في الدوحة. وعندما يفعل ذلك الشـــيخ حمد بن عيســـى فإنه يبدو في نظر الآخرين مثلما بدا الملك حسين عندما توجَّه بنفسه وإصطحب من السجن إبن العائلة الشـبيلاتية حافظاً بذلك الود لذكرى المرحوم والد ليث شبيلات ومؤكداً لوالدة ليث أنها عزيزة على الأُسرة الهاشمية.

وتشـاء المصـادفة أن اللقاء بين الحمَدين في فندق "الدورشستر" جاء بعد ثلاثة أيام من لقاء مصادفة شهده مطار هيثرو بين اللذيْن تجمعهما صـــفات مشـــتركة كثيرة، حيث إن وصـول الملك حسـين إلى المطار يوم السـبت 8 فبراير (شـباط) تزامن مع وصـول وليّ عهد البحريْن فكان لهما لقاء في القاعة المَلَكية الخاصـــة بكبار الزوار في مطار هيثرو تحول إلى تشـــاور في التطورات العربية والدولية. وقد تكون صدفة اللقاء أحيت في نفس وليّ عهد البحريْن إعجاباً عاماً اســـتقبل به الناس ما فعله الملك حسـين مع ليث شـبيلات، فكانت مبادرته بلقاء وزير خارجية قَطَر، ذي النزعة الأولبرايتية (نســـبة إلى وزيرة خـارجيـة الولايـات المتحـدة مـادلين أولبرايت) في مخـاطبـة الآخرين حتى إذا كـانوا أوليـاء عهد وليســـوا مثله وزراء. ثم كان قرار أمير البحريْن الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة يوم السبت 15 فبراير (شـباط) بأن البحريْن سـتشـارك في الإجتماع الوزاري الخليجي – الأوروبي في الـدوحـة (عُقد الإجتمـاع في اليوم نفسـه وشـارك فيه وزير الخارجية الشـيخ محمد بن مبارك آل خليفة وحظي من الأمير الشـــيخ حمد بن خليفة بإهتمام ملحوظ) وأن المشـاركة تأتي "دعماً لوحدة الصـف الخليجي وإيماناً بالمصـلحة الخليجية المشـترَكة ولتعبِّر عن حِرص البحريْن على دعْم التضـــامن بين دول مجلس التعاون الخليجي وتوفير كل ما مِن شـــأنه أن يســـاهم في جهود تنقيـة الأجواء ودعْم التقـارب والتضامن بين دول المجلس...".

وهكـذا نرى كيف أن الحكمـة، بتغليـب مصـــلحـة الوطن والشعب على مصلحة الذات الحاكمة، من شأن مَنْ يعتمدها أن تَحل له أكثر المشـــاكل تعقيداً والتي تؤرق الحاكم وتؤرق شـــعبه على مدى ســـاعات الليل والنهار. وحيث إن المشـــاكل العالقة كثيرة في عالمنا العربي فإن المرء يجد نفسه يُكثر من التمني بأن يتكاثر الحُكْماء بين أهل القرار، لعل وعســـى ترتاح النفوس وتَطمئن القلوب ويسود التآلف.

صحيفة "الشرق الأوسط" – فبراير (شباط) 1997

* * *

إقتباس سوداني لوصفة ساداتية ضررها أكثر من نفعها...

ســـيأتي يوم يندم فيه الســـودانيون الحاكمون

والمعارضون على حد سواء لأنهم على أهبة تضييع فرصة من نوع الفرص التي لا تتكرر ونعني بها المبادرة التي أطلقها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات لإصلاح ذات البين بين السودانيين المتنازعين لعل في هذا الإصلاح ما يصون ألبيت السوداني فلا تتزعزع أُسسه وينهار على الجميع ويتحول الوطن الكبير إلى أوطان صغيرة. وهذا ليس مستبعَداً حدوثه. ولا بد أن كثيرين من القيادات والزعامات السودانية الرسمية والشعبية الحالية والسابقة.. والمقبلة، عرفوا كيف كانت حال لبنان قبْل 1975 ثم كيف باتت حاله بعد س عشرة سنة من الإقتتال نتيجة غياب الوعي وتكاسل الضمير الوطني. ومن هؤلاء رمزا الأزمة والصراع في السودان السيد الصادق المهدي والدكتور حسن الترابي.

وعند التأمل في ما إنتهى إليه الأمر في لبنان نكتشف أن المسألة فيه كانت صراعاً من أجْل الحُكم وتَطلعاً إلى الإستئثار بكل المكاسب. ولأن مثل هذا الهدف لا يمكن البوح به فإن الأطراف المعنية بدأت تطْلق شعارات وتتحدث عن مبادئ من بينها الإصلاح الدستوري وإلغاء الطائفية وإنصاف المحرومين. ولقد إستعصى على الجميع تفسير ما إقترفتْه بعض الأطراف في هذا الشأن وكيف أنه، على سبيل المثال لا الحصر، يمكن تحقيق هذه المطالب إذا جرى تدمير للمؤسسة العسكرية وحث الجيش وتحريضه بإثارة بعض الحساسيات الطائفية من جهة وإفتعال التآمر عليه وداخل صفوفه من أجْل أن ينقسم ويحارب بعضه بعضاً، من جهة أُخرى.

وما دامت المسألة هي مجرد صراع على الحُكْم، أي بما معناه أن ما يريده المعارضون هو الوصول إلى الحُكْم، وما يريده الماكمون هو الإبقاء على إستئثارهم بالحُكم، فلماذا لا يحل الطرفان المسألة على أساس تقاسُم الحُكْم ومغانمه خصوصاً أن لديهم تجربة في هذا الشأن حدثت قبْل ثلاث وثلاثين سنة. وعندما نقول إن المسألة شي مجرد صراع على الحُكْم فعلى أساس أن الدكتور الترابي ومقلِّدي أفكاره من مدنيين وعسكريين يعرفون أن مسألة قيام «دولة إسلامية» في السودان ليس ممكن الحدوث لأن أهل السودان– والمسلمون منهم قبْل الآخرين من مسيحيين ووثنيين – منقسمون في هذا الشأن ولأن هنالك إعتبارات إقليمية ودولية لا تحبذ ذلك. كما أن الأقطاب في الجانب المعارض يعرفون أن كل ما يطرحونه من أفكار في شأن الديمقراطية وحرية الرأي والعدالة الإجتماعة تبقى من نوع الأفكار المضيئة إلى أن يصيبها ما يشبه الخسوف عندما يتسلم أصحابها الحُكْم. وبالنسبة إلى الحكم الحالي بالذات فأن المعارضة السودانية في حال نجحت – بفعل المفاجأة – في الوصول إلى الحُكْم ستجد نفسها تتعامل بأشد أنواع القسوة مع أركان الحُكْم الحالي بعدما يصبح هؤلاء سابقين، وإلاَّ فكيف سيحافظون على الحُكْم إذا كانوا لن يفعلوا ذلك، وكيف سيمكنهم البقاء في الحُكْم إذا كان الحاليون الذين سيصبحون معارضين هم أقوى من أي معارضة أُخرى وذلك نتيجة أنهم طوال سنوات إستئثارهم بالسُلطة هيأوا أنفسهم لما بعد الحُكْم وهم يمارسون الحكم وأوجدوا لهم مكاناً رحباً في المؤسسة العسكرية وهو ما إستعصى على المعارضن إيجاده حيث أن الصيغة التقليدية خلال أربعة عقود من الحكم الإستقلالي في السودان كانت في أن الجيش لا يتحمل السياسيين الذين يكثرون من الكلام حول الديمقراطية بمثل عدم تحمُّل السياسيين للجيش عندما يقوم بالإستيلاء على السلطة والتعامل مع من يناسيه من السياسيين بشيء من التشاوف وبحيث أن هذا السياسي أو ذاك يبدو وكما لو أنه خدمة الضباط الذين إستولوا على السُلطة وليس شريكاً لهم. ونحن عندما نشير إلى أن تعامل مَن هم يعارضون الآن مع من هم في الحُكْم الآن سيتسم بأشد أنواع القسوة وإلى حد أن السجون ستمتلئ بهؤلاء ولن تتوقف المطاردات لهم ولن يكون في إستطاعة بعضهم مغادرة البلاد وغير ذلك من الإجراءات والطقوس التي تمارسها الأجهزة، فعلى أساس أن الإتهامات التي تسوقها أطراف المعارضة ضد الحكم الحالي في السودان هي من النوع الذي يصعب إعتماد الرفق به، فضلاً عن بعض المفردات التي ترِد في أحاديث عدد من زعامات المعارضة والتي تصنف النظام عدواً وتعتبر أفراد القوات المسلحة أعداء. وعندما تكون المفردات والتصنيفات على هذا النحو يصبح توقع إعتماد المعارضين للقسوة وإلى حد القمع أمراً بدهياً.

واللافت للنظر أن تعامُل الطرفيْن المتصارعيْن في السودان وعلى حساب إستقراره مع المبادرة الإماراتية كان تماماً مثل تعامل طرفيْن يخوضان حرباً ويتوصلان إلى إتفاق من أجْل إعلان هدنة على أن يبدأ حديثهما بعد ذلك لوضع إتفاق دائم، إلا أنهما قبل الهدنة المشار إليها يكثران من إطلاق النار بهدف أن

يكون كل منهما على طاولة التفاوض عندما يحين وقت الهدنة وبدء المحادثات قوياً. ومن هنا تأرجح الطرفيْن في إعلان موقف من المبادرة بين القبول بها وبين الرفض لها. وسبب هذا التأرجح أن القبول من جانب النظام يعني الإقرار بمشاركة المعارضة في الحُكْم ويعني إسقاط كل التهم عن أركان المعارضة والتصنيفات التي أوردها قادة النظام لهم وهو ما ينسف تماماً نظرية الدولة الإسلامية التي ينادي بها أهل الحكم في السودان، فضلاً عن أن القبول بالمبادرة ووضعها موضع التنفيذ بينما هنالك سيطرة للمعارضة على بعض المناطق المهمة التي تم الإستيلاء عليها وتعثَّر قوات النظام في الدفاع عنها وإستعادتها معناه أن التفاوض سيبدو وكأنما هو بين دولتيْن هما «دولة النظام» و«دولة المعارضة» أما من جانب المعارضة فإن القبول بالمبادرة معناه إسقاط كل التهم التي ساقها معارضون ضد النظام ومعناه أيضاً المشاركة في الحكم فضلاً عن بعض المعاني الأُخرى الكثيرة التي ستؤكد أن نظرية المعارضة كانت مجرد تكتيكات وليست إستراتيجية ثابتة.

ومن الزاوية الشخصية لكل من أقطاب النظام وأقطاب المعارضة يبدو مثل هذا القبول بالمبادرة والمضي على بركة الله في وضْعها موضع التنفيذ مسيئاً لأنه يُظهر هؤلاء أنهم رجال مصالح وليسوا رجال مبادئ، أما من زاوية مصلحة الوطن وإستقرار البلد وتخفيف الضغوط والكوابيس السياسية والإجتماعية عن السودانيين ودرء خطر نشوب الحرب الأهلية، فإن القبول يبدو إنجازاً عظيماً.

لكن الذي حدث هو أن الطرفيْن وافقا على المبادرة ولم يوافقا. ورحبا بها ولم يرحبا. وعارضاها ولم يعارضا. ومثل هكذا إستقبال لمبادرة مخلصة ليس إستقبالاً مسؤولاً. وما تبع الإستقبال من مواقف وتصرفات يؤكد أن الطرفيْن في السودان مهتمان بكل شيء عدا الإهتمام بإستقرار الوطن وسمعته ومصيره. وليس معقولاً أن هنالك مخاطر محدقة بالبلاد وهنالك مبادرة مخلصة لحل الأزمة لكن طرفيْ الأزمة يعزفان على أوتار المواجهة ومن أجْل ذلك نلاحظ أن تجمع المعارضين ينتظرون وهم في أسمرة سقوط النظام ليعودوا من جديد إلى الحكم، ونلاحظ أن النظام في الخرطوم يقتبس مع بعض التصرف وصفة سبق للرئيس (الراحل) أنور السادات أن إعتمدها مع بضع عشرات من المعارضين في مصر الذين يمثلون كل الإتجاهات حيث رماهم في السجن فإرتد الأسلوب عليه نظاماً ثم حياة. وما فعله النظام في الخرطوم يوم الخميس 27 فبراير/ شباط 1997 هو أنه أعلن بأنه سيحاكِم غيابياً رموز المعارضة الذين إكتمل وجودهم في أسمرة وحددوا ساعة الصفر لإسقاط النظام وهم: العقيد جون قرنق، الصادق المهدي، محمد عثمان الميرغني، عمر نور الدائم، مبارك المهدي، فاروق أبو عيسى، منصور خالد، العميد عبد العزيز خالد والفريق أول فتحي أحمد علي (كلاهما محال إلى المعاش). والتهمة الموجهة إلى هؤلاء هي التورط في «أنشطة إجرامية وإرهابية وشن حرب ضد الدولة بمساعدة دول أجنبية». وبصرْف النظر عما إذا كان التسعة المشار إليهم هم أعضاء الحكومة المقبلة للسودان وأن التلويح بالمحاكمة الغيابية هو محاكمة ردعية لـ «حكومة المستقيل» فإن هذا الإقتباس من جانب النظام للوصفة الساداتية في التعامل مع المعارضة لم يحالفه التوفيق وبُعد النظر.. بدليل ما جناه السادات من وصْفته التي تبيَّن أن ضررها أكثر من نفعها. ومع الأسف إن كل ذلك يحدُث لأن الطرفيْن المتنازعيْن في السودان، أهل النظام وناس المعارضة، إفتعلوا تغييب الوعي فتكاسل الضمير الوطني تبعاً لذلك.

وقى الله السودان وأعان أكثريته الصامتة والصابرة على اللاعبين والمتلاعبين الذين يتعاملون مع الوطن وكأنما هو لعبة، من دون أن يأخذوا في الإعتبار أن الإستمرار في التلاعب يعزز الفرصة أمام الطَرَف الثالث الذي قد يقتحم الساحة وفي أي لحظة... وعلى ظهر دبابة وبلاغ أول تليه بلاغات وبلاغات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 مارس (آذار) 1997

* * *

عمل كثير الرقي ودور كثير الأهمية

تميزت الذكرى السادسة لإستعادة السيادة للكويت بعد إنتهاء الإحتلال العراقي لها بحرب دولية قادتها الولايات المتحدة وشاركت فيها دول عربية وإسلامية وأطلسية، بحدثيْن يلفتان الأنظار العربية والدولية. الحدث الأول إعلامي وكان عبارة عن مسلسل عرَضَ لمشاهديه الأزمة العراقية – الكويتية التي إنتهت حرباً وتسببت في مأساة للأمة تلظَّى بنارها المعتدي

والمعتدى عليه. أما الحدث الثاني فإنه سياسي وتمثل في إشـــارة مفاجئة من بغداد إلى أن الجو العربي الخانق على أهبة أن يشهد بعض الإنفراج.

وعلى رغم أن مسـلسـل حرب الخليج راعى بحُكْم إنتماء منتجه التنفيذي الزميل عبدالرحمن الراشـد إلى الجناح الخليجي من الأمة، منطق دول التحالف التي تولت عملية تحرير الكويت، إلاَّ أنه ترك أمام المنطق الآخر فسـحة من الوقت يقول فيها ما يبرر بها فعْله، إلاَّ أن وزير الدفاع العراقي تعثَّر في التبرير لأن الذي أصاب الكويت يصعب تبريره. كذلك تعثَّر في التبرير عبدالرازق الهاشـمي الذي خاض في الفترة التي تلت إجتياح قوات عراقية للكويت، ثم طوال فترة الإحتلال وبعدها الحرب على العراق، معركة إعلامية نجح فيها كمتحدث إلاَّ أنه لم ينجح كصاحب حق. ولا نظن أن القضية الأساسية الآن هي ما سمعْنا الدكتور عبد الرازق يشـير إليه حول أن العراق بمفهوم القانون الدولي لم يخسر الحرب لأنه لم يوقّع وثيقة إستسلام وإنما وقَّع إتفاقاً لوقْف إطلاق النار. فلقد خسر العراق ما هو أهم بكثير من الحرب. خسـر التعاطف معه والثقة به وخسر أيضاً نصف قرن من البناء وخسر كذلك السمعة. وكانت الخسارة فادحة ولا تحتاج إلى محاضر يتم التوقيع عليها.

ومع أن في المسـلسـل ثغرات وحالات غياب لأطراف عربية مهمة يقابل ذلك فيض من الحضـور الأجنبي في الشـهادات التي حفلت بها حلقات المسلسل، إلاَّ أن من يشاهد هذه الحلقات ويكون من بين الذين يتابعون بعض المسـلسـلات الأجنبية ذات الطابع التوثيقي، يشـعر أنه أمام عمل كثير الرقي يحاول قدْر المسـتطاع الإبتعاد عن ظاهرة الإعلام الموجَّه السـائدة في بقاع كثيرة من العالم الثالث، والإقتراب بأكبر نسبة ممكنة من الإعلام السائد في الولايات المتحدة ومعظم الدول الأوروبية. وهذا الرقي سببه المزج المتأني والمدروس بين تقنية العقل الأجنبي في الإخراج والتصوير والتنسيق، وبين أهمية أن يكون المشرف على الإنتاج من أبناء مهنة الصحافة ويعرف ما الذي تعنيه المواقف والأحداث والمفاجآت للمُشـاهد العربي، ويعرف أيضاً أي أثر يمكن أن تتركه في نفس المُشاهد لقطات خاطفة من جلسة مؤتمر القمة العربي الإسـتثنائي الذي عُقد في القاهرة بدعوة من الرئيس حسني مبارك وأجاز بالأغلبية إستقدام القوات الأجنبية لتحرير الكويت بمشـاركة رمزية من قوات مصـرية وسـورية إضـافة إلى القوات الخليجية. وعند الحديث عن المزج المشار إليه نتذكر كم أن عملية مزج مماثلة حققت نجاحاً ملحوظاً لعمل سـينمائي هو فيلم عمر المختار الذي أنفق العقيد معمَّر القذَّافي بسـخاء عليه فأمكن الإسـتعانة بممثلين عالميين قديرين من نوع أنطوني كوين وعشـرات آخرين إسـتعان بهم المخرج مصـطفى العقاد، وكان النجاح الملحوظ، عِلْماً بأن المحاولة لم تتكرر إلى أن جاء مسلسل حرب الخليج الذي كان يمكن أن ينجح أكثر لو جاء الإنفاق عليه بعيداً عن ضـرورات التقتير. وإذا جاز للمرء إطلاق الأحكام، فإن الذي يمكن قوله هو أن المسـلسـل أخذ من طريق الإعلام المقروء ثلاثة سـبقات تمثلت في بعض الأسرار التي كشف عنها الشيخ سعد العبدالله والأمير محمد بن فهد والأميران بندر وخالد بن سلطان. والأربعة بلغة العمل السـينمائي والتلفزيوني كانوا إلى جانب شريط التصويت في قمة القاهرة أبطال المسلسل الذي لا بد أذهل جيلاً عربياً جديداً لم يتسنَ له رؤية ما حدَث يوم الثاني من أغسطس/ آب 1990 ثم ما تبع ذلك اليوم من مآس إنتهت بالحرب الدولية على العراق، لأن أبناء هذا الجيل كانوا صـغاراً لا يهمهم سوى رؤية أفلام الكرتون وبعدما كبروا بعد ست سنوات معادلة صامدة تنتظر السلام الشامل، باتوا شـغوفين برؤية أفلام المغامرات من نوع المغامرة العراقية في الكويت. وإلى ذلك إن عرْض المسـلسـل بعدما إنتشـرت محطة الـ " ام . بي. سـي" وبات من الممكن متابعتها في معظم العالم العربي من المحيط إلى الخليج ثم في معظم دول العالم، من شـأنه أن يجعل كثيرين يعيدون التأمل في نظرتهم بمعنى أن مَن كانت الحقيقة غير متوافرة له تماماً فإنها بهذا المسلسل باتت إلى حد ما متوافرة ويسـتطيع تبعاً لذلك أن يستخلص العِبَر.. وربما يعتبر.

أما الحدث الثاني الذي تميزت به الذكرى السادسة لتحرير الكويت ودفع العراق أكبر ثمن يمكن أن يكون دفعه بلد في العالم حتى الآن، فيتمثل في أن الرئيس العراقي صـدَّام حسين إلتقى أخيراً وفي بغداد بشقيقه برزان، وأن الجلسة لم تكن جلسة شقيق مشتاق لرؤية شقيقه الأصغر الذي مضت سنتان على عدم لقياهما (مع أن منصبه الرسمي هو المستشار السياسي لرئيس الجمهورية والسـفير فوق العادة في جنيف) وإنما هي أقصـر جلسـة عمل لأهم خطوة يمكن أن تحدُث، خصوصاً بعدما تكاثرت الأنباء في شأن رؤية لبرزان

التكريتي في الوضع العراقي حاضراً ومستقبلاً.. وربما مصيراً.

ولقد كثرت الإفتراضات في شأن منصب يمكن أن يتولاه برزان التكريتي قريباً إلاَّ أن المسألة ليست مسألة منصب بقدْر ما هي طبيعة الدور الذي يمكن أن يقوم به برزان في المرحلة المقبلة. وإذا كان الرئيس صدَّام إرتأى بعد ثلاث سنوات من تقليب الأمور أن يعطي شقيقه فرصة أن يدير معه الأزمة التي يعيشها العراق وبالذات على صعيد السياسة الخارجية وأسلوب التخاطب الإعلامي مع الآخرين، فإن أمام الحُكْم العراقي وربما للمرة الأولى منذ أن بدأ الحصار إمكانية للخروج من المأزق الذي هو فيه. ويكفي أن يطبِّق برزان التكريتي قناعاته لكي يبدأ الحصار بالإنكسار تدريجياً.

وفي ضوء ما يسمعه المرء من برزان أو يقرأه له من تصريحات وأحاديث ومقالات سبق أن كتبها وفي الصحافة العراقية فإن الرجل يرى أن قيادة شقيقه صدَّام يمكن أن تعود صمام أمان للجيران إذا أمكن إستعادة صدَّام كما كان عليه في معظم سنوات السبعينات، أي يوم كان هو الأكثر إعتدالاً بين مجموعة بعثية متشددة وقف في وجهها عندما أراد أقطابها مساندة المقاومة الفلسطينية ضد الملك حسين، ويوم كان الأكثر حرصاً على المملكة العربية السعودية كياناً موحداً وشعباً وقيادة. ومن قناعات برزان التكريتي أن لإستقرار العراق متطلبات أساسية أهمها حسب التدرج والأهمية، أن تكون علاقته طيِّبة مع المملكة العربية السعودية وسوريا وإيران وأن يُزال أي تشكيك في النفوس نشأ لسبب أو آخر. ومن قناعات برزان أن عراق الثورة إستنفد مهمته وأن العراق الدولة هو المطلوب وفي سبيل ذلك فإن مجلس قيادة الثورة يجب أن يكون تراثاً وتكون هنالك إنفراجات في موضوع التعبير والإنتماء الحزبي والنشر. ومن قناعاته أيضاً أن المعارضة يمكن أن تعمل في حمى النظام وليست تحت هيمنته وأن وجود عدة أحزاب وطنية إلى جانب حزب البعث وفي برلمان يتسع لكل وجهات النظر من شأنه أن يمهد الطريق أمام حياة سياسية هادئة وموضع رضى الجميع. ومن قناعاته أنه لا صوت يجب أن يعلو على صوت القانون. ومن قناعاته أن الكويت تعرضت من العراق للأذى وأن ما حدث يوم 2 أغسطس 1990 يجب أن يُزال بكل المرونة المطلوبة حتى إذا بدت أنها تنازلات. ومن قناعاته أن مستقبل العراق هو أن يكون قوياً صناعياً وتكنولوجياً وزراعياً أما على الصعيد العسكري فليس في حاجة إلى أكثر من سلاح دفاعي. ومن قناعاته أن العلاقات مع الولايات المتحدة يمكن تصحيحها ويعزو التوتر الدائم إلى أن النظام البعثي ورث القطيعة الدبلوماسية من النظام الذي كان يحكم عام 1967. ومن قناعاته أن في إستطاعة العراق أن يفعل الكثير من أجْل السلام في المنطقة وأنه لا يجب أن يكون فلسطينياً أكثر من الفلسطينيين وهذا رأيه أصلاً من قبْل عملية أوسلو.

والأهم من هذا كله أن قناعاته أن يطبِّق العراق قرارات مجلس الأمن ما دام هذا التطبيق هو الذي يحول دون رفْع الحصار ودون تحقيق المصالحة العربية. وإلى جانب القناعات هذه هنالك رأيه الرافض لأسلوب التخاطب الإعلامي الذي إعتمده العراق مع قيادات عربية كثيرة، ورأيه في أسلوب التعامل الذي إعتمده النظام مع الأكراد، ورأيه في ممارسات تحدُث في الداخل على حساب المبادىء والقيم.

تلك هي قناعات برزان التكريتي والتي لخص ذات يوم العمل في سبيلها بقوله إنه معارض على طريقته. وإذا تأكد أن شقيقه الرئيس بات مقتنعاً بأن تتوقف مرحلة لتبدأ مرحلة جديدة يعتمد فيها الرئيس صدَّام على شقيقه برزان ويستند الشقيق في العمل في مجالات السياسة الخارجية والإعلام إلى قناعاته التي أوردْنا بعضها، فهذا معناه أن في الأفق العراقي ملامح وطنية وعربية. وسبب ذلك أن برزان التكريتي يعتبر أن قضية الوطن والشعب هي التي يجب أن تتقدم على مسألة الذات. وتلك هي العقدة التي تجعل حالة العراق تراوح مكانها.

لكن يتبقى لكي ينجح برزان التكريتي في مهمته أن يبقيه شقيقه الرئيس في منأى عن لعبة صراع الحمائم والصقور.. والغربان داخل النظام، وأن تتجاوب الأطراف العربية والدولية مع قناعاته التي أشرنا اليها.. هذا إذا كانت هنالك بالفعل رغبة بإستعادة العراق وليس الإبقاء عليه تحت الحصار.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 مارس (آذار) 1997

* * *

قراءة في جولة الأمير سلطان

ينهي الأمير سلطان بن عبد العزيز بالمحطة الثالثة له (لندن) التي سيزورها يوم الأربعاء المقبل جولة كانت متميزة في كل شيء. ولقد أوحت وسائل

إعلام أجنبية كثيرة بأن الجولة ذات طابع تسليحي في محاولة منها لتبرير التصرفات الإسرائيلية إزاء عملية السلام وبحيث يقال إنه ما دامت الدولة العربية الأكثر إقتداراً تسعى في كل الإتجاهات من أجْل التسلح والحصول على أفضل ما في سوق السلاح من تقنية فمن الطبيعي أن يزداد رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو عناداً وتصلباً وإبتعاداً عن أجواء السلام وتنصلاً من بعض الثوابت التي تم التفاهم في شأنها شفهياً ومِن منطلق حُسْن النية.

وجاءت طبيعة المحادثات التي أجراها الأمير سلطان مع الرئيس كلينتون ومع أركان إدارته التي تحيط الشكوك والظنون بكل أفراد طاقمها، ثم مع الرئيس جاك شيراك وأركان الحُكْم الفرنسي، لتوضح أن مسألة التسلح لا تتطلب مثْل هذه الزيارة، خصوصاً أن مثْل هذه المسألة تطورت بحيث باتت مصادر السلاح مستعدة لإرفاق كاتالوجات أنواع السلاح التي تريد تسويقه بنماذج من هذا السلاح لإطلاع الراغبين في الشراء وإعادة هذه النماذج إذا كانت لم تحظ برضى الراغبين، فضلاً عن أن الأمور تطورت بحيث أن مَن يصنع السلاح بات يشقى أكثر من الذي يرغب في الحصول عليه، أي عكس ما كان يحدُث أيام إشتداد وطأة الحرب الباردة والصراع العربي – الإسرائيلي القابل دائماً للإنفجار. وإلى ذلك إن تعهدات الحفاظ على الأمن تقدمها دول مقتدرة عسكرياً بما في ذلك القدرة النووية والتكنولوجية المتقدمة إلى دول مقتدرة مالياً باتت بأهمية إمتلاك السلاح. ولقد تأكدت فعالية هذه التعهدات في الحرب على العراق عام 1991 وهنالك مؤشرات إلى أنها ستتكرس كإستراتيجية. وكان الرئيس شيراك سبَّاقاً في الإشارة إليها وهذا ما ورد في البيان المشترَك الذي صدر عن محادثات الأمير سلطان في فرنسا وهو بيان اعتبرته الرئاسة الفرنسية إستثنائياً كمعنى وكمضمون. كمعنى أي أنه تحية من فرنسا للضيف السعودي المتميز، وكمضمون أي أن سياسة فرنسا إزاء قضايا الخليج ومن وجهة نظر الرؤية السعودية لهذه القضايا ستكون على هذا النحو في الحقبة الشيراكية التي يبذل رئيسها جهداً ملحوظاً من أجْل أن تطول إلى ما بعد العام ألفين آخذاً في الإعتبار أن حقبة سَلَفه الرئيس (الراحل) فرنسوا ميتران طالت وعلى رغم ظروف وطأة المرض، لأنه بناها منذ البداية على علاقة وطيدة بالمملكة العربية السعودية بدأت بزيارة لم تكن واردة في برنامج الملك (الراحل) خالد بن عبد العزيز قام بها إلى فرنسا بعد قليل من فوز ميتران بالرئاسة وأرفق الزيارة بمساندة مالية أنعشت الوضع الإقتصادي الفرنسي وتواصل الإنتعاش وكذلك العلاقة الوطيدة إلى أن بلغت أوجها في وقوف فرنسا سياسياً ثم عسكرياً إلى جانب السعودية في الحرب الدولية على العراق عام 1991. وعند العودة بالذاكرة إلى تلك المرحلة نكتشف أن الفرنك الفرنسي بدأ في التحسن بعد تلك الوقفة من جانب السعودية وتَواصل التحسن إلى أن وصلت قيمة الفرنك بالنسبة إلى بقية العملات الأساسية ومنها الدولار إلى أوجها مع مجيء شيراك إلى الحُكْم.

وإذا كانت اللفتات التكريمية الخاصة من جانب الرئيس شيراك لبعض ضيوفه هي جزء من أسلوب التعامل الفرنسي الذي يجيز للرئيس الخروج أحياناً أو عندما يرتأي عن حِرفية طقوس البروتوكول، فإن اللافت للنظر هو التميز الذي كانت عليه زيارة الأمير سلطان للولايات المتحدة، ولعلها من المرات القليلة التي يحدُث فيها التميز، حيث أن الرئيس كلينتون تعامل مع ضيفه السعودي تَعامله مع رئيس دولة، وفعل الشيء نفسه أركان الإدارة الأميركية.

وهذا التعامل إضافة إلى تعامُل مماثل (من حيث الشكل فقط وليس المشاعر في الوقت نفسه) مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات خفف بعض الشيء من التحفظات العربية والإسلامية على مبالغة الرئيس كلينتون في التعامل مع نتنياهو والتي وصلت إلى حد أن رئيس الولايات المتحدة وجد من الوقت لديه ما يكفي لمداعبة ابن نتنياهو وداخل غرفة الإستقبال في البيت الأبيض وإلى جانبه ساره أم الولد تغمرها النشوة، ومن الطبيعي أن تشعر بذلك ما دام زوجها بنيامين يتلاعب بالبيت الأبيض وأبناهما اقنير ويائير يلعبان فيه. وقد يجوز القول إن حِرص الأمير سلطان على أن يكون الرئيس عرفات هو الزعيم العربي الوحيد الذي يتشاور معه في منزله الأمير في جنيف قبْل ساعات من التوجه إلى واشنطن ترك إنطباعاً لدى الإدارة الأميركية بأن المملكة أكثر قلقاً من أي وقت مضى من الأسلوب الذي يعتمده نتنياهو ولا يلقى الردع المطلوب من جانب إدارة الرئيس كلينتون، ومن هنا فإن إستقبال عرفات في البيت الأبيض للمرة الأُولى كرئيس دولة هو نوع من إستيعاب ما تريده المملكة من الولايات المتحدة بالنسبة إلى الموضوع

الفلسطيني.

ومع أن ما تناقلتْه وسائل الأنباء ومحطات الإذاعة والتلفزيون العالمية والعربية من أخبار وتصريحات عن اللقاء الأميركي – السعودي، الأول من نوعه، لا تعطي فكرة كاملة الوضوح عما جرى خلال لقاء الأمير سلطان والرئيس كلينتون ثم خلال لقاء الأمير بأركان الادارة الأميركية، إلاّ أن طبيعة الزيارة والأجواء التي رافقتْها وطبيعة الإستقبال توحي بأن الجانبيْن، أي الرئيس والأمير إستحضرا في بعض جوانب هذا اللقاء روحية ذلك اللقاء التاريخي قبْل 52 عاماً بين المغفور له الملك عبدالعزيز ورئيس الولايات المتحدة زمنذاك تيودور روزفلت وهو اللقاء الذي كان نموذجاً لحُسْن التفهم الأميركي للرؤية السعودية للمنطقة وللإسلام وهي رؤية مستمرة إنما ينقصها حُسْن تفهُّم حفيد فرانكلين روزفلت. ونقول ذلك مستندين في تشبيهنا هذا إلى أن الرئيس كلينتون الذي لم يكن قد وُلد بعد (كلينتون وإسمه الحقيقي وليم جفرسون بلايت من مواليد 19 أغسطس/ آب 1946) يعتبر أن الرئيس(الراحل) جون كيندي هو والده الروحي وملهمه وأن روزفلت هو جده الروحي وموضع إفتخاره به وأنه عندما خاض الإنتخابات في فبراير 1996 كان يطمح إلى أن يصبح أول رئيس ديمقراطي يعاد إنتخابه لولاية ثانية بعد فرانكلين روزفلت وكان له ما تمنى.

ويبقى أنه إستناداً إلى ما قاله الأمير سلطان قبْل محادثاته في واشنطن وبعد المحادثات، فإن كلاماً كثيراً كان من المهم أن يسمعه الرئيس كلينتون في ولايته الثانية من الصامت التاريخي التي هي المملكة العربية السعودية وبالذات في شأن الضجيج المفتعل حول الإسلام والأصولية والذي لا يكاد يمر يوم إلاَّ وتردده مصادر في الإدارة الأميركية وتنسج عليه جهات كثيرة المزيد من التنظيرات والمخاوف. وهذا يحدُث في سياق عملية تحضير عدو للنظام العالمي الجديد بعد أن سقط العدو التقليدي الذي هو الشيوعية. وما تخشاه المملكة العربية السعودية هو أن يتحول الضجيج إلى حقيقة داخل أميركا وبحيث يصبح الإسلام هو العدو الأميركي ولغير المسلمين عموماً ويصبح– تبعاً لذلك – المنطق الإسرائيلي هو السائد، أي بما معناه أن صداقة الولايات المتحدة يجب أن تكون لإسرائيل فقط لأن الإسلام هو عدو.

ولعل خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد عندما كلف الأمير سلطان ليقوم هذه المرة بزيارة تمثله فيها أراد فيهل إبلاغ الصديق الأميركي بأن الصداقة التي تم وضع أساس متين لها أيام عبد العزيز روزفلت كانت ترى الإسلام والمسلمين في الولاية الديمقراطية الثانية. ولو أن الإدارة أيام روزفلت (وهو من الحزب الديمقراطي أيضاً) كانت في مسألة النظرة إلى الإسلام والمسلمين وأمانيهم وتطلعاتهم، على نحو ما هي عليه الإدارة الحالية وبالذات طاقم الولايات الثانية وطغيان العواطف الممالئة لإسرائيل على بعض أقطابها وبالذات وزيرة الخارجية أولبرايت ووزير الدفاع كوهين، لكان الملك عبدالعزيز آثر أن يعزز شأن العلاقة مع الأوروبيين وهو في أي حال ما تأخذه المملكة في الإعتبار منذ ثلاثة عقود وتؤكده جولة الأمير سلطان التي لم تقتصر على الولايات المتحدة وإنما كان هناك حرص على أن تكون بعض دول أوروبا وبالذات وحسب الأهمية فرنسا ثم بريطانيا مكملة لها. والإثنتان فرنسا ثم بريطانيا التي ستحاول حكوماتها إضفاء إهتمام إستثنائي على زيارة ضيفها لا يقل عن الإهتماميْن الأميركي ثم الفرنسي، هما أكثر تفهماً للمسألة الإسلامية وأكثر وعياً بما تعنيه القدس بالنسبة إلى المسلمين وبالذات إلى المملكة التي هي الرمز لمليار مسلم في شتى أنحاء الأرض سيظلون يرون أنه لا إسلام من دون القدس حتى إذا إستسلمت الإدارة الأميركية بالكامل في هذا الأمر لإسرائيل، وتواصل إستعمالها للفيتو من دون وجه حق على نحو ما فعلته بالنسبة إلى مشروع قرار أوروبي منطقي يدين سياسة حكومة إسرائيل الإستيطانية ومن شأنه تنبيه نتنياهو إلى ما يقترفه من أخطاء لولا أن المندوب الأميركي إستعمل الفيتو عند التصويت يوم الجمعة 7 مارس/آذار 1997 بحجة أن مشروع الإدانة يعرقل العملية السلمية. وأكثر ما يحز في النفس العربية أن التصويت أتى بعد لقاء كلينتون بالأمير سلطان ثم بالرئيس عرفات وقبل لقائه بالرئيس حسني مبارك، الأمر الذي يعني أنه رد على عدم التجاوب العربي مع رغبات أميركية في شأن التطبيع.

يبقى أيضاً أن الأمير سلطان أشاع بإبتسامته العفوية حتى في أعتى الظروف بعض الإرتياح في النفس العربية لنتائج جولته وذلك لكثرة ما تعيشه هذه النفس من ضيق بسبب صلف نتنياهو صاحب الإبتسامة الماكرة والتي يحرص عليها عندما يلتقي الملك حسين أو الرئيسيْن حسني مبارك وياسر عرفات. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن نتائج

الجولة التي قا بها مسؤول متميز بتكليف متميز والذي حظي حيث حل بتعامل متميز، غير مرئية حتى الآن.. ربما لأن الجولة كانت مهمة إستثنائية أكثر منها زيارة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 10 مارس (آذار) 1997

* * *

الأسد المهموم والمهتم بالأرض المحتلة والديار المقيبة

في ضوء بضعة أيام أمضيتها في دمشق وشملت لقاءات مع عدد من المسؤولين القريبين من دائرة إتخاذ القرار يخرج المرء بإنطباعات وتأملات يمكن تسجيلها على النحو الآتي:

– أن الحُكْم السوري تواق جداً إلى عملية السلام ولم يترك حتى الآن مجالاً لتعثُّر هذه العملية من جانبه، إلاَّ أنه لم يُسقط على الإطلاق إحتمال المواجهة وفي أي لحظة. وإذا جاز إعتبار الوضع أنه مثل ميزان بكفتيْن، فإن كفة الجنوح للسلم هي بالقدْر نفسه مثل كفة التأهب للحرب. بل ليس مبالغة ومن باب الإجتهاد لا أكثر القول إن كلمة السر جاهزة والسلاح في اللمعان المطلوب والرجال في ذروة التعبئة. والذي يهم الحُكْم السوري في الدرجة الأولى هو تفادي لعبة المباغتة التي تعتمدها إسرائيل.

– عند الحديث عن إحتمالات المواجهة يسمع زائر سوريا – مثل حالنا – كلاماً خلاصته "إن أسلوب الإذلال الذي يعتمده نتنياهو لا يمكن لسوريا أن ترضخ له حتى إذا كلفتْها الحرب مليون شهيد"، ويسمع أيضاً "إن القائد حافظ الأسد الذي يمثِّل شموخ الأمة العربية هو غير الملك حسين وغير ياسر عرفات".

– وعند الحديث عن إحتمالات المواجهة يسمع زائر سوريا كلاماً مثل "إن سلام الخنوع غير ممكن وأنه ليس من الصعب كسر عنجهية العدو. فهذا مناضل من حزب الله يسجل في سياق مواجهة المقاومة اللبنانية ونجاحها في كسْر حدة الآلة العسكرية الإسرائيلية خطوة نوعية ومتطورة من حيث أنه تمكَّن بواسطة صاروخ من شطر دبابة شطريْن...".

– ويسمع الزائر أيضاً كلاماً مثل "إن ما حدث في ليل أوسلو كان له تنازلات وأن كل يوم يأتي هو لمصلحة الأمة العربية حيث أن المواطن العربي الذي وقع فريسة إحباط وعود السلام سيزداد تنبهاً ويرى أن المواجهة هي الأساس وهي الحل إلاَّ إذا كانت العقلية الإسرائيلية لن تتبدل وتقْبل إسرائيل بأن تكون جزءاً بحجم لا يفوق حجمها الضئيل في أي حال مقارنة مع أحجام بقية دول المنطقة...".

– يسمع المرء أيضاً رؤية مفادها أن أكذوبة السلام تتراجع بدليل أن عرَّاب أوسلو أبو مازن إستقال لكثرة ما أهانوه، وأن إسرائيل تعرقل عملية السلام لأنها لا تريدها لإدراك منها بأن اللبنانيين وحدهم قادرون في زمن السلم على أن يهزوا بشطارتهم وإمكاناتهم العِلمية تفوُّق اليهود في ميدان التجارة والأعمال والتخصصات، فكيف إذا تعاون العرب من المحيط إلى الخليج. من المؤكد أنه إذا حدثَ ذلك فإن هزيمة كبرى في المجال الإقتصادي وميدان الأعمال ستُمنى بها إسرائيل وهو المجال الذي يحلم الإسرائيليون بأن يكونوا المهيمنين عليه في زمن السلام.

– يسمع زائر سوريا أيضاً كلاماً من المسؤولين مفاده "أن شعور الفوقية عند إسرائيل غير مقبول من جانبنا وأنه إذا كان أي إسرائيلي يشتم مسؤولاً أميركياً ويسكت هذا المسؤول عن الشتيمة، فهذا لا يعني أن يصار معنا إلى إعتماد الأسلوب نفسه...".

ويسمع أيضاً أنه من غير الممكن أن يكون العالم محكوماً بدولة واحدة هي الولايات المتحدة منحازة إلى دولة واحدة أُخرى هي إسرائيل، خصوصاً أن هذا الإنحياز يأخذ من الهيبة الأميركية. ولكي يحدُث قبول نسبي لحُكْم وتحكُّم الدولة الواحدة لا بد من أن تحقق الولايات المتحدة توازناً في التعامل مع الجميع. أما إذا كان ذلك لن يحدُث وتصر الولايات المتحدة على الهيمنة على دول العالم وقراراتها السيادية، وتحاول إسرائيل فرض الهيمنة من جانبها على بعض الدول العربية والأجنبية وعلى مؤسسات القرار في الولايات المتحدة، فإن إنفجاراً سيحدُث، ويكون له دويه السياسي الكبير، في أي لحظة من الزمن الذي ليس بالبعيد.

ويرى الحُكْم السوري أن الدور الأوروبي هو في طريق النهوض وأن هنالك بوادر نهوض لدور تقوم به روسيا الإتحادية، وحالة نهوض لدور تقوم به الصين. وهذه الأدوار الثلاثة، التي تحاول إسرائيل بمعاونة الولايات المتحدة الإلتفاف عليها تشكِّل مجتمعة القوة الثانية التي لا بد منها في مواجهة القوة الوحيدة... قوة الولايات المتحدة. وأهمية هذه القوة المثلثة أنها

متكاملة، وأن تعاونها وبالقدرات التي تملكها من شأنه أن يعزل الولايات المتحدة. فهي صناعياً قوية، وهي تملك النسبة الأكبر من السلاح النووي، وهي بإفتراض أن الدول العربية وبقية دول العالم الثالث ستكون حليفة لها، تملك الجزء الأهم من الثروات الطبيعية. وهي أيضاً القوة البشرية الساحقة على إفتراض أن دولاً كثيرة لا يمكنها التغريد خارج السرب الأميركي. ومَن كانت هذه إمكاناتها وقوتها ستتفوق عليه. وما على المتضررين من الهيمنة الأميركية والتواقين إلى التوازن بفعل نشوة القوة المثلثة سوى المزيد من التحمل في إنتظار نضوج فكرة النشوء التي لا بد منها.

– وتسمع في سوريا أيضاً عند الحديث حول العراق وما يعانيه الشعب نتيجة الحصار وعلى مرأى ومسمع الأشقاء في العروبة والإسلام كلاماً خلاصته إن الولايات المتحدة "تريد البقاء على صدَّام كفزاعة في منطقة الخليج".

– وتسمع أيضاً عند الحديث حول الإحباط الذي يشعر به بعض المسيحيين في لبنان والحساسية التي أصابتهم نتيجة للوجود السوري في لبنان والتي لا تخلو عظة أو تصريحات للبطريرك نصرالله صفير من الإشارة صراحة أو تلميحاً لها، ملاحظة خلاصتها: "هل كان السوريون المدني منهم والعسكري محبَطين وتتملكهم الحساسية عندما كان شوكت شقير اللبناني والدرزي رئيساً لأركان الجيش السوري. ثم أليس فارس الخوري اللبناني والمسيحي هو مَن شغل منصب رئيس الوزراء ورئيس البرلمان في سوريا وأليس هو من تليت في الجامع الأموي رسالة بالنيابة عنه عام 1936 جاء فيها قوله مخاطباً الفرنسيين "إنكم إذا كنتم قد أتيتم لحماية الأقليات فإننا نشهد جميعنا بأن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله...".

– وتسمع إضافة خلاصتها "إن العروبة وحدها هي التي توحد الناس وأن العزف على أوتار الطائفية نشاز...".

* * *

وإذا كان ما أوردْتُه في السطور السابقة من الإنطباعات والتأملات لافتاً للنظر فإن هنالك أيضاً ما هو مهم وما هو الأهم. أما المهم فهو أن الحُكْم السوري ليس مهموماً ومهتماً فقط بإسترجاع ما أخذتْه إسرائيل من سوريا وإنما هو أيضاً مهتم بما سبق أن أخذتْه تركيا. ويمكن من خلال كلام المتحدثين وأحياناً من خلال ما بين العبارات التي تقال والأسطر التي يتضمنها خطاب أو مقال، ملاحظة أن الجولان هي بأهمية الديار المغيَّبة، أي الـ 56 ألف كيلومتر من ديار بكر إلى أنطاكية التي كانت على مدى ثمانمائة عام عاصمة لسوريا.

ويسمع الزائر من وزير الدفاع العماد أول مصطفى طلاس المعني بالتاريخ والتراث والإستراتيجية العبارة المنسوبة إلى تويني وخلاصتها إن السوريين يحبون الوحدة لأنهم مجزأون أكثر من غيرهم. وتسمع من العماد أول طلاس أيضاً قوله: "ان الاسكندرون وأنطاكية وكيليكيا وديار بكر حاضرة في قلب كل سوري، وأن إنشغال السوريين بالخطر الداهم (إسرائيل) لا يعني أن بالهم مرتاح للديار الأُخرى...".

أما الأهم فهو أن الرئيس حافظ الأسد الذي ليس هنالك مَن ينافسه على زعامة سوريا، والذي يهمه ألاَّ يكون أقل إنجازاً من زعامات تاريخية ينافسها، كصلاح الدين ومعاوية على سبيل المثال لا الحصر، أوصى بإنصاف بعض رموز الماضي السوري بحيث يصبح هؤلاء جزءاً من الذاكرة السورية في مرحلة السلام، إذا هي بدأت، ومرحلة تَجدد المواجهة... إذا كان لا بد منها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 24 مارس (آذار) 1997

* * *

قراءة في قمتيْن لمناسبة المطالبة بالقمة(موضوع واحد في مقالتيْن)

□ المقالة الأُولى: عندما إجتمع في الإسكندرية مجلس قيادة العالم العربي

قد يكون من المناسب في ضوء التحرك السياسي الراهن الذي يستهدف إما عقْد قمة عربية شاملة على نحو يحقق التضامن المنشود، أو عقْد قمة ثلاثية تضم المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا على نحو قمة الإسكندرية التي جرى عقْدها يوميْ 25 و 26 ديسمبر/كانون الأول 1994، إعادة قراءة ما تم إتخاذه من مقررات وتوصيات في القمتيْن وبذلك يتسنى لنا حسم أمريْن:

الأول: هل إن ما تم إتخاذه كان كافياً ولكن المشكلة في عدم التنفيذ، وعلى هذا الأساس لا بد من قمة جديدة تتخذ ما لم يتم إتخاذه؟

الثاني: هل إن القمتيْن تجاوزتا بعض القضـــايا فلم تتخذا مقررات وتوصيات في شأنها، وبالتالي لا بد من قمة جديدة يتم فيها إتخاذ التوصـيات والقرارات التي لم تُتخذ؟

ونبدأ بالقمة الأُولى، أي قمة الأســـكندرية. ومِن خلال القراءة للبيان الختامي نلاحظ الآتي:

– لقد شـــارك في القمة التي عُقدت يوميْ 25 و 26 ديسـمبر 1994 وفي مدينة الاسـكندرية (مع أن شـــهر الإنعقاد هو من أشـــهُر الشـــتاء والمدينة هي العاصـــمة الصـــيفية للدولة المصـــرية) خادم الحرميْن الشـــريفيْن الملك فهد بن عبدالعزيز والرئيس حافظ الأسـد والرئيس حسـني مبارك، وبدا إقتصـار الإنعقاد على القادة الثلاثة وكما لو أن القمة هي "قمة مجلس قيادة العالم العربي".

ومن خلال البيـان الختـامي نلاحظ أن مـا يجمع القادة الثلاثة أمريْن هما "الأخوَّة والثقة المتبادَلة". (وإلى الآن ما زالت هذه الأخوَّة قائمة وقائمة أيضـــاً روابط الثقة بين الملك فهد والرئيسيْن الأسد ومبارك).

– يشـــير البيان إلى أن القادة الثلاثة إتفقوا على تعزيز دور الجامعة العربية ومؤســـســـاتها " لتبقى المنظمة العربية الأم التي يصـب فيها كل روافد العمل العربي توافقاً مع الأغراض الســـامية التي تضـــمّنها ميثاق الجامعة".

(ولكن هذا التعزيز لم يحدُث وما زالت الجامعة العربية إلى الآن شبه مشلولة ولا دور لها ولا يصـب فيها أي رافد أساسي من روافد العمل العربي).

– يشـــير البيان إلى أن القادة الثلاثة " أعربوا عن ثقتهم الراسخة بأن المشاكل الثنائية بين الدول العربية المعنية مهما بدت شـائكة ومعقدة لن تسـتعصـي على الحل بمجرد أن تصفو النوايا وتسود روح الإخاء...".

(ولم يسجل خط سير العلاقات العربية حالة واحدة تم بموجبها حل مشكلة ثنائية شائكة بإستثناء المشكلة بين قَطَر والبحريْن عِلْماً بأن هذه المشـكلة حدثت بعد القمة الثلاثية وليس قبْل تلك القمة لكي يقال إن الحل جاء هدياً بما دعا إليه القادة الثلاثة في بيانهم الختامي).

– يشـــير البيان إلى أن القادة الثلاثة دعوا العراق "إلى الإلتزام بجميع قرارات مجلس الأمن حتى يتسـنى رفْع المعاناة عن الشعب العراقي الشقيق...".

(وإلى الآن لا تزال هذه الدعوة قائمة، وبالتالي لا تزال المعاناة مستمرة).

– يشير البيان إلى أن القادة الثلاثة أكدوا حرصهم على السـلام العادل والشـامل كخيار إسـتراتيجي وفْق قرارات مجلس الأمن 242، 338، 425 ومبدأ الأرض مقابل السـلام " وقدّروا عالياً موقف سـوريا وجهودها الجادة لإنجاح عملية السـلام، كما أكدوا مطالبتهم بإنسـحابات إسـرائيل من كامل الجولان إلى خط الرابع من يونيو 1967 وجنوب لبنان والأراضـي الفلسـطينية المحتلة بما فيها القدس العربية، ومسـاندة الشـعب الفلسـطيني في ممارسـته لحقه المشـروع في تقرير المصير، ودعوا المجتمع الدولي وراعييْ عملية السلام إلى العمل على إزالة العقبات التي يصـطنعها الجانب الإسرائيلي في طريق عملية السلام...".

(وحتى الآن ما زال الوضع على حاله ولا تزال كل من السعودية ومصر تقدّران جهود الشريكة الثالثة في القمة لإنجاح عملية السـلام وتتخذان الموقف نفسـه الذي تتخذه والداعي إلى إنســحابات إســرائيل من الجولان وجنوب لبنان والأراضـي الفلسـطينية المحتلة بما فيها القدس وتواصـــلان دعوة المجتمع الدولي وبالذات الولايات المتحدة وروســيا للعمل بما يمليه عليهما دورهما في رعاية عملية السلام).

– يشير البيان إلى أن القادة الثلاثة جددوا المطالبة بإنشـاء منطقة خالية من أسـلحة الدمار الشـامل في الشرق الأوسط وفي مقدمتها الأسلحة النووية.

(ولا تزال مثْل هذه المطالبة قائمة من دون أن تكترث بها إســرائيل المســتهدَفة من القادة الثلاثة بالمطالبة، على أســاس أنها دولة تملك الســلاح النووي).

– أشـار القادة الثلاثة في الأسـطر الثلاثة الأخيرة من البيـان إلى أنهم "يتطلعون إلى لقـائهم المقبـل لمواصلة مسيرة التنسيق السياسية والتعاون بين دولهم الثلاث...".

(ولكن اللقاء الثلاثي لم يتجدد ربما لأن السـعودية آثرت ألاَّ يتحول اللقاء إلى محور. ثم جاءت الدعوة التي وجهَّها الرئيس حسـني مبارك إلى عقْد قمة عربية إسـتثنائية في القاهرة جرت في سبيل عقْدها مشاورات كثيرة وصـادفت مسـاعي إنعقادها عقبات كثيرة وذلك لأن بعض دول الخليج إشـترطت عدم مشـاركة العراق في القمة في حين أن مصـر ومعها سوريا كانتا تريان إنعقاد القمة بشـكل شـامل وإسـتصـدار بيان يؤكد الإجماع العربي في شـأن عملية السـلام. وعندما لم تثمر محاولات الإقناع المصـري فإن الرئيس حسـني

مبارك إرتأى إنعقاد القمة بغياب العراق على أن يكون هنالك جسر غير مرئي بين القمة والعراق ويكون هنالك إنفتاح مصري على الحُكْم العراقي. وهذا ما حدَث بعد ذلك وما زال يحدُث إلى الآن ويتمثل في وفود تجارية مصرية تبرم إتفاقات في العراق ووفود رسمية عراقية تزور مصر، كذلك يتمثل في أسلوب تخاطُب أقل حدة بكثير مما كانت عليه الحال من قبْل).

تلك هي أبرز ما تم إتخاذه من توصيات لها طابع التمنيات في ختام لقاء الملك فهد بن عبدالعزيز والرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد. وعلى رغم أن التوصيات لها صفة التمنيات إلاَّ أن إنعقاد القمة وفي ذلك الوقت يبعث في النفس العربية حالة من الإطمئنان لعدة إعتبارات من بينها أن القادة الثلاثة هم "مجلس قيادة العالم العربي" أو على الأقل إنهم ظهروا على هذا النحو بإجتماعهم المفاجيء المشار إليه. وإلى ذلك هنالك نقطة بالغة الأهمية وهي أن القمة عندما تنعقد على هذا النحو ويسودها التجانس في التفكير وفي الرؤية فإن الخلافات لا تسودها. وعندما لا تكون هنالك خلافات فإن القرارات تصدر بسهولة. ومن أجْل ذلك تكاثر الإفتراض بعد إنتهاء القمة وعودة الملك فهد والرئيس الأسد بأن قرارات بالغة الأهمية تم إتخاذها ولم يتضمنها البيان الختامي. كذلك ساد شعور بأن قمة الإسكندرية ستؤسس لمرحلة جديدة من العمل العربي. ولكن مثل هذه الإفتراضات والمشاعر سرعان ما بددتها قمة مباغتة عُقدت في القاهرة بعد أيام من إنعقاد قمة الإسكندرية وضمت الرئيس مبارك والملك حسين والرئيس ياسر عرفات ورئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين. وكان واضحاً أن الإدارة الأميركية ضغطت من أجْل إنعقاد هذه القمة وذلك بهدف إجهاض أي حالة نهوض يمكن أن تكون القمة الثلاثية حققتها.

وهذا ما حدَثَ بالفعل، ذلك أن حالة الإحباط التي سادت الصف العربي بعد القمة الرباعية التي شارك فيها رابين كانت شديدة الوطأة على النفس العربية. وبسبب حالة الإحباط هذه بدأ الرئيس مبارك السعي لعقد قمة شاملة وإستغرق منه ذلك السعي الوقت الكثير، وبدأت الأنظار منذ اللحظة الأولى لإنعقادها تتركز حول ما الذي ستتخذه هذه القمة من مقررات وتوصيات وما الذي ستبتكره كعلاج فاعل لمواجهة حالة الإحباط التي تزايدت رقعتها وتعمقت الجراح المعنوية الناشئة عنها.

* * *

المقالة الثانية: كثير من القول قليل من الفِعْل

أوردْنا في الحلقة الأُولى ما هو لافت للنظر في مضمون البيان الختامي للقمة الثلاثية في الإسكندرية بين الملك فهد بن عبدالعزيز والرئيسيْن حسني مبارك وحافظ الأسد.

أما الذي يلفت النظر من خلال قراءة البيان الختامي للقمة العربية الإستثنائية في القاهرة (من 25 إلى 26 ديسمبر 1994) فإنه على النحو الآتي:

– أكد القادة العرب أن " تحقيق السلام الشامل والعادل يستوجب إنسحاب إسرائيل الكامل من كافة الأراضي الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس العربية وتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقه في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة بعاصمتها القدس. كذلك طالب القادة العرب بالإنسحاب الإسرائيلي الكامل من الجولان السوري إلى خط الرابع من يونيو (حزيران) 1967 والإنسحاب الإسرائيلي الكامل غير المشروط من جنوب لبنان وبقاعه الغربي إلى الحدود المعترَف بها دولياً...". (وحتى الآن لم يطرأ أي تعديل على هذه التأكيدات والمطالب، إنما من دون أن يتحقق منها شيء).

– شدد القادة العرب على أن التمسك بمواصلة عملية السلام لتحقيق السلام العادل والشامل " هو هدف وخيار إستراتيجي يتحقق في ظل الشرعية الدولية ويتوجب إلتزاماً مقابلاً تؤكده إسرائيل بجدية ودون موارية والعمل من أجْل إستكمال مسيرة السلام بما يعيد الحقوق والأراضي المحتلة ويضمن الأمن المتوازن والمتكافيء لجميع دول المنطقة وفقاً للمبادىء التي إتُّفق عليها في مؤتمر مدريد وبخاصة مبدأ الأرض مقابل السلام، والتأكيدات المقدمة إلى الأطراف...".

(وإلى الآن ما زال القادة العرب على موقفهم هذا يطالبون بتحقيق ما هو وارد أعلاه ويكاد لا يخلو تصريح أو حديث صحافي أو إذاعي أو تلفزيوني لأي من هؤلاء القادة من تكرار المطالب).

– أكد القادة العرب أن "أي إخلال من إسرائيل بالمبادىء والأسس التي قامت عليهما عملية السلام، أو تراجُع عن الإلتزام والمعاهدات والإتفاقيات التي تم التوصل إليها في إطار هذه المسيرة، أو المماطلة في تنفيذها، من شأنه أن يؤدي إلى إنتكاسة عملية السلام

بكل ما يحمله ذلك من مخاطر وتداعيات تعود بالمنطقة إلى دوامة التوتر ويضطر الدول العربية كافة إلى إعادة النظر في الخطوات المتخذة تجاه إسرائيل في إطار عملية السلام الأمر الذي تتحمل الحكومة الإسرائيلية وحدها المسؤولية الكاملة عنه...".

(ومنذ صدور البيان وحتى الآن تسجل حكومة نتنياهو الإخلال تلو الإخلال، والتراجع تلو التراجع، عن كل ما يتم التفاهم والإتفاق عليه مع بعض الدول العربية. كما أن مماطلة الحكومة الإسرائيلية في تنفيذ الإلتزامات والتعهدات باتت أمراً مألوفاً. ومع أن القادة العرب حمَّلوا في البيان إسرائيل مسؤولية إنتكاسة السلام، ويردد بعضهم منذ بضعة أشهر العبارات التي تؤكد حدوث الإنتكاسة المشار إليها، إلاَّ أن رد الفعل إقتصر على الموقف اللفظي.

– أكد القادة العرب في البيان الختامي "التمسك بقرارات الشرعية الدولية التي تقضي بعدم الإعتراف أو القبول بأية أوضاع تنجم عن النشاط الإستيطاني الإسرائيلي في الأراضي العربية المحتلة بإعتباره إجراء غير مشروع لا يرتب ولا ينشىء إلتزاماً ويعتبرون أن إقامة مستوطنات وإستقدام مستوطنين إليها يشكِّلان خرقاً لإتفاقيات جنيف وإطار مدريد وتقويضاً لعملية السلام مما يتطلب وقْف كافة الأنشطة الإستيطانية الإسرائيلية في الجولان السوري المحتل والأراضي الفلسطينية المحتلة خاصة القدس، وإزالة هذه المستوطنات. كما يؤكدون رفْضهم تغيير معالم القدس العربية ووضْعها القانوني، ويشددون على أن تحقيق السلام الشامل والعادل في الشرق الأوسط لا يكون إلاَّ بحل قضية القدس وتسوية مشكلة اللاجئين الفلسطينيين إستناداً إلى حقهم في العودة على أساس الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة...".

(وفي هذه الفقرة من البيان بدا القادة العرب، الذين إجتمعوا في القاهرة في قمة إستثنائية دعا إليها الرئيس حسني مبارك، أنهم يستشعرون سلفاً النوايا الشريرة لحكومة نتنياهو في مسألة الإستيطان وجاءت عملية بناء مستوطنة في جبل ابو غنيم لتؤكد أن شعورهم المبكر بالنوايا الشريرة كان في محله).

– أكد القادة العرب مساندتهم للبنان وطالبوا المجتمع الدولي "بضمان الوقف الفوري وغير المشروط للإعتداءات الإسرائيلية وإنهاء الإحتلال وتحميل إسرائيل مسؤولية تعويض لبنان عن كافة الأعراض التي لحقت به...".

(وبعد هذا التأكيد تكاثرت الإعتداءات على لبنان ولم يحصل تقدُّم في مسألة المطالبة بالتعويض عن كافة الأضرار التي لحقت به من جرَّاء العدوان).

– أكد القادة العرب "ضرورة إنضمام إسرائيل إلى معاهدة عدم إنتشار الأسلحة النووية.

– أكد القادة العرب "ضرورة إنضمام إسرائيل إلى معاهدة عدم إنتشار الأسلحة النووية وإخضاع كافة مرافقها النووية لنظام التفتيش الدولي".

(وعلى رغم هذا التأكيد لم تنضم إسرائيل ولم تخضع ولا يبدو أنها ستنضم أو تخضع).

– أكد القادة العرب عزمهم على " بناء التضامن العربي بإعتباره السبيل الصحيح لتحقيق أهداف العمل العربي المشترك، والذي يستند إلى إحترام المرتكزات الأساسية للنظام العربي وفي مقدمتها التمسك بمبادىء إحترام السيادة والإستقلال والسلامة الإقليمية لكل دولة وسيادتها على مواردها الطبيعية والإقتصادية والإلتزام بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة وتسوية المشاكل الثنائية بين الدول العربية بالوسائل السلمية...".

(ومنذ تلك القمة وحتى الآن ما زال مثْل هذا التأكيد قائماً لدى معظم القادة العرب، إلاَّ أن الذي نراه هو أن التضامن – لسبب أو آخر، أو بسبب أن ما يقال هو غير ما يجري تنفيذه – لم يتحقق).

– أكد القادة العرب على أن (قدرة الدولة العربية على تعزيز دورها وتقوية إسهامها ومشاركتها على النطاق الدولي تتطلب تحقيق التنمية العربية وتفعيل دور مؤسسات العمل الإقتصادي العربي المشترَك وتنفيذ القرارت الصادرة عنها..".

(وإلى الآن لا يلاحِظ المرء أي ترجمة عملية لهذه التمنيات وهذه الرؤية).

– أكد القادة العرب حرصهم على " تعزيز مكانة الجامعة العربية وتفعيل دورها وضرورة الإلتزام بميثاقها وقراراتها صوناً للمصالح العليا للأمة العربية، وأكدوا على ضرورة الوفاء بالإلتزامات المالية تجاهها...".

(وما يلاحظه المراقب هو أن مكانة الجامعة العربية كانت قبْل صدور البيان الختامي لقمة القاهرة أفضل قليلاً، أو فلنقل إنه لم يتغير شيء في هذه المكانة بعد بضعة أشهر على صدور البيان متضمناً التأكيد المشار إليه. كما أن المعلومات المتوافرة تفيد بأن الوفاء بالإلتزامات المالية من جانب الدول الأعضاء لا يتم بما يساعد على تعزيز دور الجامعة

وتفعيله.

– أكد القادة العرب على سيادة دولة الإمارات على جزرها الثلاث طمب الكبرى وطمب الصغرى وأبو موسى و" تأييد كافة الإجراءات التي تتخذها لإستعادة سيادتها على هذه الجُزر، كذلك دعوا إيران إلى إنهاء إحتلالها للجُزر والكف عن ممارسة سياسة فرْض الأمر الواقع بالقوة وإتباع الوسائل السلمية لحل النزاع القائم عليها وفق مبادىء وقواعد القانون الدولي بما في ذلك القبول بإحالة النزاع إلى محكمة العدل الدولية.

(ولم يغيِّر هذا الموقف شيئاً من الأمر، بل إن الذي حدَث هو العكس حيث أنه وتحت مظلة الإحتلال الإيراني للجزُر تحاول إيران تطبيع وتطوير علاقاتها مع الدول العربية كما أنها تستعد لإستضافة القمة الإسلامية بينما الجُزر العربية الثلاث تحت الإحتلال).

– أعرب القادة العرب عن قلقهم ازاء الإتفاق العسكري التركي – الإسرائيلي ودعوا تركيا إلى إعادة النظر في هذا الإتفاق بما يمنع المساس بأمن الدول العربية.

(ولم تتأثر الحكومة التركية بمشاعر القلق العربية، وبدلاً من أن تعيد النظر في الإتفاق فإنها ذهبت بعيداً في علاقاتها مع إسرائيل وتعاونها في المجال العسكري معها. وكانت زيارة رئيس الأركان التركي إلى إسرائيل ومحادثاته البالغة الأهمية حلقة أُخرى وليست أخيرة في مسلسل التعاون العسكري التركي – الإسرائيلي الذي هو عملياً على حساب الأمن العربي).

دعا القادة العرب الحكومة العراقية إلى إستكمال تنفيذ قرارات مجلس الأمن والإفراج عن الأسرى الكويتيين ورعايا الدول الأُخرى وإعادة الممتلكات، وطالبوها بعدم إنتهاج سياسات عدوانية تستهدف إستفزاز جيرانها العرب، كذلك رحبوا بالإتفاق الذي تم التوصل إليه بين العراق والأمم المتحدة لتنفيذ قرار مجلس الأمن قم 989 وطالبوا بضرورة الإسراع في وضْع الإتفاق موضع التنفيذ لتخفيف معاناة الشعب العراقي" والتي تتحمل الحكومة العراقية المسؤولية عنها...".

(ومثل هذه الفقرة في البيان باتت تقليدية ولا يحدُث تغيير جوهري في مضمونها لأن القمة العربية لم تُصدر توصية برفع الحصار، كما أن الحكومة العراقية من جانبها لم تساعد في شأن تنفيذ ما تبقَّى من قرارات مجلس الأمن ولم تفرج عن الأسرى الكويتيين لكي تُقنع حكومة الكويت بمشاركة العراق في أي قمة هدفها تحقيق التضامن).

– طالب القادة برفع العقوبات المفروضة على ليبيا" خاصة أن إستمرار هذه العقوبات من شأنه أن يدفع الدول العربية إلى النظر في الوسائل الممكنة لتجنب الشعب الليبي مزيداً من الأضرار...". كذلك دعا القادة زعماء الفصائل الصومالية لتحقيق المصالحة الوطنية.

(ولم يتغير شيء من الحاليْن. استمرت العقوبات مفروضة على ليبيا، ولم تحدُث إعادة النظر التي تم التلميح إلى إحتمال إتخاذها. كذلك لم يتجاوب زعماء الفصائل الصومالية مع ما طلبه القادة العرب منهم في شأن تحقيق المصالحة الوطنية. وظهروا في عدم التجاوب وكأنما لسان حالهم يقول بدل أن تنصحونا بتحقيق المصالحة الوطنية حاولوا تحقيق المصالحة العربية).

في ضوء هذا العرض لما تم إتخاذه في القمة الثلاثية في الإسكندرية يوميْ 28 و 29 ديسمبر 1994 ولاحظناه في البيان الختامي، ثم لما تم إتخاذه في القمة العربية الإستثنائية في القاهرة من 21 إلى 23 يونيو/ حزيران 1996 نجد أن المطالبة بإنعقاد قمة جديدة تبدو غير ذي فائدة إذا كانت هذه القمة ستنعقد وتتخذ توصيات ليس لها صفة الإلزام وليست بالتالي فعالة. أما إذا كانت هذه القمة ستنعقد وتُحدد مطالب ، وسقفاً زمنياً لتنفيذ هذه المطالب، وإلاَّ فإنها ستتخذ الموقف الذي من شأنه أن يوجع الإدارة الأميركية وإسرائيل، فإن إنعقادها يشكِّل حلاً للأزمة التي تعيشها الأمة، حكاماً ومحكومين، والتي تقوم على إستصغار شأن الأمة، التي هي خير أمة أُخرجت للناس، وإهانة الإرادة العربية كما لم تحدُث مثل هذه الإهانة طوال نصف قرن من الزمن.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 أبريل (نيسان) 1997

* * *

تساقط أولي للتطبيع بعد الإسقاط النهائي لإتفاق 17 أيار

منذ مطلع العام 1997 تخوض الديبلوماسية السورية معركة تثير الإعجاب.

وعند التأمل في النتائج التي حققتْها هذه

الديبلوماسية تكتشف إلى أي مدى يمكن للتحرك الديبلوماسي أن يثمر عندما يكون هذا التحرك متقن الإعداد على صعيد التمثيل وعلى صعيد أسلوب التخاطب الذي يعتمده الذين يقومون بالمهمة.

ونلاحظ هنا أن التحرك السوري كان منذ البداية وحتى زيارة الصين قبْل أيام (والتي هي ليست المحطة الأخيرة في هذا التحرك) على المستوى الرئاسي، بمعنى أنه لم يقتصر على وزير الخارجية، كما هو المألوف في التحركات الديبلوماسية، وإنما تمثَّل بنائب رئيس الجمهورية (عبدالحليم خدام) وبوزير الخارجية (فاروق الشرع)، وكما لو أن العنوان الرئيسي للتحرك هو إبلاغ موقف سوري محدد وسماع موقف بالمقابل أكثر تحديداً.

وإلى ذلك فإنه عندما يقود التحرك نائب الرئيس، فإن طبيعة الزيارة تختلف، بمعنى أنها لا تقتصر على لقاء في وزارة الخارجية في هذا البلد أو ذاك، أو على لقاء سريع في ديوان هذا الحاكم أو ذاك، وإنما يتسع مدى الزيارة ويتحول إلى تحاور في العمق. وكم مرة في تاريخ المهمات السياسية والديبلوماسية العربية لم تثمر المهمة لأن المسؤول الذي يقوم بها يجد نفسه ديبلوماسياً زيادة عما يتطلبه الموقف في لقاء ما، وذلك لأن الإجابة عن بعض الأسئلة التي يتم طرْحها عليه حساسة ودقيقة إلى درجة أنه يفضل العودة إلى المنبْع قبل الإجابة. وبما أن بعض المهمات لا يحتمل المبالغة في الرد الديبلوماسي، ولا ينتظر مسألة العودة إلى المنبع فإن النجاح لا يتحقق بالشكل المرجو. وقد يجوز الإفتراض أن الرئيس حافظ الأسد عندما إختار صيغة رئاسية للتحرك فلتفادي الإشكالية التي نشير إليها، فضلاً عن أن من طبيعة حكام العالم عموماً تفضيل أن يكون المبعوثون إليهم في مهمات إستثنائية على مستويات رسمية عليا. ومِن هنا فإن الرئيس الأسد إختار سلفاً نائبه، وبالذات النائب الذي هو صاحب شأن في سنوات العمل الديبلوماسي قبْل أن يصبح من ذوي الخبرة في الحنكة السياسية في سنوات عمله كنائب للرئيس. وبدا الرئيس الأسد في ذلك كمَن يقول إنه يتطلع إلى موقف بمستوى طبيعة الوفد الزائر.

وإلى ذلك فإن كون مَن يقود التحرك الديبلوماسي السوري هو المعني بالملف اللبناني، هو أيضاً أمر مهم على أساس أن في إستطاعة عبدالحليم خدام أن يجيب عن أي سؤال أو إستفسار حول العلاقة السورية – اللبنانية، ومن دون الإنشغال بإختيار مفردات معيَّنة، وعلى أساس أن معظم الحكام الذين شملهم التحرك السوري (وبالذات الأوروبيون) سيثيرون في شكل أو آخر أموراً تتعلق بلبنان.

ولقد كان لافتاً للنظر أن التحرك الديبلوماسي السوري لم يتعثر في كل الدول التي زارها عبدالحليم خدام وفاروق الشرع، وذلك نتيجة أن المنطق السوري مقنِع ولا يسبب مضمونه أي إحراج لسامعيه إذا هم أبدوا الترحيب به. وهو مقنع لدرجة أن هذا الحاكم الأوروبي، أو العربي، أو الآسيوي، أو الأفريقي، يجد نفسه وهو يستمع إلى ما يطلبه الزائر السوري المتميز وكأنما خدام والشرع يتحدثان نيابة عنه، حيث أنه لا أثر للحدة في المطالبة بإستعادة الأرض مقابل أن يتحقق السلام، وحيث هنالك إصرار على أن سوريا لا تخوض معركة السلام كمناورة وإنما كإستراتيجية، وحيث أنها متمسكة بحَرفية كل ما إتخذه المجتمع الدولي من قرارات وتنتظر تنفيذ هذه القرارات للقبول بإسرائيل كواحدة من دول المنطقة.

وثمة نقطة مشترَكة أُخرى تجمع بين الحُكْم السوري الأول التي زارها خدام والشرع، وهي الضيق من الإدارة الأميركية لأنها تحرج الجميع بإنحيازها المطلق لإسرائيل، والذي يتم التعبير عنه بطرق مختلفة أكثرها إستنكاراً إستعمال الفيتو مرة وثانية وربما مرات كثيرة آتية.

ومع أن التحرك الديبلوماسي بصفته الرئاسية الذي تقوم به سوريا يبدو شكلاً، كما لو أنه تحرك يخص سوريا لتحقيق أهداف ومطالب سوريا، إلاَّ أن هذا التحرك يبدو موضوعاً وكما لو أنه يخص العالميْن العربي والإسلامي، ونكاد نقول إنه يخص العالم كله بإستثناء الولايات المتحدة. فالمواجهة الباردة مع إسرائيل لا تقتصر على سوريا. وهي لو كانت كذلك لما حدَث هذا التسارع في توجُه الدول العربية والإسلامية ودول عدم الإنحياز نحو تسجيل مواقف مبدئية من إسرائيل تجاوزت الإستنكار اللفظي.

وهذه المواقف هي على التوالي:

موقف القمة الإسلامية الإستثنائية في إسلام اباد (الأحد 23 مارس/آذار 1997) التي دعت في بيانها الختامي الدول الأعضاء إلى إعادة النظر في علاقاتها مع إسرائيل وجعلت تتواكب مع التقدم الذي يتم إحرازه في عملية السلام حتى تنصاع إسرائيل إلى قرارات الأمم المتحدة وتنفِّذ الإتفاقيات والتعهدات والإلتزامات

التي توصلت إليها الأطراف المعنيَّة بعملية السلام...".

وموقف مجلس التعاون لدول الخليج العربية الذي أعرب وزراء خارجيته بعد إجتماع لهم في الرياض (يوم الأربعاء 26 مارس 1997) عن أسف حكوماتهم لإستخدام الولايات المتحدة الفيتو ضد مشروع قرار مجلس الأمن بإدانة إقامة مستوطنة أبو غنيم وممارسات إسرائيل في القدس الشرقية، وحضوا "كافة الدول" على إعادة النظر في علاقاتها مع إسرائيل وإتخاذ الإجراءات الكفيلة بدعم عملية السلام ودفْع إسرائيل إلى الوفاء بإلتزاماتها وتنفيذ الإتفاقات والتعهدات التي توصلت إليها مع الأطراف العربية في إطار عملية السلام...".

وموقف لجنة القدس التي إجتمعت في الرباط برعاية رئيسها الملك الحسن الثاني وعلى مستوى وزراء الخارجية وإتخذت إحدى عشرة توصية تدين في إحداها عملية الإستيطان وإجراءات تغيير معالم القدس وتحث في توصية أُخرى " الدول الإسلامية التي شرعت في إتخاذ خطوات تجاه العلاقات مع إسرائيل في إطار عملية السلام على إعادة النظر في علاقاتها مع إسرائيل بما في ذلك إقفال البعثات والمكاتب حتى تنصاع إسرائيل إلى قرارات الأمم المتحدة وتُنفذ الإتفاقات والتعهدات والإلتزامات التي توصلت إليها الأطراف المعنية بعملية السلام...".

وموقف مجلس الجامعة العربية الذي تمثَّل بقرار (أصدره يوم الإثنين 31 مارس 1997) يقضي بتجميد التطبيع مع إسرائيل وكذلك تجميد المشاركة العربية في المفاوضات المتعددة الأطراف.

ومع أن المواقف المشار إليها إتُخذت من أجْل القدس في الدرجة الأُولى، ثم من أجْل الجولان وجنوب لبنان، ولا تبدو حازمة وتطغى على مضمونها مشاعر العتب على الإدارة الأميركية والتمنيات بأن تفعل شيئاً، إلاَّ أنها في أي حال وقياساً بما كان عليه الوضع قبْل صدورها، تبدو بمثابة تأسيس لمواقف يمكن أن يتم إتخاذها في المستقبل القريب وفي إتجاه التطوير نحو الأفضل، إذ كنا لن نقول في إتجاه التصعيد، فضلاً عن أن أهمية هذه المواقف هي أنها إتُخذت بالحد الأدنى من التحفظات ووحدت منطلقات مَن هم مع الولايات المتحدة قلباً وقالباً ومَن هم ضد الولايات المتحدة ومن هم غير مرغوبين من الولايات المتحدة، وهذا أمر مستجد على العلاقات التقليدية بين الإدارة الأميركية والآخرين.

وإلى ذلك فإن هذه المواقف ما كانت ليتم إتخاذها لو أن الرئيس الأسد إستكان للأمر الواقع الأميركي– الإسرائيلي، ولكنه بإصراره على رفْض الهيمنة الثنائية (كلينتون – نتنياهو) وتمسكه في الوقت نفسه بالقرارات الدولية، وتداركه لأي خطوات يمكن أن تؤثر على العلاقة الأميركية– السورية غير الدافئة في أي حال، وإطلاقه أكبر حملة في تاريخ الديبلوماسية العربية شملت معظم الدول ذات التأثير في القرار الدولي... لكنه بذلك كله أحدث بعض الحيوية في مؤسسات ومنظمات كادت تغيب شمسها وتنطفىء جذوة كبريائها إزاء عملية الصراع العربي – الإسرائيلي، مثل الجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي وحركة عدم الإنحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي.

ولن يكون في إستطاعة هذه المؤسسات والمنظمات التراجع عن المواقف التي إتخذتْها وأشرنا إليها، لأنها في أي حال تشكِّل الحد الأدنى، وإن كان وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي رأى في نتائج لجنة القدس التي شارك في أعمالها أنها دون التوقعات. لكن ليعذرنا رجل الديبلوماسية الإيرانية لأنه في هذا الزمان السيء يبقى الشيء أفضل من اللاشيء.

ويجد المرء نفسه يتمنى، ومن باب الخشية من أن تتكاسل المواقف التي أشرنا إليها، أن يأخذ التحرك الديبلوماسي في مواجهة إسرائيل ومن أجْل القدس والجولان وجنوب لبنان شكلاً جديداً، بحيث يقوم أمناء المجالس والمنظمات والمؤسسات بتحرك مشترك ولدى الدول الخمس الكبرى فقط. ومن المؤكد أنه عندما يطرق أبواب هذه الدول وفد يضم الأمين العام للجامعة العربية والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي والأمين العام لحركة عدم الإنحياز ومَن يمثل الملك الحسن الثاني رئيس لجنة القدس... من المؤكد أنه إذا حدَث ذلك فإن صوت الرفض المسالم، الذي يمثل 99 في المائة من دول العالم للممارسات الإسرائيلية والإستخفافات الأميركية بالآخرين، أصدقاء كانوا أم حلفاء أم خارج الصداقة والتحالف، سيبقى مسموعاً إلى أن تحين لحظة الحقيقة حرباً إضطرارية أو سِلْماً مقنِعاً وعادلاً وشاملاً.

وفي ضوء تجربة التحرك الديبلوماسي السوري الذي كان كثير التميز والفاعلية، وكذلك في ضوء الحنكة السياسية للرئيس حافظ الأسد وتعامله مع مرحلة الحرب الباردة من الصراع العربي – الإسرائيلي

وفْق الأسلوب الذي يعكسه المثل الشائع " نقر الكوسى بالإبرة" يمكن تحقيق أفضل النتائج.

وتبقى الإشارة إلى أن تلك الحنكة هي التي أسقطت نهائياً إتفاق 17 أيار 1983 بين لبنان وإسرائيل، وهي التي جمَّدت التطبيع العربي والإسلامي وكذلك التطبيع من جانب دول عدم الإنحياز، مع إسرائيل، ومن باب المصادفة إن الأداة التنفيذية لتلك الحنكة في الحالتيْن كان عبد الحليم خدام. وإذا إستمر التجمد على ما هو عليه، فهذا معناه أن التطبيع سيتساقط .. ثم يسقط في بحر الصحوة العربية واليقظة الإسلامية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 14 أبريل (نيسان) 1997

* * *

تأملات عن بداية عودة إلى الوطن الأول(1-3)

المقالة الأولى: فورة الحرب بعد فورة النفط والثلاثي الأكثر إستقراراً من الوطن

ما أصعب أن يفارق المرء وطنه الأول. وما أبهج أن يعود المرء الى وطنه الأول بعد طول غياب. وما أمرَّ المفاجاة مما يسمعه المرء عما أصاب الوطن والمواطن.

مطلع صيف 1976 غادرتُ بيروت عبر بوابة دمشق إلى بريطانيا التي باتت الوطن الثاني. ومن البوابة الآمنة نفسها أعود إلى بيروت، بعد غياب عشرين عاماً. ومثلما أن لحظة الفراق كانت لحظة دامعة فإن لحظة معاودة اللقاء هي الأُخرى لحظة دامعة. وفي اللحظتيْن يكون الدمع حزناً على وطن وعلى أهل وأحباء وبالذات على والديْن كانا عندما بدأ جنون الحرب بعد إشتعال الشرارة الأُولى يوم 13 أبريل/ نيسان 1975 لا يقويان على السير ولا قدرة لهما على مشقة السفر ولا إستعداد لديهما، بعدما وصلا إلى خريف العمر، أن يتركا الأرض والمنزل والذكريات

حتى اذا بلغ القصف العشوائي أشده..

تعود الى الوطن بعد هذا الغياب القسري فتشعر أنك عائد من عشرين سنة سجين الغربة التي هي أخف مرارة على الوجدان من العيش في وطن يتقاتل فيه بعض اللبنانيين، الذين هم الأقلية الشريرة والمستبدة، من أجْل اخرين ويصل التقاتل إلى حد التدمير، لكنها – المرارة. تبقى ثقيلة وبثقل الجبال. وتعود فتجد نفسك حزينة حتى الموت، ولا تجد متسعاً من الوقت لزيارة ضرائح أهل وأحباء فقدتهم وأنت في غربتك، تقرأ على هذا الضريح الفاتحة وتذرف على هذا الضريح ما تبقَّى في مآقيك من دموع وتمسك بيديك بعض الأغصان الصغيرة الخضراء تضعها على هذا الضريح الذي يرقد فيه والد وهذا الضريح الذي يحوي جثمان والدة، وهما مثلك تماماً، ومثل بضعة ألوف قضوا في حرب الستة عشر عاماً، ومثل عشرات الألوف من الذين صمدوا تحت وطأة القصف والخوف وذل الإجتياح والتهجير، وكذلك مثل عشرات ألوف آخرين هاموا على وجوههم براً وبحراً وجواً.. انهم جميعا ضحايا حرب لا علاقة لهم فيها.

وتحزن وأنت ترى منظر شيخوخة الذين تركْتهم بعدما ودعوك في أحلى العمر وفي عز الشباب والنضارة. وعندما يطول إبتعاد المرء عن الذين يعرفهم أهلاً وأحباء ثم يراهم بعد طول الغياب يجد ان الشيخوخة داهمتهم إنقضاضاً وأمعنت تيبيساً بنضارتهم، في حين أنه لا يشعر بوطأة هذه الشيخوخة إذا هو كان رآهم يوماً بعد يوم أو فترة بعد فترة. ويكتشف أيضاً أنه هو الآخر بات في النصف الثاني من العمر إنما من دون أن تلتهم الشيخوخة النضارة نتيجة أنه كان بعيداً عن أصوات كل أنواع القذائف وروائح البارود والمداومة على النزول صبحاً ومساءاً، وأحياناً كل ساعات النهار والليل، إلى الملاجئ، وبعيداً أيضاً عن موجات الخوف المتلاحقة.. الخوف على الأولاد وعلى أم الأولاد والخوف على الوالدة والوالد وخوف الأشقاء على البنات المتزوجات وعلى الأحفاد الذين أتوا الى الدنيا في غير الزمن المناسب، والخوف من أن لا يلبي الفرن إحتياجات الطوابير التي تنتظر بالساعات، والخوف من أن يغضب جنرالات الحرب فيترجم بعضهم الغضب إلى قصف في كل الإتجاهات ويستمر يقصف إلى أن يهدأ غضبه وكأنما إطلاق الصاروخ أو الدانة هو حبة فاليوم تريح أعصابه، ويترجم بعضهم الآخر الغضب إلى عمليات خطْف وتصفيات وكأنما رعشة المخطوف وحشرجته من أن تتم تصفيته هما حبات فيتامين لجنرالات الحرب الذين تجوز اللعنة عليهم كلما وردت أسماؤهم أو مرت أطيافهم في الذاكرة.

كذلك ينتابك حزن شديد عندما تسأل عن عشرات

الناس، فيقال لك إنهم محظوظون. لماذا؟ يأتيك الجواب صاعقاً: لأنهم إرتاحوا، أي ماتوا.

ولكثرة الروايات التي تسمعها عن المأساة المتنقلة التي كانت زائراً يومياً وعلى مدى سنوات الحرب الست عشرة تغفر للرواة حسدهم لك وهو حسد فيه نكهة حقودة. ومع أن سنوات الحرب توارت وراء عشر سنين من الإنفراج إلاَّ أن ما يروى عنها وحولها يجعلك تشعر أن مسلسل الرعب حدث بالأمس القريب.

وعلى هامش مشاعر الحزن عما جرى لوطنك، وما جرى فيه، ينتابك إحساس بالإعتزاز لأن اللبنانيين بناؤون بطبعهم، وتلاحظ ذلك بشكل ميداني. تلاحظ أنه مقابل تدمير المنطقة التجارية قامت على الفور، ولمجرد أن سكتت المدافع نهائياً، مناطق بدل المنطقة الواحدة. وتلاحظ أنه كلما سقطت عمارة قامت في مكان آخر عمارة أعلى، وإلى درجة أن في لبنان الآن وبالذات في العاصمة التي كانت المسرح للإشتباكات وللقصف العشوائي وللإجتياحات على أنواعها عمارات تضاهي في الإرتفاع وفي الفخامة وفي الإتساع المثيلات لها أو تلك التي من نوعها، في بعض دول الخليج وفي بعض المدن الأميركية والأوروبية. وتلاحظ أيضاً انه لم تبقَ سلعة في العالم إلاَّ ووصلت الى المحلات والمتاجر والبوتيكات اللبنانية. وتلاحظ أن عشرات المطاعم، شيدت ومئات الفروع لعشرات المصارف إفتتُحت، وأنه لن تمر خمسة أعوام إلاَّ وتكون الفنادق الجديدة في بيروت وبعض مناطق الساحل بفخامة فنادق الريفييرا الفرنسية.

كذلك تلاحظ أن مستشفيات كثيرة قامت، وأطباء بالمئات إرتفعت لوحات عليها أسماؤهم، أو أن هذه الأسماء أُدرجت على جدارية واجهات مراكز طبية كثيرة. لكن مَن هو القادر على التداوي والإستشفاء؟

وما يقال عن الجامعات والمدارس يثير هو الآخر الإعجاب، لكن مَن هو القادر على دفْع الأقساط المرتفعة؟ ويثير الإعجاب أيضا هذا الإقبال على البناء إلى درجة ضاقت معها رقعة أراضي البناء، وتتراجع في إستمرار الأراضي الزراعية التي كان يبهج الناظرين التأمل في ثمار أشجارها وتنشُّق روائح أزهارها، وبالذات أزهار أشجار الليمون والبرتقال. لكن مَن في قدرته أن يشتري شقة أو يدفع إيجار شقة؟

كل هذا، وغيره كثير، يجعلك تفرح وتتباهى بهذه الحيوية والقدرة على الإبتكار والتطور ومواكبة كل ما هو حديث في العالم كي لا يعيدك التأخر سنوات إلى الوراء. لكن في الوقت نفسه يؤلمك أنين الشاكين... وما أكثرهم. أنين من وطأة الأسعار. وأنين من قلة الأعمال. وأنين من إنشغال أهل الحُكْم بخلافات محورها الجشع السياسي والمالي. وتشعر وأنت تتابع هذه الخلافات أن حرب الست عشرة سنة مستمرة بصيغة أُخرى، بمعنى انه بدل القصف العشوائي بالمدافع والصواريخ هنالك قصف كلامي في معظمه عشوائي وعبْر المحطات التلفزيونية والفضائيات الكثيرة، وهناك إتهامات تتخللها مفردات توحي لسامعها بأنه ليس في دولة وإنما هو في شيء آخر تماماً. كذلك تشعر أن هذا العمران المدهش الناشئ عن فورة الحرب والمماثل لذلك العمران الذي نشأ في الستينات والسبعينات عن فورة النفط، ليس ظاهرة صحية وأنه ليس أكثر من متاريس قوية البنيان من نوع متراس فندق فينيسيا، وفندق السان جورج، وفندق الهولياداي إن، وبرج المر إذا كأن الوضع اللبناني لن يدار على غير الطريقة التي يدار بها الآن من قِبَل ترويكا رئاسية هاجسها التقاسم، ومن أجْل ذلك تراجع واجب إعادة بناء الوطن أمام كثرة الخلافات وتزايُد التلاسن، بصيغة مباشرة أحياناً، وأحياناً كثيرة بصيغ غير مباشرة من نوع المباغتة التي فاجأ بها رئيس الجمهورية الياس الهراوي اللبنانيين بأنه سيعقد مؤتمراً صحافياً فشعر الذين باغتهم هذا الخبر أن أمراً في منتهى الخطورة سيتم الإعلان عنه، ولولا ذلك لما كان بعث الرئيس الهراوي الحياة في هذا التقليد الذي حدَث مرة واحدة في عهد الرئيس (الراحل) كميل شمعون عندما عقد مؤتمراً صحافياً ليتهم الجمهورية العربية المتحدة (عام 1958) بالتدخل في شؤون لبنان الداخلية وليمهد الطريق أمام الطلب من الولايات المتحدة إرسال قوات لمساعدة لبنان على صد هذا التدخل، ثم تبيَّن أن المؤتمر الصحافي هو لتقريع شريكه الثالث في الرئاسة، رفيق الحريري، الذي كان في الخارج يقوم بواحدة من جولاته في العالم. هل هذا الأمر يوجب مؤتمراً صحافياً للرئيس الهراوي؟

ولا يبدو أن إعادة النظر في طريقة إدارة الوضع اللبناني ممكنة في المدى المنظور ما دام البلد محكوماً بثلاثة رؤساء، مع أن إتفاقية الطائف أرادت أن يكون الحُكْم لثلاث مؤسسات هي رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس النواب ورئاسة مجلس الوزراء، فإذا بمَن قُيِّض لهم الترؤس إنقلبوا على ما جرى التفاهم في شأنه وبات الأشخاص أهم من المؤسسات.

ويبدو أن في غياب هذا الإدراك للأمر ستبقى حال لبنان على نحو ما بات واضحاً لكل لبناني، وهي أن الثلاثي الحاكم أكثر إستقراراً من الوطن مع أن القضية الأساسية هي أن يكون الوطن هو المستقر.

ولهذه التأملات والإنطباعات والخواطر عن بداية عودة إلى الوطن الأول، لبنان، بقيتان.

* * *

المقالة الثانية: الحريري الحاكم والحريري المعارض

من التراث العريق للسياسة اللبنانية أن الحديث عن التغيير الوزاري وإستقالة الحكومة يبدأ لمجرد أن يُنهي رئيس أي حكومة تشكيل البيان الوزاري لحكومته. وكان لا يمر يوم، منذ الخمسينات وحتى منتصف الثمانينات، إلاَّ ويقرأ اللبنانيون في صحافتهم، التي كانت تنعم بأجواء من الحرية ومن دون – مع الأسف – ضوابط لهذه الحرية، عن الأزمة الوزارية وعدم الإنسجام الحكومي وعن ضرورة رحيل الحكومة، مع أن هذه الحكومة ما زالت حديثة العهد. ولكنة نوع من البحبوحة في الحديث الذي إعتاد اللبنانيون عليه وكانوا يرون فيه نوعاً من التسلية، أو الثرثرة السياسية لشعب تأكل السياسة من صحته وتشرب من إبريق مائه، مع الأخذ في الإعتبار أن هذه الكتابات عن الأزمة الوزارية، وعدم الإنسجام الحكومي، وضرورات التعديل والتغيير، كانت تنبه الذين يترأسون الحكومات فتجعلهم بالتالي يتفادون الأخطاء وكانت أيضاً تشجع على التغيير لا تطول مدة بقاء أي رئيس حكومة في منصبه كثيراً. كذلك إن هذه الكتابات والمطالب كانت جزءاً من تحريضات غير مرئية تقوم بها الرئاسة الأُولى في لبنان، ولا تنزعج منها الرئاسة الثانية (مجلس النوب).

والهدف من ذلك هو إظهار الرئاسة الثالثة أنها غير مستقرة بمثل ما هو عليه الإستقرار في الرئاسة الأُولى والرئاسة الثانية. وكان التحليل البديهي لذلك هو أن أصول لعبة الحُكْم – وفْق روحية إتفافية الطائف – تقتضي لجوء الرئاسة الأُولى (التي هي حصة الطائفة المارونية) إلى هذه التحريضات كي لا يستقر حال الرئاسة الثالثة (التي هي حصة الطائفة السُنية) ويهدأ بالها فيكون هنالك رئاستان مستقرتان، الرئاسة الثالثة، والرئاسة الثانية (التي هى حصة الطائفة الشيعية) وبذلك تميل كفة الميزان (الذي هو الميزان الوحيد المثلث الكفات في عالم الموازين والمكاييل) لمصلحة المسلمين، وهذا لا تجيزه المعادلة اللبنانة المتعارَف عليها. ومن جانبها فإن الرئاسة الثانية كانت، بعدم إنزعاجها من التحريضات غير المرئية من جانب الرئاسة الأولى، تعكس خشيتها من تحالُف الرئاستيْن الأولى والثالثة، أو الموارنة والسُنة، على نحو ما بدأه رفيقا عهد الإستقلال، الرئيس بشارة الخوري والرئيس رياض الصلح، ثم على نحو ما فعله الرئيس كميل شمعون ورئيس وزرائه العتيد سامي الصلح، مع ملاحظة أن تحالُف الإثنيْن الأخيريْن كان في غير محله وكان يفتقد إلى العمق الشعبى، ولذا فإنه تعثَّر وتهاوى، في حين صمد طويلاً تحالف الرئيسيْن بشارة الحوري ورياض الصلح وكان يمكن أن يعيش طويلاً لولا أنه جرى إغتيال رياض الصلح على طريق مطار عمان، وغابت بذلك ولزمن طويل شمس الزعامة السُنية لتحاول الشروق بعد ذلك.

إستمرت لعبة الرئاسات قائمة حوالى أربعة عقود، إلى أن تحولت الرئاسة الثالثة في لبنان إلى مجرد وظيفة مرصوقة وليست دوراً. وطوال هذه السنوات لم تتقطع الكتابات في الصحف بفعل تواصل النهج التقليدي، من جهة، والتحريضات غير المرئية من جهة أُخرى، إلى أن جاءت إتفاقية الطائف لتبدأ في هديها مرحلة جديدة على الحياة السياسية في لبنان أفرزت ظاهرة الرئاسة الثالثة التي لا تتغير، أو التي يصعب تغييرها، أو التي يحب عدم تغييرها.

ومنذ أن تولى رفيق احصريري رئاسة الحكومة، وهذه الظاهرة تزداد رسوخاً إلى درجة انها أتت مثل ظاهرة مماثلة، من حيث طبيعتها الإستحالية، تعيشها مصر منذ تولي الرئيس حسني مبارك الحُكْم وفي ظاهرة عدم تعيين نائب لرئيس الجمهورية وإلى حد أن للرئيس مبارك قولاً منسوباً له، رداً على سؤال في هذا الشأن، خلاصته أنه لم يجد الشخص الذي يتم إسناد هذا المنصب إليه. ومثلما أن هذا القول غير مستحب وليس هو السبب المقنع لعدم تعيين الرئيس مبارك نائباً للرئيس فى بلد إعتاد رئيس النظام فيه على تعيين أكثر من نائب واحد له فإن إعتياد الحريري بأنه رئيس الحكومة الذي لا يمكن تغييره هو أيضاً أمر غير مستحب.

ولكن ليس بالضرورة ألاَّ يؤخذ في نظام بلد ما بصيغة تكون غير مستحية ما دام رئيس النظام وحده فقط يريد ذلك ومن دون إبداء الأسباب والحيثيات. وبالنسبة إلى الحريري بالذات فإن إعتباره رئيس

الحكومة الذي لا يمكن تغييره، أو الذي يصعب تغييره أو الذي يجب عدم تغييره، لم يأتِ نتيجة أن رئيس النظام يريد ذلك، أو فقط لأن صيغة الطائف إبتكرت هذا الأمر، وإنما لأن لدى الرجل قدرات غير متوافرة لدى غيره، وهي لو توافرت لأمكن بسهولة التغيير، أي بكلام أكثر وضوحاً إنه لو توافرت في سُني آخر، سياسياً كان أو غير سياسي، القدرات التي تتوافر في الحريري، لكنا نقرأ ونسمع في إستمرار كلاماً من النوع الذي كان سائداً قبْل الطائف عن «التغيير الوزاري الوشيك» وعن «ضرورة إستقالة الحكومة» والإتيان برئيس جديد لها، ولكان الحريري تبعاً لذلك، سيتصرف وفْق أصول اللعبة فيتوارى أو يتحدى. لكن هذه القدرات غير متوافرة في أي سُني. ولأنها لا تبدو سهلة التوافر فإن التغيير لا يبدو وشيكاً.

ونحن عندما نتحدث عن القدرات لا نعني بذلك المال وحده، عِلْماً بأنه لولا المال لما كان لبقية القدرات أن تكون فاعلة. والذي نقصده بيقية القدرات هو العمق الدولي للحريري، والعلاقات العميقة مع مؤسسات الأعمال والإستثمار في العالم والحضور المتميز له من الأزهر إلى الفاتيكان، فضلاً عن الحضور المتميز الآخر له في أوساط الجامعات حيث لتلك الجامعات والمجالس إدارة تلك الجامعات تأثيرات في شكل أو آخر في القرار الدولي. والأهم من هذا كله هنالك القدرة التى يستمدها الرئيس الحريري من علاقته بالحُكْم السعودي، تليها علاقته بالحُكْم الفرنسي متمثلاً بالرئيس شيراك. وعندما تكون معظم دول العالم تتطلع إلى بناء علاقة جيدة مع المملكة العربية السعودية ويكون الحريري هو الإبن البار للمملكة في لبنان، يمكننا أن نتصور أي أبواب دولية وعربية تُفتح أمام الحريري، وأي عوائد يمكن جنيْها من وراء ذلك.

وحتى إشعار آخر، فإنه لم يحدُث أن وصل إلى منصب رئيس الوزراء في لبنان من يملك هذه القدرات، كما أنه ليس هنالك في تاريخ الحكومات العربية والأجنبية عموماً (بإستثناء رئيس حكومة عابر في إيطاليا هو سيلفيو بيرلسكوني) مَن كانت حاله مثل حال الحريري. وبالنسبة إلى لبنان بالذات، فإن أقصى ما أمكن رئيس حكومة الحصول عليه هو أن تكون علاقته جيدة مع مصر ليصل، أو مع العراق (الملكي) ليصمد قليلاً في وجْه الإنتفاضة عليه كما حدَث للرئيس سامي الصلح. أما أن يكون هنالك رئيس حكومة يحظى بقبول ورضى سوريا (التي حل شأنها محل الشأن الذي كان لمصر أيام عبد الناصر) ويحظى بعناية المملكة العربية السعودية، وله – نتيجة للأمريْن معاً – مكانة لدى رئيس فرنسا لم يحصل عليها أحد من قبْل، بمن في ذلك رؤساء لبنان الموارنة... فهذا لم يحدُث، وفي تقدير كثيرين إنه لن يتكرر.

ونجد من المناسب هنا الإشارة إلى أن الأقدار عوضت الحريري بفوز جاك شيراك برئاسة فرنسا ما فقده نتيجة الإنتكاس المريع للعملية السلمية، خصوصاً أنه جاء إلى الحُكْم على أساس أن هذه العملية ستسير وفْق ما تم التفاهم الدولي في شأنه إلى أن ينشر السلام ربوعه في المنطقة. وهو لو إفترض أن العملية ستنتكس، وإلى درجة أن ضرورة القبول بالمقاومة باتت تسير فى خط مواز لخط إعادة بناء لبنان بدءاً بالعاصمة بيروت، لربما كان آثر أن يكون رئيس حكومة المرحلة التي تبدأ بالعام ألفين، أي مرحلة السلام الشامل في المنطقة، ولربما أيضاً كان إعتمد الكثير من التأني في مسألة الإستثمار في لبنان.

كما أن التعافي السريع لخادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز، عوّض الحريري إنتعاشاً في المعنويات. وهكذا فإن التعويض السعودي، ومن قبْله التعويض الشيراكي، شكَّلا معاً إذا جاز التعبير مساندة تاريخية للحريري الذي بات يواجه بثقة، وأحياناً بسخرية مصدرها الثقة، الكلام الذي يتردد همساً وعلت بين الحين والآخر حول «ضرورة إستقالة حكومة الحريري» أو حول «ضرورة التغيير» وإعتاد التنوع في مَن يتم إختيارهم لرئاسة الحكومة. كما أنه بفضل التعويضيْن المشار إليهما تمكَّن الحريري من خوض معركة الإنتخابات النيابية بطمأنينة، ونجح في تقويض زعامات تقليدية ليبني على أنقاضها زعامة جديدة لن تنضج معالمها أو إذا حدث الإختبار الأساسي لها. ومثل هذا الإختبار لن يتم إلاَّ إذا فاجأ الحريري اللبنانيين ذات يوم بأنه قدَّم إستقالة لا عودة عنها وإنتقل من ضفة الرئيس الحاكم إلى الرئيس المعارض.

وقد يكون الذي يجعله لا يقدْم على ذلك هو أن الدعوات المتقطعة التي تطالب بالتغيير أحياناً وبإستقالة الحكومة أحياناً أُخرى، تصدر عن سياسيين أضناهم إنتظار فرصة الترؤس، ولا تصدر عن الشعب الذي على رغم معاناته ما زال يأمل في أن يحل له الحريري العالقة التي تكاد ترميه مضرجاً بجوعه. كذلك قد يكون الذي يجعله لا يُقدِم على ذلك هو أن

زعامته السياسية في المرحلة الأخيرة من الإكتمال وهي متى إكتملت يستطيع، إذا بات الرئيس المعارض، أن يكون وهو خارج الحُكْم الشخص المطلوب من الشعب لكى يكمل ما بدأه.

والأهم من هذا كله أن اللبنانيين لن يعرفوا مكانة الحريري وأثرها وما فعله إلاَّ إذا إفتقدوه، فضلاً عن أنهم بطبعهم المعهود يفضلون إختبار حاكمهم في سدة الحكم... كم وهو معارض.

... ولهذه التأملات والإنطباعات والخواطر عن بداية عودة الى الوطن الأول، لبنان، بقية ثالثة وأخيرة.

* * *

□ المقالة الثالثة: جعجع المهجر إلى فرنسا وجعجع المهجور في وزارة الدفاع

بعدما توحدَّ اللبنانيون، مسلمين ومسيحيين، إزاء مذبحة قانا التى «توَّج» بها شيمون بيريز أواخر أيام حياته كرئيس لوزراء إسرائيل، ها هم يتوحدون مرة ثانية إزاء زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للبنان. ومثلما أن الطوائف اللبنانية تصرفت بخشوع وعاشت حزناً بعيداً عن المجاملات لمجرد أن إنتشر نبأ الجريمة الإسرائيلية في قانا، والتي كانت أُخرى وليست أخيرة في سجل العدوان الإسرائيلي، فإن هذه الطوائف تصرفت وكأنما رئيس الكنيسة الكاثوليكية يزور كل هذه الطوائف وليس طائفة واحدة فقط.

ومن محاسن الصدف أن هذه العفوية في التعبير عن الترحيب، يسجله الماروني والكاثوليكي والأرثوذكسي و... و... والشيعي والسُني والدرزي، خففت من جنوح إفتراض خلاصته ان البابا يوحنا بولس الثاني إنما يزور لبنان لنجدة الطائفة المارونية التي تعيش حالة إحباط. فلم تبقَ طائفة إلاَّ ورحبت متمثلة بأشخاص رجال الدين ورجال السياسة على حد سواء. وبذلك بدا أن الإحباط لا يُلقي بثقله على طائفة بعينها وإنما هو حالة عامة يعيشها كل اللبنانيين، مع الفارق أن الإحباط الذي يعيشه هذا الطرَف هو غير الذي يعيشه طرَف أو أطراف أُخرى.

ومن جانبه فإن البابا يوحنا بولس الثاني إتخذ كل الخطوات التي تقطع الطريق على توظيف زيارته في إتجاهات معيَّنة. وكان بذلك حكيماً.

ومن يتأمل في الإستعدادات الرسمية للزيارة وفي البرنامج الذي جرى إعداده ولم يخضع للكثير من التعديلات، يخلص بإنطباع أن لبنان ليس بلداً عاش حرباً دامت ست عشرة سنة، وإنما هو بلد معافى قادر على أن يقوم بأفضل أنواع الإستقبال وفي زمن قياسي.

وقد يجوز القول ان البابا يوحنا بولس الثاني سيجد أن زيارته إلى لبنان هي أفضل الزيارات التى قام بها بدءاً من زيارته الأولى إلى المكسيك وأميركا الوسطى في يناير/ كانون الثاني 1979 وإنتهاءاً بزيارته السادسة والسبعين إلى تشيكيا في أبريل/ نيسان 1996، ذلك أنه في زياراته الست والسبعين – بإستثناء زيارته إلى نيويورك وإلقاء كلمة من منبر الجمعية العمومية للأمم المتحدة مطلع أكتوبر/ تشرين الأول 1979– إنما كان يزور دولاً كاثوليكية المذهب أو أن للكاثوليكية حضوراً بارزاً أو متميزاً فيها، فى حين أنها المرة الأولى التي يزور فيها الدولة ذات التنوع الطائفي، حيث يتقاسم المسلمون والمسيحيون الحُكْم.

أما زيارته إلى تونس في أبريل 1995 فإنها كانت الأولى إلى بلد مسلم إستضاف مقر الجامعة العربية لبضع سنوات ولا يزال إلى الآن المضيف لجزءٍ من مؤسسة الحكم الفلسطيني، بعدما كان المقر السياسي والعسكري للقيادة الفلسطينية التي إضطرتها حرب لبنان إلى المكوث في تونس. ولعل البابا بولس الثاني أراد من تلك الزيارة أن يقول إنه بالصفتيْن اللتين اكتسبتْهما تونس إنما يزور العالم العربي بجناحيْه المشرقي والمغربي، ويزور أيضاً البلد الذي يستضيف القيادة الفلسطينية والتي بات رئيسها ياسر عرفات من الزوار التاريخيين للفاتيكان ومن الذين توثقت أواصر العلاقة بينهم وبين أهل القرار الفاتيكاني.

ومع أن زيارة البابا إلى لبنان تصادفت مع أجواء مشحونة يعيشها البلد، وتتزايد فيها صراعات أهل الحُكم ومعاناة الناس من هذه الصراعات ومن الظروف الإقتصادية الصعبة، إلاَّ أنها قد تكون مناسبة طيبة لدعم يحصل عليه لبنان من الدول الكاثوليكية في العالم بفضل توجيهات من البابا يوحنا بولس الثاني، الذي يقوم بالزيارة في الشهر الذي وُلد فيه (من مواليد 18 مايو/ أيار 1920) وتكون الزيارة هي السابعة والسبعين، بمثل عُمْر رئيس الكنيسة الكاثوليكية. ومثْل هذا الدعم لن يكون صعب المنال، خصوصاً أن الدولة الكاثوليكية الأهم في العالم (أي فرنسا) تبذل الجهد الممكن لإبعاد شبح العدوان عن لبنان وتمكينه من تثبيت إستقراره.

وإذا كانت الحالة العالقة. ونقصد بذلك حالة الدكتور سمير جعجع الذي تغفر له معظم القيادات الروحية للطوائف المسيحية في لبنان ما فعله وما

إقترفتْه يداه وأيادي مساعديه – تتشكّل شوكة في خاصرة هذا الإستقرار، فإن سحْب هذه الشوكة من الخاصرة يصبح أمراً مطلوباً ومغفوراً، خصوصاً أن شوكة أقطاب المعارضة المارونية فى فرنسا لم تعد تزعج الخاصرة، وأن الإبقاء على الرجل سجيناً في أحد أقبية وزارة الدفاع طوال هذه المدة كان من جملة مسببات زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى لبنان، وإن كان لا أحد (سواء من أوساط الفاتيكان أو من أوساط بكركي مقر بطريرك الطائفة المارونية في لبنان) يقول ذلك أو يريد القول ولو تلميحاً.

وليس هنالك في لبنان (بإستثناء العميد ريمون إده والعماد ميشال عون) من يريد نهاية للدكتور جعجع كنهاية زعيم الحزب السوري القومي الإجتماعي انطون سعادة، الذي تَسبب إعدامه المتسرع بداية نهاية صيغة الميثاق الوطني (ميثاق 1943) نتيجة إغتيال رئيس الحكومة زمنذاك رياض الصلح على طريق مطار عمان وهو عائد إلى بيروت من زيارة إلى الأردن.

وأغلب الظن أن الخشية من تعثُّر الإستقرار هي التي تجعل لا أحد يريد تلك النهاية التي نشير إليها. وقد يكون من أهداف هذا التوحد بين الطوائف إزاء زيارة البابا هو ابلاغه بأن أمثولته عندما زار في السجن في روما تمهيداً للعفو عنه الشاب التركي علي أقجا، الذي حاول إغتياله، ما زالت حاضرة في الأذهان، وأنها تندرج تحت بند العفو عند المقدرة، وإن اللبنانيين تقديراً منهم لتلك الأمثولة سيستقبلون بالترحيب، أو فلنقل بالتفهم، إشارة منه إلى الحُكْم اللبناني بأن ينهي حالة الدكتور جعجع العالقة.

ونقول ذلك على أساس أن الثلاثي الحاكم، الرؤساء الياس الهراوي ونبيه بري ورفيق الحريري، باتت تربطهم صداقة بالحَبر الأعظم الذي هو بدوره بات له، بزيارته لهم، فى دولة الرئاسات الثلاث، ديْن عليهم، فضلاً عن أن تسفير جعجع إلى فرنسا للعلاج الذي يحتاج إليه سيزيل عن مؤسسة الجيش اللبناني وزراً لا علاقة لها به. ويبدد المخاوف من وفاة الرجل وهو مهجور داخل السجن قهراً وغماً، وسيضيف إلى مجموعة الزعامات المارونية التي تقيم هناك زعامة مهجَّرة أُخرى تعيش على نحو عيشة أحد زعماء الشارع الإسلامي البيروتي في حرب السنتين (1975 و 1976) التي إمتدت بعد ذلك أربع عشرة سنة، وهو ابراهيم قليلات، الذي كان في محيطه بأهمية الدكتور سمير جعجع في محيطه، وبأهمية الشيخ بشير الجميل (الرئيس المنتخَب الراحل) من قبْل... ولكن كل حال يزول ويبقى الوطن في رعاية الرب ذي الجلال والإكرام.

وعلى هامش الإنطباعات تبقى برسم النشر بعض الخواطر والتأملات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – 12 أبريل (نيسان) 1997

* * *

مهزلة أواخر القرن

فاجأت ألمانيا، التي تَزايد تعليق الآمال عليها بأنها يمكن أن تحل بالتعاون مع فرنسا، وبعض الدول الأوروبية، كقوة يستند إليها العرب والمسلمون في غياب الولايات المتحدة المندفعة وراء الباطل الإسرائيلي... فاجأت ألمانيا يوم الخميس 10 أبريل/ نيسان معلقي الآمال عليها بخطوة نسفت تلك الآمال، وتمثلت بأن محكمة برلين أصدرت، بعد ثلاث سنوات ونصف السنة أحكامها في قضية عرفت بإسم "قضية ميكونوس"، وخلاصتها أن أربعة لبنانيين وإيراني إتُهموا بالضلوع في إغتيال ثلاثة قياديين أكراد ومترجم لهم، في مقهى "ميكونوس" في برلين عام 1992.

ومثْل هذه الحادثة ليست الأُولى من نوعها في دول العالم الثالث، وبالذات تلك التي تعيش شتى أنواع التحولات قبْل أن يستقر حالها، ولكن المفاجئ في الأمر هو أن المحكمة إرتأت إلصاق التهمة بالقيادة السياسية والروحية لإيران، فإعتبرت أن رموز هذه القيادة يقفون وراء عملية الإغتيال، بل إن رئيس المحكمة أورد الحيثية التي خلاصتها أن المتهمين الأربعة نفَّذوا قراراً إتخذته "لجنة الشؤون الخاصة" في الدولة الإيرانية وأن هذه اللجنة تضم في عضويتها القيادة السياسية والروحية (أي مرشد الثورة آية الله علي خامنئي ورئيس الجمهورية هاشمي رافسنجاني ووزير الخارجية علي أكبر ولايتي).

وبصرف النظر عن الدوافع وراء هذه المفاجأة الألمانية، التي يمتزج فيها الحرص على القانون بعدم التنبه إلى ما يمكن أن تسببه مثل هذه الأحكام مِن ضرر على العلاقة الثنائية، بين دولتيْن، فإن إصدار المحكمة لهذه الأحكام، وبالذات في مرحلة بالغة الأهمية للعالميْن العربي والإسلامي، يخبئ في ثناياه نوايا ليست طيبة على الإطلاق، ونكاد نقول إن

المحكمة الألمانية تنوب، سواء عن قصد أو غير قصد، أو تدري ولا تدري، عن أولئك الذين ليس لهم مصلحة في حصول أي وفاق إسلامي – عربي من شأن تثبيت أُسسه أن يشكِّل أداة ضغط فاعلة على الإدارة الأميركية وتحالفها العدواني مع إسرائيل ضد قضايا العرب والمسلمين. والمحكمة بالأحكام التي أصدرتْها تحقق على الوجه الأكمل لذاك التحالف ما يرمي إليه.

ونحن عند التأمل في الوضع الذي كان عليه الموقف قبل أن تباغتنا "محكمة برلين" بمفاجأتها غير المتوقعة، والضارة أبلغ الضرر، نجد أن وفاقاً عربياً – إسلامياً بدأت تتوضح معالمه ووصل إلى أزهى صوره في "لجنة القدس" عندما بدت اليد العربية تُمسك باليد الإيرانية، وبدا المنطق العربي على أهبة أن يستوعب المنطق الإيراني، وبالعكس، بالنسبة إلى أسلوب التعامل مع العملية السلمية والصراع مع إسرائيل.

وطوال خمسة أشهر سبقت مفاجأة محكمة برلين أرسلت الثورة الإيرانية إشارات إلى الجيران الخليجيين بأنها تتطلع إلى حُسْن الجوار وترغب به وستعمل من أجْله. وبدت في الإشارات أنها أيضاً تتفهم طبيعة العملية السلمية من دون أن يعني ذلك أنها توافق على التفاصيل. بل إن الحال وصل إلى حد أن الرئيس رافسنجاني زار سفارة فلسطين وحظي فيها من سفير أبو عمار بتكريم ملحوظ يتسم بالدفء. وإلى ذلك فإن التصريحات الإيرانية تتابعت، وفي إستمرار كان تصريح هذا المسؤول أو ذاك، والحديث الصحافي الذي يدلي به هذا السفير الإيراني أو ذاك، يفيضان أخوَّة وحرصاً على تحقيق التعايش والتآلف. ثم تطورت الأمور نحو الأحسن حيث بدأت الديبلوماسية الإيرانية تنشط في كل الإتجاهات، وبدأ مبعوثو الثورة الإسلامية الذين يجوبون بعض العواصم العربية والإسلامية يتحدثون بمنطق الدولة أكثر من حديثهم بمنطق الثورة.

ولقد إستحسن الكثيرون هذا التوجه الجديد من جانب إيران، وجاءت القمة الإسلامية الإستثنائية، في إسلام أباد (23 مارس/ آذار 1997) لتشهد بداية موسم قطاف هذا التوجه. وكان لافتاً للنظر ذلك اللقاء الودود بين الرئيس الإيراني هاشمي رافسنجاني وولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبد العزيز، وتلك المصافحة المتأخرة أربع سنوات بين الرئيس رافسنجاني ورئيس وزراء لبنان رفيق الحريري.

وقد يجوز إعتبار الأمريْن عاديْن وفرضتهما لقاءات الصدفة كما يحدث عادة في مؤتمرات القمة لو أنهما حدثا على هذا النحو، إلاّ أن الإجتماعيْن جاءا نتيجة ترتيب مسبق شاركت في إعدادهما الرغبة المشتركة، مع أصول البروتوكول، وبالذات تلك الأصول التي يجري إعتمادها في اللقاءات المتميزة أو المتأخرة الحدوث.

ولقد أسس الحدثان إلى ما هو أهم، حيث إن الرئيس رافسنجاني كان سيزور المملكة العربية السعودية لتأدية فريضة الحج (ولكن الزيارة لأسباب ليست من العمق بمكان لم تتم)، وحيث إن الأمير عبدالله سيزور إيران رسمياً وفق ما تم الإتفاق في شأنه رسمياً، وحيث إن رئيس الحكومة اللبنانية سيقوم هو الآخر بالزيارة الرسمية المتأخرة إلى إيران، والتي سيرى بعد إتمامها أن وتر العلاقة بينه وبين "حزب الله" لن يعود مشدوداً وتصدر عنه بين الحين والآخر عبارات تظهر مدى فقدان الود.

وهذا ليس كل شيء، أو بالأحرى أنه، على حد القول الشائع، غيض من فيض. فالعلاقة المصرية – الإيرانية جرى نوع من التفاهم – في ضوء تطمينات أصدقاء مشتركين ومحترمين من بينهم الشيخ محمد مهدي شمس الدين رئيس المجلس الأعلى للطائفة الشيعية في لبنان – على أن توضع على سكة الإنفراج.

والعلاقة الإيرانية مع بعض الدول المغاربية كانت هي الأُخرى تسير في الإتجاه نفسه. والعلاقة الإيرانية – السودانية كانت لن تستمر على نحو صيغة التحالف الذي يقلق مصر وآخرين وإنما تعتدل وتتعقلن. والعلاقة الإيرانية – العراقية كانت ستستقر عند حد. والعلاقة الإيرانية مع روسيا كانت ستصاغ بما يزعج الإدارة الأميركية، خصوصاً بعدما لم تستوعب تلك الإدارة أن صفقة الغاز التركية – الإيرانية التي نجح رئيس وزراء تركيا نجم الدين أربكان في إبرامها مع إيران عندما قام بزيارته لها قبل بضعة أشهر، يمكن بالإضافة إلى أنبوب النفط العراقي أن تخفف عنها (أي عن تلك الإدارة) أعباء الهم التركي، وإن على تلك الإدارة أن تكون عادلة مع العرب والمسلمين.

ونحن عندما نتأمل في ذلك كله وما تضمنته الإشارات الإيرانية ونقرأ سطور التصريحات والأحاديث وما بين السطور، نجد أنفسنا أمام إحتماليْن أوجبا هذا

التبدُّل. الأول هو أن السنة الثامنة عشرة هي السنة الأخيرة من عمر إيران كنظام ثوري لتبدأ سنتها الأُولى كدولة ذات تراث ثوري مع ولاية الرئيس الجديد للجمهورية بعد بضعة أشهر.

وفي هذه الحال لا بد من التعبير وبكل الوضوح عن ذلك. وبداية التعبير هي في طمأنة الجيران، فالبعيدين، فالأبعد، وبحيث يكون التطمين مخلصاً ويزيل أي شكوك وبالتدرج لدى الآخرين. وهنا حدثت خطوات ملموسة في شأنه هي تلك التي أشرنا إليها إيجازاً أو تلميحاً.

أما الإحتمال الثاني فهو أن إيران على موعد مع القمة الإسلامية في ديسمبر/ كانون الأول المقبل. ومثل هذه القمة في ضوء تآلف القلوب العربية – الإسلامية، وكذلك في ضوء توحُّد مشاعر الغضب مما تفعله إسرائيل بالقدس بتأييد من الإدارة الأميركية، أو بغض نظر منها، لا فرق، وأيضاً في ضوء هذه الإستهانة المتمادية بالكرامة العربية والكبرياء الإسلامي، وأيضاً وأيضاً في ضوء إتساع رقعة الحروب الإسلامية – الإسلامية بدعم أميركي (وأجنبي عموماً) غير منظور أحياناً، ومنظور أحياناً أخرى، لتنشيط هذه الحروب (ومنها ما يحدث في الجزائر على مدار الأربع والعشرين ساعة)... إن مثل هذه القمة عندما تنعقد في دولة فاعلة مثل إيران فإنها قد تنتهي إلى قرار موحَّد لا تستسيغه الإدارة الأميركية التي تريد فقط من العواصم العربية والإسلامية ذات الأهمية القرارات التي تتماشى مع إستراتيجيتها على نحو ما حققته في مرات سابقة القمم التي جرى عقدها في القاهرة ويسعى الحُكْم المصري منذ سنتين إلى إزالة آثارها المعنوية السيئة.

وقد يقال: كيف تستطيع إيران إستصدار موقف إذا كان المشاركون لا يريدون؟ والرد على ذلك هو أن معظم الدول العربية والإسلامية باتت لأسباب أو أُخرى تواقة إلى مثل هذا الموقف، الذي يوقف الإجتياح الأميركي – الإسرائيلي للمشاعر والإرادات والأماني العربية والإسلامية، وأن ما تحتاجه هذه الدول هو فقط الدولة التي ترعى وتستنبط، في لقاءات الردهات والأجنحة وإتصالات الكواليس، المعادلة التي تلحق الأذى المؤلم بإستراتيجية الإهانة التي تتعمد الإدارة الأميركية إبقاء العرب والمسلمين داخل أسوارها. ولدى هذه الإدارة تجربة مماثلة هي تجربة القمة العربية الإستثنائية في بغداد عام 1978 التي جمدت عضوية مصر في الجامعة العربية رداً على تفرد الرئيس أنور السادات بعقد صلح منفرد مع إسرائيل رعته الإدارة الديمقراطية (زمنذاك) برئاسة جيمي كارتر.

وخشية أن يعيد التاريخ نفسه، جاءت عملية "محكمة برلين" لتقطع الطريق، من الآن وحتى موعد إنعقاد القمة المشار إليها، على كل الآمال والإحتمالات... هذا مع الأخذ في الإعتبار أن مفاجأة المحكمة الألمانية قد تتسبب بالمزيد من الشحن للنفوس العربية والإسلامية، وإلى درجة أن هذا الشحن يمكن أن يشحذ الهمم وتنعقد القمة وتسجل أفضل النجاحات بينما الرئيسان المفضوحان بنيامين نتنياهو وبيل كلينتون (لكل منهما فضيحته على مقاسه وحسب نواياه الشريرة) يتواريان الواحد بعد الآخر، ويتوارى معهما رالف أكيوس الذي يضحك علينا كعرب وكمسلمين ويلهينا بلجنته على نحو إلهائنا المستجد بعملية ميكونوس، وكأنما الغرض هو أن تتصدع الأمتان العربية والإسلامية بين كلينتون ونتنياهو، وما بينهما أكيوس وميكونوس. إنها مهزلة أواخر القرن تحت ستار القوانين والشرعية الدولية... أو فلنقل إنها أم المهازل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 21 أبريل(نيسان)1997

* * *

معادلة صامدة تنتظر السلام الشامل

إذا كان هذا هو الإستقبال الذي جرى للبابا يوحنا بولس الثاني عندما زار لبنان يوميْ 10 و11 مايو (أيار) 1997، فأي إستقبال سيلقاه الرئيس حافظ الأسد إذا هو قام بزيارة يؤكد فيها السيادة اللبنانية التي ما كانت ستبقى لو أن التقسيم الذي كاد أن يقع في السبعينات قد تحقق، وهو لم يقع بفضل رؤية سوريا لمستقبل المنطقة ودورها العسكري الذي تحوَّل إلى وجود نصف مؤقت ونصف دائم تتكاثر في شأنه الشكاوى، من دون التأمل في جوهر المسألة، وفي الحال الذي كان عليه لبنان قبْل أن يحدُث ذلك الدور.

وأي إستقبال سيلقاه خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز، إذا هو إرتأى أن يعزز، بزيارة يقوم بها إلى لبنان، إتفاق الطائف الذي تتعالى بين الحين والآخر أصوات تقول إنه إتفاق جيد، لكن

التطبيق ليس دقيقاً، وذلك نتيجة أن أمين سر هذا الإتفاق الرئيس حسين الحسيني يتكتم أكثر مما يجب ويفسر أقل مما هو مطلوب.

ومن المؤكد أن الإستقبال الذي سيلقاه كل من الملك فهد والرئيس الأسد سيكون هو أيضاً من الإستقبالات التاريخية العفوية، فليس هنالك لحظة طمأنينة ينعم بها المواطن اللبناني، منذ إتفاق الطائف الذي حظي بإهتمام ورعاية سعودية ومتابعة دؤوبة من الملك فهد، ليس للحل الذي ولد في الطائف أثر طيب فيها. وليس هنالك شعور واثق لدى المواطن اللبناني بأنه في منأى عن حُكْم الميليشيات، الذي كان سائداً حتى إتفاق الطائف، لولا الدور الذي قامت به سوريا وإستمر تحت سيطرة الرئيس الأسد شخصياً خشية أن يتجاوز المعنيون عن هذا الدور الأصول المرعية وصولاً إلى الخطوط الحمر وما بعدها.

وفي كل مرة يتأمل المرء في الوضع اللبناني، كيف أصبح وأين كان، يرى أن الملك فهد بن عبد العزيز والرئيس حافظ الأسد حاضران في الذهن. فلولا الدور السوري لما بقيت هنالك شرعية متمثلة بمجلس نواب. ولولا هذه الشرعية لما كان لإتفاق الطائف أن يتم لأن المملكة لا يمكن أن تستضيف، ولمدة تزيد على الشهر، زعماء الميليشيات وترعى إجتماعاتهم، إلاَّ أنها تستضيف رموز الشرعية (على نحو ما فعلت في الماضي مع الرئيس جمال عبد الناصر واليمنيين)، وتبذل في العلن وفي لقاءات الكواليس كل ما يمكنها بذْله من أجْل أن تنجح الإجتماعات على نحو ما تحقق في إجتماعات الطائف التي إنتهت إلى صيغة حُكْم تحفظ السيادة اللبنانية من خلال تنظيم عملية الحُكْم. كذلك، فإنه لولا الوجود السوري لما كان لإتفاق الطائف أن يُنفَّذ، أو إنه إذا وُضع على سكة التنفيذ فإن التعثر سيرافق الكثير من مراحله. إنها معادلة كثيرة الوضوح إذا كان سيتم النظر إليها بواقعية وتعقُّل. وهي موضع تفهم أهل القرار الدولي، ولذلك فإنها معادلة مستمرة يرتاح مَن يستوعبها ويُتعب رأسه مَن يرفض إستيعابها على نحو ما يحدُث مع العميد ريمون إده، مع الأخذ في الإعتبار أن العميد لو كان – أطال الله عمره – في الستين من العمر وليس فوق الثمانين لكان إستوعب هذه المعادلة، ولكان مارس بعض المرونة، خصوصاً أنه يشكو من أمر الوجود السوري، ويقْبل – مسايرة أو عن إقتناع – بأمور أُخرى كثيرة في الحُكْم اللبناني منذ بدء تطبيق إتفاق الطائف، من دون أن يستوقفه أن الحلول السحرية ليست جاهزة لما بعد الوجود المشكو منه.

وإذا جاز القول فإن البابا يوحنا بولس الثاني عندما قام بزيارة لبنان إنما قام بها وهو كثير الإستيعاب لمعادلة "الدور السوري – إتفاق الطائف"، التي أشرنا إليها، ربما لأنه شريك غير مرئي في تلك المعادلة، وربما لأن هذه المعادلة هي موضع رعاية "النظام العالمي الجديد"، وهو عملياً أحد رموز هذا النظام الذي تقوده الولايات المتحدة والتي لا تريد أن يكون هنالك مساس بالمعادلة. وما حدَث مع الرئيس جاك شيراك خير دليل على ذلك، حيث إنه ما كاد الرئيس الفرنسي يتوغل زيادة عن اللزوم في المسألة حتى فاجأنا بأنه توقْف عند حد، خشية أن يتقدم أكثر فيضطر إلى التراجع أكثر وأكثر.

وعندما نقول ذلك عن الحَبر الأعظم وإستيعابه للمعادلة المشار إليها، فإننا نستند في ذلك إلى أسلوب مخاطبته للبنانيين وإلى بعض المفردات التي وردت في كلماته، والتي أوضحت أن الزيارة كانت سياسية في الدرجة الأُولى، أو فلنقل إنها زيارة رعوية في ظاهرها وسياسية في مضمونها. وخلاصة الهدف السياسي منها هو القول ما معناه إن الإعتراضات ليست كلها في محلها، وأن على مَنْ يشكو أن يعتمد الحكمة أولاً، والصبر أولاً وثانياً وأخيراً، ذلك أن المسألة اللبنانية ليست منسية وأنها على أجندة النظام العالمي الجديد، إنما تتقدم عليها بعض الأولويات، وأن ما يتطلع إليه اللبنانيون المعترضون لا مجال للبحث فيه قبْل أن تتحقق الخطوات الأخيرة من عملية السلام في المنطقة، فضلاً عن أن أي مساس بالمعادلة الراهنة "الدور السوري – إتفاق الطائف" ليس مقبولاً، وأن خير ما يمكن فِعْله هو المشاركة في العملية السياسية وعدم مداواة مشاعر الإحباط بالهجرة، على نحو الأسلوب الذي بالغ به الأقباط في مصر ووصل إلى حد أن الرئيس الروحي للطائفة، البابا شنودة، بات دوره في السنوات الأخيرة خلال زياراته إلى الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وفرنسا وغيرها، هو إقناع الأجيال القبطية الجديدة من الأبناء والأحفاد بضرورة العودة إلى الوطن الأم مصر، وإنهاء الهجرة الإضطرارية التي قام بها الآباء والأجداد في الستينات رفضاً منهم لحُكْم عبد الناصر وإجراءاته الإشتراكية.

وعند سماع وقراءة ما قاله البابا بولس الثاني، خلال زيارة اليومين في عظاته وملاحظاته وكلماته

القصيرة، يستشف المرء أي قلق يساور الحَبر الأعظم من إستمرار عملية الهجرة، وكيف أنها ليست حلاً على الإطلاق.

ومن المؤكد أن حجوزات كثيرة أُلغيت أو أنها ستُلغى بعد هذه الزيارة وكان أصحابها على أهبة الرحيل على نحو ما فعل عشرات ألوف من قبْل حتى ناهز الرقم نصف المليون. وعند السماع والقراءة أيضاً يشعر المرء بتقدير كبير للحَبر الأعظم، وهو يطلب من بعض مخاطبيه أن يتحدثوا باللغة العربية، وهي ملاحظة نصوحة منه للتيار الجارف في بعض المناطق المسيحية من لبنان نحو التحدث باللغة الفرنسية بدل اللغة العربية، ونحو إعتماد البعض اللغة الفرنسية في الإعلانات التي ينشرونها في الصحف التي تصدر بالعربية. ومثل هذه النزعة غير المحببة والتي قد تتناسب مع ممارسات ما قبل الطائف، حيث العصبيات هي سيدة الموقف، لا يجوز، بل ولا يليق، أن تستمر. وعندما لفت البابا نظر الهاتفين والمخاطبين إلى الأمر وطلب منهم أن يتحدثوا بالعربية، فعلى أساس أن ما يفعلونه خطأ، وأن المرء يمكن أن يضيف لغة أو لغات إلى جانب لغته الأم، أما أن يرميها جانباً كارهاً لها فهذا يؤسّس لزمن تصبح فيه الحاجة ضرورية مستقبلاً، في لبنان، إلى حملة تعريب على نحو الحملة المتعثرة في الجزائر، فضلاً عن أن من يكره لغته الأم إلى درجة عدم إستعمالها وإبدالها بلغة غريبة، فإنه كمَن يحاول نزْع جلده ووضْع جلد آخر مكانه، أو تبييض لون هذا الجلد بالعلاجات المبيدة على نحو ما فعله المغني مايكل جاكسون فإحترق جلده وإحترقت هيبته في نظر أبناء قومه وتحوَّل إلى مسخرة في نظر الآخرين.

ومن المؤكد أنه لو روى مسيحي مخلص ومحايد للبابا يوحنا بولس الثاني القليل عن التشويه الذي تتعرض له اللغة العربية في بعض المحطات التلفزيونية في لبنان، وكيف أن الفصحى تتراجع أمام العامية في بعض البرامج ونشرات الأخبار، لكان أكمل النصيحة طالباً التخلي عن هذا الجنون، كذلك، فإنه كان سيغضب وينصح لو روى له مسيحي مخلص ومحايد كيف أن مباراة لجمال الرجال (مستر ليبانون) أُجريت في يوم كان الوطن يحيي بخشوع ذكرى مذبحة قانا. وما يتمناه المرء هو أن يمارس البطريرك الماروني نصرالله صفير هذا الدور ويُسدي هذه النصائح في عظاته الأسبوعية، وخصوصاً لأنه بات في ضوء زيارة البابا يوحنا بولس الثاني، وبما يشبه التتويج، زعيماً روحياً – سياسياً للطائفة المارونية ولأي مسيحي معترض في لبنان – بما في ذلك معظم العونيين والشمعونيين والقواتيين – بعدما كان فقط مرجعاً روحياً يقتحم برفق أسوار دهاليز اللعبة السياسية.

والنصيحة الأهم التي يمكن للبطريرك أن يسديها، والتي قد يكون الحَبر الأعظم أوصاه بها على هامش صيغة الإرشاد الرسولي، هي أن تبدأ مراجعة مسيحية في العمق، بحيث يوقف المعترضون التغريد خارج المعادلة، التي هي، حتى إشعار آخر، موضع الرضى الدولي... معادلة "الدور السوري – إتفاق الطائف"، غير الخاضعة لأي تعديلات والصامدة في إنتظار أن ينشر السلام خيراته على المنطقة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 19 مايو (أيار) 1997

* * *

مفاجآت الغضب

جاءت التعديلات الجديدة على قانون المطبوعات في الأردن، الذي فاجأت به حكومة الدكتور عبد السلام المجالي الرأي العام الأردني، مثل الفعل الذي أقدم عليه الجندي الأردني أحمد موسى الدقامسة الذي أطلق النار على سبع تلميذات إسرائيليات في الباقورة يوم 13 مارس/ آذار الماضي.

وكلاهما ناشئ عن ضيق الصدر من أمر لا يفيد فيه الغضب، ولا ترجمة هذا الغضب إلى قانون يصل فيه الحزم الرسمي إلى درجة تتجاوز التأديب بكثير على نحو ما فعلت حكومة المجالي، وإلى إطلاق الدقامسة الرصاص على تلميذات إسرائيليات كنَّ يقمنَ برحلة مدرسية فقتل منهنَّ سبعاً وأمكن لـ 43 الباقيات النجاة من رصاص بندقيته.

وإذا كان من الجائز الأخذ في الإعتبار أن فِعْل الدقامسة تنقصه الشجاعة في أي حال، وبالتالي لا يندرج هذا الفعل تحت بند العمل الوطني، فإن التعديلات البالغة القساوة التي أدخلتْها حكومة المجالي على قانون المطبوعأت لا يمكن تبريرها، وبالتالي فهي تحتاج إلى وقفة من الملك حسين إزاء ها على نحو وقفتْه إزاء ما فعله أحمد جنوده (أحمد موسى الدقامسة)

الذي إغتال سبع طالبات إسرائيليات فأحرج بذلك مليكه، الذي يتباهى بأن إنضباط جنوده وضباطه مثالي في زمن الحرب كما في زمن السِلم، وإضطره إلى زيارة كان لا يريدها، وإلى إعتذار كان يتمنى لو أنه لم يقدِّمه، وضجيح فيه من عتب الناس الكثير وفيه من إمتعاضهم الكثير الكثير. ونحن نقول إن القانون في شأن التعديلات يحتاج إلى وقفة ملكية على رغم أنه صدر بإرادة ملكية على إثر توصية من الحكومة، الأمر الذي يعني أن حكوصة المجالي وضعت التعديلات التي قرأت في أفكار الملك أنه يريدها، أو أن الإرادة الملكية صدرت لأن الملك وجد فى الخطوة الحكومية أمراً بات مطلوباً لكبح ظاهرة جديدة على المجتمع الأردني، هي ظاهرة الصحافة التي تقتحم الأسوار والخصوصيات من دون أن يردعها رادع، وكذلك الصحافة التي تمارس في ظل أجواء الحرية المتاحة ما يجوز وما لا يجوز أو يجاز.

ومع أن التعديلات تبدو في ظاهرها مجرد إجراء وقائي، ومنها إشتراط رفْع رأس المال الإجباري للصحيفة من 15 ألف دينار إلى 300 ألف دينار، إلاَّ أن مثْل هذا الإصرار معناه، إضافة إلى العقوبة المالية وعقوبة السجن للصحافيين وعقوبة وقْف المطبوعة عن الصدور، أن تتوقف بعض المطبوعات وتنحسر الظاهرة بالتدرج.

ونحن عندما نطالب بوقفة من الملك حسين فليس من أجْل حماية الظاهرة التي نشير إليها، وإنما من أجْل حماية حكومته من الجنوح نحو تعديلات في القوانين تستهدف الحيوية التى يشهدها النموذج الأردني للحياة الديمقراطية، والتعددية هي إحدى السمات اللافتة للنظر في هذا النمودج.

وفى تقديرنا إن الوقفة ممكنة بعد ما وصلت الرسالة إلى المعنيين، ونقصد بهولاء بعض أصحاب المطبوعات الأسبوعية الذين تجاوزوا الأصول والأعراف وإستهانوا بتقاليد ومُثُل وكرامات. ومن شأن ترك القضاء يأخذ مجراه، وإلى أبعد الحدود. أن يجعل أي مطبوعة تحسب ألف حساب للدعاوى التي قد تُرفع عليها من متضررين وتضطرهم بالتالي إلى سلوك الصراط المستقيم أو الإحتجاب فالتوقف، وذلك لأن الدولة لن تناصرها ما دامت لا تراعي الأصول المتعارَف عليها. وفي مثل هذه الحال فإن التعديلات المستجدة على قانون المطبوعات لا تعود مطلوبة لأن الردع الناشئ عن القضاء أقوى فاعلية من العقاب التي تفرضه قوانين السُلطة.

واللافت للنظر أن التعديلات صدرت من الحكومة التي يترأسها الدكتور عبدالسلام المجالي، الذي بينه وبين الإعلام إلفة، والتي يشغل فيها منصب وزير الإعلام الدكتور سمير مطاوع، وهو المعروف عنه أنه صاحب عقل إعلامي مستنير. وإذا كان مثْل هذا التشدد يصدر عن مثْل هكذا حكومة وهكذا وزير فأي تشدد ستكون عليه حكومة ليس بينها وبين الإعلام إلفة وليس وزيرها من المنتسبين إلى المهنة بفكره وقلمه. وفي تقديرنا إن جلسة مصارحة في العمق مع أصحاب المطبوعات المعترَض عليها، والتي بسببها صدرت التعديلات من وراء مجلس النواب ومن دون تمكين أعضائه من المناقشة، كان من شأنها أن تفي بالغرض بحيث لا تظهر التعديلات وكما لو أنها من الإجراءات التي تفرضها عادة حالة الطوارىء.

وما حدَث في الأردن يذكِّرنا بما حدَث في مصر قبْل بضعة أشهر عندما إهتز الصف الصحافي بسبب تعديلات تشبه فى بعض جوانبها التعديلات الأردنية.

وخشية أن تتمزق العلاقة بين النظام ونقابة الصحافيين المصرية فإن الرئيس حسني مبارك أعاد النظر فى هذه التعديلات وبدا كما لو أنه كبير الزملاء فى النقابة، فإطمأن بال أبناء المهنة وشعروا بأن رأس الدولة يحميهم. وعندما تكون الحماية على هذا المستوى فإن أبناء المهنة يتحولون إلى حريصين على عدم تغييب ظن حاميهم بهم.

ومنذ إعادة النظر في تلك التعديلات والعلاقة على أفضل ما تكون بين الحكومة في مصر والصحافيين، ويحمي العلاقة قضاء في منتهى النزاهة يمكن أن يستجير به المظلوم مواطناً أو مسؤولاً ويأخذ له حقه عن الظالم، الذي هو هنا الصحافي، خصوصاً حين يتجاوز، عن حُسن نية أو عن قصد، الأصول واللياقات قي خبر ينشره أو عنوان مثير يتصدر الصفحة الأولى من مطبوعته، وذلك على نحو ما فعلتْه إحدى المطبوعات في الأردن التي نشرت عنواناً رديئا في صفحتها الأولى عن ممارسات لأزواج مع زوجاتهم تستحق عليه عقوبة الإساءة إلى المهنة وإلى الذوق العام، أو على نحو ما تفعل في إستمرار مطبوعات تصدر في مصر أو تطبع وتوزع فيها ومستعدة لنشر دعوات حتى إلى فرْض الجزية على الأقباط أو مقالات تدعو إلى حظْر دخول الأقباط إلى الجيش، ناهيك من عناوين حول أمور تأتي – أي

العناوين – كثيرة الإساءة إلى الذوق العام.

ومع أن ظاهرة الصحافة التشهيرية التي إضطرت الحكومة الأردنية إلى إدخال التعديلات على قانون المطبوعات، هي ظاهرة سيئة، وإنها إحدى إفرازات عملية السلام السيئ حتى الآن، إلاَّ أنها ليست الظاهرة السيئة الوحيدة. فهناك فضائيات تبث الأفلام والصور الفضائحية ويتم إلتقاطها في عواصمنا المشرقية والمغربية والخليجية بيسر شديد. وهنالك فضائيات أُخرى تبث من البرامج ما يشكِّل غسلاً يومياً لأدمغة أجيالنا. ومع ذلك فإن هذه الفضائيات لا تجد مَن يتصدى لها بالحزم المطلوب.

وفي ضوء ذلك نجد أنفسنا نقول إن زمن ما قبْل السلام الذي تزدهر فيه هذه الظواهر السيئة كان زمناً كثير النقاء. وفي ذلك الزمن كانت المطبوعة تتباهى بأنها تعالج الأمور الوطنية والقومية، وكانت محطات التلفزيون تبث من البرامج والأفلام ما يُبقي الذوق في منأى عن أي إساءة.

وإذا كانت هذه هي الحال والسلام لم يكتمل، ولم يستقر، فكيف ستكون إذاً بعد ذلك؟

وتكراراً نتمنى أن تحدُث فى الأردن وبكثير من الرفق، معالجة للتعديلات التي تم إدخالها على قانون المطبوعات خشية أن تتحول هذه التعديلات التي إستهدفت ظاهرة المطبوعات الخارجة على الصراط المستقيم، إلى ظاهرة هي الأُخرى.. وندخل بذلك عصر الظواهر المستهجَنة، التي عندما تبدأ لا تنتهي على خير.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 26 مايو (أيار) 1997

* * *

الديمقراطية على طريقة أهل الصف الواحد(موضع واحد في مقالتيْن)

□ المقالة الأولى: التغيير الآجل في إيران يسبق التغيير العاجل في العراق

هناك بعض أوجه الشبه بين المفردات التي خاطب بها الرئيس الإيراني الجديد، حجة الإسلام محمد خاتمي، الغرب – وتحديداً الولايات المتحدة – والمفردات التي ترِد بإستمرار، ومنذ ثلاث سنوات على لسان مندوب العراق الدائم لدى المقر الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف برزان التكريتي. كلاهما يشعران بثقل وطأة غياب التطبيع عن العلاقات مع الولايات المتحدة، وكلاهما ينتميان إلى ثورة علمانية متشددة (برزان) وثورة أصولية أكثر تشدداً (خاتمي)، إلاَّ أنهما مع تجاوزهما أواخر العقد الثالث باتا يميلان بالتدرج نحو المرونة، وينأيان ما أمكنهما النأي عن التشدد الذي تربيا عليه، وذلك بسبب إطلالة على الغرب: خاتمي من خلال إدارته للمركز الثقافي الإيراني في هامبورغ قبل بضع سنوات – وكان ما زال من شيوخ الصف الثالث في الثورة الإيرانية –، وبرزان التكريتي من خلال إقامته المتواصلة للسنة السابعة في جنيف. ومثل هذه الإقامة لكل منهما تجعلهما، وبتفاوت، ينظران إلى الولايات المتحدة بغير نظرة بعض المسؤولين والكتّاب في البلديْن (العراق وإيران)، حيث يغلب شعور التحدي والرغبة في مناطحة الثور الأميركي، الذي بات بحجم الديناصور وقوته بعد سقوط الإتحاد السوفياتي وتلاشي شأن الآخرين من فرنسا إلى الصين إلى بعض دول العالم الثالث، التي يستعصي عليها التوحد في محور يكون بمثابة القوة الثانية التي تقف في وجه الديناصور الأميركي على نحو ما يتمنى ويُكثر السعي في هذا السبيل الرئيس السوري حافظ الأسد.

وإذا كان حجة الإسلام محمد خاتمي قطف ثمرة رؤيته المتطورة وبات رئيساً للجمهورية الإسلامية، ومن خلال إنتصار لا يقل وهجاً عن الإنتصار الذي حققه قبل بضعة أسابيع في بريطانيا توني بلير ومن قبل خمس سنوات بيل كلينتون في الولايات المتحدة، فإن ذلك لا يعني أن رياح ديمقراطية الإتجاه الواحد والتي تتمثل بإنتخاب الرئاسة في إيران، لم تلفح قليلاً أو كثيراً مفاهيم أهل الحُكْم في العراق، بدليل أن الرئيس صدَّام حسين يفاجئ القيادات، والعراقيين عموماً، بكلام جديد في مجلس الوزراء يوم الإثنين 26 مايو (أيار) 1997، لم يألفوا سماعه من قبْل منه، عدا بعض الإيماءات والإيحاءات التي لا يستقر لها مقام، ولا تعيش طويلاً بعد أن يشار إليها. وخلاصة هذا الكلام أن الرئيس العراقي – الذي إحتفل أواخر الشهر الماضي (28 أبريل (نيسان) 1997) بعيد ميلاده الستين – في صدد إتاحة المجال أمام العناصر الشابة لكي تتسلم بالتدرج مناصب قيادية في الدولة من الأجيال التي تقدَّم بها السن ومضت عليها فترة في ممارسة مهماتها. ويشير إلى أنه وُضعت خطة

واضحة المعالم لهذا الغرض.

واللافت للنظر أن كلام الرئيس صدَّام لم يبقَ طي الكتمان، أو يتم توزيع خلاصة عنه على القيادات الحزبية وبعض المسؤولين المدنيين والعسكريين في واحدة من النشرات المعدَّة لـ "التداول المحدود"، وإنما أذيع المضمون، الأمر الذي يعني أن مزيداً من الخطوات سيحدُث وستتوقف أهمية كل خطوة على نوع المناصب التي سيتم إسنادها إلى الجيل الثاني الذي أعمار عناصره فوق الثلاثين وتحت الخمسين.

ومع أن التغيير العراقي المرتَقب يحدُث ضِمْن أسلوب التعيين والمرسوم الجمهوري، إلاَّ أن أهم ما في الأمر هو أنه وفي ضوء التغيير المدهش الذي شهدتْه إيران لا بد سيحدُث. وهو لو يتم وفْق روحية الأسلوب الإيراني الذي كرَّس ديمقراطية أهل الصف الواحد، فإنه سيترك إنطباعاً بأن تغييراً في العمق سيحدُث وسيساعد ذلك العراق على الخروج من محنة الحصار.

ونحن عند التأمل في الأسلوب الإيراني نجد أنفسنا أمام ظواهر مستجدة، من بينها ظاهرة أن الديمقراطية ممكنة التطبيق داخل أهل الصف الواحد بدليل أن العملية الإنتخابية بين إثنيْن من رموز الثورة الإيرانية جرت وكما لو أنها بين خصميْن أو بين حزبيْن. ولقيت بعض الإستحسان من حكومات أجنبية كثيرة ومن دون أن تقول صحافة العالم عنها كلاماً مسيئاً. وجاءت النتائج قريبة الشبه بنتائج الإنتخابات البريطانية، حيث إن إنتصار حجة الإسلام محمد خاتمي جاء مثل إنتصار توني بلير، وإن هزيمة حجة الإسلام، علي أكبر ناطق نوري، جاءت مثل هزيمة جون ميجور.

ولكم كان المرء يتمنى لو أن الرئيس صدَّام بدل أن يستفتي العراقيين على رئاسته أجرى إنتخابات برلمانية مماثلة في روحيتها لإنتخابات الرئاسة الإيرانية، وتولى البرلمان إنتخاب الرئيس من بين اثنيْن أو ثلاثة مرشحين. ونحن نقول ذلك على أساس أن دول الغرب عموماً تترصد في إستمرار طبيعة الحُكْم في العراق وتُكثر من التركيز على أنه غير ديمقراطي، وأنه ما دام كذلك فلماذا التفاهم معه أو حتى تفهُّم ظروفه، فضلاً عن أن مثْل هكذا خطوة ستُنهي ظاهرة نسبة التسعة والتسعين في المائة وما فوق التي لم تعد مستحَبة حيث ما زال معمولاً بها.

ولقد تبين في ضوء ما حدَث في إيران أن هموم الناس المختزَنة في صدورهم كثيرة جداً، وأن كسْب أصواتهم ليس بذلك الأمر الصعب، وأن مَن يريد كسْب هذه الأصوات عليه فقط أن يقرأ ما في الصدور بعناية ويخاطب عقول الناس بلغة جديدة تقوم على الواقعية. وهو إذا فعل ذلك بحذاقة وبإخلاص على نحو ما فعل خاتمي، فإنه سيكسب من الأصوات ما يفوق التصور وما يجعل عتاة الثورة في إيران يستغربون ذلك. وإذا جاز القول فإن حجة الإسلام خاتمي، إستناداً إلى ظاهرة إندفاع الناس نحو التصويت له، بات بقوة مرشد الجمهورية، أو فلنقل إنه بالشرعية الشعبية التي إكتسبها أحدث خللاً بالغ الأهمية في تركيبة الحُكْم يصعب التكهن بما ستؤول إليه الحال. وعلى الصعيد العملي فإن الحُكْم في إيران بات ثلاثياً على نحو ما هو حاصل في لبنان، أي أن ترويكا هي التي تمسك بزمام الأمور، أركانها مرشد الجمهورية علي خامنئي، ورئيس الجمهورية محمد خاتمي، إضافة إلى الرئيس السابق هاشمي رافسنجاني الذي تم إستحداث منصب جديد له هو رئاسة "مجلس تشخيص مصلحة النظام".

ومثل هذه الترويكا القوية الشأن القادرة على أن تستقطب كل التوجهات من شأنها أن تحقق حالة من الإستقرار النسبي يحتاج إليها العراق بمثل ما كانت إيران تحتاج إليها وتحققت من خلال الإنتخابات الرئاسية.

وإستكمالاً لما سبق قد يجوز طرح إحتمال أن يشكِّل هذا الفوز المتوهج لحجة الإسلام خاتمي ضيقاً بالغ العمق لمرشد الجمهورية الإسلامية خامنئي، خصوصاً أن قوته (قوة خاتمي) داخل البرلمان ليست بمثل قوته الشعبية التي ظهرت في الإنتخابات الرئاسية، وهي ربما (أي القوة البرلمانية) ستبقى على ما هي عليه – موالية للمرشد ولرئيس البرلمان علي أكبر ناطق نوري (العائد رئيساً للبرلمان من ساحة معركة الإنتخابات الرئاسية مثخناً بصدمات لم يتوقعها ولا توقعها آخرون بمن فيهم خاتمي نفسه) – إلى حين تجري إنتخابات نيابية وربما تأتي نتائجها بمفاجأة من نوع الإنتخابات الرئاسية، إلاَّ إذا إرتأى بعض النواب، منذ الآن وفي ضوء الفوز المبين الذي تَحقق لـ خاتمي، أن يكونوا خاتميين لأنهم بذلك يكسبون الرأي العام المفعم حماسة لـ خاتمي.

وفي حال حدث الضيق المشار إليه وإستبد في نفس خامنئي على نحو ما حدَث مع آية الله الخميني الذي أوعز إلى البرلمان فأسقط هذا بدوره الرئيس الأول للجمهورية الإسلامية، أبو الحسن بني صدر،

ورماه الإعصـــار الســياســـي للثورة، وكذلك إشـــتداد صراعات المحيطين بالخميني، خارج الحدود لاجئاً في فرنســـا يتحرك على نحو ما يفعل الرئيس اللبناني (الأسبق) الشيخ أمين الجميل، حيث كلاهما يتطلعان إلى ظَرف دولي تستعاد فيه سُلطة لم يهنأ بها... في حال حدث الضـيق المشـار إليه فإن ما سـيصـيب خاتمي هو ما سبق أن أصاب بني صدر، وإن كان هذا الإحتمال ضـعيفاً، لأن ما هو مقبول من الخميني لا يعني أن من الممكن تقبُّله من خامنئي.

ومثْل هذا المشهد هو في العراق جائز الحدوث إذا قرر الرئيس صدَّام حسين إستبدال شُيَّاب القيادة بشبان تلقى إطلالتهم على الشـــعب في العراق وطروحاتهم حول واقع البلد (وهو واقع مرير) ومســـتقبله (وهو مستقبل مظلم حتى إشعار آخر)، إرتياحاً كبيراً. وقياساً على ما جرى في إيران فإن حدوث مثل هذا الأمر لم يتســـبب في مخاطر وإنما بلور إلى حد كبير ظاهرة التطبيق الديمقراطي داخل أهل الصـــف الواحد. وعلى رغم أن الصف الإيراني هو غير الصف العراقي، إلاَّ أن الصـــفيْن من ســـلالة الثورة. وفي عِلْم الثورات وعالمها هنالك دائماً إقتباسات، وكذلك بعض الرصد لتفادي المحاذير وتجاوز المهاوي والقليل من الأخطاء والمخاطر.

ويبقى أن هذا الفوز الباهر لـ حجة الإســلام محمد خاتمي أكد حقيقة أساسية، وهي أن الزمن الراهن هو زمن المرونة ولا شـيء غير المرونة وأنها مطلوبة من أهل الداخل أبناء البلد بأكثر مما هي مُطالَبٌ بها من الأعداء، أو "قوى الإستكبار" على حد وصف إخواننا الإيرانيين للقوى الكبرى وبالذات الولايات المتحدة. أما الإقبال المنقطع النظير على الإقتراع، وإلى درجة تمديد ساعات الإقتراع أربع ساعات، فإنه يعكس حالة شوق عميق في نفس المواطن الإيراني إلى التعبير في إتجاه التغيير على نحو الشـــوق الجزائري قبْل خمس سنوات والذي إنتهى بفوز "جبهة الإنقاذ"، ومن المؤكد أن هذا الإقبال المثير للدهشة في إيران ما كان ليحدُث لو أن الذي يخوض المعركة في وجه حجة الإســـلام علي أكبر ناطق نوري ليس الحجة الأُخرى محمد خاتمي بالكاريزما التي يتميز بها والبساطة في الظهور على الناس والإبتسامة، وهو ما يتحاشاه كثيرون من أهل الحُكْم الإيراني، وكأنما الإبتســـامة عند الثوريين عموماً هي الأُخرى رجس يجب إجتنابه... والأهم من هذا كله ليس الذي يعِد بالإعتدال والتعامل مع الجيران الخليجيين ومع العالم الخارجي بما يُنهي هذا الضـيق في الصـــدور ويقلص حجم المعاناة التي تفوقها حجماً معاناة العراقيين.

يبقى أيضـــاً أن التغيير الآجل في إيران، التي هي ليست تحت الحصار الدولي، سبق التغيير العاجل في العراق الذي أنهك الحصـــار الدولي همة شـــعبه. أو فلنقل بصـــيغة أُخرى إن رياح التغيير الإيراني لفحت مفاهيم القيادة العراقية التي إستمرت لا تتغير ولا تُغيِّر إلى أن ارتأى الرئيس صدَّام حسين أن يحقق في حياته وفي حيويته عملية إنتقال السُلطة... إنما بالتدرج.

ولهذا الكلام بقية.

* * *

□ المقالة الثانية: ظاهرة أربكان المحيِّرة... وظاهرة خاتمي المبشِّرة

مـا أن فوجئ العـالم عمومـاً، والعـالمـان العربي والإســـلامي بوجه خاص، بوصـــول ظاهرة أصـــولية مبشّرة تتمثل بفوز حجة الإسلام محمد خاتمي بالرئاسة الإيرانية، حتى فوجئ الجميع برحيل الظاهرة الأصولية المحيّرة، التي تتمثل برئيس "حزب الرفاه" التركي نجم الدين أربكان الذي يثير الجيش التركي العواصف حوله منذ مجيئه رئيساً للوزراء، عِلْماً بأنه منذ اللحظة الأولى للمجيء كان يتقاسم المنصب مع رئيسة "حزب الطريق القويم" تانسـو تشـيللر، بمعنى أنه رئيس وزراء مؤقت وأنها وزيرة خارجية مؤقتة ما أن ينتهي الأجل المحدد سلفاً لبقائه حتى تنتقل السيدة من مقعد وزيرة الخارجية إلى كرسي رئاسة الحكومة الذي جلست عليه من قبْل.

كـان أربكـان ظـاهرة محيِّرة بـالفعل. فهو علمـاني المظهر وإلى درجـة أن ربطـات عنقـه هي من النوع المبهرج الذي يميل إلى إرتدائه مَن هم في العشـــرين من العمر، وهو في ربطـات عنقـه تلـك وفي قيـافتـه أعطى إنطباعاً بأن أصـوليته باشـوية من نوع أصـولية الصـــادق المهدي والدكتور حســـن الترابي، وإن كان الأخير يظهر على مريديه أحياناً كشيخ وأحياناً كمدني ما زال يحتفظ ببعض اللمسات السوربونية.

كذلك إن أربكـان أصـــولي من جهـة وأتـاتوركي بتعامله مع الأكراد ومع الجيران. وتحت سمعه وبصره نفَّذت القوات التركية عمليات إجتياح للأراضي العراقية ودمرت مواقع للأكراد من دون أن يوقف هذه العمليات قرار من مجلس الأمن أو عقوبات تفرضـــها الولايات المتحدة على نحو ما فعلت مع العراق عندما إجتاح أراضـي الكويت يوم 2 أغسـطس (آب) 1990. بل قد

يجوز القول إن تعامُل الإدارة الأميركية مع تركيا في هذا الأمر هو مثل تعاملها مع إسرائيل التي تفعل الشيء نفسه مع لبنان ولا توقفها تلك الإدارة عند حدها.

وإلى ذلك فإنه تحت سمْع أربكان وبصَرِه إزدهرت العلاقة التركية – الإسرائيلية ووصلت إلى حد أن وزير الدفاع التركي عندما يزور إسرائيل فإن جولته تشمل مواقع في الجولان السوري المحتل.

كذلك وصلت إلى حد أن الوفود العسكرية المتبادَلة توصلت إلى مخطط إستراتيجي، الهدف الظاهر منه محاربة الإرهاب (التسمية الأميركية – الإسرائيلية للتوجهات الإسلامية) وإخضاع سوريا، والهدف غير الواضح المعالم حتى الآن هو التحضير لحلف جهنمي قوامه إسرائيل وتركيا وفي المستقبل غير البعيد إيران بإعتبار أن عدواناً ثلاثياً (الطرف الثالث هنا هو الولايات المتحدة) على إيران يمكن أن يسقط الحُكْم الثوري الإسلامي هناك وتعم الفوضى ويقوم بدلاً من ذلك حُكْم يضم فلول الجنرالات الإيرانيين والزعامات السياسية المعارضة للثورة الإيرانية أو المعترضة عليها.

وبعد ذلك تنشأ حالة حصار للعالم العربي وبالتالي فرْض الأمر الواقع على كل من سوريا والعراق ودول الخليج التي باتت تنظر بريبة إلى المخططات التي يجري إعدادها للمنطقة والإيقاع بها.

وقد يجوز القول إن الفوز الباهر الذي حققه حجة الإسلام خاتمي أنقذ الثورة الإيرانية بإسقاطه كل هذه المخططات المرئي منها وغير الظاهر للعيان. فالرجل يطرح وجهات نظر معتدلة، وهو في كل ما يقوله يؤكد أنه سيعمل على إستحداث تغيير يناسب المصلحة الإيرانية.

كما أنه بالفوز الذي حققه وضع الغرب عموماً والإدارة الأميركية بوجه خاص أمام خيارات محرجة. وهو في الأسبوع الأول الذي أعقب إنتخابه رئيساً أمطر تلك الإدارة بالمواقف المرنة التي وصلت إلى حد قوله "إن الحوار هو منطق المستقبل"، و"إن الثورة في إيران قامت على الكلمة وليس على السيف، وإن من كان في إستطاعته أن يهزم حكومة مثل حكومة الشاه بالكلمة فإن بإمكانه بالتأكيد أن يبني ويعمر البلاد بمنطق الكلمة أيضاً...". كذلك وصلت إلى المواقف التي هي مثل الطلقات السريعة إلى حد مهاجمة التعصب والدعوة إلى الحوار مع المسيحيين واليهود (بالطبع يقصد يهود العالم من الولايات المتحدة إلى إسرائيل) وأيضاً إلى حد القول "إن فكرة تصدير الثورة لم يكن يقصد منها يوماً إملاء القرارات على الآخرين أو التدخل في شؤونهم بقدْر ما كانت تعني تشجيع الشعوب والبلدان والحركات السياسية في العالم إسلامية أو غير إسلامية للعودة إلى الدين وإحياء الفكر الديني وهو ما حصل في عدة بلدان إسلامية ومسيحية بفضل نجاح ثورة الخميني...". وعندما يطرح خاتمي هذه الرؤى والأفكار ولمَّا تنقضي عشرة أيام على فوزه بالرئاسة، فمن الطبيعي أن الآخرين الذين نقصدهم، وهم هنا الولايات المتحدة وبعض دول الغرب ودول الخليج عموماً ومصر، يرصدون بالكثير من الإهتمام ما يقوله خاتمي.

كما أن المسؤولين في الإدارات المختصة في الولايات المتحدة ومعظم دول الغرب ودول الخليج يقرأون بعناية ما يقوله خاتمي ويضعون خطوطاً تحت بعض العبارات على نحو ما كانوا يفعلون مع الرئيس أنور السادات بعدما تسلَّم الحُكْم وارثاً رئاسة جمال عبد الناصر. واللافت للنظر أن خاتمي يسجل خطوات ومواقف مماثلة في بعض جوانبها لتلك التي سجلها الرئيس السادات في السنة الأولى من عهده، وبالذات عندما إنحنى في مجلس الأمة أمام صورة لعبد الناصر وقال لأعضاء المجلس إنه جاءهم على طريقه (أي طريق عبد الناصر).

وعندما إصطفى لفترة من الزمن صهر عبد الناصر (الدكتور أشرف مروان) وأبقاه إلى جانبه وأسند إليه أرفع المهمات والأدوار، وبالمقارنة مع ما فعله السادات نلاحظ أن خاتمي توجَّه بعدما تم إعلان فوزه إلى ضريح آية الله الخميني ووضع ورداً وذرف دمعتيْن. كما أنه أظهر على مرتين متتاليتين إلى جانبه حفيد الخميني (حسن نجل الراحل أحمد الخميني وليس حسين نجل مصطفى، الراحل هو الآخر) وبذلك بدا حسن أحمد الخميني وكأنما هو مرشح لدور أو موقع في جمهورية خاتمي يرد من خلاله على المتشددين المشككين في إلتزامه بمبادئ الإمام الراحل على نحو ما قاساه السادات من متشددين ومشككين كثيرين في إلتزامه بمبادئ سلفه عبد الناصر وطريقه الذي قال لأعضاء البرلمان إنه جاءهم عليه. وما حدَث بعد ذلك لمصر وعبد الناصر في جمهورية السادات ليس خافياً على معاصري تلك الفترة. فقد فتح السادات الأبواب أمام النقد والناقدين فامتلأت الصحف

بفيض مما يمكن أن يقال ومما يجب ألاَّ يقال من باب اللياقة في عبد الناصر وعهده ومن قبل أن يجف تراب قبر الرجل. ثم شيئاً فشيئاً بات الرئيس السادات أخلص صديق للولايات المتحدة ودول الغرب عموماً وأكبر مساهم في مجموعة المساهمين في حفْر القبر الذي ووري فيه ما كان معروفاً بإسم الإتحاد السوفياتي. ثم وصل في النهاية فجأة إلى القدس طاوياً بزيارته لها صفحة الإرتباط الوثيق لمصر بالصراع العربي – الإسرائيلي.

وفي البداية كان الرئيس السادات يرسل بعض الإشارات التي يحتار سامعها في شأنها ثم بدأ يسجل مواقف ونظريات في أمر السلام ومستقبل المنطقة والتعايش بين العرب والإسرائيليين... وهكذا. وهو فعل كل ذلك بعدما بنى لنفسه هالة دينية شجعت وسائل الإعلام من صحف وإذاعة وتلفزيون على ترسيخها لكثرة إستعمالها لقب "الرئيس المؤمن". أما حجة الإسلام محمد خاتمي فإن اللقب الذي سيرسو عليه ليس واضحاً إلى الآن، وإن كان هذا اللقب سيكون مزيجاً من بضع صفات، مثل "رئيس الحوار" و"رئيس الوفاق الإسلامي" و"رئيس المساواة" و"الرئيس العادل" و"رئيس تصدير الديمقراطية المسلمة" وغيرها، مع الأخذ في الإعتبار قدرة أهل الفقه في إيران على إستنباط أوصاف تجمع بين المفردات الصوفية والمفردات العلمانية.

وبالعودة إلى الظاهرة المحيّرة (نجم الدين أربكان) تستوقفنا قدرة الرجل على تحمل المضايقات وإمتصاص الإهانات، والتي كان أبرزها أنه وهو الرئيس الأول (شأناً وعملياً) في تركيا يشارك في إجتماع لمجلس الأمن الوطني من دون أن يستقبله أحد الجنرالات رسمياً عند وصوله، ويجلس في الإجتماع وكأنما هو في قاعة محكمة عسكرية، وهو كان كذلك. وما سبق هذا المشهد كان يصب في الإتجاه نفسه حيث إن كل يوم يمر كان يحمل في طياته دعوة إلى أربكان لكي ينسحب بهدوء، لكن الرجل تحمَّل وصَبَر وخرج بموافقة على إنتخابات مبكرة يأمل منها أن تأتي على نحو ما أتت به إنتخابات الرئاسة الإيرانية من مجد لـ حجة الإسلام محمد خاتمي، فيعود رئيساً بقوة الشرعية الشعبية يطل على العالم يومياً بربطات عنق مبهرجة ويتراجع الجنرالات إلى الثكنات... هذا إذا إفترضْنا أن الجنرالات لن يفعلوا ذلك حتى إذا أصاب تركيا ما يصيب الجزائر وأكثر.

ومرة أُخرى نتمنى لو أن الجار العراقي يتأمل قليلاً أو كثيراً بما أحدثته حتى الآن المفاجأة الإيرانية، التي تؤكد إمكانية أن تأخذ الديمقراطية فرصتها، حتى بين أهل الصف الواحد، دون الحاجة إلى إرسال مراقبين دوليين للتأكد من سلامة العملية الإنتخابية على نحو ما حدث في مبارزة العصر بين أهل العمائم (حجة الإسلام محمد خاتمي ضد حجة الإسلام علي أكبر ناطق نوري) التي كانت ودية والتي ستذهب مثلاً عند الحديث عن الديمقراطية المسلمة وكيف أنها برقي الديمقراطيات الأخرى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 9 يونيو (حزيران) 1997

* * *

زمن فتح البوابات أمام العراق المحاصر

تبدو خطوة التطبيع العراقية – السورية المتواضعة شكلاً والمتمثلة بزيارة وفد عراقي تجاري إلى سوريا يوم الجمعة 13 يونيو (حزيران) 1997 رداً على الزيارة التي سبق أن قام بها وفد سوري مماثل إلى العراق قبْل شهر... تبدو هذه الخطوة بمثابة حدث بالغ الأهمية على صعيد رتق الثوب العربي الذي طال الإنتظار لرتقه تمهيداً لتجميل الوجه العربي الذي تركت الخلافات عليه ندوباً من مصلحة الأجيال العربية المقبلة معالجتها على أمل إزالتها وبحيث يستعيد الوجه العربي نضارته.

وعلى رغم تصريح من هنا وتوضيح من هناك حول خطوة التطبيع وبأنها تجارية وليست ذات طبيعة سياسية، فإن النظرة إليها على أنها مجرد وفاق بين تجار سوق الحميدية وتجار الشورجة ليست نظرة موضوعية لأن تجار البلديْن ليسوا دولة داخل الدولة وليسوا من الشطارة إلى درجة أنهم يسبحون تحت سطح بحيرة الخلافات بين النظاميْن وأنهم يملكون الكثير من الحذاقة بحيث يستطيعون التفاهم من وراء النظاميْن. وخطوة التطبيع ليست سوى إشارة من الذين في القمة تنفذها الفعاليات التجارية تحت سمع أهل القمة وبصرهم. وهي في بعض جوانبها تشبه الخطوة الأولى على طريق التطبيع الأميركي – الصيني والتي

تمثلت بتبادل مباريات كرة الطاولة وكان واضحاً كل الوضوح وقتها أن الزعامتين الأميركية والصينية وجدتا أن التطبيع المفاجئ وتبادل الزيارات على مستوى كبار المسؤولين بعد قطيعة طويلة من شأنهما إحداث صدمة تنتج عنها متاعب لا تخدم الرغبة في التطبيع. ومن أجْل ذلك جاءت صيغة كرة الطاولة التي يتم على إيقاع ضرباتها البحث وبكل التأني في أمر مستقبل العلاقات وليس فقط في أمر البدء بتطبيعها.

وعلى رغم أن المواطن العربي يستغرب هذه البرودة في الإتصالات وهذه اللهجة في التصريحات وكما أن البلديْن ليسا شقيقيْن وليسا جاريْن وليسا محكوميْن بعقيدة حزبية واحدة وإنما هما دولة من آخر نقطة في مشرق الكرة الأرضية ودولة من آخر نقطة في مغربها... على رغم ذلك فإن هذا التأني في إتخاذ الخطوات على طريق التطبيع أمر جيد ومطلوب. وما دامت الرغبة في التطبيع ليست مظهراً إستعراضياً وإنما هي رؤية إستراتيجية بعيدة المدى، فإن في الإستعجال مفسدة لهذه الرغبة. كذلك، فإن السعي لتنفيذ خطوات التطبيع ومن دون إطلاق التصريحات التي تتسم بالدفء يبقى أفضل.

وثمة نقطة بالغة الأهمية مأخوذة في الإعتبار وهي أن التطبيع السوري – العراقي لا يتم من منطلق إستفزاز الولايات المتحدة وهذا يعود الفضل فيه إلى الرئيس حافظ الأسد الذي هو أكثر دراية من الرئيس صدَّام حسين في أمر الولايات المتحدة والذي لا تغيب عن باله عبارة سبق أن سمعها من شيفارنادزه وزير الخارجية السوفياتية أيام غورباتشوف أثناء زيارة قام بها الوزير السوفياتي (الذي بات رئيساً لجمهورية جورجيا بعد سقوط غورباتشوف ثم تساقُط الإتحاد السوفياتي) إلى دمشق. وخلاصة العبارة أن لا شيء سيقف في وجه الدور الأميركي وأن من الأفضل التعايش بصيغة ما مع هذا الدور وتحمُّل مساوئه وعدم إثارته وإستفزازه إلى أن تتبدل الظروف وتنشأ بعض المعطيات أو يتكون دور أوروبي يمكن الإتكال عليه. وقد يجوز من باب الإفتراض القول إن مشاركة سوريا في التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة لتحرير الكويت جاءت في ضوء ما بناه الرئيس الأسد كموقف للتعامل مع الولايات المتحدة آخذاً في الإعتبار التحليل الشيفارنادزي للمسألة.

وإلى ذلك فإن تنفيذ عملية التطبيع بدءاً بالخطوات الصغيرة المعجَّلة وصولاً إلى الخطوة الكبرى المؤجَّلة من دون إستفزاز الولايات المتحدة وإثارة أحقاد اللوبي الإسرائيلي على كل ما هو عربي، من شأنه أن يحمي العملية من الأذى الأميركي. ونحن عندما نلاحظ إكتفاء الإدارة الأميركية بتأمل الخطوات الصغيرة السورية – العراقية على طريق التطبيع ومن دون تسجيل مواقف ضد ما يجري فهذا معناه أن هذه الإدارة مرتاحة إلى ما تفعله سوريا إزاء العراق. وهي كانت ستتخذ موقفاً حاداً كل الحدة لو أن وزير الخارجية السورية فاروق الشرع على سبيل المثال قال إن تبادل الوفود التجارية هو خطوة تسبق تبادل الوفود السياسية وتطبيع العلاقات الدبلوماسية المقطوعة منذ سبع عشرة سنة. لكن رئيس الدبلوماسية السورية قال إن العراق "لا يمكن أن يبقى إلى الأبد معزولاً عن العالم العربي وأنه من الصعب أن يتخيل إنسان أن البلد الشقيق سيبقى إلى الأبد على هذا النحو ولا بد أن يأتي اليوم الذي تنفَّذ فيه قرارات مجلس الأمن وتُرفع فيه المعاناة عن الشعب العراقي". ومثل هذا الكلام قد لا يرضي النفس العربية التواقة إلى أن يسود الوفاق بسرعة بين قادة الأمة وتتعافى العلاقات من النكسات الصحية المتلاحقة، لكنه من المؤكد يرضي الإدارة الأميركية التي ترصد الخطوات في العالم العربي وبالذات تلك التي تستهدف تصحيح مسار العلاقات. والرضى هنا هو بمعنى عدم الإستفزاز. وما دام هذا الكلام يرضيها فإنها كما نلاحظ لا تضع العراقيل أمام تنفيذ الخطوات التجارية عِلْماً بأنها لو أرادت لتمكنت في شكل أو آخر أو في تصريح أو ملاحظة من إرباك تلك الخطوات على رغم تواضعها.

وأهمية هذه الخطوات على طريق التطبيع العراقي – السوري أنها ستشجع الحُكْم العراقي على أن يساعد من جانبه على إزالة الحجج التي بسببها يتواصل الحصار. ومثل هذا الأمر بات موضع ترحيب أطراف دولية وعربية كثيرة ربما نتيجة الإقتناع بأن الحصار حقق ما هو مطلوب منه أو أنه لا جدوى من هذا الحصار ولذا يجب رفْعه، وربما تنفيذاً لتفاهم ضمني في شأن المرحلة المقبلة خلاصته أن يبدأ الإنفتاح على العراق تمهيداً لإشراكه في العملية السلمية التي تشكو من كثرة الثغرات ومن بينها الثغرة الكبرى التي هي الثغرة الإيرانية والثغرة الصغرى التي هي الثغرة العراقية. وإذا كانت الثغرة الإيرانية حلت نفسها بنفسها إلى حد ما في ضوء الإنتخابات الرئاسية التي أسفرت عن فوز حجة الإسلام محمد خاتمي، وهو صاحب

المشـــروع الليبرالي الملامح والقاضـــي بتحقيق الوفاق والإنفراج في الداخل ومع الخارج، فإن الثغرة العراقية قابلة للحل في ضـــوء الإنفتاح العربي المتدرج على العراق ما دام الحُكْم هناك ليس مستعداً ما فيه الكفاية لكي يعتمد النموذج الإيراني في التغيير أي التطبيق الديمقراطي ضِمن أهل الصف الواحد.

ونحن عندما نقول ذلك لا نلغي تماماً إحتمالَيْن آخريْن: الأول هو أن الغرض من خطوة التطبيع التجاري التي تمت أن الرئيس الأسد وعلى أساس أنه كان المبادر يريد من ذلك أن يقول للرئيس صدَّام الذي لم تهنأ العلاقات معه وتستقر طوال سبع عشرة سنة ما معناه إما أن تهنأ هذه العلاقات وتســـتقر وفي إستطاعتك أن تحقق ذلك وإما أنه لن يكون بيننا سوى علاقات تجَّار. ولكن المرء يأمل في ألاَّ يكون هذا الإحتمال وارداً أو أنه إذا كان كذلك ألاَّ يتحول إلى أمر واقع وإنما يكون مجرد حالة عابرة. أما الإحتمال الثاني فهو أن الرئيس الأسد بات يرى أن تركيا تتوغل في شمال العراق إلاَّ أن عيونها مفتوحة على سوريا، وأنه لن ينتظر يوماً تبثّ فيه وكالات الأنباء أن مناورة إســـرائيلية – تركية أُجريت في الجولان (وهذا ممكن الحدوث بعدما زار وزير الدفاع التركي الجولان) لكي يبدأ صفحة تعاون جديدة مع العراق وبصرف النظر عن حذره المتبادل مع الرئيس صـــدَّام، وأن الإنفتاح التجاري هو بمثابة رســـالة على أمل أن يســـتوعبها الرئيس صدَّام فيرد عليها بمثلها أو بأحسن منها.

واللافت للنظر هو أنه في الوقت الذي يحدُث تقدُّم نوعي على طريق التطبيع التجاري بين سوريا والعراق نلاحظ أن أمير قطر الشـــيخ حمد بن خليفة آل ثاني يتباسط في أمر العراق وإيران خلال لقائه بالرئيس بيل كلينتون في واشـــنطن على هامش الزيارة الرســـمية الأولى للشـــيخ حمد كأمير إلى الولايات المتحدة. وإســـتناداً إلى الصـــور التي بثتها وكالات الأنباء عن اللقاء يوم الأربعاء 11 يونيو (حزيران) 1997 يلمس المرء عدم إنزعاج الرئيس الأميركي من إثارة الشـــيخ حمد لموضوع العراق وإيران وإصراره على أن الشعب العراقي قاســـى الكثير ومن الواجب رؤية حلول لهذه المعاناة، أي ما معناه رفْع الحصـــار عنه. فكلاهما يضحك من دون إفتعال وكلاهما مرتاح غاية الإرتياح. وقد يكون سبب الإرتياح الأميركي هو أن الشيخ حمد لم يشر من بعيد أو من قريب إلى إحتمال إلغاء القمة الإقتصـــادية المقرر عقدها في الدوحة في نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل والتي تكاثر السعي الدبلوماسي والسياســـي الســـوري من أجْل إلغائها كورقة ضـــغط تمارســـها الدول العربية ضـــد التعنت الإســـرائيلي. ولا يبدو أن هذه القمة ستُلغى أو تتأجل وإنما ستنعقد بمن حضـر وعلى أي درجة جاء مستوى التمثيل. وهي لن تُلغى ولن تتأجل لأن أربع دول عربية على الأقل لا تستطيع إلاَّ أن تشارك فيها نتيجة الضغط الأميركي الذي لا قدرة لتلك الدول على تحمُّله، إضـــافة إلى أن بعض القادة أو المســـتشـــارين في تلك الدول يرون أن جدوى المشاركة تفوق جدوى المقاطعة، خصوصاً أن إسرائيل تستغل فرصة المقاطعين وتبيع وتشتري على هواها وعلى الهوى الأميركي. ونصـــل من هنا إلى أن في الأفق بوادر إنحســـار وطأة الحصـــار الدولي على العراق وعودته من بوابتيْن: البوابة الســـورية التي يتم فتْحها أمامه بكل التأني وأهميتها أنها تمهد الطريق أمامه نحو دول إعلان دمشـــق. والبوابة القَطَرية... وكـأنمـا هـذا هو زمن فتْح البوابـات أمـام العراق المحاصَر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 16 يونيو (حزيران) 1997

* * *

هل كثير على قَطَر مسايرة بني قومها؟

تضـــاءلت الأماني العربية إلى حد أن إرجاء القمة الإقتصـــادية المقرر إنعقادها في الدوحة في نوفمبر (تشـــرين الثاني) 1997 ســـيكون إنجازاً وطنياً مهماً يتحقق. أما إذا توكل إخواننا القَطَريون على الله وقرروا بدل الإرجاء إلغاء المؤتمر من الأســـاس، أو عقْده من دون توجيه الدعوة إلى إسرائيل – إحتجاجاً – للمشاركة فيه، فهذا معناه أن ملامح وقفة عربية موحَّدة تتكون وأنها تبشر بالخير.

ولا نظن أنه كثير على دولة قَطَر، وعلى أميرها الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، إذا هو بعد التأمل في الوضع العربي الراهن إتخذ قراراً بالإرجاء، أو بالإلغاء، أو بالإنعقاد إنما من دون توجيه الدعوة إلى إســـرائيل للمشـــاركة. ذلك أن مثل هذه الخطوة لن تحرمه من مســـاعدات إقتصـــادية يحصـــل عليها من الولايات المتحدة على نحو ما تحصـــل عليه مصـــر والأردن

اللتان إستضافتا القمة الإقتصادية في العامين الماضيين ولم تكونا موفقتين في هذه الإستضافة، ولكن سيف المساعدات الإقتصادية الأميركية الذي يمسك به الكونغرس كان مسلطاً إلى درجة أن الإستضافة كانت شراً لا بد منه.

كما أن هذه الخطوة لن تخرّب له مصالح دولته لدى بعض الدول الأجنبية، لأن هذه المصالح تتقدم على أي مشاكسات يمكن أن تلجأ إليها إسرائيل.

وإلى ذلك فإن هذه الخطوة لن تحمل إسرائيل على إجتياح أراضٍ في دولة قَطَر على نحو اجتياحها لأراضٍ في جنوب لبنان. ونقول ذلك على رغم السمعة العدوانية لإسرائيل ويدها الطويلة المحروس معصمها بالعناية الأميركية.

والحديث حول المساعدات، التي هي السيف الأميركي المسلط على بعض الدول المحتاجة والتي تضطر إليها راضية بالضغوط المُذِلَّة أحياناً، يستوجب الإشارة إلى أمر في منتهى الإستغراب إقترفتْه الإدارة الأميركية يوم الثلاثاء 17 يونيو (حزيران) 1997 عندما أعلنت أنها قررت تقديم مائة مليون دولار مساعدة إلى الأردن مكافأة له على موقفه من عملية السلام، وأن المبلغ جرى إقتطاعه مناصفة من المساعدة الأميركية لكل من مصر وإسرائيل.

وهذا الأسلوب سيئ على صعيد المشاعر المصرية – الأردنية لأن المبلغ إقتُطع من أصل مساعدة مقررة أصلاً لمصر، وأكثر سوءاً على صعيد النفسية الأردنية، لأن إسرائيل تبدو هنا وكأنها هي التي منحت مبلغ الخمسين مليون دولار للأردن. والأهم من ذلك إن هذه "اللفتة الكريمة" الأميركية تأتي في وقت يتزايد الأخذ والرد العربي في شأن قمة الدوحة الإقتصادية، ومِن هنا فإن بعض مرامي هذه "المكرمة" هو إبلاغ مصر أنها إذا كانت سترجح التفكير القومي، على السلام بالصيغة التي تريدها الولايات المتحدة، وستقاطع قمة الدوحة، فإنه سيحدُث المزيد من الإقتطاع للمساعدات الممنوحة لها، وإبلاغ الأردن بأن المزيد من الثبات على موقفه من العملية السلمية، والكثير من الإصرار على عدم الإصغاء إلى التيار العربي الأقوى الداعي إلى إعادة النظر في أسلوب التعامل مع إسرائيل، يلقيان من جانب الإدارة الأميركية الإرتياح وأن مبلغ المائة مليون دولار المقتطَع مناصفة من كل من مصر وإسرائيل هو بداية المساعدات الإستثنائية وليس نهايتها.

ونلاحظ في هذا الشأن قول وزيرة الخارجية الأميركية، مادلين أولبرايت، وهي تستقبل وليّ عهد الأردن الأمير حسن يوم الإعلان عن إقتطاع المساعدات وقيام صندوق لمساعدة الأردن على النمو الإقتصادي وبدعم من مصر وإسرائيل (الثلاثاء 17 يونيو 1997) أن الأردن "تحوَّل إلى نموذج في الشرق الأوسط بعدما إلتزم السلام كلياً وأن الولايات المتحدة تقف إلى جانب أولئك الذين يغامرون من أجْل السلام..."، وقول الأمير حسن إن شقيقه الملك حسين ممتن للجهود الأميركية وإنه يشكر كلاً من مصر وإسرائيل لقبولهما إقتطاع المساعدات من حصتهما إلى الأردن.

ومثلما أنه يمكن لدولة قَطَر أن تقول ما مضمونه: ولماذا يمكن أن ينعقد المؤتمر الإقتصادي في الدار البيضاء وفي القاهرة وفي عمان ولا يجب عقْده في الدوحة، فإنه يمكن أن يقال لها إن المسألة ليست في أنه هنا يُحلَّل عقْد المؤتمر وهنا يُحرَّم الإنعقاد، وإنما يتعلق الأمر بالظرف الراهن.

ولا يختلف إثنان من المحيط إلى الخليج على أن الظرف الراهن هو أسوأ الظروف في تاريخ الشُق السياسي من الصراع العربي – الإسرائيلي.

كذلك يمكن تذكير دولة قَطَر بأن للضرورة العربية أحكامها. وعلى سبيل المثال فإنه عندما تطلَّب أمر عقْد القمة العربية الإستثنائية الأخيرة في القاهرة عدم توجيه الدعوة إلى العراق للمشاركة في القمة وإلاَّ فلا مجال لإنعقادها، فإن الرئيس حسني مبارك، لأكثر من إعتبار، وافق ألاَّ يكون الرئيس صدَّام حسين من بين المدعوين، عِلْماً بأن هذا الإعتبار يشكِّل خروجاً على ميثاق الجامعة العربية التي انعقدت القمة تحت رايتها، وفي رحاب مقر الأمانة العامة في القاهرة.. وهو خروج على الميثاق لأن العراق عضو في الجامعة وليس هنالك ما يجيز عدم توجيه الدعوة إلى رئيسه للمشاركة في مؤتمر يشارك فيه الملوك والرؤساء.

وقد إنعقدت القمة العربية الإستثنائية في القاهرة ومن دون إشراك العراق. والفرق بين تلك القمة التي عولج أمر الإشكال العراقي المتعلق بها، وبين قمة الدوحة الإقتصادية التي تواجه الإشكال الإسرائيلي، أن الدول العربية إكتشفت بعدما تم إنعقاد الأولى أن تغييب العراق عنها لم يكن لمصلحة العمل العربي المشترك، وأنه كان من الأجدى أن يشارك العراق ويقترب بعض الشيء من الرؤية العربية الشاملة

للعملية السلمية على أن يبقى خارج السرب، في حين أن الدول العربية ستكتشف، في حال إتكل الشيخ خليفة على الله وقرر إرجاء القمة الإقتصادية أو إلغاءها أو عدم توجيه الدعوة إلى إسرائيل للمشاركة فيها، أن أمير دولة قَطَر وهب الموقف العربي الراهن خدمة كبرى من حيث إنه أزال عن صدور العرب هماً لا مثيل لثقله.

وهو بهذه الخطوة سيكون قام بما يُفترض أن يمليه عليه ضميره ووجدانه ويكون حقق أمراً هو من الأمور القليلة التي يلتقي فيها على جامع مشترك الحكام والشعوب من المحيط إلى الخليج. وهذا معناه أن الخطوة المأمولة من دولة قَطَر ليست خدمة لسوريا والفلسطينيين، ولا هي نتيجة الضغط السوري السياسي والدبلوماسي في هذا الشأن، وإنما هي وقفة الحد الأدنى المطلوبة من دولة قَطَر التي يدرك أميرها أن إسرائيل هي التي تربح إذا حدث الإنعقاد، وأن العرب هم الذين يخسرون، وأول الخاسرين هي قَطَر لأن اللوم يقع في الدرجة الأولى على مَن استضاف. ولا يقلل من وضوح هذه الحقيقة أن قطر تعتمد في الوقت نفسه معادلة الدفاع عن العراق وإيران لدى دول العالم، وكلتاهما ضد العملية السلمية مع أنها هي مع العملية وإلى حد الإصرار على إستضافة القمة الإقتصادية. ومثل هذه المعادلة قد تبدو متوازنة لو أن الظروف كانت على غير ما هي عليه.

ويبقى التساؤل:

أي فائدة تُجنى من مؤتمر ينعقد في ظل مخطط تآمري دولي على القضية العربية تنفذه الولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا؟

وأي مجد تحققه قَطَر من إستضافة قمة لا يريد مكاسبها أي مواطن عربي، هذا إذا كانت الشطارة اليهودية في دنيا المال والإقتصاده والتجارة ستُبقي مكاسب لأحد؟

وأي أصول توجب عقْد قمة تدعى إليها إسرائيل على وقع أنين أهالي المدن الفلسطينية يشق عنان السماء العربية، وقهقهات المستوطنين الإسرائيليين الذين يستبيحون الأرض تحت سمْع الكونغرس الأميركي وبصره، وقراراته العدوانية وأحدثها ما يتعلق بالقدس التي إعتبرها "عاصمة أبدية موحَّدة" لإسرائيل، وجاء وزير الدفاع وليم كوهين إلى المنطقة لتجبير ما قرره الكونغرس فإذا به يكسر ما لم ينكسر حتى الآن.

ولعل كوهين ينقل بصدق إلى رئيسه بيل كلينتون بعض ما سمعه وما رآه عند جولته في دول الخليج، فيقرر الرئيس الأميركي عدم الإعتراض على إرجاء القمة، أو دفْع صديقه وحليفه نتنياهو إلى إتخاذ خطوات تجعل إنعقاد القمة الإقتصادية في الدوحة مقبولاً، وليس شركاً من الشراك الأميركية – الإسرائيلية... التي يتم إعدادها خصيصاً للعرب وقضاياهم. وبيننا وبين بدء توجيه الدعوات إلى القمة مطلع سبتمبر (أيلول) 1997 الوقت الكافي لمن يريد أن يتأمل ولمن يريد أن... يرجئ أو يلغي أو لا يشمل إسرائيل بالدعوات على أساس أنه من غير الجائز استضافة ذئب لا خير فيه ولا خير منه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 23 يونيو (حزيران) 1997

* * *

دور الخواطر الصريحة في زيارة الأمير عبدالله إلى سوريا ولبنان

إذا جاز للمرء أن يقارن فإن الزيارة التي قام بها إلى لبنان يوم الخميس (27 / 6 / 1997) وليّ العهد السعودي النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبدالله بن عبد العزيز، تبقى أهم بكثير للبنان من تلك الجلسة التي عقدتْها قبل يوم من بدء الزيارة لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب الأميركي وخصصتْها لمناقشة الوضع في لبنان والسياسة الأميركية حياله. ففي تلك الجلسة صدر كلام تنظيري عن الحالة اللبنانية خلاصة سطوره وما بين السطور أن الولايات المتحدة ستنظر في أمر لبنان وتساعده على تَجاوز محنته إذا هو إستأنف التفاوض مع إسرائيل، وعدا ذلك لا يبدو أنها مستعدة لأن تعيد النظر في موقفها الراهن. أما زيارة الأمير عبدالله فإنها تطبيق عملي لسياسة المملكة العربية السعودية التي تريد في الدرجة الأُولى للبنان أن يقف على قدميه ويتجاوز محنته وبعد ذلك يتفاوض مع إسرائيل أو يؤجل التفاوض فتلك مسألة أُخرى. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن التفاوض الذي تريده الإدارة الأميركية الآن سيكون بين لبنان المثخن بجراحه المطروح أرضاً وبين إسرائيل الواقفة على قدميْن مدعمتيْن بموقف أميركي صلب وإصبع جنديها على زناد سلاحه.

والقول بأن زيارة الأمير عبدالله هو تطبيق عملي

لسياسة المملكة يستند إلى أن لبنان هو قضية سعودية بمعنى أنه بات أكثر من صديق بعد الحل الذي تم التوصل إليه في الطائف وأذاع نص وثيقة الوفاق الوطني الصادرة عنه وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل يوم الإثنين 18 سبتمبر/أيلول 1989. وعندما نقول إنه بات قضية سعودية فعلى أساس أنه ربما ما كان للإتفاق أن يتم على النحو الذي تم فيه لو أن الدولة السعودية متمثلة بأهل القرار وتمنيات الشعب لم تتعامل مع إجتماعات النواب اللبنانيين تعامُل الأخ المستقر والمقتدر مع الأخ الذي يعيش في دوامة حرب مفروضة عليه. أي بمعنى آخر إن المملكة تصرفت وكما لو أن لبنان يقع على حدودها وأنها من أجْل ذلك حريصة على أن تصون إستقرارها من متاعب قد تأتي من جرَّاء الفوضى السائدة في البلد الجار. وصيانة الإستقرار تكون في المساعدة على إيجاد الحل . وهذا ما حدَث.

والذي يتابع التطورات الأميركية والأوروبية وأحدثها التنظير الصادر عن إجتماع لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب الأميركي وبالذات النقاط المتعلقة بالسيادة والإستقلال وضرورة تحقيق المصالحة الوطنية، يفترض أن الحل الذي تم التوصل إليه في الطائف عام 1989 لم تكن النقاط المشار إليها هي منطلقاته التي حرص الملك فهد بن عبد العزيز على أن يحددها وبكل الوضوح قبْل أن يبدأ النواب اللبنانيون مداولاتهم ومناقشاتهم وطرْح أفكار صيغة الوفاق التي على أساسها يقوم لبنان من جديد. وعند قراءة الكلمة التي وجهَّها الملك فهد إلى النواب اللبنانيين الذين جاءوا إلى الطائف قبْل ثماني سنوات من قبل أن يبدأوا إجتماعاتهم يتبين لنا أن خادم الحرميْن الشريفيْن أراد منذ البداية أن تكون الأمور كلها واضحة وتكون رؤية المملكة للبنان واللبنانيين محددة. ونلاحظ هنا عبارات ومفردات وردت في كلمة الملك فهد ومنها "إن عدة السلام هي الثقة والتعاون والمحبة والتعمير "والمملكة حتى الآن ملتزمة بذلك، و"إن المطلوب هو أن يُعطى لبنان فرصة للتنفس وفرصة للعمل على إحياء مؤسساته الشرعية ونبْذ الخلاف بين ابنائه وإعادة الوئام والصفاء بينهم ومد جسور الثقة والتعاون والتآخي في صفوفهم ليستعيد لبنان مكانته ويستأنف دوره وليعود المواطن اللبناني كما عرفه العالم منذ سنين طويلة ينشر الرقي في كل مكان وينقل الثقافة والمعرفة ويتدفق عطاء وإبداعاً في شتى المجالات...». وهذا معناه أن المجالات لا يزعجها ولا يشكِّل عقدة لها. كذلك نلاحظ قول الملك فهد مخاطباً النواب اللبنانيين قبْل إجتماعهم لوضع تصورات الحل المرتقَب " نرجو ألا يكون على جدول أعمالكم سوى بند واحد هو قضية السلام وإحياء المؤسسات الدستورية ووحدة لبنان وسيادته وإستقلاله...".

وإذاً، فإن ما تطرحه بعض الأوساط في الإدارة الأميركية وما يتناوله بالتلميح بين الحين والآخر الرئيس كلينتون وأركان الخارجية طرحتْه من قبْل المملكة العربية السعودية، والفرق بين الإثنين أن المملكة تساعد لبنان على تطبيق ما سبق أن طرحت مضامينه ولا تألو جهداً في هذا السبيل، وأن الولايات المتحدة تثير تلك النقاط وبالذات ما يتعلق بالسيادة والإستقلال والمصالحة الوطنية بما يحقق لإسرائيل الطمأنينة وبصرف النظر عما إذا كان ذلك سيحدُث على حساب اللبناني.

ومِن هنا فإن الزيارة التي قام بها الأمير عبدالله إلى لبنان تبدو وكما لو أنها زيارة تفقدية للبنان الذي لم يمُت لكنه يقاسي أشد أنواع الأوجاع، وزيارة إلى البلد الذي هو في ضوء ما أوردناه في الأسطر السابقة، قضية سعودية، أو فلنقل قضية لها أولوية لدى أهل القرار السعودي.

وتشاء الصدف أن تتم الزيارة في الوقت الذي يواجه الحُكْم اللبناني متاعب ناشئة عن الظروف السياسية والمعيشية الخانقة، وهي متاعب من شأنها أن تأخذ من وهج صيغة الطائف التي بموجبها إنتقل لبنان من حرب كاملة إلى سِلْم ناقص. ويبدو أهل الحُكْم اللبناني أكثر من أي وقت مضى يحتاجون إلى مَن يُسدي النصيحة بإخلاص وينبه من المخاطر في ضوء تجربة عريقة له في شؤون البلاد والعباد. وليس مثل الأمير عبدالله مَن تجتمع فيه هذه المواصفات. فمن جهة إن أهل الحُكْم اللبناني وهم كلهم ومن دون إستثناء من نتاج صيغة الطائف يقدرون المملكة العربية السعودية حق قدْرها وممتنون كل الإمتنان للجهد الذي بذلتْه قيادتها والحرص الذي أبداه الملك فهد لكي تخرج إجتماعات الطائف بإتفاق، وهم قد يختلفون في شأن وجهات نظر يبديها هذا الزائر أو ذاك إلاَّ أنهم يلتقون حول ما يمكن أن يقوله الأمير عبدالله بالنيابة عن الملك فهد. ومن جهة أُخرى إن وليّ العهد السعودي معروف بصراحته التي يبديها عندما يكون لا بد من إبدائها ومن دون أن يستوقفه الظَرْف وهل هو مناسب لإبداء الرأي الصريح أو غير مناسب. ومعروف عنه أنه عند إستحضار

الخاطرة الصريحة لا يتركها تندثر أمام الشكليات ويقولها بصرف النظر عما إذا كانت أمام مسؤول جاء إلى المملكة لزيارته أو اللقاء به أو إذا كانت أمام مسؤول تستضيف بلاده الأمير عبدالله. وما يُنشر حول خواطره الصريحة وبالذات أمام قيادات أميركية وبريطانية ليس شيئاً أمام ما لا يُنشر. وعموماً إن المستمع إلى خواطر أوساط أهل الحُكْم اللبناني يحتاج إلى خواطر صريحة يقولها الأمير عبدالله وبالذات إزاء أسلوب التعامل مع الناس وغضبهم عندما يحتاجون. ولو أن بعض أهل الحُكْم اللبناني تبصروا في ما يحدُث في مجالس بعض أهل الحُكْم السعودي وبالذات في مجلس الأمير عبدالله وكيف أنه يتعامل مع الذين يطرقون مجلسه محمَّلين بهموم ومشاكل، لما كانوا إستهانوا بهذه الضائقة الخانقة التي يعيشها ثلاثة أرباع الشعب اللبناني ولكانوا فعلوا على نحو ما يفعل حيث يتسلم بنفسه أي مطلب ويستمع إلى شكوى. وتأخذ الشكوى والمطالب طريقها إلى الحل الذي يجعل المواطن يثق بمَن يحكمه ويجعل ولاة الأمور يصونون شأن الرعية. وإلّا فما هو الحُكْم. إنه إذا كان للغنائم فإن الذين يتسلمون مثْل هذه المسؤولية لا ينتسبون إلى شجرة المتميزين من الحكام.

وفي تقديرنا إن القليل من الخواطر الصريحة يقولها الأمير عبدالله لأهل الحُكْم اللبناني ومن منطلق الحرص على البلد وصيغة الطائف المحكوم بها، ستخفف من هذه الإستثناءات التي وصلت إلى حد أنه لمجرد أن إنطلق صوت يدعو إلى "ثورة الجياع" فإنه استقطب من المؤيدين والمباركين أكثر مما استقطبه أي حزب وأي عقيدة سياسية في العالم العربي حتى الآن.

ومع أن طائرة الأمير عبدالله التي إنطلقت من الرياض إلى دمشق كانت ملأى بعشرات رجال الأعمال السعوديين الذين رافقوه إلى لبنان تبعث طمأنينة في نفوس الجائعين والمحتاجين والناقمين على الحُكْم اللبناني، إلاَّ أن الخواطر الصريحة التي أشرنا إليها تبقى هي الأمضى والأكثر فعالية. وليس هنالك زائر كبير الشأن والمقام للبنان يمكن أن يقول الخواطر الصريحة خصوصاً أن زواره حتى الآن هم زوار مصالح خاصة وإستثمارات بينما زيارة الأمير عبدالله هي الأُولى التي يصب العائد منها في مصلحة لبنان أولاً وثانياً وأخيراً. ولكننا ونحن نقول ذلك نجد أنفسنا نشير بالتقدير إلى لفتة الأمير عبدالله المتمثلة بإصطحاب رجال الأعمال معه وذلك على أساس أن هؤلاء يأخذون في الإعتبار مَن هم يرافقون والغرض من ذلك ويترجمون وبحجم معاناة لبنان في الظروف الراهنة المشاعر إلى أعمال ومشاريع تعود بالخير على البلد.

وإلى ذلك ثمة بعض الكلام الذي لا يقوله لبنانيون كثيرون ممَن هم في موقع المسؤولية السياسية أو الروحية لأحد من الزوار الكبار الشعور معهم أن هذا الزائر أو ذاك إما لن يستمع بصدق أو لن ينقل بأمانة أو لن يتجاوب بما فيه الكفاية، لكنهم يقولونه للأمير عبدالله على أساس أن الرجل صاحب مبدأ وصريح ويحترم الحقيقة والمنطق الصحيح والعادل. والأهم من ذلك كله أنه ينقل ما يسمعه من وجهات نظر أو شكاوى إلى الحُكْم السوري وأن هذا الحُكْم وبالذات الرئيس حافظ الأسد سيستمع لأن الكلام منقول بواسطة صديق سوريا الحريص عليها والذي لا يريد لها أن تكبو أو تنتكس، خصوصاً أن حلقات التآمر تتزايد عليها، وأن بعض التفهم للظرْف اللبناني من شأنه أن يحقق الكثير من التفاهم في لبنان على صعيد تركيبته السياسية التقليدية التي كما ذكر الملك فهد في كلمته قبْل أن يبدأ المجتمعون في الطائف أعمال مؤتمرهم أنه يحبذ الحفاظ عليها. والتفاهم الشامل في لبنان يخفف عن سوريا الكثير من الحِمْل الثقيل.

ويبقى أن اللبنانيين اعتادوا على بعض المسؤولين الخليجيين يأتونهم للإستراحة أو الإصطياف ثم جاءت زيارة الأمير عبدالله لتدشن تقليد زيارات من نوع جديد هي الزيارة التفقدية.

وخلافاً لزيارات مسؤولين كثيرين زاروا لبنان التي يواصل بمشقة معركة إستعادة الإستقرار والإزدهار بعدما أمكنه تَجاوز معركة البقاء ومن بينهم زيارة الرئيس الفرنسي جاك شيراك وزيارة البابا يوحنا بولس الثاني، فإن زيارة الأمير عبدالله من شأنها أن تُكمل ما كان بدأه البابا يوحنا بولس الثاني ومن أجْل ذلك فإنها تحتاج إلى متابعة. ونعتقد أن الأمير عبدالله في ضوء الإستقبال العفوي الذي لقيه من اللبنانيين والذي يشبه في عفويته ذلك الإستقبال الذي لقيه شقيقه المغفور له الملك سعود في الخمسينات، سيخصص غرفة متابعة لكي يقف البلد على قدميه وليس فقط إقتصار حالة الوقوف على بعض أهل الحُكْم وحاشية هذا وذاك وذلك... وأولئك.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 29 يونيو (حزيران) 1997

* * *

لا ضجة في اللاذقية

اذا نحن وضعْنا جانباً مسألة السوق العربية الإقتصادية المشتركة، التي تتطلع كل من مصر وسوريا إلى إستحداثها، وكذلك مسألة الإتفاق الأمني الذي تتطلع إليه الدولتان، وتأملْنا في البيان الصادر يوم الخميس 1997/6/26 عن إجتماع وزراء خارجية دول «إعلان دمشق» الذي عُقد فى اللاذقية.. إننا اذا نحن فعلْنا ذلك نجد أن الوزراء المجتمعين بذلوا جهداً للإبقاء على أنفسهم مهيئين لإجتماع آخر، أي بما معناه إنهم لم يناقشوا إلى درجة الإختلاف، وإرتضوا بالقليل وهم متفاهمون على إنهاء الإجتماع وهم منقسمون إلى حد القطيعة لأن هذا الجانب أو ذاك يرصد تسجيل موقفه وإعلان هذا الموقف بالصوت العالي.

والقراءة المتأنية للبيان الصادر عن الإجتماع توضح أن القضية الأساسية للوزراء المجتمعين هي أن كل الأمور يمكن معالجتها إنما يجب مراعاة الظرف الدولي الراهن، وأن التوجهات المزوَّد بها كل وزير شارك في الإجتماع تتلخص في أن سوريا، المضيفة للإجتماع، يجب أن تكون مطْمئنة إذا كان من الصعب أن تكون ممتنة، وأن قَطَر يجب أن تكون غير محاصَرة بالملاحظات والضغوطات لكي تتخذ مع الوقت القرار المناسب في شأن القمة الإقتصادية التي تتزايد المطالبة والتمنيات بإرجائها لتفادي مشاركة إسرائيل فيها، كحد أدنى أو إلغائها كحد أقصى، أو عقْدها من دون دعوة إسرائيل إلى المشاركة فيها، كنقطة وسط بين الحديْن.

ولعله فى ضوء هذه المعادلة جاء البيان متجاهلاً ذِكْر القمة الإقتصادية مقابل تضمينه فقرتين قد لا تشكِّلان في الظَرْف الراهن أكثر من مساندة معنوية لسوريا، فضلاً عن أنهما تدعمان الحملة الدبلوماسية والسياسية، التي خاضتها سوريا بشخص نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدَّام ووزير الخارجية فاروق الشرع. الفقرة الأولى هي: «... ويُعبِّر الوزراء عن دعْمهم الكامل لصمود سوريا ولمطالبها العادلة من أجْل إسترجاع أراضيها المحتلة، كما يؤكدون مساندتهم التامة لسوريا في مواجهة أي تهديدات وإستفزازات تتعرض لها من أي جهة كانت نتيجة تمسكها بمواقفها المبدئية وبحقوقها المشروعة...». أما الفقرة الثانية فهى: «يُعرب الوزراء عن قلقهم البالغ إزاء التعاون العسكري والأمني بين تركيا وإسرائيل والذي يشكِّل تهديداً لأمن الدول العربية وللإستقرار في منطقة الشرق الأوسط، ويتناقض كلياً مع ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي والروابط التقليدية بين تركيا والدول العربية ويدعون تركيا العضو في منظمة المؤتمر الإسلامي إلى إعادة النظر في تعاونها مع إسرائيل والعودة إلى علاقات التعاون وحُسْن الجوار مع الدول العربية حفاظًا على المصالح المتبادلة والروابط التاريخية بين الجانبين...».

وأهمية هاتيْن الفقرتيْن أنهما إتُّخذتا بالإجماع ومن دون تحفُّظ أحد. كما أن قوتهما، ولو معنوياً، تكمن في أنهما لم ترِدا، على سبيل المثال، في البيان الختامي لوزراء خارجية مجلس التعاون الخليجي عند إجتماعهم في الرياض مطلع يونيو/ حزيران 1997، مح أن الاسباب الموجبة كانت قائمة، سواء لجهة مبالغة تركيا في التعاون العسكري والتنسيق مع إسرائيل، أو لجهة إصرار سوريا على رفْض أمر الواقع الإسرائيلي عليها. كذلك إن أهمية الفقرتيْن أنهما باتتا مثبتتيْن كوثيقتيْن، أي بما معناه أن أي وقفة مساندة مادية أو عسكرية لسوريا ستستند إليهما، وأن أي وقفة معنوية لفظية لن تكون أقل بمفرداتها من مفردات الفقرتيْن. وإلى ذلك إن الترجمة التقليدية لدعم الصمود، كما إعتدنا عليها فى الستينات والسبعينات، هي أن الدول المقتدرة تقدِّم وبأرقام عالية مساعدات للذين يختارون الصمود.

وأهمية الفقرتيْن المشار إليهما، أيضاً، أنهما تبدوان كمادتيْن قي جدول أعمال أي قمة يمكن أن تعقدها دول «إعلان دمشق». وهذا ما يبدو أن السعي جاء في سبيله بهدف تماسُك العلاقة بين هذه الدول من جهة، ولتفادي إنعقاد القمة الموسعة التي نلاحظ أن العقيد معمَّر القذَّافي يبذل جهداً ملحوظاً من أجْل إنعقادها، ووصلت جهوده إلى حد أنه حدد أحد أيام شهر يوليو (تموز) 1997 موعداً لإنعقادها. أين. وهل هنالك أمل في إنعقادها؟ لا أحد يدري، حتى بعض الحكام أنفسهم لا تظنهم على عِلْم، كذلك إنه عندما يصدر البيان الختامي لوزراء خارجية «إعلان دمشق» متضمنا الفقرة الخاصة بتركيا، فهذا معناه انه بات هنالك ما يشبه الإجماع الإسلامي الموثَّق ضد تعاون تركيا مع إسرائيل. ونقول ذلك على أساس أن مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية والكويت والإمارات وقَطَر وعُمان والبحريْن، التي أصدرت البيان، ليست

وحدها ضد ما تفعله تركيا، وإنما هنالك القِسْم الأكبر من بقية الدول العربية والإسلامية يرى أن تركيا مخطئة في ما تفعله. ومثْل هده الوقفة لدول «إعلان دمشق، ستشجع الآخرين أو تدفع بهم إلى إتخاذ موقف في القمة الإسلامية التي ستنعقد في ديسمبر/ كانون الأول 1997 في طهران لن ترتاح إليه تركيا على الإطلاق، وربما سيعزلها، ويذلك تكون المعركة السياسية التي تخوضها سوريا أعطت ثماراً جيدة.

إلا أننا، ونحن نفترض حدوث ذلك، نخشى على تلك القمة أن تتعرض لمفاجآت ليست سارة على الإطلاق وبحيث يتم إفتعال أزمات تسبق إنعقادها، وذلك بهدف تعطيل الإنعقاد، أو إرباكها بحادثة محاولة إغتيال ما من نوع الحادثة التي شلت حيوية القمة الأفريقية في أديس أبابا قبل سنتين.

ومع أن عواصف أميركية وإسرائيلية اثيرت فى وجه قمم عربية وإسلامية وأفريقية سابقة، إلا أن تلك القمم عُقدت وإتخذت ما يمكن إتخاذه من القرارات والتوصيات. لكن الوضع يختلف بالنسبة إلى القمة الإسلامية المقرر إنعقادها في طهران، حيث انها القمة التي إذا هي نجت من الكمين الأميركي – الإسرائيلي، الذي على الأرجح سيتم نصبه لها، يمكنها أن تكون قمة مصالحة العالم العربي والإسلامي مع نفسه للمرة الأولى في تاريخ القمم، خصوصاً ان الكل سيشارك فيها بمِن في ذلك الرئيس صدام حسين، الذي وجه الرئيس رافسنجاني الدعوة إليه كجار متجاوزاً حرب الخليج الأُولى وما فعله الرئيس صدَّام حسين مع إيران وبها. وأن الدول الخليجية تعلق عليها كبير الآمال كونها الاولى في ظل رئيس جديد لإيران يبشر بالإنفراج وينادي بالمرونة ويدعو إلى التعايش الذي لا يغدر بموجبه أحد بالآخر. وللمرء أن يتصور، إذا كانت هده القمة ستنعقد ويحضرها جميع العرب والمسلمين، ممثلين بقادتهم، أو من ينوب عنه، مدى أهمية القرارات والنتائج التي يمكن أن يتوصلوا إليها.

وثمة أهمية أخرى للقمة الإسلامية تتمثل في أن عشر دول من أصل إحدى عشرة دولة مصدرة للنفط (مجموع دول منظمة أوبك) هي إسلامية وستشارك في القمة (الدولة الوحيدة غير المسلمة في المنظمة هي فنزويلا). وللمرء أن يتصور أيضاً مدى أهمية القمة إذا نجح الحُكم الإيراني الجديد وبمعاونة الحكم القديم الذي هندس القمة فى جمع قادة إيران والسعودية والعراق وليبيا والجزائر والكويت والإمارات وقَطَر وأندونيسيا ونيجيريا. ومثل هذا إحتمال وارد الحدوث في شكل أو آخر إذا كانت لن تعطله الولايات المتحدة، على النحو الذي أوردناه، أو ستجدها مناسبة للمقايضة على قضايا تخدم في النهاية عملية السلام في منطقة الشرق الأوسط وهو ما يتطلع إليه الجميع.

وقد تكون تلك رؤية الرئيس حافظ الأسد للأمر أو اللحظة التي يخطط لها، ومن أجْل ذلك ترك لإجتماع اللاذقية بيين وزراء خارجية دول «اعلان دمشق» ينعقد بهدوء وينتهي إلى النتائج التى تبدو في ظاهرها أقل من الذي كانت تطمح إليه سوريا، وقامت بالترويج له قبل أيام من بدء الإجتماعات، لكنه أكثر من الممكن بقليل.

والأهم من ذلك كله أنه لم تكن في اللاذقية ضجة ولم يكن بالتالى هنالك خلاف في العمق على ما هو... الموقف الصحيح.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 30 يونيو (حزيران) 1997

* * *

المستعمرات في النهاية من نصيب الفلسطينيين

لا يستطيع المرء إلا أن يتصور بأن كل مستعمرة تشيدها إسرائيل، وكل حي تقيمه بما في ذلك ما أشيد وسيشاد في أبو غنيم، وكل منزل تبنيه في أي أرض إحتلتها بعد العام 1967، ستؤول في النهاية إلى أصحاب الارض الحقيقيين وأصحاب الحق الذين هم أبناء الشعب الفلسطيني... وربما من دون دفع تعويضات أو تكاليف البناء.

ومهما طال الزمن وإمتدت الأحياء السكنية والعمارات وتعددت المستعمرات فإن ساكنيها على المدى البعيد هم الفلسطينيون الذين يعيشون منذ أربعة عقود أبشع أنواع العيش. وأتصور منذ الآن، وقد يشاركني التصور كثيرون، منظراً يؤكد منطق الأمور إحتمال حدوثه فى الربع الأول من القرن الواحد والعشرين، وهو منظر بضعة ألوف من الفلسطينيين ينتقلون إلى هذه المستعمرة أو تلك ويعيدون النظر في تسميات هذه المستعمرات بحيث تصبح أسماء عربية فلسطينية. أتصور هؤلاء يغادرون المخيمات وبؤسها للسكن في هذه المستعمرات التي سيكون هجَرها

ســـاكنوها وركبوا البحر والجو من جديد عائدين إلى حيث كان أباؤهم ومن قبل اجدادهم على دول كثيرة من الغرب والشـــرق. وهذا لا ريب ســـيحدُث بعد أن تتكشف الخدعة التي إسمها إسرائيل الكبرى ويصطدم الموقف الأميركي بحقائق الأمور وهي أنه مهما فعلت الولايات المتحدة فإنها لن تغيّر حقيقة أساسية وهي أنه لا مكان في المنطقة لغير إسرائيل مصغرة لا يتحدى دورها دور بعض الكيانات ذات الطابع المالي في أوروبا. كيان يتعاطى شـــؤون المال والأعمال ويكون لإبنائه جواز سفر وعَلَم لا أكثر. أما أن تكون إسرائيل على ما هى عليه الآن تمارس دور الدولة الكبرى في محيط لا يتحمل فيه الحاكم تجاوزاً من جاره الحاكم أو تشاوفاً من جاره الحاكم الآخر، فهذا ما لا يمكن تحمُّله أو تقبُّله وبالتالي فإنه سـيقود إلى نهاية مأســاوية في الدرجة الأولى لإسرائيل.

ونحن عندما نقول ذلك فعلى أســـاس أن هذا ما شـــاعته الإرادة الدولية كوطن لليهود، يؤكد ذلك أن هنالك شـبه إجماع من دول العالم على هذه المسـالة وليس بالأمر العادي أن تكون هذه المسألة هي الوحيدة التي هنالك هذا الإجماع عليها. وفي كل مرة منذ الفترة التي أعقبـت حرب يونيو 1967 ترتكـب الحكومـة الإسرائيلية أفعالاً منافية للحقيقة التي أوضحناها فإنها تكون بذلك تتجاور الإرادة الدولية. وفي بعض الأحيان يكون تجاوُز هذه الإرادة مثل إغتصـاب حقوق شـعب، وعندما يتواصل التجاوز ويبلغ مداه مع حكومة نتنياهو فهذا معناه أن إسرائيل لا تستفز العرب فقط ولا تستقز المســلمين وإنما هي في ذلك تســتفز كل دول العالم بإســتثناء الولايات المتحدة. وهذا الإســتفزاز ســيقود عاجلاً أم آجلاً إلى وقفة من جانب دول كثيرة تربط إســتمرار علاقتها بإســرائيل بإحترام هذه الأخيرة لقرار الإجماع التاريخي فى شـــأن قيام دولة عبرية في المحيط العربي تتعايش مع الآخرين لا تســتفزهم ولا تتجاوز على الإطلاق الحجم الذي من للمفترض أن تكون عليه. وهذه الدول ســـتفعل ذلك ليس في إطار مقايضة مواقف ولا حباً بالعرب أو كرهاً بإسرائيل، تولد فجأة، وإنما لأن إستمرار التغاضـي عما تفعله لنفسـها مثل هذه الصـفة. وما نقصـده بالمخادعة هنا هو أن هذه الدول إرتضـــت قيام كيان ما لليهود وليس قيام دولة توســـعية تفرض رأيها على الولايات المتحدة وتفرض الإدارة الأميركية على هذه الدول رأيها وبذلك تكون إسرائيل نفسها وبشكل غير مرئي ومباشر تفرض على هذه الدول ما تريده.

وللوهلة الأُولى تبدو الولايات المتحدة أنها بالتعامل القائم بينها وبين إسرائيل يمكن أن تُحقق الأمان للدولة العبرية. وأكثر المحطات سوءاً في هذا التعامل هو أن الإدارة الأميركية وبالذات إدارة الرئيس كلينتون تحولُ دون أي قرار إدانة لإسرائيل يصددر عن مجلس الأمن وتتقبل بصدر رحْب أي خشونة في الموقف الإسرائيلي حتى إذا جاءت الخشـــونة تلمس الهيبة الأميركية نفسها، وتبدي الكثير من التفهم للخطأ الإسرائيلي حتى إذا كان من النوع الفاحش. لكن هذا التعامل يغذي في النفس الإسرائيلية روح الهيمنة وينمي الشعور التاريخي بضـــرورة تحقيق إســـرائيل الكبرى، وهذا التعامل بمحطات السوء المشـار إليها إضـافة إلى المحطات الأكثر سـوءاً التي تصـدُر بشـكل إشـارات بين الحين والآخر، يقرب المخاطر من إســرائيل ويُبعد مشـــاعر الود التي في نفس العرب نحو الولايات المتحدة. وإذا جـاز للمرء الإفتراض فـإن شـــعور العربي الحـالي وبالذات بعد الكشـــف كدمعة الســـلام الأميركية. الإسرائيلي نحو الولايات المتحدة هو مثل شعوركم نحو بريطانيا وفرنسا في الخمسينات والستينات، وهو شعور غير ودي على الإطلاق ولا تعكسه بعض التصريحات والزيارات الرسمية. وإذا نحنا شـئنا تفسير ظاهرة عدم الود لوجدْنا أنفسنا نقول إنها نتيجة أن الولايات المتحدة تفعل في التسـعينات بالعرب والمسـألة الفلسـطينية ما كانت تفعله بريطانيا في اليمن الجنوبي ثم مع إسرائيل ضـد الفلسـطينيين، وما كانت تفعله فرنسـا في الجزائر ثم أيضـاً مع إسرائيل ضد الفلسطينيين. ويكاد لا يمر شـــهر إلاَّ وتؤكد الإدارة الأميركية أنها لن تكون مع العرب وأمـانيهم على الإطلاق. وتبـدو فى مـا تفعلـه وتكرره كل مرة بصـيغة أسـوأ من السـابقة كمن تقول للعرب ما معناه إنني لا أريدكم وإنما أريد إســـرائيل وعليكم أن تفهموا ذلـك وتقللوا من هـذا العتـاب بين الحين والآخر. وهذا صحيح إلى حد كبير، ذلك أنه لو كـانـت الإدارة الأميركيـة ترغب في غير هذا الموقف المنحاز لإســرائيل، لما كانت تعمدت إختيار الســفير الأميركي لدى إسرائيل مارتن أنديك لتولّي مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وفْق ما أعلنه الرئيس كلـينـتـون وبكـثـير من الـتـبـاهـي يـوم الـثـلاثـاء (1997/6/24) وتعمَّد إعلانه كرد على لقاء في اليوم نفسـه جرى في دمشـق بين الرئيس حافظ الأسـد وولي عهد الســـعودية الأمير عبدالله بن عبد العزيز، وكذلك

على الإجتماع الذي بدأه في اليوم نفسه في اللاذقية وزراء خارجية دول «إعلان دمشق». وإذا كان الرئيس كلينتون لم يأخذ في الإعتبار الضرر الذي يمكن أن ينشأ عن هذا الإختيار فإن مجلس الشيوخ الذي له أن يوافق أو يرفض لن يتردد لحظة في الموافقة ما دام الشخص الذي إختاره سيكون السند لإسرائيل. واللافت للنظر أن الرئيس كلينتون إستكمل بإختيار مارتن أنيك ليكون مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط طاقماً إسرائيلي الهوى مائة في المائة بدءاً بوزيرة الخارجية مادلين أولبرايت مروراً بوزير الدفاع وليم كوهين ورئيس مجلس الأمن القومي أنطوني ليك. ومثْل هذا الإختيار يؤكد حرص الإدارة الأميركية على إستفزاز العرب فضلاً عن أنه لا يخدم عملية السلام على الإطلاق. أما لماذا لا يخدمها فلأن هده العملية متعثرة لأن المنطق الإسرائيلي مرفوض من جانب العرب والفلسطينيين. ولكي يستقيم هذا المنطق وبالتالي يَطمئن العرب والقلسطينيون فإن المطلوب ممَن يتم إسناد منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط إليه أن يملك القدرة على إقناع الحكومة الإسرائيلية بتغيير مفاهيمها وإفهام رئيسها نتنياهو بضرورة التخلي التخلي عن طروحاته، وفي الوقت نفسه أن يرتاح المسؤولون العرب إلى شخصه وإلى أسلوب تخاطبه معهم عندما يزورهم، خصوصاً أن منصبه سيفرض عليه القيام بالمزيد من الزيارات على نحو ما كان يفعل السلف بورتيلو. ولا نظن أن مارتن أنديك سيكون موضع إرتياح مَن سيقابلهم من الحكام والمسؤولين من المحيط إلى الخليج خصوصاً أن لديهم إنطباعاً غير مشجع عن تاريخه وتصريحاته. وهكذا، فإن إختيار الرجل لهذا المنصب غير موفَّق على الإطلاق إلاَّ إذا كان الرئيس كلينتون أراده هدية جيدة منه إلى نتنياهو الهدف منها أن يَطمئن، أو ربما إن إختيار مارتن أنديك هو رسالة تحمل في طياتها التية على أن تبقى عملية السلام عالقة إلى ما شاءت إسرائيل.. وهذا معناه خروج الإدارة الاميركية على الإرادة الدولية ومعناه أن دولاً كثيرة ستكون على إستعداد لتفهُّم وجهة النظر العربية شرط أن تكون هنالك صلابة في الموقف العربي خشية أن يحدث التفهم من بعض الدول ثم يتبين أن وجهة النظر العربية لا تقف على أرض صلبة. وما نشير إليه لن يتحقق إلاّ إذا إتضحت آفاق الرؤية العربية للمرحلة الراهنة من الصراع العربي – الإسرائيلي وضاقت تبعاً لذلك مساحة التباعد العربي والإسلامي. وعند التأمل في التحرك السوري – العراقي على مستوى التجار من جهة والتحرك السعودي – السوري ثم السعودي – الإيراني والسعودي _ المصري على مستوى من هم في القصة، من جهة أُخرى، ثم عند التأمل في بعض الإتصالات غير المرئية، والتي تتم بأسلوب جديد من التنسيق.. إننا عند التأمل في ذلك وفي التصريحات الأخيرة لولي العهد السعودي ومنها قوله «إن بعثرة إتفاقيات السلام عبثاً قد يكون منه مبرر للفوضى...» نفترض أن مساحة التباعد العربي – الإسلامي ستضيق وفي ذلك ما ينبه إدارة الرئيس كلينتون إلى ما تقترفه من إجراءات ومواقف لا تخدم عملية السلام شيء، فضلاً عن أنها تستفز العرب والفلسطينيين كل الإستفزاز وتشجع تبعاً لذلك الإسرائيليين على أعمال (من بينها ملصقات تمس المشاعر الإسلامية وُضعت على جدران فى مدينة الخليل) وصفها الأمير سعود الفيصل بعد لقائه بالرئيس حسني مبارك يوم الخميس 1997/7/3 يأنها «تُجسد العقلية الإسرائيلية المريضة».

ونعود إلى ما أشرنا إليه في مطلع هذا المقال فنقول إن اسرائيل لا تريد السلام المعقود بينها وبين العرب لأنها تتطلع إلى السلام المفروض فرضاً من جانبها على العرب. وهي من أجْل السلام المفروض والذي يغيب عن بال نصيرتها الوحيدة في العالم (الولايات المتحدة) أنه نوع من أنواع الإستعمار، تبني وتتوسع وتقيم المستعمرات لإسكان يهود لم يصلوا بعد بينما لا بيوت لأصحاب الأرض الحقيقيين يبيتون فيها أو أن هذه البيوت عرضة في إستمرار للتدمير. وإستناداً إلى هذه المعادلة الخاطئة ورفض العرب والمسلمين القاطع للسلام الأميركي – الإسرائيلي يتصور المرء أن كل مستعمرة تشيدها إسرائيل وكل منزل تبنيه في أي أرض إحتلتها بعد 1997 ستكون من نصيب الفلسطينيين. وفي ضوء ما جرى في هونغ كونغ بين الصين وبريطانيا ومِن قبْل بين البيض والسود في جنوب أفريقيا فإن المرء لا يستبعد ذلك خصوصاً أن في المسألة الفلسطينية بعض الجوانب التي إذا نحن تأملْنا ملياً فيها نجد أنها مزيج من حالة هونغ كونغ وحالة جنوب أفريقيا، هذا إلى جانب أن إسرائيل الحالية (أي إسرائيل الكبرى) هي غير إسرائيل التي أجمعت على قيامها الإرادة الدولية (أي إسرائيل الصغرى)، ومعنى ذلك أنه إما تعود إسرائيل إلى

حجمها داخل حدود الرابع من يونيو 1967 أو يجوز عند ذلك إعتبار أي خطوة تمت بعد ذلك باطلة... كل البطلان.

وما هو معروف عن المعادلة الدولية في المنطقة هو أنه لا مجال أمام أي دولة لكي تكون أكبر من حجمها، بدليل أن مصر حاولت ذلك فتكسرت في سوريا وأن العراق حاول فتحطم على مشارف الكويت.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 7 يوليو (تموز) 1997

* * *

بريطانيا وسوريا: حسنات الاستقرار في العلاقات

كان لافتاً للإنتباه بعد فوز حزب العمال البريطاني في الإنتخابات بقيادة زعيم شاب هو طوني بلير أن برقية التهنئة الأولى التي وصلتْه من حاكم عربي (ونستند هنا إلى ما أذيع) كانت من الرئيس حافظ الأسد. وحيث أن العلاقات البريطانية – السورية ليست بالتميز الإستثنائي لا على الصعيد السياسي ولا على الصعيد الإقتصادي ولا حتى بسبب أواصر تاريخية، فإن هذه المبادرة من جانب الرئيس الأسد وحرصه على أن يخص طوني بلير الذي يتسلم الحُكْم في السن التي تسلَّم فيها الرئيس الأسد الحُكْم، ببرقية تهنئة على جانب ملحوظ من الود، كان لها معنى وكانت ذات مغزى. وكلاهما، المعنى والمغزى، يصبان في المشروع الذي يبذل الرئيس السوري جهداً ملحوظاً ومنذ سبع سنوات من أجْل تحقيقه، وهو أن يتطور الدور الأوروبي وبحيث يمكن الإتكال عليه في التعامل مع العقلية السياسية للإدارة الأميركية غير المتفهمة وفي الضغط على إسرائيل الرافضة لعملية السلام التي يمكن أن تعيش ويرتضيها الحاكم والمحكوم في المنطقة، وهي إذا هما إرتضياها تقطع الطريق على أي إهتزازات وتتيح المجال أمام إستقرار يحقق الإزدهار.

ومنذ بضع سنوات والرئيس حافظ الأسد يسعى من أجْل بلورة الدور الأوروبي. ومع أنه إستطاع تقريب فرنسا من الرؤية السورية لعملية السلام والتي باتت رؤية الأكثرية العربية إذا جاز التعبير وباتت سوريا وكأنما هي المتحدث بإسم هذه الأكثرية في كل ما يخص تلك الرؤية، إلاَّ أن الرئيس الأسد على ما يجوز الإعتقاد يرى أنه لا أمل من أي دور أوروبي إذا كانت بريطانيا ليست جزءاً من هذا الدور، بل وليست متبنية له. وليس مبالغة القول إنه إذا إتفقت كل الدول الأوروبية من اليونان إلى أقاصي الشمال الأوروبي على طبيعة الدور ولم تكن بريطانيا العمود الفقري أو نقطة الإرتكاز في هذا الدور، فإنه لن يُكتب له أن يبصر النور. وها هو الرئيس جاك شيراك الذي كان مقداماً وسار إلى آخر الشوط من أجْل الدور الأوروبي الذي يمكن أن تتزعمه فرنسا، شاهد على أنه لا دور أوروبياً من دون بريطانيا.

ومن الواضح أن الولايات المتحدة تراهن على هذا الأمر وتبدو كثيرة الإطمئنان إلى أنه لن تقوم للدور الأوروبي قائمة ما دامت بريطانيا في جيب الولايات المتحدة. ومثل هذا الإرتهان بلغ ذروته عندما سمحت الولايات المتحدة لرئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر أن تحقق إنتصاراً كبيراً على الأرجنتين في "الفوكلاند".

ومنذ ذلك الإنتصار وبريطانيا إتخذت ما يشبه القرار بمبايعة الولايات المتحدة حتى في شؤون الشرق الأوسط الذي لبريطانيا حضور تاريخي في بعض دوله وسياساتها. ونقول ذلك على أساس أنه لو كانت الولايات المتحدة غير موافقة على الغزو البريطاني التاتشري للجزيرة لما كانت بريطانيا لتفعل ذلك وهي ربما لو حدث أنها قامت بالغزو على رغم عدم الرضى الأميركي لربما كانت السفن الحربية التي أرسلتْها وجدت سفناً أميركية بالقرب من الفوكلاند تم إبحارها عمداً لإبلاغ القطع البريطانية بالعودة من حيث أتت.

ولكن الولايات المتحدة باعت بريطانيا نصراً عسكرياً لمرة واحدة حصلت عليه مقابل موقف ستبقى الولايات المتحدة حاصلة عليه حتى إشعار آخر. وبالمفهوم التجاري فإن أميركا هي الرابحة بدليل ما رأيناه منذ ذلك الوقت حتى الآن، حيث إن القرار البريطاني في أي أمر يخص الشرق الأوسط مُصادَر لحساب الإدارة الأميركية. وبسبب هذا القرار المصادَر فإن بريطانيا تُعتبر عملياً هي المعطِّلة للدور الأوروبي المنشود والمأمول منها.

والسعي السوري من أجْل تعديل طفيف أو جذري في الموقف البريطاني بهدف بلورة الدور الأوروبي بدأ منذ أن أوكل الرئيس الأسد إلى أحد الدبلوماسيين المتميزين السفير محمد خضر أن يتسلم السفارة في

لندن وينطلق بالعلاقة البريطانية – السورية في إتجاه جديد يزيل رواسب المرحلة المضطربة السابقة ويؤسس لمرحلة يمكن أن تقود إلى أن تصبح بريطانيا داعمة للدور الأوروبي أو متبنية له أو على الأقل غير متنافرة معه ومعرقلة له.

وأضاف وزير الخارجية فاروق الشرع إلى توجيهات الرئيس الأسد التوضيح بأنه إذا كانت العلاقة الجديدة لن تكون دافئة ومتطورة وتبقى على البرود الذي كانت عليه، فمن الأفضل إذاً أن تبقى كما كانت إلى أن تحين فرصة الدفء والتطوير. وفي أحد أبرز إجتماعات الكواليس التي شهدتْها أروقة مبنى الأمم المتحدة في نيويورك في يونيو/ حزيران 1990 وكان من بين الحضور محمد خضر الذي يشغل منصب مدير إدارة أوروبا الغربية والسوق المشتركة في وزارة الخارجية وديفيد غوربوث (حالياً هو المفوض السامي لبريطانيا في الهند) تمت مناقشة على مدى ثلاث ساعات في العمق للعلاقة البريطانية – السورية. ثم تبين أن الحكومة البريطانية راغبة هي الأُخرى في أن تُستعاد العلاقة وتنتقل من مرحلة الإضطراب إلى مرحلة جديدة مستقرة ومتطورة. وعلى هذا الأساس زار غوربوث دمشق في نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 1990 وفي أواخر الشهر نفسه تم الإتفاق والإعلان عن إعادة العلاقات.

وبدأ محمد خضر منذ يوم 6 يونيو (حزيران) 1991 مهمة شاقة يتباهى بعدما أكملها بما أنجزه، حيث إن العلاقات البريطانية – السورية باتت على أفضل ما تكون عليه العلاقات. وتشاء الصدف أن هذا الإنجاز جاء تتويجاً للعمل الوظيفي للسفير محمد خضر، ذلك أنه سيغادر لندن منتصف أغسطس (آب) المقبل لكي يتقاعد على ضفاف المتوسط في اللاذقية على الساحل السوري مع أنه في قمة الحيوية وصاحب تجربة دبلوماسية عريقة بلغت أوجها في سنوات عمله كسفير لبلاده في الهند أمكنه خلالها إقناع رئيس الوزراء (الراحل) راجيف غاندي بزيارة سوريا.

ونحن عندما نقول إن العلاقات البريطانية – السورية باتت على أفضل ما تكون عليه العلاقات، فإننا نستند في ذلك إلى ما كانت عليه حيث إنها كانت مثل العلاقات البريطانية – العراقية المستمرة منذ سبع سنوات على درجة كبيرة من السوء، ومثل العلاقات البريطانية – الليبية المتوترة دائماً. ونستند أيضاً إلى أن السفارة السورية في لندن كانت محاطة بالشكوك، غير مقصودة من البريطانيين الرسميين ورجال الأعمال والإعلام وكأنما هي مركز من مراكز الخطر، ثم باتت منذ السنة الأولى لتسلم السفير محمد خضر منصبه مشرَّعة الأبواب أمام الفعاليات البريطانية على مختلف أنواعها ومشاربها، وأمام الشمل السوري والعربي الذي كان يحتاج إلى من يجمعه. وإلى ذلك باتت زيارة وزير الخارجية البريطانية إلى سوريا ثم رد وزير الخارجية السورية الزيارة له أمراً روتينياً إضافة إلى زيارات متبادَلة تتم في حالات طارئة.

وهنالك إلى جانب ذلك أعضاء كثيرون في مجلسيْ العموم واللوردات قاموا بزيارات ناجحة إلى سوريا وباتوا في إستمرار على قائمة المدعوين إلى حفلات الإستقبال التي تقيمها السفارة وتكون عامرة بكبار المسؤولين والدبلوماسيين والإقتصاديين. وبعدما كان السفير السوري لا يجد سياسيين بريطانيين يتحدث إليهم بات يزور بين الحين والآخر مجلس العموم ويجد الكثيرين الذين يستمعون بإهتمام إليه، وبات يطرق إعلاميون بريطانيون باب مكتبه للإستفسار منه عن بعض المواقف. وعلى الصعيد الإقتصادي خطا التعاون خطوات كثيرة نحو الأفضل. كما أن دوق كنت (الرابع في الأُسرة المالكة) زار سوريا في سبتمبر (أيلول) 1996 ومعه عشرة من رجال الأعمال، وكانت تلك أول زيارة مَلكية بريطانية إلى سوريا.

وإذا كانت حكومة المحافظين لم تتصرف بلباقة عندما لم يحدد رئيسها موعداً لعبد الحليم خدام النائب الأول للرئيس الأسد لزيارة بريطانيا ضمْن جولاته ومعه وزير الخارجية فاروق الشرع التي شملت معظم عواصم العالم المهمة والفاعلة في القرار الدولي، فإن العزاء في ذلك هو أن الإثنين مستمران في موقعيْهما بينما جون ميجور مُني ومعه حزب المحافظين بهزيمة كبرى وهو الذي كان برفضه إستقبال السيديْن خدام والشرع يتطلع إلى فوز مبين على أساس أن إسرائيل ستدعمه من خلال اللوبي اليهودي.

ونصل إلى أن برقية التهنئة المتميزة التي بعث بها الرئيس الأسد إلى النجم العمالي الكاسح طوني بلير قد تكون رداً في محله من جانب الرئيس الأسد على أسلوب تعامُل جون ميجور مع النائب الأول لرئيس الجمهورية السورية ولوزير الخارجية وقد تكون تدعيماً لرؤية الرئيس الأسد في شأن الدور الأوروبي على أساس أن ما تعثَّر تحقيقه مع بريطانيا المحافظة قد

يتحقق شـــيء منه مع بريطانيا العمالية.. وقد تكون البرقية للأمريْن معاً ورســـالة من الرئيس الأســـد إلى طوني بلير بأن العلاقة التي أرادها أن تســـتقر مع بريطانيا المحافظين ونجح ســـفيره محمد خضـــر في تحقيق ذلك، ستستقر أكثر وأكثر مع بريطانيا العمالية لأن في إستقرار العلاقات حسنات كثيرة. وفي رد بلير على تهنئة الرئيس الأســـد بمثلها ما يؤكد أن رئيس وزراء بريطانيا يبادله الرأي نفسه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يوليو (تموز) 1997

* * *

هل كان رياض الصلح أميركي الهوى؟

هل كان رياض الصـــلح – الذي مرت يوم 16 يوليو/تموز 1997 الذكرى الســادســة والأربعين لرحيله مبهوراً بالصـــيغة الأميركية، وقرأ مبكراً أن مثل هذه الصـــيغة هي التي تُحقق لبلد متنوع الطوائف مثْل لبنــان، أو متنوع الأعراق والطوائف مثْـل الولايـات المتحدة، الإستقرار والإزدهار؟

لعل مثل هذا الإفتراض هو الأقرب إلى المنطق عند التأمل في ما يفعله هذا الزعيم السـياسـي اللبناني الذي لم يتكرر مثيل له يحظى بهذا الإهتمام في العالم العربي. فهو بعد مســاهمته في تحقيق الإســتقلال من خلال جهود فيهـا الكثير من بُعْـد نظر غـانـدي في المقاومة، وجد أن مثل هذا الإستقلال يمكن أن يتهاوى إذا كان يصان بالحرية، وهذه لن تتحقق ما دام نصف اللبنانيين، مع الحلم الوحدوي والتطلعات العروبية، وما دام نصفهم الآخر أسرى الهوى الفرنسي، على نحو ما زال متحكماً في مشاعر شرائح عريضة من الجزائريين، وأسرى الهوى الإنكليزي إلى حد ما.

ومن هـذا المنطلق جـاءت فكرة الميثـاق الوطني الذي رأى – إفتراضـــاً رياض الصـــلح أنه الصـــيغة الوحيدة التي يجتمع حولها اللبنانيون بحيث يصـــعب التمييز بين مَن هو يحلم بالوحدة العربية وبين مَن هو مشـــدود نحو فرنســـا وبريطانيا والعالم الغربي عموماً، ومتى لم لم يحـدُث هـذا التمييز، وفي ظـل أجواء من الحرية، فإن اللبنانيين سيطمئنون وسيقبلون على العمل من أجْل إزدهار وطنهم. وعندما تكون هنالك حرية ويكون هنالك إزدهار فإن الوطن ســيصـــبح بطوائفه السبع عشرة مستقراً ومتماسكاً وحاله مثل حال الولايات المتحدة. ومن هنـا إن ريـاض الصـــلح كـان مبهوراً بالنموذج الأميركي، عِلْماً بأن هذا النموذج كان ما زال في مطلع الخمسينات على شيء متواضع النسبة من الإبهار.

وفي غيـاب، أو تغييـب، أي أوراق أو وثـائق عن ريـاض الصـــلح، وتلك الفترة، يمكن من خلال قراءة سطورها وما بين سطور أن نلمس مؤشرات إلى مسألة إنبهار رياض الصـلح بالنموذج الأميركي، فإننا نسـتند في هذه الفرضـــية إلى أحوال لبنان بين بدء التعامل بموجب صـــيغة الميثاق الوطني وبين العام 1958 تاريخ التفجير الأول للصـــيغة اللبنانية، وكيف أن هذه الأحوال كانت مســـتقرة وتبشـــر بالخير، وكذلك كيف كانت هنالك بدايات مشجعة للإزدهار قياساً بما كانت عليه هذه الأحوال قبْل صـيغة الميثاق الوطني، وكيف أن الهجرة اللبنانية إلى الخارج حدثت في السنوات التي سبقت صيغة الميثاق نتيجة غياب الإزدهار.

وثمـة مـآخذ كثيرة على ريـاض الصـــلح، والـذين شـــاركوه في إبتكار صـــيغة الميثاق الوطني، بأنهم لم يوثقوا هذه الصـــيغة وبأنهم لو فعلوا ذلك لربما كان لن يُنظر إليها على أنها مجرد صـيغة لتقاسـم المناصـب وإنما هي الروح التي منها انطلق دســتور الحُكْم. لكن في الوقت نفســه قد يجوز الإفتراض بأن الصـــيغة لو كانت ستتحول إلى وثيقة مكتوبة لكان يجب أن تناقش شـعبياً ولكان من المهم جداً إسـتفتاء الناس عليها لكي تكتسـب الشـرعية الشـعبية على نحو ما حدَث ويحدُث وسـيحدُث في دول كثيرة مع خطوات وقرارات لا يكفي مناقشـتها وصـدور الموافقة عليها من المجالس النيابية وإنمـا تحتـاج إلى الموافقـة الشـــعبيـة – من خلال الإســـتفتاء – على الموافقة البرلمانية. وفي تقديرنا إن مناقشـة صـيغة الميثاق الوطني والتعمق في المناقشـة كانت ســـتقود إلى خلافات ما دام المظهر الخارجي لهذه الصـيغة هو أنها تقاسُـم الطوائف المناصـب من دون النظر والتـأمـل في روحيـة الصـــيغـة وأهميتهـا الوقـائيـة لبلد تحتـاج الطوائف فيـه إلى كتـالوج لكثرتهـا وتنوع توجهـاتها وتعدد إنتمـاءاتها والإنقســـامات في صفوفها.

وإلى ذلك إن نقطة الضعف في صيغة الميثاق هي أنها جاءت بمثابة تفاهم بين زعامة سُـنية لها شـعبية داخل الحدود وخارجها في معظم أرجاء العالم العربي (متمثلة برياض الصـــلح)، وبين زعامة مارونية ذات

حضـور لبناني في بعض الأوسـاط وحضـور عربي رمزي (متمثلـة ببشـــارة الخوري)، ولأن الآخرين مِن شـيعة ودروز لم يكونوا شـركاء في تلك الصـيغة فإنهم كـانوا بعد ذلـك الوقود التي إشـــتعلت بـه الثورة على الوضـع كما أرسـت معالمه وأُسـسـه صـيغة الميثاق الوطني.

ويجد المرء نفســه يتســاءل هنا: هل كان رياض الصـلح غير مدرك لهشـاشـة إقتصـار صـيغة الميثاق على مجرد التوافق بينه وبين بشـارة الخوري، من دون غيرهما من الزعامات اللبنانية، أم أنه كان يعوّل كثير الأهمية على عامل الزمن وعلى حالة الإزدهار التي سـتنشـأ جرَّاء الأخذ بالصـيغة. وأغلب الظن إذا نحن إفترضْـنا بأنه كان أميركي الهوى، أو مبهوراً بالنموذج الـذي قـامـت على واقعيتـه الولايـات المتحـدة.. أغلـب الظن أنه إفترض أن كل التناقضـات سـتذوب في بحر الإزدهار، وأن كل الخلافات سـتنحسر ما دامت أجواء الحرية متوافرة.

كما أننا نجد أنفسـنا أيضـاً نتسـاءل: هل إنه نتيجة لهذه الرؤية من جانب رياض الصلح للمستقبل اللبناني وإنبهاره بالنموذج الأميركي الذي كان في قرارة نفســه يتمنى أن تؤول إليه أحوال لبنان ومن دون أن يفصــح عما يجول في خاطره في هذا الشـأن... هل إنه نتيجة ذلك كان لا بد من إغتياله وأن مسألة أن تأخذ عناصر من الحزب الســوري القومي الإجتماعي على عاتقها أمر التنفيذ ثأراً لإعدام زعيم الحزب أنطون ســعادة، إنما هي مســألة تطابق الدواعي الموجبة لا أكثر، أي بمـا معنـاه إن إغتيـال ريـاض الصـــلح وهو في عز حيويته وشـبابه السـياسـي (كان في الثامنة والخمسـين عندما جرى إغتياله، أي أكبر من جمال عبدالناصــر بسـت سـنوات عند وفاته بسـكتة قلبية مشـبوهة) كان مقرراً ضـمن لعبة الصـراع البريطاني – الفرنسـي على المنطقة، وهو صـراع لم يتحمل أن يبرز إلى العلن في لبنان زعيم سـياسـي سُـني أميركي الهوى، أو فلنقل إنه مبهور بـالنموذج الأميركي، يعزز توجُّـه الملـك عبدالعزيز نحو علاقة إسـتراتيجية بين المشـرق العربي والولايـات المتحـدة ولأنـه (الصـــراع البريطـاني – الأميركي) لم يتحمل فإنه كان لا بد من تصـفية الرجل لأن الصـــيغة التي أرادها لبلده، أي صـــيغة الميثاق الوطني، معناه إبعاد بريطانيا وفرنســـا خطوات عن المنطقـة وتقريـب الولايـات المتحـدة خطوات. وبعـد التصـفية لن تقوم للصـيغة قائمة لأنه لن يكون هنالك مَن يســـهر على الصـــيغة وينبه إلى الممارســـات والأخطاء والمحاذير، وســـتهتز معادلة التعايش في لبنان، وســـيتأخر القدوم الأميركي إلى لبنان. وهذا ما حدث بالفعل، إضافة إلى أن الكثير من العبث بالحرية حدَث، فتسـاقطت الصـيغة لتقوم مكانها صـيغة إتفاق الطـائف التي على رغم أنهـا مكتوبـة ومكفولـة، ومن الولايات المتحدة قبْل بريطانيا وفرنسا، إلاَّ أنها ما زالت على بعض التعثر... لأنها خـالية من روحيـة تميزت بها صيغة الميثاق غير المكتوبة وغير المكفولة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 21 يوليو (تموز) 1997

* * *

زوار مثقلون بالهموم وتقليد يفتقده الإعلام العربي الدولي

لم يحدُث أن إزدهرت حالة إعلامية وافدة إلى دولة من دول العالم كإزدهار الحالة الإعلامية العربية التي تشهدها بريطانيا منذ حوالى ربع قرن. وبصرف النظر عما إذا كانت هذه الحالة هى نتيجة ضـــيق صـــدور بعض الحكومات من الإعلام المتحرر بعض الشـــيء من القيود الرقابية والتحفظات الرسـمية، أو أنها نتيجة موجات من الهجرات المصـرية والفلسـطينية والعراقية والليبية والسورية والسودانية واللبنانية لكفاءات إعلامية، ثم نتيجة الحرب التي عصفت بلبنان ست عشرة سنة وشتتت شمل بنيه بمن فيهم بنو الصحافة والكتابة... بصـــرف النظر عن ذلك فإن الحالة الإعلامية العربية في بريطانيا إسـتقرت وباتت العاصـمة البريطانية، إذا جاز الوصف دولة الإغتراب الإعلامي العربي.

والقول بأن هذه الحالة إستقرت وتحولت إلى ظاهرة مردُّه إلى أن المطبوعات العربية إستقرت وتحولت إلى ظاهرة الشرعية مستمرة الصدور والبقاء في لندن على رغم إنفراجات نسبية، إلاَّ أنها ملحوظة، يشهدها العالم العربي من معظم. دول خليجـه إلى معظم الـدول المنتشرة على ضفاف المحيط. وعملاً بمنطق الإنفراج وطقوســـه فإن المطبوعة التي في الخارج يمكنها أن تصدر في الداخل، ولكن ذلك لا يحدُث، وبدلاً من أن يستدرج المناخ السياسي المستجد فى معظم دول العالم العربي، المطبوعات التي تصـــدر في دولة الإغتراب الإعلامي العربي، فـإن الـذي يحـدُث هو أن هـذه

المطبوعات صـــامدة في مكانها ويتكاثر الحديث بين حين وآخر عن مشـــاريع جديدة ربما ســـتنضـــم إلى المشـاريع القائمة حالياً. وهذا معناه أنه في مقابل تعثُّر المناخ السياسي العربي، الذي تتسم ملامحه بشكل من إشـــكال إنفراج والرغبة إلى درجة الحرص على طي ضـغوط ضـيق الصـدر، في إسـتدراج الإعلام العربي المغترب إلى صـــدور مطبوعاته في هذه الدولة أو تلك... إنه في مقابل ذلك نلاحظ أن دولة الإغتراب الإعلامي العربي (لندن) ما زالت تشـــكِّل نقطة جذْب لعشـرات الإعلاميين العرب الذين يفدون إليها، وكذلك للذين يتطلعون إلى إصدار مطبوعات منها.

ولقد إزدهرت ظـاهرة الإعلام العربي في لندن إلى درجة أنها باتت تشـــكِّل معلماً من معالم العاصـــمة البريطانية. ويكفي أن نحصـي المؤسـسـات الإعلامية العربيـة في بريطـانيـا من صـــحف يوميـة ومجلات أسـبوعية وشـهرية وإذاعة ومحطة تلفزيون، فضـلاً عن دور نشـــر، لنكتشـــف أهمية هذه الظاهرة وكيف أنها باتت جزءاً من الشـخصـية البريطانية. ومن المؤكد أن أهل الحُكْم البريطاني يوصـــون ســـراً وهم يرســـمون إســـتراتيجية الدولة بمراعاة ظاهرة الإعلام العربي في البلاد، ومنْحها كل التســـهيلات الممكنـة، ولا بـد أن هنـالـك تقـارير من جهـات مختصـــــة يتم رفْعها إلى الحكومة وتشـــير إلى أن الظاهرة من صـــحف وإذاعة وتلفزيون تقوم بدور تنشـــيطي ملحوظ في الســـياحة العربية إلى بريطانيا خصـوصـاً أن السائح العربي يجد نفسه وسط صحف وإذاعة وتلفزيون تخفف عليه وحشة غربته العابرة وتملأ فراغ ســـاعات ما بعد التســـوق أو الإستشفاء. ويجد المرء نفسـه يقول من باب الإفتراض إن حكومـة صـــــاحبـة الجلالـة الملكـة اليزابيث الثانية يمكن أن تخوض معركة سلاحها المسايرة والإقناع من أجْل الحفاظ على ظاهرة صـــاحبة الجلالة السُـــلطة الرابعة العربية التي يقترب عمر ظهورها في لندن من الربع قرن والتي تتبـاهى فيهـا على ســـائر الـدول الأوروبية وبالذات على فرنســـا التي نجحت في جذْب ظـاهرة الإعلام العربي لكنهـا أخفقت في أن تحيطهـا بالعناية التي أحاطت بها بريطانيا هذه الظاهرة وكانت بعيدة النظر في عنايتها هذه.

ولكن هذه الظـاهرة تفتقد إلى تقليد يحـار المرء في عدم تنبُّه عشـــرات المســـؤولين العرب النين يقومون بزيارات رسمية أو غير رسمية إلى بريطانيا إليه. ويكاد لا يمر شـهر إلاَّ ويكون هنالك حاكم عربي أو مسؤول عربي كبير أو وزراء عرب في زيارة إلى بريطانيا. إلاَّ أن أحداً من هؤلاء الزوار لا يُدرج في أجندته تخصيص سـاعتين من وقت زيارته ليلتقي فيهما مجموعة مختارة من الإعلاميين العرب الذين تجاوز عددهم الأربعمئة (من الجنســـين بين رؤســـاء ومديري تحرير وكُتَّاب ومعلقين ومحللين) لقاء للتنوير وليس للنشـــر، على نحو ما يفعل معظم المسـؤولين في دول العالم المتقدم مع وســـائل الإعلام. لقاء يطرح فيه الصـــحافي أو الكاتب كل ما يجول في خاطره من أسـئلة وتسـاؤلات على المســـؤول ويســـمع منه الإجابة التي تنير معالم طريق الكتابة وبذلك لا يعود متأثراً بأخبار وتســـريبات وتعليقات تحشـــرها وكالات الأنباء حشـــراً في ما تَبثه حول الكثير من القضايا.

وقبْل أيام توقَّعنا عندما قام الرئيس ياســـر عرفات بزيارته الأولى الرسـمية إلى بريطانيا العمالية أن ينظِّم له سفيره عفيف صافية، خصوصاً أنه إعلامي مستنير وأكثر دراية من غيره بأصـول سـر المهنة، جلسـة مع بعض الكتاب والصـــحافيين والمحللين العرب.. لكن مثْل هذا الأمر لم يحدُث، مع أن التسـاؤلات فى شـأن التحرك السـياسـى الفلسـطيني كثيرة ومتشـابكة وتحتاج إلى بعض التنوير في شـــأنها وبالذات بعدما إختلطت الأمور إلى درجة بات فيها التمييز بين المواقف صعباً بعض الشيء. وما هو مألوف ومتعارف عليه أنه كلما تكاثر الضـباب في سـماء قيادة سـياسـية ما كان من الضـــروري تنوير الرأي العام ليس من خلال بيانات وتصريحات، وإنما من خلال كتابات لمحللين وتعليقات لصـحافيين غير منمقة ولا تنبعث منها رائحة المسـايرة. وكيف سـتفي هذه الكتابات بالغرض إذا كان المسـؤول لا يلتقي عنـدمـا يقوم بزيـارة من نوع زيـارة الرئيس عرفـات إلى بريطـانيـا بنخبـة من الكتـاب والمعلقين والمحللين والصـحافيين العرب يقول لهم ما معناه: هذه هي المشـكلة يا إخواني من ألِفها إلى يائِها، وأي كلام آخر هو خارج الحقيقة، وأنا عندما أصـــارحكم بذلك فليس من أجْل كتابـة مـا أقول ولا من أجْل تبنِّي هذا القول وإنما من أجْل التنوير تاركاً لكم تقدير الموقف.

وبعد الرئيس عرفات قام الرجل للثالث – من حيث التسـلسـل – والرجل الأول – مِن حيث الأهمية – في الدولة اللبنانية رفيق الحريري بزيارته الرســـمية الأولى أيضـاً إلى بريطانيا التي تسلَّم الحُكْم فيها حزب العمال بعد طول غيـاب وتعثُّر، متثلاً (أي الرئيس الحريري) بهموم ومشـــاكل وإتهامات وحملات تجريح ووعيد

و«ثورة جياع» لم تبدأ كما توقَّع ولا يبدو أنها ستنتهي كما يتمنى. وكما توقَّعنا بالنسبة إلى زيارة الرئيس عرفات، فإننا إفترضْنا أن الرئيس الحريري سيحرص على أن يشرح كل شيء أمام نخبة من الكُتاب والمحللين والمعلقين والصحافيين العرب في العاصمة الدولية للصحافة العربية، وكنا تواقين إلى مثل هذا اللقاء والتوضيحات لأن الإتهامات إختلطت بالتجريح وألقت بظلال ثقيلة على إنجازات طيبة حققها الرئيس الحريري ولا يزال أمامه الكثير لكي يحققه. لكن مثْل هذا الأمر لم يحدُث مع أن لدى الإعلاميين العرب في لندن الكثير مما يحتاج إلى تفسير وتوضيح من الرئيس الحريري، ولدى الرجل أيضاً الكثير مما يمكن أن يقوله ويفْصل به الخلط بين أنه ظالم ومظلوم في الوقت نفسه.

وبعد الرئيس الحريري حل أمير دولة قَطَر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ضيفاً رسمياً على بريطانيا، وإفترضْنا أن الأمير الذي بات موقف بلاده من قمة الدوحة الإقتصادية محط إهتمام العالم العربي ومعظم دول العالم، سيخصص من وقته ساعتيْن يقول فيهما لنخبة من الإعلاميين العرب في العاصمة الدولية للإعلام العربي الكثير فى شأن قمة الدوحة المرتقَبة التي توسَّع نطاق حالة الإحباط في النفس العربية إزاءها، والتي هي القمة الوحيدة في تاريخ القمم خلال نصف قرن التي من المقرر أن تنعقد في دولة عربية وتكون أكثرية الدول العربية غير راضية عن إنعقادها مقابل رضى أكثرية دول العالم على الإنعقاد. وفي هذا اللقاء كان يمكن طرْح عشرات الأسئلة الصعبة وتلقِّي إجابات عنها بما ينير معالم الطريق. ولكن مثل هذا الأمر لم يحدث.

وهكذا زارنا في العاصمة الدولية للإعلام العربي أكثر ثلاثة حكام عرب مثقلين بهموم ناشئة عن قضايا عالقة. وتمنينا أن يكرِّس هؤلاء ظاهرة اللقاء التنويري بين رجل الدولة العربي والإعلام العربي الدولي. ولكن ذلك لم يحدُث. لعله يحدُث مستقبلاً ولا يعود الإعلام العربي الدولي يفتقد تقليداً نغبط عليه زملاءنا الأجانب الذين يعرفون الحقيقة من المنبع وعند النشر يضعون مصلحة بلادهم فوق أي مصلحة. وهذا ما يجب أن يسود.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 28 يوليو (تموز) 1997

* * *

صغرى مع إسرائيل.. وكبرى مع آخرين.. وعظمى مع العرب والمسلمين

هذه المرة بالذات نجد أنفسنا نقول بثقة إن المسؤول الأول عن التفجير الذي حدث في القدس الغربية يوم الأربعاء (30 – 7 – 1997) هو الإدارة الأميركية التي يتربع على قمتها الرئيس بيل كلينتون. فلقد أثبتت هذه الإدارة أنها ليست الإدارة التي تصنع سلاماً عادلاً وأن كل ما تفعله، منذ ان إستدرجت بعض الأطراف العربية إلى عملية السلام التي تبين أنها ورطة، هو أنها ستُبقي على الوضع الراهن لتلك العملية، وهو وضع في غاية التعثر، إلى أن ينقضي ما تبقَّى من عمر ولاية الرئيس كلينتون.

وعند التأمل في الأسلوب الذي تعتمده هذه الإدارة منذ صفقة أوسلو حتى الآن نلاحظ أن الرئيس كلينتون يتصرف دائماً على النحو الذي لا يجعل عملية السلام تتقدم. فهو عندما تكون هنالك ضرورة للضغط على إسرائيل فإنه لا يقوم بذلك. وعندما تسعى دول أُخرى لديه من أجْل أن يضغط وينقذ عملية السلام فإنه لا يتجاوب مع السعي. وهو عندما تعتدي إسرائيل يرفض إدانتها ولا يتيح المجال أمام قرار إدانة يصدر عن مجلس الأمن. وهو كلما تقدمت إسرائيل بطلب مساعدة فإنه يبذل كل ما في وسعه ليس لتأمين موافقة الكونغرس على الطلب وإنما للإسراع في التلبية. وهو في كل مرة يلتقي فيها بمسؤول عربي يقوم بزيارته في واشنطن وفي ظنه أنه سيعود من لقاء الرئيس غانماً فإنه – أي كلينتون – يستبق الطلب العربي بمطالب تصب كلها في خانة التنازل بما يرضي إسرائيل ويغريها بإنجاز عملية السلام.

ولقد إرتكبت الحكومة الإسرائيلية أبشع المخالفات لما تم الإتفاق في شأنه من أجْل السلام ولم نسمع من الرئيس كلينتون تصريحاً يكون عبارة عن نقد قاس من رئيس اميركا لهذه المخالفات ولخروج رئيس الحكومة الإسرائيلية نتنياهو عن أمور تم التفاهم في شأنها والإتفاق على ضرورة تنفيذها.

وقد يجوز لنتنياهو التذرع بحجج كثيرة لكي لا يلتزم بهذه الأمور وذلك على أساس أنه ليس هو الطرف الذي أبرم صفقة أوسلو من جانب إسرائيل، ولكن ما ليس جائزاً على الإطلاق هو ألاَّ يكون الرئيس كلينتون حازماً كل الحزم على أساس أنه هو الراعي الأول

والأخير لعملية السلام. ومن كان هذا دوره فإن الواجبات الملقاة عليه كثيرة. ومع ذلك فإنه لا يتصرف بما تمليه عليه مسؤولية الراعي، بل انه يفعل نقيض ما هو مطلوب منه، أي انه، عن قصد او عن عجز، يشجع في كل مرة نتنياهو بدل أن يردعه، مع انه لو تصرف منذ البداية بالحزم المطلوب لما كان رئيس الوزراء الإسرائيلي تمادى وإلى درجة التصريح مرة بأنه لا يتلقى التعليمات من الإدارة الأميركية، عِلْماً بأن العرف السائد هو أن مَن يتلقى الدعم والسلاح والمساعدات والنجدات في ساعة الشدة لا يجب أن يغص بتعليمات تصله من الطرف الذي يساعده، مع الأخذ في الإعتبار أن الإدارة الأميركية لا تبعث إليه بتعليمات وهو ما يجب أن تفعله.

والذي يثير الإستغراب في الإدارة الأميركية هو هذا التسليم الكامل، ونكاد نقول الإستسلام، بالتجاوزات الإسرائيلية. ويزيدنا إستغراباً هو أن إدارة الرئيس كلينتون تتصرف مع كل دول العالم على أنها دولة عظمى وترفض اي خروج على إرادتها حتى في صفقة سلاح متواضعة من نوع الصفقة التي كات تبرمها الكويت مع الصين، إلاَّ انها مع إسرائيل تتساهل في أمر التصرف المشار إليه وإلى درجة تبدو إسرائيل أحياناً وكأنها هي الدولة العظمى والولايات المتحدة بشخص الإدارة الحالية دولة أقل شأناً.

واللافت للنظر هو أن الإدارة الأميركية بدل أن تتأمل في بعض التصريحات التي تصدر عن أصدقاء للولايات المتحدة، وأبرزهم الرئيس حسني مبارك، وتعيد النظر بعض الشيء في أسلوب تعاملها مع اسرائيل، فإنها لا تكترث بمضمون هذه التصريحات وأحياناً تفعل العكس. ومنذ ثلاث سنوات والرئيس مبارك يتصرف وكما لو أنه الناطق بإسم العرب والمسلمين الحريصين على العلاقة مع الولايات المتحدة من جهة والمنزعجين كل الإنزعاج من أسلوب تعاملها مع إسرائيل. وفي تصريحاته، وأحدثها أدلى بها في دمشق (خلال مؤتمر صحافي مشترَك مع الرئيس حافظ الأسد، صادف إنعقاده قبْل ساعات من التفجير الذي حدَث في القدس) سمعْنا الرئيس مبارك يقول «إن الموقف الراهن في عملية السلام صعب للغاية وكان من المنتظر حدوث مرونة من الجانب الإسرائيلي ولكن شيئاً من هذا لم يحدُث حتى الآن. إن الموقف محيّر ولا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع كثيراً ولكن أُحب أن أقول إن البديل للسلام سيكون خطيراً على جميع دول المنطقة بما فيها إسرائيل، واذا إنفرط العقد فسيكون من الصعب إعادة الهدوء والسلام...».

وإذا كانت الإدارة الأميركية لا تقوم بوقفة تأمل أمام ما يقوله الرئيس مبارك، وما يقوله الرئيس حافظ الأسد، وما يؤكده في إستمرار أهل الحُكْم السعودي، كثوابت لسياسة المملكة إزاء القدس والجولان والحقوق الفلسطينية، فمتى إذاً تقوم بتلك الوقفة؟ لقد تحمل اصدقاء الولايات المتحدة من الإدارة الأميركية والأسلوب الملتوي الذي تنهجه بالذات إدارة الرئيس كلينتون، ما بات من الصعب تحمُّل المزيد منه. وبات هؤلاء – وبالذات الرئيس مبارك – محرَجين أمام الرئيس حافظ الأسد بعد الإعلان في إسرائيل قبْل أيام عن مشروع القرار المطروح على الكنيست بضم الجولان. فالرئيس مبارك تبنَّى الموقف الفلسطيني على أساس أن رعاية هذا الموقف تزيل الإنطباع السائد بأن مصر تخلت عن القضية الفلسطينية منذ أن إستعادت أرضها المحتلة، وبذل جهداً كبيراً من أجْل تقريب الرئيس الأسد من العملية السلمية وذلك على أساس أن هذه العملية تعيد الجولان السورية وتزيل التحفظات في شأن إستباق مصر عملية الصلح مع إسرائيل. وفي الحالتيْن تكون المكاسب جيدة. وعندما لا تتقدم العملية السلمية ويصيب الموقف الفلسطيني ما أصابه من تعثُّر، ثم عندما تتتابع الصدمات في ما يتعلق بسوريا وتصل إلى حد أنه بعدما اعتبر الحُكْم السوري أن السلام خيار إستراتيجي تحدُث عملية الإستفزاز الكبرى المتمثلة بمشروع القرار الخاص بالجولان... إنه عندما يحدُث ذلك فهذا معناه أن الجهد الذي بذله الرئيس مبارك في الإتجاه الفلسطيني ولدى الرئيس الأسد سيتلاشى وأنه فى هذه الحال سيكون بحكم ما يفرضه المنطق مؤازِراً للقيادة الفلسطينية إذا هي إختارت العصيان المدني السياسي ومؤازِراً للحُكْم السوري إذا هو إرتأى أن المواجهة لا مفر منها إنسجاماً مع مقولة الرئيس الأسد في المؤتمر الصحافي المشترك مع الرئيس مبارك في دمشق يوم الأربعاء 1997.7.30 «سنحافظ نحن العرب جميعاً على إرادتنا وأوطاننا ولن نتخاذل، ولا يوجد سوري واحد يقْبل التنازل عن الجولان..» واللافت للنظر هنا أن الرئيس الأسد يقول «سنحافظ نحن العرب» ولا يتحدث بإسم سوريا فقط، وهي عبارة مستوحاة من مضمون لقائه مع الرئيس مبارك ومِن قبْل من لقائه مع ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن

عبدالعزيز قبْل بضعة أسابيع في دمشق.

وتكراراً إن مسؤولية كل ما يحدث من تعثُّر للعملية السلمية وما يرافق التعثر من إهانات وإستفزازات من جانب إسرائيل للعرب والفلسطينيين ثم ما يحدُث من عنف وتفجيرات (على نحو ما حدَث في القدس)... إن مسؤولية كل ذلك تقع على الإدارة الأميركية. وهي لو تصرفت لمرة واحدة كما يفرضه عليها واجبها كراعية للعملية السلمية لكان كل هذا الذي يحدُث لن يحدُث ولكانت إسرائيل ستشعر بالأمان ولكان العرب سيشكرون للولايات المتحدة موقفها ووقفتها ويزدادون تمسكاً بالعملية السلمية على رغم أنها جاءت منقوصة ومفروضة ولمصلحة إسرائيل قبْل أن تكون لمصلحة العرب والفلسطينيين. وبتحديد أكثر دقة انه لو مارست الإدارة الأميركية دورها وواجبها كرمز للدولة العظمى مرة واحدة على إسرائيل لكان سيتبدد الإنطباع الذي يترسخ يوماً بعد آخر في الأذهان وهو أن الولايات المتحدة كبرى مع بعض دول العالم وعظمى مع البعض وبالذات مع العرب والمسلمين إلاَّ أنها أقل عَظمة، ونكاد نقول صغرى أمام اسرائيل. وإذا كانت ستبقى على ترددها في ممارسة الدور المأمول فإن واجب الناطق بإسم الأطراف العربية الصديقة الرئيس مبارك، الذي يقوم من ثلاث سنوات بمسعى لدى الجانبيْن السوري والفلسطيني، أن يعلن فى واحد من تصريحاته وبصراحة أن الإدارة الأميركية هي التي تتحمل مسؤولية تعثُّر العملية السلمية وما ينتج عن هذا التعثر من مفاجآت ومواقف إستفزازية وعمليات تفجير.

وعندما تبدأ مثل هذه المصارحة فإن الإدارة الأميركية ربما تتنبه خصوصاً أنها إذا كانت لن تتنبه ستكتشف في ضوء دعوة الرئيس العراقي صدَّام حسين قبْل شهر إلى قمة لا تشترط المصالحة، وفي ضوء الزيارة الإستثنائية للرئيس الأسد إلى طهران يوم الخميس 1997.7.31، وفي ضوء الإنفراج المتزايد في العلاقات العراقية – السورية، وفي ضوء التوجه العربي نحو التضامن خطوة خطوة... إن الإدارة الأميركية ستكتشف أنها أمام واقع جديد ربما لا يبقيها على شأن العظمة الذي تريده، وستجد أنها أضاعت فرصة تاريخية وأن إسرائيل أضاعت نفسها... لأن العرب وجدوا أنفسهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 4 أغسطس (آب) 1997

* * *

لقاء مصري – سوداني غير مسبوق

المقالة الأولى: سيدان في برج العرب مع مبارك وسيدان في الخرطوم مع البشير

في مبادرة غير مطروقة مِن قبْل في العهديْن الناصري والساداتي إستقبل الرئيس حسني مبارك في إستراحة الرئاسة في برج العرب صباح يوم الأربعاء 6 أغسطس (آب) 1997 سيِّدَي الطائفتيْن التاريخيتيْن في السودان، السيد محمد عثمان الميرغني الزعيم الروحي بلا منازع لطائفة الختمية، والسيد الصادق المهدي الأقوى بين المتنازعين على زعامة طائفة الأنصار.

ومن المؤكد أن السودانيين في الداخل والخارج الذين شاهدوا صورة اللقاء الذي بدا فيه السيدان محيطيْن بالرئيس مبارك (الميرغني إلى يساره والمهدي إلى يمينه) سواء على الصفحات الأولى من الصحف المصرية أو عبْر شاشات الفضائيات التي بثت النبأ وصورة اللقاء.. من المؤكد أن هؤلاء استقبلوا النبأ بالكثير من الإهتمام، وهم محقون في ذلك. وليس مبالغة إعتبار اللقاء بأنه واحد من الأحداث البالغة الأهمية في مسار العلاقات المصرية – السودانية.

وبالنسبة إلى معارضي الحُكْم الحالي في السودان يبدو لقاء الرئيس مبارك في برج العرب مع السيديْن محمد عثمان الميرغني والصادق المهدي بمثابة تنشيط لحركة المعارضة السودانية التي بدأت تفتر همتها ويخفت صوتها وتنحسر حيويتها، وخصوصاً بعدما استنفدت طرْق معظم الأبواب وأخيرها وليس آخرها الباب الأميركي الذي لم يكن مشجعاً.. هذا إذا لم نقل إنه كان مثبطاً للعزيمة. ثم جاء لقاء برج العرب المفاجئ ليرفع من معنويات المعارضة.

إلاَّ أننا ونحن نقول ذلك نأخذ في الإعتبار أمراً بالغ الأهمية، وهو أن اللقاء كان مع المعارضة ولم يكن مع المعارضة، وهذا ليس لغزاً صعب التفسير، ذلك أن الرئيس مبارك إستقبل السيديْن دون غيرهما من رموز حركة المعارضة، فلا وجود للقائد العسكري للمعارضة جون قرنق ولا وجود لبقية فصائل المعارضة. كما أنه لا وجود للمساعدين والمستشارين. وبدا اللقاء في ضوء ذلك وكأنما هو رسالة مفادها أن مصر ليست ميالة إلى العمل العسكري وأي أعمال عنف لإسقاط النظام الحالي في السودان، وأنها، إذا جاز التعبير، تفضل أن يحدُث نوع من توحيد الجهود

السياسية بين الطائفتيْن التقليديتيْن في السودان. كما أن الرئيس مبارك بهذا اللقاء بدا كمن يهيئ نفسه لمرحلة ما بعد سقوط النظام الذي يتقاسم زعامته الفريق عمر حسن البشير والدكتور حسن الترابي وذلك على أساس أن النظام لا قدرة له على الصمود ما دام لن يعيد النظر في منطلقاته وفي أسلوب تعامله مع القوى السياسية الأُخرى في البلاد.

ومثْل هذا الإفتراض وارد، ذلك أن مشكلة مصر في الماضي كانت في إستمرار تتمثل في أنها تعتمد على طرَف سياسي واحد هو الطائفة الختمية وذراعها الحزبي (الوطني الإتحادي) وهذا كان يتسبب لها في عداوات من جانب الطرَف الآخر، أي طائفة الأنصار. وهي كانت في إستمرار في إنتظار فرصة أن تلتف الطائفتان حولها بدل إلتفاف طائفة حولها وإلتفاف طائفة أُخرى عليها. وجاءت الفرصة حيث إن زعامة الطائفة الختمية بدأت تفقد مهابة أسلوبها التقليدي الذي زرع بذرته السيد علي الميرغني، وهو أسلوب يفضل العمل السياسي من وراء الستار تاركاً العمل المباشر إلى الحزب الإتحادي. أما طائفة الأنصار فإنها باتت تحتاج إلى مرحلة إستقرار نتيجة أن هنالك ما يشبه التشتت قد حدَث، ولا يمكن لهذا الإستقرار أن يتحقق إذا كانت العلاقة مع مصر، وبالذات في غياب فتور في العلاقة مع السعودية وليبيا، لن تتضح معالمها بحيث تكون علاقة ثابتة للمرحلة الراهنة وللمستقبل وليست علاقة طارئة يفرضها الجامع المشترك للحُكْم المصري وللطائفة، وهو العمل على تغيير النظام في السودان.

واللافت للنظر في لقاء الرئيس مبارك بالسيديْن السودانييْن هو، إضافة إلى إستقبالهما معاً، الإعلان عن ذلك، وأنه – أي اللقاء – يحدُث في وقت يكون هنالك في الخرطوم سيدان آخران هما الأحمدان: أحمد المهدي (عم الصادق) الذي يفضل التعايش مع الأمر الواقع على المصادمة، وأحمد الميرغني (رأس مجلس الدولة السابق والشقيق الأصغر للسيد محمد عثمان الميرغني) وكلاهما يفضلان "جحيم البشير والترابي" – إذا جاز القول – على "جنة كلينتون ومبارك وأفورقي"، إذا جاز القول أيضاً، وهما من أجْل ذلك إختارا أن يكون مكانهما الداخل وليس الخارج، فضلاً عن أنه بالنسبة إلى السيد أحمد الميرغني معروف عن الرجل أنه لا يميل إلى المشاكل والمصادمة، وواسع الصدر، ويعتقد – على عكس شقيقه الأكبر محمد عثمان – أن الحوار هو الأفضل حتى إذا كان مردوده ضئيلاً.

وإعلان القاهرة عن لقاء برج العرب قد يكون مؤشراً إلى نهج جديد في التعامل المصري مع المعارضة السودانية، التي لا بد أنها ستشهد تشققاً بعد هذا اللقاء نتيجة أن السيديْن، سيد الختمية وسيد الأنصار، لم يقابلا الرئيس مبارك ممثليْن لتجمُّع المعارضة وإنما قابلاه بصفة الزعيميْن التقليديين للطائفتيْن المحرومتيْن في السودان ما دام النظام الحالي قائماً أو أن الرئيس المصري إستقبلهما وفي ذهنه إحياء معادلة السودان ذي الطائفتيْن، على أن تكونا له وليس واحدة له في السرَّاء والضرَّاء والأُخرى معه عند الضرورة وعليه عندما تنتفي الضرورة.

وثمة نقطة لا يمكن إسقاطها من التحليل ونحن نتأمل في لقاء القمة الفريد من نوعه بين مصر والسودان، وهي أن هذا اللقاء قد يكون تناول مسألة الوفاق السوداني في ضوء ما نشط في سبيله رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان. ولأن العلاقة التي بين الرئيس مبارك والشيخ زايد هي أكثر العلاقات الثنائية تميزاً بين الحكام العرب، فإن إفتراض حدوث التناول المشار إليه يبدو إفتراضاً في محله. وهذه النقطة إضافة إلى النقطة الأُخرى حول إحتمال حدوث تشقق في المعارضة السودانية من شأنهما إفادة النظام في السودان.

.. ولهذه الإنطباعات عن اللقاء المصري – السوداني الأول من نوعه بقية.

* * *

□ المقالة الثانية: الحالمون الثلاثة بالعودة والثأر... والحُكْم

جاء نبأ لقاء برج العرب، بين الرئيس حسني مبارك والسيديْن محمد عثمان الميرغني والصادق المهدي، برداً وسلاماً على نفوس السودانيين الذين ضاقت صدورهم بالصراع الدائر في السودان، وعلى أمل أن اللقاء سيخفف من تشدد السيديْن فينتهجان أسلوب المعارضة السلمية، ويهدأ بذلك البال السوداني بعض الشيء، أو يعتبر الرئيس مبارك أنه بالسيديْن الحليفيْن يمكن أن يتعامل مع الأزمة بالمزيد من التصعيد، واضعاً كل الإمكانات إلى جانب المعارضة، فيغيّر النظام في السودان أسلوبه أو يتغير. وفي كل الحالات سيكون المردود لصالح الإستقرار المطلوب للسودان.

أما النظام في السودان فجاءه نبأ اللقاء كما لو أنه عاصفة عاتية في صيف طيب نسبياً، وجاءه في ذروة

إرتياحه لعزم السيد أحمد الميرغني، المقيم مع عائلته منذ فترة في الإسكندرية، على العودة إلى السودان. كذلك يمكن القول إن النظام في السودان تلقى نبأ لقاء برج العرب وهو في ذروة ابتهاجه بالأجواء التي نشأت عن عودة الشريف الثاني (زين العابدين الهندي) إلى السودان وإستعداده للتعامل مع النظام، بهدف تعديل أسلوب تعاطيه مع القوى المعارضة والرأي الآخر وإعادة النظر بعض الشيء في طروحاته، مستفيداً (أي الشريف زين العابدين) في ذلك من الثغرات التي رافقت المصالحة الوطنية بين الرئيس جعفر نميري والصادق المهدي في مثل هذه الأيام قبْل عشرين سنة بلقاء الإثنين في بورسودان. ولا بد أن الشريف الثاني، وببصيرته السياسية النيّرة – وخصوصاً أنه من الهادئين المعتدلين المرنين – يعتبر أن الشريف الأول، شقيقه حسين الهندي، كان أحد أسباب إرباك المصالحة، لأنه قاطعها تاركاً حليفه الصادق المهدي في وضْع لا يُحسد عليه، مسبباً له إحراجاً مع الرئيس نميري لا مثيل له.

وما يمكن قراءته في تحرُّك الشريف زين العابدين، هو أن الرجل يحبذ الأسلوب نفسه الذي يحبذه السيد أحمد الميرغني، والذي هو نقيض أسلوب الشريف الأول حسين، الذي توفي يوم 11 يناير (كانون الثاني) 1982 في أثينا بفعل أزمة قلبية حادة وتمّ دفْنه في السودان في ضريح والده. كذلك يمكن القول إنه يحاول بتحركه إحياء وهج الأزهرية، أما ما يمكن تسميته "الخط الثالث"، على أمل أن يكون هو أزهري (نسبة إلى الرئيس والزعيم الراحل إسماعيل الأزهري) التسعينات، على إفتراض أن السيد محمد عثمان الميرغني، في ضوء إيحاءات من اللقاء مع الرئيس مبارك وببعض الضغط من شقيقه الأصغر السيد أحمد، سيقلل من تعاطيه الشأن السياسي الذي تَسبب له في تبنّي مصادمات ودعوات إلى العنف، وهو ما لم يحدُث مع الوالد الراحل، السيد علي، والإهتمام أكثر بشؤون الطائفة، تاركاً العمل الحزبي والسياسي لآخرين. وإذا حدَث ذلك مع الختمية فقد يتحمس السيد الصادق المهدي ويحذو الحذو نفسه، وتستقر بذلك حال طائفة الأنصار التي باتت أحوالها مثل أحوال الحُكْم العراقي الذي ينتقل من حرب إلى حرب وتتسبب كل حرب يخوضها بالمزيد من الشقاء للناس.

ومن الجائز الإفتراض أن مسألة إنبعاث ظاهرة الأزهرية في السودان تبدو مستحبة للرئيس مبارك، وبالذات للجيل السياسي المصري الذي عاش وهج تلك الحقبة. وليس مستبعَداً أن تكون هنالك مفاتحة حدثت في هذا الشأن بين الشريف زين العابدين والحُكْم المصري، قبْل أن يمم الشريف الثاني وجهه شطر بلده الأول، السودان، تاركاً أُسرته في القاهرة التي يعيش فيها منذ سنوات. إلاَّ أنها مفاتحة من النوع الذي يبقى حبيس الصدور.

أما لماذا يبدو الحُكْم المصري ميالاً إلى إنبعاث الظاهرة الأزهرية، فلأنه مقتنع في قرارة نفسه أن هذه الظاهرة ستعزز شأن الختمية، ويهمه أن تتعزز الطائفة لأنها لم تغادر تعاطفها التقليدي، عن مبدأ وإستراتيجية، منذ الخمسينات مع مصر، ولأنه يرى أن طائفة الأنصار يمكن أن تتقدم خطوة أو خطوات نحو مصر لكن تقدُّمها وخطواتها لن تصل إلى موقف الختميين. ويجوز الإفتراض أن هذا التودد من جانب الأنصار نحو مصر ما كان ليحدُث لو أن علاقة الطائفة مع أطراف عربية أُخرى هي على ما كانت عليه في الماضي من ود وإزدهار.

وثمة أمر لافت للنظر وهو الطريقة التي تمّ بها الإعلان عن لقاء برج العرب. فالنبأ الرسمي، الذي صدر عن ديوان رئاسة الجمهورية في مصر، أشار إلى أن الرئيس مبارك إستقبل محمد عثمان الميرغني بصفته "رئيس الإتحاد (يقصد التجمع) الوطني السوداني ورئيس الحزب الإتحادي الديمقراطي"، والسيد الصادق المهدي بصفته "رئيس حزب الأمة ورئيس وزراء السودان الأسبق". كذلك أشار النبأ المصري إلى أن الرئيس مبارك "إستمع إلى عرْض للتطورات التي تجري في السودان الشقيق والأوضاع الداخلية فيه، حرصاً على إستقرار الأمور لمصلحة الشعب السوداني...". أما النبأ السوداني عن اللقاء فكان بصيغتين، الأولى تمثلت ببيان يحمل توقيع مكتب "حزب الأمة في مصر" وجاء فيه: "إن اللقاء مع الرئيس مبارك تناول بناء موقف عربي تقوده مصر للأخذ بيد الشعب السوداني في محنته الحالية، ودعْمه في مجالات الإغاثة الإنسانية والتسهيلات القنصلية للسودانيين المقيمين في مصر، والمساعدات التعليمية عامة والتعليم العالي خاصة بعد تدهور وتوقُّف التعليم في السودان، وكُلِفت لجنة مؤهلة للنظر في هذه الأهداف لبرمجتها وتفصيلها لوضعها في حيز التنفيذ خدمة لمصالح أبناء السودان في محنتهم الحالية. وأكد السيد الصادق المهدي شُكره لفخامة الرئيس محمد

حسني مبارك وشعب مصر الشقيق لوقوفهم بجانب الشعب السوداني المنكوب آملين أن يستعيد السودان حريته وكرامته في ظل نظام ديمقراطي يُؤسَّس على التعدد ويحقق العدالة والسلام". أما الصفة التي أطلقها البيان على الصادق المهدي فهي "رئيس وزراء السودان المنتخب ورئيس حزب الأمة"، وهي صفة لم ترِد في بيان لاحق – ربما رداً على بيان حزب الأمة – صدر عن "التجمع الوطني الديمقراطي – مكتب الرئيس"، وأشير فيه إلى الصادق المهدي بأنه – فقط – رئيس حزب الأمة، من دون ذِكْر أنه "رئيس وزراء السودان المنتخَب" أو حتى "رئيس وزراء السودان الأسبق" على نحو ما جاء في الصيغة المصرية الرسمية. وفي الصيغة الميرغنية لنبأ اللقاء "أن الميرغني والمهدي تقدَّما بالشكر للرئيس مبارك على مواقفه الواضحة وتفهُّمه العميق لما يواجه السودان من مخاطر". كذلك أشارت الصيغة إلى مذكرة تمّ تقديمها خلال اللقاء "تتضمن معالجة بعض الصعوبات التي تواجه السودانيين في مصر" من دون ذِكْر أي تفصيلات على نحو ما جاء في بيان حزب الأمة. والتقى البيانان على الإشارة إلى العلاقات الأزلية بين مصر والسودان... إلخ.

والمهم في الأمر هو أن البيان الذي كان يأمل السودانيون صدوره لم يصدر. وما نقصده هو صدور بيان واحد عن السيديْن بصيغة واحدة. وهو لو كان صدر لكان أعطى إنطباعاً بأن القلوب الختمية والأنصارية متآلفة بالفعل. كما أن الرئيس مبارك كان سيُبدي إرتياحه لو حدَث ذلك، خصوصاً أنه لا يمكن صدور بيان مشترك مصري – سوداني عن اللقاء لأن ذلك غير مألوف، وربما غير مرغوب. وفي تقديرنا إنه لو إقترح السيد الأنصاري على السيد الختمي، أو العكس، إصدار بيان واحد، وبصيغة مدروسة أكثر، وبعيداً عن حساسية المنصب السابق، لكان ذلك أحدث بعض الخشية في نفوس أهل النظام في السودان، ولكان أدخل الكثير من الطمأنينة والمسرة على نفوس قطاعات عريضة من الختمية والأنصار في السودان.

أما لماذا الطمأنينة والمسرة، فالإنطباع الذي سينتشر، وهو أنه غير صحيح أن "الختمية ختمية والأنصار أنصار" ولا يمكن أن يلتقيا على أرضية من صفاء النفوس والقلوب. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن السيديْن الأولييْن للطائفتيْن (السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي، طيَّب الله ثراهما) إلتقيا ذات مرة عام 1955 فكان لقاؤهما، على نحو ما هو منسوب إلى السياسي السوداني المستنير والعريق (الراحل) محمد أحمد محجوب، بمثابة ضربة كثيرة الإيلام للديمقراطية في السودان.

وتبقى الإشارة إلى أن اللقاء – الذي كان سيبدو رسالة بالغة الخطورة إلى الحُكْم في السودان لو كان شارك فيه العقيد جون قرنق، الزعيم العسكري للمعارضة السودانية – جرى بينما الرئيس الأسبق جعفر نميري، الذي يقيم لاجئاً في مصر منذ إسقاط حكمه، يراقب هو الآخر التطورات. ومن المؤكد أنه لو جرى إشراكه في لقاء برج العرب، برغبة من الرئيس مبارك، لما كان للسيديْن أن يرفضا الفكرة، وخصوصاً السيد الصادق المهدي الذي أرهق الحُكْم المصري بإلحاحه من أجْل تسليم نميري إلى الحكومة السودانية لكي يحاكمه الصادق، الذي سبق أن أبرم مصالحة معه. أما لماذا إستبعاد الرفض، فلأن للضرورة أحكاماً، بدليل أن سيديْ الطائفتيْن في السودان موجودان في مصر، وليست حالهما أفضل من حال الرئيس الأسبق نميري. والثلاثة يحلمون بالثأر، وبالعودة... وبالحُكْم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 18 أغسطس (آب) 1997

* * *

يساعد القذَّافي محمد والساعدي أو يبادر الإبنان إلى مساعدة والدهما...

ظاهرة أن يتولى أبناء بعض الحكام، وبنات بعضهم، وزوجات آخرين، مسؤولية الإشراف على المؤسسات الإجتماعية والشبابية والرياضية والثقافية، ظاهرة طيِّبة، وبالذات في دول العالم الثالث التي جذور البيروقراطية راسخة فيها.

وإذا كان لا بد من التوضيح فإن ما يمكن قوله إن مثل هذه المؤسسات تُعطى، بمفهوم الأداء الحكومي، الإهتمام الثانوي.. تتقدم عليها الإهتمامات التموينية والإهتمامات العسكرية والإهتمامات التربوية والتعليمية والإهتمامات الصحية... وهكذا. وهنالك حكومات في بعض دول العالم الثالث تواجه في إستمرار متاعب مالية، فتعتبر المؤسسات المشار إليها نوعاً من

الكماليات، وإن تأمين رغيف الخبز وصفيحة البنزين والدواء، أهم بكثير من إنشاء مكتبات عامة في المناطق، وبالذات حيث يتزايد الجهل بما يحدُث في العالم، وذلك للمساعدة في تعويد الناس على القراءة والمعرفة، وأهم بكثير من تنشئة جيل رياضي.

وفي الوقت نفسه هنالك حكومات في دول مقتدرة من العالم الثالث نفسه لا تعاني المتاعب المالية لكنها لا تعطي قطاع الرياضة والفن والثقافة حقه لأن الهموم والإهتمامات السياسية طغت مثل الفيضان على الحياة العامة، فلم يعد لدى الحاكم الوقت للتأمل في مثل هذه الأمور.

وبالنسبة إلى ليبيا، فإن العقيد معمَّر القذَّافي، خلال سنوات صراعاته ومشاكساته التي غطت معظم مناطق التوتر في العالم، قطَعَ الطريق على العصامية الرياضية وبحيث ينمي الشباب الليبي قدراته وهواياته في مجالات الرياضة من خلال النوادي الخاصة التي تتنافس، ويشكِّل تنافسها نوعاً من التنافس المطلوب، وبالذات في مجتمعات تعيش بمشقة التحول الثوري.. وهي مسألة تنبه لها الرئيس جمال عبد الناصر فشجعها ضمناً، وأحياناً في العلن. وللمرء أن يتصور لو أن الرئيس عبد الناصر لم يترك المجال رحباً أمام التحزب الرياضي، بينما هنالك كتْم حقيقي لأنفاس الحيوية الحزبية على الصعيد السياسي. أو فلنقل، بهامش أكثر إتساعاً من الوضوح، أن الأحوال كانت ستكون كثيرة الكآبة لو أن الحزب الناشط علناً فقط هو الإتحاد الإشتراكي مع أنه ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان فاشلاً صيغة ومضموناً وأشخاصاً، بينما لا مجال على الإطلاق لنوادي الأحزاب الكُروية وأشهرها نادي "الأهلي" ونادي "الزمالك" إضافة إلى بعض النوادي الواعدة الأُخرى. كذلك لنتصور لو أن الصحافة المصرية والإذاعات والتلفزيون كانت مشغولة فقط ليل نهار بأخبار الدولة ومطاردات الناصرية للكثير من القضايا خارج الحدود، وبإكتشاف مؤامرات وهمية في معظمها للحزبين اللذين نشطا تحت أرض الإتحاد الاشتراكي، وهما "الإخوان المسلمون" و"الشيوعيون". أما ما يخص النوادي واللاعبين والمباريات والدوري فلا مجال له على صفحات الوسائل الإعلامية التي نشير إليها. إننا لو إفترضْنا أن ذلك هو ما تم إعتماده لكان سيحدُث إنفجار كُروي في مصر يشبه في بعض أوجهه إنفجار عناصر في قوات الأمن المركزي عندما إجتاحوا، وفي لحظة حرمان وضعت أُسر بعضهم على مشارف الجوع، بعض الفنادق السياحية ولم يعتدوا على البشر، كما يفعل بعض عناصر الجماعات الإسلامية في زمن الرئيس حسني مبارك، وإنما إقتحموا الثلاجات وأفرغوها من الدجاج واللحم المجلَّد.

وإذاً، فإن مراعاة عبد الناصر للمسألة الكُروية وإعطاء الضوء الأخضر للصحافة بأن تنافس صور أبطال الكرة، دون غيرهم، صور الرئيس على صفحات "الأهرام" و"الأخبار" و"الجمهورية" و"المصور" و"آخر ساعة"... إن مراعاته هذه أبعدت عن مصر شبح الإنفجار الكُروي وأبقت في الوقت نفسه للبلد كفاءة رياضية تكمل بقية كفاءات أي نظام، وخصوصاً أمام دول العالم، الصديق منها والعدو.

وقد تكون للعقيد معمَّر القذَّافي رؤيته التي جعلتْه يضع الحركة الرياضية في قفص مذهب ويثقل كاهلها بالنظرية التي خص بها الرياضة في "الكتاب الأخضر". وإذا جاز الإفتراض، فإنه ربما كان يرى أنه يريد أن يَطمئِن إلى أن جيل ثورته من الشباب الليبي قوي ثورياً قبْل أن يكون متفوقاً رياضياً، وأنه إذا ما تم تزْك الشباب لطقوس النوادي الرياضية لما كان سيتحقق له الجيل المشار إليه، في حين أنه بعد إستكمال تأهيل هذا الجيل ثورياً يمكن إطلاقه، وسيحلِّق بعد ذلك في سماء الرياضة من دون أن يخشى على جناحيْه من الكسر.

إنها رؤية إفتراضية... وإبن "سرت" أدرى بشعابها. إلاَّ أننا عند التأمل في الأحوال العامة الراهنة للشباب والرياضة في ليبيا نجد أن هنالك ضرورة لتعديل جذري في رؤية العقيد القذَّافي لما يخص الرياضة والنوادي الرياضية.

ولعله من المناسب التذكير هنا برؤية العقيد القذَّافي التي نشير إليها، وبالذات ما يخص النوادي. ومما يقوله في كتابه الأخضر في شأنها: "إن النوادي الرياضية التي هي أساس الرياضة التقليدية في العالم اليوم، والتي تستحوذ على كل النفقات والإمكانيات العامة الخاصة بالنشاط الرياضي في كل دولة.. إن هذه أدوات إحتكارية إجتماعية شأنها شأن الأدوات السياسية الديكتاتورية التي تحتكر السُلطة دون الجماهير، والأدوات الإقتصادية التي تحتكر الثروة عن المجتمع. فكما يحطم عصر الجماهير أدوات إحتكار الثروة والسُلطة والسلاح لا بد أن يحطم أدوات احتكار النشاط الإجتماعي من رياضة وفروسية وما

إليها. إن الرياضة إما خاصة كالصلاة يقوم بها الإنسان بنفسه وبمفرده حتى داخل حجرة مغلقة، وإما عامة تمارَس في الميادين وبشكل جماعي كالصلاة التي تمارَس في المعابد بصورة جماعية. إن النوع الأول من الرياضة يهم الفرد شخصه، أما النوع الثاني فهو يهم كل الشعب يمارسه كله ولا يتركه لأحد يمارسه بالنيابة عنه.. مثلما هو من غير المعقول أن تدخل الجماهير المعابد لتتفرج على شخص أو مجموعة تصلي دون أن تمارس هي الصلاة...". ومما يقوله العقيد القذَّافي أيضاً: "إن الآلاف التي تملأ مدرجات الملاعب لتتفرج وتصفِّق وتضحك هي الآلاف المغفلة التي عجزت عن ممارسة الرياضة بنفسها، وإن الرياضة نشاط عام ينبغي أن يُمارس لا أن يُتفَرجَ عليه، وإن مدرجات الملاعب ستختفي عندما لا يوجد من يجلس عليها...". هذا عن الرياضة. أما عن المسرح والسينما فيقول: "إن الذين يصنعون الحياة بأنفسهم ليسوا في حاجة لمشاهدة كيف تسير الحياة بواسطة ممثلين على خشبة المسرح أو دور العرض". ثم يخلص العقيد القذَّافي إلى القول: "وهكذا فالشعوب البدوية لا تهتم بالمسرح والعروض لأنها كادحة وجادة في حياتها للغاية، فهي صانعة الحياة الجادة ولهذا تسخر من التمثيل. والجماعات البدوية كذلك لا تتفرج على لاعبين بل تمارس الأفراح أو الألعاب بصورة جماعية لأنها تحس عفوياً بالحاجة إليها فتمارسها دون تفسير...".

ونعود إلى ما بدأنا به هذا المقال لنضيف إن من محاسن إسناد مسؤولية الأنشطة الرياضية والثقافية وأمور المسرح والفنون إلى أبناء الحكام، وأحياناً إلى بناتهم وزوجاتهم، هي أن المؤسسات التي ستأخذ على عاتقها الإشراف على هذه الأنشطة لن تشكو في إستمرار من الضائقة المالية، لأن الروتين الحكومي كما أسلفْنا يعتبرها في آخر الأولويات، ويضعها دائماً في خانة الكماليات. ونتيجة أن فرصة الأبناء والبنات والزوجات، بالنسبة إلى بعض الحكام، متوافرة كما ليست متوافرة لغيرهم – وذلك لمقتضيات أُسرية موضوعية – فإن تذكير هذا الحاكم أو ذاك، من جانب هذا الإبن أو الإبنة أو الزوجة، بالوضع المتعثر للمؤسسات المشْرِفة على الأنشطة الرياضية والثقافية والإجتماعية وأي مشاريع تطوير على هامش الحياة السياسية ستجعل الحاكم يتكارم على هذه المؤسسات عند وضْع الميزانيات العامة وينقلها في خاطره على الأقل من خانة الكماليات إلى خانة الأولويات. كما أن سائر المسؤولين في الدولة سيتعاملون بإهتمام ملحوظ لمجرد إحساسهم بأن رأس الدولة مهتم هو الآخر.

ولكن ما هو أهمّ بالنسبة إلى ليبيا، وبالذات بعدما حملت الأنباء منها يوم 1997/8/8 نبأ مفاده أن الجمعية العمومية للجنة الأولمبية الليبية إنتَخبت في طرابلس بطريق الإختيار الحر المباشر مكتباً تنفيذياً جديداً للجنة الأولمبية برئاسة المهندس محمد القذَّافي، الإبن البكر للعقيد القذَّافي، وإنتَخبت شقيقه المهندس الساعدي نائباً له... إن ما هو الأهم، بعدما حدَث ذلك، هو أن ينطلق الإبنان في عملية إستنهاض لقضايا الشباب والرياضة في ليبيا وتتسع دائرة إهتمامهما لتشمل شؤون الثقافة والمسرح والنوادي الإجتماعية والرياضية. ومثْل هذا الأمر يتطلب قبْل كل شيء أن يعتبر العقيد القذَّافي بأن نظريته في شؤون الرياضة والمسرح والنوادي كانت ضرورية للسبعينات، وأن هنالك إستعداداً لحلول قرن جديد ضرورة لإعتبار تلك النظرية مجرد تراث لا أكثر. وإلى ذلك إن العقيد القذَّافي أخذ الكثير من عبد الناصر ولم يأخذ المسألة التي لا تعود بأي ضرر، ونعني بها تعامُل الرئيس المصري (الراحل) مع الرياضة والنوادي التي هي أحزاب كُروية. فلماذا لا يأخذ بذلك الآن.

وهو إذا كان لن يفعل ذلك وسيصر على أن يطبِّق الإبنان، المهندسان محمد والساعدي، النظرية الرياضية كما وردت في "الكتاب الأخضر"، فإنه سيكون وضَعهما في مأزق أمام الجيل العريض من الشباب الليبي الذي عندما إختار الشقيقيْن للمنصبيْن الرياضيين فإنما جاء الإختيار بفعل إحساس داخلي بأن العقيد القذَّافي سيساعد محمد والساعدي، بمعنى أن يفعل الإبنان ما لا يريد الأب أن يفعله كي لا يبدو تراجعاً وفي الوقت نفسه يرى أنه يجب أن يحدُث، أو أن الإبنيْن بتسلمهما هذه المسؤولية الرياضية سيساعدان والدهما على إعادة نظر في مفهومه للرياضة والنوادي والحركة الشبابية والثقافية والمسرحية... وبذلك تستعيد ليبيا حيوية مفقودة ومنشودة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 25 أغسطس (آب) 1997

* * *

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

المقالات من مايو 1998 إلى ديسمبر 1998




حاكم عربي جديد من أصل عسكري وحركة تصحيح مثل حركة الأسد
وقفة من شيراك بعد الموقف
رئيسان أعظمان على شفير الهاوية
ما اعتمده الأسد ولم يفعله صدام
ياسر عرفات وأفعاله بين المفهوم والمستغرب
التبدل الوارد والتحول المأمول
عندما تغيب الفطنة وتتراجع الحكمة أمام الغضب
الذئب الإسرائيلي المغفور من هولندا.. وغيرها

من الشيخ بشارة إلى الجنرال سوهارتو

من المفترض أن يكون الرئيس الأندونيسي، الذي جدد لنفسه قبْل بضعة أسابيع ولاية رئاسية أُخرى تستمر، إذا كُتب له العمر – حتى العام 2003، ما زال يعيش زهو حالة التجديد للمرة السادسة. لكن الأنباء التي تبثها الوكالات من جاكرتا تفيد أن الجنرال (البالغ من العمر 76 عاماً) يعيش ظروفاً كتلك الظروف التي سبق أن عاشها في الستينات الجنرال ديغول في فرنسا، والفرق بين الإثنيْن أن الجنرال الراحل آثر بلده وتاريخه على شخصه، فإنسحب بأقل الخدوش والكدمات تصيب جمهوريته بينما الجنرال الثاني، سوهارتو، يضع شخصه وأفراد عائلته وحاشيته والمستمتعين بخيرات وإمتيازات عهده فى المقام الأول، تلي ذلك أندونيسيا بألوف الجزر التى تتشكل منها (التعداد الرسمي لها في أندونيسيا، هو: 17508 جزر).

والأنباء التي نشير إليها هي إتساع نطاق التظاهرات والإضطرابات في الأوساط الشعبية بعدما كانت بدأت قبْل ثلاثة أسابيع في أوساط طلاب الجامعات، وتصدي رجال الأمن للمتظاهرين بخشونة، والتلويح بالمزيد من القمع إذا تطلَّب الأمر. وبدل أن نسمع كلاماً يفيد أن الجنرال سوهارتو إستدعى الطلاب، الذين هم في أعمار أحفاده، وحاورهم وطمأنهم ولبى إحتياجاتهم وخفف من قلقهم، فإنه بلغة الجنرالات يقول إنه" ستتم مواجهة جميع الذين يمكن أن يعرِّضوا بمحاولاتهم إستقرار البلاد للخطر وكل الذين لا يريدون أن يفهموا الدستور....".

وهو عندما يكون هذا موقفه فمعنى ذلك أن 32 عاماً أمضاها في الحُكم لم تغير من رويئه للأمور كضابط، وإستمر ينظر إلى البلاد بشعبها وتعدد الألوان والطوائف وبجزرها وغاباتها وتوابلها، على أنها ثكنة كبيرة الكلمة الأولى والأخيرة فيها لجنرالها. وأن على الآخرين أن ينفذوا ويطيعوا معتمدين على حيويته وتفانيه، مطمئنين أنه لا يريد سوى الخير لهم.

ومع أن الجنرال سوهارتو حقق قفزات نوعية في بلاده بحيث كانت تجد لها مكاناً في قائمة النمور الأسيوية، لولا أن الفساد إستشرى فتراجعت أندونيسيا أمتاراً بعدما كانت تتقدم خطوات، إلاَّ أنه لم يحدُث في تاريخ الحكام أن الذين يتسببون في أزمات تصيب بلادهم أو في كوارث تنتج عن سوء إدارتهم وعن جنوحهم نحو المراهنات والمغامرات يمكنهم أن يصححوا. ولولا أن الإدارة الأميركية لإعتبارات تتقدم فيها المصلحة في أن يبقى الجنرال سوهارتو في الحُكم على مصلحة أن تتحسن أحوال البلاد، لكان هذا الحُكم تَفجَّر وتناثر.

لكن الولايات المتحدة تضغط على صندوق النقد الدولي الذي يقدِّم للحكم في أندونيسيا قروضاً، وهي عبارة عن نجدات للنظام أكثر منها مساعدات لتصحيح مسار الوضع الإقتصادي. وفي شرعة البناء الإقتصادي للدول على أُسس علمية وسليمة فإن مثل هدا الأمر مستحيل إذا كان سيُبنى فوق فساد. فما يُبنى على فساد ينتهي كارثة ولا يمكن أن ينتهي على الإطلاق تصحيحاً لوضع شوهته التجاوزات والإختلاسات وشراهة جيوب النظام وهي عبارة عن أشخاص ينتمون إلى أهل الثقة وليس إلى أهل الخبرة. وأهل الثقة، كما نعرف وكما هو سائد وكما لا يبدو أنهم سيضمحلون بهذه البساطة، هم الظاهرة المنتشرة في معظم دول العالم الثالث ومنها أندونيسيا، التي بسبب روابط نشأت في الخمسينات أيام إزدهار حركة عدم الإنحياز تشعر وكأنها تخصنا كعرب وأنها مثل الهند – على حدودنا – مع أن كلتيهما الأبعد كثيراً عن حدود الأمة في مشرقها والأقرب قليلاً إلى حدود خليج الأمة.

ومشكلة الجنرال سوهارتو هي مشكلة أكثرية الذين يجددون أو يمددون ولاياتهم في العالم الثالث من دون تطوير نُظُم الحُكم ومن دون إفساح المجال أمام أجيال جديدة وكذلك، وهذا هو الأكثر غرابة، من دون الإستفادة من تجربة السنوات التي إنقضت بحيث يتم إسقاط السلبيات، وما أكثرها، وتطوير الإيجابيات، على رغم قلتها، وإن كانت نادرة إلى حد ما لدى البعض.

كذلك إنها مشكلة الذين لا يَقنعون بالقيل من سنوات الحُكم. وبالنسبة إلى الجنرال سوهارتو فإنه بدل أن يعتبر خصوصاً أنه بات في السادسة والسبعين من العمر ويشهد ما تبقَّى له من العمر عملية تطور تكون بمساعدة منه وموضع رضى الناس، فإنه تصرف على نحو الذين أصابتهم آفة حب المال، وبدل أن يقنعوا بعد المليون دولار الأول بما تحقق لهم، فإنهم يلهثون من أجْل المليون الثاني، ثم يتزايد مهامهم للحصول على مليون وبعده مليون إلى أن تتحول الآفة إلى لعنة.

وهكذا فمن الشيخ بشارة الخوري، رئيس جمهورية لبنان الذي أصابته آفة التجديد في الخمسينات فأودت بالعز الذي كان عليه وأجبرتْه على الخروج من الحُكم بقوة التظاهرات ورافقتْه محنة الإسقاط آلى آخر العمر، إلى رئيس جمهورية أندونسيا سوهارتو الذي يعيش في أواخر التسعينات هذه الأيام ظروفاً مماثلة، إذ يتكرر في شكل آخر مسلسل التجديد والتمديد الذي حسمه الجنرال ديغول في أواخر الستينات بوقفة شجاعة عندما إنسحب من الحُكم حتى لا تُهزم فرنسا، وعندما أجبر حزب المحافظين في بريطانيا فى مطلع التسعينات السيدة مارغريت تاتشر على الإنسحاب من رئاسة الحُكم كي لا تنهزم التجربة الديمقراطية في بريطانيا. هذا هو الفرق بيننا وبينهم.

ويجد المرء نفسه يتساءل، وهو يتابع هذا الشريط المأساوي الذي تشهده أندونيسيا: أليس الذي أمضى 32 سنة حاكماً هو المؤهل أكثر من غيره لكي يعرف حقيقة مشاعر الناس وعُمق مشاكلهم. ثم أليس هو المطالَب بأن يحل هذه المشاكل وأن يقرأ حقيقة المشاعر؟

وإلى ذلك التساؤل تساؤل آخر: ما الذي لا يجعل الجنرال سوهارتو، الذي يحكم البلاد منذ 32 سنة، بدل أن يقرر قبْل شهرين تحديد ولايته بضع سنوات أُخرى، يتصرف بحكمة صاحب التجربة العريقة في الحُكم فيختار خمسة من أكفاء البلاد أصحاب السمعة الطيبة والضمير الحي والعقل المستنير ويوجه بياناً إلى الأمة يطلب فيه من الشعب أن يختار وبإرادته الحرة واحداً من هؤلاء، يترأس البلاد من بعده ويوضح أنه – أي سوهارتو – إعتمد هذا الحل من أجْل أندونيسيا ومستقبل أجيال القرن الحادي والعشرين فيها.. لو أن سوهارتو فعل ذلك لكان الشعب سيذكره دائماً بالخير، ولكان سيضع تقليداً للحُكم يصون البلاد ويُبعد عنها أذى المغامرين. ألم يتحول الجنرال ديغول إلى بطل في نظر الفرنسيين لأنه عند المفاضلة بين الإصرار الضمني على التجديد الذي يتطلع إليه وإستعمال السُلطة لقمع المتظاهرين، وهو كان يملك هذه السُلطة كرئيس لفرنسا وكجنرال ينتمي إلى المؤسسة العسكرية، وبين إعتماد الحكمة والإنسحاب بهدوء وتبريد مشاعر الغاضبين قبْل أن تتحول إلى حرائق تندلع فى شوارع العاصمة الجميلة باريس.. إنه عند المفاضلة إختار أن يعتمد الحكمة فترك في نفوس الفرنسيين إحساساً بان الحاكم الصالح هو الذي يؤثر بلده على شخصه، ومن أجل ذلك فإن الفرنسيين لا يذكرونه إلاَّ بالخير.

ثم، ألم ينقذ الشيخ بشارة الخوري (أول رئيس للبنان المستقل بلده عندما إختار الإستقالة على أن يعاند ويرفض الإستقالة ويرمي بالجيش وقوات الأمن في مواجهة دموية مع الناس الذين إحتجوا على تجديده الولاية على نحو ما هو حاصل منذ أيام في أندونيسيا؟

يبدو أنه من السهل إستنباط الإفتراضات بما يمكن أن يفعله أشخاص أمضوا فترة قصيرة نسبياً فى الحكم، منل الجنرال ديغول ومن قبله الشيخ بشارة. ومن الصعب، وربما إلى درجة الإستحالة، إستنباط الإفتراضات مع أشخاص أمضوا سنوات طويلة في الحكم، مثل الجنرال سوهارتو الذي يحكم منذ 32 عاماً، ويتطلع إلى المزيد وكأنما ليست القناعة ذلك الكنز الذي لا يفنى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 مايو (أيار) 1998

* * *

الصهيونية تبيع أميركا... وتشتري أوروبا الشرقية (موضوع واحد في مقالتيْن)

المقالة الأولى: عندما يهدد رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو وهو في واشنطن بإحراق أميركا

ما هو الفرق بين بعض العبارات العربية التي كلَّفتنا الكثير وتسببت في إستدراج بعض الأنظمة إلى مواجهات غير مستعدة لها، وبين العبارة التي قالها رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو قبْل بضعة أيام وهو في زيارة إلى الولايات المتحدة؟

الفرق كثير الوضوح، وهو أن هذه العبارات إذا صدرت عن طرف عربي فإن الولايات المتحدة لا تغفر لهذا الطرف تطاوله هذا، في حين أنها إذا جاءت من مسؤول إسرائيلي يتم التعامل معها بروح رياضية.

ولا بد أن كثيرين يتذكرون قولاً يفيض بالحماسة للرئيس جمال عبد الناصر قاله في لحظة نشوة بالجماهير المبتهجة بأول زعيم يتحدى ومِن وراء المايكروفون وبالصوت العالي دولاً كبرى مثل بريطانيا وأميركا وفرنسا كان تحديها في أواخر الخمسينات والستينات نوعاً من الشجاعة النادرة. في تلك الأيام

وفي خطاب مرتجل – والخُطب المرتجلة عادة تتسبب في معظم الأحيان في ورطات وإشكالات يكون الحاكم والوطن في غنى عنها – قال ما معناه إن على أميركا أن تشرب من البحر.

وإنتظرت الإدارة الأميركية الوقت المناسب وردَّت على عبد الناصر في أكثر من جبهة وأمكنها أن تصيب زعامته بجراح معنوية إستمرت تنزف حتى لحظة وفاته يوم 28 أيلول (سبتمبر) 1970.

كذلك لا بد أن كثيرين يتذكرون قولاً منسوباً للمرحوم أحمد الشقيري وخلاصته إنه سيتم رمي اليهود في البحر. ومع أن هذا القول يحتمل تفسيريْن أحدهما أن الشقيري يقصد رمي اليهود في البحر العربي أي بما معناه تذويبهم كأقلية بين الأكثرية العربية والتعايش معهم خصوصاً أن دينهم السماوي ونبيهم عليه السلام يجيزان ويسهِّلان حدوث ذلك، إلاَّ أن اللوبيات اليهودية داخل الولايات المتحدة والتي تضم عدداً كبيراً من أعضاء مجلس النواب ومجلس الشيوخ والفعاليات المالية والصناعية والإقتصادية وقفت وراء وسائل الإعلام الصهيونية الأميركية كي لا تأخذ بالتفسير الحسَن النية، وتعتمد التفسير الآخر السيء النية الذي معناه أن الشقيري يتحدث عن هولوكست مائي أي إغراق الشعب اليهودي في مياه المتوسط ومياه الخليج ومياه البحر الأحمر والتخلص من هذا الشعب عن طريق إفنائه.

وبما أن الآلة الإعلامية على جانب كبير من الفعالية فإن دول العالم إرتبكت وتحوَّل الظالم إلى مظلوم يجد مَن يتعاطف معه ضد العربي الذي يخطط لكي يرميه في البحر. وإستطاعت تلك الآلة أن تنسج الكثير على هذه الحكاية وأن تبتز دولاً كثيرة وتحصل منها على المساعدات المالية والعسكرية والمواقف السياسية، وأمكنها توظيف هذه المكاسب في إعتداءات متواصلة.

كذلك لا بد أن كثيرين يتذكرون إصرار صدَّام حسين في فترة الأهمية القصيرة التي تحققت لنظامه بين وقْف إطلاق النار مع إيران وإنتهاء الحرب والقمة العربية الإستثنائية التي عُقدت في بغداد في أيار (مايو) 1990، على إثارة الموضوع الذي تنزعج الإدارة الأميركية من أي طرَف يثيره وهو أموال النفط العربية المودعة في المصارف الأميركية والأوروبية ودعوته إلى توظيف بعض هذه الودائع في الإتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية (قبْل سقوط الشيوعية في أوروبا بعد تساقُط الإتحاد السوفياتي). وكان الرئيس العراقي في فترة الأهمية القصيرة على المستوى الإقليمي لا يترك إجتماعاً ينعقد مع بقية قادة مجلس التعاون العربي (الملك حسين. الرئيس حسني مبارك. الرئيس علي عبد الله صالح) إلاَّ ويحاول تجميع القادة الثلاثة حول موقف موحَّد في هذا الإتجاه. وإنتظرت الإدارة الأميركية، التي لم تغفر للرئيس صدَّام هذا التحريض ضد ما تعتبره الولايات المتحدة مصالحها الحيوية، الفرصة المناسبة. وجاءت الفرصة متمثلة بالعبارة التي إقتطعت وسائل الإعلام المتأثرة بالنفوذ الصهيوني نصفها. وكانت خلاصة النصف الذي إعتمدته هي أنه (سيحرق نصف إسرائيل بالكيماوي المزدوج). أما خلاصة النصف الآخر فإنها (إذا إعتدت إسرائيل على العراق).

وقد استفادت الإدارة الأميركية هذه المرة من غضب اللوبيات اليهودية إياها ضد هذا التهديد بهولوكست كيماوي وأعادت إلى الأذهان مسألة الهولوكست المائي الذي أشار إليه الشقيري في الستينات.

ثم يحدُث قبْل بضعة أيام أن رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو يهدد وهو في زيارة للولايات المتحدة بإحراق واشنطن فتكثر التبريرات لقوله بدل المطالبة بإحتجازه والتحقيق معه في ما يقوله لأن العبارة التي تفوَّه بها يمكن أن تكون في نظر قانوني محايد من العبارات التي تقود إلى فعل إجرامي. كذلك يتسع الصدر الأميركي له وتزداد رقعة التسامح مع أنه لا فرق على الإطلاق بين عبارته هذه وسائر العبارات العربية التي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر.

وما هو أخطر من قول نتنياهو، هو أنه لم يتراجع عنه ولم يعتذر، وكما لو أن نجمة دواد هي، واقعياً، أهم من كل النجوم التي على العَلَم الأميركي، وأن رئيس وزراء إسرائيل أهم من رئيس الولايات المتحدة... من دون أن يدري أحد بأمر السر العميق وراء ذلك.

وهنا تحضرنا رؤية إستغربنا مضمونها عندما سمعناها قبل سبع سنوات من رجل أعمال عربي صلته عميقة باليهود في نيويورك. لكننا في ضوء تطاول نتنياهو على الإدارة الأميركية وقوله بما يشبه التهديد أو الإنذار بأنه قادر على إحراق واشنطن بتنا أقل إستغراباً. وخلاصة هذه الواقعة أن الصهيونية العالمية وبدافع الخشية من تحوُّل في الرأي العام الأميركي ضد إسرائيل لا بد يحدُث، تخطط لهز الشأن المالي

للولايات المتحدة وضـــرْب إقتصـــادها وتحويل دول أوروبا الشـرقية وروسـيا إلى القوة الدولية الجديدة التي تحمي إسرائيل وأن هذا سيحدُث مع بداية القرن الواحد والعشرين حيث ستصب في هذه الدول أموال يهودية كثيرة. أما لماذا تفعل الصـــهيونية ذلك فلأنها ترى أن روســـيا ودول أوروبا الشـــرقية أقرب إليها جغرافياً وكجذور عائلية من الولايات المتحدة فضـــلاً عن أن الوضع الإقتصادي والمالي الصعب لهذه الدول سيئ إلى درجة أن أي إنعاش يهودي له ســـتكون نتيجته سريعة وسيكون في الإمكان وضْع عشرات الكفاءات اليهودية في مواقع متقدمة في هذه الدول وبالذات في دوائر صُنْع القرار. ونحن هنا نورد الواقعة بالكثير من التحفظ لكننا في الوقت نفسه نواصل التساؤل: ما هو السر في أن رئيس وزراء إسرائيل يتطاول على الإدارة التي تحكم العالم من دون أن ترفض هذه الإدارة له طلباً أو على الأقل تؤدبه على قول يتجاوز فيه كل اللياقات والأصول؟

لا بد أن في الأفق أمراً مثيراً على أهبة الحدوث. ولا بد أن للواقعة التي لخصناها أساساً ما، تماماً كما هو معروف بأنه لا دخان من دون نار. وأفعال نتنياهو وأقواله هي نوع من الدخان لنار صهيونية ستكون في حال حدوثها مؤامرة كبرى من جانب الصهيونية ضد الدولة العظمى، أو فلنقل سيكون هولوكست من فعل الصـــهيونية تكتوي به الولايات المتحدة التي لا تعود عظمى... وربما لا تعود متحدة.

* * *

□ المقالة الثانية: التبدُّل الوارد والتحول المأمول

إســـتكمالاً لوجهة نظر أبديناها في المقالة الأولى وخلاصتها أن الصهيونية العالمية قد تستدير في القرن الواحد والعشرين فتتجه إلى دول أوروبا الشرقية وروسيا تحســـباً من تحوُّل في الرأي العام الأميركي لا بد من حدوثه ذات يوم... إســـتكمالاً لوجهة النظر هذه نجد أنفســـنا نقول إن إســـتعداد الرأي العام الأميركي لهذا التحول متوافر إلاَّ أنه ينتظر من يقود هذا التوجه سواء كان هذا الذي سيقود هو رئيس الولايات المتحدة أو أنه تيار داخل الإدارة الأميركية وكلاهما غير متوافر في الزمن الراهن.

وعدم التوافر لا يعني أن ذلك مســـتحيل. فالبذرة مزروعة منذ أيام الرئيس ترومان (ترأس من العام 1945 إلى العام 1953) حيث إن وزير خارجية تلك المرحلة جورج مارشـــال وقف ضـــد رغبة ترومان وحماسته من أجْل تشجيع إنشاء الدولة الإسرائيلية. وإذا كان ترومان لم يأخذ برأي وزير خارجيته الذي كان يرى أن الإندفاع في الحماســـة الذي وصـــل في النهاية إلى حد أن ترومان كان أول رئيس دولة يعترف بإسرائيل، سيتسبب في مشكلة لا تنتهي، فإن ذلك لا يعني أن رؤية الوزير مارشـــال لم تكن بمثابة قراءة مبكرة للمشكلة التي إنقضى نصف قرن على حدوثها إلاَّ أنها تبدو وكأنها بدأت قبْل أيام. فلا الشـــعب الفلسطيني ينسى ولا العرب ينفضون أياديهم وإن كان البعض يحاول أن يتناسى.

وما يلاحظه المرء هو أنه بعد ذلك الوزير المستنير لم يصـــل إلى الخارجية الأميركية سوى الوزراء الذين كانوا منحازين إلى إسرائيل أو في الحد الأدنى متفهمين لها وغير مســـتمعين إلى الإحتجاجات والتحفظات العربية، إلى أن تســـلَّم الحُكْم جورج بوش وإختار جايمس بيكر وزيراً للخارجية الذي كانت رؤيته قريبة بعض الشيء من رؤية جورج مارشال وساعده على ذلك أن جورج بوش ليس مثل ترومان وليس مثل بقية رؤساء الولايات المتحدة الذين ساندوا إسرائيل كما لم يساندها أحد، نستثني منهم الرئيس أيزنهاور (الرئيس الرابع والثلاثين) الذي حدَث في عهده العدوان الثلاثي البريطاني – الفرنسي – الإسرائيلي على مصر فكان إنذاره الشـــهير بوقف العدوان. ومِن الجائز القول إن أيزنهاور إتخذ هذا الموقف العادل لأنه جنرال منتصر ولم تأتِ به أصوات اليهود لكي يكون هنالك إبتزاز له من جانب اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة.

ومثلما أن يهود أميركا في الخمسينات مارسوا كل الضغوط والألاعيب من أجْل محاصرة الإتجاه الذي يمثله وزير خارجية ترومان وسجلوا نجاحات في ذلك بحيث لم يأتِ وزراء خارجية من نوعية جورج مارشال، فإنهم فعلوا الشيء نفسه بعدما لمسوا إمكانية حدوث تبدُّل في نهج السياسة الأميركية مع الوزير بيكر. ومن هنا مخططهم بأن يتسلم وزارة الخارجية يهودي وبذلك يمكن القضـــاء على إمكانية حدوث تبدُّل في الموقف الأميركي في إتجاه الضغط على إسرائيل كي تكون على الحجم الذي تراه الولايات المتحدة لها وليس على الحجم الذي تسعى الصهيونية إلى أن تكون إسرائيل عليه.

وجاءت فرصة تنفيذ المخطط بعد سقوط الرئيس جورج بوش في الإنتخابات وهو سقوط كان للصهيونية العالمية من خلال يهود الولايات المتحدة دور فيه،

حيث إن الإدارة الأميركية والخارجية الأميركية باتتا الملاذ الذي حددتْه القيادة العليا للصهيونية للعناصر اليهودية. وفي ما يشبه لمح البصر حالت هذه القيادة دون وصول جورج ميتشل الذي يملك رؤية من نوع الرؤية التي كان عليها جورج مارشال أيام ترومان، لكي يتسلم وزارة الخارجية بعدما كان الأمر محسوماً بين الرئيس كلينتون وميتشل لكي يتسلم الأخير الوزارة وهو لو تسلَّمها لكان – قياساً على تجربته الدبلوماسية الناجحة في حل المشكلة الإيرلندية – سيفعل شيئاً مماثلاً بالنسبة إلى الصراع العربي – الإسرائيلي خصوصاً أن في شرايينه دماء عربية كونه من أصل لبناني، ولكان على الأقل سيُقنع الرئيس كلينتون بأن يجرب رئيس الولايات المتحدة ولو لمرة واحدة أن يكون وسيطاً نزيهاً بمثل الوساطة النزيهة التي حققت حلاً مثالياً للمشكلة الإيرلندية.

ولم يقتصر الأمر على قطْع الطريق على أن يتسلم جورج ميتشل وزارة الخارجية (خلفاً للوزير كريستوفر الذي أرهقنا وأرهق نفسه من دون أن يرهق إسرائيل) في الولاية الثانية للرئيس كلينتون، وإنما نجحت القيادة العليا للصهيونية في أن تتسلم وزارة الخارجية مادلين أولبرايت التي لم يكن الرأي العام الأميركي يعرف أنها يهودية عندما تسلمت المنصب إلاَّ أنها جاهرت بعد ذلك بأصلها اليهودي وكأنما كان شرط القيادة العليا للصهيونية عليها أن تعلن أصلها اليهودي بعد أن تتسلم المنصب وبذلك لا تعود هي حرة في إتخاذ موقف يتعارض مع موقف إسرائيل لأنها بذلك تكون في نظر اليهود متنكرة ليهوديتها، ولا يعود في إستطاعة الرئيس كلينتون أن يعيد النظر في قرار تعيينها ويختار أحداً آخر بدلاً منها لتسلُّم وزارة الخارجية لأنه بذلك سيُرمى بتهمة اللاسامية وستُرمى عليه التهم واحدة تلو الأُخرى. ومَن يدري فقد تكون القيادة العليا نفسها ساومت كلينتون على تعيين أولبرايت، بمعنى أنه مقابل تعيينها يمكن طي ملفات فضائحه وأنه وافق على ذلك مضطراً.

وبعدما تم التعيين أخرجت تلك القيادة ملفات الفضائح من الأدراج وأدخلت كلينتون في القفص تبقيه فيه حتى اليوم الأخير من ولايته وتحصل منه على ما تريد من مواقف وتراجعات وتشتمه إذا تطلَّب الأمر ذلك على نحو ما فعله نتنياهو عندما هدد بإحراق واشنطن. ولعل هذه المحنة هي التي جعلت هيلاري كلينتون زوجة الرئيس المغلوب على أمره تنتهز أي مناسبة لتخفف هذا الضغط الصهيوني عليها وعلى زوجها فتقول يوم الخميس 7 أيار (مايو) 1998 في تصريح أدلت به وهي تشارك في مؤتمر في سويسرا "إن من مصلحة الشرق الأوسط على المدى الطويل أن تكون فلسطين دولة مسؤولة عن العيش الكريم لمواطنيها...".

ومع أن المتحدث بإسم البيت الأبيض أوضح على الفور ونتيجة لغضب إسرائيل والمعلقين اليهود في الصحافة الأميركية "إن زوجة الرئيس كلينتون تعبِّر في كلامها عن رأيها الشخصي وأنها ترد بطريقة إنسانية وشخصية عندما يعبِّر لها الناس عن شكاواهم بينما الرئيس دقيق جداً في معالجته لمسائل ذات أهمية أساسية في عملية السلام في الشرق الأوسط"... مع أن المتحدث أورد على الفور هذا التوضيح، إلاَّ أن كلام هيلاري كلينتون، وهي المحامية القديرة والتي تكتب مقالات بين الحين والآخر، كان في بعض معانيه قريباً من رؤية الوزير جورج مارشال ومن نظرة جيمس بيكر التي – مع الأسف – جاهر بها بعدما لم يعد وزيراً للخارجية ولمسناها في بعض التصريحات له. وهذه النظرة وتلك الرؤية هما كما أوردْنا في الأسطر السابقة بمثابة إشارات إلى أن التبدل في نظرة أهل القرار في الولايات المتحدة من موضوع الصراع العربي – الإسرائيلي وارد وأن التحول المأمول من جانب الرأي العام الأميركي لا بد سيحدُث عندما يقف بعض أهل القرار في الإدارة الأميركية ويقولون بحزم إنه آن الأوان لكي تغادر الولايات المتحدة مهمتها كحامية لإسرائيل المعتدية والتي تواصل التوسع وتحدي الإرادة الدولية، ولكي تمارس دورها كوسيط نزيه يعطي كل طرف حصته عِلْماً بأن حصة الطَرف الإسرائيلي حتى في الحل العادل والشامل والناشئ عن الوساطة النزيهة، هي على حساب حصة الطرَف العربي – الفلسطيني وأن قبول هذا الطرَف بالتنازل عن حقه والقبول بوجود إسرائيل كان من أجْل الولايات المتحدة وتسليماً بالأمر الواقع المهين الذي فرضتْه علينا.. لا أكثر ولا أقل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 يونيو (حزيران) 1998

* * *

فقراء العالم الثالث الذين سبقوا المقتدرين

الآن وقد هدأت الضجة قليلاً حول أهم حدَث يختم به فقراء العالم القرن النووي الذي هو القرن العشرون يجد المرء نفسه يسجل بعض الملاحظات التي إنتهت اليها تأملاته على مدى شهر على النحو الآتي:

أولاً – جاء التفجير النووي الهندي في وقت تباعدنا كعرب عن الهند وإبتعدت هى بدورها عنا، ولذا لم نجد في هذا التقدم العِلمي الهائل تحققه عميدة فقراء العالم ما يمكن أن يفيدنا كثيراً. لقد تأخرت الإفادة ثلاثين سنة.

ومن المؤكد أنه لو كانت هند الستينات أيام إزدهار الروابط الوثيقة في زمن حركة عدم الإنحياز، بمثل ما هي عليه هند أواخر القرن من تَقدم عِلمي وصل بها إلى حد أنها طرقت بقوة باب النادي النووي، لكانت تحققت لنا كعرب مكاسب كبرى ولكانت وقفة من جانب الهند معنا في مسألة ما وموقف يصدر عنها إلى جانب قضية تحتاج إلى السند القوي سيعودان علينا بالخير. ولكن هند الستينات كانت عملاقاً تنقصه العضلات يشكِّل الفقر ومقاومة الإستعمار والنشاط السينمائي الجامع المشترَك بينها وبين مصر التي تصدرت بشخص الرئيس جمال عبد الناصر المجموعة العربية فى حركة عدم الإنحياز.

وعلى هذا الأساس فلا أمل يُرتجى لنا كعرب منتسبين إلى حركة عدم الإنحياز المنتمية إليها الهند من الشأن النووي الذي صارت عليه الهند.

ثانياً– جاء التفجير النووي الباكستاني وأمامه قضية واضحة وهى أن باكستان لا تقوي نفسها من أجْل الإسلام والمسلمين وإنما من أجْل ردْع الهند عنها. وكل ما ستكسبه القضايا الإسلامية العالقة التي تحتاج إلى شأن دولي من باكستان النووية سيكون مجرد كسب معنوي لا أكثر. ويكاد المرء لا يستوعب كيف أن باكستان ستستعمل القنبلة النووية ضد إسرائيل من أجْل نجدة للأشقاء العرب في المشرق وكيف ستساهم هذه النجدة النووية في إنقاذ المسجد الأقصى وإستعادة القدس إذا حدث أن لجأت إسرائيل إلى السلاح النووي – إذا كانت تمتلكه لإخضاع العرب وطي صفحة إصرارهم على المطالبة بحق الشعب الفلسطيني وبدولة فلسطينية عاصمتها القدس.

ثالثاً– إن السلاح النووي لم يُستعمل حتى الآن بين دولتيْن متجاورتيْن. والدول مالكة السلاح النووي بعيدة جداً بعضها عن بعض. ولولا أن الولايات المتحدة إقترفت الخطأ الذي لا يمحى عندما إستعملت السلاح النووي فى هيروشيما لما كان هذا السلاح سيُستعمل على الإطلاق. ثم جاء إستعماله في هيروشيما ليؤكد أمراً في منتهى الأهمية وهو أن السلاح النووي يجب أن يكون في أيدي دول لا تستعمله وتحت إشراف حكومات لا تترجم غضبها بإصدار الأوامر لإستعمال السلاح النووي فهذا سلاح قوته في إمتلاكه وليس في إستعماله.

رابعاً – من المؤكد أن التفجير النووي الذي بدأ به الرئيس الفرنسي جاك شيراك عهده هو الذي شجع الهند على أن تجرب ما دام لم يتمكن العالم من ردْع شيراك عن التفجير النووي وأن التفجير الهندي هو المحرض لباكستان على أن تفجر هي الأُخرى. وقياساً بما حدَث للرئيس شيراك فإننا نرى أن البداية النووية له قد تكون جعلتْه أكثر شأناً على الصعيد المعنوي داخل بلاده إلاَّ أنها لم تجعله مؤثراً على الصعيد الدولي. وها هي فرنسا تحاول أن يكون لها حضور فاعل في قضية الصراع العربي – الإسرائيلي إلاَّ أنها ما أن تتقدم خطوة حتى تتراجع إثنتيْن وبحيث أن طابع العلاقات العامة يغلب على تَحرك الرئيس شيراك إلاَّ إذا كان الرجل يؤسس لوقفة مفاجئة تكون من النسيج نفسه للوقفة الديغولية الشهيرة عام 1967.

خامساً– لا تبدو الولايات المتحدة منزعجة من الحالة النووية فى الهند وباكستان وربما تجد فيها فائدة جاءتها في الوقت المناسب حيث أن الحالة النووية هذه ستؤجج الصراع بين الهند وباكستان من جهة وبين كل من الهند والصين وباكستان وإيران من جهة أُخرى وهي صراعات مطلوبة للنظام العالمي الجديد يدفع ثمنها بعض المتطوعين مجاناً لخدمة مخططات هذا النظام. وبعد الآن فإن المسألة الأساسية للإدارة الأميركية ستكون إفتعال الأزمات بين الهند وباكستان وهنالك المشكلة التاريخية بينهما (مشكلة كشمير) وبين الهند والصين وهنالك مشاكل حدودية لا حصر لها بينهما، أما بين باكستان وإيران فإن الحريق المذهبي عادة لا ينقصه للإشتعال سوى عود كبريت من صُنع الإستخبارات المركزية الأميركية.

سادساً– أذهلَنا رقص فقراء الهند وباكستان لدخول البلديْن المعسكر النووي. وكان منظر الهنود الفقراء يهنئون بعضهم بعضاً ويتبادلون العناق ويفعل الشيء نفسه فقراء باكستان... كان هذا المنظر مثيراً. ويصعب على المرء أن يتصور سبب إبتهاج الفقراء بإنضمام بلادهم إلى مالكي السلاح النووي إلاَّ أنه من الجائز

القول من باب الإفتراض أن هؤلاء الفقراء يظنون أنهم سيصبحون أغنياء بعدما إمتلكت بلادهم السلاح النووي وأنهم سيشبعون ويرتدون الثياب الجديدة ويستبدلون دراجاتهم بسيارات وينتقلون من السكن على الأرصفة إلى السكن في شقق... وهكذا، ولا نظن أنه خطرَ في بال هؤلاء أن الدولة عندما تصبح نووية ستأخذ الكثير من الناس لتحافظ على شأنها المستجد بدل أن تعطيهم.

سابعاً– لقد أثبتت كل من الهند وباكستان وهما غير المقتدرتيْن مالياً أن في الإمكان أن يكون لكل منهما حقها النووي. وهذه أمثولة للمقتدرين العرب لعلهم يلحقون بالركب النووي.

على هامش هذه الملاحظات تبقى الإشارة ضرورية إلى أن إمتلاك جيران العرب الفقراء للسلاح النووي سيشكِّل على المدى البعيد هواجس للدول الأقرب جغرافياً للنوويْن الجدد بمثل الهواجس الراهنة من إمتلاك إسرائيل غير المؤكد (على أساس أن التجربة لم تحدُث بعد) للسلاح النووي.

والدول الأقرب هي دول الخليج. أما لماذا الهواجس فإن النووين الفقراء الذين سيصل عددهم (الهند وباكستان) إلى حوالى مليار نسمة في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين قد يجتاحون بعضهم بعضاً إذا بلغ جوعهم أشده فتجتاح الهند باكستان وتجتاح الدولتيْن إيران الغنية وتجتاح الدول الثلاث دول الخليج الأكثر غنى. وقد تجتاح الصين كل هؤلاء معاً ولمقتضيات الجوع وآلامه.

إنها صورة مفزعة ناشئة عن مجرد إفتراضات إلاَّ أننا لا نجد ما يمنع حدوث ذلك، وأيضاً حدوث إجتياح إسرائيلى شامل إذا كان العرب لن يصبحوا نووين وبالمزيد من الصمت والمثابرة والكتمان... أي نقيض ما فعله الرئيس صدَّام حسين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 يونيو (حزيران) 1998

* * *

أغرب مشهد إنتخابي من المحيط إلى الخليج

أخيراً إنتهى أغرب مشهد إنتخابي يمكن أن تعيشه دولة عربية من المحيط الى الخليج، وختم اللبنانيون يوم الأحد الماضي (14 يونيو/ حزيران 1998) الجولة الاخيرة من شهر الإنتخابات البلدية التي تتميز عن أي إنتخابات بلدية في العالم العربي. ومَن تابع على صفحات الصحف اللبنانية وعلى شاشات المحطات التلفزيونية النشاطات والسجالات والندوات يكتشف أي نسيج هو عليه اللبناني.

وفي ضوء متابعة تأملية قمتُ بها لشهر الإنتخابات البلدية في لبنان بعين المراقب الموضوعي الذي شغل في منتصف الستينات منصب رئيس بلدية لإحدى البلدات النموذجية في لبنان ثم قرر أن يستقيل ويترهب للعمل الصحفي وللكتابة والتأليف.. في ضوء هذه المتابعة أسجل الملاحظات والتأملات التالية:

– لم يترك أركان الحُكم اللبنابي المواطنين يقررون بينهم وبين أنفسهم صياغة اللوائح وتشكيلها وإنما تدخَّلوا بحيث خاض هؤلاء المعركة الإنتخابية بلوائح وتم ذلك بينما كل ركن من أركان الحُكم يشدد على أنه لا يتدخل.

وهكذا صار يقال هذه لائحة رئيس الجمهورية، وهذه لوائح رئيس مجلس النواب، وهذه لوائح رئيس الحكومة.. وهكذا، وبقدْر ما إن ذلك يشكّل نقطة قوة للمجلس البلدي الذي يرعاه هذا الركن أو ذاك فإنه يشكِّل أيضاً نقطة ضعف لأن المجلس سيمارس العمل البلدي تحت وصاية الركن الذي ينتسب إليه وسيقضي سنوات الولاية البلدية يعمل وفْق ما يمكن أن يحقق للركن، الذي دعم وتبنى وأنفق، مصالحه السياسية والإنتخابية مستقبلاً.

– الركن الوحيد في الدولة اللبنانية الذي مارس الحياد كان الجيش اللبناني. وبسبب هذا الحياد غمرت الطمانينة نفوس المواطنين فشاركوا في الإنتخابات ومن دون أن يسقط جرحى واحياناً قتلى على نحو ما هو مألوف في المعارك الإنتخابية اللبنانية.

– تحققت بسبب هذه الإنتخابات وبفضلها مصالحات لا يمكن أن تحدُث إلاَّ فى لبنان.

وجاءت هذه المصالحات نتيجة تحالفات لدواع إضطرارية وهي لو كانت نتيجة قناعات لتحققت معجزة الوحدة الوطنية المغيَّبة عن لبنان. ويصعب على الأشقاء العرب عدم إبداء الدهشة إذا نحن قلنا لهم بأن تحالفات حدثت بين الذين تقاسموا الحُكم وبين قوى معارضة رموز بعضها في المنفى، مثل العماد ميشال عون والرئيس أمين الجميل، ورمز بعضها الآخر في السجن، مثل الدكتور سمير جعجع. ومن حسنات هذه التحالفات التي شملت في ما شملت

تحالُف «حزب الله» مع «القوات اللبنانية» أنها أكدت عدم إستحالة تنقية النفوس من الضغائن. وأكدت إمكانية أن يتجاور في مجلس بلدي واحد عضو من «حزب الله» إلى جانب عضو من حزب جعجع او يتجاور فى مجلس آخر عضو يدين بالولاء إلى الرئيس رفيق الحريري مع عضو متعصب للعماد ميشال عون، الذي في إستطاعة لقاء واحد يتم بينهما في باريس، العاصمة الثالثة للحريري (بعد العاصمة الأولى بيروت والعاصمة الثانية الرياض أو العكس) حيث الرئيس الحريري دائم التردد عليها وحيث العماد عون دائم الإقامة كمنفي فيها... في إستطاعة لقاء واحد أن ينهى هذه العقدة التي تنغص شوق اللبنانيين إلى مرحلة تتآلف فيها قلوبهم. واذا انهيت هذه العقدة تنتهي العقدة الأُخرى المتمثلة بالإبقاء على الدكتور سمير جعجع في السجن عِلْماً بأنه ما زال غير واضح حتى الآن ما إذا كان الإبقاء عليه في قبو وزارة الدفاع وليس في سجن عادي خارج الوزارة هو نوع من الحرص عليه في معرض الحرص على سلامته، أم انها الخشية من تهريبه في حال كان هي سجن عادي. والقول بان عقدة الدكتور جعجع يمكن أن تنتهي على أساس أن الرجل شارك في اللعبة الإنتخابية بمثل ما شاركت بقية رموز السُلطة والحُكم في لبنان وكان لها حضور وفوز في أكثر من مكان. هذا فضلاً عن أن عدم الإحجام عن المشاركة في الإنتخابات البلدية من جانب «القوات اللبنانية» ومن جانب العماد ميشال عون والرئيس أمين الجميل طوى نهائياً ظاهرة المقاطعة المسيحية للمشاركة في الإنتخابات ومن الجائز القول إن النجاح النسبي الذي حققه رموز المعارضة المسيحية في الإنتخابات البلدية سيجعلهم يزدادون حماسة بل إنه ليس مبالغة القول إن هؤلاء ينتظرون بفارغ الصبر الإنتخابات النيابية المقبلة لكي يشاركوا وبكثافة ومن دون أن يشكّل الوجود السوري في لبنان سبباً لعدم المشاركة. ولا بد أن هؤلاء يأخذون في الإعتبار أن الهدوء الشامل والمثالي الذي ساد شهر الإنتخابات البلدية ساهمت فيه سوريا من خلال التوجيهات والنصائح والتمنيات.

– على رغم أن الإنتخابات البلدية تخص من حيث المبدأ العائلات فإن عائلات عريقة غابت عنها. وبعض الغياب كان تغييباً. ومن أبرز الغائبين– المغيَّبين عائلة الصلح التي سبق أن ترأس أحد وجوهها بلدية بيروت في الستينات (المرحوم عادل الصلح).

وكان يمكن للدكتورة غادة اليافي إبنة رئيس الوزراء الأسبق الدكتور عبدالله اليافي أن تخفف من حساسية هذا التغييب لو كُتب لها أن تفوز، لكن اللائحة المعارضة للائحة الرئيس الحريري والتي كانت ممثلة المرأة فيها أخفقت بإستثناء رئيس اللائحة عبدالحميد فاخوري.

– للمرة الأُولى في لبنان تكون المجالس البلدية مطعمة بعناصر اكاديمية وجامعية وعِلمية وهندسية وبكثرة. وبين معظم الفائزين في العاصمة والبلدات الكبرى مهندسون وأطباء وأخصائيون في مجالات عِلمية وأصحاب كفاءات. وتلك ظاهرة تبعث الطمأنينة في النفوس. كما أن بين هؤلاء من أمضى بعض سنوات الحرب في الخارج. ويستطيع هؤلاء أن يطبّقوا في العاصمة وفي بعض البلدات تجارب مضيئة على صعيد العمل البلدي إطلعوا عليها في الخارج مثل تجربة محمد سعيد الفارسي في مدينة جدة وكيف أضفى خلال ترؤسه لبلديتها مسحة جمالية وتراثية عليها، ومثل تجربة جاك شيراك وما فعله في باريس ولها عندما ترأس بلديتها وكوفئ على إنجازاته هذه بأنه بات رئيساً للجمهورية.

– للمرة الأُولى أيضاً نلاحظ أنه بات في لبنان المختار الجامعي وهنالك كثيرون باتوا مختارين وهم يحملون شهادات جامعية وناجحون في أعمالهم. وعلى هذا الأساس ستختفي مع الوقت الصورة المطبوعة في الأذهان عن المختار الذي بالكاد يقرأ ويكتب وهي صوره عززتْها في الذاكرة مواصفات العمدة في مصر كما كانت تصوره لنا الأفلام والمسلسلات المصرية. ومع الوقت سيحدُث في الريف المصري ما حدث في لبنان بمعنى أن نقرأ أن مناصب العمودية باتت في حوزة شبان تخرجوا من جامعة القاهرة أو جامعة عين شمس أو جامعة الإسكندرية أو من إحدى جامعات مصر الكثيرة من المنصورة إلى اسيوط.

تبقى الإشارة إلى أن اللبناني في إنتظار أن تُحرك الإنتخابات البلدية التي جرت على أفضل ما تُجرى عليه الإنتخابات، الوضع الإقتصادي الذي باتت وطأته ثقيلة جداً.

وهو يأمل ذلك من منطلق أن الإنتخابات البلدية حققت خطوة متقدمة على صعيد مشاركة الجميع وفوز بعض الذين تَصور كثيرون أن فوزهم سيكون غير مرغوب فيه. وبعد هذا الفوز ربما تعود بعض أسراب الطيور المهاجرة او المهجَّرة وتعود معها قدرات

وإمكانات مالية. وربما يخرج المال، الذي يخيفه عدم الإستقرار، من الخزائن ما دام لبنان بكل أجنحته يمكن أن يتصافى ويتعاون.. على نحو ما جرى في مشهد الإنتخابات البلدية. ونقول ذلك من منطلق أن من يتفاءل بالخير يجده.. ويحصل عليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 يونيو (حزيران) 1998

* * *

وقفة من شيراك بعد الموقف

هنالك ترقُّب على درجة عالية من الإهتمام للزيارة المتوقع أن يقوم بها إلى فرنسا في النصف الثاني من الشهر المقبل الرئيس حافظ الأسد، ذلك أنها الأُولى له منذ 22 عاماً مع الفارق أن ظروف الماضي كانت شائكة بعض الشيء والعلاقات الفرنسية – السورية ليست على الدفء الذي هي عليه منذ العام 1996 عندما وضع الرئيسان الأسد وجاك شيراك خلال زيارة الثاني إلى دمشق في أكتوبر/ تشرين الأول من ذلك العام الحجر الأساس لعلاقة تطمح إلى أن تكون إستراتيجية.

وعندما زار الرئيس الأسد فرنسا للمرة الأولى في عهد الرئيس فاليري جيسكار ديستان لم تكن فرنسا على الشأن الذي هي عليه الآن ولا كان حنينها إلى إستعادة دور لها في المنطقة العربية على نحو ما هو عليه الآن. كما أن الرئيس الأسد لم يكن بالشأن الذي هو عليه الآن، ولم تكن إدارته للصراع وللتعامل مع دول العالم واضحة المعالم بالوضوح الذي باتت عليه في السنوات العشر الماضية.

زار الرئيس الأسد فرنسا قبْل 22 عاماً وهو قوي بالإنتصار الذي تقاسم صُنعه مع الرئيس أنور السادات في أكتوبر/ تشرين الأول 1973، وقوي بالمقدار نفسه بالعلاقة الإستراتيجية مع الإتحاد السوفياتي، السند العسكري الأول للجيش السوري براً وجواً. وتمت الزيارة في وقت كان لبنان لا يزال يشكِّل بين الحين والآخر ونتيجة ظروف وصراعات إقليمية شوكة في الخاصرة السورية. كذلك تمت الزيارة في وقت كانت سوريا مثقلة بالهموم الإقتصادية الناشئة عن تجربة متعثرة للتطبيق الإشتراكي الذي أخذت به سوريا عند دخولها تجربة الوحدة مع مصر الإشتراكية، ثم جاءت حكومات البعث المتعاقبة تتعامل بعشوائية مع المسألة الإشتراكية، قبْل أن تحدُث مع حُكْم الرئيس الأسد وقفات متدرجة هدفها أن تبقى الإشتراكية إنما على نحو ما يحدث في بعض الدول الأوروبية التي تدخل المفاهيم الإشتراكية في بعض نواحي حياتها الإقتصادية.

ومن خلال بعض الإيحاءات والإشارات يجوز الإفتراض أن الزيارة لم تكن على التوفيق الذي يتطلع إليه الرئيس الأسد بدليل أن الرئيس جيسكار ديستان لم يرُد الزيارة كما أن العلاقات الثنائية لم تتطور كما يجب. وأغلب الظن أن الذي جعل ذلك لا يحدُث هو أن الرئيس جيسكار ديستان لم يقرأ جيداً شخصية الرئيس الأسد. ولم يقرأها جيداً أيضاً الرئيس فرنسوا ميتران الذي زارها عام 1984 وكان حتى تلك الزيارة ما زال حائراً في موقفه من الصراع العربي – الإسرائيلي وقليل التفهم لبعض النواحي الوجدانية في الموقف السوري يقابل ذلك إنبهار بالذي فعله الرئيس السادات عندما قرر أن يغرد خارج السرب، وتوق إلى أن يحقق مصالحة تاريخية سورية – فلسطينية – إسرائيلية على نحو المصالحة المصرية – الإسرائيلية. وإلى ذلك إن الرئيس ميتران كان رافضاً تفهُّم رؤية الرئيس الأسد للدور السوري في لبنان وغير مقتنع بما يقال في شأن خصوصية العلاقة السورية – اللبنانية، فضلاً عن أنه كان يتعامل مع الذين يزورهم بشيء من التعالي والشعور بالتفوق وهما أمران لم يستحسنهما الرئيس الأسد فدخلت العلاقة في دائرة الفتور، بل قد يجوز القول إن حالها كانت أفضل بكثير في عهد الرئيس جيسكار ديستان مع أن المؤمل كان أن يحدُث العكس لعدة إعتبارات من بينها أن الإشتراكية التي تجمع النظاميْن في سوريا وفرنسا قد تنجح في تطوير ما عجزت عن تطويره فرنسا جيسكار ديستان.

وجاء فوز جاك شيراك بالرئاسة ليُحْدث نقلة نوعية في العلاقة السورية – الفرنسية، وقد قرأ الرئيس الأسد في شيراك أن الرجل يتطلع إلى دور وليس إلى مجرد حاكم وأن إصراره على إجراء التفجير النووي كان مؤشراً إلى ذلك فتابع إيقاع حركته السياسية وتحركاته داخل أوروبا وفي إتجاه الولايات المتحدة وروسيا ولا بد أنه كان يتأمل في المفردات الشيراكية عند الحديث عن عملية السلام والصراع العربي – الإسرائيلي. وعند زيارة الرئيس شيراك إلى سوريا عام 1996 ومصادفة حدوثها في شهر أكتوبر، وهو شهر عزيز على الرئيس الأسد لأنه يرمز إلى إنتصار على إسرائيل يتباهى به، حدَث

ما يجوز إعتباره التفهم من جانب كل منهما لشخصية الآخر وهو التفهم الذي كان غائباً عن الرئيسيْن الآخريْن فاليري جيسكار ديستان وفرنسوا ميتران. كذلك يمكن القول إن كلاً منهما عرف إلى درجة اليقين ما الذي يريده الآخر. ومنذ أن أنهى الرئيس شيراك زيارته إلى سوريا وهو دائم التذكر للإستقبال الشعبي الذي أراده له الرئيس الأسد وهو إستقبال لم يحظَ به من جانب السوريين سوى الرئيس جمال عبد الناصر. كذلك إنه بعد تلك الزيارة وإلى الآن، وحتى حلول زيارة الرئيس الأسد إلى فرنسا بعد بضعة أيام، لم يسجل – والأرجح أنه لن يسجل – سوى المواقف التي قد تحقق التطوير للعلاقة الفرنسية – السورية الذي يتطلع إليه الرئيس الأسد. وآخر هذه المواقف موقف سَجله الرئيس شيراك عندما زار لبنان قبل أيام وتحدَّث عن ضرورة إنسحاب إسرائيل من الجولان، وكذلك عن القرار 425 بالروحية التي يستند إليها الموقف السوري من هذا القرار، وهذا من وجهة نظر الرئيس الأسد ذروة التفهم من جانب الرئيس شيراك لخصوصية العلاقة اللبنانية – السورية. وعلى نحو ما يلخصه القول الشائع فإن الكرة الآن في المرمى الفرنسي. وتتصادف هذه الإستعارة مع الأولمبياد الكروي الذي تستضيفه فرنسا.

وتبقى الإشارة إلى أن الزيارة المرتقبة للرئيس حافظ الأسد إلى فرنسا تذكِّرنا بزياراته القليلة خارج سوريا، والتي هي في معظمها زيارات إستثنائية مثل زيارة موسكو قبْل حرب 1973، وزيارة طهران التي صار التوقيت لها بحيث تكون لتوديع الرئيس رافسنجاني ولتهنئة الرئيس خاتمي في الوقت نفسه... وأيضاً مثل ما يمكن إعتباره بمثابة زيارة إلى الولايات المتحدة ولكن في جنيف للتحادث مع الرئيس الأميركي. وبالنسبة إلى رئيس مثل حافظ الأسد غير شغوف بالإكثار من الزيارات (بإستثناء الزيارات المتبادلة والدورية مع حليفه وصديقه الرئيس حسني مبارك) فإن الزيارة يجب أن تكون ذات جدوى.

وقياساً بالظروف الراهنة فإن الجدوى المفترضة من زيارة فرنسا المرتقَبة هي أن يطور الرئيس شيراك الموقف... بحيث يصبح وقفة.

... ولهذا الكلام بقية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 يونيو (حزيران) 1998

* * *

الوقفة الشيراكية التي ينتظرها العرب

إذا كان الرئيس جاك شيراك عازماً على عودة مضيئة لبلاده إلى المنطقة تزيل تماماً من أذهان السوريين واللبنانيين الصورة العالقة عن فرنسا الإنتداب، فإن تطوير الموقف الذي يتخذه من الإحتلال الإسرائيلي المستمر في الجولان وفي جنوب لبنان هو الطريق إلى هذه العودة. والتطوير بمعنى أن يصبح الموقف الرافض لإستمرار الإحتلال وقفة تضطر إزاءها إسرائيل إلى الإنسحاب.

ونجد أنفسنا هنا نستعيد تلك الوقفة التي إتخذها الجنرال ديغول عشية حرب الخامس من يونيو 1967 وتمثلت بالإعلان أن فرنسا ستكون مع الجانب المعتدى عليه. وهو لم يفعل ذلك بدافع الغيرة من الجنرال الآخر موشي دايان لأن تاريخ الجنرال ديغول يشير إلى أنه يملك الكثير من المجد العسكري، وإنما لأنه ببصيرته ومعرفته بالمنطقة التي شاءت الظروف أن يعرفها وأن يسكن في أحد منازل المنطقة الغربية في بيروت، وجد أنه لا بد ما دام بات على رأس سُلطة الدولة أن يبدد من ذاكرة أبناء المنطقة صورة الفرنسي البشع الذي إستعمر – أو بالصيغة المخففة إنتدب – وأن يعمل إستطراداً من أجْل عودة مضيئة لفرنسا إلى المنطقة. ووجد أيضاً أن العودة لا تكون بمساعدات وتكنولوجيا ومدارس فقط، وإنما بموقف يعني الكثير على صعيد المسألة الوطنية. ولمجرد أن لاحظ بأن التوتر بين مصر وإسرائيل بسبب سوريا التي طلبت نجدة الرئيس عبد الناصر سيتحول إلى مواجهة نتيجة فشل الأمم المتحدة في تحقيق التهدئة، فإنه أعلن الوقفة التي أشرنا إليها فدخلت فرنسا الديغولية إلى قلوب العرب وذلك لأن العمق العربي لعبد الناصر في تلك الفترة كان متسعاً. ولو كُتب للجنرال ديغول أن يبقى في الحُكْم ولا تتمكن إسرائيل بمساعدة الإدارة الأميركية من الإنتقام منه وتأزيم الموقف داخل فرنسا إلى حد إضطراره إلى الإستقالة والإنزواء بعيداً عن فرنسا ثم العزلة داخل فرنسا... إنه لو كُتب للجنرال ديغول أن يبقى في الحُكْم بعدد السنوات التي أمضاها الرئيس فرنسوا ميتران على سبيل المثال لكانت فرنسا ذهبت بعيداً في وقفتها. ولكن الإسقاط التراجيدي للرجل حال دون ذلك وإختار الذين بعده سياسة تدعو إلى الإستغراب حيث إن الوقفة تراجعت فباتت موقفاً. وكان الموقف في حد ذاته يدعو للدهشة لأن الحكومة

الفرنسية إعتمدت سياسة أن تكون مع المعتدي والمعتدى عليه في الوقت نفسه. وهكذا فإن فرنسا إستمرت منذ إسقاط الجنرال ديغول إنتقاماً من وقفته وكذلك من إصراره على إنشاء فرنسا صغيرة (مقاطعة كوبيك في كندا) على كتف الولايات المتحدة، مع إسرائيل المعتدية ومع العرب المعتدى عليهم إلى أن إستبشرْنا خيراً بوصول جاك شيراك إلى الحُكْم وصدور إشارات عنه بأنه يعيش حالة حنين إلى الديغولية ومقتنع بأن منطقة الشرق الأوسط هي الساحة التي يمكن أن تُحقق لفرنسا شأناً دولياً كبيراً وأنه إذا كان لن يعير الأمر الإهتمام اللازم فهذا معناه أن إدارته للجمهورية الفرنسية لن تكون أكثر إثارة من إدارته لبلدية باريس.

ولا نظن أن الوقفة التي يأمل العرب من الرئيس شيراك أن يتخذها صعبة. فالعرب من دون إستثناء باتوا مع التسوية السلمية. وزائره المتميز الرئيس حافظ الأسد أوضح له الأمر بما فيه الكفاية عندما إلتقيا في دمشق. كما أن الجولة المكوكية التي قام بها عبدالحليم خدَّام نائب رئيس الجمهورية وفاروق الشرع وزير الخارجية على معظم دول العالم ذات التأثير في القرار أكدت على ذلك. وليس هنالك حاكم عربي إجتمع به الرئيس شيراك خلال السنوات الثلاث الماضية لم يؤكد له التمسك بالتسوية السلمية. ومثل هذه الرؤية العربية الشاملة تزيح عن ضمير دولة مثل فرنسا الوخز الذي كان يمكن أن يسببه إضطرارها لتفهُّم الموقف العربي لو أن العرب يريدون صداقة فرنسا وفي الوقت نفسه يريدون مساعدتها لهم على تأمين المستلزمات الحربية لمقاتلة إسرائيل.

ولكن القادة العرب إختاروا السلام إستراتيجية لهم وهم صادقون في تأكيداتهم التي يسجلونها من خلال التصريحات أو من خلال المحادثات التي يجرونها مع بعض حكام العالم.

وعلى هذا الأساس فإن الطريق ممهَّد أمام الرئيس شيراك لتطوير الموقف الفرنسي بحيث يصبح وقفة.

ولكن أي وقفة؟

إن الوقفة الشيراكية التي ينتظرها العرب هي أن يقرر الرئيس شيراك أن فرنسا تقف مع المحتلة أرضه حتى إذا إضطر مَن كانت أراضيهم محتلة إلى خيار المواجهة فقط لإنهاء هذا الإحتلال. وهي وقفة تنتهي بإنتهاء الغرض من المواجهة، أي إنسحاب القوات الإسرائيلية من الجولان (بالنسبة إلى سوريا) وإنسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان.

ومثل هذه الوقفة ليست جديدة على فرنسا التي سبق لها أن إتخذتْها مع العراق في مواجهته مع إيران، مع الأخذ في الإعتبار أنها في حينه زودت نظام الرئيس صدَّام حسين بالطائرات القاذفة المتطورة البعيدة المدى التي لولاها لما كان من السهل على العراق أن يضرب في أعماق إيران وصولاً إلى العاصمة طهران نفسها، وأن يجعل التوازن يميل إلى مصلحته بعدما كان لمصلحة الجمهورية الإسلامية، ثم تتطور الوقفة إلى أن يضطر الإمام الخميني إلى إعلان القبول بوقف إطلاق النار وتنتهي الحرب التي دمرت قدرات البلديْن.

وقد يبدو من الصعب تكرار الوقفة التي نشير إليها على أساس أن لكل حالة وقفْتها، إلاَّ أن هنالك بدائل كثيرة في حال أنها إنطلقت من المعادلة المأمول من الرئيس شيراك الأخذ بها أي الإعلان أن فرنسا هي مع المحتلة أرضه حتى إذا إضطر مَن كانت أراضيهم محتلة إلى خيار المواجهة لإنهاء هذا الإحتلال.

ولكن الأمر المهم هو أن تثمر زيارة الأسد الأولى إلى فرنسا منذ 22 عاماً وقفة شيراكية متميزة. ولا بد أن الرئيس شيراك يأخذ في الإعتبار شفافية العربي عندما تتخذ دولة كبرى وقفة إلى جانبه. وعلى سبيل التذكر فإن موافقة الإتحاد السوفياتي على تمويل مشروع بناء السد العالي الذي سبق أن رفضت الولايات المتحدة تمويله جعل العرب يتقبلون برحابة صدر وصول دولة (بالسلاح والخبراء) لا يحبونها ولا يرتاحون إلى عقيدتها الماركسية إلى المنطقة... فكيف إذا جاءت الوقفة من فرنسا الدولة التي لها في النفس مكانة ومحبة وعرفان بالجميل للجنرال ديغول، وجاءت على النحو الذي أشرنا إليه مع أخْذنا في الإعتبار كل الإعتبار، محاذير مثل هذه الوقفة.

وإذا كان هذا هو الأمر المهم فإن الأمر الأهم هو أن العرب، بدءاً بالسوريين واللبنانيين المحتلة أجزاء من أراضيهم، يخشون أن تنتهي ولاية الرئيس شيراك فلا تتجدد أو يحدُث إنهاء قسري لها، على نحو ما أصاب الجنرال ديغول، وتضيع بذلك فرصة تاريخية قد لا تتكرر مع رئيس آخر... وهي خشية مشروعة وستبقى قائمة إلى أن تنتهي زيارة الرئيس الأسد وتأتي مثمرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 يوليو (تموز) 1998

* * *

عندما تغيب الفطنة
وتتراجع الحكمة أمام الغضب

ربّ ضارة نافعة. وما حدَث للرئاسة وللصحافة في لبنان (يوم السبت 1998/6/27) نتيجة إشكال بين رئيس الجمهورية، الياس الهراوي، والزميل حسن صبرا، رئيس تحرير مجلة "الشراع"، ألحق ضرراً فادحاً بهيبة الرئاسة وبالمكانة التي للصحافة اللبنانية لدى السُلطة الأعلى في الدولة، حيث إن الرئيس الهراوي كان، بخلاف حكام كثيرين، يتعامل مع الزملاء والزميلات كما لا يتعامل، ولن يتعامل، حاكم آخر. وهذا الود والتباسط من جانب الرئيس الياس الهراوي كان التعبير عنهما دائم التنوع. فهو يمازح هذا الصحافي أو تلك الإذاعية أو مندوبة التلفزيون، وهو أيضاً – مثل الرئيسين بيل كلينتون وجاك شيراك في لقاءاتهما الكثيرة مع أهل الصحافة والإعلام – ينادي الزملاء والزميلات عند اللقاء بهم في القصر الجمهوري، أو في مناسبات عامة يشارك فيها، بأسمائهم. وساعد على تعزيز هذا التعامل أن الصحافة متمثلة في ديوان الرئاسة بصحافية (سابقة) بشوشة بكّرت في تزْك مهنة الصحافة بعدما أتاح لها الرئيس الهراوي فرصة بدا من خلالها عندما عيّنها مستشارة إعلامية لرئيس الجمهورية أنه كمن يقول لأهل الصحافة إن لكم في القصر من يمثّلكم. وقد بذلت المستشارة الإعلامية، الزميلة مي كحالة، جهداً كبيراً لكي يبقى الصراط مستقيماً بين الرئاسة الأُولى والصحافة، فلا يغضب الرئيس على صحافي، ولا يشعر صحافي بأن ظلماً كبيراً ألحقه الرئيس به عن قصد أو عن غير قصد.

وبسبب هذا الأسلوب في التعامل فإن جدار التهيب تصدَّع مع الوقت بين الصحافة والرئاسة، وإختلطت الأمور إلى درجة بات فيها الصحافي، وبالذات مَن كان ناشراً أو في موقع الصدارة، يخاطب الرئيس كما لو أن الإثنين واحد، أو كأنما هما في منصتيْن متكافئتيْن، وبحيث يقال ما لا يجوز أن يقال، ويُكتب ما لا يجب أن يُكتب.

ولعله من هنا جاء إجتهاد الزميل حسن صبرا، الذي رمى الرئيس الأول بمقالة غابت عنه الفطنة، لحظة وضع عنوان لها، فلم تعد رأياً في قضية وإنما بدت كما لو أنها إتهام لرئيس البلاد وتجريح به وإستهانة بمقامه.

ومن المؤكد أنه لو بادر نقيب الصحافة، ونقيب المحررين، بعد صدور عدد من مجلة "الشراع" وفيه مقالة رئيس تحريرها الزميل حسن صبرا المعنون "يا رايح كتر القبايح"، لو بادرا إلى معاتبة الزميل، أولاً، ثم زيارة الرئيس الهراوي ومعهما كاتب المقالة، لكان الرئيس سينظر إلى الزيارة على أنها نوع من حرص الصحافة على أن تستمر العلاقة على الوتيرة المتميزة التي هي عليها بين الصحافة والرئاسة. ولكان الضيق الذي شعر به الرئيس من مخاطبته بالأسلوب الذي خاطبه به الزميل حسن صبرا سيتلاشى. وأكثر من ذلك إن المبادرة التي لم تتم كانت – لو هي تمت – ستشكِّل إعتراضاً، بالإختيار، من جانب الصحافة بنقابتيها بأنه لن تكون هنالك بعد الآن مخاطبة للرئاسة الأولى تتجاوز الأصول.

ولكن نقيبيْ الصحافة والمحررين تعاملا مع المقالة وكأنما حرية الصحافة هي مثل سرية المصارف، لا مجال للمسها. وأغلب الظن أن الرئيس الهراوي عندما وجد أن الأمر كذلك، بحيث أن لا الصحافة بنقابتيها بادرت ولا الزميل حسن صبرا داوى ما كتبه فألحق المقالة التي نالت من كبرياء الرئيس بمقالة تخفف بعض الشيء من حدة الغضب الرئاسي، فإنه كتم غضبه ما إستطاع الكتم، إلى أن غاب عنه، لحظة إلتقت عيناه بعينيْ غريمه، إنه الرئيس الأول وتصرَّف كمواطن شعر أنه مخدوش في كبريائه من مقالة ظالمة، عِلْماً بأن الذي قاله الآخرون من رجال السياسة والدين عن قضية قانون الزواج المدني، الذي يسعى الرئيس ليختم عهده بإقراره رسمياً، كان أكثر إيلاماً مما قاله الزميل حسن صبرا في مقالته. إلاَّ أن الآخرين سجلوا مواقف كثيرة الحدة لكنهم إستمروا بألفاظهم دون الخط الأحمر.

وهكذا، فإنه مثلما غابت عن الزميل حسن صبرا الفطنة في الوقت الذي كتب فيه مقالته، وبالذات في اللحظة التي وضع لها العنوان، فإن الحكمة تراجعت أمام الغضب في اللحظة التي إلتقت فيها العين الرئاسية التي تقدح شرراً بالعين الصحافية. ولا ندري كيف تراجعت الحكمة لدى الرئيس في اللحظة التي نشير إليها، عِلْماً بأن مناسبة اللقاء في حد ذاتها كانت أفضل المناسبات لتصفية ما في النفس من مشاعر بالمرارة. فالمناسبة كانت مناسبة عزاء. وبدلاً من أن تكون المشاركة فيها هي فقط للترحم على الفقيدة ولمواساة أهلها، فإن تراجُع الحكمة أمام الغضب أربك

صاحب العزاء، الذي هو وزير الداخلية ميشال المر المحزون على والدته، ولعله أزعج روح المتوفاة، لأنه بدل أن يؤدي الحاضرون واجب المواساة والترحم فإنهم إنشغلوا، وأولهم صاحب الدار الوزير ميشال المر، بتراجع حكمة الرئيس الهراوي أمام غضبه وترجمة الغضب إلى صفعة وجهَّها إلى الزميل حسن صبرا، عِلْماً بأن الأخير عندما مد اليد لمصافحة الرئيس وإرفاق ذلك بالقول شفاهاً "العوض بسلامتك فخامة الرئيس"، فإنه بذلك بدا كمن يرى أن هذه المناسبة هي خير المناسبات لتطييب خاطر الرئيس وللإعتذار منه عن مقالة أزعجتْه، وبلغت الزميل كاتبها أصداء الإنزعاج.

ومِن هنا فإن إبداء الأسف الذي يجب أن يسبق أي خطوة، يكون لروح والدة ميشال المر، التي عكر صفو رقادها الأبدي أسلوب رد الرئيس الهراوي على مقالة أغضبتْه، وهو رد وجد مستهجنين كثيرين له بمن فيهم حكام ورجال دولة لا يتمنون أن يحدُث لهم ما حدَث لزميلهم رئيس جمهورية لبنان، عندما أصيبت الحكمة عنده بسكتة لبضع ثوان رمى فيها بصفعة الصحافي الزميل حسن صبرا، الذي كان رمى الرئيس بمقالة غلبت فيها الإهانة، وبالذات في صياغة العنوان "يا رايح كتر القبايح" على الموضوعية المطلوبة من صاحب قلم عندما يعالج قضية من القضايا العامة.

ونعود إلى ما بدأْنا به هذه المقالة، وهو المثل الشائع "ربّ ضارة نافعة"، لنقول إن القلم في يد الكاتب يجب أن يبقى تحت سيطرة الكلمة العاقلة من دون أن يصرفه عن ذلك قول من هنا وأقوال من هناك تشعل نار الغضب في النفوس، وخصوصاً إذا كان المعني في الكتابة مسؤولاً مثل الرئيس الهراوي، الذي هو صاحب سُجل وطني في وقت يعاني العمل الوطني العربي من توعك.

وعدا ذلك يصبح الكاتب عرضة للسجن والمطاردة في الحد الأدنى، وللتصفية في الحد الأقصى، أو لعقاب هو أكثر من السجن وأقل من التصفية، وهو العقاب الذي أنزله الرئيس الهراوي بالزميل حسن صبرا، فخرج الزميل من المواجهة منتصراً في أي حال. وإنتصاره ليس في مطالبة النقابتين للرئيس بالإعتذار، وإنما لأنه معتدى عليه من رئيسه الذي يُفترض فيه أن يكون مِن الذين ينطبق عليهم القول المأثور "خير الرجال بطيء الغضب سريع العفو"، فإذا به من الذين يتمسكون بحرفية المثل الشائع "كلمة تحنن وكلمة تجنن"، ثم يدخل عليه تعديلاً بحيث بات: كلمة تحنن، وكلمة تجنن، وكلمة توجب الرد عليها بصفعة... حتى إذا كانت المناسبة مناسبة عزاء.

ويبقى أن بيان الصحافة بنقابتيْها لن يزيل الشرخ الذي أصاب العلاقة المتميزة والفريدة من نوعها بين الصحافة والرئاسة الأُولى في لبنان. وهذا هو الأمر المهم، خصوصاً من سارت التطورات الإقليمية في إتجاه التمديد مرة أُخرى للرئيس الهراوي. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أنه إذا كانت الرئاسة تكبر بالإعتذار على نحو ما رأى البيان، فإن الصحافة تكبر هي الأُخرى بالتسامح، وهذا ما لم يرِد في البيان.

وإذا إلتقى الإعتذار مع التسامح، فالتعقل والتهيب وإحترام مقام الرئاسة الأولى، في لحظة واحدة، فإن تلك العلاقة التي نشير إليها تُستعاد، وتصبح حادثة الصفعة طُرفة تُروى، وإلاَّ فإن الحادثة ستبقى ندبة من جملة الندوب التي ضاق الوجه اللبناني بكثرتها، والتي تغطي على تراثه وتاريخه وتقاليده وتنتظر جيل القرن الواحد والعشرين الذي سيزيلها... ما إستطاع إلى ذلك سبيلاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 8 يوليو (تموز) 1998

* * *

وجهة نظر حول "قمة المتعاقدين مع إسرائيل"

بعد القمة الثلاثية التي إستضافها الرئيس حسني مبارك في القاهرة يوم الأحد 5 يوليو/ تموز 1997 وضمت إليه الملك حسين والرئيس ياسر عرفات باتت هنالك مفردة جديدة في قاموس مؤسسة القمة العربية هي «قمة المتعاقدين مع إسرائيل». وهي تسمية مثل تسمية «قمة الصمود والتصدي».

وكلتاهما حاولتا التأسيس لمفهوم جديد للعمل العربي خارج الإجماع فلم يُكتب للأُولى الصمود ولا يبدو أن الثانية ستحقق شيئاً جوهرياً.

و«قمة المتعاقدين مع إسرائيل» جاء عقْدها المباغت كحالة إحتجاج على فكرة القمة الموسعة والشاملة التي لم يُكتب للسعي من أجْل عقْدها النجاح. وأهمية القمة الثلاثية هي في وضوح الرؤية لدى قادتها الثلاثة ووضوح النظرة إلى طبيعة العلاقة مع كل من

الولايات المتحدة وإسرائيل. ومِن هنا فإن القادة الثلاثة عندما التقوا وعندما سيلتقون في مرات لاحقة وكذلك عندما تحدُث بينهم لقاءات ثنائية لا تصادفهم محاذير عند صياغة قرارات تصدر عنهم. فهم متفقون على عدم إقلاق الصديق الأميركي ومتفهمون لمماطلة هذا الصديق في شأن تَعامله الرخو مع إسرائيل. وهم أيضاً على يقين بأن الحل هو في يد الولايات المتحدة، وأنها إذا كانت لن تُحقق هي هذا الحل فإنه لن يكون هنالك حل على الإطلاق.

وبصرف النظر عما إذا كانت نظرة القادة الثلاثة هذه عن إقتناع أو نتيجة الإضطرار أو لتفادي عقوبة حجْب المساعدات التي يشار إلى بعضها بصراحة أو تلك التي تصل عبر قنوات الإتصال السرية، فإن موقف أقطاب «قمة المتعاقدين مع إسرائيل» كثير الوضوح ومتقارب ومن أجْل ذلك فإنهم إذا إجتمعوا لا يختلفون وإذا هم إختلفوا سرعان ما يتفاهمون. وهم عندما يصدرون بياناً أو يتخذون قراراً فان وزراء خارجيتهم أو مستشاريهم لا يجدون كثير مشقة عند الصياغة.

وعند قراءة تصريحات القادة الثلاثة سواء تلك التي أدلوا بها قبْل إنعقاد قمتهم أو خلال إنعقاد القمة، وكذلك عند التأمل في البيان الذي صدر عن محادثاتهم خلال إجتماعهم في القاهرة...

إننا عند القراءة وعند التأمل نلاحظ أن الثلاثة في قمة الدبلوماسية. فهذا الرئيس حسني مبارك ينتقد خُطط إسرائيل في شأن القدس ويقول إنها «لعب بالنار». وهذا الملك حسين يتحدث عن حساسية مسألة القدس. وهذا الرئيس عرفات يقول إن شأن القدس لا يهم الفلسطينيين والعرب والمسلمين والمسيحيين فحسب وإنما يهم العالم كله. وهؤلاء الثلاثة يقولون بدبلوماسية رقيقة إنهم إتفقوا على أن ثلاثتهم يريدون رداً واضحاً من الولايات المتحدة بشأن مصير المبادرة الأميركية. أما أقصى التشدد لدى القادة الثلاثة فتمثَّل بفقرة في البيان الذي أصدروه ونصت على الآتي: «يؤكد القادة رفْضهم المطلق لمشروع تهويد القدس الذي أقرته الحكومة الإسرائيلية في 21 يونيو/ حزيران 1998 ويطالبونها بإلغاء هذا المشروع بشكل فوري وبعدم إتخاذ أي إجراءات لتنفيذه على الأرض، كما يطالبون الحكومة الإسرائيلية بالتوقف عن الإجراءات أحادية الجانب وبخاصة النشاطات الإستيطانية ومصادرة الأراضي وهدْم المنازل...».

وعلى رغم هذه المرونة وهذا الحرص من جانب القادة الثلاثة المتعاقدين مع إسرائيل بإتفاقات سلام منفردة وضِمْن مخطط الإستدراج، جاءت كلها على حساب مفهوم الحل العادل والشامل، فإننا نلاحظ أنه بدل ان تبدي الإدارة الأميركية إرتياحا لهذا النهج وتتجاوب معه وذلك بالطلب من إسرائيل أن تبدي بدورها من المرونة ما قد يفيد عملية السلام المتعثرة، فإنها لا تعلِّق على رد الفعل الإسرائيلي على بيان القمة الثلاثية وتصريحات قادتها وهو رد فعل تنقصه اللباقة وينقصه حُسْن التقدير للموقف وللمحاذير والمخاطر المتوقعة والتي لخصها الرئيس مبارك بقوله: «إذا إستمرت الحال على هذا المنوال نخشى من إندلاع العنف. ويا ليت الحكومة الإسرائيلية تتفهم خطورة هذا الوضع لأنه إذا بدأ الخطر فسيكون من الصعب السيطرة عليه...».

وأكثر من ذلك إنه بدل أن تفعل الإدارة الأميركية ذلك وتنتظر أول فرصة مناسبة لدعم موقف قمة العرب المتعاقدين مع إسرائيل وبما يضع حداً للعنجهية الإسرائيلية فإنها فعلت العكس، ذلك أنه بعد يومين (الثلاثاء 7 يوليو/ تموز 1998) جرى التصويت في الجمعية العمومية للأمم المتحدة على مشروع القرار الذي تقدمت به المجموعة العربية ويعطي منظمة التحرير حقوقاً أقرب إلى حقوق الدولة العضو. وبدلاً من أن تتقدم الولايات المتحدة صف الدول الموافِقة على المشروع فإنها دانته وإعتبرتْه قراراً خاطئاً وأنه عمل منفرد لم يكن له داع وجاء في توقيت غير مناسب...». وهي لو دعمت مشروع القرار وصوَّت مندوبها إلى جانبه لكانت مثْل هذه الخطوة سترضي بعض الشيء المشاعر العربية، فضلاً عن أن مثْل هذا التصويت بالموافقة على المشروع يبدو أمراً بدهياً ما دام الرئيس كلينتون تعامل مع ياسر عرفات كرئيس وما دامت الإدارة الأميركية تواصل التعامل معه على هذا الأساس وما دام المبعوثون الأميركيون وكبار المسؤولين في دول العالم ومن بينهم الرئيس الفرنسي جاك شيراك ورئيس الوزراء البريطاني طوني بلير زاروه في مقره الرسمي في السُلطة الوطنية الفلسطينية كرئيس دولة ويستقبلونه في مقراتهم الرسمية في عواصم دولهم بالصفة نفسها.

ويحتار المرء في ما إذا كانت الإدارة الأميركية مقتنعة ضمناً بما تقوله في شأن التصويت الذي حدَث أم أنما وتحت تأثير ضغط الصهيونية العالمية، دانت

مشـروع القرار وإسـتنفرت «دولتين» لا يعرف كثيرون داخل الولايات المتحدة نفسها وخارجها أين تقعان وهما «ميكرونيزيا» و«جزر مارشـال» للتصـويت معها ضـد المشروع وذلك كي لا تبدو أنها وحدها ومعها إسرائيل هما فقط ضد المشروع الذي حظي بموافقة 124 دولة. كما أنها إسـتنفرت عشـر دول أعضـاء للإمتناع عن التصويت كي لا تبدو المهزلة بالشكل الذي كان يمكن أن تبدو عليه.

وإلى ذلـك فـإنـه بـدل أن تغطي الإدارة مهزلـة التصـويت ضـد مشـروع حظي بموافقة الإرادة الدولية وتثبْت لقمة الدول العربية المتعاقدة مع إسـرائيل حُسْـن النية وتسـجل بعض التقدير لمرونة القادة الثلاثة فإن وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت إنتهزت مناسـبة وجود وزير خارجية مصـر عمرو موسـى في زيارة إلى واشـنطن يوم الجمعة 10 يوليو/ تموز 1998 لتطالب في تصـريحات أمام الصـحافة الطرفيْن الإسـرائيلي والفلسـطيني بالتحادث بهدف التوصـل إلى حل مقبول منهما مع أن أولبرايت تعرف أن المشـكلة هي في الإسـرائيليين وأن مطـالبتهـا إيـاهم بـالتحـادث مع الفلسـطينيين ووفْق ما جاء في المبادرة الأميركية كان هو مـا يجب أن يقال. لكن الوزيرة الأميركيـة إعتبرت أن الطرف الفلسطيني يحمل هو الآخر مسؤولية عدم تحرُّك العملية السـلمية على رغم أنها يذلك تغالط حقيقة ما في حوزتها من الوثائق التي تؤكد أن إسرائيل ورئيس الوزراء نتنياهو بالذات هي وهو المشكلة.

ويبقى أن بعض التشـدد في القمـة الثلاثيـة من جانب الملك حسـين والرئيس مبارك وعرفات كان من شـأنه أن يعود بنتيجة أفضـل على التعثر المسـتمر لعملية السلام. وفي تقديرنا إن التشدد كان يبرر إنعقاد تلك القمة. ومن دون هذا التشـدد وبالذات من الفريق العربي المتعاقد مع إسـرائيل سـتبقى الإدارة الأميركية تمـاطـل على نحو مـا تقوم بـه ويبقى رئيس وزراء إسرائيل نتنياهو يُهين ويستهين.

وما هو أهم من ذلك هو أن هذا التشدد الذي نشير إليه كان سيحل عقدة القمة الموسعة أاو الشاملة التي يجب أن تنعقد والتي تتكاثر التبريرات غير المقْنعة في شـأن عدم عقْدها ومنها القول إنه يجب الإعداد لها بشكل جيد لكي تنعقد. وآخر ما سمعناه في هذا الشأن كـان يوم الثلاثـاء 7 يوليو/ تموز 1998 (أي بعـد يوميْن من إنعقاد القمـة الثلاثيـة) ومن الرئيس مبـارك الذي كان يشـارك في إحتفال «يوم الدفاع الجوي» ووجد كثيرين من الضـباط تواقين إلى معرفة لماذا لا تنعقد القمة العربية ولماذا إنتهى الأمر إلى قمة ثلاثية إقتصـرت على الدول العربية المتعاقدة مع إسـرائيل. ورداً على الأسـئلة والإسـتفسـارات قال الرئيس مبارك «إنـه لكى تنعقد القمـة العربيـة يجـب أن تكون هنـاك ضـرورة تحتم إنعقادها ويجب أن يتم الإعداد الجيد لها من أجْل التوصل إلى قرارات...».

وإذا كان كل هذا الوضـع الذي تعيشـه الأمة لا يشـكِّل ضـرورة تحتم إنعقاد القمة فما هي إذاً هذه الضرورة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 يوليو (تموز) 1998

* * *

موقف فرنسا بجناحيْها من الأسد وقضيته...

لا نشـارك الذين يرون أن الرئيس جاك شـيراك وجد قبْل أسـبوعيْن من الزيارة التى قام بها الرئيس حافظ الأسـد إلى فرنسـا (من الخميس 16 إلى السـبت 18 يوليو/ تموز 1998) أن ليس في إسـتطاعته أن يقدِّم أموراً أسـاسـية إلى ضـيفه مع أن الإمكانات متوافرة وبكثرة، فقرر أن يعوِّض ذلك، بإسـتقبال إسـتثنائي للضـيف في المطار وحفاوة كثيرة التميز لمسـها الذين يتابعون تفاصيل الزيارات التي يقوم بها حكام العالم إلى فرنسا.

ولقد سـاعد على أن يكون الإسـتقبال إسـتثنائياً وأن تكون الحفاوة متميزة، أن الرئيس جاك شـيراك إعتمد منذ بداية عهده تقاليد جديدة في التعامل مع بعض الآخرين لا تتمسك كثيراً بحرفية البروتوكول، وهي تقاليد مستحبة في أي حال لأنها تُظهر جانباً من فرنسـا يدعو إلى الإرتياح.

أما لماذا لا نشـارك في الرؤية المشـار إليها فلأن الزيارة حققت نجاحاً ملحوظاً على صعيد تثبيت الموقف السـياسـي لفرنسـا من عملية السـلام وتلك مسـألة بالغة الأهمية سنلمس نتائجها في المرحلة المقبلة.

وما يمكن قوله في هذا الشأن وعلى سبيل التوضيح هو أن الموقف الفرنسـي كان يبدو حائراً بعض الشـيء كما أنه كان ينطلق من المسايرة بمعنى أن الرئيس جاك شـيراك عندما زار سـوريا ولقي ذلك الإسـتقبال التاريخي

فيها وجد نفسه مطالَباً بأن يرفع بعض الشيء من وتيرة الموقف المتفهم لمنطق سوريا إلى الموقف الذي يميل إلى دعْم هذا المنطق.

كما أن الموقف الفرنسي كان يبدو أحياناً وكما لو أنه موقف الرئيس شيراك النصف الإشتراكي المتمثل برئيس الحكومة ليونيل جوسبان متعاطف تاريخياً مع إسرائيل وغير منسجم أيضاً وبما فيه الكفاية مع المنطق العربي، والسوري بشكل خاص.

ثم جاءت زيارة الرئيس الأسد لتحسم وبشكل ملموس هذه الحيرة. فالرئيس شيراك أكد الموقف الفرنسي المتفهم لمطالب سوريا وهذه المرة من داخل قصر الإليزيه حيث لا موجب للمسايرة. وما هو بالأهمية نفسها هو التبدل الطفيف في الجناح الآخر من فرنسا متمثلاً برئيس حكومتها الإشتراكي الذي إتخذ الموقف نفسه إلى حد ما. وبعد الآن لن يعود الرئيس شيراك قلقاً من معارفية يلقاها من حكومته إذا هو قرر تطوير نظرته للعملية السلمية بحيث تتحول إلى تحرُّك يعزز هذه العملية ويجعل فرصها للنجاح أكثر وفرة.

وبصرف النظر عما إذا كان الموقف الجيد لرئيس الحكومة الفرنسية جوسبان هو نتيجة تطور نوعي لدى الإشتراكيين في نظرتهم إلى الصراع العربي – الإسرائيلي يتسم بالموضوعية والنزاهة، أو أنه خطوة تكتيكية تنطلق من تطلعات مستقبلية لدى جوسبان ليكون الرئيس المقبل للجمهورية... بصرف النظر عن ذلك فإن موقف رئيس وزراء فرنسا ما كان ليحدُث لولا زيارة الرئيس الأسد، وبالذات لولا الدقة المتناهية في تحديد المواقف سواء من خلال التلفزيون الفرنسي أو من خلال المؤتمر الصحافي الذي عقده الرئيس الأسد في ختام الزيارة. وفي الحديث التلفزيوني والمؤتمر الصحافي إعتمد الرئيس الأسد هدوءاً وقال كلاماً قد لا يتناسب تماماً مع حقيقة مشاعره إزاء بعض القضايا وبالذات ما هو ساخن وعالق، إلاَّ أنه يأخذ في الإعتبار أنه في زيارة إلى دولة يتطلع إلى دور فاعل لها ينادي به منذ ربع قرن ولا يريد لكلام ضد الأسلوب الأميركي في التعامل مع العملية السلمية أو لكلام تستغله الأوساط الإسرائيلية أو حتى لكلام عن تركيا وغيرها قد يثير ضجيجاً، أن يأخذ من إنتباه الحُكْم الفرنسي الذي يتطلع الرئيس الأسد إلى أن يكون هذا الحُكْم في غاية التنبه لا يشغله شيء آخر لعله ينجح في إخراج العملية السلمية من التعثر التي هي عليه.

ونحن عند التأمل في كلام الرئيس الأسد وتصريحاته يتأكد لنا ذلك. فهو عند الحديث عن أسلوب الإدارة الأميركية في تعاطيها مع العملية السلمية كظم غيظه من هذا الأسلوب مكتفياً بالقول: «أحترم الرئيس كلينتون لأنه كان نشيطاً في دفْع عملية السلام في ولايته الأولى، ولكنه في الولاية الثانية كما نرى لا توجد أي فأعلية. وأنا لا أعتقد أن الرئيس كلينتون في وضْع مريح، بل إنني أعتقد العكس لأنه كان متحمساً لعملية السلام في البداية ولا يوجد ما يبرر أن يفعل ذلك في الدورة الثانية، خصوصاً أن الرئيس في أميركا يكون في الدورة الثانية سيد نفسه، ويستطيع أن يفعل ما لا يستطيع فِعْله في الولاية السابقة. وربما هناك ظروف لا نعرفها في الصعوبات الأميركية...». وهو عند سؤاله عن تركيا وتحالفها مع إسرائيل كظم الغيظ أيضاً مكتفياً بالقول: «إن هذا الوضع لا يريح أحداً ولا نستطيع القول أن النيات جيدة وعلينا أن نفكر في ما يمكن أن نفعله». وهو عندما سئل عن معارضة الولايات المتحدة لتشغيل أنبوب النفط العراقي – السوري الممتد من كركوك إلى بانياس لم ينفعل مهدئاً من الروع الأميركي، موضحاً أنه لا صلة بين قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالعراق والإتفاق العراقي – السوري على تشغيل الأنبوب.

وعندما جاء الحديث عن لبنان إختار الرئيس الأسد أن يؤكد ومِن فرنسا ما سبق أن أعلنه الرئيس رفيق الحريري من واشنطن، بأنه سيزور لبنان نهاية 1998، موضحاً أن حدوث أكثر اللقاءات بين مسؤولين من البلدين في سوريا ناشئ عن ظروف تتحكم بها. وهو عندما سئل عن إحتمال تطور التطبيع المتدرج بين سوريا والعراق إلى حد إستئناف العلاقات الدبلوماسية قال إنه لا يعلِّق أهمية على العلاقات الدبلوماسية بين البلدان العربية وضرب على ذلك مثالاً ما هو حاصل بين سوريا ولبنان «حيث هناك بيننا وبين لبنان ومنذ سنوات طويلة كثير من الأشياء المشتركة على رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية...». وهو عندما سُئل عن إحتمالات الحرب وما إذا كانت سوريا تتخذ إجراءات عسكرية قال: «لم نتخذ إجراءات عسكرية إلاَّ ما كنا إتخذناه منذ سنوات طويلة. والآخرون (يقصد الإسرائيليين) يقْدمون على ما يقْدمون عليه لجهة التسلح. في كل الحالات نحن لا نريد الحروب، وفي الوقت الذي نحاول فيه أن نحقق سلاماً، ليس معقولاً إننا نريد حرباً...» وهو بالنسبة، إلى المبادرة الفرنسية – المصرية لإنقاذ السلام أبدى إمكانية تأييدها مستقبَلاً وتمثل ذلك بقوله: «المبادرة موجودة وفي وقت مناسب

قد نكون معها...».

ويبقى أن الزيارة إنتهت من دون أن تتسبب من خلال التصريحات على الأقل بالغضب الإسرائيلي على الرئيس شيراك. ولكن العين الأميركية لا يبدو أنها ستغفل عن التحرك الفرنسي بعد الآن وخصوصاً بعدما أمكن الرئيس الأسد أن يحقق تبدلاً طفيفاً في موقف الجناح الإشتراكي بحيث كما أوردْنا في أسطر سابقة بات هذا الجناح بشخص رئيس الوزراء ليونيل جوسبان أكثر إقتراباً من رؤية الرئيس شيراك لما يجب أن تكون عليه العلاقة مع سوريا وأقل إبتعاداً عن رؤية الرئيس الاسد. وعندما نعرف أن الإدارة الأميركية تراهن فحنا على جوسبان لتُحقق من خلاله تقاطعاً مع الموقف الذي يتخذه الرئيس شيراك، وعلى نحو رهانها في الماضي على الرئيس فرنسوا ميتران الذي تبنى موقف الرئيس جورج بوش من موضوع الحرب على العراق... إننا عندما نعرف ما الذي في بال الإدارة الأميركية ندرك أي إنجاز إيجابي حققتْه الزيارة للرئيس الأسد ولقضيتة، وذلك عندما بات جوسبان متعاطفاً مع موقف سوريا وإلى درجة القول إن السيادة السورية على هضبة الجولان مسألة غير خاضعة للنقاش وأن أي مفاوضات «يجب ألاّ تتناول مبدأ السيادة على الهضبة بل الطُرق الكفيلة بإستعادتها...».

يبقى أيضاً أن هذه الزيارة المتميزة للرئيس الأسد إلى فرنسا، وهي الثانية له بعد الأولى قبْل 22 عاماً والتي لم تكن على هذا التميز، أسست عملياً لموقف فرنسي سيزداد وضوحاً مع الوقت هذا إذا لم تنقض عليه الإدارة الأميركية والصهيونية بشكل مفاجئ.

وخلاصة هذا الموقف، إذا جاز التحديد، هو أن فرنسا مع سوريا إلى أن تستعيد الجولان سِلماً، وإلى جانبها إذا إعتدت عليها إسرائيل على نحو ما فعلتْه عام 1967، وليست ضدها إذا وصل السعي السلمي إلى الطريق المسدود وقررت سوريا تحرير أرضها في عهد الرئيس الأسد أو في عهد خليفته بشَّار الأسد، خصوصاً بعدما لمَّح الرئيس وهو مازال في دمشق عشية سفره إلى باريس في المقابلة التي أجراها معه التلفزيون الفرنسي أن الإبن بشَّار نشيط ومحترم ومحبوب من جانب السوريين... وهي صفات مطلوبة في مَن يحكم سوريا في القرن الواحد والعشرين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 يوليو (تموز) 1998

* * *

حول عودة المهجَّر رياض الصلح.. الملك فهد رمّم والرئيس الأسد إستضاف...

أخيراً عاد تمثال رياض الصلح إلى قاعدته وإلى ساحته وعاد بملامح تُظهره أكبر قليلاً من سِنِّه عندما نحت المثّال التمثال في الستينات. وبعودته ارتاحت نفوس البيروتيين من الجيل المخضرَم الذين إفتقدوا غياب التمثال عنهم بضع سنوات. أما بيروتيو الجيل القديم الذين عايشوا رياض الصلح أو كانوا حوله فهؤلاء شعروا أن عودة التمثال المهجَّر هي بمثابة إستحضار للماضي اللبناني الزاهر الذي كان رياض الصلح رمزاً من رموزه المضيئة سواء كواحد من أبطال الإستقلال أو كواحد من صاغة الميثاق الوطني أو كواحد من صانعي السياسة العربية للبنان وأحياناً للبنان وسوريا معاً أيام كان كرئيس للوزراء في لبنان مرجعية من المرجعيات السياسية العربية المخلصة للمسألة القومية وللعروبة المتوازنة التي لا تخيف أحداً ولا تخشى هي أحداً، كما أنها واثقة بنفسها كل الثقة فلا تشكو من أي عقدة أو تبقى أسيرة الشك بما تفعله.

والقول بأن التمثال كان مهجَّراً يستند إلى الوقائع التي تؤكد ذلك. ففي ذروة الفوضى التي عاشها لبنان في بدايات حرب الإقتتال الأهلي وكانت القوات السورية لم تدخل بعد إلى لبنان وتقوم بدور التهدئة الذي قامت به ضاقت صدور البعض بذلك التمثال الذي يرمز إلى لبنان المستقل ولبنان الميثاق الوطني فقرروا تدميره على نحو حالات التدمير الكثيرة التي لحقت بمؤسسات ومصارف وأسواق. ولهذا الغرض شوَّهوا بالمطارق جزءاً من التمثال ثم بدأت عملية تزنير التمثال بالمتفجرات تمهيداً لتفجيره بعدما لم تنجح محاولة أُخرى لتكسيره بالمطارق والتي كانت تتم تحت جنح الظلام. ويبدو أن واحداً من الذين تبرَّع أهلهم في حينه ضمن حملة التبرعات من المواطنين لإقامة التمثال أصابته حالة هلع مما سيتم إنزاله من قصاص بتمثال رياض الصلح فأفشى الخبر في الوقت المناسب وأمكن عن طريق العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري نجدة التمثال في آخر لحظة وإبعاد زنار المتفجرات عنه ثم فكه ووضعه في صناديق خشبية ونقله على وجه السرعة إلى دمشق. وبموافقة من الرئيس حافظ الأسد وتوجيهاته إلى العماد طلاس وبعض الحلقات داخل قصر الرئاسة عومل التمثال

على أنه زائر إستثنائي يحظى من الدولة السورية بكل الإهتمام المطلوب.

وهكذا بات التمثال في حمى الرئيس حافظ الأسد ورعاية العماد مصطفى طلاس الذي تربطه بآل الصلح وبالذات عائلة رياض الصلح قرابة (زوجة رياض الصلح وزوجة مصطفى طلاس من آل الجابري).

وكان لا بد من خطوة أُخرى نحو التمثال الذي ناله الكثير من الأذى. وبسبب عدم توافر الإمكانات المالية فإن العماد طلاس كتب إلى خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز متمنياً عليه نجدة التمثال فتجاوب الملك على الفور. وبعد أيام كان هنالك خبير إيطالي يصل إلى دمشق ويستقبله العماد طلاس. وبعد فحْص التمثال بدأت عملية الترميم التي إستغرقت وقتاً طويلاً. ولم تعرف عائلة رياض الصلح بما جرى للتمثال وكانت الأُسرة تعتقد أن العناصر التي قررت تحطيم التمثال نجحت في إخفائه في مكان ما بعدما إستعصى عليها التحطيم إلى أن بلغها من نسيب العائلة العماد مصطفى طلاس بما جرى للتمثال وكيف أن الملك فهد رمَّمه وأن الرئيس حافظ الأسد إستضافه مطْمئناً إلى أنه في عهدة وتحت إشراف العماد طلاس الذي هو أحد أبرز الأسديين. ولقد عرفت العائلة بذلك بعدما كان الترميم قطع شوطاً فإطمأنت قلوب أفرادها.

وفي الوقت الذي تزايد الكلام عن حرص سوريا على سيادة لبنان ثم الإعلان عن أن الرئيس حافظ الأسد سيقوم بزيارة إلى لبنان في الخريف المقبل، تمت يوم السبت 11 يوليو/ تموز 1998 عودة تمثال رياض الصلح إلى قاعدته، وقد إكتمل، في الساحة المعروفة بإسمه والواقعة أمام السراي التي باتت بعدما إنتزعها قادة الإستقلال من المفوض السامي الفرنسي مقراً للرئاستين: رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة. وقد يكون هذا الإستقرار من جانب الرئاستين في مقر واحد كون الرئيسيْن الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح من نسيج وطني وعروبي واحد وكونهما أيضاً صديقيْن ورمزيْن للوفاق اللبناني الذي يستظل براية الميثاق الوطني الذي إختل توازن لبنان بعدما بدأ العبث بالميثاق الذي كانت نقطة ضعفه أنه لم يُكتب بحيث يصبح وثيقة فبات من السهل نتيجة لذلك العبث به.

وعودة تمثال رياض الصلح إلى قاعدته في ساحته التي تحمل إسمه، وليس إلى حديقة في مكان آخر، أثلجت صدور جيل ما بعد الإستقلال من اللبنانيين الذين كان من حُسْن حظهم وسعدهم أنهم عاشوا بعض الوقت في دولة الإستقلال التي بناها وعلى أمتن ما يكون عليه البناء النفسي والوطني الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح وزملاء لهم في النضال كان آخرهم المرحوم عادل عسيران الذي ودعه لبنان قبْل شهريْن. وما يحز في نفوس أبناء الجيل الذي نشير إليه – ونحن منهم – أن التمثال الذي أقيم للشيخ بشارة في شارع يحمل إسمه أصابه ذات يوم من أيام الحرب أذى بالغ من أشخاص لا يعرفون ما معنى أن يكون هنالك إستقلال وإستقلاليون حيث حطموا ما أمكنهم التحطيم ذلك التمثال، ولأنه لم يجد مَن هو في همة العماد مصطفى طلاس لكي يأخذ الأمر على عاتقه على نحو ما حدث للعماد مع تمثال رياض الصلح فإن تمثال الشيخ بشارة، الذي ذهب مع جنون الحرب على أيدي بعض مجانينها، ينتظر نخوة من يأخذ الأمر على عاتقه وعلى نفقته وبحيث يعود التمثال الذي يفتقده كل الذين يجتازون شارع بشارة الخوري ولا يرون شيخ الإستقلال بكامل قامته يذكّرهم، إن نفعت الذكرى، بأن يحبوا بلدهم قبْل أن يحبوا أنفسهم ويؤثرون مصلحة الوطن على المصلحة الشخصية.

ولربما سيمتنّ لبنانيو تراث الإستقلال لرئيس الحكومة رفيق الحريري لو أنه تولى بنفسه أمر إعادة إنجاز تمثال جديد للشيخ بشارة يقام على مقربة من تمثال رياض الصلح وبذلك تستعيد السراي الذي دفع الرئيس الحريري (في أضخم عملية ترميم لمقر حكومي) من جيبه الخاص ستة ملايين دولار أميركي لكي تأتي على أبهة ورونق يليق بساكنها رئيس الحكومة وإن كان الحريري صرح بأنه يتمنى لو أن هذه السراي تصبح مقراً للرئيسيْن رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة على نحو ما كانت عليه في بداية عهد الإستقلال. وقد يبدو مثل هذا الإقتراح قريباً من الإستحالة لكن إذا حدث ذلك وباتت ساحة رياض الصلح تحمل إسم ساحة الإستقلال وعليها تمثال رمزيْ الميثاق الوطني بشارة الخوري ورياض الصلح ومن ورائهما السراي بالأبهة التي هي عليها ومن حولهما في حدائق السراي مستقبلاً تماثيل لبقية رموز إستقلال لبنان... إنه إذا حدَث ذلك فإن طمأنينة وجدانية ستغمر النفوس فتجعل أصحابها أكثر ثقة بما يفكرون ويفعلون. ونقول ذلك مع ترْك مجال لبعض الخشية من أن يصيب السراي إذا إستمرت الحال في

لبنان إقتصادياً على التدهور التي هي عليه ما أصاب المقر الرئاسي في باكستان الذي بعدما تم إنجازه بتكلفة باهظة وجد رئيس باكستان نفسه يطرح قبْل شهر المبنى للبيع من أجْل تأمين موارد لمواجهة الأزمة المالية الخانقة... وتَصادف أن الطرح تم في وقت كان بدأ شهر التخفيضات في كل أسواق العالم وعلى جميع ما تحويه المتاجر. ولم يخطر في بال أحد أن سلعة جديدة باتت معروضة في شهر الأوكازيون وبتخفيض تجاوز الخمسة والسبعين في المئة هي المقر الحكومي الفخم والضخم في باكستان والذي نتمنى ألاّ يصيب مبنى السراي في بيروت ما أصاب ذلك المقر. والإتكال في ذلك على العناية الإلهية وهمة الرئيس الحريري الذي نتمنى له أيضاً أن يكون هو أول ساكني السراي ذات الرونق والأبهة الفائقيْن لا أن يحدُث ما سبق أن حدَث مع الرئيس كميل شمعون الذي بذل جهداً خرافياً لكي ينجز بناء أول قصر جمهوري لائق في لبنان ويكون الساكن الأول فيه. ولكن الأقدار سارت في إتجاه آخر حيث عصفت حرب أهلية مخففة بعهده وجاء بعده اللواء فؤاد شهاب الذي رفض أن يتخذ من ذلك القصر مقراً له إلى أن كانت الإقامة من حظ الرئيس شارل حلو والذين تعاقبوا على الرئاسة مِن بعده... ولم نسمع من أحد منهم أنه كان سعيداً طوال سنوات إقامته في ذلك القصر الذي قصفه ذات يوم ضابط مهمته أن يحافظ على القصر وساكنيه. يا ليت ذلك اليوم يُمحى من الذاكرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 24 يوليو (تموز)1998

* * *

رئيسان أعظمان على شفير الهاوية

مصادفة من النادر في التاريخ أن تحدث على النحو الذي هي عليه، حيث أن رئيس الدولة العظمى، ورئيس الدولة الأعظم كلاهما على شفير الهاوية. والدولتان تعيشان نتيجة ذلك أزمة هيبة أمام الدول الأُخرى.

الدولة الأعظم الولايات المتحدة تعيش مرحلة فقدان الهيبة بعد الذي أصاب الرئيس بيل كلينتون من جراء نزواته. وبسبب فقدان هذه الهيبة إقترفت الإدارة الأميركية وفى وضح النهار عدواناً على مصنع للأدوية في السودان يشبه عدوانها على ملجأ العامرية فى بغداد وعدوانها من قبل على باب العزيزية في طرابلس حيث منزل العقيد معمَّر القذَّافي ومقر قيادته. وهذه الإعتداءات تشبه عدوان إسرائيل على مدرسة بحر البقر فى مصر في الستينات وإعتداءاتها المتواصلة على بيوت الناس فى جنوب لبنان. وكل هذه الإعتداءات الأميركية – الإسرائيلية تستهدف الأبرياء فى الدرجة الأُولى وكأنما الذين يقومون بها من لحظة إصدار الأوامر إلى لحظات التنفيذ هم مرضى من الضروري الحجر عليهم. كما أن هذه الإعتداءات تستهدف العرب والمسلمين الأمر الذي يعنى أن هؤلاء المعتدين هم ضد كل ما هو مسلم أو عربي.

ونحن عند التامل في طبيعة العدوان الأميركي وهو – على ما يبدو – عدوان آخر وليس العدوان الأخير نلاحظ أن الولايات المتحدة تصرفت بأسلوب البلطجى وليس بأسلوب الدولة التي نفترض أنها حضارية. وهي بأسلوبها الذي إعتمدته لم تلحق الأذى الكبير بهيبتها فقط وإنما أحرجت دولاً صديقة كثيرة من بينها مصر، وأربكت قوى سياسية من بينها المعارضة السودانية التي تغلبت روح الشماتة عندها فأظهرت بعض الإبتهاج بالعدوان الأميركي على مصنع الأدوية، مع أن إدانة فورية وخالية من التحفظ من جانب بعض أقطابها لهذا العدوان كانت ستعود عليها بإحترام هي في أشد الحاجة إليه، وبمصداقية تفتقدها، نتيجة هذا الإرتماء فى الحضن الأميركي وفي زمن باتت فيه الولايات المتحدة دولة معتدية وتختلف كل الإختلاف عن الولايات المتحدة التي أحببناها كعرب أيام رئاسة إيزنهاور، التي كانت تميز بين الظالم والمظلوم وبين المعتدي والمعتدى عليه وكانت أيضاً متحررة من قيود الضغوط والإبتزازات الإسرائيلية.

ومن المؤكد أن كل أصدقاء الولايات المتحدة في العالميْن العربي والإسلامي الذين باتت صداقتهم لها تقلقهم وتحرجهم أيما إحراج كانوا يتمنون لو أن الإدارة الأميركية بدل أن تتبلطح على النحو الذي فعلته مع مصنع الدواء السوداني دعت مجلس الأمن إلى الإنعقاد وطلبت بشكل إستثنائي من الأمناء العامين لكل من الجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي ومنظمة الوحدة الأفريقية ومنظمة المؤتمر الإسلامي حضور هذه الجلسة بصفة مراقبين وعرضت بواسطة

خبراء على شاشة مكبرة وثائق تؤكد أن مصنع الشفاء السوداني للأدوية هو مصنع موضع شبهة وأنه ينتج أسلحة الدمار الشامل ولذا فمن الضروري توجيه ضربة قاضية إليه. وهي لو فعلت ذلك وكان لديها من الوثائق ما يؤكد الحقيقة التي توصلت إليها لكان العرب والمسلمون والأفارقة آزروا خططها أو أنهم في الحد الأدنى كانوا سيسرعون الخطى نحو حكومة السودان يسدون إليها النصيحة لإنهاء هذا المصنع وعلى وجه السرعة. لكن ما تقوله الولايات المتحدة ليس أكثر من إدعاءات وأن الجنوح نحو أسلوب البلطجة هو الذي يتغلب دائماً عندها فتلجأ إلى العدوان. وهي بعدما نفذت عدوانها وإمتزجت دماء الضحايا بالأمصال وبأقراص الأدوية التى قد تشفي من هم أصلاً مرضى نتيجة السياسة الأميركية في المنطقة، إرتبكت أيما إرتباك لانه ليس في حوزتها ما يؤكد صحة إدعاءاتها. ثم ظهر واضحاً كل الوضوح أن هذا العمل الشرير في حق مصنع الأدوية السوداني كان لتحويل أنظار الرأي العام الأميركي عن فضائح التحرش الجنسي للرئيس كلينتون من دون أن يأخذ لمستشارون الذين نصحوا بهذا العدوان في الإعتبار أنه مقابل تحويل أنظار الرأى العام الأميركي عن تلك الفضائح سيحدث نوع من التحول الجذري في نفوس من لا زالوا أصدقاء للولايات المتحدة ويعولون الكثير عليها وسيرى هؤلاء أن هذه الدولة خيبت آمالهم ولا خير يرجى من صداقتها.

وفي الوقت الذي تعيش الولايات المتحدة مرحلة فقدان الهيبة من جرَّاء نزوات رئيسها وما إستتبع النزوات من ممارسة العدوان على نحو ما أوردنا تأتي أخبار التطورات المثيرة من موسكو تتحدث عن مرحلة فقدان العملة الروسية قيمتها وسقوطها تحت وطأة الدولار في الأسواق المالية الأمر الذي يعني أن الدولة التي كانت تشارك الولايات المتحدة مقومات العظمة والتي على رغم فقدانها الكثير من هذه المقومات إستمرت تلي الولايات المتحدة من حيث العظمة، تسير نحو المزيد من الإنهيار. ومثلما أنهم في الولايات المتحدة ينتظرون أن يتم خلع الرئيس كلينتون، إلاَّ إذا هو بادر وقدم إستقالته، فإنهم في الإتحاد السوفياتي وجدوا أنفسهم في حالة إنتظار مماثلة.

وإزاء هذا الإنهيار في الهيبتيْن، هيبة الرئاسة في الولايات المتحدة وهيبة الرئاسة فى روسيا، ما الذي يمكن أن يحدث؟

هل يحدث فراغ في زعامة العالم على نحو الفراغ الدستوري الذي يحدث في دولة نتيجة أزمة مفاجئة أو غياب مفاجئ لرئيس الدولة؟

وهل هناك دول أُخرى يمكن أن ترث الدولتيْن اللتيْن تعيشان مرحلة إنهيار الهيبة ويبدو رئيس كل منهما أنه على شفير الهاوية؟

وما الذي يمكن أن يصيبنا كعرب ومسلمين من جرّاء هذه الإحتمالات التي أشرنا إليها؟

قد يصعب على المرء أن يفترض أي حالة يمكن أن تحدث نتيجة لذلك. لكن الذي يمكن قوله هو أن هذا التراجع للدولتيْن من مصلحة إستقرار العالم وبالذات منطقة الشرق الأوسط في هذا العالم الذي لم تمارس فيه الدولة الأعظم الولايات المتحدة سوى الإعتداءات على العرب والمسلمين عموماً من نوع العدوان الجديد الذي تعرض له مصنع الأدوية فى السودان، وسوى ممالأة إسرائيل وتشجيعها على إرتكاب الإستفزازات والإعتداءات والإستهانة بالإتفاقات والمعاهدات المعقودة مع الفلسطينيين، وسوى منع العرب بالإرهاب النفسي والتضليل من عقد قمة تتصافى فيها النفوس والقلوب.

أما بالنسبة إلى روسيا فإن تراجعها قد يكون من مصلحة المنطقة لان رئيسها يلتسين لم يفعل ازاءنا الحد الأدنى مما يمكن أن يفعله. وكان في إستطاعة وقفات جسورة منه في أكثر من مناسبة أن تجعل عامة النظام العالمي الجديد لا تتجاوز حدودها ولا تجتاح في طريقها حقوق الآخرين، ولكن يلتسين كان أسير هذا النظام ربما لأنه هو الذي جاء به في الأصل.

وقد يكون البديل المناسب لنا ولإستقرار العالم عموماً أن تتبلور صيغة القيادة الجماعية للعالم في القرن الواحد والعشرين من خلال مجلس الأمن بعد أن يتم فك القيود الأميركية من معصميه، وتتوسع عضويته لتشمل دولاً تستحق هذه العضوية، مثل اليابان وإحدى الدول العربية والمسلمة. وهو أمر مطلوب وسيكون موضع رضى الجميع. بل ان حدوثه ضروري قبل أن يلحق الرئيس شيراك بالرئيس كلينتون ويلتسين. وهنالك مؤشرات تجعلنا نفترض حدوث ذلك ونفترض أيضاً أن الصهيونية ستحكم قبضتها على العالم في العام ألفين وهي «نبوءة سمعنا بعض الأوساط اليهودية خلال بداية إقامتنا في بريطانيا في الثمانينات يتحدثون بجدية عنها فلم نأخذ الأمر على

محمل الجد. بل أن هؤلاء كانوا يؤكدون لنا انه بالعام ألفين سيبدأ العصر اليهودي. ومن يتأمل في التدمير المنظم والمبرمج من جانب الصهيونية للأحداث التي يشهدها الربع الأخير من القرن العشرين يتأكد له ذلك. وفي البداية كان الإستفراد بمصر ثم تدمير لبنان وتدمير العلاقة العربية – الفلسطينية، ثم شق وحدة الصف العربي وإنتزاع القضية الفلسطينية من أهلها ومن العرب، ثم إنهاء صيغة الإتحاد السوفياتي وتهاوي الأنظمة الشيوعية في أوروبا، ثم إفقاد الدولة الأعظم (أميركا) هيبتها، وإفقاد الدولة العظمى (روسيا) أهميتها وبعد ذلك جاء التلاعب بالقلاع المالية في العالم وأهمها القلعة السويسرية، ثم العمل على هز الشأن المالي العربي فالسعي لتدمير شأن الطموح الفرنسي الشيراكي وقطع الطريق على أي علاقة عربية – دولية.

... وبالقليل من التأمل والكثير من التفهم يمكننا كعرب أن نواجه مفاجأة تكتمل يوماً بعد يوم وأمام أعيننا خيوط المؤامرة فيها. لعل وعسى يحدث التأمل والتفهم... وكلاهما طال إنتظار الملايين العربية إليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 2 أغسطس (آب) 1998

* * *

لبنان السوري – الفرنسي ومفاجآته السارة...

أحدث أحد أبرز الزعماء السياسيين في الطائفة المارونية العميد (لقب غير عسكري) ريمون إده ما يشبه الصدمة في نفوس مشاهدي وسامعي مقابلة تلفزيونية بثتها قبْل أيام محطة «ال، بى. سي» المحسوبة على تنظيم «القوات اللبنانية» التي يعيش رئيسها الدكتور سمير جعجع مهجَّراً أو شبه مهجور في إحدى غرف الطبقات السفلى من مبنى وزارة الدفاع.

وسبب هذه الصدمة مفاجأة غير سارة أطلقها العميد ريمون إده الذي ينشط حزبه المعروف بإسم «الكتلة الوطنية» منذ بضعة أشهر في سبيل أن يتحول وفي حياة العميد إلى كيان حزبي مستمر يستمد قوته من رصيده والتفاف الناس حوله وليس فقط من شخص عميده الذي يعيش في باريس منذ ربع قرن من دون أن يكون لاجئاً سياسياً أو زعيماً سياسياً مهجَّراً إلى الربوع الفرنسية.

تمثلت المفاجأة بعبارة للعميد ريمون إده أكد فيها أنه ليس مرشحاً لرئاسة الجمهورية. وبرر ذلك بالتوضيح أنه بات في العمر، الذي لا يمكن أن يتسلم فيه شخص منصب رئاسة الدولة خلفاً للرئيس الحالي إلياس الهراوي. وهو لو لم يذكر مسألة العمر لكان المشاهدون والسامعون إفترضوا أنه في السبعين من العمر، ذلك أن النضارة واضحة على الوجه.

وهذا الكلام يبدو منطقياً إذا كان ما يحتاجه لبنان هو رئيس فى الخامسة والستين من العمر وهو متوسط أعمار عدد من الشخصيات السياسية المارونية التي تُرشّح نفْسها أو تأمل فى ترشيح المراجع المختصة غير اللبنانية لها. لكن الذي يحتاجه لبنان وبالذات في هذا الظرف البالغ التعقيد، هو الرئيس الذي يوليه اللبنانيون ثقتهم كاملة ويولي هو بدوره الوطن إخلاصاً لا حدود له. وبالنسبة إلى العميد ريمون إده فإن الأمريْن متوافران وبنسبة كبيرة. فاللبنانيون على جميع مشاربهم وبالذات الذين لم تجرفهم الحرب، يثقون بالعميد ريمون إده، وهو من جانبه مخلص في حبه لوطنه وإيمانه بهذا الوطن. وفي هذا الحب وذاك الإيمان لا ينطلق ولم ينطلق يوماً من مصالح شخصية.

ولقد إعتدنا على العميد ريمون إده مرشحاً دائماً لرئاسة الجمهورية فى كل مرة يحين فيها موعد إنتخاب الرئيس. إلاَّ أن الظروف والتشابكات الدولية والإقليمية، فضلاً عن عدم مرونة الرجل وإصراره على التمسك ببعض المفردات، كانت تخذل العميد. ومع ذلك فإنه لم ييأس وإستمر يطرح نفسه – ويريده اللبنانيون – مرشحاً للرئاسة. ثم جاءت مفاجأة العميد في المقابلة التلفزيونية وإعلانه في هذه المقابلة تخليه عن التقليد المألوف بأنه المرشح الدائم لرئاسة الجمهورية في لبنان.

ولكن هذه المفاجأة لا تلغي حقيقة موضوعية وهي أن ريمون إده هو الشخص الذي يحتاجه لبنان في الظروف الراهنة.

كما أنه – إذا جاز القول – الشخص الذي يحتاجه رئيس الحكومة رفيق الحريري، إذا كان الحريري سيبقى في ضوء الرغبة السورية – العربية – الدولية رئيساً للسلطة التنفيذية في لبنان. وعندما تبلورت صيغة التحالف بين رفيق الحريري وريمون اده لم يكن وارداً

فى حساب الحريري أنه سيتم التمديد لولاية الرئيس الهراوي. وكان الرجل على ما يجوز الإفتراض يخطط لتمهيد الطريق أمام ريمون إده لكي يخلُف الرئيس الهراوي، وهو من أجْل ذلك نجح مع صديقه الرئيس الفرنسي جاك شيراك في إعتبار ريمون اده ضمناً مرشح الإثنيْن معاً لكى يكون رئيساً للبنان بعد الرئيس الهراوي. ومِن هنا جاءت دعوته دون غيره إلى قصر الرئاسة الفرنسية (الإليزيه)، هذا فضلاً عن تمنيات متبادَلة لا يعلن عنها والهدف منها تعزيز قنوات الإتصال وتمتين أواصر العلاقة والصداقة.

ومن الجائز الإفتراض أن تأييد العميد ريمون إده لتمديد ولاية الرئيس الهراوي جاء ضمن سيناريو التفاهم الضمني بين الثلاثي (شيراك – الحريري – إده) وذلك على أساس أنه ما دام لن يكون ريمون إده رئيس الجمهورية بعد الرئيس الهراوي فليكن التمديد هو الأفضل على أساس أنه سيكون لفترة قصيرة يتم خلالها من جانب شيراك والحريري مع الرئيس حافظ الأسد إنضاج فكرة أن يترأس العميد ريمون إده جمهورية آخر القرن في لبنان.

ولولا هذه الضرورة لما كان للعميد، الحريص كل الحرص على ألاَّ يتم تجاوز للدستور كما هي مواده وبالذات ما يتعلق بإنتخاب رئيس البلاد ومدة ولاية الرئيس، أن يمارس التكتيك والمرونة فى أمر لا يجوز التعامل معه بغير المبدئية والتمسك بالأصول الدستورية.

ولا ندري إذا كانت معاودة ريمون إده لفكرة التمديد منذ أيام سببها شعوره ومعلوماته بأن الظرْف الاقليمي وطبيعة العلاقة السورية –اللبنانية تحتمان التمديد للرئيس الهراوي، أم أنها لقطع الطريق على آخرين يمنون النفس بالرئاسة، كذلك لا ندري إذا كان قول العميد اده في المقابلة التلفزيونية إنه ليس مرشحاً للرئاسة معناه رفْع العلَم الأبيض أمام السِن، عِلماً بأن ريمون إده في صحة يحسده عليها مَن هم أصغر منه سناً، وصاحب رؤية وطنية ومستقبلية تكاد في عملية صياغة أن تصبح برنامج حُكْم. هذا فضلاً عن أن موقف ريمون اده من إسرائيل ليس بعيداً عن موقف سوريا التي كان وجودها ودورها في لبنان يشكلان سبباً أساسياً لهجرة ريمون إده إلى فرنسا، وأغلب الظن أنهما لم يعودا السبب بعد هذا الود الذي بلغ ذروته بين فرنسا بجناحيْها (الشيراكي الديغولي والإشتراكي) وبين الرئيس حافظ الأسد، وإلاّ لكان قرر العميد أن يهاجر من فرنسا أو (على نحو ما تمنى له اللبنانيون) العودة إلى داره وساحته ووطنه لبنان.. فهو عندما جاء إلى باريس إنما جاء إلى فرنسا المعترِضة على وجود سوريا في لبنان في حين أن فرنسا الحالية هي فرنسا المتفهمة لوجود سوريا في لبنان، أو إذا جاز القول إنها شريكة لسوريا في لبنان. وهي شراكة مطمْئنة وموضع حسد أطراف كثيرة عربية ودولية.

ويبقى أن مفاجاة ريمون إده التي أشرنا إليها جاءت في الوقت الذي يتكاثر الحديث في لبنان عن أن الرئيس الهراوي لن يتجدد التمديد له. واللافت للنظر أنه لم يصدر عن الرئيس شخصياً كلام في هذا المعنى وكل ما يقال عبارة عن كلام ينقله زوار للرئيس وعلى سبيل المثال لا الحصر قوله «إنني أريد ان أريح وأرتاح»، و«إنني بلغت الثانية والسبعين من العمر وأريد أن أرتاح، وإن الوضع لا يحتمل والناس يحبون التغيير...».

ولو أن قرار تجديد التمديد كان يخص الرئيس الهراوي وحده ويخص اللبنانيين وحدهم لجاز إعتبار الكلام المنسوب إلى الرئيس الهراوي حاسماً ونهائياً ولكان الرئيس شخصياً قاله من دون أن يترك للزوار نقْله عن لسانه. لكن هذا القرار يعود الى الرئيس الأسد وتقديراته للموقف ولظروف المنطقة بدليل أنه عندما إرتأى الرئيس، الأسد تمديد ولاية الرئيس الهراوي فإن هذا التمديد حدَث.

واذا إرتأى الرئيس الأسد تجدُّد التمديد فإن ذلك سيحصل... إلاَّ اذا كانت المفاجأة غير السارة التي اعلنها العميد ريمون إده في المقابلة التلفزيونية ستنتهي في اللحظة الأخيرة سارة ويرتأي الرئيس الأسد من أجْل أن يَطمئن لبنان وترتاح فرنسا ورئيسها جاك شيراك ويواصل رفيق الحريري دوره كرئيس للحكومة، أن يكون العميد ريمون إده هو رئيس لبنان للسنتيْن المتبقيتيْن من القرن العشرين وللسنوات الأربع التي تلي ذلك. وفي هذه الحال تكون زيارة الرئيس الأسد إلى لبنان هي لتوديع رئيس أخلص لخصوصية العلاقة السورية – اللبنانية، هو الرئيس إلياس الهراوي، ولشد أزر رئيس هو العميد ريمون إده يستحق وصوله إلى الرئاسة بعد هذا الإنتظار الطويل والتاريخ الحافل بالمواقف المخلصة والنظيفة أن يتفهم هذه الخصوصية ويبلورها بصيغة تفهَّمها من قبْل صديقه وحليفه رفيق الحريري.

وفي هذه الحال لا يشكِّل عامل السن عائقاً.. مع

الأخذ في الإعتبار أن العميد ريمون إده الثمانيني يبدو بحيوية السبعيني.

... وتبقى قضية رفيق الحريري ونعرضها في مقال الأسبوع المقبل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 5 أغسطس (آب) 1998

* * *

الحريري... الباقي له 11 سنة في ذمة اللبنانيين

صحيح أن الرئيس رفيق الحريري أمضى ست سنوات رئيساً للحكومة ولا يزال في موقعه مسجلاً بذلك رقماً قياسياً لم يسجله غيره – ولا يبدو أن أحداً آخر يمكن أن يسجله. إلاّ أن الصحيح أيضاً هو أنه على رغم هذا الشأن فإنه لم يتمكن مَن إجراء تعديلات جذرية في حكوماته يخرج منها من يرى أنه يعطِّل التجانس الذي تحتاجه أي حكومة لكي تنجز برنامجها، وهكذا عاش اللبنانيون ست سنوات عصيبة تدير شؤونهم حكومة حافلة بالتناقضات يهاجم وزراء رئيسهم ويتجاهل رئيس الحكومة بعض اعضاء حكومته ويدير السُلطة التنفيذية بعدد محدود من الوزراء يشكِّلون فريق العمل المتجانس الخاص به.

والقول بأن هذا البقاء الطويل في رئاسة الحكومة ولمدة ست سنوات متواصلة حتى الآن بدأت في خريف العام 1992 لم ولن يسجله – على الأرجح – أحد غير الحريري يعود إلى أن لبنان لم يألف في تاريخه الحكومي مثل هذا البقاء الطويل، فضلاً عن أن اللبنانيين إعتادوا على عدم بقاء رئيس الوزراء أكثر من سنتين كحد أقصى على أن يفسح المجال لآخرين وعلى أن يعود بعد ذلك وعلى الرحب والسعة، مرة ومرتين ومرات وهذا ما حدث لكثيرين: رشيد كرامي تعاقب عشر مرات على رئاسة الحكومة وبلغ عدد السنوات التي أمضاها رئيساً للوزراء أربع عشرة سنة. ورياض الصلح تعاقب على رئاسة الحكومة ست مرات وبلغ عدد السنوات التي أمضاها رئيساً للوزراء خمس سنوات، ولولا أن جرى إغتياله لكان إستمر رئيساً للوزراء بضع سنوات أُخرى. وسامي الصلح تعاقب على رئاسة الحكومة سبع مرات خلال أربع سنوات. وعبد الله اليافي تعاقب على رئاسة الحكومة تسع مرات خلال حوالى أربع سنوات. وصائب سلام تعاقب على رئاسة الحكومة ست مرات خلال أربع سنوات. وحسين العويني تعاقب على رئاسة الحكومة أربع مرات خلال أقل من سنتيْن. وسليم الحص تعاقب على رئاسة الحكومة ثلاث مرات خلال خمس سنوات. وشفيق الوزان تعاقب على رئاسة الحكومة مرتيْن خلال سنتيْن ونصف السنة. وكذلك رشيد الصلح الذي تعاقب على رئاسة الحكومة مرتيْن خلال سنة وأقل من شهريْن. أما الآخرون من عبد الحميد كرامي، إلى سعدي المنلا إلى خالد شهاب إلى أحمد الداعوق ومن تقي الدين الصلح إلى أمين الحافظ إلى عمر كرامي فإن كلاً منهم تعاقب على رئاسة الحكومة مرة واحدة ولم تتجاوز مدة بقاء الواحد منهم السنتيْن رئيساً للحكومة.

وإذا جاز القول فإن الرئيس رفيق الحريري الذي لم يحكم سعيداً فى السنوات الست الماضية ولم يتمكن من أن يختار «حكومته» مكتفياً عوض ذلك بفريق العمل المتجانس على نحو ما يرى، يخطط لكي تكون السنوات المقبلة هي السنوات السعيدة فى الحُكْم بصرف النظر عما إذا كان يريد أن يرتاح أو أن يختبر أحوال الحُكْم وأحوال اللبنانيين مع رئيس وزراء يكون بمثابة رئيس وزراء لمرحلة إنتقالية فلا يتمسك بالإستمرارية ويبتعد سنة أو سنتيْن تاركاً لتكنوقراط سُني أمر تشكيل حكومة لا يمكنه ما دام من الفنيين الإداريين أن يجد مأخذاً على أداء المرحلة الحريرية السابقة، في حين أن أي سياسي سُني ليس حريري الهوى والمصلحة سينبش عشرات الملفات التى يمكن أن يَكثر الجدل في شأنها. وفي السنوات المقبلة ستكون هنالك ثمار كثيرة في الشجرة التي زرعها الحريري. سيكون الوسط التجاري قام من بين الأنقاض وباتت بيروت موضع دهشة اللبنانيين وإعجاب العالم. وستكون عشرات المشاريع قاربت على الإنجاز. وقد تكون أحوال السلام في المنطقة إستقرت ولم تعد على الإرتباك التي هي عليه. وفي ضوء ذلك ستزداد قناعات اللبنانيين والجيران بأنه لولا الحريري لما كان ذلك ليتحقق وأنه بالحريري يمكن المحافظة على هذه الإنجازات. ولعل هذا الواقع هو ما كان يعنيه طابخ الحكومات اللبنانية عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية في سوريا عندما أبلغ مجموعة من الصحافيين اللبنانيين لبوا دعوة الرئيس الحريري إلى مأدبة عشاء أقامها في قصره مساء يوم الجمعة 27 أغسطس/ آب 1993 تكريماً لخدَّام، القول: «على رغم

أني أتحدث في منزله الآن فإسمحوا لي أن أقول لكم إنه رئيس الحكومة الوحيد الذي أتى ومعه برنامجه من أجْل السعي إلى تطبيقه. وهو يعمل وبجهد من أجْل النهوض بالبلد. أنا لا أريد أن أنتقص من رؤساء الحكومات السابقين لكن ما يقوم به لم يقم به غيره. فحكومته حققت إنجازات كبرى حتى الآن وأمامها المزيد. وبوجوده يمكن لبنان أن يحقق قفزات مهمة. إن حكومة الرئيس الحريري يجب أن تبقى مع رئيس الجمهورية وليس فقط من أجْل الإنتخابات الرئاسية، بل إن بلداً مثل بلدكم تعرَّض لما تعرَّض له من دمار وويلات يتطلب وقتاً ليواجه التحديات وقد يتطلب الأمر بقاء رئيس الحكومة وبرنامجه حتى العام 2010». أما الرئيس الحريري فإنه رد في اليوم التالي على لفتة عبد الحليم خدام نحوه وذلك عندما قال في مجلس النواب الذي كان يناقش بعض مشاريع القوانين «إن قرارنا وسياستنا هما التنسيق الكامل مع سوريا، بمقدار ما تمشي نمشي وعندما تتوقف نقف، وعندما تعود إلى الوراء نعود...».

ومن هنا فإن مشكلة الرئيس الحريري ليست في أنه عائد أو غير عائد. باقٍ أو غير باقٍ. وإنما الذي يشغل تفكيره هو مع أي رئيس جمهورية سيتولى رئاسة السُلطة التنفيذية للمرة الثالثة والمرات اللاحقة. وعلى هذا الأساس فإن التصريح الذي أدلى به محسن دلول وزير الدفاع في حكومة الحريري يوم السبت 25 يوليو/ تموز 1998 ونقل فيه عن الحريري قوله «ليأتِ غيري لأنني لم أعد أستطيع التحمل...» ليس بياناً رسمياً وليس هو آخر سطرٍيْن في كتاب المرحلة الحريرية كما يوحي ذلك القول، وأيضاً ما أضافه دلول من عنده عندما قال «إن رئيس الحكومة رفيق الحريري لن يكون في العهد الجديد رئيساً للوزراء. لن يكون وأؤكد ذلك. هو لا يريد ويقول ليأتِ غيري لإنني لم أعد أستطيع أن أتحمل...».

فالذي تحمَّل ست سنوات يستطيع أن يتحمل المزيد فضلاً عن أن رأي الحُكْم السوري فى ما يجب أن يكون عليه الحُكْم اللبناني سياسة وأشخاصاً ما زال إستناداً إلى بعض الإشارات والإيماءات على نحو ما عبَّر عنه عبد الحليم خدام في مثْل هذا الشهر قبْل خمس سنوات لم يطرأ عليه أي تعديل. وفي السنوات الخمس التي إنقضت على كلام خدام الذي أشرنا إليه سجل الحريري وقفات أفادت التحرك السياسي السوري وبدت هذه الوقفات بمجملها وكأنما الرئيس الحريري هو صاحب دور مساند في القرار السوري. ومثل هذا الدور يحتاج إلى متابعة يقوم بها الحريري وهو في موقعه الذي هو فيه وربما مع دعْم إضافي من جانب الحُكْم السوري لهذا الموقع كان يتاح للحريري أن يظهر أمام اللبنانيين وأمام الخليجيين ثم أمام الولايات المتحدة وفرنسا بأنه رئيس حكومة خالية من رموز مرحلة الإقتتال الأهلي في لبنان والذي دام ست عشرة سنة وهذا ما يسعى إليه ويتمناه ويقدِّم المزيد من الوقفات للحُكْم السوري في سبيل تحقيقه. ومثْل هكذا حكومة تستطيع أن تحقق الوفاق اللبناني المنشود والذي ربما لن يتحقق إذا كانت المرحلة المقبلة من الحُكْم في لبنان ستكون إستمراراً للمرحلة المنقضية.

وتبقى نقطة هي الأكثر أهمية والتي أثارها الرئيس إلياس الهراوي يوم الخميس 30 يوليو/ تموز 1998 والتي دعا فيها إلى إعتماد النظام الرئاسي أي إختيار رئيس الجمهورية عن طريق الشعب. وهو أطلق الدعوة لأنه عندما يتم إنتخاب الرئيس من قِبَل الشعب فإن ظاهرة «الترويكا» تختفى ويصبح رئيس لبنان مثل رئيس فرنسا ومثل رؤساء آخرين في جمهوريات تعتمد النظام الرئاسي. وبرر الدعوة بالقول: «إن الدولة لا تعيش بثلاثة رؤوس». وبقدر ما أن هذه الفكرة صعبة التطبيق (شأنها شأن فكرة الزواج المدني التي سبق أن طرحها الرئيس الهراوي) بقدْر ما هى عملية وتُناسب الطموحين والطامعين فى ما هو أكثر مما حققتْه لهم المعادلة التقليدية المعتمدة في النظام اللبناني مثْل الرئيس رفيق الحريري الذي يطمح الى أن يكون رئيساً للبنان وإن كان لا يقول ذلك صراحة، مكتفياً بالتخطيط المتقن له. وهو في طموحه غير المعلَن هذا يبدو مثْل المرحوم كمال جنبلاط الذي إفترض أن تزعُّمه لما سُمي «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» خلال الإقتتال الأهلي فى النصف الثاني من السبعينات من شأنه أن يحقق التغيير والطموح، لكن جنبلاط دفع حياتة مبكراً ثمناً لهذا الإفتراض. كذلك إنه في طموحه هذا يبدو مثْل صاحب جريدة «النهار» زميلنا غسان تويني الذي أطلق فكرة «الثورة الدستورية» بعدما بات داخل مؤسسة الحُكْم وإفترض أنه من خلال هذه الثورة يمكن أن يترأس لبنان وتحوّل الإفتراض – الحُلم إلى كابوس.

ومع أن الرئيس الحريري إستقبل بالكثير من الإمتعاض عبارة الرئيس الهراوي لأن فيها بعض النيْل منه، إلاَّ أنه لمجرد إستيعاب أبعادها خلال ثوان صفق

مع المصـفقين لرئيس البلاد بعدما كان تَردد لثوانٍ في أن يصـفق. وكل الذين شـاهدوا مناسـبة إحياء ذكرى أربعين المرحوم عادل عسـيران على التلفزيون والتي أطلق خلالها الرئيس الهراوي فكرته لاحظوا ما نشـير إليه.

ونصـل من هنا إلى القول إنه بصـرف النظر عما اذا كان هنالك عهد جديد للبنان سيبدأ يوم 22 نوفمبر/ تشرين الثاني 1998 أم أنه في اللحظة الأخيرة سيمدَّد للرئيس الهراوي فـإن الرئيس الحريري حـاضـر في الحالتيْن. حاضـر كرئيس للحكومة حتى العام 2010 كما أوضـح عبد الحليم خدام قبْل خمس سـنوات (أي أنه ما زال له في ذمة اللبنانيين 11 سـنة) أو حاضـر كمرجعية سـياسـية بالغة الأهمية عند إختيار رئيس جديد للحكومة... وهو دور لم يتحقق لأي زعيم سُـني من قبْل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 أغسطس (آب) 1998

* * *

القدس في عهدتها
والعملية السلمية في حمايتها

إذا نحن تـأملنـا فى مواقف الرئيس كلينتون من العملية السـلمية التي ورطتنا الإدارة الأميركية فيها كخطوة أُولى في العهد الديمقراطي الأول (أيام الرئيس كارتر) ثم كخطوة أكثر تقدماً في عهد الرئيس كلينتون، فإننا نجد أن هذه المواقف لم تكن طيبة على الإطلاق وألحقت بنا كعرب بالغ الأذى.

أما إذا نحن تأملنا في تصـريحات يدلي بها بعض القادة العرب فإننا نلاحظ أن هناك الكثير من مشـاعر التقدير للرئيس كلينتون، وعند المناسـبات يخصـونه بكلمات تعكس هذه المشـاعر. وعلى رغم هذا التباطؤ من جانب الرئيس كلينتون فى ممارسـة الضـغط المطلوب منـه على إسـرائيـل لكي تلتزم حكومتهـا بإتفاقات بعضها موثّق وبعضها الآخر شفهي له صفة الوثيقـة المكتوبـة لأن الإدارة الأميركيـة من خلال الرئيس والخـارجيـة والمبعوث إلى المنطقـة شـهود عليه... وعلى رغم هذا التباطؤ فإنه لم تصـدر عن الجانب العربي، وبالذات عن الطرفيْن الأكثر تضـرراً مِن تعثُّر العملية السلمية الرئيس حافظ الأسد والرئيس ياسـر عرفات مواقف حادة تجاه الرئيس كلينتون بحيث يُلام أو يتم توجيـه بعض النقد إلى إدارتـه. وكل مـا يصـدر من تصـريحات وكتابات موحى بها إلى وسـائل الإعلام الرسمية السورية والفلسطينية ينظر إلى سلبية موقف إدارة الرئيس كلينتون إزاء تعثُّر العملية السـلمية وتصـرفات الحكومة الإسـرائيلية الإسـتفزازية على أنه مجرد حالة كسـل لا أكثر. وهي نظرة تحمل معنييْن: معنى أن الطرفيْن المتضـرريْن السـوري والفلسـطيني مطمئنان إلى نوايا الرئيس كلينتون وأنه يبقى أفضـل من غيره من الذين تعاقبوا على رئاسة الولايات المتحدة ويجب أن يعطى الفرصـة لعله ينجز في ما تبقى من ولايته ما لم يتم إنجازه حتى الآن. ومعنى أنـه مـا دام ليس هناك بدائل فإنه يبقى من الأفضـل عدم الإكثار من النقد للموقف الاميركي وتحاشـي إستعمال مفردات قد تزعج إنما لا تؤذي وفي الوقت نفسه تنشيط السعي السـياسـي والدبلوماسـي في كل الإتجاهات وعدم الإسترخاء وعدم الإطمئنان.

بل إن الطرفيْن توافرت لهما واقعة التحرش الجنسي للرئيس كلينتون لتكون مـادة لتوظيفهـا فى حملـة على إدارة الرئيس تكون بمثابة إنتقام منه لانه يساير نتنياهو أكثر مما هو مألوف من جهة، ووسـيلة ضـغط على تلك الإدارة لتعيد النظر في إنحيازها المطلق للموقف الإسـرائيلي الذي يتحكم به نتنياهو، وهو تحكم الأقلية بـالأكثريـة، مع أن حجـة الرئيس كلينتون قويـة لأنـه إذا مارس بعض الضـغط على حكومة نتنياهو فإنه بذلك يفعل من أجْل الأكثرية الإسـرائيلية الرافضـة لكل ممارسات نتنياهو ومن أجْل مصلحة إسرائيل.

ونحن عندما نقول إن نتنياهو بات يمثل الأقلية في إسـرائيل فعلى أسـاس أن خصـومه من أقطاب حزب العمـل (بيريز – بـاراك – بيلين) إلى رئيس الـدولـة وايزمن إلى قطاعات عريضـة من المثقفين والفعاليات الإقتصـادية والصـناعية إلى بعض الحلقات داخل المؤسـسـة العسـكرية إلى أطراف كثيرة مجهولة داخل المجتمع الإسـرائيلي... ان هؤلاء جميعاً إتخذوا مواقف صـريحة أو أنها أقرب إلى الصـراحة، خلاصـتها أن سياسة نتنياهو تقود إلى كارثة بل ان بعض تصريحات هؤلاء المعارضـين حول ضـرورة ان تكون هناك دولة فلسطينية وضرورة أن تكون هناك صيغة عاقلة لمسألة الجولان، تشـكل في حد ذاتها دافعاً للإدارة الأميركية لكى تحسـم أمرها وتقف مع الأكثرية الإسـرائيلية التى باتت للمرة الأُولى متسـاوية في النظرة مع الأكثرية

العربية بالنسبة إلى الإقرار بوجود إسرائيل كدولة من دول المنطقة مقابل التطبيق الحرفي لقرارات الشرعية الدولية بدءاً من القرار 242.

ولكن اللافت للنظر هو أن الطرفيْن السوري والفلسطيني إنزعجا من واقعة التحرش الجنسي التي أشرنا إليها بدل إستغلالها كوسيلة ضغط وإعتبراها شأناً شخصياً لا موجب للتعاطي في تشابكاته.

ومن الطبيعي أن يكون لإنزعاجهما ما يبرره وأن يكون كل منهما إستند الى رؤيته لهذه الواقعة المفاجئة والتي لا تمت إلى المسألة الخلقية بصِلة ولا حتى إلى المسلكية التي يجب أن يكون عليها رئيس الولايات المتحدة.

وإذا كنا غير محيطين برؤية كل من الطرفيْن السوري والفلسطيني للواقعة فان الرؤية التي يفترضها كاتب وصحافي مثل حالنا يتابع تطورات تلك الواقعة ويربط هذه التطورات بالمواقف السياسية المتعلقة بالعملية السلمية عموماً، يمكن تلخيصها إفتراضاً وبشكل نقاط على النحو الآتي:

• إن مشكلة بنيامين نتنياهو أنه يشكو من عقدة البطل. فهو لم يشارك فى حرب وليس هناك إنتصار تحقق على يديه على نحو إنتصارات بقية جنرالات إسرائيل. ولأنه كذلك فإنه يبحث عن بطولة لم يجدها في غير المعاندة والرفض ونسْف كل ما تم إنجازه والعودة من جديد إلى نقطة الصفر.

• إنه في المقابل يراهن على موضوع القدس ويعتبر أن ورقتها هي أهم عملية بطولية، بل أنه إذا تحققت أوهامه وبقيت القدس موحَّدة وعاصمة لدولة إسرائيل فإنه يكون بذلك أنجز أمراً يساوي أضعاف ما أنجزه جنرالات إسرائيل من موشي دايان إلى إسحق رابين الى آخرين...

• وهو عندما لمس إصراراً لدى الإدارة الأميركية على ضرورة أن تكون هناك دولة فلسطينية وتكون هناك صيغة للقدس ترضي العالم والعرب ويرتاح لها في شكل أو آخر مسلمو العالم ومسيحيوه فإنه بدأ يخطط لمؤامرة شريرة فكان زرْع فتاة يهودية في البيت الأبيض تقوم بمهمة تم تدريبها عليها. وسيناريو المؤامرة بأن يتم الكشف عن المؤامرة في أوقات معيَّنة وتطويلها بحيث كلما صدرت عن إدارة الرئيس كلينتون إشارات إلى أنه يريد للعملية السلمية أن تتحرك يتم على الفور تحريك واقعة التحرش الجنسي بحيث يكون هناك شهود جدد ويكون هناك إصرار على التطبيق الحرفي للقانون.

وبما أن الآلة الإعلامية داخل الولايات المتحدة هي في ايدي الصهيونية عدا إستثناءات بسيطة فاز واقعة التحرش الجنسي تحولت إلى حد بدت لكثرة تسليط الأضواء عليها والإمعان في غسل أدمغى الرأي العام الأميركي، انها هي القضية الأهم وأن أي قضايا أخرى ومن بينها العملية السلمية هي قضايا ثانوية.

• من الواضح أن الهدف من زرْع فتاة يهودية في البيت الأبيض هو إخضاع الرئيس كلينتون بحيث لا تقوى أجهزته على تصفيتها على نحو ما حدث لسكرتيرات وفتيات مع بعض أهل القرار والسياسة في الولايات المتحدة. كذلك أن الهدف هو تأمين الحد الأقصى من الطاعة لكل ما تؤمر به بدءاً من تنفيذ رغبات الرئيس ونزواته (وهذا حدث بعد تحليل عميق لشخصية كلينتون وعقده الشخصية ودور الجنس في حياته) وصولاً إلى مسألة الحفاظ على فستان عليه الأثر الذي يؤكد العلاقة الجنسية بين الرئيس وفتاته. ومثل هذه المحافظة على الفستان لا تحدث إلاَّ ضمن سيناريو التآمر.

• إن نتنياهو يفترض إستناداً إلى تهيؤاته أن مسألة القدس مضمونة من جانب الكونغرس المستعد لأن يحسم وبشكل نهائي أمر أن تكون هي العاصمة الموحدة لإسرائيل وأن المشكلة هي في الرئيس وفي المؤسسة العسكرية الأميركية. وكخطوة أُولى فإن الرئيس يمكن القضاء عليه بعدما أمكن عملياً القضاء على هيبته وإحلال نائبه آل جور مكانه وهو جاهز ليكون موقفه بالنسبة إلى القدس مثل موقف الكونغرس. إلاَّ اذا كان هناك تحضير من جانب الصهيونية العالمية لمرشح جمهوري يقفز إسمه فجأة إلى الساحة على نحو السناتور ارلن سبكتر (اليهودي) الذي تم تصنيعه ليكون المرشح الجمهوري المنافس لكلينتون في إنتخابات 1996 والذي كان سينهي مسألة القدس كونه تعهد بنقل السفارة الأميركية إلى القدس.

تلك هي الرؤية أوردناها كإفتراض لكنه إفتراض لا يصطدم بالمنطق. ولا يصطدم بالمنطق أيضاً الإعتقاد بان كلمة المؤسسة العسكرية الأميركية هي التي قضت بأن يتم التجديد لكلينتون على أن يأتي سبكتر (اليهودي) رئيساً للولايات المتحدة وينفذ وعده الذي يمكن أن ينتهي وعيداً، وهي التي قررت بعدما هدد نتنياهو بحرق واشنطن أن تبقي على المعادلة متوازنة. وهكذا تكون القدس في عهدة المؤسسة العسكرية

الأميركية، والعملية السلمية في حماية هذه المؤسسة... وان بدت الإثنتان (العهدة والحماية) غير منظورتيْن، أو غير مرئيتيْن بالعين العربية المجردة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 أغسطس (آب) 1998

* * *

"إيليزيه"... البيارتة

"إيليزيه"... كل اللبنانيين

أخيراً صار للبنان إبتداء من يوم الخميس 20 أغسطس (آب) 1998 قصر "إيليزيه" بعدما تحول السراي الحكومي الواقع على مرتفع يطل على بحر بيروت وعلى الوسط التجاري إلى مبنى سيتباهى به البيارتة (أهل العاصمة بيروت، وبالذات جناحها الغربي) الذين يعتبرون هذا المبنى إرثاً إستبدت بهم الخشية من أن تجتاحه عملية التحديث ولا ترأف به "بولدوزرات" شركة "سوليدير" التي تعيد بناء الوسط التجاري من بيروت.

و"الإيليزيه" اللبناني، الذي هو كموقع بأهمية موقع "الإيليزيه" الفرنسي، مرشح لأن يكون قصر الحُكْم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وهذا مرتبط بالظروف والمفاجآت والتحولات التي تشهدها المنطقة وتجعل المراهنة على الأمور المستقبلية عملية لا تخلو من المحاذير.

وأهمية السراي الحكومي الذي إعتبرناه قصر "الإيليزيه" اللبناني، هي في تاريخه ثم في إرادة إعادة البناء في عملية ترميم لم تخدش الوجه التراثي لهذا المبنى.

فهو من الناحية التاريخية شاهد على الذين حكموا لبنان قهراً وإنتداباً من العثمانيين إلى الفرنسيين. ومنذ العام 1831 وحتى العام 1943 (عام الإستقلال) شهدت قاعات وغرف السراي سلاطين وحكاماً وولاة زاروها أو أداروا شؤون البلاد منها أو عقدوا إجتماعات فيها. إلاّ أن شعور البيارتة (أي أهل بيروت) أن السراي سرايهم لم يبدأ إلاّ في العام 1943 عندما إتخذ المرحوم رياض الصلح مبنى السراي مقراً للحكومة. وبين ذلك العام والعام 1997 عندما تحوَّل السراي إلى هدف للميليشيات وهجرتها دواوين الحكومة والموظفون كان السراي في إستمرار يحتاج إلى تجديد وإلى إضفاء لمسات تجدد رونقه، ولكن لم يبادر أي رئيس حكومة وبقي السراي غارقاً في تشوهات عمرانية وليس هنالك مَن يهتم إلى أن شاءت الظروف وإلتقت الإرادات العربية والدولية على أن يتم وضع نهاية للحرب اللبنانية وينعقد لهذا الغرض وبجهد مشكور من الملك فهد بن عبد العزيز مؤتمر الطائف ثم يتقرر أن تبدأ الحقبة الحريرية ونعني بذلك الترؤس الدائم لشخص واحد خلافاً لما هو مألوف بالنسبة إلى الذين يشغلون منصب رئيس الحكومة حيث لا يبقى الواحد منهم طويلاً في موقعه.

ونلاحظ هنا أن الرئيس رفيق الحريري المتأثر بل والمسكون بأبهة قصر "الإيليزيه" الفرنسي (والذي إستُقبل فيه أكثر من مرة وعلى مستوى رئيس دولة عاطفة وبروتوكولاً لأن ساكن القصر هو صديقه الرئيس جاك شيراك) أعطى مبنى السراي إهتماماً يندرج في بند الأولويات، مع أن القصر الحكومي البديل يستطيع إستيعاب الحكومة لعشر سنوات على الأقل. ولمجرد أن بدأت "البولدوزرات" والمحادل والجرافات وبقية مستلزمات إعادة بناء الوسط التجاري تنشط، بدأ العمل في إعادة تأهيل السراي الحكومي. وتعامل الرئيس الحريري مع الأمر كما لم يتعامل مع أي مشروع عمراني آخر. فهو دائم التردد على السراي ويكثر من الإستفسارات ويبدي الملاحظات والإقتراحات على المهندسين والبناة والنقاشين والمزخرفين. وهو أيضاً يناقش مسألة الإضاءة والألوان ومكان نصب أشجار النخيل التي جاء بها من السعودية، ويختار الأثاث والمكاتب. وبحكم تنفيذه، قبل أن ينضم إلى العمل السياسي ونادي رؤساء الحكومات، عشرات المشاريع المتميزة من قصور ومراكز مؤتمرات، فإن الرئيس الحريري بات من أهل الخبرة في كيفية إنجاز المبنى المتميز وفي المسألة الزمنية القياسية بحيث يأتي الإنجاز في الوقت المحدد أو قبل ذلك بقليل. ومن هنا إن إنجاز السراي قبل ثلاثة أشهر من إنتهاء عهد وبداية عهد جديد أو تجديد العهد نفسه هو تأكيد لدقة المسألة الزمنية وأهميتها في حسابات الحريري.

وسواء كان الحريري على يقين بأنه باق كرئيس للحكومة أو لديه بعض الشكوك إزاء هذا اليقين، فإن هذا الحرص منه على إنجاز المبنى يعكس ما يدور في نفس الرجل من أفكار ومنها أنه يريد أن يحيي للبيارتة عز "سرايهم" بصرف النظر عما إذا كان هو سيسكنه أو أن ساكنه سيكون أحداً آخر. هذا مع

الأخذ في الإعتبار أن حرص الحريري على أن يزور السراي في فترة إعادة التأهيل أسبوعياً وأحياناً مرتين في الأسبوع وإهتمامه بالتفاصيل الدقيقة وبجناح سكن رئيس الحكومة وبمكتب الرئيس لا يعني أن الذي يهم الرجل في الحد الأقصى هو الناحية المعنوية، أي إحياء رمز يعتز به البيارتة، وإنما هنالك أمور أخرى أكثر أهمية لعل من بينها أن الرئيس الحريري يتطلع إلى أن يكون السراي كدور بأهمية المجلس النيابي، وأن يستضيف رئيس الجمهورية في جلسات بدل أن يكون القصر الجمهوري دائماً هو المستضيف. ومن بين التطلعات أيضاً هو أن يكون الرئيس حافظ الأسد أول زائر من كبار القوم العرب للسراي عندما سيزور لبنان أو ربما تتم إستضافته في السراي. كذلك، فإن من بين التطلعات أن يكون السراي الحكومي بعد سنتين مكاناً لقمة عربية – دولية يشارك فيها – أو مَن ينوب عنهم – الذين ساهموا في إعادة إعمار لبنان وكذلك أولئك الذين وعدوا ولم ينفّذوا وعودهم بعد. وللمرء أن يتصور وجود أكثر من ثلاثين من أهل القرار العربي والدولي يقفون على الشرفة الواسعة للسراي ويتأملون في مانهاتن المصغرة التي قامت فجأة بينما المشاكسات المحلية على أشدها والإعتداءات الإسرائيلية في جنوب لبنان على أشرسها والرهانات على مستقبل لبنان لا تنتهي. ومثل هذه القمة لا تبدو صعبة الإنعقاد بعد التحرك السياسي للرئيس الحريري شرقاً وغرباً طوال ست سنوات، وهو تحرُّك كان يؤسّس لمرحلة مقبلة تبدأ مع بداية القرن الحادي والعشرين. وهي قمة التأكيد على أن في الإمكان إعادة بناء الوطن حتى ولو كانت حال هذا الوطن مثل حال لبنان الذي دمرت جاهلية السبعينات بنيته وأمعنت تقطيعاً في أوصاله وكل ذلك تحت مظلة شعارات تبدو للوهلة الأُولى براقة وتبشر بالطمأنينة والخير ثم يتبين أنها نوع من الوقود السريع الإشتعال.

ومن الصدف التي تلفت النظر هو أنه في اليوم الذي تمّ تدشين السراي المجدّد بجلسة لمجلس الوزراء (الخميس 20 أغسطس (آب) 1998) كانت إسرائيل تهدد بضرب البنى التحتية والتي يشكِّل السراي المجدّد رمزاً للتصميم على تطوير هذه البنى في السنوات الست الرئاسية المقبلة وكان الحريري يؤكد أنه ما دام في وضع صحي طيب لن يتخلى عن منصبه كرئيس للحكومة في العهد المقبل. وبدا في قوله هذا الذي كان إعلاناً بالإستمرارية أكثر منه ترشيحاً مبكراً لرئاسة السلطة التنفيذية، كما لو أنه يوضح بأنه لم يجدد السراي وبالمواصفات التي أُدخلت عليه إلاَّ ليكون لرئيس وزراء يقوم بدور وليس مجرد رئيس وزراء يدير شؤون البلاد وأن عبارة "لو دامت لغيرك ما وصلت إليك" لا تشمل السنوات الست المنقضية وأن قراءة هذه العبارة المنقوشة في مكان بارز من السراي تتم بالنسبة إلى الحريري بعد حين أو بعد دهر. وهذا هو حلمه وطموحه وهاجسه. أما قضيته – إذا جاز الإفتراض – فهي أن يؤتى برئيس جديد للجمهورية ثم يؤتى بعد ذلك برئيس جديد لمجلس النواب ويبقى هو في موقعه. وبذلك لا تعود ظاهرة الترويكا قائمة.

ويبقى أن أكثر ما يخشاه المرء من أهل الحُكْم هو أن يبلغ الطموح بهم حد إجتياح المعادلات التقليدية وتصبح الثقة بالنفس حالة غرور. ونلاحظ أن الحريري إستبق العرف المألوف بأن رئيس الجمهورية يتشاور مع النواب وفي ضوء هذا التشاور يكلف الرئيس الشخص الذي يشكل الحكومة، وأعلن سلفاً ليس فقط ترشيح نفسه وإنما تعيين نفسه، موحياً بأن لغة "إيليزيه" البيارتة المصمم على أن يصبح "إيليزيه" كل اللبنانيين سيكون على هذا النحو.

وأياً كانت المعطيات فإن مثل هذا الأمر مقلق حتى إذا كان الحريري في ذروة الإطمئنان السوري والسعودي والأميركي والفرنسي إلى أن ما يقوله هو الذي سيحصل، ولولا النقد الذاتي الذي صدر عن الرئيس الحريري في معرض ترشيح أو تعيين نفسه رئيساً لوزراء العهد المقبل لكان القلق بات نوعاً من الخشية وإلى حد الخوف. ولكن النقد الذاتي لسياسات وممارسات إتسم بها الأداء الحكومي في السنوات الست الماضية جاء يقلل بعض الشيء من مشاعر الخوف هذه، وهو في أي حال تقليد مستحب وينتسب أيضاً إلى لغة "إيليزيه" كل اللبنانيين، أدخله الرئيس الحريري على قاموس الحياة السياسية اللبنانية ومن شأنه أن يصلح أحوال هذه الحياة... هذا إذا إتسع هامش النقد وتكاثر الذين يمارسون هذا النقد وتمّ إعتماد الإسماء وتحديد الوقائع بدل الاكتفاء بالتلميح والإشارات التي منها يفهم القصد، اللبناني الذي هو لبيب، إلاَّ إذا كانت ضوضاء صيغة حكم الترويكا وما يروى عن إنتهاكات للأصول حدثت في ظل هذه الصيغة حوّلت اللبناني إلى مواطن ضل السبيل، ومن شأن عهد "إيليزيه" البيارتة... "إيليزيه" كل اللبنانيين أن يضع الأمور في مكانها الصحيح.

... وذلك هو جوهر الدور الذي يحلم به رفيق الحريري.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 أغسطس (آب) 1998

* * *

عدم الإنحياز إلى من؟

يحزن المرء وهو يشاهد هذا التجمع الكبير المنضوي تحت لواء حركة عدم الإنحياز ينعقد في رحاب زعيم تاريخي له وهجه الوطني والنضالي، هو نيلسون مانديلا رئيس جنوب أفريقيا، ويجد أن هذا التجمع لا قدرة له على أن يفعل أكثر من التمنيات والمناشدة.

ويحتار المرء في تفسير ذلك، بمعنى هل أن هذا التجمع الذي يضم 114 دولة لا يريد أن يفعل شيئاً أو أنه غير قادر على أن يفعل؟

والإجابة تبدأ من نقطة البداية تسلسلاً إلى الوضع الراهن. والعودة إلى البداية ضرورية لأن جيلاً عربياً لا يعرف كيف نشأت هذه الحركة ووسْط أي ظروف.

في العام 1953 وكان جمال عبد الناصر يخطو الخطوات الأولى على طريق التزعم وتأكيد أنه الرجل الأول والقوي في ثورة 23 يوليو 1952 إلتقى في أول زيارة يقوم بها إلى خارج مصر في عهدها الثوري، وكانت إلى باندونغ في أندونيسيا، برَجليْ دولة كثيريْ التميز هما الباندیت نهرو وشو إن لاي. وكلاهما إلى جانب المضيف الرئيس أحمد سوكارنو كانوا من النجوم الساطعة في سماء السياسة الدولية. وفي ذلك الزمن كانت معظم دول العالم الثالث إما تحت وطأة الإستعمار أو تحت وطأة الإستقلال المنقوص أو مكبلة اليديْن بقيود معاهدات مفروضة عليها.

في ذلك اللقاء إرتاح الأربعة سوكارنو ونهرو وشو إن لاي وعبد الناصر إلى بعضهم البعض وإلتقوا على نقاط مشتركة تبادلوا الرأي في شأنها وكانت في معظمها تنطلق من فكرة أن تنشأ قوة ثالثة لا تتبع أياً من القوتيْن المهيمنتيْن على العالم وهما الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي. وإستناداً إلى أدبيات تلك المرحلة فإن نهرو وسوكارنو وعبد الناصر كانوا أكثر إنسجاماً مع الفكرة وأن نقطة الضعف كانت في أن شو إن لاي يرى أو يتطلع إلى أن تتزعم الصين هذه القوة. لكن عبد الناصر – على ما يجوز الإفتراض – أوضح ما معناه إن العالم الإسلامي الذي من المفترَض أن يكون الدعامة الأساسية في هذه القوة لا يتحمل أن تترأس القوة الثالثة دولة شيوعية يمكن أن توظف ترؤسها هذا في مقارعة شقيقها في العقيدة (الإتحاد السوفياتي) وفي الضغط على الولايات المتحدة لتحصيل إمتيازات ومكاسب ومناطق نفوذ تشعر أنها محجوبة عنها.

بعد ذلك وفي لقاء شهدتْه عام 1961 بلغراد عاصمة ما كان يعرف بـ يوغسلافيا وشارك فيه ممثلو 25 دولة وُلدت حركة عدم الإنحياز التي بات لها ركن أوروبي قوي يتمثل بالماريشال تيتو. وكانت ولادتها بمثابة صدمة بالنسبة إلى الولايات المتحدة التي إنقسمت إدارتها في شأن نوعية رد الفعل حيث أن الحلقة الضيقة من مستشاري الرئيس جون كينيدي كانت ترى – وشاطرها الرئيس الرأي – أن يتم الترحيب بقيام الحركة وإرسال برقية إلى المجتمعين بهذا الشأن لكن الفكرة ما لبثت أن أُجهضت بعدما أحيلت إلى لجنة تناقشها. وبسبب عدم الترحيب بدت الإدارة الأميركية كما لو أنها معادية للحركة وهذا ما جعل أقطاب الحركة حذرين من السياسة الأميركية وجعل بالتالي العلاقات بين الولايات المتحدة ومعظم دول حركة عدم الإنحياز فاترة وتنتقل من تعثُّر إلى تعثُّر. وعندما حاول الرئيس جورج بوش بعد ثمانية وعشرين عاماً أن يبعث بعض الدفء في هذه العلاقات ويخفف من مشاعر حذر دول الحركة من السياسة الأميركية كانت أمور كثيرة تبدلت وزعامات تاريخية من زعامات دول العالم الثالث غابت، ولذا جاءت المحاولة مثمرة للولايات المتحدة. وللتذكير فإن ما فعله الرئيس بوش هو أنه أرسل إلى قمة بلغراد المنعقدة يوم 4 سبتمبر (أيلول) 1989 برقية قال فيها إنه سيُسَر بأي مشروع تُصدره القمة "يكون واقعياً وملموساً وأن تواصل دول عدم الإنحياز العمل على تحقيق الأهداف التي حددتْها في قمتها الأولى عام 1961 مثل إقامة عالم من السلام يكون لكل دولة فيه الحق في إختيار نظامها السياسي والإقتصادي..". للتذكير أيضاً إن الذي فعله الرئيس بوش جاء في سياق إختمار فكرة النظام العالمي الجديد في رأسه وأيضاً في سياق التقليد الذي كانت بدأت إدارته إعتماده وهو مخاطبة دول العالم الثالث بلهجة التحذير والتوجيه وبالذات عندما تعقد هذه الدول مؤتمراً وتكون الآمال معلَّقة عليه، على نحو

ما حدَث خلال إجتماع وزراء الخارجية العرب في بغداد من أجْل التحضير للقمة العربية الإستثنائية في العاصمة العراقية يوم 28 مايو (أيار) 1990. وقبْل أسبوع من القمة وبينما الوزراء يتدارسون جدول الأعمال الذي سيبحث فيه الملوك والرؤساء تسلَّم الأمين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي مذكرة موجّهة من الإدارة الأميركية إلى الأمانة العامة للجامعة بدت في مضمونها وكأنها جدول الأعمال الذي ينبغي أن يناقشه الملوك والرؤساء بدل جدول الأعمال الذي يُعدُّه وزراء الخارجية. ومما جاء في المذكرة الأميركية التحذير – النصيحة الآتي: "نأمل أن يتفادى الزعماء خلال القمة، الحماسة اللفظية ونحثّهم بدل ذلك على الإهتمام بمنهج بنَّاء يعزز آفاق تحرُّك حقيقي نحو مسيرة السلام. ونأمل ألاَّ تُصدر القمة العربية أي بيان قد يُعتبر محاولة للوقوف ضد حق اليهود السوفيات في الهجرة أو ضد مصلحة إسرائيل الأساسية في قبولهم داخل إسرائيل ذاتها..".

ومع أن برقية الرئيس بوش إلى قمة عدم الإنحياز في بلغراد تبدو أفضل بكثير من مذكرة إدارته إلى الملوك والرؤساء العرب من خلال الأمانة العامة لجامعتهم الذين كانوا مجتمعين في بغداد، إلاَّ أنه من الواضح أن الولايات المتحدة أرادت لحركة عدم الإنحياز أن تكون جرماً يدور في الفلك الأميركي أو لا تكون. وهي في سبيل ذلك لم تترك وسيلة إلاَّ واتَّبعتْها إلى أن بات معظم أقطاب الحركة مع الولايات المتحدة أو أنهم موزعون بين من تخلى تماماً عن فكرة عدم الإنحياز وبين من يطلب الود الأميركي ولا يحصل عليه.

وعند التأمل في القمة الثانية عشرة التي جرى عقْدها في مدينة دوربان في جنوب أفريقيا وإختتمت أعمالها يوم الخميس 3 سبتمبر (أيلول) 1998 يتأكد لنا ذلك. فليس هنالك حماسة على مستوى القادة وبالذات الملوك والرؤساء العرب للمشاركة في القمة. وليس هنالك رغبة من جانب المشاركين في وضْع النقاط على الحروف وتشخيص حال العالم في ظل تفرُّد دولة واحدة في الهيمنة عليه. وليس هنالك إلى جانب التشخيص من يدلي بمطالعة حول إنتهاك الإدارة الأميركية لإرادة بعض الآخرين ومصادرتها لإرادة البعض الآخر. وبإستثناء صيحات ألم لا جدوى منها حول سياسة الولايات المتحدة صدرت وأبرزها صدر عن الزعيم الأبدي فيدل كاسترو فإن قمة عدم الإنحياز أظهرت الأمور وكأنما هي على أفضل ما تكون عليه وأوحت وكما لو أن العالم لا يشكو من شيء.

لقد إنقضى على قيام حركة عدم الإنحياز سبعة وثلاثون عاماً من دون أن تنجز أموراً كثيرة لا نعتقد أنها عاجزة عن إنجازها. فلا هي منعت حروباً بين بعض الدول الأعضاء ولا هي أطفأت حرائق سياسية وطائفية إجتاحت معظم هذه الدول. ولقد كان في إستطاعتها أن تحاصر الحرب بين العراق وإيران، وترمي بثقلها لمحاصرة الأزمة بين الكويت والعراق قبْل أن تنفجر، وتختصر سنوات الحرب في لبنان، وتمارس من الضغط ما يجعل الموقف الفلسطيني أكثر صلابة، وتنهي هذه الحصارات الأميركية المفروضة على بعض الدول، وتساعد على إنهاء العنف المنتشر في عدد كبير من دول العالم الثالث. وهي عندما لا تقوم بهذه المهمة فهذا معناه أن ازدواجية الموقف لدى عدد كبير من حكام دول الحركة هي السبب في هذا العجز إذ أن هؤلاء مع الولايات المتحدة بصرف النظر عما إذا كان ذلك بالإختيار أو الإضطرار. وما دامت الإدارة الأميركية هي السبب في تلك الحروب والأزمات والإضطرابات أو أنها المموّل والمشجِّع لها فإن هؤلاء الحكام لا قدرة لهم على إتخاذ المواقف التي تتقاطع مع تلك الإدارة.

وإزاء ذلك ما الذي يؤمل حدوثه؟

هل تبقى الحركة على ما هي عليه تنادي بعدم الإنحياز مع أنها باتت عملياً منحازة إلى السياسة الأميركية، وذلك نتيجة سقوط الإتحاد السوفياتي من جهة ورحيل زعامات كانت أكثر إيماناً بفكرة عدم الإنحياز وأكثر إخلاصاً في السعي لتحقيقها؟

أم تقرر الحركة العودة إلى المفهوم الذي قامت عليه وهو عدم الإنحياز بصرف النظر عما إذا كانت هنالك دولتان تتصارعان للسيطرة على الإرادة الدولية، أو أن هنالك دولة واحدة هي الولايات المتحدة بعد سقوط الإتحاد السوفياتي؟

أم هل تعتمد الحركة صيغة وسطية سبق أن إستمزجت مصر آراء بعض الدول الأعضاء في شأنها وهي إلغاء تسمية الحركة بحيث تصبح "حركة العالم الثالث" بدلاً من "حركة عدم الإنحياز"؟

إنه ليس من الواضح ما الذي سيحدُث نتيجة أن جواً من عدم الإستقرار السياسي والإقتصادي يسود العالم. لكن لمجرد أن تستقر الأحوال بعض الشيء فإن حركة عدم الإنحياز ستجد نفسها مطالبة بأن تحدد هويتها بمعنى أن تقرر إلى من هو عدم الإنحياز، وبأن

توظف قدراتها وتفرض مطالب من بينها توسيع العضوية الدائمة في مجلس الأمن وبذلك يكون للحركة حضور فعَّال في المجلس خصوصاً أن الصين تمثل عملياً نفسها وليس حركة عدم إتخذتها. هذا في الحد الأقصى وذروة الطموح. أما في الحد الأدنى وضِمْن الطموح المتواضع فهناك ما سبق للحركة أن طرحتْه في باندونغ (27/4/1995) ويتعلق بـ الفيتو الذي رأت الحركة أنه "يضمن للأعضاء الخمسة الدائمين دوراً يتسم بالهيمنة" وطالبت بألاَّ يستخدم الأعضاء هؤلاء حق إستعمال الفيتو في القرارات المعنية بالتسويات الخاصة بالنزاعات أو المتعلقة باحترام قواعد القوانين الإنسانية الدولية أثناء النزاعات المسلحة وكذلك الخاصة بحالات الإعتداء بالأسلحة أو التهديد بها ضد دولة غير نووية. ومثْل هذا الأمر سنستفيد منه كعرب في الدرجة الأولى ذلك أن الفيتو الأميركي دون غيره هو دائماً الرد على أي قرار يتم إتخاذه في إطار منظمة الأمم المتحدة ويكون منصفاً لنا أو يأتي على شيء من الإنصاف.

ويخشى المرء ألاَّ يحدث شيء من هذا التطور وتستمر حركة عدم الإنحياز بمثابة ناد أميركي يضم أكبر تجمُّع من الدول العاجزة (114 دولة) عن أن تطالب بحقوقها وحصتها في أن تكون لها كلمتها في القرار الدولي، مكتفية بدلاً من ذلك بالمناشدة والتمني وإستجداء القروض والسعي من أجْل إلغاء ديون أو تدعيم إتفاقات جدولتها، وتحمُّل كل ما يستتبع التجاوب مع هذه المطالب والمناشدات من إتخاذ مواقف تأتي في معظمها على حساب الكرامة والضمير والقرار المستقل.

كذلك يخشى المرء في حال إستمرار هذا التقاعس أن نفاجأ ذات يوم بفكرة إنضمام إسرائيل إلى الحركة التي يكون تم تغيير إسمها ويتم القبول تجاوباً مع الرغبة الأميركية، وعند ذلك لن نعود نقرأ في البيانات الختامية لقمم عدم الإنحياز العبارات التي تلوم إسرائيل على تعنتها وتشددها وسياستها الإستيطانية، وهي في الأصل عبارات لا جدوى منها.. إلاَّ إذا قطع الطريق الرئيس ياسر عرفات على ذلك فأعلن بعد بضعة أشهر قيام الدولة الفلسطينية مطْمئناً إلى أن حركة عدم الإنحياز ستعترف مشكورة كثير الشكر، بهذه الدولة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 سبتمبر (أيلول) 1998

* * *

عثمان العمير...
من المكان إلى المكانة

أستأذن رئيس مجلس إدارة المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق، الأمير أحمد بن سلمان بن عبد العزيز، وأستأذن أيضاً ناشريْ "الشرق الأوسط" الزميلَيْن الكريمَيْن هشام ومحمد علي حافظ، في وجهة نظر عامة أكثر منها خاصة أضيفها إلى الأسلوب الكثير الرقي في الإعلان عن أن زميلنا عثمان العمير سينتقل (إعتباراً من الخامس عشر من سبتمبر/ أيلول 1998) من مكانه كرئيس لتحرير هذه الصحيفة إلى مكانته كواحد من كوكبة الذين يكتبون في هذه الصحيفة رأياً أو تحليلاً أو دراسة. وهذه الكوكبة أضاءت وإزدهرت وتألقت في السنوات التي أمضاها الزميل عثمان العمير رئيساً للتحرير نتيجة هامش الثقة الرحب بخياراته من جانب القيِّمين على مؤسسة ترسخت جذورها في تربة الإعلام العربي، وأيضاً نتيجة توظيف عاقل من جانبه لهذه الثقة. وفي ظل هذه المعادلة أمكن للزميل عثمان أن يكون ميدان الرأي في "الشرق الأوسط" مفتوحاً أمام كل التيارات الفكرية والسياسية، وأن تتجاوز الأضداد أحياناً، بحيث يكتب مَن كان يسارياً، أو من لا تزال في بعض مفرداته مشاعر حنين نحو الماركسية، إلى جانب الناصري، أو من لا يزال على بعض الهوى نحو الناصرية. ويكتب المندفع للتسوية السلمية بكل مراحلها المهينة إلى جانب المتحفظ على السلام الذي لن يكون عادلاً ولا مشرِّفاً. ويكتب المفجوع بما فعله الرئيس أنور السادات بالأمة عندما إنفرد بحل مع إسرائيل لا تزال مصر إلى الآن تدفع ثمنه، إلى جانب الذي يرى أنه لولا الذي فعله الرئيس السادات عندما زار إسرائيل وأبرم صلحاً معها، لكانت حال مصر الآن على أسوأ ما تكون عليه حال، ولكانت حال العرب عموماً وأكثر سوءاً.

كذلك إنه في ظل المعادلة التي نشير إليها، والتي كان الزميل عثمان العمير دائم الحرص عليها، بات الكاتب صاحب الرؤية الإسلامية المحافظة يكتب إلى جانب من يرى ضرورة أن تكون هنالك بعض المرونة والقليل من التحرر عند تناول شؤون العلاقة بين الإسلام كدين، والحُكْم كسياسة. وبات القومي العربي المتمسك بأدبيات مرحلة الأربعينات والخمسينات

والستينات يكتب إلى جانب من يؤمن بصيغة التعاون في الحد الأدنى، إذا كان هذا التعاون يحقق الإستقرار ويصمد، على صيغة الوحدة إذا كانت هذه الصيغة ستبقى مجرد حلم يراود الخاطر. وبات المؤمن بالديمقراطية ومن دون أي قيود يكتب إلى جانب من يرى أن يؤخذ بالمناخ الديمقراطي، إنما من دون إسقاط بعض التحفظات والتنبه إلى المحاذير الناشئة عن تحوُّل الديمقراطية إلى "هايد بارك" في الهواء الطلق يقال فيه ما يمكن أن يقال، وأحياناً ما لا يجوز أن يقال.

وأنا هنا لا أذكر كل الأضداد المتجاورة، وإنما أشير إلى بعضها، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فضلاً عن أن قارئ "الشرق الأوسط" من الحصافة بمكان وبحيث يلاحظ هذه التعددية في وجهات النظر، وكيف أن التعارض واضح في الرؤى، إنما من دون أن يشكِّل ذلك نشازاً على أساس أن رونق الصحيفة هو في تنوع الآراء ووجهات النظر، وتَقاطُع هذا الرأي مع وجهة النظر تلك.

وتكاد هذه التجربة، التي لمبادرة الزميل عثمان العمير بها ولتشجيع القيمين على المؤسسة الناشرة الفضل في إستقرارها، تبدو قريبة الشبه بمبادرة مماثلة تسنَّى لي في النصف الثاني من الستينات أن أعيش تفاصيل ظروفها وقام بها الزميل محمد حسنين هيكل، الذي خصص حيّزاً في صفحات الرأي في "الأهرام" لكتّاب لهم تحفظاتهم على الناصرية وأسلوب الرئيس عبد الناصر في إدارة دفة الحُكْم والتعاطي مع شؤون الداخل والخارج. وفي حينه كان بعض الكتّاب الماركسيين من بين هؤلاء. ولولا ثقة عبد الناصر بهيكل لما كان لهذه المبادرة أن تحدُث، والتي يجوز إعتبارها الخطوة الأولى على طريق التعددية الفكرية التي بلغت أوج إزدهارها في عهد الرئيس حسني مبارك.

ومع أن الزميل عثمان العمير يملك قدرة الكتابة، إلاّ أنه إعتمد النهج البريطاني، حيث إن رئيس التحرير لا يكتب، إلاَّ نادراً، وربما لا يدري قارئ الصحيفة ما إذا كان رئيس التحرير متمكناً من الكتابة. ومع أن ذلك غير مألوف في دنيا الصحافة العربية، إلاّ أن زميلنا أخذ به وسجَّل بهذا الخيار أمراً مهماً، وهو أن رئيس التحرير من واجبه بذْل ما في إستطاعته لإصدار صحيفة ناجحة وليس توظيف الصحيفة لتعزيز نجومية يملكها، أو لإستنباط هذه النجومية من خلال الصحيفة وسلطانه فيها كرئيس للتحرير.

ولو أن الزميل عثمان العمير لا يملك موهبة الكتابة، ولا يتقنها، لجاز الإفتراض أنه كان يبتعد عن الكتابة كي لا يبدو متخلفاً عن الركب. لكنه عندما يكتب يبدو أنه في طليعة المتمكنين، هذا فضلاً عن أن الإمكانات المتاحة أمامه للوصول إلى أهل القرار السعودي والخليجي، أو على الأقل القدرة على أن يعرف ما لا يعرفه آخرون، تجعله إذا هو كتب يبدو كثير التميز.

لكن عثمان العمير لم يفعل ذلك في سنوات رئاسته لتحرير "الشرق الأوسط" عدا إستثناءات متصلة بمناسبات وطنية سعودية يتناولها بشفافية مطلقة. بالإضافة إلى أحاديث مع عدد من القادة والزعماء وكبار السياسيين بأسلوبه المتميز في إجراء الحديث وفي نقْله للقارئ.

وتبقى ثلاثة أمور يفرضها الحديث عن الزميل عثمان العمير. أولها أنه وضع سابقة أن رئيس التحرير يمكن أن يَتقاعد (بفتح الياء) وليس يُتقاعد (بضمها) وفي العمر الذي يكون فيه قادراً على المزيد من العطاء، ويمكن أن يعفي نفسه بدل أن يُعفى. أو فلنقل إن زميلنا وضع سابقة أن يتقاعد رئيس التحرير قبْل أن يُضطر إلى التقاعد، ويعفي نفسه من المسؤولية قبْل أن يتم إعفاؤه. وهو عندما يفعل ذلك ويكون في دائرة النجاح ولا تشكو الصحيفة التي يترأس تحريرها من أي تعثُّر، فإنه بذلك يكون جمع بين التضحية وبين التبكير في الإنسحاب المفعم بالطمأنينة والكثير من الهدوء واللياقات.

والأمر الثاني، هو أن زميلنا عثمان العمير يترك رئاسة تحرير "الشرق الأوسط" وقد إكتملت ملامح شخصيتها كصحيفة دولية للعرب، للسعودية فيها بقدْر ما لأي دولة عربية أُخرى.

... وأما الأمر الثالث، فهو أن زميلنا حقق بالمعادلة التي سبق أن أشرنا إليها وحدة وطنية عربية على صعيد الكتابة، أو فلنقل حقق وفاقاً عربياً على صعيد الكتابة على رغم تعثُّر قيام هذا الوفاق على صعيد السياسة. ولولا أن عقلية مستنيرة تقبلت المبادرة ثم أحاطتها بالكثير من الرعاية والتفهم، وأقصد بذلك عقلية أهل القرار الإداري بشخص رئيس المؤسسة، الأمير أحمد بن سلمان بن عبد العزيز، والناشريْن الزميليْن هشام ومحمد علي حافظ، إنه لولا هذه العقلية المستنيرة لما كان للذي إعتبرناه وفاقاً عربياً على

صعيد الكتابة وتعدد الرأي أن يحدُث.

وأُنهي وجهة نظري هذه بالقول إنني في ما أوردتُه أسجل كلمة حق في زميل يغادر السفينة التي تواصل الإبحار – وهي أكثر إطمئناناً – في خضم عربي سياسي حافل بالأهوال.

وأسجل كلمة الحق هذه من منطلق أن مزاجية زميلنا عثمان العمير تُظهره أحياناً وكأنما هو فنان كثير النزوات، مع أنه أنجز في سنوات ترؤسه تحرير "الشرق الأوسط" التي أعطاها من روحه أكثر مما أعطاها من وقته ومن قلمه، عملاً في منتهى الأهمية وهو... تعريب "الشرق الأوسط" في زمن السعودة. وهو إنجاز قابل للصمود وللتبلور مع الزميل غير المزاجي، والمتألق، عبد الرحمن الراشد الذي سيواصل ويضيف وليس يصفّي تركة نحو ما جرى مع زميلنا عثمان.

... وللإثنين تمنياتنا بالتوفيق.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 سبتمبر (أيلول) 1998

* * *

تركيا التي كأنها.. ليست مسلمة

عند متابعة ما تفعله تركيا منذ ثلاث سنوات وكيف أن العلاقة بينها وبين إسرائيل باتت أقوى من علاقتها بأي دولة إسلامية وعربية، ينتابنا شعور بأن هنالك خطة صهيونية تلقى كل الدعم من بعض دوائر صانعي القرار في الولايات المتحدة هدفها نسْف نظرية أن الدين الإسلامي يمكن أن يشكِّل في حد ذاته دافعاً لتوحيد الصف الإسلامي وحل الخلافات بين الدول الإسلامية.

بل قد يجوز القول إن من أهداف هذه الخطة إشعال الحروب بين العرب والمسلمين وبذلك ينصرف هؤلاء – وبالذات سوريا – عن المطالبة بالحقوق القومية والأراضي المحتلة إلى مداواة الآثار التي يمكن أن تترتب على مواجهة بينها وبين جارتها تركيا.

وعند التأمل في تنامي الود التركي – الإسرائيلي منذ الإطاحة برئيس الوزراء الأسبق نجم الدين أربكان يتضح لنا السبب في تنفيذ تلك الإطاحة. ويتأكد لنا أن جنرالات تركيا الذين بيدهم القرار السياسي إلى جانب القرار العسكري أزاحوا أربكان لأن العامل الديني له حضوره الفاعل في ضميره وأنه لا يمكن بأي حال أن يسمح بهذا التنامي في الود مع إسرائيل لأنه إذا هو سمح يفقد مصداقيته أمام بضعة ملايين تركي (هم أعضاء حزب الرفاه الذي يتزعمه) يعتبرون إسرائيل دولة إغتصبت وطن شعب مسلم هو الشعب الفلسطيني ووضعت قيد الإحتلال المسجد الأقصى وتسعى لإلغاء القدس كرمز مضيء في وجدان التركي المسلم. وكتعبير عن عدم الموافقة بأن يتنامى الود الذي نشير إليه والذي هو موضع الإستهجان فإن أربكان ما كان ليزور إسرائيل على نحو زيارة رئيس الوزراء الحالي مسعود يلماظ وما كان ليتوج زيارته بإتفاقات على نحو ما فعل يلماظ الذي زار نصب المحرقة اليهودية (ياد فاشيم) في القدس المحتلة قبْل أن يزور المسجد الأقصى ثم يتباهى بعد ذلك بالمناورات البحرية المشتركة التي تَقرر أن تجريها قوات تركية وإسرائيلية على مقربة من شواطئ سوريا ولبنان، وبالتدريبات الجوية المشتركة أيضاً وهي – المناورات والتدريبات – التي لا يبدو الأردن مع الأسف بعيداً عنها.

لقد تمت إزاحة أربكان على الرغم من أن الرجل مارس من المرونة الكثير وبدأت على الفور الخطة التآمرية التركية – الإسرائيلية التي ترعاها بعض دوائر صانعي القرار في الإدارة الأميركية والتي سجلت نقطة بالغة الخطورة بزيارة يلماظ قبْل أيام إلى إسرائيل بعدما كانت سبقتها زيارات متبادلة بين الجنرالات، فضلاً عن زيارة إستفزازية لوزير الدفاع التركي شملت تفقد مواقع في الجولان المحتل.

ويبدو أن هنالك المزيد من الحلقات في هذه الخطة سيجري العمل على تنفيذها تحت جنْح الظلام الأميركي – الإسرائيلي. ومن بين هذه الحلقات مشاركة واضحة وفعالة للأردن في هذا الحلف الأخطر من نوعه على المنطقة العربية، وعدم مبالغة مصر في التحفظ على هذا الحلف إذا كانت ستتردد في الإنتساب إليه، ومسايرة الرئاسة الفلسطينية لهذا الحلف بدواعي إستقطاب دولة إسلامية كبرى إلى جانب هذه الرئاسة في وجْه إيران التي لا تريد لها – أي لرئاسة عرفات – البقاء. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى لممارسة بعض الضغط على سوريا، علماً بأن الرئيس عرفات هو ضمناً ضد وجهة النظر العربية السائدة التي ترى أن الأزمة التركية – السورية سببها رعاية الحُكْم السوري لـ عبدالله أوجلان وأنها تبعاً لذلك مسألة

ثنائية على نحو خلاف إيران مع العراق بسبب رعاية الحُكْم العراقي لـ مسعود رجوي ومجاهدي خلق.

ونحن عندما نتحدث عن التحفظ المصري نشير إلى اللغة الدبلوماسية التي إعتمدها وزير الخارجية عمرو موسى في تعليقه على المناورات العسكرية الإسرائيلية – التركية حيث إعتبرها بمثابة "تطور سلبي" ورأى "أن توقيتها سيء إذ يأتي متزامناً مع الجهود المبذولة لإحياء عملية السلام.." ولولا أن أسامة الباز المستشار السياسي للرئيس مبارك أبدى وجهة نظر تضمنت مفردات أكثر قوة من المفردات التي وردت في تصريح عمرو موسى مع أنه – أي عمرو موسى – من الصقور نسبياً في الحُكْم المصري، لكان رد الفعل المصري بدا باهتاً إلى حد ما إزاء مسألة بالغة الأهمية كون التحالف التركي – الإسرائيلي سيأخذ الكثير مما تبقَّى لمصر من شأن وتأثير على القرار العربي والإسلامي. وما سمعناه وقرأناه للدكتور الباز هو "أن مصر ضد إقامة الأحلاف العسكرية في المنطقة لأنها سياسة أضرت كثيراً بالمنطقة، ومن الخطورة الترويج لأحلاف بين أطراف عربية وأُخرى غير عربية. ومصر تضع الأردن في مرتبة لا تجعله جزءاً من تركيبة غير عربية في مسائل إستراتيجية مثْل الدفاع المشترَك أو غير ذلك من المسائل...". وفي تصحيح من جانبه لقراءة الرئيس مبارك للتعاون العسكري التركي – الإسرائيلي (والتي قد تكون قراءته شخصياً ما دام هو المستشار السياسي الذي يستمع الرئيس إليه ويأخذ معظم الأحيان برؤيته وتحليلاته) سمعْنا وقرأْنا الدكتور الباز يقول: "لقد ذكر المسؤولون الإسرائيليون والأتراك من قبْل أن المسألة ليست حلفاً أو تعاوناً موجَّهاً ضد العرب، لكن عندما زار وزير خارجية تركيا إسرائيل الشهر الماضي (آب/ أغسطس 1998) صرَّح بنفسه ومعه رئيس حكومة إسرائيل نتنياهو بأن هذا حلف عسكري. فإذا كان الأمر كذلك فمن المهم أن نتابع ونتعرف على الأبعاد كون الأمر في غاية الخطورة حيث إننا أمام حلف غير عربي في المنطقة موجَّه ضد العرب...".

أما قراءة الرئيس مبارك التي نشير إليها فسمعناه يقولها عندما زار تركيا قبْل الإطاحة بنجم الدين أربكان. فقد سئل في مؤتمر صحافي عقده في أنقرة وإلى جانبه الرئيس التركي سليمان ديميريل عن رأيه في الإتفاق العسكري التركي – الإسرائيلي الذي ينص على قيام طائرات حربية من كل من البلديْن بتدريبات في أجواء البلد الآخر وهل أن هذا الإتفاق يمهد لحلف تركي – إسرائيلي، وأجاب: "كنا نعرف بأمر الإتفاق ولكن مرة أُخرى استمعنا إلى شروحات تركيا. وأنا هنا أردد وأشدد على أن الإتفاق لا يهدف إلى تشكيل حلف وأن لتركيا إتفاقات مع دول أُخرى..". وقد يكون الذي أوحى بهذه القراءة هو أن ميزان القوى في تركيا نتيجة أن رئاسة الحكومة هي في يد أربكان لا يسمح بقيام مثْل هذا الحلف وأن أربكان سيتخذ في الحد الأدنى الموقف نفسه الذي يتخذه الرئيس مبارك منذ أن تسلَّم الحُكْم في مصر وهو ألاّ يزور إسرائيل إلاّ إذا تحققَّ السلام العربي – الإسرائيلي على جميع الجبهات وقامت دولة فلسطين. وهو بالفعل إلتزم بذلك عدا الزيارة الوحيدة للمشاركة في جنازة إسحق رابين وهذه لا تُعتبر ولم تُعتبر زيارة رسمية في أي حال.

وبصرف النظر عن التبريرات والتوضيحات التركية التي تحاول أن تكتسب صفة التطمينات فإن الذي يحدُث بين تركيا وإسرائيل هو محور هجومي عدواني. ومن المؤكد أن طابخي هذا المخطط الخطير أثاروا في نفس جنرالات تركيا شهية المجد الأمبراطوري الذي كانت عليه بلادهم في القرن الماضي ووضعوهم في أجواء إمكانية إستعادة هذا المجد شرط أن يضعوا أيديهم في أيدي الصهيونية مستغلين في ذلك كراهية الطرفيْن للعرب وتطلعهما إلى وضْع اليد على نفط العرب ومياههم من النيل إلى الفرات.

وحتى الآن لا يبدو رد الفعل العربي وبالذات ما تضمنَّه البيان الختامي لمجلس الجامعة العربية الأخير على مستوى وزراء الخارجية بمستوى خطورة المخطط على رغم أن نتنياهو بدا يتباهى على نحو ما توضح تصرفاته منذ أن بدأ التحالف مع تركيا (والأردن إلى حد كبير) بأنه القوة الضاربة في المنطقة العربية التي لا يمكن قهرها. وهو مثْل تباهي الرئيس أنور السادات بعدما أبرم صفقة كامب ديفيد بأنه مع السودان (لأن نظام الرئيس نميري آزره) نصف الأمة العربية، فما الذي يهمه. ولا ندري متى سيصدر رد الفعل وهل سيكون عملياً ومحترماً وشجاعاً، إلاّ إذا كانت القيادات العربية في إنتظار إنعقاد قمة عربية لتكرر ما سبق أن فعلتْه في القمة العربية الماضية في القاهرة حين دعت تركيا إلى إعادة النظر في تعاونها العسكري مع إسرائيل. وبدلاً من أن تعيد تركيا النظر فإنها ذهبت بعيداً وإلى درجة أن التعاون بات حلفاً ضد العرب

والمسلمين وصار لزاماً في حال تعثُّر القادة العرب في جمع صفوفهم في قمة تبحث المصير والمخاطر أن تبادر منظمة المؤتمر الإسلامي وتنذر تركيا بتجميد عضويتها إذا كانت ستواصل هذه العلاقة التي تثير الشبهة مع إسرائيل، وكأنما هي ليست دولة مسلمة وليست ذات حدود مترامية الأطراف مع دولتيْن هما سوريا والعراق، يفترض إذا كان الدين ليس فقط الجامع المشترك معهما فهناك ماء الفرات فضلاً عن الجامع المشترك الأهم... الذي هو الجامع الأقصى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 سبتمبر (أيلول) 1998

* * *

ما يتمناه الأكراد من أميركا.. وما أرادته أولبرايت لهم

إنتظرْنا طويلاً أن يأتي الخبر اليقين من غزة وتل أبيب يعلن توصُّل المبعوث الاميركي دينيس روس أخيراً إلى تحقيق إتفاق السُلطة الفلسطينية والسلطة الإسرائيلية على وضع المبادرة الأميركية موضع التنفيذ، لكن الخبر جاءنا من واشنطن ويفيد بأن ما يجب أن يحدُث بين الجانبيْن الفلسطيني والإسرائيلي وتحت الرعاية الأميركية حدث بين الجانبيْن الكردي والكردي وتحت الرعاية نفسها. فقد إلتقى القطبان الكرديان مسعود بارزاني وجلال طالباني اللذان يتقاسمان زعامة الشعب الكردي المقيم في العراق على نحو تقاسُم حسين محمد فارح عيديد وعلي مهدي للشعب الصومالي. وكان اللقاء نتيجة ضغوط مستحبة من وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت التي جمعت القطبيْن الكرديْن يوم 18/9/1998 في مقر وزارة الخارجية في واشنطن.

وكان تَصافُح بين كاكا مسعود وكاكا جلال (كاكا معناها بالكردية الأخ) طابت له نفْس الوزيرة التي بدت في خطوتها هذه أنها مثّل رئيسها بيل كلينتون عندما جمع إسحق رابين وياسر عرفات في حديقة البيت الأبيض، ومثّل الرئيس الأسبق جيمي كارتر عندما جمع مناحيم بيغن والحاكم العربى الأول رئيس جمهورية مصر العربية أنور السادات الذي أراد أن يزيل الحاجز النفسي بين العرب وإسرائيل، فتسبب بإنفراده بالصلح مع إسرائيل بتصدعات في الموقف العربي الذي كان قبْل ذلك الصلح، وبالذات قبْل أن يزور الرئيس المتصالح القدس، على شيء من التماسك ثم بدأت التصدعات الواحد تلو الآخر إلى أن بات العالم العربي في موضوع الصراع مع إسرائيل عاجزاً عن إتخاذ الموقف الواحد.

وعند التأمل في صورة اللقاء الكردي – الكردي وكيف أن الإبتسامة العريضة تغمر وجهيْ السيديْن مسعود وجلال وإلى جانبهما السيدة أولبرايت تذوب إرتياحاً من إنجاز هذه الخطوة، نجد أنفسنا نتساءل: ما الذي تريده الإدارة الأميركية من هذه المصالحة؟

هل إنها تريد بالفعل إنهاء معاناة الأكراد التي مضى عليها أربعة عقود وتقديم العون لهذا الشعب بحيث يستقر ولا يعود عرضة للتجاذبات؟

أم هل إنها تريد من أكراد العراق أن يكونوا الساتر البشري الذي يحمي تركيا من إحتمال قيام تحالف سوري – عراقي – إيراني تواجه به الدول الثلاث الحلف الشرير الذي يزداد بلورة بين تركيا وإسرائيل؟

إن الوفاق أمر مستحب، وخصوصاً بين أبناء الشعب الواحد لكن الظروف التي تمت فيها المصالحة بين مسعود بارزاني وجلال طالباني تترك إنطباعاً بأن المسألة ليست مسألة حِرْص على أن يسود الإستقرار صفوف الشعب الكردي شمال العراق وإنما الغرض من ذلك هو توظيف الوفاق الكردي يحدث يكون خدمة مخطط بعيد المدى لن يكون على حساب وحدة العراق، وذلك لأن الإدارة الأميركية لا تتطلع إلى إستقطاب جزء من العراق الذي هو شماله الكردي وإنما إلى إحتواء العراق بالكامل وبحيث يصبح من بغداد إلى أخر نقطة في الشمال وآخر نقطة في الجنوب وآخر نقطة في كل من شرْقه وغرْبه، جرماً يدور في الفلك الأميركي. ومِن هنا فإن الوفاق الكردي – الكردي هو الخطوة الأُولى على طريق تنفيذ هذا المخطط.

ونحن عندما نقول ذلك فعلى أساس أن الرعاية الأميركية للإتفاق لا يمكن أن تكون من دون ثمن وأن ما هو أهم من الإتفاق الذي أُذيعت تفاصيله وبنوده هو التعهدات ستكون أربيل والسليمانية وبعض البلدات ذات الموقع الإستراتيجي بمثابة مراكز يقيم فيها عشرات الأميركان المنتسبين إلى إدارات أمنية ومخابراتية أميركية. وفى إستطاعة أجهزة متطورة توضع في تصرف هؤلاء، إحصاء أنفاس أهل النظام في بغداد. وهذه المرة يقوم هؤلاء بمهمتهم تحت مظلة

الشـــرعية الكردية بجناحيْها البارزابي والطالباني وليس كمـا كـانـت الحـال من قبْـل بحجـة الظروف الأمنيـة الطارئة الناشئة عن تداعيات حرب الخليج.

ولولا التعهدات التي نشير إليها لما كان للمصالحة الكرديـة – الكرديـة أن تتم. ولكن قطبيْ الجنـاحين وجدا عند المقارنة أن مثل هذه المصـــالحة تســـتحق التضـــحية ببعض الثوابت التي ســتأخذ التعهدات من مهابتها، فضـــلاً عن أن القطبيْن الكرديْن مســـعود بارزاني وجلال طالباني يتطلعان الى أن تتحول قضـية الأكراد من حالة إنســـانية إلى حالة إســـتراتيجية في الحسـابات الأميركية وهذا سـيبدد الإنطباع السـائد بأن مـا فعلتْه وزيرة الخـارجيـة الأميركيـة هو أنهـا قبْل هذا الإتفاق أصـابت الإدارة الاميركية نتيجة واقعة التحرش الجنســـي، وما أفرزته فضـــيحة الرئيس بيل كلينتون والفتاة اليهودية مونيكا لوينســـكي، بحثت عن انجاز تؤكد فيه قدرة الدبلوماســـية الأميركية على التحرك وعلى تحقيق المزيد من الإنتصـارات السـياسـية على الساحة الدولية، فوجدت أن هنالك ما هو سهل تحقيقه ومناسب جداً لأنه متعلق بالوضـع فى الشرق الاوسط فكان إســـتدعاؤها للقطبيْن الكرديْن في واشـــنطن ومصـالحتهما، وبذلك تغطي على التقاعس المحير من جانب الإدارة الأميركية ودبلوماســـيتها بالذات إزاء الضـــغط على نتنيـاهو لكي يوافق على مبـادرة من إبتكارها ومباركة رئيسـها الغارق في فضـيحة ممارسـة الرذيلة وراء جدران البيت الأبيض.

وفى تقدير العارفين بالخصـوصـية الكردية أن هذه المصـالحة التي تمت خلسـة قد تعيش وتكون فرصـة العمر للشـــعب الكردي الذي أضـــنته المعاناة اذا هي جاءت في إطـار مـا تمنـاه القطبان مســـعود بـارزاني وجلال طالباني، لكنها ســتتحول إلى نكســة قاســية تصيب زعامة القطبيْن الكرديْن، إذا هي كانت لتحقيق ما تريده أولبرايت التي تتعاطى في الشأن الكردي على نحو تعـاطي دانيـال ميتران أرملـة الرئيس الفرنســـي الراحل، مع فارق أن الأخيرة لم تورط الدولة الفرنســـية في إهتمـامهـا بـالأكراد. ومـا تريـده أولبرايـت هو دعْم تركيا وإسرائيل على حساب العراق وسوريا وإيران. ومن المؤكد أن حكماء الأكراد كانوا ســـينصـــحون قطبيْ الزعامة الكردية بالتريث وكانوا ســـيقررون بأن القليل من التشـــاور مع هذه الدول قبْل الإقدام على هذه الخطوة كان من شـــأنه أن يوفر الكثير من المتاعب مســـتقبلاً على الأكراد الـذين يكفيهم مـا هم فيـه من متاعب، وكان سيحول دون نشوء حركة تصحيح داخل قيادة الحزبيْن اللذيْن يتقاسمان زعامة الأكراد في شمال العراق. وفي إستطاعة الدول الثلاث إذا هي إستشعرت المخاطر من الصـفقة الكردية – الاميركية إسـتحداث حركـة التصـــحيح التي قـد تنتهي تغييراً في الوجوه ومعاودة للصـــراع... الذي هو دائماً قابل للإنفجار في الصف الكردي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 30 سبتمبر (أيلول) 1998

* * *

الإختبار الأول لتركيا المستقوية بإسرائيل...

فى الوقت الذي كنا من المحيط إلى الخليج بدأنا نعيش وهج اليوبيل الفضـــي لحرب أكتوبر/ تشـــرين الأول 1973 وترفع هذه الذكرى من معنويـاتنـا التي أصـابتها منذ بضـع سنوات حالة إحباط لا مثيل لها... في هذا الوقت جاءت الأخبار تفيد أن تركيا المستقوية بإسـرائيل تحشـد قوات على الحدود مع سـوريا ويقول رئيس جمهوريتها ســـليمان ديميريل فى الخطاب الذي ألقاه يوم الخميس 2 أكتوبر/ تشـــرين الأول 1998 لمناسـبة بدء الدورة البرلمانية الجديدة «إنني أعلن أمام الأسرة الدولية أننا نحتفظ لأنفسنا بحق الرد على سوريا التي لا تتراجع عن موقفها العدائي إزاء تركيا على رغم مبادراتنا السـلمية وتحذيراتنا المتكررة. إن سـوريا تتبع ســياســة معادية لتركيا وتواصـــل دعم حزب العمال الكردستاني. وإنني أعلن أمام الأُسرة الدولية أن صبرْنا يوشـك أن ينفذ...». وقبْل الرئيس ديميريل كان رئيس الحكومة مســـعود يلماظ قال «إن كل التدابير اللازمة ســـتتخذ إزاء ســـوريا إذا دعت الحاجة...». وبقيت المؤسـسـة العسـكرية التي أعلنت بلسـان وزير الدفاع عصمت سيزغين «إن تركيا تسعى من خلال الوسائل الدبلوماسـية إلى ثني سـوريا عن دعم الإرهاب، وكان حشـــد القوات يمكن أن يمر من دون ضـــجيج على أساس ان هذه القوات جزء من مناورات أطلسية تشارك فيها للمرة الأُولى منذ 13 عاماً قوات من اليونان البلد الصـديق لسوريا لو أن التصـريحات – التهديدات التي أشـرنا إليها لم تأت وكأنها توضـيح لهدف التحشـيد، فضـــلاً عن أنها لم تأت من خلال تصـــريح يدلى به

وزير أو متحدث رسـمي وإنما جاءت مرة واحدة على مستوى القمة متمثلة برئيس الجمهورية "ديميريل ورئيس الحكومة يلماظ، وبحضـور قادة الجيوش التركية الذين كانوا يتصـدرون قاعة مجلس النواب ويتابعون بإهتمام ما يقوله الرئيسـان المدنيان وهل أنهما ينقلان تماماً ما يدور فى خاطر المؤسـسـة العسـكرية التي لها الكلمة الأُولى والأخيرة.

ومن الواضـح أن هذه الحدة في التعبير من جانب تركيا التي قوبلت من جانب سـوريا بالكثير من التروي ما كانت لتأتي على النحو الذي جاءت بـه من قبل تطور العلاقة التركية – الإسـرائيلية التي وصـلت إلى حد أنها باتت حلفا ينطلق من إسـتراتيجية واحدة تقوم على توجيه ضربة إلى سوريا أو إحراجها إلى درجة أن مـا ينتج عن الإحراج على الصـعيد المعنوي يكون بأهمية ما ينتج عن توجيه ضربة عسكرية.

ومن الواضـح أن هذه الحدة في التعبير من جانب تركيا التي قوبلت من جانب سـوريا بالكثير من التروي ما كانت لتأتي على النحو الذي جاءت بـه من قبل تطور العلاقة التركية – الإسـرائيلية التي وصـلت إلى حد أنها باتت حلفاً ينطلق من إسـتراتيجية واحدة تقوم على توجيه ضربة إلى سوريا أو إحراجها إلى درجة أن مـا ينتج عن الإحراج على الصـعيد المعنوي يكون بأهمية ما ينتح عن توجيه ضربة عسكرية.

وما نعنيه بالضـربة العسـكرية هو إسـتدراج سـوريا إلى مواجهات حدودية من شـأنها إذا هي بدأت أن تسـتغرق بضـعة أشـهر وتكون بمثابة حالة إسـتنزاف هدفها البعيد المدى المخلط له حكومة نتنياهو إشـغال الحُكم السوري بجبهته التركية وصرفه عن إستعداداته لمواجهة محتملة مع إسرائيل لحسم موضـوع الجولان. أمـا مـا نعنيـه بـالإحراج المعنوي فهو أن تنفِّذ طـائرات تركية عمليات داخل أراضـي سورية ولبنانية تسـتهدف مواقع للأكراد الـذين ينفـذون بقيـادة عبـدالله اوجلان عمليات عسكرية داخل تركيا وتعتبرهم الحكومة التركية إرهابيين، بينما تعتبرهم سـوريا أصـحاب قضـية وتسـاندهم. وفي حال حدوث هذه العمليات على نحو ما فعلته تركيا براً وجواً في شمال العراق ولم ترد سوريا على هذا التحرش بالمثل لتفادي مواجهة غير محسوبة من شـأنها أن تأتي على حسـاب المواجهة الأُخرى المحتملة مع إسـرائيل، فإن ذلك سـيشـكل إحراجاً كبيراً للحُكم السوري. ومثل هذا الإحراج سـينعكس ضـغوطاً على هذا الحُكْم بالنسـبة إلى مخطط التسـوية السـلمية التي تريد إسرائيل فرضـها كما ترى وتعرقل سوريا هذا المخطط برفضـها وتجميع الأكثرية العربية حولها ونجاحها في الإبقاء على الإدارة الاميركية على مسافة ولو قليلة إنما مهمة، من هذا المخطط. كما أن هذا الإحراج سينعكس إنشغال بال بالنسبة إلى الوضع في لبنان وبالذات إلى مسـألة الرئيس الذي سـيحكم لبنان للسـنوات السـت المقبلة. وهل يقرر الحُكم السـوري – الـذي هو مؤثر في القرار – الإبقـاء على الرئيس الحالي الياس الهراوي أو المجيء بقائد الجيش العماد إميل لحود كما تشير التوقعات أو بشخصية أُخرى من المجموعة المتداولة أسماء أشـخاصـها أو بشـخصـية ليست فى الحسبان. وقد تكون إسرائيل وبعض مراكز القرار في الإدارة الأميركية شجعت ودفعت بتركيا لرفع صـوت التهديد عالياً على أسـاس أنها سـتكسـب في الحالتيْن. تكسـب إذا تم وضـع التهديد موضـع التنفيذ فيتم إشـغال سـوريا عن موضـوع الجولان وتحويل إهتماماتها اللبنانية إلى هموم. وتكسـب إذا تم إيجاد حل دبلوماسـي للأزمة يحول دون إندلاع المواجهة، وذلك على أسـاس أنه في الحل الدبلوماسـي لأي أزمة تكون هنـالـك دائماً تنـازلات. وفي هذا الإطـار تلفت النظر مسـارعة الرئيس حسـني مبارك لإيجاد حل دبلوماسـي وهو ما يمكن أن يريح تركيا من ناحية إطمئنانها إلى أن الوسيط هنا هو من أقرب الأصدقاء إلى الرئيس حافظ الأسد.

وعندما يسـارع الرئيس مبارك إلى التوسط فلأنه لا يريد للمواجهة أن تحدث لأن هذه المواجهة تشـكل إحراجاً بالغاً له، ذلك أن علاقته بالرئيس الأسد تفرض عليـه واجـب المؤازرة إلى أقصـى الحـدود، وطبيعـة العلاقة الأميركية – المصـرية تفرض عليه ألاَّ يكون أكثر من وسيط يبذل من المساعى الحميدة ما إستطاع إلى ذلك سبيلاً، وهو ما باشر به على الفور من خلال زيارات بدأت بالرياض للتشـاور مع الملك فهد بن عبد العزيز ثم زار دمشـق قبل أن يزور أنقرة. وهي زيارات لا بد سـتتزايد لكي يتحقق النجاح المطلوب، كما أنها تذكرنا بزياراته ومحاولاته عندما حدثت الأزمة بين العراق والكويت عام 1990 وإنتهت غزواً للكويت ثم حربـاً دوليـة عربيـة إسـلاميـة على العراق، وتحريراً للكويت.

ويبقى أن كل شـيء على ما يبدو محسوب أميركياً وإسـرائيلياً، أو أننا عندما نقول عن أمر أنه محسـوب أميركياً فأنه لا بد بالتالي محسـوب إسـرائيلياً، أو أن

إســرائيل قريبة منه مباشــرة أو من خلال بنود القرار الأميركي وما أكثرهم. أن كل شيء محسوب سواء من الجبهة المحتملة الإنفجار بين إيران وأفغانسـتان بهدف إشعال الثورة الايرانية عن مناصرة سوريا، أو من تبريد المشـاعر الفلسـطينية بعد اللقاء الذي جرى في البيت الأبيض الملوث بفضـــيحة مونيكا لوينســـكي، بين كلينتون وعرفات ونتنياهو، وهو لقاء قرأنا الفشل الذريع له من خلال صـــور ذلك اللقاء حيث كأن نتنياهو في غاية الفرح بينما عرفات فى غاية الإحباط وبينهما كلينتون في غاية إنشـغال البال على مصـيره. كذلك قرأنا الفشـــل فى صـــور لقاء الرئيس عرفات بالرئيس مبارك فى الإسكندرية يوم الخميس أول أكتوبر/ تشرين الاول 1998، حيث أن التجهم كـان واضـــحاً كل الوضـوح على وجه الرئيسـيْن المصـري والفلسـطيني. وكان أكثر ما يدعو إلى الإســـتغراب هو أن الرئيس كلينتون دعا عرفات ونتنياهو إلى اللقاء به منتصـــف أكتوبر في واشـــنطن مع أن الإثنيْن حوله ولا يتطلب الأمر أكثر من قرار حاسم من جانبه يطلقه في شكل تصـريح لو انه كان قادراً على فعل ذلك. ولا ندري إذا كانت هذه القمة سـتنعقد في موعدها أم أن إنشـغالات نتنياهو ســـتؤجلها أو تلغيها ما دام القرار الأميركي أسير أهوائه.

ونعود إلى ما بدأنا به هذا المقال لنضـــيف أنه قد يكون أيضـــاً لهذا الإفتعال التركي الكثير الحدة للأزمة مع سـوريا (وهي أزمة يمكن حلها بالحسـنى من خلال بعض الأصـدقاء المشـتركين أمثال الرئيس مبارك، أو من خلال منظمة المؤتمر الإسـلامي)، دوافع إسرائيلية وأميركية... ومن بينها إلغاء شعلة الإنتصار المصري – السوري في حرب 6 أكتوبر 1973، التي يعيش العرب من المحيط إلى الخليج وهج يوبيلها الفضي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 أكتوبر (ت1) 1998

* * *

أمجاد الوحدة... وجراح الهزيمة

كما في العالم الثالث كذلك في العالم الأول لا يقتنع مَنْ هو في قمة السُـلطة بضـرورة الإنسـحابات وإفسـاح المجال لغيره. وعندما تحدُث إسـتثناءات على نحو ما فعل إثنان من الجنرالات العرب هما ســـوار الذهب في الســودان وزروال في الجزائر، فإن الموقف في مثل هذه الحال يبدو مثيراً للدهشـــة، إلاَّ أنه في الوقت نفسه يبعث على الإحترام.

وما يضـيف إلى الإحترام المزيد من التقدير هو أن الإثنيْن اللذيْن ســـجلا هذا الإســـتثناء هما من أبناء المؤسـسـة العسـكرية وفي إسـتطاعة الواحد منهما أن يثبِّت بقوة الشـأن العسكري السُلطة التي جاءته. ولكن سوار الذهب آثر الإبتعاد وتسليم السُلطة إلى الأحزاب – ويا ليته لم يفعل ذلك وحدد سـنتيْن على الأقل الفترة الإنتقالية – وها هو اليمين زروال يقرر الإنســـحابات بهدوء وترْك الأمر بيد المؤســـســـة العســـكرية يختار جنرالاتها زروالياً آخر يواصـــل تحقيق الإنفراجات أو يتم اختيار أحدهم من المؤسـسـة نفسـها أو من الذين لهم مساهمتهم في مرحلة النضال من نوع الرئيس علي كـافي الـذي تفـاءل الجزائريون وتفـاءلنـا معهم خيراً بسنوات رئاسته.

وبالنســـبة إلى الزعيم الألماني هيلموت كول فإن الرجل يبدو بما فعله وكأنما هو ينتســـب إلى ظاهرة البقاء الأبدي في الحُكْم المألوفة في بعض دول العالم الثالث. وهو لو كان بدل الإصـــرار على أن يخوض المعركة مرة أُخرى، غادر المسـرح السـياسـي بإرادته محافظاً بذلك على مجد لم يتحقق لســـواه هو مجد توحيد ألمانيا، لكان تفادى جراح الهزيمة وبدا في نظر شـــعبه وفي نظر العالم عموماً أنه زاهد في الحُكْم وأن المجد الذي حققه هو الأبقى وهو الذي ســـتتناقله الأجيال، ويشـــير إليه المؤرخون والموثقون، على أنه لحظة من تلك اللحظات البراقة في القرن العشرين.

ولكن ما حدَث هو أن هيلموت كول الذي يشـــغل منصـب مسـتشـار ألمانيا الإتحادية أي رئيس الحكومة وهو المنصب (الأقوى في البلاد) منذ ستة عشر عاماً لم يقتنع بما حققه ولم يكتفِ بهذه الأعوام وإنما ولنوازع تغلُب فيها الأنانية على أي شيء آخر قرر أن يخوض المعركة مرة أُخرى مع أنه بات في السـن التي تفرض عليه واجب إفســـاح المجال أمام من هو أفتى منه فضـــلاً عن أن هيلموت كول يدرك، وهو المنتمي إلى الطبقة المتوسطة في ألمانيا التي هي طبقة سبعين في المائة من الشـــعب الألماني، أن أبناء هذه الطبقة يميلون نحو التغيير. كما لا بد أن يدرك أنه عندما جرى إنتخابه مستشاراً للبلاد كان في الثانية والخمسين، أي أصـغر بسـنتيْن من سـن الزعيم الجديد غيرهارد شـــرودر الذي فاز في المعركة التي جرت يوم الأحد

27 سبتمبر (أيلول) 1998. وهذه السن عموماً هي السن المثالية لمن يتسلم مقاليد الحُكْم في أي بلد، ذلك أنها سن بداية العمر الثاني والتي يغلب التبصر وتسود الحكمة لدى من يكون دخل فيها.

وبالنسبة إلى الحاكم فإن التبصر والحكمة تبعدان عن مَنْ في يده السُلطة والقرار الوقوع في الخطأ، وبالذات الخطأ الذي يمكن أن يتسبب بتعريض مصير البلد إلى كارثة.

ويبدو أن نقطة القوة في حالة هيلموت كول هي السبب في نقطة الضعف التي قضت على حلمه في البقاء زعيماً للبلاد. والذي نعنيه بنقطة القوة هو إنجاز توحيد ألمانيا. وبعد هذا الإنجاز إفترض كول أن الشعب الألماني لن ينسى له هذه المنحة القومية وسيكافئه كما لم يكافئ مستشاراً من قبْل. وإفترض أيضاً أنه ما دام بات مثل بسمارك فمن حقه أن يبقى في قمة السُلطة ويواصل الحُكْم ما دام قادراً على أن يمارس. وهو عندما لاحظ أنه يزداد سُمنة وعلى النحو الذي يمكن أن يؤثر على قلبه وحيويته فإنه أخضع نفسه لريجيم بالغ القساوة، وفعل ذلك وفي خططه أنه باقٍ على كرسي المستشارية حتى بعد أن يناهز السبعين من عمره. أما الذي نعنيه بنقطة الضعف فهو أن إنجاز التوحيد هو الذي جعله يتجاوز بعض البدهيات ومنها رغبة الألماني في التغيير، فضلاً عن أن الألمان كما أثبتت الإنتخابات برهنوا على أن البقاء من دون إعادة توحيد كان أفضل على الصعيد المعيشي والإجتماعي، حيث أن الذين أتوا من الشرق وفي ظنهم أنهم على موعد مع البحبوحة خابت توقعاتهم وأن مواطني غرب ألمانيا الذين إفترضوا أن الوحدة ستعزز من شأن بلدهم وهذا سينسحب عليهم خابت أيضاً إفتراضاتهم لأن شأن ألمانيا التي إستعادت الوحدة لا يختلف كثيراً عن شأن ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية.

ولا ندري لماذا تغيب الفطنة عن حكام ينتمون إلى العالم الأول فيقترفون في لحظة ضعف خطأ الظاهرة التي تسود عدداً من دول العالم الثالث حيث البقاء مفتوح في سدة الحُكْم على رغم تصريحات في الولاية الأولى لمن يتسلمون مقاليد الحُكْم بأنهم لن يجددوا الولاية ثم يحدُث أن الولاية تتجدد مرة ومرتين وأكثر وتصبح مسألة روتينية.. أو بلغة العصر مثْل تجديد العقوبات المفروضة على العراق وليبيا.

وقد يكون الشعور بالعظمة هو الدافع. أو قد يكون الشعور برهبة ما بعد ترْك الحُكْم. أو قد تكون الرغبة في أن يفارق الواحد منهم الحياة وبالذات إذا كان مريضاً – وهو في الحُكْم. وهذا ما تمناه الرئيس الراحل فرانسوا ميتران الذي كان يحلم بوفاة إستثنائية تنطلق بموجبها الجنازة من قصر الإليزيه.. ولكن الحلم لم يتحقق.

ويبقى أن ما جرى للمستشار هيلموت كول من حيث خذلان الشعب له وإختيار الأفتى منه بأربعة عشر عاماً زعيماً للبلاد، جرى من قبْل للرئيس جورج بوش الذي إفترض أنه بالحرب على العراق لتحرير الكويت أزال من نفس الأميركي عقدة فيتنام وأنه يستحق – أي بوش – من أجْل ذلك ولاية أُخرى في الحُكْم، بل وولاية أبدية، خصوصاً أن عوائد الحرب على الصعيد المالي والإقتصادي كانت مجزية وإلى درجة أنها أنقذت مؤسسات وصناعات وشركات من الإفلاس، لكن المواطن الأميركي الراغب في التغيير إختار بيل كلينتون رئيساً وهو الهارب من المشاركة في حرب فيتنام. وجرى أيضاً وبصيغة إنقلابية للسيدة مارغريت تاتشر، التي إفترضت هي الأُخرى أنها بحرب الفوكلاند، ثم بمشاركة بوش في الحرب ضد العراق لتحرير الكويت، قد حققت لبريطانيا موارد مالية من نوع ما حققه بوش لأميركا، وأعادت مجد الأمبراطورية البريطانية، وأنها من أجل ذلك تستحق البقاء في رئاسة الحُكْم حتى الرمق الأخير. لكن حزب المحافظين فعل بها وهي خارج بريطانيا تقوم بزيارة إلى فرنسا ما فعله سوار الذهب بالرئيس جعفر نميري وهو يقوم بزيارة إلى الولايات المتحدة وإن كان سوار الذهب – كما أوضحْنا في بداية هذا المقال – لم يتمسك بالحُكْم وسلَّمه بعد سنة إنتقالية إلى الأحزاب التي لم تكن في المستوى المطلوب.

يبقى أيضاً أن ما يهمنا كعرب ونحن نتأمل في مفاجأة الإنتخابات الألمانية، هو أن المستشار الجديد (غيرهارد شرودر) الذي قام بجولة عربية شاملة قبْل بضعة أشهر قد يعوِّضنا إندفاع المستشار كول في مداهنة إسرائيل والتجاوب مع إبتزازاتها المستمرة لتحقيق مكاسب مالية وسياسية. وكان أمراً أزعجنا كثيراً من دون أن يُفقدنا التقدير له على نجاحه في تحقيق وحدة بلاده وهو ما نتمناه لأمتنا التي تتوق منذ نصف قرن إلى حالة ثانية من

التوحد الذي يصـــمد ولا تحصـــل عليها. أما الحالة الأولى الصـــامدة والراســـخة فإنها تلك التي أنجزها الملـك عبـد العزيز والتي نعيش هـذه الأيـام ذكرى تألقها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 أكتوبر (ت1) 1998

* * *

حاكم عربي جديد من أصل عسكري وحركة تصحيح مثل حركة الأسد

إذا نحن إســـتثنينا دول مجلس التعاون الخليجي والمملكة المغربية والمملكة الأردنية، حيث الأنظمة في هذه الدول مبنية على أُســـس وتقاليد حُكْم متوارثة لا تجيز للجنرالات التفكير في الوصـــول إلى الحُكم، فإن بقية الدول العربية بعد إختيار العماد إميل لحود ليكون رئيســـاً للجمهورية في لبنان باتت تقاد من جانب أشـخاص جاءوا إلى الحُكم من المؤسـسـة العسـكرية بفعل الظروف الطارئة أو الإنقلاب أو الثورة. وعندما حاول الجنرال أوفقير الخروج على الثوابت في المملكة المغربية فإنه دفع حياته ثمناً لعدم الإدراك بأن النطام في هذه الدولة يجب أن يبقى فى منأى عن مغامرات الجنرالات الحالمين بكرســـي الحُكْم. كذلك دفع الثمن مسـتقبلهم العسـكري اللواءات والضـباط الذين حاولوا الخروج على الثوابت في المملكة الأردنية وكان الملك حسين رحيماً في التعامل مع ذلك الخروج المتعثر.

وعند التأمل فى أنظمة الحُكْم الراهنة نجد أن حصة الجنرالات أو الذين أتوا من المؤسـسـة العسـكرية إلى كرسـي الرئاسـة هم الأكثرية. في سـوريا الفريق حافظ الأسد. وفي السودان الفريق عمر البشير. وفى مصر حسـني مبارك، الذي كان حتى تسـلُّمه منصـب نائب رئيس الجمهورية في بداية عهد الرئيس الراحل أنور السادات قائداً للسلاح الجوي. وفي تونس الجنرال في الأصـــل زين العابدين بن علي. وفي الجزائر الجنرال فى الأصـــل اليمين زروال. وفي ليبيا العقيد معمَّر القذَّافي. وفي موريتانيا العقيد معاوية ولد الطايع. وفي العراق المهيب صـدَّام حسـين. وفي فلسـطين ياسـر عرفات. ومع أن الأخيريْن صدَّام حسين وياسر عرفات لم يأتيا مباشـرة من المؤسـسـة العسـكرية إلاَّ أن كلاً منهما إسـتنسـب إدارة الدولة بعقلية الجنرال الآتي من مؤسسة الجيش وبالذات من حيث الحزم وضرورة تنفيذ الأمر ثم المناقشة وليس المناقشة قبْل التنفيذ. وإذا كان العســـكريون من الحكام ليســـوا ميالين بحُكْم الطباع والتربية والتقاليد المعتمدة في مؤسـسـة الجيش إلى أن يكون هامش التعبير على الرحابة التي يمكن أن يتبعها مَن هم ليســوا جنرالات، إلاَّ أن تولّي العســكريين دفة الحُكْم يحقق نوعاً من الضـبط والربط في سـير أعمال الدولة لفترة ينتهي فيها التسـيب السـياسـي والإجتماعي والأمني. وفي لبنان إسـتشـرى هذا التسـيب إلى درجة كبيرة في معظم مرافق الدولة والمؤسـسـات وكاد ينخر معظم المؤسـسـات الخاصـة بعدما إسـتفحل شره على الناس في المؤسسات والدوائر الرسمية.

وما هو مألوف أن الذين يمثِّلون المؤسسة العسكرية هم عادة قادة الجيوش البرية، إلاَّ أن ما يشبه الإستثناء حدَث عندما بات قادة الجو والبحر هم الذين يمثِّلون المؤسسة في الحُكْم. فالرئيس حافظ الأسد من السلاح الجوي والرئيس حسني مبارك من السلاح نفسه. ثم ها هو الرئيس إميل لحود إبن الســـلاح البحري حيث أنه كان قبل تسـلُّمه قيادة الجيش عام 1989 قائداً للقوات البحرية. وإذا كان دور الســـلاح الجوي في حرب 6 أكتوبر/ تشـرين الأول 1973 أو شـرعية الشـجاعة والتي هي بمثل الشـرعية الدسـتورية والشـرعية الثورية هى التي أوصـلت إلى الرئاسـة كلاً من الأسـد ومبارك اللذيْن قاما بأهم عملية إعادة بناء للســـلاح الجوي فى بلديهما طائرة طائرة وطياراً بعد طيار، فإن إعادة بناء الجيش اللبناني التي تشبه في بعض أوجهها إعادة بناء القوات المسلحة في مصر التي كانت تعرضت لمحنة قاســـية في هزيمـة 5 يونيو 1967، هي شـــرعيـة الشجاعة التي أوصلت العماد إميل لحود إلى الرئاسة.

وقـد يجوز الإفتراض أن العلاقـة المصـــريـة – اللبنانية مرشـــحة لأن تصـــبح في ظل رئاســـة لحود بنوعية العلاقة المصـرية – السـورية وربما سـيصـبح مـالوفاً جداً حدوث لقاء ثلاثي بين الحين والآخر بين ثلاثة رؤسـاء أتوا إلى الحُكم من المؤسـسـة العسكرية، وتجمعهم حياة أُسـرية قريبة التشـابه حيث أنهمد ينأون في إســـتمرار كآباء وأمهات وأبناء وبنات عن الجو الإجتماعي السـائد، كما أن الثلاثة من الذين ينظرون إلى الرئاســـة على أنها مثل قيادة ســـلاح. أما على صـــعيد المال فإن أي جهة لا تســـتطيع أن تنال من سمعة الواحد منهم أو تلقيه بتهمة شأنهم في ذلك شأن الرئيس الراحل جمال عبد الناصـــر الذي هو عدو

الجنرالات الذين تسلَّموا الحُكم وصمدوا فيه وذاقوا منه حلاوة الإنتصار ومرارة الهزيمة. ومن سوء حظ الرئيس اللبناني الجديد أن مؤسسة القمة العربية معطلة وليس هنالك مَن يحميها ويبعث الدفء في أوصالها فتنعقد على رغم أن الأسباب الموجبة كثيرة. وبسبب هذا التعطيل وليس العطل إن الرئيس إميل لحود لن يتسنى له التعرف على زملائه الحكام العرب على نحو ما جرى لرؤساء سابقين مثل الرئيس شارل حلو والرئيس سليمان فرنجية والرنيس الياس سركيس والرئيس الياس الهراوي الذين أمكنهم معرفة القادة العرب وبالتالي القضايا العربية عن كثب من خلال مؤتمرات القمة التي إستمرت تنعقد بحماسة وهمة إلى أن توقف قطارها عند القمة التي إستضافها الرئيس مبارك قبل ثلاث سنوات ثم لم تعد تنعقد بعد ذلك. ولكن عدم إنعقاد القمة لا يعني أن الرئيس اللبناني الجديد لن يكون المبادر، بمعنى أن يُكثر من الزيارات على نحو ما يقوم به الرئيس حسني مبارك الذي لا يزور هذه الدولة العربية أو تلك إلاَّ إذا تسلَّم دعوة رسمية وإنما يفاجيء بعض الدول العربية بزيارات للتشاور أو تمهيداً لمبادرة سيتم طرْحها. ويحدُث أن الرئيس مبارك ينشر أجواء من الإرتياح في نفوس الحكام الذين يزورهم. ومِن هنا فإن الرئيس مبارك عرف زملاءه الحكام كما لم يعرفهم حاكم مصري أو غير مصري من قبْل، فضلاً عن أن أي زيارة يقوم بها تعود بالخير على مصر كسمعة أو كمشاريع أو كتنسيق للخط السياسي العام إزاء قضايا مثْل العملية السلمية المتعثرة أو مثْل الأزمة السورية – التركية التي ربما ما كان لها ان تهدأ لولا المسعى الحميد الذي قام به الرئيس مبارك ويواصله من بعده وزير خارجيته عمرو موسى. وفي تقديرنا إن الرئيس إميل لحود سيلقى الترحيب المتميز لعدة إعتبارات من بينها محبة العرب للبنان وإرتياحهم للإنتقال الهادىء للسُلطة من رئيس مدني إلى رئيس يقود المؤسسة العسكرية من دون نقطة دم تراق أو كرامات أشخاص تُهدر. بل لعله من الجائز القول إن الذي قام بالإنقلاب الناصع البياض هم نواب البرلمان اللبناني بإنتخابهم بالإجماع العماد إميل لحود قائد الجيش ليكون رئيساً للجمهورية. وفي تاريخ بعض العهود العربية إن قائد الجيش ومعه مجموعة من الضباط هم الذين يقودون عملية انقلابية وهم الذين يشْرفون من وراء الستار على عملية إنتخابية شكلية لكي يأخذ الإنتخاب طابعه الدستوري.. هذا إذا لم تتم العملية بشكل سري ويكون هنالك وراء رئيس الجلسة ضابط يقوم بتبليغ رسالة إلى كل نائب يقترع وعلى وجه السرعة للرئيس الجديد الذي هو قائد الإنقلاب، وما حدث يوم الخميس 15 أكتوبر/ تشرين الأول 1998 هو أن نواب البرلمان اللبناني الذين حضروا وعددهم 118 من أصل 128 نائباً إقترعوا للعماد إميل لحود وجاء إقتراعهم عن كامل الإقتناع إذ ليس هنالك أي مأخذ على الرجل.

وكان يمكن إعتبار الذين غابوا فلم يقترعوا أنهم بغيابهم يعززون اللعبة الديمقراطية لو كانت خشيتهم مبررة من مجيء عسكري ليخلُف المدني في رئاسة الجمهورية. لكن الخشية غير مبررة إلاّ إذا كان يتملك بعضهم شعور بأنه ما دام لن يكون لهم مكان في العهد الجديد على النحو الذي كان لهم في العهد الماضي فإنه من الأفضل لهم أن يقاطعوا. والمقاطعة في أي حال لم تكن موقع إرتياح الناس العاديين الذين يعلقون آمالاً عريضة على الرئيس الجديد ويفترضون أنه سيَحول دون أن يتهاوى لبنان في بحر الأزمات المتفاقمة.

ويبقى أن الرئيس الجديد – الذي هو الثاني بين الذين ترأسوا الجمهورية اللبنانية يحمل إسم إميل (الأول هو إميل إده والد العميد ريمون إده الذي بكَّر في معارضته للعماد إميل لحود رئيساً، فقط لأنه من أصل عسكري) – هو الرئيس الحادي عشر في تاريخ لبنان المستقل. وبين الرئيس الأول الشيخ بشارة الخوري والرئيس الحادي عشر العماد إميل لحود عاش لبنان عهودا إمتزجت فيها المعاناة من الإحتلال بوهج النضال من أجْل الإستقلال، والبناء بالتدمير، والإزدهار المالي بإنهيار الليرة إنهياراً لا مثيل له، ورائحة الموت نتيجة القتل العشوائي برائحة زهر الليمون في فصل الربيع، وغزوات متلاحقة من كل الشاردين في الأمم بالذكريات الطيبة عن الأفواج المتلاحقة من الأشقاء العرب الباحثين عن جمال الطبيعة والهواء النقي في جبل لبنان.

وبدافع الشعور الشعبي بأن رئاسة إميل لحود من شأنها أن تجعل الأمور تستقيم بعض الشيء كان هذا الإقتراع بالإجماع له، وهو إقتراع فريد في نوعه ويبدو وكما لو أنه إستفتاء لم تتدخل الأجهزة في ترتيب أرقامه ونسِبْته على نحو ما يحدُث لأكثر الإستفتاءات العربية. بل قد يجوز القول إن نواب البرلمان الذين حضروا الجلسة وإقترعوا جميعاً لإنتخاب إميل لحود

رئيساً للجمهورية ترجم على النحو الأفضل وللمرة الأُولى ما يريده الناس.

وتبقى المهمة الأصعب أمام الرئيس الجديد الذي قد يجد نفسه يقوم بحركة تصحيح إنما وفْق الخصوصية اللبنانية متأثراً بذلك بحركة التصحيح التي سبق أن قام بها الرئيس حافظ الأسد في سوريا قبْل 28 عاماً فأوقف بالحزم الذي إعتمده ظاهرة الفوضى والإنقلابات العسكرية التي باتت لصيقة بإسم سوريا، ووضع البلد في خانة الدول التي لها حضورها الفاعل عند صياغة القرار العربي والدولي.

وأكثرية اللبنانيين الذين إبتهجوا بوصول قائد الجيش العماد لحود إلى سدة الرئاسة يترقبون منه حركة التصحيح المتأنية هذه... أو في الحد الأدنى خطوة على طريق التصحيح يتبعها بالمزيد من الخطوات التي تضع نظامه على بداية الطريق المستقيم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 أكتوبر(ت1) 1998

* * *

ما إعتمده الأسد ولم يفعله صدَّام

يسجل المرء بالتقدير للرئيس حافظ الأسد الأسلوب الذي إعتمده في تعاطيه مع الأزمة التي إفتعلتْها القيادة العسكرية التركية مع سوريا. وكان من المفترض القول إن الأزمة إفتعلتْها تركيا، ولكن مجرى الأحداث أظهر أن جنرالات المؤسسة العسكرية في تركيا كانوا هم وراء هذه الحدة التي تميزت بها المخاطبة التركية لسوريا، وأن المدنيين، من رئيس الجمهورية إلى رئيس الحكومة إلى بعض الوزراء، كانوا مجرد متحدثين بإسم المؤسسة العسكرية ولا قدرة لهم ولا صلاحية على إمتصاص العناد الذي هو سمة الجنرالات الأتاتوركيين.

لقد إعتمد الرئيس الأسد منذ اللحظة الأُولى المرونة فلم يرُد هو شخصياً على التصريحات والإنذارات التركية المتتالية، وفي الوقت نفسه كان يشدد في توجيهاته على مسألة الحوار وبذلك مهَّد الطريق أمام صديقه وحليفه الرئيس حسني مبارك لكي يكون ذلك الوسيط غير المثقَل بعناد مماثل في الجانب السوري. ومن المؤكد لو أن الرئيس الأسد رد شخصياً على الرئيس ديميريل وبالمفردات التي إستعملها الرئيس التركي، أو أن رئيس الحكومة السورية ردَّ على الأسلوب المستهجَن الذي إعتمده رئيس الحكومة التركية مسعود يلماظ... من المؤكد أنه لو حدَث ذلك لكان الموقف تفاقم ولكان المسعى المصري تعثَّر. ولكن الذي حدث هو أن الرئيسيْن في تركيا، رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة، كانا يصرحان وينذران ويستخدمان في تصريحاتهما ما يجوز وما لا يجوز قوله، وكان الرد عليهما يأتي من وسائل إعلام سوريا ومن مسؤولين على مستوى وزير الخارجية ووزير الإعلام ومن جبهة الأحزاب القومية والتقدمية. وحتى الدعوة إلى عقد قمة إسلامية إستثنائية فإنها لم تأتِ من جانب سوريا كدولة ومن خلال مذكرة تبعث بها الخارجية إلى منظمة المؤتمر الإسلامي وإنما من خلال بيان أصدره مفتي سوريا الشيخ أحمد كفتارو ودعا فيه إلى عقْد قمة لا لمواجهة تركيا وإنما "للوقوف في وجه التهديد والعدوان الناتج عن التحالف العسكري الإسرائيلي – التركي وتنفيذ المقاطعة الإقتصادية الشاملة على كل دولة تعتدي على دولة إسلامية والوقوف صفاً واحداً عسكرياً ومادياً ومعنوياً إلى جانب الدولة المعتدى عليها...".

وإلى ذلك فإن الأسلوب المرن الذي إعتمده الرئيس الأسد شجع معظم دول العالم على أن تساند موقف سوريا وتراوح مساندتها بين الدعوة إلى التهدئة والأخذ بالحوار الذي تنادي به سوريا وبين التنبيه الذي صدر عن العقيد معمَّر القذَّافي، وكان إذا جاز القول هو الموقف العربي الأكثر تشدداً، من أنه سيستبدل كل الشركات التركية العاملة في ليبيا بشركات يونانية.

وبصرف النظر عما إذا كان الرئيس الأسد هو الذي تمنّى على صديقه وحليفه الرئيس مبارك القيام بدور هو أقل من وساطة وأكثر من مسعى للتهدئة، أم أن الرئيس مبارك تَحرك من منطلق خشيته البالغة لما يمكن أن يحدُث في المنطقة لو أن تركيا نفّذت تهديداتها وإنذاراتها وقامت إسرائيل بتأمين تغطية عسكرية لها... بصرف النظر عن ذلك فإن قيام الرئيس مبارك دون غيره بهذه المهمة كان الخيار العربي – الإسلامي الصحيح وبحيث إنه لو كانت هنالك – إفتراضاً – قمة إسلامية إستثنائية ستنعقد لما كان هنالك قرار أفضل من قرار تكليف وفد يضم مصر وإيران للقيام بمسعى حميد يحاصر التصعيد التركي قبل أن تستفحل الأمور وتنتهي مواجهة. ومن

المؤكد أن الرئيس مبارك، الذي وجد أن التطورات لا تتحمّل التأجيل إلى حين تتفق الدول الإسلامية على ما يجب القيام به، بادر على الفور وبدا كما لو أنه مثل أولئك الذين ينزعون لغماً قبْل أن ينفجر.

والقول بأن الرئيس مبارك كان الخيار الصحيح يستند إلى أن شعور العظمة لدى الحُكْم التركي يعنيه كثيراً أن رئيس الدولة العربية الكبرى هو الذي يقوم بالمسعى وليس أحداً آخر، فضلاً عن أن مصر تربطها علاقة بإسرائيل وهذا في حد ذاته يخفف عن تركيا الإحراج كونها أقدمت في السنتيْن الأخيرتيْن على تطوير علاقاتها بإسرائيل إلى درجة بات هناك أول حليف عسكري عدواني بطبيعة الحال بين دول إسلامية كبرى هي تركيا وبين إسرائيل. ولو أن الوسيط هو العقيد معمَّر القذَّافي على سبيل المثال والذي بينه وبين الرئيس الأسد علاقة تاريخية طيبة وبين بلاده وتركيا علاقات إقتصادية وتجارية مهمة، هو الذي قام بالمسعى لكانت لغة التخاطب ستتعثر لأن العقيد القذَّافي كان سيبدأ مع الرئيس ديميريل من النقطة التي لا يرتاح الحُكْم التركي للتركيز عليها وهي المتعلقة بالتحالف العسكري بين إسرائيل وتركيا، في حين أن الرئيس مبارك إنطلق مِن مبدأ حُسْن الجوار ومِن مبدأ الحوار ومِن ضرورة حل الإشكالات بالتدرج ومِن إستنفاد كل الوسائل الممكنة قبْل المواجهة. وفي مسألة الإرهاب كان أهل الحُكْم التركي سيتهيبون بعض الشيء أمام منطق الرئيس مبارك لأنهم إذا كانوا يشْكون من الإرهاب الكردي الأوجلاني فإن حُكْم الرئيس مبارك يقاسي من العمليات الإرهابية التي تقوم بها الجماعات الإسلامية المتطرفة.

وفي تقديرنا أنه لو كان الجناح المدني في الحُكْم التركي وهو الجناح الأضعف قادراً على أن يحسم لكان مسعى الرئيس مبارك أثمر نتائج طيبة على الفور ولما كان الحُكْم التركي تمادى وتجاوز كل اللياقات عندما إنتقل توجيه التحذيرات والإنذارات إلى سوريا من أرض تركية (أنقرة) إلى أرض سوريا مسلوبة هي الإسكندرون. وإذا كانت الحرب العالمية الثانية هي السبب في أن فرنسا هي التي ضمت لواء الإسكندرون إلى تركيا فهذا لا يعني أن الحُكْم السوري الحالي يمكن تحت تأثير الضغوط المتتالية عليه أن يعطي شرعية لهذا الضم، وقد تكون العلاقة التي تتطور يوماً بعد يوم بين الرئيس حافظ الأسد والرئيس جاك شيراك هدفها القصير المدى إستعادة الجولان من إسرائيل وهدفها البعيد الثاني تصحيح فرنسا هذا الإجراء الظالم الذي اتخذه أجداد الحُكْم الحالي الذي يقوده الرئيس شيراك. ومِن هنا فإن إفتعال الأزمة مع سوريا هو نوع من التعطيل المبكر لما يتطلع إليه الحُكْم السوري في الإتجاهيْن: إتجاه الجولان وإتجاه الإسكندرون.

وتبدو قراءة أهل الحُكْم التركي لما يمكن أن تكون عليه ردود الفعل العربية والإسلامية قراءة غير دقيقة. ومن الجائز الإفتراض أن هؤلاء إعتبروا في ضوء ما تفعله إسرائيل بالعرب وسكوتهم على الضيم والأذى والإهانات التي تلحق بهم منها، وبالذات بعدما تسلَّم نتنياهو الحُكْم وتمادى في استهانته وغطرسته، أن أحاسيسهم القومية تبلدت وباتوا مثل المريض الذي إستسلم لنوم عميق نتيجة جرعة زائدة من المخدر، أو بالمفهوم السياسي باتوا هم رجل المنطقة المريض بعدما كانت هذه الصفة لصيقة بتركيا، ومن أجْل ذلك لن ينتخوا ولن يؤازروا سوريا وسيتركونها عرضة للإستفزازات الأتاتوركية. ولكن العرب الذين يختزنون في ذاكرة تاريخهم مواقف مريرة عن تركيا أبلغوا أهل الحُكْم التركي بوقفتهم المعنوية وبما يشبه الإجماع أنهم ضد هذه الإستفزازات وعلى إستعداد لأن يتخذوا الموقف نفسه، أو الشبيه إلى حد ما، الذي إتخذوه عندما حدث الغزو العراقي للكويت، وذلك على أساس أن العدوان الذي يأتي من عدو، هو غير العدوان الذي يأتي من شقيق، عربياً كان أم مسلماً هذا الشقيق. والذي حقق هذا الإجماع في الموقف العربي هو الأسلوب المرن الذي إعتمده الرئيس الأسد بتمسكه بالحوار وفي الوقت نفسه عدم الرد على الإستفزازات التركية وبالذات تلك التصريحات والإنذارات التي كانت تتوالى الواحد بعد الآخر. كذلك حقق هذا الإجماع أن أهل الحُكْم التركي لم يكتفوا بتوجيه الإنذارات إلى سوريا وإنما شملوا العرب بها، وسمعْنا الرئيس التركي ديميريل يقول ما معناه إن العرب الذين سيقفون مع سوريا سيندمون. ولا ندري كيف تناسى الرئيس ديميريل أنه ليس لدى العرب سوى الذكريات المريرة عن تركيا وأن وقوفهم إلى جانب سوريا من شأنه أن يخفف قليلاً من تلك المرارة. كذلك لا ندري كيف لا يأخذ الرئيس ديميريل في الإعتبار أنه لو كانت الدول العربية ستفعل ما فعلتْه إسرائيل مع ألمانيا لكانت تركيا ستدفع على مدى قرون بالكامل تعويضات عما فعلتْه تركيا بالعرب، وأيضاً عن المشانق التي نصبتْها في

ســـاحات مدن عربية وكانت بفعلها هذا مثل هتلر ومحارقه.

ويبقى أن التصـــعيد إنحســـر ولكن الأزمة لم تنتهِ. والخشية ستبقى مشروعة من أن تفتعل إسرائيل حوادث تخريـب داخـل مـدن تركيـة مـا دام بـات لهـا عملاء وجيوب في مؤســـســـات أمنية داخل الدولة التي هي شـقيقة العرب في الإســلام. والهدف من هذا الإفتعال الذي نشـــير إليه هو إبقاء الأزمة الســـورية – التركية قابلة للإنفجار، أو مثل الجرح المفتوح، وهذا ما تريده إسرائيل وتسعى وتخطط من أجْله وبالذات بعدما باتت الأزمة مرشحة لأن تكون عربية – تركية وليس خاصة بسوريا.

يبقى أيضـــاً أن الأزمة التركية – الســـورية أفرزت أمثولتيْن في غاية الأهمية، الأُولى هي أن المرونة قد لا تُحقق إنتصـــــاراً إلاَّ أنها تحولُ دون حدوث كارثة. ولو أن الرئيس صـدَّام حسين سحب قواته من الكويت وتعامل مع الإســـتفزازات الأميركية بغير الطريقة التي إعتمدها، وفعلَ مـا فعلَـه الرئيس حـافظ الأســـد مع الإســـتفزازات التركية، لكانت الأمة تفادت الكارثة التي أصـــابتها، ولكانت الدول العربية، في حال أصـــرت الولايات المتحدة على الإســـتفزاز وقفت بإجماع نادر في وجه هذا الإصـــرار ومنعت حدوث الضـــربة على نحو ما فعلت مع ســـوريا أمام تركيا، التي كان يمكن، في غياب عدم التقدير الواعي من جانب الرئيس الأسد للموقف، أن تفعل تركيا، ومِن ورائها إسرائيل، ما سبق أن حدَث مع العراق وله من الولايات المتحدة.

أما الأمثولة الثانية، فهي أن التهدئة التي تحققت حالت دون حدوث المواجهة الســـورية – التركية التي كانت ستتطور بحيث تصبح مثل المواجهة العراقية – الإيرانية، وكأنما الهدف الشـــرير لراســـمي خرائط العلاقات الدولية المتلاعبين بأقدار الأمم ومصـــائرها، هو القول: إن العرب ضـد الإسـلام والإسـلام ضـد العروبـة، بـدليـل مـا حـدث بين العراق وإيران ثم بين سوريا وتركيا.

لعل وعســـى يأخذ العربي وشـقيقه المســلم هاتيْن الأمثولتيْن في الإعتبار.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 28 أكتوبر (ت1) 1998

* * *

ياسر عرفات وأفعاله
بين المفهوم والمستغرَب

فاجأ الرئيس الفلسـطيني ياسـر عرفات مشـاهدي الفضـــائيات العالمية يوم الجمعة 23 أكتوبر (تشـرين الأول) 1998 بتحية شـــكر على طريقته للرئيس بيل كلينتون. فهو بعـدمـا ألقى كلمتـه تقـدَّم من الرئيس كلينتون وعانقه على يمينه ثم على يساره قبل أن يعود ويقف إلى جانبه ويتواصل الإحتفال الإستعراضي الذي تم التوصـــل إليه في "واي بلانتيشـــين" بين الجانبيْن الفلسطيني والإسرائيلي عقْب تسعة أيام من مفاوضات فريدة من نوعها في تاريخ التفاوض دارت بين الرئيس عرفات ورئيس وزراء إسـرائيل بنيامين نتنياهو وشـارك في معظم جلســـاتها الرئيس كلينتون. ولم يحدُث من قبْل في مفاوضـات بين طرفيْن أن شـارك رئيس الدولة الأعظم (الولايات المتحدة) في جلسـاتها بحيث بدا أنه طرف أســـاســـي فيها وليس مجرد المضـــيف لهذه المفاوضات يشارك في جلستها الأُولى ويترك للطرفيْن المجال باذلاً من وراء السـتار ما إسـتطاع من الجهود لإنجاح عملية التفاوض.

ويجوز القول إن الرئيس كلينتون فعل ذلك لأنه في وضـع سياسـي داخلي سيئ نشأ عن فضـيحة التحرش الجنسي وأن المكافأة التي سيحصل عليها من الجانب الإســـرائيلي هي التخفيف من ضـــغوط الإجراءات القانونية عليه وبحيث يكمل ما تبقَّى من ولايته دون أن يستقيل، وهي مكافأة ثمينة وفي إستطاعة اللوبيات اليهودية في الولايات المتحدة والتي لها تأثيرها على الكونغرس ووسـائل الإعلام ومراكز الشـأن المالي أن تمارس من الضـغوط التي من شـأنها أن تُحقق تأمين المكافأة المشـــار إليها. وعند التأمل في فضـــيحة التحرش الجنسي وكيف سارت حلقاتها وتسارعت يتأكد لنا كيف أن الحضـــور الصـــهيوني كان واضـــحاً من البداية وكيف أن هذه اللوبيات لعبت بالرئيس كلينتون وإستمرت تتلاعب به إلى أن حولته إلى وسيلة ضـغط على الجـانـب الفلســـطيني بـدل أن تمـارس الإدارة الأميركية، وبالذات لأنها تستضيف الطرفين الفلسطيني والإسـرائيلي، دور الوسـيط. وهي لم تكتفِ بذلك وإنما أقنعتْه بأن يكون الشـــاهد والضـــاغط على المجلس الوطني الفلسطيني الذي سيدعوه الرئيس عرفات قريباً لعقد جلســة تصــفية الإرث الوطني والثوري للمســألة

الفلسطينية وهي الجلسة التي سيتم فيها إلغاء بعض مواد الميثاق الوطني، أي عملياً وفاة آخر ما تبقى من الإرادة الفلسطينية. والمواد التي ما كان للإتفاق الذي نكتب هنا عنه أن يتم قبْل أن يتعهد الرئيس عرفات بإلغائها تؤكد في معظمها على "أن تقسيم فلسطين الذي جرى عام 1947 باطل وأن قيام إسرائيل أيضاً باطل، وأن الصهيونية حركة عنصرية في تكوينها توسعية إستيطانية في أهدافها وفاشية نازية في وسائلها". كما أن إحدى المواد تنص على "أن دعوى الترابط التاريخية أو الروحية بين اليهود وفلسطين لا تتفق مع حقائق التاريخ وأن اليهود ليسوا شعباً واحداً له شخصيته المستقلة وإنما هم مواطنون في الدول التي يعيشون فيها...". كذلك تؤكد إحدى مواد الميثاق على "أن فلسطين هي وطن الشعب الفلسطيني وأنها بحدودها التي كانت قائمة في عهد الإنتداب البريطاني وحدة إقليمية لا تتجزأ. كما أن الشعب العربي الفلسطيني هو صاحب الحق الشرعي في وطنه وأن اليهود الذين كانوا يقيمون إقامة عادية في فلسطين حتى بدء الغزو الصهيوني لها يُعتبرون فلسطينيين...".

وإذا كان من الطبيعي أن يخضع الرئيس كلينتون لمنطق نتنياهو عندما يقول له كيف تطلبون من إسرائيل أن نتفاهم مع عرفات بينما الميثاق الوطني الذي هو الشرعية الدستورية التاريخية للفلسطينيين ما زال لم يُلغَ وما زالت بنوده التي لا تعترف بوجود إسرائيل قائمة، فإنه ما ليس طبيعياً على الإطلاق هو عدم تفهُّم الرئيس كلينتون لواقع الحال الفلسطيني ولظروف الرئيس عرفات وكيف أن أبو عمار لا يملك من المكاسب والإنجازات ما يجعل إذعانه لإلغاء مواد الميثاق من جهة وللتعاون أمنياً مع إسرائيل ووكالة الإستخبارات الأميركية لضرب حركة حماس، مبرراً وبالتالي مقبولاً.. إلاَّ إذا كان حصل على وعود مغرية من الإدارة الأميركية تغطي فِعْلَتَه هذه المتمثلة بالإتفاق الذي توصل إليه مع نتنياهو في "واي بلانتيشين" بعد تسعة أيام من التفاوض مارس فيها المضيف الرئيس كلينتون المضغوط عليه من إسرائيل دور الضاغط على عرفات. وإلاَّ فما معنى هذا الشكر من جانبه بالعناق للرئيس كلينتون؟

ويبقى ما يستعصي على المرء المراقب فهْمه وهو عدم إشراك الرئيس حسني مبارك في مفاوضات "واي بلانتيشين" ما دام شارك في بعض مراحلها الملك حسين على رغم ظروف المرض الصعبة التي يعيشها. ونقول ذلك على أساس أن وجود الرئيس مبارك إلى جانب الرئيس عرفات كان سيقوي موقف الطرف الفلسطيني، إلاَّ إذا كان الرئيس مبارك لا يريد أن يكون شاهداً على التصفية النهائية للمسألة الفلسطينية وأنه لا يمكن أن يحضر مثل هكذا مفاوضات لكن في الوقت نفسه لا يعارض الإتفاق الذي تمّ التوصل إليه، ويسانده عند الضرورة ما دام هو – أي الإتفاق – أحد إفرازات صفقة كامب دايفيد التي أبرمها الرئيس السادات وورثها الرئيس مبارك كأمر واقع لا مجال للفكاك منه. أو أن الإدارة الأميركية بإيحاءات من المستشارين المتعاطفين مع إسرائيل داخل هذه الإدارة تعهدت محاصرة الرئيس عرفات وإشراك الملك حسين فقط الذي يشجع بمجرد حضوره، صديقه الرئيس عرفات على تقديم المزيد من التنازلات مقابل أن يحصل في المستقبل على عوائد مجزية من الإدارة الأميركية عِلماً بأن تجربة الملك حسين ومن قبلْه الرئيس أنور السادات مع الولايات المتحدة لا تشجع كثيراً.

وخلاصة الأمر إن إتفاق "واي بلانتيشين" قد يمدد في ولاية الرئيس كلينتون ويقوي شأن نتنياهو الذي يتطلع من وراء هذا الإتفاق إلى تتويجه زعيماً بأهمية بن غوريون. أما بالنسبة إلى الرئيس عرفات فإنه سيقلل من وهْج رصيده النضالي على مدى ربع قرن. ومن دون هذا الرصيد لا يعود أبو عمار رجل القضية الفلسطينية ورمزها النضالي، وإنما يصبح لغزاً من ألغاز المرحلة السياسية التي واجهتْها هذه القضية على نحو الرئيس أنور السادات ذلك اللغز هو الآخر والذي يحتار المرء في معركة السلام مع إسرائيل التي خاض غمارها منذ أن حطت طائرته في مطار بن غوريون، هل إنها كانت إجتهاداً وطنياً أم إنها كانت نزوة سياسية إفترض عندما إقترفها أنه سيدخل تاريخ العظماء من أوسع الأبواب. وعلى رغم مرور عقديْن على زيارة السادات لإسرائيل فإن اللغز ما زال قائماً.

وعند التأمل في ما فعله الرئيس عرفات الذي أفرح نتنياهو في اليوم السابق لإبرام صفقة "واي بلانتيشين" بباقة ورد أرسلها إليه لمناسبة عيد ميلاده التاسع والأربعين وهو العمر الذي يُذكِّر عرفات بأمجاد مرحلة نضاله، نشعر بالإستهجان مما حدَث. وفي تقديرنا أن عرفات الذي حصل بموجب تلك الصفقة من كلينتون ونتنياهو معاً على إعتراف بالسلطات العقابية والإجرائية التي يتمتع بها رئيس دولة في حين هو

ينشد الحصول على الدولة أولاً، ما كان ليرتضي ذلك لو أنه كان في هذا العمر ويترك للزمن فسحة لمزيد من المثابرة والنضال. إذ ما هي أهمية أن تطلب أميركا وإسرائيل من عرفات ممارسة سُلطات رئيس دولة ولا تُقر في المقابل بوجود هذه الدولة. وما نقصده بتلك السُلطات هو تعديل الميثاق الوطني بما يرضي إسرائيل، وتعاون الأمن الفلسطيني مع وكالة الإستخبارات الأميركية (سي. آي. إي) لتصفية المؤمنين بفلسطين وطناً للفلسطينيين والحالمين بالقدس عاصمة لدولة فلسطين. وبهذا التعاون تكون إسرائيل ورطت الإدارة الأميركية والرئيس عرفات بمثل هذه الأفعال وغيرها مما نص عليها الإتفاق ومما لم يرِد في الإتفاق وإنما تضمنته الملاحق السرية التي عادة لا يتم الكشف عنها (مثل ملاحق إتفاقية كامب دايفيد) وهي أفعال لا قدرة لأحد على حسْم أمرها عدا رئيس الدولة الممسك جيداً بمؤسسات دولته وبالقيّمين عليها. وقد تُحقق هذه الأفعال للرئيس عرفات المكاسب على الصعيدَيْن الإقتصادي والإجتماعي مقدمة لتحقيق حلم الدولة التي ينشدها، لكن محاذيرها وبالذات بعد أن تبدأ عملية تصفية القوى المعارضة (حماس وغيرها) قد تتيح المجال أمام إنتفاضة من نوع جديد تستهدف هذه المرة القيادة الفلسطينية، أو أمام فتنة تتحول إلى حرب أهلية فلسطينية وهي حرب ستجعل أرض السُلطة الوطنية بدءاً من غزة وصولاً إلى بقية الأراضي والمدن المتفق عليها مسرحاً لصراع من نوع الصراع الذي حدث في الصومال والذي لا يبدو في الأفق أن هنالك أملاً في إيجاد حل له.

ويبقى أن ما إرتضاه الرئيس عرفات بالإضطرار أو بالإختيار، هو أمر قد يكون مفهوماً أن يقوم به رئيس له دولة، لكنه مستَغرَب من رئيس... في إنتظار دولة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1998

* * *

كي لا يصيب لحود ما أصاب خاتمي

أسبوعان ويتسلم رئيس لبنان الجديد العماد إميل جميل لحود المنصب رسمياً. وبعد 24 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998 لا تعود الألغاز تغطي سماء السياسة اللبنانية ولا تعود التساؤلات وعلامات الإستفهام سيدة الشارع السياسي كما هي الحال منذ أن تم إنتخاب إميل لحود رئيساً للجمهورية بإجماع نيابي نادر وترحيب شعبي غير مسبوق وإرتياح عربي ودولي لم يحظَ به رئيس منتخَب من قبْل مع أنه عسكري والذين أبدوا إرتياحهم هم في معظمهم من الحكام المدنيين.

والألغاز وعلامات الإستفهام هي حول نهج الرئيس الجديد وأسلوبه في التعاطي مع الشأن العام ومع الآخرين، وهل سيقوم بالتصحيح في الحد الأدنى والتغيير في الحد الأقصى، وهل أن رموز العهد الماضي بسنواته التسع العجاف منها وغير العجاف باقون في العهد الجديد، وهل أن أي تصحيح أو تغيير لن يشمل الثوابت وأصدقاء سوريا وعدا هؤلاء فليصحح الرئيس ما شاء له التصحيح ويغيّر ما شاء له التغيير.

وكثرة التساؤلات ناشئة عن أن العماد لحود لم يصبح رئيساً بعد معركة خاضها ببرنامج يتضمن الوعود والأفكار التي تبعث الطمأنينة في نفوس اللبنانيين إلى مستقبلهم. وحتى شعاره بأنه سيكون المثل والمثال وأنه سيعمل كثيراً ويعِدُ قليلاً جداً بعدما تمّ إنتخابه.. وهو شعار يصلح كعنوان عام لبرنامج مجهول التفاصيل.

كذلك، إن كثرة التساؤلات سببها أن الرئيس الجديد لا يفصح بشيء عن خُططه ولا عن نواياه، ووضع برسم التنفيذ الفوري تقليداً جديداً بألاَّ ينوب عنه زواره في التعبير عما يجول في خاطره، أما أن يسجلوا في تصريحات أفكارهم وإنطباعاتهم فهذا شيء آخر. كما أنه حسم منذ البداية مسألة أن تنسب الصحف اللبنانية إلى مصادره معلومات عما يدور في خاطره من أفكار وعن إجراءات وخطوات يمكن أن يتخذها. وبدا في هذا المنحى الذي لا تحبذه وسائل الإعلام عموماً وبالذات وسائل الإعلام في لبنان، متأثراً بالأسلوب الذي إعتمده الرئيس حافظ الأسد وهو أن يتولى متحدث رسمي الإدلاء بتصريح مكتوب ومختصر عن إستقبالات الرئيس وإجتماعاته. وقد أتقن المهمة الإعلامي المرموق جبران كورية الذي يختار كلمات التصريح بعناية وبحيث يصعب علينا نحن معشر الكُتاب والمعلقين والصحافيين قراءة ما بين السطور. والتأثر بالأسلوب مرشَّح لأن يصبح تقليداً، وهو في أي حال تقليد مستحب.

ويصعب على المرء أن يتصور طبيعة النظرة التي ستكون عليها نظرة الرئيس إميل لحود لعهد سَلَفه

الرئيس إلياس الهراوي. بمعنى هل أنه سيعتبره إرثاً ثقيل الوطأة فيقرر فرز الجيد من السيء من أمور إزدحم بها ذلك العهد أم أنه سيقرر العمل وفْق رؤية جديدة تماماً متحملاً بصدره وبالسمعة التي على أساسها كان الترحيب الشعبي العفوي بإختياره أي تعقيدات وإشكالات تنشأ عن ذلك. هذا مع الأخذ في الإعتبار أنه عندما لا يفعل الحاكم ذلك بدافع الإنتقام وتسديد الحسابات القديمة ولا بدافع التحضير لتأمين مصالح أفواج جديدة من المستفيدين، فإن الرأي العام سيسانده ويتحمل معه وطأة تلك التعقيدات والإشكالات. وبالنسبة إلى العماد لحود ليس لأحد في ذمته ديون. بمعنى أن هناك مَن سعى وتحمَّل جاهداً لإيصاله إلى الرئاسة وأنه في ضوء ذلك بات مطالَباً بعدما بات رئيساً برد الجمائل مناصب دبلوماسية أو وزارية أو خدمات أو تسهيل صفقات أو الدعم على أقوى ما يكون عليه الدعم عندما تجري الإنتخابات ويكون بين المرشحين مَن سبق أن أجهد نفسه من أجْل فوز إميل لحود بكرسي الرئاسة. وكما سبق وأشرنا فإن الرجل لم يأت من خلال معركة وإنما فاز بالتزكيتين في وقت واحد. التزكية الشعبية والتزكية العربية والدولية. وفي مثل هذه الحال فإن الذي يفوز وهو هنا العماد إميل لحود سيعتبر التزكيتين مسؤولية مضاعفة. وربما كان شخص آخر لا يتمتع بنفس شمائله يرى العكس. لكن كيف سيصل هذا الشخص وعلى جناح أي أعجوبة إلى منصب الرئاسة؟

وقد يقال إن العماد إميل لحود جاء في الظَّرف غير المواتي وإن شخصاً مثله بتفكيره وسلوكه وشغفه بتأدية الواجب على الوجه الأكمل وكذلك بحرصه على سِمعْته وعدم ضعفه أمام مغريات المال وتفضيله العيش الكريم على العيش المبهرج وعدم التساهل في مسألة إحترام الذات.. قد يقال إن شخصاً مثله وبهذه الصفات والكفاءة كان يحتاج إليه لبنان قبْل ثلاث سنوات عندما حدَث التمديد الإضطراري لسَلفه الرئيس الهراوي. كذلك قد يقال إن العماد إميل لحود من نوع القادة الذين يحققون أفضل النتائج إذا هم تولوا رئاسة دولة مدمَّرة في حين أن الإرتباك قد يسود إدارتهم ويلازمها إذا هم تولوا دولة مهمشة كما هي حال الدولة اللبنانية الآن. ودليل هؤلاء على ذلك مؤسسة الجيش اللبناني والأسلوب غير المتأثر إطلاقاً بالنوازع الطائفية الذي إعتمده قائدها العماد لحود قبْل تسع سنوات واستطاع بفضل هذا الأسلوب تحويلها من مؤسسة مدمَّرة إلى مؤسسة متماسكة إستقامت بنيتها وعقيدتها على أفضل ما تكون عليه الإستقامة.

ومع أن ما يمكن إنجازه في مؤسسة الجيش نتيجة قاعدة الإنضباط وإحترام الأدنى للأعلى وإعتبار الدين لله، والوطن الذي هو القضية للجميع، لا يمكن إنجازه تماماً في الوسط المدني السياسي حيث لا إنضباط ولا إحترام كما يجب وحيث الوطن عرضة للتلاعب وللبيع والشراء... ومع أن الحال على هذا النحو إلاَّ أن الرأي العام اللبناني يفترض وإلى درجة التوقع وإستناداً إلى شعار إميل لحود منذ اللحظة الأولى لإنتخابه بأنه سيكون "المَثل والمِثال"، أن الرئيس الجديد سيقوم إذا جاز التعبير بتطعيم مؤسسة القمة في الحُكْم بفضائل الإنضباط فتنحسر ظاهرة التسيب شيئاً فشيئاً في المجتمع اللبناني الذي بات على هوى حكامه، وسيبث في النفوس روح الوطنية التي أتت عليها عاصفة الهوس المادي وإندفاع الذين يتسلمون مقاليد الحُكْم وإدارة المؤسسات والمصالح إلى وضْع رقم الثروة التي سيجنيها كل منهم ثم يبدأ العمل في هذا الإتجاه. وليس هنالك صدمة يمكن أن تساوي الصدمة الناشئة عن أقاويل تفيد أن هناك وزراء دخلوا الحُكْم وهم مدينون وباتوا خلال تسع سنوات من أصحاب الملايين. كما أن هنالك بعض كبار الموظفين الذين جنوا ثروات كبيرة في ظل غطاء رسمي لهم.

ولعله من واقع الحال هذا جاءت مسألة قانون الإثراء غير المشروع والذي ما زال حبراً على ورق منذ صدوره قبْل أربعين سنة والذي لا يبدو أنه سيأخذ طريقه إلى التطبيق بسبب إستحالة ذلك، إلاَّ إذا كان الذين سيتعاملون مع هذا القانون هم أصحاب المصالح والنفوذ الذين يتبادلون إقامة الدعاوى على بعضهم ضِمْن عملية صراع على النفوذ السياسي والشأن المالي، أو أن هؤلاء يمكن أن يضعوا مواطنين عاديين كواجهة لهم في سبيل إقامة دعوى ويغطون كل النفقات المترتبة على ذلك وهو أمر لا نتصور إمكانية حدوثه لأن مَن ستقام عليه الدعوى يمكن أن يرُد على المدعي بالقول ومن أين لك المال لتدفع كفالة بقيمة مائة مليون ليرة. وتجدر الإشارة إلى أن قانون الإثراء غير المشروع ينص على أن مَن سيقيم الدعوى على آخر بتهمة الإثراء غير المشروع عليه إرفاق دعواه بكفالة مالية بالمبلغ الذي ذكرناه فضلاً عن أن هذه الدعوى يجب أن تكون مستندة إلى أدلة وحقائق وإلاَّ فإنه يخسر حتى الكفالة وقد ينقلب السحر على

الساحر، بمعنى أن من يدعي يصبح هو الخاسر وبالتالي النادم على ما فعله. ولو أن الرأي العام اللبناني الذي في أكثريته الساحقة في وضْع المدعي إذا كان لا بد من الإدعاء إستوعب تماماً مضمون القانون الذي لن يدخل حيز التنفيذ إلاَّ بعد مصادقة مجلس النواب عليه وهذا أمر غير مؤكد حدوثه بعد... لو أن الرأي العام اللبناني إستوعب تماماً المضمون وتولى قانونيون محايدون توضيح مواده مادة مادة لكان إبتهاجه بالمشروع إنحسر كثيراً ولكان أسقط من إفتراضاته بأنه سيأتي يوم ليس بالبعيد يكون فيه هنالك عشرات المسؤولين كباراً وصغاراً في قفص الإتهام يحاكمهم قضاة بتهمة الإثراء غير المشروع، وبطبيعة الحال سيدينون بعضهم وستصادَر الأموال المنقولة وغير المنقولة لهؤلاء وتوضع في خزانة الدولة وتستقيم تبعاً لذلك الأحوال الإقتصادية والمعيشية المتدهورة في البلد.

وقانون الإثراء غير المشروع الذي لقي ترحيباً شعبياً لا نظير له جاء متزامناً مع الترحيب الشعبي المتواصل بإختيار الرئيس إميل لحود رئيساً للجمهورية. وبدا الترحيب وكما لو أنه تحية من عهد الرئيس إلياس الهراوي وحكومته وإدارته للعهد الجديد وإن كان في بعض جوانبه لا يبدو كذلك.

كيف؟

إن الحماسة التي أبداها أقطاب العهد هدفها الرد على ما قيل ويتواصل قوله حول الفساد وإكتناز البعض من أموال الدولة. وقد يكون هؤلاء أرادوا من خلال المشروع القول إنهم أتقياء أنقياء وإنهم لو لم يكونوا كذلك لما كانوا سارعوا إلى وضْع القانون قبْل أن تنقضي الأيام الأخيرة من العهد. وهذه المسارعة في أي حال تدعو إلى الدهشة، إذ ليس مألوفاً أن يبدي عهد إستعداده لمحاكمته إلاَّ إذا كان واثقاً من أن هذه المحاكمة لن تتم وسيقتصر الأمر على كلام يقال في الدواوين والمجالس من باب التسلية لا أكثر. كذلك يدعو إلى الدهشة أن مثْل هكذا قانون يشكِّل ورقة في يديْ حكومة جديدة تستعملها ضد حكومة رحلت، وعلى هذا الأساس فليس من مصلحة الحكومة أن تستعجل هذا القانون، إلاَّ إذا نحن أخذْنا في الإعتبار أن الحكومة الحالية راحلة بأعضائها وتركيبتها بإستثناء رئيسها الباقي والذي ربما قد لا يحتاج إلى فترة تصريف الأعمال لأن التشكيلة الجديدة ستكون جاهزة لمجرد أن تغيب شمس عهد الطائف الأول المليء بالتناقضات والذي بدا وكما لو أنه مثل العهود التي تأتي نتيجة إنقلابات عسكرية بمعنى أن الذين تسلموا الحُكْم كانوا في معظمهم بعض رموز الحرب الأهلية طوال ست عشرة سنة. ومن باب الإفتراض يمكن القول إن إصرار رفيق الحريري رئيس الحكومة الحالي – العائد أو رئيس حكومة العهديْن يعود إلى أنه يريد في عهد الطائف الثاني وبالقانون المشار إليه الإنتقام مِن الذين سعوا إلى النيل منه إنطلاقاً من أنه أحد قلائل لا يمكن مساءلتهم من أين لهم هذا لأنه في الأصل أعطى وأجزل العطاء بصرف النظر عن الدوافع والأسباب الموجبة وعن أصول التوظيف المالي في خدمة الزعامة السياسية.

ولكن كل ما يقال في هذا الشأن يبقى مجرد إفتراضات وإجتهادات في إنتظار أن يبدأ العهد الجديد ويخرج رئيس العهد عن صمته الذي وضعه الجميع في حيرة ما بعدها حيرة. ومع الحيرة خشية لدى الذين تفاءلوا خيراً بمجيئه وعبّروا عن فرحتهم به بعفوية، من أن تصبح حال الرئيس إميل لحود مثل حال الرئيس سيد محمد خاتمي في إيران. وهنالك أوجُه شبه كثيرة بين الإثنين. كلاهما قوبل اختياره بتأييد شعبي عارم وترحيب عربي وإسلامي ودولي ملحوظ. ولو أُجري الآن إستفتاء شعبي على رئاسة إميل لحود على أساس أنه جاء بالإنتخاب البرلماني لكان نال من أصوات الناس أكثر مما ناله خاتمي الذي جرى إنتخابه شعبياً. كذلك، فإن العيش البسيط وإصرار الرئيس خاتمي بعد فوزه المبين بالرئاسة على الإلتزام بطريقة عيشه وإلى حد الاستعداد لإستعمال الأوتوبيس في تنقلاته هو بِمثْل العيش البسيط الذي يريد الرئيس لحود الإبقاء عليه بعد فوزه المبين هو الآخر، وبالإضافة إلى ذلك هنالك الشعور النفسي والمطَمْئن لدى كل مواطن إيراني بأن الرئيس خاتمي سيصحح إذا إستعصى التغيير، وهو شعور مشابه لشعور المواطن اللبناني وما يرتجيه من العهد الجديد الذي سيبدأ يوم الرابع والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل.

ولكن ما أصاب الرئيس خاتمي هو سبب خشية الأكثرية اللبنانية. فقد إنقضت سنة وبضعة أشهر من العهد الخاتمي والرئيس مكبَّل اليديْن بصيغة الترويكا الإيرانية التي تشبه في بعض جوانبها الترويكا اللبنانية، ومكبَّل أيضاً بالطقوس وبالجيوب التي تعيق تَحرُّكه ورغبته في التصحيح أو التغيير داخلياً وخارجياً، سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً. وفي كل يوم يمر ينحسر

وهج الرئيس خاتمي ويجاهد الرئيس في سبيل أن يحقق برنامجه ولا يستسلم أمام التيار الذي ينظر إليه على أنه طائر غادر السرب ويجب أن يعود إليه بالحسنى وإلاَّ...

هل يصيب الرئيس إميل لحود في لبنان ما أصاب الرئيس محمد خاتمي في إيران؟

وهل تَهزم دهاليز وتشابكات وتحالفات أمبراطورية عهد الطائف الأول أحلام أول رئيس للجمهورية في لبنان جاء إنتخابه في غاية الهدوء وأحدث مجيئه صدمة مريحة في النفوس، أو فلنقل إنها من نوع الصدمة الكهربائية التي يلجأ إليها الجرَّاحون عندما يتوقف القلب عن الخفقان؟

تساؤلات كثيرة مهمومة ستجد الإجابة جواباً بعد جواب بدءاً من 24 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.

ومنذ اليوم الثاني لإنتخاب العماد لحود هنالك ما يشبه العد العكسي لحلول ذلك اليوم. ومع العد تتردد بعض النكات شبه البريئة نسبياً مثل أن كل شيء في عهد الهراوي "كان ماشي" وأن كل شيء في عهد الرئيس لحود "سيكون ظابط". وكلمة "ظابط" من الكلمات الدارجة وذات معنيين أحدهما ضابط في الجيش والثاني إشارة إلى أن كل شيء مستقيم وعلى الأصول. كذلك تتعاظم مع العد الخشية بألاَّ يكون العماد الرئيس إميل لحود... حالة خاتمية أُخرى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1998

* * *

حقائق حول حرب لم تقع والحمدلله

لم تقع الحرب الأميركية – البريطانية على العراق وأفرز عدم وقوعها خمس حقائق يمكن للمرء ان يسجلها على النحو الآتي:

أولاً- إن الذي حال دون أن يعطي الرئيس كلينتون الضوء الأخضر لبدء هذه الحرب هو قراءته المتأنية للموقفيْن العربي والدولي.

دولياً لم يجد سوى بريطانيا مستعدة لمشاركته هذه الحرب وهو خروج من جانبها على روحية مجموعة الإشتراكية الدولية التي ينتسب بشكل ما "حزب العمال" الحاكم إليها. وقد يجوز الإفتراض أن هذا الإندفاع من جانب رئيس الحكومة البريطانية طونى بلير في إتجاه الحرب ينطلق من تخطيط مبطَّن خلاصته أنه إذا كان لا بد من تعزيز شأن بريطانيا في المنطقة العربية وبحيث تعود صاحبه كلمة أساسية هناك وتكسب الأسواق التجارية المزدهرة نتيجة العوائد المجزية من النفط فإن ذلك لن يتم إلاَّ على حساب إنحسار قبول دول المنطقة للسياسة التي تعتمدها الولايات المتحدة. وعندما يحدُث الإنحسار فإن حاجة العرب إلى صديق دولي مقتدر تفرض فتْح الأبواب أمام دولتيْن هما بريطانيا وفرنسا.

وفي حين إعتبرت بريطانيا أن توريط الإدارة الاميركية يكون بالإندفاع فى إتجاه شن الحرب على العراق، فإن فرنسا إعتمدت الموقف غير المتشنج وضغطت الكثير على العراق لكي يعود عن قرار وقْف التعاون مع لجنة التفتيش معتبرة ضمناً أن في موقفها هذا ما يشكِّل توريطاً حقيقياً للإدارة الأميركية.

أما على الصعيد العربي فإن الذي حدَث هو أن موقفاً عربياً تم إتخاذه بما يشبه الإجماع.

وخلاصة هذا الموقف معارضة ما تنوي إدارة الرئيس كلينتون أن تفعله. وحتى القول من جانب دول مجلس التعاون الخلجي بأن النظام فى العراق يتحمل مسؤولية عدم تنفيذ قرارات الشرعية الدولية، كان نوعاً من الطلب إلى هذا النظام بأن لا يتسبب في حرب على العراق لا تريدها دول الخليج. ويتأكد لنا ذلك عند قراءة كلمة راشد عبدالله النعيمى، وزير خارجية الإمارات، الذي إستهل الكلمة يوم السبت 14 نوفمبر/ تشرين الثاني 1998 فى الجلسة الإفتتاحة لإجتماع وزراء خارجية دول المجلس فى أبو ظبي بالقول: «إننا نرى أن الازمة القائمة حالياً بين العراق واللجنة الخاصة المعنية بإزالة أسلحة الدمار الشامل ليست عصية على الحل بالوسائل الديبلوماسية والسلمية، ومع إحترام قرارات مجلس الأمن ذات الصلة فإننا ندعو إلى التحلي بالصبر والتأني فى معالجة هذه الأزمة، كما نأمل بأن يتم التوصل الى خطوة إيجابية تسمح برفع الحظر المفروض على العراق لتخفيف المعاناة الإنسانية عن الشعب العراقي الشقيق...». كذلك يمكن إعتبار ما ورد قبل ذلك فى البيان الختامي الصادر عن إجتماع وزراء خارجية دول «إعلان دمشق» في الدوحة يوم الخميس 12 نوفمبر/ تشرين الثاني 1998 نوعاً من التنبيه الأخوي، وإن جاءت مفرداته كثيرة الخشونة والقساوة. وفى ذلك البيان دعا الوزراء العراق «إلى العدول عن قراره وقْف التعاون مع

اللجنة الخاصة للتفتيش عن الأسلحة»، وحمَّلوا النظام في العراق «مسؤولية أي تداعيات تنجم عن عدم تراجعه عن هذا القرار الأمر الذي من شأنه أن يُعرِّض الأبرياء من الشعب العراقي الشقيق للمزيد من الويلات والمآسي...». ومن المؤكد أن هذا الكلام تقوله مصر وسوريا بمثل ما تقوله دول مجلس التعاون الخليجي، ليس تفويضاً للرئيس كلينتون من أجْل أن يضرب العراق وإنما هو رسالة إلى النظام فى العراق خلاصتها أن لا أحد يمكنه الوقوف معك، أو رد العدوان عنك، إذا كنت لا تنزع بنفسك الصاعق من القنبلة التي هي على أهبة الإنفجار. ومن الجائز الافتراض أن الحُكْم العراقي عندما لاحظ ان لا أحد معه وأنه حتى مصر وسوريا تحمِّلانه المسؤولية فإنه بدأ يرجِّح كفة المرونة ويمهد للتراجع عن وقْف التعامل مع لجنة التفتيش الدولية. وما هو جدير بالإهتمام أنه على هامش بيان وزراء خارجية دول «إعلان دمشق»، الذي حاولت الإدارة الأميركية توظيفه لمصلحة خطتها لضرب العراق، جرت إتصالات غير معلن عنها، وكانت هناك تصريحات لمَن هم في مستوى القمة، أو من هم حولهم أو على مقربة من دواوينهم، ركزت على مسألة الحل الديبلوماسي للأزمة وعلى رفْض تقديم أي مساندة وتسهيلات لعملية الضرب إذا كان سيتم الأخذ بها. وبذلك فإن إدارة الرئيس كلينتون إحتارت في الأمر وبدأت لا تُسقط من حسابها إمكانية اعطاء فرصة للحل الديبلوماسي. ولمجرد أن هبت من بغداد نسمة مرونة فإن حدة الإعصار الأميركي هدأت.

ثانياً- بالاضافة إلى التنبيه العربي، بشقيْه الخشن والقليل الخشونة، كان هنالك تنبيه الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان الذي دفع النظام في العراق في إتجاه إبداء المرونة فالتراجع، خصوصاً أن موقف روسيا ليس بعيداً عن الموقف العربي وأن أهمية ما فعلَه الرئيس يلتسين هو أنه أوفد مبعوثاً إلى بغداد وهذه خطوة قد تفيد على الصعيد المعنوي لا أكثر.

ثالثاً- الملاحَظ أنه حتى رد الفعل الشعبي العربي والإسلامي بقي ضِمْن دائرة عدم تشجيع العراق على التمسك بموقفه وفي الوقت نفسه عدم إستفزاز الرئيس كلينتون. وبإستثناء حثّ شيخ الأزهر، الدكتور محمد سيد طنطاوي، بعد صلاة يوم الجمعة الماضي على «مناصرة الشعب العراقي الذي يتعرض لمحنة» لم تسجِّل المراجع الدينية الإسلامية عرباً وغير عرب مواقف يمكن أن تشجع الحُكْم العراقي على الثبات في موقفه. ومن الطبيعى الإفتراض أن كلام شيخ الأزهر أفاد لأنه صادر عنه بالذات و"الذي تحمَّل قبْل أشهر الكثير"بسبب إستقباله في الأزهر الشريف كبير حاخامي إسرائيل، أي ما معناه إن الإدارة الأميركية لا تنظر إليه بأنه صاحب موقف ضدها.

رابعاً- ثمة دوافع أُخرى حملت الإدارة الأميركية على ترجيح كفة الأخذ بالحل الديبلوماسي، والخشية من أن تؤدي الضربة العسكرية للعراق إلى تداعى الإتفاق الفلسطيني- الإسرائيلي الذي تراهن هذه الإدارة على إنجاحه ويعتبره الرئيس كلينتون أحد أهم إنجازاته وخشبة الخلاص التي أبحر عليها إلى شاطئ الأمان في البحر العاصف الناشيء عن فضائحه الجنسية داخل أسوار البيت الأبيض.

خامساً- إن الوقفة العربية من جهة، وتراجُع العراق تجاوباً مع هذه الوقفة، ثم التحرك المتأني من جانب الأمين العام للأمم المتحدة، تشكِّل في مجملها تبلور إقتناع هذه الأطراف بأن الإدارة الأميركية لا تفعل كل هذا الذي تفعله حرصاً منها على هيبة الأمم المتحدة وإنما على مصالح الولايات المتحدة فقط. ومن أجْل ذلك فإن تراجُع العراق وإلتزامه بتنفيذ القرارات الدولية تكشف حقيقة المخططات الأميركية وأبرزها إفتعال الأزمات كي لا تغادر قواتها وأساطيلها المنطقة. كما إن الوقفة العربية وموقف كوفي أنان ثم تراجُع العراق، تشكِّل نجاح أول عملية ترويضن للنظام العالمي الجديد الذي تقوده وحيدة الولايات المتحدة، بحيث يعتاد هذا النظام على التعامل أحياناً بغير لغة المخالب.

ويبقى أن تراجُع الرئيس صدَّام قد يفيد العراق، وقد يفيده شخصياً اذا هو نظر إلى الأمر من زاوية أن صدَّام حسين المتراجع هو المرحَّب به بإعتبار أن تراجعه يشكِّل بداية إمكانية الإرتياح والإطمئنان إليه. وهذا ممكن إذا هو إعتبر أن تراجعه هو تقدير منه للشعور العربي الرسمي والشعبي، المعلَن وغير المعلَن، إزاء العراق برفض مبدأ الحل العسكري الذي أرادتْه الولايات المتحدة، وإذا إعتبر أيضاً أنه في ظل ظروف وتشابكات بالغة التعقيد، يجب تفهُّم الأشقاء والأصدقاء وليس إحراجهم، على نحو ما فعل الرئيس حافظ الأسد الذي مارس المرونة إلى حد كبير مع تركيا من أجْل ألاّ يحرج الأشقاء والأصدقاء الذين آزروه معنوياً فى الأزمة الاخيرة مع أنقرة وعلى أن يعمل في الوقت المناسب على تطوير هذه المؤازرة اللفظية وتوظيفها. ويجوز التساؤل: لو أن الحالة العراقية كانت تعيشها دولة عربية

أُخرى، فهل أن الحُكْم العراقي كان سيتخذ موقفاً، في ظل الظروف والتعقيدات والتشابكات الدولية، غير الموقف الذي إتخذتْه الدول العربية نحوه؟

من هنا ضرورة أن يعيد الحُكم العراقي النظر. فكما أن التراجع عن الخطأ فضيلة فإن التراجع عن وقْف التعامل مع لجنتيْن دوليتيْن أقرهما مجلس الأمن كان خطوة في الإتجاه الواقعي والصحيح. ويكفي أن هذه الخطوة منعت، والحمدلله، حدوث حرب كانت ستُلحق المزيد من التدمير بالعراق، من دون أن يؤدي ذلك إلى رفْع الحصار عنه كما يتمنى... وكما تتمنى له الأمة من المحيط إلى الخليج.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 18 نوفمبر (ت2) 1998

* * *

الذئْب الإسرائيلي المغفور من هولندا... وغيرها

لو كانت الحادثة التي وقعت قبْل أربع سنوات فوق ضاحية "بالمير" في أمستردام، وهي ضاحية مكتظة بالسكان، سببها طائرة عربية لكانت ما زالت تلك الحادثة موضع تعليقات وسائل الإعلام ولكانت الدولة التي تنتمي إليها الطائرة ستتعرض لشتى أنواع التُهم والعقوبات. ومن يدري ربما كانت ستنشأ لجان متابعة وتظاهرات وشكاوى لدى مجلس الأمن. وأغلب الظن أن المجلس كان سيتجاوب، شأنه في ذلك مثْل شأنه عندما تكون هنالك مسألة تنال من سمعة العرب.

وإلى ذلك كنا سنقرأ المقالات في الصحف الأميركية والأوروبية التي تحرض القراء على عدم تناسي ما جرى وتنفث سموم الكراهية ضد العرب. وكانت شركات الإنتاج السينمائي والتلفزيوني ستنتج أفلاماً حول الحادثة. وكانت هذه الأفلام ستنال جوائز وبذلك تتعمق الكراهية للعرب في وجدان الرأي العام الأجنبي.

والحادثة التي نشير إليها وقعت يوم 4 أكتوبر/ تشرين الأول 1994 عندما تحطمت طائرة من نوع "بوينغ" تابعة لشركة "العال" الإسرائيلية فوق الضاحية السكنية. وبإستثناء الإشارة إلى أنه نتج عن الحادث مقتل أكثر من خمسين شخصاً وإصابة المئات بجروح، فإن جواً من الكتمان أحاط بالتطورات على رغم أن الإهتمام الأولي أوحى بأن ملكة البلاد والحكومة وبقية مراكز صناعة القرار الهولندي العسكرية والمالية والإقتصادية تعتبر الحادثة كارثة وطنية.

ولاحظ الكثيرون في حينه ولاحظْنا معهم كيف أنه لم يتم تسليط الأضواء على عمليات الإنقاذ وكيف تكتمت الصحافة الهولندية والصحافة الإسرائيلية على التحقيق في الحادثة.

وكان يمكن لهذه الحادثة أن تبقى طي الكتمان ويتم إعتبارها واحدة من عشرات حوادث الطيران العادية لولا أن صحيفة "إن. آر. سي" الهولندية نشرت يوم الأربعاء 30 سبتمبر/ أيلول 1998 وثائق مفادها أن طائرة "العال" التي تحطمت فوق مجمع سكني في إحدى ضواحي أمستردام كانت محملة ببراميل في داخلها 19 ليتراً من مادة "ديميتيل ميتيلفو سفونات" مرسلة من شركة "سولكا ترونيك كيميكالز" في "موريسفيل" في الولايات المتحدة إلى معهد الأبحاث البيولوجية في "نيس زيونا" قرب تل أبيب، وهو أحد أهم المعاهد المتخصصة في إعداد أبحاث الغاز السام والذي يلقى إهتماماً متميزاً من قِبَل الحكومة الإسرائيلية. وإستناداً إلى الوثائق التي نشرتْها الصحيفة الهولندية فإن الشحنة التي كانت في الطائرة التي تحطمت تكفي لصنع 270 كيلوغراماً من مادة غاز "السارين" السام، وهي كمية بمقياس المتخصصين في الغازات السامة عالية جداً. كذلك فإنه إستناداً إلى الوثائق التي نشرتْها الصحيفة كانت طائرة "العال" تحمل مواد أُخرى تُستخدم في تصنيع غاز "السارين".

والذي يدعو إلى الدهشة هو أن وسائل الإعلام العالمية لم تتوقف عند الذي نشرتْه الصحيفة الهولندية، مع أن الشركة الأميركية إعترفت في أعقاب النشر بصحة ما نشرتْه الصحيفة، وأكدت أنها هي التي شحنت المواد إلى إسرائيل على طائرة "العال" التي تحطمت. كما أن تلك الوسائل من صحف وإذاعات ومحطات تلفزيونية تقبلت برحابة صدر توضيح إسرائيل بأن الشحنة كانت تضم مجرد مواد سريعة الإشتعال لإستخدامها في أبحاث تجريها المختبرات.

كذلك إن الذي يدعو إلى الدهشة هو تكتم الدولة الهولندية على الحادثة مع أنها كارثة بيئية على المناخ وعلى الأرض التي تتباهى هولندا بأنها تنتج منها أفضل أنواع الورود وترعى في حقولها الأبقار الهولندية المتميزة حليباً وجمالاً. كما أنها كارثة بالنسبة إلى

مصـــانع الزبدة والأجبان وإلى ألوف النســـاء والرجال الذين سينجبون أطفالاً، لأن المواليد سيأتون مشوهين، وكارثة أيضـاً على الأطفال الصـغار الذين يستنشقون منذ أربع سـنوات مواد سـامة ناشـئة عن براميل المواد الكيماوية التي كانت على متن الطائرة. كما أن الذي يدعو إلى الدهشـــة أن الحادثة وقعت في الدولة التي تتخذ محكمة العدل الدولية من عاصمتها "لاهاي" مقراً لها. وحادثة من نوع حادثة تحطُّم الطائرة الإســـرائيلية الملغومة بمواد لتصـنيع الغازات السـامة ليسـت مجرد حادثة فنية، وإنما هي أكبر من ذلك بكثير، وتعني كل دول العالم في شكل أو آخر.

وتبقى بعض التساؤلات والإستنتاجات والإفتراضات التي لا بد منها، والتي نوردها على النحو الآتي:

هل أن التكتم على الحادثة من جانب هولندا سـببه أن الكـارثـة كـانـت بخطورة كـارثـة تشـــيرنوبيل، وأن الحديث الدائم عن الكارثة وعدم إحاطتها بالسـرية كان سيتسبب في بلبلة داخلية وفي مواجهة من جانب الرأي العام الهولندي لإسرائيل؟

والجواب عن هذا التساؤل هو أنه إذا كانت الحكومة الهولندية فعلت ذلك فإنها تتحمل مسؤولية التسـتر على كارثة قومية وإعتبرت مصلحة إسرائيل أهم من مصلحة هولندا. كما أنها تتســـاوى بذلك مع ما كان يُعرف بالإتحاد السوفياتي في أسلوب حجْب الحقيقة عن الرأي العام. وتتسـاوى أيضـاً مع دول ذات أنظمة مسـتبدة في العالم الثالث عندما تواجهها قضـــايا من هذا النوع. وإذاً فإن هولندا ذات المكان المرموق في صـدارة دول العالم الثاني تشبه عندما تكون إسرائيل طرفاً في فضيحة، أي دولة من دول العالم الثالث مكانها في مؤخرة الصفوف.

وهل أن إسـرائيل كانت قبْل أربع سـنوات تُعد نفسـها لشـن حرب كيماوية ضـد فلسـطينيي الداخل وكل من يتصـــدى لها من العرب، تســـتخدم فيها مختلف أنواع الغازات السامة وتحسم الأمر لمصلحتها بهذا الأسلوب الذي هو مثل الأســـلوب الذي إعتمده أدولف هتلر مع أجدادهم، أي بما معناه إن عقدة القتل بالغاز تتفاعل في نفوس الأحفاد ويريدون إعتمادها ضد كل من لا يقر بعدوانهم مع إستبدال كلمة "العدوان" بـ "حق الوجود كأمة على كل فلسطين"؟

ومثل هذا الإفتراض وارد، ووارد أيضـاً أن إسـرائيل كـانـت تخطط لتحقيق الطمع التـاريخي بـأن تكون دولـة إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات.

وهـل أن العقـدة الأُخرى، وهي عقـدة الصـــواريخ العراقية وما قيل من أنها كانت تحمل مواد كيماوية (أو كانت ســتحمل) والتي تســاقطت فوق مدن إســرائيلية خلال حرب الخليج عـام 1991، هي وراء هـذا التحول من جانب إسرائيل نحو الحرب الكيماوية؟ وهذا التساؤل وارد لأن الحرب العادية لن تحسم الأمر، وبالذات بعدما تبين أن تعاون مصـر وسـوريا في حرب أكتوبر 1973 أوجـد معـادلـة جـديـدة وهي أن التفوق في المواجهـة بالأسلحة العادية ليس حكراً على إسرائيل.

وهل أن المخابرات الأميركية التي إكتشـــفت أمر الشـــحنة الكيماوية في طائرة "العال" إرتأت لإجهاض خطط المواجهة الكيماوية المحتملة تفجير الطائرة قبْل وصـولها إلى إسـرائيل وإسـتخدام الشـحنة. وأن سـقوط الطائرة فوق المجمع السـكني في أمسـتردام كان خطأ لأن هذا السـقوط كان سـيحدُث فوق البحر وعلى نحو السقوط المحيِّر قبْل أشهر للطائرة السويسرية فوق البحر في المياه الكندية؟

وهذا أيضـــاً إحتمال وارد لأن الحرب الكيماوية هي بمثابة خروج إســـرائيل على نوع المواجهات المســـموح القيام بها في منطقة الشرق الأوسط، وأن السبيل الوحيد لذلك لم يكن في عدم تمكين "العال" من نقْل الشحنة من الولايات المتحدة إلى إسرائيل وإنما تزْكها تشحنها ثم يتم إسـقاط الطائرة بتفجير أو بتعطيل فني كثير الدقة يؤدي إلى الســـقوط مع ضـــياع معالم الســـبب والتي يعجز الصندوق الأسود عن توضيحها.

وهل أن الكشـف عن السـر في الصـحيفة الهولندية هو مجرد صـحوة ضـمير من جانب مطبوعة شـعرت أنها بتكتمها، والتكتم الهولندي عموماً، تقترف ذنباً في حق الرأي العام الهولندي فقررت تعويضـــاً عن ذلك الكشف عن السر وليحدُث ما يحدُث؟

وهذا الإفتراض جائز بنسـبة بسـيطة. وجائز بنسـبة مماثلة أيضـــاً أن جهاز مخابرات ما ســرَّب النبأ عمداً كجزء من صراع مخابراتي ينقضي عادة زمن طويل قبْل معرفة طبيعته وخفاياه ودوافعه.

وفي أي حال إن الشحنة الكيماوية لتصـنيع الغازات الســـامة التي كانت على الطائرة تعطي إنطباعاً بما تجهزه إسـرائيل ضـدنا كعرب ويوحي هذا الإنطباع بأنها تريد أن تقضي على الجنس العربي، أو في الحد الأدنى على سـلاح الكثافة السـكانية العربية وهو السـلاح الذي تهابه إسرائيل في إستمرار ولم يتم حتى الآن إستعماله. وليس مثل الأســـلحة الكيماوية ما يحقق هذا المخطط الشرير.

وعلى رغم هذا الصـــمت الإعلامي الدولي المريب على الفضـــيحة فإن ما نشـــرتْه الصـــحيفة الهولندية بشـــجاعة تُشـــكر عليها أفادنا كعرب أياً كانت دوافع النشر، لأنه في الوقت الذي كانت وسائل إعلامية دولية واقعة تحت التأثير الصـهيوني تُكثر من الأخذ والرد في شأن السلاح الكيماوي الذي تقول إنه يجري العمل لدى بعض الدول العربية من أجْل تطويره تمهيداً لإسـتعماله ضد إسرائيل "المسكينة"، سقطت طائرة "العال" المسمَّمة وفوق مدينة أوروبية عريقة. وجاء سقوطها بمثابة تحذير ســماوي لكل الدول الأوروبية، خلاصـــته أنه من الضروري وضْع حد لما تنوي إسرائيل أن تفعله. كما أن الســـقوط من شـــأنه أن ينبه الأوروبيين إلى أن طائرة "العال" التي ســـقطت فوق مجمَّع ســـكني في إحدى ضـواحي مدينة أمسـتردام يمكن أن تسـقط فوق حي من لنـدن أو بـاريس أو رومـا أو فرانكفورت أو زيوريخ أو جنيف أو بروكســـل، وكلها محطات لطائرات "العال". وقـد يموت جرَّاء هـذا الســـقوط بضـــعـة ألوف من الأوروبيين المهتمة حكوماتهم بإسرائيل المعتدية بدل أن تكون هذه الحكومات مهمومة من جرَّاء ما تفعله. والحل هو في إسـتدارة حاسـمة وضـاغطة تضـع إسرائيل في حجمها الحقيقي وضِـــمْن البقعة التي حددتْها القرارات الدولية لها والتي لا تشمل القدس ولا كل الأراضـي التي إحتلتْها في عدوان 1967.

وعدا ذلك فإن كل إتفاق باطل، بما في ذلك إتفاق "واي بلانتيشـــن" ولو كره الذين وضـــعوه... أو بالذات الرئيس أبو عمار.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 20 نوفمبر (ت2) 1998

* * *

وجهة نظر في الكازينو الفلسطيني

يوحي مشـــروع كازينو القمار في أريحا الذي جرى إفتتاحه مساء يوم الثلاثاء 15 سبتمبر (أيلول) 1998 بأن الدولة الفلســـطينية التي وعد بها الأخ أبو عمار الشعب الفلسطيني، أو شعب الله المحتار (بالحاء لأن الخاء تخص ما هو شـائع في شـأن الشـعب اليهودي) ويؤكد أن عاصـــمتها القدس قد لا تقوم لها قائمة. ونقول ذلك على أســـاس أن من يبشـــر ويعِد بدولة فلسطينية عاصمتها القدس، التي فيها المسجد الأقصى الذي منه أســـرى الله بنبيه الكريم ليلاً إلى المســـجد الحرام، لا يُعقل أن يجيز إنشاء كازينو للقمار في بقعة هي جزء من الدولة الفلســطينية وشــقيقة للعاصــمة الموعودة لهذه الدولة.. أي القدس.

ويحتـار المرء في مســـألـة هـذا "الإنجـاز" غير المستحَب للسُلطة الوطنية الفلسطينية. فالرئيس عرفات شـخص مناضـل، ولا يشـير تاريخه إلى أنه شـغوف بالحياة الإجتماعية، ولا بمباهج الحياة عموماً، كذلك ليس في تاريخه أنه خرج على أصـــول وفرائض الدين الإسـلامي، وهو في ديوان الرئاسـة وفي الأمكنة التي يسـتقبل فيها ضـيوفه وضـع صـورة مكبرة للمسـجد الأقصى عوض أن تكون خارطة فلسطين هي الصورة الأساسية، وذلك على أساس أنه إذا فاز بالقدس وبات في إستطاعته أن يصلي فيها ويشاركه الصلاة الحكام الذين يزورونه، فإنه يكون فاز بالدولة، وعلى خير ما يكون عليه الفوز. وبتعليقه صـورة المسـجد الأقصـى التي يراها العالم لدى إسـتقبال الرئيس الفلسـطيني زائراً من زواره القليلين حتى الآن أو عند ترؤســـه إجتماعاً للحكومة التي تكاثر عدد المســـتقيلين منها، يريد أبو عمار أن يقول ما معناه إنه باق في موقعه إلى حين إســتعادة هذا المســجد وأنه عندما تحدُث الإســتعادة ويصـــبح رئيس دولة فلســطين هو حامي المســـجد الأقصى وكنيسة القيامة، فإن ذلك سيكون بمثابة مجد لا يعادله مجد. وعندما يقام كازينو القمار خلسة، على النحو الـذي قـام فيـه، فهـذا معنـاه أن الرئيس عرفـات متمســك لفظاً بمســألة أن الدولة ســتقوم وســتكون عاصـمتها القدس لكنه ضـمناً كمَن هو فاقد الأمل في أن يتحقق الحلم التاريخي.

وقد يقال إن الظروف المالية الصعبة التي تعيشها السُـلطة الوطنية وشـح المسـاعدات العربية والدولية، التي كانت القيادة الفلسـطينية تُعول الكثير عليها، هي السـبب في أن الرئيس عرفات تجاوب مع فهلوة بعض المســتشــارين الإقتصــاديين المحيطين الذين أغرقوه بعشـــرات الأفكار الإســـتثمارية، ومنها كازينو القمار الذي وفّر فرصـــة عمل لعدد من الفلسـطينيين بشـكل مباشـــر أو غير مباشـــر. ومثْل هذا التبرير قد يكون مقبولاً ولو من باب المســايرة لو أن الدولة التي يعدُنا، ويعدُ بها الرئيس عرفات شـــعب فلســـطين، هي على ســـبيل المثال جيبوتي أو الصـــومال وهما دولتان لا تملكان النعمة النادرة التي تملكها الدولة الفلســـطينية المرجوة. لكن التبرير لا يعود مقبولاً عنـدمـا نـدرك أن

فلسطين القرن الواحد والعشرين ستكون دولة السياحة الروحية الفريدة من نوعها في العالم، حيث إن ملايين الزوار والحجاج مسلمين ومسيحيين سيفدون إليها للزيارة والتعبد بعيداً عن مباهج الحياة في دول بعضهم، ومنها الملاهي والكازينوهات والتسيب الأخلاقي الذي بلغ ذروته في أن وزراء في حكومة الدولة العظمى (بريطانيا)، التي أهدت فلسطين لليهود يقيمون عليها دولتهم العدوانية، يمارسون الشذوذ الجنسي على أنواعه، وفي أن رئيس الدولة الأعظم في العالم (الولايات المتحدة) يمارس الرذيلة داخل مقر الرئاسة، وتبيعنا هذه الدولة طقوس التعامل مع الفضيحة وكيف أن الرئيس كلينتون يخضع للتحقيق وأنه يعتذر من مونيكا لوينسكي بقدْر إعتذاره من زوجته وإبنته وشعب الولايات المتحدة، على أنها أرفع أنواع الديمقراطية!

ومن المؤكد أن هذا الإقبال العالمي نحو السياحة الروحية سيعود بالخير الوفير على دولة فلسطين الموعودة، ولن يكون هنالك وافد واحد، مسلماً كان أو مسيحياً، يبحث خلال زيارته عن كازينو يجرب فيه حظه. فالزيارة سواء للمسجد الأقصى بالنسبة إلى المسلم، أو كنيسة القيامة بالنسبة إلى المسيحي، هي لطلب المغفرة وللدعاء ومن أجْل أن يستجيب الله ويعفو عن الذنوب وليست – ولن تكون – غير ذلك على الإطلاق.

وقد يجوز الإفتراض أن الرئيس عرفات بتجاوبه مع هذه الأفكار الإستثمارية المكروهة يأخذ بحالة مصر المتأثر بها، وهو تأثر يصل أحياناً إلى درجة الضعف. وربما أنه إستناداً إلى تلك الحالة يرى عرفات أن كازينوهات القمار والملاهي المنتشرة في القاهرة وبعض المدن المصرية لم تؤثر على هيبة الأزهر، فللمسجد التاريخي ناسه ودوره، وللكازينوهات والملاهي روادها وحاجتها. نقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أنه من غير الجائز مقارنة المسجد الأقصى بجامع الأزهر، ومع الأخذ في الإعتبار أيضاً أننا وصلْنا إلى وقت بات بعض المطبوعات في مصر ينشر كلاماً في حق شيخ الأزهر لا يليق بالشيخ وبالمسجد، ولا حتى بالقائلين.

وبصرف النظر عن التفسيرات والحجج التي قيلت في شأن هذه الخطوة الإستثمارية، فإن كازينو أريحا سيبقى بالنسبة إلى جيلنا نقطة رمادية في جبين الثورة الفلسطينية، التي سمعْنا الكثير من القصص تُروى قبْل صفقة أوسلو عن إهتماماتها في مجال الإستثمارات الخارجية وفي مشاريع تعود عليها بدخل يقيها العوَز ويحقق لها المزيد من الصمود. لكن، لم يخطر في البال أن جشع الإستثمار يمكن أن يصل إلى أن يتم إنشاء كازينو لا يدخله سوى اليهود وغير الفلسطينيين. وبهذا تكون القيادة الفلسطينية أجازت مبدأ الترفيه عن الإسرائيليين.

ويبقى أن كازينو القمار في أريحا، وهو المرحلة الأولى في مشروع سياحي هو الأكبر في منطقة الشرق الأوسط، فكرة ناجحة بالمفهوم الإقتصادي ويعكس الإهتمامات والبراعة الإستثمارية لدى الثورة الفلسطينية. ولكن أخشى ما نخشاه هو أن ينتهي الأمر على النحو الذي يخيّب الآمال بحيث تتأجل الدولة الفلسطينية وتتطور الإستثمارات كبديل عن تلك الدولة. وفي هذه الحال فإن كازينو أريحا يكون طُعماً بلعثْه القيادة الفلسطينية. وكان اختيار جهة نمساوية لتبليع الطُعم عن طريق نائب رئيس وزراء النمسا السابق، نيوبرت شتيغر (المسؤول في شركة كازينو النمسا وصاحبة الحصة الأكبر في عملية الإستثمار) إختياراً مدروساً، على أساس أن النمسا صديقة قديمة لفلسطين عندما كانت قضية وثورة. والصديق يحرص على أصدقائه.

يبقى أيضاً أن مثل هذه النظرة قد تبدو موضع إستهجان القيادة الفلسطينية، ولكنها نظرة واقعية لأنها تأتي من جانب أبناء الجيل الذي ننتمي إليه، وهو جيل حزين على ما أصاب الثورة الفلسطينية حتى ذلك اللقاء الليلي المريب في أوسلو، وجيل مفجوع بممارساتها بعد ذلك اللقاء. ولولا إقتناعنا بأن في إستطاعة الرئيس عرفات أن يلغي الكازينو، وكأن شيئاً لم يكن، لكان الحزن أكبر والفجيعة أعظم. وما هذه المقالة التي نكتبها، قبْل فوات الأوان، إلاَّ لتأكيد إقتناعنا.

.. وإلى أن نسمع ونقرأ ما يفيد بأن الرئيس عرفات أمر بعدم تجديد الإتفاق مع الشركة النمساوية، سيبقى كازينو أريحا بمثابة رجس من عمل الصديق النمساوي، ظاهراً، والعدو الصهيوني، من وراء الستار. ولأن الكازينو بات مثل بقرة يتم حلبها لصالح الخزينة الفلسطينية الخاوية، فإن الرئيس عرفات لم يتجنب الموافقة على مشروع كازينو القمار. كان الله في عونه ليسامحه على ما فعله.

صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1998

* * *

نازية القرن الواحد والعشرين
بين "سي. إن. إن" وعلماء إسرائيل

إشتهرت محطة «سي. إن. إن» داخل دول العالم الثالث كما لم تشتهر محطة تلفزيونية عالمية. وإستطاعت هذه المحطة أن تغزو مكاتب كبار المسؤولين فى هذه الدول وبالذات تلك التي هي في ما يشبه الإنقطاع عن العالم الخارجي حيث لا صحف ولا مجلات تدخل بسهولة. ولو كانت تبث بعض الساعات باللغة العربية لكانت باتت أجهزة إلتقاطها موجودة في ألوف المكاتب الرسمية وغير الرسمية. ولكنها مع ذلك نافست، لأنها تبث بالصوت والصورة، إذاعات متحررة من القيود وتبث الأخبار والتعليقات والمقابلات والندوات بحرية كاملة مثل إذاعة لندن وإذاعة مونت كارلو.

ولقد إكتسبت محطة «سي. إن. إن» خلال ثلاث سنوات ثقة بعض المسؤولين الذين كانوا وثقوا من قبْل بإذاعة لندن ثم بإذاعة مونت كارلو عِلْماً بأن الثلاث كانت تبث بعض الأخبار والتعليقات ملغومة بإيحاءات من شأنها أن تثير الشكوك والمخاوف لدى السامع، وهذا ما يؤكد أن هذه المحطات ليست من أجْل الخبر المنزه عن الشوائب ولا التعليق الموضوعي المتجرد من الغرض وإنما لها هدف سياسي.

وبعدما حدثت حرب الخليج الثانية وتابع عدد كبير من المسؤولين فى الدول العربية وفي معظم دول العالم الثالث تفاصيل هذه الحرب دقيقة بدقيقة وفي ما يشبه عملية البث" المباشر لمباراة فى كرة القدم أو المصارعة أو لحفل غنائي ساهر، إزداد شأن محطة «سي. إن. إن». ثم جاءت المرونة من جانب الحكومات في مسألة إستقبال الفضائيات لتدخل هذه المحطة بيوتاً وشركات ودوائر في معظم الدول العربية. ثم بات هنالك نوع من التشاوف لدى مشاهدي هذه المحطة بمعنى أنهم من نخبة القوم يحرصون على القول إنهم سمعوا الخبر الفلاني في إحدى نشراتها أو تابعوا المقابلة الفلانية التي بثتها... وهكذا. ومن دون أن نتوقع باتت «سي. إن. إن» بشهرة «ماكدونالد» و«الجينز» وباتت منتشرة في أوساط المقتدرين في شتى دول القارات الخمس ذلك أن رقعة الإهتمام بها إمتدت إلى معظم دول العالم، من أوروبا إلى أميركا الجنوبية إلى أوستراليا إلى روسيا والصين. وخلال الأزمة الأخيرة بين الولايات المتحدة والعراق حدث ما يشبه الإستنفار لدى كل الذين يلتقطون المحطة في أجهزتهم وذلك من أجْل متابعة المواجهة الجديدة ومشاهدة الصواريخ الأميركية تنطلق من منصاتها وتضرب وتصيب بدقة أهدافاً داخل العراق وكيف ستتناثر جثث عشرة آلاف عراقي التي قال أحد جنرالات البنتاغون إن الضربة التي سيتم توجيهها إلى العراق ستسفر عن سقوطها، ولكن هذا الإستنفار سرعان ما تراخى لأن الرئيس صدَّام أقدم على خطوة تراجع نوعية أجهضت في اللحظة الأخيرة خطة الحرب التي كان بدأ العد العكسي لتنفيذها.

كما أن هذا الإستنفار حدَث أيضاً عندما تصاعدت الأزمة بين سوريا وتركيا وأكثرت الأخيرة من التحذيرات والتهديدات التى أوحت بأن هنالك مواجهة وشيكة الوقوع بين البلديْن الجاريْن. ثم ما لبث التصعيد أن تراجع نتيجة مرونة أبداها الحُكم السوري تجاوباً مع وساطة قام بها الرئيس حسني مبارك. وكان الذين إستنفروا أنفسهم توقعوا أن يتابعوا من خلال «سي. إن. إن» البث المباشر لعمليات المواجهة.

هذا التمهيد كان لا بد منه للحديث عن ظاهرة غريبة ولهجة أكثر غرابة. الظاهرة تتمثل في أن رمز هذا الغزو الفضائي المثير للعالم الثالث وللدول العربية بالذات تيد تيرنر صاحب «سي. إن. إن» ينوي ترشيح نفسه – وهو الأقرب الى الحزب الجمهوري – لرئاسة الولايات المتحدة خلفا للرئيس كلينتون الذي قوضت فضائح التحرش الجنسي هيبته كرئيس للدولة الأعظم والتي ساهمت «سي. إن. إن» في نشر تفاصيلها ومحاكماتها على معظم دول العالم. ومعنى ذلك ان في إستطاعة محطة تلفزيونية بالصيغة التي إعتمدتها «سي. إن. إن» وما تميزت به أن توصل صاحبها إلى كرسي الرئاسة (إذا لم يتراجع عن ترشيح نفسه حسب ما تردد بعد ذلك) وهذا تأكيد لأهمية سلاح الإعلام وما يمكن أن يحققه لمالكه من مكاسب. أما اللهجة الأكثر إثارة والتي تميزت بها كلمة ألقاها صاحب «سي. إن. إن» في مأدبة عشاء أعلن فيها عزمه على ترشيح نفسه فإنها تثير الرعب فى النفوس. فقد ذكر تيد تيرنر في كلمته أن الولايآت المتحدة تحتفظ بأسلحتها النووية لحماية نفسها من الحشود الجائعة في العالم الثالث حينما تأتي هذه الحشود إلى أبواب الولايات المتحدة عبْر الحدود من المكسيك ومن أماكن أُخرى في العالم عندما ينضب البترول.

وما يدعو إلى الدهشة هو أن صاحب «سي. إن. إن» لم يوضح ما إذا كان هذا الذي يقوله هو خبر من الأخبار التي تنفرد بها محطته أم أنه برنامجه الإنتخابي في حال مضى قدماً في ترشيح نفسه.

وهذه الحشود الجائعة ليست في أي حال جمهور «سي. إن. إن» في العالم الثالث لأنها لا تنتسب إلى فئة المقتدرين الذين يملكون أجهزة تلفزيون والذين هم في عداد ملتقطي المحطات الفضائية، إلاّ أن هذه الحشود تشكل المشهد البانورامي المخيف الذي يمكن أن تبثه «سي. إن. إن» في حال بدأ زحف الجياع في إتجاه الدولة الأعظم يدقون أبوابها فتفتح عليهم على نحو ما قرأناه لصاحب «سي. إن. إن» أشعة السلاح النووي تبيدهم، بدل أن تفتح لهم باب الإطعام وتكسي عريهم. وهو ليس بالأمر الصعب إذ يكفي أن ترمى هؤلاء بالفائض من اللحوم والأغذية والحبوب والأدوية بدل أن ترمي الفائض في البحار أو تحرقه، لكي لا يطرق البوابات الأميركية جياع وتضطر إلى إبادتهم بالسلاح النووي.

ويبقى أن كلام تيد تيرنر الذي يجب أن نأخذه على محمل الجد يلتقي في منطلقاته مع المنطلقات النازية لما تفعله إسرائيل. وإستناداً إلى ما ذكرتْه صحيفة «صانداي تايمس» يوم الأحد 15 نوفمبر/ تشرين الثاني 1998 فإن إسرائيل تعكف على تطوير أسلحة بيولوجية تستطيع المس بالإنسان حسب أصله العرقي وأن علماء إسرائيليين في معهد «نيس تسيونا» الإسرائيلي المتخصص في صناعة الأسلحة البيولوجية والكيماوية يحاولون إستغلال إختراعات طبية من أجْل تشخيص جينات مميزة خاصة بالعرب ويطورون وفقاً لها «مايكرو أورغانيزم» أي كائنات حية دقيقة تستطيع مهاجمة أولئك الذين يحملون هذه الجينات المميزة دون غيرهم من خلال تغيير نظام الـ «دي. إن. إي» داخل الخلايا البشرية. وتضيف الصحيفة أن العلماء الشريرين (والوصف من عندنا) واجهوا صعوبات في تشخيص جينات مميزة للعرب بسبب إنحدار اليهود والعرب من العِرق السامي ذاته فيما أشار آخرون إلى أنهم تمكنوا بالفعل من تشخيص مزايا معيَّنة في البروفيل الجيني لمجتمعات عربية معيَّنة.

وهكذا فإن جياع العالم الثالث وعرب فلسطين بجميع مستوياتهم هم على موعد مع طبعة جديدة للإبادة. وفي الحالتيْن فإن المبتكِر واحد هو العقل اليهودي الذي وظفته الصهيونية العالمية لأغراض شريرة.

وقد يكون من المناسب إعادة قراءة كلام صاحب «سي. إن. إن» وما نشرتْه صحيفة «صانداي تايمس» البريطانية والتأمل ملياً في بعض المدلولات وربْط ذلك بما سبق أن كتبناه يوم الجمعة 20 نوفمبر/ تشرين الثانى 1998 وفي هذه الصفحة حول الذنب الإسرائيلي المغفور من هولندا وغيرها وكان حول واقعة سقوط طائرة «العال» الإسرائيلية فوق ضاحية من أمستردام يوم 4 أكتوبر/ تشرين الأول الماضي وذلك لأن تلك الطائرة كانت تحمل شحنة براميل في داخلها 19 ليتراً من مواد تُستخدم في إبادة الجنس العربي. وهي واقعة لم تستوقف مع الأسف حكوماتنا، ولم تحظَ بما فيه الكفاية من التغطية من جانب محطة «سى. إن. إن»... وكيف ستحظى ما دام صاحب المحطة وعلماء إسرائيل الذين كانوا في إنتظار وصول الطائرة وتسلُّم الشحنة هم في النهاية يعملون ويبشرون بنازية القرن الواحد والعشرين وشعارها: مَن لم يمت بالسلاح الأميركي النووي سيموت بالسلاح الجرثومي الإسرائيلي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 25 نوفمبر (ت2) 1998

* * *

عماد واحد لا عمادان..
فمتى الهجرة المعاكسة

من الجائز الإفتراض أنه لم يحدُث أن إنتظر اللبنانيون المقيمون والمهجَّرون والمهاجرون والمهجورون خطاباً رئاسياً كمثل إنتظارهم للخطاب الذي ألقاه الرئيس الجديد العماد إميل لحود يوم الثلاثاء 23 نوفمبر/ تشرين الثاني 1998 في مجلس النواب اللبناني بعدما أدى اليمين الدستورية كرئيس للجمهورية هو الرئيس الحادي عشر خلفاً للرئيس إلياس الهراوي الذي ربما لن يكون الوحيد الذي يجري التمديد له. ونقول ذلك بعدما وصل العماد لحود إلى سدة الرئاسة وهو في سن فتية ومعه مشروع للحُكْم يحتاج تطبيقه إلى أكثر من ست سنوات. وهذا نموذج رفيقيْ سلاح له هما الرئيس حافظ الأسد والرئيس حسني مبارك، يؤكد هذا التوقع. وبين الثلاثة جوامع مشتركة كثيرة أهمها الإبتعاد عن مظاهر الحُكم، والقدرة على العمل

والسفر، وطول البال.. وهي صفات سبَبُها في الدرجة الأُولى سنوات العمل في الجيش وقساوة طقوس وتقاليد المؤسسة العسكرية على من يختارونها مجال عمل لهم.

لقد إنتظر اللبنانيون ما سيقوله رئيسهم الجديد يوم أداء اليمين كما لم ينتظروا كلاماً لرؤساء من قبْل ولكل شريحة من هؤلاء أسباب موجبة.

المقيمون يريدون معرفة ما إذا كان الرئيس إميل لحود سيستعيد مهابة المنصب الأول وحقوق هذا المنصب بعدما إختلطت الأمور بعض الشيء بحيث بات المنصب الثالث يبدو وكما لو أنه أكثر أهمية من المنصب الأول ربما بسبب "القدرات المالية الفاعلة والعلاقات العربية والدولية المهمة التي للرئيس رفيق الحريري، وبحيث بات المنصب الثاني يبدو قادراً في بعض الأحيان على وقْف إجتياح صاحب المنصب الثالث للمنصبيْن الأول والثاني معاً في بعض المواقع، وبصرف النظر عما إذا كان يفعل ذلك ضِمْن تخطيط أو ان التطورات وسرعة البت في بعض المسائل تتطلب ذلك. كذلك أراد اللبنانيون المقيمون وبالذات اولئك الغرقى في بحر الهموم والمشاكل والمتاعب الإقتصادية والمعيشية – وهم يشكّلون 90 في المائة من عدد السكان – أن يعرفوا ما إذا كان العهد الجديد سيُنقّي الوضع من الشوائب ويصحح ما أمكنه التصحيح اذا إستعصى التغيير، ويوقف بحَرْفية الدستور وبعدالة القانون ظاهرة الفساد والرشوة والنهب التي إستشرت، ويقرر إحلال قاعدة الثواب والعقاب في الإدارة المدنية، وهي القاعدة المعمول بها بكل الدقة في المؤسسة العسكرية.

واللبنانيون المهجَّرون أرادوا أن يتأكدوا بأنهم فى ظل العهد الجديد عائدون إلى بيوتهم وقراهم وبلداتهم بعدما إستعصى على العهد الذي إنقضى أن يحل هذا الإشكال.

ولو أن العهد أوكل قبْل تسع سنوات الى المؤسسة العسكرية أمر إدارة عملية عودة المهجرين لكانت العودة قاربت على الإنتهاء وبالأموال نفسها التي أُنفقت على العودة المنقوصة. فالعودة تحتاج إلى رؤية محايدة وإلى حزم فى التنفيذ وإلى توزيع عادل. ومثل هذه الصفات تمارسها المؤسسة العسكرية على النحو الذي مارستْه في عملية إعادة بناء الجيش، لا بد كانت ستنجح وكان هذا الملف الشائك وجد نهاية معقولة.

واللبنانيون المهاجرون (ونقصد بهؤلاء اولئك الذين تركوا البلد منذ العام 1976 بعد إشتداد وطأة الحرب الأهلية وليسوا أولئك الذين هاجروا في الماضي) أرادوا أن يتأكدوا بأن العهد الجديد سيعمل على بناء وطن يكون بمستوى طموحات أجيال من اللبنانيين عاشت في الخارج وإكتسبت تربية وتقاليد وثقافة لا تتحمل الأجواء السائدة في لبنان؛ حيث لا تقدير للكفاءات ولا ترحيب بالمواهب ولا تَعامل وفْق الأصول، وإنما كل شيء وفْق قاعدة المحسوبية والولاء، الأمر الذي جعل أهل الثقة يتقدمون على أهل الخبرة كما سبق أن حدث للرئيس عبد الناصر في الستينات. وهذه الشريحة من اللبنانيين قادرة بالإمكانات المالية المتوافرة لدى عدد من الذين تشملهم أن تنعش الوضع الإقتصادي المتردي في لبنان فضلاً عن ان المعاناة الناشئة عن الغربة الطويلة تشكّل سبباً إضافياً ومهماً للرغبة في العودة، لكن في الوقت نفسه لا يريد هؤلاء أن يفقدوا في أشهر تلي عودتهم إلى الوطن ما حققوه طوال سنوات في الغربة. وإستناداً إلى ما هو شائع بل وما هو سائد عن الوضع في لبنان حيث القانون عرضة للمتلاعبين بأقدار البلاد وبمصالح العباد، فإن خشية هؤلاء مشروعة.

يبقى اللبنانيون المهجورون بين مَن هم داخل الوطن وخارجه. وهؤلاء أرادوا من إنتظارهم الطويل لخطاب الرئيس الجديد أن يعرفوا ما إذا كانت الوحدة الوطنية موضوعاً قابلاً للأخذ به من جانب العهد الجديد. للأسباب التي أوردناها ولأسباب أُخرى كثيرة جاز الإفتراض أنه لم يحدُث أن إنتظر اللبنانيون خطاباً رئاسياً كمِثل إنتظارهم للخطاب الذي ألقاه الرنيس الجديد العماد إميل لحود والذي على رغم عدم تسميته الأشخاص بأسمائهم إلاَّ أنه كان واضحاً كل الوضوح مَن يقصد بهذا القول ومَن هم المعنيون بتلك العبارة... الخ.

لقد جاء الخطاب الذي فاجأ كل العاملين في الحقل السياسي العام، يجيب عن معظم تساؤلات مع ملاحظة تكرار القول مرتين بالنسبة إلى بعض المسائل التي وردت فيها نعم عند التكرار. وعند الإشارة إلى أهمية القانون قال «إننا، إنما نمارس ونطاع بقوة القانون، وليس بقوتنا، نعم بقوة القانون وليس بقوتنا...». وعند الإشارة إلى الهدر والسرقة لأموال الدولة قال: «وحق الناس أن يروا كيف تُقطع يد السارق أياً كان والمهْدِر والمرتشي. نعم أن يروا كيف تُقطع يد السارق أياً كان والمهْدِر والمنتفع والمرتشي...». وعند الإشارة إلى

العلاقة مع سوريا قال: «والناس كل الناس يريدون أن يعرفوا ما بيننا وبين سوريا، نعم يريدون أن يعرفوا». وعند الإشارة إلى الجنوب إستعمل تكراراً كلمة نعم. وإستعملها أيضاً عند الإشارة إلى النية والإرادة المتوافرتيْن لديه. أما بقية التساؤلات فأبرزها ما يتعلق بالإدارة التي يريدها أن تكون نظيفة وخاضعة لرقابة صارمة «يديرها مسؤولون يكتسبون الحصانة من حُسْن الممارسة لا من قوة الحماية السياسية والطائفية»، وما يتعلق بقضايا الشباب والبيئة والبطالة والسياسة الضريبية ونصرة المقاومة.

إلى جانب القول الحاسم الذي أوردْنا نماذج منه قال الرئيس الجديد إنه يمد يده إلى الجميع. فهل أن الجميع الذين يقصد بهم أولئك الذين في الخارج ويُكثرون من شكوى الإحباط سينتظرون أن ينفِّذ الرئيس إميل لحود ما قاله لكي يتجاوبوا مع اليد الممدودة أم أنهم سيقابلون نواياه الحسنة بالمثل ويحدُث التجاوب إعتماداً على ماضي الرئيس وتجربته في إعادة بناء الجيش، فضلاً عن أن المحبَطين في الداخل على أهبة ان يتخلصوا نهائياً من الشعور بالإحباط. وفي إنتظار مسارعة المترددين في ملاقاة اليد الممدودة تبقى حقيقة لا جدال فيها وهي أن الأمر إنتهى إلى أن الرهانات حُسمت نهائياً وبات هنالك للبنان عماد واحد لا عمادان. وعلى هذا الأساس بات سهلاً أن تبدأ الهجرة المعاكسة من جانب الذين راهنوا على أن الحل هو في العماد ميشال عون المهجَّر إلى فرنسا فإذا بالحل يأتي وبواقعية أكثر من العماد الذي بنى للبنان جيشاً يقْلب المفاهيم من دون أن ينقلب على النظام فإستحق بذلك أن يصحح ويرمم... ويعيد البناء إذا تطلَّب الأمر ذلك.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 2 ديسمبر (ك1) 1998

* * *

الحريري المعترِض وليس المُعارِض

تمنَّى رفيق الحريري عندما كان رئيساً للحكومة الحريرية اللبنانية ومحاطاً بمجموعة من الوزراء المشاكسين أن يستقيل، فتعذَّر عليه ذلك وأمضى خمس سنوات من أصل ولايته التي بدأت فى خريف العام 1992 وإستمرت ست سنوات (مصادفة أنها المدة التي تستغرقها بموجب الدستور ولاية رئيس الجمهورية) مهموماً ومهتماً. وإنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي عهد الرئيس الياس الهراوي لينعم في العهد الجديد بحكومة يشكِّلها وفق رؤياه وتكون مُنسجمة وعلى أفضل ما يكون عليه الإنسجام ويتفادى فيها أخطاء تجربته الأُولى في الحُكم، فلم تتحقق الأمنية ووجد نفسه مكرهاً وبالحسنى على أن يغادر الحكم متعللاً بإشكال دستوري كان يمكنه التغاضي عنه لو أنه إعتبر منصب رئيس الحكومة تكليفاً فقط وهو الذي أراده تكليفاً وتشريفاً في الوقت نفسه. ومثْل هذا الإعتبار كان ممكناً على أساس أن العهد الجديد الذي يترأسه العماد إميل لحود إعتبر جانب التكليف من الضروريات وإعتبر جانب التشريف من الكماليات. وليس هنالك وضْع يستوجب إعتماد جانب التكليف في المناصب القيادية مثْل هذا الوضع الذي يعيشه لبنان.

ولقد إنزعج اللبنانيون لإبتعاد الحريري لأنهم كانوا يفترضون أنه بعد النقد الذاتي العابر الذي مارسه على نفسه قبْل بضعة اشهر بات أكثر واقعية بحيث يعيد النظر في أمور كثيرة ومنها انه طوال ست سنوات لم يعرف نبض الشارع إلاَّ من خلال تنظيرات تَبيَّن أنها ليست مخلصة ما فيه الكفاية، كما أنه لم يتجول في شوارع العاصمة مكتفياً بإجتيازها ذهاباً وإياباً في موكب رئاسي غير مستحَب لأنه يعطي إنطباعاً بعدم الثقة وعدم الطمأنينة. وإلى جانب الموكب الرئاسي في شوارع العاصمة هنالك الموكب الجوي الذي أعطى إنطباعاً بأن لبنان هو دولة رئيس وزرائها رفيق الحريري أكثر من انه هو رئيس للحكومة اللبنانية. وكلاهما، الموكب البري والموكب الجوي، إتسما بالكثير من المبالغات وأوحيا إلى جانب بعض الممارسات السياسية وأساليب الإستقطاب أن رفيق الحريري يمكن ان يكون زعيم نخبة إنما من الصعب عليه أن يكون زعيماً شعبياً. وهو بالمؤتمر الصحافي الذي عقده يوم الخميس 3 ديسمبر/ كانون الاول 1998 بدا أنه يخاطب النخبة والرأي العام العالمي أكثر من مخاطبته اللبنانيين المنزعجين للكسوف الجزئي الذي أصاب شمس رئيس وزرائهم. ويصعب على المرء تفسير عدم إنعقاد ذلك المؤتمر في مقر نقابة الصحافة أو في مبنى مجلس النواب، وكذلك هذا التحشيد غير المسبوق لوسائل إعلام دولية. وهذا مظهر من مظاهر التشريف الذي يغلب على التكليف.

والذي يخفف من إنزعاج اللبنانيين لما جرى أن

الحريري غادر الحُكْم معترِضـــاً وليس معارضـــاً وأن إعتراضــه هو على إشـكال وليس نتيجة أزمة، وإن بدا فى رفْضــه المضــي قُدْماً بتشـكيل الحكومة أنه يريدها أزمة. وذلك لكي يكون الرفض مبرَّراً ويترك بصـــمة على إحدى صـفحات التاريخ السـياسـي للبلد. وعندما نقول إنه يغادر معترِضـاً وليس معارضـاً فعلى أسـاس أن المنطلقات والرؤية الســياســية واحدة لدى العهد الجديد ولدى العهد الذي كان الحريري أحد أركانه. كلاهما مع ســوريا قلباً وقالباً. وكلاهما يريان في الرئيس حافظ الأســد وخياراته اللبنانة ضــمانة للبلد. وكلاهما يتمسكان بالمسار الواحد اللبناني – السوري بالنســبة إلى العملية الســلمية. وكلاهما مع علاقات تتطور في إستمرار مع أهم لاعبيْن دولييْن في السياسة اللبنانية هما الولايات المتحدة وفرنسـا. و بالنسـبة إلى المملكة العربية السـعودية كلاهما يريدان لها أن تكون الســند للبنان، ومن المؤكد أن الباب الســعودي الذي كان دائماً مفتوحاً أمام الحريري لن يكون مغلقاً أمام العهد الجديد، ذلك أن لبنان ما دام «محكوماً بصــيغة إتفاق الطائف يبقى قضــية بالنســبة إلى الســعودية ومســؤولية تتحملها في كل الظروف بصــرف النظر عمَّن هو الحـاكم أو الحكـام. ولا نظن أن القيـادة السعودية تتفهم خصوصية لبنان وظروفه عندما يكون رئيس الوزراء فيه شخصاً مثل الحريري عاش عشرين سنة في المملكة ولا تتفهم تلك الخصوصية والظروف إذا كان رئيس الوزراء شـخصـاً آخر، فضـلاً عن أن المملكة ومنذ بداية إهتمامها بلبنان في أواخر عهد مؤسسها الملك عبد العزيز ثم من خلال وصاياه إلى أبنائه تدرك انه ليس هنالك ثوابت في الصيغة اللبنانية وأن التغيير دائم الحدوث في الرئاســات الثلاث بدافع إنقضــاء المدة أو نتيجة أخطاء وممارســات غير محسـوبة ما فيه الكفاية أو نتيجة الملل من طول بقاء رئيس في سدة الرئاسة.

ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن هنالك مسألة أُخرى يمكن لمْسـها في شـخص الحريري وهي مسـألة ثقة المســتثمرين الســعوديين والخليجيين في حكومة يترأسـها رفيق الحريري الذي هو من طبقة هؤلاء. وهذه الثقة تبقى مســتقرة إذا كان الرجل في موقعه لكنها قد تهتز نتيجة تغيير مفاجىء وصاعق. ومثْل هذا التغيير لم يحدُث، ذلك أن العهد الجديد ليس إنقلاباً أو ثورة ستصـادِر وتؤمِّم وتعيد النظر في السياسة الإقتصـادية وتشـكِّل المحاكم الخاصــة لمحاسـبة مَن تدور حولهم الشــكوك وتســن قوانين جديدة يعاد بموجبها تخمين الإستملاكات التي حدثت في سنوات سابقة. وعلى هذا الأســاس فإن الحفاظ على تلك الإســتثمارات هو بتعزيزها وزيادتها. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن الحريري نفسـه لا يمكن أن يتسـبب فى حدوث زعزعة في الوضــع المالي والإقتصــادي للبلد، وهو القادر بعلاقاتـه والأموال الخـاصــة بـه وتلك التي يتولى إســتثمارها، على ذلك لعدة إعتبارات أولها الإعتبار الوطني وهو أمر له الأولوية في نفس الحريري يضاف إلى ذلك أن الرجل غادر معترضـاً. ومثْل هكذا مغادرة تعني ان الرجل لن يكون ذلك الجبار المنتقم وإنما هي مغادرة مَن هو في أشد الحاجة إلى إستراحة يعيد فيها النظر في أسلوب العمل والتعامل ويحسم بموجب هذه الإعادة أموراً كثيرة عالقة وعلاقات من الصــعب أن يصــححها ما دام رئيســاً للحكومة، ومظاهر بدأت للإيحاء بأن للبنان وجهاً مشــرقاً فتحولت إلى ظاهرة غير مســتحبة وغير مطمْئنة ومنها بهرجة العيش والتنقل البري والجوي الذي أشرنا إليه.

ومِن هنا فإن إبتعاد الحريرى نتيجة أنه إعتذر أو إعتذروه، أمر مطلوب لرجل شــمَّر عن ســاعديْه في وقت الشــدة اللبنانية وأنجز القِسْــم الأكبر من البُنى التحتية لبلد كان على حافة الإنهيار الكامل وحمى الليرة اللبنانية ونقل اللبنانيين من حافة هاوية اليأس إلى مشــارف الأمل. وفي تقديرنا إن اللبنانيين ســيتذكرونه ويذكرونه بالخير كلما ســاروا على هذا الأوتستراد أو ذاك وكلما غادروا مطار بلدهم أو قدِموا إليه من الخارج، وكلما تأمَّلوا في هذه الهجمة السريعة من الإعمار والنشــاط التجاري وفي هذه العلاقات العربية والدولية لهذا الوطن الصــغير مع القوى والكتل الدولية. وكلما تذكَّر اللبنانيون وذكروا بالخير رفيق الحريري كلما كان معنى ذلك أنهم على موعد آخر مع الرجل الذي كان بمثابة فرصــة لم تأخذ وقتها بالكامل لكي تنجز ما تبقَّى من مشــروع طموح هدفه وضْــع لبنان في الصــدارة.. إنما مع رفيق الحريري الأكثر واقعية وتواضـعاً والأقل بهرجة وشـغفاً بالتملك. وأمامه خير مثال على أن هذه الخصال تؤسس لزعامة تستقر في وجدان الناس، ونعني بذلك الرئيس إميل لحود الذي بفضـل هذه الخصـال متجسـدة فى شـخصـه، إضــافة إلى الحزم والعزم ونبْذ التعصــب وصِــدْق الوطنية، أمكنه أن يحقق إلتفافاً شــعبياً حوله غير مسبوق مع رؤساء كثيرين سبقوه، وإلى درجة أن هذا

الإلتفاف جعل اللبنانيين يأسفون لمفاجأة إبتعاد الحريري من دون أن ينتصروا له، ويتفهمون دواعي موقف الرئيس لحود ويرتاحون إلى خياره في أن يكون شريكه في مرحلة التغيير المتأني هو الدكتور سليم الحص الذي كله تواضُع وتفهُّم وبساطة في العيش... والذي سيصحح للحريري بعض ما يمكن تصحيحه وبحيث إذا كان لا بد مستقبلاً من إستعادته فإنه يعود أكثر قدرة على إنجاز مشروعه العمراني وأكثر قبولاً من جانب اللبنانيين. ويعود بصفة كونه الرجل الثالث في الدولة كما هى حال الدكتور سليم الحص وكما هي الأصول، وكما يتطلب ذلك الإستقرار السياسي، وليس الرجل الأوحد والأقوى كما كانت حاله. وعندما شعر أنه لن يعود، أو لن يُعاد آثر أن يغادر السفينة ربما لإطمئنانه أنها تسير في خط السلامة وبكل الهدوء المطلوب... وبذلك يستطيع وحتى إشعار آخر أن يلوم لا أن يُلام... والمهم أن يبقى الحريري معترِضاً وليس معارضاً وحليفاً لمن المعارضة عندهم حرفة وليست قضية وطنية أو من أجْل الوطن.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 ديسمبر (ك1) 1998

* * *

خواطر عن الحص الجار.. الرئيس

شاءت الصدف الطيبة أن أكون جاراً لرئيس الحكومة اللبنانية الجديدة الدكتور سليم الحص في عمارة بناؤها متوسط بُنيت في مطلع السبعينات، وتقع في حي من فئة الأحياء التي تقطنها الطبقة المتوسطة هو حي عائشة بكار.

ونذكر بالنسبة إلى هذا الحي كيف إختلط الأمر قبْل أربعين سنة على الإذاعي المعروف أحمد سعيد، وبقية مذيعي نشرات الأخبار والتعليقات فى إذاعة «صوت العرب» المصرية، التي كانت شديدة الحماسة لـ «ثورة 1958» التي قادها – نادماً بعد ذلك – في لبنان رئيس الحكومة الأسبق صائب سلام، حيث إعتبروا عائشة بكار إسماً لواحدة من نصيرات «الثورة الوردية»، وليس إسم حي من أحياء العاصمة بيروت.

ويتوجب علينا التوضيح بأنها «وردية» قياساً بالأحداث التي جرت بعد ذلك في أبريل (نيسان)1975 وإستمرت ست عشرة سنة سالت "فيها الدماء بغزارة، لا أعاد الله على لبنان هذه الأحداث، ولا هي تكررت في أي بلد عربي أو إسلامي آخر، وإن كان الذي يجري منذ خمس سنوات في الجزائر أضفى بعض «التبرئة» على الذي جرى في لبنان. وكثيراً ما كان أحمد سعيد وبقية زملائه المذيعين يقولون «قامت المناضلة عائشة بكار بهجوم على..». وعبارات نضالية أُخرى من هذا القبيل.

وبسبب هذه المجاورة للرئيس الحص أمكنني أن أعرف عن كثب (يشهد على ذلك زميلان آخران كانا مثلي من زواره الدائمين في كل مرة نأتي إلى بيروت من لندن، هما سليم نصار وسمير عطاالله) أي تواضُع هو عليه هذا الرجل وأي أسلوب تعامُل مع الناس هو تعامُله، وأي بساطة هو عليه مكتبه الذي يستقبل فيه الناس والذي هو عبارة عن شقة من ثلاث غرف وصالونيْن مجاورة للسكن، الذي هو شقة تُماثل شقة المكتب. وكثيراً ما كنتُ ألتقي في المصعد الذي أنتظره في الطبقة الرابعة من المبنى الرئيس الحص النازل من الطبقة السادسة ومن دون أن يزعجه في شيء أن ولداً من هذه الشقة أو خادمة سيرلانكية أو حبشية أو إريترية من شقة أُخرى دخلت المصعد الذي هو فيه.

بل حتى لم يكن يضايقه في شيء أن أحد السكان صعد معه وهو يحمل أكياساً من المشتروات، كما انه لا يتردد في دخول المصعد، إذا كان سبقه إليه عامل في إحدى شركات توزيع الغاز يحمل قارورة إلى إحدى الشقق، أو أن إحدى فتيات عائلة من سكان العمارة تحمل صينية عليها مناقيش الزعتر الخارجة لتوها من أحد افران الحي ساخنة، ويرتاح لها النباتي سليم الحص.

ولم نسمع يوماً أن مدير مكتبه وسكرتيره الخاص، غازي ميرزا، أو أحداً من حراس في منتهى الآدمية يتناوبون على حراسة مدخل المبنى، زجروا أحداً او حالوا دون وصول أحد إلى الرئيس الحريص على دخول الناس إليه من دون إستئذان ومن دون شكوك، بل إن هؤلاء الحراس كانوا بمثابة حُراس لكل ساكن في العمارة وليسوا فقط حُراساً لرئيس الحكومة السابق الذي لا يحتاج أصلا لحراسة، إذ كيف يحتاج إلى حراس من يمشي (وليس مَرحاً) بين الناس.

وفي مرأب العمارة كانت سيارات الرئيس الحص الثلاث تأخذ مكانها إلى جانب سيارات الملاَّكين وكثيراً ما كان حُراس الرئيس يسارعون الى المساعدة ومن دون أن يطلب منهم أحد ذلك. ومن المؤكد أن الحارس

هو على دين المحروس أي بما معناه إنه لو كان هذا المحروس من نسيج آخر لما كان هؤلاء ساعدوا أحداً على الإطلاق ولكانوا أقلقوا سكان العمارة وأتعبوهم بالطقوس المفتعَلة المألوفة لدى بعض الحكام وأولئك الذين ذاقوا طعْم الحُكْم.

والذي كان يزعج الرئيس الحص فقط هو ألاَّ يستعمل المصعد ويكون سبقه إليه من أشعل سيجارته وملأ المصعد دخاناً وذلك لأن تنفس الرئيس يتأذى من الدخان.

ولقد مرت سنوات قبْل أن يأذن بوضع ورقة داخل المصعد كُتب عليها رجاء بمراعاة عدم التدخين.

وهو تردد لأنه ضد مصادرة حرية الآخرين عِلماً بانه صار من المتعارف عليه دولياً أن التدخين ممنوع وغير مستحب داخل المصاعد وداخل الطائرات، عدا بعض الشركات، من بينها شركة طيران الشرق الأوسط، التي بات ضرورياً أن تمنع التدخين داخل رحلاتها على نحو ما تفعل أخريات.

ولم يخرج الرئيس الحص عن المعقول في إجازانه وفي أسفاره. فهو يكتفي بقضاء «الويك إند» فى دارته التي بناها فى ضاحية مطلة على البحر باتت تُعرف بإسم «دوحة الحص» والتى آثر عليها السكن فى الشقة، وبالذات بعدما توفيت زوجته ليلى، والدة إبنتهما الوحيدة وداد التي تسكن هي الأُخرى في شقة فى العمارة نفسها مع وحيدها الذي يحمل إسم جده سليم، أما في أسفاره فإنه دائماً واحد من ركاب أي طائرة.

ومثلما هي حال الرعية في العالم الثالث عموماً وفي معظم البلدان العربية بشكل خاص، وفي لبنان على وجه التحديد حيث المشاعر لا مثيل لها من حيث التقلب، فإن الرئيس الحص الذي قل كثيراً عدد زواره طوال السنوات التي لم يعد فيها رئيساً للحكومة (شغل المنصب من 9/12/1976 إلى 24/11/1989) إنهمر الزوار عليه كالمطر لمجرد أن جرى تكليفه بتشكيل الحكومة الأُولى في العهد الجديد الذي يترأسه العماد إميل لحود.

ولكن اللافت للنظر هنا هو ليس ما تفعله الرعية من البيارتة بالذات وإنما ما يبدو أن الرئيس سليم الحص متمسك به.

فهو باقٍ في العمارة إياها. وهو يواصل إستقبال الزوار والسفراء والمبعوثين الدوليين في المكتب نفسه الذي كان يستقبل فيه أيام لم يعد رئيساً للحكومة.

وهو يستعمل مصعد العمارة بالطريقة نفسها، من دون أن يضرب حراسه النفير بأن دولة الرئيس نازل، أو أن دولته صاعد، ومن أجْل ذلك هناك موجب لحجز المصعد لدولته، وهو لا يتحرك في موكب عندما يتوجه إلى السراي، ولا عندما يعود منها ولا يوجد موكب في أي حال.

ومن هنا فإنه عندما جرى إنتخاب العماد إميل لحود رئيساً للجمهورية وبعد الإكثار من التأمل في عبارات الكلمة الأولى له بعد إنتخابه يوم 15 أكتوبر/ تشرين الأول 1998 وقوله: «صلاح الأمور يبدأ من رأسها وسأسعى لأكون المثل والمثال» كان واضحاً انه إذا كان لا بد من التطبيق الحرْفي لمثل هذا التوجه فلا بد من أن يكون رئيس الحكومة الأولى في العهد الجديد هو الدكتور سليم الحص، أو مَن هو بمواصفاته. ثم جاء الخطاب الأول للرئيس لحود يوم الثلاثاء 24 نوفمبر/ تشرين الثاني 1998 وهو الخطاب الذي أقسم فيه اليمين الدستورية ليؤكد هذه الحتمية. فالخطاب إدانة صريحة للعهد الماضي من دون أن ترِد كلمة الإدانة في أي فقرة من فقرات الخطاب. وفي الخطاب سبع لاءات جاءت بقوة لاءات قمة الخرطوم الثلاث الشهيرة صيف 1967. واللاءات اللحودية السبع هي «لا يجوز أن يكون الفقر مانعاً للعِلْم. لا يجوز أن يكون الفقر مانعاً للصحة. لا يجوز أن يكون الفقر مانعاً للعمل. لا يجوز أن يبقى مهجَّر خارج أرضه. لا يجوز أن ينسى المهاجر الوطن. لا يجوز رهْن السياسة بالطائفية». وعندما يقول الرئيس لحود ذلك فهذا معناه أن «عهد الترويكا» أو «آفة الترويكا» على حد تسمية الرئيس الحص في إستمرار لهذه الظاهرة أخفق وأن على رموزه أن يتواروا. وهو عملياً ما حدث وسيكتمل على الأرجح برئيس جديد للبرلمان يحل محل الركن الباقي في «الترويكا» الرئيس نبيه بري. وهذا بات سهلاً ما دام البرلمان اللبناني إنقلب لحودياً منذ جلسة إنتخاب رئيس الجمهورية..

إلاَّ إذا إرتأى الرئيس بري أن ينتسب هو الآخر إلى المدرسة ذاتها في العيش وفي ممارسة المسؤولية السياسية التي ينتسب إليها الرئيس إميل لحود والتي وجد الدكتور سليم الحص الذي سيحتفل يوم الأحد المقبل (20/12/1998) بعيد ميلاده التاسع والستين نفسه منتسباً بسهولة إليها فبات رئيساً للحكومة عوضاً عن الرئيس رفيق الحريري الرافض كلياً لمثل هذا الإنتساب فآثر الإنسحاب على الإنتساب. وما هو

صـعب على الرئيس الحريري لا نظن أنه سـهْل على الرئيس بري.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 ديسمبر(ك1)1998

* * *

العراق والكويت على خطى اليابان والصين؟

مِن بين الاحداث البالغة الأهمية التي حفل بها العام 1998 الذي سـنودِّعه غداً الزيارة التاريخية التي قام بها رئيس الصـين جيانغ زيمين إلى اليابان يوم الإثنين 30/11/1998، وهو حدَث من الواجب العربي التأمل فيه بالكثير من العناية لمناسـبة تَجدد السـعي بحماسـة أكثر هذه المرة لعقد قمة عربية بناء على تهيئة نفسية متواصلة من جانب رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ودعوة بادرت الحكومة اليمنية إلى إطلاقها.

والزيارة – الحدَث – موضـوع هذا المقال، هي الأُولى يقوم بها رئيس صـيني إلى اليابان. وبتعبير أكثر دقة لعلها المرة الأُولى التي يقوم المعتدى عليه بزيارة المعتدي التاريخي، ذلك أنه قبْل أكثر من نصف قرن عندما كانت اليابان هي النمر الشرس في جنوب شرق آسيا، ودولة إستعمارية من نوع بغيض، قامت القوات الأمبراطورية اليابانية بإجتياح مناطق في منشوريا ثم في شرق الصين، وإرتكبت هذه القوات بين العام 1937 والعام 1945 تجاوزات. وتؤكد السُلطات الرسمية الصينية أن هذا الإجتياح تَسبب في مقتل 20 مليوناً. ويوم حدَث الإجتياح الذي نشـير إليه كانت الصين دولة في طور النمو مثقلة بالمشاكل الناشئة عن نسبة عالية جداً من السكان قياساً بموارد الدولة، وكان الصـينيون غارقين في تعاطيهم للأفيون. أي بمعنى آخر كان كل فرد ياباني بقوة ألف فرد صـيني، ذلك أن الكثافة البشرية المتخلفة تتحول إلى عبء بدَلَ أن تكون سلاحاً.

نامت الصين على الضيم خصوصاً أن طبيعة العلاقات الدولية في ذلك الزمن لم تكن تسـمح بأن تقوم دولة مثل الولايات المتحدة وتقود تحالفاً لمواجهة الإجتياح الياباني على نحو ما فعلت إدارة الرئيس حورج بوش التي قادت تحالفاً دولياً إسـتعاد الكويت التي كانت إجتاحتْها قوات عراقية فجْر يوم الخميس 2 أغسطس/ آب 1990 ثم إعتبرها حُكْم الرئيس صـدَّام حسـين انها جزءٍ من العراق إلى أن حررها التحالف الدولي بعد حرب أعادت العراق ربع قرن إلى الوراء.

ولكن النوم على الضيم لم يمنع قادة الصين، بعدما إستقرت قبضة ماو تسي تونغ، من ان يبدأوا بناء دولة قوية تَحسب لها الدول الكبرى الحساب وترصد تطورها وبالذات عدما باتت دولة نووية. وفي المقابل كان شأن اليابان كدولة قوية وذات قدرات على إستعمار الآخرين يتراجع ويحل محله النمو الهائل على صـعيد التكنولوجيا.

مع وصـول نمط جديد من القادة إلى الحُكْم في الصين بات التعاطي الصيني مع القضايا الدولية ومع القضايا العالقة أمراً مألوفاً. وإستند هؤلاء في تعاطيهم وفي مداخلاتهم إلى أن بلادهم هي إحدى الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن والتي تملك سُلطة إسـتعمال النقض (الفيتو) لأي قرار يجري التصويت عليه داخل المجلس. وكانت الخطوة الأُولى في إتجاه الولايات المتحدة، إذ كيف تحل الصـين مشاكلها وقضاياها العالقة إذا كانت لن تضع العلاقة مع الولايات المتحدة في الإطار الموضـوعي. وكان لافتاً للنظر حِرْص الزعيم الصينى جيانغ زيمين عندما زار الولايات المتحدة على الظهور بمظهر رئيس الدولة الذي تغلُب مصلحة البلد عنده على الكبرياء الشخصية والذي يهمه في الدرجة الأُولى أن يحقق لبلاده المزيد من الإنفراجات والكثير من المكاسـب وإزالة إنطباع التشـاوف الذي كان إحدى سـمات القيادة السـابقة للصين والذي تَمثَّل في الشعار الشسهير «أميركا نِمر من ورق». وقد أثمرت الخطوة حيث أن الرئيس كلينتون عندما قام برد الزيارة تعامل مع القيادة الصينية بما تستحقه هذه القيادة من التقدير.

بعد ذلك جاءت الخطوة الثانية التي تلفت النظر أكثر والمتمثلة بالزيارة التي قام بها الزعيم الصيني إلى اليابان. فهو لم يستوقفه أنه يمثِّل الدولة المعتدى عليها من قِبَل اليابان المعتدية وأنه لا يجوز أن يفعل ذلك وإنما ينتظر أن تاتي اليابان صـاغرة إليه معتذراً إمبراطورها وقيادتها في أواخر القرن عن إجتياح أمبراطوري ياباني للصـين جرى في أواخر النصـف الأول من القرن. وما فعله الزعيم الصـيني هو أنه برؤية عميقة ونظرة إسـتراتيجية إعتبر ان مصـلحة بلاده، وعلى رغم كونها الطرف المعتدى عليه، هي

مع اليابان التى حققت قفزات هائلة على صعيد التقدم في ميدان التكتولوجيا وأن عقدة الإجتياح قبْل نصف قرن يجب أن تجد حلاً في صيغة أو أُخرى.

وهكذا فإن الزعيم الصيني لم تستوقفه الشكليات وأتى يزور اليابان التي كانت في أقصى درجات التمني بأن تتم هذه الزيارة. وحاول أن يحصل من حكومتها ومن أمبراطورها على إعتذار خطي عن فظاعات يابانية إرتكبت فى الصين في سنوات الإجتياحات بين العام 1937 والعام 1945 مفترِضاً أن الحكومة اليابانية التي «إعتذرت من صميم القلب»، وعلى وثيقة مكتوبة لرئيس كوريا الجنوبية الذي زار اليابان قبْل شهر من زيارة الزعيم الصيني لها عن سنوات إستعمار اليابان لكوريا الجنوبية، ستقدِّم إعتذاراً مماثلاً للصين. ولكن عدم حصول الزعيم الصيني على هذا الإعتذار لا يعني أن الخطوة التي قام بها منيت بالفشل، ذلك أن الطرفين إرتضيا صيغة خجولة للإعتذار تمثلت في إصدار بيان من بضع كلمات على هامش البيان المشترك عن الزيارة والمحادثات. وفي البيان القليل الكلمات لم ترِد كلمة الإعتذار وحلت محلها عبارة «الندم الشديد» وبحيث أن الندم لم يقتصر على اليابان وحدها وإنما شمل الصين أيضاً. وإلى جانب هذه الصيغة الرقيقة من الإعتذار، وقعَّت إتفاقات إقتصادية وتعهدات بمنح الصين المزيد من القروض التي تصل خلال سنتين إلى ثلاثة مليارات دولار.

ومن المؤكد أنه لو لم تكن الصين محتاجة إلى بعض بلايين الدولارات تحصل عليها في شكل قروض من اليابان لكانت حصلت على ما هو شبيه بالإعتذار الياباني للرئيس الكوري الجنوبي الذي كان موقفه أقوى لأنه غير محتاج لمساعدات اليابان وقروضها.

ويبقى أن عدم الإعتذار الساطع من جانب اليابان للصين لا يعني أنها لم تعتذر، ذلك أنه عندما يأبى المعدى عليه ويطلب من المعتدي وفي عقْر داره أن يعتذر ولا يحدُث الإعتذار على النحو المطلوب فإن الطرف القوي في هذه الحال هو الذي أتى وطلب (وهو هنا الصين) وليس الذي تفادى كلمة الإعتذار (وهو هنا اليابان) وإستبدل بها كلمة الندم وأجبر الطرف الآخر على الإكتفاء بذلك لضرورات الحصول على المال. هو طرف قوي بمعنى عمى رؤيته المستقبلية، وقوي بمعنى إضفاء صفة المرونة على أسلوب تعاطيه الشأن السياسي الأمر الذي يجعله موضع قبول الآخرين وهو ما تتطلع إليه الصين لكي يتعزز حضورها الدولي.

يبقى أيضاً أن الذي جعل الأمر على شيء من اليسر هو أن جيليْ الحاضر في كلا البلدين يعالجان أخطاء حدثت مع قادة جيليْن رحلا، بمعنى أن الأحفاد يعالجون أخطاء الأجداد.

وفي هذا السياق، نجد أنفسنا نتساءل: هل أن الجانبيْن العراقي والكويتي سيتركان إيجاد حل لما حدَث بينهما عالقاً نصف قرن من الزمن على نحو ما جرى بين الصين واليابان، أم أن الجانبيْن سيأخذان في الإعتبار أن الزمن تغيَّر، وأن غياب صيغة توفيقية للعلاقة بينهما يدفع ثمنه العرب جميعاً، ولا شك أن هذا التدهور المريع في أسعار النفط ليس سوى البرهان القاطع على ذلك.

إزاء ذلك وفي ضوء الجولة الثانية غير المبررة من الحرب على العراق، التي إستهدفت تدمير العراق المنهَك، وما إنتهت اليه الجولة من تداعيات ومفاجآت وطنية وقومية مُبهرة... إزاء ذلك، هل نتوقع في المستقبل غير البعيد خطوة تجعل العلاقة بين بغداد والكويت أكثر إستقراراً وطمأنينة، وتضع حداً للعدوان الأميركي – البريطاني الذي بات على ما يبدو روتينياً ومحرِجاً للعرب ولكل أصدقاء الدولتيْن المعتديتيْن.

قد تدعو الفرضية إلى الدهشة، هذا إذا لم تُمنع بالقوة من قبل النظام العالمي الجديد الذي لا يمنى لجيل أحفاد الأزمة العراقية – الكويتية أن يلتقوا ويتصافوا. ولكن مَن كان يتوقع أن يحدُث هذا الذي حدَث بين الصين واليابان اللتين سجلتا أمثولة لحل إشكالات لا تجد حلاً من نوع الإشكال العراقي – الكويتي، وهو الإشكال القريب في بعض تفاصيله إلى حد كبير بالإشكال الصيني – الياباني.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 30 ديسمبر (ك1) 1998

* * *

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

>

المقالات من يناير 1999 إلى ديسمبر 1999




المبادرة التي
ضيعها العراق
أسبوع الآلام الأردني
تساؤلات برسم اميل لحود
خيمة الحص والحريري
الرمضانية
عرفات الدائن.. و.. كلينتون المدين
بيريز الذي يسحر الآخرين
ضجة الناصرة...
بعد اللاذقية
محنة الحسين والحسن
خيارات أمام رفيق الحريري

خيارات أمام رفيق الحريري

مع مطلع العام الجديد 1999 إستأنف رفيق الحريري نشاطه على الصعيد الإجتماعي وهو الذي كان الحدَث اللبناني الأهم في العام الذي إنقضى وإلى حد أن العام 1998 كان عام تباعُد الرجل عن المسؤولية. والتباعُد كما نفترضه هو المزيج بين الإبعاد والإبتعاد أو الإبعاد في صيغة الإبتعاد. ومن محاسن الصدف أننا في شهر رمضان وإلاَّ لما كان لهذا النشاط الإجتماعي الذي نشير إليه أن يحدُث وفي شكل إفطارات هي الأكثر تميزاً بين الإفطارات الرمضانية من حيث عدد المدعوين إليها ومن حيث غنى موائدها ومن حيث أُبهة المكان الذي تتم فيه وهو قصر رئيس الوزراء المتباعد.

ومع أن هذه الإفطارات تعني أن التقليد الذي إتبعه الحريري خلال شهر رمضان مستمر وأنها أول مناسبة عملية لإختبار مشاعر البيارتة وهل هم باقون على العهد أم أن لعبة المصالح ستحملهم على تبديل المواقف، إلاَّ أن اللبنانيين في أكثريتهم ما زالوا مصدومين بالذي جرى لرئيس وزرائهم الذي كان يؤملهم بأن الحقبة الثانية من ولايته – لو أنه بقي رئيساً للوزراء إلى جانب العماد إميل لحود – ستكون حقبة المن والسلوى وقطْف الثمار الشهية بعد المعاناة الطويلة.

وإلى الآن وربما حتى إشعار آخر طويل ليس معروفاً ما الذي جعل الأمور تنتهي الى ما إنتهت إليه، وأغلب الظن أن ذلك اللغز لن يُعرف على الإطلاق ما دام الحريري لن يسلك مسلك المواجهة خشية أن يجد نفسه ومن حيث لا يدري ولا يريد في وضْع أشبه بوضع رئيس القوات اللبنانية الدكتور سمير جعجع المستضاف حتى إشعار آخر في غرفة من غُرف مبنى وزارة الدفاع. فالذي حدَث هو أن الدكتور جعجع إعترض ورفض أن يشارك في التركيبة الأُولى للطائف المتفَق عليها والمرْضي عنها ويتسلم منصباً وزارياً شأنه في ذلك شأن بقية زملائه أمراء الحرب اللبنانية. ونتيجة لإعتراضه هذا وإستعداده لخوض مواجهة سياسية وربما غير سياسية أيضاً فإنه كان لا بد من إيقاعه في الفخ. وجاءت حادثة إنفجار الكنيسة لتشكِّل بداية النهاية لمَن كان نصْل سيفه كثير الحدة ولمَن كان يرى أنه ما دام هو زعيم المسيحيين في نصف سنوات الحرب فمن الطبيعي أن يكون زعيمهم في زمن السِلْم. وفى ضوء التحقيق في حادثة الكنيسة فُتحت ملفات كثيرة وها هو الرجل قابع في السجن الذي هو زنزانة حتى إذا كانت من خمس نجوم ينتظر مصيره وهو السجن المؤبد في الحد الأقصى والخروج من السجن بشرط عدم التعاطي في الشأن السياسي في الحد الأدنى، أي تجريد الرجل نهائياً من أي فاعلية سياسية وهو ما يتمناه بعد هذه السنوات الطويلة في السجن من دون أن تفيده في شيء حشود المحامين عنه والتذكير المستمر بحالته من جانب زعيم الطائفة المارونية البطريرك صفير.

وبالنسبة إلى الحريري فإنه عملياً إعترض ورفض أن يشارك في التركيبة الثانية للطائف المتفَق هي الأُخرى عليها والمَرْضي عنها من جانب الأطراف العربية والدولية. ولا نظن أنه سيلجأ إلى أي إجراء أو تصعيد يؤديان إلى إزعاج التركيبة الجديدة للحُكْم في لبنان. وفى ضوء إيماءات وتلميحات كثيرة بدأها الرئيس إميل لحود ولم تقتصر على «المثل والمثال» و«دولة المؤسسات والقانون» و«قطْع يد السارق» وتعابير أُخرى كثيرة من هذه النوعية، وإنما شملت رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص الذي دمغ عهد سلفه الحريري بـ «الأخطاء والخطايا»... في ضوء هذه الإيماءات والتلميحات يفهم المراقب مثل حالنا أن الحُكم الجديد يقول ما معناه للحريري والحريريين: إن في السكوت السلامة وإنه إذا حدث أي تصعيد فسنقابله بفتح الملفات وما أكثرها. وعند الضرورة يمكن التعامل مع ملفات الهدر بمثل التعامل مع ملف العنف وعمليات التفجير والإغتيال المرتبطة بشخص جعجع. والتعامل بمعنى وضْع الأمر بين يديْ القضاء الذي سيتخذ المزيد من الإجراءات الإحترازية التي تهز الصورة التي في أعين الناس عن الرجل الذي قطع خلال ست سنوات شوطاً بالغ الأهمية في إعادة تعمير الوطن والتي تحد من حرية التنقل. وما جرى للوزير السابق فؤاد السنيورة الذي هو النجم الساطع في عهد الحريري خير مثال على ذلك، حيث أن الرجل تحوَّل في لحظات إلى موضع شبهة تكتب عنها وسائل إعلام من صحف ومحطة تلفزيون أنفق الحريري عليها الكثير لكي تكون سلاحاً له وليس عليه.

وهنا يصعب على المرء أن يفهم كنه هذا الإصرار من جانب الحريري على رفْض ترؤس الحكومة وفْق رؤية الرئيس إميل لحود، وكيف أنه لم يمارس من المرونة ما يجعل التعاون ممكناً والسلامة المعنوية

مصـونة والمسـتقبل السـياسـي مضـموناً، إلاّ إذا كان إفترض أن الحُكْم السـوري سـيتعاطف معه وليس مع رؤية الرئيس لحود. كذلك يصـعب علينا أن نفهم خفايا هذا الإصـــرار مع أن هنالك تجربة مر فيها الرئيس جاك شـيراك صـديق الحريري عندما ترأس وكان على درجة عالية من القوة السـياسـية والشـأن الإجتماعي الحكومة بينما رئيس الجمهورية هو فرنســوا ميتران. وفي تلك التجربة مارس شيراك من المرونة إزاء المزاج الصـعب للرئيس ميتران ما أفاده بعد ذلك عندما خاض معركة رئاسة الجمهورية وفاز بالمنصب بجدارة. ولعله كان من المفيد بمكان لو أن الحريري أخذ بهذه التجربة وإنحنى أمام العاصـفة خصـوصـاً أن الإنحناءة كتكتيك لها صـــفة الحذاقة المتناهية في عالم أهل السـياســة وصُنع القرار.

والآن ما الذي سـيفعله الحريري العائد إلى السـاحة السياسية من باب الإفطارات الرمضانية؟

هل سـيكتفي بالتأمل خشـية أن تثير تحالفات غير موضـوعية وتصـريحات يدلي بها أو تُدلى عنه بالنيابة الحُكْم الجديد المتأهب للتعامل بخشـونة مع مثْل هكذا موقف؟ أم يخوض غمـار معركـة الرد على تهمـة الأخطاء والخطايا وبالذات الخطايا خصـــوصـــاً أنها جاءت في ســياق البيان الوزاري للحكومة الأُولى في العهد الجديد، وبـالتـالي يتحمل كـل نتـائج المعركـة وشظاياها وغبارها؟

أم يكتفى بإعتماد «المعارضـة البناءة» وهو تعبير ملطف لعدم خوض المعارضـــة والإكتفاء بالإعتراض الخفيف الوطأة على أساليب وليس على سياسات على نحو ما سبق أن إفترضْنا حدوثه في مقال سابق؟

قد يعتمد الحريري أحد الإحتمـالات الثلاثـة التي أوردناها، أو ربما في ضـــوء تحليل عميق من جانبه للأمر يرى أن الذي أصـــابه من حزب الطـائف – ونضـع كلمة «حزب» بين مزدوجيْن – هو بمثل الذي أصـــاب مارغريت تاتشـــر من حزب المحافظين في بريطانيا، والذي جرى للســيدة الحديدية هو أن حزبها وجد في طول بقائها ما يشكِّل تآكلاً في شعبية الحزب فإنقلب عليها وقطعَ الطريق على حِلْمها في المزيد من السـنوات في الحُكْم معتمدة في ذلك على إزدهار غير جوهري لبريطـانيـا وبحبوحـة مخـادعـة دامـت خمس ســنوات وعلى مكاســب مجزية من مشــاركة الرئيس جورج بوش عمليـاً في الحرب على العراق وتحرير الكويت.

أما بالنســبة إلى الحريري فإن الذي جرى هو أن «حزب» إتفاق الطـائف الذي أنهى الحرب فى لبنـان وجد الكثير من الاســباب الموجبة لتفادي التآكل في شــعبية «الحزب» فأبعد الحريري في الوقت الذي كان الرجل ينجز برنامج حكومته لست سنوات مقبلة.

وبعد إنقلاب حزب المحافظين على تاتشـــر فقدت السـيدة الحديدية توازنها وبدأت شـمس أمجادها تغرب بالتدريج وراحت تداوي جراح إبعادها بســفريات نحو بعض دول الخليج. فهل أن حالة السـيدة الحديدية في بريطانيا ســتتكرر مع الرجل الفولاذي في لبنان أم أن الســن الفتية للحريري وأعجوبة اللعبة السـياسـية في لبنان والقدرات المالية للرجل تجعل من أمر عودته إلى تنفيـذ برنـامجـه الإعمـاري ضـــرورة لا بـد منهـا، خصــوصــاً إذا إنتهت جولة الرئيس الحص الخليجية بعد عيد الفطر إلى وعود على أســاس أن الوديعة تعطى للحريري وليس لأحد غيره خصـوصـاً في زمن الوعكة الشـديدة الوطأة التي يمر بها النفط؟ يتسـاءل المرء ويتأمل... وينتظر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 يناير (ك2) 1999

* * *

خيمة الحص والحريري الرمضانية

إبتكر بعض أقطـاب تجـارة الفنـادق والمطـاعم والملاهي في لبنـان بمجرد أن نشَـــر إتفاق الطـائف الطمأنينة على ربوع بلادهم طريقة غير مألوفة لليالي الرمضـانية على أســاس أنها تعوِّض المسـلمين من اللبنانيين الليالي الصـعبة من رمضـانات الحرب التي كانوا يمضــون معظمها وبالذات في ســنين إشــتداد القصـف في الملاجئ. وجاءت الطريقة عبارة عن خيم من النوع الذي يُســتعمل في ســرادقات العزاء أو المهرجانات الإنتخابية في مصـــر. وهذه الخيم التي بدأت شبيهة بمقاهي حي الحسين في القاهرة وأشهرها مقهى الفيشـاوي الذي له في ذاكرة كل مَن زار مصـر مكانة محببة، تحولت شـــيئاً فشـــيئاً إلى ما يشـــبه "الكـاباريهـات الحلال" إذا جـاز التعبير. أكل وطرب وشـيشـة وتبرج ومصـورون يلتقطون الصـور لتنشـرها الصـحف والمجلات في صـفحاتها الخاصـة بالأخبار والنشـــاطات الإجتماعية. وأســـهمت محطة تلفزيون

"المستقبل" التي بدأت تستقطب اللبنانيين والسوريين حول برامجها لأنها أقل تحرراً من المحطة الأخرى "أل. بي. سي" في تعميم ما كان يجري في "الكاباريهات الحلال"، حيث أنها كانت تبثها حية مع أنها بادرة غير مستحبة وغير راقية ونكاد نقول إنها مكروهة شرعاً لأنها تتم في شهر العبادة. كما أن كثيرين من أهل المغنى والطرب التراثي من دول مشارقية ومغاربية بدأوا يتوافدون إلى لبنان للغناء في هذه الخيم التي خاضت معارك على صعيد المنافسة. وإلى ذلك فإن إخواننا في بعض دول الخليج بدأوا يفدون إلى بيروت من أجْل سياحة رمضانية تقوم على النوم طوال النهار في الفندق من أجْل السهر حتى ما بعد السحور في الخيمة الرمضانية. وجاء تنبُّه أولي الأمر إلى هذه الظاهرة متأخراً، فبدأت بعض العائلات تتحاشى المشاركة في هذا المهرجان غير المستحَب ثم بدأت الإنتكاسة الإقتصادية تنتشر في أوساط المجتمع اللبناني وهذا جعل ظاهرة الخيم الرمضانية تبدأ الإنحسار بالتدرج حيث لم يعد في إستطاعة معظم رواد هذه الخيم تأمين متطلبات السهرة، فضلاً عن أن حزام الفقر حول هذه الخيم كان يتسع وبحيث إن ثمن وجبة السحور الرمضانية في هذه الخيم يكفي لإطعام مسكين وأفراد عائلته لمدة أسبوع.

وطوال ثلاث سنين كانت الخيم الرمضانية موضع إستهجان ألوف المسلمين الذين تربوا على أن شهر الصوم إنما هو مناسبة للتعبد والتأمل وطلب المغفرة وتنشيط الذاكرة وإيقاظ الوجدان والضمير وسماع الكلام الطيّب تبثه وسائل الإعلام المرئي والمسموع، كما أنه مناسبة للتعفف وصون اللسان والإنصراف إلى أمور الدين بدل الإنشغال بأمور الدنيا من سياسة وغيرها.

تلك هي حال الأكثرية الغالبة من المسلمين اللبنانيين مع ظاهرة الخيم الرمضانية التي إبتكرها التجار لهم كوسيلة من وسائل الترفيه البريء، إلاّ أنها تحولت إلى تقليد غير مستحَب على الإطلاق للأسباب التي أوردناها ولأسباب أُخرى لم نورِدْها ولا يجوز أن نورِدْها.

هذه السنة جاء رمضان ظاهرة غير مستحبة هي الأُخرى وهي ظاهرة التلاسن الإسلامي على مستوى القمة وبما يشبه الطريقة المعتمدة من قِبَل الزجَّالين ومسرحها مآدب الإفطار. وإستطاع رئيس حكومة العهد الجديد الدكتور سليم الحص الذي دشن الظاهرة التي نشير إليها ورئيس حكومة العهد القديم رفيق الحريري الذي قاد بشخصه على غير ما هو متوقع حملة الرد على الحص ومواجهته... إستطاع القطبان المسلمان تحويل مآدب الإفطار إلى ما يشبه الخيمة الرمضانية التي برنامج الترفيه فيها إتهامات وكلام من العيار الثقيل الذي يطرب له أولئك الذين لا يريدون الخير لهما ولا لبلدهما. الحص يتحدث فجأة عن "الأشباح" وعن أجهزة الحريري غير المرئية – من دون تسمية الرجل – التي تعمل في إتجاه التطاول على مقام رئاسة الوزراء. والحريري يعيب على الحص – ومن دون تسمية الرجل – تصرفات وأسلوب تعامُل يتسم على حد قوله (أي الحريري) بالتشفي والكيدية والخفة والإنتقام. ثم يأتي الرد بكلام أكثر قسوة عن العهد الذي كان الحريري أحد أعمدته بل لعله كان العمود الفقري لذلك العهد... وهكذا مما لا يتسع مجال لذِكْره.

وكان لافتاً للإنتباه أن هذا القصف العشوائي الذي إقتصر على طائفة واحدة هي الطائفة السُنية يتم في معظم الأحيان في مأدبة إفطار واحدة يشارك فيها الرئيسان. أما ما بدا أكثر طرافة من ذلك فهو وجود مصفِّقين لهذا التطريب السياسي. كذلك كان لافتاً أن هذا التصعيد في التلاسن جاء بعد زيارة قام بها الحص إلى دمشق تلتها زيارة قام بها الحريري إلى العاصمة السورية. وكان الإستقبال على المستوى الرئاسي لكل منهما لائقاً. وقد يكون كل منهما شعر أن الحُكْم السوري معه، أو إنه لا ولن يتخلى عنه، فإرتأى أن يرفع الصوت أعلى وأعلى، وهي قراءة غير دقيقة للأمور. لكن المؤسف هو أن رفْع الصوت أخذ منحى مواجهة إعلامية من نوع المواجهات بين بعض الأنظمة العربية وأكثرها مدعاة للأسف المواجهة المستيقظة بعد سبات عميق بين العراق وكل من مصر والسعودية.

واللافت للإنتباه أيضاً أن هذا التطريب السياسي إعتمد لغة الإيحاءات. الحص يتحدث عن أمور يفهم سامعوها أنه يقصد الرئيس السلَف بالإسم. والحريري يرُد متحدثاً عن أمور يفهم سامعوها أنه يقصد بها الرئيس الخلَف وأيضاً الرئيس إميل لحود الذي يتبين يوماً بعد يوم أنه أوقع الحريري في فخ المكابرة التي إنتهت بالإعتذار عن تشكيل الحكومة على نحو ما فعلت السفيرة غلاسبي عندما أوقعت الرئيس صدَّام حسين في فخ المغامرة التي بدأت بغزو الكويت وقد تنتهي بحُكم الرجل بعدما قاربت على الإنتهاء من

إلغاء العراق كقوة ذات تأثير في المجالين السياسي والعسكري وصُنْع القرار في منطقة الشرق الأوسط.

ويبقى أن شريحة عريضة من اللبنانيين نحن منهم شاهدوا عبْر شاشة تلفزيون الحريري (تلفزيون "المستقبل") سهرات الخِيَم الرمضانية فتمنوا من منطلَق حبهم للرجل وثقتهم ببرنامجه الوطني والعمراني وإتكالهم على أنه المنقذ للبلد وبالذات لعُملتِه، لو أن تلفزيونه ينأى عن هذه المسليات خصوصاً أن الأكثرية الغالبة من هؤلاء تفضل أن يكون شهر الصوم شهر تعبُّد وليس كرنفالاً وبثاً مباشراً على الهواء لياليه بما تحويه من أكْل وطرب وتبرُّج.

وفي رمضان هذه السنة يلاحظ المرء أن الشريحة العريضة نفسها إزدادت طولاً وعرضاً وكانت تتمنى ألاّ يتحول تلفزيون الحريري إلى ما يشبه إذاعة صوت العرب أيام أحمد سعيد. وما حاجة الحريري إلى الدفاع عن نفسه في معرض مواجهة العهد الذي أقصاه لإعتبارات تتجاوز مَن هم رموز أدوار تنفيذية مثْل الرئيسيْن سليم الحص ورفيق الحريري وتقتصر على مَن في أيديهم صُنْع القرار والذي بات على ما يبدو الرئيس إميل لحود عضواً جديداً مسموع الكلمة ومُهاباً في ناديهم مقبولة عضويته بإجماع الأعضاء.

ونقول ما حاجة الحريري إلى الدفاع عن نفسه ما دامت آثاره تدل عليه في لبنان كما إختصر الشاعر وصْف مَن هم مثل الحريري ويلقون مصيراً كالمصير الذي لاقاه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 13 يناير (ك2) 1999

* * *

المبادرة التي... ضيَّعها العراق

بقدْر ما أثلجت الصدر العربي المبادرة السعودية التي تمثلت بمشروع قرار لرفْع الحظْر التجاري والإقتصادي عن العراق.. بالقدْر نفسه جاء رد الفعل العراقي إزاء هذه المبادرة يبعث على الإستغراب إلى حد الدهشة. وبدل أن يستقبل الحُكْم العراقي المبادرة بالترحيب، أو على الأقل بالتمني لها أن تُحقق إنفراجاً في المأزق الذي يعيشه العراق وتفتح ثغرة في جدار الحصار الدولي عليه، إذا به لا يرُد على التحية بأحسن منها ولا حتى بمثلها ويستأنف إعتماد أسلوب المخاطبة الذي لا يساعد على تأمين الجو الأفضل لخوض مناقشة معمقة على مستوى أهل القرار العربي للمسألة العراقية.

وقد لا تبدو المبادرة السعودية بحجم قدرة المملكة على إيجاد حل لهذه المسألة الشائكة وحجم الطموح العربي إلى خطوة حاسمة، إلاّ أنها مبادرة من النوع الذي يمكن تطويره شرط أن يساعد الحُكْم العراقي على ذلك. فضلاً عن أنها تشكِّل إقتحاماً لأمر كثير التعقيد، وهو ما لا يستطيعه أي طرَف عربي آخر.

وأهمية المبادرة أيضاً في أنها ستشجع أطرافاً دولية كثيرة على أن تتفهم المسألة العراقية وقد يتطور التفهم إلى موقف أفضل تجاه العراق تكون له آثاره الإيجابية في المحافل الدولية. ونقول ذلك على أساس أن العلاقات بين السعودية ومعظم دول العالم وبالذات الدول الكبرى والدول الأوروبية جيدة وأن هذه الدول ومن منطلق الحفاظ على مصالحها تراعي الموقف السعودي بحيث أنها إذا هي لاحظت أن السعودية تطرح رؤية جديدة تجاه المسألة العراقية فإنها ستتفهم هذه الرؤية وستشجعها إن هي لاحظت رغبة المملكة في تحقيق مضمون هذه الرؤية، تماماً مثلما أنها كانت تساير المملكة عندما كانت الرؤية غير متوافرة أو كانت في الإتجاه المعاكس.

ومع أن الحُكْم العراقي يتحسس من مسألة الحلول ذات الطابع الإنساني والمعيشي ويرى أنها تنتقص من عنفوان العراقي، وهو عنفوان تتسم به الشخصية الخليجية عموماً، والعراقي هو إبن الخليج، إلاّ أن أي إختراق للباب الدولي الموصد أمام العراق لا يمكن أن يتم إلاّ من النقطة ذات الطابع الإنساني والمعيشي. ومِن هنا فإن المبادرة السعودية عندما تتضمن تبني قرارات لمجلس الأمن تسمح بدخول جميع المواد الإنسانية من الغذاء والدواء ومواد التعليم فإنها تكون أكثر قوة عند مناقشتها والتداول في شأنها من جانب الأطراف الدولية. كما أن إصرار أصحاب المبادرة على الأخذ بها يكون موضع تفهُّم خصوصاً أن في طيات المبادرة إشارة تُرضي الولايات المتحدة والأطراف الدولية وتتعلق بالموافقة على إستمرار السعي للحؤول دون بناء ترسانة أسلحة كيماوية تقابلها إشارة لمصلحة العراق حيث إنها – أي المبادرة أيضاً – تطالب بالمراجعة العامة للحظْر وتبدي إمتعاضها الشديد من "إزدواجية المعايير الأميركية".

تلك هي روحية المبادرة السعودية والتي على ما يجوز الإفتراض لم تأتِ نتيجة ضغوط تظاهرات في بعض العواصم العربية والإسلامية وإنما لأن المسألة العراقية باتت ومن قبْل العدوان الأميركي – البريطاني

الأخير على العراق بكثير هماً عربياً ثقيلاً. وحتى إذا إفترضْنا أن تلك المبادرة جاءت في أعقاب تلك التظاهرات فإن قراءة المملكة لهذه النقمة الشعبية على العدوان جاءت أكثر واقعية من قراءة الحُكْم العراقي لها، فبينما إعتبرت المملكة تلك التظاهرات تعزز فكرة طرْح مبادرة تكون الخطوة الأُولى على طريق إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأحوال العراقية فكانت المبادرة، فإن الحُكْم العراقي رأى في تلك التظاهرات مناسَبة للتشدد وهو توظيف من جانبه بالغ السوء. ونقول ذلك على أساس أن تلك التظاهرات كانت مناسبة لكي يخاطب القادرين على مساندته وبالذات المملكة العربية السعودية بغير الأسلوب الذي خاطبه أي يستقوي برِد الفعل الشعبي العربي والإسلامي ليطلب من هؤلاء القادرين العمل على مساندته لا أن يستقوي بتلك التظاهرات ليطْلق صيحات الثورة وإسقاط الأنظمة. وهو بالمفردات التي صيغت بها تلك الصيحات وبالتوقيت الذي صدرت الصيحات خلاله أحرج أطرافاً خليجية كانت متعاطفة نسبياً معه وأوقف بغتة مشاعر أطراف عربية وإسلامية كانت على أهبة التفهم، فالتعاطف كما أنه حمل قطاعاً عريضاً من الرأي العام العربي على التساؤل: هل إن الذي يشكو من محنة الحصار يتردد ويرفض ويهاجم مَن يريدون مساعدته على الخروج من محنته، أم أن وطأة المحنة تفرض عليه إلتقاط أي خشبة إنقاذ تمكِّنه من العبور أولاً إلى شاطئ الأمان. وحتى مسألة الإنزعاج من تعبير "شعب العراق" الذي زاد ترداده عن اللزوم من الواجب تفهمُّها ما دام يمكن أن تتقدم عليها مبادرة تحمل في طياتها الرغبة الحقيقية في تحقيق إنفراج يؤدي مع الوقت إلى حل للمسألة العراقية. ومن الجائز الإعتقاد أنه لو لم تكن الرغبة حقيقية لما كانت المملكة ترغب في طرْح مبادرة. وهناك أكثر من وقفة للسعودية لنجدة الثوريين العرب عندما تضيق بهم السبل والذين كثيراً ما أمطروها بالإتهامات والتخوين من وقفة الملك فيصل إلى جانب الرئيس عبد الناصر إلى وقفة الملك خالد والملك فهد إلى جانب الرئيسيْن صدَّام حسين ومعمَّر القذَّافي. كذلك من الجائز الإعتقاد أنها عندما قامت بطرح المبادرة بصيغة الإشارة وليس بصيغة البيان الرسمي فللرغبة في أن يحدُث أولاً تفهُّم عربي لدواعيها ثم للخشية من تعامُل الحُكْم العراقي معها بالطريقة نفسها التي تعامَل بها مع التظاهرات، أي إعتبار طرح مبادرة من جانب السعودية على أنه إنتصار لرؤيته. ولو أن رد الفعل العراقي كان ودوداً ومتفهماً إلى درجة الإمتنان للمبادرة بصيغة الإشارة لكانت حال العالم العربي على غير ما هي عليه الآن من تجاذب ولكانت القمة العربية ستُعقد وستنجز أمراً بالغ الأهمية وهو تحقيق اللقاء ولكان سيحدُث حول المبادرة إجماع. وبالقياس مع الظروف التي يعيشها العالم العربي فإن إنعقاد قمة عربية وخروجها بالحد الأدنى الذي يفتح بعض النوافذ أمام العراق وأمام التعايش العربي ومن دون أن يستثير الولايات المتحدة وبعض حليفاتها، سيكون إنجازاً بالغ الأهمية. ونحن عندما نقول ذلك نأخذ في الإعتبار أن أي مبادرة لا بد أن تراعي الولايات المتحدة بصرف النظر عما إذا كانت هذه المبادرة سعودية أو روسية أو فرنسية أو صينية أو أوروبية، فالعالم الذي نحن جزءٍ منه محكوم، عن باطل بالطبع، بظاهرة الدولة الأعظم التي تفعل ما تريد من دون أن يقف أحد في وجْهها بغير الشجب والفيتو وإستدعاء السفير للتشاور.

ومِن هنا فإن المراعاة لا تعود في هذه الحال سيئة بل لعلها هي ما يجب إعتماده عند صياغة أي مشروع أو مبادرة. ولا نعتقد أن تفضيل الحُكْم العراقي مبادرة أجنبية على مبادرة عربية أمر مستحب إلاَّ إذا كان ينطلق فقط من مجرد الإغاظة لا أكثر وهذا ليس وقته، وهو إنصراف عن الجوهر بدل الإنشغال به.

ويبقى أنه لو كانت المسألة العراقية خاصة بالعرب والمسلمين دون غيرهم لربما كان اللوم العراقي مفهوماً على رغم أن الإيلام العراقي للأمة نتيجة ما حدث يوم الخميس 2 أغسطس/ آب 1990 كان شديداً. ولكن المسألة تجاوزت العرب بكثير بحيث لم يعد من الممكن أن يحدُث مع هذه المسألة ما سبق حدوثه مع المسألة المصرية خلال إنعقاد القمة الإسلامية الرابعة في الدار البيضاء من 16 إلى 19 يناير/ كانون الثاني 1984. وفي تلك القمة فاجأ أحد حكماء العالم الإسلامي في حقبة الثمانينات الرئيس الغيني أحمد سيكوتوري الملوك والرؤساء (وكان الملك فهد سلَّم رئاسة المؤتمر إلى الملك الحسن الثاني) بإقتراح يتضمن أن توجَّه القمة الإسلامية الرابعة الدعوة إلى جمهورية مصر العربية لكي تحتل مقعدها الشاغر في هذا التجمع الإسلامي الكبير. وجاء الإقتراح صاعقاً لأن مسألة عودة مصر التي سبق إسقاط عضويتها في الجامعة العربية ثم في منظمة المؤتمر الإسلامي بسبب خروج الرئيس أنور السادات على الإجماع العربي والإسلامي وإبرامه صلحاً مع إسرائيل، لم تكن واردة في جدول أعمال القمة الإسلامية الرابعة. ولكن كان لا بد من إيجاد حل لهذه المسألة خصوصاً بعد ما كان صانع صُلْح مصر مع إسرائيل قد إغتيل قبْل

أربع سنوات وتسلم الحُكْم نائبه حسني مبارك. وعلى رغم المعارضة الحادة والشرسة لإستعادة مصر من جانب ليبيا وسوريا واليمن الجنوبية والجزائر وتونس لأن إستعادة مصر إلى منظمة المؤتمر الإسلامي ستتبعها إستعادتها إلى عضويتها في الجامعة العربية، وهذه الدول لا تريد ذلك وتشترط إلغاء معاهدة كامب ديفيد رمز الصلح المصري – الإسرائيلي، إلاّ أن القمة الإسلامية الرابعة كانت بالأكثرية (32 صوتاً من أصل 35) قمة بدء عودة مصر إلى منظمة المؤتمر الإسلامي وهو ما حدَث بعد ذلك عندما شارك الرئيس مبارك في القمة الإسلامية الخامسة التي عُقدت في الكويت. وتلت العودة إلى المنظمة الإسلامية إستعادة العضوية في الجامعة العربية. وكل ذلك نتيجة أن الرئيس مبارك مارس من التفهم والمرونة والمسايرة ما جعل عملية العودة تتم بالحد الأدنى من المعوقات.

وفي تقديرنا ومع الأخذ في الإعتبار إختلاف الظروف وطبيعة المسألة، فإن المبادرة السعودية كان يمكن أن تكون شبيهة بعض الشيء بالمفاجأة التي طرَحَها الرئيس سيكوتوري، لو أنها إستُقبلت من الحُكْم العراقي بالتفهم والمرونة، وكان يمكن للقمة التي لا تنعقد أن تنعقد وأن تتفهم الولايات المتحدة الرغبة العربية في لمّ الشمل وإنهاء المحنة العراقية من دون إعتماد الأسلوب الذي يستفز ويتسبب في عدوان مثْل العدوان الأميركي – البريطاني الأخير الذي ألحق الضرر الفادح بالعراق إلاّ أنه جعل الأشقاء يبحثون عن الصيغة التي هي بداية الحد الأقصى مما يمكن عمله... وكانت السعودية هي السبَّاقة بمبادرة ضيَّعها الحُكْم العراقي... وأي مبادرة أضاع.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 يناير (ك2) 1999

* * *

أمثولتان من إيران
إلى بعض الثوريين العرب

تصدر بين الحين والآخر عن الحُكْم الثوري في إيران وبالذات بعد فوز السيد محمد خاتمي بمنصب رئيس الجمهورية عام 1997، إشارات تؤكد أن الأخذ بالديمقراطية أسلوباً للتعامل ممكن وبالتالي فلا موجب للقمع ولا بأس بتعدد الأفكار والإتجاهات.

وأحدَث ما إستوقفنا من هذه الإشارات إثنتان، الأُولى ان الرئيس خاتمي الذي على ما يبدو يشاهد التلفزيون كثيراً ويقرأ بنفسه الصحف بدل أن يكتفي مثْل حكام آخرين كثيرين في العالم الثالث بالقصاصات التي تُرفع إليه، تابع مقابلة أجراها التلفزيون مع روح الله حسينيان رئيس «مركز وثائق الثورة الإسلامية»، وهو أحد زعماء التيار المتشدد في الحُكْم الإيراني. وقد إتهم حسينيان في هذه المقابلة مؤيدي الرئيس خاتمي بالضلوع في موجة الإغتيالات التي إستهدفت خمسة من المعارضين والكتّاب. ولمجرد أن إنتهت المقابلة ومِن قبْل أن يتقصى رد الفعل عليها في الشارع الإيراني أبدى إمتعاضه أمام بعض مستشاريه من الطريقة التي أدار بها التلفزيون النقاش مع روح الله حسينيان وأنه بدل النفى والتوضيح إرتاى أن يتقدم مكتب رئيس الجمهورية بشكوى ضد التلفزيون. وتلك حالة فريدة حيث أننا لم نسمع أن رئيس بلد من بلدان العالم الثالث إنزعج من مقابلة بثها التلفزيون الرسمى، فقرر رفْع دعوى – من خلال مكتب الرئيس – على هذه الإدارة الإعلامية التي باتت بالغة الأهمية.

وقد يكون الرئيس خاتمي إرتأى مثل هذا الرد لأنه بموجب صيغة الحُكْم في الجمهورية الإسلامية في إيران لا يملك رئيس الجمهورية سُلطة معاقبة رئيس التلفزيون بالطرد أو إحلال آخر مكانه لأن مرشد الجمهورية علي خامنئي هو من يعيّن رئيس التلفزيون الذي يتمتع بدور وإمتيازات لا يتمتع بها رئيس تلفزيون في دول العالم، حيث أنه يشارك في إجتماعات مجلس الوزراء من دون أن يحمل حقيبة وزارية. كذلك قد يكون الرئيس خاتمي إرتأى إقامة الدعوى لأنه يرى في الإتهام ما من شأنه إلقاء ظلال على أفكاره التي بفضل طبيعتها الليبرالية أمكنه تحقيق فوز مبهر في إتخابات الرئاسة لم يحصل عليه أحد في العالم الثالث. وعندما يقال ومِن على شاشة التلفزيون الإيراني أن الرئيس خاتمي ضالع في شكل أو آخر فى موجة إغتيالات إستهدفت أهل الفكر والرأي، ماذا يبقى من خاتمي وهو الذي إلتف الرأي العام الإيراني حوله آملاً أن تسود في عهده التعددية وحرية الرأي والممارسة الديمقراطية.

وبصرف النظر عما إذا كانت هذه الدعوى ستتطور إلى أزمة صامتة أو ذات ضجيج على نحو الأزمة التي نشأت عن إتهام أحد الخاتميين رئيس بلدية طهران بالفساد المالي، وكان الهدف في المرة

السابقة هو إلقاء ظلال على سمعة نظافة الكف لدى الرئيس خاتمي ومَن هم حوله... بصرف النظر عن ذلك فإن هذه الممارسة تترك إنطباعاً إمكانية الممارسة الديمقراطية حتى إذا كانت هذه الممارسة مقتصرة على أهل الإتجاه الواحد وإنعكاساً لصراع مرير بين أجنحة داخل هذا الإتجاه الذي ينفرد بحُكم البلاد. وما كان مؤملاً بعد الفوز المبهر لخاتمي هو توسيع رقعة الممارسة بحيث لا تبقى حكراً على أهل الإتجاه الواحد وبحيث تشكِّل حافزاً لكل المعارضين أن يعودوا إلى بلدهم ويمارسوا المعارضة في ظل أجواء تتم المحاسبة فيها ضمن ما يجيزه القانون على نحو ما فعل الرئيس خاتمي عندما إرتأى إقامة دعوى على تلفزيون إيران لتبرير إتهامات تنال من رصيد الرئيس الذي يواصل التبشير بإمكان أن يتعايش الجميع تحت مظلة القانون الحازم والعادل وليس تحت مظلة الشرعية الثورية وما تتضمنه من قساوة في التطبيق تصل أحياناً إلى درجة الظلم، وعند التأمل في أحوال بعض الدول الثورية نجد من الأمثلة الكثير.

وأما الإشارة الثانية فتتعلق بظاهرة بات من الضروري وضْع حد لها، ونقصد بها ظاهرة إحراق العلَم الأميركي من جانب بعض الغاضبين والمحتجين العرب والمسلمين من السياسة الأميركية وعليها. وعندما يبادر أحد قادة الحرس الثوري الإيراني ويوصي لمناسبة يوم القدس (صادف الجمعة 15 يناير /كانون الثاني 1999) جموع المتظاهرين بعدم إحراق العَلَم الأميركي، فإن معنى ذلك أن تبدلاً بالغ الأهمية أيضاً طرأ على الأسلوب الثوري في الإحتجاج. كما أن الإجتهاد الذي أورده هذا القائد المشبع بثقافة مواجهة «الإستكبار العالمي» والذي كثيراً ما شجع في السابق ظاهرة إحراق الأعلام الأميركية يدعو إلى التأمل حيث أنه أورد عبارة جاء فيها «إن علَم أي بلد يمثِّل الهوية الوطنية لشعبه، وهي هوية ثابتة لا تتغير بتغيير الحكومات...». ومثل هذه العبارة كانت تتسبب في الماضي لمَن يقولها بالسجن أو بإلصاق تهمة الخيانة والإنهزامية به. وخيراً فعل هذا القائد الثوري عندما أفتى بعدم إحراق العلَم الأميركي، والفضل أولاً وآخراً في ذلك لرياح إعادة النظر التي هبت على إيران مع وصول خاتمي إلى سدة الحُكْم.

وما يتمناه المرء على بعض الثوريين العرب هو أن يكفوا عن هذا التقليد المستهجَن ما دامت الثورة الإيرانية التي لها حضور في تفكيرهم وممارساتهم قررت ذلك، أو إنه إذا كان لا بد من إحراق شيء ما لإخراج الغضب الذي داخل النفوس فليكن إحراق دمية تمثل رئيس الولايات المتحدة أو أحد كبار المسؤولين فيها، وذلك لأنه فى كل مرة يحدُث إحراق للعلَم الأميركي تستفيد إسرائيل من ذلك. ولكننا عندما نقول هذا الكلام لا نستبعد، ما دام الصراع داخل إيران بين المتشددين والراغبين في الإنفتاح على العالم بعقلية ليبرالية متحررة نسبياً لم يُحسم بعد، أن تحدُث تظاهرة ذات يوم داخل طهران أو في إحدى المدن الإيرانية ويتم خلالها مهرجان لإحراق المزيد من الأعلام الأميركية بدل العَلَم الواحد.

ولكن يبقى رغم ذلك القول إن هذه التحولات تبشر بالخير. والإشارتان اللتان تناولهما هذا المقال هما أمثولتان من إيران الثورية برسم الثوريين العرب، لعل وعسى يحدُث نوع من التقليد لهما ويحدُث أيضاً إقتداء بما يفعله الرئيس خاتمي الذي كلما أراد المحيطون به الإكثار من الإجراءات الأمنية حرصاً على حياته، بعدما نشرت إحدى الصحف الإيرانية أن إسمه موجود على لائحة تصفيات أعدها المتشددون وتشمل 179 شخصية إيرانية، نسمعه يقول: «ما من أحد يتجرأ على التفكير في قتلي لأنه بعد ذلك سيضطر لمواجهة عشرين مليوناً من المؤيدين لي...».

فهل سيلتقط بعض الثوريين العرب الإشارتيْن، أم أنهم سيفضلون المراوحة مكانهم؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 27 يناير (ك2) 1999

* * *

محنة الحسين والحسن... وأسبوع الآلام الأردني الهاشمي (مقالتان)

● المقالة الأولى: مقدمات المحنة... وفن ترتيب وراثة العرش

بعد حوالى ثلاثة أشهر يكمل الملك حسين عامه السادس والأربعين في الحُكْم. وطوال هذه السنوات كان أحد أبرز الزعماء العرب، وكان في إستمرار اللغز الذي ليس سهلاً حله. وواجه الملك حسين، منذ تسلَّم الحُكْم في الثاني من مايو/ أيار 1953 تحديات كان في إستمرار يخرج منها سالماً، إلاّ أن مرض السرطان

الذي أصـــيب به قبْل عامَيْن كان بمثابة التحدي الصـــعب المراس، الذي ليس من الســـهل قهره إلاَّ إذا تدخلت العناية الإلهية وأعانت أبا عبدالله على التعافي.

وطوال ستة أشـهر أمضـاها في العلاج في "مايو كلينيك" وإنتهت مرحلتها الأولى مطلع ينـاير/ كـانون الثاني 1999 أظهر الملك حسـين شـجاعة في التعامل مع المرض، وأرســـى تقليداً بالغ الأهمية هو توجيه رسائل ذات طابع وجداني إلى الشعب الأردني هي في الوقت نفسه، نشرة صحية عن حاله ومدى تجاوبه مع العلاج. ونحن إعتدنا على إدارة المستشفيات والهيئات الطبية تصدر النشرة الصحية عندما يكون أحد الحكام في الوقت نفســـه يتلقى العلاج ويحيط شـــعبه بآخر التطورات.

ومن الواضـــح أن الملك حســـين، الذي هو أدرى بمشاعر أبناء قومه وأبناء أمته، إعتبر أن هؤلاء عندما قرأوا وسـمعوا بأنه أصـيب بالسـرطان إفترضـوا أن لا أمل في الشـفاء، وأن الملك الذي أحبه البعض وعاداه البعض ولقي من البغضـــاء الثورية ما لم يلْقه ملك، يعيش أيامه الأخيرة. ومِن هنا فإن الرسائل كان القصد منها القول، ما معناه، أنه على موعد مع الشـفاء وأنه عـائـد. وحتى إذا كـان الأمر لا يخرج عن الإطـار المعنوي فإنه جيد، لأنه وضـع موقتاً حداً لما أصـاب الأردنيين والفلســطينيين على حد ســواء والذين وجدوا أنفسهم في المجهول. ووضع موقتاً أيضاً حداً لبعض الحســـابات العربية والدولية المبنية على أســـاس دقة المرض الذي يتعالج الملك منه.

لكن في الوقت نفســه، وكما أظهرت التطورات فإن الملك حسين وهو يخضع للعلاج الذي أخذ من نضارة وجهه الكثير لم يغِبْ عن لحظات قرارات مصـــيرية كتلـك اللحظـات التي جمع فيهـا الرئيس كلينتون في البيت الأبيض الرئيس ياســـر عرفات ورئيس وزراء إسـرائيل نتنياهو. وكانت خطوة شـجاعة منه أن يأتي إلى واشـــنطن ليشـــارك في ذلك اللقاء ثم يعود إلى العلاج الكيمائي في "مايو كلينيك" وتحمُّل الألم الشديد الذي يسببه ذلك العلاج.

كذلك إنه في الوقت نفسه كان يخطط ومن منطلق المتفهم لطبيعة مرضه لما يجب أن تكون عليه مملكته في القرن الواحد والعشـرين المتبقي على بدئه بضـعة أشـهر، قد تكون أشـهر مواصـلة العلاج بالنسـبة إليه. ومن أجْل ذلك فإنه عندما حرص خلال أيام النقاهة القليلة التي أمضـاها في منزله في لندن قبْل أن يغادر إلى عمـان، على أن يتوجـه إلى مطـار هيثرو يوم الجمعة 8-1-1999 بطائرة هليكوبتر يقودها بنفســـه لإستقبال شقيقه وليّ العهد الأمير حسن ثم يصطحبه إلى المنزل حيث تناول ومعه نجله الأمير راشـــد الإفطار في نهاية يوم الصـــيام... إنه عندما فعل ذلك فلأنـه أراد إبلاغ وليّ العهـد بـأن الملـك مـا زال في الوضع الصحي الذي يسمح له برسم مستقبل المملكة. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن خطوة الملك هذه بدت تمهيداً للتغيير الحاســـم الذي كان مجرد تكهنات ثم ما لبث أن بات حقيقة بعدما عاد إلى عمان يوم الثلاثاء 19 يناير 1999. والقول بأنه تمهيد على أساس أنه في مثل هكذا ظروف فإن الذي بيده قرار التغيير (وهو هنا الملك حسين) يبالغ في التكريم مَن هو برسم التغيير (وهو هنا الأمير حسن).

واللافـت للإنتبـاه أن الملـك قـدّم إلى الأردنيين والفلســطينيين والآخرين مســألة التغيير الحاســم (أي المتعلق بولاية العهد) في شـــكل جرعات. فهو بعد وصـــوله إلى عمان (وقد حرص أيضـــاً على أن يقود الطـائرة بنفســـه كما في مرات كثيرة قبْل إصـــابته بالسرطان) أبلغ شبكة "سي. إن. إن" في مقابلة مثيرة أجرْتها معه أن إختيار شـقيقه ولياً للعهد تم في مرحلة لم يكن فيها خيارات أُخرى. ثم زاد الجرعة قليلاً عندما قال بلهجة المنتقد "أعتقد أن على وليّ العهد أن يعمل في الخلفية إلى درجة كبيرة". ثم أضـــاف المزيد عندما لم يسـتقبل الأمير حسـن أولياء العهد الخليجيين الذين أتوا في اليوم التالي لتهنئة الملك بالعودة، وفوجئوا بأن مَن يســـتقبلهم هو الأمير عبدالله، النجل البكر للملك. وفي الغـالـب إن إســـتغرابهم لهـذا الأمر وكيف أن الإسـتقبال لم يتم على مسـتوى وليّ العهد كما تفترض أصـول البروتوكول ذلك، تبدّد مع وضـوح الصـورة لهم وإعتبروا أن الملك حسين أراد تكريمهم عندما أوكل إلى نجله الأمير عبدالله إســـتقبالهم...أي إلى وليّ العهد غير المعلَن بعد والذي هو ملك الأردن للقرن الواحد والعشرين. وإلى ذلك كانت هنالك إشارة لافتة صـدرت في اليوم نفســـه عن الملك حيث إنه بعد نزوله من الطائرة والصـــلاة ركعتيْن على أرض المطار قال بعد مصافحة مستقبليه من أفراد العائلة والمسؤولين إضافة إلى الرئيس علي عبد الله صـــالح وأمير دولـة قطر الشـيخ حمد بن خليفة "هناك إصـلاحات سـتُتخذ في مصـــلحة الشـــعب وعلينا مراجعة الأمور ومعرفة ما ينبغي عمله. إنني أشكر حكومتي على أدائها وأشكر

أيضـــاً نـائبي على كل مـا فعلـه، وقد بـذل مـا في وسـعه...". وهي إشـارة مهمة لأن الملك تجنَّب تسـمية الأمير حسـن كوليّ للعهد ولأنه شكره بعدما كان شكر الحكومة على الأداء خلال فترة الغياب للعلاج.

وجاءت الجرعة الأكثر قوة عندما لم يعُد الأمير حســين يظهر ثم أوكل الملك إلى مَن يُبلغ الأمير بأن شـــقيقه الملك يرى إعفاءه من منصـــبه كوليّ للعهد. ومثل هذه الخطوة ذات معنييْن: الأول هو أن الملك لم يتحمل إبلاغ شـقيقه مباشـرة فأوكل المهمة إلى طرف ثالث. وأما المعنى الثاني فهو أن الملك أوحى لشـقيقه بالمغادرة لتحاشي صيغة إعفاء لا يريدها الأول وقد لا يتحملها الثاني وهذا ما كاد يفعله الأمير حســـن الذي زار شـــقيقه الملك يوم الجمعة 22 يناير/كانون الثاني 1999 ليســـتأذنه بالســـفر خارج البلاد بعدما كان أبلغ محيطين به وبالملك أنه "يحترم كجندي التراتبية". إلاّ أنه ولتقديرات عائلية أرجأ السفر.

وأتبع الملك حســـين الجرعة الأكثر قوة بكلمة بثها التلفزيون الأردني وقال فيها "لا بد لنا عما قريب من مراجعة شاملة لمسيرتنا الوطنية ومعالجة لكل القضـايا والتحديات التي تشغل بالنا أو تعيق مسيرتنا المباركة". وتذكَّر مشـاهدوه وهم يسـمعون كلمته هذه رسـالة كان بعث بهـا إلى رئيس مجلس الأعيـان يوم 27 نوفمبر/ تشـــرين الثاني 1998 وقال فيها إنه ســـيعود من رحلة علاجه لإتخاذ إجراءات تستهدف طمأنة الأردنيين إلى مستقبلهم في ضوء القلق المتزايد جرَّاء غيابه...".

ويوم الإثنين 25 ينـاير/ كـانون الثـاني 1999 أذاع الملك حسـين قراره في شـكل رسـالة مذاعة إلى شـقيقه الأمير حســـن بـدا من بعض مفرداتهـا أن التغيير المتوقع كان أكثر من إعفاء وأقل من خلْع. وفي هذه الرســـالة قال الملك إنـه عاد إلى عمـان من رحلتـه العلاجيـة وفي خـاطره التنـازل عن العرش لصـــالح شـقيقه، لكنه أضـاف مفسراً قراره العودة عن تلك النية، بـالقول "جُرحتُ وأُســـرتي الصـــغيرة بـالهمز واللمز والإفتراء، وأعني بهـذا زوجتي وأبنـائي" من قِبَـل المحيطين بولي العهد الأمير حسـن. وقال أيضـاً إنه تدخَّل وهو في فراش المرض "لمنع التدخل في شـؤون الجيش العربي بالتغيير الذي بدا لي وكأنه إســـتهدف تصـفية حسـابات وإجراء إحالات على التقاعد لأكفاء مشـهود لهم بالولاء"، موضـحاً ومسـمياً أن في طليعة المسـتهدَفين في قرارات التغيير رئيس الأركان المشـير الركن عبدالحافظ مرعي الكعابنة (ربما لأنه من أصـل فلسطيني) ثم زاد في التوضـيح وبصـيغة إتهامية قائلاً إن وليّ العهد الأمير حســن كان يســعى لتغيير قيادة الجيش وتســييســه وتغيير ســفراء... أي بما معناه إن الحسن كان سينقلب على الحسين، أو إنه كان يستعد مبكراً لعهده الذي سيبدأ بعد غروب شمس عهد شقيقه الملك.

وقـد تكون "اللائحـة الإتهـاميـة" التي أورد الملـك حسـين مضـمونها تكونت في ضـوء ما سـمعه الملك، وهو قيد العلاج، من عشـرات المسـؤولين والسـياسـيين والأعيـان الـذين زاروه، وأبرزهم مـدير الإســـتخبـارات العـامة الفريق ســـميح البطيخي. فقد خف هؤلاء إلى الولايـات المتحـدة لإطلاع الملـك على مـا يـدور في كواليس ملكـه. ومن هنـا جـاءت رســـالتـه إلى رئيس مجلس الأعيان التي أشـرنا إليها وهو قصَـدَ منها إفهام شقيقه وليّ العهد أنه بات ملماً بما يجري.

وهكـذا فـإن الأردنيين الـذين كـانوا يمنون النفس بمشاهدة الملك على شاشة تلفزيون بلدهم يروي لهم ما يطمئنهم ســـمعوا منه ما أقلقهم وشـــعروا أن في جو الأسـرة الهاشـمية غيوماً داكنة. وزاد بعض الشـيء من قلقهم أن الملك كان غير مرتاح وهو يتلو رسـالته التي أعقب بثها إعلان الإرادة الملكية التي تضـمنت إختيار الأمير عبدالله ولياً للعهد ومن دون إشـــارة إلى الأمير حسن.

وهكـذا إختلطـت أهم لحظـة فرح في حيـاة الملـك حسين هي لحظة إختياره نجله البكر عبدالله ولياً للعهد بأهم لحظـة حزن في حياتـه هي لحظـة إتهـام مَن هو ولي لعهده منذ 33 عاماً شـقيقه الأمير حســن بالغمز واللمز والافتراء والتبكير بإنشاء دولة الحسن في مملكة الحسين.

... وإختلطت اللحظتان بأوجاع الســـرطان الذي لولاه لما كـان لهـذه المفاجـآت أن تحـدث على النحو الذي جاءت عليه.

* * *

● المقالة الثانية: أسبوع الآلام الأردني:

هنـالك أكثر من حيثية لإختيـار الأمير عبدالله بن الحســـين ولياً للعهـد في المملكـة الأردنيـة. فهو في الدرجة الأُولى يحمل إسـم عبدالله. ومنذ أن رُزق الملك حسين به كان قراره أنه هو ملك المستقبل.

وهو لم يســـمه «طلال» تيمناً بإســـم والده الملك طلال وإنما ســـماه عبدالله تيمناً بإســـم جده (أي جد الحســـين) الملك عبدالله وكأنما يريد الحســـين بذلك أن

يرُد الجميل للجد الذي له الفضـــل في أنه إختاره ملكاً للأردن والذي رعاه ورباه وكان الجد والأب في الوقت نفسـه، هذا عدا أن صـدمة لحظة إغتيال الملك عبدالله أمام باب المسجد الأقصـى في القدس يوم الجمعة 20 يوليو/ تموز 1951 إستمرت على ما يبدو محفورة في وجدان الملك حســين طوال هذه الســنوات. وإختياره النجل البكر عبدالله ليكون وليّ العهد أو بالأحرى ملك الأردن لما يكتبه الله من العمر لـه في القرن الواحد والعشرين، هو بمثابة الإنتقام المؤجل من الذين أطلقوا الرصـــاص على جده وهو في طريقه لتأدية صـــلاة الجمعة فى المسجد الأقصـى الذي إنتهى أمره إلى أنه تحت الإحتلال الإسرائيلي منذ العام 1967 وحتى عام يصعب تحديده.

والأمير عبدالله أيضـــاً هو الوريث الشـــرعي بحكم الدســـتور الذي ينص على أن «ولاية الملك تنتقل من صـــاحب العرش إلى أكبر أبنائه ســـناً على أنه يجوز للملك أن يختار أحد إخوته الذكور...».

والأمير عبدالله أيضـاً هو الإبن الذي لقي من والده الحســين كل الإهتمام ليس فقط لأنه يحمل إســم جده وليس فقط لأن الدســـتور ينص على ذلك، وإنما لأنه أول الذكور. وبالنسـبة إلى ملك مثل الحسـين ومملكة مثل الأردنية الهاشـــمية فإن ذلك معناه ضـــمان أمر الإستمرارية خصـوصـاً بعدما كانت ثمرة الزواج الأول للملك حسـين من الشـريفة دينا عبد الحميد، طفلة هي الأميرة عالية التي بموجب الدستور لا ترث مُلكاً. وإلى ذلـك فـإن الـذَكَر الأول يلقى عـادة من الاب رعـايـة وإهتماماً بحجم فرح الأب بقدوم الإبن. وإذا كانت هذه هي الحال مع أب عادي يقود عائلة صـــغيرة ضِـــمن صـيغة المؤسسـة الزوجية فكيف إذاً تكون بالنسبة إلى ملك يقود مملكة مترامية الأطراف وشـــاءت أقدارها أن تكون في قلب العواصـف التي تلفح الحياة السـياسـية في منطقة الشـــرق الأوســـط. وعند التأمل في الأمير عبدالله شـكلاً وموضـوعاً ومضـموناً نرى فيه أنه والده في شـبابه وأنه تفهَّم جيداً ما يريده الحسـين له وهو أن يكون مزيجاً منه ومن الجد الذي يحمل الإبن إســـمه (أي عبدالله).

والأمير عبـدالله هو الـذي يمكن أن يُبقي إســـم الحسـين على الألسـنة وفي الوجدان ما دام عبدالله هو وليّ العهد في حياة والده وهو الملك فى المســـتقبل. والفرق كبير بين أن يقال الحســـن بن طلال وأن يقال عبدالله بن الحسين. وفي زمن الصـحة الموفورة لم يكن الأمر يعني شـــيئاً بالنســـبة إلى الملك حســـين لكن المســـالة إختلفت بعدما داهم الســـرطان جســـد الملك وتزايدت حدة العلاج وقســـاوته وبانت الآثار على الملامح.

والأمير عبدالله هو الذي يمكن أن يحل للوالد الملك العقدة التي تنشأ عادة عن تكاثُر الأشقاء وتتسبب في حيرة عند الإختيار من نوع حيرة الخليفة المنصور أمام ولديْه الأمين والمأمون. هذا مع الأخذ في الإعتبار أن غياب الزوجـة الثـالثـة للملـك حســـين الأميرة علياء الفلســطينية الأصـــل التي لقيت مصـــرعها في تحطُّم طائرة هليكوبتر يحذف طرفاً من الصـراع. وفي الغالب إن هذا الصـــراع ســيكون تحت الســيطرة ما دام الملك حسين يتعافى وربما قد يكون هنالك حسْم مبكِّر للأمر أي بما معناه إن الملك حســين وهو يواصـــل التعافي يضع وبما يشبه الوصية تسلسلاً لتوريث العرش بحيث ينال إبن الراحلة علياء فرصـته وينال أحد إبنيْ الزوجة الوحيدة على ذمة الملك أي الملكة نور فرصـــته وهو أمر يأتي في أولويات الملك نتيجة بضـــعة عوامل أهمها أن الملكة نور لازمت زوجها في فترة المرض المستمرة وأنه لا بد من مكافأة مجزية تتجاوز الإشادة التي أوردها في كلمته يوم عودته إلى عمان عندما قال إنها «عانت الكثير من المفاجآت غير الســـارة أثناء رحلة العلاج هي والأمير حمزة المنتظِم في الدراسة في كلية ساند هيرست». وهنا تجدر الإشارة إلى مصادفة أن للملك حســـين إبنيْن مِن كل من زوجتيْه الثانية والرابعة.

من الأميرة منى البريطانية الأصـــل والتى كانت تحمل إسـم طوني غاردنر له إبنان عبدالله (36 عاماً) الذي بات ولياً للعهد ومَلكاً للمســـتقبل وفيصـــل (32 عاماً) الضـابط الطيار. ومِن الملكة نور له حمزة (18 عاماً) وهاشـــم (15 عاماً). وأما مِن زوجته الثالثة الراحلـة الملكـة علياء فلـه إبن واحـد هو علي (24 عامـاً). وهنـا لا بـد من ملاحظتيْن، الأُولى إن الأمير عبدالله نال فرصـته وبالتالى فإن شـقيقه فيصـل ليس وارداً وفي الظروف الطبيعية فى مسلسل التوريث. أما الملاحظة الثانية فهي أن للأشقاء الباقين ميزة لم ينلها الإبنان الأولان (عبدالله وفيصـــل) وهي أن والدة علي حملت لقب ملكة وأن والدة كل من حمزة وهاشم تحمل اللقب نفســـه، بينما بقيت والدة عبدلله وفيصـــل تحمل فقط لقب أميرة وهو أمر طبيعي ما دامت غير عربية الأصـــل مثل علياء الفلســطينية الأصـــل وليزا حلبي

(الأميركية والتي هي عربية الأصل) التي صار إسمها بعد زواجها وإعلان إسلامها الملكة نور.

ولكن ثمة نقطة بالغة الأهمية تكون ورقة في يد عبدالله بعد أن يصبح ملكاً وهي أن يقوم بعد ربع قرن أو أكثر أو أقل حسب ظروفه الصحية والإستمرارية وما دام الدستور لم يتعرض إلى أي تعديل، على إختيار نجله الذي يحمل إسم جده الحسين (هو الآن في عامه الثاني) ولياً للعهد وهو أمر يشعر الوالد الجد الآن أنه من الأمور التى تسر القلب لأن الحفيد سيكون الحسين الثاني. وفي الغالب إن هذا ما يجول فى خاطر الملكة نور ومنذ الأن والتي تتطلع إلى أن يكون إبنها هو الملك بعد عبدالله ومثل هذا الأمر لا يكون مؤكداً فى حال بقي الدستور على ما هو عليه.

ويجد المرء نفسه عند التأمل في الذي جرى داخل البلاط الهاشمي فى الفترة بين وصول الملك حسين إلى عمان يوم الثلاثاء 19 يناير/ كانون الثاني 1999 ويوم الإثنين 25 يناير، يرى وبصيغة الإستنتاج والإجتهاد أن الملك لم يتريث أسبوعاً كاملاً لكي يصدر الإرادة الملكية إلاّ للإطلاع على مزيد من الوقائع التي تشكِّل حيثيات لإصدار الحكم القاسي على شقيقه الحسن ومنها ما يتعلق بتغييرات جوهرية في الجيش وتغييرات نوعية في السفراء وهي تغييرات (إضافة إلى حرص الأمير حسن على أن يكون له داخل الحكومة خمسة وزراء وإلى التثبت من كلام يتعلق بالملكة نور بصيغة الغمز واللمز منسوب إلى حلقات داخل ديوان وليّ العهد) عززت الإقتناع لدى الملك بأن شقيقه مضى بعيداً في بناء ما يجوز إعتباره «دولة الحسن في مملكة الحسين».

كذلك يجد المرء نفسه يفترض أن غضب الملك من الأمير حسن كان عميقاً وإلاّ لما كان أدانه علناً أمام الأردنيين وأمام أفراد الأسرة الهاشمية وكأنما أراد من ذلك الإيحاء بأنه لا موقع للحسن بعد الآن في الحُكم إلاَّ اذا إرتأى الملك بعد حين أن يصفح بهدف توحيد الصف الهاشمي حول نجله البكر عبدالله الذي لا بد، وبالذات في المستقبل في حال تباطأ تعافي والده الملك، يحتاج إلى الإستفادة من تجربة عمه الحسن العريقة في الحُكْم وذلك لأن وصايا الوالد وحدها لا تكفي. فالحسن الذي أفلح في إستقطاب النخبة حوله وبات له «لوبي» في أوساط المثقفين العرب كان حاضراً في القرار الأردني طوال ثلاثة عقود وكان صاحب موقف وهذا ما أشار إليه الملك في رسالة الإعفاء التي تضمنت الإدانة العلنية عندما قال مخاطباً شقيقه الأمير حسن: «عدتُ إلى الوطن وفي خاطري التنازل عن العرش لصالحك، رغم بعض التباين بيننا بين الحين والآخر...».

وقد يساعد رد الحسن في تضميد جراح الملك مما فعله شقيقه أو مما سمعه منسوباً إليه. وفي رده قال الحسن: «إنني أيها الأب والأخ والصديق ويا سيدي الملك الجليل، أجد نفسي اليوم بعد أن خدمتُ ولياً لعهدك الزاهر منذ بدايات شبابي وحتى هذا اليوم الذي خط فيه الرأس المشيب، أجد نفسي في حالة أضعها بين يديك وأنصاع معها لأمركم السامي الكريم...».

ولكن هذا الإنضباط الذي لا خيار أمام الأمير حسن دون الإلتزام به لا يعني أن الآلام التي أصابته من هذه الإدانة العلنية والتي هي مثابة إهانة وجهَّها شقيقه الملك إليه ومن دون إتاحة المجال أمامه لكي يوضح الدوافع والإجتهادات، لم تكن شديدة القساوة على نفسه.

ولعل هذا ما دفع وليّ العهد الجديد الأمير عبدالله ومعه شقيقه الأمير فيصل وشقيقه من والده الأمير علي إلى زيارة عمهم الأمير حسن بعدما كانت طائرة والدهم الملك أقلعت من المطار في إتجاه الولايات المتحدة، وهي عودة مفاجئة لأن برنامج الملك كان البقاء في عمان شهراً على الأقل. وليس واضحاً ما إذا كانت هذه العودة المفاجئة ناشئة عن رغبة الملك في أن يبقى بعيداً عن تفاعلات قرار التغيير الذي إتخذه أم أنه توعُّك من جديد نتيجة تعرُّضِه للبرد والمطر يوم العودة وركوبه سيارة مكشوفة لتحية الناس ثم نتيجة الإرهاق النفسي والوجداني طوال أسبوع الآلام الأردني.

وثمة تساؤل هنا: ما الذي جعل الملك حسين يسترجع أمانة ولاية العهد التي وضعها لدى شقيقه الأمير حسن بقوة الإرادة المَلكية المقرونة بالإدانة وليس بترك المجال أمام الشقيق يعيد الأمانة بكل الهدوء الذي لا يثير التكهنات ويترك الأُسرة الهاشمية أمام الاردنيين في وضْع الأُسرة المنقسمة والتي لم يوحِّدها مرض سيدها؟

وخلاصة الامر إننا مع نهاية القرن العشرين نجد أنفسنا أمام ظاهرة لم تكن واردة فى الحسبان وهي التي تمثلت فى أن ولياً للعهد أحيل على المعاش بعد خدمة سنة وان إحالته كانت شبيهة بعض الشيء بالطريقة التي إبتكرها الثنائي اللبناني الحاكم العماد إميل لحود والدكتور سليم الحص وهي وضْع بعض رجال الصف

الأول في الإدارة اللبنانية بتصـــرف رئيس الوزراء أي أنهم مصـروفون من الخدمة وغير مصـروفين وأبرياء وغير أبرياء وعائدون وغير عائدين. كذلك نجد أنفسنا أمام عهد جديد في الأردن سيكون الشق الثانوي من النص الدســـتوري أي «يجوز للملك أن يختار أحد إخوته الذكور» متقدماً عملياً وأهمية على الشـــق الرئيسي من النص أي «ولاية الملك تنتقل من صاحب العرش إلى أكبر أبنائه ســناً...». وفي حال ســارت الأمور بهدوء ومن دون مفاجآت غير ســـارة نتيجة المرض أو الإحباط الشـديد الوطأة ومداواته بأسـلوب درامي أو الإنقلابات أو الإجتياح، فإن ملوك الأردن للقرن الواحد والعشـــرين هم على التوالي عبدالله بن الحسين وعلي بن الحسين وحمزة بن الحسين.

... وتلك هى خطة الملك حسين وتلك هى أمنيته. وهذا هو قدَر الأردن الذي لا بوابات بأهمية بواباته الأربع: البوابة الفلســطينية – الإســرائيلية. والبوابة العراقية، والبوابة السعودية، والبوابة السورية. ومِن كل هذه البوابات تأتيه رياح بعضــها عاصــف وبعضــها هادىء. وبفضــل هذه البوابات الأربع يصــمد الأردن ككيان وكصيغة حُكْم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 1 فبراير (شباط) 1999

* * *

عندما يتوتر البعث
تتأثر اللهفة العربية

إعتدنا كصــحافيين، طوال أكثر من ثلاثين ســنة، على بعض الممارسـات تحدث خلال إنعقاد المؤتمرات العربية وتدور عادة ضِمن أصول اللعبة السياسية التي تسـتهدف الحصـول على مكاسـب أفضـل. لكن ثمة حالتيْن جاءت الممارســة فيهما عكســية، أو إذا جاز القول إنها إســتهدفت قطْع الطريق على أي مكاســب يمكن أن تــأتي من هــذا المؤتمر أو ذاك. ومن المفارقات الغريبة أن بطل الحالة الأُولى قبْل 32 سـنة كان البعث السوري أيام كان بعثاً متوتراً ومتشـدداً وأن بطل الحالة الثانية قبْل أيام كان البعث العراقي الذي يواصـل التوتر والتشـدد. وهذا معناه أن غياب المرونة أو تغييبها، بإعتقاد أنها تأتي على حســاب التوجه الوطني والقومي وتــأخـذ من رونق هـذا التوجـه، هو السـبب في أن صـاحب القضـية يخسـر قضـيته ولا تتحقق مطالبه.

في الحــالــة الأُولى إلتقى في الخرطوم الملوك والرؤســـاء العرب يوم 29 أغســـطس/ آب 1967 للتشــاور في الوضــع العربي الناشــئ عن هزيمة 5 يونيو/ حزيران 1967. وقبْل إنعقاد الحلسـة الإفتتاحية بيومين شهدت ردهات «فندق السودان» الذي هو مقر إقامة الملوك والرؤســاء و«الفندق الكبير» مقر إقامة أعضــاء الوفود ورجال الصــحافة وكذلك دارة رئيس الوزراء (الراحل) محمد أحمد محجوب مشاورات كانت في معظمها تستهدف إنجاح المؤتمر كما لم تنجح قمة عربية مِن قبْل، وبدل أن يبذل الحُكم الســوري زمنذاك الكثير من الجهد لكي يحصــــل من المؤتمر على مكاســب أفضــل تعوّض ذلك الحُكْم الآثار النفســية والمادية والعسكرية الناشـئة عن سـقوط الجولان، فإنه ليس فقط لم يشــارك في القمة على مســتوى رئاســي وإنما قاطع وزير الخارجية الدكتور إبراهيم ماخوس الذي ترأس وفد ســـوريا إلى المؤتمر الإجتماعات من دون أن يقتنع أحد بوجهة نظره في هدم المقاطعة، مع أن منطق الأمور يفرض أن تكون ســـوريا ممثَّلة في المؤتمر برئيســـها على نحو ما فعل الرئيس جمال عبدالناصـــر وأن تقول داخل المؤتمر أطيب الكلام وليس الكلام الذي ســـمعناه من الدكتور ماخوس في دارة محمد أحمد محجوب وبدا فيه أنه يتهكم على المشاركين في القمة ويقلِّل من صِدْق وطنيتهم ويحاول إقناعنا، نحن معشــر الصــحافيين الذين إلتففنا حوله، بأنه لم يأتِ كمهزوم لأن بلاده إنتصـرت في المواجهة ما دامت دمشــق لم تســقط كما ســقط الجولان. وهي وجهة نظر تندرج في إطار التنظير الذي يبرع إخواننا وأصـــدقاؤنا من البعثيين فيه، ونعتقد أن الدكتور ماخوس بعدما بات خارج السُـلطة وخارج السـياسـة وخارج بلاده إلى الآن أعاد النظر في رؤاه تلك وبات يرى أن قليلاً من المرونة زمنذاك كان من شـــأنه أن يخفف عن سـوريا كابوس الهزيمة، وأن المشـاركة في القمة وعلى مستوى رئاسي كانت أفضل من المشاركة فيها على مستوى أقل، وأن عدم حضوره جلسات القمة كان خروجاً على اللياقات فضلاً عن أنه عدم إحساس بدرجة كافية بالمسـؤولية، خصـوصـاً أن القادة العرب كانوا داخل قاعة الإجتماع متشددين، إنما بوعي، ومِن هنا كانت لاءات تلك القمة الثلاثة (لا صُـــلح ولا تفاوض ولا إعتراف) مع إسرائيل، وكانوا ملتزمين، إنما

بواقعية، ومِن هنا كان قرار الدعم المادي المبرمَج إلى حين إزالة أثار العدوان وقرار إستئناف ضخ النفط لكي لا يكون هنالك تعثُّر في تأمين المبالغ المقررة. وإنتهت أعمال القمة من دون أن يشمل الدعم المادي سوريا التي إنطلق مسؤولوها ووسائل الإعلام فيها يحللون ويُكثرون من التنظير الذي لم يفِدْ في شيء. ثم إنتهى ذلك الحُكم مضرجاً بتنظيراته وتهديداته وإتهاماته لكل من لا يأخذ بوجهات نظَره وتخوينه للبعض والتلويح بالإقتصاص. والذي يبعث على الدهشة هو أن قمة الخرطوم التي نشير إليها كان يمكن أن تشكِّل له جسراً يعبُر بواسطته إلى شاطئ الصمود كما حدَث مع عبدالناصر وله، لو أنه كان واقعياً أكثر ومتشدداً أقل ورافضاً لإبداء المرونة وحُسْن النية مع أنه الأحوج لها.

وفي الحالة الثانية إلتقى في القاهرة قبْل بضعة أيام (الأحد 24 يناير/ كانون الثاني 1999) وزراء الخارجية العرب، وكان مجرد لمّ الشمل في أشخاص رموز الديبلوماسية العربية في حد ذاته خطوة متقدمة وطيبة لأن وزير الخارجية العراقية كان من بين المشاركين. وهى أيضاً خطوة طيبة لأنها تشكِّل في حال نجاحها «بروفة» للقاء على مستوى القمة وهو اللقاء الذي طال إنتظار الأمة من محيطها إلى خليجها له. والذين حمدوا الله وشكروه، ونحن منهم، على أن وزراء الخارجية العرب إجتمعوا وتحت خيمة جامعتهم توقَّعوا من وزير الخارجية العراقية أن يفيد بلده وقضيته من هذه المناسبة فيلقي كلمة تبعث الطمأنينة في نفوس الحذرين والمشككين في صِدْق النيات العراقية، وتزيل المرارة العالقة في النفوس من دعوة الرئيس صدَّام حسين إلى الثورة على أنظمة عربية وإلى إسقاط أنظمة، ويناشد المجتمعين بإسم الأخوَّة والمصير المشترَك مساعدة الحُكْم العراقي على إيجاد مَخرج لإنهاء الحصار ويوجه تحية إلى القادة العرب الذين بفضل شعورهم بضرورة مساعدة العراق أمكن إنعقاد مؤتمر وزراء الخارجية، بل إن أبناء الأمة في كل بلد عربي ومن دون إستثناء كانوا في قرارة أنفسهم يتمنون لو أن وزير الخارجية العراقية يفاجئ الأمة وزملاءه وزراء الخارجية بموقف متقدم حتى إذا هو وجد نفسه يخرج عن النص فيعيد إلى الأذهان بعض ما فعله الأشقاء من أجْل العراق حتى يوم 2 أغسطس/ آب 1990 ويسجل الشكر لرئيس الدولة التي ينعقد المؤتمر على ارضها ويغتنم فرصة تزامُن إنعقاد المؤتمر مع المئوية الأُولى لتوحيد المملكة العربية السعودية فيقول كلاماً وحدوياً في هذا الشأن يبدد مرارة الكلام التقسيمي وإنبعاث الحديث عن نجد والحجاز ويذكُر بالخير الملك عبد العزيز وما فعله وما أورثه ويأتي على ذِكْر الكويت بما يطمِئن قيادتها وشعبها وهي الكويت نفسها التي ساعدت قبْل 2 أغسطس/ آب 1990 العراق بالإختيار وتقف منذ ذلك اليوم ضده بالإضطرار.

ومثل هذا الكلام كان سيرتاح له الجميع والعراقيون قبْل أشقائهم العرب، وكان سيبدو بمثابة إعتذار من نوع الإعتذارات التي تُطيّب الخواطر لأنها غير جارحة للكبرياء والتى تجفف بعض الشيء من مساحة الأحقاد التي تتأصل في النفوس، وكان سيُحرج مَن لا يبذل ما في وسعه لإنهاء الحصار الظالم على العراق، فضلاً عن أنه كان سيجعل أهل الحُكْم العراقي يعتادون على أسلوب تخاطُب جديد يتناسب مع واقع الحال في المنطقة وفي العالم، وكان سيوقف عند حد المبالغة في التحليلات التي تعتبر أن القبول بطمأنة الأشقاء من خلال تصريحات ودية تزيل بالتدرج رواسب خطأ ما حدث يوم 2 أغسطس/ آب 1990 معناه أن التصرف العراقي كان على خطأ وأن رد الفعل الخليجي إزاء ذلك يصبح مبرراً. بدلاً من هذا كله حدث العكس.

ولا ندري كيف أن الحُكْم العراقي لم يأخذ في الإعتبار، عندما إنهال على آخرين بالدعوة إلى الثورة عليهم وإسقاط أنظمتهم، أنه بهذا التخاطب يُبعد إمكانات المساعدة وأنه بالتمسك بمسألة إدانة العدوان الأميركي– البريطاني يجنح نحو تعقيد الأمور بدل أن يساهم في تذليلها. ونجد أنفسنا هنا نتساءل: ما الذي يحتاجه العراق بعد ثمانية أعوام من الحصار؟ أليس تخفيف هذه المعاناة هو تمهيد لإنهاء الحصار، وهل أن هذا الأمر يمكن أن يتم مِن دون تغيير لغة التخاطب العراقية، ومِن دون إبداء المرونة، ومن دون تطمين الأشقاء، ومِن دون تخوين هذا أو ذاك ومِن دون إستفزاز الدولة المعتدية عليه (الولايات المتحدة) وإسقاط ذرائع عدوانها؟

ويبقى أن الأسلوب الذي إعتمده الصحاف أجهض إكتمال لهفة عربية نحو العراق جاءت متأخرة إلاّ أنها جاءت على نحو ما يلخصه المثل الشعبي «ما تأخر من جاء». لهفة تنتظرها الأمة منذ بضع سنوات وتوقَّعنا عند إنعقاد مؤتمر وزراء الخارجية وبإجماع الدول الأعضاء في الجامعة أنها ستؤسس للقمة

المرجوة. أما ما لم نتوقعه فهو أن رجل الديبلوماسية العراقية جاء بموقف واحد هو «إما إدانة العدوان والتعهد برفع الحصار ... أو الإنسحاب» تماماً على نحو ما حدث في الخرطوم قبْل 32 عاماً.

لعل وعسى تبقى اللهفة واردة عند الضرورة ولا يؤثر إنسحاب الصحاف على القرارات التي إتخذها المؤتمر والتي تبقى على تواضعها مدخلاً إلى قرارات أفضل تنهي الحصار. ولعل وعسى أيضاً يتبدل أسلوب المتلهف فلا تذهب اللهفة عند حدوثها... هباءً منثوراً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 فبراير (شباط) 1999

* * *

ثورة شاخت في عز شبابها

عندما قامت الثورة في إيران تساءل كثيرون: كيف ستصمد هذه التجربة؟ وبعد السنة الأُولى للصمود تساءل كثيرون أيضاً: هل في إستطاعة المؤسسة الدينية أن تحكم البلد الذي كان في إستمرار طوال الخمسينات والستينات ومعظم سنوات السبعينات خط الدفاع الأول عن المصالح الأميركية في الشرق الأوسط في وجه النفوذ السوفياتي الذي كانت رقعته تنتشر سنة بعد سنة، وبالذات بعدما فتح الرئيس جمال عبد الناصر بصفقة السلاح الشهيرة مع تشيكوسلوفاكيا الأبواب أمام وصول السوفيات إلى مياه البحرين الأحمر والأبيض المتوسط الدافئة؟

وإلى التساؤلات التي أوردناها كان هنالك التساؤل الأهم وهو: هل إن الثورة الإيرانية التي تبدو كأنها شاخت وهي في عز شبابها لكثرة ما واجهت من تحديات وحصارات وتسبّبت في متاعب لغيرها، ستتعايش مع الولايات المتحدة كأمر لا بد منه وتحاول إستنباط نهج جديد للعلاقة بحيث تكون متوازنة وعلى شيء من التكافؤ، أم أنها ستبلور الصفة التي أطلقها الإمام الخميني على الولايات المتحدة وهي "الشيطان الأكبر" وترفض بذلك أي علاقة؟

ولقد إعتقد كثيرون في البداية أن الولايات المتحدة لن تفرّط في ورقة الثورة الإسلامية في إيران، وهي ورقة قد تكون فاعلة في وجه الجار الشيوعي (الإتحاد السوفياتي) العدو الذي يقلق الولايات المتحدة ويطارد مصالحها في معظم دول العالم الثالث. وهي فاعلة على أساس أنها الثورة الأولى في العالم الثالث ذات المنطلقات الدينية بينما معظم الثورات التي سبقتْها ذات منطلقات سياسية وقومية وإشتراكية. وعندما تكون هذه المنطلقات دينية فمن الطبيعي أن تكون عدوة للنظام الشيوعي الملحد. ومِن طبائع العداوة في هذه الحال أن توقظ هذه الثورة المشاعر الدينية في نفوس المسلمين داخل بعض جمهوريات الإتحاد السوفياتي على نحو ما فعله البابا يوحنا بولس الثاني الذي أيقظ المشاعر الدينية في نفوس المسيحيين في دول أوروبا الشرقية، وبهذا الإيقاظ أمكن زعزعة الأنظمة في دول عدة أولها بولندا.

ولكن الإدارة الأميركية لم تفرّط فقط وإنما قررت التعامل بسلبية تطورت إلى عداوة مع الثورة الإيرانية، فلم تتفهم في البداية دواعيها ولا إستوعبت ظروفها. وبدل أن تعتمد إدارة الرئيس كارتر مبدأ الحوار مع هذه الثورة وتنقذ رهائن أميركيين إحتجزتْهم عناصر ثورية داخل مبنى السفارة الأميركية التي هي من وجهة نظر هذه العناصر رمز الإستبداد طوال سنوات حُكْم الشاه... بدل ذلك قررت تلك الإدارة أن تعتمد أسلوب القوة ليس حرصاً على حياة الرهائن وحريتهم وإنما بدافع الإنتقام من الثورة التي خطفت منها حُكْم الشاه محمد رضا بهلوي الذي كان يمارس دور الشرطي للولايات المتحدة في المنطقة أو عل الأقل كان يُمني النفس بأن يكون ذلك الشرطي. ومِن هنا جاءت العملية الشهيرة التي نفَّذها سرب من طائرات الهليكوبتر الأميركية تحطمت فوق رمال الصحراء. ولم يقتصر الأمر على فشل العملية وإنما أعطى تحطُّم الطائرات شحنة قوية من التأييد للإمام الخميني وتكرّست في نفوس الإيرانيين النظرة إليه على أنه مبعوث العناية الإلهية إلى إيران.

وعلى رغم أن فشل تلك العملية جاء على حساب هيبة الولايات المتحدة إلاَّ أن الإدارة الأميركية بدأت تتحيّن الفرصة المناسبة للرد، وجاءت الحرب التي إندلعت بين العراق وإيران كأفضل مناسبة، حيث أنها لجأت إلى أساليب شتى أشعلت فيها البيت العربي – الإسلامي ناراً إكتوت بها شعوب العرب والمسلمين على مدى ثمانية أعوام وإحترقت فيها ثروات كانت تكفي لتحقيق نقلة بالغة الأهمية لكل من العراق وإيران على صعيد التنمية والتطوير والإنتساب إلى لائحة الدول المرشحة لأن تكون متقدمة. ولقد بذلت الإدارة

الأميركية جهوداً ظاهرية وخفية من أجْل ألاَّ تتوقف تلك الحرب إلاَّ وقد خارت قوى أحد الطرفيْن. وكان هذا الطرف هو إيران وبعدها جاء دور الطرف الثاني الذي هو العراق حيث تم توجيه الضربة المستمرة إليه في مواجهة من نوع آخر. ولقد ساد إعتقاد بأن الولايات المتحدة ستعيد النظر في موقفها من الثورة الإيرانية لمجرد أن تنقضي السنوات الخمينية وذلك على أساس أنه إذا كان من الصعب على آية الله الخميني أن يتراجع عن رؤيته ونظرته فإن الأمر لن يكون بالصعوبة نفسها مع من سيأتون بعده، أو ربما كانت حسابات الإدارة الأميركية تقوم على أنه برحيل الخميني تنتهي الثورة الإيرانية وتُستعاد إيران الدولة الحليفة للولايات المتحدة والجدار الصلب في وجه التغلغل السوفياتي إلى دول المنطقة العربية.

لكن مثل هذا الأمر لم يحدُث حتى بعدما توفي الخميني وإنهار الإتحاد السوفياتي. وها هو النظام الثوري المستمر في إيران يؤكد أن التفكير الأميركي هو المشكلة وإلاَّ فما معنى ألاَّ تتجاوب الإدارة الأميركية مع التوجه الذي صدر عن الرئيس سيد محمد خاتمي ويقوم على أن التفهم هو الطريق إلى التفاهم، أي بما معناه إنه بقدْر ما أن الولايات المتحدة تريد من الآخرين أن يرضخوا لأسلوب هيمنتها على العالم فإن من حق الآخرين أن يردوا بمطالبتها بتفهم ظروفهم وخصوصيتهم. وفي غياب هذه المعادلة التي لا يبدو أن الإدارة الأميركية ستأخذ بها نلاحظ أن الثورة الإيرانية التي تحتفل منذ أيام بالذكرى العشرين لقيامها تواصل إبداء المرونة من دون أن تفقد صبرها ومن دون أن تتخلى عن خصوصيتها وعن تراث تتكامل ملامحه يوماً بعد آخر، وأيضاً من دون أن يتعثَّر تطورها في إتجاه ديموقراطي متوازن يبدو في نظر الذين يتابعون تطورات الثورة الإيرانية منذ تسع عشرة سنة وكما لو أنه إستدارة مع أنه مجرد تعديل في الرؤية يقوم به الحُكْم الذي تديره المؤسسة الدينية ويساعده على ذلك عراقة الإجتهاد لدى شيوخ هذه المؤسسة.

ومع الذكرى العشرين أمكن الحُكْم الثوري في إيران أن يحذف من حساب المواطن الإيراني أن الولايات المتحدة يمكن أن تكون دولة صديقة وأن يزرع في وجدان الناس وعن إقتناع الإمام الخميني كرمز وزعيم وبطل، وهو ما كانت تفتقده إيران ولم يتحقّق طوال 2500 سنة من الحُكْم الأمبراطوري الشاهاني. رمز وزعيم وبطل مثل الملك عبد العزيز بالنسبة إلى السعودية وجمال عبد الناصر بالنسبة إلى مصر وغاندي بالنسبة إلى الهند وأتاتورك بالنسبة إلى تركيا والملك حسين بالنسبة إلى الأردن وحافظ الأسد بالنسبة إلى سوريا.. وبالذات بعد مسيرة الملايين التي شهدتْها دمشق يوم الإثنين 25 يناير/ كانون الثاني 1999 تأييداً لترشيح الأسد لولاية خامسة تبدأ في الثالث عشر من مارس/ آذار 1999، وكانت فاتحة مسيرات مماثلة شهدتْها المدن السورية.

وفي ظل هالة الرمز والزعيم والبطل تواصل الأمم إنطلاقتها ويشتد ساعدها وتقوى على مواجهة المِحَن والإمتحانات... مهما كانت عسيرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 فبراير(شباط) 1999

* * *

فقيدان للإجتهاد والإستدارة

فقدت أسرة معسكر التطبيع العربي – الإسرائيلي المتعثر في يوم واحد قطبيْن عزيزيْن من أقطابها، الأول هو الملك حسين الذي أسْلَم الروح قبْل ظهر يوم الأحد 7 فبراير/ شباط 1999 بعدما كانت أُعلنت وفاته سريرياً قبْل يومَيْن (الجمعة 5 فبراير/ شباط 1999) وأُرجئ إعلان الوفاة رسمياً لأن القلب كان ما يزال ينبض، ولأن العائلة التي سلَّمت أمرها للإرادة الإلهية تمسكت وجدانياً بالإبقاء على سيدها على قيد الحياة رافضة، لدواعي الشريعة الإسلامية أيضاً، أن تأذن بإزاحة جهاز الإنعاش عنه. أما القطب الثاني في أُسرة معسكر التطبيع العربي – الإسرائيلي فهو الكاتب المصري لطفي الخولي، الذي توفي بهدوء يوم الجمعة 5 فبراير وهو في منزله المتواضع في حي الدقي في القاهرة والمؤلَّف من أربع غرف ملأى بالكتب والذكريات.

جاء رحيل الملك حسين إبن الثالثة والستين عاماً مبْكراً قياساً بمعدل إعمار الذين يحكمون ويصنعون القرار. فهو يملك ويحكم منذ 46 عاماً. ولو أن مرض السرطان لم يتغلب عليه لكان سيوصل القرن العشرين بالقرن الذي بعده ولكان سيحتفل باليوبيل الذهبي لتسلُّمه أحد أبرز العروش في العالم التي واجهت من التحديات ما يصعب الصمود أمامها. وعندما يلقي

المرء نظرة على أحوال العالم خلال أربعة عقود يتبين له أن الملك حسين هو الوحيد بين الحكام الذي يختزن ذكريات عن حكام الولايات المتحدة ويعرف أكثر بكثير من الرئيس كلينتون كل الرؤساء الذين تعاقبوا على البيت الأبيض بدءاً من أيزنهاور، ويختزن ذكريات مماثلة عن الذين تعاقبوا على 10 داوننغ ستريت مقر رئاسة الحكومة البريطانية ويعرف عنهم أكثر بكثير من الرئيس الحالي طوني بلير. أما ملوك ورؤساء العالم العربي من جمال عبد الناصر إلى فهد بن عبدالعزيز فإنه كان في إستمرار بالنسبة إليهم حليفاً أو صديقاً أحياناً ورقماً صعباً وإلى درجة اللغز أحياناً أخرى. ومِن هنا يمكن تفسير الخشية على مستقبل الأردن مِن بعده، ويمكن أيضاً تفسير قول كلينتون "إنه مَلِكنا" وقول رئيس وزراء إسرائيل السابق شيمون بيريز "إنه لم يكن أباً للأردنيين فقط وإنما هو أب لنا جميعاً".

وقوة الملك حسين في أنه جنى للأردنيين ثروات ومساعدات من دون أن يحرمهم ممارسة العمل السياسي في كل الصيَغ المتداوَلة في الدول المتقدمة العريقة في ديموقراطيتها، وأنه تطرّف في بعض الأحيان في مواقف قومية وفي الوقت نفسه كان كثير القساوة في تعامله مع الحركة الفلسطينية عندما كانت ثورة. وحتى في المرات التي أوجبت إعتقال البعض كان يبتكر الدواء الذي يُشفي جراح الإعتقال وهي جراح معنوية في أي حال. وما زال في البال ما فعله مع المُعارض الجسور المهندس ليث شبيلات الذي إصطحبه ذات يوم بسيارته المَلكية من السجن إلى منزل والدته التي هي بمنزلة الأم بالنسبة إلى الملك. وربما بسبب هذا الأسلوب في التصرف الإنساني وفي الممارسة السياسية داخلياً وعربياً وخارجياً، خرج سالماً وبأقل الخدوش والشظايا أصابت حُكْمه من المؤامرات عليه ثم من الإنتفاضات الشعبية وبالذات تلك التي واجهها بصدره وبمرونة السياسي الحاذق الذي يوظّف التكتيكات المثيرة والمستهجَنة أحياناً والمدروسة عموماً في خدمة الإستراتيجية الأهم. فلولا وقفاته القومية والعروبية في أكثر من مناسبة وكذلك لولا المناخ الديموقراطي وصفات التواضع التي إتسم بها في تَعامله مع الناس والتسامح المتأصل في نفسيته، لما كان تحمّل أبناء قومه جنوحه الصاعق نحو الصلح مع إسرائيل ولا غفروا له بعض اللفتات نحو العدو الإسرائيلي. ولكن بني قوم الملك حسين إستحضروا الماضي والممارسات الداخلية واللفتات القومية والعروبية له فنظروا إلى الصلح الصاعق الذي أبرمه مع إسرائيل على أنه نوع من الإجتهاد وليس إستدارة عن العمل القومي والعربي المشترَك. ومن المؤكد أنهم لولا إستحضار ماضيه ولفتاته وممارساته لكانوا أشعلوا الشارع إضطرابات لا تتوقف. ولكنهم إعتبروا ما فعله الملك مجرد إجتهاد أصابهم في صميم حماستهم القومية وكانوا يمنون النفس بأنه ما دام الملك حسين إعتاد على الإستدارة في الوقت المناسب فإنه قد يأتي يوم يقلب فيه الطاولة على الإسرائيليين.

أما الفقيد الثاني لمعسكر التطبيع العربي – الإسرائيلي المتعثر فهو الكاتب المصري لطفي الخولي الذي سجّل إستدارة إنما على صعيد التفكير والتنظير والتحليل والكتابة والتحرك ضمن أوساط النخبة المثقفة. ولقد إفترض لطفي الخولي إستناداً إلى تاريخه النضالي ومواقفه الجادة إزاء القضايا الوطنية العربية عموماً والقضية الفلسطينية في شكل خاص، أن جنوحه الصاعق نحو معسكر التطبيع العربي مع إسرائيل سيجد مريدين كثيرين وسيحظى بتأييد المثقفين وبذلك يساهم في تقليص الثغرات والمعوقات التي تواجهها عملية السلام العربي – الإسرائيلي. ومثلما أن الملك حسين كان بجنوحه قادراً على أن يقول لمن يعترض ويتحفظ: ألم أُحارب مع عبد الناصر عام 1967؟ وألم أساهم في حرب 1973؟ وألم أتجاوب مع الرغبة العربية في التفاهم مع قيادة الثورة الفلسطينية عام 1970 على رغم ما فعلتْه فصائل هذه الثورة بالأردن وبي شخصياً؟... مثلما أن الملك كان قادراً على أن يقول ذلك فإن لطفي الخولي كان هو الآخر يملك القدرة على أن يقول للذين إستهجنوا ما فعله سواء في كوبنهاغن أو خلال زيارات قام بها إلى إسرائيل بهدف تنشيط عملية السلام المتعثرة: هل تصدى أحد لصفقة كامب ديفيد التي عقدها الرئيس أنور السادات مع مناحيم بيغن كما تصديت؟ وهل بعد ذلك وقف أحد مع السادات كما وقفتُ وكما كتبتُ عن مدرسته السياسية؟ وهل هنالك من آزر الثورة الفلسطينية كما آزررت... وهل... وهل...؟

ولكن ما إفترضه لطفي الخولي كان إفترضه الملك حسين من قبْل وبقي الإثنان ضمن دائرة الذين يضغطون على القضية من أجْل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بينما المؤمل منهما إستدارة في الإتجاه المعاكس.. إتجاه بني قومهم. وهي كانت ستبدو إستدارة فاعلة وذلك لأن في إستطاعة كل منهما

إستناداً إلى أسلوبه العريق في الإستدارة أن يفعل هذا. الملك حسين يستطيع لو كُتب له المزيد من العمر أن يقول لإسرائيل التي لا تتفهّم ولا تلتزم حكومتها بالإتفاقات والمواثيق ما معناه هل إن أحداً من العرب فعل لها ما فعله وتساهل معها بمثل ما تساهل وفتَح لها أبواباً موصدة كما فتَح. وكان إلى جانب القول بصيغة التساؤل قادراً على أن يضيف: ولأنكم لا تتفهمون ولا تتعظون فإنني مغادر إلى بني قومي وستندمون كل الندم على عنادكم هذا. ولطفي الخولي يستطيع لو كُتب له المزيد من العمر أن يقول للإسرائيليين الكثير عما فعله لهم عندما رمى حجراً في بحيرة المثقفين كان له دويه الهائل وكان سيعود بمردود طيّب لو أن الإسرائيليين كانوا جادين بالفعل في سعيهم لإيجاد شركاء عرب لهم من أجل تحقيق سلام عادل. وفي أي حال إن ما فعله لطفي الخولي لا يلغي تاريخاً نضالياً عريقاً له من أجْل القضايا الوطنية فضلاً عن أنه من الضروري الأخذ في الإعتبار أن التكوين الماركسي للطفي الخولي وصولاته وجولاته في سبيل اليسار طوال سنوات حُكْم عبد الناصر تجعله بطبيعة الحال يكون أكثر إستعداداً للجنوح نحو التطبيع مع إسرائيل في حين أن من هم خارج التكوين الماركسي يميلون إلى التريث في هذا الشأن.

وكلاهما، الملك حسين ولطفي الخولي، أعطيا بالإستدارة الصاعقة عن المواقف وإعتماد مواقف بالضد مفهوماً غير مألوف للعمل السياسي والتنظير الفكري. وهو مفهوم يبدو مستَحَباً للبعض كتكتيك ومكروهاً من الجميع كإستراتيجية... وبالذات في التعامل مع إسرائيل التي كلما إقترب العرب من حافة التعايش معها باغتتهم بالمزيد من الإستهانة بهم وإلى درجة دفْعهم في إتجاه حافة الهاوية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 فبراير (شباط) 1999

* * *

أتاتورك... كردي

أخيراً صار للأكراد أتاتوركهم، وقياساً بالحالة التركية فإن الشعب الذي يصير له بطله من نوع مصطفى أتاتورك ونسيجه، يزداد عوده صلابة ويزداد عناداً وتشبثاً بأفكاره أو قضيته أو مفاهيمه في بناء الدولة. ويصعب حتى إشعار آخر التكهن بأي مصير سيكون عليه المصير الذي سيلقاه الزعيم الكردي عبدالله أوجالان بمعنى هل يتم تعذيبه وإهانته وإذلاله إلى أن يتم تفريغه من أي رغبة في النضال على نحو ما فعلت إسرائيل بالشيخ أحمد ياسين، ورميه في زنزانة يقضي فيها ما كتب الله من العمر له، أم يصيبه ما أصاب نيلسون مانديلا في حال ترأف الحُكْم التركي به وعامله كسجين سياسي له مهابته ومكانته بين شعبه ولدى أطراف دولية كثيرة. والترأف بمعنى الإكتفاء بالسجن من دون أي إذلال ومن دون التعذيب، وهو أمر يميل كل من رأى الشريط التلفزيوني التركي لعملية خطْف أوجالان إلى إستبعاد حدوثه ويميل أيضاً إلى الإفتراض بأن عقلية الأمن التركي لا تتيح المجال لمثل هذه الرأفة.

ونقول ذلك من دون أن نُسقط من الإفتراضات الإحتمال الثالث وهو أن يلقى أوجالان المصير نفسه الذي لقيه قبْل نصف قرن زعيم الحزب القومي السوري أنطون سعادة الذي نُفذ فيه حُكْم الإعدام لمجرد أن سلّمه الزعيم حسني الزعيم إلى الحكومة اللبنانية، أو المصير الذي لقيه الزعيم الباكستاني ذو الفقار علي بوتو الذي حظي وضْعه بتعاطف عربي وإسلامي ودولي لم يحظَ به أوجالان، لكن الجنرال ضياء الحق الذي هو من نسيج جنرالات تركيا لم يستجب إلى أي نداء وإستهان بكل المناشدات ومعظمها مناشدات كريمة ونفَّذ حُكْم الإعدام في الرجل على مرأى ومسمع العالم كله، مع أنه كان من الأسلم والأفضل له و (للحُكم اللبناني بالنسبة إلى أنطون سعادة) أن يُبقي على غريمه في السجن على نحو ما أراد عدد كبير من زعماء العالم وبذلك يسجل خدمة لهم بمعنى أنه تجاوب مع ما تمنوه وقد يحتاج منهم إلى رد عليها في لحظة شدة تواجهه، وكان أيضاً عند حدوث أزمة داخلية تنشأ فجأة يعلن الإفراج عن ذو الفقار ويطفىء بذلك إحتمال نشوء صراع أهلي وهو ما سيلقى الترحيب من الجميع.

ويا سبحان الله فإن رئيس وزراء لبنان رياض الصلح دفع بعد أشهر حياته ثمناً لإصراره على إعدام أنطون سعادة، كما أن ضياء الحق نال جزاءه حيث قضى في حادثة طائرة وبُعثت زعامة ذوالفقار علي بوتو من جديد في شخص إبنته بنظير التي تتحمل مسؤولية كسوف شمس هذه الزعامة. ولقد حدث الكسوف الذي نشير اليه نتيجة تخبط في أسلوب

إدارتها شؤون البلاد عندما تسلمت منصب رئاسة الوزراء وخلْطها بين العمل السياسي والمنافع الشخصية. كذلك حدث الكسوف بسبب الصفقات التي إرتبطت بإسم زوجها الذي عيّنته وزيراً للإستثمارات في الحكومة التي تترأسها، فإقترف الزوج من الأخطاء ما أوجب وضْعه في السجن وما جعل زعامة أبيها متهمة وغير قادرة على أن تثبت لمريديها قبْل خصومها بُطلان التهم. ومن هذه التهم أن للزوج دوراً ما في إغتيال مرتضى شقيق بنظير الذي كان يتطلع إلى أن يرث هو وليست بنظير زعامة الوالد، الذي على رغم تصفيته من قِبَل الجنرال ضياء الحق وعلى رغم أخطاء الإبنة وخطايا الصهر تكرَّس بطلاً في نظر الباكستانيين بمَن فيهم مِن الخصوم. أما الجنرال ضياء الحق فإنه إنتهى مجرد حاكم عابر في تاريخ باكستان لا أحد يذكره بالخير.

والذي جرى للزعيم الكردي عبدالله أوجالان من شأنه أن يشكِّل وقفة تأمل أمام بعض الزعامات الكردية التي سلَّمت أمر أقدراها إلى الإستخبارات الأميركية وفي ظنها أن الـ " سي . آي. إي" هو الجهاز الذي سيحقق لها أمانيها الوطنية. ولو أن هذا الجهاز يريد بالفعل ذلك لما كان تولى التنسيق مع "الموساد" لتعقُّب أوجلان وتسليمه إلى الأتراك الذين نفَّذوا المرحلة الأخيرة من أبشع عملية إجتياح لسيادات دول وكأنما مصير العالم بات أسير جهازيْ مخابرات هما الـ " سي . آي. إي" و "الموساد" يفعلان به ما يشاءان. وما فعله هذان الجهازان مع أوجلان يمكن أن يحدُث مع مسعود بارزاني وجلال طالباني في أي لحظة تتبدل فيهما المعادلة بحيث تتطلب مقايضة صفقات تخدم مصالح إستراتيجية للنظام العالمي الجديد.

كما أن الذي جرى للزعيم الكردي من شأنه أن يوضح للقيادات الكردية الحائرة والتائهة شرقاً وغرباً أن العلاقة السليمة التي من واجبهم تعزيزها هي العلاقة مع الدول العربية. بل إن هذه العلاقة هي إذا جاز القول العصر الذهبي للمسألة الكردية كقضية، ولكن بعض قياديي حركة النضال الكردي إستهانوا بالمساندة العربية وبالحقوق التي نالوها من العرب سواء كانت حُكْماً ذاتياً أم مساندات سياسية ومالية وتسهيلات وإستهوتهم فكرة وضْع أوراقهم في أيدي الإستخبارات المركزية الأميركية، على أساس أن هذه ستحقق لهم الأماني.

ويبقى القول إن الذي حدَث للزعيم الكردي عبدالله أوجالان وما يمكن أن يصيبه من مكاره قد يخفف من مخزون الغضب في نفوس الحُكْم التركي إلاّ أنه لن يكون الصفحة الأخيرة في كتاب المسألة التركية يطويه الجنرالات الأتاتوركيون ويضعونه على الرف. وما سيحدُث هو أن الزعامة الثالثة للحركة الكردية ستولَد فجأة وقد تكون هذه الزعامة أكثر إستيعاباً للمتغيرات الدولية فلا تلعب على التناقضات على نحو ما حدَث للزعامة الأُولى المتمثلة بالملا مصطفى البارزاني التي إستمرت حتى العام 1975 عندما إنتهت نتيجة الوفاق العراقي – الإيراني ونتيجة علاقة إستراتيجية بين العراق والإتحاد السوفياتي، وما حدَث للزعامة الثانية المتمثلة بعبدالله أوجالان التي توقفت بخطفه. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن الظروف الدولية وتَزايد حدة صراع الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي من جهة والصراع العراقي – الإيراني من جهة أُخرى خدمت الملا مصطفى في حين أن عبدالله أوجالان لم يجد فرصة للإستفادة منها سوى المراهنة على الحياد الأميركي – الإسرائيلي إزاء وضْعه، وعلى اللوبي الكردي في إسرائيل متمثلاً بوزير الدفاع السابق الجنرال موردخاي الذي يتفهم طبيعة المسألة الكردية كونه من أكراد العراق، وعلى الخلاف التركي – اليوناني، فسلّم أمره إلى اليونان التي فضلت تفادياً لمواجهة يونانية – تركية تسليمه خلسة إلى تركيا عبْر الـ " سي . آي. إي" و "الموساد" في أبشع صفقة مخابراتية في الربع الأخير من القرن العشرين. ولو إنه كان على قدْر كبير من بُعْد النظر وهو يتأمل في طبيعة التحالفات في المنطقة وبالذات في التحالف التركي – الإسرائيلي الذي تولت تصميمه الإدارة الأميركية لما كان إختار المراهنة على الموقف اليوناني ولكان من الأفضل له ولشعبه وللقضية التي يناضل من أجْلها أن يذيع وهو في محطته الأُولى روما بياناً تاريخياً يعلن فيه التخلي عن العمل المسلح ويضع بموجبه القضية الكردية أمام المجتمع الدولي يقرر في شأنها الحل الذي لن يأتي ثورياً في أي حال... أي يسير على خطى القيادة الفلسطينية التي بين قضيتها والقضية الكردية بعض أوجه الشبه. وكان عبدالله أوجالان لن يُلام ولن يبدو إنهزامياً باع قضيته بأبخس الثمن، وإنما كان سيبدو أنه يحاول تخفيف المعاناة عن شعبه.

ولكن عبدالله أوجالان بالإختيار أو نتيجة أن السبل ضاقت في وجهه إستند إلى روح التضحية في نفوس

أتباعه وإلى حد الموت حرقاً من أجْله وآثر أن ينتهي في نظر شعبه بطلاً على نحو كمال أتاتورك في نظر الشعب التركي... والذي هو رمز إلغاء الحقوق القومية للأكراد.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 فبراير (شباط) 1999

* * *

الأحوال اللبنانية... والحريري المتجدد

يلاحظ المتتبعون للأحوال اللبنانية منذ الإبتعاد المفاجيء للرئيس رفيق الحريري عن المشاركة في الحُكْم والإقدام غير المتوقع للرئيس سليم الحص نحو المشاركة، أن هنالك حالة جديدة تعيشها أكثرية اللبنانيين وهي مزيج من الحنين إلى أيام الحريري وخيبة أمل بأسلوب المعالجة الذي تعتمده حكومة الرئيس الحص. وهذه الحالة ناشئة عن جمود مريع في الحركة التجارية يلاحظه المرء في كساد لا يستثني أحداً وفي شركات مهددة بالتوقف وفي عشرات من التجار الصغار الذين باتوا على مشارف إقفال محلاتهم. كما أن هذه الحالة ناشئة عن شكوى مريرة يتبادلها اللبناني مع اللبناني حول الأزمة المعيشية المستفحلة والتي على ما يبدو لن يكون علاجها بالأمر السهل.

ويوماً بعد يوم تشهد الآمال التي علَّقها اللبنانيون على العهد الجديد بوجهيْه الواعديْن العماد إميل لحود والدكتور سليم الحص بعض التراجع على رغم أن هذا العهد ما زال في أسابيعه الأُولى. وسبب ذلك أن الوضع الإقتصادي الذي كان سيئاً يوم إستُبعد الحريري إزداد سوءاً بعدما إبتعد وربما لأنه إبتعد. ولم تتحقق إلى الآن التوقعات بأن الزوال النسبي للإحباط الذي كان يعيشه الجانب الفاعل في الطائفة المارونية والذي بدأ ينحسر بتسلم العماد إميل لحود مقاليد الرئاسة الأُولى سيساهم في إنعاش الوضع الإقتصادي ويشكل – بالإضافة إلى إسناد مهمة رئاسة الحكومة إلى الدكتور سليم الحص – حلاً سريعاً لتفاقم مشكلة الوضع الإقتصادي والمعيشي، وذلك على أساس أن الزوال النسبي لهذا الإحباط سيشجع عشرات المقتدرين من اللبنانيين (وأكثرهم من أبناء الطائفة المارونية) الذين يعيشون منذ سنوات خارج لبنان على العودة وتحويل الجزء الأكبر من أموالهم إلى لبنان للإستثمار فيه وهذا في حد ذاته يشكِّل بديلاً لقدرات الحريري المالية ولرصيده القوي لدى شركات الإستثمار والمصارف الكبرى في العالم. وربما من أجْل ذلك ذهبت حكومة الحص وبتشجيع من العماد لحود بعيداً في مسألة التعامل مع حركة الإصلاح الإداري على أساس أن هذا الإصلاح يحقق التسريع المقبول للمقتدرين الذي أشرنا إليهم من أجْل العودة. لكن ما إفترض العهد حدوثه لم يحدُث، بل قد يجوز القول إن المال الذي غادر المصارف اللبنانية إلى الخارج في هذه الفترة كان أكثر من المال الذي جاءها من الخارج. وإلى ذلك إن حركة الإصلاح الإداري جاءت في بعض منطلقاتها مثْل عمليات التأميم التي إزدهرت في مصر وسوريا والسودان وليبيا والجزائر في بدايات الهوَس الإشتراكي في الستينات والسبعينات، وهي عمليات أراد بها ثوريو تلك الحقبة من خلال الإكثار من التُهم والإجراءات الإيحاء بأنهم يريدون نشر العدالة الإجتماعية لكن النتيجة إنتهت إرتباكات لا مثيل لها. ولو أن الذين أمموا تمهلوا وعالجوا الأمر بغير الأسلوب الذي جرى إعتماده وقللوا من إطلاق التُهم على الآخرين وتصويرهم بأنهم أعداء للشعب، لربما كانوا أفادوا الناس وتفادوا الإرتباك الذي إتسمت به خططهم الإصلاحية، ولا يبدو أن هنالك علاجاً للمشكلة الإقتصادية والمعيشية المتفاقمة في لبنان من دون إعتماد رؤية جديدة تأخذ في الإعتبار أن رفيق الحريري الجديد مشارك في عملية النهوض المطلوبة أي بما معناه أنه إذا كانت الحريرية هي المسؤولة عن التركة الثقيلة التي إصطدم بها العهد الجديد فإن الحريري الجديد هو المُطالب والمؤهل لكي يبتكر الحلول لتخفيف ثقل هذه التركة وبصرف النظر عما إذا كان شريكاً في الحُكْم أو مشاركاً بالرأي وبالنصيحة من خلال التزاور والتشاور مع الرئيسيْن لحود والحص، وبتجيير بعض علاقاته الفاعلة لمصلحة العهد. وما نقصده بالحريري الذي تأمّل في تجربة ست سنوات قضاها رئيساً للحكومة وقام في ضوء تأملاته هذه بعملية إسقاط للسلبيات وتعزيز الإيجابيات. والحريري الجديد هو الذي إكتشف طغيان حلقات الحاشية الأمر الذي جعل تجربته تتعرّض للكثير من علامات الإستفهام والتعجب. والحريري الجديد هو الذي وجد نفسه بالإضطرار يعارض وهو الذي كان لا يتحمل معارضين وهذا معناه أنه بات أكثر قبولاً بالرأي

الآخر. والحريري الجديد هو الحريري الذي وجد فجأة وفي ذروة الثقة بالنفس أن من الممكن عدم تكليفه بتشكيل الحكومة. والحريري الجديد هو الحريري الذي إكتشف – وكذلك اللبنانيون – قدْره عندما لا يكون رئيساً للحكومة وكيف أنه وفي تعامُل غير مسبوق يكون التعامل معه من قِبَل حكومات بلدان أُخرى وكأنما هو ما زال رئيساً لحكومة بلده. وهذا على سبيل المثال مستوى الإستقبال الذي لقيه في مصر التي زارها يوم زار الرئيس الحص الرياض وكيف أن رئيس وزراء مصر إستقبله في مطار القاهرة ثم كيف أجرى معه ومع الوفد المرافق له أي مع "الحكومة الحريرية" محادثات شارك فيها وزراء في الحكومة المصرية ولم ينقصها سوى إصدار "بيان مشترَك" قبْل أن يستقبله الرئيس مبارك ويُجري محادثات في العمق معه ثم يودِّعه على باب القصر الجمهوري وكأنما هو ما زال رئيساً للحكومة أو كأنما هو رئيس للحكومة المقبلة في لبنان. ثم هذا على سبيل المثال أيضاً مستوى الإستقبال الذي لقيه في مطار عمان التي زارها على رأس وفد "الحكومة الحريرية" للتعزية بالملك حسين وجاءت زيارته تسبق زيارة الوفد الحكومي (المتأخرة لتقديرات قائمة على التخمين) الذي ترأسه الحص، وكيف أن رئيس مجلس الأعيان وربما رئيس الحكومة المرتقَب زيد الرفاعي هو من إستقبل الحريري في مطار عمان وهذا ما لم يحدُث لوفد تعزية غير رسمي آخر. وهذا قبْل الإستقباليْن اللذيْن أوردناهما كمثليْن الترحيب الودود الدائم وعلى مستوى القمة بالحريري في كل من السعودية وفرنسا. وما يجوز قوله إن هذا الحضور الخارجي للحريري كرئيس سابق للحكومة لم يدفع به نحو الغرور وإنما إنعكس ثقة زائدة في النفس جعلتْه لا يركب موجة المعارضة اللبنانية التقليدية التي تنثر التهم ذات اليمين وذات اليسار وجعلتْه متأهباً للمساعدة في إزالة الإنطباع السائد لدى اللبنانيين وهو أن العماد لحود والرئيس الحريري ينطبق عليهما القول الشائع بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا. ومِن المهم أن يُزال هذا الإنطباع ما دام قرر الحريري أنه سيمارس اللعبة السياسية حتى النهاية وما دام هنالك واقع جديد وهو أن العماد لحود باق في الحُكْم أكثر من السنوات الست التي ينص عليها الدستور وأن التجديد أمر وارد بعد التجديد للرئيس حافظ الأسد ولاية خامسة مدتها سبع سنوات وتنتهي في العام 2006 وبعد التجديد المرتقب الآخر للرئيس حسني مبارك ست سنوات أُخرى. وكلاهما الأسد ومبارك يعتبران الحريري بالنسبة إلى لبنان بأهمية إحتياطي الذهب في البنك المركزي.

وفي إنتظار أن ينتهي هذا السباق البطيء الذي يشهده لبنان ويتابعه اللبنانيون بأعصاب مشدودة، وهو السباق بين الحنين إلى الحريري والسعي المخلص من جانب العهد بشخصيْ العماد إميل لحود والدكتور سليم الحص لإيجاد حلول للوضع الإقتصادي والمعيشي الذي يزداد تعقيداً.. في إنتظار ذلك يأمل اللبنانيون أن يتولى الحريري تطوير ظاهرة المعارضة في لبنان بحيث يقود حكومة ظل على نحو ما هو حاصل في دولة عريقة في الديموقراطية مثل بريطانيا وبذلك يُدخل إلى السياسة اللبنانية تقليداً حميداً. وتلك هي المعارضة البناءة التي ينادي بها كثيرون لفظاً، لكن التطبيق لا يحدُث.

ونخلص من هذا كله إلى أن إبتعاد الحريري المفاجيء له كونه جاء بنية الإبعاد، والمباغت للبنانيين كونه جاء على عكْس توقعاتهم... أن هذا الإبتعاد كان لمصلحة الحريري لكنه لم يكن لمصلحة لبنان. والشواهد الراهنة والمقبلة كثيرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 مارس (آذار) 1999

* * *

بحريْن الشيخ عيسى... والأبناء البررة

خلال ثلاثين سنة عرف جيلان من الإعلاميين العرب والأجانب البحريْن من خلال ستة من أبنائها البررة. من هؤلاء الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الذي توفي، وهو يؤدي الواجب كأمير للدولة، في الحادية عشرة والنصف من قبْل ظهر يوم السبت 6 مارس/ أذار 1999، وطارق عبد الرحمن المؤيد وزير الإعلام السابق الذي توفي قبْل ايام إثر نوبة قلبية حادة خلال زيارة روتينية إلى عاصمته الدولية لندن، وكان ما زال على ما إعتاد عليه طوال ربع قرن يواصل داخل البحريْن وخارجها وفي أي دولة يزورها وأي جلسات ولقاءات سياسية وإعلامية يحضرها أو يدعو إليها، واجب التنوير وبكل الهدوء والموضوعية بقضايا المنطقة وما يعيد إليها الطمأنينة والإستقرار وتآلف القلوب، وكأنما هو ما زال في موقعه الرسمي

وزيراً للإعلام العربي مقره دولة البحريْن. وهذا تأكيد لمقولة أن المنصب تكليف لا تشريف، وربما يشاركنا هذه الرؤية الدكتور غازي القصيبي الذي لم أجد تفسيراً لكثرة شغفه بالبحريْن إلاَّ بعدما عرفتُ ناسها وأميرها وإختلط عليَّ الأمر إلى درجة أنه بات من الصعب التمييز بين مَن هو مواطن عادي وبين مَن هو الأمير. ويعود الفضل في هذه الحياكة الإنسانية المتميزة إلى الشيخ عيسى الذي إقترب من الناس فسكن قلوب أبناء شعبه.

وبدا الذي أصاب الشيخ عيسى مثْل الذي أصاب جمال عبد الناصر بعد ظهر يوم الإثنين 28 سبتمبر/ أيلول قبْل 29 عاماً. كان كل منهما في ساحة الواجب عندما بدأ الهجوم الصاعق على القلب. عبد الناصر يحرص على أن يودِّع شخصياً كل الذين شاركوا في قمة مصالحة المقاومة الفلسطينية مع الملك حسين، وبعد التوديع الأخير وكان لأمير الكويت (الراحل) الشيخ صباح السالم الصباح، شعر وهو على أرض المطار بأنه غير قادر على الوقوف وجرى نقْله بسرعة إلى منزله وكانت غلطة وسوء تقدير لأن الذي كان يجب حدوثه هو نقْله إلى المستشفى وإلى غرفة العناية الفائقة. والشيخ عيسى الذي يبدأ العمل مبكراً أنجز الإستقبالات بإجتماع مع وزير الدفاع الأميركي وليم كوهين الذي جاءه مبتهجاً بأن الولايات المتحدة وافقت على بيْع البحريْن صواريخ جو – جو متوسطة المدى من نوع «امرام». ومن الطبيعي أن يستقبل الشيخ عيسى بالإمتنان أي خطوة تساعد في تطوير الدفاع عن بلده وتحديث الجيش وتسليحه شأنه في ذلك شأن أي حاكم لدولة صغيرة ومحسودة متل البحريْن. لكن تزامن هذه الخطوة مع هوس التهديد والوعيد من جانب الإدارة الأميركية وبما يعرقل رغبة أبناء المنطقة في تحقيق صيغة للتفاهم والتعايش، تجعل الشيخ عيسى لا يشارك الضيف الأميركي إبتهاجه، خصوصاً أن الضيف أرفق – على ما يجوز الإفتراض – إبلاغ الأمير البشرى الصاروخية برغبات أميركية في شأن الحصار على العراق وإيران لا تريد البحريْن التجاوب معها. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن جلسة الأمير مع كوهين الأميركي لم تكن مريحة وكانت ثقيلة على وجدان الشيخ عيسى وبالتالي على قلبه.

وقد نجد مَن يرفض مثْل هذا الإعتقاد ويرى أن الأعمار بيد الله وأنه لا علاقة لما دار بين الأمير وكوهين الأميركي بما أصاب الشيخ عيسى. لكن في الوقت نفسه هنالك حقيقة طبية وعِلمية، وهي أن الضغط يولِّد الإنفجار أو في الحد الأدنى إن الضغط من خلال طلبات محرجة يتسبب في تسريع حدوث الإنفجار. ونحن لن نكثر هنا من الإفتراضات لأن التاريخ هو الكفيل عادة بتوضيح مفاجآت درامية يتعرض لها بعد لقاءات وإجتماعات رسمية، حكام في سن فتية نسبياً مثل عبدالناصر الذي توفي وهو في الثانية والخمسين من العمر والشيخ عيسى الذي حدثت له وفاة مماثلة وهو في السادسة والستين.

ويندر أن يكون هنالك إعلامي عربي أو أجنبي يحظى بلقاء مع الشيخ عيسى، ولم يترك اللقاء أطيب الأثر في نفسه. كذلك يندر أن يكون هنالك إعلامي عربي أو أجنبي أجرى مقابلة مع عيسى وجاء في أجوبة الشيخ غير التمنيات الطيِّبة والتسامح عند الحديث عن أزمات وإشكالات تكون البحريْن طرفاً فيها على نحو الأزمة مع الثورة الإيرانية الداعمة لمعترضين من أبناء البحريْن ترجموا إعتراضهم إلى عمليات تخريب، والأزمة اللاحقة التي عصفت لبعض الأشهر بالبحريْن وقَطَر وتغلبت فيها حكمة الشيخ عيسى على إندفاعات شبابية في الدولة الجارة، حيث أمكن محاصرة الأزمة تمهيداً للبحث في إيجاد حل لها لا تعود بعده حاجة إلى الإنشغال بالتسلح على أنواعه ومنها الصواريخ ذات المدى المتوسط التي جاء كوهين الأميركي إلى المنامة يحمل بشرى الموافقة عليها.

وأستاذن القارئ هنا في الإشارة إلى واقعة حدثت في عز الأزمة بين البحريْن وقَطَر وفي وقت تداولت وسائل الإعلام لدى الجانبيْن حملات تضمنت أسوأ أنواع التجريح.

والغرض من هذه الإشارة تسجيل صفة رحابة الصدر التي هي جزء من شخصية الشيخ عيسى. وخلاصة هذه الواقعة أنه خلال لقاء عدد من الزملاء كنا في زيارة البحريْن زمنذاك الأمير في ديوانه إرتأى الزملاء، وهم من عدة أقطار عربية أن أنوب عنهم في إلقاء كلمة في مجلس الأمير الذي كان محاطاً بأركان الدولة. وتضمنت كلمتي المنسجمة كل الإنسجام مع إقتناعي بالقول المأثور «خير الرجال بطيء الغضب سريع العفو» التمني على الشيخ عيسى وكنا على أبواب إستقبال شهر الصوم المبارك أن يتيح المجال أمام القَطَري والقَطَرية المعتقليْن بتهمة التجسس العودة إلى الدوحة وتمضية شهر الصوم مع الأهل، مشيراً

في كلمتي إلى أنها خطوة من صـــفات الحاكم الكريم الذي يعفو عند المقدرة. وفي حينه كان الجو السائد لا يتحمل مثل هذا الكلام ولكنني قلته كصـــحافي وكاتب رأي أوفدتْه صحيفة «الشرق الأوسط» التي يكتب فيها وجاء إلى المنامة مباشرة من دون المرور على الدوحة في الـذهـاب أو في الإيـاب. ولم ألاحظ بعـد إنتهـاء كلمتي إنزعاج الأمير وإنما لاحظتُ شيئاً من التقطيب على وجوه بعض مَن كانوا في مجلســـه. وإســـتمرت خشـــيتي من أن أكون تجاوزتُ الحدود وتســـببتُ في حدوث إحراج بضعة ايام. وبعدما أعلن الشيخ عيسى العفو عن القَطَري والقَطَرية والسـماح لهما بالعودة إلى أهلهما في الدوحة زالت الخشـــية وأكبرتُ في الشـــيخ عيســـى ســـعة صـــدر ما أحوج القادة العرب إليها، وبالذات هذه الأيام بعد تكاثُر الحصـــارات المعنوية والمادية على كثيرين في مشرق الأمة ومغربها.

وخلاصـة القول إن الشـيخ عيسـى بن سـلمان آل خليفة كان رمز مدرســـة متميزة في الحُكْم عرف فيها بلده وشعبه شبراً شبراً وفرداً فرداً وهذا سببُه أنه وصل إلى قمة السُـــلطة بدءاً من ترؤســـه المجلس البلدي للمنامة قبل 43 عاماً وكان في الثالثة والعشرين، وهي تجربة مر فيها الرئيس الفرســـي الحالي جاك شـــيراك الذي ترأس المجلس البلدي للعاصمة باريس وأفاده ذلك في معرفة ما جهلَه رؤســاء آخرون، مروراً بالإشـراف بعد ذلك على التعليم، وهي تجربة مر فيها الملك فهد بن عبـد العزيز، وكلاهمـا ترك الأثر الطيّـب على النهضة التعليمية في بلده.

والأهم من هـذا كلـه أنـه نموذج للحكـام الـذين يجعلون من أرض مســـاحتهـا 660 كيلومتراً دولـة تسـابقت إلى الإسـتقرار فيها صـناديق الإسـتثمارات العالمية وتزايد شـأنها عندما إرتبطت بجسـر الملك فهد مع المنطقة الشـرقية من السـعودية. كما أن الشـيخ عيســـى أحد حكام قلائل في المنطقة يتركون ما بنوه بإخلاص في ســـنوات الشـــدة والإزدهار من القرن العشـــرين لجيل القرن الواحد والعشـــرين من الحكام. والتركة ليست ثقيلة إلاّ أن المحافظة عليها هي المهمة الأكثر صـــعوبة في ضـــوء التطورات المتلاحقة في المنطقة.

وتبقى الإشـــارة إلى الأبناء البررة الأربعة الآخرين الذين من خلالهم عرف البحرين جيلان من الإعلاميين العرب والأجانب. وهؤلاء هم: الأمير الجديد الشـــيخ حمد بن عيســى آل خليفة طوال ســنوات موقعه كوليّ للعهد والذي نتمنى له وفاقاً مع حمد الآخر أمير دولة قَطَر يزيل مع الوقت إحتقانات الأزمة الماضـــية المستمرة صمتاً، والشيخ محمد المبارك وزير الخارجية المستنير دائماً، والمستنيران الآخران يوسف الشيراوي وعلي فخرو. أطال الله أعمار الأربعة وأعمار آخرين كثيرين من الشـــهود على تجربة الشـــيخ عيســـى بن ســـلمان آل خليفة التي كانت خيراً وبركة... وعلامة فارقة في تاريخ الخليج وجبينه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 8 مارس (آذار) 1999

* * *

شهر عربي إستثنائي

كان شـــهر فبراير/ شـــباط 1999 من الشـــهور الإســـتثنائية لكثرة ما حوى من مفاجآت ســـياســـية ونضـــالية عربية بالغة الأهمية. بداية هذه المفاجآت تمثلت بالرحيل الدرامي للملك حسين والإجماع العربي في الحزن عليه وإلى درجة أن نقاط الخلاف المستحكِم بين الحســـين وبعض القادة العرب أُزيلت بقدرة القادر وبجلال المناسبة.

فهذا وليّ عهد الكويت الشيخ سعد العبدالله السالم الصـــباح على رأس وفد بلاده للمشـــاركة في تشـــييع الملك الذي ســـبق أن آزر في صـــيف 1990 الرئيس صـدَّام حسـين الذي غزت قواته الكويت. وجاء الرحيل ومشاركة الشيخ سعد في التشييع ليحلا مأزق رفْع العَلَم الأردني من جديد قبْل أيام في الكويت وعودة العلاقات الدبلوماســـية بين البلديْن، وهو ما يبدو أنه كان لن يحدُث بسهولة في حياة الحسين.

وهذا الرئيس حافظ الأســد يؤجل مناســبة تاريخية عزيزة عليه وهي الإســـتفتاء الشـــعبي على الولاية الخامسـة له يواصـل بعدها الحُكْم سبع سـنوات جديدة ويتوجه إلى عمان ليشـــارك في تشـــييع جنازة الملك فكـانـت مبـادرة طيّبـة منـه تركـت أثرهـا في نفوس الأردنيين ودعمـت قليلاً موقف اللوبي الســـوري في المملكة.

ولقد فتح الرئيس الأسـد بهذه المبادرة التي كان لها صداها الطيّب في نفوس السوريين أيضـاً وفي النفوس العربيـة عمومـاً التواقـة إلى الوفـاق العربي يتحقق ولو في الحـد الأدنى، الطريق أمـام حوار مع الملـك

عبدالله بن الحسين قد يكون الهدف منه جعْل الموقف الأردني بالنسبة إلى العلاقة مع إسرائيل لا يتجاوز الموقف المصري. فالرئيس حسني مبارك لم يبرم إتفاقات السلام مع إسرائيل وإنما هو ورثها من الرئيس السادات إلاّ أنه متمسك بها وفي الوقت نفسه يأخذ في الإعتبار الواقع العربي فيُكثر من المراوحة مكانه ولا يندفع في مسايرة إسرائيل، بل إنه حتى يرفض حتى الآن زيارتها في إنتظار أن تعيد حكومتها النظر في التصلب الذي هي عليه إزاء عملية السلام وترتدع وتُوقف هذا الإستخفاف بالإتفاقات المعقودة مع الفلسطينيين تحت رعاية الولايات المتحدة وضمانتها.

ومثْل هذا الموقف الثابت من جانب الرئيس مبارك هو ما قد يكون الرئيس الأسد يتطلع إليه بالنسبة إلى الأردن، ويرى قياساً بما جرى في مصر أنه مع الملك عبدالله بن الحسين يمكن حدوث ذلك على أساس أن الملك الجديد ورث إتفاقات لا تطالبه سوريا بنقضها وإنما على الأقل يعتمد أسلوب تعامل مع إسرائيل لا يكون مثل أسلوب والده الملك الراحل، ولا نظن أن عبدالله بن الحسين سيخسر إذا هو أجرى تعديلاً في الأسلوب بحيث يحذو حذو نهج الرئيس مبارك ويسترشد برؤية أصدقاء والده وبينهم رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان، الذي لا يحبذ للأردن إندفاعه فوق طاقة التحمل العربي نحو إسرائيل، والعاهل المغربي الحسن الثاني الذي أقفل الأبواب أمام التعنت الإسرائيلي من دون أن يفقد رؤيته التاريخية لمستقبل الصراع العربي – الإسرائيلي. ومَن يدري فقد يكون الملك حسين خصص جزءاً من ساعات الوداع الأخير لوريثه ولبقية الأبناء – وكانت على حد بعض المعلومات سبع ساعات – لهذا الأمر. كذلك قد يكون أوصاه بإعتماد أسلوب جديد في التعامل مع إسرائيل وبحيث لن يُلام إذا هو فعل ذلك. وهو قد يكون أوصى من منطلق الرغبة في أن يبدأ وريثه الحُكْم وقد أُحيط بعناية أهل الجوار من الأشقاء وعلى أساس أن ما لم يفعله لإعتبارات كثيرة وكان لا بد سيفعله لو كتب الله المزيد من العمر له، أي الإستدارة قليلاً أو كثيراً عن موقفه إزاء إسرائيل، يمكن للإبن عبدالله بل ويجب أن يفعله.

وفي أي حال جاءت مبادرة الرئيس الأسد ومشاركته في التشييع بعد تأجيل الإستفتاء يومَيْن وإعلان الحداد وتنكيس الأعلام، ثم قيام الدكتور بشَّار الأسد الرئيس السوري المرتقب بعد إنتهاء الولاية الخامسة لوالده بزيارة عمان وتقديم العزاء... جاءت الخطوتان تثلجان صدر الملك عبدالله بن الحسين ورأى فيهما وكما لو أن الرئيس الأسد قرأ ما يريده والده الراحل فإستبق الأمور وجاء يشدّ على يديْ الإبن الوريث وهو (أي الرئيس الأسد) الأدرى بحاجة الإبن إلى مؤازرة الوالد له وأزاح بمجيئه ثم بمجيء الإبن بشَّار بعد ذلك عن صدره عبئاً ثقيلاً وهو أنه كيف سيتعامل مع الحُكْم السوري ما دام والده توفي والأزمة بينه وبين الرئيس الأسد على حالها وما دام توفي والده ولم (هكذا كان الإفتراض حتى اللحظات التي سبقت وصول الرئيس السوري إلى عمان) يشارك الرئيس الأسد المملكة أحزانها.

وبكلام أكثر دقة إن الرئيس الأسد بمبادرته المزدوجة، أي مشاركته في التشييع ثم قيام نجله بشَّار (الرئيس السوري المرتقب) بواجب العزاء، وضع بين يديْ عبدالله بن الحسين السلاح الذي يضغط به على إسرائيل من دون أن يتنصل من الإتفاقات التي أبرمها والده معها، وغرس في وجدانه الرغبة السورية في أن يكون ما بين عمان ودمشق بمثْل ما هو بين القاهرة ودمشق. والكُرة على نحو ما يفيد التعبير الشائع في مرمى عبد الله بن الحسين الذي إعتمد الكوفية الحمراء المرقطة زياً رسمياً له لا تفارق رأسه. والأنظار السورية والعربية عموماً تتجه نحوه لترى، وبعد أن يتم التتويج، كيف سيرُد على التحية السورية وهل ستكون بمثلها أم بأحسن منها. ونقول ذلك مع تسجيل بعض الشعور بالصدمة لما فعله عبدالله بن الحسين عندما إتصل هاتفياً يوم الخميس 4 مارس/ آذار 1999 برئيس وزراء إسرائيل وخصم صيغة السلام المتفق عليها دولياً بنيامين نتنياهو ليبلغه بإختيار عبد الرؤوف الروابدة رئيساً لأول حكومة في العهد الجديد.

وبعد المفاجأة السورية توالت المفاجآت. فهذا ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبدالعزيز يبطل لغماً أميركياً كان يستهدف إحراج المملكة. وجاء رفْض الأمير عبدالله لمبادرة سيئة المقصد من جانب الرئيس كلينتون على هامش تشييع جنازة الملك حسين وتقضي بترتيب لقاء ومصافحة بين الأمير ونتنياهو، بمثابة تفكيك لهذا اللغم.. وهذا ليس بالأمر المستغرَب على المملكة العربية السعودية ولا على ملكها وأشقائه وعلى الشعب السعودي عموماً وبالذات في الذكرى المئوية الأولى للتوحيد على يديْ المغفور له الملك عبد العزيز الذي غادر الدنيا رافضاً

الأمر الواقع الدولي الظالم أشـد الظلم نحو فلسـطين وشعبها.

ثم هذه هي الوفود العربية من المحيط إلى الخليج تشاطر في التشييع وعلى مقربة منها الوفد الإسرائيلي إنما بشـعور وكأنما ليس هذا الوفد موجوداً بالنوعية التي جاء عليها حيث شاركت كل إسرائيل في التشييع. فلا سـلام ولا كلام. وهي رسـالة لعل الإسـرائيليين يستوعبون معناها ومغزاها.

وجاءت أخيراً المفاجأتان النضـاليتان اللتان أفرحتا القلب العربي الذي يكاد الإحباط يوقف نبضـه. الأولى التي تمثلت بالعملية الشـجاعة للمقاومة الإسـلامية في جنوب لبنان والتي أسـفرت عن إصـطياد جنرال حرب إسـرائيلي إعتبر أنه في نزهة في أرض باتت له ما دام يحتلها. وغالب الظن أنه كان يرصـد الموقف تمهيداً لعدوان جديد على لبنان وجاءت العناية الإلهية تلهم المقاومين الذين إصـطادوا الجنرال ومَن معه وكان الإصـطياد درسـاً في غاية الأهمية. أما المفاجأة النضـالية الثانية فتمثلت بالطلاب اللبنانيين الذين يعانون مما تفعله إسرائيل بوطنهم وبأمتهم وبمستقبلهم وتحت سمْع العالم وبصره وبرعاية كاملة من الولايات المتحدة. وجاءت الفرصـة ليثأر هؤلاء الذين يجوز إعتبارهم ينتمون إلى "المقـاومـة اللحوديـة" الرديفـة للمقاومة الإسلامية، والذين هم نتاج تجربة خدمة العَلَم في الجيش اللبناني (التي سـهر عليها العماد إميل لحود طوال عشـر سـنين قاد خلالها الجيش وأعاد بناءه)، من الوضـع المهين فإقتحموا الشـريط الذي سـوّرت به إسـرائيل بلدة أرنون وأزالوه غير هلعين من شـر ألغام قد تكون مزروعة، مسـتلهمين بطولة فتية الحجارة في بعض الشـوارع الفلسـطينية، وكانوا رمزياً ونسـبياً في شـجاعتهم هذه بمثل شـجاعة المقاتلين المصريين الذين أزالوا الساتر الترابي (أو خط بارليف) على ضفة قناة السويس يوم 6 أكتوبر/ تشرين الأول 1973 مع فارق أن الأبطال المصـريين أزالوا السـاتر الترابي وعبروا وحرروا وأن الطلاب اللبنـانيين أزالوا الشـريط في إنتظار أن يكمل الجيش والمقاومة وبدعم من الأشـقاء وعدم إعتراض من الولايات المتحدة التحرير وبذلك تكتمل الفرحة... وإن غداً لناظره قريب.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 مارس (آذار) 1999

* * *

عيدية بو فيصل للأمتيْن

أدخلت لفتة من نوع اللفتات التي إعتاد أبناء الأمة عليها تصـدر عن الملك فهد بن عبد العزيز في زمن الشدائد شعوراً بالطمأنينة في نفوس العرب والمسلمين. وجاءت هذه اللفتة التي تمثَّلت بتعاطي المملكة العربية السـعودبية في مأزق الحصـار الذي تعيشـه ليبيا منذ العام 1992. ومع محنة الحصار الذي يعيشه العراق، لتؤكد معنى بـالغ الأهميـة وهو أن ضـيق القيـادة السعودية ليس أقل من معاناة الليبيين شعباً وقيادة من الحصـار، وأن ضـيقها لمعاناة العراقيين من جرّاء الحصار الذين وجدوا أنفسهم يعيشون تحت وطأته منذ العام 1991 هو بمثل وطأة وقساوة تلك المعاناة.

وإستناداً إلى ما سمعه المرء ورآه عبر الفضـائيات العربية والدولية عن الآثار الناجمة عن الحصـاريْن يمكن القول إن خادم الحرميْن الشـريفيْن بإنجاحه من جهة المهمة التي قام بها رئيس جنوب أفريقيا نيلسـون مانديلا وسـفير المملكة لدى الولايات المتحدة الأمير بندر بن سـلطان لإيجاد حل لأزمة لوكوربي، وبقراره تسـهيل أداء فريضـة الحج لثمانية عشـر ألف عراقي إنتظروا على الحدود بضـعة أيام في إنتظار أن يتيسر أمر تَوجههم إلى الديار المقدسـة... إن خادم الحرميْن الشـريفيْن بتلك اللفتة وذلك القرار كان يوم الجمعة 19 مارس/ آذار 1999 الموافق الثاني من شـهر الحج حاضـراً ليس فقط في بيوت ذوي الثمانية عشـر ألفاً الذين توجهوا لأداء الفريضـة وإنما في كل بيت عراقي وفي وجدان كل مواطن عراقي، وموجود أيضـاً في وجدان كل ليبي. وهو موجود على أساس أن اللفتة من جهة والقرار من جهة أُخرى خطوتان قابلتان للتطور في إتجاه أن يشـرح الله سـبحانه وتعالى للقادة العرب صدورهم وييسر لهم أمورهم وتلك أمنية كل عربي من المحيط إلى الخليج وكل مسلم من لبنان إلى الصين.

وبالنسـبة إلى حجاج العراق يجوز القول إن هؤلاء توجهوا براً وتجمعوا في نقطة الحدود وفي تصـورهم سلفاً منذ اللحظة التي غادروا فيها بغداد أن المملكة لا يمكن أن تفعل سـوى ما فعلتْه. بل قد يجوز القول إن الرئيس صـدَّام نفسـه لم يشـجع ذهابهم ومن دون أن يكون في حوزة أي منهم الـ 118 دولاراً رسْـم الدخول لأنه يريد إختبار أريحية الملك فهد أو إحراجه، وإنما لثقتـه بـأن هؤلاء يتوجهون إلى من إذا إنتخوا فـإن صـاحب الحاجة يتحول عندهم إلى ضـيف محفوظ

الخاطر والكبرياء. وهذا تماماً ما حدث للحجاج العراقيين الذين وجدوا أنفسهم لا يحتاجون إلى دنانيرهم غير القابلة للإستبدال ولا لرسوم الحج يسددونها ولا للقلق من متطلبات السكن والإعاشة. وذلك لأن الملك فهد أمر بأن يكونوا ضيوف المملكة من لحظة دخولهم إلى حين عودتهم وقد أدوا الفريضة، وبكل ما تتطلبه موجبات الضيافة.

ومثْل هذه الإستضافة لم تحدُث من قبْل ولكنها تنسجم مع طبيعة الملك فهد الذي عندما ينتخي فإن عطاءه يأتي كثير التميز بصرف النظر عما ينشأ عن هذا العطاء من تفسيرات ومعاتبات. وعلى سيرة العطاء بدافع النخوة نشير إلى ما فعله الملك فهد في الثمانينات من أجْل ألاَّ يسقط العراق أمام الهجمة الإيرانية العنيدة عندما إتخذ قراراً بتحويل مرفأ مدني صغير في المملكة إلى مرفأ عسكري يتم فيه تفريغ شحنات الأسلحة السوفياتية المرسلة إلى العراق والتي كانت ظروف المواجهة في شط العرب لا تسمح للسفن السوفياتية في الوصول إلى مرفأ عراقي. وللمرء أن يتصور أي مخاطرة أقدم عليها الملك فهد بدافع النخوة في لحظة الشدة خصوصاً أنه زمنذاك كان الإتحاد السوفياتي يخوض بضراوة الحرب الباردة ضد الولايات المتحدة ولم تكن بينه وبين المملكة علاقات دبلوماسية. وهذه الواقعة وغيرها كثير لا يعرفها العراقيون وغيرهم ولا يدرون بتفاصيلها وإن كان الرئيس صدَّام لخصها للعراقيين في حيثيات إهداء خادم الحرميْن الشريفيْن أكبر وسام عراقي عندما زار العراق بهدف تمكينه من مواجهة ذيول الحرب من دون أن يخطر في باله أن الرئيس صدَّام سينتقل من حرب إلى حرب. ولقد بدت نخوة الملك فهد في ما يتعلق بالحجاج العراقيين وكأنما هي إيماءة مفادها أن مثل هذا الغزو العراقي هو الغزو المستَحب والذي يُقابل بكل الترحيب وليس غزو الثاني من أغسطس 1990 الذي أدخل الأمة في نفق تتخبط فيه إلى الآن. وتأتي اللفتة السعودية ومِن قبْلها المحاولة الطيبة لمجلس الجامعة العربية قبل يوم من لفتة خادم الحرميْن بمثابة محاولة طيبة لمغادرة ذلك النفق.

أما الذي يمكن قوله في ما يخص تعاطي المملكة العربية السعودية في مأزق الحصار الذي تعيشه ليبيا فهو أن التفهم وإبداء المرونة والواقعية وأسلوب التخاطب من جانب العقيد معمَّر القذَّافي هي التي جعلت الجهد السعودي يثمر وجعلت الأمير بندر يبدو ثورياً والعقيد القذَّافي يبدو محافظاً. ومن الجائر القول إن أهم ما في السعي الذي جاء عبارة عن مزيج سعودي – جنوب أفريقي هو أن كل أطراف أزمة لوكوربي نالت ما تتوخاه وتتطلع إليه وهذا سببه نوعية الطرفيْن اللذيْن تعاونا على بذل الجهد بصمت طوال أشهر إلى حين جاءت اللحظة المناسبة. ولا نعتقد أن الولايات المتحدة وبريطانيا كان يمكنهما قبول أي مسعى لحل أزمة لوكوربي يطالب بالتفهم والتعقل من غير الملك فهد والرئيس مانديلا. وتلك على الأرجح نقطة الضوء التي إستوعبها العقيد القذَّافي فقرر عدم التفريط بها. وفي العادة إن كل المساعي الحميدة لحل أزمة تكون كثيرة التعقيد تستمر على شيء من التعثر إلى حين تتوافر لها نقطة الضوء المشار إليها فيسلك حينئذ المسلك الذي يقود إلى نتيجة إيجابية.

ونحن عند التأمل في بعض المفردات التي إستعملها العقيد القذَّافي وهو يعلن يوم الجمعة 19 مارس 1999 صيغة الحل المتوازن للأزمة ونتأمل أيضاً في ملامح وجهيْ الرئيس مانديلا والأمير بندر وكذلك في وجوه أعضاء البرلمان الليبي (يحمل تسمية مؤتمر الشعب العام) ونرى أيضاً التصفيق الذي قوبل به الإعلان عن صيغة الإتفاق التي تم التوصل نهائياً إليها... إننا عندما نتأمل ونرى ونسمع المفردات يقولها العقيد القذَّافي على الهواء مباشرة ومن دون أي تباطؤ في القول نلمس مدى إستيعاب الزعيم الليبي أو بتسمية أكثر دقة زعيم ليبيا الأوحد لقوة نقطة الضوء تلك وأثرها الكبير في التوصل إلى الصيغة التي تقضي بتسليم ليبيا الشابيْن المشتبه بأنهما وراء تفجير طائرة البانام الأميركية في العام 1988 في السادس من أبريل/ نيسان المقبل للمثول أمام محكمة إسكوتلندية في هولندا ليتم على الفور تعليق العقوبات المفروضة على ليبيا منذ العام 1992 فإذا سارت الأمور على ما يرام خلال تسعين يوماً يقرر مجلس مجلس الأمن الدولي رفْعها بصورة نهائية. ومما سمعنا العقيد القذَّافي يقول له: "عندما يُطلب مني أن أضع شروطاً يكفيني أن الملك فهد والأمير عبدالله والرئيس مانديلا ومعهم الأمير بندر أعطوني ضمانات...".

وبصرف النظر عما إذا كان الترحيب الأميركي والبريطاني سيصبح حاراً أم فاتراً ومتحفظاً فإن العقيد القذَّافي أشرك قطبيْن آخريْن لهما مكانتهما المؤثرة لدى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا في هموم وطأة الحصار الثقيل الناشيء عن أزمة لوكوربي والذي

يعيشه الليبيون وإنعكس سلباً على مشاعرهم تجاه الأشقاء العرب وإلى درجة أن العقيد القذَّافي الذي كان ينادي بالوحدة والعروبة أعلن إنحيازاً في إتجاه أفريقيا تقديراً منه لزعماء الذين خرقوا الحصار إنما من دون أن تكون لهم قدرة مسعى الملك فهد والرئيس مانديلا على وضْع نهاية للحصار كما هو متوقع ومؤمل حدوثه.

ويبقى أمران:

الأول هو أن صيغة الحل الذي إنتهت إليه أزمة لوكوربي ستكون بعد الآن سابقة لإيجاد حلول للأزمات القائمة الناشئة عن عناد الأطراف من جهة وغياب المسعى الحميد المتوازن من جهة أُخرى وكثرة المتعاطين مع هذه الأزمات من نوع أزمة لوكوربي بهدف تحويلها إلى بزنيس. كما أن هذه الصيغة عززت مكانة الأمير بندر كوسيط دولي للأزمات الصعبة الأمر الذي يجعلنا نفترض ونتمنى أن يكون الأمير هو الأمين العام المقبل للأمم المتحدة وهو ما يحقق للمنظمة الدولية فاعلية تضاف إلى الحيوية التي إتسمت بها في عهد الدكتور بطرس غالي وتتسم بها في عهد الأمين العام الحالي كوفي أنان. إلاّ أنها حيوية من دون فعالية ولذا يُستعصى إيجاد الحلول السريعة للأزمات الكثيرة التعقيد ومنها أزمة الحصار على ليبيا التي عوقبت من أجْل واقعة لم تتأكد والحصار على العراق الذي أرادته الولايات المتحدة إنتقاماً من النظام فجاء عقاباً لخمسة وعشرين مليون عراقي. وبإنهاء تلك الأزمات يشعر العالم ببعض الإستقرار الذي يقض مضاجع القارات الأربع مقابل أن تكون القارة الخامسة، قارة النظام العالمي الجديد مطْمِئنة.

أما الأمر الثاني فهو أن المبادرة السعودية لحل أزمة لوكوربي لم تتأخر وإنما كانت في إنتظار توافر مقومات في رؤية الجانب المتضرر من الحصار ومن دون أن يعني ذلك أنها تساوي بين مَن هو متضرر أي ليبيا وبين من يُلحق الضرر وهو هنا الولايات المتحدة وبريطانيا. ولو كان هذا التساوي قائماً لما كان للمبادرة السعودية – الجنوب أفريقية أن تبدأ، أو إنها إذا بدأت ما كان لها أن تثمر. وهنا يستوقفنا قول الأمير بندر"نحن شركاء لليبيا ولسنا وسطاء معها". ولعل هذه الروحية هي ما جعلت العقيد القذَّافي يقول العبارة التي سبق أن أوردناها وهي: " لن أضع شروطاً ويكفيني أن الملك فهد والأمير عبدالله والرئيس مانديلا ومعهم الأمير بندر أعطوني ضمانات...". والمقومات المطلوب توافرها في رؤية الجانب المتضرر هي المرونة والواقعية والإقرار بالخطأ قبْل الإصرار على المطالبة بالإنصاف. وهذا ما يبدو أن الرئيس صدَّام سينتهجه في ضوء ما إنتهى إليه مجلس الجامعة في القاهرة، وكذلك في ضوء أزمة لوكوربي على طريق الحل النهائي وإستضافة المملكة العربية السعودية لحجاج البر العراقيين.

... وتأتي كل هذه المفاجآت متلاحقة وفي شهر فضيل وكأنما هي عيدية للأمتيْن المكسورتيْ الخاطر لكثرة ما يلحق بهما من إستخفاف وظُلم دوليّيْن، يقدمها بو فيصل خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبدالعزيز لمناسبة عيد الأضحى... عساه من عواده.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 29 مارس (آذار) 1999

* * *

خيمة القذَّافي...
وصومعة كمال جنبلاط

في الوقت الذي كان العقيد معمَّر القذَّافي يُدخل على البروتوكول المصري تقليداً جديداً وهو أن ينصُب مساعدوه أوتاد خيمته في مساحة رحبة من حديقة قصر القبة وتنعقد داخل هذه الخيمة جولة أُولى من المحادثات بينه وبين الرئيس حسني مبارك... في هذا الوقت كان وليد جنبلاط الزعيم السياسي اللبناني الغاضب على عهد الرئيس إميل لحود والمغضوب عليه أيضاً وبالقدْر نفسه من هذا العهد، يعلن أمام بعض محازبيه ومناصريه بأن الصومعة الخاصة بوالده المرحوم كمال جنبلاط تعرضت للسرقة والعبث بمحتوياتها.

ومِن حق القارىء علينا أن يعرف ما هي حكاية خيمة العقيد القذَّافي الذي ما زال بعد ثلاثين سنة في الحُكْم يحلم بالوحدة العربية ولا يتحقق الحلم، وصومعة كمال جنبلاط الذي إستمر حتى يوم إغتياله يحلم بثورة على الصيغة اللبنانية التي تقضي بأن يكون رئيس الجمهورية مارونياً ورئيس مجلس النواب شيعياً ورئيس الحكومة سُنياً ولا يتحقق الحلم. بل إنه بات سراباً بعد إتفاق الطائف الذي كرّس الصيغة التي سعى كمال جنبلاط إلى تقويضها سالكاً من أجْل ذلك وسائل عدة

بينها مباركة العنف المسلح مخالفاً بذلك نهج غاندي والفلسفة البوذية وروحية الصومعة التي أعلن إبنه الوحيد وارث زعامته أن مجهولين سرقوها وبعثروا محتوياتها.

ظاهرة إعتماد الخيمة "قصراً" متنقلاً للعقيد القذَّافي مرتبطة بشعور لديه بأن العربي من الخيمة أتى وفيها تربَّى وإليها يعود ما دام التنافر مستمراً بين أبناء الأمة وما دامت هنالك مؤشرات إلى أن الإستعمار عائد بشكل كبير غير الذي كان عليه في الأربعينات والخمسينات والستينات. ومن مظاهره العدوان جواً والحصار بسلاح القرار الدولي متمثلاً بمجلس الأمن وشرعية الأمم المتحدة. وإلى ذلك إن الخيمة بالنسبة إلى العقيد القذَّافي هي رمز الرفض لما فعله النفط والذي كان الشيخ عبدالعزيز التويجري خير من أوجز هذا الرفض في بعض سطور كتابه الجديد "همسات في أُذنِ التاريخ" من بينها قوله: "ليتني وبعيري وأغنامي ونخلات أبي وجدي لم يفرّق بيننا عصر النفط..."، وقوله أيضاً: "... ويتراءى لي اليوم أن شيخ القبيلة حزين مثلي على فراقه لخيمته وإن بنى له النفط قصريْ كسرى وقيصر...".

وقبْل العدوان الريغاني (نسبة إلى الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان الذي أمر به بعدما حظي بتسهيلات من رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر) كان حِرْص العقيد القذَّافي على جلسات الخيمة أقل ربما لأن المشاغل كانت أكثر والهموم كانت محتملة، لكن هذا الحرص بدأ يتزايد بعد ذلك بسبب صدمات كثيرة ثم وصل الذروة بعدما بدأ الحصار وبات العقيد القذَّافي يرى في جلسات الخيمة ما يخفف عنه وطأة البحث عن السبيل لإنهاء هذا الحصار.

ولا بد أن كل الذين قابلوا العقيد القذَّافي في المكتب الرسمي داخل المباني الإسمنتية ثم قابلوه أيضاً داخل إحدى خيامه في طرابلس أو سرت وأبرزهم في الأشهر الثلاثة الماضية الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان والدبلوماسي السعودي المتميز الأمير بندر بن سلطان سفير المملكة في واشنطن... لا بد أن هؤلاء لاحظوا أن التحادث مع العقيد القذَّافي وهو في الخيمة يفضي إلى نتائج أفضل ربما لأن جو الخيمة يبعث على الطمأنينة ويشحذ الأفكار والرؤى بشكل أفضل. (تجدر الإشارة هنا إلى الأمر البالغ الأهمية الذي حدَث بعد عشرة أيام من كتابه هذا المقال وتمثَّل بإعلان العقيد معمَّر القذَّافي يوم الجمعة 19 مارس 1999 أمام البرلمان الليبي وبحضور الرئيس نيلسون مانديلا والأمير بندر بن سلطان التوصل إلى إتفاق نهائي لأزمة لوكربي).

والجديد في ظاهرة خيمة العقيد القذَّافي أنها كانت جزءاً من موكبه الذي ضم مئتي سيارة والذي إجتاز ألفيْ كيلومتر ليصل إلى القاهرة وأن الرئيس حسني مبارك الأكثر تفهماً لتلك الظاهرة وما تشكِّله من أهمية في نفس صديقه العقيد أجرى في داخلها بعدما جرى نصْبها في حديقة قصر القبة محادثات مع ضيفه الزائر وهي حالة لن تتكرر مع آخرين. وثمة ملاحظة يجدر أخْذها في الإعتبار وهي أن العقيد القذَّافي آثر أن يواصل السفر براً إلى القاهرة بعدما وصل إلى مرسى مطروح حيث كان يمكنه أن يستقل الطائرة إلى القاهرة، كي يُظهر للعالم مدى قساوة الحصار الجوي ومدى الشقاء الذي يعاني منه الليبيون والمصريون على حد سواء نتيجة عدم تَمكُّنهم من السفر جواً بسبب الحصار. كذلك آثر مواصلة السفر براً كي يبدو أمام الآخرين أن طاقته على تحمُّل الحصار متوافرة وأنه إذا كانت صيغة الحل التي تم إستنباطها لإنهاء أزمة لوكربي باتت جاهزة أو أنها في مرحلتها الأخيرة فهذا لا يعني أن الذي صبَر الكثير على الحصار لا يمكنه أن يتحمل بقية الصبر.

واللافت للإنتباه أن جو الخيمة المنضوبة في حديقة قصر القبة فضلاً عن الإنفراج القريب في أزمة لوكربي الظالمة بعثا في نفس العقيد القذَّافي الحنين إلى المطالبة بالوحدة الإندماجية الفورية بين مصر وليبيا. أو وحدة النفط والماء على حد تعبيره. وهو عندما يفعل ذلك بعدما أوحى قبل أشهر بنفض اليدين من التفكير بالوحدة مع الأشقاء العرب والتوجه إلى الوحدة مع الأشقاء الأفارقة غير العرب. فلإنه في احدى تأملاته داخل الخيمة وصل إلى إقتناع بأن سعر النفط بعد الهبوط المريع الذي أصابه حديثاً تساوى مع سعر الماء وأن آبار الذهب الأسود في ليبيا لن تتفوق بأهميتها على مياه النيل. وأنه ما دام الصراع في القرن الواحد والعشرين سيكون على الماء فلماذا إذاً لا يتحالف نفط ليبيا مع مياه النيل لتشكيل جبهة تقف في ساحة الصراع المشار إليه.

ولكن معاودة طرْح فكرة الوحدة لن تؤدي إلى نتيجة لعدة أسباب من بينها أن الظروف غير مواتية ولإن العقيد القذَّافي ليس هنا مثل المواطن العربي الأول شكري القوتلي. كما أن الرئيس حسني مبارك ليس

جمال عبدالناصر الذي لبى نداء الوحدة بدوافع وجدانية من دون التبصر بالمخاطر. وإلى هذه الأسباب المهمة هنالك السبب الأهم وهو أن النظام العالمي الجديد الذي لا يسمح بعقد مؤتمر يناقش فيه القادة العرب الوضع ويحققون من خلاله حالة من التضامن الذي هم في أشد الحاجة إليه، سيعرقل أي محاولة لقيام دولة قادرة بفضل الماء والنفط والإرادة والعزيمة على إرباك الهيمنة الأميركية على المنطقة العربية، خصوصاً أن هذه الوحدة إذا قامت ستغري السودانيين بالإنضمام إليها وهم هذه المرة أقوى بكثير نتيجة أن ثمن برميل الماء بات بمثل سعر برميل النفط ومن المتوقع أن يزيد، ونتيجة أن لديهم النيل المتدفق دائماً والذي يفيض أيضاً خيراً كثيراً مرة كل سنة.

والحديث حول خيمة العقيد القذَّافي يطول. وما أوردناه هنا هو بعض الملامح لا أكثر. وهي ملامح قريبة من منطلقاتها من ملامح صومعة الزعيم اللبناني الراحل كمال جنبلاط الذي أوصله إغراقه في التصوف وخيبة الأمل من تحقيق التغيير الثوري في النظام اللبناني إلى تفضيل الإبتعاد عن الناس بين الحين والآخر وإختار لهذا الغرض أن تكن له صومعة هي عبارة عن غرفة مساحتها 30 متراً مربعاً بنيت عام 1959 بعد فشل ثورة 1958 التي باركها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر وتزعمها الرئيس صائب سلام وكان كمال جنبلاط الذي عوّل الكثير على نجاحها أحد قادة الصف الأمامي فيها. وإختار جنبلاط مكاناً متميزاً للصومعة وهو سفح تلة صغيرة بين بلدتيْن من بلدات منطقة الشوف محاطاً بأشجار السرو والشربين والأرز. وفي هذه الصومعة كتب كمال جنبلاط بعض مؤلفاته المتأثرة بأفكار المهاتما غاندي والحكمة البوذية وكانت في معظمها حول شؤون فلسفية وعن التداوي والغذاء بالأعشاب. وبعد إغتياله أُغلق باب الصومعة على ما فيها من كُتب دينية ومنها كُتب الحكمة للموحِّدين (الطائفة الدرزية) وكُتب إشتراها كمال جنبلاط خلال زياراته إلى الهند ومصر وبعض الدول. إضافة إلى مقتنيات شخصية من بينها ثياب وقبعة.

وفرضت الظروف أن تبقى الصومعة على حالها إلى أن أعلن وليد جنبلاط يوم الأحد 7 مارس 1999 أن الصومعة تعرضت للسرقة حيث إقتحمها مجهولون. وجاء الإقتحام بعد أيام من الخسارة التي مُني بها وليد جنبلاط وهي إضطراره للتخلي عن قصر بيت الدين الذي إستعادَتْه الدولة بعدما كان الزعيم الغاضب والمغضوب عليه أحاطه بعناية لا مثيل لها خلال سنوات الحرب اللبنانية التي دامت ست عشرة سنة وأطلق عليه تسمية "قصر الشعب" وأثثه على أفضل ما يكون عليه التأثيث ووضع في باحته الرئيسية تمثالاً لوالده الراحل. وهو ربما فعل ذلك على أساس أنه في حال لم تجد الحرب اللبنانية حلاً وبات التقسيم أمراً لا مفر منه فإن "قصر الشعب" يكون المقر الرسمي لرئيس دولة الجبل وليد جنبلاط. وجاء إتفاق الطائف يحمل صيغة الحل الذي يعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبْل أن تبدأ الحرب في أبريل/ نيسان 1975.

ولا ندري ما إذا كان وليد جنبلاط سيلجأ ذات يوم إلى الصومعة على نحو ما فعله والده نتيجة اليأس والإحباط. أما العقيد معمَّر القذَّافي فلا يبدو أنه سيتخلى عن خيمته التي سينقلها من مكان إلى آخر ويواصل اللجوء إليها كلما خابت آماله بتحويل الأحلام الجميلة إلى واقع ومنها وحدة العرب من المحيط إلى الخليج في الحد الأقصى... ووحدة نفط ليبيا ونيل مصر في الحد الأدنى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 مارس (آذار) 1999

* * *

تساؤلات برسْم إميل لحود

يتابع اللبنانيون، الذين يعيشون أزمة إقتصادية شديدة الوطأة، بإهتمام كبير الأسلوب المتميز الذي يعتمده رئيس الجمهورية العماد إميل لحود في إدارة شؤون الدولة المثقلة بالمشاكل والديون والملفات غير النظيفة، وكيف أن الإنسجام مثالي في هذا الشأن بينه وبين الطاقم التنفيذي الذي يقوده رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص.

ومن مظاهر هذا الأسلوب كثرة إستقبالات الرئيس لحود التي قيل لنا أنها تصل في بعض الأحيان إلى ثمانين موعداً في اليوم الواحد. وكيف لا تصل ما دام نهار الرئيس يبدأ مع شروق الشمس، ويجب بحُكْم عراقة التربية العسكرية أن يبدأ نشيطاً على أساس أنه ما فائدة العسكري إذا صحا باكراً لكن على شيء من التكاسل.

ومن المظاهر أيضـــاً أن الرئيس لحود أنشـــأ في القصـر الجمهوري مكتباً هو الأول من نوعه في تاريخ لبنان يتلقى الشـــكاوى من المواطنين، فإعتبر بعض المعارضـــين هذه الخطوة تجاوزاً من الرئاســـة الأُولى على الحكومة، وهو رأي قوبل بالإنزعاج من المواطنين بمَن فيهم محازبو اولئك المعارضين الذين رأوا في هذا المكتب الضمانة بأن الشكوى في الحد الأدنى ستصل وأنها ما دامت ستصل فإنها ستكون موضع الإهتمام. ولم يعرف اللبنانيون بطبيعة عمل مكتب الشـكاوى في القصـر الجمهوري إلاَّ بعد مئة يوم على إنشـائه عندما دعا مدير المكتب وهو ضـــابط برتبة عقيد إلى مؤتمر صـحافي أوضـح فيه أن المكتب بدأ نشاطه بعد مرور 22 يوماً على تسلُّم العماد لحود رسمياً الرئاسة وإلقاء خطاب اليمين الدسـتورية الذي قال فيه : "لا مسـتقبل لأحد في هذا البلد حاكماً كان أو محكوماً إلاَّ بقيام دولة القانون والمؤسسات...".

ومن المظاهر أيضاً وأيضاً أن الرئيس لحود إعتبر منذ اليوم الأول أنه لا بد من زرْع بذرة مقاومة لا تأخذ من طريق المقاومة التي يخوضـها "حزب الله" ويقتصـر أفرادها من مقاتلين من الطائفة الشـــيعية دون غيرها، وإنما تُجاوزها وتســـتقطب في صـــفوفها كل الطوائف وبذلك لا تعود قضـية الإحتلال الإسرائيلي لمناطق في الجنوب ممـا يرمي بثقلـه على فئـة دون أُخرى من اللبنـانيين. وتمثلت بـذرة المقـاومـة التي نشـــير إليهـا بالطلاب الجامعيين الذين إقتحموا الأسـلاك الإسرائيلية الشـــائكة حول أرنون وأزالوها وأحدثوا بفعلهم الشـــجاع هذا صـــدمة مسـتحبة ومطلوبة، ومع أن صـــوت هذه المقاومة لم يعد مسموعاً، إلاَّ أن التشجيع الذي حظيت به هذه المقاومة من جانب الرئيس لحود عند إستقباله في القصـر الجمهوري رموز عملية الإقتحام الشـجاعة للأسلاك الإسرائيلية الشائكة في أرنون، يعكس إنطباعاً بـأن الرئيس لحود يرى أن تكون المقـاومـة التي هي محســوبة على عهده ومن إبتكار هذا العهد بعيدة قدْر الإمكان عن الأضـــواء وتخطط بصـــمت لعمليات تتم في الوقت المناسـب وبمؤازرة الجيش اللبناني وحمايته، خصـــوصـــاً أن الطلاب الجامعيين هم عملياً أبناء المؤسـسـة العسـكرية كونهم أدوا خدمة العَلَم وتشـرَّبوا المفاهيم السائدة في المؤسسة كما أرساها قائد الجيش السابق الذي بات رئيساً للبلاد.

ومن المظاهر أيضـــاً أن مفاهيم الحياة البســـيطة التي يعتمـدهـا الرئيس لحود بـدأت تنســـحـب على المجتمع اللبناني. وقد تكرسـت وبشـكل نهائي التقاليد، على سـبيل المثال لا الحصـر، أن الرئيس لا يسـتقبل زائريه وهو جالس وراء مكتبه الرســـمي على نحو ما كـان يفعلـه ســـلفـه الرئيس الياس الهراوي، وإنمـا يتم الإسـتقبال لكل الزوار من دون إسـتثناء في صـــالون يتصدره مقعدان بينهما طاولة صغيرة ولا يكون الجلوس وجهاً لوجه. ومن التقاليد أيضـــاً أن الرئيس لا يضـــع سـاقاً فوق سـاق. وبطبيعة الحال وكما تقتضـــي آداب الجلوس في حضـــرة الحكام، لا يحبذ أن يضـــع زواره الساق فوق الساق عند قيامهم بزيارته. ولا ندري ما إذا كان اللبنانيون والعرب عموماً من الزوار يتصـــرفون تلقائياً على نحو ما تفرض الأصـــول فلا يضـــعون الســـاق فوق الســـاق عند زيارة الرئيس والجلوس في ديوانه، أو أن المسـؤول عن البروتوكول في القصـر، وهو العريق في هذا المجال، مارون حيمري الذي ورث المنصب والخبرة عن والده الراحل جورج حيمري، يلفت إنتباه الزوار وبلباقة إلى هذا الأمر.

ومن مظاهر الأســـلوب المتميز للرئيس لحود أنه يشـجع ضـمناً على ما يجوز الإعتقاد، ظاهرة حكومة الظل التي تتبلور يوماً بعد يوم والتي باتت واقعاً لا يمكن تجاوزه وذلك بســـبب تعامُل معظم دول العالم وبالذات الدول الكبرى من خلال سفرائها ومبعوثيها مع الرئيس رفيق الحريري على أنه رئيس حكومة ظل من دون أن " يشكِّل" بعد هذه الحكومة. والنظرة إلى رئيس الظـل هي أنـه "الرئيس اللاحق" وليس أنـه "الرئيس السـابق". ويكاد لا يزور مسؤول أجنبي لبنان (أحدثهم الوزير البريطاني فاتشـــيت) إلاَّ ويكون من ضِـــمْن برنامجه الإجتماع برئيس وزراء سـابق واحد دون غيره من بقية الذين شـغلوا هذا المنصـب، أي بما معناه أن الوزير البريطاني ومن قبلْه بعض الزوار الرسـميين لم يشـــمل برنامجهم خلال زيارتهم لبنان الإجتماع بأربعة شـــغلوا في الماضـــي منصـــب رئيس الحكومة إلاّ أن اللقاء بالحريري كان ضِـــمْن البرنامج. كما أن التعامل العربي والسوري بشكل خاص مع الظروف الشخصية للحريري، وأهمها وفاة والده منذ بضـعة أيام ووفاة والدة زوجته قبْل ذلك، هو تعامُل مع رئيس الوزراء اللاحق وليس مع رئيس وزراء ســـابق. وما يقال عن العرب والأجانب يقال أيضـاً على الصـعيد المحلي. وبصـرف النظر عما إذا كان الرئيس الحريري على طريق العودة أو أن بقاءه على هذه الحال سـيطول فإن الواضـح كل الوضـــوح أن الرئيس لحود يواصـــل تشـــجيع ظاهرة

حكومة الظل التي تقطع مع الرئيس الحريري وبه الطريق على المعارضة الصارخة. وعندما ستتلاشى التصريحات عن التركة الثقيلة والإشارة إليها يومياً وتتبدل اللهجة المعتمدَة في محطة "تلفزيون المستقبل" خط الهجوم الأول المرئي للحريري، ولا تكون صحيفته المرتقَبة الخط المقروء للهجوم... عندما سيحدُث ذلك فإن مسألة الرئيس اللاحق ستتحقق إنما هذه المرة من دون الموكب الشهير.

والكلام حول الأسلوب المتميز للرئيس لحود يطول، كذلك تسجيل الأمثلة على ذلك.

ولكن تبقى الإشارة ضرورية إلى أن اللبنانيين مقتنعين بأكثريتهم أن رئيسهم يعيد صياغة طبيعة العمل الرسمي والسياسي في البلد ولكنهم خائفون في الوقت نفسه على المصير لأن العهد الذي يتصدره الرئيس لحود لم يُبدِ حزماً مطلوباً أمام قضايا صغيرة يمكن حسمها بتوجيهات وقرارات لا تتطلب الكثير من المجادلة، فكيف سيعالج بقية الأمور الكبرى ومنها سرقة المال العام وفضائح النفط والآثار وغيرها. وأجد أن من الضروري أن أسجل هنا تساؤلات سمعتُها من زوار أجانب وخليجيين قصدوا لبنان في سياحة عائلية ولا يبدو أنهم سيعيدون الزيارة إلاَّ إذا...

من هذه التساؤلات: ما هو الفرق بين إختراق الطائرات الإسرائيلية جدار الصوت فوق بيروت وبقية المناطق اللبنانية وبين التفجيرات التي تحدُث في الكسَّارات ويصل دويها إلى مسامع الأطفال النيام في أسِرَّتهم. وما هو الفرق بين سرقة إسرائيل للتراب من بعض حقول الجنوب وبين تناتش بعض اللبنانيين لآثارهم والمتاجرة بتاريخهم. وما هو الفرق بين القصف الإسرائيلي اليومي لقرى ومناطق في الجنوب والبقاع وبين تدمير بعض المحظوظين في لبنان للبيئة براً وبحراً ونهراً وسماء.

ومن المؤكد أن هؤلاء الذين يطلقون التساؤلات لن يشجعوا أحداً على زيارة لبنان إلاَّ إذا سمعوا أن الرئيس لحود أصدر أمراً بوقف العمل في الكسَّارات حتى إشعار آخر، وأصدر توجيهات بوضع حد للتلوث الناشيء عن عوادم السيارات، وإختار فريق عمل مهمته إنهاء إحتلال السيارات للأرصفة وإخضاع مستعملي الدراجات النارية للقانون الذي يسري على السيارات وبذلك تنتهي ظاهرة شريعة الدراجات النارية التي تخالف كل الأصول.

هذا ليس كل شيء، وإنما هي بداية تعزيز المعنى الكبير للأسلوب الذي يعتمده الرئيس لحود... والذي لا نظن أنه يمكن أن يبدِّله أو يرتضي له تعديلاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 31 مارس (آذار) 1999

* * *

أي صحافة... أي عرب..أي مصير؟

أنجزت صحيفة "السفير" يوم الخميس 25 مارس/ آذار 1999 سنتها الخامسة والعشرين لتبدأ مع بدايات فصل الربيع وبالعدد 8258 السنة الأُولى من يوبيلها الذهبي. ومثل هذا الصمود لصحيفة يومية صدرت في وقت كانت شرارة الإنفجار في لبنان على أهبة الحدوث، يشكِّل أكثر التحديات صعوبة، ذلك أن التوقيت لم يكن على الصعيد التجاري من حُسْن حظ "السفير" حيث أن إنفجار الوضع في لبنان حرباً فيه وعليه تَسبب في إنحباس الإعلانات التي من دونِها قد يكون في إستطاعة مطبوعة مضى على صدورها زمن طويل أن تصمد بسهولة، إلاَّ أن الأمر يختلف بالنسبة إلى صحيفة ما زالت في سنتها الثانية وأمامها المزيد من الشقاء للحصول على بعض الموارد الإعلانية. مِن هنا فإن إرادة البقاء والإصرار على المزيد من التضحية في سبيل إنجاح المحاولة ساعدا على أن تبدأ "السفير" رحلة صمود لافتة للإنتباه إلى أن أنجزت اليوبيل الفضي.

وفي بدايات الصدور كان الشعار – القضية الذي طرحتْه "السفير" هو أحد عوامل ترحيب شريحة واسعة من اللبنانيين بها وبالتالي تقبُّلهم لها. وقد أراد هؤلاء تشجيع هذه الصحيفة التي ترفع شعار"صوت الذين لا صوت لهم" والبحث يومياً بين سطور أعمدتها عما تفعله في هذا الشأن. ولأن نسبة الذين لا صوت لهم بالمفهوم الذي طرحتْه "السفير" وبالذات خارج العاصمة بيروت، هي النسبة الأكثر إتساعاً فإن الصحيفة الجديدة باتت حاضرة في كل المناطق اللبنانية، وتلك إحدى الأوراق الرابحة كما سيتبين فيما بعد.

إلاَّ أن بين هذه الأوراق ما يجوز إعتباره الورقة الأهم، وهي ورقة الحضور الفلسطيني في لبنان الذي إتسعت رقعته عدداً وتأثيراً في لبنان بعد "سبتمبر الأردني". وهذا الحضور وجد في "السفير" المنبر الإعلامي الذي يتفهم ظروفه في الحد الأدنى، ويدافع

عن هذه الظروف في الحد الوسط، ويتبناها في الحد الأقصى. ومِن هنا فإن "السفير" كانت تبدو، في بعض الأعداد وفي مجمل الكتابات، فلسطينية أكثر من الفلسطينيين أنفسهم. لكن إنتشار "السفير" في أوساط الفلسطينيين، حيث أنهم شكّلوا رقماً ملحوظاً في نسبة عدد قرائها، لم يُفدها على نحو ما كانت تستفيده، على سبيل المثال لا الحصر، معظم الصحف الخليجية، وبالذات صحف الكويت، من الرقم الفلسطيني ولدرجة أن هذه الصحف باتت في معظمها وكأنما هي صحف المقاومة الفلسطينية تتنافس على كسْب ود الفلسطينيين كي يستمروا من القرَّاء لها والمشتركين فيها.

غير أن مَن يسكن المخيمات ويتبضع من دكاكين "محلة صبرا" يختلف في نظر الشركات – التي تبحث من خلال حملات الترويج عن المزيد من المستهلكين لمنتوجاتها– عن الفلسطيني الذي يعمل في الوزارات والمقاولات والشركات في الكويت ويتبضع لنفسه ولأفراد أُسرته وأحياناً للأهل والأقارب خارج الكويت.

وهذا يدفعنا إلى القول إنه لو كانت قدرات فلسطينيي لبنان بقدرات فلسطينيي الخليج لكانت الحصة الإعلانية لصحيفة "السفير" على غير ما هي عليه، حيث أنها خجولة على رغم أنها قطعت بمراحل الشرط الأكثر صعوبة لكي تحصل على الإعلان، وهو الصمود ربع قرن.

وإذا كانت صحف الكويت وجدت في المصريين بديلاً يعوّض جزئياً الجمهور الفلسطيني لهذه الصحف على الصعيد الإنتشار وبالتالي على صعيد الحصول على الإعلان، فإن "السفير" لا تجد في جمهورها غير اللبناني وغير الفلسطيني في لبنان ما يمكن الإعتماد عليه. وأفراد هذا الجمهور من سوريين ومصريين وسودانيين ليسوا من نوع القرَّاء الذين يداومون على شراء صحيفة وليسوا من طبقة المستهلِكين، أي بكلام أكثر تحديداً ليسوا بمثل أقرانهم في معظم دول الخليج حيث الصحف وعلى رغم إستقرارها المالي تعوِّل الكثير عليهم.

وبعد إختتام يوبيلها الفضي، وبداية "السفير" ليوبيلها الذهبي، ما الذي يمكن قوله؟

هل تَعتبر أنه قد آن الأوان للإنتقال من واقع إلى آخر من دون أن يكون هذا الإنتقال من نوع تغيير الجِلْد ونقْل البندقية من كتف إلى كتف؟

وهل ترى أن زمن الثورة والتغيير الثوري قد توقَّف عند ولادة ظاهرة "النظام العالمي الجديد" وما أفرزه من إرهاق للواقع العربي وللعرب عموماً، وتتعامل مع هذه الظاهرة على غير طبيعة تعامُلها مِن قبل؟

لقد أطلق ناشر "السفير" ورئيس تحريرها، الزميل طلال سلمان، لندوة العيد الفضي التي شارك فيها زملاء عرب من ذوي الخبرة فضلاً عن أنهم بمثابة رموز لواقع الصحافة العربية، العنوان الآتي: "أي صحافة لأي عرب... غداً".

ومِن وجهة نظري كواحد خاض غمار النشر ويملك الآن مساحة عريضة للتأمل في أحوال الصحافة العربية، أرى وتحديداً بالنسبة إلى الصحافة في لبنان أن يكون التساؤل على النحو الآتي: أي صحافة لأي عرب... وأي مصير؟ أما لماذا هذا التساؤل وبهذه الصيغة فلأنني في ضوء التأمل الذي أشير إليه أتوقع، خصوصاً إذا إستمرت تقلبات النفط على ما هي عليه وإستمرت دول الخليج مكتفية بصحافتها فلا تشمل بالمساعدة أي صحافة خارج الحدود، وإستمرت الفضائيات العربية في الوقت نفسه تستقطب الناس، بمعنى أنها تُحولهم من قرَّاء إلى مشاهدين وتستقطب في الوقت نفسه هي والمجلات المصقولة – تلك الظاهرة التي تزامنت مع بداية عصر الطائف– المعلنين وإعلاناتهم... إنني في ضوء هذا التأمل أتوقع أن تذبل الصحف في لبنان وتتوارى في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين الواحدة بعد الأُخرى، إلاَّ إذا قررت هذه الصحف أن تذيب نفسها في تكتلات بحيث تندمج معظم هذه الصحف بعضها بالبعض وفق قاعدة تشاركية عملية تتوزع ملكيتها على أصحابها وعلى القرَّاء أيضاً. أما كيف، فإن العبقرية اللبنانية في إجتراح الصيَغ، كفيلة بإستنباط الصيغة التي تغري الذين قد يطيب لهم أن يكونوا بمساهمة من ألف دولار على سبيل المثال شركاء في مؤسسة صحافية.

وتبقى بالنسبة إلى طلال سلمان كلمة حق يراد بها إنصاف زميل إستطاع بالعناد الذي يأخذه عليه كثيرون أن يحقق أمراً بالغ الأهمية على صعيد المهنة، ونعني بالأمر إصدار الصحيفة اليومية الناجحة التي لم يتسلمها وارثاً وإنما حفر الأساس وبناها حجراً حجراً وإستعمل في صياغة تَخاطُبها مع الآخرين كلاماً يبدو أحياناً وكأنما لغة ملاكمين. وهذا ليس إقتعالاً من طلال سلمان وإنما هو فِعْل إيمان من جانبه بالثورة والوحدة والقومية العربية والناصرية وفلسطين المستعادة، وهي قضايا سفك من أجلها حبراً كثيراً وبعض الدم. وبموازاة هذه الأهمية أمكن طلال سلمان أن يبقى في منأى عن أي شعور مذهبي في زمن إزدهار المذهبيات، وأن يبتكر مزيجاً من التفكير ظهر من خلال صفحات "السفير" وما حوتْه من كتابات

وتحليلات بحيث أن الماركسي يساير العروبة من أجْل مراعاة خط "السفير" وبات العروبي المحافظ يقترب بعض الشيء من شطآن الثورة للمراعاة نفسها، بل ويجوز القول إنه بات هنالك يسار جديد على صفحات "السفير" يتمثل في كتابات وقورة تأخذ في الإعتبار الواقع العربي الجديد وما طرأ عليه من تيارات لعل أهمها التيار الديني. وبفضل هذه الخلطة الفكرية أمكن للأقلام التي تألقت في "السفير" أن تجد سهولة للإطلالة من منابر أُخرى.

يبقى أيضاً أن "السفير" التي تنتقل من يوبيلها الفضي لتبدأ السير على طريق اليوبيل الذهبي تواجه الخيار الصعب. فهي التي كانت صحيفة التوجه القومي ترى أن ظلالاً رمت بقتامتها على القومية العربية. وهي التي واجهت الكثير لتبقى الصحيفة الثورية المقاتلة ترى أن الثورة باتت عبئاً على الثوريين الذين جنحوا نحو الإسترخاء مقتنعين بأن الثورية صيغة من صِيَغ الماضي غير مستحبة للحاضر. أما قادة الجماهير الثورية والحالمة بالوحدة العربية فإنهم شاخوا وما عادوا يجدون في "السفير" سوى أنها مرآة تكسرت عليها النصال الكثيرة وتُذكِّرهم بالزمن الذي كانت فيه رومانسية النضال تجد مريدين ومقدِّرين ومبتهجين... بل ومقاتلين.

ولا أظن شخصياً، ازاء ذلك، أن طلال سلمان سيستمر شاهراً قلمه على نحو ما إعتاد عليه يسطِّر مقالاته وكأنما هي البلاغات المتلاحقة، بدءاً من البلاغ رقم واحد. كما لا أظن شخصياً أنه سيستمر متشبثاً بعناده على نحو عناد فيديل كاسترو المتمسك بالماركسية على رغم سقوطها بتساقط القلعة الأهم الإتحاد السوفياتي، ذلك أنه (أي زميلنا طلال) أدى قسطه ربع قرن للثورة والعمل القومي، وباتت "السفير" المؤسسة هي القضية، أو يجب أن تكون. وهذه لها مواصفات وشروط... وتضحيات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 2 أبريل (نيسان) 1999

* * *

في إنتظار إستعادة الجزائر

تجرّعت الجزائر على مدى خمس سنوات من العنف ما جعل شمسها التي كانت ذات إشراقة بهية على ساحة النضال العربي والعمل القومي تصاب بكسوف لن ينقذها منه سوى حُكْم جديد تتصالح في ظله الجزائر مع نفسها، وبذلك يقف العنف المتوحش الذي يجرف في طريقه حياة البشر، مسبباً الخجل للسمعة الجزائرية التي شوهت تراثها بشاعة عمليات التصفية والإنتقام التي تتم بوسائل توحي بأن المشاعر الإنسانية تلاشت تماماً من جوهر الشخصية الجزائرية.

وخلافاً لأي إنتخابات رئاسية في دول أُخرى حيث يقتصر الإهتمام بها على أهل البلد الذي تجري فيه الإنتخابات، فإن الأنظار العربية شاخصة نحو الجزائر تراقب ما الذي ستسفسر عنه إنتخابات الرئاسة يوم الخامس عشر من نيسان/ أبريل الجاري. ذلك أن الجزائر تعيش في وجدان المواطن العربي، ولقد أحزنه مصابها عندما إبتُليت بعنف لا نظير له وإلى درجة أن مَن كانت رمزاً للنضال وللمقاومة ضد المستعمر باتت مضرب المثل في العنف بأبشع صوره. ومن معالم هذا الحزن أنه ليس هنالك مَن يشمت بالجزائر ويتمنى لها مواصلة الإنزلاق نحو الهاوية وإلى ما بعد القعر، وإنما هنالك تمنيات دائمة وبما يشبه الإجماع بأن تتجاوز الجزائر محنتها وتغادر نفق الغضب الذي رمت نفسها فيه أو رُميت فيه ذات ساعة مريبة غاب فيها العقل والتعقل وحلّت فيها الوساوس والروح الشريرة، فكان الصدام الذي إفترضْنا أنه لن يكون أكثر من تنفيس للقِدْر الذي إشتد غليان الماء فيه وباتَ على أهبة الإنفجار... وهذا ما حدَث.

ويحزن المرء لأن فرصة نادرة من فرص ممارسة الديمقراطية بأبهى صورها ضاعت يوم حَدث عن سابق تصميم رفْض إرادة شعبية جرى التعبير عنها وفْق الأصول. وجاء ضرْب تلك الفرصة بالإلغاء غير المنطقي وغير المبرَّر للإنتخابات التي حقق فيها الإتجاه الإسلامي الأكثر قوة (جبهة الإنقاذ) نتائج مبهرة، ينقل البلاد من شاطئ الأمان إلى بحر عاصف ويحوّل بعض الجزائريين إلى عدويْن يطارد كل منهما الآخر للإجهاز عليه، من دون أن يأخذ الجانبان في الإعتبار أن مَن تتم محاولة الإجهاز عليها هي الجزائر الكيان والسمعة والمستقبل.

والآن، وبعد هذه السنوات الشريرة الملطخة بعض أيامها بدماء سالت بفعل البنادق أو بفعل الفؤوس والسكاكين، هل هنالك أمل في أن يكون يوم الخامس عشر من نيسان/ أبريل 1999 هو اليوم الوطني الثاني في حياة الجزائر. ونقول ذلك على أساس أنه مثلما أن يوم الإستقلال يكون عادة هو اليوم الوطني والوحيد في حياة دولة من الدول، فإن يوم إنتقال دولة من

مرحلة الإقتتال على النحو الذي كان عليه الإقتتال الأهلي في لبنان طوال ست عشرة سنة والعنف الذي هو عليه منذ خمس سنوات في الجزائر والذي تخللتْه وقائع في غاية القسوة والبشاعة، إلى مرحلة التوافق والتفاهم... إن يوم الإنتقال هذا هو من حيث الأهمية مثْل اليوم الوطني الأول. ومِن هنا تعبير "اليوم الوطني الثاني".

ويستوقف المرء وهو يتابع تطورات المعركة الرئاسية، منذ أن فتح أبوابها مبكراً الرئيس اليمين زروال، كثرة الراغبين في خوض غمارها إلى درجة أن عدد الذين عبّروا عن رغبتهم وصل في إحدى المرات إلى عشرين شخصية، الأمر الذي أوحى بإنطباعيْن أحدهما أن مركز الرئاسة في الجزائر بات على شيء من الهزال وأنه منصب شرَفي يمكن أي جزائري من أهل النخبة التطلع إليه وينعم بإمتيازات هذا المنصب. أما الإنطباع الآخر فهو الإستغراب كل الإستغراب لهذا الإقدام اللافت للإنتباه على الرغبة في الوصول إلى هذا المنصب على رغم أن الجو العام لا يُغري، فضلاً عن أنه ليس في إستطاعة الرئيس بكل ما يملك من سُلطات أن يضع حداً – وكما أثبتت أيام رئاسات محمد بوضياف وعلي كافي واليمين زروال – للعنف الذي بلغ حد اللامعقول. وعندما إنتهى المطاف إلى أن المعركة ستقتصر على سبعة فرسان يخوضونها وللمرة الأُولى، ويخوضونها مستقلين ومنزَّهين عن عيوب مواجهات العنف، بدأت الجدية تتقدم على الخفة، خصوصاً أن السبعة هم من أصحاب التجربة السياسية والديبلوماسية والإدارية والتراث الثوري.

وعلى رغم أن المرء لم يلاحظ في شعارات المرشحين السبعة وبين سطور برامجهم وأقوالهم وأحاديثهم الصحافية والتلفزيونية ما يشير إلى التصميم المؤكَّد وغير الخجول على الأخذ بصيغة التوافق، إلاَّ أن مجرد أن يخوض المعركة سبعة مرشحين جديين هو دليل عافية، وهو أيضاً مظهر من مظاهر الديمقراطية يضاف إلى الخطوة المحترمة التي تمثلت بأن الرئيس زروال سجل وقفة زُهد بالحُكْم، فإختصر الرئاسة بضعة أشهر وفي زمن يتمسك الذين في المنصب بكل عزم بالمنصب لا يتحملون ضياعه ولا إنتقاله إلى آخرين. ونقول ذلك بصرف النظر عما إذا كان إختصار الرئاسة بضعة أشهر جاء تحت وطأة الإضطرار، أو كخطوة تكتيكية هدفها تأمين إجماع على تجديد الولاية الرئاسية، أو لأن الرئيس زروال وجد في لحظة صحوة وجدانية أنه من الأفضل لتاريخه تسجيل موقف يذكره الناس بالخير كأن يقول الجزائريون في القرن الواحد والعشرين وهم يستعرضون شريط العنف الدموي في السنوات الست الأخيرة من القرن العشرين، إن رئيساً للبلاد جاء إلى الرئاسة الأُولى حالماً بإنقاذ البلاد مما هي فيه، وأنه عندما تعثَّر سعيه لم يكمل الأشهر الأخيرة من ولايته مسجلاً أن من ليس في قدرته أن يحقق التوافق لا يعني أن ليس في إستطاعته أن يستقيل إنما بصيغة مبتكرة وهي إختصار الولاية. وهذا ما فعله الرئيس زروال ومِن تلقاء نفسه.

ويبقى القول في ضوء متابعة تطورات معركة إنتخابات الرئاسة وترجيح كفة فوز وزير الخارجية الأسبق عبد العزيز بوتفليقة، أحد النجوم الساطعة في حقبة الرئيس الراحل هواري بومدْين، إنه من السابق لأوانه الإفتراض بأن فوز بوتفليقة يعني إنبعاثاً للبومدْينية التي تبعثرت صفوف رموزها برحيل بومدْين. وتلك حال كل الحُقَب الرئاسية في العالم العربي بدءاً من الشهابية في لبنان والناصرية في مصر والبورقيبية في تونس والنميرية في السودان. كما أنها حال الحُقَب المتواصلة من الأسدية التصحيحية في سوريا إلى القذَّافية في ليبيا إلى الصدَّامية في العراق إلى البنعلية في تونس إلى العرفاتية في فلسطين السُلطة وفلسطين الدولة... ذلك أن كل حقبة من هذه الحُقَب مرتبطة بشخص واحد، أو بالشخص الذي لا شخص غيره عند إتخاذ القرار.

يبقى أيضاً أنه في حال جاء الفوز من نصيب بوتفليقة أو أحمد طالب الإبراهيمي وكلاهما من أصحاب التجربة الديبلوماسية العريقة، أو إنتهت المعركة إلى مفاجأة ليست في الحسبان، فإن أمام الرئيس الأول للجزائر في القرن الواحد والعشرين واجباً من شأن القيام به على الوجه الأكمل أن يجعله شخصية إستثنائية في تاريخ الجزائر. وما نقصده بالمفاجأة هو أن ينال حسين آيت أحمد، التاريخي المظلوم من ثورة التحرير، حقه في الحُكْم وهو حق حُجب عنه لسبب أو آخر في العهديْن الثوريْن الأول والثاني أو عهد بن بيللا وعهد بومدْين. أما ما نعنيه بالواجب فهو تحقيق التوافق الأهلي في إطار وتحت مظلة معادلة صعبة وكثيرة التعقيد إلاّ أنها ليست على الدرجة الأعلى من الإستحالة. وتقضي هذه المعادلة بأن يكون رئيس الجزائر الجديد هو مَن يريده الجيش

ولا تعارضه الإنقاذ ومَن يسانده بنو قومه العرب ويباركه الأصدقاء من دول الغرب بحيث لا إحراج له ولا تآمر عليه من خلال عناصر في الداخل.. داخل البلاد وداخل النظام وداخل النفوس.

فهل يحدُث ذلك؟ هل تتحقق المعجزة فتنجو الجزائر وتُستعاد إلى مكانتها ودورها. وهل نمنّي النفس بأن الذي سيأتي بين المرشحين السبعة رئيساً ويكون مصادفة الرئيس السابع لجزائر التعددية وفقاً للدستور الذي جرى إعتماده قبْل عشر سنين، هو الرئيس الذي سيحقق أمنية كل الجزائريين؟

بعد الخامس عشر من هذا الشهر تدخل الإجابة مرحلة التكوين. وسيتأكد لمَن لا زالوا حائرين في تفسير اللغز الجزائري وما الذي أصاب هذا البلد الذي كان منارة، أن الجزائر دفعت الثمن بسبب حيويتها المخْلصة في العمل العربي، وأنه عندما جاء الوقت المناسب لشل هذه الحيوية كان إشغالها بنفسها وكان الذي كان... لها ولغيرها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 أبريل (نيسان) 1999

* * *

بالمرونة... وليس بالتماثيل

في اليوم الذي كان الشابان الليبيان المشتبه بهما في حادثة إنفجار طائرة الركاب الأميركية (بانام) فوق بلدة لوكربي الأوسكوتلندية يوم 21 ديسمبر/ كانون الأول 1988 ويذهب ضحية هذه الكارثة 270 شخصاً بريئاً، يغادران مطار طرابلس الدولي في إتجاه هولندا للمحاكمة... في اليوم نفسه (الإثنين 5 أبريل/ نيسان 1999) كانت وكالات الأنباء تنقل من بغداد نبأ مفاده أن مجلس الوزراء العراقي وبرئاسة الرئيس صدَّام حسين قرر في جلسته الأسبوعية المنعقدة ذلك اليوم إقامة تمثال في العاصمة العراقية يمثِّل الولايات المتحدة كشيطان غاضب يمص دماء الناس، وكانت حيثيات هذا القرار تشير إلى أن التمثال "سيكون رمزاً لمقاومة العدوان الأميركي والمعاناة التي يكبّدها للنساء والأطفال العراقيين...". وفي الجلسة نفسها يتم إتخاذ قرار آخر أُضيفت بموجبه إلى إسم العاصمة كلمتان بحيث بات إسمها "بغداد مدينة السلام" بعدما كان "بغداد" فقط. وكانت الحيثيات المتعلقة بتعديل الإسم أن الإسم الجديد هو عملياً الإسم القديم التاريخي للعاصمة الذي إختاره لها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لدى تأسيسها.

ويجد المرء نفسه وهو يتأمل في الخطوتيْن الليبية والعراقية ويتابع التطورات البلقانية، أمام بانوراما عريضة من التناقضات والتقاطعات.

يرى على سبيل المثال كيف أن أشقاء ألبان كوسوفو في الدين – وكلهم ينتسبون إلى حركة عدم الإنحياز – غير قادرين على أن يفعلوا شيئاً لهم لدى يوغسلافيا الدولة، التي هي إحدى الدول المؤسِّسة للحركة والتي تمارس وبقيادة حاكم عنيد أبشع عملية تهجير تشهدها أواخر القرن وتعيد إلى الذاكرة عمليات التهجير البشعة التي قامت بها إسرائيل ضد سكان فلسطين، والعمليات الأُخرى التي حفلت بها بعض سنوات الإقتتال الأهلي في لبنان، ويرى كيف أن حركة عدم الإنحياز باتت غير ذات فعالية وفقدت الكثير من الهيبة والإحترام والمصداقية، إذ ما أهمية أن تكون إحدى دول الحركة معتدية وتمارس من التهجير والتصفيات ما يعجز عنه الوصف، ومع ذلك فإن الحركة لا تعقد إجتماعاً طارئاً على مستوى القمة أو من يمثِّل أهل القمة، وتتخذ مِن الإجراءات والتوصيات ما يمكن أن يردع الحُكْم اليوغسلافي، أو على الأقل يدين وبشدة.

وقد يُقال: وكيف سنعقد هذا الإجتماع بينما الولايات المتحدة ودول حلف الأطلسي تشن حرباً بالغة الضراوة على يوغسلافيا، وهذا معناه أن الموقف المطلوب من دول حركة عدم الإنحياز إتخاذه سينتهي لمصلحة الحرب الأطلسية، وهذا صحيح إلى حد الإقناع، إلاّ أن الحرب الأطلسية لا تلغي الوقفة المطلوبة، ولو شكلياً، من حركة عدم الإنحياز.

كذلك قد يقال: وما فائدة الوقفة إذا كانت يوغسلافيا لن ترتدع، وكان قرار تهجير ألبان كوسوفو من القرارات التي لا عودة عنها، ومن نوع قرار الرئيس (الراحل) أنور السادات المضي إلى النهاية في قرار الصلح مع إسرائيل ولو قاطعه العرب وأسقطوا عضوية مصر في الجامعة العربية على نحو ما حدَث بالفعل؟ وهذا التبرير غير مقْنع لأن عدم الإنصياع وإعادة النظر لا يعني ألاّ تكون هنالك وقفة. وسيكون مستغرَباً كل الإستغراب أن تخلو بعد ربع قرن وثائق وأدبيات تطورات المرحلة التي نعيشها، من وقفة إتخذتْها حركة عدم الإنحياز كتجمع تنتسب إليه أكثرية دول العالم

في وجه ما فعلتْه دولة رائدة في الحركة هي يوغسلافيا بحق ألبان إقليم كوسوفو وما فعلتْه الحرب الأطلسية التي تمعن تدميراً في يوغسلافيا وهو تدمير سيعيدها مع الوقت ربع قرن إلى الوراء على نحو ما جرى ولا يزال للعراق، وما أمكن ليبيا أن تتداركه، إلاَّ إذا كانت معظم دول الحركة باتت أسيرة النظام العالمي الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة، وبالتالي لم يعد في إستطاعة هذه الدول أن تتخذ من الخطوات ما هو فوق الإحتجاج اللفظي.

ومما يراه المرء أيضاً وهو يتأمل في الخطوتيْن الليبية والعراقية ويتابع التطورات البلقانية، كيف أن المرونة ولا شيء غير المرونة هي الحل لمحنة الحصار التي تواجه دولة، بصرف النظر عما إذا كان هذا الحصار يحدُث عن حق أو عن باطل. ولولا هذه المرونة لما كان لمحنة الحصار الذي تعاني منه ليبيا منذ سبع سنوات أن تأخذ طريقها نحو الحل الذي بموجبه يستأنف الليبيون حياتهم العادية فيسافرون ويُزارون ولا تعود النظرة إليهم على نحو ما كانت عليه من الحذر والخشية.

ولا نظن أن أحداً داخل ليبيا وخارجها سيلوم العقيد معمَّر القذَّافي لأنه بعد صمود أمام الحصار دام ست سنوات جرَّب فيه القذَّافي كل أنواع المواجهة السلمية، قرر أن يأخذ المسعى المخْلص الذي قامت به المملكة العربية السعودية وجنوب أفريقيا مداه ويتم تسليم الشابيْن المشتبه بأنهما وراء تفجير طائرة "بانام". بل قد يجوز القول إن الشعب الليبي بكامله ممتن للصيغة التي تم التوصل إليها وهي صيغة راعت العنفوان القذَّافي كل المراعاة، وإلى درجة إنها المرة الأُولى في تاريخ المحاكمات والمتهمين والمشتبَه بهم التي يتم فيها التسليم والترحيل في إطار إحتفال دولي شهدته قاعة الشرف في مطار طرابلس الذي ستعود بعد الآن الحياة إليه بالتدرج. كما أنها المرة الأولى التي يكون هنالك وداع رسمي لشخصيْن هما موضع شبهة صعدا إلى طائرة الأمم المتحدة من دون قيود وكانا يلوِّحان بالأيدي تلويح مَن هما عائدان قريباً. والوداع الذي نشير إليه كان ليبياً – سعودياً – مصرياً إضافة إلى ممثل للأمم المتحدة وآخر للجامعة العربية.

وفي سنوات الحصار قال العقيد معمَّر القذَّافي الكثير في حق الولايات المتحدة وبريطانيا، ولكن ذلك لم يُنهِ الحصار إلى أن جاءت لحظة إتخاذ وقفة مع الذات ما كانت لتحدُث لولا توافر المسعى المخلص والفاعل والذي تتطلع إليه حالة الحصار الأُخرى، أي الحصار على العراق، إنما بعد وقفة مع الذات من جانب الرئيس صدَّام حسين تشبه وقفة العقيد معمَّر القذَّافي.

ويصعب التكهن بما إذا كان التمثال الذي قرر الرئيس صدَّام أن يقام في بغداد هو دعوة إلى من يريد القيام بمسعى للبدء بفكفكة الحصار عن العراق مماثل للمسعى السعودي – الجنوب أفريقي، وبحيث يقال له لا داعي لإقامة مثل هذا التمثال إذا كنت تريد للحصار أن يُرفع عن بلدك، أو إن إقامة التمثال نشأت بعد إقتناع الرئيس صدَّام بأنه لا أمل في رفع الحصار وأنه ما دام الأمر كذلك فلتكن المواجهة هذه المرة كخطوة أولى بالتمثال الذي يُظهر الولايات المتحدة كشيطان غاضب يمص دماء الناس أي "دراكولا" أواخر القرن، تليه خطوات أُخرى تتمثل في إقامة المزيد من التماثيل أمام ملجأ العامرية وفي مناطق أُخرى كثيرة من العراق، خصوصاً أن القدرات الفنية وبالذات في إقامة التماثيل مشهود لها في العراق. ومثْل هذه التماثيل ومعها صورة الرئيس جورج بوش التي وُضعت على بلاطات على مدخل فندق الرشيد بحيث يدوس عليها كل من يدخل الفندق أو يغادره، لن تُنهي الحصار وستكون بمثابة إحراج لمن سيقوم بالتغيير إذا حدَث هذا التغيير من داخل النظام حيث إنه سيجد نفسه مضطراً لإزالة هذا التمثال، بينما إذا جاء التغيير عكْس ذلك وتم تنصيب المعارضة في الحُكْم (والتي تبذل وكالة الإستخبارات المركزية الأميركية جهوداً خارقة لتحقيق ذلك) فإن كثيرين من ضِمْن أقطاب المعارضة سيشيِّدون محل التمثال تمثالاً للصداقة العراقية – الأميركية.

ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أنه إذا تأمنت للرئيس صدَّام حسين صيغة كريمة كتلك التي تحققت للعقيد القذَّافي من جانب السعودية وجنوب أفريقيا، فإنه لن يتردد في الأخذ بها خصوصاً أنه ترك بتسمية العاصمة "بغداد مدينة السلام" مجالاً أمام تشجيع ولادة هذه الصيغة، عِلْماً بأنه لو ترك الثمانية عشر ألف حاج عراقي يؤدون الفريضة مستضافين من الملك فهد ولا يستعيدهم على نحو ما حدَث، لكان ربما فتح الباب أمام تلك الصيغة... المرجوة والمرجأة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 أبريل (نيسان) 1999

***

ضجة الناصرة... بعد اللاذقية

كان لافتاً للإنتباه أنه في الوقت التي كانت السجالات دائرة في إسرائيل بين الخصميْن التقليديْن (تكتل ليكود بزعامة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو وحزب العمل برئاسة إيهود باراك) اللذيْن يبذلان جهوداً شاقة للفوز في الإنتخابات التي ستجري يوم 17 مايو / أيار المقبل... كان لافتاً للإنتباه ما نقلتْه وكالات الأنباء من مدينة الناصرة عن ضجة إسلامية – مسيحية فيها لا تخرج في إطارها العام عن "ضجة اللاذقية" التي أوجز الشاعر العربي طبيعتها ببيتيْن من الشعر: في اللاذقية ضجة... الخ. ورافقت ضجة الناصرة إشتباكات وجرحى بين مسلمين يريدون بناء مسجد مجاور لكنيسة البشارة بينما يريد رئيس البلدية رامز جرايسه تخصيص قطعة الأرض البالغة مساحتها 1860 متراً مربعاً لتكون ساحة وموقف لسيارات الحجاج (باركنغ) في إطار التحضيرات لإحتفالات نهاية الألفية الثانية لميلاد السيد المسيح. وأما مسيحيو الناصرة فلهم وجهة نظر أُخرى مفادها أن الموقع الذي يريد المسلمون بناء المسجد فيه قريب جداً من الكنيسة وأن ذلك ليس مناسباً من وجهة نظرهم لأن الخرائط التي أطلعوا إليها تُظهر المسجد أكثر إرتفاعاً من كنيسة البشارة.

وإذا كانت طبيعة مُلكية الأرض تجيز ترجيح بناء مسجد عليها على أساس أن قطعة الأرض تلك وقْف إسلامي ولدائرة الأوقاف أن تختار ما هو مناسب للبناء مسجداً أو مدرسة أو مستوصفاً. فإن منطق الأمور يجيز ترجيح فكرة إرجاء بناء المسجد إلى ما بعد إحتفالات نهاية الألفية الثانية. أما لماذا الإرجاء فمِن أجْل قطْع الطريق على مواجهة تستفيد منها إسرائيل التي تحتل الأرض موضوع الخلاف وتحتل مدينة الناصرة وتحتل فلسطين بالكامل. ولكن الإحتقانات الناشئة أصلاً في نفوس أبناء الشعب الواحد مسيحيين ومسلمين من جرّاء الإحتلال هي التي تجعل الإستجابة سريعة لأي سوء فهم. وهكذا نلاحظ أن عدم إبداء المرونة يتسبب في نشوء حساسيات دينية وهذه بدورها تجعل سوء الفهم يصبح نوعاً من الإصرار على عدم التفهم. وبالتدرج ينحسر التخاطب الودي ويحل محله أسلوب التعامل بالأيدي أو بقنابل المولوتوف. وبعدما يكون صيت أبناء فلسطين ذاع في مجال مقاومة جنود الإحتلال بالحجارة إذا بصيتهم المشرِّف ذلك يتوارى أمام الصيت المستجَد وهو تقاذُف أبناء الشعب الواحد بالحجارة والزجاجات الحارقة وتبادُل الشتائم في الشوارع عبْر مكبرات الصوت وإستنفار الشبان المسيحيين لحماية الكنائس من شبان مسلمين غاضبين. وماذا تريد إسرائيل أكثر من تعميم هذا الإنطباع على دول العالم وخلاصته أن جنودها يحمون المسلمين والمسيحيين في الناصرة من بعضهم البعض وأن كنيسة البشارة مقفلة أمام زوارها؟ وماذا يريد اليهود المستوطنون أكثر من هذه الأجواء لكي يستقروا آمنين؟

ومع أن المواجهات ذات الطابع الطائفي أمر مألوف ولا يقتصر على شعب دون آخر، إلاّ أن أي مواجهة طائفية بين فلسطينيين مسلمين وفلسطينيين مسيحيين تبدو مستغرَبة كل الإستغراب، إذ كيف تحدُث مثل هذه المواجهة بينما الجانبان يرزحان تحت الاحتلال، فضلاً عن أن تاريخ النضال الفلسطيني يؤكد أن المشاعر الطائفية لا تشكِّل عنصر إقلاق في فلسطين. وعلى سبيل المثال لا الحصر إن بعض قادة هذا النضال أمثال الدكتور جورج حبش أمكنهم إستقطاب عناصر فلسطينية مسلمة ومن دون أن يستوقف هذا الفلسطيني المسلم أو ذاك أن قائده هو المسيحي جورج حبش.

وإلى المسألة النضالية هنالك أواصر الزواج حيث أن مئات الفلسطينيين المسلمين أخوالهم من المسيحيين ثم عزز الرئيس ياسر عرفات الظاهرة عندما بات أخوال إبنته الوحيدة زهوة من زوجته سهى من الطائفة المسيحية.

ولعله من المحزن أن نرى الرئيس عرفات وزوجته داخل الكنيسة ويرى العالم زوجته سهى وقد وضعت على رأسها النقاب خلال مناسبة قداس رأس السنة، وفي الوقت نفسه نلاحظ مظاهر توتر بين مسيحيين ومسلمين في الناصرة.

وثمة محاولات فتنة حاولت أطراف معادية للتعايش الإسلامي – المسيحي في مصر إشعالها وبالذات في قرى في الصعيد، لكن إلتفاف رجال الدين المسلم والمسيحي على هذه المحاولات ومؤازرة القيادة السياسية لهذا الإلتفاف جعلا الفتنة لا تنتشر وبات مألوفاً أنه في كل مرة تحدُث محاولة لإشعال الفتنة يكون رجال الدين من الطائفتيْن جاهزين وكأنما هم رجال إطفاء. وهذا الأسلوب في المعالجة هو الذي جعل المواجهات الطائفية في مصر لا تصل إلى ما

وصلت إليه المواجهات في إيرلندا ولن تصل لا قدَّر الله إلى ما وصلت إليه في لبنان.. إنما شرط أن يبذل رجال الدين المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين الجهد الذي بذله شيوخ الأزهر والبابا شنودة بطريرك أقباط مصر الذي كان جهده متميزاً من خلال تركيزه على جعْل المسألة الوطنية بأهمية المسألة المذهبية أي أن الوطن يبقى أهم من الطائفة، إذ ماذا في إستطاعة الطائفة أن تفعل إذا إندثر الوطن.

يبقى أن إفتعال الفتنة في الناصرة كانت محاولة شريرة من فِعْل الصهيونية لإنها وحدها المستفيدة من توتر العلاقة بين المسلمين والمسيحيين. وإذا كانت قادرة على إذكاء نار الفتنة في دول لا تحتلها على نحو ما حدث في لبنان حيث كان دورها في هذا بالغ السوء، فكيف الحال إذا كان إفتعال الفتنة لا يتطلب منها سوى عملية إشعال بسيطة وهي تلك التي تمثلت بالتدخل في أمور تخص الأوقاف ووضْعها عقارات عائدة للأوقاف تحت إدارتها على نحو ما حدَث للعقار موضوع الأزمة بين مسلمي الناصرة ومسيحييها. ومن المؤكد أنها بعدما إطمأنت إلى أن النار باتت تحت الرماد راحت تغذي وعلى طريقتها ومن دون أن تكون منظورة في المشهد السيء، هذه المشاعر الطائفية.

ومن الطبيعي أن تهدأ نفوس المسلمين والمسيحيين في لحظة الشعور بأن الوطن هو الأهم وفي هذه المرحلة بالذات، وأنه من أجْل ذلك فلا يجب أن يتقدم أي سوء فهْم أو عدم رغبة في التفهم على المسألة الوطنية. لكن ذلك لا يعني أن إسرائيل لن تواصل محاولاتها لإشعال البيت الفلسطيني ناراً قبْل الإنتخابات وبعده، وبالذات عندما ستتحول قضية الدولة الفلسطينية إلى أزمة وبصرف النظر عما سينشأ عن هذه القضية من عواقب.

ولماذا لا تواصل إشعال البيت الفلسطيني ناراً ما دام الحطب فلسطينياً وما دامت لا تخسر شيئاً على نحو ما تخسر في جنوب لبنان.

كذلك، لماذا لا تواصل إشعال البيت الفلسطيني ناراً لحرمان العالم المسيحي وشعب فلسطين بمسلميه ومسيحييه من إحياء مناسبة ذكرى بدء الألفية الثالثة لإبن فلسطين عيسى بن مريم عليه السلام وسط أجواء من الفرح والطمأنينة والتعايش المثالي... وهي مناسبة تستحق أن يتحلى أبناء مدينة الناصرة بالحكمة وسعة الصدر لكي لا يصبحوا أضحوكة في نظر العالَمين. ولا ريب في أنهم سيفعلون ذلك وسيكون العالم – عدا الإسرائيليين – لهم شاكراً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 16 أبريل (نيسان) 1999

* * *

عرفات الدائن.. و.. كلينتون المدين

أمضى الرئيس ياسر عرفات منذ أن أقرت له معظم دول العالم من حيث المبدأ بأن تكون للشعب الفلسطيني دولته المستقلة، سنتيْن وهو يجوب ما تيسّر له من عواصم الدول الأوروبية والأسيوية والأفريقية لإجراء المحادثات التي تستهدف أولاً وثانياً وآخراً تثبيت الوعود بالإعتراف بدولة فلسطين، وبحيث ما أن يقترب اليوم الموعود أي يوم إعلان الدولة (وهو الثلاثاء 4 مايو/ أيار 1999) إلاّ وتبدأ الإعترافات بها تتوالى من دول الغرب قبْل دول الشرق.

وفي كل مرة يشعر فيها الرئيس عرفات أن هنالك بوادر تباطؤ من هذا الرئيس أو ذاك في موضوع الإستعداد للإعتراف الفوري بالدولة لمجرد الإعلان عنها، كان يفيض في إبداء المرونة التي تزيل التحفظات وكان في الوقت نفسه يستنجد بالمملكة العربية السعودية ومصر لما للإثنتيْن من تأثير على أولئك الذين قد يتباطأون في موضوع الإعتراف، وغالباً يتحقق له ما يريد.

وبعدما إطمأن إلى أن إعترافات معظم دول العالم بالدولة الفلسطينية، لمجرد الإعلان عنها، باتت شبه مضمونة، بدأ يكثر من ترديد العبارات التي تؤكد على أن الدولة آتية لا ريب فيها وأنه سيتم الإعلان وفي الوقت المحدد عن قيامها. وبدا أمام سامعيه من الفلسطينيين وغيرهم واثقاً كل الثقة بأن الأمنية التي طالما تمناها ستتحقق وأن الله سبحانه وتعالى سيعوّضه شقاء التشتت وعذاب أيام النضال، فضلاً عن أن قيام الدولة، أي دولة، وهو ما زال على قمة السُلطة وعلى رغم وضعه الصحي الذي ليس على ما يرام، هو خير ما يختم به تاريخه.

وبينما الرئيس عرفات إستغرق في قيلولة على حرير الدولة التي يُنتظر الإعلان عنها والتي من أجْلها قاسى كثيراً وتحمَّل أكثر وتنازل أكثر فأكثر، فاجأه رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو بموضوع

الإنتخابات بعدما كان سجل تصلباً لا مثيل له ورفضاً مطلقاً لقيام الدولة الفلسطينية. وكلاهما التصلب والرفض قوبلا بالكثير من إمتعاض أطراف أهمها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بذلت الكثير من الجهد ومارست الكثير من الضغوط على الرئيس عرفات لكي يقدِّم المزيد من التنازلات في سبيل الحصول على قيام الدولة. وكان للضاغطين ما طلبوا وأكثر على أساس أن التنازلات تهون في سبيل الدولة.

جاء موضوع الإنتخابات الإسرائيلية ضربة شديدة الوطأة للأمنية التي كان الرئيس عرفات على موعد معها. وعلى رغم مخاطر هذه الإنتخابات على مستقبل نتنياهو إلاّ أن الرجل ما كان ليُجري الإنتخابات لولا أنه لاحظ أن دول العالم باتت مستعدة لقيام الدولة الفلسطينية وبات عليه بالتالي العودة بالفكرة إلى نقطة الصفر على نحو العودة بالمحادثات التي جرت بين إسرائيل وسوريا إلى نقطة الصفر أيضاً. ولقد تَحقق له ما أراد لأن هذه الدول باتت إزاء ذلك ميالة إلى إرجاء إعلان الدولة الفلسطينية إلى ما بعد الإنتخابات.

وما يجنيه نتنياهو من إرجاء إعلان الدولة هو أنه في حال فوزه سيطوي لبضع سنوات أُخرى مسألة الدولة الفلسطينية وسيكون أكثر إستبداداً في ذلك لأنه تمكَّن من الفوز في إنتخابات لعلها الأكثر صعوبة في تاريخ الإنتخابات الإسرائيلية ولأنه إذا جاز القول فاز على أساس رفْض قيام دولة فلسطينية. أما إذا مُني بهزيمة وفاز أحد منافسيه باراك أو موردخاي فإنه سيُحرج خصمه، ذلك أن هذا الخصم الذي أعلن قبْل بدء معركة الإنتخابات أنه مع قيام دولة فلسطينية ضِمْن رؤية مرنة بعض الشيء ومع حل لما تبقَّى من الإحتلال لأراض عربية في الجولان وجنوب لبنان في إطار صيغة تتحمل الكثير من التنازلات... إن هذا الخصم، سواء كان باراك أو موردخاي، سيتراجع عن موقفه وسيتبين وإستناداً إلى آراء سابقة سجّلها في وقت لم تكن هناك معركة إنتخابية أن الأمر ليس أكثر من تكتيكات تفرضها ظروف اللعبة الإنتخابية، أو أنها نوع من لحظة عابرة لضمير إستيقظ بعد فوات الأوان على نحو ما نلاحظه في عدد من المسؤولين الأميركيين الذين أقروا بعدما باتوا خارج السُلطة بحقوق للشعب الفلسطيني في حين أنهم عندما كانوا في السُلطة لم يعترفوا بهذه الحقوق. والأمثلة على ذلك كثيرة ويكفينا موقف الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر الذي بعثر للعرب قضيتهم التي كانت مقدسة وصفوفهم التي كانت متراصة، بصفقة كامب ديفيد التي أبرمها مع الرئيس أنور السادات والتي ما زال العربي يواصل التنقيب في حقل تلك الصفقة بحثاً عن إيجابيات فلا تصادفه سوى السلبيات. والذي لاحظه كثيرون أن الرئيس كارتر الذي فعل بالعرب والقضية الفلسطينية ما فعله بات بعدما بات خارج السُلطة يحاول إنصاف الفلسطينيين أو التعويض عن خسارة لحقت بهم وكان هو وراءها. ولكن ما تأثير مَن ليس في قمة السُلطة عندما يريد أن ينصف حالة ظلم ويعيد الإعتبار إلى مظلومين. إن دعوته لن تكون أكثر من صرخة في واد وصرخة مبحوحة في أي حال.

ومَن هم على شاكلة الرئيس كارتر في إسرائيل كثيرون. ولا نظن أن إيهود باراك الطامع في رئاسة الحكومة الإسرائيلية بدلاً من نتنياهو سيكون أكثر رفقاً بخطوة أن تكون للفلسطينيين دولة مستقلة عاصمتها القدس. كذلك لا نظن أنه حتى رئيس دولة إسرائيل عازر وايزمان الذي يبدو كثير اللطف منذ بعض الوقت في مسألة الدولة الفلسطينية المستقلة وتُعلق بعض الأطراف العربية والفلسطينية الآمال على دماثة تصريحاته الكثيرة الإعتدال... لا نظن أن الإثنيْن وقياساً بمواقف سابقة لهما يختلفان كثيراً عن رؤية نتنياهو في مسألة الدولة وطبيعة العلاقة مع الجيران. ونتذكر في هذا الصدد كلاماً قاله باراك في واشنطن أمام تجمُّع يهودي يوم الخميس 15 فبراير/ شباط 1996 وكان يشغل منصب وزير الخارجية في عهد حكومة "حزب العمل" ويتطلع إلى الإطاحة بـ شيمون بيريز لكي يحل محله، وكلاماً آخر قاله وايزمان بعد ذلك ببضعة أيام (الأربعاء 13 مارس/ آذار 1996) خلال مأدبة عشاء أقيمت للرئيس الأميركي بيل كلينتون الذي كان وصل من شرم الشيخ في مصر حيث شارك في "قمة مكافحة الإرهاب" لزيارة إسرائيل. ما قاله باراك هو "إن إسرائيل تعيش داخل فيللا في الإحراج وأن هذه الفيللا تتسم بالثراء وتحتوي على حضارة وتكنولوجيا، وخارج نافذة الفيللا تسري قوانين وقواعد أُخرى مغايرة حيث لا مكان أو حق للضعفاء...". ومما قاله وايزمان مخاطباً كلينتون: "كنت أُفضِّل أن تجري مراسم إستقبالكم في القدس وليس في مطار بن غوريون (قرب تل أبيب) فالمسألة ليست مسألة بروتوكول، والقدس هي العاصمة الأبدية لإسرائيل...". وهي القدس نفسها التي يعِد الرئيس عرفات بأنها ستكون عاصمة الدولة الموعودة.

من هنا نصـــل إلى القول إن المرء يســـتغرب كل الإستغراب الأسلوب الذي إعتمده الرئيس عرفات إزاء ذلك حيث إرتأى أنه ما دام لا بد من إرجاء إعلان الدولة فإن الأفضل أن يقوم بجولة على كبار الجاهزين للإعتراف بالدولة وعلى أولئك الواعدين بالإعتراف، لا لكي يثبّت معهم العهد الذي قطعوه على أنفسـهم وإنما لكي يطلبوا منه عدم إعلان الدولة وإرجاء ذلك إلى موعد آخر غير 4 مايو/ أيار 1999 وكأنما يصـــبح الإرجاء نتيجة ذلك مبرَّراً ومقبولاً ومقنعاً.

ويبقى أن المرء يتفهم شراسة الحملة النفسية على الرئيس عرفات من أجْل عدم إعلان قيام الدولة ويلاحظ حجم مصـــالح ومكتســـبات الأطراف التي تطالب بعدم الإعلان. ولكن يوم 4 مايو/ أيار 1999 ليس يوماً عادياً ســـتتم فيه زيارة رســـمية أو يتم فيه إنعقاد مؤتمر جرى الإتفاق في شـأنهما لكي يكون من السـهل الإرجاء. وإنما هو يوم تاريخي كان سـيصـبح اليوم الوطني للشـــعب الفلســـطيني فإذا به في حال إســـتقر الأمر على الإرجاء (وهو ما نتمنى ألاَّ يحدُث بحيث يصر المجلس المركزي الفلسطيني في إجتماعه الإســـتثنائي التاريخي يوم الثلاثاء المقبل على إعلان الدولة في الموعد المقرر) يصبح يوماً من أيام نتنياهو سواء فاز في الإنتخابات أم مُني بهزيمة. وموعد جولة خسـارة أُخرى يُمنى بها الرئيس عرفات الذي يتصـرف تصـــرفات رجل دولة بينما ليس هنالك دولة... إلاّ إذا كـان الرئيس عرفـات يعتبر أن تبـادُل الترويض بينـه وبين إدارة الرئيس كلينتون وإلى درجـة أن وزيرة الخـارجيـة أولبرايـت تبـادلـت في زيـارتـه الأخيرة إلى واشنطن معه ومع رفيقيْه نبيل شعث وصائب عريقات القبلات، هو بمثابة ديْن له في ذمة الولايات المتحدة سيعود مستقبلاً على الشعب الفلسطيني بالخير العميم، وخطوة يهون في سبيلها إرجاء إعلان الدولة مرة... أو أكثر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 أبريل (نيسان) 1999

* * *

حروب.. وحكام.. وتمنيات

مع أن الرئيس بيل كلينتون كما يوضـح لنا تاريخه كان ضـــد الحرب، وأن تهَرُّبه من التجنيد ليحارب في فيتنام كان في نظر كثيرين بمثابة نقطة رمادية في سُـجله (مع أنها إحدى النقاط البيضـاء) إلاَّ أننا نجده بعدما بات رئيســـاً للولايات المتحدة مِنحازاً إلى خيار الحروب ولا يتردد في إتخاذ القرارات وإصـــدار الأوامر المتعلقة بجولات هجومية.

وما فعله بالعراق وبالســـودان، ثم ما يفعله حالياً بيوغسـلافيا يؤكد ذلك، ويجعل المراقب يحتار في أمر هذه الإزدواجية في تفكير الرئيس الأميركي، إذ كيف يمكن لشـــخص كان كارهاً للحرب إلى درجة التهرب من التجنيد أن يصـــبح مجنداً لها مســـتعذباً إصـــدار الأوامر بإطلاق الصواريخ تقتل وتدمر؟

وإذا كان مثل هذا الأمر يبدو عادياً بالنســـبة إلى الرئيس السابق جورج بوش على أساس أنه شارك في الحرب وبات غليظ القلب ولا يرِف له جفن أو تتسـاقط دمعة إذا هو شـــاهد جثث أشـــخاص قتلَتهم قذيفة صـــاروخية كان هو الذي أطلقها من زورقه الحربي أو إن أحد رفاقه الجنود هو الذي أطلقها من زورق أو طائرة، فإنه لا يبدو عادياً على الإطلاق بالنســـبة إلى الرئيس كلينتون المتهرب من المشاركة في حرب فيتنام بصـــرف النظر عما إذا كان تهرُّبه حدَث بفعل الجبن والخوف من الموت أو نتيجة أنه صـــاحب موقف مبدئي وخلاصته أن الحرب مرفوضة جملة وتفصيلاً.

كذلك إن إســـتســـاغة الحروب وإصـــدار الأوامر لقصـف الحجر والبشـر قد تبدو عادية بالنسـبة إلى الرئيس الأسبق رونالد ريغان على أساس أنه كان قبْل الرئاسة ممثلاً سينمائياً أدى فيها دور السيء الصيت والشـــرير والمعتدي، وهذا معناه أنه بدأ بتلك الأدوار التي مثَّلها على الشـاشـة الفضـية كمَن تناول طعوماً ضد المشاعر الإنسانية وبات محصَّناً ما فيه الكفاية بحيث لا يعنيه في شـــيء أن يموت أطفال ونســـاء ومسنون من جرّاء القصف على نحو ما أصاب ليبيين كثيرين عندما إعتدت الطائرات الأميركية عليهم والتي إنطلقت من قاعدة بريطانية بدعم غير محدود من رئيسة الوزراء السابقة مارغريت تاتشر.

ونحن هنا أوردْنا حالة بوش وحالة ريغان على سبيل المثال لا الحصر ذلك أن حكاماً كثيرين ينطبق عليهم هذا الفعل السـيء الذي نشـير إليه وهو إتخاذ القرارات وإصدار الأوامر لقتل البشر وتدمير الحجر.

وقد يقال إن منصب الرئاسة والحالة التي تنشأ لدى الرئيس، الذي يرى أن في إستطاعته أن يفعل ما يريده وما لا يســـتطيع الآخرون فِعْله، تشـــكلان لوحدهما

تحريضـــاً للرئيس على أن يجرب. وعندما يفعل ذلك مرة لا تعود المرة الثانية والمرات اللاحقة صـــعبة ويصبح إتخاذ القرارات بضرب هذا وقصف ذاك نوعاً من الروتين لممارسة القوة.

كذلك قد يقال، وبالذات بالنســـبة إلى الرئيس كلينتون، أن الآلة الإســتشــارية اليهودية المحيطة به، تزيّن له لعبة الحرب على أساس أنها تغطي على لعبة التحرش الجنسي التي إلتصقت بشخصه وإنعكست على سِـمْعته، وأنه بفعل تأثير هذا التزيين على أفكاره يضـــرب في مناطق حددتْها وخططت لها ســـلفاً تلك الآلة الإستشارية. وقد يكون المستشارون اليهود الذين زُرعوا في البقاع الخصـــبة من الإدارة الأميركية مع بداية الولاية الثانية للرئيس كلينتون قالوا له ما معناه إنـه إذا كـان الروس لن ينصـــاعوا إلى زعـامتـك ويواصـــلون البحث في الخفاء عن مواقع أقدام لهم في مناطق قابلة لتنفجر بالهيمنة الأميركية إلى حد إرباك هذه الهيمنـة، فإن الفرصـــة المؤاتية هي ضـــرْب يوغوسـلافيا وبهذه الضـربة يتم تدمير سـلاح الآخرين وهذا مطلوب، ويتم إحراج الأوروبيين وهذا أيضـــاً مطلوب، ويتم إختبار روسـيا وكشْـفها أمام أصـدقائها وحلفـائهـا على أنهـا نمر لا جـدوى من أنيـابـه ومن مخالبه وهذا أيضـــاً مطلوب بقوة من أجْل عدم إزعاج مخطط الهيمنـة الأميركيـة على العـالم ومن أجْل قطْع الطريق على تحالفات إســـتراتيجية من نوع التحالف المحتمل بين روسـيا المسـتضـعَفة والهند المستأسِـدة. ومن أجْل إسقاط رهان الأصولية الأرثوذكسية الذي بدا أنه سيكون سلاحاً قوياً في أيدي يوغسلافيا تلك القلعة الأرثوذكسية.

وإلى ذلك فإن ضـرْب يوغوسـلافيا يحرج مسـلمين يقفون في شـكل أو آخر ونتيجة دوافع إضـطرارية في صـف الصـرب (إيران والعراق وسـوريا وليبيا والجزائر والسودان) ويعتبرون أن يوغوسلافيا تبقى بمثابة الدولة الإحتيـاط التي يمكن الإتكـال عليهـا بعـد الشـــدة، خصـــوصـــاً أن تراثها كإحدى دول عدم الإنحياز قد يشجعها على أن تساند معظم دول حركة عدم الإنحياز التي تعيش أزمات كثيرة التعقيد مع الولايات المتحدة. كما أن ضـرْب يوغوسـلافيا من شـأنه إرضـاء مشـاعر مســـلمين آخرين يحيث يقال لهم هـا إننـا من أجْـل إشقائكم مسلمي ألبان كوسوفو نشن حرباً لا هوادة فيها ضد يوغسلافيا.

ومثل هذا التفسـير لا يجد مسـلماً واحداً يمكن أن يقتنع به ذلك أن حال ألبان كوسـوفو المسـلمين إزداد ســـوءاً بعد تدخُّل الولايات المتحدة ودول الأطلســـي وباتت حالهم مثل حال الفلسطينيين متناثرين كالشظايا في الشتات. وبعد أن تهدأ الحرب الدائرة في البلقان ولا يعود غبارها يحجب الرؤية يحيث يمكن التمييز بين الحق والباطل، فإن الذي ســـيحدُث هو أن الولايات المتحدة ودول أوروبا التي خاضـــت بقيادة الرئيس كلينتون الحرب ضد يوغسلافيا ستسترضي الصرب في الدرجة الأُولى وســـتعوِّض عليهم ولن ينال ألبان كوسـوفو سـوى بعض المسـاعدات والكثير من الوعود على نحو ما هو حاصل مع الفلسطينيين الذين قابلت الولايات المتحدة والدول الأوروبية تنازلاتهم بالمزيد من التقتير ليس بســـبب ندرة المال وإنما لأن هذه الدول وعلى رأســـها الولايات المتحدة لا تريد لإســـرائيل التي فعلت بالفلسطينيين أضعاف ما فعله ميلوسيفيتش رجل القبضـــة الحديدية في يوغسـلافيا بألبان كوسـوفو، أن تغضـــب أو يأخذ على خاطرها. وحتى إذا تجاوزت الدول الأطلسـية المأزق وأمكنها إسـقاط ميلوسـيفيتش فإن ما يتطلع إليه ألبان كوســـوفو لن يتحقق لهم ولن يعوِّضـهم الذي جرى لهم تحت سـمْع العالم وبصـره.. هذا إلاّ إذا إنتهوا مجرد محمية أطلســـية تكون بمثابة محطة إنطلاق في إتجاه روســـيا التي قد تســـتعيد مستقبلاً مجدها.

واللافت للإنتباه أن الحرب الأطلســـية ضـــد يوغوســـلافيا تتم تحت عنوان المحافظة على حقوق الإنسان ومن أجْل الإنسانية ضد اللاإنسانية ومن أجْل الديمقراطية ضـــد الدكتاتورية. وفي تقدير أي مراقب محايد إن الولايات المتحدة وحليفاتها الدول الأوروبية لو كانت صـادقة في ذلك لكانت فعلت ما هو أقل من الحرب بكثير ضـد إسـرائيل التي بسـبب تغاضـي هذه الدول عما فعلتْه (أي إسـرائيل) بالشـعب الفلسـطيني وبـدول المنطقـة عمومـاً، فـإن العربي عنـدمـا يتـابع التطورات البلقانية يشـعر بالأسـى لمشـاركة دول مثل فرنســا وإســبانيا واليونان في الحرب على يوغســلافيا وذلك لأنـه كـان يتطلع إلى أن تكون هذه الدول جزءاً من جبهة عريضـــة تضـــم المتضـــررين من الهيمنة الأميركية.

وبمشـاركة الدول الثلاث في الحرب لدواعٍ أطلسـية من الطبيعي أن تتلاشـــى فكرة الجبهة، وهذاً واحد من أسباب إستعجال الولايات المتحدة للحرب وإجبار الدول المشـــار إليها على أن تشـــارك مكرهة وليس بدواعي

البطولة. كما أن العربي يجد نفسه وهو يتابع التطورات أنه بقدْر تمنيه كسْر القبضة اليوغسلافية يتمنى لتلك الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة المزيد من التورط وبأن يصبح المستنقع البلقاني بمثل المستنقع الفيتنامي. كذلك يتمنى لو أن تعقيدات الحرب الجديدة تكون مناسبة لتعزيز دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن وبذلك تنحسر شريعة النظام العالمي الجديد التي هي بمثل شريعة الغاب.. ويجد العالم نفسه على طريق الإستقرار ولا تعود الولايات المتحدة تبحث عن فريسة أخرى في مكان آخر في العالم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 23 أبريل (نيسان) 1999

* * *

الأسد الدائم... والأردن الجديد

لمجرد إنقضاء ذكرى أربعين والده، إنطلق الملك عبدالله بن الحسين، أو عبدالله الثاني، (والتسميتان ذات صدى تاريخي يمكن للعاهل الأردني الشاب التباهي به) في إتجاه بني قومه العرب يشكرهم ويطلب مؤازرتهم، ويزيل شوائب ألحقتْها التعقيدات المتشابكة الناشئة عن السلام المباغت مع إسرائيل من جهة والإجتياح العراقي المباغت للكويت وما إستتبع هذا الإجتياح من إضطراب في العلاقات العربية من جهة أُخرى.

وخيراً فعل الملك عبدالله عندما إرتأى أن تكون إطلالته الأُولى على الأشقاء وليس على الأصدقاء والحلفاء، بمعنى أنه لم يبدأ الإطلالة بزيارة الولايات المتحدة ولا بزيارة إسرائيل. وبصرف النظر عما إذا كان فعل ذلك تنفيذاً لواحدة من وصايا والده الراحل أو إستجابة لإجتهاد بعض المستشارين المحيطين به، أو أنه بحُكْم إلتصاقه بوالده والوقوف على المفاتيح السحرية للدهاليز السرية للعلاقات العربية إرتأى أن يفعل ما فعله وما قام به من زيارات حتى الآن هي زيارات عمل في معظمها... بصرف النظر عن ذلك فإن عبدالله بن الحسين أظهر كفاءة في حُسْن التعامل. وهذه الكفاءة ممزوجة بأفكار المستشارين وإجتهاداتهم تؤسّس لنوع من التخاطب الذي يساعد العاهل الشاب على أن يملأ الحيز الأكبر من الفراغ الذي أحدثه غياب والده.

ونجد أنفسنا هنا نشير إلى أن عبدالله بن الحسين، شأنه في ذلك شأن مَن هم أبناء آباء تاريخيين وأصحاب رصيد على المستوى الدولي، وجد نفسه أمام كنز من التجارب يستطيع أن يغرف منه ما يشاء، إلاَّ أنه على ما بدا لنا حتى الآن يريد أن يؤسّس لنفسه أسلوباً مستقلاً يستند في بعض جوانبه إلى رصيد والده ويعتمد على هذا الرصيد لبناء علاقة جديدة وبالذات مع الذين كانت بينهم وبين الأردن فجوات وثغرات. وأهم هذه الأطراف "سوريا الأسد الوالد" التي وفي ضوء الزيارة التي قام بها عبدالله بن الحسين إلى دمشق يوم الأربعاء 21 أبريل/نيسان 1999 تتطلع إلى علاقة متميزة مع الأردن في عهد "الأسد الإبن" خصوصاً وأن الإيحاءات التي تكاثرت في الآونة الأخيرة تشير وإلى ما يشبه التأكيد أن الدكتور بشَّار الأسد سيواصل ما بدأه وأسَّس له والده.

وإذا جاز الإجتهاد فإن ما يتطلع إليه الرئيس الأسد هو أن تكون العلاقة مع الأردن بمثل العلاقة مع مصر. وعند التأمل في العلاقة المصرية – السورية نجدها كثيرة التميز. والذي يساعد على أن تكون العلاقة متميزة بين سوريا والأردن أن الخلاف كان مع الملك حسين وخياراته في مسألة السلام مع إسرائيل، تماماً على نحو ما أن خلاف سوريا مع مصر كان بسبب خيارات الرئيس السادات في مسألة السلام مع إسرائيل. ونلاحظ أن التفاهم ساد العلاقات المصرية – السورية بعدما إطمأن الرئيس الأسد في أعقاب إغتيال الرئيس السادات إلى أن الحُكْم في مصر بقيادة صديقه الرئيس حسني مبارك سيكون سنداً لسوريا في معركة السلام. ومثلما حدث التفاهم الذي نشير إليه بين الرئيسيْن مبارك والأسد، وهو تفاهُم ما كان ليحدُث على الأرجح لو أن السادات ما زال حياً ورئيساً لمصر، فإن التفاهم بين سوريا والأردن وإستناداً إلى الرؤية نفسها يمكن أن يحدُث ما دام الملك حسين توفي وبدأ عهد جديد قادر على أن يقول إنه لا يتحمل مسؤولية خلافات الماضي على نحو ما كان الرئيس مبارك قادراً على أن يقول الشيء نفسه. والتفاهم يمكن أن يحدُث أيضاً على أساس أن الرئيس الأسد الذي أقام أفضل العلاقة مع صديقه الرئيس مبارك ومن دون أن تتأثر هذه العلاقة بكون مصر ملتزمة بإتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل، يمكن أن يقيم علاقة بالنوعية نفسها – إذا ساعد عبدالله بن الحسين على ذلك – مع الأردن ومن دون أن تتأثر العلاقة بكون الأردن ملتزماً

بمعاهدة مع إســـرائيل من نوع معاهدة كامب ديفيد ونعني بذلك معاهدة وادي عربة التي تم التوقيع عليها عام 1994. أما لماذا لن تتأثر فلأن الرئيس الأســـد يســـعى هو الآخر من أجْل الســـلام وينادي بأن يتم إستئناف المفاوضات السورية – الإسرائيلية من النقطة التي توقفت عندها في فبراير/ شباط 1996.

وفي ضـوء ذلك فإن الذي يريده الرئيس الأسد من الحُكْم الأردني ومن دون أن يسـبب إحراجاً لهذا الحُكْم أو يُثقل عليه في شـــيء، هو توظيف العلاقة الجيدة بين الأردن والولايات المتحدة وبريطانيا من أجْل دعْم الموقف السوري في إتجاه إستئناف التفاوض. وهذا ما يقوم به الرئيس مبارك ويلقى في نفس الرئيس الأســـد الإرتياح والرضـــى والإمتنان. ومثْل هذا الدور لا يمكن أن يقابَل بالرفض أو التحفظ من جانب الحُكْم الأردني ما دام هذا الحُكْم يؤيد إسـتئناف التفاوض بين سـوريا وإســـرائيل من النقطة التي توقَّف عندها في شـــباط/ فبراير 1996، فضـــلاً عن أن كل القادة العرب الذين إلتقاهم عبدالله بن الحسين حتى الآن في جولته الأُولى وأولئك الذين ســـيلتقي بهم قريباً ســـيطلبون منه دعْم ســـوريا في إتجاه عملية الســـلام وتوظيف علاقات الأردن مع بعض دول الغرب لإنجاح تلك العملية. ولا بد أنهم ســـيلفتون إنتباهه وبكل الرقة إلى أنه من الأفضـــل في هذه المرحلة إعتبار أســـلوب والده في الإندفاع نحو إسرائيل بأنه أضرّ أكثر مما أفاد. وعلى سـبيل المثال لا الحصـر إن عبدالله بن الحسـين سـمع مِن بعض القادة العرب كلاماً صريحاً في هذا الإتجاه، عِلْماً بأنه كلام يغلب النصـــح عليه وينأى عن الغمز من قناة والده.

وحتى في بعض المواقف الأردنيـة التي أقلقـت الرئيس الأسد يستطيع عبدالله بن الحسين إشاعة جو من الطمأنينة تحل محل مشـــاعر القلق. ومثلما أن إصـرار الحُكْم السـوري على التمسـك بعملية السـلام وإستئناف التفاوض مع إسرائيل من النقطة التي توقَّف عندها، تشـكِّل سـبباً ومخرجاً للعاهل الأردني الشـاب من أجْل إدارة الصدر إلى سوريا والظهر إلى إسرائيل، فإن إنتهاء موجبات الحدة في العلاقات الســـورية – التركية بإعتقال الزعيم الكردي عبدالله أوجلان وإنحسار الحدة تبعاً لذلك في العلاقات السورية – التركية بعدما كادت تصل إلى حافة المواجهة العسكرية، تشكِّل سبباً لعدم مسايرة الأردن لتركيا على نحو ما كانت عليه في السـنتيْن الأخيرتيْن من حُكْم الملك حسـين وبحيث لا تتكرر تلك المناورات المشـتَرَكة مع إسـرائيل وتركيا ولا تتطور العلاقة الأردنية – التركية – الإسـرائيلية بحيث تصبح إستراتيجية وعلى حساب سوريا.

وفي ضـوء المحادثات التي شـهدتْها زيارة سـوريا وإتســـمت بدفء ملحوظ والنتائج الطيبة التي أسـفرت عنها ومن بينها تزويد ســـوريا للأردن بما يحتاجه من ميـاه الشـــرب على رغم الجفـاف الـذي تعـاني منـه سوريا... في ضوء هذه الهدية السورية وذاك الترحيب الكبير بالملك الشاب يجوز الإفتراض أن ظاهرة التزاور الدورية بين الرئيســـيْن حافظ الأســـد وحســـني مبارك ستتكرر بين الرئيس الأسد وعبدالله بن الحسين، إلاّ إذا إرتأى الرئيس السوري أن يسند إلى الدكتور بشَّار ملف العلاقة مع الأردن وبحيث يصـــبح لبنان هو الميســـرة والأردن هو الميمنـــة، وتتكـــاثر الزيـــارات يتبـــادلهـــا عبدالله بن الحسين وبشَّار الأسد وتؤسس لعلاقة راسخة بين ســـوريا الأســـد الدائم (بمعنى الإبن بعد الأب) والأردن الجديد يبدأ البلدان بها القرن الواحد والعشـرين ولا تقتصـــر على التفهم وإنما تتطور إلى المزيد من التفاهم وبحيث لا تتأثر بمحاولات إلتفاف عليها من جانب إسرائيل.

ويبقى القول على هـامش الإطلالـة التي تتســـم بالحيوية لـ عبدالله بن الحسين أن الملك الشاب بإطلاق لحيته بدا أكبر سناً وأكثر وقاراً عِلْماً بأنه إطلاق مبكر قياســـاً بما فعله والده الذي أطلق لحيته في مرحلة إحباط مر بها بدءاً من منتصـــف الثمانينات وتســـبب العلاج الشـــديد القســـاوة من الســـرطان في زوالها. والإطلالة بإطلاق اللحية كانت لافتة مثل إصراره على الظهور بالكوفية والعقال في أعقاب رحيل والده وإلى حين القيام بجولته العربية، ثم مثل حرصـــه على أن يزور ســـوريا من دون تلك الكوفية التي تعكس أردنية التوجه.

يبقى القول أيضـاً إن العلاقة الجيدة يمكن أن تُبنى على رغم أي كلام بالغ الســـوء يتم تبادله بين طرفيْن في الماضي، والقول كذلك إن هذه الأجواء الجديدة في العلاقات السـورية – الأردنية ما كانت لتصـل إلى ما هي عليه الآن لولا المفاجأة التي صـدرت عن الرئيس الأســـد وكان لها وقعها الدولي ودويها العربي وتمثلت بمشـاركته في جنازة الملك حسـين. ولكن تلك المفاجأة فتحت الباب أمام أن تبدأ مرحلة جديدة من العلاقات بين الأردن وسـوريا لا تقاس حيويتها كما كانت الحال في الماضي بنوعية مَن يتولى منصب رئاسة الحكومة

في الأردن وبتفهم الحُكْم في سـوريا لطبيعة توجُّه هذه الحكومة، وإنما بالإشـراف المباشـر لمَن هما في القمة على هذه العلاقات. ومثل هذه المرحلة سـتخدم عملية السلام العربي – الإسرائيلي بحيث تُستكمل مع سوريا ومع لبنان. وسـتجعل الأردن أقرب إلى سـوريا وربما إلى جانبها على نحو ما سيكون عليه موقف مصر إذا كـان لا بـد من مواجهـة مع إسـرائيـل لإنقاذ عمليـة السلام... ونشر ربوعه في المنطقة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 28 أبريل (نيسان) 1999

* * *

الدولة: اللعبة.. والمتلاعبون

عكسـت صـورة بثتها من غزة وكالة الصـحافة الفرنسـية يوم الخميس 29 أبريل/ نيسـان 1999 عن إجتماعات المجلس المركزي الفلسـطيني واقع الحال بالنسـبة إلى النتائج التي أسـفرت عنها الإجتماعات. وفى الصورة بدا الرئيس ياسر عرفات وإلى يمينه سليم الزعنون رئيس المجلس الوطني الفلسـطيني (البرلمان) وإلى يساره أحمد قريع رئيس مجلس الحُكْم الذاتي، وهم يقرأون الفـاتحـة لـدى إختتـام إجتمـاعـات المجلس المركزي. أما لماذا عكست الصورة واقع الحال، فلأن المألوف هو قراءة الفاتحة عند إفتتاح الإجتماعات والجلسـات لكي يشـرح الله سـبحانه وتعالى صـدور المجتمعين ويسـر لهم أمرهم ويهديهم إلى سـواء السبيل. أما الصورة التي نحن في صدد التعليق عليها فإنها وبعدما يقرأ المرء نص بيان المجلس المركزي ويكون إطلع على بعض خفايا المداولات التي شـهدتْها كواليس المجلس، فتُظهر رموز الإجتماع الفلسـطيني التاريخي وكما لو أنهم يقرأون الفاتحة على روح الدولة الفلسـطينية التى شـيَّعها المجلس المركزي بإعلان إرجاء الدولة التي كان من المفترَض أن يكون إعلانها الثاني والذي هو الإعلان الرسـمي يوم 4 مايو/ أيار 1999 (أمس).

وعدم إعلان قيام الدولة الفلسـطينية رسـمياً شـكَّل مفاجأة لقطاعات عريضـة من الرأي العام الفلسـطيني والعربي ما زالت على ثقتها بالرئيس عرفات وبأنه يفي بما يتعهد به، وتتفهم بعض الشيء دوافع التأجيل وحتى التراجع عنده. أما بالنسـبة إلى الذين يتابعون تطورات التحرك السـياسـي الفلسـطيني وتنوع الإجتهادات في صـفوف القياديين الفلسـطينيين، وكذلك الذين لا تغيب عن ذاكرتهم أقوال وتصريحات للرئيس عرفات، فإنهم لا يستغربون إرجاء إعلان الدولة. كذلك لا يستغرب الأمر أولئك الدين قرأوا بتمعن ما بين سـطور تصـريحات مسؤولين كثيرين في الدول الكبرى ومواقف بعض الدول الصـديقة التي كان أكثرها سـوءاً على الإطلاق موقف الصـديق الروسـي الذي لم يكْتفِ بالطلب من الرئيس عرفات عدم إعلان الدولة، وإنما أقدم وزير الخارجية إيغور ايفانوف على خطوة مسـتفزة ومسـتهجنة تمثلت بمصاحبة وزير الخارجية الإسرائيلية أرييل شارون وقبْل أيام قليلة من الموعد المقرر لإعلان الدولة، أو فلنقل لإرجاء إعلان الدولة، في جولة بالهليكوبتر فوق مناطق الضـفة الغربية المحتلة ذكَّرتْنا بالخطوة المشـابهة من حيث الإسـتفزاز والإسـتهجان التي تمثلت بقيام وزير الدفاع التركي قبل بضـعة أشـهر وخلال زيارة إلى إسـرائيل بمصـاحبة زميله الإسـرائيلي في جولة تفقدية للجولان السـوري المحتل. ومن المؤكد أن الوزيريْن المحسوبة دولة كل منهما في شكل أو آخر على بعض العرب والمسـلمين لم يقْدما على الخطوتيْن لمصـلحة الأصدقاء العرب وإنما لإستفزازهم وربما الشماتة بهم.

وكان يمكن للمرء أن يتفهم بنسـبة كبيرة أو صـغيرة مسـألة أن ينقلب موعد إعلان الدولة الفلسـطينية إلى موعد إرجـاء الإعلان، لو كـانـت هنـالـك إيجـابيـات ومكاسب تتساوى بحجمها مع السلبيات والخسائر – أما وأن الإرجاء كان فقط سلبياً وخسارة بخسارة – بما في ذلك الخسارة المالية فإن التفهم صعب إذ كيف يستطيع المرء تفهُّم خطوة إر تاح لها الرئيس كلينتون وإعتبر ها نتنياهو "إنجازاً كبيراً ولم ير فيها الفلسطينيون سوى أنها لطمة جديدة على الخد جاءتهم هذه المرة من قيادتهم وحدثت في شـهر النكبة (مايو) الذي ترك إنطباعاً بأن الذكرى الخمسين للنكبة كانت "يوبيلاً ذهبياً" لإسرائيل و"بالاً نحاسياً" للفلسطينيين.

كذلك كان للمرء أن يتفهم الدواعي لو أن الرئيس كلينتون كان واضـحاً وسـخياً في رسـالته التي بعث بها إلى الرئيس عرفـات وإعتبرتْهـا القيـادة الفلسـطينيـة تتضـمن موقفاً مهماً. لكن الرسـالة خلت من أي تعهُّد مالي ضخم يعوّض الفلسطينيين تعاستهم، وجاءت تفتقد إلى الوضـوح حيث أنها لا تاتي على ذِكْر كلمة الدولة مكتفياً الرئيس كلينتون بالقول إنه يدعم تطلعات الشعب الفلسطيني العيش حراً على أرضـه وإعتبار الإستيطان

عاملاً مدمراً لعملية السلام. وهذه الرسالة التي صيغت كلماتها حرفاً حرفاً بحيث لا ينزعج منها على الإطلاق نتنياهو، وقيل فيها الكلام الذي لا يُسمن من جوع الفلسطينيين إلى قيام دولة لهم تعوِّضهم الوطن الذي ضاع ولا يأمن خوفهم على المصير... إن هذه الرسالة تشبه في منطلقاتها الرسائل التي يبعث بها الرئيس كلينتون والرؤساء الذين سبقوه إلى بعض حكام العالم في بعض المناسبات. وحتى مشاركة زعيم حركة «حماس» الشيخ أحمد ياسين في إجتماعات المجلس المركزي الفلسطيني لم تخفف من وقْع صدمة إعلان عدم إعلان الدولة في اليوم المقرر. لكن هذه المشاركة جاءت في شكْلها الظاهري بمثابة «إنجاز كبير» تَحقق لعرفات. وهكذا يكون يوم الرابع من مايو يوم ثلاثة إنجازات تحققت على حساب المصير الفلسطيني. والإنجازات الثلاثة هي الإنجاز الذي حصل عليه نتنياهو من عرفات، والإنجاز الذي حصل عليه عرفات من الشيخ أحمد ياسين الذي شارك، والإنجاز الذي حصل عليه الرئيس كلينتون من عرفات ونتنياهو معاً لإن حدوث العكس، أي إصرار عرفات على إعلان الدولة وتنفيذ نتنياهو تهديداته بإجتياح أراضي السُلطة الوطنية الفلسطينية، كانا سيضعان إدارة الرئيس كلينتون في موقف حرِج لا قدرة له على مواجهته خصوصاً أن جبهة يوغوسلافيا مفتوحة من دون حسْم وجبهة العراق لا رغبة في إقفالها، وفي حال حدوث الإجتياح الإسرائيلي لأراضي السُلطة الفلسطينية وعدم إستطاعة الإدارة الأميركية القيام بأقل الواجب وهو الوقوف ضد الإجتياح وبكل الوسائل، فإن موقف الرئيس كلينتون سيَضعف على الجبهتيْن الأطلسية والعراقية وستحدُث عملية خلْط للأوراق تنعكس سلباً على الدور الأميركي عموماً. وبالنسبة إلى مشاركة الشيخ أحمد ياسين التي تبدو كأنها لغز، يجوز الإفتراض أن زعيم حركة «حماس»، قد يكون شارك منطلقاً من إحتماليْن، الأول هو أنه إعتبر أن الرئيس عرفات بارع في التكتيك وأنه قد يعلن موقفاً يرتاح له أهل الداخل وأهل الخارج من الفلسطينيين وبذلك تخسر «حماس». أما الإحتمال الثاني فهو أن الشيخ أحمد المقتنع ضمناً بأن الدولة لن تتحقق بهذا الأسلوب الذي يعتمده عرفات فاجأ الجميع بمشاركته لقطع الطريق على الذين قد يستعملون موقف «حماس» حجة في عدم تحقيق إنجاز إعلان الدولة الفلسطينية. وشارك ليقول ما معناه: ها إنني شاركت فماذا ستقولون عنا بعد الآن؟ هل ستواصلون الإدعاء بأن «حماس» هي العقبة مع أنها هي الحل؟ هذا مع الأخذ في الإعتبار أن المشاركة التي ربما جاءت من دون تشاور بين أركان قيادة حركة «حماس» أعطت ملمحاً طيباً للتعامل الديمقراطي الفلسطيني وضرورة النأي عن أسلوب المقاطعة المزدهر عربياً والمشاركة وتسجيل الرأي، مهما كانت المشاركة صعبة على الصعيد المعنوي. كما أكدت المشاركة أن حركة «حماس» هي في الدرجة الأولى الشيخ أحمد ياسين أي مثل ما هو سائد في العالم الثالث حيث يشعر الرجل الأول في الدولة أو الحزب أن في إستطاعته أن يقرر أموراً غير متوقعة من نوع مشاركة الشيخ أحمد بغتة في المجلس المركزي الفلسطيني. وقد لا يكون قادة حركة «حماس» وجماهير الحركة هم وحدهم الذين فوجئوا بمشاركة الشيخ أحمد الذي لم يكن ديمقراطياً معهم بمشاركته المفاجئة، وإنما شملت المفاجأة أيضاً الرئيس عرفات نفسه ونتنياهو والرئيس كلينتون. وبذلك لا تعود المشاركة جزءاً من صفقة، وهذا سيعزز شأن الشيخ أحمد ياسين بدل أن تأخذ المشاركة من رصيده وهيبته، ويقال عنه إنه بنى حركة «حماس» لتكون مؤسَّسة تقوم على التشاور الرحب والصريح وفي اللحظة التاريخية تعامَل معها على أنها شخص وليست – ولن تكون – مؤسَّسة.

يبقى القول إن إجتماع المجلس المركزي لم يكن لإتخاذ القرار بعد المناقشة لأن القيادة موافقة سلفاً على الإرجاء. وإنما كان الإجتماع لإستنباط غطاء شرعي ووطني لقرار متخَذ سلفاً. وهكذا فإن كل الذي جرى كان، إذا جازت التسمية «لعبة الدولة الفلسطينية» مارسها من واشنطن إلى موسكو إلى غزة إلى تل أبيب وعشرات العواصم الأُخرى العربية والأجنبية، مسؤولون إفترض عدد منهم أنهم لاعبون ولكنهم في واقع الحال متلاعبون..

وخيراً تفادى الإجتماع تحديد موعد جديد لإعلان قيام الدولة لأن المسألة مرشحة لمزيد من التسويف وإلى المزيد من التأجيلات تأجيلاً بعد تأجيل. وهي تأجيلات لم تعد تؤرق الرئيس عرفات الذي عندما كاد يمسك الدولة بيديه ويعلنها يوم 4 مايو 1999

فإن المحاولة أخفقت... وتلك حال من يحاول أن يمسك يديه سمكة فى مياه بحيرة بعدما تأمنت له فرصة إصطيادها بصنارة قلما تخطئ.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 5 مايو (أيار) 1999

* * *

جولة خاتمي... و"فوكلاند الشيخ زايد"

تشكِّل زيارة الرئيس الإيراني محمد خاتمي إلى كل من سوريا والسعودية وقَطَر مناسبة طيِّبة لتطبيع متدرج للعلاقات العربية – الإيرانية التي لا تزال تتأرجح بين الحذر والمجاملة، بينما تستوجب الظروف التي تعيشها المنطقة أن تكون العلاقة على أفضل ما يكون عليه التفهم والتعاون وتنسيق السياسات.

وبعد الذي فعلتْه المملكة العربية السعودية التي فتحت الباب أمام إيران لكي تتعامل مع المنطقة برؤية جديدة تقوم على أنها دولة شقيقة لها وزنها ودورها ومهابتها، شرط ألاّ تتدخل في شؤون الآخرين ولا تحتل أرضاً لآخرين ولا تعمل على تصدير الثورة... بعد هذه الخطوة من جانب السعودية بات الأشقاء العرب يتطلعون إلى ما ستكون عليه سياسة شقيقتهم إيران بعد الآن.

وما يلاحظه المرء هو أن الرغبة في التطبيع العربي – الإيراني بلغت ذروتها بعدما قامت السعودية بمبادرة ذات إيقاع غير مألوف حيث إنها لم تكتفِ بالخطوة الأُولى التي تمثّلت بترؤس وليّ العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز وفد المملكة إلى القمة الإسلامية التي عُقدت في طهران وكان الرئيس خاتمي في أيام حُكمْه الأُولى، وإنما حدثت متابعة دؤوبة من جانبها لما زرعه الأمير عبدالله. ثم جاءت الخطوة الثانية اللافتة للإنتباه والتي تمثّلت في أن وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل أدلى خلال زيارة قام بها في أبريل (نيسان) الماضي إلى طهران بتصريح تُعتبر صياغته جديدة على لغة التصريحات الدبلوماسية السعودية، وقال فيه بعدما لمس أن هنالك بعض التباطؤ في تحديد موعد زيارة الرئيس خاتمي إلى المملكة أنه مزوّد من الملك فهد بتوجيهات تقضي بألاّ يغادر طهران إلاّ ومعه تحديد موعد الزيارة. ولا نظن أن السعودية فعلت ذلك مع أحد الحكام من قبْل، ولكنها الرغبة في إخراج الحُكْم الإيراني من دائرة التردد في علاقة جديدة مع العرب هي التي أوجبت مثْل هذا الأمر الذي قد يبدو وكأنه إلحاح في حين أنه نوع من التأكيد على تكريم يأتي من الداعي الذي هو الملك فهد إلى المدعو الذي هو الحُكْم الإيراني في شخص الرئيس خاتمي.

بعد الخطوة الثانية جاءت الخطوة الثالثة التي تمثّلت بزيارة الأمير سلطان بن عبد العزيز إلى إيران يوم الأول من مايو /أيار الجاري(1999) وإستغرقت أربعة أيام وكانت سمتها تغليب المصارحة على المجاملة.

وعند التأمل في الكلام الذي قاله الأمير سلطان للمسؤولين الإيرانيين وكذلك في الكلام الذي سمعه منهم ونقرأ ما بين السطور، نلاحظ بوضوح حجم المصارحة وكيف أنها تقدمت على المجاملة، أو فلنقل إنها تمت في رحاب المجاملة. فالأمير سلطان يقول: "إننا نحتاج لوقت طويل لكي نبني بناء صحيحاً وأن كل شيء مستعجل لا ينفع"... وزميله الإيراني وزير الدفاع الأدميرال علي شمخاني يقول: "إن الدرب طويل والأمر بحاجة إلى فترة زمنية أكثر ويجب أن نخطو خطوات سديدة وعلى أرض صلبة. وزيارة الأمير سلطان لإيران تؤكد إيجاد الجسور للإعتماد عليها في ما بيننا وهذه أول خطوة بناءة يمكن أخْذها في الحسبان...". ويبدو هذا الكلام أنه نوع من الرد المتبادَل على طلبات تعجيزية وشروط لا بد منها لتطوير العلاقات مثل رغبة إيران في إجراء مناورات عسكرية مشتَرَكة في مياه الخليج، أو مثْل فكرتها الطموحة في إنشاء قوة إسلامية للدفاع عن المسلمين في العالم.

بعد هذه الخطوات من جانب المملكة العربية السعودية وفي ضوء الجولة العربية الأولى للرئيس خاتمي، باتت إيران مطالَبة بمواقف تترجم فيها ما يتوقعه الأشقاء العرب منها لكي يأخذ التطبيع مساره الصحيح ويتطور بحيث ينشر الطمأنينة في العلاقة العربية – الإيرانية.

وأهم هذه المواقف مراعاة خصوصية بعض الأنظمة العربية مثل البحرَيْن والجزائر ولبنان ومصر والكويت وعدم إقلاق هذه الخصوصية، وحسْم موضوع الجُزر (طمب الكبرى وطمب الصغرى وأبو موسى) بما يُدخل الطمأنينة في نفس الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات الذي يقلقه أشد الإقلاق بقاء هذه

الجُزر تحت الإحتلال الإيراني وتوريث هذا الوضع العالق إلى الذين مِن بعده، وأيضاً بما يُنهي الإحراجات التي يسببها هذا الإحتلال لدول عربية أبرزها سوريا والسعودية اللتان تسعيان بصدق لعلاقة عربية – إيرانية متوازنة لكنهما عندما يقطع السعي مسافة طويلة تجدان حاجز إحتلال الجُزر يعترض هذا السعي.

ويصعب على المرء تصوُّر إنهاء هذا الموضوع الشائك بغير التفهم الإيراني لحساسية إستمرار الجُزر الإماراتية الثلاث تحت الإحتلال والتفاهم مع دولة الإمارات في هذا الخصوص. ونقول إنه من الصعب تصوُّر صيغة خارج التفهم والتفاهم على أساس أن إحتلال الجُزر هو من نوع الإحتلالات الباردة بمعنى أنه ليس هنالك مقاومة إماراتية وعمليات يقوم بها رجال المقاومة وتستهدف الإيرانيين على نحو ما يفعل رجال المقاومة في لبنان. وفي المقابل ليس هنالك ما يجبر الإيرانيين المحتلين على إطلاق النار. ولكن عدم وجود مقاومة الآن لا يعني ألاَّ تكون واردة كفكرة يتم الأخذ بها في الوقت المناسب. ومثْل هذه المقاومة إذا أقدمت عليها دولة الإمارات ذات يوم ستكون ورقة تحرج الدول الخليجية والدول العربية الصديق منها لإيران وغير الصديق. فالدول الخليجية لا تستطيع سوى مساندة الإمارات، والدول الصديقة لا يمكن أن تتجاهل حقها في المقاومة ما دام هنالك إقرار بأن الجزُر الثلاث تابعة للإمارات وأنها ليست "الفوكلاند" برؤية بريطانيا العظمى لكي تضع إيران اليد عليها على نحو ما فعلت بريطانيا عندما حاربت الأرجنتين من أجْل تلك الجزيرة التي يؤكد المنطق ومعه الجغرافيا ونوعية السكان أنها جزُر تابعة للأرجنتين.

ولو أن عنصر الإمكانات المالية وحده يكفي لكانت الإمارات خصصت ميزانية كبرى لمقاومة تستهدف تحرير الجُزر وإستقدمت لهذا الغرض خيرة المقاتلين المسلمين في حال عدم إقدام أبناء الإمارات على التطوع في حركة المقاومة هذه. ولكن التحرير من خلال "مجاهدين" بالإقتناع أو التمويل، أو من خلال مرتزقة قتال، يلقي ظلالاً على البعد الوطني للمسألة فضلاً عن أن عدم التكافؤ على صعيد الشأن العسكري بين إيران والإمارات يجعل من السهل على الأولى توسيع رقعة قدرتها على الإقلاق بحيث تشمل البر الإماراتي ولا تقتصر على الجزُر.

من هنا نصل إلى أن طموح الساعين إلى علاقة عربية – إيرانية متوازنة وبالذات السعودية وسوريا وقَطَر، هو جعْل موضوع الجزُر الإماراتية الثلاث مجرد مشكلة حدود مثل المشاكل الكثيرة من هذا النوع التي بين دول الخليج نفسها، أو قريبة منها، وبحيث يسهُل إيجاد صيغة حل في إطار تطوير مجلس التعاون الخليجي في غضون عقديْن من الزمن أو أكثر بحيث تصبح إيران والعراق واليمن أعضاء في هذا المجلس الذي قد يصبح المحور الخليجي "الإسلامي – العربي" بمثْل الحلف الأطلسي شاغل الدنيا الآن وعلى مدى غير منظور. وهو محور قادر على المواجهة ومتفهم لمشاكل وإشكالات الدول المنضوية تحت رايته.

ويبقى أنه لولا أن الرئيس خاتمي رجل الإنفتاح في الثورة الإيرانية ويبذل جهداً شاقاً لجعْل هذا الإنفتاح يأخذ البُعد الرحب لما كان لهذا الإفتراض أن يرِدَ في الخاطر، بل وربما ما كان لجولة خاتمي أن تتم ويكون هذا الأمل في أنها ستؤسس لحقبة جديدة من العلاقات العربية – الإيرانية أكثر إستقراراً... وأقل إقلاقاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 مايو (أيار) 1999

* * *

الحمائم العربية على طريق العودة

ها هي الحمائم العربية الأليفة تتأهب هي الأخرى بعد الصقور العربية، التي لم تعد جارحة، من أجْل العودة إلى الوطن. وبعد تباشير التفاهم الأولي بين الحُكْم السوداني والمعارضة في شخص الصادق المهدي ها هو رئيس وزراء تونس الأسبق محمد مزالي يتلقى في بادرة طيّبة من الرئيس زين العابدين بن علي جواز سفر تونسياً وذلك كخطوة أُولى على طريق العودة إلى تونس الغائب – المغيَّب عنها منذ أربعة عشر عاماً. وها هو أيضاً أحمد بن صالح أحد وزراء السنوات الأخيرة من الحقبة البورقيبية يتلقى جواز سفره التونسي، الأمر الذي يعني أنه لن يعود مقيماً في فرنسا مثل مزالي.

ومع أن إعطاء كل من مزالي وبن صالح جواز سفره التونسي هو بمثابة إعادة حق لأصحابه، إلاَّ أنه بالقياس على الظروف الراهنة التي تشهدها المنطقة العربية عموماً، يبدو تسليم الرئيس الأسبق محمد

مزالي والوزير الأسبق أحمد بن صالح جوازيْ سفرهما التونسيين بمثابة بطاقة دعوة إلى الإثنيْن من أجْل العودة إلى الوطن. وهي دعوة قد تبدو على شيء من الجفاف لأن الإثنيْن من الرموز السياسية المتميزة في الحقبة البورقيبية ولأن كلاً منهما كان من بين الواردة إسماؤهم في بورصة من يخلُف الرئيس الحبيب بورقيبة قبْل أن يحسم المسألة كخطوة أولية زين العابدين بن علي الوزير، ثم يحسمها كخطوة حاسمة بعدما بات رئيساً للحكومة، بتسلُّم مقاليد الحُكْم بعدما بات الرئيس بورقيبة عاجزاً بدواعي الشيخوخة وتَردي الوضع الصحي عن القيام بواجبه كرئيس للبلاد.

وبالمقارنة بين مزالي وبن صالح والمعارضة السودانية بزعاماتها الحزبية والطائفية والعسكرية نجد أن الإثنين كانا من الحمائم الأليفة إبتعدا عن العنف الدموي المسلح الذي إعتمدتْه المعارضة السودانية، وإكتفى كل منهما بتسجيل بعض المواقف الناقدة التي هي مواد أحاديث صالونات ولقاءات سياسية. وعدا كتاب أصدره مزالي بغرض الدفاع عن النفس ودرء الإتهامات التي كانت كالسهام إنهمرت عليه، فإن الرجل آثر الإنزواء بين باريس وبعض العواصم العربية وأبقى على رؤيته الوطنية بعيدة عن أي مؤثرات. وعلى رغم قدراته الفكرية فإنه لم يُفسح في المجال أمام الفضائيات العربية لكي توظفه كملاكم في حلبة المشاكسات السياسية. وكان مثيراً للدهشة ضيق صدور بعض الحلقات في دهاليز وكواليس الحُكْم التونسي بمقابلة فضائية مع مزالي، تحدَّث فيها كأولمبي وليس كرئيس حكومة سابق مغيَّب من دون وجْه حق ومن دون مراعاة ماضيه ودوره في حقبة بالغة الحساسية من التاريخ الحديث لتونس.

في الوقت نفسه فإنه بالمقارنة بين أسلوب الحُكْم السوداني في دعوة المعارضين وأسلوب الحُكْم التونسي، فإن الأسلوب السوداني يأخذ في الإعتبار عنفوان الآخرين على رغم أنهم رفعوا السيف في وجهه، في حين أن الحُكْم التونسي لا يراعي هذه المسألة. هذا مع ملاحظة أن مراعاة العنفوان ليست ضعفاً وإنما هي نوع من الثقة بالنفس. ولا نظن أن الحُكْم السوداني عندما أوفد الدكتور حسن الترابي، الأب الروحي والسياسي لهذا الحُكْم، إلى جنيف للإجتماع بالصادق المهدي كان يرتعش من وطأة ضربات المعارضين، ولكنه فعل ذلك من منطلَق مراعاة عنفوان الرجل الذي هو الأكثر أحقية من غيره ليفاوض بإسم المعارضة ويجتهد ما أمكنه الإجتهاد. ونقول ذلك على أساس أن المعارضة السودانية قبْل أن يغادر الصادق المهدي السودان وينضم إليها في إسمره كانت أقل تماسكاً مما باتت عليه بعد إنضمام الصادق إلى الركب المعارض.

ولا نظن أنه كثير على الرئيس زين العابدين بن علي الذي يستعد لولاية رئاسية جديدة أن تصدر عنه بادرة تكريم لـ محمد مزالي وآخرين قريبة في روحيتها من حرصه في مناسبة تسلُّمه السُلطة يوم 14 مايو (أيار) 1987 على أن يتوجه إلى مقر إقامة سلَفه الرئيس بورقيبة الذي يقترب من السادسة والتسعين ويتمنى له التعافي والسَكينة، وتشبه في منطلقاتها البادرة الطيبة التي صدرت عن الحُكْم السوداني نحو الصادق المهدي والرئيس الأسبق جعفر نميري والقابلة لأن تشمل الآخرين بعد أن تصدُر عنهم بدورهم خطوات تبعث الطمأنينة في النفوس وأولها إخلاء سفارة بلادهم في إسمره التي كانت إقامتهم فيها عبارة عن حالة إحتلال قد تكون مفهومة إذا أقدم عليها خارجون على القانون وعلى الأصول إنما ليست مستحبة من تجمُّع المعارضين، خصوصاً أن هذا الإحتلال إقتصر على مقر السفارة السودانية في أسمرة وضِمْن إجراء من جانب الحُكْم الأريتري، أي بما معناه إن هذا الحُكْم "أهدى" المعارضين السودانيين مقر سفارة بلادهم وهو لا يملك هذا الحق على رغم أنه رئيس للجمهورية.

ويبقى أن عودة الحمائم التونسية الأليفة المرتقَبة والعودة المرتقَبة الأُخرى للصقور السودانية التي لم تعد جارحة، فضلاً عن عودة الرئيس الأسبق نميري، الذي بكّر في العودة، هي حلقات تعيشها المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط عموماً. ولا يبدو أن هذه العودة ستقتصر على هؤلاء فقط فهنالك عشرات الصقور التي لم تعد جارحة وعشرات الحمائم الأليفة منتشرة في عدد من عواصم العالم والمنطقة تنتظر – عدا إستثناءات من بينها ريمون إده الزعيم السياسي اللبناني المُعارض المستقر في باريس – أن تتوضح معالم عملية إعادة ترتيب الأوراق على الطاولة إستعداداً لإستقبال القرن الواحد والعشرين. وبمجرد أن تتوضح المعالم فإننا سنسمع ونقرأ عن قوافل العودة.

وفي سياق عملية إعادة ترتيب الأوراق يأتي الفوز الصاعق الذي حققه إيهود باراك زعيم "حزب العمل" في إسرائيل على بنيامين نتنياهو والذي يشبه في

بعض جوانب منطلقاته الفوز الصاعق الذي حققه بيل كلينتون على جورج بوش الذي ظن أن الناخبين في الولايات المتحدة سيجددون له الولاية هدية منهم على ما فعله في حرب الخليج التي عادت بالمكاسب عليهم، فإذا بهؤلاء يخذلونه ويختارون بيل كلينتون بدلاً منه. وما حدَث للرئيس بوش تكرر مع نتنياهو الذي إفترض أن إعادة إنتخابه رئيساً للبلاد مسألة مضمونة تكريماً له على تشدده ورفْضه القبول بأي صيغة توفيقية للسلام، لكن الناخب الإسرائيلي عاقبه بدل أن يكافئه لأنه دفع بعملية السلام خطوات إلى الوراء.

كذلك يأتي في سياق عملية إعادة ترتيب الأوراق الإختبار الأول لقدرة الصوت العربي في إسرائيل على أن يُحدث دوياً، وللرئيس ياسر عرفات على أن يمارس في العملية الإنتخابية الإسرائيلية لعبة سياسية تكتيكية من النوع الذي طالما إشتهر به في سنوات الإقامة في لبنان التي كانت إزدهاراً لزعامته ولشأنه قبْل أن تنتهي دماراً للبنان وللقضية الفلسطينية في الوقت نفسه.

وفي السياق نفسه يأتي التطبيع المتأخر خمس سنوات بين اليمن والكويت، وتأتي عملية الثأر الكويتية المبهرة من جانب وليّ العهد الشيخ سعد العبد الله ضد إسلاميي الكويت الذين حاولوا إحراج الشيخ سعد والصيغة الصباحية فأخرجهم الأمير الشيخ جابر بقرار حل مجلس الأمة ثم أحرجهم الشيخ سعد بهدية غير متوقعة للمرأة الكويتية تمثَّلت بمنحها إعتباراً من إنتخابات العام 2003 حق الإنتخاب وترشيح نفسها في الإنتخابات البرلمانية والبلدية، وهو أمر عارضه الإسلاميون بشدة وجاء يُظهر أن الكويت أكثر تحرراً من تركيا التي ضاق صدر أجاويدها، وهو الخارج منتصراً من معركة إنتخابات طاحنة كان إصطياد الزعيم الكردي عبد الله أوجلان أحد أوراقها الرابحة، بحجاب نائبة فاضلة وذات إطلالة ملائكية تنتمي إلى حزب الفضيلة فأسقط عضويتها بذريعة أنها تحمل الجنسية الأميركية إلى جانب الجنسية التركية، وكأنما الحُكْم في تركيا لا يدور جملة وتفصيلاً في الفلك الأميركي.

والأهم من هذا كله في السياق الذي نشير إليه تأتي زيارة الرئيس الإيراني محمد خاتمي للمملكة العربية السعودية وقول الملك فهد له وعلى مسمع كل الإيرانيين والعالم إن الأبواب باتت مفتوحة بالكامل لبناء أحسن العلاقات. ولكن المعادلة الإيرانية كثيرة التشابك بحيث يصعب الرد على اللغة السعودية بالمثل وعلى الفور لأن الأمر لا يقتصر على الرئيس خاتمي وحده، ذلك أن الخاتمية جناح في الحُكْم الإيراني. وغالب الظن أن الآخرين في نهاية المطاف سينظرون إليها على أنها ليست حالة إختراق وإنما هي جسر تَعبُر عليه إيران إلى القرن الواحد والعشرين وبعدما تكون عملية إعادة ترتيب الأوراق تبلورت وبما يبعث الطمأنينة في النفوس الحذرة والمشككة... ومِن أجْل ذلك نراها تعالج الحذر والشكوك بالحيرة والتشدد على نحو ما هو حاصل في إيران وغيرها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 21 مايو (أيار) 1999

* * *

صقور سودانية... لم تعد جارحة

ها هي الصقور السودانية بعد لقاء جنيف، يوم الأحد 2 مايو/ أيار 1999، بين النسيبيْن اللدودَيْن، السيد الصادق المهدي والدكتور حسن الترابي، تبدأ الإستعداد لرحلة العودة إلى الديار. وهي لا تعود جارحة لأن العودة ستحدُث بعدما أضنتها الغربة وتأكدت بأنه لا سماء تناسبها للتحليق مثل سماء السودان، ولا أعالي ترتاح عليها بعد التحليق مثْل الأعالي حول النيل بفرعيْه الأبيض والأزرق.

وستعود الصقور السودانية لتجد الإستقرار النفسي والدور السياسي في إنتظارها ما دامت لم تعد جارحة ليس لأن المخالب وهنت والمناقير لم تعد بالبأس الذي كانت عليه في الماضي، وإنما لأن الصقور إقتنعت بأن أموراً كثيرة تغيرت في قوانين اللعبة السياسية بحيث لم تعد القاعدة التي إزدهرت في الحقبة الممتدة من أواخر الخمسينات إلى منتصف الثمانينات سارية المفعول لأنها في الأصل قاعدة جائرة ما دامت تقوم على معادلة إما أنا أو لا أحد. وكان مدعاة للإستغراب أن بعض رموز الطبقة السياسية التي تحكُم السودان لم يتعظوا مما جرى لهم عندما ضيّعوا تجربة الحُكْم الفريدة التي جمعت كل السودان تحت مظلة الوفاق الوطني. وقد تتعاقب مستقبلاً صِيَغ كثيرة للحُكْم في السودان إلاَّ أن تجربة الحُكْم التي أفرزتْها ثورة 21 أكتوبر/ تشرين الأول 1964 ستبقى أكثر الصيغ موضوعية... وهي صيغة ما أحوج السودان إليها بعد خمس وثلاثين سنة على حدوثها، إنما بعد إدخال

تعديلات عليها تأخذ في الإعتبار المتغيرات التي حدثت في السودان وفي العالم العربي خلال ثلاثة عقود، وتكون كثيرة التنبه للأمر الذي أغفلتْه في الماضي، وهو الدور الذي سيكون للمؤسسة العسكرية، والحصة التي ستكون لها في الحُكْم.

ويصعب على المرء قراءة ما في رؤوس أهل الحُكْم الحالي في السودان من أفكار في شأن الصيغة التشاركية التي سيكون عليها الحُكْم في السودان مع إطلالة العام الأول من القرن الواحد والعشرين. كذلك يصعب على المرء قراءة ما في رؤوس أقطاب المعارضة السودانية من أفكار. ولكن مجرد أن يبدأ الحُكْم السعي للحوار مع المعارضة، ويتواصل الحوار وتتشعب بنود جدول أعمال هذا الحوار، معناه أن الوضع سينتهي إلى أن الأقطاب الثلاثة للمعارضة السودانية، وهم السيدان الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني والدكتور جون قرنق، سيتحولون إلى معترضين كخطوة أُولى ثم مواكبين للحُكْم كخطوة لاحقة. وإستناداً إلى ما حفلت به السنوات الخمس الماضية من تطورات ومفردات فإن الفرق كبير بين المُعارض والمعترض. كذلك، وإستناداً إلى التحرك السياسي لأقطاب المعارضة السودانية بين إريتريا والقاهرة ولندن وواشنطن، فإن هؤلاء الأقطاب إنتهوا إلى رؤية خلاصتها أن مواكبة تجربة الحُكْم الحالي في السودان والذي يتقاسمه الإتجاه الواحد بشقيْه الإسلامي المدني والإسلامي العسكري تبقى الخيار الأفضل ما دام هذا الحُكْم بات مقتنعاً بأنه لا يريد أن يواصل وحده كي لا يستمر مستبداً وغير عادل، وبأنه كخطوة عملية للتعبير عن حُسْن النيات شجع فكرة محاورة الدكتور حسن الترابي وفي جنيف للصادق المهدي. وبصرف النظر عما إذا كان وجود الإثنيْن في جنيف جاء بفعل الصدفة أم أنهما خططّا مسبقاً لكي يتم اللقاء على أرض سويسرا المحايدة وبترتيب من طرف سوداني ثالث، فإن اللقاء إكتسب صفة الحدث المهم الذي كان له الوقع الطيّب على نفوس أهل السودان، خصوصاً إنه تزامن مع الحدث الآخر الأكثر أهمية الذي شهدتْه الدوحة وأثمر مصالحة السودان وأريتريا برعاية أمير دولة قَطَر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني. ولقد أوحت بعض التفاصيل المتعلقة بهذه المصالحة بأنها كانت ذات إيقاع إعتمد السرعة والمباغتة بدليل أن الفريق عمر حسن البشير جاء على وجه السرعة من الخرطوم إلى الدوحة بناء على إتصال هاتفي أجراه معه الشيخ حمد وليجد أن الرئيس الأريتري أسياس أفورقي في صحبة الشيخ حمد في الديوان الأميري.

ومن الطبيعي أنه عندما يتناهى إلى أقطاب المعارضة السودانية الذين يعيشون في إسمره والتي هي نقطة الإنطلاق لهم في التوجهات السياسية والقتالية، أن النظام في بلدهم، الذي يخططون لإطاحته، إتفق مع النظام الذي يستضيفهم، وتحت رعاية ودعم دولة مقتدرة مثل قَطَر يحتاج النظامان إلى مساعداتها... من الطبيعي في هذه الحال أن يسرِّع أقطاب المعارضة الخطى في إتجاه إعادة النظر، خطوة بعد خطوة، في الموقف من النظام في السودان.

ومن هنا جاء اللقاء بين حسن الترابي والصادق المهدي الذي تحفّظ بقية رموز المعارضة عليه (أي اللقاء) في البداية قبْل التسليم به والعمل على إنجاحه كي يكون لهؤلاء مواقع بعد العودة.

ومن المؤكد أن تباشير النفط من جهة وإقتناع أهل الحُكْم في السودان من جهة أُخرى بأن التحول الذي بدأت خطوته الأُولى بما سموه "التوالي" فضلاً عن الإخفاقات في حسم المواجهة المتقطعة في الجنوب ومناطق أُخرى من البلاد، لن تعيد أحداً من "دولة السودان الخارجية" أي قادة التجمع الحزبي المعارض الذين ينشطون بين أسمرة والقاهرة ولندن وواشنطن... من المؤكد أن هذه الأمور وغيرها كثير دفعت بالنظام إلى أن يخطو الخطوة التي تستهوي قادة المعارضة مغتنماً بذلك فرصة حالة الإحباط التي بدأ يعاني منها هؤلاء وبالذات الصادق المهدي الذي طال غيابه عن السودان وبات يخشى على الحزب والطائفة من إنقسامات وتصدعات لا يعود من السهل ترميمها وبالذات ما يتعلق بمركز إمامة الأنصار. وقيام الدكتور الترابي بالذات بمهمة التحاور مع الصادق المهدي أتى من إعتبارات عدة من بينها أن الترابي يمكن أن يقول لنسيبه الصادق ما لا يمكن أن يقوله وسيط آخر وأن الصادق يمكن أن يقول لصهره الترابي ما لا يقال لوسيط غريب عن العائلة أو أنه إذا قيل، ينقطع الحوار على الفور. وإلى ذلك إن الإثنيْن يعرفان تمام المعرفة نقاط القوة والضعف كل في الآخر، ولهما تجربة سابقة في مسألة المعارضة والمصالحة. ومن المهم ألاّ نُسقط من الإعتبار ما يحتبس في صدور ذوي القربى (أي الأسرة المهدية بفروعها الكثيرة) من مشاعر وكيف أن هؤلاء في حيرة من المشهد الدرامي حيث الترابي في قمة السُلطة في السودان بينما الصادق في ذروة المعاناة في الخارج.

ويبقى أن الحوار الذي بدأ بين الدكتور حسن الترابي والسيد الصادق المهدي يعيد إلى الأذهان حوارات سابقة حدثت بين النظام في السودان أيام حُكْم الرئيس جعفر نميري وبين المعارضة السودانية بهدف تحقيق مصالحة بعد خصومة دامت سنوات وأُريقت بسببها دماء ولقي الهادي المهدي إمام طائفة الأنصار مصيره ودُفن في بقعة لا تزال مجهولة، كما تفرّق شمل عائلات وتعطلت مصالح. وكان من شأن تلك المصالحة لو كُتب لها أن تستقر أن تُحقق وفاقاً مثالياً بين النظام ومعارضيه. لكن ذلك لم يحدُث لأن النيات لم تكن طيبة بما فيه الكفاية، ولأن المصلحة الشخصية تقدمت على مصلحة الوطن، ولأن النظام زمنذاك أراد إنتزاع الصادق المهدي من المعارضة ولأنه بمثابة الصاعق وصمّام الأمان والرقم الأكثر صعوبة في جبهة المعارضة، وبذلك يسْهُل الإنقضاض عليها. كما أن الصادق المهدي أقدم على المصالحة لكي ينتزع الحُكْم لاحقاً من نميري. وما يخشاه أهل السودان بكل مشاربهم السياسية أن تتكرر المحاولة السابقة بطريقة مختلفة وتؤدي إلى النتيجة نفسها خصوصاً وقد تكاثر الكلام الذي أفاد بأن الصادق المهدي فاجأ رفاقه المعارضين بلقائه مع الترابي بمثل المفاجأة المكملة التي تمثّلت بمصالحة النظاميْن السوداني والأريتري وهي مفاجأة نزلت كالصاعقة على رؤوس أقطاب المعارضة جميعاً من الصادق المهدي إلى محمد عثمان الميرغني إلى جون قرنق ومستشاره الدكتور منصور خالد إلى الآخرين...

أما الوحيد الذي لم يفاجأ ولن يفاجأ فهو الرئيس الأسبق جعفر نميري الذي إنسحب بهدوء وعاش سنوات اللجوء في القاهرة بإنضباط لا مثيل له. ومن أجْل ذلك فإنه عندما قرر العودة إلى الخرطوم فإن عودته قوبلت بالترحيب به والإطمئنان إليه ربما ولأنه هو الآخر لم يعد صقراً جارحاً وإنما هو مثْل الجميع من المجاريح. والمتوقع أن تأتي عودته قبْل عودة شريكه في المصالحة الأُولى الصادق المهدي الذي إستمر يطالب برأسه ومحاكمته مع أنه أبرم معه إتفاقاً سيتبين ذات يوم أنه أفضل بكثير من الحوار الذي أجراه معه قبْل أيام في جنيف نسيبه الدكتور حسن الترابي. وهو أفضل ولأنه كان إتفاقاً مع رئيس الدولة بينما الآن قد ينتهي الحوار بالعودة... ولا إتفاق.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 مايو (أيار) 1999

* * *

زيارة لحود... ومطالعة الحريري

في الوقت الذي تتزايد مشاعر حنين اللبنانيين وبالذات أولئك الذين تعطلت أعمالهم وتكاثرت الأقساط المستحقة والمؤجَّلة السداد وإشتدت الوطأة المعيشية عليهم، إلى بعض أيام حُكْم الرئيس رفيق الحريري، ومن دون أن يخفي هؤلاء مشاعر الحنين هذه وبصيغ ومفردات متنوعة... في هذا الوقت لا يجد العهد الجديد الحلول التي يواجه بها الأزمة الإقتصادية الخانقة. ومن أجْل ذلك فإن عشرات الشركات أوقفت أعمالها وعشرات بناة العمارات السكنية سلّموا أمورهم إلى الله وإلى المصارف التي وضعت اليد على هذه المشاريع. أما ظاهرة الشيكات المرتَجعة لأنها من دون رصيد فإنها تزداد إتساعاً بحيث باتت تشمل شخصيات لها شأنها في ميدان الأعمال.

ويصعب على المرء التكهن بما سيفعله أهل الحُكْم اللبناني لمواجهة هذه الضائقة التي باتت مقلقة لأنها طالت من جهة ولأن خزائن الآخرين ليست ممتلئة إلى حد يمكن تأمين نجدات سريعة في صيغة قروض أو إستثمارات أو ودائع. وإذا إنقضى موسم الصيف ولم يحدُث الإنتعاش المطلوب فإن الضائقة ستزداد إلتفافاً حول العنق اللبناني. والإنتعاش المأمول لن يكون في أي حال إنتعاشاً بالطموح المطلوب لأن مردوده متواضع كونه يأتي من مبالغ بسيطة ينفقها زوار لبنانيون.

وقد يمضي وقت طويل قبْل أن يحل الرئيس الحريري بنفسه لغز إبعاده أو إبتعاده، ولكن طبيعة النشاط الرسمي الذي يقوم به الرئيس لحود بالمقارنة مع النشاط الذي يقوم به رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص تعطي بعض التفسير لذلك اللغز، حيث إن الرئيس لحود يمارس طوال ساعات العمل الرسمي التي تصل إلى حوالى ست عشرة ساعة يومياً ما كان يمارسه الحريري في الماضي، أي بما معناه إن الحريري كان رئيس حكومة ورئيس جمهورية في الوقت نفسه (ملاحظة أن الدور إستغرق ست سنوات أي فترة رئاسة الجمهورية من دون تمديد أو تجديد) وأن العماد لحود هو الآن رئيس جمهورية ورئيس حكومة في الوقت نفسه.

وفي إنتظار أن يجد اللغز تفسيراً يبدو الحريري في حالة نفسية طيبة هي عكس حالته التي كان عليها قبل ستة أشهر، ربما لأن الله عوّضه في فترة الإبعاد

أو الإبتعاد أهم خسارة كان مُني بها بعد فترة من تسلُّمه الحُكْم، حيث إن نجله رُزق طفلاً إختاروا له وبالإجماع إسم "حُسام" وبذلك بات "حُسام" الإبن الذي قضى في حادث سيارة موجوداً في العائلة من خلال "حُسام" الحفيد، هذا إلى جانب الحفيدة التي إختاروا لها وبالإجماع إسم بهية. ولعل من المناسب الإشارة هنا إلى أن تَحمُّل الرئيس الحريري لحملة التجريح التي تعرّض لها هو أنه عندما فقد إبنه فإنه بات قادراً على أن يتحمَّل أعتى الإعصارات، إذ ليس هنالك كارثة تعادل كارثة فقدان الإبن. وهو رأى في صمود صديقيْن له ما يزرع التماسك في النفس. والصديقان هما الرئيس حافظ الأسد الذي فقد نجله البكر الرائد باسل وزميلنا غسان تويني الذي فقد نجله الثاني مكرم (الثلاثة باسل ومكرم وحُسام قضوا في حادث مشابه).

وفي ضوء الوضع الإقتصادي والمعيشي المتفاقم والتطورات الإقليمية المستجدة، هل يعود الرئيس الحريري، الذي إستقبله الرئيس حافظ الأسد في دمشق لمدة خمس ساعات يوم الأحد الماضي، أو يُستعاد نتيجة لدقة ذلك الوضع من جهة وللمعادلة الدولية – العربية من جهة أُخرى؟ والرد على ذلك هو أنه لن تكون هنالك إجابة شافية قبْل إيجاد تفسير لدوافع الإبعاد أو الإبتعاد. وربما قد تأتي الإجابة بعد أن يستكمل الرئيس الحريري مطالعة بالأرقام والوقائع يجري منذ بعض الوقت إعدادها لتكون رداً على أعتى حملة تجريح تعرَّض لها رجل دولة بوزن الحريري وتُطوى بهذا الرد المطالعة ورقة غلب الثأر فيها على التصحيح.

وبالنسبة إلى الرئيس إميل لحود فإنه قد يمضي وقت طويل قبْل أن يجد اللبنانيون تفسيراً لكون الزيارة الرسمية الأولى لرئيسهم يقوم بها خارج لبنان، هي للمملكة الأردنية الهاشمية حيث من المقرر أن يتوجه الرئيس لحود يوم السبت المقبل (29 مايو/ أيار 1999) إلى عمان في زيارة تستغرق يوماً واحداً. ونقول إنها الزيارة الأولى للرئيس لحود خارج لبنان لأننا نستثني زيارة سبق أن قام بها إلى دمشق يوم 13 فبراير/ شباط 1999 وإكتسبت طابعاً رسمياً وكانت الأُولى في ظاهرة لقاءات القمة اللبنانية – السورية في العهد الجديد في لبنان الذي بدأ يوم 15 أكتوبر/ تشرين الأول 1998.

وقد يجوز الإفتراض أن هذه الزيارة التي يقوم بها الرئيس لحود إلى الأردن لا تخرج عن كونها لفتة تعويض عن مشاركة من جانبه لم تتم في تشييع جنازة الملك حسين نتيجة مسايرة لحساسية العلاقة السورية – الأردنية وأتت المسايرة غير محسوبة بما فيه الكفاية. والقول إنها غير محسوبة لأن المشاركة السورية في الجنازة كانت أكثر من متميزة وكانت إذا جاز القول العلامة الفارقة على الصفحة الجنائزية وفتحت الأبواب أمام علاقة سورية – أردنية متجددة كانت إحدى ثمارها أن العطش الأردني سيُروى بفضل مياه تندفع من سد باسل الأسد إلى قناة الملك عبدالله (الأول) جد والد العاهل الأردني الشاب عبدالله (الثاني). وللمرء أن يتصور أهمية هذه الخطوة التي تفوق أهميتها بكثير، أو على الأقل تتساوى مع أهمية أنابيب تنقل النفط من أرض تجري من تحتها أنهار النفط إلى بلاد لا نفط فيها. ونقول ذلك على أساس أنه كلما جاءت سيرة العطش على لسان الأردني جيلاً بعد جيل سيتذكر أنه يواجه هذا العطش بمياه تأتيه من سد باسل حافظ الأسد. وفي القرن الواحد والعشرين الذي تفصلنا عن إطلالته بضعة أشهر ستكون هذه الخطوة والإنسجام التام في شخصية العاهل الأردني الشاب والدكتور بشار الأسد الذي تؤكد نشاطاته الرسمية أن فترة تأهيله ليواصل من بعد والده الحُكْم في سوريا قطعت شوطاً بعيداً... ستكون تلك الخطوة وذاك الإنسجام الذي ظهرت معالمه ونتائجه الأولية في لقاء الإثنيْن في عمان أولاً ثم خلال زيارة الملك عبدالله لدمشق عنصراً بالغ الأهمية لتأسيس علاقة متماسكة بين الأردن وسوريا.

ومثْل هذه الرؤية قد تكون عاملاً ملحوظاً أخذه الرئيس لحود أيضاً في الإعتبار فإرتأى أن تكون زيارته العربية الأُولى إلى البلد الذي لم يتوقع اللبنانيون وغير اللبنانيين أن يكون الأردن. وهو إذا كان لا يملك ما يعطيه إلى الأردن، كمياه تروي الأردنيين في زمن العطش أو غير المياه لأنه رئيس بلد يواصل البحث عمَن يعطيه، فإن الورقة المعنوية التي يمكن أن تكون هدية لبنان إلى الملك عبدالله (الثاني) هي أن الرئيس لحود كسر ظاهرة إبتعاد لبنان عن الأردن بحيث إن ثلاثة رؤساء تعاقبوا على الحُكْم في ظروف طبيعية لم يتبادلوا الزيارات مع الأردن وبدوا في ذلك وكأنهم يمارسون لدوافع ناصرية وفلسطينية وبعثية ما يشبه المقاطعة للأردن. والثلاثة هم الرئيس فؤاد شهاب والرئيس شارل حلو والرئيس سليمان فرنجية. أما الرؤساء الثلاثة الذين أتوا من بعدهم (الياس سركيس وأمين الجميل وإلياس الهراوي) فإن دقة الظروف

الناشئة عن الحرب اللبنانية طوال ستة عشر عاماً من جهة والتوتر الدائم في العلاقة السورية – الأردنية من جهة أُخرى قد يشكِّلان سبباً موضوعياً لعدم التزاور المشار إليه.

ويبقى أن القول بأن الزيارة الرسمية الأولى للرئيس اللبناني – كونها تتم للأردن بالذات – هي بمثابة لغز يحتاج إلى تفسير، هو لأن هنالك أولويات تقليدية وبالذات بالنسبة إلى لبنان فظروفه تفرض أن تكون الزيارات الأولى هي، بعد دمشق، إلى الرياض والقاهرة وباريس وواشنطن. وعندما يخرج الرئيس لحود على هذه الأولويات فليس لأن الدعوة من الأردن وصلت قبل دعوات الآخرين وإنما لإجتهادات وحسابات. وربما لما هو أهم بكثير.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 مايو (أيار) 1999

* * *

من أجْل أن يستقر السودان في المحور الأميركي للقرن الحادي والعشرين

من العاصمة المثلثة للسودان (الخرطوم والخرطوم بحري، وأم درمان) تبث الفضائيات العربية قبْل ظهر يوم السبت 22 مايو (أيار) 1999 بالصوت وبالصور الملونة الحدث الذي إستعصى على العرب الذين شاهدوا التفاصيل إستيعابه. ففي التاريخ السياسي العربي الحديث ليس مألوفاً على الإطلاق عودة حكام سابقين سقطوا بفعل إنقلاب عسكري أو إنتفاضة شعبية أو الأمريْن معاً كما حدث للرئيس الأسبق جعفر نميري. كما أنه، غير معروف وإلى درجة الإستحالة أن تكون العودة ذات ملامح رئاسية. بمعنى أن يعود الرئيس المقيم منذ أربعة عشر عاماً في القاهرة كلاجئ سياسي إلى بلاده في طائرة رئاسية ويتم إستقباله رسمياً وشعبياً.

ومثْل هذا الحدث يستوقف المراقبين والراصدين للتطورات السياسية العربية والتطورات التي شهدها السودان على مدى أكثر من ثلاثة عقود. وبصفة كوني واحداً من هؤلاء الراصدين والمتابعين، فإنني أسجل بعض التفسيرات والإجتهادات المتعلقة بهذا الحدث من خلال الملاحظات الآتية:

أولاً – لم يحدُث في تاريخ السودان المستقل أن عومل رئيس سابق سقط حُكْمه بفعل إنقلاب مثْل هذه المعاملة التي لقيها نميري. فالرئيس (المدني) إسماعيل الأزهري كان منفياً داخل بلده. والرئيس (العسكري) الفريق إبراهيم عبود الذي تسلَّم الحُكْم بعده كان أيضاً شبه منفي. وفي حين إستعاد الأزهري إعتباره بعدما أسقطت ثورة أكتوبر (تشرين الأول) 1964 المدنية الحُكْم العسكري وإستمر هذا الإعتبار خمس سنوات، فإن الفريق عبود إستمر مهمَّشاً إلى أن توفاه الله فجرى تشييعه رسمياً.

ثانياً – لا يمكن إعتبار الرئيس الأسبق نميري بأنه كان منفياً. فالتفسير العِلْمي لكلمة المنفى أنه كان في بلده وقامت سُلطة جديدة قضت بتسفيره إلى الخارج على نحو ما جرى، على سبيل المثال لا الحصر، مع الصادق المهدي وعبد الخالق محجوب، اللذيْن طلب الرئيس المصري (الراحل) جمال عبد الناصر من نميري نفيهما إليه لكي يرتاح من مشاكساتهما ولكي يكونا موضع تكريم في رحاب الحُكْم المصري. كذلك، وعلى سبيل المثال لا الحصر، ما جرى للملك فاروق الذي تولت السُلطة الثورية التي قامت يوم 23 يوليو (تموز) 1952 تسفيره، وما جرى للرئيس السوري شكري القوتلي الذي تولت السُلطة الإنقلابية بقيادة الزعيم حسني الزعيم تسفيره بعد فترة إحتجاز. ومِن هنا فإن نميري كان أقل من ضيف وأكثر من لاجئ سياسي في مصر، أي بما معناه إن حالته كانت مثْل حالة الملك إدريس السنوسي الذي إستقرّ به المقام في مصر في عهد الرئيس السادات ومن دون أن تكون إقامته ورقة في لعبة المشاكسات التي إستمرت طويلاً بين مصر الساداتية وليبيا القذَّافية، أو تكون هذه الإقامة ذات تأثير على شهور الإزدهار المتقطع في العلاقة بين الرئيسيْن السادات والقذَّافي.

وثمة ما يلفت الإنتباه وهو أن إقامة الرئيس السوداني الأسبق نميري في القاهرة كانت محسوبة بدقة. فهي لم تكن إقامة بمستوى خمْس نجوم ولكنها كانت على شيء من التميز على صعيد الراحة السكنية والطمأنينة الأمنية وكذلك على صعيد مستلزمات الإعاشة حيث إن الوجبات اليومية كانت تأتي في مواعيدها من الرئاسة. كما يلفت الإنتباه أن العلاقة بين الحُكْم المصري وأقطاب المعارضة السودانية وبالذات بعد مغادرة الصادق المهدي السودان وإلتحاقه بأركان المعارضة الذين إتخذوا من أريتريا منطلقاً لتحركاتهم وإتخذوا من السفارة السودانية

في العاصمة الأريترية (إسمره) مقراً سياسياً لهم... إن العلاقة المشار إليها إزدادت توثقاً بينما نميري يقيم في القاهرة.

مبارك أنقذ نميري

ثالثاً – كان من حُسْـــن حظ الرئيس نميري منذ الإنقلاب عليه أن الرئيس حســـني مبارك أنقذ حياته حيث أنه أبقى عليه في القاهرة بينما كان هو يخطط لمتابعة السفر إلى الخرطوم وفي إعتقاده أنه يستطيع إفشـــال الحركة الإنقلابية التي قادها الفريق أول عبد الرحمن ســوار الذهب. وهو لو واصــل الســفر لكان سـيجد نفســه أمام خمســة إحتمالات أقلها حظاً على صـعيد النجاح إفشـال الإنقلاب عليه الذي جرى بينما هو في زيارة واشــنطن، وســلاحه في ذلك الشــرعية والمؤسـسـة العسـكرية المتماسـكة والتنظيمات المدنية الشـــعبية التي أنشـــأها خلال حُكْمه. أما الإحتمالات الأُخرى فهي: أن يتم إســقاط طائرته قبْل أن تحط في أرض المطار، أو تندفع الجماهير الغاضـــبة نحو المطار ويحدث له مكروه كبير كأن يرميه أنصـــاري غاضـــب برمح يودي بحياتـه على نحو ما جرى للإنكليزي غوردون باشـا. أو تُقرر السُـلطة الإنقلابية إعتقالـه لمجرد نزولـه من الطـائرة وإيداعـه الســـجن وإخضـــاعه للمحاكمة تحت ضـــغط خصـــومه الذين يريدون رأسـه. أو الإحتمال الأخير وهو الأكثر خطورة أن تحدُث حرب أهلية في الســـودان وينقســـم الجيش ويتلبنن البلد إذا جاز القول.

ومِن هنا فإن ما فعله الرئيس مبارك كان بالغ الأهمية لأنه بالإبقاء على صديق مصر في عهودها الثلاثة (عبد الناصـــر والســـادات ومبارك) في القاهرة أنقذ نميري من جهة وأبعد عن السـودان شـرور الفتنة أو حرباً أهلية كان يمكن أن تقع.

وفي القاهرة كان نميري في غاية الإنضباط. بمعنى أنه إكتفى بتحويل مقر إقامته الذي خصصتْه الحكومة المصـرية ومكتبه الذي إسـتأجره إلى ديوان للتشـاور السياسي مع زواره من الذين شغلوا مناصب في عهده ومن بعض الســودانيين الذين تربطه بهم صـــداقات. وبين الحين والآخر كان يدلي ببعض الأحاديث إلى الصحافة وكان في هذه الأحاديث كثير التحفظ، الأمر الذي أفاد في الإبقاء على خطوط الإتصال بالنظام في السودان سالكة، وهو في الأصل إعتبر أن هذا النظام الذي يقوده الفريق أول عمر البشير لا يتحمل وزر ما أصـابه لأنه ليس هو الذي أسـقط حُكْمه. بل إنه كان يرى أن الفريق أول البشـــير ورفاقه ثأروا له من الذين أســـقطوه أي الفريق أول عبد الرحمن ســـوار الذهب والثنائي المدني الصـــادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني. أما موقفه من الدكتور حسـن الترابي، الأب الروحي والفكري للنظام الحالي في الســـودان، فإنه لم يتجاوز العتب القاسي. ولو كان الموقف أكثر من ذلك لما كان للعودة أن تتم بالتكريم الذي رافقها. فالجناح العســـكري في النظام يراعي خاطر الدكتور الترابي، وبالذات في الترتيبات التي تخضـــع للإجتهاد. ومن جانبه فإن الدكتور الترابي يضـــغط على نفســـه عندما يكون هنالك موجب لتفهُّم خيارات لرفاقه وتلامذته أبناء المؤسـسـة العسـكرية. وتلك في أي حال ليسـت كل المعادلة، لأن هنالك على هامشـــها ما يجوز أخْذه في الإعتبار، بمعنى أن الظروف تتطلب أحياناً بعض المقايضـــات. وفي هذا الإطار فإن لقاء جنيف بين الترابي ونســيبه الصـــادق المهدي كان في جانب من الجوانب بمثابة مقايضـــة طرفها الآخر أن يســـتعيد الجناح العسـكري في النظام إبن المؤسـسـة العسـكرية جعفر نميري وهي خطوة من شـأنها أن تُرضـــي جيل السبعينات في الجيش وبالذات المجموعة التي شاركت نميري في الحُكْم والذين ما زالوا على كثير من الحيوية حيث إنصهر بعضهم في النظام وإختار البعض الآخر الإبقاء على مســـافة بينه وبين النظام، أي بتوضـــيح أكثر تحـديـداً إن الفريق أول عمر البشـــير ورفـاقـه الضباط إستعادوا رفيق سلاح كان في قمة السُلطة وأن الدكتور حسـن الترابي خطا الخطوة الأكثر أهمية على طريق إســـتعادة خال أولاده وبذلك يهدأ بال الأُســـرة الصغيرة ويتلاشى الحَرَج أمام الأُسرة الكبرى أي طائفة الأنصـــار التي ترفض أي حيثيات يقولها الترابي أو الترابيون وترى أنه إذا كانت طقوس العمل الســياســي تســـمح في أن يكون ســـيد الطائفة في المنافي بينما الصـهر في قمة السُلطة، فإن قانون القُربى والمصـاهرة لا يجيز مثل هذا الوضع.

ونحن عندما نشـير إلى ذلك نأخذ في الإعتبار أنه لم يكن من مصـلحة الترابي ولا من مصـلحة الصـادق المهدي أن الحوار إقتصـر عليهما ولم يشـمل آخرين، وبالذات محمد عثمان الميرغني، إلاَّ إذا كانت ترتيبات الكواليس تهيئ لمفاجأة تُرضـــي مشـــاعر الختميين ولا تُـــبقي على الصـادق في نظر معارضـي الشتات أنه غادر السـفينة التي بدأت تغرق في بحر المصـالحتيْن المصـرية – السـودانية، والسـودانية – الأريترية، وترك

الآخرين داخلها مع أنه هو قائد تلك السفينة.

رابعاً – جاء إختيار يوم السبت 23 مايو (أيار) 1999 موعداً لعودة نميري إلى الخرطوم يثير التساؤلات حول هذا التوقيت. وكان مقرراً أن تتم العودة يوم الجمعة 21 مايو (أيار) ثم تأجلت يوماً لسبب بالغ الأهمية قيل إنه عائد إلى أن الرئيس عمر البشير موجود في رحلة عمل خارج البلاد وأنه يريد أن يكون في إستقباله في القصر الجمهوري لمجرد خروجه من المطار بعد أن يتم إستقباله رسمياً من قِبل ممثل للرئيس هو وزير شؤون رئاسة الجمهورية العميد بكري حسن صالح.

ومحور هذه التساؤلات أن الرئيس الأسبق يعود في الشهر الذي قاد فيه ثورة 25 مايو (أيار)، ويعود في اليوم الذي كان بدأ العد العكسي للإنقضاض على حكم الأحزاب، عدا الحزب الشيوعي، وتسلّم السلطة منهم، ويعود في الذكرى الثلاثين لقيام تلك الثورة التي إعتبرتْها الأحزاب (بما فيها الحزب الشيوعي الذي بات بعد ذلك عدواً) مجرد عملية إنقلابية لا أكثر. وقد يكون التوقيت مجرد مصادفة لا أكثر ترضي مشاعر نميري إلاَّ أنها في أي حال أفسحت في المجال أمام التفسيرات الكثيرة ومعظمها لا ينطلق من حُسْن النية تماماً ولا تماماً من سوئها. وتلك حالة طارئة على نوعية الظنون التي بعضها إثم.

وهذا الإستقبال الرسمي الذي لقيه نميري هو خير ما يمكن أن يتطلع إليه رئيس سابق عاش في المنفى بعد إسقاط حُكْمه. ويقول المرء ذلك قياساً على ما حدَث لحكام سابقين وزعماء ورجال دولة مرموقين ذاقوا من الإهانة بعد سقوطهم وحُرموا من نعمة رؤية الوطن ومن مواراتهم الثرى في ترابه، ومِن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر منغستو الحبشي ومحمد رضا بهلوي الفارسي والثلاثي البعثي السوري صلاح البيطار وميشال عفلق وأكرم الحوراني، والعراقي فاضل الجمالي.

وليس ذلك فحسب لأن التوديع الرسمي الذي لقيه نميري في مطار القاهرة هو أيضاً خير ما يمكن أن يتطلع إليه لاجئ سياسي. فقد ودّعه أحد الوزراء وكان إختيار وزير الأشغال والموارد المائية المصري الدكتور محمود أبو زيد إختياراً مدروساً حيث إنه يترك إنطباعاً بأن الرئيس حسني مبارك ولتفادي أي حساسيات كلّف هذا الوزير بالمهمة وليس أحد جنرالاته أو وزير الخارجية أو وزير الإعلام، ليقول ما معناه إن أهم ما يربط بين مصر وبين السودان هو نهر النيل، الذي هو من إختصاص وزير الري.

على أبواب السبعين

وفي تقديرنا أن نميري الذي إعتقد في الأشهر الأُولى للإنقلاب عليه أنه يمكن أن يعود وفْق تكرار حالة ميلتون أوبوتي الذي عاد إلى الحُكْم في أوغندة بعدما كانوا إنقلبوا عليه وأسقطوه، بات أكثر إدراكاً لواقع الأمور. فهو عندما إعتقد ذلك الإعتقاد كان في الخامسة والخمسين وكانت صحته أفضل وهمّته أقوى، أما الآن فإنه في التاسعة والستين، ومَن هم في مثل عمره يمكن أن يتطلعوا إلى تجديد الولاية والبقاء في الحُكْم بضع سنوات أُخرى (صديقه الرئيس حسني مبارك على سبيل المثال) إلاّ أنه من غير الجائز أن يخطر ذلك في بالهم إذا باتوا من السابقين. وأكثر ما من حقهم التطلع إليه هو تمضية ما تبقَّى من العمر في رحاب الوطن بين المسجد والمنزل وإستقبال صفوة الأصدقاء وزيارتهم وتفقّد أضرحة الأهل والأولياء الصالحين، والتوجه كل سنة إلى مكة المكرمة لتأدية العمرة، والخضوع إلى المزيد من العلاج داخل البلد وخارجه، ومداراة الصحة ما أمكنت المداراة. وإلى ذلك وكواجب وطني، إسداء النصيحة في ضوء طلب المغفرة وممارسة النقد الذاتي عن أفعال حدثت في الماضي. وممارسة العمل السياسي بعيداً عن إنبعاث هوَس التآمر، وعلى الطريقة التي يمارس بها هذا العمل الرؤساء السابقون في بعض الدول ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر الرؤساء جيمي كارتر وجورج بوش وجيرالد فورد وجيسكار ديستان وغيرهم، مع تسجيل الأسف لأن الساحة العربية خالية تقريباً من مثل هذه الظاهرة.

ونلاحظ أن الرئيس السوداني الأسبق يريد أن يخوض الميدان بحزب لم تنجح فكرته أيام كان في قمة السُلطة (بدليل أنه لم يدرأ الخطر عن النظام فتهاوى على أهون السبل) فكيف سينجح الآن. وعندما نقول ذلك نأخذ في الإعتبار أن التحالف المطلوب الذي يمكن أن يحقق الإستقرار للسودان هو تحالُف رموز القوى السياسية السودانية مع مشاركة فاعلة للمؤسسة العسكرية وذلك من أجْل ألاَّ تبقى هذه المؤسسة إما مستهدَفة من تلك القوى وهذا يتسبب في حساسيات تنتهي في غالب الأحيان إلى حدوث إنقلابات ذات طابع مغامر في معظمها، أو يكون دورها فقط هو حماية التجارب الديمقراطية بخيرها

وشـرها ونزوات بعض رافعي أعلامها والإسـتغراق في مناقشـات ذات طابع "الوَنَسـات"، (وهي كلمة يقتصـر إسـتعمالها على إخواننا السـودانيين وتعني المناقشـة بهدف إضاعة الوقت ليس إلاَّ...).

والذي يوجب إعتماد مثل هذا التحالف هو أنه لم يبقَ أحد من أطراف القوى الحزبية السـياسـية في السـودان إلاَّ وأخذ نصـيبه من الحُكْم. كما أن الجميع بمَن فيهم عساكر السودان الذين تقاسموا سنوات الحُكْم منذ الإسـتقلال وحتى الآن مارسـوا اللعبة الدموية في شـكل أو آخر وتلطخ جلباب هذا أو عمامة ذاك أو البذلة الكاكية اللون لهذا أو ذاك من الحكام العسـاكر بنقاط دماء نزفت من أجسـاد أشـخاص كان يمكن معالجة مغامرات إقترفوها، بالحسنى.

خامسـاً – كان المرء يتمنى لو أن البيان الذي قرأه الرئيس الأسـبق نميري في الإسـتراحة الرسـمية في مطار الخرطوم شـمل ما يشـبه الأسـف على بعض المآسي التي حدثت خلال سنوات حُكْمه وتسبّبت إلى جانب الدماء التي سـالت، في جراح معنوية عميقة ما زالـت تحفر في النفوس حتى الآن. ونقول ذلـك على أساس أنه لا يكفي أن يقول الرئيس الأسبق أنه" يهيب بالسـودانيين جميعاً وكافة القوى الوطنية نبْذ الفرقة والشـتات لتحقيق المصـالحة الوطنية من أجْل بناء الوطن" من دون أن يعالج وبصـيغة إعتذارية ما فعله نظامه بإمام طائفة الأنصـار الهادي المهدي وبإثنيْن من قـادة العمـل الوطني همـا عبـد الخـالق محجوب والشـفيع. فقد كان هنالك إسـتعجال في تصـفية الأول وفي إعـدام الإثنيْن الآخريْن مع أن الثلاثـة هم من المدنيين الذين لهم رؤاهم السياسية القابلة للأخذ والرد، فضـلاً عن أن سِـجْن "كوبر" هو في الحد الأقصـى لمثل هذه الحالات. وما يمكن أن ينفّذه حكام عسكريون بزملاء لهم أمثال هاشـم العطا وبابكر النور وفاروق حمد الله إفترضـوا أنهم قادرون على قلْب الحُكْم وتسلُّم السُـلطة وخرجوا بذلك عن الإنضـباط العسـكري، لا يجوز أن يشـمل المدنيين في أي حال، ذلك أن الممارسة السياسية لهؤلاء عموماً وبالذات في السودان وضِـمْن قوانين اللعبة الديمقراطية العريقة تجعلهم دائماً خارج الإنضباط.

وفي تقديرنا إنه لو لـمَّح الرئيس الأسبق نميري في بيانه إلى هذا الأسـف الذي أشـرنا إليه لما كانت مشـاعر الثأر الأنصـاري إنبعثت بالحدة التي إنبعثت بها حيث إنطلقت أصـوات أنصـارية، من بينها صـوت الدكتور الصـادق الهادي المهدي، الإبن الأصـغر للإمام الهادي، يقول أصـحابها إنهم سـيرفعون دعوى ضـد نميري وأنهم سـينظِّمون مسـيرة إحتجاج على عودته. وعلى رغم وجاهة هذه الصـيحات من حيث المشاعر، إلاَّ أن المنطق ضعيف في شأنها ليس لأن أبناء الطائفة ليسـوا موحَّدين بدليل أنهم إلى الآن لم يتفاهموا على مَن يكون إماماً لهم بعد الهادي، وإنما لأن مسـألة تصـفية الإمام ودفْنه في مكان معروف وغير معروف حتى الآن يُفترض أنهـا طُويـت بالمصالحة الوطنية بين الرئيس نميري والسيد الصادق المهدي، ولا يقِّلل من هذه الحقيقة أن المصـالحة لم تصمد ولا أن أبناء الإمام منقسمون وأمضوا فترة طويلة صـامتين على فجيعتهم منشـغلين بمَن يتزعم الطائفة ويحدد خياراتها السياسية. والذي يزيد من وجوب إبداء الأسـف أن نميري يردد في إسـتمرار أنه من عائلة أنصـارية. ومَنْ كانت هذه جذور عائلته يكون عليه واجب إبداء التقدير في الحد الأدنى والطاعة في الحد الأقصـى لمن يكون إمام هذه الطائفة. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن نميري هو الذي قام بتفكيك الأُسرة المهدية بتصفية الإمام الهادي لأن الذي حدَث بعد ذلك هو أن هذه الأُسـرة لم تتفق على مَن يكون الإمام: هل هو الأخ السـيد أحمد على أسـاس أن العرف يقضـي بأن يتوارث الإخوة الإمامة، أم هل هو السـيد الصـادق الذي أراد إحداث ثورة على التقليد المتبع بحيث يكون للجيل الثاني أحقية في أن يتبوأ المنصـب أي بما بمعناه يكون هو الإمام مسـتنداً في ذلك من جهة إلى أن والده الإمام الصـديق شـغل المنصـب من قبْل وإلى أنه كان قرّة عين جده (الإمام عبد الرحمن) على نحو مكانة الملك حسين (أطال الله عمر الصـادق) في نظر جده الملك عبدالله. ولو أن أبناء الإمام الهادي كانوا متفاهمين ومتحدين ومتأكدين من أن الصادق يمكن أن يسمي في حياته واحداً منهم (وليس إبنه عبد الرحمن) لكي يكون الإمام مِن بعده لكانوا حسموا الأمر وبايعوه كرجل واحد، ولكان موقف عمه السيد أحمد بات ضعيفاً.

وإذا جاز القول فإن تصـفية الإمام الهادي بالشـكل الذي تمت فيه وتركيز نميري سـابقاً وحتى الآن على أنه من عائلة أنصارية تحتمل تفسيريْن: الأول أنه كان تطلَّع إلى أن يكون هو إمام طائفة الأنصـار وما دام بات رئيسـاً للسـودان فهذا ليس بالأمر الصـعب من وجهة نظره. أما التفسير الثاني فهو أنه كأنصاري يريد

أن يكون – ما دام في قمة السُلطة – صاحب الرأي الأول في إختيار مَن يكون الإمام وأن يكون ولاء الإمام له وليس لأي طرَف خارجي. وهي في أي حال مجرد إستنتاجات عزّزها بعد ذلك جنوحه نحو التوجه الإسلامي وفْق إيقاع سريع وصل إلى حد الإصرار على مبايعته كإمام في منصب رئيس جمهورية أو كرئيس جمهورية بتطلعات إلى أن يكون إماماً ليس فقط للأنصار وإنما لكل السودان وربما لبقية المسلمين، وهذا في أي حال ما عجّل في إسقاط نظامه.

سادساً – من الواضح أن سرعة نميري في العودة تسبّبت في تباطؤ إستكمال جولة ثانية من الحوار وفي جنيف أيضاً بين الدكتور حسن الترابي والسيد الصادق المهدي. ومِن الجائز القول هنا أيضاً إن طبيعة الإستقبال الذي جرى لـ نميري في مطار الخرطوم أضافت المزيد من التباطؤ ربما لأن الصادق رأى في هذا الإستقبال ما يدعو إلى الإستفزاز وإن كان هنالك تفسير إيجابي خلاصته أن تجاوبَكَ (أي الصادق) مع الحوار الذي يجريه الترابي سيلقى الترحيب نفسه وسيكون لك إستقبال مماثل على الصعيد الرسمي في مطار الخرطوم ولن تكون هنالك قيود تفرضها الحكومة على الإستقبال الشعبي، على نحو ما حدث عند مجيء السيد الصادق في الماضي إلى السودان لإنجاز المصالحة الوطنية مع الرئيس نميري، وبذلك لم تتمكن جماهير الأنصار من تنظيم إستقبال حاشد له كان سيتخلله ذبْح بضع مئات من الخراف أمام ساحة المطار. أما لماذا لم تتمكن فلأن لقاء نميري بالصادق تم سراً في بور سودان ليلة السادس من يوليو (تموز) 1977 وسْط إجراءات أمن مشددة وبعيداً عن عيون الفضوليين والحاسدين والكارهين من أهل النظام ومن بعض رفاق الصادق في جبهة المعارضة.

ومن المؤكد أن البث الفضائي لوصول الرئيس الأسبق نميري إلى مطار الخرطوم والحفاوة الرسمية والشعبية التي لقيها هناك جعلا جماهير الأنصار في الشتات وفي الداخل ترى بأم العين هذا التكريم وتتطلع إلى تكريم مماثل يلقاه الصادق عندما يعود. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن الحفاوة التي لقيها الرئيس الأسبق نميري في مطار الخرطوم حدثت كون العائد هو إبن المؤسسة العسكرية ولا نظن أن مثل هذا التكريم – ما دامت المؤسسة هي التي تحكم البلاد – سيحظى به تماماً العائد أو العائدون من المدنيين مثل السيديْن الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني وغيرهما. وبالنسبة إلى الصادق شخصياً فإن ما يجوز إفتراضه هو أن الرجل يتطلع إلى أن يحظى بإستقبال تاريخي من نوع الإستقبال الذي حظي به الإمام الخميني عندما عاد من باريس ويبسط إمامته على إيران التي نجحت فيها الثورة التي قادها من "نوفل لوشاتو" إحدى ضواحي العاصمة الفرنسية فسقط الحُكْم الشاهاني وحلّ محله حُكْم رجال الدين في أول تجربة من نوعها في تاريخ المنطقة والعالم الإسلامي. بل إن الصادق عندما غادر السودان وإلتحق بأركان المعارضة المقيمة في أسمره، كان يكرر إقتباساً ما فعله الإمام الخميني عندما غادر إلى فرنسا بعدما ضاقت به سُبل الإقامة في العراق وبعدما تفادت الكويت إشكالاً مع العراق بعدم سماحها له بالدخول لكي يستقر فيها ويستفيد من وسائل الإعلام فيها على نحو بعض ما تستفيده منظمة "مجاهدي خلْق" من وجودها الحالي ومنذ بضع سنوات في العراق. ومثْل هذه العودة التاريخية للإمام الخميني كان يمكن أن تتحقق للصادق لو أنه نجح بعدما تسلّم زمام قيادة المعارضة في إسقاط نظام الجبهة الإسلامية، لكن ذلك لم يحدُث وكان أهل النظام في السودان بجناحيْه المدني والعسكري أكثر قدرة على التخطيط والصمود إلى أن بدأوا مصالحة وطنية قد تُحقق للسودان الإستقرار إذا هي إكتملت بعودة المعارضين في الشتات الذين إستبد بهم الشوق إلى الديار. بل قد يجوز الإفتراض أن هذا الشوق كان من جملة الأسباب التي ضغطت على وجدان الرئيس الأسبق نميري لكي يتجاوب مع دعوة الرجوع إلى الوطن من دون الإشتراطات التي بدأ السعي لها عن طريق نائب رئيس الجمهورية اللواء الزبير، رجل الإنفتاح في النظام الحالي في السودان والذي كان مؤهلاً ليواصل الحُكْم بعد الفريق أول البشير، ثم تأجل السعي بعدما قضى الزبير في حادث طائرة وتشاء الأقدار أن يتم إسكان نميري العائد في منزل اللواء الزبير. كما أن هذا الشوق سيكون من جملة الأسباب التي تجعل معارضي الشتات يقللون من الإشتراطات وهم في الأصل لم يكونوا واقعيين عندما كانت إشتراطاتهم تُراوح بين إستقالة النظام الحاكم في السودان طوعاً، أو إستقالته تحت وطأة هجومات على بني قومهم في مناطق الحدود، وهي هجومات ألقت بعض الظلال على مصداقيتهم وعلى البُعد الوطني لمعارضتهم.

* * *

يبقى ختاماً لهذه الملاحظات القول إن ما هو الأهم من عودة الرئيس الأسبق جعفر نميري والعودة المتوقعة للسيد الصادق المهدي والعودة التي باتت ممكنة للسيد محمد عثمان الميرغني والآخرين، هو أن العلاقة المصرية – السودانية (في ضوء لقاء في القاهرة بين وزيريْ خارجية البلديْن كدنا نسمع صوت ضحكاتهما ونحن نتأمل في الصحف صورة ذلك اللقاء) مرشحة لأن تستقيم وأن تتعزز أكثر فأكثر ربما لأن السودان الذي بات نفطياً سيكون على لائحة الدول التي يعني الولايات المتحدة كثيراً أمر إستقرارها. وهنالك مثال على ذلك ما حدَث في اليمن وله حيث إن الخصوصية الأميركية للنظام الذي يقوده الرئيس علي عبدالله صالح جعلتْه يصمد أمام أعتى مواجهة مع شقيقه الجنوبي وأمام إستفزاز جاره البحري أريتريا. وبالنسبة إلى السودان فإن الجامع المشترَك في مثل هذه الحال لكل الرموز هو الصداقة مع الولايات المتحدة بدءاً من رئيس النظام الفريق أول عمر البشير الذي تَصالح فجأة وبرعاية أمير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني مع رئيس النظام في أريتريا أسياس أفورقي، مروراً بعودة الرئيس الأسبق نميري الصديق الصدوق للولايات المتحدة من أيام الرئيس رونالد ريغان الغائب منذ سنوات عما يجري في العالم لفقدانه الذاكرة تماماً، إلى الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني وجون قرنق الذين طالما قرعوا الأبواب الأميركية لمساعدتهم على إسقاط النظام في السودان.

وما يحدُث في السودان قد يحدُث في ليبيا بعدما إنتهت المرحلة الأُولى من أزمة لوكربي وتنتهي المرحلة الثانية بإدخال ليبيا التي تكون أنجزت مصالحة وطنية، في محور أميركي جديد تبرز أهميته فجأة مع بداية القرن الواحد والعشرين ويضم المثلث الأكثر ثراء وخصوبة وسكاناً في القارة الأفريقية: مصر والسودان وليبيا.

ومَن يعِشْ ويُكثر من التأمل، سيرى نفسه أمام مفاجآت كأنها شريط سينمائي. وما يتمناه المرء هو أن لا يعكِّر رُمح أنصاري غاضب يُرمى به الرئيس الأسبق جعفر نميري الواقع السياسي الجديد للسودان الذي يستمر بناؤه وتكوينه بالكثير من التعقل وبحيث إن بلد المليون ميل مربع يكون وللمرة الأُولى لكل السودانيين. وتفادي هذا الأمر من المهام الثقيلة الملقاة على كاهل أحد الصادقيْن: الصادق الصديق المهدي والصادق الهادي المهدي.. أو على واحد منهما بحيث إما يدعو الأول الذي هو إبن الأخ إلى التسامح لبدء صفحة جديدة، أو يعلن الثاني (الذي هو أصغر الأبناء وبإسم العائلة) أن إستقرار السودان يستحق إعتبار فواجع الماضي من الأمور التي يجوز الصفح عنها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 30 مايو (أيار) 1999

* * *

رئيس.. لا خلاف عليه

يبدأ الرئيس حسني مبارك في أكتوبر/ تشرين الأول المقبل ولاية رئاسية جديدة تستغرق ست سنوات، ويتحقق له ذلك في إطار مبايعة شعبية جسَّدها مجلس الشعب (البرلمان المصري) يوم الأربعاء الثاني من يونيو 1999 بقرار تاريخي إتخذه ووقَّع عليه 445 عضواً من أصل 454 هم عدد أعضاء المجلس. وقبْل البرلمان كان مجلس الشورى أعلن في بيان أصدره بعد جلسة عقدها يوم الثلاثاء 25 مايو/ أيار 1999 تجديد البيعة وبالإجماع للرئيس مبارك.

أما الأحزاب المصرية – عدا الحزب الوطني الحاكم – فإنها في المواقف التي إتخذتْها من مسألة التجديد ولاية رابعة للرئيس مبارك إنقسمت بين يمين ويسار . فبينما أعلن "حزب الوفد" بعد إجتماع مطول للهيئة العليا برئاسة فؤاد سراج الدين تأييد التجديد للرئيس مبارك فإن "حزب التجمع" الذي إشتهر برفض مبدأ تجديد الولاية قرر الإمتناع عن التصويت. وبقي الحزب الناصري الطائر الوحيد الذي يغرد خارج السرب، حيث أنه أعلن إعتراضه على التجديد. وهذا القرار من جانبه يمثِّل أهل القمة في الحزب أو بعضهم وليس القاعدة أو بعضها، لأن جماهير القاعدة في أكثريتها لا ترى في السياسة الداخلية للرئيس مبارك ما يوجب الإعتراض وعدم تجديد الولاية. ومثل هذا الأمر كان "حزب التجمع" واعياً له، ولذا فإنه من أجْل ألا تبدو جماهير الحزب خارجة على بادرة التكريم للرئيس مبارك ومن دون أن يؤدي خروجها إلى أي مكاسب على الصعيد الإقتصادي والمعيشي والإجتماعي، فإنه إتخذ قرار عدم التصويت، وهو الموقف الذي لا يعني عدم الموافقة. ومثل هذا الموقف يتخذه عادة اللاعبون في الشأن السياسي من قادة الأحزاب بحيث يكون في

إستطاعتهم إرضاء جماهير حزبهم التي تكون منقسمة الهوى في شأن من الشؤون الوطنية التي تتطلب إتخاذ موقف واضح، مثل شأن التجديد لولاية رابعة للرئيس مبارك، بمعنى أن القاعدة العريضة تكون ضمناً مع التجديد بينما أعضاء القيادة، ولأسباب شخصية في غالب الأحيان، ينتظرون مثْل هذه المناسبة لتسجيل الإعتراض في صيغة أو أُخرى.

واللافت للإنتباه أن أعضاء المجلسيْن، مجلس الشعب ومجلس الشورى، تسابقوا على إعلان التأييد والمبايعة على أساس أن ذلك يرضي جماهير الشعب المصري. كما أن اللافت للإنتباه في الكلمات التي ألقاها 180 من أعضاء البرلمان، وأيضاً تلك التي ألقاها المتحدثون من أعضاء مجلس الشورى وبينهم رئيس حكومة سابق في عهد الرئيس السادات (الدكتور علي لطفي) ورئيس حكومة سابق في عهد الرئيس مبارك (الدكتور عاطف صدقي).. اللافت هو التركيز على ما تَحقق على الصعيد الداخلي وليس على صعيد التعاطي مع الشأن العربي والدولي، بدليل أنه عند تحديد الأسباب التي إستند إليها النواب في ترشيح الرئيس مبارك لولاية رئاسية رابعة – كما أوردتْها صحيفة "الأهرام" في اليوم التالي (الخميس 3/6/99) – فإن "جهود الرئيس مبارك من أجْل تحقيق السلام العادل في الشرق الأوسط والعمل من أجْل التضامن العربي والوقوف بجانب الشرعية الدولية وإعلاء مكانة مصر الإقليمية والدولية حتى أصبحت مصر دولة محورية ونقطة للتوازن وركناً للإستقرار..." جاءت في المرتبة الخامسة تتقدمها، حسب الأولويات، الأمور الآتية:"إنجازات مبارك في الإصلاح الإقتصادي وتوفير البيئة الملائمة لإنطلاق قوى الإنتاج" و "جهوده لتوفير فرص العمل وتحسين معيشة المواطن والمحافظة على الأصالة الثقافية" و"دوره الرائد في تعميق الممارسة الديمقراطية وضمان سائر الحقوق والحريات" و "إحترامه الدستور وسيادة القانون وحرصه على حماية الوحدة الوطنية".

ومن الواضح إستناداً إلى هذه الأولويات أن التعاطي السياسي بصيغة الدور لم يعد يعني الكثير للرأي العام المصري، وأن تركيز الرئيس مبارك في السنوات العشر الأخيرة على قضايا التنمية وإصلاح المسار الإقتصادي وتوسيع الرقعة الزراعية والتصدي للفساد كان ترجمة لما يريده خمسون مليون مصري بصرف النظر عن أسلوب التعبير عما يريدون، وأن الإبتعاد عن الغوص في أعماق الدور السياسي هو بهدف ألاَّ تنعكس التداعيات التي تنشأ عن التعامل مع الدور السياسي بكل مخاطر المفاجآت على خُطط التنمية بشكل عام. ومن هنا يمكن النظر إلى الأسلوب الذي إعتمده الرئيس مبارك في التعاطي مع الحُكْم السوداني في أعقاب محاولة الإغتيال التي تعرَّض لها قُرب مطار أديس ابابا على أيدي عناصر سودانية وإضطرته للعودة إلى القاهرة، والتي تزامنت أيضاً مع محاولة لفتْح جبهة مواجهة مصرية – سودانية في منطقة حلايب المتنازَع عليها لا يلغي حدوثها بعيداً عن القاهرة والإسكندرية وأسوان والأقصر أنها لن تتحول إلى حرب إستنزاف بطيء تتطور بحيث يصبح مثْل المواجهة الدائرة بين الحُكْم السوداني وحركة التمرد في الجنوب. ولقد قرأ الرئيس مبارك أبعاد مثْل هذه المواجهة التي ستستغلها أوساط إعلامية دولية إلى أبعد حدود الإستغلال وقد ترتأي أيضاً أطراف خارجية تشجيعها وتمويلها، بهدف إضعاف قدرات مصر، والتنامي المتزايد للإقتصاد والسياحة، والمعادلة المتوازنة التي إعتمدها الحُكْم المصري في تعاطيه مع عملية السلام بتفضيله التهدئة، ولو على حساب كبريائه، على المواجهة من أجْل عدم المس بالكبرياء. وهو عندما فعل ذلك كان يدرك أن المواجهة التي يمكن أن تبدأ بين دوريتيْن قد تتطور وتصبح مواجهة بين كتيبتيْن ثم بين فرقتيْن ثم بين جيشيْن، إلاَّ إذا أمكن حسْم الأمر جواً، وهذا سيترتب عليه عداء تاريخي مع البلد الشقيق السودان. وفي حال حدوث ذلك فإن كل ما حققتْه السياسة الإقتصادية من مكاسب وإصلاحات وما تجنيه مصر من السياحة سيتحول إلى مال يحترق في نار المواجهة من أجْل حلايب. وهذه هي حال العراق وإيران اللذيْن لم تُبق نيران المواجهة بينهما طوال سبع سنوات على ما يجنيانه من ملايين الدولارات المتأتية من مبيعات النفط. وإذا كانت هذه هي حال العراق وإيران بما يملكانه من خيرات نفطية، فكيف ستكون عليه حال مصر لو حدثت المواجهة؟ كان كل شيء سيذهب أدراج الرياح، وما كان ليأتي سيَّاح. ولأصبحت مصر الزاهية في حلتها الحالية على نحو ما كانت عليه في الزمن الإشتراكي الكثير القساوة، وفي بدايات زمن الإنفتاح الكثير التخبط.

ولكن الدور السياسي المصري، بكل أبعاده القومية، لن يستمر خجولاً على الأرجح في الفترة

الرئاسية الرابعة على نحو ما كان عليه في بعض سنوات الفترات الرئاسية الماضية. ذلك أن الرئيس مبارك بنى ما يمكن بناؤه، ورمَّم ما إستطاع ترميمه، وحقق نهوضاً تنموياً وإقتصادياً ملحوظاً، وأمكنه أن يتصدى للفساد، ويحمي القضاء، ويبقي على هامش التعبير والممارسة الديمقراطية يتسع يوماً بعد يوم من دون أن يضيق صدره بكتابات تتجاوز أحياناً حدود لياقات المخاطبة. وهو إلى جانب ذلك إستقطب الشباب إلى جانبه، فلم تعد للأحزاب، بما فيها "الحزب الوطني" الحاكم، ورقة مستقبلية، وإعتبر نفسه منحازاً إلى أصحاب الدخل المحدود فبات هؤلاء، على رغم المعاناة اليومية الشديدة، مطمئنين إلى أن الرئيس مبارك لا بد سيجد حلولاً في السنوات الست المقبلة، وبذلك لم تعد للأحزاب إياها ورقة إصلاحية تستقطب بموجبها أكثرية المصريين إلى صفوفها.

وإزاء ذلك فإن الرئيس مبارك، الذي سيكون أول رئيس جمهورية في تاريخ مصر يحكم أربع فترات رئاسية مدتها حوالى ربع قرن، من حقه أن يتباهى بأنه حقق ذلك بالقانون وإحترام حقوق الناس وفْق معادلة خلاصتها أن الوطن يبقى أهم من الشخص حتى إذا كان هذا الشخص رئيساً مثل حسني مبارك حاز المبايعة بجدارة وعفوية، ومن جناحيْ الأمة المدني والعسكري والمسلم والقبطي. وكانت هذه المبايعة بمثابة تكريم لرئيس... لا خلاف عليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 يونيو (حزيران) 1999

* * *

العِبَر كثيرة ... والإعتبار القليل

بسبب ما عانته الأنظمة العربية بمختلف أجنحتها ورؤاها وتحالفاتها من الأسلوب الذي تعامل به بنيامين نتنياهو مع عملية السلام، فإن جواً من الإبتهاج ساد أهل القرار في هذه الأنظمة، وساد أيضاً شعور بالإرتياح في أوساط الرأي العام العربي لأن نتنياهو سقط مرتيْن بدل المرة الواحدة. السقوط لأنه لم يتمكن من خوض دورة ثانية. والسقوط لأنه سيكون على هامش الشخصيات التاريخية المهمة لدى إسرائيل بدليل أن الذي حظي به بعد السقوط المريع كان عبارة عن عروض للعمل في مؤسسات تجارية من دون أن يلتف الليكوديون حوله ويرفعون من معنوياته ويرممون مشاعر الإحباط الناشئة عن الهزيمة إستعداداً لدفعه مرة جديدة بعد ثلاث سنوات وربما أكثر أو أقل إلى ساحة العمل القيادي.

وبهذه النهاية تتأكد حقيقة أساسية وهي أن نتنياهو من الأشخاص الذين إذا إمتلكوا المنصب يتخبطون في إدارتهم لهذا المنصب ويتحركون بقوة السلطة التي لهذا المنصب، وأنهم إذا فقدوا المنصب يصبحون على الهامش. وفي العالم العربي نماذج كثيرة من هؤلاء.

كما أن السقوط المريع لنتنياهو أكد حقيقة أساسية أُخرى وهي أن المكابرة والعناد والإستبداد بالرأي تقود إلى التهلكة في حين أن المرونة والتفهم والتعقل، هي في أي حال صفات قيادية، تحقق أفضل النتائج. ومن المؤكد لو أن نتنياهو كان كثير المرونة والتفهم والتعقل لما كان سيمنى بالهزيمة، ذلك أن أكثر من نصف الذين إنتخبوه كانوا سيقدِّرون له توجهه هذا وكان خصمه لن يجد ما يضيفه وبالتالي فإن الناخبين كانوا سيفضلون إستمرارية نتنياهو. كما أن الإدارة الأميركية كانت ستبدو أكثر إرتياحاً وستدعم إسرائيل أكثر وأكثر مكافأة لرئيس وزرائها الذي إبتعد عن التحديات ولم يتسبب بالإحراج للدولة التي إزدادت رقعة فقدان هيبتها في عيون الرأي العام العربي بعدما لمس الجميع كيف أن هذه الدولة تمارس قوة مع الجميع وتستثني إسرائيل.

والآن وبعدما هدأ ضجيج الإنتخابات الإسرائيلية من الضروري الإشارة إلى مسألة بالغة الأهمية أن الأنظمة العربية بما فيها السُلطة الوطنية الفلسطينية لعبت للمرة الأُولى ورقة سياسية تبين كم هي فاعلة ومؤثرة بالنسبة إلى الحُكْم الإسرائيلي. وهذه الورقة تشبه ورقة المقاطعة التي إهتز تأثيرها ثم بدأت تتلاشى بعد مؤتمر مدريد.

ولقد مارس اللاعبون العرب ونقصد بهؤلاء أبرز القادة لعبة الثأر من نتنياهو على النحو الآتي:

– الرئيس حافظ الأسد تمسَّك بخيار السلام وواصلت الدبلوماسية السورية المطالبة بإستئناف المحادثات السورية – الإسرائيلية من النقطة التي توقفت عندها. وهذا الأمر جعل دول العالم أكثر تفهماً للموقف السوري وفي الوقت نفسه حدث نوع من النفور لدى بعضها من السياسة التي يعتمدها نتنياهو.

– الرئيس حسني مبارك لم يحقق لنتنياهو أمنيته في أن يزوره مبارك في إسرائيل، وهو الذي كان يتطلع إلى أن يخرج الرئيس مبارك على العهد الذي قطعه

على نفسه بألاّ يزور إسرائيل مهما أوحت الإدارة الأميركية وضَغَط اللوبي الصهيوني في الكونغرس، إلاّ بعد أن يتحقق السلام الشامل وعلى جميع الجبهات العربية أو إذا كان من شأن زيارته تسريع حدوث السلام المنشود. ونحن عندما نقول ذلك لا نعتبر الزيارة الخاطفة التي قام بها مبارك عند المشاركة في جنازة إسحق رابين أنها الزيارة الرسمية المأمولة من جانب نتنياهو لأنها كانت لتقديم العزاء والعودة إلى القاهرة، لمجرد إنتهاء مراسم التشييع.

وإلى ذلك فإن الرئيس مبارك الذي إستقبل نتنياهو في مصر أكثر من مرة لم يظهر على المصريين والعرب والإسرائيليين والعالم أنه مرتاح إلى نتنياهو، بل إنه شجع بوقفته هذه وسائل الإعلام المصرية على أن تشن حملة على نتنياهو أبدى رئيس الوزراء الإسرائيلي كثير الضيق منها. كما أن أوساط الرئيس مبارك أشارت إلى أنه ردد أكثر من مرة في مجالسه أنه يتمنى أن يسمع بنبأ حدوث إنقلاب على نتنياهو.

وفي المقابل أبدى الرئيس مبارك ومعه الدبلوماسية المصرية ووسائل الإعلام من صحف وإذاعات ومحطات تلفزيونية إرتياحاً إلى خصوم نتنياهو مثل شيمون بيريز ورئيس الدولة وايزمان وآخرين، وهؤلاء جميعاً كانوا يلقون من الرئيس مبارك الإستقبال الودود وهو ما كان من السهل ملاحظته في الصور ومن خلال سطور التصريحات.

– الملك الحسن الثاني الذي بذل الكثير من الجهد في سبيل تسريع عملية السلام وتنشيط الحوار العربي– الإسرائيلي وضع "فيتو" على نتنياهو موضحاً أن لا كلام معه ما دام على الأسلوب الذي إعتمده. وفي الوقت نفسه حدث إنفتاح على نطاق واسع على حزب العمل وكثرت زيارات شخصيات فاعلة داخل الحزب إلى المغرب.

– جمَّدت كل من دولة قطر وسلطنة عُمان العلاقة مع إسرائيل وهي التي كان نتنياهو يتطلع إلى تنشيطها وبحيث ينطلق من هذه العلاقة في إتجاه المزيد من التفهم الخليجي له، وبدا التجميد الذي نشير إليه مثل إطفاء محرك السيارة بسبب إزدحام على طريق، أي بما معناه أن هذه الخطوة قابلة للتعديل لمجرد أن يعيد نتنياهو النظر(وهو لم يفعل ذلك وسقط) أو تكون معاملة مَن سيخلفه أفضل وأعقل (وهو ما تتوقعه الدولتان الخليجيتان وغيرهما من باراك).

– شعر الملك حسين في السنة التي سبقت وفاته أن نتنياهو خذله وكان ناكراً للجميل الذي قدَّمه الملك والذي لولاه لكان يعيش عزلة من جانب دول السلام العربي مع إسرائيل. بل يقال أن الملك أبلغ الرئيس مبارك في أحد إجتماعاتهما قبْل أن تشتد عليه وطأة المرض ببضعة أسابيع أنه بات مقتنعاً بأهمية أن يكون موقف الأردن من نتنياهو بمثل موقف مصر. وإذا كان المرض قضى على حياة الملك فإن نجله الملك عبدالله في طريقه إلى إعتماد هذا التوجه ويساعده في الحُكْم باراك الذي يأخذ في الإعتبار أي ترحيب لقيه من جانب الملك عبدالله في عمان قبْل أيام من بدء المعركة الإنتخابية.

– ساعدت المواقف العربية التي نشير إليها على تماسك الرأي العام الفلسطيني من غزة بحيث يبسط الرئيس ياسر عرفات سُلطته ويبسط الشيخ أحمد ياسين هيبته، إلى قرى الجليل حيث اليسار العربي مزدهر، مروراً بعشرات المدن التي صارت تسمية سكانها غير اليهود معروفة بـ " عرب إسرائيل" وهي التسمية المماثلة لـ " يهود فلسطين" سابقاً ومستقبلاً في حال قضى الله بأن يعود الحق إلى أصحابه. ومن مظاهر هذا التماسك أن الناخب العربي إستوعب تماماً وقفات الأنظمة العربية من نتنياهو فلم يُعطِه صوته وإنما أعطاه وفي أكثرية ملحوظة إلى باراك فحقق الرجل فوزاً تاريخياً. كما أن من مظاهر التماسك إصرار عزمي بشارة النائب في الكنيست من العام 1996 على أن يخوض وفي خطوة غير مسبوقة وغير متوقعة معركة منصب رئيس الحكومة ليس بهدف الفوز وإنما لإضافة حقيقة جديدة إلى الحقائق التي تراكمت منذ قيام دولة إسرائيل ومعها الكيان الفلسطيني الذي لا بد من قيامه إلى دولة واحدة يمكن أن يكون رئيسها عربياً ورئيس وزرائها يهودياً أو العكس. ونستند في هذا الإفتراض إلى أن عدد سكان العرب داخل إسرائيل حالياً سيضاعف خلال ربع قرن بحيث تصبح نسبته حوالي 35 في المئة من المجتمع الإسرائيلي. وأهمية ما فعله عزمي بشارة هو أنه أسقط – على الأقل شكلاً – الناحية العنصرية لدولة إسرائيل التي لا تعتبر أن للعرب فيها حقوقاً بمثل ما تطالبهم بواجبات، وإنما هم أقليات بعضها مسيحي والآخر مسلم وعليهم أن يؤمَروا ويطيعوا لا أكثر، ونقول إنه أسقط شكلاً الناحية العنصرية، لأن هذه العنصرية متأصلة في النفوس. وستبقى كذلك إلى أن تجد إسرائيل بعد إندثار ظاهرة الهيمنة الأميركية على العالم أنها باتت من

دون سند قوي يسايرها في كل مطالبها ويتغاضى عن تجاوزاتها على العرب. وعندما يحدَث ذلك وهو ليس بالأمر المستبعَد سنجد أن هنالك عزمي بشارة آخر مستنسخ سياسياً- بمعنى الإقتباس- يرشح نفسه مرة أُخرى ولن تتمكن أي سُلطة في الدولة العبرية من رفض ترشيحه على أساس أن سابقة ترشيحه حدثت في مايو 1999 وصمدت، تعامل معها نتنياهو على أنها حركة فولكلورية لكنها أحدثت صدمة خفيفة في نفوس العرب واليهود والعالم على حد سواء، لأن ترشيح عزمي بشارة نفسه كان بمثابة صرخة في الفضاء الدولي تقول إن هنالك قومية فلسطينية وإنه من الممكن تجميع "عرب إسرائيل" وراء قيادة تُحقق التطلعات المستعصية ومن بينها أن يكون للعرب وزير أو أكثر في الحكومة كمرحلة أُولى ثم تتطور الأمور كما أشرنا بحيث يصل فلسطيني (أي عربي) إلى منصب رئيس الحكومة أو رئيس دولة في الربع الأول من الألفية الثالثة.. ألفية المفاجآت.

ونصل من هنا إلى أن حصة العرب في إسقاط نتنياهو كانت ملحوظة. وهي ظاهرة تحدُث للمرة الأُولى. لعل وعسى يستوعب هذه الأمثولة باراك وهو الذي يدرك في قرارة نفسه أنه لو لم تفعل الأنظمة العربية ما فعلتْه لكان نتنياهو جدّد ولايته سنوات أُخرى. وهو إذا كان لن يستوعبها سيجد أن الأنظمة العربية تفعل معه ما فعلتْه مع نتنياهو خصوصاً إن فِعْلهم ذاك كان الحد الأدنى الذي لا تراجع عنه والقابل إلى التطور صعوداً. وفي الكلام الذي قاله وليّ عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبدالعزيز في "الشرق الأوسط" يوم الثلاثاء 2 يونيو/ حزيران 1999 ما يؤكد أن العزيمة العربية على حالها. وإذا جاز للمرء القول فإن العبارة التي وردت في الحديث الصريح الذي أجراه زميلنا عبدالرحمن الراشد مع وليّ العهد كانت تعبر عن العرب كأنظمة وكرأي عام من المحيط إلى الخليج وأولهم سوريا التي زارها الأمير يوم الأربعاء الماضي على نحو ما يفعله دائماً بعد كل جولة يقوم بها خارج الملكة مع ملاحظة أمر يحدث للمرة الأُولى وهو أن الرئيس حافظ الأسد إستقبل الأمير عبدالله في مطار دمشق. والعبارة هي:" أقول لرئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد السيد باراك أن يثبت عملاً لا قولاً بأنه ليس نتنياهو آخر طريقه إلى ذلك أن يكون معبّراً عن مصداقية النوايا والوعود والإتفاقيات التي وقَّعت عليها بلاده وهمّشها بكل غطرسة جوفاء سلفه الذي جعل من إتفاقيات السلام إسقاطات تاريخية لإرادة الشعوب والأمم...".

للإمام علي بن أبي طالب قول مأثور لعل أحد مستشاري باراك يهمسون به في أذنه فقد يفيده في إستيعاب نصيحة الأمير عبدالله بن عبدالعزيز له. والقول المأثور هو: "ما أكثر العِبَر وأقل الإعتبار".

والسقوط التاريخي لنتنياهو عبرة بل لعلها أم العِبَر لمَن يريد أن يعتبر. وهو هنا إيهود باراك الذي كانت حصة العرب في إسقاط خصمه وبالتالي فوزه من الدورة الأُولى كبيرة ومؤثرة... وعلامة فارقة على حائط المبكى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 10 يونيو (حزيران) 1999

* * *

صراع مع... الإحباط

أضفى الرئيس اللبناني إميل لحود على الأجواء المعيشية الخانقة التي يعيشها اللبنانيون منذ لم يعد رفيق الحريري رئيساً للحكومة، مسحة من التفاؤل العام رافقها إنحسار ملحوظ لمشاعر الإحباط التي لا تزال تتفاعل في نفوس بعض أبناء الطائفة المارونية. وبدت مفاجأة الرئيس لحود مساء يوم الأحد 30 مايو/ أيار 1999 التي تمثّلت بحضوره نصف الساعة الأخير من مباراة كرة السلة للفوز ببطولة الأندية الآسيوية، واحدة من خطوات كثيرة تتلاحق وتستهدف إزالة ما تبقّى من مشاعر الإحباط التي نشير إليها. وكان لافتاً للإنتباه أن الرئيس لحود جاء إلى الملعب الذي أقيمت على أرضه المباراة بين فريق "الحكمة" اللبناني وفريق "لايونينغ" الصيني بعد حوالى ساعتيْن من عودته من زيارته الرسمية الأُولى خارج لبنان (عدا زيارته إلى سوريا) التي فاجأ الجميع داخل لبنان وخارجه بأنها كانت إلى الأردن وإستغرقت بضع ساعات لقي خلالها حفاوة وإهتماماً كبيريْن. كما أنه حضر برفقة الملك عبدالله بن الحسين تمرينات عسكرية شملت تطبيقاً للقتال والسجال وإتفق مع العاهل الأردني الشاب على "أهمية تفعيل التنسيق العربي على جميع المستويات وإعطائه بعداً ومستوى يتناسب والمرحلة المقبلة...".

ولم يكتفِ الرئيس لحود بمتابعة اللحظات الحرجة من المباراة وإنما إبتهج بالهدَّافين اللبنانيين وهم

يسجلون في سلة الفريق الصيني الهدف تلْوَ الهدف إلى أن إنتهت المباراة بالفوز المبهر للفريق اللبناني الذي ساعد الحضور الرئاسي وتصفيق الرئيس وعدم إخفاء سعادته والتلويح بيديه، على الفوز بلقب "بطل آسيا". ثم ألحق الرئيس لحود مفاجأة الحضور بمفاجأة أُخرى عندما إستقبل الفريق اللبناني يتقدمهم رئيسه أنطوان شويري القطب البارز في مجال شركات الإعلان والذي نجح من خلال إشرافه وإنفاقه على فريق "نادي الحكمة" وعلى نحو ما فعل محمد الفايد في بريطانيا على النادي الذي إشتراه، أن يصبح عميد أهم حزب مسيحي غير سياسي، وهي حالة غير مسبوقة، وغالب الظن أن العماد إميل لحود يشجّع إستمرارها وإستقرارها وإنتشارها. وفي تقديرنا إن أنطوان شويري الذي يدرك أهمية التنوع والأثر الإيجابي لذلك في العالم العربي وما يمكن أن يفيده كواحد من أبرز الذين يتصدّرون واجهة صناعة الإعلان في لبنان على صعيد طموحه في الحضور إعلانياً خارج لبنان أيضاً... في تقديرنا إن أنطوان شويري سيرفد وكخطوة أولى فريق "الحكمة" بالمزيد من اللاعبين المسلمين ثم يبدأ تطعيم هذا الفريق بنجوم متألقين في هذه اللعبة من دول عربية. وبذلك لا يعود الفريق بالصورة التي هي عليها الآن حيث يختلط الإعجاب بتطوره والحماسة للاعبيه والتقدير لسخاء رئيسه بنظرة إلى الفريق خلاصتها أنه فريق بالمعنى غير المستحَب للكلمة. والذي سيساعد على التعريب الرياضي لفريق "الحكمة" إسمه الذي هو رمز للوقار والنضوج والرأي السديد. ويستطيع أنطوان شويري الذي لم يترأس "نادي الحكمة" ويرعاه كما لم يحظَ نادٍ رياضي آخر بمثل هذه الرعاية، نتيجة ضجر من أمبراطوريته الإعلانية ولا بفعل البحث عن هواية وإنما لهدف بعيد المدى... يستطيع شويري أخْذ العبرة من الرئيس لحود شخصياً الذي تفادياً منه لأي حساسيات لم يشأ أن يحضر مباراة فوز فريق "نادي الحكمة" ببطولة كأس العرب وذلك لإدراك منه أن الفريق ليس له صفة المنتخَب الذي يُمثّل كل لبنان، وأن ما يمكن تجاوزه لبطولة تشمل الأبيض والأسمر والأصفر (أي قارة آسيا) من غير اللائق تجاوزُه لبطولة عربية. ومن المؤكد أنه لو كان الفريق اللبناني على بطولة كأس العرب عبارة عن منتخَب يضم لاعبين من كل النوادي ومن كل المذاهب لكان الرئيس لحود فعل ما فعله عندما حضر نصف الساعة الأخير من مباراة الفوز المبهر لفريق "نادي الحكمة" على الفريق الصيني وحاز بفضل هذا الفوز على بطولة آسيا. ومثل هذا التنوع الذي يتمنى اللبنانيون وبالذات جيل الشباب من أنطوان شويري إعتماده مستوحياً العبرة في ذلك من الرئيس لحود، لا ينتقص من قدْر أحد. وهذه فرنسا على سبيل المثال التي لم يؤرّقها على الإطلاق أن الذي حقّق لها الفوز التاريخي على البرازيل بالحصول على بطولة كأس العالم في كرة القدم يوم الإثنين 13 يوليو/ تموز 1998 وللمرة الأُولى في تاريخها، كان زين الدين زيدان إبن أحد المهاجرين المغاربة الذين قادتهم الأقدار والبحث عن لقمة العيش إلى مرسيليا. وهذا الفوز المبهر (3 أهداف لفرنسا سجل إثنيْن منها زيدان مقابل لا شيء للبرازيل) الذي شاهده الرئيس شيراك وعلى نحو مشاهدة الرئيس لحود بعد بضعة أشهر للفوز المبهر لفريق "نادي الحكمة" على الفريق الصيني، كان في أي حال لمصلحة التنوع الذي نتطلع إليه في الفريق اللبناني المتألق.

وما نقوله في شأن فريق "نادي الحكمة" فلأنه بات بعد البطولتيْن "بطل العرب" و"بطل آسيا" فريق كل لبنان في نظر اللبنانيين بدءاً من صغار المشجعين وصولاً إلى المشجع الأكبر رئيس الجمهورية. ولو أن رئيس مجلس النواب نبيه بري ورئيس الحكومة الدكتور سليم الحص إنطلقا من النظرة نفسها للرئيس لحود وشاركا في حضور تلك المباراة لكانت تلك اللحظة تاريخية. لكن الرئيسيْن بري والحص يدركان ما يريده الرئيس لحود على صعيد إقتلاع الإحباط الماروني من جذوره ويريدان لسعيه أن يتحقق بمعزل عن أي إجتهادات وتفسيرات وبحيث لا يشاركه أحد هذا الإنجاز. فالمهم أن يتلاشى هذا الشعور نهائياً. وفي المقابل إن الرئيس لحود يدرك تماماً ما يجول في نفس رفيقيْه في مثلث إدارة الدولة.

وفي السعي نفسه الذي يستهدف من جملة ما يستهدفه إقتلاع شعور الإحباط الماروني من جذوره جاءت زيارة الرئيس لحود المفاجئة والمتوقعة في الوقت نفسه لبلدة جزين، التي لو زارها إخواننا الخليجيون قبْل أن تبدأ الحرب في أبريل 1975 وإصطافوا فيها لكانوا أضافوها إلى البلدات المفضلة لديهم لتمضية فصل الصيف مثل عاليه وبحمدون وحمانا وبعلشميه وحديثاً برمانا. وعندما شاهد اللبنانيون على شاشات محطاتهم التلفزيونية يوم السبت 6 يونيو/ حزيران 1999 رئيسهم العماد لحود

يصـــل فجأة (ومن دون موكب كعادته عندما يتحرك خارج قصـــر الرئاســـة) إلى بلدة جزين وهو يرتدي قميصـــاً "ســـبور" نصـــف كم مثل القميص الذي كان يرتديـه عنـدمـا زار الملعـب حيـث جرت مبـاراة كرة السـلة... إن اللبنانيين إنتابهم شـعور جاء مزيجاً من الزهو والقلق عندما شـاهدوا رئيسـهم يتصـرف بعفوية وشـــيئاً فشـــيئاً يختلط بألوف الناس الذين إلتفوا حوله وإلى درجة بات من الصـــعب معرفة أين هو تماماً. الزهو لأن بلدة عزيزة عليهم تخلصـــت من الإحتلال وهذا قد يكون معناه أن ما تبقّى من البلدات الجنوبية ستتخلص قريباً ولن يعود هنالك ذلك الشريط الحدودي الذي قضّ مضـــاجع الألوف من اللبنانيين وتشـــتتوا بسـببه. وإعتبر اللبنانيون أن مجرد زيارة رئيسـهم إلى جزين التي جاءت في أعقاب تطورات بالغة الأهمية من بينها ســـقوط نتنياهو وفوز باراك تعني أن البوابة الإسـرائيلية الموصـدة أمام العملية السـلمية سـتُفتح بالتدرج وبما لا يتعارض تماماً مع الرؤية اللبنانية – السـورية لهذه العملية. كما أن زيارة الرئيس لحود إلى جزين وقولـه في اللحظـات الأخيرة للزيـارة "إن الأيـام المقبلة ســـتكون جميلة جداً على لبنان" بدت تفســـر كلاماً ســـبق أن قاله قبْل أيام من تحرير جزين وفي محاضـرة أمام طلاب لبنانيين السـفير الأميركي ديفيد ساترفيلد والذي يقوم بجولات أسبوعية لمعظم المناطق وهي أشبه بعملية مسح للبنان لم تحدُث مع سفير من قبْل على الإطلاق. ومما قاله الســـفير الكثير الحيوية لمستمعيه في المحاضـرة "إن السـلام أقرب بكثير مما تتصورون".

ومِن هنا، فإنه عندما تحدُث في منتصـــف النهار وفي قصـر العدل في مدينة صـيدا غير المحروس كما تفترض ذلك أبسـط الإجراءات والذي ليس قصـراً على الإطلاق، المجزرة التي حـدثت يوم الثلاثـاء 8 يونيو 1999 وبأسلوب تجاوز في شراسته أسلوب المافيا على أنواعها، يصـــبح من الطبيعي أن يتمدد الإحباط الذي يسعى الرئيس لحود لإزالته من الجذور ويقوم في سبيل ذلك بمبادرات طيبة من بينها حضوره اللحظات الأخيرة والحاسمة من مباراة كرة السلة بين فريق "نادي الحكمة" والفريق الصـــيني، ومن بينها أيضـــاً زيارة بلدة جزين وتطمين اللبنـانيين من خلال طمـأنتـه لأبنـاء البلـدة. وتلك ليسـت كل المبادرات ذلك أن هناك إتجاهاً لجولة يقوم بهـا على دول الإغتراب اللبنـاني ينتخي فيهـا اللبنـانيين المغتربين مـا دام الإحبـاط على مشـــارف النهاية لكي يضـــخوا بعض المال لإســـتنهاض بلدهم، لأن الأشـقاء العرب لن يسـاعدوا لأسـباب تتعلق بعدم وفرة الســـيولة. كما أن هنالك تصـــريحاً يومياً للرئيس لحود يحمـل بين ســـطوره أفكـار مبـادرات يمكن أن يطرحها الرئيس الذي يخوض صـــراعاً من أجْل أن يصـــبح المجتمع اللبناني على شـــيء من إنضـــباط المؤسسـة العسكرية التي جاء منها العماد لحود ليكون الرئيس الذي يصـــل القرن العشـــرين بالقرن الواحد والعشـرين. وما المجزرة التي إسـتهدفت القضـاء الذي يريـده الرئيس لحود ملاذاً للبنـانيين بمثـل المســـجـد والكنيســـة ســـوى بداية رد على المناخ الســـياســـي والإجتماعي الذي يتطلع إلى ترســـيخه الرئيس لحود والذي يتطلب إنتشـاره تطايُر مراكز قوى منظورة وغير منظورة كثيرة.

كان الله في عون الرئيس إميل لحود. وأبعَدَ الله عن لبنان شـر فتنة قد تنتهي إلى معاودة الإقتتال بأسـاليب مبتكَرة... أو على نحو ما جرى على مدى ست عشرة سنة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 يونيو (حزيران) 1999

* * *

مَن يتلاعب.. بلبنان

إعتدنا نحن معشـــر الصـــحافيين الذين يتابعون التطورات الســـياســـية في العالم العربي، على حكام وعلى مسـؤولين يشـغلون مناصـب متقدمة، يخرجون على ما هو متعارَف عليه فيكتب هذا الحاكم أو ذاك المسـؤول مقالة في إحدى الصـحف الصـادرة في بلده وهي صـــحف رســـمية. وفي هذا الإطار نذْكُر على سبيل المثال لا الحصر الرئيس صدَّام حسين والعقيد معمَّر القذَّافي وطارق عزيز. وهؤلاء كتبوا بأســـمائهم أحياناً ومن دون ذِكْر الأســـماء أو تحت توقيع إســـم حركي أحيانـاً أُخرى مقالات إتســـمت في معظمها بالإثارة وتسببت في حدوث مساجلات أدت إلى تعميق الخلاف وإلى المزيـد من النزف في الجراح المعنويـة بحيـث بـات هـذا الطرَف أو ذاك فـاقداً الثقـة تمـامـاً بالطرَف الآخر.

كما أننا إعتدنا على حكام يصـطفون كاتباً أو أكثر يقربونهم منهم ويعطون بعضـــهم صـــفة المســـتشـــار

ويقولون من خلالهم ما يجول في خاطرهم من أفكار ويريدون من وراء ذلك إجراء إختبار بحيث يطرحون هذه الفكرة أو تلك بالصوت العالي أو يتجاوزونها في حال جاء الإختبار لغير مصلحة الفكرة. وفي هذا الإطار نذكر على سبيل المثال لا الحصر محمد حسنين هيكل بالنسبة إلى الرئيس جمال عبد الناصر، ومحيي الدين عميمور بالنسبة إلى الرئيس هواري بومدْين، ومحمد محجوب سليمان بالنسبة إلى الرئيس جعفر نميري، وإحسان عبد القدوس وموسى صبري بالنسبة إلى الرئيس أنور السادات، وإبراهيم نافع ومكرم محمد أحمد بالنسبة إلى الرئيس حسني مبارك. ونقول ذلك مع التوضيح بأن محمد حسنين هيكل كان ظاهرة متميزة عن الآخرين وأنه في بعض سنوات حُكْم عبدالناصر وبالذات في خضم معارك الرئيس وإحباطاته كان يؤدي دوراً إعلامياً لم يؤدِّه آخرون.

وكان هذا الأمر وعلى نحو ما أوردناه كأمثلة يدعو إلى الحيرة، ويصعب تفسير مراميه، ومن أجْل ذلك كثرت الإفتراضات من جانبنا. أحياناً نفترض أن المسؤول يفعل ذلك بسبب نوبة حنين إلى الكتابة (طارق عزيز على سبيل المثال الذي ترأس تحرير صحيفة "الثورة" قبْل أن يصبح في الصف الأمامي). وأحياناً نفترض أن الحاكم يفعل ذلك لإبلاغ الكتّاب والمنظِّرين وبالذات عندما يضيق ببعض تنظيراتهم ما معناه إنكم لستم وحدكم مَن يمسك القلم ويكتب. وأحياناً نفترض أن هذا الحاكم أو ذاك يريد إضافة قدرة الكتابة إلى سلطانه فيكتب ويثير الجدل في ما يكتبه. وأحياناً نفترض أن هذا الحاكم أو ذاك يميز كاتباً أو صحافياً عن الآخرين فقط لأنه يلتقط بسرعة ما يجول في خاطر الحاكم أو يعكس على نحو أخَّاذ ما يريد الحاكم أن يصل إلى الناس.

وهؤلاء جميعاً يفعلون ذلك في وضْح النهار، أي من دون إعتماد أسلوب التسريبات والتخفي على نحو ما حدث ليل يوم الإثنين 15 يونيو/حزيران 1999 في لبنان عندما وزعت "الوكالة الوطنية للإعلام" التي هي الوكالة الرسمية للدولة كلاماً يخرج في محتواه ومفرداته عن المألوف، أو فلنقل عما بات تقليدياً متعارفاً عليه في مخاطبة الرئاسات الثلاث عندما تصبح هذه خارج السُلطة فلا يقلِّل الإعلام الرسمي في العهود اللاحقة من شأن الذين شغلوا أحد المواقع الرئاسية في الماضي، وبذلك فإن الخلَف يصون السلَف فلا يرميه من خلال الوسائل الرسمية بأغلظ الكلام تاركاً ذلك، إذا كان لا بد من هذا الكلام بدافع الثأر أو التهشيم، للوسائل الإعلامية غير الرسمية وهو أمر سهل ومتوافر في لبنان بكثرة. وخلاصة الكلام الذي وزعتْه "الوكالة الوطنية للإعلام" منسوباً إلى "مصادر وزارية" والخالي من أي مضمون إخباري أن الرئيس السابق رفيق الحريري هو المسؤول عن الوضع الإقتصادي الراهن السوء وأنه تجاوز القوانين وأدار الدولة " كأنها شركة من شركاته" وأنه يُكثر من السفر للإيحاء بأنه رقم صعب في المعادلة اللبنانية وأنه لا يزال حاجة وطنية وقومية لا يُستغنى عنها في حين أن أسفاره تأتي من تلقاء نفسه". ولا يترك تعليق الوكالة الرسمية إساءة لم يُلصقها بالحريري مثل" الحفلات الصاخبة" و"القيام بالعراضات الصبيانية" و"التنقل في مواكب كبيرة تذكّر بالمواكب الميليشيوية فيما مسؤولو الدولة ينتقلون بأدب وبإحترام للناس الذين أولوهم ثقتهم"، و"كذبة أصدقاء لبنان الكبيرة التي وعد بها يجلب طوفان من المال لتفريج الأزمة الإقتصادية ولكن تبين أن غايته من هذه الكذبة إنما كان الإيحاء بأنه يستطيع أن يجيِّر العالم لخدمة لبنان، الأمر الذي لم يحصل وكانت الكذبة وقحة إستخف من خلالها بمشاعر الشعب اللبناني" والمشاريع المموهة التي كان الحريري يستحضرها من حين إلى آخر لضرب المقاومة والفصل بين المسارَيْن اللبناني والسوري". ثم ينتهي إلى القول: " إن الأوهام التي يحاول الحريري زرْعها ما هي إلاَّ أضغاث أحلام. وهو يدرك أن لا عودة له إلى رئاسة الحكومة والأجدى له أن يهدأ وجوقته المتعددة الأبواق والأدوار وأن يرحم الناس في المعارضة كونه لم يرحم عندما كان في الحُكْم، وهم أدركوا باكراً أن الفاسد سرعان ما يتحول متآمراً على الوطن فيما النظيف الشريف هو الذي يتصدى للمتآمرين ويدافع عن مصالح شعبه ووطنه...".

جاء هذا الكلام المتأثر بالروحية التي إشتهر بها النائب نجاح واكيم في وقت كان الحريري أكد وبالممارسة مرة أُخرى وليست أخيرة أنه بعدما بات خارج الحُكْم لم يفقد حضوره العربي والدولي، وهو أمر جديد على كل الذين سبق لهم أن شغلوا منصب رئيس الحكومة في العالم العربي وكذلك في دول كبرى لها شأنها، إذ بينما لم يعد لهؤلاء أكثر من حضور محاط ببعض اللياقات لا أكثر بعد خروجهم من الحُكْم فإن الحريري حافظ على أن يكون حضوره فاعلاً. وهذا على سبيل المثال لا الحصر إجتماعه خلال مايو

الماضي بالرئيس حافظ الأسد لمدة ست ساعات وهو ما لم يحْظَ به مسؤول لبناني كبير من قبْل. ثم هذا على سبيل المثال إجتماعه في دمشق بوليّ العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز العائد من جولة بالغة الأهمية شملت كالمعتاد دمشق حيث إستقبله – ثم ودعه – شخصياً في المطار الرئيس حافظ الأسد. كذلك هذا على سبيل المثال لقاء الشرفة في قصر الإليزيه مع صديقه الرئيس شيراك ولقاءات الأبواب المغلقة بينه وبين بعض صانعي القرار في واشنطن قبْل أن ينتقل إلى باريس ومنها إلى دمشق. ثم هذا على سبيل المثال حرْص الذين يزورون لبنان رسمياً على أن تشمل زيارتهم الإجتماع بالحريري. ثم هذا على سبيل المثال إصراره على عدم التوجه إلى مجلس النواب وكأنما هو إيحاء من جانبه بأنه لن يدخل المجلس إلاّ وقد إستعاد منصبه الذي إستقالوه منه.

والأهم من هذا كله أو تتويجاً له هو هذا الشعور المتنامي في أوساط الرأي العام اللبناني بأن أيام الحريري كانت أفضل وأن الأمور لن تتحسن إلاّ بعودته أو إستعادته.

وبطبيعة الحال فإن هذه الشواهد لحضور الحريري عربياً ودولياً وهذه المشاعر السائدة في أوساط اللبنانيين قد تكون هي الجواب عن السر وراء حملة " المصادر الوزارية" عليه من خلال وكالة الأنباء الرسمية المعروفة بإسم "الوكالة الوطنية للإعلام". وهي حملة عكّرت على الحريري صفو إبتهاجه بولادة صحيفة "المستقبل" اليومية التي صدرت بعد تأجيلات عدة وصدرت على درجة من الرقي والحِرَفية بتوجهات وتوجيهات أن تكون هادئة، فإذا بالحملة المفاجئة على سيد الصحيفة بعد ساعات من صدورها ستضطرها لتكون صحيفة تدافع عن كرامة صاحبها ولا تقاتل في سبيل إستعادة منصب رئاسة الحكومة. كما أن الحملة عكّرت على الحريري صفو إبتهاجه بإستقدام سيد الغناء الأوبرالي في القرن العشرين بافاروتي في المدينة الرياضية أحد إنجازاته التعميرية لعل في هذه الخطوة ما يساعد على أن يكون موسم الصيف خيراً على لبنان وخطوة تتعزز بها الخطوة الأُخرى المتمثلة بإستعادة بلدة جزين.

وما يأسف له المواطن اللبناني هو أن الكلام الذي بثته الوكالة الرسمية للأنباء منسوباً إلى "مصادر وزارية" كان بخطورة مجزرة القضاة في صيدا وكان بمثابة صدمة تحمل في طياتها الشعور بالخوف من إنقسام حاد في الجبهة الداخلية وهو ما إستوعبه تماماً رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص عندما تبرأ من التصرف الذي أقدمت عليه خلسة الوكالة الرسمية للأنباء. وقد يستتبع هذا التبرؤ تبرؤات من بينها التبرؤ من وزير أو أكثر أو التبرؤ من منصب رئيس الحكومة، لكي لا يهتز لبنان... الذي يتلاعب به أحد المتلاعبين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 يونيو (حزيران) 1999

* * *

وفاق عربي غير مرحَّب به؟

تتزايد إنتعاشاً منذ بضعة أسابيع ظاهرة المبادرات العربية من أجْل تحقيق إنفراجات في العلاقات. وبعدما كان المواطن في السنوات القليلة الماضية مهموماً بالخلافات التي تعصف بالعلاقات بين هذا البلد وذاك وبالإقتتال بين هذا الفريق وذاك من أبناء البلد الواحد، فإنه منذ أسابيع يعيش حالة تبعث الطمأنينة في النفس وتُقلّص من حجم الإحباط الذي إستشرى. ويكاد لا يخلو عدد من صحيفة أو نشرة أخبار من الإذاعات والفضائيات العربية من إشارات إلى اللقاءات والمساعي والخطوات العملية في سبيل تحقيق مصالحة العرب مع أنفسهم كمواطنين في البلد الواحد وتَعايشهم مع إخوانهم كأشقاء، وإرساء نوع من العلاقة التي من شأنها قطْع الطريق على أي توترات محتملة تقود مع الوقت إلى إقتتال.

وعلى سبيل المثال لا الحصر يستوقف المرء ما فعله الحُكْم السوداني عندما إستوعب المسعى الطيّب الذي بذله أمير دولة قَطَر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني عندما جمع في ديوانه الجارَيْن الشقيقَيْن أفريقياً وإسلامياً وعربياً الفريق عمر البشير والرئيس أسياس أفورقي وأثمر اللقاء خطوة وفاقية مهمة لم تقتصر على أن أيادي أهل القرار تصافحت وإنما بدأت الطمأنينة تحل محل الحذر وهذا أفاد في أن المزيد من الخطوات حدَث وبوتيرة مسؤولة وبعيدة عن الإنفعال. وبعدما كان المواطن السوداني يستبعد لقاء ناس الحُكْم بناس المعارضة إذا بهذا اللقاء يحدُث ومن دون ضجيج التصريحات، وإن كانت مقتضيات إعادة النظر من جانب الحُكْم والمعارضة على حد سواء تستوجب

الإيحاء اللفظي بأن أهل النظام لم يمدوا اليد عن ضعف وأن بعض رموز المعارضة لم يرحبوا باليد الممدودة لأن قواهم خارت وبدأ اليأس يستقر في هممهم. ثم ها هو الرئيس حسني مبارك والعقيد معمَّر القذَّافي لا ينزعجان من أنهما – وبالذات القذَّافي – ليسا من جَمَع الرئيسيْن عمر البشير وأسياس أفورقي وإنطلق بلقائهما السعي لتحقيق المصالحة الوطنية في السودان، وإنما الذي بادر كان أمير قطر. كما أنهما إضافة إلى عدم الإنزعاج بذلا وكل من جانبه وعلى طريقته الجهد المخْلص من أجْل تقريب المسافات بين الجانبيْن ووصلت الحال بالعقيد القذَّافي إلى حد أنه دعا وهو في زيارة إلى الخرطوم أصدقاءه زعماء المعارضة إلى العودة إلى السودان والتفاهم مع النظام كما أنه إلتقى الرئيس الأسبق العائد جعفر نميري الذي زاره في خيمته المنصوبة في باحة قصر الضيافة يرافقه اللواء المتقاعد خالد حسن عباس الرجل الثاني في ثورة مايو. وقد أكد اللقاء أن جمْع الشتيتيْن ممكن ولو بعد 27 عاماً وأن ما يبدو أحياناً مستحيلاً يمكن أن تجعله ممكناً مقتضيات الوفاق. وما بين القذَّافي ونميري كان قطيعة كثيرة الحدة. كما أن القذَّافي ورغبة مخلصة منه في سبيل تسريع المصالحة الوطنية في السودان وبحيث لا يبقى الزعيم الجنوبي جون قرنق خارج السرب المعارض يغرد على هواه برَّأ قرنق من تهمة التعامل مع إسرائيل وقطَعَ بذلك الطريق على قوى داخل النظام ترى أن الزعيم الجنوبي لم يكتفِ بمحاربة القوات السودانية وإنما هو إنفصالي وأنه مدعوم من إسرائيل. وعندما يبرىء القذَّافي صديقه قرنق من التهمتيْن اللتيْن هما من الكبائر على الصعيد السياسي والوطني فإنه يدفع الأذى المحتمل من جانب قرنق على نعمة النفط الذي تفجرت بعض آباره وبات السودان كخطوة أُولى قادراً على التصدير وبطاقة 150 ألف برميل يومياً ومؤهَّلاً بعد سنتيْن للإنتساب إلى منظمة الأوبك. وحماية النفط تكون بالإستقرار وليس بالقوات التي تحيط بالآبار. وبفضل هذا الإستقرار يمكن السودان أن يصبح خلال ربع قرن في محيطه الأفريقي بأهمية بعض دول الخليج في محيطها المشرقي.

وبالإضافة إلى السودان الذي نجح في تطبيع علاقاته مع بريطانيا تمهيداً لنجاح مماثل مع أميركا، وسيراً على الخطى نفسها، تهب نسائم الوفاق على الجزائر المثخنة بجراح الإقتتال الأهلي البشع الذي أعطى إنطباعاً بأن الجزائر غابة يدور فيها صراع متوحش، وليست قلعة نضالية ووطنية لها تاريخها المجيد في التضحية وفي المواقف القومية. وفي تقديرنا إن روحية الحقبة التي عاشتها الجزائر تحت حُكْم بومدْين هي التي جعلت الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة أحد رموز تلك الحقبة يبادر على الفور إلى إطلاق الدعوة إلى أن يتصالح الجزائريون مع أنفسهم إذا كانوا يريدون لبلدهم أن يعود على درجة كبيرة من الأهمية في محيطه العربي والدولي على نحو ما كانت عليه الحال أيام بومدْين. وهو عندما بادر فإنه إستخدم المفردات التي تحث القلوب على أن تتآلف ومن أجْل ذلك فإنه خاطب بالطريقة التي جعلت الأطراف المعنية تتجاوب، أو إذا جاز التعبير إن الرئيس بوتفليقة صاحب التجربة العريقة والشاهد من خلال موقعه الرسمي طوال بضع سنوات ثم كمراقب بعدما بات خارج الحُكْم والبلاد، على الصراعات العربية طوال ربع قرن، مارس أسلوب الترويض مع طرَف شرس بشراسة النمر الجريح هو الشيخ عباسي مدني وأمكنه نقْله إلى مشارف ساحة الحوار ومن منطلق الإقرار بالشرعية والإلتفاف حولها بدل الإلتفاف عليها. وبعد هذه الخطوة أمكن الرئيس بوتفليقة أن يخطو بالجزائر نحو التفاهم مع المغرب بفضل مسعى شارك فيه الرئيس حسني مبارك، ويحل إشكالات مع إيران بفضل نصائح وتمنيات على الرئيس بوتفليقة وعلى الرئيس خاتمي وأركان الحُكْم في إيران، أسداها الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء السعودي وزير الدفاع والطيران، الذي كانت لفتة طيبة منه أنه، قبْل أن يتوجه للقيام بزيارته الرسمية الأُولى لإيران، أمضى بضع ساعات في الجزائر. ويجوز الإفتراض أن الأمير سلطان أبدى في هذه الزيارة التمنيات وأسدى النصيحة، بالإضافة إلى أنه أكد أن المملكة العربية السعودية تريد للرئيس بوتفليقة أن يخلِّص الجزائر من محنتها ويحقق وحدتها الوطنية.

كذلك، إنه سيراً على خطى الوفاق العربي جاءت إزالة حالة عابرة من العتب بين المملكة العربية السعودية والإمارت العربية المتحدة، نشأت نتيجة حماسة مشتَرَكة من جانب المملكة العربية السعودية وإيران لوضع العلاقات في دائرة الإستقرار والتطوير في شتى المجالات، ورأت الإمارات أن حدوث هذا الأمر طيِّب ومطلوب إنما بعد أن يتم حسْم موضوع الجزر الثلاث (أبو موسى وطمب الكبرى وطمب الصغرى) التي تشبه حالتها حالة أسرى الكويت لدى العراق. وفي

تقديرنا إن قيام أمير دولة قَطَر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، بالمسعى الحميد الذي قام به جاء لإبقاء الأزمة في إطار الوسيط الخليجي، وذلك على أساس أن أطرافاً عربية كان يهمها القيام بهذا الدور.

ثم جاء السعي الأهم المتمثل بإتفاق الملك الحسن الثاني والرئيس حسني مبارك لعقد قمة عربية شاملة، أو تنعقد بمَن حضر، وتكون بديلاً لقمة خماسية أرادها الرئيس مبارك وتحفَّظ عليها صديقه وحليفه في التحرك السياسي الرئيس حافظ الأسد، ولم تلْقَ التشجيع السعودي الكافي، فطُويت فكرتها لتنطلق من المغرب فكرة القمة الشاملة وبدعوة ثنائية غير مسبوقة من رئيس القمة العربية، الرئيس مبارك، ومن راعي القمم المستعصية الإنعقاد والناجحة في نسبة أو أُخرى الملك الحسن الثاني.

ولأن هذه الأجواء وغيرها، التي تصب في إتجاه تحقيق وفاق عربي، بدت للمرة الأُولى عملية وجدية وفي مستوى الواجب القومي المسؤول، فإن الخشية كبيرة من أن تحدُث إنتكاسة مفاجئة ويعود الوضع إلى ما كان عليه قبْل أن يبدأ إنتشار هذه الأجواء الطيِّبة، وبحيث لا تواصل الصحف والإذاعات والفضائيات العربية نشْر وبث الأخبار التي فيها مسحة من التفاؤل وتعود إلى نشْر وبث الأخبار السالفة التي تبعث على الإحباط.

... وكأنما العدوان الإسرائيلي على لبنان ليل الخميس – الجمعة الفائت هو رسالة أميركية عبْر ساعي البريد الإسرائيلي إلى العرب الذين يريدون بدء عهد جديد من تآلف القلوب فحواها أن ما نأمله منكم هو عدم الخروج من النفق الذي وضعناكم فيه. ومَن يصر على الخروج مطلوب منه أن يتذكر ما الذي فعلناه قبْل بضعة أسابيع بالصرب. ومن المفارقات أن حرفاً واحداً (الصاد بدل العين) هو الفرق بين الصرب والعرب.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 30 يونيو (حزيران) 1999

* * *

فائدة مزدوجة للبنانيين... وإيران

يخشى المرء أن تكون الضجة التي تثيرها أوساط أميركية وإسرائيلية حول ثلاثة عشر يهودياً إيرانياً إعتقلتْهم السُلطات الإيرانية بتهمة التجسس لحساب الولايات المتحدة، وإسرائيل، مجرد رد كثير الخشونة على بداية الإنفتاح الإيراني على دول الخليج، والعرب عموماً. ونقول ذلك على أساس أن الأجواء الطيبة المستجدة في العلاقات العربية – الإيرانية من شأنها أن تخلُق واقعاً جديداً في منطقة الشرق الأوسط يقوم على قاعدة التعاون العربي – الإسلامي وهو ما لم يحدُث مِن قبْل في التاريخ الحديث للمنطقة، ومن الطبيعي أن تقلق من حدوثه الولايات المتحدة وإسرائيل.

كذلك يخشى المرء أن تتحول قضية الجواسيس الثلاثة عشر إلى حالة "بازوفتيّة" أُخرى (نسبة إلى الصحافي البريطاني – الإيراني الأصل – بازوفت الذي كان في مهمة صحافية في بغداد وإعتقلتْه السُلطات العراقية عام 1990 بتهمة التجسس ونفَّذت حُكْم الإعدام فيه على رغم التمنيات البريطانية والتحذيرات الصحافية الأجنبية التي تقف وراءها دوائر وقوى صهيونية). ونتذكر كيف أن قضية بازوفت الذي كان ربما بمثابة طُعم علقت به السمكة العراقية – إذا جاز التشبيه – كانت من بين حيثيات الحملة الإعلامية الدولية على العراق، وهي حملة إستهدفت تعبئة الرأي العام العالمي ضد نظام الرئيس صدَّام حسين الذي كان في العشرين شهراً التي سبقت مغامرة غزو الكويت ثم إحتلالها لبضعة أشهر يعيش أزهى أيامه على صعيد إلتفاف الدول العربية حوله ووقوف معظم القادة العرب إلى جانبه مالياً وسياسياً ومساندته في الحملة الشهيرة المعروفة بحملة المدفع العملاق التي إستهدفتْه وجاءت واقعة الصحافي البريطاني بازوفت حلقة من حلقاتها الأكثر إثارة.

ويصعب التكهن بما إذا كان الحُكْم الإيراني الذي يعيش منذ إنعقاد القمة الإسلامية الأخيرة في طهران أزهى العلاقات مع معظم الأشقاء العرب والمسلمين سيأخذ العبرة من تلك الواقعة فلا يحذو حذو الحُكْم العراقي إنفعالاً وتشدداً وإصراراً على تنفيذ حُكْم الإعدام بـ بازوفت، مع أنه كان في إستطاعته الإكتفاء بسجنه وتوظيفه عند الضرورة في عملية مقايضة من أجْل صفقة وإعتباره مثل أسرى الحرب الذين يكون الإبقاء عليهم أحياء أفضل بكثير من تصفيتهم مهما إقترفوا من أعمال عدوانية. ولدى الحُكْم الإيراني ورقة مقايضة بالغة الأهمية يمكنه إستعمالها والخروج بأفضل مكسب، حيث إن هنالك عهداً جديداً بدأ في إسرائيل

ومِن مصـــلحة الرجل الأول في هذا العهد، إيهودا بـاراك، أن لا ينتكس عهـده من اللحظـة الأُولى. وبطبيعة الحال فإن باراك الذي يتطلع إلى إســـتقدام بقايا الفالاشا من أثيوبيا سيُمنى بضربة تقصم الظهر في حال سارت قضـية الإيرانيين اليهود الثلاثة عشـر على طريق التشدد والإنفعال والإصرار على تنفيذ حُكْم القانون بهم، والذي هو في معظم الحالات، وبالذات في بعض دول العالم الثالث، الإعدام.

نقول ذلك مع إقرارنا بسلامة تعامل الحُكْم الإيراني مع القضـية. فالأشـخاص الثلاثة عشـر هم إيرانيون، وينطبق عليهم ما ينطبق على أي إيراني، مسـلماً كان أم يهودياً أم مسيحياً إلى ما تبقَّى من طوائف ومذاهب. ولكن ما الذي يمكن فِعْله إزاء وضْـع لا يستند إلى أي منطق، ونعني به أن إسرائيل تعتبر نفسها مسؤولة عن اليهودي في أي بلد وتستعمل كل ما لديها من وسائل التحريض والإبتزاز لجعْل مراكز قوى رســـمية وغير رســـمية في دول العالم ذات التأثير وأولها الولايات المتحدة وبريطانيا، تساندها في منطقها هذا وإلى درجة أن هذه الدول يمكن أن تدافع عن الإيرانيين الثلاثة عشر اليهود وكأنما هم من رعاياها.

ويبقى أن للضـــرورة بعض الأحكام وأن تفادي الوقوع في الشـــرك ليس إنهزاماً في أي حال. والذي يعزز هذه الرؤية أن إيران لم تبرأ بعد ما فيه الكفاية من المتاعب التي قاســـت منها بســـبب تلك الفتوى الشـهيرة بحق سلمان رشدي. وإذا كانت تلك المتاعب قد إنحســـرت قليلاً فهذا لا يعني أن تلك الفتوى لم تعد قائمة. ويجوز القول إنها فتوى عالقة تنتظر الوقت المناسب لحسمها على يديْ أهل القرار في إيران عندما يلتقي هؤلاء على موقف واحد.

وفي إنتظار ذلك ليس ســـيئاً على الإطلاق ومن باب التكتيك إبقاء قضية الإيرانيين اليهود الثلاثة عشر بمثابة كتاب مفتوح يكون بديلاً لصـــواريخ الكاتيوشـــا التي يطْلقها رجال المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان على قرى إسرائيلية في شمال فلسطين التي إستولت عليها العصـــابات الصـــهيونية بدعم الولايات المتحدة وبريطانيا في المرحلة الأُولى من إنشاء دولة إسرائيل.

وفي حال حدوث ذلك فإن ســـوق المســـاومة والمقايضات تزدهر وتدخل فيها الولايات المتحدة طرفاً أســـاســـياً. وقد ينشـــأ عن ذلك أن الموقف الأميركي الخجول والمخجل من الإعتداءات الإســـرائيلية على لبنـان لا يعود على مـا بـات مـألوفاً وخلاصـــتـه أن الولايات المتحدة صـــاحبة ثلاث وجهات نظر من تلك الإعتداءات تشكِّل مجتمعة الموقف الخجول والمخجل. فهي إما متفهمة للعدوان الإسرائيلي على لبنان ولدوافع العدوان، وإما منزعجة ضـمناً من العدوان لكنها ترفض إدانتـه، وإمـا إنهـا ومن خلال إجتهـادات وتخطيطـات بعض دوائر صُـــنْع القرار الأميركي تحبذ مثل هذا العدوان لأغراض متصـــلة بإســـتراتيجيتها في المنطقة على نحو العدوان الأخير الذي إســـتهدف تدمير البنية التحتية من جســـور ومحطات كهرباء. وفي الحالات الثلاث ليس هنالك ما يجوز إعتباره موقف صـــداقة على نحو ما يظهر في بعض التصـــريحات وبعض الإيحاءات وكذلك في الزيارات التي يقوم بها الســـفير الأميركي لدى لبنان، دافيد ســـاترفيلد، الذي – عدا مناطق تواجُد حزب الله – لم تبقَ منطقة في لبنان لم يزرها، ولم يبقَ وجيه قوم لم يتناول الطعام إلى مائدته. ومثْل هكذا تَحرُّك من المفترض أن يكون صـــاحبه القائم به محباً للبلد وحريصـــاً عليه، أو على الأقل مستنكراً أشد الإستنكار لعدوان يتعرّض له وبالذات إذا كان العدوان غير مبرَّر على الإطلاق، مثل العدوان الذي حدثَ قبْل بضـعة أيام ولا يبدو أنه سـيكون آخر الإعتداءات. وإزاء ما يحدُث فإن الســـفير الذي يدَّعي الحرص ويتظاهر بالصداقة ليس أكثر من شاهد على الإعتداءات ينبري بعد كل عدوان لتوجيه النصـــح بضـــبط النفس متفادياً التنديد ولو بالحد الأدنى ومن باب اللياقة.

يبقى أيضاً أن مقايضة موضوع الجواسيس الثلاثة عشـر قد يفيد في شكل أو آخر لبنان كنظام وكشـعب بـأكثر ممـا يفيـد الحُكْم الإيراني، إلاّ إذا إعتبرْنـا أن الإســـتفادة ســـتكون مزدوجة حيث إن النظام في إيران سـيدفع عنه شـراً سـبق أن أصـاب العراق لأن النظام الذي يترأسه صدَّام حسين رأى في حالة بازوفت فرصة لإغاظـة بريطـانيا وكـل مراكز القوى المتأثرة بـالنفوذ الصـــهيوني فأعدم الرجل من دون أن يســـتفيد العراق شـــيئاً. وفي الوقت نفســـه إن النظام الإيراني بورقة الثلاثة عشـر إيرانياً يهودياً سـيساعد على درء مخاطر من الإعتداءات الإســـرائيلية على لبنـان. وفي حـال حدوث ذلك فإن الإنطباع السائد لدى قطاعات عريضة من اللبنانيين حول أن في إسـتطاعة إيران دفْع الخطر الإسرائيلي عن لبنان لكنها لا تفعل ذلك، سيتبدد شيئاً فشيئاً.

... وشيئاً فشيئاً يتحرك الحوار المرغوب بين إيران

والولايات المتحدة ويشـــق الإنفتاح الإيراني على دول الخليج، وعلى العرب عموماً، طريقه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 يوليو (تموز) 1999

* * *

قمة خريف العرب

تبدو القمة العربية التي يتكاثر السعي بصمت من أجْل عقْدها أواخر صيف 1999 أنها ستكون قمة القمم العربيـة أو "أم القمم العربيـة". ويبـدو أنهـا سـتكون الصفحة الأخيرة من كتاب العمل العربي المشترَك في النصـف الثاني من القرن العشـرين لتبدأ مع القرن الواحد والعشرين صيغة جديدة لهذا العمل الذي شهد من التعثرات والتناقضـات ما جعل الوفاق لا يسـتقر على حال.

وما هو لافت للإنتباه أن سعاة عقْد القمة متريثون في تحديد موعد الإنعقاد، وكما لو أنهم في إنتظار تطورات ما سـيحدُث، الأمر الذي يعني أن القمة لن تكون لمعالجة الأوضـاع الراهنة ولن يكون الغرض منها رفْع الحصـار عن هذه الدولة وتخفيف المعاناة عن تلك الدولة فهذه المسـألة يمكن معالجتها في الإطار الثنائي أو في القمة العادية، وإنما ستكون القمة هي قمة سلام المنطقة من إيران إلى لبنان.

وعند التأمل في التطورات التي حدثت في المنطقة خلال الأشهر العشرة الأخيرة يتأكد الإفتراض بالنسبة إلى سلام المنطقة التي نشير إليه.

ففي لبنـان حـدَث نوع من التلاحم بين النظـام و"حزب الله" هـدفـه المنظور دعْم الـدولـة اللبنـانيـة برئاسـاتها الثلاث وجيشـها لحركة المقاومة التي يتصـدرها "حزب الله" وهدفها غير المنظور تحضـير هذا الحزب للإنخراط في النظام وخياراته السـياسـية بالنسـبة إلى موضـوع السـلام الذي تجري الترتيبات للإحتفال بقدومه.

وفي سـوريا حدثت مبايعة عفوية للرئيس حافظ الأسد لولاية رئاسية جديدة، بدت من خلال الإستفتاء كما لو أنها رسـالة تأييد للرئيس لإصـراره على إعتبار السلام في المنطقة خياراً إستراتيجياً.

وفي ليبيـا حـدث التحول الـذي نعيش حتى الآن تطوراته والذي تصـب روافده في بحيرة السـلام التي تَزايد منسوبها يوماً بعد آخر. ولقد إنتهى أمر المعضلة الليبية إلى أنه ما دام رفْع الحصـار وإنهاء الإشـكال المتعلق بطـائرة البـانـام يمكن أن يغري العقيد معمَّر القذَّافي بتحويل ليبيا من خط هجومي ضـد التسـوية السلمية في المنطقة إلى خط دفاعي عن سلام المنطقة فلماذا لا يتم الأخذ بـه لا سـيما وأنـه خيار يعود بمكاسـب على العملية السلمية أكثر بكثير من العوائد الناشئة عن مواصلة إستنزاف ليبيا ثروة وشعباً وقيادة. ولقد تبينَ أن مبتكر صـيغة المصـالحة الأميركية – الليبيـة كـان بعيد النظر وعلى درجـة من المهـارة في الإقناع خصـوصـاً أن الطرفيْن اللذيْن عليه إقناعهما، كانا صـعبين كما لو أن العناد إسـتقر في تفكيرهما ونعني بهما الإدارة الأميركية والعقيد القذَّافي.

ومع إيران الدولة الإسـلامية الوحيدة غير العربية التي تملك قدرات فاعلة في التأثير داخل بعض الدول العربية حدَث نوع من السـعي المشـابه للسـعي الذي حدَث مع العقيد القذَّافي إسـتهدف تحويل النظام في إيران من نظـام لا يراعي طبيعـة الأنظمـة العربيـة ويواصـل التدخل في شـؤون بعضـها إلى نظام يتفهم مقتضيات التعايش بطمأنينة مع هذه الأنظمة، وتحويله في خطوة لاحقة إلى خط هجومي ضد العملية السلمية التي إرتضـتْها الأنظمة العربية – عدا العراق حتى إشـعار آخر ليس بالبعيد على الأرجح – إلى خط دفاعي عن سـلام المنطقة. وعند المقارنة بين موقف إيران قبْل السـعي الذي نشـير إليه وبعدما خطا هذا السـعي خطوات حثيثة إلى الأمام يجوز الإفتراض بأن إيران، وعلى رغم التردد الذي يلحظه المراقب للأحوال الإيرانية، لن تتراجع عن الخطوات التي أنجزتْها حتى الآن خصـوصـاً بعدما تبيَّن أن هذه الخطوات هي لمصلحة عودتها إلى التغريد داخل السرب بعد عقديْن من الزمن أمضـتهما في تغريد خارج السرب، وأيضـاً بعدما تبين لها أن علاقة متينة مع الأنظمة الشـقيقة القريبة والبعيدة والأبعد (أي من جيرانها على الضـفة العربية من الخليج، إلى الجزائر ومصـر والشـقيقات الباقيات) أكثر جدوى لها من التعامل مع جيوب في بعض الدول الشقيقة ليست قادرة لإعتبارات موضوعية على أن تكرر فيها تجربة الحُكْم الإسـلامي على نحو ما هو عليه في إيران. والتغريد داخل السـرب العربي يسـتوجب بعض التجانس أو كثيره مع الرؤية العربية السـائدة وهي رؤية تنشـيط العملية السـلمية وتوسـيع رقعتها بحيث تكتمل بإنتسـاب العراق إلى هذه العملية.

ومن شـأن التعامل مع الحالة العراقية بالصـيغة التي إعتُمدت مع ليبيا أن يتحقق ذلك وعلى أهون السـبل. ولا نظن أن هذا الحرص المشترَك من قطبيْ التحضير للقمة الملك الحسن الثاني والرئيس حسني مبارك على إشراك العراق في القمة المرتقَبة هو من أجْل إستعادة العراق الذي سيقف حجر عثرة في وجه العملية السلمية وإنما لتكون إستعادته بهدف التغريد داخل سرب هذه العملية. وهذا التأخير في عقْد القمة وبحيث يتردد أن إنعقادها لن يتم قبْل الخريف، إنما هو لمزيد من الترويض للموقف العراقي وبحيث يكون تجاوُب الرئيس صدَّام حسين مع صيغة تُعرض عليه بمثل تجاوُب العقيد القذَّافي عندما جاءته فرصة إنهاء موضوع الحصار المفروض على ليبيا ومن دون أن يُلام من قريب أو صديق أو منافس. بل على العكس إن الإطراء الذي يلقاه العقيد القذَّافي من الآخرين على مختلف مشاربهم يفوق بكثير الإطراء الذي كان يلقاه في مرحلة الحصار على أساس أنه صامد في وجه الولايات المتحدة.

ومن الآن وحتى إنعقاد القمة العربية يكون رئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك حسم نهائياً الأمر بالنسبة إلى السلام المقبول به عربياً. يعزز ذلك أن فوزه في الإنتخابات الأخيرة جاء بقوة فوز الرئيس خاتمي في إيران وبقوة المبايعة التي حصل عليها الرئيس الأسد وبقوة المبايعة التي يمكن أن يحصل عليها العقيد القذَّافي تكريماً من الشعب الليبي له لأنه أنهى من جانبه موضوع الحصار وموضوع المشكلة المثيرة التعقيد مع بريطانيا المعروفة بمشكلة الشرطية فليتشر. وفي حال حسمَ باراك الأمر وإعتبر الإشارات البالغة الأهمية التي صدرت عن الرئيس الأسد العائد أكثر قوة من زيارة إلى موسكو، بمثابة فرصة يجب عدم التفريط بها على نحو ما فعل نتنياهو، فإن قمة خريف العرب ستكون على الأرجح قمة سلام المنطقة من إيران إلى لبنان ومن دون غياب أو تغييب أحد. قمة تشجع الولايات المتحدة والدول الحليفة على عقْدها وتلح في الإنعقاد بعدما كانت تبالغ في التحفظ وإملاء الشروط، وهي تشجع لأنها قمة هدفها أن تقرر بالإجماع أن الأولوية في القرن الواحد والعشرين هي للسلام. وعندما سيحدُث ذلك ستصبح المشاكل الأُخرى بين العرب وعلى رغم مرارتها قابلة للحل.

ومن الجائز الإفتراض أن هذه المصالحات الأهلية السريعة بين ناس الحُكْم وناس المعارضة التي تشهدها معظم دول المنطقة إنما هي لقطع الطريق على من قد يقول همساً أو بالصوت العالي إنه من غير الجائز أن يسبق السلام مع إسرائيل السِلْم الأهلي، وأن تتصالح بعض الأنظمة مع إسرائيل بينما خصومتها مستمرة مع بعض شرائح شعبها. وهذه مسألة فيها نظر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 يوليو (تموز) 1999

* * *

أمثولة للبنان من مصر السياحية

بعد دخول مصر مرحلة الإنفتاح في الثمانينات، بدأ المصريون يقبلون على البناء، وإستهوت المشاريع العقارية عدداً من رجال الأعمال المهاجرين إلى دول الخليج والولايات المتحدة وكندا وبعض الدول الأوروبية، طوعاً بفعل الطموح، أو تعويضاً عن إحباطات الحقبة الإشتراكية. وخلال بضع سنوات لم تبقَ رقعة في القاهرة والمدن الكبرى من الإسكندرية إلى أسوان تصلح للبناء إلاَّ وإشترتها شركات البناء. وما لم تتمكن من شرائه بات في أي حال برسم البيع، وبأسعار مرتفعة.

وإستبشر رجال الأعمال خيراً بالأسلوب الذي يعتمده الرئيس حسني مبارك وكيف أن الإستقرار يزداد رسوخاً، لأن هاجس التنمية لدى الرئيس يتقدم على أية هواجس أُخرى، ولأنه يبذل الكثير من الجهد لتطوير العلاقة مع الولايات المتحدة. وبالنسبة إلى رجال الأعمال والمستثمرين فإن الإستقرار هو نقطة الجذب الأساسية.

ولأنهم إستبشروا خيراً فإن ملايين الدولارات أخذت طريقها من حسابات المقتدرين المصريين المهجّرين في المصارف الأجنبية إلى حسابات لهم في مصارف داخل مصر. كما أن بعض هؤلاء خطا خطوات إستثنائية، وبدأْنا نسمع عن رجال أعمال مصريين وظفوا علاقاتهم بشركات أجنبية يتعاملون معها، وبرجال أعمال أجانب أصدقاء لهم، لكي يدخل المال الأجنبي من جانب أشخاص في أعمال الإستثمار في مصر. ولم تمضِ ثلاث سنوات إلاَّ وبدأت في مصر ثورة سياحية تلازمت مع الثورة العقارية. وقامت، من شواطىء البحر الأحمر إلى الشاطىء الشمالي، ومن

الإسكندرية إلى مرسى مطروح، عشرات القرى السياحية وعشرات الفنادق الكبرى والمتوسطة، وبدأ الخير السياحي يتدفق على مصر كما لم يحدُث من قبْل.

وبسبب هاتيْن الثورتيْن بدأ يحدُث نوع من الهجرة المعاكسة، بمعنى أن الكفاءات لم تعد راغبة في الهجرة والعمل خارج مصر كما أن أصحاب الكفاءة المغتربين بدأوا يختصرون إقامتهم في الخارج تمهيداً للعودة إلى مصر ما دامت الأعمال فيها مزدهرة وإمكانات الإستثمار على أنواعه متوافرة.

فجأة بدأت تحدُث عمليات مريبة تستهدف الإستقرار، الذي هو المفصل الأساسي للثورة السياحية التي تشهدها مصر ويبني ملايين المصريين الآمال عليها. وبات لا يمر أسبوع من دون أن تتعرض مجموعات سياحية لهجوم مِن جانب عناصر متطرفة في جماعات إسلامية. وكان المهاجمون يتذرعون بالحجج الواهية وهم يتعرضون للسياح الأجانب. وبعد كل هجوم إرهابي يحدُث، كانت الحجوزات تُلغى ويتحول الأجانب إلى دول أُخرى وتتلاحق النكسات واحدة تلو الأُخرى، حيث أن الإشغال في الفنادق يتراجع بنسبة تفوق أحياناً التسعين في المئة، ولا تعود المطاعم والمرافق السياحية التي علّقت الآمال على الموسم الناجح تستقبل سوى بعض الأفراد. ونشأ عن ذلك تسريح عشرات الموظفين والعمال وإنتكست الأحوال العامة بشكل لا مثيل له.

وعلى رغم هذه الأهوال فإن الرئيس حسني مبارك لم يفقد إيمانه ولم يتراجع عن مكافحة المتطرفين، وتفادى في الوقت نفسه كميناً جرى التخطيط لإيقاع مصر فيه، ونعني به الدخول مع السودان في مواجهة بسبب منطقة حلايب الحدودية.

وهو تفادى الوقوع في هذا الكمين على حساب كبريائه كرئيس للدولة العربية الأكبر، كي لا تتحول المواجهة إلى حالة إستنزاف تقضي على كل ما بناه وكل ما يطمح إليه. وفي الوقت نفسه حوَّل زياراته الخارجية إلى زيارات إستهدفت إزالة الآثار السيئة التي إنعكست على السُمعة المصرية، وكيف أن مصر لا تصلُح كدولة سياحية ما دام بضعة أفراد من الجماعات المتطرفة يهددون أمن البلاد وحياة السياح الأجانب. وإنعكس هذا السعي من جانبه على الروح المعنوية لآلاف المستثمرين والعرب والأجانب حيث أن هؤلاء لم ييأسوا وشعروا بأن الرئيس مبارك يخوض معركتهم بالنيابة عنهم، وأنه يفعل ذلك عن إيمان. وشيئاً فشيئاً بدأت ظاهرة العنف تتراجع وإنحسرت كلياً العمليات التي تستهدف السياح الأجانب. وإستعادت السياحة في مصر حيويتها. وكان يمكن إختصار زمن النكسة السياحية لو أن الرئيس مبارك تجاوب مع الضغوط التي تستهدف قيامه بزيارة إسرائيل. إلاَّ أنه لم يخضع لتلك الضغوط مفضلاً أن تبقى مصر تحت قيادته دولة سياحية، إنما غير متباعدة عن دورها القومي وغير فاقدة لتراثها الوطني مقابل بضعة ملايين دولار هي عوائد السياحة والسياح الأجانب. ومن المفارقات اللافتة أن حرفاً واحداً يجعل سياحة تصبح سياسة، وبالعكس. وبعد أن تلاشت ظاهرة العنف من جانب العناصر المتطرفة في الجماعات الإسلامية، باتت الضغوط مقتصرة على مسألة الأقباط وحقوقهم المنقوصة في مصر، على نحو ما تتضمنه حملات تقودها بعض وسائل الإعلام الأميركية وبعض أعضاء الكونغرس. وفي الحالتيْن ليست الصهيونية بعيدة عن هذه الحملات.

إستطاع الرئيس مبارك مواجهة النكسة السياحية التي أصابت مصر، بفضل البال الطويل وثقة المستثمرين به، بحيث لا تجبن رساميلهم أمام مفاجآت درامية كتلك التي أشرنا إليها وتتمثل بضرْب السياحة في مصر من خلال قتْل السياح وإيذائهم في الحد الأقصى وترويعهم بحيث لا يخطر على بال أحد المجيء إلى مصر للسياحة. وبعدما إستطاع الرئيس مبارك، ومِن حوله المستثمرون، تجاوُز المحنة، عاد كل شيء إلى ما كان عليه وأفضل. وفي أحدث التوقعات أن دخْل مصر من السياحة للعام المقبل سيصل إلى نحو 14 بليون جنيه بزيادة بليونين على ما هو متوقَّع أن يكون عليه الرقم في نهاية العام 1999 وهذا معناه أن دخْل مصر من السياحة، بفضل إهرامات وتماثيل ونواويس بناها الأجداد الفراعنة قبْل سبعة آلاف سنة، سيتجاوز بكثير دخْلها من قناة السويس التي أنشأها فرديناند دولسبس قبْل بضعة عقود ودفعت مصر بسببها ومن أجْلها عشرات المليارات من الدولارات ومئات الألوف من الشهداء والمعوَّقين، أي أن العوائد من القناة كانت أقل بكثير من التضحيات.

ونصل من هنا إلى القول إن المحنة السياحية، التي واجهتْها مصر وإستطاع الرئيس مبارك بالقدرة المذهلة لديه على التحمل أن يتجاوزها ويؤازره في ذلك

المصريون الذين وظفوا أموالهم في مشاريع السياحة والمشاريع العقارية، تكررت إلى حد ما هذا الموسم في لبنان وبشكل درامي لا مثيل له، وقامت به إسرائيل مباشرة وليس بأسلوب التستر. ومنذ ليلة تدمير محطات الكهرباء ونسْف الجسور وترهيب السياح والزوار وطالبي الإصطياف، كي يغادر أولئك الذين بكروا في المجيء ولا يفكر بالمجيء أولئك الذين حجزوا على الطائرات وفي الفنادق.. منذ تلك الليلة يعيش لبنان محنة في منتهى القساوة، ويدفع مقابل عدم تخلِّيه عن دور وطني يمارسه ثمناً كبيراً. فقد إنتكس الموسم إنتكاسة لا مثيل لها، ومُني اللبناني بخسارة جسيمة حاول الرئيس إميل لحود الإلتفاف عليها بتبرعات دعا اللبنانيين إلى تقديمها لمواجهة آثار العدوان الإسرائيلي عليه، وتُشبه في بعض جوانبها حملة التبرعات بالذهب الذي دعا إليها الرئيس صدَّام حسين في عز الحرب بينه وبين إيران. وكلاهما، تبرُّع اللبنانيين بالمال للرد على عدوان إسرائيل وتبرُّع نساء العراق بالذهب لمواجهة الحرب التي رفضت إيران وقْفها، هما نوع من الرسالة إلى الأشقاء العرب. ولكن الأشقاء في الحالتيْن لهم ظروفهم وحساباتهم.

وبالنسبة إلى لبنان فإن الأمثولة التي جسَّدها أسلوب الرئيس مبارك قد تكون هي الحل للمحنة التي يعيشها الآن. ونعيد التذكير والقول إن الأمثولة عبارة عن ممارسة الدور بحيث يكون نصف سياحة ونصف سياسة أو أن يكون لبنان في منتصف الطريق، غير متباعد عن الواجب الوطني على الصعيد السياسي وغير مستسلم بالكامل إلى الإغراء السياحي.

وعند التأمل في ما يفعله الرئيس مبارك ويواصل إعتماده، يتأكد لنا أن ذلك ممكن، أو على الأقل.. إنه ليس بذلك الأمر المستحيل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 يوليو (تموز) 1999

* * *

سيناريو السلام بروحية الحسن الثاني

تبدو التطورات التي تتلاحق في شأن السلام المنشود في المنطقة وكأنما هي تنفيذ لـ سيناريو متفَق عليه ليس بعيداً عن روحية الملك الحسن الثاني، الذي فقده يوم الجمعة الماضي 23 يوليو/ تموز 1999، وهو في عز العطاء، الوفاق العربي كواحد من باذلي الجهد الشاق لتحقيقه من خلال إستضافة القمم المستعصية الإنعقاد، وفقدتْه أيضاً عملية السلام العربي – الإسرائيلي كركن أساسي من أركانها الثلاثة (الرئيس السادات والملك حسين والملك الحسن وثلاثتهم باتوا في ذمة الله والتاريخ) منذ أكثر من ربع قرن والتي صادف رحيله في اليوم الذي بات شبه مؤكد أنها ستنطلق في إتجاه الحل خلال ما تبقَّى من أشهر هذا العام، وفي الوقت الذي بلغ السعي ذروته لعقد قمة شاملة في المغرب تكون قمة وضْع إستراتيجية عربية لمرحلة السلام بين العرب وإسرائيل. وقبْل ساعات من النكسة الصحية الصاعقة كان يتشاور في القصر الملكي في الصخيرات في شأن هذه القمة مع ضيفه الساعي الآخر النشِط لعقْدها الرئيس علي عبدالله صالح.

يبدأ السيناريو بترسيخ المفهوم الأميركي – الإسرائيلي للسلام في نفوس العرب بحيث لا يعود حاكم عربي يتحدث عن القضية على نحو حديث ما قبْل صفقة كامب دايفيد عنها، ولا يعود يطالب بأكثر مما تراه الإدارة الأميركية وحدها ودون غيرها من الدول الكبرى والدول ذات الأهمية. وهذا الترسيخ أنجزتْه حكومة بنيامين نتنياهو وبمباركة ودعم الولايات المتحدة التي لم تمارس طوال السنوات الليكودية من الضغوط على رئيس حكومة الليكود نتنياهو ما يجعله يتجاوب مع الإرادة الدولية ويساعد على تحقيق السلام العربي – الإسرائيلي، بتنفيذ إتفاقات تم إبرامها وفي البيت الأبيض وبعض الإستراحات الرئاسية الأميركية وكان هو الطرف الإسرائيلي في توقيع هذه الإتفاقات.

وفي مرحلة لاحقة من السيناريو يتم إسقاط نتنياهو ويُؤتى برئيس جديد للحكومة هو بالتحديد إيهود باراك الذي إنهمرت أصوات ما إصطُلِح على تسميتهم ظلماً "عرب إسرائيل" على صناديق مراكزه الإنتخابية وتزايُد التفاؤل العربي الرسمي المقرون بالحماسة له.

وخلال سنوات حكومة نتنياهو تتولى الإدارة الأميركية مستندة إلى التشدد الذي يمارسه نتنياهو، قطْع الطريق على أي مسعى دولي، روسياً كان أم فرنسياً، لتقريب وجهات النظر. وتلك هي إحدى الحلقات اللافتة في السيناريو. والهدف من ذلك هو أن تحتكر الإدارة الأميركية، ولغرض تتكشف معالمه بعد ذلك، أمر التعاطي في موضوع السلام العربي –

الإسرائيلي، وذلك لأن لروسيا وفرنسا وغيرهما رغبة في أن تكون لها وقفة إلى جانب العرب بهدف تعزيز مصالحها معهم، ولا تريد الولايات المتحدة أن يكون لدولة غيرها فرصة المساهمة في إنجاز الصلح العربي – الإسرائيلي من منطلَق أن البداية كانت كذلك وتمثلت بإتفاقية كامب ديفيد التي أبرمها الرئيس أنور السادات مع رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن برعاية الشاهد الذي ما زال على قيد الحياة، ونعني به الرئيس جيمي كارتر. ومن وجهة نظر الرئيس كلينتون غير المعلَنة أنه ما دام عرَّاب الخطوة الأُولى كان رئيس الولايات المتحدة فلماذا يجب أن يتعدد العرَّابون في الخطوة الأخيرة.

ثم تأتي الحلقة ما قبْل الأخيرة في السيناريو والتي تتمثَّل في أن باراك يقوم بالزيارة الأولى له كرئيس لوزراء إسرائيل إلى الولايات المتحدة ويلقى فيها من الرئيس كلينتون إستقبالاً لم يحظَ به حاكم عربي من قبْل وحفاوة نادرة الحدوث شاركت فيها هذه المرة الزوجة المخدوعة هيلاري التي بعدما إستقر أمرها على ترشيح نفسها لمجلس الشيوخ عن نيويورك بدأت تُزايد على الإدارة الأميركية نفسها التي يترأسها زوجها فتعلن تأييدها لعدم تخلّي إسرائيل عن القدس وجعْلها العاصمة الموحدة. وإذا كانت هيلاري أحرجت بقولها "إن القدس هي العاصمة الأبدية والموحَّدة لإسرائيل" زوجها الذي إضطرت أوساطه إلى التوضيح بأن هذا الرأي ليس رأي الإدارة الأميركية، فإن السيدة الأميركية الأولى التي كانت وجدت لها قبْل بضعة أشهر ألوف العرب المتعاطفين مع محنتها والممتنين لتصريح لها أوحت فيه بأن للشعب الفلسطيني الحق في أن تكون له دولته ويكون له حق تقرير مصيره على نحو ما يريد أبناء هذا الشعب، سقطت في عيون هؤلاء جميعاً نتيجة تعاطيها في أمر القدس، ذلك الأمر الذي لا يجوز لمَن لا قدرة لها على أن تدافع عن كبريائها أن تتناوله بالتقييم وتُجيّر ولو لفظاً للإسرائيليين حقاً عربياً إسلامياً ومسيحياً مع أن هؤلاء زرعوا في حضن زوجها الرئيس الفتاة اليهودية مونيكا لوينسكي التي أغوته وأذلتها بهذا الإغواء. كما أن صورة هيلاري إهتزت في نفوس أفراد اللوبي الكلينتوني في السُلطة الوطنية الفلسطينية والذي يضم بين أعضائه سهى عرفات زوجة الرئيس الفلسطيني التي صدمتْها صديقتها هيلاري وردَّت عليها (يوم الأحد 11–7–1999) بتصريح قالت فيه إنها تريد تفادي الرد على تصريحات هيلاري لأن ذلك قد يساهم في نجاح حملتها لدخول مجلس الشيوخ الأميركي، مضيفة إلى ذلك القول إنها تريد تذكير هيلاري بأن حق الفلسطينيين في القدس والأماكن المقدسة دائم لكل من المسلمين والمسيحيين. واللافت أن سهى عرفات كانت الشخصية النسائية العربية الوحيدة التي سجّلت التحفظ الذي أشرنا إليه، مع أن هنالك نساء عربيات كثيرات توثَّقت علاقتهنَّ بها بحُكْم مرافقتهنَّ لأزواجهم الحكّام في زياراتهم إلى واشنطن، أو بحُكْم أن هيلاري زارت بعض الدول العربية والإسلامية.

بعد ذلك نصل إلى الحلقة الأخيرة في السيناريو والتي تمثَّلت في أن الإدارة الأميركية توَّجت إسرائيل من خلال فيض المساعدات ورفْع العلاقة من مستواها الحالي إلى علاقة إستراتيجية معها، جنرالاً على المنطقة وإلاّ فما معنى أن يصدر يوم الثلاثاء 20 يوليو / تموز 1999 وفي أعقاب إنتهاء زيارة باراك إلى واشنطن إعلان مشترك لم يسبق أن صدر بالصيغة التي صدر فيها عن أي محادثات أجراها حاكم دولة زائر للولايات المتحدة وبدا في مضمونه أنه مثْل معاهدات الصداقة والتعاون التي إشتهر الإتحاد السوفياتي حتى ما قبْل سقوطه وتناثُر جمهورياته بإبرامها مع دول صديقة له، مع الفارق أن الولايات المتحدة تلتزم بتقديم كل ما يتم الإتفاق عليه مع إسرائيل وتضيف عليه إذا تطلَّب الأمر بينما كان الإتحاد السوفياتي لا يلتزم وكان في غاية البخل والإكثار من الشروط وبذلك لم يصمد ولم يكسب مواقع متينة الأسس في المنطقة العربية.

وقد يقال إن الرئيس كلينتون إشترى القبول الإسرائيلي بتسهيل إنجاز العملية السلمية وإستئناف المفاوضات مع سوريا من النقطة التي توقفت عندها وأنه لولا ذلك لما كان لـ باراك ولبعض مساعديه ومستشاريه أن ينشروا لمجرد عودته غانماً من واشنطن مروراً بلندن الأجواء التي تشير إلى أن السلام مع سوريا بات ممكناً.

ومع الأخذ في الإعتبار دوافع السيناريو الذي نشير إليه لا يستبعد المرء أن تكون الخطوة اللاحقة المبهرة في هذا السيناريو أن تحط ذات يوم ليس بالبعيد في مطار دمشق طائرة الرئاسة الإسرائيلية وفي داخلها إيهود باراك على الطريقة التي حطت فيها بعد غروب شمس يوم السبت 19 نوفمبر/ تشرين الثاني 1977 طائرة الرئاسة المصرية في مطار بن غوريون ونزل

منها الرئيس أنور السادات الذي أتى تلبية لدعوة من رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن، وذلك ليكسر الحاجز النفسي بين العرب وإسرائيل، لكن إعتقاده لم يكن في محله ربما لأنه باغت شريكه في حرب أكتوبر 1973 الرئيس حافظ الأسد الذي صمد 22 سنة إلى أن حانت الظروف التي تجعل السلام مطلباً إستراتيجياً وليس مجرد إرتماء في الجب الأميركي – الإسرائيلي. وقد يقتضي الأمر أن تحط بعد ذلك في مطار دمشق طائرة الرئاسة الأميركية وينزل منها الرئيس كلينتون الذي يقوم وفي دمشق بما قام به الرئيس الديموقراطي الأسبق جيمي كارتر في واشنطن عندما حقق عناقاً أسطورياً بين السادات وبيغن. وما بات معروفاً عن كلينتون أنه يريد أن تبدأ الألفية الثالثة به على أنه حقق السلام الذي هو أصعب أنواع السلام، من دون أن يأخذ في الإعتبار أنه ربما سيكون سلاماً قابلاً للإنتكاس لأنه غير عادل ولأنه إقتصر على رعاية دولة واحدة لا غير هي الولايات المتحدة.

ويبقى أن السيناريو مهما كان محُكَم التخطيط يمكن أن يتعثر في إحدى حلقاته وتعود المشكلة من جديد إلى نقطة الصفر. وما يجعلنا مطمئنين هو أن الرئيس حافظ الأسد متنبه إلى هذا الأمر، وما زيارته إلى موسكو يوم 5 يوليو/ تموز 1999 وما قيل في شأن نتائجها على صعيد الحصول على صفقة سلاح بالغة الأهمية تتضمن صواريخ متطورة، سوى حالة تنبُّه تستوجبها المفاجأة التي قد تتطلب واجباً سورياً بديلاً وهو دفْع القوات الإسرائيلية خارج الجولان بالتي هي أحسن والإنتقال مباشرة إلى التوقيع على الإتفاق الذي يرضي الله والضمير والوطن وكل دول العالم بما في ذلك الولايات المتحدة... إضطراراً وليس إختياراً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 27 يوليو (تموز) 1999

* * *

مصافحات... لا تشغل البال

ليس من المبالغة في شيء القول إن الفريق الذي يبذل جهداً ملحوظاً لتطوير مساعي تهدئة الصراع العربي – الإسرائيلي بحيث تنتهي سلاماً دائماً في المنطقة خسر برحيل الملك الحسن الثاني الشريك العربي الفاعل في هذا الفريق والعنصر القادر على تحريك الموقف كلما حدثت إنتكاسة أو بلغ التعثر أوْجه. وفي ضوء الجنازة التاريخية التي جرت للحسن الثاني وقراءة ما بين سطور تصريحات عدد كبير من قادة العالم العربي والدول الكبرى عموماً يتأكد لنا أن من جملة أسباب إبداء الأسف على رحيله هو الخوف من أن تصبح التهدئة التي قطعت شوطاً بعيداً في إتجاه تحويلها إلى إتفاق من دون العنصر العربي المؤثر كونه يتمتع دون غيره من رموز الجانب العربي في المسعى المتواصل لتحقيق التهدئة أو ما إصطُلح على تسميته "العملية السلْمية". والصفات الثلاث هي التجربة العريقة في الحُكْم، والإقتناع الكامل إلى درجة الإيمان بالحل التوافقي للصراع العربي – الإسرائيلي، وقوة التأثير التي يملكها على أهل الحُكْم في إسرائيل وذلك كونه الحاكم العربي الوحيد الذي له داخل إسرائيل "لوبي" فاعل هو "اللوبي المغربي". ومَن كان يمتلك مثل هذه المواصفات إلى جانب إشرافه على "لجنة القدس" والرؤية الإستراتيجية المشترَكة بينه وبين الولايات المتحدة لما يجب أن تكون عليه عملية السلام والتعايش بين شعوب المنطقة... إن مَن يمتلك ذلك يصبح رحيله خسارة فادحة لمخطط التسوية بدءاً بتعميق التهدئة وصولاً إلى الوفاق والإتفاق.

ومقابل هذه الخسارة ربحت الولايات المتحدة التي تقود هذا المخطط في جنازة صديقها الراحل أمراً لم يخطر في بال عربي من المحيط إلى الخليج أنه سيحدُث، وجاء يشكِّل صدمة للذين إفترضوا أن جزائر "الوئام الوطني"، الشعار الذي أطلقه الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة منذ أن إستقر به مقام الرئاسة، ستكون نقطة إنطلاق لإعادة الروح إلى الجزائر التي إبتَعَدوها عن الإهتمام والتعاطي بالقضية الوطنية العربية وأشغلوها لهذا الغرض طوال خمس سنوات بإقتتال داخلي إتسم بالبشاعة.

لكن الذي حدَث هو أن جزائر بوتفليقة إنتسبت إلى العملية السلمية ودخلت بوابتها من الباب الرئيسي وإن كان جانب اللياقة في الأمر يبدو هو السبب وراء هذا الإنتساب. وربما كان من الصعب حدوث هذا الإنتساب المتمثل بمصافحة بين الرئيس بوتفليقة وإيهود باراك رئيس وزراء إسرائيل لولا مناسبة مشاركة الإثنين في جنازة الملك الحسن الثاني، لكن رحيل الملك الذي كان يتطلع لو كُتب له العمر لتحقيق مثل هذه المصافحة وربما ما هو أكثر من المصافحة، جاء يحمل في طياته خطوة الرئيس بوتفليقة التي فاجأت

العرب بجناحيهم؛ جناح عرب التسوية وجناح الذين ما زالوا في الإنتظار أو التريث إلى حين إنقشـــاع الغيوم الثقيلة التي تحجب حقيقة الموقف الإســـرائيلي من عملية السلام والسعي الأميركي لإنجاز هذه العملية.

واللافت للإنتباه أن مثل هذه المصافحة كان يمكن أن تبدو أقل إثارة لو أنها جرت بين الرئيس زين العابدين بن علي وباراك، وذلك على أساس أن الرئيس التونسي سبق وسجَّل خطوة أولى مهمة وإن جاءت خجولة على طريق التعامل مع إسرائيل دبلوماسياً وتجارياً في الحد الأدنى القابل للتطوير. لكن الرئيس زين العابدين شارك في الجنازة ولم يصافح، الأمر الذي يعني أن الرئيس بوتفليقة لم يكن مضطراً للمصافحة لو أنه لا يريد ذلك وأن أحداً، وبالذات الرئيس كلينتون، لن يلومه على ذلك.

وقد يكثر الإجتهاد في شأن تفسير هذا الفعل من جانب الرئيس الجزائري، ولكن التفسير الأقرب إلى منطق الأمور هو أن بوتفليقة الحاذق إلى أبعد حدود الحذاقة بحُكم تجربته الدبلوماسية العريقة قبْل أن يتوارى في الظل ويعْقُب ذلك الوصول إلى قمة السُلطة، رأى أنه ما دامت الأمور تسير في إتجاه فرْض السلام بين العرب وإسرائيل وفْق المفهوم الأميركي لهذا السلام وأن لا مجال لأي سلام آخر، فليسجل وقفة تسبق الموقف من شأنها إبهار الرئيس كلينتون الذي خذله الرئيس حافظ الأسد عندما لم يشارك في الجنازة ولا حتى أرسل إبنه الدكتور بشَّار، وذلك كي لا يجد نفسه محاصراً بإصرار أميركي على مصافحة باراك مع أن طبيعة العلاقة السورية – المغربية تحتّم مشاركة الرئيس الأسد في الجنازة. وفي مجال التوقع يجوز الإفتراض أن الرئيس الأسد قد يصل في أي لحظة إلى الرباط للقيام بواجب التعزية وشد إزر الملك الخلف محمد بن الحسن.

وقد يقال إن الرئيس الأسد شارك في جنازة الملك حسين ومع ذلك لم يحدُث ما من شأنه التسبُّب له في الإحراج بحيث يرتّب الرئيس كلينتون لقاء مصافحة وفي مقر إقامته بين الرئيس الأسد ورئيس وزراء إسرائيل نتنياهو. والرد على ذلك هو أن ظروف تلك المرحلة تختلف تمام الإختلاف، حيث إن كلينتون كان لن يفعل ذلك ليس لأنه يدرك أن الأسد لن يتجاوب معه ولن يسايره على الإطلاق، وإنما لأنه كان في إنتظار أن تُجرى الإنتخابات في إسرائيل ليفوز (بما هو شبه مؤكد للرئيس كلينتون) باراك ويتجدد الحديث حول العملية السلمية بما يحقق التقارب بين سوريا وإسرائيل وهو ما يحدُث حتى الآن لفظاً كما يلاحِظ المتتبعون للتطورات وللتصريحات السياسية المتفائلة التي تصدر من واشنطن ودمشق وتل أبيب.

ومِن هنا فإنه في غياب الرئيس الأسد عن الجنازة، وغياب خطوة ربما كان الرئيس كلينتون يتطلع إليها من دون أن يأخذ في الإعتبار أن الأسد قد يكون يعتبر المصافحة واردة بعد توقيع الإتفاق الذي يرضيه وليس قبْل ذلك على الإطلاق... إنه في الغياب الذي نشير إليه جاءت خطوة بوتفليقة تُدخل البهجة إلى نفس الرئيس الأميركي على أساس أنه كسب إلى جانبه صقراً تكمن أهميته في أن إنتساب بلاده إلى العملية السلمية تقلل بطبيعة الحال من طمأنينة الفصائل الفلسطينية الرافضة للتسوية في أنها ستجد في الجزائر عند الضرورة وبعدما ستضيق جغرافياً دول المشرق بوجودها السياسي والإعلامي (لأن الوجود المسلح غير متوافر على الإطلاق)، الملاذ الآمن والذي يُبقي على شيء من الحيوية يفيد في اللحظة المناسبة. كما أن من شأن الخطوة البوتفليقية المثيرة أن تخفف الكثير من الظنون وعلامات الإستفهام المرتسمة فوق المملكة المغربية الأكثر إنفتاحاً على إسرائيل وتونس الأكثر إقتناعاً بالتسوية مع إسرائيل وموريتانيا الأكثر هرولة نحو التسوية مع إسرائيل وليبيا الأكثر إضطراراً لإعتماد هذه التسوية كشرط غير معلَن لإزاحة سيف المقاطعة الدولية بإزالة رواسب أزمة لوكوربي.

وثمة إفتراض لا يجوز إغفاله وهو أن خطوة بوتفليقة قد تكون تعكس ما بدأ يدور في عقله الباطن، وهو أنه بعد وفاة الحسن الثاني سيحدُث في الجناح المغاربي من العالم العربي فراغ زعامة وأنه من وجهة نظره وإعتماداً على وزن الجزائر ورصيدها والقدرة التي لديه على إعتماد المرونة والتكيف مع المستجدات والتحولات في العالم، فضلاً عن خبرته في العمل الدبلوماسي وإحاطته بحُكم أنه من المخضرمين والشهود التاريخيين على مرحلتيْن بالغتيْ الأهمية من العمل السياسي العربي.. إنه إستئناساً بذلك وإعتماداً على هذا كله، يرى أن ليس مَن يمكن أن يملأ الفراغ غيره. فالملك محمد بن الحسن يحتاج إلى بضع سنوات لكي يمارس هذا الدور، والعقيد القذَّافي تحت الحصار السياسي والنفسي والمادي، والرئيس زين العابدين يدرك الحجم الذي ليس من مصلحة بلاده

سـياحياً وسـياسـياً تجاوزه، وهو حجم لا يجيز لرئيس تونس أن يغامر بإستقرار ملموس حققه للبلد، والرئيس الموريتاني العقيد معاوية ولد الطايع ينحصـر دوره في مؤازرة زعامة لا أكثر.

وتبقى وجهة نظر لا بد من تسـجيلها وهي أن مصـافحة بوتفليقة عن سـابق تصـميم وتدبير لرئيس وزراء إسـرائيل، والمصـافحة بين وليّ عهد الكويت الشيخ سعد العبدالله وباراك التي تمت بتدبير إسرائيلي هدفه الإحراج ولولا ذلك لما كان الشيخ سعد سارع إلى التبرؤ من حدوثها... إن هاتيْن المصـافحتيْن هما من المصـافحات التي لا تشـغل البال العربي. فالرئيس بوتفليقة أراد من المصـافحة أن لا يغيب الجناح المغاربي للأمة عن واجبه إزاء عملية التسـوية بغياب الحسن الثاني. والشيخ سعد لا يحتاج إلى مصافحة تتم عن سـابق تصـميم لكي يكسـب تأييد الولايات المتحدة لبلاده لأن مثل هذا التأييد حاصل ووصل إلى درجة شن حرب على العراق. ومن المؤكد أنه لو كان يريد للمصافحة أن تكون على نحو مصافحة بوتفليقة لـ باراك لما كان تحاشـى مد اليد إلى الرئيس عرفات ولكان صـافحه وتعانق معه وذلك لكي لا تكون هنالك ملامة داخلية أو عربية! ولكنها، كما هو واضـح، مصـافحة ذات طـابع تسـللي كثيراً مـا إعتمده الإسـرائيليون ولم يبدّل شـيئاً من حقيقة أن إسـرائيل ستبقى عدوة في نظر الشيخ سعد وفي نظر بوتفليقة وفي نظر كل الذين أبرموا إتفاقات معها... وذلك في إنتظار أن يسود السلام العادل والشامل المنطقة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 1 أغسطس (آب) 1999

* * *

أحزان وأفراح كُروية

في الوقت الذي كان الأخذ والرد في شـأن العملية السـلمية يزداد تشـعباً وتتزايد تبعاً لذلك الحيرة في ما سـينتهي إليه أمر إسـتئناف المفاوضـات السـورية – الإسـرائيلية هل تبدأ في منتصـف سـبتمبر/ أيلول أم تعرقلها بعض المفاجآت... في هذا الوقت كان الرأي العام في أكبر دولتيْن عربيتيْن مشـغولاً بحدث رياضـي لعله الحدث الأبرز على الصـعيد الرياضـي العربي يشهده القرن العشرون الذي يتسارع العد العكسي ليومه الأخير.

وخلاصـة هذا الحدث أن المنتخَب السـعودي إلى بطولة القارات التي تجري في المكسـيك (والتي هي فكرة المملكة العربية السـعودية وتحمل إسـم خادم الحرميْن الشـريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز) خاض يوم الجمعة 30 يوليو/ تموز 1999 مباراة مع المنتخَب المصري إنتهت بفوز الأول بخمسة أهداف سجل أربعة منها لاعب واحد مقابل هدف واحد للمنتخَب المصري.

كان الفوز مبهراً. ولكن رد الفعل الناشـئ عنه لم يكن رياضـي الروح على الإطلاق. ذلك أن بعض وسائل الإعلام في المملكة العربية السعودية إستعملت عبارات كثيرة الخشـونة مثل "بخمسـة حلوين فرَّجنا العالم على المصـريين" و"خمسـة تاريخية تعيد الهيبة السـعودية". وبطبيعة الحال فإن مثْل هذه الروحية في الكتابة تشـعل الحماسـة في نفوس جمهور الكرة في المملكة المتحمس أصـلاً لهذه الرياضـة ولاعبيها، وهو ما حدَث بالفعل لأن الخراف نُحرت بالمئات والمسيرات إنطلقت بالعشـرات وأطلق الكثيرون إسـم مرزوق على مواليدهم الذين صـادفت ولادتهم يوم الفوز المبهر للمنتخَب السـعودي تكريماً منهم للاعب الذي تحقق الفوز على قدميه (مرزوق العتيبي) والذي بات في نظر السـعوديين مثل اللاعب زين الدين زيدان في نظر الفرنسـيين الذي حقق لفرنسـا الفوز بالمونديال صـيف 1998، مع فارق أن العتيبي سـعودي أباً عن جد ومن عائلة مرموقة وكريمة في المملكة، بينما زيدان فرنسي بالتجنس.

ولكن الفوز المبين ببطولة العالم بكرة القدم جعلت الرئيس شـيراك والفرنسـيين عموماً بمَن في ذلك الجماعات اليمينية المتعصـبة والعنصـرية تبتهج باللاعب الجزائري الأصـل وتسـجل كثير الإمتنان له لأنه حقق لفرنسا البطولة الدولية التي هي آخر بطولة في القرن العشرين.

وبدل أن تبتهج وسـائل الإعلام في مصـر بالفوز الذي حققه منتخب شـقيق وتعتبر تألق اللاعب السـعودي الذي تَحقق الفوز على قدميْه مكسـباً لمصـلحة الأمة كلها، نجدها حزينة كما لم تحزن من قبْل ولم يبقَ سـوى إعلان الحداد لبضـعة أيام، كذلك نلاحظ من خلال ما كتَبَتْه حول المباراة أنها لا تنظر إلى الأمر من زاوية رياضـية الروح وتعتبر بالحزن والعبارات الحزينة التي إسـتعملتْها أن الفوز يجب أن يكون للمنتخَب المصـري. ومثْل هذا الأمر جائز

بالنسبة إلى جمهور الكرة لكنه ليس جائزاً على الإطلاق بالنسبة إلى وسائل الإعلام التي نلاحظ أنها بدل أن تهدئ من روع جماهير كرة القدم فإنها أشعلت البيت ناراً وهي تتحدث عن "الفضيحة الحمراء لمنتخَبنا الوطني"، و"هزيمة ثقيلة للمنتخَب الوطني أمام السعودية" و"العوض على الله في الكرة المصرية. المنتخَب يلعب أسوأ مباراة في التاريخ، ويسقط أمام السعودية بالخمسة" و"فضيحة عيار ثقيل" و"المنتخَب ذلَّنا والجوهري ذبَحنا" و"خيانة ومؤامرة في المنتخَب". ولم يقتصر الأمر على ذلك وإنما بدأت وسائل الإعلام المصرية تستعمل مفردات مثل "فضيحة القارات ومهزلة القرن العشرين" وبدأت ترتفع أصوات تطالب بإقالة قائد المنتخَب محمود الجوهري مع أن الرجل سبق ونجح في وصول مصر إلى نهائيات بطولة كأس العالم في إيطاليا عام 1990 وفي إحراز كأس الأمم الأفريقية في بوركينا فاسو عام 1998. ثم يستغل بعض نواب البرلمان المصري الموقف فيضيفون من جانبهم المزيد من الحطب إلى النار المشتعلة ويصل الأمر إلى حد أن رئيس لجنة الشباب والرياضة في مجلس الشعب (أي البرلمان) طالب بمحاكمة الجوهري وتسريح المنتخَب وحل إتحاد الكرة فوراً، مؤكداً أنه سيطالب ببحث الفضيحة في البرلمان. أما رئيس الحكومة الدكتور كمال الجنزوري الذي هو أيضاً رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة فإنه طلب تقريراً مفصلاً عما جرى تمهيداً لإتخاذ قرارات كثيرة القساوة.

ما إفتقدناه وتمنينا حدوثه هو أن يتسم رد فعل جمهور كرة القدم السعودي وبعض وسائل الإعلام في المملكة بالإبتهاج الذي ينأى عن الإستفزاز والشماتة. وخيراً فعل الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب والرياضة ورئيس الإتحاد السعودي لكرة القدم عندما حاصر، بتصريح متزن وقومي ومسؤول، الحماسة السعودية التي تجاوزت الأصول فقال: "إن سعادتي تكمن في تأهُّل منتخَب عربي إلى دور الأربعة ومقارعة المنتخَبات العالمية. كما أن فوز المنتخَب السعودي على شقيقه المصري يمثِّل تنافساً شريفاً لما يخدم مصالح الكرة العربية وتطورها وتبوأها مكانتها العالمية. ولن يقلل فوز السعودية أبداً من مكانة الكرة المصرية التي تملكُ سجلاً حافلاً من الإنجازات أفريقياً ودولياً...".

أما الذي إفتقدناه وتمنينا حدوثه من الجانب المصري وبالذات من رئيس الوزراء، الذي يشغل أيضاً في بلاده منصباً مماثلاً لمنصب الأمير فيصل بن فهد في المملكة، فهو أن يتضمن تصريح يدلي به تهنئة المنتخَب السعودي بالفوز الذي حققه ويضيف بعض الكلام الشبيه في روحيته بالكلام الذي أوردناه في تصريح الأمير فيصل وبذلك تهدأ عواطف المصريين الذين تصرفوا وكأنما الذي حدَث هو نكسة رياضية تشبه في قسوتها عليهم النكسة العسكرية التي حدثت يوم 5 يونيو/ حزيران 1967 مع أن الرياضة ليست حكراً على منتخَب دون آخر وإلاّ لما كان زيدان الفرنسي – الجزائري تَسبب للبرازيل ونجمها الساطع رونالدو بخسارة بطولة الأولمبياد الماضي الذي حصلت عليه فرنسا بجدارة وبفضل قدميْ زيدان على نحو ما حققه مرزوق العتيبي للمنتخَب السعودي. والفرق بين وسائل الإعلام الفرنسية وجماهير الكرة في فرنسا أنها لم تعتبر فوزها فضيحة مُني بها المنتخب البرازيلي على نحو ما رآه الجانب المصري وإنما غامرها شعور بالإعتزاز لأنها فازت على منتخَب له باعه الطويل في مضمار كرة القدم. وهذا ما كان مؤمَّلاً من الجانب السعودي أن تكون عليه نظرته فلا يغلب الإنفعال على حقيقة الأمور وإلى درجة الشماتة من خلال عبارة "بخمسة حلوين فرّجنا العالم على المصريين".

وتبقى كلمة حق، يراد بها حق ونحن نسجل هذه الملاحظات على مباراة رياضية إنتهت بأن المنتخَب السعودي حقق فوزاً مبهراً يبدو كما لو أنه تحية كثيرة التميز يوجهها إلى الملك فهد الذي يقضي إجازة خارج المملكة، وخلاصة هذه الكلمة أن الروح الرياضية التي إندثرت تماماً في الحياة السياسية العربية إلاّ إذا إستأنفت مؤسسة القمة العربية الإنعقاد الدوري وتنعقد القمة المرجوة التي تلم الشمل على نحو ما كان يسعى المغفور له الملك الحسن الثاني لو أمدَّ الله في عمره... إن هذه الروح لا نريد لها أن تندثر هي الأُخرى في الحياة غير السياسية وبالذات في مجالات الرياضة والشباب، لأن إندثارها يعني أن تتحول الأمة إلى جماعات متنافرة تغلب فيها مشاعر الشماتة والأنانية على التآلف. وقانا الله سوء هذه المشاعر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 4 أغسطس (آب) 1999

* * *

تعاطف عربي في غير محله

عندما شاعت أخبار الهَوس الجنسي لدى الرئيس

بيل كلينتون وبدأ الغسيل غير النظيف يُنشر على سطح البيت الأبيض، حدَث نوع من التعاطف العربي رجالاً ونساءً مع السيدة هيلاري زوجة الرئيس الأميركي المهووس جنسياً. وكلما كانت وسائل الإعلام في الولايات المتحدة وبقية دول العالم تنشر المزيد من المعلومات والتفاصيل والشهادات والوثائق عن محاولات التحرش التي كان يقوم بها كلينتون من قبْل أن يصبح رئيساً للدولة الأعظم في العالم، كان التعاطف مع السيدة هيلاري يتزايد، ربما لأننا شعوب لا تتحمل مسألة الخيانة الزوجية ونهتدي بما يوصي به الدين في شأن المعاصي التي إذا أُبتلي بها المرء فعليه أن يستتر، وربما لأننا في ذروة الغضب على ما تفعله بنا إدارة الرئيس كلينتون وكيف أن الرئيس الذي بنينا على ولايته الثانية الكثير من الآمال خيب ظنونا به. ونتذكر الآن كيف أننا إفترضْنا بعد الفوز الساطع الذي حققه كلينتون في معركة الولاية الثانية له أنه ما دام بات قوياً وتخلصت إرادته من الضغوط والقيود الصهيونية، فإن إدارته المتجددة ستعمل من أجْل تحقيق السلام العادل والشامل في المنطقة وتعوِّض الشعب الفلسطيني مآسي نصف قرن بأن تقف إلى جانبه لإنشاء دولته المستقلة وعاصمتها القدس بعدما إرتضت قيادة هذا الشعب وتحت وطأة خيبات الأمل وعامل تقدُّم السن وتراجُع الوضع الصحي من جهة، والمراهنات على مواقف غير محسوبة تماماً من جهة أُخرى، أن ترضى بالحد الأدنى ووفْق الصيغة التي رسمت الولايات المتحدة معالمها.

وبعدما خاب الظن به وبدأت الرموز اليهودية تقتحم الإدارات والمراكز الفاعلة في القرار الأميركي، صار من الطبيعي عندما يأتي منْكَراً ما أن يحدُث نوع من التعاطف مع زوجته، ثم تزايد هذا التعاطف بعد الذي قيل وأُذيع عن الفعل الفاضح الذي إرتكبه الرئيس كلينتون مع الفتاة اليهودية مونيكا لوينسكي داخل البيت الأبيض وفي غرفة كثيراً ما صيغت فيها قرارات تتعلق بمصير العالم.

وبلغ التعاطف مع السيدة هيلاري ذروته بعدما أعلنت، على هامش مشاركتها في مؤتمر دولي في سويسرا، وكانت وقتذاك في وضْع لم تواجهه بهذه القساوة زوجة من قبْل، موقفاً يُستدل منه أنها مع أن تكون للشعب الفلسطيني دولة يقرر فيها هذا الشعب مصيره الذي يناسبه، ومع أننا أخذْنا في الإعتبار مسألة أن تكون هذه الرؤية للسيدة هيلاري هي من نوع الإغاظة للأجهزة الإسرائيلية ولجماعات الضغط الصهيونية في الولايات المتحدة التي تكون وراء زرْع مونيكا في البيت الأبيض بالطريقة التي تُحقق المتعة لسيد البيت والإهانة لسيدته.. مع أننا أخذْنا في الإعتبار ذلك فإن هذه الرؤية التي تصدر عن السيدة الأُولى في البيت الأبيض بدت كثيرة الأهمية لأن هيلاري هي أكثر سيدة أُولى تعاطت الشأن السياسي وكان لها حضور في بعض القرارات والتعيينات.

وعلى رغم أن الرؤية تلك كانت مثْل صرخة في واد، والتبرؤ منها جاء فورياً من جانب البيت الأبيض المطوَّق بالتأثير الصهيوني من خلال المراكز الثلاثة الفاعلة في صناعة القرار (الخارجية، الدفاع، الأمن القومي) إلاّ أننا إستبشرْنا خيراً بكلام السيدة هيلاري، فهو على الأقل يشكِّل تقاطعاً ويؤكد أن الصوت داخل البيت الأبيض ليس موحَّداً، وأن هيلاري المجروحة في كبريائها قد تعمل على تطوير رؤيتها في الوقت المناسب، وفي ذلك مصلحة لقضية السلام المثخنة بالمماطلات والتراجعات الأميركية – الإسرائيلية.

وإلى ذلك إفترضْنا أن هيلاري، وبعدما رفعت زيارة قام بها إلى مصر وأُخرى إلى المغرب (لقيت خلالها حفاوة لا مثيل لها من الرئيس حسني مبارك والملك (الراحل) الحسن الثاني معنوياتها، وشدَّت من عزيمتها وأسعدت إبنتها تشيلسي التي كانت برفقتها، ستكون نصيرة للسلام في البيت الأبيض وتنشط لنشر ألويته فوق منطقة الشرق الأوسط وتختم حياتها بعمل لمصلحة الإنسانية. ولكن مثلما خاب الأمل بالرئيس كلينتون بعدما تحققت له الولاية الثانية وبإمتياز، فإن الأمل خاب بـ هيلاري التي فاجأتُنا بموقف مستهجَن هو عكس موقفها المستحَب بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني، وجاءت المفاجأة بعدما قررت هيلاري خوض غمار العمل السياسي من خلال الفوز بمقعد مجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك (القلعة اليهودية) يؤهلها مستقبلاً لخوض معركة الرئاسة إلى نحو ما يطمح إليه جورج بوش الإبن، بمعنى أن الإبن يثأر بفوزه، من كلينتون الذي هزم والده المنتشي بالمكاسب التي حققها للأميركان من حرب الخليج، وأن الزوجة (هيلاري) تثأر في حال فازت بالرئاسة من زوجها الذي مرّغ الرباط المقدس باليهودية لوينسكي الذي شاطرتْه حالة الهَوَس الجنسي. وفي الموقف الجديد بدت هيلاري كلينتون على حقيقتها وعلى عكس ما إفترضناه فيها وتوقعناه منها. فهي تناست الموقف

المشـــرّف الذي زاد من دفء التعاطف العربي مع محنتها وأعلنت في تصريح بالصوت العالي ما يوحي بأنها تؤيد الموقف الإســـرائيلي الباطل وتدعو إلى أن تكون القدس عاصمة موحَّدة لإسرائيل إلى الأبد.

منذ هذا التصريح بدأ التعاطف مع هيلاري يتراجع، إذ كيف يجوز التعاطف مع ســـيدة مظلومة من زوج خان الرباط المقدس، إذا كانت لا تراعي ظلماً فادحاً ألحقتْه الدولة المعتدية إســـرائيل وبدعم وتأييد من الولايات المتحدة بالشـعب الفلسـطيني، ووصـل عدم المراعاة إلى حد أنها من أجْل أصـــوات يهود نيويورك التي قد تنالها وقد لا تنالها أطلقت تصـــريحاً ينم عن الإستهتار السياسي حذفت بموجبه حقاً فلسطينياً لا يمكن التفريط فيه، وهو أن تعود القدس إلى أصـحابها وإلى المؤمنين مســـلمين ومســـيحيين، وهذا يكون بتحريرها من الإحتلال الإسرائيلي.

ثم تلاشـــى التعاطف نهائياً بعد الذي قيل إن طينة هيلاري من طينة زوجها، كلاهما خان الرباط المقدس وكل على طريقته، وأنها بذلك ليست مظلومة وإنما هي مارســـت نزوتها مع محامي البيت الأبيض على نحو ممارســـة زوجها نزوته مع الفتاة اليهودية مونيكا لوينسكي.

بعد تلاشي التعاطف بدأت تحل في النفوس العربية مشـــاعر غير ودية على الإطلاق تجاه هيلاري بعدما أعلنت قبْل أيام وبناء لنصـيحة مسـتشـار يهودي أنها ذات أصـول يهودية، وأن شـجرة عائلتها تتضـمن فرعاً يهودياً يمثِّله ماكس روزنبرغ، زوج جدتها ديللا (وليس جدها)، وأن لها "ذكريات حميمة" معه وبقيت على إتصال دائم حتى قبْل سنة مع خالتها اديلين فريدمان، النصـــف يهودية (إبنة ماكس وديللا روزنبرغ). وقد تكون صديقتها التي سبقتْها في هذا الإكتشاف مادلين أولبرايت هي صـاحبة الفكرة على أسـاس أن صـاحبة المنصـــب الثاني في الإدارة الأميركية (أي أولبرايت) تخطط منذ الآن لما ســـيكون عليه وضْـــعها بعد أن تنتهي ولايـة كلينتون ويتبعثر اللوبي اليهودي في إدارتـه. وربمـا تبني التخطيط بحيث تكون قريبـة من هيلاري عضـو مجلس الشـيوخ في حال كسـبت هذه مقعد نيويورك.

ما نســتخلصـــه من ذلك هو أن هيلاري من النوع الذي يمكن أن يفعل أي شـيء من أجْل تحقيق غايته. وربمـا قـد تفـاجئنـا مع إقتراب معركـة الإنتخـابـات بإكتشافات أخرى تؤكد فيها أنها يهودية بالكامل. وعلى هذا الأساس فإن التعاطف العربي معها كان في غير محله، وربما جاز القول أنه نزوة أو أنه ليس أول تقدير خاطىء في تعاملنا مع أميركا أشخاصاً وسياسات... وغالب الظن أنه لن يكون الأخير.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 11 أغسطس(آب) 1999

* * *

مسألة الإسم بين الترابي وكدُّودة

قبْل أيام قرأْنا في صحيفة "الرأي العام" الصادرة في الخرطوم كلاماً منســـوباً إلى الدكتور حســـن الترابي "الخصـم والحَكَم" للمعارضـة السـودانية خلاصـته أنه سـيسـعى إلى تحقيق التوحُّد مع المعارضـين في كيان واحد إذا ما قبِلوا بثوابت الدســـتور، موضـــحاً أنه لن يمانع في تغيير إسـم "المؤتمر الوطني" (إسـم الحزب الحاكم في الســـودان) إذا تمّ الإتفاق على المبادئ وتسـمية التنظيم الجديد "الإتحاد الشـعبي" أو أي إسـم آخر.

وقبْل ذلك قرأْنا في صـــحيفة "البيان" الصـــادرة في الخرطوم أيضـاً تصـريحاً أدلى به فاروق كدُّودة الأستاذ في جـامعـة أم درمـان الأهليـة وأحـد المـاركســـيين المسـتنيرين ومِن قادة الحزب الشـيوعي السـوداني أن الحزب أعدّ دراســـة لتطوير أفكاره حتى تتلاءم مع المتغيرات الدولية التي أعقبت إنهيار الإتحاد السوفياتي وإنتهاء الحرب الباردة موضِّـحاً أن العالم الإسـلامي لا يتقبّل الفكر الماركسي وأن هذا هو السبب المباشر في الإتجـاه لتغيير إســـم الحزب بهـدف إحيـائـه، داعيـاً التنظيمات التي إنشـــقت عن الحزب إلى العودة إلى صفوفه تحت الإسم الجديد.

في الحالتيْن ليس الإســـم هو المشـــكلة فقط وإنما التوجه والرؤية الواقعية. فما هي الفائدة إذا تبدَّل إســـم الحزب الحاكم في السودان ولم يرافق ذلك تبدُّل أساسي في التعامل مع الواقع السوداني وهو أن السودان أرضاً وحُكْماً هو للجميع وليس لمجموعة دول أُخرى كما هي الحـال الآن. وفي تقديرنـا إن مـا يتطلع إليـه الـدكتور الترابي هو أن يكون الحزب عبارة عن أكثرية محاطة بمجموعة من الأقليات الحزبية وهي صـيغة قد تُرضـي الأطراف الحزبية المعارضـة في حال أن سُـبُل العمل من الخارج ضـــاقت بها وأن الحصـــول على بعض

الشيء يبقى أفضل من الإستمرار في التنقل من دولة إلى أُخرى، أو أنها بمعنى آخر مثْل تلك الخطوة المتعلقة بوقف إطلاق النار مع العراق والتي وجد الإمام الخميني نفسه مضطراً للقبول بها لكنه ضِمناً لا يريدها فأعلن القبول من خلال العبارة الشهيرة وخلاصتها إنه بموافقته كمَن يتجرّع السم.

وإذا حدث أن أركان المعارضة السودانية وبالذات السيد الصادق المهدي والسيد محمد عثمان الميرغني إرتضوا الصيغة التي يقترحها الترابي فإن مثل هذا القبول سيكون أيضاً – على نحو القبول الخميني – كمن يتجرّع السم، وليس في ذلك أي مصلحة للسودان وللوفاق الذي يتزايد السعي من أجْله. والحل الواقعي للسودان وللسيديْن اللذين ما داما أخفقا في العودة إلى السودان لتسلُّم السُلطة هو القبول، لأن الظروف الموضوعية تُحتّم عليهما عدم معاودة تجربة العيش في الشتات لما فيها من إحراجات ومواقف على حساب الكبرياء الشخصي والوطني. ومثْل هذا الرضى لن يحدُث إلاَّ من خلال إنتخابات حرة وتشرف عليها أطراف دولية تحسم مشاهداتها وتقاريرها عن العملية الإنتخابية أي جدل وأي إدعاءات. وبعد هذه الإنتخابات يأخذ كل ذي حق حقه وتسقط نهائياً بعض الشعارات والإدعاءات ومن بين إدعاء مَن هم في السُلطة بأنه لا مكان للأحزاب للمشاركة في قيادة البلاد، وإدعاء مَن هم في المعارضة بأن الأمور لن تستقيم ولن يوقفوا بالتالي التصدي للسُلطة إلاَّ إذا تغيّر النظام. وقد أثبتت التطورات أن الجانبيْن لم يكونا على حق في رؤيتهما البعيدة عن الموضوعية والواقعية بدليل أنهما في صدد التوصل إلى رؤية مشتركة تتحقق في ضوئها وعلى هدى بنودها المصالحة، التي في حال نجاحها ستحقق الوحدة الوطنية المغيَّبة عن السودان منذ بضع سنوات.

وإذاً فإن ما يقوله الدكتور الترابي في شأن تسمية الحزب لن يكون الحل، ولكن مجرد القول معناه إقرار من جانبه كمرجع عقائدي للنظام الحاكم بأن صيغة الحزب الواحد فاشلة وأن تغيير الإسم لن يغري مَن لديهم عراقة في العمل الحزبي في أن يكونوا مجرد ديكور في البيت الرسمي السوداني بهدف تحجميل هذا البيت. وليبقَ إسم الحزب الحاكم على ما هو عليه ويخوض الإنتخابات الحرّة إلى جانب حزب الأمة والإتحاد الديموقراطي وحزب نميري وبقية الأحزاب الصغيرة. وصندوق الإقتراع هو الذي يفصل في أمر الصيغة المناسبة للحياة السياسية في السودان.

أما ما يتعلق بالمحاولة الماركسية لعودة الشيوعيين إلى ممارسة العمل الحزبي على نحو ما يراه القيادي الماركسي المستتير فاروق كدُّودة فإن المرء لا يمكن إلاَّ أن يحيي هذه المرونة التي غابت عن قادة شيوعيي السودان في الستينات والسبعينات، والتي تبدو كما لو أنها نصف إقرار بأن الشيوعية كلمة غير مستحبة أو إنها باتت كذلك في نظر أبناء السودان.

ولكن فاروق كدُّودة شأنه شأن الدكتور الترابي لا يلمس الجوهر ويتوقف عند الشكليات. كلاهما يحصر المسألة في التسمية. الترابي يرى أنه لمجرد تغيير إسم الحزب الحاكم من "المؤتمر الوطني" إلى "الإتحاد الشعبي" يتحقق الوفاق ويعود معارضو الشتات إلى الديار التي غابوا عنها مضطرين وليسوا مختارين بضع سنوات. وكدُّودة ورفاقه دعاة التغيير في الحركة الشيوعية السودانية في صدد إستنباط إسم جديد للحزب لا يتضمن كلمة الشيوعية. والخطوة في أي حال على جانب من المرونة والمسايرة لواقع الحال في السودان، كما أنها فرصة للقفز إلى قطار الحُكْم والحصول على الإعتراف والإستقرار، وأيضاً على بعض المناصب والمكاسب ولو كانت متواضعة.

وبصرف النظر عما سينتهي إليه الأمر وهل تتمسك بقايا ديناصورات الحركة الشيوعية السودانية (وأبرز هؤلاء الزعيم المختفي – الظاهر إبراهيم نُقد) بالتسمية على نحو ما فعلتْه أحزاب شيوعية عربية أُخرى من بينها الحزب الشيوعي اللبناني الأكثر حيوية بين هذه الأحزاب... بصرف النظر عن ذلك فإن التيار المتجدد في صفوف الماركسيين السودانيين مُطالَب بأن لا يخدع الآخرين بمعنى أن يتصرف شيوعياً إنما تحت لافتة توحي ربما أنه ديموقراطي ومسلم إجتماعي... الخ. فالخلاف بين السوداني والعقيدة الماركسية ليس على التسمية وإنما على المضمون فضلاً عن أسلوب المغامرة الذي إعتمدتْه بعض القيادات في أواخر السبعينات ومطلع الثمانينات فجعلت الحزب موضع تساؤلات وبات الحذر يغلب على التقرب منه.

ويصعب الإفتراض بأن "الرفيق" فاروق كدُّودة وبعض "الرفاق" معه سيعيدون شأن الحزب الشيوعي السوداني الذي إستمر منذ إنشائه قبْل 53 عاماً أكثر الأحزاب الشيوعية العربية والأفريقية إثارة للجدل. لكن في ضوء تجربة الحزب السوري القومي الإجتماعي

في لبنان وكيف نشـــأت الظروف التي إســـتفاد منها الحزب لإلتقاط أنفاسـه وإسـتعادة صـفوفه يجوز القول إن المحـاولـة الكـدُوديـة يمكن أن تنجح مع الوقـت مسـتفيدة من أن تضـحية الحزب الشـيوعي السـوداني الذي أعدم نظام نميري زعيمه عبد الخالق محجوب كانت مثل تضحية الحزب السوري القومي الإجتماعي الذي أعدم الرئيســان بشــارة الخوري ورياض الصــلح زعيمه أنطون ســعادة. والتضـــحية عندما تكون على مستوى القيادة يكون لها مردود... ولو بعد حين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 18 أغسطس (آب) 1999

* * *

أمثولة الكسوف... للحكام والمحكومين

للمرء أن يتصور لو أن العِلْم لم يتوصل إلى تحديد حدَث كوني مثْل الكســوف الجزئي للشــمس يوم 11 أغسـطس/ آب 1999 وتصـل دقة التحديد إلى السـاعة التي سـيقع فيها ذلك الحدَث، ما الذي كان سـيحدُث للملايين من البشر في بلاد كثيرة.

للمرء أن يتصـــور ما الذي ســـيصـــيب ملايين الفلاحين يحرثون الأرض في مزارعهم وحقولهم من دون أن يخطر في بال الواحد منهم أن الشــمس التي حضـروا إلى الحقول مع شـروقها سـتصـاب بكسـوف وسـينشـأ عنه ما أوضـح لنا العلماء والفلكيون والأطباء أنه ســـيحدُث، وهو الإصـــابة بالعمى على درجات تتفاوت بين فقدان البصـــر من الدرجة الأُولى أو من درجة يمكن تدارُك نتائجها الصعبة.

وللمرء أن يتصـــور ما الذي ســـيصـــيب ملايين الأطفال وهم يلهون في ملاعب روضـــاتهم ويتطلعون بين الحين والآخر نحو الشــمس التي تســطع بنورها على دنياهم الجميلة. وما الذي ســـيصـــيب ملايين العمال في ساعة الإستراحة في المصانع التي يعملون فيها، وملايين الطلبة في ساحات الكليات والجامعات، وملايين الجنود في المناطق والثكنات والمعســـكرات، وملايين السـياح على الشـواطئ وفي المناطق الجبلية يتنزهون، وملايين النسـاء وهنّ في الأسـواق يتبضـعن. وما الذي ســيصـــيب الحيوانات الأليفة وتلك التي في الغابات وكيف، وهي التي تعيش طوال النهار تحت الشــمس، ســتتحول إلى حيوانات أصــيبت بالصــرع والجنون أو أن الشـــمس المكســـوفة رمتها ميتة على الأرض. وما الذي سـيصـيب آبار النفط والصـناعات البلاســـتيكية وحقول الورد ومزارع الأبقـار والـدواجن والطائرات التي تحلّق في الجو والسـيارات التي تسـير على الأرض والإبل التي تتهادى في مشـــيتها على رمال الصـــحارى والمرضـــى الذين يتعافون في حدائق المسـتشـفيات والمتمددين على رمال الشـواطئ بهدف إكساب أجسادهم اللون البرونزي.

إن ما يشـــبه العمى الدولي كان ســـيبدأ وفي لمْح البصـــر لا أكثر لو أن الكسـوف سـيحدُث بغتة وليس هنالك إحتياطات مســـبقة لمواجهة الآثار التي تنجم عنه. وللمرء أن يتصـــور بضـــعة مليارات من ســكان الكرة الأرضـــية تُلِفت شـــبكيات عيونهم نتيجة رؤية عفوية من جانبهم للشـــمس المكســـوفة وباتوا بالتالي نتيجة هذا التلف عرضـــة للعمى. للمرء أن يتصـــور عالَماً من فاقدي البصـــر أو في الحد الأدنى ضـــعاف النظر إلى الـدرجـة التي لا يقوى الواحـد على رؤيـة الطريق الـذي أمـامـه. وللمرء أن يتصـــور كيف أن ملايين البشـــر يتحركون على الأرض وهم يحملون العصـــي البيضـــاء يتلمسـون بواسـطتها معالم الطريق وتسـاعدهم على ذلك الكلاب أو الأبناء والأحفاد الذين ولدوا بعد كارثة الكسوف.

هذه الصورة المفزعة لما يمكن أن ينتهي إليه الأمر حال دونها العِلْم الذي بفضـــل تطوره على مدى مئات السنين بات في الإمكان تحديد وقت الإعصار قبْل أن يحدُث وبذلك ينجو الملايين من ويلاته، وتحديد أحوال الطقس فيحتـاط الملايين للأمر بحيـث يلجـأون إلى شـــماســـيهم تقيهم المطر، ويرتدون الثياب المناســـبة لمواجهـة البرد والثلج، والتخفيف قـدْر الإمكـان من الثياب في حال جاءت النشرة الجوية التي تَصدُق في غالب الأحيان تبشـــر بطقس دافئ ومشـــمس، وهي بشرى سارة تبعث البهجة في نفوس الذين يعيشون في دول حزام المطر والبرد والثلوج. وتتســاوى هذه البهجة مع بهجة الذين يعيشـــون في دول حزام الحر ورياح الخماسـين والسـموم والطوز عندما تُبشِّـرهم النشـرات الجوية بأن الطقس سيكون معتدلاً وممطراً فتبدأ الهجرة العابرة التي لا تتجاوز أســـبوعاً إلى التخييم في البر الذي تكون رماله رطبة من جرَّاء المطر الذي تساقط.

ولكن العِلْم الـذي إســـتطـاع أن يحـدد مثل هـذه المفاجآت غير السارة للبشر لم يتمكن إلى الآن من أن يحدد سـاعة وقوع الزلازل، مكتفياً فقط بتحديد قياسـها

وقوتها وكذلك التحديد نسبياً لعمق حزام الزلازل. ومن المؤكد أنه لو لم يُخفق العِلْم في تحديد ساعة الزلازل لكانت مصر نجت من الزلزال الذي أصابها قبْل ثلاث سنوات وكاد يدمر عاصمتها المكتظة بألوف المنازل الآيلة للسقوط لو أن العناية الإلهية لم تتدخل فلا يطول وقت الزلزال وتبقى قوته دون نقطة الخطر الأكبر. ويتذكر المرء ما الذي أصاب إخواننا المصريين بعد ذلك الزلزال وكيف أن هزات أقل قوة تلاحقت بعد ذلك وزرعت الرعب في النفوس التي إفترضت أن الدقائق الأُولى من الساعة التي لا ريب فيها أتت وأن هذه الزلازل هي من علامات الآخرة.

كذلك من المؤكد أنه لو أمكن اليابان إحدى الدول الأكثر تقدماً على صعيد العِلْم والتكنولوجيا تحديد ساعة وقوع الزلزال سواء كان كبيراً أو مجرد هزة خفيفة لما كان الياباني يعيش مهموماً على مدى الأربع والعشرين ساعة بالهزات الأرضية التي تقع وأحياناً مرة أو أكثر في الأسبوع الواحد، وتنعكس هذه الهموم على نفسيته. ولو أمكن تكنولوجيا اليابان، التي أغرقت التخلف والجهل العالمي في بحر إبتكارات وإختراعات يبدو بعضها من صُنْع الخيال وليس من صُنْع البشر، من تحديد ساعة وقوع الهزات لكانت أنقذت ملايين البشر في العالم من الموت تحت ركام المنازل التي تقع على مَن فيها. وللمرء أن يتذكر ما الذي أصاب إيران والجزائر وغيرهما وكيف أن قرى بأكملها تحولت إلى أطلال.

ونخْلُص من هذه التأملات إلى القول إن الله سبحانه وتعالى، الذي علَّم الإنسان ما لم يعلَم، شاء أن يترفق بعباده وبالمخلوقات التي على الأرض فأعطى الإنسان نعمة العِلْم بالكسوف لأن الجهل بتحديد ساعة الكسوف من شأنه أن يجعل مَن على الأرض على غير الصورة الجميلة التي يريدها الله للمخلوقات، ومن شأنه أن يصبح عالمنا عبارة عن بضعة ملايين وربما مليارات من المصابين بالعمى الكامل أو العمى الجزئي في حال أن الكسوف حدَث من دون سابق تنبيه أساسه العِلْم.

ولكن هذا التنبيه يجب ألاّ ينظر إليه الإنسان على أنه فقط مجرد وقاية وإنما هو أمثولة وبالذات للمتجبرين من الحكام وللكافرين بنعمة الله من البشر ولكل غير حامد وشاكر لما أسبغ الله عليه من خيراته، بأن يتقوا الله في ما يفعلون حكاماً كانوا أو محكومين، وأن يأخذ كل منهم في الإعتبار أن الله الذي علَّم الإنسان ما لم يَعلم، يريد تذكير حكام غابت عن بصيرتهم الحقيقة وباتوا يتصرفون وكما لو أنهم آلهة، بأن القدرة الإلهية أقوى من أي شيء وأن الله لو أراد لجعل الإنسان لا يعلم بساعة الكسوف على نحو ما هو حاصل بالنسبة إلى جهْله بساعة حدوث الزلازل والتي هي أيضاً (أي الزلازل) نوع من التذكير بأن البقاء هو لوجه الرب ذي الجلال والإكرام.

وإذاً فالحمد والشكر والفضل هو لله سبحانه وتعالى الذي علّم الإنسان ما لم يُعلم، بحيث بات بضعة علماء على الأرض قادرين على معرفة ساعة الكسوف الذي هو في بعض جوانبه غضب من السماء على الأرض، وجعل منظمة الصحة العالمية من مقرها في جنيف تُحذر من مغبة الكسوف قبْل أسبوع من اليوم المحدد لآخر كسوف – والله أعلم – في القرن العشرين، وجعل الحكومات والصحف في معظم دول العالم تنبه وتوضح وتنصح مع أن العناية الإلهية هي في النهاية مَن سيحمي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 25 أغسطس (آب) 1999

* * *

عبدالعزيز بوتفليقة... ذلك الوسيط العربي

نعترف نحن جيل الكُتَّاب والصحافيين الذين عرفْنا الجزائر في سنوات حُكْم الرئيس الراحل هواري بومدْين في الفترة بين أواخر الستينات ومنتصف السبعينات، بأننا لم نكتشف في رجل ديبلوماسية تلك الحقبة عبدالعزيز بوتفليقة خصالاً وقدرات تشكِّل عناصر بالغة الأهمية في تكوين رجل الدولة.

لقد عرفْنا بوتفليقة في الجزائر والقاهرة وفي أروقة المؤتمرات العربية وبالذات مؤتمرات القمة الذي كان دائماً أحد النجوم الساطعة في هذه المؤتمرات. حيوية لا مثيل لها ومظهر ثوري محبَّب سواء مِن حيث البدلات الأنيقة التي يختارها أو مِن حيث الإبتسامة التي نادراً ما تفارق وجهه حتى في أحلك الساعات السياسية صعوبة، عندما يكون هنالك مسعى يتطلب مهارة في التخاطب أو يكون هنالك قرار يحتاج إلى حذاقة في الصياغة. ونقول إنه كان حريصاً على المظهر الثوري المحبب لأن مسألة الهندام الأنيق

زمنذاك عند إخواننا الثوريين، وكانوا كثرة في العالم العربي، لم تكن ذات أهمية، وكان هؤلاء يرون أن الشياكة فى المظهر الخارجي من ربطة العنق إلى القميص المناسب إلى البدلة المتجانسة إنما هي إهتمامات البورجوازيين، ولم تكن زمنذاك استُولدت مفردات من نوع قوى الإستكبار والمستضعفين والمحرومين وغيرها.

إفترضنا أن بوتفليقة، أو «سى عبد العزيز» الذي أجاز لنا إطلاق هذه التسمية عند الحديث معه أو الإتصال به، يكثر من السعى لأن الرئيس بومدين يتطلع إلى أن تكون للجزائر حصة فى الأمانة العامة للجامعة ويتولى المنصب لدورة واحدة بوتفليقة. وإفترضنا أن الإبتسامة الدائمة هي لتعويض الامة المتعاطفة مع الجزائر وثورتها عبوس وجه بومدين وعدم إعطاء الابتسامة فرصة ولو لمرة واحدة يسجل المصورون لقطة لها. وإفترضنا.. وإفترضنا.. وإفترضنا. ودائماً كان بوتفليقة (إضافة الى المبتسم الدائم الأخر الدكتور محيي الدين عميمور) بالنسبة إلينا ظاهرة محببة إلى النفس ولم يكن كسيده لغزاً من الصعب فك تقاطعاته.

سمعنا من بوتفليقة تحليلات كثيرة الرقي للمواقف. وأجرينا معه مقابلات نشرناها في الصحف التي نعمل فيها. وكان ومعه الوزير المعمّر في الخارجية الكويتية الشيخ صباح الأحمد، أكثر وزيريْن نسعى إليهما في الملمات المعلوماتية، ولم نلقَ يوماً الصد منهما. ومِن محاسن الصدف أن الاثنيْن لا تفارق وجهيهما الإبتسامة ولا يتعثر منطقهما عند أي تحليل. وعدا المعلومات والوقائع والأرقام التي يمكن في تقديرهما أن تكون ضد مصلحة الأمن القومي فإن الإثنين لم يبخلا يوماً بما يسعى اليه الصحافي الحريص على أن يبقى في منأى عن الإثارة والتقويل، بمعنى إسناد كلام إلى مسؤول لم يقله تماماً هذا المسؤول.

فجأة رحل عن دنيانا هواري بومدين ثم تبعثرت البومدينية وشمل التبعثر صانعي أكثر العهود الجزائرية إهتماماً بالعمل القومي وأبرزهم عبد العزيز بوتفليقة. وعاش الرجل فى الظل يعاني كثيراً ويمرض كثيراً ويتعافى قليلاً. ويبدو أن سنوات الظل أفادت سي عبد العزيز في أنه لم يكن في قلب الأحداث العاصفة التى شهدتها المنطقة، وبذلك أمكنه أن يكون مراقباً ومتأملاً وقادراً على" التمييز بين ما هو الحق وما هو الباطل فى الممارسات السياسية العربية. كما أن سنوات، الظل أفادته في أنه كان بعيداً عن الحُكْم في الجزائر التي إستشرى فيها العنف وطغت لغة السكاكين والسواطير والذبح من الوريد الى الوريد على المنطق وعلى الحوار، أي أن اللسان لم يتورط في تصريح واليد لم تتلوث بتوقيع قرار ظالم.

في كل مرة سمعنا فيها عن ظروف صحية يواجهها عبد العزيز بوتفليقة دعونا له، نحن الذين نحتفظ في ذاكرتنا بالصورة البهية عنه، بسرعة التعافي لعل وعسى تستعيده الجزائر وبالتالي يساعد في إطفاء نار العنف، وهو الذي كان في مجالسه وأحاديثه مع شخصيات عربية مرموقة، مثل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات، والأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير منطقة الرياض، يبدي كثير الأسى على الذي يجري في بلده فيسمع من الشخصيات الكلام الذي يثلج صدره ويشجعه على أن يغادر الظل إلى المساعدة فى إخراج الجزائر من محنتها. ومن هنا لم نفاجأ بخروجه من الظل إلى العلَن وخوض معركة الرئاسة التي تمنينا لو إستمرت إلى النهاية في إطار التنافس والطابع الديمقراطى، كي لا تبقى هنالك علامات إستفهام وتعجُّب كثيرة مرتسمة فوق الرجل الذي لا يريد أن يكون خصماً ولا أن يكون مستبداً، ولا أن يصفي حسابات ويأخذ بالثأر مِن الذين أهالوا الكثير من الإساءات على الحقبة البومدْينية التي كان بوتفليقة أحد رموزها المجلّين في ميدان التحرك السياسي وصياغة العلاقة العربية والدولية.

كانت الخشية مِن أن يرتبك بوتفليقة الرئيس من جراء الجو الناشيء عن جبهة المنسحبين من المعركة المقاطعين للإنتخابات التاركين الرجل وكأنه مجرد أمر واقع لا بد منه. ولكن رصيد التجربة الديبلوماسية والسياسية العريقة جعله ينشط كما لم ينشط رئيس الجزائر من قبل، وجعله يبدأ من النقطة الأكثر تعقيداً وهي إعتماد الحوار المفتوح وفتح الأبواب أمام جماعات الرفض والعند وضمن صيغة سماها «الوئام الوطني» وهي تسمية لا يبتكرها إلاَّ مَن كان باعه الديبلوماسي مشهوداً له. و«الوئام الوطني» ليس عفواً كي لا ينزعج عباسي مدني وبعض الشيوخ والقيادات من كلمة «العفو»، كما أنه ليس «مصالحة وطنية» لأن المصالحة لها مقومات غير متوافرة بما فيه الكفاية.

وإلى ذلك أشاع سي عبد العزيز أجواء من الطمأنينة السياسية لدى الدول المغاربية بحيث أن

الملك الحسن الثاني لم يطمئن إلى رئيس جزائري كإطمئنانه للرئيس بوتفليقة.

وفى تعامله حتى الآن لم يلجأ الى القرار وإنما إلى لغة تخاطب تتسم بالدفه، لمسناها على الصعيد الجزائري في بعض تصريحاته، وإستوقفتنا على الصعيد الأخوي والعربي فى رسالته إلى خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز التي بعث بها إليه في مقر إقامته في ماربيا حيث يقضى إجازة صيفية بعدما كان زاره في المقر، وبدت الزيارة وكما لو أنها ليست للتحية فقط وإنما للشكر على لفتة طيّبة من جانب الأمير سلطان بن عبد العزيز الذي حرص على زيارة الجزائر لبضع ساعات قبل أن يقوم بزيارته إلى إيران وبدت زيارة الساعات القليلة تلك بمثابة دعم كبير جداً لعهد الرئيس بوتفليقة الذي لم يكن مضى على إنتخابه رئيساً سوى أيام، وكانت شبيهة بزيارة سبق أن قام بها الملك (الراحل) خالد بن عبد العزيز إلى فرنسوا ميتران وكان الآخر لم يمض على إنتخابه رئيساً لفرنسا سوى بضعة أيام. ونتذكر الآن مدى إمتنان ميتران للملك خالد الذي كان في زيارة رسمية إلى بريطانيا وقرر فى لفتة دعم كثيرة الأهمية والتميز أن ينتقل فجأة الى باريس ويدعم بذلك عهد ميتران الذي بدأ بينما تعاني فرنسا من وضع إقتصادي ومالي مرتبك.

كما أننا لمسنا لغة التخاطب البوتفليقية المتسمة بالدفء فى رسالة أُخرى بعث بها الرئيس الجزائري إلى الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض التي كانت بمثابة تحية رد عليها الأمير بأحسن منها.

وفي الرسالتيْن إكتشفنا في الرئيس بوتفليقية ملكة الكتابة بمفردات من ذلك النوع الذي تحفل به معظم كتابات الشيخ عبد العزيز التويجري والرسائل المتبادَلة بين إثنيْن من حكماء اليمن هما القاضي عبد الرحمن الإرياني وأحمد نعمان (بعدما باتا خارج السلطة هاجرين ومهجورين مثل حال بوتفليقة بعد وفاة بومدين)، وحيث تختلط بعض الكلمات الوجدانية ببعض التعابير الصوفية، كما أننا إكتشفنا حرص الرئيس بوتفليقة على إبداء كثير المحبة وكثير التقدير وكثير الشكر من دون أن يستوقفه أمر إنه رئيس بلد كبير. وفي تقديرنا إن الرسالتيْن على الأرجح أوجبت تسطيرهما وإرسالهما وقفة سعودية مهمة غير معلومة التفاصيل مع الجزائر ستذهبان بعد نشرهما مثلاً في التعامل بين الحكام وفي أصول النجدة الصامتة والرد عليها بالشكر المعلن. وفى قول الرئيس بوتفليقة في رسالته إلى الملك فهد تأكيد لذلك. فقد تضمنت الرسالة الآتي: «زرتكم للإنتهال من منبع الفضائل والمحامد وبعد أن شرفتموني بإحتفائكم شرفاً صميماً إذ حللتُ لديكم محل التقبُّل والترحاب، أبيت إلا أن أتيمن بإعتقادي بلوغ المحاب بكم وعندكم من خلال ما إستفدته من حكمتكم ولين جانبكم وسداد رأيكم. ويسعدني تجديد إبلاغكم مشاعر الود والإكبار من أخيكم هذا ومن شعبكم في الجزائر ورضاه العالي على غيرتكم وهمتكم في الحرص على تجسيد تضامن الشعب العربي السعودي المفضال مع شقيقه الشعب الجزائري ودعائه لكم بأن يتوخاكم الله بحفظه وصونه...».

كما أن الرئيس بوتفليقة أكد الأمر نفسه في رسالته إلى الأمير سلمان التي جاء فيها: «لقد كنت مشتاقاً إلى سموكم غاية الإشتياق قبل وبعد أن إعتمرت عمرتي الأخيرة. ولكنه لم يتأت لي أن ألقاكم. ولما عزمت على زيارتكم حيث أنتم في كنف ما تبقى من أجواء أندلسية شاء القدر أن يستعجل لقاءنا فإلتقينا في الرباط فى ظروف أليمة قاسية عزّ علينا فيها أن نودع إلى مثواه الأخير شقيقنا وصديقنا العزيز المغفور له جلالة الملك الحسن الثانى طيب الله ثراه. نعم، إنني كنت مشتاقاً إليكم أخى العزيز، وكيف لا وأنا أحفظ لكم العرفان الأبدي عما لاقيته لديكم وأنا في وهدة صعبة من مسار حياتى، وها أنتم مرة أُخرى تغمرونني بكرمكم الحاتمي وتتيحون لي فرصة النزول بين ظهرانيكم فى ماربيا لأنعم بسعادة الإطمئنان على صحة أخي العزيز الأجل خادم الحرميْن الشريفيْن فهد بن عبد العزيز عاهل السعودية الحبيبة إلى قلبي، أطال الله بقاءه، وعلى أحوال كافة أشقائي الأحباء آل سعود الكرام الإجلاء. وكما عهدتكم في الماضي كريماً مضيافاً أبيتم أخي العزيز، وهذا ليس منكم أنتم بالذات بغريب، إلا أن تُكرموا وفادتنا وتغمرونا برعاية ما فوقها رعاية. وأنا إذ أحمد الله الذي يسَّر لقاءنا، أسدي لكم جزيل شكري وعظيم عرفاني، وأبتهل الى المولى عز وجل أن يشملكم برعايته ويحفظكم لي صديقاً كريماً مخلصاً ولبلدكم العزيز ذخراً، ويديم عليكم المواهب المنسوقة والمراتب المرموقة ويوفقكم ويزيد النعمة فيكم سبوغاً أنتم وكافة آلكم الكرام...».

كامت رسالة الرئيس بوتفليقة مؤثِّرة في نفس الأمير سلمان. ومع أن مئات رسائل الإمتنان تصل إلى

الملك وإلى كثيرين من أشقائه وأبنائه، إلاَّ أن رسالة بوتفليقة كانت ذات وقع مختلف. فالرجل نقل إلى الورق بعض ما يدور في خاطره، ولم يستوقفه أنه بات رئيساً للبلاد. ومثل هذا الإمتنان يسجله للمملكة من شأنه أن يتسبب فى تساؤلات محلية وخارجية عن نوع الوقفة السعودية معه من قبل أن يصبح رئيساً للبلاد.

وهو كتب الرسالة بهدف أن تنشر ويعرف القاصون والدانون مشاعره، فضلاً عن أنه يريد أن يبعث من خلالها برسائل إلى كثيرين وقفت المملكة معهم في أشد لحظات الضراء صعوبة، إلا أنهم لم يتذكروا ذلك فى الوقت المناسب. ولقد بدا بوتفليقة الرئيس في تسجيل إمتنانه (بصيغة رسالة مكتوبة ومنشورة ومذاعة) للوقفة السعودية مع بوتفليقة المهجر من الجزائر، على طريقة تهجير العميد ريمون إده من لبنان، بمثل رد الإمتنان المتواصل من جان جاك شيراك الرئيس لوقفة الرئيس رفيق الحريري معه عندما كان ما زال في مرحلة السعي إلى أن يكون رئيساً لفرنسا. والحالتان اللتان نشير إليهما حالة الإمتنان البوتفليقية وحالة الإمتنان الشيراكية هما حتى إشعار آخر حالتان فريدتان، إلاّ أنهما قد تصبحان نموذجاً كثير الرقي لمَن يريد تسجيل إمتنان وبالذات إلى من يصبح في قمة السلطة ويحتار كيف يرد الجميل عندما كان على الهامش بصيغة موقتة.

يجوز الإفتراض أن الرئيس بوتفليقة بالرسالتيْن اللتيْن أشرنا إليهما يمهد الساحة لبعث ظاهرة إندثرت وكان مؤملاّ لها أن تنبعث لو كُتب للملك الحسن الثاني المزيد من العمر. وهذه الظاهرة هي وجود الطرف العربى الذي يقوم بالمسعى الحميد بين الأشقاء فيطفىء نار خلاف هنا ويعيد الألفة هناك ويضع نهاية للخصومة التي إستشرت وباتت تكتسب صفة العداوة على نحو الخصومة التى بين الحُكْم الكويتي والحُكم العراقي. أي بمعنى آخر إن الرئيس بوتفليقة يتطلع إلى أن يكون الوسيط العربي أو الوسيط بين الاشقاء، وهو دور مطلوب على رغم رفْض بعض القادة كلمة الوساطة.

ومؤهلات الرئيس بوتفليقة لممارسة هذا الدور متوافرة. فهو حسم الخلاف الصعب مع المغرب بحيث وضع مبدأ الحوار بإيجابية سقفاً لا يجب تجاوزه، وحسمه وبينما الملك الحسن على قيد الحياة فسهل على الملك محمد السادس الأمر. وهو وضع العلاقة مع العقيد معمَّر القذافي على الصراط المستقيم. والأمير سلطان بن عبد العزيز تولى ترطيب العلاقة الجزائرية – الإيرانية وبذلك لم يعد الرئيس بوتفليقة مهموماً بالتدخلات الإيرانية في شؤون الجزائر. كما أنه وضع العلاقة الجزائرية الفرنسية في الإطار الذي يبقيها في منأى عن التوتر، ومن المؤكد أن الدفء الذي تتسم به العلاقة القوية التي مناها بوتفليقة مع دول الخليج وبالذات العلاقة الجزائرية – السعودية والعلاقة الجزائرية – الإماراتية سيكون موضع مراعاة الرئيس شيراك وأهل الحُكم الفرنسي عموماً.

وإذا أضفنا الإرتياح الاميركي للأسلوب الذي يعتمده الرئيس بوتفليقة من الإنفراجات في الداخل إلى المصافحة التى تمت بين بوتفليقة وباراك على هامش جنازة الملك الحسن الثاني، فإننا نرى أمامنا حضوراً بارزاً للرئيس بوتفليقة ومواصفات تؤهله للقيام بدور الوسيط العربي من جهة وممارسة الضغط المغاربي على إسرائيل من جهة أُخرى، خصوصاً أن ممارسة الضغط تنطلق من موقع المساند (أي بوتفليقة) للعملية السلمية الرافض فى الوقت نفسه لأي توتر وتحايل وتباطؤ ومناورات فى موقف إسرائيل. ولعله عندما بدأ يخفف من تأثير مصافحته لباراك كان يمارس بعض الضغط بأسلوب يذكرنا بأسلوب الحسن الثاني الذي تمسك بصيغة السلام مع إسرائيل إلاَّ أنه رفض أن يستقبل نتنياهو في المغرب على رغم إلحاح أوساط إسرائيلية وأميركية وبعض اليهود ذوي الأصل المغربي.

ونعود إلى ما بدأنا به وجهة النظر هذه لنقول إن عبد العزيز بوتفليقة، الذي لم نكتشف نحن معشر الكُتَّاب والصحافيين فيه في الفترة بين أواخر الستينات ومنتصف السعينات سوى أنه رجل ديبلوماسية من نوع متميز، ها هو بيننا بعد عقديْن من الزمن العربي الحافل بالويلات والحروب والصراعات والتصفيات، رجل دولة من نوع متميز أيضاً، يبدو عندما يتصرف ويتحدث ويسجل مواقف ويرد جمائل أنه من طينة أهل التراث العربى والإسلامي.

ولأنه كذلك وموضع إرتياح أبناء قومه ورضى أبناء شعبه، فإن مطالبته بأن يشمر عن الساعدين ويخوضن غمار البحث عن صيغة للوفاق العربي تبدو أمراً طبيعياً. كما أن تجاوبه يبدو بمثابة تأدية للواجب. ونلفت إنتباه الرئيس بوتفليقة الى أمر بالغ الأهمية وهو أنها المرة الأُولى بعد غياب هواري بومدين ومن قبل تغييب أحمد بن بيللا (خيراً أعاد إليه الإعتبار) التي

يحدث فيها أن العربي فى الجناحيْن المشارقي والمغاربي من الأمة يتحمس للشخص الذي هو سي عبد العزيز بوتفليقة، بينما كانت الحماسة فى إستمرار هي للجزائر رمز النضال والإستشهاد. ومثل هذه النظرة إليه تبدو بمثابة تكريم مسبق له على دور لاحق يقوم به... وهو دور الوسيط بين قومه العرب ومن دون أن يبغى من وراء ذلك الجزاء والشكور. فهل سيبادر، أو بالأحرى متى سيفاجيء الأمة بمبادرته ويستعيد عالمنا العربي بعض الرونق والكثير من الإلفة والتضامن، وتنعقد على أرض الجزائر قمة تلم الشمل العربي وتأتي ناجحة مثل القمة الإفريقية التى إستضافها وأثبت فيها أن رجل الدولة الآتي إلى قمة السلطة من المدرسة الديبلوماسية قادر على أن يفعل الكثير من أجْل الإستقرار، بدليل إستنباطه قرارات كثيرة في هذا السبيل من بينها منع الإنقلابات العسكرية، بل وقمعها سلمياً، بقوة الشرعية.

وما تحتاجه القارة الإفريقية تحتاجه أكثر «القارات العربية». لعل وعسى يلبي بوتفليقة النداء ويحقق الأماني.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 31 أغسطس (آب) 1999

* * *

الرياض – بيروت... والرونق الثقافي

لم تنعم بيروت التي وقع عليها الإختيار لتكون في العام الأخير من القرن العشرين عاصمة ثقافية للعالم العربي بهذا المجد. فقد ألقت صراعات أهل الحُكْم مع أهل المعارضة وكثرة أخبار الفساد والملاحقات الظلال على الرونق الثقافي للعاصمة اللبنانية ثم جاء العدوان الأخير على محطتيْ الكهرباء والذي خَطط له نتنياهو وختم به آخر أيام حكمه العدواني ليلقي المزيد من الظلال على ذاك الرونق، حيث إن بضعة ألوف من اللبنانيين والخليجيين عدلوا نتيجة الغياب المتقطع للكهرباء عن المجيء إلى لبنان وتمضية بضعة أسابيع من فصل الصيف فيه. وكان من شأن حضور هذه الألوف من أبناء لبنان ومحبيه إضفاء المزيد من الحيوية على السنة الثقافية فلا يعود الحديث دائراً في إستمرار على الكهرباء شبه المعطَّلة وعلى الوضع المعيشي شبه الميؤوس من علاجه.

وكان من شأن مشروع الجامعة اللبنانية – السورية، الذي إبتكر فكرته أحد نواب منطقة البقاع عبد الرحيم مراد، أو أحد المبتكرين، وإرتبط إسمه بالرئيس السابق – اللاحق رفيق الحريري، أن يعطي السنة الثقافية نكهة أكاديمية لولا أن هذا المشروع الحضاري أصابه "فيروس" الصراع السياسي من جهة والحسد من جهة والخشية المسيحية من الجهتيْن. وكان مدعاة لأشد أنواع الدهشة أن الحكومة اللبنانية وبشخص رئيسها الدكتور سليم الحص تتصدى للمشروع معترضة عليه ناسبة إلى رئيس الحكومة السورية المهندس محمود الزعبي القول لزميله الدكتور الحص خلال إتصال هاتفي بينهما (على رغم عدم تحديد مَن إتصل بالآخر فإن الإفتراض الجائز هو أن الرئيس الحص هو الذي بادر) إنه يتمنى عليه عدم إستخدام تسمية الجامعة موضوع الأخذ والرد بـ "الجامعة اللبنانية – السورية" لأنه ليس هنالك إتفاق في هذا الشأن.

ولكن التوضيح المنسوب إلى رئيس الحكومة السورية جاء على لسان الرئيس الحص ولم يأتِ في صيغة تصريح رسمي من الجانب السوري. كما أن الكلام المنسوب إلى رئيس الحكومة السورية يركّز على التسمية وليس على الفكرة، فضلاً عن أنه في المقابل هنالك الإرتياح من الجانب السوري لها وإلاّ فكيف يشارك اللواء الركن غازي كنعان رئيس جهاز الأمن والإستطلاع في القوات السورية العاملة في لبنان (بالوزن الرسمي والدور الذي يقوم به ومشاركته في الإجتماعات السورية – اللبنانية على أعلى المستويات) في مهرجان وضْع الحجر الأساسي.

والقول بأن تصدي حكومة الرئيس الحص لمشروع الجامعة اللبنانية – السورية يدعو إلى الدهشة سببُه أن ذلك يحدُث للمرة الأولى في تاريخ المنطقة، فضلاً عن أن التصدي يستهدف فكرة حضارية لا يجب من منطلقات موضوعية أن يختلف في شأنها إثنان. كما أن من شأن إقامة هذه الجامعة في منطقة البقاع المحرومة أن يُحدِث مع الوقت وبالتدرج نقلة نوعية في المنطقة ومن شأنها أيضاً إختزال نسبة التخلف وتأمين التعليم الجامعي لمئات الطلبة والطالبات الذين يتوقف تحصيلهم عند نهاية المرحلة الثانوية وذلك لضيق ذات اليد.

وفي تقديرنا فإن مثل هذا المشروع كان يحتاج من القائمين به وأيضاً من المحتجين عليه إلى التحييد، بمعنى ألاّ يصبح موضوعاً من الموضوعات التي

يتمحور حولها الجدل السياسي. التحييد من جانب الرئيس الحريري الذي تبرَّع للمشروع بنصف مليون متر مربع لكي تُشاد عليها أحدث جامعة في المنطقة في الألفية الثالثة، بأن يكون المشاركون في مناسبة وضْع الحجر الأساسي من غير أهل السياسة، أو على الأقل لا يتصدر هؤلاء وحدهم الصف الأمامي، وإنما يكون هنالك مزيج من السياسيين والأكاديميين وتحديداً عشرات رؤساء الجامعات في العالم العربي وبعض دول العالم. والتحييد من جانب الحكومة اللبنانية بأن تترك الغيرة جانباً وتبارك هذه الخطوة فتكسب رضى ألوف البقاعيين وألوف السوريين وألوف المحرومين من التعليم العالي الذين وجدوا في المشروع الملاذ الجامعي لأولادهم. والتحييد أيضاً من جانب الحكومة بألاّ يستوقفها موضوع التسمية ذلك أن أهم ما في الفكرة إلى جانب دورها الهادف هو إسمها وهو حق مشروع لمن إختاره مع الأخذ في الإعتبار أن إسم الجامعة هو "الجامعة اللبنانية – السورية" وليس جامعة لبنان وسوريا لكي يكتسب صفة رسمية بمعنى أنها جامعة تخص البلديْن وتم إنشاؤها بتمويل حكومي، وإن كانت التسمية توحي بأن الجامعة هي ثمرة إتفاق بين الجامعة اللبنانية والجامعة السورية وأنها النموذج الثقافي والتربوي للوحدة في صيغة أو أُخرى مستقبَلاً بين البلديْن.

وإلى ذلك إن التوقف عند مسألة أن المشروع بما في ذلك التسمية أو على وجه التحديد التسمية لم يحظَ بالموافقة يبدو هو الآخر مثيراً للدهشة، إذ مَن هي الجهة التي يمكن أن تحجب الموافقة وتحت أي ذرائع.

ومِن هنا فإن الإعتراضات على مشروع الجامعة اللبنانية – السورية لم تكن في محلها، لكن في أي حال يبقى وضْع الحجر الأساسي لهذا المشروع بينما لا تزال بيروت تعيش ما تبقّى من أيام سنتها كعاصمة ثقافية للعالم العربي بمثابة تعويض نسبي عن إضاءات ثقافية كان يمكن أن يستفيد منها لبنان. لكن التعويض المتوقَّع هو ما سيأتي من المملكة العربية السعودية، ذلك أنه مع غروب شمس اليوم الأخير من العام الأخير في الألفية الثانية تُسلِّم بيروت الأمانة إلى الرياض التي كان الأمير الراحل فيصل بن فهد بن عبد العزيز الرئيس العام للرياضة والشباب في المملكة حرصَ أشد الحرص على أن تكمل الرياض كعاصمة ثقافية للعالم العربي في العام الأول من الألفية الثالثة ما أنجزتْه بيروت من دون أن يخطر في باله أن العاصمة التي لها في نفسه وفي نفوس أهل الحُكْم السعودي والشعب السعودي عموماً حيِّز كبير من المحبة والتعاطف، وبالذات في زمن الشدائد المستمرة، ستُمنى بعدوان إسرائيلي يطفئ أنوار كهربائها.

وعلى نحو ما أوضحه لنا الأستاذ محمد الشدي أحد معاوني الأمير فيصل في مجال الثقافة والإبداعات الفكرية والفنية (عندما زار بيروت في يوليو (تموز) الماضي بتكليف من الأمير لمواكبة بعض فعاليات تشهدها بيروت كعاصمة للثقافة في العالم العربي) فإن الأمير فيصل خطَّط ليكون العام 2000 عاماً كثير التميز ما دامت الرياض هي التي ستستضيف الثقافة العربية. وما هو معروف عن الأمير فيصل حرصه وإصراره على إنجاح أي فكرة تتعلق بالرياضة والشباب والثقافة والإبداعات الفكرية والفنية.

وفي تقديرنا إنه لولا أن الله سبحانه وتعالى إختاره ليكون في رحابه وهو في ذروة الحيوية، كان سيحقق في العام 2000، وعلى هامش فعاليات الرياض عاصمة ثقافية للعالم العربي، وفاقاً ثقافياً عربياً من نوع الوفاق العربي الرياضي والشبابي الذي جاءت الدورة الرياضية العربية في عمان خطوة متقدمة على طريق إنجازه... وكلاهما يعوّضان الأمة الوفاق السياسي المتعثر. ورحم الله الأمير فيصل الذي من الصعب تعويضه والذي ستفتقده دائماً القاعدة الأكثر إتساعاً في العالم العربي وهي الشباب والرياضة والثقافة، وبالذات طوال سنة فعاليات الرياض كعاصمة للثقافة العربية والتي نتوقع أن تكون على الرونق الذي تمناه وأراده لها الأمير – المنارة والذي سيكمل العمل على إنجازه الأمير سلطان بن فهد بن عبد العزيز وبحيث تكون السنة 2000 في الوقت نفسه سنة تكريم للأمير فيصل بن فهد الذي إستمر عطاؤه لقطاع الرياضة والشباب والثقافة وعلى مستوى العالم العربي حتى اللحظة الأخيرة... وذلك إيماناً عميقاً وراسخاً منه بقومية العمل الرياضي والشبابي الذي يعوِّض الأمة بعض الشيء العمل العربي المشترَك الكثير التعثر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 سبتمبر (أيلول) 1999

* * *

مجرد شهود أم هيئة محلَّفين؟

مصادفة طيِّبة أن تتم زيارة وفد الكونغرس الأميركي

إلى العراق قبْل حوالى أســـبوعيْن من الدورة العادية لمجلس الجامعة العربية على مســتوى وزراء الخارجية التي تنعقد في النصــف الأول من سـبتمبر/ أيلول من كل ســـنة. فهي المرة الأُولى منذ تطبيق العقوبات الدولية على العراق التي تتم فيها مثْل هذه الزيارة. وعلى الرغم من أن الوفد لم يضم شيوخاً ولا نواباً وإنما ضم مساعدين لخمسة من أعضاء مجلس النواب فإن الوفد الذي لا يقوم بزيارة رسمية يمثِّل المؤسسة التي يهابها رئيس الولايات المتحدة. وما هو معروف أن في إســتطاعة مجلس الشــيوخ تعطيل قرار يتخذه الرئيس الأميركي كما أن في إستطاعة المجلس أن يمارس من الضــغط على مؤسسة الرئاسة الأميركية بما يجعلها تعيد النظر في توجهاتها.

وعند التأمل في نشـــاط الوفد منذ اللحظة الأُولى نجد أنه إعتمد الجدية ربما لأنه يتطلع إلى أن يكون محايداً. فهو يضم رجالاً ونساءً الأمر الذي يعني أنه إذا كان قلب الرجل على شــيء من القســاوة ولا يهزه منظر طفل يحتضر من سوء التغذية وندرة الدواء فإن قلب المرأة حنون إلى درجة الضعف أمام هذا المنظر. وما حدَث هو أن قلب أحد أعضاء الوفد كان بشفافية قلب المرأة بدليل أنه خلال زيارة أحد المســتشــفيات ومشـــاهدة ما فعله الهزال بطفل دمعت عينا هذا العضو. وبلغ التأثر مداه لكثرة ما شاهد أعضاء الوفد وسمعوا. وهو لم ينتقل من البحرين إلى مطار الحبانية بطائرة خاصة على نحو ما يفعل مبعوثو الأمم المتحدة وبذلك يصـــل مرتاحاً، ولا هو إنتقل بطائرة هليكوبتر وضــعتْها السُــلطات الأردنية بتصــرفه، وإنما ســلك الطريق البرية البالغ طولها ألف كيلومتر والتي تشــكِّل مشقّة ما بعدها مشقّة لمن يريد الإنتقال من بغداد إلى عمان وبالعكس، خصـــوصـــاً أنها خالية من أي إستراحات ومن أي مراكز صحية يمكنها نجدة ضحايا حادث سير على هذه الطريق. وبالنسبة إلى الأميركي لا تشــكل مســافة الألف كيلومتر عبئاً على مَن يقود سيارته وهنالك بضعة ملايين يتنقلون بسياراتهم على الطرق الســريعة وهم مطمئنون إلى كثرة الإســتراحات وكثرة المراكز الصــحية وإلى أن هنالك رقابة من الجو عليهم في حال إرتبكوا أو أخطأوا الطريق أو خالفوا قواعد المرور، هذا فضــلاً عن أن الطرقات مضـــاءة وخالية من الحُفر. ومن هنا فإن أعضاء وفد الكونغرس الذين ربما يقومون للمرة الأُولى بمثْل هذه الزيارة أصابتهم الصدمة ولا بد أنهم سجلوا ملاحظة أولية في هذا الشأن على الورق.

وإلى ذلك إن الزيارة تمت في فصل الصيف وفي شهر أغسطس الذي تصل درجة الحرارة فيه إلى ما فوق الأربعين في العراق ودول الخليج عموماً. ومثْل هذا الطقس يشكِّل سبباً إضافياً إلى ما يمكن أن تعانيه المستشفيات بشكل خاص. ولأن الزيارة تمت في فصل الصيف أيضاً فإن إنعكاسات الحصار على أحوال الناس عموماً وبالذات على الوضع الصحي ظهرت على الفور أمام الوفد الأميركي الزائر ومِن دون إفتعال. وكلما إبتعد الوفد عن العاصمة وبالذات عن مناطق محددة فيها لمسوا أي إنحدار حصل في المدارس ودُور الحضانة والأسواق. وهم بالتأكيد إلتقطوا شريطاً مصوراً لتجوالهم. وهذا الفيلم المتحرك والناطق سيؤكد ما سبق لـ "اليونيسيف" أن ذكرتْه في تقريرها المفزع عن الأحوال الصحية والإنسانية والإجتماعية في العراق. وإذا قارن أعضاء الوفد الفيلم – أو الأفلام – عن زيارتهم بعشرات الأفلام الوثائقية المتوافرة في إدارات رسمية في واشنطن عن العراق قبْل الثاني من أغسطس (آب) 1990 يوم غزو القوات العراقية للكويت، لإكتشفوا أي إنحدار إنتهى إليه هذا البلد وكيف أنه عاد ربع قرن إلى الوراء وفي زمن تشــكِّل فيه الدقيقة الواحدة وقتاً ثميناً في رقي الدول وتقدمها ومواكبتها للعصـــر أو على الأقل عدم اللهاث من أجْل اللحاق بالتقدم.

لا ندري أي إنطباع خرج به الوفد الأميركي الزائر وهل إن أعضاءه الخمسة في ضوء مشاهداتهم في المواقع التي لم يحجب المســؤولون العراقيون عنهم زيارتها ورؤيتها، وكذلك في ضــوء تحليل ســياســي للوضــع الراهن ولطبيعة العلاقات الأميركية – العراقية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً وأسباب تعثُّرها طوال ثلاثة عقود من القطيعة سمعوه من طارق عزيز المتمكن من التحليل والمعروف أميركياً ودولياً... لا ندري هل إنهم ســيكونون شــهود عيان على البؤس الذي يعيشــه العراق.. مجرد شـهود، أم أن صـفتهم شـبه الرسـمية (مسـاعد عضـو مجلس النواب ليس منصـباً رسـمياً) ســتجعل منهم "هيئة محلَّفين" من نوع جديد تعرض بأمانة أمام النواب، الذين يعملون مســاعدين لهم، حقائق الوضـع، وهؤلاء النواب يقومون بدورهم بالخطوة الأســاســية وهي تحريك قضــية معاناة العراق من الحصــار المفروض عليه. كذلك لا ندري ما إذا كانت صورة الرئيس الأميركي الأسبق جورج بوش الموضوعة

على أرضية مدخل "فندق الرشيد" يدوس عليها الداخل إليه والخارج منه إنعكست سلباً على مشاعر الوفد الزائر فإنحسرت تبعاً لذلك نسبة التعاطف مع معاناة الشعب العراقي من الحصار المفروض بإرادة الولايات المتحدة والذي لا يمكن رفْعه بغير الإرادة نفسها.

كذلك يصعب الجزم بما إذا كان الوفد زار العراق متمرداً على رغبة الإدارة الأميركية، أم أن الرئيس كلينتون نتيجة ضغوط عربية صديقة غير معلَنة وبنصيحة من دوائر إتخاذ القرار في الرئاسة الأميركية وراء هذه الزيارة لتشجيع النظام في العراق على أن يبارك الحلقة الأكثر صعوبة في العملية السلمية، وهي إبرام إتفاق بين سوريا وإسرائيل. ومنذ أسبوعين يتزايد التأكيد بقرب إستئناف المفاوضات من أجْل تحقيق الإتفاق. لكن اللافت للإنتباه أن زيارة الوفد جاءت في ظل سيناريو قضى بأن تعارض الإدارة الأميركية فكرة الزيارة إنما من دون أن تمنعها على نحو ما حدَث ويصر عليها الوفد من خلال الناطقة بإسمه فيليبس بينيس التي بعدما سمعت كلام الخارجية الأميركية في معرض تبرير إبطال جوازات سفر الأعضاء كي لا يسافروا (عادت بعد ذلك عن القرار) أدلت بتصريح قالت فيه: "إن الوزارة تدعي أن المناطق التي تسيطر عليها الحكومة العراقية في العراق ليست آمنة بدرجة كافية للمواطنين الأميركيين. لكننا كأعضاء وفد زائر لن نكون معرَّضين لخطر أكبر مما يواجهه سكان العراق البالغ عددهم 22 مليون نسمة والذين يعيشون في ظل العقوبات وغارات شبه يومية من الطائرات الأميركية والبريطانية...". وجاءت الزيارة أيضاً متزامنة ومتوازية مع جولة مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية للمنطقة بهدف تحقيق تقدُّم على المسار الفلسطيني – الإسرائيلي وإطلاق مرحلة التحادث الثنائي بين سوريا وإسرائيل مقدمة للإتفاق. وعندما تُحَرِّك الإدارة الأميركية جيوباً في النمسا تضطر عزة الدوري نائب الرئيس صدَّام في مجلس قيادة الثورة (السُلطة الأعلى في العراق) لقطع زيارة الإستشفاء والعودة إلى بغداد خشية القبض عليه ومحاكمته (على نحو ما أرادت تلك الجيوب) وفي الوقت نفسه يتوجه عدد من المواطنين الأميركان الذين لهم صفة شبه رسمية إلى بغداد في مهمة لتقصّي الحقائق... إنه عندما يحدُث ذلك فهذا تأكيد بأن إدارة الرئيس كلينتون ليست بعيدة عن زيارة وفد الكونغرس، هذا إذا كنا لن نقول إن أصول السيناريو قضت بكل الذي أشرنا إليه.

ونقول إن إدارة الرئيس كلينتون ربما ليست بعيدة عن جوهر الزيارة لأن الوفد إجتمع في بغداد بأحد أهم صانعي القرار العراقي وهو طارق عزيز وكان – أي الوفد – أوضح وهو ما زال في واشنطن أنه لن يقابل أعضاء في الحكومة العراقية ويتطلع إلى لقاء مسؤولي الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية العديدة في العراق ومنها منظمة "كير" الأوسترالية و"مجلس كنائس الشرق الأوسط". ومن باب الإجتهاد يمكن القول إن اللقاء بـ طارق عزيز لم يأتِ مصادفة ولا نتيجة خروج الوفد عما هو متفق عليه مع الخارجية الأميركية وإنما بعد إتصال ربما جرى بين الوفد ومجلس الشيوخ وقضى بأن تأخذ الزيارة بعداً رسمياً أو شبه رسمي.

وفي حال تبيّن بشكل قاطع أن الإدارة الأميركية ليست بعيدة عن فكرة الزيارة وأن الوفد رفع تقريراً يتضمن بعض التعاطف وبعض التفهم والكثير من التمنيات، فإن مجلس الجامعة العربية الذي يكون بدأ إجتماعاته برئاسة العراق سينظر بعين الأخوَّة والتفهم هذه المرة إلى المسألة العراقية. وفي هذه الحال لا نستبعد أن يمد رئيس الجلسة محمد سعيد الصحاف (وزير خارجية العراق) اليد إلى الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية الكويت وأن عميد الدبلوماسية الكويتية والعربية لن يتصرف على نحو ما فعله وزير التجارة الكويتي عبد الوهاب الوزان خلال إفتتاح معرض دمشق الدولي السادس والأربعين عندما حيَّاه وزير التجارة العراقي محمد مهدي صالح بوضع اليد على الصدر لكن الوزير الكويتي أشاح بنظره عنه رافضاً التحية.

ونصل إلى القول بأنه لكي لا تنتهي زيارة الوفد الأميركي إلى نتائج مماثلة لنتائج المهمات التي سبق أن قام بها ريتشارد بتلر، فإن القليل من الواقعية والمرونة يبديها الحُكْم العراقي، وكذلك أسلوب التخاطب، من شأنه أن يحقق القليل من الإنفراج. وبذلك يزور البابا يوحنا بولس الثاني العراق (الذي تسعى المعارضة العراقية في موقف لها يدعو إلى الإستغراب والإستهجان إلى أن يلغي البابا يوحنا زيارته) وقد بدأ الحصار يتراخى مقدمة لزواله. فضلاً عن أن هنالك مسألة لا بد مأخوذة في الإعتبار وتتعلق بزيارة رئيس الكنيسة الكاثوليكية نوردِها بصيغة تساؤل على النحو الآتي: كيف سيتدفق بضعة ألوف من المسيحيين إلى العراق خلال هذه الزيارة إذا كانت الأجواء العراقية محظورة على الطائرات المدنية ولا

تعبُرها سوى الطائرات الأميركية والبريطانية التي تقصف مواقع في العراق؟

وتلك مسؤولية البابا بولس الثاني في الدرجة الأُولى وكيف سيعالج الأمر مع الرئيس كلينتون.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 8 سبتمبر (أيلول) 1999

* * *

الحريري المرجعية وإجازته القسرية

مرة أُخرى، ولا يبدو أنها أخيرة، يتعامل أهل القرار الدولي مع رئيس وزراء سابق في لبنان على أنه جزء من الحُكْم القائم يقضي إجازة قسرية تحولُ دون ممارسته المسؤولية في شكلها الرسمي، أو على أنه رئيس وزراء لبنان لمرحلة العملية السلمية المقبلة ولا شك، بصرف النظر عما إذا كانت هذه العملية تتعثر أحياناً وتنطلق أحياناً أُخرى.

ويستند المراقب مثل حالنا في هذا الكلام إلى أن السفير الأميركي في لبنان، دافيد ساترفيلد، الذي يمارس دوراً في لبنان لم يسبق أن مارسه سفير أميركي من قبْل، إجتمع برئيس الوزراء السابق رفيق الحريري في قصره بعد أربعة أيام من زيارة وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت لبيروت وإجتماعها برئيس الحكومة ووزير الخارجية الدكتور سليم الحص. ومن الواضح أن اللقاء بدا كما لو أن السفير ساترفيلد ينوب فيه عن الوزيرة أولبرايت، بمعنى أنه لو كانت زيارتها لـ بيروت أكثر بكثير من ثلاث ساعات لكانت شملت اللقاء بالرئيس الحريري. ومن الواضح أيضاً أن لقاء السفير بالحريري يأتي مباشرة بعدما وضعت أولبرايت أمام الرئيس كلينتون تقييماً لجولتها التي شملت مصر وإسرائيل وسوريا ولبنان وما تَحقق على صعيد المسار الفلسطيني – الإسرائيلي وما أُرجئ تحقيقه على صعيد المسار السوري – الإسرائيلي واللبناني – الإسرائيلي.

وإذا جاز الإفتراض، فإن مثْل هذا الحرص من جانب الإدارة الأميركية على إحاطة الرئيس الحريري، كرئيس سابق للحكومة ودون غيره من رؤساء الحكومات السابقين، بتطورات ونتائج جولة وزيرة الخارجية الأميركية من شأنه (الحرص) أن يشكِّل نقطة تحوُّل في العلاقة السورية – الأميركية، وأيضاً – وإستطراداً – في العلاقة اللبنانية – الأميركية، وهو بالتأكيد ليس فقط من أجْل العِلْم والخبر، وإنما هو أيضاً لسماع وجهة نظر من جانب أحد رموز العملية السلمية في المنطقة، خصوصاً أن الحريري إقتحم ساحة المسؤولية التنفيذية كرئيس للحكومة على هذا الأساس، وربما أيضاً لتطمين الحُكْم السوري، الذي لم تتأثر علاقة الحريري خارج المسؤولية الرسمية به، ولا إهتزت ثقة هذا الحُكْم بهذا الصديق بعدما بات يمارس الدور السياسي إنما خارج المسؤولية الرسمية. ونقول ذلك على أساس – أن تجربة قناة الإتصال الأميركية – السورية من خلال الرئيس الحريري، كانت في إستمرار خالية من التشكيك، وكانت دائماً تأخذ في الإعتبار بعض الخصوصيات ومنها، بل ولعل أهمها، خصوصية العلاقة السورية – اللبنانية.

وثمة نقطة جديرة بالإهتمام، وهي أن هذا التميز الذي تخص الإدارة الأميركية به الرئيس الحريري دون غيره من رؤساء الحكومات السابقين، هو لإزالة إنطباع ساد في أذهان البعض وهو أن إبتعاد الحريري، في صيغة "الإستبعاد" ليس لأن الهوى الدولي له فرنسي وأن الولايات المتحدة لا تريد لـ فرنسا في المصير اللبناني أكثر من الحضور المحسوب بدقة. وفي الأساس، إن القول بأن الحريري "فرنسي الهوى" ليس دقيقاً. فهو يعرف أين يُصنع القرار ويميز بين المنبع والمصب، وكذلك بين الجداول التي تنتهي إلى النهر، مثل الجدول الفرنسي. وهو لا يمكن أن يراهن على فرنسا بديلاً عن الولايات المتحدة، أو قوة تقف في وجْهها وقفة مَن يضغط أو يحذِّر أو يكتفي بتسجيل الملاحظة. والعلاقة الحريرية – الفرنسية ليست أكثر من علاقة بين شخصيْن إزدهرت وبات لها تأثيرها القوي عندما شاءت الظروف أن يصل جاك شيراك إلى رئاسة الجمهورية بمفاجأة تشبه مفاجأة إبتعاد، أو إستبعاد، الحريري عن مواصلة دوره كرئيس للحكومة في عهد الرئيس إميل لحود. وإذا حدَث أن جاء إلى الحُكْم في فرنسا شخص غير شيراك فإن العلاقة الحريرية – الفرنسية ربما لن تستمر على نحو ما هي عليه الآن، وهي علاقة وظّفها الحريري خير توظيف لمصلحة لبنان، وكان أبرز ما في هذا التوظيف إختيار لبنان ليكون البلد الذي تنعقد فيه القمة الفرانكوفونية في العام 2001 والتي ستكون القمة الأُولى للفرانكوفونيين في الألفية الثالثة. ومن المؤكد أنه لو بقي الحريري في الحُكْم لكانت اللفتات الشيراكية نحوه لن تقتصر على تلبية رغبته – عندما ترأس وفد لبنان

إلى القمة الفرانكوفونية في هانوي عام 1997 – في أن تنعقد القمة الأولى في الألفية الثالثة في لبنان، وهذه من نوع التمنيات التي تحققت على الفور، وينطبق عليها التعبير اللبناني الشائع: "غالي والطلب رخيص...".

أما لماذا ربما لن تستمر العلاقة الفرنسية – الحريرية على إزدهارها مع رئيس آخر غير شيراك، فلأنها ذات جذور شخصية، ثم تطورت بحيث باتت عميقة على المستوى العائلي ومن العلاقات النادرة بين رئيس فرنسا ومسؤول عربي، ووصلت في ندرتها إلى أن الرئيس شيراك طوى أكثر من مرة كتاب البروتوكول الرئاسي ليؤكد مدى تقديره لصديقه الحريري.

لكن، في الوقت نفسه لا بد من القول إن الشيراكية تنتسب إلى الديغولية، وغياب شيراك لا يعني إستحالة وصول ديغولي آخر إلى الحُكْم في فرنسا بعد شيراك، ولا يعني أنه لن يتوقف أمام علاقات متميزة من نوع العلاقة بين شيراك والحريري لكي يبعث فيها الحيوية. وسيكون أمراً من صُنْع الأقدار إذا حدَث أن جاك شيراك لم يعد رئيساً لفرنسا في الوقت الذي عاد الحريري، أو أنه أُستُعيد، كرئيس للحكومة، التي ينقل فيها الثنائي إميل لحود – رفيق الحريري لبنان، ضمن رؤية جديدة وأسلوب جديد وفريق عمل يحل محل الحاشيتين، من حافة الإنهيار التي بات قريباً منها، إلى نقطة الإنطلاق الذي أراده له الحريري عندما تسلّم الحُكْم فتعثَّر الإنطلاق لكثرة القيود التي تكبلت بها حكوماته.

ونعود إلى ما بدأنا به، في شأن هذا الحرص من جانب أهل القرار الدولي على التعامل مع الحريري وكأنه مرجعية غير رسمية بحيث تشمله زيارات كل الذين يزورون لبنان رسمياً، أو في شكْل مهمات إستثنائية، لنقول إن ابتعاد الحريري عن الموقع الرسمي لم يُبعده عن معرفة ما يفكر فيه اللاعبون على حلبة العملية السلمية، لأن اللاعب من هؤلاء لا يحيطه، من خلال اللقاء به أو من خلال الإتصال عبْر المبعوث الشخصي أو السفير، فقط بالموقف الذي إتخذه هذا اللاعب أو ذاك، وإنما يحيطه أيضاً بموقف أهل الحُكْم اللبناني، وبذلك قد يكون عرف الرئيس الحريري من السفير ساترفيلد وقائع حديث أولبرايت مع الرئيس الحص في بيروت ومع حكام آخرين. وهو جرت إحاطته عِلْماً لمعرفة رأيه، ولكي يبقى في قلب الحقيقة وهو بعيد عن الموقع الرسمي، ولكي لا ينشغل بفتح ملفات وقراءتها والإكثار من الإستفسارات بعد العودة إلى الموقع نفسه رئيساً للحكومة.

ويتزايد هذه الأيام الحديث حول تغيير حكومي في لبنان. وينطلق الحديث من أن في إستعادة الحريري الآن في حكومة جديدة تمهد لحكومة لاحقة يشكلها ويكمل فيها برنامجه وتكون مهمتها الأساسية تسديد ديون تسببت بها حكوماته السابقة، وهي الديون التي اصطُلح على إعتبارها "التركة الثقيلة"... إن في هذه الإستعادة ما من شأنه أن يكون حلاً للأزمة التي باتت معضلة.

ويبقى القول إنه خلال السنة الأُولى من عهد الرئيس إميل لحود إكتملت ملامح رؤية خلاصتها أنه إذا كان الحريري ضرراً في بعض ممارسات حكوماته في سنوات أواخر الألفية الثانية، فإنه ضرورة لكي يبدأ لبنان الألفية الثالثة وهو أكثر إطمئناناً وقدرة على مواجهة مطالب... وقرارات بثقل الجبال.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 12 سبتمبر (أيلول) 1999

* * *

العراق بعد ليبيا... أهمية إعادة النظر

إنتهت في ليبيا قمة أفريقية إستثنائية أعادت الإعتبار إلى الشعب الليبي الذي ذاق مرارة الحصار الدولي طوال سبع سنوات، لتبدأ في القاهرة قمة عربية دبلوماسية بدت لظروف إنعقادها (من رئاسة العراق لها، عملاً بالترتيب الأبجدي للترؤس، إلى التعامل الخليجي الراقي معها وتجاوُز دول مجلس التعاون لهذا الترؤس والمشاركة فيها) كما لو أنها حالة إستثنائية على العمل العربي المشترَك. بل قد يجوز القول إنها تجربة أُولى ناجحة نسبياً للتفكير جدياً بعقد قمة عربية تصفِّي، مع نهاية السنة، تركة القرن العشرين، وهي في معظم أحداثها وتطوراتها تركة ثقيلة، وبحيث تبدأ مع حلول اليوم الأول من الألفية الثالثة حقبة عربية جديدة تقوم على التضامن، وعدم تدخُّل أي دولة في شؤون الدول الأُخرى، غزواً أو تآمراً، والتعاون في المجال الإقتصادي بما يحقق تطلعات الجيل العربي الجديد.

والقول بأن القمة الأفريقية الإستثنائية أعادت الإعتبار إلى الشعب الليبي الذي ذاق مرارة الحصار

منذ العام 1992 يستند إلى أنه ليس بالأمر البسيط أن تشهد ليبيا قمة (الأربعاء 8 والخميس 9 سبتمبر/ أيلول) تشارك فيها 43 دولة أفريقية وعربية – أفريقية وعلى أعلى المستويات، عدا إستثناءات. ولعل أبرز هذه الإستثناءات على الإطلاق غياب الرئيس حسني مبارك، الذي كان الليبيون يتطلعون إلى مشاركته وجاءت حادثة الإعتداء عليه في بورسعيد تمنعه من المشاركة على نحو عدم مشاركته في قمة أديس أبابا بسبب محاولة جريئة إستهدفت إغتياله على طريق مطار العاصمة الأثيوبية. كما أنه ليس بالأمر البسيط عقْد هذه القمة الإستثنائية ولمَّا ينقضي شهران على عقْد القمة الدورية الخامسة والثلاثين (6–14 يوليو/ تموز 1999) في الجزائر، فضلاً عن أنه خلال هذيْن الشهريْن لم تحدُث تطورات درامية تبرر الإنعقاد، كما لم تخرج إحدى دول القارة السمراء على ما تم إنجازه في قمة الجزائر، وهو تحريم الإنقلاب العسكري، وهو إنجاز يُحسب للرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة الذي جاءت إستضافته للقمة العادية ولمَّا تنقضي أسابيع على تسلُّمه مقاليد الحُكْم بمثابة تكريم من أفريقيا له.

وعندما يصحو الليبيون على مشهد لم يألفوا حدوثه في بلدهم، ويرون أن عرضاً عسكرياً ضخماً يجري في العاصمة الليبية وتشارك فيه 32 دولة أفريقية بوحدات رمزية (على طريقة مشاركة المغرب بالعرض العسكري الفرنسي في باريس، الذي شاهده الملك الحسن الثاني إلى جانب الرئيس جاك شيراك كمبادرة تكريم إستثنائية من فرنسا للعاهل المغربي، الذي لقي وجه ربه بعد يوميْن من عودته إلى بلاده) ثم يتابع الليبيون في اليوم التالي التقاطر الأفريقي إلى بلدة "سرت"، مسقط رأس العقيد معمَّر القذَّافي والعاصمة الإستثنائية للبلاد، لعقد القمة الإستثنائية فيها... إن الليبيين عندما يصحون على هذا المشهد، فمن الطبيعي أن يتناسوا مرارة الحصار وتأخذهم النشوة ويتملكهم الشعور بأنهم في الألفية الثالثة على موعد مع وضْع جديد سيكون بالتأكيد أفضل حالاً من قبْل، خصوصاً إذا بلغت تطلعات القذَّافي مداها بحيث تتحول ليبيا إلى دولة تنشط فيها التجارة والإستثمارات والمشاريع السياحية، ويعود إليها أهلها الذين يعيشون في الشتاتيْن العربي والأجنبي. وهذا معناه أن يواصل العقيد القذَّافي إعادة النظر التي بدأها. وهنالك إيماءات وتصريحات تؤكد إحتمال حدوث ذلك. فالذي قرر أنه لن يعود مهتماً بتصدير أفكاره الثورية إلى الغير، والذي لم يعد كثير التمسك بأنه "أمين القومية العربية" – اللقب الذي أسبغه عليه الرئيس جمال عبد الناصر – والذي لم تعد فلسطين بالنسبة إليه قضية مبدئية ووجدانية، والذي لم تعد الوحدة العربية حلماً من أحلامه الجميلة... إن العقيد القذَّافي الذي انقلب على القومية العربية، ربما يرى في هذه الأمور وغيرها أنها نوع من الأوسمة والميداليات، لا أكثر، نالها في سنوات الشباب حيث تكثر التجارب ويمكن فقط وضْعها في المناسبات على الصدر، بات وهو يقترب من العقد السادس ينظر إلى الأمور بمثل نظرة مَن كانوا في هذه السن، أو أقل، عندما كانوا يُسدون إليه النصيحة فلا يتقبَّلها وهو في الثلاثين، ثم في الأربعين من العمر. وعلى هذا الأساس فإن مسألة إعادة النظر التي نشير إليها ممكِنة من جانب القذَّافي الستيني، الذي توافرت عنده الحيثيات الكثيرة من أجْل إعادة النظر التي بدأها. ويكفي أن يكون العقيد القذَّافي إرتأى، في ضوء التجارب العاصفة التي مر بها خلال ربع قرن، أن يُكثر من التأمل ويستخلص العِبَر التي يؤسس عليها رؤية جديدة لما ينبغي أن تكون عليه أحوال بلاده وطبيعة حُكْمه في الألفية الثالثة. ولا بد لمن يتأمل ويُغرق في تأملاته، وبالذات مَن كان في قمة السُلطة، أن يجد الكثير من السلبيات تُجاور الإيجابيات.

وقد يكون عامل السن وإستحالة الصمود على المبدأ الثوري في عالم تتسارع التحولات فيه، إضافة إلى الصدمات وآخرها الحصار، هي السبب في إعادة النظر، أو أن صداقة العقيد القذَّافي وعلاقته الوثيقة بالزعيم الأفريقي نيلسون مانديلا تشكّل عاملاً أساسياً في هذه الإعادة. ويميل المرء إلى إعتبار أن هذه الصداقة كانت عنصر تحريض محبَّب ومخلص من جانب مانديلا للقذَّافي يقوم على قاعدة أنه في زمن النظام العالمي الجديد من الأفضل للحاكم أن يغيّر بنفسه وبالإختيار خشية أن يجد نفسه عرضة لتغييره وبالإضطرار. كما أن نصائح مانديلا (عميد المناضلين) قد تكون شملت القول ما معناه إنه ليس هنالك نضال إلى ما لا نهاية وأن أفضل ما يمكن أن يحققه حاكم لشعبه هو أن يُسعده في الدرجة الأولى. كما قد تكون إحدى النصائح تتعلق بإعادة النظر وكيف أن الشعب يكون ممتناً من حاكمه إذا هو أعاد النظر ولن يكون على الإطلاق شامتاً به.

ومِن هنا يجوز الإفتراض بأن تركيز العقيد القذَّافي على أفريقيته، منذ أن آزره حكام أفريقيا بخرقهم الحصار الجوي المفروض على ليبيا، كان بتأثير من نصائح مانديلا المخلصة وخيبات أمل ببعض الأشقاء العرب، الذين كان عليهم – من وجهة نظره كثوري – أن يخرقوا هم أيضاً الحصار. لكن القذَّافي، الذي أعاد النظر في معتقداته القومية والسياسية والثورية، بات – من وجهة نظره كزعيم – يتفهم عدم قيام الأشقاء العرب بتلك الخطوة. وفي فترة الترويج لأفريقيته والتبشير بها نلاحظ أنه خاض جولات شاقة في هذا السبيل تمثَّلت بتصريحات وأحاديث صحافية متلاحقة، بدا فيها العقيد القذَّافي مثل إمام مسجد يصعد بنفسه إلى مئذنة لا مكبرات صوت فيها داعياً إلى الصلاة، التي هي "خير من النوم". وهو هنا يدعو إلى الأفريقية، التي هي خير من العروبة في رأيه المستجَد، والذي ربما لن يكون ثابتاً.

ولا ندري إذا كان الليبيون المبتهجون بأن زعيمهم الذي أحبوا فيه إعادة النظر سيسعدهم ويقنعهم قوله في إحدى صولات التبشير "إننا لا نرتبط بعرب شبه الجزيرة العربية إلاَّ بعلاقة عاطفية وإن أفريقيا هي مكاننا الطبيعي...". كذلك لا ندري إذا كان هؤلاء بتاريخهم العروبي العريق سيتحملون أن يجد الواحد منهم نفسه يفعل بطريقة أو أُخرى ما فعله النجم الأسود مايكل جاكسون بنفسه عندما أراد أن يغيِّر جِلْده الأسود ضيقاً به وحباً باللون الأبيض، مستعملاً مبيدات جلدية لهذا الغرض فما عاد ذلك الأسود الأصيل ولا الأبيض الطارئ. وقد يجد الليبي نفسه ينتهي إلى أنه ليس بالعروبي الأصيل ولا بالأفريقي الطارئ. وتلك ستكون محنة إنتماء بالغة القساوة على النفس والوجدان. أما العرب الأفارقة الأشقاء، من مصر إلى المغرب إلى تونس إلى الجزائر إلى موريتانيا إلى السودان، فإنهم في الغالب لن يتجاوبوا مع تطلعات شقيقهم القذَّافي، وسيرون أن خير بيتيْن لهم هما بيت منظمة الوحدة الأفريقية، مع بعض التفعيل، وبيت الجامعة العربية، مع الكثير من التنشيط.

ومِن هنا فإنه بعد أن تهدأ نشوة العقيد القذَّافي بأنه بات، وهو يخطو نحو العقد السادس ونتيجة ظروف كثيرة التشابك عاشها ويعيشها معظم الحكام الأفارقة، أول زعيم عربي يتزعم الأفارقة غير العرب، وأنه بعدما كان "أمين القومية العربية"، بلقب أطلقه عليه ملهمه وأستاذه جمال عبد الناصر، أصبح "أمين القومية الأفريقية" بنصيحة من صديقه وملهمه نلسون مانديلا... إن النشوة بعد أن تهدأ فربما سيعيد القذَّافي النظر. وهذه الإعادة ستكون الأخيرة، لتستقر في ضوئها أحوال البلاد والعباد في ليبيا وفي الجناح المغاربي من العالم العربي.

في أي حال إن ما فعله العقيد القذَّافي يحتاج إليه الرئيس صدَّام حسين. وما جرى في قمة الدبلوماسية العربية مؤشر إلى أن الحُكْم العراقي على طريق إعادة النظر. وهي أكثر يسراً له، لأنه ما زال متمسكاً بالعروبة... أصلاً وفصلاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 سبتمبر (أيلول) 1999

* * *

الطبيعي وغير الطبيعي بين إيران والعرب

ما هو طبيعي أن تطالب دولة الإمارات في كل مناسبة بجزُرها الثلاث المحتلة من جانب إيران. فالجزُر الثلاث، طمب الكبرى وطمب الصغرى وأبو موسى، جزر إماراتية. وهي باقية على هذه الهوية إلاَّ إذا كان لمحكمة العدل الدولية رأي آخر. وهذا في حال إرتضت الجمهورية الإسلامية في إيران أن تنظر هذه المحكمة في النزاع على نحو ما تطالب به دولة الإمارات مدعومة بهذه المطالبة من جانب مجلس التعاون الخليجي وبقية الدول العربية.

وما هو غير طبيعي أن ينزعج الحُكْم الثوري في إيران من هذه المطالبة ويحتج بطريقة أو أُخرى على أي موقف يساند دولة الإمارات في مطلبها وفي إستعادة حقوقها. وآخر إنزعاج وإحتجاج من جانب إيران كان على موقف مجلس الجامعة العربية في دورته العادية السنوية الذي أكد حق دولة الإمارات في إسترداد جزُرها المحتلة ومساندتها في ذلك.

طبيعي لأن المطلب الإماراتي حق والمساندة العربية واجب. وغير طبيعي لأن إيران محتلة والإحتلال مبغوض ومرفوض ومكروه خصوصاً عندما يأتي من شقيق. بل إنه عندما يطول ويتباهى الطرَف المحتل بإستمرار إحتلاله على نحو ما هو حاصل بين الحُكْم الثوري في إيران ودولة الإمارات فإن الشعور

إزاء هذا الإحتلال المستمر يصبح مثل الشعور إزاء الغزو العابر على نحو ما فعل العراق بالكويت.

وقد يتقبَّل المرء الإحتجاج إذا هو جاء بصيغة ملطفة، على أساس أن معناه يأتي في سياق أن المحتج – وهو هنا الحُكْم الثوري في إيران – لم يجد بعد الوسيلة الممكنة لحل النزاع مع الإمارات في شأن الجزُر لكنه يريد إستنباط الحل لحرص منه على تعايش لا تشوبه شوائب بينه وبين الذين يحيطون به، وإنه في إنتظار هذا الإستنباط يرُد على الفور على أي مؤازرة للإمارات في شأن الجزُر بالتمسك بهذه الجزُر.

إن مثْل هذا الإحتجاج يمكن أن يجد بعض التفهم والقبول على أساس أنه عابر وأنه للإستهلاك المحلي. أما غير المفهوم وغير المقبول فهو أن تصل الحال إلى حد أن القائد العام لقوات "الحرس الثوري" في إيران الجنرال رحيم صفوي يقول يوم السبت 18 سبتمبر/ أيلول 1999 أمام المؤتمر العام لقادة "الحرس الثوري" المنعقد في طهران إن ما جاء في قرار وزراء الخارجية العرب في شأن مساندة دولة الإمارات في جهودها لإسترداد الجزُر الثلاث "عبارة عن مزاعم جديدة لإجتماع الجامعة العربية في شأن الجزُر الثلاث التي تُعتبر جزءاً لا يتجزأ من أراضي الجمهورية الإسلامية وعلى المخدوعين أن يعودوا إلى رشدهم وإننا سنرد بكل قوة على أي تعرُّض لهذه الجزُر..".

وما يلاحظه المرء أنه بقدْر ما إن نيات وزراء الخارجية العرب الذين إجتمعوا في القاهرة كانت طيِّبة ولم يتجاوزوا في ما قرروه بالنسبة إلى موضوع الجزُر الحد الأدنى مما هم مطالَبون به مِن موقف حازم، فإن الجانب الإيراني كان يفتقد النية الطيبة برد فِعْله الذي يتسم بالتوتر والتهديد. وهو تهديد من الضروري أخْذه على محمل الجد، لأنه لا يأتي من مصدر ديبلوماسي مسؤول، أو في الحد الأقصى على لسان وزير الخارجية، بمعنى أنه يكون قابلاً للتلطيف والتعديل من خلال تصريح لاحق، وإنما هو يأتي على لسان القائد العام لقوات "الحرس الثوري".. أي من الجهة التي تهدَّد وتنفِّذ في الوقت نفسه.

وقد يجوز القول إن قائد قوات الحرس الجنرال صفوي ليس وحده صاحب القرار في إيران، وأن الحُكْم الثوري يعيش منذ ثلاث سنوات حالة من المد والجزر يصعب معها معرفة مَن هي الجهة التي ستفوز في لعبة الصراع في نهاية الأمر. ولكننا هنا لا نحكم على التحليل والإجتهاد وإنما على الأقوال. وما قرأناه للجنرال رحيم صفوي لا يدعو إلى التفاؤل بعلاقة وثيقة وتعايش مثالي، على نحو ما يريده مجلس التعاون الخليجي للجارة إيران وما بذل في سبيلهما الكثير من الجهد والسعي المخلص وليّ عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبد العزيز، ووزير الدفاع النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء الأمير سلطان بن عبد العزيز، خلال زيارتيْن تاريخيتيْن قاما بهما إلى إيران وفتحتا الطريق أمام علاقة إيرانية – خليجية قابلة للتطور والإزدهار، شرط أن تصفو النية ولا يتدخل أحد في شؤون الآخر وتتوقف مسألة تصدير الثورة التي تسبَّبت في حدوث إرتباكات كثيرة للعلاقات الإيرانية – العربية.

وقد يشعر الذين تسببتْ محاولات تصدير الثورة إلى دولهم بشيء من الطمأنينة لأن الحُكْم الثوري في إيران إكتشف أي ضرر لحق به وألحقه بالغير من جرَّاء محاولة تصدير الثورة في السنوات الماضية بالأسلوب التقليدي الذي يعتمد على المال والسلاح والعقيدة وشحْذ الهمم والتدريب، فقرر على ما يبدو وقْف التصدير بهذا الأسلوب وإعتماد أسلوب التصدير بواسطة "الإنترنت" على نحو ما قرأْنا لرئيس مجلس الشورى (البرلمان) ناطق نوري الذي كان واحداً من الخطباء في الإحتفال الذي أقيم لمناسبة تأسيس "الحرس الثوري" وإنعقاد المؤتمر العام لقادته وشجّع فكرة التصدير العصرية المشار إليها. لكن كيف سترتاح دولة جارة مثْل دولة الإمارات، وترتاح معها وتَطمئن كل الدول العربية التي ساندت موقفها في إجتماع وزراء الخارجية العرب في القاهرة، عندما يخرج القائد العام للحرس على كل الأصول ولا يكتفي بإطلاق التهديدات وإنما يستعمل عبارة مهينة في حق كل من شارك في ذلك الإجتماع. ولا نعتقد أن أحداً لا يمكن أن يعتبر عبارة "إن على المخدوعين أن يعودوا إلى رشدهم..." إلاَّ أنها عبارة إستهدفت الإهانة. وخطورة الإهانة عادة هي في مَن يطْلقها، وهو هنا القائد العام لقوات "الحرس الثوري" في الجمهورية الإسلامية في إيران التي كلما إقترب العرب منها إنتفضت عليهم بكلمات تفتقد إلى حُسْن المخاطبة. و"الحرس الثوري" هو الذي يقول عنه هاشمي رفسنجاني إنه "كان القوة التي لولاها لتعرَّضت الثورة والوطن لأخطار واسعة...". وهذا كلام يجعل قائد الحرس يقول ما يريد أن يقوله حتى إذا تجاوز القول

الحدود.

ويبقى، ونحن نسجل هذه الوقفة مع موقف إيراني مستهجَن، أن نبدي كل الإستغراب لأن الحُكْم الثوري في إيران لا يبرئ نفسه من موضوع الجزُر مع أن المَخرج متوافر أمامه من أجْل ذلك. فالجزُر يجب أن تعاد ولا يجب أن تبقى لغماً في حقل العلاقة الإيرانية – العربية وبالذات دول الجوار، أي دول مجلس التعاون الخليجي. وإذا كانت دولة الإمارات غير قادرة على أن تخوض حرب تحرير لهذه الجزُر بهدف إستعادتها، وأن دول مجلس التعاون الخليجي تفضل لأسباب موضوعية التهدئة وإعادة الجزُر بالحسنى، فهذا لا يعني أنه من المستحيل وضْع الأمر بين يديْ محكمة العدل الدولية مع الأخذ في الإعتبار أن رفْض الحُكْم الثوري في إيران الأخذ بهذا الحل الدولي لا يعني أنه لا يمكن أن يرضخ لاحقاً نتيجة ضغوط وظروف دولية لا قدرة له على مواجهتها إلى ما لا نهاية.

وبدلاً من هذا الصراع الحالي، والقابل للتفاقم، لا ندري لماذا لا يكون هنالك حل لهذا الموضوع بين أهل القضية أنفسهم، خصوصاً أن أحداً لن يلوم الحُكْم الثوري في إيران إذا هو إختار الحل المتوازن مع دولة الإمارات والمضمون من المملكة العربية السعودية. فإحتلال الجزُر إرث ثقيل الوطأة من حُكْم الشاه الذي أسقطتْه هذه الثورة. وليس منطقياً على الإطلاق أن يعتبر الحُكْم الثوري أن كل ما فعله الشاه محمد رضا بهلوي كان باطلاً عدا إحتلاله للجزُر الإماراتية الثلاث. بل إنه ليس من اللائق بثورة تريد أن تكون نموذجاً يُحتذى أن يكون الإقرار بالإحتلال من سمات الحُكْم الذي أنشأتْه. ولا يزال هذا الحُكْم، للسنة العشرين على التوالي، حائراً في أن يكون إما ثورة تصر على إحتلال أرض تخص الغير، وإما دولة تفاوض من أجْل إيجاد حل موضوعي لهذا الإشكال أو ترتضي حُكْم محكمة العدل الدولية... وكلاهما خير الحلول.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 سبتمبر (أيلول) 1999

* * *

ملكات... ورئيسات... وأقدار

في الوقت الذي وصلت إلى القمة في الأردن الفتاة الفلسطينية رانيا الياسين التي باتت أردنية بالتجنس، أخفقت في الوصول إلى القمة في الهند السيدة سونيا غاندي الإيطالية الأصل والهندية بالتجنس بعد زواجها من راجيف نجل أنديرا غاندي.

وفي حين بدا وصول سونيا غاندي إلى قمة السُلطة في الهند أمراً على شيء من الإستحالة منذ أن أبدت رغبتها في تشكيل حكومة، فإن وصول رانيا الياسين إلى أن تكون الملكة بعد توريث الملك حسين نجله البكر عبد الله المُلك (بدلاً من شقيقه الثاني الأمير حسن) بدا أمراً طبيعياً ونعمة أسبغتْها الأقدار على الأردن لأنها تعزز على الصعيد المعنوي تعايُش الشعبيْن في الأردن وبالذات لأن الأكثرية فلسطينية، وهو أمر لم يُكتب له أن يأخذ فرصته من الإختبار نتيجة أن الملكة الفلسطينية الأولى في عرش الأردن، ولا نقول عليه، علياء طوقان، رحلت مبكرة في حادثة تحطُّم طائرة هليكوبتر قيل من باب التخمينات والإفتراضات في حينه إنها – أي الحادثة – مدبَّرة كي لا تستقر صيغة التعايش ويكون لـ علياء الفلسطينية شأن إستثنائي في القرار السياسي عند صياغته من جانب زوجها الملك حسين.

ومثْل هذا الدور كادت تحصل عليه الملكة نور من زوجها الملك حسين لولا أن المرض داهم بشدة الملك إلى أن قضى عليه. وما لم تحصل عليه نور الأميركية الأصل قد تحصل عليه رانيا لأنها فلسطينية الأصل ولأن المصير الفلسطيني يتبلور في إتجاه المملكة المتحدة التي تضم الأردن القوي والكيان الفلسطيني الضعيف في حال إستحالة قيام الدولة الفلسطينية بالطموح الذي رسم معالمه الرئيس ياسر عرفات وينتظر لحظة تحوُّل الحلم إلى حقيقة... أي إلى دولة عاصمتها القدس.

والإثنتان نور ورانيا من النوع الشغوف بالعمل الإجتماعي وهما في هذا الشأن تنتسبان إلى الفئة نفسها التي كانت تنتمي إليها الأميرة دايانا عِلْماً بأن إنصراف الملكتيْن الأردنيتيْن إلى النشاط الإجتماعي يلقى الإرتياح في نفس مَن يجلس على العرش على عكْس ما حدَث لولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز الذي أشعل النشاط الإجتماعي لزوجته الأميرة دايانا (الراحلة) وتركيز الأضواء عليها، الغيرة في نفسه، وربما لأنه قريب جداً من العرش وبعيد جداً عن التربع على كرسيه وليس مثْل الملك حسين ولا مثْل وريثه الملك عبد الله الثاني. أما لماذا يلقى النشاط

الإجتماعي للملكتيْن نور ورانيا الإرتياح في النفس لدى الحسين من قبْل ونجله عبدالله حالياً فلأن الطبيعة الجافة نسبياً للحُكْم في العالم الثالث تجعل من النشاط الإجتماعي تقوم به السيدة التي في القمة ما من شأنه تلطيف ذاك الجفاف عِلْماً بأن هذا النشاط الإجتماعي يمكن أن يأخذ منحى الموقف السياسي كما حدَث مع الملكة رانيا عندما توجهت على رأس وفد أردني لتقديم المساعدات الطبية والغذائية إلى البان كوسوفو اللاجئين إلى مناطق حدودية وكانت بذلك أكبر مسؤول عربي يقوم بهذه المهمة ذات الطابع الإنساني والسياسي في الوقت نفسه.

وإلى ذلك فإن النشاط الإجتماعي تقوم به السيدة التي في القمة في بلد مثْل الأردن يحقق أمراً يتطلع إليه زوجها الحاكم وهو النهوض بالمرأة والتأكيد على أهمية أن تكون شريكة وتمارس دورها في العلن بعيداً عن وطأة القيود التي تفرضها توجهات الجماعات الدينية والتي هي على شأن كبير في الأردن وتحاول من خلالها التأثير على التوجه العلْماني للحُكْم. وعندما يأتي هذا الدور من ملكة مسلمة أباً عن جد مثل رانيا وليست مسلمة بالزواج فقط مثل نور فإن التأثير يكون أكبر. بل حتى أن هذا التأثير كان سيبدو أقوى لو أن أمر إنتقال السُلطة في الأردن لم يتعرض للمفاجآت ووصلت ثريا زوجة الحسن إلى مكانها في العرش الذي تربّع عليه زوجها الذي أقصاه شقيقه الحسين عندما بدأ العد العكسي للرحيل وإختار للعرش مروراً بولاية عهد لبضعة أيام نجْله عبدالله.

أما لماذا كان سيبدو أقوى مع ثريا فلأنها هي الأُخرى مسلمة أباً عن جد ولأن السنوات الطويلة التي أمضتها كأميرة زوجة لوليّ العهد أكسبتْها خبرة في مجال النشاط الإجتماعي الخيري ولأنها عرفت نسيج الشعب الأردني، فضلاً عن أنها كانت موضع إرتياح العصبية الأردنية لأنها مسلمة من جهة ولأن المسلم لا يعود أجنبياً حتى إذا كان من أصل باكستاني كما هي حال الأميرة ثريا، التي لم ينتهِ أمرها على أنها لم تصبح ملكة، وإنما إستسلمت لحالة من الإنطواء، على نحو الحالة التي أصابت سونيا غاندي عندما كادت تصبح سيدة الهند الأُولى ثم إصطدمت بالحقيقة البالغة المرارة وهي أن التطرف الهندي عبّر نيابة عن كل الشعب بإيحاءاته إلى سونيا كي تبتعد طوعاً لأنه من الصعب القبول بسيدة إيطالية الأصل كي تتربع على قمة السُلطة في الهند حتى إذا كانت وريثة أُسرة نهرو – غاندي التي لم يبقَ لها من الذكور سوى راهول ومن الإناث سوى بريكانا وكلاهما تحت الثلاثين من العمر، وقد إهتمت بهما والدتهما بعد إغتيال والدهما راجيف وفي تخطيطها أن الإبنة يمكن أن تكون أنديرا الثانية (أي مثْل جدتها أنديرا غاندي) وأن الإبن يمكن أن يكون راجيف الآخر، أي مثل والده الذي قضى إغتيالاً وعلى نحو المصير الذي لقيتْه والدته من قبْل، إغتيالاً أيضاً.

وإذا جاز للمرء أن يفترض فإن خشية سونيا غاندي من أن تلقى الإبنة والإبن مصير الجدة أنديرا والوالد راجيف، هي التي دفعتْها إلى أن تتصدّر المعركة وتعلن عن رغبتها في خوض غمارها بحيث تترأس، هي وليس أحدهما، حكومة في الهند التي إستيقظت في ميادين السلاح النووي والصواريخ العابرة. وبدت سونيا في هذه الخطوة وكأنما هي ضمناً تحاول أن تفتدي بحياتها ولديْها وهو شعور عفوي وتلقائي من أم عاشت محنة إغتيال حماتها ثم إغتيال زوجها وما نتج عن الإغتياليْن من مشاعر بالغة القساوة على نفسها كأم وعلى العائلة السياسية العريقة وما تشكّله المحنة من تحديات.

ومن المؤكد أن الطريق المستقيم الذي إختارته سونيا لحياتها شكّل نقطة لمصلحتها عندما تزعمت حزب المؤتمر، فهي إزدادت تمسكاً بالتقاليد الهندية من الساري إلى التحية ووضعت نفسها بعد إغتيال زوجها منزوية في منزلها في نيودلهي وكرّست وقتها للأعمال الخيرية وللمؤسسة التي تحمل إسم زوجها الراحل. وساعدها على ذلك أنها كانت تخلّت بعد خمس عشرة سنة على زواجها عن جنسيتها الإيطالية وأنها عند إغتيال زوجها كانت في الخامسة والأربعين وهي سن الحيوية. كذلك ساعدها على ذلك أنها لم تتورط سواء أيام كان زوجها في الحُكْم أو بعد إغتياله بأمور البيزنيس وجمْع المال على نحو ما أصاب جارتها بنظير بوتو الذي أفقدها جشعها للمال، أو جشع زوجها ومسايرتها لهذا الزواج في ذلك، الحُكْم الذي تربعت بضع سنوات على قمته وريثة لوالدها ذو الفقار علي بوتو الذي قضى إغتيالاً.

ومع أن المآسي متشابهة في العائلتيْن المتجاورتيْن آل بوتو في باكستان وآل غاندي في الهند، إلاَّ أن إبتعاد سونيا عن قضايا البيزنيس وجشع المال وما تسببه جعل ترشيحها لرئاسة الهند أمراً وارداً حتى إذا كان غير مرحَّب به، في حين أن بنظير بوتو إنتهت خارج الحُكْم وإنتهى زوجها في السجن وإنتهت محكوماً عليها بالسجن خمس سنوات وتغريمها ثمانية ملايين

دولار وحرمانها من الحقوق السياسية بتهمة الفساد. ومع أن جانباً من هذه النهاية ناشئ عن صراع أبدي على السُلطة في باكستان، إلاّ أن بنظير شجعت أو غضّت الطرْف عن جنون العمولات والصفقات والفساد وكانت نتيجة ذلك أن بنظير توارت عن الحُكْم ثم عن الأنظار إذا كان أهل الحُكْم الحالي في باكستان سيمضون إلى النهاية في حملة التشهير والإخضاع، في حين أن سونيا راجيف غاندي إقتحمت الساحة وتراجعت عنها بكل تعقُّل وحكمة كونها إستوعبت ما الذي يعنيه رموز التطرف الهندي بقولهم إنها أجنبية وإن الهند ذات الحضارة والتقاليد العريقة لا تتحمل أن تكون محكومة بسيدة إيطالية حتى إذا كانت تخلت عن جنسيتها الإيطالية، ولم تقل وداعاً للهند عندما إغتيل زوجها، وإنما صمدت لعلها تقنع الهنود وهي تخاطبهم بلغتهم التي تتحدثها بلكنة إيطالية مثْل تحدُّثهم الإنكليزية بلكنتهم على أنواعها، إنها لم تعد أجنبية لكي تكون مرفوضة وأن الأقدار التي شاءت أن تلتقي ذات يوم من العام 1968 في جامعة كمبردج بحفيد الباندیت نهرو وتتزوجه هي الأقدار نفسها التي جعلتْها بعد 31 عاماً من ذلك اللقاء تفكر بخوض معركة رئاسة حكومة الهند تماماً مثلما هي الأقدار التي شاءت أن يكون للإجتياح العراقي لدولة الكويت دور في أن تغادر رانيا الياسين الكويت مع والدها الطبيب إلى عمان وتصبح الفتاة الفلسطينية أميرة بعد زواجها من الأمير عبدالله ثم ملكة بعدما عصفت الأقدار بالملك حسين الذي هزمه مرض السرطان، والذي سارع قبل ذلك إلى ترتيب أمور البيت بحيث صار الإبن عبدالله ملكاً على عرش الأردن وباتت رانيا ثاني ملكة فلسطينية الأصل لها مكانها ومكانتها في العرش الذي تربع عليه عبدالله إبن الحسين الكبير ووالد الحسين الصغير... ثاني أمير أردني – فلسطيني بعد الأمير الأول علي بن الحسين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 1999

* * *

رشوة الغاز الفلسطيني بدلاً من القدس...

نخشى كثيراً من خبر مفرح تناقلتْه وكالات الأنباء العالمية قبْل أيام. ولأن الخبر المفرح لا يبعث على الخشية فإن توضيح هذا اللغز واجب.

خلاصة الخبر المفرح أن خبيراً جيولوجياً بحرياً أميركياً إسمه روبرت بولارد إكتشف حقلاً بحرياً ضخماً للغاز الطبيعي على ساحل تتقاسمه إسرائيل ومصر والسُلطة الوطنية الفلسطينية يمتد جنوباً على طول قطاع غزة وعلى إمتداد الساحل المصري.

مفرح هذا الخبر لأنه مؤشر إلى نعمة خص بها الله سبحانه وتعالى الشعب الفلسطيني، ذلك أن الثروة التي ستعود على هذا الشعب من جراء تسويق الغاز، من شأنها أن تساعد على تحسين وضعه المعيشي والإجتماعي وبما يحقق للأجيال الفلسطينية في الألفية الثالثة أمنية الإنتقال من الأكواخ في المخيمات إلى دور سكنية لائقة مثْلهم مثْل سائر البشر. وفي الوقت نفسه هنالك الخشية من أن تصبح هذه النعمة نقمة. ذلك أن ساحل قطاع غزة الممتد حتى الحدود مع مصر يخضع للإدارة المشتركة لإسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية. وإستناداً إلى عدم توازن القوة بين المعتدي (إسرائيل) والمعتدى عليه (الفلسطينيون) وسياسة هيمنة إسرائيل المدعومة من الولايات المتحدة التي تنعكس سلباً على القرار الوطني الفلسطيني، فإن الإسرائيليين سيفتعلون عشرات الحجج لكي يضعوا يدهم فوق اليد الفلسطينية وبذلك لا ينال الشعب الفلسطيني من الجمل (وهو هنا ثروة الغاز) سوى أُذنه على نحو ما يختصر القول الشعبي مفهوم العدالة المنقوصة والجائرة، والتوزيع غير العادل للثروات. وكخطوة أُولى على هذا الصعيد وفي إنتظار إكتمال مخطط وضع اليد نقرأ تصريحاً لمتحدث رسمي إسرائيلي يقول فيه إنه لم يسمع بوجود حقول الغاز المشار إليها مع أن الجمعية الجغرافية الوطنية الأميركية هي التي أعلنت نبأ إكتشاف الخبير الجيولوجي الأميركي للغاز الطبيعي على ساحل غزة خلال دراسة قام بها الخبير لبقايا سفن فينيقية قديمة في هذه المنطقة، ومع أن حقلاً للغاز الطبيعي إكتُشف في وقت سابق بالقرب من ميناء أسدود الإسرائيلي شمال قطاع غزة بطاقة إنتاج تصل إلى ثلاثين مليون قدم مكعب في اليوم.

وجود الثروات الطبيعية من نفط وغاز ليس مستغرَباً تحت الأرض العربية. وما تم إستخراجه دليل على ذلك، وهو القليل من الكثير الذي لم يتم بعد إكتشافه ثم إستخراجه. وبعدما بات اليمن بلداً نفطياً وصار السودان أيضاً من الدول المصدِّرة للنفط،

وبذلك وضع الشعب في البلديْن نفسه على طريق الإنتقال من الحرمان إلى مشارف البحبوحة، جاء دور الشعب الفلسطيني الذي سيعوّضه الله سبحانه وتعالى حرمان نصف قرن.

ومن حسنات هذه الثروة أنها ستجعل الفلسطيني يرفض توطينه خارج بلده وتجعله يتمسك بالعودة إلى أي شبر أرض من فلسطين، وبذلك يتوقف الضجيج اللبناني حول رفض توطين الفلسطينيين في لبنان.

وتبقى بقية خشية وهي أن يكون الإعلان عن الإكتشاف المشار إليه مجرد لغم نفسي مبتكر تزرعه دوائر صهيونية وأميركية خفية والغرض منه إلهاء الفلسطينيين بثروة الغاز وعدم التفكير بالقدس... كتراث وكعاصمة للدولة الفلسطينية الموعودة.

وفي تاريخ الدوائر المشار إليها ألغام كثيرة زرعتْها في أوطان الآخرين وبحيث ينشغل كل بلد بقضايا تُبعده عن الإهتمام بالقضية الوطنية. ونحن عند التأمل في تلك الألغام التي زرعتْها في طول الوطن العربي وعرضه يتأكد لنا ذلك.

وقد نجد من يقول إن هنالك مبالغة في الأمر وإن المسألة ليست أكثر من مجرد إكتشاف حقل للغاز على ساحل فلسطيني وإن المكتشف خبير جيولوجي، الأمر الذي يُبعد الإفتعال السياسي عن الحدَث، فضلاً عن أن أرض فلسطين شأنها شأن بقية الأراضي العربية زاخرة بالثروات الطبيعية من الذهب الأسود إلى الذهب الأصفر الرنان.

ومثل هذه الرؤية صحيحة وهي منطقية بداية ونهاية لو أن ظروف فلسطين طبيعية وليست وطناً إغتصبه آخرون تحت سمع العالم وبصره وبمؤازرة القوى العظمى وبالذات الولايات المتحدة وبريطانيا. ولأن الظروف غير طبيعية وما كان وطناً بات أجزاء متناثرة من الأرض، وما كان حلماً إنتهى كابوساً... فإن توقيت إكتشاف الغاز، بينما المفاوض الفلسطيني من تعثُّر إلى آخر في مسألة إنسحابات متفق عليها، قد يكون الهدف منه كما ذكرْنا إبلاغ هذا المفاوض أن الإنشغال في مسألة الدولة والإصرار على أن تكون عاصمتها القدس لن يؤدي إلى نتيجة، وأنه إذا كان القمع الإسرائيلي على أنواعه والذي يحظى بمباركة الإدارة الأميركية لم يُقنع الفلسطينيين بأن عليهم أن ينسوا حكاية القدس وأمنية العمر بأن تكون عاصمة دولتهم المختصرة، فإن التفكير بالحياة الجديدة المرفهة بسبب ثروة الغاز الطبيعي قد يُقنعهم. وهذا أسلوب آخر من أساليب القمع يمكن تسميته أسلوب "القمع بالرشوة" يمارسه اليهودي الشاطر في هذا المجال وفي ظنه أن الفلسطيني الذي يتحمل نصف قرن من الانتهاك اليومي لحقوقه يمكن أن يتراجع عن الحد الأدنى، وهو أن القدس عاصمة دولته وأن المسجد الأقصى تراث غير خاضع لرشوة الغاز ولسائر أنواع الرشوة. وهو في هذا الموقف قوي لأن العرب والمسلمين معه، ذلك أن القدس هي الجامع المشترَك لأبناء الأمتيْن الذين يختلفون على أمور كثيرة لكنهم بالنسبة إلى مسألة القدس مثل الفلسطينيين... قلباً وقالباً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 سبتمبر (أيلول) 1999

* * *

رئاسات متجددة... من قرن إلى قرن

ضِمْن النسبة المألوفة في الإستفتاءات والإنتخابات العربية، وهي في إستمرار تتجاوز التسعين في المئة، يواصل الرئيس علي عبد الله صالح الحُكْم في اليمن رابطاً الألفية الثانية بالألفية الثالثة بعد فوزه في الإنتخابات التي جرت يوم الخميس 23 سبتمبر/ أيلول 1999، ويواصل الرئيس حسني مبارك الحُكْم في مصر بعد الإستفتاء الذي جرى يوم الأحد من الشهر نفسه وحاز فيه 93,79 في المئة من الناخبين قالوا "نعم" لولاية رابعة له.

عملياً، فاز علي عبدالله صالح بالتزكية. ذلك أنه عندما يكون المنافس هو نجيب قحطان الشعبي بالمعايير والمنطلقات التي خاض بها المعركة وتكون الأحزاب المعارضة لحزب الرئيس إختارت مقاطعة الإنتخابات على نحو ما فَعَلته الأحزاب في الجزائر، فإن النتيجة لا تعود تقاس بالنسبة المئوية وبالأصوات التي حصل عليها الفائز، وإنما بعدد الذين إقترعوا، أي أن الإقبال هنا يصبح هو المقياس. وبالنسبة إلى الرئيس علي عبدالله صالح فإن نسبة المشاركة في هذه الإنتخابات الرئاسية وهي التي تجري للمرة الأُولى بالإقتراع الشعبي المباشر بلغت 66 في المئة من مجموع المسجَّلين. ومثل هذه النسبة تبدو جيدة لو أن الأحزاب التي قاطعت لم تقاطع خصوصاً أن هذه الأحزاب أثبتت بمقاطعتها أن ثلث اليمنيين ليسوا معه ما داموا لم يشاركوا في الإنتخابات.

وبالمقياس الجزائري لا تبدو المقاطعة ذات أهمية. وفي البداية كدنا نفترض أن الرئيس عبد العزيز بوتفليقة سيكون أضعف الرؤساء في تاريخ الجزائر لأن الأحزاب أحرجَته عندما قررت مقاطعة الإنتخابات وبذلك بدا ضعيفاً وبدا أنه مرشح الجيش، ولن يكون في إستطاعته أن يفعل شيئاً. لكن الرئيس بوتفليقة خاض الغمار محاطاً بمؤازرة سعودية وخليجية ملحوظة وترحيب أميركي – فرنسي دافئ، وإستطاع في فترة وجيزة توظيف الأمريْن أحسن توظيف إلى درجة أنه إختصر تحفظات المقاطعين وشكوكهم في قدراته وفي الظروف التي أوصلَته إلى سدة الرئاسة. ثم جاء الإستفتاء ليكرّس بوتفليقة رئيساً قوياً مؤهلاً في حال أمكنه تحقيق الوئام الذي تعهَّد به لأن يصبح من الزعماء الوطنيين في تاريخ الجزائر.

لا ندري ما الذي سيفعله الرئيس علي عبدالله صالح ليؤكد أنه رئيس كل اليمنيين. إذا كان المطلوب وضْع دستور فإن هذا الدستور قائم منذ خمس سنوات. ومن محاسنه أنه يحدد المدة التي يمضيها الرئيس في الحُكْم بفترتيْن فقط، وإن كان بات معروفاً أن هذه الرئاسة ستتجدد مرة ثالثة أو أكثر بموجب ظروف لا تحدُث إلاّ في دول العالم الثالث. أما إذا كان المطلوب تحقيق إنجازات فإن اليمن تحتاج إلى الكثير منها في سبيل تثبيت دعائم الأمن والإستقرار وتوسيع رقعة التنمية وإختصار معاناة الناس.

وقبْل أن يتم إكتشاف النفط في البلاد كان من الصعب على الحاكم اليمني أن يفعل شيئاً، لكن النفط من جهة وإنحسار تعاطي الدولة مع القضايا الوطنية العربية الشائكة من شأنهما مساعدة الرئيس علي عبدالله صالح في ولايته الجديدة على أن يحقق الكثير على صعيد التنمية وإنهاء ظاهرة الفساد والفاسدين والمفسدين الذين باتوا أصحاب شأن، وتقليص نسبة الفقر في البلاد، إلاَّ أن ذلك لن يكون بالأمر اليسير إذا كان الأمن لن ينشر ربوعه في البلاد ولن تتم إزالة الخصومة والأحكام الصادرة في حق الزعامات اليمنية الجنوبية ولن تكون هنالك معارضة غير مصنَّفة سلفاً من الرئيس اليمني بأنها غوغائية. وإستناداً إلى ما أدلى به الرئيس علي عبد الله صالح من تصريحات عشية الإنتخابات وبعد الفوز ومنها قوله بأنه سيقوم بمراجعة شاملة للإستفادة من أخطاء حفلت بها سنوات الرئاسة السابقة، فإن الإحتمال وارد بأن يعمل الرئيس المتجدد من أجْل أن ينقل نفسه من مرتبة الرئيس الذي يحكم بلداً إلى مرتبة الزعيم الذي ينهض بهذا البلد على نحو ما هو مؤمَّل من الرئيس عبد العزيز بوتفليقة تحقيقه.

وإذا كان النفط هو أحد دوافع الرئيس علي عبدالله صالح لكي يواصل الحُكْم على أساس أنه بعوائد هذا النفط يستطيع أن يلبي المتطلبات ويحل الإشكالات، فإن القبول المصري الشامل والعفوي كان الحافز الأساسي لكي يواصل الرئيس حسني مبارك الحُكْم ست سنوات أخرى. وإذا جاز التشبيه فإن حالة الرئيس مبارك تشبه حالة تأهيل طائرة لكي تقوم برحلة إستغرق الكثير من الوقت وباتت هذه الطائرة جاهزة للتحليق بفضل مثابرة قائد الطائرة وحرصه على أن تكون الرحلة آمنة ومريحة. وبدلاً من أن يعتبر الركاب أن قائد الطائرة أنجز ما عليه مشكوراً ويعتبر هو أيضاً أنه أرهق نفسه ومن الأفضل أن يقوم بالرحلة طيار آخر، فإن الطرفيْن إلتقيا عند رغبة مشتركة وهي أن ينطلق بالطائرة الذي أشرف على كل صغيرة وكبيرة لكي تكون الرحلة آمنة.

ومن المؤكد أنه لو تعالت أصوات الأحزاب المعارضة رافضة أن يحكم الرئيس مبارك ست سنوات أُخرى لكان ربما آثر عدم التجديد. لكن الرغبة العفوية التي لمسها لدى المصريين جعلتْه يشعر بأنه يكافأ للمرة الأولى خلال الثماني عشرة سنة التي أمضاها رئيساً وتتمثل المكافأة في أنه يفوز بالقبول الشعبي الشامل ليس من أجْل تنفيذ برنامج وإنما من أجْل إستكمال هذا البرنامج.

وفي الولاية الرابعة التي تزامنت الموافقة الشعبية عليها بإرتياح دولي وعربي يخلو من دواعي البروتوكول التقليدي عند التهنئة، سيكون أمام الرئيس مبارك مهمتان ثقيلتان. الأولى هي ترتيب شؤون الخلافة وتوسيع الممارسة الديموقراطية وإنهاء ظاهرة حزب الحاكم خصوصاً أنها صيغة لا تضمن إستقرار تجربة، فضلاً عن الإنطلاق بالتنمية التي بدأها إلى المدى الأرحب، أو بتعبير تنموي بدء موسم قطاف ما زَرَعه وبذلك يكون فعل لمصر ما فعله طلعت حرب على الصعيد المالي والإقتصادي. أما المهمة الثانية فهي إستكمال العملية السلمية في المنطقة، لأن عدم حدوث ذلك من شأنه أن يُشعل حرباً جديدة في المنطقة لا تستطيع مصر إلاَّ أن تكون طرفاً فيها سواء بالمشاركة الفعلية في المواجهة أو بتجميد معاهدة كامب ديفيد كإجراء هدفه الضغط وليس التملص من

إتفاقات دولية إلتزمت مصر بها. وإلتفاف المصريين حول الرئيس مبارك لكي يبقى في الحُكْم ولاية جديدة تستغرق ست سنوات لا يندرج تحت ظاهرة أن المصريين إعتادوا ألاّ يخذلوا الحاكم في أي إستفتاء، وإنما هو مؤشر إلى شعور بالخوف من حدوث التطورات التي نشير إليها. وهم في شعورهم هذا إلتقوا مع الشعب السوري الذي جدّد هو الآخر بعفوية للرئيس حافظ الأسد تكريماً لما حققه لسوريا من إستقرار وإنفتاح إقتصادي محكوم بضوابط كي لا يحدث ما حدث في مصر بعد الإنفتاح الذي شرَّع الرئيس السادات الأبواب أمامه فتسبَّب في إجتياحات تركت الأثر المقلق على الطبقة المتوسطة. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى لثقة المواطن السوري بأن الرئيس الأسد هو القادر على أن يحقق السلام في المنطقة ومن دون إدخال البلاد في متاهات لا نهاية لتداعياتها.

ويبقى أنه بعد الإستفتاء المصري ومن قبْله الإنتخاب اليمني ومن قبْلهما الإستفتاء السوري يكون هنالك ثلاثة حكام عرب تربطهم علاقة وصداقة متميزة سيوصلون القرن العشرين، الذي كان قرن حروب نظامية وأهلية كثيرة أبرزها في المنطقة العربية، بالقرن الواحد والعشرين الذي يأمل الذين إكتووا بنار تلك الحروب وما زال فيهم رمق حياة أن يكون قرن السلام العادل والشامل.

وبعد أيام سينضم إليهم الرئيس التونسي زين العابدين بن علي بإنتخابات رئاسية والفريق عمر البشير في إطار توافق سوداني لم ينضج بعض والعقيد معمَّر القذَّافي بموجب صيغة جديدة يعكف على وضعها بحيث لا تكون ثورية ولا تقليدية ويواصل، مثل أصدقائه الذين سبقوه إلى التجديد، الحُكْم... الذي لا يسأم تكاليفه حاكم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 أكتوبر (ت1) 1999

* * *

الجزائر التي تتأمرك.. خطوة خطوة

نصارح الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة بأن لقاءه المصوَّر يوم الثلاثاء 28 سبتمبر/ أيلول 1999 مع قائد الأسطول الأميركي السادس الأدميرال دانييل مورفي الذي أجرى محادثات معه، لم يكن موضع إرتياح الذين شاهدوه عبْر الفضائيات أو على صفحات الصحف.

كانت سفينة قائد الأسطول الذي له سمعة غير طيبة بالنسبة إلى بعض الشعوب ومنهم الشعب اللبناني إبَّان أحداث العام 1958، قد رست في ميناء العاصمة الجزائرية في زيارة تُعتبر نادرة من جهة ومتوقعة من جهة أُخرى بعدما قرر العهد الجزائري الجديد أن يتأمرك خطوة خطوة. وكانت الخطوة الأُولى تمثَّلت بالمناورة الرمزية ذات الطبيعة غير العسكرية لأنها إنحصرت في البحث والإنقاذ جرت في البحر المتوسط في أغسطس الماضي وشاركت فيها البحريتان الأميركية والجزائرية. وبعد المناورة التي لم يوضح الحُكْم الجزائري للقاصين والدانين من الجزائريين والأشقاء العرب والذين أصابتهم الدهشة لماذا هذه المناورة وماذا بعدها وهل أن التعاون يبدأ بالبحث والإنقاذ ثم يتطور إلى حد أن نسمع ذات يوم بأن بلد المليون شهيد وأكثر أيام الثورة من أجْل الإستقلال ثم بلد المليون ضحية بين قتيل وجريح ومعاق ومشرَّد ومشتَّت في الفترة بين النصف الثاني من رئاسة الشاذلي بن جديد والشهريْن الأوليْن من رئاسة عبد العزيز بوتفليقة... إن هذا البلد بتراثه النضالي العريق بات مثل مصر على طريق التأمرك، وقد تفوق أمركته أمركة مصر، بحيث يصبح أطلسياً وتصبح المناورات العسكرية على ضفاف المتوسط وفي أعاليه مسألة روتينية.

بعد تلك المناورة التي نشير إليها قام القائد العام للقوات البحرية الأميركية في أوروبا الأدميرال توماس لوبيز بزيارة إلى الجزائر، وإحتارت الأوساط المقربة من الرئيس بوتفليقة في أمر تفسير الزيارة وإستمرت الحيرة قائمة إلى أن أطل أحد أبرز جنرالات المارينز في زيارة إلى الجزائر إجتمع خلالها بالرئيس بوتفليقة.

أما لماذا لم يكن اللقاء المصوَّر الذي بثَّته الفضائيات ونشرته الصحف موضع إرتياح الكثيرين فلأن الزائر الأميركي جلس مرتدياً الزي الأدميرالي واضعاً ساقاً على ساق من دون مراعاة في حضرة من هو جالس، بينما الرئيس بوتفليقة يجلس بكل وقار أهل الحُكْم من دون وضْع ساق على ساق.

مثْل هذه الجلسة للأدميرال الأميركي لا تجوز، أو أنها ربما تبدو مغفورة لو أنه في زيارة زميل له يحمل الرتبة نفسها. ولكن ماذا تفعل بالعنجهية الأميركية

التي إزدادت حدة بعدما إرتفع فوق ســـارية البيت الأبيض علَم النظام العالمي الجديد الذي يجتاح في طريقه الأصول والتقاليد لدى الآخرين.

وهنا نجد أنفسنا نقارن بين جنرال وجنرال في مسألة أصول الجلوس. فالرئيس إميل لحود جاء إلى الرئاسة اللبنانية مباشـــرة من مكتبه في وزارة الدفاع حيث كان قائداً للجيش. ولم يتطلب الأمر منه بعد إنتخابه بما يشبه الإجماع النادر من النواب ومن الشعب سوى أن يخلع البذلة العسكرية المرقطة ويرتدي البذلة المدنية.

ومنذ اللحظة الأُولى لتسلُّمه مقاليد الحُكْم رسمياً، قرر الرئيس لحود أن يســـتقبل زواره حكّاماً كانوا أو أقل، من دون أن يضـــع ســـاقاً على ســـاق والتي هي علامة عجرفة غير مستحبة أكثر منها جلسة إرتياح. وقرر أيضـــاً أن يفعل الشـــيء نفســـه زواره بمعنى ألاَّ يجلســـوا في حضـــرته بمثل جلوس قائد الأســـطول الســـادس الأميركي أمام رئيس الجزائر عبدالعزيز بوتفليقة. ولأن مثْل هذا الأمر لا يمكن تكريســـه بتعليمات تقال شـــفاهياً للزائر أو تُكتب على ورقة أو لوحة على باب رئيس الدولة وتكون مثل إشارة ممنوع التدخين التي توضـــع عادة في المكاتب، فإن الرئيس لحود ترك للزمن يكرّس هذا التقليد. وفي الوقت نفســـه كان عندما يزوره زائر لا يفطن إلى مســـألة نوعية الجلسة يضع وبأقل من لمْح البصر ساقاً على ساق وبذلك لا تلتقط عدسة المصور صورة الإجتماع بحيث يبدو الزائر وقد جلس وســـاقه فوق ســـاق بينما الرئيس يجلس ضمن الأصول. ومثل هذه الجلسة، أي الساق على الســـاق، يفعلها الأجانب عموماً ونادراً ما يفعلها اللبنانيون والعرب وإن كانت هناك إستثناءات قليلة من بينها أن الرئيس لحود إضطر ذات يوم إلى أن يضع وفي لمح البصـــر ســـاقاً فوق ســـاق لأن الســـيد دوري شـــمعون نجل الرئيس الراحل كميل شـــمعون جلس في حضرة الرئيس لحود تلك الجلسة غير المستحبة (فعل الشيء نفسه خلال زيارة للبطريرك الماروني الكاردينال صـفير) التي لم تجلسـها في اليوم نفسـه وزيرة خارجية دولة أجنبية جاءت إلى لبنان في مهمة شـــملت مقابلة الرئيس لحود. ونحن وغيرنا لم نلاحظ ذلك إلاّ عندما شـــاهدْنا صـــور اللقاءيْن على شـــاشـــات التلفزيونات وصحفات الصحف.

ونعود إلى ما بدأناه بالنســـبة إلى هذه الهجمة الأميركية على الجزائر لنقول إن قائد الأســـطول الســـادس زار الجزائر قبْل أن تزورها وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت وقبْل أن يزورها الرئيس كلينتون وهذا ليس منطقياً، إذ متى كانت زيارة الجنرالات تسبق زيارة الرؤساء أو الوزراء وهل هناك حرب تدور رحاها على أرض الجزائر لكي يأتي الجنرالات أولاً وكأنما مهمتها إزالة الألغام من طريق الحكام ومســـاعديهم وكبار موظفي إدارتهم؟

وفي تقديرنا إن الهجمة تنطلق من نظرة للنظام العالمي الجديد تكاد تبدو وكما لو أنها عقيدة خلاصة مضـــامينها أن كل المرافىء العالم يجب أن تكون مستعدة لإستقبال الأسطول السادس أو أشقائه بقية أساطيل المارينز، ومَن لا يعجبه ذلك فليشرب من مياه بحره الذي يُشاطِطُه.

ويبقى ســؤال وتمني. أما الســؤال فهو هل إن هذا التأمرك في الجزائر الذي يحدُث خطوة خطوة إنما يحدُث تحت ســـقف إقتناع العهد الجديد بذلك، أو أن سيد العهد عبدالعزيز بوتفليقة مرغم على أن يفعل ذلك طمعاً في دور مغاربي أو دعماً أميركياً يحل به مشاكل الداخل؟ والجواب عن السؤال هو إن ما تحمله الأشهر المقبلة في ثناياها ستجيب بكل الوضوح عن هذا السؤال. وفي إنتظار ذلك سنشعر ببعض الخشية على الجزائر إقتصـــاصـــاً منها لأن رئيســـها عاد عن حماســـته في تطوير التودد الذي أبدته إســـرائيل نحوه عندما إمتدت يد رئيســـها إيهود باراك لتصـــافحه خلال جنازة الملك الحســـن الثاني فصـــافحها مضـــطراً ثم متحفظاً ثم متراجعاً. كذلك نشعر بالخشية لأن الرئيس كلينتون لم يخص بوتفليقة بلقاء متميز عندما شـــارك الرئيس الجزائري في إجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة. وبدا في ذلك أنه منزعج من الرئيس الجزائري الذي رفض طلباً ضـــمنياً له بأن يكون وســـيطاً بين الرئيس حافظ الأســـد وباراك ومن دون أن تأخذ العنجهية الأميركية في الإعتبار أنه قبْل أن يفعل الرئيس بوتفليقة ذلك ويقوم بهذا المســـعى الحميد فإنه يجب أن يقتنع بأن حكومة باراك صـــادقة في رغبتها في الســـلام وفي أن تكون القدس عاصـــمة الدولة الفلسطينية ومسجدها الأقصى ليس أسير الإحتلال. كذلك يجب أن يعلن باراك أنه مستعد للإنسحاب من الجولان إلى حدود الرابع من يونيو 1967 وعلى إستعداد لإستئناف التفاوض مع سوريا من النقطة التي توقفت عندها أيام حُكْم رابين. وبعد هذا يصـــبح لكل حادث حديث ولكل مسعى وسيط.

أما التمني فهو أن تخف قليلاً وتيرة التأمرك في

الجزائر كي لا يصيبها ما أصاب الذين تأمركوا بإندفاع من دون التمييز بين ضـــرورة العلاقة المتوازنة مع الولايات المتحدة وضـــرر فتْح الأبواب أمامها مع أن فتْح بعض النوافذ وبتأن يكفي... وعلى سبيل الإختبار ليس إلاّ.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 13 أكتوبر (ت1) 1999

* * *

لبنان في الذكرى العاشرة لمؤتمر الطائف

في مثل هذه الأيام من العام 1989 كانت مدينة الطائف تشـــهد المراحل الأخيرة من مداولات النواب اللبنانيين الذين إلتقوا فيها بدعوة من المملكة العربية السعودية ورعاية مخلصة من خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز للتداول في شأن الأزمة التي يتخبط فيها لبنان على أمل مغادرة هذا النفق المظلم الذي وجد اللبنانيون أنفسهم يعيشون داخله منذ يوم 13 نيسان/ أبريل 1975.

ولقد أمضـــى النواب اللبنانيون بضـــعة أيام من المناقشات الشائكة في أوضاع بلدهم بدأت في الأول من أكتوبر/ تشـــرين الأول 1989 وتحت مظلة آمنة وأجواء متفائلة تمثّلت بكلمة الملك فهد التي ألقاها نيابة عنه وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل وجاء فيها: "إن الفجر اللبناني آت لا ريب فيه وإن المطلوب هو أن يُعطى لبنان فرصـــة التنفس وفرصـــة العمل على إحياء مؤسـساته الشـرعية، وإن لبنان لم يعد يتحمل المزيد من النزاعات المدمرة ولا المزيد من الخلافات العقيمة، وإن الحل الوحيد للأزمة هو النابع من صميم الشرعية والإرادة اللبنانية. فكل خطوة للحل وكل صيغة للتقارب وكل وثيقة للوفاق، إما أن تكون جزءاً من الضـــمير اللبناني الوطني وجزءاً من قناعة كل لبناني أو لا تكون...".

بعد التداول الذي إستغرق 23 يوماً لم يترك النواب اللبنانيون نقطة لم يثيروها فيه أمكن التوصـــل إلى جوامع مشتركة، انتقل المجتمعون إلى مدينة جدة للقاء الملك فهد الذي كانت فرحته بالإنجاز الذي تحقَّق بمثل فرحة كل منهم وبمثل فرحة كل طفل وإمرأة وعجوز وأب وأم في لبنان أضـــناهم عذاب الإقتتال وأسـعدهم أن الملك فهد حقَّق لهم الأمنية التي يتوقون إليها وهي أن يضـــع الإقتتال أوزاره وتُســـتعاد الحياة الطبيعية إلى البلد الذي قَوَّض الإقتتال بنيانه وأسواقه، وســـرق النوم من عيون الأطفال، وحرم الطلبة من متابعة التحصيل العلمي وفق الأصول، وأحلَّ شريعة الغاب محل شـــرعة القانون والتعايش المثالي، وجعل من لبنان مقبرة للأبرياء وهو الذي كان إحدى أكثر الدول إزدهاراً على الأرض. وإنتهت ســـمعة البلد الأفضـــل في المنطقة للإســـتثمار والتوظيفات المالية والتجارة إلى بلد سيء السمعة تتم فيه أبشع عمليات القتل على الهوية والتهريب الدولي وتجارة المخدرات وزرْعها. وبعدما كان لبنان مقصـــد مَن يريد الســـياحة صـــيفاً وشـــتاء بات ملاذ الإرهابيين بحجة أنهم ثوار وأصـــحاب قضـــايا وحركات تحرير، وبات المســـتودع العالمي للســـيارات المنهوبة وبالذات الغالية الثمن، وغير ذلك من الأمور غير الشـــرعية وغير النظيفة على الإطلاق.

إزداد النواب إطمئناناً إلى أن بلدهم ســـيســـتعيد الهدوء. وبعد الهدوء يستعيد العافية. وفي ظل العافية والهدوء يستعيد الإستقرار ويبدأ بناء ما تهدَّم وترميم ما تصدّع وإصلاح ما شوّهته سنوات الإقتتال في نفوس الناس. وسبب الطمأنينة ليس فقط في توازن صياغة الإتفاق الذي تم التوصل إليه، وإنما هو أيضاً في من يرعى هذا الإتفاق وتنفيذه ضمن الأصول، وأيضاً في مَن يلاحظ حدوث خلل أو خرج على الأصـــل فيلفت الإنتباه أو يُحذِّر بكل الرفق ومِن موقع الحريص الذي يخشى من وقوع إنتكاسات مفاجئة. هذا مع ملاحظة أن الإتفاق صـــيغت بنوده بتركيز وتوازن لا مثيل لهما في دنيا صـــياغة الإتفاقات، أو بكلام أدق إن إتفاق الطائف كان الإتفاق الذي جاءت الغلبة فيه للوطن لبنان، ومِن هنا فإنه ليس حتى إتفاق مَن هم لا غالبون ولا مغلوبون.

كما أن ســـبب طمأنينة النواب الذين شـــاركوا في إجتماعات الطائف هو أنهم ســـمعوا من الملك فهد بعدما إنتهت إجتماعاتهم كلاماً أكثر تحديداً على صـــعيد المؤازرة، أي بما معناه إن الإهتمام بلبنان بعد إتفاق الطائف سيكون بمثل إهتمام المملكة بلبنان قبْل هذا الإتفاق وأكثر. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال قراءة ما بين ســـطور كلمة الملك فهد عندما إلتقوا به في جدة يوم الثلاثاء 24 أكتوبر/ تشـــرين الأول 1989

في ختام إجتماعات الطائف وبالذات العبارات الآتية: "إن علاقتي بلبنان قائمة منذ العام 1951 وكانت علاقة متصلة دائماً. ولعل من حُسْن الطالع أنه منذ إستقلال لبنان وحتى اليوم لا أذكر أبداً أن المملكة العربية السعودية قامت بأي عمل يسيء إلى أي فرد لبناني أو أي قيادي لبناني في موقع ما من مواقع لبنان أو من عامة الشعب اللبناني، بل كانت المملكة العربية السعودية إذا لم تكن قدَّمت أموراً خيِّرة على قدْر إمكاناتها فإنها لم تسعَ ولن تسعى إلى أمور يمكن أن تحمل إساءة إلى أي لبناني سواء كان موجوداً في لبنان أو في أي بلد عربي أو خارج البلاد العربية. ونحن لا نكنُّ للشعب اللبناني إلاّ المحبة والصداقة. كما أنه ليس من المستحسن ولا أعتقد أنه من عادة المملكة العربية السعودية أن تأتي وتقول لقد عملتُ كذا وعملتُ كذا لأن هذا الأمر يصبح مِنَّة. ومِنَّة على مَن؟ على الشعب اللبناني وهو والشعب السعودي شعب واحد. حتى أنه إذا كان الشعب اللبناني في خير وفي بحبوحة من العيش إنعكس ذلك على المملكة العربية السعودية كما أن العكس صحيح...".

وعبارات الملك فهد التي أوردناها وكذلك مجمل كلمته في النواب اللبنانيين الذين جاءوا للشكر وللتوديع تعني أنه إذا كان إتفاق الطائف لن يطبَّق على الوجه الأكمل فإن المملكة ستبذل الجهد من أجْل ذلك. وأنه إذا كانت هنالك إجتهادات وآراء في ما بعد البدء بالتطبيق فإن المملكة يمكن أن تكون بمثابة المرجعية، تُسأل فتجيب، ويُطلب منها النصح فتنصح.

نصل إلى بيت القصيد، وهو أن إتفاق الطائف الصامد للسنة العاشرة على التوالي يحتاج إذا جاز القول إلى عملية شد للصوامل. وصحيح أن الإنجاز الأهم للإتفاق تَحقق وعلى النحو الأكمل، وهو تثبيت خيمة الشرعية، إلاَّ أن بعض العواصف التي تهب بين الحين والآخر تشير إلى أن أوتاد هذه الخيمة تحتاج إلى ما هو أكثر من التنبيه والنصيحة. ومَن يتابع الأحوال اللبنانية ونحن على مشارف الذكرى العاشرة، وكيف أن السجال المتشنج يتقدم على الحوار الهادئ والموضوعي، ينتابه شعور بأن تدخُّل الملك فهد بات ضرورياً حباً منه للبنان الذي يعيش في خاطره منذ ثمانية وأربعين عاماً، وخشية مشروعة على إتفاق ما كان ليتم لولا وقفاته ومسانداته المادية والمعنوية التي ساعدت اللبنانيين على أن يقتربوا خلال بعض سنوات العقد الأول من إتفاق الطائف من مشارف البحبوحة، ثم إذا بالإنتكاسة تحدُث وإلى درجة أن الشكوى من ضيق ذات اليد والعجز عن دفْع أقساط المدارس وشراء الكتب والمستلزمات المعيشية في الحد الأدنى باتت تشمل أكثر من ثمانين في المئة من اللبنانيين. ولا تحجب هذا الواقع المرير المظاهر التي تمارسها فئة قليلة وتوحي بأن لبنان بألف خير، بينما هو على شفير أن يصبح من الدول الميؤوس منها خصوصاً إذا تواصل تعثُّر العملية السلمية. ومثْل هذا الأمر لا يريده الملك فهد الذي إنتزع بمساندة الملك الحسن الثاني يرحمه الله، والرئيس الشاذلي بن جديد أطال الله عمره، لبنان من براثن الميليشيات ووضَعه في حمى الشرعية المحروسة من الرئيس حافظ الأسد والمحرومة من مقومات إستكمال عملية النهوض.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 أكتوبر (ت1) 1999

* * *

كلمة حق برسم إبن عشيرة أردنية

ما زلنا ننتظر من البرلمان الأردني ومن الحكومة الأردنية موقفاً يعكس صِدق إحساس إبن العشيرة عندما يصاب في كبريائه. ما زلنا ننتظر على رغم أن الأمير حسن عم الملك عبدالله قلَّل خلال زيارة قام بها إلى تل أبيب يوم الأحد الماضي من التوترات الأردنية – الإسرائيلية. وإذا كنا لن نذهب بعيداً ونعتبر ما فعله بعض المستوطنين – وهي تلطيف لكلمة مستعمرين – الإسرائيليين برئيس مجلس النواب الأردني عبد الهادي المجالي وعدد من النواب الأردنيين كانوا في طريقهم لزيارة الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل عدواناً، فإن الذي حدَث في أي حال هو إهانة كبيرة جداً لهذا الوفد ولرئيسه إبن العشيرة المجالية.

وما حدَث هو أن الوفد الأردني الذي كان في زيارة إلى السُلطة الوطنية الفلسطينية أراد أن يختم الزيارة بلحظات يتبرك فيها أعضاء الوفد من الحرم الإبراهيمي المغيَّب عنهم بفعل الإحتلال الإسرائيلي منذ يونيو/ حزيران 1967، وذلك يكون بالتوجه إلى الحرم وتأدية الصلاة فيه. وهذا حقهم ما داموا مسلمين وما دامت مدينة الخليل في الأصل أرضاً أردنية إلى أن تقوم للفلسطينيين الأشقاء دولة.

وللتذكير بما حدَث فإنه على مسافة أمتار من المدخل إلى الحرم تجمَّع يوم السبت 9 أكتوبر/ تشرين الأول الجاري عشرات من الدخلاء على الخليل من سكان المستوطنات وهم على أشكال تدعو إلى الإستغراب، وحاولوا الإعتداء على رئيس مجلس النواب الأردني إبن العشيرة المجالية عبد الهادي المجالي وإطلاق الشتائم في حقه وحق زملائه النواب ثم شرَعوا بضرب السيارات التي كان النواب ما زالوا في داخلها. وحدَث ذلك في جو هستيري لا يمكن صدوره عن عقلاء كما لا يمكن صدوره عن أفراد لو كانت حكومتهم لا تريد ذلك. بدليل أن الجنود الإسرائيليين المرابطين حول الحرم شاهدوا ما جرى دون أن يتدخلوا، وهو الأمر الذي حمل أفراد الحرس الفلسطيني المرافقين للوفد والمكلَّفين بحمايته على تأمين سلامة الوفد الأردني. بل إن الجنود الإسرائيليين الذين يعرفون مَن هم أعضاء الوفد الأردني ومَن هو رئيسهم أصروا على إخضاع أعضاء الوفد للتفتيش قبْل دخول الحرم الأمر الذي حمل إبن العشيرة المجالية الذي بات جرْح كبريائه غائراً، على عدم تأدية الصلاة وعاد مكسور الخاطر إلى عمان غير مضطر لشرح ما جرى له ولزملائه لأن الفضائيات بثت العدوان مباشرة وتناقلتْه فضائيات العالم.

بصرف النظر عما إذا كان الإعتداء رداً على إصرار الوفد على لقاء فيصل الحسيني في "بيت الشرق" الذي هو بيت أردني وفلسطيني والذي هو أيضاً في الوقت نفسه الرمز السياسي لفلسطين الدولة، وليس في مستشفى على نحو ما فعل وزير خارجية فرنسا أوبير فيدرين، فإن الاعتداء الذي تعرَّض له الوفد البرلماني الأردني ليس مجرد خطأ عابر نشأ عن عدم التنسيق، كما تتذرع إسرائيل، وإنما هو إعتداء على رموز السُلطة التشريعية في الدولة التي تربطها بإسرائيل معاهدة سلام، وإعتداء على برلمان أقر تلك المعاهدة ومِن غير إقرارها ما كان لإسرائيل أن تنعم بالطمأنينة التي تنعم بها على الجانب الأردني، وما كان لهؤلاء المستوطنين الرعاع أن يتجرأوا على فِعْلتهم تلك والتي إنما أقدموا عليها لشعورهم بأن الجانب العربي (وهو هنا الأردن) عقد معاهدة سلام مع حكومتهم من موقع المغلوب على أمره، هذا من جهة. ومن جهة أُخرى لأن حكومتهم تحمي نزعة العدوان في نفوسهم. وليس بالضرورة أن تقول السُلطات (وهي هنا حكومة باراك) لهؤلاء المستوطنين الرعاع إعتدوا على أي عربي تصادفونه بصرف النظر عما إذا كانت حكومته متعاقدة معنا بإتفاقات سلام، أو أمطروا هذا العربي أو ذاك حتى إذا كان مسؤولاً كبيراً (وهو هنا رئيس مجلس النواب الأردني عبد الهادي المجالي) بكل ما يحويه قاموس "آداب" التعامل اليهودي من مفردات وبكل ما تتميز به تقاليد التربية اليهودية من "أصول" و"أخلاقيات"... إنه ليس بالضرورة أن تقول السلطات وتحض، إذ يكفي أن يتأمل اليهودي سواء كان مواطناً عادياً في المدن أو واحداً من رُعاع المستوطنات كيف تستهتر حكومات بلاده بالعربي، وبالذات مَن أبرم الإتفاقات معها، وكيف تتنكر للتعهدات ولا تلتزم بمواقف وكيف تعتدي وكيف تهدد وكيف تستهين بالأمة وبالقيم العربية والإسلامية والمسيحية. وبطبيعة الحال فإنه عندما يتأمل اليهودي داخل فلسطين وخارجها بما تفعله الحكومات الإسرائيلية فإنه يفترض بأن هذه الحكومات تشجع فيه كل الغرائز التي يتصرف بموجبها كشرير وكفاقد لأصول التعامل شأنه في ذلك شأن الذين تحميهم المافيات في بعض أحياء المدن في الولايات المتحدة وروسيا وبعض الدول الأوروبية.

ولا نغالي إذا نحن قلنا إنه لو كانت السُلطات الإسرائيلية لا تشجع مثْل هذه التصرفات لما كان حدَث ما حدَث مع الوفد البرلماني الأردني الذي يترأسه إبن عشيرة يمكن بموجب تقاليدها أن تستبيح دم من يهين كبرياءها بكلمة نابية أو بتصرف أرعن. ولو أن هذه السُلطات كانت لا تشجع مثل هذه التصرفات لما كانت تجرأت شركة إسرائيلية مصنِّعة للنبيذ أن تلصق على زجاجاتها ملصقاً لصورة المدينة المقدسة يتوسطها المسجد الأقصى المبارك وفيه الصخرة المشرّفة، وتباشر تسويق هذا النبيذ في الداخل وفي الخارج. ومن وجهة نظرنا فإن هذا التصرف المنسجم مع عقلية اليهودي كتاجر شاطر مستعد لإستخدام أي وسيلة لإنجاح تجارته، ولو كانت الوسيلة إهانة لمقدسات الآخرين، لا يختلف عما فعله رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود باراك الذي شارك قبْل أيام في إحتفال لمناسبة إنهاء أعمال الحفريات التي تقوم بها سُلطة الآثار الإسرائيلية منذ أشهر والتي أفضت إلى فتْح باب جديد في الحائط الجنوبي للحرم القدسي الشريف يقع عند ملتقى المَصلى المرواني والمسجد الأقصى المبارك. ولن يقتصر الأمر على ذلك لأن العمل يتواصل لإقامة ساحة في الموقع على شكل مسرح

إســـتعداداً للإحتفـالات التي ســـتنظِّمها الحكومـة الإسرائيلية ضِمْن برنامج إستقبال الألفية الثالثة.

والمتابعة المتأنية للممارسات الإسرائيلية المتواصلة تؤكد أن تصـرفات مَن هو في رئاسـة الحكومة وسـائر الذين حوله، وفي شـتى إدارات الدولة، لا تختلف عن ممارسـات الآخرين وبالذات رعاع المسـتوطنات، وإلى درجـة يصـــعب أحياناً التمييز بين ما إذا كـان هذا الطرَف هو الذي يشـــجع الآخر أو العكس، أي على سـبيل المثال هل إن السُـلطات الحكومية الإسـرائيلية هي التي شـجعت المسـتوطنين الرعاع على أن يهينوا الوفد الأردني الذي يترأسه إبن العشيرة المجالية، أم إن المستوطنين وسائر قطاعات اليهود الآتي معظمهم من الشـتات بعد الإغتصـاب الشـرعي لفلسـطين بفضـل مواقف دول العالم الكبرى وبالذات الدول الصديقة مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنســـا وما كان يُعرف بـالإتحـاد الســـوفياتي، هم الذين يدفعون الحكومـات الإسرائيلية في إتجاه إعتماد أسلوب التعامل المهين مع العرب الذي يتخذ يومياً أشكالاً مختلفة.

إزاء ذلـك نتطلع إلى وقفـة أردنيـة تعكس حجم الغضـب مما فعله المسـتوطنون الرعاع بالوفد الأردني البرلمـاني أمـام الحرم الإبراهيمي. وقفـة تتجـاوز مجرد إستدعاء السفير الإسرائيلي والإحتجاج على ما حدَث، ولا يلغيها أســـف مراوغ من جانب رئيس الكنيســـت الإسـرائيلي، الذي إسـتكثر تضـمين رسـالته إلى رئيس البرلمـان الأردني كلمـة إعتـذار. وقفـة بحجم الإهانـة وذلك بأن تُجرى للوفد الأردني نفسـه مراسـم إسـتقبال رسمية أمام الحرم الإبراهيمي. وإذا كان ذلك لن يحدُث فإننا سـنعتبر أن العشـيرة الأردنية باتت متسـاهلة إلى أبعد حدود التســـاهل في كبريائها، وأن الملك حســـين رحمه الله ما كان عليه أن يتوجه بنفسه ويطيِّب خواطر أمهات يهوديات أطلق النار على بناتهن جندي أردني إسـتفزه وجودهن على أرض يعتبرها تابعة لبلده الأردن وتعتبرها الفتيات اليهوديات أرضـــاً تخص إســـرائيل ويمكن التنزه فيها. ونقول إنـه مـا كـان على الملك أن يفعـل مـا فعلـه لأنـه أراد تكريم اللئيم لكن اللئيم تمرد وسيواصل التمرد إلى حين حشْره في زاوية يعرف فيها مقدار حجْمه... وعزْمه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 27 أكتوبر (ت1) 1999

* * *

جوارح أميركا... وقمة العرب

لا نشـارك وزير الخارجية المصـرية عمرو موسـى كلاماً قاله قبْل أيام وجاء فيه إنه ليس هنالك ضـــغوط أميركية لمنع إنعقاد القمة العربية التي باتت لكثرة عدم حسْم أمرها تبدو أنها مستحيلة الإنعقاد.

القمة التي يشير إليها عمرو موسى هي القمة التي يريدها الرأي العام العربي من بيروت إلى نواكشـــوط، ويحبذ الملوك والرؤســـاء العرب عقْدها وذلك من أجْل إستعادة ثقة شعوبهم التي إهتزت كثيراً وإلى درجة بات الشعور السائد هو أن القمة العربية تنعقد إذا أرادت لها أميركا الإنعقاد ولا تنعقد إلاّ إذا كانت أميركا لا تريد لها الإنعقاد. ومثْل هذا الشـــعور في محله وتؤكده الممارسات الأميركية التي تتولاها إدارة الرئيس كلينتون من وزيرة خارجيته مادلين أولبرايت إلى مســـاعدها لشؤون الشرق الأوسط مارتن أنديك الذي تقرَّر تعيينه سفيراً لدى إسرائيل إبتداء من العام المقبل إلى ساندي بيرغر مســتشـــار الأمن القومي إلى وزير الدفاع وليم كوهين الذي "شرَّف" منطقتنا بجولة دفع فيها إلى الوراء أي إمكانية تستهدف جمْع الشمل العربي على نحو ما تريده الشعوب ويتجاوب معها ملوكهم ورؤساؤهم.

وما يلفت الإنتباه هو أن الرباعي الذي نشـير إليه يرصد التحرك السياسي العربي وعندما يرى أن هنالك فرصة باتت سانحة لكي يلتقي العرب على كلمة سواء فإنه ينقضُّ على هذه الفرصة في محاولة لإفتراسها.

ولن نشقى في البحث عن شواهد لأنها كثيرة.

فقـد إنقضَّ جوارح البيـت الأبيض على اللحظـة العربية التي تثلج الصـدر وتمثلت بأول إجتماع عربي على مسـتوى وزراء الخارجية أمكن عقْده على رغم أنه برئاسة العراق وأمكن فيه إعتماد أسلوب تَخاطب يعتمد على الحوار وينأى عن التشنج ولا يستعمل أي مفردات تخدش الحياء السياسي العربي.

ثم إنقضَّ الجوارح عبْر الوشـــايات وبالتنســـيق مع إســـرائيل على العلاقة الثنائية المتميزة بين الرئيســـيْن حسـني مبارك وحافظ الأسـد التي كان من شـأنها أن تختصـــر المســـافات بين الأطراف العربية المتباعدة خصـوصـاً بعدما تجددَّت ولاية كل منهما ست سنوات أُخرى.

وعندما لاحظ الجوارح أن هنالك فرصـــة تاريخية لعلاقة عربية – إيرانية يتعاون فيها الجانبان على نشْر الإسـتقرار في ربوع المنطقة فإن الجوارح سـارعوا إلى

إحباطها قولاً وفعلاً وذلك من خلال الإصرار على أن إيران تشكِّل خطراً على المنطقة، وكل ذلك لأن وجهة النظر الإيرانية تقوم على أنه لا موجب لبقاء هذا العدد الهائل من الوجود العسكري الأميركي وغير الأميركي في المنطقة، وهي وجهة نظر موضوعية على أساس أنه إذا كانت هنالك رغبة صادقة مشتَرَكة للتفاهم والتعايش والتعاون من جانب المملكة العربية السعودية ودول مجلس التعاون الخليجي مع إيران فلماذا هذا الحشد الهائل من الوجود العسكري الأجنبي. وقد عالج الجوارح الأمر عن طريق تسريب نبأ مصدره لندن وتولَّت بثه وكالة أنباء "رويتر" ومفاده أن بعض دول الخليج ستطلب تخفيض عدد القوات الأميركية المرابطة في منطقة الخليج. وهم (أي الجوارح) بعدما سرَّبوا الخبر ونشرتْه كل وسائل الإعلام العربية والأجنبية جاء وزير الدفاع كوهين لينفي بشكل قاطع إحتمال التخفيض وليقول إن ما سيحدُث هو العكس بمعنى أنه سيتم تعزيز هذه القوات بالمزيد من القوات وسيكون هنالك تعاون في مجال الإستخبارات كما أنه سيتم إنشاء قاعدتيْن جويتيْن في الكويت. وإلى ذلك إنه بدأ يلمِّح إلى ضرورة أن تُجري مصر مناورات " النجم الساطع 99" التي جرت في مصر بمشاركة قوات من الولايات المتحدة والأردن والإمارات والكويت وفرنسا وايطاليا والمانيا واليونان وهولندا وبريطانيا إضافة إلى مصر. وبلغ عدد هذه القوات 72 ألف مقاتل تعاونهم 368 طائرة. وهذه المناورات التي بدأت المرحلة الأولى منها يوم 17 سبتمبر وانتهت المرحلة الثالثة والأخيرة يوم الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني الجاري (1999) تشكِّل حجة إستعملها كوهين في طلبه من الرئيس مبارك إجراء مناورات عسكرية مصرية وإسرائيلية ثنائية في الحد الأدنى وضِمْن المناورات المقبلة لـ " النجم الساطع" في الحد الأقصى. وهو يطلب ذلك للإحراج دائماً في إطار أفكار الرباعي الأميركي الذي يرصد أي محاولة لبناء موقف عربي موحَّد وبعثرة هذه المحاولة، وعلى أساس أن إيران خطر على المنطقة وأمنها وسلامها وأن نظام الرئيس صدَّام حسين هو آخر خطر على جيرانه ومِن أجْل ذلك" يجب الإبقاء عليه في الصندوق".

ومحاولات إنقضاض الجوارح على أي خطوة عربية إيجابية العلاج الذاتي للمشاكل، لا تتوقف. وكان مستغرَباً جداً أن مادلين أولبرايت زعيمة الرباعي الذي يعمل على بعثرة المحاولات العربية لتآلف القلوب إعترضت على محاولة مصرية – ليبية لعلاج الأزمة السودانية بين أهل الحُكْم وناس المعارضة. وعندما تعترض أولبرايت فمعنى ذلك أنها تريد نسْف هذه المحاولة.

لن تتوقف المحاولات الشريرة هذه. وستظل تتواصل ما دام في الوجدان العربي ذرة ضمير ووطنية وإحساس بالمسؤولية القومية. وكل ذلك تفعله أميركا من أجْل إسرائيل. وعلى هذا الأساس يكون على الملوك والرؤساء الإنتفاض على هذا التلاعب الأميركي وعقْد قمة شاءت الإدارة الأميركية أم لم تشأ، وتحفظت أم عارضت. قمة تحتاج إلى قرار شجاع من المؤكد أن المخاطر التي تنشأ عنه تبقى أقل بكثير من المخاطر التي يمكن أن تنشأ عن يوم تضغط فيه الإدارة الأميركية على مصر وتضطرها إلى إجراء مناورة عسكرية مصرية – أردنية – إسرائيلية – فلسطينية – أميركية تقتلع من الجذور بقايا العنفوان العربي، وبذلك يكون أكد فريق الجوارح اليهودي في الإدارة الأميركية واجبه نحو إسرائيل على الوجه الأكمل.

ختاماً، ما رأي رئيس الدبلوماسية المصرية عمرو موسى: هل هنالك ضغوط أميركية أم لا؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 30 أكتوبر (ت1) 1999

* * *

بيريز الذي يسحر الآخرين

لا ندري أي سر هو في شخص شيمون بيريز يجعله يُقنع شخصيات إسلامية مرموقة عربية وأسيوية بأن إسرائيل ليست دولة عنصرية في المنطقة إغتصبت أرضاً ليست أرضها وشرَّدت شعباً هو صاحب هذه الأرض وتعدت على دول أُخرى ومارست من الإرهاب ما جعل شرائح من العرب والمسلمين ترى أنه لا بد من التطرف لمواجهة الإرهاب الإسرائيلي إنطلاقاً من أنه لا يفل الحديد إلاَّ الحديد.

لا ندري أي سِحْر خصّه الله بالسياسي الإسرائيلي المخضرَم شيمون بيريز لكي يبدو فجأة في عيون بعض العرب والمسلمين أنه صاحب فكْر نيِّر يطرح من الأفكار ما يجعل الأيادي تصافحه وتجعل الألسنة تنطق بالثناء عليه.

لا ندري أي موهبة يتميز بها شيمون بيريز لكي

يُقنع رجال دولة من الصفيْن الأول والثاني في العالم العربي وبعض الدول الإسلامية بأن إسرائيل تريد الخير لهم ولشعوبهم وما عليهم إلاَّ إقامة العلاقة معها وبعد ذلك يسود الرخاء وتنتشر الطمأنينة.

ولو أن رجال الدولة ليسوا من الحنكة وأصحاب تجربة في ميدان العمل العام، لقلنا إن بيريز يستخدم براعته في الإقناع، معتمِداً على قلة خبرة لدى الذين يتحدث معهم. لكن رجال الدولة العرب والمسلمين، الذين نشير إليهم، على جانب من العراقة في العمل السياسي. أليس الملك الحسن الثاني الصديق الصدوق لـ بريز هو أحد أعمدة وعمداء العمل السياسي المحنك في العالم العربي وإلاَّ فلماذا الإجماع عليه دون غيره ليكون رئيساً للجنة القدس؟ ثم أليس الرئيس عبد العزيز بوتفليقة أحدث المبهورين بـ بيريز المتصافح معه بحرارة والمندفع وعن إقتناع في إتجاه إقامة علاقات مع إسرائيل، هو من قلائل في العالم العربي بجناحيْه المشرقي والمغاربي صاحب تجربة عريضة في العمل السياسي والدبلوماسي، إضافة إلى أنه جاء إلى الحُكْم وزيراً من ساحة النضال في سبيل إستقلال الجزائر، ثم جاء إلى الرئاسة من ساحة العلاقة العربية والدولية المتزنة، بمعنى أنه ليس من النوع الذي يمكن أن يُخدع بمعسول الكلام الشيموني؟ ولكن الرئيس بوتفليقة فاجأنا بعد إجتماع مع بيريز ووزير الأمن الداخلي الإسرائيلي شلومو بن عامي، إستغرق ساعتين في جزيرة "مايوركا" الإسبانية على هامش منتدى "فور منتور"، بحديث مع صحيفة "يديعوت أحرونوت" جاء فيه قوله: "أنا لا أشعر بالعداء تجاه إسرائيل. أنا لست عدوكم ولا أكنُّ لكم أي ضغينة...".

ثم هنالك أحد نجوم الدبلوماسية الخليجية الشيخ حمد بن جاسم الذي فاجأنا بأنه أحد المسحورين بـ شيمون بيريز، والنجم الآخر يوسف بن علوي وزير الخارجية في سلطنة عُمان، ووزير الخارجية الموريتاني الذي بلغ به الإنبهار بـ شيمون بيريز الحد الذي يصعب تَصوره إلى أن إنتهى الإنبهار إلى إقامة علاقات مع إسرائيل.

أما إنبهار بعض إخواننا في الدولة المصرية وفي بعض وسائل الإعلام بـ شيمون بيريز فإنه ناشئ عن رأي الرئيس حسني مبارك فيه وهو رأي إيجابي. كذلك فإن إنبهار حكم الرئيس زين العابدين بن علي يستند في بعض جوانبه إلى إنبهار الرئيس ياسر عرفات وبعض قادة العمل السياسي في السُلطة الوطنية الفلسطينية الذين ينظرون إلى بيريز على أنه إبن عم يمكن الإعتماد عليه.

ما هو صاعق في الظاهرة الشيمونية التي نسجل بعض الإنطباعات والملاحظات، في شأن سر صاحبها بيريز وقدرته على أن يسحر بعض رجال الدولة العرب والمسلمين، هو ما نقلَتْه وكالات الأنباء من تصريحات للرئيس الأندونيسي الجديد عبد الرحمن وحيد الذي بدا لنا أن الهدف الرئيسي من الإتيان به رئيساً دون غيره هو فتْح الثغرة الأكبر في الجدار الإسلامي الذي يحول دون إستكمال عملية تغلغل إسرائيل في العالم الإسلامي غير العربي، وذلك بعد السقوط الذريع لتركيا في الشرك الإسرائيلي. وأحدث مظاهر هذا السقوط قيام رئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك يوم الأحد 1999/10/24 بزيارة إلى تركيا هي الأولى الرسمية التي يقوم بها رئيس وزراء إسرائيلي. وخلال الساعات القليلة التي إستغرقتْها الزيارة دشَّن مع زميله التركي بولنت أجاويد القرية التي بنتها إسرائيل في إحدى المناطق التي دمرها الزلزال وسُميت "قرية إسرائيل".

تمثَّلت تصريحات الرئيس الأندونيسي، المعتل الصحة وشبه الكفيف وغير القادر على السير والمصاب بجلطتيْن، بخطاب في جزيرة بالي إستمرت تلاوته أربعين دقيقة أمام سفراء ورجال أعمال، وقال فيه ومن دون مقدمات أو أسباب تدعوه إلى ذلك "يجب أن أكون على إتصال مع الإسرائيليين لأنهم مثلي أصحاب فكر مستقل، كما أنهم يحترمون الديمقراطية. وما هو الأكثر أهمية لديهم الحس بالوحدة. وسأستفيد منهم لإصلاح الإقتصاد المهشم وربما يكون هنالك تعاون في مجال النقل وغيره من النشاطات التجارية...". وللتخفيف قليلاً من وطأة رد الفعل على مفاجآته تلك، التي لم ينتظر بعض الوقت لكي يعلنها وإنما أطلقها منذ البداية، وفي الخطاب الأول له، قال إنه لن يستطيع زيارة إسرائيل كرئيس لإندونيسيا لعدم وجود علاقات دبلوماسية، لكنه أشار إلى أن أندونيسيا ستحذو حذو دول عربية وتقيم مكتباً لرعاية المصالح الإقتصادية في إسرائيل.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن الرئيس الأندونيسي الجديد هو أيضاً من بين رجال الدولة العرب والمسلمين المسحورين بـ شيمون بيريز وأنه سبق له أن زار إسرائيل في بداية التسعينات، متحدياً حكومته، وكانت زيارته لمنحه جائزة تقديراً لجهوده من أجْل

"حقوق الإنسان"، إحدى إبتكارات بيريز للإيقاع ببعض العرب والمسلمين. ومن المؤكد أن بيريز عندما إختاره ليمنحه الجائزة فللإيقاع به بعد حين، وضِمْن خطة إستقطاب الذين لهم تأثير قوي في بلادهم. والرئيس عبد الرحمن وحيد من هؤلاء لأنه زعيم ديني مرموق وله جمهوره العريض وسط المئتي مليون مسلم أندونيسي الذين يتوزعون على خمسة آلاف جزيرة من أصل سبع عشرة ألف جزيرة التي يتشكل منها الأرخبيل الأندونيسي.

وفي تقديرنا إنه عندما وقع الإختيار على عبد الرحمن وحيد ليكون هو الرئيس وليس أحد الجنرالات، فلأن خطة النظام العالمي الجديد هي إخضاع دولة إسلامية ثانية تخفف العبء المعنوي الملقى على تركيا من جانب شعبها والشعوب المسلمة في العالم بسبب اندفاعها غير المنطقي نحو إسرائيل، وهذا لا يتم عن طريق جنرالات الجيش وإنما عن طريق زعيم مدني له تأثيره الديني. وليس في إندونيسيا من يملك هذه الصفة أفضل من عبد الرحمن وحيد الذي قصّ ومنذ اللحظات الأولى لتسلُّمه الحُكْم شريط جنوح أندونيسيا نحو التطبيع مع إسرائيل، مع الأخذ في الإعتبار أن قوى خفية في الحزب الذي يقوده الرجل قد تكون هي وراء هذه الخطوة وأن هذه القوى التي فعلت ذلك قد تكون هي التي طبخت في بداية التسعينات مع بيريز الوجبة الدسمة (وجبة جائزة حقوق الإنسان) التي منحتْها إسرائيل للزعيم الأندونيسي وكان مستغرباً منه كل الإستغراب أنه تسلمها شاكراً مع أن حقوق الشعب الفلسطيني وحقوق بعض الشعوب المسلمة مُداسة بنعال جنود الإحتلال الإسرائيلي الذين يتلقون الأوامر من حكامهم ومن بينهم بيريز. كما أن الزعيم الأندونيسي المسلم تسلَّم الجائزة من دون أن يخطر في باله أن من يُقدِّمها له، يحتل المسجد الأقصى ويُمعن بثالث الحرميْن إحراقاً وإهانة وتشويهاً، وبذلك يُجاز التساؤل: أي منطق هو هذا المنطق؟ إنه إذا فعل ذلك شخص عادي، يمكن أن يقال في شأنه أنه لا يعرف أصول دينه وأن هذا من بعض مساوئ العلمانية. أما إذا كان الفاعل مثْل الرئيس عبد الرحمن وحيد (الذي هو زعيم ديني في الدرجة الأُولى مثل نجم الدين أربكان في تركيا) فأي كلام يمكن أن يقال في حقه. وللإنصاف فإن أربكان إستمر خارج المغردين الأتراك في سرب إسرائيل وهي نقطة لمصلحة سجلِّه المشرَّف.

كذلك وفي تقديرنا أيضاً إنه عندما وقع الإختيار على أن تكون السيدة ميغاواتي نائبة لرئيس الجمهورية وليس أحد الجنرالات، كما تردَّد في البداية، فمن أجْل غرضيْن؛ أن تماشي السيدة إتجاه الرئيس نحو التطبيع مع إسرائيل فيقال داخل أندونيسيا وخارجها إن إبنة سوكارنو الذي حقق قبْل خمسة وخمسين عاماً إستقلال أندونيسيا، والذي هو بعد ذلك أحد مؤسسي حركة عدم الإنحياز مع جمال عبد الناصر والباندیت نهرو وشو آن لاي والماريشال تيتو، وكانوا جميعاً القلعة الصامدة في وجه الصهيونية... إن ابنة سوكارنو، ذلك الزعيم الوطني العريق، هي أيضاً مع التطبيع وذلك على أساس أن مَن ينوب عن الرئيس لا يجوز أن يتقاطع معه، وبذلك يأخذ نهر التطبيع المجرى الهادئ. أما إذا هي عارضت أو إعترضت أو إفتعلت مشكلة في هذا الشأن، فإنه يتم إقتلاعها وزرْع جنرال محلها يكون هو الرئيس الفعلي للبلاد بالنظر إلى الظروف الصحية للرئيس وتكون حاله في موضوع التطبيع مع إسرائيل مثْل حال الرئيس حسني مبارك الذي ورث وضعاً مماثلاً من سلَفه الرئيس السادات لا يستطيع أن يلغيه بصرف النظر عما إذا كان يؤيد هذا الوضع أو له إعتراضات عليه.

ويبقى سؤال أخير: هل إن كل هذا الذي أوردْنا بعض الوقائع حوله يحدُث بسبب قدرة لدى بيريز على أن يسحر آخرين ويستدرجهم إلى فخ التطبيع، أم أن هؤلاء يفعلون ذلك لإعتقادهم أن الولايات المتحدة تريد ذلك وأن مَن يبغي ودها ورضاها ومساعداتها ويتجنب مؤامرات أجهزتها يجب أن يسلك طريق التطبيع؟

للمرء أن يتأمل ويستنتج. أما في لبنان فإن المسألة محسومة، وهي أن بيريز القادر على أن يسحر بعض رجال الدولة العرب والمسلمين ليس سوى قاتل الأطفال والنساء والعجائز في مذبحة قانا يوم 17 أبريل/ نيسان 1996...

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 نوفمبر (ت2) 1999

* * *

المظلوم يُنصف... ولو بعد حين

في النهاية، الحُكْم والحكام سمعة. وقد يتمكن الحاكم أن يفعل ما يشاء بقوة السُلطة التي يملكها ويجني من خيرات البلاد المال الذي يتزايد إلى حد

التراكم. وفي لحظة سوء تصرُّف يتهاوى كل شيء ولا ينفع المال في شيء وتطفو على السطح كل المساوئ إذا كان هذا الحاكم عمل لدنياه على أســـاس أنه باق إلى الأبد ثم يتسلم زمام الحُكْم مَن يفتح الملفات ويحقق في المخالفات والتجاوزات ســـواء ما يتعلق بالمواقف الوطنية أو الفساد والرشوة واكتناز المال.

أما إذا كان الحاكم بارّاً بأمته ومخلصـــاً لشـــعبه وقضـايا وطنه ولا يرى في السُـلطة أنها لقمع الآخرين وجنيْ المال، فإن سِـمعته هي التي تبقى بعد أن يغيب عن الحُكْم تحت وطأة إنقلاب أو نتيجة ظروف قاهرة، ثم يغيب عن الدنيا ويعمل الذين أجبروه على التنحي على تغييـب إنجـازاتـه كمرحلـة أُولى ثم على تغييـب رسْـمه بالتدرج وبحيث لا يعود يذكره أحد من الأجيال اللاحقة. ثم يأتي إلى السُـــلطة مَن يقرر إنصـــاف زعامات لحق بها ظُلم ومن أجْل المصـــلحة القومية يجب إنصافها ولو بعد حين قد يكون بضعة عقود.

مناسـبة هذا الكلام أن العهد الجديد في أندونيسـيا والذي يتألف من ثنائي إسلامي – علماني وهي صيغة جديدة في العالم الثالث قرر إنصـاف الرئيس الأسـبق أحمد سـوكارنو الذي إضـطره إنقلاب عسـكري بقيادة الجنرال ســـوهارتو إلى التنحي عن الحُكْم عام 1967، وفي الوقت نفســه قرر المدعي العام إعادة فتح ملفات عهد ســـوهارتو الذي حكم البلاد طوال ثلاثة عقود بقبضة الجنرال. والخطوتان هدفهما إعادة الإعتبار إلى سوكارنو بصفة كونه بطل إستقلال أندونيسيا ومؤسس الدولة الذي أمضـــى ثلاث ســـنوات، بعد تنحِّيه القهري عن الحُكْم، في محنة حقيقية ســـببها أن الحُكْم، الذي يقوده ســـوهارتو لم يتعامل معه كزعيم وطني حقَّق الإسـتقلال وبدأ يبني الدولة الحديثة، وإنما وضـعه في الإقامة الجبرية إلى أن توفي عام 1970.

الخطوة الأولى على طريق إنصـــاف ســـوكارنو تمثّلت بوضـع صـورته بدلاً من صـورة سـوهارتو على أوراق النقد. وجاءت المبادرة سريعة حيث تم طبْع ورقة نقدية من فئة مئة ألف روبية عليها صـــورة ســـوكارنو ونائبه في عهده محمد حتي تحل محل ورقة من فئة الخمسين ألف روبية عليها صورة سوهارتو، والتوضيح بأن صورة سوهارتو هي "رمز للخزي الوطني". وأهمية الخطوة أنها جاءت متلازمة مع إعادة فت}ح التحقيقات في تهم الفســاد الموجّهة إلى الرئيس الســابق وتقديمه إلى المحاكمة. وإذا حدث ذلك فإن المحاكمة ســتكون "محاكمة العصـــر" في العالم الثالث لأنها ســتشـــمل الأبناء والبنات والصـــهر الذي رقَّاه عمه ســوهارتو إلى رتبة جنرال دفعة واحدة لكي يُحكم القبضـــة من خلاله على الجيش لكن الذي حدَث هو أن الجنرالات إنفضُّوا عنه وتبعهم الضـــباط أصـــحاب الرتب الأقل. وهذه المحاكمة كان تم إغلاقها قبْل أيام من تســـلُّم الرئيس الجديد الحُكْم من سـلفه يوسـف حبيبي الذي كان نائباً للرئيس ســـوهارتو وأراد بإغلاق ملف التحقيقات أن يؤدي خدمـة للجنرال القـابع في منزلـه ينتظر في أي لحظة أن يخضـع للمسـاءلة وهو الذي كان يسـائل كل الناس.

من المؤكد أنه لولا الفوز الســـاحق في الإنتخابات الذي حقّقته إبنة ســـوكارنو وبفضـــله تم تعيينها نائبة لرئيس الجمهورية لما كان ربما لخطوة إنصـاف والدها أن تتم. وبصـــرف النظر عن ذلك وحتى إذا إقتصـــر الإنصـــاف على وضْـع صـورة سـوكارنو ونائبه على العملة الأندونيسية، فإن إعادة الإعتبار حدثت.

وإذا كان إنصـــاف الرئيس ســـوكارنو تمثّل على النحو الذي أوردناه، فإن إنصـاف رئيسـيْن عربييْن كانا من رموز التميز في حقبة الستينات والسبعينات حدث في صـــيغة أُخرى. كلاهما لم يترك حزباً له. وكلاهما لم ينجب أولاداً يواصلون الخطى من بعده تخليداً له أو دفاعاً عنه أو ثأراً من عهد أســـاء إليه وإلى درجة التغييب.

الرئيس الأول هو هواري بومـدْين الـذي لحق بـه إجحاف ما بعده إجحاف لمجرد أن دخل في الغيبوبة وبات ميؤوساً من شفائه. وبعد أشهر من مواراته الثرى بـدأت حلقـات في دواوين الـذين أتوا مِن بعـده تهيـل التشـــهير تلو التشـــهير على إنجازاته وإلى درجة أن الرجل الذي كان أحد النجوم الســـاطعة في ســـماء السياسة العربية والذي إكتسب مؤهلات زعامة في فترة قياسـية بدا أمام الجيل الجزائري الجديد أنه السـبب في التعثر الإقتصـــادي الذي أصـــاب البلاد لأنه إعتمد سياسة التصنيع وهي في أي حال سياسة بعيدة النظر لو أنهم أحسـنوا إسـتخدامها. والذي سـينصـف بومدين هو الرئيس عبـد العزيز بوتفليقـة الـذي عرف بومـدْين كما لم يعرفه أحد والذي هو أحد التلامذة النجباء في المدرســـة البومدْينية. والأهم من ذلك لأنه يُكثر من الإشـارات التي توحي بأنه وبالكثير من التأني سـيعيد الإعتبار إلى بومدْين وبصـيغة التكريم وليس بصـيغة الثأر وذلك لكي تكتســـب إعادة النظر مصـــداقية مطلوبة.

أمـا الرئيس العربي الثـاني فهو الرئيس اللبنـاني الراحل فؤاد شـــهاب الذي تجاهلت ظروف الحرب من جهة وأنانية بعض الرؤســـاء الذين أتوا من بَعده من جهة ثانية، إنجازاته فلم يحظَ بالتكريم المطلوب مع أن الرجل الذي جاء إلى الحُكْم من المؤسـسـة العسـكرية حيث كان قائداً للجيش أرسـى تقاليد وأنشـأ مؤسـسـات كان من مصـــلحة لبنان تطويرها بدل الإلتفاف على مؤسـسـها الذي توفي وهو على السـمعة الطيبة التي حافظ عليها.

وتشاء الصدف أن تحدُث بدايات الإنصاف للرئيس فؤاد شـــهاب في عهد التجربة الثانية لحُكْم البلاد من قِبل جنرال هو الرئيس إميل لحود، عِلْماً بـأن إقامـة تمثال للرئيس شـــهاب، وهذا ما قصـــدناه بقولنا بداية الإنصـــاف، جاءت بمبادرة شـعبية الأمر الذي يعطي التكريم بعداً بـالغ الأهمية، مع الأخذ في الإعتبار أن تلك المبادرة هي موضـع إرتياح الرئيس لحود ليس لأن الإثنيْن من خيرة القادة العســـكريين الذين تتباهى بهم مؤســـســـة الجيش في لبنان وإنما لأن الرئيس لحود يحاول بعد أربعة عقود إحياء مفاهيم وضَـــعها الرئيس فؤاد شـهاب ولم ترُق لبعض أهل السـياسـة الذين فعلوا به بعدما بات في ذمة خالقه مثْل ما فعل البعض في الجزائر بـ بومـدْين لمجرد مواراتـه الثرى ومِن قبْـل أن يجف تراب قبره.

ويبقى أن إنصـاف سـوكارنو والمباشـرة بإنصـاف بومدْين وفؤاد شـهاب هما أمثولة لدول كثيرة في العالم الثـالث وبـالـذات في الجنـاحيْن اليعربييْن (جنـاح دول المشـــرق وجناح دول المغرب) حيث هنالك ظُلم كثير أُلحق بالزعامات الوطنية والتاريخية. ومن مصـــلحة الأمـة أن يتم نفْض الغبـار عن هؤلاء ويعـاد الإعتبـار إليهم، وبـالـذات إلى أولئك الـذين مـا زالـت سِـــمعتهم طيبة. ولن نُعدِّد الإسـماء خشـية أن تخذلنا الذاكرة... لأنهم كانوا على مدى نصف قرن بالعشرات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 نوفمبر (ت2) 1999

* * *

مظاهر ثأرية لا جدوى منها

هنالك ثأران لم يحقِّقا شـيئاً للذيّن أرادا الثأر. الثأر العراقي المتواصل للسنة العاشرة على التوالي من العَلَم الأميركي ومن الرئيس السابق جورج بوش وذلك برسم صـــورته على مدخل "فندق الرشـــيد" الذي يحل فيه الأجانب وغير الأجانب من صـــحافيين ودبلوماســيين ووزراء وشعراء وممثلي شركات تبحث عن أسواق لها. والثأر الإيراني المتواصل للسنة العشرين على التوالي من العَلَم الأميركي.

بموجب الثأر العراقي لا بد لكل مَن يدخل "فندق الرشيد" أو يخرج منه من أن يدوس بقدميْه على صورة الرئيس الأميركي جزاء حربه على العراق وإســـتعدائه عشـرات الدول العربية والإسـلامية على النظام البعثي الذي يترأسه الرئيس صدَّام حسين.

وبموجـب الثـأر الإيراني فـإن الجمـاهير الثوريـة المعبأة ضـد السياسـة الأميركية تنتظر من السَنة إلى السَـــنة يوم الرابع من نوفمبر/ تشـــرين الثاني من كل عام وهو يوم إحتلال مقر السفارة الأميركية في طهران أو "وكر التجسس الأميركي" على نحو التسمية الثورية الإيرانية لـه، والذي تحوّل إلى مدرســـة تابعة لقوات "الحرس الثوري" صـــاحب النفوذ القوي، لكي ترفع الأعلام الأميركية ثم تشـعل فيها النار وتُرفق الإحراق بشـتى أنواع الشـعارات المناوئة لـ "الإسـتكبار العالمي" مثل " الموت لأميركا العدو الأول... ". وخلال عملية الإحراق يتعالى الصـــراخ والهتاف وتصـــدُر عبارات بالغة القســـاوة في حق رئيس الولايات المتحدة وبعض المعروفـة أســـمـاؤهم من كبـار العـاملين في الإدارة الأميركية.

ينتهي المشـهد اليومي على مدخل "فندق الرشـيد" ومن دون حدوث تغيير ولو طفيف في الســـياســـة الأميركية تجاه العراق. وبين كل تظاهرة وأُخرى على مدار السنة يكون هنالك إحراق للعَلَم الأميركي.

وينتهي مهرجـان إحراق الأعلام الأميركيـة في طهران في الذكرى الســـنوية لإحتلال مقر الســـفارة، والموقف الأميركي على حاله من إيران.

بطبيعـة الحـال إن الأمريْن يزعجـان المســـؤول الأميركي، لكن من دون أي إســـتفادة تتحقق للطرَف الآخر، لأن الإزعاج الذي يصيب المسؤول يقابله عدم تعـاطُف من المواطن الأميركي، وأحيـانـاً كثيرة يقـابلـه شـعور بالكراهية. وفي كل سَـنة كنا نفترض أن طرفيْ الثأر (العراق وإيران) سيعيدان النظر في هذا الأسلوب ثم لا يحدُث ذلك، إلى أن جاء النبأ المفرح من طهران وأفادنا بأن الذكرى العشرين شهدت صوتاً خافتاً إنطلق بعد ثلاثة أيام من عملية الإحراق غير المجدية، والتي

لا تختلف كثيراً عن ضـرْب بعض الشـبان رؤوسـهم وأجسادهم بالسيوف أو السلاسل الحديدية في مناسبة عاشـوراء وبحيث يسـيل الدم غزيراً من هؤلاء وتتزايد الخشية عليهم من الموت نزفاً.

كان صـاحب الصـوت الخافت هو محمد جواد حقشـيناس مدير وزارة الداخلية الذي قال "إن العَلَم الأميركي هو رمز 200 مليون نسمة وإشعال النار فيه عمل غير منطقي...". وتزامَن هذا القول مع تظاهرة قام بها بعض الطلاب تخلَّلتْها هتافات خجولة تدعو إلى تجديد العلاقة مع الولايات المتحدة. ومع أنها لم تكن بقوة تظاهرة المتشـددين الذين يسـتعذبون منظر اللهيب يحرق نجوم العَلَم الأميركي، إلاّ أنها عكسـت إتجاهاً مسـتجداً يرى أصـحابه أن إحراق أعلام الدول الأُخرى ليس عملاً شـجاعاً وليس عملاً منطقياً وليس مفيداً.

بطبيعة الحال إن ذلك لا يكفي. وعندما نسمع ونقرأ كلاماً لوزير الخارجية السـابق علي أكبر ولايتي الذي هو دبلوماسي "إيران الثورة" في مقابل دبلوماسي "إيران الدولة" كمال خرازي، تضمَّن قوله "لسنا في حاجة إلى الولايات المتحدة. وما من دولة كسـبت من العلاقات الودية مع أميركا"... إننا عندما نسمع هذا الكلام ونقرأه لا نتوقع أن تسـفر الدعوة التي أطلقها وزير الخارجية كمال خرازي يوم الإثنين 8 نوفمبر/ تشـرين الثاني الجاري إلى طرف ثالث لكي تقوم بالتوسـط بين إيران والولايات المتحدة عن تَجاوب أحد. فالوساطة لا تكون بين دولة (وهي هنا الولايات المتحدة) وبين جزء من دولة (هو هنا الإتجاه الذي يمثِّله الرئيس محمد خاتمي). ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن جانباً من ظاهرة الموقفيْن داخل إيران يعود إلى صـراعات سياسية ما كان لها لتحدُث بالقوة التي هي عليها لولا المفاجأة المذهلة التي تمثَّلت بفوز خاتمي بالرئاسـة وبنسبة فاقت التصور، الأمر الذي تسبَّب في معادلة جديدة وهي أن إيران منقسـمة بين رئيس جمهورية يتمنى ولا تتحقق تمنياته وبين مجموعة تنحصـر قوتها في تراثها الثوري الموروث، وأن هنالك ما يشبه الإتفاق الصـامت بأن يبقى الإنقسـام في إطار الإجتهاد والصراع الفكري ولا يتحول إلى مواجهة.

في ضـوء ذلك يجوز للمرء أن يطرح التسـاؤلات الآتية:

هل إن هذا الوضـع سيبقى على ما هو عليه إلى أن تذوب تطلعات الرئيس خاتمي في بحر المتشـددين ما دام هؤلاء وعلى لسـان أحد منظِّريهم علي أكبر ولايتي يرون أن الجمهورية الإسلامية في إيران ليست في حاجة إلى الولايات المتحدة؟

وهل أن إيران سـتبقى على موعد سـنوي مع يوم الرابع من نوفمبر من كل عام لتقيم مهرجان إحراق العَلَم الأميركي، أو أن الجناح المتشـدد في الحُكْم سـيرى أن تحييد أعلام الدول التي لإيران علاقة مقطوعة معها أمر يصل إلى مرتبة التحريم خصوصاً أنه ليس هنالك إحراق متبادَل، فضـلاً عن أن لغة الحوار هي ما يجب أن تسود؟

وهل إن إحراق عَلَم أميركا في تظاهرات شـعبية متكررة، وكذلك الإبقاء على صـورة الرئيس السـابق جورج بوش على أرضـية مدخل " فندق الرشـيد" في بغداد، هما الوسـيلة المبتغاة لرفْع الحصـار أو إنهما الثأر الذي يشفي غليل العراقيين؟

إنها مجرد تسـاؤلات لا نسـجِّلها من باب الحرص على الولايات المتحدة، وإنما من أجْل هذا الواقع القاسـي الذي تعيشـه دولتان تسـجلان يومياً، بسبب المطاردة الأميركية لهما في المحافل الدولية فضلاً عن العقوبات، تراجعاً إلى الوراء في وقت تُسرِع دول العالم الخطى للحاق ببعض ما فاتها من تقدم في القرن العشرين. وهي تساؤلات قد نجد لها إجابات لمصلحة تطبيع العلاقات بين الولايات المتحدة والدولتيْن الكبريْن في منطقة الخليج إيران والعراق وبما يلقى الإرتياح في نفوس دول المنطقة حكومات وشـعوباً. وهذه المسـحة من التفاؤل مبنية على أسـاس أن المظاهر الثأرية من جانب العراق وإيران نحو الولايات المتحدة لا تبدو مجدية... وهي إذا كانت لم تُحقق مردوداً في السنة الأُولى فكيف سيتحقق المردود بعد عشر سنين عراقية وعشرين سنة إيرانية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 نوفمبر (ت2) 1999

* * *

ما بعد إنتفاضة
الصحن المكسور في الكويت

من جملة دوافع الرئيس الراحل أنور السادات لإبرام سـلام مع إسـرائيل أن الإنفاق على الجيش يأخذ من طريق التنمية وأنه من دون المشاريع التنموية لا يمكن

إستيعاب هذا الكم الهائل من المصريين الباحثين عن فرصة عمل.

ولقد إفترض الرئيس السادات أنه عندما يتوقف نزْف الجيش للخزينة المصرية ويتزامن مع ذلك فتْح الأبواب على مصاريعها أمام الإنفتاح، فإن وضعاً جديداً سينشأ في مصر وبحيث لا يعود المصري جامعياً كان أو فلاحاً أمياً أو عاملاً بسيطاً يفكر بالهجرة. ولماذا الهجرة ما دامت الوظائف متوفرة في الشركات والمصارف الأجنبية والعربية وفي قطاع البناء والصناعات الإستهلاكية. وفي هذا الوضع يتم بناء مصر حديثة ويتخلص المصري من هموم "المرمطة" التي يلقاها في ديار الإغتراب وبالذات الإغتراب العربي.

وساعد الإعلام المصري إضافة إلى خُطب الرئيس السادات وأحاديثه ورحلاته إلى بعض دول العالم في ترسيخ هذه الصورة الوردية في أذهان المصريين فباركوا سعيه وإجتهاداته وخطواته ولم ينطقوا كفراً بزيارته الشهيرة إلى القدس وكذلك بإتفاقية "كامب ديفيد" التي أبرمها مع مناحيم بيغن برعاية الرئيس جيمي كارتر.

إنطلق قطار الإنفتاح في مصر بأقصى سرعة. وأرادت بعض الدول المتعاطفة مع إسرائيل أن تشجع ظاهرة إنفتاح مصر فأوعزت إلى شركات ومصارف كثيرة بأن تواكب الظاهرة وتمد يد العون إلى مصر. وحدث نوع من التجاوب ما لبث أن تباطأ ثم توقف بعد إغتيال الرئيس السادات يوم السادس من أكتوبر/ تشرين الأول 1981 وهو على منصة الإحتفال بذكرى الإنتصار الذي حققه الجيش المصري عام 1973. وبعد مرور سنتيْن على حادثة المنصة أرسى خلالها الرئيس حسني مبارك تقاليد وسياسات يرتاح لها الغرب، إستأنف قطار الإنفتاح إنطلاقته وتحولت مصر من القاهرة إلى الأقصر وأسوان إلى ورشة مشاريع عمرانية، كما أن الشاطىء الممتد من الإسكندرية إلى مرسى مطروح تحوّل إلى مدن سياحية. وبعدما إستطاع الرئيس مبارك تخليص مصر من بعض الديون التي كانت فوائدها تثقل كاهل الميزانية العامة للدولة إطمأن المصريون إلى أن فرص العمل في البلد ستكون متوفرة وبالتالي لن تكون هنالك هجرة بعد اليوم. وإستند هؤلاء أيضاً في أمانيهم إلى أن هجرة مصرية معاكسة بدأت تحدُث ويرافقها إنتقال رؤوس أموال لمصريين مقيمين في بعض دول العالم لتوظيفها في مصر. أضف إلى ذلك أن بعض المقتدرين العرب بدأوا توظيف مبالغ في مشاريع معظمها في القطاع العقاري.

فجأة حدثت إنتكاسة سببها العمليات التي قام بها متطرفون من الجماعات الإسلامية. وقد تأثرت السياحة بنسبة كبيرة من هذه العمليات إلاّ أن السياسة التي إعتمدها الرئيس مبارك إحتوت هذه الإنتكاسة في فترة زمنية قصيرة وعادت الحيوية إلى قطاع الأعمال.

اللافت للإنتباه هو أنه على رغم كل هذا التبدل الجذري في الوضع الإقتصادي فإن قوافل هجرة المصريين للعمل في الخارج لم تتوقف. بل إن الأمر بدا وكما لو أن السلام لم ولن يوقف ظاهرة الهجرة . ولو أن دول الخليج وليبيا إستمرت على ترحيبها بالوافدين المصريين للعمل فيها لكان عدد هؤلاء يصل إلى ضعفيْ عددهم الحالي. لكن تلك الدول بدأت، أمام تكاثر عدد الجامعيين فيها ومن الجنسيْن، تعطي أولوية التوظيف لهؤلاء وبذلك فإن كل وظيفة يشغلها مواطن كانت تأتي على حساب الوافد.

إزاء ذلك إقتصر الوافدون من مصر على الذين يقومون بأعمال لا يقوم بها المواطنون، أي إذا جاز القول إن الوافدين هم من الطبقة دون المتوسطة يؤتى بهم وكما لو أنهم كتل بشرية يرتضي الواحد منهم بما يسد رمقه ويملأ معدته وبمكان ينام فيه يكون عادة أشبه بغرف السجن حيث يتكدس كل عشرة أشخاص في غرفة واحدة تتسع لشخصيْن فقط. وهذا دون رعاية صحية أو تغذية.

جاءت "الإنتفاضة" ليلة السبت 30 أكتوبر/ تشرين الأول 1999 في منطقة "خيطان" في الكويت الواقعة على بعد 20 كيلومتراً من العاصمة لتنفض الغبار عن وضع مأساوي لبضعة ألوف من المصريين من الممكن قبول حالتهم لو أن بلدهم غارق في هموم المواجهة مع إسرائيل ولا مجال أمام حكومته لسماع أي صوت يعلو على صوت المعركة، لكن من غير الجائز قبول هذه الحالة بعدما أبرمت الحكومة المصرية السلام وفتحت الأبواب أمام الإقتصاد الحر ولم تعد المؤسسة العسكرية تستنزف أموال التنمية.

حدثت "الإنتفاضة" لسبب لا معنى له وهو أن عاملاً مصرياً رفض تسديد ثمن صحن كسرَه في متجر يملكه وافد من بنغلادش. وفي لمح البصر وكما لو أن المتجر برميل نفط والصحن المكسور عود ثقاب تحولت المنطقة إلى ساحة مواجهة شارك فيها آلاف

الأشخاص وإستمرت يوميْن ولم تتوقف إلاَّ بعد تدخُّل قوات الحرس الوطني وعناصر مكافحة الشغب الخاصة المسلحين بعربات مدرعة وقنابل مسيلة للدموع. وحدثت عمليات تمشيط من بيت إلى بيت . وبدأ المصريون يهربون إلى أماكن أُخرى. وإنتهى الأمر إلى أنه تم إحتجاز حوالى ثلاثة آلاف ومعالجة حوالي مئة وعشرين أصيبوا بجروح.

لم يشعر الكويتيون بفداحة ما حدَث لأن منطقة "خيطان" بعيدة عن أحيائهم السكنية الراقية. وعندما طالعوا صحفهم صباح يوم "الإنتفاضة" لمسوا أي حادث خطير شهدته الدولة. فقد تحدثت هذه الصحف عن " قنبلة إجتماعية موقوتة إنفجرت".

من حُسْن حظ الجميع أن العلاقة المصرية – الكويتية جيدة نتيجة مساندة مصر للكويتيين في تحرير بلدهم من القوات العراقية التي غزت ثم إحتلت. ولولا ذلك لكانت حدثت المآسي. ولكن الخصوصية التي تتسم بها العلاقة المصرية – الكويتية فرضت على الطرفيْن عدم الإنشغال في ما حدث وإنما معالجة الأمر بحيث يتم إستنباط صيغة تجعل من المستبعَد تكرار ما حدَث، وتستند إلى تشخيص وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد لحالة الذين إنتفضوا وقوله إن بعض الكويتيين يعاملون هؤلاء كالعبيد. ولكن كيف؟

هل سيبقى هؤلاء في الكويت وعلى الواقع المأساوي لهم؟ أم يتم ترحيلهم إلى بلدهم ويستتبع ذلك وضْع سياسة جديدة تكون فيها مراعاة لمَن يتم إستقدامه للعمل؟

وهل تتحمل مصر عودة هؤلاء وهم الذين لا عمل لهم في بلدهم أو على حد قول صحيفة "العربي" الناصرية "إنهم لو لم يكونوا أغراباً في وطنهم لما تركوه إلى بلاد بعيدة، كما أن السفارات المصرية في الخارج إنحازت إلى الدور الدبلوماسي والسياسي على حساب دورها في التصدي لحقوق رعايا مصر ومواطنيها وتأمين مصالحهم الضائقة...".

الأهم من هذا كله أن السلام الذي أراده الرئيس السادات وتبناه كأمر واقع موروث الرئيس حسني مبارك لم يحقق الأماني والتطلعات لهؤلاء. ومن هنا كان الملايين "الغلابة" الذين آزروا سعي رئيسهم السادات من أجْل مصالحة إسرائيل ضحية حلم وردي تبيَّن في ضوء الذي حدَث في "خيطان" أنه كابوس.

... وفي ضوء الذي حدَث لا نظن أن "إنتفاضة" خيطان ستقتصر على ربع المليون مصري المقيمين في الكويت. ففي أماكن كثيرة هناك أربع ملايين أُخرى ولا يجوز أن تستمر أوضاع بعضهم بمثابة "قنابل موقوتة" قد تنفجر في ظروف غير مناسِبة على الإطلاق.

صحيفة "الشرق الأوسط" – نوفمبر (تشرين الثاني) 1999

* * *

بعض معاني إستضافة قطر لقادة حركة "حماس"

على الطريقة التي كان يجد لها الرئيسان جمال عبد الناصر وأنور السادات من طرف والرئيس جعفر نميري من طرف آخر، الحلول لمأزق محوره أحد أطراف المعارضة في السودان والحُكْم الثوري الجديد والمرحَّب به كل الترحيب من مصر الناصرية... على الطريقة نفسها يتم بعد ثلاثين سنة إيجاد حل للمأزق الذي يتعلق بقادة حركة "حماس" في الأردن.

بعد قيام الحُكْم الثوري في السودان في مايو/أيار 1969 وجد رموز هذا الحُكْم، وهم مجموعة من الضباط الذي يحملون رتبة رائد وتعصف بهم أفكار التغيير الثوري الحاسم ومحاسبة قادة الأحزاب وبالذات مَن هو عصي عليهم، أن زعيم الحزب الشيوعي السوداني عبدالخالق محجوب سيربك حركتهم ويريد أن يقاسمهم الحُكْم من منطلَق أن له داخل مجلس قيادة الثورة بعض الرفاق. وبدأ الأخذ والرد بين أعضاء المجلس ثم ساور الشك الناصريين منهم فبدأوا يحصرون التشاور في ما بينهم. وبطبيعة الحال أبلغوا الرئيس عبدالناصر بهواجسهم من عبدالخالق محجوب، أو أن السفارة المصرية في الخرطوم قامت بالمهمة وأرفقت تقريراً عن المخاطر التي يمكن أن تنشأ في حال إستمر الصراع الخفي بين نميري وبعض زملائه من جهة وبين عبدالخالق محجوب ورفاقه الشيوعيين من الضباط المشاركين في "ثورة 25 مايو" من جهة أُخرى. ولمجرد أن تبلّغ عبد الناصر الأمر وخشية من جانبه على تهاوي الحركة التي يعلّق عليها الآمال الكبيرة والتي رأى فيها أنها تدعيم لزعامته التي تأثرت بفعل هزيمة 1967، فإنه أبلغ نميري رسالة (تيسَّر لي الإطلاع عليها) قال فيها: "إذا كان عبدالخالق محجوب وآخرون يسبِّبون متاعب للثورة

فأرسلوهم إلى القاهرة وتأكدوا من أنهم لن يقوموا عندنا بأي تحرك ضدكم...".

وجد نميري وزملاؤه الناصريون في مجلس قيادة الثورة أن ما يقترحه الرئيس عبدالناصر هو الحل الأمثل لهذا المأزق، فوضعوا عبدالخالق محجوب على الطائرة كمعتقَل كي لا تتعاظم الأمور في نفسه ويشعر أنه إنتصر عليهم. وجلس حوله ووراءه بعض رجال الأمن. وإفترض نميري وزملاؤه أن عبد الناصر سيضع عبدالخالق محجوب في ما يشبه الإقامة الجبرية. لكن مصر وعلى نحو ما رواه لي الرئيس نميري لاحقاً تعاملت معه كصديق حيث أن عبدالناصر إستقبله وأصدر توجيهات تقضي بترك حرية التحرك أمامه. وفي هذه الفترة بات مجلس عبدالخالق محجوب في القاهرة بحيوية مجلس قيادة الثورة في الخرطوم، مكتظاً دائماً بالزوار من سودانيين ومصريين وعرب عموماً، وبات يمارس نشاطه إعلامياً على نحو أفضل مما لو كان ما زال في الخرطوم. وكنتُ ألاحظ في كل مرة أزوره في شقته مدى إستفادة محجوب من هذه الصيغة التي إختارها له عبدالناصر، وبعد فترة أنجزت مصر مصالحة بين نميري وعبد الخالق محجوب فعاد الثاني إلى الخرطوم وهو يشعر أنه أقوى من ذي قبْل وإستأنف تعبئة رفاقه في مجلس قيادة الثورة هاشم العطا وفاروق حمدالله وبابكر النور وكذلك ضباط الصف الثاني غير المعروفة أسماؤهم ووجوههم. وهدفه أن يتسلم الحزب الشيوعي الحُكْم بالكامل، أو في الحد الأدنى يتقاسم هذا الحُكْم ويكون صاحب شأن وله كلمة أساسية عند إتخاذ القرار. وكان عبد الناصر فارق الحياة وتسلَّم أنور السادات الحُكْم مِن بعده، فلم يعد هنالك مَن يضبط عبد الخالق وينصحه ويتعاطف معه ويقلل من إندفاعه في إتجاه المغامرة. ثم دفع الرجل حياته ثمن إصراره على أن يقوم رفاقه العسكريون بالإنقلاب الشيوعي (19 يوليو 1971) والذي إنتهى إلى محنة سال فيها دم كثير وما زالت إلى الآن من أبرز الندوب في وجه الحياة السياسية السودانية.

تكررت حالة عبد الخالق محجوب إنما مع الصادق المهدي الذي إستضافه السادات في القاهرة على نحو إستضافة عبد الناصر لـ عبد الخالق محجوب. وإعتبر نميري الخارج من المواجهة الدموية مع الإمام الهادي المهدي في الجزيرة "أبا" معقل طائفة الأنصار أنه من الأفضل بعدما تم ضرْب الطائفة ومقتل إمامها المهدي ألاَّ يبقى الصادق المهدي في السودان كي لا يوحِّد صفوف الأنصار ويرد على المواجهة بأُخرى أكثر دموية. وهذه المرة أيضاً عرض عليه السادات فكرة إبعاد الصادق إلى القاهرة، وبذلك يوفر عليه مخاطر خطوة قد يقْدم عليها في حق الصادق المهدي المؤهل لجمْع صفوف أبناء الطائفة وليكون إماماً للطائفة بعد مقتل عمه الهادي. ولم يخطر في باله أن صديقه السادات سيعمل على توثيق عرى العلاقة والصداقة مع الخصم التقليدي لمصر والخصم العنيد للحُكم الجديد في السودان. وبالطريقة نفسها كان إبعاد الصادق إلى القاهرة حيث إستقر هو الآخر (مثل عبدالخالق محجوب من قبْل) في شقة مفروشة ومحروسة من رجال الأمن المصريين مع إتاحة المجال أمام أي تحرك يقوم به في الوسط الإعلامي المصري والعربي والأجنبي. وفي هذه الشقة كان الصادق يستقبل زواره وفيها أمكنني التعرف على قيادات ومقامات أنصارية لم أكن أعرفها من قبل. وكان المقتدرون من أبناء طائفة الأنصار يتدفقون في إستمرار لرفع معنويات الصادق من جهة ولكي يؤكدوا أمام المسؤولين المصريين تَمسكهم به.

وما فعله عبد الناصر مع عبدالخالق محجوب فعله السادات الذي أبلغ هو الآخر ضيفه السوداني الكبير كلاماً سمعتُه منه ومن صديقه اللدود نميري لأنه رواه له بعدما تصالحا. وخلاصة هذا الكلام إن مصر تعتمد على الصادق كثيراً في السودان. بل إن السادات قال للصادق بصراحة إن في إستطاعته أن يقدِّم خدمات كثيرة لمصر.

هذا ما حدَث قبل حوالي ثلاثين سنة لإثنيْن من قادة العمل السياسي المعارِض في السودان. وكيف أن مصر بهويتها الناصرية والساداتية إستضافت قطبيْن متنافريْن ربما حرصاً على حياة الشخصيْن (عبدالخالق محجوب والصادق المهدي) وربما من أجْل ألاّ تضطرب الأحوال في السودان العمق الأكثر أهمية لمصر وينعكس ذلك في الدرجة الأُولى على مصر. وربما من أجْل الأمريْن معاً. ونحن نروي الواقعة من باب تفسير ما جرى يوم الأحد الماضي عندما قام الأردن بتسفير أربعة من قادة حركة "حماس" إلى الدوحة بطلب من أمير الدولة صديق المملكة الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني. فهو بهذه اللفتة أنهى للصديق الأردني الذي هو عمق أمني وسياسي تقليدي له مأزقاً كبيراً حيث أنه ساعد الحكومة الأردنية على إغلاق

ملف بدا فتْحه ســـهلاً لكن تبين أن الأمر ليس بهذه السهولة.

وعند التأمل في البادرة القطرية سنجد أن ما حدَث كان إبعاداً إنما بصيغة الإستضافة، وأن الحكومة الأردنية سحبت من بين يديْ الحركة الإسلامية في الأردن ورقة كان يمكن أن تستمر تلوّح بها ما دام القادة الأربعة لحركة حماس في السجن. والأهم من ذلك أن القادة الأربعة مستضافون من قِبَل أمير الدولة وليس من قِبَل جمهور في الدولة متعاطف معه، ومن دولة لها رأي في الصراع العربي – الإسرائيلي أبعد ما يكون عن رأي "حماس" وأقرب ما يكون إلى رأي الأردن، ثم إن وجودهم في قطر يمكن أن ينجيهم من الإضطرار إلى التصعيد في حال أنهم لم يأتوا طوعاً إلى الأردن وإستمروا يزورون طهران عند صدور القرار بإغلاق مكاتب الحركة في الأردن ووقْف نشاطهم. وفي الدوحة لن يكون في إستطاعتهم أن ينشطوا إعلامياً ضد بلدهم الثاني(الأردن) الذين يحملون جنسيته إمتناناً ومسايرة منهم لبادرة الشيخ حمد.. إلاَّ إذا إرتأى أمير البلاد أن تعلو أصوات خالد مشعل وإبراهيم غوشة وعبد العزيز العمري وسامي خطار (أي القيادة الفعلية والعملية لحركة حماس) من تلفزيون " الجزيرة" على نحو ما تعلو أصوات رافضي آخرين كثيرين من دون أن تُحقق أصواتهم العالية أي نتائج حتى الآن.

ويبقى أن المهم في الأمر ليس لأن إسرائيل أبدت إرتياحها للخطوة وإنما أن المأزق وجد حلاً معقولاً... وكل ذلك في إنتظار أن يتأكد لنا ما إذا كان السلام العادل والشامل سينشر ألويته فوق ربوع المنطقة... وبذلك يعود المستضافون إلى حيث يشاركون في مواقع داخل الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 23 نوفمبر (ت2) 1999

* * *

ألغام في زمن البحث عن السلام

منذ متى وقفت إسرائيل إلى جانب حق إسلامي لكي نعتبر أن قرارها الذي قضى بالسماح لمسلمي الناصرة ببناء مسجد قرب كنيسة البشارة، كان لمصلحة رغبة المسلمين في تحقيق هذه الأمنية؟

تدَّعي إسرائيل أن دورها كان محاولة تسوية نزاع وتخفيف توتر بين المسلمين والمسيحيين. وهو إدعاء باطل لأنه ليس هنالك في تاريخ هذا الكيان المفروض بظلم دولي تاريخي على المنطقة أسانيد تؤكد أن من مصلحة إسرائيل أن تصفو الأجواء في المنطقة وأن يتواصل تعايش الطوائف على نحو ما هو عليه.

وليس غائباً عن البال أي دور شرير قامت به إسرائيل بأجهزتها الأمنية على أنواعها وبدبلوماسيتها غير النظيفة في دول كثيرة في المنطقة. وإذا كان لا بد من الشواهد وهي كثيرة فإننا نذكر على سبيل المثال لا الحصر محاولاتها المستميتة لفصل الجنوب السوداني عن بقية أجزاء الوطن بحجة أن الجنوب مسيحي في أكثريته وبقية الأجزاء مسلمة، وحجم المال والسلاح الذي يتدفق على بعض زعماء الجنوب لتعميق الكراهية في نفوسهم ضد أبناء الوطن الواحد. كما نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما تفعله من وراء الستار في مصر بهدف إشعال فتنة بين المسلمين والمسيحيين وكيف أنها تُسخِّر لهذا الغرض – إضافة إلى المال – بعض الأكاديميين الذين تغريهم الوعود ببعض جوائز ومكاسب ومواقع عِلمية وأكاديمية في الولايات المتحدة وغيرها، فيخرجون بتنظيرات تعطي مشروع الفتنة بعداً عِلمياً وموضوعياً. وفي لبنان، ألم تساهم إسرائيل في إشعال البيت ناراً تطورت إلى إقتتال بالعزف النشاز على وتر الصراع الطائفي، لأن تعايش الطوائف المثالي في لبنان والذي ساهم في بناء دولة متقدمة ومزدهرة كان يقلقها لأكثر من سبب أهمها أنه يأخذ من دور تتطلع إليه وهو أن تكون نقطة الجذب للإستثمار في الشرق الأوسط. كما أن هذا التعايش يُسقط حجتها في رفْضها إيجاد حل للقضية الفلسطينية يتم إستحداثه على أرضية التعايش المشترك.

خلاصة الأمر أن إسرائيل تزرع بموافقتها على بناء المسجد لغماً. وهي قبْل أن تمارس هذا القدْر من "حسن النية" في محاولة لخداع البعض بأنها تريد للمسجد أن يقام، كان عليها أن تحول دون إساءات تعرَّض لها قبْل بضعة أسابيع (من قِبَل بعض العناصر اليهودية المتشددة المحروسة من رجال الأمن الإسرائيليين) رئيس البرلمان الأردني ونواب مرافقون له كانوا في طريقهم إلى زيارة الحرم الإبراهيمي. كما أنها قبل أن تقدِّم هذه "المكرمة" عليها أن تجلو عن المسجد الأقصى وتترك الناس يؤدون الصلاة بطمأنينة، وكان

عليها من قبل ألاّ تشجع إشعال حريق في هذا المسجد الذي هو ثالث الحرميْن.

ونوعية اللغم الجديد الذي زرعتْه إسرائيل بموافقتها على بناء المسجد إلى جانب كنيسة البشارة مزدوج الهدف، فهي تريد أن ينفجر فتنة بين المسيحيين والمسلمين. وعندما يدلي كبير المتحدثين في الفاتيكان يوم الثلاثاء (1999/11/23) بتصريح يقول فيه إن إسرائيل أرادت الفتنة الطائفية بقرارها السماح ببناء مسجد الناصرة، فإن ذلك يُسعد إسرائيل ويحفزها على الرد في إتجاه التصعيد وهذا ما فعَلَته.

وهي بموافقتها على بناء المسجد تريد أيضاً أن يحدُث إحباط في نفوس المسلمين بحيث يقال إن فريقاً منهم مع بناء المسجد يقابله فريق يريد بناء مسجديْن بدل المسجد الواحد إنما ضمن الرضى والتوافق وتحت مظلة الوحدة الوطنية وأنه إذا إستحال توافر هذه المعطيات فلا موجب للإستعجال لأن معنى ذلك أن أمر البناء سيبدو كمَن يسير فوق حقل زرع الإسرائيليون في بقعة منه اللغم القابل للإنفجار.

نحن هنا لا ننصح، وليس كلامنا موعظة. وإنما هو عبارة عن أُمنية نسجلها متطلعين إلى أن يحل الحذر كل الحذر من اللغم الإسرائيلي الذي يتم زرْعه في زمن البحث عن السلام المتعثر أصلاً.

وإلى هذه الأُمنية أُمنية أُخرى بأن يتطور موقف الفاتيكان بعض الشيء، خصوصاً أن القادة الكاثوليك لبعض دول العالم يبالغون في تعاطفهم مع الموقف الإسرائيلي على رغم أنه الباطل ويتغاضون كثيراً عن الموقف العربي الفلسطيني رغم أنه الحق. وعندما يتحدث الفاتيكان بالأسلوب الذي تحدَّث فيه حول نظرته إلى موضوع مسجد الناصرة ويلمِّح إلى إحتمال أن يلغي البابا يوحنا بولس الثاني زيارته إلى الأراضي المقدسة في مارس/ آذار العام 2000، فهذا يحفِّزنا على مطالبته بممارسة بعض الضغط على هؤلاء القادة لكي يضغطوا بدورهم على الحُكْم الإسرائيلي الذي يتلهى بالألاعيب والمناورات السياسية وزرْع ألغام الفتنة بين شعوب المنطقة، بدل أن يتنبه إلى أن السلام فرصة إذا أضاع أهل القرار اللحظة المناسبة لوضْعها موضع التنفيذ فإنهم لن يعثروا عليها بسهولة مرة أُخرى... ولن تصادفهم ربما أبداً.

وثمة تساؤل في هذا المعنى وهو: هل إن في إستطاعة البابا يوحنا بولس الثاني أن يضغط على القادة الكاثوليك لبعض دول العالم لكنه لا يضغط، أم هل إنه لا يستطيع ومن أجْل ذلك لا يطلب منهم ممارسة الضغط السياسي من جانبهم على إسرائيل كي لا يحرجهم؟

والرد على ذلك هو أنه كأعلى سُلطة دينية للدول المحكومة من قادة كاثوليك له مهابة. والمهابة هي في بعض جوانبها نوع من أنواع الضغط. وعلى هذا الأساس فإنه يستطيع وبالذات إذا هو طالبهم بالصوت العالي في عظة من عظاته خلال إحدى المناسبات أو من خلال كلام كثير الوضوح تنشره الصحيفة الناطقة بإسم الفاتيكان.

وهو عندما يطالب بالصوت العالي أو عبْر الكلام المكتوب لا يعود هؤلاء القادة يترددون في التجاوب مع مطلبه لأن ملايين الأفراد في هذه الدول سيتحولون بالتالي إلى أداة ضغط على هؤلاء القادة، وسنجدهم بينهم وبين أنفسهم يقولون كيف أن هؤلاء القادة كاثوليك ولا يصغون إلى نصيحة مِن قِبَل البابا يوحنا بولس الثاني. والإصغاء هنا بمعنى التجاوب مع ما يطالب به من ممارسة القليل أو الكثير من الضغط على إسرائيل كي لا تبقى على ما هي عليه تصادر المقدسات المسيحية والإسلامية وتحول بذلك دون رغبة الملايين من أبناء الديانتيْن في زيارة هذه المقدسات.

وقد يقال إن البابا يوحنا بولس الثاني لا يساير إسرائيل في موضوع القدس التي تريدها عاصمة موحدة للدولة العبرية، وأن الإنفتاح الإسلامي عليه وبالذات من المملكة العربية السعودية وإيران هو نوع من التقدير لهذا الموقف. وهذا صحيح. لكن هذا الموقف هو الحد الأدنى بينما الذي يتطلع إليه المؤمنون من مسلمين ومسيحيين على حد سواء هو أن تكون نظرة الفاتيكان بمثْل النظرة الإسلامية إلى الموضوع. ولو أن البابا يوحنا بولس الثاني طالب في إحدى عظاته ملايين الكاثوليك في العالم بعدم زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين ما دامت هذه الأماكن تحت الإحتلال لكان بهذه المطالبة مارس أشد أنواع الضغط إيلاماً لإسرائيل.

ويبقى أن الرؤية البابوية للقرار الإسرائيلي الذي سمح ببناء المسجد إلى جوار كنيسة البشارة وإعتبار هذا القرار بمثابة زرْع فتنة بين المسلمين والمسيحيين، هي التي حركت في نفس كاتب مثل حالنا هذه الخواطر التي تتضمن وبصيغة التمني مناشدة البابا يوحنا بولس الثاني ممارسة الضغط الذي أوضحْنا قدْر

الإســـتطاعة طبيعته. ولنا كبير الأمل في أن البابا يوحنا لإعتبارات تتعلق بتراثه ودوره وكذلك لتقدُّمه في الســـن ورغبة من تكون هذه حاله في ملاقاة وجه ربه وهو مرتاح الضمير... لنا كبير الأمل في أنه سيفعل. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن بناء مسـجد إلى جانب كنيســة في الناصــرة في الظروف العادية يبدو أمراً مسـتحباً ويؤكد الوحدة الوطنية. لكنه في الظروف الراهنة حيث الإحتلال الإسـرائيلي يجثم على الصـدور ويكتم الأنفاس المسـلمة والمسـيحية على حد سـواء، ليس أكثر من لغم من الســهل تفكيكه بالوقفة البابوية المطلوبة وكذلك بعدم إنبهار بعض المســلمين داخل فلســطين وخارجها بأن هذا المســجد هو خطوة على طريق تحرير بيت المقدس... مع أنه ليس كذلك على الإطلاق.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 ديسمبر (ك1) 1999

* * *

الجنرال الراقص... والوزير المتسول

حفلت الأشــهر العشــرة الأخيرة من لغة التخاطب الإسـرائيلي في شـأن العملية السـلمية ببعض العبارات التي تسـترعي الانتباه. من هذه العبارات على سـبيل المثال لا الحصــر ما يردده إيهود باراك رئيس الوزراء بين الحين والآخر من أن أي رقصـة تانغو تحتاج إلى إثنين، وقصــده من ذلك أن العملية السـلمية هي مثل هذه الرقصة الحالمة ولا يمكن أن تكون الرقصة رقصة براقص واحد.

ومن هذه العبارات على سـبيل المثال لا الحصــر أيضــاً ما يردده وزير الخـارجية ديفيد ليفي من أن إسرائيل لن تتسول السلام مع سوريا.

وهنالك عبارة مشتركة يرددها معظم المسؤولين في الحكومة الإســرائيلية وهي أن الثمن الذي ســتدفعه إسرائيل من أجْل السلام مع سوريا قد يكون غالياً جداً.

وأمـا الرجـل المفتَرَض أنـه العـاقـل بينهم عـازر وايزمان رئيس دولة إسـرائيل منذ العام 1993 الذي قام بدور كبير في إنجاز إتفاقات كامب ديفيد وإســتحوذ على إرتيـاح إخواننـا المصــريين إلى حديثـه ورؤيتـه الموضـوعية من وجهة نظرهم لما يجب أن ينتهي إليه الصراع العربي – الإسرائيلي (لا ندري ما الذي جعلهم يرتاحون)... أما العاقل إفتراضـاً وايزمان فإنه يصـطاد المناســبات لكي يدلي بالتصــريحات التي مفادها أن سـوريا أضـاعت فرصـة السـلام وأن إسـرائيل لن تلهث وراء الأسد.

وأحدث المصــرِّحين هو وزير العدل يوســي بيلين الذي كرر أســطوانة الثمن الغالي جداً الذي ســتدفعه إسرائيل في الجولان.

وهكذا نجد أن العملية الســلمية بين أيادي جنرال راقص ووزير خارجية متســول ورئيس دولة لا يريد أن يلهث وراء الأســد ووزير عدل من المحتمل أن يكون هو الذي ســيخلف باراك بعد خمس ســنوات أو أقل يتحدث عن الثمن الغالي للإنســحاب. ويدلي هؤلاء بتصــريحات تثير الإســتغراب وتعكس إنطباعاً بعدم الجدية في التعامل مع الجهود التي تسـتهدف تنشـيط العملية السلمية.

وهذا التبعثر في أسـلوب التخاطب سـببه إذا جاز القول قوة المنطق السوري والجدية التي يتم بها أسلوب التخاطب والتعامل، حيث هنالك عبارة تكاد لا تخضـع إلى أي إضـافة وهي المطالبة بإسـتئناف المفاوضـات من النقطة التي توقفت عندها في مارس/ آذار 1996 وهو مطلب درجت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من حكومة بيريز إلى حكومة نتنياهو إلى الحكومة الحالية على التهرب منه بذرائع راوحت بين الإنكار والإلتفاف والمماطلة، وتشــجيع الإســتيطان، وإدراج التحليق بـالهليكوبتر فوق الجولان المحتـل في برنـامج بعض الذين يزورون إســرائيل رســمياً وبالذات الأتراك منهم والوقوف فوق بعض التلال وإلتقاط الصــور بهدف الإســتفزاز. وهذه الأمور وغيرها هي التي إضــطرت الدبلوماســية الســورية إلى إعلان الحقيقة بما يشــبه الوثائق وهو أن الإدارة الأميركية شـاهدة على إسـتعداد إسـرائيل للإنسـحاب من الجولان. وبدل أن تكون إدارة الرئيس كلينتون ممتنة لأن ذلك من شـأنه أن يسـاعدها على ممارسـة الضـغط الذي تتردد في ممارسـته على إسرائيل من أجْل دفْع العملية السلمية إلى الأمام، فإنها فعلـت على نحو مـا ترمز إليـه الحكمـة الهنـديـة – بالقرود الثلاثة – لا سمعَت ولا رأت ولا شاهدت. وفي تقديرنـا أنـه لو نطَقت الإدارة الأميركيـة حقاً – وليس كفراً – بعد سكوتها الذي لكثرة طوله بات دهراً، وقالت ما معناه إن ما تقوله سـوريا في شـأن الوديعة إنما هو قول في محله، لكانت لغة التخاطب من جانب بعض المسـؤولين الإسـرائيليين والتي أشـرنا إليها تبدلت قليلاً

بحيث لا يعود رئيس الحكومة جنرالاً راقصاً مبهوراً بتشبيه التفاوض الجدي المبني على مفاهيم رجال الدولة على أنه رقصة تانغو، ولا يعود وزير الخارجية يرثي حال دبلوماسيته وحال بلاده ويكرر بين الحين والآخر أنه لن يقف كالمتسول يطلب السلام، ولا يعود وايزمان الذي تَشارَكَ مع شيمون بيريز الذي سبق نتنياهو في رئاسة الحكومة، في إقناع بعض المسؤولين العرب بأن مستقبلهم السياسي هو في السلام الكثير التشوهات الذي تصنعه وتنشط في سبيله إسرائيل، يقول إنه لن يلهث وراء الأسد مع أنه لو كان بالفعل كما هو إنطباع بعض القادة ووزراء الخارجية العرب عنه، لكان يجب عليه أن يواصل قرْع الجرس الذي ينبّه بني قومه إلى أن فرصة السلام الراهنة قد تنقلب على إسرائيل شر منقلب إذا هي لم توظّفها أعقل توظيف. وهو قادر على أن يتجاوز الخطوط غير المسموح له بتجاوزها، بحكم منصبه كرئيس للدولة لا سُلطة له، والإدلاء بالتصريحات التي لها بُعدها السياسي العميق من نوع تصريحه أن إسرائيل لا يجب أن تلهث وراء الأسد.

كذلك إنه لو نطقت الإدارة الأميركية حقاً لما كان وزير العدل، المحتمَل أن يخلف باراك بعد خمس سنوات، يردد القول، مثل كثيرين في إسرائيل، حول الثمن الغالي الذي ستدفعه إسرائيل في الجولان من أجْل السلام. هذا مع الأخذ في الإعتبار أنها المرة الأولى التي يسمع فيها المرء أن المنسحب من أرض هي لغيره وإحتلها بالقوة يدفع غالي الثمن مقابل الإنسحاب منها، وهو قول يمكن أن يكون مبرَّراً. إذا قاله مستوطن لحكومته، أما أن يقوله وزير يعرف أن الأرض ليست أرضه فهذا مؤشر إلى نوعية الذين سيصنعون السلام من الجانب الإسرائيلي.

وهذا التفكير من جانب هؤلاء تتحمل مسؤوليته الإدارة الأميركية التي كلما تحدّث أحد منها مع أهل القرار في إسرائيل حول موضوع السلام فإنه يقرن القول بإبداء الإستعداد لتعويضهم عن الإنسحاب ومن أجْل ذلك تتواصل عملية الابتزاز، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن من يحتل أرض غيره هو الذي سيعوّض هذا الغير بصرف النظر عما إذا كان التعويض جاء منه مباشرة أو من الإدارة الأميركية التي تشتري الحلول بالمال، وهو أسلوب يعني أن ما ستنتهي إليه الأمور لن يكون أكثر من تهدئة وليس سلاماً. ونقول ذلك على أساس أن السلام هو إقتناع يصل أحياناً إلى ما يشبه العقيدة، وليس مجرد قبول مخادع تفرضه الضرورات.

يبقى سؤال: هل ستتبدل نظرة أهل الحُكْم في إسرائيل إلى العملية السلمية وبحيث لا يعود التعبير عنها يستمر على النحو الذي أوردناه، أم أن رئيس الحكومة باراك سيستمر جنرالاً راقصاً يرى العملية السلمية رقصة تانغو حالمة يؤديها راقصان، ووزير خارجيته ديفيد ليفي يستمر يعتبر إنجاز السلام عملية تسول، ووزير العدل يوسي بيلين الذي ربما بات رئيس وزراء بعد خمس سنوات أو أقل أو أكثر ينظر مثل كثيرين إلى أن الإنسحاب من أراضي الغير هو بمثابة ثمن غال يدفعه مَن عليه الإنسحاب؟

إننا لا نرى في الأفق السياسي ما يشير إلى أن شيئاً قد يتبدل إلاّ إذا حدث الممكن – المستحيل قبْل أن تغيب شمس القرن العشرين الذي تتسارع عملية العد العكسي له. وهذا الممكن المستحيل هو أن تضغط الولايات المتحدة على إسرائيل فترضخ، وهذا لن يحدُث إلاّ إذا ضغط العرب على الإدارة الأميركية لتضغط هذه بدورها على إسرائيل. وما إعتدنا رصْده هو أن ضغط الولايات المتحدة على إسرائيل مستحيل. لكن ما سبق أن جرّبناه هو أن ضغْط العرب على الإدارة الأميركية ممكن وقد حَدث ذات يوم... وكان له وقْعه وتأثيره.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 8 ديسمبر (ك1) 1999

* * *

تأملات في نهاية أمبراطوريْن يهوديْن

مصادفة في منتهى الغرابة. قبْل بضع سنوات (نوفمبر/ تشرين الثاني 1991) قضى روبرت ماكسويل وهو ملياردير يهودي بريطاني الأصل، عندما سقط عن سطح اليخت الذي يملكه خلال إجازة كان يقوم بها في عرض البحر في جزر الكناري. وكان هذا الملياردير والذي هو الإمبراطور الثاني للصحافة في بريطانيا (الملياردير الآخر هو روبرت مردوخ) بدأ حياته عصامياً لكن نجاحه الكبير في عالم الصحافة والتلفزيون جاء خلسة وبعد صفقات غامضة قام بها.

ما حدَث بعد وفاته هو أنه حظي بتكريم كبير من الدولة العبرية حيث تم دفْنه في المقبرة المخصصة

لكبار الزعماء والأبطال وهي من المعالم البالغة الأهمية في القدس وموقعها جبل الزيتون في المدينة.

بعد هذه النهاية الدرامية لهذا الجندي اليهودي – الصهيوني المجهول تكشَّفت خفايا كثيرة عن ألاعيبه وكيف أمكنه بالخديعة إقتراض ملايين الدولارات من مصارف ذات سمعة مرموقة لا تتساهل بكشف حساب إنسان نزيه وصاحب دخل محدود بضعة دولارات، ثم جاءها ماكسويل بحذاقة اليهودي الشاطر ليقترض منها ملايين ضاعت على المودعين المساكين بموته.

وتكشَّفت خفايا كثيرة أيضاً عن حياته الشخصية وعن ارتباطاته ثم لم يعد يأتي أحد على ذكْره ولا على ظروف الحادثة التي أودت به وهل هي تصفية أم مجرد حادث، ولم تعد الأمبراطورية الصحافية التي بناها وكانت سيفاً قاطعاً في تحقيق أطماعه المالية، معنية بأمر هذا الرجل الغامض.

بعد ذلك بسنوات قليلة حدثت فجر يوم الجمعة 3 ديسمبر/ كانون الأول 1999 واقعة مماثلة وبدت للوهلة الأُولى وكأنما هي عملية تصفية مسرحها إحدى أجمل الشقق في مونت كارلو عاصمة إمارة موناكو والملأى بعشرات الملياردیرية من يهود وعرب وبعض الأجانب. فقد شب حريق في هذه الشقة البالغة الفخامة والمصفحة وواجه صاحب الشقة هو أحد أباطرة المال الملياردير اليهودي اللبناني الأصل إدمون صفرا أبشع نهاية.

وما تناقلتْه وكالات الأنباء عن الحادثة أوضح أن الرجل المصاب بداء الرعشة (الباركنسون) وهو الداء نفسه الذي فتك بالملاكم الأسطورة محمد علي كلاي (قبْل أن يعلن إسلامه) مات إختناقاً وبعذاب يفوق بكثير عذاب الذين ينفّذُ فيهم الإعدام في الولايات المتحدة في غرفة الغاز. وبطبيعة الحال إن إدمون صفرا أمضى وقتاً غير قصير يهرب من غرفة إلى أُخرى في شقته الفخمة ومعه ممرضته التي تلازمه على أمل أن ينجو على نحو نجاة زوجته، ولكنه لا يجد منْفذاً. كما أن رجال الإطفاء الذين سارعوا إلى مكان الحريق ويملكون أفضل وسائل الإطفاء وأكثرها تطوراً، وجدوا أنفسهم أمام حريق من النوع الصعب الذي أخذ منهم وقتاً طويلاً قبْل أن يتمكنوا من إخماده.

وهكذا فإن الحراس المدرَّبين أفضل تدريب الذين كانوا يرافقون روبرت ماكسويل في إجازته البحرية على يخته لم يتمكنوا من أن يُبعدوا المنية عنه. كما أن حرّاس إدمون صفرا المرابطين على باب شقته لم يتمكنوا من إنقاذه وإنتشاله من بين الدخان الناشئ عن الحريق والذي ملأ أجواء الشقة.

تستوقف المرء وهو يتأمل في الواقعتيْن ملاحظتان يخرج بعدهما بأمثولة.

الملاحظة الأُولى هي مصادفة أن الإثنين موضوع هذا المقال يهوديان وكلاهما لم يجنيا بعرق الجبين واليديْن فقط مثل هذه الثروات التي قيل إنهما جنياها وإلى درجة أن الأول بنى أمبراطورية صحافية في بريطانيا هي إحدى أهم قلاع الدفاع عن إسرائيل والصهيونية في العالم، وأن الثاني بنى إحدى أهم أمبراطوريات العمل المصرفي في الولايات المتحدة وأوروبا. وعندما ينتهي الأول (ماكسويل) معزَّزاً مكرَّماً ومدفوناً بالقرب من عظماء الدولة العبرية، وينتهي الثاني (صفرا) مدفوناً في المقبرة اليهودية في جنيف ويتقدم وزير خارجية إسرائيل ديفيد ليفي المشيِّعين، يصبح طبيعياً الإفتراض بأن الإثنيْن كانا خط الهجوم الأول لإسرائيل في معاركها المالية في العالم، وأن الثاني ربما لم يكن موضع رضى بني قومه عليه إلى الدرجة التي توجب دفْنه في مقبرة العظماء.

وفي الوقت نفسه يصبح طبيعياً الإفتراض أن الإثنيْن ربما كانا من ضِمْن مجموعة لأفرادها دور مالي في عمليات سياسية كبرى من بينها إسقاط النظام الشيوعي في ما كان يُعرف بالإتحاد السوفياتي وفي دول أوروبا الشرقية وتهجير يهود الشتات إلى إسرائيل، ومثْل هذا الدور تطلَّب بطبيعة الحال التعامل وعلى أوسع نطاق في الممنوعات والمحرَّمات ومِن بينها تبييض المال.

كذلك إن هذا الدور تطلَّب بطبيعة الحال التعامل مع مجموعات خارجة كثيرة على القانون والنزاهة والنظافة منتشرة في مناطق كثيرة وباتت معروفة بإسم "المافيا". وبسبب حيثيات كثيرة أوردْنا في الأسطر السابقة بعضها كان الإنطباع الأول عن حادثة إحراق الشقة ووفاة صاحبها إدمون صفرا إختناقاً أنها كانت عملية تصفية من جانب تلك المافيات نتيجة خلافات على الحصص أو لأن هنالك في حوزة الإثنيْن وثائق وأوراقاً يمكن إستردادها بالتصفية تفجيراً أو إحراقاً في حال إستعصى إستردادها بالحسنى.

وفي عالم "المافيات" الدولية كل شيء جاهز وكل أنواع التصفية محتمَلة الحدوث، مع الأخذ في الإعتبار أن حادثتيْ ماكسويل قبْل سنوات وإدمون صفرا قبْل أيام تشبهان عمليات التصفية الأكثر شراسة التي

شـاهدناها في بعض الأعمال السـينمائية، والتي أدى أدوار البطولـة فيها نجوم متألقون مثل مارلون براندو وروبرت دينيرو وتـدور حول المـافيـا وصـــراعـات جبهاتها... بل إن ما شـــاهدناه في بعض هذه الأفلام من وسائل تصفية تبدو أكثر رحمة من اللحظات التي عاشـها الملياردير إدمون صـفرا قبْل أن يسـقط صـريع دخان الحريق.

أمـا الملاحظـة الثـانيـة فهي أن كثرة المـال لا تزُد الأذى. وكان في مقدور الملياردير إدمون صـــفرا أن يحيط نفسه بالمزيد من أفضـل أنواع الحراس ولا يكتفي بهؤلاء الذين أتى بهم من إسـرائيل أو أن الدولة العبرية خصـــصـــتهم له. فهو مكتنز مالياً ولن يؤثّر عليه في شـيء دفْع بضـعة ألوف كمبلغ إضـافي للحماية. ولكن الأذى لا بد ســيحدُث وهو قد حدَث بالفعل. وكان في مقدور إدمون صـفرا أن يقرر بعدما حقق قبْل سـنوات نجاحاً مالياً معقولاً أن يحمد ربه ويقرر الإبتعاد عن طموح بنـاء الأمبراطوريـة المالـية التي يتطلب بنـاؤها إقتراف أخطر أنواع المغامرات، وفي الوقت نفســـه يعيش مرحلة ما قبْل بداية الشـــيخوخة آمناً مطْمئناً ومعه أفراد عائلته ليكتب تجربته بصـــيغة مذكرات أو ذكريات في منزل غير مصـــفَّح كما هي حال شـــقته، تحيط به حديقة في وسـطها نافورة ماء وأحواض كثيرة وأقفاص في داخلها أنواع من الحســـاســـين والكناري والطيور الجميلة المغردة، وفيها أيضاً كلب أليف وليس كلاب حراســـة شـــرســـة وقطط جميلة يُدخل منظرها البهجة إلى النفوس. حديقة غنّاء فيها أشـــجار مثمرة يعتني بها ويســاعده في ذلك حدائقي. ثم يتمشـــى بعد القراءة وكتابة المذكرات وهو ما زال في ذروة حيويته، لم يفتك به مرض رعشـة اليديْن والشـفتيْن اللعين، على شـاطئ مونت كارلو الجميل والنظيف مستمتعاً بشمس المتوسط الحنون على الناس.

هذا مـا كـان من المفترَض فيـه أن يفعلـه. أمـا أن يقرر بعد المليون الأول إضافة مليون آخر ثم ملايين، وبعد المليار الأول يقرر البحث عن وســـائل تجعل المليار إثنين أو أكثر، ويؤجل تبعاً لذلك التقاعد ســـنة بعد أُخرى وإنتظاراً لصـفقة بعد إنتظار، فهذا معناه أن لا مجال للقناعة عنده.

وهو بسـبب ذلك إختار سـكن الشـقة المصـفحة وإختار السـيارة المصـــفحة وإختار أيضـــاً الجلســـة المصـــفحة في المقهى حيث يحيط به حرَّاســـه وفي المعارض الفنية وصـــالات المزاد حيث يمارس متعة شـراء اللوحات التي لم يشـرح لنا أحد بعد مَن هُواتها، وبـالـذات العرب منهم، مـا هي هـذه المتعـة وهـل هي أفضـــل من الإعتناء بشـــجرة في حديقة مع حفيد أو حفيدة أو أحفاد أو تشـذيب أوراق غرسـة ورد لها على الأقل رائحة زكية، أو مجاورة طير يصدح بالغناء على غصن شجرة، إلى متعة المساعدة بصمت لمن هم في حاجة إلى مســاعدة ومتعة زيارة أضــرحة الأب والأم والشـــقيق والشـــقيقة والأصـــدقاء الأوفياء الذين بكّروا بالرحيل أو كان رحيلهم مفاجئاً الأمر الذي يزيد حجم اللوعة على فراقهم.

تلك هما الملاحظتان وإن كانتا ليســـتا الوحيدتيْن. أمـا الأمثولـة فيجـب أن تكون للملياردير عمومـاً وللعرب بوجه خاص في ضـــوء ما أصـــاب زميلهم في الثراء الفاحش والغامض، إدمون صـفرا. فمن الضـروري ليس فقط أن يتنبهوا، وإنمـا أن يتعظوا. وهم كثرة في موناكو... حيث إنتهى زميلهم خنقاً أو إختناقاً، لا فرق.

صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 11 ديسمبر (ك1) 1999

* * *

مكان مجلس التعاون الخليجي في زمن " العروبة الإقتصادية"

تســـنى لي أن ألتقي في الرياض طوال أيام قمة آخر القرن الخليجية بعض الذين عشنا معهم ولادة هذا التجمع العربي المتجانس وتابعنا مسـيرته طوال ثمانية عشـــر عاماً بالكثير من الإهتمام. كنا قبْل أن يصـــل قادة دول مجلس التعاون وبعد وصـــولهم وكذلك في الوقت الذي يعالجون في الجلسـة التي تقتصـر عليهم أو في الوقت الذي يدور بينهم جولات من التشـــاور، نتأمل في أحوال هذا التجمع العربي الصـــامد وكيف أن عقْد المحـاولتيْن الأُخريـيْن المماثلتيْن إنفرط بينمـا صـمد هو على رغم العواصـف والأعاصـير التي هبت عليه وهو ما زال طري العود.

بعدما أنهى القادة أعمالهم وغادروا الرياض سـعيتُ إلى إســـتكمال تأملات في أحوال منطقة الخليج مع الأمين العام للمجلس الشيخ جميل الحجيلان الذي هو دائماً كما عرفناه وزيراً وسفيراً قبْل أن يتم إسناد منصب الأمين العـام إليـه، عميق النظرة متجرد الرؤيـة ينـأى عن الإنفعال. وفي التحليل يُقنع ســـائليه وســـامعيه

ويتقبل برحابة صدر أي محاولة إحراج له في صيغة الأسئلة. ولقد حَفَلَت الأيام التي سبقت إنعقاد مؤتمر القمة الخليجي بكتابات حول ما أنجزه مجلس التعاون وما لم ينجزه وبأحاديث مع الشيخ جميل أجراها بعض الزملاء وكانت أسئلتها من الإحراج بمكان، حتى أن زميلنا في "الشرق الأوسط" حاسن البنيان طرح في مقابلة نشرتْها الصحيفة عشية إنعقاد المؤتمر أسئلة حول الأمن المستورَد والخلافات داخل المجلس، وحول ما يتردد عن وجود ضغوط أميركية تترجم طبيعة القرارات السياسية التي تصدر عن القمم الخليجية، وحول التخوف من إنسحابات دولة عضو، وكيف أن عدم وجود الإرادة السياسية الواحدة هو الذي يقف في وجْه تكامل حلقات التعاون الخليجي، وأن عدم التنسيق والتفاهم سيكون من شأنه إلغاء مبرر وجود المجلس، الذي على نحو ما يراه بعض المراقبين ما زال إطاراً شكلياً ولم يخرج في تكوينه وأهدافه عن إصدار القرارات، وأفرز من التوترات أكثر مما حقق من الإنجازات. أسئلة صريحة في وقت لا بد من إجابات كثيرة الوضوح في شأن صمود المجلس والعمل العربي المشترَك ودور بعض دول مجلس التعاون الخليجي لتفعيل هذا العمل وبالتالي إستنهاض الأمة من الإحباط الذي تعيشه، أنها تعكس هموم الناس فكانت رؤاه التي وضعت نقاطاً فوق الحروف.

وما إستخلصْتُه من بعض المناقشات والتأملات مع أطراف خليجية ومن الإستفسارات التي زادتني معرفة بالسر الذي يجعل مجلس التعاون الخليجي يصمد ويحافظ على تماسكه حتى اللحظة التي يبدو فيها أنه على أبواب التبعثر، أُسجله في شكل نقاط على النحو الآتي:

– صمود مجلس التعاون الخليجي يعود في الدرجة الأُولى إلى إحترام الدول الست الأعضاء للسيادة والخصوصية فضلاً عن تفادي وضْع قيود على أي دولة تمارس حقها في السياسة الخارجية شرط ألاّ يتسبب بضرر للمجلس. وكذلك للإقتناع بأن أي أذى يصيب إحدى دول المجلس تتأثر به بقية الدول ومن دون الخوض في الأسباب والمعطيات. كما أن الصمود يعود إلى الإكتفاء بمعنى أن أي دولة قادرة على إعانة نفسها بنفسها أما إذا ارتأت دولة شقيقة أن تمدها بالعون أو أن هذه الدولة طرقت الباب لتطلب العون فإن التجاوب يأتي على الفور ومن دون أي شروط ومطالب بالمقابل. كذلك يعود الصمود على إعتماد قادة المجلس مبدأ الصبر والتركيز على التوافق وتحاشي التصويت كي لا يؤخذ بمبدأ الأغلبية عْلْماً بأن مبدأ التصويت موجود في النظام الأساسي. وطوال سنوات عمْر المجلس كان هناك ما يشبه الحرص على عدم التصويت وهذا له مبرراته. فالمجلس يتألف من ست دول، والتصويت كان يمكن أن يؤخذ به لو أن المجلس يتألف من عشرين دولة، أما أن يتم إعتماد مبدأ التصويت على أمر من جانب ست دول فإن ذلك قد يتسبب في تعريض عقْد المجلس إلى الإنفراط. ومِن هنا ملاحظة أنه لم يحدُث تصويب على أمر من الأمور.

– من أسباب الصمود أيضاً التجانس في طبيعة الحُكْم وفي اللهجة وفي طريقة العيش وفي الملبس إلى حد ما وفي العلاقة مع دول العالم في الترابط الأُسري والتواصل الجغرافي وسهولة الإنتقال، وكذلك في تفادي نظرة الإستعلاء من جانب دولة على دولة أُخرى. ومثْل هذه السمات لم تتوفر بالكامل لمجلس التعاون العربي الذي لم يكن ليصمد حتى لو أن إجتياح الكويت لم يحدُث ويعلن رئيس الدولة الأولى في هذا المجلس الرئيس حسني مبارك إنسحاب مصر من المجلس إحتجاجاً على قيام العراق الدولة الرابعة في المجلس بغزو الدولة الجارة والشقيقة الكويت، فإنتهى أمر المجلس حتى من دون إعلان بقية الدول وهما الأردن واليمن موقفاً مماثلاً. كما أن سمات التجانس بشرياً وجغرافياً التي تشكِّل مقومات الصمود لم تتوفر للإتحاد المغاربي الذي يعيش في حالة تجلُّد تدب فيه الروح أحياناً ويخلُد إلى تغييب أشبه بالغيبوبة أحياناً أُخرى، وهو حي كأنه ميت أو ميت كأنه حي. وليس في الأفق ما يشير إلى أن الحيوية ستدب في أوصال هذا المجلس وبالذات بعد أن تستقر حال العملية السلمية ولا يعود الصراع العربي – الإسرائيلي يؤرق أحداً كما لا تعود الولايات المتحدة بالمرصاد لأحد على نحو ما هي بالمرصاد للحُكم الليبي.

– من أسباب الصمود أيضاً أن المواطن الخليجي يزداد تمسكاً بالمجلس الذي بلور شخصيته الخليجية ويعتبره خيمته الذي تقيه المخاطر، وهذا لا يعني أن هذا الوطن لا يشعر أحياناً بالإحباط وذلك لأن الإنجازات هي دون التطلعات. لكن متى كانت الإنجازات بحجم التطلعات؟ إن الطموح لدى أي كان وفي أي بقعة من بقاع الدنيا ولدى أي شعب من شعوبها يكون في إستمرار أكبر من الإنجاز، وفي

حالات نادرة تساوي الإنجاز مع الطموح. ومن طموحات الخليجي حاكماً ومواطناً أن تكون هنالك قوة عسكرية خليجية ضاربة لكن ما العمل إذا كان التكوين السكاني لا يسمح بتكوين مثْل هذه القوة؟! أما درع الجزيرة فإنه رمز، كما أن وجود أمين عام مساعد للشؤون العسكرية في المجلس هو بمثابة مؤشر إلى أن التعاون والتنسيق في المجال العسكري قائم وأن القوة الضاربة يمكن أن تنشأ في الزمن المناسب ولمجرد أن يسمح التكوين السكاني بذلك. وعندما دعا الملك فهد في الكلمة التي إفتتح بها القمة العشرين يوم السبت 27 نوفمبر 1999 إلى وحدة عسكرية فإنه كان يتحدث عما ستؤول إليه الطموحات مستقبَلاً. وفي هذا الصدد يمكن القول إن المواطن الخليجي ليس قلِقاً نفسياً وضميرياً من مسألة وجود القوات الأجنبية ما دامت تحمي المنطقة.

– من أسباب الصمود أيضاً أن المجلس كان ظاهرة صحية يُحتذى بها، ومنذ نشوئه لم يكن الهدف إظهاره على أنه محور ضد آخرين. هذا سببُه أن الخليجي يعيش عروبته من ثوبه إلى عقاله. وحتى إعلان دمشق لم ينشأ ليكون محوراً وإنما نتيجة شبه غضبة على عدم تفعيل الجامعة العربية التي هي بيت العرب التي يرى الخليجي حاكماً ومواطناً أنها يجب أن تتعزز وأن تتكون من مجموعة تكتلات بدل أن تتكون من مجموعة دول لكل واحدة موقفها ورأيها وصوتها.

– من أسباب صمود المجلس تركيزه على المسائل الإقتصادية والتعاون الجدي في هذا المجال ودقة الإجتماعات. فالقادة يجتمعون مرتيْن في السنة. ولا يمضي أسبوع إلاَّ وهناك إجتماع. وبعد كل إجتماع هناك خطوات طيبة في الإتجاه الإقتصادي. وقد لا يمر زمن طويل إلا ويجد الخليجي نفسه أنه يعيش الحالة التي يعيشها الأوروبي في سوقه المشتركة. وفي الوقت الراهن هناك 1600 منشأة صناعية تتحرك منتجاتها بالحرية التي تعزز تطور هذه المنشآت. كما أن الإتحاد الجمركي الخليجي الذي سيولَد في عام 2005 هو التجربة الأُولى من نوعها في العالم العربي.

– من أسباب الصمود أيضاً أن تركيبة المجلس هادئة وخالية من ظاهرة المزايدات، وأن الإختلاف بين بعض قادة المجلس يكون دائماً في الحدود الدنيا. وفي حديثهم المغلَق يكون القادة رأياً واحداً أو عِدة آراء تشكِّل كتلة واحدة. وهذا سببه الشعور بأن قدَرَهم واحد وأمنهم واحد. وقد لاحظت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت كيف أن مخاطَبتها من جانبهم واحدة عندما تتحدث معهم.

وحتى عندما يحدُث خلاف فإنه لا يطول، أطول خلاف بينهم إستغرق شهراً ونصف الشهر، وبات واضحاً أن الخلافات بينهم تزول في أربع وعشرين ساعة.

– ومن أسباب الصمود أيضاً أن القادة حريصون على سماع المزيد من الآراء التي تساعد على صياغة القرار. ومِن هنا كان قرارهم بإنشاء الهيئة الإستشارية للمجلس التي تضم ثلاثين من وزراء سابقين وأساتذة جامعات. وهؤلاء يتْبعون المجلس الأعلى ويكون هنالك حرص على سماع آرائهم وهي تجربة رائدة يمكن أن تتطور مع الوقت.

يبقى إنطباع يخرج به المرء وهو أن المنحى الإقتصادي لمجلس التعاون الخليجي سيجعله يصمد أكثر وأكثر في القرن الواحد والعشرين الذي نستقبل يومه الأول بعد أيام. وسيجعله الكتلة الأقوى في الجامعة العربية التي ستنتهي مع مجموعة كتل في زمن "العروبة الإقتصادية" التي ستحل محل "العروبة السياسية"... أو تتقدم عليها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 ديسمبر (ك1) 1999

* * *

السحر الذي إنقلب على الساحر في السودان

إذا كان هذا الذي حدَث في السودان يوم الأحد الماضي (12 ديسمبر/كانون الأول 1999)... ليس إنقلاباً فما هو الإنقلاب إذاً؟

صحيح أنه لم يكن إنقلاباً عسكرياً تقليدياً بالبلاغ رقم واحد، لكنه إنقلاب. وهو خلطة سودانية من نوع خلطات البخور التي إشتهر بها السودانيون. وتكاد تكون خلطة مبتكَرة لا تخلو من بعض الإقتباسات لعمليات تغيير صاعقة حيث أن الفريق عمر البشير أخذ من كل عملية من تلك العمليات ما هو مناسب منها ثم مزَجها فكانت الخلطة البشيرية.

زيادة في التوضيح يمكن القول إن السحر إنقلب

على الساحر في السودان، وأن الفريق عمر البشير أخذ القليل إقتباساً من الحركة التصحيحية التي قام بها الرئيس حافظ الأسد في سوريا، وكان من أبرز معالمها في البداية إنهاء ظاهرة رجل العقيدة، ونعني به مؤسس، أو أحد مؤسسي، حزب البعث الأستاذ (الراحل) ميشال عفلق، وإحلال رجل الدولة، ونعني به الفريق حافظ الأسد، في قيادة الحزب والدولة معاً، وبذلك لم يعد الحُكْم أسير التنظيرات والأصولية العقائدية. وهناك بالطبع حالات مشابهة حصلت في دول عربية أُخرى، لكن المساحة لا تتسع للحديث عنها كلها بالتفصيل.

في كل الأحوال، فإن ما فعله الفريق البشير ليس بالأمر المستغرَب على رغم أن أهل الحُكْم في السودان ظهروا طوال خمسة أعوام من أصل إجمالي العمر الذي أمضته "ثورة الإنقاذ" في الحُكْم إعتباراً من يونيو 1989 مثْل تلامذة يتحلقون حول الترابي ينهلون من حديثه المعرفة والقدرة على الصمود. وبدا هذا التحلق في بعض المراحل كما لو أنه مظهر من مظاهر التصوف وأن أهل الحُكْم من ضباط ومدنيين باتوا مثل الدراويش في حلقة ذِكْر، يرتدون الجلاليب البيضاء بدل الكاكي، والعمائم البيضاء بدل القبعات العسكرية.

شيئاً فشيئاً صار الشيخ حسن بمثابة زعيم الطائفة الثالثة في السودان. فإلى جانب طائفة الأنصار والطائفة الختمية، بات هناك في السنوات الخمس الأخيرة ما يجوز إعتباره الطائفة الترابية، وكلما تقدم الشيخ حسن خطوة إلى الأمام كان الفريق عمر يتراجع خطوتيْن إلى الوراء. ووصلت الأمور قبْل سنة إلى أن مفعول السحر الذي نشره الساحر، ونعني به الشيخ حسن الترابي، في صفوف السودانيين (عدا جمهور المعارضة) بات شديد التأثير على كل المفاصل في السودان. وإنتهت المعادلة إلى أن الدكتور الترابي متحدث وصاحب منهج وقادر على إستقطاب الناس ومُمسك بزمام سُلطة التشريع وأن الفريق عمر البشير جنرال ينحسر تأثيره، على رغم أنه في قمة السُلطة وبيديه أن يُصدر من القوانين ويتخذ من الإجراءات ما يجعل الأمور تستقيم.

وفي الوقت نفسه كانت تتفاعل في نفس الفريق البشير مشاعر حزينة تبيَّن بعد الخطوة المثيرة التي قام بها أنها كانت تؤرقه، ولعله كان يطرحها بصيغة تساؤلات تقارن بين وضْعه وبين وضْع زعماء عرب آخرين هم في الأصل عسكريون... ولعله تساءل أيضاً إلى متى سيستمر الآخرون ينظرون إليه على أنه أحد إثنيْن في قمة الحُكْم في السودان؟ ومتى سيحسم هذا الأمر؟ وهل ينتظر مفاجأة قد تحدُث ذات مرة يقرر فيها أستاذه وملهمه الشيخ حسن الترابي أن صيغة الحُكْم تستوجب تعديلاً يكون فيه المدني رئيساً للبلاد، أو يكون هنالك جنرال أكثر شباباً وأكثر ولاء للمنهج الترابي، رئيساً يجدد شباب "ثورة الإنقاذ"؟ إنها تساؤلات تؤرق مَن تصيبه. وهي ذات تأثير مزدوج عندما يكون المصاب بها جنرالاً مثقلاً بالأوسمة والنياشين والهموم.

ما فعله الفريق عمر البشير سبق أن فعله كل الجنرالات الذين قاموا بإنقلابات في بلادهم، عدا أن البشير إكتفى بحل المجلس الوطني (البرلمان) وإعلان حال الطوارىء، ولم يضع أعداءه رفاق الأمس في سجن " كوبر". وهو إعتبر أنه عندما يحل البرلمان فإن زعيم "الإنقاذ" الدكتور حسن الترابي سيسلِّم الأمانة طوعاً لرئيس" الإنقاذ" الذي هو الفريق البشير لأنه حُكماً بات من دون سُلطة. ومن المؤكد أن هناك المزيد من الإجراءات لا بد سيتخذها في حال أن الترابي لم يرفع الراية البيضاء ويواصل التلويح بالعصا، أي أنه في الحد الأدنى سيعامِل الترابي على نحو معاملة الرئيس (الراحل) هواري بومدْين للرئيس بن بيلا. وما قد يشجع البشير على إتخاذ المزيد من الإجراءات أن الرئيس مبارك قام بزيارة إستثنائية إلى ليبيا ليعلن هو والعقيد معمَّر القذَّافي مباركته للإجراءات التي إتخذها البشير، وأن الرأي العام في السودان يريد تصحيحاً للعلاقة مع مصر، مع التذكير بأن الإنطباع الأول بعد قيام "ثورة الإنقاذ" هو أن الرئيس مبارك كان شخصياً وراءها.

ومن دون تحجيم الدكتور الترابي لن يكون هناك تصحيح ولا تطبيع متوازن بين مصر والسودان. إذ أنه في كل خطوة من إتجاه التصحيح مع مصر سيتذكر الرئيس مبارك أن الترابي خطَّط أو أفتى بإغتياله في أديس ابابا. كما أن الرأي العام في السودان يريد للمعارضين أن يعودوا وهي عودة لن تتم إذا إستمر الدكتور الترابي هو الزعيم الفعلي أو الفاعل في النظام تحرسه محبة ضباط "ثورة الإنقاذ"، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الترابي هو الذي دشَّن الخطوة الأُولى على طريق المصالحة الثانية باللقاءيْن اللذيْن عقدهما مع الصادق المهدي من دون أن يتبين ما إذا كانت مصالحة الرجليْن إقتضتها أواصر القربى أو أنها بداية

تَحالف إعتبرها البشيريون شوكة قد يضعها الإثنان في خاصـــرة جنرالات النظام ومِن هنا جاءت الخطوة الأكثر تقدماً والمتمثلة بلقاء الرئيس البشير والصادق المهدي في جيبوتي.

ما يلفت الإنتباه هو أن الدكتور الترابي رد على الفريق البشير بالأسلوب الذي يرُد به إمام مسجد على مُصـــلٍ قاطعه، أثناء خُطبة أو درْس، بسـؤال غير مستحَب. وجاء الرد في بعض جوانبه بمثابة سجال ديمقراطي بمعنى" إنك أنت أيها الفريق تحل البرلمان وتعلن الطوارىء مستعملاً في ذلك سُلطتك وسُلطانك، وأنا (وهو هنا الشيخ حسن الترابي) أعتبرُك خارجاً مثْل بقية الخوارج في الإسلام منقلباً على الدستور وخائناً لعقد الولاء مع الحزب وحركة الإسلام" مستنداً في رده إلى المسألة الدستورية.

قد يكون رهان الفريق البشـــير على أن الزعماء المدنيين هم الذين يُمنون بالهزيمة في النهاية وهذا ما حدَث في باكستان مع نواز شريف وما حدَث من قبْل في السودان مع الصادق المهدي.

وقد يكون رهانه على أن النظام العالمي الجديد سيرحب بهذه الصحوة من جانب الجنرال يطفىء بها الظاهرة الترابية التي شغلت دولاً عربية وأجنبية كثيرة.

وقد يجد في حال إشـتدت الوطأة الإحتجاجية من جانب الترابيين داخل السـودان ومن جانب حلفاء الترابي في إيران وغيرها على ما فعله، أن يعتمد حلاً ينأى عن النهايات الدرامية في مثل هذه الأحوال وهو أن يضع الشيخ حسن الترابي في الإقامة الجبرية على نحو ما جرى للشيخ عباس مدني في الجزائر وآية الله منتظري في إيران، أو يفعل به وبحواريه ما فعله السادات بـ علي صبري والمجموعة الناصرية، رداً على الإستهانة به ورفْضهم موافقته على الإتحاد مع سوريا وليبيا. وهذه المجموعة كانت كل الخيوط بين يديْها لكن خيطاً واحداً هزمها هو خيط الشرعية الذي يمسك به الرئيس السادات.

ونقول ذلك من دون أن نستبعد مواجهة آخر القرن بين أبناء الصـــف الواحد، إلاَّ إذا تبرَّع مَن يرفع المصاحف لتفصل بين السيوف الإنقاذية المسنونة. ولا نرى في الأفق مَن يريد لهذا المسعى أن يحدُث.

ويبقى القول إنه إذا لم نعتبر الذي جرى في السودان بأنه مناورة من جانب النظام برأسيْه العسكري والمدني لتجديد تجربة الإنقاذ وإسـتمراريتها، فإنه كان إنقلاباً إنما من النوع الذي لا ينطبق عليه ما حرَّمته قمة الجزائر الأفريقية التي إعتبرت الإنقلاب على الشرعية رجساً من عمل المغامرين ولا يجب التسليم به. فالفريق البشـير يسـتطيع القول إن ما فعله هو إنقلاب لمصلحة الشرعية، التي هو رمزها، أو فلنقل إنها إنتفاضة. حمى الله السودان السيء الحظ من أبنائه، وسامح الله الصادق المهدي الذي أضاع – على حد رؤية مرجع عربي مستنير وصاحب تجربة فكرية وسياسية– ذات يوم على بلد المليون ميل مربع فرصة الإستقرار.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 17 ديسمبر (ك1) 1999

* * *

هموم أقل... إهتمامات أكثر

في ضـوء الخطوة النوعية المتمثلة بإسـتئناف المفاوضـات السـورية – الإسـرائيلية وقُرب بدء المفاوضات اللبنانية – الإسرائيلية باتت الهموم العربية في شـكل عام أقل من ذي قبْل. أما لماذا باتت أقل فلأن إحتمال حدوث مواجهة عربية – إسـرائيلية ثالثة لم يعد وارداً.

وللمرء أن يتصـور الأحوال العربية لو أن الرئيس حافظ الأسـد وجد نفسـه يعيد النظر في إسـتراتيجية السلام التي يعتمدها وذلك أمام إستمرار إسرائيل في المماطلة وإسـتمرار الإدارة الأميركية الحالية في عدم ممارسة الحد الأدنى من الضـغوط على إسـرائيل ثم غروب شمس هذه الإدارة تاركة الوضع عالقاً إلى إدارة جديدة قد تكون أكثر إرتهاناً لإسـرائيل. وما نقصـده بإعادة النظر هو أن يقرر الرئيس الأسـد العمل على تسخين الأجواء وخلْق وضْع جديد أقصاه جولة قتال حاسمة وأدناه مواجهة بطيئة تعتمد الإسـتنزاف على نحو ما كانت عليه الحال في مرحلة الإسـتنزاف على الجبهة المصـرية عام 1968. وفي الحالتيْن كان الوضع الدولي سيبدو على شيء من الإرتباك وكانت الدول العربية وأولها مصـر والأردن سـتجد أن شِبه التفاهم غير المعلَن والإتفاقات التي أبرمتْها مع إسرائيل سـتكون مهدَّدة وقابلة للإلغاء تحت تأثير جولة القتال الحاسمة أو المواجهة الجديدة، خصوصاً إذا طالت هذه المواجهة على نحو ما هو حاصـل في جنوب لبنان وتكبدت إسـرائيل نتيجة المواجهة المزيد من

الخسائر. ونقول ذلك على أساس أن الرأي العام العربي عموماً وبالذات داخل مصر والأردن كان سيلتف حول الخيار السوري ويدعمه معنوياً ويضغط على الحكومات من أجْل إتخاذ وقفات عملية إلى جانب سوريا.

كذلك إنه لو حدَث ما نشير إليه فإن الميزانيات العربية كانت ستأخذ في الإعتبار مقتضيات الوضع المستجَد والذي هو شِبه منسي منذ أن إنتهت مقاتلة العرب لإسرائيل عام 1973، وكانت المؤازرة لسوريا ستتخذ أشكالاً عدة. والأهم من هذا كله إن مفاجآت كثيرة كان يمكن حدوثها وكان سيصعب التردد في شأن عقْد قمة عربية كتلك التي جرى عقْدها في الخرطوم عام 1967 تتجاوز في روحية ما تتخذه من قرارات من روحية تلك القمة. وإلى ذلك إنه لو حدَث ما نشير إليه، أي جولة القتال الحاسمة أو المواجهة البطيئة التي تعتمد على لبنان الدولة ولبنان المقاومة. وهنالك إيران الثابتة في وقفتها إلى جانب سوريا. وهنالك بقايا الثوريين الفلسطينيين وموفور غضب الرأي العام الفلسطيني من التلاعب الإسرائيلي بالإتفاقات المبرمة مع القيادة الفلسطينية وهنالك دول أوروربية وأُخرى على جانب من الأهمية والإقتدار تنتظر بفارغ الصبر أي إحتياج سوري لها من أجْل أن تقتحم السياج الذي وضعتْه الولايات المتحدة وتمنع الآخرين من عبوره. وهنالك أيضاً العراق المدمَّى والمدمَّر من الولايات المتحدة الذي في إستطاعته أن يمزج ظروفه مع الظروف التي نشير إليها. ومثْل هذا المزيج السوري – اللبناني– الفلسطيني – الإيراني – العراقي يمكن أن يشكِّل للدول الأوروبية والدول الأُخرى المتضررة من تعامل الولايات المتحدة معها ومن بينها ليبيا على سبيل المثال عنصر جذب لكي تساند سوريا، فضلاً عن قدرته على خلْق حالة إرباك في المنطقة لا نظن أن في إستطاعة الإدارة الأميركية محاصرة هذا الإرباك ولا تقليص مخاطره، إلاَّ إذا كانت الولايات المتحدة ستواجه بالقوة وقرارات تستصدرها من مجلس الأمن حالة الإرباك هذه كي لا تستشري وتصبح مع الوقت خارج السيطرة الأميركية تماماً.

ما نحاول رسْم ملامحه ليس مجرد تهيؤات، وإنما هو ما نفترض أنه السيناريو التي كانت ستسير عليه الأمور في حال إستمرت سوريا مع الوضع الذي هي عليه قبْل يوم الأربعاء الخامس عشر من ديسمبر 1999، أي اليوم الذي إلتقى فيه للمرة الأُولى مسؤول سوري مع مسؤول إسرائيلي وكان التمثيل في منتهى الأهمية، ذلك إن وزير الخارجية السورية فاروق الشرع هو موضوع ثقة الرجل الأول في سوريا الرئيس حافظ الأسد وأن إيهود باراك هو الرجل الأول في إسرائيل، بل قد يجوز القول أنه في ضوء النتيجة المبهرة لفوزه في الإنتخابات بات من الزعماء التاريخيين وهي زعامة لم تتحقق لجنرالات وصلوا إلى سدة الحُكْم من قبْل مثل موشي دايان وإسحق رابين.

إن الإحتمال الذي نشير إليه كان على الأرجح سيحدُث وهو أمر طبيعي عندما تصبح الهوة شاسعة بين الظروف والتطلعات وما يخطط له الرئيس الأسد على صعيد الخلافة وبين موقف الطرف الآخر. ومِن الجائز الإفتراض أن الرؤساء الثلاثة كلينتون والأسد وباراك بذلوا في الربع الأخير من ساعة الحسم التي فيها تم الإتفاق على إستئناف التفاوض جهداً خارقاً ووازن كل منهم بعد التأمل العميق، بين ما سيكون عليه الحال إذا لم يحدُث ما حدَث (أي إستئناف التفاوض) وبين ما ستنتهي إليه الحال إذا بدأ التفاوض، وإنتهت تقديرات كل منهم أن مكاسب إستئناف التفاوض على قلتها تبقى أفضل بكثير من التداعيات التي ستنشأ في حال بقي الوضع على ما كان عليه وساندت الإدارة الأميركية المحاولة الشريرة من جانب إسرائيل والمتمثلة بالإنسحاب من لبنان بهدف إحداث المزيد من الإرتباك في الوضع وليس بهدف تحقيق سلام في المنطقة أو إنجاز خطوة نوعية على طريق تنشيط العملية السلمية.

وفي تقديرنا إن التركيز في الربع الأخير من ساعة الحسم من جانب الرؤساء الثلاثة كانت بأهمية الجهود المبذولة على مدى سنة من جانب 15 دولة وطرَف دولي وعربي شاركوا في حملة المسعى الحميد الذي يستند إلى إقتناع الجميع بأنه ما دام لن يكون هنالك سلام في المنطقة من دون موافقة سوريا فلماذا إذاً لا تراعى هذه الخصوصية وبحيث تمارس الإدارة الأميركية على إسرائيل بعض مما تتريث في ممارسته.

ونعود إلى ما بدأناه مطلع هذا المقال وهو أن الهموم العربية باتت في ضوء إستئناف المفاوضات السورية – الإسرائيلية وقُرب بدء المفاوضات اللبنانية – الإسرائيلية أقل مما كانت عليه قبْل يوم الأربعاء الخامس عشر من ديسمبر/ كانون الأول 1999، لنضيف أنه ما دامت هذه الهموم باتت أقَل فمن الواجب أن تكون الإهتمامات أكثر وأسرع. وفي

إعتقادنا أن القمة العربية العسيرة الإنعقاد هي الصيغة المثالية للتعبير عن الإهتمامات خصوصاً أن الإدارة الأميركية باتت بعدما بدأت المفاوضات السورية – الإسرائيلية أقّل تحفظاً على إنعقاد هذه القمة وحتى إذا كانت ستمهد الطريق أمام إستعادة العراق. بل قد يجوز القول إن إدارة الرئيس كلينتون تشعر أكثر من أي وقت مضى بالحاجة إلى قمة عربية يشارك فيها الجميع وتصدر عنها إشادة بما فعله الرئيس كلينتون الذي أمكنه جمْع الشتيتيْن السوري والإسرائيلي وعلى أهبة جمْع الشتيتيْن اللبناني والإسرائيلي بعدما كان نجح في جمع الشتيتيْن الفلسطيني والإسرائيلي والشتيتيْن الأردني والإسرائيلي، وكل ذلك بفضل ما فعله السلف الديمقراطي الأسبق جيمي كارتر الذي جمع الشتيتيْن المصري والإسرائيلي ناقلاً بذلك الأشقاء العرب بالتدرج من مواجهة إسرائيل والصمود في وجه عدوانها.. إلى مطاردة بعضهم بعضاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 ديسمبر (ك1) 1999

* * *

لا شعور بالحزن...
ولا إحساس بالسعادة

بعد ساعات تغيب شمس اليوم الأخير من السنة الأخيرة في القرن العشرين، ونبدأ، إذا أمدَّنا الله بالعمر، اليوم الأول من السنة الأُولى من القرن الواحد والعشرين. لا شعور بالحزن لأن عاماً إنقضى، ولا إحساس بالسعادة لأن عاماً جديداً بدأ. إذ كيف يجوز للعربي أن يحزن على عام من أعوامه الكثيرة لم يذق فيها سوى طعم الصدمات والنكسات وخيبات الأمل صدمة بعد صدمة، ونكسة بعد نكسة، وخيبات بعد خيبات؟ وكيف يجوز للعربي أن يشعر بالسعادة لأن عاماً جديداً بدأ وقد يكون عام الأمل والرجاء، وهو إعتاد على مدى نصف قرن القول كلما إنقضى عام إن العام الذي سيليه سيكون الأفضل. ومنذ نصف قرن لم يحدُث ذات عام أن العام الذي أتى كان أفضل من العام الذي إنقضى.

إنني هنا أتحدث كتابة عما أصاب الجيل الذي أنتمي إليه. ومن المؤكد أن كثيرين سيجدون أنفسهم يملكون المشاعر الحزينة التي أشعر بها.

أبصرْنا النور في زمن كانت الأوطان ترزح تحت نير الحُكْم الأجنبي. البعض محكوم من الأجنبي مباشرة والبعض الآخر يناضل من أجْل أن ينال إستقلاله. والجميع فقراء. وعندما تعلّمنا القراءة والكتابة بدأنا نشعر بأهوال الأوضاع التي نعيشها وبدأنا نستوعب مفهوم القضية الوطنية. ومِن يومها والمعاناة مستمرة.

في البداية كانت المعاناة على ما أصاب الأمة وكيف إرتضى قادة ذلك الزمان على أنفسهم أن يفقدوا فلسطين بهذه البساطة. أين هو السلاح وأين هم الرجال وأين هي الوطنية؟

ثم أين هي القمة العربية التي إتفق القادة العرب الذين يتمتعون بنعمة الإستقلال على إستحداثها؟ ألم يكن الغرض من القمة الأُولى في التاريخ العربي الحديث التي إستضافها الملك فاروق في "أنشاص" هو مواجهة أي ضيم يصيب أخاً أو بلداً. وألم تكن فرحة جيل الأجداد... أجدادنا لولادة هذه المؤسسة مستندة إلى أن وحدة الصف من شأنها تحقيق وحدة الهدف.

أحكمت العصابات الصهيونية الطوق على نصف فلسطين ليس فقط لأن اللورد البريطاني آرثر بلفور وعدَ الصهيونية العالمية بأن يكون لليهود وطن قومي، ولأن الدول الكبرى زمنذاك أقرت هذا الوعد، وإنما لأن عرب قمة أنشاص واجهوا العصابات الصهيونية بجيوش نظامية تبيَّن أن سلاح الجيش الأهم فيها، وهو جيش الملك فاروق، كان سلاحاً فاسداً. وكان الإنطباع الأول في نفوس آبائنا الذين أفزعتْهم الصدمة التي مُني بها آباؤهم، أجدادنا، هو أن دول قمة أنشاص ستستفيد من الدرس وستعالج الخطأ وسيقول القادة إننا هنا أخطأنا، وإننا فعلْنا هناك ما كان يجب ألاّ نفعله.

كان الآباء مساكين وعلى درجة كبيرة من طيبة القلب لأنهم ظنوا خيراً بأولئك القادة. ولمجرد أن أتاهم من دمشق أن ضابطاً سورياً برتبة "زعيم"، أي جنرال، هو حسني الزعيم إنتفض صباح يوم الأربعاء 30 مارس/ آذار 1949 على الحُكْم الذي يقوده شكري القوتلي ورمى به وبكل المدنيين الذين يتقاسمون المناصب الرئيسية، في السجن أو الإقامة الجبرية، فإنهم إبتهجوا أيما إبتهاج ورأوا أن تباطؤ قادة ذلك الزمن ومنهم شكري القوتلي في معالجة خطأ تضييع فلسطين هو السبب في الإنقلاب السوري الأول. كما أنهم شعروا أن بداية الثأر العربي لما جرى لفلسطين

وعلى أرضـــها هي بداية على الطريق الصـــحيح وأن الجيش المقدام الذي يرفع رايته حسني الزعيم سيعوّض الأمة ما فقدته وفي ذلك عزاء لآبائهم.. أجدادنا. ولكن حســـني الزعيم كان مفتوناً بالأبهة التي جاءته على أهون ســـبيل وعزز شـــأنها الملك فاروق الذي كان المضيف في أنشاص لـ شكري القوتلي.

لم تستمر فرحة الآباء كثيراً. فقد حدث أن حسني الزعيم، الذي جاء ليســـتعيد فلســـطين إنحصـــرت إهتماماته في تســـليم زعيم الحزب الســـوري القومي الإجتماعي إلى لبنان الذي كان يطالب به لأســـباب داخلية لا علاقة لها من قريب أو من بعيد بفلسـطين. وما أن إنقضـــى 32 يوماً على ذلك، وإعدام أنطون سـعادة في لبنان من دون محاكمة، حتى إنقلب "زعيم" آخر على حسني الزعيم وهو سامي الحناوي الذي كان أحد أقرب العسكريين إلى سيده وأعدمه رمياً بالرصاص هو ورئيس وزرائه محسـن البرازي بعد محاكمة سـريعة وشتت شمل الذين حولهما.

لم يشعر الآباء بجدوى مسلسل الإنقلاب والإنقلاب على الإنقلاب الذي إزدهر في ســـوريا بعد الإنقلاب الأول الذي قام به حســـني الزعيم، لأنهم لم يروا أي جدية في الأمر. ولكن نظرتهم تبدلت بعدما جاءهم النبأ من القاهرة بأن مجموعة من الضـــباط إنتفضـــت وإستولت على الحُكْم وأفرحهم أن هؤلاء الضـباط كانوا أكثر وضوحاً من حسني الزعيم ورفاقه لأنهم أعلنوا أن ما قاموا به صبيحة يوم 23 يوليو/ تموز 1952 كان ثورة وليس مجرد إنقلاب. وأفرحهم أكثر أن هـذه الثورة بيضاء وذلك لأن ما علق في ذاكرتهم من مُرّ أحاديث آبـائهم... أجـدادنـا، عن فظـاعـة الثورات ودمويتهـا وبالذات الثورة البلشـــفية ناهيك بثورات ســـبقتها في بريطانيا وفرنسا وغيرهما، كان كثير البشاعة.

كنا أصـــبحنا في الســـن التي نقرأ فيها التطورات السياسية بفهم أعمق ونستمع فيها إلى الإذاعات بعناية أكثر، عندما إنتهى المخاض داخل الثورة المصـــرية إلى أن البكباشـي جمال عبدالناصـر هو القائد الفعلي لتلك الثورة. أما الآباء فكانوا على حال الصـــدمة التي أصـابتهم من جرَّاء ما حدَث في سوريا من جهة، ولأن النبأ الذي تناقلته البرقيات من الســـعودية عن وفاة الملك عبدالعزيز أشـــعرهم بأن القائد الذي كان بدأ خوض معركة ســـياســـية ذات منطلق قومي ضـــد ما تفعله بريطانيا والدول الكبرى بفلســـطين كان قادراً لو أطال الله عمره أن يتسبّب في إحداث تغيير جذري في الموقف إذا هو أصرّ على رؤيته.

أشـــاعت الثورة المصـــرية الكثير من الآمال في النفوس وبالذات بعد تأميم قناة الســـويس الذي كان بداية سلسلة من التأميمات في مشرق الأمة ومغربها، كان القليل منها ضـــرورياً والكثير ضـــرراً. وحزنت النفوس جرَّاء العدوان الثلاثي على مصـــر رداً على التأميم. وإنحسرت المشاعر الحزينة مع تألق الثورة في الجزائر وإتســـاع رقعة الدول التي حصـــلت على الإستقلال. وبعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا ازدادت الثقة رســـوخاً في النفس العربية لولا أن الذين أقاموا الوحدة لم يسـهروا عليها فإخترقت صـفوفهم التجاوزات من جهة والتدخلات من جهة أُخرى وإنتهى في غمضة عين أهم إنجـاز وحـدوي بين دولتيْن عربيتيْن. وكـان مؤلماً أشـــد الألم أن حزب البعث الذي يرفع شـــعار الوحدة كـانـت قيـادتـه آنـذاك بين الـذين عملوا على تقويض التجربة الوحدوية.

وهكذا جاء إنفصـال سوريا عن مصـر دافعاً لـ عبد الناصـــر، الذي أخفق في الحفاظ على الوحدة، لكي يتدخل في اليمن التي قامت فيها ثورة ويرســـل إلى هناك ثلث الجيش المصري. ومن المفارقات المثيرة أنه عندما بدأت إســـرائيل عدوانها يوم الخامس من يونيو (حزيران) 1967 كـان الجنود المصـــريون في اليمن بعيدين عن سـاحة واجب نصـرة رفاقهم الذين باغتتهم إســـرائيـل وإنتهى أمر الألوف منهم إلى أنهم بـاتوا مكشـــوفين وتائهين فوق رمال ســـيناء بعدما حطمت إسرائيل الطائرات المصرية وهي رابضـة في المطارات العسكرية.

كانت الهزيمة كثيرة القســـاوة على المصـــريين في الدرجة الأولى وعلى العرب عموماً. أما بالنســـبة إلى عبد الناصـــر فإن هذه الهزيمة ومن قبلها الإنفصـــال كانا السبب في سوء وضْـعه الصـحي، فتوفي يوم 28 سبتمبر/ أيلول1970 عن 52 عاماً. وكان في إستطاعة الرئيس الخلف أنور الســـادات، الـذي خـاض حرب الســـادس من أكتوبر/ تشـــرين الأول 1973 بالتعاون والتنسيق مع الرئيس حافظ الأسد أن يوظف الإنتصار الذي سـجّله الجيشـان المصـري (على جبهة سـيناء) والسوري (على جبهة الجولان) أفضـل توظيف لولا أن السادات إستعجل لأسباب نفسية وإجتهادات شخصية وإيحاءات وارتباطات دولية – ربما – أن يزور القدس ويخطب في الكنيست ويبرم بعد ذلك صـفقة سـلام مع إســـرائيل برعاية الولايات المتحدة دفع حياته ثمناً لها،

ولا تزال الأمة تعاني إلى يومنا هذا، اليوم الأخير من القرن العشـــرين، من تداعياتها، مثلما تعاني الأمة من الإنهيارات والتصـــدعات في الصـــف العربي نتيجة لمغامرة أُخرى من مغامرات الثوريين العرب وهي التي تمثّلت بالغزو العراقي للكويت صـــبيحة يوم الثاني من أغسطس/ آب 1990.

بعد هذا الغزو جاء مؤتمر مدريد يشـــجع كل من يريد من العرب على نفْض يديه عن فلسـطين. وكانت منظمة التحرير الفلسـطينية أبرز النافضـين وذلك من خلال الصفقة المريبة في ليل أوسلو.

يحتاج المرء إلى عشرات الصفحات إذا هو أراد أن يوضـح ما الذي أصـاب الأمة من صـدمات ونكسـات وخيبات أمل طوال النصف الثاني من القرن العشرين. لكن المرء، مثل حالنا، لا يحتاج إلى من يدفعه للقول إنه من الطبيعي في ضـوء هذه البانوراما السـوداء ألاّ نحزن على إنقضـاء عام هو الأخير في قرن وألاّ نفرح لبـدء عـام جـديـد هو الأول في قرن آت، مـا دامـت الصـدمات والنكسـات وخيبات الأمل باقية، كما يبدو، بفعل قيادات وزعامات إعتبرت أن الشـــخص أهم من الوطن وأن مقتضـيات الحُكْم تتقدم على أي شـيء... بما في ذلك الأمة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 ديسمبر (ك1) 1999

* * *

الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

المقالات من يناير 2000 إلى ديسمبر 2000




نكهة عربية في معاقبة النمسا
القاتل يقتل... ولو بعد حين
مساجد... ومتعصبون... وعقلاء
تكريم اسرائيلي
لبنان اللجوء العشوائي ولبنان اللجوء بالبطاقة
حكيم الثورة.. وحكمة الاستقالة
ابتكار خليجي
نهاية زمن المعارضة
السودانية المهاجرة والمهجرة
هزيمة استراتيجية الاحتلال

السودان .. وإنقاذ ما أمكن إنقاذه

على نحو مغادرة الفريق عمر البشير الخرطوم إلى ليبيا للمشاركة في قمة إفريقية مصغرة ومن دون أن يكون الصراع بينه وبين الدكتور حسن الترابي حُسم لمصلحة أحدهما، فإن الدكتور الترابي غادر هو الآخر الخرطوم يوم الأربعاء الماضي إلى الدوحة للمشاركة في فعاليات ثقافية رمضانية، والصراع ما زال على حاله بينه وبين شريك الأمس في حُكْم السودان.

جاءت مغادرة الدكتور الترابي إلى الدوحة بعد ساعات من إنجاز صيغة توفيقية قد تبدو من منطلَق سوء نية أنها هدنة. أما مغادرة الفريق البشير فكانت لافتة للإنتباه. فالمناسبة التي من أجْلها ترك البلاد وهي تعيش فوق بركان سياسي يقذف تصريحات وقرارات وتحديات ليست مهمة إلى درجة أن يغادر خصوصاً أنه وسْط هذه المواجهة يمكن أن يستغل الحليف السابق فرصة الغياب ويدفع بجنرال آخر إلى القصر الجمهوري. ولكن الفريق غادر مطْمئناً الأمر الذي يعني أنه عندما إتخذ قراره يوم الأحد 12 ديسمبر / كانون الأول 1999 وقضى بحل البرلمان وإعلان حالة طوارىء والعمل على إعادة هيبة السُلطة وتوحيد القيادة، كان أجرى مشاورات مع كبار الضباط وبالذات أولئك الذين لا يفشون سراً ولا يغتنمون فرصة للقفز إلى كرسي الرئاسة والذين هم إذا إئتُمنوا صانوا عهداً. ومعنى قولنا هذا أن الفريق البشير يمكن أن يكون فاجأ الترابي بقراره إلاّ أنه لم يفاجىء حلقات داخل المؤسسة العسكرية. وإعتماداً على ولاء هذه الحلقات قام بزيارة ليبيا التي أفادت في أنها أشاعت أجواء عن ثقة البشير بما فعله وثقته بالمؤسسة العسكرية وإقتناعه بأن الرأي العام السوداني سيكون متفهماً لـ "الإنقلاب الأبيض" الذي قام به والذي فيه بعض ملامح "الإنقلاب الأبيض" الآخر الذي قام به جمال عبدالناصر (البكباشي) على اللواء محمد نجيب مع فارق أن الأخير ليس فقط لم يعد رئيساً للبلاد بعدما أخذ عبد الناصر حقه في الرئاسة، وإنما لم يعد شيئاً على الإطلاق يقبع في إقامة جبرية في منزل غير لائق، وهو الذي كان أول رئيس جمهورية مصرية. أما الدكتور الترابي فإستمر مثل الكفة الأُخرى في الميزان السوداني مالت قليلاً ووجدت في المقابل قوة ثالثة داخل النظام هي "هيئة شورى المؤتمر الوطني" أي الحزب الحاكم في السودان تقتحم ساحة الخلاف وتتخذ من القرارات والتوصيات ما تجعل طرفيْ الصراع يوافقان عليها، ربما لأن عدم القبول سينتهي إلى معركة كسْر عظْم وبصرف النظر عما إذا كانت الرؤية الإسلامية المشتركة ستتناثر أشلاء بفعل مواجهات لا بد من حدوثها، وربما لأن جذور تلك الرؤية جعلت الطرفيْن يعتبران أن مصداقية طروحاتهما الإسلامية ستتأثر في نظر جماعاتهما، وفي نظر الآخرين إذا هما لم يذعنا لـ " الشورى" التي هي أحد أركان نظرية الحُكْم الإسلامي.

وما يلفت الإنتباه هو أن "هيئة شورى المؤتمر الوطني" عملت على جعْل كفتيْ الميزان تعودان إلى التعادل الذي كانتا عليه كخطوة أولى يتم في ضوئها الخوض في أعماق الصراع وإستنباط حل جذري له. وهي في التوصيات التي إتخذتْها يوم الإثنين 27 ديسمبر 1999 قررت أن يبقى الترابي في موقعه والفريق البشير في موقعه وأن يكون التشاور والتنسيق بين الأجهزة التابعة للموقعيْن دورياً، وأن تقوم الدولة على البيعة العامة لرئيسها، وأن يتم تحديد الإختصاصات والصلاحيات تحديداً دقيقاً، وأن يلتزم طرفا الصراع بالنزول على حُكْم المحكمة الدستورية لتأكيد إلتزامهما بالدستور، ورفْع حالة الطوارىء السارية حالياً بأعجل ما تيسر. وهذه أهم التوصيات وليست كلها.

بدت "هيئة شورى المؤتمر الوطني" بالتحرك الذي قامت به وتحت شعار "رأْب الصدع" أقوى من طرفيْ الصراع لأنها أبعدت عن الإثنيْن خيارات صعبة كان من الطبيعي الأخذ بأحدها. وأحلى هذه الخيارات مر، بل وكثير المرارة. كما أنها بدت مثْل محكمة العدل الدولية التي يلجأ إليها في العادة الطرفان اللذان لا يريدان للصراع أو للخلاف بينهما أن يتخذ منحى المواجهة وفي الوقت نفسه ينشد كلاهما الود للآخر على نحو ما هو عليه الخلاف الإماراتي – الإيراني في شأن الجزر الثلاث والخلاف القَطَري – البحريني في شأن جزيرة "حوار". ومن الجائز الإفتراض أن الفريق عمر البشير كان الأكثر إرتياحاً لهذه التوصيات على رغم أنه يتطلع إلى الأكثر، وأن الدكتور الترابي كان في الحال المعاكسة منزعجاً أو متوعك المزاج من خيبة أمله بـ " مؤتمره". أما الإرتياح.. إرتياح البشير فلأن هذه الهيئة تنتسب من حيث تصنيف الإنتماءات إلى "المؤتمر الوطني" أي إلى القوة الضاربة دستورياً

للدكتور الترابي. وما دامت هذه الهيئة أوصـــت بأن "تقوم الدولة على البيعة لرئيسـها" فهذا معناه إنتصـار للمطْلب الأكثر أهمية في مطالب الفريق البشـير. أما بقية المطالب فيمكن لـ "المحكمة الدســتورية" أن تجد لها الحل المناســب. وأما الإنزعاج.. إنزعاج الترابي، فلأنه كان يرســم على أســاس أن ورقة الحزب هي الورقة الرابحة في يده، وعدما يأتي التصـويت على ما إتخذتْه "هيئة شـورى المؤتمر الوطني" من توصـيات (334 صـوتاً من أصـل 525) فهذا معناه أن هنالك داخل "الجبهة الترابية" بشـيريين أو مَن يرون أنه إذا كان البشير إستعجل وباغت وشَمَّر عن ساعديْه فإنه ليس على باطل في مجمل ما يراه، ولا بد من الإصغاء إليه بدل إعتبار فِعِله من أفعال "خيانة الأمة" عِلماً بأن تهمة "التخوين" كانت سـقطة ترابية في حق الشـريك الـذي أراد أن يواكـب التحولات في المنطقـة بـالحـد الأدنى من إعادة النظر.

وإذا كـانت صـــيغـة التوفيق التي إبتكرتْها "هيئـة شـورى المؤتمر الوطني" أظهرت هذه الصـيغة على أنها صـيغة الإحتياط لإنتكاس التوصـيات لأسـباب أو أُخرى أو لإلتزامات أو تعهدات غير منظورة، فإن هذه الصـيغة عكسـت إنطباعاً آخر عن تجربة الحُكْم في السودان. وخلاصة هذا الإنطباع أن التراث الديمقراطي في هذا البلد ينبض في لحظات الشـدة ويسـاعد أصـحاب النوايا الطيّبة على وضْـع الحلول التي تغني البلد عن إعصارات من شأنها أن تزيد في سوء أحواله. ونقول ذلك على أســاس أنه عندما تكون هنالك أزمة من نوع الأزمة التي نشـأت بين الفريق عمر البشـير والدكتور حسـن الترابي، وينبري في اللحظة الحرجة.. لحظة الخوف من الإنفجار طرف ثالث يضـع رؤية تعطي كل ذي مطلب مطلبه أو على الأقل تحرص على أن تكون عادلة في صياغة رؤيتها ويـأخذ طرفا الأزمة ولو من حيث المبدأ بهذه الرؤية... إنه عندما يحدُث ذلك فهذا معناه أن نبضـة من نبضـات التراث الديمقراطي في السـودان حدثت، وبصـرف النظر عما إذا كان ذلك نوعاً من التكتيك لدرء إنفجار تصـيب شظاياه الجميع أو لإنقاذ تجربة حُكْم تحتاج إلى تطوير وإلى المزيد من فتْح النوافذ على الآخرين، أو كان عن إقتناع بأن الديمقراطية هي الحل في نهاية الأمر وأنه ما دام في جوهر الإسـلام ما يؤكد صـوابية الشـورى التي هي ديمقراطية ذات عمق روحاني فلماذا لا يؤخذ بها؟

وأهمية القوة الثالثة المتمثلة بـ "هيئة المؤتر الوطني" التي أنقذت ما يمكن إنقاذه من "ثورة الإنقاذ" برمزيْها الفريق عمر البشـير والدكتور حسـن الترابي، أنها سـتشـجع الأحزاب الأُخرى في السـودان وكلها أحزاب معارِضـة على المضـي قُدماً في الإنفتاح على الحوار مع النظام في السـودان، وذلك على أسـاس أن هذه الهيئة تملك خاصية فهْم المخارج والتعقيدات التي تنشأ عن الإشـتراطات المسـتحيلة التي تُرمى عادة على طاولة التفاوض وفي مجالس المتفاوضين. فضـلاً عن أنه في ضـوء محاصـرة الهيئة للصـراع بين الفريق البشـير والدكتور الترابي والظهور المفاجيء لـ "هيئة شورى المؤتمر الوطني" وإرتياح دول الجوار للتطورات التي تحدُث داخل أهل الحُكْم في السـودان، لن يكون بعد الآن مجال للتصلب والتشدد وهذا من شأنه تحقيق المصالحة الوطنية. ومع الوقت يصبح جون قرنق نائباً لرئيس الجمهورية على نحو ما سـبق أن حصـل من قبْل مع جوزف لاغو الذي إنتقل من محاربة النظام إلى جزء من النظـام في عهـد الرئيس جعفر نميري وبمنصـب نائب رئيس جمهورية. ومع الوقت أيضـاً يصـبح بعض قادة المعارضـة السـودانية شـركاء في النظام.

وهكذا فإن أي تطورات سـتحدُث بعد الآن في السودان الجديد – ونفترض أنها تطورات نحو الأحسن – سـيكون الجميع مدينين بها للإنتفاضـة البشـيرية وللقوة الثالثة ولتسـليم الدكتور الترابي بأن الذي حدَث بينـه وبين الفريق البشـير" هو إبتلاء من الله ونحن نتجاوز الإبتلاء والحياة كلها إبتلاء...".

عســى ولعـل كـل المختلفين في العـالم العربي ينظرون إلى الخلافات النظرة ذاتها... وبذلك يتفاهم المختلفون أو يتعايشـون مع إسـتمرار أسـباب الخلاف على أمل أن تتلاشى هذه الأسباب مع مرور الزمن.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الإثنين 3 يناير (ك2) 2000

* * *

السلام السلعة... والسلام القضية

بـدل أن يتحـدث إيهود بـاراك، والـذين حولـه، عن محاســن الســلام وكيف أن الطمأنينة ســتحل محل الخوف، وبذلك يلتف الإسرائيليون حول سعيه من أجْل

إنجاز التسوية، فإنه يتحدث عن "الثمن الباهظ والمؤلم" الذي ستدفعه إسرائيل ثمناً للسلام.

وبطبيعة الحال إنه عندما يعتبر باراك أن الإنسحاب من أرض سبق للجيش الإسرائيلي أن إحتلها هو أمر مؤلم وثمن باهظ تدفعه حكومته، فإن صوت المتشددين في إسرائيل سيرتفع في حين أن هذا الصوت ما كان ليرتفع لو أن باراك قال لـ بني قومه ما معناه إن خلاصكم هو في السلام وفي أن نُقنع جيراننا الذين سبق لجيشنا أن إحتل أرضاً لهم بأننا جادون فعلاً في سعْينا من أجْل السلام. أما عدا ذلك فإننا كمَن يسعى إلى حتفه.

ولا ندري ما الذي يجعل باراك لا يفعل ذلك. كذلك لا ندري ما الذي يقصده من وراء الإستفتاء الذي ستجريه حكومته على مسألة الإنسحاب من الجولان. كذلك لا ندري لماذا هذا الإستفتاء ما دام باراك حصل سلفاً على النتيجة التي يريدها وذلك من خلال فوزه المبهر في الإنتخابات بنسبة فاقت التوقع. والذين إقترعوا له لم يقترعوا إلاّ لأنه خاض المعركة ببرنامج يشكِّل السلام القضية الأولى والأخيرة فيه. ومن المؤكد أنه لو أعلن في برنامجه عكْس الذي أعلنه لكان الإسرائيليون ربما فضّلوا أن يستمر نتنياهو في الحُكْم أو يقترعوا للمرشح الثالث.

ثم لنفترض أن الإستفتاء لم يأتِ بالنسبة المرجوة لمصلحة الإنسحاب من الجولان ومن جنوب لبنان. فهل أن باراك سينفض يديه عندئذ من أي إتفاق يمكن التوصل إليه ويقول إنه ينزل عند إرادة شعبه، وشعبه لا يريد الإنسحاب من الجولان ومن جنوب لبنان.

وإلى ذلك فإن باراك يتعامل مع مسألة السلام بعقلية تجمع بين الجنرال صاحب الباع الواسع في الحرب والعدوان، وبين السياسي الذي يتطلع إلى إستثمار التفاوض مع سوريا بحيث يصنّفه التاريخ العبري الحديث على أنه من الزعماء الإستثنائيين في تاريخ الشعب اليهودي. فهو في لقاءاته الثنائية مع الرئيس كلينتون وبقية أركان الإدارة الأميركية لا يتحدث إلاَّ عن المال والسلاح والطائرات المتطورة والصواريخ، بل إنه قبْل إحدى جلسات الجولة الأولى من التفاوض مع وزير الخارجية السورية فاروق الشرع لم يطلب من الرئيس كلينتون في لقاء ثنائي معه أن يبذل كل جهد ممكن لإقناع الجانب السوري بصدق رغبة إسرائيل بالسلام، وأنها في هذا الأمر مثل سوريا تماماً، أي أن السلام هو القضية ولا شيء غير السلام، وإنما – على نحو ما تناقلتْه وكالات الأنباء من مدينة "شيبردزتاون" القريبة من واشنطن وحيث يتم التفاوض – سلَّم الرئيس الأميركي قائمة بطلبات يعتبرها إجراءات أمنية لا بد منها مقابل الإنسحاب من الجولان. وتشمل هذه الإجراءات التي يقال إن كلفتها تصل إلى 17 مليار دولار، صواريخ "توما هوك" و"كروز" وطائرات هليكوبتر من طراز "أباتشي" الجديدة والمتطورة وطائرات الإنذار المبكر "أواكس" وصواريخ مضادة للصواريخ. وهذا ليس كل شيء.

ولا ندري ما إذا كان الرئيس كلينتون أبدى دهشته وهو يتأمل في هذه القائمة وما حوته من طلبات. كذلك لا ندري ما إذا كان علَّق بعد التأمل بالقول ما معناه هل أنت على موعد مع حرب جديدة يا مستر باراك، وهل هذا هو السلام الذي تنشده؟

أما المراقب المتجرد فإنه عندما يتأمل في قائمة باراك الحربية يرى أن إسرائيل إما أنها غير واثقة بنفسها وغير راغبة في السلام، وإما أنها تحاول ألاّ تفقد ما إعتادت عليه طوال السنوات التي أعقبت صفقة كامب ديفيد وهو تدفق المال والسلاح عليها من الولايات المتحدة، أو إنها تستبق مرحلة التعويضات والمساعدات التي يمكن أن تقدِّمها الولايات المتحدة أو تتولى قيادة حملة عالمية لهذا الغرض، إلى دول المنطقة، وبالذات إلى سوريا وإسرائيل، فتحاول وبعقلية التاجر اليهودي الشاطر والجشِع في الوقت نفسه أن تأخذ من حصة غيرها وتبدي في سبيل ذلك الشعور بالخوف مع أنها الأقوى في المنطقة على صعيد السلاح الإستراتيجي والنووي، أو الشعور بالحاجة إلى المساعدة المالية مع أنها المرجعية للوبيات اليهودية التي يقود القيِّمون عليها مراكز المال والإستثمار الكبرى في الدول الكبرى والصناعية، من مصارف وشركات تأمين وشركات بطاقات إئتمانية وصناعات وأمبراطوريات إعلامية وشركات نقْل. وهذه المراكز معنية بأمر بقاء إسرائيل ولا تتركها تشعر بالحاجة.

ومن الواضح في حدود ما يمكن للمرء أن يستنتجه من عملية التفاوض أن إسرائيل تتعامل مع المسألة وكما لو أن السلام سلعة تُباع وتُشترى. ومَن كانت هذه منطلقاته فإنه يترك إنطباعاً بأن السلام لن يكون ثابت الأُسس ومستقراً. وإذا كان الموقف الإسرائيلي من موضوع السلام لن يصل إلى مستوى الموقف السوري فإن المفاجآت غير السارة ستبقى واردة. وبإستثناء وقفة لافتة للإنتباه من جانب عازر وايزمان

رئيس الدولة في إسرائيل لا يلاحظ المرء وجود إصرار على ضرورة أن يتحقق السلام. ولقد تمثّلت هذه الوقفة بقول وايزمان في تصريح له أنه سيستقيل من منصبه إذا لم يأتِ الإستفتاء على الإنسحاب من الجولان لمصلحة الإنسحاب، مبرراً ذلك بالتوضيح أنه يصعب عليه كرئيس للدولة أن يتصوّر وضعاً يرفض فيه الناخبون إتفاقاً بعد موافقة الحكومة عليه. وهو تصريح جريء من جانب وايزمان إبن السادسة والسبعين يدلي به بينما ولايته الثانية لا تنتهي قبْل ثلاث سنوات. وإلى ذلك إن وايزمان بات صاحب رؤية واضحة تقوم على أن فشل المفاوضات مع سوريا "سيشكِّل كارثة على علاقات إسرائيل مع مصر والأردن...".

ولكن هذه الوقفة تبدو متواضعة أمام تيار اليمين المتشدد لعملية السلام وأمام هجمة الحاخامات – وبعضهم له نفوذه في المجتمع الإسرائيلي – الذين يرون أن إعادة الجولان "غير قانونية وغير أخلاقية، وأن الجولان جزء من أرض إسرائيل الكبرى". وبقدْر ما يستهجن المرء هذه النظرة لرجال الدين في إسرائيل إزاء عملية السلام وكيف أنهم كرجال دين مسؤولون عن التبشير بالسلام وليس إعتبار الإنسحاب من الجولان غير قانوني وغير أخلاقي... بالقدْر نفسه لا نستبعد وضِمن عملية البيع والشراء، أن يضيف باراك في لقاء ثنائي حميم مع الرئيس كلينتون والأقطاب اليهود في الإدارة الأميركية طلباً جديداً إلى قائمة الطلبات مستنداً في ذلك إلى أن ضرورة إقناع رجال الدين بالسلام وبالذات الحاخامات المشار إلى تشددهم، تستوجب ذلك.

في ضوء هذا المشهد المليء بالتناقضات والمساومات والبيع والشراء، نتمنى للمفاوض السوري أن يبقى واسع الصدر وبذلك تتكشّف أكثر فأكثر ألاعيب إسرائيل... وصِدْق مساعي الإدارة الأميركية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 يناير (ك2) 2000

* * *

الحريري الذي صار معارضاً على الطريقة الإنكليزية...

قد يبدو عنوان هذا المقال مثيراً للدهشة ولكنه يعكس الواقع الذي عاشه لبنان طوال شهر رمضان.

ففي هذا الشهر بات المستحيل ممكناً وإستضاف الرئيس كلينتون يوميْ السابع والثامن من رمضان في البيت الأبيض جلسة تمهيدية ضمت وزير الخارجية السورية فاروق الشرع ورئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك. وجاءت النتيجة أقل قليلاً مما يتمناه الرئيس كلينتون وأقل كثيراً مما يتطلع إليه باراك وفي حدود ما توقعتْه سوريا ورسمت خطتها على أساس هذا التوقع.

الرئيس كلينتون كان يتمنى أن ينجح في تحقيق مصافحة باردة بين الشرع وباراك ولو من باب المسايرة له، أي لـ كلينتون، تستطيع وسائل الإعلام الأميركية المتعاطفة مع إسرائيل أن تضفي عليها من الحرارة الكثير وتغمرها بالتأويلات والتهيؤات والإستنتاجات. ولكن الشرع كان في غاية الصمود يجامل ويساير الرئيس الأميركي إلى أقصى المجاملة، إنما وهو يتحدث عن إسرائيل وحكوماتها الحالية لا يلتفت إلى باراك الذي كان طوال الوقت مصوِّباً عينيه على وجه الشرع على أمل خطف تحية صامتة منه.

وباراك كان يتطلع إلى أن يحقق كلينتون إختراقاً في صمود الشرع فتتم الإبتسامة والمصافحة وتبادُل العناق على طريقة ياسر عرفات المتساهل في هذا الأمر إلى أبعد حدود التساهل عن هواية أو إقتناع أو كوسيلة من وسائل حربه النفسية للحصول على قرض سياسي يحتاج إليه أو لتسديد ديون في عنقه. ولكن كلينتون كان في غاية التنبه فلم يُحرج ضيفه السوري ويضحِّي بلحظة تاريخية مقابل "نزوة" سياسية تلفزيونية يتطلع إليها ضيفه الإسرائيلي الذي يفترض أنه سيعود إلى تل أبيب غانماً عناقاً سورياً – إسرائيلياً حدَث داخل المكتب البيضاوي لرئيس الدولة الأعظم. ومن الجائز الإفتراض أن الضيف السوري أعطى بعض التقدير للمضيف على هذه المراعاة الأساسية في أي حال.

والشرع يبقى من لحظة بدء اللقاء حتى لحظة إنتهائه يتحدث ويتصرف ضِمن أصول الخطة الموضوعة بعناية قبْل أن يغادر دمشق. لا مطلب له سوى السلام وإنسحاب القوات الإسرائيلية إلى حدود الرابع من يونيو 1967 ولا قوائم بالإحتياجات المطلوبة من الولايات المتحدة مقابل السلام. وهذا جعل هامش الإعجاب والتقدير من جانب الرئيس كلينتون لأسلوب التعامل السوري مع حدَث تاريخي، كبيراً.

إنتهت الجلسة التمهيدية وتم الإتفاق على أن تنعقد الجولة الأُولى من المفاوضات في الثالث من يناير

2000 الذي يصادف السادس والعشرين من الشهر الكريم رمضان. وعاد الجميع إلى بلده. وبعدما إطَّلع الرئيس الأسد من الشرع على ما حدَث في واشنطن أوفده إلى بيروت (وصل بالطائرة وليس بطريق البر) يوم الإثنين 20 ديسمبر 1999 لإطلاع الرئيس إميل لحود على الموقف. وعُقد لهذا الغرض إجتماع ضم إلى جانب الرئيس لحود والوزير الشرع رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص ورئيس مجلس النواب نبيه بري ونائب رئيس الحكومة ميشال المر. وهذا الأخير كان محور أخذ ورد من معظم الأطراف السياسية والروحية وبالذات البطريرك الماروني مار نصرالله بطرس صفير بعدما بات شبه محسوم أنه (أي المر) هو الذي سيترأس وفد لبنان إلى التفاوض مع إسرائيل عندما تتلقى الحكومة اللبنانية الدعوة. ومن وجهة نظر البطريرك صفير إن ميشال المر (الأرثوذكسي) تنقصه الخبرة في المسألة التي سيناط إليه أمر التعاطي فيها. ثم عاد الشرع إلى دمشق بعدما طمأن وإطمأن.

في هذه الأثناء كان موضوع السلام هو الشغل الشاغل للبنانيين سياسيين ومواطنين، بل من الجائز القول إنه منذ إعلان الرئيس كلينتون وبشكل مفاجيء يوم الأربعاء 8 ديسمبر/كانون الأول 1999 (أي عشية اليوم الأول لشهر الصوم) أن المفاوضات بين سوريا وإسرائيل ستُستأنف بعد أسبوع في واشنطن ومن النقطة التي توقفت عندها عام 1996... إنه منذ الإعلان المفاجيء بات موضوع السلام طَبَقاً إضافياً على المائدة الرمضانية وبات بأهمية التمر وشراب قمر الدين والشوربا والفتوش والمكسرات والبقلاوة والحلويات الرمضانية على أنواعها. وكثُرت التساؤلات قبْل الإفطار وفي السهرات وقبْل السحور في شأن السلام المأمول وكان التساؤل الذي إستحوذ على الإهتمام المطلوب هو حول كيف أن سوريا بدأت التفاوض بينما لبنان لم يُدعَ وهل ستكون هنالك مفاوضات لبنانية وإسرائيلية ومتى ومَن في النهاية سيترأس الوفد ولماذا لا يكون الحص هو المترئس وليس نائبه ميشال المر ما دام الحص هو وزير الخارجية، وهل يتم تعديل وزاري إستثنائي وإختيار شخصية معنية لترؤس الوفد تكون بمواصفات مدروسة لا غبار على ماضيها وحاضرها وتفهُّمها للخصوصية التي تتسم بها العلاقة اللبنانية – السورية وللحالة الإستثنائية في لبنان التي تتمثل في "حزب الله" الذي أعلن أمينه العام السيد حس نصرالله عقْب تحفُّظ إيراني على التفاوض والمتفاوضين أن الحزب لن يوقف العمليات ضد إسرائيل حتى إذا صالحها الجميع؟

هذا الوضع في مجمل محطاته وتفاصيله كان السبب في نقلة نوعية في رؤية رئيس الحكومة السابق – اللاحق رفيق الحريري كما يجب أن تكون عليه المعارضة في الظروف الحالية. ووجدت الرؤية في ظاهرة الإفطارات الرمضانية التي أقامها طوال شهر الصوم المكان المناسب لكي يتم توضيحها والتعبير عنها. وهذه الإفطارات كانت بهدف أن يعلن الحريري من خلالها خوض معركة الزعامة وليس فقط مجرد الفوز ببعض المقاعد في الإنتخابات النيابية المقبلة. ومن الجائز القول إن الحريري يرى أنه إذا إستطاع إنجاح مرشحين له في كل المناطق اللبنانية من خلال تحالفات مدروسة وأسلوب عمل يأخذ في الإعتبار سلبيات مرحلة السنوات الست التي أمضاها رئيساً للحكومة، فإنه سيعود هذه المرة رئيساً للحكومة وبثقل شعبي يؤهله لكي يستأنف ممارسة دوره بأقل من الشأن الذي كان عليه طوال السنوات الست عندما إحتار اللبنانيون في أمره وهل هو رئيس الجمهورية أم رئيس للحكومة، وبأكثر من الشأن الذي هو عليه خليفته الدكتور سليم الحص الذي إحتار اللبنانيون السُنة في أمر وداعته. كما أنه بالزعامة الناشئة عن فوز ملحوظ في دوائر كثيرة يستطيع أن يتخلص من العقدة العالقة في ذهنه وهي أن عدداً كبيراً من النواب لم يُسموا عند الإستشارات مرشحهم لرئاسة الحكومة وتركوا للرئيس لحود أن يختار وأنه (أي الرئيس) إرتأى تجيير الأصوات له وتكليفه بتشكيل الحكومة. أما إذا كان هذا الفوز لن يتحقق وعلى نحو ما يتوقعه الحريري ويبني الخطط للمرحلة المقبلة على أساسه، فإنه على الأرجح قد يجد نفسه في منصب دولي أو عربي مرموق يقال إنهما محجوزان له.

وما هو اللافت للإنتباه في الإفطارات الرمضانية الحاشدة أن الحريري إستضاف فيها خطيبيْن أبرز رمزيْن متناقضيْن هما السفير الأميركي ديفيد ساترفيلد والسفير الإيراني. كما أن اللافت فيها للإنتباه أنه في موضوع العملية السلمية والتفاوض السوري – الإسرائيلي الذي بدأ والتفاوض اللبناني – الإسرائيلي الذي سيبدأ، تعامل مع الحكومة والعهد عموماً على الطريقة التي تشهدها جلسات مجلس العموم عندما يمعن المحافظون، إذا كانوا في الظل، تهشيماً بالعمال إذا كان هؤلاء في الحُكْم (وبالعكس) بالنسبة إلى أمور

محلية مثل الموازنة والضـــرائب ومشـــاكل النقابات والرعاية الإجتماعية وغيرها، إلاّ أن الطرفيْن يتحولان إلى صف واحد إزاء قضية خارجية بصرف النظر عما إذا كانت هذه القضـية هي المشـاركة في الحرب ضـد العراق أو الحرب على الـذين يقـاطعون لحم البقر البريطاني بســبب حالة الجنون لدى الأبقار. وبعد أن تنتهي القضـــية إلى ما هو لمصـــلحة بريطانيا فإنهما يعودان إلى مبارزات التهشـــيم بألســـنة قاطعة كحد السيف.

وبالنســـبة إلى الحريري فإنه إعتبر أن موقفه من موضوع العملية السِلْمية في ضوء التفاوض السوري – الإســرائيلي هو مثل موقف الحكومة والعهد. ولم يترك إفطاراً رمضـــانياً واحداً من إفطاراته إلاّ وأعلن ذلك بالصوت العالي.

وتبقى الإشـــارة إلى نكتـة بريئـة على هـامش الإفطارات الحريرية خلاصتها أن الرئيس الحريري كان يفكر بـالنظر إلى الإقبـال المتزايـد عليهـا بتمـديـدهـا شـهريْن. مجرد نكتة بريئة لا أكثر. وهي قريبة الشـبه بالنكتة على الطريقة الإنكليزية.. أي أنها باردة ولكنها ذكية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 16 يناير (ك2) 2000

* * *

خيبات أمل ... ثورية

إفترض الرأي العام الإيراني بنسبة ستين في المئة أن وجود شـخصـية دينية على قدْر كبير من المرونة على رأس الحُكْم الثوري في إيران من شـــأنه أن يفتح الكثير من النوافذ المغلقة على الغرب وبالذات الولايات المتحدة وبريطانيا. ومن أجْل ذلك إنهمرت الأوراق في صـناديق الإقتراع على مَن سـيخلف الشـيخ هاشـمي رافسنجاني في رئاسة الجمهورية حاملة الإسم المفاجأة السـيد محمد خاتمي صـاحب وجه يدعو إلى الإرتياح وقامة بطول قائمة المهاتما غاندي وعلى الرأس عمامة سوداء إشارة إلى أنه ينتسب إلى جيل القرن العشرين من سلالة الرسول العربي الكريم.

وشـكّلت خلفية السـيد خاتمي بالنسـبة إلى جيل الشـــباب وبالذات الذين كانوا عندما قامت الثورة في إيران في العقد العـاشـــر من العمر دافعـاً قويـاً إلى الإقتراع له. فهو عرف الغرب عندما شـغل منصـب الملحق الثقافي في هامبورغ وعرف أيضـــاً صـــراع حضـارة الغرب مع حضـارة الشـرق من خلال النموذج اللبناني عندما أمضـــى في لبنان بعض الزمن. وهو داخـل الثورة الإيرانيـة من الفئـة التي لا تشـــكو من إضـطهاد تعرَّضـت له ولا من ظلم السـجَّانين وظلام السـجون. وهو إلى ذلك كاتب يجيد فن الصـياغة وتلطيف الأفكار والإتجاهات الفكرية الكثيرة التعقيد. كما أنه من النوع الذي عندما يخطب أو يتحدث لا يُحرِّض الجمهور على الثورة والغضـب أو يحرِّك فيه المشاعر إلى درجة البكاء. هذا إلى جانب أن "كاريزما" السـيد وتواضـعه إلى درجة ركوب "الباص" أحياناً والسـير في الشـارع كأي مواطن عادي وعدم البهرجة في المأكل والملبس والمظهر، أوجدت له في صـفوف الناس مكانة على الكثير من التميز. ومعروف أن مثل هذا السـلوك وبالذات ما يتعلق بإسـتعمال المسـؤولين والشـخصـيات المهمة عموماً لـ "الباصـات" ولقطارات الأنفاق والقطارات الأرضـية، سـلوك شـائع وعادي في دول الغرب. وبطبيعة الحال فإن مَن يمكث بضـع سـنوات في الغرب على نحو مكوث السيد خاتمي في هامبورغ يكتسـب، أو يتطبع بالطباع الحميدة السـائدة في الغرب ويحرص على نبْذ ما هو سـيء. ويفعل هذا على أمل أن ينقل هذه الخصـال الطيبة وهي كثيرة إلى بلده خصوصاً مَن كان بلده من دول العالم الثالث.

منذ اليوم الأول لتسـلُّمه الرئاسـة في فوز كثير الإبهار بدأ السـيد خاتمي يحاول ما أمكنه تطبيق بعض الخصـال التي تطبَّعت بها شـخصـيته إنما مع التمسك بالجذور والتراث. وراح يُكثر من تخفيف نسبة الجفاف في الحياة العامة. كما أنه ساعد بحُكم سُلطاته الرئاسية، المرأة الإيرانية على أن تأخذ مكانها ومكانتها في مؤسسة رئاسة الجمهورية. وفي خطوة لافتة للإنتباه أعطى الضـوء الأخضـر لحرية التعبير التي كان مقفَلاً عليها إلى حد ما فإتسـعت مسـاحة المناقشـة وتكاثر إصـــدار المطبوعات. وفي كل هذه الخطوات كان يتطلع إلى علاقة جديدة تنشـأ بين دول الغرب والثورة في إيران وتقوم على وجوب تفهُّم الخصوصية الإيرانية الجديدة على الغرب، أي الخصـوصـية الثورية، مقابل إزالة الإنطباع الذي ترسَّـخ في أذهان الإيرانيين طوال سـنوات الحُكْم الثوري عن أن الغرب هو مجموعة دول إسـتكبارية. ثم بدأ السـيد خاتمي مع بدء السـنة الثانية لرئاســـته وإنفراج العلاقة بين إيران والمملكة العربية

السعودية وتطورها نحو المزيد من التحسن، يبعث من خلال تصريحات وأحاديث صحافية وتلفزيونية برسائل إلى الولايات المتحدة هدفها إختصار مسافة الحذر وحجم المرارة. ثم زار فرنسا للغرض نفسه، لكن شيئاً لم يتبدل. ومن جانبه سعى وزير خارجيته كمال خرازي الذي كان إختياره فقط وفي الدرجة الأولى لغرض التطبيع بين الثورة الإيرانية والولايات المتحدة ودول الغرب عموماً، ولكن الجليد إستمر لا يذوب بالقدْر الكافي. وهذا تسبَّب بالإحراج للرئيس خاتمي أمام مريديه وأضعف هيبته أمام الجناح المتشدد في البلاد.

ثم جاءت زيارة وزير الخارجية كمال خرازي إلى بريطانيا يوم الأحد 9 يناير/كانون الثاني 2000 ومحادثاته مع رئيس الحكومة طوني بلير ووزير الخارجية روبن كوك بمثابة محاولة أُخرى من محاولات السيد خاتمي لإنجاح الشق الغربي من برنامجه، وخصوصاً أنها جاءت بعدما إنتهى إلى حد ما الإشكال المتعلق بالثلاثة عشر يهودياً إيرانياً المتهمين بالتجسس على إيران، وبعدما تجاوز البلدان الأزمة المتعلقة بالفتوى الخمينية بإهدار دم الكاتب البريطاني سلمان رشدي بسب كتابه "آيات شيطانية" الذي يخلو من أي قيمة فكرية، وبعدما تبادلا السفراء قبْل بضعة أشهر. وكانت نتائج الزيارة دون المتوسط ربما لأن الموقف المتشدد إزاء إسرائيل والعملية السلمية من جانب مرشد الثورة الإسلامية خامنئي كانت أقوى من قدرة بريطانيا على القبول به خصوصاً أنه يتزامن مع جلسات التفاوض بين سوريا وإسرائيل. ولكن الزيارة أفادت في أنها فتحت الباب أمام حوار على مستوى القمة بين الرئاسة الإيرانية وبين الحكومة البريطانية. وهو حوار له تتمة في الربيع المقبل عندما يزور روبن كوك طهران. وفي حال أثمر التفاوض السوري– الإسرائيلي إتفاقاً على التسوية يكون موضع إرتياح الرئيس حافظ الأسد فإن رقعة الحوار ستتسع وستكون تجربة للحوار اللاحق بين الحُكْم الإيراني والولايات المتحدة وذلك على أساس أنه إذا كان في إستطاعة سوريا الإستغناء عن تحالفها مع إيران في حال تحقَّقت التسوية، فإنه ليس من السهل على الثورة الإيرانية أن تبقى وحيدة في مناهضة التسوية. وعلى هذا الأساس تؤيدها بلهجة ما ويستتبع ذلك تطبيع بين إيران ثورية متجددة ودول الغرب وأولها الولايات المتحدة وعلى أساس أنها في نظر الثورة الإيرانية المتجددة دول ذات ماضٍ إستكباري أي أن الأمر مختلف الآن. ويبقى الفضل في هذه النظرة للسيد محمد خاتمي الذي خاب أمله بالغرب والذي قد يجد نفسه في حال فشل التسوية ينحاز إلى صقور التشدد في إيران ويستنبط رؤية فكرية ثورية جديدة تنطلق من أن صراع الحضارات ليس هو الحل لإن الشرق شرق والغرب غرب ومن الصعب أن يلتقيا.

وثمة خيبة أمل ثورية أُخرى بالغرب بطلها العقيد معمَّر القذَّافي الذي إعتبر أنه بعد تسليم الشخصيْن الليبييْن المتهميْن (مِن قبْل أن يحاكما) بأنهما وراء حادثة إسقاط طائرة "البانام" فوق بلدة "لوكوربي" الإسكوتلندية عام 1988، فإن العلاقة بين بلاده وبين دول الغرب وأولها الولايات المتحدة ستستقيم وستكون صديقة لليبيا الثورية وتنزع جميع الأطراف من صفحات تاريخ التوتر على مدى ربع قرن كل الأوراق التي تحوي أسباب وتفاصيل وظروف ذاك التوتر بكل محطاته وبالذات حيث العنف والإنتقام هما لغة التعامل. وهو في الأصل إستبق الأمر عندما إختار لمنصب مندوب ليبيا لدى الأمم المتحدة محمد الزوي الذي أسَّس خلال ثلاث سنوات أرضية صالحة للحوار ثم إختار مِن بعده المندوب الحالي أبو زيد دوردة الذي عمل بصمت على تهيئة الأجواء الطيبة لأي حلول تُنهي مأزق لوكوربي. ولقد نجح الإثنان في المهمة التي توليا‌ها لأنهما من الفريق المدني في الثورة الليبية الذي يعرف كيف يفكر القذَّافي ولأنهما من خلال المناصب التي شغلاها قبْل أن يرسل بهما إلى نيويورك إكتسبا إلى درجة كبيرة المناعة ضد الصدمات الناشئة عن تبدُّل المواقف.

وبعد إتفاق بريطانيا وليبيا على تطبيق العلاقات وإستئناف تبادل السفراء وإنهاء المأزق الآخر المتعلق بالشرطية البريطانية إيفون فيلتشر التي قُتلت أمام السفارة الليبية في لندن عام 1984 إختار القذَّافي لمنصب السفير أحد الأشخاص الأكثر إحاطة بالغرب وهو سعد مجبر الذي على مدى ربع قرن من العمل السياسي داخل ليبيا في مجال الإعلام وخارجها كسفير لدى إيران ثم الجزائر وفرنسا، لم يتوقف بحكم ثقافته الإنكليزية عن مواكبة الغرب كعقلية وكأسلوب في الحُكْم وإتخاذ القرار فضلاً عن أنه ليس بعيداً عن عالم النفط ومعارك ليبيا سواء على صعيد الإنتاج أو التأميم أو التسويق. وإفترض القذَّافي أن سفيره لدى بريطانيا سيذيب الكثير من

الجليد في العلاقات وربما يؤسِّس لعلاقة من نوع جديد تمهد الطريق أمام زيارة يقوم بها القذَّافي إلى لندن التي لها وبالذات لساحتِها الشهيرة (البيكاديللي) مكان في ذاكرة الأخ معمَّر. وإلى ذلك إن الطريق نحو الولايات المتحدة من خلال علاقة جيدة ومتطورة مع بريطانيا تصبح سالكة أكثر.

فجأة وبعدما توافرت معظم المقومات لما نشير إليه وبينما الإتحاد الأوروبي من جانبه يفتح الباب أمام حضور لافت للقذَّافي وزيارة يقوم بها إلى عاصمة مقر المفوضية الأوروبية (بروكسل) جاء نبْش صحيفة "صانداي تايمس" لواقعة تتعلق بضبط 32 صندوقاً تحوي مكوِّنات صواريخ "سكود" في مطار "جاتويك" يوم 24 نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي (أي في مرحلة سبقت المصالحة من حيث المبدأ) والتأكيد الرسمي للواقعة ومسارعة وزير الخارجية البريطانية روبن كوك إلى التصريح بأن السفير البريطاني لدى ليبيا ريتشارد دالتون سينقل في أسرع وقت قلق بريطانيا العميق من محاولة ليبيا خرْق تصدير الأسلحة، مضيفاً في تصريح إلى هيئة الإذاعة البريطانية القول: "لدينا قلق من الطموحات العسكرية لنظام العقيد القذَّافي، ولم نغيِّر نظام الحظْر على الأسلحة ولا نظام الحد من القدرات الصاروخية الليبية ويُظهر التطور الأخير أننا كنا على صواب...".

من المؤكد أن الولايات المتحدة وفي شكلِ ما وراء نبْش هذه الواقعة ومعالجتها على النحو الذي عولجت فيه واقعة "المدفع العملاق" للعراق المشابهة عام 1990 وهدفها أن يبقى العقيد القذَّافي داخل الحصار الجزئي أو شبه المُخفف الذي هو عليه. كذلك إن هدف الولايات المتحدة من النبْش هو إبلاغ دول الإتحاد الأوروبي بأن لا تلعب لعبة الإستقطاب مِن وراء أميركا.

إنهما في أي حال خيبتا أمل ثوريتان بأميركا والغرب عموماً. والأرجح أن الأمر سيبقى على ما هو عليه، وكذلك الحصار الكثير القساوة على العراق، إلى حين إنتهاء جولات التفاوض السورية – الإسرائيلية إلى إتفاق سلام في الحد الأقصى... وتسوية في الحد الأدنى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 يناير (ك2) 2000

* * *

القاتل يُقتل... ولو بعد حين

ما هذه المفارقة الغريبة المتمثلة في أن معظم الذين يُشكّلون ميليشيات أو تتشكَّل من قِبَل غيرهم ويتسلَّمون قيادتها، هم مثل نجوم السينما، وأحدثهم هو جيليكو راجنا توفيتش الذي إرتكب في كوسوفو ومن قبْل ذلك في البوسنة وكرواتيا من الجرائم، وبالذات في حق أطفال وأمهات وآباء، وشبان في عز شبابهم، ما تفوق في بشاعتها الجرائم التي وقع الإختيار على مخيم صبرا وشاتيلا ليشهد في الثمانينات وقائع مماثلة لها.

وما هذا السر في أن ملامح الوجوه الميليشياوية توحي بالبراءة وإلى درجة أنها بمثل البراءة التي على وجوه الأطفال.

وما هذه الأقدار التي لا تترك زعيماً ميليشياوياً يتمتع بعوائد ما جناه في زمن ممارسته التخطيط لأبشع أنواع التصفيات. فمَن لا يشكو من عذاب الضمير يشكو من المتاعب الصحية أو العائلية. ومن لا يستطيع أن ينام إلاّ بفعل المخدِّر وتأثير الخمرة تهاجمه الكوابيس. ومَن لا تنفع فيه سوى العقاقير المهدئة ويجافي النوم عينيه يعيش صراعاً على مدى ساعات النهار والليل.

وما يعنينا هنا هو هذا الزعيم الصربي راجنا توفيتش الذي له مع الأسف معجبون بالجرائم التي إقترفها، والذي لقي حتفه ببضع رصاصات أُطلقت عليه بعد ظهر الأحد 16 يناير/ كانون الثاني 2000 وهو جالس سعيداً في بهو فندق "إنتركونتنتال" في بلغراد، المحصَّن أمنياً والذي يقصده كبار رجال الأعمال والدبلوماسيون وتستضيف الدولة فيه كبار زوارها، محاطاً ببعض محازبيه وزوجته الفنانة التي تزوجها في ذروة تلُّوث يديه بدماء الأبرياء وأقام لها حفلة زفاف أسطورية أنفق عليها من موارد عمليات النصب والإحتيال ونهْب المصارف وسرقة السيارات والخطف والإبتزاز، التي كان يقوم بها وبأوامر منه فقط، رجاله الذين ينتمون إلى تنظيمه الذي أسَّسه عام 1990 والذين إشتهروا بزيهم الأسود اللون وتدريبهم العدواني وقلوبهم الأكثر سواداً والتي لا تعرف الرحمة خصوصاً بالأبرياء. ويصعب على المرء كيف أن مثْل هذا الشخص بماضيه غير النظيف وسلوكه غير الأخلاقي وإستهتاره بالقيم العائلية وكيف أنه تزوج ثلاث مرات قبْل أن يتزوج للمرة الرابعة من الفنانة

الشعبية الشاهدة على سقوطه وهو إلى جانبها مضرجاً بدمائه... يصـــعب على المرء فَهْم هذا الموقف من جانب ألوف من مواطنيه الذين غفروا له كل هذا الماضـــي وتوجوه زعيماً وإنتخبوه نائباً في البرلمان معتبرين أنه من الرجال الخوارق مبهورين بالنمر الصغير الذي كان يطيب له أن يحمله بين يديه عندما يقابل الصحافيين الأجانب وبموكبه المصفَّح الذي كان يتجاوز الأخلاق والقواعد والتقاليد وحقوق المارة.

ربما لقي راجنا توفيتش حتفه نتيجة خلافات شخصية أو نسائية أو بسبب صراع داخل بعض النافذين داخل التنظيم الميليشـــياوي لأنه إســـتأثر بالمكاسب ولم ينالوا هم حصصهم بالقدْر الكافي، أو إن الرئيس اليوغسلافي سلوبودان ميلوشيفيتش أوعز بتصـــفيته لقطْع الطريق على محاكمته أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي وما يمكن أن يكشف عنه أمام هذه المحكمة. المهم في الأمر ليس أنه لقي حتفه برصاصة إخترقت الرأس الذي كان يخطط لأبشع أنواع الجرائم في حق أبرياء، فالقاتل يُقتل ولو بعد حين. المهم هو الأمثولة التي تفرزها مثل هذه الحادثة والتي خلاصتها أن صاحب القضية له صفات ومواصفات إن هي توافرت في شخصه يكون الحزن عليه شاملاً وبين صفوف شرائح عريضة من الناس في العالم في حال لقي حتفه بالتصفية أو تحت تأثير المرض. وهذا على سبيل المثال لا الحصر تشي غيفارا الذي إنتسب إلى فيديل كاسترو عن إقتناع وقاتل إلى جانبه بحماسة وإبتعد عنه بشـــرف وعاش كثوري نظيف اليد نقي القلب. وعندما أمكن إصطياده فإن بضعة ملايين من القلوب إرتجفت كما أن عيون الكثيرين وخارج كوبا أكثر من كوبا نفسها ذرفت دمعاً عليه. وإلى ذلك فإن إســـمه وجد له مكاناً في قائمة الظواهر التاريخية في القرن العشرين وتحوّلت صورته بلباس الرأس والشارب واللحية والإبتسامة الوقورة إلى رسوم على قمصان وقبعات. ونلاحظ أن تقليده متواصل حتى بين شبان في الولايات المتحدة والدول الغربية في حين أن محازبي "النمر" الصـــربي جيليكو توفيتش يحاولون التبرؤ منه وتعويد ذاكرتهم على أن تنســـاه. وبطبيعة الحال ليس السبب هو أن إسم غيفارا موسيقي وله وقعُه في النفس بينما إســـم جيليكو توفيتش ثقيل على اللسان وعلى النفس، وإنما لأن غيفارا ناضل بشرف من أجْل قضـــية بينما الثاني ينتمي إلى طبقة زعماء الميليشـــيات التي إزدهرت في لبنان ثم بدأت تتناســـل ويحدُث إستنساخ لها بوسيلة ما.

وتبقى مقارنة لا بد منها بين حالتيْن من حالات الميليشـــيا لتفســـير خطورة هذه الظاهرة. الحالة التي مورســـت فيها نزوة الزعامة الميليشـــياوية على مخيم صـــبرا وشـــاتيلا في قلب العاصـــمة اللبنانية بيروت، والحالة التي مارس فيها نزوته زعيم الميليشـــيات الصـــربية جيليكو توفيتش الذي قد يكون إختار إســـماً عربياً هو "أركان" كإســـم حركي له تأثُّراً منه بالحالة اللبنانية للعمل الميليشـــياوي، وفي الحالتيْن هنالك جوامع مشتركة ذات "فلسفة" شريرة، ومنها أن القتل وبأبشـــع الوســـائل كان يستهدف الآباء كي لا ينجبوا والأمهات كي لا يحمْلنَ والأولاد كي لا يكبروا ويتحولوا إلى مقاتلين تدفعهم الأحزان إلى الثأر من ظالمين لأنهم قضـــوا على مظلومين أبرياء والشبان الذين هم في عز الشـــباب كي لا يحملوا الســـلاح دفاعاً عن قضـــية عادلة. أما الحالة الجزائرية التي أظهرت وقائع مهرجانات التصـــفية التي حدثت على مدى خمس سنوات والتي إستخدم القائمون بها وسائل في غاية البشاعة فإنها كانت متأثرة كل التأثر بالحالتيْن اللبنانية والصـــربية مع فارق أنها كانت بهدف الإنتقام وليس إستئصال جذور السلالات.

ويبقى أن أكثر ما يثير الدهشة هو الأسلوب الذي تتم به معالجة الحالات الثلاث بعد أن تنشـــأ ظروف تحقيق تســـوية وهو تأهيل الميليشـــياويين بحيث يصـــبحون جزءاً من الشـــرعية. ومثْل هذه التجربة لا تزال تبدو مستغرَبة لأنها مثل محاولة ترويض الأسود في الســـيرك، إذ كيف يمكن إتقاء أنياب ومخالب هذه الأســـود إذا هي جاعت وإنشـــغل المســـؤولون عن إطعامها، أو أزعجها صراخ المتفرجين؟

يبقى أيضـــاً أمر آخر يثير بعض الدهشـــة وهو أن الحكومة اليوغسلافية سجلت موقفاً شديد اللهجة، وذلك قبْل أن تُطوى صـــفحة جيليكو توفيتش الذي أنشـــأ التنظيم الميليشـــياوي المعروف بإســـم "نمور أركان" والذي تبيَّن بعد تصـــفيته أنه وغيره من النمور اللبنانية والجزائرية والمصـــرية... يصـــبحون نموراً من ورق في ظل الشرعية، لكن شرط ألاّ تكون هذه الشرعية مثْل شرعية الرئيس اليوغسلافي سلوبودان ميلوشيفيتش الذي كان أكثر شـــراســـة من "أركان" وغيره بل وكان عملياً هو القابلة القانونية أو الطبيب المولّد لهذه الحالات الكثيرة التشوه. أما الموقف الرسمي الشديد اللهجة فكان لوزير إعلام هذه القابلة أو الطبيب المولّد

وكـان للإحتجـاج على زعيم المعـارضـــة فوك دراشـــكوفيتش وإتهامه بأنه بتقبيله يد وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت، خلال لقائهما في برلين الشهر الماضـي، أظهر أنه "يريد تنفيذ مؤامرة أميركية لتدمير جمهورية الصرب". وزيادة في تعظيم الإحتجاج قال الوزير: "كيف يجوز إقدام سياسي يوغسلافي على تقبيل اليد التي قتلت ألفي شـــخص" في إشـــارة إلى ضحايا الغارات الجوية لحلف شمال الأطلسي الصيف الماضـــي. أما أن يكون الرئيس اليوغســـلافي العنيد شخصـياً، وبرعايته لزعيم الميليشيات الصـربية الذي لقي حتفه، الســـبب في قتْل ألوف الأبرياء، فهذا من وجهة نظره مجد ليوغســلافيا التي كانت في نظرنا في عهد الماريشـــال تيتو وكأنما هي دولة من دول العالم العربي، ثم إنتهت متبعثرة على أيدي خلفائه. ولعلنا من أجْل ذلك إخترناها موضـــوعاً لمقالنا هذا مع الإعتذار للقارئ الكريم من ثقل الأســماء عليه... عدا إسـم "أركان" إبن العم اليوغســلافي لزعماء الميليشـيا العربية، أو شـــقيقهم المغترب في يوغســـلافيا والذين أفزعتْهم ولا بد، نهايته، حيث إن القاتل يُقتل ولو بعد حين... حتى إذا كان في أعلى البروج.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 يناير (ك2) 2000

* * *

كلينتون المتقاعد.. وهيلاري "الشيخة"

بعد أن تنتهي ولاية الرئيس بيل كلينتون في منزله، ولا ندري أين سـيكون هذا المنزل، لا بد سـيبدأ بكتابة مذكراته وعلى نحو ما فعله معظم الذين كانوا ذات ســـنوات في قمة السُـــلطة ثم إنتهى بهم المطاف بعد إنتهاء سنوات الحُكْم منزوين في منازلهم.

وقبل أن نتحدث إفتراضـــاً عما ســـتتضـــمنه هذه المذكرات من المهم توضـــيح تســـاؤلنا حول منزل كلينتون وأين سـيكون. ففي الأسـابيع الأخيرة من العام 1999 وبعدما إســـتقر أمر زوجة الرئيس (الســـيدة هيلاري) على خوض معركة إنتخابات مجلس الشـيوخ عن ولاية نيويورك إشـترت منزلاً يعود تاريخه إلى عهد الإسـتعمار الهولندي في "شـابا كوا" إحدى الضـواحي الراقية والمتميزة من المدينة وتبعد حوالى خمســـين كيلومتراً عن "مانهاتن" الحي الأعظم في وسط المدينة، ودفعت ثمناً لـه مبلغ مليون وســـبعمئة ألف دولار. وحيث أن سمعة هيلاري في المسألة العقارية وما سبق أن حققتْه من مكاســب في الماضـــي قبل أن تصـــبح السـيدة الأُولى، ليسـت طيبة، فإنها دفعت حوالى ثلث المبلغ من الجيب الخاص وحصـــلت على قرض من المصـرف بمبلغ مليون وسـتة وثلاثين ألف دولار لمدة ثلاثين سـنة. وهو تصـرُّف لا غُبار عليه حيث أن كل مواطن في الولايات المتحدة يقترض ليشـــتري منزلاً ويقترض ليشـــتري ســـيارة ويقترض ليؤثث منزلاً ويقترض... ويقترض ويقترض. كمـا أن غـالبيـة الأميركان يستدينون من خلال إستعمال بطاقة الإئتمان للإنفاق على المتطلبات المعيشـية، ومن أجْل ذلك فإن الولايات المتحدة تشـــتهر دون غيرها من دول العالم بأنها البلد المثقل بالديون الداخلية. وهذا النمط من الحياة لا يحظى به إلاّ مَن توافرت فيه شـروط خاصـة بمعنى أن تكون لديه بوليصـة تأمين على الحياة يمكن رهْنها وصـــاحب دخل ثابت أو صـــاحب وظيفة تدر عليه مرتباً سـنوياً يتناسـب مع ما يريد إسـتدانته، من دون أن يزعجه في شـــيء أنه ربما يعيش مدى الحياة مديناً وقد يورث الديون إلى أفراد عائلته بما فيها فاتورة الجنازة.

الغرض من هذا التوضـيح هو أن هيلاري كلينتون (إلاّ إذا هي خاضت المعركة بإسم عائلتها وليس عائلة زوجها الرئيس وبحيث يصـبح هيلاري رودام) لم تترك ثغرات كي لا يسـتغلها منافسـوها وخصـوصـاً بعدما تكاثر النقد لها ولزوجها عقْب أنباء أفادت أن أحد مناصـــري الحزب الديمقراطي من المقتدرين مالياً أراد تقديم المنزل هدية للســـيدة هيلاري التي لها أفضـــال على الحزب ونجاحاته المتواصلة.

خلال أيام يكون المنزل المؤلف من ثلاث طبقات (خمس غرف نوم وغرفة للرياضـــة وأربعة حمامات وصـــالونات وغرفة طعام ومكتب ومدفأتان وحمَّام سباحة وحديقة) مسكوناً من هيلاري المرشـحة إلاّ أنه لن يستمر – على الأرجح – منزل هيلاري "السيناتور" ذلك أنها إذا فازت فإنها سـتصـبح إحدى أهم النجوم الساطعة في مجلس الشيوخ وفي الكونغرس الذي يضم مجلســيْن (الشـــيوخ والنواب). ومثل هذا الإحتمال سـيفرض عليها أن تكون صـاحبة منزل كثير التميز، أو فلنقل "البيت الأبيض" الخاص بها. أما إذا كان الحظ لن يحالفها فإنها ستكتفي بالسكن في هذا المنزل أو تبيعه لتسكن حيث يطيب لها السكن، هذا مع الأخذ

في الإعتبار أن شراءها للمنزل كان إنسجاماً مع أحد شروط الترشح وهو السكن في نيويورك.

ومن الآن وحتى بدء الإنتخابات تسكن السيدة الأولى هيلاري المرشحة تاركة البيت الأبيض بكل الذكريات الأليمة لزوجها الرئيس الذي جاءت المفاوضات بين سوريا وإسرائيل تخفف عنه وطأة العيش وحيداً مع كلبه "بادي" الذي ذاع صيته ولقي الإهتمام من المصورين ومع "سوكس" قطة إبنته الوحيدة تشيلسي الطالبة في جامعة "ستانفورد" في ولاية كاليفورنيا والتي تسأل والدها عنها يومياً وتَطمئن إلى أنه لاعبها وسرَّح لها شعرها وأنها تأكل جيداً وتهرش بأظافرها السجاجيد والكنبات... وأسئلة بريئة أُخرى من فتاة في سن المراهقة مصدومة بأب خرج عن طوره ووقاره ليقيم ثلاثة أرباع علاقة مع فتاة سبق أن عملت كمتدربة في البيت الأبيض وراودها عن نفسها رئيس النظام العالمي الجديد، وفي مكتبه البيضاوي حدثت بعض التفاصيل الساخنة الناشئة عن المراودة. ويصعب التكهن بما ستنتهي إليه الحال بمعنى أن الرئيس كلينتون ينتظر بفارغ الصبر إنتهاء ولايته لكي ينضم إلى زوجته هيلاري في منزلها– إلاّ إذا كان منزلها وحدها– في الضاحية النيويوركية الراقية والذي هو الأول يحصلان عليه منذ حوالى سبعة عشر عاماً أي عندما إنتقلا عام 1983 من منزلهما المتواضع في ولاية "أركنسو" إلى قصر الحاكم في "ليتل روك" عاصمة الولاية، أم أنه وهو الشغوف بإختراق الأصول والروابط الزوجية والإقدام على خطوات تثير الدهشة والإستغراب، يُطلِّق "السناتور" هيلاري ويتزوج مرة ثانية إنسجاماً مع ما هو شائع في الولايات المتحدة ولأن البيت الأبيض خلا من سيدته الأولى، وعلى نحو ما سبق أن فعله الرئيس الثامن والعشرون (1913 – 1921) وودرو ولسون قبْل خمسة وثمانين عاماً الذي تزوج مرة ثانية وهو ما زال يمارس الرئاسة في البيت الأبيض وقبْل أن يلقى حتفه برصاصتيْن أطلقهما عليه رجل "يكره الحكومة" ربما لإنه جعل بلاده تدخل عسكرياً للمرة الأُولى خارج حدودها مع أنه كان كارهاً للحرب ويفضل السعي الدبلوماسي كحل للأزمات. إن كل الإحتمالات مفتوحة أمام كلينتون الرئيس الذي يعيش رئاسة كاملة وحياة أُسرية منقوصة وعلاقة زوجية وصالية معدومة. ولا ندري ما إذا كان الوضع الجديد بينه وبين "السناتور" المحتمل هيلاري هو تجربة إنفصال أم أنه إنفصال بالفعل يتم الإعلان (بموجب إتفاق بينهما) عنه عقْب إنتخابات الرئاسة بعد بضعة أشهر وكذلك بعد إنتهاء معركة هيلاري في نيويورك. وفي هذا الصدد قد تكون الخدمة التي طلبتْها هيلاري من زوجها الرئيس هي بقاء الوضع على حاله من دون مفاجآت مثيرة من جانبه والتردد على منزل نيويورك أسبوعياً ليس بهدف التزود بالدفء وإنما من أجْل ألا تخسر هيلاري شرائح من الناخبين المحافظين مبهورين بالطريقة التي تؤثث بها زوجة رئيسهم البيت الخاص وكيف أن والدتها مثّل كل الأمهات الصالحات والحنونات في الولايات المتحدة تساعد إبنتها في عملية التأثيث وكأنها عروس جديدة. وهؤلاء يفضلون الوئام الأسري على الإنفصال، كاملاً كان على نحو ما فعل الأمير تشارلز والأميرة ديانا، أو كان على طريقة بيل كلينتون وهيلاري رودام... هذا إلاّ إذا كان كلينتون لا يشترط في سياق تبادل المصالح إستئناف التزود بالدفء الذي توقفت عملية منحه بسبب تلك النزوة – السقطة مع مونيكا لوينسكي التي تعتزم هي الأُخرى الإنتقال إلى نيويورك للسكن في "جرينتش فيلدج" والعمل في مشروع خاص ببيع حقائب اليد ومستلزماتها عبْر شبكة الإنترنت، إضافة إلى العمل كمتحدثة بإسم شركة متخصصة في النظام الغذائي. وليس واضحاً ما إذا كانت مونيكا تتعمد ذلك لإزعاج هيلاري لأن إقامة الإثنتيْن في نيويورك ستبقى بمثابة تذكير بالجراح العاطفية للإثنتيْن، أم أنها تستبق إنتقال كلينتون المتقاعد. وفي بعض جوانبها تبدو القصة وبأبطالها الثلاثة مادة لأكثر كُتب المذكرات إثارة... وتبدو في بعض جوانبها أيضاً مثل المطاردة الأبدية بين "توم" و"جيري" بصرف النظر عمَن هو هنا "توم" ومَن هو"جيري".

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 30 يناير (ك2) 2000

* * *

تكريم إسرائيلي يثير التساؤلات

يحتار المرء في هذه المبالغة بالتكريم من جانب إسرائيل للعاهل الأردني الراحل الملك حسين والتي كان أحدثُها وليس آخرها على ما يجوز القول، الإعلان يوم الأربعاء 26 / 1 / 2000 في تل أبيب عن أن سُلطات البريد الإسرائيلية أصدرت طابعاً بريدياً

يحمل صـــورة العاهل الراحل مع تاريخ ولادته وتاريخ وفاته. وأن هذا الطابع لن يوزَّع قبل الخامس عشـر من هذا الشـــهر (فبراير) وأنه بهدف تخليد ذكرى الملك. وقبْل هذا الطابع التذكاري كانت إســـرائيل وبعد وفاة المللك حسين أصدرت ميدالية تحمل رسماً له كما أنها أطلقت إسمه على غابة جديدة.

في الوقت الذي جرى الإعلان عن إصـــدار الطابع البريدي أصدرت إسرائيل طابعاً بريدياً يحمل صورة أحد جواسيسها إيلي كوهين الذي إنخدع الحُكْم السوري في الستينات به وتعامل معه على أسـاس أنه رجل أعمال يحمل إســـم ســـليم ثابت وأنه أتى من أميركا الجنوبية لتنفيذ مشـاريع في سـوريا. وبلغ إنبهار الحُكْم السـوري زمنذاك به وثقة بعض أركان ذلك الحُكْم بصدق مشاعره حد فتْح الأبواب أمامه بما في ذلك باب الجولان، فضلاً عن باب الأسـرار التي كانت تتدفق على مسـامع هذا "الصـديق" خلال سـهرات الكيف التي يدعو إليها وتلك التي يُدعى إليها، وكان على الفور يواصـلها بواسـطة جهاز لاســلكي إلى "الموســاد" في تل أبيب. وعندما إنكشـف أمره كانت أسـرار كثيرة تسـربت. ولم يهدىء شـنْق هذا الجاســوس في "ســاحة المرجة" من روْع السوريين والعرب عموماً الذين صدمتْهم قدرة "الموساد" على إختراق أحد المفاصـــل البالغة الأهمية في الأمن العربي، ومن روْع الإســـرائيليين الذين فقدوا أحد أهم جواسيسهم الذي كان لمعلوماته التي يرسلها من دمشق دور في إحتلال مرتفعات الجولان التي هي الآن النقطة الدقيقة في عملية التفاوض المجمَّد بعد تعثُّر بين فاروق الشرع وإيهود باراك.

وهذه المصـــادفة في حد ذاتها، أي إصـــدار طابع بريدي يحمل صـورة الملك حسـين بعد إصـدار طابع بريدي يحمل صورة الجاسوس إيلي كوهين، تشكِّل إهانة للملك الراحل. ولا نتصور أن هنالك أردنياً واحداً بما في ذلك أبناء الأُسرة الهاشمية بدءاً من الملك عبدالله الثاني وإنتهاءاً بالحفيد الأمير حســـين والحفيدة الأميرة إيمان، ســـيشـــعر بالإمتنان لهذه الحفاوة البريدية من جانب إســـرائيل، على نحو إمتنانهم للبادرة البريطانية التي تمثلت بإقامة قداس عن روح الملك حسين في كاتدرائية "ويستمنستر" قبْل ثلاثة أشهر حضره معظم أركان الدولة وكبـار القوم في المملكـة المتحـدة. كمـا أن البـادرة الإسرائيلية البريدية لا تصدر عن حُسْن نية وهدفها غير البعيد المدى الظهور أمام العالم الخارجي بمظهر الدولة التي هي على إســتعداد لتخليد ذكرى أعدائها الســابقين في حين أنه لا تصـــدر من الجانب العربي مبادرات مماثلة. وزيادة في التوضيح يجوز الإفتراض أن إسرائيل تريـد متعمـدة إحراج الحُكْم الأردني ولن تتوانى عن مطالبته بإصـدار طوابع بريدية مماثلة وفي إعتقادها أن طابعاً بريدياً أردنياً يحمل على ســـبيل المثال صـــورة إســحق رابين من شـأنه أن يسـاهم في تحقيق التطبيع الذي لا يحدُث.

وثمة وسـائل كثيرة يمكن أن تزُدَّ بها إسـرائيل جمائل الملك حسـين عليها لا يندرج إصـدار الطابع التذكاري في قائمتها. في إسـتطاعتها على سـبيل المثال أن ترفع يدها عن الأماكن المقدسـة، وفي إسـتطاعتها أن تتوقف عن هذا التلاعب في موضـــوع التفاوض مع السُـــلطة الوطنية الفلسـطينية، وفي إسـتطاعتها أن تمارس بعض الإيجابية بحيث لا تبقى العملية الســـلمية على النحو الذي هي عليه تنتقل من تعثُّر إلى تعثُّر. في إستطاعتها أن تفعل هذه الأمور وغيرها كثير وتقول إنها بادرة من بوادر التكريم للحاكم العربي الوحيد الذي أعطاها من التفهم ما كان يأتي دائماً على حساب رصيده في العمل القومي. أما أن تُصـــدر طابع البريد التذكاري وتبتدع بعض الجمعيات والمؤســـســـات وتوعز إلى اللوبيات اليهوديـة في العـالم كي تتولى أمر رعـايتهـا والإنفـاق عليها وبحيث تبدو أن لا علاقة لإسرائيل بها... أما أن يحدُث ذلك فإن الأمر يدعو إلى الإســـتهجان. ولا تزال ماثلة في الأذهان خطورة التكريم الأُولى للملك حســـين بعد الوفاة والتي تمثلت بما سُمي "مؤسسـة مد الجسور في أُخدود وادي الأردن" وهي مؤســســـة غير حكومية تَقرّر فجأة بعد وفاة الملك حســـين أن تفتح مقراً لها في عمان, وكان لافتاً أن الإحتفال جرى بحضـــور الملك عبدالله الثاني والسـيدة هيلاري كلينتون وممثل الحكومة الإســـرائيلية شـــاي بن إلياهو. كذلك لا تزال ماثلة في الأذهان تلك الزيارة التي قام بها الملك حســـين وزوجته الملكة نور وأولادهما إلى "مركز سـيمون فيسـنتال" في لوس أنجلوس يوم الســـبـت 25 مـارس/ آذار 1995 وحصـــوله خلال الزيارة، التي شـــملت متحف المحرقة النازية المُقام في المركز، على جائزة السـلام والتي هي عبارة عن قرن كبش فضـــي "تقديراً للموقف التاريخي والبطولي الذي يتخذه جلالة الملك حسين".. هكذا كانت حيثيات تقديم الجائزة.

وفي كل هذه الخطوات والمبادرات تحاول إســـرائيل الحصـــول على إندفاع عربي عموماً وأردني ومصـــري خصـــوصـــاً في إتجاه التطبيع معها من دون أن تســأل

نفسها عن السر في هذا العزوف الشامل من جانب الرأي العام العربي عن التطبيع معها. وهي لو سألت وأكثرت من التساؤلات لإكتشفت أن التطبيع الذي تنشده لن يحدُث ما دامت تعتقد أن الحل هو في أن تُصدر طابعاً أحياناً لتخليد ذكرى حاكم عربي أو تنشىء خفية مركزاً لتشجيع حركة التبادل على جانبيْ الحدود على نحو "مؤسسة مد الجسور في أُخدود وادي الأردن" والتي هي أول مؤسسة مشتركة للتنمية الإقتصادية بين دولة عربية وإسرائيل. والحل الوحيد لتقليص هذا الحذر الشعبي العربي هو أن يقرر أهل الحُكْم في إسرائيل أن الحد الأقصى مما يمكن الحصول عليه قد بات في متناول اليد ونعني به القبول بدولة لليهود في المحيط العربي. دولة خدمات لا دولة متفوقة غارقة في أوهام الدولة العظمى أو الدولة الأكثر أهمية من الدول المحيطة بها. وعدا ذلك لن يكون هنالك تطبيع ولن تتكرر حالة الإندفاع الهاشمية التي إتسمت بها نظرة الملك حسين إلى الصراع العربي – الإسرائيلي. وفي تقديرنا إنه لو أمدَّ الله بعمر الحسين ورأى كيف أن الإسرئيلين الذين أعطاهم ما لم يحلموا به وفتح أبواباً كانت دائماً موصدة أمامهم، أفشلوا له رهانه على إمكانية التعايش العربي – الإسرائيلي لمجرد عقْد معاهدات سلام لكان إستدار عليهم ونفض يديه من المعاهدة التي أبرمها معهم. كذلك كان الرئيس أنور السادات ربما إستدار هو الآخر لولا أنه قضى في إحدى أجرأ عمليات الإغتيال السياسي. وتلك حقيقة قد يكون من المناسب الأخذ بها والتهيب أمامها. وأما التكريم من خلال طوابع البريد التذكارية فإنه إهانة متعمدة لحاكم عربي ما زال وهو في دنيا الآخرة ينتظر من الإسرائيليين إنصافاً لسمعته وذلك لأنه في نظر بني قومه كان متسرعاً في منحه الثقة من دون حدود للإسرائيليين. ويمكن للسمعة أن تُستعاد عندما تُطبّق إسرائيل وعن إقتناع القرارات الدولية التي من شأنها أن تكون المظلة الواقية لأبناء المنطقة... شعوباً وحكاماً.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 2 فبراير (شباط) 2000

* * *

نكهة عربية في معاقبة النمسا

لا تزال عالقة في الذاكرة تلك التداعيات التي نشأت عن ذلك الإجتهاد الصاعق للرئيس المصري الراحل أنور السادات قبْل 22 عاماً والمتمثل في زيارته الشهيرة إلى القدس التي ألقى خلالها خطاباً في الكنيست يدعو فيه إلى السلام العربي – الإسرائيلي. فبعد ذلك الإجتهاد كان إتفاق كامب ديفيد يحمل توقيع السادات ورئيس وزراء إسرائيل الراحل مناحم بيغن وراعي الإتفاق جيمي كارتر الرئيس الأميركي الأسبق والوحيد من بين الثلاثة الباقي على قيد الحياة.

من الطبيعي أن يشكِّل الفعل الساداتي المشار إليه صدمة قوية للرأي العام العربي لشعوره العفوي بأن القضية فقدت السند الكبير لها بهذا الإبتعاد المفاجئ لرئيس الدولة العربية الكبرى عن الأشقاء. كذلك من الطبيعي أن يشكِّل الفعل الساداتي صدمة أقوى للأنظمة العربية لأن الرئيس السادات باغت الملوك والرؤساء فلا هو شاور ولا هو طلب منهم التفهم والمؤازرة. وهم عندما سمعوه يلقي خطابه الشهير في مجلس الشعب ويعلن أنه على إستعداد للذهاب إلى آخر الدنيا من أجْل السلام، إعتبروا أن زميل الحُكْم يريد من عبارته تلك مجرد التأكيد على أنه راغب في السلام بعدما حارب وحقق له الجيش الإنتصار الذي يجيز له التحدث بمفردات السلام، ومن دون أن يخطر في بال معظمهم أن الرئيس السادات رسم سلفاً خطة التحرك وأن خطابه في البرلمان المصري كان جزءاً من سيناريو وليس تحية زعيم مسالم عبْر الأثير يبعث بها إلى أهل الحُكْم في إسرائيل لإستحالة مخاطبتهم مباشرة وينتظر الرد على التحية بمثلها. وإلى ذلك، كان هناك شعور عميق بالأسى يشبه الجرح الغائر في النفس أو في الجسد نتيجة هذا الإندفاع في إتجاه إسرائيل من جانب رئيس يملك بين يديه أول انتصار على إسرائيل ويبقى – أي الإنتصار – بالغ الأهمية على رغم إنقضاض الولايات المتحدة عليه لتحجيمه بعدما أذاق إسرائيل للمرة الأولى طعم هزيمة. وهذا الشعور العميق بالأسى كان بمثابة النظرة التي إلتقى حولها الحكام والمحكومون في الأمة وشاركهم فيه الرأي العام الصديق للعرب والمناصر لقضيتهم. وهذا الرأي العام الذي يتوزع على الدول الإسلامية غير العربية والدول الأفريقية ودول عدم الإنحياز إحتار مثل معظم الحكام في أمر الخطوة الساداتية، وكيف أن المنتصر هو الذي يطلب السلام من المهزوم.

وهنالك الإحراج الذي تسببت فيه الخطوة الساداتية للقادة العرب ولمعظم الدول التي سايرت العرب نتيجة

الإعتداءات الإسـرائيلية عليهم، فقاطعت منذ العام 1967 إسرائيل دبلوماسياً وإقتصادياً وشاركت في كل المؤتمرات التي يتم فيها إتخاذ التوصيات التي تدين إسرائيل. كما أن هذه الدول كانت في المحافل الدولية وفي الأمم المتحدة النصير الذي يُقوي من العزيمة العربية. ونقول إن الخطوة الساداتية تسبّبت بالإحراج لأن هذه الدول، والعربية منها على وجه التحديد، وجدت نفسها أمام خيارات صعبة. لا تستطيع أن تساند الرئيس السادات في ما فعله ليس فقط لأنه باغتها وأبرم صفقة مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وإنما لأنها لا تدري ما الذي ستفعله في ضوء ذلك، وكيف سيكون من السهل عليها إقناع عشرات الدول الصديقة بالبقاء ثابتة على العهد فلا تضعف أمام الطلبات المتلاحقة منها لإقامة علاقات مع إسرائيل وإعتبار أن خروج السادات على الإجماع لا يعني أن الموقف العربي لم يعد في موقع المتمكن من المواجهة. لكن الدبلوماسية الأميركية من جهة، والدبلوماسية الإسرائيلية من جهة أُخرى إضافة إلى الحملات الإعلامية والتسريبات الإخبارية، إخترقت صمود تلك الدول الصديقة وبدأت تبعاً لذلك التحولات في إتجاه التطبيع مع إسرائيل، وبحجة أنه ما دامت الدولة العربية الكبرى قد أبرمت إتفاق سلام مع إسرائيل فلماذا لا يكون التطبيع. وهذه الحجة وغيرها هي التي لاحظْنا تركيز دبلوماسية كامب ديفيد عليها والتي تطورت إلى أن بلغت مداها في مؤتمر مدريد للسلام الذي أفرز صفقتيْ التسوية الأردنية – الإسرائيلية والفلسطينية – الإسرائيلية اللتيْن لولاهما لما كان للتفاوض السوري – الإسرائيلي أن يبدأ ويتعثر ويجري السعي لمعاودة تحريكه.

ما فعله الحكام العرب إزاء الفعل الساداتي هو أنهم ردوا بغضب وتحت وطأة الإنفعال، وتمثَّل الرد بالقمة الإستثنائية التي عقدوها في بغداد وإنتهت إلى أنها قمة إنزال العقاب في حق مصر. وبدأ تنفيذ العقوبات لمجرد أن السادات رد على غضبهم بغضب مماثل وأيضاً تحت وطأة الإنفعال. وكانت العقوبات من النوع الذي لم يتصور المصريون ورئيسهم أن الأشقاء العرب بأشخاص حكامهم الذين إجتمعوا في قمة بغداد يمكن أن يصدر عنهم. فقد تَقرر في ضوء مداولات تلك القمة إسقاط عضوية مصر من الجامعة العربية، وتقرر نقل مقر الأمانة العامة للجامعة العربية من القاهرة إلى تونس. وعندما إستقال محمود رياض – يرحمه الله – من منصبه كأمين عام إختارت الدول العربية أميناً عاماً تونسياً هو الشاذلي القليبي. وبدأت المقاطعة العربية بنسِب متفاوتة تأخذ طريقها إلى التطبيق. ورافقت هذه الأجواء حملات وتلاسنات تتسم بحدة لا مثيل لها ووصلت في بعض المرات إلى حد الإسفاف والتجريح الشخصي والتطاول على الذات الرئاسية. ولولا أن الأجواء الناشئة عن الغزو العراقي للكويت وما تلا هذا الغزو من تطورات وتداعيات وحملات إعلامية صحافية وإذاعية وتلفزيونية جاءت حافلة بمفردات قاسية لكانت حملات أواخر السبعينات وبعض سنوات الثمانينات بين مصر وبعض الدول العربية قد بدت وكما لو أنها أكثر الحملات مدعاة للأسى والخجل. وقد تفننت وسائل إعلام كثيرة في تلك الحملات وإبتكر القيِّمون عليها مفردات من نوع لم نألفه.

ما نريد قوله من تلخيصنا لهذه الوقائع التي حدثت قبْل 22 عاماً هو أننا كعرب كنا السباقين في إعتماد أسلوب تفرضه الضرورة ويكون الخوف والتحدي والمباغتة هو السبب في إعتماده. وها هي بعض دول أوروبا الأكثر عراقة ومعها الولايات المتحدة وكندا تلجأ إلى الأسلوب العربي الملامح والمضمون نفسه فتقرر معاقبة النمسا لإصرارها على ممارسة حق السيادة في أن تتشكل حكومتها الجديدة من "حزب الشعب" التي لا تتحفظ تلك الدول ومعها إسرائيل عليه، و"حزب الحرية" اليميني المتشدد الذي نشأ التحفظ عليه في أعقاب إعتراض إسرائيل على فوزه وإحتمال أن يكون شريكاً في الحكومة. واللافت للإنتباه أن التحفظ الذي قاد إلى قرار فرْض العقوبات يأتي على رغم أن فوز الحزب اليميني جاء بعد إنتخابات نزيهة لا ضغوط وتدخلات فيها ولا تزوير لنتائجها. وجاء من حكومات لا تريد أن يتدخل الآخرون في شؤونها.

نحن كعرب لا يعنينا من النمسا سوى أن عاصمتها فيينا تحتضن إجتماعات "الأوبيك". ولقد إختارت الدول المنتجة والمصدِّرة للنفط العاصمة النمساوية دون غيرها كمقر يطيب لوزراء النفط عقْد إجتماعاتهم فيه على أساس أنها دولة محايدة ومحترمة ولا تريد لأحد أن يتدخل في شؤونها، ومستقرة إلى أبعد حدود الإستقرار.. إلى أن جاء "هايدر" (الذي نقلت لنا في البداية بعض الوكالات والفضائيات إسمه على أنه "حيدر" فظننا أن للرجل جذوراً عربية) ليخلط فوزه المفاجئ في الإنتخابات وعلى نحو فوز الشيخ عباس

مدني في الجزائر والسيد محمد خاتمي في إيران، الأوراق على الطاولة الدولية ويُعرِّض النمسا إلى خطر الإنقسام أو يبعث الروح في اليمين الأوروبي وبحيث نصحو ذات يوم على مجموعة مختارة من الهتلريين يضعون حداً للهيمنة الأميركية على أوروبا وللإبتزاز الإسرائيلي لدى أوروبا. ومن هنا خشية الولايات المتحدة إلى درجة مشاركتها في الحملة، وهلع إسرائيل التي إستدعت سفيرها، وتخوُّف الدول الأوروبية من تيار يعصف بحكوماتها.

ومع الفارق الكبير في الحالتيْن: حالة المقاطعة العربية لمصر ومحاولة عزْلها قبْل 22 عاماً والمقاطعة الأميركية – الأوروبية – الإسرائيلية للنمسا هذه الأيام، فإن ما يمكن قوله إن الغضب والإنفعال تقدَّما على المعالجة المتروية في الحالتيْن. ومثلما أن مصر بقيت على موقفها وأن المقاطعين عادوا إليها لمجرد أن إنتهى عهد السادات بإغتياله على منصة السادس من أكتوبر، فإن الذين قرروا مقاطعة النمسا لا بد سيعودون إليها لدوافع كثيرة، من بينها أن خطوتهم الناشئة عن التخوف من عودة النازية هي في بعض منطلقاتها هتلرية، فضلاً عن أن الخطوة لا تحظى بقبول الرأي العام في دول الحكومات التي قررت إتخاذ العقوبات والذي لا غنى لأفراده عن لحظات من السَكينة في جبال النمسا وسهولها وفي حدائق فيينا التي تنطق موسيقى كلاسيكية على مدار الساعة... وتبعث لياليها البهجة والأنس في النفوس.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 فبراير (شباط) 2000

* * *

معادلة غير مطروقة:
من معرض الرياض إلى الجنادرية

في الزمن الذي يعيش فيه العمل السياسي العربي حيرة وإرتباكاً لا مثيل لهما، عشنا في الرياض... رياض الملك عبد العزيز بضعة أيام تراثية وثقافية ورياضية وشبابية بدت في محصلتها النهائية وكأنها تغسل القلوب والعقول من هموم السياسة وكأنها هموم ناشئة عن الإندفاعات غير المدروسة وغير المتأنية نحو سراب السلام الأميركي للمنطقة العربية من جانب البعض وذلك لمجرد أن بدأت سوريا التفاوض مع إسرائيل وفي إعتقادها أن الرئيس كلينتون سيكون صادقاً وعاقلاً، وأن إسرائيل وبالذات إيهود باراك سيكون عاقلاً فلا يتلاعب بفرصة السلام حتى إذا كانت مجرد تسوية. وهذه الإندفاعات غير المدروسة وغير المتأنية هي من الإجتهادات التي يستعصي على العربي فهْمها أحياناً والقبول بها في معظم الأحيان.

ولولا أن العدوان الباراكي المتجدد على لبنان والتباهي من جانب مَن كان يترأس قبْل أسابيع قليلة وفد بلده في عملية التفاوض في "شيبردز تاون" أمام الوفد السوري الذي ترأسه وزير الخارجية فاروق الشرع، بأنه أعطى الأوامر بضرْب محطات الكهرباء في لبنان وأنه سيكون هنالك المزيد من العدوان... لولا هذا العدوان لكانت أيامنا التراثية الثقافية الشبابية في الرياض من الأيام المتميزة سمعْنا خلالها من بعض أهل القرار في المملكة العربية السعودية وكذلك من بعض الذين حولهم كلاماً في الثقافة والتراث والشباب والرياضة يبعث على الطمأنينة في النفوس وفحواه على نحو ما سمعناه من الرئيس العام لرعاية الشباب الأمير سلطان بن فهد بن عبد العزيز أن الثقافة وكل الروافد التي تصب فيها ستكون في الألفية الثالثة في مكان الصدارة. ولكن العدوان الإسرائيلي المتجدد جعل مجرى الحديث في حلقات الحوار والتشاكي وتبادُل الهموم التي نعيشها وأعادنا من جديد إلى الشأن السياسي وجعلَنا نحن بضع عشرات من الذين شاركوا في مهرجان الثقافة والتراث (الجنادرية) الخامس عشر نلتقي ومن دون أي تحفُّظ من هنا وآخر من هناك على أن الوضع بات في النقطة التي تستوجب خطوة عربية إستثنائية تقررها قمة عربية إستثنائية. ومثْل هذه القمة وفي هذه الظروف بالذات التي آلت إليها الأمة تبدو بمثابة إجراء مستعجل لتلافي ما يمكن تلافيه.

جاء مهرجان الثقافة والتراث الخامس عشر يعزز ويواكب "الرياض عاصمة الثقافة العربية للعام ألفين" وهي مناسبة إتسمت بلحظات حزن على الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز الذي أمضى بضعة أشهر قبْل رحيله المفاجئ – وعلى نحو ما أوضحه لنا الأستاذ محمد الشدي الذراع اليمنى للأمير الراحل في الشؤون الثقافية– يتابع ويناقش بإهتمام إستثنائي كل التفاصيل وكأنما أراد أن تكون المناسبة متميزة كل التميز وتليق بذكرى مئوية الإنجاز للجد عبد العزيز، وتكون بمثابة

الإنطلاقة لإزدهار ثقافي ينطلق من المملكة ويعوِّض بيروت المدينة التي أحب فيها رونقها وصمودها وإصرارها على الحياة، موسمها الثقافي الذي أضاعه عليها بنيامين نتنياهو عندما قصف محطات الكهرباء وهي تواصل قبْل بضعة أشهر الإحتفال بمناسبة إختيارها لتكون العاصمة الثقافية العربية للعام 1999. وما هذا التكريم من جانب وليّ العهد نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبدالله بن عبد العزيز للأمير الراحل وتسليم نجله الأمير نواف الذي بات نائب الرئيس العام لرعاية الشباب درع التكريم سوى لمسة تقدير من جانب القيادة السعودية لمَن ترجم بحيوية على مدى ثلاثة عقود رؤاها في ما يتعلق بالشباب والرياضة والثقافة، والذي حقق معادلة غير مطروحة وهي ربْط الثقافة بالرياضة والنشاط الشبابي وبالعكس. كما أن تنويه أمير الرياض سلمان بن عبد العزيز وهو يعلن بدء إنطلاق السنة الثقافية بدور الأمير فيصل في تبنيّ مشروع العاصمة الثقافية أمام وزراء الثقافة العرب عند إجتماعهم في إمارة الشارقة سوى لمسة تقدير مضافة إلى جهود ملحوظة بذلها الأمير الراحل. ومن خلال قراءة ما بين سطور الكلمة التي ألقاها الأمير سلمان معلناً بدء الإنطلاق يلمس المرء حِرص المملكة على أن تكون السَنة الثقافية ليست مجرد دورة وقع الإختيار على الرياض لكي تستضيفها وإنما هي نقلة نوعية تحدُث لمناسبة مئوية التوحيد وتنسجم مع رؤيته "بأن المملكة هي منطلق الثقافة العربية الإسلامية التي تعتز بأنها مهبط الوحي ومنطلق رسالة الإسلام ومثوى الرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم ووطن الحرميْن الشريفيْن...".

ما إستوقفنا في الإنعقاد الخامس عشر للمهرجان الوطني للثقافة والتراث الذي سهر على إنجاح أيامه الأمير متعب بن عبدالله بن عبد العزيز نائب رئيس اللجنة العليا المنظِّمة للمهرجان، إشارات وإيماءات تحتمل التفسير الرحِّب، ومن بينها قول وليّ العهد الأمير عبدالله الذي يرعى المهرجان للسنة الخامسة عشرة على التوالي ونيابة عن خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز، للمشاركين في "الجنادرية 15" والذين يمثلون القارات الخمس: "أنتم دعاة الخير والسلام". وبدا الأمير عبد الله في قوله هذا لا يُطلق صفة على المثقفين وحملة الأقلام عموماً وإنما يطالبهم بدور يقومون به وهو أن يكون المثقف داعياً إلى الخير وإلى السلام ما دام مجتمع الألفية الثالثة يُصاغ بحيث يكون مجتمع السلام على الأرض... هذا في حال صدقت النيات عند الذين مَن في أياديهم وعقولهم وإراداتهم إتخاذ القرار والتوقيع عليه والعمل من أجْل وضْعه موضع التنفيذ.

كذلك إن من بين الإشارات والإيماءات ما قاله "الجنادري المتميز" الشيخ عبد العزيز التويجري في كلمته المستندة في روحيتها إلى ما يدور في خاطر الأمير عبدالله من رؤى كثيراً ما يسمعها زواره وروّاد مجلسه وما يتولى في إستمرار إسماعها لأهل القرار خلال جولاته وزياراته الرسمية. وفي تلك الكلمة قال الشيخ عبد العزيز: "إنه لم يعد في عصر الإتصالات والإكتشافات العِلمية مكان للعزلة، وإن كل لغة لا تجادل مشكلات العالم اليوم وتعقيداته بالحكمة والموعظة الحسنة هي لغة شرسة، همسُها وصوتها صوت البندقية والجور على الضعيف وسلْب حقوقه المشروعة، وهذا ما لا يحتمله اليوم أمن العالم ورخاؤه...". أما واقعة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ومحكمته العادلة التي أقامها في المدينة المنورة مع أمير مصر عمرو بن العاص وإبنه فإنها كانت أكثر من إشارة. كانت أمثولة برسم مَن يحتاج إلى أن يراها كعِبرة. والذين يحتاجون إليها كثيرون. وخلاصة الواقعة أنه بلغ الخليفة عمر بن الخطاب أن إبن عمرو بن العاص ضرب وهو في سباق الخيل شاباً قبطياً على رأسه وقال له بعجرفة: خذها وانا إبن الأكرمين. وما كان من عمر بن الخطاب إلاَّ أن أحضر عمرو بن العاص وإبنه إلى المحاكمة في المدينة المنورة وأحضر أيضاً الشاب القبطي، وإنتهت المحاكمة وإستناداً إلى شهادة فئة من المسلمين، لمصلحة الشاب القبطي، فما كان من عمر بن الخطاب إلاَّ أن أخذ السوط وأعطاه للشاب القبطي قائلاً له: إضرب إبن الأكرمين على رأسه كما ضَرَبك، ثم حوِّلها إلى صلعة أبيه أمير مصر، لأنه ما ضرَبَك إلاّ بسلطانه، ولم ينصفك. ففعل الشاب القبطي. وعندها نظر أمير المؤمنين إلى أمير مصر عمرو بن العاص وقال له: "متى إستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً". لعل الشيخ عبد العزيز من خلال إستحضار هذه الواقعة في مناسبة "الجنادرية 15" والتي محورها الرئيسي"الإسلام والشرق" أراد تسجيل تفسير لـ " كنتم خير أمة أُخرجت للناس... "وهل إن "كنتم" هي بصيغة الماضي أيام كان ولاة أمور المسلمين يفعلون ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب أما

إنها بصيغة المستقبل. بمعنى أن المسلمين في ضوء ماضيهم التليد وحاضرهم الذي لا يَسرُ، سيصبحون مستقبلاً خير أمة... الخ.

يبقى أن المشارك المتابع المتأمل للأجواء الثقافية المتواصلة منذ بداية السنة (أي قبْل شهر ونصف) في الرياض يخرج بإنطباعات كثيرة إيجابية في معظمها عن هذا الملمح الثقافي والتراثي للعاصمة التي تتكاثر فيها الأبراج لدوافع يصعب فهْمها وذلك لأن هنالك مَن يصرون على أن يروا أجمل العواصم المسطحة (أي الرياض) أنها ضيقة بضيق مساحة أرض هونغ كونغ أو أرض نيويورك مع أنها رحبة وتتسع أرضها ليس فقط لعمارات وإنما لبناء مدن جديدة. وفي بعض جوانب الإفتراضات فإن المبالغة في بناء الأبراج هي مثل مغالاة بعض المؤسسات الصحافية في بعض دول الخليج في الإكثار من عدد الصفحات فقط بفعل الغيرة بمعنى أنه إذا أرادت صحيفة عدد صفحاتها 8 صفحات فإن الأُخرى تزيد 12 صفحة وهكذا إلى أن وصلت الحال إلى أن بعض الصحف يصدر بأكثر من ثلاثين صفحة.

ولعل أهم هذه الإنطباعات هو إضفاء الملامح الثقافية والفكرية والتراثية على مؤسسات لا يشكِّل ذلك هماً لها في الكثير من دول العالم بل في معظمها. فهذا الأمير عبدالله بن عبد العزيز يضيف إلى المهمة ذات الطابع العسكري للحرس الوطني أمر التعاطي في الثقافة والتراث وهذا ما قصده التويجري من خلال وصفه في كلمة إفتتاح "الجنادرية 15" الحرس الوطني بأنها "المؤسسة الحضارية الشامخة والصرح الثقافي الأصيل...". وهذا الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني وزير الدفاع والطيران يرعى إلى جانب إهتمامه في بناء جيش قوي مزود بأحدث السلاح عملاً موسوعياً الهدف منه توسيع المدارك وإثراء المعلومات. وهذا الأمير سلمان بن عبد العزيز عمل وبعقلية المثقف والمستنير والمتابع بدقة لما يحدُث في العالم، ومِن قبْل ذلك بسنوات وبالإضافة إلى إهتماماته كأمير للرياض، على إظهار الوجه الحضاري والمتطور للعاصمة وبحيث يُزال وبالملموس الإنطباع السائد عن الرياض بأن مواكبتها للتطور بطيئة. وأفاد معرض "الرياض بين الأمس واليوم" والذي بات إسمه معرض السعودية بدل الرياض فقط في تحقيق ما أراده الأمير سلمان من فكرته.

ومثْل هذا الإهتمام ومن جانب مَن هم في مواقع إتخاذ القرار هو بمثابة معادلة غير مطروقة وهي معادلة لمصلحة التوجه الثقافي بالرؤية المستقبلية لهذا التوجه في سنوات الألفية الثالثة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 فبراير (شباط) 2000

* * *

إنجازات... إنقلابية

كيف كانت العلاقة ستصطلح بين السودان ومصر لولا إنقلاب الرئيس عمر حسن البشير على الدكتور حسن الترابي، أو بتعبير أدق إنقلابه على صيغة تقاسُم المشاركة في موضوع الحُكْم؟

وكيف كانت فصائل المعارضة السودانية ستقرر المباشرة بالتخلي عن مقاومة النظام بالقوة بالنسبة إلى البعض، والبدء بترتيب رحلة العودة إلى الخرطوم بالنسبة إلى البعض الآخر لأن تجربة العمل ضد النظام من الدول المجاورة لم تكن مجدية؟

وكيف كان الرئيس عمر البشير سيوقِّع إتفاق مصالحة يوم الأربعاء 8 ديسمبر/كانون الأول 1999 في نيروبي مع الرئيس الأوغندي يوري موسيفيني وبحضور الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر الذي قام بدور الوسيط بينهما وصفَّق بحرارة لهما بعدما تصافحا على نحو تصفيقه في كامب ديفيد للإتفاق الذي أنجزه وإنتهى إلى مصافحة بين الرئيس أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن، ثم إلى سلام ما زال صامداً حتى الآن؟

وكيف كان سيتفق الرئيسان السوداني والإريتري على تطبيع العلاقات بينهما ويتوقف الرئيس أفورقي في مطار الخرطوم وهو في طريقه إلى نجامينا للمشاركة في قمة أفريقية ويستقبله الرئيس البشير يوم الخميس 3 فبراير الجاري بلهفة مَن يستقبل صديقاً عزيزاً أو حليفاً له دور في رد الأذى عن السودان، مع أن أفورقي كان حتى قبْل بضعة أسابيع السند الكبير للمعارضة السودانية وكانت إريتريا الملاذ لها وحدودها مفتوحة أمام أي معارض سوداني يريد القيام بعمليات عسكرية ضد القوات السودانية والإنسحاب بطمأنينة إلى الخطوط الخلفية في إريتريا، هذا فضلاً عن أن أفورقي ذهب بعيداً عندما سمح لنفسه بأن يقدِّم إلى المعارضين السودانيين مبنى سفارة بلادهم لتكون مقراً

لهم وهو حق لا يملكه وتصـــرُّف لا تجيز له اللياقات الدولية، حتى إذا بلغت الخلافات أشُدَّها، أن يقوم به.. ولكنه فعل؟

وقبْل ذلك كيف كان الرئيس عمر البشير سيتوقف في مطار إسـمرة أواخر يناير الماضـي لمدة سـاعتيْن وهو في طريق العودة من زيارة إلى صـــنعاء ويتبادل العناق مع صـــديقه اللدود أفورقي قبْل أن يتابع طريقه إلى الخرطوم؟

وكيف كـانـت العلاقـات السـوداني – الإريتريـة سـتتطور وتصـل الحال بالرئيس أفورقي إلى الإعلان أمام كبار المسؤولين السودانيين أصدقاء مرحلة نضاله الذين أحاطوا به عند توقفه في مطار الخرطوم بأنه والرئيس البشير في طريقهم لإنجاز عمل مشترَك كبير يصـب في مصـلحة الشـعبيْن، من دون الإفصـاح عن طبيعة هذا العمل المشـــترك بين إريتريا الذي ذهبت بعيداً في علاقتها مع إسرائيل والسودان الذي ما زال لم يتخذ أي خطوة على طريق الإقتراب من إســـرائيل أو التقرُّب منهـا على نحو مـا نتوقع وتنتظر الإدارة الأميركية؟

وكيف كان الموقف الأميركي المتشـــدد والذي بلغ ذروتـه بتوقيع الرئيس كلينتون يوم الإثنين 29 نوفمبر/ تشـــرين الثاني 1999 قانوناً يســـمح بإســـتخدام المسـاعدات الغذائية كسـلاح حرب ضـد السـودان... كيف أن هذا التشـدد بات يميل إلى نوع من الرضـــى يـأخـذ طريقـه خطوة خطوة وإلى درجـة أن الحـديـث الأميركي عن الدكتور جون قرنق ومخططاته لـ "تحرير السـودان" تضـاءل وتضـاءلت تبعاً لذلك الحماسـة الإعلامية المنقطعة النظير للرجل وأفكاره وإن كانت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت بدافع "الوفاء" للدكتور قرنق الذي خدم تمرده إســـتراتيجيتها تنفخ بين الحين والآخر في نار المســـألة المذهبية وكيف أن مدارس التبشـير الكاثوليكية في جنوب السـودان ما زالت على حد زعمها تتعرض لمضايقات؟

وكيف كانت المشـــاعر الكويتية ســـتتبدل وبحيث بات أهل الحُكْم الكويتي يغفرون ويتفهمون ويمضـــون قُدماً في تطبيع العلاقات مع أهل الحُكْم الســـوداني الذين إتخذوا في محنة غزو الكويت من قِبَل العراق موقفاً لا يختلف في دوافعه وتفاصـــيله عن موقف الرئيس ياســـر عرفات. وكيف كان التفهم من جانب أهل الحُكْم الكويتي سيصل إلى حد أن الرئيس البشير يقوم يوم الإثنين 14 فبراير الجاري بزيارة رســـمية إلى الكويت يتم فيها إنجاز تطبيع العلاقات التي كانت قُطعت في العام 1990 وإستمرت على هذه الحال إلى حين عودة العمل في الســـفارة في الكويت في مايو/ أيـار 1998 خلال زيـارة قـام بهـا وزير الخـارجيـة مصـطفى عثمان إسـماعيل، إنما من دون أن تُزال من القلوب المشـــاعر غير الودية نحو الحُكْم الســـوداني بصـيغته الثنائية البشـير – الترابي؟ كيف كانت زيارة البشـير إلى الكويت سـتتم ويعلن الرئيس الزائر خلالها "أن الزيارة هي إشـــهار لبداية إنطلاقة جديدة للتعاون الوثيق تحقيقاً لمصـلحة الشـعبيْن وتكريسـاً للمصـالح المشـــترَكة"... وربما تمهيداً لإعادة فتْح الباب الكويتي الموصـــود أمام الأيادي العامة الســـودانية التي كان وصـــل عددها عند قطع العلاقات إلى خمســـين ألفاً، ولإســـتئناف "صـــندوق الكويت للتنمية" تمويل بعض المشـــاريع في الســـودان على نحو مـا حدَث في الثمانينات؟

وكيف كان السـودان سـينال الرضـى السـعودي الكامل ويقوم الرئيس البشير يوم السبت الماضـي (19 فبراير/شـــباط الجاري) بالزيارة الرســـمية الأُولى إلى المملكة منذ غزو الكويت وهدفه منها توضـيح ما جرى وما يجري في السـودان وعلى أي شـاطىء سـتنتهي موجة التغيير المفاجىء، إذ أنه في ضوء ذلك تستأنف المملكة المساندة في إنهاض الجارة البحرية لها؟

وكيف كان المعارضـون سـيسـكتون أو يغضـون النظر ويكبحون جماح المشـاعر والألسـنة ويسـدُّون فوهات البنادق، وتصل الأمور إلى حد أن رفاق الأمس في المعارضـة باتوا يتراشقون التبريرات للمواقف المرنة التي إتخذها البعض في إتجاه مصـالحة النظام (موقف الصادق المهدي على سبيل المثال) والمواقف المتشددة التي تُواصل معارضتها اليائسة للنظام (موقف الدكتور قرنق وبعض الفصـائل الصـغيرة على سـبيل المثال). كذلك باتوا يُكثرون من تسـجيل الملاحظات القاسـية بعضـهم على البعض من خلال رسـائل متبادلة على نحو رسـالة الصـادق المهدي إلى قرنق التي قال فيها "إننا تحمَّلنا الكثير نتيجة خروجكم على الموقف العام وإن سِـجلّ الجيش الشـعبي الذي تترأسـونه في مجال حقوق الإنسـان عطَّل حملة المعارضـة على سُـجل إنتهاكات نظام الجبهة القومية لحقوق الإنســـان..." والرسالة الجوابية من قرنق إلى الصادق التي قال فيها "إن رسالتكم محيِّرة وتفتقر إلى الحقيقة كما أن سياسات حزب الأمة مسـؤولة عن الفشـل، وأن كثيرين حذَّرونا

عقْب خروجكم من السودان من أنكم جئتم إلى التجمع الوطني الديموقراطي كطابور خامس لمصلحة الجبهة الإسلامية القومية..."؟.

وكيف؟ وكيف؟ وكيف؟... كان سيحدُث ذلك لولا الإنقلاب البشيري على صيغة الحُكْم برأسيْن؟

لقد أتاحت العملية الإنقلابية الفريدة من نوعها للسودان أن يصحح علاقاته مع عدد من الدول الجارة والدول الشقيقة والدول البعيدة مثل كندا التي تكمن أهمية العلاقة معها في أن لها إستثمارات نفطية في السودان تتحفظ عليها الولايات المتحدة، بصرف النظر عن الطريقة التي تم إعتمادها في هذا التصحيح، وهل كانت إستدارة كاملة أو مجرد تنقيح على طريقة الـ "بروسترويكا" التي أرادها غورباتشوف فأودت به ثم بالنظام الشيوعي بعد ذلك. ولولا هذه العملية لما كان لهذا التحرك الذي يقوم به الرئيس البشير أن يتم ولما كانت الأبواب الموصدة من الباب المصري إلى الباب الكويتي وهما أكثر بابيْن موصديْن مروراً بأبواب أُخرى كثيرة، ستُفتح أمام الطارق السوداني. وعلى هذا الأساس فإن الرئيس البشير أراد أن يُعزز شأن السودان الذي وصلت به الحال إلى حد أنه شبه معزول وأنه داخلياً على شفير الإنقسام. ومن هنا فإن هذه التصحيحات التي لم تؤتِ ثماراً بعد بالشكل المأمول هي التي جعلت وضْع البشير يقوى في فترة قصيرة وهي التي جعلت الترابيين يفضلون عدم التصعيد راضين أو غير راضين لا يهم.

يبقى أنه في ضوء الذي إنتهت إليه الأحوال في السودان يجوز القول إن الإنقلاب الذي حدَث كان حركة تصحيح واضحة المعالم. وهو ما كان من الصعب قوله لولا التصحيحات المتواصلة التي يقوم بها الرئيس عمر البشير.

وبصرف النظر عما إذا كان الدكتور حسن الترابي (الذي شملت تداعيات الإنقلاب البشيري إنهاء احدى الأوراق المهمة في يده وهي ورقة "منظمة المؤتمر الشعبي الإسلامي" الذي تَقرر إغلاق مركزها في الخرطوم)، يوافق على هذه التصحيحات أو إن مفاهيمه العقائدية تحول دون ذلك. وبصرف النظر أيضاً عما إذا كانت العملية الإنقلابية حدثت ضمْن سيناريو متفاهم عليه بين الثنائي البشير – الترابي... بصرف النظر عن ذلك فإن الرئيس البشير نجح في جعْل التصحيحات تبدو بمثابة إنجازات إنقلابية. وهذه براعة منه تجعله يبدو وإلى حد كبير في السودان مثل الرئيس حافظ الأسد في سوريا.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 فبراير (شباط) 2000

* * *

قراءة هادئة في تحرُّك عاصف

بعدما قطع اللبنانيون الأمل في أن تتعاطى مصر في شؤونهم بصيغة المتعاطف وليس المتدخل، فاجأهم الرئيس حسني مبارك يوم 19 فبراير/ شباط 2000 بزيارة كادوا لا يصدِّقون أنها حدثت لولا أنهم شاهدوا على شاشات التلفزيون الرئيس مبارك ينزل سُلَّم الطائرة الرئاسية لجمهورية مصر العربية ويرون الرئيس إميل لحود وحوله أركان الدولة يستقبلون الضيف الكبير وينتقلان معاً إلى القصر الجمهوري في ضاحية بعبدا المطلة على العاصمة التي يتواصل فيها ليل نهار هدير المولدات الصغيرة منذ أن تسبَّب الإعتداء الإسرائيلي على محطات الكهرباء في إنقطاع الطاقة بالشكل العادي.

في باحة القصر أُجريت مراسم الإستقبال ربما لضرورات أمنية من باب الإحتياط وليس من باب أن حياة الرئيس المصري مهدَّدة في لبنان، وربما لكسْب الوقت لأن الرئيس مبارك جاء في زيارة عمل ولن يبقى أكثر من أربع ساعات.

ما جعل اللبنانيين يقطعون الأمل في أن تتعاطى مصر في شؤونهم أنهم منذ اللقاء التاريخي بين الرئيسيْن (الراحليْن) جمال عبد الناصر وفؤاد شهاب قبْل أربعين سنة لم يحدُث أن صدر عن مصر والمصريين ما يشير الإهتمام بلبنان. وفي إستمرار كان الزوار المصريون الرسميون قليلين وكان تبادُل الزيارات يقتصر على الفنانين والفنانات. المصريون منهم يأتون لإحياء حفلات في لبنان أو تصوير مشاهد من أفلام. واللبنانيون منهم يطرقون أبواب مصر من أجْل أن يحظوا بفرصة النجومية. وكان الرئيس الراحل أنور السادات في صدد التعاطي مع الشأن اللبناني وحاول عن طريق المبعوث الشخصي(الراحل) الدكتور حسن صبري الخولي أن يضع بصمة لمصر في مجريات الأحداث اللبنانية بعد إندلاع الحرب الأهلية عام 1975 ولكن محاولته تعثرت لأن المسلمين لم يرحبوا به بسبب الإستدارة الساداتية على الناصرية

وعبد الناصر وهم في معظمهم ناصريون. وبسبب هذا التعثر أطلق صيحته الشهيرة "إرفعوا أيديكم عن لبنان" لكنها كانت صرخة في واد. فالأيدي لم ترتفع وإستمرت الحرب، أو حروب الآخرين في لبنان وعليه بأدوات ميليشياوية لبنانية، ست عشرة سنة.

بعد إغتيال الرئيس السادات لم يهتم الرئيس مبارك بالشأن اللبناني وإنصرف إلى ترميم البيت الداخلي والسعي الحثيث لمعالجة العزلة المصرية الناشئة عن المقاطعة العربية لمصر، وهذا إستغرق الكثير منه. وبعدما إستقر حُكْمه بدأ سلسلة من الزيارات والجولات كانت في معظمها بهدف إنعاش الوضع الإقتصادي في مصر. وبطبيعة الحال لا مجال للإهتمام بالشأن اللبناني ما دام هذا هو الهدف. وإفترض اللبنانيون بعد إنجاز إتفاق الطائف وإنتهاء الحرب أن مصر ستعاود الإهتمام بالشأن اللبناني وأن الرئيس مبارك لا بد من أنه سيقوم بزيارة إلى لبنان حتى إذا لم تكن هنالك مشاركة لمصر في تحقيق الإتفاق الذي أنهى الحرب. لكنه لم يفعل وإستمر يزور الآخرين إلاّ أنه لا يزور لبنان. وكانت مثل هذه المقاطعة منه موضع إستغراب المصريين واللبنانيين على حد سواء. فهو زار كل الدول العربية بإستثناء موريتانيا ولبنان فلماذا هذا الموقف منه مع أن له على الصعيد الشخصي ذكريات حميمية عن لبنان ما قبْل الحرب. وبعدما بدأت ظاهرة التزاور الدورية بينه وبين الرئيس حافظ الأسد إفترض المصريون واللبنانيون على حد سواء أنه لا بد أن يقوم الرئيس مبارك بزيارة إلى لبنان في طريق ذهابه إلى دمشق مرة أو في طريق عودته من دمشق مرة. وعندما لم يفعل الرئيس مبارك ذلك إعتبر الكثيرون أن الرجل ولحكمة وتقدير دقيق للموقف من جانبه لا يريد أن يحدث بعض التشويش على سوريا وأنه يفضل ترْك أمر زيارة لبنان إلى وقت آخر مناسب.

قبْل تجديد ولاية الرئيس مبارك للمرة الرابعة توثقت العلاقة بينه وبين رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان زمنذاك (أي قبْل حوالى خمس سنوات). وإفترض المصريون واللبنانيون على حد سواء أن الوقت المناسب لزيارة الرئيس مبارك إلى لبنان قد حان وأن هذا الإهتمام الرسمي من جانب مصر وعلى أرفع المستويات بالحريري هو تمهيد للزيارة، خصوصاً أن مبارك بات يتعامل مع الحريري وحتى بعدما لم يعد رئيساً للحكومة على نحو معاملة الرئيس الفرنسي جاك شيراك للرجل. ووصل الإهتمام إلى حد أن رئيس وزراء مصر السابق (الجنزوري) إستقبل في المطار وفي لفتة تتجاوز بكثير قواعد البروتوكول (كما أنه لا سابقة لها في مصر) الحريري مع أنه لم يعد رئيساً للوزراء في لبنان. وبعد ذهاب الحريري إستمر المصريون واللبنانيون يُبدون الإستغراب لهذه المقاطعة من جانب الرئيس مبارك للبنان الذي لا يشمله في زيارته وجولاته الرسمية التي لا تنقطع. وتزايدت التفسيرات في هذا الشأن ومنها التفسير الأكثر أهمية وهو أن مصر لا تريد مزاحمة سوريا في لبنان وأنه خشية تفسير زيارة تتم على أنها نوع من المزاحمة فإن الرئيس مبارك لا يزور لبنان.

إستمرت الحال والتكهنات إلى أن جاءت الزيارة المفاجئة يوم السبت 19 فبراير 2000. فما الذي جعل الرئيس مبارك يقوم بالزيارة المؤجلة منذ أكثر من عشرين سنة؟

هل هو العدوان الإسرائيلي على محطات الكهرباء، ولماذا لم تتم الزيارة بعد العدوان السابق المماثل في أواخر عهد نتنياهو؟

وهل إن بدء التفاوض بين سوريا وإسرائيل شكّل حيثية لإتمام هذه الزيارة؟

وهل إن إستمرار الفتور في العلاقات المصرية – السورية على رغم المظاهر بأنها جيدة شكَّل حيثية أُخرى؟

وهل إن زيارة باراك إلى القاهرة بعد العدوان الأخير وعقْده المؤتمر الصحافي مع الرئيس مبارك وخروج رئيس وزراء إسرائيل على كل اللياقات التي تفرضها الزيارات الرسمية وقوله بالعبرية إنه سيحرق لبنان... هل إن هذه الزيارة وتلك العبارة جرحت مشاعر مبارك بعدما ترجموها له وأحدثت نزفاً في كبرياء الشعب المصري وإحباطاً لا مثيل له في معنويات اللبنانيين فقرر الرئيس مبارك أن يرد عليها بزيارة لبنان وإعلان الوقوف معه وتأييد حق المقاومة في مقاومة الإحتلال وهذا ما فعله؟

وهل إن الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد من جهة ووزير الخارجية المصرية عمرو موسى (وكلاهما من أصحاب المواقف التصادمية مع إسرائيل) أقنعا، وبالتحليل المستند إلى الوقائع الملموسة، الرئيس مبارك بأن المزاج العربي عموماً والمصري خصوصاً لم يعد يتحمل الموقف الأميركي – الإسرائيلي الذي يبالغ في الإستهانة بالكرامة العربية، وأن رد الفعل الأميركي

المؤيد للعدوان على محطات الكهرباء في لبنان هو ذروة الإستهانة وأن الرد على ذلك يكون بتحرك له طابع الصدمة التي من شأنها أن تنبّه الإدارة الأميركية وحكومة باراك إلى ما تفعلانه. وليس هناك ما من شأنه أن يُحدث الصدمة أكثر من زيارة يقوم بها الرئيس مبارك إلى لبنان ويعلن من هناك تأييداً واضحاً للبنان المقاومة ويسجل تعاطفاً واضحاً مع لبنان الرسمي، مع الأخذ في الإعتبار أن لبنان الرسمي بات يلتقي مع لبنان المقاوم في رؤية واحدة؟

وهل، وإستكمالاً للتساؤل السابق إن كلام الرئيس لحود يوم الجمعة 18 فبراير 2000 وقبل بضع ساعات من تبلُّغ الرئاسة اللبنانية الإشارة بأن الرئيس مبارك سيصل صباح السبت إلى بيروت وتحديداً تحذيره إسرائيل من أنه إذا هي أسقطت حصانة المواطنين اللبنانيين والمنشآت المدنية عبْر إسقاط "تفاهم نيسان" تكون قد أسقطت أيضاً حصانة مواطنيها ومنشآتها ومصالحها... هل إن كلام الرئيس لحود وإنذاره أيقظا في نفس الرئيس مبارك مخاوف ومشاعر من النوع الذي يصعب على غير الجنرالات تفسيرها وسبْر أغوارها، فقرر أن يقوم على وجه السرعة بالزيارة؟

إن هذه الإفتراضات التي أوردناها بصيغة تساؤلات قد تكون مجتمعة الدافع وراء هذه الزيارة، عِلْماً بأن إفتراضاً واحداً من هذه الإفتراضات يكفي لكي يقوم الرئيس مبارك بالزيارة، التي صادف أنها جاءت متزامنة مع زيارة غير رسمية تقوم بها هدى عبدالناصر كريمة الرئيس الراحل إلى لبنان وتلقى حفاوة رسمية وشعبية ملحوظة.

أما ما الذي حققتْه زيارة مبارك، فإن في طيات ردود الفعل الأميركية والإسرائيلية الجواب، كما أن إنتقال مكان إنعقاد الإجتماع العادي لوزراء الخارجية العرب من مقر الأمانة العامة في القاهرة إلى بيروت (بإقتراح بعيد النظر من الشيخ صباح الأحمد)، وهو إستثناء لم يسبق أن حدَث من قبْل، هو من ثمرات هذه الزيارة. وهكذا تكون الإستثناءات تلاحقت من إنذار الرئيس لحود وهو إستثنائي إلى زيارة الرئيس مبارك وهي إستثنائية إلى إجتماع وزراء الخارجية الذي نجحت التخريجة الذكية من جانب الشيخ صباح من جعْل الإجتماع إستثنائياً شكلاً وعادياً مضموناً. وهكذا فإنه إذا كان في الحركة العربية بركة فإن في التحرك العاصف الذي حاولْنا قراءة وقائعه بهدوء الكثير من الخير للأمة أو للعملية السلمية...إن شاء الله.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 27 فبراير (شباط) 2000

* * *

قراءة في جولة الأمير عبدالله

قبْل كل جولة يقوم بها وليّ العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز وخلالها وفي ختامها وحتى وهو في أجواء الدول التي يزورها، يسجل مواقف مبدئية في عبارات من نوع "ما قلَّ ودلَّ". والذين يتابعون جولات الأمير عبدالله وزياراته إلى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا والصين واليابان وإيران والمغرب والجزائر لا بد يتذكرون بعض العبارات وأسلوب طرْحها من جانب وليّ العهد تعطيان إنطباعاً بأنه يريد في الدرجة الأُولى إحداث صدمة لدى الذين يخاطبهم من شأنها أن تحذرهم أحياناً او أن تنبههم وفي معظم الأحيان في إطار النصيحة.

ونتذكر واقعة حدثت خلال زيارة رسمية قام بها الأمير عبدالله إلى بريطانيا يوم كانت السيدة مارغريت تاتشر هي رئيسة الحكومة و "السيدة الحديدية" التي لا تحبذ من منطلق الغرور، أن تسمع نقداً أو نصيحة أو تنبيهاً أو تحذيراً من أحد. وخلال لقاء بين وليّ العهد والرئيسة تاتشر وعلى مرأى وسمْع العشرات من كبار المسؤولين قال الأمير عبدالله لـ تاتشر ما معناه إن أجدادكم يتحملون مسؤولية ما أصاب الفلسطينيين وإن من مسؤولياتكم كأحفاد أن تصححوا هذا الخطأ التاريخي. وكان الأمير عبدالله يقصد بالأجداد اللورد بلفور صاحب الوعد الشهير بإعطاء اليهود "الوطن القومي" في فلسطين، وهو الوطن الذي تحوّل خلال أشهر إلى كيان إسمه "إسرائيل"، ثم بات خلال عقدين دولة قوية ترعاها وتساعدها بالمال والسلاح دول الغرب. ثم صارت الدولة القوية بؤرة للعدوان على العرب والإستفراد بهم دولة بعد دولة وإحتلال أراضٍ في هذه الدول. ثم تطورت الدولة القوية فباتت الأقوى معتمدة على أحدث أنواع السلاح الهجومي الأكثر تقدماً يأتيها من الولايات المتحدة وعلى المساعدات المالية تصب في خزانتها وبحيث لا تشعر بالإستنزاف المالي وبذلك تواصل الإعتداءات، وهو ما فعلتْه وإلى

درجة أن الحال وصـــلت بها إلى حد إجتياح القوات الإسـرائيلية للبنان ووصـولها إلى العاصـمة بيروت ثم إقامة شـــريط في منطقة الجنوب بات ســـكان القرى الواقعة داخل الشـــريط في الجانب القريب من الحدود تحت رحمة أبشع أنواع الإحتلالات في التاريخ.

عندما واجه الأمير عبدالله رئيســـة وزراء بريطانيا بهذه العبارة المختصـرة التي صـدمتْها وتحملتْها على مضـض لم يكن أحد من الحكام العرب فعل ذلك بمَن فيهم الذين تربطهم أوثق العلاقات ببريطانيا. كما أنه في ذلك الزمن كانت العداوة العربية لإســـرائيل ولمَن يسـاعدونها في شـكل أو آخر (بريطانيا من بين الذين يساعدون) في أوجها. ولم يكن هنالك مؤتمر مدريد ولا إتفاق أوســـلو ولا إتفاقية وادي عربة. كان هنالك فقط إتفاقية كامب ديفيد المرفوضـــة من كل الدول العربية والمرحَّب بها كل الترحيب من جانب دول الغرب وأولها الولايات المتحدة تليها بريطانيا. ومن أجْل ذلك فإن عبارة من نوع العبارة التي أشـــرنا إليها كفيلة بإحداث صـــدمة في نفوس مَن تقال لهم وكذلك في نفوس سـامعيها. كما أنها في إطار زيارة رسـمية من شـأنها أن تتسـبب في إحراج الدولة المضـيفة. لكن الأمير عبدالله قالها بالعفوية التي تتسم بها تصـريحاته وتركها تتفاعل داخل أهل الحُكْم البريطاني. وفي ما تبقَّى من سنوات تاتشر في الحُكْم حدثت بعض اللفتات الإيجابية الخجولة من جانب الحكومة البريطانية نحو القضـية الفلسـطينية. ومن المؤكد أن أحد دوافع هذه اللفتات كان عبارة الأمير عبدالله التي أشـــعرت أهل الحُكْم البريطاني من جيل الأحفاد بالذنب الذي يصـل إلى درجـة الإثم الـذي إقترفـه الأجـداد وكـان بـدايـة "المحرقة الإسـرائيلية" للشـعب الفلسـطيني في الدرجة الأُولى ثم إلى شـعوب مصـر وسـوريا والأردن ولبنان التي نـالهـا من جراء الإعتـداءات والإحتلالات الإسرائيلية الكثير.

في أي حال إن عبارة الأمير عبدالله ليست الوحيدة الصادمة للعين الأجنبية المصابة بـ "العمى الصهيوني" إذا جاز القول وإلى درجة أنها لم تعد قادرة على رؤية الحقيقة، ولكنها واحدة من عشرات. ونحن نثِّت العبارة على سـبيل المثال لا الحصـر لمناسـبة الحديث عن الجولـة المثلثـة لوليّ العهـد السـعودي، الأولى من نوعها، التي بدأت يوم الإثنين الماضـــي بزيارة القاهرة إنتقل بعدها إلى دمشـــق ثم إلى بيروت. وفي الجولة المثلثة يســـجل الأمير عبدالله بدل العبارة الواحدة عدة عبـارات وكلهـا من النوع الـذي يتوق المواطن العربي إلى سـماعه وبالذات من المملكة العربية السـعودية. ولعل أكثر ثلاث عبارات تسـتوقف الرأي العام العربي من المحيط إلى الخليج هي الآتية:

الأُولى التي تؤكد على أن المقاومة في لبنان ليست "إرهاباً" على نحو ما صـــنَّفها ظالماً ومتجنياً ليونيل جوسـبان رئيس وزراء الدولة الصـديقة للعرب (فرنسـا) من دون إسـتثناء. وفي هذا الصـدد يقول وليّ العهد السـعودي " إننا أصـحاب حق شـرعي تاريخي لا لُبس فيه وإن تطاولَ عليه مَن تطاولَ. حقنا جليّ وواضح لا يملك التنازل عنه كائن مَن كان، ومقاومتنا للعدوان والجوْر والإحتلال حق مشـروع كفلتْه شـرائع السـماء وكرَّسـته قوانين الأرض...". ولا نظن في ضـوء هذه الرؤية السـعودية أنه سـيكون لبقية الأشـقاء العرب وبالذات يبالغون في سرعة إنجذابهم نحو سراب السلام كما تريد إســـرائيل وتباركه ضـــمناً الإدارة الأميركية، موقف دون هذا الموقف إزاء المقاومة. ومعنى ذلك أن مؤتمر وزراء الخارجية العرب، كونه سينعقد في بيروت وكون المملكة حددت وبلسان وليّ العهد الأمير عبدالله رؤيتها، سـيتخذ توصـية دون هذه التوصـية. وبذلك تكون المقاومـة حـازت على إجمـاع عربي في النظرة إليها كان قبْل كلام الأمير عبدالله منقوصاً إلى حد ما، أو إنه كان خجولاً وتنقصه العاطفة والصراحة.

والعبارة الثانية تؤكد على التمسـك بالسـلام والتي ينوب في قولها عن كل الأقطار العربية وتمثلت في قوله:" إنما أمتنا تجنح للسـلم وتصـبو إليه. ولكن ليس لأي سـلام وإنما للسـلام العادل المنصـف الذي يعيد لكل ذي حق حقه ويكفل الأمن والإســـتقرار لكل مَن يعيش في هـذه المنطقـة...". وفي رأْينـا أن الأمير عبدالله صـاغ التوصـية التي لن يجادل في شـأنها أحد من وزراء الخارجية عندما سيجتمعون بعد بضـعة أيام في بيروت.

وتبقى العبارة الثالثة التي هي بمثابة نداء إلى كل مواطن عربي بأن لا ييأس. وهي عبارة تأتي في وقتها بسبب حالة الإحباط التي تستشري في جسد الأمة. وفي هذه العبارة يقول الأمير عبدالله:" برغم ما تشـهده أمتنا العربية وتقاسـيه من عدوان وجوْر وإسـتفزاز يهز كل مقدرة على الصـــبر والإحتمال، برغم ذلك كله سـتظل شـمعة الأمل والتفاؤل حية ومتقدة ولن تطفئها أعاصير التشاؤم والإستفزاز...".

أما ماذا بعد في ضوء ذلك؟

لعل الجواب هو في الدافع إلى هذه الجولة. وبين سطور كلام الأمير عبدالله بعد محادثاته مع الرئيس حسني مبارك ثم مع الرئيس حافظ الأسد وقبْل أن يزور لبنان متفقداً ومبلسماً ومقدّراً صبْر هذا البلد وتحمُّله ومباركاً المقاومة والشجاعة من جانب بعض أبنائه، ما يوضح أن هذه الجولة هي من أجْل تبادل الرأي والمشورة بهدف لمَ الشمل وتوحيد الصف. وهو ما تم التفاهم في شأنه في جلسة مجلس الوزراء السعودي التي سبقت الجولة المثلثة بساعات وجرى خلالها البحث في الوسائل والأساليب والآليات المناسِبة نحو توحيد الجهود وتعزيز التضامن.

هل نحن بعد الجولة على موعد مع مفاجآت عربية سارة على طريق تحقيق التضامن ما دام الملك فهد بن عبد العزيز في جلسة مجلس الوزراء المشار إليها أطلق إشارة البدء وحدد الأسلوب المناسب والآلية الفاعلة؟ عسى ولعل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 3 مارس (آذار) 2000

* * *

جوسبان أكل الحصرم فمَن سيضرس؟

ما الذي يجعل شخصية سياسية فرنسية مرموقة في بلدها مثل ليونيل جوسبان كاد يصل إلى منصب رئيس الجمهورية، وبعدما أخفق في ذلك بات رئيساً للحكومة، ينتهز فرصة زيارة يقوم بها إلى إسرائيل ثم إلى أراضي السُلطة الوطنية الفلسطينية فيدلي وهو في الأُولى بتصريحات يعتبر فيها المقاومة الإسلامية في لبنان إرهاباً ويشدد على أن أيّاً من كبار المسؤولين في فرنسا لم تستخدم يوماً عبارة "المقاومة اللبنانية" في حديثه عن "حزب الله"؟

وما الذي جعله يفعل ذلك في وقت هنالك سعي أميركي لتحقيق تسوية سورية – إسرائيلية، على رغم أن هذا السعي تعثَّر أحياناً ثم تدب الحركة في أوصاله بعدما يتهيأ لنا أنه متعثر إلى الأبد؟

إذا كان الرجل فعل ذلك عن إقتناع فهذا معناه أننا في حال وصوله إلى سدة الرئاسة سنكون على مسافة قريبة من تغيير في الموقف الفرنسي بحيث لن يستمر كما إعتدنا عليه وستتحول فرنسا إلى دولة ذات نظرة إلى الصراع العربي– الإسرائيلي والمسألة الفلسطينية مثل نظرة بريطانيا وبحيث إنه إذا كانت بريطانيا على يمين النظرة الأميركية فإن فرنسا تكون على يسارها.

وإذا كان الرجل فعل ذلك بهدف التودد من الولايات المتحدة فإنه يكون تصرّف تماماً على نحو بعض الأنظمة العربية التي سارعت إلى مد اليد إلى إسرائيل تصافحها وتتبادل معها التطبيع الرسمي إما بصيغة التمثيل الدبلوماسي وإما بصيغة البعثة التجارية. والأمران في النهاية واحد. وهذه الأنظمة فعلت ما فعلتْه على أساس أن ذلك يلقى الترحيب من جانب الإدارة الأميركية فتساعد هذه الإدارة بدورها هؤلاء.

وإذا كان الرجل فعل ما فعله نتيجة خطأ في التقدير فهذا معناه أن جوسبان لن يستمر في قيادة الحزب الإشتراكي في فرنسا لأن معنى إستمراره أن يصيب الحزب ما سبق أن أصاب الحزب الشيوعي الذي نخرتْه المواقف غير المحسوبة وبالذات من زعيمه الرجل القوي جورج مارشيه، فبدأ يتآكل وتنصرف عنه النخبة الفرنسية.

أي الإفتراض أقرب إلى الصواب من الإفتراضات الثلاثة التي أوردناها؟

الجواب عن ذلك هو أن التصريح الذي أدلى به جوسبان وأثار العاصفة المستمرة ضده جاء نتيجة مزيج من الإفتراضات الثلاثة، أي بما معناه إن الرجل مقتنع بالذي قاله لأنه كإشتراكي يجد نفسه منحازاً إلى إسرائيل وبالذات إذا كان حزب العمل هو الذي يحكم، وليس في تاريخ الحزب الإشتراكي الفرنسي ما يشير إلى أن هذا الإنحياز ليس واقعاً ملموساً. وعندما وصل فرنسوا ميتران إلى الحُكْم إفترضْنا أن وصوله سيكون فرصة تاريخية أمامه لكي يتخذ موقفاً عادلاً من الصراع العربي – الإسرائيلي يكون متقدماً على الموقف التاريخي للجنرال ديغول والذي جاء في سياق معادلة تقبَّلها الرأي العام الفرنسي برحابة صدر وخلاصتها أن فرنسا ضد المعتدي وإلى حد ما إلى جانب المعتدى عليه. وهو في هذه المعادلة أراد أن يزيل وبالتدرج عن الجبين الفرنسي الوصمة التي نشأت عن مشاركة فرنسا عام 1956 في العدوان الثلاثي على مصر فضلاً عن الوصمة الناشئة عن إستعمار الجزائر وما رافق سنوات الإستعمار من همجية جعلت كل عربي ينظر إلى فرنسا على أنها عدوة. وإلى ذلك، إفترضْنا أن ميتران ربما يراعي الأنظمة الإشتراكية العربية خصوصاً أنها (وبالذات مصر وسوريا) هي المعنية في الدرجة الأُولى بالصراع

العربي – الإسرائيلي والأكثر تضرراً من الإعتداءات الإسرائيلية. لكن الذي فعله ميتران هو أنه أخذ – إقتباساً– من الجنرال ديغول أُبهته وعَظَمته وقرر أن يكون ديغول الآخر إنما من خلال تحقيق مصالحة عربية – إسرائيلية، ووجد في صفقة كامب ديفيد التي أبرمها الرئيس (الراحل) أنور السادات في إسرائيل بتشجيع الولايات المتحدة ورعاية رئيسها جيمي كارتر سنداً لفكرة المصالحة التي يريد تحقيقها. ومِن هنا جاءت صداقته للسادات التي توثقت كما لم تتوثق صداقة بين رئيسيْن ربما لأن كلاً منهما يتطلع إلى حلم واحد (السادات لكي يكون عبد الناصر آخر وميتران لكي يكون ديغول آخر). وعندما لاحظَت إسرائيل أن ميتران يريد أن يكون متوازناً في النظرة إلى موضوع الصراع العربي – الإسرئيلي وذلك في سبيل تحقيق حلمه الذي يتطلع إليه، فإنها حرّكت عليه اللوبي اليهودي في فرنسا الذي أربك مساعيه بحيث إن الأمر إنتهى إلى أن ميتران بات عقله إقتناعاً مع الرؤية العربية للصراع وباتت مواقفه إضطراراً تتفهم الرؤية الإسرائيلية، وبذلك لم تعد فرنسا رقماً في مساعي التسوية وخطفت الولايات المتحدة منها أي أمكانية لممارسة دور.

ويبدو أن جوسبان إستوعب تماماً هذه الحقيقة فقرر وهو الذي يتطلع إلى أن يكون رئيس فرنسا بعد سنتيْن خلفاً للرئيس شيراك الذي سبق أن خطف النصر منه، أن يستعيض عن الدور التاريخي بدور آخر تكون فيه فرنسا التي يتطلع إلى ترؤسها في العام 2003 جرماً يدور في الفلك الأميركي. ولأن الإدارة الأميركية تستسيغ مثل هذا الخضوع الفرنسي لها فإنها ترحِّب خير ترحيب به، وتعتبر أن التصريح الذي أدلى به جوسبان وأثار حفيظة الرأي العام العربي يصب في إستراتيجيتها ما دام لا يلتقي مع رؤية الرئيس شيراك.

ومن المؤكد أن الفرنسيين سيتأملون بعمق في هذا التناقض وكيف أن رئيس حكومتهم منسجم مع رئيس الولايات المتحدة ومع الإستراتيجية الأميركية أكثر من إنسجامه مع رئيس فرنسا والإستراتيجية الفرنسية. والمسألة ليست طبيعية على الإطلاق ولا تدْخل ضِمن مقتضيات اللعبة الديمقراطية ذلك أن الأمر ليس خلافاً بين شيراك (الرئيس) وجوسبان (رئيس الحكومة) على التفاصيل وإنما هو خلاف على الجوهر.

وثمة بعض العوامل الأُخرى في الموقف المستغرَب والمستهجَن وهو أن الرجل بعيد وشبه مبعد عن التعاطي في الأمور العربية وذلك لأن كل ملفات العلاقة مع العرب يستحوذ عليها شيراك، فضلاً عن أن الرئيس الفرنسي يستأثر بورقة بالغة الأهمية هي ورقة علاقته وصداقته لرئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري الذي من خلاله يستطيع أن يفهم خصوصية النظرة والتفكير لدى عرب الخليج والمشرق عموماً، ومِن هنا فإن دور الحريري يتجاوز بكثير المساندة المالية للمفاتيح الشيراكية ويصل إلى حد إبداء الرأي والنصيحة المخلصة والتنبيه كي لا تعترض الرئيس شيراك في تعاطيه مع الدول العربية عقبات أو تنتج عن تحركاته إشكالات من النوع الذي وقع فيه جوسبان عن سابق تصميم أو نتيجة إرتباكات لا يهم، والذي لم يقع فيه شيراك من اليوم الأول للترؤس وبالتالي لن يقع فيه.

وفي غياب هذا التعاطي والإهتمام بالأمور العربية إصطادت إسرائيل جوسبان أو أن الرجل هو الذي إختار موقفاً قد يعود عليه بوابل الشرور إذا إعتبر الفرنسيون أن مصلحتهم هي في علاقة أكثر من جيدة مع العرب خصوصاً بعدما بات هؤلاء (أي العرب) في معظمهم يريدون للتسوية السلمية أن تنجح. اما إذا رأى الرأي العام الفرنسي أن جوسبان سجَّل وجهة نظر وأنه ما دام مقتنعاً بها فإن رد الفعل يجب الاّ يتجاوز في إطار المناقشة الرحبة والتظاهرات غير الخشنة وعدم رجم الرجل على نحو ما حدث له في "بيرزيت" فإن الرجل يكون أصيب بنكسة وليس بهزيمة، وبذلك يحقق جوسبان مأربه ونفقد فرنسا التي يبذل الرئيس شيراك جهداً شاقاً لتكون مساندة بقوة للعرب في الحد الأقصى وقريبة منهم في الحد الأدنى أو بين الحديْن، أي محايدة على نحو ما سمعْنا الرئيس شيراك يركِّز عليه في معرض طمأنة العرب من أن التصريح الذي أدلى به جوسبان كان مزعجاً لهم إلاّ أنه كان بمثابة تطبيق للمَثل الشعبي الذي يصبح بصيغته المعدّلة "جوسبان أكل الحصرم فمَن سيضرس في فرنسا"، بدلاً من "الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون". بل إن التصريح كان ورطة لفرنسا ستحاول الخروج منها بأقل خدوش ممكنة وهذا لن يحدُث من دون تفهُّمها وتقديرهم لتعقيدات لعبة الصراع الداخلي في فرنسا والتي هي في بعض جوانبها بتعقيدات الصراع العربي – الإسرائيلي. ولكل عقدة حل... أو حلول.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 10 مارس (آذار) 2000

* * *

ربيع حسنين... الإعلامي – السياسي

فقدت الحيوية السودانية في مجال العمل السياسي والإعلامي قبْل أيام ربيع حسنين الذي عرفناه في لندن كواحد من الحواريين في مجلس الزعيم السوداني المعارض الشريف حسين الهندي الذي كانت العاصمة البريطانية خرطومه البديلة شأنه في ذلك شأن معظم رجال السياسة السودانيين. ونتذكر في إستمرار أي جهود شاقة بذلها الشريف حسين الهندي من أجْل أن يتوج سنوات معارضته في الخارج بعودة المنتصر إلى الخرطوم يمارس فيها دوره كواحد من الأقوياء في الحُكْم. وذلك على أساس أن النظام سيسقط وسيكون المجال تبعاً لذلك متاحاً أمام الزعماء المعارضين لكي يقطفوا ثمار معارضتهم. كذلك تحْضرنا في إستمرار القدرة الهائلة لـ ربيع حسنين وهو يناقش في المجلس اللندني للشريف حسين الهندي ويثري النقاش بإقتراحات وأفكار كان من شأنها أن تفيد رموز المعارضة لو أنهم أخذوا بها.

كان ربيع حسنين من ذلك النوع من الإعلاميين الذين يتألقون وتتجدد شحنات إبتكار الأفكار الجذابة عندهم إذا كانوا بجوار رجال العمل السياسي العام الذين تتوافر فيهم صفات قيادية. ولقد وجد في شخص الشريف حسين الهندي هذه الصفات ورأى فيه أنه مشروع زعامة جديدة للسودان وليس مجرد زعيم سياسي في السودان. ومن أجْل ذلك فإنه كان يبشِّر به وليس يعمل معه أو في سبيله. وعندما حدثت الوفاة المفاجئة للشريف حسين الهندي شعر ربيع حسنين أنه فقد مَن كان القدوة والمثال ومَن كان سينضم إلى موكبه في رحلة العودة إلى السودان. وتشاء الأقدار أن يلاقي الإثنان وجه ربهما وهما في الغربة يحلمان بالعودة ولا يحصلان عليها.

ربما لولا الظروف الصحية كثيرة القساوة التي كان يعاني منها ربيع حسنين لكان تيَسر له أن يساهم بقلمه وبما يملك من وثائق ومعلومات تبقى بمثابة وثائق على رغم أنها غير مكتوبة، في كتابة تاريخ حقبة بالغة الأهمية من العمل السياسي لزعامات سودانية أضناها الإغتراب فأمضت أزهى سنوات العمر خارج السودان وعادت في تابوت خشبي على نحو عودة ربيع حسنين، الذي كان دائم الشكر أنه بات مواطناً يحمل جواز السفر البريطاني ولولا ذلك لكان ربما لم ولن يتيسر له حظ العلاج الشهري في واحدة من مستشفيات لندن وهو علاج ساعده على أن يصمد. وفي لندن ترك ربيع حسنين العشرات من أهل السياسة والصحافة العرب لا يجدون إجابة عن السؤال الذي عُمره ربع قرن وأكثر وهو: إلى متى سنبقى في الشتات؟

رحم الله ربيع حسنين في الآخرة رحمات تعوضه دنيا السياسة السودانية التي لم تكن رحيمة معه. وإلى طلب الرحمة تمنيات بأن ينجز الرئيس عمر البشير إعادة النظر في الباطل من السنوات العشر السابقة الحافلة بشتى أنواع المحظورات، وبذلك يلتئم الشمل السوداني ولا تكون بعد ذلك هنالك عودة داخل توابيت من الخشب إلى أرض الوطن... وإنما عودة كعودة الطيور المهاجرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 12 مارس (آذار) 2000

* * *

إبتكار خليجي برسم الحكام والحكومات

أتاح لي الأمين العام لمجلس التعاون لدول الخليج العربية الشيخ جميل الحجيلان فرصة طالما تمنيتها وهي التعرّف إلى عدد من رموز الخبرة والتجربة يقدِّمون من خلال هيئة تضُمهم الرأي السديد لقادة دول المجلس، وذلك خلال عشاء في مبنى الأمانة العامة للمجلس تكريماً لأعضاء الهيئة الثلاثين الذين عقدوا صباح يوم السبت 5 فبراير/ شباط 2000 إجتماعاً في قصر المؤتمرات في الرياض إختاروا فيه رئيساً للهيئة زميلهم وزير المالية الأسبق محمد أبا الخيل الذي طالما سمعتُ من السفير السعودي السابق في لندن الشيخ ناصر المنقور الكثير عن قدراته وبالذات عند إعداد الموازنة في الظروف الإستثنائية. وبعد هذا الإجتماع توجّه أعضاء المجلس يتقدمهم الأمين العام إلى الديوان الملكي في قصر اليمامة لتحية خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد الذي بارك مهمتهم وأبدى أمامهم إرتياحه للإنجازات التي حقّقها مجلس التعاون في مسيرته المستمرة. ثم زاروا وليّ العهد نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبدالله بن عبد العزيز الذي سمعوا منه التقييم والنصيحة. في معرض التقييم قال ولي العهد: "لقد أبلغني الأخ محمد أبا الخيل بكل أعمالكم وهذا شيء يُفرح الخاطر، ولكننا

نأمل منكم المزيد...". وفي معرض النصيحة والطلب قال وليّ العهد: "أنتم الآن أعضاء الهيئة الإستشارية أشبه ما تكونون بالبرلمان. وأنتم رجال من نخبة طيّبة ولا شك أنكم عارفون أوطانكم وما ينقصها، وأنا متأكد أنكم أنجزتم الكثير من الأعمال والتوصيات التي تستحق التقدير والإمتنان، لكننا نتطلّع إلى المزيد من العطاء والعمل البنّاء لتطوير وتقوية دول المجلس منطلقين في ذلك من الثقة والصدق والصراحة. والمسؤولية الملقاة على عاتقكم مسؤولية تاريخية وكبيرة وهي أمانة في أعناقكم جميعاً. إن العالم اليوم هو عالم الإقتصاد، ومَن يملك القوة الإقتصادية هو القادر على التأثير في كل الأحداث وفي كل الأمور. ودول مجلس التعاون لديها من القوة الإقتصادية والمصالح المشترَكة بينها خاصة وبين الدول العربية والإسلامية عامة الشيء الكثير. كما أن دول المجلس بينها من العلاقات الإقتصادية ووحدة العقيدة والجوار والعادات ما يجعلها أقرب إلى التعاون ولديها الإمكانات في أوطانها والخبرات من أبنائها ما يجعلها قادرة على التأثير. والإعتماد في هذا على الله وحده أولاً ثم على جهودها لتستطيع مسايرة الركب العالمي. إن المصالح الإقتصادية وحّدت أوروبا بالرغم مما كان بينها من الصراعات والحروب والدماء إلى وقت قريب، إلاّ أنها تناست كل ذلك وإلتفتت إلى مصالحها المشترَكة المبنية على الإقتصاد الحر والتعاون في ما بينها ولذلك وصلت إلى ما هي عليه الآن من وحدة إقتصادية وتفاهم وتنسيق. إن العالم كله اليوم عالم الإقتصاد، وهو يتحرك بسرعة كبيرة ويجب علينا ألاّ نتوقف وأن لا نبقى جامدين حتى لا نكون بمعزل عن ما يدور في العالم من حولنا...".

في البداية جاءت فكرة الهيئة الإستشارية بموجب إقتراح طرحه في الثمانينات أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح الذي طالما إعتمد على المستشارين سنوات كان وزيراً للمالية، لكن لم يؤخذ به من دون توضيح الأسباب ربما لأن الفكرة غير تقليدية وقد تتسبّب في حساسيات لدى الوزراء في كل دولة. لكن الشيخ جابر الذي إستمر بعدما بات أميراً للدولة يحيط نفسه بالمستشارين ويستمع بإهتمام إلى أفكارهم ولمَس كم أن الأخذ بها يساعده دائماً على إتخاذ القرار السليم، جدّد طرْح الإقتراح في قمة الدوحة في ديسمبر/ كانون الأول 1996 وتمّت الموافقة عليه. وفي قمة الكويت 7 نوفمبر/ تشرين الثاني 1998 تمّ الإعلان عن قيام الهيئة التي يعتبرها وليّ العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز بأنها بمثابة البرلمان الثاني لدول الخليج. وجاءت هذه الموافقة ترسي تقليداً حميداً وتبتكر في الوقت نفسه تجمعاً من أهل الخبرة والتجربة في إستطاعته أن يرفد مجلس التعاون الخليجي بالكثير من الإقتراحات والرؤى التي تقيه من المخاطر التي يمكن أن تنشأ عن الإستعجال من جهة والتي تحفزه على المباشرة في صياغة مشاريع قوانين يتردّد في إتخاذها. ولكي يكون لهذه الهيئة كيان وصفة رسمية، ومن أجْل تفادي أي حساسيات يمكن أن تنشأ، تم وضْع نظام للهيئة الإستشارية يحدِّد إسمها رسمياً وإختصاصاتها وقواعد عملها. وبموجب هذا النظام تشكّلت الهيئة من ثلاثين عضواً خمسة من كل دولة يراعى عند إختيارهم أن يكونوا من ذوي الخبرة والكفاءة. وهكذا فإن المساواة كانت واضحة بمعنى أن الدولة الصغرى البحرين على سبيل المثال لها في الهيئة خمسة أعضاء مثْلها مثْل الدولة الكبرى المملكة العربية السعودية. وتفادياً للتكلس الذي ينشأ عادة نتيجة البقاء طويلاً في المنصب فإن النظام الأساسي حدّد مدة العضوية في الهيئة بثلاث سنوات تبدأ من تاريخ التعيين وتقوم كل دولة في نهاية المدة بتجديد أو تغيير ممثليها أو بعضهم، كما يجوز لكل دولة خلال المدة تغيير كل أو بعض ممثليها. والغرض من هذه المرونة في هذه المادة هو أن يكون هنالك مجال يتيح تجديد الدم في كيان الهيئة فضلاً عن أن ذلك يتيح المجال أمام كبار الموظفين وعشرات الوزراء ممَن هم أصحاب خبرة وتجربة غنية في العمل الوزاري لكي يكونوا أعضاء في الهيئة بعدما يصبحون سابقين.

ومع أن الهيئة الإستشارية وضِمْن الضوابط التي لا بد منها تنعقد بتوجيه من المجلس الأعلى (أي قادة المجلس) ولا تناقش من الأمور إلاّ ما يحيله المجلس الأعلى إليها مع تحديد المدة التي يتعيّن على الهيئة تقديم مرئياتها خلالها، إلاّ أن الطبيعة الإستشارية لها تجعلها في حالة إنعقاد دائم بمعنى أنه كلما إستجد حدَث أو فوجئت المنطقة بتطورات ما تدخل ضِمْن تفكير أعضاء الهيئة فإن الأعضاء سيتداولون بالأمر عندما يلتقون بالصدفة أو إن التداول يمكن أن يتم عبْر الهاتف وكذلك عند اللقاء بالأمين العام للمجلس خصوصاً أن الشيخ جميل الحجيلان المؤمِن بأهمية الشورى والتشاور يمكن أن يبادر فيسأل هذا العضو أو الأعضاء أو يصغي بإهتمام إلى فكرة وردت في

خاطر عضو أو أعضاء. وما يشجع على هذا النمط من التشاور هو أن الهيئة ليست رسمية وإن كانت ملتزمة بموجب نظامها الأساسي بشروط مثْل أن إجتماعها يكون صحيحاً بحضور ثلثي أعضائها كما أن رفع المرئيات إلى الأمين العام ومنه إلى المجلس الوزاري لمجلس التعاون يكون بأغلبية ثلثي الأعضاء، الأمر الذي يعني أن هامش الإعتراض وعدم ضرورة التوافق متاح أمام الهيئة وإلى درجة أنه إذا لم يتفق ثلثا الأعضاء (أي 20 عضواً) على موضوع فإنه لا يُحال إلى القادة وبالتالي تكون هنالك مداولة ثانية وثالثة وربما أكثر في شأن الموضوع إلى حين توافُر موافقة الثلثيْن أو أكثر. وهنا نلاحظ أن النظام الأساسي للهيئة يتيح لها الإستعانة عند الضرورة بمَن تراه من المختصين والخبراء، إنما من مواطني الدول الأعضاء. والمقصود بذلك أنه إذا حدث أن أغلبية الثلثيْن لم تتوافر عند مناقشة موضوع ما، وتفادياً لمأزق التعثر أو التجمد، فإن إشراك آخرين في الرأي قد يفيد.

وإلى الآن لم تتعرّض الهيئة إلى مثْل هذا الموقف الصعب لأن موضوعها الأول الذي أنجزتْه كان يتعلق بإحلال العمالة الوطنية محل الوافدة، وهو على رغم حساسيته نوقش بِحرية من قِبَل الأعضاء الثلاثين. لكن الموقف الصعب الذي قد يواجه الهيئة هو خلال تداول أعضائها في شأن الوضع الإقتصادي ووضْع تقييم لهذا الوضْع. وكانت قمة الرياض أواخر نوفمبر /تشرين الثاني الماضي (1999) كلّفت الهيئة بوضْع هذا التقييم الذي من شأنه أن يختصر التحفظات التي تحيط في شأن الطموحات الإقتصادية للمجلس، وهي تحفظات بدت كثيرة الوضوح في تلك القمة. كما أن الهيئة قد تواجه الموقف الصعب عندما ستباشر وضْع مرئياتها للتنمية الشاملة في دول مجلس التعاون من العام 2000 وحتى العام 2025 وهو ربْع قرن قد يكون حافلاً بالمفاجآت والصدمات خصوصاً إذا كان السلام في المنطقة العربية لن يحدُث خلال هذه الحقبة ولن تنتهي الأزمة الكثيرة الحدة بين الولايات المتحدة وكل من العراق وإيران... ولن يستقر النفط تبعاً لذلك إنتاجاً وأسعاراً.

وتبقى ثلاث ملاحظات:

الأُولى هي أن المتأمل في السيرة الذاتية لأعضاء الهيئة يجد أنهم في معظمهم من خريجي الجامعات الأميركية والبريطانية. لكن أهمية هؤلاء لا تنحصر في مؤهلاتهم الجامعية فقط وإنما في سنوات عملهم الرسمي في دولهم وإكتسابهم خبرة تؤهلهم لكي يكونوا من النخبة التي إذا إقترح الواحد من أفرادها أفاد وإذا ناقش فمِن منطلق التجربة العريقة. وفي مأدبة العشاء التي أشرتُ إليها في مطلع هذا المقال تسنّى لي أن أتحدث مع بعضهم وألمس مدى عمق التفكير وأن ألمح الجدية على وجوه البعض الآخر وكيف أن أفراد هذه النخبة الطيبة هم مِن الذين ينطبق القول عنهم إنهم خدموا بلادهم وفْق قاعدة أن الوظيفة هي تكليف لا تشريف. وهؤلاء هم محمد أبا الخيل والدكتور سليمان السليم وعبد العزيز القريشي وبكري شطا والمهندس عبد الله المعلمي (من السعودية) وخلفان الوهيبي وسيف المسكري وأفلح الرواحي وعبدالله الرواس ومشتاق آل صالح (من سلطنة عُمان) وعبدالله بشارة وجاسم النصف والدكتور بدر اليعقوب والدكتور يعقوب حياتي والدكتور سالم الطحيح (من الكويت) وعبد العزيز السبيعي ومبارك الخاطر والدكتور حمد الكواري وشريدة الكعبي وعبد العزيز كمال (من قَطَر) وحبيب قاسم والدكتور محمد الغتم والدكتور هلال الشايجي والدكتور سليمان الزياني ويوسف الصالح (من البحريْن) ومحمد المريخي والدكتور هادف الظاهري والدكتور عبيد بوست وأنيس الجلاف والدكتور محمد الكندي (من الإمارات).

والملاحظة الثانية هي أن هؤلاء ومن قد يأتي بَعدهم يناقشون ويفكرون من دون هواجس التخوف من فقدان المنصب لأنهم في الأصل يتوجون المناصب التي سبق أن شغلوها بمنصب المستشار، فضلاً عن أن كون مهمتهم لا تتطرق إلى الأمور السياسية والعسكرية يُبقي حركتهم في إستمرار داخل الخط الأخضر عِلْماً بأن مهمتهم في النهاية تأتي مِن منبع الأمور السياسية والعسكرية ثم تعود إلى المنبع نفسه.

وتبقى الملاحظة الثالثة وهي أن هذه الهيئة إبتكرت حلاً في منتهى اللياقة والرقي للعشرات من الذين يشغلون مناصب وزارية وإدارية في دولهم، وبعد أن يحالوا إلى التقاعد أو يتم إستبدالهم بآخرين يشغلون المنصب الوزاري أو الإداري أو الوظيفي يصبحون من دون موقع يمارسون من خلاله خبرتهم وتجربتهم. وبفضل هذه الهيئة يمكنهم أن يشعروا وكما لو أنهم ما زالوا في دائرة الضوء والأهمية إنما من خلال البرلمان الثاني لدول الخليج، وعلى نحو ما حدَث لأحد أهم وزراء المال العرب في ربع القرن الماضي محمد أبا

الخيل الذي يترأس الهيئة ولأول أمين عام لمجلس التعاون الخليجي عبدالله بشارة الذي هو أحد أعضاء الهيئة، أو البرلمان الثاني على نحو رؤية الأمير عبدالله بن عبد العزيز لهذه الهيئة... التي هي إبتكار خليجي برسم بقية الحكومات والحكام العرب.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 مارس (آذار) 2000

* * *

دبلوماسية التفهم المتبادَل في مؤتمر بيروت

تعويضاً عن تباعد متعمد نتيجة للحساسيات وللتعقيدات وللمحاذير عقد وزراء الخارجية العرب يوم السبت الماضي أسرع مؤتمر في تاريخ مؤتمراتهم. ومن باب التعويض أيضاً جاءت فكرة عميد الدبلوماسية العربية الشيخ صباح الأحمد الذي لا يُعلى على تخريجاته وإبتكاراته، والتي بموجبها بات المؤتمر العادي مؤتمراً إستثنائياً وجاءت المناقشات على درجة ملحوظة من الود وبحيث يرضى المتباعدون (العرب) والمتباعَد عنه (لبنان) ولا يكون الإختراق العربي للحساسيات والمحاذير من النوع الذي يتسبب في الإنزعاج أو العتب.

تم عقْد المؤتمر في السراي الحكومي الذي بذل رئيس الحكومة السابق رفيق الحريري الكثير من الجهد فضلاً عن بضعة ملايين من ماله الخاص لكي يتم إنجاز عملية تأهيل هذا المقر التاريخي وبحيث يدشنه وهو أول رئيس للحكومة في عهد الرئيس إميل لحود، لكن الرياح سارت عكس ما خطط الشيخ رفيق وإشتهى فدخل السراي على جناح العهد الجديد الدكتور سليم الحص الذي إختاره الرئيس لحود ليكون حليفاً وصديقاً وأول رئيس وزراء في عهده. وفي السراي كان اللقاء التاريخي لوزراء الخارجية العرب وكان المقر يليق بمثل هذا المؤتمر العادي شكلاً الإستثنائي مغزى ومعنى.

تقاطر وزراء الخارجية العرب من دون أي تثاقل. فليس هناك بينهم من لا يحب هذا البلد غير الآمن. لبنان، أو مَن له فيه ذكريات. وجاءوا وهم يدركون سلفاً أنه لن تكون هنالك خلافات حادة ولا مناقشات عقيمة. ولماذا الخلافات ما دام لبنان فاتحاً صفحتيْ المقاومة والتسوية في وقت واحد.

قبْل أن يعقد وزراء الخارجية مؤتمرهم كانت زيارة عمل قام بها الرئيس حسني مبارك إلى بيروت وإستغرقت بضع ساعات شكَّلت نقلة نوعية من جانب مصر في التعامل مع لبنان وأفادت في رفْع المعنويات التي إزدادت هبوطاً في السنتيْن الأخيرتيْن. وتلتها زيارة رسمية إستغرقت يوميْن قام بها وليّ عهد المملكة العربية السعودية يصحبه عدد من الأشقاء والإبناء في الأُسرة المَلَكية السعودية. وبدت الزيارة كما لو أنها زيارة الأخ المسؤول عن ظروف أخيه الذي نَقَله العدوان الإسرائيلي من حالة التوعك المالي والمعيشي إلى حالة اليأس من كل شيء. وأضفى وجود أمير الرياض سلمان بن عبد العزيز في الوفد السعودي الأخوي جواً من الإرتياح فضلاً عن أن كلاماً كثيراً كان من الضروري أن تسمعه المملكة عن الأحوال اللبنانية ولم يسمح البرنامج المشحون لوليّ العهد بسماعه فتولى أمير الرياض مهمة المستمع. وإنتهت زيارة الأمير عبدالله إلى نتائج طيبة أشعرت اللبنانيين بأنهم لن يكونوا وحدهم على الإطلاق في مواجهة الجنون الإسرائيلي المتزايد والذي بلغ حد التهديد بالإحراق والمزيد من التدمير للبنى التحتية وأيضاً للمصالح السورية في لبنان.

ثم بانت في الأفق اللبناني ملامح تفاؤل نتيجة أن الغيوم الإسرائيلية الداكنة والمخاوف من إعتداءات إسرائيلية أكثر شراسة تتعرض لها البنى التحتية، بدأت تنحسر بالتدرج. وجاءت زيارة الأمير عبدالله تعزز فكرة إستعجال عقْد مؤتمر لوزراء الخارجية في بيروت بحيث يؤكد هؤلاء وهم في العاصمة المهمومة بأكثر من قضية عربية عالقة أن الأشقاء سيساعدون على إيجاد الوسائل التي تنهي ما هو عالق من القضايا.

كان إنعقاد مؤتمر وزراء الخارجية العرب في بيروت بمثابة تجمُّع لرموز الجناح العربي من العملية السلمية على أرض وطن لا يزال يشهد مواجهات مع إسرائيل وكأنما لم يتوقف الصراع الحربي مع إسرائيل. فهنالك مقاومة في الجنوب يخوضها القِسْم الأكبر والفاعل منها "حزب الله". وفي الوقت نفسه هنالك قصْف إسرائيلي يومي لمواقع وأهداف في بعض قرى الجنوب والبقاع الغربي وبعلبك. وعلاقة الدولة اللبنانية بهذه المقاومة لا مثيل لها من حيث التكوين وأسلوب التعامل. فهي لا تتبناها بالكامل ما دام لا سُلطة لها عليها ولا تعرف سلفاً بما تقوم به. وفي الوقت نفسه إن

المقاومة هي الورقة التي في يد الدولة تقوم بالدور الذي لا يقوم به الجيش النظامي ولولاها لما كان لهذا التجمع العربي أن يأتي إلى لبنان وينعقد مؤتمر وزراء الخارجية. ويتذكَّر المسنون من اللبنانيين، وهم يتابعون الإجتماع على شاشات المحطات التلفزيونية ويلاحظون على وجوه المشاركين مدى إرتياح هذا المسؤول وعدم إرتياح ذاك... يتذكرون ذلك المؤتمر الذي عُقد في بيروت على مستوى الملوك والرؤساء أواخر الأربعينات وفي عهد الأمين الأول للجامعة العربية عبد الرحمن عزام باشا. وهذا الإجتماع الذي نشير إليه كان أحد إجتماعيْن فقط إستضافهما لبنان. اما الثاني فجرى عقده في الخمسينات في عهد الباشا الثاني للجامعة (المرحوم عبد الخالق حسونه). وكلاهما الإجتماع الأول ثم الثاني لم يكونا من حيث المضمون والتوصيات من أجْل لبنان وإنما من أجْل العرب بالنسبة إلى الأول ومن أجل مصر بالنسبة إلى الثاني الذي كان الدافع إلى إنعقاده هو مؤازرة مصر في وجه العدوان الثلاثي عليها. ومِن هنا فإنه عندما يعقد وزراء الخارجية العرب يوم السبت الماضي في بيروت هذا المؤتمر فإنما يقومون بتسديد ما لبيروت على دول بعضهم من ديون قومية تأخر كثيراً سدادها.

والقول إن المؤتمر كان بمثابة تجمُّع لرموز الجناح العربي من العملية السلمية يحتاج إلى توضيح. فالجميع بإستثناء العراق بسبب ظروف الحجْر الدولي على دوره القومي وليبيا بسبب مقايضة مسألة لوكوربي بالتغريد مع سِرْب التسوية هم مع العملية السلمية. ومن أصل المشاركين في المؤتمر هناك ثلاثة ترتبط أنظمتهم بمعاهدات سلام مع إسرائيل هم وزير خارجية مصر عمرو موسى ووزير خارجية الأردن عبدالإله الخطيب ورئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية فاروق قدومي (لم يتورط في العملية السلمية إلاّ أنه يمثلها رسمياً وغير راض عنها شخصياً). وهنالك وزراء ترتبط حكوماتهم بإتفاقات ذات طابع تجاري مع إسرائيل هم عبد السلام زنبيد الوزير المنتدَب لدى وزارة الخارجية المغربية والحبيب بن يحيى وزير الخارجية التونسية والشيخ حمد بن جاسم آل ثاني وزير خارجية قَطَر ويوسف بن علوي وزير الشؤون الخارجية في سلطنة عُمان. وهنالك وزير خارجية موريتانيا أحمد ولد سيد أحمد الذي إرتبط إسمه بواقعة إعتراف بلاده خلسة بإسرائيل وتبادُل التمثيل الدبلوماسي معها. وهنالك وزير خارجية الجزائر يوسف اليوسفي الذي يشارك في أول مؤتمر عربي بعد تواصُل حالة تودد إسرائيل من الجزائر وإستعداد الجزائر لما يشبه التفهم لهذا التودد، وهي حالة شبيهة بحالة البحرين التي ترأس وفدها العميد الآخر للدبلوماسية العربية وزير الخارجية محمد بن مبارك آل خليفة، وقريبة بعض الشيء من حالة السودان بطبعته الجديدة البشيرية والذي ترأس وفده الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل. كما أنها شبيهة أيضاً بالتودد الخفي من جانب إسرائيل نحو اليمن وعدم حماسة اليمن لهذا التودد على رغم التأكيدات الإسرائيلية بأن هنالك ما يشبه التعاون في المجال السياحي على أهبة الحدوث الأمر الذي ييسر لليهود من أصل يمني زيارة وطنهم الأول اليمن على نحو ما ما يفعل اليهود من أصل مغربي، أما جيبوتي وجزر القمر فإن حال كل منهما من حال موريتانيا في شكل أو آخر.

مَن يبقى؟

تبقى السعودية التي يمثِّلها وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل ودولة الإمارات التي يمثِّلها وزير الخارجية راشد عبدالله والعراق الذي يمثِّله وزير الخارجية محمد سعيد الصحاف وسوريا التي يمثِّلها وزير الخارجية فاروق الشرع ولبنان الذي يمثِّله رئيس الحكومة وزير الخارجية الدكتور سليم الحص. والدول الخمس ملتزمة بالعملية السلمية. وهي بإستثناء سوريا التي أنجزت في الولايات المتحدة جولتيْن من التفاوض من خلال الشرع مع إيهود باراك رئيس وزراء إسرائيل ورعاية ملحوظة من جانب الرئيس كلينتون، ما زالت في منأى عن الإتفاقات التجارية وغير التجارية وجلسات التفاوض المجدية أو غير المجدية.

وعندما تكون هذه هي خارطة التوجهات للذين شاركوا في مؤتمر بيروت ألا يصبح من الطبيعي أن تأتي النتائج والتوصيات على النحو الذي أتت عليه وهي عبارة عن تبادُل للتفهم. الدولة اللبنانية متفهمة الظروف العربية. والدول التي أبرمت سلاماً أو إتفاقات على انواعها مع إسرائيل خجولة من موقفها إزاء ما يجري في لبنان وله، وكيف تستفرد به إسرائيل وتريد لهذا الخجل أن ينحسر أو يتلاشى. والدول التي ما زالت في منأى عن الإتفاقات التجارية وغير التجارية مع إسرائيل متفهمة الظروف التي يعيشها لبنان وأيضاً ظروف الدول التي أبرمت السلام وعقدت الإتفاقات.

ووسط هذا التفهم ماذا يبقى أمام "حزب الله" أن

يفعله في إنتظار القمة العربية التي يبشر الشيخ صباح الأحمد بإمكانية وقُرب إنعقادها، أكثر من البدء بالتعود على التفهم، خصوصاً أن الثورة الإيرانية تُسرِع الخطى في إتجاه التفاهم مع الولايات المتحدة... وبذلك تغرد مع جيرانها العرب في سِرْب العملية السلمية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 19 مارس (آذار) 2000

* * *

BILL OF ARABIA

لم يكن من باب المصادفة أن التصريح المثير اللافت للإنتباه للعماد أول مصطفى طلاس كان الأول في عهد الحكومة السورية الجديدة التي شكّلها الدكتور محمد مصطفى ميرو قبْل أيام، وأن الذي أدلى به في اليوم الأول لعيد الأضحى كان وزير الدفاع السوري المتجدد والمجدَّد له والذي تجيز العلاقة التاريخية بين الرئيس حافظ الأسد وبينه أن يدلي بتصريحات ويسجل مواقف تبدو وكما لو أنه مطلوب منه ودون غيره الإدلاء بها أو تسجيلها لكي تكتسب مصداقية مطلقة من جانب مَن يهمهم الأمر. كذلك لم يكن من باب المصادفة أن يدلي العماد أول طلاس بهذا التصريح خلال جلسة في منزل النائب والوزير سليمان فرنجية الحفيد الحليف اللبناني الماروني التاريخي للرئيس الأسد، وأنه أطلقه خلال زيارة تفقدية لمعايدة القوات السورية المرابطة في منطقة لبنان الشمالي...

وبعد هذا التصريح وردود فعل أميركية وإسرائيلية يكتنف معظمها الإيحاء بدل الوضوح، لم يعد هنالك سوى أن نتطلع إلى الحديث التاريخي الذي ستشهده جنيف يوم الأحد المقبل والذي، وفي سابقة غير مألوفة، أعلن الرئيس كلينتون نفسه عنه يوم الإثنين الماضي في نهاية زيارته الرسمية إلى بنغلاديش. ويتمثل الحدث بلقاء يضم الرئيس حافظ الأسد والرئيس كلينتون.

سيأتي لقاء القمة هذا وهو الثالث بين الرئيسيْن (الأول في جنيف يوم 1994/1/16 والثاني في دمشق يوم 10/27 من العام نفسه) بعدما تكشَّفت نوايا إسرائيل إزاء عملية السلام وبعدما لم تترك حكومتها وسيلة للتلاعب إلاَّ وإقترفتْها، ولم يترك ديفيد ليفي تصريحاً سيئاً إلاَّ وأدلى به. وكلها، الوسائل والتصريحات، تكشف عن أن إسرائيل تخشى السلام لأنها في ظل هذا السلام ستصبح دولة صغيرة حجماً كمرحلة أولى وشأناً كمرحلة لاحقة. ونقول ذلك على أساس أن السلام لا بد سينهي مبررات إستعمال القوة من جانبها وكذلك إضطرار الولايات المتحدة إلى دعْم العدوان والمعتدي بالسلاح المتقدم يصل إلى إسرائيل في أسرع وقت، وبسيف الفيتو تشهره في وجه أي شكوى عربية من العدوان أو أي قرار دولي متوازن.

وفي المقابل سيأتي هذا اللقاء بعدما حافظت سوريا على ثبات موقفها المؤيد للعملية السلمية من دون أن يستفزها تصريح من هذا المسؤول الإسرائيلي أو ذاك. وهذا زاد من تقدير المجتمع الدولي لها، فضلاً عن أن الرئيس الأسد كان في أسابيع التشنج الإسرائيلي مهتماً بمرحلة التغيير والإنفتاح والإصلاحات الإقتصادية والإدارية التي تجعل سوريا تواكب عملية السلام التي لا بد منها والتي كانت الحكومة الجديدة برئاسة الدكتور محمد مصطفى ميرو التي تشكّلت يوم الإثنين 13 مارس/آذار 2000 إحدى خطواتها على صعيد الجبهة الداخلية... جبهة إستقبال مرحلة السلام ومواكبتها بعقلية منفتحة تخطط للمستقبل الذي سيكون الصراع فيه على أشده في المجال التقني والإقتصادي.

من المحتمل أن تكون وراء القمة التي ستنعقد يوم الأحد في جنيف وهدفها تأمين وصول عملية التفاوض إلى محطتها الأخيرة من دون معوقات، خطة أميركية ينشغل مستشارو الرئيس كلينتون منذ فترة في تأمين الإعداد الجيد لها وبحيث تبدأ هذه القمة ثنائية ثم لا تلبث أن تصبح ثلاثية بإشراك رئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك فيها وربما رباعية وذلك بتوجيه الدعوة إلى الرئيس إميل لحود للإنضمام إليها. لكن من المؤكد أنه لو كانت هذه الخطة كميناً أميركياً أو إنها تفتقد الجدية أو يمكن أن تكون معرضة للإنتكاس فإن الرئيس الأسد لن يشارك فيها.

وإذا نحن إفترضْنا أن هذه القمة التي لا بد من عقْدها عاجلاً أم آجلاً، ستنعقد في سويسرا وبالصيغة الإفتراضية التي أشرنا إليها، فإن المكاسب للأطراف المشاركة ستكون على النحو الآتي:

يكون الرئيس الأسد حقق فكرة اللقاء الثلاثي الذي يطمح إليه الرئيس كلينتون، إنما على أرضٍ محايدة وهذا أمر بالغ الأهمية على الصعيد النفسي العربي عموماً والسوري بوجه خاص. وعندما يتساهل رئيس النظام العالمي الجديد في هذا الأمر ويرتضي أن يتم اللقاء وفْق رؤية الرئيس الأسد وليس كما يتمنى ويريد

فلأنه بهذا اللقاء يضمن فوز نائبه في إنتخابات الرئاسة الأميركية في تشرين الثاني المقبل وبذلك يستمر كلينتون في الواجهة ولا ينسحب إلى الظل وتستأنف وسائل الإعلام – هذا إفتراضاً بأن جورج بوش الإبن هو الذي سيفوز وليس آل جور – التجريح به وتسلية القراء والمشاهدين، بعدما تكون زالت المحظورات بإنتهاء ولايته الرئاسية بقصص لا نهاية لها عن فضائحه ونزواته طوال سنوات رئاسته وحتى قبل هذه السنوات أيام كان في بداية مرحلة التحرش الجنسي الذي إشتهر به. وإلى ذلك فإنه عندما يرتضي الرئيس كلينتون أن يتم اللقاء وفق رؤية الرئيس الأسد وليس كما يتمنى في واشنطن وبحيث يكون اللقاء هو المشهد التاريخي المدهش الذي يستوجب التصفيق المتواصل وبعدها تُغلق الستارة، فعلى أساس أنه بهذا اللقاء الذي سيكون بمثابة التاج لعملية السلام في منطقة الشرق الأوسط يرضي مشاعر الإسرائيليين الذين طالما إشتكوا من عقدة أن التفاوض بين سوريا وإسرائيل غير متكافئ لأن الجانب السوري يتمثل بوزير الخارجية بينما الجانب الإسرائيلي يتمثل برئيس الوزراء. والإرضاء بمعنى أن يقول للإسرائيليين ها أن ما كنتم تتمنون حصوله قد حدَث وها أن اللقاء سيكون على مستوى القمة وإن كنت مقابل ذلك تساهلتُ في أمر أن يحدُث اللقاء في سويسرا وليس في واشنطن. ومقابل هذا الإرضاء ربما تصبح معركة هيلاري كلينتون على مقعد مجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك سهلة بحيث تفوز وبذلك يكون كلينتون حقق ما لم يحققه رئيس أميركي من قبْل.

وبالنسبة إلى الرئيس الأسد فإن الرئيس كلينتون يكون حقق له باللقاء الثلاثي وخارج واشنطن أمريْن يعنيان الكثير بالنسبة إليه. الأول هو أن اللقاء في البيت الأبيض سيبدو على أنه حلقة متأخرة في مسلسل المصالحات العربية – الإسرائيلية بعد الأولى التي أبرمها الرئيس الديمقراطي الأسبق جيمي كارتر بين الرئيس (الراحل) أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل (الراحل) مناحيم بيغن، وبعد الثانية التي أبرمها الرئيس الديمقراطي الحالي كلينتون بين إسحق رابين والملك حسين ثم بين إسحق رابين والرئيس ياسر عرفات وكذلك بين نتنياهو وعرفات وبين باراك وعرفات. والرئيس الأسد لا يحبذ الأمر ويرى أن المصالحة السورية – الإسرائيلية مستقلة شكلاً ومضموناً إلى حد ما عن تلك المصالحات المشار إليها. بمعنى أن نسبة الكبرياء فيها هي الأعلى بينما في تلك المصالحات لم تكن كذلك. أما الأمر الثاني فهو أن اللقاء يتحقق قبْل تنفيذ إسرائيل خطة الإنسحاب من جنوب لبنان وبذلك يصبح هذا الإنسحاب جزءاً من محادثات القمة وما أسفرت عنه من تفاهمات بدل أن يتحول إلى مسألة تشغل البال السوري وتترتب عليها مواقف وإجراءات لا تخدم العلاقة المستقبلية السورية – اللبنانية فضلاً عن أنها ستترك ظلالها على الموقف السوري الثابت من السلام كخيار إستراتيجي.

وتبقى خمس نقاط هي مزيج من الملاحظات والإفتراضات.

الأولى هي أن القمة السورية – الأميركية التي بات شبه مؤكد أنها ستُعقد يوم الأحد المقبل في جنيف قد تتحول إلى ثلاثية بإشراك باراك، ثم إلى قمة رباعية في حال إرتأى الرئيس كلينتون أن ينجز في الوقت نفسه وفي القمة ذاتها الأمر المتعلق بلبنان وبما يرضي مشاعر اللبنانيين، وتوجَّه الدعوة إلى الرئيس إميل لحود للإنضمام إلى المجتمعين الثلاثة. وهنا تحضُرنا زيارة وزير خارجية سويسرا جوزف ديس الشهر الماضي إلى لبنان بعدما كان زار سوريا. وبدا الوزير السويسري بعدما أعلن الوزير طلاس عن القمة السورية – الأميركية الممكنة وكما لو أنه كان يقوم بالتحضير لقمة أوسع بمعنى أن تصبح رباعية بإشراك باراك فيها ودعوة الرئيس اللبناني إليها. وحتى إذا لم تتحول القمة السورية – الأميركية إلى ثلاثية ثم رباعية فإن قمة مماثلة قد تنعقد عندئذ في واشنطن وتضم كلينتون ولحود وباراك وتكمل ما إستقر عليه الأمر في لقاء الرئيسيْن الأسد وكلينتون في جنيف.

وفي الإطار نفسه يحضُرنا أيضاً التصريح الذي أدلى به وزير خارجية إسرائيل ديفيد ليفي على إثر إجتماع في العاصمة السويسرية (برن) مع وزير الخارجية السويسري يوم الإثنين 13 مارس/آذار 2000 وقال فيه "ربما لا يوجد هناك مكان أكثر ملاءمة من سويسرا لإجراء محادثات السلام. وفي ما يتعلق بإسرائيل فإن بوسعنا إجراء هذه المحادثات غداً. والأمر متروك لسوريا لإتخاذ قرار في هذا الشأن...". ومِن هنا فإن كلام الوزير طلاس معناه أن سوريا على موقفها من إستئناف المحادثات إنما بعد إزالة المعوقات الإسرائيلية وهذه يستطيع الرئيس كلينتون إزالتها إذا هو أراد.

والنقطة الثانية هي أن القمة التي تخطط الإدارة الأميركية لكي تكون ثلاثية أو رباعية والتي بات واضحاً أمر إنعقادها مرة واحدة أو على مرحلتيْن وفي واشنطن بعد جنيف، ستثبِّت وللمرة الأُولى أن آخر ولاية الرئيس في الولايات المتحدة هي بأهمية النصف الأول من هذه الولاية، أي أنها ليست وقتاً لإنتظار اليوم الأخير للرحيل من دون الإنجاز في المجاليْن الداخلي والخارجي.

والنقطة الثالثة هي أن القمة السورية – الأميركية والتي قد تتحول إلى ثلاثية أو رباعية بإنضمام الرئيس لحود وباراك إليها ستكرس أمراً بالغ الأهمية وهو أن السلام العربي – الإسرائيلي هو إنجاز للديمقراطيين (أي الحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة) وأن الحزب الجمهوري لم يحظَ بشيء من هذا المجد. ونقول ذلك على أساس أن الرئيس كارتر كان الذي بدأ عام 1978 وأن الرئيس كلينتون أكمل بعد ذلك. وكلاهما يمثِّلان الحزب الديمقراطي. ومثْل هذا الإنجاز سيجعل المواطن الأميركي يشعر أنه يعيش في عصر الحزب الديمقراطي وسيشعر أيضاً بالإمتنان لهذا الحزب لأنه أزاح عنه كابوس الإبتزاز الإسرائيلي وعبء المساعدات غير المحدودة لإسرائيل والتي يشعر المواطن الأميركي أنه يتم تقديمها من ضرائبه التي يدفعها وعلى حساب رفاهيته. ومثْل هذا الشعور سينعكس بالإيجاب لمصلحة الرئيس الأميركي الأول في الألفية الثالثة آل جور، مفترضين أنه هو الذي سيفوز.

والنقطة الرابعة هي أن القمة تأتي بعد إنفراج في العلاقة الأميركية – الإيرانية من أسبابه ودواعيه الموقف الإيراني (ومثْله الليبي) بخصوص إنتاج النفط بما يحد من زيادة الأسعار التي تحبذها الولايات المتحدة. وكان رد وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت التحببي على موقف إيران (وربما على ليبيا في وقت آخر ومناسبة أُخرى) المسارعة إلى فتْح باب الإنفراج وهو ما يعني الكثير للجانب السوري من موضوع إدارة الصراع مع إسرائيل.

والنقطة الأخيرة وهي إستكمال لما سبَقها أن آل جور مقابل ذلك وتثبيتاً لعملية السلام وإستقرار منطقة الشرق الأوسط قد يختار رئيسه كلينتون – وبعدما يصبح سابقاً – ممثلاً شخصياً له للإشراف على تثبيت السلام وينوب عنه في المتابعة لأنه هو صاحب الفضليْن: فضل وصوله (أي آل جور) إلى الرئاسة وفضل إنجاز أهم عملية للسلام في التاريخ الحديث.

وفي حال حدث ذلك وهو ليس بالأمر المستبعَد سنجد كلينتون، وهو الذي ما زال في عز شبابه أي ليس مثل كارتر المتثاقل الخطى البطيء الهمة والتحرك، يتجول في المنطقة بوهج الرئيس المكلَّل بتاج نصْر السلام ليس على طريقة دنيس روس، وإنما كنسخة أميركية للورنس العرب وبحيث يصبح "بيل أوف أرابيا" BILL OF ARABIA. وكل الدلائل تشير إلى ذلك، بل إن بعضها يؤكده... وإن كان التأكيد سيبقى في إطار الإفتراض حتى إشعار آخر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 مارس (آذار) 2000

* * *

لبنان... اللجوء العشوائي ولبنان... اللجوء بالبطاقة

لا بد أن كثيرين من الذين تابعوا على شاشات التلفزيون اللبناني المؤتمر الصحافي الذي عقده يوم الثلاثاء 21 مارس/ آذار 2000 المدير العام للأمن العام في لبنان اللواء الركن جميل السيد لتوضيح مسألة إبعاد الثوريين اليابانيين الأربعة الذين كانوا مسجونين حبياً إلى بلدهم عبْر الأردن ومنْح رفيقهم الخامس كوزو أوكاموتو حق اللجوء... لا بد أن كثيرين إكتشفوا في جميل السيد مسؤولاً على الكثير من التميز في أسلوب المخاطبة وفي عرْض قضية تهم النظام بقدْر ما تهم المواطن. ولا بد أنهم لاحظوا أنه في عرْضه كان صاحب رؤية سياسية إستراتيجية وكان كلامه من السطر الأول وحتى الأخير بعيداً عن الإنفعال. ولا بد أن الكثيرين لاحظوا وفرة المفردات التي إستعملها ولاحظوا كذلك حِرصه على أن يفتدي برصيده الرئيس إميل لحود والذي كان الأقرب إليه أيام كان العماد لحود قائداً للجيش، موضحاً أنه إذا كان لا بد من التصويب في مسألة إبعاد اليابانيين من لبنان إلى الأردن فطوكيو (وهي مفردة من جملة مفردات وردت في كلامه كبديل عن كلمة الإتهام) فليصوِّب على الأمن العام. وسبب هذا الكلام ما قيل إن وراء الإبعاد صفقة لبنانية – أردنية، وما أورده البعض من تخجيل للبنان وللأمن العام على تسليم أشخاص كانوا ضيوفاً على أحد سجون لبنان. كذلك إن سبب الكلام

هو تنصل وزير الإعلام الأردني من معرفة واقعة الإبعاد إلى الأردن مع أن المبعدين حصلوا من السفارة الأردنية في بيروت على تأشيرة دخول لسفرة واحدة وصالحة لمدة شهريْن.

كان المؤتمر الصحافي للواء الركن جميل السيد عبارة عن مطالعة بدا فيها الرجل متمكناً من لغته وواثقاً بالموضوع الذي يتناوله ومقْنعاً في معرض التوضيح وكذلك وهو يتحدث عن "المسؤولية في خانة الدولة والممارسة في خانة المبدأ الجامعي النظري" وكيف أن المسؤول ويعني بذلك هنا شخصه وموقعه، يُجري تزاوجاً بين المبدأ والأُسس.

هذا على صعيد الشخص. أما على صعيد الموضوع فإن اللواء جميل السيد أعلن ببطاقة اللجوء السياسي التي سلَّمها إلى محامي كوزو اوكاموتو في نهاية المؤتمر الصحافي عن ولادة رسمية لظاهرة موجودة منذ نصف قرن في لبنان إنما بشكل غير رسمي. فمنذ الإنقلاب العسكري الأول في سوريا على يديْ الزعيم حسني الزعيم يوم 30 مارس/آذار 1949 واللاجئون السياسيون يتدفقون إلى لبنان من سوريا ثم بعد ذلك من معظم الدول العربية. وهؤلاء كانوا يُستضافون ويقيمون في منازل يستأجرونها أو يشترونها ويمارسون على الأرض اللبنانية نشاطهم السياسي كما يحلو لهم. وكل ذلك بموافقة شكلية وحماية إستنسابية لم تحفظ حياة البعض منهم. ولم يكن الواحد من هؤلاء يحمل بطاقة لاجىء سياسي فضلاً عن أن معظمهم باتوا بعد اللجوء يحملون جوازات سفر حصلوا عليها من دول عربية نافذة وجدت في لبنان أنه الملاذ الأفضل لهؤلاء الأصدقاء المبعَدين بالإختيار أو الإضطرار من بلادهم. كما أن دولاً عربية كثيرة كانت في الوقت نفسه تتولى تأمين المساعدة لهؤلاء الأصدقاء اللاجئين.

وفي غضون ثلاثة عقود بات هنالك في لبنان المجتمع الذي يمكن تسميته "مجتمع اللجوء السياسي". هنالك السوري والمصري والعراقي والأردني والسعودي والخليجي والسوداني واليمني والتونسي والإيراني والمغربي والجزائري... وغيرهم. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فإن هؤلاء في معظمهم لم يكونوا في حاجة إلى اللجوء لأن لهم في لبنان "دولتهم" الموازية تقريباً للدولة اللبنانية ولهم أيضاً من النفوذ ما يجعلهم يستضيفون لاجئين سياسيين في لبنان ولديهم من الشأن والعلاقات ما يجعلهم يحصلون لبعض المستضافين من اللاجئين السياسيين على جوازات سفر عربية من النوع الذي يحمله بعضهم. وبإستثناء بعض الحوادث التي لقي فيها لاجئون حتفهم إغتيالاً فإن السياسيين والعسكريين العرب المهاجرين أو المهجّرين إلى لبنان عاشوا في أحسن حال ومن دون أي مضايقات من السُلطات اللبنانية ومن دون أن يحمل أحد منهم بطاقة عليها صورته وصفة "اللاجىء السياسي"، ومن أجْل ذلك بات طبيعياً أن يعتبر هؤلاء أن لبنان كان الوطن الثاني لهم وكان المثوى الذي يوارون فيه بالنسبة إلى عدد قليل منهم. وفي الوطن الثاني تلقّى أبناء معظم هؤلاء العِلْم في أحسن المدارس والجامعات، وعولج اللاجئون في أفضل المستشفيات وكتبوا في مذكراتهم الصفحات الملأى بالحيوية عن سنوات اللجوء في لبنان. ومَن يقرأ مذكرات خالد العظم وأكرم الحوراني على سبيل المثال لا الحصر يلمس ذلك بوضوح.

ما كان يحدُث في لبنان كان مألوفاً في معظم الدول العربية وبالذات مصر والأردن حيث كانت هذه الدول تستقبل موجات من السياسيين والصحافيين والعسكريين وأحياناً من رجال الأعمال. ولكن ما يلقاه اللاجىء في لبنان كان يختلف كثيراً عما يلقاه في مصر والأردن وغيرهما. ففي لبنان لا قيود على الكلام والتحرك كما في مصر على سبيل المثال، بينما في مصر وكذلك في الأردن هنالك حماية للاجىء وأفراد أُسرته مقابل أن نشاطه السياسي يقتصر على تأييد مواقف البلد المضيف له عندما تقتضي الظروف والتطورات تسجيل التأييد، وعدا ذلك تمضية الوقت في المقاهي و"كافيتيريات" الفنادق في المناقشة والتداول وإستعادة ذكريات أيام الحُكْم لمَن كان بين هؤلاء له شأن في السُلطة قبْل اللجوء.

ما هو مهم في مسألة تنظيم اللجوء السياسي في لبنان وبحيث يكون للاجىء بطاقة هو أنه لن يكون هنالك بعد الآن لجوء عشوائي إلى البلد. بمعنى أن كل مَن هو معارض للحُكم في بلده أو له إعتراض على سلوكيات ذلك الحُكْم سيتوجه نحو لبنان، وإنما سيكون هنالك لجوء سياسي معلَن عنه رسمياً وله إدارة تشرف عليه تماماً كما هي الحال في دول كثيرة مثل بريطانيا. كما ستكون للجوء حيثيات وشروط وليس كما هي حال اللجوء العشوائي السائد الآن والذي إنتهى وبسبب ظروف الحرب في لبنان إلى أن في إستطاعة من لا بلد يستقبله أن يأتي إلى لبنان ويقيم

فيه على الرحب والسعة.

ومن المفارقات اللافتة أن اللاجىء السياسي الرسمي في لبنان كان يابانياً وحظي بحق اللجوء على أساس أنه شارك في المقاومة ضد إسرائيل. وهذا معناه أن هذا النوع من حيثيات منْح حق اللجوء لن يستمر معمولاً به في حال إنتسب لبنان إلى عملية التسوية وهو ما بات قريب الحدوث في ضوء القمة السورية– الأميركية في جنيف الأحد الماضي. كذلك معناه أن حق اللجوء لن يُمنح إلاَّ لمثل هذه الشريحة من الناس ولن يُمنح لمَن هو على خلاف مع حكومة بلده أو معارض لنظام الحكم أو معترَض عليه في ذلك البلد.

وفي الوقت نفسه ثمة ملاحظة أساسية وهي أن غير اللبنانيين الذين نشطوا في لبنان مع المقاومة وضد إسرائيل كثيرون. وهؤلاء ليس واضحاً ما إذا كانوا سيحصلون على بطاقات اللجوء في حال تبدلت طبيعة توجهات النظام في دولهم من دون أن تتبدل رؤيتهم وإقتناعهم ونظرتهم العقائدية إلى إسرائيل والصراع معها. كما أنه ليس واضحاً ما إذا كانت الدولة اللبنانية وهي التي تشكو شظف الميزانية ستمد اللاجىء السياسي أوكاموتو أو العشرات غيره بالمساعدات المالية وقادرة على تأمين الحماية لهم في الفترة بين حصولهم على البطاقة وبين تحقيق التسوية مع إسرائيل. وفي هذه الفترة سيكون هؤلاء ما داموا أقاموا بعمليات ضد إسرائيل عرضة لإنتقام الموساد منهم.

في أي حال أضيفت إلى الصفات التي إشتهر بها لبنان صفة جديدة هي البلد العربي الذي يقنن اللجوء السياسي. أما الصفات الأُخرى فهي أنه بلد الحرية والتعددية السياسية وبلد سرية المصارف... والبلد الوحيد في العالم الذي يستضيف الآخرين لكي يتحاربوا على أرضه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 مارس (آذار) 2000

* * *

مبارك ... والمسألة الضميرية

من محاسن مصادفة وجود الرئيس حسني مبارك في واشنطن التي وصلها يوم وصول الرئيس كلينتون إلى جنيف لعقْد لقائه البالغ الأهمية من حيث الحدوث والمحيِّر على صعيد النتائج... من محاسن هذه المصادفة أنه كان هنالك طرف عربي أمكنه أن يعرف ما الذي جرى تماماً في لقاء جنيف بين الرئيسيْن الأسد وكلينتون. وهو في ضوء ما إطَّلع عليه أمكنه أن يُسدي النصيحة للرئيس كلينتون ولأركان الإدارة الأميركية بمختلف مؤسساتها الذين إلتقى بهم، ويجوز أيضاً الإفتراض بأنه سجَّل موقفاً حازماً أمام أقطاب اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة والذين يتأثر المسؤولون الإسرائيليون بآرائهم وإقتراحاتهم وتمنياتهم.

وإلى ذلك إن الرئيس مبارك لا بد من أنه باشر بعد عودته بذْل جهود إضافية في إتجاه حل بعض النقاط المستعصية ليس فقط لأنه في إنتظار إنعقاد القمة العربية التي بات عقْدها وارداً في ضوء التجاوب السعودي قبْل أيام مع فكرة الإنعقاد، ما زال رئيس القمة العربية، وإنما لأنه متحمس لتحقيق التسوية بين مصر وإسرائيل ولبنان وإسرائيل بنسبة حماسته لإنجاز هذه التسوية بين السُلطة الوطنية الفلسطينية وإسرائيل. وتنطلق حماسته من الخشية التي كثيراً ما أشار إليها في حال تعثرت مساعي التسوية وإنهارت تماماً، وهي أن يتجدد العنف في المنطقة ويتهاوى كل ما تم تحقيقه حتى الآن. أما لماذا الخشية فلأن مصر في حال حدَث ذلك لن تستطيع أن تعزل نفسها عما يجري وتتمسك بالإتفاقات المعقودة مع إسرائيل وإنما ستخوض غمار المواجهة في شكل من الأشكال وبذلك تتحول الإتفاقات إلى حبر على ورق. وخلافاً لما هو ظاهر من واقع الحال فإن الرأي العام المصري مستعد لتقبُّل هذا التبدل الإضطراري الصاعق في الموقف المصري، بل إن الرئيس مبارك نفسه وأركان الحُكْم الذي يقوده منذ عشرين سنة هم أيضاً على الإستعداد نفسه لأسباب ضميرية تنطلق من حقيقة كثيرة الوضوح وهي أن التسوية كانت منذ اللحظة الأُولى خياراً مصرياً وأنها إذا كانت لن تنجح فإن الحُكْم المصري الذي جنح إلى السِلْم مع إسرائيل من دون أن يأخذ في الإعتبار ما يمكن أن يصيب الأمة نتيجة ذلك، سيكون في أشد الحاجة إلى ما يريح ضميره في حال إستمر الوضع على ما هو عليه وواصلت إسرائيل تعنتها بالنسبة إلى ما يخص سوريا، وواصلت عدوانها على لبنان وإحتلالها لمناطق فيه. ومع أن الوزر المصري ليس من صُنْع الرئيس مبارك وأن الرئيس مبارك كان مجرد وريث لهذا الوزر إلاّ أنه وبالذات منذ مؤتمر مدريد يتصرف وكما لو أنه يرى ضمناً بأن الضمير

المصـــري لن يرتاح إلاَّ إذا تحققت التســـوية وكانت شـــاملة وعادلة... أو الإنحياز إلى ســـوريا ولبنان والسـُلطة الوطنية الفلســـطينية في حال ركب باراك رأســـه وقرر أن يخوض بإســـرائيل جولة رابعة من القتال وفي ظنه أن إسرائيل تضع يدها على المنطقة بعد ذلك، وفي هذه الحال فإن الظن الإسـرائيلي أكثر من إثم.

وإذا نحن أردنا عرْض مواقف الرئيس مبارك التي تؤكد حضـور المسـألة الضـميرية في وجدانه لرَأينا أمامنا وقائع كثيرة. فهو على ســـبيل المثال يرفض حتى الآن زيارة إســرائيل من دون أن يقفل الباب في وجه زيارات يقوم بها المســؤولون الإســرائيليون من نتنيــاهو إلى بيريز إلى بــاراك إلى وايزمــان إلى موردخاي إلى ليفي إلى وزراء كثيرين في الحكومات الإســـرائيلية المتعاقبة بمَن فيهم وزراء الدفاع. وهو عندما يستقبل هؤلاء فإنه يتصـرف ضـمن الأصـول إنمـا ليس على حســـاب النظرة الوطنيـة والموقف العربي العام. ومن أجْل ذلك فإنه شـــارك في جنازة إســـحق رابين ومن دون أن يترك المجال متاحاً أمام تفسـير. ومنذ أن تسـلّم مقاليد الحُكْم وهو في كل مرة يزور الولايات المتحدة يسألونه متى سيزور إسرائيل، بــل إن إعضـــــاء كثيرين في اللوبي اليهودي- الإسرائيلي في واشنطن ونيويورك وفي سائر الولايات يسـألون بصـيغة المسـتغربين لماذا لا يزور إسـرائيل ويبدون في الوقت نفسـه وجهات نظر في هذا الشـأن من بينها أن عدم قيامـه بهذه الزيـارة يجعل التطبيع على المستوى الشعبي لا يحدُث وذلك على أساس أن ثقة الرأي العام المصـــري بالرئيس مبارك كبيرة وأن هذا الرأي العام ســـيعيد النظر في موقفه الرافض للتطبيع في حال رأى أن الرئيس ضـــمناً لا يمانع ما دام زار إسرائيل.

ولكن جواب الرئيس مبارك الحاضـر دائماً هو أنه سـيزور عندما سـيصـبح السـلام لدى الذين يحكمون إسـرائيل خياراً إسـتراتيجياً أبدياً وليس مجرد مناورات مع الفلسـطينيين دائماً ومع السـوريين أحياناً، وكذلك عندما لا يعود العدوان على لبنان يومياً حالة ثابتة في التفكير الرســمي الإســرائيلي. كما أنه ســيزور إســـرائيل إنما بعدما تتخلى عن تطلعاتها النووية وتنتســـب إلى معاهدة الحظْر النووي التي لا تُوقّع عليها، وأيضـاً بعد أن يُطوى تماماً الملف الإسـرائيلي الكثير الســـواد وما حفل به من إنتهاكات ومن بينها إعدام الأسرى المصريين.

كما أننا في سياق عرْض بعض الوقائع التي تؤكد حضـور المسـألة الضـميرية في وجدان الرئيس مبارك نلاحظ رحابة هامش حرية التعبير أمام المصـــريين الذين يعارضـون التطبيع مع إسرائيل، ونلاحظ أيضـاً مرونة التعامل مع الحركات الطلابية والشـــعبية في بعض المناسبات ضد إسرائيل.

وخلاصـــة القول إن الرئيس مبارك إســـتطاع أن يحافظ على المعاهدة التي ورثها عن الرئيس السادات وذلك من خلال جعْل العلاقة مع الولايات المتحدة شبه إستراتيجية في المجاليْن العسكري والإقتصـادي وعلى صـعيد التفهم الموضـوعي للمصـالح الأميركية في المنطقة العربية. إلاّ أنه في الوقت نفســـه نجح، ومن خلال تعاطيه مع تطورات الصـراع مع إسرائيل، في إقناع الإدارتيْن الأميركيتيْن، إدارة الرئيس السـابق جورج بوش والإدارة الحالية، بأن التسـوية قد تصـمد إلاّ أن السلام لا يتحقق إذا هو لم يكن عادلاً وشاملاً وأن ما تحقَّق بين مصـــر وإســـرائيل وبرعاية الأمم المتحدة ســـيبقى عرضـــة للإهتزاز نتيجة ضـــغوط ضميرية، أي بما معناه إنه ما دامت هنالك إعتداءات إسـرائيلية على لبنان وما دامت إسـرائيل لا تنسـحب من الجولان وتتلاعـب في التفـاوض الإســـرائيلي- الفلسـطيني، وما دامت القدس ومقدسـاتها في الأسْر الإسـرائيلي، فإن المواطن المصـري سـيبقى يشـعر بوخز الضـــمير لأن حاكمه فتح قبْل 22 عاماً بكثير من الإستعجال وعدم التبصـر هذا الباب مع إسرائيل من دون أن يتبدل شـــيء في العقل الإســـرائيلي المســـكون بنزعة العدوان والتفوق والســـيطرة على المنطقة بدل الجنوح بصـدق نحو السـلام والتعايش. وما يحدُث من جانب إســـرائيل مع ســـوريا ولبنان والفلسطينيين تأكيد لذلك.

ويبقى أن المسألة الضميرية مستمرة لدى الرئيس مبارك لأنه مقتنع بالأمر من جهة ولأن تفكير الرأي العام المصـري عموماً يصـب في هذا الإتجاه. وعلى هذا الأســاس يجوز للمرء أن يتوقع في ضـــوء زيارة الرئيس مبارك إلى واشـــنطن وعدم حصـــول مفاجأة تاريخية في لقاء جنيف بين الرئيسيْن الأسد وكلينتون، تحركاً مصـــرياً إســـتثنائياً من جانب الرئيس مبارك خشـية أن يجد نفسـه يقرر طرْح المعاهدة التي أبرمها سلفه السادات مع إسرائيل برسم الإستفتاء في حال إســـتمرت إســـرائيل على موقفها الراهن من عملية

السلام، وهو موقف من شأنه أن يشعل حرباً جديدة في المنطقة وهذا ما قد تكون إسرائيل ترمي إليه بالفعل.

وفي حال أعادت مصر النظر في المعاهدة فإن الشمل العربي سيلتئم... وستتحقق راحة الضمير المصري.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 5 أبريل (نيسان) 2000

* * *

ملك... الجمهورية التونسية

بصمت، ووحدة موحشة لا مثيل لها، رحل الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة صباح يوم الخميس السادس من أبريل/نيسان 2000 عن 96 عاماً. رحل من دون أن تتحقق أمنيته في أن يلاقي وجه ربه وهو رئيس، على نحو ما تمنى الرئيس الفرنسي السابق فرنسوا ميتران الذين جاهد طويلاً في مواجهة أوجاع السرطان وذلك من أجْل أن يشيَّع من الإليزيه، ولكن إرادة الله شاءت أن يصمد إلى ما بعد إنتهاء ولايته الرئاسية ثم يتوفاه الله بعدما بات رئيساً سابقاً.

وبورقيبة وميتران كلاهما من عشاق الحُكْم حتى لحظة إسلام الروح إلى باريها، وهما في ذلك ينتسبان إلى نادي الحكام مدى الحياة. وذلك النادي الذي يضم أكثرية الرؤساء الذين يذوقون طعم السُلطة للمرة الأُولى فيستعذبون حلاوته ولا يعود الواحد منهم يؤثِر القناعة بسنوات محددة على البقاء طويلاً في الحُكْم. ومن شدة ولع الحبيب بورقيبة بالسلطة فإنه إستنخى المؤسسات الدستورية لكي تبايعه رئيساً مدى الحياة وكانت له المبايعة من دون أن يحسب حساباً للشيخوخة والعجز والمرض. ومن هنا فإن قرار "الرئاسة مدى الحياة" لم يحجب الظواهر المشار إليها عن بورقيبة الأمر الذي دفع برجل تونس القوي زين العابدين بن علي لكي يقرر بعدما بات رئيساً للوزراء قبل ثلاثة عشر عاماً الإعلان بأن "المجاهد الأكبر" لم يعد في الوضع الذي يسمح له بممارسة مسؤولياته وأنه، أي بن علي، بات رئيساً للجمهورية.

كان "المجاهد الأكبر" مزيجاً من شخصيات تاريخية تتسم كل منها بصفات غير متوافرة في الأُخرى. كان فيه شيء من المصري سعد زغلول والهندي مهاتما غاندي والتركي أتاتورك والفرنسي ديغول. ومن أجْل ذلك فهو حقق إستقلالاً وطيداً إنما من دون عنف، وحضوراً عربياً ودولياً أثار عواصف من الإحتجاجات، وكان موقفه الداعي إلى الإعتراف بإسرائيل كأمر واقع ودعوته من أريحا عام 1994 إلى القبول بقرار تقسيم فلسطين من أكثر المواقف التي سجَّلها في غير زمنها المناسب، ومن أجْل ذلك قوبلت بالرفض والإحتجاج من المحيط إلى الخليج. وعلى الصعيد التونسي فإن القرارات الجريئة التي إتخذها في إتجاه العلمنة كانت من النوع الذي أحدث بلبلة في الوجدان. ومن الطبيعي حدوث هذه البلبلة بعدما أفتى الرئيس بورقيبة في مسائل تتعلق بالزواج والطلاق وبفريضتيْ الحج والصيام. ومعظم هذه الفتاوى هي خلاف ما هو منصوص عليه في الشرع الإسلامي. وهذا التوجه نحو العلمنة يؤكد أن الرئيس بورقيبة كان نصف عروبي ونصف أوروبي، أو إذا جاز القول إن المرء يحتار في أمر مكنونات تفكيره هل هو مع العمل العربي المشترَك بما يتطلبه هذا العمل من تضحيات أم أن عينيه على الضفة المقابلة من المتوسط (أي دول أوروبا) يشعر أن دول هذه الضفة أقرب إليه من دول المشرق ومن متاعب العروبة وتعقيدات العمل العربي المشترَك؟ وهو عندما قررت الدول العربية معاقبة مصر بسبب المصالحة التي أبرمها الرئيس الراحل أنور السادات في كامب ديفيد مع إسرائيل وكانت إحدى نتائج زيارته المثيرة إلى القدس، فإنه إستقبل نقْل الجامعة العربية إلى تونس بشيء من التردد، ومن أجْل ذلك لم يحرص على أن يكون للأمانة العامة مقر لائق مع أن بناء هذا المقر لا يشكل عبئاً مالياً على تونس، ولكنه الشعور الداخلي بأن الدول العربية إتخذت قرار النقل إلى تونس كعقاب موقت وستعيد النظر في هذا العقاب بعد حين. فلماذا إذاً التعامل مع الجامعة العربية المنقولة وكأنما هي حالة ثابتة. لكن في الوقت نفسه يجوز القول إن نقْل الجامعة إلى تونس كان حلماً راود خيال بورقيبة معتبراً أنه بنقْل المقر يثأر من مصر عبد الناصر التي ألقت حملاتها الإعلامية ظلالاً على شخصه وعلى نضاله ووطنيته، وإلى درجة جعلتْه في أواخر الستينات وبالذات في السنتيْن اللتيْن سبقتا حرب يونيو 1967 معزولاً تماماً عن المحيط العربي فضلاً عن تأجيج الصراعات الداخلية وبالذات في أوساط نقابات تونس ومثقفيها وجامعتها ضد حكمه. ونلاحظ هنا

كيف أن متطلبات الثأر جعلت بورقيبة ومن أجْل إقتناص فرصة نقْل الجامعة إلى تونس يتجاوز ماضيه المرن في شأن الصراع العربي – الإسرائيلي ويسجل إستدارة ملحوظة تمثلت بإنضمامه إلى الملوك والرؤساء العرب الذين قرروا في قمتهم الإستثنائية في بغداد عام 1979 إدانة مصر لتوقيعها إتفاقية كامب ديفيد وعدم تجاوبها مع وفد أرسلته القمة إلى القاهرة في محاولة أخيرة لثني الرئيس السادات (الذي رفض إستقبال الوفد) عن المضي قُدماً في إتجاه مصالحة إسرائيل. وكان واضحاً أن مثْل هذه الإستدارة هي جزء من قدرات بورقيبة في مجال التكتيك، إذ بفضلها نال ما أراده وهو نقْل الجامعة إلى تونس.

وما يقال بالنسبة إلى ظروف نقْل الجامعة يقال أيضاً بالنسبة إلى الإستدارة الملحوظة لـ بورقيبة في إتجاه الفلسطينيين وكيف أنه إستضاف قيادتهم ومؤسساتهم في تونس بعد الذي أصاب تلك القيادة وتلك المؤسسات وبعض القياديين في بيروت جرَّاء الحرب التي إندلعت في أبريل/نيسان 1975 والتي وجد الفلسطينيون أنفسهم طرفاً فاعلاً فيها طوال بضع سنوات، وكان الترحيل بعد ذلك المحطة الأخيرة في الدور الفاعل للفلسطينيين في لبنان ومن دون أن يوقف ترحيلهم الحرب التي إستمرت إلى حين أوقفها إتفاق الطائف في أكتوبر/تشرين الأول 1989.

لم يكن بورقيبة حديدياً ولكنه كان مستبداً في رأيه وغير محبذ ومشجع للحياة الديمقراطية وفْق الأصول. وكان كثير التباهي بنفسه وبنضاله على نحو تباهي نلسون مانديلا، ربما لأنه (أي بورقيبة) لبضع سنوات بدا في نظر الآخرين أهم من بلده، تماماً مثل جار تونس العقيد معمَّر القذَّافي. وهو مقابل إنجازات كثيرة حققها كانت له إخفاقاته من بينها إخفاقه في إنجاح محاولة وحدوية مع ليبيا وصلت إلى حد الإعلان عنها ربما لأنه أراد بهالته التاريخية الهيمنة على القذَّافي، صاحب الهالة الثورية الشابة. كما أنه أخفق في إطفاء حرائق غيرة النساء داخل قصر قرطاج (قصر الرئاسة) وتّدخلهنَّ في شؤون الحُكْم وكيف أن الأمور وصلت في أحيان كثيرة إلى أن الزوجة الثانية للرئيس بورقيبة السيدة وسيلة كانت صاحبة كلمة في تعيين وزراء وسفراء ومدراء وكانت في الوقت نفسه سيدة أعمال من الدرجة الخارقة، وأن سعيدة ساسي إبنه شقيقته التي باتت الأكثر قرباً منه (بعد تكاثُر مشاعر الحذر عنده من السيدة وسيلة التي إنتهت علاقته بها بالطلاق) وصلت قوة شأنها داخل قصر قرطاج إلى أن الوزراء وحتى رئيسهم محمد مزالي لا يمكنهم مقابلة الرئيس بورقيبة إلاّ عن طريق سعيدة ساسي.

وهذا الوضع الشاذ داخل القصر كان من بين الأسباب التي جعلت أمور الحُكْم ترتبك وجعلت مكانة مزالي تهتز، ثم جعلت الجنرال زين العابدين بن علي بعدما بات رئيساً للوزراء يحسم الأمر دفعة واحدة وهو البارع في الحسم، فيأخذ من الدستور مادة تجيز له أن يعتبر الرئيس بورقيبة بات غير مؤهل لممارسة الحُكْم ويتسلم هو منصب رئاسة الجمهورية، ويتبعثر داخل تونس وخارجها ديناصورات البورقيبية الذين إعتبر كل واحد فيهم من محمد الصيَّاح إلى محمد مزالي مروراً بـ الحبيب بورقيبة الإبن وبكثيرين آخرين أنه سيرث "عرش" بورقيبة الذي أمضى ثلاثين عاماً في الحُكْم. ولكن الجنرال بن علي كان كما تبين هو الأكثر حذاقة ومن دون أن يقلِّل من الرعاية الصحية لـ "سي الحبيب" وإطفاء شموع عيد ميلاده أو زيارته في المستشفى. وإستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن فاضت روح "سي الحبيب" الذي ألغى الملكية في تونس أواخر يوليو/تموز 1957... إلاّ أنه حكم البلاد وكما لو أنه ملك. رحمة الله عليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 9 أبريل (نيسان) 2000

* * *

الضجر العربي... والجهاد المسالم

في الجزائر يحرص الرئيس عبد العزيز بوتفليقة على حضور الجلسة الختامية لـ "المؤتمر القومي العربي" يوم الجمعة الماضي وإلقاء كلمة قال فيها "إن التمادي في العمل الإنفرادي أو الثلاثي أو الرباعي قد أضرَّ بالأمة، كما أنه لا مناص من تحقيق مصالحة عربية شاملة من دون إقصاء أو تهميش لأي طرف...".

ولأن الرئيس بوتفليقة يقرأ منذ أن سجَّل خطوة مستهجَنة على طريق التطبيع بين الجزائر وإسرائيل، في عيون وعلى وجوه مَن يستقبلهم من العرب رسميين كانوا أو غير رسميين، تساؤلات كثيرة في هذا الشأن، فإنه قال في المؤتمر المشار إليه "إن الجزائر لا يمكن أن تُطبِّع العلاقات مع إسرائيل إلاّ بعد تحقيق السلام

الشـــامل والعادل القائم على عودة كامل الأراضـــي المحتلة...". ثم أطلق توصيفاً للتطبيع المستعجل تمثَّل بقوله "إن الجزائر ستكون آخر مَن يركع...".

ورئيس مجلس النواب اليمني الشيخ عبدالله الأحمر المعارض للتطبيع السـياحي المتواصـل خلسـة بين إسرائيل واليمن، قال في تصريحات له في اليوم نفسه الجمعة 7 أبريل/ نيسـان 2000 وفي إشـارة إلى الضغوط الأميركية على اليمن للتطبيع مع إسرائيل "إن الشـعب اليمني يفضـل أكل التراب على الرضـوخ للضـغوط الأميركية أو الغربية لإسـتقبال زوار إسرائيليين بسبب الوضع الإقتصادي المتدهور...".

وفي اليوم نفسه كان الدكتور عبد الرازق الشايجي الأمين العام لأول تَحرك شعبي خليجي ضد التطبيع يحمل إسم "المؤتمر الشعبي لمقاومة التطبيع مع العدو الإسرائيلي" يعلن عشية بدء أعمال المؤتمر في الكويت "إن الشعوب الخليجية مطالَبة بإتخاذ موقف موحّد في شأن مشروع مقاومة التطبيع مع إسرائيل إذ لم يعد اليوم مكان لضيق الأفق أو لوجهات النظر المتخاذلة والمشـكِّكة المطالبة بالكف عن الحشـد الإعلامي لحماية عقيدة الأمة ومكتسـباتها بحجة أن المطالَبات لن تسـمن ولن تغني من جوع ما دامت أميركا راعية السـلام المزعوم تضـغط بكل قوة على دول الخليج للمسارعة في التطبيع بعد أن ينجح المسار السوري – الإسرائيلي والمسار اللبناني – الإسرائيلي...". ثم نقرأ في البيان التأسـيسـي لهذا المؤتمر "إن الخطوات المتسارعة لجهود التطبيع بين الدول العربية وإسرائيل إنعكست في شكل مباشر على المجتمعات الخليجية، إذ تسـتهدف هذه الجهود إختراق النسـيج الإجتماعي والبُنى السـياسـية والإقتصـادية للمجتمعات الخليجية حتى تتحول أسـواقاً خلفية إسـتهلاكية للمنتجات الإسـرائيلية...". كذلك تسـتوقفنا في البيان الدعوة إلى "مقاومة كل أشـكال التطبيع مع العدو الإسـرائيلي حفاظاً على هوية دول الخليج وأمنها ومصالحها...".

هـذه المحطـات الثلاث التي أوجزنـا ظروفهـا ومنطلقاتها تبدو على جانب من الأهمية. فالدول الثلاث التي إنطلقت منها حالة إحتجاج قوية على التطبيع تربطها أطيب العلاقة بالولايات المتحدة. وبسـبب هذه العلاقة، أو تطلعاً إلى أن تكون العلاقة أوثق، كانت هنالك تلبية للرغبات الأميركية ولحظة إدارة الرئيس كلينتون في ما يخص التسوية التي ينشط في سبيلها لتحقيق مصالحات عربية – إسرائيلية. ومِن هنا فإنه عندما تستضيف الجزائر مؤتمراً شعبياً عربياً ولا تكتفي بالإسـتضـافة وإنما يخطب فيه الرئيس بوتفليقة ويحرص على أن يلقي كلمته في الجلسـة الختـاميـة للمؤتمر كي لا يؤثّر على توجهـات المجتمعين، وهي بطبيعة تكوينهم السـياسـي ضـد التطبيع ومع السـعي لتحقيق مصـالحة عربية... إنه عندما يحدُث ذلك ويقول الرئيس بوتفليقة على رغم ما بينه وبين الولايات المتحدة من علاقة باتت وثيقة جداً، ما معناه إن التطبيع العشـوائي الذي يريده الرئيس كلينتون هو ركوع وإن الجزائر ستكون آخر مَن يركع، فهذا مؤشر إلى حالة ضجر من السياسة الأميركية وضـغوطها بلغت مداها. كذلك إنه عندما تستضيف الكويت المؤتمر الخليجي الأول لمناهضة التطبيع مع إسرائيل الذي تريده الإدارة الأميركية فإن ذلك ليس فقط مؤشراً إلى إستعادة الكويت لدورها القومي الذي إستمر كثير التألق والفعالية إلى حين الغزو العراقي لها، وإنما هو أيضـاً مؤشر إلى حالة الضـجر الكويتي الشـعبي والرسـمي على حد سـواء من الإصـرار على أن يكون التطبيع العربي مع إسـرائيل هو الطريق إلى التسـوية بدلاً من أن يكون الحل الشـامل والعادل هو المبرِّر لتحقيق التطبيع.

وما يقال عن الجزائر والكويت يقال أيضـاً عن اليمن الذي لم يعد خافياً مدى عمق علاقته بالولايات المتحدة التي بلغت ضـغوطها على الحُكْم اليمني حد الإصرار على أن يحذو حذو الدول العربية التي تقبَّلت حكوماتها، أو تحديداً حلقات القرار في هذه الحكومات، فكرة التطبيع الذي يسبق الحل الشامل والعادل. ومن هنا جاءت فكرة التطبيع السـياحي الذي بدأ خلسـة ثم بات يحدُث تسـللاً. ولا ندري ما إذا كان الضـجر من الضـغوط الأميركية سـيصـيب الرئيس علي عبدالله صـالح نفسـه خصـوصـاً أن أحد التبريرات الرسـمية للمسـألة لا تبدو مقْنعة. وما يتذرع به بعض أوسـاط الحُكْم هو أن القانون والدسـتور اليمني يسـمحان للمواطنين اليمنيين بحمل جنسـيتيْن وأن السـياح الذين أتوا من إسـرائيل هم في الأصـل يمنيون، كما أن في ملفات الجامعة العربية قراراً يجيز تشـجيع اليهود من أصل عربي على العودة إلى ديارهم. أما لماذا لا يبدو التبرير مقْنعاً فلأن هؤلاء لا يعودون إلى بلدهم الأصلي اليمن ضِـيقاً بالعيش في إسـرائيل وندماً على هجرتهم إليها، وإنما هم يعودون كجسـر للتطبيع تعبُر عليه الحكومة اليمنية لتقيم علاقة مع إسـرائيل على نحو ما

فعلتْه موريتانيا. كما إن الدستور يجيز للمواطن حمْل جنسيتيْن إنما من الطبيعي ألاَّ تكون الجنسية الثانية جنسية دولة عدوة. ونقول ذلك بصرف النظر عما إذا كان من واجب الحُكْم في اليمن تعديل هذه المادة من الدستور أو على الأقل إرفاقها بتفسير.

ونجد أنفسنا هنا نتساءل: لماذا ليس في إستطاعة الرئيس علي عبدالله صالح بعد قراءة مستفيضة من جانبه للمزاج العربي عموماً والخليجي في شكل خاص، وكذلك في ضوء مؤتمر وزراء الخارجية العرب الناجح في بيروت وفي ضوء مؤتمر القمة بين الرئيسيْن حافظ الأسد وبيل كلينتون والذي أحدث عدم نجاحه حالة إحباط على المستوى العربي العام... لماذا ليس في إستطاعته في ضوء قراءته المشار إليها، أن يعيد وعلى الفور النظر في تساهله السياحي ويوقف هذا التدفق التسللي الإسرائيلي إلى اليمن تحت ستار السياحة ما دام الرأي العام اليمني ضد ذلك وما دام حتى حليفه الأساسي الشيخ عبدالله الأحمر وبشأنيْه القَبَلي والتشريعي كرئيس للبرلمان يعتبر أن الحكومة "إرتكبت خطأ فادحاً لأنها سحمت لهؤلاء النفر من اليهود الصهاينة بدخول البلاد لأن هؤلاء النفر من اليهود الذين يأتون على دفعات هم صهاينة إسرائيليون حاربوا العرب المسلمين في فلسطين وإغتصبوا الأرض وإستباحوا الحرمات والمقدسات الإسلامية، فكيف ندَّعي أنهم من أصول يمنية، وعلاقتهم باليمن إنتهت منذ خمسين سنة وأكثر، إن مجلس النواب لا بد أن ينظر في الموضوع...".

وبصرف النظر عما إذا كانت الضغوط الأميركية على الرئيس اليمني ما زالت في بدايتها أو أن الضجر الذي أصاب الآخرين من السياسة الأميركية لم يُصبه حتى الآن، فإن الرئيس علي عبدالله صالح لا بد أن يجد نفسه شخصياً وفي وقت قريب يضع حداً لهذا التسلل السياحي الإسرائيلي إلى اليمن خشية أن تتطور المسألة وبحيث ستطالب إسرائيل بضرورة إيجاد وسائل لتسهيل أمور السياح من بينها إنشاء دائرة قنصلية وخط طيران مباشر وفتْح فرع لمصرف وغيرها، وهي كلها أمور طبيعية شرط أن لا تسبق العربة الحصان ولا يسبق التطبيع الحل الشامل والعادل.

إن أهمية الوقفات التي أشرنا إليها، وقفة الرئيس بوتفليقة في الجزائر، والوقفة الخليجية في الكويت، ووقفة الشيخ عبدالله الأحمر في اليمن... إن أهمية هذه الوقفات هي في أنها رد على الإلحاح الأميركي من أجْل المضي في التطبيع والذي شاءت الصدف أن المتحدث بإسم الخارجية الأميركية أطلق دعوة فجة إلى العرب من أجْل إنجازه "عاجلاً أم آجلاً" في اليوم الذي كانت تحدُث الوقفات التي أشرنا إليها. وهو موقف من جانب الإدارة الأميركية سيجعل الضجر العربي من هذه الإدارة يتزايد ويجعل الصدر يضيق... إلى أن ييسِّر الله تحقيق الأمنية الكبرى وهي قمة عربية يلتئم فيها الشمل وتطْلق هذه القمة "لا" واحدة حاسمة هي لا للتطبيع الذي حدث والذي يمكن أن يحدُث، قبْل أن توافق الإدارة الأميركية وإسرائيل على أمر بات شبه متفَق عليه من جميع الحكومات والشعوب العربية وهي أنه لا تطبيع مع إسرائيل قبْل عودة كل الأراضي العربية المحتلة وقبْل قيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس. وبمثل هكذا قرار الذي هو الحد الأدنى، تستكين شعوب الأمة، وإلاّ فإن ظاهرة الجهاد المسالم أو العصيان الشعبي على حالات ومحاولات التطبيع الرسمي مع إسرائيل ستتزايد. ولن يكون في إستطاعة الحكومات مواجهتها ما دامت متعقلة، هذا إذا لم تجد هذه الحكومات نفسها تتبناها كبديل عن المواجهة المسلحة أو الرضوخ بالكامل إلى التطبيع بالإكراه الذي تريده أميركا... إلاّ إذا إنتهى اللقاء المفاجيء بين كلينتون وباراك إلى مفاجأة سارة لكرامة أميركا ولمطالب العرب العادلة السلمية بشكل عام.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 أبريل (نيسان) 2000

* * *

سلام رفيق الحريري... وسلام كوفي أنان

تتلاحق التطورات في شأن الحالة اللبنانية كما لم تتلاحق من قبْل. ولم يعد هنالك شك في أن الإنسحاب الإسرائيلي من لبنان سيتم وأن الأمم المتحدة بدعم قوي من الإدارة الأميركية ستكون المظلة الواقية لهذا الإنسحاب. كما لم يعد هنالك شك لدى أكثرية اللبنانيين بأن رئيس الحكومة السابق رفيق الحريري لم يكن هو الذي يراهن على السلام وإنما الذين لم يتحملوه هم المراهنون، وأن الرجل كان يؤمن بالسلام كخيار إستراتيجي وليس كتكتيك وكان يرى أنه في حال

توافرت ظروف مثْل هذا السلام فإن لبنان كبنية تحتية من مطار وسراي وطرقات ومناخ عمراني وجهوزية لإستيعاب المشاريع الإستثمارية يجب أن يكون على إستعداد لذلك. وهو في ضوء هذه الرؤية أمضى ست سنوات عمرانية كانت حافلة بالكثير من الإنجازات وبالعلاقات الدولية المتميزة التي يحتاج إليها لبنان في الساعات الصعبة كالتي يواجهها في مثْل هذه الأيام حيث التعقيدات الدولية كثيرة والأصدقاء متباعدون أو مُبعدون والإحباط على أشده في الداخل نتيجة أن الأحوال المعيشية سيئة والأعمال التجارية أكثر سوءاً.

والذي جعل اليقين يحل محل الشكوك ليس تكرار بعض المسؤولين الإسرائيليين لحديث الإنسحاب، وإنما هو إقتحام الأمم المتحدة بشخص أمينها العام كوفي أنان ساحة الجدل الدائر في شأن الإنسحاب، والإحباط الناشىء عن القمة الأميركية – السورية في جنيف يوم الأحد 26 مارس/ آذار 2000 بين الرئيسيْن حافظ الأسد وبيل كلينتون والمكاسب التي حصلت عليها إسرائيل من اللقاء الذي جرى في البيت الأبيض يوم الثلاثاء 11 أبريل/ نيسان 2000، فضلاً عن تصريحات نوعية لمسؤولين في الإدارة الأميركية وسكون دولي وعربي إزاء هذه التطورات ومفاجآت لم تكن في الحسبان من نوع المفاجأة الصينية التي تصب في مصلحة إسرائيل.

قبْل أن يقتحم الأمين العام الساحة ويلتقي بوزير خارجية إسرائيل ديفيد ليفي ليبرم معه الإتفاق في شأن سيناريو التحرك الذي يُفضي إلى إنسحاب آمن كانت صورة الموقف تعكس إنطباعاً بأن إسرائيل لن تنسحب وأنها تناور، وأما إذا هي إنسحبت فإن إنسحابها لن يكون كاملاً. وفي كل الأحوال فإنها يجب أن تدفع الثمن الباهظ وتدفع الثمن أيضاً القوى اللبنانية العاملة وما يُعرف بإسم "جيش لبنان الجنوبي" وهم من المدنيين والعسكريين. ومثْل هذا الإحتمال لم يكن من باب الإفتراض، ذلك أن قادة "حزب الله" الذي ينفِّذ شبان منتسبون إليه عمليات جريئة أرهقت الإسرائيليين جيشاً وجبهة داخلية، أطلقوا من التصريحات ما يوحي بأن عشرات العمليات سينفِّذها المقاومون من "حزب الله" في الساعات التي ستستغرقها عملية الإنسحاب وبحيث يتكبد الإسرائيليون وعملاؤهم من "جيش لبنان الجنوبي" ألوف القتلى وتدمير مئات الآليات، وبذلك تُمنى إسرائيل بـ "هزيمة العصر" إذا جاز القول. وبسبب هذا الإحتمال كان إصرار إسرائيل على أن يتم الإنسحاب بإتفاق يحمي لبنان الرسمي بموجبه الإسرائيليين المنسحبين وينجيهم من صواريخ "حزب الله"، وكان رفْض الحكومة اللبنانية لمثل هذا الإتفاق وتكرار القول إن الإنسحاب يجب أن يتم ومن دون قيد أو شرط، أي من دون إتفاق. ثم جاء عدم إنجاح الإدارة الأميركية للمحادثات بين الرئيسيْن الأسد وكلينتون في جنيف لتُعزز هذا الرفض وتجعل وعيد "حزب الله" يزداد تصميماً.

ومِن هنا فإنه عندما إقتحم الأمين العام كوفي أنان ساحة الجدل والوعيد والإفتراضات والتصريحات، وبطبيعة الحال بطلب من الإدارة الأميركية التي لا قدرة للأمين العام على رفْضها، وإلاّ أصابه ما أصاب سلفه الدكتور بطرس غالي، فهذا كان معناه أن الولايات المتحدة قررت المُضي في فصل المسار اللبناني عن المسار السوري في الجانب العسكري وذلك بدعم إنسحاب إسرائيلي من لبنان إنما تحت مظلة الأمم المتحدة بحيث إنه إذا تعرضت المقاومة لعملية الإنسحاب فإن ما قد يصيب لبنان وربما سوريا أيضاً هو عقاب تستصدره الإدارة الأميركية من الأمم المتحدة في شكل قرارات لمجلس الأمن ومن الفصيلة نفسها التي إستصدرتْها هذه الإدارة ضد العراق، وبحيث يقال إن هذه القرارات دولية وأن على لبنان – وربما سوريا – تنفيذ هذه القرارات كي لا يكون خارجاً على الشرعية الدولية... أي تماماً على نحو ما أصاب العراق حيث لم تبقَ دولة من دول العصر الأميركي الزاهر إلاّ وتُقر هذه الشرعية الدولية وتطالب العراق بالإنصياع لها إذا كان يريد العودة إلى ما كان عليه.

ولا يبدو أن إستصدار مثل هذه القرارات العقابية صعب، ذلك أن بعض الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن قد تتحفظ عليها شكلاً إلاّ أنها ضمناً ستوافق عليها. وهنالك من الوقائع ما يؤكد ذلك. فبريطانيا لا تعترض أمراً تريده الولايات المتحدة وهذا مبدأ وتقليد من بريطانيا التي كانت العظمى. وفرنسا قد تكتفي بتسجيل وقفة من نوع نقطة النظام عند مناقشة قضية ما لكنها في النهاية توافق وتسعى من خلال جنودها في القوة الدولية إلى أن تكون الحاجز الواقي للطرفيْن معاً وبالذات للجنود الإسرائيليين المنسحبين ولْتِركتهم الثقيلة من قوات "جيش لبنان الجنوبي" وللجيوب العملية التائهة. أما روسيا فإنها مغيَّبة وإلى درجة أنه ينطبق عليها القول بالنسبة إلى تأثيرها على قضايا تهم العرب إنها مجهولة المكانة

(على نحو قول مجهول مكان الإقامة). وقبْل أن يتوارى يلتسين ويُسلِّم بوتين المقادير تسليم اليد كان هنالك خيط رفيع من الأمل معقود على روسيا، إلاّ أن هذا الخيط بات غير مرئي تقريباً مع بداية عهد بوتين، فضلاً عن أن أفراد حلقة المستشارين الذين يحيطون بالرئيس الروسي الجديد المفاجيء بدأوا يمطرونه بالنصائح والإقتراحات التي ترى في معظمها أن على روسيا أن تتكبَّ على الإهتمام بالعلاقات مع جاراتها التي كانت تشكل ما عُرِف بـ "الإتحاد السوفياتي" وفي الوقت نفسه تكف عن الإهتمام بشؤون الشرق الأوسط، وتلقي عن كاهلها تبعات التسوية الإسرائيلية – الأميركية للنزاع في الشرق الأوسط وتكتفي بالمتابعة، وذلك لعدة موجبات من بينها أنه لم يعد في السوق العربية مكان تحتله روسيا لا من حيث الإقتصاد ولا من حيث السلاح، ومن بينها أن ليبيا إختارت بعدما بدأ الحصار ينحسر عنها، نتيجة جهود كان لروسيا دور فيها، التعامل مع الدول الأوروبية في مرحلة أُولى ثم مع الولايات المتحدة في مرحلة لاحقة، وأن العراق في نظر هؤلاء المستشارين سيحذو حذو ليبيا بعد أن يتم فك الحصار عنه. وتبقى الصين التي أبرمت صفقة تحصل بموجبها من إسرائيل على أجهزة رادار متقدمة من نوع "اواكس". ومن أجْل هذه الصفقة قام رئيس الصين يوم الأربعاء 12 أبريل 2000 بزيارة إلى إسرائيل هي الأُولى يقوم بها رئيس صيني ووقّع إتفاقيْن للتعاون الثنائي في مجال العلوم والتكنولوجيا ووضع حجر الأساس للتعاون في مجالات عسكرية متشعبة كما أنه وضع القلنسوة اليهودية على رأسه. ولن تمنع التنفيذ إعتراضات مسؤولين في الإدارة الأميركية على كل ما حدَث بين الصين وإسرائيل، لأن هذه الإدارة تعرف ضمناً أن الصين العظيمة باتت إلى حد ما في جيب التسوية الأميركية – الإسرائيلية للنزاع في الشرق الأوسط وأنها عند إستصدار قرارات العقاب الدولي لكل من لبنان وسوريا في حال الحاجة إلى هذه القرارات، من باب الردع أو من باب الإنتقام، لن تكون الصين، الصديقة للعرب المتفهمة لظروفهم ولضيقهم من كابوس الهيمنة الأميركية – الإسرائيلية عليهم، متحفظة ولا معترضة. فالصين هذه باتت هي النمر الذي هو من ورق، وستكون منحازة ولن يخفف من هذا الإنحياز أن رئيس الصين حاول أن يكون محايداً فقام بعد إسرائيل بزيارة أبو عمار في سُلطته الفلسطينية.

مَن يبقى؟

تبقى الدول غير الدائمة العضوية في مجلس الأمن وهذه ليست في معظمها أكثر من أجرام في الفلك الأميركي وهذه لن تكون حجر عثرة في التسوية الأميركية– الإسرائيلية للنزاع في الشرق الأوسط ولن تُسقط اللعبة الشريرة التي تقضي بأن تكون الأمم المتحدة هي الغطاء الآمن لإنسحاب إسرائيل ومن طرف واحد من لبنان.

إزاء ذلك ما الذي في إستطاعة لبنان وسوريا أن يقوما به؟

في الحد الأدنى لا بد من مناقشة لبنانية هادئة تتم تحت خيمة الوحدة الوطنية لأن مصير الوطن لا يقرره أفراد ولا يتحمل تغييب قوى كثيرة.

وفي الحد الأدنى أيضاً لا بد من تشاور لبناني – سوري – إيراني ينطلق من رؤية واضحة تتعلق بالسلامة الوطنية وتأخذ في الإعتبار وإستناداً إلى محنة العراق مع العقاب الدولي أن المرونة تبقى خياراً له الأفضلية على سواه، إلاّ إذا كان هنالك إستعداد لخيار عسكري يسانده العرب من دون إستثناء وبدءاً بمصر، وبمقتضاه تبدأ سوريا مواجهة محسوبة هدفها الوحيد دفْع القوات الإسرائيلية من الجولان بالتي هي أحسن... وعندئذ يبدأ التفاوض المتكافيء ويسود الإستقرار المأمول.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 أبريل (نيسان) 2000

* * *

الفورة السياحية بعد الفورة النفطية

إستوقفنا قبْل بضعة أسابيع وتحديداً يوم الإثنين 17 أبريل (نيسان) 2000 نبأ من المملكة العربية السعودية لم نتوقع سماعه، ويفيد أن مجلس الوزراء وافق في الجلسة التي عقدها ذلك اليوم برئاسة خادم الحرميْن الشريفيْن الملك فهد بن عبد العزيز على إنشاء "الهيئة العليا للسياحة" هدفها الإهتمام بالسياحة في المملكة وتنميتها وتطويرها والعمل على تعزيز دور قطاع السياحة وتذليل معوقات نموه بإعتباره رافداً مهماً من روافد الإقتصاد الوطني.

وللتدليل على جدية هذه الخطوة والأهمية المعلَّقة عليها فإن قرار تنظيم الهيئة المؤلفة من 16 مادة

تضمّن أن يكون لها مجلس إدارة يترأسه النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام الأمير سلطان بن عبد العزيز ويضم في عضويته وزير الداخلية، ووزير الخارجية والعضو المنتدب للهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية، والرئيس العام لرعاية الشباب، ووزير المالية والإقتصاد الوطني، ووزير التخطيط، ووزير التجارة، ووزير الزراعة والمياه، ووزير المعارف، ووزير الشؤون البلدية والقروية، ووزير الحج، والأمين العام للهيئة. ويوم الثلاثاء 9 مايو/ أيار أصدر الملك فهد أمراً ملكياً بناء على ما عرضه عليه الأمير عبدالله بن عبد العزيز وليّ العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني بتعيين الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز أميناً عاماً للهيئة بمرتبة وزير، فإستوقفنا النبأ الثاني أيضاً.

أما لماذا يستوقف مثل هذيْن النبأيْن كاتباً مثل حالنا، فلنوعية الخطوة ودواعيها وطبيعتها ونوعية الأشخاص الذين أُوكلت إليهم مسؤولية السهر عليها، إذ لم يحدُث في أي دولة من دول العالم أن كان الإهتمام بإستحداث هيئة للسياحة على نحو الإهتمام بالهيئة موضوع مقالنا هذا. حتى أن نظرة على تركيبة هذه الهيئة تجعلنا نفترض أنها ليست مجرد هيئة، وإنما هي غرفة عمليات تماماً كغرف العمليات التي تدار منها المعارك التي تستهدف منها تحقيق النصر. وواضح أن الدولة السعودية عندما تختار النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ليكون رئيساً للهيئة وتضم كأعضاء في مجلس الوزراء الذين تختص وزاراتهم في شكل مباشر أو غير مباشر بكل ما من شأنه أن يتجاوز أي معوقات تثبط من الهمم، فهذا معناه أن هذه الهيئة لا يمكن، أو لا يجب، أن تفشل. أو بكلام آخر، إن النجاح حليف هذه الهيئة من الخطوة الأُولى. ونقول ذلك إستناداً إلى ما هو معروف عن حزْم الأمير سلطان بن عبد العزيز وإصراره على أن يحالف النجاح مسؤولياته.

وقد يجوز القول إنه إذا كانت المسؤولية السياحية في معظم حكومات دول العالم مناطة بوزير أو بإدارة فإن المسؤولية عن السياحة في المملكة العربية السعودية مناطة بحكومة مصغرة. كما أن إختيار الأمير سلطان بن سلمان بالسمعة التي حازها كرمز عربي لريادة الفضاء في رحلة المكوك الأميركي الشهيرة عام 1985 ستستوقف شرائح من الناس المتميزين المسكونين بقضايا العلوم فضلاً عن أن إهتمامه بقضايا البيئة والتراث ومشاركته في تأسيس جمعية مستكشفي الفضاء سيجعله كثير الإهتمام بنوع من السياحة قد يجذب الأجانب.

جاء إهتمام المملكة العربية السعودية بالسياحة مفاجئاً، أو فلنقل إن الإعلان عن الإهتمام هو المفاجيء، وإن كان القرار الذي أصدره مجلس الوزراء السعودي يوم الإثنين 3 أبريل/ نيسان 2000 أي قبْل أسبوعيْن من قرار الإعلان عن الهيئة أوحى بأن هنالك خطوة سياحية ما على الطريق. وقضى ذلك القرار بالسماح بإصدار تأشيرات سياحية للأجانب تخولهم زيارة المملكة لغير أغراض الزيارة والعمل والحج والعمرة المعمول بها سابقاً. وبهذه التأشيرات يصبح متيسراً لزوار المملكة بغرض السياحة التنقل بين مدنها وحضور الفعاليات والمعارض والمؤتمرات السعودية وكذلك زيارة المناطق الغنية بالآثار أو حتى القيام بسياحة غير مطروقة وهي السياحة الصحراوية. واللافت للإنتباه أنه بسبب هذا القرار صدرت توقعات تشير إلى أن ثلاثة ملايين سائح قد يقصدون المملكة في السنوات الخمس المقبلة ينفقون حوالي ثلاثة بلايين دولار. أما بعد الإعلان عن الهيئة فإن آفاق السياحة في المملكة ستكون أرحب خصوصاً أنه سيكون لهذه الهيئة برامج تَلقى التفهم من الذين يتحسسون سلفاً عند ذِكْر كلمة السياحة وما تعنيها وما ينتج عنها. ومثْل هذا التحفظ سببه الإنفتاح السياحي الذي تشهده دبي بفضل الإنفتاح السياحي ونظيره الإنفتاح السياحي في البحريْن الذي يعود عليها بمردود يفيد في ساعات الشدة لم يشكِّلا وقفة لدى أهل القرار في المملكة العربية السعودية يتأملون خلالها ما يمكن جنْيه من السياحة، وأي نوع من السياحة هو الممكن إعتماده.

ما يجيز لنا الإفتراض بأن خوض تجربة السياحة في المملكة سيلقى النجاح هو أن المقتدرين كثيرون في المملكة الأمر الذي يعني أن في إستطاعة توافر المال إبتكار أنواع كثيرة من السياحة وإنشاء أهم ملاعب الغولف وإستحداث جوائز دولية لأنواع من الرياضات، أي بما معناه لا تعود مقومات السياحة تنحصر باللهو والشراب. فهنالك ملايين في العالم يبحثون عن السياحة الهادئة والسياحة العلاجية والسياحة الروحية وسياحة الغوص إضافة إلى رؤية الآثار. وتصنيع مثل هذه السياحات من شأنه إضافة إلى التسهيلات وحُسْن الوفادة والسخاء والتسوق للسلع

العالية الجودة المعتدلة الثمن، أن تستقطب الملايين من شتى القارات.

وأهمية التوجه السياحي أنه سيجذب أهل الداخل أيضاً فلا تعود المغادرة للسياحة وبالذات خلال أشهر الصيف إلى الخارج أمراً لا بد منه.

وبصرف النظر عما إذا كانت هذه الخطوة هي واحدة من الإجراءات الوقائية لمواجهة مرحلة ما بعد نضوب النفط مثلها مثل حركة التصنيع العريضة وحركة الإستزراع والإستصلاح الواسعة، إلاّ أنها في أي حال مِن التطلعات التي لا بد منها في الألفية الثالثة التي ستكون ألفية السلام في المنطقة بعد الحروب والمواجهات التي إستنزفت أي ضرورات أُخرى. وعندما نتأمل في ما تجنيه دول عربية مثل مصر والأردن وتونس والمغرب من السياحة وما سيجنيه لبنان وسوريا والدولة الفلسطينية في الأمد غير البعيد من السياحة... إننا عندما نتأمل ونرى أن السياحة المصرية تقدمت بكثير على قناة السويس من حيث الدخل بالعملة الصعبة، نجد إجابة للإهتمام المستَجد من جانب المملكة العربية السعودية بالسياحة والتي قد يصبح حديثنا حولها كـ "فورة سياحية" بعد عقديْن من الزمن بمثل الحديث في العقديْن المنصرميْن عن "الفورة النفطية".

وتبقى الإشارة إلى أنه إذا كان الناس في الخارج عرفوا لبضع سنوات في الربع الأخير من القرن العشرين المملكة العربية السعودية من خلال "معرض الرياض بين الأمس واليوم"، الذي أطلقه أمير العاصمة سلمان بن عبد العزيز والذي بات شمولاً "معرض المملكة بين الأمس واليوم" فإنهم في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين لن ينتظروا سياحة المعرض إليهم لمعرفة المملكة وإنما سيسوحون إلى المملكة ويَلْقون فيها ما لم يخطر في بال أحد أنه سيحدُث... وتلك في أي حال سُنّة التطور في دولة هاجسها أن تتطور في إستمرار منذ أن وحدّها الملك عبد العزيز.

كُتبت لـ "الشرق الأوسط" بتاريخ الخميس 20 أبريل (نيسان) 2000

* * *

الإستطلاع الأميركي... المتجرد والنزيه

لو أن أحد مراكز الأبحاث الأميركية أجرى إستطلاعاً نزيهاً ومتجرداً في الدول العربية من موريتانيا إلى لبنان حول رأي الناس في العملية السلمية لوجد هذا المركز أن تسعين في المئة من العرب يؤيدون العملية كمبدأ لكنهم يعترضون عليها كأسلوب، مقابل عشرة في المئة يرفضون هذه العملية. التأييد الكاسح، على أساس أن يكون السلام عادلاً وشاملاً تُستعاد بموجبه الأراضي العربية التي إحتُلت يوم الخامس من يونيو/حزيران 1967، وتقوم الدولة الفلسطينية التي لا قيمة لها إذا لم تكن القدس عاصمتها، وتتصرف إسرائيل في المنطقة على أنها دولة من دول المنطقة غريبة عنها لكنها مقبولة بالإضطرار وليس بالإختيار ما دامت تلك هي إرادة الدول الكبرى التي زرعت في الجسد العربي عضواً غريباً عنه ويتبين بعد نصف قرن على عملية الزرع هذه أن الجسد سيستمر يرفض هذا العضو بالشكل الذي تم الزرع فيه. دولة غير متفوقة عسكرياً ولا تملك من السلاح ما لا تملكه الدول الكبرى التي زرعت في الجسد العربي عضواً غريباً عنه ويتبين بعد نصف قرن على عملية هذه أن الجسد سيستمر يرفض هذا العضو بالشكل الذي تم فيه الزرع. دولة غير متفوقة عسكرياً ولا تملك من السلاح ما لا تملكه الدول الأُخرى مثل مصر وسوريا والسعودية. دولة تنشط في قطاع التنمية والخدمات، وتعتذر من خلال المسلكية الجديدة التي لا بد من إتْباعها عن كل ما فعلته في السنين الماضية ضد الشعب الفلسطيني وما تسببت به من كوارث للدول العربية من دون إستثناء وتكفي كارثة التأخر في مجال التقدم التقني والتنمية والتطوير نتيجة إشغال هذه الدول بالحروب وما تتطلبه هذه من إمكانات لم تشعر بها إسرائيل لأنها كانت تحصل عليها مجاناً من الولايات المتحدة وغيرها، في حين أن العرب كانوا يحصلون بشق النفس وعلى القليل من هذه الإمكانات وكان هذا القليل على حساب التنمية والتطوير ومواكبة العصر.

أما الرفض المتواضع في نسبته فعلى أساس أن الصهيونية إغتصبت وطناً وشردت شعباً بات يعيش في المخيمات أسوأ أنواع العيش كما أنها إنتزعت من المسلمين والمسيحيين على حد سواء مقدسات فحرمتْهم من بهجة التبرك بها وزيارتها. ومثْل هذا الحرمان الروحي هو بأهمية الحرمان الوطني. وهي لم تكتفِ بذلك وإنما تركت فئات من الخارجين على الأخلاق والقيم يعبثون بهذه المقدسات أو يحاولون إحراقها.

ومن أجْل ذلك فإن أي تساهل مع إسرائيل في هذا الأمر غير مقبول وأن الخيار الوحيد هو الذي يلخصه الشعار الشهير للرئيس الراحل جمال عبد الناصر (ما أُخذ بالقوة لا يُسترد بغير القوة). ولو أن مركز الأبحاث الذي نشير إليه أجرى الإستطلاع النزيه والمتجرد حول الطريقة التي تتعامل بها الإدارة الأميركية مع العملية السلمية لوجد أن تسعين في المئة هم ضد هذه الطريقة ويعتبرونها غير عادلة مقابل عشرة في المئة يؤيدون هذه الطريقة.

الذين هم ضد الطريقة يرون أنها دون ما في إستطاعة الدولة التي تتزعم العالم أن تفعله، ذلك أنها أخذت على عاتقها مهمة الوسيط إلاّ أنها تتعامل مع الحلقة الأخيرة من العملية السلمية ونعني بذلك ما يتعلق بسوريا ولبنان والفلسطينيين وكما لو أنها تقف وراء إسرائيل في الحد الأقصى أو إلى يمينها في الحد الأدنى. فالوسيط لا يجوز أن يكون منحازاً على نحو ما فعل الرئيس كلينتون عندما إلتقى في جنيف بالرئيس حافظ الأسد حيث أنه جاء سلفاً متفهماً كل التفهم وجهة النظر الإسرائيلية مكتفياً فقط في المقابل بالإستماع إلى وجهة النظر السورية. وعندما إلتقى بعد ذلك في واشنطن الثلاثاء 11 أبريل برئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك تبيّن لماذا كان على النحو الذي أشرنا إليه عندما إلتقى بالرئيس الأسد.

أما العشرة في المئة الذين يؤيدون الطريقة التي تتعامل بها الإدارة الأميركية فهؤلاء لهم ثارات على الفلسطينيين وعلى الدور السوري في لبنان وعلى أهل الحُكْم اللبناني المتعاطف مع أهل الحُكْم السوري والمنسِّق معه، فضلاً عن شرائح من أصحاب المصالح والطموحات يرون أن تأخذ الإدارة الأميركية وقتها وتضع الحل الذي تراه مناسباً مع الإكتفاء بتسجيل بعض الملاحظات والتمنيات.

ولو أن مركز الأبحاث أجرى الإستطلاع النزيه والمتجرد الذي نشير إليه ووجّه سؤالاً محدداً حول العلاقة العربية – الأميركية والعلاقة الإسرائيلية – الأميركية لوجد أن تسعين في المئة من الشرائح التي تُمثل الرأي العام العربي يعتبرون أنفسهم في حيرة حول ما إذا كانت الإدارة الأميركية تملك قرارها بالنسبة إلى إسرائيل أم إنها أسيرة الإرادة الصهيونية العالمية والتي تشكِّل أصوات اليهود ودور هذه الأصوات في الإنتخابات الأميركية على أنواعها جزءاً من قوة هذه الإرادة. ويستند هؤلاء إلى مواقف معلنة مثْل ذلك الموقف الذي عبّر عنه رئيس وزراء إسرائيل السابق نتنياهو الذي هدد بإحراق البيت الأبيض وإلى موقف حديث عبّر عنه ديفيد ليفي وزير خارجية إسرائيل الذي رأى بما معناه أنه لا يحق للولايات المتحدة التدخل ولا الإعتراض في شأن التعاون العسكري – الإسرائيلي – الصيني والذي يشكِّل بيْع إسرائيل من الصين طائرات رادار (اواكس) للكشف والإنذار المبكر وهي صفقة زار من أجْلها الرئيس الصيني جيانغ زيمين إسرائيل يوم كان بارك مجتمعاً في واشنطن بالرئيس كلينتون ولقي من جانب الإسرائيليين حفاوة بالغة كونها الزيارة الأُولى يقوم بها رئيس صيني لإسرائيل. وما قاله ليفي وبدا قوله وكما لو أنه رفْض للإعتراض الأميركي "إن إسرائيل دولة كغيرها من الدول تسعى من أجْل تحسين مصالحها...".

أما العشرة في المئة المتبقية من النسبة فإن أفراد الشرائح التي تمثِّلها يرون أن الإدارة الأميركية هي أسيرة القوة الخفية للصهيونية العالمية وأن النظام العالمي الجديد هو بدعة صهيونية في الأساس كان من معالمها المراكز الأساسية لصناعة القرار في الإدارة الأميركية باتت منذ خمس سنوات وكما لم يحدُث من قبْل بهذا الإختراق، في أيدي يهود يمارسون الضغط على رئيس هذه الإدارة وهذا بدوره يمارس الضغط على العرب. كما أن أفراد الشرائح التي تمثِّل نسبة العشرة في المئة يرون أن باراك عندما إلتقى في واشنطن يوم الثلاثاء الماضي بالرئيس كلينتون إنما ذهب ليؤكد أن الرئيس الأميركي كان في قمة في جنيف مع الرئيس الأسد يمثِّل الموقف الإسرائيلي وأنه كان ما زال مقتنعاً به بصرف النظر عما إذا كانت هنالك تفسيرات وإجتهادات متقاطعة في هذا الشأن.

وتبقى نقطة أخيرة من هذا الإستطلاع الذي لو أجراه مركز أبحاث أميركي نزيه ومتجرد لأكتشف حقيقة مشاعر الرأي العام العربي ولكنه مع الأسف لا يجريه لأنه متأكد من النتيجة التي نشير إليها. وتتمثل هذه النقطة بسؤال حول نظرة الشعوب إلى الولايات المتحدة وإلى المصير الذي ستنتهي إليه هذه العلاقة، وسؤال آخر حول كيف السبيل إلى إنقاذ العملية السلمية من السقوط في نصف قرن جديد من الصراع والحروب.

وحول هذيْن السؤاليْن سيجد المركز أن تسعين في المئة من أفراد الشرائح التي تمثِّل الرأي العام العربي يرون أن العلاقة قائمة بين الإدارة الأميركية ومعظم

الأنظمة العربية إلاّ أنها علاقة مقطوعة بين هذه الإدارة وبين شعوب الأمة ولن تستقيم الأمور إلاّ إذا أثبتت الإدارة الأميركية أنها تنشد الصداقة المخلصة مع الأمة العربية وهذا لن يتحقق إذا إستمرت الإدارة الأميركية قلبها وعقلها مع إسرائيل وقبضتها على العرب. ومثل هذا الواقع يناقض رؤية الرئيس الراحل أنور السادات قبْل ربع قرن للدور الأميركي حيث كان يصر على أن 99 في المئة من أوراق اللعبة بيد أميركا ومن أجْل ذلك وضع مصير الأمة بين يديها ومن دون أن يأخذ في الإعتبار أن الأوراق المشار إليها موضوعة داخل خزانة صهيونية... المغلقة بكثير من الإحكام.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 أبريل (نيسان) 2000

* * *

أبو عمار... ودبلوماسية إرتكاب "اللياقة"

فاجأنا الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات يوم الخميس 20 أبريل (نيسان) الماضي عند إستقبال وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت له في منزلها في جورجتاون في واشنطن، بأنه طبع على يسراها قُبلة لم نلاحظ حتى الآن أن زعيماً عربياً من قبْل إرتكب هذه "اللياقة" مع أولبرايت. كما لم نلاحظ أن أحد رؤساء إسرائيل فعل الشيء نفسه.. على الأقل لم نلاحظ مثل هذه اللقطة التاريخية منشورة في جريدة أو مبثوثة عبْر إحدى الفضائيات.

في سياق أسلوب الرئيس الفلسطيني، الموعود بدولة، عندما يريد التعبير عن المشاعر أو ممارسة اللياقة، تبدو قُبلة اليد التي نشير إليها على يد السيدة أولبرايت أمراً طبيعياً بالنسبة إليه. فهو نادراً ما يكتفي عندما يزور أحد الحكام أو المسؤولين الكبار بالمصافحة يداً بيد وإنما يقرن المصافحة بالعناق أو بتقبيل الرأس.

أما بالنسبة إلى الرأي العام الأميركي، فإن صورة زعيم عربي يعتمر الكوفية المرقَّطة يمسك بيد وزيرة الخارجية (لا ندري لماذا كانت اليد اليسرى وليس اليمنى) ويطبع قُبلة علنية عليها، تبدو بمثابة لقطة هوليوودية.

لو كانت هذه القُبلة الفلسطينية على اليد اليهودية – التشيكية – الأميركية للشكر على موقف تاريخي إتخذتْه الوزيرة أولبرايت لكان ذلك ربما من الأمور التي يمكن تبريرها، أي ما معناه إن لضرورات الشكر إزاء سيدة مثل أولبرايت تشغل المنصب الثاني في الإدارة الأميركية طريقة واحدة هي تقبيل يدها. أما أنها مجرد مظهر من مظاهر اللياقات، أو أنها تندرج ضمن دبلوماسية العناق والتقبيل التي يتقنها أبو عمار وبات متمرساً بها وصارت وسيلة تصل إلى درجة التقليد، فإن مضارها في الجانب الفلسطيني والعربي أكثر بكثير من منافعها المتوخاة عند الرأي العام الأميركي الذي، كما سبق أن أشرنا إليه، ينظر إليها على أنها لقطة هوليوودية حقيقية وليست مفتعلة كتلك المشاهد التي يتم حشْرها في بعض أفلام هوليوود وتتطلب إجتهادات المخرج تعمير رؤوس بعض الكومبارس بكوفيات مرقطة أو عادية وبالذات عندما تكون هنالك رغبة غير نظيفة لإظهار العربي بأنه إرهابي أو مبذِّر أو جاهل أو مزواج.

وقد يقال إن الرئيس الفلسطيني يعرف تمام المعرفة مدى إنزعاج أبناء شعبه – وهو الأكثر دراية بنبض هذا الشعب – وهم يشاهدون على شاشات الفضائيات أو في جريدة، هذا المنظر الذي ينفرد به زعيمهم دون غيره من القادة العرب. لكن الرئيس الفلسطيني يدرك أن شعبه يعرف حقيقة مشاعره وتصرفاته ودبلوماسية التقبيل التي يعتمدها كسلاح من أسلحته الكثيرة، وأنه – أي الشعب الفلسطيني – ينظر إلى القُبلة على يد أولبرايت بأنها في الظاهر من باب اللياقة إلاَّ أنها في الباطن من النوع الذي ينطبق عليه المثل الشعبي الذي نورده بالفصحى لتسهيل فهْمه على النحو الآتي: إن اليد التي لا تحبها إطبع عليها قُبلة وأدعُ عليها بالكسر.

وحتى إشعار آخر... ليس هنالك ما يؤكد أن أولبرايت والإدارة الأميركية عموماً التي تشكِّل "سيدة البروشات" أحد أركانها، فعلت شيئاً كبيراً للرئيس عرفات وقضيته، عدا أن الرئيس كلينتون بعدما كان إجتمع بالرئيس عرفات في أعقاب لقاء الأخير بـ أولبرايت في منزلها وسمع منه مر الشكوى، وبعدما كان إلتقى قبْل ذلك برئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك، قرّر إيفاد وزيرة الخارجية إلى المنطقة لإعطاء دفعة للعملية السلمية. ومثل هذه الخطوة باتت مؤشراً كثير الوضوح تعتمده الإدارة الأميركية عندما لا تريد أن

تحسم أمراً لا يكون لمصلحة إسرائيل. وعند التأمل في عشـــرات الجولات التي قامت بها أولبرايت وموفدون آخرون إلى المنطقة نكتشـــف أن هؤلاء يأتون لرفع العتب أو بهدف المماطلة. ولولا ذلك لما كان أبو عمار تعمّد قبل أن يتوجه إلى واشـــنطن أن يزور القاهرة أولاً ويتزوّد من الرئيس حســـني مبارك خلال لقائه به يوم الأربعاء 19 أبريل (نيسان) الماضي، بما يجعل هذه الإدارة تعيد النظر في أسـلوب تعاطيها مع المســألة الفلســطينية، وذلك على أســاس أن الرئيس مبـارك بـات خبيراً في فهْم العقليـة الأميركيـة وفـك طلاســم ألغازها إلى حد كبير. وفي هذه الزيارة إكتفى أبو عمار بهذا التزوّد ولم يكرّر الحملة التي سـبق أن أطلقها ضد باراك يوم الأحد 9 أبريل (نيسان) الماضي بعد لقاء مع الرئيس مبارك ســجلت آلات التصـــوير لقطة له بدا فيها الرئيس عرفات، المحاط بأعضـــاء الوفديْن المصـري والفلسـطيني الذين شـاركوا في جزء من اللقاء، يقترب من الرئيس مبارك ويقول له وشوشة كلاماً لم يســمعه الحاضـــرون وأثار دهشـــة الرئيس المصري. أما الجملة المشار إليها فإنها تضمنت قوله "إن باراك هو زعيم المتشددين والمستوطنين وأتوقع أن يكون مصـيره هو نفس مصـير نتانياهو إذا ما إسـتمر رافضاً للسلام...".

يبقى أنــه من الجــائز الإفتراض أن أولبرايــت، المتباهية بكل تأكيد بأن رمز النضـال الفلسـطيني طبع قُبلة على يدها، لن تقوم في زيارتها الجديدة للمنطقة بتســـهيل العملية الســـلمية في ما يخص الجانب الفلسـطيني – الإسـرائيلي، وإنما قد تأتي لتودِع الرئيس عرفات الذي ربما لن تراه بعد الآن وتشكره على كل ما أبداه من تفهّم ومسـايرة للتعاطي الأميركي مع الجانبيْن الفلســـطيني والإســـرائيلي، ولتقول لـه إن عليه أن يتحمل.. مع تذكيره بأنه كان دائماً يردّد أبيات الشـــعر القائلة (ســأصــبر حتى يعجز الصــبر عن صــبري، وأصـبر حتى ينظر الله في أمري، وأصـبر حتى يعرف الصبر أنني.. صبرتُ على أمرٍ أمرُّ من الصبر). ولا بد أنها ستُطمئنه بأن الإدارة الأميركية الآتية ستواصل الإهتمـام بـالأمر خصـــوصـــاً إذا كـان الفـائز في الإنتخابات الرئاسية في نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل هو آل جور أو كلينتون الثاني كما هو جوهر الحقيقة.

وفي الوقت نفســه ســتشــدّ على أيدي باراك عندما تلتقي به وتعمل على أن تكون إبتسـامتها من كل قلبها وهي تجلس متباهية إلى جانبه، وسـتقول له ما معناه: لقد أنجزْنا ما أردتموه حيث إنتزعْنا من الفلسـطينيين ما عجزتم عن الحصـــول عليه، ومـا طلبنـاه إلى حين إنتهت ولاية صـديقكم بيل كلينتون، ونحن ضـمناً معكم في ما أعلنتم عنه في الإجتماع الأســـبوعي لمجلس الوزراء يوم الأحد 19 أبريل (نيسـان) 2000 من أنكم تعترفون بدولة فلســطينية منزوعة الســلاح تقام على نحو ســبعين في المئة من أراضـــي الضـــفة الغربية وقطاع غزة، ومن أن المســـتوطنات اليهودية ســـتبقى تحت السيادة الإسرائيلية ويجري ضمها إلى حدود دولة إســـرائيل في إطار "جيوب إســـتيطانية" وأن القدس بشـطريْها الغربي والشـرقي سـتبقى عاصـمة إسـرائيل الموحدة والأبدية. كما ســـتثني على كرَمِه بأنه على إستعداد لتقديم سلفة من الأراضـي للسلطة الفلسطينية على حسـاب المرحلة الثالثة من إعادة إنتشـار الجيش الإسرائيلي في المرحلة الحالية. وقد لا تتمكن أولبرايت المخلصـــة لإســـرائيل دولةً وديانةً من حجْب إنبهارها بهذا العزم من جانب باراك وتقول له إنه أضـــاف إلى رؤاها كرئيسـة للدبلوماسـية الأميركية مصـطلحاً جديداً هو مصطلح "الدولة المعتَقَلة" وذلك على أساس أن ما يطرحه باراك لشكل الدولة يعني أنها ستكون دولة رهن الاعتقال، أي أكثر من محتلة لأن الإحتلال لا يلغي الأمل والطموح والسـعي من أجْل الإسـتقلال، في حين أن الدولة المعتَقَلة ستبقى دائماً برسم الإعتقال.

يبقى أيضاً أننا سنعتذر من السيدة مادلين أولبرايت ونســـجل التقدير لإدارة الرئيس كلينتون، إذا ســـارت الأمور عكس ذلك وفاجأت العالم بأنها كانت إدارة نزيهة ومخلصـــة بدليل أن دولة فلسـطين وعاصـمتها القدس التي ســـيعلن الرئيس عرفات عن قيامها في سبتمبر (أيلول) المقبل ستكون دولة مضمونة وموضع إهتمـام الولايـات المتحـدة ورعـايتهـا. وفي هـذه الحـال تصـــبح القُبلة التي طبَعَها أبو عمار على يد أولبرايت مقبولة ومبرّرة... جزاء ما قدمتْه للقضية من جهود.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 3 مايو (أيار) 2000

* * *

لا صوت يعلو... على صوت الإنسحاب

كان لبنان يعيش أجواء حالة جديدة عليه، عزّزها تأييد وزراء خارجية مصـر والسـعودية وسـوريا خلال

إجتماعهم في تدمر يوم الأربعاء الماضي لدور وجود القوات الدولية في الجنوب بعد الإنسحاب. كان لبنان يعيش أجواء هذه الحالة الجديدة قبْل أن يتجدد التوتر بين إسرائيل و"حزب الله" فجأة فجر الجمعة السادس من مايو/أيار 2000، وتُكرر الطائرات الإسرائيلية في ذلك الفجر عدوانها على محطات الكهرباء في لبنان وتهدد بالمزيد من الإيذاء للبنى التحتية رداً على إطلاق المقاومة بضعة صواريخ كاتيوشا على قرى إسرائيلية محاذية للحدود مع لبنان من بينها كريات شمونة إنتقاماً لعدوان إسرائيلي قالت إسرائيل إنه حدث بطريق الخطأ (مع أن العدوان في شريعة إسرائيل دائماً مبرمَج ودائماً مخطَّط له) وكان اللبنانيون سعداء بهذه الحالة التي بدأت منذ أن تم الإعلان على أن الأمم المتحدة تسلمت الرسالة الخطية ذات السطور الخمسة التي تتعهد فيها إسرائيل بالإنسحاب من الأراضي التي تحتلها في جنوب لبنان تطبيقاً للقراريْن 425 و426، أجواء يمتزج فيها الفرح مع الطمأنينة مع الخوف.

فرح وحزن في وقت واحد، وطمانينة وخوف في الوقت نفسه! كيف ولماذا هذا الجمْع بين الأضداد؟

والتوضيح لذلك هو أن اللبنانيين باتوا أكثر إقتناعاً من ذي قبْل بأن الإنسحاب سيتم ما دامت إسرائيل إنتقلت من الحديث عن الإنسحاب كتصريحات كان الهدف منها في الأشهر الباراكية الماضية التلاعب بأعصاب اللبنانيين والتشويش على الوقفة العربية التضامنية معهم، إلى تعهُّد خطي. ومع أن إسرائيل ذات ماضٍ في التعامل غير نزيه ولا تلتزم بالإتفاقات والمعاهدات وتتنصل من الوعود التي تقطعها على نفسها، إلاّ أن اللبنانيين إعتبروا أن الرسالة المكتوبة التي أودعتْها إسرائيل الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان يوم الإثنين 17 أبريل/نيسان 2000 هي تحوُّل نوعي في التعامل الإسرائيلي وأن إسرائيل جادّة هذه المرة في تنفيذ ما تتعهد به ليس إحتراماً منها لقرار دولي وإنما لأن التنفيذ هذه المرة يحقق لها أكثر من غرض واحد من بينها الظهور أمام العالم بمظهر الدولة التي تحترم الشرعية الدولية وهو أمر تحتاج إليه في معركة دبلوماسية تخوضها والهدف منها مواجهة الإلتفاف القوي والصادق حول المقاومة في لبنان والذي صدرت عن الدولة اللبنانية من جهة وعن كل الدول العربية خلال مؤتمر وزراء الخارجية الإستثنائي من حيث المكان (بيروت بدلاً من القاهرة) من جهة أُخرى إشارات إيجابية تؤكد هذا الإلتفاف.

وإلى ذلك، وهذا هو الأهم، إن الإنسحاب يحقق تماسكاً لإسرائيل في جبهتها الداخلية التي باتت لكثرة الخسائر التي تُمنى بها قواتها في جنوب لبنان تشهد تشققات خطيرة كان من شأن إستمرارها أن تتسبب في زلزال سياسي تصعب معالجة آثاره، وهذا من شأنه أن يقلِّل من قوة التأثير على المعركة الرئاسية في الولايات المتحدة وبحيث لا تستطيع ممارسة الضغوط التي تجني من ورائها المكاسب المالية والعسكرية من هذه المعركة.

ومن الطبيعي أن يستقبل اللبنانيون هذه الخطوة بالفرح على أساس أنه ليس هنالك إنسان في العالم لا يفرح لأن المحتل يغادر الأرض التي يحتلها، فكيف إذا كانت المغادرة هي بمثابة إجلاء نتيجة صمود اللبنانيين الذي سيذهب مثلاً عند الحديث عن صمود الشعوب، ونتيجة التضحيات من جانب المقاومة التي ستذهب هي الأُخرى مثلاً عند الحديث عن الإستعداد للإستشهاد في سبيل تحرير الأرض. لكن في الوقت نفسه كان هنالك الحزن على عشرات اللبنانيين القابعين في سجون الإحتلال. وجاء الإعلان عن الرسالة الإسرائيلية الراضخة للشرعية الدولية متزامناً مع الذكرى الرابعة لمجزرة قانا وفي وقت كانت الأجواء العاشورائية ما زالت سائدة وبالذات في العمق الشيعي الكبير للمقاومة التي يتصدرها "حزب الله". وهذه الأجواء وتلك الذكرى كانت عابقة بالحزن الوجداني وهذا ماقصدناه من قولنا إن الفرح إمتزج بالحزن. والذي جعل هذا الحزن يبدو حالة وطنية وليس مناحة ودموعاً غزيرة هو الإهتمام اللافت من جانب السيدة بهية الحريري عضو مجلس النواب اللبناني لإحياء ذكرى مجزرة قانا، بدعم ومساندة ملحوظتيْن من جانب شقيقها رئيس الوزراء السابق ومحطته التلفزيونية "المستقبل" الأمر الذي جعل المناسبة عاشوراء أخرى، أيقظت في النفوس ولدى اللبنانيين بشتى مذاهبهم مشاعر نقية كادت تغطيها المجادلات السياسية العقيمة والتعاطي مع الأمور الإنتخابية وكما لو أنها هي القضية الوطنية الأُولى التي تهم البلد الذي يعيش حالة إستنزاف لا مثيل لها.

هذا على صعيد إمتزاج الفرح من الإجلاء الإسرائيلي الموعود والمتوقع أن يتم في موعد أقصاه السابع من يوليو 2000 بالحزن الذي أشرنا إلى ملامحه. أما على صعيد إمتزاج الطمأنينة بالخوف فإن ما يمكن قوله هو أن الطمانينة ناشئة عن أن

الانسحاب – الإجلاء سينهي موجِّلات كثيرة من بينها أن "حزب الله" سيتحول تلقائياً من قوة عسكرية ضاربة (كمقاومة) إلى قوة سياسية ذات شأن كبير في الحياة السياسية اللبنانية. ومنها أيضاً أن العلاقة اللبنانية–السورية ستأخذ شكل التعاون المتوازن بما يحفظ أمن سوريا خصوصاً إذا إستمرت المفاوضات بينها وبين إسرائيل على التوقف الذي هي عليه. تعاون يستند في روحيته إلى إتفاق الطائف ويضع حداً للتضارب الراهن في الرؤية إلى سوريا ودورها في لبنان. كما أن الإنسحاب – الإجلاء قد يجعل الصيف الأول في العام 2000 صيفاً مثمراً. بمعنى أن تنشط حركة السياحة والإصطياف وفي ذلك تعويض عن الكساد الذي أصاب الموسم الماضي والذي نشأ عن عدوان إسرائيلي على محطات كهرباء كان آخر جرائم رئيس الوزراء السابق نتنياهو، وهو عدوان أمر به بعدما بات إيهود باراك رئيساً للوزراء إنما من دون أن يتسلم منصبه رسمياً. وبسبب ذاك العدوان الذي يحتار المرء من كان شاكراً للآخر في حدوثه نتنياهو أم باراك، بات التيار الكهربائي مقطوعاً لبضع ساعات يومياً عن لبنان وتسبَّب ذلك في متاعب ومآسٍ على الصعيد المعيشي وأيضاً على صعيد التجارة والسياحة وهو ما يكابده لبنان حتى اليوم ويشكِّل سبباً لإفلاسات كثيرة للتجار ورجال الأعمال غير القادرين على الصمود.

أما الخوف الناشيء فناشيء عن أن تداعيات الإنسحاب من شأنها تفجير ألغام كثيرة موقوتة. وما إستعجال الجماعات اللبنانية المعارضة للوجود السوري إلاَّ إحدى الإشارات لإحتمال حدوث هذا التفجير. كما أن الخوف ناشيء من أن يكون الانسحاب – الإجلاء بالنسبة إلى النشاط العسكري لـ "حزب الله" مجرد إستراحة مقاوم لا أكثر وذلك في إنتظار أن يتحقق الحل السوري – الإسرائيلي وبما يجعل سوريا هي الأُخرى مطمئنة إلى أنها لن تبقى وحدها. أما ما يتعلق بموضوع الفلسطينيين القابعين ظلماً وعدواناً في المخيمات فإن هذا الموضوع يشكل في حد ذاته سبباً للشعور بالخوف من أن يتحقق الإنسحاب الإسرائيلي لكن النشاط ضد إسرائيل ومن لبنان يتواصل، إلاّ إذا كان الحُكْم اللبناني بقوة عزيمة الحُكْم السوري بحيث تصبح جبهة الجولان بمثْل جبهة الجولان يعود أمر تسخينها إلى قرار السُلطة المسؤولة عن البلد وغيرها من إرادات.

وفي إنتظار ما ستنتهي إليه الحال من الملاحَظ أن التوجه السائد هو التعامل بجدية ويقظة مع الإنسحاب الإسرائيلي، الذي صادف تسليم إسرائيل الموافقة الخطية في شأنه إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان قيام الرئيس إميل لحود بجولته السعودية – الخليجية – الإيرانية – المصرية. وهي جولة بعثت الطمأنينة في نفوس اللبنانيين المكابدين الصابرين المنتظرين لحظة الإنفراج.

ومن الآن وحتى تلك اللحظة فإن الأمل يحدو اللبنانيين وبالذات مَن هم حريصون على بلدهم أكثر من حرصهم على أنفسهم وعلى مكانتهم المصنّعة والمفتعلة وعلى أحلامهم التي تتجاوز قدراتهم، بأن لا صوت يعلو على صوت الإنسحاب... عدا – مع الأسف – صوت الكسَّارات التي تبقر بطون الجبال اللبنانية الجميلة وتنطلق منها يومياً وعلى مرأى السُلطات المدنية والعسكرية أصوات الديناميت حارقة الخضرة التي حولها مشوِّهة جمالاً حباه الله للبنان. وهذه التفجيرات والتي هي بأيدي لبنانيين وبترخيص من السهل وقْفه، لا تختلف عن التفجيرات اليومية الإسرائيلية في شيء سوى أن إعتداءات إسرائيل وتفجيراتها وجدت الأمين العام للأمم المتحدة الذي يضع بمساعدة أميركا حداً لها، أما تفجيرات الكسارات فلا تجد السُلطة التي تردع أصحابها، إلاّ إذا إرتأى الرئيس لحود أن يضع حداً لهذه الجريمة التي تصدم كل مستثمر خليجي، بحيث تسكت التفجيرات التي تحدُث في الكسَّارات على نحو إسكات المدافع الإسرائيلية.

وإن كان ذلك لا يحدُث، فإن العالم سيشهد علينا بالهمجية، وبأننا شعب غير جدير بهذا الوطن كثير البهاء والجمال، والذي تعلو فيه أصوات الكسَّارات على أصوات هيبة الدولة وتمنيات المواطنين الذين يريدون بلدهم آمناً ومستقراً... ودائماً جميلاً وأخضر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 5 مايو (أيار) 2000

* * *

جورج حبش... وحكمة الإستقالة

في يوبيله الماسي قرر الدكتور جورج حبش الذي ملأ الدنيا العربية من دهاليز بيروت إلى جبال ظفار إلى الصحراء الأردنية حيوية ونضالاً وتبشيراً وتفجيراً

للطائرات ورعباً لعمليات خطْف الطائرات المدنية من المطارات الدولية وإستقطاباً لمئات السوريين من شتى القارات، أن يُنفَّذ ما كاد الرئيس جمال عبد الناصر أن يقدِمَ عليه بعد هزيمة الخامس من يونيو 1967 لولا أنه ما لبث أن عاد عن قرار التنحي بعدما كان وجد في التنحي ما يريح ضميره بصفة كونه مسؤولاً كرئيس للجمهورية عن الهزيمة. وبعودته عن قرار التنحي لم يعد في إستطاعته النزول إلى الجماهير والعمل في وسطها كمناضل، وهو ما أوحى به عندما قرر بنفسه خطاب التنحي الشهير مبثوثاً عبْر الإذاعات ومحطات التلفزيون.

لم يأتِ قرار الإستقالة الحكيمة للدكتور حبش نتيجة الوضع الصحي، ذلك أن الصحة ليست على ما يرام منذ حوالى ربع قرن ومع ذلك لم يستقل. ولم يأتِ بسبب عامل السن لأن الثوريين لا يعترفون – على نحو ما ألفناه في معظمهم من ماوتسي تونغ إلى فيديل كاسترو إلى كثيرين في العالم العربي – بالشيخوخة ويتمسكون بالسُلطة على أساس أن الواحد منهم صاحب مشروع ولا ينتهي دوره قبْل إنجاز هذا المشروع.

ولكن الإحباط من جهة وتلاشي ظاهرة الدولة الرافضة التي يمكن أن تستضيف الرافضين من جهة أُخرى هما السبب وراء قرار الدكتور حبش.

ما يمكن قوله بالنسبة إلى الشق الأول المتعلق بالإحباط هو أن الجبهة الشعبية التي أخفق الدكتور حبش في إعادة توحيدها، ربما لأنه لم يبادر إلى ذلك، وتحولت إلى شظايا، لم تعد تستقطب الجماهير الفلسطينية وبذلك باتت تراثاً ثورياً ولم تعد رمزاً للعمل الثوري. ولو أن إعادة توحيد هذه الجبهة التي صارت رمزاً للعملية الإنفصالية تحقَّقت لكانت الجبهة في ظل الظروف الحالية قوة معارضة ضاربة، لها كلمتها وشأنها، أو في الحد الأدنى كانت هي البديل لحركة "حماس" أو بقوة هذه الحركة. ولكن التوحيد لم يحدُث وبقيت الجبهة الشعبية جبهات لكل واحدة منها رؤية وأسلوب عمل وطريقة في الولاء.

وبطبيعة الحال فإنه عندما لا تحدُث عملية التوحيد في حياة الرجل التاريخي للجبهة فإن ذلك يسبب معاناة حقيقية للرجل الذي هو الدكتور جورج حبش. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن الأبناء الذين غادروا منزل العائلة (ونقصد بهؤلاء الذين إنشقوا عن الجبهة وأبرزهم نايف حواتمة وأحمد جبريل) ليستقلوا في منازل خاصة بهم لم يؤكدوا بالممارسة أنهم كانوا محقّين في خطوتهم الإنفصالية فلا "الديمقراطية" كانت ديمقراطية وأما "القيادة العامة" فكانت خاصة جداً. وإذا جاز القول فإن إنشقاق الرفيقيْن الأكثر حيوية لـ جورج حبش وهما نايف حواتمة وأحمد جبريل كان مثل إنفصال سوريا عن مصر، وهو إنفصال كان من الممكن تجاوزُه لو أن الدكتور حبش إسترضى الرفيقيْن، أو أن الإثنين إرتضيا أن يبقيا ضمن مجموعة الرجال في الجبهة ويتخلى كل منهما عن تطلعاته في أن يكون الرجل الأول في تنظيم منشق على أن يكون واحداً من الحلقة المحيطة بالرجل الأول في تنظيم موحَّد.

وعلى صعيد الإحباط أيضاً فإن ما يمكن قوله هو أن حب الإنعتاق من وطأة الرجل التاريخي أصاب بعض الحواريين الصامدين إلى جانب الدكتور حبش وهو يواجه محنة الإنشقاقات. وإذا كان هؤلاء ومن بينهم أبو علي مصطفى وبسام أبو شريف لم يسيروا على خطى الرفاق الذين إنفصلوا إلاّ أنهم غادروا السرب في أي حال وبدأوا التحليق خارجه. ويوماً بعد يوم سيتكاثر عدد الذين يغادرون السرب يأساً من تحقيق الحُلم الثوري المستحيل أو يأساً من البقاء في الشتات. وهذه الموجات من المغادرين لا يحمل أفرادها ضغينة في حق الرجل التاريخي، بل يجوز القول إنهم يغادرون ونفوسهم حزينة على ما آلت إليه الحال، لكنهم في الوقت نفسه يرون أن الإقرار بالأمر الواقع ليس بالضرورة أن يكون إستسلاماً. والجامع المشترَك بين هؤلاء وبين الرجل التاريخي، أي الدكتور حبش، هو الإحباط. ومثل هذا الأمر لا علاج له. ولو كان هنالك وسائل لتدارُك هذا الأمر لكان سلكها الجميع.

هذا على صعيد الإحباط. أما على صعيد تلاشي ظاهرة الدولة التي يمكن أن تستضيف الرافضين لما آلت إليه القضية الفلسطينية وتمنحهم الرعاية والإهتمام وحرية الحركة والتعبير إضافة إلى الملاذ الآمن، فإن ما يمكن قوله هو أن الدكتور حبش بات مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بأن كل الدول الصديقة للجبهة أو التي تستفيد من ثورية الجبهة وتوظفها بغرض النكاية أو التلويح بالتهديد أو تُبقي عليها كمخزون ثوري لإستعماله عند الضرورة في عمليات عنف... إن كل هذه الدول إستدارت وباتت ترى في الجبهة ما يشبه العبء يعزز ذلك أن الخارجية الأميركية تستعمل تقريرها السنوي الشهير المتعلق بالإرهاب للضغط على هذه الدول. وبطبيعة الحال فإنه بسبب هذه الإستدارة

ضاقت رقعة التحرك وإنكمشت فسحة الأمل فضاقت تبعاً لذلك رقعة "العيش الثوري" أو بتعبير أصح "العمل الثوري" ولو في إطار التعبير والخطابة في المهرجانات.

وبطبيعة الحال فإنه عندما يرى الدكتور حبش أن قلاع الإستضافة الثورية لم تعد لأسباب موضوعية على السخاء الذي كانت عليه في الماضي فإن من حق تاريخه عليه البحث عن رؤية جديدة. وسوريا هي آخر قلاع الإستضافة التي نشير إليها، وهي كما هو واضح في صدد إعادة ترتيب البيت داخلياً لتأمين خلافة الدكتور بشَّار الأسد لوالده الرئيس حافظ الأسد وإحداث نقلة نوعية في النهج الإقتصادي وفي تعاون وثيق مع الولايات المتحدة يستتبع التسوية – الإسرائيلية المحتملة. ولو أن الدكتور حبش وجد الملاذ التي من على أرضها يواصل ممارسة رؤاه الثورية حتى إذا كانت هذه الدولة في قلب جنوب شرق آسيا وليس على مشارف فلسطين لكان إستمر يمارس ما يمكن ممارسته من النضال وإستمر محتفظاً بالأمانة العامة. لكن كل هذه الدول التي يمكن أن تستضيف ثوريين تاريخيين من إيران إلى الجزائر إلى ليبيا إلى اليمن إلى أفغانستان إلى كوبا إلى العراق.. إما أنها إستدارت بالكامل أو أنها على طريق الإستدارة. وحتى كوريا الشمالية تستعد هي الأُخرى، ومن خلال كيم إيل سونغ الإبن، للإستدارة. ولو أن هذه الدولة التي بين الدكتور حبش وقيادتها السابقة روابط ثورية كانت على صمودها غير المجدي السابق لكان آثر الإنتقال إليها على الإستسلام للأمر الواقع الفلسطيني في شكل خاص والعربي في شكل عام.

جاءت خطوة الدكتور حبش يوم الخميس 27 أبريل/ نيسان 2000 والقاضية بإعلان إستقالته من الأمانة العامة للجبهة في الوقت المناسب وبعد أن يبلغ التساقط الثوري في العالم الذروة أشخاصاً وأنظمة وأيديولوجيات. وجاءت بمثابة صيغة وسط بين المكابرة والعناد وبين الإستسلام للأمر الواقع. كما أنها جاءت في روحيتها وفي طيات مفردات رسالة الوداع التي تلاها الدكتور حبش في إفتتاح المؤتمر العام بمثابة تفويض يأخذ طابع الفتوى من جانب الرجل التاريخي للذين ما زالوا حائرين داخل هذا التنظيم بأن يخوضوا غمار العملية السلمية إذا هم إقتنعوا بها لأنه لا مجال لسواها. وهو بإستقالته حفَظ مقامه الثوري وصان تاريخه وحلَّ معضلة جمهور الجبهة الذي بات قادراً على أن يمارس خياراً سياسياً كانت إيديولوجية الجبهة الشعبية تحول دونه.

ولأن تجربة الدكتور حبش كانت من التجارب كثيرة الغنى والتميز في القرن العشرين بحيث إن من حق أجيال القرن الواحد والعشرين أن تقف على محاورها وفواجعها، فإن ما نتمناه للدكتور جورج حبش الذي ندعو له بموفور الصحة أن يسجل هذه التجربة كتابة أو إملاء، وفي حياته أطال الله عمره، وبذلك يزيل من أفق العمل الثوري علامات إستفهام وتعجُّب كثيرة. وهو بهذا العمل يفيد القضية بمثل ما يفيدها مركز الدراسات الذي سينشئه ويشرف عليه على نحو المركز الذي أنشأه وفي دمشق أيضاً رفيقه اليمني الجنوبي السابق علي ناصر محمد.

عسى ولعل "حكيم الثورة" الدكتور جورج حبش يفعل ذلك ويسجل تجربته في شتى مراحلها... وبالذات من "ضرورة الثورة" إلى "حكمة الإستقالة".

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 مايو (أيار) 2000

* * *

صراع الرأسيْن في السودان... وعليه

من المفارقات اللافتة للإنتباه أن الدول التي تتشابه لفظاً وإيقاعاً تعيش أزمات تغلب فيها الغرابة على الواقعية، واللامنطق على المنطق، وتدمير الذات على بناء الشخصية الوطنية، والمناقشة الواعية على المجادلات العقيمة، والعودة إلى الوراء بدل إقتحام آفاق المستقبل، ومتعة الإحتراب على تآلف القلوب.

وعند التأمل في الذي يجري منذ سنوات في هذه الدول (كل إسم واحدة منها ينتهي بحرفيْ الألف والنون منفردیْن) يتأكد لنا ذلك. فهذا لبنان وما جرى له وفيه. وهذه إيران وما يحدُث فيها. وهذه أفغانستان وما أصاب شعبها. وهذا السودان وما يصدر عنه يومياً من مفاجآت تلفت الإنتباه وتدعو إلى إطلاق عشرات التساؤلات عن الذي فعله أرباب السُلطة فيه وكيف أنهم بدل إختصار الصراعات العقيمة على نحو ما إشتهر به أهل السُلطة في إيران وبَرَع فيه أهل السياسة في لبنان وتفوَّق فيه على الآخرين أرباب الحُكْم والمعارضة في أفغانستان، فإن حق الوطن عليهم وهو التكاتف والتعاون وتعويض البلد بضعة عقود من

التخلف وليس الصراع عليه.

قبْل خمسة أشهر إرتاح بال السودانيين عندما بدأ الحُكْم برأسيْه المدني في شخص الدكتور حسن الترابي والعسكري في شخص الفريق عمر البشير يرى أنه آن الأوان للمصالحة بين المعارضة والنظام، وإرتاح البال أكثر وأكثر عندما بدأ عدد من المعارضين يعودون إلى البلاد. وعندما فاجأ الرئيس عمر البشير السودانيين وجيران السودان بأنه قرر وضْع حد لصيغة الحُكْم برأسيْن وعلى نحو ما فعله (بصيغة معكوسة) من قبْل بعشرين عاماً في العراق صدَّام حسين (كان نائباً للرئيس بسُلطة رئيس ثم بات بإعلان إستقالة الرئيس أحمد حسن البكر هو الرئيس) فإن السودانيين إنقسموا بين مبتهج بالخطوة لأن صيغة الحُكْم برأسيْن كانت صيغة غير مستقرة وبين مشغول البال على المصير الذي سينتهي إليه حال البلد إذا قرر الرأسان ركوب موجة التصعيد. وهذا ما حدَث بالفعل. ذلك أن الدكتور حسن الترابي ومن شدة ثقته بقوته وتأثيره في الشارع السوداني إستهان بتوأم الإنقاذ الفريق البشير إعتبر ضمناً أنه – أي الترابي – وهو الذي يعرف كما لا يعرف أحد مثله نقاط الضعف والقوة في النظام، قادر على تحريك الجماهير القادرة من خلال الهتافات الإسلامية والتلويح بالعصي على هز هيبة النظام خصوصاً أن داخل الجيش ضباطاً يدينون بالولاء من خلال العقيدة الإسلامية وليس العقيدة العسكرية للدكتور الترابي.

في المقابل كان الفريق البشير الذي إرتضى إعتماد المرونة ظاهراً والقبول بقرار التحكيم الذي إتخذه حكماء الإنقاذ وإنتهى إلى قسمة عادلة في نظرهم لسُلطات الرأسيْن، يخطط لتأمين عمق عربي تتفهم بموجبه الأنظمة وبالذات دول الخليج دوافع الخطوة التي أقدم عليها وقضت بإنهاء ظاهرة الحُكْم برأسيْن. وساعده على ذلك أن جيران السودان من مصر إلى ليبيا إلى معظم دول الخليج لا يرتاحون إلى شريكه الدكتور الترابي وكان لبعضهم ثارات عليه. كما أن الجيران الأفارقة ينظرون بريبة إلى الترابي ويرون أن جنرالاً يحكم السودان من دون مشروع عقائدي إسلامي يبقى أفضل من شيخ يتحكم بالقرار في السودان وصاحب مشروع إسلامي متكامل.

ومن الواضح أنه بعدما إطمأن الفريق البشير إلى صِدْق تعاطف الأنظمة المجاورة وفي الوقت نفسه بدأت الهجرة المعاكسة للمعارضين يعودون سرباً بعد سرب إلى السودان من المنافي الخارجية، قرر الفريق البشير أن يوجه إلى معسكر الترابي ضربة تكون موجعة من دون أن تكون القاضية، أو فلنقل ضربة إختبارية بمعنى أنه من خلالها يكتشف ما الذي في إستطاعة الترابي أن يفعله. ومساء يوم الخميس 4 مايو/ أيار 2000 أبلغ الرأس العسكري البشير السودانيين عبْر محطة التلفزيون وكان الرأس المدني(الدكتور الترابي) خارج البلاد أن الترابي يعمل على "تأليب الجيش والأمن والشرطة والمجاهدين (المتطوعين لمكافحة حركة التمرد في جنوب السودان) والطلاب على الحكومة" مؤكداً أنه "كان يعقد لهذا الغرض إجتماعات مع الضباط والمجاهدين لتحريضهم على الحكومة وكان يستدعيهم ليلاً لهذا الغرض". ورد الترابي لمجرد عودته بعد ساعات إلى الخرطوم فقال "إن البشير يسير نحو الدكتاتورية العسكرية السافرة ويستند إلى القوات النظامية إلاّ أن أحداً لا يستطيع أن يفرض سُلطة الطغيان في السودان وسيتحرك الشعب السوداني في ثورة شعبية رغم أننا ما كنا نريد أن نحتكم لعامة الشعب...". وبدا أن نسبة الحدة في رد الفعل كانت عالية في نظر حواريي الترابي وبالذات ما يتعلق بالثورة الشعبية، ومن أجْل ذلك نلاحظ تلطيفه في وقت لاحق للأمر وقوله إنه يستبعد أي مواجهة عنيفة وإنه لن يكون البادىء بها.

بعد ساعات إستأنف البشير والترابي التصعيد بحيث لم يعد هنالك خط رجعة إذ كيف سيكون هذا الخط وارداً ما دام الرأس العسكري جمَّد أمانة الحزب والذي ينضوي الإثنان تحت مظلته وهو "حزب المؤتمر الوطني" وما دام الرأس المدني أي الترابي الذي هو الأمين العام للحزب قال رداً على قرار التجميد" إن البشير دكتاتور عسكري متعطش للسُلطة وسيطاح به عما قريب من رئاسة السودان. لقد تحرَّك ضد الدستور على رغم أنه ساعد في وضْعه ووقَّعه وتولى السلطة وأدى اليمين وفقاً له. لكنه ألغى تقريباً الدستور الكامل.. ألغى البرلمان والنظام الإتحادي الذي لا يمكن تعديله إلاّ بموجب إستفتاء عام...". وهذه ليست كل الإتهامات التي كالها الرأس المدني للرأس العسكري ذلك أنه أعاد إلى الأذهان ما جرى في السابق لإثنيْن من العسكريين حكما السودان وهما إبراهيم عبود وجعفر نميري عندما أسقطت الإنتفاضة الشعبية حُكم كل منهما ومن دون أن ينحاز لهما الجيش ويقاوم الإنتفاضة.

ولم يكتف الرأس المدني الدكتور الترابي بذلك وإنما لجأ إلى هيئة الحزب التي تضم ستين عضواً بمَن فيهم البشير والتي يترأسها الترابي فأصدرت هذه بياناً يتضمن الإشارة إلى أنه تم إتخاذ قرار بفصل البشير ومساعديه (نائبيْ رئيس الجمهورية علي عثمان طه وجورج كونغور أروب ومساعد رئيس الجمهورية ابراهيم أحمد عمر ومستشاره للسلام نافع علي نافع ووزير الإعلام غازي صلاح الدين العتباني وحاكم ولاية الخرطوم مجذوب الخليفة).

ورد الرأس العسكري الفريق البشير على هذه الخطوة بإجتماع عقده مع قادة الجيش الذين أعلنوا دعْمهم له وبإتصالات هاتفية مع بعض قادة جيران السودان.

صراع الرأسيْن لم ينتهِ. والصراع الناشيء عنه أرهق السودانيين الذين لا يعرفون على ماذا يراهن كل من الرأسيْن في صراعه ضد الآخر.

أما بالنسبة إلى متابع مثل حالي للتطورات السودانية فإن ما يمكن قوله في إنتظار أن ينتهي التلاكم بفوز نسيم حميد الذي هو هنا تشبيهاً الدكتور الترابي أو مايك تايسون الذي هو هنا تشبيهاً أيضاً الفريق عمر البشير، هو أن الخلاف الذي بدأ في ديسمبر/كانون الأول 1999 عندما حل البشير البرلمان الذي كان يترأسه الترابي وأعلن حالة الطوارىء لمدة ثلاثة أشهر قبْل أن يمددها حتى نهاية العام 2000 لم يكن مناورة ضِمْن سيناريو متفَق عليه بين الإثنيْن كما إفترضْنا مثل كثيرين للوهلة الأُولى وإنما كان ذلك الخلاف بمثابة الشرارة الأُولى للصراع المتواصل حتى الآن.

وغالب الظن أن أقطاب المعارضة السودانية في حيرة من أمرهم فهم لا يريدون للترابي أن يفوز وفي الوقت نفسه ليس من مصلحتهم وهم الذين عادوا حالياً بمناخ ديمقراطي تعددي أن يجدوا أنفسهم في ظل حُكْم عسكري إلاّ إذا إختار البشير صيغة السادات الذي رمى بالمجموعة الناصرية (علي صبري والآخرين) في السجن بتهمة التآمر، ممزوجة بصيغة مبارك والنهج الذي أرساه وهو التعددية إنما بنسبة تسعين في المئة للحزب الحاكم وعشرة في المئة للآخرين. وفي مثْل هذه الحال قد يصمد البشير شرط أن ترتضي المعارضة بكل رموزها ذلك كعربون شُكر للبشير على إنهاء الترابي الخصم العنيد للجميع، وشرط أن تكون هنالك إنتخابات حرة يفوز فيها مَن يفوز... حتى إذا كان الفائز الأكبر هو الشيخ حسن.

صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 13 مايو (أيار)2000

* * *

عروبة الماروني... المستقيم الرأي

من حق قارىء "الشرق الأوسط" غير اللبناني علينا نحن معشر الكُتاب اللبنانيين في هذه الصحيفة، أن نوضح له سر هذه الظاهرة التي إسمها العميد ريمون إده وما هي الشمائل التي يتميز بها هذا الرجل عن سواه لكي يأتي الأسف شاملاً على رحيله وهو في السابعة والثمانين من العمر، مشفقاً عليه سبحانه وتعالى بأنه توفاه من دون آلام الأوجاع ربما تعويضاً له عن آلام الغربة الموحشة ضيفاً على فرنسا البلد وليس الدولة طوال ثلاثة وعشرين عاماً وهي عمر بالغ القساوة لرجل سياسة من طراز نادر وكثير التميز.

والقول إن من حق قارىء "الشرق الأوسط" غير اللبناني دون سواه من القراء، لأن الصحف المحلية اللبنانية تعاملت مع وفاة ريمون إده بإهتمام غير مسبوق وكتبت عنه تحليلاً ورثاءً كما لم يُكتب ولا نعتقد أنه سيُكتب عن شخصية سياسية مارونية من قبْل وربما من بعْد. بل قد يجوز القول من باب المقارنة القول إن الذي ناله ريمون إده من الأقلام اللبنانية ومن مشاعر اللبنانيين مسلمين (من إبنة رياض الصلح السيدة علياء إلى السيد حسن نصرالله الأمين العام لـ "حزب الله" إلى الزعيم الدرزي وليد جنبلاط) ومسيحيين (من البطريرك الماروني إلى كل مسيحي مستقيم أو على طريق التوبة من خطايا الحرب الأهلية التي أمعنت تقطيعاً بأوصال لبنان)... إن الذي ناله العميد ريمون إده (والعميد منصب مثل منصب مرشد الثورة) من الأقلام ومن المشاعر ومن الدموع، كان بمثْل ما ناله سعد زغلول الذي يشكِّل المنفى وحب الوطن الجامع المشترَك بينهما. وكل منهما إنتهى رمزاً لحب الوطن زعيماً لا خلاف على نقائه ووطنيته مع أنه لو حكم لكان عزز شأن الوطن كما لم يتعزز من قبْل وربما من بعْد. سعد زغلول في مصر ولها. وريمون إده للبنان وله.

في البداية لا بد من التوضيح بأن ريمون إده من

أبناء الطائفة المارونية في لبنان والتي تم التوافق (من الإستقلال عام 1943 وحتى إعلان وثيقة إتفاق الطائف التي قرأها الأمير سعود الفيصل على رجال الصحافة يوم الإثنين 18 سبتمبر/أيلول 1989 في أعقاب ثلاثة أسابيع من المناقشات والمداولات جرت برعاية المملكة العربية السعودية) على أن تكون رئاسة الجمهورية من حصتها. ومع أنه بحكْم كونه مارونياً، وإبن رئيس جمهورية يملك حقاً أو بعض الحق ليكون رئيساً للجمهورية (بعض الحق بحكم الوراثة)، إلاّ أنه لم يحظَ بهذه الفرصة على رغم كفاءة كثيرة التميز في شخصه وإستمر مجرد مرشح دائم للرئاسة وهو ترشيح لم يحظَ به موارنة آخرون في حين أن صديقه المرحوم تقي الدين الصلح إستمر الوحيد من أقطاب السياسة في الطائفة السُنية مرشحاً لترؤس الحكومة إلى أن نالها.

وقد يستغرب القارىء إذا نحن كتبْنا هنا أن اللبنانيين إستمروا حتى قبْل سنتيْن يتوقعون أن يعود ريمون اده من باريس ويترأس البلاد ويعوِّضهم ما فاتهم ويحقق لهم بعض ما يصْبون إليه من أحلام وتطلعات، من دون أن يستوقفهم أن الرجل – تجاوز – في حينه – الخامسة والثمانين وبدأ يقترب من التسعين، أي أن هنالك إستحالة جسدية لتحقيق مثْل هذا الأمر. ولكن الإقتناع به والتقدير لشخصه ولرؤاه التي كانوا يتابعونها من خلال تصريحات يدلي بها أو إطلالات تلفزيونية يتحدث خلالها أو تعليقات ومداخلات تصدر عنه، كانت تجعلهم لا يتوقفون عند مسألة السن وفي الوقت نفسه كانوا في حالة إنتظار للرجل الذي يمكن أن تصطلح الأمور على يديْه. ثم طُويت صفحة الإنتظار بإختيار قائد الجيش العماد إميل لحود رئيساً للجمهورية وهو إختيار نال من رضى اللبنانيين الكثير على أساس أن أوضاع البلد تتطلب رئيساً تتوافر في شخصه صفات كانوا يجدونها متوافرة في معظمها في شخص ريمون إده مع فارق بالغ الأهمية وهو أن العماد يصغر العميد بثلاث وعشرين سنة.

هنا نجد أنفسنا نشير إلى أن ريمون إده كان الماروني الأبرز الذي وقف في إستمرار وبالذات منذ إندلاع الحرب اللبنانية في العام 1975 ضد العنف وحمْل السلاح والإقتتال الأهلي وتشكيل الميليشيات. وفي الوقت نفسه وقف ضد خيار بعض أقطاب الطائفة المارونية الذين إرتأوا الإستقواء بإسرائيل لمواجهة الوجود الفلسطيني في لبنان وخاض في سبيل ذلك أعتى المواجهات السياسية. كذلك إنه أبدى الكثير من التفهم للمسألة الفلسطينية وللوجود الفلسطيني الذي كانت الحرب المارونية عليه مجرد حالة غضب تستهدف تحقيق مأرب سياسي وترمي إلى إشراك لبنان في مؤامرة العملية السلمية التي وضع الحجر الأساس لها الدكتور هنري كيسينجر الذي إستمر ريمون إده حتى لحظة غيبوبة الساعات الأخيرة، على رأيه الإتهامي له وهو أنه المسؤول عن تدمير لبنان.

وعلى رغم إن ريمون إده لم يقتحم غمار العالم العربي إلاّ أنه كان يرى ضرورة أن يكون النهج العروبي للبنان واقعياً مع الأخذ في الإعتبار أن لبنان لا يستطيع العيش بعيداً عن محيطه العربي ليس فقط لأسباب إقتصادية وإنما لأن العربي شقيق واليهودي الصهيوني عدو. وكان لافتاً للإنتباه عزوف ريمون إده عن القيام بزيارة إلى الدول العربية بجناحيْها المشارقي والمغاربي وبالذات إلى دول الخليج الذي يعرف أهمية توثيق العلاقة معها على الصعيد الإقتصادي. إلاّ أنه لم يفعل ذلك ولم نسمع منه في كل مرة نستوضحه السبب الإجابة الشافية.

وإذا جاز الإفتراض، في معرض الكلام عن ريمون إده كماروني مستقيم الرأي، فإن هذا الموقف المبدئي والحازم له ضد إسرائيل كان بمثابة الحرص من جانبه على تنقية شوائب لحقت بطائفته من جرَّاء ما فعله بعض رموزها عندما ركب هؤلاء، ومن دون التعمق في التأمل بالمخاطر على الوطن من جهة وعلى السمعة من جهة أُخرى، موجة التعاون مع إسرائيل. وبدا كمَن يقول إنه يمثِّل القاعدة وأن القاعدة سليمة ويجب أن تكون كذلك. أما الذين ركبوا الموجة المشار إليها فإنهم من وجهة نظره إستثناء وليسوا غير ذلك على الإطلاق. وعندما يحرص هؤلاء على التعزية برقياً به وإبداء مشاعر الأسف على وفاته على رغم ما قاله عنهم في حياته فإنهم يفعلون ذلك لأنهم يعرفون مدى إقتناع محازبيهم ومَن يناصرونهم برأي ريمون إده ولا بد من أنهم باتوا مدركين كل الإدراك مدى فداحة الخسارة التي أصابت الطائفة نتيجة الخروج على العروبة بمفهوم الماروني المستقيم الرأي ريمون إده.

يبقى ونحن نبدي وجهة النظر هذه في ريمون إده إشارة إلى أن الرجل كان في منفاه الإختياري – الإضطراري باريس مثل آية الله الخميني في منفاه الفرنسي أيضاً في ضاحية "نوفل لو شاتو". كل منهما

كان مقصد أبناء شعبه لا بد لهم من زيارته عند المرور في العاصمة الفرنسية أو زيارة باريس خصيصاً لتحيته والإستئناس برأيه. وكل منهما عاش حياة بسيطة في المنفى بعيداً عن البهرجة. آية الله الخميني في منزل بسيط يستقبل على حصيرة زواره. وريمون إده في فندق متواضع يستقبل في صالون صغير ملحق بغرفة نوم صغيرة اللبنانيين الحريصين على تحية مَن يتمنون لو يصبح رئيساً للجمهورية. وبينما عاد الخميني منتصراً بعد إقامة غير طويلة في المنفى الفرنسي وأثلجت عودته صدور مستقبليه في مطار مهراباد، فإن ريمون إده عاد بعد 23 سنة في المنفى إياه. وعلى رغم أنه كان منتصراً بمعنى أنه إستمر ثابتاً على المبدأ، فإنه عاد داخل تابوت وأحزنت نفوس مستقبليه في مطار بيروت هذه العودة.

ولا بد من أن الكثيرين توقفوا أمام الإرادة الإلهية التي شاءت أن ينصح الرئيس أنور السادات يوم 28 ديسمبر/كانون الأول 1976 ريمون إده بعدما إلتقاه في قصر الرئاسة في القاهرة ألاّ يعود إلى لبنان لأنه عرضة للإغتيال ومن أجْل ذلك توجَّه الرجل إلى باريس. وشاءت الإرادة الإلهية نفسها أن الذي حذَّر من الإغتيال هو الذي أُغتيل وهو على المنصة يوم السادس من أكتوبر 1981 يحتفل بذكرى إنتصار حققه الجيش المصري على إسرائيل. أما العميد ريمون إده الذي ولد عام 1913 في الإسكندرية فإنه عاش حتى يوم الأربعاء العاشر من مايو/أيار 2000 وعاد بعد إغتراب قسري دام 23 سنة ليُدفن في بيروت التي ماتت روحه يوم فارقها... وإن كان القلب إستمر ينبض والكف إستمر نظيفاً والضمير دائماً في غاية الإرتياح.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 مايو (أيار) 2000

* * *

مصر وسوريا: وليمتان... وإنتحاران

إختلطت غرائب أمور أهل السياسة بغرائب طباع الناس العاديين وبذلك بدت صورة الواقع العربي سوداوية كما لم نعهدها من قبْل. ففي الوقت الذي كان المواطن من المحيط إلى الخليج في غاية الإستهجان لما فعله "خبير التشريح" السوداني محمد آدم عمر المستوطِن صنعاء بعد جولة في مجال العنف والضياع شملت لبنان في زمن الحرب الأهلية ومنه إلى إسرائيل متسللاً، وكيف قتل عشرات الطالبات الجامعيات تشريحاً، وكانت مصر تشهد أزمة تفاعلت كما لم تتفاعل أزمة في مصر وكادت تتسبب في محنة تهدد الإستقرار، وتتعلق برواية من تأليف السوري حيدر حيدر... في هذا الوقت كانت أخبار دمشق تشير إلى أن رئيس وزراء سوريا السابق محمود الزعبي طُرِد من منصبه الرفيع في "حزب البعث" الحاكم في سوريا وأنه وُضع قيد الإقامة الجبرية ووُضعت ممتلكاته وأمواله وأموال زوجته وأولاده المنقولة وغير المنقولة برسم المصادرة إلى أن يبت القضاء في أمره، ثم ما لبثت قضية الزعبي أن أخذت أبعاداً درامية حيث أن الرجل الذي أمضى ثلاثة عشر عاماً رئيساً للوزراء يتمتع بسُلطات قلَّ أن حظي بها رئيس وزراء عادي (أي أن رئيس الوزراء ليس هو رئيس الدولة في الوقت نفسه) في العالم، قضى يوم الأحد 21 مايو/ أيار 2000 إنتحاراً حيث أنه أطلق رصاص مسدسه على رأسه، وقيل في فمه، وبحضور زوجته وأولاده قبْل ثوان من مقابلة مدير شرطة دمشق الذي جاء إلى الفيلا التي يسكنها في إحدى الضواحي الراقية من دمشق "لتبليغه (على حد قول النبأ الرسمي) مذكرة قضائية للمثول أمام قاضي التحقيق وإستجوابه في القضايا المنسوبة إليه والمتعلقة بإرتكاباته التي ألحقت أضراراً كبيرة بالإقتصاد الوطني...".

وجاءت حادثة الإنتحار في وقت كانت الإنتخابات الحزبية أوشكت على الإنتهاء تمهيداً لعقد مؤتمر قُطري لـ "حزب البعث" سيشهد ضخ دماء جديدة في القيادة. كما أنه سيتاح للدكتور بشَّار نجل الرئيس حافظ الأسد أن يصبح عضواً في القيادة القُطرية وبذلك يتسنى له بموجب دستور البلاد أن يشغل منصباً كبيراً في الدولة. وهذا المنصب يؤهل الدكتور بشَّار (على نحو ما خطَّطَ له والده الرئيس) ليتبوأ منصب رئيس البلاد في الوقت المحدَّد في بال الرئيس الأسد لتوريث إبنه الحُكْم.

جاءت جرائم "خبير التشريح" السوداني محمد آدم عمر تعيد إلى الأذهان جرائم الشقيقتيْن المصريتيْن ريا وسكينة اللتيْن كانتا قبْل نصف قرن تستدرجان في مدينة الإسكندرية النساء المكتنزات مصاغاً في المعصميْن أو في العنق إلى منزلهما وهناك يُقضى عليهنَّ بعد إنتزاع المصاغ والمجوهرات منهنَّ ويتم

دفنهنَّ في طقوس تعتمد على رقصة الزار. ولا بد أن الملايين من العرب نساء ورجالاً عرفوا بقصة ريا وسكينة نتيجة إنتشار الفضائيات التي تبث بين الحين والآخر فيلماً سينمائياً مصرياً عن هذه الواقعة أو تبث المسرحية الشهيرة التي تحمل إسم "ريا وسكينة" وتألقت فيها تمثيلاً وغناء الفنانة شادية والفنانة سهير البابلي والفنان عبد المنعم مدبولي والفنان أحمد بدير.

أما حادثة إنتحار محمود الزعبي فجاءت تعيد إلى الأذهان واقعة إنتحار المشير عبد الحكيم عامر بعد أيام من هزيمة 5 يونيو 1967 مع إختلاف الظروف، فالمشير عامر حاول التآمر على صديقه الرئيس جمال عبد الناصر وبذلك يتجاوز نظرة الناس إليه وإعتباره يتحمل مسؤولية الهزيمة، خصوصاً بعدما أعلن عبدالناصر من جانبه أنه يتحمل المسؤولية ومستعد للتنحي. وعندما إنكشف أمر التآمر وتفادياً من عبدالحكيم عامر للوقوف في قفص الإتهام أمام محكمة عسكرية لا بد من أنها ستدينه فإنه آثر الإنتحار بإبتلاع حبة قاتلة على أن يظهر على الناس داخل القفص وهو الذي كان الآمر الناهي والسيد المطاع المطلق الصلاحية المغفورة من صديقه عبدالناصر أي هفوات أو تجاوزات بما في ذلك تحويل منصب وزير الحربية (الدفاع بعد ذلك) إلى منصب استقطاب، بوسائل شتى، للضباط يتساوى من حيث قدراته وتأثيره مع منصب رئاسة الجمهورية.

وفي الحالتيْن، حالة المشير عامر عام 1967 وحالة محمود الزعبي بعد ثلاثة وثلاثين عاماً فإن المال وعدم تقدير الموقف وكذلك طول البقاء في الموقع الرسمي كثير الشأن والقوة هي الجامع المشترَك للمحنة التي أصابتهما. فالمشير عامر بقي حوالى ست عشرة سنة متتالية في المنصب الواحد وفي تصرُّفه ميزانية حقَّق من خلالها ونتيجة سخائه المبالَغ فيه إستقطاباً غير صحي لضباط المؤسسة العسكرية وظهرت مساوئ هذا الإستقطاب خلال حرب اليمن ثم بعد ذلك في حرب 1967. ولو أن المشير عامر لم يبقَ كل هذه المدة الطويلة في موقعه، أو لو كانت هنالك رقابة مشددة على الإنفاق من جانبه للمال العام، لما كانت حاله وصلت إلى ما وصلت إليه. أما الزعبي فإن بقاءه ثلاثة عشر عاماً رئيساً للوزراء وبالصلاحيات المعطاة لهذا المنصب فضلاً عن المناخ العام المستشري فيه الفساد والتطلع إلى الرفاهية، يجعله عن قصْد أو عن غير قصْد يرى بعد السنوات الثلاث الأولى ثم بالذات بعد التجديد الأول له، أن هذا المنصب هو له دون غيره وبالتالي يستطيع أن يمارسه على النحو الذي يرتأيه. وفي مثْل هذه الحالات فإن إرتكاب الخطأ الأول هو الصعب أما بعد ذلك فإن الأخطاء والتجاوزات سواء كانت الإكثار من التملك أو الإقتناء أو الإستفادة من الإمتيازات أو الدخول في عمليات إستثمارية خارج البلاد، تصبح مسألة روتينية، وتصبح كمَن يقطف ثماراً من أشجار حديقة منزله بما يعني أنه ليس في الأمر تجاوزات.

وتبقى واقعة رواية "وليمة لأعشاب البحر" التي فاجأت وزارة الثقافة المصرية الرأي العام المصري بأنها أنجزت على نفقتها طبعة جديدة من هذه الرواية لمؤلفها الروائي السوري حيدر حيدر، من دون أن تأخذ الوزارة وبالذات وزيرها في الإعتبار أن الرواية قد ترضي النخبة المثقفة المصرية كثيرة التحرر بسبب خروجها على الحياء العام ولمْسها ما لا يجوز لمْسه من المسائل المتعلقة بالإسلام، إلاَّ أنها تكهرب الأكثرية الساحقة من الستين مليون مصري.

وبصرف النظر عمَّا هو مستتر من نوايا "حزب العمل" الذي أثارت صحيفة "الشعب" الناطقة بإسمه الموضوع وحوَّلته من اللحظة الأُولى إلى فضيحة ومعركة، فإن الأمر في مجمله بدا لافتاً للإنتباه ويحمل في طياته الكثير من علامات الإستفهام: لماذا هذه الرواية بالذات؟ ولماذا نشْرها في هذه الظروف بالذات؟ وهل إن وزير الثقافة فاروق حسني الذي ميَّزه الرئيس حسني مبارك عن الآخرين وجعل وزارته وكذلك وزارة السياحة من وزارات الدرجة الممتازة كثيرة الأهمية، لا يدري خصوصية المجتمع المصري وإنه بدل أن يتأقلم مع هذه الخصوصية فإنه أراد أن ينقل هذا المجتمع إليه وهو – أي فاروق حسني – المقيم خارج مصر أكثر من الإقامة فيها والذي يبدو في مفاهيمه وكما لو إنه من المستشرقين.

نجحت صحيفة "الشعب" في تحويل أمر نشْر الدولة الرواية من مجرد لفْت إنتباه يمكن معالجة الذيول الناشئة عن هذا النشر إلى حملة ضارية إختلط فيها التخوين بالتكفير بالتوصيف غير اللائق بالمطالبة بإقالة وزير. ونجحت أيضاً في وضْع القضية بتصرف الشارع بدل وضْعها بتصرف رئيس الجمهورية. وبسبب حساسية الموضوع والإستعداد النفسي عند الأزهريين والمتدينين والمحافظين عموماً لمثْل هذا الأمر، فإن مواجهة حدثت وسقط جرحى

إصـابة بعضـهم خطيرة في تظاهرات طالبية حاشـدة. وخاض وزير الثقافة المعركة ظاهرياً للدفاع عن النفس وضـمناً لمواجهة التيار الإسـلامي الذي يراه ظلامياً ضامناً تأييد الرئيس مبارك له وبأن الرئيس لن يستقيله كما حدث لوزراء آخرين من قبْل. ودخلت الفضـائيات ووسـائل الإعلام العربية والأجنبية على الخط وبدأت مصـر تغلي وكان ذلك أمراً سيئاً كونه تزامن مع أزمة حادة تتعلق بالسـيولة وبإحجام بيوتات مالية دولية عن المضـي قُدماً في الإسـتثمار في مصـر. وبسـبب تعقيدات داخل الصـف الأزهري فإن شـيخ الأزهر إنتصـر للرأي الذي يدين نشْـر رواية السـوري حيدر حيدر بينما إختار النظام في المقابل وكخطوة متوازنة توجيه ضـربة أكثر من موجَّهة وأقل من قاضـية إلى الحزب الذي يقف وراء الحملة وإلى الصـحيفة التي نشـرت الحملة وعمَّمتها. وبذلك أمكن محاصـرة فتنة كان يمكن أن تتسبب بالأذى للنظام في مصـر وتفتح الباب أمام تداعيات لا نهاية لها. وإذا جاز التشبيه فإن "وليمة لأعشاب البحر" أي رواية السوري حيدر حيدر كانت في بعض جوانبها مثل تلك الوليمة السورية التي إلتهمها إضـطراراً عبد الناصـر عام 1958. ولا نعتقد أن وزير الثقافة قرأ الرواية. وهو ربما لو فعل لما كان دافع عنها على رغم أنه فنان ومتحرر وعازب ومفتون بالإنترنت والكومبيوتر وثورة المعلوماتية، وأنه أمضـى ثمانية عشـر عاماً في بلاد "الدولشـي فيتا" مديراً للأكاديمية المصـرية للفنون في روما. فهي رواية متخمة بالعبارات الجنسـية الفاضـحة وبالإجتهادات كثيرة التحرر في أمور تتعلق بـالـدين الإسـلامي وبالخالق عز وجلّ. أما الوليمة السـابقة التي إلتهمها عبد الناصـر أو ألهموه إياها قبْل 42 سـنة فتمثَّلت بتهويل مجموعة من الضـباط السـوريين وقلة من السياسيين القوميي التوجه بأن سوريا ستسقط في براثن السـوريين الأكثر إحمراراً خالد العظم وخالد بكداش، وأن الحل لإنقاذ سـوريا من هذين الخالديْن الإثنيْن هو في قيام وحدة بين مصر وسوريا. وقامت الوحدة وكان الإنفصـال بعد ثلاث سـنوات... ثم كان الذي كان للعمل القومي ولا يزال إلى الآن. أعان الله مصر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 24 مايو (أيار) 2000

* * *

التحدي العربي لإسرائيل... والإبتهاج مع بعض التحفظ

بقدْر ما أن هذا الإنتصار على إسرائيل الذي تحقَّق في جنوب لبنان يثلج الصـدر العربي ويمد المعنويات العربية بدفعة من الإعتزاز... بالقدْر نفسـه يحز في النفس هـذا التحفظ المحلي والعربي في التعـامـل مع الإنتصار.

ونحن عنـدمـا نتـأمـل في ردود الفعـل على هـذا الإنتصار نجد أمامنا الكثير مما يولِّد الصدمات.

ففي لبنان، الذي من حقه أن يتباهى بأن الإنتصار وضع الوطن الصغير في اللائحة التاريخية للدول التي تنجز التحرير بـالمقاومـة، نلاحظ أن المتحفظين على هـذا الإنتصـار، ونكـاد نقول غير المبتهجين بـه، يتسـاوون من حيث النسـبة مع المبتهجين الذين عبَّروا عن إبتهـاجهم بـأكثر من طريقـة من بينهـا أن أعلام الحزب "حزب الله" الذي هو رائد المقاومة والذي نفَّذ شـبانه تسـعة وتسـعين في المئة من العمليات ضـد الإحتلال الإسـرائيلي إرتفعت (من دون أن يرتفع إلى جانبـه العَلَم اللبنـاني) في كل منـاطق الجنوب وعلى سـيارات المحازبين والمناصـرين الذين توجهوا في مواكب من العاصـمة بيروت إلى قراهم وبلداتهم في المناطق المحرَّرة.

وهذا التحفظ في الإبتهـاج والـذي يمكن ملاحظتـه بالحد الأدنى من المشـقة له أكثر من سـبب. من هذه الأسـباب أن الطوائف المسـيحية عموماً تنظر إلى المقاومة التي خاض غمار جولاتها شـبان ينتمون إلى "حزب الله" على أنهـا مقـاومـة إمتزجـت فيهـا عوامـل وإنتمـاءات كثيرة غير لبنـانيـة وبـالتـالي فـإنهـا بـاتـت مقاومة لبنانية في جزء وغير لبنانية في جزئيات، أي بكلام أكثر وضـوحاً إن ولاء هذه المقاومة هو للثورة الإسلامية في إيران، وأن غطاء الحماية السياسية هي سوريا، وأن المعادلة إنتهت إلى أن إيران هي المرجعية المذهبية والسـند المالي، وأن سـوريا هي المرجعية السياسية والسند العسكري من حيث التسهيلات على أنواعها، وأن جنوب لبنان هو الأرض التي يتصـدى فيها شبان "حزب الله" لقوات الإحتلال الإسرائيلي (بين الحين والآخر نفَّذ مقـاومون من "حركـة أمـل" ومن الحزب السوري القومي ومن الحزب الشيوعي عمليات) ويحققون بروحية الإسـتشـهاد إنتصـارات صـغيرة هي

التي أدت في مجموعها إلى تحقيق الإنتصـــار الأكبر المتمثل بإنسحاب القوات الإسرائيلية مهزومة ومن دون أن تنجح حكومـة بـاراك في إبرام إتفـاق مع الحكومـة اللبنانية في هذا الشأن.

ومثْـل هـذه النظرة من الغـالبيـة العظمى من المسـيحيين تفتقد تغليب المسـألة الوطنية على مسـألة إنتماءات "حزب الله" وظروف نشـــاطه كحركة مقاومة، لأنـه لولا هذه الإنتمـاءات وتلك الظروف لمـا كـان في إســـتطاعة "حزب الله" أن يقاوم، ذلك أن المقاومة هي مال وســـلاح وإيمان من الشـــبان المقاومين وإلى حد الإستشـهاد. ومن دون عنصـر من هذه العناصـر كان من المستحيل أن يصبح "حزب الله" حركة مقاومة وكان سـيبدو مجرد "ميليشـيا" كتلك الميليشـيات التي إزدهرت خلال الحرب اللبنانية. وبدلاً من هذه النظرة فإن إحاطة المراجع والقيـادات المســـيحيـة لـ "حزب الله" بـالـدعم المعنوي والسياسي والإصرار على المشاركة في عمليات ينفِّذها شـــبان مســـيحيون كان من شـــأنه لو حدَث في السنوات التسع الماضية أن يجعل الإنتصار الذي تَحقق يبدو على أنه يخص الجميع وليس "حزب الله" والتنظيم الشـــيعي الآخر لـ "حركة أمل"، وعلى رغم أن الحزب والحركة يطلقان الإشـارة تلو الإشـارة بأن الإنتصـار هو للبنان ولكل اللبنانيين وليس للطائفة الشيعية وحدها.

وما يقال بالنسبة إلى المسيحيين في غالبيتهم، الذين يتصـرفون كمحايدين أو كمراقبين لهذا الإنتصـار الذي أنجزه "حزب الله"، يقال أيضـــاً بالنســـبة إلى غالبية المسلمين من غير الطائفة الشيعية (أي السُنة والدروز) وإن كـان تحفُّظ هؤلاء في التعبير عن الإبتهـاج بالإنتصـــار أقل لدواعٍ تتعلق بسـوريا التي بمثل ما إنها المرجعية السياسية لهم فإنها المرجعية السياسية لـ "حزب الله" و "حركة أمل" وكل منهما يتقاســـم (بنســـبة أكبر للحزب) زعامة الطائفة الشـــيعية. وبمثل ما إن رموز القيادات المسيحية وأولهم رئيس الجمهورية العماد إميل لحود يخففون بالمواقف والتصـريحات من نسـبة التحفظ الكبيرة في أوساط المسيحيين على الدور الوطني لحركة المقاومة، فإن رموز القيادات الإسـلامية غير الشـيعية يفعلون ذلك وبنســبة أعلى من الحماســة. إلاّ أن الرأي العام المسيحي ونظيره الإسلامي غير الشيعي كانا في إسـتمرار يعتبرون المقاومة تخص الطائفة الشـيعية لأن "حزب الله" إحتكرها عن سـابق تصـميم، وهو ما يحتاج إلى التوضـيح. وإسـتمرت النظرة على هذا النحو على رغم مواقف لافتة للإنتباه إتخذها الرموز وبالذات الرئيس لحود الذي بدا في الأشـهر الستة الماضـية يستعمل في تصـريحاته شـبه اليومية مفردات لمصـلحة المقاومة علّه في ذلك يخفف من العاطفة المســـيحية المتحفظة تجاه "حزب الله"، وشـــبانـه الذين ينفِّذون عمليات جهاديـة أوجعت إســـرائيل وقادت في مجملها إلى قرار حكومة باراك بإســـتعجال الإنســـحاب من جنوب لبنان وبقاعه الغربي، وقريباً يتم إجلاء إسرائيل من مزارع شبعا.

وبطبيعـة الحـال فإن الدواعي التي جعلت الإبتهـاج في لبنان يتسـم لدى شـرائح عريضـة من الرأي العام بالتحفظ، هي نفســـها التي جعلت الإبتهاج خارج لبنان في معظم الدول العربية والإسـلامية لا يأخذ مداه... مع أن هذا الإنتصـــار تحققه المقاومة في لبنان متمثلة بـ "حزب الله" هو الأول يحدُث ضـد إسـرائيل، وتؤكد حجم فداحته على إســـرائيل ومريديها في العالم الفضـــائيات التي بثـت، مبـاشـــرة أو بعـد حين، من الصـــور والتصـــريحات ما يكفي للتأكيد بأن إنســـحاب إســـرائيل تحت وطأة ضـربات شـبان المقاومة كان حالة إنكسـار للهيبة الإسـرائيلية. ولكنها النظرة نفسـها إلى "حزب الله" وإنتمائه المذهبي والسياسي هما السبب في هذا التحفظ، ذلك أن العرب لا يريدون أن يقال إن ما فشلوا فيه طوال نصـف قرن أنجزه الأسـلوب الإيراني في أقل من عشـر ســـنين ومن خلال "حزب الله" في لبنان الذي لا يُخفي ولاءه للثورة الإيرانية والذي حرص أمينه العام الســـيد حسـن نصـرالله بعد إنجاز الإنتصـار على إسـرائيل أن يسـجل في خطاب على الهواء الشـكر لإيران الثورة من آيـة الله الخميني إلى مرشـــدها الحـالي على خـامنئي ولسوريا الأسد مع تقدير مضـاف للرئيس حافظ الأسد. أما عدا ذلك فلا فضـل لأحد على المقاومة، عدا فضـل مئات الشبان الذين إستشهدوا في عمليات جسورة وألوف الجنوبيين الصـــامـدين الـذين تحمَّلوا ويلات العـدوان الإسرائيلي طوال ثلاثة وعشرين يوماً.

هـذا التحفظ في الإبتهـاج (الـذي حـاولْنـا إظهـار ملامحه لبنانياً وعربياً وبطريقة الإيماءات) على التحدي الذي واجه به "حزب الله" في لبنان إســـرائيل ســـبق أن حدَث تحفظ مشـــابه له عام 1991 عندما أقدم العراق على إرسـال عدد من الصـواريخ سـقطت على مدن في إســـرائيل وكان ذلك في ذروة الحرب على العراق رداً على غزو قواته للكويت وإحتلالها وقيام تحالف دولي – عربي – إســـلامي لتحريرها. وفي ذلك الحين حدَث من جانب شرائح عريضة من الرأي العام العربي والإسلامي وبالذات من فلسطينيي الداخل والشتات، إبتهاج لا مثيل

لـه بهذا التحدي يحدُث للمرة الأولى، لكن التحفظ الذي قوبل به هذا الإبتهاج قلَّل من بريقه. وفي حينه كانت دواعي التحفظ على الإبتهاج أنه قبْل أن يرسـل الرئيس صدَّام حسين الصواريخ تسقط على إسرائيل التي تحتل فلسـطين فإن من حق الأمة عليه أن ينهي قبْل ذلك إحتلال قواته للكويت. وسـاعد على هذا التحفظ أن الولايات المتحدة مارسـت من الضـغط الكثير على إسرائيل كي لا تُرد على القصف الصاروخي العراقي.

وفي الحالتيْن سـيبقى التحديان: تحدي "حزب الله" لإسـرائيل التي أثمر إنسـحابها وقد اهتزت مكانتها وهيبتها، وتحدي العراق لإسـرائيل عندما تجرأ ورماها ببضـعة صـواريخ أشاعت الرعب في صـفوف سكانها، محطتيْن بـالغتيْ الأهميـة في الصـراع العربي – الإسـرائيلي. لكن عوائد التحدي الثاني من الضـرر ما زالت تصـل إلى العراق في شـكل حصـار وقصـف أميركي – بريطـاني لمنـاطق فيـه وكمـا لو أن هـذا القصـف هو ثأر بالنيابة من جانب بريطانيا لإسـرائيل التي تأسـست بخطيئة وعد اللورد بلفور والتي إستمرت تتحدى كل الأمة وتعتدي حيث تريد نتيجة مسـاعدات من جانب الإدارة الأميركية لها والدفاع عن إعتداءاتها وتجاوزاتها... إلى أن جاء "حزب الله" يتصـدى لها بحرب عصابات أثمرت إنسحاباً وخيبة قد تجعلانها تلزم حدودها خشية أن يصبح فعل المقاومة بمزيجه الإيراني – السوري – اللبناني نموذجاً لمواجهتها في القرن الواحد والعشرين. وفي هذه الحال لا يعود إنسحابها إلى حدود 4 يونيو 1967 هو المطلوب ووجودها ضِـمْن هذه الحدود هو المقبول، وإنما يصـبح المطْلب المرحَّب به والخالي من أي تحفظات هو إنسـحاب اليهود، الذين تدفقوا إليها من الشـتات طوال نصـف قرن، إلى حيث كانوا من روسيا... إلى اليمن.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 31 مايو (أيار) 2000

* * *

نهاية زمن المعارضة السودانية المهاجرة والمهجَّرة

من حُسْـن حظ المعارضـة السـودانية أنها وجدت طريقاً للحوار مع النظام في السـودان، وبذلك أمكنها أن تنجو من محنة كبرى كانت سـتصـيبها لو أن أقطاب هذه المعارضـة لم يحسـموا إلى الآن أمر الحوار الذي نشير إليه وإستمروا مقيمين في أسمرة عاصمة إريتريا وعاصمة المعارضة السودانية.

ولكن أقطاب المعارضة السودانية شعروا على نحو ما تشـعر الخيول عندما يكون هنالك زلزال على أهبة الحدوث فتفلت من عقالها وتجمح وفي لمح البصر نحو مناطق أُخرى آمنة. ولا بد أن أقطاب هذه المعارضـة، ومعظمهم من الذين يملكون القدرة على إستقراء المواقف والخروج بخلاصة تؤسس لخطوة أو لموقف، وجدوا وهم يتـأملون في العلاقـة التي تزداد تعثراً بين النظـام في أثيوبيا والنظام في إريتريا أن المواجهة آتية لا ريب فيها بين البلـديْن الجـاريْن وأن الظروف كثيرة التعقيد التي يعيشـها النظامان سـتجعل المواجهة شـرسـة في حال بدأت. ومن هنا فإن السـلامة هي في المغادرة، خشـية أن يجد "جيش" المعارضـة نفسه يصد إلى جانب قوات البلد المضـيف الهجمات الأثيوبية كنوع من المؤازرة أو العرفان بالجميل. وهذا ما قصـدناه بالمحنة التي كان يمكن أن تصيب زعماء المعارضة السودانية.

إنـه مجرد إفتراض. إلاَّ أن التـأمـل في أحوال المعارضـة السودانية يجعل مثْل هذا الإفتراض منطقياً. فالمعارضـة لكي تصـمد تحتاج إلى مال وإعلام وعمْق وأنظمة متنافرة. هذا في الحد المثالي الذي هو الأقصى، أمـا في الحـد الأدنى فـإنهـا تحتـاج إلى الإعلام وإلى العمق. وقد تحقّق لها هذا كما لم يتحقق لمعارضـة عربية أو حتى غير عربية، عدا المعارضة العراقية التي تحقَّق لها الإعلام والمال لكن لم يتحقق لها العمْق، إلاّ إذا نحن إعتبرنا إيران أنها كانت العمْق ولبعض فصـائل المعارضـة العراقية مقابل أن العراق هو العمْق لمنظمة "مجـاهـدي خلْق". وكلتـاهمـا المعـارضـة العراقيـة والمعارضـة الإيرانية متمثِّلة بمنظمة "مجاهدي خلْق" لم تنجحـا في زعزعـة النظـام (النظـام البعثي في العراق والنظام الثوري الإسـلامي في إيران) وإستمرتا سـبباً في صداع خفيف الوطأة لكل من النظاميْن.

كانت إريتريا العاصـمة وكذلك المناطق الحدودية المتاخمة للسـودان عمقاً لا مثيل لأهميته بالنسـبة إلى المعارضـة السودانية. وإستعمل الرئيس الإريتري أفورقي هذه المعارضـة كورقة لا يملك غيرها يضـغط بها على النظام في السودان الذي يحتضـن المعارضـة الإريترية للرئيس أفورقي. وحيث إنه يعلِّق كبير الآمال عليها فإنه وفَّر لها التحرك في المجالات السـياسـية كما لم تتوفر لمعارضـة أخرى، ووافق على إجراءات مخالفة للأصول

الدبلوماسية – ولها صفة التجاوزات – عندما سمح لفصائل المعارضة السودانية بإستخدام مقر السفارة السودانية في أسمرة، أما المناطق الحدودية المتاخمة للسودان فإنها باتت ساحة جيش المعارضة يقيم المعسكرات عليها ويتدرب، فضلاً عن تخزين السلاح والآليات التي يغنمها من هجومات يقوم بها بين الحين والآخر على القوات السودانية منطلِقاً من أراضي إريتريا وتحت حماية دقيقة منها.

أما الإعلام فإن هذه المعارضة حظيت بدعم إعلامي لا مثيل له، بل إن اهتمام معظم وسائل الإعلام العربية بوجه خاص والأجنبية عموماً فاق بكثير إهتمام هذه الوسائل بالنظام في السودان. وهذا سببُه أن أكثرية الأنظمة العربية متحفظة على بعض رموز الحُكْم السوداني لكثرة التحديات التي إعتمدها الدكتور حسن الترابي – يوم كان شأنه كبيراً – في التعامل مع هذه الأنظمة سواء في مشرق العالم العربي أو في مغربه. كما أن تحالفه الإستراتيجي مع الثورة الإيرانية جعله يستعمل في الأحاديث التي تجريها بعض الصحف والفضائيات العربية معه كلمات ومفردات تبعث على الخشية من تطلعاته ومخططه الذي يقضي بتحويل السودان إلى إيران ثانية يتولى منه تصدير الثورة إلى كل أفريقيا وإلى دول الجوار العربي – الأفريقي. وكخطوة رادعة أو وقائية جاء اهتمام معظم وسائل الإعلام العربية بالمعارضة السودانية وكان إهتماماً ملحوظاً فاق بكثير قدرة هذه المعارضة على التغيير. ولو أن هذا الإهتمام كان من أجْل قضية قومية تهم الأمة لكان ذلك سيبدو طبيعياً ومطلوباً لكن الإهتمام كان لمعارضة تنحصر قضيتها في تغيير النظام لكي تخطف الحُكْم منه، وتلك ليست قضية وطنية على الإطلاق.

المهم أن أقطاب المعارضة السودانية شعروا أن زلزالاً قادماً على البلد الذي هو المقر والممر لهم، وأن أثيوبيا على أهبة أن تخوض الحرب ضد إريتريا ومن أجْل ذلك فإن من الأفضل لهم أن يغتنموا فرصة الرغبة بالحوار التي صدرت عن النظام في السودان، خصوصاً أنهم لن يجدوا بديلاً لإريتريا سواء في مصر أو ليبيا أو أي دولة من دول الجوار الأفريقي. فالإريتريون بدءاً من الرئيس أفورقي وحتى آخر إريتري على الحدود لن يعود مهتماً في حال حدثت المواجهة مع أثيوبيا – وهي قد حدثت بالفعل – بالمعارضة السودانية وهل ستتمكن من تغيير نظام البشير – الترابي في السودان، وإنما سينحصر الإهتمام في القدرة على الصمود – وهو ما لم يحدُث.

ثم جاءت خطوة الوفاق اللاحقة – قبْل بضعة أشهر – بين الرئيس أفورقي والرئيس البشير، بعدما كان إنقلب على الترابي، بمثابة رسالة عاجلة إلى أقطاب المعارضة فحواها إن عليهم أن يقرأوا جيداً التطورات المحتمَلة والموقف الذي يمكن أن يستجد نتيجة لها وأن لا يضطروا النظام في إريتريا إلى أن يطلب منهم المغادرة وإنما أن يغادروا بعد التفهم.

وإذا كانت عودة أقطاب المعارضة إلى السودان لم تكتمل فإن من الواضح أن المقر الإريتري قد أُغلق نهائياً وأن حال هؤلاء الأقطاب باتت على شيء من التعقيد بمعنى أن العودة إلى السودان هي الخيار الأسلم. وسيجد هؤلاء أن أي خطوات تعتمد على التأمل والتنبه تستهدف التغيير الخالي من التحديات ستبقى أفضل لهم بكثير. وإذا كان الدكتور حسن الترابي وهو الذي بقي بضع سنوات في قلب القرار وفي عقول صانعيه إستسلم إلى التحولات الجديدة التي يشهدها السودان وقرر بعدما تبادل مع حليفه البشير الإنفصال وبغير الحسنى ولا بالمعروف، أن يجمع ما تبقَّى له من مريدين ويشكِّل حزباً على أمل أن يجد له موقعاً مناسباً في خارطة التحولات السودانية الجديدة، فلماذا لا يفعل الشيء نفسه الصادق المهدي ومحمد عثمان ميرغني وجون قرنق وآخرون بحيث يعود هؤلاء إلى السودان ويؤكد كل منهم وبعيداً عن الحلول الدموية والصراع المسلح مدى حجمه ونسبة حصته في حُكْم يعيد إلى بلدهم بعض الوهج الذي فقده طوال سنوات.

ومتى يتأكد هؤلاء الأقطاب أن زمن المعارضة السودانية المهاجرة أو المهجَّرة إنتهى، ولماذا لا يدقق كل منهم في تاريخ مولده... وكذلك في تقارير الأطباء عن وضعه الصحي؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 يونيو (حزيران) 2000

* * *

الألماني الأخضر يجرب حظه

كان لافتاً للإنتباه بعدما وصلت الحال بين الفلسطينيين والحكومة الشارونية الى ما قبْل نقطة الإنفجار الكبير بقليل دخول هذا السياسي الأوروبي

الأخضر وزير خارجية المانيا جوشكا فيشر الحقل الفلسطيني – الإسرائيلي المليء بالألغام وقيامه بمسعى يستهدف التهدئة. وقد زار لهذا الغرض القاهرة وعمان ورام الله وتل أبيب وعقدَ لقاءات مع أقطاب العملية السلمية ورموز الازمة المستفحلة الرئيس حسني مبارك والملك عبدالله الثاني والرئيس ياسر عرفات ورئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون.

ولقد تزامن مع بدء الوزير الألماني مسعاه أن وزير الخارجية الأميركية كولن باول الذي هز مشاعره حادث تفجير الملهى الليلي، وهو الذي لم تهتز مشاعره لعشرات المشاهد المؤثرة على مدى ثمانية أشهر تصيب أطفال فلسطين وفتيتها ونساءها وشيوخها، قرر دعْم الوزير الألماني أو ربما إنه أوحى إليه القيام بهذه المهمة لتفادي حوار خشن مع جنرال إسرائيل شارون المنزعج (أي جنرال أميركا) من إحراجه له وكيف أنه من باب الإضطرار أو خشية من الإبتزاز الصهيوني لم يقف موقف جنرال يحترم قانون الشرف العسكري عندما إستهان شارون به وببيته الأبيض وكذلك ببنتاغونه وبكل القيم والقوانين والكنائس الأميركية على أنواعها وطلب من قيادة الجيش إستعمال أهم سلاحيْن يرمزان إلى اميركا. وكانت تلك القيادة جاهزة حيث بدأ على الفور قصْف الفلسطينيين الآمنين بطائرات الهليكوبتر المتطورة ثم بطائرات F.l6 الأكثر تطوراً. وكان غرض شارون من ذلك هو القول أن لا البيت الابيض ولا الخارجية الأميركية ولا البنتاغون ولا أي مؤسسات أُخرى في الإدارة الاميركية قادرة أن تمنع إسرائيل أو تدينها لإقدامها على مثْل هذه الإعتداءات وبالسلاح الأميركي، وأنه ما دام الامر كذلك فلماذا لا يرفع الفلسطينيون الراية البيضاء ويوقِّعون وثيقة الإستسلام وبذلك يسود السلام الصهيوني – الأميركي.

كان دخول الوزير الألماني على الخط وبالشكل المفاجيء لافتاً للإنتباه، ولم يكن واضحاً ما هي الحيثيات التي أوجبت على الرجل القيام بالمهمة، هذا إذا نحن إستبعدْنا تكليف الإدارة الأميركية له القيام بها. هل ان الرجل يتطلع إلى مستشارية بلده مستقبلاً بعد إيرهارد شرودر، وهذا يستوجب قيامه بدور يكون بالأهمية التي تؤهله للمنصب الكبير؟ أم هل إن الرجل وهو العصامي الذي ذاق مرارة الدنيا قبْل أن يصبح وزيراً للخارجية إنتابته مشاعر إنسانية ووجدانية وهو يرى ما تفعله الهمجية الإسرائيلية بطبعتها الشارونية بالفلسطينيين فقرر توظيف رصيد بلده في سبيل إيجاد تسوية صغرى تقود إلى التسوية الكبرى فالأكبر معتمداً على أن أفضال بلاده على إسرائيل كثيرة ومستمرة وآخرها مدها بالغواصات التي تريدها للحرب العربية – الإسرائيلية الرابعة التي ربما تخطط لها؟ أم هل ان الرجل يطمح في أن يكون الأمين العام للأمم المتحدة بعد كوفي انان ومثل هذا الطموح يحتاج إلى التعاطي ميدانياً مع مشكلة التسوية الفلسطينية – الإسرائيلية التى هي "أم المشاكل" العالمية لمعرفة الحقائق على الطبيعة وليس فقط من خلال تصريحات المبعوثين وتقارير السفراء؟ أم هل ان الرجل بصفة كونه ينتمي إلى حزب الخضر في بلده راعه أن الاسرائيليين يعبثون ليس فقط بأرواح الناس وإنما بالأشجار يجرفونها وبالتربة يصحِّرونها ويحوِّلون كل ما هو أخضر إلى يابس، فقرر لشعور منه بواجب إنقاذ بساتين المدن والقرى الفلسطينية من شر أفعال الجرافات الشارونية القيام بالمهمة والحضور على وجه السرعة إلى المنطقة؟ أم هل إن الممارسات الإسرائيلية بدت أمامه تمثِّل حالة إنبعاث سريع للنازية فإرتأى أن يواجهها بالتحرك الدبلوماسي وبذلك يكون قام بالواجب على أكمل وجه؟

تلك بعض التساؤلات التي إرتسمت في الأفق لمجرد أن بدأت مهمة الوزير الألماني الأخضر النحيل الذي يذكِّرنا دوره ببطل المسلسل الشهير (Incredible hulk) الذي تدور حلقاته حول شخص يخضَّر كيانه نتيجة شحنة كهربائية تصيب هذا الكيان وذلك عند حدوث خطر ماحق يتعرض له شخص ما وينجح في إنقاذ هذا الشخص قبْل أن يعود إلى ما كانت عليه الحال من قبْل. والذي زاد في وتيرة هذه التساؤلات أن الذي قام بالمسعى التوقيفي ليس وزير خارجية بريطانيا ولا هو وزير خارجية فرنسا وذلك لأن الإدارة الأميركية لن تحبذ إستقلالية يمارسها الأول ولا دوراً يقوم به الثاني من شأن نجاحه سحْب البساط من تحت الأقدام الأميركية. كما أن الذي زاد في وتيرة التساؤلات أن ما قام به الوزير الألماني كان بمثابة المسعى الذي أوقف إندفاع الوحش الإسرائيلي في إتجاه الرئيس الفلسطيني، الحائر بين إستحضار ماضيه كمناضل وبين واقع حاله كرمز للشرعية الفلسطينية، يريد الإنقضاض عليه والتهامه على نحو إلتهام الذئب للخروف التائه عن أمه وقطيعه. ومثْل هذا النجاح كان الحد الاقصى الذي ترتاح إلى إنجازه الإدارة الاميركية والذي يؤسس

للمرحلة اللاحقة وهي تلك التي تمثلت بقيام مدير الإستخبارات المركزية الأميركية جورج تينيت بزيارة إلى المنطقة يوم الأربعاء الماضي لرعاية إستئناف التنسيق الأمني الفلسطيني – الإسرائيلي كخطوة من شأنها التمهيد لإحياء العمل بتقرير لجنة ميتشيل. ولكن أسلوب التعامل الأميركي – الإسرائيلي مع الجانب الفلسطيني لا يشجع على التفاؤل بإمكانية حدوث أي تقدُّم، ذلك أنه تم إنجاز إتفاقات في الماضي معظمها على الارض الأميركية لكن القبول بهذه الإتفاقات وحتى التوقيع عليها من جانب الطرَف الإسرائيلي لم يكن يعني أن إسرائيل ستلتزم بها. وقد بات مألوفاً انه بعد كل موافقة على صيغة أو خطة أمنية أو سياسية من جانب الطرَف الفلسطيني يفتعل الطرَف الإسرائيلي أسباب تفجير للموقف كي لا يصار إلى الإلتزام بما تم الإتفاق عليه. ومِن هنا يخشى المرء أن يتم إستدراج الرئيس ياسر عرفات إلى إتخاذ مواقف حاسمة ضد فصائل الإنتفاضة بعدما تم إستدراجه إلى إعلان وقْف إطلاق النار وبدا في ذلك مثل آية الله الخميني الذي أطلق عبارته الشهيرة وخلاصتها إنه بموافقته على وقْف إطلاق النار مع العراق كان كمَن يتجرع السم. وعندما يتحقق إستدراج عرفات إلى مواقف حاسمة يفتعل شارون أسباباً جديدة للتنصل من أي إتفاق أمني أو غير أمني يتوصل إليه ليس فقط مدير الإستخبارات المركزية وإنما الرئيس جورج بوش نفسه.

ومن الجائز الإفتراض ونحن نقول ذلك أن مهمة مدير الـ " سي. آي. اي" قد تكون وضْع لوائح بأسماء مناضلين فلسطينيين أمام عرفات والطلب إليه أن يقوم بواجبه كرئيس للسُلطة. ولكن للرأي العام الفلسطيني أو بعضه وكذلك للرأي العام العربي أو بعضه ملء الثقة بأن عرفات الذي بات حاذقاً في كشْف المراوغات الأميركية – الإسرائيلية يستطيع القول إن مثل هذه المهمة إنما يتولاها رئيس الدولة التي لم يتم بعد قيامها وليس رئيس سُلطة سبق أن دمر شارون بطائرات "الأباشي" الـ F.16 مراكز لقوى الأمن الفلسطينية التي – إفتراضاً – ستقوم بالمهمة غير النظيفة. كذلك يستطيع الرئيس عرفات القول إن في إستطاعة الألماني الأخضر، إذا هو إرتأى إتخاذ وقفة ضميرية متجردة، أن يروي للعالم ومِن على منبر الأمم المتحدة الحقائق التي بات ملماً بها ما من شأنها – اذا هو جرأ وتجرّد ثم روى – أن تجعل الرأي العام العالمي يصحو من هذه الاغفاءة الطويلة الناشئة عن التنويم المغناطيسي الصهيوني للضمائر ويتطلع بعين الإهتمام والتعاطف إلى المذبحة – بطبعتها الشارونية – التي تنفِّذها إسرائيل على الأرض الفلسطينية.

وهذه الطبعة لا تختلف عن سابقاتها سوى ببعض التفاصيل. اما المضمون فمتشابه وهو إفناء قضية وطن وشعب ومن دون ان تحرِّك الأمم المتحدة ساكناً، وكأنما كان إعلان الرئيس الاسبق جورج بوش (والد الرئيس الحالي) قيام النظام العالمي الجديد هو إعلان إغتصاب المنظمة الدولية على نحو إغتصاب إسرائيل قبل 53 سنة. ومِن هنا لا يعود من المبالغات في شيء إعتبار النظام العالمي الجديد بأنه بدعة صهيونية إستهوت فكرته أميركا على أساس أنها من خلاله تضع يدها على إرادة الدول الأُخرى ومن دون أن تتنبه هذه الدولة العظمى إلى انها بهذه الخديعة فقدت سمعتها وستفقد اصدقاءها وحلفاءها. وقد يحدُث مستقبلاً ان دول العالم قد تقف يوم إعلان بوش الأب لولادة النظام العالمي الجديد دقيقة صمت حداداً على الأمم المتحدة التي كان ذلك اليوم هو يوم إغتصابها.

ويبقى أن ما أوردناه هو في مجمله مجموعة خواطر وتأملات شجَّعنا على خوض غمار تسجيلها على الورق الوزير الألماني الأخضر الذي جاء يجرب حظه.. فلم تحترق أصابعه حتى الآن.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 13 يونيو (حزيران) 2000

* * *

تأملات في رحيل حافظ الأسد

كان أمير دولة الكويت الراحل الشيخ صباح السالم الصباح هو آخر مسؤول عربي تبادل عناق الوداع في مطار القاهرة مع الرئيس جمال عبد الناصر في الثانية والنصف بعد ظهر يوم الإثنين 28 سبتمبر/ أيلول 1970 من دون أن يدري الأمير أنه في اللحظة نفسها كانت نوبة حادة تعصف بقلب الرئيس المصري وتنعكس آثارها على وجهه شحوباً وعلى جسمه نحولاً وإلى درجة الشعور بأنه لم يعد قادراً على الوقوف فكان أن تم نقْله على وجه السرعة إلى منزله بدل نقْله إلى مستشفى، وكان علاجه على الطريقة التقليدية بدل إعلان حالة طوارئ طبية. ولم تمضِ ثلاث ساعات إلاَّ

وكان عبد الناصر أسلَّم الروح عن 52 عاماً وهو ممدَّد على سرير غرفة نومه.

وبإستثناء ما كتبه في حينه الأستاذ محمد حسنين هيكل من أن عبد الناصر إستمع بواسطة الراديو المجاور لسريره إلى نشرة أخبار الساعة الخامسة بعد الظهر من إذاعة القاهرة حيث كان في إنتظار أن يسمع خبراً معيَّناً وبعدها أسلم الروح، فإننا لم نعرف عن اللحظات الأخيرة في حياة عبد الناصر شيئاً. كما أن الخبر الذي كان ينتظر سماعه في نشرة الساعة الخامسة إستمر لغزاً وإن كان من الجائز الإفتراض أنه يتعلق بالقمة العربية الإستثنائية التي إستضافها عبد الناصر على رغم شدة وطأة المرض عليه من أجْل إيجاد حل للأزمة المستفحلة بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية، والذي كان أمير الكويت بين المشاركين فيها وأصر عبد الناصر على أن يقوم شخصياً بتوديعه في المطار.

كان ذلك قبْل حوالى ثلاثين سنة. ومنذ ذلك اليوم الحزين والتساؤل في شأن ذلك الخبر وارد. وقبْل أربعة أيام (السبت 10 يونيو/ حزيران2000) تتكرر الواقعة مع بعض التعديل حيث إن الرئيس اللبناني إميل لحود كان آخر من تحدَّث هاتفياً من بيروت مع الرئيس حافظ الأسد الذي عرف العالم بوفاته من محطة الـ "سي. إن. إن" الأميركية قبْل أن يذاع النبأ رسمياً من دمشق ومن بقية الإذاعات ومحطات التلفزيون والفضائيات العربية الرسمية وغير الرسمية. ولكن الرئيس لحود لم يترك إشارة إلى أنه كان آخر مَن تحدَّث هاتفياً مع الرئيس الأسد تتحول إلى لغز تكثُر في شأنه التأويلات بحيث يتكاثر الذين يتساءلون حول الذي جرى خلال هذا الحديث، وإنما إرتأى تضمين برقية التعزية التي بعث بها (إضافة إلى التعزية الهاتفية) إلى الدكتور بشَّار الأسد، ما جرى في ذلك الحديث ومنها قوله (أي الرئيس لحود): "لقد كنتُ آخر من تكلَّم معه ظهر هذا اليوم هاتفياً وكان بيننا حديث عن الأوضاع العامة وشؤون المنطقة وشجونها وهموم سوريا ولبنان وإنتصارهما في معركة المقاومة وتحرير الجنوب، وكانت آخر عبارة قالها لي: "قدَرُنا أن نبني لأولادنا مستقبلاً أفضل مما ورثْنا" ثم كان صمت مفاجئ وإنقطع الإتصال وأدركتُ بعدها أنه سلَّم الأمانة وبلَّغ الرسالة...". ثم أضاف الرئيس لحود إلى هذه الواقعة ما يجوز إعتباره صورة العلاقة كما ستكون عليه مستقبلاً بين الإثنيْن (الرئيس اللبناني إميل لحود والرئيس المرتقَب لسوريا بعد أيام الدكتور بشَّار الأسد) حيث قال في برقيته التي ستبقى أكثر برقيات التعزية تميزاً والتي تلقاها الدكتور بشَّار: "قدَرُنا نحن وإياكم أن نُكمل هذا الطريق، ونحن بإذن الله منتصرون وسيذكر لبنان وشعبه دائماً بكثير من الوفاء ما كانه حافظ الأسد لوحدة لبنان ولأمنه وتحريره...".

ومثلما أن ظروف الوفاة متشابهة بين عبد الناصر الذي جاءته لحظة ملاقاة وجه ربه وهو يقوم بالواجب الوطني، وحافظ الأسد الذي جاءته اللحظة نفسها وهو في ساحة الواجب... مثلما أن الظروف تلك متشابهة فإن بين الإثنين جامعاً مشترَكاً هو أنهما رحلا إلى دنيا الآخرة من دون أن يضع كل منهما توقيعه إلى جانب توقيع رئيس وزراء إسرائيل. وتلك كانت بالنسبة إلى الإثنين مسألة في غاية الأهمية يشعر كل منهما بأنها ستخدش كبرياءه الوطني وتهيل علامات الإستفهام على تراثه القومي. والتوقيع المشار إليه هو ما كانت تتطلع إسرائيل إليه وتأمل الحصول عليه من عبد الناصر بعد هزيمة 5 يونيو/ حزيران 1967 وما إستمر إيهود باراك ومِنْ ورائه إدارة الرئيس بيل كلينتون التي تتشكل أكثريتها من يهود أميركيين متعاطفين بقوة مع إسرائيل، يتطلعان إلى الحصول عليه من حافظ الأسد، وشعرا أنهما سيحصلان عليه قريباً في ضوء اللقاء الأخير في القاهرة بين وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت ووزير الخارجية السورية فاروق الشرع. لكن الله الذي ترفَّق بعبدالناصر جزاء عدم إستسلامه للإرادة الإسرائيلية فإختاره إلى جواره من قبْل أن يضطر إلى وضْع توقيعه إلى جانب توقيع موشي دايان أو مناحيم بيغن أو غولدا مئير، ترفَّق أيضاً بحافظ الأسد وإختاره إلى جواره من قبل أن يضطر هو الآخر إلى وضْع توقيعه إلى جانب توقيع إيهود باراك. وكلاهما، عبد الناصر من قبْل وحافظ الأسد بعد ذلك لم يغلقا الباب أمام أي تسوية عادلة ولكن، على ما يجوز قوله، إن المطلوب كان إذلال هيبتهما وهو ما تنبَّه له الإثنان كل من رؤيته وحساباته.

بالرحيل المباغت لـ حافظ الأسد بعد الرحيل المبكِّر قبل حوالى ثلاثين سنة لـ جمال عبد الناصر تقترب من المغيب شمس الزعامات العربية ذات الأصول الثورية التي تساوى شخص الزعيم فيها مع أهمية بلده وأحياناً كان الشخص أكثر أهمية من البلد نفسه. وتشاء الصدف أن تكون هذه الزعامات عبارة عن مزيج عسكري – مدني مع ملاحظة أن عبد الناصر كان

ضعيفاً أمام علاقاته ببعض رفاقه الذين تسببوا له في محنتيْن هما محنة إنفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ثم المحنة الناشئة عن هزيمة 5 يونيو/ حزيران 1967، في حين أن حافظ الأسد لم يضعف أمام تلك العلاقات بما في ذلك علاقة القربى فصان النظام ثلاثين سنة ولم يترك لبنان يتملص من بين يديْه على نحو تملُّص سوريا من بين يديْ عبد الناصر. وليس فقط ذلك، بل إن الحزن الرسمي اللبناني متمثلاً بالرئاسات الثلاث وحزن الذين يتعاطون العمل السياسي في لبنان تساوى مع الحزن الذي شهدتْه سوريا بدءاً بنواب مجلس الشعب الذين فقدوا زعيماً... وأي زعيم كان هذا الفقيد.

أمس ووري الرئيس حافظ الأسد الثرى بكل مهابة في مسقط رأسه "القرداحة" إلى جانب والدته وإبنه باسل تاركاً سوريا التي حكمها ثلاثين سنة بأسلوب غير مطروق يقوم على الحزم أمنياً والعزم وطنياً، في عهدة إبنه الدكتور بشَّار الذي تأهَّل على يديه في فترة زمنية قصيرة نسبياً. واللافت للإنتباه أن عملية إنتقال السلطة أخذت في الإعتبار رغبة الرئيس الراحل التي لم تكن دفينة، ذلك أن مرحلة التأهيل كانت واضحة للسوريين والعرب والعالم على حد سواء. ومن أجْل ذلك كانت الإجراءات السريعة الإيقاع لمادة في الدستور صيغت بحيث يصبح في إستطاعة الدكتور بشَّار الأسد أن يكون رئيساً للجمهورية مسجِّلة سوريا في ذلك أنها الجمهورية الأولى في العالم التي يُتوفى فيها الرئيس فيرثه إبنه... وهذا ما يتوق إليه بقية رؤساء الجمهورية في العالم العربي وكان الذي يعيق توقهم أنه ليس هنالك سابقة في هذا الشأن وبالذات بعدما لم يؤخذ في مصر عند وفاة عبد الناصر بإقتراح عاطفي من رئيس حزب الكتائب اللبنانية المرحوم الشيخ بيار الجميل والد بشير الذي إنتُخب رئيساً لكنه لم يتسلم حيث قضى إغتيالاً وأمين الذي إنتُخب وبات رئيساً ثم إنتهى مهجَّراً يعيش في فرنسا ويتجول حول العالم إنما لا يستطيع أن يأتي إلى بلده لبنان. وخلاصة إقتراح الشيخ بيار هو أن يخلف خالد عبد الناصر والده الرئيس جمال. ولكن ما هو ممكن في سوريا كان غير ممكن في مصر.

هل تسْلم سوريا من المفاجآت وهل يتواصل إستقرارها القائم على الحزم الأمني والعزم الوطني مع الدكتور بشَّار؟

من الجائز طرْح مثل هذه التساؤلات وغيرها كثير مع أن الذين يعرفون الرئيس (الأب) والرئيس المرتقَب (الإبن) ومن بينهم رئيس وزراء لبنان السابق – اللاحق رفيق الحريري الذي عرف الإثنين كما لم يعرفهما لبناني بهذا العمق، يؤكدون أن الإبن سر أبيه.

وفي ضوء ذلك فإنه ما دام الإبن سيسير على نهج والده فإنه سيصل بسوريا إلى بر الإستقرار، ويصل بلبنان إلى حالة جديدة من الثقة والطمأنينة تشمل الجميع خصوصاً أن فارق السن بين الرئيس لحود والدكتور بشَّار من جهة وحاجة الدكتور بشَّار إلى مؤازرة لبنان الرسمي والشعبي له في هذه الظروف (والتي هي بقدْر حاجة لبنان إلى مؤازرة سوريا قبْل عشرين سنة) يشكلان عاملاً ملحوظاً على طريق التكافؤ في العلاقة بما يجيز للرئيس اللبناني أن يطرح مقترحات وبدائل (مستنداً دائماً إلى واقعة أن الرئيس الأسد أسلم الروح وهو يتحدث معه)، وبما يحقق وحدة وطنية سورية – لبنانية من شأنها أن تجعل العملية السلمية المتعثرة سهلة المنال... بعد طول إنتظار وكثرة سعي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 يونيو (حزيران) 2000

***

زائر الضاحية الجنوبية في وضح النهار...

من كان يتوقع أن تتطور الأمور بهذا الإيقاع الذي تطورت عليه وما زالت، وتصل الحال بنا إلى يوم نرى فيه الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان يقوم وفي وضح النهار في التاسعة وعشر دقائق من يوم الثلاثاء 20 يونيو (حزيران) 2000 بزيارة زميله في منصب "الأمانة العامة" السيد حسن نصرالله الأمين العام لـ "حزب الله" الذي تقبّل برحابة صدر وصول زائره الدولي متأخراً عشر دقائق.

جاءت الزيارة في وقت أنجز "حزب البعث" في سوريا الجانب الحزبي من عملية إنتقال السُلطة إلى الدكتور بشَّار الأسد، وجاءت تشكِّل حدثاً بالغ الأهمية وغير مسبوق لكي تتمّ مقارنتها مع حدَث مماثل. وفي الماضي عايشْنا زعماء ثوريين وقفوا خطباء على منبر المنظمة الدولية من بينهم فيديل كاسترو الذي إذا أمدّ

الله بعمره ربما يكون عميد الرؤساء الصامدين في منصب الرئاسة طوال نصف قرن. كما أننا عايشْنا مشاهدة رجل دين هو الرئيس القبرصي (الراحل) المطران مكاريوس يقف أيضاً خطيباً على منبر المنظمة. أما الذي يحدُث للمرة الأولى فهو أن الأمين العام للأمم المتحدة هو الذي يبادر ويقوم بزيارة رجل دين من الجيل الشاب هو الأهم بين رجال الدين في طائفته في لبنان بعد الإمام موسى الصدر الذي ترفض الطائفة إعتباره متوفياً وما زالت ترى أنه مغيَّب. (ليس الآن مجال البحث في ظروف واقعة اختفاء موسى الصدر).

كان منظر دخول موكب الأمين العام كوفي أنان الضاحية الجنوبية من بيروت والمجاورة للمطار حيث مقر الأمين العام لـ "حزب الله" السيد حسن نصرالله لافتاً للإنتباه ومثيراً للدهشة. فالضاحية هي معقل الحزب وعبارة عن مجموعة من الأحياء الشعبية معظم سكانها من الطائفة الشيعية. وفي هذه الضاحية يتخذ أيضاً رجل الدين العلاّمة الشيعي السيد محمد حسين فضل الله مقراً لسكناه. وفي إستمرار كانت طرقات أحياء الضاحية وأزقتها موضع إهتمام أمني ورقابة مشددة لا مثيل لها خشية أن يقتحمها عملاء ينفّذون لإسرائيل عمليات إغتيال بعض قادة "حزب الله" بواسطة سيارات مفخخة، أو يقومون بوضع متفجرات في أماكن مكتظة بهدف إحداث فوضى وإرتباكات لا مثيل لها. ومن هنا فإن اليقظة التي تلازم حالة الإستنفار شبه المتواصلة لدى الإدارات الأمنية في الحزب لتفادي وقوع مثْل هذه العمليات كانت بدقة يقظة الشبان الذين إنتشروا في خطوط المواجهة لتنفيذ عمليات ضد قوات الإحتلال الإسرائيلي وعملاء إسرائيل العاملين في ما عُرف بـ "جيش لبنان الجنوبي". وكثيراً ما حدثت إختراقات أمكن كشْفها في اللحظة الأخيرة.

وفي الضاحية الجنوبية حيث "دولة حزب الله"، إذا جاز القول، تشعر أنك في أحياء قريبة الشبه من أحياء كربلاء والنجف وأحياء في ضواحي طهران. النساء عموماً محجّبات والرجال عموماً أطلقوا لحاهم بدرجات متفاوتة. وفي المناسبات الخاصة مثْل عاشوراء يمارس أهل الضاحية الحزن بصدق. وفي الضاحية باتت هنالك لهجة جديدة هي مزيج من المفردات التي يتميز بها المذهب الجعفري بلكنة إيرانية وشجن عراقي. وما يحدُث في بعض المناطق اللبنانية من جرائم وأعمال غير أخلاقية وعدم إنضباط ومظاهر غير محترمة وسرقات لا يحدُث في الضاحية حيث بَسَط "حزب الله" الحزم والمهابة.

هذه ملامح عابرة عن الضاحية الجنوبية التي أقدم الأمين العام كوفي أنان على مبادرة شجاعة بزيارته مقر السيد حسن نصرالله يوم الثلاثاء 20 يونيو (حزيران) في موكب محروس من قوى الأمن اللبنانية وعناصر الحماية التابعة للحزب.

بطبيعة الحال وجد أنان مقراً يخلو من أي أبهة ويشبه في بعض جوانب بساطته مقر سكن رئيس الحكومة اللبنانية الدكتور سليم الحص. ووجد أنان نفسه للمرة الثانية وجهاً لوجه أمام قيادات تابعة للحزب حيث سبق له أن إلتقى، عندما كان ما زال في عهد سلفه الدكتور بطرس غالي يشغل منصب الأمين العام المساعد، بعض القياديين في الحزب. والفرق بين المرة الأولى في بداية التسعينات وهذه المرة أن الحزب زمنذاك كان مشروع مقاومة أما الآن فإنه صاحب إنجاز مُبهر حيث نجح في تحقيق نصر على الإحتلال إضطر الحكومة الإسرائيلية تحت تأثير العمليات الشجاعة لمقاتلي "حزب الله" على مدى عشر سنين إلى سحْب قواتها من لبنان ومن دون فرْض شروط مسبقة.

كان الإجتماع عبارة عن لقاء أمين عام، كثير الأسف لإخفاقات المنظمة الدولية التي يقف على رأسها في إستيعاب بعض الحقائق ومن بينها أن "حزب الله" هو حركة مقاومة وإن كانت الغاية تبرر له بعض الوسائل التي إضطر للأخذ بها وإعتبرها آخرون "إرهاباً"، بأمين عام لحزب خارج من إنتصار يغبطه عليه قادة بعض الجيوش العربية النظامية. ولولا الهوية المذهبية (شيعي) لهذا الحزب من جهة والولاء السياسي المطلق من جانبه للثورة الإيرانية من جهة أُخرى، لكان ذلك الإنتصار أحدث صحوة على المستوى القومي. لكن طبيعة الهوية ونوعية الولاء جعلت الإبتهاج العربي والإسلامي بالإنتصار الذي حقّقه يبقى حبيس الصدور لدى الكثيرين وبذلك لم يعطَ الحزب حقه من الإنصاف العربي والدولي، إلى أن جاء الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان يطلب الإجتماع بالأمين العام للحزب السيد حسن نصرالله. وجاء الإجتماع في مقر الأخير وليس لدى طرف ثالث ليؤكد ما معناه أن كوفي أنان إما أنه شجاع إلى الدرجة التي يقوم بهذه الخطوة ليعوِّض من خلالها

تقصـــيراً متكرراً ومتعمّداً من جانب المنظمة الدولية تجاه لبنان والمقاومة التي يتصدرها "حزب الله"، أو أنه مخوّل ضـــمناً من الإدارة الأميركية لكي يخطو هذه الخطوة وهو مطْمئن إلى أنـه لن يلقى العقـاب الـذي سبق أن لقيَه سلفه الدكتور بطرس غالي. ونحن عندما نقول ذلك فعلى أســاس أن الأمين العام للأمم المتحدة وبـالـذات كوفي أنـان يحرص على ألاَّ يخطو أي خطوات من شـأنها أن تزعج الإدارة الأميركية حتى إذا كانت هذه الخطوات تدخل في نطاق صلاحياته كأمين عـام للأمم المتحدة. كمـا أننـا نـأخذ في الإعتبـار أن الأمين العام قد يكون وتحت غطاء منصـــبه الدولي مكلّفاً برسـالة خاصـة من الإدارة الأميركية لكي يبلغها دون غيره للأمين العام لـ "حزب الله" السـيد حســن نصـرالله. وهنا تسـتوقفنا ملاحظة أن هذا اللقاء ما كان ليتم قبْل موافقة إيران وأنه من أجْل ذلك جاءت زيارة أنـان إلى طهران وإجتمـاعـه بكل من مرشـــد الثورة خـامنئي ورئيس الجمهوريـة خـاتمي. وبعد هذه الزيـارة باتت الطريق ســالكة أمام اللقاء المثمر في وضْـــح النهار وتحت بريق عدســات المصـــورين الذين بذلوا جهداً إستثنائياً لتسجيل لقطات ناجحة للإجتماع المثير بين أمينيْن عاميْن واحد مقره إحدى ناطحات السـحاب في نيويورك والثاني مقره الضاحية الجنوبية من بيروت التي لا نعرف مـا إذا كـانت بعد هذا اللقاء ســتبقى هـاجســاً مقلقاً للإدارة الأميركيـة والطـائرات المدنيـة الأميركية.

ويبقى أننا إســتناداً إلى صـــورة اللقاء حيث بدا الأميـنـان العـامـان مرتـاحيْ الوجهيْن محـاطيْن بـالعَلَم اللبناني إلى جهة أنان وعلم "حزب الله" إلى جهة أمينه العام، وكذلك إلى التوضحيات التي أبلغها السيد حسن وأوردها بيان أصــدره الحزب... إننا إســتناداً إلى ذلك نفترض أن مفاجآت ســـارة آتية ولا ريب لمصـــلحة العملية السـلمية ومن بينها أننا قد نسـمع ذات يوم أن وفداً من قيادة "حزب الله" زار أنان في مقره في نيويورك رداً على زيارته الشجاعة وفي وضْـح النهار للضـاحية الجنوبية، وأن أعضـاء الوفد مُنحوا لهذا الغرض تأشيرة دخول رســمية إلى نيويورك خالية من المخاوف على أساس أن من كانوا مقاومين باتوا الآن جزءاً من اللعبة السياسية... ورقماً صعباً في هذه اللعبة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – يونيو (حزيران) 2000

* * *

دبلوماسية فاروق الشرع وعدم دبلوماسية ياسر عرفات

قبْل الرحيل المفاجئ للرئيس حافظ الأســد بثلاثة أيام حدثت لفتة دبلوماســية كثيرة الحذاقة من جانب وزير الخارجية السورية الأستاذ فاروق الشرع من شأنها أن تسـاعد الوضــع السـوري الجديد. فقبْل أن يُسـبق الوزير الشـــرع لقـاءه في القـاهرة يوم الأربعـاء 7 يونيو/حزيران 2000 بوزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت (التي مثّلت بلادها في تشـــييع جنازة الرئيس الأســد يوم الثلاثاء 13 يونيو 2000) أدلى بتصـــريح حذّر فيه من "المبالغة غير العقلانية في الإنتصـــار الذي حققه لبنان والمقاومة اللبنانية مدعومة بالصـمود الســوري والتأييد العربي" مضـــيفاً إلى ذلك القول "إن الذي حدَث شـــيء عظيم، لكن علينا أن نتذكر أن إسرائيل ما زالت تملك واحدة من أقوى ترسانات السلاح في العالم وأنها لن تُسلِّم بالهزيمة بسهولة...".

وعلى رغم أن هذا الكلام يقوله فاروق الشـــرع لا يجوز إعتباره مثْل الكلام الذي قالـه الرئيس ياســـر عرفات في المقابلة التي أجرتْها معه القناة الثانية في التلفزيون الإسـرائيلي وبثتها مسـاء السـبت 27 مايو/ أيار 2000، تعليقاً على النصر اللبناني على الإحتلال الإســـرائيلي، إلاَّ أن منطلَّق الكلاميْن واحد وهو أن تَطمئنَّ الإدارة الأميركيـة والتي من طبْعهـا ألاَّ تَطمئنَّ إذا كانت حليفتها إســرائيل غير مطمئنَّة أو مصـــابة بإنتكاســـة كتلك التي أصـــابتها جرَّاء إضـــطرارها للإنسحاب من جنوب لبنان لتفادي النزف اليومي الذي تقاســـيه قواتها من العمليات الشـــجاعة التي تنفّذها المقاومة.

وللتذكير من أجْل التوضـــيح بأنه لا يجوز إعتبار كلام الرئيس ياســر عرفات مثْل كلام الوزير الشـــرع، فـإن مـا قـالـه عرفـات في حينـه هو أن بـاراك أمر بـالإنســـحـاب لتطبيق القرار 425 وليس بســـبب "حزب الله". وهو قول أصـــحـاب كـل عربي مفتون بإنتصـار المقاومة على إسرائيل بصدمة، وبالذات لأن قـائلـه هو رمز من رموز المقـاومـة ضـــد العدوان الإســرائيلي على حقوق الشـعب الفلسـطيني وما زال يبذل بعض الجهد في سبيل ذلك بعدما تنازل مضـطراً عن ثوابت كثيرة تخص فلســطين الوطن وفلســطين الشعب.

أراد الرئيس عرفات تطييب خاطر رئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك وطمأنة الإدارة الأميركية في الوقت نفسه، فكان ذلك التصريح المستفز لمشاعر الفرح العربي الناشئة عن تسجيل هدف في مرمى العدو. وكان في تقديره أن هذا التصريح سيداوي بعض الشيء الجرح الإسرائيلي فيعيد باراك النظر في عناده وإبتزازه المتواصل. وكان – وفي تقديره هو وليس غيره – أن هذا التصريح سيجعل إدارة الرئيس كلينتون تُبدي إعجاباً منقطع النظير بهذه "الموضوعية" من جانب "القائد الثوري" أبو عمار فيطلب كلينتون من وزيرة الخارجية أولبرايت في جولتها (التي تمت) أن تعامل الجانب الفلسطيني بما يستحقه من مساندة على هذه الموضوعية وكيف وصلت به الحال كواحد من فرسان "سلام الشجعان" إلى أن يقول الذي قاله على الملأ ومن خلال مقابلة مع القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي، هذا مع الأخذ في الإعتبار أن الرئيس عرفات ما كان ليستطيع أن يقول ما قاله في أي محطة تلفزيون عربية – عدا قناة "الجزيرة" – التي تلتقي مع الرئيس عرفات في النهج الموضوعي المتزايد حدة عنده.

ولكن الذي حدَث هو أن أولبرايت قامت بجولتها وقابلت باراك فأعطته من الدعم والوضوح في الموقف الأميركي المساند لإسرائيل ما لم يتوقعه بهذا التأكيد الذي جاء عليه الدعم، ثم قابلت عرفات مكتفية بإعطائه بعض الحلاوة من طرَف اللسان الأميركي وهو ما لا يقدِّم وقد يؤخِّر.

هذا بالنسبة إلى التصريح المستهجَن والمستعجِل الذي صدر عن الرئيس عرفات. أما بالنسبة إلى الكلام الذي قاله الوزير الشرع في القاهرة فإنه كان كلاماً مدروساً أخذ قائله في الإعتبار عامل المكان والتوقيت والمناسبة. فهو قاله بعد إجتماع دول إعلان دمشق الذي إستضافته القاهرة، وهي الدول التي تربطها علاقة كثيرة التميز مع الولايات المتحدة والمتفهمة لإستراتيجية الإدارة الأميركية بما يخص القضايا العالقة في منطقة الشرق الأوسط. وهو قاله بعد لقاء لوزراء خارجية هذه الدول بالرئيس حسني مبارك، وكانت أجواء اللقاء تتميز بإرتياح الرئيس والوزراء. وهو راعى التحفظ الناشئ لدى هذه الدول على التغريد اللبناني الحماسي لدى الدولة والمقاومة إبتهاجاً بما حدَث، وهو تحفّظ ينطبق عليه التعبير المصري الشائع في مثل هذه المناسبات وهو "بالراحة يا إخواننا". وهو دقّ على الوتر الأولبرايتي الحساس عندما قال الكلام الذي قاله خصوصاً عندما حذف دور إيران مكتفياً بالإشارة إلى أن الدعم الذي لقيه لبنان الرسمي والمقاومة كان من خلال "الصمود السوري والتأييد العربي"، وأيضاً عندما إعترف بأن إسرائيل ما زالت تملك واحدة من أقوى ترسانات السلاح وعندما قال "إن إسرائيل لن تُسلّم بالهزيمة بسهولة".

الترجمة الأميركية لهذا الكلام جاءت على الفور. فاللقاء الذي تمّ في القاهرة بين الشرع وأولبرايت "كان إيجابياً وبناءً وأزال الكثير من سوء التفاهم" على حد توصيف وزير الخارجية السورية الذي شعر بأن "هناك محاولة من الجانب الأميركي لتصحيح الأمور..." مؤكداً أن هنالك فرصة لإستئناف مفاوضات السلام مع إسرائيل من غير أن تتخلى سوريا عن مطالبها بإستعادة كامل هضبة الجولان المحتلة، ومن دون أن ينسى التذكير بأن سوريا "قادرة على الصبْر مثلما أثمر صبر المقاومة في لبنان".

ما نريد قوله هو أن الوزير فاروق الشرع لم يتجاوز الأصول وراعى المشاعر وفي الوقت نفسه ساهم في ترطيب التربة الجافة للعلاقة الأميركية – السورية نتيجة عدم نجاح قمة الرئيسيْن حافظ الأسد وبيل كلينتون في جنيف في مارس/ آذار الماضي، وأمكنه بعْث الحيوية في أوصال قناة الإتصالات الأميركية – السورية تمهيداً لمعاودة التشغيل المنتظِم لهذه القناة بهدف التوصل إلى إستئناف المفاوضات السورية – الإسرائيلية. وفي الوقت نفسه أبدى الحرص على التمسك بالثوابت. أما الرئيس عرفات فإنه إستهان بالمشاعر وتجاوز الأصول في مناسبة الفرح العربي.

وهذا هو الفرق بين دبلوماسية فاروق الشرع التي تراعي الحالة النفسية العربية لدى الشعوب من جهة ولدى الأنظمة من جهة أُخرى، وهي تدق الباب الأميركي، وبين دبلوماسية الرئيس عرفات الذي يرى كما الرئيس الراحل أنور السادات من قبْل أن تسعاً وتسعين من أوراق اللعبة في يد أميركا... ومن أجْل ذلك فلماذا تضييع الوقت والإنشغال بمراعاة المشاعر. وعند التأمل نجد أن الرؤية الساداتية لم تكن في محلها تماماً، وأودت بصاحبها إلى التهلكة.

ويبقى أننا، ونحن نقول ذلك، نأخذ في الإعتبار أن بعض التعديل الذي تقتضيه ضرورة إستقرار الإستمرارية، ربما سيحدُث في مفردات التخاطب السورية بعد رحيل الرئيس الأسد الأمر الذي من شأنه

أن تصبح دبلوماسية الرئيس عرفات ليست مستهجَنَة إلى الحد الذي كانت عليه عندما كان الرئيس الأسد ما زال حياً... ولا مجال عنده لأي مرونة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 يونيو (حزيران) 2000

* * *

فرحة أردنية لم تكتمل

لم تكتمل فرحة الأردنيين بجناحيْهم.. جناح الأردني الصميم وجناح الأردني من أصل فلسطيني، بالحكومة الجديدة التي إختارها الملك عبدالله لهم خلفاً لحكومة عبد الرؤوف الروابدة وفاجأهم بأن مَن يترأسها هذه المرة ليس من طاقم أهل السياسة وإنما هو النائب المهندس علي أبو الراغب، وهو شخصية من نسيج رئيس وزراء لبنان السابق – اللاحق رفيق الحريري ورئيس وزراء مصر السابق كمال الجنزوري... فهو مهندس ومقاول ومقتدر مالياً وصاحب سمعة طيبة في كل الأوساط، ولا عداوات له ولا خصومات. كما أنه في الفترة التي عمل فيها وزيراً للصناعة والتجارة كان يتحرك بمنهجية مَن يخطط لكي يرتقي السُلَّم وصولاً إلى أعلى. وجاءته الفرصة مع قرار الملك عبدالله بإحداث نقلة نوعية في العمل التنفيذي يطلق بموجبها في سماء العمل الرسمي نجماً من إختياره. وإختار صديقه المهندس علي أبو الراغب الذي لم يسبق أن إنضم إلى نادي رؤساء الوزارات الذين يتوالون على هذا المنصب وفْق معايير إستمر الملك حسين يعتمدها حتى لحظة إختياره عبد الكريم الكباريتي رئيساً للوزراء.

كان هدف الملك عبدالله من إختيار المهندس النائب علي أبو الراغب لتشكيل حكومة جديدة هو الإنتقال من حكومة تتقدم الهموم والإهتمامات الإقتصادية والمعيشية عندها على أي هموم وإهتمامات سياسية. وفي الوقت نفسه تُحقق وحدة صف من دون أن يكون هنالك توحُّد على الهدف. وفي سبيل ذلك إستنبط خلطة حكومية غير مسبوقة بالشكل الذي جاءت عليه. فهي ترضي الفلسطيني من دون أن تشغل بال الأردني. وهي تفتح الباب أمام الإسلاميين. وهي ترفع يافطة تؤكد أنها الحكومة التي يريدها الملك لتحاول تصحيح المسار الإقتصادي بحيث لا تبقى سياسة الأردن مرتبطة بالكامل بالمواقف السياسية لجهة التعامل مع العراق ولجهة الإعتماد على النجدة الخليجية ولجهة تفادي عدم الإغراق في التفاؤل حول مستقبل التعامل الإقتصادي والتجاري مع إسرائيل، ولجهة تطوير المساعدات من الولايات المتحدة وبعض الدول الصديقة.

وما يلفت الإنتباه أن رئيس الوزراء (الأول للملك عبدالله على أساس أن الآخرين من سمير الرفاعي وبهجت التلهوني إلى عبدالكريم الكباريتي هم عملياً رؤساء حكومات والده الراحل) إلتقط الإشارة الملكية بحصافة فقرر ألاَّ يستأثر بكل شيء من الكبيرة إلى الصغيرة، وهذا تواضع يرضي الملك والوزراء ويرضي أيضاً الرأي العام. وفي هذا الإطار نراه يوزع مسؤوليات كثيرة على أربعة نواب له، الأمر الذي بات لنائب رئيس الوزراء في الأردن أهمية على نحو ما هي عليه الأهمية التي يستأثر بها في لبنان نائب رئيس الوزراء وزير الداخلية ميشال المر.

كانت فرحة الأردنيين بحكومتهم الجديدة ملحوظة. فقد توقَّعوا، بعد إقحام الرئيس أبو الراغب لشخصيات مرموقة في مجال القطاع الخاص في العمل الوزاري، أن يكون هذا القطاع سنداً للقطاع العام المتعثرة بعض مفاصله. وإفترضوا أن الأحوال الإقتصادية والمعيشية في البلد ستشهد بعض التحسن وذلك لأنه ليس من مصلحة الوزراء الآتين من ميدان الشركات والمقاولات والصناعات والمصارف وتجارب الأسواق وخبرتها أن يفشلوا، كما أنهم ليسوا مستعدين لرؤية التظاهرات الشعبية ضدهم تجوب شوارع عمان والمدن الأردنية بسبب فشلهم. ومن هنا فإن هؤلاء الوزراء سيُكثِّفون الجهد كثمن لإشراكهم في المنصب الوزاري.

إلى ذلك إفترض الأردنيون أن الحكومة الأُولى للملك عبدالله سترفع صواري الإستقرار على سفينة الحُكْم الأردني المبتهج بالحليف السوري المرتقَب وتبعاً لذلك تسير العلاقات في ظل قيادتيْن شابتيْن وعلى كثير من الإنسجام (قيادة الملك عبدالله للأردن وقيادة الدكتور بشَّار الأسد لسوريا) وهي كثيرة الإطمئنان إلى أن الرياح العاتية لن تقوى هذه المرة على سفينة الحُكْم بحيث تجنح أو تتمزق صواريها. وفي ظل هذا الوضع كثير الهدوء تنشط السياحة وتضخ الولايات المتحدة المزيد من المساعدات وتنتعش المشاريع على أنواعها وتشهد أسواق المملكة إنحساراً في الركود المسيطر عليها منذ ثلاث سنوات.

تلك هي ملامح فرحة الأردنيين على نحو ما كانت

عليه عندما كلَّف الملك عبدالله يوم الأحد 18 يونيو/ حزيران 2000 صـــديقه ومحط آماله في إنقاذه من "لوبي" رؤســاء الوزارات الذين يتشــاطرون عليه من دون أن يحققوا لــه رؤيتــه في الإنتقــال من أُردن الحسين بن طلال إلى أُردن عبدالله بن الحسين، ومن دون أن يعني ذلك إنقضـــاض الثاني على تراث الأول.. ولكنها نوازع مَنْ يتســلم الحُكْم حتى إذا كان إبناً يرث أباً، تفرض أن يكون له بعض التميُّز وكثير الشــعور بأنه قادر على أن يمارس اللعبة بأســلوب تنطبع عليه شخصيته.

ولقد سارت الأمور على نحو جيد إلى أن ظهرت في الأفق فجأة علامتان لا تدعوان إلى الطمأنينة. تمثَّلت الأولى يوم الجمعة 23 يونيو/ حزيران 2000 بإعلان متحدث في الخارجية الأميركية بأن الســفارة في عمان مُســتهدَفة محذِّراً من "عمل إرهابي" أكثر خطورة مما كانت عليه الحال في ديســمبر/ كانون الأول الماضــي (1999). ثم جاءت العلامة اللاحقة متمثِّلة بحادثة إطلاق النار من جانب جندي إسرائيلي يوم الســبت 24 يونيو/ حزيران على وفد من إتحاد النقابات المهنية الأردنية كان في زيارة لبنان للتهنئة بتحرير الجنوب. وجرى الحادث أمام الشريط الشائك عند بوابة فاطمة في بلدة كفركلا التي تحولت مزاراً. وأصيب في الحادث ثلاثة من أعضاء الوفد الأردني تم إدخالهم مســتشــفى في المنطقة وكان من بينهم رئيس لجنة مقاومة التطبيع مع إسرائيل.

وجدت الحقبة الراغبية نفســها فجأة أنها أمام تحديات أمنية ووطنية، الأمر الذي يعني أنها لن تكون معنية فقط بالتنمية والإصــلاح الإقتصــادي وتأمين المزيد من الدخل بالعملة الصــعبة. ومن الطبيعي أنه عندما تُحذِّر الخارجية الأميركية من عملية إرهابية خطيرة ستتعرض لها السفارة في عمان وتُحذِّر الرعايا وتُنبِّه مَن يعنيهم الأمر في الوقت نفسه، فإن إرتباكات ستسود ويتأثر بسببها السوق من جهة والسياحة المعلَّقة عليها الآمال من جهة أُخرى. كما أنه من الطبيعي عندما يتعرض الوفد النقابي الأردني وهو في زيارة تهنئة لخلاص الجنوب اللبناني من الإحتلال الإسرائيلي إلى إطلاق النار عمداً عليه من جنود إسرائيليين أن تتأثر الحكومة التي لم يمضِ على تشــكيلها ســتة أيام لما جرى خشــية أن تترك إنطباعاً بأن أهل المال والأعمال والتجارة والمصــادر الذين ينتسب رئس الحكومة وأكثرية الوزراء إليهم هم غير معنيين وغير مهتمين بالمســألة الوطنية وأن قضيتهم الأساسية هي تحقيق إزدهار نسبي ومعيشة معقولة يتقدمان على أي أمور وطنية. وفي بلد مثْل الأردن لا يبدو هذا الأمر مقبولاً بما فيه الكفاية وبما يُطمئن المسؤول مهما إشتد شظَف العيش.

ومن أجْل تفادي التأثر بدأ التفكير بما هو مطلوب من الحكومة الحديثة العهد الطرية العود السياسي أن تفعله. فالإعتذار الإسرائيلي الشكلي من جانب إســرائيل لا يكفي خصــوصــاً أن الإعتذار الماضي لم يشفِ غليل الأردنيين الذين راعهم مشهد تعرُّض وفد يمثِّل مجلس النواب الأردني أمام الحرم الإبراهيمي لإهانة لا مثيل لها من قَبَل الجنود الإسرائيليين وإضطر هؤلاء مسايرة لمليكهم ولظروف الأردن (الغارق حينها في الإرتباك الســياســي والتوريثي) إلى بلْع الإهانة وهضْمها، تاركين بإرتضائهم هذا إنطباعاً لدى الرأي العام الأردني بأن نسبة الإحترام للنفس لدى هؤلاء ليست مرتفعة بما يكفي. وعلى هذا الأســاس فلا بد من أن يأتي الإعتذار عن العدوان الإســرائيلي على الوفد النقابي الأردني الزائر للجنوب بمســتوى إعتذار الملك (الراحل) حســين للإســرائيليين على واقعة إطلاق الجندي أحمد الدقامسة النار على طالبات إسرائيليات إســتفزته زيارتهنَّ لأرض آبائه وأجداده التي لم تعد بموجب صــفقة تخصــهم ولا تخص الأبناء والأحفاد من بعْده. والذي إستفزه هو أن الطالبات كنَّ في غاية الإبتهاج رقصاً وغناء فكان منه الذي كان، وكان من الملك حسين أن زار ذوي الطالبات الضحايا وإنحنى أمام مصابهم طالباً الصفح منهم بعدما أرسل أحمد الدقامســة إلى الســجن حيث لا يزال فيه. وإســتقبل نتنياهو السيء السمعة هذه المبادرة من الملك حسين إستقبال اللئام وعمل على توظيفها لمصلحته.

إن الكلام يطول في ما يمكن أن يحدُث في شأن العدوان الإســرائيلي على الوفد النقابي الأردني الذي حدَث عمداً لأن الوفد أردني، وحدَث على ما يجوز الإعتقاد كرد على واقعة الجندي أحمد الدقامســة والطالبات وكرسالة إلى النقابات العربية بأن لا تحذو حذو الوفد الأردني وتبعث بوفود تهنئة للمقاومة في لبنان. وما يعنينا هنا على وجه التحديد هو أن حكومة الأردن الجديدة، التي هي إقتصــادية في الدرجة الأُولى سياسية في الدرجة الثانية خلافاً لكل الحكومات التي سبقتْها، أحدثت حالة فرح في نفوس

الأردنيين شعباً وملكاً... لكن الفرحة لم تكتمل، وعلى هذا الأســـاس فإن باب المفاجآت مفتوح على كل الإحتمالات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 4 يوليو (تموز) 2000

* * *

رهان أبو عمار.. و«الروبوت» الفلسطيني

أخيراً نجح الرئيس بيل كلينتون في الحصـول على موافقة صـــديقيْه الرئيس ياســـر عرفات ورئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك على الحضور إلى واشنطن وعقْد قمة معه. وعند هذه النقطة ينتهي النجاح، ذلك أن الرئيس الأميركي إستبق في حركة مريبة الأمور وقال في المؤتمر الصـــحافي الذي عقده يوم الأربعاء الماضـــي– ولهذا الغرض في الدرجة الأُولى – كلاماً خلاصـــته أنه «لا توجد ضـــمانات أكيدة لنجاح هذه القمة..».

أما لماذا لا توجد ضمانات فلسبب أساسي لم يقُله الرئيس الأميركي في المؤتمر الصـــحافي وهو أنه لا يريد أن يضـغط على باراك. وليس مسـتبعَداً الإعتقاد بأنه قال هذا الكلام وقبْل أســـبوع من الموعد المحدد للقمة (الثلاثاء 11 يوليو/ تموز 2000) لطمأنة باراك وكوسيلة لإقناعه بالمشاركة فيها، خصوصاً أن رئيس الحكومة الإسرائيلية سبق أن أوضـح لوزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت، عندما إجتمعت به ثم بالرئيس عرفات قبْل بضـــعة أيام خلال زيارتها الإستثنائية لإسرائيل وللسُلطة الوطنية الفلسطينية، أن لا مجال على الإطلاق للقبول بإعلان عرفات قيام الدولة الفلســطينية، ويقال إنه إســتعمل عبارات غير لائقة عند الحديث حول هذا الأمر من بينها أنه ســيرســل الرئيس عرفات مخفوراً إلى الرئيس كلينتون وســيضــم كل أراضـــي السُلطة الوطنية ويطوي هذه الصفحة إلى الأبد.

ليس مســـتغرباً على الإطلاق أن يطلق باراك هذا التهديد وليس مســتغرباً أيضـــاً على الإطلاق أن تبلع المسز أولبرايت هذه الإهانة وتعود من دون الحصـول على ما يحفظ لها هيبتها، ذلك أنها حائرة بين الحرص على عدم إغضاب بني قومها من جهة وبين الضرورة أن تكون كلمة الإدارة الاميركية موضع مهابة الطرفيْن الإسرائيلي والفلسطيني وليس فقط الطرف الفلسطيني كما هو واقع الحال.

وإذا كانت القمة لن تثمر نتائج طيّبة فلماذا إذاً عقْدها.

هل هي الخشية من أن ينفّذ الرئيس عرفات تعهُّده. – المؤجل أصـــلاً – في شـــأن إعلان قيام الدولة الفلســـطينية وفي ذلك إحراج للإدارة الأميركية لأنها يجب ألاّ ترفض ذلك ولا تستطيع أن ترحب بالخطوة؟

أم هل هي الخشـــية من إســـتدارة فلســـطينية نحو العنف تجرف في طريقهـا كـل طروحـات وأدبيـات وإتفاقات مرحلة أوسلو، وهي إستدارة ستلقى من الرأي العام الفلسطيني ترحيباً كبيراً؟

أم هل هي الخشية من تساقُط أوراق شجرة التعامل الأميركي – الفلســـطيني وإقتلاع هذه الشـــجرة من الجذور، خصوصاً أنها ما دامت طوال خمس سنوات لم تثمر فإنها لن تثمر بعد الآن؟

أم هل هي الخشـــية من إنبعاث العمل الثوري الفلســـطيني على أيادي جيل جديد من المناضـــلين متأثرين بالنصـــر المبهر الذي حققتْه المقاومة في جنوب لبنان وبســـببه قرر باراك مجبَراً ســـحْب القوات بعد إحتلال دام عشرين سنة؟

إن دواعي الخشية كثيرة، ولذا فمن الصعب تسمية واحدة بالذات وإعتبارها الســـبب الذي يدعو الرئيس كلينتون لعقد قمة تجمع صديقيْه عرفات وباراك مشيراً إلى أنه سيحرص على المشاركة فيها، لكنه في الوقت نفســه حرص على التوضــيح بأنه لا توجد ضــمانات لنجاحها على حد قوله. وفي ضـــوء ذلك فإن الذي يمكن قوله هو أن كل الدواعي المشـــار إليها ممزوجة تشـكِّل ذلك الســبب الذي نعنيه. هذا مع ملاحظة أن تحديد مكان إنعقاد القمة وبأنه سـيكون كامب ديفيد قد يكون الهدف منه مجرد إيحاءات نفســـية بأن القمة ســـتكون مثْل قمة كامب ديفيد الشـــهيرة بين الرئيس (الراحل) أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل (الراحل) مناحيم بيغن التي رعاها الرئيس الأميركي (من الحزب الديمقراطي) الأســـبق جيمي كارتر وأثمرت معاهدة صُـلْح بين مصـر وإسـرائيل هي السبب في كل الذي جرى للأمة حتى الآن وما يُحتمل أن يصـــيبها في العقود المقبلة إذا كانت العملية السلمية ستستمر مجرد صـــفقات بفعل الضـــغوط الأميركية المتواصـــلة ولن تتطور إلى سلام عادل وشامل. ومثْل هكذا سلام لن

يكون إذا لم تنسحب إسرائيل إلى حدود الرابع من يونيو/ حزيران 1967 مع سوريا، ولن تقوم الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس، ولن تُزال المستوطنات ويُقر المجتمع الدولي للفلسطينيين بحق العودة. ومثْل هذه الأمور لن تتحقق إلاَّ في ثلاث حالات، الأُولى هي الخالية من المخاطر للجميع وتتمثَّل في أن تنهج إسرائيل التعقل فتتنازل حكومتها الحالية (لأن أي حكومة ليكودية بديلة قد تكون أسوأ بكثير من حكومة باراك) بنسبة تنازلات الرئيس عرفات، عِلْماً بأن التنازل العرفاتي – الإضطراري في أي حال – كان تنازلاً عن حق شرعي في حين أن أي تنازلات من جانب باراك ستكون مجرد تنازُل عن حق إستلبتْه الصهيونية من شعب فلسطين العربي قبْل نصف قرن ولن يغيِّر من الحقيقة التاريخية أن دول العالم وبالذات الولايات المتحدة وبريطانيا وما كان يُعرف بالاتحاد السوفياتي شاركت في هذه الجريمة فأصابت شعب فلسطين في الصميم وإنتزعت منه حقاً لا فضْل لهذه الدول فيه. وما يلفت الإنتباه هو أن الحكومة الإسرائيلية ستستمر لا تتنازل لأنها إعتادت على أن التنازل يأتي من جانب واحد هو الجانب الفلسطيني.

أما الحالة الثانية لتحقيق السلام العادل والشامل، وهي الأقل كلفة ومخاطر، فهي أن تمارس الإدارة الأميركية الضغوط على إسرائيل وبنسبة الضغوط التي تمارسها على الجانب الفلسطيني وعلى الأصدقاء العرب المناصرين لهذا الجانب. ومع أنه لم يحدُث حتى الآن أن ضغطت هذه الإدارة على إسرائيل لكي نعرف نوع الضغوط ومدى تأثيرها، إلاَّ أننا نفترض أن أي ضغط في المجال العسكري أو في مجال المساعدات، من شأنه أن يجعل إسرائيل التي تضرب بالسيف الأميركي وتهدد به أن تحسب حساباً للغضب الأميركي فتقرر المضي وبأمانة في عملية السلام ما دامت هذه العملية أميركية من ألفها إلى يائها.

وتبقى الحالة الثالثة التي ستكون كلفتها باهظة جداً والتي تتمثل بإعتماد العنف من خلال العمليات الإستشهادية على نحو ما أخذت به المقاومة في لبنان. وليس بالأمر المستبعَد حدوث ذلك، خصوصاً إذا قطع الرئيس عرفات الأمل نهائياً وإكتشف أن إدارة الرئيس كلينتون كانت مراوِغة وأنها أضاعت له وقته، وقرر أن يعيد ترتيب الأوراق من خلال جبهة سورية – لبنانية – فلسطينية وهذا لم يعد مستحيلاً في ضوء العلاقة السورية – الفلسطينية التي نشأت مع وفاة الرئيس حافظ الأسد والترحيب الجنائزي المتميز من جانب الرئيس الوريث العتيد الدكتور بشَّار الأسد عن مشاركته في تقديم العزاء في دمشق، وكذلك في ضوء الموقف الذي إتخذه الرئيس اللبناني إميل لحود والذي لا يتقاطع مع موقف الأمين العام لـ «حزب الله» في لبنان ورمز المقاومة المستعدة للتضحية حتى الإستشهاد والتي أثمر نهجها المستقيم تحقيق نصر مبهر على إسرائيل.

ويبقى أننا عندما نقول ذلك نأخذ في الإعتبار أن القمة الثلاثية التي يُفترض أن تبدأ أعمالها بعد غد في كامب ديفيد (والتي هي الأخيرة على الأرجح في عهد الإدارة الأميركية الحالية)، سيكون معنى فشلها أن يعلن الرئيس عرفات وبعد عودته مباشرة من واشنطن الدولة الفلسطينية وليحدُث ما يحدُث من مضاعفات نتيجة خطوته هذه لأن الفشل الذي نشير إليه ليس هو فقط بالمقابل نجاحاً لحكومة باراك، وإنما هو تأكيد بأن الرئيس عرفات كان طوال ست سنوات يراهن وفي إعتقاده أنه سيفوز بالجائزة الكبرى.. ثم تبيّن أن الإدارة الأميركية حجبت الجائزة عنه لتمنحها إلى فلسطيني من الخوارج على القضية (في حال أمكنها العثور عليه أو تصنيعه) يواصل التنازل من النقطة التي إنتهى إليها الرئيس عرفات، فيرتضي دولة من دون القدس ويرتضي حذْف مسألة المستوطنات وحق العودة. وهذا سيكون مجرد «روبوت» فلسطيني.. لا أكثر ولا أقل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 9 يوليو (تموز) 2000

* * *

دولة محايدة للشعبيْن وأديان ثلاثة لله...

ما تُحذِّر منه وزيرة الخارجية الأميركية في حال فشلت القمة الثلاثية التي (طِبق المقرر) بدأت أعمالها أمس (الثلاثاء 11 يوليو) في كامب دايفيد، إنما هو في الواقع موجّه إلى الإدارة الأميركية أكثر منه إلى حكومة باراك والرئيس ياسر عرفات.

تحذير أولبرايت جاء عشية إنعقاد القمة ولخّصت هذا التحذير بالقول: "الأمر صعب جداً ولا أحد يدّعي العكس. وفي حال عدم التوصل إلى حل قد تتصاعد

موجة العنف...".

وهذا التحذير ينسجم مع مقالة كتبها الرئيس بيل كلينتون خصيصاً لمجلة "نيوزويك" وصدرت أيضاً عشية إنعقاد القمة. وفي هذه المقالة كتب كلينتون يقول: "إذا لم يغتنم الطرفان فرصة القمة للمضي قُدُماً نحو السلام فإنه سيكون هنالك المزيد من العداوة والمرارة وربما المزيد من العنف والمزيد من الدموع والدماء...".

ما تقوله أولبرايت على طرَف لسانها صحيح. وما يسطّره كلينتون (الكاتب) بقلمه صحيح أيضاً. لكن مَن هو المسؤول عن هذا الذي يمكن أن يحدُث؟ أليست الإدارة الأميركية التي لا تترجم الأقوال إلى أفعال وتتسامح مع إسرائيل التي ترفض تنفيذ الإتفاقات؟

إن حكومة باراك ومِن قبْلها حكومات نتنياهو ورابين وشامير وغولدا مئير وبيغن تستقوي على العرب في زمن الصراع الساخن (زمن المواجهات والحروب) وفي زمن الصراع البارد (زمن التفاوض من أجْل إنجاز العملية السلمية) بالإدارة الأميركية. وهي دائماً تتصرّف على أساس أن هذه الإدارة تساند موقفها وتمدّها بما تريده من المساعدات المالية والعسكرية. وما دام هذا هو موقف الإدارات الأميركية المتعاقبة فلماذا لا تزداد تشدداً ولماذا يجب أن تمارس المرونة والتعقل خصوصاً في العقديْن الماضيين، أي مرحلة ما بعد المعاهدة التي أبرمها الرئيس (الراحل) أنور السادات مع إسرائيل مدشناً بها عملية إنتقال الصراع مع إسرائيل من الحروب كوسيلة إلى التفاوض.

إن التحذيرات لن تفيد، والتنبيهات الرئاسية من خلال كتابة مقالات لن تفيد هي الأُخرى. وإنما الذي يفيد هو وقفة حاسمة من جانب الإدارة الأميركية تتّسم بالنزاهة. وقفة تقول بموجبها لإسرائيل إن العرب قدّموا من المرونة ما كنا لا نتصور تقديمه، وأن الفلسطينيين (أي عشائر التسوية بين هؤلاء) قدّموا من التنازلات ما كنا لا نتصور أنه يمكن صدورها بهذا التدفق عنهم، وفي ضوء ذلك فإن الفرصة التاريخية أمام إسرائيل هي هذه القمة التي هي تاريخية لإسرائيل أكثر منها للفلسطينيين. فرصة تستجيب في ضوئها الواقع العربي الجديد الذي ارتضى القبول بها كشوكة في الخاصرة العربية... إنما شرط أن تنسحب من بقية الأراضي التي إحتلّتها إلى حدود الرابع من يونيو/ حزيران 1967 وترتضي القبول بالرغبة الدولية في وضْع نهاية ضميرية للمعاناة التي يكابدها الشعب الفلسطيني منذ نصف قرن.

والوقفة الحاسمة يمكن أن تكون من خلال حجب المساعدات العسكرية والمالية التي تنهمر على إسرائيل، في حال عدم إستجابتها إلى صيغة حل متوازنة يستطيع بموجبها الرئيس عرفات تبرير التنازلات المُبالَغ بها، أو تشجيع فكرة إستنباط دولة جديدة تكون عبارة عن مزْج دولة إسرائيل القائمة حالياً بدولة فلسطين التي يشقى الرئيس عرفات من أجْل قيامها والتي حدّد الثالث عشر من سبتمبر/ أيلول المقبل موعداً نهائياً لإعلان قيامها.

دولة لا يعود فيها باراك (على أساس أنه رئيس حكومة إسرائيل حالياً) مذنباً (في نظر المتشددين من بني قومه) لأنه تنازل عن القدس الموحّدة وبالمفهوميْن السياسي والتوراتي، ولا يعود فيها عرفات خائناً (في نظر كثيرين) لأنه إرتضى التنازل عن القدس وبما تمثّله من مقدسات للمسلمين والمسيحيين على حد سواء.

دولة تحمل تسمية "الدولة اليهودية – الفلسطينية المتحدة" أو "دولة السلام" بدلاً من دولة إسرائيل القائمة والدولة الفلسطينية المؤمل قيامها.

دولة محايدة يتم تصنيفها دولياً على هذا الأساس ويكون وضعها مثل سويسرا التي تتألف من كانتونات ويعيش في ظل حيادها الألماني والفرنسي والإيطالي.

دولة تنزع من كتابها الهواجس الثأرية والأحلام التاريخية التوراتية.

دولة تعتبر عصابات "الهاغاناه" و"شتيرن" عاصفة هوجاء باتت من الماضي (مثل "عاصفة الصحراء" على العراق) وتعتبر المنظمات الفدائية الفلسطينية والنضال الثوري الفلسطيني وخطْف الطائرات وتفجيرها أموراً إقتضتها مرحلة كثيرة المرارة وباتت صفحة من التاريخ القديم.

دولة يتعاون مواطنوها من فلسطينيين ويهود على العمل من أجْل تحويل دولتهم الجديدة إلى قلعة صناعية بالغة الأهمية، ومقصداً بالغ الأهمية أيضاً للسياحة التقليدية والسياحة الدينية والعلاجية.

دولة تجذب عاصمتها الدينية (القدس) على مدار السنة ملايين المسلمين والمسيحيين واليهود من شتى بقاع الأرض ويدر عليها من جرَّاء ذلك المال بوفرة.

دولة محكومة من مجلس رئاسة (رئيس ونائب رئيس وأعضاء) وبحيث يمكن أن يكون رئيسها يهودياً ونائبه فلسطينياً عربياً، أو العكس (بصيغة التداول)،

ومن دون أي مخاوف أو محاذير. وإذا جازت المقارنة فإن حالة نواف مصالحة، العربي الفلسطيني كنائب لوزير الخارجية ديفيد ليفي اليهودي تَصلُح مثالاً وإن كانت هذه الحالة كثيرة التشوّه بسبب ظروف حدة الصراع وتشابكاته.

دولة ينطبق عليها شعار الوطن للشعبيْن والأديان لله.

دولة يشعر فيها الرئيس اليهودي (في فترة التداول) أن غزة ورام الله هي أرض له ويشعر فيها نائب الرئيس (الفلسطيني) أن يافا والجليل وحيفا وتل أبيب هي أرض له.

دولة تتحوّل فيها حجارة الغاضبين إلى تحيات، وأحقاد الجنود الإسرائيليين إلى نيات طيبة. وتتحول فيها المستوطنات إلى مناطق غير إستفزازية وتُزال ظاهرة المخيمات إلى الأبد.

دولة قادرة على أن تتطور خلال ربع قرن لما هنالك من كفاءات فلسطينية ويهودية وفي شتى الميادين.

دولة يلتئم فيها الشمل الفلسطيني بحيث لا يبقى مَن هم في الشتات يتحرقون إلى العودة وبحيث ينضم اليهود في الشتات وبالعلن إلى الدولة الجديدة التي تلاشى الصراع فيها وعليها.

دولة قوية وواثقة من نفسها يمكنها أن تصمد قروناً أمام الأهوال ما دامت على النحو الذي أوردنا ملامحه. أما إذا كان الأمر لن يحدُث فإن دولة إسرائيل القائمة حالياً ستبقى في إستمرار حالة عالقة، وستكون في إستمرار مرفوضة من الأجيال الفلسطينية وموضع حذر ملايين العرب والمسلمين من جنوب لبنان إلى آخر بقعة يسكنها مسلم في الصين والساكتين بمضض على "سلام الشجعان" الذي إختارته بعض الحكومات والحكام دون وجه حق. كما أنها ستبقى ضمناً موضع حذَر كل مسيحي في القارات الخمس يساير حكومته في موقفها من إسرائيل لكنه في قرارة نفسه منزعج من أن مقدساته هي أسيرة الإحتلال الإسرائيلي.

وفي تقديرنا إن الإدارة الأميركية قادرة على أن تشجع إستنباط مثل هذه الدولة، هذا إذا كانت تريد بالفعل للمنطقة أن تستقر ولمشكلة اليهود في العالم أن تجد الحل الملائم. أما إذا كانت لن تشجع قيام مثل هذه الدولة المضمون حيادها من الأمم المتحدة والتي يكون فيها الوطن للشعبين والأديان الثلاثة لله فهذا معناه أنها تريد أن تستمر إسرائيل بمثابة حقل ألغام في المنطقة تهدد بها الآخرين وتستنزف ثرواتهم.

وقد تبدو هذه الأفكار أنها ليست أكثر من تهيؤات أفرزها خيال خصب. ولكن المرء عندما يتأمل في نصف قرن من الصراع العربي – الإسرائيلي لا يجد أمامه حلاً أفضل من الحل الذي تذوب فيه دولة إسرائيل القائمة بدولة فلسطين المستعصية الولادة وتضع الدولة الأكبر وبترحيب من كل الدول الكبرى والصغرى ما تمّ تذويبه في قالب جديد يأخذ شكل "الدولة اليهودية – الفلسطينية الموحدة".

وبذلك لا تعود المشكلة الفلسطينية مسألة ضميرية، وينجو الإسرائيليون من عذاب يمكن أن يصيبهم على نحو ما أصاب الفلسطينيين، ذلك أن ما يُبنى على باطل لا يمكن أن يستمر ومصيره إلى زوال... ولو بعد حين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 يوليو (تموز) 2000

* * *

لكي يعود عرفات مكسور الخاطر

من سوء حظ القضية الفلسطينية أن القمة التي من المفترَض أن تكون قمة الحسم أو، في تعبير أكثر دقة وعقلانية، قمة حاسمة بالنسبة إلى مصير القضية، تنعقد فوق بقعة أرض أميركية تثير القلق وتبعث الأسى في النفس العربية.. نعني بها منتجع كامب ديفيد...

وتنعقد بدعوة وإشراف من طرف دولي واحد هو الإدارة الأميركية.

... وتنعقد وسط أهوال من الضغوط يتعرض لها الجانب الفلسطيني الذي يقوده رئيس السُلطة الوطنية الفلسطينية.

.. وتنعقد من دون أن يكون هنالك دعْم عربي قوي لهذه القمة عدا التمنيات وبعض التحذيرات ذات الطابع الإنشائي.

ومن سوء حظ الرئيس عرفات أنه ذهب إلى القمة من دون الحصول سلفاً على إجماع فلسطيني على المهمة التي يقوم بها. بل قد يجوز القول إن ثلث الشعب الفلسطيني معه والثلث المنتمي إلى "حماس" وإلى الجناح المتشدد في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" معروف موقفه. أما الثلث الأخير فإنه الثلث

المتحفظ الجاهز لرميْ عرفات في حال لم يحقق نتائج مرجوة بأبشـــع الألفاظ وأغلظ ألتُهم. أو الإرتماء في أحضان المغنم الذي ربما يعود به.

من الطبيعي أنه لو تم عقْد القمة في دولة محايدة وشـــاركت فيها (كحلقات مرجعية) روســـيا والصـــين وبعض الدول الأوروبية والعربية، لكان أمكن تخفيف الوطأة على الجانب الفلســـطيني، ولكان أيضـــاً أمكن التوصـــل إلى صـــيغة تحجب عن الجانب الفلسـطيني الإتهامات التي يمكن توجيهها إليه وكلها تدور حول تنازلات قدَّمها. لكن الإدارة الاميركية لا تريد لأحد أن يشـاركها هذه المهمة ليس حباً بالفلسـطينيين وحرصـاً على إيجاد حل عادل لقضيتهم، وإنما خشية أن تتسبب المشاركة في كشْف النيات الأميركية وهي مخلصة كل الإخلاص لإســـرائيل وغير طيِّبة على الإطلاق أزاء الفلسطينيين.

إن حلقات سوء حظ القضية الفلسطينية وسوء حظ قائد التفاوض ياسر عرفات أكثر من أن تحصى. لكن مِن أكثرها سوءاً إثنيْن.

ســـوء الحظ الأول هو أن القمة الثلاثية المفترَض أن تكون الحاسـمة أو حاسـمة تنعقد في أكثر المواسم الأميركية السـياسـية على صـعيد البيع والشـراء وإبرام الصـــفقات. ومِن هنا فإن حال عرفات يرثى لها ولا نظن أنه موضـع حسد أحد لإنه مسـتضـاف في ربوع الدولة المهيمِنة على العالم، ذلك أن الصـــفقة الكبرى التي تعود بالربح الوفير على أحد الإثنيْن المرشـــحيْن للرئاســـة الأميركية (آل جور وجورج بوش الإبن) هي تلك التي يُقدِّم فيها أحد الإثنين للوبيات اليهودية في الولايات المتحدة ولإســـرائيل، قضـــية فلســـطين على صـــينية الظلم الأميركي للشـــعوب المغتَصـــبة حقوقها والمنتهَكـة كراماتهـا وفي طليعـة هؤلاء الشـــعـب الفلسطيني. وهذا يعني أنه إذا لم يحصل عرفات على ما من شأنه أن يصون كرامته وتضحيات شعبه والظلم التاريخي الذي يلحق بالقضـية الفلسـطينية منذ نصـف قرن، فهذا معناه أن آل جور (النائب الحالي للرئيس) ضَـمِن الفوز وبفضـل جهود رئيسـه وصـديقه كلينتون وأركان الإدارة الأميركية الذين ليس من باب الصـــدفة أنهم في معظمهم من اليهود... واليهود الذين يزايدون على باراك وعلى الذين ســـبقوه في ترؤس الحكومات، ويؤكدون من خلال مزايدتهم تلك أنهم حريصـــون على إسرائيل أكثر من أي إسرائيلي. أما إذا حصل عرفات على القليل من الكثير الـذي يـأمـل فيـه، فـإن ذلـك سـيكون أيضـاً سـبباً للمزيد من الإبتزازات الإسـرائيلية مسـتقبلاً، على أسـاس أن الجانب الفلسـطيني حصـل على ما لم تتوقع إسـرائيل من إدارة الرئيس كلينتون أن تعطيه لعرفات لقاء مشاركته في القمة. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن الرئيس كلينتون يتصـــرف منذ ثلاث سنوات في موضـوع العملية السلمية وبالذات ما يتعلق منها بالجانب الفلسـطيني على أسـاس أنه إرث له مردوده الطيِّب يورثه لصـــديقه آل جور الذي يمكن أن يخلفه، وأن هذا الإرث بمثابـة منجم من الـذهـب يســـتطيع أن يغرف منه الكثير ويَظهر بالمردود أمام العالم بأنه بطل من أبطال السلام التاريخيين في القرن الواحد والعشـــرين. وهذا الإرث هو في بعض جوانبه مثل إرث حرب الخليج الثانية الذي كان يخطط الرئيس السابق جورج بوش لكي يجعله ركيزة أساسية في ولايته الرئاسـية الثانية لو أنه فاز، ثم تنبَّه المرشـح الذي فاز (أي بيل كلينتون) وأدرج تلك الحرب وتداعياتها ضـمن توظيفات إدارته محققاً بذلك المزيد من المكاســـب الناشئة عن مواصلة التحذير من الخطر العراقي على الجيران قاطفاً بعد كل تحذير يقوم به شخصياً أو يتولاه بالنيابة عنه وزيرة الخارجية أولبرايت أو وزير الدفاع كوهين أو بعض الجنرالات الجوّالين في المنطقـة، المزيد من الصـفقات التي تعود على الخزينة الأميركية بالمزيد من المال وتقلِّل في الوقت نفســـه الكثير من الإفلاسـات المحتمَلة لشـركات ومصـانع عسـكرية.. وإســـتطرادا فـإنهـا بـذلـك تحولُ دون فقـدان الألوف لوظائفهم.

هذا على صـعيد الحظ الأول الأكثر سوءاً بالنسـبة الى الرئيس عرفات. أما الثاني فهو إن تحديد ســـقف زمني سـلفاً لمحادثات القمة وهو السـاعة الأخيرة من يوم 18 يوليو لأن الرئيس سـيشـارك في اليوم التالي (19 يوليو) في قمـة الـدول الصـــنـاعيـة الثمـاني في أوكيناوا (اليابان)... إن هذا التحديد كان نوعاً من الضغط يمارسه كلينتون على الجانب الفلسطيني فقط، ذلك أنـه بـدا كمَن يقول لعرفـات مـا معنـاه عليك أن تســـتعجل الموافقة والتجاوب لإنني على موعد مع مؤتمر. ومثْل هذا الضـغط ربما يفيد لو أنه يسـتهدف الجانبيْن. أما لماذا القول إن الضغط يستهدف الجانب الفلســـطيني فقط، فلأن الإدارة الأميركية عوَّدتْنا في إستمرار على أنها ليس فقط لا تضـغط على إسـرائيل وإنما تتعاون معها في الضـــغط على الفلســـطينيين، وايضـــاً على الأطراف التي تتحفظ عليها إســـرائيل

وأحدثها إيران التي هددها يوم السبت الماضي نائب وزير الدفاع الإسرائيلي أفراييم سنيه بـ "رد مناسب" لإنها أجرت بنجاح (في اليوم نفسه) إختباراً جديداً لصاروخ أرض – أرض (شهاب 3) الذي يصل مداه إلى 1300 كيلومتر.

وكان الأجدى بالرئيس كلينتون أن يعطي المحادثات فسحة أكبر من الوقت بمعنى أن يشارك في القمة الصناعية من دون أن يثير الضغوط الضمنية، ثم يعود بعد يومين أو ثلاثة ويواصل مع الجانبيْن الفلسطيني والإسرائيلي المحادثات بهدف التوصل إلى حل موضوعي، وتكون أيام غيابه بمثابة أيام راحة للجانبيْن يخلوان فيها إلى المزيد من التأمل. لكن من الواضح أن الرئيس كلينتون يريد المشاركة في القمة الصناعية (وهي آخر قمة يشارك فيها لأن ولايته قاربت على الإنتهاء) وهو متوَّج كبطل للسلام إستطاع أن يحقق في القرن الواحد والعشرين المعجزة التي كانت المعضلة الأكثر خطورة في القرن العشرين فضلاً عن تحقيق حل موضوعي لمسألة أيرلندا وتطوير نوعي للعلاقات مع الصين. ومثْل هذا التتويج يحصل عليه وفي هذه القمة بالذات سيجعله أهم رئيس للولايات المتحدة بعد جورج واشنطن.

ومحطات سوء الحظ التي أشرنا إلى بعضها لم تكن غافلة عن الرئيس عرفات، ولا بد أنها كانت ماثلة أمامه وكان مدركاً كل مطبَّاتها. ولكن الرجل شارك في القمة لكي يقول للرئيس كلينتون وحتى اللحظة الأخيرة؛ لقد تحمّلنا مبعوثيك وألاعيبهم كما لم يتحمل أحد مبعوثين، وأعطيناك أكثر مما أعطى الرئيس أنور السادات من قبْل الرئيس جيمي كارتر. وعلى هذا الأساس فإن ما نريده منك هو ما حصل عليه السادات من كارتر.

وستكون الصدمة الكبرى للرئيس الفلسطيني هي أن يقول له صديقه الرئيس كلينتون أنه بذل مخلصاً كل جهد ممكن وأنه سيغادر الحُكْم تاركاً العملية السلمية في عُهدة إدارة جديدة (يأمل أن تكون ديمقراطية) تواصل التعاطي معها من حيث إنتهت إليه إدارته. أما إذا أعلن الرئيس كلينتون تأييداً صريحاً لقيام دولة فلسطينية وقال كلاماً موضوعياً في ما يخص القدس وعودة اللاجئين أو توزيعهم فإن عرفات سيعود مجبور الخاطر، إنما شرْط أن يقول الرئيس كلينتون ذلك بالصوت العالي، ويا ليته يفعل ذلك في القمة الصناعية.

يبقى أننا نكتب هذا الكلام قبْل أربعة أيام من إنتهاء الموعد المحدَّد سلفاً للقمة. وعلى هذا الأساس فإن أي سهو أو خطأ مغفور لمثْل هذا الإستباق للنتائج. ونقول ذلك مع التمني بأن الرئيس كلينتون لم يخدع إخواننا الفلسطينيين بالكلام المعسول، أي إنه كان صادق النية وسليم المقصد... وعلى نحو ما كان يجب أن يفعل مع الرئيس الراحل حافظ الأسد عندما إلتقيا فى جنيف.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 يوليو (تموز) 2000

* * *

الضغط... وما أدراكم ما الضغط

عندما تتدخل العناية الإلهية فلا شيء يشفي أو ينقذ عداها. وقبْل عشرة أيام وفي ذروة القلق على ما آلت إليه الأحوال العربية والخشية من أن تنتهي في كامب ديفيد عملية البيع والشراء للقضية الفلسطينية ويضعف الرئيس ياسر عرفات يشجعه على الضعف الذين حوله رموز صيغة أوسلو، أصابت كاتب هذه السطور أزمة صحية غير مسبوقة. ففي بداية اليوم وبينما أنا وراء مكتبي أتابع من خلال صحف الصباح والنشرات الأخبارية من الراديو، الضغوط التي يتعرض لها الوفد الفلسطيني الذي وصل إلى المنتجع الرئاسي الأميركي والتطورات الناشئة عن لاءات إيهود باراك الخمسة، لاحظتُ أن الدم بدأ يتساقط على أوراقي والصحف التي أمامي وعلى قميصي وسترتي وعلى فنجان القهوة الذي لم أرشف منه بعد وهو الفنجان الأول عادة الذي أتناوله طوال النهار يليه فنجان آخر بعد الظهر، ودائماً يكون تناولهما في وقت الكتابة. ولقد ظننتُ للوهلة الأُولى أن هذا الدم يخرج من الأنف بغزارة ناشيء عن الطقس الحار الذي تشهده دول المنطقة منذ شهر والذي كانت وطأته شديدة على لبنان عاصمة وساحلاً وجبلاً، وأن مجرد قطعة ثلج توضع على الرأس والضغط قليلاً على أول الأنف من شأنهما وقْف هذا العارض. لكن النزف ما لبث أن بات مثل إنهمار المطر. وإنتهى الأمر وعلى وجه السرعة في قسم الطوارىء في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت وتحت إشراف أطباء وممرضين وممرضات لفت إنتباهي أولاً– ثم قيل لي بعد ذلك – أنهم تعاملوا

مع الحالة وكأنما هي من الحالات الدقيقة. وعندما إستقرت الحال سمعتُ الطبيب المشرف يقول إنها كانت حالة دقيقة بالفعل، وأن العناية الإلهية هي التي تدخلت فكان هذا الإنقاذ من نوبة ضغط خطيرة، كما سمعْتُه يشرح للأطباء المتدربين الذين حوله هذه الحالة ويقول لهم إنه لولا أن العناية الألهية تدخلت وكان الوصول إلى المستشفى سريعاً لكان هذا الشخص (يقصُدني) دخل في غيبوبة. وهنا وجدتُ حالة زميلنا العزيز نبيل خوري ماثلة أمامي وكيف أنه منذ ستة أسابيع في "الكوما" وفي المستشفى نفسه الذي نقلوني إليه أعاننا الله على تحمُّل الأسى في نفوسنا بسبب ما أصابه وتقبَّل دعواتنا بأن يعيده سبحانه وتعالى من غفوته الطويلة هذه إلى زملاء أحبوه وقرَّاء يفتقدون، ومنذ أن أصابه الذي أصابه، كتاباته وحضوره.

لا أدري ما الذي يجعل ضغط الدم يسجل هذا الإرتفاع الخطر الذي سجله لشخص مثل حالي إرتأى أن ينأى عن مستلزمات الحياة الإجتماعية وإختار نهْج الراحل كمال جنبلاط ونهْج مَن ندعو له بطول العمر الدكتور سليم الحص في مسألة المأكل والمشرب، ويقوم منذ خمسة عشر عاماً بدور الداعية إلى توقُّف المدخنين عن مواصلة التدخين ويرتضي من الترفيه جلسة للتأمل أسبوعياً من على شرفة فسيحة في جمال أشجار الصنوبر التي هي إحدى هبات الله عزَّ وجلَّ للبنان وحوله قطتان وكلب وأربعة طيور مغردة، وجلسة غير إستعراضية لساعتين يومياً على أحد الشواطىء الصخرية من بحر بيروت وفي مقهى متواضع يغلب فيه التأمل والهدوء على المناقشات يحاول فيهما تنشق هواء البحر الذي ينظف رئته قليلاً من التلوث القاتل الذي يملا شوارع العاصمة وسمائها، ويسجل خلالهما بعض خواطره إستعداداً لتضمينها كتاباً جديداً ينضم إلى مؤلفاته السابقة. كذلك يرتضي من الترفيه رعاية أشجار غرسها من بينها بضع أغراس من النخيل وشجر الأرز وحقلاً صغيراً من الزنبق يتفقده بين الحين والآخر منتظراً بشوق تفتُّح هذه الزهرة التي تبعث في النفس بهجة وتنشر في الجو رائحة تجعل المرء يردد في إستمرار الشكر لله سبحانه وتعالى على نِعَمه. وهذا ليس كل شيء إرتضاه هذا الشخص (الذي هو كاتب السطور) نهجاً وروتيناً لحياته، ولكن ما أذكره هنا إنما هو على سبيل المثال وللتوضيح بأنه السقف للمباهج والترفيهات على أنواعها.

وما دامت الحال على هذا النحو وتؤكدها الفحوصات المختبرية والطبية التي تشير إلى أن كل مؤشرات الوضع الصحي من "الكولسترول" إلى السكر إلى بقية المؤشرات هي تخت خط الخطر وأنها عموماً مستقرة... ما دامت الحال على هذا النحو فما الذي يجعل الضغط يقفز فجأة من دائرة السيطرة والإستقرار والضوء الأخضر ويأخذ طريقه إلى الضوء الأحمر وإلى حيث إنفجر نزيفاً ملأ أوراق وصحف وثياب شخص مثل حالنا لا يستمع من الراديو عدا نشرة الأخبار سوى إلى المحطات التي تبث الموسيقى الكلاسيكية وينأى عن مشاكسة الآخرين حتى إذا تسلَّق هؤلاء أسوار عالمه، ولا يتقلَّب أو ينقلب من أجْل مكاسب، ودائماً يشكر ويحمد ربه على كل شيء، وفي إستمرار إنه متدين بلا تعصب وتزمت ومؤمن بأمته وقدرتها على النهوض شأنها في ذلك شأن الجياد الأصيلة التي تكبو؟

قد يكون من الصعب الإجابة عن ذلك وتحديد سبب واحد ما دام منطق الأمور يرى أن كل إنسان هو عرضة لعارض صحي. لكن ما يمكن إفتراضه من أسباب أمر جائز. ومن هنا جد أنفسنا نتساءل:

هل إن سبب مثل هذه الصرخة العالية للضغط والتي تجعل الشخص (وهو هنا كاتب هذه السطور) ينتقل في لمح البصر من دائرة السلامة إلى دائرة الخطر هو الوضع العربي العام حيث ينخر التآكل في جسم الأمة وحيث لا يولَد القرار الصحيح الذي يمكن به مواجهة كل هذا الإنحدار الذي أصابنا ونعني به قرار عقْد قمة عربية حرة الإنعقاد وحرة إتخاذ القرارات؟

وهل إن السبب هو هذا الذي يُروى لنا بين الحين والآخر عما إنتهت إليه أحوال العراق الذي كانت الآمال معلَّقة على دوره وإمكاناته فإذا بهذه الآمال تذروها رياح "عاصفة الصحراء"؟

وهل إن السبب هو هذا الإستهتار بالمواطن العربي وكيف أنه بات شبه مسلوب الإرادة لا تُحرِّكه محنة تصيب الوطن ولا تستوقفه أخطاء من النوع التي تنال من سمعة الأمة؟

وهل إن السبب هو هذا الإستهتار السياسي المستشري في لبنان حيث باتت القيم من الأمور الثانوية وبات لا أحد من العاملين في الحقل السياسي يؤمن بالوطن كتراث تركه الأجداد لكي تكون المحافظة عليه أمينة ونزيهة؟

وهل إن السبب هو التدمير للجمال والبيئة في لبنان، البلد الذي ثروته جمال طبيعة وبيئة حباهما الله

له لكي ينعم بهما ويُعوِّضه من خلالهما ثروات خص بها غيره، يتم بعِلْم الدولة وحماية القانون، ومن دون أن تصارح السُلطات المواطن بالسبب الذي يجعلها إما تحمي الذين يدمرون الجمال والبيئة من خلال الكسَّارات وشفْط الرمال وتحويل مناطق الجمال الطبيعي والمياه المعدنية إلى محميات للنفايات، أو إنها تغض النظر عن هؤلاء الذين يمارسون بهمجية بقْر بطون الجبال بحجة أنهم يملكون رخصة من الجهات الرسمية تجيز لهم هذا التدمير. ولن يتوقف هذا التدمير المبرمج والمرخص به للجمال الطبيعي والبيئة في لبنان إلاَّ إذا سمِعنْا يوماً أن الرئيس إميل لحود قرر أن ينحاز كرمز للسُلطة الأُولى في البلاد إلى جانب بيئة الوطن وجماله الطبيعي شواطىء وجبالاً ويرعاهما كما أشرنا إلى ذلك، وأنه إستحدث لهذا الغرض إدارة خاصة تابعة لرئاسة الجمهورية أو ألحق مسؤولية المحافظة على البيئة وجمال الطبيعة اللبنانية بوزارة الدفاع وبحيث بات هنالك حقيبة في الحكومة إسمها "نائب رئيس الوزراء للدفاع وحماية البيئة". ونقول ذلك بعدما وصلت إلى درجة بالغة الخطورة الأحوال الخاصة بالبيئة وما تفعله الكسَّارات بجمال الطبيعة اللبنانية وكذلك ما تسببه تكدسات النفايات من أمراض يتحملها المواطن لأن لا حول له ولا قوة، لكن السائح أو الزائر أو الشقيق العربي الذي يتطلع إلى تمضية فصل الصيف في ربوع بلد يحبه، لا يمكن أن يتحملها على الإطلاق؟

وهل إن السبب هو هذا الإنحدار المريع في المجتمع حيث باتت الأخبار التي تتحدث عن الإعتداءات الجنسية من جانب الأعمام والأخوال على بنات الشقيقة أو بنات الشقيق من الأخبار الروتينية فى الصحافة اللبنانية تَشهق وأنت تقرأها وتشمئز وأنت ترى أن الحاكم حكم على مثل هؤلاء الذئاب بالسجن ثلاث سنوات، مع أن إنزال عقوبة الإعدام هي القصاص الذي لا بد منه والذي من شأنه أن يردع ذئاباً بشرية يمكن أن يستبد بها الإنحدار وبحيث تأكل لحم القربى نيئاً ومن دون التوقف عند مسألة العرض والأخلاق الحسنة. أما لماذا الترفق بهذه الذئاب البشرية فلا جواب عن ذلك سوى أن القانون لا ينص على معاقبة مرتكبي مثْل هذه الأفعال أكثر من سنوات قليلة وكأنما أن تحمل إبنة أخ من عمها أو إبنة أخت من خالها هو مجرد فعل عادي وليس جُرم الجرائم. أي قانون هذا الذي لا يستوجب التعديل وكيف أن تعديل الدستور لأمر سياسي من السهولة بمكان بينما إستصدار قانون أو تعديل قوانين يمكن أن تحمي المجتمع من الشرور هو من الصعوبة بمكان؟

إن الأسباب التي نفترضها كثيرة ومن شأن واحد منها، أو تراكُم بضعة أسباب في الوقت نفسه، أن جعل مرارة المرء تنفجر ونفسه تتقزز وقلبه يتعرض لنوبة وضغطه يرتفع. لكن الخوف مِن الذي يمكن أن تفضي إليه عملية البيع والشراء في كامب ديفيد يبقى أكثر الأسباب أذى. ونحن من الذين فزعوا عندما تم الإعلان عن أن مكان البيع والشراء بين الرئيس عرفات والمحيطين به من جماعة صفقة أوسلو وإيهود باراك والصقور الجارحة المرافقة له وبرعاية الرئيس كلينتون، سيكون منتجع كامب ديفيد. والفزع سببه أن القدس قد تضيع منا إلى الأبد بعدما ضيَّع كامب ديفيد الأول مصر. والفرق بين ضياع مصر وضياع القدس أن مصر قابلة للإستعادة ولو بعد حين بينما إذا ضاعت القدس ضاع العرب والمسلمون وباتوا مضرب المثل في التفريط.

وهذا الشعور في حد ذاته وهذا الجزع المشروع يشكِّلان سبباً لإنتقال الضغط من دائرة السلامة إلى دائرة الخطر. وفي تقديري إن الذي أصاب كاتب هذه السطور فسجَّل على الورق مُصابه، أصاب ولا بد كثيرين في ديار الأمة. وسيظل إحتمال الإصابة وارداً... إلى أن تنجو القدس من عملية البيع والشراء في كامب ديفيد.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 يوليو (تموز) 2000

* * *

لبنان القوي سياسياً على خط العجز مالياً

في الوقت الذي تلوح في الأفق اللبناني بوادر الوصول إلى وقت تعلن فيه الحكومة اللبنانية عجزها عن تسديد الديون، تتألق أهمية الورقة اللبنانية بالنسبة إلى الذين يطمحون في بعض دول العالم للوصول إلى قمة السُلطة. وهي صفة يتميز بها لبنان على غيره، ذلك أننا لم نسمع من قبْل عن بلد قوي كورقة سياسية وضعيف إلى درجة العجز كأحوال مالية وإقتصادية.

بالنسبة إلى لبنان كورقة يقطف نتائج طيبة مَن في

إستطاعته أن يلعبها بمهارة نشير إلى أن وزير الداخلية الفرنسية السابق شارل باسكوا والذي يترأس ما يشبه الحزب إسمه «التجمع من أجْل فرنسا» دشن حملته لإنتخابات الرئاسة التي سيخوض غمار معركتها منافساً للرئيس جاك شيراك بزيارة إلى لبنان هي الأولى بعد إعلان ترشيحه. وخلال هذه الزيارة إجتمع بالرؤساء الثلاثة إميل لحود ونبيه بري وسليم الحص وحرص على إبلاغهم أنه يقوم بهذه الزيارة بصفة كونه مرشحاً لرئاسة الجمهورية. كما أنه قابل مسؤولين آخرين والقيادات الدينية المسلمة والمسيحية وأمطرهم بالكلام الطيب وبالوعود الجذابة. وكان في ذلك كمَن يقول إن الوقوف إلى جانبه هو خدمة للبنان في حال فاز بالرئاسة. كذلك بدا في هذه الزيارة كمن يلفت الإنتباه إلى أنه لم يسبق أن قام بمثل هذه اللفتة من قبْل مرشح لرئاسة فرنسا، وإلى أنه عندما يختار لبنان ليكون المحطة الأُولى له بعد إعلان ترشيحه للرئاسة وليس أي بلد عربي آخر وليس أيضاً إسرائيل، فلأنه يؤكد مدى أهمية لبنان ومدى الحرص على أن تستعيد العلاقة الفرنسية – اللبنانية رونقها.

لكن في الوقت نفسه من الجائز الإفتراض أن باسكوا إنتهز العلاقة الفاترة بين الحُكم اللبناني والرئيس شيراك ووجد أن الوقت المناسب لكي يلعب الورقة اللبنانية هو هذا الوقت، وبالذات لأن لبنان يعيش بهجة تحرير الجنوب والبقاع الغربي من الإحتلال الإسرائيلي (زار باسكوا لبنان يوم 19 يوليو/ تموز الماضي). ومن أجْل ذلك فإن زيارات مسؤولين عرب وأجانب وشخصيات عربية ودولية مرموقة للبنان في هذه الفترة تلْقى من جانب أهل الحُكم التقدير والترحيب. ولنا في هذه المناسبة ما لقيه الدكتور جورج حبش الأمين العام (المستقيل) لـ "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" عندما زار في الفترة نفسها لبنان واستقبله الرئيس إميل لحود أحسن إستقبال، وهي زيارة طالما يتمناها الرئيس عرفات وإستقبال طالما يحن إليه وهما (الزيارة والإستقبال) لا تعوضهما زيارات عربية ودولية كثيرة يقوم بها أبو عمار.

شارل باسكوا ليس الوحيد الذي رأى مكسباً كبيراً يمكن أن تحققه الورقة اللبنانية يمسكها بيديه فكانت زيارته، وإنما هنالك أيضاً الدكتور علي أكبر ولايتي (وزير خارجية إيران في عهد رافسنجاني) الذي يتكاثر الكلام في شأن إحتمال خوضه معركة الرئاسة ضد الرئيس محمد خاتمي الذي بكّر في تدشين معركة الرئاسة بالإعلان قبل ثمانية أشهر من موعد الإنتخابات الرئاسية عن أنه سيرشِّح نفسه لولاية ثانية لمدة أربع سنوات تبدأ العام 2001. وكان لافتاً للإنتباه أن عطا الله مهاجراني وزير الثقافة والإرشاد الإيراني (هو أحد الوزراء المحسوبين على خاتمي) إختار الورقة اللبنانية كمضمون لهجومه الذي إستهدف الدكتور ولايتي قائلاً في تصريح أدلى به يوم الأحد 30 يوليو (تموز) الماضي في هذا الشأن إن جولة ولايتي (قبْل ثلاثة أسابيع) في لبنان وسوريا «كانت دعاية إنتخابية» والذي جعل مهاجراني يقول ذلك هو أن جولة ولايتي والحفاوة الإستثنائية التي لقيها من الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصرالله وأركان الحزب وكذلك من أركان الحُكم في لبنان تزامنت مع مهمة قام بها محمد علي أبطحي مدير مكتب الرئيس خاتمي وسبقت جولة ينوي حسن حبيبي نائب الرئيس القيام بها للبنان أيضاً.

وبصرف النظر عن تداعيات وطيس المعركة الإنتخابية للرئاسة في إيران وهل يخوضها الرئيس خاتمي إلى النهاية، بأمل أن يحصل للمرة الثالثة على النسبة المذهلة من الأصوات التى حصل عليها (المرة الأولى عند إنتخابه رئيساً للجمهورية والثانية خلال الإنتخابات النيابية التي حقق فيها مرشحو تياره الفوز الأكبر)... بصرف النظر عن ذلك وعن إحتمال أن يقرر الرئيس خاتمي الخلود إلى السَكينة والإنسحاب من الساحة وهو في ذروة الشعبية (على نحو ما فعل نلسون مانديلا) بعدما خذله (أي خاتمي) التيار المحافظ في أن ينفِّذ برنامجه الإنفتاحي الإصلاحي ويطبِّق أفكاره المؤيدة لإعتماد المرونة في تصحيح علاقات إيران وتطبيعها مع الولايات المتحدة، فإن المرء يجد نفسه يتأمل في أهمية الورقة اللبنانية وكيف أن هذا البلد الذي يعاني أشد الظروف يبقى عنصراً مهماً بل وبالغ الأهمية لمن يطمح في الوصول إلى سدة الرئاسة في بلديْن كبيريْن هما فرنسا وإيران. ونحن عندما نقول ذلك لا نغفل ما أشار إليه الدكتور ولايتي (رداً على إتهام الوزير الخاتمي عطا الله مهاجراني له) من أنه لم يقرر أن يرشِّح نفسه للرئاسة منافساً لـ خاتمي. ولكن هذه الإشارة ربما تكون حركة مدروسة إستوجبتْها أصول التكتكة عند أهل السياسة وبالذات من كان من الحاذقين فيها أمثال الدكتور علي أكبر ولايتي.

والحديث عن أهمية الورقة اللبنانية بينما الظروف

المعيشـــية والإقتصـــادية في لبنان باتت على أهبة إختراق الخط الأحمر نزولاً إلى خط العجز توجـب توضـيح ما أشـرنا إليه في مطلع هذا المقال والمتعلق بإحتمال أن تصـــل الحكومة في لبنان إلى وقت تعلن فيه العجز عن تسديد الديون.

وما يمكن قولـه في هذا الشـــأن هو أن وكـالـة «سـتاندرد أند بورز» للتصـنيف الإئتماني رفعت وتيرة التحذير للبنان مِن وضْـعه الإقتصـادي والمالي. وهي بعدما كانت قبْل شـهريْن صـنَّفتْه بدرجة B (مقابل رفع الدرجة لإسرائيل إلى A ومن دون أن تتحيز في قرارها هذا). فإنها وجهت في تقريرها الذي أصـــدرتْه يوم الإثنين (31 يوليو 2000) ما يشـبه الإنذار إلى لبنان وذلك من خلال القول إن لبنان (و14 دولة أُخرى في العالم) عُرضـة لمشـاكل العجز عن سـداد الديون على رغم تراجع إقراض البنوك وذلك بسـبب إسـتمرار الأوضاع المالية غير المتوازنة.

ومن المهم التوضـيح (إسـتناداً إلى إسـتفسـارات حصـلْنا عليها من خبير مصـرفي) بأن الوكالة المشـار إليها عُمرها حوالى مئتي سـنة وهي إحدى أهم وكالتيْن (الثانية إسمها «موديز») وأنها موضع ثقة كبيرة بدليل أن كل مصرف في دول العالم (المصـارف التي تحترم نفسـها) تعتمد عليها. كذلك قد يجوز القول إن مصـير الشركات الكبرى في العالم وكذلك السمعة المالية لدول كثيرة هما بين أيدي هاتيْن الوكالتيْن والتصـنيفات التي تضـعانها في تقارير تنشـرانها. كما قد يجوز القول من بـاب المقارنـة إن دور هـاتيْن الوكـالتيْن هو مثْـل دور الطبيب الذي يجري التحاليل على أنواعها للشـــخص الذي يريد الإطمئنان إلى وضْعه الصحي أو ذاك الذي يريد إستصدار بوليصة للتأمين الصحي والتأمين على الحيـاة. وفي ضـــوء التحـاليـل المختبريـة يقول هـذا الطبيب للشـــخص – إذا هو إكتشـــف فيـه ثغرات صحية– إذهب إلى الطبيب المختص الفلاني، أو أنت على خير ما يرام. مبروك. إستمتع بحياتك.

في ضوء التقرير الذي يصدر عن الوكالتين وتحت أي خانة كان تصـــنيف هذه الشـــركة أو تلك الدولة تتقرر أمور كثيرة. تتسـاقط مثْل أوراق الخريف أسـهُم شركات في البورصـة أو ترتفع أسعار الأسهم، وتتدنى سـمعة دول فلا تعود تحصـل بسـهولة على قروض وتسـهيلات إئتمانية وربما لا تحصـــل إطلاقاً على القروض أو حتى تعجز عن تسديد خدمة الديون.. أي ما معناه إعلان إفلاس أو ما يشبه الإفلاس.

ما تفعله الوكالتان المشـار إليهما (إسـتندنا هنا إلى «سـتاندرد أند بورز» هو وضْـع تصـنيفات. التصـنيف الأعلى هو AAA والتصـنيف الأدنى هو – C وما هو تحت التصـــنيف الأدنى يكون (دولة أو شـــركة) لا يسـتحق الإسـتثمار فيهما. والذي يحدُث هو أنه كلما إنخفضت درجة التصنيف تصبح الإستدانة أكثر كلفة والقدرة على الإسـتدانة أكثر صـعوبة، في حين أنه إذا كانت درجة التصـــنيف عالية فإن العكس هو الذي يحدُث.

تبقى الإشـــارة إلى أن هنـالـك حلولاً لمثْـل هـذه المشاكل المستعصية من نوع المشكلة التي يعاني منها لبنان وسبق أن عانت منها مصـر. وأبرز هذه الحلول أن تُلغى الديون بقرار سياسـي وهو أمر ليس دائماً من السهولة بمكان، وقد ينتهي مجرد إبداء الرغبة في شأن هذه الديون إلى كارثة على نحو ما أصـــاب العراق عندما لم تتجاوب الكويت مع طلبه في شـطْب الديون المســـتحقة عليه وإنتهى الأمر إلى أزمة ثم غزو ثم إحتلال فحرب تحـالفيـة على العراق لتحرير الكويـت وتهميش العراق للسـنة العاشـرة على التوالي... وحتى إشعار آخر.

وبالنسبة إلى لبنان يجوز التساؤل: ما دام هذا البلد هو ورقة مهمة لمن يريد أن يصل إلى سدة الرئاسة في فرنسـا وإيران، فهل يتصـدر باسـكوا بعد سـنوات حملة دولية لشـطب ديون لبنان؟ وهل يقوم علي أكبر ولايتي بالمهمة نفســـها أو يقوم بها مَن يختاره المحافظون لخوض معركة الرئاسة بهدف وأمل إسقاط خاتمي؟

إنها أسـئلة تبقى الإجابة عنها في علْم الغيب حتى إشـــعار آخر ويبقى لبنان حتى ذلك الإشـــعار الآخر يصرخ من شدة أوجاع الوضع المالي والمعيشي... ولا من يسمع أو يُبلسم.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 3 أغسطس (آب) 2000

* * *

أطلبوا المصالحة... ولو في كاراكاس

هل في إســتطاعة منظمة الدول المصـــدرة للنفط (أوبيك) أن تجترح المعجزة التي يتعذر على الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي تحقيقها؟

والمعجزة هي أن تنعقد قمة منظمة (أوبيك) على

النحو المقرَّر لها الإنعقاد من 27 الى 30 سبتمبر (أيلول) المقبل في كاراكاس وتكون المشاركة على مستوى القمة، أي بما معناه يلتقي حول طاولة الإجتماع ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبد العزيز، وأمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح أو ولي العهد الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح أو نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد الصباح، والرئيس صدَّام حسين أو نائبه عزت إبراهيم أو النائب الآخر طه ياسين رمضان، والرئيس الإيراني محمد خاتمي، والرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، والرئيس الليبي معمَّر القذَّافي، وأمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وولي عهد دولة الامارات الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، والرئيس النيجيري، والرئيس الأندونيسي إضافة إلى مستضيف القمة هوغو شافيز الذي أمكنه الفوز في الإنتخابات الرئاسية يوم الأحد 30 يوليو (تموز) الماضي لولاية ثانية والذي يعلِّق أهمية كبرى على هذه القمة كون فنزويلا تعتبر الدفاع عن (أوبيك) حجر الزاوية في سياستها الخارجية.

القمة المرتقبة لهذه الدول ضرورية ذلك أنها لم تنعقد منذ زمن طويل. ومع أن الإتصالات والإجتماعات على المستوى الثنائي كانت تحدُث، إلاَّ أنه لم يسبق أن إلتقى أهل القمة في إجتماع على نحو إجتماعات الدول الصناعية وأحدثُها ذلك الذي عُقد في جزيرة أوكيناوا (اليابان) قبْل بضعة أسابيع. والذي كان يجعل عدم الإنعقاد مسألة غير ضرورية هو أن وزراء النفط في دول (أوبيك) كانوا دائماً دقيقين في مسألة الإجتماعات الدورية وبحيث كان الجميع يشاركون مهما بلغت حدة الخلافات بين بعض الدول الأعضاء. لكن ثمة أسباباً موجبة كانت تحولُ دون الإنعقاد وهي حرب الخليج الأولى بين العراق (مدعوماً من دول الخليج) وإيران، ثم حرب الخليج الثانية التي جاءت في أعقاب الاجتياح العراقي للكويت وإنتهت إلى تحرير الكويت وفرضت حصاراً دولياً على العراق دخل سنته العاشرة من دون أن تكون هنالك في الأفق ملامح نهاية لهذا الحصار.

وإذا جاز القول فإن العراق وإيران كانا السبب في عدم إنعقاد القمة النفطية، إذ كيف سيجلس في الثمانينات الرئيس صدَّام حسين والرئيس هاشمي رافسنجاني، وبأي مودة سيكون اللقاء بين الرئيس الإيراني ورئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان الذي تصر الثورة الإيرانية، وما زالت، على إحتلال جزر تابعة لدولته. كذلك كيف سيكون اللقاء بين الرئيس الإيراني ودول الخليج عموماً التي كانت مستهدَفة من إيران ضِمْن حالة تصدير الثورة؟ وكيف سيجلس أمير الكويت في التسعينات مع الرئيس العراقي الذي إجتاحت قواته الكويت وإحتلتها ثم ألغتها قبْل أن يجد النظام في العراق نفسه تحت وطأة الحرب يلغي كل قرارات الضم من دون أن يكون في إستطاعته منْع إستصدار الأمم المتحدة العقوبات عليه.. وأشدها تأثيراً الحصار؟

بسبب هذه الظروف التي مصدرها الصراع الثوري العراقي والإيراني من أجْل السيادة على المنطقة انطلاقاً من السيطرة على النفط بالإجتياح أو بتصدير الثورة، لم تنعقد قمة لدول (أوبيك) لكن الرغبة في الإنعقاد كانت دائماً واردة. وكان ربما في إستطاعة الجزائر أن تُحقق مثْل هذا الإنعقاد لولا أنها وجدت نفسها غارقة في أبشع فوضى دموية أخذت من رصيدها وسِمْعتها وأفقدتها ورقة الدولة الوسيط على نحو ما سبق أن نجح فيه الرئيس الراحل هواري بومدْين عندما جمع في السبعينات العراق (بشخص صدَّام حسين الذي كان زمنذاك الرجل الأقوى في النظام وبمنصب النائب الأول) وإيران (بشخص الشاه محمد رضا بهلوي الذي كان هو الآخر مسكوناً بتصدير الشأن الإيراني والطمع في أن يكون شرطي الخليج وهو ما دفع لاحقاً عرشه ثمناً جزاء هذا الطمع).

قبْل سنتين تجدَّد الحديث بقوة عن ضرورة أن تنعقد قمة لدول (أوبيك) وكانت مشاركة العراق هي العقدة إذا كان لا بد من عقْدها بمشاركة أهل القمة. ودارت في هذا الشأن مشاورات وإتصالات ليس واضحاً تماماً إلى أين إنتهت. لكن إصرار فنزويلا على هذه القمة يعني أن الدولة التي تُمثل قارة أميركا اللاتينية في (أوبيك) حصلت على ما يشبه التأكيد بالمشاركة وأن الجولة التي بدأها يوم الإثنين الماضي (7 اغسطس (آب) 2000) رئيس فنزويلا هوغو شافيز ولمَّا كان مضى على فوزه بالولاية الثانية بضعة أيام، هي لتأكيد المشاركة أو من أجْل تذليل عقبات تعترض المشاركة على مستوى أهل القمة. وتشمل الجولة الفريدة من نوعها والتي ستستغرق ثمانية أيام المملكة العربية السعودية (المحطة الأُولى) والكويت وقَطَر والإمارات العربية المتحدة وإيران والعراق واندونيسيا وليبيا

والجزائر ونيجيريا. والقول إن الجولة فريدة من نوعها على أساس أنه لم يحدُث من قبْل أن قام رئيس الدولة شخصياً بالترويج ودعوة زملائه الحكام إلى قمة سيستضيفها في بلده. ودائماً كان الوزراء أو الممثلون الشخصيون للحاكم هم الذين يقومون بهذه المهمة التي تأتي كما لو أنها دعوة بصيغة إهتمام إستثنائي بدل أن تكون دعوة عبْر القنوات الدبلوماسية، أو حسب مواعيد محددة على أجندة الحكام كما هي الحال في الدول الصناعية وفي الدول الأوروبية، وحيث لا موجب للتذكير ولا لإنتظار مبعوثين يحملون الدعوات.

وإلى ذلك إن قيام الرئيس الفنزويلي شخصياً بالترويج والدعوة معناه أن اللقاءات الثنائية التي تقتصر على الزائر والذين يزورهم ومن دون أن يشارك فيها أحد، ستشكِّل عنصراً بالغ الأهمية لجهة المشاركة من جهة ولجهة النتائج المتوخاة خلال الإنعقاد من جهة ثانية. فالرجل على ما يبدو يتطلع إلى إنجاز تاريخي وهو أن تكون القمة التي سيستضيفها مناسبة لتحقيق المصالحة التي إستحال على العرب إنجازها. كما أنه من خلال قراءته للوضع الدولي من جهة ووقوفه على رغبة خليجية لوضع حد للحصار على العراق من جهة أُخرى يرى أن المصالحة النفطية وعلى مستوى القمة يمكن أن تفتح الطريق أمام المصالحة السياسية وعلى المستوى نفسه، ويرى ضرورة أن تتم بينما الولايات المتحدة مشغولة بالإنتخابات الرئاسية ولا مجال أمامها عدا التهديدات والإنذارات ذات الطابع الإنتخابي للتعاطي مع الوضع في منطقة الخليج، إلاَّ إذا قرر كلينتون في لحظة يأس يستفيد منها إنتخابياً نائبه آل غور وزوجته هيلاري أن يفتعل أزمة مع العراق ويوجِّه اليه بضعة صواريخ. وقد يقال ما هو هذا المفتاح السحري الذي يملكه رئيس فنزويلا ولا يملكه أحد غيره لكي يفتح الأبواب الموصدة أمام إنطلاق المصالحة العربية من عاصمة بلاده كاراكاس. والرد على ذلك هو أن فنزويلا أخت بالنفط. وهي في موضوع حربيْ الخليج كانت دائماً على الحياد وتسعى إلى التوفيق. وهي إما صديقة للجميع أو أنها تريد هذه الصداقة. وهي في ما يخص الصراع العربي – الإسرائيلي كثيرة التفهم للرؤية العربية لهذا الصراع كثيرة التعاطف مع الشعب الفلسطيني. وهي إذا سعت من أجْل المصالحة التي تبدو مستحيلة فإن سعيها يأتي مخلصاً وليس على نحو السعي الذي قام به الرئيس كلينتون لإنجاز إتفاق سلام تاريخي وإستضاف من أجْله في كامب ديفيد قمة إنتهت إلى الفشل لأن الرئيس كلينتون كان منحازاً إلى باراك وضد الرئيس ياسر عرفات وطروحاته في شأن القدس وحق العودة.

قد يقال إن الجرح الكويتي لم يلتئم بعد لمثْل هكذا مصالحة. لكن في الوقت نفسه لا يبدو أن هذا الجرح المفتوح للسنة العاشرة على التوالي يمكن أن يلتئم من دون مصالحة.

وقد يقال إن وزراء النفط في دول (أوبيك) يعقدون في إستمرار إجتماعاتهم ويتخذون من القرارات ما لا يتعارض مع السياسة النفطية العامة. لكن في الوقت نفسه فإن دول (أوبيك) وفي غياب تشاور على مستوى القمة وموقف موحد قائم على العلاقات الودية بين هذه الدول سيجعل الدول المستهلِكة راضية عن الدول المنتجة عندما تهبط الأسعار بصرف النظر عن الضرر الذي يلحق بالمنتجين وسيجعلها تنظر بعين العداوة الى دول (أوبيك) عندما يرتفع سعر البرميل. ومن شأن سياسة للإنتاج قائمة على الود والعلاقة الطيبة وميثاق متوازن أن تنجي دول (أوبيك) من هزات تنعكس في معظم الأحيان على سياساتها. وعندما تنعقد قمة لهذه الدول وتضع هذا الميثاق وبحيث تكون القسمة عادلة فان الشكوى تتلاشى والمخاوف تنحسر بالتدرج.

تبقى الإشارة الى أنه اذا أمكن للمصالحة النفطية أن تحدُث وتنعقد في كاراكاس على مدى الأيام الثلاثة من الشهر المقبل قمة دول (أوبيك) ويكون التمثيل على المستوى الأعلى أو دونه بقليل، فإن أموراً كثيرة ستتغير في المنطقة ونحو الأحسن لمجرد رؤية صورة الإجتماع تبثها الفضائيات وتنشرها الصحف الأجنبية والعربية. وسيصبح بالتالي ممكناً تحقيق وفاق عربي وعقْد قمة عربية تناقش بروحية جديدة أحوال الأمة وتقطع الطريق على محاولة أُخرى لخطْف القدس من بين أيدينا. وكل الدلائل – ومنها إختيار السناتور اليهودي جوزف ليبرمان مرشحاً عن الحزب الديمقراطي لمنصب نائب الرئيس وهي خطوة تحدُث للمرة الأُولى في تاريخ الإنتخابات الأميركية – تشير الى أن محاولة الخطف ستتكرر وأن إدارة الرئيس كلينتون لن يغمض لها جفن إذا لم يحدُث ذلك وقبْل الثالث عشر من سبتمبر الموعد المقرر فلسطينياً لإعلان الدولة الفلسطينية. وهو موعد يسبق موعد قمة المصالحة النفطية في كاراكاس. وكلاهما موعدان سيسجل

التاريخ في حال حدوثهما وعلى نحو ما هو مؤمل أنهما كانا أبرز موعديْن في تاريخ المواعيد الصعبة... إلى درجة الإستحالة.

الخشية الوحيدة على المسعى الفنزويلي الحميد هو أن ينطلق من دون الموافقة الأميركية عليه. وفي حال أن هذه الموافقة غير قائمة فإن الرئيس الفنزويلي قد يُفاجأ بإنقلاب عسكري عليه تساعد الـ «سي. آي. اي» فيه. والظروف الداخلية مواتية لهذا الإنقلاب نتيجة أن بعض جنرالات الجيش والضباط الطموحين منزعجون من محاولة الرئيس شافيز الدؤوبة لتحويل الجيش إلى الإهتمام بالمسائل الإجتماعية التي يقوم بها غالباً المدنيون. وفي العادة إن العسكريين يترجمون إنزعاجهم بمحاولات إنقلابية يفشل معظمها إلاَّ أن واحدة لا بد من أن تنجح... خصوصاً إذا كانت مدعومة من الـ «سي. آي. اي».

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 أغسطس (آب) 2000

* * *

مِن وراء الستار
إلى خشبة المسرح

لا يبدو إحتمال أن يأتي يوم يكون فيه يهودي رئيساً للولايات المتحدة بعدما سجَّل الحزب الديمقراطي سابقة تمثَّلت بتسمية السناتور اليهودي جوزف ليبرمان مرشحاً لمنصب نائب الرئيس.. لا يبدو هذا الإحتمال بعيداً أو مستبعَداً سواء بوفاة مفاجئة أو بإغتيال محْكَم الإتقان، وعلى طريقة إغتيال جون كيندي وليس محاولة إغتيال رونالد ريغان. وتبدو خطوة إختيار ليبرمان اليهودي المذهب بالنسبة إلى المجتمع الأميركي شبيهة بعض الشيء بالخطوة التي أنهت صراع اللونيْن في الولايات المتحدة، مع فارق أن السود في معظم مراحل ذلك الصراع كانوا يقاسون من البيض أشد أنواع التمييز، وإلى درجة الإستعباد، من البيض. أما بالنسبة إلينا كعرب فإن هذه الخطوة تعني أن النظام العالمي الجديد سيكون محكوماً بإرادتيْن: الإرادة الأميركية والإرادة الإسرائيلية.

ونقول ذلك على أساس أن جوزف ليبرمان، الذي جيء به مرشحاً لمنصب نائب الرئيس في الإنتخابات التي ستجري في 7 نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل، ليس رجل أعمال ناجحاً ومقتدراً ولا علاقة له بالسياسة، وإنما هو أحد أعمدة صُنْع القرار في الكونغرس، وأن إيمانه بأن تبقى إسرائيل آمنة وقوية يتساوى مع إيمانه بأن تظل القبضة الأميركية ممسكة بدول العالم. وهو ليس من اليهود المعتدلين والذين يعتبرون اليهودية مجرد عقيدة دينية، وإنما هو مشدود دائماً إلى إسرائيل ودائم الزيارة لها، وأنه بصفة كونه من اليهود الأرثوذكس فإنه ملتزم بالقانون اليهودي وما يفتيه الحاخامات. كما أن الأرثوذكس على ما هو معروف عنهم يحرصون على إرتداء الثياب اليهودية وبالذات أيام السبت وزيارة الكنيس للصلاة، ناهيك من التشدد في موضوع «الكوشر». والقصد من ذلك هو القول إن نائب الرئيس الأميركي المحتمَل (أي ليبرمان) سيكون عقله مع أميركا وقلبه مع إسرائيل أو عليها. ومع أن المألوف عن نائب الرئيس أن منصبه لا يخوِّله أن يكون فاعلاً في القرار الرئاسي، إلاَّ أن ليبرمان بحكم السن والخبرة سيجد لنفسه مكاناً في ساحة صياغة القرار الأميركي.

من أجْل ذلك لا نعتقد أنه في حال جاء الفوز في إنتخابات الرئاسة الأميركية من نصيب الحزب الديمقراطي أن يكون لنا كعرب مَن يناصرنا عند إتخاذ القرارات الكبرى ما دام البيت الأبيض بات مزيجاً من عقل مع أميركا وقلب مع إسرائيل أو عليها.

ولو أن مثْل هذه الخطوة، خطوة منْح اليهودي حق أن يكون نائباً لرئيس الولايات المتحدة، والنائب يمكن في أي لحظة مفاجئة أن يصبح رئيساً، جاءت بعدما منحت الإدارة الأميركية، وبكل الصدق، الفلسطينيين حق إقامة دولتهم وتفهَّمت معنى إصرار العرب والمسلمين والمسيحيين، الرافضين علناً أو الرافضين سكوتاً، على تحييد القدس من عملية البيع والشراء والتعامل معها كحق إلهي لا يجوز التلاعب به... لو أن ذلك حدَث قبْل المفاجأة غير المتوقعة من جانب الحزب الديمقراطي، لجاز إعتبار ما حدَث شأناً داخلياً أميركياً على نحو ما يصر الرئيس ياسر عرفات على إعتباره. أما وأن الحق الضائع ما زال ضائعاً والمطالب (من تحرير القدس إلى قيام دولة فلسطين إلى حق العودة إلى إنهاء الإحتلال الإسرائيلي للجولان) ما زالت لم تتحقق، فإن ما كنا نقوله تنظيراً بأن الإدارة الأميركية أسيرة حكومة

الصـــهيونية العالمية الخفية بات بعد إختيار ليبرمان أمراً ملموســـاً وليس تنظيراً. وما فعلتْه هذه الحكومة هو أنها قررت الإنتقال من وراء الستار... إلى خشبة المسرح.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 10 أغسطس (آب) 2000

* * *

الأمركة... وقضية «إبن خلدون المصري»

يســـجل المرء للرئيس حســـني مبارك قدرته في اللحظة المناسـبة على إنهاء أزمة من نوع الأزمة التي عُرفت بـ «قضـــية الدكتور ســـعد الدين إبراهيم» الذي يحاول تقمُّص شـــخصـــية التراثي العربي إبن خلدون. وما حدَث هو أن الرئيس مبارك بعدما وازن بين ما يمكن أن ينشـــأ عن المضـــي قُدُماً في هذه القضـــية وكيف أنها إقتربت من مشارف التفجر وما يترتب على ذلك من تداعيات وبين طي هذه القضـية ولو بصـيغة موقتة وتحمُّل الأثر المعنوي الذي ستفرزه الخطوة، فإنه إرتأى الأخذ بالخيار الثاني. وعلى هذا الأســـاس تم الإفراج بكفـالـة لا تتجـاوز ثلاثـة آلاف دولار يوم الخميس 10 أغسطس/ آب 2000 عن الدكتور سـعد الدين إبراهيم وغادر الرجل إلى منزله ليرتاح من عناء الإحباط الذي أصـابه خلال أربعين يوماً أمضـاها في سجن طره، ثم شارك في اليوم التالي في تشييع جنازة زعيم حزب الوفد فؤاد سراج الدين الذي صادفت وفاته يوم الإفراج عن سـعد الدين إبراهيم... أو «إبن خلدون المصري».

ومثلما أن التعامل الرســـمي وبتوجيهات الرئيس مبارك إتسم في اللحظة المناسـبة بالمرونة مع قضـية الدكتور سعد الدين إبراهيم، فإن التعامل الرسمي نفسه مع جنازة فؤاد سراج الدين إتسم وفي اللحظة المناسِبة بالمرونة وبعد النظر. وكان مشـهداً حضـارياً (مقتبسـاً إذا جاز القول من تقاليد المجتمع الســـياســـي في السودان)، أن أهل الحُكْم ورموز المعارضة ساروا جنباً إلى جنب وسـار معهم في موكب تشـييع الجنازة أيضـاً ســـعد الدين إبراهيم وهو مَن كانت قضـــيته لولا قدرة الرئيس مبارك على الإســـتدراك إنتهت إلى أزمة في العلاقات المصـــرية – الأميركية قد يُرضـــي حدوثها وتفجرُها الرأي العام المصـــري ومعه أهل الحُكْم الذي يذوق الأمَّرَيْن من أسـلوب التعامل الرسـمي الأميركي، لكن المصـلحة العامة كانت سـتتأثر أشـد التأثر. ولقد شـاهدْنا رموز مؤسـسـات الحُكْم المصـري يسـيرون في موكب جنازة تشـييع «الفؤاد» الثاني الأكثر رسـوخاً في وجـدان جيـل بعض الآبـاء ومعظم الأجـداد من المصـريين بعد «الفؤاد» الأول الذي سـلَّم الأمانة إلى إبنه فاروق لكن الإبن لم يحفظها فأتت عليها جلسـات القمار ونزوات المليك الشـاب ومغامراته النسـائية التي كانت في بعض جوانبها في الخمسينات مثل مغامرات الرئيس كلينتون في التســـعينات. كلاهما جعل من مكتبه الرسـمي عشـاً هانئاً للغرام. وما كان يُروى عما يحدُث في قصـر عابدين في القاهرة وقصـر رأس التين في الإسـكندرية ناهيك بالإسـتراحات الخاصـة بمَلك مصر والسودان المعلَن منها والمستتر، لا يختلف كثيراً عما قيل إنه حدَث في البيت الأبيض قبْل خمس سنوات.

ونحن عندما نسجل للرئيس مبارك هذه القدرة عنده وكيف أنه بالمرونة يتدخل في اللحظة المناسبة فيطفئ حريقاً سياسياً يمكن أن يندلع وهذا ما فعله إزاء قضية سعد الدين إبراهيم، ويُرضـي مشاعر شريحة عريضة من الرأي العام المصـري هي الشـريحة الوفدية بإيفاده مندوباً عنه للمشاركة في تشييع جنازة خصم سياسي عنيد مثْل فؤاد سراج الدين ولا يرى غضـاضـة في أن يكون رئيس البرلمان ورئيس الحكومة ورئيس مجلس الشـــورى ومعظم الوزراء وشـــيخ الأزهر وكبار رجال الدولة في طليعة المشـــيعيين... إنه عندما يفعل ذلك فإنه يُرسـي تقاليد حميدة من شـأنها أن تصـون الوحدة الوطنية، فضـلاً عن أنه بذلك يعطي أمثولة عن أهمية أن يكون رئيس الدولة، وبالذات في العالم الثالث، مرناً خلال الثواني القليلة التي تســـبق إتخاذه أحد القرارات فلا يأتي القرار يُرضـــيه لكنه يؤذيه أو يُرضـــي الرأي العام لكنه يؤذي المصلحة العامة.

وقضـية سـعد الدين إبراهيم تفرض على مَن واكبها – مثل حـالنـا – منـذ اللحظـة الأُولى وحتى لحظـة الإفراج بكفالة عن الرجل، تســـجيل ثلاث ملاحظات تشـكِّل، إلى جانب بعض الهوامش، إجابة عن السـبب الذي جعل هذه القضية تكبُر مثل كرة الثلج.

الملاحظـة الأُولى هي أن الـدكتور ســـعـد الـدين إبراهيم (الـذي كثيراً مـا كـان البعض يخلط بينـه وبين الـدكتور الآخر الـذي هو على نقيض تفكيره الـدكتور

إبراهيم سعد الدين) إفترض أنه ما دامت إستراتيجية الحُكْم المصري تقوم على أن العلاقة مع الولايات المتحدة تشابكت إلى درجة أنها باتت شبه عضوية، سياسياً وعسكرياً وإقتصادياً، فإن في إستطاعته أن يمارس من النشاط الفكري والتوثيقي والتنظيري ما شاءت له الممارسة وكما لو أن المركز الذي يترأسه هو إدارة من إدارات المصلحة المصرية – الأميركية المشتركة أو أنه واحة في صحراء العلاقات بين البلديْن. والذي عزَّز إفتراضه هذا هو أنه (أي سعد الدين إبراهيم) من «لوبي» الجامعة الأميركية في القاهرة حيث يعمل أستاذاً لعِلْم الإجتماع.. وهو «لوبي» يحتار المرء في معظم أعضائه من أساتذة وأولياء أمور ينتسبون إلى مجتمع رجال الأعمال وبعض عليَّة القوم، وهل أن ولاء هؤلاء هو لنظامهم المنفتح على الولايات المتحدة أم إن الولاء للسياسة الأميركية بخيرها وشرها وما تسعى الإدارة الأميركية لتحويله إلى ما يشبه العقيدة.

كذلك إن الذي عزَّز إفتراض الدكتور سعد الدين إبراهيم هو أنه ما دامت هنالك معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل وهنالك إتصالات على المستوى الرسمي لا تنقطع، فإن خوض المركز الذي يترأسه والمعروف بإسم «مركز إبن خلدون للديمقراطية وحقوق الإنسان» في القضايا الشائكة لا يعود من المحظورات. ومن دون أن يدري أو أنه كان يدري بات المركز المشار إليه والذي يحمل إسم أحد رموز التراث العربي «إبن خلدون» يخوض غمار قضايا لا يستسيغ أهل الحُكْم الخوض فيها وبالذات ما يتعلق بالممارسة الديمقراطية وحقوق الأقليات، فضلاً عن التشكيك في نزاهة الإنتخابات.

والملاحظة الثانية تُكمل سابقتها وهي أن الدكتور سعد الدين إبراهيم بدأ يتحول ومن خلال «مركز إبن خلدون» إلى «دويلة» ضمن دولة، وذلك بعدما إستقطب وتحت مظلة الفكر والثقافة والإصلاح الإجتماعي شخصيات مرموقة عازفاً بذلك على أوتار إستجاب لها عدد من الحائرين في دوائر أهل القرار في مصر. وهولاء باتوا – وبصيغة أعضاء في مجلس الأمناء – وكما لو أنهم «حكومة الظل» التي قد يكون ورد في خاطر الدكتور سعد الدين إبراهيم أنها سترفد الحُكْم بوزراء أو تكون حكومة المرحلة المقبلة... مرحلة ما بعد مبارك، وبعدما تكون ترسخت الهوية الأميركية للنظام. وهذه الحالة ليس فقط تبعث على إنزعاج الرئيس مبارك، وإنما هي في الوقت نفسه تثير حفيظة القوى السياسية في مصر سواء تلك الحلقات المحيطة بالرئاسة المصرية أو حتى تلك التي تعمل من خلال أحزاب المعارضة. وللمرة الأُولى تلتقي هذه الأحزاب مع الحُكْم على إثارة قضية: الحُكْم له أسبابه والأحزاب المعارضة لها تطلعاتها.

وتبقى الملاحظة الثالثة، وهي أنه لو كان الدكتور سعد الدين إبراهيم – وهو من الحذاقة الفكرية بمكان – تفهَّم أصول اللعبة السياسية مع الإدارة الأميركية ومع إسرائيل على نحو ما يريدها الرئيس مبارك ويتولى شخصياً الإمساك بكل خيوطها، لكان الشق المالي من قضية سعد الدين إبراهيم من المسائل التي فيها نظر. أما وأن الرجل لم يتفهَّم أو بالأحرى آثر عدم التفهُّم، عن سابق تصميم، ولنية في النفس لم يُفصح عنها، فإن المسائل المالية والشيكات المعطاة له من هيئات ومنظمات أجنبية باتت من المستمسكات التي يمكن أن تدينه في حال أراد الحُكْم أن يمضي قُدماً في القضية ويتعامل معها على نحو تعامُل العراق مع قضية بازوفت وتعامُل الحُكْم الإيراني مع قضية اليهود الإيرانيين.

وما نقصده بالتفهم هو أن العلاقة المتميزة بين النظام في مصر والإدارة الأميركية لا تعني أن تستبيح «الأمركة» بمختلف نوعيات أشخاصها المصريين من رجال أعمال أو مثقفين الساحة المصرية ويتحول أولئك الذين يحملون الجنسية الأميركية إلى جانب الجنسية المصرية (أمثال الدكتور سعد الدين إبراهيم) إلى التنظير الفكري مطمئنين إلى أن السيف الأميركي القادر على إخضاع دول كبرى مثل روسيا وبريطانيا وفرنسا قادر أيضاً على أن يشكِّل أفضل حماية للوبي الأميركي في مصر.

بالمقارنة مع العلاقة الراهنة بين حُكْم مبارك والإدارة الأميركية والعلاقة التي كانت في الستينات بين حُكْم عبد الناصر وتلك الإدارة فإن الذي ناله الصحافي الراحل مصطفى أمين ما كان لينال لو أن تلك الحقبة كانت على نحو ما هي عليه الحقبة الراهنة من العلاقات، ولكان أقصى ما يصيب مصطفى أمين الذي أُلقيت عليه تهمة التجسس هو ما أصاب سعد الدين إبراهيم في الحقبة الراهنة، فقد إنتهت المسألة إلى أن الرجل الذي أُلقيت عليه تهمة التخابر خرج من السجن وبعدما كادت الإدارة الأميركية تعتبر قضيته مشروع أزمة يمكن أن تنفجر وتصيب شظاياها

كثيرين.

وهكذا فإن قضية الدكتور سعد الدين إبراهيم ستبقى من القضـــايا التي تندرج تحت خلافات أهل البيت الواحد وبين دولتيْن حريصـــتيْن على ألاَّ تفقد إحداهما الأُخرى.

ما لا ندريه هو هل إن إبن خلدون المصـــري سيواصل بعد خروجه من السجن نبْش ما لا يريد أهل الحُكْم المصري نبْشه؟ أم إنه سيرى عدم التباهي بأن التدخل الأميركي أنقذه وبالتالي لا يستقوي بالسـيف الأميركي ويخلُد إلى السَـكينة والتعقل وإعتبار إبن خلدون الأصـــلي ومقدمته نموذجاً للفكر المنزَّه عن الأغراض وعن تحضير الدراسات والتقارير لدول وراء البحار ولأغراض غير نزيهة على الإطلاق؟

إن الدكتور سعد الدين إبراهيم أمام خياريْن لا ثالث لهمـا. ونفترض أن الحكمـة بمنظور إبن خلـدون الأصلي توجب على «إبن خلدون» المصري أن يأخذ في الإعتبار أن الســمعة الوطنية تبقى هي الأهم. وصـــحيح أنه خرج من الســجن إلاَّ أن الطريق أمامه طويلة وشـاقة لترميم مسـألة السـمعة... وما أصـعب إزالة الندوب التي تصـيب وجْه السـمعة وبالذات في مجتمع مثْل المجتمع المصري.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 أغسطس (آب) 2000

* * *

عندما يكون الأبعدون... أولى بالزيارة

كانت جولة رئيس السُـلطة الوطنية الفلســطينية ياسـر عرفات التي وصـلت إلى طوكيو وبكين مهمة وخطوة جاءت في الوقت المناســب لدعم الموقف الفلسطيني، لكن هذه الجولة كانت ستبدو أكثر أهمية لو أنها شـملت دمشـق. ومن قبْل أن تُزال أسـباب وموجبات الحذر لدى الحُكْم الســوري من مباغتات عرفات وأكثرها مدعاة للمرارة في النفس السورية توقيع إتفاق أوســلو عام 1993 من دون إحاطة الرئيس الراحل حافظ الأسد بأمر هذه الخطوة التي جاءت بعد أيام قليلة من زيارة قام بها عرفات إلى دمشـق... إنه من قبْل أن تُزال أسـباب الحذر وموجباته فإن عرفات ســيظل يطرق كل الأبواب ويجدها مفتوحة أمامه إلاَّ الباب الســوري الذي هو ليس موصــداً تماماً إلاّ أن فتْحه يحتاج إلى ما يؤكد إسـتعادة الرئيس الفلسـطيني الإيمان أو حتى الإقتناع بأن القضية الفلسطينية تقوى بالعلاقة الإسـتراتيجية والتعامل المخلص مع سـوريا، وأن مَن يدفع ثمن ســياســة المباغتة وأكثرها إيلاماً وضرراً إتفاق أوسلو، هو الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية. وعند التأمل في التطورات التي أعقبت هذا الإتفاق يتأكد لنا ذلك.

ويستغرب المرء كيف أن عرفات لم يستحضر قبْل أن يُبرم صـفقة أوسـلو بعد أيام من زيارة قام بها إلى دمشـق، واقعة زيارة الرئيس (الراحل) أنور السـادات المفجعة إلى القدس بعد أيام قليلة أيضـــاً من زيارة خاطفة قام بها إلى دمشـــق ومن دون إبلاغ حليفه الرئيس الأسد بحقيقة ما يضمره. وهو لو أنه إستحضر تلك الواقعة وما أفرزتْه من تداعيات في العلاقة المصرية – السورية ومن مرارة في نفس الحُكْم السوري لكان ربما تصرَّف بطريقة أُخرى، بل ولكان ربما سمع من الرئيس الأســد من التحليل والتقييم والنصـــح ما يجعله لا يُقدِم على مغامرة تبيَّن أنها ليســت مأمونة العواقب.

وما هو أكثر مدعاة للمرارة في النفس الســورية أن الواقعتيْن أو المباغتتيْن المصـــرية – الســاداتية والفلســطينية – العرفاتية كانتا بهدف واحد. الرئيس الســادات أراد من زيارته إلى دمشـــق قبْل أن يقوم بخطوته المفجعة التي تمثلت بزيارة القدس وإلقاء الخطاب الشـــهير في الكنيســت تعميم إنطباع على الرأي العام العربي والدولي عموماً بأن الحُكْم الســوري معه في خطوته هذه وأنه حتى إذا إعترض وهاجم بعد ذلك فإنما يفعل ذلك من باب التكتيك لا أكثر. والرئيس عرفات أراد من زيارته في وضـح النهار إلى دمشـق قبْل أن يُبرم تحت جنْح الظلام إتفاق أوســلو تعميم إنطباع خلاصته أنه ما دام كان في زيارة إلى دمشق قبْل أيام من إبرام صـفقة أوسـلو فهذا يعني أن الحُكْم السـوري معه في الحد الأقصـى أو غير معترض في الحد الأدنى أو إنه في الحد الوسط متحفظ لا أكثر.

وفي الحالتيْن كان واضـحاً أن الرئيس حافظ الأسد هو ضـــد الخطوتيْن جملة وتفصـــيلاً لأن ســـمة الإستعجال تغلُب عليهما.. وقد أثبتت التطورات صحة هذه النظرة. كما أنه في الحالتيْن كان واضـحاً أن كلاً من الرئيسـيْن السـادات وعرفات يتطلع إلى أن يقطف منفرداً أغلى ثمار القضية وذلك على أساس أن الرئيس الســادات ما دام زار إســرائيل فإن الولايات المتحدة

ودول العالم ستتابعه بطلاً تاريخياً للسلام وستغدق عليه من الخيرات ما لم يحصل عليه أحد من قبْل أو يمكن أن يحصل عليه من بعد، وعلى أساس أنه ما دام رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أبرم إتفاق أوسلو الذي هو بمثْل الموقف الناشئ عن زيارة السادات إلى إسرائيل فإنه سيقطف ما تبقَّى من ثمار القضية وسيبرهن للجميع أن في إستطاعته أن يحقق ما عجز الآخرون عن تحقيقه.

إلاّ أننا عند التأمل في الذي جرى نلاحظ أن السادات كان واقعياً إلاَّ أنه لم يكن بعيد النظر على الإطلاق. والواقعية بمعنى التسليم للإرادة الدولية التي قضت بأن إسرائيل وُلدت بوعد بلفور لتبقى وأنه ما دام الأمر على هذا النحو فلماذا لا تكون هنالك إعادة نظر وبحيث يتم الإعتراف بإسرائيل وتبادُل العلاقات معها وإحلال التعاون محل المواجهة. والذي ساعده على ذلك هو الإنتصار الذي حققه الجيش المصري إضافةً إلى تنظيرات ومجموعة من المستشارين والأصدقاء الذين زيَّنوا له المكاسب التي سيجنيها لو أنه خطا نحو السلام مع إسرائيل.

ومع أنه من المبكر الجزم بما إذا كان السادات إختار طريق التسوية مع إسرائيل من اللحظة التي تسلَّم فيها المسؤولية خلفاً للرئيس جمال عبد الناصر فعمل على حرب محدودة يغطي بها داخلياً وعربياً ما قام به بعد ذلك وهو طرْح مبادرة السلام وزيارة إسرائيل، أو أن هذا التوجه بدأ لمجرد نجاح الجيش المصري في عبور القناة وتحقيق إنتصارات مهمة على الجيش الإسرائيلي واقتناع السادات بأن عليه الإسراع في توظيف هذه الإنتصارات وإلاَّ ضاعت... مع أنه من المبكر الجزم بالدافع الأساسي لخيار التسوية، فإن السادات على نحو ما أشرنا، لم يكن بعيد النظر، ذلك أن مثْل هكذا خيار يحتاج إلى الحكمة والتمهل والسير خطوة بعد خطوة وليس القفز من شاطئ الإنتصار إلى شاطئ التسليم بالأمر الواقع دفعة واحدة. وكان من الأفضل له بدل هذه القفزة التي تبيَّن أنها غير مأمونة العواقب أن يدعو – وهو الذي بين يديْه ورقة الإنتصار – الإسرائيليين إلى اللقاء به في بلد محايد وتشارك في هذا اللقاء الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن. ومن المؤكد أن قادة هذه الدول كانوا سيشاركون في قمة السلام الفريدة من نوعها التي تنعقد في رحاب المقر الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف، وكانت مشاركتهم ستشكِّل ضمانة لعملية السلام وتؤسِّس لتطوير هذه العملية بحيث تشمل الأطراف العربية الأُخرى وتحديداً سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية.

ومن الواضح أن الرئيس السادات لم يفعل ذلك لأن اللعبة أميركية ولأنه بما فعله ترجم مقولته الشهيرة «إن تسعة وتسعين في المئة من أوراق اللعبة في يد أميركا». وهو لو سار على طريق التسوية على النحو الذي نشير إليه لكان ربما حالَ دون ولادة ما سُميَّ بـ «النظام العالمي الجديد»، ولكان أبقى على العلاقة العربية مع مصر أكثر تماسكاً، ذلك أن الحكام العرب بمَن فيهم الأكثر تطرفاً عندما يرون أن الرئيس السادات وضع الأمر بين أيادي الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن، وأن رؤساء هذه الدول تجاوبوا على الفور وشاركوا في قمة السلام المصري– الإسرائيلي، فإنهم كانوا لن يتداعوا على نحو ما فعلوا إلى تلك القمة التي عقدوها في بغداد ونجح الأكثر تشدداً بينهم وهم العراق وسوريا وليبيا واليمن الجنوبي (زمنذاك) ومنظمة التحرير الفلسطينية في إستصدار قرارات (تجاوزت التأديب بكثير) عن تلك القمة من بينها إسقاط عضوية مصر في الجامعة ونقْل مقر الأمانة العامة للجامعة العربية إلى تونس وإشتعال الحرب الكلامية عبْر الإذاعات والصحف بين مصر وعدد من الدول العربية.

ولو أن الرئيس السادات عندما زار دمشق تشاور مع شريكه في الحرب الرئيس حافظ الأسد ولم يباغته لكان الرئيس المصري ربما تريث وأرجأ تنفيذ ما يدور في خاطره.

ومن المؤكد أنه لولا إغتيال الرئيس السادات لكانت العلاقة المصرية ـ السورية إستمرت على القطيعة التي باتت عليها نتيجة ما فعله السادات وبالذات الغرض الذي أراده من زيارة الأسد قبْل أن يتوجه إلى القدس ويلقي خطابه الشهير في الكنيست وهو الإيحاء للمصريين وللآخرين بأنه ما دام زار دمشق وإجتمع برفيق المعركة حافظ الأسد فهذا معناه أنه يحظى بتأييد سوريا سواء أعلنت ذلك الحكومة السورية أو لم تعلن. وهو غرض على كثير من الخبث في أي حال. وما التوازن الذي هي عليه العلاقة المصرية ـ السورية منذ أن بدأ الرئيس حسني مبارك ترميم الإنهيارات في علاقة مصر مع الشقيقات، سوى مؤشر إلى إعتراف ضمني من جانبه بأن النهج الذي إعتمده سَلَفه السادات مع الشريك السوري في حرب أكتوبر 1973

لم يكن صحيحاً، وأنه من غير المنطقي على الإطلاق أن ينفرد أحد الشريكيْن بقطف ثمار الإنتصار وترْك شريكه تحت رحمة العدو الإسرائيلي يستفرد به.

ونصل من هنا إلى القول إن وفاة الرئيس حافظ الأسد لم تُلغِ مشاعر المرارة في النفس السورية من الرئيس ياسر عرفات الذي تعمَّد ربما هو الآخر أن يزور دمشق قبْل أن يبرم صفقة أوسلو للإيحاء على نحو ما سبق أن فعل الرئيس السادات من قبْل بأن الرئيس حافظ الأسد يبارك خطوته هذه. وواضح أن مسارعة عرفات إلى دمشق للمشاركة في تشييع جنازة الأسد والترحيب اللبق من جانب الرئيس الخلَف (أي الدكتور بشَّار) له، لم تبدِّل شيئاً من حقيقة أن المرارة مما فعله الرئيس عرفات ما زالت في الحلْق السوري وليس من السهل إزالتها إلاَّ إذا قرر الأسد الإبن أن ينشغل بالجانب الإستراتيجي من تراث الأسد الأب ويعتبر تبعاً لذلك وللتطورات التي تتلاحق يومياً، بأن واقعة العتب على عرفات تدخل في التفاصيل والتكتيكات وليس في عُمق المسألة وجوهرها.

وفي حال حدث ذلك فإن جولات الرئيس عرفات المكوكية وزياراته لا تعود كما هي الحال حتى الآن وبحيث يصبح الأقربون أَولى من الأبعدين بالزيارة والتشاور. ويكفي أن نقيس المسافة بين مطار غزة ومطار دمشق وبين مطار غزة ومطارات طوكيو وبنغلادش وبكين وكوالالمبور لتأكيد أن الأقربين هم الأولى... وهم كانوا الأولى حتى في زمن القطيعة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 27 أغسطس (آب) 2000

* * *

من هيكل.. إلى عميمور: وزراؤنا... الذين لا يصمُدون

في أواخر الستينات وبعد هزيمة 5 يونيو (حزيران) 1967 أفرحنا كإعلاميين أن زميلنا الأستاذ محمد حسنين هيكل بات وزيرنا المصري، وبذلك يرفع عنا ضيْم الإعلام الموجَّه وسيف الرقيب ومضايقات مباحث الصحافة، وبذلك يمكننا أن نتناول بموضوعية ومن دون خوف شؤون مصر وشجونها. ولكن الأستاذ هيكل لم يتحمل أن يكون وزيراً للإعلام لغير الرئيس جمال عبد الناصر، الذي وضعه رغماً عنه في هذا المنصب، ولذا إرتأى بعد الوفاة المفاجئة للرئيس عبد الناصر أن يسجِّل على صفحات «الأهرام» في عددها الصادر يوم 19 أكتوبر (تشرين الأول) 1970 نص كتاب إستقالته المؤرخة السبت 3 أكتوبر من منصبه كوزير للإعلام (كان إسمها وزارة الإرشاد) وهي إستقالة ما كان يمكن أن تُنشر بنصها (ومع النص رد الرئيس السادات بقبول الإستقالة شاكراً جهود هيكل) لولا أن الأستاذ هيكل كان ما زال يمارس المنصب الآخر رئيساً لتحرير «الأهرام». ولكن نشْر نص كتاب الإستقالة على الصفحة الأُولى من «الأهرام» وبشكل بارز أزاح عن الرجل كابوس التفسيرات، ذلك أن الرئيس الخلَف كان سيذيقه الأمَرّيْن إذا هو لم يمارس في عهده المهمة التي كان يمارسها في عهد عبد الناصر. وهو قد أذاقه الأمَرّيْن بالفعل. وكان يمكن للإذاقة أن تتواصل لولا أن الرئيس السادات قضى إغتيالاً في حادثة المنصة الشهيرة بينما كان الأستاذ هيكل في ذلك اليوم قابعاً في السجن مع خيرة من أهل الفكر والسياسة والدين وقادة الرأي العام أودعهم السادات السجن إنتقاماً ثم أفرج عنهم الرئيس حسني مبارك بعدما تسلّم مقاليد الحُكْم.

وفي النصف الأول من الثمانينات أفرحَنا كإعلاميين أن الأستاذ محمد محجوب سليمان، الذي كان يملك قدرات متميزة في مجال الكتابة والفكر السياسي، بات وزيرنا السوداني وبذلك يهدئ من روع الرئيس جعفر نميري الذي أحاط نفسه بعدد من رموز الدروشة، الذين يفسرون الدين الإسلامي قرآناً كريماً وأحاديث شريفة على نحوٍ غير مألوف وغير سهل التطبيق كشريعة في بلد مثل السودان الذي هو شِبه قارة وخليط من أعراق وديانات وطُرق صوفية وإقطاع ديني وعراة وجوعى وعبدة أصنام، وجار مجموعة من دول أفريقية يتقاذفها العطش وتعصف بها المجاعة وتفتك بشعوبها أوبئة وأمراض أقلُّها إيذاء الملاريا.

وإفترضْنا آنذاك أنه ما دام الأستاذ محمد محجوب إنتقل من منصب المستشارية إلى منصب وزير الإعلام، فإنه سيكون هنالك نوع من الترويض للنظام فيخفف بعض الشيء من الهرولة في إتجاه إتفاق كامب ديفيد ويرتق في حدود الممكن ثوب الوحدة الوطنية في السودان الذي أصابته خروق كثيرة. كما أنه سينشط في سبيل إعلام لا يضيق الصدر به ولا يتزايد العتب في شأنه ولا يلقى الذين يتعاملون بالكلمة والريشة من اللوم ما لا يمكن تحمُّله.

ولكن الذي حدَث هو أن وزيرنا السوداني لم يصمد وآثر أن يستمر مستشاراً يقول الرأي بصرف النظر عما إذا كان سيؤخذ به، ويبدي وجهة النظر من دون أن يتأفف من جرَّاء الإستهانة بها، على أن يكون وزيراً للإعلام يطبِّق بالإضطرار وليس بالإختيار والإقتناع ما يأتيه من أعلى في شكل مذكرات رسمية أو توجيهات.

وبكل الهدوء إنسحب الأستاذ محمد محجوب وبقي في عزلة إلى إن وافاه الأجل في حادثة مفجعة حيث كان أحد ضحايا عمارة في مصر الجديدة، ذلك الحي السكني الكثير الرقي، إنهارت على ساكنيها وكان إنهيارها بمثابة فضيحة أُخرى من فضائح «النهضة» العقارية والإسكانية في مصر في زمن الإنفتاح.

وكنا نتمنى لزميلنا في «الشرق الأوسط» الأستاذ صالح قلاَّب أن يصمد في موقعه كوزير للإعلام في الأردن، وبذلك يُضفي على الساحة الإعلامية الأردنية نكهة توفيقية، من جهة، ويمارس من جهة أُخرى دور الملاحِظ الذي يلفت بين الحين والآخر الإنتباه إلى إجتهادات وممارسات وزيارات وخطوات رسمية من غير الجائز القيام بها (نلتزم عدم الإشارة إليها عملاً بتوجيهات زميلنا رئيس تحرير «الشرق الأوسط» الأستاذ عبد الرحمن الراشد) لولا أن زميلنا آثر السلامة الفكرية مفضِّلاً الإستقرار النفسي، ولو بالحد الأدنى، على أُبهة المنصب بالحد الأقصى وما يستتبع تلك الأبهة من مكاسب وإمتيازات مالية وشرَفية. وعاد يشاركنا التغريد في قفص «الشرق الأوسط» المفتوح بابه في إستمرار.

ما تمنيناه لوزيرنا الأردني، الأخ المشارقي الأستاذ صالح قلاَّب، نتمناه للأخ المغاربي الدكتور محيي الدين عميمور، الذي هو أحد رواد تعريب العقلية السياسية والفكرية وهو تعريب أكثر مشقة من تعريب اللسان. ولقد خاض عميمور في سبيل ذلك معارك شرسة صال وجال خلالها بقلم نظيف وعقل مستنير ووجدان قومي يعربي وضِمْن سياق نهج موضوعي. ومنذ أن وصل عبد العزيز بوتفليقة إلى سُدة الرئاسة وأنظارنا شاخصة نحو الجزائر نراقب من منطلَق الذين طالما أحزنت نفوسهم الجاهلية الجديدة التي تدور رحى معاركها بالفؤوس والسواطير وما تيسَّر من أدوات القتل. وكنا ونحن نراقب نتطلع إلى أن يُلهَم الرئيس بوتفليقة القدرة على إستنباط الكثير من الإجراءات التي تضع حداً لهذه الجاهلية، وهو صاحب العقلية التي تنظر بواقعية إلى الأمور. وكنا أيضاً نتساءل عن السر في أن الرئيس بوتفليقة لا تستوقفه هذه السمعة غير العطرة للجزائر في العالميْن العربي والإسلامي وفي سائر بقاع الدنيا. وأحياناً كنا نفترض أن هذه المسألة تستوقفه إلاَّ أنها لم تصل ضِمْن برنامج خطته لإصلاح الحال إلى مرتبة الأولوية.

ثم ها نحن بعدما صار لنا (نتحدث كتابة هنا كإعلاميين) وزير جزائري نسجل مشاعر فرح لإختيار الرئيس بوتفليقة من هو المسؤول المناسب للمهمة المطلوبة، والتي هي بمثابة عملية جراحية هدفها إزالة الندوب التي تكاثرت على وجه الجزائر العريقة في مواقفها القومية والوطنية وصاحبة التراث الإستشهادي.. بل ورائدة هذا التراث.

ما نعرفه عن الدكتور محيي الدين عميمور أنه (مثل زميلنا الأستاذ محمد حسنين هيكل) يتألق عندما يكون في جوار قيادة إستثنائية وصاحبة مشروع للنهوض. وهذه كانت حاله مع الرئيس (الراحل) هواري بومدْين، ونفترض أن الحال مماثلة مع إبن المدرسة نفسها (مدرسة بومدْين) الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، والذي سيساعد على نجاح مهمة وزيرنا الجزائري في مؤازرة الرئيس بوتفليقة في إنهاض البلاد المحزونة، من كبوتها. أنه يملك عمقاً عربياً بالغ الأهمية يفيده إلى جانب قدرة المنطق لديه على أن يؤازر. وليس لدينا إلى جانب الفرح بإختيار الدكتور عميمور وزيراً للإعلام والثقافة في الجزائر إلاَّ التمني له بأن يصمد حتى إذا أصابته بعض السهام وأن يعتبرها مجرد نصال تكسرت على نصال... لا أكثر.

صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 2 سبتمبر (أيلول) 2000

* * *

الحريري المنتصر...
على طريقة خاتمي

إستبشر اللبنانيون خيراً عندما إلتقت تمنياتهم مع الإرادتيْن السورية والأميركية بالنسبة إلى مرحلة ما بعد الرئيس إلياس الهراوي، الذي سجَّل سابقة في تاريخ الحُكْم اللبناني تمثلت في أنه أول رئيس جمهورية في لبنان يتم تعديل الدستور من أجْل تمديد ولايته، مع ملاحظة أن التعديل نصَّ على أن يكون التمديد لمدة

ثلاث سنوات ولمرة واحدة. وكان قائد الجيش اللبناني العماد إميل لحود هو من إلتقت عليه تمنيات اللبنانيين مع الإرادتيْن السورية والأميركية لأنه الشخص الذي تتوافر فيه الصفات التي تؤهله لكي يخلف الرئيس الهراوي.

ما هي التمنيات وما هي الصفات وما الذي تريده الإرادتان وخططت له؟

التمنيات هي في أن تزول ظاهرة ما سُمي بـ «الترويكا» حيث إنتهى الحُكْم إلى ثلاثة حكام بدل أن يكون ثلاث مؤسسات متعاونة. وطوال ست سنوات كان الحكام الثلاثة هم الرئيس الهراوي، الذي لم يتمكن من أن يصبح زعيم الطائفة المارونية، ورئيس مجلس النواب الذي يمثّل ثلاثة أرباع الزعامة الشيعية ثم بات يمثِّل النصف بعد الصعود البياني لـ «حزب الله»، ورئيس مجلس الوزراء رفيق الحريري، الذي بات أبرز أقطاب الطائفة السُنية بقوة سُلطاته وقوة الإمتداد المالي والعلاقات العربية والدولية كثيرة التميز التي بناها وحافظ على ديمومتها. وفي السنوات الست التي نشير إليها. كان لبنان عبارة عن ثلاث دويلات في الدولة الواحدة: «دويلة» رفيق الحريري وهي الأكثر حضوراً عربياً ودولياً، و«دويلة» نبيه بري وهي الأكثر حضوراً محلياً وبالتحديد شيعياً، و«دويلة» إلياس الهراوي التي إستمرت تفتقد إلى الإلتفاف المسيحي حولها ومن أجْل ذلك كانت تشكو دائماً من ضمور في البنية وفي التأثير. والذي كان يبقي «الدويلات» الثلاث على شيء من التوازن بمعنى أنها لا تدفع بالصراع في ما بينها إلى درجة الصدَّام هو أن لها مرجعية واحدة هي الحُكْم السوري. بل من الجائز أن إطمئنان الرؤساء الثلاثة الهراوي وبري والحريري إلى أن هذه المرجعية قادرة في إستمرار على فرْض الوفاق عليهم كان الدافع لهم من أجْل الإكثار من التخاصم الذي يحقق لكل منهم مكاسب على صعيد الرأي العام اللبناني وكل في نطاق طائفته.

هذا الواقع أضفى بعض الحيوية على الحياة السياسية في لبنان، إلاَّ أنه في الوقت ذاته بدأ يلقي بظلال قاتمة على الوضع المعيشي والإقتصادي عموماً. فضلاً عن أن صراع «الدويلات» الثلاث والرؤساء الثلاثة يحدُث بينما وطأة الإحتلال الإسرائيلي لمناطق في جنوب لبنان وبقاعه الغربي تتزايد، وتتواصل الإعتداءات الإسرائيلية التي صارت تستهدف البنى التحتية للبلد بعدما كانت أهداف العدوان تقتصر على مواقع تخص «حزب الله» الذي يتصدر المقاومة في لبنان.

ثم بدأت الظلال القاتمة تزداد إنتشاراً في ضوء معاناة مسيحية وصلت إلى درجة الإحباط وفي ضوء إنتشار روايات بعضها أقرب إلى الخيال عن الفساد والإفساد وتقاسُم مغانم الدولة، وكذلك في ضوء كابوس الضرائب الذي تجاوز بكثير قدرة المواطن على التحمل وفي ضوء عدم الإنسجام داخل الحكومة والذي وصل إلى درجة أن بعض الوزراء يتشاتمون وبعضهم يقاطع جلسات مجلس الوزراء وهناك أيضاً حالات تمرد لا يراعي الوزراء المتمردون فيها طبيعة السُلطة التنفيذية وكيف تكون تأدية الواجب نحو الوطن والمواطن بأمانة.

ثم دخل لبنان في دوامة التنظيرات التي يتحدث أُولو التنظير فيها عن أن صيغة إتفاق الطائف إهتزت وأن رئيس لبنان شكلاً هو إلياس الهراوي بينما الرئيس الفعلي هو رفيق الحريري.

هذه الأجواء وما حوته من تفاصيل فضلاً عن خلل جسيم أصاب العملية السلمية إستفاد منها رئيس الجمهورية إلياس الهراوي الذي حظي بتمديد ولايته ثلاث سنوات، وهو تمديد عجَّل بسبب ما حدَث في فترة التمديد وبالذات في السنة الأخيرة بضرورة أن يتم التغيير وأن يمسك بمقادير الأمور من في إستطاعته أن يكون على درجة من الحزم وأن يضع الأمور في نصابها وأن يكون نظيف اليد عفيف اللسان، وهذا ما عنيناه بـ «الصفات».

وبطبيعة الحال لم يكن هناك مَن في إستطاعته أن يتولى مقاليد الأمور على النحو المشار إليه سوى قائد الجيش العماد إميل لحود الذي كان أُجري تعديل المرسوم الذي يجيز أن يكون هو بالذات المرشح لرئاسة الجمهورية.

وهذا ما حدَث بالفعل حيث أن العماد إميل لحود وصل إلى الموقع الأول في الدولة بإجماع نادر. وهذا الإجماع كان الورقة التي إستند إليها في أن يباشر حركة تصحيح من الواضح أنها لم تكن وليدة الساعة في ذهنه وإنما تعود على الأقل إلى العام 1996، وهي كما تبيَّن من خلال خطوات التنفيذ في السنة الأُولى، تبدو متأثرة من حيث الجوهر وإختلاف التفاصيل بالحركة التصحيحية التي قام بها في سوريا الرئيس (الراحل) حافظ الأسد. ولقد بدأ العماد لحود حركته التصحيحية منذ الأيام الأُولى لتسلُّمه الرئاسة. وبدأها

بطريقة لم تأخذ في الإعتبار المزاج السياسي التقليدي. كما أنه قرر إستعادة مكانة رئاسة الجمهورية فجاءت الإستعادة على حساب مكانة رئاسة مجلس الوزراء وجاءت من خلال تخطيط مدروس يقوم على أنه إذا كان لا بد من الإبقاء على رفيق الحريري رئيساً للحكومة فإنه يجب أن يكون ثالثاً بالفعل وليس أولاً بموقع الرجل الثالث في الدولة على نحو ما كان عليه الحريري طوال ست سنوات. ومثْل هذا الأمر يتم من خلال إبلاغ الحريري بأن عدد النواب الذين رشَّحوه لرئاسة الحكومة خلال الإستشارات التقليدية لا يكفي لتكليفه وأنه سيضيف إلى هؤلاء عدد النواب الذين تركوا للرئيس لحود حرية إختيار الشخص المناسب لترؤس الحكومة. وكان واضحاً أنه إذا إرتضى الحريري ذلك فهذا معناه أنه لن يعود على الشأن الذي كان عليه طوال ست سنوات وسيكون في إستمرار مديناً للرئيس إميل لحود بأنه هو الذي إختاره رئيساً للحكومة وأنه لولا تجييره أصوات النواب الذين تركوا له (أي لرئيس الجمهورية) حرية إختيار الشخص المناسب من وجهة نظره لما كان جيء به رئيساً للحكومة التي كان الدكتور سليم الحص جاهزاً لتشكيلها والتي بدأت على الفور من خلال رئيسها (أي الدكتور الحص) وبعض الوزراء حملة بالغة الشراسة ضد عهد الحريري وتصوير كل الإنجازات التي تحققت في سنوات حُكْمه على أنها كانت غير مجدية وأنه أوقع البلد في مشكلة مديونية بالمليارات وأنه.. وأنه.. الخ.

إفترض الدكتور سليم الحص، الذي قادت حكومته الحملة الشرسة ضد الحريري، بأنه بهذه الحملة التي تبرَّع للقيام بها من دون وجه حق في نظر كثيرين، سيحوز على تأييد الطائفة السُنية له وعلى دعم من رئيس الجمهورية لم ينله رئيس حكومة من قبْل. وإعتبر أن تحميل عهد الحريري كل المشاكل التي يشكو منها لبنان . وبالذات الوضع المعيشي – يكفي لتغطية عجز الحكومة التي إختاره الرئيس لحود لتشكيلها. لكن الذي حدَث هو أن أبناء الطائفة السُنية بدأوا الإبتعاد عنه وبدأوا يتقبلون الرأي القائل بانه (أي الحص) بما يفعله يتسبب بإضعاف مركز رئاسة مجلس الوزراء. وكانت الإمتيازات التي حصل عليها نائب رئيس الوزراء وزير الداخلية ميشال المر من رئيس الجمهورية (تجْمع الإثنيْن صلة مصاهرة، إذ أن إبنة الرئيس لحود متزوجة من إبن ميشال المر) تعزز هذا الإنطباع، ذلك أن المر الذي كان وزيراً عادياً في حكومات الحريري بات بأهمية رئيس الوزراء في حكومة الحص.

في هذه الأثناء وطوال عشرين شهراً كانت حملة التجريح بالحريري شخصاً وعهداً وكذلك مطاردة الحريريين في مواقع المسؤولية مستمرة، وكان الحريري ينشط في سبيل تعزيز مواقعه من دون أن تتأثر علاقاته العربية والدولية التي حافظ عليها ومن دون أن تهتز علاقته بالحُكْم السوري، وأيضاً من دون أن يفقد مكانته في نظر زوَّار لبنان من الرسميين عرباً وأجانب الذين إستمروا يتعاملون معه على أنه رئيس وزراء سابق – لاحق وأنه في مجرد إجازة. ولم يحدُث أن إستمر المبعوثون الدوليون من وزراء وشخصيات فاعلين في الحياة السياسية يدرجون في برنامج زياراتهم إلى لبنان اللقاء مع رئيس وزراء سابق كما حدث مع الحريري ومن دون أن تستوقف أي دولة وأي زائر حملة التجريح التي كان يتعرض لها من الحكومة، وتحديداً من رئيسها الدكتور سليم الحص وبعض وزرائه. كما أن الحريري من جانبه لم يجمَّد تعاطيه مع الشأن الإجتماعي فإستمرت الأعمال الخيرية على وتيرتها وبحيث لم تبقَ منطقة من بيروت إلاَّ وهنالك تلبية سريعة لإحتياجاتها. وفي الوقت نفسه لم يسجِّل على نفسه الخوض شخصياً في المساجلة والرد على الجهات الرسمية التي تتعمد التجريح به وتواصل الإستهانة بالإنجازات التي حققها تاركاً الأمر للمكتب الإعلامي الذي يتحدث نيابة عنه.

جاءت عملية تقسيم بيروت قبيل إجراء الإنتخابات النيابية تؤكد التصميم الرسمي على تحجيم الحريري. وإفترض طابخو هذه العملية أن الحريري قد يفوز هو ومرشح أو ثلاثة في أبعد تقدير معه وأن الحملة الإعلامية كثيرة الشراسة ضده عبْر وسائل الإعلام الرسمية (وكالة الأنباء ومحطة التلفزيون) ستساعد على ذلك. وبهذا لن يتمكن من الحصول على ما يدعم عودته رئيساً للوزراء أو في الحد الأدنى يعود إنما ضمن الصيغة التي سبق أن إختارها له الرئيس لحود ورفضها. ثم جاءت المهرجانات التي جرت للحريري بمثابة إستفتاء شعبي تزامنَ وهجه مع حملة وقائية إستهدفت منْع حدوث أي تزوير. كذلك جاء تحالفه مع القطب الدرزي وليد كمال جنبلاط والقطب الماروني سليمان فرنجية والقطب الشيعي نبيه بري يؤسِّس لمفاجآت لم تخطر في البال وتجعل الرئيس لحود أمام إحتمال إنتفاضة شعبية يقودها جنبلاط

وآخرون ومنهم الحريري، يجد نفسه يتخذ وقفة مع الذات يعتبر فيها أن نهجه يشكِّل مسبِّبات لوضع البلد في جو إنقسامي حاد ولذا لا بد من رؤية جديدة في ضوء الفوز المبهر لـ جنبلاط في منطقة درزية – مسيحية، والفوز الموازي لسليمان فرنجية في منطقة سُنية – مسيحية، وكلاهما حليفان قويان وفاعلان شعبياً للحريري. ثم جاءت إنتخابات بيروت لتنقل الحريري من حالة القطب السياسي السُني الى حالة الزعيم الشعبي الذي إستطاع إنجاح كل المرشحين الذين وزَّعهم على ثلاث لوائح، وهي زعامة لم تشهد بيروت مثيلاً لها على مدى نصف قرن، فضلاً عن أنه حقق قبولاً مسيحياً ملحوظاً به وبات نقطة الإرتكاز يلتف حوله الدروز بنسبة كبيرة والمسيحيون بنسبة قابلة لأن تصبح كبيرة والشيعة بنسبة معقولة. وفي ضوء ذلك سيكون أول رئيس للوزراء في لبنان لا خلاف عليه وأول زعيم سياسي سبقه ترشيح الأقطاب له ليكون رئيساً للحكومة الأُولى في الألفية الثالثة من قبْل أن يبدأ رئيس الجمهورية إستشارة النواب.

ونصل الى القول ومن باب المقارنة أن الذي حصل لـ رفيق الحريري هو في بعض جوانبه مثْل الذي حصل لـ محمد خاتمي في إيران. وما حصل كان إنقلاباً شعبياً أبيض سببه إحتقان الغضب في نفوس الناس إلى درجة جاء التغيير سلمياً، وإقتناع الناس بأن الخير سيأتي والإنفراجات ستحدُث. فكما أن الإنتخابات الإيرانية سجَّلت تدفُّقاً شعبياً للإقتراع لـ خاتمي ورموز التيار الإصلاحي الذي يقوده، فإن الإنتخابات في بيروت سجَّلت تدفقاً شعبياً مماثلاً للإقتراع للحريري ورموز تيار المستقبل الذي يقوده. وإذا كان من السابق لأوانه الجزْم بما اذا كان الرئيس خاتمي سيتمكن من أن يلبي إحتياجات بضعة ملايين إيراني أرهقهم العناد الثوري وهل سيتمكن من أن يحقق ذلك في ولايته الثانية التي سيعوِّض فيها التقصير الذي تتميز به الولاية الأُولى المستمرة، فإن من السابق لأوانه الجزم بما إذا كان رفيق الحريري الذي توَّجته بيروت زعيماً شعبياً أوحد لها كما لم تتوِّج أقرانه طوال نصف قرن، سيترجم وعلى وجه السرعة أحلام البيارتة وأمانيهم ويلبي مطالبهم. والبيارتة هنا كرمز لكل اللبنانيين، من الناقورة جنوباً إلى طرابلس شمالاً، إلى أقصى بقعتيْن في الجبل والبقاع. إلاَّ أن المجد الذي حصل عليه الحريري خلال شهر هو من النوع الذي يصعب التفريط فيه بل إنه يستحق الكثير من التضحية في سبيله... والمرونة في التعاطي مع الرئيس الأول بمثل مرونة الرئيس الثاني (أي نبيه بري) في تعاطيه مع الرئيس الأول (أي العماد لحود) فضلاً عن عدم الإستسلام للغرور والإستفادة من دروس تجربة ست سنوات من الحُكْم هي في مقدمة التضحيات.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 سبتمبر (أيلول) 2000

* * *

ألفية المصافحة... واللقاء

المصافحة الأميركية – الكوبية التي كان يمكن أن تكون تاريخية لولا أن الرئيس كلينتون تبرأ منها، لم تكن الحدَث الوحيد الذي شهدتْه قمة الألفية في نيويورك. هناك أيضاً المصافحة الأُخرى التي أفرزت شعوراً بالدهشة يفوق الوصف والتي تمت خلال لقاء مباغت للأمة بين أمير دولة قَطَر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ورئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك يوم الجمعة 8 سبتمبر/ أيلول 2000.

المصافحة القَطَرية – الإسرائيلية لم تحدُث بفعل الصدفة أو المباغتة لكي يتبرأ منها الشيخ حمد، وإنما جرت بترتيب مسبق وفي مقر البعثة الدائمة لدولة قَطَر لدى الأمم المتحدة. كما أنها حدثت وقوفاً ثم جلوساً وكانت عدسات المصورين تلتقط الصورة التذكارية.

العلاقة بين دولة قَطَر وإسرائيل ليست جديدة حيث أن بينهما نصف علاقات على المستوى التجاري تعود إلى العام 1996 أيام كان شيمون بيريز رئيساً للحكومة التي «أنجزت» مجزرة قانا. وهي نصف علاقات لأن إسرائيل إفتتحت في الدوحة مكتب تمثيل تجارياً إلاَّ أن قَطَر متريثة في هذا الشأن، كما أنها وعلى رغم الضغوط الأميركية عليها لا تلبي رغبات أبداها الرئيس كلينتون ووزيرة الخارجية مادلين أولبرايت لكي يقوم باراك بزيارة الدوحة على نحو زياراته إلى القاهرة والإسكندرية. ودائماً هنالك سعي من جانب أميركا وإسرائيل لتعزيز العلاقات وتطويرها. لكن الجديد والمستغرَب هو هذا التوقيت للتعزيز والتطوير حيث أنه التوقيت الذي من شأنه مساعدة باراك على الظهور بمظهر المنتصر على التكاتف العربي من أجْل نصرة

قضية القدس وتسريع العملية السلمية التي بمقتضاها تُنهي إسرائيل إحتلالها في الجولان وتُكمل إنسحابها من الأراضي التي تحتلها في لبنان.

إننا عند التأمل في الخطوة القَطَرية المستغرَبة نجد أنه ليس في إستطاعة قَطَر أن تمارس الضغط على إسرائيل وإنما العكس هو الصحيح. بل إن إسرائيل من خلال هذا اللقاء بين الشيخ حمد وباراك تضغط على كل الدول العربية وبالذات على سوريا ولبنان اللتين ما زالت لهما أرض تحت الإحتلال الإسرائيلي، وأيضاً على السُلطة الوطنية الفلسطينية التى كلما مارست مرونة وأبدت إستعداداً للتنازل كلما تشددت إسرائيل وإبتعدت.

وما دام الأمر على هذا النحو فلماذا هذا الحرص القَطَري على التغريد خارج السرب العربي ولماذا هذا الإحراج المعنوي لكل من سوريا ولبنان كون هذا اللقاء بين الشيخ حمد وباراك جاء بعد بضعة أسابيع من زيارة قام بها إلى البلديْن. كذلك لماذا هذا الإحراج المؤذي يُلحقه الشيخ حمد بدول مجلس التعاون الخليجي وبالدول الإسلامية التي تستعد للمشاركة في القمة الإسلامية بعد أسابيع في الدوحة.

التبرير القَطَري الذي جاء على لسان الطرَف المنحاز للتعاون وتعزيز العلاقات وتطويرها مع إسرائيل وزير الخارجية الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني والذي شارك في لقاء الأمير مع باراك هو أن قَطَر مهتمة بالتوصل إلى إتفاق على المساريْن السوري والفلسطيني وأنها أرادت من اللقاء التركيز على "أهمية القدس الشريفة لنا كعرب وكمسلمين...". موضحاً أن الأمير "شدد خلال اللقاء على أنه لا يمكن أن يكون هنالك سلام عادل إلاَّ إذا كان هناك وضوح في الإتفاق وسيادة فلسطينية على المسجد الأقصى والقدس الشرقية وأن التوصل إلى إتفاق سلام مع الجانب السوري مهم جداً لأنه لا يمكن أن ينتهي الصراع بشكل كامل إلا إذا تم التوصل لحلول على المساريْن الفلسطيني والسوري...". أما ما كان يعني باراك من هذا اللقاء فهو أن يحصل من الشيخ حمد على تطبيع كامل للعلاقات. وهو موقف في منتهى الصلافة من جانب هذا الرجل الذي فاجأتْنا أرملة إسحق رابين في اليوم الذي جرى فيه اللقاء بتصريح يثير الإستغراب خلاصته أن باراك هو الذي يتنازل للفلسطينيين في موضوع القدس وأنه قدَّم لهم ما لم يحلموا بالحصول عليه من زوجها الراحل. ما الذي حصلوا عليه من باراك ولم يحصلوا عليه من رابين سوى المزيد من الإذلال؟!

التبرير القَطَري غير مقنِع، والموقف القَطَري لا يخلو من الشخصانية بدليل أن وزير الخارجية الشيخ حمد قال في معرض الرد على الإستهجان الذي نشأ عن اللقاء: "المبرر الأول للقاء هو قرارنا نحن في قَطَر ولا أظن أن هناك أحداً يملي علينا مَن نقابل أو لا نقابل وهذا أصبح واضحاً من خلال ممارستنا لسنوات طويلة.."

لو تساءلنا ما الذي يمكن أن يحققه هذا اللقاء وهل أن ثلاثة أرباع الساعة التي إستغرقها أفادت في تخفيف عناد إسرائيل لجاءنا الجواب أن لا فائدة تُرجى... إلاَّ إذا كان الشيخ حمد يقوم بدور بين إسرائيل وبعض الدول العربية والإسلامية لا يدري أحد به وأن القناة القَطَرية يمكن أن تحقق مع الوقت بعض المرونة في العقلية الإسرائيلية.

ونقول ذلك على أساس أنه ما حاجة الشيخ حمد إلى مثل هذه الدور الذي يحرق أصابع من يقوم به ما دام ليس في حاجة إليه على الصعيد المالي كما آخرون، فضلاً عن أنه ليس له أرض تحتلها إسرائيل؟

ومثْل هذا الكلام لا يعود وارداً إذا كان الأمير مجرد وسيط يقوم بمهمة في العلن لا يريد أن يقوم بها مَن هم في الظل حتى إشعار آخر بحيث أنهم سيشكرون الشيخ حمد إذا نجح مسعاه وسيتحمل هو أي تداعيات إذا قوبل المسعى بالفشل.

ومن المبكر الجزم بخفايا هذا الدور الذي بلغ أوجه في اللقاء الذي تم في نيويورك بين الشيخ حمد وإيهود باراك وكنا وجدانياً وتعاطفياً نتمنى لو أنه لم يتم.

ويبقى أن اللقاء المبرر من الآن وحتى إستقامة الأمور في شأن ما تبقَّى من الإحتلالات الإسرائيلية للأراضي العربية وبالذات ما يتعلق بالقدس، بين أي مسؤول عربي على مستوى القمة وأي مسؤول إسرائيلي، هو فقط اللقاء الذي يتأكد المسؤول العربي من أنه في هذا اللقاء سيحصل من باراك أو مِن الذي أو الذين سيخلفونه على تعهُّد يؤكد فيه أن إسرائيل ستلتزم بقرارات الشرعية الدولية وتنهي إحتلالاتها وتريد صادقة أن تعيش في المنطقة بما يُطمئن أهل المنطقة.

أما عدا ذلك فإن أي لقاء هو مضيعة للوقت وإذلال للإرادة العربية وتلاعب من إسرائيل بالأمة... من المحيط إلى الخليج.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 10 سبتمبر(أيلول) 2000

* * *

أين عرفات ودولته
بين اللاعبين والمتلاعبين؟

أسوأ ما في إرجاء إعلان قيام الدولة الفلسطينية الذي تقرَّر قبْل ثلاثة أيام من حلول الموعد وهو 13 سبتمبر (أيلول) 2000 يكمن في مشاعر الإحباط الفلسطيني والعربي الناشئة عن ذلك.

وفي إستطاعة أهل القرار الفلسطيني متمثلاً بكبير القوم ياسر عرفات وأعضاء المجلس المركزي أن يستنبطوا أفضل الصياغات التنظيرية التي تُبرر الإرجاء على نحو ما فعل رئيس المجلس الوطني الفلسطيني سليم الزعنون الذي كان صقراً جارحاً متسلحاً بالرؤية الدستورية التي تحذِّر من حدوث فراغ دستوري إذا لم يتم إعلان الدولة الفلسطينية في الموعد المحدد وهو الأربعاء الثالث عشر من سبتمبر. وقد إستمر الزعنون حازماً ومتمسكاً برؤيته إلى أن إجتاحت الرؤى الثورية بمنطلقاتها الجديدة المتأثرة بنصائح العم سام وإنتهى الرجل في إجتماع المجلس المركزي واحداً من الحمائم الذين يرون على نحو ما قرأناه لإثنيْن من رموز سلام الشجعان هما صخر حبش ونبيل عمرو. وخلاصة رأي هذيْن الرمزيْن أن المجلس المركزي بالتأجيل الذي أعلنه يريد أن يعطي السلام فرصة خمسة أسابيع تنتهي يوم 10 نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل عندما يعود المجلس المركزي إلى الإنعقاد.

وصحيح أن القيادة الفلسطينية قامت خلال الأسابيع الماضية بتهيئة الرأي العام العربي والفلسطيني لكي ينتظر التأجيل (أي تحديد موعد جديد أو أجَل جديد) أو الإرجاء (أي التأجيل من دون تحديد موعد جديد) وليس التنفيذ وإعلان قيام الدولة، إلاَّ أن مشاعر الناس عموماً كانت ترى أنه من غير المعقول أن يكون هنالك تأجيل بعد كل الذي قيل وكل التحرك السياسي الذي تم وكل التصريحات التي أدلى بها أبو عمار، وتحديداً التصريح الذي جاء فيه تأكيده بأن إعلان قيام الدولة في الموعد المقرر سيتم وأنه إذا كان ذلك لا يعجب إسرائيل فيمكنها أن تشرب من أحد البحريْن المتوسط أو الميت. ونقول إنه من غير المعقول أن يكون هنالك تأجيل على أساس أن الإدارة الأميركية التي يعلِّق الرئيس عرفات الآمال عليها باتت على أهبة أن تتوارى، هذا فضلاً عن أنه ليس واضحاً لا عنده ولا عند أي مسؤول عربي ما إذا كان الرئيس كلينتون صادقاً في سعيه من أجْل تحقيق تسوية فلسطينية – إسرائيلية وتسوية سورية – إسرائيلية، أم أنه ينفِّذ عملياً أخطر عملية تسويف بدليل أنه لم يسجِّل طوال خمس سنوات من التعاطي مع العملية السلمية أي محاولة ضغط على إسرائيل مستمتعاً بالتنازلات الفلسطينية التي حلَّت محل الصمود على بعض الثوابت وبالمرونة العربية التي حلت محل المروءة الوطنية بالنسبة إلى القدس التي هي بمكان القلب من الجسد فإذا بات القلب متعَباً فإن الجسد سيبدأ بالذبول.

وإلى ذلك إن مشاعر الناس كانت تميل إلى أن القيادة الفلسطينية ليس من مصلحتها التأجيل لعدة أسباب من بينها أن الطرَف الذي من مصلحته ألاَّ يكون هنالك إعلان لقيام الدولة هي إسرائيل فقط أو هي الولايات المتحدة التي تتجاوب مع أي مطلب إسرائيلي وتبذل في سبيل تحقيق ذلك كل أنواع الضغط على العرب. ومن منطلق العفوية فإن الناس العاديين يقولون إنه ما دام الأمر كذلك فهل إن القيادة الفلسطينية يمكن أن تحقق مآرب أعدائها. وللتدليل على هذا الموقف من جانب الإدارة الأميركية لا نحتاج إلى الكثير من البحث. فمنذ أن صدر عن إسرائيل إعتراض في شأن إعلان قيام الدولة الفلسطينية يوم 13 سبتمبر (أيلول) 2000 والضغوط الأميركية على أنواعها تنهال على القيادة الفلسطينية بهدف إضعاف حماستها لتنفيذ وعد الإعلان في الموعد المحدد. بل قد يجوز القول إن الهدف من قمة كامب ديفيد كان في بعض جوانبه إغراق المفاوض الفلسطيني في متاهات لا نهاية لها وتضييع المزيد من الوقت عليه وتقليل شأنه في نظر الرأي العام العربي والفلسطيني. وهي لو كانت على شيء من النوايا الطيبة لكانت وزعت الضغوط بالتساوي، أو على الأقل مارست القليل منها على باراك بدل أن تخص الرئيس عرفات بمعظم هذه الضغوط، ثم عندما وجدت أن الرجل صامد بعض الشيء فإنها بدل أن تقول لـ باراك ما معناه إنه لا فائدة من الضغط على عرفات ذلك أنه في ما يتعلق بالقدس فإن الأمور لا تعود بيديه وإنما هنالك العالم العربي والعالم الإسلامي... إنها بدل أن تقول ذلك فإن الرئيس كلينتون لجأ إلى وسائل كثيرة من بينها الإتصالات الهاتفية وعبْر القنوات الدبلوماسية ليطلب من حكومات صديقة أن تساعده. وتساعده من أجْل ماذا؟ من أجْل التنازل لإسرائيل عن القدس ومن

أجْل تمكين الإسـرائيليين من تنفيذ مخططهم الشـرير الذي يقضـي بهدم المسـجد... الأقصـى بعدما حاولوا من قبْل ومن خلال يهودي متطرف في توراتيته إحراق المسـجد وقد أشـعل النار فيه بالفعل. شُـلَّت يد هذا الجاني.

ما هو مُدعاة للإستغراب أن القيادة الفلسطينية ما زالت على تفاؤلها بأن الإدارة الأميركية سـتكون عادلة ومنصفة وتُحقق لها الدولة على النحو الذي تتطلع إليه (أي الدولة ذات السيادة والتي عاصمتها القدس) على رغم أن معركة إنتخابات الرئاسـة الأميركية كانت في بعض جوانبها بمثابة رسـالة مزدوجة من جانب هذه الإدارة إلى كل من إسـرائيل والسُـلطة الوطنية الفلسطينية. الرسالة التي تتعلق بإسرائيل خلاصتها أن الإدارة الأميركية على عهدها في نقْل السـفارة إلى القدس وعندما يحدُث ذلك فإن المدينة تصـبح موحَّدة وعاصمة لإسرائيل وبالتالي فليبحث الفلسطينيون عن بقعة أرض في سُلطتهم الوطنية يسمونها العاصمة. والرسـالة التي تتعلق بالسُـلطة الوطنية الفلسـطينية خلاصتها أن الولايات المتحدة مهتمة بحماية مصالحها في المنطقة وأنتم لسـتم ضِـمْن هذه المصـالح وإنما حالكم مثل حال العراق، وأمامكم خيار واحد هو مثْل الخيار الذي صممناه له وهو: إما الإستسلام لإرادتنا ومن دون تردد وشـروط وإما البقاء على الحال الراهنة إلى ما شـاء النظام العالمي الجديد متمثِّلاً بالولايات المتحدة فقط لا غير.

ولا ندري بعدما تحوَّلت نوايا فرسان سباق الرئاسة الأميركية إلى بنود في البرنامج الإنتخابي ثم إلى مفاجأة لم يتوقعها أحد وتمثَّلت في إختيار اليهودي جوزف ليبرمان ليكون نائباً للرئيس عن الحزب الديمقراطي تقابلها مفاجآت جمهورية تمثَّلت بالتطرف على غير عادة الجمهوريين لمصلحة إسرائيل وإكثار المرشـح الجمهوري جورج بوش الإبن من الوعود في شأن نقْل السفارة إلى القدس... لا ندري ما الذي بقي أمام الرئيس عرفات لكي يتفاءل.

لقد أوحى مجلس التأجيل الفلسطيني بأنه سيعقد إجتماعاً لاحقاً قبْل الخامس عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل، أي قبْل أن يكون الرئيس كلينتون توارى عن البيت الأبيض وبات لهذا البيت سيد جديد لن يكون في أي حال متعاطفاً مع الفلسـطينيين وسيكون مثقلاً بالتعهدات لإسرائيل ومن بينها القدس التي تكاثرت التنازلات في شـأنها، ومن هذه التنازلات أفكار عربية إسـتعمل طارحوها المقص بدل أن يستعملوا وجدانهم.

إزاء هذا الواقع هل يجب ترْك كلينتون يغادر بسلام وترْك سباق الرئاسة الأميركية يتم في أجواء مطْمئنة وترْك باراك وبني قومه يتلذذون بمسلسل التنازلات العربية والفلسطينية، مع أن بين يديْ عرفات ورقة من شأن إستعمالها أن يقلب الطاولة على كل اللاعبين والمتلاعبين، مستنداً إلى سلاح الشرعية الدولية المتمثِّل بقرار مجلس الأمن 242 وإلى القرار الرقم 181 الذي أصدرتْه الجمعية العامة للأمم المتحدة ويقر بوجود دولتيْن في فلسطين بحدودها الإنتدابية.

وما هو مألوف أن الحاكم لا يخاطر خشية أن يفقد الحُكْم ،لكن عرفات لا يملك ما يمكن أن يخشى عليه إذا هو أقْدم على المخاطرة. والقدس تستحق مثْل هذه المخاطرة، وإلاَّ فإنه سيصبح هو الرمز للفلسطيني التائه والحائر، والباحث دائماً عن التبريرات لعدم إعلان قيام دولة الألفية الثالثة... فلسطين المنقوصة أو المُقَصْقَصَة في أي حال.

صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 2000

* * *

مساجد... ومتعصِّبون... وعُقلاء

في الوقت الذي يبتهج المسلمون في البوسنة بأمير الرياض سلمان بن عبد العزيز يزورهم لإفتتاح مسجد ومركز الملك فهد في قلْب مدينة سراييفو عاصمة البوسنة ومسجد الأمير عبدالله بن عبد العزيز في توزلا، تنقل وكالات الأنباء من مدينة «نيس» عاصمة الجنوب الفرنسي تفاصيل عن واقعة تعكس مدى بشاعة التعصب عند الفرنسي وكيف أنه بسبب هذا التعصب لا يراعي مصلحة بلده ولا يحافظ على القيم التي يجب عدم التفريط بها. الواقعة التي نحن في صددها هي من نوعية الواقعة التي حدثت في نيويورك بين الرئيس ياسر عرفات ووزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت التي تدعي الحرص على علاقة طيبة مع المسلمين إلاَّ أنها تتمسك بإطلاق تسمية «جبل الهيكل» اليهودية على المسجد الأقصى الذي هو أول القبلتيْن وثالث الحرميْن الشريفيْن. ولو كانت أولبرايت تدري ماذا يعني الحَرَمان بالنسبة إلى المسلم، لكانت أدركت ماذا يعني أن يرزح

المسجد الأقصى صابراً تحت نير الإحتلال الإسرائيلي المدعوم بشتى أنواع الدعم من الإدارات الأميركية، وبالذات من الإدارة الحالية.

وعندما تتميز الإدارة الحالية، أي إدارة الرئيس كلينتون، بجسامة الدعْم لإسرائيل، فلأن اليهود يشغلون المفاصل الأساسية فيها. والمتوقع أن يكون الدعم أكبر مما تحصل عليه إسرائيل من الإدارة المقبلة، خصوصاً إذا جاءت ديمقراطية وريثة للإدارة الحالية، ذلك أن مشاعر آل جور، رئيس هذه الإدارة، هي مع إسرائيل وأن نائبه جوزف ليبرمان يهودي شديد التعصب لمصالح إسرائيل. ومن باب التذكير إن ما فعلتْه أولبرايت هو أنها إستعملت تسمية «جبل الهيكل» وهي تتحادث مع عرفات وأصرت على التسمية فغادر عرفات الإجتماع. أما هي فلم يرف لها جفن لأن ما فعلتْه كان عن سابق تصميم ويعكس موقفاً غير ودي من جانبها نحو المسلمين الذين لا يمكنهم أن يتهاونوا في موضوع المسجد الأقصى. وفي الكلام الذي قاله ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز في إجتماع مع بعض ممثلي الجالية الإسلامية – العربية في نيويورك وبالذات عبارته التي هي من نوع ما قلَّ ودل «إن كل عربي أو مسلم لا يمكنه التخلي عن القدس، ولا أخْذ ولا عطاء في شأن هذا الأمر»... إن في هذه العبارة خير دليل على ذلك، ونتمنى أن تكون هذه العبارة قد تُرجمت بأمانة وتم نقْلها بنزاهة إلى أولبرايت لكي تدرك ما الذي تعنيه القدس التي هي المرادف للمسجد الأقصى، للمسلم حاكماً ومحكوماً عربياً أو غير عربي، وما هو رد فعْله عندما يسمع وزيرة خارجية دولة صديقة مثل الولايات المتحدة تسمي الحرم الثالث بـ «جبل الهيكل».

ونأتي الى الواقعة الجديدة التي «بطلها» رئيس بلدية مدينة «نيس» جاك بيرا الذي ردَّ على رسالتيْن تلقاهما بأسلوب ليس فقط يفتقر إلى اللياقة، وإنما ينم عن مشاعر معادية تجاه المسلمين. الرسالة الأُولى جاءته من ممثلي حوالي مائة ألف مسلم يعيشون في مدينة «نيس» يطلبون فيها مساعدة البلدية لبناء مسجد فردَّ عليها بالقول: «اننا نعطي الأولوية للقيم وأماكن الصلاة المسيحية وليس لدينا أموال لغير ذلك، كما أنه لا مكان للمساجد في جمهورية علمانية...». أما الرسالة الثانية فجاءته من طبيب نفساني يطلب مساعدة من البلدية في اطار حملة تضامن مع لاجئي إقليم كوسوفو فكان رده عليها «إن مثل هذه الحملات التضامنية حماقة لا إسم لها وإنني ضقتُ ذرعاً بعشائر مسلمي فرنسا ولا أرغب بالمزيد...». كم أن الفرق شاسع بين نُبل المهمة التي من أجْلها زار الأمير سلمان بن عبد العزيز البوسنة وبين المنطق غير الحضاري لرئيس بلدية مهمة في دولة لها حضارتها العريقة ونعني بها فرنسا.

كان في إستطاعة رئيس بلدية «نيس» أن يعتذر عن طلب المساهمة في حملة من أجْل لاجئي كوسوفو بذريعة ضيق ذات اليد، إنما من دون هذا التهكم على المسلمين. وكان موقفه على هذا النحو سيبدو مقْنعاً ولا يحمل اللوم. أما بالنسبة الى طلب المساعدة من أجْل بناء المسجد فليس من حقه أن يرد على النحو الذي جاء عليه رده وذلك لبضع حيثيات من بينها أن الدين الإسلامي معترَف به في فرنسا على أنه الدين الثاني بعد الكاثوليكية وأن للمسلمين المغاربيين، وبالذات للجزائريين، على فرنسا ديوناً من الصعب تسديدها مهما قدَّموا إليهم من تسهيلات السماح بالهجرة والإقامة والعمل. ألم يدمر الفرنسيون الشخصية الجزائرية؟ وألم يزرعوا في نفوس الأجيال الجزائرية نزعة العنف التي تكتوي البلاد بنارها حتى الآن؟ وألم يعملوا على طمْس هويتهم وتغيير لسانهم العربي وإستنزاف خيرات كرومهم؟ وألم يَحولوا دون مواكبتهم للعصر وأعادوهم سنوات إلى الوراء؟

لقد فعل الفرنسيون بالجزائر ما هو أكثر من ذلك.. ومن هنا فإنه عندما يضيق صدر رئيس بلدية مدينة «نيس» بطلب مساعدة لبناء مسجد فإن ذلك يدعو إلى الإستهجان وإلى الريبة في مرامي هذا المسؤول.

ومن الحيثيات أيضاً أن فرنسا عموماً وفرنسا الشيراكية خصوصاً، التي ينتمي رئيس البلدية الى الحزب نفسه الذي ينتمي إليه الرئيس جاك شيراك وهو «حزب التجمع من أجْل الجمهورية» أخذت من المسلمين وما زالت تأخذ أكثر بكثير مما أعطتهم. أخذت المال والمشاريع والأسواق، ولا نتصور أنها من دونهم كانت ستبدو على المجد الذي هي عليه وعلى الإزدهار الذي ينعم به الفرنسيون. ومِن هنا فانه لو كان رئيس بلدية مدينة «نيس» الديغولي، كإنتماء حزبي وليس كروحية، على شيء من الكياسة لتَجاوب مع طلب بناء المسجد ولكان بذلك ساهم في إستحداث منارة في المدينة ترضي مشاعر حوالي مئة الف مسلم معظمهم من الجزائر وتونس والمغرب ولبنان ومصر وسوريا يعيشون فيها، وتمنيات حوالى أكثر من مئة ألف مسلم عربي وغير عربي يقصدون منطقة الجنوب

الفرنسي في فصل الصيف ويتوقون إلى أداء صلاة الجمعة في مسجد من نوع مسجد لندن ومسجد باريس ومسجد روما ومسجد ماربيا وغيرها، وكذلك مساجد أُخرى في طريق التشييد، يعود الفضل في إنشائها وعلى أرقى ما يكون عليه فن العمارة الى الملك فهد بن عبد العزيز ويرى أنها ليست فقط تُحقق للمسلمين ما يفتقدون إليه في تلك الديار وإنما هي خطوة على طريق حوار الأديان والحضارات فضلاً عن أن الهدف من إشادتها ومن مساعدة حكومة البوسنة وشعبها هو طلب مرضاة الله، على نحو ما أوضح الأمير سلمان للبوسنيين الذين منحوه ما يستحقه من التقدير بتسميتهم الأكاديمية الإسلامية في إحدى مدنهم بإسمه.

لكن لا بد لمَن يستوعب هذا الهدف السامي أن يكون بعيداً عن التعصب الأعمى على نحو ما هي عليه أولبرايت، ورئيس بلدية مدينة «نيس»، وكذلك كاردينال مدينة بولونيا الإيطالية جياكومو بيفي المرشح لخلافة البابا يوحنا بولس الثاني الذي تسوء صحته يوماً بعد يوم. ولقد فاجأنا الكاردينال المرشح للخلافة بأنه طالب الحكومة الايطالية بإتخاذ إجراءات للحد من تزايد المسلمين في إيطاليا الذين يبلغ عددهم حوالى المليون ونصف المليون مسلم، الأمر الذي يعني أن الديانة الإسلامية في إيطاليا هي الثانية بعد الكاثوليكية. وبمساعدة المملكة العربية السعودية بات لهؤلاء عام 1995 مسجد في إحدى أجمل مناطق روما، فضلاً عن وجود أكثر من 130 مسجداً وزاوية صلاة أُخرى في عدد من المدن الايطالية.

ونجد أنفسنا، ونحن نرصد هذه النماذج من التعصب الأميركي– الفرنسي – الفاتيكاني نحو الإسلام، نشير الى سماحة الانكليز وكيف أن صدورهم أكثر رحابة من الآخرين بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين وكيف أن بناء المساجد في بريطانيا لا يلقى هذا التعصب الأعمى. وهم في هذا ينظرون إلى مصلحة بلادهم وإلى أن المسلم ما دام من حقه أن يحصل على الجنسية البريطانية فمن حقه أن يكون له مسجده الذي يؤدي الصلاة فيه والمقبرة التي يُدفن فيها. واذا وُجد بريطاني تصدر عنه عبارات تنم عن التعصب فإنه يلقى اللوم حتى إذا كان في أعلى المراتب... وهكذا يتصرف العقلاء.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 سبتمبر (أيلول) 2000

* * *

برلمان الجنرالَيْن:
إميل لحود وحسني مبارك

هنالك أوْجه شبه كثيرة بين الإنتخابات النيابية التي أنجزها لبنان قبْل ثلاثة أسابيع وبين الإنتخابات التي ستشهدها مصر بين 18 أكتوبر (تشرين الأول) و14 نوفمبر (تشرين الثاني). ومن أوْجه الشبه هذه أن هذه الإنتخابات أتت في لبنان، وستأتي في مصر، بالبرلمان الأول في الولاية الأُولى للرئيس (الجنرال السابق) إميل لحود، وفي الولاية الرابعة للرئيس حسني مبارك، الجنرال السابق أيضاً. كما أن من أوْجه الشبه أيضاً أن البرلمانيْن هما برلمانا أهل المال في الدرجة الأُولى تلي ذلك بقية النوعيات من النواب.

ولم يحدُث من قبْل أن إقتحم أهل المال ساحة الإنتخابات النيابية على النحو الذي حدَث في لبنان ومِن المتوقع أن يحدُث في مصر، ذلك أن هؤلاء كانوا عموماً يبتعدون عن هذا الميدان خشية أن يؤثر على أعمالهم وعلاقاتهم ومشاريعهم ويضطرهم إلى إنفاق المال على مكانة هم في غنى عنها. لكن هذه المكانة بدأت تغري هؤلاء وتشكِّل في الوقت نفسه حصانة لهم، وإن كانت هذه الحصانة لم ترحم بعض نواب الحزب الحاكم في مصر (الحزب الوطني) الذين إرتكبوا من المخالفات والفضائح ما جعل سمعة هذا الحزب الذي – حُكماً – يترأسه رئيس الجمهورية، تهوي إلى الحضيض وتضطر الرئيس حسني مبارك إلى أن يبدي من الإهتمام في هذا الأمر بما يساهم في تنظيف سمعة الحزب. أياً كانت محاولات الأحزاب المصرية للحصول على بعض المقاعد في البرلمان الجديد الذي يتألف من 454 نائباً، بينهم عشرة متروك لرئيس الجمهورية تعيينهم بهدف سد ثغرات تُسفر عنها النتائج... أياً كانت المحاولات فان الحزب الحاكم هو الذي يكسب المعركة دائماً.. إلاَّ إذا حدثت صحوة شعبية في مصر على نحو الصحوة التي حدثت في لبنان وأسفرت عن مفاجآت من بينها أن المعارضين، أمثال القطب الدرزي وليد جنبلاط ورئيس الوزراء السابق – اللاحق رفيق الحريري، حققوا فوزاً مبهراً، الأمر الذي جعل جنبلاط يُشار اليه بعد الآن على أنه زعيم الطائفة الدرزية في لبنان بعدما كان أحد زعيميْ هذه الطائفة، وجعل الحريري يُشار إليه بعد الآن على أنه زعيم الطائفة السُنية في لبنان بعدما كانت زعامة

هذه الطائفة معقودة اللواء لبضعة أقطاب من الطائفة، أمثال تمام سلام والدكتور سليم الحص وعمر كرامي وآخرين، نجح الحريري ليس فقط في عدم تمكينهم من الفوز (وبالذات سلام والحص في العاصمة بيروت) وإضعاف شأن آخرين (وبالذات القطب الثالث عمر كرامي في العاصمة الثانية طرابلس) وإنما في أن الزعامة السُنية باتت للمرة الأُولى معقودة اللواء لزعيم أوحد، وهو ما جعل بقية الأقطاب يخْلدون إلى التأمل وربما يعيدون النظر في طبيعة العمل السياسي وكيف سيمارسونه بعد الآن، وهل يرون أن الإعتكاف لا يكفي وأنه من الأفضل إعادة النظر.

وعندما نشير الى فرضية أن تحدُث مفاجأة في الإنتخابات المصرية على نحو المفاجأة التي حدثت في الإنتخابات اللبنانية، فإننا نرى ضرورة التوضيح بأن دواعي الصحوة المصرية ستكون بعيدة عن النوازع الطائفية والمذهبية وستنحصر في المسألة الأساسية وهي أنه بات لا بد من أن تأخذ التعددية فرصتها لا أن تبقى على ما هي عليه مجرد ديكور في النظام، وبات لا بد أيضاً من أن تتلاشى ظاهرة الحزب الحاكم في مصر الذي هو العلة، بمعنى أن المصريين يتحمسون له على أساس أنه حزب الحاكم وأن ولاء المصري للحاكم هو ولاء تاريخي ويُضرب به المثل عند الحديث عن ولاء الشعوب للحكام. والظاهرة التي نشير اليها لا يمكن أن تتلاشى إلاَّ إذا قرر رئيس الجمهورية في مصر (وهو هنا الرئيس مبارك) أن يتخذ الموقف الذي إتخذه الرئيس لحود في لبنان وهو أن يبقى على مسافة واحدة من جميع المرشحين تاركاً للعبة البرلمانية أن تتم وفْق الأصول. وفي تقديرنا أنه إذا حدث ذلك فإن المفاجأة لا بد أن تحدُث، وسنرى أن مرشحي "الحزب الوطني" لن يفوزوا بأكثر من بضعة مقاعد وليس بحوالي 95 في المائة من المقاعد على نحو ما هو عليه الوضع الآن مكرِّسين بذلك دكتاتورية الحزب الواحد الحاكم. ومثْل هذا الإحتمال لا يعني أن بقية الأحزاب ستحوز على العدد الذي يستأثر به الحزب الحاكم الآن، لكن من المؤكد أنه سيكون هنالك نوع من الإقبال على بقية الأحزاب، أو تحديداً على بعضها. ويستوقفنا ونحن نشير إلى هذا الإحتمال الحيوية التي سرت في شرايين "حزب الوفد" الذي سيخوض معركة الإنتخابات بمئتي مرشح. وهذا الحزب أصابه الى حد كبير ما أصاب حزب الكتائب في لبنان الذي لم تعد زعامته معقودة اللواء لورثة مؤسِّسه الراحل الشيخ بيار الجميل. وبالنسبة إلى "حزب الوفد" فان زعامة عائلة سراج الدين للحزب إنتهت برحيل زعيم الحزب فؤاد سراج الدين (الباشا) قبل شهريْن وعدم تمكين ياسين سراج الدين (شقيق الباشا) من أن يرث، وأيضاً عدم تمكين الحفيد (نجل إبنة الباشا) من أن تؤول إليه الزعامة التي إنتهت معقودة اللواء للدكتور نعمان جمعة الذي يتطلع إلى أن يخترق لوائح "الحزب الوطني" الحاكم بمئة نائب. ونعتقد أن هذا التطلع ناشئ عن نجاح إتجاه عدم إعتماد قاعدة التوريث العائلي في الحزب، وهو – أي التطلع – ليس أكثر من حلم ما دام الرئيس مبارك هو رئيس الجمهورية ورئيس "الحزب الوطني" ولم يقرر أن يكون في المعركة على مسافة واحدة من جميع المرشحين.

على رغم ذلك يبقى تساؤل عن عدم تتويج الرئيس مبارك تجربة حكمه الطويلة بتصحيح يقضي بتشجيعه فكرة الحزب الثاني، أي بما معناه أن يدفع صيغة التعددية إلى أمام وفي إتجاه أن يقوم في مصر حزب ثان، وبذلك تصبح مصر مثل بريطانيا وأميركا وبعض الدول الأُخرى في أوروبا حيث تدور رحى معركة الإختيار الشعبي سواء للبرلمان أو لمنصب رئيس الجمهورية بين حزبيْن، أو يدفع التجربة في إتجاه أن تصبح الممارسة الإنتخابية في مصر على نحو ما هي عليه في لبنان. وفي الحالتيْن فإن ذلك من مصلحة الإستقرار وتعزيز الإزدهار، فضلاً عن أن الكثيرين لا يعودون يرون أن الحُكْم في مصر هو في شكل أو آخر شمولي، إنما على طريقة جديدة وأنه حُكْم الحزب الواحد على نحو ما هي عليه الحال في سوريا أو العراق مع بعض «الرتوش». وإذا قرر الرئيس مبارك أن يتوِّج الولاية الرابعة له بهذا التطوير، فإنه بذلك سيُبعد عن مصر مستقبَلاً صراعاً لا بد أن يحدُث على المستوى الأهلي. وهو إذا كان لم يُقْدم على هذه الخطوة في البرلمان الأول له في ولايته الرابعة، فإن الفرصة متاحة أمامه لكي يفعل ذلك قبْل أن تنتهي الولاية وبحيث يكون البرلمان الثاني برلمان كل مصر، لا برلمان بعض المصريين كما هي حال البرلمان الأول للرئيس لحود، خصوصاً أن الحزب الوطني الذي ورثه مبارك عن الرئيس الراحل أنور السادات قوي فقط بالرئيس... مع أن العكس هو الذي يجب أن يحدُث.

صحيفة "الشرق الأوسط" – سبتمبر (أيلول) 2000

* * *

العراق السلِس...
والإنفتاح الجوي المدروس

دشنت الحكومة الأردنية يوم الأربعاء 27 سبتمبر/ أيلول 2000 مرحلة خرْق الحظْر الجوي المحيِّر المفروض على العراق منذ عشر سنين، فأرسلت طائرة تابعة للخطوط المَلكية الأردنية (عاليه) تُقل وفداً من سبعين عضواً برئاسة وزير الصحة طارق سحيمات ويضم وزيريْ التنمية الإجتماعية والشؤون البلدية والبيئية ونحو عشرة نواب ينتسبون إلى الجسم الطبي فضلاً عن أطباء عاملين وأعضاء في نقابات وهيئات ومنظمات خيرية.

جاء هبوط الطائرة الأردنية في مطار صدَّام (مطار العاصمة العراقية) في الوقت الذي كان فيه طارق عزيز نائب رئيس وزراء العراق عقَدَ إجتماعاً مفاجئاً في دمشق مع الرئيس بشَّار الأسد جعل الأردنيين يسرعون الخطى. وفي وقت كان فيه رموز أزمة الوضع العربي الراهن يشاركون في القمة الثانية لمنظمة (أوبك) التي إستضافها الرئيس الفنزويلي رودريغيز في كاراكاس، كان هناك وليّ العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز وطه ياسين رمضان نائب الرئيس صدَّام حسين والشيخ سعود ناصر الصباح وزير النفط الكويتي الذي أنابه الشيخ سعد العبدالله وليّ العهد لتمثيل الكويت في القمة النفطية. وكان في إستطاعة مثْل هذه القمة أن تحقق اختراقاً سياسياً بالغ الأهمية وبأهمية الإختراق الجوي للحظْر لو أن طه ياسين رمضان بادر – أو بإقتراح من الرئيس بوتفليقه أو الرئيس المضيف رودريغيز – إلى زيارة الأمير عبدالله في مقر إقامته وأوجبت المراعاة في مثْل هذه الظروف أن تتم الزيارة في وقت يكون الشيخ سعود في مجلس الأمير عبدالله. ومثْل هكذا مبادرة كانت ستبدو طبيعية بين شركاء في منظمة ترسم مؤتمراتها وإجتماعاتها خُطط الإنتاج والتسويق ومفاجآت الصعود والهبوط في الأسعار.

ونحن عندما نقول ذلك فعلى أساس أن الأزمة الناشئة في الأصل عن تداعيات الإجتياح العراقي للكويت يوم الثاني من أغسطس/ آب 1990 وصلت إلى الحد الذي لا يجوز إستمراره وإلى الخط الأحمر الذي لا مصلحة في تَجاوزه. فهي دخلت سنتها العاشرة وعاصرها رئيسان أميركيان (جورج بوش وبيل كلينتون) وثلاثة رؤساء بريطانيين (مارغريت تاتشر وجون ميجور وطوني بلير) ورئيسان فرنسيان (فرنسوا ميتران وجاك شيراك). وبعد أيام تغيب شمس الإدارة الأميركية الحالية وتبدأ إدارة جديدة الحُكْم رافعة سلفاً التصميم على إبقاء الحصار على العراق من دون أن يكون واضحاً ومحدَّداً إلى متى. وعند قراءة تصريحات ومواقف مرشحي الرئاسة الأميركية جورج بوش الإبن ونائبه ديك تشيني (عن الحزب الجمهوري) وآل جور ونائبه، اليهودي للمرة الأولى في تاريخ الرئاسة الأميركية، جوزف ليبرمان (عن الحزب الديمقراطي)... إننا عند قراءة تصريحات ومواقف الطرفيْن نلاحظ أن الإدارة الجديدة سترث موضوع الحصار على العراق وستواصل توظيفه لمصلحتها من دون أن يعنيها في شيء الآثار التي تترتب على هذا الحصار سواء بالنسبة إلى الدول العربية التي باتت ترى وضْع نهاية للمعضلة العراقية وللمأساة التي بدأت تتفاقم صحياً ومعيشياً بين معظم شرائح الشعب العراقي. وإلى ذلك إن الدول العربية باتت ترى أن المعضلة العراقية هي السبب في أن العمل العربي المشترك لا يأخذ طريقه إلى الهدف المطلوب، بدليل أن هنالك ضرورة قصوى إلى عقْد قمة عربية، لكن هذه القمة لا تنعقد، كما أن هنالك ضرورة لإتخاذ موقف عربي موحَّد من موضوع القدس، إلاّ أن هذا الموقف يصدر في شكل مواقف متناثرة لأن الموقف الموحَّد يتطلب إتخاذه إجتماع الملوك والرؤساء.. وما دام هؤلاء لا يعقدون مؤتمر قمة للإتفاق على الموقف المشار إليه، فكيف سيصدر هذا الموقف.

جاء هبوط الطائرة الأردنية في مطار صدَّام خطوة لا تلقى الإعتراض من أي طرف عربي، بل قد يجوز القول إن الترحيب بها كان شاملاً وإن كان غير معلَن. فالأردن دولة تربطها بالولايات المتحدة وبريطانيا (الدولتيْن الأكثر إصراراً على إستمرار الحصار على العراق بما في ذلك الحظْر الجوي) علاقة متميزة. والملك عبدالله الثاني ليس من نوع الحكام الذين يتخذون خطوات تتسم بعدم التروي. وهو عندما يرسل طائرة عليها بعض الوزراء إلى بغداد فإنه بذلك لا يزايد وإنما يفتح الباب أمام مبادرات متنوعة من شأنها وضْع نهاية للحصار. وصحيح أن المصلحة المشتركة هي التي لعبت دوراً أساسياً في هذه الخطوة، إلاَّ أنها في أي حال كانت من الخطوات الحميدة تتأمَّن بسببها المصلحة الأردنية في الحصول على النفط العراقي

بالسعر التشجيعي، وهو أمر بالغ الأهمية في زمن التصاعد المستمر في أسعار النفط، ويتم إشغال خط جوي قادر على إستيعاب ثلاث رحلات يومية لكل من البلديْن، فضلاً عن أنه يخفف من معاناة الناس وهو أمر يعني، أو يجب أن يعني، الكثير لمَن هم في موقع المسؤولية وإتخاذ القرار.

كذلك جاء هبوط الطائرة الأردنية بعد تَزايد التساؤلات وعلامات التعجب إلى جانبها حول هل أنه يجوز أن تخرق الحظْر الجوي طائرة إيطالية (قبْل شهريْن) إجتازت الأجواء الأردنية خلسة ولا تفعل ذلك طائرة عربية؟

وهل يجوز أن تهبط طائرة روسية في مطار صدَّام يوم السبت 23 سبتمبر/ أيلول 2000 حاملة أعضاء في مجلس النواب الروسي (الدوما) وممثلي شركات نفطية روسية وفريقاً لكرة القدم، ولا تفعل ذلك طائرة عربية؟

وهل من المعقول أن تهبط قبْل ذلك ويوم الجمعة 22 سبتمبر طائرة فرنسية وعلى متنها 80 طبيباً وفناناً وناشطون آخرون في فرنسا وتلْقى من العراقيين إستقبالاً منقطع النظير وكأنما الذين أتوا هم أشقاء للعراقيين، ولا يفعل ذلك أطباء وفنانون وناشطون عرب؟

وهل مِن الجائز أن يسبق الهنود وأُمم أُخرى، العرب، إلى العراق، ويقرر السياسيون الفرنسيون القيام برحلة مماثلة للرحلة التي قام بها الأطباء والفنانون والناشطون، ولا يفعل ذلك العرب.. عِلْماً بأن كثيرين قاموا بزيارات عبْر طريق البر المرهِق إلى درجة يصعب تحمُّلها؟

من حيث المبدأ لا يجوز، ولكن ذلك لا يعني أن الأجانب (وبالذات الروس والفرنسيين) فعلوا ما لا يريد الأشقاء العرب القيام به. بل من الجائز القول إنه من الأفضل أن الأجانب وبالذات (روسيا وفرنسا) سبقوا الأشقاء العرب إلى تسجيل إختراقات في الحظْر الجوي. فالدولتان من الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن. وعندما تسجِّل الدولتان هذه الإختراقات فهذا بطبيعة الحال يُضعف من الإحتجاج الأميركي – البريطاني ويُفسح في المجال أمام مَن يريد من العرب وبقية الدول أن تفعل الشيء نفسه، مستندة في ذلك إلى أنه ما دامت دولتان مثل روسيا وفرنسا تريان أن القرارات الصادرة عن مجلس الأمن لا تشمل فرْض حظْر جوي على العراق، فلماذا يجب أن يعتبر العرب والآخرون أن الحظْر الجوي هو قرار دولي وأن خرْقه هو بمثابة خروج على الشرعية الدولية.

وقد يقال في هذا الصدد إنه حتى رئيس فنزويلا رودريغيز إمتثل هو الآخر للتفسير الأميركي لقرارات مجلس الأمن فلم يأتِ إلى بغداد، في مرحلة التحضير للقمة الثانية لمنظمة «أوبك» التي إستضافها في كاراكاس يوم الأربعاء 27 سبتمبر 2000، بطريق الجو متحملاً مشاق السفر براً، وهذا يعني إقراراً من رئيس دولة صديقة للعراق ورئيسه صدَّام حسين بأن الحظر الجوي شرعي دولياً. والرد على ذلك هو أن رودريغيز الذي تسلَّم الحُكْم حديثاً في بلاده يعلِّق أهمية كبرى على إستضافة قمة الدول المصدرة للنفط (اوبك) ويعتبر مثْل هذه الإستضافة ورقة دعم لحُكمه، ومن أجْل ذلك تعمّد أن يقوم شخصياً بالجولة التي يدعو فيها رؤساء الدول إلى حضور القمة، وهي من المبادرات النادرة التي يتولى فيها رئيس الدولة شخصياً السفر إلى أقاصي المعمورة لدعوة زملائه. وهو في سبيل إنجاح القمة بمعنى أن تنعقد أولاً ولا يشكِّل إنعقادها بعد طول غياب أو تغييب أي إستفزاز للدول المستهلِكة وبالذات للولايات المتحدة التي كان الخوف على مصير نفط الخليج أحد أسباب وجودها العسكري في المنطقة وقيادتها للتحالف الشهير الذي إنتزع الكويت من العراق الذي إحتلها لبضعة أشهر. ونلاحظ هنا كم أن الرئيس الفنزويلي راعى الإدارة الأميركية في موضوع الحظْر الجوي من دون أن يعني ذلك أنه معترِف بهذا الحظْر. فهو عندما قرر القيام بالجولة وضع في برنامجه زيارة بغداد والإجتماع بالرئيس صدَّام حسين، وهذا ما حدَث بالفعل، فضلاً عن تصريحات ودية أدلى بها وأثلجت الصدر العراقي الذي يكاد الحصار يكتم أنفاسه. لكنه راعى ألاّ يتوجه إلى العراق عن طريق عمان، وذلك لأن الأردن ليس ضِمن الدول التي يزورها، وإنما جاء إلى العراق بعدما أنهى زيارته إلى طهران ووجّه الدعوة إلى الرئيس محمد خاتمي، وجاء بطريق البر مسجّلاً بذلك أنه إنتقل من أرض دولة عضو في «أوبك» إلى دولة جارة هي الأُخرى عضو في المنظمة النفطية. ومثْل هذا الإنتقال المضني جعله يتقي الملاحظات والإعتراضات والتحفظات الأميركية وينقذ القمة النفطية من مكائد الدول الكبرى المستهلِكة. ولكن مَن يدري فقد تكون تلك القمة أنجزت في سياق الدبلوماسية الهادئة أموراً كثيرة على طريق تحقيق أجواء سياسية أفضل بين معظم دول «أوبك» وبالذات بين العراق وكل من السعودية والكويت.

من الواضح أن كل ما حدَث من إختراقات للحظْر

الجوي وسيحدُث، إنما هو مؤشر إلى أنه سيكون هنالك نوع من التعامل العربي والدولي مع المعضلة العراقية. فالرحلات الجوية إلى مطار صدَّام ستتكاثر وبحيث أن هذا المطار الذي أعيد فتْحه وتأهيله في السابع عشر من أغسطس (آب) الماضي (2000) سيستعيد مع الوقت حيوية مفقودة منذ عشر سنين. وسنسمع بعد الآن عن رحلات ذات طابع إنساني كثيرة يقوم بها عرب وأجانب لتعويض العراقيين شقاء سنوات الحصار. وحتى النائب العمالي البريطاني جورج غالاوي، الذي هو رائد الإنفتاح الأوروبي على العراق والذي قام برحلة «الباص» الشهيرة، قد يسجل أول حالة إختراق بريطانية للحصار الجوي على العراق ما دام الفرنسيون والروس والأردنيون واليمنيون والليبيون والسوريون والآيسلنديون والهنود وكثيرون آخرون فعلوا وسيفعلون ذلك. وكل هؤلاء، سواء الذين إخترقوا الحظْر الجوي أو الذين سيخترقون هذا الحظْر، باتوا يشعرون بأن إستمرار هذا الحظْر مهين لهم.

يبقى أن أمام الحُكْم العراقي فرصة ذهبية لتوظيف هذه الإختراقات لمصلحة تقليص الحصار على أمل إنتهائه للعراق. وبعد الذي جرى فإنه وحده المطالَب بمبادرات تزيل الآثار الناشئة عن تهديدات حفلت بها الأيام القليلة الماضية، عِلْماً بأن هذه التهديدات لم تكن بهدف التحذير ولا الوعيد وإنما بهدف التنكير بواقع الحال العراقي الكثير المرارة.

يبقى أيضاً أن العراق غير المحظور جوياً سيكون أكثر سلاسة تجاه إنجاح العملية السلمية التي تبدو في الأفق بعض ملامح إنجازها، وأكثر سلاسة أيضاً في موضوع سوق النفط بحيث لا تعود هذه السوق تشهد إنتفاضات كتلك التي عاشها العالم الغربي خلال الشهر الماضي.

وعلى هذا الأساس يجوز الإفتراض أن هذا الإنفتاح الجوي المدروس والمحبوك هو في سبيل أن يكون العراق السلِس هو عراق المرحلة المقبلة، أو بتعبير أدق العراق المقبول والمرفوع الحصار نهائياً عنه، والذي يتسلم فيه الإبن قصي المقاليد... وفي حياة الأب الذي تتكاثر الأقاويل في شأن وضعه الصحي، وبعضها يؤكد أن هذا الوضع على جانب من الدقة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 4 أكتوبر (ت1) 2000

* * *

إنتفاضة بالنيابة عن الأمتيْن

ما حدَث، ويتواصل حدوثه ولا بد سيتواصل في الأراضي الفلسطينية بسبب الإثم الذي إقترفه أرييل شارون سفَّاح صبرا وشاتيلا – الطامع بالوصول إلى منصب رئيس حكومة إسرائيل، فرصة لدول العالم المنحازة إلى إسرائيل لكي تسجل إدانة صريحة للتصرف الشاروني الإستفزازي الذي يخفي في طياته نوايا شريرة وعدوانية، والذي قام به ذاك السفاح معتمداً على أن يهود إسرائيل ودول العالم سيؤازرون فِعْله الآثم ما دام أضفى على الفِعْل مسحة توراتية، أي هدْم المسجد الأقصى تمهيداً لإقامة «الهيكل» على أنقاض أُولى القبلتيْن وثالث الحرميْن الشريفيْن. كما أنه فرصة لهذه الدول كي تُظهر بعض حُسْن النية، فتستضيف كل دولة أي جريح فلسطيني كرمز على إستنكار ما يفعله الصهاينة في زمن السعي من أجْل السلام.

وبالنسبة إلى بعض الدول العربية والإسلامية التي إستساغت التعاطي المباشر أو غير المباشر مع إسرائيل، فإن هذه الإنتفاضة الفلسطينية من أجْل حرمة المسجد الأقصى فرصة أمام من بدا أنه على أهبة التنازل كي يؤكد أنه لن يتنازل، وأمام من بدا أنه على جانب من القابلية للتفريط أنه لن يفرِّط، وأمام من هرول وبالغ في الهرولة كي يستعيد رشده الوطني ويعوِّض خطوات الهرولة بوقفة جديدة يدعم فيها بشتى أنواع الدعم هؤلاء الشبان الذين ينتفضون نيابة عن الأمتيْن العربية والإسلامية ضد الباطل الإسرائيلي.

والأهم من هذا كله أن هذه الإنتفاضة الباسلة من أجْل حرمة المسجد الأقصى فرصة أمام من أبرم الإتفاقات والمعاهدات مع إسرائيل (أمثال مصر والأردن وموريتانيا ومنظمة التحرير الفلسطينية) تلوِّح بتجميد ما أبرمت، وفرصة كي تضع الإدارة الأميركية أمام الأمر الواقع على أساس أن هذه الإدارة هي التي أوقعت العرب المتعاقدين في فخ التسوية المنقوصة المهينة. كما أنها فرصة أمام الدولتيْن الإسلاميتيْن الكبريَيْن (إسماً ومن دون فِعْل) تركيا وأندونيسيا كي تفرملا هذا الإندفاع المشبوه من بعض القيادات الرسمية والجيوب السرية في الدوائر والمؤسسات الحكومية نحو إسرائيل.

والإنتفاضة الفلسطينية من أجْل حرمة المسجد الأقصى فرصة أمام ألوف الشبان العرب والمسلمين الذين يريدون التأكيد على أن الدفاع عن الحرم الثالث

هو أهم بكثير من التطوع مع الأفغان ضـــد الإتحاد السوفياتي، ومع المسلمين البوسنيين ضد الصرب، ومع الشيشان ضد الروس، ومع أسامة بن لادن... ولا نعرف ضد مَن. وإذا كان ذلك لن يحدُث فهذا يعني أن الشـــك في هذه الأفواج التي تطوعت في الثمانينات والتسعينات كان في محله، وأن تلك الأفواج إنما فعلت ذلك لأغراض ترتسم فوقها علامات إستفهام كثيرة. ولا يكفي التحجج من جانب بعض دول العالم، وأيضاً من جانب «عقلاء» بعض الأنظمة العربية والإســـلامية، بأن أرييل شـــارون ليس في الحُكْم وأنه لا يجوز تكبير الأزمة مع حكومة باراك بسبب إثم إرتكبه خصمه زعيم الليكود شارون، عِلماً بأن الإثم الشاروني تم بمساندة قوات باراكية مع أن شـارون لا يملك سُـلطة إصـدار الأوامر إلى أي قوات عســكرية، إلاَّ إذا كان ما حدث هو تمرد أو بداية إنقلابات عســكرية على الطريق ستشهدها إسرائيل. والتحجج الذي نشير إليه ربما هو جائز كمنطق لو أن حكومة باراك بدل أن تلقي اللوم على الجانب الفلســطيني، أدانت وإســتنكرت أشــد الإســتنكار ما فعله شـارون. وعلى الأقل إن مثْل هذه الإدانة قد تردع سفَّاح صبرا وشاتيلا فلا يكرر إرتكاب الإثم بصيغة أُخرى إنطلاقاً من أن هذا الإرتكاب يحقق له شــعبية يقطف ثمارها قبْل إســتكمال تبرئة نتنياهو قانونياً، الأمر الذي يســهِّل عليه العودة زعيماً لكتلة ليكود وبالتالي رئيساً للحكومة.

ولنا تســاؤل نطرحه برســم الإدارة الأميركية: إذا كنتِ أيتها الإدارة لم تتحملي إختراقاً دبلوماســياً إقترفه ســفيرك لدى إســرائيل مارتن أنديك الذي أكد أن ولاء اليهودي هو لإسـرائيل قبْل أن يكون للدولة التي يحمل جواز سفرها أو يشغل فيها منصباً وزارياً أو دبلوماسياً أو خلاف ذلك... إذا كنتِ لم تتحملي هذا الإختراق على رغم أن العلاقة بين الولايات المتحدة وإســـرائيل هي التي شــجعته وتشــجع آخرين غيره على إرتكاب مثْـل هـذه الأفعـال وإعتبـارهـا نوعـاً من «الواجـب الأميركي» تجاه إســرائيل، فلماذا يجب أن تغضــي النظر عن هذا الإختراق الديني الذي إقترفه شــارون في حق المســلمين الذين يحترمون الأديان الســماوية ومعتقدات الآخرين بما فيها الديانة اليهودية ونبيّها موسى عليه السلام، ولا يمكن أن يفعلوا ما فعله عندما إســتباح حرمة المســجد الأقصــى وكان بذلك كمَن يستطلع المكان تحضـيراً لعدوان كبير أو كمَن يختبر مشـــاعر الرأي العام الدولي والعربي والإســـلامي ومشاعر الفلسطينيين تمهيداً للتحضير للعدوان الكبير. ويحضُـرنا هنا ما قاله شـارون في المؤتمر الصـحافي الذي عقَده قبْل أن يرتكب إثم اسـتباحة الحرم القدسـي الشـــريف. وكان تماماً مثل الإتصـــال الهاتفي الذي تجريه منظمة إرهابية أو ثورية تريد تفجير هدف معيَّن (مبنى أو محطة قطار أو مصـــرف) بهدف تفادي الملامة وبحيث لا يقال إنها نفَّذت التفجير من دون أن تعطي الناس فرصـة النجاة وعدم إصـابتهم بالشـظايا. ففي هذا المؤتمر الذي تعمَّدَ عقدُه يوم الأربعاء 27 سبتمبر (أيلول) الماضـي قال شـارون: «هذا (يقصـد باحة الحرم القدسي شُلَّ لسانه على أسلوبه في الكلام عند ذِكر الحرم وإستعماله كلمة «هذا» من دون تسمية الحرم) هو أهم مكان مقدس لليهود. نحن لســنا عندنا مكّة ولا مدينة (يقصـــد المدينة المنوّرة) ولا فاتيكان. يوجد عندنا فقط هيكل سليمان واحد. ولن نسمح لأحد بأن يقرر لنا متى ندخله وكيف...».

مـا كنـا نتمنـاه من الإدارة الأميركيـة وبعض دول العالم الغافرة دائماً للأخطاء والتجاوزات الإسرائيلية هو ألاَّ تكتفي بتسـجيل بعض عبارات الإسـتنكار الخجولة مغلفة بالدعوة الى ضـــبْط النفس، وانما تســـجل في صـياغة كثيرة الوضـوح إدانة الفعل الشـاروني. فهذا الفعل ليس خطأ وإنما هو خطيئة. كما أننا تمنينا لو أن السـيدة هيلاري زوجة الرئيس كلينتون التي تعددت إهتماماتها في الصـراع الإسـرائيلي – الفلسـطيني أن تبدي بعض التأثر ازاء الطفل الفلسطيني محمد جمال الدرة الذي بثت الفضـــائيات لقطات إعدامه يوم الأحد الماضـي (2000/10/1) برصـاص قناص إسـرائيلي مع أنه كان يحتمي بحاجز إلى جانب والده الذي كان يشير إلى الإسرائيليين بأن يوقفوا إطلاق النار عليهما، لكن الرصاص إستمر وإستشهد الطفل في حضن والده المذعور والذي أُغمي عليه من هول الفِعل الإسـرائيلي الهمجي والجبان.

ونقول إنه كان يُفترض بـ هيلاري كلينتون أن تبدي بعض التـأثر تعوِّض فيـه تقـاعس زوجهـا الرئيس وتجاهله لما حدَث، مع أنه شـــريك كامل في عملية التفاوض الإســرائيلي – الفلســطيني. كما أنها بإبداء بعض التأثر تُحقق بعض التوازن في ما صـودف أنها دعت إليه في خطاب إنتخابي في اليوم نفســه الذي عقد فيه شـــارون مؤتمره الصـــحافي. وفي خطابها المشـار إليه دعت هيلاري الرئيس ياسـر عرفات إلى التحرك فوراً لحذف النصـوص المعادية لإسـرائيل في

الكتب المدرسية الفلسطينية...»، وقالت: «إن المسألة لا تتوقف على كُتب التاريخ بل تدخل في الخرائط وتمارين القواعد ودروس اللغة المحقونة بالأفكار والصور اللاهبة للمشاعر. فهذه الأفكار والصور مصمَّمة بشكل تَحرم إسرائيل من الشرعية وتشجع العنف وتعزز المواقف العنصرية في أوساط الجيل الجديد من الفلسطينيين...»، وإعتبرت هيلاري هذه الكتب المدرسية إنتهاكاً لبنود إتفاقيْ أوسلو وواي ريفر «لذلك فإن أي مساعدات مستقبلية للسُلطة الفلسطينية يجب أن تكون مربوطة بإلتزام كامل بتعهداتها بالغاء الكتب المدرسية لجميع الفصول الدراسية مرة واحدة وليس بالتقسيط...»، وسمحت هيلاري لنفسها بأن تخاطب الرئيس عرفات آمرةً قائلة له: «إذا كنت حقاً تسعى لتحقيق السلام فعليك الإلتزام بالتعهدات التي قطعتْها على نفْسك على طاولة المفاوضات.. وعليك عدم تعليم الحقد للأطفال...».

وتبقى بعض الفضائيات والإذاعات ووسائل الإعلام العربية من صحف ومجلات التي نتمنى عليها إستعمال كلمة (إستشهاد) بدل (سقوط) وكلمة (شهيد) بدل (ضحية) أو (قتيل) عند الإشارة إلى الذين إستشهدوا ويستشهدون في المواجهة مع جنود الإحتلال الإسرائيلي. ونقول ذلك بعد الذي لاحظناه بمرارة ونحن نتابع تطورات الإنتفاضة البطولية الدامية على أرض فلسطين. فهؤلاء الذين يفتدون بأرواحهم ويروون بدمائهم الأرض حفاظاً على حرمة المسجد الأقصى يسجلون أرقى أنواع الشهادة .. بل هم «أحياء عند ربهم يُرزقون»، على نحو رفاقهم في الإستشهاد أبطال المقاومة في جنوب لبنان. وإذا كان لا بد من إعتبارهم ضحايا فإنهم ضحايا ظُلم الدول الكبرى وبالذات الولايات المتحدة التي تعتبر الباطل الإسرائيلي سوء تصرُّف يستحق الغفران، وتعتبر الحق العربي قصوراً في الفهم والإستيعاب يوجب العقاب.

وعسى ولعل تصحو الأمتان العربية والإسلامية بسرعة، ويستعيد العقل الأميركي والأوروبي الوعي المفقود قبْل فوات الأوان، وقبْل أن نسمع ذات يوم أن أرييل شارون دخل ثالث الحرميْن الشريفيْن، وعلى صهوة جواد عربي، في طريقه الى مهد السيد المسيح عليه السلام... وعلى وقْع أنغام فرقة موسيقية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 8 أكتوبر (ت1) 2000

* * *

الطريق إلى مقعد العرب في مجلس الأمن

مرة أُخرى، وليست أخيرة، ونحن نتأمل في هذا التألق الذي أحاطت به الشعوب العربية من المحيط الى الخليج إنتفاضة الأقصى، ونُكثر التأمل في أحوال الأمتيْن العربية والإسلامية وما أصابهما وما تفعله إسرائيل بهما وأي إستهانة تُلحقها بالقدس، نرى أن هذا الذي يحدُث لا يصدَّق: دولة من بضعة آلاف من رجال العصابات أهداهم التآمر الدولي على العرب وطناً ليس لهم وأرضاً هي لأجداد شعب آخر. وبفعل التآمر الدولي إستطاعت العصابات أن تنشئ مع مرور الزمن دولة إستقدمت لها من الشتات العالمي بضعة ألوف من المهاجرين اليهود ثم توَاصلَ إستقدام المزيد من هؤلاء حتى باتوا بضعة ملايين مهاجر يهودي مقابل عدد مماثل من المهجَّرين الفلسطينيين.

وبفعل التآمر الدولي أيضاً كان التشجيع المتناهي للدولة المصطنعة لكي تعتدي على العرب وأن يكون رد الفعل الدولي عملاً بمخطط التآمر، متجاهلاً للعدوان ساكتاً عليه. والسكوت معناه أن المعتدي يمكنه أن يواصل العدوان، وهذا ما يحدُث منذ العام 1956.

خلال حوالى نصف قرن نجح التآمر الدولي في حذْف فلسطين من العقل العربي كقضية وكوطن مغتَصب وبحيث باتت حالها مثل حال الإسكندرون التي هي بمساحة لبنان. كذلك نجح التآمر الدولي في أن يجعل الأوطان العربية السليبة مجرد ذكرى تتآكل مع ضعف الذاكرة بحيث تمر هذه الذكرى وكأنما هي مجرد يوم عادي من أصل أيام السنة الـ 360، ونجح أيضاً في إشعال الحرائق العربية والإسلامية وبحيث يكاد لا يخلو بلد في الأمتين ليس غارقاً في بحر المشاكل الطائفية والحدودية والمعيشية.

لم يبقَ للعرب والمسلمين سوى القدس. إذا هم إستسلموا للأفكار الأميركية والإسرائيلية ستضيع منهم إلى الأبد. والقدس ليست شواطئ وبيّارات وأنهاراً ومنتجعات لكي يمكن السكوت على ضياعها. القدس مدينة الحق الإلهي فإذا ضاعت باتت الدويلة الفلسطينية غير ذات قيمة وباتت الأُمَّتان العربية والإسلامية مجرد كتل بشرية لا قيمة لها في نظر العالم ولا إحترام لهما.

ومرة أُخرى إن في أيدي الأمتيْن، وبالذات في ضوء الهلع النفطي الذي ساد أوروبا وإنتقل إلى أميركا، ورقة سلاح النفط التي من شأن إستعمالها بإخلاص وإستعداد لقبول شظف النتائج المترتبة على الإستعمال أن تلوي عنق رموز المؤامرة الدولية على الأمتيْن. ويكفي أن نرى أهمية الحضور العربي والإسلامي في منظمة "أوبك" لكي نتأكد من أهمية هذه الورقة. وللتذكير إن الحضور الذي نشير إليه يتمثل في أهم دولتيْن إسلاميتيْن غير عربيتيْن هما إيران وأندونيسيا وفي دولة جرى تعطيل دورها هي العراق وفي أربع دول خليجية هي السعودية والكويت والإمارات وقطر وفي دولتيْن مغاربيتيْن هما ليبيا والجزائر.

وإذا قررت هذه الدول أن تتعاون سياسياً، لا أن يقتصر التعاون في مجال تصدير النفط، فإن أسياد "أوبك" العرب والمسلمين يصبحون قادرين على أن يفرضوا كلمتهم وأن تأتي صرختهم في وجه الباطل الأميركي – الإسرائيلي وبالذات إزاء موضوع القدس صرخة قوية. وأكثر من ذلك إن هؤلاء الأسياد إذا هم تعاونوا وتفاهموا ووضعوا خطة تحرُّك مشتَرَكة لإستطاعوا أن يحصلوا على مقعد في مجلس الأمن، على نحو ما طالب به وليّ العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز خلال مداولات مع عدد من زعماء العالم إلتقوا به ضِمْن فعاليات قمة الألفية في نيويورك يوميْ 6 و7 سبتمبر/ أيلول 2000، وبين هؤلاء الرئيس بيل كلينتون. ومثْل هذا الطلب ليس مِنَّة يجب أن يهرول العرب والمسلمون من أجْل الحصول عليها، وإنما هو حق. من ناحية الكثافة البشرية هو حق. ومن ناحية الموقع الإستراتيجي هو حق. ومن ناحية حاجة العالم اليهم هو حق الحقوق.

وإذا حدَث وضغط العرب والمسلمون من أجْل تحقيق ما طالب به الأمير عبدالله فإن في إستطاعتهم عندئذ أن يكونوا أصحاب شأن أكبر على الصعيد الدولي. وإستناداً إلى ما نشرتْه «الشرق الأوسط» عن المطلب السعودي فإن الأمير عبدالله إقترح تخصيص مقعد دائم للمجموعة العربية في مجلس الأمن له نفس صلاحيات العضو الدائم، كما أنه إقترح تقليص صلاحيات حق النقض (الفيتو) بحيث يقتصر إستخدامه على الفصل السابع. كذلك إقترح زيادة عدد أعضاء مجلس الأمن (الأعضاء غير الدائمين) إلى 26 عضواً. وهو في هذا الإقتراح يلتقي إلى حد ما مع ما طالبت به مصر مِن على منبر الأمم المتحدة والذي ألقى كلمتها (بالنيابة عن الرئيس حسني مبارك) وزير الخارجية عمرو موسى. وفي هذه الكلمة وردت العبارة الآتية: «من المهم إستكمال الحوار حول إعادة هيكلة مجلس الأمن للتوصل إلى صفقة عادلة ومتكافئة تتيح توسيع عضويتيْه الدائمة وغير الدائمة على نحو يراعي الحقوق والمسؤوليات التمثيلية للأغلبية الساحقة التي تشكِّلها الدول النامية كأعضاء نشيطين في المجتمع الدولي، مع إيلاء أهمية موازية لإصلاح أساليب عمله لزيادة الشفافية في أعماله والديمقراطية في قراراته، وإعادة النظر بوجه خاص، في إستخدام حق الفيتو. كما يتعين أن يقترن ذلك بتأكيد دور الجمعية العامة في التعامل مع قضايا الحفاظ على السلم والأمن الدولييْن...».

أما الشأن الذي نشير إليه فهو أن في إستطاعة العرب، من خلال حق الفيتو الذي تتمتع به الدولة الدائمة العضوية أن يحولوا دون أي قرار يستهدفهم خصوصاً أن معظم قرارات مجلس الأمن الصادرة حتى الآن وطوال أربعة عقود هي ضد العرب أو إنها لحجْب الحق عنهم.

ما يتمناه المرء هو أن تكون هنالك متابعة لما طالب به الرئيس حسني مبارك ووليّ العهد السعودي خلال قمة الألفية (مع ملاحظة أن وليّ العهد السعودي يريد المقعد السادس للعرب بينما الرئيس مبارك يريده لإحدى دول العالم الثالث)، وبحيث لا تنقضي بضع سنوات إلاّ ويكون تحقَّق الطلب وبات هنالك المقعد السادس في مجلس الأمن الذي هو المقعد العربي. لكن الطريق إلى نيْل هذا المطلب لا تكون من خلال الوضع الراهن الذي لا يسُر الخاطر، ذلك أنه لكي يتقبَّل الآخرون مثل هذا المطلب يجب أن يكون هنالك موقف عربي موحَّد وتضامن عربي حقيقي وتشاور عربي دائم. وعندما تكون الحال على هذا النحو فإن الدول الكبرى ستنظر بجدية إلى هذا المطلب، وستقول في معرض التشاور بين بعضها البعض إنه من المصلحة لنا ما دام العرب على هذا التعاون والتكاتف والثروة أن يكون لهم مقعد دائم في مجلس الأمن، وبذلك تستقر أمورنا ليس فقط مع العرب وإنما مع دول العالم الثالث وأيضاً مع المسلمين وذلك على أساس أن العرب هم مسلمون أو أن الإسلام هم العرب.

فهل يتوقع المرء مثل هذا الصفاء العربي ويحدُث

تبعاً لذلك المزيد من السعي لنيل المقعد العربي الدائم في مجلس الأمن، أم يتواصل هذا التنافر العربي إلى ما لا نهاية ولا يأخذ المطلب، الذي طرحه برسم المجتمع الدولي الرئيس حسني مبارك ووليّ العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، طريقه إلى التنفيذ... هذا إذا كان لن يسبقه حصول اليابان أو دولة أُخرى على هذا المقعد الذي ليس هنالك من هم أحق به مثل العرب... لكن الحق شيء والجدارة شيء آخر، ولا بد من تلازمهما معاً لتحقيق الغرض.

من المتفَق عليه أن قمة عربية إستثنائية ستنعقد في القاهرة يومي 21 و22 أكتوبر/ تشرين الأول بهدف دعم إنتفاضة الأقصى. وهنالك إجتهادات كثيرة في شأن هذه القمة وما يجب أن يكون عليه جدول أعمالها، وهي إجتهادات كادت تُخرج الرئيس حسني مبارك الداعي إلى القمة (بالتفاهم مع الرئيس بشَّار الأسد) عن هدوئه وبرودة أعصابه. وما نتمناه هو أن يكون المقعد السادس في مجلس الأمن جزءاً من المداولات، ولو على هامش لقاءات الردهات والزيارات المتبادَلة، وذلك لسبب موضوعي وهو أن الحصول على هذا المقعد يهم كل دولة عربية، وبالتالي فلا موجب لخلاف على أمر يشكِّل قوة سياسية للأمة... وردعاً للعدوان عن كل دولة عربية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 11 أكتوبر (ت1) 2000

* * *

خواطر على هامش إنتفاضة الألفية

بما أن إنتفاضة الأقصى... إنتفاضة الألفية... إنتفاضة العصر (تجوز عليها كل هذه الأوصاف والتسميات) لها في النفس العربية خواطر كثيرة، خصوصاً أنها أسرع من أنفاسنا ونبضات قلوبنا وإلى درجة أن كل خطوة من خطواتها تستحق مقالة من جانب من يتمنى مثل حالنا لو أنه يمسك بحجر يرمي به قتلة الأطفال، مغتصبي حقوق الشعوب، بدل القلم لبعض الوقت... بما أن هذه الإنتفاضة المباركة على هذا النحو فإنني رأيت في تسجيل بعض الخواطر ما يعوِّض عن كتابة المقال التقليدي والإنتظار أسبوعاً كي نكتب المقال التالي.

وعلى النحو الآتي أسجِّل هذه الخواطر التي من المؤكد أن قراء صحيفتنا سيجدون فيها أنها تعكس ما دار ويدور في خُلدهم وهم يتابعون لحظات مبارزة نادرة يصيب فيها القاذف بالحجر بالهلع أولئك القاذفين بالرصاص المدججين بأفضل ما أنتجتْه تكنولوجيا صناعة السلاح ... الأميركي بنوع خاص.

* **الخاطرة الأولى:** أفرحنا كثير الفرح أن الفضائية الفلسطينية تبث لنا هذه الملحمة التاريخية. فضائية شعارها صورة المسجد الأقصى ولا تثقل على المشاهدين بالكثير من الهابطات من الأغاني والمسلسلات والافلام والمساجلات والندوات والتنظيرات. فضائية ينقصها حضور المطربين والمطربات العرب الذين من حق الإنتفاضة، وعلى بعضهم بالذات، أن يسارعوا إلى تسجيل «كليبات» متضمنة أفضل الأغاني الوطنية التي ترفع نسبة الحماسة والنضال ويبعثون بها وعلى وجه السرعة إلى هذه المحطة كي تبثها وكذلك يرسلونها إلى بقية الفضائيات العربية للغرض نفسه. هذا واجب وطني في زمن بات فيه ثلاثة ملايين إسرائيلي يريدون التحكم بثلاثمئة مليون عربي.

لقد توقَّعنا أن نشاهد على فضائية فلسطين وبقية الفضائيات العربية هذا الذي نفتقده. أين محمد عبده ووديع الصافي وعمرو دياب وهشام عباس وعاصي الحلاني وبقية فرسان ساحة الطرب والغناء؟ وأين وردة ولطيفة وميادة وماجدة وبقية نجمات الطرب العربي؟ وأين الذين يكتبون الكلمات؟ وأين الذين يلحنون؟ وأين الذين ينتجون؟ الفنان لا يتفرج. ولا ينتظر. وليتذكر هؤلاء الذين سميناهم مدى أهمية الأغنية الوطنية في الصراع وبالذات عندما تكون الساحة عامرة بالبطولات خالية من مشاركة الذين لا يحق لهم أن يغيبوا.

* **الخاطرة الثانية:** على رغم إتساع نطاق الإنتفاضة وتزايُد عدد الشهداء والجرحى فإن الصف الفلسطيني على التجزئة التي إشتهر بها. ما زالت الخصومة على أشدها والجفاء على عمقه والتبريرات على غرابتها. الإنتفاضة الشجاعة تحدُث مع بداية الألفية الثالثة، والتشرذم الفلسطيني الذي ذاع صيته كمعلَم مِن معالم الألفية الثانية على حاله. هل هنالك قدسان وأكثر من مسجد أقصى واحد وأكثر من كنيسة قيامة واحدة لكي يبقى الخلاف على ما كان عليه؟! معاذ الله من هكذا تشرذُم وهكذا عناد وهكذا تخلُّف عقائدي.

* **الخاطرة الثالثة:** الذين يخوضون غمار

الإنتفاضة في غزة ومدن الضفة الغربية المحتلة هم بين العاشرة والخامسة والعشرين من العمر في أكثريتهم. والذين ساروا في التظاهرات ومسيرات الإحتجاج في العالم العربي هم في أكثريتهم في السن نفسها. والذين تسلقوا السواري لإنزال العَلَم الأميركي وأحرقوا هذا العلَم وعلَمَ إسرائيل دون غيرهما من أعلام دول العالم هم فتية آمنوا بربهم وأمتهم. وبفضل هذا الإيمان غمرت الشجاعة قلوبهم. ما يلفت الإنتباه أن أبناء وبنات هذا الجيل الذين نشير إليه ينتمون إلى مرحلة السلام الذي بدأ قبْل ربع قرن مع صفقة كامب ديفيد التي أبرمها الرئيس (الراحل) أنور السادات خلسة مع إسرائيل برعاية وترغيب من جانب الإدارة الأميركية. وكانت الصفقة التي نشير إليها الخطوة الأولى والقاصمة على طريق السلام المنقوص والمُذل ثم لحقت بها صفقة وادي عربة وصفقة أوسلو. ومحور هذه الصفقات ومنطلقاتها هو إدعاء المصلحة العامة، كما أن حُجج عاقديها من الرئيس السادات إلى الملك حسين إلى الرئيس عرفات أنهم حريصون على مستقبل الجيل العربي جيل القرن الحادي والعشرين. وعندما نجد أن الذين يخوضون غمار الإنتفاضة والذين يتظاهرون وبحماسة منقطعة النظير في كل الساحات العربية هم هذا الجيل الذي من أجْله تمَ إبرام تلك الصفقات، فهذا معناه أن أبناء هذا الجيل غير مقتنعين بما فعله أولو الأمر، بل قد يجوز الإفتراض أن أبناء هذا الجيل شعروا أنهم مخدوعون وإنتظروا بفارغ الصبر أن يتحرك أبناء فلسطين ولمجرد أنهم تحركوا فإنهم إنتخوا لهم وساندوهم في مصر والأردن والمغرب وسوريا وتونس والكويت وقطر والسودان ولبنان والعراق والجزائر وحيث هنالك شبان عرب وشابات عربيات.

* **الخاطرة الرابعة:** إستكمالاً للخاطرة السابقة فإن التظاهرة المغربية ستبقى مَعلَماً مضيئاً في تاريخ التظاهرات ومسيرات الإحتجاج العربية. فالذين شاركوا فيها كانوا يمثلون كل المغرب حكومة ومعارضة. وعندما يتقدم مسيرة المليون مغربية ومغربي رئيس الوزراء ويشارك فيها أيضاً القطب المعارض ابراهام سرفاتي (يهودي مغربي) وترتفع فيها مئات اليافطات والصور ولا يسقط جريح واحد فهذا مظهر كثير الرقي وحضاري يمكن الأخذ به عربياً على صعيد التعبير، بدل التظاهرات التي تتسم بالصخب والهتافات المتشنجة وعملية إحراق الأعلام أو الدوس عليها.

هذه التظاهرة وتلك التي حدثت في مصر والأردن والكويت وقطر وتونس مؤشر بالغ الأهمية. ولا ندري إذا كانت هذه التظاهرات والمسيرات هي فقط ضد الممارسات الإسرائيلية بنوعيها الشاروني والباراكي أم أنها ضد عدم التعقل الذي تتسم به الإدارة الأميركية وسوء مواقفها إزاء العملية السلمية وإنحيازها الأعمى إلى إسرائيل. لكن من الجائز إعتبار منطلقات التظاهر وحماسة المتظاهرين وطريقة التعبير عما يجيش في صدورهم، واحدة.. بمعنى أنها ضد إسرائيل في الدرجة الثانية وضد الموقف الأميركي في الدرجة الثالثة وإنتصاراً للإنتفاضة وفتيتها البواسل في الدرجة الأُولى. هل ستأخذ الإدارة الأميركية في الإعتبار ذلك، أم أنها ستظل تعالج الأمر بتحذير رعاياها أو بالإغلاق الموقت لسفاراتها أو بتشديد الحراسة على هذه السفارات وعلى منازل ديبلوماسييها في العواصم العربية والإسلامية، أو بإفتعال مؤتمرات القمة التي تثير التساؤلات من نوع القمة الرباعية التي يريدها الرئيس كلينتون مع عرفات وباراك وبحضور الرئيس حسني مبارك لضرْب القمة العربية الإستثنائية التي دعا الرئيسان مبارك وبشَّار الأسد إلى عقْدها؟ وماذا تنتظر هذه الإدارة لكي تعيد النظر وتتخذ الموقف النزيه والعادل وبذلك لا يعود علمُها عرضة للإحراق هو وعلَم إسرائيل دون غيرهما من أعلام دول العالم؟

* **الخاطرة الخامسة:** من المعروف عن المصارف العربية أنها تخشى الإضطرابات وأن أصحابها ينأون ما إستطاعوا عن إتخاذ موقف وطني أو المشاركة فيه خشية أن ينعكس ذلك على مصالح هذه المصارف. إلاَّ أن المصرفي العربي الوطني عبد المجيد شومان الذي يترأس مجلس إدارة «البنك العربي» ويُكمل الدور الوطني الذي سلكه من قبل في الخمسينات والستينات شقيقه المرحوم عبد الحميد شومان بادر منذ اللحظة الأولى إلى التبرع للإنتفاضة وقرر بالتشاور مع الإدارات المختصة في فروع المصرف الكثيرة في العالم العربي وفي الخارج أن يتبرع موظفو البنك بنسبة 5 في المئة من رواتبهم. ولم يكتفِ بذلك بل إنه قام بجولة على جرحى الإنتفاضة الذين يرقدون في مدينة الحسين الطبية في عمان وألقى فيهم الكلام الحماسي، وهو الذي يتعاطى العمل المصرفي، قائلاً بالصوت العالي الذي لا يخشى من جرائه أن ينعكس القول بشكل سلبي على أعمال «البنك العربي» الذي يساهم في عمليات إستثمار كبرى عربية ودولية «إن ما يجري اليوم يعيد إلى الأذهان الممارسات الإسرائيلية المتكررة منذ العام

1948 حتى الآن والتي أكدت في كل مرة التعنت والتنصل من أي إلتزام والتجاوز على الحقوق الفلسطينية والعربية والإستقواء على أبناء المنطقة بقوى الشر والعدوان. إن تضحيات الفلسطينيين لن تذهب هباء وإن دماء الشهداء ستنير للفلسطينيين والعرب طريقهم نحو الحرية والإستقلال...».

ومن الواضح أن عبد المجيد شومان مستوعب تماماً إحدى أهم نقاط القوة لدى إسرائيل وهي أن رجال المصارف اليهود في العالم كانوا وما زالوا في الساعات العصيبة التي تواجهها دولة إسرائيل في طليعة المناصرين وذلك من خلال ضخ المال الذي ساعد الكيان الصهيوني على البقاء والنمو. إن عبد المجيد شومان مستوعب تماماً وهو في ذلك يبدو كما لو أنه روتشيلد العربي. وإذا تكاثر أمثاله من رجال المصارف العرب وفعلوا ما فعله فإن «الشومانية» ستكون من أسلحة تأمين الحق العربي في فلسطين بعد الآن.

*** الخاطرة السادسة:** يشقى المرء في البحث عن السر في هذا التريث البريطاني للإقتحام فلا يجد الجواب الشافي. ونقول ذلك على أساس أن هذه الإنتفاضة هي خير مناسبة لكي يصحح جيل الأحفاد في بريطانيا (حزب المحافظين وحزب العمال بوجه خاص) خطيئة جيل الأجداد (اللورد بلفور والآخرون). ولكن هذا الجيل لا يصحح. أحياناً يوحي بأنه سيفعل. وأحياناً كثيرة يتراجع. وعلى الأقل إن في إستطاعة بريطانيا أن تجعل موقف الإدارة الأميركية من القضية الفلسطينية التي إنكمشت إلى درجة إرتضى الفلسطينيون ومن حولهم العرب كياناً هشاً، يقترب من موقفها بدل أن تقترب هي من الموقف الأميركي أو تسكت على تخبطه.. وبذلك لا تعود ماثلة أمامنا إحتمالات نشوب الحرب العربية – الإسرائيلية الرابعة التي ربما تكون «أم الحروب».

... ولهذه الخواطر بقايا.

صحيفة "الشرق الأوسط" – السبت 14 أكتوبر (ت1) 2000

* * *

قمة الرأي الخاص
في مواجهة الرأي العام

للمرة الثانية تشهد شرم الشيخ قمة ينظر إليها المصريون بمرارة وينظر إليها الرأي العام العربي بالكثير من الحذر. ويرى الجميع أن الخشية منها مشروعة.

جرى عقْد القمة بعد ظهر الإثنين الماضي (16 أكتوبر 2000) وأقطابها هم الرئيس حسني مبارك مضيف القمة وضيوفه الملك عبدالله الثاني عاهل الأردن ورئيس السُلطة الوطنية الفلسطينية ياسر عرفات والرئيس الأميركي بيل كلينتون ورئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك. أما الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان فإنه ضيف الشرف، بل لعله شاهد الزور على هذه القمة.

جاء الإتفاق على عقْد هذه القمة بعد أكثر من نفي مصري رسمي بأنها لن تنعقد وبعد سلسلة من الإتصالات العربية – العربية والمصرية – الاميركية والأميركية – الإسرائيلية – الفلسطينية. وكان واضحاً في ضوء هذه الإتصالات وسرعة إيقاعاتها أن الحاجة القصوى إلى عقدها هي وراء هذه الضغوط التي إتسمت بها الإتصالات. بل لعلها المرة الأُولى التي يلتقي فيها كل من مبارك وعرفات وعبدالله الثاني وكلينتون وباراك على ضرورة عقْد هذه القمة.. ولكل مِن هؤلاء أسبابه الموجبة. فما هي هذه الأسباب؟

الرئيس كلينتون وجد أن الولايات المتحدة هي، منذ أن بدأت إنتفاضة الأقصى وما تلاها من تداعيات، في مأزق إنتهى بها إلى ما يشبه العزلة الدولية. فالرأي العام العربي والإسلامي، وبالذات في الدول التي إطمأنت واشنطن إلى أنها باتت أجراماً في الفلك الأميركي، ضدها كما لم يحدُث من قبْل. وقد ترجم هذا الرأي العام من المحيط إلى الخليج مشاعره في شكل تظاهرات ومسيرات وصرخات وتبرعات بالمال والدم (لعل أبرزها كان تبرُّع الأمير سلمان بن عبد العزيز بالدم لجرحى الإنتفاضة) وإحراق أعلام ومحاولات لإقتحام السفارات. ونتيجة لهذه الصحوة العربية والإسلامية وجدت الإدارة الاميركية نفسها تقفل عدداً كبيراً من سفاراتها كما أن رموز شأنها العسكري الهائل في المنطقة بات هدفاً للرأي العام العربي والإسلامي الغاضب، وحادثة المدمرة في ميناء عدن دليل على ما نقوله.

وإلى ذلك إنها إرتبكت كما لم تواجه مثْل هذا الإرتباك من قبْل. فهي تتعاطى مع تداعيات إنتفاضة الأقصى بأسلوب زاد من غضب الرأي العام العربي عليها، إضافة إلى غضب الله سبحانه وتعالى. ولنا

في تصـــريحات الوزيرة أولبرايت وكذلك تصـــريحات الرئيس كلينتون نفســـه ما يؤكد الطبيعة الإســـتفزازية للإسـلوب الذي نشـير إليه. وعندما بدأت الحرب على غزة ورام الله والخليل ونـابلس وبلدات أُخرى كثيرة في الضـــفـة الغربيـة زادت وطـأة الإرتبـاك على الإدارة الأميركيـة حيـث أنهـا لم تســـجـل إدانـة للحكومـة الإســـرائيلية ولا وجَّهت إنذاراً إلى باراك ولو بصـــيغة التنبيه والنصيحة، مكتفية بإسناد مهمة تلطيف الأجواء إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان الذي جاء مزوداً بتمنيـات هـذه الإدارة بـأن يترفق بـالجـانـب الإســرائيلي. وكان الأمين العام فوق حُسْـن الظن به حيث أنه بعدما كان خرج على الأصـول وعلى الحياد وعلى الوقار المطلوب في تعامله مع موضـوع الجنود الإسـرائيليين الثلاثة الذين وقعوا في أسـر «حزب الله» وأنذرت إسـرائيل بعدوان على لبنان وسـوريا إذا لم يتم الإفراج عنهم... إن الأمين العام كوفي أنان لم يمارس أيضـــاً الحياد والأصـــول والوقار وهو يحـاول في إتصـــالاتـه بين تـل أبيـب وغزة إيجـاد مخرج لوقف العدوان الإسـرائيلي. وكيف سـيثمر سـعيه ما دام كما أوضـحْنا جاء كمن يمثِّل الولايات المتحدة وليس الأمم المتحدة. وهكذا إنتهى الأمر بالأمين العام إلى إخفاق ما دام لم يوقف العدوان وما دامت الإنتفاضة متواصلة بإيقاعات مدروسـة وتبعاً للظروف ولحجم الإسـتفزازات من جانب إسرائيل.

من أجْل ذلك وجد الرئيس كلينتون أن المســألة قد تخرج من نطاق السيطرة تماماً ويسقط الدور الأميركي الذي إحتكر إنجاز العملية السـلمية أيما سـقوط، خصـوصـاً أن الاوروبيين والروس بدأوا يتواجدون بقوة في المنطقـة ويلقى وجودهم الترحيـب من الجـانـب العربي، وخصـوصـاً أيضـاً أن مسـألة عقْد قمة عربية توحِّد الصـف وربما تنجح في توحيد الهدف باتت غير قابلة للتكتكات والمناورات السياسية التي كانت تحدُث في الماضـي، وأن هذه القمة سـتجد أن المادة الأكثر إلحاحاً للمناقشـة والتشـاور في جدول الأعمال تتعلق بـالـدور الأميركي غير النزيـه في العمليـة السـلميـة والعلاقـة غير المتوازنـة للولايـات المتحـدة مع العرب. ومثل هكذا مناقشة وتشاور لا بد أن يُفضيا إلى قرارات من بينها تجميد التطبيع مع إسـرائيل في الحد الأدنى والمقاطعة العربية للبضـائع الأميركية في الحد الوسـط والوقوف بقوة إلى جانب الفلسطينيين ودعْمهم في الحد الأعلى، هذا إذا لم يترجم الملوك والرؤسـاء مشـاعر الرأي العام العربي ومطالبه في ضـرورة العودة إلى نظام المقاطعة العربية لإسرائيل، وإحلال التأهب محل الإســترخاء الســائد في المنطقة منذ مؤتمر مدريد للسـلام، وصـعود رموز إلى واجهة القيادة أكثر حزماً في موضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وهذا كله كما أوضـحْنا يعني إنهيار الدور الأميركي تماماً وعودة الامور إلى نصـابها، بمعنى أن التعاطي مع العملية السلمية يصبح في ايدي عدة أطراف دولية وليس فقط في أيدي الطرف الأميركي المتبني إسـرائيل بأخطائها وشـرورها الغافر لإعتداءاتها وتجاوزاتها المتجاوب كل التجـاوب مع إبتزازاتهـا. وفي هذه الحـال لا يعود من المســتبعَد أن تنبعث من جديد فكرة عقْد مؤتمر مدريد آخر وهي الفكرة التي طالما ســعى في ســبيلها في السنوات الخمس التي سبقت وفاة الرئيس حافظ الأسد، وقصْـده من ورائهـا عدم إحتكـار الولايـات المتحـدة للعملية السلمية لأنها لن تقف إلاّ مع إسرائيل.

هذا إذاً بالنسـبة إلى الرئيس كلينتون وإصـراره على عقْد قمة شـرم الشـيخ وفي إعتقاده أنها قد تخفف من خشـيته أن يسـتعيد العرب الذين أيقظت إنتفاضـة الأقصـى روحهم القومية إرادتهم وبـالذات مـا يتعلق بموقف بعضـهم الذين بكروا في الذهاب إلى مصـالحة إسـرائيل وعقْد اتفاقات سـلام معها لا تزال – أي هذه الإتفاقات – غير قابلة لإقتناع الرأي العام العربي بها، وكذلك لإقتناعه بعدم نزاهة الإدارة الأميركية التي هي وراء التعجيل المبكر في ذهاب البعض إلى مصـالحة إسرائيل وتصديق نياتها.

وبالنسبة إلى باراك والصهيونية العالمية فإن حدوث ذلك يعني عودة إلى نقطة الصـفر، ويعني أن جيل الألفيـة الثـالثـة العربي والإســلامي لن يكون على الإطلاق في مرونة الجيل الذي إرتضى محاولة السلام كبديل عن الحروب. ومثْل هذا الأمر معناه التفريط في كل المكاسب التي حصلت عليها إسرائيل بالباطل من العرب منذ صـفقة كامب ديفيد قبْل حوالى ربع قرن.

أما بالنسبة إلى الأطراف العربية المشاركة في قمة شـرم الشـيخ أي الرئيس مبارك والملك عبدالله الثاني والرئيس عرفات فإن حرصـهم على إنعقاد هذه القمة هو بمثابة محاولة لتدارك أمر بالغ الخطورة يمكن أن يجدوا أنفسـهم في مواجهته اذا إسـتمرت إنتفاضـة الأقصى على نبضها، وإستمر الرأي العام العربي على الغضـب الذي هو عليه، وإستمرت إسرائيل تعتدي براً

وجواً وبحراً ويفتك جنودها المدججون بالسلاح بفتية الإنتفاضة من دون أن تصدر عن حكومة باراك في وضْعها الحالي أو بعد أن تتحول إلى حكومة إئتلافية الأوامر التي تضع حداً لهذا العدوان المبرمَج وتتخذ الإجراءات التي تجعل قطعان المستوطنين يلزمون حدودهم. وفي ضوء التطورات التي نعيشها منذ بدء إنتفاضة الأقصى فإن الأمر البالغ الخطورة الذي يمكن أن يجد الثلاثي المتصالح مع إسرائيل (مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية) نفسه مضطراً إتخاذه هو قطْع العلاقات مع إسرائيل كخطوة أولى وإلغاء المعاهدات والإتفاقات كخطوة لاحقة. وإذا فعل مبارك وعبدالله الثاني (كلاهما تسلَّم المعاهدات والإتفاقات كتركة ثقيلة) وعرفات الذي أبرم الإتفاقات وعقد الإجتماعات بنفسه مع رابين وبيريز ونتانياهو وباراك... إنه إذا فعل الثلاثي المتصالح ذلك فهذا معناه أنهم لم يكونوا على صواب عندما بالغوا في مسايرة إسرائيل وأميركا وعدم الضغط عليهما ومعناه أيضاً أن على القادة الثلاثة إفساح المجال أمام تطعيم حُكْمهم بمَن يترجم أفكار المرحلة الجديدة من الصراع العربي – الإسرائيلي. كما أن معنى هذا أن عليهم أن يكونوا على إستعداد للمواجهة المحتملة التي قد تحدُث مع إسرائيل ولتقبُّل ما ينتج عن ذلك من توتر في العلاقات مع الولايات المتحدة يستتبعه وقف المساعدات والضغط لتسديد الديون وإرتباك السياحة التي باتت بالنسبة إلى مصر على سبيل المثال بأهمية قناة السويس على صعيد الدخل. وهذا هو القليل من الكثير الذي قد تواجهه مصر.

أما بالنسبة إلى الملك عبدالله وعرفات فإن إعادة النظر معناها أن يكون كل منهما على موعد مع تطورات دراماتيكية.

وعلى هذا الأساس فإن المأزق الذي وجد مبارك وعبدالله الثاني وعرفات وكلينتون وباراك أنفسهم فيه هو ما جعل قمة شرم الشيخ تنعقد على رغم ما أوحى به وزير خارجية مصر عمرو موسى الذي بدا، من خلال تصريحات كثيرة أدلى بها في شأن هذه القمة نافياً إمكانية عقدها، أنه ليس تماماً في صورة الموقف وأن هنالك قناة ثانية هي التي تملك المعلومة وتهندس فكرة عقْد القمة التي حرص الرئيس مبارك عشية إنعقادها على نفي أن يكون هو صاحب فكرة عقْدها، والنفي هو لإطفاء مشاعر عتب الرأي العام المصري والعربي عليه لأنه إستضافها بينما المطلوب منه أن يكون في غاية الحماسة للقمة العربية الإستثنائية فقط لا غير مع رفض أي إجتماع يمكن أن يشكِّل مجرد عقْده تشويشاً عليها مثل قمة شرم الشيخ التي لا نعرف إلى أي مدى سيتقبل الرأي العام المصري نفسياً والرأي العام العربي عملياً مجرد عقْدها فكيف بنتائجها التي ستكون في أي حال على المدى البعيد – إن هي تجاوزَت الفشل – لمصلحة الإدارة الاميركية في الدرجة الأُولى ولإسرائيل في الدرجة الثانية. وأما الآخرون فهذا بالنسبة إلى الولايات المتحدة ليس بذلك الأمر المهم. كذلك لا نعرف إلى أي مدى سيأخذ الرأي العام المصري بشكل خاص والعربي بشكل عام في الإعتبار التبرير غير المعلَن من جانب الرئيس مبارك لإستضافته هذه القمة التي هي قمة الرأي الخاص في مواجهة الرأي العام. وخلاصة التبرير أنه في بعض الظروف الصعبة يجوز الإجتهاد... وتكون للضرورة أحكام.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 18 أكتوبر (ت1) 2000

* * *

قمة... بقوة الحجارة

لن نلتفت إلى ردود الفعل الأميركية والإسرائيلية على ما إنتهت إليه القمة الإستثنائية التي عُقدت في القاهرة يوميْ السبت والأحد الماضيين، ذلك أن ردود الفعل هذه وما حفلت به من إطراءات للحكمة العربية والتعقل العربي تجعلنا نشعر بالكثير من الإحباط.. وتجعلنا نعتبر أن قادتنا كانوا مقصرِّين في تأدية الواجب، مع أن الأمر ليس كذلك.

إننا لن نلتفت إلى ردود الفعل تلك وسنكتفي بتسجيل الرجاء مقروناً بالتمنيات أن يترجم القادة العرب الذين شاركوا في القمة ما تضمَّنه البيان الختامي. ففي البيان الكثير من الكلمات والسطور التي إذا أخرجها القادة من دائرة اللفظ إلى دائرة الفعل أن تُحقق الكثير في هذه المرحلة الدقيقة التي تواجهها الأمة.

ومن المؤكد أننا في القراءة المتأنية للبيان الختامي سنجد الفقرات التي يمكن وضْع خطوط تحتها للتدليل على أهميتها. وفي طليعة هذه الفقرات ما يتعلق بالصندوقيْن اللذيْن إقترحت المملكة العربية السعودية

إستحداثهما وأعلنت سلفاً أنها ستساهم بربع المبلغ المخصص لهما، وهما «صندوق القدس» ويُخصَّص له 800 مليون دولار لتمويل مشاريع تحافظ على الهوية العربية والإسلامية للقدس والحيلولة دون طمْسها وتمكين الشعب الفلسطيني من الإنفكاك من تبعية الإقتصاد الإسرائيلي، و«صندوق إنتفاضة القدس» برأسمال مقداره 200 مليون دولار يخصَّص للإنفاق على أُسَر الشهداء الفلسطينيين في الإنتفاضة وتهيئة السبل لرعاية وتعليم أبنائهم.

ومن الفقرات المهمة أيضاً الدعوة التي وجَّهها القادة إلى أبناء الأمة العربية للتبرع بأجرهم عن يوم واحد لدعم الإنتفاضة ومساندة النضال الفلسطيني.

ما يتعلق بالصندوقيْن لن تكون هنالك مشكلة، هذا إذا حذت بقية الدول العربية حذو المملكة العربية السعودية وأعلنت كل دولة ومن دون تباطؤ حجم مساهمتها في الصندوقيْن. وكم كنا نتمنى لو أن الإعلان عن ذلك تم في الجلسة التي أعلن فيها ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز الإقتراح المتعلق بالصندوقيْن، ذلك أن مثْل هذه المسارعة كانت ستؤكد الأريحية العربية في ساعات الشدة فضلاً عن أن المؤتمر منعقد على مستوى القمة وفي إستطاعة القادة بحُكم وقوف كل منهم على أوضاع خزينة دولته أن يقرر، بعد إستفسار من وزير المال لا يحتاج إلى أكثر من بضع دقائق، حجم المساهمة. ونجد ذاكرتنا هنا تستعيد ما حدَث في القمة العربية الإستثنائية في الخرطوم من 29 أغسطس/ آب إلى 2 سبتمبر/ أيلول 1967 وكيف أن مبادرة الدعم المالي للصمود كانت أيضاً سعودية وأنه لمجرد أن أعلن الملك (الراحل) فيصل بن عبد العزيز عنها فإن نجم تلك القمة رئيس وزراء السودان (الراحل) محمد أحمد محجوب تلقَّف الفكرة القومية الطيبة ونشط في سبيل إنجازها على الفور وبحيث إنتهى سعيه إلى تحديد الحصص سواء بالنسبة إلى المساهمة أو إلى الدول التي ستحظى بالدعم وهي مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية وسوريا على رغم أنها قاطعت القمة بحجة لم تكن مقنعة وتشبه في بعض حيثياتها حجة العقيد معمَّر القذَّافي في مقاطعة قمة القاهرة الإستثنائية.. قمة الإنتفاضة.

ونحن عندما نرى في المساندة المالية للإنتفاضة وبالذات ما يتعلق بالصندوقيْن أنها إنجاز بالغ الأهمية حققتْه قمة القاهرة ذات الرقم 25، فعلى أساس أن هذه المساندة تشكِّل في الغياب القاهر أو المتريث للمساندة السياسية والعسكرية إعترافاً بجدوى الإنتفاضة وإقراراً بشرعيتها ودعوة إلى المنتفضين لكي يواصلوا ما قاموا به. كما أن دعوة القمة رسمياً لأبناء الأمة كي يتبرعوا بيوم عمل واحد للإنتفاضة هي نقلة نوعية في تعاون الحكام والمحكومين لنصرة قضية من الطبيعي أن تكون نظرة المواطن إليها تفيض حماسة وتكون نظرة الحاكم إليها على درجة من التأني والتريث. وفي تقديرنا إن تنظيم عملية التبرع لمساندة الإنتفاضة تحتاج إلى دقة في التنظيم وأن الإستئناس بالدقة التي إعتمدها كقاعدة الأمير سلمان بن عبد العزيز في الحملة المستمرة لجمْع أموال المساندة والتبرع لفلسطين من شأنه أن يفيد.

وإلى ذلك إنه من المهم ألاَّ يغيب عن البال أن المساندة المالية الدائمة من اللوبيات اليهودية في العالم لإسرائيل والتي هي مستمرة ولا يبدو أنها ستتوقف، شكَّلت في مرحلة عمل الصهيونية من خلال العصابات قبْل أكثر من نصف قرن ثم بعد النكبة وإغتصاب فلسطين نتيجة المؤامرة الدولية التي وضعت بريطانيا الحجر الأساس لها، العنصر المهم في قيام الدولة العبرية. ويرى المرء وهو يتابع هذه الهمة والشجاعة وإقتحام المخاطر والمنازلة التاريخية لفتية فلسطين بالحجر مقابل الرصاص الإسرائيلي أن فلسطين لا يمكن إلاّ أن تُستعاد، بصرف النظر عما إذا كانت الإستعادة هي لفلسطين الوطن أو لتأسيس فلسطين الدولة.

ولكن المهم بالنسبة إلى المساندة المالية العربية للإنتفاضة هو إستعمالها وتوظيفها على الطريقة اليهودية وليس على طريقة بعض إخواننا الفلسطينيين في الستينات والسبعينات. ويخشى المرء إن هو خاض في التفاصيل وتطرَّق إلى الأسماء والمشاريع أن يجد نفسه يدخل في متاهات ليس هذا وقتها على الإطلاق.

بالإضافة إلى مسألة المساندة المالية التي باتت قراراً على مستوى القمة لا يمكن إلغاؤه إلاَّ من خلال قمة أُخرى وهذا ما لن يحدُث، هنالك الفقرة التي تتعلق بالعلاقات مع إسرائيل وفيها يؤكد القادة العرب على «ضرورة التصدي الحازم لمحاولات إسرائيل التغلغل في العالم العربي تحت أي مُسمَّى والتوقف عن إقامة أي علاقات مع إسرائيل، ويُحمِّلون إسرائيل مسؤولية الخطوات والقرارات التي تُتَّخذ في صدد العلاقات مع إسرائيل من قِبَل الدول العربية بما في ذلك

إلغاؤها...».

كذلك هنالك الفقرة اللاحقة التي ترى «إن معالجة قضـــايا التعاون الإقليمي لا يمكن أن تتم دون إنجاز حقيقي تجاه الســـلام الشـــامل والعادل في المنطقة» وأيضـــاً الفقرة اللاحقة للفقرتيْن اللتيْن ثبَّتناهما والتي يؤكد فيها العرب ما يشـبه فك الإرتباط بمؤتمر مدريد. وعند القراءة المتأنية للفقرة يمكن إســـتنتاج ذلك. وهذه الفقرة تنص على الآتي: «إن القـادة العرب يقررون عدم إسـتئناف أي نشـاط رسـمي وغير رسـمي في الإطار المتعدد الأطراف ووقْف كافة خطوات وأنشـطة التعاون الإقتصـــادي الإقليمي مع إســـرائيل في هذا الإطار وعدم المشـــاركة في أي منها وربْط إســـتئنافها ومداها بتحقيق إنجاز ملموس في إتجاه تحقيق السـلام العادل والشامل على كافة مسارات عملية السلام...».

وهـذه الفقرات تعكس إقراراً من القـادة العرب بـأن عملية السـلام في مأزق بسـبب إسرائيل. وصـحيح أن الرأي العام العربي الغاضـــب كان يتوقع خطوة أكثر تقـدمـاً كـأن تعلن مصـــر والأردن قطْع العلاقـات الدبلوماسـية في الحد الأقصـى أو إسـتدعاء السـفيريْن إحتجـاجـاً في الحـد الأدنى ومن ثم خفْض مســـتوى التمثيل الدبلوماسـي، إلاّ أن مثل هذا الإجراء قد يخفف من وطأة الإحتقان في الصـدور إلاّ أنه لن يفضـي إلى نتائج تأتي فاعلة. وفي هذا السـياق يجد المرء نفســه يفترض أن الرئيس حسـني مبارك والملك عبدالله الثاني ليسـا فخوريْن على الإطلاق بأنهما يتمسـكان بالعلاقة الدبلوماسـية مع إسـرائيل بينما السـلطان قابوس حسـم أمر العلاقة مع إسـرائيل بإغلاق مكتب التمثيل، وحذا حذوه خلال إنعقاد القمة الرئيس التونسـي زين العابدين بن علي الذي أقفل مكتبيْ الإتصـال مع إسرائيل، وبدا واضـحاً أن أمير دولة قطر الشـيخ حمد بن خليفة آل ثاني على طريق أن يتخذ القرار نفســـه.. وإلاّ فكيف سيستضيف الشهر المقبل القمة الإسلامية في الدوحة.

ولا نظن أن الرئيس مبارك سـيكون كثير الإنزعاج إذا بلغـه ذات يوم وبعـد كـل الـذي فعلـه أن تظـاهرة مصـرية حاشـدة تكون بحيوية التظاهرة التي شـهدتْها الرباط في الأسبوع الأول للإنتفاضة وعُرفت بـ «تظاهرة المليون» وكذلك بحيوية التظاهرة التي شهدتها صنعاء يوم إفتتـاح قمـة القـاهرة وعُرفـت بـ «تظـاهرة المليون ونصف المليون»... لا نظن أن الرئيس مبارك سيكون منزعجاً إذا بلغه وفي يوم ليس بـالبعيد وفي حـال لم تقرر إســـرائيل إعادة النظر في موقفها ومســـلكها وعدوانها، أن «أم التظاهرات» ســـتشـــهدها القاهرة ويشـــارك فيها مليونان وأن هذه التظاهرة توجهت إلى حيث مقر الســـفارة الإســـرائيلية وأغلقت بالهتافات والســـواعد هذه الســـفارة. أما لماذا لن يكون كثير الإنزعاج فلأن الكيل فاض عنده وأن الإســـرائيليين أحرجوه ما فيه الكفاية عندما لم يقرأوا بإدراك ووعي ما جرى في القمة الإستثنائية التي إستضافها في القاهرة، وكان في إسـتطاعة قرارات تتخذها القمة وتنسـجم مع المشـاعر الراهنة للرأي العام العربي أن تجعل بضـعة ملايين عربي يـدقون البوابـات الإســـرائيليـة من كـل الجهات ومن دون أن يخشـى الواحد منهم الرصـاص. وفي هذه الحال ما الذي سـيفعله باراك وشـارون وهل سـيواجهان القنبلة البشـرية العربية بالرصـاص وهل إن الجيوش العربية لن تتحرك ولن تشتعل المنطقة كما لم تشتعل من قبْل؟

إن القراءة المتـأنيـة للبيـان الختـامي للقمـة حـافـل بالكثير من الوقفات التي يمكن أن تكون جســـورة إذا كـانـت لن تبقى حبراً على ورق ولن يحـدُث التنفيـذ الفوري لما يوجب التنفيذ والمتابعة المســـؤولة لما قد يتبدد في حال غابت عنه المتابعة. وما يأمله المرء هو ألاّ يحين موعد إنعقاد القمة الأولى (في العاصـــمة الأردنية عمان) في مارس (آذار) المقبل وضِمْن النهج المســـتجد والمتعلق بعقد القمة دورياً وكل مرة في دولة حسب الترتيب الأبجدي، إلاَّ وتكون حصص المساهمة في الصـندوقيْن اللذيْن إقترحتْهما السـعودية قد تحددت وتكون إكتملت عمليـة إعـادة النظر في العلاقـات مع إسـرائيل بخطوة تصـدر عن قطر وأُخرى تصـدر عن موريتانيا إلاّ إذا كان الموريتانيون يرون أنهم لن يقطعوا العلاقـات إلاّ إذا فعلـت ذلـك مصـــر وحـذا الأردن حذوها... أو أخذت الشـــعوب في الدول الثلاث الأمر على عاتقها بسواعدها وحناجرها.

وتبقى الملاحظة اللافتة وهي هذا الإغفال المريب للدور الأميركي في كل ما تفعله إســـرائيل والذي ما كانت لتفعله لولا الإدارة الأميركية الغافرة بالتصـريحات دائماً، وبســـلاح الفيتو عند الحاجـة، لكل الأخطـاء والخطايا الإسـرائيلية. وما يمكن قوله في هذا الصـدد إن كل ما قالته القمة عن إسرائيل وعملية السلام وعن إطراء الإنتفاضـة وتبنِّيها ومسـاندتها بالمال، وعن قطْع العلاقة مع الدول التي تنقل سـفاراتها إلى القدس على نحو ما تقَّرر في مؤتمر القمة العربي الحادي عشـــر في عمـان عـام 1980، هو عمليـاً كلام موجَّـه إلى

إسـرائيل لكي تسـمعه أميركا، وأن عدم تسـمية الإدارة الأميركية بالإسم وكذلك عدم التلويح بسلاح النفط هو فقط من باب إتقاء شر دولة موجودة عسكرياً براً وبحراً وجواً في المنطقـة منـذ الإجتيـاح العراقي للكويـت، وإعتادت على أن تعتدي من دون إستئذان، فضلاً عن أنه يكفيها من الإستفزاز ما أصاب إحدى مدمراتها في ميناء عدن. وعلى هذا الأســاس فلا موجب لمناطحة ثور من نوع «البافالو» الأميركي ولا موجب لإعطائه حجة للإقدام على تصـرُّف أحمق من شـأنه أن يدفع بالمنطقة إلى الأسوأ.

وإلى اللقاء مع قمة أفضـــل... قمة ربيعية أكثر حسماً من القمة الخريفية في القاهرة بعد أربعة أشهر. ونقول ذلك مع الأخذ في الاعتبار أنه لو حدَث أن قمة القاهرة عُقدت قبْل إنتفاضـــة الأقصـــى ببضـــعة أيام وصدر عنها البيان الختامي والقرارات والتوصيات التي صـــدرت عن هذه القمة التي هي موضـــوع كلامنا، لكانت بدت كما لو أنها قمة التشدد، بل و«أم القمم»، ولكان ســـاد إنطباع بأن إنقلاباً في الرؤية العربية للســـلام مع إســـرائيل قد حدَث، أو أنه على أهبة الحدوث. إلاّ أنها في أي حال جاءت بنتائجها قياســاً بـالظروف الـدولية والإقليميـة قمـة بقوة الحجـارة... وتؤسِّـس لعمل عربي مشـترك يكون بقوة الرصـاص الذي يواجه به الإسرائيليون أبطال إنتفاضة الأقصى.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 25 أكتوبر(ت1) 2000

* * *

رئيس لا غنى عنه... وحكومة كثيرة الدسامة

لم يحدُث أن إســـتقبل اللبنانيون إعلان تشـــكيل حكومة جديدة على نحو إستقبالهم عصر يوم الخميس 26 أكتوبر/ تشـــرين الأول 2000 للحكومة الجديدة. وكان المألوف أن اللبنانيين يسـتمعون من إذاعاتهم أو محطات التلفزيون إلى صـــدور المراســـيم القاضـــية بتشـــكيل الحكومة، أو حتى ينتظرون ومن دون أي إستعجال أو تلهُّف إلى صباح اليوم التالي لقراءتها في الصحف، إلاَّ أنهم بالنسبة إلى هذه الحكومة كانوا كما لو أنهم يعيشـــون حـالـة طوارئ أو حـالـة إنتظـار إســـتثنائية... أو إذا جاز التشـــبيه كانت حالة الواحد منهم مثل حالـة مَن ينتظر ولادة عســـيرة ويريد للأم وللطفل السلامة.

كان اللبنانيون في أكثريتهم عصـــر ذلك اليوم إما أمـام التلفزيونـات في بيوتهم، أو مكـاتبهم أو محلاتهم ودكـاكينهم، وإمـا إلى جـانـب الترانزســـتور أو الراديو العـادي في إنتظـار نبـأ بـالـغ الأهميـة أو نبـأ بـالـغ الخطورة. النبأ بالغ الأهمية هو أن يتحقق الوفاق بين قطبيْن صـــعبيْ المراس هما رئيس الجمهورية العماد إميل لحود ورئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، الذي كلفه رئيس الجمهورية في اليوم الثاني من عودته من القمة العربية الإستثنائية في القاهرة، وبعد إستشـارات تمليها الطقوس الدســـتورية أجراها مع أعضـــاء أول مجلس نيابي في عهد الرئيس لحود، تشـــكيل حكومة جديدة. وأما النبأ بالغ الخطورة فهو أن يصـــطدم التشـاور وتبادُل وجهات النظر بين القطبيْن الصـعبيْ المراس بعدم تبادل المرونـة والتنـازل، فيقرر الحريري الإعتذار عن عدم تشـــكيل الحكومة – على نحو ما حدَث في بداية عهد الرئيس لحود – ويدخل البلد في دوامة يعمل رئيس الجمهورية على معالجتها من خلال الإسراع بتكليف شخصية سُنية أُخرى لتشكيل الحكومة أو ربما يعيد تكليف حليفه وصـــديقه الرئيس ســـليم الحص بتشـــكيل حكومة من وجوه جديدة مقبولة تفادياً للإحتجاج الشعبي المحتمَل حدوثه كرد فِعل.

إنتهى الأمر على خير وإنتهى إنتظـار اللبنـانيين القلقين إلى أنـه تَحقَّق لهم مـا تمنوه، وكـان النبأ الـذي أذيع هو النبأ بالغ الأهمية، أي إتفاق القطبيْن الصعبيْ المراس على حكومـة فـاجـأت اللبنـانيين من جهـة وأدخلت الخشـية إلى نفوسـهم من جهة أُخرى. بل إن المفاجأة السارة إمتزجت في الوقت نفسه بالخشية التي تثير القلق، وهذا سببه أن الحكومة الأُولى للحريري في عهد الرئيس لحود كثيرة الدسـامة، إذ أنها تتشـكل من ثلاثين شخصاً وليست كما يتمنى رئيسها الذي كان – منذ أن سـبق تكليفه شـعبياً وبرلمانياً التكليف الرسـمي بتشـــكيـل الحكومـة – يتطلع إلى حكومـة لا تكون فضفاضة وكثيرة الدسامة وتكون عبارة عن فريق عمل متجانس تلبي طموح رئيسـها في أن يحقق عملية إنقاذ للوضـع الإقتصـادي والمعيشـي الذي إقترب من حافة الهاوية من دون أن ينشـــغل بإعتراضـــات من هنا ومســـايرات من هناك مســـتفيداً من تجربة الحكومات الثلاث التي شكَّلها خلال ست سنوات أمضـاها رئيساً للوزراء، وهو ما لم يحدُث لأحد غيره.

على رغم إمتزاج المفاجأة السارة بالخشية، فإن إرتياح اللبنانيين إلى ولادة الحكومة الجديدة، وبرئاسة رفيق الحريري، كان بمثل إرتياحهم إلى إختيار العماد إميل لحود رئيساً للجمهورية قبْل أقل من سنتيْن. وفي الحالتيْن كان سبب الإرتياح هو الوضع الإقتصادي المتدهور. ويصعب على المرء التكهن بما إذا كان في إستطاعة الرئيس الحريري بهذه الحكومة كثيرة الدسامة، التي تبدو وكأنما هي برلمان آخر، أن يحقق المرجو منه والمؤمل فيه.. إلاّ أننا من باب الإفتراض نقول إن هذه الحكومة هي التمهيد للحكومة التي لا بد من مجيئها بعد سنة وتكون حكومة بنصف العدد الحالي وتكون بالفعل فريق العمل الذي يريده الرئيس الحريري.

وخلال هذه السنة تكون إتضحت أمور كثيرة، من بينها أن العملية السلمية ستنجو وتنتعش، أو أن الحرب العربية – الإسرائيلية الرابعة ستحدُث. ومن بينها أيضاً أن الإنتفاضة الفلسطينية ستتواصل، أو أن الدولة ستقوم وتكون القدس عاصمتها. ومن بينها أيضاً وأيضاً أن الحصار سيُرفع عن العراق، أو أنه سيستمر. وفي الحالات الثلاث وغيرها فإن لبنان طرف أساسي، ذلك أنه إذا كانت العملية السلمية لن تنجو ولن تنسحب إسرائيل من الجولان وتحدُث الحرب العربية – الإسرائيلية الرابعة فإن لبنان سيكون أكثر الجبهات سخونة وقد نراه، وهو المثخن بجراح الإحتلال وتداعيات الحرب الأهلية أو حرب الآخرين فيه وعليه والتي عاشها حوالى ست عشرة سنة، يعتمد إقتصاد حرب شأنه في ذلك شأن سوريا ومعظم دول المنطقة وبالذات مصر والأردن اللذان بدآتا تعيشان في السنوات العشر الماضية بعض الإزدهار. وإذا كانت الإنتفاضة الفلسطينية ستتواصل ولن تقوم الدولة وعاصمتها القدس فهذا معناه أن النجدات الخليجية للحريري العائد إلى رئاسة الحكومة ستتأثر عملاً بقاعدة أن الدول الخليجية تضع الحالة الفلسطينية في مقدمة الإهتمامات، في حين كان سيحدُث، لو أن الحريري عاد رئيساً للحكومة وليس هنالك إنتفاضة في غزة ومعظم مدن الضفة الغربية، أن الدول الخليجية ستجد من الضروري، ومن مصلحتها، دعْم الحريري بالكثير من الإستثمارات وببعض الودائع التي من شأن وضْعها في مصرف لبنان المركزي جعْل الحيوية تتدفق في الشريان الإقتصادي اللبناني الذي قارب على دخول مرحلة التيبُّس. أما إذا حدَث وإنتهى أمر الحصار المفروض ظلماً على العراق برفع هذا الحصار، فإن خيراً كثيراً سيعود على لبنان المستحَبة مساعدَته من العراق، بينما لن تكون الإستفادة كبيرة للبنان في حال إستمر الحصار مفروضاً على نحو ما هو عليه.

عندما كان اللبنانيون يتابعون النشاط الإنتخابي للحريري وجدوا فيه شخصاً جديداً سواء وهو يخاطب الناس فلا يُغدق في الوعود، أو وهو يختلط بالناس خلال المهرجانات التي تقام له فلا يخشى المخاطر. كذلك وجدوا فيه الشخص الذي كانوا في الماضي يرون موكبه أكثر مما يرون وجهه. وعندما إشتدت وطأة الكيد عليه والتجريح به فإنهم وجدوا فيه رجل الدولة الذي بات قادراً على أن يكظم غيظه بعدما كان في معظم سنوات ترؤسه للحكومة في عهد ما إصطُلح على تسميته بـ «الترويكا» يغادر إجتماع البرلمان إذا تناوله نائب بالنقد. وها هو اليوم بعدما عاد إلى السراي التي بناها، وتابع مراحل عملية البناء مرحلة مرحلة، يرون فيه زعامة تحققت عن جدارة ومن دون أن يكون وراءه حزب، كما أنهم يرون فيه قدرة على أن يكون واسطة العقد لكل أحزاب لبنان التي إلتفَّت حوله بعدما كانت في الماضي أشبعتْه إلتفافاً عليه. وحتى «حزب الله» الذي آثر أن يُبقي نفسه خارج التركيبة الحكومية لا ينظر إلى الحريري على نحو نظرته إليه في الماضي. ولقد ساعد على تعديل هذه النظرة الحضور الوطني لشقيقته بهية التي لم تعتبر عضويتها في مجلس النواب اللبناني تشريفاً وإنما تكليف تترتب عليه واجبات وطنية تتلازم مع أجواء التحرير التي تحققت بتضحيات لمقاتلي «حزب الله» باتت مضرب المثل في العمل الجاد لمقاومة الإحتلال. وكان لا يمر يوم منذ إبتعد الحريري، أو إبتعدوه، عن أن يكون رئيس الحكومة في عهد العماد لحود، إلاّ ويلاحظ اللبنانيون حضور بهية الحريري في كل مشهد يرمز إلى المقاومة وكانت بذلك كمَن تقول إنها ليست هنا بصفتها الشخصية فقط وإنما هي تمثِّل شقيقها الرئيس أيضاً.

وطوال الإبتعاد القسري – الإختياري للحريري إستمر العالم – عرباً وأجانب – يتعامل معه على أنه السابق اللاحق أو الذاهب العائد، أو أنه القطب السياسي الذي لا بد لزوار لبنان من كبار الرسميين من الإجتماع به دون غيره من رؤساء الحكومة السابقين. وفي معظم الأحيان كان السفراء المعتَمدون

لـدى لبنـان ينوبون عن حكومـاتهم في الإجتمـاع بالحريري، وتكون زياراتهم للإستئناس بالرأي وليس من باب التعارف وتمتين العلاقة على نحو ما هو مألوف. وهذه النظرة العربية والدولية إلى الحريري، الذي إبتعد أو إبتعدوه، كانت هي الأُخرى من بين الحيثيات التي جعلت اللبنانيين يتأكدون من أن عدم تعاون الرئيسـيْن لحود والحريري هو السـبب في أن عجلة البناء توقفت وفورة الأعمال كسدت، وهو السبب أيضاً وراء إحباط إجتماعي أصابت شظاياه الجميع.

ويبدو أنه كان لا بد للحريري لكي يعود رئيسـاً للحكومـة أن يثْبت أنـه قوي. ثم جـاءت الإنتخـابات النيابية الأخيرة لتؤكد أنه بات الأقوى بين رموز العمل السـياسـي في الطائفة السُـنية، وأنه القطب الوحيد بين هذه الرموز الذي حظي بترشيح على المستوى الوطني بأمل أن يحقق وفاقاً مؤجَلاً. ومن أجْل ذلك ضـاقت رقعـة التردد والإحراج لـه بهدف إخراجـه وفي الوقـت نفسـه إتسـع هامش التحمل عنده وأتقن تماماً اللعبة السـياسـية بكل ما تحويه من مناورات ومقايضـات. وعلى هذا الأسـاس جاء رئيسـاً لحكومة كل لبنان ولم يؤتَ بـه، وجـاء يفرض مَن يريـد مقابـل التجـاوب مع المفروضـين عليه. وفي قانون لعبة الحُكْم يكون الفرق كبيراً بين مَن يأتي إلى رئاسـة الحكومة بما يشـبه التزكية الشـعبية والبرلمانية له، وبين من لا يُؤتى به بفعل الكيد... وحجة عدم الإرتياح والإنسجام.

ويبقى أن اللبنانيين، الذين أضناهم شظف العيش، على موعد مع أربع سـنوات من التعاون الذي لا بد منه بين رئيسـيْن صـعبيْ المراس تأمَّل كل منهما ملياً في تجربـة المـاضـي ووجد فيهـا من العِبَر مـا من الضـروري الإعتبار بها. وفي التعاون خير لهما... وللبنانيين.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 1 نوفمبر (ت2) 2000

* * *

اللوبي العربي» في أميركا... بعد فوز أهون الضرَرَيْن

بعد المفاجـآت المثيرة التي حفلت بهـا أيـام العد العكسي لإنتخابات الرئاسة الاميركية، وكان من أبرزها حُمَّى التصـريحـات والإتهـامـات المتبـادَلـة وتنوُّع الإسـتطلاعات التي تلعب دوراً بالغ الأهمية في هذه الإنتخـابات، جرت قبْل أمس الإنتخـابات التي إنتهت بفوز أحد أهون الضـرَرين بالنسـبة إلينا كعرب. ونحن نقول ذلك على أسـاس أن الثنائي الجمهوري جورج دبليو بوش – ديك تشـيني هو ضـرَر بقدْر ما أن الثنـائي الـديمقراطي آل غور – جوزيف ليبرمـان هو الآخر ضـرَر بالنسـبة إلينا. ونحن عندما نقول ذلك نسـتند إلى مواقف الثنائي الجمهوري الذي سـارع إلى إعلان فوزه ثم الثنائي الديمقراطي الذي شـكك لاحقاً بـالفوز في إنتظـار إعـادة فرز الأصـوات في ولايـة فلوريـدا، وهي مواقف لا تـأخـذ في الإعتبـار الحـل الشامل والعادل للصراع العربي – الإسرائيلي، وبالذات ما يتعلق بالقدس والدولة الفلسطينية.

ومواقف الطرفيْن من قضـايانا كانت ظالمة الى درجـة جعلتْنـا للمرة الأُولى لا ننتظر مَنْ الـذي يفوز لكي نبتهج بفوزه ونعلّق عليه الآمال. فكلاهما ضـرر وكلاهمـا ينطبق عليـه القول الشـائع معدَّلاً (أهون الضررَيْن) وإن كنا ضمناً تمنينا أن تحدُث صحوة لدى الرأي العـام الأميركي تحولُ دون أن يُكتـب للثنـائي الديمقراطي بخلطته البروتستانتية – اليهودية الفوز لأن هذه الخلطة تحمل في طياتها الإحتمال بأن يأتي يوم، بفعل القضـاء والقدر أو نتيجة مخطط مبرمج وشـرير، يكون فيه رئيس الدولة الأعظم في العالم يهودياً.

القضـاء والقدر الذي نعنيه هو أن يتوفى الرئيس آل غور (بإفتراض تَحقق لـه الفوز وثبُت أنـه الرئيس، إذ أن هذا المقال كتب والنتائج النهائية لم تكن قد أُعلنت حتى الثالثة بعد منتصـف نهار أمس) نتيجة أزمة صحية على نحو ما تصيب هذه الأزمة وفي سن مبكرة المئات من كبار القوم في العالم (الرئيس جمال عبد الناصر على سبيل المثال الذي توفاه الله وهو في الثانية والخمسـين من العمر) وفي هذه الحال يصـبح نـائبـه (اليهودي جوزف ليبرمـان) حُكمـاً هو رئيس الولايات المتحدة.

أما المخطط الشـرير والمبرمَج الذي نعنيه، فهو أن يحـدُث ذات يوم أن آل غور (بـإفتراض أنـه الفـائز) قضـى في محاولة إغتيال على نحو ما أصـاب الرئيس (الـديمقراطي) جون كينيـدي عـام 1960، وفي هـذه الحال أيضـاً يتسلم نائبه الرئاسة ويكون رئيس الولايات المتحدة للمرة الأُولى يهودياً، وهو هنا جوزف ليبرمان الذي فاجأ آل غور الشـعب الأميركي وشـعوب العالم بأنه إختاره قبْل شهريْن من يوم الإنتخابات ليكون نائبه

في «أم المعارك» الرئاسية في تاريخ الولايات المتحدة. وفي ضوء هذا الإحتمال يصبح التسلل اليهودي طوال الولاية الرئاسية إلى الإدارة الأميركية بمثابة عملية تمهيدية هدفها تعويد الشعب الأميركي جرعة جرعة على القبول بأن يكون رئيسهم في أوائل الألفية الثالثة يهودياً، وهم الذين لم يتقبلوا بسهولة الكاثوليكي جون كينيدي قبْل أربعين سنة.

وفي الوقت الذي كنّا كعرب مسكونين طوال المعركة الرئاسية بالإحتمال المشار إليه، كنّا أيضاً نجد أنفسنا نطالب الدول العربية بأن تعزز العلاقة مع عرب الولايات المتحدة، بحيث يصبح صوت الناخب العربي فاعلاً بعد الآن في إنتخابات الرئاسة الأميركية. ونقول ذلك على أساس أن العرب في الولايات المتحدة، مسلمين ومسيحيين، وأيضاً غير العرب من المسلمين، باتوا كثرة وذلك نتيجة الظروف الصعبة التي عاشتها المنطقة من جرَّاء الحروب والتعقيدات الناشئة عن الأوضاع المعيشية والإقتصادية الصعبة. وهؤلاء قد يبدو تأثيرهم ضعيفاً لو أن المعركة بين الثنائي الديمقراطي والثنائي الجمهوري كانت محسومة سلفاً لثنائي دون الآخر، نتيجة أن الشخصيْن اللذيْن إختارهما الحزب الجمهوري للمعركة أقوى بكثير من الشخصيْن اللذيْن إختارهما الحزب الديمقراطي، أو العكس. لكن تأثير الصوت العربي يمكن أن يصبح فاعلاً عندما يكون السباق إلى البيت الأبيض على نحو ما حصل حيث أن إستطلاعات الرأي كانت حتى قبْل ثلاثة أيام من الإنتخابات تشير إلى أن الثنائي الجمهوري (جورج بوش الإبن وديك تشيني) يحظى بنسبة 45 في المئة وأن الثنائي الديمقراطي (آل غور وجوزف ليبرمان) يحظى بنسبة 41 في المئة، بما في ذلك أصوات اليهود التي من الطبيعي أن توضع في الصناديق الديمقراطية ما دام آل غور إختار اليهودي ليبرمان ليكون نائباً له، من دون أن يعني ذلك أن الثنائي الجمهوري أسقط الهوى اليهودي من حسابه، بدليل أنه واصل التملق وإغداق الوعود في شأن تأييد حق إسرائيل في أن تكون القدس موحَّدة وتكون تبعاً لذلك العاصمة الأبدية لإسرائيل، وفي أن يتم نقْل السفارة الأميركية إلى القدس ومن دون أن يستوقفه ما يحدُث للسفارات الأميركية في عدد من العواصم العربية والإسلامية كواحد من ردود الفعل على وقوف الإدارة الاميركية إلى جانب إسرائيل وعدم إلتزام الطرفيْن تنفيذ إتفاقات وعهود مع الجانب الفلسطيني، فضلاً عن تغاضي الإدارة الأميركية عن الإستفزازات الشارونية – الباراكية الخاصة بالمسجد الاقصى، ثم بالتجني على الفلسطينيين وتحميلهم مسؤولية العنف، الذي يتواصل للشهر الثاني على التوالي ممثَّلاً بالإنتفاضة التي جاءت في بعض جوانبها تعبّر عن مكنونات الرأي العام العربي من المحيط إلى الخليج.

وللتأكيد على أن الصوت العربي يمكن أن يصبح فاعلاً لو أن الدول العربية تحيطه بالإهتمام، هو أن قطبيْ سباق الرئاسة حرصا، وعلى نحو غير مألوف، طلبْ ود العرب والمسلمين الذين تأمركوا، بمعنى أنهم إستوطنوا الديار الأميركية وباتوا يحملون الجنسية الأميركية، وبالذات أولئك الذين يقطنون في ولاية ميشيغان. كذلك إن ما يؤكد على أن الصوت العربي – ترشيحاً وليس إقتراعاً فقط – يمكن أن يصبح فاعلاً هو أن المرشح الثالث، اللبناني الأصل، رالف نادر، إبن الستة والستين عاماً الذي إستقطب الأميركان اليائسين من لعبة الحزبيْن، ظهر كرقم صعب في المعركة بعدما إلتف حوله – إستناداً إلى الإستطلاعات – 18 مليون أميركي هم من المعجبين بـ نادر الذي خاض بإخلاص وضمير وأمانة على مدى ربع قرن معركة محامي المستهلِك الأميركي المدافع عن حقوقه وسلامته في وجه الشركات الأميركية وأبرزها «جنرال موتورز»، والذي لم ترهبه هذه الشركات، ولا أخضعتْه لأهوائها، أو أفسدتْه بإغراءاتها. وفي معركة العام ألفين إستقطب رالف نادر ما بات يُعرف بـ «المواطن الأخضر»، المسكون بهواجس البيئة، المرعوب من أخطار التلوث. وهؤلاء باتوا يشكِّلون نسبة كبيرة في الولايات المتحدة ومعظم دول العالم الصناعي حيث التلوث هو المرادف للتقدم الصناعي. ومن هنا جاءت ملاحظة إحتمال أن يحوز رالف نادر على أصوات 18 مليون ناخب، إذا هو أكمل خوض المعركة إلى النهاية، على رغم إدراكه بأنه لن يربح سوى تسجيل نسبة أصوات هي في حدود 6 بالمئة من الناخبين. وهذه النسبة ذات أهمية كبرى عندما يكون السباق إلى البيت الأبيض على النحو الذي جاء عليه هذه المرة، لأن تجيير هذه الأصوات – من خلال إنسحاب رالف نادر – إلى أحد الفريقيْن الديمقراطي أو الجمهوري هو الذي سيؤمِّن الفوز لهذا الفريق (حصل على حوالى ثلاثة بالمائة من الأصوات). وليس مبالغة القول إن رالف نادر اللبناني الأصل كان حتى قبْل ثلاثة أيام من «أم المعارك» الرئاسية في الولايات المتحدة هو

المُمسِـــك بمفتاح بوابة البيت الأبيض ما دام القطبان المتنافســـان يحتاجان إليه. ولا يلغي هذه الحقيقة أن الطرفيْن كانا لا يجاهران بذلك لكنهما في الوقت نفسـه كانا يبذلان، كل على طريقته وبأساليبه الملتوية، كثير الجهد من أجْل أن يدلي رالف نـادر ببيان يعلن فيه إنسـحاباته لمصـلحة الثنائي الجمهوري، أو لمصـلحة الثنـائي الـديمقراطي، أو على الأقـل يكتفي بـإعلان الإنسحاب تاركاً لناخبيه المحتمَلين أن يختار كل منهم الديمقراطي أو الجمهوري رئيساً للبلاد.

وما يجعل رالف نادر لا يرتضـي لعبة الإنسحابات في صـيغة صـفقة هو تاريخه الذي يتباهى به وبات ذائع الصـيت بسـببه، وهو أن صـوته بقوة أصـوات الكبار، وضميره أنقى من أن يتأثر بعروض لها طبيعة الصـــفقة. وهو لولا صـــيته ومعاركه من أجْل حماية المسـتهلِك الأميركي مع شـركات السـيارات ومصـانع المواد الغذائية العملاقة لما كان يمكنه أن يحظى في أكثر من إســتطلاع ســبق يوم الإنتخابات، بإحتمال حصـوله على 6 في المئة من أصـوات الناخبين مقابل 45 في المئـة للجمهوري بوش و41 في المئـة للديمقراطي آل غور، وأحياناً تزيد قليلاً نســبة الثاني وتتراجع قليلاً نسبة الأول.

من المؤكد أن الذين إلتفوا حول رالف نادر وإقتنعوا ببرنامجه وما في هذا البرنامج من أفكار وطروحات تطمئنُّ لها النفس الأميركية القلقة، لم يســتوقفهم أنه عربي من أصـل لبناني. لكن هذا الإلتفاف من جانبهم جعلنا ننتبه إلى مســألة في غاية الأهمية وهي أن «اللوبي العربي» – ومن رموزه رالف نادر – يجب أن يصــل ذات يوم من حيث التأثير إلى ما وصــل إليه «اللوبي اليهودي»، أي بما معناه أن يصـــبح عرب أميركا، وهم كثرة (حوالى مليون ناخب)، قوة لها تأثيرها الترجيحي عنـدمـا تكون موازين القوى على نحو مـا جاءت عليه في معركة الإنتخابات الرئاسـية الأميركية الأولى في الألفية الثالثة.

ومع الأخذ في الإعتبار أن الفضـــائيات العربية بدأت تلعب دوراً مهماً في تبريد مشـــاعر الغربة بين عرب أميركا وعرب المهاجَر عموماً، إلاّ أن الحكومات العربية مدعوة إلى دور حيوي وفاعل من أجْل تحويل ملايين الطيور العربية المهاجرة إلى لوبيات فاعلة في الحياة الســياســية الدولية وبالذات في أميركا. وتفادياً لأي حساسيات وإشكالات، فإن مثل هذا اللوبي يمكن أن تكون الجامعة العربية هي صـلة الوصـل معه من خلال إدارة مختصة.

أليس لافتاً للإنتباه أن قطبيْ سـباق الرئاسـة حاولا بنفسيهما إستقطاب عرب ولاية ميشيغان وأكثريتهم من اللبنانيين؟

أليس لافتاً للإنتباه أيضـاً أن اللبناني الأصـل رالف نادر إسـتمر حتى قبْل أن تبدأ «أم المعارك» الرئاسـية الأميركية، هو الذي يمســـك بثقة وعن جدارة بمفتاح بوابة البيت الأبيض؟

... ولأن الأمر لافت للإنتبـاه، كـان هـذا المقـال الذي هو مزيج من الملاحظات والتمنيات التي كُتبت بينما أمر الفوز النهائي لم يُحسـم بعد، وهل سـيكون لـ جورج بوش الإبن، الـذي يمكن أن يثـأر بفوزه لوالـده الرئيس الأسبق الذي إفترض أنه بعد حرب الخليج عام 1991 – 1992 التي قـادهـا والتـدمير الـذي ألحقـه بالعراق سـيتم تتويجه رئيسـاً تاريخياً ولفترتيْن رئاسـيتيْن على الأقل. لكنّ ســياســياً شــاباً مغموراً إســمه بيل كلينتون ألحق به هزيمة موجعة وأمكنه الوصـــول إلى قمة السُلطة... وعلى أهون السبل.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 9 نوفمبر(ت2) 2000

* * *

حرب أهلية أميركية؟

إنها «لعنة الإنتفاضة»!

لماذا لا يجوز القول، من باب المقارنة والإجتهاد، أن الذي حدَث في الولايات المتحدة في شأن الإشكال الرئاسـي هو «لعنة الإنتفاضـة» التي أصـابت الدولة الأعظم في العالم إصـــابة ما تزال في بداية تفاعلها، أي أنها مجرد لسعة قد تستَشري في الجسم السياسي الأميركي بحيث تتشـعب الأزمة الراهنة ويشـتد العناد في شـأن نتائج إنتخابات الرئاسـة الأميركية، ثم شـيئاً فشـيئاً تصـبح حال المجادلات الدائرة منذ ثمانية أيام مثل كرة الثلج. ثم – وليس ذلك بالبعيد أو المستبعد – تعيش الدولة الأعظم بولاياتها الخمسين حرباً أهلية من نوع جديد يزيد من حدتها أن الشـعب الأميركي هو في أكثريته شعب مسلح، حيث أن السلاح يباع معروضاً في الواجهات.. وإن كـانـت عمليات البيع والشـــراء تخضـــع لقوانين وسـجلات لا يمكن لأي بائع إخفاؤها عن السُلطات الأمنية.

وإفتراض التوقع بحدوث الحرب الأهلية ليس بذلك الأمر المستغرَب، ذلك أن أميركا هي إحدى أبرز الدول التي يرتبط تاريخها بحرب أهلية إستغرقت طويلاً ودفع البلد من جرَّائها خيرة الرجال وألوف الأبرياء. وقد تكون هنالك حربان أهليتان فقط في هذا التاريخ المشين للحروب الأهلية في العالم تفوقتا (بالمردود السلبي والبشع لكلمة التفوق) على الحرب الأهلية الأميركية هما الحرب الأهلية في إسبانيا ثم الحرب الأهلية في لبنان، الذي ما زال يكتوي سياسياً وإقتصادياً من آثار هذه الحرب وأمزجة بعض زعمائها الذين إنتقلوا من مواقعهم في إدارة متاريس الحرب إلى مواقعهم في إدارة شؤون البلاد والعباد.

ونحن عندما نقول، إفتراضاً، ان الذي أصاب الولايات المتحدة هو «لعنة الإنتفاضة»، فعلى أساس أن هذه الدولة هي السبب في سعير نار الصهيونية التي يكتوي بها الشعب الفلسطيني، الذي إرتضت زعيمة ما يُسمى بـ «العالم الحر» أن تغتصب العصابات الصهيونية وطنه وحقه في العيش الكريم، وإرتضت أن يتحول هذا الشعب إلى كتل بشرية متناثرة تهيم في الشتات داخل مخيمات تمثل البؤس في أبشع أشكاله، ينزعج منها مضيفوها العرب أحياناً ويضيقون ذرعاً بالقيادة الفلسطينية عندما تقرر خياراتها بنفسها رداً على تحميلها مسؤولية كل هذه المصائب التي حلَّت بالأمة.

بل إن هذه الدولة، أي الولايات المتحدة، هي السبب في إستشهاد كل عربي، طفلاً أو شاباً أو إمرأة أو كهلاً، برصاص العصابات الصهيونية منذ أقيمت لليهود دولة في فلسطين، أو بالصواريخ الأميركية أُسقطت عليهم وهم في منازلهم نياماً أو في ملاجئهم خائفين أو في مدارسهم يتعلمون أو في المصانع يعملون، من الطائرات التي ترى لكنها لا تُرى ومن حاملات الطائرات التي تتهادى فوق مياه لا تخص بلادها. ففي الحالتيْن الدافع واحد وهو أن تصمد إسرائيل ولا تخشى أي قوة عربية عسكرية تتنامى، وأن تبقى إسرائيل بمثابة الشوكة التي تُدمي الخاصرة العربية، وأن ينشغل العرب بجروحهم الناشئة عن العدوان وإعادة بناء ما يتم تحطيمه، وكذلك إشغالهم بصراعات وخلافات مفتعَلة في ما بينهم، وبذلك لا يكون هنالك تعاون ولا تضامن ولا تنمية، وتكون فقط إسرائيل هي المطْمئنة وأميركا هي المستقرة والمزدهرة تنعم بالمكاسب العائدة عليها من «منصبها» الذي قد تكون العقيدة الصهيونية هي التي إخترعتْه لها لغرض في نفس أصحاب هذه العقيدة. وهذا المنصب هو «النظام العالمي الجديد».

وهنا نصل إلى بيت القصيد. وما يمكن قوله في هذا الشأن إن أميركا والصهيونية تبادلتا صفقة على حساب الشعب الفلسطيني والمنطقة العربية عموماً، وبموجب هذه الصفقة تنفِّذ إسرائيل لأميركا ما تريد، وتلبي أميركا في المقابل كل ما تطلبه إسرائيل بدءاً من السلاح والمال مروراً بالعدوان الأميركي المباشر أحياناً سكوتاً على العدوان الإسرائيلي دائماً (كلاهما دائم السكوت والعدوان).

ما ترمي إليه أميركا هو أن تتزعم العالم، سواء عن رغبة ذاتية أو عن فكرة صهيونية تتسم بالإغراء، وما ترمي إليه الصهيونية هو أن تُخضع الإرادة الدولية وتتحكم بالقرار، وهذا يتأتى فقط إذا بات القرار، الأميركي بين يديْها وبحيث لا يقتصر على مركز واحد من مراكز صناعة القرار الأميركي وهو هنا الكونغرس، وإنما يتمدد بحيث يصل إلى داخل الإدارة نفسها في مرحلة أُولى، وهذا أمكن تحقيقه وفي ظل بدعة النظام العالمي الجديد حيث إمتلأت هذه الإدارة بالعديد من الشخصيات اليهودية الملتزمة قلباً وقالباً بإسرائيل. ثم تبقى مرحلة الضربة الأخيرة وهي الإطباق على الإدارة الأميركية بالكامل، وهذا ما تمثَّل بمفاجأة الحزب الديمقراطي الذي خرج على الخط الأحمر، أو على التقليد غير المسموح الخروج عليه وإختار اليهودي جوزف ليبرمان ليكون نائباً للرئيس، في خطوة قد يجوز تفسيرها بمزيج من حُسن النية وسوء الظن أنها هي الضربة الأخيرة المبرمجة، حيث يفوز الثنائي الديمقراطي بسباق الرئاسة ثم يتم في مرحلة لاحقة، ولأسباب ليس من الصعب إفتعالها، إغتيال الرئيس معنوياً بفضيحة من نوع فضيحة التحرش الجنسي وبطلتها مونيكا لوينسكي على أن يصعب على الرئيس (إفتراضاً أنه آل غور) الخروج منها بغير الإستقالة، أو إغتيال الرئيس (إفتراضاً أنه آل غور) جسدياً وبذلك يحل نائبه مكانه ويؤتى بعد ذلك بنائب بروتستانتي للرئيس وهذا يعني سابقة في منتهى الخطورة يشهدها المجتمع الأميركي البروتستاني – الكاثوليكي. والإغتيال بالرصاص ليس مفاجئاً ما دام سبق حدوثه مع جون كينيدي (الديمقراطي) وتعرَّض له رونالد ريغان (الجمهوري).

لمجرد أن جرت الإنتخابات وإنتهى السباق الرئاسي إلى ما إنتهى إليه، بدأت ملامح «لعنة الإنتفاضة» تلوح

في الأفق وهي لعنة لا بد أن العقل الغربي جاهز للإعتقاد بها. ونقول ذلك على أساس أن هنالك «لعنة الفراعنة» التي هي إبتكار غربي أخذ طريقه إلى كبار علماء الآثار وإلى بعض المتفوقين في فن كتابة الرواية البوليسية. وجاءت ترجمة هذه اللعنة على النحو الذي نعيش تداعياته منذ ثمانية أيام. يفوز الثنائي الجمهوري (جورج بوش الإبن – ديك تشيني) في البداية ويتلقى التهنئة بالفوز من منافسه الثنائي الديمقراطي (آل غور – جوزف ليبرمان) ومن بعض الحكام في العالم. يتحرك على الفور العقل الصهيوني الذي قد يكون فاجأه أن الرأي العام الأميركي لم يتحمل في الواقع هذا الإقتحام اليهودي للمعادلة الأميركية ويبدأ إثارة الشكوك ويطالب بإعادة الفرز في ولاية فلوريدا المعقودة اللواء تقريباً إنتخابياً لليهود، على رغم أن حاكمها هو الإبن الثاني للرئيس السابق جورج بوش وشقيق المرشح –«الفائز» في الإنتخابات، جورج بوش الإبن، الذي أغدق من الوعود على إسرائيل ما جعل المشهد يبدو في بعض مراحل السباق على النحو التالي: إذا كان الثنائي الديمقراطي على يمين إسرائيل فإن الثنائي الجمهوري على يسارها.

ثم تتوالى التداعيات التي تابعها العالم بإهتمام غير مسبوق من خلال الفضائيات والصحف، وتلوح في الأفق الأميركي بوادر فوضى سياسية بدأت تطْرق بقوة أبواب المؤسسات الأميركية وتهدد الأسواق والبورصات. ثم تكاثرت الشكوك في صيغة الحُكْم نفسه. وخلال أسبوع بدت الدولة الأعظم زعيمة «النظام العالمي الجديد» وكأنما حلّ غضب الله عليها جرَّاء الظلم والتجبر والعدوان، وإنكار الحقوق للشعوب، وعدم إعتماد النزاهة في التعاطي مع القضايا العالقة والصراعات المستعصية، وجرَّاء الوقوف دون وجه حق مع المعتدي والإستهانة بمنظمة الأمم المتحدة وتطويعها بحيث باتت هذه المنظمة وكأنما هي فقط ضد العرب ومع إسرائيل، وإستعمال سلاح الفيتو في كل مرة تكون هنالك شكوى عربية ضد إسرائيل، وعدم الإكتراث بوفاة ستمئة ألف طفل عراقي حتى الآن ناهيك ببضعة ألوف قتلتهم التكنولوجيا الحربية الأميركية وببضعة ملايين عربي إقتطعت منهم حقهم في الحياة الكريمة. وجاءت إنتفاضة الأقصى لتكشف حقيقة موقف أميركا. ثم جاءت تداعيات السباق الرئاسي بمثابة لعنة تنصبُّ على رأس النظام العالمي الجديد، الذي قد تحيل التداعيات هيبة هذا النظام واستقراره الى قصة أغرب من الخيال تتداولها أجيال أميركا في الألفية الثالثة جيلاً بعد جيل، وخلاصتها أن دولة صغيرة إسمها إسرائيل تم إستيلادها نتيجة مؤامرة بريطانية – أميركية تتحمل بريطانيا الوزر الأكبر فيها، تمكنت من أن تخدع الدولة الأعظم في العالم (أي أميركا) وتتلاعب بها وتجعلها غير محترمة في عيون شعوب العالم وان كانت مُهابة الجانب من جانب بعض أنظمتها، وإستمرت الحال على هذا النحو الى أن إقترف جنرال إسرائيلي، مُغرق في جرائمه والذي لا تمت خصاله إلى الشرف العسكري بصلة، إثماً من النوع الذي لا يُغتفر حيث إقتحم، يحيط به ثلاثة آلاف عسكري، وضعهم جنرال من نوعيته إسمه إيهود باراك، باحة المسجد الأقصى متعمداً السفاح (أي شارون) أن يفعل ذلك في خضم السباق الرئاسي الأميركي وبذلك يضع رئيس أميركا أمام الأمر الواقع. ثم كانت الإنتفاضة. وكان إغتيال الطفل محمد الدرة في حضن والده. ثم بدأت قافلة شهود الإنتفاضة شهيداً بعد آخر. ثم بدأ الغضب العربي الذي حقق صحوة كانت ضمن المستحيلات وإنتهت الى بداية وقفة شجاعة. ثم تلت القمة العربية، وعلى وقع تزايُد حيوية رماة الحجارة، قمة إسلامية كانت ربما لن تنعقد لو لم تَتجاوب الدولة المضيفة (قطر) مع وجهة النظر السعودية، وحققت هذه القمة هي الأُخرى توحُّداً نسبياً مغيَّباً في المفاهيم وفي النظرة إلى الصراع العربي – الإسرائيلي.

وبعد هذا جاء الخطأ الأميركي من جانب آل غور الذي إختار دون الآخرين اليهودي جوزف ليبرمان ليكون نائباً له في السباق الرئاسي، وهو خطأ ببشاعة الخطيئة الشارونية – الباراكية.

يصعب التكهن بما ستنتهي إليه التداعيات التي تعيشها الولايات المتحدة والتي ستأخذ منحى جديداً في ضوء حسْم مسألة الرئاسة. إنما المؤكد أن «لعنة الإنتفاضة» أخذت طريقها إلى الجسم السياسي الأميركي، وأن العالم بأسره الذي لا يخفي تأففه من وطأة الهيمنة الأميركية الثقيلة، سيكون مديناً لها لأنها في نهاية الأمر ستُنهي بدعة «النظام العالمي الجديد» الذي تَبين أن إنهاءه مستحيل بغير زلزال يضرب الإستقرار السياسي والمالي الأميركي. وهذا ما بدأ يحدث. وبإنتهاء بدعة «النظام العالمي الجديد»، أو في الحد الأدنى إضعاف شأن هذه البدعة، تستقيم أمور العالم وتصطلح الأحوال.

ويبقى تساؤل:

هل ستكون «لعنة الإنتفاضة» عبرة للشعب الأميركي، فيصبح متنبهاً بعد الآن، في ضوء ما جرى،

للوعود التي يبالغ المرشحون للرئاسة، من باب التملق، في تقديمها لإسرائيل. وبفضل هذا التنبُّه لا يعود هذا الشعب البروتستانتي ـــ الكاثوليكي في أكثريته الساحقة يسمح بترك مؤسسات الحُكْم في أيادي أقلية من اليهود الصهاينة؟

وهل يأخذ الشعب الأميركي في الإعتبار المخطَّط الصهيوني الشرير الذي يقضي بأن تحكم الصهيونية العالم من خلال رئيس لأميركا يكون يهودياً، لأن التحكم الجزئي أحياناً، والكلي في بعض الأحيان، بالقرار الأميركي لا يكفيها... أو بالأحرى لا يحقق لها أطماعها.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 نوفمبر (ت2) 2000

* * *

إسرائيل المستشار شرودر... وفلسطين الطبيب هاري فيشر

لو كان هنالك إعلام أجنبي محايد يعكس ما يجري في الأرض الفلسطينية، لكان الرأي العام العالمي إنقلب على إسرائيل، ولكان أي مواطن في دول العالم الساكتة على الظلم الإسرائيلي إنفجر غيظاً، ولكانت التظاهرات التي شهدتْها بعض الدول العربية والإسلامية خلال الشهريْن الماضييْن لنصرة إنتفاضة الأقصى حدثت في معظم المدن الأميركية والأوسترالية والكندية والأوروبية وغيرها..

وعلى رغم أن هذه التظاهرات (المفتَرضة) كانت ستحدُث بمفهوم آخر وأسلوب تعبير عن الإحتجاج يختلف عن الأساليب العربية والإسلامية التي تتسبب أحياناً بإفراغ التظاهرة من معناها وهدفها نتيجة بعض الهتافات وإحراق الأعلام الأميركية... على رغم ذلك فإنها كانت ستشكِّل أداة ضغط على الأنظمة في هذه الدول التي تناصر إسرائيل إما بالتأكيد العلني، وإما بالسكوت على الممارسات الإسرائيلية والإعتداءات المتكررة على الدول والشعوب.

ولو كان هنالك إعلام أجنبي محايد لما كان رئيس دولة مثل مستشار ألمانيا الغربية جيرهارد شرودر سمح لنفسه بأن يستعجل مد إسرائيل بغواصات بَنتْها بلاده لها وفْق أعلى مستويات التكنولوجيا المتقدمة. ويحدُث ذلك في الوقت الذي كانت إسرائيل تقوم فيه بأبشع عملية إبادة للفتية الفلسطينيين الذين يعبِّرون بالحجارة عن ضيقهم من الإحتلال الإسرائيلي ورفْضهم إقتحام باحة المسجد الأقصى بقوة السلاح، وهو ما فعله أرييل شارون الذي يمثِّل الجانب الإسرائيلي في قيادة مجزرة صبرا وشاتيلا والذي كوفىء على دوره هذا بتوزيره في الحكومة على نحو المكافأة التي نالها من يمثِّل الجانب اللبناني (لا سامحه الله على ما فعله) بتوزيره هو الآخر في الحكومة اللبنانية. ولكن غياب الحياد أو تغييبه عن الإعلام الأجنبي جعل مثْل هذه الخطوة المسيئة من جانب المستشار شرودر تحدُث ومن دون أن يسأل المستشار نفسه: ما الذي سيقوله العرب (كرأي عام) عني وأنا أمدُّ إسرائيل بغواصات ستكون أحد أسلحتها الفتاكة في عدوانها المقبل على الدول العربية؟

أما الذي إستنتجه الرأي العام العربي من هذه الخطوة فعبارة عن تساؤل بالصيغة الآتية: هل أن شرودر شريك فاعل في دعْم العدوان الإسرائيلي؟ ربما هو كذلك لأنه في قرارة نفسه يرى في الصهيونية أنها تجسيد للنازية وأنه إذا كان من الصعب إحياء هذا الإرث أو «التراث» في ألمانيا فإنه ليس هنالك ما يمنع من دعْم أي توجهات نازية المضمون مثْل الصهيونية متمثلة بالكيان الإسرائيلي. وهو في أي حال مجرد تساؤل. والتساؤل لا يعني بالضرورة أنه حقيقة.

وما يلفت الإنتباه هو أن المستشار شرودر إختار لهذه الخطوة المسيئة، الغطاء الذي يُظهره وكما لو أنه أحد «رُسل السلام» الذين يُطِلون على المنطقة العربية بين الحين والآخر بهدف خدمة عملية السلام العسيرة الولادة، ومَن يتأمل في طبيعة إطلالاتهم يرى أنها في النهاية تصب في مصلحة إسرائيل. وبالنسبة إلى المستشار شرودر فإن الغطاء الذي وضعه فوق منحة الغواصات الألمانية لإسرائيل التي ستعتدي بواسطتها مستقبلاً على العرب هو تقديم بعض المساعدات للدول العربية التي سالمت إسرائيل مثل مصر والأردن والسُلطة الوطنية الفلسطينية، والإيحاء بمساعدات مماثلة بهدف الترغيب لدول تنتظر نضوج عملية السلام، وهل سيكون عادلاً وشاملاً مثل لبنان وسوريا. وتحت هذا الغطاء جهد ألماني غير مشكور لتخليص أسرى إسرائيليين من قبضة «حزب الله».

ومن المؤكد أنه لو كان هنالك إعلام أجنبي محايد لكان شرودر قد شعر بشيء من الخشية والتهيب، فلا يستعجل تفادياً منه لنقد تنشره وسائل الإعلام أو تبثه

تقديم الغواصات لدولة ترفض إحلال السلام في المنطقة، ولا يبذل الجهد في سبيل إنقاذ أربعة إسرائيليين أسرى في قبضة «حزب الله» بينما هنالك في قبضة إسرائيل وطن محتل وشعب مغلوب على أمره بسبب قيادات مثل شرودر وغيره وألوف الأسرى والسجناء العرب في القبضة الإسرائيلية نفسها، فضلاً عن عدوان يومي يبدو واضحاً أنه يستهدف الفتية الفلسطينيين في رؤوسهم أو في موقع القلب من الجسد كي يموتوا، أو في ظهورهم كي يفقدوا القدرة على الحركة، وبذلك لن يكونوا مقاتلين في المستقبل.

وبطبيعة الحال فإنه لو كان هنالك هذا الإعلام الأجنبي المحايد الذي نشير إليه لكان الرأي العام الألماني سيقول إن القليل الذي تنشره الصحف أو تبثه الفضائيات والإذاعات ومحطات التلفزيون عن العدوان الإسرائيلي المتواصل على الشعب الفلسطيني صحيح، وليس من مصلحة ألمانيا أن يفعل بنا مستشارنا ذلك لأنه بما فعله إنما يساعد إسرائيل التي تمارس أساليب النازية التي طالما عانينا منها. وعندما سيتأثر الرأي العام على هذا النحو فإن الحاكم يتريث وربما يعيد النظر.

كذلك لو أن الإعلام الأجنبي كان محايداً أو على شيء من الحياد لكان أنصف بالكتابة أو بالصورة أو بالوسيلتيْن معاً إنتقاضة الأقصى، وذلك من منطلَق أنها المواجهة الفريدة من نوعها في تاريخ المواجهات بين الحجارة والتكنولوجيا الحربية المتقدمة. أطفال وفتية، رجال ونساء، شبان وشابات.. يرمون جنود الإحتلال بالحجارة ويسببون لهم الذعر، وهؤلاء يردون عليهم بالرصاص القاتل ينطلق من بنادق رشاشة تساندهم عند الضرورة الصواريخ تنطلق من البحر أو من الجو. رماة الحجارة يتكلون على الله ويغمرهم الإيمان والتوق إلى الإستشهاد إذا كان في ذلك ما من شأنه أن ينصر قضيتهم. والمعتدون بالبنادق يتكلون على أن أميركا معهم، وأن معظم الدول الأوروبية (عدا القليل من التفهم والتعاطف الفرنسي) إما مسانِدة وإما متفهّمة، وأن روسيا غائبة أو في حالة تغييب شأنها شأن الصين، وأن الأنظمة العربية والإسلامية شبه مغلوب على أمرها لا تفعل ما يجب عليها القيام به ولا تنفِّذ بدقة ما يقرره القادة عندما يلتقون في مؤتمر من نوع القمة العربية الإستثنائية في القاهرة يوميْ 21 و22 أكتوبر/ تشرين الأول الماضي (2000) والقمة الإسلامية التاسعة في الدوحة أيام 12 و13 و14 نوفمبر/ تشرين الثاني الجاري (2000). والأهم من ذلك، أو بموازاته من حيث الأهمية، هو أن الإعلام الأجنبي مع المعتدين الصهاينة وبحيث أن هذا الإعلام يلوي الحقائق فيصبح القاتل هو الضحية والقتيل هو الجاني، والعدوان هو دفاع عن النفس، والتعبير عن الغضب برمي الحجارة هو العنف بهدف ضرْب عملية السلام، بينما الرد عليه بالرصاص القاتل هو لتسهيل العملية السلمية، وتصبح المطالبة بتنفيذ الإتفاقات والمعاهدات والقرارات الدولية خطأ وأن الصواب هو رفْض تنفيذ هذه الأمور كلها على نحو ما تفعل إسرائيل... وهكذا.

وإلى ذلك إن هنالك عدا واقعة إغتيال الطفل محمد الدرة في حضن والده الذي لا حجَرَ بين يديه (وإن كانت أمنية الإثنين أن يكونا من الرماة) لكي يستحق الإعدام على النحو الذي حدَث، عشرات الوقائع التي تشكِّل كل واحدة من الأسى والإستغراب ما قد يجعل الرأي العام الأجنبي يستنكر هذا الذي تفعله إسرائيل. لكن ذلك مرتبط بالإعلام المتجرد من الأهواء ومن تأثير الصهيونية عليه وهو ما لا يتحقق.

وعلى سبيل المثال لا الحصر تكفي واقعة الفلسطيني الذي ضحى بحياته من أجْل إنقاذ طفل إسرائيلي هو في سن محمد الدرة كاد يغرق في بحيرة طبريا، وهي واقعة حدثت في سبتمبر/ أيلول الماضي(2000)... تكفي هذه الواقعة لتنوير الرأي العام الأجنبي لو كانت هنالك وسائل إعلام أجنبية متجردة ترويها وتعلّق عليها بجزء من الحماسة التي كانت ستفعله لو أن إسرائيلياً ليس ساعد على إنقاذ طفل عربي وإنما أسعف جرحاً بسيطاً أصابه. كذلك تكفي واقعة العدوان الإسرائيلي الذي ذهب ضحيته الطبيب الألماني هاري فيشر الذي إستقر في بلدة بيت جالا في فلسطين وكان نموذجاً لعائلة مسالمة بعدما تزوج من الفلسطينية المسيحية نورما وأنجبا إبنتيْن وولداً وكانت جريمته أنه يداوي جراح الناس، ومن أجْل ذلك رد المعتدون الصهاينة على نخوته هذه بصاروخ أحرق بيته ورماه في الشارع بعدما تمزقت ساقه ويده وبقي ممدداً في الشارع ساعتيْن لأن الجيش الإسرائيلي منع سيارة الإسعاف من محاولة إسعاف من كان يُسعف الجرحى حتى إذا كانوا جنوداً إسرائيليين. وهذه الواقعة هي في أي حال رسالة شكر صهيونية إلى المستشار شرودر على الغواصات التي إستعجل تأمين وصولها إلى إسرائيل في الوقت الذي يرفض فيه الصهاينة الإرادة الدولية لتحقيق السلام ويُمعنون قتلاً في أطفال فلسطين وفتيتها رماة الحجارة ومن يرون أنه يشكِّل نموذجاً للتعايش والعمل الإنساني أمثال الدكتور فيشر الذي إنضم إلى قافلة

شهداء الإنتفاضة التي تفتقد إلى الإعلام الأجنبي النزيه وتمت مواراته الثرى في أرض قرية فلسطينية تُمثل نموذجاً كثير الرقي للتعايش المسلم – المسيحي، وبكاه الجميع بعدما كانوا شيعوه ملفوفاً بعلم فلسطين من دون أن يكون الإعلام الأجنبي منصفاً لهذه الواقعة، ومن دون أن يثور الرأي العام الأجنبي على ذلك. وكيف سيثور ما دام، كما نلاحظ، هو أسير الماكينة الإعلامية المؤيدة من دون تحفُّظ لإسرائيل أو المسايِرة لها بحُكْم تبادل المصالح.

وخلاصة القول إن عشرات الصور للمأساة الفلسطينية تصلُح لتكون ليس فقط موضع إهتمام جدي من إعلام أجنبي محايد، وإنما تصلح لتكون مادة بوسترات لعمْق المعنى والمغزى والمأساة فيها. بل إن إنتفاضة الأقصى بتفاصيلها وجزئياتها وصولات الرماة وجولاتهم وفلسفة هذه الإنتفاضة التي هي بروحية فلسفة المهاتما غاندي ونظرته للمقاومة، كانت ستصبح موضوعاً لعشرات الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية لو كان الإعلام الأجنبي محايداً ومنصفاً وهدفه الحقيقة... ولا شيء غير الحقيقة.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 21 نوفمبر (ت2) 2000

* * *

عودة الإبن البار... الحفيد المدلل: نهاية المطاف أم إستراحة معارض؟

لا بد من الخرطوم وإن طال العيش في المنفى. وها هو السيد الصادق المهدي الذي غادر منزله في العاصمة المثلثة تحت جنْح الظلام ذات ليلة من شهر ديسمبر/ كانون الأول 1996 لم يهنأ فيها بمناسبة فرح إبنته قاطعاً الفيافي السودانية في إتجاه الشرق لينضم إلى أركان المعارضة السودانية في الشتات الإريتري... ها هو بعد أربع سنوات شاقة أمضاها في الفصل الثاني من حقبة المنفى الذي إعتاد عليه ينطلق يوم الخميس 23 نوفمبر/ تشرين الثاني 2000 وفي وضْح النهار في إتجاه الخرطوم ويختار طائرة ليبية لرحلة العودة حطت مساء في مطار الخرطوم وبذلك بدا وصول السيد الصادق إلى مدينته الذي كابد الشوق إليها كمثْل الطيور العائدة مع غروب الشمس إلى أغصان الشجر بعد تحليق أضناها طوال النهار.

وخارج المطار كان هنالك عشرات الألوف من الأنصار المبتهجين بعودة الإبن البار للطائفة والحفيد المدلَّل للإمام عبد الرحمن المهدي الذي أخفق (أي الإبن... الحفيد) في الماضي في إبتكار صيغة للتعايش مع النظاميْن العسكريين في السودان يحظى فيها بما يجعله لا يعود يرى العلاقة المتوازنة غير ممكنة بينه وبين الجنرالات.

كانت تجربة الصادق المهدي مع «ثورة مايو» ورئيس نظامها جعفر نميري من التجارب المرة. ثم جاءت تجربته مع «ثورة الإنقاذ» والرئيس المستقر لنظامها عمر حسن البشير أكثر مرارة. وفي الحالتيْن كان الصادق المهدي عندما تصل الأمور إلى الحائط المسدود يقرر الإغتراب والعمل من الخارج. ولسوء حظه أن خيار المنفى لم يحقق له ما يرجوه لا على الصعيد المعنوي ولا على صعيد المكسب السياسي. فهو في المنفى جنحَ نحو الإنتقام ونحو تحالفات غير موضوعية ولا تنسجم مع رؤاه الفكرية. وفي بعض المراحل بات يصعُب على المرء التمييز بين الصادق المهدي الرمز الإسلامي المستنير وبين الجنرال جون قرنق طرزان السودان الذي يقاتل الدولة في أدغال الجنوب، بمعنى أنه بدل أن يجذب السيد حليف الشتات إليه، فإن الجنرال نجح نسبياً في أن يستدرج الصقر الذي إنضم متأخراً إلى السرب. ومِن هنا القول إننا في بعض المراحل بتنا لا نستطيع التمييز بين السيد الصادق بعِمَّته البيضاء وبين الجنرال جون بقبعة الميدان والثوب العسكري المرقَّط. وهذا التحالف جعلنا نرى أنه ما دام ليس مستحيلاً أن يتعايش السيد والجنرال في الشتات وإلى درجة أن الأول بدا وكما لو أنه رئيس وزراء الدولة التي سيحكمها الجنرال قرنق بعد «تحرير» السودان، فلماذا إذاً كل هذا العذاب في السنوات الماضية ولماذا تلك الإستحالة في تعايُش السيد الصادق والجنرال الماضي جعفر نميري ثم الجنرال الحالي عمر البشير. ثم لماذا المرونة والتكتيك ممكنان في الشتات بينما في الوطن لا مجال لغير المبدئية ولغير الإستراتيجية ولغير التعجيز.

إلاَّ أننا في الوقت نفسه لا نُسقط من الإفتراض أن هذا الوضع غير المستقيم في الشتات هو من جملة الدواعي التي جعلت السيد الصادق يقرر بعد أربع سنوات متنقلاً بين أسمرة والقاهرة وطرابلس ولندن وواشنطن أن العودة هي الحل. فما أراده من فكرة مغادرة البلاد لم ولن يتحقق. بل قد يجوز القول إن

مغادرته قبْل أربع سنوات أفادت بعض رموز المعارضة في الخارج وانْ كان هؤلاء وبالذات جنرالهم جون قرنق إستمروا ينظرون إلى إلتحاقه بهم على أنه تأخر كثيراً وأنه لو وجد الطريق سالكة أمام تعاون بصيغة إقتسام للحُكم بينه وبين الثنائي الممسك بالمقاليد في البلاد (الدكتور حسن الترابي – الفريق عمر البشير) لما كان إختار الطريق الأكثر صعوبة متحملاً المخاطر ومِن بينها إحتمال أن يفعل به جنود «الإنقاذ» إذا هم إكتشفوا هربه ما سبق أن فعله جنود «مايو» بعمه الإمام الهادي عندما أطلقوا عليه النار وهو هارب في إتجاه الأراضي الأثيوبية – الإريترية وإنتهى جثماناً مدفوناً في مكان مجهول – معلوم.

أما كيف أفادت مغادرته رموز المعارضة وحركتهم عموماً أكثر مما أفادته شخصياً ففي أنها أعطت المعارضة وزناً خارجياً كانت تفتقده وذلك لما للصادق المهدي من علاقات معظمها في إتجاه دول الغرب، كما أنها على صعيد العمق السوداني جعلت المعادلة تستقيم بعض الشيء وبحيث بدت هذه المعارضة أنها تمثِّل القوى الأساسية في السودان (عدا جماعة الإتجاه الإسلامي) فضلاً عن أن إلتحاق السيد الصادق بالركب المعارض خفف من وطأة هيمنة الجنرال قرنق على الآخرين ومِن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر السيد محمد عثمان الميرغني زعيم الطائفة الختمية في السودان الذي هو الآخر لم يرحب ضمناً بالإلتحاق المفاجيء للصادق لعدة إعتبارات مِن بينها أن السيد محمد لم يعد عملياً الرأس الثاني للمعارضة بعدما كان هو هذا الرأس مقابل الرأس الآخر الجنرال قرنق، ومِن بينها أيضاً أن منافسه التاريخي على الصعيد الداخلي أي السيد الصادق خطف منه جزءاً من الإهتمام المصري بعدما كان هو، وبحُكْم تقليد تاريخي يعود إلى أكثر من نصف قرن، يستأثر بعد والده المرحوم السيد علي بهذا الإهتمام. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن الإلتفاف الملحوظ من جانب مصر حول السيد الصادق كان إلتفافاً أوجبته المصلحة السياسية وفي زمن كانت مشاعر الثأر مما فعلتْه «الإنقاذ» بالرئيس حسني مبارك عندما وقفت في شكل أو آخر وراء محاولة إغتياله قرب مطار أديس أبابا، لا تزال تتفاعل في نفوس أهل النظام المصري، في حين أن العاطفة المصرية الحقيقية هي نحو الحليف الختمي الذي لا يحيد إطلاقاً عن ثبات الموقف المؤيِّد ومن دون أي تحفظات لمصر وما تريده في السودان ومنه وله.

وفي السنوات الأربع التي أمضاها السيد الصادق صقراً ضِمْن سِرْب المعارضة بصقورها المتنوعة اللون والمخالب، بدت المعارضة السودانية كم أنها على جانب من الشأن الذي جعل عساكر النظام في السودان ينفِّذون وبثقة بالنفس ملحوظة، حركة تصحيح قادها الفريق عمر البشير إما لتشجيع المعارضين على العودة غير آبهين بالنهج الذي يريده شريكه الترابي، وإما لقطع الطريق على تحالف يمكن قيامه بين الترابي والمعارضين على حساب العساكر، وهو تحالف لا يبدو مستحيلاً في ضوء تجربة «ثورة أكتوبر» ضد حُكْم الجنرال إبراهيم عبود وقيام حُكْم تحالُف الأحزاب (وهي هي هذه الأحزاب لم تندثر ولم تتطور) على أنقاض ذاك الحُكْم، وكذلك في ضوء خطوات على طريق المصالحة بدأها الدكتور الترابي مع السيد الصادق ولم يقتنع الجنرالات بأنها مجرد مصالحة بين نسيبيْن لم تعد الأُسرة المهدية – الترابية تتحمل عدم حدوثها، ولم تعد تتحمل أيضاً تربُّع الدكتور الترابي على قمة السُلطة بينما السيد الصادق الإبن البار للأُسرة والحفيد المدلل لجده الامام عبد الرحمن يعيش في الشتات بعيداً عن عائلته وأبنائه وقِبة جده. هذا فضلاً عن أن الفريق البشير، الذي بات أستاذاً في فن المناورة والتكتيك وبارعاً في فتْح القنوات مستفيداً من ترحيب الكثيرين بأي محاولة من جانبه تستهدف تقليم بعض مخالب شريكه في الحُكْم، دخل بتأييد ودعم كبيريْن من جنرالات البلاد على الخط وإندفع في إتجاه ما يجوز إعتباره تحقيق مصالحة وطنية وتحييد الرموز السياسية المهمة في حركة المعارضة بهدف إبعادها عن الجنرال قرنق وذلك على أساس أن البلاد لا تتحمل جنراليْن: واحد جاء لـ «الإنقاذ» هو الفريق البشير والثاني لـ «التحرير» يصول ويجول ويمعن فتكاً بجنود النظام وضباطه عندما يتيسر له ذلك هو الجنرال قرنق.

وكان الدخول على الخط المشار إليه مثمراً. فقد إستعاد الفريق البشير من القاهرة المشير جعفر نميري وأُحيطت العودة بتكريم إستثنائي وإستأنف الرئيس السابق تحرُّكه الذي وصل إلى حد أنه رشَّح نفسه للرئاسة معتمداً على الإنطباع السائد في البلاد وهو أن الأحوال في أيامه كانت أفضل. ثم قرر الفريق البشير في خطوة موازية إستعادة الصادق المهدي ومارس في هذا الإتجاه من المرونة ما لا يمارسه عادة

الجنرالات عندما يكون هؤلاء في سدة الحُكْم، ذلك أنه توجَّه بنفسه لعقد إجتماع مع السيد الصادق، وكان الإجتماع الذي جرى في جيبوتي بعيداً عن عواصم معارضي الشتات مثمراً وإنتهى بعد حوار صامت وصبور الى أن السيد الصادق عاد وعوَّضه الإستقبال الشعبي الهائل (حوالي مليون شخص) الذي جرى له في مطار الخرطوم ومشاركة رسميين في الإستقبال، مرارة سنوات الحقبة الثانية من المعارضة من الخارج. كما أن هذا الإستقبال الذي جاء بمثابة إستفتاء شعبي على حجم حضوره السياسي أزال من الذاكرة العتب على الظروف التي جعلت الرئيس جعفر نميري يحتاط قبْل 23 سنة لمخاطر إستقبال من هذا النوع فيقرر أن يتم اللقاء ليلاً بينه وبين خصمه اللدود (السيد الصادق) في بور سودان وليس في الخرطوم ومن دون أن يعرف أحد بموعد وصول الطائرة الرئاسية التي أقلت الرجل الذي سيبرم معه مصالحة لم تعمِّر طويلاً مع الأسف السوداني الشامل لذلك. ثم تكون العودة في العام 2000 بالطريقة التي يتطلع إليها السيد الصادق أي تكون مزيجاً مما جرى للإمام الخميني في مطار مهراباد عندما عاد من المنفى الفرنسي ومما جرى للملك فيصل بن عبد العزيز والرئيس جمال عبد الناصر (يرحمهما الله) عندما وصلا الى الخرطوم تباعاً للمشاركة في قمتها الشهيرة عام 1967 وإبتكر ثنائي ذلك الزمان السوداني الغابر والعاطر (الراحلان) إسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب لإستقبالهما صيغة ذهبت مثلاً في قدرة الحُكْم السوداني على تحقيق مصالحة تاريخية هي التي تمت بين أكثر خصميْن ضراوة زمنذاك، أي السعودية ومصر، بسبب اليمن، وعلى رفْع معنويات زعيم تاريخي أصابت وطأة الهزيمة كبرياءه بخدوش ورضوض، أي جمال عبد الناصر.

وبهذا الإستقبال الذي جرى للسيد الصادق في مطار الخرطوم يكون جنرال «الإنقاذ» عمر البشير أزال من نفس السيد الصادق، الحفيد الأنصاري المدلل لجده الإمام عبد الرحمن والإبن البار للأُسرة المهدية الأنصارية، إحتقانات تجعله لدواعي السن من جهة وإخفاقات العمل المعارض وبالذات ما يتعلق بالثأر إلى درجة «الإفتاء» بقتل الجنود وضرْب آبار النفط تلك الثروة التي هبطت في زمن «الإنقاذ» كنِعمة على السودان، أكثر ترويا وحكمة وأقل إشتراطاً وعناداً، وهذا ما يتطلع إليه محبو السيد الصادق ويريده الأنصاريون في المرحلة المقبلة وفي ما تبقَّى مِن العمر (أطاله الله) ومن الهمة (أسبغها المولى عليه) من إبنهم البار العائد هذه المرة... ولن يغادر، على الأرجح، بعد الآن لأن أمامه مهمة وطنية وواجبات لا حصْر لها نحو الوطن المثقل بالمشاكل المستعصية والعائلة الأنصارية التي تحتاج إلى من ينهي تصدعاتها وتحسم أمر تسمية إمامها. فهل سيفعل؟ أم ستكون العودة مجرد إستراحة معارض ورغبة في صوم هانىء في رحاب أُسرته طالما إشتاق إليه، تمهيداً لجولة ثالثة من المعارضة في المنفى؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 نوفمبر (ت2) 2000

* * *

فتاوى إستنسابية... للإنتفاضة المتواصلة

قبْل شهريْن، وفي ذروة الغضب الشعبي العربي على العدوان الإسرائيلي الذي يتعرَّض له الشعب الفلسطيني، إنطلقت خلال التظاهرات والمسيرات في معظم العواصم العربية والإسلامية هتافات تندد بالعدوان والمعتدين وجرت عمليات إحراق للأعلام الأميركية إلى جانب إحراق الأعلام الإسرائيلية. وإنطلقت أيضاً دعوات إلى مقاطعة البضائع الأميركية وكل ما هو أميركي بدءاً من «الجينز» مروراً بالمنتجات الإستهلاكية على أنواعها وصولاً إلى الهمبرغر والوجبات السريعة.

كانت هذه الدعوات لافتة للإنتباه وتطرُق الأسماع بقوة أصوات الآلات النحاسية. وعندما إشتدت حدة الدعوات هذه بدأ بعض رجال الدين وبالذات مَن لهم صفة الإفتاء (مفتي الديار المصرية الشيخ نصر فريد واصل) ومَن لهم حق الإجتهاد (السيد محمد حسين فضل الله المرجع الشيعي المعروف في لبنان) يطلقون التصريحات التي تتضمن الدعوة إلى مقاطعة كل ما هو أميركي. وهذان الرمزان (واصل وفضل الله) لهما، إذا جاز القول، صفة رسمية ومرجعية. ولكن ذلك لا يعني أن الآخرين الذين أفتوا ليس لهم مريدون يحترمون رؤاهم وأفكارهم وفتاواهم أمثال الشيخ يوسف القرضاوي المقيم في الدوحة وبعض علماء الدين في اليمن.

ولكن هذه الدعوات إستمرت مجرد صرخات وجدانية سببُها أن الرأي العام في حالة حماسة

للإنتفاضة وفي حالة غضب على ما تفعله القوات الإسرائيلية بالفتية رماة الحجارة، وأنه بعدما لم تصدر عن الأنظمة خطوات لمؤازرة الإنتفاضة بات من الطبيعي التطلع نحو علماء الدين علَّهم يفتون بما من شأنه أن يترجم الحماسة إلى أفعال والغضب إلى إجراءات.

ومِن هنا فإننا لا ندري ما إذا كانت الفتاوى التي صدرت في شكل تصريحات وخُطب مِن على منابر المساجد وبحيثيات متشابهة جاءت عن إقتناع لدى البعض، أو أنها كانت مجرد تخفيف لحدة الإحتقان في صدور الجماهير التي تصب جام غضبها على الولايات المتحدة وإسرائيل. ونقول ذلك على أساس أن الفتوى ليست مجرد فكرة تخطر في البال فيفتي بها مَن له صفة الإفتاء، وليست مجرد تصريح تنشره صحيفة مثْل سائر التصريحات التي يسجل فيها المفتون مشاعرهم نحو قضية ما بهدف الإدانة أو التعاطف، وإنما الفتوى مُلزمة ما دام المرء مسلماً ومتديناً وما دامت صدرت في شكل بيان رسمي بكلمات مقتضَبة وحيثيات محددة، أي بما معناه يكون مثل البيان الذي يصدر لتحديد أول أيام الصوم بعد ثبوت الرؤية أو لتحديد إكتمال شهر الصوم.

هنا نتوقف عند النموذجيْن الدينييْن اللذيْن طرحا بقوة موضوع مقاطعة المنتجات الأميركية كسلاح ضد الولايات المتحدة يؤازر به العرب والمسلمون إنتفاضة الأقصى.

النموذج الأول الذي هو الشيخ نصر فريد واصل جاءت فتواه في شكل مقابلة مع صحيفة «العربي» الناصرية قال فيها: «إن مقاطعة المنتجات الأميركية والإسرائيلية تكليف شرعي وشكْل من أشكال الجهاد» موضحاً أن مستورد هذه المنتجات يجب أن يُعتبر «مجرماً» وأنه أصدر فتوى بهذه المقاطعة. أما متى صدرت هذه الفتوى وكيف جاء نصها فإن الشيخ نصر لا يوضح.

والنموذج الثاني الذي هو المرجع الديني الشيعي اللبناني السيد محمد حسين فضل الله إغتنم مناسبة حلول شهر رمضان ليوجّه يوم الثلاثاء 28 نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي نداء أفتى بموجبه «بمقاطعة البضائع الأميركية ما أمكن المسلمين ذلك ومقاطعة البضائع الإسرائيلية بالمطلق ومقاطعة كل المحلات والشركات التجارية التي تساعد إسرائيل بالدعم المادي في العالم كله ما أمكن ذلك...».

الدعوتان طيبتان كمضمون، إلاّ أن صدورهما على النحو الذي صدرتا فيه معناه أنهما ليستا فتويْن بالمعنى المطلوب، أو إذا جاز التعبير إنهما فتويان إستنسابيتان أو مجرد رأي يقال ضمن حملة تعبئة وطنية شعبية، وبالذات بالنسبة إلى مفتي الديار المصرية، ذلك أنه موظف في الدولة وهذا معناه أن يكون ملتزماً بسياسة الحكومة وبكل الإتفاقات والمعاهدات المبرمة بين النظام وأنظمة أُخرى في العالم. ومن هنا لا نتصور كيف ستكون المقاطعة ممكنة لشركات أميركية متعاقدة مع الحكومة وضِمْن سياسة الإستيراد والتصدير والميزان التجاري بإتفاقات تصل إلى ملايين الدولارات. كذلك كيف ستكون المقاطعة ممكنة لشركات الكومبيوتر والكهربائيات على أنواعها وكذلك لتلك التي تمد مصر بالطائرات المدنية والعسكرية وبالسلاح وبالأدوية... وغيرها. (من المهم التوضيح بأن المقاطعة لإسرائيل واجبة سياسياً ودبلوماسياً وعسكرياً وتجارياً وسياحياً).

إن مثل هذا الأمر يبدو من المستحيلات وفي هذه الحال فإنه حتى إذا صدرت فتوى وفْق أصول إصدار الفتاوى الملزمة فإن الشيخ نصر سيجد أن الحكومة هي أول مَن سيلومه على هذه الفتوى لأنه أصدرها من دون التشاور معها ومن دون أن يأخذ في الإعتبار مدى حساسية العلاقات التجارية وإرتباطها الوثيق بالعلاقة السياسية مع دول العالم. وفي مثْل هذه الحال فإن المفتي إما يتراجع عن فتواه وهذا ما لا يجوز لطبيعة منصبه ومكانته الدينية حيث أنه سيبدو مثل قاضٍ أصدر حُكْماً ثم أعلن في اليوم التالي عودته عن هذا الحُكْم وذلك يستحيل حدوثه في دنيا القضاء المدني والعسكري والمذهبي على حد سواء، فكيف إذاً في عالم الإفتاء الديني. وفي حال أنه لن يتراجع فإن الخطوة التي لا بد من إتخاذها هي إصدار بيان يعلن فيه إستقالته طوعاً من منصبه ويوضح الحيثيات التي أوجبت عليه ذلك، وهي أنه أفتى بمقاطعة البضائع والشركات الأميركية لكن الحكومة إعترضت على فتواه هذه وذلك لأن مَن هم في عالم الإفتاء لا يدرون مدى التعقيدات في علاقات بين مَن هم في عالم الحُكْم. وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الفتوى من شأنها إحداث صدمة في أوساط الرأي العام. ولكن الصدمة لن تتحول إلى ثورة لأن ورقة إدارة أمور الرعية من جانب الحكومة تبقى أقوى من ورقة إصدار الفتاوى وفْق الإستنساب أو وفْق أصول الإصدار من جانب الذين

لهم حق الإفتاء.

وما يقال عن فتوى الشيخ نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية يقال عن فتوى المرجع الشيعي السيد محمد حسين فضل الله مع فارق أن فتوى الثاني جاءت في إطار رحابة الإجتهاد عند الذين يَصِلون إلى مرتبة المرجعية في الطائفة الشيعية. والفارق بمعنى أن صاحب الفتوى – وهو هنا السيد محمد حسين فضل الله – ليس في الموقع الرسمي لكي تأتي فتواه غير منسجمة مع ظروف الحكومة وخصوصية علاقاتها التجارية والسياسية مع دول العالم الأمر الذي يتسبب بالإحراج لهذه الحكومة. وعندما لا تكون المرجعية منصباً ويأتي التعيين فيها من جانب هذه الحكومة أو ذاك النظام فإن في إستطاعة من إستحق جدارتها أن يُكثر من الفتاوى بصرف النظر عمَّا إذا كانت هذه الحكومة أو تلك لن ترتاح اليها. وهنا نلاحظ أن هامش الإفتاء – من منطلق صفته كمرجع – عند السيد محمد حسين فضل الله أكثر إتساعاً مما هو عند الشيخ نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية.

وثمة نقطة أساسية بالنسبة إلى الفتوى الصادرة عن المرجعية وهي أنها عرضة لفتوى حول الموضوع نفسه قد تضيف إلى مضمونها أو تختزل منها، وذلك دون أن تلغي فتوى أختها. فضلاً عن أن العديد من الفتاوى صدرت عن مجتهدين ورجال دين أمثال آية الله الخميني إستمرت إستنسابية يأخذ بها مَن يريد وبالذات مَن يبغي الكمال في التدين. ومن الفتاوى الخمينية ما يتعلق بالموسيقى وتحديداً وجهة القِبلة لمن هو داخل الطائرة أو داخل مركبة فضائية ويريد تأدية الصلاة وهل أن لحم الحصان محلَّل أم محرَّم، وهي فتاوى لم تأخذ طريقها إلى التطبيق بحرفية في عهديْ الثورة الإسلامية في إيران.

ما أردناه مِن هذا الكلام هو أن الفتوى الفاعلة المطلوبة هي تلك التي تصدُر عن مؤتمر للمفتين في الدول العربية والإسلامية ينعقد خصيصاً ويناقش أمر المقاطعة آخذاً في الإعتبار حالات التعامل الرسمية بين الدول العربية والولايات المتحدة. أما أن تصدُر فتوى من هنا وأُخرى من هناك ولا تأخذ طريقها إلى التطبيق فإن ذلك سيُفقد مفهوم الفتوى معناها وهدفها، فضلاً عن أن مثل هذا الفيض من الفتاوى من شأنه إحداث بلبلة حيث أن المواطن سيحتار في ما يجب فعله.

وإلى ذلك إننا لا نعتقد أن أسلوب المقاطعة بموجب فتوى أمر قابل للتطبيق في العصر الذي نعيش فيه، ذلك أنه ما الجدوى من مقاطعة أكلات الوجبات السريعة بينما نستورد الطائرات وما الذي سنجنيه إذا قاطعْنا الجينز والهمبرغر والدوناتس وبالغْنا في إستيراد ما هو أهم من سيارات وطائرات ومستحضرات تحتاج إليها صناعاتنا التي ما تزال خفيفة.

إن المقاطعة سلاح مفيد إذا كانت وفْق الأصول وبما يحمي المصلحة العامة، أمَّا أن يطالب بعض رجال الدين بالمقاطعة نتيجة عدم القدرة على صياغة موقف أكثر فعالية، وفقط لأن هذا قد يساند إنتفاضة الأقصى، فذاك أمر يدعو إلى التساؤل. فضلاً عن أن المقاطعة يمكن أن تفيدنا إذا كانت شرطاً من شروط الحصول من الدول على مواقف لمصلحتنا، أي بما معناه تقف معنا الدولة الفلانية مئة بالمئة إذا نحن قاطعْنا الدولة المنافسة لها وتحوَّلْنا إلى التعامل مع الدولة الجديدة. وهذا بلغة العلاقات بين الدول ليس وارداً.

وما دام الحديث حول ضرورة مقاطعة البضائع الأميركية كبادرة مؤازرة للإنتفاضة الفلسطينية هو مِن نوع أحاديث المناسبات، فإننا نرى ضرورة الإشارة إلى أن التربية الوطنية في ما يخص الإنضباط الإستهلاكي هي الحل والتي يمكن الأخذ بها من دون إنتظار الفتاوى، أو أن الفتاوى تصبح عندئذ وسيلة دعْم لهذه التربية.

والتوعية هي ما تفتقده الأجيال العربية. ولا نظن أن فتوى الشيخ نصر فريد واصل أو دعاء السيد محمد حسين فضل الله أوقفا هذا التدفق غير المريح لملايين الفتية العرب والمسلمين على إلتهام الوجبات الأميركية والمشروبات الغازية الأميركية مع أنها تؤذي الصحة وتقضي على تقاليد كريمة. كذلك لا نظن أن هذه الفتاوى أوقفت هذا الإنبهار من الصغار والكبار بالجينز. ويبقى أن هذا الكلام مجرد خواطر في مسألة المقاطعة التي تحتاج إلى مزيج من التربية والتوعية والإنضباط الإستهلاكي، وبعض الفتاوى إذا تطلَّب الأمر، مع تسجيل خالص التقدير للذين تصدُر عنهم هذه الفتاوى... والتي هي في مجملها فتاوى إستنسابية.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 ديسمبر (ك1) 2000

* * *

تأملات في محاولة ترميم السودان

نجح الرئيس السوداني عمر البشير في أن يضع نفسه ضِمْن قائمة الجنرالات الذين يمارسون العمل السياسي ويبرعون فيه أمثال الرئيس حسني مبارك والرئيس (الراحل) حافظ الأسد والرئيس زين العابدين بن علي. والثلاثة أتقنوا اللعبة السياسية وكما لو أن الواحد منهم داخل غرفة العمليات يدير معركة. كما أن الإدارة المتقنة للعمل السياسي جعلتْهم يصمدون سنوات في الحُكْم ويؤسسون لدولة حديثة. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن كلاً من هؤلاء الجنرالات كان له أسلوبه ومفاهيمه ولم يقتبس من غيره إلاَّ ما وجد أنه مناسب.

ما يتعلق بالرئيس البشير يمكن القول إن الرجل نجح في وضْع نفسه في القائمة التي نشير إليها عندما إستطاع أن يحذف شريكه من الحُكْم الدكتور حسن الترابي من دون أن يتأثر وضْعه كرئيس للبلاد، وفي الوقت نفسه من دون أن يضطر لإتخاذ أكثر الإجراءات خشونة في حق الدكتور الترابي كأن يضعه في السجن أو يحد من حرية تحرُّكه أو يمنعه من السفر. وكان أسلوب البشير في خطوته هذه من الحذاقة بحيث جاز الإفتراض بأن المسألة ليست أكثر من خطة إتفق الشريكان عليها كوسيلة لضرب المعارضة في مفاصلها الحساسة، ولتحقيق إنفراج في العلاقات مع بعض دول الجوار، والتخفيف من الهجمة الأميركية على السودان، وتحييد مصر بحيث لا تصبح عمقاً فاعلاً للمعارضة السودانية. وعلى صعيد الداخل تكون الخطة، بالسيناريو المتقن المعتَمَد في تنفيذها، الوسيلة الناجحة لتحقيق مصالحة وطنية بمفهوم جديد، أي بما معناه تكون المصالحة التي تنتهي إلى وفاق بين أصحاب المصالح السياسية ينال كل منهم مأربه من دون أن تكون وحدة الهدف هي الشرط الذي لا بد منه لتحقيق المصالحة. ولأنها مصالحة أصحاب مصالح سياسية فإن كل الأطراف تنتسب إليها من دون مشقة وبذلك تكون «ثورة الإنقاذ» صمدت ثم تتحول إلى شريك فاعل في الحُكْم مستفيدة من المكاسب التي حققتْها في السنوات التي أمضتها مستأثرة بالحُكْم مستفيدة من الغرس الذي زرعه الثنائي الفريد في تركيبته في التاريخ السوداني الحديث، ونعني بالثنائي هذا الفريق عمر البشير – الدكتور حسن الترابي.

ومثْل هذا الإفتراض يبدو واقعياً الى حد ما، ذلك أنه لولا الخطة التي نشير إليها، ووفْق السيناريو الذي تمت فيه، لكانت التطورات عصفت بـ «ثورة الإنقاذ» وشريكيْها البشير – الترابي أو جعلت منهما نظاماً يعتمد الأساليب الشرسة مع الخصوم، ومَن يفعل ذلك وبالذات في بلد مثل السودان ينتهي مقلوباً أو مسجوناً أو منفياً، هذا إذا لم ينتهِ مقتولاً إذا هو كان قبْل أن ينقلب بالغَ في الإيذاء ووصلت به الشراسة إلى حد قطْع الأرزاق والأعناق.

في أي حال، وبعيداً عن هذا الإفتراض الذي أوردناه، إستطاع الرئيس البشير أن يمارس الدور كرجل دولة يعتمد المرونة عند الضرورة، وينأى عن التزمت والتصلب، ولا تستوقفه بعض المحرّمات البرتوكولية بدليل أنه توجَّه بنفسه إلى لقاء الزعامات المعارضة التي أرادت قولاً وفعلاً شراً بشخصه وبنظامه، ذلك أن قوات المعارضة عندما تقتل جنوداً وضباطاً في الجيش السوداني وبينما رئيس البلاد من المؤسسة العسكرية فإن ذلك كمن يوجِّه الرصاص إلى صدر الرئيس نفسه.

وإلى ذلك إن الرئيس البشير خفف وطْأ الإنقاذيين على أديم الأرض السودانية، فما عادوا يمارسون حياتهم السياسية على أنهم أسياد الموقف في السودان، ولا أنهم النخبة المنزهة عن الشوائب الممتلئة عنفواناً ونزاهة وتديناً والتي أنعم الله بها على السودان. كما أن هامش التعبير أخذ مداه فصار الرأي يقال بالحد الأخف من العُرضة للمخاطرة وصار أهل القلم أكثر قدرة على ترجمة مشاعر الناس. وطلب الرئيس البشير مِن الذين في الخارج أن يدخلوا السودان بسلام آمنين ومِن دون أن يختموا جواز الدخول بختم عفو «ثورة الإنقاذ» عنهم أو رضاها عن مسلكيتهم وتصنيفها لهم بأنهم مواطنون صالحون. وبكلام آخر إن الرئيس البشير إعتبر أن السوداني «إنقاذياً» كان أو غير «إنقاذي» يستوي مع الآخرين.

ولقد أكرمت العناية الإلهية الرئيس البشير على سعيه هذا ونياته الطيبة تلك وعلى منطلقاته المخلصة في سبيل تحقيق مصالحة جادة، بأن النفط تدفَّق في السودان وبات هذا الوطن الذي كأنه قارة يتحدث عن تصدير النفط، حاضراً بالحد الأدنى ومستقبلاً بمستوى الطموح الكبير، وكما لو أنه يتحدث عن تصدير السمسم والصمغ والقطن والجِمال. وهذا أوجد له تعاطفاً على الصعيد الشعبي كان يحتاج إليه وبحيث

أن المواطن السـوداني ومن منطلَق العفوية ينظر إلى رئيس البلاد على أنه مِن الذين خصَّـهم الله سـبحانه وتعالى ببركاته وألهمه السير على الصـراط المسـتقيم ومواصـلة السير بالسـودان إلى حد وقْف نزْف الحرب في الجنوب ووضْـع حد لحرب المعارضـين على إخوانهم أفراد الجيش السـوداني. وبفعـل التعـاطف الشـعبي، الذي شـكَّل مظلة للتوجه المسـتجَدْ للرئيس البشير، باتت ثقة السودانيين بخياراته أقوى وبات حذر الجمهور الترابي منه أقل، وبالتالي باتت قدرته على التحرك أكثر فعالية وبات قبول المعارضـين بمنطِقه أفضـل. كما أن بعض هؤلاء باتوا أكثر إسـتعداداً لكي يغفروا لـ «ثورة الإنقـاذ» مـا فعلتْـه بهم طوال خمس عشـرة سـنة. وليس مثل العودة تجاوباً مع طروحات الرئيس البشـير ما هو دليل على مسـألة الغفران التي نشير إليها.

الآن وبعد العودة، هنالك عملية ترميم للسـودان بهدف بناء جديد للبيت السـياسـي السـوداني من شـأن التعاون في سبيل إشادته أن يلقى الجميع الأمان تحت سقفه. ومن المؤشرات التي تبعث على الإرتياح هو أن الإنتخابات الرئاسية التي ستبدأ اليوم، لن تكون معركة الشـخص الواحد الذي لا يفكر أحد بمنازلته، ذلك أن هنالك خمسة أشخاص مرموقين وكل في المحيط الذي ينتسـب إليه سـيخوضـون المعركة: جنرالان (الرئيس الحـالي عمر البشـير الذي إختار «الراية» رمزاً لـه والرئيس السـابق جعفر نميري الذي إختار «الشـجرة» رمزاً) والدكتور مالك حسـين (من المسـؤولين في عهد الرئيس نميري) ومحمود أحمد جحا والسـموأل عثمان منصور (كلاهما من رجال الأعمال).

ومع أن المفاجأة ليسـت متوقعة، الاَّ أن المنازلة ليسـت فولكلوراً، وأن مجرد أن يكون هنالك تنافُس بين أهل المؤسـسـة العسـكرية بشـخصـيْ الجنراليْن البشـير ونميري وبين أهل المال بأشخاص الآخرين، هو بمثابة مؤشـر طيِّب لم تشـهده إنتخابات رئاسـية حدثت في السـنوات الثلاث الماضـية في كل من تونس ومصـر واليمن وسـوريا ولبنان، ويشـكِّل حدوثها في السـودان بعض الأمل في أن هذا البلد قد يستعيد بالتدرج مناخه الديمقراطي الذي إشتهر به والذي بدأ الإنحسار نتيجة عدم واقعية زعماء الأحزاب وجشعهم غير المبرَّر (عام 1964) وتطلعات بعض ضـباط المؤسـسـة العسـكرية (عام 1969) الى أن يـذوقوا حلاوة الحُكْم، ومن دون أن يخطر في بالهم أنه بالنسبة الى السُلطة فإن الحُكْم لا يسـتمر والحلاوة تعقبها مرارة.. وهذه ماثلة أمامنا كؤوس المرارة يتجرعها الذين خاضـوا مغامرة الإنتقال من الثكنات إلى السرايات وقصور الرئاسة.

ولكن يبقى وبـأهميـة هـذا التحول الإيجـابي الـذي يقوم به الرئيس البشـير، ضـرورة إكتمال مرحلة عودة أهـل المنـافي إلى ديـارهم، وذلـك لأن بقـاء هؤلاء في الخارج هو أضـعاف للذين عادوا أو إسـتُعيدوا وبالذات للصـادق المهدي الذي ينظر أبناء السـودان إليه على أن دوره بعدما عاد يجب أن يكون التعاون مع الرئيس البشـير لإسـتعادة الذين ما زالوا في الخارج مخفورين بالترحيب والمحبة، وحتى إذا تطلَّب الأمر إرسـال وفد عالي المسـتوى يتمثل فيه مندوب عن الرئيس البشـير ومندوب عن الصـادق المهدي أو الصـادق شـخصـياً يناقش النافين أنفسـهم بمسـؤولية ويقنعهم بأهمية المشـاركة في عملية الترميم، وبذلك لا يسـتمر هؤلاء في الخارج.

وبعد إسـتكمال العودة يؤدي الصـادق المهدي دوره السـياسـي شـريكاً في الحُكْم مسـتهدياً بالحالة التي مُني بها رفيق الحريري في لبنان والذي عاد – أي الحريري – أقوى ممـا كـان وأكثر واقعيـة من ذي قبْل ونتيجـة إلتفاف شـعبي مذهل حوله خلال الإنتخابات النيابية قبْل شـهريْن. وهذا الإلتفاف كان نوعاً من الإسـتفتاء على زعامته وهو مثْل الإستقبال الشعبي المذهل الذي جرى للصـادق المهدي من مطار الخرطوم إلى داره وكان هو الآخر بمثابة إسـتفتاء على أن الرجل عاد ليبقى... وليشارك في الحُكْم لا ليستأثر فيجد نفسه مرة أُخرى في المنافي.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 13 ديسمبر (ك1) 2000

* * *

مقاومة... على الصراط المستقيم

تميزت المقاومة التي يخوضـها «حزب الله» من أجْل التحرير وإسـتعادة الحق منذ أن بدأت بجملة مناقب جعلتْها تكتسـب الثقة والتقدير من الأصـدقاء وتحوز التهيُّب من العدو ومناصري العدو، وهذا جعلها تكتسـب صـفة حركة التحرير التي تسـلك الصـراط المسـتقيم. من هذه المناقب وهي كثيرة نتوقف عند المناقب الآتية:

أولاً: إنها آمنت بما تقوم به، والإيمان هو الخطوة الأساسية التي في ضوئها تهون بقية الخطوات.

ثانياً: إنها إعتمدت الجدية والإبتعاد عن المظاهر والعمل بصمت المؤمن بقضيته. ومن دلائل ذلك أن أحداً لا يرى وجه المقاتل إلاَّ إذا كُتبت له الشهادة. تلك هي فرصته الوحيدة للظهور في شكل صورة تبثها له محطة تلفزيون «المنار» مرفقة بوصيته، إضافة إلى صورة أُخرى تختارها عائلة الشهيد (والده، والدته، زوجته شقيقته...) على قبره وبذلك تتذكر العائلة عند زيارة القبر كل يوم خميس (اليوم المستحب لزيارة الذين إنتقلوا إلى جوار ربهم) أو حتى في الأيام العادية وفي المناسبات الدينية، ملامح وجه فقيدها الذي إستشهد مغادراً الدنيا كبطل.

ثالثاً: إنها قررت منذ اللحظة الأُولى أن تنأى عن المبالغات ومن أجْل ذلك إنها كثيراً ما حجبت الإعلان عن عمليات، كما أنها باتت ترفق كل بيان عن عملية تحدُث بفيلم عن هذه العملية وبذلك لا يعود هنالك مجال أمام العدو الإسرائيلي لكي ينكر الحقيقة.

رابعاً: إنها آثرت ألاَّ يكون لها شركاء لعدة حيثيات من بينها أنه عندما يتكاثر الشركاء يصبح بالتالي من الطبيعي بعد حدوث كل عملية أن تتعدد الجهات التي تعلن مسؤوليتها، وينشأ نتيجة ذلك تخبط يستفيد منه العدو في الدرجة الأولى. ولنا في العمليات التي كان يقوم بها في الماضي رجال المقاومة الفلسطينية الدليل على ذلك، حيث أن العملية الواحدة وبالذات عندما تكون ناجحة تجد أكثر من طرف يتبناها. وهذا ليس فقط يؤدي إلى شقاق وإنما إلى تشويه طبيعة عمل المقاومة.

خامساً: إنها بإستشهاد المقاوم هادي نصرالله نجل الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصرالله أكدت أمراً في منتهى الأهمية وهو أن المقاومة وتنفيذ العمليات لا يقتصر على فئة من الشباب دون أُخرى وإنما يشمل حتى أبناء الذين في قمة القيادة، وهو أمر غير مألوف في العالم العربي، حيث أبناء القادة لهم حصانة ولا يجوز أن يتعرضوا لأي مخاطر، كما يجب ألاّ يموتوا. وإستشهاد هادي نصرالله أحدث صدمة إيجابية في نفوس الجيل الشاب في «حزب الله» بحيث بات الإقبال على الإنخراط في المقاومة مطلباً وأمنية. ومِن هنا قد يجوز القول إن المقاومة التي يخوضها «حزب الله» هي من سلالة حركات مقاومة نادرة من حيث الإقبال عليها، أو بمعنى آخر إن الفائض أو الإحتياطي من المقاومين لديها كبير.

سادساً: إستكمالاً للنقطة السابقة يجوز القول إن إستشهاد هادي حسن نصرالله ليلة الجمعة 12 سبتمبر 1997 وهو لم يتجاوز العشرين من العمر جعل نسبة الحزن في نفوس أمهات أو زوجات أو شقيقات العائلات التي يسقط لها شهداء تتضاءل بعض الشيء، ونقول ذلك مع ملاحظة أن النزعة العاشورائية في حد ذاتها تجعل هؤلاء جميعاً يرون أن الحزن على الشهيد يجب ألاَّ يكون حالة تفجُّع وإنما نوع من التذكُّر الممزوج بالكثير من الدموع. والعاشورائية في أي حال هي أيضاً بمثابة الأمثولة التي تجعل شبان «حزب الله» يرغبون في التطوع وتجعلهم أيضاً يستعذبون الموت عندما يقومون بعمليات أو يشعرون بأنهم قاموا بالواجب على أكمل وجه بعد أن يعودوا غانمين النجاح في أحد الحديْن: الأدنى أو الأقصى.

سابعاً: إنها جمعت نقطتيْ القوة المطلوبتيْن لمن هم في موقع القيادة. النقطة الأولى هي القدرة على تحويل التعبئة إلى فعل إيمان ومِن هنا هذا الإستقطاب الهائل الذي نجح «حزب الله» في تحقيقه، وهو إستقطاب لا أثر فيه للمغريات ولا لشهوات المغانم السياسية المألوفة. أما النقطة الثانية فهي القدرة على تقديم القيادات المتميزة، أي بما معناه إنه إذا خلت القيادة بإغتيال مَن هو في سُدَّتها على نحو ما حصل للأمين العام السابق الشيخ عباس الموسوي فإن هنالك مَن يملأ المكان ومِن دون أن يعمل الخلَف على تشويه صورة السَّلَف، وهذا ما يمكن ملاحظته مِن خلال تركيز السيد حسن نصرالله في إستمرار على تذكير جماهير «حزب الله» بالأمين العام الذي قضى إغتيالاً في كمين أرضي – جوي ما كان لينجح ويتمكن الإسرائيليون من الشيخ عباس ومَن معه لولا حالة إختراق إسرائيلية للحزب جعلتْه يعيد النظر في المسألة الأمنية كنظرية وكإجراءات. وبعد إعادة النظر المشار إليها بات الإختراق الأمني الإسرائيلي شبه مستحيل فضلاً عن أن اليقظة دخلت كحالة عفوية في نفوس قادة «حزب الله» وأجهزته وجماهيره.

ثامناً: بالإضافة إلى النقطتيْن المشار إليهما في الأسطر السابقة تُمثِّل «كاريزما» مَن هو في موقع القيادة دوراً بالغ الأهمية. وما يلفت الإنتباه بالنسبة إلى السيد حسن نصرالله الأمين العام الحالي لـ «حزب الله» أنه ليس في البرج العاجي، وأنه شاب بملامح بعض القادة التاريخيين عندما كانوا في ذروة شبابهم.

وهذه الملامح تشكِّل حالة إرتياح للذين يتابعون السيد حسن خطيباً أو متحدثاً أو خلال اللقاءات التي تجريها الفضائيات معه. وعند المقارنة بين قامته وملامح وجهه وطريقته في الحديث أو الخطابة ووضْعه الصحي، وأحوال قادة مقاومة آخرين مثْل الرئيس ياسر عرفات أو الشيخ أحمد ياسين، نكتشف أي آثار إيجابية تتركها مسألة «الكاريزما». وإذا جازت المقارنة فإن السيد حسن نصرالله وتشي غيفارا من المعدن الثوري نفسه شكلاً وموضوعاً، إيماناً (كل على طريقته) وحديثاً، طريقة عيش ونظرة إلى الدنيا... الخ.

ثامناً: بالمقارنة مع حركات مقاومة في الشرق والغرب تبدو المقاومة التي خاضها ويواصل خوضها «حزب الله» مدرسة لها شخصيتها المتميزة، أي بما معناه إنها ستدخل التاريخ المقاوم على أنها مثال يمكن الإحتذاء به عند الحديث عن أن الخلط بين المصالح والمكاسب السياسية وبين واجب المقاومة من شأنه تفريغ المقاومة من مضمونها وهي أنها قضية قبْل أن تكون حالة إنتقالية توصِلُ أصحابها إلى الحُكْم. ومِن هنا التفسير لعدم مشاركة «حزب الله» في الحكومة الأُولى للرئيس رفيق الحريري في عهد الرئيس إميل لحود وفي وقت كانت أطراف كثيرة تبدي إنزعاجها لأنه لم يتم إشراكها في الحكومة. وهذا الإبتعاد عن لعبة الحُكْم أبقى للمقاومة وهجها وإحترام الآخرين لها ليس في لبنان فقط وإنما في العالم العربي. كما أن هذا الابتعاد جاء منسجماً مع رؤية «حزب الله» بأن دوره كحركة مقاومة لم ينتهِ بعد.

تاسعاً: نقطة الضعف والتي هي علاقة تعجُّب أكثر منها حالة إنتقاص من «حزب الله» والمقاومة الشجاعة التي يقوم بها، تتمثَّل في عمقيْه الإيراني والسوري وبما معناه أنه لولا هذيْن العمقيْن بما يقدِّمانه من العون والمعلومات والخبرة والشحن العقائدي لما كان في إستطاعة هذا الحزب أن ينتشر على النحو الذي هو عليه من الإنتشار ولا أن يقوم بالتالي بالعمليات البطولية التي قام بها، وكان إجبار إسرائيل على الإنسحابات من جنوب لبنان إنجازها العظيم. وصحيح أنه لولا هذيْن العمقيْن لما كان في إستطاعة «حزب الله» أن يحقق ما حققه، إلاَّ أن الصحيح أيضاً هو أن العمقيْن المشار إليهما لا فعالية لهما بالقدْر الكافي من دون القدرات التعبوية لقادة «حزب الله» ونوعية القائد الأعلى الذي يتسم بـ«كاريزما» غير مألوفة في دنيا القيادات.

وإلى ذلك وتعزيزاً لهذا القول هنالك إضافة خلاصتها أنه لولا الإتحاد السوفياتي والصين لما كان في إستطاعة الفيتناميين أن يُلحقوا هزيمة بالولايات المتحدة ولما كان هوشي منه والجنرال جياب باتا أسطورتيْن في تاريخ المقاومة على نحو ما ستكون عليه أسطورة المقاومة التي قادها «حزب الله».

يوم الأربعاء الماضي وبينما المقاومون في ذروة اليقظة وأصابعهم على الزناد وهم صائمون، أضاف السيد حسن نصرالله إلى المناقب والصفات التي لخصناها مناقبية الوفاء وعدم إيثار النفس وتمثُّل ذلك بقوله إن صفقة تبادل الأسرى الإسرائيلية لدى «حزب الله» بالمعتقلين في السجون الإسرائيلية لا تقتصر على المعتقلين اللبنانيين فقط وإنما يجب أن تشمل بقية السجناء العرب من فلسطينيين وغير فلسطينيين. كما أن الصفقة يجب ان تشمل حتى أجساد الشهداء من المقاومين الموجودة داخل الأراضي الفلسطينية، فضلاً عن شروط أُخرى لا يفرضها إلاَّ من كان يسير بالفعل على الصراط المستقيم، واثقاً كل الثقة بنفسه ومستعداً كل الإستعداد للمزيد من المقاومة.

عسى ولعل تتفهم الإدارة الأميركية الجديدة هذا الواقع وتأخذ في الإعتبار أن إنتفاضة الأقصى ما كانت لتحدُث على النحو الذي هي عليه لولا أن تجربة المقاومة في جنوب لبنان التي خاضها بإيمان عميق مقاومون أبطال من «حزب الله»، جعلت شباناً وفتية وأطفالاً فلسطينيين يبدأون الإنتفاضة الجديدة وليست الأخيرة لمجرد أن إقتحم السفاح شارون باحة المسجد الأقصى. ومن المؤكد أن هذه الإدارة ستنقذ سِمْعتها وتنقذ حليفتها إسرائيل من الأعظم إن هي تفهَّمت وأرفقت التفهُّم بالضغوط التي تجعل الإسرائيليين يرتضون العيش في إطار الشرعية الدولية وليس التلاعب بهذه الشرعية، وعلى نحو ما يحدُث منذ أن صدر القرار 242 الذي كان تنفيذه كفيلاً بإختصار معاناة المنطقة من الشرور الإسرائيلية التي تحظى بمباركة أميركية. وتلك أهم معادلة تركها العام 2000 الذي نودِّعه بعد أيام للعام 2001 الذي نتمنى أن تكون المسرة شاملة الناس ويكون السلام سائداً على الأرض العربية... من المحيط إلى الخليج.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 20 ديسمبر (ك1) 2000

* * *

من هيلاري إلى برباره...
إلى أم محمد سيدات العام 2000

سيدات العام 2000 من وجهة نظري كمتابع ومراقب للتطورات هن: الأم الفلسطينية متمثلة بأم محمد والدة الفتى الشهيد محمد الدرة. وهيلاري كلينتون وبرباره بوش.

والحيثيات التي على أساسها جاء هذا الإختيار ليست متشابهة. فليس هنالك أوجه شبه بين كل منهنَّ. كما أن الظروف التي تجعل من هذه أو تلك سيدة العام مختلفة تماماً ويتميز كل ظَرف عن الآخر بأمور كثيرة من بينها أن القيم التي هي من صفات الأم الفلسطينية، ليست متوافرة في برباره بوش ولا في هيلاري كلينتون. وعندما سنلقي الضوء على ذلك من خلال بعض الملاحظات تتأكد لنا الفوارق وأهميتها.

الأم الفلسطينية سيدة العام 2000 لأنها تحمَّلت بصبر الخنساء التي بكت شقيقها (صخر) دموعاً وأشعاراً ما لا قدرة لإمرأة في العالم على تحمُّله. تحمَّلت الظلم الدولي وبالذات الظلم الأميركي لقضيتها ولشعبها. وتحمَّلت شظف العيش في المخيمات ولكنها مع ذلك أنجبت فتية أشدَّاء قاوموا المحتل الإسرائيلي بالحجارة ومن دون أن يخشوا الآلة الحربية الإسرائيلية. وتحمَّلت بعنفوان الأم الصابرة على الضيم منظر التشييع اليومي، وتحت سمْع العالم وبصره، والجنازات لشقيق أو زوج أو إبن أو جار. بل إنها هبَّت إلى ساحة المنازلة لا جزعاً على ولد أو شقيق أو زوج تحثه بالصراخ لكي يعود إلى المنزل ويختبىء، وإنما لترمي هي أيضاً قوات الإحتلال وقطعان المستوطنين بما تيسَّر من الحجارة. وكيف سيغيب عن أنظارنا ذلك المشهد الذي لا مثيل له بين مشاهد الحماسة والمقاومة، وهو مشهد الأم التي تحمل بيسراها طفلها وباليمنى حجراً في طريقه إلى جندي إسرائيلي أو مستوطن؟

لقد كان وراء رماة الحجارة أمهات أرضعنَ الأطفال إيماناً بالقضية وإصراراً على إنتزاع الحق المغتصَب. ومِن هنا جاز القول إن وراء بسالة فتية الحجارة أمهات متميزات، تماماً على نحو التعبير الشائع بأن وراء كل عظيم إمرأة. من هنا أيضاً الإعتراف بفضل الأم الفلسطينية على هذا النهوض المفاجيء في الهمة العربية إذ لولا فتية إنتفاضة الأقصى والتضحية بالنفس من أجْل إستعادة الحق لما كان للنهوض الذي عاشته الأمة في الشهريْن الماضييْن أن يحدُث، ولما كان للأنظمة أن تجمِّد نزاعاتها وتتفق على أن تجتمع كخطوة أولى وتصدر عنها من مؤشرات السماحة ما يمكن التعويل عليه. ويكفي التأمل في الوضع العربي قبْل إنتفاضة الأقصى والوضع بعدما اضاءت الإنتفاضة سماء الأمة فبددت الكثير من ظلامها الدامس.. يكفي التأمل للتأكيد على ما نقوله. كذلك يكفي رصْد النفس العربية وأي إحباط كانت عليه قبْل إستشهاد الفتى محمد الدره وهو في حضن والده برصاص قناص إسرائيلي إغتاله ضمن مخطط مبرمج يستهدف قتْل جيل المستقبل من الشعب الفلسطيني، ومقارنة هذا الإحباط برد الفعل الذي نشأ عن إستشهاد الفتى الذي كانت أمه في إنتظاره... يكفي الرصد والمقارنة لتكوين صورة ما أحدثتْه تلك الواقعة في نفوس الحكام والمحكومين وكيف أن نوعاً من التسابق حدَث لكي يؤكد المتسابقون أنهم قاموا بأفضل مسيرة (بالنسبة إلى الرأي العام) أو توصلوا إلى أفضل قرار (بالنسبة إلى الحكام). ولنا في ما جرى في القمة العربية الإستثنائية في القاهرة ثم في القمة الإسلامية العادية في الدوحة ما يؤكد حيوية التسابق المشار إليه.

وخلاصة القول إن الأم الفلسطينية مرموزاً إليها بـ «أم محمد الدرة» هي في نهاية الأمر وراء الإنتفاضة التي من شأن إستمرارها أن تقوم الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس. فهي التي حملت، وهي التي أنجبت، وهي التي تحمَّلت، وهي التي أرضعت، وهي التي ربَّت، وهي التي شجَّعت وزوَّدت الأبناء بالحجارة، وهي التي تقبَّلت بخشوع وإيمان منظر تشييع الإبن أو الزوج أو الشقيق (الشهيد) ملفوفاً بعَلَم فلسطين، وهي التي لم يجعلها الإستشهاد تعيد النظر في مفاهيمها وفي القيم التي على أساسها بدت في أنظار العالم أنها سيدة العام 2000.

هذا بالنسبة إلى «أم محمد الدرة». أما بالنسبة إلى برباره بوش فإنها أيضاً سيدة العام 2000 لأنها أول سيدة تحمل صفة زوجة رئيس سابق لأهم دولة في العالم ووالدة الرئيس الحالي للدولة نفسها. ومثْل هذا المجد المعنوي لم تحصل عليه سيدة من قبْل. إلى جانبها زوجها الرئيس الأسبق جورج بوش وأمام ناظريْها إبنها الرئيس الحالي جورج بوش الإبن. وهي تعيش هذه اللحظات الرائعة بينما ما زالت على قدْر

من الحيوية والصحة والتوازن الذهني. ولا نظن أن هناك مجداً يمكن أن يشعر به حاكم في العالم مثْل المجد الذي يشعر به جورج بوش الإبن عندما يرى نفسه يستقبل في مقره في البيت الأبيض والدته ووالده اللذيْن سبق أن أمضيا أربع سنوات في هذا البيت وعندما يرى نفسه أيضاً رئيساً في البيت، نفسه الذي سبق أن أمضى فيه بعض سنوات الثمانينات.

ما ينقص برباره بوش ومذ تحقَّق لها هذا المجد المعنوي وهي في وضْع صحي وعقلي جيد، هو أن تبرىء ذمتها أمام الله وبذلك تريح ضميرها، وهذا يكون بالتمني على إبنها أن يصحح ما إقترفه والده في بعض سنوات حُكْمه من خطايا ومن بينها عندما لم يرحم أطفالاً كانوا يختبئون في الملجأ وسمح لنفسه بإرسال صواريخ إليهم أحرقت أجسادهم ومن دون أن يرف له جفن أو لوزير دفاعه نائب الرئيس الحالي ديك تشيني ولا لرئيس أركان الجيش وزير الخارجية الحالي كولن باول. كما ينقص برباره أن تنصح إبنها بأن يعتبر أن الله هو أقوى فيقرر رفْع الضيم عن الفلسطينيين والتخفيف من هذا الإرتهان الأميركي للصهيونية وإنهاء هذا الحصار الذي تفرضه الإدارة الأميركية بإصرار مِن والده ومِن رونالد ريغان (الذي ترأس قبْل والده) على العراق وليبيا وإيران والسودان وكوبا. بل إنه من المناسب أن يعتبر ما جرى لـ ريغان بأنه قصاص على عدوانه الجوي على ليبيا مستعيناً بخدمات من مارغريت ثاتشر رئيسة وزراء بريطانيا في الثمانينات. وما جرى لـ ريغان واضح وهو أنه يرقد منذ سنوات في عزلة نتيجة مرض الخرَف. ومثْل هذا القصاص قد لا يحدُث في حال أن الإبن جورج بوش قرر أن يصحح ما فعله الأب.

وتبقى هيلاري كلينتون التي هي الرئيسة الوحيدة التي لن تغادر البيت الأبيض باكية ومحبَطة ومكتئبة على نحو ما جرى لبقية سيدات البيت الابيض عندما لم تُعدْن من ساكنات البيت ثم لم تُعدْن أكثر من زوجات عاديات يشاركن في الحفلات الرسمية مع أزواجهنَّ الذين باتوا متقاعدين، أو على نحو ما حدَث في بريطانيا لـ مارغريت تاتشر التي، وهي السيدة الحديدية، بكت على مدخل مقر رئاسة الحكومة البريطانية (10 داوننغ ستريت) عندما غادرت المقر بعدما طردها حزبها بلباقة لئيمة من منصب رئاسة الحكومة، وهي التي إفترضت أنها باقية في ذلك المنصب إلى الأبد.

أما لماذا لن تغادر هيلاري باكية ومحبَطة ومكتئبة فلأنها كانت سيدة أُولى بحُكم المنصب فباتت رقماً من الأرقام الصعبة في السياسة الأميركية بحُكم فوزها بمقعد مجلس الشيوخ عن نيويورك، وهو فوز نالته على ركام كرامتها الجريحة، ذلك أنها إرتضت البقاء إلى جانب زوجها الرئيس المثقل بفضائح تحرُّشه الجنسي، وأكثرها خجلاً فضيحة مونيكا لوينسكي التي أذيعت تفاصيلها، بما في ذلك الأكثر إثارة وسخونة من هذه التفاصيل. ولم يقتصر الأمر على البقاء وإنما سافرا معاً وإحتفلا بعيد زواجهما الأول بعد الفضيحة المخجلة وكانا في الطائرة الرئاسية يقومان بإحدى الزيارات الرسمية، مع أن المألوف في هذه الحال هو أن الزوجة تهجر زوجها وتطلب منه الطلاق أو العكس نتيجة لفِعلِ الخيانة الزوجية. ولكن هيلاري لم تفعل ذلك لأنها لو فعلت لكانت إنتهت حاملة صفة أول مطلَّقة لرئيس في تاريخ الولايات المتحدة ولكانت بعد إنتهاء الفترة الرئاسية لزوجها انتهت مجرد محامية سابقة أو زوجة لشخص آخر وربما على نحو ما أصاب جاكلين كينيدي بعدما ترمَّلت. ولكن هيلاري التي تخطط لما بعد الرئاسة وللمنصب المهم كتمت الغيظ وتحمَّلت ما ليس مألوفاً أن تتحمَّله زوجة مارس زوجها وهو رئيس الدولة الأعظم في العالم الخيانة الزوجية وداخل البيت الأبيض (إلاَّ إذا كانت هي ضمناً تتحمل مسؤولية تعطيل الحياة الجنسية لزوجها الرئيس، بمعنى أن لا سرير دافئاً يجمعهما ولا وسادة خالية تجمع رأسيهما) ووظَّفت التحمُّل في معركة مقعد مجلس الشيوخ عن نيويورك وبهدف أن يوصلها هذا المنصب بعد بضع سنوات إلى أن تكون أول رئيس إمرأة للولايات المتحدة. ومَن يدري فقد تصل لأنها طموحة وتملك قدرة تحمُّل ما ليس بالأمر السهل تحمُّله.

للأسباب والحيثيات والظروف والمفاجآت التي أوردناها بدت السيدات – الأمهات الثلاث مِن هيلاري كلينتون إلى برباره بوش... إلى أم محمد الدرة (الفتى الأغر بين شهداء فلسطين) بمثابة ظاهرة إستثنائية تتقاسمن مكانة سيدة العام 2000 الذي كان على الصعيد السياسي والعمل القومي بالنسبة إلينا كعرب عام بداية النهوض... من سبات عميق.

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 31 ديسمبر (ك1) 2000

London
Wednesday - 29 May 2024
Front Page No. 1
Vol 46 No. 16619

طبعة بيروت. 24 صفحة

الشرق الأوسط

The Leading Arabic Newspaper

صحيفة العرب الأولى

الأربعاء 21 ذو القعدة 1445
29 مايو (أيار) 2024
السنة السادسة والأربعون
العدد 16619

صقور سودانية... لم تعد جارحة



فؤاد مطر

هي الصقور السودانية بعد طيف، يوم الأحد 2 مايو (أيار) بين النسيبين اللدودين، الصادق المهدي والدكتور الترابي، تبدأ الاستعداد للعودة الى الديار. وهي لا جارحة لأن العودة ستحدث أضعتها الغربة وتأكدت بانه ساء نسابيها للتحليق مثل السودان، ولا أعالي ترتاح بعد التحليق مثل الأعالي نديل بفرعيه الأبيض والأزرق. ستعود الصقور السودانية الاستقرار النفسي والدور سي في انتظارها ما دامت لم

مجاورة إليدكتور حسن الترابي

الانصار، وقيام الدكتور الترابي بالذات بمهمة التحاور مع الصادق المهدي آتي من اعتبارات عدة من بينها ان الترابي يمكن ان يقول لنسيبه الصادق ما لا يمكن أن يقوله وسيط آخر وان الصادق يمكن ان يقول لصهره الترابي ما لا يقال لوسيط غريب عن العائلة او انه اذا قيل، يستقطع الحوار على الفور. وفي ذلك ان الاثنين يعرفان تمام المعرفة نقاط القوة والضعف في كل من الآخر، ولهما تجربة سابقة في مسألة المعارضة والمعارضة. ومن المهم الا نسقط من الاعتبار ما يحتدس في صدور ذوي القربى (أي الأسرة المهدية بفروعها الكثيرة

ومع ان الزميل عثمان العمير، اعتمد النهج البرغماتي، حتى ان رأى نادراً، وربما لا يدري أحياناً الصحف التحرير متمحضاً من الكتابة. ومع ان الصحافة الخيرية إلا ان زميلنا الذي اسراً مهماً، وهو ان رئيس التحرير استطاعته لإصدار صحيفة ناجحة لتعزيز خبرته بعلمها، أو لاستثمار الصحيفة وسلطانه فيها كرئيس للتحرير ولو ان الزميل عثمان العمير لا ينقصها، لجاز الافتراض انه كان يبتد مختلفاً عن الركب، لكنه عندما يا المتمكن. هذا فضلاً عن ان الامكانات اهل القرار السعودي والخليجي على ان يعرف ما لا يعرفه آخرون، كثير التمرس.

لكن عثمان العمير لم يفعل ذلك في سنوات رئاسته لتحرير «الشرق متصلة بمناسبات وطنية سعودية يتناولها بشفافية مطلقة بالإضافة الى والزعماء وكبار السياسيين بأسلوبه المتميز في اجراء الحديث وفي تقله لقا ويبقى ثلاثة امور بفرضها الحدث عن الزميل عثمان العمير. اولها التحرير يعجن ان يتقاعد (يفتح الباء) وليس يتقاعد (بضمها) وفي العمر الزمد من العطاء، وبعضٍ ان يعفي نفسه بدل ان يُعفى او فلنقل ان زميلنا رئيس التحرير قبل ان يضطر الى التقاعد، وبعفي نفسه من المسؤولية عندما يفعل ذلك ويكون قد بلغ في دائرة النجاح والتألق الصحيفة التي يترأ فانه بذلك يكون جمع بين التضحية وبين التبكير في الانسحاب المقعم بالط والدلالات.

... واما الأمر الثالث، فهو ان زميلنا عثمان العمير يترك رئاسة تحرير «الشرق الأوسط» الى الأمير الذي هو ان زميلنا عثمان العمير يترك رئاسة تحرير «الشرق الأوسط» الى الأمير الذي ملايح شخصيتها كصحيفة دولية للعرب، للسعودية فيها بقدر ما لأي دولة عربية أخر

عربية على صعيد السادة، او فلنقل حقق وفاقاً عربياً على صعيد الكتابة على رغم تعذر فباخريم من جانب الوفاق على صعيد الساسة، ولولا ان عقلية مستشيرة تلك المبادرة تلم احاطتها بالكثير من الدسيسين والتي والذهول، والصد بذلك عقلية اهل القرار الإداري بصفته رئيس المؤسسة، الامير احمد بن سلطان بجوز القول عبد العزيز، والناشرين الزميلين هشام ومحمد على حافظ، انه لولا هذه العقلية المستنيرة لمثل أبعد من الذي اعتبرناه وفاقاً عربياً على صعيد الكتابة وتحدد الرأي ان يحدث.

طابعاً بريطانياً

وأنهي وجهة نظري هذه بالقول انني في ما اوردته زميلاً كلمة حق في زميل يغادر الساحة ولايته وتاريخ التي تواصل الإبحار وهي اكثر انطلاقاً في خضم عربي سياسي حافل بالأهوال

وأسجل كلمة الحق هذه من منطلق ان من مواجهة زميلنا عثمان العمير تظهره احياناً وكأنه أسرائيل بعد فنان كثير التزوات. لقد انه انجز في سنوات ترؤسه تحرير «الشرق الأوسط» الى رسماً له كما

في الوقت الذي جرى الاعلان عن اصدار الطابع بدي اصدرت اسرائيل طابعاً بريداً محمل صورة جو سلسبيسها ايلي كوهين الذي اتخذ الحكم وري في السنينات به وتعامل معه على اساس جل اعمال بحمل اسم امين ثابت وانه الى من كما الجنوبية لتنفيذ مشاريع في سوريه. وبلغ ار الحكم السوري زمدائه به وثلثة بعض اركان الحكم وصديق مشاعره حد فتح الابواب امامه بما لك باب الجولان. فضلاً عن باب الاسرار التي تتدفق على مسامع هذا الصديق، خلال ات الكيف التي كان يدعو اليها وتلك التي يدعى ا. وكان على الفور يوصلها بواسطة جهاز ي الى «الموساد» في تل ابيب. وعندما اتكشف ات اسرار كثيرة كسرت. ولم يهدئ شنق هذا سوس في ساحة المرجة، فن روع السوريين تتوانى عن مطالبته باصدار طوابع بريدية مماثلة وفي اعتقادها ان طابعاً بريدياً ارتدياً يحمل على سبيل المثال صورة اسحق رابين من شأنه أن يساهم في تحقيق التطبيع الذي

ونبهي الامير سلطان بن عبد العزيز بالمحطة الثالثة له (لندن) التي سيزورها يوم الاربعاء المقبل جولة كانت مثيرة في كل شيء. ولقد اوحت وسائل اعلام اجنبية كثيرة بان الزيارة ذات طابع تسليحي.

عملية السلام وبحيث بقاء الاكثر العربية الاكثر

قراءة في جولة الأمير سلطان

فؤاد مطر

عثمان العمير... من المكان إلى المكانة

فؤاد مطر

الدبلوماسية الحاشدية.. والدبلوماسية الثورية

ماذا لو أن عزت ابراهيم تصرف مثل عبد الله بن حسين الأحمر؟

فؤاد مطر

من الموقف) فاننا نستند في ذلك الى قول الشيخ عبد الله لزميلنا حاسن البنيان («الشرق الأوسط» عدد الاحد 29 يناير 1995) ردا على سؤال حول تصريحات الرئيس التي تتناقض مع تصريحات الشيخ عبد الله المفعمة بالتفاؤل وهل انه اتصل

للشيخ عبد الله بن حسين الأحمر رئيس مجلس

تساؤلات برسم إميل لحود



فؤاد مطر

يتابع اللبنانيون، الذين يعيشون أزمة اقتصادية شديدة الوطأة، باهتمام كبير الأسلوب المتميز الذي يعتمده رئيس الجمهورية العماد اميل لحود في إدارة شؤون الدولة المثقلة بالمشاكل والديون والملفات غير النظيفة. والكيف أن الانسجام مثالي في هذا الثنائي بينه وبين الطاقم التنفيذي الذي يقوده رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص.

ومن مظاهر هذا الاسلوب كثرة الاستقبالات الرئيس لحود التي قيل عنها انها تصل في بعض الأحيان الى ثماني موعداً في اليوم الواحد. وكيف لا تصل ما دام نهار الرئيس يبدأ مع شروق الشمس. ويجب بحكم عراقة التربية السائدة في المؤسسة كما ارساها قائد الجيش السابق الذي بات

الشخصية للحريري، وأهمها وفاة والده منذ بضعة أيام ووفاة والدة زوجته قبل ذلك، هو تعامل مع رئيس الوزراء اللاحق وليس مع رئيس وزراء سابق. وما يقال عن العرب والأجانب يقال أيضاً على الصعيد المحلي. وبصرف النظر عما اذا كان الرئيس الحريري على طريق العودة أو أن بقاءه على هذه الحال سيطول فإن الواضح كل الوضوح ان الرئيس لحود يواصل تشجيع ظاهرة حكومة الظل التي تقطع مع الرئيس الحريري وبه الطريق على المعارضة الصارخة. وعندما ستتلاشى التصريحات عن التركة الثقيلة والإشارة اليها يومياً وتتبدل اللهجة المعتمدة في محطة «تلفزيون المستقبل» خط

دفعهم خارج الجولان بالتي هي أحسن...

فؤاد مطر

تكريم إسرائيلي يثير التساؤلات



فؤاد مطر

تأملات عن بداية عودة إلى الوطن الأول (3،1)

فورة الحرب بعد فورة النفط والثلاثي الأكثر استقرارا من الو

فؤاد مطر

الطنطاويان قالا.. ونتنياهو سمع

لقاء التشاكي المرتقب بين مبارك وكلينتون

فؤاد مطر

نظرة من لندن على قمة العتب والغضب (3،2)

هل يصبح الإلحاح اليمني على الخليجيين مثل الحاح السوريين والقوتلي على عبد الناصر؟

فؤاد مطر

نظرة من لندن على قمة العتب والغضب (3،2)

مؤتمر حمد الأمير وبينهما وحمد الوزير وبينهما ... حمد ولي العهد

فؤاد مطر

روسيا التي دائما بالضد ماضيا وحاضرا...

المحنة البوسنية للإسلام الأشقر والتجربة النووية للديغول الثاني

فؤاد مطر

ضجة الناصرة... بعد اللاذقية



فؤاد مطر

مساعدات لوجه الله... والصمود ومساعدات مغلفة بالشروط

فؤاد مطر

قبل القمة العربية في الخرطوم (من 29 اغسطس الى اول سبتمبر 1967) لم يكن هنالك برمجة في شأن مساعدة الدول العربية المقتدرة للدول العربية المحتاجة. وكثيرا ما كانت المساعدات بشكل نجدة من طرف انعم الله عليه بالثروة لطرف ضُبطت خزائن محطات البنزين في بلده او وصل مخزون الحبوب الى ما قبل النهاية وما عاد في الامكان تأمين الخبز للمليين التي يمكنها ان تستغني عن اي كماليات، اما الخبز فإنه اول الضروريات التي يعني عدم توافرها بداية المجاعة.

وقبل تلك القمة ايضا كانت المساعدات احيانا عبارة عن تغطية لاعتماد من جانب طرف عربي مقتدر

لها كان لا يتم انفاقه بالكامل على صمود الجبهات فإن المساعدات استمرت انما من دون ضغوط الالتزام الذي تفرضه الضرورات لو كانت هذه المساعدات تتم لتدعيم الصمود، اي بمعنى آخر لم تعد هنالك ضرورة للتسديد بالحرص السابق. ثم جاءت الحرب العراقية - الايرانية فبدأت هذه عملية النهام الأخضر واليابس مرورا بالمساعدات التي تم الالتزام بها في قمة الخرطوم عام 1967.

وجاء الاجتياح العراقي للكويت في اغسطس 1990 ليتسبب في وضع نهاية للحقبة المزدهرة في تاريخ مساعدات العرب المقتدرين للعرب المحتاجين ولتحل

محمود كحيل